الإحاطة في أخبار غرناطة

لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب

حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه

محمد عبد الله عنان

المجلد الأول

الطبعة الثانية

روجعت على مخطوطات جديدة بالخزائن المغربية

الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الثانيـــة

١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م

القـــــاهرة

الشركة المصرية للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حينما عنيت بتحقيق المجلد الأول من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » لابن الخطيب ، وإصداره فى سنة ١٩٥٦ ، كنت أظن أن مهمتى فى تحقيق هذه الموسوعة الأندلسية الجليلة ، ستقف عند هذا الحد ، وأن غيرى من الزملاء الباحثين والمحققين ، سوف يتولى إخراج باقى أجزائه .

ومضت الأعوام ، وشغلت بالعمل فى إتمام موسوعة الأندلس التاريخية ، حتى كملت بعون الله ، منذ بضعة أعوام ، وقمت بعد ذلك بدراسة وافية لحياة ابن الخطيب وآثاره ، صدرت فى مجلد كبير فى سنة ١٩٦٨ . وبقى كتاب الإحاطة خلال هذه الأعوام المتتالية ، حيث كان ، ولم يعن أحد من الباحثين بشأنه .

عندئذ عقدت العزم ، على استئناف العمل ، فى تحقيق هذه الموسوعة العظيمة ، وقمت خصيصا لهذا الغرض بثلاث رحلات دراسية متوالية ، فى اسبانيا والمغرب وتونس ، توفرت خلالها على دراسة سائر مخطوطات كتاب الإحاطة ، الموجودة فى مكتبة الإسكوريال ، ومكتبة أكاديمية التاريخ ، والمكتبة الوطنية بمدريد ، والخزائن المغربية فى الرباط وفاس ، ومخطوط جامع الزيتونة بتونس .

وكتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » كما يسمى فى مخطوطة دار الكتب المصرية ، ومخطوطة جامع الزيتونة بتونس ، أو « الإحاطة بتاريخ غرناطة » أو « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » أو « الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة » هو بلا ريب أشهر كتب ابن الخطيب وأضخمها وأقيمها .

وهو ليس تاريخاً لغرناطة بالمعنى المحدود ، ولكنه عبارة عن موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بهذه المدينة الأندلسية التالدة ، من الأخبار والأوصاف والمعالم ،

فهو يتناول وصفها وجغرافيتها، وخططها ، ومواقعها ، وما يحيط بها ، من المروج والجبال ، ثم يتناول تاريخها مذ نزل بها العرب الأوائل ، وأخبار من كان بها ، ومن نزلها أو مر بها من الكتاب والشعراء والأدباء والوزراء والمتعلمين ، كما يتضمن خلاصة لتاريخ الدولة النصرية منذ عصر مؤسسها محمد بن يوسف ابن الأحمر حتى عصر المؤلف . وهذا عدا ما يورده المؤلف خلال موسوعته من تراجم فياضة لملوك الدولة النصرية المتعاقبين .

ويورد لنا ابن الخطيب فى كتاب « الإحاطة » ، تراجم طائفة كبيرة من الأعلام والأكابر ، الذين عاشوا فى غرناطة ، أو نزلوا بها ، أو وفدوا عليها فى مختلف عصور التاريخ الأندلسى ، ويفيض فى ذكر معاصريه من الملوك والوزراء والشيوخ والأقران ، ويعنى عناية خاصة بترجمة أكابر العلماء والكتاب والشعراء من معاصريه ، سواء فى الأندلس أو المغرب ، ويورد لنا كثيراً من شعرهم ونثرهم . ويضم كتاب « الإحاطة » من هذه التراجم زهاء الخمسمائة .

ويتناول ابن الخطيب من خلال هذه التراجم ،تاريخ عصره وملوك عصره ، سواء فى الأندلس أو المغرب ، بدقة وإحاطة ، ويصف ما وقع فيه من الأحداث السياسية والعسكرية ، وصف الخبير المطلع ، ورجل الدولة الواقف على دقائق الأمور والعوامل والأسباب .

وهو لايلتزم فى كتابه الترتيب التاريخى ، للعصور والحوادث والأشخاص، ولكنه يلتزم الترتيب الأبجدى لأصحاب التراجم، غير أنه لايلتزمه بصورة دقيقة.

وقد ذكر لنا ابن الخطيب مصادره فى مقدمته ، وفى سياق كتابه ، وفى مقدمتها ، تواريخ ابن القوطية وبنى الرازى ، والمقتبس لابن حيان ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ، والذخيرة لابن بسام ، وتاريخ مالقة لابن عسكر ، والبيان المغرب لابن عذارى المراكشى ، وروض القرطاس لابن أبى زرع الفاسى . ورجع فيما يتعلق بتاريخ الدولة المرابطية ، وسير أعيانها ، بالأخص ، إلى تاريخ ابن الصيرفى المسمى « بالأنوار الجلية فى تاريخ الدولة المرابطية » وهو يكثر الاقتباس منه . وأما فيما يتعلق بالتراجم ، فقد رجع ابن الخطيب إلى « علماء إلبيرة » لأبى القاسم الغافقى ، وإلى تاريخ ابن مسعدة ، المسمى « تاريخ قومه » ، وإلى « القدح المعلّى فى التاريخ المحلى » وإلى «الطالع السعيد فى تاريخ

بنى سعيد » لأبى الحسن على بن سعيد الأندلسى ، وإلى كتاب « الحلة السيراء » لابن الأبار ، وكتاب « الصلة » لابن بشكوال ، و« صلة الصلة » لابن الزبير ، و« الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشى . ورجع فيما يتعلق بمعاصريه ،وهم الكثرة الغالبة ، فى كتاب الإحاطة ، من أشياخ وأقران وتلاميذ وغيرهم ، إلى مادة غزيرة ، من الوثائق والمعلومات الخاصة من ذوى الشأن أنفسهم ، أو من أقربائهم ومعارفهم . ورجع فيما يتعلق بسلاطين الدولة النصرية ، ووزرائها وأكابر دولتها ، إلى الوثائق والمخطوطات السلطانية والديوانية .

وينقل ابن الخطيب فى كتاب « الإحاطة » نبذاً من كتبه السابقة ، التى ألفها من قبل ، ومنها كتاب « عائد الصلة » الذى جعله ذيلا لصلة ابن الزبير ، و«طرفة العصر فى دولة بنى نصر» و« اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » و« نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » و« الكتيبة الكامنة فى من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » و« التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » . وينقل ابن الخطيب فى بعض كتبه من البعض الآخر ، كثيراً من الشذور ، وهذه ظاهرة ملحوظة فى كثير من مؤلفاته .

وأما عن تاريخ تأليف كتاب « الإحاطة » ، فإنه يبدو أن ابن الخطيب قد بدأ فى كتابته أو جمع مواده ، قبل محنته الأولى ، حينما عزل سلطانه ، ونفى معه إلى المغرب ، وذلك فى سنة ٧٦١ هـ ، وأنه استأنف الكتابة فيه ، عقب عودته من منفاه بالمغرب إلى غرناطة فى سنة ٧٦٣هـ . وقد استمر ابن الخطيب فى وزارته الثانية ، متربعاً فى دست الحكم والرياسة ، زهاء عشرة أعوام . وقد كانت هذه الفترة الطويلة التى هى من ألمع فترات حياته ، وأكثرها استقرارا ،وأوفرها نضجاً ، من أخصب فترات إنتاجه ، وفيها وضع كثيراً من كتبه ورسائله ، ودبج كثيراً من النظم والنثر ، وفيها استمر فى كتابة تراجم الإحاطة ، حسبما يبدو ذلك فى كثير من إشاراته ، وأتمه لأول مرة قبل أوائل سنة ٧٦٩ هـ ، وذلك حسبما يبدو مما كتبه ابن الخطيب إلى ابن خلدون فى رسالة مؤرخة فى جمادى الأولى سنة ٧٦٩ هـ وفيها يقول له إنه بعث بنسخة من «الإحاطة » إلى المشرق [1] . ويستدل من إشارات كثيرة أيضاً على أن ابن الخطيب استمر يدون

---

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١) ص ١٢١

وينقح تباعاً فى تراجم الإحاطة ، حتى أوائل سنة ٧٧٢ هـ . وإليك بعض هذه الإشارات :

قال ابن الخطيب فى خاتمة ترجمته لنفسه ، فى نهاية كتاب « الإحاطة » (مخطوط الإسكوريال) : « والحال إلى هذا العهد وهو منتصف عام خمسة وستين وسبعمائة على ما ذكرته » .

ويحدثنا فى نهاية ترجمة ابراهيم بن عبد الله ... بن قاسم النميرى (ابن الحاج) عن أسر ابن الحاج ومحنته فى جمادى الأولى سنة ٧٦٨ هـ .

ويقول لنا فى ترجمة أحمد بن خاتمة الأنصارى شاعر ألمرية ، « وهو الآن بقيد الحياة وذلك ثانى عشر شعبان سنة سبعين وسبعمائة » .

ويسرد ابن الخطيب تاريخ الغزوات الأندلسية فى عهد مليكه الغنى بالله حتى سنة ٧٦٨ هـ . ثم يقول لنا إن المسلمين استمروا فى غزواتهم حتى وصلوا إلى أحواز إشبيلية فى ربيع الأول سنة ٧٧١ هـ .

وقد شُغل ابن الخطيب بعد ذلك بتأليف كتب جديدة ، تمليها ظروف نزوحه الثانى إلى المغرب ، مثل كتاب « أعمال الأعلام » والرد على خصيمه القاضى أبى الحسن النباهى .

وقد تولى تلميذ ابن الخطيب ، أبوعبد الله الشريشى مؤدب أولاد السلطان الغنى بالله ، نسخ كتاب الإحاطة لأول مرة ، من مسودات أستاذه ، وكان يثق به ويعتمد على معاونته ، فجاءت هذه النسخة الأولى من« الإحاطة » حسبما ، يحدثنا المقرى فى ستة مجلدات ، على أن النسخة الوحيدة المقول بأنها هى النسخة الكاملة ، التى انتهت إلينا من « الإحاطة » ،هى نسخة جامع الزيتونة ، وهى تقع فى ثلاثة مجلدات .

وأورد لنا الأمير ابن الأحمر ، حفيد السلطان الغنى بالله ، فى أصل تأليف كتاب « الإحاطة » رواية خلاصتها أن الأديب الغرناطى أبا عبد الله محمد بن جُزى ، كاتب السلطان أبى الحجاج ، عبر إلى العدوة ، مغضوباً عليه ملتجئاً إلى السلطان أبى عنان سنة ٧٥٣هـ ، فأكرم أبوعنان وفادته ، وطلب إليه أن يضع مؤلفاً عن الأندلس ، فوضع فى ذلك كتابا متقنا جامعا . ولما عبر ابن الخطيب إلى المغرب فى أواخر سنة ٧٥٥ هـ عقب مصرع السلطان أبى الحجاج ، سفيراً عن

سلطانه الغنى بالله ، إلى السلطان أبى عنان ، اطلع على مؤلف ابن جزى المذكور وأعجب بمحتوياته ، وخطر له أن يقوم بوضع كتاب فى « الإحاطة » بما تيسر من تاريخ غرناطة » . ويقول لنا ابن الخطيب نفسه فى ترجمته لابن جزى ، الواردة بالجزء الثانى من « الإحاطة » ، إنه اطلع على أجزاء من مؤلف ابن جزى المذكور « تشهد باضطلاعه » ، وأنه أى ابن جزى « قيد بخطه من الأجزاء الحديثة ، والفوايد والأشعار ، ما يفوت الوصف ، ويفوق الحد » . ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس ، وألفى الحاجب الكبير أبا النعيم رضوان متربعاً فى منصب الحجابة والوزارة ، وشعر أنه لايستطيع إلى جانبه ، أن يزاول ماكان يطمح إليه من السلطان ، انتهز فرصة هذا الانتباذ ، وعكف على تأليف كتاب « الإحاطة » وأخذ يدون تاريخ المواليد والوفيات والأسماء والألقاب ، ويراجع مختلف المصنفات ، وكان ساعده الأيمن فى ذلك أبوعبد الله الشريشى ، فهو الذى تولى نقل المسودات وترتيبها وتبويبها ، حتى تم الكتاب فى ستة مجلدات . ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس ، عقب انتهاء محنته الأولى فى سنة ٧٦٣ ﻫ ، عاد إلى مراجعة كتاب « الإحاطة » والزيادة فيه ، حتى تحقق ماكان يبغيه له من السعة والإحاطة ؛ وتمت نسخته الأولى فى اثنى عشر سفرا (١) .

ولقد قمنا بتحقيق المجلد الأول من« الإحاطة » حسبما ورد فى مقدمة طبعته الأولى ، وفق مخطوطات (الزيتونة — كوديرا) وجاينجوس بمكتبة أكاديمية التاريخ ، ومخطوط دار الكتب المصرية ، ومخطوط رواق المغاربة بالجامع الأزهر ، ولكنا قمنا خلال رحلاتنا إلى المغرب بمراجعته مراجعة جديدة ، على ضوء مخطوط قديم من الإحاطة ، يتضمن الجزء الأول ومعظم الجزء الثانى ، ويحفظ بالخزانة الملكية بالرباط برقم 1840 ، وقد ظفرنا من هذه المراجعة الجديدة بتصحيحات كثيرة قيمة للنص المنشور .

أما المجلد الثانى من الإحاطة ، فقد اتخذ مخطوط جاينجوس أساساً لنصه ، حسبما اتبع فى المجلد الأول ، وتمت مراجعته على المجلد الثانى ، من مخطوط جامع الزيتونة ، وإن كان هذا المخطوط يختلف فى نهايته عن مخطوط جاينجوس ،

---

(١) نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٦٥٨ و ٦٥٩

ويضم عدداً من التراجم التى لم ترد فى المخطوط الأول ، وكذلك تمت مراجعته على المخطوط المحفوظ بخزانة الرباط الملكية .

وقد وسمت معظم المخطوطات التى بين أيدينا من كتاب « الإحاطة » بأنها « مختصر الإحاطة » ، وهذا مما يثير أمامنا نقطة دقيقة ، إذ معنى ذلك أنه لم يصل إلينا شيء من كتاب الإحاطة بنصه الكامل . على أن هذا الفرض يتضاءل شيئاً فشيئاً ، متى علمنا أنه بمقارنة كثير من التراجم التى نقلها المقرى فى « نفح الطيب » من كتاب الإحاطة ، ولاسيما تراجم شيوخ ابن الخطيب نفسه ، لم نجد فروقاً كبيرة فى النص أو الحجم ، بينها وبين نظائرها فى المخطوطات التى انتهت إلينا ، والتى نتخذها اليوم أساساً لنشر كتاب « الإحاطة » . ومن جهة أخرى فإنه يبدو من مراجعة التراجم الواردة فى أواخر الجزء الثانى من مخطوط الزيتونة ، بنظائرها الواردة فى مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ديرنبور ، أن تراجم مخطوط الإسكوريال تتفوق من حيث أحجامها ، فهى أطول وأوفى من نظائرها فى الزيتونة ، وهى فى باب الشعر بالأخص تضم كثيراً من القصائد التى لم ترد فى الزيتونة . وعلى هذا فإنه بالرغم من أن مخطوط الإسكوريال المشار إليه ، يوسم فى صفحة العنوان ، وفى مواضع أخرى منه ، عند اختتام بعض الأبواب ، بأنه « مختصر الإحاطة » — فمثلا يقول لنا الناسخ صراحة ما يأتى عقب نهاية السفر السابع « انتهى ما اختصرته من السفر السابع من كتاب الإحاطة فى تاريخ غرناطة ، يتلوه السفر الثامن من بعده إنشاء الله » (لوحة ١٠٠ من المخطوط) ، ووردت كذلك مثل هذه الإشارة فى نهاية السفر العاشر (لوحة ٣٣٧) ، وكذلك فى نهاية السفر الحادى عشر (لوحة ٤١٧) . بالرغم من ذلك كله ، فإننا نعتقد أن مخطوط الإسكوريال هو أقرب النسخ المخطوطة ، من حيث النصوص والأحجام إلى الأصل المطول ، الذى يقول الناسخ إنه قد نقل منه . ومن ثم فإنه يمكن القول ، بأننا حتى إزاء هذه النسخ التى وسمت فعلا « بمختصر الإحاطة » نملك نصوصاً شبه متكاملة من المؤلف الأصلى ؛ وقد لاتنقصها سوى فقرات يسيرة أو بعض قصائد أو مختارات نثرية قصيرة ، أو تراجم غير هامة .

وقد أوضح لنا الناسخ نفسه فى غير موطن ، من مخطوط الإسكوريال ، صنوف اختصاراته ، فى إغفال بعض القصائد أو إغفال بعض أجزائها ، وحذف

المشيخة أى أسماء العلماء الذين أخذ عنهم المترجم له ، أوحذف بعضها . أما القسم التاريخى من التراجم فيلوح لنا أنه كان أكثر أقسام الكتاب احتفاظاً بنصوصه الأصيلة ، وبعداً عن الحذف أو الاختصار .

ولابد لنا أن نشير هنا إلى السبب الذى يدعونا أن نقوم بنشر كتاب الإحاطة كله من جديد ، فى حين أنه قد نشر منه فى سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) أعنى منذ سبعين عاما جزءان بمدينة القاهرة (عن شركة طبع الكتب العربية) أولها فى ٣٧٥ صفحة ، والثانى فى ٣١٣ صفحة ، وهو ما يستغرق القطعة المحفوظة بدار الكتب (الجزء الأول من المطبوع) وقسما من الجزء الثانى من مخطوط جامع الزيتونة ، أو بعبارة أخرى ما يستغرق الجزء الأول من نسخة مكتبة الأكاديمية ، ومن الجزء الثانى حتى لوحة ١١٩ ، وما يستغرق من مخطوط جاينجوس معظمه وإلى ما قبل سبع وعشرين لوحة من نهايته .

والسبب واضح ، فإن هذا القسم الذى نشر ملىء بالأخطاء والتحريف ، بصورة تدعو إلى الرثاء ، بحيث يقع هذا التحريف فى كل صفحة من صفحاته ، بل فى كل سطر من سطوره ، وهذا ما يفقده كثيراً من قيمته ، هذا فضلا عما يتخلله مع شديد الأسف فى أحيان كثيرة ، من صنوف الاختراع والمسخ التى هو براء منها ، والزيادات الغريبة ، المنقولة من كتب أخرى. وقد نوه العلامة المستشرق زيبولد بهذا النقص والتشويه المؤسف منذ أكثر من خمسين عاما — وأعرب عن أمله فى أن تنشر من الإحاطة نسخة كاملة مصححة[1] وكان بعض أعلام المستشرقين وفى مقدمتهم المرحوم العلامة الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، يعتزمون بالفعل العمل لإصدار الإحاطة[2]. ثم أن النص المطبوع نشر على علاته من مخطوط دار الكتب وجزء منقول عن نسخة جامع الزيتونة ، مشحون بالأخطاء ، ولم يقم الناشر بأية مقارنة أو تحقيق للنصوص ، ولم يعن بالأخص بتحقيق الأعلام الأندلسية والإسبانية ، ولم يقرن النص بأية هوامش أوتعليقات تفسيرية . وهذا ما عنينا نحن به كل العناية ، فى نشر هذا النص الجديد ، المحقق والمقارن ، من الإحاطة ، بصورة تتفق مع ما لهذا الأثر الأندلسى النفيس من أهمية ، ومع ما تتطلبه المناهج العلمية الحديثة ، من أساليب البحث والتحقيق المقارن .

---

(١) فى مقاله عن ابن الخطيب فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) الأستاذ بروفنسال فى مقدمته لكتاب الصلة (الرباط ١٩٣٧) .

— ١ —

وفيما يلى استعراض موجز ، لما انتهى إلينا من مخطوطات كتاب الإحاطة فى مختلف الخزائن .

(١) يوجد من الإحاطة نسخة كاملة من ثلاثة مجلدات بمكتبة جامع الزيتونة بتونس ، وكانت تحمل وقت وجودها بالجامع أرقام 3522 ، 3523 ، 3524 وهى تحمل اليوم بعد نقلها إلى دار الكتب الوطنية (مكتبة العطارين) أرقام 8134 , 8135 , 8136

وقد كان من المتعارف أن هذه النسخة ، هى النسخة الكاملة الوحيدة فى العالم من كتاب الإحاطة . بيد أنه بمقارنة مجموعة التراجم التى يحتويها الجزء الثالث من هذه النسخة ، بمجموعة التراجم التى يحتويها مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ديرنبور ، وهو يحتوى أيضاً على الأسفار الأخيرة من الإحاطة ، يتضح أن هناك فارقاً كبيراً بين المجموعتين . ذلك أن مجموعة مخطوط الإسكوريال تحتوى على عدد كبير من التراجم التى لم ترد فى مخطوط الزيتونة ، هذا إلى أن مخطوط الإسكوريال يضم فى نهايته عند اختتام ابن الخطيب ترجمته لنفسه ، عدداً من رسائله السلطانية وغيرها مما يشغل اثنين وأربعين لوحة كبيرة (لوحة ٤٥٨ — ٥٠١) وهذه لم ترد فى مخطوط الزيتونة ، ويترتب على ذلك أن القول بأن نسخة الزيتونة ، هى نسخة كاملة من كتاب الإحاطة ، هو قول لايتفق مع الواقع ، لأن نسخة الزيتونة ، ينقصها عشرات من التراجم والرسائل الواردة فى مخطوط الإسكوريال .

ونسخة الزيتونة مكتوبة بخط مغربى وموسومة فى نهايتها (نهاية الجزء الثالث) بأنها كتاب « الإحاطة » ، ومذكور أنه تم الفراغ من نسخها فى الثامن والعشرين من جمادى الثانية عام (1273) . وتحمل الأجزاء الثلاثة كل منها فى أوله صيغة وقف وتحبيس . وقد جاء فى صيغة التحبيس المرقومة على الجزء الأول ما يأتى :

«الحمد لله — أشهد مولانا الملك الإمام ، مطاع السيوف والأقلام ، ظل الله الممدود على عباده ، ومنفذ أحكامه فى أرضه وبلاده ، سيدنا على باشا باى ، صاحب المملكة التونسية ، حرس الله بهجته السنية ؛ أنه حبس هذا الكتاب وهو الجزء الأول من الإحاطة فى أخبار غرناطة ، على من له أهلية الانتفاع به بمكتبة الجامع الأعظم بحاضرة تونس ، عمره الله بدوام ذكره ، مشترطاً عدم إخراجه

منها ، وأن يجرى العمل فيه على مقتضى الترتيب المؤرخ بالثانى والعشرين من ربيع الثانى عام اثنين وتسعين الفارط ، الممضى من جناب المقدس المبرور أخيه سيدنا محمد الصادق باشا ، تغمده الله برضوانه ، وأسكنه فسيح جنانه ، قاصداً بذلك وجه الله العظيم ، راجياً ثوابه الجسيم ، أشهدنا أيده الله بذلك ، وهو بأكمل حال ، وحسبما يتضمنه طابعه السعيد أعلاه ، دام فخره وعلاه ، بتاريخ غرة المحرم الحرام عام ثلاثمائة وألف.. » .

ويوجد مثل هذه الصيغة من التحبيس ، على الصفحة الأولى من كل من الجزئين الثانى والثالث ، مع تغيير يسير فى النص ، وبنفس الخط والتاريخ ، وفى أعلا كل منهما ختم الباشا الواقف . وفى أسفله توقيعات الواقف الشهود .

ويحتوى المجلد الأول على ٣٣٥ صفحة كبيرة ، وينتهى بقسم من ترجمة محمد ابن يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن فرج بن يوسف بن نصر .

ويحتوى المجلد الثانى على ٢٩٩ صفحة ، ويبدأ ببقية ترجمة السلطان السابق ذكره ، وأول تراجمه محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر ابن قيس الخزرجى . وينتهى بترجمة محمد بن على بن عبد الله اللخمى .

ويحتوى الجزء الثالث على ٣٠٢ صفحة ، ويبدأ بترجمة محمد بن على بن فرج القربليانى ، وينتهى بترجمة يحيى بن ابراهيم بن يحيى البرغواطى ، ومكتوب فى نهايتها : « كمل مختصر الإحاطة » . ثم يلى ذلك ترجمة ابن الخطيب لنفسه .

وإنه ليبدو من مقارنة كتابة الأجزاء الثلاثة ، أن الجزئين الأول والثانى قد كتبا بخط واحد ، وأن الجزء الثالث قد كتب بخط آخر ، والخط فى الحالين مغربى .

ومن الملاحظ أن نسخة جامع الزيتونة هذه ، كثيرة التصحيف والتحريف ، وقد شعر ناسخ الجزء الثالث بذلك فكتب يعتذر فى خاتمة المخطوط ، بأن هذا التصحيف « يرجع بعضه إلى الأصل المكتوب منه هذا ، والبعض زلة قلم ، وهذا بالرغم من كون الأصل المذكور ، مكتوب بخط فى غاية الحسن والإتقان ، وكم رأيت من نسخ من هذا التأليف بديعة الخط ، ومع ذلك لم تسلم من التصحيف » .

(٢) وتحتفظ مكتبة أكاديمية التاريخ الملكية بمدريد B. de la Real Academia de Historia بنسخة كاملة من كتاب الإحاطة تقع فى ثلاثة مجلدات ،

وقد جاء فى المذكرة الخاصة بها، أنها نسخت بمدينة فاس من نسخة مسجد تونس، ونسخة مسجد تونس هذه هى نسخة جامع الزيتونة السالفة الذكر ، وقد قام باستنساخ هذه النسخة ،العلامة كوديرا أستاذ اللغة العربية بجامعة مدريد وعضو أكاديمية التاريخ ، وذلك فى أواخر القرن الماضى ، ضمن مجموعة أخرى من الكتب المخطوطة ، قام باستنساخها برسم مكتبة الأكاديمية ، خلال رحلة قام بها فى شمال إفريقية لهذا الغرض ، ولهذا لا نرى بأساً من أن نسمى هذه النسخة بمخطوط كوديرا (١) .

وتحفظ نسخة كوديرا هذه بمكتبة الأكاديمية برقم XXXIV

(٣) وتحتفظ مكتبة أكاديمية التاريخ أيضاً بنسخة أخرى من الإحاطة هى نسخة العلامة المستشرق دون باسكال جاينجوس Gayangos مترجم القسم التاريخى من كتاب « نفح الطيب »(٢) إلى اللغة الإنجليزية وهو من أعظم المستشرقين فى القرن الماضى ، وتحفظ بها برقم CXLII .

وهذه النسخة هى عبارة عن مجلد كبير يحتوى على مائتين وتسعين ورقة أعنى ٥٨٠ صفحة ، وفى كل صفحة ٢١ سطراً ، وقد كتبت بخط أندلسى قديم واضح ، ولا تحمل الصفحة الأولى من المخطوط عنوانا ، ولكنه يبدأ فى الصفحة الثانية على النحو الآتى « بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم ، قال الشيخ الأديب البارع أبوعبد الله محمد بن عبد الله الخطيب » ولا يحمل المخطوط فى نهايته تاريخ نسخه بشكل واضح ، ولكن يبدو أنه قديم ، وقد يرجع نسخه إلى أواخر القرن التاسع ، ويعتقد المستشرق بونس بوبجس أنه كتب فى سنة ٨٩٥ هـ (١٤٨٩ م) .

ويضم مخطوط جاينجوس الجزأين الأول والثانى من مطبوع القاهرة القديم ، ويزيد عليهما سبعا وعشرين ورقة أخرى؛ تتضمن بقية التراجم الواردة فى الجزء الثانى من مخطوط الزيتونة ، حتى قبل نهايته بترجمة واحدة. وقد اتخذنا مخطوط جاينجوس هذا أساساً لتدوين النص فى الجزئين الأول والثانى حسبما تقدمت الإشارة إليه .

---

(١) يراجع تقرير الأستاذ كوديرا عن مهمته العلمية فى تونس والجزائر.

Mision Historica en Argelia y Tunez (Madrid 1872. p. 174 & 175)

(٢) وعنوان هذه الترجمة الإنجليزية هو:

History of the Mohamedan Dynasties of Spain (London 1840-1843)

(٤) ويوجد بمكتبة سان لورنزو الملكية بالإسكوريال قطعتان كبيرتان من كتاب الإحاطة تحمل إحداهما رقم ١٦٦٨ من فهرس الغزيري (١٦٧٣ ديرنبور) وهي أكبر قطعة وصلتنا من «الإحاطة»، وتقع في إحدى وخمسمائة صفحة كبيرة وقد كتبت بخط أندلسي، وكتب على صفحة العنوان أنها «السفر الثاني»(١) من «مختصر الإحاطة» وكتب عليها أيضاً «الحمد لله تملكه عبد الله تعالى زيدان أمير المؤمنين بن أحمد المنصور أمير المؤمنين». وإذاً فقد كان هذا المخطوط ضمن محتويات المكتبة الزيدانية المراكشية التي استولى عليها الإسبان في عرض البحر سنة ١٦١٤ م، وضمت إلى مجموعة الإسكوريال الملكية. وتبدأ هذه القطعة بترجمة محمد بن أحمد بن محمد بن خيثمة الجبائي، وتحتوي على تراجم من حروف الميم والنون ثم الصاد والعين ثم الميم مرة أخرى، ثم العين فالغين فالفاء حتى حرف الياء، وتختتم بعد ترجمة يحيى بن ابراهيم بن يحيى البرغواطي، بترجمة ابن الخطيب لنفسه (لوحة ٤٢٥ — ٤٦٠). ويلي ذلك مختارات كثيرة من شعره، ثم مختارات من نثره، وهي عبارة عن بعض الرسائل التي كتبها عن السلطان أبي الحجاج يوسف، وعن ولده السلطان أبي عبد الله محمد (الغني بالله)، ورسالة موجهة إلى الضريح النبوي، ورسالة إلى ملك تونس، ورسائل ابن الخطيب إلى ابن مرزوق، وابن خلدون، وأخيه يحيى، ثم عدة رسائل شخصية، ورسالة السياسة. ويورد ابن الخطيب بعد ذلك تاريخ مولده. ويستغرق ذلك كله حتى نهاية المخطوط، وهو نهاية كتاب الإحاطة.

وقد ورد في نهاية المخطوط، في اللوحة التي قبل الأخيرة ما يأتي: «قلت هنا انتهى هذا التأليف المسمى بالإحاطة في تاريخ غرناطة، على سبيل الاختصار، وتحصل منه ما أردناه من هذا المقدار. ووهبناه للناظر فيه، هبة ليست بهبة اعتصار، بل هي لتحصيله ذات انتصار. ولما لم يمكنه أن يعرف بمحنته ووفاته، رأيت أنا بعده، أن أعرف بذلك في مختصره هذا على مهيعه وعادته، فأقول».

وهنا يورد الناسخ قصة مصرع ابن الخطيب، منقولة من كتاب العبر.

(١) ومن الواضح أن المقصود «بالسفر» هنا هو الجزء أو المجلد، بدليل أن المخطوط يفتتح من حيث التبويب (بالسفر السابع). ومن المرجح أن النسخة الكاملة من الإحاطة من هذا المخطوط كانت تحتوي على مجلدين كبيرين.

ثم يرد بعد ذلك ، فى خاتمة الكتاب ما يأتى :

« انتهى من السفر الأخير منه حيث عرف بنفسه وبشيوخه ، رحمة الله على الجميع . قلت ، وهنا انتهى ما قصدناه ، وتم بحول الله ما أردناه واستوفيناه ، واستلحقناه ، وذلك بغرناطة أقالها الله وصانها ، وعمر بالعلماء الأعلام وصالحى الإسلام عمرانها ، وبتاريخ أوائل شهر ربيع الآخر من عام خمسة وتسعين وثمانمائة والحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى » .

وفى هذه العبارة الختامية ما يدعو إلى التأمل . ذلك لأن تاريخ الانتهاء من كتابة المخطوط ، وهو ربيع الآخر سنة ٨٩٥ هـ ، يوافق مارس سنة ١٤٩٠ م ، وهى فترة مزعجة فى تاريخ مملكة غرناطة ، إذ كانت الجيوش القشتالية بقيادة الملكين الكاثوليكيين ، فرناندو وإيسابيلا ، تهاجم قواعد الأندلس الأخيرة ، وتسقط هذه القواعد تباعاً فى أيدى النصارى . وكان مصير غرناطة ، يهتز يومئذ فى يد القدر ، وفى هذه الفترة الحرجة كتب مخطوط الإحاطة ، وتدلى عبارة الكاتب « وذلك بغرناطة أقالها الله وصانها » ، بما كان يشعر به أهل غرناطة ، يومئذ ، من ضروب التوجس والجزع على مصير غرناطة ومصايرهم ، وقد سقطت غرناطة بالفعل فى أيدى النصارى بعد ذلك بقليل ، فى يناير سنة ١٤٩٢ ، وانتهت بسقوطها دولة الإسلام فى الأندلس .

وأما القطعة الثانية وهى رقم ١٦٦٩ الغزيرى (١٦٧٤ ديرنبور) فهى صغرى القطعتين ، وتقع فى ١٩٥ صفحة من الحجم الكبير ، ومكتوبة بخط أندلسى واضح ولكنها عتيقة بالية ، وأطرافها متآكلة ، وفيها تراجم من حروف الميم واللام ، وتبدأ بترجمة موسى بن عبد الرحمن بن يحيى الحميرى ، وتنتهى بترجمة عبد الواحد بن الخليفة يعقوب بن الخليفة عبد المؤمن بن على ، وهو ما يدل على أن محتوياتها ليست متناسقة من حيث الترتيب الأبجدى . وهذه القطعة هى أقدم قطعة وصلتنا من كتاب الإحاطة إذ أنه حسبما جاء فى نهايتها قد كتبت فى الخامس عشر من رمضان سنة ٨٠٦ هـ ، أعنى بعد وفاة المؤلف بثلاثين عاما فقط . بيد أنه يلوح لنا أنها ليست كبيرة القيمة من الناحية العلمية ، لأن معظم تراجمها موجزة جدا ، وقد لاتعدو الترجمة منها بضعة أسطر ، مما يدل على أنها مختصرات سريعة للتراجم الأصلية .

وتحتفظ مكتبة مدريد الوطنية ، بنسختين مخطوطتين من القطعتين السابقتين

قام بنسخهما فى أواخر القرن الثامن عشر المستشرق الإسبانى خوان آمون دى سان خوان . بيد أنهما مشحونتان بالتصحيف والتحريف .

(٥) وتحتفظ دار الكتب المصرية بقطعة مخطوطة كبيرة من كتاب الإحاطة هى الجزء الأول أومعظم هذا الجزء ، ولاتحمل تاريخاً معينا لكتابتها،ولكن يبدو من قدمها وتآكلها ونوع كتابتها.أنها قديمة،وتحمل رقم ٣٤٨ تاريخ . وقد كانت هذه القطعة ضمن ما رجعنا إليه فى تحقيق الجزء الأول من الإحاطة .

وتحتفظ دار الكتب المصرية كذلك بقطعتين أخريين مصورتين من كتاب الإحاطة ، نقلتا عن نسخة مغربية ، تحتوى الأولى على ١٠١ لوحة مزدوجة ،وتضم تراجم من حرفى الميم والنون ، وتحتوى الثانية على ١١١ لوحة مزدوجة ، وتضم تراجم من أحرف الصاد والعين والغين والفاء والقاف والسين والياء بلا ترتيب ، وقد كتبت كلتاهما بخط مغربى جميل . وتحمل القطعة الثانية فى نهايتها مايدل على أن الأمر هنا يتعلق « بمختصر الإحاطة » وأن هذا المختصر قد كتب فى سنة ٩٨٧ هـ ، وتحمل هاتان القطعتان رقم ١٤٢٩ تاريخ .

وقد تبين بعد دراسة محتويات هاتين القطعتين من التراجم ، أن هذه المحتويات ، هى نفس محتويات الجزء الثالث من نسخة جامع الزيتونة ، مما يدل على أن نسخة الزيتونة ، ربما تكون قد نقلت عن هذا الأصل المغربى ، وهوأقدم كثيراً من حيث تاريخ النسخ . ونلاحظ فى نفس الوقت أن هذه المحتويات ، هى نفس محتويات مخطوط خزانة الرباط العامة رقم 2704 ، المذكور بعد ،

وتحتفظ مكتبة الجامع الأزهر بنسخة مخطوطة من الجزء الأول من كتاب الإحاطة حديثة الكتابة .

ويوجد بمكتبة رواق المغاربة بالأزهر ، مجموعة خطية ، من أوراق متناثرة . من كتاب الإحاطة ، تتكون من مائة وسبعين ورقة من القطع المتوسط ،ومكتوبة بخط مغربى قديم ، وبهوامشها تعليقات واستدراكات بخط المقرى وتوقيعه ، وإلى جانب التوقيع سنة ١٠٢٩هـ . والمظنون أن هذه الأوراق إنما هى بقايا النسخة التى أرسلها ابن الخطيب إلى خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة وقفاً على طلبة العلم .

(٦) أما فى المغرب فقد وقفنا على المخطوطات الآتية من كتاب الإحاطة :

يوجد بالخزانة الملكية بالرباط قطعة كبيرة من الإحاطة تحفظ برقم 1840 وهى

قديمة بالية كثيرة الخروم ، ومن القطع الكبير ، ومكتوبة بخط أندلسى ، ويبدو من محتوياتها أنها تتضمن الجزء الأول من الإحاطة بحجمه المعروف ، وقسما كبيراً من الجزء الثانى يبلغ خمسين ورقة ، وهى مبتورة البداية ، وتبدأ بعد عدة أوراق مخترمة ، بالفصل الذى عنوانه « ذكر ما ينسب إلى هذه الكورة من الأقاليم التى نزل بها العرب خارج غرناطة وما يتصل بها من العمالة » ، وآخر ترجمة وردت بها هى ترجمة (محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد .. بن القاسم ابن الحسن بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه) ، ونظراً لبتر هذه النسخة من البداية والنهاية ، فليس هناك مايدل على تاريخ كتابتها. بيد أنها ربما كانت من أقدم قطع الإحاطة التى وصلت إلينا ، هذا فضلا عما تمتاز به من سلامة النص وصحته .

ويوجد بخزانة الرباط العامة قطعة من الإحاطة تحفظ برقم 2704 ك (الكتانية) وقد كتب عليها أنها « الجزء الخامس عشر من الإحاطة ، بالتعريف بعلماء غرناطة »، تقع فى ٤٤٧ صفحة من القطع المتوسط ، ومكتوبة بخط مغربى وتبدأ بترجمة (محمد بن على بن فرج القربليانى) ، وتنتهى بترجمة ابن الخطيب لنفسه ، وتضم تراجم من حرف الميم حتى نزهون بنت القلعى ، ثم تراجم من حرف الصاد فالعين فالغين فالقاف فالكاف، ثم تعود إلى حرف السين وتنتهى بحرف الياء ، وهى حديثة الكتابة ، ومن المرجح أنها نقلت عن الجزء الثالث من مخطوط جامع الزيتونة ، لأن المطابقة بين محتوياتهما تكاد تكون تامة ، مع خلاف يسير فى بعض تراجم ساقطة أو زائدة .

وفى خزانة القرويين الكبرى بفاس ، توجد مجموعة من الأوراق المتناثرة من كتاب الإحاطة عددها ٤٨ ورقة من القطع الصغير ، وتحتوى على نحو خمسة وعشرين ترجمة من المحمدين . ومعظمها تراجم موجزة ، وتحتوى كذلك على بعض رسائل ابن الخطيب . وهى قديمة متآكلة . وقد كتبت فى سنة ٧٦٩ هـ ، أعنى فى حياة المؤلف ، وتحفظ برقم 2589/89

(٧) ويحتفظ المتحف البريطانى بقطعة مخطوطة من الإحاطة (Or. 8674) وصفت على صفحة العنوان بأنها « الجزء الثامن من كتاب الإحاطة » وهى تقع فى ١٩٤ لوحة كبيرة (٣٨٨ صفحة)، ويبدو من ورق المخطوط ومن خطه —

وهو خط مغربى — أنه قديم ، ويحمل فى نهايته تاريخ كتابته يوم الأربعاء الثامن والعشرين من صفر (والسنة غير مقروءة) ، ويبدأ بترجمة (محمد بن على بن فرج القربليانى) ، وينتهى بترجمة ابن الخطيب لنفسه ، وقبيل ترجمة ابن الخطيب وبعد آخر ترجمة ، وهى ترجمة (يحيى بن ابراهيم البرغواطى) فى اللوحة ١٦٥ يختتم بالعبارة الآتية « كمل مختصر الإحاطة بحمد الله تعالى وعونه » . وبعد ترجمة ابن الخطيب يختتم بعبارة « كمل كتاب الإحاطة » . وهو يضم تراجم من حرف الميم ثم النون ثم الصاد فالعين فالفاء فالسين ثم الياء ، ومجموعها حسبما يتضح من الفهرس الموجود فى أوله اثنان وستون ترجمة . وترد هذه التراجم كلها ضمن محتويات الجزء الثالث من مخطوط الزيتونة .

كما توجد بالمتحف البريطانى ، قطعة كبيرة من كتاب « مركز الإحاطة » للأديب المصرى بدر الدين البشتكى ، تحتوى على نصفه الأخير ، وهو يضم تراجم مختصرة للكتاب والأدباء والشعراء الذين وردوا بكتاب الإحاطة .

(٨) ويوجد بمكتبة ليدن بهولندة قطعة من الإحاطة تشمل الجزء الثانى منه ، وتحفظ بها برقم 1082

— ٢ —

ابن الخطيب

مؤلف هذا الكتاب

كان القرن الثامن الهجرى فى مملكة غرناطة ، بالنسبة لدولة التفكير والأدب عصر النضج والازدهار ، وفيه ظهرت طائفة من أكابر المفكرين والشعراء ، الذين أعادوا روعة الأدب الأندلسى ، فى أعظم عصوره ، مثل ابن سلبطور الهاشمى ، وابن خاتمة الأنصارى شاعر ألمرية ، والوزير أبوعبد الله بن الحكيم اللخمى ، والوزير أبو الحسن بن الجياب ، وابن جزى ، والوزير ابن الخطيب ، والوزير ابن زمرك ، وأبو سعيد بن لب ، وغيرهم ، ممن حفل بهم هذا العصر ، وزخرت دولة التفكير والأدب بآثارهم ، التى انتهى إلينا منها الكثير .

وكان ابن الخطيب من بين هذا الحشد الحافل ، أعظم شخصية ظهرت بالأندلس فى القرن الثامن ، وكان عبقرية متعددة النواحى ، فهو طبيب

وفيلسوف ، وهو كاتب وشاعر من الطراز الأول . وهو مؤرخ بارع ، وهو أخيراً وزير وسياسى ، ثاقب النظر قوى الإدراك .

كان ابن الخطيب يمثل بعبقريته ، وقوة نفسه ، وأصالة تفكيره ،وروعة بيانه ، وجزالة شعره ، أعظم ما تمخضت عنه الأندلس الكبرى ، من قبل من تلك النماذج العلمية والأدبية الباهرة ، التى يزدان بها تاريخ التفكير الأندلسى . وكان بتعدد جوانبه ، وسعة آفاقه ، أكثر من وزير وسياسى وكاتب وشاعر ، كان مزيجاً من عبقريات متعددة ، بلغ القمة فى كل منها ، ويندر أن تجتمع فى شخص واحد . وكانت غرناطة تلك الأندلس الصغيرة ، أضيق من أن تتسع لمثل عبقرياته ، ومن ثم فإنا نراه خلال حياته المضطربة ، سواء فى المغرب أو الأندلس ، يرتفع حينا إلى الذروة ، وأحيانا ينحدر إلى غمر المحنة ،تلاحقه تلك القوى الخصيمة ، التى تضيق بنبوغه ، وخلاله اللامعة .

وقد دون لنا ابن الخطيب ترجمة نفسه كاملة ، فى نهاية كتاب «الإحاطة» . هذا عدا ما أورده فى سياق الكتاب ، فى مواضع عدة ، عن مراحل خدمته السلطانية(١) ، وقص علينا كثيراً من حوادث حياته الشخصية والسياسية ، فى مختلف كتبه الأخرى ، ولاسيما « نفاضة الجراب » ، الذى يقص علينا فيه ، حوادث إقامته الأولى فى المغرب وسلا ، و« اللمحة البدرية» و« ريحانة الكتاب» الذى يضم كثيراً من رسائله السلطانية، وقد دون له معاصره وصديقه الفيلسوف ابن خلدون ترجمة فى تاريخه الكبير ، ووصف لنا مأساة مصرعه المؤثر(٢) .

وهو لسان الدين أبوعبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد ابن على بن أحمد السلمانى . والسلمانى نسبة إلى سلمان ، وهو حى من مراد من عرب اليمن القحطانية . وقد دخل الأندلس عقب الفتح منهم جماعة من الشام ومنهم سلف لسان الدين . وكان هذا اللقب يغلب عليه ، ولاسيما فى المغرب ، حيث كان يعرف « بابن الخطيب السلمانى» . وأما لسان الدين فيقول لنا ابن الخطيب فى مستهل ترجمته لنفسه فى الإحاطة « إنه يلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين»

---

(١) وردت ترجمة ابن الخطيب لنفسه فى مخطوط الاسكوريال (١٦٧٣ ديرنبور) ص ٤٢٥ حتى نهاية المخطوط ، ونقل المقرى مقتطفات منها فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٤ وما بعدها)

(٢) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ — ٣٣٦ و ٣٤١ — ٣٤٢ .

ولم يقل لنا متى وفى أى ظرف أسبغ عليه هذا اللقب . واستقر بنو سلمان سلف ابن الخطيب أولا فى قرطبة ، وقد كانت قرطبة وأحوازها منذ الفتح منزل قبائل الشام الوافدة ، على القطر الجديد . والظاهر أن بنى سلمان كانوا ينتمون إلى الحزب المعارض للبلاط أيام الحكم بن هشام أمير الأندلس ؛ فلما حدثت واقعة الرّبض المشهورة (ضاحية قرطبة) وثار أهل قرطبة بتحريض حزب الفقهاء المعارض للحكم (سنة ٢٠٢ هـ — ٨١٧ م) واستطاع الحكم أن يمزق الثورة ، وأن ينكل بأهل الربض ، غادر قرطبة كثير من المعارضين من الفقهاء وغيرهم ، وكانت منهم أسرة المترجم . رحلت ، كما يحدثنا ابن الخطيب إلى طليطلة ، واستقرت بها ، زهاء قرن ونصف . ولما شعرت الأسرة فى أواسط القرن الخامس الهجرى بالخطر الذى يحدق بطليطلة ، وأنها غدت مطمع النصارى ، يعدون عدتّهم للاستيلاء عليها ، غادرتّها إلى مدينة لوشة ، التى غدت فيما بعد مسقط رأس ابن الخطيب .

وقد زار كاتب هذه السطور ، خلال رحلاته الأندلسية ، مدينة لوشة التى يرتبط اسمها بذكريات أندلسية عديدة ، ويرتبط بالأخص بذكريات ابنها العظيم لسان الدين . وتقع لوشة غربى مدينة غرناطة على قيد نحو خمسين كيلومترا منها ، على الطريق الممتد من غرناطة إلى إشبيلية ، وقد كانت أيام الدولة الإسلامية من مدن الأندلس الزاهرة ، وسقطت فى أيدى القشتاليين ، خلال حرب غرناطة الأخيرة ، فى جمادى الأولى سنة ٨٩١ هـ (مايو سنة ١٤٨٦ م) ، بعد دفاع مجيد . أما اليوم فإن لوشة تغدو مدينة إسبانية متوسطة الحجم ، ذات شوارع كبيرة ، وتقوم بعض مبانيها فوق ربوة صخرية عالية . ويقوم البعض الآخر فى منخفض الوادى ، ويخترقها نهر شنيل (فرع الوادى الكبير) من الشمال . ويبلغ سكان لوشة اليوم نحو عشرين ألفا ، وقد كانوا أيام الدولة الإسلامية يبلغون أضعاف هذا العدد .

وتتخذ خطط لوشة شكل صليب . وتقع الكاتدرائية أو الكنيسة العظمى فى وسطها على مقربة من أطلال القصبة الأندلسية القديمة ، وفوق موقع المسجد الجامع ، ولم يبق اليوم فى لوشة من آثارها الأندلسية ، سوى أطلال القصبة أو القلعة ، وما تزال تقوم فى باطنها بقايا بناء يظن أنه كان مسجداً ، وهى عبارة

عن ثلاثة عقود على صفين ، ليست بها أية نقوش أو كتابات . وقد غدت طللا دراسا يغمره الخراب والعفاء .

وقد طفت بأرجاء لوشة والذكريات تغمر ذهنى ، فألفيتها مدينة مشرقة عامرة ، تتجه أحياؤها من طرفيها إلى الربوة العالية ، وتتجه أحياؤها الوسطى إلى بطن الوادى ، وأحياؤها الجانبية ضيقة المسالك والدروب على الطريقة الأندلسية القديمة ، وشارعها الرئيسى الذى يخترقه الطريق إلى إشبيلية ، طويل فسيح وبه كثير من المتاجر والفنادق والمقاهى .

وكان شبح ابن لوشة العظيم ، ووزيرها العبقرى ابن الخطيب ، يتراءى لى وأنا أجوس خلال دروبها الساحرة ، ولكنى لم أستطع مع الأسف أن أظفر بأية آثار أو معلومات تتعلق بحياته ، أوموقع بيته القديم ، وقد كان استقصاء هذه الآثار والذكريات جل مقصدى .

* * *

ولد ابن الخطيب بمدينة لوشة فى الخامس والعشرين من رجب سنة ٧١٣ هـ (١٦ نوفمبر سنة ١٣١٣ م) ونشأ فى بيت علم وفضل وجاه . ويحدثنا ابن الخطيب بأن بيتهم كان يسمى بنى الوزير ، ثم سموا بنى الخطيب . وسبب هذه التسمية يرجع إلى عهد جده سعيد ، وهو أول من استوطن من الأسرة مدينة لوشة ، وكان عالما ورعا ، وكان يلقى دروسه ومواعظه تحت أطلال برج يجاور أملاك أسرته ، ويقع على الطريق الممتد من غرناطة إلى إشبيلية مارا بلوشة ، ومن ثم فقد غلب عليه اسم الخطيب ، وأورث هذا اللقب لبنيه ، فعرفوا ببنى الخطيب من ذلك الحين . ويحدثنا ابن الخطيب عن والده عبد الله وكان من أكابر العلماء والخاصة ، ويترجمه لنا فى الإحاطة . وقد ولد سنة ٦٧٢هـ واستقر حينا فى غرناطة ، ثم عاد إلى لوشة مقر بيتهم القديم ، ثم عاد إلى غرناطة مرة أخرى ليلتحق بخدمة السلطان أبى الوليد اسماعيل وهو الذى جلس على عرش غرناطة فى سنة ٧١٣ هـ (١٣١٤م) .

ولما توفى السلطان أبو الوليد اسماعيل قتيلا فى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) خدم عبد الله من بعده . ولده السلطان أبا عبد الله محمد ، ثم أخاه السلطان أبا الحجاج يوسف أعظم سلاطين غرناطة ، وقد ولى العرش سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٢ م) . وخدم عبد الله فى ديوان الإنشاء ، مع الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبى الحسن بن

الحياب . وأسبغ عليه لقب الوزارة ، ثم توفى قتيلا مع ولده الأكبر أخى لسان الدين ، فى موقعة طريف الشهيرة[١] التى هزم فيها المسلمون بقيادة السلطان أبى الحسن المرينى عاهل المغرب . والسلطان أبى الحجاج يوسف أشنع هزيمة، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ (أكتوبر سنة ١٣٤٠ م) وسقطت على أثرها طريف والجزيرة الخضراء فى أيدى النصارى ، وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون فى المغرب والأندلس مثلها منذ بعيد .

ونشأ لسان الدين فى غرناطة التى انتقلت اليها أسرته ، ومع أنه استقر بها منذ حداثته ، فإنه لم ينس قط مسقط رأسه ومرتع طفولته «لوشة» ، فكانت لها فى قلبه دائما منزلة «الأم» ، وكان يتغنى بها فى شعره ، ويسميها «بنت الحضرة» أى بنت غرناطة ، وأحيانا «فتية غرناطة»[٢] . وكانت غرناطة يومئذ أعظم مركز للدراسات الإسلامية ، فى الغرب الإسلامى ، وكانت مجمع جمهرة من أكابر العلماء والأدباء . ودرس اللغة والشريعة والأدب ، على جماعة من أقطاب العصر مثل أبى عبد الله بن الفخار شيخ النحاة فى عصره ، وأبى القاسم محمد بن على الحسينى السبتى ، والمحدث شمس الدين بن جابر الوادى آشى ، وأبى عبد الله ابن مرزوق فقيه المغرب الكبير ، والقاضى أبى البركات بن الحاج البلفيقى . وأخذ الأدب والشعر عن الوزير أبى عبد الله بن الحكيم اللخمى ، وعن ذى الوزارتين الرئيس أبى الحسن بن الجياب ، أمام النظم والنثر فى عصره ، وعن أبى سعيد فرج بن لب وغيرهم . ودرس الطب والفلسفة على حكيم العصر وفيلسوفه الشيخ أبى زكريا يحيى بن هذيل ، واختص بصحبته[٣] ، وكان الطب والأدب من منثور ومنظوم ، أبرز ما تفوق فيه ابن الخطيب منذ حداثته ، وكان أبوه عبد الله بن الخطيب يشغل يومئذ مركزاً فى القصر فى خدمة السلطان أبى الوليد اسماعيل يصفه ابن خلدون بأنه « الإشراف على مخازن الطعام » ، ولكنه تقدم فيما

---

(١) وتسمى هذه الموقعة بالاسبانية موقعة سالا دو ، لوقوعها على ضفاف النهر الصغير المسمى بهذا الاسم ، والذى يصب فى المحيط شمالى مدينة طريف، وقد غنم الاسبان فى تلك الموقعة علمين للسلطان أبى الحسن المرينى ، مازالا يحفظان حتى اليوم بمتحف كنيسة طليطلة العظمى .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٧ ، وكتاب الإحاطة هذا فى ترجمة أسلم بن عبد العزيز .

(٣) ترجم ابن الخطيب لشيوخه فى الإحاطة ، وقد نقل إلينا المقرى هذه التراجم فى نفح الطيب ج ٣ ص ١٠٢ وما بعدها .

بعد فى الخدمة السلطانية ، وخدم فى ديوان الإنشاء مع الرئيس أبى الحسن بن الجياب ، وكان بارعا فى النظم والنثر ، ثم توفى قتيلا فى موقعة طريف مع ولده الأكبر فى سنة ٧٤١ هـ حسبما أسلفنا .

وتأثر ابن الخطيب منذ صباه ، بهذا الأفق السلطانى الذى عاش والده فى كنفه ، وتطلع إلى غزوه ، فلما توفى والده سنحت الفرصة المرجوة ، ودعى للخدمة مكان أبيه ، وكان يومئذ فتى فى الثامنة والعشرين من عمره ، وتولى أمانة السر لأستاذه الرئيس أبى الحسن بن الجياب وزير السلطان أبى الحجاج وكاتبه الأثير . وتلقى ابن الخطيب ، فى ديوان الإنشاء على يد أستاذه الكاتب الشاعر المبدع ابن الجياب ، أرفع أساليب النظم والنثر فى هذا العصر ، وظهرت براعته فى تدبيج الرسائل السلطانية . ولما توفى ابن الجياب فى الوباء الكبير أو الطاعون الجارف فى شوال سنة ٧٤٩ هـ (يناير سنة ١٣٤٩ م) خلفه ابن الخطيب فى رياسة الكتاب ، ورياسة ديوان الإنشاء ، ومنحه السلطان أبو الحجاج يوسف رتبة الوزارة وألقابها . وكان كبير الوزراء يومئذ الحاجب أبا النعيم رضوان ، وهو من أصل قشتالى ، وقد سبى صبيا وربى فى القصر السلطانى ، وكان ابن الخطيب يحظى بتقديره وثقته . وهنا تألق نجم ابن الخطيب ، وعظمت منزلته ، وأغدق السلطان عليه عطفه وآثره بثقته ، وجعله كاتب سره ، ولسانه فى المكاتبات السلطانية ، وصدر منها بقلم ابن الخطيب يومئذ ، طائفة من أبدع الرسائل الملوكية ، التى ينعتها ابن خلدون « بالغرائب » لروعتها ، وقد جمع ابن الخطيب الكثير منها فيما بعد فى كتابه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » . وكذلك نقل إلينا المقرى فى « نفح الطيب » عدة منها[1] .

ويصف لنا ابن الخطيب فى ترجمته فى « الإحاطة » مركزه فى الوزارة يومئذ ، وما حباه به السلطان من الثقة والإيثار فى قوله « فقلدنى السلطان سره ، ولما يستكمل الشباب ، ويجتمع السن ، معززة بالقيادة ، ورسوم الوزارة ، واستعملنى فى السفارة إلى الملوك ، واستنابنى بدار ملكه ، ورمى إلى يدى بخاتمه وسيفه ، وائتمننى على صوان حضرته ، وبيت ماله ، وسجوف حرمه ، ومعقل امتناعه » .

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٧٠ وما بعدها ، وج ٤ حيث يورد طائفة منها فى عدة مواطن

ولما توفى السلطان يوسف أبو الحجاج قتيلا فى يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ (أكتوبر ١٣٥٤ م) خلفه فى الملك ولده السلطان أبوعبد الله محمد ، الذى لقب فيما بعد بالغنى بالله ، واستمر الحاجب رضوان مضطلعا برياسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب فى منصبه معاوناً له ، وندب للوصاية على الأمراء القصر أبناء السلطان المتوفى . وأرسله السلطان الجديد ، لأول ولايته ، سفيراً عنه إلى السلطان أبى عنان المرينى عاهل المغرب ، على رأس وفد من رجالات الأندلس ، وهو يعرب فى رسالته إليه ، عن أمله فى تجديد أواصر المحبة والوصل ، التى كانت بين أبيه وبين السلطان أبى عنان ، ويستنصره ويطلب عونه ، على مقاومة ملك قشتالة. واستقبل السلطان أبوعنان سفير الأندلس — ابن الخطيب — بترحاب وحفاوة ، وذلك فى الثامن والعشرين من ذى القعدة سنة ٧٥٥ هـ . وأنشد ابن الخطيب بين يديه قصيدة رنانة يقول فيها :

خليفة الله ، ساعد القدر ... علاك ما لاح فى الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ... ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك فى النائبات بدر دجى ... لنا وفى المحل كفك المطر
والناس طراً بأرض أندلس ... لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وغاية الأمر أنه وطن ... فى غير علياك ماله وطر

فتأثر السلطان لإنشاده أيما تأثر ، ووعد بإجابة سائر مطالبهم . ويصف لنا ابن الخطيب نجاح سفارته فى قوله :

« وكان الانصراف بأفضل مما عاد به سفير من واد أصيل ، وإمداد موهوب ، ومهاد ومهاداة أثيرة ، وقطار مجنوب محمول ، وطعمة مسوغة . وكان الوصول فى وسط محرم سنة ست وخمسين وسبعمائة ، وقد نجح السعى ، وأثمر الجهد ، وصدقت المخيلة » .

واستأثر ابن الخطيب بثقة الغنى بالله ، كما استأثر بثقة أبيه من قبل ، وأسبغ عليه لقب ذى الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة . وهو يجمل لنا عهد خدمته فى تلك الفترة فى قوله : « ولما هلك السلطان (يعنى أبوالحجاج) ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسى ، وقصر المشورة على نصحى . إلى أن كانت عليه الكائنة فاقتدى فى أخوه المتغلب على الأمر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم

حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته ، على القبض على فكان ذلك ، وتقبض على ، ونكث ما أبرم من أمانى » .

وهذه الكائنة التى يشير إليها ابن الخطيب ، هى الثورة التى نشبت فى غرناطة ، فى شهر رمضان سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) وفقد فيها الغنى بالله ملكه . وتفصيل ذلك أن الأمير اسماعيل أخا السلطان كان معتقلا فى بعض أبراج قلعة الحمراء ، وكانت تؤازره جماعة من الزعماء الناقمين على الغنى بالله ، وفى مقدمتهم صهره الرئيس عبد الله ، وتعمل سراً لإسقاط الغنى بالله ، وإجلاسه فى الملك مكانه . وكانت أمه المقيمة بالقصر ، تؤيد مشاريعه بالسعى والبذل الوفير ، وكان السلطان قد تحول بولده إلى سكنى قصر « جنة العريف» الواقع شمال شرقى قصر الحمراء ، فانتهز المتآمرون ذات مساء فرصة ابتعاده عن دار الملك وهاجموا قلعة الحمراء (٢٨ رمضان سنة ٧٦٠ هـ) ونفذوا إلى دار الحاجب رضوان ، وقتلوه بين أهله وولده ، ونادوا باسماعيل أخى السلطان ملكاً مكانه . وشعر محمد « الغنى بالله » بعبث المقاومة ففر إلى وادى آش . وألفى ابن الخطيب نفسه بين عشية وضحاها مسلوب الحظوة والمنصب ، فسعى إلى مصانعة السلطان الجديد ، فاستبقاه فى الوزارة ، ولكن لأسابيع قلائل فقط . ثم ارتاب فى ولائه ، وقبض عليه بتحريض خصومه ، وكان ابن الخطيب يقيم وقتئذ بقصره ، الذى بالحضرة بمدينة الحمراء ، مقر إقامته الرسمية(١) فصدر الأمر بكبسه ، وكبس دوره الأخرى ، ومصادرة سائر أملاكه ومتاعه ، ونفذت هذه الأوامر بغلظة وشناعة ، وفقد ابن الخطيب ثروته العريضة فى لمحة . وهو يقص علينا تفاصيل محنته فى الإحاطة فيما يلى :

« وتُقبض على ، ونكث ما أبرم من أمانى ، واعتقلت بحال ترفيه ، وبعد أن كبست المنازل والدور ، واستكثر من الحرس ، وختم على الأعلاق ، وأبرد إلى ما نأى ، فاستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ، ولاربات الأمثال ، فى تبحر الغلة ، وفراهة الحيوان ، وغبطة العقار ، ونطافة الآلات ، ورفعة الثياب ، واستجادة العدة ، ووفور الكتب ، إلى الآنية والفرش والماعون ، والزجاج والطيب ، والذخيرة ، والمضارب والأقمشة . واكتسحت

---

(١) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٢ .

السائمة ، وثيران الحرث ، وظهر الحمولة ، وقوام الفلاحة ، وأذواد الخيل ، فأخذ الجميع البيع ، وتناهبتها الأسواق ، وصاحبها البخس ، ورزأتها الخونة ، وشمل الخاصة والأقارب الطلب ، واستخلصت القرى والجنات[1]، وأعملت الحيل ، ودست الإخافة ، وطوقت الذنوب ،وأمد الله بالصبر ، وأنزل السكينة ، وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى ، وتعلقت الآمال به ، وطبقت نكبة مُصحفية[2] مطلوبها الذات ، وسبب إفاتتها المال ، حسبما قلت ، عند إقالة العثرة ، والخلاص من الهفوة »[3] .

والواقع أن ابن الخطيب كان خلال هذه الأعوام، التى سطع فيها نجمه ، يعيش فى ترف وأبهة ، وبذخ يناسب مركزه الرفيع فى الدولة، وثراءه الطائل، أحياناً بقصره فى الحمراء ، وأحياناً بقصره الفخم الذى أنشأه فى بقعة الحدائق والجنات المسماه « بعين الدمع » بجوار غرناطة ، والتى اشتهرت بجمالها وروعتها ، وكانت يومئذ مسكن الكبراء والسادة ، وقد أورد فى الإحاطة نص أبيات نظمها فى التغنى بجمال « عين الدمع » ، ونقشت فى قبة قصره المذكور .

ولكن محنة ابن الخطيب لم تطل ، وسرعان ما جاء الإنقاذ . وكان مجيئه من الضفة الأخرى من البحر . ذلك أن السلطان المخلوع محمدا الغنى بالله ، كانت تربطه بملك المغرب السلطان أبى سالم ، ولد السلطان أبى الحسن المرينى ، علائق مودة وثيقة ، وكان أبو سالم قد لجأ إلى الغنى بالله حينما تغلب عليه أخوه السلطان أبوعنان ، ونفاه إلى الأندلس ، فأكرم الغنى بالله مثواه . فلما وقع الإنقلاب بالأندلس ، وفقد الغنى بالله عرشه ، وفرّ منبوذاً إلى وادى آش ، رعى له أبو سالم عهد الصداقة والوفاء ، وأرسل فى الحال إلى غرناطة سفيراً ، هو الشريف أبو القاسم التلمسانى ، يسعى لدى حكومتها الجديدة فى إجازة السلطان المخلوع ، ووزيره المعتقل ابن الخطيب إلى المغرب . ولم يسع السلطان اسماعيل المتغلب على عرش أخيه ، إلا الاستجابة لرغبة سلطان المغرب ، حفظاً لمودة بنى مرين ، واستبقاء لنجدتهم ، ومعاونتهم التى أنقذت الأندلس من عدوان النصارى غير

---

(١) استخلصت أى جعلت من مستخلص السلطان أو الأملاك السلطانية .

(٢) نسبة إلى الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى وزير الخليفة الحكم المستنصر بالله ، وقد نكبه المنصور بن أبى عامر وألقاه فى سجن الزهراء حتى مات .

(٣) راجع كتابى لسان الدين بن الخطيب فى ترجمة ابن الخطيب لنفسه ص ٢٨٩ و ٢٩٠ .

مرة ، وهكذا نجح السفير المغربى فى مهمته ، وأفرج عن ابن الخطيب ، ولحق بسلطانه المخلوع فى وادى آش . وعبد الغنى بالله ووزيره القديم ، ونفر كبير من آله وصحبه ، البحر ، من ثغر مربلة الصغير ، إلى ثغر سبتة ، ثم سافر الركب إلى فاس ، فوصلها فى السادس من المحرم سنة ٧٦١ هـ ، واستقبلهم السلطان أبو سالم أجمل استقبال ، واحتفل بقدومهم ، فى يوم مشهود ، وأنشد ابن الخطيب بين يدى السلطان يومئذ ، قصيدة من أروع قصائده ، يدعوه فيها لنصرة سلطانه وهذا مطلعها :

سلا هل لديهـــا من مخبّرة ذكر ... وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى داراً على اللوى ... عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذى ربى جناحى وكره ... فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر

ومنها :

قصدناك ياخير الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها ... وقد رأينا منها التعسف والكبر
وعذنا بذاك المجد فانصرم الردى ... ولذنا بذاك العزم فانهزم الشر
ولما أتينا البحر يُرهب موجـــه ... ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر

ومنها :

وأنت الذى تُدعى إذا دهم الردى ... وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيالمرين جاءه العـــز والنصـــر
وخذ ياإمام الحق بالحق ثأره ... ففى ضمن ما تأتى به العز والأجر

وكان المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، وهو يومئذ من أكابر رجال الدولة فى بلاط فاس ، من شهود ذلك الحفل . وهو يصفه لنا فى تاريخه ، ويقول لنا إن ابن الخطيب ، أبكى سامعيه تأثراً وأسى . ويقول لنا ابن الخطيب نفسه ، إن القوم كانوا يرتجفون تأثراً لأقواله ، وتسيل منهم العبرات(١). والتقى ابن خلدون

(١) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٦ ، وابن الخطيب فى الإحاطة (المطبوع ١٣٠٩ هـ ج ٢ ص ١٣ .

وابن الخطيب فى هذا الحفل لأول مرة . وكان هذا اللقاء بين الرجلين العظيمين ، حادثاً فى حياة كل منهما ، له أثره ونتائجه . وكان كل منهما يسمع عن صاحبه ، ويتوق إلى لقائه ، حتى جمعت بينهما الحوادث . وكانت تجمع بينهما مشابهات عديدة ، أدبية ومادية ، فقد كان كلاهما أستاذ عصره وقطره فى التفكير والكتابة ، وكان كلاهما شخصية بارزة ، فى حوادث عصره ، يتصل منها بأوثق صلة ، ويخوض غمارها متقلباً بين الظفر والمحنة ، وكان كلاهما وزيراً مطلق السلطان ، ومستشاراً لأمراء عصره ، ومحرضاً لهم أو عليهم . كان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب نفس المركز الذى يشغله ابن الخطيب فى الأندلس ، وقد استأثر فى المغرب بزعامة التفكير والكتابة ، التى كان يستأثر بها ابن الخطيب فى الأندلس ، وقد جمعت بين الرجلين ، فى البداية ، أواصر الحب والصداقة ، والإعجاب المتبادل ، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس . وكان كل منهما مع ذلك يحترم صاحبه ويجله ، ويكبر مواهبه وخلاله ، وقد ترجم كل منهما الآخر ، وذكره بما ينم عن خالص التقدير والإجلال ، وتبادلا طائفة من الرسائل الشخصية والسياسية ، تعتبر من أبدع نماذج النثر والترسل فى هذا العصر[١] .

وعاش ابن الخطيب حيناً فى كنف سلطان المغرب ، وهو يقول لنا فى ترجمته مشيراً إلى ذلك « وبالغ ملكه فى برّى ، منزلا رحباً وعيشاً خفضاً ، وإقطاعاً جماً ، وجراية ماوراءها مرمى ، وجعلنى بمجلسه صدراً ، ثم أسعف قصدى فى تهيؤ الخلوة بمدينة سلا ، منوه الصكوك ، مهنأ القرار »[٢].واستقر ابن الخطيب فى ثغر سلا المشرق الجميل ، زهاء عامين ، وهو يدون لنا فى كتابه « نفاضة الجراب » كثيراً من حوادث حياته بسلا ، ويشيد بطيب إقامته فى تلك المدينة الصغيرة الساحرة ، وقد أنجز خلال هذه الحياة الهادئة عدداً من مؤلفاته ، ما بين منثور ومنظوم ، ومنها بعض مؤلفاته التاريخية الهامة مثل كتاب « اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية » وكتاب « رقم الحلل فى نظم الدول » وهذا عدا ما دبجه خلالها من الرسائل السلطانية العديدة ، التى أوردها لنا فى « نفاضة الجراب »[٣]

---

(١) أورد لنا ابن خلدون فى التعريف عدة من هذه الرسائل . راجع « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » (طبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٥١) ص ٨٢–٩٣ ، وص ١٠٣–١٢٨ .

(٢) راجع كتابى « لسان الدين بن الخطيب » ص ٢٩٠ .

(٣) راجع كتابى « لسان الدين بن الخطيب » ص ٨٢ — ٨٤ .

وهكذا عاش ابن الخطيب فى سلا زهاء عامين ، عزيز الجانب ، موفور الرزق ، وقد اقتنى بها الدور والرياض ، ووثقت بينه وبين ابن خلدون ، أواصر الصداقة والمحبة ، وتوالت مدائحه للسلطان أبى سالم ، ومنها قصيدة طويلة يهنئ فيها السلطان بفتح تلمسان فى رجب سنة ٧٦١ هذا مطلعها :

أطاع لسانى فى مديحك إحسـانى ... وقد لهجت نفسى بفتح تلمسان

فأطلعتها تفترّ عن شنب المـنى ... وتُسفر عن وجه من السعد حيانى

كما ابتسم النوار عن أدمع الحيـا ... وجفّ بخد الورد عارض نيسان

كما صفقت ريح الشمال شموهـا ... فبان ارتياح السكر فى غصن البان(١)

ولبث محمد بن الأحمر (الغنى بالله) ، سلطان الأندلس المخلوع ، من جانبه فى فاس ، يرقب الحوادث ويتطلع إلى استرداد ملكه ، وكان يعول فى تحقيق هذه الغاية أولا ، على معاونة بيدرو الثانى (بطره) ملك قشتالة . تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما ، ولكن ملك قشتالة لم يسعفه فى مشروعه ، وآثر أن يعقد الصلح مع سلطان غرناطة الجديد . وفى أثناء ذلك وقع انقلاب فى فاس ، فقد فيه السلطان أبوسالم عرشه ولقى مصرعه ، وذلك فى التاسع عشر من ذى القعدة سنة ٧٦٢ ﻫ (١٣٦١ م) واستبد بالدولة مدبر الإنقلاب ، الوزير عمر بن عبد الله صهر السلطان القتيل ، وزوج أخته ، فسعى لديه ابن الأحمر ليعاونه على استرداد ملكه ، فاستجاب له الوزير ، ومازال يدبر أمره بمعاونته ، حتى تهيأت له الفرصة بوقوع ثورة جديدة فى غرناطة ، قُتل فيها أخوه ومنافسه السلطان اسماعيل ، على يد المتغلب عليه زوج أخته السلطان محمد بن اسماعيل بن فرج . وعندئذ وافق الوزير عمر بن عبد الله أن يقطعه مدينه رندة ، لكى ينزل بها مع صحبه ، ويتخذها مركزاً لتدبير خططه ، وكانت رندة يومئذ من أملاك بنى مرين الأندلسية . وعندئذ جاز محمد إلى الأندلس ، ونزل برندة ، ومعه جماعة من صحبه ، ثم غزوا منها ثغر مالقة ، وتكاثر صحبه . وسار محمد بعد ذلك إلى غرناطة ، واستولى عليها ، وفر منافسه السلطان محمد إلى قشتالة ، مع نفر من

---

(١) أورد لنا المقرى فى نفح الطيب هذه القصيدة برمتها ، وهى فى نحو مائة وعشرين بيتاً (ج ٣ ص ١٦ – ١٩) .

أصحابه ، واحتمى بملكها ، فلم يغثه بل اعتقله وأصحابه ، وبعث إلى محمد يطلب إليه صكاً بثبوت غدره وخيانته ، فبعث إليه محمد بالصك المطلوب ، بما ارتكبه محمد هذا وصحبه من ضروب الغدر والخيانة ، واستحقاقهم بذلك لحكم الإعدام ، فأمر ملك قشتالة بإعدامهم وفقاً لذلك ، وبعث برءوسهم إلى الغنى بالله ، فطيف بها فى غرناطة . وهكذا استرد محمد ملكه ، وجلس على عرشه ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١ م) .

— ٣ —

وما كاد محمد الغنى بالله يجلس من جديد على عرشه ، حتى كتب إلى وزيره المنفى ابن الخطيب ، رسالة رقيقة مؤرخة فى ٢٤ جمادى الآخرة ، ينعته فيها بأكرم النعوت وأرفعها « الفقيه الوزير الجليل الصدر الأوحد ، المشير ، العالم العلم الكبير ، الرفيع الشهير .. إمام البلغاء ، وصدر الخطباء ، وعلم العلماء ، وكبير الرؤساء .. » يخبره فيها بنجاحه وظفره ، ويطلب إليه العودة لتقلد منصبه[١] فنزل ابن الخطيب عند رغبة مليكه ، وغادر مقامه الهادئ فى سلا ، وجاز إلى الأندلس ، ومعه أسرة السلطان وولده ، ووصل إلى غرناطة فى أواخر شعبان من تلك السنة . وفى الثامن من شهر رمضان أصدر السلطان ظهيراً (مرسوماً) باعادته إلى منصبه « وقلده فيه نجاد الوزارتين وحلاه بحلى الرياستين » .

وهكذا عاد ابن الخطيب إلى سابق مكانته فى الوزارة . ولكنه لم ينعم فى تلك المرة بسابق حظوته ونفوذه ، إذ كان ينافسه فى السلطة عندئذ شيخ الغزاة عثمان بن أبى يحيى[٢]، وكان السلطان يقربه ويشمله بوافر عطفه ، لما قام به من معاونته فى استرداد ملكه . والظاهر أن ابن الخطيب كان يحرص على أن يسترد سلطانه المطلق كاملا ، فنشبت بين الرجلين ، معركة شديدة ، وحقد ابن الخطيب على منافسه ، ومازال يحرض السلطان ، ويحذره من نفوذ عثمان وعصبته ، وينوه له بخطورة أطماعهم ومشاريعهم ، ويذكره بسابق غدرهم ، حتى انتهى السلطان ، إلى التأثر بتحريضه ، ونكب عثمان وصحبه ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٧٦٤ هـ ، وبذا خلا الجو لابن الخطيب ، واستعاد سلطانه المطلق ، دون أية مناوأة أومنافسة

---

(١) راجع هذه الرسالة فى كتابى لسان الدين بن الخطيب ص ٣٣٤ — ٣٣٧ .

(٢) شيخ الغزاة أعنى قائد الجيش العام .

وفى ذلك الحين وفد صديقه ابن خلدون على الأندلس ، بعد أن فقد حظوته ونفوذه فى بلاط فاس ، واضطرته أعاصير السياسة ، والثورات المتوالية ، إلى مغادرة المغرب . وكان ابن خلدون قد أسدى الى السلطان الغنى بالله ، أثناء إقامته بفاس ، كثيراً من الخدمات ، فاستقبله حين مقدمه إلى غرناطة فى أوائل سنة ٧٦٤ هـ استقبالا حافلا ، وأغدق عليه عطفه وصلاته ، وجعله من خاصته ، وبعث به إلى إشبيليه ، سفيراً إلى ملك قشتالة (٧٦٥ هـ) فأدى ابن خلدون سفارته خير أداء . وكذلك استقبله صديقه ابن الخطيب فى البداية بمنتهى الترحاب والمودة . ولكن الظاهر أنه غص بعد ذلك بما ناله ابن خلدون لدى السلطان من حظوة بالغة ، ففترت بينهما العلائق . ثم تبين ابن خلدون إعراض السلطان عنه ، وشعر بأثر ابن الخطيب فى هذا التحول ، فغادر الأندلس وعاد إلى المغرب ، ليخوض غمار حوادثه كرة أخرى (سنة ٧٦٦ هـ) .

ويصف لنا ابن الخطيب سيرته فى الحكم يومئذ فى قوله : « فاستعنت بالله تعالى عليه ، وعاهدت وجهه فيه ، من غير تلبس بخديعة ، ولاتشبث بولاية ، مقتصراً على الكفاية ، حذراً من النقد ، خامل المركب ، معتمداً على المنسأة ، مستمتعاً بخلق النعل ، راضيا بغير النبيه من الثوب ، مشفقاً من موافقة الغرور ، هاجراً للزخرف ، صادعاً بالحق فى أسواق الباطل ، كافاً عن السخال برائن السباع ، مفوتاً للأصول فى سبيل الصدقة . ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة ، بكر الحسنات بهذه الخطة ، بل بالجزيرة فيما سلف من المدة ، فتأتى بمنة الله تعالى ، من صلاح السلطان ، وعفاف الحاشية ، ونشر الأمن ، وروم الثغور ، وتثمير الجباية ، وانصاف الحماة والمقاتلة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، فى إيثار المصلحة الدينية ، والصدع فوق المنابر ، ضماناً من السلطان بترياق سم الثورة ، وإصلاح بواطن الخاصة والعامة ، ما الله المجازى عليه ، والمعوض من سهر خلعته على أعطافه ، وكد أعملته من جرائه ، وخطر اقتحمته من أجله ، فهو الذى لا يضيع عمل من عمل ، من ذكر أو أنثى ، سبحانه وتعالى »(١) .

ونحن نلمس فى هذا الشرح ، من جانب ابن الخطيب لسيرته فى الحكم ،

---

(١) راجع كتابى لسان الدين بن الخطيب ص ٢٩١ ، ونفح الطيب ج ٣ ص ٤٢ .

فى تلك الفترة ، نوعاً من الدفاع عن موقفه ، وعن أعماله ، وإنه ليحق لنا أن نتساءل عن بواعث هذا الدفاع ، وربما كان فيما يأتى من أقوال ابن الخطيب ما يوضح هذه البواعث .

يقول ابن الخطيب : «ومع ذلك فلم أعدم ، الإستهداف للشرور ، والإستعراض للمحذور ، والنظر الشزر المنبعث من خزر العيون ، شيمة من ابتلاه الله تعالى بسياسة الدهماء ، ورعاية سخطة أرزاق السماء ، وقتلة الأنبياء ، وعبدة الأهواء ، ممن لايجعل لله تعالى إرادة نافذة ، ولامشيئة سابغة ، ولايقبل معذرة ، ولايجمل فى الطلب ، ولا يتلبس مع الله بأدب . ربنا لاتسلط علينا بذنوبنا من لايرحمنا . والحال إلى هذا العهد وهو أول عام أحد وسبعين وسبعمائة » .

كان ابن الخطيب فيما يبدو من أقواله هدفاً لحملات خصومه ، ولم يكن فيما يبدو متمتعاً بحب الكافة أو الدهماء حسبما ينعتهم . والظاهر أنه كان قد برم يومئذ بالخدمة السلطانية ، وسئم متاعبها ومسئولياتها الفادحة ، ومظاهرها البراقة ، وساورته رغبة فى الزهد والاعتكاف ، وجالت بخاطره رغبة السفر لقضاء فريضة الحج ، وقد التمس ابن الخطيب بالفعل إلى سلطانه أن يحقق رغبته فى ذلك ، هذا إلى أن ابن الخطيب لم يكن بالرغم من حياته المترفة الناعمة يتمتع بصحة طيبة ، تدل على ذلك إشاراته فى مقدمة الإحاطة إلى سوء حالته الصحية[1] ، كما يدل على ذلك ماذكره من إصابته بالأرق المزمن ، فلم يكن ينام من الليل سوى اليسير . وقد سجل ابن الخطيب ذلك فى إحدى رسائله الطبية المسماة « الوصول إلى حفظ الصحة فى الفصول » وأبدى عجبه من أنه وهو طبيب يدون لغيره وسائل العلاج ، لم يستطع معالجة نفسه من هذا الداء .

بل يلوح لنا أن ابن الخطيب ربما ساورته يومئذ ، رغبة فى الهجرة من الأندلس قاطبة ، وقد التمس بالفعل إلى سلطانه إقالته وتمكينه من تحقيق هذه الرغبة ، واشتهر عنه يومئذ هذا العزم ، ونمى ذلك إلى صديقه الشاعر الكبير ابن خاتمة وهو بالمرية ، فكتب إليه رسالة مؤثرة تفيض بلاغة وتقديراً ، يحاول فيها أن يثنيه عن عزمه وأن يقنعه بضرورة البقاء فى وطنه ، ومما جاء فيها فى مخاطبته لابن الخطيب قوله :

---

(١) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٩٣ .

«إنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها، وواسطة سلكها، وطراز فلكها وقلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص، وتمام زينتها على العموم والخصوص . ثم أنتم مدار أفلاكها وسر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها، ولسان إحسانها ، وطبيب مارستانها ، والذى عليه عقد إدارتها وبه قوام إمارتها، فلديه يحل المشكل، وإليه يلجأ فى الأمر المعضل، فلا غرو أن تتقيد بكم الأسماع والأبصار وتحدق بكم الأذهان والأفكار» . وقد رد عليه ابن الخطيب برسالة بليغة يقول فيها، إنه وقد أشرف على المشيب والكهولة ، قد عاف زخارف الدنيا ومتاعها، وأنه يضطرم شوقاً إلى زيارة الحرمين وقضاء الفريضة(١) .

والظاهر أيضاً أن ابن الخطيب يريد بهذا التنويه الذى يشير فيه إلى حسن سيرته فى الوزارة ، ومراعاة الحق والعدل فى تصرفاته، أن يدحض أقوال القائلين بأنه جنح يومئذ إلى الاستبداد وسوء المسلك والسيرة . بيد أنه يوجد لدينا من جهة أخرى شهادة صديقه ابن خلدون الذى عاشره وعاش إلى جانبه فى تلك الفترة زهاء عامين ، وهو يصف لنا هذه المرحلة من حياة ابن الخطيب فيما يلى :

«وخلا لابن الخطيب الجو، وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير المملكة وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت عليه الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتواقفوا على السعاية فيه»(٢) .

وما تدل به هذه العبارات الموجزة القوية ، هو أن ابن الخطيب كان فى هذه المرحلة من حياته الوزارية يتمتع بالسلطان المطلق . والواقع أن ابن الخطيب كان عندئذ حاكماً بأمره ، وكان استئثاره بالسلطان والنفوذ على هذا النحو يذكى سخط منافسيه، ويثير من حوله ضراماً من البغض والحسد ، وكان السلطان ثقة منه بوزيره الأكبر ، وبمقدرته وكفايته، يترك له زمام الأمور ، ويعرض عن الإصغاء لأعدائه ومنافسيه، ولكنه بدأ فى النهاية يتأثر بسعايتهم، ويرى فى استبداد ابن الخطيب اعتداء

(١) أورد ابن الخطيب نص رسالة ابن خاتمة إليه ورده عليها فى كتاب نفاضة الجراب (السفر الثالث مخطوط الرباط لوحات ١٩٠ – ١٩٣) وأوردهما ابن الخطيب مرة أخرى فى ترجمة ابن خاتمة فى الإحاطة ، ونقلهما المقرى فى نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣٦ – ٣٣٨ .

(٢) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٥ .

على سلطانه . وشعر ابن الخطيب من جانبه ، بأن سلطانه قد بدأ يتغير عليه ، وأخذ يتوجس شراً من العواقب . وكان فى مقدمة خصومه والساعين فى حقه ، تلميذه ومعاونه فى الوزارة الكاتب والشاعر الكبير ، أبوعبدالله محمد بن يوسف المعروف بابن زَمْرك ، وقاضى الجماعة (قاضى القضاة) بغرناطة أبوالحسن على بن عبد الله النباهى. وكان الأول يتزعم ضد ابن الخطيب الخصومة السياسية، ويتزعم الثانى حملة أشد خطورة ، وهى اتهام ابن الخطيب بالإلحاد، والخروج على أحكام الدين والشريعة ، اعتمادا على بعض ماورد فى كتبه . وبلغت الأمور ذروتها فى أوائل سنة ٧٧٣هـ، وشعر ابن الخطيب بأن السعاية قد أثمرت ، وأنه فقد عطف مليكه ، وأن الخطر يحدق به . والظاهر أنه كان قبل ذلك بقليل ، يتصل سراً بالسلطان عبدالعزيز ابن السلطان أبى الحسن المرينى ملك المغرب ، وكان يومئذ يعقد بلاطه فى مدينة تلمسان التى افتتحها من يد بنى عبد الواد (سنة ٧٧٢هـ). وكانت العلائق بين بلاط فاس وبلاط غرناطة قد فترت يومئذ ، وأخذ كل فريق يمالىء خصوم الآخر ويحشدهم لمناوأته . ولما اطمأن ابن الخطيب إلى وعود السلطان عبد العزيز بالحماية والرعاية ، عول على مغادرة الأندلس، واستأذن ابن الأحمر فى تفقد الثغور الغربية فأذن له وسار مع ولده على ، وجماعة من خاصة الفرسان ، إلى الجنوب . فلما وصل إلى جبل طارق ، تلقاه قائدها فى قواته ، وكانت جبل طارق يومئذ ، من أملاك بنى مرين . وكان السلطان عبد العزيز قد أصدر أوامره باستقبال ابن الخطيب ، وتجهيز السفن اللازمة لنقله ، هو ومن معه ، إلى المغرب . ونجحت الخطة، وركب ابن الخطيب ومن معه البحر إلى سبتة . ولكنه قبل أن يغادر جبل طارق ، بعث إلى سلطانه الغنى بالله رسالة مؤثرة يودعه فيها ، ويوضح أسباب تصرفه ، ويطلب إليه المغفرة ، ويؤكد له بقاءه على الود ، ويلتمس رعايته لأسرته وولده ، وتبدأ الرسالة بهذه الأبيات :

بانوا فمن كان باكيا يبكى	هذى ركاب السُّرى بلاشك
فمن ظهور الركاب مُعملة	إلى بطون الربى إلى الفلك
تصدع الشمل مثلما انحدرت	إلى صبوب جواهر السِّلك
من النوى قبل لم أزل حذرا	هذى النوى جل مالك الملك

ثم يقول ابن الخطيب : « مولاى كان الله لكم ، وتولى أمركم ، أسلم عليكم سلام الوداع ، وأدعو الله فى تيسر اللقاء والاجتماع ،من بعد التفرق والانصداع ، وأقرر لديكم أن الإنسان أسير الأقدار . مسلوب الاختيار ، متقاب فى حكم الخواطر والأفكار ، وأنه لابد لكل أول من آخر ، وأن التفرق لما ازم كل اثنين بموت أو فى حياة ، ولم يكن منه بد ، كان خير أنواعه الواقعة بين الأحباب ما وقع على الوجوه الجميلة البريئة من الشرور » .

ثم يقول بعد الإشارة إلى خدماته ، إنه قد غلبته حال شديدة ، هزمت التعشق بالشمل الجميع ، والوطن المليح ، والجاه الكبير ، والسلطان القليل النظير ، وإنه قد عمل بمقتضى قوله « موتوا قبل أن تموتوا » وإنه قد أقدم على أمر صعب المرام « ولكن سهله علىّ أمور ، منها أن الانصراف لما لم يكن منه بد ، لم يتعين على غير هذه الصورة ، إذ كان عندكم من باب المحال . ومنها أن مولاى لو سمح لى فى غرض الانصراف ، لم تكن لى مقدرة على موقف وداعه ، لا والله ، ولكان الموت أسبق إلى ، وكفى بهذه الوسيلة الحسنة ، التى يعرفها وسيلة . ومنها حرصى على أن يظهر صدق دعواى فيما كنت أهتف به . وأظن أنى لا أصدق . ومنها اغتنام المفارقة فى زمن الأمان والهدنة الطويلة ، والاستغناء ، إذ كان الانصراف المفروض ضروريا ، قبيحا فى غير هذه الحال ، ومنها وهو أقوى الأعذار أنى مهما لم أطق هذا الأمر ، أوضاق ذرعى به ، لعجز أو مرض أو خوف طريق ، أو نفاد زاد ، أو شوق غالب ، رجعت رجوع الأب الشفيق إلى الولد البر الرضى ، إذ لم أخلف ورائى مانعا من الرجوع ، من قول قبيح أو فعل ، بل خلفت الوسائل المرعية ، والآثار الخالدة ، والسير الجميلة » .

ثم يقول : « وإن فسح الله فى الأمد ، وقضى الحاجة ، فأملى العودة إلى ولدى وتربتى ، وأن قطع الأجل ، فأرجو أن أكون ممن وقع أجره على الله . فإن كان تصرفى صوابا ، وجاريا على السداد ، فلايلام من أصاب ، وإن كان عن حمق وفساد عقل ، فلا يلام من اختل عقله ، وفسد مزاجه . بل يعذر ويشفق عليه ويرحم . وإن لم يعط مولاى حقه من العدل ، وجلبت الذنوب ، ونشرت بعدى العيوب ، فحياؤه ، وتناصفه ، ينكر ذلك ، ويستحضر الحسنات ، من التربية

والتعليم . وخدمة السلف . وتخليد الآثار . وتسمية الولد ، وتلقيب السلطان ، والإرشاد إلى الأعمال الصالحة . والمداخلة والملابسة . لم يتخلل ذلك قط ، خيانة فى مال ، ولا سر . ولا غش فى تدبير . ولا تعلق به عار . ولا كدره نقص . ولا حمل عليه خوف منكم ، ولا طمع فيما بيدكم . وإن لم تكن هذه دواعى الرعى والوصلة والإبقاء . ففيم تكون بين بنى آدم . وأنا رحلت فلا أوصيكم بمال ، فهو أهون متروك ، ولا بولد فهم رجالكم وخدامكم ، وممن يحرص مثلكم ، على الإكثار منهم . ولا بعيال فهى من مزيات بيتكم وخواص دراكم » .

ويسوق ابن الخطيب بعد ذلك النصح إلى سلطانه ثم يقول : « واعلموا أيضا على جهة النصيحة ، ان ابن الخطيب مشهور فى كل قطر ، وعند كل ملك ، واعتقاده ، وبره ، والسؤال عنه ، وذكره بالجميل ، والإذن فى زيارته ، نجابة منكم وسعة ذرع ودهاء . فإنما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت ، ثم أقشعت ، وتركت الأزاهر تفوح ، والمحاسن تلوح »[1] .

تلك هى رسالة الوداع التى وجهها ابن الخطيب إلى مليكه ، وهو يغادر وطنه إلى غير رجعة ، وتلك هى تأكيداته فى تبرئة نفسه ، ونزاهة مقاصده ، وتلك هى عباراته التى تدل على مبلغ اعتزازه بنفسه ، وبرفيع مركزه ومنزلته ، لدى قصور عصره ، وعلى أنه لم يفقد ثقته بنفسه حتى فى أقسى أيام محنته .

وكان عبور ابن الخطيب من جبل طارق إلى العُدوة ، فارًا من وطنه على هذا النحو ، فى غرة جمادى الآخرة سنة ٧٧٢هـ[2] ، وذلك حسبما يخبرنا ابن الخطيب نفسه .

وبعد أن قضى ابن الخطيب وصحبه فترة استجمام قصيرة ، فى سبتة وطنجة ، سار فى صحبه إلى تلمسان ، حيث كان بلاط المغرب ، وهنالك استقبله السلطان عبد العزيز المرينى أجمل استقبال ، وأرسل فى الحال سفيراً إلى غرناطة ، ليسعى

---

(١) أورد لنا ابن خلدون نص هذه الرسالة بأكملها فى كتاب العبر (التعريف) ج ٧ ص٤٣٧ و٤٣٨ ، كما أوردها فى التعريف والرحلة ص ١٤٧ — ١٥٢ . وكان ابن الخطيب قد أرسل إليه صورة منها . ويرى ابن خلدون أنها من أغرب الرسائل وأروعها جادة وبلاغة

(٢) كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت) ص ٣١٨ .

فى استقدام أسرة الوزير المنفى ، فأتى بها معززة مكرمة ، وكان ذلك فى أواسط سنة ٧٧٣ هـ (١٣٧١ م) .

— ٤ —

استقر ابن الخطيب فى مقامه الجديد ، بعيداً عن الأهل والوطن ، ولكن ما غمره به السلطان من كرم المثوى ، وعاو المكانة ، وجزيل العطاء والنعمة ، خفف كثيراً من مرارة النفى ، وهكذا شعر ابن الخطيب أنه استرد فى بلاط المغرب مكانته المفقودة ، وكتب إلى صديقه ابن خلدون ، وكان يقيم يومئذ فى بسكرة ، ينبئه بخبره ، ويعتب عليه فيما كان منه بحقه ، حين مقامه بالأندلس فرد عليه ابن خلدون برسالة مؤثرة يؤكد فيها حبه وتقديره لصديقه ، ويدفع عن نفسه مظنة الفتور والوقيعة ، ويهنئه بنجاته[1] .

ولكن فرار ابن الخطيب على هذا النحو ، لم يهدئ من ثورة خصومه ، بل كان بالعكس حجة لديهم تنهض على إدانته ، فيما يرمونه به من التهم ، وقد غصوا لإفلاته ونجاته من مكائدهم ، فضاعفوا سعيهم لملاحقته ، وسحق هيبته ، وتلويث سمعته ، فاتهموه بالزندقة ، والخروج على شريعة الإسلام ، ونسبوا إليه فى ذلك أقوالا ومقالات ، مما جاء فى بعض كتبه ورسائله ، أولوها وفق مقاصدهم ، وزعموا أن منها ما يتضمن طعناً فى النبى ، والقول بالحلول ، ومجاراة مذهب الفلاسفة الملحدين ،وأن كتب ابن الخطيب التاريخية ،وما اشتملت عليه من تراجم الأحياء المعاصرين ، والأموات الأقربين ، وما يتخللها من الطعن المر فى كثير منهم ، هى من قبيل « الغيبة المحرمة » . وكان تلميذ ابن الخطيب وخلفه فى الوزارة ، أبو عبد الله بن زمرك ، أكبر مروج لهذه الدعاية القوية. وتولى صوغ الإتهام ، عدو ابن الخطيب الألد ، القاضى أبو الحسن النباهى ، وأفتى بوجوب حرق كتبه التى هى موضوع الشبه والاتهام . ويقول لنا القاضى أبو الحسن ، إن هذه الكتب وهى مما يرجع إلى العقائد والأخلاق قد تم إحراقها بالفعل ، فى حضرة غرناطة ، فى منتصف عام ٧٧٣ هـ « بمحضر من الفقهاء والمدرسين من العلماء ، وأماثيل الفقهاء ، لما تضمنته الكتب المذكورة

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٣٤ — ٤٣٦ .

من المقالات التى أوجبت ذلك عندهم ، وحققته لديهم »[١] .

وقد وجه القاضى أبو الحسن إلى ابن الخطيب بالمغرب رسالة شديدة ، نقل إلينا المقرى نصها ، وهى بمثابة دعوى اتهام شخصية وشرعية معا ، يعدد فيها أبو الحسن مثالب ابن الخطيب ، وما يسند إليه من تهم الإلحاد والزندقة . وبالرغم من أن هذه الرسالة تحمل طابع التحامل والضغن الشخصى ، فإنها تلقى ضوءاً كبيراً ، على ما كان يرمى به ابن الخطيب ، خلال توليه الحكم ، وعلى بعض الوقائع التى اتخذت سندا لاتهامه ، بالخروج على أحكام الإسلام ، والحكم بعد ذلك بإدانته ونكبته . ويحسن قبل أن نعرض إلى محتويات هذه الرسالة ، أن نقول إن القاضى أبا الحسن النباهى كان فى البداية ، من أنصار ابن الخطيب وأوليائه ، وان ابن الخطيب هو الذى ندبه ، ليكون قاضياً للجماعة ، واستصدر ظهير تعيينه ، أيام توليه الوزارة للغنى بالله ، فى المرة الثانية ، وذلك فى فاتحة عام ٧٦٤ هـ ، وفيه ينعته برفيع النعوت والصفات ، من علم وفضل ونزاهة ، ثم ندبه بعد ذلك ليكون خطيبا للمسجد الجامع [٢] . ولما وضع ابن الخطيب كتاب الإحاطة ، وترجم فيه من ترجم من أكابر معاصريه ، ظفر منه النباهى بأكرم النعوت والخلال ، إذ وصفه بأنه « قريع بيت مجادة وجلالة ، وبقية تعين وأصالة ، عف النشأة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، بعيد الغور ، مرهف الجوانب ، ناظم ، ناثر ، نثره يشف على نظمه ، ذاكر للكثير .. بعيد المدى فى باب النزاهة ، ماضياً غير هيوب .. الخ »[٣] ثم دارت الأيام دورتها وازور نجم ابن الخطيب ، وتقلص سلطانه ونفوذه ، وعندئذ برز النباهى إلى جانب ابن زمرك فى طليعة خصوم ابن الخطيب .

وتتخذ رسالة النباهى صورة رد ، على كتاب شديد أرسله إليه ابن الخطيب من المغرب ، وقائمة اتهام معا ، وفيها ينعى النباهى على ابن الخطيب ، انصرافه

---

(١) أبو الحسن النباهى فى كتاب « تاريخ قضاة الأندلس المعروف بالمرتبة العليا » المنشور بالقاهرة بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال سنة ١٩٤٨ ص ٢٠٢ .

(٢) أورد لنا المقرى نص الظهيرين الصادرين بتعيين النباهى فى خطتى القضاء والخطابة (نفح الطيب ج ٣ ص ٧١ و ١٧٤) . وكذلك فى أزهار الرياض (ج ٢ ص ٥) .

(٣) وردت هذه الترجمة فى مخطوط الإحاطة بالإسكوريال رقم ١٦٧٣ ديرنبور (لوحة ٣٠٢ وما بعدها) ، ونقلها المقرى فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٨٥ و ٣٨٦) .

إلى الأغراض الدنيوية ، وشغفه بالاقتناء والبناء ، ثم ينعى عليه ما ورد فى كتبه التاريخية من سير الأحياء والأموات ، والطعن فى حقهم ،وهو مما يدخل فى باب « الغيبة المحرمة » ، ومخالفة ذلك للدين والعقل ، وأن ما تضمنته بعض مؤلفاته الأخرى من البدع ، والتلاعب بالشريعة ، يجعلها مستحقة للتخريق والتحريق ، وأنه أى النباهى قد نصحه وحذره من ذلك فلم ينتصح ، وآثر الاستماع لأقوال المحاملين والمداهنين . وينكر النباهى على ابن الخطيب ، ما ينوه به فى كتابه ، من قيامه بصالح الأعمال ، ويقول إن ذلك من قبيل المن المذموم . وإنه أى ابن الخطيب ، لم يشارك فى شئ « إلا بأغراض حاصلة ، فى يدكم ، ولأغراض دنيوية خاصة بكم » .

وأما اعتذار ابن الخطيب وتندمه على فراق الأندلس ، فيرى النباهى أنه ناقض ، وأن ما وقع من فراره ، إنما هو غدر بسلطانه . وأن هذا الخروج من الأوطان ، لم تكن تدعو إليه ضرورة غالبة ، ثم يقول « وقد مددتم إلى التمتع بغيرها أعينكم ، ولو لم يكن بهذه الجزيرة الفريدة من الفضيلة ، إلا ما خصت به من بركة الرباط ، ورحمة الجهاد ، لكفاها فخرا ، على ما يجاورها من سائر البلاد » .

وينعى النباهى بعد ذلك على ابن الخطيب . تدخله فى شئون القضاء ، أيام ولايته إياه ، ويعدد بعض ما ارتكبه ابن الخطيب فى ذلك ، من مخالفات للشرع والدين ، فيقول « فكابدت أيام تلك الولاية النكدة من النكاية ، باستحقاركم للقضايا الشرعية ، وتهاونكم بالأمور الدينية ، ما يعظم الله به الأجر ، وذلك فى جملة مسائل ، منها مسألة ابن الزبير المقتول على الزندقة ، بعد تقضى موجباته ، على كره منكم . ومنها مسألة ابن أبى العيش المثقف فى السجن ، على آرائه المضلة ، التى كان منها دخوله على زوجه . أثر تطليقه إياها بالثلاث ، وزعمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمره مشافهة بالاستمتاع بها ، فحملتم أحد ناسكم ، تناول إخراجه من الثقاف ، من غير مبالاة بأحد . ومنها أن أحد الفتيان المتعلقين بكم ، توجهت عليه المطالبة بدم قتيل . وسيق المدعى عليه للذبح بغير سكين ، فما وسعنى بمقتضى الدين إلا حبسه على ما أحكمته السنة . فأنفتم لذلك وسجنتم الطالب ولىّ الدم ، وسرحتم الفتى المطلوب على الفور . إلى غير ذلك مما

لا يسع الوقت شرحه . ولا يحمل بى ولا بكم ذكره » .

وأما عن تهمة الإلحاد والطعن فى النبى . وهى أخطر ما وجه إلى ابن الخطيب من التهم . فيصوغها النباهى على النحو الآتى فى كلامه لابن الخطيب : « فإنى أخاف عليكم من الإفصاح بالطعن فى الشريعة ورمى علمائها بالمنقصة ، على عادتكم وعادة المستخف ابن هذيل شيخكم[1] منكر علم الجزئيات . القائل بعدم قدرة الرب ، جل اسمه على جميع الممكنات ، وأنتم قد انتقلتم إلى جوار أناس أعلام فلما تجوز عليهم المغالطات ، فتأسركم شهادة العدول . التى لا مدفع لكم فيها ، وتقع الفضيحة ، والدين النصيحة . وكذا أحذركم من الوقوع بما لا ينبغى فى الجناب الرفيع ، جناب سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه نقل عنكم فى هذا الباب أشياء منكرة يكبر فى النفوس التكلم بها أنتم تعلمونها ، وهى التى زرعت فى القلوب ما زرعت من بغضكم ، وإيثار بعدكم ،مع استشعار الشفقة والوجل ، من وجه آخر عليكم . ولولا أنكم سافرتم ، قبل تقلص ظل السلطة عنكم ، لكانت الأمة المسلمة ، امتعاضا لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات ، لطلب الحق منكم . فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم ، من خدام الدول ما صدر عنكم . من العبث بالإبشار والأموال . وهتك الأعراض ، وإفشاء الأسرار . وكشف الأستار . واستعمال المكر والحيل ، والغدر فى غالب الأحوال للشريف والمشروف ، والخادم والمخدوم » .

ثم ينعى النباهى على ابن الخطيب تركه لسلطانه حين كان منفيا بالمغرب ، ثم تهافته عليه حين عاد إلى عرشه ، وما كان منه من الضرب والتفريق ، بين رجال الدولة ، حتى خلا له الجو وتمكن الأمر والنهى . ثم يقول : « فهمزتم ولمزتم ، وجمعتم من المال ما جمعتم . ثم وريتم بتفقد ثغر الجزيرة الخضراء مكرا منكم . فلما بلغتم أرض الجبل . انحرفتم عن الجادة . وهربتم بأثقالكم ، الهروب الذى أنكره عليكم من بلغه حديثكم ، أو يبلغه إلى آخر الدهر ، فى العدوتين ، من مؤمن وكافر ، وبر وفاجر » ويختتم النباهى رسالته بالتنديد ببنى الخطيب ،

(١) هو أبوزكريا يحيى بن هذيل الفيلسوف الطبيب والعلامة الغرناطى الكبير ، وقد ذكرناه ضمن شيوخ ابن الخطيب فيما تقدم ، توفى سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٣ م) . وترجمه ابن الخطيب فى الاحاطة ، ونقل المقرى ترجمته فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٥٥٨) .

ونشأتهم المتواضعة . وحداثتهم فى المال والنعمة ، وما نالوه من ثراء مغتصب ، ليقول لابن الخطيب إنه لاحق له فى التفاخر ، وهذا أصله ، وأن الاعتداد بملاذ الدنيا ، من ثراء وطعام ولباس ، إنما هو خسة وصغار ، وأن الأولى به أن يكون زاده التقوى للدار الباقية[1] .

وقد رأينا أن نلخص رسالة النباهى وأن نقتبس منها على النحو المتقدم ، إذ هى حسبما قدمنا وثيقة الاتهام ، التى اتخذت فيما بعد ، سنداً لإدانة ابن الخطيب ونكبته . وتاريخ هذه الرسالة هو أواخر جمادى الأولى من عام ٧٧٣ هـ . وقد تلقاها ابن الخطيب عقب وصوله إلى بلاط السلطان عبد العزيز بتلمسان بقليل . وقد رد فيما بعد على سباب أبى الحسن واتهاماته . بما كتبه عنه فى ترجمته فى كتاب « الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » وحمل عليه فيها بشدة . ونعته بأقسى النعوت[2] ، ثم استأنف حملته عليه فى كتابه «أعمال الأعلام» الذى ألفه للوزير أبى بكر بن غازى القائم بالدولة ، بعد وفاة السلطان عبد العزيز ، وهو آخر كتاب ألفه ابن الخطيب ، ونعته فيه « بالجعسوس » أى القزم الدميم ، إذ كان أبو الحسن دميما قصير القامة ، وهذا عدا رسالة خاصة وضعها قبل ذلك فى هجاء أبى الحسن والحملة عليه وسماها « خلع الرسن فى التعريف بأحوال أبى الحسن »[3] .

ومن الغريب المؤلم معاً ، أن ينحدر القاضى النباهى ، فى خصومة ابن الخطيب والحملة عليه ، إلى هذا الحد المثير ، وهو الذى كان من قبل يرتفع فى تقديره إلى أسمى المراتب ، كما تدل على ذلك رسالة وجهها إليه أيام إقامته منفياً بالمغرب وهو بسلا ، وفيها ينعته « بالآية البالغة وقد طمست الأعلام ، والعزة الواضحة ، وقد تنكرت الأيام ، والبقية الصالحة . وقد ذهب الكرام » . ثم يصفه بأنه بالنسبة إليه « هو الركن الذى مازلت ، أميل على جوانبه ، ولا تزيد الأيام إلا بصيرة

---

(١) أورد المقرى رسالة القاضى أبى الحسن النباهى برمتها فى نفح الطيب ج ٣ ص ١٦٦–١٧١ وكذا أوردها فى أزهار الرياض ح ١ ص ٢١٢ – ٢٢٤ .

(٢) وردت ترجمة القاضى النباهى فى كتاب الكتيبة الكامنة » المنشور ببيروت (١٩٦٣) رقم ٥٠ ص ١٤٦

(٣) أعمال الأعلام ص ٧٨ – ٨٠ ، وراجع نفح الطيب ح ٣ ص ٧٥ ، وكذلك مقدمة كتاب تاريخ قضاه الأندلس للنباهى وما بعدها (ص ط) والرسن هو ما كان من الأزمة على الأنف .

فى الإقرار بفضله والإعتداد به » . وذلك أن النباهى كان أيضاً قد فقد منصبه ، من جراء الحوادث التى أودت بسلطان ابن الخطيب ، وعبر البحر منفياً مثله ، وكان يعتمد على الوزير المنفى ، متى انقشعت المحنة ، فى الأخذ بيده ، وإعادته إلى سابق وظائفه[1] .

وعلى أى حال فقد مضى خصوم ابن الخطيب فى غرناطة فى سعيهم لإهلاكه ، ولم يقعدهم بعدُه عن الأندلس، فبعد أن قضى بإحراق كتبه فى ساحة غرناطة، سجل القاضى أبو الحسن عليه تهمة الإلحاد والزندقة ، وصادق السلطان على حكمه ، وأرسل القاضى رسله بهذا الحكم ، إلى السلطان عبد العزيز يطالب بتنفيذ حكم الشرع ، فى الوزير الملحد ، وهو الإعدام ، فأنف سلطان المغرب لهذا المسعى ، وعنف رسل الأندلس ، وقال لهم « هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه » وردهم خائبين ، وزاد فى إكرام ابن الخطيب ورعايته .

ولما توفى السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل فى شهر ربيع الآخر سنة ٧٧٤ هـ (أواخر سنة ١٣٧٢ م) خلفه على العرش ولده الطفل السعيد . وغادر بلاط المغرب ، تلمسان الى فاس . وسار ابن الخطيب صحبة الوزير أبى بكر بن غازى القائم بأمر الدولة ، ونزل بفاس فى كنف الوزير ورعايته ، متمتعاً بما كان يتمتع به فى ظل السلطان الراحل ، من المكانة والنفوذ وجزيل الصلات . وطاب عيشه بفاس ، واقتنى كعادته الدور والضياع . واستمر حيناً على مكانته فى الدولة . وحاول ابن الأحمر سلطان الأندلس أن يحمل الوزير ابن غازى على تشريد ابن الخطيب ونفيه ، لما كان يعتقده من أنه كان يحرض السلطان عبدالعزيز ، على غزو الأندلس ، فأبى ابن غازى ، وساءت العلائق بين بلاط فاس وبلاط غرناطة بسرعة ، ودفع ابن الأحمر ، بعض الخوارج من بنى مرين ، إلى محاربة حكومة فاس . وأمدهم بعونه . وتمخضت الحوادث فى المغرب ، عن انقلاب جديد ، ونادى الثوار بولاية الأمير أحمد ابن السلطان أبى سالم . وحاول الوزير ابن غازى مقاومة الثوار فلم يفلح . واقتحم الثوار مدينة فاس ، فأذعن الوزير

---

(١) وردت رسالة النباهى إلى ابن الخطيب فى نفح الطيب ج ٣ ص ٣٨٤ و ٣٨٥ .

لمطالبهم ، وقام بخلع الملك الطفل السعيد ، والنزول عن البلد الجديد (الضاحية الملوكية) ، ودخل السلطان أحمد البلد الجديد ، وجلس على العرش ، وذلك فى أوائل المحرم سنة ٧٧٦ هـ[1] .

وكان ابن الخطيب قد لجأ أثناء ذلك إلى البلد الجديد ، وكان التفاهم قد تم بين ابن الأحمر (الغنى بالله) وبين زعماء الفتنة ، بشأن ابن الخطيب ومصيره . فلما وقع الإنقلاب المنشود ، بادر السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه لابن الأحمر ، ولم يدخر وزيره سليمان بن داود ، وقد كان من ألد أعداء ابن الخطيب ، جهدا فى تشديد النكير عليه وتدبير هلاكه . وكان ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام من وزيره السابق ، لما أكده له خصومه من غدره ودسائسه ، وتآمره مع السلطان عبد العزيز المرينى على غزو الأندلس ، فبعث وزيره أبا عبد الله بن زمرك ، تلميذ ابن الخطيب ، وخلفه فى الوزارة ، ليعمل على تحقيق هذه الرغبة ، بالتعاون مع حكومة فاس . ووجهت إلى ابن الخطيب التهم القديمة ، التى وجهت إليه فى غرناطة ، وصاغها القاضى أبو الحسن فى قرار اتهامه ، ورأى السلطان أحمد أن يعقد مجلساً خاصاً ، من رجال الدولة وأهل الشورى ، واستدعى ابن الخطيب إليه لمناقشته ، ومواجهته بالتهم المنسوبة إليه ، وأخصها تهمة الإلحاد والزندقة ، استناداً إلى ما ورد فى بعض كتاباته ، ولاسيما بعض آراء وعبارات وردت فى كتابه « روضة التعريف بالحب الشريف »[2] . وعُزِّر ابن الخطيب وعذب أمام الملأ ، وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بقتله ، ودس عليه الوزير سليمان ، بعض الأوغاد من حاشيته ، فطرقوا سجنه ليلا ومعهم بعض الخدم الأندلسيين . الذين جاءوا مع سفراء ابن الأحمر ، وقتلوه خنقاً فى سجنه ، وأخرجوا جثته فى الغد ، ودفنت بالمقبرة الواقعة تجاه باب المحروق ، أحد أبواب فاس القديمة . ثم أخرجت جثته فى اليوم التالى ، وطرحت فوق القبر ، وأضرمت حولها النار ، فاحترق شعر الرأس ،

---

(١) البلد الجديد هى الضاحية الملوكية ، التى أنشأها السلطان أبو يوسف المرينى بجوار فاس فى سنة ٦٧٤ هـ لتكون داراً للملك . واستمرت البلد الجديد طوال أيام بنى مرين قاعدة الملك ومقره ، ومازالت بقاياها قائمة حتى اليوم ، ومنها القصر الملكى المرينى .

(٢) سوف نأتى على ذكر هذا الكتاب عند الكلام على تراث ابن الخطيب .

واسودت البشرة . ثم أعيدت الجثة إلى القبر قبل أن تحترق . وتركت هنالك لتثوى الثواء الأخير . ووقعت هذه المأساة الأليمة ، فى ربيع الأول أو ربيع الثانى سنة ٧٧٦ هـ (أغسطس أو سبتمبر ١٣٧٤ م)(١) .

وهكذا ذهب الكاتب والشاعر الكبير ، والمفكر العبقرى ، ضحية الجهالة والتعصب ، والأحقاد السياسية الوضيعة . ويجمل ابن خلدون حوادث هذه المأساة فى قوله فى مقدمته ، يشير إلى صديقه ابن الخطيب ، بأنه هو « الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه » ، ويعلق عليها فى تاريخه بقوله « وكان فى ذلك انتهاء محنته ، وعجب الناس من هذه السفاهة التى جاء بها سليمان ، واعتدوها من هناته ،وعظم النكير منها عليه ، وعلىقومه وأهل دولته »، ثم ينقل إلينا أبياتاً من الشعر نظمها ابن الخطيب فى سجنه ، وكان ينشدها توقعاً لمصيره المحزن :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت　　وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة　　كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاما　　وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العـــلا　　غربن فناحت عليها البيوت
فكم خذلت ذا الحسام الظُّبا　　وذو البخت كم جدّلته البخوت
وكم سيق للقبر فى خرقـــة　　فتى ملئت من كساه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب　　وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفرح منكم لـــــه　　فقل يفرح اليوم من لا يموت

هذا ، وما زال قبر ابن الخطيب ، قائماً فى مكانه خارج فاس ، على مقربة من باب المحروق . ويقول مؤرخه المقرى إنه زار قبره مراراً ، أثناء إقامته ، بفاس ، فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى (سنة ١٠١١ — ١٠٢٧ هـ). وقد زرناه نحن كذلك مراراً خلال زياراتنا المتوالية للمغرب . وقد أقامت عليه الحكومة المغربية ضريحاً صغيراً ، ذا واجهة فنية جميلة ، وكتب أعلاه بالخط المغربى (هذا ضريح العلامة لسان الدين ابن الخطيب) .

---

(١) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ و٣٤٢ .

— ٥ —

كان ابن الخطيب حسبما قلنا فى بداية هذا البحث . عقرية متعددة النواحى . والآن فلنحاول أن نعرض إلى نواحى هذه العبقرية ، بشىء من التفصيل . وأول مايبدو لنا من هذه النواحى ، هو ابن الخطيب الكاتب والشاعر ، وهى صفة تغلب على سائر خصائصه الأخرى .

كان ابن الخطيب من أعظم كتاب عصره وشعرائه . بل هو من أعظم كتاب الأندلس وشعرائها على الإطلاق . وقد بلغ فى النظم ، كما بلغ فى النثر ، مرتبة التفوق التى لايدانيه فيها سوى القليل .

وأعظم ما يتميز به شعر ابن الخطيب ونثره ، هو وفرة التنوع والإفتنان ، فى الموضوعات والمعانى . ويرجع ذلك إلى توقد قريحته ، وسعة أفقه ، وإلى حياته المتنوعة ، الفياضة بمختلف الأحداث والمحن .

وقد برز ابن الخطيب بالأخص فى ضرب من النثر . هو النثر الوزارى والسياسى . وقد ترك لنا ابن الخطيب فى هذا الميدان تراثاً ضخماً ، من المراسيم السلطانية التى صدرت أيام توليه الوزارة ، عن سلاطين غرناطة . ومن الرسائل السياسية والدبلوماسية ، التى كان يكتبها عن لسان سلطانه ، إلى ملوك إسبانيا النصرانية أو سلاطين المغرب ، أو سلاطين مصر . وفيها يتحدث عن علائق المودة والتحالف ، أو يصف بعض الحوادث التاريخية . أو يطلق صيحة الجهاد للدفاع عن الأندلس ، أو يلتمس لها الإنجاد والعون من ملوك العدوة ، إلى غير ذلك من الشئون والحوادث ، التى ملأت حياته السياسية . سواء فى المغرب أو الأندلس .

وانتهى إلينا من هذه الرسائل السلطانية والسياسية ، العدد الجم . وجمع ابن الخطيب منها فى كتابه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » طائفة كبيرة ، يتعلق بعضها بوصف الغزوات والوقائع الحربية ، التى جرت فى جيان وأبدة وأحواز إشبيليه . وحول جبل طارق ، والجزيرة الخضراء ، وغيرها من الحوادث المعاصرة . ومنها رسائل عديدة ، وجهها ابن الخطيب إلى ملوك المغرب عن حوادث الأندلس ، وفى سبيل توثيق التحالف ، وطلب الإنجاد والعون . ونقل المقرى إلينا فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض ، عدداً



ضريح ابن الخطيب خارج مدينة فاس تجاه باب المحروق

كبيراً من المراسيم والرسائل السياسية ، التى كتبها ابن الخطيب ، فى مختلف المناسبات ، كما نقل إلينا الكاتب المصرى أبو العباس القلقشندى ، فى موسوعته (صبح الأعشى) عدداً من الرسائل التى وجهها سلاطين غرناطة ، إلى سلاطين مصر المعاصرين ، مدبجة بقلم ابن الخطيب .

وترك لنا ابن الخطيب عدداً كبيراً ، من الرسائل الأدبية ، ورسائل المودة والصداقة ، التى كان يتبادلها مع شيوخه وأقرانه ، وأصدقائه ، وأكابر معاصريه ، وقد أورد لنا فى الإحاطة كثيراً منها . ونقل إلينا ابن خلدون فى « التعريف » بعضها .

وتمتاز رسائل ابن الخطيب بالأسلوب الرصين المشرق ، واللفظ الجزل المختار . وبالرغم من أن معظمها يجرى على قاعدة السجع ، فإنها على الأغلب خالية من روح التكلف ، الذى يجنى أحياناً على الأسلوب والمعنى . ولابن الخطيب براعة خاصة فى تخير الألفاظ ، وإبراز المعانى ، لايجاريه فيها الكثيرون من أكابر الكتاب .

ولابن الخطيب مقدرة فائقة على تخير أساليب المدح والذم ، ومدحه غالباً من النوع الرفيع الذى لايشوبه التنزل الوضيع ، بل تطبعه على الأغلب نزعة من الإعتزاز والكرامة . ويبدو ذلك فى كثير من تراجم الإحاطة ، وفى كثير من رسائله السلطانية . ونستطيع أن نقدم لمدحه الأدبى مثلا بترجمة صديقه وأستاذه أحمد بن صفوان المالقى فى الإحاطة ، وما كتبه عنه فى « الدرر الفاخرة » ، وهو الديوان الذى جمعه من شعره ، وما ورد فى ترجمته لشيخه أبى البركات بن الحاج البلفيقى ، وفى ترجمة صديقه ابن خاتمة ، شاعر المرية الكبير . وأن نقدم مثلا لمدحه السياسى ، بما كتبه عن سلاطين غرناطة المعاصرين ، وما ورد فى ترجمة صديقه وزميله ، الوزير الكبير الحاجب رضوان النصرى . فى هذه التراجم ، عبارات مختارة ، من أساليب المدح الرفيع ، الذى يفيض اعتزازاً وكرامة ، واتزاناً فى الوصف والتصوير .

بيد أن ابن الخطيب ، يبدى فى نفس الوقت ، فى بعض رسائله المرفوعة إلى حماته ، سواء من سلاطين غرناطة أو المغرب ، ألوانا من الملق كانت تمليها عليه ، على الأغلب ، ظروف حياته ، ولا سيما حياة المنفى فى المغرب ، حيث كان

يعيش تحت كنف سلاطينه ، مشمولا بحمايتهم ورعايتهم .

وكما أن ابن الخطيب ، يبدى اعتزازة ، فى كثير من المواطن ، بمنزلته السياسية ، فهو كذلك يبالغ فى الإعتزاز بكرامته ومنزلته الأدبية ، ويذهب أحياناً فى ذلك إلى حدود العُجْب والكبر . وهو لا يحجم عن أن يذكرنا أحياناً ، بأنه من أعظم شخصيات عصره فى دولة الأدب . وإليك ما يقوله مثلا فى ديباجة كتابه المسمى « بالسحر والشعر » :

« وبعد فانه لما قيض الله منى للآداب مجلى سمائها ، وناشر رممها بعد مماتها ، وصاقل صفحاتها ، وقد محا محاسنها الصدا ، على بعد المدا ، وموضح طريقتها المثلى ، وقد أضحت طرائق قِددا ، والغاشى إلى ضوء نارها ، لعلى أجد على ضوء النار هدى » .

وأما فى الذم ، فان ابن الخطيب ، يلجأ أحياناً إلى الأساليب المضطرمة ، والعبارات القاذفة العنيفة ، ويطلق العنان لضغنه وحقده . ولنا فى ذلك أمثلة كثيرة فى « الإحاطة » ، وأبرزها ماكتبه (نقلا عن كتابه نفاضة الجراب) فى ترجمة السلطان محمد بن اسماعيل بن محمد بن فرج بن نصر المكنى بأبى عبد الله ، وهو السلطان الذى انتزع العرش من اسماعيل بن يوسف ، المتوثب على أخيه ، السلطان محمد الغنى بالله ، فهو يقول لنا مثلا فى وصف السلطان المذكور ما يأتى :

« كان شيطاناً ، ذميم الخلق ، حرفوشاً على عرف المشارقة ، متراميا للخسائس ، مألفاً للذعرة ، والأجلاف والسوار ، وأولى الريب ، خبيثاً كثير النكر ، منغمساً فى العهن ، كلفاً بالأحداث ، متقلباً عليهم فى الطرق ، خليع الرسن ، ساقط الحشمة ، كثير التبذل ، قواد عصبة كلاب ..إلخ » .

وفى وصف وزيره : « استوزر الوزير المشئوم ، ممده فى الغىّ ، الوغد الجهول المرتاش من السرقة ، الحقود على عباد الله لغير علة ، على سوء العاقبة ، المخالف فى الأدب سنن الشريعة ، البعيد عن الخير بالعادة والطبيعة ، دودة القز ، وبغل طاحونة الغدر ، محمد بن ابراهيم بن أبى الفتح الفهرى ، فانطلقت يده على الإبشار ، ولسانه على الأعراض ، وعينه على النظر الشزر ، وصدره على التأوه والرين ، يلقى الرجل ، كأنه قاتل أبيه ، محدقاً إلى كميه ، يحترش بهما خبيئة ، أو يظن بهما رشوة .. إلخ » .

ونستطيع أيضاً أن نمثل لأساليب ابن الخطيب فى الذم ، بما كتبه فى ترجمتى خصيميه أبى الحسن النباهى وأبى عبد الله بن زمرك ، فى « الكتيبة الكامنة » ، وبما كتبه عن أبى الحسن فى رسالة « خلع الرسن » التى سبقت الإشارة إليها .

ومما يتميز به أسلوب ابن الخطيب ، بنوع خاص ، روحه النقدية العالية ، فهو يبدى فى تناول الشخصيات ، وفى وصفها وتحليلها ، مقدرة فائقة ، لا يكاد يجاريه فيها أحد من كتاب التراجم المسلمين ، اللهم إلا شمس الدين السخاوى المصرى ، صاحب « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » فإنه قرينه ومنافسه الحق ، فى تلك الروح النقدية القوية . وابن الخطيب إلى جانب ذلك ، غزير المادة ، فى التنويع والابتكار ، يبدى براعة مدهشة ، فى التنقل فى نواحى الوصف من الأخلاق الشخصية ، إلى المواهب الأدبية والفنية ، إلى الحوادث الجارية ، وهو فى ذلك كله فنان موهوب ، يقدم إلينا تلك الجمهرة الكبيرة ، من العلماء والكتاب والشعراء والوزراء والأمراء ، الذين يضمهم كتاب «الإحاطة» فى صور متباينة ساحرة ، تنم عن فائق مقدرته الأدبية والفنية .

وأما فى الشعر فإن ابن الخطيب يرتفع إلى أسمى المراتب ، ويتميز شعره بالتنوع الكثير . فقد نظم فى شئون السياسة ، وفى المديح ، والغزل ، والزهد ، والتصوف ، والمدائح النبوية . وهو يبدى فى قصائده براعة فى ابتكار المعانى وفى صوغ الخيال ، وفى اختيار اللفظ المشرق . وكذلك فقد برع ابن الخطيب فى الزجل ولاسيما على طريقة الشاعر الأندلسى المتصوف أبى الحسن الششترى ، وقد أورد لنا نماذج من زجله فى السفر الثالث من كتاب « نفاضة الجراب »(١)

وكان ابن الخطيب بالأخص من أئمة الموشحات الأندلسية . ومن أشهر ما نظم منها موشحته الذائعة الصيت التى مطلعها :

جادك الغيث إذا الغيث همى   يازمان الوصـــل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلـــــما   فى الكرى أو خلسة المختلس(٢)

---

(١) وردت فى مخطوط خزانة الرباط العامة لوحات ٢٠٤ و٢٠٧ و٢١٠

(٢) نقل المقرى هذه الموشحة بأكلها فى نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدها . وكذلك فى أزهار الرياض ج ٢ ص ٢١٣ . وأورد لنا المقرى فى كتابيه المذكورين طائفة كبيرة أخرى من موشحات ابن الخطيب .

ولا محل لأن نورد هنا شيئاً من شعر ابن الخطيب أو نثره ، فسوف يرد الكثير منهما فى هذا الكتاب « الإحاطة » . ومن جهة أخرى فقد أفرد المقرى فى كتابه « نفح الطيب » مجلدين كبيرين ، هما الثالث والرابع ، لابن الخطيب وأخباره ، وشعره ونثره ، ونقل إلينا فيهما من مختلف كتبه ورسائله ، فصولا وشذوراً لا تحصى ، كما نقل إلينا عشرات من قصائده ، وهذا عدا ما نقله من نثره ونظمه فى كتابه « أزهار الرياض » .

ويصف لنا الأمير أبوالوليد اسماعيل بن الأحمر معاصر ابن الخطيب ، خلاله ومواهبه، فى كتابه « نثير فرائد الجمان فيمن يضمنى وإياهم الزمان » فى تلك العبارات الرنانة: « هو شاعر الدنيا، وعلم المفرد والثنيا ، وكاتب الأرض، إلى يوم العرض، لا يدافع مدحه فى الكتب، ولا يجنح فيه إلى العتب، آخر من تقدم فى الماضى، وسين مقولة ليس بالكهام إذ هو الماضى ، وإلا فانظر كلام الكتّاب الأول من العصبة ، كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصبة . للبراعة ، بالبراعة ، وبه أسكت صائلهم ، وما حمدت بكرهم وأصائلهم ، المشربة بالحلاوة ، الممكنة من مفاصل الطلاوة . وهو نفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالإطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية .. ». ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته فى الهجاء ، وإلى كونه قد هجا ابن عمه سلطان الأندلس بما لا يليق ويجمل[١].

ويصف ابن خلدون فى مقدمته ابن الخطيب بأنه « شاعر الأندلس والمغرب فى عصره » وأنه « كان فى اللسان ملكة لا تدرك » . ويقول فى وصف نثره وشعره :

«وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه. وبلغ فى الشعر والترسل، حيث لا يجارى فيهما، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر ، وملأ الدولة بمدائحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه ». ثم يقول عن رسائله السلطانية : « وصدرت عنه غرائب من الترسل فى مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة »[٢]. ثم يجمل وصفه فى « التعريف » بقوله : « وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله فى النظم والنثر ، والمعارف والأدب ، لا يساجل مداه ، ولا يهتدى فيها بمثل هداه » [٣]

---

(١) أزهار الرياض ج ١ ص ١٩١ .

(٢) ابن خلدون فى كتاب العبر — المقدمة ص ٥٢٢ و٤٩٦ و ج ٧ ص ٣٣٢

(٣) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ص ١٥٥ .

ولم تمنع المحنة التى نزلت بابن الخطيب وتراثه ، من جراء تدبير خصومه ، من أن يعود إليه اعتباره وتقديره الحق ، بعد انقضاء عصر السلطان الغنى بالله ، الذى توفى فى سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) . وفيما ورد فى نص صيغة الوقف التى كتبت على نسخة كتاب « الإحاطة » التى حبست على المدرسة اليوسفية ، أو جامعة غرناطة بقلم قاضى الجماعة ، الرئيس أبى يحيى بن عاصم . والتى تحمل تاريخ وقفها وهوسنة ٨٣٩ هـ ، من وصف كتاب الإحاطة ، والتنويه بقيمته وأهميته ، ووصف مؤلفه ، والارتفاع بقدره وعبقريته ، ما يدل على أن ذكرى ابن الخطيب ، عادت بعد نصف قرن من مصرعه ، تحتل مكانتها الحقة بين عظماء وطنه ، وعادت كتبه التى طوردت وأحرقت أيام الفتنة والتحامل ، تحتل مكانتها بين نفائس التراث الأندلسى .

* * *

ويشترك النقد الغربى الحديث فى التنويه بمنزلة ابن الخطيب العلمية والأدبية . ويبدى المستشرقون الإسبان بالأخص إجلالهم لمواهبه وخلاله ، وإعجابهم بتفكيره وتراثه ، ويرون فيما خلفه من تاريخ غرناطة ، وجغرافيتها ، وأوصاف حياتها الاجتماعية ، أنفس ما انتهى إلينا فى ذلك من تراث الكتاب المسلمين .

قال المستشرق مورينو نييتو Moreno Nieto ، فى وصف ابن الخطيب وتراثه ما يأتى : « لا يوجد فى تاريخ غرناطة الأدبى ، ما يمكن أن يقارن بهذا الكاتب الخصب ، فقد كانت معارفه العلمية عظيمة ، وقلما حظى أسلوب كاتب مثله . بما حظى به أساويه ، من البلاغة والرشاقة ، حسبما يقول ابن خلدون ، وقد برع بالأخص فى علم السياسة وفى التاريخ ، وقد شهد حوادث سياسية ، لعب فيها دوراً كبيراً ، وكان مدى أعوام طويلة ، أميناً ومستشاراً لملك قابل خدماته بجحود مطبق .

« وإن تاريخ غرناطة حتى عصره ، ليعرف بالأخص من مؤلفاته ، بطريقة أتم وأكمل ، من أى عصر آخر من تاريخ الأندلس .

« ويعتبر تاريخه للدولة النصرية ، وكتابه « الإحاطة » دائماً بين أعجب آثار الأدب الإسلامى .

« ومنذ وفاة ابن الخطيب يخبو وينهار صرح العلوم فى الأندلس »[١] .

---

(١) نقل إلينا هذه الفقرات المستشرق Pons Boigues فى معجمه Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores y Geograficos arabigo-espanoles (Madrid 1898) p. 347.

ويصف العلامة المستشرق سيمونيت Simonet ، ابن الخطيب « بأمير الأدب الأندلسي الغرناطي »(١). ويقول لنا إن شهرته وصلت إلى بلاط قشتالة ، وإنه يعرف في تواريخها بابن خطين Benhatin ، ويوصف بأنه « عالم كبير وفيلسوف ومستشار للملك غرناطة » .

ثم يقول « إن ابن الخطيب قد ترك لنا آثاراً كثيرة ، في النثر والشعر والتاريخ والجغرافيا والرحلات ، والبلاغة والشريعة ، والعلوم ، والأخلاق . والدين ، والنبات والطب والبيطرة ،والموسيقى ، والفن الحربي ، والسياسة ، وكلها غنية في الابتكار والتعمق والرشاقة »(٢).

ويخصص العلامة المستشرق كونثالث بالنسيا G. Palencia لابن الخطيب في كتابه « تاريخ الأدب العربي الإسباني » ترجمة حسنة يبدؤها بقوله :«إن تاريخ القرن الرابع عشر يبلغ الذروة باسمين عظيمين ، هما ابن الخطيب المؤرخ الأنيق، والسياسي والأديب ، وابن خلدون منشئ فلسفة التاريخ . ثم يقول : « إن سائر الكتاب (في هذا القرن) تكسف ضوءهم ، شخصية لسان الدين بن الخطيب العظيمة ، وابن لوشة . وقد تعلم في غرناطة ، وأبدى شغفاً كبيراً بالعلوم الطبية والفلسفية ، التي تلقاها عن الطبيب الشهير يحيى بن هذيل : وقد برع في الشعر وتربع فوق دست الآداب العربية »(٣) .

وأما من ناحية التصنيف الأدبي ، فإن صفة المؤرخ هي الغالبة في كتابات ابن الخطيب ، فقد وضع أهم كتبه في التاريخ ، والتاريخ المعاصر بنوع خاص ، ومؤلفاته التاريخية من أقيم المراجع في تاريخ الأندلس والمغرب ، في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) . وكتاب الإحاطة وهو أضخم وأهم مؤلفاته ، هو معقد مجهوده التاريخي ، وقد كتب إلى جانبه عدة مؤلفات تاريخية أخرى هي « اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية » و « رقم الحلل في نظم الدول » (وهو مكتوب بالنظم)، و « أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام » و«الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة » و « نفاضة الجراب في علالة الإغتراب »

(1) Pons Boigues . ıbid, p. 347.

(2) F. J. Simonet : Descripcion del Reino de Granada sacada de los Autores arabigos (Granada 1872) p. vi.

(3) A. G. Palencia : Historia de la Literatura Arabigo-Espanola, No. 81, p. 179-182

و«التاريخ المحلى فى مساجلة القدح المعلى» و«عائد الصلة ».ونستطيع أيضاً أن نعتبر كتابه « ريحانة الكتاب » وهو من أهم مؤلفاته،مؤلفاً تاريخياً ، لما يحتويه من رسائل تاريخية ، ذات أهمية خاصة .

ومعظم هذه المؤلفات يتعلق بتاريخ العصر الذى عاش فيه ابن الخطيب،وسير الملوك ، وأكابر الوزراء والعلماء والكتاب والشعراء الذين عاصرهم ، أو يقتربون من العصر الذى عاش فيه ، وإن كان منها مثل الإحاطة ، ورقم الحلل ، وأعمال الأعلام ، ما يضم شيئاً من تواريخ العصور السابقة .

وقد كان ابن الخطيب رجل سياسة من الطراز الأول ، وقد استطاع أن يوجه بعزمه وهمته ، سياسة الدولة النصرية ، أعواماً طويلة ، سواء إزاء دول اسبانيا النصرانية ، أو دول المغرب . وتبدو أصالته السياسية ، فى كثير من رسائله ونبوءاته . ولعل أهم ما يؤثر عنه فى ذلك نظراته الصائبة إلى مصير الأندلس ، فقد كان هذا المؤرخ ، الثاقب الذهن ، الذى يقرأ حجب المستقبل ، من عبر الماضى ، والسياسى البعيد النظر ، يرى فى حوادث الأندلس ، شبح المستقبل الرهيب واضحاً ، ويستشف بنافذ بصيرته ، ما وراء الحجب ، من نهاية محتومة لهذا الوطن ، الذى مزقته الأهواء ، وأضنته الفتن . وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه ، وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، أن يبادروا إلى غوثه ونصرته ، وإلى الجهاد فى سبيل الدين والوطن . وله فى ذلك رسائل عديدة مؤثرة ، يوجهها إلى قومه ، ويلفت نظرهم ، إلى الخطر الداهم ، الذى لامحيص من وقوعه ، إذا استمر تنابذهم ،وتواكلهم ، ومنها ما وجه إلى ملوك العدوة ، من بنى مرين ، يستنهض هممهم لنصرة الوطن الأندلسى وإنجاده ، قبل أن يفوت الوقت ، وهى رسائل تمتاز بروعة أسلوبها[1] .

وأبلغ من ذلك كله فى الدلالة ، على شعور ابن الخطيب ، بخطر الفناء الذى ينتظر الأندلس ، ما وجهه فى وصيته إلى أولاده الثلاثة ، عبد الله ومحمد وعلى ، من النصح بعدم الإسراف فى اقتناء العقارات بالأندلس ، إذ يقول لهم « ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن ، القلق المهاد، الذى لايصلح لغير الجهاد،فلا يستهلكه

---

(١) وردت عدة من هذه الرسائل فى الجزء الثانى من الإحاطة ، ونقل إلينا المقرى كثيراً منها . راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧١ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٤ و٦٦ .

أجمع فى العقار ، فيصبح عرضه للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه إن يتغلب العدو على بلده ، فى الإفتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الإنتقال ، أمام النوب الثقال ، وإن كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال فى الطلب أولى »[1]

ولابن الخطيب أيضا فصول فى السياسة الملكية ، مما تضمنته رسالة « كتاب الوزارة ومقامة السياسة » يشرح فيها واجب السلطان ، وخلال الوزير الصالح ، وأحوال الجند ، وما يجب لهم من توفير الجراية ، وتعويدهم على حسن الانقياد ، والعمال ووجوب حسن اختيارهم ، بتوفر الكفاية والأمانة ، وفى السياسة المنزلية أو الخاصية ، من السهر على تربية الأولاد ، وأحوال الخدم ، ووجوب أخذهم بحسن الانقياد ، والحُرم وكيف يعاملن . ويورد ابن الخطيب هذه الفصول فى صورة مقامة بطلها الخليفة الرشيد ، وقد أرق ذات ليلة ، فأتى له الندماء بشيخ حكيم ، عابر سبيل ، فأخذ يتلو على الرشيد ، آراءه فى موضوعات السياسة الملكية والخاصية ، وقد كتبت هذه الفصول بأسلوب مسجع ، ولكن جزل رصين[2] .

— ٦ —

ترك لنا ابن الخطيب ، تراثاً حافلا منوعاً ، ما بين تاريخ ، وأدب ، وسياسة وتصوف ، وطب ، وشعر ، ونثر ، وقد بلغت مؤلفاته زهاء ستين مؤلفا .

وقد انتهى إلينا من هذا التراث أكثره ، ولاسيما المجموعة التاريخية والأدبية ، التى هى فى الواقع لب تراث ابن الخطيب ، والتى تلقى أعظم ضوء على تاريخ الأندلس والمغرب ، فى أواسط القرن الثامن الهجرى

والظاهر أن مؤلفات ابن الخطيب ، التى لم تصل إلينا ، قد هلك معظمها فى محنة إحراق كتبه التى وقعت فى غرناطة فى سنة ٧٧٣ هـ ، وهى من كتب الطب والتصوف والموسيقى ، وأن معظم كتبه التى نجت من تلك المحنة ، قد وصل إلينا عن طريق المغرب . والواقع أن ابن الخطيب قد وضع كثيراً من كتبه أثناء إقامته منفياً بالمغرب ، خلال فترتين ، أولاهما مابين سنتى ٧٦١ وأواسط سنة ٧٦٣ هـ ، والثانية منذ أوائل سنة ٧٧٣ حتى مصرعه فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ .

---

(١) أورد لنا المقرى وصية ابن الخطيب كاملة فى نفح الطيب ج ٤ ص ٧١٨ وما بعدها ، وفى أزهار الرياض ج ١ ص ٢٣٠ وما بعدها .

(٢) تراجع هذه الرسالة فى نفح الطيب ج ٤ ص ٥٥٨ — ٥٦٥ .

وقد ذكر لنا ابن الخطيب ثبت مؤلفاته خلال ترجمته لنفسه ، فى آخر كتاب الإحاطة (مخطوطة الإسكوريال الكبيرة لوحة ٤٣٣ و٤٣٤) ، ولكن هذا الثبت لا يتضمن كل كتبه ، لأنه انتهى من كتابة الإحاطة منقحة ، حوالى سنة ٧٧٣ هـ ، وكتب مزيداً من الكتب والرسائل بعد هذا التاريخ ، ونقل إلينا المقرى ثبت كتب ابن الخطيب ، فى مؤلفيه نفح الطيب وأزهار الرياض(١) .

المجموعة التاريخية

١ — كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » وقد تحدثنا فيما تقدم ، عن مادته وتاريخ كتابته ، واستعرضنا ما يوجد من مخطوطاته فى مختلف المكتبات.

٢ — « التاريخ المحلى فى مساجلة القدح المعلى » ، وهو يحتوى على مختصر لتاريخ مملكة غرناطة ، منذ إنشائها على أيدى بنى نصر ، وتراجم أعيانها فى القرن الثامن الهجرى . ويترجم فيه ابن الخطيب لنفسه ولوالده ، ويوجد منه جزء بالمخطوط رقم ٥٥٤ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال ، وهو المتضمن لكتاب « معيار الإختيار » ، من تأليف ابن الخطيب أيضاً . ويشغل فى المخطوط من لوحة ٧١ إلى نهايته فى لوحة ١٢٣ ، وينقل ابن الخطيب هذا الكتاب فى الجزء الثانى من كتابه « ريحانة الكتاب » إلى جانب عدة من رسائله الأخرى . وتوجد طائفة من تراجم « التاريخ المحلى » فى المخطوط رقم 1102 بخزانة الرباط العامة ، فى المجموع الذى عنوانه « مجموع مراسلات وتراجم ابن الخطيب » . وقد نقل إلينا المقرى منه كثيرا من التراجم .

وأما « القدح المعلى » الذى يقرن به ابن الخطيب عنوان كتابه المتقدم ، فهو من تأليف ابن سعيد الأندلسى (أبى الحسن على بن موسى المتوفى سنة ٦٦٦ هـ أو ٦٧٢ هـ وفقاً لابن الخطيب) وهو يضم تراجم الأدباء الأندلسيين فى القرن السابع الهجرى .

٣ — « الكتيبة الكامنة فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » أو « الكتيبة الكامنة فى أهل المائة الثامنة » . ويقول ابن الخطيب فى ديباجته إنه جمع فيه « جملة وافرة ، وكتيبة ظافرة ، ممن لقيناه ببلدنا الذى طوينا جديد العمر فى ظله ، ما بين من تلقينا إفادته ، وأكرمنا وفادته ، وبين من علمنا وخرجنا ،

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٦٥٣ — ٦٥٥ وفى أزهار الرياض ج ١ ص ١٨٩ — ١٩٠

ورشحنا ودرجنا ، ومن اصطفيناه ، ورعيناه فضلا صنعناه » . وفيه يترجم ابن الخطيب لطائفة من الخطباء والشعراء ، والمقرين ، والفقهاء ، والكتاب المعاصرين له ، ويورد مختارات من شعرهم وأحياناً من نثرهم . وتوجد منه عدة نسخ مخطوطة بالمغرب منها ثلاث بخزانة الرباط العامة ، ونسختان بالخزانة الملكية ، ونسخة بخزانة القرويين الكبرى بفاس ، ونسخة بخزانة تطوان العامة ، وتوجد منه أخيراً نسخة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد[1] .

٤ — « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » ، وهو مختصر لتاريخ بنى نصر ملوك غرناطة ، حتى فاتحة سنة ٧٦٥ هـ ، وهو تاريخ الفراغ من تأليفه ، وذلك حسبما يذكر المؤلف فى خاتمته . وتوجد منه نسخة خطية بالإسكوريال رقم ١٧٧٦ الغزيرى (ضمن المجلد الذى يحتوى على كتاب رقم الحلل) . وتوجد منه بخزانة القرويين بفاس نسختان مخطوطتان . وتوجد نسخة أخرى بخزانة الرباط ، كما توجد نسخة حديثة بالمتحف البريطانى[2] .

٥ — « رقم الحلل فى نظم الدول » وهو عبارة عن تاريخ منظوم ، للدول الإسلامية ، الخلفاء الأوائل وبنى العباس ، وبنى الأغلب ، والعبيديين ، وبنى أمية بالأندلس ، والطوائف ، والمرابطين والموحدين ، وبنى مرين وبنى نصر ، وشرح هذه القصائد نثراً بقلم ابن الخطيب نفسه . وتوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال (رقم ١٧٧٦ الغزيرى) تحمل تاريخ الفراغ من كتابتها وهو ٧٦٥ هـ أعنى فى حياة المؤلف . ويوجد منه بالمغرب نسخة بخزانة القرويين بفاس ، وثلاث نسخ بخزانة الرباط العامة ، وثلاث أخرى بالخزانة الملكية . وتوجد منه أيضاً نسخة بالمتحف البريطانى ، كما توجد نسخة حديثة الكتابة بدار الكتب المصرية . وقد نشر جزء من هذا الكتاب بتونس فى سنة ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م) وهو يسمى أحياناً « بالحلل المرقومة » كما هو الشأن فى نسخة مدريد المخطوطة ، المنقولة عن نسخة الإسكوريال ، وقد اختلط الأمر فى ذلك على العلامة المستشرق

---

(١) نشر كتاب « الكتيبة الكامنة » ببيروت سنة ١٩٦٣ .

(٢) نشر كتاب اللمحة البدرية فى القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٨ م) بعناية المرحوم الأستاذ محب الدين الخطيب .

زيبولد فظن أنهما كتابين مختلفين ، والواقع أنهما اسمان لنفس المؤلف[١].

٦ — « نفاضة الجراب فى علالة الإغتراب » . هذا الكتاب من أهم كتب ابن الخطيب ، بل ربما كان أهم كتاب بعد كتاب « الإحاطة » . ووجه أهمية النفاضة ، هو أنه فضلا عن ضخامة حجمه ، يعتبر بالنسبة لابن الخطيب مذكراته الشخصية ، عن فترة من أهم فترات حياته ، هى الفترة التى قضاها فى عزلته فى سلا من رجب سنة ٧٦١ إلى رجب سنة ٧٦٣ هـ ، ثم بعد ذلك منذ عودته إلى الأندلس وتولى الوزارة للمرة الثانية ، حتى ربيع الأول سنة ٧٦٤ هـ . ولم تصلنا من هذا الكتاب نسخة كاملة ، بل وصلنا منه فقط سفراه الثانى والثالث ، وهو يتكون من ثلاثة أسفار حسبما يخبرنا ابن الخطيب نفسه فى نهاية السفر الثانى (نسخة الإسكوريال) ، وحسبما ورد فى نهاية السفر الثالث (نسخة الرباط).

ويوجد من السفر الثانى نسخة وحيدة بمكتبة الإسكوريال تحمل رقم ١٧٥٠ الغزيرى (١٧٧٥ ديرنبور) تتكون من ١٥٩ لوحة مزدوجة من القطع المتوسط ، ولا تحمل صفحة العنوان عنواناً ، ولكنها تحمل ما يدل على أنه من كتب المكتبة الزيدانية (مكتبة السلطان مولاى زيدان) . وتبدأ بأخبار الرحلة التى قام بها ابن الخطيب فى عمالات المغرب ، وتتضمن أخبار ابن الخطيب وأحواله ، وقت إقامته بسلا ، كما تتضمن عدة رسائل وجهها ابن الخطيب إلى السلطان أبى سالم المرينى ، ورسائل أخرى مختلفة ، وعدة قصائد ، منها قصيدته الشهيرة بتهنئة السلطان أبى سالم بفتح تلمسان . ويذكر لنا ابن الخطيب ما دبجه فى تلك الفترة من كتب ورسائل . وهذه هى محتويات السفر الثانى من نفاضة الجراب[٢]

وأما السفر الثالث من نفاضة الجراب ، فتوجد منه نسخة وحيدة أيضاً ، بخزانة الرباط العامة بالمغرب تحفظ برقم 256 ك (المكتبة الكتانية) ، وهى كذلك لا تحمل عنواناً . وتقع هذه القطعة فى ٢٩٠ صفحة كبيرة . وقد ذكر فى نهايتها ما يأتى « تم السفر الثالث وبتمامه تم جميع الديوان » . ويجرى هذا السفر على نسق « السفر الثانى » . ويحدثنا فيه ابن الخطيب عن مراحل عودته إلى الأندلس ، وعن

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية فى ترجمة ابن الخطيب .

(٢) نشر هذا السفر الثانى من نفاضة الجراب (مخطوطة الإسكوريال) بالقاهرة سنة ١٩٦٩ بتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ومراجعة الدكتور عبد العزيز الأهوانى .

محركات السلطان أبي عبد الله محمد الغنى بالله ، فى سبيل استرداد عرشه ، مذ نزل برندة . ويتضمن عدة رسائل سلطانية مدبجة بقلم ابن الخطيب ، منها رسالة إلى سلطان مصر ، المنصور بن الناصر بن قلاوون ، ورسالة أخرى إلى الأمير يلبغا الخاصكى القائم بأمر الدولة فى مصر ، كما يتضمن رسالة ابن خاتمة إلى ابن الخطيب ، وهى التى يحاول فيها أن يثنيه عن عزمه فى مغادرة الأندلس ، ورد ابن الخطيب عليه .

وتوجد من هذا السفر الثالث أيضاً ، قطعة مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط ولكنها بالية مطموسة الكتابة .

٧ — «أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام». وهذا الكتاب هو آخر ما ألفه ابن الخطيب قبل مصرعه ، وقد تركه ناقصاً ، ولم يتح له القدر إكماله ، وقد ألفه للوزير أبي بكر بن غازى عقب وفاة السلطان عبد العزيز المرينى ، وتنصيب ولده الطفل السعيد سلطانا مكانه . فقد أثار خصوم ابن غازى يومئذ حملة شديدة على تولية الطفل ، واتهموا الوزير بإهدار مصالح المسلمين ، فوضع ابن الخطيب كتابه «أعمال الأعلام» ليثبت فيه أن لهذا الحادث نظائر كثيرة فى التاريخ الإسلامى ، وأنه تصرف سليم لايخالف أحكام الدين فى شىء . والكتاب مجهود تاريخى قيم ، ويشتمل على ثلاثة أقسام كبيرة ، الأول تاريخ المشرق ومصر والشام ، والثانى تاريخ الأندلس منذ دولة بنى أمية حتى قيام دولة بنى الأحمر بغرناطة ، وذكر سلاطينها حتى عصر الغنى بالله سلطان المؤلف . والقسم الثالث تاريخ إفريقية والمغرب منذ أيام الأغالبة حتى بداية عصر الموحدين ، وهذا القسم ينقص عما كان ينتويه المؤلف من إكمال الكلام على دولة الموحدين حتى نهايتها .

ويوجد من كتاب أعمال الأعلام عدة نسخ مخطوطة ، منها بالمغرب بالخزانة الملكية نسختان ، ونسختان أخريان بالخزانة العامة بالرباط ، ونسخة بخزانة القرويين بفاس ، كما توجد نسخة تتضمن القسمين الأول والثانى ، بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ، وهى منقولة عن نسخة بالجزائر(١).

(١) نشر المرحوم الأستاذ ليفى بروفنسال القسم الثانى من كتاب أعمال الأعلام وهو يتعلق بتاريخ الجزيرة الأندلسية تحت عنوان « تاريخ اسبانيا الإسلامية » فى مجلد كبير (الرباط سنة ١٩٣٤) —

٨ — « طرفة العصر فى تاريخ دولة بنى نصر » وهو تاريخ آخر للدولة النصرية ، وقد أشار إليه ابن الخطيب غير مرة فى كتاب « اللمحة البدرية » وكذلك أشار إليه مراراً فى كتاب « الإحاطة » . ويعتقد العلامة فستنفلد خطأً أنه اسم آخر لكتاب « اللمحة البدرية » . ولكنا بمقارنة الفقرات التى يقتبسها ابن الخطيب فى الإحاطة من « طرفة العصر » و « اللمحة البدرية » ، وكذلك بمراجعة كتاب « اللمحة البدرية » حيث يقتبس ابن الخطيب من «طرفة العصر» ، انتهينا إلى أن الكتابين مختلفين ، ولم نعثر على أية نسخة مخطوطة من هذا الكتاب ، فى مختلف المكتبات التى تحتوى على آثار ابن الخطيب .

٩ — « الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم التاج من الجواهر » وفيه يتناول ابن الخطيب تراجم بعض أعلام معاصريه بأسلوب مسجع . وهو بمثابة تكملة لكتاب « التاج المحلى » . وقد ورد بعد تراجم التاج المحلى فى المخطوط رقم ٥٥٤ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال ، ويشغل فيه من لوحة ١١٧ إلى لوحة ١٣٤ ب ، وقد نقل إلينا المقرى منه كثيراً من التراجم والنبذ .

١٠ — « عائد الصلة » . كتبه ابن الخطيب ليكون ذيلا لكتاب «صلة الصلة» لابن الزبير المتوفى سنة ٧٠٨ هـ ، وجمع فيه طائفة من تراجم الأعلام اللاحقين لمن ترجمهم ابن الزبير ، وهو يذكره فى الإحاطة فى ترجمة مؤلف « الصلة » ويقتبس منه كثيراً . ولم نعثر على أية نسخة مخطوطة منه .

١ — « الإماطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة » . أشار ابن الخطيب إلى هذا الكتاب فى كتابه « اللمحة البدرية » (ص٢٧) ونقل عنه فيه نبذة كبيرة ، عن أحوال أهل غرناطة ، ولكنه لم يذكره فى ثبت كتبه التى وردت فى ترجمته فى نهاية الإحاطة ، أو تلك التى ذكرها فى نفاضة الجراب . والحقيقة أننا باستعراض هذا الفصل ، الذى نقله ابن الخطيب فى اللمحة البدرية مما سماه كتاب «الإماطة» وجدنا أنه ليس إلا مختصراً للفصل الذى كتبه فى هذا الموضوع فى كتاب «الإحاطة» ، فإذا كنا لا نجد أثراً مستقلا لكتاب «الإماطة» بين تراث ابن الخطيب ، فأرجح الظن أنه اسم آخر لكتاب الإحاطة ، أو أنه مختصر

= وأعيد طبعه ببيروت . ونشر القسم الثالث تحت عنوان « تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط » (الدار البيضاء سنة ١٩٦٤) .

فقط للقسم الأول من كتاب الإحاطة الذى عنوانه (فى حلى المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن) . وعلى أى حال فإننا لم نعثر منه على أية نسخة أو أوراق مخطوطة فى أية مكتبة من المكتبات أو المجموعات الخاصة .

وهناك مؤلف تاريخى ينسب خطأ لابن الخطيب ، وهو كتاب « الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية » ، وقد طبع فى تونس سنة ١٣٣٧ هـ منسوباً لابن الخطيب وصدرت ديباجته بالعبارة الآتية : «قال الشيخ الأديب البارع لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله» . ولكن ينقض ذلك ويقضى ببطلانه ، ما ورد فى ختام الكتاب عند ذكر ولاية السلطان أبى زيد عبد الرحمن المتوكل على الله ، إذ جاء فيه « واستقر بحاضرة مراكش فى شهر المحرم من عام ستة وسبعين وسبعمائة ، وهو إلى هذا العهد الذى ألفت فيه هذا المجموع يوم الخميس الثانى عشر لربيع الأول من عام ثلاث وثمانين وسبعمائة » (ص١٣٦) . ونحن نعرف أن ابن الخطيب توفى فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ أى قبل هذا التاريخ بسبعة أعوام، وإذن فمن الواضح قطعاً أنه ليس مؤلف الكتاب . ومن جهة أخرى ، فإنه توجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط (رقم 3674) ذكر فيها أن الكتاب هو من تأليف أبى العلاء بن سماك العاملى المالقى .

الترسل والأدب والمصنفات الخاصة

١٢ — « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » ، وهو أهم كتب ابن الخطيب ، بعد الإحاطة ، وفيه يفصل ابن الخطيب فى ديباجته محتوياته على النحو الآتى : « تمهيدات من أوائل المصنفات » ، وفى هذا الباب يختار ابن الخطيب نبذاً من مقدمات كتبه ورسائله السابقة ، مثل « بستان الدول » « وجيش التوشيح » و« الإكليل الزاهر» و« الإحاطة » و«كتاب الطب » و« روضة التعريف بالحب الشريف » و« استنزال اللطف الموجود فى أسرار الوجود » . ثم يلى ذلك أبواب التحميدات ، والفتوحات الواقعة ، والمرافعات التابعة ، وكتب الشكر على الهدايا ، وكتب التهانى وغيرها . ثم يلى ذلك طائفة كبيرة من الرسائل السلطانية التى كتبها ابن الخطيب عن سلاطين غرناطة ، والتى وردت عن سلاطين المغرب ، فى أغراض الحرب والسياسة ، وغيرها ، فى باب يسميه « جمهور أغراض السلطانيات » ، ويلى ذلك طائفة أخرى من الرسائل ، التى كتبت فى مخاطبة

الرعية والجهات ، وظهاير الأمراء ، ورسائل إلى الأصدقاء والقضاة . ثم رسائل « فى جمهور الإخوانيات » . ويلى ذلك كتب الدعابات والفكاهات ، ثم المقامات . وهنا ينقل ابن الخطيب إلينا ، بعض كتبه ورسائله السابقة ، مثل خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف — كتاب معيار الإختيار — رسالة السياسة — كتاب الإشارة إلى أدب الوزارة والسياسة — مفاخرة بين مالقة وسلا .

وتوجد من هذا المؤلف الضخم نسخ مخطوطة عديدة ، أولها نسخة كاملة فى مكتبة الإسكوريال تحمل رقم ١٨٢٥ الغزيرى وتقع فى مجلد كبير ، يتكون من ٢٨١ لوحة كبيرة مزدوجة ، وقد كتبت بخط أندلسى فى شوال سنة ٨٨٠ هـ . وقطعة كبيرة بمكتبة مدريد الوطنية تتكون من ٦٢ لوحة مزدوجة (وتحمل رقم ٥١٨٣) ، كما توجد قطعة أخرى بمكتبة الفاتيكان الرسولية تقع فى ١٢٨ لوحة مزدوجة (وتحمل رقم Borg. 252) . وتوجد منه قطعة مخطوطة أخرى بمكتبة جامعة أوبسالة بالسويد تتكون من ١٤٤ لوحة كبيرة مزدوجة .

وتوجد منه عدة نسخ وقطع مخطوطة بالمغرب ، ومنها سبع نسخ بالخزانة الملكية ، أولها نسخة كاملة تقع فى مجلدين من الحجم المتوسط ، ومكتوبة بخط مغربى وتحمل رقم 2195 . والباقى عبارة عن ست قطع من الريحانة ، مختلفة الأحجام والمحتويات ، وقد كتبت كلها بخط مغربى . كذلك توجد من الريحانة عدة نسخ وقطع مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط ، منها نسخة كاملة تحمل رقم 331 ك (الكتانية) وهى عبارة عن مجلد ضخم يتكون من ٦٠٩ صفحة ، من القطع الكبير ، ومكتوبة بخط مغربى ، ونسخة أخرى قديمة وبالية وناقصة من آخرها وتحمل رقم 705 ك ، ونسخة ثالثة ناقصة أيضاً وتحمل رقم 1075 ك ، كما توجد بالخزانة العامة نسختان أخريان كاملتان من الريحانة تحمل أولها رقم 15 ج (مكتبة الحلاوى) وتحمل الثانية رقم D 988 .

ويوجد بخزانة القرويين بفاس قطعتان مخطوطتان من الريحانة . ويوجد كذلك بمكتبة الجزائر الوطنية قطعة كبيرة من الريحانة ، تحتوى على النصف الثانى من الكتاب ، وتحمل رقم 2010 فهرس الدفاتر .

وتوجد منه قطعة كبيرة بدار الكتب التونسية (مجموعة الزيتونة) تحمل رقم 11024 .

ويوجد بدار الكتب المصرية ، قطعتان مخطوطتان من الريحانة ، تحملان رقمى ٤ و ٥ أدب ش .

هذا وقد نشر المستشرق الإسبانى جسبار ريميرو ثلاثاً من رسائل الريحانة السلطانية ، وقرنها بترجمة إسبانية تحت عنوان Correspondencia diplomatica entre Granada y Fes en el Siglo XIV. ونشرت هذه الرسائل الثلاث وترجمتها بمجلة (R. del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino/1912)

١٣ — «كناسة الدكان بعد انتقال السكان» . هذا الكتاب وضعه ابن الخطيب فى بداية إقامته الأولى بسلا ، منفياً بالمغرب ، وهوعبارة عن مجموعة من الرسائل السلطانية ، كتبها ابن الخطيب فى بداية حياته الوزارية ، عن السلطان أبى الحجاج يوسف ، إلى السلطان أبى عنان المرينى ، ملك المغرب ، فى أغراض سياسية وعسكرية مختلفة ، وبعض رسائل أخرى مختلفة . وتوجد منه نسخة وحيدة ، بمكتبة الإسكوريال ، تحفظ برقم ١٧١٢ الغزيرى ، وتقع فى ٦٠ لوحة مزدوجة من القطع المتوسط . وهى مكتوبة بخط أندلسى ، وتحمل صفحاتها الأولى عنوان الكتاب ، ولكنها لا تحمل اسم مؤلفه[١] .

١٤ — «معيار الإختيار فى ذكر المشاهد والديار» أو «فى ذكر المعاهد والآثار» ، وهو وصف نثرى مسجع ، لمدن وبلاد مملكة غرناطة ، ولطائفة من المدن المغربية . ويتألف من فصلين أومجلسين كتبا على طريقة المحاورة . وتوجد منه نسخة بالإسكوريال ضمن مجموعة تحتوى على رسائل أخرى ، وتحفظ برقم ٥٥٤ الغزيرى . وقد ذكر فى نهاية المخطوط أنه كتب فى سنة ٨٧٣ ﻫ . ويتضمن هذا المخطواط جزءاً من التاج المحلى حسبما تقدم ، وتوجد منه بالمغرب نسخة بمكتبة القرويين بفاس ، ونسخة بمكتبة الرباط العامة ، ضمن مجموعة ، وأخرى بمكتبة الحلاوى .

وقد نشر المستشرق الإسبانى سيمونيت القسم الأول من «معيار الإختيار» وهو المتعلق بمدن غرناطة وترجمه إلى الإسبانية بعنوان Descripcion del

(١) نشر هذا الكتاب بالقاهرة فى سنة ١٩٦٦ بتحقيق الدكتور محمد كمال شبانه ومراجعة الدكتور حسن محمود .

Reino de Granada bajo las Nazaritas (Madrid 1861) ، ونشر المستشرق الألمانى مركوس ميللر جزءاً من المجلس الأول والمجلس الثانى ، فى مجموعة (Beitraege zur Geschichte des Westlichen Araber (Munchen 1866) (ص ٤٥ — ١٠٠) كما نشر الكتاب كله فى فاس سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧) .

١٤ — « مفاخرة بين مالقة وسلا » وهى رسالة مسجعة فى المقارنة بين هذين البلدين . وتوجد منها نسخة بالإسكوريال ضمن المخطوط رقم ٥٥٤ الغزيرى السابق ذكره . وقد نشرها المستشرق ميللر فى كتابه الذى سبقت الإشارة إليه (Beitraege) (١)

١٥ — « خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف » رسالة كتبها ابن الخطيب فى سنة ٧٤٨ هـ ، يصف فيها رحلة قام بها السلطان أبو الحجاج يوسف فى شهر المحرم من هذا العام ، وزار فيها عدة من مدن مملكة غرناطة ، وقد كتبت بأسلوب مسجع جزل . وتوجد منها نسخة بالإسكوريال ضمن المخطوط رقم ٤٧٠ الغزيرى . وقد نشرها المستشرق ميللر فى كتابه الذى سبقت الإشارة إليه (Beitraege)

١٥ — « روضة التعريف بالحب الشريف أو كتاب المحبة » . هذا الكتاب أو هذه الرسالة الضخمة من أهم مؤلفات ابن الخطيب .

وهو مؤلف من نوع خاص . ويعتبر بفكرته وأسلوبه من أقوى نفثات ابن الخطيب النثرية وأبلغها ، وأحفلها بالإفكار الفلسفية الطريفة ، والتشبيهات المبتكرة ، فى موضوع المحبة الروحية والإلهية . وهو يدل فوق ذلك على تضلع ابن الخطيب ، فى التصوف ، ودراسة مختلف المدارس الصوفية . وقد وضعه ابن الخطيب بناء على إشارة مليكه الغنى بالله رداً على ما جاء فى كتاب (ديوان الصبابة) الذى وضعه الأديب المغربى أبو العباس بن حجلة ، نزيل القاهرة : وكان هذا الكتاب الذى يعنى بذكر أخبار العشق والعشاق نثراً وشعراً ، قد ذاع واشتهر أمره ، ووصل إلى الأندلس ، ووقع بين يدى السلطان الغنى بالله ، فأشار على وزيره ابن الخطيب أن يكتب كتاباً فى الرد عليه . فكتب ابن الخطيب كتاب « روضة التعريف بالحب الشريف » ، وذهب فيه فى تصوير المحبة مذهبا

---

(١) نشر الدكتور أحمد مختار العبادى القسم الأول من معيار الإختبار ومفاخرة مالقة وسلا ضمن مجموعة سماها « مشاهدات ابن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس » .

جديداً ، فجعل أصل المحبة شجرة ، وجعل النفوس التى تغرس فيها أرضا ، وجعل أغصان الشجرة أقساماً ، وجعل أوراقها ، هى الحكايات التى تحكى ، وأزهارها هى الشعر الذى يقرض . وجعل ثمرتها هى الوصول إلى الله تعالى . وفرغ ابن الخطيب من تأليف هذا الكتاب فى أوائل سنة ٧٦٩ هـ[١] .

وتوجد من « روضة التعريف » نسختان بالخزانة الملكية بالرباط تحفظان برقمى 789 و 664 . وتوجد منة قطعة بخزانة الرباط العامة ضمن مخطوط قديم . وتوجد منه نسختان أخريان بخزانة القرويين بفاس .

هذا ويستدل من رسالة بعث بها ابن الخطيب إلى صديقه ابن خلدون مؤرخة فى الثانى من جمادى الأولى سنة ٧٦٩ هـ ، على أن ابن الخطيب قد بعث بنسخة من كتاب « المحبة » ونسخة أخرى من كتاب « الإحاطة » إلى القاهرة ، تحبيساً على طلاب العلم ، وجعل مقرهما خانقاه الصوفية المسماه (سعيد السعدا)[٢] .

١٦ — « استنزال اللطف الموجود فى سير الوجود » وهى رسالة صغيرة فى التصوف . ولم نعثر على نسخ منها فى مختلف المكتبات التى سبق ذكرها .

١٧ — « رسالة فى السياسة » كتبها ابن الخطيب على نمط المقامات ، وأملاها حسبما يقول لنا فى ليلة واحدة ، وجعلها فى صورة قصة بطلها الخليفة الرشيد . وقد سبق أن أشرنا إلى محتوياتها . وتقترن بها رسالة ابن الخطيب الثانية التى عنوانها « كتاب الإشارة إلى أدب الوزارة ». وقد وردت الرسالتان ضمن مجموعة خطية بالإسكوريال تحمل رقم ٥٥٤ ، وهى التى سبقت الإشارة إليها ، (وتشغلان بها من لوحة ٣٤ ب إلى لوحة ٧١ أ). ووردت رسالة السياسة فى نهاية كتاب الإحاطة (مخطوط الإسكوريال لوحة ٤٩٢ — ٤٩٨) . وتوجد منها أيضا نسخة خطية أخرى بخزانة الرباط العامة . ونقل إلينا المقرى رسالة السياسة فى نفع الطيب[٣]

١٨ — « مثلى الطريقة فى ذم الوثيقة » وهى رسالة فى التوثيق تتضمن مناقشات

---

(١) نقل المقرى إلينا فى نفح الطيب مقدمة كتاب المحبة وبعض فصول من محتوياته (ج ٤ ص ٤٧٥ — ٥٠٣) . هذا وقد نشر الكتاب كله بمدينة القاهرة سنة ١٩٦٨ بتحقيق الأستاذ عبد القادر أحمد عطا ، ونشرت منه طبعة أخرى ببيروت محققة بقلم الأستاذ محمد الكتانى (سنة ١٩٧١) .

(٢) راجع التعريف بابن خلدون ورحلته (١٩٥١) ص ١٢١ .

(٣) نفح الطيب ج ٤ ص ٥٥٨ — ٥٦٦ ، هذا وقد نشرناها نحن على ضوء التحقيق المقارن بكتابنا (لسان الدين بن الخطيب ص ٣٧٦ — ٣٨٨) .

جرت بين ابن الخطيب وبين أهل الطريقة نظماً ونثراً ، والتنبيه على بعض معايبها ويشير ابن الخطيب إليها وإلى سبب وضعها فى الإحاطة ،فى ترجمة ابن القباب . وتوجد من هذه الرسالة نسخة خطية بخزانة الرباط الملكية ، وفى بعض خزائن المغرب الأخرى .

١٩ — « رسالة فى الموسيقى ». وضع ابن الخطيب رسالة فى الموسيقى وفنونها لم تصل إلينا ، ولكنه ذكرها فى ثبت آثاره فى ترجمته ، وذكرها معاصره الأمير إسماعيل بن الأحمر ضمن مؤلفاته[١] .

٢٠ — « بستان الدول ». وهو كتاب فى السياسة والقضاء والحرب ، وأهل المهن والحرف ، وطوائف الشعب ، تخصص لكل منها شجرة ، وهو كتاب لم يكمل ولم يصل إلينا ، ويقول لنا ابن الخطيب فى الإحاطة إنه كتب منه ثلاثين سفراً ثم عاقته الحوادث عن إتمامه[٢] .

٢١ — « تافه من جم ، ونقطة من يم » وهو مجموعة اختارها ابن الخطيب من رسائل أستاذه ابن الجياب ونثره[٣] ولم يصل هذا المجموع إلينا .

آثار ابن الخطيب المنظومة

ترك لنا ابن الخطيب تراثاً ضخماً منوعاً من النظم الفائق ، مابين قصائد سياسية معظمها نداءات مؤثرة لإنجاد الأندلس ، وما بين مدائح وهجاء ، ورثاء وتهانى ، وزهد وغير ذلك . وقد انتهى إلينا من هذا التراث الشعرى ما يلى :

٢٢ — الديوان المسمى « الصيّب والجهام والماضى والكهام ». وهو ديوان ابن الخطيب . ولم تصل إلينا من هذا الديوان نسخة كاملة ، وهى التى يقول ابن الخطيب فى ترجمته لنفسه ، إنها تقع فى سفرين . ويوجد بخزانة القرويين بفاس مجموعة أوراق تحمل رقم ٧١ خروم ، يرجح أنها من هذا الديوان ، وهى تبلغ أربعين ورقة . وتوجد منه قطعة أخرى لدى الشيخ العربى الحريشى من أعيان فاس ، تحمل عنوان الديوان ، وتتضمن القصائد مرتبة على حروف المعجم حتى قافية الراء ، وتقع فى ٩٩ لوحة من القطع المتوسط .

---

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٦٥٣ وأزهار الرياض ح ١ ص ١٩٠

(٣) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٩

٢٣ — « الحلل المرقومة فى اللمع المنظومة » . وهى أرجوزة من ألف بيت فى أصول الفقه ، ذكرها ابن الخطيب ضمن مؤلفاته التى ذكرها فى « نفاضة الجراب » ، وهى تلخيص كتاب « أصول الفقه » لأبى اسحاق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هـ وقد وقفنا أثناء جولاتنا بخزانة القرويين بفاس ، على نسخة خطية قديمة من كتاب « الحلل المرقومة واللمع المنظومة » تحمل رقم ٧٨ خروم ، وهى عبارة عن شرح للأرجوزة المتقدمة التى وضعها ابن الخطيب ، ويقع الشرح المذكور فى ٧٦ لوحة من القطع الصغير .

٢٤ — « السحر والشعر ». هذا الكتاب ليس من تأليف ابن الخطيب ، ولكنه من تصنيفه ، وهو عبارة عن مجموعة شعرية اختارها . وقد ذكر ابن الخطيب فى مقدمته أنه لمناسبة ترعرع ولده عبد الله ، قد اغتنم الفرصة واختار له طائفة من القصائد تتعلق بالوصايا والمبادئ . وممن اختار ابن الخطيب من شعرهم من المشارقة ، ابن نباته والصابى ومهيار وأبو العتاهية وابن الرومى والشريف الرضى وغيرهم . ومن المغاربة شعراء المغرب والأندلس ، ابن رشيق والمعتمد بن عباد وابن عمار وابن اللبانة وابن عبدون وابن سهل وابن حمدين وابن صمادح وابن الحياب وغيرهم ، والمختارات موجزة مقلة ، وقد راعى ابن الخطيب فى قسمه الأول نمط الشعر . وفى قسمه الثانى نمط السحر .

وتوجد من هذا الديوان نسختان بمكتبة الإسكوريال تحمل الأول رقم ٤٥٦ الغزيرى وتقع فى ١٤٤ لوحة متوسطة . وتحمل الثانية رقم ٤٥٥ الغزيرى وهى ناقصة . وتوجد نسخة بخزانة الرباط العامة ، تحمل رقم D 1295 ، كما توجد بخزانة القرويين نسخة أخرى تمت كتابتها فى سنة ٨٨٨ هـ .

٢٥ — « جيش التوشيح ». جمع ابن الخطيب وهو من أئمة الموشحات الأندلسية مجموعة مختارة من موشحات أئمة التوشيح بالأندلس ، مثل ابن بقى ، وابن اللبانة . والأعمى التطيلى ، وابن لبون ، وأبى بكر السرقسطى . وابن شرف وغيرهم فى كتاب سماه بالإسم المتقدم . ويوجد من الديوان المذكور نسخة خطية بمكتبة الريتونة بتونس (الآن دار الكتب الوطنية التونسية) وتقع فى ١١٠ لوحة من القطع المتوسط[1] .

---

(١) نشر هذا الكتاب بتونس محققاً بعناية الأستاذين هلال ناجى ومحمد ماضور سنة ١٩٦٧ .

ويقول لنا المقرى إن معاصره ومواطنه الكاتب والوزير المغربى عبد العزيز ابن محمد الفشتالى المتوفى سنة ١٠٣١هـ، ذيل على كتاب ابن الخطيب هذا ، بكتاب سماه « مدد الجيش » ضمنه كثيراً من موشحاتٍ المغاربة فى عصره ، إلى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى .

٢٦ — جمع ابن الخطيب مجموعة من شعر أستاذه الرئيس أبى الحسن بن الجياب ، على نحو ما فعل نحو منثوره. وجمع كذلك مجموعة أخرى أيام مقامه بمالقة فى سنة ٧٤٤ هـ ، من شعر أستاذه وصديقه أبى جعفر بن صفوان المالقى أسماها «الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة » ، وذلك حسبما يذكر لنا فى ترجمته فى الإحاطة . ولم نعثر على نسخ مخطوطة من هذين المجموعين .

٢٧ — وقد ذكر لنا ابن الخطيب ضمن ثبت مؤلفاته التى وضعها خلال إقامته بسلا ، أنه وضع مؤلفاً شعرياً فى العروض أسماه « كناش منظوم فى عروض الرجز » ، ووضع كذلك أرجوزة فى « فن السياسة » فى نحو ستمائة بيت ، عنوانها « تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة » .

وهذا كله عدا قصائد ، وموشحات عديدة ، نظمت فى أغراض ومناسبات مختلفة ، ونقل المقرى إلينا كثيراً منها فى كتابيه نفح الطيب، وأزهار الرياض .

الآثار العلمية

٢٨ — « عمل من طب لمن حب » . وهو مؤلف طبى ضخم ، يتناول فيه ابن الخطيب مختلف الأمراض ،ويذكر لنا أسباب كل مرض وأعراضه وعلاجه ، ونظام الغذاء الذى يناسبه ، ويتحدث فيه عن مختلف أعضاء الجسم ، وطرق العناية بها . وقد وضع ابن الخطيب هذا الكتاب فى سنة ٧٦١ هـ أثناء إقامته الأولى بفاس ، برسم حاميه وولى نعمته ، السلطان أبى سالم المرينى . وهو يشيد فى ديباجته بذكر السلطان أبى سالم فى عبارات رنانة ، ويقول إنه لم يجد لخدمته والإعراب عن شكر الصنيعة ، للجميل الذى طوقه به ، خيراً من الطب « الذى تكون الوسيلة به ، أولا ذريعة لحفظ صحته . وهذا الغرض هو ماهو أصل الدين والدنيا ، وحفظ للسجايا البرة ، والشيم العليا » .

وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية قديمة فخمة بخزانة جامع القرويين بفاس تقع فى ٣١٩ صفحة كبيرة ، وهى مكتوبة بخط أندلسى جميل ، ومذهب

الترقيم . والمظنون أنها هى نفس النسخة التى رفعها ابن الخطيب إلى السلطان أبى سالم وتحمل رقم 607/40

وتوجد منه نسخة خطية أخرى بخزانة الرباط الملكية ، تقع فى مجلد ضخم يتكون من ١٤١ لوحة مزدوجة ، ومكتوب بخط مغربى وتحمل رقم4777،

كما توجد منه نسخة خطية ثالثة بمكتبة مدريد الوطنية ، تقع فى ١٥١ لوحة كبيرة ، وهى حديثة الكتابة وناقصة من آخرها .

٢٩ — « أرجوزة فى الطب » .ذكرها ابن الخطيب ضمن مؤلفاته التى وضعها أثناء إقامته بسلا ، وذكر أنها تقع فى نحو ألف وستمائة بيت ، وأنها تتضمن ذكر جميع الأمراض الكلية والجزئية ، بيد أننا لم نعثر على أية نسخة مخطوطة من هذه الأرجوزة .

٣٠ — « رجز فى الأغذية » أو « أرجوزة الأغذية » . وهى تقع فى نحو ألف ومائتى بيت ، وموضوعها حسبما يوضحه المؤلف ، هو أنها تتضن ذكر الأغذية ، مرتبة على حروف المعجم ، وطبائعها ومنافعها ومضارها ، وإصلاح خللها . وتوجد نسخة خطية من هذه الأرجوزة ضمن مجموعة خطية مملوكة للأستاذ العابد الفاسى ، محافظ خزانة القرويين الكبرى ، وتقع فى ٣٠ لوحة مزدوجة ، من القطع المتوسط ، ومكتوبة بخط مغربى ، وفى نهايتها أنها كتبت فى أول رمضان عام ١١٣٣ هـ .

٣١ — « الوصول لحفظ الصحة فى الفصول » . ويوجد من هذا الكتاب ثلاث نسخ مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط ، تقع أولها فى مجلد ضخم ، مكون من ١٤٩ لوحة كبيرة مزدوجة ، ومكتوبة بخط مغربى جميل ، ومكتوب فى نهايتها أن المؤلف قد فرغ من تأليفها فى سنة ٧٧١هـ . ويوجد منه بخزانة جامع القرويين نسخة تمت كتابتها فى سنة ٩٨٥ هـ .

٣٢ — « كتاب فى علاج السموم » . أسمه الأرجوزة المعلومة ، وذلك مقابل الأرجوزة المجهولة التى وضعها ابن طفيل . وقد ذكر ابن الخطيب هذا الكتاب فى نفاضة الجراب . ضمن الكتب التى ألفها خلال إقامته بسلا . بيد أن هذه الأرجوزة لم تصل إلينا .

٣٣ — ولابن الخطيب عدة رسائل طبية وصحية أخرى نذكر منها : المسائل

الطبية . اليوسفى فى صناعة الطب . رسالة تكوين الجنين . ثم كتابه « البيطرة » وفيه يتناول خصائص الخيل ومحاسنها . وكتاب « البزرة » . وقد ذكرها لنا ابن الخطيب فى ترجمته فى الإحاطة ، ونقلها إلينا المقرى فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض[١]. ولم تصلنا نسخ مخطوطة من هذه المؤلفات والرسائل الطبية .

٣٤ — ولابن الخطيب رسالة طبية وصحية من نوع خاص عنوانها « مقنعة السائل عن المرض الهائل » ، وهى رسالة كتبها عن الطاعون الجارف الذى دهم الأندلس وسائر العالم الإسلامى فى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) وفيها يصف ظروف ظهوره ، وروعة انتشاره ، وأعراضه الأولى ، وسبل التحوط منه . وتوجد نسخة من هذه الرسالة ضمن مجموعة خطية بالإسكوريال تحمل رقم ١٧٨٥ الغزيرى ، وتحتوى على عشر لوحات (٣٩ — ٤٩) . وقد نشرت هذه الرسالة مع ترجمتها الألمانية فى مجلة أكاديمية العلوم الباڤارية (Bayerische Akademie der Wissenschaft) سنة ١٨٦٣ .

وقد وضع ابن الخطيب كثيراً من كتبه ورسائله التى تقدم ذكرها بعد تأليفه كتاب الإحاطة ، ولذلك لم يذكرها ضمن مؤلفاته . التى ذكرها فى ترجمته لنفسه ، فى نهاية الإحاطة . هذا وقد أورد لنا ابن الخطيب فى ثبت مؤلفاته المذكورة وأورد لنا المقرى فى نفح الطيب ، عدداً آخر من الكتب والرسائل التى لم تشتهر ولم يصل إلينا معظمها ونحن نذكرها فيما يلى :

النفاية بعد الكفاية ، وهو كتاب يجرى على نسق القلائد للفتح بن خاقان . تخليص الذهب فى اختيار عيون الكتب الأدبيات الثلاثة . المعتمدة فى الأغذية المفردة . البشارة . قطع السلوك . الغيرة على أهل الحيرة . حمل الجمهور على السنن المشهور . وهاتان الأخيرتان هما رسالتان فى الحث على الجهاد . فتات الخوان ولقط الصوان . « المباخر الطيبية فى المفاخر الخطيبية » . وهو حسبما يقول لنا المقرى كتاب يذكر فيه ابن الخطيب نباهة سلفه ، وما لهم من المجد . رداً منه على خصومه من أهل الأندلس القادحين فى حقه ، وفى نسبه وحسبه . وقد ألفه لحاميه السلطان عبد العزيز المرينى[٢] .

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٦٥٣ و ٦٥٤ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ١٨٩ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١٠٠ وج ٤ ص ٦٠٢ — ٦٥٥ وأعمال الأعلام ص ٣١٠

وقد استوعبنا فيما تقدم، سائر ما دون وعرف من كتب ابن الخطيب ورسائله وما وصل إلينا منها وما لم يصل، وقد بلغت حسبما أسلفنا زهاء ستين كتاباً ورسالة. ولاشك أن هذه المجموعة الزاخرة التى انتهت إلينا. من مؤلفاته، والتى أتينا على ذكرها ووصفها، وفيما تقدمه إلينا، من تنوع بارز بين التاريخ والأدب، والسياسة والعلوم، وبين المنظوم والمنثور، وما يطبع أساليبها من البلاغة العالية، والبيان الساحر، لا شك فى أن ذلك كله، مما يدل على أهمية التراث الفكرى والأدبى العظيم، الذى خلفه لنا ذلك المفكر والكاتب والسياسى الأندلسى الكبير[١].

— ٧ —

هذا وقد انتهينا بالبحث والمقارنة، إلى أن مخطوط دار الكتب المصرية من الجزء الأول من الإحاطة، ومخطوط العلامة جاينجوس، المحفوظ ضمن مجموعته بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد، وهو يحتوى على الأسفار السبعة الأولى من الإحاطة، هما من أقدم ما وصل إلينا من أجزاء الإحاطة الأولى، وإلى أنهما فى الوقت نفسه، من حيث الكتابة والنص، من أقيمها وأصحها.

ولذلك رأينا أن يكون هذان المخطوطان هما عمدتنا فى تدوين المجلد الأول من الإحاطة، وفى ضبطه وتحقيقه، وذلك مع مقارنة نصهما، بنص نسخة جامع الزيتونة، وكذلك بنص مخطوط الخزانة الملكية بالرباط، وهو فيما يبدو لنا من أقدم مخطوطات الإحاطة. وقد اكتسبنا بالمراجعة عليه كثيراً من التصحيحات والتعديلات القيمة، ثم بما يوجد من الأوراق المخطوطة المتناثرة من الإحاطة،

---

(١) يراجع فى ذكر مؤلفات ابن الخطيب والتعريف بها نفح الطيب ج ٤ ص ٦٥٣ – ٦٥٧ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٨٩ – ١٩٠. وكذلك كتابى لسان الدين بن الخطيب وفيه استعراض مفصل واف لتراث ابن الخطيب ص ٢٣٠ – ٢٨٤ وراجع أيضاً:

Brockelmann : Geschichte der Arabischen Literatur (1948) B. II. p. 339

فهرس الإسكوريال للغزيرى. Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis

وفهرس الإسكوريال لديرنبور Les Manuscrits Arabes de l'Escurial (V.I. & V.III)

F. Pons Boigues : Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores y Geograficos Arabigo-Espanoles (Madrid 1898) p. 334-337.

وكذلك D. Pascual Gayangos : Mohamedan Dynasties in Spain V.I,. p. 307.

والمستشرق زيبولد فى دائرة المعارف الإسلامية فى مقال: Ibn-ul-Khatib

بمكتبة رواق المغاربة بالأزهر ، ومع الإستعانة فى نفس الوقت فى هذا التحقيق ، بكل ما نقل من الإحاطة من النصوص والتراجم ، فى كتابى «نفح الطيب» و« أزهار الرياض » وهما أوفر المؤلفات اللاحقة اقتباساً من « الإحاطة » ، وفى غيرهما . وكذلك بما نقل من هذه النصوص فى مؤلفات ابن الخطيب الأخرى ، التى بين أيدينا ، سواء من المنظوم أو المنثور ،وأخيراً بتتبع النبذ التى نقلها ابن الخطيب عن الكتاب المتقدمين فى مصادرها الأصيلة مثل« الذخيرة » و « المغرب » و« الحلة السيراء » و« البيان المغرب » و« صلة ابن الزبير » وغيرها .

وقد عنينا عناية خاصة بتحقيق الأعلام التاريخية والجغرافية ، ولاسيما الإسبانية منها ، كما عنينا بالتعريف بها فى نبذ وهوامش عديدة .

وقد رأينا أن نستعين فى ضبط النص وجلاء المعنى بالشكل الجزئى ،وإن كنا لانميل إلى هذه الطريقة . بيد أنها مما يرحب به فى بعض الأوساط .

كما رأينا أن نقف فى سياق هذا « المجلد » الأول من الإحاطة ، عند نهاية ترجمة محمد بن محمد بن يوسف ثانى الملوك النصريين ، ولم نشأ مجاراة مخطوط الزيتونة ، حيث يضم الجزء الأول منه ، نحو نصف الترجمة التالية ، وهى ترجمة السلطان محمد بن يوسف بن اسماعيل الغنى بالله ، سلطان ابن الخطيب ، وهى ترجمة طويلة ، تشغل نحو خمسين صفحة ، ولم نشأ أن نثبت جزءاً منها دون بقيتها .

ونود أن نشير هنا فى مقدمة هذه الطبعة الجديدة من كتاب « الإحاطة » إلى أنه مذ صدرت الطبعة الأولى من المجلد الأول فى سنة ١٩٥٦ ، قد توفرت لدينا ميادين جديدة كثيرة للمراجعة والضبط والتحقيق . ومن ثم فقد عنينا عناية خاصة بمراجعة الشعر وضبطه ، وفقاً لمختلف المخطوطات والمصادر ، ولا سيما مخطوط خزانة الرباط الملكية الذى يعتبر من أسلم النسخ نصاً . وليس من ريب فى أن الشعر له قيمته الأدبية والفنية الرفيعة ، بيد أنه لاريب كذلك فى أن كتاب « الإحاطة » هو قبل كل شيء ، موسوعة تاريخية ، جل قيمتها فيما تحتويه من الأحداث والتواريخ والوثائق ، والتعليقات الإجتماعية والحضارية ، ولا يشغل الشعر فيها أكثر من خمس المخطوط أو سدسه . ومن ثم فإننا ، كما عنينا بمراجعة الشعر وضبطه ، فكذلك لم ندخر وسعاً فى العناية بمراجعة النصوص التاريخية الواردة فى مختلف التراجم،وسائر الوثائق والقطع والرسائل النثرية ، ولاسيما رسائل

ابن الخطيب سواء فى هذا المجلد أو المجلدات التالية ، وهى عشرات من الظهائر والرسائل السلطانية والجهادية والإخوانية وغيرها ، وضبطها وفقاً لمختلف النصوص المخطوطة ، سواء ما ورد منها فى كتاب « الإحاطة » أو غيره من كتب ابن الخطيب ، وكذلك وفقاً لمختلف المصادر المخطوطة والمطبوعة الأخرى . وقد قمنا خلال هذه الجهود بمقارنة عدد كبير من المخطوطات المختلفة ، كتب معظمها بخطوط مغربية وأندلسية قديمة ، وبذلنا الكثير من هذه الجهود خارج القاهرة ، فى مدريد والإسكوريال والرباط وفاس وتونس . كما بذلنا جهوداً مضنية فى مراجعة تاريخ الأندلس وجغرافيتها وآدابها وتراثها الحضارى ، لكى نلقى الضياء على كثير من الحوادث والشخصيات والمواقف التاريخية والأعلام الجغرافية ، التى وردت خلال الكتاب . وقد لاحظ البعض بهذه المناسبة ، وعلى ضوء ما قيدنا من هوامش المجلد الأول . أن الكتاب يتضمن كثيراً من الهوامش التاريخية والجغرافية التى لا ضرورة لها . ونحن نود أن ننتهز هذه الفرصة لنسجل هنا أننا نعتز بإيراد هذه الهوامش والإيضاحات التاريخية والجغرافية كل الإعتزاز ، ونعتبرها من أهم العناصر فى منهج التحقيق الذى سلكناه . لاسيما وأن ابن الخطيب يلجأ فى أحيان كثيرة ، من الناحية التاريخية ، إلى الإشارة والتلميح ، ويورد من الناحية الجغرافية ، كثيراً من الأعلام والأماكن الأندلسية والمغربية ، التى لا يحيط بها سوى أهل التخصص فى هذا الميدان ، وقد عنينا فى سائر الأحوال أن نلقى على هذه الإشارات ، وهذه الأعلام ، من الضياء ، ما يكفى لإحاطة القارىء بها إحاطة تامة .

هذا ، ونحن نكتب هذه المقدمة ، وقد اقتربت الذكرى الستمائة لوفاة ابن الخطيب ، إذ هى تقع فى خريف سنة ١٩٧٤ . ونحن ننتهز هذه الفرصة لنهيب بالدوائر العلمية والأدبية فى مختلف البلدان العربية ، ولاسيما المغرب ، الذى قضى فيه ابن الخطيب أخصب فترات حياته ، وكتب كثيراً من كتبه ورسائله ، ونظم كثيراً من قصائده ، ثم ثوى إلى أرضه الثواء الأخير ، أن تتطلع إلى مقدم هذه الذكرى ، وأن تنظم للاحتفاء بها ، كل ما يليق بذكرى صاحبها العظيم ، من صنوف التكريم العلمى والأدبى .

القاهرة فى المحرم سنة ١٣٩٣ .
الموافق فبراير سنة ١٩٧٣

محمد عبد الله عنان

رموز المخطوطات

رأينا أن نرمز فى سياق النص إلى المخطوطات المختلفة التى كانت عمدتنا فى تحقيق هذا المجلد من « الإحاطة » على النحو الآتى :

١ — مخطوط دار الكتب المصرية بحرف « ك » .

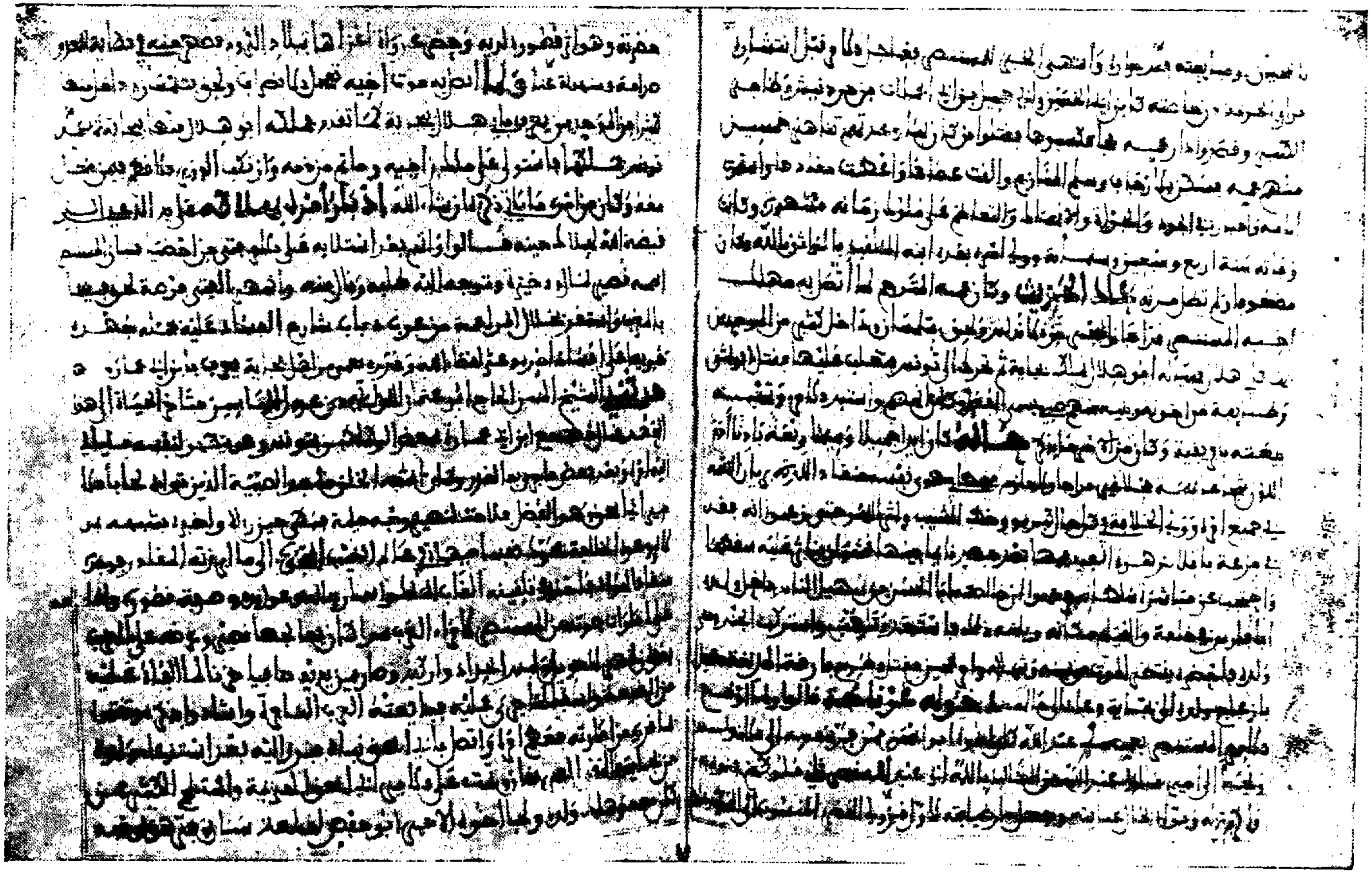
٢ — مخطوط أكاديمية التاريخ (جاينجوس) بحرف « ج » .

٣ — مخطوط كوديرا المنقول عن مخطوط الزيتونة بتونس بحرف « ت » .

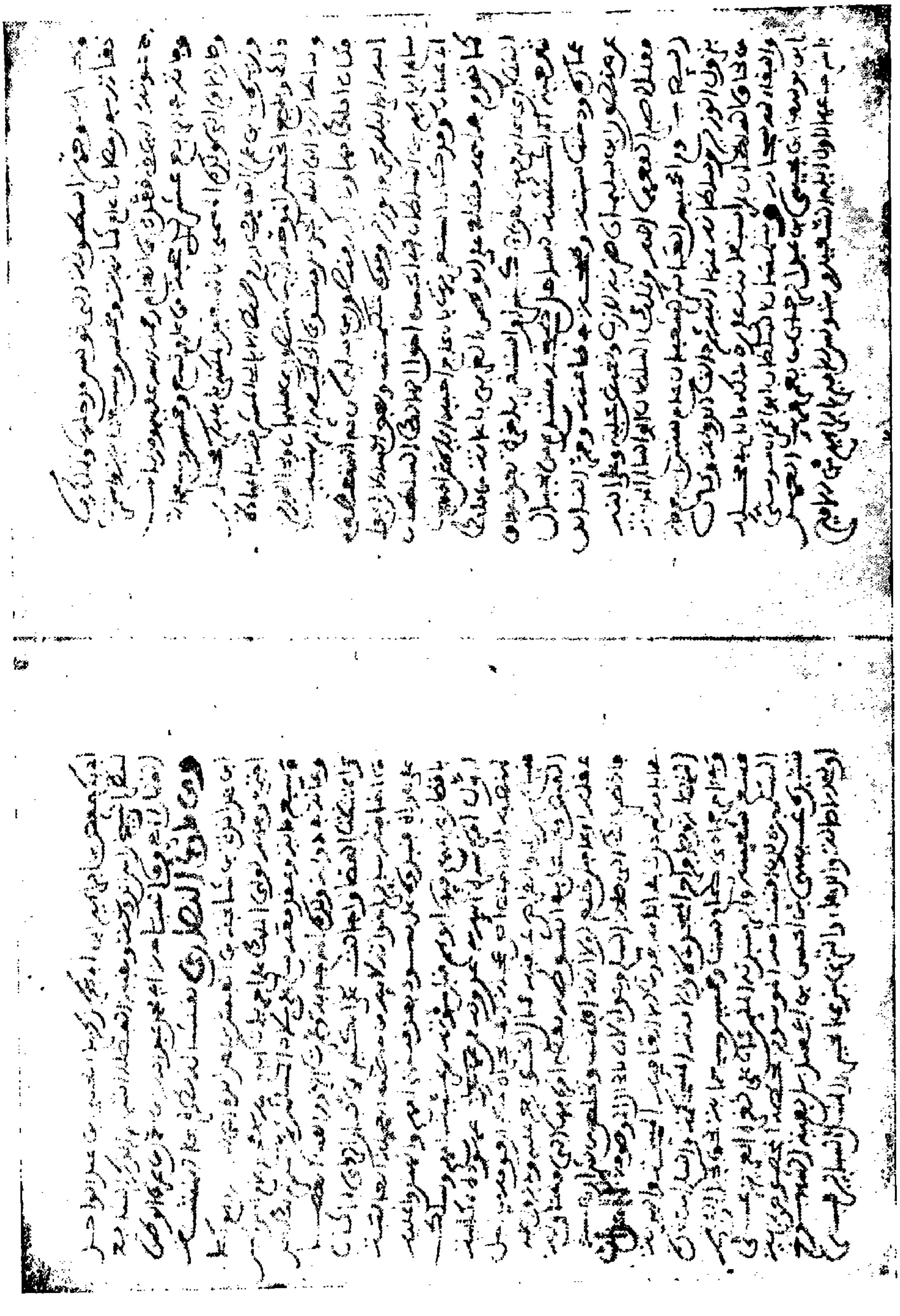
٤ — مخطوط رواق المغاربة بالجامع الأزهر وهو الذى رجعنا إليه فى بعض التراجم التى وردت به بحرفى « ر . م » .

٥ — كذلك سوف نرمز إلى مخطوطى دار الكتب وجاينجوس مجتمعين بكلمة : المخطوطين .

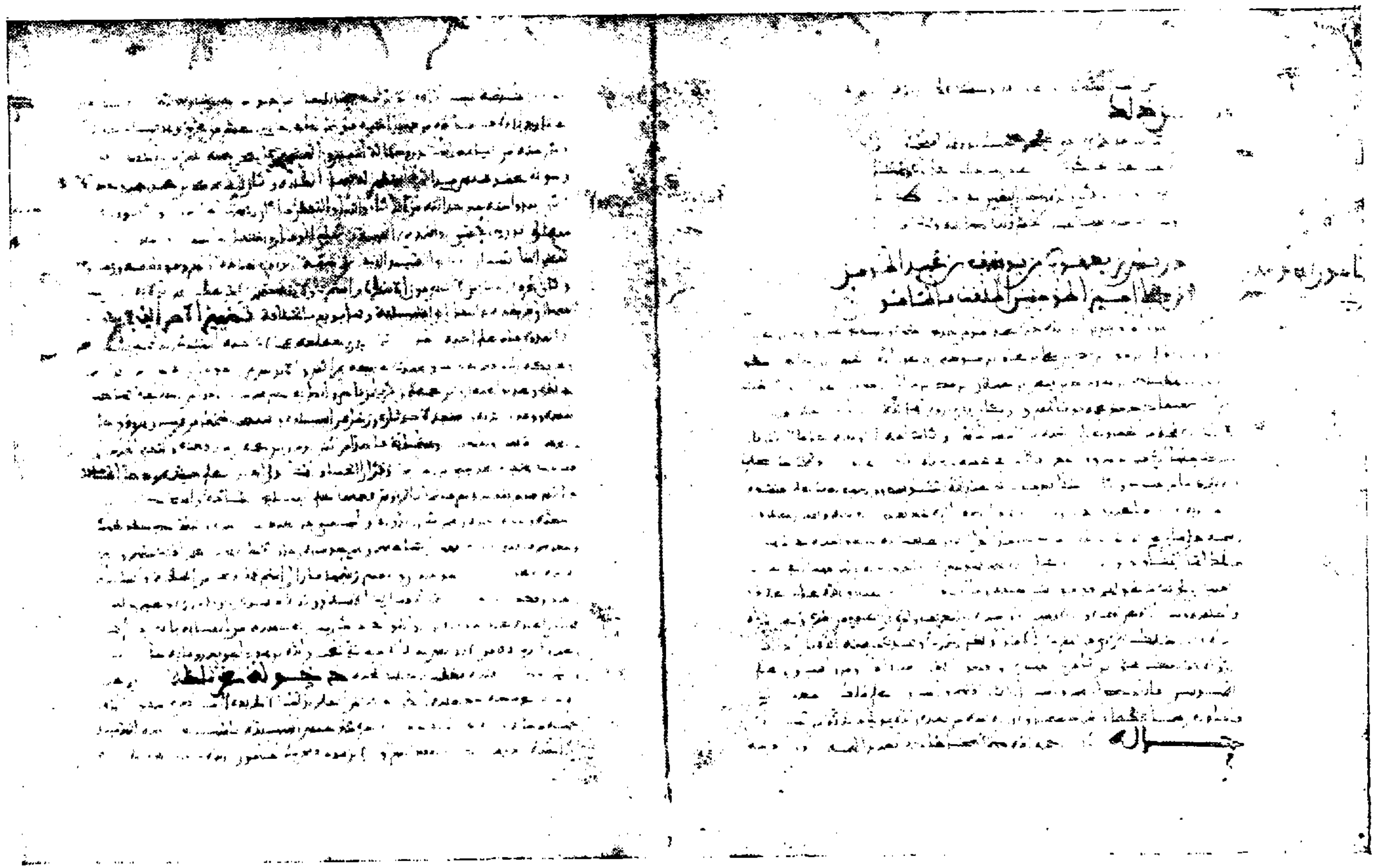
٦ — مخطوط الخزانة الملكية بالرباط بكلمة « الملكية » .



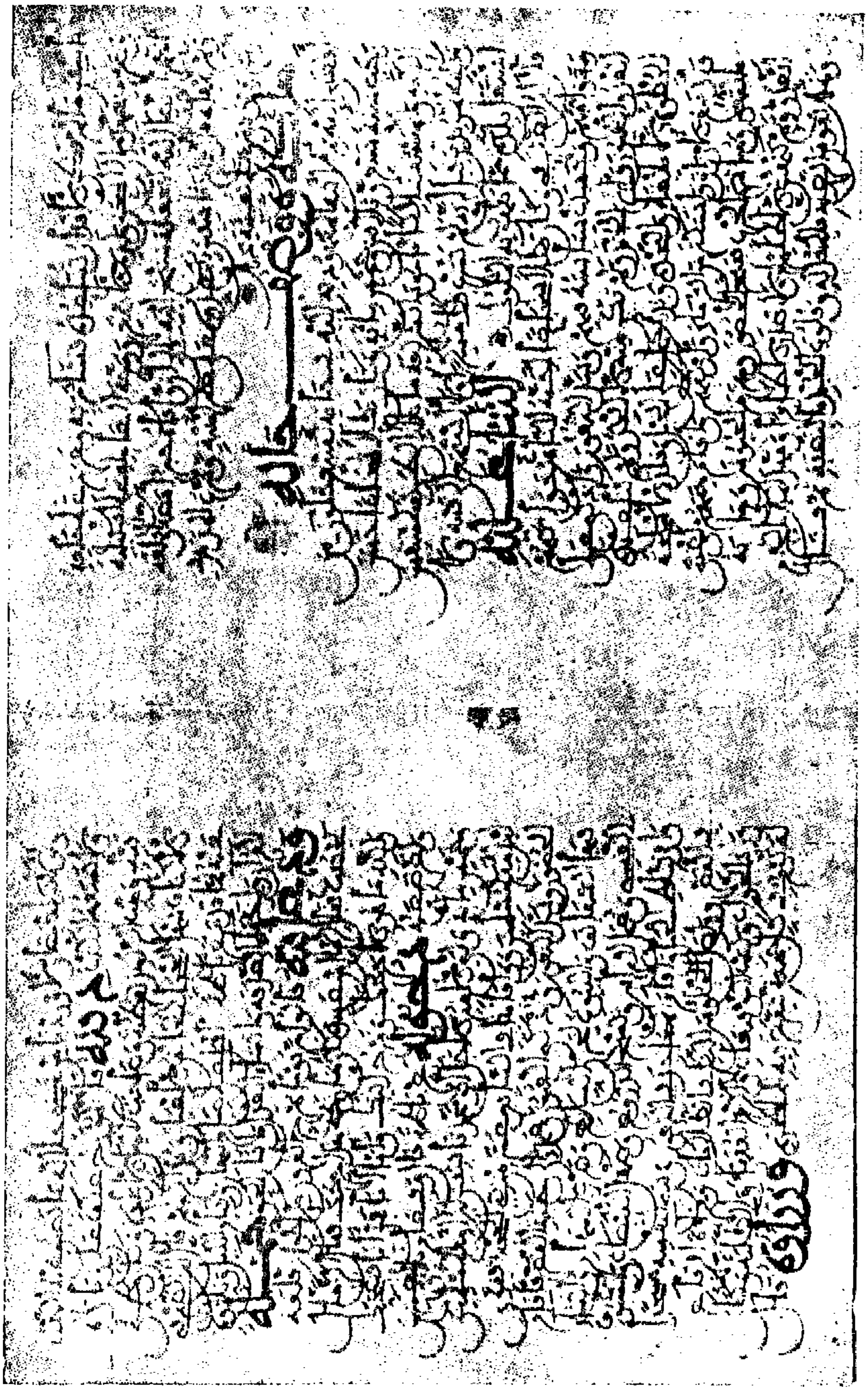
صفحتان من مخطوط « الإحاطة » المحفوظ بأكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة جاينجوس)



صفحتان من الجزء الأول من « الإحاطة » من مخطوط جامع الزيتونة المحفوظ الآن بدار الكتب الوطنية بتونس



صفحتان من مخطوط « الإحاطة » المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط



صفحتان من الأوراق المخطوطة من كتاب « الإحاطة » المحفوظة برواق المغاربة بالجامع الأزهر

الإحاطة
في أخبار غرناطة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله عَلَى سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

[قال الشيخ الأديب البارع ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب السّلمانى][(١)] : أما بعد حمد الله الذى أحصى الخلايق عدَداً ، وابتلاهم اليوم ليَجزيَهم غداً ، وجعل جيادَهم تتسابق فى ميادين الآجال إلى مدًى ، وباينَ بينهم فى الصور والأخلاق ، والأعمال والأرزاق ، فلا يجدون بما قسمَ مَحيصاً ، ولا فيما حكم مُلْتَحداً[(٢)] ؛ وسِعَهُم عِلْمُهُ على تَبايُن أفْراقِهم[(٣)] ، وتكاثُفِ أعدادِهم ، والداً وولداً ، ونَسباً وَبَلَداً ، ووفاةً ومولداً . فمنهم النبيه والخامل ، والحالى والعاطل ، والعالم والجاهل ؛ ولا يَظلِم ربُّكَ أحداً . وجعل لهم الأرض ذَلولا يمشون فى مناكبها ، ويتخذون من جبالها بيوتاً ، ومن متاعها عُدَداً ؛ وخصّ بعض أقطارها بمزايا تدعو إلى الاغتباط والاعتمار[(٤)] ، وتَحُث على السكون والاستقرار ، متبوأً فسيحًا ، وهواءً صحيحاً ، وماء نَميراً ، وامتناعًا شهيراً ، ورزقاً رَغَداً . فسبحان من جعل التَّفاضُل فى المساكن والساكن ، وعرّف العباد عوارف اللطف ، فى الظاهر والباطن ، ولم يترك شيئاً سدى .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى ملأ الكون نوراً وهدى ، وأوضح سبيل الحق ، وكانت طرائق قِدَداً[(٥)] ، أعلى الأنام يدا ، وأشرف الخلق

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فقط فى « ج » .

(٢) ملتحداً ، اى ملجا .

(٣) جمع ، فرق ، أى على اختلاف طوائفهم .

(٤) الاعتمار ، أى الزيارة ، ومنها العمرة أو الحج الأصغر

(٥) قدداً ، أعى متمددة مختلفة .

ذاتا ، وأكرمهم مَحْتِدا ، الذى أنجز الله به من امر [دينه][1] الحقّ موعدا ، حتى بلغت دعوتهُ ما زُوى[2] له من هذا المغرب الأقصى ، فرفعت بكل هَضْبة مَعْلماً ، وبَنَت بكل هَضْبة مسجدا . والرّضى عن آله وأصحابه ، الذين كانوا لسماء سُنّته عُمُدا، لبوث العِدا ، وغيوث النَّدَى، ما أقل ساعدُ يداً ، وعُمرُ بكر خالداً ، ومصباح بداء[فأرق سُهداً][3] فإن الله عز وجهه جعل الكتاب لموارد العلم قَيْداً ، وجوارح اليراع تثير فى السهول الرقاع صيدا ، ولولا ذلك لم يشعر آتٍ فى الخلق بذاهب ، ولا اتصل شاهدٌ بغائب ، فماتت الفضائل بموت أهلها ، وأفَلَت نجومُها عن أعيُن مُجْتَليها ، فلم يُرجع إلى حبر يُنتقل ، ولا دليل يُعقل ، ولا سياسة تُكتَسب ، ولا أصالة إليها يُنتَسب ، فهدى سبحانه وألهم ، وعلّم الإنسان بالقلم[علم][4] ما لم يكن يعلم ، حتى ألفينا المراسم قائمة ، والمراشدَ هادية ، والأخبار منقولة ، والأسانيد موصولة ، والأصول محرَّرة ، والتواريخ مقرَّرَة ، والسير مذكورة ، والآثار مأثورة ، والفضائل من بعد أهلها باقيةً خالدةً ، والمـآثرَ ناطقة شاهدة ، كأن النهارَ القرطاسُ ، والليلَ المدادُ ، ينافسان الليل والنهار ، فى عالم السكون والفساد ، فيما طويا شيئا ولِعاهُما بِنَشْره ، أو دفنا ذكرا دعوا إلى نشره . فلو أنّ لسان الدهر نطق ، وتأمل لهذه المناقضة وتحقق ، لأتى بما شاء من عَتْب ولوم ، وأنشده عليه ماية كل يوم .

ولما كان الفنّ التاريخى مأوب البشر ، ووسيلة إلى ضم النشر ، يعرفون به أنسابهم فى ذلك شرعاً وطبعاً ما فيه ، ويكتسبون به عقل[5] التجربة فى حال السكون والرفيه ، ويستدلون ببعض ما يُبْدى به الدهر وما يخفيه ، ويُرى العاقل

(١) وردت فى « ك » ، وأغفلت فى « ج » .
(٢) زوى ، أى بعد ونحى .
(٣) وردت فى « ت » ، وأغفلت فى « ك » و « ج » .
(٤) وردت فى « ك » فقط .
(٥) هكذا وردت فى « ج » و « ت » ، وفى « ك » (حقل) .

من تصريف قدرة الله تعالى ما يشرح صدره بالإيمان ويَشْفيه ، ويمر على مصارع الجبابرة فيَحْسَبه بذلك واعظاً ويكفيه ، وكتاب الله يتخلله من القصص ما يتمم هذا الشاهدَ لهذا الفن ويُوفيه . وقال الله تعالى : « وكلاًّ نَقُصُّ عليك من أنباء الرُّسُل ما نُثبِّتُ به فؤادك » . وقال عز من قائل : « نحنُ نقصُّ عليك أحسنَ القَصَص بما أوحَيْنا إليك هذا القرآنَ ، وإنْ كنتَ من قَبْله لَمِنَ الغافلين » .

فوَضَح سبيلٌ مبينٌ . وظهر[١] أن القول[٢] بفضله يقتضيه عقل ودين ، وأن بعض المصنفين ، ممن ترك نومه لمن دونه ، وأنْزَفَ ماء شبابه مودعاً إياه بَطْن كِتابه ، يقصُدُه الناس ويَرِدُونه ، اختلفت فى مثل هذا الباب أغراضُهم . فمنهم من اعتنى بإثبات حوادث الزمان ، ومنهم من اعتنى برجاله بعد اختيار الأعيان ، عجزاً عن الإحاطة بهذا الشان ، عموماً فى أكثر الأقطار ، وخصوصاً فى بعض البُلْدان . فاستهدَف إلى التعميم فرسانُ الميـدان ، وتوسعوا بحسب مادة الاطلاع وجهد الإمكان ، وجنَح إلى التخصيص الأولويّةُ بحسب ما يخصه من المكان ، ويلزمه من حقوق السكان ، مغرماً برعاية عهود وطنه ، وحُسن العهد من الإيمان ، بادئاً بمن يعوله كما جاء فى الطرق الحسان . فتذكرتُ جملةً من موضوعات[٣] من أفرد لوطنه تاريخاً هَزَّ إليهـا — علم الله — وفاء وكرمٌ ، ودار عليها ، بقول الله من رحمته الواسعة ، حرم ؛ كتاريخ مدينة بخارى لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الفخار . وتاريخ أصْبَهان لأبى نُعَيم أحمد بن عبدالله الحافظ صاحب الحلية . وتاريخ أصْبَهان أيضاً لأبى زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن قندة الحافظ . وتاريخ نَيْسابُور[٤] للحاكم أبى عبد الله بن البيع ، وذيله لعبد الغافر بن إسماعيل . وتاريخ هَمَذَان

---

(١) هكذا فى « ت » . ووردت (يظهر) فى كل من « ج » و « ك » .
(٢) هذا ما ورد « ك » و « ت » ، وفى « ج » (الفصل) .
(٣) فى « ج » وفى « ك » (موضوعاته) .
(٤) نيسابور : مدينة قديمة من مدن خراسان تقع جنوب غربى طوس ، وكان لها أيام الدولة الإسلامية شأن عظيم ، وإليها ينتسب عدد كبير من العلماء .

لأبى شُجاع شَيْرَوَيه بن شهردار بن شيرويه محمد بن فناخُسرو الديلمى . وتاريخ طبقات أهل شيراز لأبى عبد الله محمد بن عبد العزيز بن القصار . وتاريخ هَراة[١] أظنه لأبى عبد الله الحسن بن محمد الكتبى . وأخبار هراة أيضاً ومن نزلها من التابعين وغيرهم من المحدِّثين لأبى إسحق أحمد بن ياسين الحداد . وتاريخ سَمَرْقَند لعبد الرحمن بن محمد الأرْدِسى[٢] . وتاريخ نَسَف[٣] لجعفر بن محمد المُعَبر المستغفرى . وتاريخ جُرجان[٤] لأبى القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمى . وتاريخ الرَّقَّة لأبى على محمد بن سعيد بن عبد الرحمن القُشَيْرى . وتاريخ بغداد[٥] للخطيب أبى بكر بن ثابت ، وذيله لأبى سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعانى . وأخبار بغداد لأحمد بن أبى طاهر . وتاريخ واسِط لأبى الحسين على بن الطيب الخلافى . وتاريخ من نزل حِمْص من الصحابة ومن دخلها ، ومن ارتحل عنها ، ومن أعْقَب ، ولم يُعقِب ، وحدَّث ولم يحدِّث ، لأبى القاسم عبد الصمد بن سعيد القاضى . وتاريخ دِمَشْق لأبى القاسم على بن الحسن بن عساكر[٦] . وتاريخ مكة للأزْرَقى . وتاريخ المدينة لابن النجّار . وتاريخ مصر لعبد الرحمن بن أحمد بن نواس . وتاريخ الإسكندرية

---

(١) هراة ، أو هرات مدينة قديمة تقع فى شمال غربى أفغانستان ، وإليها ينتسب « الهروى » الرحالة الشهير .

(٢) الأردسى ، نسبة إلى أردستان وهى مدينة فارسية تقع على مقربة من أصبهان ، وقد وردت الكلمة محرفة فى (ت) (الاندلسى) .

(٣) نسف من مدن التركستان ، وتقع جنوب شرقى بخارى فى طريق بلخ ، وقد رسمت محرفة. فى « ت » (نشب) وفى « ج » (نسب) .

(٤) جرجان مدينة فارسية قديمة تقع على مقربة من الطرف الجنوبى الشرقى بحر قزوين وإليها. ينتسب عدد كبير من علماء الحديث واللغة .

(٥) « تاريخ بغداد » للحافظ أبى بكر بن أحمد بن على الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) ، وهو من أضخم التواريخ التى خصصت لمدينة عظيمة ، وقد نشر فى القاهرة سنة ١٩٣١ فى أربعة عشر مجلداً كبيراً .

(٦) «تاريخ مدينة دمشق» تأليف الحافظ أبى القاسم على بن محمد بن هبة الله المعروف بابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) وهو كتاريخ الخطيب البغدادى موسوعة كبرى فى تاريخ دمشق ومن حل بها من الأنبياء والخلفاء والولاة والعلماء والأدباء والشعراء وسائر الأكابر والأعيان على اختلاف طوائفهم . ومنه بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة غير كاملة فى سبعة وثلاثين مجلداً .

لوجيه الدين أبى المظفر منصور بن سليمان بن منصور بن سليم الشافعى . وتاريخ طبقات فقهاء تونس لأبى محمد عبدالله بن إبراهيم بن أبى العبّاس بن خلف التميمى . وعنوان الدّراية فى ذكر من كان فى المائة السابعة ببجاية ، لأبى العباس بن الغبرينى [1] . وتاريخ تلمسان لابن الأصفر . وتاريخها أيضاً لابن هدية . وتاريخ فاس لابن عبد الكريم . وتاريخها أيضاً لابن أبى زرع . وتاريخ فاس أيضاً للقونجى . وتاريخ سَبْتة [2] المسمى بالفنون السّتّة ، لأبى الفضل عياض بن موسى بن عياض تركه فى مسودته . وتاريخ بَلَنْسية لابن علقمة . وتاريخ إلْبِيرة لأبى القاسم محمد بن عبدالواحد الغافقى الملاّحى . وتاريخ شُقُورة لابن إدريس . وتاريخ مالَقة لأبى عبد الله بن عسكر ، تركه غير متمم ، فتممه بعد وفاته ابن أخيه أبو بكر بن خميس . والإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة ، لأبى العباس أصْبَغ بن العباس . والاحتفال فى أعلام الرجال ، لأبى بكر الحسن بن محمد بن مُفَرّج القيسى . وتاريخ قُرْطُبة ، منتخب كتاب الاحتفال . وتاريخ الرؤساء والفقهاء والقضاة بطُلَيْطُلة ، لأبى جعفر بن مظاهر . ومنتخبه لأبى القاسم بن بَشْكُوال . وتاريخ فقهاء قُرْطبة ، لابن حيّان . وتاريخ الجزيرة الخضْراء لابن خَمْسين وتاريخ قامة يَحْصِب المسمى بالطّالع السَّعيد ، لأبى الحسن ابن سعيد . وتاريخ بَقيرة ، لأبى عبد الله بن المؤذن . والدُّرَّة المكنونة فى أخبار أُشْبُونة ، لأبى بكر بن محمد بن إدريس القَرابى العالوسى . ومزيَّة ألمريَّة ، لأبى جعفر أحمد بن خاتِمة من أصحابنا . وتاريخ ألمرية وباجة ، لشيخنا نسيج وحده أبى البركات بن الحاج ، متع الله بإفادته ، وهو فى مُبَيَّضته ، لم يرمها بعد [3] .

فداخلتنى عصبيّة لا تَقدَح فى دين ولا مَنْصِب ، وحَمِيّة لا يُذَمّ فى مثلها مُتعصّب

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة : المعزرى . العقريرى . العفريرى .

(٢) وتضبط أحيانا بالكسر أيضاً .

(٣) رأينا فيما يتعلق بهذه التواريخ الأندلسية ، وهى التى اعتمد ابن الخطيب على كثير منها فى استقاء مادة « الإحاطة » أن نحيل فى التعريف بها وبمؤلفيها إلى الهوامش الخاصة بذلك خلال السياق .

رغبة أنْ يقع سؤالُهم وذكرُهم من فضل الله جناب مُخْصب ، ورأيت أن هذه الحضرة[1] التى لاخفاء بما وفّر الله ، من أسباب إيثارها ، وأراده من جلال مقدارها ، جعلها ثغرَ الإسلام ومتبوّأ العرب الأعلام ، قبيل رسوله ، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وما خصّها به من اعتدال الأقدار ، وجريان الأنهار ، وانفساح الاعتمار[2] ، والتفاف الأشجار . نزلها العربُ الكرام عند دخولهم مختطين[3] ومنقطعين ، وهبّوا بدعوة فضلها مُهْطِعين[4] ، فعمَرُوا وأولدوا ، وأثبتوا المفاخر وخلّدوا ، إلى أن صارت دار مُلْك ، ولبّة[5] سِلك ، فنَبُه المقدارُ وإن كان نبيها ، وازدادت الخِطّة ترفيعاً ، وجلب إلى سوق الملأ بما نفق فيها ، فكم ضمت جدرانُها من رئيس يتّقى الصباحُ هجومَه ، ويتخوّفُ الليلُ طروقه ووجومَه ، ويفتقر الغيثُ لنوائله الممنوحةِ سجُومَه[6] ، وعالم يبرز للفنون فيطيعه عاصيها ، ويدعو بالمُشْكلات فيأخذ بنواصيها ، وعالمٌ بالله قد وَسَم السجودُ جبينه ، وأشعثُ أغبَرُ لو أقسم على الله لأبَرّ يمينه ، وبليغ قد أذعنت لبراعة خطه وشيجةُ[7] الخط ، يغوص على دُرَر البدايع ، فيلقيها من طِرْسه الرائع الشّط ، لم يقم بحقها ممتعضٌ حق الامتعاض ، ولا فرّق بين جواهرها وبين الأعراض . هذا وشُجُر الأقلام مُشْرَعة ، ومكان القول والحمد لله ذو سَعَة ، فهى الحُسْنى التى عدمت الذّام ، وزينة الليالى والأيام ، والهوى وإن قيل كلِفت بمغانيها ، وقصُرت الأيام على معانيها . فعاشق الجمال عذره مقبول ، ولله در أبى الطيب حيث يقول :

ضروب الناس عُشّاقٌ ضُروباً فأعذَرهم أشَفُّهُمُ حبيباً

---

(١) أعنى مدينة غرناطة . « والحضرة » . هى القاعدة والعاصمة .
(٢) يراد بها هنا العمران .
(٣) فى « ك » (محطين) . وفى « ج » (محتطين) . والتصويب أرجح .
(٤) مهطعين ، أعنى مسرعين ومقبلين .
(٥) اللبة هى ماتوسط الصدر.
(٦) سجومه أى هطله .
(٧) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » (وشحية) .

فلست ببدعٍ ممن فُتِن بحب وطن ، ولا بأول ما شاقَهُ منزلٌ فألقى بالعَطَن ، فحب الوطن معجون بطينة ساكنه ، وطرفُهُ مُغرًى بإتمام محاسنه ، وقد نبّه على بن العباس[1] على السّبب ، وجاء فى التماس التّعليل بالعَجَب ، حيث يقول :

وحبّبَ أوطانَ الرجال إليهم مآربُ قضّاها الشّباب هنالكا
إذا ذَكَروا أوطانهم ذَكّرتهم عهودُ الصبا فيها فحنّوا لذالكا

ورميتُ فى هذا المعنى بسهم سديد ، والمَحْتُ بغَرَض إن لم يَكُنْه فليس ببعيد :

أُحبك يا مَغْنَى الجلال بواجب وأقطع فى أوصافك الغُرّ أوقات
تَقَسّم منك التّربَ قومى وجيرتى ففى الظّهْرِ أحياءٌ وفى البطْنِ أموات

وقد كان أبو القاسم الغافقى ، من أهل غَرْناطة ، قام من هذا الغرض بفرض ، وأتى من كله ببعض[2] فلم يَشْفِ من غُلّة ، ولا سدّ خَلّة ، ولا كَثّر قِلّة ، فقمت بهذا الوظيف ، وانتدبت فيه للتأليف ، ورجوت على نزارة حظّ الصّحة ، وازدحام الشواغل المُلِحّة ، أن أضطَلع[3] من هذا القصد ، بالعبء الذى طالما طأطأت له الأكتاد ، وأقف منه الموقف الذى تهيّبته الأبطال الأنجاد ، فاتخذت الليل جَمَلاً لهذه الدأية[4] ، وانتَضَيْتُ غارب العَزْم ونِعْمَت المطيّة ، بحيث لا مُؤانس إلاّ ذُبالٌ يكافح جيش الدّجى ، ودفاترُ تَلْفَحُ الحِجا ، وخواطرُ تبتغى إلى سماء الإجادة معرّجا ، وإذا صَحِب العملَ صدقُ النّية ، أشرقَت من التّوفيق كلُّ ثَنِيّة ،

---

(١) هو على بن العباس بن جريج الشهير فى المشرق بابن الرومى.

(٢) يشير ابن الخطيب هنا إلى أبى القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى المعروف بالملاحى نسبة إلى الملاحة La Mala ، وهى قرية فى جنوب غربى غرناطة ماتزال قائمة حتى اليوم ، وهو مؤلف كتاب « تاريخ علماء إلبيرة » ، وهى عاصمة ولاية غرناطة القديمة .

(٣) وردت فى « ج » وفى « ك » (طلع) وفى ت (اطلع) ، وهو رسم محرف للكلمة (اضطلع) كما هو ظاهر من المعنى .

(٤) وردت المخطوطين : المطية . والطية هى الجهة البعيدة .

وطَلَعت من السَّداد كلُّ غُرَّة سنيّة ، وقد علم الله أنى لم أعتمد منها دُنيا أ.تمنحها ، ولا نَسَمَةَ جاهٍ يُسْتَنْشَق ريحُها ؛ وإنما هو صبح تبيّن ، وحقٌّ رأيته خليٌّ قد تعيّن ، بذلت فيه جَهْدى ، وأقطعتهُ جانب سُهْدى ، ليَنْظِم هذا البلد بمثله ، مما أثير كامِنُه ، وسُطِّرت محاسنُه ، وأنشر بعد الممات جانبه :

وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمـــرو بصاحبك الذى لا تُصبحينا[1]

فلم أدع واحدةً إلا استنجدتُها ، ولا حاشية إلا احتشدتُها ، ولا ضالة إلا انْشَدْتها ؛ والمجتهدُ فى هذا الغرض مقصِّر ، والمطيل مختصر ، إذ ما ذُكر لا نسبة بينه وبين ما أُغفل ، وما جُهل أكثر مما نُقل ، وبحار المدارك مسجورة[2] ، وغايات الإحسان على الإنسان محجورة ؛ ومن أراد أن يوازن هذا الكتاب بغيره من الأوضاع فليتأمّل قصده ، ويثير كامنه ، ويبدى خبائنه[3] ، تتضح له المكرُمة ، ولا تخفَى عليه النَّصَفة ، ويشاهد مجزى السَّيئة بالحسنة ، والإغْراب عن الوصمة والظِنة ، إذ الفاضلُ فى عالم الإنسان ، من عُدِدت سَقَطاته ، فما ظنّك بمفضوله . وللمعاصر مزيّةُ المباشرة ، ومزيد الخبرة ، وداعى التشفى والمقارضة ؛ وسع الجميعَ السّترُ ، وشمِلهم البرُّ ، ونُشِرت جنائزُهم لسَقْى الرحمة ، ومشْيِ الشفاعة ، إلا ما[4] شذّ من فاسق أباحَ الشرعُ حِماه ، أو غادرٍ وسمه الشؤم الذى جناه ، فتختل[5] عرضُه عن تخليد مجد ، وتدوين فخر ، وإبقاء ذكرٍ ، لمن لم يَهُمُّه قط تحقيقُ اسم أبيه ، ولم يعمل لما بعد يومه ، فكم خلّف مما ذكر فيه يجده بين يديه ، شفيعاً فى زلّة ، أو آخذاً بضَبْعٍ[6] إلى رُتبة ، أو قائماً

---

(١) وردت فى « ج » تصحبينا وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٢) أعنى مفعمة فياضة .

(٣) ومعناها « خفاياه » من خبن أى أخفى .

(٤) هكذا وردت فى «ج» و«ك» ، وهو استعمال يؤثره ابن الخطيب . فيضع «ما» مكان «من» .

(٥) وردت فى « ت » (فتتخلل) . وفى « ك » و « ج » (فتتخل) ؛ وما أوردنا أرجح بالنسبة للمعنى .

(٦) وردت فى « ت » و « ج » (أو أخذ بضبع) . وفى « ك » (أخل فيضع) .

عند ضَيْم بحُجَّة ؛ أو عائن يقوم لها مقام متاع ونِحْلَةَ ، أو غريب يَحِلُّ بغير قُطره فيفيده نُحلة ، صاعد خدم قاعداً ونائماً . وقد رضينا بالسلامة عن الشكر ، والإصفاء عن المثوبة ، والنَّصفة عِوَض الحَسْرة ، إذ الناس على حَسَب ما سُطِّر ورُسم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

والترتيب الذى انتهت إليه حيلتى ، وصرفتُ فى اختياره مخيلتى ، هو أنى ذكرت البلدة[1] حاطها الله ، مُنَبِّهاً منها على قديمها ، وطيب هوائها وأديمها ، وإشراق عُلاها ، ومحاسن حُلاها ، ومن سكنها وتولّاها ، وأحوال أناسها ، ومن دال بها من ضُروب القبائل وأجناسها ، وأعطيت صورتها ، وأزحت فى الفَخْر ضرورتها ، وذكرت الأسماء على الحروف المبوّبة ، وفصلت أجناسهم بالتراجم المترتّبة ، فذكرت الملوك والأمراء ، ثم الأعيان والكبراء ، ثم الفضلاء ، ثم القضاة ، ثم المقرئين والعلماء ، ثم المحدّثين والفقهاء ، وسائر الطلبة النجباء ، ثم الكتّاب والشعراء ، ثم العمّال الأثراء ، ثم الزهّاد والصّلحاء ، والصوفيّة والفقراء ، ليكون الابتداء بالمُلْك ، والاختتامُ بالمِسْك ، ولِيُنظَمَ الجميع انتظام السِّلْك ، وكلُّ طبقة تنقسم إلى من سكن المدينة بحكم الأصالة والاستقرار ، أو طرأ عليها مما يجاورها من الأقطار ، أوخاض إليها وهو الغريب أثباج[2] البحار ، أو ألمّ بها ولو ساعة من نهار ؛ فإن كَثُرَت الأسماء نوّعتُ وتوسعتُ ، وإن قلت اختصرتُ وجمعتُ . وآثرت ترتيب الحروف فى الأسماء ، ثم فى الأجداد والآباء ، لشرود الوَفَيات والمواليد ، التى رتبها الزمان عن الاستقصاء ، وذهبت إلى أن أذكر الرجل ونسبه وأصالته وحَسَبه ، ومولده وبلده ، ومذهبه وأنحاله[3] ؛ والفنّ الذى دعا إلى ذكره ، وحليته ومشيَخته ، إن

---

(١) أى غرناطة .

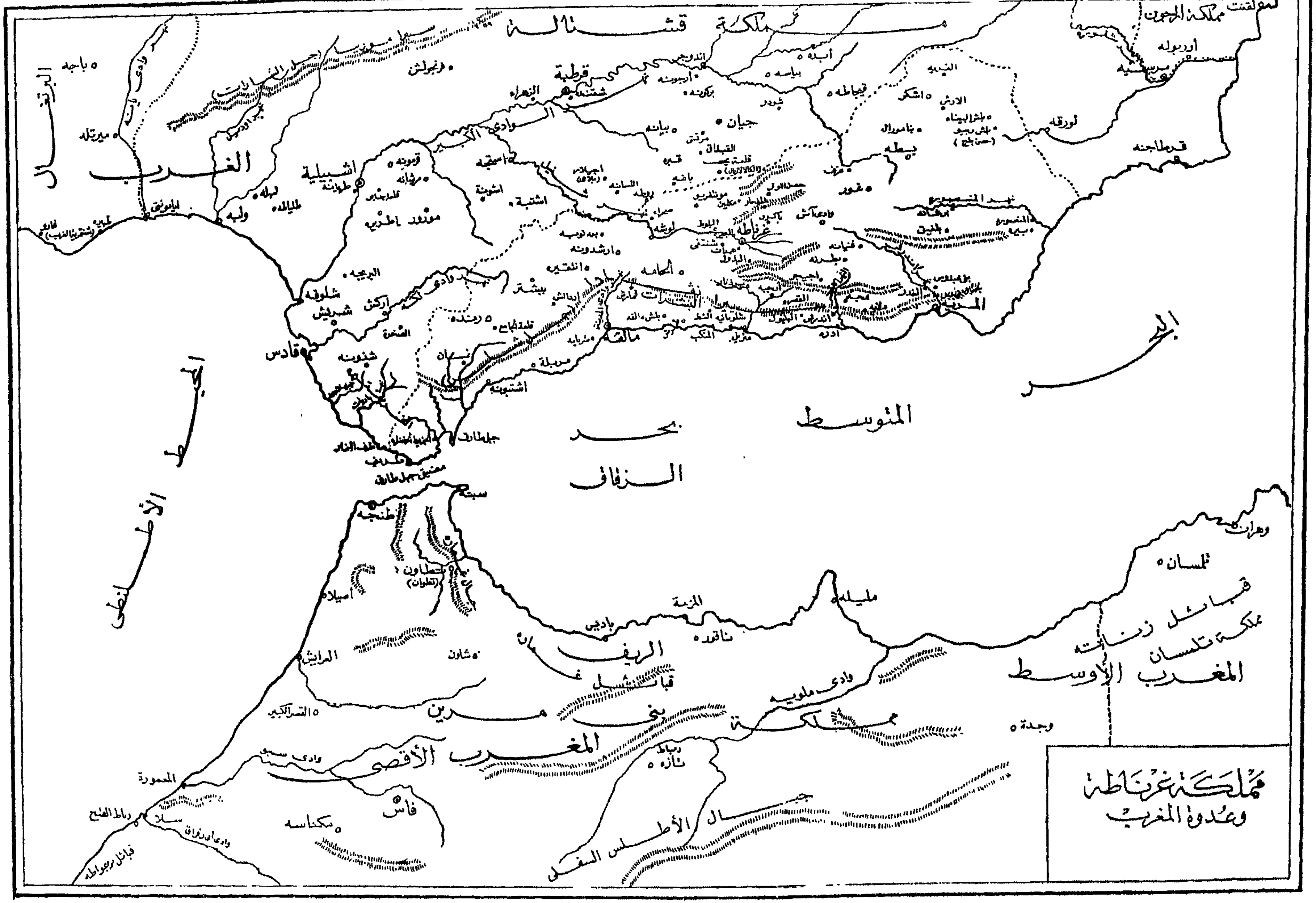
(٢) وردت فى « ك » و « ج » (اتباج) . وفى « ت » (أشباج) . والاثباج جمع ثبج ؛ وثبج البحر وسطه ومعظمه .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وقد رسمت محرفة فى « ك » (وانحى له) .

كان ممن قيّد علماً أو كتَبَه ، ومآثره إن كان ممن وصل الفضل بسببه ، وشعره إن كان شاعراً ، وأدبه وتصانيفه ، إن كان ممن ألف فى فن أو هَذّبه ، ومحنته إن كان ممن بزّه[1] الدهر شيئاً أو سلبَهَ ، ثم وفاته ومُنقلبه ، إذ استرجع الله من منحه حياته ما وهبه .

وجعلت هذا الكتاب قسمين ، ومشتملاً على فَنَّين : القسم الأول ، « فى حُلى المعاهد والأماكن ، والمنازل والمساكن » . القسم الثانى ، « فى حُلى الزائر والقاطن ، والمتحرك والساكن » .

(١) بزه أى سلبه .


مملكة غرناطة
وعدوة المغرب
مملكة قشتالة
البرتغال
الغرب
المحيط الأطلنطي
بحر الزقاق
البحر المتوسط
المغرب الأقصى
مملكة بني مرين
المغرب الأوسط
قبائل زناتة
مملكة تلمسان
قبائل غمارة
الريف
جبال الأطلس السفلى
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
مالقة
المرية
جيان
قادس
سبتة
طنجة
فاس
تلمسان
وهران
مليلية
قرطاجنة
لورقة
مرسية
اوريولة
جبل طارق
بسطة
وادي ملوية
وجدة
مكناسه
سلا
تازه
باديس
أصيلا

القسم الأوّل

في حُلى المعَاهد والأماكِن وَالمنَازل والمسَاكِن

فصـــل

فى اسم هذه المدينة

ووضعها على إجمال واختصار

يقال غَرناطة ويقال إغرَناطه(1)، وكلاهما أعجمى، وهى مدينة كُورَة إلبيرة(2)، فبينهما فرسخان(3) وثلثا فرسخ . وإلبيرة من أعظم كُوَر الأندَلُس، ومتوسطة(4) ما اشتمل عليه الفتح من البلاد، وتسمى فى تاريخ الأمم السالفة من الرّوم، سَنَام الأندلس، وتُدعى فى القديم بقَسْطيليّة(5) . وكان لها من الشُّهرة والعمارة، ولأهلها من الثروة والعُدّة، وبها من الفقهاء والعلماء، ما هو مشهور . قال أبو مروان

---

(١) اختلفت آراء الباحثين فى أصل هذه التسمية . فيرى البعض أن اسم غرناطة يرجع إلى عهد الرومان وأنه مشتق من الكلمة الرومانية (اللاتينية) Granata، ومعناها « الرمانة »، وأنها سميت كذلك لجمالها وكثرة حدائق الرمان التى كانت تحيط بها (العلامة زيبولد فى Ency. de L'Islam تحت كلمة Grenade) . وهذا ما يقرره الجغرافيون العرب إذ يقولون إن معنى غرناطة « الرمانة » بلسان عجم الأندلس، سمى البلد بذلك لحسنه (راجع معجم ياقوت تحت كلمة غرناطة . طبع القاهرة ج٦ ص٢٨١) ويرى المستشرق الإسبانى سيمونيت فى ذلك رأياً آخر، إذ يقول إن المرجح أن الاسم يرجع إلى عهد القوط، وإنه مزيج من كلمة « ناطة »، وهو اسم قرية قديمة كانت تقع على مقربة من إلبيرة و « غار » وهو المقطع الذى أضافه إليها المسلمون فصارت غرناطة، أو سماها البربر كذلك عند نزولهم بها . وهو اسم لإحدى قبائلهم .

(راجع .Simonet: Descripcion del Reino de Granada (Granada 1872). p. 40& 41)

(٢) إلبيرة، وبالإسبانية Elvira هى مدينة رومانية قديمة . وكانت تسمى على عهد الرومان Illbaris . وكانت عاصمة الولاية التى تسمى بهذا الاسم . ولما فتح المسلمون الأندلس كانت إلبيرة مدينة كبيرة عامرة، وإلى جانبها محلة « غرناطة » الصغيرة . ثم تطور الزمن، وعفت إلبيرة وخربت . ونمت غرناطة، وأصبحت منذ القرن الخامس الهجرى قاعدة الولاية . ثم غدت عاصمة لمملكة غرناطة .

(٣) الفرسخ مسافة تقدر بثلاثة أميال، والميل عند البعض ثلاث آلاف ذراع . وعند البعض الآخر أربعة آلاف .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » (موسطة) .

(٥) هذا رأى ابن الخطيب . ولكن المستشرق سيمونيت يرى أن قسطيلية هذه، وأصلها اللاتينى Castellum كانت حصناً يقع على مقربة من إلبيرة . ومعناها القشتالى Castella .

(راجع .Simonet, ibid. p.31)

ابن حيّان[١] : كان يجتمع بباب المسجد الجامع من إلبيرة خمسون حَكَمَة[٢] كلها من فِضّة لكثرة الأشراف بها . ويدل على ذلك آثارُها الخالدة ، وأعلامُها الماثلة ، كمثل مسجدها الجامع ، الذى تحامى استطالة البِلَى ، كَبِلت عن طمْس معالمه أكُفُّ الرّدى ، إلى بلوغ ما فُسح له من المَدَى .

بناه الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ، أمير المؤمنين الخليفة[٣] بقُرْطُبة رحمه الله ، على تأسيس حَنَش بن عبد الله الصَّنعانى الشافعى رحمه الله ، وعلى محرابه لهذا الوقت : « بسم الله العظيم ، بُنيت لله ، أمر ببنائها الأمير محمد بن عبد الرحمن ، أكرمه الله ، رجاء ثوابه [العظيم][٤] ، وتوسيعاً لرعيته ، فتمّ بعون الله على يدى عبد الله [بن عبد الله][٥] عامِله على كُورَة إلْبيرة فى ذى قعدة سنة خمسين ومائتين » .

ولم تزل الأيام تخيف ساكنها ، والعَفاء يَتَبَوّأ مساكنها ، والفتن الإسلامية

---

(١) أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبى (٣٧٧-٤٦٩ هـ) من أعظم مؤرخى الأندلس . وقد اشتهر بنوع خاص بكتابه «المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس» وقد انتهت إلينا منه عدة قطع مخطوطة أكبرها وأهمها قطعة ضخمة تشمل السفر الخامس وتتعلق بعصر الناصر لدين الله ، وتوجد بالخزانة الملكية بالرباط . وقطعة كبيرة أخرى توجد بخزانة القرويين الكبرى بفاس ، وتشمل معظم السفر الثانى ، وتتضمن حوادث سنى (٢٣٣- ٢٦٧هـ) وقد نشرت محققة بعناية الدكتور محمود على مكى (القاهرة ١٩٧١) وقطعة توجد بالمكتبة البودلية بأكسفورد وتشمل السفر الثالث وقد نشرت بعناية المستشرق الإسبانى أنتونيا (باريس ١٩٣٧) وهى تتعلق بحوادث عصر الفتنة الكبرى (٢٥٠ - ٣٠٠ هـ) وتوجد قطعة أخرى بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد تتعلق بحوادث سنى ٣٦٢ - ٣٦٤هـ وقد نشرت بعناية الأستاذ عبد الرحمن الحجى (بيروت ١٩٦٥) .وله مؤلفات كثيرة أخرى لم تصل إلينا . ويمتاز ابن حيان بأسلوبه النقدى القوى ونظراته الصائبة .(راجع كتابنا : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية - الطبعة الثانيةص ٢٧١ - ٢٨٢) .

(٢) هى قصبة توضع فى فم الدابة لتذليلها وكبح جماحها .

(٣) التعبير هنا عن أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (توفى سنة ٢٧٣ هـ) بأمير المؤمنين والخليفة هو مبالغة أو تجاوز ، لأن الخلافةالأموية لم تقم بالأندلس إلابعد ذلك بنحو نصف قرن فى عهد عبد الرحمن الناصر .

(٤) زائدة فى «ج» .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى «ك» . وساقط فى «ج» .

مجُوس أماكنها ، حتى شملها الخراب ، وتقسّم قاطنها الاغتراب ، وكلُّ الذى فوق التُّراب تُراب . وانتقل أهلها مدة أيام الفتنة البربرية[1] سنة أربعمائة من الهجرة ، فما بعدها ، ولجأوا إلى مدينة غرْناطة ، فصارت حاضرة الصُّقع ، وأمّ المصر ، وبيْضة ذلك الحَق ، لحصانة وضْعِها ، وطيب هوائها ، ودُرُور مائها ، ووُفور مَدَّتها ، فأمِن فيها الخائف ، ونُظِم النَّشر ، ورسخت الأقدام ، وتأثَّل المِصرُ ، وهلمَّ جرًّا . فهى بالأندلس ، قُطْب بلاد الأندلس ، ودار المُلْك ، وقرَى الإمارة ، أبقاها الله مُتبوَّأ الـكلمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بقدرته .

من « كتاب إلبيرة »[2] . قال ، بعد ذكر إلبيرة ، وقد خلفها بعد ذلك كله مدينة غرْناطة من أعظم مدنها وأقدمها ، عندما انقلبت العمارة إليها من إلبيرة ، ودارت أفلاكُ البلاد الأنْدلُسية ، فهى فى وقتنا هذا قاعدة الدُّنيا ، وقرارةُ العَلْيا ، وحاضرة السلطان ، وقُبَّة العدل والإحسان . لا يَعْدِلها فى داخلها ولا خارجها بلد من البُلْدان ، ولا يُضاهيها فى اتساع عمارتها ، وطيب قرارتها ، وطنٌ من الأوطان . ولا يأتى على حَصْر أوصاف جمالها ، وعَدِّ[3] أصناف جلالها ، قلمُ البيان . أدام الله فيها العزَّ للمسلمين والإسلام ، وحرَسها ومن اشتملت عليه من خلفائه ، وأنصار لوائه ، بعَيْنه التى لا تنام ، ورُكنِه الذى لا يُرام .

وهذه المدينة من مَعْمُور الإقليم الخامس ، يبتدىء من الشرق ، من بلاد يَأْجُوج ومأجوج ، ثم يمرُّ على شمال خُراسان ، ويمرُّ على سواحل الشأم ، مما يلى الشمال ،

---

(١) ثارت الحرب الأهلية بالأندلس عقب سقوط الدولة العامرية فى سنة ٣٩٩ هـ بين أمراء بنى أمية ، وظاهر البربر أحدهم وهو سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر . فزحفوا على الزهراء واقتحموها وخربوها ، ثم حاصروا قرطبة حتى سقطت فى أيديهم ، وارتكبوا فيها رائع السفك والإثم (سنة ٤٠٣ هـ) واستولى زعماؤهم على معظم قواعد الأندلس الجنوبية ومنها غرناطة . وقامت من ذلك الحين دول الطوائف .

(٢) هو كتاب « تاريخ علماء إلبيرة » لأبى القاسم الملاحى الذى سبقت الإشارة إليه .

(٣) وردت فى المخطوطين (ك و ج) ، « عن » وهو تحريف . والمعنى يستقيم بالتصويب .

وبَرٌّ على بلاد الأندلس ، قُرْطبة وإشبيلِيَة وما والاها إلى البحر المحيط الغربى . وقال صاعدُ بن أحمد فى كتاب « الطَّبَقَات »[(١)] إنَّ مُعْظم الأندلس فى الإقليم الخامس ، وطائفةٌ منها فى الإقليم الرابع ، كمدينة إشبيلية ، ومالَقَة ، وغرْناطة ، وألْمَرِيَّة ومُرْسية[(٢)] .

وذكر العلماء بصناعة الأحكام أنّ طالعها الذى اختُطَّت به السَّرَطان[(٣)] ، ونحلوها[(٤)] ، لأجل ذلك ، مزايا ، وحظوظاً من السعادة ، اقْتَضاها تَسْيير أحكام القِرَانات الانتقاليَّة على عهد تأليف هذا الموضع .

وطولها سبع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضُها سبع وثلاثون درجة وعشر دقائق . وهى مساوية فى الطول بأمر يسير لقُرْطُبة ، ومَيُورْقَة ، وألْمَرِيَّة ، وتقرُب فى العَرْض من إشبيلِيَة ، وألْمَرِيَّة ، وشاطِبة وطُرْطُوشة ، وسَردانية ، وأنطاكِية ، والرَّقَّة . كل ذلك بأقل من درجة . فهى شامِيَّةٌ فى أكثر أحوالها ، قريبة من الاعتدال ، وبينها وبين قرطبة ، أعادها الله تعالى ، تسعون ميلا[(٥)] . وهى منها بين شَرْق وقِبلة . وبحر الشَّأم[(٦)] يحول[(٧)] ويحاجز بين الأندلس وبلاد العُدْوَة[(٨)] ،

---

(١) هو أبوالقاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد القرطبى . ولد بألمرية سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) ودرس على الفيلسوف ابن حزم ، وولى القضاء بطليطلة . وسما ذكره فى ظل دولة بنى ذى النون . وتوفى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) . واشتهر بكتابه : « التعريف بطبقات الأمم » . وهو مختصر جغرافى ، ومنه نسخة خطية فى المتحف البريطانى (ترجمته فى الصلة لابن بشكوال رقم ٥٣٥)

(٢) وردت فى المخطوطين : المرسية .

(٣) هكذا فى « ج » . ووردت محرفة فى « ك » : السطران .

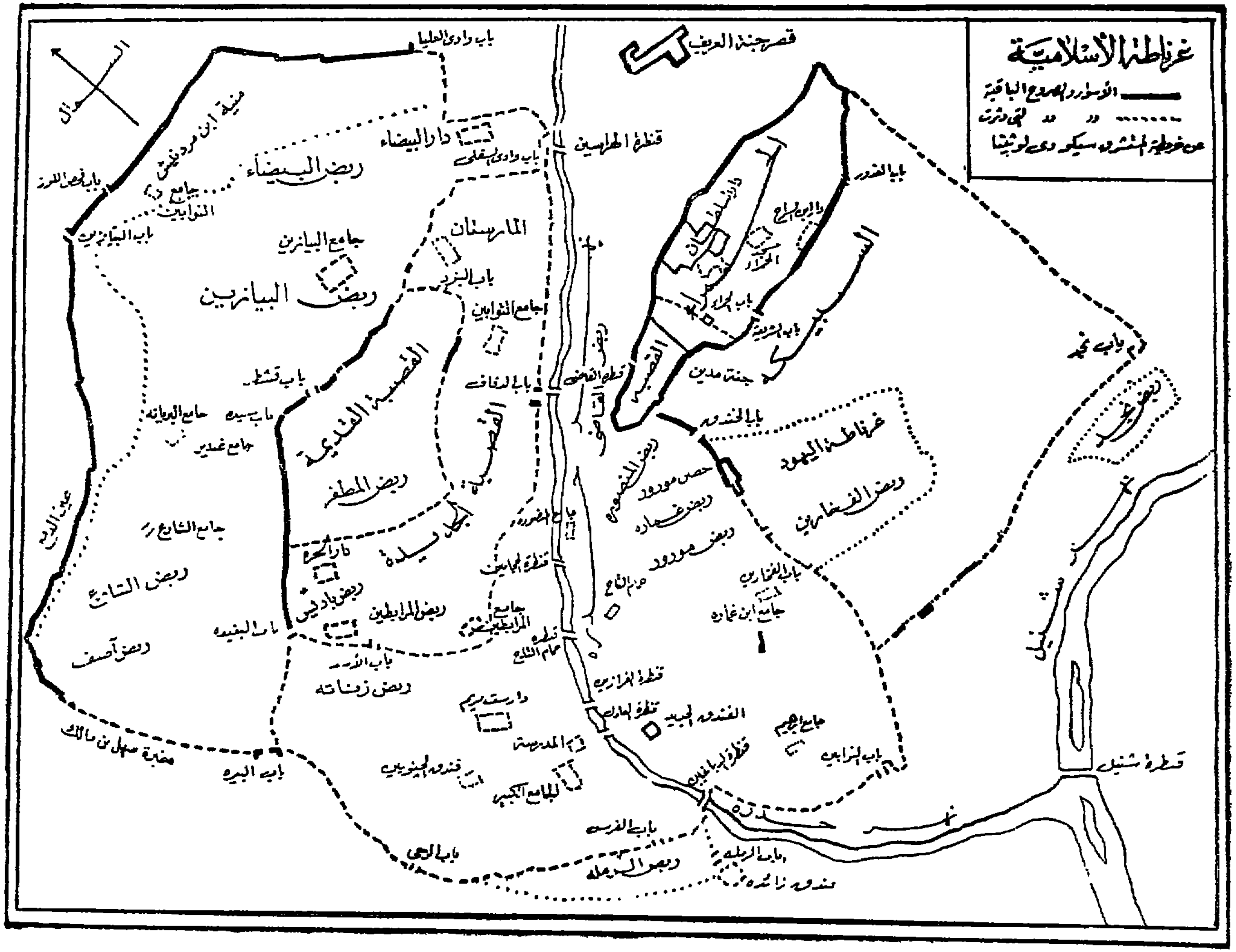
(٤) وردت فى المخطوطين : ويحلوها . والتصويب من « ت » .

(٥) الميل عند العرب ثلاثة آلاف ذراع . والمسافة بين غرناطة وقرطبة وفق التقدير الحديث نحو مائة وخمسين كيلومترا .

(٦) بحر الشام أعنى البحر الأبيض المتوسط .

(٧) وردت فى المخطوطات الثلاثة (ج وك وت) : يحال وهو تحريف .

(٨) أعنى . عدوة المغرب ، أو ما وراء الضفة الأخرى من البحر المقابلة للأندلس .



غرناطة الإسلامية
الأسوار والصروح الباقية
« « التي درست
عن خريطة المستشرق سيكو دي لوثينا
الشمال
قصر جنة العريف
باب وادي العليا
دار البيضاء
قنطرة الطراسين
باب وادي بيتلي
ربض البيضاء
منية ابن مردنيش
جامع التوابين
باب فحص اللوز
باب البيازين
جامع البيازين
ربض البيازين
المارستان
باب البنود
جامع التوابين
القصبة القديمة
باب قشتر
باب سيد
جامع العوانة
جامع غدير
باب الدفاف
القصبة
ربض المطفر
عين الدمع
جامع الشابع
ربض الشابع
دار الحرة
ربض باديس
ربض المرابطين
قنطرة الحاجب
باب البنيدة
ربض آصف
باب الأسد
ربض زناته
جامع المرابطين
حمام الثلج
قنطرة القاضي
دار السلطان
الحمراء
باب الطباق
باب الشريعة
باب الغدور
السبيكة
جنة مدين
باب نجد
باب الحندوق
غرناطة اليهود
ربض الفخارين
ربض المنصورة
حصن مورور
ربض غمارة
ربض مورور
باب الفخارين
جامع ابن غمارة
قنطرة الزرايين
قنطرة العدل
الفندق الجديد
جامع الجيم
دار سند ريم
المدرسة
فندق الجنويين
الجامع الكبير
باب الرملة
باب الرخي
باب البيرة
مقبرة سهل بن مالك
ربض الرملة
فندق زائدة
قنطرة باب الرملة
باب المرابعين
قنطرة شنيل
نهر شنيل
نهر حدرة

وبين غرب وقبلة على أربعة بُرُد[١] . والجبال بين شرق وقبلة ، والبراجلات[٢] بين شرق وجوف ، والكنبانية[٣] بين غرب وقبلة ، وبين جوف وغرب ، فهى لمكان جوار الساحل ، ممارة بالبواكر الساحلية ، طيبة[٤] البحار ، وركاب لجهاد البحر[٥] ، ولمكان استقبال الجبال ، المقصودة بالفواكه المتأخرة اللحاق ، معللة بالمدخرات ، استدبار الكنبانية واضطبار البراجلات ؛ بحر من بحور الحنطة ، ومعدن للحبوب المفضلة ، ولمكان شُلّير ، جبل الثلج[٦] ، أحد مشاهير جبال الأرض ، الذى ينزل به الثلج شتاء وصيفاً ، وهو على قبلة منها على فرسخين ؛ وينساب منه ستة وثلاثون نهراً من فوهات الماء ، وتنبجس[٧] من سفوحه العيون ، صحّ منها الهواء ، واضطردت فى أرجائها وساحاتها المياه ، وتعددت الجنات بها والبساتين ، والتفت الأدواح ، وشمّر الروّاد على منابت العشب فى مظانّ[٨] العقار مستودعات الأدوية والترياقية . وبردها لذلك فى المنقلب[٩] الشتوى شديد ، وتجمد بسببه الأدهان والمائعات ، ويتراكم بساحاتها الثلج فى بعض السنين ، فجسوم

(١) جمع بريد وهو مقياس للمسافة الطويلة ويقدرة العرب باثنى عشر ميلا .

(٢) البراجلات جمع برجيلة وهو تحريف للكلمة الإسبانية Parcela ، أى قطعة من الأرض ، والمقصود به هنا الأراضى الخشنة المقفرة .

(٣) رسمت هذه الكلمة فى « ت » (الكنباقية) وفى « ك » (الكنباققة) وفى « ج » (الكنباقة) وهى كلها صور محرفة . وصوابه (الكنبانية) وهى كلمة مشتقة من كلمة Campo القشتالية ، ومعناها هنا البسيط أو السهل من الأرض .

(٤) هكذا فى « ت » . وفى « ج » و « ك » ، طيه . (٥) فى « ت » ، البحرية .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة « شير » وهو تحريف . ويطلق الجغرافيون الأندلسيون اسم شلير » أو جبل الثلج على جبال سيرا نفادا الشهيرة التى تشرف على مدينة غرناطة بآكامها العالية من الجنوب الشرقى . وشلير محرفة عن اللاتينية Solarius أو Solarus ومعناه جبل الشمس . وذلك لأن الشمس تسلط أشعتها الساطعة على هذه الجبال فينعكس ضوءها على الثلوج الناصعة التى تغطيها . وسميت أيضاً بجبل الثلج ، وهو ترجمة عربية مطابقة لاسمها القشتالى Sierra Nevada أى الجبال الثلجية

(٧) أى تتفتح وتسيل . وقد وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة .

(٨) هكذا فى « ك » . وفى « ج » مكان . والأولى أرجح .

(٩) هكذا فى « ج » . وفى « ت » المنقف .

أهلها لصحّة الهواء صُلْبَة ، وسِحانهم خَشِنة ، وهُضُومهم قويّة ؛ ونفوسهم لمكان الحَر الغريزى جَرِيّة[١] .

وهى دارُ مَنَعَة وكرسى مُلْك ، ومقامُ حَصانة.وكان ابن غانية[٢] يقول للمرابطين فى مرض موته[٣] ، وقد عوّل عليها للامتساك بدعوتهم : الأنْدَلُس دَرَقَةٌ ، وغَرْناطة قَبْضَتُها ؛ فإذا جَشَّمتم يامعشر المرابطين القَبْضة ، لم تخرج الدرقة من أيديكم .

ومن أبدع ماقيل فى الاعتذار عن شِدَّة بَرْدها ، ماهو غريب فى معناه ، قول شيخنا القاضى أبى بكر بن شِبْرِين رحمه الله[٤] :

رعى الله من غَرْناطة متبــوأً ... يسُرُّ كئيباً[٥] أو يُجيرُ طريدا
تبرَّم منها صاحبى عندما رأى ... مسارحها بالبَرْد[٦] عُدْنَ جَليدا
هى الثَّغرُ صان الله من أهْلَتْ به ... وما خـــيرُ ثغرٍ لايكون بُرودَا

وقال الرَّازى[٧] عند ذكر كُورَة إلبيرة : ويتصل بأحْواز قَبْرة كورةُ إلبيرة ،

---

(١) أى جريئة .

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن غانية كبير قواد المرابطين فى الأندلس ، حينما اضطرب سلطانهم فيها ، وخرج عليهم معظم الزعماء الأندلسيين ، فى نفس الوقت الذى عبر فيه خصومهم الموحدون البحر إلى الأندلس يريدون افتتاحها (سنة ٥٤٠ ﻫ) . وبذل ابن غانية جهداً فادحاً فى الدفاع عن سلطان المرابطين ، ولكن القواعد الأندلسية خرجت من قبضته تباعاً ، واضطر فى النهاية أن يمتنع بغرناطة التى طوقها الموحدون . وسقط ابن غانية قتيلا فى الموقعة التى تلت بين المرابطين والموحدين ودفن بغرناطة (سنة ٥٤٣ ﻫ)

(٣) وردت فى المخطوطين (مرموته) وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) هو أبوبكر محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن شبرين من شيوخ ابن الخطيب . (٦٧٤ — ٧٤٧ ﻫ) . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد فى الإحاطة .

(٥) وفى نص « حزيناً » (راجع رحلة ابن بطوطة — مصر — ج ٢ ص ١٨٧) .

(٦) وفى نص « بالثلج » (راجع رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٨٧) .

(٧) هوأحمد بن محمد بن موسى الرازى من مؤرخى الأندلس . ولد سنة ٢٧٤ ﻫ . وتوفى سنة ٣٤٤ ﻫ ، (٩٥٥ م) ومن تصانيفه : «أخبار ملوك الأندلس » وكتاب «الإستيعاب فى أنساب أهل الأندلس » . وغيرهما .

وهى بين الشرق والقبلة ، وأرضها سِقي غزيرة الأنهار ، كثيرة الثمار ، ملتفة الأشجار ، أكثرها أدواح الجوز ، ويحسن فيها قصب السكر ؛ ولها معادن جوهرية من ذهب ، وفضة ، ورصاص ، وحديد . وكورة إلبيرة أشرف الكور ، نزلها جند دمشق . وقال: لها من المدن الشريفة مدينة قسطلية ،وهى حاضرة إلبيرة ، وفحصها لا يشبه بشىء من بقاع الأرض طيباً ولا شرفاً إلا بالفوطة ،غوطة دمشق [١]

وقال بعض المؤرخين : ومن كرم أرضنا أنها لا تعدم زريعة بعد زريعة ، ورعياً بعد رعى ، طول العام ؛ وفى عمالتها المعادن الجوهرية من الذهب ، والفضة ، والرصاص ، والحديد ، والتوتية . وبناحية دلاية [٢] من عملها ، عود اليلنجوج ، لايفوقه العود الهندى ذكاً وعطر رائحة . وقد سيق منه لخيران [٣] صاحب المرية أصل كان منبته بين أحجار هناك . وبجبل شلير [٤] منها سنبل فائق الطيب ، وبه الجنطيانا ، يحمل منه إلى جميع الآفاق ، وهو عقير رفيع ، ومكانه من الأدوية الترياقية مكانه [٥] . وبه المرقشيثة على اختلافها ، واللازورد . وبفحصها وما يتصل به القرمز . وبها من العقار والأدوية النباتية والمعدنية [٦] مالا يحتمل ذكرها

---

(١) هو الوادى الخصيب الذى تقع فيه دمشق . قال ياقوت : « والغوطة كلها أشجار وأنهار متصلة . وهى بالإجماع أنزه بلاد الله وأحسنها منظراً » (معجم ياقوت ج ٦ ص ٣٠٤) .

(٢) دلاية هى الآن Dalias الحديثة . وهى بلدة صغيرة تقع غرب المرية فى جنوبى سفح جبال « غدر » Gador ، على مقربة من البحر الأبيض المتوسط .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين (لخيزران) وخيران العامرى هو أحد زعماء الدولة العامرية من الفتيان الصقالبة . نهض عقب سقوط بنى عامر ، وقيام الثورة الأموية فى جماعة من الفتيان العامريين وخصوم بنى أمية وزحف على مدينة المرية واستولى عليها (سنة ٤٠٣ هـ) . وحالف بنى حمود الأدارسة فى البداية ثم انقلب عليهم . ولبث يتقلب بين القوى المختلفة حتى توفى قتيلا فى موقعة نشبت بينه وبين البربر فى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) .

(٤) وردت فى « ج » : شنيل . وهو تحريف ظاهر ، إذ أن شنيل نهر لا جبل .

(٥) وردت بعد هذه الكلمة فى المخطوطين عبارة : (وقد خاطب فيها أبوجعفر المنصور) وهى عبارة مدخولة لامكان لها فى هذا الموطن ولهذا رأينا حذفها .

(٦) فى « ج » المغرانية .

الإيجاز . وكفى بالحرير الذى فَضَلت به فخراً ورِقيتَةً، وغلّة شريفة ، وفائدة عظيمة، تمتارُه منها البلاد ، وتجلبه الرفاق ، وفضيلة لا يشاركها فيها إلا البلاد العراقية . وفحصُها الأفْيَح [1] المُشبَّه بالغُوطة الدمشقية حديثُ الرَّكاب ، وسمر الليالى ، قد دَحاه الله فى بسيط سهل تخترقه المذانب ، وتتخلَّله الأنهار جداول ، وتزاحم فيه القُرى والجَنَّات ، فى ذرْع أربعين ميلًا أو نحوها ، تنْبُو العين فيها عن وجهه ؛ ولا تتخطَّى المحاسن منها إلا مقدار رقعة الهضاب ، والجبال المُتَطامية منه بشكل ثُلثى دارة ، قد عرّت منه المدينة فيما يلى المركز لجهة القِبْلة ، مستندة إلى أطواد سامية ، وهِضاب عالية ،ومناظرَ مُشْرفة : فهى قيدُ البصر ، ومنتهى الحُسْن ، ومعنى الكمال ، أضفى الله عليها ، وعلى من بها من عباده المؤمنين جَناح سَتْره ، ودفع عنهم عدُوَّ الدِّين بقدرته .

---

(١) الفحص أو فحص غرناطة ، وهو مرجها الشهير La Vega de Granada ، وهو البسيط الأخضر الذى تشرف عليه غرناطة من الجنوب الشرقى . وقد كان أيام الدولة الإسلامية من أنضر وأبدع بقاع الأندلس الخضراء ، وكان بمزارعه اليانعة وحدائقه الغناء متنزه الناس المفضل ولا سيما فى ليالى الصيف . وكان مستقى لوحى الشعر والنثر . أما اليوم فقد زالت مغانيه القديمة وقلت خضرته وتخللته الرقاع الجرداء .

فصل

فى فتح هذه المدينة
ونزول العرب الشاميين من جند دمشق بها
وما كانت عليه أحوالهم ، وما تعلق بذلك من تاريخ

قال المؤلف : اختلف المؤرخون فى فتحها . قال ابن القُوطيّة(١) : إن يُلْيان الرُّومى(٢) الذى نَدَب(٣) العرب إلى غزو الأندلس طلباً لوَتْره من مِلكها لُذْريق(٤) بما هو معلوم ، قال لطارق بن زياد مُفتتِحها عند ما كسر جيش الرُّوم(٥) [على وادى لكُّه : قد فضَضتَ جيش القَوْم](٦) ودوَّختَ حاميتهم ، وصيّرت الرعب فى قلوبهم ، فاصمد لبَيْضتهم ؛ وهؤلاء أدلاء من أصحابى ، ففرق جيوشك فى البُلدان بينهم ، واعْمَد أنت إلى طُلَيْطلة بمعظمهم ، وأشْغِل القوم عن النظر فى أمرهم ، والاجتماع إلى ولىِّ رأيهم .

(١) ابن القوطية هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن عيسى بن مزاحم المعروف بابن القوطية ، لانتمائه بطريق النسب إلى سارة القوطية ابنة وتيزا ملك القوط التى أسلمت عند الفتح وتزوجت من أحد أعيان المسلمين ، ولد بقرطبة وتوفى بها سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) وكتب تاريخه المسمى «تاريخ افتتاح الأندلس» . وقد نشر بعناية المستشرق الإسبانى ربيرا مقروناً بترجمة إسبانية.

(٢) يليان الرومى هو الكونت يوليان الشهير فى سيرة فتح الأندلس . وكان وقت أن توغل المسلمون فى المغرب الأقصى وافتتحوا طنجة ، حاكما لثغر سبتة المنيع . وكان يظاهر الحزب الذى يخاصم ردريك ملك القوط يحفزه إلى ذلك عامل الانتقام ، لأن ردريك حسبما تقول الرواية اغتصب ابنته فلورندا التى كانت نزيلة بقصره . فلما اقترب العرب من سبتة اتصل بموسى بن نصير ودعاه إلى فتح الأندلس ، وقدم سفنه إلى العرب ليسهل لهم العبور إليها ، وعاونهم خلال الفتح بمختلف الوسائل .

(٣) فى مخطوط خزانة الرباط الملكية (أندب) .

(٤) لذريق أى ردريك آخر ملوك القوط .

(٥) الروم هنا يقصد بها القوط .

(٦) هذه العبارة ساقطة فى « ك » وواردة استدراكا فى هامش « ج » .

قال : ففرّق طارق جيوشه من إسْتِجّة ، فبعث مُغيثاً الرُّومى ، مولى الوليد ابن عبد الملك بن مروان إلى قُرْطبة ، وبعث جيشاً آخر إلى مالَقَة ، وأرسل جيشاً ثالثاً إلى غَرْناطة مدينة إلْبِيرة ، وسار هو فى معظم الناس [إلى كورة جَيَّان][1] يريد طليطلة . قال فمضى الجيش الذى وجّه طارق إلى مالقة ففتحها ، ولجأ عُلوجها إلى جبال هناك ممتنعة . ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه إلى إلْبيرة ، فحاصروا مدينتها ، وفتحوها عَنْوة ، وألْفوْا بها يهوداً ضموهم إلى قَصَبة[2] غرناطة ، وصار لهم ذلك سُنَّة مُتَّبعة ، متى وجدوا بمدينة فتحوها يهوداً ، يضمُّونهم إلى قَصَبتها ، ويجعلون معهم طائفةً من المسلمين يَسُدُّونها . ثم مضى الجيش إلى تُدْمير .

وكان دخول طارق بن زياد الأندلس يوم الإثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنين وتسعين . وقيل فى شعبان . وقيل فى رمضان ، بموافقة[3] شهر غُشْت من شهور العَجَمية .

وذكر معاوية بن هشام[4] وغيره ، أن فتح ما ذكر تأخّر إلى دخول موسى ابن نصير فى سنة ثلاث وتسعين . فتوجه ابنه عبد الأعلى[5] فى جيش إلى تُدْمير[6] فافتتحها ، ومضى إلى إلْبيرة فافتتحها ، ثم توجّه إلى مالَقَة .

---

(١) هذه الزيادة ساقطة فى « ك » وواردة فى هامش « ج » .

(٢) القصبة أى القلعة وهو استعمال أندلسى ذائع. وكانت القصبة الأندلسية تضم فى معظم الأحيان قصرا للحاكم ومسجداً للصلاة وثكنات للجند . ويوجد حتى اليوم كثير من أطلال القصبات الأندلسية القديمة .

(٣) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » ، موافق . وغشت أعنى أغسطس .

(٤) معاوية بن هشام بن محمد بن هشام ، هو أديب وكاتب قرطبى من سلالة بنى أمية ، عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وكتب كتاباً فى تاريخ الأندلس عنوانه «دولة بنى مروان بالأندلس» . ويكثر ابن حيان من الاقتباس منه .

(٥) لم يرد ذكر عبد الأعلى بن موسى بن نصير كثيراً فى سيرة فتح الأندلس. ولكن ابن الخطيب يقدم لنا فيما بعد فى الإحاطة عنه ترجمة موجزة ، وينقل لنا فيها عن الرازى أنه قام بهذا الفتح .

(٦) تدمير هى إحدى ولايات الأندلس الشرقية القديمة . سميت باسم أميرها والمدافع عنها وقت الفتح تيودمير . ثم غدت بعد ذلك ولاية مرسية .

قال المؤلف رحمه الله : ولما استقرّ مُلك الإسلام بجزيرة الأندلس ، ورمى إلى قصبتها الفتح ، واشرأبَّ فى عَرَصاتها الدِّين ، ونزلت قرطبة وسواها العرب ، فتبوؤوا الأوطان ، وعمَروا البلدان ، فالدَّاخلون على [يد](١) موسى بن نصير [يُسَمَّون بالبَلديِّين](١) والداخلون بعدهم [مع](١) بَلْج بن بشْر القُشَيرى ، يسمَّون بالشَّاميين ؛ وكان دخول بَلج بن بشر القُشيرى بالطَّالعة البَلْجيَّة سنة خمس وعشرين ومائة .

ولما دخل الشاميُّون مع أميرهم بَلج ، حسبما تقرر فى موضعه ، وهم أسود الشَّرى(٢) عزَّة وشهامة ، غُصَّ(٣) بهم السابقون إلى الأندلس ، وهم البَلديُّون ، وطالبوهم بالخروج عن بَلَدهم الذى فتحوه ، وزعموا أنه لا يحملُهم وإياهم ، واجتمعوا لغزوهم ، فكانت الحروب تدور بينهم ، إلى أن وصل الأندلس ، أبو الخطَّار حُسام بن ضِرار الكَلْبى ، عابراً إليها البحر من ساحل تونس ، وأَظَلَّ على قُرْطُبة على حين غفلة ، وقد سَتَر خبر نفسه ، والحرب بينهم ، فانقاد إليه الجميع بحكم عهد مُدينه(٤) حَنظلة ابن صَفْوان والى إفريقية(٥) ، وقبض على وجوه الشاميِّين عازماً عليهم فى الإنصراف حسبما هو مشهور ؛ ورأى تفْريق القبائل فى كُوَر الأندلس ، ليكون أبْعد للفتنة ، ففرَّقهم ، وأقْطعهم ثُلث أموال أهل الذِّمَّة ، الباقين من الرُّوم ، فخرج القبائل الشاميون عن قرطبة .

---

(١) ظاهر من سياق النص أن هناك كلمات ساقطة فى الأصل ، والمرجح أنها هى التى وضعناها بين الحاصرتين ، وبها يستقيم المعنى التاريخى .

(٢) « الشرى » ، جانب الفرات .

(٣) فى المخطوطين . غض .

(٤) فى المخطوطات الثلاثة : مدينة .

(٥) كانت الأندلس عقب الفتح تعتبر ولاية تابعة لإفريقية من الناحية الإدارية . ووالى إفريقية هو الذى يختار حاكمها ، واستمر ذلك معظم عصر الولاة .

قال أبو مروان[١] : أشار على أبى الخطار ، أرطباس[٢] قومس الأندلس[٣] ، وزعيم عجم الذمة[٤] ، ومستخرج خراجهم[٥] لأمراء المسلمين — وكان هذا القومس شهير العلم والدهاء — لأول الأمر ، بتفريق القبائل الشاميين العلمين[٦] عن البلد ، عن دار الإمارة قرطبة ، إذ كانت لا تحملهم ، وإنزالهم بالكور ، على شبه منازلهم التى كانت فى كور شامهم ، ففعل ذلك على[٧] اختيار منهم ؛ فأنزل جند دمشق كورة إلبيرة ، وجند الأردن كورة جيان ، وجند مصر كورة باجة ، وبعضهم بكورة تدمير : فهذه منازل العرب الشاميين ؛ وجعل لهم ثلث[٨] أموال أهل الذمة من العجم طعمة ؛ وبقى العرب والبلديون والبرابر[٩] شركاؤهم ؛ فلما رأوا بلداناً شبه بلدانهم بالشأم ، نزلوا وسكنوا واغتبطوا وكبروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه فى الفتوح على عنائهم موضعاً رضياً ، فإنه لم

---

(١) هو ابن حيان مؤرخ الأندلس ، وقد سبقت الإشارة إليه .

(٢) أرطباس هو الأسقف أوباس أخو الملك وتيزا . وكان مثل الكونت يوليان قد تحالف مع العرب منذ الفتح هو وولدا أخيه ، إيفا وسيزبوت اللذان تسميهما الرواية الإسلامية « ألمند » و« رملة » وقد عينه العرب عقب الفتح حاكماً لطليطلة ورئيساً للنصارى الذين انضووا تحت لواء الفاتحين .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة : « قوس الأندلس» . وهو تحريف ، والصواب «قومس» . والقومس هو الرسم العربى لكلمة Comes اللاتينية ، وهو الزعيم أو الرئيس . وقد أنشأ المسلمون منذ الفتح منصب « القومس » . و«القوامس» وهم زعماء النصارى فى القواعد الأندلسية . ثم تطور المنصب حتى غدا منصباً دينياً ، يليه أسقف أو مطران النصارى يرعى شئونهم الروحية .

(٤) عجم الذمة أو النصارى المعاهدون Los Mozarabes وسنتحدث عنهم فيما بعد .

(٥) وردت فى « ج » و« ك » : مزاحهم . وفى «ت» : مزاجهم : وقد رجحنا التصويب .

(٦) هكذا فى المخطوطات الثلاث : والعلمين نسبة إلى علم ، وهو مكان بالشام .

(٧) وردت فى « ج » (عن) والتصويب من الملكية .

(٨) وردت فى المخطوطات الثلاث : « ثلثا » . والصواب : ثلث كما يتضح ذلك من سياق الكلام بعد .

(٩) يريد البربر . وهو التعبير الصحيح .

يرتحل عنه[1] ، وسكن به مع البلديين . فإذا كان العطاء أو حضر الغزو ولحق بجنده ، فهم الذين كانوا سموا الشادّة حينئذ .

قال أحمد بن موسى : وكان الخليفة يعقد لواءين ، لواء غازياً ، ولواء مقيماً ؛ وكان رزق الغازى بلوائه مائتى دينار . ويبقى المقيم بلا رزق ثلاثة أشهر ؛ [ثم يدال بنظيره[2] من أهله أو غيرهم][3] . وكان الغزاة من الشاميين مثل إخوة المعقود له أو بنيه أو بنى عمه ، يرزقون عند انقضاء غزاته عشرة دنانير ؛ وكان يعقد المعقود له ، مع القائد ؛ يتكشف عمن غزا ، ويستحق العطاء ، فيعطى على قوله تذكرة له ؛ وكانت خدمتهم فى العسكر ، واعتراضهم إليه ؛ ومن كان من الشاميين غازياً من غير بيوتات العقد ، ارتزق خمسة دنانير عند انقضاء الغزو . ولم يكن يعطى أحدٌ من البلديين شيئاً غير المعقود له ؛ وكان البلديون أيضاً يعقد لهم لواءان[4] ؛ لواء غاز ، ولواء مقيم ؛ وكان يرتزق الغازى مائة دينار وازنة ؛ وكان يعقد لغيره إلى ستة أشهر ، ثم يدال بنظيره من غيرهم ؛ ولم يكن الديوان والكتبة إلا فى الشاميين خاصة ؛ وكانوا أحراراً من العشر ، معدين للغزو ، ولا يلزمهم إلا المقاطعة على أموال الروم التى كانت بأيديهم ؛ وكان العرب من البلديين يؤدون العشر ، مع سائر أهل البلد ، وكان أهلُ بيوتات منهم يغزون كما يغزو الشاميون ، بلا عطاء ، فيصيرهم[5]

---

(١) وردت هذه العبارة بالمخطوطات الثلاثة مكررة على النحو الآتى . « وسكنوا واغتبطوا وكبروا ، وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه فى الفتوح على عنائهم ، لم يعرض لهم فى شىء منها . فلما رأوا بلدانا شبه بلدانهم بالشام ، نزلوا وسكنوا واغتبطوا ، وكبروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل لأول قدومه موضعاً رضياً فإنه لم يرتحل عنه » . وقد رأينا أن نحذف الجزء الأول المكرر من هذه العبارة . ونستبقى الصيغة التالية المشابهة والمكملة .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . ووردت محرفة فى « ج » : يديل بنظره .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى « ت » .

(٤) فى « ج » و « ت » : لواءين .

(٥) وردت فى « ج » فيسير بهم ، والتصويب من الملكية .

إلى ماتقدّم ذكره . وإنما كان يُكْتَتَب أهلُ البلد فى الغزو ، وكان الخليفةُ يُخْرِج عسكرين ، إلى ناحيتين ، فيستنزلهم ، وكانت طائفةٌ ثالثة يُسمَّون المنظرَاء من الشاميين والبلَديين ، كانوا يَغْزُون كما يغزو أهل البلد من الفريقين . وقد بينا نبذة من أحوال هؤلاء العرب . والاستقصاء يُخرِج كتابنا عن غرضه . والإحاطةُ لله سبحانه .

ذكر ما آل اليه حال [من] (١) ساكن المسلمين بهذه الكورة من النصارى المعاهدين (٢) على الإيجاز والاختصار

قال المؤلف : ولما استقرَّ بهذه الكُورَة الكريمة أهل الإسلام ، وأنزل الأمير أبو الخطار قبائل العرب الشاميِّين بهذه الكورة ، وأقطعَهم ثُلْث أموال المُعاهدين ،

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطات الثلاث ، ولكنها ضرورية لاستقامة المعنى

(٢) النصارى المعاهدون ، أو المعاهدون ، أو المستعربون ، وبالإسبانية : Los Mozarabes هم النصارى الذين بقوا بعد فتح الأندلس فى المدن والبقاع المفتوحة تحت حكم الدولة الإسلامية . وكانوا يكونون أقليات كبيرة فى القواعد الرئيسية مثل قرطبة وإشبيليه وطليطلة ، ويتمتعون فى ظل الحكومة الإسلامية باستقلال محلى ، ويطبقون شرائعهم القوطية القديمة ، ولهم قضاؤهم الخاص ، ولهم كنائسهم يزاولون فيها شعائرهم الدينية بكل حرية . وكانوا فوق ذلك يتمتعون فى بعض الأحيان بنفوذ قوى ، ويحتل كثير منهم مناصب هامة فى الحكومة والجيش . وقد أنشأت الحكومة الأندلسية اعترافاً منها بأهمية الأقليات النصرانية ، منصب «القومس» للنصارى ليكون مرجعهم الرئيسى فى شئونهم الروحية . وكان القومس من الشخصيات ذات النفوذ ، وكان له فى معظم الأحيان مكانة خاصة لدى الأمير أو الخليفة إذ كان مستشاره فى كل ما يتعلق بشئون النصارى وأحوالهم . ولما نمت هذه الأقليات النصرانية وازدهرت ، بدأت فى مناوأة الحكومة الإسلامية وتدبير الدسائس ضدها ، وكانت عضد الثورات المختلفة فى المدن والمقاطعات الثائرة . ولا سيما طليطلة وما يجاورها من المدن القريبة من حدود النصارى. ومن الغريب أنهم مع بغضهم للإسلام والحكومة الإسلامية ، كانوا يأخذون بقسط وافر من التقاليد والعادات الإسلامية ، وكانوا يتكلمون العربية ويكتبونها ، ويستعملونها فى وثائقهم ومعاملاتهم ، وقد نبغ الكثير منهم فى النظم والنثر . وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ – ٢٣٨هـ) (٨٢٢ – ٨٥٢م) حاول النصارى المعاهدون أن يدبروا فتنة خطيرة لصدع الحكومة الإسلامية ، وعمد بعض القساوسة المتعصبين إلى سب الإسلام والنبى العربى جهراً فى شوارع قرطبة وأمام القضاة الذين يحاكمونهم ، ودفعوا إلى هذا التحدى بعض الفتيات النصرانيات المتعصبات . فقضى على عدد منهم بالإعدام . وازداد النصارى هياجاً وتحدياً ، وكادت تحدث فى قرطبة فتنة مدمرة ، لولا أن تذرعت الحكومة الإسلامية فى إخمادها بمنتهى الحزم والشدة .

ولبث النصارى المعاهدون على كر العصور شوكة فى جانب الحكومة الإسلامية يحاولون إحداث الشغب بكل الوسائل ، ويشجعون كل خلاف وثورة ، ويحالفون المملكة النصرانية الشمالية ، ويستعدونها على الأندلس باستمرار . ولهم فى الأندلس تاريخ طويل ليس هنا موضع استقصائه . ولكن جهودهم كانت على أى حال من أهم العوامل فى إضعاف الحكومة الإسلامية ، وفى تعضيد جهود اسبانيا النصرانية لاسترداد أراضيها المفتوحة من المسلمين . وهذا ما يعتبره المؤرخون الإسبان من وجهة نظرهم أعمال بطولة . ولهذا يخصص العلماء الاسبان لتاريخ «النصارى المعاهدين» مصنفات وبحوثا كثيرة

استمر سُكناهم فى غِمار من الروم ؛ يعالجون فلاحة الأرض ، وعُمران القرى ، يرأسهم أشياخ من أهل دِينهم ، أولو حُنْكة ودهاء ومُداراة ، ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم . وأحَدُهم[1] رجل يُعرف بابن القَـلَّاس ، له شهرة وصيت ، وجاه عند الأمراء بها . وكانت لهم بخارج الحَضْرة ، على غَـلْوَتين[2] ، تجاه باب إلْبيرة[3] فى اعتراض الطريق[4] إلى قُولُجر[5] ، كنيسة شهيرة ، اتخذها لهم أحدُ الزعماء من أهل دينهم ، استرْكبه بعضُ أمرائها فى جيش خَشِن من الروم ، فأصبحت فريدة فى العمارة والحِلية ؛ أمر بهدمها الأمير يوسف بن تَاشُفِين[6] ، لتأكُّد رغبة الفقهاء ،

وقد وضع المستشرق الكبير سيمونيت Simonet فى تاريخ النصارى المعاهدين مؤلفاً ضخماً عنوانه : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) ومن أحدث المؤلفات فى هذا الموضوع كتاب وضعه المستشرق Isidro de las Cagigas عنوانه : Los Mozarabes (Madrid 1947)

(١) وردت فى «ج» وفى الملكية ، وآخرهم .

(٢) الغلوة مقياس مسافة وتقدر بثلاثمائة ذراع أو أربعمائة .

(٣) باب إلبيرة Puerta de Elvira هو من أبواب غرناطة القديمة ، ومايزال قائماً حتى اليوم بقوسه وجانبيه فى الميدان المسمى باسمه ، داخل مدينة غرناطة . وهو الباب الوحيد الذى بقى كاملا وسليما من أبواب سورها الخارجى . بيد أنه توجد من أبوابها الداخلية بضعة أبواب أخرى فى حى البيازين وفى مدينة الحمراء .

(٤) وردت بعد كلمة « الطريق » فى المخطوطات الثلاث كلمات محرفة هذا رسمها : (والعياء يقيق الماء) لا علاقة لها بالسياق ولا بالمعنى فآثرنا تركها .

(٥) هى اليوم بلدة Cuejar Sierra الصغيرة الواقعة على قيد مسافة قليلة من شرقى غرناطة فى اتجاه باب إلبيرة .

(٦) يترجم ابن الخطيب فى نهاية «الإحاطة» ليوسف بن تاشفين المتوفى زعيم المرابطين ومؤسس دولتهم بالمغرب والأندلس المتوفى سنة خمسمائة من الهجرة (١١٠٦ م) . ونكتفى بأن نشير هنا إلى أعظم أعمال حياته وهو عبوره إلى الأندلس نصرة لأمرائها ملوك الطوائف حينما اشتدت عليهم وطأة النصارى ، ولقاؤه مع جيوش الأندلس ، لجيوش النصرانية المتحدة فى سهول الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، وإحرازه عليهم نصره الباهر الذى أنقذت به الأندلس من الفناء ، والذى مد فى حياتها قروناً أخرى .

وتوجه فتواهم . قال ابن الصيرفى(١) : خرج أهل الحضرة لهدمها يوم الاثنين عقب جمادى الآخرة من عام اثنين وتسعين وأربعمائة ، فصيّرت للوقت قاعا ، وذهبت كل يد بما أخذت من أنقاضها وآلاتها . قلت ، ومكانها اليوم مشهور ، وجدارها مائل ينبىء عن إحكام وأصالة ، وعلى بعضها مقبرة شهيرة لابن سهل بن مالك رحمه الله .

ولما تحركت لعدو الله الطاغية ابن رذمير(٢) ريح الظهور ، على عهد الدولة المرابطية ، قبل أن يخضد الله شوكته على إفراغة(٣) بما هو مشهور ، أملت المعاهدة(٤) من النصارى لهذه الكورة إدراك الثرة(٥) وأطمعت [فى](٦) المملكة ،

(١) هو أبو بكر الصيرفى من أكابر علماء غرناطة فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى . عمل كاتباً ووزيراً لأمير المرابطين محمد بن تاشفين الذى حكم الأندلس من سنة ٥٢٠ – ٥٣١ هـ . وألف كتاباً فى تاريخ الدولة المرابطية هو : « الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية » الذى يقتبس ابن الخطيب كثيراً منه . وسوف يترجم له ابن الخطيب فى أواخر « الاحاطة » .

(٢) وردت فى «ك» ، ابن أردمير . وفى «ج» ، ابن درمير . وفى الملكية ابن رذبير . وهذا كله تحريف . وصوابه ابن رذمير . وهو الإسم الذى تطلقه الرواية الإسلامية على ألفونسو الأول ملك أراجون (١١٠٥ – ١١٣٤ م) . نسبة إلى اسم أبيه راميرو . وقد كان ملكاً مقداماً . وهو الذى افتتح سرقسطة من يد المسلمين فى سنة ١١١٨ م ، وانتزع إلى جانبها باقى قواعد الثغر الأعلى . وفى سنة ١١٢٥ م (٥١٨ هـ) خرج بقواته استجابة لتحريض النصارى المعاهدين إلى الغزوة التى يصفها ابن الخطيب فيما يلى .

(٣) كانت مدينة إفراغة Fraga من معاقل الثغر الأعلى . فلما استولى ألفونسو الأول ملك أراجون على معظم قواعده ، سار إلى افتتاح إفراغة سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م) ، وضرب حولها الحصار . ولكن قدمت قوات المرابطين لإنجاد حاميتها بقيادة الأمير يحيى بن غانية . واشتبك المسلمون مع النصارى فى معركة هزم فيها النصارى هزيمة ساحقة ، وفر ألفونسو وتوفى بعد ذلك لأيام قلائل غماً وألماً .

(٤) المعاهدة هم النصارى المعاهدون الذين شرحنا أحوالهم فيما تقدم . وسموا كذلك بسبب المعاهدات التى ارتضى الفاتحون المسلمون عقدها معهم ، وسمح لهم فيها بأن يحتفظوا بدينهم وشرائعهم نظير دفع الجزية المقررة .

(٥) فى «ج» التره . و الثرة : السعة والبسطة .

(٦) ناقصة فى المخطوطين ، ويقتضيها السياق .

فخاطبوا ابن رُذْمير من هذه الأقطار ، وتوالت عليه كُتُبهم وتواترت رسلُهم، مُلحَّة بالاستدعاء مُطْمِعة فى دخول غَرْناطة . فلما أبطأ عنهم ، وجهوا إليه زماماً يشتمل على إثنى عشر ألفاً من أنجاد مُقاتليهم ، لم يَعُدُّوا فيها شيخاً ولا غرّاً ، وأخبروه أن من سمَّوه ، ممن شهرت أعينُهم لقرب مواضعهم ، وبالبُعْد من يخفى أمرُه ، ويَظهرُ عند ورود شخْصه ، فاستأثروا طمعه وابتعثوا جشَعَه ، واستفزّوه بأوصاف غَرْناطة ، وما لها من الفضائل على سائر البلاد وبفَحْصها الأفيح[(١)] ، وكثرة فوائدها من القمح والشعير ، والكتّان ، وكثرة المرافق ، من الحرير والكُرُوم ، والزيتون ، وأنواع الفواكه ، وكثرة العيون والأنهار ، ومَنَعة قُبتّها وانطباع رعيّتها[(٢)] ، وتأتى أهل حاضرتها ، وجمال إشرافها وإطلالها ، وأنها المباركة التى يمتلك منها غيرها ، المسماة سَنام | الأندلس عند |[(٣)] الملوك فى تواريخها ، فرَموا حتى أصابوا غرْبه ، فانتخب وأحشد ، وتحرك أول شعبان من عام خمسة عشر وخمسمائة[(٤)] وقد أخفى مذهبه ، وكتم أرَبه ، فوافى بلنْسية ، ثم إلى مُرْسية ، ثم إلى بيرَة ، ثم اجتاز بالمَنْصُورة ثم إنحدَر إلى بُرْشانه[(٥)] ، ثم تلَوّم إلى وادى ناطلة[(٦)] ، ثم تحرك إلى بَسْطَة[(٧)] ، ثم إلى وادى آش[(٨)] ، فنزل بالقرية المعروفة

(١) هو مرج غرناطة الشهير La Vega الذى سبق التعريف به .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (رغبتها)

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى «ج» . ووارد فى الملكية .

(٤) فى هذا التاريخ شىء من التحريف . والحقيقة أن ألفونسو الأرجونى بدأ زحفه على الأندلس فى سنة ١١٢٥ م الموافقة ٥١٨ هـ ، ووصل إلى جنوبى الأندلس سنة ٥٢٠ هـ .

(٥) بيرة والمنصورة وبرشانة هى ثلاثة بلاد صغيرة فى ولاية المرية الحديثة . تقع الأوليان منها شمال شرق مدينة المرية ، وتقع الثالثة شمال المرية فى طريق وادى آش ، وتحمل على التوالى الأسماء الحديثة الآتية : Vera, Cuevas de Almanzora, Purchena

(٦) لم نعثر على مقابل حديث لهذا الاسم .

(٧) رسمت «بصطة» فى المخطوطين وصوابه بسطة وهى Baza الحديثة ، وتقع شمال شرق غرناطة .

(٨) وادى آش هى Guadix الحديثة . وقد كانت من المدن الزاهرة بمملكة غرناطة الإسلامية ، وكانت أيام حرب غرناطة الأخيرة معقل مولاى الزغل محمد بن سعد ، وسقطت فى يد الإسبان قبل سقوط غرناطة بقليل فى سنة ١٤٩٠ م .

بالقَصْر [(١)] وصافَحَ المدينة بالحرب ، ولم يَحلْ بطائل ، فأقام عليها شهراً .

قال صاحب كتاب « الأنوار الجَلِيَّة » [(٢)] فبدأ بَحْثُ المُعاهِدة بغرناطة فى استدعائه ، فافتضح تدبيرهم باجتلابه ، وهَمَّ أميرُها بتَثْقِيفهم [(٣)] ، فأعياهم ذلك ، وجعلوا يَتَسَلَّلون إلى مَحَلَّته على كل طريق ، وقد أحدقت جيوش المسلمين من أهل العُدْوة [(٤)] والأندلس بغرناطة ، حتى صارت كالدَّائرة [(٥)] ، وهى فى وسطها كالنُّقْطة ، لمَّا أُنْذِروا بغرضه ، وتحرك من وادى آش فنزل بقرية دِجمة [(٦)] ، وصلَّى الناس بغرناطة صلاة الخوف ، يوم عيد النَّحْر من هذه السنة فى الأسلحة والأُبَّهة ، وبُعَيد الظهر من غَدِه ، ظهرت أخْبِيةُ الرُّوم بالقَيْل [(٧)] شرق المدينة ، وتوالى الحرب على فرسخين منها ، وقد أجْلَى السَّواد ، وتزاحم الناس بالمدينة ، وتوالى الجَليد ، وأظَلَّت الأمطار . وأقام العدو بمحلَّته ، بضْع عشرة ليلة ، لم تَسْرح له سارحةٌ ، إلا أنَّ المُعاهِدة تَجْلب له الأقوات ، ثم أقْلَعَ وقد ارتفع طَعَمُهُ عن المدينة ، لأربع بقين من ذى الحجة عام عشرين ، بعد أن تفرغ مُسْتَدعيه إليها ، وكبيرهُ يُعرف بابن القَلَّاس ، فاحتجوا بُبطْئه وتلوُّمه حتى تلاحقت الجيوش ، وأنهم قد وقعوا مع المسلمين فى الهَلَكة . فرحل عن قرية مُرْسانة إلى بِيَش [(٨)] ، ومن الغد إلى السكة [(٩)] من

---

(١) هى بلدة القصر Alcazar الحديثة وهى واقعة فى جنوب شرقى غرناطة .

(٢) وردت فى المخطوطين : «الأنوار الجليلة» وهو تحريف . وصاحب الكتاب هو أبو بكر الصيرفى الذى سبق التعريف به .

(٣) أى باعتقالهم .

(٤) أعنى أهل المغرب .

(٥) هكذا فى «ك» وفى «ج» كالدارة .

(٦) هى بلدة Diezma الحديثة ، وهى تقع غربى وادى آش فى منتصف الطريق بينها وبين غرناطة .

(٧) هكذا فى «ت» . وفى «ج» و «ك» ، بالنيل . وهو تحريف ، والقيل منتصف النهار .

(٨) مرسانة وبالإسبانية Maraeena ، وبيش وبالإسبانية Beas ، قريتان من حواز غرناطة تقع الأولى فى شمالها الشرقى ، والثانية فى شمالها الغربى .

(٩) هكذا فى «ت» وفى الملكية اليسكة ، وفى «ك» السمكة . وفى «ج» الحكة .

أحواز قلعة يَحْصُب[1] ثم اتصل إلى لِدُوبيانه[2]، ونكب إلى قَبرة واللسَّانه[3]، والجيوش المُسْلمة فى أذياله. وأقام بقَبْرَة أياما، ثم تحرك إلى بلاى[4] والعساكر فى أذياله، وشيَجَة[5] فى فَحْصِ الرَّنيسُول[6]، مكافحةً فى أثنائها، مناوشةً، وظهوراً عليه.

ولما جَنَّ الليل، أمر أميرهم برفع خبائه من وهْدَةٍ كان فيها إلى نَجْدة، فساءت الظنون، واختلَّ الأمر، ففرَّ الناس وأسلَمُوا[7]، وتَهَيَّب العدو المَحَلَّة، فلم يدخلها إلّا بعد هَدْأة[8] من الليل واستولى عليها. وتحرك بعد الغد منها إلى جهة الساحلِ فشق العِمامة الآمنة من الإقليم والشَّارّات[9]. فيقول بعضُ شيوخ تلك

---

(١) قلعة يحصب أو قلعة يعقوب هى بلدة «القلعة الملكية» الحديثة Alcala la Real ، وتقع شمال غرب غرناطة. وقد كانت قديماً منزل بنى سعيد الأدباء والمؤرخين أصحاب كتاب «المغرب». وخاتمهم أبو الحسن على بن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥هـ. وصاحب كتاب «القدح المعلى» و «الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد».

(٢) هكذا رسم اسمها فى «ج». وفى الملكية. وفى «ت» «الدوبيانية». ولم نعثر على بلد بهذا الاسم فى هذه المنطقة.

(٣) قبرة Cabra واللسانه Lucena من بلاد الحصون القديمة فى مملكة غرناطة الإسلامية، وتقع كلتاهما شمال غربى غرناطة على مقربة من قلعة يحصب، وقد لعبت قبرة بالأخص فى حروب مملكة غرناطة الأخيرة أدواراً هامة.

(٤) بلاى، كما رسمت فى المخطوطين، وبللى كما رسمت فى الملكية و «ت» Poley، هو الاسم القديم لبلدة «أجيلار» Aguilar الحديثة. وموقعة بلاى شهيرة فى تاريخ الأندلس، وهى الموقعة التى هزم فيها الأمير عبد الله صاحب الأندلس قوات الثائر ابن حفصون سنة ٢٨٧ هـ (٨٩١ م).

(٥) وردت فى «ك» وسمته. وفى «ج» وسحته. وفى «ت» والملكية وبسمحته. وكلها تحريف لاسم بلدة شيجة أو أشيجة، وهى بلدة Espejo الحديثة، القريبة من غرناطة.

(٦) فحص الرنيسول أو أرنسول، موضع يقع جنوبى غرناطة. ويذكره ابن الأثير على أنه حصن لا فحص (ج ١٢ ص ٢٢٤) ويعرف حديثاً باسم Aranzuel.

(٧) هكذا فى «ت». وفى المخطوطين والملكية: المسلدون. وهو تحريف ظاهر.

(٨) هكذا فى المخطوطين. وفى «ت» مدة، والملكية هدة، والمعنى متقارب.

(٩) هكذا وردت فى «ك». وفى «ح والملكية»، الشارات، البشارة. والشارات أو البشارات هى الهضاب والمرتفعات، وهى تحريف لكلمة Sierras الإسبانية أى الجبال.

الجهة ، إنه اجتاز بوادى شُلُوبانِيَة(١) المُطِلّ الحافّات ، والمُتحصّن(٢) المجاز ، وقال بلغته : أىُّ قَبْرٍ هذا لو ألقَيْنا من يَصُبُّ علينا التراب ؛ ثم عرَّج يَمْنَةً حتى انتهى إلى بَلِّش(٣) ، وأنشأ بها جَفْناً(٤) صغيراً ، يصيد له حوتاً ، أكل منه كأنه نَذْرٌ كان عليه ، وفّى به ، أو حديثٌ أراد أن يُخَلِّد عنه . ثم عاد إلى غَرْناطة ، فاضطرب بها محلته بقرية ذُكَر(٥) ، على ثلاثة فراسخ منها قِبْلة ، ثم انتقل بعد ذلك بيومين إلى قرية هَمْدان(٦) ، وبرز بالكتب جاعَرِسْطة(٧) من المدينة ، وكان بينه وبين عساكر المسلمين مُواقعة عظيمة ؛ ولأهل غرناطة بهذا الموضع حِدْثان ينظرونه من القضايا المستقبلة .

قال ابن الصَّيرفى : وقد ذُكر فى بعض كتب الجفر : « هذا الفحص ، بخراب يجبى(٨) عن يتامى وأيامى » وكان هذا اليوم مُعَرَّضاً لذلك ، فوقى الله ؛ وانتقل بعد

---

(١) وادى شلوبانيه أو شلوبينية ، هو البسيط الذى تقع فيه بلدة شلوبانية ، وهى من الثغور الصغيرة الواقعة جنوبى ولاية غرناطة على البحر المتوسط . وهى تقع جنوبى غربى مدينة موتريل وشرقى المنكب . وتسمى اليوم بالإسبانية Salobrena

(٢) هكذا وردت فى «ت» . وفى المخطوطين : المتحصر . والأولى أرجح .

(٣) هى مدينة بلش مالقة Velez Malaga ، وهى تقع شرقى ثغر مالقة وعلى مقربة منها .

(٤) أى مركبا وتستعمل هذه الكلمة بكثرة فى التواريخ الأندلسية للتعبير عن السفن وبخاصة السفن الحربية .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» «دلوا» . وربما كانت هذه قرية Dilar الحديثة الواقعة جنوب غرناطة .

(٦) قرية همدان هى بلدة Alhendin الحديثة ، وهى تقع على مسافة قريبة من جنوبى غرناطة .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وفى الملكية (جاغرسطة) . وهى إما أن تكون « وجاه عرسطة » ، وإما أن يكون جاعرسطة الاسم الأول لأحد زعماء النصارى المعاهدين . وهو يتفق مع الإسبانية Inigo Arista

(٨) وردت هاتان الكلمتان فى «ت» بخراب يجى . وفى «ج» ، بحرت سحى . ومكانها بياض فى «ك» . والتصويب من الملكية .

يومين إلى المرْج(١) مُضيقاً عليه والخيل تحرجه(٢) ، فنزل بعين أطسة ، والجيوش مُحدقةٌ به ، وهو فى نهاية من كمال التَّعْبية ، وأخْذ الحذر، بحيث لا تُصابُ فيه فرصة ؛ ثم تحرك على البَرَاجِلات ، إلى اللقوق(٣) ، إلى وادى آش ، وقد أصيب كثيرٌ من حاميته ؛ وطوى المراحل إلى الشرق ؛ فاجتاز إلى مُرْسية ، إلى جَوف شاطِبة ، والعساكر فى كل ذلك تطأ أذياله ، والتَّناوش يَتَخطَّفُه به(٤) ، والوباء يسرع إليه ، حتى لحق بلاده ، وهو ينظر إلى قفاه ، مُخْتَرماً ، مَفْلُولاً من غير حرب ، يكاد الموت يستأصل مَحَلَّته وجُمْلته

ولما بان للمسلمين من مكيدة جيرانهم المُعاهدين ، ما أجْلَتْ عنه هذه القضية ، أخذهم الإرْجاف ، ووغِرَت لهم الصُّدور . [ووُجِّه إلى مكانهم الحزمُ](٥) ووجِّه القاضى أبو الوليد بن رُشد(٦) الأجْرَ ، وتجشَّم المجاز ، ولحق بالأمير [على بن](٧) يوسف بن تاشفين بمرَّاكُش ، فَبيَّن له أمر الأندلس ،

(١) وردت فى المخطوطات الثلاث : «الفرج» . وقد رجحنا «المرج» La Vega

(٢) وردت فى «ج» بجرحيه . وفى « ك » نحوجه . وفى « ت » ، تحرحه . والتصويب من الملكية .

(٣) وفى الملكية «اللقون» . ولم نعثر على مواضع هذه الأماكن فى الخرائط الحديثة ولا على مقابلها الإسبانى ، والظاهر أنها دثرت .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «ت» يتخطفه ، والمعنى واحد .

(٥) بعد هذه العبارة التى ينفرد بإيرادها ج ، ورد ما يأتى « فاحتسب الإرجاف ووعزت لهم الصدور» . وهو تكرار غير وارد أيضاً فى باقى المخطوطات .

(٦) أبو الوليد بن رشد هذا هو جد الفيلسوف الشهير ابن رشد . والإسمان متشابهان ، وكلاهما يكنى أبا الوليد . وقد ولد الفيلسوف فى حياة جده المشار إليه سنة ٥٢٠ هـ ، أعنى فى نفس السنة التى وقعت فيها غزوة النصارى لمرج غرناطة ، وعبر فيه الجد إلى مراكش .

(٧) أضفنا هذه الزيادة لأنها لازمة لصحة الوقائع والسياق ، وبدونها نكون إزاء خطأ تاريخى واضح . لأن يوسف بن تاشفين توفى منذ سنة ٥٠٠ هـ ، وخلفه فى الحكم ولده على بن يوسف ابن تاشفين الذى حكم من سنة ٥٠٠ إلى سنة ٥٣٧ هـ ، وهو الذى أمر بتغريب النصارى المعاهدين بناء على فتوى ابن رشد المذكور ، وخلاصتها أن النصارى المعاهدين قد نقضوا العهود ، وأخلوا بها ، فسقطت عنهم الحماية الممنوحة لهم ، وحق عليهم العقاب (راجع الحلل الموشية ص ٧٠ و ٧١ وكتابى عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس القسم الأول (ص ١١٣ و ١١٤) . وراجع أيضاً : Simonet : Historia de los Mozarabes p. 790

وما مُنيت[(١)] به من مُعاهِدِها ، وما جَنَوه عليها ، من استدعاء الرُّوم ، وما فى ذلك من نَقْض العَهْد ، والخروج عن الذِّمة ، وأفتى بتَغْريبهم ، وإجلائهم عن أوطانهم وهو أخفّ ما يؤخذ به من عقابهم ؛ وأُخذ بقوله ، ونُفِّذ بذلك عهدُه ، وأُزعج[(٢)] منهم إلى برّ العُدْوة ، فى رمضان من العام المذكور ، عددٌ جمٌّ ، أنكرتهم الأهواء ، وأكلتهم الطرق ، وتفرّقوا شَذَر مَذَر ، وأصاب كثير من الجلاء جمعتهم[(٣)] من اليهود ؛ وتقاعدت بها منهم طائفة ، هَبَّت لها بممالأة بعض الدول ريحٌ ، فأمّروا وأكثروا إلى عام تسعة وخمسين وخمسمائة ، ووقعت فيهم وقيعةٌ احتشتهم ، إلاّ صابةٌ[(٤)] لهذا العهد قليلة ، قديمةُ المَذَلّة ، وحالفت الصَّغار[(٥)].
جعل الله العاقبة لأوليائه .

---

(١) وردت فى المخطوطين : بنيت . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٢) فى «ج» وأعجز ، وفى الملكية واجعز . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٣) هكذا فى «ج» ، وفى الملكية .

(٤) أى أقلية محدودة .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» الصعار .

ذكر ما ينسب إلى هذه الكورة من الأقاليم
التى تزلتها العرب بخارج غرناطة ، وما يتصل بها من العمالة

فصـــل

فيما اشتمل عليه خارج المدينة من القرى والجنّات والجهات

قال المؤلف رحمه الله : ويحفّ بسور[١] هذه المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى، البساتينُ العريضة المُستخلَصة ، والأدواح المُلتفّة ، فيصير سورها من خلْف ذلك كأنّه من دُون سِياج كثيفة ، تلوح نجوم الشّرفات أثناء[٢] خضرايه ولذلك ما قلت فيه فى بعض الأغراض :

بلد يحفّ به الرِّياضُ كأنّه ... وجْهٌ جميل والرِّياض عِذاره
وكأنّما واديه مِعْصَمُ غادَةٍ ... ومن الجُسور المُحْكمات سِوارُه

فليس تُعْرى عن جَنَباته من الكُرُوم والجنّات جهة ، إلاما لاعِبْرة به مقدار غلْوة ، أما ما حازه السّفل من جَوْفيه[٣] ، فهى عظيمة الخطر ، متناهية القِيَم ، يضيق جَدْه[٤] من[٥] عدا أهل المُلك ، عن الوفاء بأثمانها ، منها ما يُغِلّ فى السنة الواحدة نحو[٦] الألف من الذّهب ، قد غصّت الدكاكين بالخُضَر الناعمة ، والفواكه الطيّبة ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : سور .
(٢) وردت فقط فى «ت» ، وأغفلت فى المخطوطين .
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» حومين .
(٤) هكذا فى «ك» و «ت» . وفى «ج» جوه .
(٥) هكذا فى «ج» وفى الملكية (م١) .
(٦) هكذا وردت فى «ت» . وفى المخطوطين « نسكر » .

والثمر المُدَّخرة ، يختصُّ منها بمُسْتَخلص السلطان[١] ، المرورُ طوْقاً على تَرائب بلده ما بينهن منية[٢]؛ منها الجَنّة[٣]المعروفة بفدَّان المَيْسة ، والجنة المعروفة بفدان عِصام ، والجنة المعروفة بالمعروى[٤] ، والجنة المنْسُوبة إلى قدَّاح بن سُحْنون ، والجنة المنسوبة لابن المؤذِّن ، والجنة المنسوبة لابن كامل ، وجنة النَّخلة العليا ، وجنة النخلة السفلى ، وجنة ابن عُمْران ، والجنة التى إلى نافع ، والجُرْف الذى يُنسب إلى مُقْبل ، وجنة العَرْض ، [وجنة الحفرة][٥]، وجنة الجُرْف ، ومَدْرَج نجد ، ومَدْرَج السَّبِيـكة[٦] ، وجنة العَريف[٧] : كلها لا نظير لها فى الحسن والدَّمانة[٨] والربيع ، وطيب التربة ، وغرقد[٩] السُّقيا ، والتِفاف الأشجار ، واستجادة الأجناس ، إلى ما يجاورها ويتخلَّلها ، مما يختص بالأحباس الموقفة ، والجنَّات المُتملَّـكة ، وما يتصل بها بوادى سَنْجيل[١٠] ما يقيد[١١] الطَّرْف ، ويُعجز الوصف ، قد مَثلث منها على الأنهار المتدافعة العُباب ، المنارةُ والقِبابُ ،

---

(١) مستخلص السلطان يراد به الأملاك السلطانية الخاصة التى يرجع ريعها إلى خزانته الخاصة .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين :

(٣) الجنة هنا بمعنى الحديقة أو البستان ، وهو اصطلاح ذائع فى اللغة الغرناطية .

(٤) هكذا فى «ك» وفى «ت» بالمغرموى . وفى «ج» بياض .

(٥) ما بين الحاصرتين ساقط فى «ج» والملكية ، ووارد فى «ك» .

(٦) السبيكة هو الاسم الذى كان يطلق على البسيط الأخضر الشاسع الواقع جنوب شرق الحمراء وقد شقت اليوم فيها الطرق الشاسعة المظللة بالأشجار الباسقة . ومنها الطريق المؤدى إلى باب الشريعة باب الحمراء الرئيسى .

(٧) جنة العريف كانت تقع فى شمال شرق الحمراء فى أسفل الربوة التى يقوم عليها اليوم قصر جنة العريف (المسمى بالإسبانية Generalife)

(٨) هكذا وردت فى «ج» ، . وفى «ك» الدمامة . وفى «ت» الدّمائة . والدمانة أى الخصوبة .

(٩) الغرقد هو الشجر الضخم . والمقصود هنا وفرة المياه .

(١٠) وردت فى المخطوطين هكذا : «سحل» وهو تحريف . والمقصود هو «سنجيل» . وهو اسم آخر لنهر شنيل الذى تقع عليه غرناطة ، وسيجرى التعريف به .

(١١) هكذا فى «ج» والملكية . وفى «ك» يعيد .

واختصّت من أشجار العاريات ذاتِ العصير الثانى بهذا الصُّقع[١] ، ما قصّرت عنه الأقطار . وهذا الوادى من محاسن هذه الحضرة ، ماؤه رقراق من ذوب الثلج ، ومُجاجة الجليد[٢] ، وممرُّه على حصًى جوهرية ، بالنبات والظلال محفوفة ، يأتى من قِبْلة علام البلد إلى غرْبه ، فيمر بين القصور النَّجْدية ، ذوات المناصب الرفيعة ، والأعلام الماثلة .

ولأهل الحضرة بهذه الجنَّات كَلَفٌ ، ولذوى البطالة فوق نهره أريك من دَمَث الرمل ، وحجال من مُلْتَفِّ الدَّوْح ، وكان بها سطرٌ من شجر الحور ، تُنسب إلى مامل ، أحد خدام الدولة الباديسية[٣] ، أدركنا المكان ، يُعرف بها .

قال أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن حسّان :

أحنُّ إلى غَرْناطة كلما هَفَت ... نسيمُ الصَّبا تهدى الجوَى وتشُوق
سقى الله من غَرْناطة كل منْهل ... بمُنْهل سُحبٍ ماؤهُنَّ هَريق
ديارٌ يسور[٤] الحسن بين خيامها ... وأرضٌ لها قلبُ الشَّجىِّ مَشُوق
أغَرْناطة العليــا بالله خبِّرى ... أَلِلْهائم الباكى إليك طريق
وما شاقنى إلا نضــارةُ منظر ... وبهجةُ وادٍ لِلعيُون ترُوق
تأمَّل إذا أمّلْت حَوْز مُؤمّلٍ ... ومُدَّ من الحَمْرا عليك شقيق
وأعلامُ نجدٍ والسَّبيكة قد علَت ... وللشَّفق الأعلى تلوحُ بُروقُ

(١) وردت فى المخطوطين : «السقع» وهو تحريف أو رسم مغربى لكلمة «الصقع» .
(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» الجليل .
(٣) أومؤمل نسبة إلى باديس بن حبوس الصنهاجى الملقب بالمظفر . وقد حكم غرناطة وأحوازها عقب الفتنة البربرية من ٤٢٨ — ٤٦٧ هـ . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد .
(٤) وردت فى المخطوطين : ديور .

وقد سلّ شنيلٌ[(١)] فِرنداً مُهنَّداً نضى فوق دُرٍّ ذُرّ فيه عقيقُ
إذا نمّ منه طيبُ نشر أراكه أراكَ فتيت المِسْك وهو فتيقُ
ومهما بكى جَفْن الغمام تبسمت ثغورُ أقاحٍ للرِّياض[(٢)] أنيق

ولقد وَلِعت الشعراء بوصف هذا الوادى ، وتغالت الغالات فيه ، فى تفضيله على النيل بزيادة الشِّين ، وهو ألفٌ من العدد ، فكأنه نيلٌ بألفِ ضِعفٍ ، على عادة متناهى[(٣)] الخيال الشعرى ، فى مثل ذلك .

ولقد ألغزْتُ فيه لشيخنا أبى الحسن بن الجَيَّاب[(٤)] ، رحمه الله ، وقد نظم فى المعنى المذكور ما عظُم له استِطْرابُه وهو :

ما اسمٌ إذا زدْته ألفاً من العَدَد أفادَ معناه لم ينقُص ولم يَزِد
وإنما ائتلفا[(٥)] من بعد ما اختَلفا معْنى بشينٍ ومن نزْرٍ ومن بَلدِ

ثم يتصل بالحسن العادى البديع، وهو على قسمين ، خَمْسٌ من مُحْكم الكذان [فى نهاية الإبداع والإحكام يتّصل به بناء قديم مُحكم ، ويستَقْبل المَلْعَب][(٦)] ،

---

(١) شنيل ، وبالإسبانية Genil و Xenil ، وهو النهر الذى تقع عليه غرناطة . ويسمى أيضاً عند الأندلسيين بنهر سنجيل ، مشتقاً من اسمه اللاتينى Singilis . وشنيل هو أحد فروع نهر الوادى الكبير . وقد كانت ضفافه أيام الدولة الإسلامية غاصة بالحدائق الغناء . ولكنه اليوم يغلب عليه الجفاف ، وقد عفت الخضرة عن شاطئيه . وقد رأيناه غير مرة ، وقد كاد قاعه يخلو من الماء .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (فى الرياض)

(٣) وردت فى المخطوطين : «متناف» . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٤) هو الرئيس ذو الوزارتين أبو الحسن على بن الجياب من أقطاب الشعر والكتابة (٦٧٣ — ٧٤٩ هـ) . وكان ابن الخطيب من تلامذته ومعاونيه فى ديوان الإنشاء . وبترجم له ابن الخطيب فيما بعد ويسميه «شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ» . وقد نقل المقرى ترجمته من الإحاطة ، وأورد له كثيراً من النثر والنظم (نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٦ — ٢٤٥) .

(٥) وردت فى المخطوطين : «استلفا» ، والتصويب من «ت» .

(٦) ما بين الحاصرتين وارد فى «ت» والملكية فقط ، وساقط فى المخطوطين .

العيدِى ، ما بين ذُنابى[(١)] الجسر إلى جدار الرَّابطة ، وملعب بديع الشكل ، عن يمينه جناحٌ بديع ، عن ميدانه عُدْوات النهر ، وعن يساره الجَنَّات[(٢)] ، ويُفْضى بعد انتهائه إلى الرَّابطة ، إلى باب القصر المنسُوب إلى السيّد[(٣)] ، وسيأتى ذكره؛ ويرتفع من هذا النهر الزُّلال جداولُ ، تدور بها أعداد من الأرْحىٰ[(٤)] لا نظير لها استعداداً وإفادة .

---

(١) وردت فى المخطوطين : دنابى . وأغفلت فى « ت » .

(٢) يبدو من هذه الأوصاف المضطربة نوعاً أنه يقصد بالوصف البقعة الواقعة فى جنوب شنيل تجاه غرناطة والتى تسمى اليوم أرمليا Armilla (أرملة القديمة) ، والملعب القديم الذى كان بها . وهى ما تزال تحتفظ ببقية صغيرة من القصر المشار إليه فيما بعد .

(٣) قصر السيد هو أحد القصور الملكية التى بنيت خارج غرناطة أيام الموحدين . أنشأه « السيد » أبو إسحق بن يوسف الموحدى والى غرناطة سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) . وفى أيام ملوك بنى نصر كان يستعمل قصراً للضيافة . وقد بقيت منه إلى اليوم بقية صغيرة تتكون من عقد مدخل ، وبهو صغير مربع ذى قبة عالية ، وقد نقشت على جوانبه أدعية مختلفة يتخللها شعار بنى نصر «ولا غالب إلا الله» . ويعرف اليوم بين الآثار الغرناطية باسم «قصر شنيل» **Alcazar Genil** وذلك لموقعه فى بقعة أرمليا الواقعة على ضفة نهر شنيل .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «ت» الأراحة . وهو تحريف .

فصـــل

وتَرْكَبُ ما ارتفع من هذه المدينة من جهاتها الثلاث ، السكروم البديعة ، طوقاً مرقوماً ، يتصل بما وراءها من الجبال ، فتعمُّ الرُّبى والوهاد ، وتشملُ الغُورَ والنَّجْد ، إلا ما اختصَّ منها بالسَّهل الأفيح[1] ، متَّصلا بشرقى باب إلبيرة[2] ، إلى الخَنْدق العميق ، وهو المسمى « بالمشايخ » ، بسيط جليل ، وجوٌّ عريض ، تغص على العَدِّ أمراجه[3] ومصانيعه ، تلوحُ مبانيها ، ناجمَةً بين الثِّمار والزيتون ، وسائر ذوات الفواكه ، من اللَّوز والإجاص والكمثرى ، مُحْدَقة[4] من الكروم المُسِحَّة ، والرياحين الملْتفة ، ببحور طامية تأتى البُقْعة الماء ؛ ففيها كثير من البساتين والرياض ، والحصون[5] ، والأملاك المتَّصِلة السكنى ، على الفُصُول ؛ وإلى هذه الجهة يشيرُ الفقيهُ القاضى ، أبو القاسم بن أبى العافية ، رحمه الله ، فى قصيدة ، يجيب بها عروس الشعراء ، الأديب الرَّحال أبا إسحاق السَّاحلى ، وكان ممن نيطت عليه بهذا العهد[6] ، التَّمائم :

يا نازحاً لعب المَطِىُّ بكُوره ... لعِبَ الرِّياح الهُــوج بالأمْلود
ورَمَت به للعالِية القُصْوى التى ... ما وِرْدُها لسِــواه بالمَوْرُود
هلاَّ حَنَنْتَ إلى مَعَــاهدنا التى ... كُـنْتَ الحُلِىَّ لنَحْرها والجِيدِ

---

(١) وهو الفحص La Vega الذى سبق التعريف به .

(٢) باب إلبيرة ما يزال باقياً حتى اليوم . وقد سبق التعريف به .

(٣) هكذا فى المخطوطين وفى « ت » والملكية (أفراجه) .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : عرت .

(٥) فى المخطوطات الثلاث : الرياضة والحصن وهو تحريف .

(٦) وردت فى المخطوطين : المعهد ، والعهد أرجح .

ورياضُ أُنْس بالمشـــايخ[١] طارَحَتْ — فيه الحَمائمُ صَوْتَ سَجْعِ[٢] العُودِ
ومَبيتُنا فيهـــا وصَفْوُ مُدَامِنـــا — صَفْو المَوَدّة لابْنةِ العُنْقُـــودِ
والعيشُ أخضرُ والهوى يُدْنى جَنَى — زَهَـــرات ثغرٍ أو ثِمـــار نُهُودِ
والقُضْبُ رافلةٌ يُعـــانق بعضهـــا — بعضاً إذا اعتنقت غُصُون قُدُودِ
لَهَفِى على ذاك الزمان وطِيبه[٣] — وعلى مُنـــاه وعَيْشِه المَحْسُود
تلك الليـــالى لا ليـــالى بعدها — عُطِّلْن إلا من جَوًى وسُهُود
كانت قِصَارًا ثم طُلْن فيهـــا — تأتى على المَقْصُـــور والمَمْدُودِ

وأما ما استند إلى الجبل ، فيتصل به البيازين فى سَفْح الجبل ،المتصل بالكُدْية ابن سَعْد ، مُتّصلا بالكُدية الدُّنْبصِلِ ، المنسوبة لعَيْن الدَّمع[٤] ، منعطفةً على عَيْن القِبْلة ، متصلةً بجبل الفخّار[٥] ، ناهلةً فى غَمْر المـــاء المجلوب على ذلك السَّمْت ؛ أوضاعٌ بديعة ، وبساتينُ رائقة ، وجنّاتٌ لا نظير لها ، فى اعتدال الهواء ، وعذوبة الماء ، والإشْراف على الأرجاء ، ففيها القصور المحروسة ، والمنارة المعمورة ، والدُّور العالية ، والمبانى القصَبيّة[٦] ، والريّاحين النّضيرة ، قد نضّ فيها أهل البطالة ، من

---

(١) هو الاسم الذى كان يطلق على السهل الأخضر المتصل بالفحص كما تقدم فى السياق .
(٢) وردت فى المخطوطين محرفة : (سحم . سبح) .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . وهى ساقطة فى «ك» .
(٤) عين الدمع هى بقعة من ضواحى غرناطة ، كانت أيام المسلمين متنزها بديعاً ، إذ كانت تغص بالمروج والحدائق الغناء . ويبدو من وصف ابن الخطيب أنها كانت قريبة من سفح جبل الفخار . واستمرت هذه البقعة بعد سقوط غرناطة أيام الموريسكيين تحتفظ ببقية من سحرها القديم . وكانت عندئذ تسمى « عين الدمعة » ويشغل موقعها سطح تلال البيازين التى تطل على المرج . ويطلق عليها اليوم بالإسبانية Dinadamar, Aindamar . ومكانها القديم يقع اليوم فى دائرة لاكارتوخا La Cartuja (راجع Simonet; Descripcion, ibid. p. 69)
(٥) هو إحدى شعب جبال سييرا نفادا المشرفة على غرناطة ويسمى اليوم Monte Alfacar
(٦) أعنى مثل القصبة وهى الحصن ، أو القصر فى لغة الخطط الأندلسية .

أولى الخبرة ، الأكياس ، وأرخصوا على النفقة عليها ، غالى النَّشب (١) ، تتنازع (٢) فى ذلك غيرُ (٣) الخادمين ، من خُدَّام الدولة على مَر الأيام ، حتى أصبحت نادرة الأرض ، والمثل فى الحُسْن . ولهذه البقعة ذِكْرٌ يجرى فى المنظومات على ألسنة البُلغاء من ساكنيها وزُوّارها، فمن أحسن ما مرّ من ذلك قول شيخنا أبى البركات (٤) :

ألا قُل لعين الدمع يَهْمى (٥) بمقلتى ... لفُرْقة عين الدمع وقفاً على الدّم

وذكرتُه فى قصيدة فقلت :

ياعهد عين الدمع كم من لُؤلؤ ... للدمع [جاد به] (٦) عَساك تعُودُ

تسَرى نواسِمُك اللِّدان بَليلَة ... فيهزنى شوقٌ إليك شديدُ

وقلت من أبيات تُكتب فى قُبَّةٍ بقصرى الذى اخترعته بها :

إذا كان عين الدمع عيناً حقيقة ... فإنسانُها ما نحن فيه ولادعُ (٧)

فدام لخَيْل الأُنس واللَّهو مَلْعَباً ... ولا زال مَثْــواه المُنَعَّم مَرْتَعُ

تودُّ الثُرَيّا أن تـكون له ثرًى ... وتمدَحُه الشِّعْرى وتحرُسُه المُعُّ

وقال صاحبُنا الفقيه أبو القاسم بن قُطبة (٨) من قصيدة :

أجل إنَّ عين الدمع قيدُ النَّواظر ... فَسَرحْ عيوناً فى اجتلاء النَّواظر

وعَرِّج على الأوْزان إن كُنْتَ ذا هـوًى فإن رُباه (٩) مَرتعٌ للجآذِر

(١) النشب أعنى المال والعقار .

(٢) فى المخطوطين : يتنازعوا . وكذا فى الملكية .

(٣) هكذا فى «ك» . وفى «ج» ، غين .

(٤) هو أبو البركات بن الحاج البلفيقى من شيوخ ابن الخطيب . وسوف يترجم له فيما بعد بإفاضة .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (تهمى)

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى الملكية (جرت)

(٧) وفى نص «ولا دعوى» . وفى الملكية (دعو)

(٨) وردت فى «ج» (قرطبة) والتصويب من الملكية .

(٩) وردت فى «ج» رياه ، وفى «ك» . مرآة . والتصويب من «ت» .

وصافِح بها كفَّ النهارِ مُسَلِّماً ... وقبِّلْ عِذارَ الأُنْس بين الأزاهِرِ
وخُذْها على تلك الأباطِحِ والرُّبى ... مُعتَّقةً تجْلو الصَّدَا لِلْخواطر
مُدامَةُ حان أنْسا(١) الدهرُ عُمْرَها ... فلم تخْشَ أحْداثَ الدُّهور الدَّوائر
تحدِّثُ عن كسرى وساسان قبْله ... وتخْبر عن كرْم يخلَّدُ دائرُ

وهى طويلة . وقال أيضاً من قصيدة طويلة :

وليلًا بعين الدمع وصْلًا قطعتُه ... وأنْجُمُه بين النُّجُوم سُعُود
ترى الحُسْنَ منشور اللواءِ بِسرِّه ... وظلُّ الأمانى فى رُباه مَديد
فبِتْنا ومن رَوْض الخُدُود أزاهرٌ ... لدَيْنا ومن وَرْد الرِّياض خدُود
وتُفّاحُنا وسْط الرِّياض مُوَرَّدٌ ... ورُمّانُنا وسْط الصُّدور نُهُود
وقد عَرَفت نصَّ الهوى وذميلَه ... تهايمُ من أكْبادنا ونجودُ

وقال من قصيدة :

ومِلْ بنا نحو عين الدمع نشربُها ... حيث السُّرور بكاس الأُنْس يَسْقينى
حيثُ المنى وفنونُ اللَّهو راتِعَةٌ ... والطَّيْرُ من طرَبٍ فيها تُناجِينى
وجَدولُ الماءِ يحكى فى أجِنَّتِه ... صَوارِماً جُرِّدت فى يوم صِفِّين
وأعْيُنُ الزهر فى الأغصان جاحظهٌ ... كأنها بهوَى الغِزْلان تُغْرِينى(٢)

ومن ذلك :

سهرت بعين الدمع أرْعَى ربُوعَه ... وحَسْبى من الأحْبابِ رَعْىُ المنازل
يُنافِحُنى عَرْفٌ إذا هَبَّتْ الصَّبا ... ويقنِعُنى طيفُ الحبيب المُراسل

(١) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (أنس) .
(٢) فى مخطوط الخزانة الملكية تنتهى القافية بحرف الألف على النحو الآتى : يسقينا ، تناجينا .. الخ .

والأقاويل فى ذلك أكثرُ من أن يُحاط بها كثرة ؛ وما سوى هذه الجهة فغير لاحق بهذه الرُّتبة ، بما مُعَوّلُه[(١)] على مَحْض الفائدة [وصريح العائدة][(٢)] . وتذهب هذه الغُروس المغروسة قِبْلَةً ، ثم يفيض تيارها إلى غرب المدينة ، وقد تركت بها الجبال الشّاهقة ، والسُّفوح العريضة ، والبطون الممتدة ، والأغوار الخائفة ، مكلَّلة بالأعناب ، غاصَّة بالأدواح ، متزاحمة بالبيوت والأبراج ، بلغ إلى هذا العهد عددُها فى ديوان الخِرْص[(٣)] ، إلى ما يناهز أربعة عشر ألفاً ، نقلْت ذلك من خَط من يُشار إليه فى هذه الوظيفة ؛ وقاها الله مَضَرّة السنين ، ودفع عنها عُباب[(٤)] القوم الظّالمين ، وعُدْوان الكافرين .

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» معوضه . والأولى أصلح للسياق .

(٢) هذه العبارة واردة فى «ك» . وساقطة فى «ج» .

(٣) كان ديوان الخرص فيما يبدو هو الديوان المختص بحصر الأملاك وغلاتها وتقرير الضرائب عليها .

(٤) هكذا فى «ك» . وفى «ج» عياب .

فصـــل

ويحيط بما خَلْف السُّور من المُنى(١) ، والجَنَّات ، فى سهل المدينة ، العَقار الثمين(٢) ، العظيم الفائدة ، المتعاقبة الغَلَّة ، الذى لا يعرف الجِمام ، ولا يفارق الزَّرع من الأرض البيضاء ، ينتهى ثمن المرْجع منها العَلى ، إلى خمسة وعشرين ديناراً من الذهب العَيْن ، لهذا العهد فيه مُسْتَخْلصُ السلطان(٣) ، ما يضيق عنه نطاق القيمة ، ذَرْعاً وغِبطة وانتظاماً ؛ يرجع إلى دور ناجمة(٤) ، وبُرُوج سامية ، وبَيادر فسيحة ، ومصاب للحمايم والدّواجن ماثلة ، منها فى طَوْق البلد ، وحمى سُورها ، جُمْلَةٌ ؛ كالدّار المنسوبة إلى هُذَيل ، والدار المنسوبة إلى أم مرضى ، والدار البيضاء(٥) ، والدار المنسوبة إلى السّنينات ، والدار المعروفة بِنبِلْة وَوَتَر ؛ وبالمَرْج ما يُساير جَرْية النّهر كقرية وكرو بها حصن خريز(٦) ، وبستان وبشرعُيون ، والدار المنسوبة إلى خَلَف ، وعَيْنُ الأبراج ، والحُشّ(٧) المنسوب إلى الصَّحاب ، وقرية رُومَة وبها حصنٌ وبستان ، والدار المنسوبة إلى العَطْشِى ، وبها حصن ، والدار المنسوبة لابن جُزى ، والحُشُّ المنسوب لأبى على ، وقرية ناجرة ، ومنها فضل بن مَسْلمة الحَسَنى ، وبها حصن ، وحوله(٨) رَبَض ، فيه من الناس أمّة ، وقرية سِنْيَانة وفيها حصن ، وقرية أشكُر ، وقريتى بِيبش وواط ، وبهما حصنان ، وقرية واط عبد الملك بن حبيب . وفى هذه القُرى الجُمَلُ الضخمة من الرجال ، والفُحول من الحيوان الحارث

(١) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» . وهو جمع منية .
(٢) فى «ك» و «ج» الثمن .
(٣) سبق التعريف به . أنظر الحاشية فى ص ١١٦
(٤) وردت فى المخطوطين : ناجمة .
(٥) الدار البيضاء مكانها اليوم فى غرناطة الحى المسمى Cuarto real de San Domingo
(٦) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (حرين) .
(٧) الحش بالفتح وبالضم معناه البستان . وجمعه حشان .
(٨) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» . وحوطه .

لآثار الأرض ، وعلاج الفلاحة ، وفى كثير منها الأرْحَى والمساجد[١] . وماسوى هذه من القرى ، المُسْتَخْلَصُ من فَضْلة الإقْطاع ، وقَصرت به الشهرة عن هذا النَّمَط ، فكثيرٌ .

ويتخلل هذا المتاع الغبيط[٢] الذى هو لُباب الفلاحة ، وغير هذه المَدَرة[٣] الطيّبة ، سائر القرى التى بأيدى الرعية ، مجاورة لهذه الحدود ، وبنات لهذه الأمهات . منها ما انبسط وتمدّد ، فاشترك فيه الألوف من الخلق ، وتعددت منه الأشكال ، ونحن نوقع الإسم منه على البُقْعة من غير ملاحظة للتَّعَدُّد . ومنها ما انفرد بمالك واثنين فصاعداً ، وهو قليل ، وتنيف أسماؤها على ثلاث مائة قرية ما عدا ما يجاور الحَضْرة من كثير من قـرى الإقليم أو ما استضافَتْهُ حدودُ الحصون المجاورة *

فمن ذلك حَوْز الساعدين[٤] وفيه القرى ، وحَوْز وَتَر[٥] ومنها إبراهيم بن زيد

---

(١) وردت فى المخطوطين محرفة : (الأرجلى ، الأرحلى والمساجد) .

(٢) الغبيط . أى الذى يغبط ويتمنى مثله .

(٣) المدر هو الطين وهو جمع مدرة ، والمدرة أيضاً بمعنى القرية .

* يورد ابن الخطيب فيما يلى أسماء نحو مائة وأربعين قرية ومحلة من قرى ولاية غرناطة القديمة . منها ما هو قريب من الحضرة أى غرناطة ، ومنها ما هو بعيد عنها أو واقع حولها . ولما كان كثير من هذه القرى والأماكن الأندلسية القديمة ما يزال قائماً حتى اليوم ، بعد أن استحالت إلى قرى إسبانية نصرانية ، واستحالت أسماؤها إلى أسماء أوربية ، ولما كان من المفيد لدراسة التاريخ الأندلسى والجغرافية الأندلسية أن نقف على الأسماء الإسبانية الحديثة لما بقى منها ، وأن نعرف فى نفس الوقت ما دثر منها ؛ لذلك رأيت أن أتولى مهمة التعريف بها وبأسمائها ، وأن أتقصى مواقعها على الخرائط الخاصة. وقد وفقت بعد جهد شاق إلى التعريف بكثير منها ، وتعيين مواطنها . وسنذكرها تباعاً فيما يلى كلا منها تحت رقمه وفق الترتيب الذى أوردها به ابن الخطيب ، مع ذكر مواقعها وأسمائها الإسبانية ؛ مع العلم بأن كثيراً منها قد دثر اليوم . وهذه تركناها دون ترقيم .

(٤) هو اليوم المكان المسمى El Zaidin وهو يقع فى جنوب غرناطة بجوار قرية Huetor المذكورة بعد .

(٥) هى القرية المسماة Huetor de le Vega وهى ضاحية فى جنوب شرقى غرناطة.

المحاربى ؛ وقرية قُلْجار(١) ؛ وقرية ياجُر الشاميّين ، وقرية ياجُر البلَديين(٢) ؛ وقرية قَشْتالة(٣) ، ومنها قاسم بن إمام من أصحاب سُحْنُون ، ونزل بها جده عطية بن خالد المحاربى ؛ وقرية أَجِجَر(٤) ؛ وقرية أَرْمِلة الكبرى ؛ وقرية أَرْمِلة الصغرى(٥) ؛ وقرية رِقاق وَهَمْدان(٦) ، منها الغريب بن يزيد الشِّمر جَدُّ بنى أضحى ؛ وقرية الغَيْضُون ؛ وقرية لسَّانة(٧) ؛ وحارة الجامع ، وحارة الفِراق ؛ وقرية غُرلِيانة ؛ وحُشُّ البُكُر(٨) ؛ وغدير الصغرى وغدير الكبرى ، من إقليم البَلاط ، منها يُرْبوع بن عبد الجليل ، ونزل بها جده يربوع بن عبد الملك بن حبيب ؛ وقرية قولر(٩) ؛ وقرية جُرلْيانة(١٠) ؛ وقرية حارة عمروس(١١) ؛ وحُشُّ الطَّلم(١٢) ؛

---

(١) هى قرية Cojar الواقعة جنوب غرناطة فى الضفة الأخرى لنهر شنيل .

(٢) أحد الإسمين ينطبق اليوم على ضاحية Yajar الواقعة فى نهاية « الزاوية » La Zubia على مقربة من غرناطة .

(٣) هى قرية Gastella القديمة وقد دثرت اليوم .

(٤) أججر إذا كانت بالحاء فالمرجح أنها Hijar الحديثة وهى تطلق اليوم على قرية تقع بجوار قولر Cullar Vega الآتى ذكرها . وإذا كانت أججر أو أجيجر وهو ما نرجحه فإنها تكون Ugijar الحديثة وهى تقع جنوبى شرقى الولاية ، وجنوب وادى آش .

(٥) هاتان القريتان تجتمعان اليوم تحت اسم واحد هو Armilla (أرمليا) وهى ضاحية غرناطة على ضفة شنيل الجنوبية ، وبها بقية قصر السيد المشهور باسم قصر شنيل Alcazar Genil

(٦) رقاق وهمدان هما اليوم قرية Alhendin الواقعة جنوب شرقى أرمليا .

(٧) لسانة ربما كانت هى اللسانة المشهورة فى حروب غرناطة الأخيرة . وهى اليوم Lucena الحديثة وهى تقع فى نهاية الولاية شمال غربى لوشة . وقد تكون قرية صغيرة أخرى على مقربة من غرناطة .

(٨) حش البكر ربما كان موضعه اليوم القرية المسماة Bucor ، وهى شمال غربى غرناطة على مقربة من قربسانة الآتى ذكرها .

(٩) وقرية قولر هى اليوم Cullar Vega الواقعة فى جنوب غربى غرناطة .

(١٠) وجرليانة هى Churriana de la Vega الواقعة أيضاً فى جنوب غربى غرناطة وجنوب شرقى سانتافيه .

(١١) وحارة عمروس هى اليوم قرية Ambrox وهى تقع بجوار جرليانة .

(١٢) وحش الطلم مكانه اليوم قرية Macharatalan الواقعة فى مرج غرناطة على ضفة شنيل . . . حى S quaro [illegible] فى غرناطة .

وقرية المطار ؛ وقرية الصُّرمُورتَّة(١) ؛ وقرية بِلِسَّانة(٢) ؛ وقرية الجِبْشَان ؛ وقرية الشوش(٣) ؛ وقرية عَرْتقة ؛ وقرية جيجانة(٤) ؛ وقرية السِّيجة ؛ وقَنب قَيْس(٥) ؛ وقرية بِرْذنار(٦) ؛ وقرية دوير تارش ؛ وقرية آقلة(٧) ؛ وقرية أحجر(٨) ؛ وقرية تجَرْجُر(٩) ؛ وقرية والة ؛ وقرية أنْقر ؛ وقرية الغُرُوم(١٠) ؛ وقرية دار وهْدان ؛ وقرية بيرة(١١) ؛ وقرية القُصَيْبة ؛ وقرية أطس ؛ وقرية فَنْتِيلان(١٢) ، وقرية سنبودة ؛ وحُش زَنْجيل ؛ وقرية أشتر ؛ وقرية غسَّان(١٣) ، منها مطر بن عيسى بن الليث ؛ وقرية شَوْذر(١٤) ؛ وقرية سُنْتشر(١٥) ؛ وقرية ابن ناطح ؛

---

(١) قرية الصرمورته هى Sierra Murada وموقعها فى شمال غربى غرناطة .

(٢) قرية بلسانة (وقد رسمت بايسانة خطأ فى المخطوطين) هى Belicena الحديثة الواقعة غربى غرناطة بجوار سانتافيه .

(٣) وقرية الشوش هى اليوم على ما يرجح قرية El Jau الحديثة الواقعة فى المرج قرب سانتافيه

(٤) وقرية جيجانة هى Chauchina الحديثة ، وهى تقع شمال غربى سانتافيه .

(٥) وقنب قيس هى Cambea

(٦) وقرية برذنار (وقد رسمت محرفة ، برذنام فى «ك») هى Beznar الحديثة وهى تقع جنوبى غرناطة على بعد نحو خمسين كيلومتراً منها .

(٧) وآقلة هى Acula

(٨) وأحجر هى فى اعتقاد البعض تحريف لكلمة «الحجر» وهى اليوم قرية Lachar الحديثة الواقعة بين تجرجر والمقولة .

(٩) وقرية تجرجر هى اليوم Tajarija ، وهى محلة صغيرة تقع فى غربى غرناطة فى منتصف الطريق بينها وبين لوشة .

(١٠) وقرية الغروم هى Agron الحديثة ، وهى تقع على نحو أربعين كيلومتراً من جنوب غربى غرناطة على مقربة من الحامة .

(١١) وقرية بيرة هى Baira الحديثة .

(١٢) وقرية فنتيلان هى إما Fontanar أو Fuentallana الحديثة .

(١٣) وغسان هى اليوم قرية Cacin الحديثة ، وهى تقع فى نهاية المرج فى سفح جبل الحامة

(١٤) وشوذر هى Jodar الحديثة ، وهى غير بلدة شوذر التى تقع شمال غرناطة ، وهى من أعمال ولاية جيان .

(١٥) وسنتشر ربما كانت بلدة Conchar الواقعة جنوب غرناطة .

وقرية الملاّحة[١]، ومنها محمد بن عبد الواحد الغافقى أبو القاسم الملاحى ؛ وقرية القُمُور، منها أصْبَغ بن مطرِّف ؛ وقرية نفجر وغر نْطِلة[٢] ؛ وقرية بيرَّة وبها مسجد قراءة ابن حبيب ؛ وقرية قُولْجَر[٣]، منها سهل بن مالك ؛ وقرية شور[٤]، منها محمد بن هانىء الأزدى الشاعر المُفاق، ومحمد بن سهل جَدُّ هذا البيت، بنى سهل بن مالك ؛ وقرية بُلْيانة[٥] ؛ وقرية برقاش[٦] ؛ وقرية ضُوجر[٧] ؛ وقرية البَلُّوط[٨] ؛ وقرية أنِتيانة[٩] ؛ وقرية مُرْسانة[١٠] ؛ وقرية الدُّوَير ؛ وقرية الشَّلان ؛ وقرية طِغْنر[١١]، منها الطِّغنرى صاحب الفلاحة ؛ وقرية حُش الدجاج ؛ وقرية حُش نوح ؛ وقرية حُش خليفة ؛ وحُش الكَوبانى[١٢] ؛ وحُش المعيشة ؛ وحُش السلسلة ؛

---

(١) والملاحة هى قرية La Mala الحديثة . وهى واقعة جنوب غرناطة على مقربة من همدان Alhendin

(٢) وقرية نفجر وغرنطلة هى اليوم Naujar Grandilla وربما كانت هى غوجر الآتية الذكر

(٣) وقوجر هى قرية Gojar الواقعة جنوبى غرناطة على مقربة من ضاحية أرمليا .

(٤) وقرية شور وقد تكون أيضاً شون ، هى اليوم بلدة Jun الواقعة شمال غرناطة ومن ضواحيها . ويسميها آسين بلاثيوس « جند » .

(٥) وبليانة هى اليوم كاسمها القديم Pulianas ، وتقع بجوار قرية شور على مقربة من غرناطة .

(٦) وبرقلش هى اليوم قرية Peligros الواقعة بجوار بليانة المتقدمة . وقد وردت محرفة فى الملكية (برقاش) .

(٧) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (قوجر) .

(٨) وقرية البلوط هى اليوم Albolote الواقعة قبالة بليانة وبرقلش ، على مقربة من غرناطة .

(٩) وقرية أنتيانة ربما كانت Fontanar الحديثة .

(١٠) ومرسانة هى قرية Maracena الحديثة الواقعة شمال غربى غرناطة ومن ضواحيها .

(١١) وقرية طغنر Tignar (وقد وردت محرفة فى المخطوطين ، طمن) كان موقعها شمال غربى غرناطة على مقربة من إلبيرة ؛ ولعلها دثرت إذ لم نجد موقعها بالخرائط .

(١٢) فى الأسماء الثلاثة الأخيرة وردت كلمة «حبش» قبل كل منها فى المخطوطين . ولكنا نرجح أنها «حش» جرياً على ما تقدم .

وقرية الطرْف(١) ؛ وقرية إلْبيرة(٢) ؛ وقرية الشُّكْرُوجة(٣) ومنها عيسى بن محمد بن أبى زَمَنين ؛ وعين الحُورَة ؛ وحُش البُومل ؛ وقرية بلومال(٤) ؛ وقرية رقّ المَخيض ؛ وقرية الغَيْضُون الحُورَة ؛ وقرية أشقُدامر ؛ وقرية الدّيمُوس الكبرى ؛ وقرية الديموس الصغرى(٥) ؛ وقرية دار الغازى ؛ وقرية سُويدة ؛ وحُش نَصيرة ؛ وقرية الرُّكن ؛ وقرية ألْفَنت(٦) ، ومنها صَخْر بن أبان ؛ وقرية الكُدْية(٧) ؛ وقرية لاقُش(٨) ؛ وقرية قَرْبسَانة(٩) وقرية بُرْسانة برياط ؛ وقرية الوَلَجة ؛ وقرية ماس ؛ وحُش على ؛ وحُش بنى الرُّسيلية ؛ وحُش رقيب ؛ وحش البَلُّوطة ؛ وحش الرَّوّاس ؛ وحُش مَرْزُوق ؛ وقرية قُبَالة(١٠) ؛ [وقرية نِبَالة](١١) ، وقرية المَيْران(١٢) ؛ وبُرْج هِلال(١٣) ؛ وقرية قلتيش(١٤) وقرية القنار(١٥) ؛ وقرية أرْبل ؛

---

(١) وقرية الطرف تحمل اليوم نفس اسمها القديم Atarfe وتقع على مقربة من مرسانة المتقدمة الذكر .

(٢) وقرية إلبيرة هى اليوم بلدة Elvira وتقع على مقربة من الطرف ، وهى مثلها من ضواحى غرناطة وهى غير إلبيرة القديمة .

(٣) وقرية الشكروجة هى اليوم Asquerosa الحديثة .

(٤) وبلومال هى اليوم قرية El Palomar الواقعة جنوبى ولاية غرناطة بقرب مدينة Albonol قرب شاطىء البحر المتوسط .

(٥) والديموس الكبرى والديموس الصغرى ، هما اليوم بلدة واحدة تحمل اسم Adamuz أو Adamucejo, وتقع على مقربة من غرناطة .

(٦) وألفنت هى Dulfontes الحديثة ، وهى تقع شمالى غرناطة على نحو عشرين كيلومتر منها.

(٧) وقرية الكدية هى Alcudia الواقعة جنوب شرقى وادى آش .

(٨) لاقش هى اليوم الحى الغرناطى المسمى La Cruz de Lagos ، وهو فى ضاحية غرناطة يبعد عنها نحو كيلومتر ونصف .

(٩) وقرية قربسانة (وقد وردت محرفة فى « ج » ، قرسانة) هى اليوم بلدة Caparacena الحديثة ، وتقع غربى غرناطة على فرع نهر شنيل .

(١٠) وقرية قبالة هى Cubillas الحديثة .

(١١) هذا الاسم وارد فى «ج» . وفى الملكية .

(١٢) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (العيران) .

(١٣) وبرج هلال هى اليوم قرية Purchil الواقعة غربى غرناطة على قيد نحو ثلاثة كيلومترات منها .

(١٤) وقرية قلتيش هى Cortes الحديثة . وتقع غربى مدينة وادى آش .

(١٥) وقرية القنار هى بلدة Canar الحديثة . وتقع شمال مدينة أرحبة برذنار .

وقرية بَرْبل؛ وقرية قُرْباسة(١)؛ وقرية أشكن؛ وقرية قَلَنْبيرة(٢)؛ وقرية سَعْدى؛ وقرية قلقاجج(٣)؛ وقرية قَتَن(٤)؛ وقرية مرنيط؛ وقرية ددشطر؛ وقرية شِمَانِس(٥)؛ وقرية أرنالش(٦)؛ وقرية وابشر(٧)؛ وقرية قَقْلُولِش(٨)؛ وقرية النَّبيل(٩)؛ وقرية الفخّار(١٠)؛ وقرية القصر(١١)، منها محمد بن أحمد بن مرعياز الهلالى؛ وقرية بشر؛ وقرية بُنُوط(١٢)؛ وقرية كورة؛ وقرية لَصْ؛ وقرية بِيَش(١٣) وقرية قَنْتر(١٤)؛ وقرية دور؛ وقرية قَانقر؛ وقرية غُلْجُر(١٥)، ومنها هشام بن

---

(١) وفى «الملكية» برباسة. وقرباسة ربما كانت هى قربسانة، وردت مكررة وقد سبق ذكرها.

(٢) وقرية قلنبيرة هى بلدة Colomera الحديثة، وهى تقع فى شمال غرناطة على قيد نحو ثلاثين كيلو متراً منها، وعلى مقربه من بلدة موكلين.

(٣) وقرية قلقاجج هى فيما يرجح بلدة Calicasas الحديثة، وتقع شمال غرناطة، وشرقى بلدة قربسانة.

(٤) وقرية قتن ربما كانت Fatinafar الحديثة.

(٥) وشمانس هو تحريف لكلمة Sietemanos ومعناها الأيدى السبعة.

(٦) وأرنالش هى Arnales الحديثة.

(٧) وابشر هى وفقاالسيمونيت Guejar الحديثة، وهى واقعة فى شمال شرقى غرناطة فى المجموعة التى منها قلقاجج Calicasas وبرقلش Peligros والفخار Alfacar. ويرى بلاثيوس أن Guejar هى وجار

(٨) وققلولش هى بلدة Gogollos الحديثة، وهى تقع شمال غرناطة على مقربة من Calicasas

(٩) وقرية النبيل هى بلدة Nivar الحديثة، وهى تقع شمال غربى غرناطة بين ققاولش والفخار.

(١٠) والفخار هى بلدة Alfacar الحديثة، وهى تقع شمال شرقى غرناطة فى دائرة المجموعة السابقة، وقد سميت بذلك لأنها تقع على سفح جبل الفخار.

(١١) وقرية القصر هى Alcazar، وهى تقع بعيداً عن غرناطة فى الجنوب الشرقى على مقربة من أرحبة Orgiva

(١٢) وقرية بنوط هى بلدة Pinos Puente أو Fent - Binox الحديثة، وهى واقعة على مقربة من قربسانة والبلوط.

(١٣) وقرية بيش هى التى تعرف اليوم باسم Beas، وتقع فى شمال شرقى غرناطة على مقربة من مجموعة الفخار وبرقلش.

(١٤) هكذا وردت فى «ج». وفى «ك» قتن. ومقابلها الحديث Quentar

(١٥) وغلجر هى فيما يرجح قلجر Cojar. وهى حسبما تقدم من ضواحى غرناطة الجنوبية. وتقع على مقربة من ضاحية الزاوية La Zubia الآتية الذكر.

عبد العظيم بن يزيد الخَوْلانى ؛ وقرية ذُرذُر(١) ؛ وقرية ولجر ؛ وقرية قنالش ؛(٢) وقرية إبتانْيلس ؛ وقرية سج ؛ وقرية منشتال(٣) وقرية الوَطَا(٤) ؛ وقرية وانى ، وقرية قُريش ، وقرية الزّاوية(٥) .

وقد ذكرنا أن أكثر هذه القرى أمصار ، فيها ما يناهز خمسين خُطبة ، تُنصب فيها لله المنابر ، وتُرفع الأيدى ، وتتوجّه الوجوه .

وجملة المراجع العلمية(٦) المرتفعة فيها ، فى الأزمنة ، فى العام بتَقْريب ، ومعظمُها

---

(١) وذرذر هى بلدة Dudar الحديثة وتقع شرقى غرناطة على مقربة من قنتر .

(٢) وقرية قنالش هى بلدة Caniles الحديثة ، وهى واقعة جنوبى مدينة بسطة وعلى مقربة منها .

(٣) منشتال هى اليوم قرية Monachil الحديثة . وأصل الاسم مأخوذ من كلمة Monasterio الإسبانية ومعناها الدير . وهى من ضواحى غرناطة تقع فى جنوبها الشرقى على مقربة من بلدة الوطا Huetor

(٤) قرية الوطا هى Huetor Vega وهى ضاحية غرناطة . وتقع فى جنوبها الشرقى فى شمال أرمليا ، وعلى مقربة منها .

(٥) والزاوية هى ضاحية غرناطة التى تعرف اليوم باسم La Zubia ، وهى واقعة بعد أرمليا وغلجر .

هذا ، وأما القرى التى لم نعثر على مواقعها وأسمائها الحديثة مما ذكره ابن الخطيب ، فقد دثر الكثير منها ولا ريب ، وغاضت أسماء البعض الآخر خلال الزمن ، واستحالت إلى أسماء إسبانية أضحى من العسير أن نردها إلى أصولها . كذلك لم نعثر على مواقع بعض الأماكن التى أوردنا مقابلها الإسبانى .

ومن جهة أخرى فان ابن الخطيب لم يذكر كثيراً من قرى ولاية غرناطة المعروفة فى التواريخ الأندلسية ، والتى ما زالت قائمة حتى اليوم ، مثل بلدة الجابية الكبرى Gabia Grande والجابية الصغرى Gabia Chica والبذول Padul ، وموكلين Moclin ، وحصن البلوش Bellillos ، والبلاط Veleto ، وبلدة حصن اللوز الكبيرة Iznalloz ، وغيرها ، وكلها من أحواز غرناطة ، ولها جميعاً ذكرها فى الجغرافية الأندلسية .

وقد رجعنا فى هذا التحقيق إلى المراجع الآتية :

F.J. Simonet : Descripcion del Reino de Granada, scacada de los Autores Arabigos, p. lo, 12, 90, 220, 276-281.

M. Asin Palacios : Contribucion a Ia Toponomia arabe de Espana

وكذلك : L. Seco de Lucena : Toponimos granadinos : (Al-Andalus; Vol XVII 2-1952)

ورجعنا فى تحديد المواقع إلى خريطة إسبانيا وضع J.P. (Gotha) ، وخرائط مصلحة المساحة الإسبانية ، وبلدية غرناطة ، وغيرها من الخرائط التفصيلية .

(٦) هكذا فى «ج» وفى الملكية . وفى «ك» ، العملية .

السقى الغَبيط السَّمين ، العالى ، مايتا ألف ثنتان وستون ألفا ، وينضاف إلى ذلك مَرَاجع الأملاك السلطانية ، ومواضع أحباس المساجد ، وسُبُل الخير ، ما ينيف على ما ذكر ، فيكون الجميع باحتياط ، خمسمائة ألف وستون ألفا ، والمستفاد فيها من الطعام المختلف الحبوب للجانب السلطانى ، ثلاثمائة ألف قَدَح ويزيد ، ويشتمل سورُها وما وراءه من الأرحاء الطّاحنة بالماء ، على ما ينيف على مائة وثلاثين رَحَى ، ألحفَها الله جَنَاح الأَمنة ، ولا قَطَع عنها مادَّة الرحمة ، بفضله وكرمه .

فصــــل

وقد فرغنا من ذكر رسوم هذا القطر ومعاهده، وفرغنا من تصويره وتشكيله، وذكر قراه وأجنّاته[١]، وتصوره ومتنزهاته[٢]، فنحن الآن نذكر بعضا من سير أهله، وأخلاقهم، وغير ذلك من أحوالهم بإجمال واختصار، فنقول:

أحوال هذا القطر فى الدّين وصلاح العقائد[٣]، أحوال سَنِيّة[٤]، والنِّحَلُ فيهم معروفة؛ فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس[٥] إمام دار الهجرة جارية، وطاعتُهم للأمراء مُحْكمة، وأخلاقُهمْ فى احتمال المعاون[٦] الجِبائيَّة جميلة، وصورُهم حسنة، وأنوفُهم معتدلة غير حادّة، وشعورُهم سودٌ مُرْسلة[٧]، وقدودهم متوسطة معتدلة، إلى القِصَر، وألوانهم زُهْر مُشْربة بحُمْرة، وألسنتُهم فصيحة عربية، يتخللها غَرْبٌ[٨] كثير، وتغْلِب عليهم الإمالة، وأخلاقهم أبيّة فى معانى[٩] المُنازعات، وأنسابهم عربيّة، وفيهم من البَرْبَر والمُهاجرَة كثير؛ ولباسُهم الغالب على طُرُقاتهم الفاشى بينهم، الملفُّ المَصْبُوغ شتاء، وتتفاضل

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين، وفى الملكية.

(٢) فى المخطوطين: ومنزهاته.

(٣) وردت فى «ج»، اصلاح. وفى «ك»، والصلاح العقايد، وهو تحريف.

(٤) هكذا فى «ج». وفى «ك»، سنة. وهو تحريف.

(٥) ذاع مذهب الإمام مالك بالأندلس أيام معاصره الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، وكان ذيوعه بالأخص على يد جماعة من فقهاء الأندلس رحلوا منذ أيام عبد الرحمن الداخل إلى المشرق ودرسوا على مالك بالمدينة. ثم عادوا إلى الأندلس فذاع مذهبه على يدهم. وكان هشام بن عبد الرحمن، كثير الورع، شديد الإجلال لمذهب مالك، فزاد ذلك فى ذيوعه. وكان أهل الأندلس قبل ذلك يعملون بمذهب الأوزاعى إمام أهل الشام.

(٦) هكذا وردت فى «ج» والمكتبة واللمحة البدرية (ص ٢٧). وفى «ك» المعاون.

(٧) هكذا فى «ج». وفى «ك» مترسلة.

(٨) هكذا فى الملكية، وفى المخطوطين: عرب

(٩) هكذا فى «ج» وفى الملكية «مغانى».

أجناس البزّ بتفاضل الجِدّة ، والمقدار ؛ والكتان والحرير ، والقطن ، والمرعزى ، والأرْدية الإفريقيّة ، والمقاطع التونسية ، والمآزر المشْفوعة صَيْفاً ، فتُبْصِرُهم فى المساجد ، أيّام الجُمَع ، كأنّهم الأزهار المُفتَّحة ، فى البطاح الكريمة ، تحت الأهوية المعتدلة[1] .

وأنسابُهم حسبما يظهر من الإسترعات[2] ، والبَيْعات السلطانية والإجازات ، عربيةٌ : يكثر فيها القُرَشى ، والفِهْرى ، والأمَوى ، والأُمّى ، والأنْصارى ، والأوْسى ، والخزْرَجى ، والقحْطانى ، والحِمْيَرى ، والمَخْزُومى ، والتَّنُوخى ، والغَسَّانى ، والأزْدى ، والقَيْسى ، والمُعافرى ، والكِنانى ، والتّميمى ، والهُذَلى[3] ، والبَكْرى ، والكِلابى ، والنِّمرى ، واليَعْمُرى[4] ، والمازنى ، والثَّقفى ، والسَّلمى ، والفزارى[5] ، والباهِلى ، والعَبْسى ، والعَنْسى ، والعُذْرى ، والحِجْى ، والضَبى ، والسَّكُونى ، والتّيمى ، والعَبْشمى ، والمُرّى ، والعُقَيْلى ، والفهْمى ، والصَّريحى ، والجَزَلى ، والقُشَيْرى ، والكلبى ، والقُضاعى ، والأصبحى ، والهوارى ، والرُّعَينى ، واليَحْصُبى ، والتُّجيبى ، والصَّدفى ، والحَضْرَمى ، والحِمىّ ، والجُذامى ، والسَّلُولى ، والحكمى ، والهَمدانى ، والمَذْحِجى ، والخُشَنى ، والبَلوى ، والجُهَني ، والمَزْنى ، والطّائى ، والغافقى ، والأسَدى ، والاشْجعى ، والعامِلى ، والخَولانى ، والأيادى ؛ واللَّيثْ ، والخَثْعمِى ، والسَّكسَكى ، والزُّبَيدى ، والتَغْلبى ، والثَّعْلبى ، والكِلاعى ، والدَّوسى ، والحوارى ، والسَّلمانى .

(١) وردت «المعتز» فى المخطوطين .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة ، وكذا فى الملكية ، ولعلها «الإشراعات» ، ومفردها إشراع ، أو الاشتراعات بمعنى مرسوم أو ظهير . أو لعلها إن كانت صحيحة ، تعبير أندلسى قديم عن الإشراعات .

(٣) فى الملكية «والهذيلى» .

(٤) فى الملكية «واليعمورى» .

(٥) وردت فى المخطوطين : والفازرى .

هذا ، ويرد كثير فى شهادتهم ، ويقلّ من ذلك السّلمانى لسَبأ ، وكالدّوسى ، والحوارى ، والزُبَيدى ؛ ويكثرُ فيهم ، كالأنصارى ، والحُميدى ، والجُذامى ، والقيْسى ، والغَسّانى ، وكفى بهذا شاهدا على الأصالة ، ودليلا على العُرُوبيّة .

وجُنْدُهم صِنْفان ، أندلُسى وبَرْبَرى ؛ والأندلسى منها يقودُهم رئيسٌ من القرابة أو حَصِىّ[1] من شيوخ الممالك . وزيُّهم فى القديم شِبْه زِى أقتالهم[2] ، وأضْدادهم ، من جيرانهم الفِرَنج ، إسباغُ الدُّروع ، وتعليقُ التِّرْسَة ، وحفاَ البيضات ، واتخاذ عُراض الأسنَّة ، وبشاعة[3] قرابيس السروج ، واستركابُ حملة الرايات[4] خلفه ، كلٌّ منهم بصفةٍ تختَصُّ بسلاحه ، وشهرةٍ يُعرف بها . ثم عدلوا الآن عن هذا الذى ذكرنا[5] ، إلى الجواشن المُخْتَصَرة ، والبيضات المرهفات ، والسُّروج العربية[6] ، والبَيَتِ اللّمْطية ، والأسَل العَطَفية[7] .

والبَرْبَرى منه ، يرجع إلى قبائله المرينيّة ، والزّناتية ، والتّجانية ، والمغْراوية والعَجيسية ؛ والعربُ المغْربيةُ إلى أقطاب ورؤوس ، يرجع أمرهم إلى رئيس ، على رؤسائهم ، وقطب لعُرَفائهم ، من كبار القبائل المرينيّة ، يَمُتُّ إلى مَلك المغرب بنَسَب .

والعمائم تقل فى زى أهل هذه الحَضْرة ، إلا ما شاذ[8] فى شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم ، والجُنْد العربى منهم . وسلاح جُمْهورهم العِصِىّ الطويلة ، المثناة بعصِىّ

---

(١) وردت فى المخطوطين : حصيا فاقتضى التصويب ، والحصى الرجل الوافر العقل .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . والمقصود هنا ، الذين يقاتلونهم .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وكذا فى الملكية واللمحة البدرية (ص ٢٨) .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» ، جملة الربات وهو تحريف ظاهر .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى «ك» .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة : والروج والعربية ، وهو تحريف ظاهر .

(٧) هكذا وردت فى «ك» وفى «ج» . و «ت» (اللطفية . اللطيفة) .

(٨) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . ومعناها شذ .

صغار ذوات عرًى فى أواسطها ، تُدفع بالأنامل عند قذفها تسمى « بالأمداس » ؛ وقسىّ الإفرنجة يُحْملون على التَّدْريب بها على الأيام ؛ ومبانيهم[١] متوسطة ، [وأعيادهم][٢] حسنة ، مائلة إلى الاقتصاد ؛ والغنى[٣] بمدينتهم فاش ، حتى فى الدكاكين التى تجمع صنائعها ، كثيراً من الأحْداث ، كالخفّافين[٤] ومثلهم .

وقوتُهم الغالب ، البُرُّ الطيِّب ، عامّة العام[٥] ، وربما اقتات فى فصل الشتاء الضَّعفةُ والبوادى والفعَلة فى الفلاحة ، الذُّرةَ العربية ، أمثل أصناف القطانى الطيبة . وفواكهم اليابسة عامة العام ، متعددةٌ ؛ يدّخرون العِنَب سليما من الفساد ، إلى شطْر العام ؛ إلى غير ذلك من التّين ، والزّبيب ، والتفاح ، والرّمان ، والقسْطل ، والبَلُّوط ، والجَوْز ، واللَّوز ، إلى غير ذلك مما لا ينْفد ، ولا ينقطع مدده إلا فى الفصل الذى يُزهد فى استعماله .

وصَرْفهم فِضَّة خالصةٌ ، وذهبٌ إبريزٌ طيِّب[٦] محفوظ ، ودِرْهَمٌ مُرَبَّع الشّكل ، من وزن[٧] المهدى القائم بدولة الموحِّدين[٨] ، فى الأوقية منه سبعون

---

(١) وردت فى «ج» ومنانهم . وفى «ك» ومناسهم والتصويب من اللمحة البدرية .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى «ت» . وكذا فى الملكية .

(٣) هكذا رسمت فى المخطوطات الثلاثة وكذا فى الملكية . وإزاء هذا الإجماع فى المخطوطات ، تركنا الكلمة على رسمها . ولكن من المحتمل أيضاً أن تقرأ (والغناء) وهو ما ورد فى اللمحة البدرية (ص ٢٨) وهنا يكون المعنى كذلك مقبولا ومناسباً ، وعلى هذا قرأها وترجمها بعض أكابر المستشرقين الإسبان مثل سيمونيت وريبيرو (راجع سيمونيت Descripcion . p . 80)

(٤) جمع خفاف . وهو الذى يصنع الخفاف جمع خف .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة : العامة وهو تحريف .

(٦) هكذا وردت هذه الكلمات الثلاث فى «ج» . ووردت على النحو الآتى فى «ك» : وذهباً إبريزاً طيباً . وهو تحريف ظاهر .

(٧) وردت فى المخطوطين : لون . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٨) هو أبو عبد الله محمد بن تومرت الملقب بالمهدى مؤسس دولة الموحدين فى المغرب ، وهى التى غلبت فيما بعد على الأندلس ، وانتزعتها من أيدى المرابطين . وقد توفى المهدى سنة ٥٢٤ هـ (١١٢٩م) .

درهما ، يختلف الكتب فيه . فعلى عهدنا ، فى شِق ، « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ؛ وفى شِق آخر ، « لا غالبَ إلّا الله ، غَرْناطة » . و نصفه وهو القيراط ، فى شق ، « الحمد لله رَبّ العالمين » ؛ وفى شق ، « وما النصر إلا من عند الله » . و نصفُه وهو الرُّبع ، فى شق ، « هُدى الله هو الهُدى » ؛ وفى شق ، « العاقبة للتقوى » .

ودينارُهم فى الأوقية منه ، ستة دنانير وثلثا دينار ؛ وفى الدينار الواحد ثُمْن أوقية وخُمْس ثُمْن أوقية . وفى شق منه ، « قل اللهم مالكَ المُلْك بيدك الخَيْر » ، ويَسْتَدِيرُ به قوله تعالى « إلَـهكم إلهٌ واحدٌ ، لا إلَـه إلا هو الرَّحْمن الرَّحيم » . وفى شق ، « الأمير عبدالله يوسف ، بن أمير المسلمين أبى الحجّاج ، بن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن نصر ، أيّد الله أمْرَه » . ويَسْتَدِير به ، شعار هؤلاء الأمراء ، « لا غالب إلا الله » . ولتاريخ تمام هذا الكتاب ، فى وجْهٍ ، « يا أيها الذين آمنوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورَابطوا واتَّقُوا الله لَعَلَّكم تُفْلِحُون » . ويَسْتَدِير به ، « لا غالب إلا الله » . وفى وجه ، « الأمير عبد الله الغَنى بالله ، محمد بن يوسف بن إسماعيل بن نصْر ، أيّده الله وأعانه » . ويستدير برُبع ، « بمدينة غَرْناطة حَرَسها الله » .

وعادةُ أهل هذه المدينة ، الانتقال إلى حُلل العَصِير أوان إدْراكه ، بما تشتمل عليه دورُهم ، والبروز إلى الفحوص[1] بأولادهم ، مُعوِّلين فى ذلك على شهامتهم[2] وأسْلحتهم ، وعلى كُتَبِ دورهم[3] ، واتّصال أمْصَارهم بحُدود أرضه . وحُليُّهم فى القلائد ، والدَّمالج ، والشُّنوف ، والخلاخل الذّهب الخالص ، إلى هذا العهد ، فى

---

(١) جمع فحص و هو المرج .

(٢) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» سهامتهم ، فان كانت تعنى السهام فهى صحيحة أيضاً .

(٣) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» والملكية (على كتب على دورهم) .

أولى الجِدَة ، واللجَيْنُ فى كثير من آلات الرّجلين ، فمن عدامهم ، والأحجارُ النفيسة من الياقوت ، والزَّبَرْجَد [والزمرد][1] ونفيس الجَوْهر ، كثير ممن ترتفع طبقاتهم المُسْتندة إلى ظِلٍّ دولة ، أو أصالةٍ معروفة مُوفَّرة .

وحريمهم ، حريم جميل ، موصوف بالسحر[2] ، وتَنَعُّم الجسوم ، واسترسال الشُّعور ، ونقاء الثُّغُور ، وطِيب النَّشر[3] ، وخفَّة الحركات ، ونُبْل الكلام ، وحُسْن المحاورة[4] ، إلا أن الطُّول يَنْدُر فيهن[5] . وقد بَلغْن من التَّفنن فى الزينة لهذا العهد ، والمظاهرة بين المُصْبَغات ، والتَّنْفيس بالذَّهَبيَّات والدِّيباجيَّات ، والتَّماجُن فى أشكال الحُلى ، إلى غاية نسأل الله أن يَغُضَّ عنهنَّ فيها ، عين الدهر ، ويُكفكف الخَطْب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا يَسْلُبهم خَفِيَّ لطفه ، بعزَّته وقدْرته .

---

(١) الزيادة من الملكية .

(٢) هكذا فى «ك» . وفى «ج» والملكية ، بالحسن ، والمعنى واحد .

(٣) وردت فى «ج» والملكية : الشرا ، و «ك» النشرا . والنشر هو الريح الطيبة .

(٤) هكذا فى «ج» و الملكية . وفى «ك» المجاورة .

(٥) إن أوصاف ابن الخطيب لنساء مملكة غرناطة فى عصره ، ما تزال حتى اليوم ماثلة فى نساء غرناطة الإسبانية النصرانية مثولا قوياً ، يستلفت نظر كل من تجول فى ربوع المدينة الأندلسية التالدة .

فصـــل

فيمن تداول هذه المدينة

من لدُن أصبَحت دار إمارة باختصار واقتِصار

قال المؤلف : أول من سكن هذه المدينة ، سُكنى استبداد ، وصيَّرها دار مُلْــكه ومَقرّ أمره ، الحاجبُ ، المنصور أبو مُثْنى زَاوى بن زيرى[١] بن مَناد[٢] لمّا تغلب جيش البربر ، مع أميرهم سليمان بن الحكم على قُرْطبة ، واستولى على كثير من كوَر الأندلُس ، عام ثلاثة وأربعمائة فما بعدها ، وظهر على طوائف الأندلس[٣] ، واشتهر أمره ، وبعُد صيته . ثم اجتاز البحر إلى بلد قومه بإفريقية ، بعد أن مَلَكَ غَرْناطة سبع سنين ، واستخْلَف ابن أخيه حبُّوس بن ماكْسَنْ ، وكان حازماً داهية ، فتوسَّع النظر إلى أن مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة . وولِي بعده حفيده عبدالله بن بُلُــكِّين[٤] بن بادِيس ، إلى أن خُلع عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة ، وتصيَّر أمرُها إلى أبي يعقوب يوسف بن تاشُفين ملك لمتُونة[٥] عند تَملُّــكه الأندلس ، ثم إلى ولده علىّ بن يوسف . وتَنَوَّب إمارتها

---

(١) وردت فى المخطوطين : رمدى ؛ وهو تحريف ظاهر .

(٢) كانت غرناطة عقب ثورة البربر التى قامت على أثر انهيار الدولة العامرية والخلافة الأموية من نصيب البربر ؛ واستولى عليها زعيمهم زاوى بن زيرى الصنهاجى سنة ٤٠٣ هـ وحكمها حتى سنة ٤١٠ هـ (١٠١٢ — ١٠١٩ م) . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد فى نهاية هذا المجلد .

(٣) طوائف الأندلس ، هم زعماء الطوائف ، الذين اقتسموا ولايات الأندلس وقواعدها عقب انهيار الخلافة وثورة البربر ، وأسسوا لأنفسهم فى ولايات الأندلس وقواعدها إمارات وممالك صغيرة . وعرف أولئك الزعماء بملوك الطوائف .

(٤) وردت فى المخطوطين : (ملقن) وهو تحريف بلقين أو بلكين . ويجب أن نصحح هنا سهواً تاريخياً وقع فيه ابن الخطيب . ذلك أن الذى تولى حكم غرناطة بعد حبوس بن ماكسن هو ولده باديس ، وقد حكم حتى سنة ٤٦٥ هـ . ثم تولى الحكم من بعده حفيده عبد الله بن بلقين بن باديس ، وحكم حتى سنة ٤٨٣ هـ .

(٥) سبقت الإشارة إلى يوسف بن تاشفين . أنظر الحاشية فى ص ١٠٧ .

جملةٌ من أبناء الأمراء اللمتونيين وقرابتهم كالأمير أبى الحسن على بن الحاجّ(١) وأخيه موسى ؛ والأمير أبى زكريا يحيى بن أبى بكر بن إبراهيم ؛ والأمير أبى الطاهر تميم ؛ والأمير أبى محمد مَزْدَلى ؛ والأمير أبى بكر بن أبى محمد ؛ وأبى طلحة الزُّبَير ابن عُمر ؛ وعثمان بن بدر اللّمْتونى ؛ إلى أن انقرض أمرُهم عام أربعين وخمسمائة .

وتصيّرَ الأمرُ للمُوَحِّدين(٢) ، وإلى ملكهم أبى محمد عبد المؤمن بن على(٣) ، فتناوبها جملةٌ من بنيه وقرابته ، كالسّيد أبى عثمان بن الخليفة ؛ والسّيد أبى إسحاق ابن الخليفة ؛ والسّيد أبى إبراهيم بن الخليفة ؛ والسيد أبى محمدبن الخليفة ؛ والسيد أبى عبد الله ؛ إلى أن انْقرَض منها أمر المُوَحِّدين .

وتملّكها المتوكّل على الله ، أميرا لمؤمنين ، أبو عبد الله محمد يوسف بن هُودْ(٤)

---

(١) هكذا وردت فى «ك» ، وفى «ج» ، الحجاج . وهو تحريف .

(٢) وردت فى «ج» ، للموحد . وفى «ك» ، الموحدون ، وحكمة التصويب واضحة .

(٣) هو خليفة المهدى محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، وثانى رؤسائها ، وأعظم زعمائها . تولى الزعامة عقب وفاة المهدى ، وأتم افتتاح المغرب من يد المرابطين ، وقضى على دولتهم بافتتاح مراكش سنة ٥٤٣ هـ . وافتتح الأندلس من يد المرابطين وحلفائهم . ووطد دولة الموحدين فى المغرب والأندلس . وكانت وفاته فى سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) .

(٤) يترجم ابن الخطيب فيما بعد فى الإحاطة للمتوكل ابن هود . ولا بأس من أن نقدم إيضاحاً موجزاً لما يجمله ابن الخطيب هنا من أمر هذا الانقلاب الحاسم فى مصاير الأندلس . وذلك أنه لما اشتدت وطأة الموحدين والنصارى على الأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، ظهر المتوكل ابن هود هذا . وهو سليل بنى هود ملوك سرقسطة السابقين أيام الطوائف ؛ ظهر فى أحواز مرسية سنة ٦٢٥ هـ ، ودعا إلى تحرير الأندلس من النصارى والموحدين معاً ، وقوى أمره تباعاً ، وانحازت إليه عدة من قواعد الأندلس الهامة مثل جيان وقرطبة وماردة وبطليوس . وفى سنة ٦٢٨ هـ استطاع أن ينتزع غرناطة من الموحدين . وفى تلك الآونة اشتدت وطأة النصارى على الأندلس ، وأخذت قواعدها تسقط فى أيديهم تباعاً . وبذل ابن هود جهده لمحاربتهم ولكنه لم يستطع وقف عدوانهم لتمزق الأندلس يومئذ . ثم توفى ابن هود فى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) . وكان قد ظهر فى نفس الوقت محمد بن يوسف بن نصر (ابن الأحمر) فى جنوب الأندلس ، وبسط حكمه على كثير من أنحائها . ثم استولى على غرناطة عقب وفاة ابن هود ، وجعلها عاصمة إمارته وبذلك قامت مملكة غرناطة . ويخصه ابن الخطيب فيما بعد بترجمة وافية .

فى عام ستة وعشرين وستمائة ، ثم لم يَنْشَب[١] أن تملكها أمير المسلمين الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر الخزرجى ، جَدُّ هؤلاء الأمراء الكرام موالينا ، رحم الله من دَرَج منهم ، وأعان من خلفه ، إلى أن توفى عام أحد وسبعين وستمائة . ثم ولىَ الأمر بعده ولده وسَميه محمد بن محمد فقام بها أحمد قيام ، وتوفى عام إحدى وسبعمائة . ثم ولىَ بعده سَميُّه محمد إلى أن خُلع يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة ، وتُوفى عام أحد عشر وسبعمائة فى ثالث شوّال منه . ثم ولىَ بعده أخوه نَصْرُ بن مولانا أمير المسلمين أبى عبد الله ، فأرتبكَ أمرُه ، وطالب المُلْكَ اللّاحقُ به[٢] مولانا أمير المسلمين أبو الوليد إسماعيل بن فرج ، فغَلَبَ على الإمارة ، ثانى عشر ذى القعدة من عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، وانتقل نصر إلى وادى آش مَخْلوعاً ، مُوادِعاً بها إلى أن مات عام [اثنين وعشرين][٣] وسبعمائة . وتمادى مُلْكُ السلطان أمير المسلمين أبى الوليد إلى السادس والعشرين من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، ووَثَبَ عليه بعض قَرابته فقتله ، وعُوجل بالقتْل مع مَنْ حضر منهم . وتولّى المُلْكَ بعده ولده محمد ، واستمرّ سلطانه إلى ذى الحجة من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، وقُتل بظاهر جبل الفتْح[٤] . وولىِ بعده أخوه مولانا السلطان أبو الحجاج لُبابُ هذا البيت ، وواسِطة هذا العِقْد ، وطِرَازُ هذه الحِلية ، ثم اغتاله[٥] مَمْرُور من أخابيث السُّوقة ،

---

(١) هكذا فى المخطوطين وكذا فى «الملكية» . ومعناها لم يلبث .

(٢) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» و «الملكية» ، إلى أن لحق به . والأولى أنسب للسياق .

(٣) وردت فى «ك» (عام ... وسبعمائة) مع بياض فى مكان التاريخ . ووردت فى «ج» (عام اثنين وسبعمائة) ، فاقتضى تصحيح التاريخ كما هو بين الحاصرتين .

(٤) أى جبل طارق. والذى سماه جبل الفتح هو الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على ، وذلك حين نزل به سنة ٥٥٥ هـ ليتفقد منشآته الجديدة ، وسماه بذلك الاسم لأنه كان دائماً يتخذ قاعدة لعبور الجيوش الإسلامية الغازية إلى اسبانيا منذ طارق بن زياد .

(٥) قتل السلطان يوسف أبو الحجاج غيلة على النحو الذى يصفه ابن الخطيب فى يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ (أكتوبر سنة ١٣٥٤ م) . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد بإفاضة .

قبضه الله إلى شهادته ، وجعله سبباً لسعادته ، فأكبّ عليه فى الركعة الآخرة من ركعتى عيد الفطر ، بين يدى المحراب ، ناشئاً ، ضارعاً ، فى الحال الذى أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد ، وضربه بخنجر مُرىء[1] للفتك به ، فى مثل ذلك الوقت ، كان ، زعموا ، يحاول شحذه منذ زمان ، ضربة واحدة ، على الجانب الأيسر من ظهره ، فى ناحية قلبه ، فقضى عليه ، وبودر به فقتل .

وولى الأمر بعده محمد[2] ، ولده أكبر بنيه ، وأفضل ذويه ، خلقاً وخُلُقاً وحياء وجوداً ، ووقاراً وسلامة وخيرية ، ودافع دولته من لا يعبأ الله به[3] ؛ ثم تدارك الأمر سبحانه ، وقد أشفى ، ودافع وكفى ، بما يأتى فى محله إن شاء الله . وهو أمير المسلمين لهذا العهد ، متع الله به ، وأدام مدته ، وكتب سعادته ، وأطلق بالخير يده ، وجعله بمراسيم الشريعة من العاملين ، ولسلطان يوم الدين من الخائفين ، المراقبين ، بفضله .

وقد أتينا بما أمكن من التعريف بأحوال هذه الحضرة على اختصار . ويأتى فى أثناء التعريف برجالها كثير من تفصيل ما أجمل ، وتتميم ما بدأ ، وإيضاح ما خفى ، بحول الله تعالى .

---

(١) وردت فى المخطوطين وفى الملكية : مهيئاً ، وهو تحريف ظاهر .

(٢) هو السلطان محمد الغنى بالله . تولى الملك مرتين : الأولى بين سنتى (٧٥٥ – ٧٦٠ هـ) . الثانية بين سنتى (٧٦٣ – ٧٩٣ هـ) . وهو السلطان الذى قضى ابن الخطيب فى خدمته زها ستة عشر عاماً وشاطره المنفى بعد ولايته الأولى . ويخص ابن الخطيب حوادث عصر مليكه الغنى بالله ، وهو فى نفس الوقت العصر الذى بلغ فيه ابن الخطيب ذروة مجده السياسى والأدبى ، بفصول كثيرة فى «الإحاطة» ، وفى كتبه الأخرى .

(٣) يشير ابن الخطيب هنا إلى ثورة إسماعيل أخى السلطان محمد الغنى بالله عليه ، وانتزاعه الملك منه فى رمضان سنة ٧٦٠ هـ ، واستمراره فى العرش ثلاثة أعوام ، استطاع محمد بعدها أن يسترد ملكه ، وذلك فى أوائل سنة ٧٦٣ هـ .

القِسم الثانى

فى حُلى الزّائِر وَالقَاطِن وَالمتحَرِّك وَالسّاكِن

أحمد بن خَلَف بن عبد الملك الغساني القُلَيعي

من أهل غرْناطة ، يُكْنى أبا جعفر ، من جلّة أعيانها ، تُنسب إليه الساقية الكبرى المجاورة لطوْق[١] الحضرة إلى إلْبيرة ، وما والاها .

حـــاله

قال ابن الصَّيْرفي : كان الفقيه أبو جعفر القُلَيْعي ، من أهل غرناطة، فريد عصره ، وقريع[٢] دهره ، في الخير والعلم والتِّلاوة ، وله حِزْبٌ من اللَّيل ، وكان سريعَ الدَّمعة[٣] ، كثير الرِّواية[٤] ، وهو المُشار إليه في كل نازلة ، وله العَقْد والحلّ والتقدُّم والسَّابقة ، مع مُنَّة في جلائل الأمور ، والنَّهضة بالأعباء وسُمُوِّ الهمَّة .

« غريبةٌ في شأنه » : قال ، كان باديس بن حَبُّوس [أمير بلده][٥] ينفرَّس فيه أن مُلْك دولته ، يَنقرض على يديه ، فكان يَنْصِب[٦] لشأنه أكْلُباً ، ويَتَمَلّط بسيفه إلى قتْله ، فحماه الله منه بالعلم ، وغلّ يده ، وأغْمد سيفه ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا .

مشيختـه

روى عن أبي عمر[٧] بن القطَّان ، وأبي عبد الله بن عتَّاب ، وأبي زكريا القُليعي ، وأبي مروان بن سِرَاج ، وكان ثقةً صَدُوقاً ، أخذ عنه الناس .

---

(١) وردت في «ج» بطوق . والتصويب من الملكية .

(٢) وردت في «ج» مريع أغنى وافر الخصب والمرعى . وفي «ر.م» : قريع . وقد آثرنا النص الثاني .

(٣) هكذا في « ج » . وفي « ك» والملكية ، الذمة .

(٤) وردت في المخطوطين : الراية . وهو تحريف ظاهر .

(٥) هذه الزيادة واردة في «ر.م» .

(٦) في المخطوطين : نصب .

(٧) هكذا في «ر.م» . وفي المخطوطين : علي ، والأولى أرجح .

ولما أجاز أمير لمتونة يوسف بن تاشُفين البحر [مُستدعى إلى نصر المسلمين][١]، ثانى حركاته إلى الأندلس، ونازل حصن أليط[٢]، وسارع ملوك الطوائف إلى المسير فى جملته، كان ممن وصل إليه الأمير عبد الله بن بُلُكِّين[٣] بن باديس صاحب غرناطة، ووصل صحبَتَه الوزيرُ أبو جعفر بن القُليعى، لرغبته فى الأجر مع شهرة مكانه، وعلوّ منْصِبه، ولنهوض نظرائه[٤]، من زعماء الأقطار، إلى هذا الغرض؛ وكان مَضْربُ خيام القُليعى [قريباً من مَضْرب][٥] حَفيد باديس؛ ولمنزلته عند الأمير يوسف بن تاشفين، وله عليها الحفوف وله به استبدادٌ، وانفرادٌ كثير، وترددٌ كثير[٦]، حتى نفى بذلك حفيد باديس، وأنْهم عَنَيه[٧]. قال المؤرخ، وكيفما دارت الحال، فلم يَخْل من نصح لله ولأمير المسلمين.

قلت؛ حفيد باديس كان أدْرَى بدائه، قصّر الله خُطانا من مدارك الشُّرور. فلما صدر[٨] حفيد باديس إلى غرْناطة، استحضره ونجّهه، وقام من مجلسه مُغْضباً،

---

(١) هذه الزيادة واردة فى «ر.م».

(٢) هذا الحصن يسمى بالإسبانية Aledo. وتسميه الرواية العربية بحصن لييط أو أليط كما يسميه ابن الخطيب. وقد كان من الحصون النصرانية المنيعة الواقعة بين لورقة ومرسية، وقد حاصره المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين ومعه حلفاؤه الأندلسيون فى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠) م. ولكن ألفونسو السادس ملك قشتالة استطاع الدفاع عنه وإنقاذه. وتفيض الرواية الإسلامية فى تفاصيل هذه الموقعة (راجع كتابى «دول الطوائف» — الطبعة الثانية) ص ٣٢٤–٣٢٦ والمراجع.

(٣) رسمت فى المخطوطين، بلقين. ورسْمها بالكاف أكثر شيوعاً حسبما يتوضح بعد.

(٤) وردت فى المخطوطين والملكية: «قرابته». والتصويب من «ر.م».

(٥) هكذا فى «ج» وفى الملكية. وقد ورد فى «ر.م» مكان هذه العبارة: «فى محلة» والمؤدى واحد.

(٦) هذه العبارة واردة فى المخطوطين؛ وساقطة فى «ت».

(٧) وردت فى المخطوطين، غيبه. والتصويب من «ت» وهو أرجح بالنسبة للمعنى.

(٨) هكذا وردت فى المخطوطين وفى «ر.م». وفى «ت» والملكية صار. والمؤدى واحد.

وتعلقت به الخَدَمة ، وحفّت به الوَزَعة[١] والحاشية[٢] . وهمّوا بضربه ؛ إلا أن أمّ عبد الله تطارحت على ابنها فى استحيائه ، فأمر بتخليصه ، وسجْنه فى بعض بيوت القصْر ؛ فأقْبَل فيه على العبادة والدعاء والتِّلاوة ؛ وكان جَهير الصوت ، حسن التِّلاوة ، فارتج القصر ، وسكنت لاستماعه الأصوات ، وهدأت له الحركات ، واقشعرّت الجُلود . وخافت أم عبد الله على ولدها ، عقاباً من الله بسببه ، فلاطفته حتى حلّ عِقاله ، وأطْلقه من سجنه . ولما تخلّص أعدّها[٣] غنيمةً . وكان [جزْلا ، قوىّ القلب][٤] ، شديد الحزم[٥] ؛ فقال الصَّيد بغُراب أكْيس ؛ فاتخذ الليل جَمَلا[٦] ؛ فطلع له الصباح بقلعة يَحْصُب[٧] ، وهى لنظر ابن عبّاد[٨] ، وحث منها السَّير إلى قُرطبة ؛ فخاطب منها يوسف بن تاشفين بملء فيه ، بما حرّكه وأطْمَعه ؛ فكان من حركته إلى الأندلس ، وخَلْع عبد الله بن بُلكّين من غرناطة ، واستيلائه عليها ، مايَرِد فى اسم عبد الله وفى اسم يوسف بن تاشفين إن شاء الله . وبدا لحفيد باديس فى أمر أبى جعر القُليعى ، ورأى أنه أضاع الحزم [فى إطلاقه فبحث][٩]

---

(١) الوزعة هم قامعو الشر والبغى .

(٢) وردت فى «ك» الحارسية . وفى «ح» الحاسية . وفى «ت» الجلسة . والتصويب من «ر. م.» .

(٣) هكذا فى المخطوطين ، وفى «ر.م» اعتدها .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين وفى الملكة . ولكنها وردت فى «ر.م» : «حولا قلبا» .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «ت» ، الحزم ، والأولى أرجح .

(٦) هكذا فى المخطوطين . والمقصود أنه اتخذ الليل مركباً .

(٧) قلعة يحصب أو Alcala la Real الحديثة ، وقد سبق التعريف بها . أنظر الحاشيه فى ص ١١١

(٨) المقصود هنا هوالمعتمد بن عباد أمير إشبيليه وأعظم شعراء الأندلس فى عصره . وقد خلع فيمن خلعه المرابطون من أمراء الطوائف (٤٨٤ هـ) . وتوفى منفيا بالمغرب بمدينة أغمات سنه ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م)

(٩) ما بين الحاصرتين وارد فى «ر.م» ومكانه بياض فى «ك» . وفى «ج» (فى البحث) وما أورده «ر.م» أرجح بالنسبة للمعنى .

عنه من العَد[١] ، وتقصَّت[٢] عنه البلدة ، فلم يَقَع له خَبَر ، إلى أن اتَّصل به خبرُ نجاته ، ولحاقه بمأمنه . فرجع باللائمة على أُمِّه ، ولات حين مَنْدم . ولم يزل أبو جعفر مدَّته فى دول الملوك ، من لمْتونة ، معروف الحقِّ ، بعيد الصِّيت والذِّكر ، صَدْرَ الحضْرة ، والمَخْصوص بعُلوِّ المرتبة إلى حين وفاته .

[أحمد بن محمد بن أحمد بن يزيد الهمدانى اللخمى

من أهل غرناطة

« حاله » : كان فقيهاً وزيراً جليلا حسيباً حافلا .

« وفاته » : توفى بإلْبيرة قبل الثلاثين وأربعمائة .

ذكره أبو القاسم الغافقى فى تاريخه وابن اليسر فى مختصره وأثنى عليه][٣] .

أحمد بن محمد بن أضْحى بن عبد اللطيف بن غريب بن يزيد

ابن الشِّمر بن عبد شمس بن غريب الهمدانى الإلبيرى

من نزلاء قرية هَمْدان[٤] ؛ ذكره ابن حَيَّان ، والغافِقى ، وابن مَسْعَدة ، وغيرهم ؛ فقال جميعُم ، كان من أهل البلاغة ، والبيان ، والأدب ، والشعر البارع .

---

(١) وردت فى المخطوطين : العدو . والمعنى يستقيم بالتصويب .

(٢) فى المخطوطين : نقصت . وهو تحريف ظاهر .

(٣) وردت هذه الترجمة فى صلب «ر.م»(ص ٢٦٩) قبل ترجمة ابن أضحى ؛ ولم ترد فى باقى المخطوطات فرأينا إثباتها فى مكانها .

(٤) هى بلدة Alhendin الحديثة وقد سبق التعريف بها . أنظر الحاشية فى ص ١١٢ .

مناقبه

قدم على الخليفة أبي مُطرِّف عبد الرحمن[1] ، فقام خطيباً بين يديه، فقال : الحمد لله المُحْتَجب بنُور عَظمته ، عن أبصار بَرِيَّته ، والدّال بحدوث خلْقه على أوَّليّته ، والمنفرد بما أتْقنَ من عجائب دهره ومِنن صَمَدِيَّتِه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له ، إقراراً بوَحْدَانيته[2] ، وخضوعاً لعزِّه وعظمته . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، انتَخبه من أطيب البُيوتات ، واصطفاه من أطيب البيوتات[3] ، حتى قبضه الله إليه ، واختار له ما لديه . وقد قبل سَعْيه ، وأدّى أمانته ، فصلى الله عليه وسلم تسليما . ثم إن الله لما أن بعثه من أكرم خلْقه ، وأكرمه برسالته وأنزل عليه مُحْكم تنْزيله ، واختار له من أصحابه وأشياعه مخلفاً ، جعل منهم أئمّة يَهْدُون بالحق ، وبه يَعْدلون ، فجعل الله الأمير ، أعزه الله ، وارث ما خلّفوه من معالِيهم ، وبانى ما أسّسوه من مشاهدهم ، حتى أمَّنَ المسالك[4] ، وسكن الخائف ، رَحْمَةً من الله ، ألبَسَه[5] كرامتَها ، وطوّقه فضيلتَها ، والله يُؤتى مُلْكه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

الله أعطاك التي لا فوْقها ... وقد أراد المُلْحِدُون عَوْقها
عَنْك ويأْبَي الله إلاّ سَوْقها ... إليك حتى قلّدوك طوْقها

---

(١) هو الخليفة عبد الرحمن الناصر مؤسس الخلافة الأموية بالأندلس وقد حكم من سنة ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ (٩١٢ — ٩٦١ م) .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» ، بربوبيته .

(٣) هكذا وردت فى «ج» وفى الملكية . ومكانها بياض فى «ك» .

(٤) هكذا وردت فى «ج» وفى الملكية . وفى «ك» «المناسك» والأولى أرجح .

(٥) هذه الكلمة وردت فى «ج» وأغفلت فى «ك» .

ثم أردف قوله بهذه الأبيات .

أيا مَلِكاً تُرْمَى به قُضُبُ الهند[١] إذا لَمَعَتْ بين المَغافر والسَّرد
ومَنْ بأسُه فى مَنْهل الموت واردٌ إذا أنفسُ الأبطال[٢] كلَّتْ عن الوِرْد
ومن ألْبَس اللهُ الخلافة نِعْمةً به فاقت النُّعْما وجَلّت عن الحَدِّ
فلو نُظِمتْ مَرْوانُ فى سِلْك فخْرِها لأصْبَح من مَرْوان واسِطةَ العِقْد
تجلَّى على[٣] الدُّنيا فأجْلَى ظَلامَها كما انجابَتْ الظَّلْماءُ عن قَمَر السَّعْد
إمامُ هُدًى أضحت به العُرْبُ غضَّةً[٤] مُلَبَّسةً نُورًا كوَاشِيَة البُرْد
كفانى لديه[٥] أنْ جَعَلتُ وسايلى[٦] ذماماً شآمِيًّا[٧] الهوى مخلص الود
يؤكد ما يدلى به من مثابة خلوص أبيه عبد الفارس الجند
تأمَّل رُواه وَالرِّماح شَوَاجِرٌ وخَيْلٌ إلى خَيْلٍ بأبطالها تُرْدِى
رأى أسدًا وَرْدًا يخِفُّ إلى الوغى ورَأيْتَهُ أرْبَى على الأسد الورد
فأنْعِم عليه اليَوْم يا خَيْرَ مُنْعِمٍ بإظهار تَشْرِيفٍ وعَقْدِ يدٍ عِنْدى
ولا تُشْمِت الأعداء أن جئْتُ قاصدًا إلى مَلِك الدُّنيا فأُحْرَمُ من قصدى
فعِنْدَ الإمام المرْتَضَى كلُّ نِعْمَةٍ وشُكْرًا لما يلحيه[٨] من نعْمةٍ عندى
فلا زال فى الدُّنيا سَعِيدًا مُظفَّرًا وبُوِّئَ فى دار العُلى جَنَّة الخُلْد

---

(١) وردت هذه الشطرة فى المخطوطين : «أيا ملكاً تزهى به قلوب الهند» ووردت فى الملكية (أيا ملكاً تزهى قلوب الهدى به) والتصويب من الحلة السيراء لابن الأبار (القاهرة ١٩٦٤) ج ١ ص ٢٢٩ .

(٢) هكذا فى «ج» ، وفى «الحلة السيراء» . وفى الملكية (الاعداء) .

(٣) فى الملكية (عن) .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى «الحلة السيراء» : (إمام هدى ز بدت به الأرض بهجة) .

(٥) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى الحلة السيراء .

(٦) هكذا فى الملكية . وفى الحلة (وسيلتى) .

(٧) واردة فى الحلة وساقطة فى المخطوطين . وفى الملكية .

(٨) هكذا وردت فى «ج» «والملكية» ، وفى «ك» ، يليه .

وكان من بيت سماحة وفصاحة وخطابة ، فَعَلا[١] شرفه بهذه الخصال ، فسُجِّل له على أرجية ، وحِصْنِ نابيل ببنى هُود وغير ذلك ، فانقلب مَرْعىً الوسائل ، ومَقْضِىَّ الرَّسائل .

[قال المؤلف أرى ابن فركون قبل الست عشرة والثلاثمائة][٢] .

أحمد بن محمد بن أحمد بن هشام القرشى

من أهل غَرْناطة . يُكْنَى أبا جعفر ، ويُعرف بابن فَرْكُون

أوليتـــه

وكنى بالنسب القرشى أوَّليَّة .

حـــاله

من « عائد الصلة »[٣] : كان من صُدُور القضاة بهذا الصُّقع[٤] الأنْدَلُسى ، اضطلاعاً بالمسائل ومعرفة بالأحكام من مظانِّها[٥] ، كثير المطالعة والدُّروب ، وحِيَّ[٦] الإجهاز فى فصل القضايا ، نافذ المَقْطع ، كثير الاجتهاد والنَّظر ، مشاركاً فى فنون ، من عربيَّة ، وفِقْه ، وقراءة ، وفرائض ، طيِّب النَّغْمة بالقرآن ، حسن التِّلاوة ، عظيم الوقار ، بين طَبْعٍ ومَكْسُوب ، فائق الأُبَّهة ، مُزْرياً بِن

---

(١) فى المخطوطين : فالى . وهو تحريف ظاهر .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى المخطوطات الأربعة عقب هذه الترجمة . ووجود هذه العبارة فى هذا الموطن غير واضح ، ولا علاقة لها بما تقدم أو بما تأخر بعد ذلك من ترجمة ابن فركون التالية ، بيد أننا لم نر بأساً من إثباتها كما هى .

(٣) هو من مؤلفات ابن الخطيب وقد تقدم التعريف به فى المقدمة .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» السقع .

(٥) وردت فى المخطوطات الأربعة : مضانها . وهو تحريف .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» ، وحير . ووحى معناها عجل مسرع .

دونه من الفقهاء ، وعاقدى الشروط ، مُسْقِطاً للكُنى والتَّجِلّات ، يعامل الكهول معاملة الأحْداث ، ويتهاون بتعامُلات[1] ذلك فيجعلها دُبُرَ أذنيه[2] ، ويَسْتَرْسِل فى إطلاق عِنان النَّادِرَة الحارة ، فى مجالس حُكْمِه ، فضلا عن غيرها ؛ وجَدَ ذلك مَنْ يحمل عليها سبَباً[3] للغرض منه .

نباهتـــه

ترَشَّح بذاته ، وباهِر أدواته ، إلى قضاء المدن النَّبيهة ، والأقطار الشهيرة ، كرُنْدَة ، ومالَقة ، وغيرهما . ثم وُلِّى قضاء الجماعة[4] ، فى ظلِّ جاهٍ ، وضِمْن حُرْمَة .

« غريبَة فى أمره » : حدث أنه كان يقرأ فى شَبيبته على الأستاذ الصالح أبى عبد الله بن مَسْتقور[5] . بكرْم له خارج الحضرة ، على أميال منها فى فصل العصير . قال وجَّهنى يوماً بغَلَّة من الرُّبِّ[6] لأبيعه بالبلد ، فأصابنى مطرٌ شديد ، وعُدْت إليه بحال سيِّئة ، بعد ما قضيتُ له وطره ؛ وكان له أخٌ أسنُّ منه ، فعاتبه فى شأنى ، وقال له : تأخذُ صبياً ضعيفاً يأتيك لفائدة يستفيدها ، وتُعرِّضُه لمثل هذه المشقَّة ، فى حقِّ مصلحتك ، ليس هذا من شِيَم العُلماء ، ولا من شيم الصَّالحين . فقال له دَعْه ، لابد أن يكون قاضى الجماعة بغَرْناطة ؛ فكان كذلك ، وصدَقت فراستُه ، رحمه الله تعالى .

---

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» و «الملكية» بتمامات .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» أذنه .

(٣) وفى «الملكية» سبيلا .

(٤) قضاء الجماعة فى الخطط الأندلسية معناه رياسة القضاء العليا ، أو منصب قاضى القضاة . ومركزه فى حضرة غرناطة .

(٥) وردت فى المخطوطين وكذا فى الملكية «مسفور» وهو تحريف . والتصويب من كتاب «المرقبة العليا» (قضاة الأندلس) ص ١٣٩ .

(٦) الرب هو بقايا الثمار بعد اعتصارها .

مشيخته

قرأ بالقرية على الأستاذ أبي القاسم بن الأصفر ، وبغَرْناطة على العالم القاضي أبي الحسن محمد بن يحيي بن ربيع الأشعَرى ، وعلى الشيخ المُفْتى أبي بكر [محمد بن](١) أبي إبراهيم بن مُفَرِّج الأَوْسى بن الدبَّاغ الإشبيلى ، وعلى الخطيب الزاهد أبي الحسن العدّال ، وعلى الأستاذ النَّحْوى أبي الحسن على بن محمد بن على بن يوسف ابن الصَّايغ ، بالصاد المهملة ، والغين المعجمة ، وعلى الأستاذ أبي الحسن الأُبَّدى (٢) ؛ وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الطَّائى ، عُرف بابن مَسْتَقور .

ولما دالت الدولة ، كان له فى مُشَايعة مَخْلُوعها أمور اقْتَضَتْها منه أريحيةٌ (٣) وحسنُ وفاء ، أَوْجَبت عليه الخُمُول بعد استِقْرار دايلها ؛ السلطان أبي الوليد رحمه الله ؛ [وأصابته](٤) أيام الهَيْج مِحَن ، ونُسِبت إليه نقائص ، زَوَّرَتْها حَسَدَتهُ (٥) ، فصُرف عن القضاء ؛ وبقى مدّة مَهْجُور الفِناء ، مُضَاع المكان عاطِلَ الدَّولة ، مُنْتَبَذاً فى مليك له ، خارج الحضرة ، يَنْحَنى على خُرْثِيٍّ (٦) ساقط القيمة ، ودفاتر ساقطة الثمن ، يتعلَّل بعُلالتها ، ويُزجى الوقت بيَسيرها .

حدَّثنى الوزير أبو بكر بن الحكيم (٧) ، قال زرتُه فى منزله بعد عَزْله (٨) ، ونِسْبة الأمور التى لا تليق بمثله ، فأنشدنى بما يُنبىءُ عن ضجره وضيق صدره :

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى ك ، وفى الملكية ، وساقط فى «ج» .

(٢) الأبدى بتشديد الباء وفتحها نسبة إلى مدينة أبدة . وهى مدينة أندلسية قديمة تقع شرقى قرطبة على مقربة من منابع نهر الوادى الكبير . وهى بالإسبانية Ubeda

(٣) وردت فى «ج» ، رحبية . وفى «ك» رجبية . وهو تحريف . وبالتصويب يستقر المعنى

(٤) أضفنا هذه الكلمة من عندنا ليستقيم المعنى والسياق .

(٥) هكذا وردت فى «ك» ، وفى «ج» والملكية ، حسده .

(٦) أى : الشىء التافه الذى لا قيمة له .

(٧) وردت فى المخطوطين : الحكم . وهو تحريف .

(٨) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : عرلته .

أنا من الحكم تائبْ وعن دعاويه هاربْ
بعد التفقه عمْرى ونَيْل أسْنى المَرَاتبْ
وبعد ما كنتُ أرْقى على المنابر خاطِبْ
أصبَحْتُ أُرْمى بعَارٍ لِلْحال غيرِ مُناسبْ
أشكُو إلى الله أمْرى فهو المُثيبُ المعُاقبْ

وثبَت اسمه فى التاريخ المسمى « بالتاج »(١) تأريخى بما نصه :

شيخ الجماعة وقاضيها ، ومُنفِّذ الأحكام ومُمضيها ، وشايم(٢) سيوفها الماضية ومُنْتَضيها ، رأس بفضيلة نفسه ، وأحيا دارس رسْم القضاء بدَرْسِهِ ، وأوَدع فى أرض الاجتهاد ، بذْر السُّهاد ، فجنَى ثمرة غرْسه ؛ إلى وقار يَودُّ رَضْوى رجاحته(٣) ، وصَدْر تحسُد الأرضُ الغبيطة ساحته ، ونادِرة يَدْعُوها فلا تتوقَّف ، ويُلقى عصاها فتتلقَّف ؛ ولم يزَل يَطْمَحُ بأمانيه ، ويضطلع بما يُعانيه ، حتى رُفع إلى الرُّتبة العالية ، وحصُل على الحال الحالية ؛ وكان له فى الأدب مُشاركة ، وفى قريض(٤) النظم حصَّة مباركة . إنتهى إلىَّ قوله يهنئ السلطان أبا عبد الله بن نصر ، بالإبلال من مرض فى اقترانٍ بعيد وفتح ، وذلك :

شفاؤك للمُلْك اعتزازٌ وتأييدُ وبُرْؤك مولانا به عيدُنا عِيدُ
مَرضْتَ فلم تأو النفُوس لِرَاحةٍ ولا كان للدُّنيا قرارٌ وتمْهيدُ
[ولم تصبر عينى تود مو لماً](٥) ولازمها طول اعتِلالِك تسْهيد

(١) هو كتاب « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » . وقد سبق التعريف به فى المقدمة .
(٢) وشايم أى منتضى .
(٣) هكذا وردت فى «ج» وفى «ك» رجاجته .
(٤) وردت فى «ك» مربضة . وفى «ج» مريضة . وقد آثرنا نص الملكية .
(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى «ج» والملكية . وفى «ك» (ولم تصبر عينى توالى مؤلما)

وشِعره مختلف عن نمط الإجادة التى تناسب محلّه فى العلم، وطبقته فى الإدراك فاختصرته .

مولده

عام تسعة وأربعين وستمائة .

« وفاته » فى السادس عشر لذى القعدة عام تسعة وعشرين وسبعمائة : ذكرته فى كتاب « عائد الصِّلة » قاضياً ، وفى كتاب « التَّاج المُحَلَّى » قاضياً أديباً . وذكره أبو بكر بن الحكيم [١] فى كتاب « الفوائد المُسْتغرَبة ، والموارد المُسْتعذبة » من تأليفه .

أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيي بن عبد الرحمن ابن يوسف بن سعيد بن جُزَىّ الكلبى

من أهل غرناطة ؛ ويعرف بابن جُزَىّ ؛ أوليَّته معروفة ، وأصالتُه شهيرة ؛ تُنظر فيما مر من ذلك [عند] [٢] ذكر سلفه ، وفيما يأتى فى ذلك ، بحول الله وقوته .

حالــه

من أهل الفضل والنَّزاهة ، والهمَّة ، وحُسن السَّمة ، واستقامة الطَّريقة ؛ غَرَّب فى الوقار ، ومال إلى الانْقباض ، وترشَّح إلى رُتب سلفه ؛ له مشاركةٌ

(١) هو من شيوخ ابن الخطيب، وهو ولد الوزير الشهير أبى عبد الله محمد بن الحكيم . ولد سنة ٦٦٥ هـ وتوفى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) وتولى مثل أبيه الوزارة . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد بإفاضة فى المجلد الثانى من الإحاطة .

(٢) يظهر أنه قد سقطت هنا فى المخطوطين كلمة (عند) ، أو نحوها ليستقيم المعنى ، فأضفناها .

حسنة فى فنون ، من فِقْه وعَرَبيّة ، وأدب ، وحفظ ، وشعر ، تسمو[(١)] ببعضه الإجادة ، إلى غاية بعيدة .

مشيخته

قرأ على والده الخطيب أبى القاسم ، ولازمه ، واستظهر[(٢)] ببعض موضوعاته ، وتأدب به ؛ وقرأ على بعض معاصرى أبيه ، وروى ؛ واستَجْلب له أبوه كثيراً من أهل صُقْعة وغيرهم .

نباهتـــــه

ثم أُرْسِم فى الكتابة السلطانية لأوّل دولة السابع من الملوك النَّصَريين ، مَنْفِق سوق الحِلْية من أبناء جنسه ، أبى الحجاج بن نصر ، فورى زنْدُه ، ودَرَّت أحلاب قريحته ، وصَدَر له فى مدائحه شعر كثير . ثم تصّرف فى الخُطَط الشَّرعية ، فوُلِّى القضاء ببُرْجَة[(٣)] ، ثم بأنْدَرَش[(٤)] ، وهو الآن قاضى مدينة وادى آشْ مشكور السيرة ، معروف النَّزاهة ، أعانه [ذلك][(٥)] وسوَّده ، وبلغ به رُتْبة سَلفه . وجرى ذكره فى كتاب التَّاج بما نصه :

« فاضلٌ تحلَّى بالسكينة والوقار ، فمدَّت إليه رقاب سَلفه يد الافتقار ، ما شِئْت

---

(١) وردت فى المخطوطين : (سما) ، وبهذا التصويب يستقيم المعنى .

(٢) هكذا فى الملكية وفى «ج» (استظهره) والأولى أرجح .

(٣) برجة هى Berja الحديثة وهى من أعمال ولاية المرية ، وتقع غربى ثغر المرية على مقربة من البحر المتوسط .

(٤) وردت فى المخطوطين وفى الملكية «أندش» وهو تحريف . وأندرش Andrax هى بلدة صغيرة من أعمال ولاية المرية أيضاً ، تقع فى شمال بلدة برجة . وهى شهيرة فى تاريخ مملكة غرناطة إذ كانت مقر أبى عبد الله آخر ملوك الأندلس بعد تسلم غرناطة . وبها أقام زهاء عامين حتى عبر البحر إلى المغرب فى أكتوبر سنة ١٤٩٣ م .

(٥) زيادة مرجحة لا يستقيم بغيرها السياق .

من هدوء وسكون ، وجُنوح إلى الخير ورُكون ، عني بالمحافظة على سمته من لدُن عَقَل ، ولزم خدْمة العلم فما عاد ولا انتقل ، ووجد من أبيه رحمه الله مرْعىً خصيباً فابتقل ، وعمل على شاكله[1] سلفه فى سلامة الجانب ، وفضل المذاهب، وتحلّى بتلك المآثر وتوشّح ، وتأهّل إلى الرّتب فى سن الشّبيبة وترَشّح ؛ وله مع ذلك فى لُجّة الفقْه سبْحٌ ، وعلى بعض موضوعات أبيه شَرْحٌ ؛ وأدبه ساطع ، وكلامه حَسَن المقاطع . فمن ذلك ما كتب به إلىَّ ، وقد خاطبت ما أمكن من نظمه :

فَدَيْتك يا سيّــدى مِثلَمَا فَدَاك الزمــانُ الذى زِنْتَه

وقوله فى المقطوعات من ذلك فى معنى التورية :

كم بُـكائى لبعْدكم وأنينى مَن ظَهيرى على الأسى مَن مُعِينى

جراح الخدَّ دمعُ عينى ولـكن عجبٌ أن يُجرح ابن معين

وقال فى الغِنى[2] :

أرى الناس يُولُون الغَنِيّ[3] كرامة وإن لم يكن أهلا لِرفعة مِقْدار

ويَلْوون عن وجه الفقير وجوههم وإن كان أهلاأن يُلاقى بإكْبَار[4]

بنو الدّهر جاءتهم أحاديث جَمّةٌ فما صحّحُوا إلاحديث ابن دينار[5]

ومن بديع ما صدر عنه ، قولُه ينسج على مِنوال امرئ القيس[6] فى قصيدته الشهيرة :

أقول لحَزْمى[7] أو لصالح أعمالى إلا عِمْ صباحا أيها الطَّلَل البالى

(١) وردت فى «ج» والملكية (شاكلته» والتصويب أنسب للسياق .

(٢) فى المخطوطين : المنى ، وهو تحريف حسبما يتضح بعد من نص الشعر .

(٣) وردت فى المخطوطين : الغبى . والتصويب من نفح الطيب وهو يتفق مع سياق البيت التالى .

(٤) فى المخطوطين : بآثار . والتصويب من نفح الطيب .

(٥) لم يرد هذا البيت فى المخطوطين . ونقلناه عن نفح الطيب .

(٦) وردت فى «ج» والملكية (السقرطيى) . والمرجح أن ذلك تحريف وأن الكلمة المقصودة هى (امرئ القيس) حسبما يدل على ذلك ما قاله المقرى عند تقديم القصيدة فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٢٧٠) وفى أزهار الرياض (ج ٣ ص ١٨٢) .

(٧) هكذا فى المخطوطين ، وفى النفح وأزهار الرياض : لعزمى .

أما واعظى شَيْبٌ سما فوق لِمَّتى ... مُحوٌّ حباب الماء حالا على حال
أنار به ليــل الشَّباب كأنه ... مصابيحُ رُهْبانٍ تَشبُّ لقُفَّال
نهانى عن غَىٍّ وقال مُنبِّهًا ... ألَسْتَ ترى السُّمَّاروالناس أحوالى
يقولون غَيِّره لتنعم برهــةً ... يَغْنِنْ به[(١)] من كان فى العصرِ الخالى
أغالطُ دهْرى وهو يعلم أننى ... كبرتُ وأن لا يُحسِنُ اللّهو أمثالى
ومُؤْنِسُ نار الشَّيْبِ يَقْبحُ لَهْوُه ... بآنِسَةٍ كأنَّها خَطُّ تِمْثال
أشَيْخًا وتَـأْتى فعل مَنْ كان عُمْرُه ... ثلاثين شهراً فى ثلاثة أحوال
وتُشْغِفُكَ الدُّنيا وما أن شَغفتها ... كما شَغَفَ المهنوءةَ الرجلُ الطَّالى
ألا أنَّها الدنيا إذا ما اعتبرتَها ... ديار لسَلْمَى عافياتٌ بذى خال
فأين الذين استأْثَرُوا قبْـلنا بها ... لنامُوا فما إن من حديث ولا صال
ذَهُلت بها غيًّا فـكيف الخلاصُ من ... لعُوبٍ تنسينى إذا قُمْتُ سِربَالى
وقد علِمَتْ منى مواعيد تَوْبَتى ... بأن الفتى يهذى وليس بفَعَّال
ومُذْ وثِقَتْ نَفْسى بحبِّ محمد ... هَصَرْتُ بغُصنٍ ذى شماريخ مَيَّال
وأصبح شيطانُ الغواية خاسئاً ... عليه قتام[(٢)] سيِّءُ الظن والبال
ألا ليْتَ شِعْرى هل تقول عزائمى ... لِخَيْلى كُرِّى [كرَّةً بعد][(٣)] إجفال
فأنْزِلَ داراً للنبى نزيلُهــا ... قليلُ هُمُومٍ ما يَبيت بأوجال
فطُوبىَ لنفْسٍ جاوَرَتْ خَيرَ مُرْسَل ... بيَثْربَ أدْنَى دَارها نظرٌ عالى
ومِنْ ذِكْرِه عند القبول تعَطَّرت ... صَباً وشَمْألٌ فى منازل قُفَّال
جِوارُ رسول الله مجدٌ مؤثَّلٌ ... وقد يُدرِكُ المَجْدَ المُؤَثَّلَ أمثالى

---

(١) غنى بالمكان أى أقام به .

(٢) وردت فى المخطوطين والملكية : القتام . والقتام هو الغبار الأسود .

(٣) وردت فى المخطوطين ، (كرا ذات) والتصويب من الملكية والنفح والأزهار .

ومن ذا الذى يثنى عِنان السُّرى وقد ... كفانى ولم أطلب قليلٌ من المال
ألم ترَ أنَّ الظَّبْيَةَ استشْفَعَتْ به ... تَميل عليه هُونَةً غير بِجْفَال
وقال لها عُودِى فقالت له نعم ... ولو قدَّموا رأسى لديْك وأوْصالى
فعادَتْ إليه والهوَى قائلٌ لها ... وكان عداء الوَحْش منى على بالى
رثى لبعيرٍ قال أزْمَعَ مالـكى ... ليَقْتُلنى والمرء ليس بفعـال(١)
وثورٍ ذبيح بالرسالة شاهـد ... طويل القرا والرَّوْق اخنَس ذيَّال
وحنَّ إليه الجذْع حَنَّةَ عاطِش ... لغَيْثٍ من الوَسْمِى رائدُه خالى
وأصلين من نخلٍ قد التأما له ... فما احْتَبسا من لِين مَسٍّ وتِسهال(٢)
وقبضةِ تُرْبٍ منه ذلَّت لها الظبا(٣) ... ومسنونةٍ زُرْقٍ كأنياب أغوال
وأضحى ابن جَحْشٍ بالعَسِيب مقاتلاً ... وليْس بذى رُمْحٍ وليْسَ بنبَّال
وحسبُك من سيف(٤) الطُّفيل إضاءة ... كمِصْباح زَيْتٍ فى قناديل ذُبَّال
ومُدَّت به العَجْفاء كلٌّ مُطهَّم ... له حَجَبات مُشْرفات على الفال
ويا خَسْفَ أرضٍ تحت باغيه إذ علا ... على هَيْكل نهد الجزارة جوَّال
وقد أُخمِدَتْ نارٌ لفارسَ طالما ... أصابت غضَى [جزْلاً](٥) وكفّت بأجْزال
أبان سبيل الرُّشْد إذ سُبُل الهُدى(٦) ... يَقُلْن لأهل الحلم ضَلاً بتضلال
لأحْمَدَ خير العـالمين انتقيتُها ... ورُضْت فذلَّت صَعْبَة(٧) أى إذلال

---

(١) لم يرد هذا البيت فى المخطوطين ، ونقلناه عن نفح الطيب .

(٢) وردت فى المخطوطين : وتسآل ، والتصويب من النفح والأزهار .

(٣) فى المخطوطين ، الصبا . والتصويب من الملكية والنفح .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح سوط .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . ونقلناها عن النفح والأزهار .

(٦) «إذ سبل المدى» نقلناها عن النفح . ومكانها فى المخطوطين عبارة مضطربة : (إذ سبل به). وكذا فى الملكية .

(٧) وردت فى المخطوطين طبعه . والتصويب من النفح .

وإن رَجائى أن ألاقيه غَدًا ولستُ بمَقلى الخِلال ولا قالى
فأدْرِك آمالى وما كلُّ آمل يُدرك أطرافَ الخطوب ولاوَالى

ولاخفاء ببراعة هذا النَّظم ، وإحكام هذا النَّسج ، وشدَّة هذه العارضة[1]. وله تقييدٌ فى الفقه على كتاب والده ، المسمى بالقوانين الفقهيه ، ورجزٌ فى الفرائض يتضمن العمل . واحسانُه كثير . وتقدم قاضياً بحَضْرة غرناطة ، وخطيباً بمسجد السلطان ، ثامن شوال من عام ستين وسبعمائة . ثم انصرف عنها ، وأُعيد إليها فى عام ثلاث وستين ، موصوفاً بالنّزاهة والمَضَاء .

« مولده » ، فى الخامس عشر من جمادى[2] الأولى عام خمسه عشر وسبعمائه ، وهو الآن بقيد الحياة .

أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن على بن محمد بن سَعْدة ابن سعيد بن مَسْعدة بن ربيعة بن صخر بن شراحيل[3] بن عامر بن الفضل بن بكر[4] بن بكّار بن البدر بن سعيد بن عبد الله العامرى

يكنى أبا جعفر ، من أهل غرناطه .

أوّليته

عامر الذى ينتسبون إليه ، عامرُ بن صَعْصَعة بن هَوازن بن منصور بن عِكْرِمة ابن خَفْصة بن قيْس بن عيلان بن مُضر بن نزار بن معدّ بن عدنان .

(١) وردت فى المخطوطين (المعارضة) والتصويب من النفح .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» ، لجمادى .
(٣) فى «ك» سراخيل . وفى «ج» سراحيل .
(٤) وردت فى المخطوطين : بدال . وهو تحريف . ويؤيد هذا التصويب ما يرد بعد قليل فى السياق .

ومن مناقبهم : مَيْمُونة أم المؤمنين ، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعَمْرو بن عامر من أصحابه ، وعاصم بن عبد الله الجَبَلى ، ويزيد بن الحِمْيرى ، وغيرهم . مَنْزل جدّهم الداخل إلى الأندلس ، وهو بكرُ بن بَكّار بن البَدْر بن سعيد بن عبد الله ، قرية طِغْنر[1] ، من إقليم بَراجلة[2] ابن خريز من إلبيرة .

قال ابن الصيرفى[3] فى تاريخه الصغير : منزل بنى مَسْعَدة ، موضعُ كرم ومَحْمَدة ، ينتسبون فى عامر ، وهم أعيان عِلْية ، فرسان أكابر ، وحُجّاب وكُتّاب ووزراء ، ولهم سابقات ومفاخر ، وأوائلُ وأواخرُ . ومنهم على القِدَم جليل[4] ونبيه ، ومنهم كان وضيعُ بن جَرّاح الفقيه ؛ لم يُدخل أحد منهم فى الفتنة يداً ، ولا تأذى مُسْلماً ، ولا مُعاهداً[5] ، على قُدْرتهم على ذلك ؛ وكفى به فخراً لا ينقطع أبداً . ودخل جدّهم الأندلس بعقد بنى مروان له ، سنة أربع وتسعين من الهجرة ؛ ويأتى من ذكر أعلامهم ما يدلّ على شرف بيتهم ، وأصالته ، وعلوّه وجلالته .

---

(١) ورد اسم هذه البلدة محرفاً فى المخطوطين : (طفنس) . والصواب هو « طغنر » Tignar التى منها الطغنرى صاحب كتاب الفلاحة . وموقعها على مقربة من غرناطة . وقد سبقت الإشارة إليها . راجع الحاشية فى ص ١٢٩ .

(٢) سبق أن أوضحنا المعنى الجغرافى لكلمة براجلة وبراجلات Parcelas . وهى البقاع والسفوح الواقعة فى أسافل جبل الثلج Sierra Nevada . وبراجلة ابن حريز أو خريز هى إحدى هاته البقاع المجاورة لبلدة إلبيرة .

(٣) وردت فى المخطوطين : السيرفى وهو تحريف .

(٤) وردت بعدها فى المخطوطين كلمة (ولا) لتقرأ العبارة (جليل ولا نبيه) ، ووجودها على على هذا النحو غامض مناقض للسياق ، فحذفناها وأبقينا الواو ليستقيم المعنى .

(٥) هكذا وردت فى «ك» . و «ج» عاهد . وهو تحريف ووردت فى «الملكية» (ولا تأذى به مسلم ولا معاهد) . والمعاهد هو النصرانى الذى كان يعيش فى ظل الحكومة الإسلامية Mozarabe وقد سبق التعريف بأحوال المعاهدين . راجع الحاشية فى ص ١٠٦ .

حـــاله

كان صَدْراً جليلا ، فقيهاً مضطلعاً[١] ، من أهل النَّظر السَّديد والبحث ، قائماً على المسائل ، مشاركاً فى كثير من الفنون ، جَزْلا مهمًّا ، جارياً على سُنن سلفه ، ريّان من العربية . وختم سيبَويه تفقُّهاً ، وقرأ الفقه ، واستظْهر كتاب التّلقين ، ودرس الأحكام الجيدة[٢] ، وعرضها فى مجلس واحد ، وقرأ أصول الفقه ، وشَرَح المُسْتَصْفى شرحاً حسناً ، وقرأ الإرشاد والهداية[٣] ، وكان صدراً فى الفرائض والحساب ، وألّف تاريخ قومه وقرابته .

ولايتـــه

وَلىَ القضاء بمواضع من الأندلس كثيرة[٤] من البشارات[٥] ، أقام بها أعواماً خمسة ؛ ثم لوْشة[٦] ، وأقام بها ثلاثة أعوام ؛ ثم بَسْطة وبرُشانة[٧] . ثم انتقل إلى مالقة ، وأقام بها أعواماً خمسة . نبّهتُ على مقدار الإقامة لما فى ضِمن طول سنى الوَلاية من استقامة أمر الوالى . وكان له من أمير المسلمين بالأندلس حُظوة لطيفة لم تكن لغيره ، استَنْزلها بسحر التلطُّف ، وخطبها بلسان التَّملُّق حتى استَحْكمت له أسبابُها .

---

(١) وردت فى المخطوطين : مصطلعا . وهى كلمة لا معنى لها . وحكمة التصويب واضحة .

(٢) هكذا فى «الملكية» ، ووردت فى «ج» (الجدية) .

(٣) وردت فى المخطوطين : والنهاية .

(٤) وردت فى المخطوطين : كثير .

(٥) «البشارات» سبق التعريف بمعناها الجغرافى . وهى السفوح والسهول فى منطقة ميرا نفادا» الوسطى ، ومقابلها الإسبانى Alpujarras راجع الحاشية ، فى ص ١١١ .

(٦) لوشة هى بلد ابن الخطيب . وقد سبق التعريف بها فى المقدمة .

(٧) سبق التعريف بهما ، راجع الحاشيتين فى ص ١٠٩ .

حدثنى بعض أشياخى ممن كان يباشر حال السلطان يومئذ ، قال : وجّه ابن مسعدة ابنه من مالقة ، بكتاب فى بعض الأغراض الضرورية ، ثم رغب فيه أن يُنعم على ولده بالمُشافهة لإلقاء أمر ينوبُ عنه فيه ؛ فلما حضر ، تناول رجْل السلطان فقبّلها ، وقال أمرنى أبى أن أنوب فى تعْفير الوجه ، فى هذه الرِّجل الكريمة الجهادِيّة عنه خاصّة ، لبُعْد عهده بها ، إلى أمثال هذا ، مما اقتضت الانتفاع بعاجلٍ من الدّنيا زهيدٍ ، لا يدرى ما الله صانعٌ فيه ؛ والإبقاء بما تجاوز الإفراط ، فى تقدّمه بمالقة ، بعدَه دارُ الأعلام ، وديوانُ العقد ، وهو حَدَثٌ خلىٌّ من العِلْم ، قريبُ العهد بالبلوغ ، فكانت على أنها غاية الصُّدور مَلْعباً ، إلى أن ضرب الدهر ضرباته ، وانتقلت الحال .

مشيخته

أولهم قاضى الجماعة ، أبو الحسن بن أبى عامر بن ربيع ؛ وثانيهم القاضى أبو عامر يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع ؛ وثالثهم أبو يحيى بن عبد المنعم الخَزْرجى[1]؛ ورابعهم العَدْل ، الرّاوية ، أبو الوليد العطّار ؛ وخامسهم أبو إسحاق بن ابراهيم بن أحمد[2] الخُشَنِي ؛ وسادسهم الأستاذ أبو الحسن الكِنانى الإشْبيلى ؛ وسابعهم محمد بن إبراهيم ابن مُفرِّج الأوْسى الدبّاغ ؛ وثامنهم أبو جعفر أحمد بن على الرُّعَينى ، وتاسعهم أبو على بن أبى الأحْوص .

وصمته

فروى الناس أنه وُجد بخزانته بعد وفاته ، زمامٌ ، يشتمل على مثالب أهل غَرناطة ، مما يحدثُ على الأيام فى أفرادهم ، من فَلَتات يُجريها عدم الاتّصاف بالعِصْمة . استقرّ عند ولده الفضل ، زعموا ، ثم خفى أثرُه ، ستر الله عيوبنا برحمته.

(١) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» (المخزومى) .
(٢) هكذا فى «ج» ، وفى الملكية (مفرح) .

وفاته

توفى بمالقة قُرب صلاة المغرب ، يوم الأحد الموفى عشرين لذى الحجة عام تسعة وتسعين وستمائة ، ودفن بخارج باب قُبالة فى مالقة المذكورة بمقربة من رابطة بنى عمَّار ، وبالروضة المنسوبة لبنى يحيى ، نقلت من خط ولده الفضل .

أحمد بن محمد بن أحمد بن قُعْنب الأزدى

يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن قُعْنب .

« أوّليّته » ، ذكر الأستاذ ابن الزُّبير فى « صِلته »[1] وغيره ، أن قوماً بغرناطة يُعرفون بهذه المعرفة ، فإن كان منهم ، فله أوّليّة لا بأس بها .

حاله

كان من شيوخ كُتاب الشُّروط معرفة بالمسائل ، واضطلاعاً بالأحكام ، وانفرد بصحّة الوثيقة ، باقعةً[2] من بواقع زمانه ، وعيَّابة[3] فى مشايخ قطره ، يألف النادرة الحارّة فى ملاء من النّوْك والغفلة ، فلا يهتزّ لموقع نادرة ، ولا يضحك عقب عقد صَرْعةٍ ، لقلقِه غير مامرة ، غير مجلس من مجالس القضاء من بنى مسعود المُزْراة[4]

---

(١) هو كتاب « صلة الصلة » لأبى جعفر أحمد بن الزبير . وقد ذيل به على كتاب «الصلة» لابن بشكوال . ونشرت منه الأقسام التى عثر عليها منه ، بتحقيق المرحوم العلامة الأستاذ ليڤى بروفنسال "الرباط سنة ١٩٣٧) ويقتبس ابن الخطيب كثيراً منه . ويترجم له فيما يلى

(٢) الباقعة هو الذكى الداهية من الرجال .

(٣) أى يكثر العيب فى الناس .

٤) فى « الملكية » (المزارة)

أحكامُهم ، المرميّة بتهكه وإزْرائه ، فتقتّع[1] فى طريق حكمهم خُطاً منفسحة ، غير مكترث بهوانه ، ولاغاصٌ بلسانه . وربما قال لبعض الوَزَعة[2] من قادته بمجسه ، وقد توقّفوا به فى بعض الطريق ، توقعاً لسُكون غضب قاضيهم ، إبعثوا بعضهم إلى هذا المَحْروم ، لنرى ما عزم عليه ، بكلام كثير الفتُور والاستكانة ، له فى هذا الباب شهرة .

« ذكرُ بعض نزَعاته ». حدّثنى ملازمُه ، وقفٌ عليه ، أبو القاسم بن الشيخ الرئيس أبى الحسن بن الجيّاب ، وقد أعمل والده ، رحلةً إلى مالقة لزيارة شيخه الذى تلمّذ له ، وشُهربالتشيّع فيه ، أبى عبد الله السّاحلى ، صاحب الأتباع والطريقة، وكان مفرط الغُلوّ فيه ، واستصحب ولدَه الصغير ، فسأله عن سفر أبيه [وسعيه][3] فقال نعم ، واحتمل أخى ، فقال أظنه منذ وُلد كان غير مفتطس ، فحمله الشيخ، فغطّسه ، واستغرب كل من حضر ضحكاً ، فلم يبتسم هو كأنه لا شعور عنده بما ذهب إليه ، فكانت إحدى الطّوام عند الشيخ .

وحدثنى ، قال : جاءت أمراة تخاصم ميّاراً[4] ، أوصلها من بعض المدن ، فى أمر نشأ بينهما ، وبيده عقْد ، فقال بعض جيرانه ، من نصه حاكياً ، « وأنه جامعها من موضع كذا إلى كذا » ولم يرسم المدّ على ألف جاء ، فقال الشيخ المرأة ، أتعرفين أن هذا الميّار جا معك فى الطريق أى فعل بك ، فقالت معاذ الله ، ونفرت من ذلك ، فقال كذا شهد عليك الفقيه ، وأشار إلى جاره . ومثل

---

(١) أى خنع وذل .

(٢) هم الحراس والحجاب .

(٣) هذه الزيادة من «الملكية» .

(٤) هكذ وردت فى المخطوطين وفى الملكية . والميار هو الرجل الذى يجمع الميرة .

ذلك كثير . وُلى القضاء بأماكن عديدة كاوْشة ، وبَسْطة ، والمَسْند ، وبُرجة ، وأُرحبة(١) ، وغير ذلك .

مشيخته

يحمل عن الأستاذ أبى جعفر بن الزبير ، والخطيب الصالح أبى عبد الله بن فضيلة ، وأبى محمد بن سِماك ، وأبى الحسن بن مَسْتقور .

مولده

عام سبعين وستمائة . توفى قاضياً ببُرجة بعد علة سَدِكتْ(٢) به فى السادس عشر من شعبان من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ، وانتقل منها فى وعاء خشب . ودفن بمقبرة إلبيرة ، تجاوز الله عنه ورحمه .

[أحمد بن محمد بن سعيد بن زيد الغافقى

من أهل غرناطة ، وجلّة بيوتها ، ويأتى من ذكر ذلك ما فيه كفاية .

حـاله

هذا الرجل ممن صُرفت إلى الله رُجعاه، وخَلَصت له معاملته ، وخلص إليه انقطاعه . نازع فى ذلك نفساً جامحة فى الحزم ، عريقة فى الغفلة ، فكتب الله له النصر عليها دَفْعة ، فشمر وفوت الأصول للحضرة فى باب الصَّدَقة ، ونبذ الشواغل ، وحفظ كتاب الله على الكِبْرة ، واستقبل المحراب ، ماغياً سواه . درأ به ، فاتفق

(١) سبق التعريف ببسطة (الحاشية فى ص ١٠٩) وبرجة (الحاشية فى ص ١٥٨) . وأرحبة وبالإسبانية Orgiva ، هى بلدة تقع جنوب شرقى غرناطة .

(٢) أى لازمت .

على فضله ، وغُبط فى حسن فيئته . وله ديوان نبيل ، يتضمن كثيراً من فقه النفس والبدن ، دل على نبله ؛ وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد . نفعه الله تعالى .

« مولده » ؛ بغرناطة عام تسعين وستمائة][1] .

أحمد بن أبى سهل بن سعيد بن أبى سهل الخزرجى

من أهل الحمّة[2] ، يكنى أبا جعفر .

« حاله » ، من أهل الخير والعفاف والطهارة والانقباض ، والصحة والسّلامة ، أصيلُ البيت ، معروف القدم ببلده ، حرّة[3] النادرة . قرأ بالحضرة ، واجتهد ، وحصّل ؛ ولازم الأستاذ أبا عبد الله الفخّار وغيره من أهل عصره . ووُلى القضاء ببلدة الحمّة ، ثم بغربى مالقة . وهو الآن قاض بها ، مشكور السيرة .

أحمد بن عمر بن يوسف بن إدريس بن عبد الله بن ورد التميمي

من أهل ألمَريّة[4] . يكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن وَرْد .

---

(١) ردت هذه الترجمة فى «ر.م» ، فى هامش ص ٢٧٢ ؛ ولم ترد فى المخطوطات الأربعة ، فرأينا إثباتها فى هذا المكان وفق ترتيبها الأبجدى .

(٢) الحمة أو الحامة Alhama ، تقع جنوب غربى غرناطة على قيد أربعين كيلو متراً منها . وقد كانت أيام مملكة غرناطة من أهم مدنها وأكثرها حصانة . وهى اليوم بلدة متوسطة .

(٣) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى «ك» حاد

(٤) هكذا وردت فى « ك » . ووردت (غرناطة) فى «ج» و «الملكية» ، والأولى رجح حسبما يستدل بعد من سياق الكلام .

حـــاله

قال الملاّحى : كان من جلّة الفقهاء المُحدِّثين . قال ابن الزُّبير كذلك ، وزاد: موفور الحظّ من الأدب والنحو والتاريخ ، متقدِّماً فى علم الأصول والتّفسير ، حافظاً متقناً ، ويقال إن عِلْم المالِكيّة انتهت إليه الرياسة فيه ، وإلى القاضى أبى بكر بن العربى ، فى وقتهما ، لم يتقدَّمهما فى الأندلس أحد [بعد][1] وفاة أبى الوليد بن رشد . قال أخبرنى الثِّقة أبو عبد الله بن جَوْبر عن أبى عمر بن عات ، قال:حديث ابن العربى ، اجتمع بابن وَرْد ، وتبايتا ليلة ، وأخذا فى التَّناظُر والتذاكُر ، فكانا عجَباً . يتكلم أبو بكر فيظن السامع أنه ماترك شيئاً إلا أتى به ، ثم يجيبه أبو القاسم بأبدع جواب يُنْسى السامعين ماسمِعوا قبله . وكانا أُعجوبتى دهرهما . وكان له مجلسٌ يتكلم فيه على الصَّحيحيْن ، ويخصّه[2] الأخمسة بالتفسير .

«حلوله غرْناطة»[3] ؛ قال المؤرخون وُلِّى قضاء غرناطة سنة عشرين ، فعدل وأحسن السِّيرة ، وبه تفقه طلبتُها إذ ذاك .

مشيخته

روى عن أبى على الغسّانى ، وأبى الحسن بن سراج ،وأكثر عنه، وأبى بكر بن سابق الصقيلى ، وأبى محمد بن عبد الله بن فرج المعروف بالعسّال الزاهد ، ولازمه ، وهو آخر من روى عنه . ورحل إلى سِجلْماسة ، وناظر عند ابن العوّاد[4] .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وقد أضفناها ليستقيم المعنى والسياق .

(٢) وردت فى المخطوطين : ويحضر . وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى «ج» ، وفى «ك» (حلوله عن غرناطة) وعن هنا لا محل لها .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «الملكية» .

وروى أيضاً عن أبي الحسن المبارك المعروف بالخشّاب ، وكان الخشاب يحمل عن أبي بكر بن ثابت الخطيب وغيره .

«من روى عنه» ، وروى عنه جماعة كأبي جعفر بن الباذِش ، وأبي عبيد الله ، وابن رَفاعة ، وابن عبد الرحيم ، وابن حكيم وغيرهم . وآخر من روى عنه ، أبو القاسم ابن عُمران الخزرجي بفاس .

« وفاته » ، توفى بالمريّة فى الثانى عشر لرمضان سنة أربعين وخمسمائة .

أحمد بن محمد بن على بن أحمد بن على الأموى (١)

يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن بُرْطال (٢)، أصله من قرية تعرف بحارة البحر من وادى طرّش (٣) نصر حصن مُنْتِماس من شرق مالقة ، من بيت خير وأصالة ، وانتقل سلفه الى مالقة ،فتوَشّجت لهم بها عروقٌ ، وصاهروا إلى بيوتات نبيهة .

حـــاله

كان من أهل الخير ، وكان على طريقة مُثْلى من الصمت ، والسَّمْت ، والانقباض ، والذكاء ، والعدالة والتخصّص ، محوّلا فى الخير ، ظاهر المروءة ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : الأمدى . والتصويب من كتاب «قضاة الأندلس» (ص ١٤٨) .

(٢) وردت فى المخطوطين وفى «الملكية» : ابن بطال ، وهو تحريف . وقد وردت بعد ذلك فى السياق «ابن برطال» وهو الصواب .

(٣) هو السهل الذى تقع فيه بلدة Torrox الحديثة أو طرش ، وذلك فى شرق مالقة على قرب من البحر المتوسط .

معروف الأصالة ، خالص الطُّعمة ، كثير العفّة ، مشهور الوقار والعفاف ، تحرّف بصناعة التوثيق على انقباض .

دخوله غرناطة

تقدم قاضياً بغرناطة ، بعد ولاية القضاء ببلده ، وانتقل اليها ، وقام بالرّسم المضاف إلى ذلك ، وهو الإمامة بالمسجد الأعظم منها ، والخطابة بجامع قلعتها الحمراء ؛ واستقل بذلك إلى تاسع جمادى الثانية من عام إحدى وأربعين وسبعمائة ، على قصور فى المعارف ، وضعف فى الأداة ، وكلال فى الجدّ ، ولذلك يقول شيخنا أبو البركات بن الحاج :

إن تقديمَ ابن بُرطـال دعا   طالبَ العلم الى ترك الطّلب
حَسِبوا الأشياء عن أسبابهـا   فإذا الأشياء عن غير سبب

إلا إنه أعانه[1] الدربة ، والحُنْكة على تنفيذ الأحكام ، فلم تؤثر عنه فيها أحدوثة ، واستظهر بجزالة ، أمْضَت حُـكمه ، وانقباضٍ عافاه عن الهوادة ، فرضيت سيرته ، واستقامت طريقته .

« مشيخته » ، لقى والده ، شيخ القضاة ، وبقيّة المُحدّثين ، وله الرواية العالية ، والدرجة الرفيعة ، حسبما يأتى فى اسمه ، ولم يؤخذ عنه شىء[2] فيما أعلم .

شعره

أنشدنى الوزير ، أبو بكر بن ذى الوزارتين ، أبى عبد الله بن الحـكيم ، قال

---

(١) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» و «الملكية» إعاده .

(٢) وردت فى المخطوطين : «شيئاً» وهو تحريف .

أنشدنى القاضى أبو جعفر بن بُرطال لنفسه ، مُودِّعاً فى بعض الأسفار :

أستودع الله [من لوداعهم][(١)] قلْبي ورُوحى إذ دَنى الوَداع
بانوا وطرْفى والفؤاد ومِقولى باكٍ ومسلوب العزاء وداع
فتولَّ يا مولاى حِفْظَهُم ولا تجعل تفرُّقنا فِراق وَداع

وفاته

توفى رحمه الله ، وعفا عنه ، أيام الطاعون الغريب[(٢)] بمالقة ، فى منتصف ليلة الجمعة خامس صفر عام خمسين وسبعمائة ، وخرجت جنازته فى اليوم التالى ، ليلة وفاته فى رَكْبٍ من الأموات ، يناهز الألف ، وينيف بمائتين ، واستمر ذلك مدة ، وكان مولده عام تسعة وثمانين وستمائة ، رحمه الله تعالى .

أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومى

بلنسى شقورى[(٣)] الأصل يكنى أبا مُطرِّف .

« أوَّليَّتُه » لم يكن من بيت[(٤)] نباهة ، ووقع لابن عبد الملك فى ذلك نقل ، كان حقه التجافى عنه ، لو وُفق .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين ، وفى «الملكية . ووردت فى «ت» (الزيتونه) (الأولى أودعتهم) . وقد آثرنا النص الأول المجمع عليه .

(٢) وردت بعدها فى المخطوطين كلمة (القوا) وهى دخيلة هنا فأغفلناها . ويشير ابن الخطيب هنا إلى الوباء الهائل الذى اجتاح المشرق والمغرب سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٩م) ، وطاف بالأندلس وفتك بأهلها. وقد كتب عنه ابن الخطيب رسالته المسماة « مقنعة السائل عن المرض الهائل» التى ذكرناها فى المقدمة .

(٣) نسبة إلى شقورة . وهى بلدة تقع شمال شرقى مدينة أبدة ، وشمال غربى جبال شقورة Sierra de Segura وكانت أيام الدولة الإسلامية من أعمال ولاية جيان . وتسمى اليوم بالإسبانية Segura de Sierra

(٤) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» و «الملكية» أهل . والأولى أرجح ، وهى متفقة مع ما يرد بعد فى السياق .

حاله

قال ابن عبد الملك[١] : كان أوّل طلبه العلم شديد العناية بشأن الرواية، فأكثر من سماع الحديث ، وأخذه عن مشايخ أهله ، وتفنّن فى العلوم ، ونظر فى العقليّات وأصول الفقه ، ومال إلى الأدب ، فبرع فيه براعة ، عُدّ بها من كبار مُجيدى النّظم . وأما الكتابة ، فهو عَلَمُها المشهور ، وواحدها الذى عجزت عن ثانيه الدُّهور، ولاسيما فى مخاطبة الإخوان ،هنالك استولى على أمد الإحسان[٢]، وله المُطوَّلات المُنْتَخَبة ، والقِصار المقتَضبة ، وكان يُملح[٣] كلامه نظماً ونثراً بالإشارة إلى التاريخ ، ويُودِعه إلماعات بالمسائل العِلمية مُنوَّعة المقصد . قلت : وعلى الجملة ، فذاتُ أبى المطرِّف فيما ينزع اليه ، ليست من ذوات الأمثال، فقد كان نسيج وحْدِه ، إدراكاً وتفنّناً ، بصيراً بالعلوم ، مُحدِّثاً ، مكثراً ، راوية ثبْتاً، سَجِراً[٤] فى التاريخ والأخبار ، ريَّان ،مضطلعاً بالأصْلين ، قائماً على العربية واللغة ، كلامه كثير الحلاوة والطّلاوة، جمّ العيون ، غزير المعانى والمحاسن ، وافد أرواح المعانى ، شفّاف اللفظ ،حرّ المعنى ، ثانى بديع الزمان ، فى شكوى الحِرفة ، وسوء الحظ ، ورونق الكلام ، ولُطْف المأخذ ، وتبريز النثر على النظم ، والقُصُور فى السُّلطانيات .

مشيخته

روى عن أبى الخطاب بن واجب ، وأبى الربيع بن سالم ، وأبى عبد الله بن فرج وأبى على الشَّلُوبين ، وأبى عُمر بن عات ، وأبى محمد بن حَوْط الله ،لقيهم ، وقرأ

(١) هو القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشى المتوفى سنة ٧٠٣ هـ ، صاحب كتاب «الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » وهو موسوعة تراجم عظيمة أندلسية ومغربية ، ومنه أجزاء مخطوطة بباريس والقاهرة والإسكوريال والرباط والمتحف البريطانى . وقد صدرت منه بضعة أجزاء فى بيروت (١٩٦٤ — ١٩٦٥) .

(٢) وردت فى المخطوطين : الإنسان . والتصويب من «ت» والذيل والتكملة .

(٣) وردت فى المخطوطين : (يعلم) والتصويب من الذيل والتكملة .

(٤) هكذا وردت فى «ج » وفى « الملكية » . وفى « ك » شحرا . والسجر هو الملء .

عليهم ، وسمع منهم ، وأجازوا له ؛ وأجاز له من أهل المشرق أبو الفتوح نصر بن أبي الفرج وغيره .

« من روى عنه » ؛ روى عنه ابنه القاسم ، وأبو بكر بن خطّاب ، وأبو إسحاق البُلْقيني الحفيد ، والحسن بن طاهر بن الشقُّوري ، وأبو عبد الله البرّي . وحدّث عنه أبو جعفر بن الزُّبير ، وابن شقيف ، وابن ربيع ، وغيرهم مما يطول ذكره .

نباهته

صحب أبا عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن خطّاب ، قبل توليته ما تولىّ من رياسة بلده ، وانتفع به كثيراً ؛ وكتب عن الرئيس أبي جميل زيّان ابن سعد[1] ، وغيره من أمراء شرق الأندلس . ثم انتقل إلى العُدْوة[2] ، واستكتبه الرشيد[3] أبو محمد عبد الواحد[4] بمراكش ، مدة يسيرة ؛ ثم صرفه عن الكتابة وولاه قضاء مِلْيانة من نظر مرّاكُش [الشرقى][5] ، فتولاّه قليلا ، ثم نقله إلى أقصى رِباط الفتح . وتوفى الرشيد ، فأقره على ذلك الوالى بعده ،

(١) الرئيس أبو جميل زيان بن سعد بن مردنيش ، كان أميراً لبلنسية واستمر على إمارتها حتى حاصرها الأرجوينون بقيادة الملك خايمى الأول سنة ٦٣٥ هـ . وقد أوفد عندئذ كاتبه الشهير أبا عبد الله ابن الأبار القضاعى إلى صاحب تونس الأمير أبى زكريا يحيى الحفصى يستنجد به ويطلب عونه . وأنشد ابن الأبار لهذه المناسبة بين يدى أمير تونس قصيدته المشهورة التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وقد استجاب أبو زكريا للنداء ، وبعث طائفة من السفن تحمل الأموال والمؤن إلى مياه بلنسية . ولكنها أخفقت فى الاتصال بأهل المدينة . وسقطت بلنسية فى يد النصارى فى العام التالى أى فى سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) .

(٢) أى عدوة المغرب .

(٣) هو خليفة الموحدين ، وولد الخليفة العادل . حكم فى مراكش من سنة ٦٣٠ إلى سنة ٦٤٠ هـ .

(٤) وردت فى المخطوطين : عبد الوليد ، وهو تحريف .

(٥) الزيادة من الملكية .

أبو الحسن المُعتضد أخوه ؛ ثم نقله إلى قضاء مِكْناسة الزّيتون ؛ ثم لما قتل المعتضد لحق بِسَبْتة ، وجرى عليه بطريقها ما يذكر فى مِحْنته . ثم رَكِب البحر منها متوجهاً إلى إفريقيَّة ، فقدم بجاية على الأمير أبى زكريا يحيى بن الأمير أبى زكريا[(١)] . ثم توجه إلى تونس فنجحت بها وسائله ، وولى قضاء مدينة الأُرْش[(٢)] . ثم انتقل إلى قابس ، وبها طالت مدة ولايته ؛ واستدعاه المُسْتنصر بالله[(٣)] محمد بن أبى زكريا ، ولطُف محله منه ، حتى كان يحضر مجالس أُنسِه ، وداخله بما قرَفته[(٤)] الأَلْسُن بسببه حسبما يذكر فى وَصْمته .

مناقبه

وهى الكتابة والشعر ؛ كان يَذكر أنه رأى فى منامه ، النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، فناوله أقلاماً ، فكان يُرْوى له أن تأويل تلك الرؤيا ، ما أدرك من التبّريز فى الكتابة ، وشياع الذكر ، والله أعلم .

ومن بديع ما صَدَر عنه ، فيما كتب فى غرض التّورية ، قطعة من رسالة ، أجاب بها العبّاس بن أمية ، وقد أعلمه باستيلاء الروم على بَلنْسِية[(٥)] ، فقال :

« بالله أىّ نحو ننحُو ، أو مَسْطورٍ نُثْبِت أو نمْحُو ؛ وقد حُذف الأَصْلُ والزّائد ، وذهَبت الصّلةُ والعائد ؛ وباب التعجُّب طال ، وحالُ اليَأس لا تخشى الانتقال ؛ وذهَبت علامةُ الرَّفْع ، وفقدت [نون] الجمع ؛ والمعْتلّ أعدَى

(١) كان أمير بجاية وقت وفود ابن عميرة إليها ، هو الأمير أبو زكريا يحيى بن الأمير أبى زكريا يحيى ولد الشيخ أبى محمد عبد الواحد ، أمير تونس ومؤسس الدولة الحفصية الأفريقية .

(٢) هكذا وردت فى «ج» والملكية ، وفى «ك» (الأوش) . والظاهر أن هذا الاسم محرف

(٣) وردت فى المخطوطين : المنتصر بالله . وهو تحريف .

(٤) هكذا فى «ك» . وفى «الملكية» (قربته)

(٥) سقطت بلنسية فى يد النصارى حسبما تقدم فى صفر ٦٣٦ هـ . (سبتمبر ١٢٣٨ م) . والروم هنا هم «الأرجونيون» .

الصَّحيح والمُثلَّثُ أرْدَى الفصيح ؛ وامتَنَعَت الجُمُوع من الصَّرف ، وأُمنَت زيادتُها من الحَذف ؛ ومالت قواعدُ المِلَّة ، وصِرْنا جمعْ القِلَّة ؛ وظهَرتْ علامةُ الخفْض ، وجاء بدلُ الكلِّ من البعض » .

ومن شعره فى المقطوعات التى وَرَّى فيها بالعلوم قوله :

قد عكفْنا على الكتابة حيناً ... وجاءت(١) خُطَّة القضاء تليها

وبكل لم يبق للجُهْد إلا ... منْزِلاً نابياً وعيشاً كريهاً

نِسْبةٌ بُدِّلت ولم تتغيّر مثْـ ... ـلُ ما يزعمُ المهندس فيها

وكقوله مما افتتح به رسالة :

ياغائباً سلَبَتنى الأُنسَ غيبتُه ... فكيف صبرى وقد كابدتُ بَيْنَهُما

دَعْواى أنَّك فى قلبى فعارَضَها ... شوقى إليك فكيف الجمْعُ بَيْنَهُما

وفى مثل ذلك استفْتاحُ رسالته أيضاً :

إن الكتاب أتى وساحةُ طِرْسه ... روحٌ مُوَشًّى(٢) بالبديع مُرَبَّعُ(٣)

وله حقوقٌ ضاق وقتُ وجوبها ... ومِنَ الوُجُوب مُضَيَّقٌ وموسّع

وفى مثل ذلك فى استفتاح رسالة أيضاً :

كبَّرْتُ بالبُشْرى أتت وسماعُها ... عيدى الذى لشُهُودِه تكبيرى

وكذلك الأعياد سُنَّة يومها ... مختصَّة بزيادة التَّكبير

وفى أغراض أُخَرْ :

بايَعُونا مَودَّةً هى عندى ... كالمرآة(٤) بيعها بالخِدَاع

فسأقْضى بِرَدِّها ثم أقضى ... بعدها من مدامعى(٥) ألف صاع

(١) فى «الملكية» (ثم جاءت) .
(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» (الزيتونة) موشح .
(٣) هكذا فى «ج» . وفى «ك» مرتبع .
(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» و «ت» كالمرات ، كالممارات .
(٥) هكذا فى «ت» . وفى «ج» مدامِى . وفى «ك» قدامى .

وله فى معنى آخر :

شرطتُ عليهم عند تسليم مُهجتى ... وعند انعقاد البَيع قُرباً يُواصل
فلما أردتُ الأخذ بالشرط أعرضوا ... وقالوا يصحّ البيع والشَّرطُ باطل

تصانيفــــه

له تأليفٌ فى كائنة مَيُرْقة[١] ، وتغلُّب الرُّوم عليها ، نحى فيه مَنحى العِماد الأصفَهانى ، فى الفتح القُدْسى[٢] ، وكتابهُ فى تعقيبه على فخر الدين بن الخطيب الرَّازى فى كتاب المعالم فى أصول الفقه منه ، وردّه على كمال الدين أبى محمد بن عبد الكريم السِّماكى فى كتابه المسمى بالتِّبيان فى علم البيان ، واقتضابهُ النبيل[٣] فى ثورة المُريدين[٤] ، إلى غير ذلك من التعاليق[٥] والمقالات ودوّن الأستاذ أبو عبد الله ابن هانىء السَّبتى كتابته وما يتخلَّلُها من الشِّعر فى سفرين بديعين أتقن ترتيبهما ، وسمّى ذلك « بُغية المُستطرف ، وغُنيه المُتطرِّف[٦] من كلام إمام الكتابه ابن عميرة أبى المطرِّف » .

---

(١) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» مريقة . وفى «ت» (الزيتونة) المرية وهو تحريف . وكائنة ميورقة يقصد بها هنا استيلاء النصارى على جزيرة ميورقة كبرى جزائر البليار أو الجزائر الشرقية ، وذلك فى سنة ٦٢٧هـ (١٢٢٨م) على يد ملكهم خايمى ملك أراجون الذى سبقت الإشارة إليه.

(٢) كتاب العماد الأصفهانى المشار إليه هنا هو «كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى» وهو من تأليف عماد الدين أبى عبد الله محمد بن هبة الله القرشى الأصفهانى المشهور بالعماد الكاتب . المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) . وفيه يصف الحوادث التى اقترنت بفتح بيت المقدس على يد الملك الناصر صلاح الدين فى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) . وينحو فيه منحى السجع المرتب . وقد كان شاهداً لكثير من الحوادث التى يصفها .

(٣) وردت فى «ج» السميل ، وفى «ك» النسيل . وهو فيما يبدو تحريف لما أثبتناه .

(٤) كتاب «ثورة المريدين» من تأليف أحمد بن قسى ، وهو من زعماء ولاية الغرب الأندلسية فى أواسط القرن السادس الهجرى ، وكان شاعراً متصوفاً. ولم يصلنا كتابه المشار إليه .

(٥) فى المخطوطين : العاليق . وهو تحريف ظاهر .

(٦) هكذا فى «ك» . وفى «ج» المطرف .

دخوله غرناطة

[قال][1] شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب . عَمير أخبرُ بذلك مِنْ شيوخه — والرجل ممن يُركن إليه فى أخباره فيما أحقّوا[2] على سبيل الرواية والإخبار ، من شرْق الأندلس ، إلى غرْناطة ، إلى غرْبها إلى غير ذلك ، عند رحلته ، وهو الأقْرُب ، وقال : قال المخبر ، عهدى به طويلا ، نحيف الجسم ، مُصْفراً ، أقْنى الأنف ، أصيب بمالقة ما أحوج ما كان إليه ، وقد استقبل الكبْرَة[3] ، ونازعه[4] سوء الحظ ، قال الشيخ أبو الحسن الرُّعَيْنى ، إنه كتب إليه يُعْلمهُ بهذه الحادثة عليه ، وأن المنْهوب من ماله ، يَعْدل أربعة آلاف دينار عُشْرية ، وكان ورقاً وعيناً وحُليا وذلك أنه لما قُتل المعتضد ، اغتنم الفطرة[5] ، وفصَل عن مِكناسة ، قاصداً سَبْته ، فلقى الرفقة التى كان فيها جَمْعٌ من بنى مَرين ، سلبوه وكلّ من كان معه .

مولده

بجزيرة شقْر[6] وقيل ببَلَنْسِية فى رمضان اثنتين وثمانين وخمسمائة .

---

(١) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة ، ويقتضيها السياق .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين مع تحريف بسيط . وفى «ت» «بما أخفوا» .

(٣) الكبرة هى كبر السن .

(٤) هكذا وردت فى «ت» و «ج» و «الملكية» ، ووردت فى «ك» (وقارعه) ، والمعنى واحد .

(٥) هكذا فى «ج» و «الملكية» وفى «ك» (الفترة) .

(٦) جزيرة شقر كانت تطلق أيام الدولة الإسلامية على الجزيرة الكبيرة الواقعة فى نهر شقر Jucar قبل مصبه فى البحر المتوسط جنوبى بلنسية . وكانت من أجمل البقاع فى تلك المنطقة ، وكانت تسمى أحياناً بالجزيرة فقط . وهو الاسم الذى استعير فيما بعد لبلدة Alcira الإسبانية الواقعة على نهر شقر على مقربة من الجزيرة المذكورة . وقد كانت جزيرة شقر موطن كثير من العلماء والأدباء .

« وفاته » ؛ توفى بتونس ليلة الجمعة الموفية عشرين(١) ذى الحجة عام ستة وخمسين وستمائة . قال ابن عبد الملك ؛ وَوَهِم ابن الزبير فى وفاته ، إذ جعلها فى حدود الخمسين وستمائة أو بعدها .

أحمد بن عبد الحق بن محمد بن يحي بن عبد الحق الجذلى

من أهل مالقة ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن عبد الحق .

حـــاله

من صدور أهل العلم والتفنّن ، فى هذا الصقْع(٢) الأندلسى ، نسيجُ وحْدِه فى الوقار والحصافة ، والتزام مُثْلى الطريقة ، جمٌّ التّحصيل ، سديد النظر ، كثير التخصّص ، محافظ على الرسم ، مقبوضُ العِنان فى التّطْفيف فى إيجاب الحقوق لأهلها ، قريب من الإعتدال فى معاملة أبناء جنسه ، مقتصد مع ثروته(٣) ، مؤثر للترتيب(٤) فى كافة أمره ، متوقد الفكرة مع سكون ، ليِّنُ العريكة مع مَضاء ؛ مجموع خِصال حميدة مما يفيد التجريب(٥) والحُنْكة ؛ مضطلع بصناعة العربيه ، حائز قصب السّبق فيها ، عارف بالفروع والأحكام ، مشارك فى فنون من أصول ، وطبٍ ، وأدب ، قائم على القراءة ، إمام فى الوثيقة(٦) ، حسنُ الْخَطّ ، مليح السَّمَة والشيبة(٧) عَذْب الفُكاهة ، حسن العهد ، تام الرجولية(٨) .

---

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» و «ت» عشر .

(٢) ترد دائماً فى «ك» السقع بالسين . وهو تحريف إملاء مستمر .

(٣) هكذا فى «ك» ، وفى «ج» ثورته . وهو تحريف ظاهر .

(٤) هكذا فى «ج» ، وفى «ك» للقريب . والأولى أرجح .

(٥) هكذا فى «الملكية» وفى المخطوطين : التحريج ، والتخريج ، والأولى أرجح بالنسبة للمعنى .

(٦) الوثيقة والتوثيق كتابة العقود .

(٧) وردت فى «ج» الشبيهة . وفى « ك » ، الشيبية . والتصويب أنسب السياق .

(٨) وردت فى المخطوطين : «الروجلية» . وهو تحريف .

نباهته

تصدَّر للاقراء ببَلَدِه على وفور أهل العلم ، فكان سابق الحَلْبَة ، ومناخ الطلبة ، إمتاعاً ، وتفنناً ، وحسن إلقاء[١] . وتصرف فى القضاء ببَلّش[٢] وغيرها من غرْبى بلده ، فحَسُنت سيرته ، واشتهرت طريقته ، وحُمدَت نزاهته . ثم وُلى خُطَّة القضاء بمالقة ، والنظر فى الأحْباس[٣] بها ، على سبيل من الحظوة والنباهة ، مرجوعاً إليه فى كثير من مُهمَّات بلده ، سامَةً وجوه السعادة ، ناطقةً ألسن الخاصة والعامة بفضله ، جمَّاعة نزاهته ، آوياً إلى فضل بيته . واتَّصلت ولايته إيَّاها إلى هذا العهد ، وهى أحد محامد[٤] الوالى ، طولُ مدة الولاية ، لاسيما القاضى ، مما يدلُّ على الصبر ، وقلة القدْح ، وسدٌّ أبواب التُّهم ، والله يُعينه ، ويمتع به بمنه .

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبى عبد الله بن بكر ، وهو نجيب حَلْبته ، والسَّهْمُ المُصيب من كِنانته ، لازمه ، وبه تفقَّه وانتفع ، وتلا القرآن عليه وعلى محمد بن أيوب ، وعلى أبى القاسم بن درهم عَلَمى وقتهما فى ذلك ، وعلى غيرها ، وتعلَّم الوثيقة على العاقد القاضى أبى القاسم بن العريف . وروى عن الخطيبَيْن المحدِّثين أبى عثمان ابن عيسى وأبى عبد الله الطَّنجالى وغيرهما .

دخوله غرناطة

تردَّد إليها غير ما مرَّة ، منها فى أمور عرَضت فى شئونه الخاصَّة به ، ومنها

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» اللقاء ، وهو تحريف .

(٢) هى بلدة بلش مالقة Velez Malaga . وقد سبق التعريف بها . أنظر الحاشية فى ص ١١٢ .

(٣) أى الأوقاف .

(٤) هكذا فى «ك» . وفى «ج» المحامد .

مع الوفود الجلّة ، من أهل بلده ، تابعاً قبل الولاية ، متبوعاً بعدها . ومن شعره قوله فى جدول :

ومُقاربُ الشطّين[١] أحكم صَقْله ... كالمشرَفى إذا اكتسَى بفِرِنْده

فحمائلُ الدّيباج منه خمائلٌ ... ومعانقٌ فيها البَهارَ بورْدِه

وقد اختفى طرفٌ له فى دَوْحَةٍ ... كالسّيف رُدّ ذُبابه فى غِمْده

وقوله فى شجر نارنج مزهر :

وثمار نارنج ترى أزهارها ... مع نائىء النّارنج فى تنْضِيد

فإذا نظرت إلى تألُّفها أتت ... كمباسِمٍ[٢] أوْمَت لِلَثْم خُدُود

وفاته

فى زوال يوم الجمعة السابع والعشرين لرجب عام خمسة وستين وسبعمائة .

« مولدُه » ، ثامن شوال عام ثمانية وتسعين وستمائة .

أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن الصقر الأنصارى الخزرجى

يُكْني أبا العباس ، من أهل الثّغْر الأعلى[٣] .

أوّليّتـه

من سَرَقُسْطة ، حيث منازل الأنصار هنالك ؛ انتقل جدٌّ أبيه عبد الرحمن بابنه الصغير منها لحدوث بعض الفتن بها إلى بَلَنْسِية ، فوُلد له ابنه عبد الرحمن

(١) وردت فى المخطوطين : ومنهم الشيطان .

(٢) وردت فى المخطوطين : كملاسم .

(٣) الثغر الأعلى فى الجغرافية الأندلسية هو ولاية الحدود الشمالية وهى ولاية سرقسطة ، وأعمالها تطيلة ووشقة ولاردة وطركونة وطرطوشة . وهو يقابل فى الجغرافية الحديثة ولاية أراجون .

أبو العباس هذا ؛ ثم انتقل أبوه إلى ألمريَّة[1] ، فوُلد أبو العباس بها ، ونقله أبوه إلى سَبْتة فأقام بها مدّة .

حـــاله

كان محدِّثاً مُكثراً ثقةً ، ضابطاً ، مقرئاً ، مُجوِّداً ، حافظاً للفقه ، ذاكراً للمسائل ، عارفاً بأصولها[2] ، متقدِّماً فى علم الكلام ، عاقداً للشروط ، بصيراً بعللها ، حاذقاً بالأحكام ، كاتباً بليغاً ، شاعراً محسناً ، أتقنُ أهل عصره خطّاً ، وأجلهم مَنْزعاً ، ما اكتسب قط شيئاً من متاع الدُّنيا ، ولا تلبَّس بها ، مُقتنعاً باليسير ، راضياً بالدُّون ، مع الهمَّة العليَّة[3] ، والنفس الأبيَّة ، على هذا قطع عمره ، وكتب من دواوين العلم ودفاتره ، ما لا يحتوى كثرة ، بجَودة ، وضَبْط وحُسن خطّ ، وعُني به أبوه فى صغره ، فأسمعه كثيراً من الشروح ، وشاركه فى بعضهم . نفعه الله .

نباهتُـــه

استدعاه أبو عبد الله بن حسُّون ، قاضى مَرَّاكش ، إلى كتابته ، إلى أن صُرف ، واستقرَّ هو متولى حُكمها وأحكامها ، والصلاة فى مسجدها ، ثم ترك الأحكام ، واستقرَّ فى الإمامة . ولما تصيَّر الأمرُ إلى المُوحِّدين ، ألحقهُ عبد المؤمن[4] منهم ، بجملة طلبة العلم ، وتحفَّا به ، وقدّمه إلى الأحكام بحَضْرة مَرَّاكش ، فقام بها مدّة ، ثم ولّاه قضاء غرناطة ، ثم نقله إلى إشبيلية قاضياً بها

---

(١) وردت فى المخطوطين : «القرية» . وهو تحريف ، ولابد أنها «ألمرية» كما يتضح من سياق الكلام فيما بعد .

(٢) وردت فى المخطوطين : بأصوله . والتصويب أرجح لأن الضمير هنا عائد إلى المسائل .

(٣) فى «الملكية» ، العالية .

(٤) هو الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على . وقد سبق التعريف به (انظر الحاشية فى ص١٤١)

مع ولىّ عهده . ولما صار الأمر إلى أبى يعقوب (١) ، ألزمه خدمة الخزانة العلمية وكانت عندهم من الخطط التى لا يُعَيَّنُ لها إلا كبار أهل العلم وعليتهم ، وكانت مواهب (٢) عبد المؤمن له جَزْلة ، وأعطياتهم مُترافِهة كثيرة .

مشيخته

قرأ القرآن على أبيه ، وأكثر عنه ، وأجاز له ، وعلى أبى الحسن التُّطيلى (٣) ، قال ، وهو أول من قرأت عليه .

«من روى عنه» ، روى عنه أبو عبد الله ، وأبو خالد يزيد بن يزيد بن رفاعة ، وأبو محمد بن محمد بن على بن وهب القضاعى .

دخـــوله غرناطة

صُحْبة القاضى أبى القاسم بن حمزة ، ونوَّه به واسْتخلفه إذ وليها ، وقبض عليه بكلتى يديه ، ثم استُقضى بها أبو الفضْل عِياض بن موسى ، فاستمْسك به ، واشتمل عليه ، لصحبة كانت بينهما وقرابة ، إلى أن صُرِف عنها أبو الفضل عِياض ، فانتقل إلى وادى آش ، فتولى أحكامها والصلاة بها ، ثم عاد إلى غرناطة سنة ست وثلاثين ، إلى أن استُقضى بغرناطة فى دولة أبى محمد بن عبد المؤمن بن على ، فحُمِدت سيرته ، وشُكر عدْله ، وظهرت نزاهته ، ودام بها حتى ظُن من أهلها .

---

(١) أبو يعقوب يوسف هو ولد عبد المؤمن وخليفته . وقد حكم المغرب والأندلس من سنة ٥٥٨—٥٨٠ هـ (١١٦٢—١١٨٤ م) وتوفى متأثراً بجراحه فى موقعة شنترين التى هزم فيها الموحدون (ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ) .

(٢) هكذا فى «ك» ، وفى «ج» و «الملكية» مذاهب . وهو تحريف .

(٣) التطيلى ، نسبة إلى تطيلة ، وهى مدينة من مدن الثغر الأعلى تقع شمال غربى سرقسطة على نهر إيبرو ، وبالإسبانية Tudela .

شـــعره

وشعره فى طريقة الزهد [وهى][1] لاينفُذُ فيها إلاّ من قويت عارضتُه ، وتوفّرت مادّته :

إلــهى لكَ المُلْك العظيمُ حقيقةً ... وما لِلْورى مهما منعت نقير
تجافى بنو الدنيا مكانى فسرّنى ... وما قدرُ مخْلوق جَداه[2] حقير
وقالوا فقيرٌ وهم عندى جلالةٌ ... نعم صَدَقوا إنى إليك فقير

وشعره فى هذا المعنى كثير ، وكان سَلِس القيادة ، دالاًّ على جَوْدة الطبع .

ومن شعره قوله :

إرْضِ العــدُوّ بظــاهر مُتَصَنّع ... إن كنت مضطرًّا إلى استرضائه
كم من فتى ألقى بوجه باسمٍ ... وجوانحى تتقّــد من بغضــائه

تصــانيفه

له تصانيفُ مفيدة ، تدل على إدراكه وإشرافه ، كشرحه الشّهاب ، فإنه أبدع فيه ، وكتابه « أنوار الأفــكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهّاد والأبرار » ، ابتدأ تأليفه ، وتوفى دون إتمام غرضه فيه ، فــكمّله عبد الله أبنه .

محنته

كان ممن وقعت عليه المحنة العظمى بمرّا كُش يوم دخول الموحِّدين إياها ، يوم السبت لإثنى عشر ليلة بقيت من شوال [عام][3] إحدى وأربعين وخمسمائة ، على الوجه المشهور فى استباحة دماء كل من اشتملت عليه من الذّكور البالغين ، إلاّ

---

(١) هذه الكلمة واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .
(٢) فى المخطوطين : حداه . وفى الملكية (جزاه) .
(٣) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين ، وإثباتها أصلح للسياق .

من تستّر بالاختفاء فى سِرْب [أو غرفة][1] أو مخبأ . وتمادى القتل فيها ثلاثة أيام ، ثم نودى بالعفو عمن أشارته الفتْكة الكبرى ، فظهر من جميع الخلق بها ، مايناهز السبعين رجلا ، وبيعوا بيع أسارى المشركين ، هم وذراريهم ، وعُفى [عنهم][2] ، فكان أبو العباس ممّن تخطّته المنيّة ، واستنْقذه من الرقّ العفوُ وحسبك بها محنة ، نفعه الله ، وضاعت له فى ذلك وفى غيره ، كتب كثيرة بخطّه وبغير خطه ، مما تجلّ عن القيمة .

مولده

بألمريّة فى أواخر شهر ربيع سنة اثنين وخمسمائة .

« وفاته » ؛ توفى بمرّاكش بين صلاة الظهر والعصر ، فى يوم الأحد لثمان خلون من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة . ودفن يوم الإثنين بعده عقب[3] صلاة الظهر ، وصلى عليه القاضى أبو يوسف حجاج ؛ وكانت جنازته عظيمة المحفل ، كثيرة الجمع ؛ برز إليها الرجال والنساء ورفعوا نعشه على الأيدى . رحمه الله .

ومما رثاه به جارُه وصديقه أبو بكر بن الطفيل[4] ، وهو بإشْبِيلية ، بعث بها إلى ابنه مع كتاب فى غرض العزاء :

لأمرٍ ما تَغَيَّرت الدُّهـور ... وأظْلَمَت الكواكبُ والبُدُور
وطال على العُيُون الليلُ حتى ... كأنَّ النَّجم فيه لا يَغُـور

(١) هذه الكلمة زائدة فى « ك » .

(٢) ناقصة فى المخطوطين . ويقتضى إثباتها السياق .

(٣) فى المخطوطين ، بعد عقب ، والتصويب من « الملكية » .

(٤) هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل (أو ابن الطفيل) القيسى من أعظم فلاسفة الأندلس وأطبائها . ولد فى أوائل القرن السادس الهجرى بمدينة وادى آش . وتوفى بمراكش سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) . وتولى منصب الوزارة ومنصب الطبيب الخاص للخليفه أبى يعقوب يوسف الموحدى . وكان صديقاً وأستاذاً لابن رشد . وهو صاحب رسالة « حى بن يقظان » الشهيرة . وسوف يترجم له ابن الخطيب فى المجلد الثانى من الإحاطة .

أحمد بن أبى القاسم بن عبدالرحمن ، يعرف بابن القَبّاب من أهل فاس ، ويكنى أبا العباس .

حـــاله

هذا الرجل ، صَدْرُ عدول[١] الحَضْرة الفاسِيَّة ، وناهضُ عُشِّهم ، طالب ، فقيه ، نبيه ، مُدْرِك ، جيد النظر ، سديد الفهم ؛ حضر الدرس بين يدى السلطان، ووُلِّى القضاء بجبل الفتح[٢] ، متَّصِفاً فيه بجزالة وانتهاض . تعرفتُ به بمدينة فاس ، فأعجبتنى سيمتُه ؛ ووصل مدينة سَلا فى غرض اختبار واستطلاع الأحوال السلطانية ؛ واستدعيته فاعتذر ببعض مايُقبل ، فخاطبته بقولى :

أبيتُم دَعْوتى إمّا لِشَــأوٍ ... وتأبَى لومه مُثْلى الطريقــة
وبالمختــار للنــاس اقتــداء ... وقـــد حضر الوليمة والعقيقة
وغيرُ غريبةٍ أن رقَّ حُــرٌّ ... على من حالُه مِثْلى رقيقــة
وإمّا زاجرُ الوَرَع اقتضــاها ... ويأبى ذاك دُكانُ الوثيقــة
وغِشْيانُ المنـازل لاختبـــار ... يُطالب بالجليلة والدّقيقــة
شـكرتُ مَخيلة كانت مجازاً ... لـكم وحَصَلت بعدُ على الحقيقة[٣]

وتفرَّع الـكلام على قولى : « ويأبى ذاك دكانُ الوثيقة » ، بما دعى إلى بيانه بتصنيفى[٤] فيه الـكتاب المسمَّى « بمُثْلى الطريقة فى ذَمِّ الوثيقة » .

---

(١) جمع عدل . والعدل فى نظام الأندلس القضائى ، وهو الذى اشتقت أصوله بالمغرب فيما بعد ، هو موظف قضائى مهمته صياغة الوثائق التى يطلبها المتقاضون . ويقرر القاضى صحة نص الوثائق . ولا يباشر العدل مهمته إلا بعد أن يقوم القاضى « بتعديله » أعنى بإثبات أنه عدل . وبذلك يصبح أهلا للتوثيق . (راجع الخشنى : قضاة قرطبة — طبعة القاهرة — ص ١٤١) .

(٢) أى جبل طارق .

(٣) ورد بعض التحريف فى المخطوطين فى إيراد هذه الأبيات . وقد اعتمدنا فى تصويبها على نفح الطيب وأضفنا إليها البيت الثانى وهو وارد فى النفح وساقط فى المخطوطين (ج ٤ ص ٤٧٣)

(٤) وردت فى المخطوطين ، بحينى ، وهو تحريف ظاهر . وبالتصويب يستقيم المعنى .

دخوله غرناطة

فى عام اثنين وستين وسبعمائة، مُوَجَّهاً من قِبَل سلطان المغرب أبى سالم بن أبى الحسن لمباشرة صَدقة عهد بها لبعض الرُّبُط[1]، وهو إلى الآن، عَدْلٌ بمدينة فاس، بحال تَجِلَّة وشهرة. ثم تعرَّفتُ أنه نسك ورفض العَيْش[2] من الشهادة كـكثير[3] من الفضلاء.

أحمد بن ابراهيم بن الزُّبير بن محمد بن ابراهيم بن الحسن ابن الحسين بن الزبير بن عاصم بن مُسلم بن كَعْب الثَّقفى

يكنى أبا جعفر.

أوليته

كَعْبٌ الذى ذكر، هو كعب بن مالك بن عَلْقَمة بن حباب[4] بن مسلم بن عَدْى ابن مرة بن عُوف بن ثَقِيف؛ أصله من مدينة جيّان[5]، منزل قِنِّسرين، من العرب الداخلين إلى الأندلس؛ ونسبُه بها كبير، وحَسَبه أصيل، وثَرْوته[6] معروفة. خرج به أبوه عند تغلُّب العدوّ عليها عام ثلاثة وأربعين وستمائة، ولأبيه إذ ذاك إثراء[7] وجِدَة أعانته على طلب العلم، وإرفاد[8] من أحْوجَته الأزمة فى

(١) الربط جمع رباط وهو فى الأصل المكان الذى يرابط فيه المجاهدون استعداداً لدفع العدو، وكان ذلك فى الغالب على الحدود أو الثغور. ثم تطور إلى المعنى الدينى. والربط هنا فيما يبدو الزوايا التى ينتسب إليها جماعات من الصلحاء والزهاد.

(٢) وردت فى المخطوطين: المتمعش وهو تحريف ظاهر، والتصويب من «ت» (الزيتونة).

(٣) وردت «الكثير» فى «ك» و «ت». وفى «ج» الكثير.

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين وفى الملكية. ووردت فى «الصلة» (حيان).

(٥) كانت مدينة جيان من القواعد الأندلسية الهامة أيام الدولة الأسلامية. وهى تقع شمال غرناطة وشرق قرطبة. وهى اليوم قاعدة الولاية الإسبانية المسماه باسمها.

(٦) وردت فى المخطوطين: وثورته.

(٧) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج» أثر.

(٨) إرفاد من رفد وأرفد، ومعناه العون والمساعدة.

ذلك الزمان من جالية العلماء عن قُرْطبة و إشبيليه كأبى الحسن الصائغ[1] وغيره ، فنصحوا له ، وحَطَبوا فى حَبْله .

حـاله

كان خاتمة المحدِّثين ، وصدور العلماء والمقرئين ، نسيج وحده ، فى حُسن التعليم ، والصبر على التّسميع ، والملازمة للتدريس ، لم تختل له ، مع تخطى الثمانين ، ولا لحقته سآمة ، كثير الخشوع والخشية، مُسترسل العَبْرة[2] ، صليباً فى الحق ، شديداً على أهل البدع ، ملازماً للسُّنَّة ، جَزْلا ، مُهيباً ، معظَّماً عند الخاصة والعامّة عذب الفكاهة ، طيّب المجالسة ، حُلو النادرة ، يؤثر عنه فى ذلك حكايات ، لا تُخل بوقار ، ولا تحل بجلال مَنصِب .

« فنونه » ، إليه انتهت الرياسة بالأندلس فى صناعة العربية ، وتجْويد القرآن ، ورواية الحديث ، الى المشاركة فى الفقه ، والقيام على التّفسير ، والخوض فى الأُصلين .

« مشيخته » ، أخذ عن الجلّة المُقرئين ، كالمقرى أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن مستقور[3] الغرناطى الطائى .

«نباهته ونُخَطه» ، وُلىَّ قضاء المناكح ، والخطبة بالحضْرة ، وبلغ من الشهرة والإشادة بذكره ، مالم يَبْلغه سواه .

---

(١) هو أبو بكر محمد بن باجة التجيبى الأندلسى المشهور بابن الصائغ ، الفيلسوف الشاعر . كان من أعظم فلاسفة الأندلس ومفكريها ، ومن علماء الرياضة والفلك والطبيعة . وهومن أهل سرقسطة من الثغر الأعلى . وقد نسب إليه الإلحاد والخروج على تعاليم الدين . وكانت وفاته مسموماً بفاس سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) . ويعرف بالإفرنجية باسم Avempace .

(٢) هكذا وردت فى «ك» . ووردت فى «ج» وفى «الملكية» ، الدمعة .

(٣) وردت فى المخطوطين : مشهور . والتصويب من كتاب « المرقبة العليا » .

تصانيفه

من تأليفه كتاب « صلة الصِّلة لابن بَشْكُوال» ، التى وصلتُها بعده ، وسمَّيتُ كتابى « بعائد الصلة »(١) ، وافتتحت أول الأسماء فيه باسمه ؛ وكتاب « ملاك التأويل ، فى المُتشابه اللفظ فى التَّنْزيل» غريبٌ فى معناه ؛ [والبرُهان فى ترتيب سُوَر القرآن](٢) ؛ وشرح الإشارة لِلْباجى فى الأصُول ؛ وسبيلُ الرّشاد فى فضل الجهاد ؛ ورَدْع الجاهل عن اغتياب المجاهل ، فى الرد على الشّودية(٣) ،وهو كتاب جليل يُنْبى عن التفنن والاضطلاع ؛ وكتاب الزمان والمكان ، وهو وصْمَة ، تجاوز اللهعنه .

شعره

وشعره مختلف عن نمط الإجادة ، مما حقُّه أن يُثبت أو ثَبت فى كتاب شيخنا أبى البركات المسمى « شعرُ مَنْ لا شِعر له » مما رواه ، ممن ليس الشعر له بضاعة ، من الأشياخ الذى عُدّ صدرُ عنهم هو . فمن شعره :

مالى ولِلتسـئال لا أُمّ لى(٤)   إن سألتُ من يُعزل أو من يَلى
حَسْبى ذنوبٌ أثقلت كاهـلى   ماإن أرى إظلامها ينجـلى
يا ربِّ عَفْواً إنهـا جَمَّـةٌ   إن لم يكن عَفْوُك لا أُمّ لى

---

(١) سبق التعريف به فى المقدمة .
(٢) ما بين الحاصرتين وارد فقط فى « ك » . وساقط فى « ج » و « ت » والملكية .
(٣) الشودية ، فرقة من فرق الصوفية معروفة فى المغرب .
(٤) رسمت فى المخطوطات الثلاثة (لأملى) وهو تحريف .

محنته

نشأت بينه وبين المُتغلب بمالقة من الرؤساء التُّجيبيين من بنى إشْقَيْلُولة[١]، وحْشة أكدتها سعاية بعض من استهواهم رجلٌ مُخْرق من بنى الشّعوذة، ومُنتحلى الكرامة، يمتطيها زعموا إلى النبوَّة، يعرف بالفزارى، واسمه إبراهيم، غريب المنْزَع، فذُّ المآخذ، أعجوبة من أعاجيب الفتن، يخبر بالقضايا المستقبلة، ويتسوَّر سور حمى العادة فى التطور[٢] من التقشُّف والخِلابة، تبعه ثاغية وراغية، من العوام الصُّم البُكْم، مستفزِّين فيه حياته؛ وبعد زمن[٣] من مقتله، على يد[٤] الأستاذ بغرناطة، قرّعه بحدّه، وبادره بتعجيل نكيره، فاستغاث بمقتونه الرئيس، ظهير مُحاله فاستعدى[٥] له؛ وبلغ الأستاذ النياحة، ففرّ لوجهه[٦]، وكُبس منزله لحينه، فاستولت الأيدى على ذخائر كُتبه، وفوائد تَقْييده عن شيوخه، على ما طالت له الحسرة، وجلَّت فيه الرزيَّة[٧]. ولحق بغرناطة آوياً إلى كَنَف سلطانها الأمير أبى عبد الله بن الأمير الغالب بالله بن نصر؛ فأكرم مثواه، وعَرَف حقه، وانثال عليه الجمُّ الغفير لالتماس الأخذ عنه، إلى أن نالته لديه سعاية، بسبب جارٍ له، من صُلحاء القرابة النَّصرية، كان ينتابه لنِسْبة الخيريَّة، نُميَت عنه فى باب تفضيله، واستهالت للأمر

---

(١) بنو إشقيلولة هم أسرة أندلسية قوية نابهة، من المولدين، وكانوا أصهاراً لملوك بنى نصر حكاماً لكثير من القواعد، وقد قاموا بعدة ثورات، واستقلوا خلال ذلك ببعض المدن والثغور.

(٢) وردت فى المخطوطين: الطور. والتصويب من «ت».

(٣) وردت هاتان الكلمتان فى المخطوطين: (ونفرن من). وفى «ت» (ونفذت). وهو تحريف، والتصويب من الصلة.

(٤) هذه الكلمة واردة فقط فى «ك».

(٥) وردت فى «ج»، فاستعض، وفى «ك» فاستفض. والتصويب من «ت».

(٦) وردت فى المخطوطين: لوجه. والتصويب من «ت».

(٧) هكذا فى «ج»، وفى «ك» المردية.

كلمة ، أوجبت امتحانه ، وتخلّل تلك الأُلْقِيَّة(١) من الشك ، ماقصر المحنة على إخراجه من منزله - المجاور لذلك المتهم به، ومَنْعه من التصرف ، والتزامه قعر منزل ، انتقل اليه بحال اعتزال من الناس ، محجوراً عليه مُداخلتهم ؛ فمكث على ذلك زماناً طويلا ، الى أن سُرِّيت عنه النكبة ، وأقشعت المَوْجدة ، فتخلّص من مِرَارها بدرُه ؛ وأُقِلَّ من شكاتها جاهُه ، وأحسنت أثرُها حاله ، وكثُر مُلْتمسه ، وعظُمت في العالم غاشيته ؛ فدوّن واستمع ، وروى ودَرَّب ، وخَرَّج(٢) وأدّب وعلَّم ، وحلّق وجَهَر ؛ وكانت له الطّايلةُ على عدُوِّه ، والعاقبة للحسنى ، بعد ثبات(٣) أمره ، والظّفر بكثير من مُنْتهب كُتبه . وآلت الدولة للأمير أبي عبد الله نصر بمالقة ، فطالب الفزاريّ المذكور ، واستظْهر بالشّهادات عليه ، وبالغ في دحض دَعْوَته ، إلى أن قُتل على يده بغرناطة .

حدّثنا شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب ، قال : لما أُمر بالتأهب للقتل وهو في السجن الذي أخرج منه إلى مصرعه ، جَهَر بتلاوة «ياسين» ، فقال له أحد الدَّعرة ، ممن جمع السجن بينهم : « اقرأ قرآنك ؛ على أي شيء تتطفّل على قرآننا اليوم » أو ماهو في معناه . فتركها مثلاً لِلوَذْعيتِه .

مولده

ببلده جيّان في أواخر عام سبع وعشرين وستمائة .

وتوفى بغَرْناطة في الثامن لشهر ربيع الأول عام ثمانية وسبعمائة . وكانت جنازته [جنازة](٤) بالغةً أقصى مبالغ الإحتفال(٥) ، نَفَر لها الناس من كل أَوْب ، واحتمل

(١) القية والجمع الاقى ، أى مسائل والغاز .

(٢) هكذا في «ج» ، وفي «ك» وأخرج . والأولى أرجح .

(٣) هكذا في «ج» و «الملكية» . وفي «ك» : الثبات .

(٤) هذه الكلمة زائدة في «ك» .

(٥) هكذا وردت في «ج» ، وفي «ك» احتفال .

طلبة العِلم نعشه على رؤوسهم ، إلى جَدَثه ، وتبعه ثناء جميل ، وجزع كبير ، رحمه الله .

ورثاه طائفة من طلبته ؛ وممَّن أخذ عنه منهم ، القاضى أبو جعفر بن أبى حبَّل فى قصيدة أولها :

عزيزٌ على الإسلام والعلم ماجدٌ ... فكيف لعينى أن يُلِمَّ بها الكرا
وما لمآقى لا تفيض شئونها ... نجيعاً(١) على قدر المصيبة أحمرا
فوالله ما تقضى المدامع بعض ما ... يَحقُّ ولو كانت سُيولا وأبْحُرا
حقيقٌ لَعَمْرى أن تفيضَ نفوسُنا ... وفرضٌ على الأكباد أن تتفطَّرا

أحمد بن عبد الوالى بن أَحمد الرعينى

يكنى أبا جعفر ؛ ويعرف بالعوّاد ، صنعةٌ لأبيه الكاتب الصالح .

حـــاله

هو من بيت تَصَاوُن ، وعفاف ، ودين ، والتزام السُّنة ؛ كانوا فى غرناطة فى الأشعار ، وتجويد القرآن ، والامتياز بحمله ، وعكوفهم عليه ، نُظَراء بنى عظيمة بإشْبيلية ، وبنى الباذش بغرناطة ؛ وكان أبو جعفر هذا ، المترَجم له ممن تُطوى عليه الخناصرُ ، معرفةً بكتاب الله ، وتحقيقاً(٢) لحقه ، واتقاناً لتجويده ، ومثابرةً على تعليمه(٣) ، ونُصْحاً فى إفادته ، على سُنن الصالحين ، انقباضاً عن الناس ، وإعراضاً عن ذوى الوجاهة ، سَنِيًّا فى قوله وفعله ، خاصِّيًّا فى جميع أحواله ، مُخْشَوْشِناً فى مَلْبسه ، طويل الصَّمت إلا فى دَسْت تعليمه ، مقتصراً فى مكسبه ، مُتَّقياً لدينه ،

(١) وردت فى المخطوطين : نجيباً . وهو تحريف والتصويب مستقيم مع السياق .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « الملكية » : وتعريفاً .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » تجويده مرة أخرى .

محافظاً على أوراده . سأل منه رجل يوماً كَـتْب رقعة ، ففهم من أمره ، فقال ياهذا والله ما كَتَبَتْ قط يمينى إلا كتاب الله ، فأحبُ أن ألقاه على سَجِيّتى بتوفيقه إن شاء الله وتسديده .

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبى جعفر بن الزُّبير ، والأستاذ أبى جعفر الحَزْمونى الـكفيف ، وأبى عبد الله بن رُشيد[1] وغيرهم .

وفاته

توفى فى شهر ذى الحجة من عام خمسين وسبعمائة ، ودفن بجبّانة باب الفَخّارين[2] فى أسفل السفح تجاه القصور الحَـكَمية ، وأتبعه الناس أحسن الثناء .

أحمد بن على ، أحمد بن خلف الأنصارى

من أهل غَرْناطة ؛ يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن الباذش .

« أوَّليته » ؛ أصله من جيّان من بيت خَيْريّة ، وتَصَوُّن .

حـــاله

قال القاضى أبو محمد بن عطية ؛ إمامٌ فى المقرئين ، ومُقَدَّم فى جهابذة الأستاذين ،

---

(١) هكذا فى «ج» . وفى «ك» رشد .

(٢) باب الفخارين أحد أبواب غرناطة الإسلامية . وقد كان موقعه تجاه القرية المسماة بالفخار وهى من أطراف غرناطة الشمالية . وتسمى اليوم Alfacar

راويةٌ(١) ، مُكثر ، متفنّن فى علوم القراءة ، مُسْتَبْحِر ، عارف بالأدب والإعراب ، بصير بالأسانيد ، نقَّاد لها ، مُمَيِّزٌ لشاذِّها من معروفها . قال ابن الزُّبير ، وماعلمت فيما انتهى إليه نظرى وعِلمى ، أحسن انقياداً لطُرُق القراءة ، ولا أجلَّ اختياراً منه ، لايكاد أحد من أهل زمانه ، ولا ممن أتى بعده أن يبلغ درجته فى ذلك .

مشيخته

تَفَقَّه بأبيه الإمام أبى الحسن ، وأكثر الرواية عنه ، واسْتَوْفى ما كان عنده ، وشاركه فى كثير من شيوخه . أخذ القِراءات عَرَضاً عن الإمام المُقرى أبى القاسم ابن خَلَف بن النحّاس ، رحل إلى قُرْطبة ولازمه ، وعلى المقرى أبى جعفر هابيل بن محمد الخلاسى ، وأبى بكر بن عيَّاش بن خلف المقرى ، وأبى الحسن بن زكريا ، وأبى الحسن شُرَيح بن محمد ، وأبى محمد عبد الله بن أحمد الهَمْدانى الجَيَّانى [رحل إليه إلى جيان](٢) ، وتلا على جميع من ذكر ، وروى بالقراءة والسَّماع والإجازة على عالمٍ كثير ، كأبى داود وأبى الحسن بن أخى الرَّش المُقْرئين ، أجازا له ، وأبى على الغسَّانى فى الإمامة والإتقان ، وقد أُسْمِع عليه ، وأبى القاسم خَلَف ابن صواب المقرى ، وأبى عامر محمد بن حبيب الجَيَّانى ، وأبى عبد الله محمد بن أحمد التُّجيبى الشهير ، وأبى محمد بن السيد ، وأبى الحسن بن الأخضر ، وأبى محمد عبد الله بن أبى جعفر الحافظ ، وعالَمٍ كثير غير هؤلاء يطول ذكرهم .

---

(١) وردت فى المخطوطين : رواية .

(٢) وردت هذه الزيادة فى « ج » وفى « الملكية » .

من رَوَى عنه

روى عنه أبو محمد عبد الله ، وأبو خالد بن رفاعة ، وأ و على القاضى المَعَدِّى وأبو جعفر بن حكم ، وأبو الحسن بن الضّحّاك ، وابنه أبو محمد عبد المنعم ، وهو آخر من حدّث عنه .

تصانيفه

ألّف كتاب « الإقناع » فى القِراءات ، لم يُؤَلّف فى بابه مثلُه ؛ وألّف كتاب « الطرق المتداولة » فى القراءات ، وأتقنه كل الإتقان ، وحرَّر أسانيده وأتقنها ، وانتقى لها ، ولم تتسع عُمْره لفرْش حُروفهم وخلافهم من تلك الطرق . وألّف غير ما ذكر .

مولده

فى ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وأربعمائة .

« وفاته » ؛ توفى ثانى جمادى الآخرة سنة أربعين وخمسمائة ، وكان عمره تسعاً وأربعين سنة .

أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد رحمه الله[1]

يكنى أبا جعفر ، من أهل مالقة ، ويعرف بيته بها ببنى راشد ؛ قال شيخنا ، أبو البركات : نقلتُ اسم هذا من خطّه ، ولا نعلم له نسباً إذ لم يكتبه ، وشُهر بابن عبد النّور .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين .

حـاله

كان قيّماً على العربية إذ كانت جُلّ بضاعته ؛ يشارك مع ذلك فى المنطق ، على رأى الأقدمين ، وعَرُوض الشعر ، وفرايض العبادات من الفقه ، وقرْض الشعر ؛ وكان له اعتناء بفَكِّ المُعَمَّى ، والتّنقير عن اللُّغُوز. وكان ذكىّ الصوت عند قراءة القرآن ، خاشعاً به . رحل من بلده مالقة إلى سَبْتَة ، ثم انتقَل[1] الى الأندلس وأقرأ بوادى آشْ مدة ، وتردّد بين إلمريّة وبُرْجَة ، يُقرِئ بها القرآن ، وغير ذلك مما كان يشارك فيه . وناب عن بعض القضاة وقتاً ، ودخل غرناطة أثناء هذا السَّفر[2] .

مشيخته

قال : أخذ القرآن قراءةً على طريقة أبى عَمْرو الدّانى[3] ، على الخطيب أبى الحسن الحجاج بن أبى رَيْحانة المَرْبلّى[4] ، ولا يُعلم له فى بلده شيخ سواه ، إذ لم يكن له اعتناء بلقاء الشيوخ ، والحمل عنهم ؛ ومن علمى أنه لَقِى أبا الحسن ابن الأخضر المُقْرى العَرُوضى بسَبْتَة ، وذاكره فى العَرُوض ، ولا أعلم هل أخذ عنه أم لا . ورأيت فى تقاييدى أن القاضى[5] أبا عبد الله بن بُرْطال حدّثنى أن

---

(١) وردت فى المخطوطين : نقل . وهو تحريف .

(٢) هكذا فى « ج » وفى « ك » السفرة .

(٣) وردت فى « ج » أبى عمر ، وهو تحريف . وأبو عمرو الدانى من أشهر علماء القراءات و التفسير فى الأندلس . وعاش فى دانية دهراً يلقن علمه ، ووضع كتاباً شهيراً فى « القراءات » أسمه « التيسير فى القراءات » (٣٧١ – ٤٤٤ هـ) .

(٤) نسبة إلى مربلة أو ماربلة . وهى ثغر أندلسى صغير يقع على شاطئ البحر المتوسط جنوب غربى مالقة . وبالإسبانية Marbella

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ح » و « الملكية » : الشيخ ، والأولى أصح لشهرة ابن برطال بهذه الصفة بين قضاة الأندلس .

ابن النّور قرأ معه الجزوليّة(1) على ابن مُفَرِّج المالَقى تفقهاً ، وقيّد عليه تقييداً عرضه بعد ذلك ، على ابن مُفرج هذا ؛ وهو محمد بن يحيي بن على بن مُفرج المالقى . وروى عن أبى الحجّاج المتقدم الذكر تَيْسِير أبى عَمْرو الدانى ، وجُمَل الزّجّاجى ، وأشعار الستّة ، وفصيح أحمد بن يحيي بن ثعلب ؛ وقفتُ فى ذلك على رِقّ أجاز فيه بعض الآخذين عنه ، ولم ينص فيه على كيفية أخذه لهذا الكتيب عن أبى الحجّاج . قال : ورأيت فى ذلك الرِقّ أوهاماً ، تدل على عدم شعوره بهذا الباب جملة ، وقبول التّلْقين فيه ، فلا ينبغى أن يُرْكن إلى مثله فيه . ورأيت بخط بعض أصحابه ، أنه تفقه على أبى رَيْحانة ، ولعل ذلك فى صغره قبل أن يتحكم طالبه ويتفنّن ، إذ الفنون التى كان يأخذ منها لم يكن أبو رَيْحانة ، مليًّا بها ، ولا منسوباً إليها .

تصانيفه

منها كتاب « الحِلْية فى ذكر البسملة والتصلية » . وكتاب « رَصْف(2) المبانى فى حروف المعانى » ، وهو أجَلّ ما صنّف ، ومما يدل على تقدّمه فى العربية . وجزء فى العَرُوض . وجزء فى شواذّه . وكتابٌ فى شرح الكَوَامل لأبى موسى الجُزُولى ، يكون نحو المُوَطّأ فى الجِرم ، وكتاب شرح مُغْرب أبى عبد الله بن هشام الفِهْرى المعروف بابن الشوّاش ، ولم يتم ، انتهى [فيه](3) إلى همزة الوصل ، يكون نحو الإيضاح لأبى على . وله تقييدٌ على الجُمَل غيرُ تام .

شعره

قال : وشعره وسَطٌ ، بعيدٌ عن طرفى الغثّ ، والثمينُ أبعد ؛ وكان لايعتنى فيه

(١) الجزولية هى الحواشى التى وضعها أبو موسى الجزولى النحوى المغربى المتوفى سنة ٦٠٧ هـ على « جمل الزجاجى » . وتعرف أيضا « بالمقدمة » .

(٢) وردت فى « ج » رصفى . وفى « ك » وصنى ، وكلاهما تحريف .

(٣) وردت فى « ك » وأغفلت فى « ج » .

ولا يتكلّفه ، ولا يقصد قصده ؛ وإنّ ذلك لعذر فى عدم الإجادة . قال الشيخ ، ولدىّ جزء منه[١] تصفّحته على أن أستجيد[٢] منه شيئاً أُثْبته له فى هذا التّعريف ، فرأيته بعضه أشبه ببعض من الغرابة ، فكتبت من ذلك ، لامُؤْثراً له على سواه من شعره ، بل لمرجّح[٣] كَوْنه أوّل خاطر بالبال ، ومُتَلمّح خَطِّه بالبَصَر ، فمن ذلك قولُه من قصيدة ، ومن خطه نقلتُ :

محاسنُ من أهْوى يَضيق لها الشرحُ | له الهِمّةُ العَلْياء والخُلقُ السَّمْحُ
له بهجةٌ يَغْشَى البصائرَ نورُها | وتَعْشَى[٤] بها الأبصار إن غَلَس الصُّبحُ
إذا ما رَنَى فاللَّحظُ سَهْمٌ مُفَوَّقٌ | وفى كل عُضْو من إصابته جُرْحُ
إذ ما انثنى زهواً وولّى تبَخْتُراً | يَغارُ لذاك القَدِّ من لينه الرُّمْحُ
وإن نَفَحَتْ أزهارُه عند روضةٍ | فيُخْجِلُ ريّا زَهْرِها ذلك النَّفْحُ
هو الزَّمَنُ المأمولُ عند ابتهاجه | فلِمَّتُهُ ليلٌ ، وغُرّتُه صُبْحُ
لقد خامَرت نفسى مُدامة حبّه | فقلبى من سُكر المُدامة لا يَصْحُ
وقد هام قلبى فى هواه فبَرَّحت | بأسرارِه عينٌ لمَدْمَعِها سَبْحُ

غفلته ونوكه

كان هذا الرجل من البَلَه فى أسباب الدنيا ؛ له فى ذلك حكايات دائرة على ألسنة الثِّقاة من المُلازمين له وغيرهم ، لولا تواتُرُها لم يُصدق أحد بها ، تُشبه ما يُحكَى عن أبى على الشَّلَوْبين . منها أنه اشترى فَضْلة مِلَف[٥] فبلّها ، فانتقَصَت كما يجرى فى

---

(١) وردت فى المخطوطين : من .
(٢) وردت فى المخطوطين : تجد . والتصويب من « ت » .
(٣) هكذا وردت فى « ك » ، وفى « ج » لمحج وهو تحريف .
(٤) وردت فى المخطوطين وتغشى ، وبالتصويب يستق المعنى .
(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » والملكية ملفا .

ذلك ، فذرعها بعد البَل فوجدها تنقصت ، فطلب بذلك بائع المِلف ، فأخذ يبين له سبب ذلك فلم يفهم . ومنها أنه سار الى بعض بساتين ألمَرِية مع جماعة من الطلبة واستصحبوا أُرزاً ولبَناً ، فطلبوا قدراً لطبخه ، فلم يجدوا ، فقال اطبخوا فى هذا القدر ، وأشار إلى قدر بها بقيّة زفْت مما يُطلى به السّوانى[1] عندهم فقالوا له : وكيف يسوغ الطبخ بها ، ولو طُبِخ بها شىء مما تأكله البهائم لعافته ، فكيف [الأرزباللبن][2] ؛ فقال لهم : اغسلوا معائدكم ، وحينئذ تُدْخلون فيها الطعام ، فلم يَدْروا ممّا يَعْجَبون ، هل من طيب نفسه بأكله مما يطبخ فى تلك القدر ، أم من قياسه المعدة عليها . ومنها أنهم حاولوا طبخ لحم مرّة أخرى فى بعض النُّزَه فذاق الطعام من المِلح بالمِغرفة ، فوجده محتاجاً للملح ، فجعل فيه ملحاً وذاقه على الفَوْر ، قبل أن ينحلّ الملح ويسرى فى المَرَقة الأولى ، فزاد ملحاً إلى أن جعل فيه قَدْر ما[3] يَرْجُح اللحم ، فلم يقدروا على أكله . ومنها أنه أدخل يده فى مِفْجَر صهريج فصادفت يدُه ضِفْدعاً كبيراً ، فقال لأصحابه تعالَوْا إن هنا حَجَراً رَطْباً . ومنها أنه استعار يوماً من القائد أبى الحسن بن كاشة ، جواداً ملوكياً ، قِرْطاسى اللَّوْن ، من مراكب الأمراء ؛ فقال وجِّه لى تلك الدابة ، فتخَيل أنه يريد الرُّكوب إلى بعض المواضع ، ثم تفَطّنَ لغَفْلته ، وقال : أى شىء تصنع به ، قال : أجعله يُسْنى شيئاً يسيراً فى السّانية[4]، فقال : تُقْضى الحاجة إن شاء الله بغيره ؛ ووجّه له حماراً يرَسم السانية وهو لا يشعر بشىء من ذلك كله .

قلت ، وفى موجودات الله تعالى عِبرٌ ، وأغربها عالم الإنسان ، لما جُبلوا عليه

---

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، السواق . والسانية كالساقية آلة لحبس الماء ورى الأرض .

(٢) وردت هذه العبارة فى المخطوطين : (الرزبلبن) . وهو تحريف .

(٣) هذه الكلمة ساقطة فى « ج » .

(٤) هى الساقية كما تقدم . وهى كلمة ذائعة فى أدب الأندلس .

من الأهواء المختلفة ، والطباع المشتتة[1] ، والقصور عن فهم أقرب الأشياء ، مع الإحاطة بالغوامض .

حدثنا غيرُ واحد ، منهم عمّى أبو القاسم ، وابن الزّبير ، إذناً فى الجُمْلة ، قالا : حدثنا أبو الحسن بن سراج عن أبى القاسم بن بَشْكُوال ، أن الفقيه صاحب الوثائق أبا عمر بن الهندى ، خاصم يوماً عند صاحب الشُرطة والصلاة ، إبراهيم ابن محمد ، فَنَكَل وعجز عن حُجّته ، فقال له الشرطى[2] : ما أعْجَب أمرك أبا عمر أنت ذَكِى لغيرك ، بَكِى[3] فى أمرك ، فقال أبو عمر : « كذلك يُبيّنُ اللهُ آياتِه للنّاس » . ثم أنشد متمثِّلاً[4] .

صرت كأنى ذُبالة نُصبت   تُضىء للنـاس وهى تحترق

قال ، وحدّثنى الشيخ أبو العباس بن الكاتب ببِجاية ، وهو آخرُ من كتَبْنا معه الحديث من أصحاب ابن العمّار ، قال : كنت آويا إلى أبى الحسن حازم القَرْطَجانى[5] بتونس ، وكنت أُحسن الخياطة ، فقال لى : إن المُسْتنصر خَلَع على جُبَّة جِرْبِيَّة من لباسه ، وتفصيلها ليس من تفصيل أثوابنا بشرق الأندلس ، وأريد أن تَحل أكمامها ، وتُصيرها مثل ملابسنا . فقلت له : وكيف يكون العمل ، فقال : تُحل رأس الكُمِّ ، ويوضع الضِّيق بالأدلى ، والواسع بالعُرف . فقلت : وبِمَ يُحير الأعلى ، فإنه إذا وُضع فى موضع واسع ، سَطَتْ علينا فُرَج[6] ما عندنا ، ما يُصنع فيها إلا أن رقَّعنا بغيرها ، فلم يفهم . فلما يئستُ منه تركته وانصرفت . فأين هذا الذهن الذى صنع المَقْصُورَة وغيرها من عجائب كلامه .

---

(١) وردت فى المخطوطين : المستتة .

(٢) وردت فى المخطوطين : الشرفى ، وهو تحريف .

(٣) بكى أى عيى وعاجز .

(٤) وردت فى المخطوطين : متلا .

(٥) نسبة الى قرطاجنة .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » فوج .

مولده

في رمضان من عام ثلاثين وستمائة .

وفاته

توفي بألمرية يوم الثلاثاء السابع والعشرين لربيع الآخر من عام اثنين وسبعمائة ودفن بخارج باب بجاية بمقبرة من تُرْبة الشيخ الزاهد أبي العباس بن مكنون .

أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن يحيي [بن محمد] (1) ابن مصادف بن عبد الله

يُكْنى أبا جعفر ، ويعرف بابن مصادف ، من أهل بَسْطَة ، واستَوْطن غرناطة ، وقرأ وأقرأ بها .

حاله

من أهل الطلب والسلاطة والاجتهاد ، وممن يقصر مُحَصَّله عن مدى اجتهاده ، خَلُوب (2) اللسان ، غريب الشكل ، وحَشِيّه ، شتيت الشّعر مُعْفيه ، شديد الاقتحام والتَسَوُّر ، قادر على اللُّصُوق بالأشراف . رمى بنفسه على مشيخة الوقت يَطْرُقهم طروق الأمراض الوافدة ، حتى استَوْعب الأخذ عن أكثرهم ، يَفُكّ عن فايدته فَكّ المتبرِّم (3) ، ويَنتزعها بواسطة الحَيا (4) ، ويُسلِّط (5) على قَنْصها جوارح

(١) وردت هذه الزيادة في « ك » فقط .

(٢) وردت في المخطوطين : حلوب ، وهو تحريف . وخلوب بمعنى خلاب وجذاب .

(٣) هكذا وردت في « ك » وفي « ج » ، التبرم .

(٤) وردت في « ك » الجيا . وفي الحبا . وقد رجحنا التصويب لاستقامته مع السياق .

(٥) وردت في المخطوطين : وسلط ، بالماضي . والتصويب أرجح عطفاً على ما سبق في المضارع

التبذّل والإطراء ، إلى أن ارتَسم فى المُقَرّبين بغرناطة ، محولاً[١] عليه بالنّخب والملق . وسد الترتيب المدنى[٢] ؛ ولوثة تمتاده فى باب الرُّكوب والثّقافة[٣] ، وهو لا يستطيع أن يستقر بين دفّتى السَّرج ، ولا يُفرق بين مَبسوط الـكف[٤] ؛ أخذ نفسه فى فنون ، من قرآن ، وعربيّة ، وتفسير ، وامتُحن مرات لجر أحركة القاقلة[٥] الذى لا يَمْلِك عنانه ، ثم تخلّص من ذلك ، وهو على حاله إلى الآن .

مشيخته

قرأ على الخطيب ببَسْطة ، وأبى الأصبغ بن عامر ، والخطيبين بها أبى عبد الله وأبى إسحاق ابن عمه ، وأبى عبد الله بن جابر ، وعلى أبى عثمان بن ليُون بألمريّة ، والخطيب أبى عبد الله [ابن الغربى][٦] بحَمة[٧] . وتلا القرآن بقراءاته السبع على شيخنا أبى عبد الله بن الوالى العوّاد ؛ وروى عن شيخنا أبى الحسن بن الجيّاب . وعلى الحاج أبى الحجاج الساحلى فكتب الإقراء، وأخذ الفقه عن الأستاذ أبى عبد الله البيّانى[٨] . وقرأ على قاضى الجماعة أبى القاسم البيّانى ، وقرأ على قاضى الجماعة أبى القاسم الحَسَنى ؛ ولازم أستاذ الجماعة أبا عبد الله الفخّار ، وقرأ عليه العرَبية ، وصاهره على بنته الأستاذُ المذكور ، وانتفع به ، إلى أن ساء ما بينهما عند وفاة الشيخ

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « الملكية » . وفى « ت » فحولا . « ك » محمولا .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » ، المدينى .

(٣) الثقافة بكسر ، هى الضرب بالسيف .

(٤) هكذا فى « ج » ، وفى « ت » والملكية . وفى « ك » ، الكيف .

(٥) هكذا فى المخطوطين ، وفى « الملكية » .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » (من الغرب) .

(٧) الحمة أو الحامة ، هى بلدة تقع فى جنوب غربى غرناطة وقد سبق التعريف بها (ص١٦٩)

(٨) نسبة إلى بيانة ، وهى مدينة أندلسية قديمة تقع فى جنوب شرقى قرطبة على مقربة من قبرة وهى Baena الحديثة .

فرماه بتَرْمية بيضاء تخلَّقها(١) ، مثيرة عَجَب ، مرَّة . وحاله متصلة على ذلك ، وقد ناهز الاكتهال .

أحمد بن حسن بن باصَة الأسْلَمى
المُؤقِّت بالمسجد الأعظم بغرناطة

أصله من شرق الأندلس ، وانتقل إليها والده ، يكنى أبا جعفر .

حـــاله

كان نسيج وحده ، وقريع دهره ، معرفة بالهيئة ، وإحكاماً للآلة الفَلَكية ، ينحتُ منها بيده ذخائر ، يقف عندها النظر والخبر(٢) ، جمال خَط ، واستواء صنعة ، وصحة وضع ، بلغ فى ذلك درجة عالية ، ونال غاية بعيدة ، حتى فَضَل بما ينسب إليه من ذلك كثيراً من الأعلام المتقدمين ، وأزرت آلاته(٣) بالحمايريات(٤) والصّفاريّات وغيرها من آلات المُحْكِمين ، وتغالى الناس فى أثمانها ، أخذ ذلك عن والده [الشيخ المتفنن](٥) شيخ الجماعة فى هذا الفن .

وفاته

فى عام تسع وسبعمائة .

---

(١) وردت فى « ج » وفى « ك »تخلفت . والتصويب من « ت » .

(٢) هكذا فى « ج » و« ت » والملكية . وفى «ك» الحيرة ، والأولى أرجح .

(٣) وردت فى المخطوطين : (إلا أنه) والتصويب من « ت » .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» بالحمايريات .

(٥) الزيادة من «الملكية» .

أحمد بن محمد بن يُوسُف الأنصارى

من أهل غرناطة ؛ يكنى أبا جعفر ، ويعرف بالجبالى .

حـــاله

عكف صَدْراً من زمانه منتظماً فى العُدُول[١] ، آوياً إلى تخصيص وسكون ودماثة ، وحسن معاملة ، له بصر بالمساحة والحساب ، وله بصر بصناعة التعديل وجداول الأبراج[٢] ، وتدَرَّب في أحكام النجوم ، مقصودٌ فى العلاج بالرُّقا والعزايم ، من أولى المسّ[٣] والخَبال[٤] ، تعلق بسبب هذه المُنتحلات بأذْيال الدول ، وانبَتَّ من شيمته الأولى ، فنال استعمالا فى الشهادات المَخْزنية ، وخبر منه أيام قُرْبه من مبادى الأمور والنَّواهى ، ومُداخلة السلطان ، صمتٌ ، وعقلٌ ، واقتصارٌ على معاناة ما امتُحن به ، وهو الآن بقيد الحياة .

مشيخته

أخذ تلك الصناعة عن الشيخ أبى عبد الله الفخّار المعروف بأبى خُزيمة ، أحد البواقع الموسومين بصحة الحكم فيها ، وعلى أبى زيد بن مُثنى ؛ وقرأ الطب على شيخنا أبى زكريا بن هُذَيل رحمه الله ؛ ونسب إليه عند الحادثة على الدولة وانتقالها إلى يد المتغلِّب ، اختيارُ وقت الثورة وضمان تمام الأمر ، وشهد بذلك بخطِه ، وغيب من إيثارها . فلما عاد الأمر إلى السلطان المزْعج بسببها إلى العُدْوة ،

---

(١) جمع عدل ، وهو الموثق . وقد سبق التعريف بنظام العدول (راجع الحاشية فى ص ١٨٧)

(٢) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » الأرياح . والأولى أرجح حسبما يستدل من السياق.

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » اللمس .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » و « ت » الخيال .

أوقع به نكيراً كثيراً ، وضربه بالسياط التى لم يخلّصه منها إلا أجلُه ، وأجلاه[١] إلى تونس فى جملة المغرَّبين فى أواخر عام ثلاثة وستين وسبعمائة .

وأخبرنى السلطان المذكور ، أن المُتَرجم به كتب إليه بمدينة فاس ، قبل شروعه فى الوُجْهة ، يخبره بعودة الملك إليه ، وبإيقاعه المكروه الكبير به ، بما شهد بمهارته فى الصنعة ، إن صح ذلك كله من قوانينها ، نسأل الله أن يُضْفِى علينا لُبوس سَتْره ، ويقينا شرَّ عثرات الألْسُن بمنّه .

أحمد بن محمد الكرنى[٢]

من أهل غرناطة .

حـــاله

شيخ الأطباء بغرناطة على عهده ، وطبيب الدار السلطانية . كان نسيج وحده ، فى الوقار والنزاهة ، وحسن السَّمْت[٣] ، والتزام مُثْلى الطريقة ، واعتزاز الصنعة ؛ قائماً على صناعة الطبّ ، مقْرِئاً لها ، ذاكراً لنصوصها ، مُوفّقاً فى العلاج ، مقصوداً فيه ، كثير الأمل والمثاب ، مكبوح العِنان عما تثبت به أصول[٤] صناعته من علم الطبيعة ، سَنِيًّا ، مقتصراً على المداواة ؛ أخذ عن الأستاذ أبى عبد الله الرَّقُوطى ، ونازعه بالباب السلطانى ، لما شدّ ، واحتِيج إلى ما لديه فى حكم[٥] بعض الأموال المعروضة على الأطبّاء ، منازعةً أوجبت من شيخه يميناً أن [لا][٦] يحضُرَ معه

(١) وردت فى المخطوطين : وجلاه .

(٢) هكذا وردت فى « ك » وهو الرسم الصواب للإسم . ووردت فى « ج » الكنزى .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى الملكية (السمة) .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : الطول ، الصول . والتصويب من « ت » .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، أحكام .

(٦) أغفلت هذه الكلمة فى المخطوطين ، وإثباتها لازم لاستقامة السياق .

بمكان ، فلم يجتمعا بباب السلطان بعد . . . التمسُّك بما لديهما ، وأخذ عن ابن عَرُوس وغيره ، وأخذ عنه جماعةٌ من شيوخنا كالطبيب أبى عبد الله بن سالم ، والطبيب أبى عبد الله بن سراج وغيرهما.

حدّثنى والدى بكثير من أخباره [فى][1] الوقار وحسن الترتيب ، قال ، كنت آنس به ، ويُعجبنى استقصاؤه أقوال أهل هذا الفن من صنعته ، على مشهوره[2] ، فلقد عُرِض عليه ، لعليل لنا ، بعضُ ما يخرج ، وفيه حية ، فقال على فتور ، وسكونة ، ووقار كثير : هذا العليلُ يتخلص ، فقد قال الرئيس ابن سينا فى أرجوزته :

إنْ خَرَجَ الخلْطُ مع الحيّات　　فى يوم بُحْران فَعَنْ حياةَ

وهذا اليوم من أيام البُحْرانية ، فكان كما قال .

وفاته

كان حياً سنة تسعين وستمائة .

أحمد بن محمد بن أبى الخليل مُفَرِّج الأموى

مولاهم ، من أهل إشبيلية ، يُكنى أبا العباس ، وكناه ابن فُرْتون[3] أبا جعفر وتفرّد بذلك ، يعرف بالعَشَّاب ، وابن الرُّومِيّة ، وهى أشهرهما وألصقهما به .

أوليّتُه

قال القاضى أبو عبد الله ، كان والد جدّه أحد أطباء قُرْطبة ، وكان قد تبنّاه ، وعن مولاه أخذ علم النبات .

---

(١) ساقطة فى المخطوطين ، ويقتضى إثباتها السياق .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . ووردت محرفة فى « ج » ، مصوره .

(٣) هكذا فى « ك » . والملكية . وفى « ج » ، فرقون ، وهو تحريف . والصواب (فرتون) وهو اسم أندلسى دائع محرف عن القشتالية Fortun ويكثر فى نسب الذين ينحدرون من أصول نصرانية

حساله

كان نسيج وحده ، وفريد دهره ، وغُرّة جنسه ، إماماً فى الحديث ، حافظاً ، ناقداً ، ذاكراً تواريخ المُحدِّثين ، وأنسابهم وموالدهم ووفاتهم ، وتَعْديلهم ، وتجريحهم ؛ عجيبةُ نوع الإنسان فى عصره ، وما قَبْله ، وما بعده ، فى معرفة علم النبات ، وتمييز العُشْب ، وتَحْليتها ، وإثبات أعيانها ، على اختلاف أطوار منابتها ، بمشرق أو مغرب حِسًّا ، ومشاهدةً ، وتحقيقاً ، لا مدافع له فى ذلك ، ولا منازع ؛ حجةً لاتُرد ولا تُدفع ، إليه يُسَلَّم فى ذلك ويُرجع . قام على الصَنْعتين، لوجود القَدْر المشترك بينهما، وهما الحديث والنبات، إذ موادهما الرِّحلَةُ[1] والتُّقْييد ، وتصحيح الأصول وتحقيق المشكلات اللفظية ، وحفظ الأديان والأبدان ، وغير ذلك . وكان زاهداً فى الدنيا ، مؤثراً بما فى يديه منها ، مُوَسَّعاً عليه فى معيشته ، كثيرَ الـكتُب ، جمّاعاً لها ، فى كل فن من فنون العلم ، سَمْحاً لطلبه العلم ، وربما وهب منها لملتمسه[2] الأصل النفيس ، الذى يَعزّ وجوده ، احتساباً وإعانةً على التعليم ؛ له فى ذلك[3] أخبار منبئة عن فضله ، وكرم صُنْعه[4] ، وكان كثير الشغف بالعلم ، والدؤوب على تقييده ، ومداومته سهر الليل من أجله ، مع استغراق أوقاته ، وحاجات الناس إليه ، إذ كان حسن العلاج فى طِبِّه الـمَوْرود ، الموضوع لثقته ودينه .

قال ابن عبد الملك ، إمامُ المغرب قاطبةً فيا كان سبيلُه ، جال الأندلُس ، ومَغْرب العُدْوة ، ورحل إلى المشرق ، فاسْتوعب المشهور من إفريقيّه ، ومِصْرِه ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : الرجلة . وهو تحريف .
(٢) وردت فى المخطوطين : لمتلمسه . والتصويب أنسب للسياق .
(٣) وردت بعدها فى المخطوطين كلمة (فى) مرة أخرى . وهو من باب السهو .
(٤) وفى الملكية (صفته) .

وشامه ، وعراقه ، وحجازه ، وعاين الكثير مما ليس بالمغرب ؛ وعاوض كثيراً فيه ، كلّ ما أمكنه ، بمن يشهد له بالفضل فى معرفته ، ولم يزل باحثاً على حقائقه ، كاشفاً عن غوامضه ، حتى وقف منه على ما لم يقف عليه غيره ، ممن تقدم فى الملة الإسلامية ، فصار واحد عصره فرداً ، لا يجاريه فيه أحد بإجماع من أهل ذلك الشأن .

مذاهبُه

كان سُنّيا ظاهريّ المذهب[1] ، مُنْحياً على أهل الرأى ، شديد التعصّب لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حَزم ، على دين متين ، وصلاح تام ، وورع شديد ؛ انتشرت عنه تصانيف أبى محمد بن حزم ، واستنسخها ، وأظهرها ، واعتنى بها ، وأنفق عليها أموالاً جمّة ، حتى استوعبها جُمْلة ، حتى لم يشذ له منها إلا ما لا خطر ، متقدماً ومقتدراً[2] على ذلك بجِدَته[3] ويساره ، بعد أن تفقّه طويلاً على أبى الحسن محمد بن أحمد بن زَرْقُون فى مذهب مالك .

مشيخته

البحرُ الذى لا نهاية له : روى بالأندلس عن أبى إسحاق الدّمشقى ، وأبى عبد الله اليابُرى ، وأبى البركات بن داود ، وأبى بكر بن طلْحة ، وأبى عبد الله ابن الُحر[4] ، وابن العربى ، وأبى على الحافظ ، وأبى زكريا بن مرزوق ، وابن يوسف ، وابن ميمون الشريشى ، وأبى الحسن بن زَرْقُون ، وأبى ذَرّ مُصْعب ، وأبى العباس

---

(١) أعنى من أتباع الظاهرية الذين يقولون بتأويل ظاهر القرآن والحديث ، والذين كان الفيلسوف ابن حزم القرطبى من أقطاب مذهبهم بالأندلس .

(٢) وردت فى « ك » ، متقدرا . وفى «ج» متقدماً . ووردت الكلمتان معا فى « الملكية » .

(٣) وردت فى المخطوطين : بحدته .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « الملكية » ، الحدوى.

ابن سيّد الناس ، وأبي القاسم البرّاق[1] ، وابن جمهور ، وأبي محمد بن محمد بن الجنّان ، وعبد المنعم بن فَرَس ، وأبي الوليد بن عُفير ؛ قرأ عليهم وسمع . وكتب إليه مُجيزاً[2] من أهل الأندلس والمغرب ، أبو البقاء بن قديم ، وأبو جعفر حكم الجفّار ، وأبو الحسن الشَّقورى ، وأبوسليمان بن حَوط الله ، وأبو زكريا الدمشقى ، وأبو عبد الله الأنْدَرَشى ، وأبو القاسم بن سمجون ، وأبو محمد الحجرى . ومن أهل المشرق جُملةٌ ، منهم أبوعبد الله الْهَمَدانى بن إسماعيل بن أبى صيف ، وأبوالحسن الْحُوَيكر نزيل مكة . وتأدّى إليه أذنُطائفة من البغْداديين والعراقيين له فى الرواية، منهم ظَفَر بن محمد ، وعبد الرحمن بن المبارك ، وعلى بن محمد اليزيدى ، وفَنَاخُسرو فَيْروز بن سعيد ، وابن سَنِيّة ، ومحمد بن نصر الصّيْدلانى ، وابن تيميّة . وابن عبد الرحمن الفارسى ، وابن الفضل المؤذّن ، وابن عمر بن الفَخّار، ومسعود بن محمد بن حسان المنيفى ، ومنصور بن عبد المنعم الصاعدى ، وابن هُوَازِن القُشْيرى ، وأبو الحسن النّيسابُورى .

وحجّ سنة اثنى عشر وستمائة ، فأدّى الفريضة ثلاث عشر ، ولُقِّب بالمشرق بمحب الدِّين . وأقام فى رحلته نحو ثلاثة أعوام ، لقى فيها من الأعلام العلماء ، أكابر جُملة ؛ فمنهم بِبجاية أبو الحسن بن نصر ، وأبو محمد بن مكّى ؛ وبتونس أبو محمد المرْجانى ؛ وبالإسكندرية أبو الأصبغ بن عبد العزيز ، وأبو الحسن بن جُبَير الأندلسى ، وأبو الفضل بن جعفر بن أبى الحسن بن أبى البركات ، وأبومحمد عبد الكريم الربعى[3] ، وأبو محمد العثمانى أجاز له ولم يلْقه ، وبمصر أبو محمد بن سُحْنون الغُمارى ولم يلقه ، وأبو الميمون بن هِبَة الله القرشى ؛ وبمكة أبوعلى الحسن

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى الملكية ، البارق

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ح » مخبراً . وهو أيضاً تحريف .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الريعى .

ابن محمد بن الحسين ، وأبو الفتوح نصر بن أبى الفرج الُحصرى ؛ وببغداد أحمد ابن أبى السعادات ، وأحمد بن أبى بكر ، وابن أبى خَطْ طلحة ، وأبو نصر القرشى ، وإبراهيم بن أبى ياسر القطيعى ، ورَسْلان المَسْدى ، والأسعد بن بقاقا[١] ، وإسماعيل بن باركش الجوهرى ، وإسماعيل بن أبى البركات .

وبَرْنامج مَرْوِيّاته وأشياخِه ، مشتملٌ على مئين عديدة ، مرتبة أسماؤهم على البلاد العراقية وغيرها ، لو تتبعتها ، لاستَبْعدتُ الأوراق ، وخرجت عما قصدت .

قال القاضى أبو عبد الله المراكشى[٢] بعد الإتيان على ذلك ، مُنْتَهى الثقاة أبو العباس النباتى ، من التَّقْييد الذى قيّد ، وعلى ما ذكره فى فهارس له مُنَوّعة ، بين بسط ، وتوسُّط ، واقتضاب ، وقفْت منها بخطِّه ، وبخط بعض أصحابه ، والآخذين عنه .

من أخذ عنه

حدث ببغداد[٣] ، برواية واسعة ، فأخذ عنه بها أبو عبد الله بن سعيد اللَوْشى ؛ وبمصر الحافظ أبو بكر القط . وبغيرها من البلاد أُمّة وقفَل برواية واسعة ، وجلب كُتُباً غريبة[٤] .

تصانيفُه

له فيما ينتحله من هذين الفَنّين تصانيفُ مفيدة[٥] ، وتنبيهات نافعة ،

---

(١) وردت فى «ج» (فقارقا) ، وفى «ك» نفاقا . وفى الملكية نفاق . والتصويب من الذيل والتكملة .

(٢) هو ابن عبد الملك المراكشى وقد ورد هنا باسمه الأول أبوعبد الله محمد .

(٣) وردت فى المخطوطين : حديث بغداد . وهو تحريف .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : عربية وهو تحريف ، لأن الكتب عربية بطبيعتها .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» مفيدات . والمعنى واحد .

واستدرا كات نبيلة[1] بديعة ، منها فى الحديث ، « رَجّالة المعَلَّم بزوائد البُخارى على مُسلم » ، واختصارغريب حديث مالك للدّارَقُطْنى ، و «نَظْم الدّرارى فيا تفرد به مُسلم عن البخارى» ، و «توهين طرق حديث الأربعين»[2] ، و «حُكم الدّعاء فى إدبار الصّلوات » ، و « كيفية الأذان يوم الجمعة » ، واختصار الكامل فى الضّعفاء والمتروكين لأبى محمد بن عدى[3] ، و « الحافل فى تذييل الكامل » ؛ و « أخبار محمد بن إسحاق » .

ومنها فى النبات ، « شرح حشائش دياسقُوريدوس وأُدوية جالينوس »[4] ، والتنبيه على أوهام ترجمتها ؛ والتنبيه على أغلاط[5] الغافقى ، والرِّحلة النّباتية [والمستَدْرَكه][6] ، وهو الغريب الذى اختصَّ به ، إلا أنه عَدِم عَيْنَه بعده ، وكان معجزة فى فنّه ؛ إلى غير ذلك من المُصَنَّفات الجامعة ، والمقالات المفيدة المفردة ، والتعاليق المُنَوّعة .

مناقُبه

قال ابن عبد الملك وابن الزّبير ، وغيرهما ؛ عُنى تلميذه ، الآخذ به ، الناقد ،

---

(١) فى « الملكية » نبيهه .

(٢) ورد اسم هذا الكتاب فى « ك » هكذا : « توهين حديث طرق الأربعين » .

(٣) ورد اسم الكتاب محرفا كالآتى (اختصار الكامل فى الضعفاء والمتكبرين) . واسم مؤلفه محرفاً كالآتى : (لابى أحمد بن على) .

(٤) دياسقوريدوس ، أودياسقوريدس Dioscorides ، طبيب وكيميائى يونانى عاش فى القرن الأول للميلاد ، واشتهر بكتابه عن «الأعشاب العلاجية» . وقد عرفه المسلمون منذ عصر مبكر ، وأهدى الإمبراطور قسطنطين السابع قيصر بيزنطية نسخة منه إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وترجمت إلى العربية منذ أوائل القرن الرابع الهجرى . وعليها وضع ابن الرومية شرحه . وأما جالينوس Galen ، فهومن أطباء اليونان القديمة ، عاش فى القرن الثانى للميلاد ، واشتهر ببراعته فى الطب وتركيب الأدوية ، وعرف العرب كتبه الطبية وعربوها .

(٥) هكذا وردت فى « ج » ، وفى « الذيل والتكلة . ووردت فى «ك» » والملكية (أخلاط) . والأولى أرجح .

(٦) واردة فى « الملكية » . ومكانها بياض فى المخطوطين .

المحدِّث ، أبو محمد بن [بن قاسم] الحرّار[١] ، وتهمم بجمع أخباره ، ونَشْر مآثره ، وضَمَّن ذلك مجموعاً حفيلاً نبيلاً .

شعره

ذكره أبو الحسن بن سعيد فى «القِدْح المعلَّى» ، وقال : جَوَّالٌ بالبلاد المشرقية والمغربية ، جالسْتُهُ بإشبيلية بعد عوده من رحلته ، فرأيته متعلقاً بالأدب ، مرتاحاً إليه ارتياح البُحْترى لحَلَبْ ، وكان غير متظاهر بقول الشِّعر ، إلا أن أصحابه يسمعون منه ، ويروون عنه ، وحملت عنه[٢] فى بعض الأوقات ، فقيَّدت عنه هذه الأبيات :

خيِّمْ تَخَلَّق بين الكأس والوَتَر ... فى جنَّة هى ملءُ السمع والبصر
ومتِّع الطَّرْف فى مَرْأى محاسنها ... برَوْض فكرك بين الروض والزَّهر
وانظر إلى ذَهَبِيات الأصيل بها ... واسْمع إلى نَغَمات الطَّير فى السَّحَر
وقل لِمَن لامَ فى لذَّاته بَشَراً ... دَعْنى فإنَّك عندى من سوَى البَشَر

قال ، وكثيراً ما يُطنب على دمشق ، ويصف محاسنها ، فما انفصل عنى إلا وقد امتلأ خاطرى من شكلها[٣] ، فأتمنَّى أن أحُلَّ مواطنها ، إلى أن أُبلِّغ الأمل قبل المنُون .

ولو أنى نظرتُ بألفِ عَيْنٍ ... لما استَوْفَتْ محاسنها العُيون

دخوله غَرْناطة

دخلها غيرَ ما مرَّة لسماع الحديث ، وتحقيق النبات ، ونَقَّر عن عيون النبات

---

(١) هكذا وردت فى « ج » وفى الذيل والتكملة . وفى « ك » الحوار ، وفى الملكية الجزار ، وهو تحريف .

(٢) وردت فى « ج » عليه . والتصويب من « الملكية ».

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ثكلها وهو تحريف ظاهر.

بجبالها ، أحد خزاين الأدوية ، ومظان[1] الفوايد الغريبة ، يجرى ذلك فى تواليفه بما لا يفتقر إلى شاهد .

مولده

فى محرم سنة إحدى وستين وخمسمائة .

وفاته

توفى بإشْبيلية عند مغيب الشفق من ليلة الإثنين مستهل ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وستمائة . وكان مما رُثى ، قال ابن الزُبير ، ورثاه جماعة من تلامذته كأبى محمد الحرّار ، وأبى أمية اسماعيل بن عفُير ، وأبى الأصبغ عبد العزيز الكَبْتُورى[2] وأبى بكر محمد بن محمد بن جابر السقطى ، وأبى العباس بن سليمان ، ذكر جميعهم الحرار المذكور فى كتاب ألّفه فى فضايل الشيخ أبى العباس ، رحمه الله .

أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خَلَف بن سعيد بن خلف ابن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثْمان ابن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمّار بن ياسِر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم

أوّليتـــه

بيتُ بنى سعيد العَنْسى ،[3] بيتٌ مشهور فى الأندلس بقلعة يَحْصُب[4] ،

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين مضان . مصان .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين . والكبتورى نسبة إلى كبتور أوقبتور ، من قرى مدينة إشبيلية

(٣) وردت فى ج « الغسنى . وفى « الملكية » الغسانى ، وهو تحريف (راجع جمهرة الأنساب لابن حزم ص ٣٨١) .

(٤) قلعة يحصب أوقلعة بنى يحصب أوقلعة يعقوب أوقلعة بنى سعيد هى اليوم بلدة Alcala la Real الإسبانية . وقد سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١١١) .

نزلها[١] جدهم الأعلى[٢] ، عبد الله بن سعيد بن عمّار بن ياسر ؛ وكان له حُظْوة لمكانه من اليمّانيّة بقرطبة ، وداره بقرب قنطرتها ، كانت معروفة ؛ وهو بيت القيادة والوزارة ، والقضاء ، والكتابة ، والعمل . وفيما يأتى ، وما مرّ كفاية من التنبيه عليه .

حـــالُه

قال اللاّحى[٣] ، كان من جِلّة الطلبة ، ونبهائهم ؛ وله حظ[٤] بارع من الأدب ، وكتابة مفيدة ، وشعرٌ مُدَوّن . قال أبو الحسن بن سعيد فى كتابه المسمى «بالطالع »[٥] نشأ محبًّا فى الأدب ، حافظاً للشعر ، وذا كراً لنظْم الشريف الرّضى ، ومِهْيار ، وابن خفاجة ، وابن الزّقاق ، فرَقّت طباعه ، وكثُر اختراعه وإبداعه ؛ و نشأت معه حَفْصة بنت الحاج الرّكونى[٦] ، أديبة زمانها ، وشاعرة أوانها ، فاشتدّ بها غرامه ، وطال حبُّه وهيامه ؛ وكانت بينهما منادمات ومغازلات أرْبَت على ما كان بين عَلوَة وأبى عُبادة ؛ يمر من ذلك إلمام فى شعر حَفْصة إن شاء الله .

نباهتُه وحُظوتُه

ولمـا وفدت[٧] الأندلس ، على صاحب أمر المُوحِّدين فى ذلك الأوان ، وهو

---

(١) وردت فى المخطوطين : نرلهم .

(٢) وردت فى « ك » . وأعملت فى « ج » وفى « الملكية » .

(٣) سبق التعريف به (انظر الحاشية فى ص ٨٥) .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » والملكة خط . وهو تحريف .

(٥) هو كتاب « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » .

(٦) ورد اسمه محرفا فى المخطوطين حفصة بنت الحجاج . وسوف يترجم لها ابن الخطيب فيما بعد .

(٧) وردت فى المخطوطين ، وفد ، والتصويب يقتضيه السياق .

مُحتَلٌّ بجبل الفتح[1] ، واحتفل شعراؤها فى القصائد ، وخطباؤها فى الخُطَب بين يديه[2] ، كان فى وفدِ غرْناطة ، أبو جعفر هذا المترجم به ، وهو حَدَث السن فى جُملة أبيه وإخوته وقومه ، فدخل معهم على الخليفة ، وأنشده قصيدة . قال أبو الحسن بن سعيد ، كتبت منها من خط والده قوله :

تــكلّم فقد أصْغَى إلى قولك الدهرُ وما لسواك اليوم نَهْىٌ ولا أمْرُ
ورُمْ كلّ ما قد شِئْتَه فهو كائنٌ وحاوِلْ فلا بَرٌّ يفُوت ولا بَحْرُ
وحَسْبُك هذا البحر فَألاً فإنه يُقَبِّلُ تُرْباً داسَه جيشُك الغَمْرُ
وما صوتُه إلاّ سلامٌ مُرَدَّدٌ عليــك وعن بِشْرٍ بقرْبك [اليوم][3] يَفترُّ
بجيش لــكى يَلْقى أمامك مَنْ غَدَا يُعاند أمراً لا يقُوم له أمْرُ
أطَلَّ على أرض الجَزيرة سَعْدُها وجدَّد فيها ذلك الخَبَرَ الخُبْرُ
فما طارقٌ إلا لذلك مُطَــرِقٌ ولابن نُصَيْر لم يكنْ ذلك النَّصْرُ
هما مَهّداها كى تَحُلَّ بأفقها[4] كما حَلَّ عند التِّمِّ بالهالة البَــدْرُ

قال : فلما أتمّها أثنى عليه الخليفة[5] ، وقال لعبد الملك أبيه : أيهما خيرٌ عندك فى ابنيك ؛ فقال ياسيّدنا : محمدٌ دخل إليكم مع أبطال الأندلس وقوادها ،

---

(١) الحادث الذى تشير إليه هذه العبارة هو قدوم وفود الأندلس على خليفة الموحدين عبدالمؤمن ابن على وهو مقيم بجبل طارق وذلك فى أوائل سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) بعد أن تمت المدينة الجديدة التى أمر ببنائها فيه ، وهو الذى أسماه عندئذ بجبل الفتح . وقد ألقى بين يديه الشعراء والخطباء بهذه المناسبة قصائدهم وخطبهم مرحبين منوهين بعظمة عهده (راجع الحلل الموشية ص ١١٧ ، والاستقصاء للسلاوى ج ١ ص ١٦٣ ، وعصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان ج ١ ص٣٨٢ — ٣٨٥) .

(٢) وردت فى المخطوطين : يد .

(٣) الزيادة من« الملكية » .

(٤) هكذا فى « ج » وفى « الملكية » . وفى « ك » بأرضها .

(٥) ورد فى النص بعد هذه الكلمة عبارة (كل ميسر) ، هى هنا زائدة ولا محل لها فى السياق ، فآثرنا إغفالها .

وهذ مع الشعر ، فانظروا ما يجب أن يكون خيراً[١] عندى ؛ فقال الخليفة : كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له ، وإذا كان الإنسان متقدّماً فى صناعة فلا يُؤْسَف عليه ، إنما يُؤْسَف على متأخر القَدْر ، محروم الحظ . ثم أنشد قول الشعراء والأكابر[٢]. ثم لما ولى غرناطة ولدُه السيد أبو سعيد ، استوْزَر أبا جعفر المذكور ، واتصلت حظوته[٣] إلى أن كان مايذكر من نكبته .

محنته

قال قريبُه وغيره : فسَد ماينه وبين السيد أبى سعيد لأجل حَفْصة الشاعرة ، إذ كانت محل هواه[٤] ، ثم اتصلت بالسيِّد ، وكان له بها [علاقة][٥] ، فكان كل منهما على مثل الرَّضْف للآخر[٦] ، ووجد حُسّاده السبيل، إلى إغراء السيد به ، فكان مما نُمى به عنه ، أن قال لحفصة يوماً: وماهذا الغرام الشديد به ؛ يعنى السيد ، وكان شديد الأُدْمة[٧] ، وأنا أقدر أن أشترى لك من المَعْرض أسْوداً خيراً منه بعشرين ديناراً ؛ فجعل السيد يتوسّد له المهالك ، وأبو جعفر يتحفّظ كل التحفظ . وفى حالته تلك يقول :

مَنْ يشترى منى الحياة وطيبَها ... ووزارتى وتأدّبى وتهذّبى

بمحلِّ راعٍ فى ذُرَى مَلْمُومة ... زُويت عن الدنيا بأقصى مَرْتَب

لا حُكْمَ يأخذه بها إلا لِمَن ... يعْفُو ويرؤُف دائماً بالمُذْنِب

فلقد سَئِمْتُ من الحياة مع امرئٍ ... مُتغضِّب[٨] متغلِّب مترتِّب

---

(١) هكذا « ج » وفى الملكية ؛ وفى « ك » مبسراً .

(٢) وردفى النص بعد هذه الكلمة اسم (ابن أبى مروان) ، دون أن يكون له بالسياق أى صلة فآثرنا إغفاله .

(٣) وردت فى المخطوطين : حضرته . والتصويب أرجح وأصلح للسياق .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » هداه . والأولى أرجح .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين ، والزيادة من الملكية .

(٦) الرضف هو الحجارة المحماة ، ومعناه أن كلا منهما كان شديد الحقد على الآخر .

(٧) أى شديد السمرة ، والأدم هو الجلد المدبوغ .

(٨) وردت فى المخطوطين : مغضب . وبالتصويب يستقيم الوزن والسياق .

الموتُ يلحظُنى إذا لاحظتُه ويقُوم فى فِكرى أوان تجنّبى
لا أهتدى مع طول ما حاولته لرضاه فى الدنيـا ولا لِلْمَهْرَب

وأخذ فى أمره مع أبيه وأخوته، وفتنة ابن مَرْدَنيش[1] مضطربة؛ فقال له أخوه محمد وأبوه، إن حرّكنا حركة كنا سبباً لهلاك هذا البيت، ما بقيت دولة هؤلاء القوم، والصبر عاقبته حميدة، وقد كنا نهاك عن المُمارَجة[2]، فلم تَرْكب إلا هواك؛ وأخذ مع أخيه عبد الرحمن، واتفقا على أن يثورا فى القلعة باسم ابن مَرْدَنيش، وساعدهما قريبهما على ذلك حاتم بن حاتم بن سعيد، وخاطبوا ابن مردنيش، وصدر لهم جوابه بالمبادرة، ووصلت منه خيلٌ ضاربةٌ، وتهيأ لدخول القلعة؛ وتهيأ الحصول فى القلعة، وخافوا من ظهور الأمر؛ فبادر حاتم وعبد الرحمن إلى القلعة، وتم لهما المراد؛ وأخّر الجبنُ أبا جعفر ففاتاه، وتوقّع الطلب فى الطريق إلى القلعة، فصار مُتخفّياً إلى مالَقَة، ليركب منها البحر إلى جهة ابن مردنيش؛ ووضع السيّد عليه العيون فى كل جهة، فقُبض عليه بمالقة، وطولع بأمره فأمر بقتله صبراً، رحمه الله.

جزالته وصبره

قال أبو الحسن بن سعيد؛ حدثنى الحسين بن دُوَيرة، قال: كنت بمالقة لما قبض على أبى جعفر، وتوصّلت إلى الاجتماع به، ريثما استؤذن السيد فى أمره حين حُبس، فدَمَعَت عينى لما رأيته مَكْبولا. قال: أعلىّ تبكى بعد ما بلغتُ من الدنيا أطايب لذاتها، فأكلتُ صدور الدجاج، وشربت فى الزُجاج، وركبت كل هملاج[3]،

(١) يشير ابن الخطيب هنا إلى قيام ابن مردنيش، وهو محمد بن سعد من زعماء شرق الأندلس فى أواسط القرن السادس الهجرى، وتملكه بلنسية ومرسية وثورته على الموحدين، ومحاربته إياهم. وقد توفى ابن مردنيش سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م). ويترجم له ابن الخطيب فى الإحاطة فيما بعد (راجع فى ذلك الحلة السيراء ص ٢٢٠ و ٢٣٠. والاستقصاء ج ١ ص ١٦٠. وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨ و ٢٤٠. وراجع كتابى عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس، القسم الثانى، ص ٣٣–٥٧)

(٢) هكذا فى «ج»، وفى «الملكية». والمارجة، من المرح، ومعناه الفساد أو الفتنة.

(٣) الهملاج هو الدابة الأصيلة الحسنه السير.

ونمت فى الديباج ، وتمتعت بالسّرارى والأزواج ، واستعملت من الشمع ، السُّراج الوهّاج ، وهأنا فى يد الحجّاج ، منتظراً محنة الحلاّج[1] ؛ قادمٌ على غافر ، لا يُحْوج إلى اعتذار ولا احتجاج . فقلت : ألا أبكى على من ينطق بمثل هذا ، ثم تُفقِّد ، فقمت عنه ، فما رأيته إلاّ مصلوباً ، رحمه الله .

شــعره

أتانى كتابٌ منك يحسده الدهر[2] ... أمّا حِبْرُه ليلٌ ، أما طِرسُه فَجْرُ

به جمع الله الأمانيّ لناظرى ... وسَمْعى وفِكرى فهو سِحْرٌ ولا سِحْرُ

ولا غَرْو أن أبدى العجايب ربُّه ... وفى ثوبه بِرٌّ ، وفى كفّه بَحْرُ

ولا عجَبَ إن أيْنعَ الزهــرُ طيّه ... فما زال صوْبُ القَطْرِ يبدو به الزّهْرُ

ومن شعره مايَجْرى مَجْرى المُرْقص ، وقد حضر مع الرُّصافى والكُتَنْدى [ومعهم مغن برُوطَة][3] .

لله يومٌ مَسَرّةٍ ... أضوَى وأقْصَرُ من ذُبَاله

لما نَصَبْنا للمُنى ... فيه من أوْتارٍ حِباله

ظل النهار بها كَمُرْ ... تاعٍ ، وأجْفَلَتْ الغزاله

وشعره مُدَوّن كما قلنا ، وهذا القدر عنوانٌ على نُبْله .

---

(١) هو أبو مغيث الحسين بن منصور المعروف بالحلاج ، وهو فارسى من أصل مجوسى ، اشتغل بعلوم الدين ، واشتهر بالتنسك والزهد . وكانت له آراء فى الدين عدها فقهاء عصره مروقاً وإلحاداً ، وقبض عليه بأمر الخليفة المقتدر ، ثم ضرب ألف سوط ، وأعدم بطريقة بشعة إذ قطعت أطرافه ، ثم قطع رأسه ، وأحرقت جثته أمام جمهور كبير من أهل بغداد ، وذلك فى ذى القعدة سنة ٣٠٩ ﻫ (٩٢٢ م) (ترجمته فى ابن خلكان ج ١ ص ١٨٣) .

(٢) هذا فى « ك » ، وفى « ج » الزهر .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى « ج » وفى « الملكية » ، وساقط فى « ك » . وروطة من قرى غرناطة .

غريبة في أمره مع حفصة

قال حاتم بن سعيد ؛ وكان قد أجرى الله على لسانه ، إذا حرّكت الكأس بها غرامه ، أن يقول ، والله لايقتُلني أحدٌ سواك ؛ وكان يعني بالحُب ، والقَدَرُ مُوَكل بالمَنْطق ، قد فرغ من قتله بغيره من أجلها . قال ؛ ولما بلغ حفصة قتلهُ لبست الحِداد ، وجهرت بالحزن ، فتُوُعِّدت بالقتل ، فقالت فى ذلك :

هدَّدوني من أجل لِبْس الحِداد لحبيبٍ أرْدَوه لى بالحِداد
رحم الله من يجُودُ بدمعٍ أو يَنُوح على قتيلِ الأعاد
وسقَته بمثل جُود يديه حيث أضْحَى من البلاد الغَواد

ولم يُنْتفَع بعدُ بها ، ثم لحِقت به بعد قليل .

وفاته

توفى على حسب ما ذُكر ، فى جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين وخمسمائة .

أحمد بن سليمان بن أحمد بن محمد بن أحمد القرشى
المعروف بابن فركون

يكنى أبا جعفر .

أوَّليته

قد مرَّ ذلك فى اسم جَدّه قاضى الجماعة(١) ، وسيأتى فى اسم والده .

حاله

شعلة من شعل الذكاء والإدراك ، ومجموع خلال حميدة ، على الحداثة ، طالب

---

(١) وردت ترجمة أحمد بن محمد بن أحمد بن هشام القرشى فى ص ١٥٣ .

نبيل، مدرك، نجيب، بذّ أقرانه كفاية، وسما إلى المراتب، فقرأ، وأعرب، وتمر[1]، وتدرّب، واستجاز له والده شيوخ بلده، فمن دونهم، ونظم الشعر، وقيّد كثيراً، وسبق أهل زمانه فى حسن الخط، سبقا أفرده بالغاية القصوى؛ فيراعه اليوم، المشار إليه، بالظرف[2] والإتقان، والحوَا، والإسراح؛ اقتضى ذلك كله ارتقاؤه إلى الكتابة السلطانية، ومزية الشفوف بها، بالخلع والاستعمال؛ واختصّ بى، وتأدّب بما انفرد به من أشياخ تواليفى، فآثرته بفوائد جمّة، وبطَن[3] حوضه من تحكّبه، وترشّح إلى الاستيلاء على الغاية.

شـــعره

أنشد له بين يدى السلطان فى الميلاد[4] الكريم:

حيّ المعاهد بالكثيب وجادها   غيثٌ يروى حيّها وجمادها

مولده

فى ربيع الآخر من عام سبعة وأربعين وسبعمائة.

أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن صَفْوان

من أهل مالَقَة؛ يُكنى أبا جعفر، ويعرف بابن صفوان.

حـــاله

بقيّة الأعلام، أديب [من أدباء][5] هذا القطر، وصدرٌ من صدور كتّابه، ومشيخة طلبته، ناظمٌ، ناثر، عارف، ثاقب الذهن، قويّ الإدراك، أصيل

---

(١) هكذا فى المخطوطين. والمقصود بها أثمر.

(٢) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية». ووردت فى «ك» باللطف.

(٣) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج» ونطق.

(٤) فى المخطوطين وكذا فى الملكية: البلاد، وهو تحريف. (٥) الزيادة من الملكية.

النظر ، إمام الفرايض والحساب والأدب والتّوثيق ، ذا كرٍّ للتاريخ واللغة ، مشارك في الفلسفة والتصوُّف ، كلِفٌ بالعلوم[١] الإلٰهية ، آية الله في فكّ المعمّى ، لا يجاريه في ذلك أحد ممن تقدّمه ، شأنه عجبٌ ، يفُكُّ من المُعمّيات[٢] والمُسْتَنْبَطات ، مفصولاً وغير مفصول ؛ شديد التعصُّب لذى[٣] وُدٍّ ، وبالعكس ، تام الرُّجولة ، قليل التهيب ، مُقتحم حِمَى أهلِ الجاه والحمد والمضايقة ، إذا دعاه لذلك داع ، حَبْل[٤] نقده على غاربه ، راضٍ بالخُمول ، مُتبلِّغ بما تيسّر ، كثير الدؤوب والنظر والتقييد والتصنيف ، على كلال الجوارح ، وعائق الكَبْرة[٥] ، متقارب نمطى[٦] الشعر والكتابة ، مجيد فيهما ، ولنظمه شُفوف على نثره .

مشيخه

قرأ على الأستاذ [أبى محمد][٧] الباهِلى ، أستاذ الجُمْلة من أهل بلده ، ومولى النعمة عليهم ، لازمه وانتفع به ؛ ورحل إلى العُدْوة ، فلقى جُمْلة ، كالقاضى المؤرخ أبى عبد الله بن عبد الملك ، والأستاذ التعالمى أبى العباس بن البنّا ، وقرأ عليهم بمرّاكش .

نباهتـــه

استدعاه السلطان ، ثانى الملوك من بنى نصر[٨] إلى الكتابة عنه مع الجِلّة[٩] ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : بالعموم ، وهو تحريف ظاهر.

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : المعايات .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « الملكية » : لأهل .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : حل .

(٥) الكبرة أى تقدم السن .

(٦) وردت فى « ج » بمضى . والتصويب من الملكية .

(٧) واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » والملكية .

(٨) هو السلطان أبوعبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن الأحمر الملقب بالفقيه . حكم من سنة ٦٧١ – ٧٠١ هـ (١٢٧٢ – ١٣٠٢ م) .

(٩) هكذا فى « ج » . وفى « ك » و« الملكية » الجملة . والأولى أرجح .

ببابه ، وقد نما عُشُّه ، وعلا كعبه ، واشتهر ذكاؤه وإدراكه . ثم جَنَح إلى العودة[١] لبلده . ولما ولى المُلْكَ ، السلطان أبو اليد ، ودعاه إلى نفسه ، ببلده مالَقَة ، استكتبه رئيساً مستحقاً ، إذ لم يكن ببلده . فأقام به واقتصر على كَتْب الشروط ، معروف القدر ، بمكان من القضاة ورعيهم ، صدراً فى مجالس الشورى ؛ وإلى الآن يجعل إلى زيارة غرناطة ، حظاً من فصول بعض السنين ، فَيَنْصِب[٢] بها العدالة ، ثم يعود إلى بلده فى الفصل الذى لايصلح لذلك . وهو الآن بقيد الحياة ، قد عَلَقته أشراك[٣] الهَرَم ، وفيه بعدُ مُستمتَعٌ ، بديع ، كبير .

تصانيفه

من تواليفه ، « مطلع الأنوار الإلهية » ؛ « وبُغْية المستفيد » ؛ وشرح كتاب القُرشى فى الفرايض ، لانظير له . وأما تقاييده على أقوال يعترضها ، وموضوعات ينتقدها ، فكثيرة .

شعــرُه

قال فى غرَض[٤] التَّصَوُّف ، وبلغنى أنه نظمها بإشارة من الخطيب ، ولى الله ، أبى عبد الله الصَّنْجالى ، كَلِفَ بها القوَّالون والمسمِّعون بين يديه :

بان الحِمَيُ فما الحِمَى والبانُ   بشفاء مَنْ عنه الأحِبَّة بانُوا
لم ينقُضُوا عهداً ببينهم ولا   أنساهم ميثاقَك الحِدْثانُ
لكن جَنَحتَ لغيرهم فأزالهم   عن أُنسِهم بك مُوحشٌ غَيْران
لو صحَّ حُبُّك ما فقدْتُهم ولا   سارَتْ بهم عن حُبِّك الأظعان
تشتاقهم ، وحَشاك هالةُ بَدْرِهم   والسرُّ منك لِخِلِّهم ميدان
ماهكذا أحوالُ أرباب الهوى   نَسَخ الغــرامَ بقلبك السُّلوان

---

(١) وردت فى المخطوطين : العدوة ، وهى هنا تحريف .
(٢) وردت فى المخطوطين : فنصب . والتصويب أصلح للسياق .
(٣) فى المخطوطين : اشتراك ، وهو تحريف .
(٤) وردت فى المخطوطين : عرض .

لا يشتكى ألم البُعاد مُتيَّمٌ   أحبابه فى قَلْبِه[١] سُكَّان
ما عندهم إلا الكمال وإنما   غَطَّى على مِرآتك النُّقْصان
شَغَلَتْك بالأغيار عنهم مُقْلةٌ   إنْسَانُها عن لَمْحِهم وسْنان
غَمِّضْ جُفُونَك عن سواهم مُعْرِضاً   إنَّ الصوارم حَجْبُها الأَجْفان
واصرِفْ إليهم لَحْظَ فِكْرِك شاخصاً   تَرَهُم بقلبك حيث كنت وكانوا
مابان عن مَغناك من ألطافه   يَهمى عليها سحابُها الهَتَّان
وجياد أنْعُمِه ببابك ترتمى   تَسْرِى إليك برَكْبِها الأكوان
جعلوا دليلاً فيك منك عليهم   فبدا على تَقْصيرك البُرهان
يا لا محاً سِرَّ الوُجود بعَيْنِه   السِّرُّ فيك بأسْره والشَّانُ
ارجِعْ لذاتك إن أرَدْت تَنَزُّهاً   فيها لعَيْنَى ذى الحجا بُستانُ
هى رَوْضَةٌ مطْلُولةٌ بل جَنَّةٌ   فيها المُنَى والرَّوحُ والرَّيحانُ
كم حِكْمة صارت تلوح لناظِرٍ   حارَتْ لباهر صُنْعها الأذهانُ
حُجِبتْ بشمسك[٢] عن عيانك شمسُها   شمسُ مَحاسنُ[٣] ذِكرها التِّبيان
لولاك ماخَفِيت عليك آياتُها[٤]   والجوُّ من أنوارها مَلآن
أنت الحِجابُ لما تؤَمِّل منهم   فَفَناؤك الأقصى لهم وُجدان
فاخرُج إليهم عنك مُفْتَقِراً لهم   إن المُلُوك بالافتِقَار تُدان
واخضع لِعِزِّهم ولِذُلِّهم[٥] يَلُح   منهم عليك تَعطُّفٌ وحنان
هُمْ رشَّحوك إلى الوصول إليهم   وهُمُ على طَلَب الوِصال عوان

---

(١) وردت فى المخطوطين : بقلبه . وبالتصويب يستقيم الوزن .
(٢) هكذا فى «ح» . وفى «ك» : بشخصك .
(٣) هكذا فى «ك» . وفى «ج» والملكية : فمحاسن .
(٤) هكذا فى «ج» ، وفى «ك» أيتها .
(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» . لذبهم وهو تحريف .

عَطَفُوا بجمالهم على أجْمَالِهم ... فحُلى المشوق الحُسْن والإحسان
يامُلْبسين عَبِيدَهم[1] حُلَلَ الضَّنا ... جسمى بما تكسُونَه يزدان
لاسُخْطَ[2] عندى للذى تَرضونه ... قلبى [بذاك مفرح][3] جذلان
فبِقُربكم عينُ الغِنا وبِبعدكم ... محضُ الفنا ومحبُّكم ولْهان
إنى كتَمْتُ عن الأنام هواكم ... حتى دُهيتُ وخاننى الكتمان
وَوَشَتْ بحالى[عند ذاك][4] مدامعٌ ... أدنى مواقع قَطْرِها طوفانُ
وبَدَتْ على شمائلٌ عُذْرِيَّة ... تَقْضى بأنى فيكُمُ هَيمانُ
فإذا نَطَقْتُ فذِكْرُكُم لِىَ مَنطقٌ ... ما عن سواكُمْ لِلِّسان بيانُ
وإذا صَمَتُّ فأنتمُ سِرِّى الذى ... بَيْنَ الجوانح فى الفؤاد يُصانُ
فبِباطنى وبظاهرى لكُمُ هوًى ... من جُنْده الإسْرَارُ والإعلانُ
وجَوَانحى وجميع أنفاسى وما ... أحْوى عَلَىَّ لحُبِّكم أعوان
وإليكُمُ منى المفرُّ فقَصْدُكُمُ ... حَرَمٌ به للخائفين أمان

وقال يذُمُّ الدنيا ويمدح[5] عُقْبى من يُقلل منها :

حديث الأمان[6] فى الحياة شجون ... إن أرضاك شأنٌ أحْفَظَتْكَ شئون
يميلُ إليها جاهلٌ بغرُورها ... فمِنْهُ اشتياقٌ نحوها وأنينُ
وذو الحزْم يَنْبو عن حِجاه فحالها ... يقيه إذا شَكَّ عَرَاه يَقينُ
إليك صريعَ الأمْنِ سَنْحَه[7] ناصح ... على نُصْحِه سِيما الشَّفيق[8] تَبِينُ

(١) هكذا فى «الملكية» ووردت فى المخطوطين : عبيدهم .
(٢) ووردت فى المخطوطين سخطى .
(٣) هكذا وردت فى «الملكية» . وفى المخطوطين (بذلك فرح) . والأولى أصح وأنسب للسياق.
(٤) هذه العبارة ساقطة فى المخطوطين وواردة فى « ت » .
(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ويحمد .
(٦) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » ، الجهان .
(٧) هكذا فى « ج » . وفى الملكية (منحة) .
(٨) هكذا وردت فى « ك » . ووردت محرفة فى « ج » : السفين .

تجافَ عن الدُّنيا ودِنْ باطِّراحها ... فَمَرْكَبُها بالمُطْمِعين(١) حَرُون
وترفيهُها خَفْضٌ وتنعيمُها أذًى ... ومَنْهَلُها للواردين أجُـون
إذا عاهَدَتْ خانت وإنْ هي أقسَمت ... فلا ترجُ برًّا باليمين يَمينُ
يروقُك منها مَطمَعٌ من وفائها ... وسرعان ما إثْرَ الوفاء تَخُون
وتَمْنَحُك الإقبالَ كفَّةُ حابلٍ ... ومِنْ مَكرِها في طَيِّ ذاك كَمينُ
سقاهُ لعَمْرُ الله إمْحاضُك الهوى ... لِمَنْ أنتَ بالبغضاء فيه قَمِينُ
ومن تَصْدُ مَنيه وهو يُقْطِعُك القِلا ... وتُهدي له الإعزازَ وهو يُهينُ
ألا إنَّها الدنيا فلا تَغْترِر(٢) بها ... ولُودُ الدَّواهي بالخداع تَدين
يَعُمُّ رَداها الغِرَّ والخِبَّ ذا الدَّها ... ويُلْحَقُ فيها بالكِناسِ عَرينُ
وتَشْمَلُ بَلْواها نبيلاً وخاملاً ... ويَلْقَى مُذالٌ(٣) غدرَها ومَصُونُ
أبِنْها لحاها الله كم فِتْنَةٍ لها ... تُعلّمُ صُمَّ الصَّخر كيف يَلينُ
فلا مَلِكٌ سامٍ(٤) أقالت عِثاره ... ولو أنه للفَرْقَدين خَدين
[ولا معهدٌ إلاَّ وقد نبهت به ... بَعيدَ الكرى للثاكِلاتِ جُفُون
أبيتُ لنفسي أن يُدَنِّسها الكرى ... سكونٌ إليها موبِقٌ ورُكُون](٥)
فليس قَريرَ العَيْنِ فيها سوى امرئٍ ... قَلاه لها رأيٌ يراه ودِينُ
أبيتَ طَلاقَ الحِرْص فالزُّهد دائباً ... خليلٌ له مُسْتَصْحَبٌ وقرينُ
إذا أقبلَتْ لم يُولِها بِشرَ شَيِّقٍ ... ولا خَفَّ للإقبال منه رَزِينُ

---

(١) هكذا في «ك». وفي «ج» بالمطمين. وفي الملكية: بالمطمين.
(٢) هكذا في «ج»، وفي «ك» تفتر
(٣) هكذا في المخلوطين، وفي الملكية.
(٤) هكذا في «ك». وفي «ج» سمى.
(٥) هذان البيتان واردان في «ج» وفي «الملكية». ولكنهما أدمجا في «ك» في بيت واحد نصه: (ولا معهد إلا . . . سكون إليها موبق . . .)

وإن أدْبَرَتْ لم يلتفت نحوها بها ... وادٍ على مالم توات حزين
خفيفُ المَطا من حَمْل أثقال هَمِّها ... إذا ما شَكَتْ ثِقَلَ الهُمُوم متُون
على حفظه للفَقْــر أبْهَى ملاءةٍ ... سَنِى حَلْيهـا وسْطَ الزرى يدين
برَجْف تخال الخائفين منــازلٌ ... لهنّ مكانٌ حيث حَلّ مَكينُ
منازلُ نجْدٍ عنــدها وتِهامَةٍ ... سوًى واستوى هندٌ لديه وصِين[1]
يرُودُ رياضاً أين ســار وورْدُه ... زُلالٌ اعتاض الورودَ مَعينُ
فهذا أُبيلُ[2] المُلْك لامُلْكُ ثائرٍ ... لأعدائه حربٌ عليه زَبُونُ
وهذا عريضُ العزِّ لاعزُّ مُترفٍ ... له من مَشِيداتِ القُصُورِ سُجُون
حوَتْ شَخْصه أوْصافها فكأنّه ... وإن لم يَمُتْ فوق التُّراب دَفينُ
فياخابِطاً عَشْواء والصُّبح قد بدا ... [إلام تُغَطِّى][3]ناظرَيك دُجُون
أفِقْ من كَرًى هذا التَّعامى ولاتُضع ... بجهلك علق[4] العُمْر فهو ثمين
إذا كان عقْبى ذى جِدَّة إلى بِلًى ... وقُصارى ذى الحيــاة مَنُون
ففيمَ التفانى والتنافُس ضِــلَّة ... وفيم التَّلاحى والخصامُ يكون
إلى الله أشكوها نفُوساً عَمِيَّةً ... عن الرُّشْد والحقِّ اليقين تَبِينُ[5]
وأسأله الرُّجعى[6] إلى أمره الذى ... بتوفيقه حَبْــلُ الرَّجاء متينُ
فلا خَيْرَ إلا من لَدُنْه وجُــودُه ... لتيْسير أسباب النَّجاة ضَمِينُ

وجمعتُ ديوان شعره أيّام مقامى بمالقة عند توجُّهى صُحْبة الركاب[7] السلطانى

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ومين .
(٢) وردت فى « ج » ، وأغفلت فى « ك » .
(٣) ما بين الحاصرتين ورد محرفا فى المخطوطين : إلى تمنى . ثغنى .
(٤) هكذا وردت فى « ج » وفى « الملكية » ، وفى « ك » علو.
(٥) فى المخطوطين : يكون
(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، الرجا .
(٧) هكذا فى « الملكية » . ووردت فى « ج » الركبان .

إلى إصراخ الخَضْراء عام أربعة وأربعين وسبعمائة ؛ وقدّمت صدْرَه خطبة ،وسمّيت الجزء « بالدُّرَر[١] الفاخرة ، واللُّجَج الزاخرة » ، وطلبتُ منه أن يُجيز نى ، وولدى عبد الله ، روايةَ ذلك عنه [فكتب][٢] بخطِّه الرائق بظهر المجموع مانصه :

« الحمد لله مستحقِّ الحمد ؛ أجَبْتُ سؤال الفقيه ، الأجَلِّ ، الأفضل ، السّرى ، الماجد ، الأوْحَد ، الأحْفل ، [الأديب][٣] البارع ؛ الطّالع فى أفقُ المعرفة والنّباهة، والرفعة المكينة والوجاهة ، بأبْهى المَطَالع ؛ المُصنِّف ، الحافظ ؛ العلاّمة ، الحائز فى فَنَّي النظم والنثر ، وأسلوبى الكتابة[٤] والشِّعر ، رُتْبة الرياسة ؛ الحامل لراية التقدُّم والإمامة ؛ مُحلِّى جيد[٥] العصر بتواليفه الباهرة الرواء[٦] ؛ ومُجْلى محاسن بفيه[٧] ، الرائقة على مَنَصَّة الإشْهاد والإنْباء ؛ أبى عبد الله بن الخطيب ، وصَل الله سعادته ومَجادته ؛ وسَنَي من الخير الأوْفر ، والصنْع الجميل الأبْهر ، مَقْصِده وإرادته ؛ وبلّغه فى نجله الأسْعد ، وإبنه الراقى[٨] بمحتده الفاضل ، ومَنْشَئِه الأطْهر ، مَحلِّ الفَرْقد ، أفضل ما يُؤَمِّل نجابَتَه إياه فى المَكْرُمات وإفادته ؛ وأجَزْتُ له ، ولابنه عبد الله المذكور ، أبقاهما الله تعالى ، فى عزّةٍ سَنِيَّةِ الخلال[٩] ؛ وعافية ممتدة الأفياء ، وارِفَة الظِّلال ؛ روايةَ جميعِ ماتقيد فى الأوراق ؛ المُكْتَتَب على ظهر أوّل ورقة منها ، من نَظْمى و نَثْرى ؛ وما توليتُ إنشاءه[١٠] ، واعتمدتُ بالارتحال

(١) وردت فى المخطوطين ، الدار . وفى الملكية بالدرارى ، وهو تحريف .
(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وفى « الملكية » . وينقصها السياق .
(٣) وردت فقط فى « ك » . وأغفلت فى « ج » ، وفى الملكية .
(٤) وردت فى المخطوطين المكاتبة ، وفى « النفح » الكتابة ، وهو أرجح .
(٥) وردت فى المخطوطين : جيل .
(٦) فى المخطوطين : الرواية ، والتصويب من نفح الطيب .
(٧) وردت فى المخطوطين : ومحل بنبه ، مع إغفال « محاسن » . والتصويب من نفح الطيب .
(٨) وردت محرفة فى المخطوطين : (إلى اقر) .
(٩) هكذا فى « ج » . وفى النفح ، وفى « ك » ، الجلال .
(١٠) هكذا فى « ج » وفى « النفح » ، وفى « ك » انشاده .

والرواية ، اختياره وانتقاءه ، أيام عُمْرى ؛ وجميع مالىَ من تصْنيف وتقْييد ، ومقطوعة وقصيدة ؛ وجميع ما أَحْمِلُه عن أشياخى رضى الله عنهم ، من العلوم ، وفُنون المنثور والمنظوم ؛ بأى وجه تأتَّى ذلك ، وصحَّ حَمْلى له ، وثَبَت إسنادُه لى ؛ إجازةً تامَّة ، فى ذلك كله عامَّة ، على سُنَن الإجازات الشّرعية ، وشرطها المأثور عند أهل الحديث المَرْعى ؛ والله ينفعُنى وإيّاهما بالعلم وحَمْله ، وينْظِمُنا جميعاً فى سِلْك حِزْبه المُفْلحين وأهله ، ويفُيض علينا من أنوار بركته وفضله . قال ذلك وكَتَبه بخط يده الفانية ، العبدُ الفقير إلى الغنى به ، أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان ، ختم الله له بخير ؛ حامداً لله تعالى ، ومصلياً ومُسلماً على محمد نبيه المصطفى الكريم ، وعلى آله الطاهرين ذوى المَنْصِب العظيم ، وصحبه البررة ، أولى المنصب والأثَرة والتقديم ؛ فى سادس ربيع الآخر عام أربعة وأربعين(١) ، وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

واشتمل هذا الجزء الذى أذن بحمله عنه من شعره على جملة من المُطوَّلات ، منها قصيدة يعارض بها الرئيس أبا علىّ بن سينا فى قصيدته الشهيرة فى النّفْس التى مطلعها : « هَبَطَت إليك من المحلّ الأرْفع » ، أولها : أهلا بمسراك المحب(٢) الموضع » . وأول قصيدة :

لِمَعْناك فى الأفهام سِرٌّ مُكَتَّمُ ... عليه نفـــوسُ العارفين تَحُوم

وأول أخرى :

أزْهَى حجابَك رؤيةُ الأغْيـار ... فامحُ الدُّجَى بأشــعَّة الأنْوار

وأول أخرى :

ثناءُ وجودى فى هواكم هو الخُلْدُ ... ومَحْوُ رُسُومى حُسن ذاتى به يَبْدو

---

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى النفح وفى « ج » : أربعة وسبعين ، وهو تحريف واضح يناقض ما ذكره ابن الخطيب فى البداية ، ويناقض ما ذكره بعد ذلك من وفاة ابن صفوان فى سنة٧٦٣ هـ
(٢) وردت فى المخطوطين : المحب .

ومطلع أخرى :

ألا فى الهوى بالذُّلِّ تُرعى الوسائلُ ... ودَمْعى أن أنادى مجيبٌ وسائلُ

ومطلع أخرى :

هُمُ القصدُ جادُوا بالرِّضى أو تَمَنَّعوا[1] ... صِلُوا اللوم فيما أَوْدَعوا القَلْبَ أو دَعُوا

ومن أخرى :

سَقَى زمن الرِّضا هامٌ من السُّحُب ... ولله العَوْدُ مِن أثوابه القُشُبِ

ومن أخرى :

يافوزَ نَفْسى فى هواك هواؤها ... ورقَّت معانيها وراق منــاؤها

ومن أخرى :

أمّا الغرامُ فبالفُــؤاد غَرِيمُ ... هيهــات منِّى ما العَذُول يرُوم

ومن شعره فى المقطوعات قوله :

رَشَق العِــذارُ لُجَينَه بنِبَاله ... فغــدا يَدُور على المُحبِّ الوالِهِ
خَطَّ العِــذارُ بصفحَتَيْه لامَه ... خَطًّا توَعَّــده بمحْو جماله
فحسِبْتُ أن جماله شمسُ الضحى ... حُسْناً وذاك الخَطُّ خطُّ زَواله
فدَنَا إلىّ تعَجُّــباً وأجابنى ... والرَّوْعُ يبدُو من خِلال مَقاله
إن الجمال آخــرُه اللّامُ فَعُجْ ... عن رَسْمِــه واندبْ على أطْلَاله

ومن أبياته فى التَّوْرِيَة بالفُنُون قوله :

كفَفْتُ عن الوصال طويلَ شَوْقى ... إليك وأنت للرُّوح الخَليل
وكفُّك للطويل فَدَتْكَ نَفْسى ... قبيحٌ ليس يرضاه الخَليــل

---

(١) وردت فى المخطوطين : (وتمنعوا) . والتصويب لازم للوزن والمعنى .

وقال فى التَّوْرية بالعَرُوض :

يا كاملاً شَوْقى إليــه وافرُ ... وبسيط خدِّى فى هواه عزيزُ
عاملتَ أسْبابى لديك فقطعْتها ... والقَطْعُ فى الأسباب ليس يجُوز

وقال فى التَّوْرية بالعربية :

أيا قمــراً مَطالعُه جَنَــانى ... وغرَّته تُوَارى عن عِيان
أأصْرفُ فى هواك عن اقتراحى ... وسُهْدِى وانتِحابى عِلَّتان

وقال أيضاً :

لا تَصْحَبَن [ياصاحبى][1] غيرالوَفِى ... كلُّ امرئ عُنوانه من يَصْطَفِى
كم من خليلٍ بِشرُهُ زهرُ الرُّبَى ... وطىُّ ذاك البِشْر حدُّ المُرْهَف
ظاهرهُ يريك سَرَّ من رأى ... وأنت من إعراضِهِ فى أسَفِ

ووقعت بينه وبين قاضى بَلَده أبى عمرو بن المَنْظُور مقاطعة ، انبرى بها إلى مطالبته بما دعاه إلى التحوُّل مضطرًّا إلى غَرْناطة ، وأُخذ بكَظَمه[2] ، وطَوَّقه الموت فى أثناء القطيعة ، فقال فى ذلك مُتَشَفِّياً ، وهو من نَبيه كلامه ، وكلُّه نَبيه :

تَرَدَّى ابنُ منظورٍ وحُمَّ حِمامُهُ ... وأسْلَمَهُ حامٌ له ونصيرُ
تبرَّأ منه أوليــاء غُرُوره ... ولم يقِهِ بَأْسَ[3] المَنُون ظَهيرُ
وأودِعَ بعد الأُنْسِ مُوحِشَ بَلْقَعٍ ... لحيَّاه فيــه مُنكَرٌ ونَـكيرُ
ولا رِشْوَةٌ يُدلى القبولُ رشادَها ... فيُنْسَخَ[4] بالسِّير المُريح عسيرُ
ولا شاهدٌ يُغضى له عن شهادةٍ ... تَخَلَّلَها إفكٌ يُصاغُ وزُورُ

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وفى « الملكية » . والإضافة من « ت » .

(٢) وردت فى المخطوطين : بكنفه بكنطه . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى «ك» . وفى « ج » (ولم يفقه بان) . والأولى أرجح للوزن والمعنى .

(٤) وردت فى المخطوطين : (فينسج) . والتصويب أرجح .

ولا خِدْعَةٌ تُجدى ولا مكرٌ نافعٌ ولا غِشٌ مَنْوِىٌّ عليه ضميرُ
ولـكنه حقٌّ يَصول وباطلٌ يَحُولُ ومَنْوَىَ جَنَّةٍ وسَعِيرُ
وقالوا قَضاء الموت حَتْمٌ على الورى يُديرُ صغيرٌ كأسَهَ وكبيرُ
فلا تَنْتَسِم ريحَ ارتياحُ لفقْدِه فإنَّك عن قصد السَّبيل تحُور
فقلت بَلَى حُكْم المَنِيَّة شامِلٌ وكلٌّ إلى ربِّ العِباد يَصِيرُ
ولـكنَّ تقدُّم(١) الأعادى إلى الرَّدى نشاطٌ يعودُ القلبَ منه سرُورُ
وأمنٌ ينام المرء فى بُرْدِ ظله ولا حَيَّةٌ للحِقْد ثَمَّ تَثُور
وحَسْبِىَ بيتٌ قاله شاعرٌ مضى غدا مثلاً فى العالَمين يَسِير
وإنَّ بقـــاء المرء بَعْدَ عدُوِّه ولَوْ ساَعةً من عُمره لَـكثِيرُ

مـــولده

قال بعض شيوخنا ، سألتُه عن مولده فقال لى فى آخر خمسة وتسعين وستمائة ، أظن فى ذى قعدة منه الشك .

« وفاته » ، بمالقَة فى آخر جمادى الثانية من عام ثلاثة وستين وسبعمائة .

أحمد بن أيوب اللَّماى(٢)

من أهل مالقة ، يُـكنى أبا جعفر .

حـــاله

قال صاحب الذَّيْل(٣) ، كان أديباً ماهراً ، وشاعراً جليلا ، وكاتباً نبيلا .

---

(١) هكذا فى « الملكية » ، ومكانها بياض فى « ك » ، وكلمة غير واضحة فى « ج » .

(٢) رسمت فى الذخيرة لابن بسام : « اللمائى » (الذخيرة : القسم الأول من المجلد الثانى ص١٣٢)

(٣) هو كتاب « الذيل والتكملة ، لكتابى الموصول والصلة » لابن عبد الملك المراكشى. وقد سبق التعريف به (راجع الحاشية فى ص ١٧٤)

كتب عن أول الخلفاء الهاشميين بالأندلس ، على بن حَمُّود ، ثم عن غيره من أهل بيته ؛ وتولّى تدبير أمرهم ، فحاز لذلك صيتاً شهيراً ، وجلالة عظيمة . وذكره ابن بسّام فى كتاب « الذّخيرة » ، فقال : كان أبو جعْفر هذا فى وقتة أحدَ أئمة الكتّاب ، وشُهب الأدب ، ممّن سُخرت له فنون البيان ، تسخير الجنّ لسليمان ، وتصرّف فى محاسن الكلام ، تصرُّف الرياح بالغمام ، طلع من ثناياه ، واقْتعَد مَطاياه ؛ وله إنشاءات[1] سَرِيّة ، فى الدولة الحمُّودية[2] ، إذ كان عَلَمَ أدبائها ، والمضطلع بأعبائها[3] ، إلاّ أنى لم أجد عند تحريرى هذه النُّسخة ، من كلامه ، إلا بعض فصول من منثور ، وهى ثِمادٌ من بُحور .

« فصل » : من رقْعة خاطب بها أباجعفر بن العباس : « غُصْنُ ذِكْرك عندى ناضِرُ ، وروضُ شُكرك لدىّ عاطِرُ ، وريح[4] إخلاصى لك صَبَا ، وزمان آمالى فيك صِباً ، فأنا شاربٌ ماء إخائك ، متفيّء ظِلّ[5] وفائك ؛ جانٍ منك ثمرة فرعٍ طاب أُكُلُه ، وأجنانى البِرّ قديمًا[6] أصلُه ، وسقانى إكراماً بَرْقُه ، ورَوانى أفضالا ودْقُه ؛ وأنت الطّالع فى فِجاجه ، السّالك لِمنْهاجه ، سهمٌ فى كِنانَة الفَضْل صائبٌ ، وكوكبٌ فى سماء المجد ثاقبٌ ، إن أتْبعْتَ الأعداء نورَه أحرق ، وإن رميْتَهم به أصاب الحَدَق ؛ وعلى الحقيقة فلسانى يقصُر عن جميل أنشرُه[7] ، ووصف وُدٍّ أضمِرُه » .

---

(١) هكذا وردت فى « ك » والذخيرة . ووردت محرفة فى « ج » ، (إنشات) .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : فى « ح » الحمدية . وفى « ك » المحمودية . وفى الملكية (المحمدية) .

(٣) وردت فى « ك » ، بأعيانها . وكذا فى « الملكية » . وفى « ج » بأذيالها . والتصويب من الذخيرة .

(٤) وردت فى المخطوطين وفى « الملكية : وروح . والتصويب من الذخيرة .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى الذخيرة : ظلال

(٦) فى المخطوطين : قديم ، وهو تحريف .

(٧) هكذا فى المخطوطين . وفى الذخيرة : أسره .

شـعره

قال ، ومما وجد بخطه لنفسه :

طلعت طلائعُ للربيع فأطْلعَت ... فى الرَّوْض ورداً قَبلْ[١] حين أوانه
حيَّا أمير المسلمين[٢] مُبشِّراً ... ومؤمِّلاً للنَّيــل من إحْسانه
ضَنَّتْ سحائبُه عليه بمائها[٣] ... فأتاه يَسْتسقيه ماء بَنــانه
دامَتْ لنا أيّامُه موصُــولةً ... بالعـزِّ والتَّمكين فى سُـلْطانه

قال : وأنشدنى الأديب أبو بكر بن مَعْن ، قال أنشدنى أبو الربيع بن العَريف [لجَدَّه][٤] الـكاتب أبى جعفر اللماى ، وامتُحن بداء النَّسَمة من أمراض الصَّدر ، وأزْمَن به ، نفعه الله ، وأعياه علاجُه ، بعد أن لم يَدَع فيه غاية ، وفى ذلك يقول :

لم يَبْقَ من شيء أعالجُها به[٥] ... طَمَعُ الحياةِ وأين مَنْ لايَطْمَعُ
« وإذا المنِيَّةُ أنشَبَتْ أظْفارها ... ألفيْتَ كلَّ تَميمةٍ لا تَنفَعُ »

ودخل عليه بعض أصحابه فيها ، وجعل يُرَوِّح عليه فقال له بديهة :

روَّحَــنى عائدى فقلت له ... لاتزِدْنى على الذى أجِــد
أما ترى النــار وهى خامدةٌ ... عنــد هُبوب الرياح تتَّقد

ودخل غَرْناطة غير مامرة ، منها متردِّداً بين أملاكه ، وبين من بها من ملوك صَنْهاجة ، قالوا ولم تفارقه تلك الشَّـكاية حتى كانت سبب وفاته .

---

(١) وردت فى « ج » ، وأغفلت فى « ك » .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الذخيرة : أمير المؤمنين .

(٣) فى المخطوطين وفى الملكية : بمائه . والتصويب من الذخيرة .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : الحرة . والتصويب من الذخيرة .

(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطين . ولكنها وردت فى الذخيرة كما يلى : «لم يبق شىء لم أعالجها به » .

وفاته

بمالَقَة عام خمس وستين وأربعمائة . ونقل منها إلى حصن الوَرْد ، وهو عند حصن مُنْتِ مَيُور[١] إذ كان قد حصَّنه ، واتخذه لنفسه ملجأ عند شدَّته ، فدُفن به ، بعَهْدٍ منه بذلك ، وأمر أن يُكتب على قبره بهذه الأبيات :

بَنَيْتُ ولم أَسْكُن وحصَّنت جاهداً فلما أتى المَقْدور صيَّره قَبْرى
ولم يكن حظِّى غير ما أنتَ مُبْصِرٌ بعَيْنك ما بين الذِّراع إلى الشِّبر
فيازائراً قَبْرى أوصيك جاهداً عليك بتَقْوى الله فى السِّر والجَهْر
فلا تُحسِنَنَّ بالدَّهرِ ظنًّا فإنما من الحَزْم ألاَّ يُسْتَنام إلى الدهر

أحمد بن محمد بن طَلْحة

من أهل جَزِيرة شُقْر[٢] ، يكنى أبا جعفر ، ويُعرف بابن جده طلحة .

حاله

قال صاحبُ «القِدْح المُعَلَّى» ، من بيت مشهور بجزيرة شُقْر من عمل بلَنْسِية كتب عن ولاة الأمر من بنى عبد المؤمن ، ثم اسْتَكْتَبه ابنُ هود[٣] ، حين تغلّب على الأندلس ، وربما استَوْزَره ، وهو ممن كان والدى يُكثر مُجالسته ، وبينهما مُزاوَرةٌ ، ولم أستَفِد منه إلا ما كنتُ أحفظُه من مجالسته .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » (منت ميون) . وهو تحريف . وما أثبته « ج » وهو منت ميور أرجح — وهو مطابق للاسم الإسبانى المقابل وهو Monte mayor أى الجبل الكبير .

(٢) سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١٧٩) .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود ، المتوكل على الله ، سليل بنى هود أمراء سرقسطة . وقد سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ١٤١) .

شعره

قال ، سمعتُه يوماً يقول ، تقيمون القيامة بحبيب ، والبُحترى ، والمُتنبى ، وفى عصركم من يهتدى إلى مالم يهتد إليه المتقدّمون ولا المتأخرون [فانبَرى إليه شخص له همّة وإقدام ، فقال يا أبا جعفر : أين بُرهان ذلك ، فما أظنك تعنى إلا نفْسك ، فقال ما أعنى إلا نفسى ، ولمَ لا ، وأنا الذى أقول](١) :

ياهل ترى الظَّرْفُ من يومنــا … قلّد جيدَ الأفْق طَوْقَ العَقيق
وأنْطَق الوُرْق بعيدانها … مُطْرِبَةً كلَّ قضيبٍ وَرِيق
والشمسُ لا تَشْربُ خمر النّدى … فى الرّوْضِ إلا بكأس الشَّقِيق

فلم يُنصفوه فى الاستحسان ، وردُّوه فى الغَيْظ(٢) كما كان ، فقلت له : ياسيدى هذا والله السِّحر الحلال ، وما سمعت من شعراء عصرِنا مثله ، فبالله ألا ما لازمْتَنى وزِدْتَنى من هذا النمط ، فقال لى لله دَرُّك ، ودَرُّ أبيك من مُنْصف ابن مُنْصف . إسمع ، وافتح أُذُنيك . ثم أنشد :

أدِرْها فالسماء بَدَتْ عَرُوساً … مُضَمَّخة الملابس بالغَــوَالِ
وخدُّ الأرض خَفَّرهُ أصيــلٌ … وجَفْنُ النَّهْرِ(٣) كُحِّل بالظِّلال
وجيدُ الغُصْن يُشْرِق فى لآلٍ … تضِيء بهن أكْنافُ اللّيــال

فقلت بالله أعدْ وزِدْ(٤) ، فأعاد والارتياح قد ملأ عِطْفه ، والتيهُ قد رفع أنْفَه ، ثم قال :

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين ، ووارد فى الملكية وفى «ت» (الزيتونة) .
(٢) وردت فى المخطوطين : الغيض . والتصويب من «ت» .
(٣) هكذا وردت فى «ك» ، و«ت» . وفى «ج» النهار .
(٤) هكذا فى «ت» . وفى المخطوطين : وأزد .

لله نهــرٌ عنــد ما زُرته　　عاين طَرْفى منه سحراً حلالْ
إذا أصبح الطّل به لَيْلة　　وجال(١) فيه الغُصن مثلَ الخيال

فقلت ماعلى هذا مزيدٌ فى الاستحسان ، فعسى أن يكون المزيد فى الإنشاد فزاد ارتياحة وأنشد :

ولما ماج(٢) بحرُ الليــل بينى　　وبينــكم وقد جدَّدتُ ذِكرا
أراد لِقاكمُ إنسانُ عَيْنى　　فمدَّ له المنــام عليه جِسرا

فقلت إيه زادك الله إحْساناً ، فزاد :

ولمـا أنْ رأى إنسانُ عَيْنى　　بصَحْنِ الخدّ منه غريقَ ماء
أقام له العِذار عليه جِسْراً　　كما مُدَّ الظلامُ(٣) على الضياء

فقلت فما تــكرَّرَ ويطُول ، فإنه مَمْلول ، إلاّ ما أوْرَدْتَه آنفاً ، فإنه كنسيم الحياة ، وما أن يُمل ، فبالله ألا مازدتنى ، وتفضّلت علىّ بالإعادة ، فأعاد وأنشد :

هات المُدام إذا رأيت شبيهها　　فى الأُفْق يافَرْداً بغير شَبيه
فالصُّبح قد ذبح الظلام بِنَصْله　　نَغَدَتْ حمائمُه تُخاصم فيه

دخوله غَرْناطة

دخلها مع مخدومه المُتوكل على الله ابن هود وفى جُملته ، إذ كان يصحبُه فى حركاته ، ويباشر معه الحرب ، وجَرَت عليه الهزائم ، وله فى ذلك كله شعر .

---

(١) هكذا فى الملكية و « ك » وفى « ج » ، و « ت » وخال .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » فاح . والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » صبح .

محنتُــه

قالوا لم يقنع بما أجرى عليه أبو العباس الينشتي[1] من الإحسان ، فكان يُوغِرُ صدره من الكلام فيه ، فذكروا أن الينشتي قال يوماً في مجلسه : رميتُ يوماً بسَهْمٍ من كذا ، فبلغ إلى كذا ؛ فقال إبن طَلْحة لشخص كان إلى جانبه : والله لو كان قَوْس قُزح ؛ فشُعِّر أبو العباس إلى قوله ما يُشبه ذلك ، واستَدْعى الشخص ، وعزم عليه ، فأخبره بقوله ، فأسَرّها في نفسه ، إلى أن قوّى الحقد عليه ، مابلغه من عنه من قوله يهجوه :

سمعنـــا بالمُوَفَّق فارتَحَلْنـــا ... وشافِعُنـــا له حَسَبٌ وعِـــلم

ورُمْتُ يداً أقبِّلُها وأُخـــرى ... أعيشُ بفضلها أبداً وأُمْـــو

فأنْشَدَنا لسانُ الحال عنـــه ... يدٌ شَـــلاَّ وأمـــرٌ لا يَتِم

فزادت مَوْجِدَتُه[2] عليه ، وراعى أمره إلى أن بَلَغته أبياتٌ قالها في شهر رمضان ، وهو على حال الاستهتار[3] :

يقول أخُو الفضول وقـــد رآنا ... على الإيمان يُغلِبُنـــا المُجُون

أتشْكُو شهر الصَّـــوْم هلاّ ... حَماه منكُمُ عقـــلٌ ودين

فقلتُ أصحَبْ سوانا فنحن قوم ... زنادِقَة مذاهِبُنا فُنُون

نَدِينُ بكل دين غير دين الـــرعاع فمـــا به أبداً نَدِينُ

---

(١) هكذا وردت في المخطوطين : ووردت في « ت » السبتي وهو تحريف . وقد كان البنشتي أو اليانشتي واليا لثغر سبتة مستقلا بحكمها ، ويتخذ لقب الموفق .

(٢) وردت في المخطوطين : موجوه . وهو تحريف ظاهر .

(٣) وردت في المخطوطين : الإسهاد . والمرجح أنه الإستهتار حسبما يدل على ذلك معنى الشعر

فنحن على صُفُوح[1] الدهر ندعو   وإبليسُ يقول لنـــا آمين
أيا شَهْرَ الصيـــام إليك عَنَّا   ففيك أكفَرُ ما نكون

قال ، فأرسل إليه من هجم عليه ، وهو على[2] هذا الحال ، وأظهر إرضاء العامّة بقَتْله ، وذلك فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة[3]. ولا خفاء أنه من صُدور الأندلس ، وأشدهم عثوراً على المعانى الغريبة المخترعة ، رحمه الله .

أحمد بن على بن محمد بن على بن محمد بن خاتِمة الأنصارى

من أهل ألمَرِيّة[4] ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن خاتمة .

حـــاله

هذا الرجل صدرٌ يُشار إليه ، طالبٌ مُتفنِّنٌ ، مشاركٌ ، قوىُّ الإدراك ، سديد النَّظر ، قوى الذهن ، موفور الأدوات ، كثير الاجتهاد ، مَعين الطبع ، جيِّد القريحة ، بارع الخط ، مُمْتِع المجالسة ، حسن الخُلُق ، جميل العشرة ، حَسَنَة

(١) هكذا وردت فى «ج» و«الملكية» . وفى «ك» الصفوح بالتعريف وهو لا يستقيم مع وزن الشعر .

(٢) هكذا فى «ك» . وفى «ج» فى .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (وسبعمائة) وهو سهو تاريخى لأن المتوكل بن هود الذى التحق بخدمته الشاعر المترجم له توفى قتيلا سنة ٦٣٥ هـ ، وذلك بعد مقتل الشاعر . ولهذا اقتضى التصويب .

(٤) سبق ذكر ألمرية فى السياق غير مرة . وقد رأينا أن نعرف بها هنا لمناسبة ترجمة شاعرها الكبير ابن خاتمة . وألمرية Almeria ، ثغر من ثغور الأندلس الشهيرة يقع فى جنوب اسبانيا على البحر المتوسط شرق مالقة . وهى مدينة مشرقة جميلة الموقع والتخطيط . وكانت أيام الدولة الإسلامية من أعظم ثغورها الجنوبية ، وكان سكانها يومئذ يزيدون على مائة وخمسين ألفاً ، وهم اليوم لا يعدون ستين ألفاً . وقد سقطت ألمرية فى يد النصارى سنة ١٤٨٩ . وما تزال تقوم بها حتى اليوم أطلال القصبة الأندلسية القديمة ، وبها عدة أبراج منيعة تشرف عليها من عل . ولألمرية ميناء جميل يرسو به كثير من السفن .

من حسنات الأندلس ، وطَبَقَةُ فى النظم والنثر، بعيد المَرْقى فى درجة الاجتهاد ، وأخذه بطرق الإحسان ؛ عقد الشروط ، وكتب عن الوُلاة ببَلَدِه ، وقعد للإقراء ببلده ، مشكور السيرة ، حميد الطريقة ، فى ذلك كله .

وجَرَى ذِكره فى كتاب « التَّاج » بما نصه : « ناظم دُرَرِ الألفاظ ، ومُقَلِّد جواهر الـكلام ، نحُور[1] الرُّواة ، ولَبَّات[2] الحُفَّاظ والآداب ، التى أصبحت شوارِدُها ، حلم النائم ، وسَمَر الأيقاظ ؛ وكم فى بياض طِرْسِها ، وسواد مَقْسِها سِحرُ الألحاظ[3] ؛ رفع فى قطره راية هذا الشأن على وفور حَلْبَتِه ، وقرع فنّه البيان على مُحُو هَضْبته ، وفَوّق سَهْمه إلى بحر الإحسان ، فأثْبَته فى لَبّته ؛ فإن أطال[4] شأنُ الأبطال ، وكاثر المُنْسَجم الهطال ؛ وإن أوْجَز ، فضح وأعْجز ؛ فمن نَسيبٍ تَهيجُ به الأشواق ، وتَضيق عن زفراتها الأطْواق ؛ ودُعابةٍ تُقَلِّص ذيل الوقار ، وتُزْرى بأكواس العقار ؛ إلى انتماء للمعارف ، وجنوح إلى ظلها[5] الوارف ؛ ولم تزل معارفُه ينفَسح آمادُها ، وتحوز خُصَل السباق جيادُها » .

مشيخته

حسبما نَقَل بخطه فى ثَبَتٍ استدعاه منه من أخذ عنه ؛ الشيخ الخطيب ، الأستاذ مولى النعمة ، على أهل طَبقَته بالمَرِيّة ، أبو الحسن على بن محمد بن أبى العَيْش المرِّى ؛ قرأ عليه ولازمه ، وبه جلَّ انتفاعه ؛ والشيخ الخطيب الأستاذ الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن العاص التُّنُوخى . وروى عن الراوية المُحَدِّث

---

(١) وردت فى المخطوطين : بحور ، وهو تحريف . وحكمة التصويب واضحة .

(٢) هكذا فى « ج » و« الملكية » . وفى « ك » لباب . والأولى أرجح وأنسب للسياق .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » اللحاظ .

(٤) وردت فى المخطوطين : طال . وهو تحريف .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » والملكية ظل . والأولى أرجح .

المكثر الرحّال، محمد بن جابر بن محمد بن حسّان الوادى آشى ؛ وعن شيخنا أبى البركات ابن الحاجّ ، سمع عليه الكثير ، وأجازه [إجازة][1] عامة ؛ والشيخ الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن شُعيب القَيْسى من أهل بلده ؛ والقاضى أبو جعفر القُرشى بن فَرْكون . وأخذ عن الوزير الحاجّ الزاهد، أبى القاسم محمد ابن محمد بن سهل بن مالك . وقرأ على المُقْرى أبى جعفر الأغر[2] ، وغيرهم .

كتابته

مما خاطبنى به بعد إلمام الرَّكب[3] السلطانى ببلده ، وأنا صحبته ؛ ولقائه إياى ، بما يلق به مثلهُ من تأنيس ، وبرّ ، وتودُّد ، وتردُّد :

يامَن حَصَلت على الكمال بما رأت ... عيناى[4] منه من الجمال الرائع
مَرْأى[5] يروقُ وفى عِطافَىْ بُرْدِه ... ما شئت من كرمٍ ومجدٍ بارع
أشكو إليك من الزمان تَحَامُلاً ... فى فَضِّ شملٍ لى بقربك جامِع
هجم البُعــاد عليه ضَنًّا باللِّقا ... حتى تَقَلَّص مثل برق لامع
فلو انّنى ذو مذهب لشفاعة ... ناديتُه يامالِكى [كُن شافعى][6]

شكواى إلى سيدى ومُعظّمى ؛ أقرّ الله تعالى بسنائه أعيُن المجد ، وأدرّ بثنائه ألسُنَ الحمد ، شكوى الظمآن صُدّ عن القَراح العذب[7] لأول وروده ، والهَيْمان رُدّ عن استرواح القُرب لمُعْضِل صدوده ، من زمانٍ هجم علىّ بُعاده ، على حين

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين ، وفى « الملكية »، وإضافتها لازمة لاستقامة السياق .
(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، الأغن .
(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، الركاب .
(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » عينان .
(٥) فى نفح الطيب (قمر).
(٦) وردت فى نفح الطيب (ياشافعى) .
(٧) وردت فى المخطوطين : الضر ، العز . والتصويب من نفح الطيب .

النفادة[١] ، ودَهمنى بفراقه غَبَّ إنارة أفُقِى به وإشراقه ؛ ثم لم يَكفِه ما اجْتَرم فى ترويع خياله الزاهر[٢]، حتى حرم عن تشييع كماله الباهر، فقطع عن تَوْفية حقِّه، ومنع من تأدية مُسْتَحقِّه ، لاجَرَم أنه أنِف لشارع ذكائه من هذه المطالع النافية [عن شريف الإنارة ، وبَخِل بالإمتاع بذكائه عن هذه المسامع النائية][٣] عن لطيف العبارة ، فراجع أنظاره ، واسترْجع مُعارَه[٤] ؛ وإلا فعهدى بغروب الشمس إلى طُلوع ، وأنّ البَدْر ينصرف بين الاستقامة والرُجوع . فما بالُ هذا النَيِّر الأسعد ، غَرُب ثم لم يطلع من الغد؛ ماذاك إلا لِعَدْوى[٥] الأيام وعُدْوانها ، وشأنها فى تغطية إساءتها وجه إحسانها ، وكما قيل عادت[٦] هيفٌ إلى[٧] أديانها ؛ أستغفر الله أن لايُعد ذلك من المُغْتَفر فى جانب ما أوليت من الأثر ، التى أزْرى العيان فيها بالأثر ، وأربى الخبرُ على الخبر ؛ فقد سُرّت مْتشوِّفاتالخواطر ، وأقرّت متَشَرِّفاتُ النواظر[٨] ، بما جلَتْ من ذلكمُ الكمال الباهر ، والجمال الناضر ؛ الذى قيّد خُطى الأبصار ، عن التشوُّف والاستبصار ؛ وأخذ بأزِمّة القلوب ، عن سبيل كل مأمول ومرغوب ؛ وأنّى للعين بالتحوُّل عن كمال الزَّيْن ، أوللطّرْف[٩] ، بالتحول عن خِلال الظّرْفِ ؛ أو للسَّمع [من][١٠] مُراد ، بعد ذلك الإصرار والإيراد ، أو للقلب من مُراد ، غير تلكمُ الشيم الرافلة من ملابس الكرم فى حُلل

---

(١) هكذا فى « ج » وفى « الملكية » . وفى « ك » النعاق . وفى النفخ : أسعاده .

(٢) وردت فى المخطوطين وفى الملكية الزاير . والتصويب من النفح .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين وفى الملكية . وأضفناه عن النفح .

(٤) وردت فى المخطوطين : عماره . والتصويب من النفح .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين .

(٦) فى المخطوطين : عاد .

(٧) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين .

(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » القواطر . وهو تحريف .

(٩) وردت فى المخطوطين وفى الملكية . لطرفه . والتصويب من النفح .

(١٠) ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من النفح .

وأبراد ؛ وهل هو إلا الحُسْن جُمع فى نظام ، والبدْرُ طالَع التّمام ، وأنوار الفضائل ضمَّها جنسُ اتفاقٍ والتآم ؛ فما ترعى العين منه فى غير مرعًى خصيب ، ولا تستهدفُ الآذان(١) لغير سهمٍ فى حَدَق البلاغة مُصيب ؛ ولا تطلعُ النفسُ سوى مطلعٍ له فى الحسن والإحسان أوفرُ نصيب . لقد أزرى بناظم حُلاه فيما تعاطاه التقصير . وانفسح من أعلاه بكل باعٍ [قَصير ، وسَفُه حلمُ القائل : إنَّ الإنسان عالَمٌ صغير ، شكراً للدهر على يد أسداها بقلب مزاره ، وتُحفْة](٢) ثناء أهداها بمطْلع أنواره على تَغاليه فى ادِّخار نفائسه ، ويُخْله بنفائس(٣) ادِّخاره ؛ ولا غَرْو أن يضيق عنا نطاق الذِكر ، ولما يتّسعُ لنا سِوار الشكر . فقد عُمّت هذه الأقطار بما شاءت من تحنُّنٍ ، بين تُحَفٍ وكرامة ، واجتنَتْ أهلُها ثمرة الرحْلة(٤) فى ظِلِّ الإقامة ، [وجرى الأمرُ فى ذلك مَجْرى الكرامة](٥) ؛ ألا وإن مُفاتحتى لسيدى ومُعَظَّمى ، حرس الله تعالى مَجْدَه ، وضاعف سَعْدَه ؛ مُفاتحة من ظَفِر من الدهر بمطلوبه ، وجرى له القَدَرُ على وفق مَرْغوبه ؛ فشرع له إلى أمله باباً ، ورفع له من خجله جلباباً ؛ فهو يَكْلَفُ بالاقتحام ، ويأنَفُ من الإحجام ؛ غير أنَّ الحَصْر عن دَرَج قَصْده يقيِّده ، فهو يُقْدِم والبصرُ يُبهرج(٦) نقده فيُقعده ؛ فهو يُقدِّم رجْلا ويؤخِّر أخرى ، ويجدِّد عَزْماً(٧) ثم لايتحرّى ؛ فإن أبذأ خِطابى فَلَواضحُ(٨) الاعتذار ، ومثلُكم لايقبل حياة الأعذار ؛ والله عزّ وجلّ يَصل إليكم عوايد الإسعاد والإسعاف ،

---

(١) هكذا وردت فى « ج » وفى الملكية . وفى « ك » الأذهان .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين : وقد أثبتناه عن النفح .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » بنعايم . والأولى ارجح .

(٤) هكذا وردت فى « ج » وفى النفح . وفى « ك » الوحدة .

(٥) هذه العبارة ساقطة فى المخطوطين . ونقلناها عن النفح .

(٦) وردت فى المخطوطين : يهرج . والتصويب من النفح .

(٧) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » جزماً .

(٨) وردت محرفة فى المخطوطين : لوضح . فلو صح .

ويحفظ لسكم ما للمَجْد من جوانبٍ وأكناف ، إن شاء الله تعالى ؛ كتب فى العاشر من ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وسبعمائة .

دخولُه غَرْناطة

دخل غرناطة غير ما مرّة ، منها فى استدعاء شمال الخواصّ من أهل الأقطار الأندلسية ، عند إعذار الأمراء فى الدولة اليُوسُفيّة[1] ، فى شهر شعبان من عام إحدى وخمسين وسبعمائة .

شعره

كان مُجَلّيًا[2] ، وأنشد فى حَلْبَة الشعراء قصيدةً أولها :

أجِنانُ خُلْدٍ زُخْرِفَتْ أم مَصْنَعُ ... والعيدُ عاوَدَ أم صَنِيعٌ يُصْنَعُ

ومن شعره :

من لم يُشاهد مَوْقِفاً لِفِراق ... لم يدْرِ كيف تَوَلُّه العُشّاق
إن كنت لم تَرَه فسائل من رأى ... يُخْبِرْك عن وَلَهٍ وهول سياق[3]
من حَرِّ أنفاسٍ وخَفق جَوانحٍ ... وصُدوع أكبادٍ وفيض مآق
دُهِى الفؤاد فلا لسانٌ ناطقٌ ... عند الوداع طايع[4] مُتَراق
ولقد أشيرُ لمنْ تكلَّف رِحْلةً ... أن عُجْ علىَّ ولو بقَدْر فُواق
عَلِّى أُراجِعُ من ذماى حُشاشَةً ... أشكو بها بعض الذى أنا لاق

---

(١) الدولة اليوسفية أعنى دولة السلطان يوسف أبى الحجاج ملك غرناطة الذى حكم من سنة ٧٣٣ إلى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٣٣ – ١٣٥٤ م)

(٢) كلمة (كان) ساقطة فى « ك » . ووردت العبارة فى « ج » هكذا : مجليا كان .

(٣) وردت فى المخطوطين : وهو سياق . وفى «ت» (وعن أشواق) .

(٤) هكذا فى « ج » وفى «الملكية» . وفى «ك» لا يح . وفى «الكتيبة الكامنة» (ولايد)

فَمضَى ولم تَعطِفه نحوى ذِمَّةٌ — هيهات لابُقْيا على مُشْتاق
ياصاحبىَّ وقد مضى حُـكْم النَّوَى — روحا علىَّ بشيمة[1] العُشّاق
واستَقْبِلابى[2] نَسْمَةً عن أرضكم[3] — فَلعلَّ نَفْحتها[4] تَحُل وثاق
إنى ليَشْفينى النَّسيم إذا سَرى — مُتَضَوِّعاً من تلـكمُ الآفاق
مَنْ مُبلغ[5] بالجزع أهل مودَّتى — أنى على حُـكْمُ الصَّبابة باق
ولئن تحوَّل عهدُ قُرْبهم[6] نَوَى — ما حُلْت عن عَهْدى ولا ميثاق
أنِفَتْ خلايقى الـكرام لخُلَّتى — نَسَباً إلى الإخلاق والإخراق
قسماً به ما استغرقَتنى فـكرةٌ — إلّا وفـكرَى فيه واستِغراق
لى آهةٌ عند العَشِىِّ لعلّه — يُصْغى لهـا وكذا مع الإشْراق
أبـكى إذا هبَّ النسيمُ فإن تَجِد — بَلَلاً به فَبِدمْعِىَ المُهْرَاق
أوما ماتـكتب إليه معَ الصَّبا[7] — فالذكر كُتبى والرفاقُ رفاق
منْ لى وقد شحط المزار بنازح[8] — أدنى لقلبى من جَوَى أشواق
إن غاب عن عَيْنى فَمَثْواه الحَشا — فسراه بين القلْب والأحـداق
جارت علىَّ يد النَّوى بفراقه — آهاً لمـا جَنَتْ النَّوى بفراق
أحباب قلبى هل لمـاضِى عَيْشِنا — ردٌّ فيُنْسخ بُعْـدكم بتلاق
أم هـل لأثواب التجلُّد واقعٌ — إذ ليس من داء المحبَّـة راقِ
ماغاب كوكب حُسْنِكم عن ناظرى — إلا وأمْطَرت الدِما آماق

---

(١) هكذا فى المخطوطين : وفى الملكية وفى « الكتيبة » (بشيمة) .

(٢) وفى الكتيبة (واستقبلاها) . (٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » أرضهم .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » نفحاتها .

(٥) فى المخطوطين : يبلغ . (٦) فى دايوان ابن خاتمة (حبهم) .

(٧) هكذا وردت فى هذه الشطرة فى المخطوطات الأربعة : وفى الديوان والكتيبة (أومى بتسليم إليه مع الصبا) .

(٨) ردت هذه الشطرة فى المخطوطات الثلاثة : « من لى شحط المزار بنازح آنى » .

إيه أُخيّ أدِرْ عليّ حديثهم ... كأساً ذَكَتْ عَرْفاً وطيبَ مذاق
وإذا جنحت لمـاء أو طربٍ فمن ... دَمْعى الهموع وقلبىَ الخفّاق
ذكراهُ راحى والصّبابةُ خُضرتى ... والدمعُ ساقينى وأنت الساقِ
فليَلُه عنى من لحانى إننى ... راض بمـا لاقيتُه وألاق

وقال :

وقفت والرَّكْبُ[١] قدزُمت ركائبه ... وللنفوس مع النَّوى[٢] تقْطيع
وقد تمايل نحوى للوداع وهل ... للرَّاحلِ القلب صَدْر الرَّكْب توديع
أَضُمُّ منه كما أهْدَى لغير نوى ... ريحانةً فى شَذَاها الطيبُ مجموعُ
يهفو فأذعرُ خوفاً من تقلّصها[٣] ... إن الشفيق بسوء الظن مَوْلوع
هل عند من قددَعَى بالبَيْن مُقْلتَه ... إنّ الرَّدى منه مرئىٌّ ومسموع
أُشيّعُ القلب عن رَغْمٍ علىّ وما ... بقـاء جسم له لِلْقلب تَشييع
أُرى وُشاتى أنى لست مُفْتَقِراً[٤] ... لما جرى وصميم القلب مصروع
الوجـــد طبعٌ وسُلوانى مُصانَعة ... هيهات يَشْـكُل مصنُوع ومَطْبوع
إن الجديد إذا ما زِيد فى خَلَقٍ ... تبَـيَّن النَّاسُ أن الثوب مَرْقُوع

وقال أيضاً :

لولا حيائى من عيون[٥] النرجس ... لَلَثَمْتُ خدّ الورد بين السُّندُسِ
ورَشَفْتُ من ثَغْر الأقاحة ريقها ... وضَمَمْتُ أعطاف الغُصون المُيَّس

---

(١) هكذا فى «ج» وفى «الملكية». وفى «ك»، والبين.

(٢) هكذا فى الملكية. وفى «ج» «الأيام»، والأولى أرجح.

(٣) هكذا وردت فى «ك». وفى «ت» و«ج» نقضها. ووردت الشطرة كلها فى الملكية كما يأتى : (يهفو فؤاداً عن خوفها من نقضها).

(٤) هكذا فى «ت». وفى المخطوطين : **مفترقاً**.

(٥) وردت فى المخطوطين : **العيون**. والتصويب من «ت».

وهتكت أستار الوقار ولم أُبَل ... للباقلاء تلحظ بطرفٍ أشوس
مالى وصهباء الدنان مُطارحاً ... سَجْعَ القِيان مُكاشِفاً وجه الْمُس
شتــان بين مُظاهرٍ ومخاتل ... ثوب[1] الحِجا ومُطهَّر ومُدنَّس
ومُجمجِمٍ بالعذل با كــرنى به ... والطير أفصَحُ مسعد بتأنُّس
نزَّهتُ سمعى عن سفاهة نُطْقه ... وأعرتُه صوتاً رخيم[2] الملمس
سفَّهتُ فى العشّاق يوماً إن أكن ... ذاك الذى يُدعى[3] الفصيحَ الأخرس
أعذول وَجْدى ليس عُشُّك ٍ فادرجى ... ونصيحَ رُشْدى بان نُصْحك فاجلسِ
هل تبصُر الأشجار والأطيار والأزهـ ... ـار [تلك][4] الخافضاتِ الأروُسِ
نالله وهو [إليَّتى وكنى به][5] ... قسماً يُفــدَّى برُّه بالأنفُس
ما ذاك من شُـكْرٍ ولا لخلالة[6] ... لـكن سجود مُسبِّحٍ ومُقدِّس
شكراً لمن بَرَأَ الوجود بجُوده ... فثَنى إليه الـكلُّ وجه المُفْلِس
[وسما بِساط الأرض فمدّه][7] ... ودحاً بسيط[8] الأرض أوثر مجلس
ووشَى بأنواع المَحاسن هــذه ... وأنار هذِى بالجوارِ[9] الـكُنَّس
وأدَرَّ أخـلاف العطاء تطوُّلاً ... وأنال فَضْلا مَنْ يُطيعُ ومَنْ يُسى

(١) فى « ج » بثوب . وفى « ك » مثوب . و « ت » تثوب .

(٢) فى المخطوطين ، رحيما . وفى « ت » وخيم .

(٣) هكذا وردت فى « ت » والملكية . ووردت فى المخطوطين : يدع .

(٤) ساقطة فى المخطوطات الأربعة وواردة فى الديوان .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . ووردت فى « ت » (الذى كنى به) . والألية هنا معناها اليمين .

(٦) هكذا فى المخطوطين . ووردت فى « ت » : (ولا نجادة) .

(٧) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الأربعة . وفى الديوان (رفع السماء سقفا يروق رواءه) .

(٨) هكذا فى « ت » . وفى « ك » و « ج » ببسيط .

(٩) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : بجوار .

حتى إذا انتظم الوجودُ بنِسْبَةٍ ... وكساه ثَوْبَيَ نُورِهِ والحِنْدِس
واستكْمَلَتْ كلُّ النفُوس كمالها ... شفَعَ العطايا بالعطاء الأنْفَس
بأجلِّ هادٍ للخلائق مُرْشدٍ ... وأتمِّ نورٍ للخلائق مُقْبس
بالمصطفى المَهْدى إلينا رحْمَةً ... [مرْمى الرَّجاومِسْكَةً[1] المُتَيَئِّس][2]
نعمٌ يَضيق[3] الوصفُ عن إحصائها ... فلَّ الخطيبُ بها لسانَ الأوْجس
إيه فحَدِّثْنى حديثَ هَوَاهمُ ... ما أبْعد السُّلوان عن قَلْبٍ الأسى
إن كنتُ قد أحسَنْتُ نعتَ جَمالهم ... [فلقد سها عنى العذول بهم وسى][4]
ما إن دَعَوك بِبُلبُلٍ إلا لما ... قد هِجْتَ من بَلْبال هَذِى الأنفُس
سبحان من صَدَع الجميعُ بحَمْده ... وبشُكره من ناطق أو أخرس
وامتدَّت الأطلالُ ساجدةً له ... بحِبالها من قائمٍ أو أقْعَس
فإذا تراجعت الطيور وزايلت ... أغصانها بأن المطيعُ من المُسى[5]
فيقولُ ذا سَكِرتْ لنغمة مُنْشد ... ويقولُ ذا سَجَدَتْ لذِكْر مُقَدَّس
كل يفوه بقوله[6] والحقُّ لا ... يخفى على نظر اللّبيت الأكْيس

وقال :

زارت على حَذَر من الرُّقباء ... والليلُ ملتحفٌ بفضل رداء

---

(١) وردت فى المخطوطين : مكسة . والتصويب من « ت » .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الأربعة وفى الديوان مع اختلاف يسير .

(٣) وردت فى المخطوطين : (نعما ضاق) . والتصويب من « ت » .

(٤) وردت هذه الشطرة فى المخطوطين وفى الملكية . (فلقد سها عندى العذول بهم وسى) . والتصويب أرجح .

(٥) ورد هذا البيت فى « ج » و « الملكية » كالآتى :
(فإذا تراجعت الطيور أعضائها (أغضها) فتمايلت بان المطيع من المسى) .

(٦) هكذا فى « ت » وفى « الملكية » . وفى « ك » والديوان بذوقه ، و « ج » بدونه .

تصل الدُّجا بسواد فرعٍ فاحم ... لتزيد[١] ظَلماءً إلى ظلْماء
وشَى بها من وجهها وحُليهَا ... بدرُ الدُّجا وكواكبُ الجَوْزاء
أهلا بزائرةٍ على خطار السُّرَى ... ما كنتُ أرجُوها ليوم لِقَاء
أقسمتُ لولا عفَّة عُذرِيةٌ ... [وتقًى عليّ له رقيبٍ راء][٢]
لنقَعتُ غُلة لَوْعَتى برُضابهـــا ... ونَضَحتُ وَردَ خدودها ببكائى

ومن ذلك ما قاله أيضاً :

أرسلت لَيْل شَعْرِها من عَقْص ... عن محيًّا رمى البُدور بِنَقْص
فأرَتنْا الصباح فى جُنْح لَيْلٍ ... يَتهَادى ما بين غُصْنٍ ودعْص
وتَصدَّت براحــات نُهُودٍ ... أُشْرِعت للأنام من تحت قَمْص
فتولَّت جيوشُ صبرى انهزاما ... وبوُدِّى ذاك اللقاء وحِرْص
ليس كلُّ الذى يَفِرُّ بناجٍ ... رُبَّ ظَعْن[٣] فيه حيــاةٌ لشَخْص
كيف لى بالسلُو عنها وقلبى ... قد هوى حلمه[٤] بِمهوًى لخرص[٥]
ما تعاطيت [ظاهِر الصَّبْر][٦] إلاَّ ... ردَّنى جيـــدُها بأوْضَح نَصٍّ

ومن ذلك قوله أيضاً :

أنا بَيْن الحيــاة والموت وقفٌ ... نَفَسٌ خافتٌ ودمعٌ ووكْفُ

---

(١) وردت فى المخطوطين ، لتدبير وهو تحريف . والتصويب من « ت » و« الملكية » .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الديوان والكتيبة . وفى المخطوطات الثلاثة (وتاقى له على ..) وفى نص آخر (وتخوف وشى الرقيب الراء) .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » وطغى . وفى « ت » طغن . وفى الملكية طعن .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » حمله . وكذا فى « الملكية » .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » بمعول لخوص . وفى « ت » بملعكى الخرص .

(٦) هكذا وردت فى «ت » (الزيتونة) والملكية . ووردت فى المخطوطين : طاهر البصير ، وهوتحريف ظاهر .

حلّ بى من هواك ما ليس يُنْبى(١) عنه نَعتٌ ولا يُعَبِّرُ وصفُ
عجباً لانعطاف صدغَيك والمِعْطَفُ والجِيدُ ثم ما منك عَطْفُ
ضاق صدرى بضيق حِجْلك واستوقف طَرْفى حَيران(٢) ذلك الوَقْفُ
كيف يُرجى فِكاكُ قلبٍ مُعَنّى فى غرام قيّداه قِرطٌ وشَنْفُ(٣)

ومن ذلك قوله أيضاً :

رقّ السّنا ذهباً فى اللازَوَرْدىّ فالأُفْق ما بين مَرْقوم ومَوْشِىّ
كأنما الشُّهب(٤) والإصباح ينهبُها لآلىء سقطت من كف زنجىّ(٥)

ومن شعره فى الحِكَم قوله :

هو الدهرُ لا يُبقى على عائذ به فمن شاء عيشاً يَصْطَبر لنَوائبه
فمَنْ لم يُصَب فى نَفْسه فَمُصابُه لفَوْتِ أمانيه وفَقْدِ حبائبه

ومن ذلك قوله :

ملاكُ الأمر تَقْوى الله فاجعل تُقاه عُدَّةً لصَلاح أمْرِك
وبادِر نحو طاعته بعزمٍ فما تَدْرى متى يمضى بعُمْرك(٦)

ومن ذلك أيضاً :

دماء فوق خدّك أم خُلُوق وريقٌ ما بثَغرك أم رَحيق
وما ابتَسَمَتْ ثَنايا أم أقاحٌ ويكنفُها شِفاه أم شقيقُ

---

(١) وردت فى المخطوطين : ينسى . وفى « ت » محرفة ، بينى .

(٢) وردت فى المخطوطين : جيران .

(٣) الشنف معناه القرط أيضاً .

(٤) هكذا فى « ج » وفى « الملكية » الصبح .

(٥) فى « ج » « والملكية » (على تنحى) .

(٦) فى المخطوطين : لعمرك . والتصويب من « ت » .

وتلك سِناة نومٍ ما تعاطتْ جُفُونك أم هى الخَمْرُ العتيقُ
لقد أعدت معاطفُك انثناء وقلبى سُكْرُه ما إن يَفيقُ
جمالك حَضْرتى وهواك راحى وكَأْسُك مُقْلتى فمتى أفيقُ

ومن شعره فى الأوصاف :

أرْسَل الجوُّ ماء وَرْدٍ رذاذًا وثَمّع الحَزْن والدّمايث رَشا
فانثنى حَوْل أسْوُقِ الدّوْح حَجْلاً وجرى فوقَ بُرْدة الرّوض رَقْشا
وسما فى الغُصُون حُلِىَ بنَان أصْبحَت من سُلافة الطّل رَعْشا
فترى الزّهر تَرْقُمُ الأرض رَقْمًا وترى الريح تَنْقُشُ الماء نَقْشا
فكأنّ المياه سَيفٌ صُقَيْلٌ وكأنّ البطاحِ غُمْدٌ مُوَشّي

وكتب عقب انصرافه من غَرْناطة فى بعض قَدْماته عليها ما نصُّه : « مما قلته بديهةً عند الإشراف على جنابكم السعيد ، وقدومى مع النّفر الذين أتحفَتْهم [السيادة][1] سيادتُكم بالإشراف عليه ، والدخول إليه ، وتَنْعيم الأبصار فى المحاسن المجموعة لديه ، وإن كان يوماً قد غابت شمسه ، ولم يتّفق أن كمل[2] أُنْسه ، وأنشده حينئذ بعض من حضر ، ولعله لم يَبْلُغكم ، وإن كان قد بلغكم ففضلُكم يحملُني [فى][3] إعادة الحديث :

أقول وعينُ الدّمع[4] نُصْب[5] عيوننا ولاح لبُستان الوَزارة جانب
أهذى سماء أم بناء سما به كواكبُ غضّت عن سَناها الكواكب

(١) هذه الكلمة واردة فى « ج » وساقطة فى « ك » .

(٢) وردت فى المخطوطين : نكمل . والتصويب من نفح الطيب .

(٣) الزيادة من « الملكية » .

(٤) عين الدمع مكان اشتهر أيام غرناطة الإسلامية بجمال خضرته ومنتزهاته . وسبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ١٢١) .

(٥) فى المخطوطين تنصب . والتصويب من النفح .

تناظَرَتْ الأشكالُ منه تقابُلاً ... على السَّعدِ وُسْطَى عِقده والجنائب[1]
وقد جَرَت الأمواهُ فيه مَجَرَّة ... مذانبها شُهُبٌ لَهُنَّ ذوائب
وأشْرَفَ من [عَلْياء بَهو][2] تحفُّهُ ... شماسىُّ زُجاج وشْيُها مُتناسب
يُطلُّ على ماءٍ به الآسُ دائراً ... كما افتَرَّ ثغرٌ أو كما اخضرَّ شارب
هنالك ما شاء العُلى من جلالة ... بها يزْدَهى بُستانُها والمراتب

ولما أُحضر[3] الطعام هنالك ، دُعى شيخنا القاضى أبو البركات إلى الأكل ، فاعتذر بأنه صائم ، قد بيَّته من الليل ، فحضرنى أن قلت :

دَعَوْنا الخطيبَ أبا البركا ... ت لأكل طعام الوزير الأجَلّ
وقد ضَمَّنا فى نداه جِنان[4] ... به احتفل الحُسْنُ حتى كَمَلَ
فأعرَضَ عنّا لعُذر الصيام ... وما كلُّ عذرٍ له مُسْتَقْبَل[5]
فإن الجنان مَحلُّ الجزاء ... وليس الجنانُ محلُّ العمل

وعندما فرغنا [من الطعام][6] أنشدتُ الأبيات شيخنَا أبا البركات ، فقال : « لو أنْشَدتَنيها ، وأنتم بعد لم تفْرغوا منه لأكلْتُ معكم برّاً بهذه الأبيات ، والحِوالة فى ذلك على الله تعالى » .

ولما قضى الله عزّ وجلّ ، بالإدالة ، ورجَعْنا إلى أوطاننا من العُدْوة ، واشتهر عنى ما اشتهر من الانقباض عن الخدْمة ، والنِّية على السلطان والدولة ، والتكبُّر [على أعْلى رُتَب الخِدمة][7] ، وتطارحتُ على السلطان فى استنجاز وعد الرحلة ،

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » الجانب .
(٢) وردتا محرفتين فى « ج » (علياه بهو) وفى « ك » والملكية (علياه فهو) .
(٣) هكذا فى « ج » ، وفى « ك » حضر .
(٤) هكذا فى « ج » والنفح . وفى « الملكية » (جمال) .
(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » مستقبل .
(٦) الزيادة من نفح الطيب .
(٧) وردت هذه العبارة فى المخطوطين وفى « الملكية » : (أعلى على المراتب) وما أثبتناه عن نفح الطيب وأزهار الرياض ، وهو أرجح .

ورغبت فى تفويت[١] الذمة ، ونفرت عن الأندلس بالجملة ، خاطبنى بعد صدر بلغ من حسن الإشارة ، وبراعة الإستهلال الغاية ، بقوله[٢]:

« وإلى هذا ياسيدى ، ومحلّ تعظيمى وإجلالى ، أمتع الله تعالى الوجود بطول بقائكم ، وضاعف فى العزّ درجات ارتقائكم ؛ فإنّه من الأمر الذى لم يغب عن رأى المَقُول[٣] ، ولا اختلف فيه أرباب المحسوس والمعقول ، أنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها ، وطراز ملكها ، وقلادة نحرها ، وفريدة دهرها[٤] ، [وعقد جيدها المنصوص ، وكمال زينتها على المعلوم والمخصوص ؛ ثم أنتم مدار أفلاكها][٥] ، وسرّ سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبيب[٦] مارستانها ، والذى عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها ؛ فلديه يحل المشكل ، وإليه يلجأ فى الأمر المعضل ؛ فلا غرو أن تتقيد بكم الأسماع والأبصار ، وتحدّق نحوكم الأذهان والأفكار ؛ ويزجر عنكم السانح والبارح ، ويستنبأ[٧] ما تطرف عنه العين وتختلج الجوارح ، استقراء لمرامكم ، واستطلاعاً لطالع اعتزامكم[٨] ؛ واستكشافاً لمرامى سهامكم ، لا سيما مع إقامتكم على جناح خفوق ، وظهوركم فى ملتمع بروق ، واضطراب[٩] الظنون فيكم مع الغروب والشروق ؛ حتى تستقرّ بكم الدّار[١٠] ، ويلقى عصاه

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح : تبرئة .

(٢) وردت مكانها فى المخطوطين : وهو . والتصويب من النفح وأزهار الرياض .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح وأزهار الرياض : المعقول . والأولى أرجح حسبما يتضح من السياق .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح وأزهار الرياض (دررها) . والأولى أرجح .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى « ك » ، وساقط فى « ج » وفى الملكية .

(٦) هكذا فى النفح . وفى المخطوطين : طب .

(٧) هكذا فى « ج » والنفح . وفى « الملكية » (ويستأنف) .

(٨) هكذا فى « ج » والنفح . وفى الملكية (اعتزالكم) .

(٩) وردت فى المخطوطين : واطراب . هو تحريف .

(١٠) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح وأزهار الرياض : الديار .

التَّسْيار ، وله العُذر فى ذلك إذ صَدْعُها بفراقكم لم يَنْدمل ، وسرورها بلقائكم لم يكْتَمل ؛ فلم يَبْرَ بعد جناحُها المَهيض ، ولا جَمَّ ماؤها المَغِيض ، ولا تميَّزت من داجيها لياليها البيض ؛ ولا استوى نهارُها ، ولا تألّقت أنوارُها ، ولا اشتملت نعماؤها ، ولا نُسيت غماؤها ؛ بل هى كالنّاقِه ، والحديث العَهْد بالمكاره ، تَسْتشعر نَفَس العافية ، وتتمسّح منكم باليد الشافية ؛ فبحياتكم عليها ، وعظيم حرمتكم[1] لى من لديها ، لا تَشُوبوا لها عذب المُجاج بالأُجاج ، وتُقْنِطوها[2] مما عُودت من طيب المزاج ، فما لدائها[3] ، وحياة قُربكم غير طبِّكم من علاج ، وإنى ليَخْطر بخاطرى محبةً فيكم ، وعنايةً بما يَعنيكم ، ما نال جانبكم صانه الله [بهذا الوطن][4] من الجفاء ، ثم أذكر [ما نالكم من حسن العَهْد وكرم الوفاء ، وأنَّ الوطن إحدى المواطن الأظآر التى][5] يحق لهنّ جميل الاحتفاء ، وما يتعلق بكم من حُرمة أولياء القرابة [وأولى][6] الصفاء ، فيغلب على ظنى ، أنكم لحسن العهد أجنَح ، وبحق نفسكم [على أوليائكم][7] أسمَح ، والتى هى أعظم قيمةً فى فضائلكم أوهَبَ وأمْنَح ؛ وهَبْ أن الدُّر لا يحتاج فى الإثباب إلى شهادة النُّحور[8] واللبَّات ، والياقوت غنى المكان ، عن مظاهرة القلائد والتيجان ؛ أليس أنّه أعلى للعِيان ،

---

(١) هكذا فى النفح . وفى نفاضة الجراب (مخطوط الرباط السفر الثالث) وفى المخطوطين : مرضاتكم .

(٢) وودت فى « ك » وتقمطوها ، وفى « ج » وتقطموها . وفى النفح والأزهار : وتفطموها والتصويب من نفاضة الجراب .

(٣) وردت فى « ح » لديها . وفى « ك » لبدنها .

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . وقد أكملناه عن نفاضة الجراب والنفح والأزهار .

(٥) ما بين الحاصرتين ساقط أيضاً فى المخطوطين ، وهو سقط سهو كما يبدو . وقد أثبتناه عن نفاضة الجراب والنفح والأزهار .

(٦) وردت فى « ج » ، وأغفلت فى « ك » . ووردت فى النفاضة ، وأوداء

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين . ووردت فى النفح والأزهار : (عن حى أوليائكم) .

(٨) وردت فى المخطوطين : شهود ، وهو تحريف . والتصويب من النفح والأزهار .

وأبعدُ عن مكابرة البرهان ، تألقُّها[١] فى تاج الملك أنوشِروان ؛ والشمس وإن كانت أمَّ الأنوار وجلاء الأبصار ، مهما أغمى مكانها من الأفق ، قيل ؛ الليلُ هو أم نهار ؛ وكما فى علمكم ما فارق ذو الأحلام ، وأولو الأرحام ، مواطن استقرارهم ، وأما كن قرارهم ، إلا برَغْمهم واضطرارهم ، واستبدال دار هى[٢] خير من دارهم ، ومتى تَوازن الأندلس بالمغرب ، أو يُعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ؛ ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعُباد ، ، وما فوقه مرابط[٣] جهاد ، ومعاقد ألوية فى سبيل الله ، ومضَاربُ أوْتاد ؛ ثم يُبَوِّئُ ولَدَه مُبَوَّأ أجداده ، ويجمع له بين طرافه[٤] وتلاده ؛ أعيذ أنظاركم المُسَدَّدة من رأى فائل ، وسعى[٥] طويل لم يَحْلُ منه بطائل [فحسبكم من هذا الإياب السعيد ، والعَوْد الحميد] [٦] . وهى طويلة .

فأجبته عنها بقولى :

لُمْ فى الهوى العُذْرى أو لا تَلُم ... فالعَذْلُ لا يَدخل أسماعى

شأنُك تَعْنيفى وشأنى الهوى ... كلُّ أمرئٍ فى شأنه ساعى

« أهلا بتُحْفة القادم ، ورَيْحانة المُنادم ؛ وذكرى الهوى المُتقادم ، لا يصغر الله مَسْراك ، فما أسراك ، لقد جَلَبت[٧] إلى من هومى ليلا ، وجُبْتَ[٨] خَيْلا ورَجْلا ، ووفّيت من صاع الوَفا كَيْلا ، وظننتَ بى الأسف على ما فات ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : (ما يعها) . والتصويب من النفح والأزهار .

(٢) فى المخطوطين : هو . وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، رباط .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : طارفه .

(٥) هكذا فى النفح . ووردت فى « ج » وممن .

(٦) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . وأثبتناه عن النفح والأزهار .

(٧) هكذا فى « ج » ، وفى « ك » حابت . وفى النفح والأزهار : جبت . والأولى أرجح .

(٨) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار . جبت .

فأعملت الالتفات ، لكيلا ، فأقسم لو أن الأمر اليوم بيدى ، أو كانت اللمة السوداء من عُدَدى[1] ما أفلَتّ أشراكى المنصوبة لأمثالك حَوْل المياه وبين المسالك ، [ولا علمت ما هنالك][2] ، لكنك طرَقْتَ حِمَى كسَحَتْه[3] الغارة الشعواء ، وغيرت [رَبْعه][4] الأنواء ، فخمد بعد ارتجاجه ، وسكت أذين دَجاجه ، وتلاعبَت الرياح والموج فوق فِجاجه ، وطال عهدُه بالزَّمان الأول ، وهل عند رسْمٍ دارس من مُعوَّل ، وحيًّا الله نَدْباً إلى زيارتى نَدَبك ، وبآدابه الحكيمة أدّبك :

فكان وقد أفاد بك الأمانى كمن أهْدَى الشِّفاء إلى العليل[5]

وهى شيمةٌ بوركت من شيمة ، وهبةُ الله قبله[6] من لَدُن المشيمة ، ومن مثله فى صِلة رَعْى ، وفضل سعى ، وقولٍ وَوَعْى :

قسما بالكواكب الزُّهر والزُّهــر عاتمــة
إنما الفضــل مِلَّة خُتمت بابن خاتمــة

كسانى حُلة وصفه[7] ، وقد ذهب زمان التجمُّل ، وحمَّلنى ناهض شكره ، وكَتَدى واهٍ عن التحمُّل ، ونظرنى بالعين الكليلة عن العيوب[8] فهلا أجاد التأمُّل ، واستطلع طلع نُبِّى ،[9] ووالى فى مركب[10] المعجزة حَبِّى ، وإنما أشكو بثِّى :

« ولو ترك القَطا ليلا لناما »

---

(١) فى المخطوطين وفى الملكية : عدتى . والتصويب من النفح والأزهار .
(٢) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . وأثبتناه عن النفح والأزهار .
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : كسعته .
(٤) واردة فى « ك » وساقطة فى « ج » .
(٥) ورد هذا البيت فى المخطوطين مرسلا فى سياق الكلام .
(٦) هكذا فى « ج » وفى النفح . وفى الملكية ، قلبه .
(٧) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : فضله . والأولى أرجح .
(٨) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : العيب .
(٩) فى المخطوطين : بثى . (١٠) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ركب .

وما حالُ شملٍ وتِدُه مفروق ، وقاعدته فروق ، وصُواعُ بنى أبيه مسروق ؛ وقلبٌ قُرْحه من عضَّة الدهردام ، وجَمْرَةُ حسرته ذات احتدام ؛ هذا وقد صارت الصغرى ، التى كانت الكبرى ، لمشيبٍ لم يَرُعْ أن هجم ، لمَّا نَجَم ، ثم تهلّلَ عارضُه وانسجم :

لا تجْمَعى هجراً علىّ وغُرْبَةً فالهجرُ فى تَلَف الغريب سريع

نظرتُ فإذا [الجنب ناب](١) ، والنفْس فريسة ظُفُر وناب ، والمال أكيلة انتهاب ، [والعُمْرُ رهن ذهاب](٢) ، واليد صِفْرٌ من كل اكتساب ، وسوق المَعاد مترامية ، والله سريع الحساب .

ولو نُعطى الخَيار لما افترَقنا ولكن لا خَيار مع الزمان

وهَبْ أن العمر جديدٌ ، وظِلّ الأمن مديدٌ ، ورأى الاغتباط [بالوطن](٣) سديدٌ ؛ فما الحجةُ لنفسى إذا مرّت بمطارح جَفْوَتها ، وملاعب هَفْوَتها ، ومناقب(٤) قناتها(٥) ، ومظاهر عِزّاتها ومُناتها ؛ والزمان وَلود ، وزِنادُ السكون غير صَلُود(٦) .

وإذا امرؤ لدغته أفعى مرة تركته حين يُجَرُّ حبْل يفْرَق

ثم أن المُرغِّب قد ذهب ، والدهر قد استرجع ما وَهَبَ ، والعارضُ قد اشتَهب ، وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضةٌ ، وأسماؤه على الجوار مخفوضةٌ(٧) والنّية مع الله على الزّهد فيما بأيدى الناس معقودةٌ ، والتوبة بفضل الله عزّ وجلّ

---

(١) مكان هذه العبارة فى المخطوطين وفى الملكية : (الحسنات) . وهى ساقطة فى النفح . وقد أثبتناها عن الأزهار .

(٢) هذه العبارة ساقطة فى « ج » . ووردت محرفة فى « ك » : (العمر رد عن ذهاب) .

(٣) ساقطة فى المخطوطين ، وأثبتناها عن النفح والأزهار .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : « مثاقف » .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » قناعتها .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » صلاد .

(٧) هكذا فى « ج » والنفح . وفى الملكية (مرفوعة) .

شروطها غير مُعارضة ولا مَنْقودة ؛ والمعاملة سامِرية ، ودروع الصبر سابرية ؛[١] والاقتصاد قد قرّت العين بصحبته ، والله قد عوّض[٢] حب الدنيا بمحبته ؛ فإذا راجعها[٣] مثلى من بعد الفراق ، وقد رَقى لَدْغتها ألف راق ؛ وجمعتنى بها الحُجرة ، ما الذى تـكون الأجرة ، جلّ شانى ، وقد رضى الوامق وسَخِط الشانى[٤] ؛ إنى إلى الله [تعالى][٥] مُهاجر[٦] ، وللغرض الأدنى هاجر ، ولأظْعان السُّرى زاجر ، لأحُدُ[٧] إن شاء الله وحاجر ؛ ولـكن دعانى إلى الهوى ، لهذا المولى المُنعم هوى ، خلعتُ نَعْلَى الوجود وما خلعته ، وشوق أمَرَنى فأطعتُه ، وغالبٌ والله صبرى فما استطعتُه ؛ والحال والله أغلب ، وعسى أن لا يخيبَ المَطْلب ؛ فإن يسره رضاه فأمل[٨] كَمَل ، وراحل احتمل ، وحاد أشجَى النّاقة والجَمَل ؛ وإن كان خلاف ذلك ، فالزمان جمٌّ العوائق ، والتسليم بمقامى لائق .

ما بين غَمْضَة عيْن وانتباهتها يُصرِّف الأمرُ من حال إلى حال

وأما تفضيله هذا الوطن على غيره ، ليُمْن طَيْرِه ، وعموم خَيْره ، وبركة جهادِه ، وعُمْران رُباه ووهادِه ، بأشلاء عُبّاده وزهّاده ، حتى لا يفضُله إلا أحدُ الحرمين ، فحقٌ برىءٌ من المَيْن ؛ لـكنّى للحرمين جَنَحْتُ ، وفى جو الشوق إليهما سَرَحتُ ،[٩] فقد أفضَت إلى طريق قصدى محجّتُه ، ونصرتنى والمِنّة[١٠] لله حجتُه ؛ وقَصْدُ

(١) هكذا فى «ج» . وفى «ك» ، سافرية . وفى الملكية (والمعاملة سامرة ، ودروع الصبر سابرة) .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» ، عرض ، وهو تحريف .

(٣) فى «ك» ، راجها .

(٤) الوامق أى المحب والشانى أى المبغض .

(٥) ساقطة فى المخطوطين .

(٦) هكذا فى النفخ والأزهار وفى المخطوطين : هاجر .

(٧) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : لنجد .

(٨) هكذا فى المخطوطين والأزهار . وفى النفح : أمر .

(٩) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : سنحت .

(١٠) وردت فى «ج» والسمة وفى «ك» والسمت . والتصويب من النفح والأزهار .

سيدى أسنى قصد، توخّاه الشكر والحمد، ومعروفٌ عُرف به النُّسكر، وأملٌ انتحاه الفكرُ، والآمال [والحمد لله][1] بعد تُمتار، والله يخلق ما يشاء ويختار، ودعاؤه يظهر الغيب مَدَد، وعُدَّة وعَدَد، وبرّه حالَىْ الظَّعْن والإقامة مُعْتَمَلٌ مُعْتَمَد، ومجال المعرفة بفضله، لا يَحْصُره أحد، والسلام »[2].

وهو الآن بقيد الحياة، وذلك ثانى عشر شعبان عام سبعين وسبعمائة[3].

أحمد بن عباس بن أبى زكريا

ويقال ابن زكريا. ثَبَت بخط ابن التّيّانى، أنصاريُّ النسب، يكنى أبا جعفر.

حـــاله

كان كاتباً حسن الكتابة، بارع الخط فصيحاً، غزير الأدب، قوى المعرفة، شارعاً فى الفقه، مشاركا فى العلوم، حاضر الجواب، ذكىّ الخاطر، جامعاً للأدوات السلطانية، جميلَ الوجه، حسن الخِلْقة، كلفاً بالأدب، مؤثراً له على سائر لذّاته، جامعاً للدواوين العلمية، [معنياً بها][4] مقتنياً [للجيّد منها][5] مغالياً فيها، نفّاعا من خصّه بها، لا يستخرج منها شيئاً، لفَرْط بُخْله بها، إلا لسبيلها، حتى لقد أثْرى كثيرٌ من الورّاقين والتجّار معه فيها، وجمع منها ما لم يكن عند مَلِك.

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين. وفى النفح والأزهار: (من فضل الله)

(٢) وردت رسالة ابن خاتمة ورد ابن الخطيب عليها، فى نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣٦ — ٣٣٨ وفى أزهار الرياض (القاهرة) ج ١ ص ٢٦٥ — ٢٧٠.

(٣) توفى ابن خاتمة وفقا لأرجح الروايات فى التاسع من شعبان سنة ٧٧٠ﻫ فى نفس الوقت الذى اختتم فيه ابن الخطيب ترجمته بهذه العبارة. والظاهر أن نبأ وفاته لم يكن قد وصل إليه بعد من ألمرية، بلد الشاعر. وقد نشر ديوان ابن خاتمة أخيراً بدمشق (١٩٧٢) محققاً بعناية الدكتور محمد رضوان الداية.

(٤) هذه الزيادة من «الملكية»

(٥) وردت محرفة فى المخطوطين: (لحمدها — بحمدها). والتصويب من الذخيرة.

«يساره» ؛ يقال إنه لم يجتمع عند أحد من نُظَرائه ما اجتمع عنده من عَيّن وورق ودفاتر وخِرَق ، وآنية ، ومتاع وأثاث وكُراع .

« مشيختُه » ؛ روى عن أبى تمام غالب التيّانى ، وأبى عبد الله بن صاحب الأحباس .

« نباهتُه وحُظْوته » ؛ وزَرَ لزُهير العامرى[1] الآتى ذكره ، وارثاً الوزارة عن أبيه ، وهى ما هى فى قطر [مُتَحَرٍّ بينابيع السّخيلة ، وثَرٍّ بهذه الأمنَة][2] مستنداً إلى قَعْساء العزة ، فتبنَّك[3] نعيما كثيراً ، تجاوز الله عنه .

« دخوله غرناطة » ؛ الذى اتصل على أنه دخل غرناطة منكوباً حسبما يتقرر.

نكبته

زعموا أنه كان أقوى الأسباب فيما وقع بين أميره زُهير ، وبين باديس[4]. أمير غَرْناطة ، من المفاسدة ، و فَصْل صَحْبه إلى وَقْمَ باديس وقَبيله ، وحطّه فى حَيِّز هواه وطاعته ، وكان ما شاء الله من استيلاء باديس على جُمْلتهم ، وَوَضْع سيوف قومه فيهم ، وقَتْل زُهير ، واستئصال محلَّته ، وقبض يومئذ على أحمد بن عباس ، وجِيء به إلى باديس ، وصدرُه يغلى حقدًا عليه ، فأمر بحبسه ، وشفاؤه الولوغُ فى دمه ، وعجل عليه بعد دون أصحابه من حَمَلة[5] الأقلام[6] . قال ابن حيان

(١) هو أحد زعماء الطوائف من الفتيان العامريين عقب الفتنة البربرية . استولى على المرية وحكمها عقب وفاة زميله خيران العامرى (٤١٨ - ٤٢٨ هـ) .

(٢) هكذا وردت فى «الملكية» وفى ت . ووردت محرفة فى المخطوطين : (ببحر فينابيع السنجاية وثير بهذا الأمنة) .

(٣) أى استقر فى نعماء .

(٤) ترد هنا فى المخطوطات الثلاثة : (بادس) . والصحيح المشهور هو (باديس) .

(٥) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة : جملة .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » الأقدام ، وهو تحريف .

حديث ابن عباس أنه(١) ، كان قد وَلِع ببيت(٢) شعر صيره هَجْواه أوقات لعبه بالشطرنج ، أو مَغْنًى يسنحُ له مستطيلًا بجِدّه(٣) .

عيونُ الحوادث عنى نِيامٌ   وهَضْمى على الدهر شىء حَرام

وشاع بيته هذا عند الناس، وغاظهم ، حتى قَلَب له مصراعه بعضُ الشعراء فقال :

« سيُوقِظُها قَدَرٌ لا ينام »

فما كان إلا كلا ولا حتى(٤) تنبّهت الحوادثُ لهَضْمه ، إنتباهةً(٥) انتزعت منه نخوته وعزّته ، وغادرته أسيراً ذليلا يرْسُف فى وزن أربعين رطلا من قَيْده ، مترعجاً من عضّه لساقه البضّة(٦) ، التى تألمت من ضغطة جوْرَبه ، يوم أصبح فيه أميراً مطاعاً أعْتَى(٧) الخلقِ على بابه ، وآمَنهم بمكره ، فأخذه أخْذَ مليكٍ مقتدر ، والله غالبٌ على أمره .

وفاته

قال أبو مروان : كان باديس قد أرجأ قتله مع جماعة من الأسرى ، وبذَل فى فداء نفسه ثلاثين ألف دينار من الذهب العَيْن ، مالت إليها نفسُ باديس ، إلا أنه عرَض ذلك على أخيه بلُكّين(٨) ، فأنِف منه ، وأشار عليه بقتله ،

---

(١) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٢) وردت هاتان الكلمتان فى المخطوطين ، هكذا : ولغ بت ، وهو تحريف ظاهر .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » و« ت » ، بعده .

(٤) وردت هنا فى « ت » هذه العبارة : (تيقظت إليه ونبهت) وهى ساقطة فى المخطوطين ، وفى الذخيرة الذى نقل نص ابن حيان الأصلى . ولذلك أسقطناها .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » إنباهة .

(٦) وردت هذه العبارة محرفة فى « ت » (من غصة لسانه العضة) .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ج » وردت محرفة : على .

(٨) جرى الناسخ فى المخطوطات الثلاثة على كتابة اسم « بلقين » بالقاف . ولكنا فضلنا كتابتها حيثما وردت « بالكاف » أى « بلكين » . وهو الرسم الذى يورده ابن خلدون أوثق حجة فى الأعلام البربرية ، وكذلك السلاوى فى « الاستقصاء » ، وابن خلكان فى « وفيات الأعيان » .

لتوقعه[١] إثارة فتنة أخرى على يديه، تأكُل من ماله أضْعاف فِديته . قال فانصرف يوماً من بعض رَكَبَاته مع أخيه، فلما توسط الدار التى فيها أحمد بقَصَبة غَرْناطة، لصق القصر، وقف هو وأخوه بلُسكِّين، وحاجبُه على بن القَرَوى، وأمر بإخراج أحمد إليه، فأقبل يَرْسُف فى قيده حتى وقف بين يديه، فأقبل على سبِّه وتبكيته بذنوبه، وأحمدُ يتلدّف إليه، ويسأله إراحَتَه مما هو فيه، فقال له: «اليوم تستريح من هذا الألم، وتنتقل إلى ما هو أشد»؛ وجعل يُرَاطن أخاه بالبربرية[٢]، فبان لأحمد وجه الموت، فجعل يكثرُ الضَّراعة، ويضاعفُ عدد المال، فأثار غضبه، وهز مِزْراقه، وأخرجه من صدره؛ فاستغاث [الله][٣]، زعموا، عند ذلك، وذكر أولاده وحرمه؛ للّحين أمر باديس بحزِّ رأسه ورُمى[٤] خارج القصر.

حدَّث خادم باديس، قال: رأيت جسد ابن عباس ثانى يوم قتله، ثم قال لى باديس، خُذْ رأسه وواره مع جسده؛ قال: فنبشتُ قبره، وأضفتُه إلى جسده، بجَنْب أبى الفتوح قتيل باديس أيضاً. وقال لى باديس: ضع عدُوًّا إلى جَنْب عدو، إلى يوم القِصاص؛ فكان قتلُ أبى جعفر عشيَّة الحادى والعشرين من ذى حجة سنة سبع وعشرين وأربعمائة، بعد اثنين وخمسين يوماً من أسره. وكان يوم مات ابن ثلاثين. [نفعه الله ورحمه][٥].

---

(١) وردت فى المخطوطين محرفة (لتفرقعه – لتفرنعه).
(٢) وردت فى «ك» بالبربارية. وفى «ج» بالبرية.
(٣) واردة فى «ك». وساقطة فى «ج».
(٤) وردت فى «ك» وروى. وفى «ج» وورى، وهو تحريف حسبما يتضح بعد من السياق.
(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج». ووردت فى «ك» (رحمه الله ونفعه).

أحمد بن أبى جعفر بن محمد بن عطيّة القُضاعى

من أهل مرّاكش ، وأصله القديم من طُرْطُوشة(١) ثم بعد ، من دانية(٢) يكنى أبا جعفر .

« حاله » : كان كاتباً بليغاً ، سهل المأخذ ، منقاد القريحة ، سيّال الطبع(٣)
« مشيخته » : أخذ عن أبيه ، وعن طائفة كبيرة من أهل مراكش .

نباهته

كتب عن [على](٤) بن يوسف بن تاشُفين ، وعن إبنه(٥) تاشفين ، وعن أبى إسحاق(٦) وكان أحظى كتابهم . ثم لما انقطعت دولة لَمْتُونة ، دخل فى لفيف النــاس ، وأخفى نفسه . ولمــا أثار الماسى(٧) الهداية بالسوس ، ورمى المُوَحِّدين

---

(١) طرطوشة ، وبالإسبانية Tortosa من مدن الأندلس القديمة ، ومن قواعد الثغر الأعلى ، وتقع على مصب نهر إيبرو جنوب غربى برشلونة .

(٢) ودانية من ثغور الأندلس القديمة . تقع جنوبى بلنسية على لسان بارز فى البحر . وقد كانت أيام الطوائف قاعدة لمملكة مجاهد العامرى أمير دانية والجزائر الشرقية (البليار) . وبالإسبانية Denia .

(٣) هكذا وردت فى « ك ». ولكنها وردت فى « ج » (القريحة) للمرة الثانية . وهو سهو .

(٤) هذا الاسم ساقط فى المخطوطين . وإثباته ضرورى للسياق .

(٥) وردت فى المخطوطين (أبيه) . وهو تحريف لأن تاشفين هو ابن على بن يوسف .

(٦) فى إيراد هذه العبارة بعض الغموض والخلط . فإن الذى كتب عن على بن يوسف ، ثم عن ولده تاشفين ، هو أبو جعفر بن محمد بن عطية والد صاحب الترجمة (أنظر ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٢ ، والإستقصاء للسلاوى ج ١ ص ١٥٢) . أما صاحب الترجمة أحمد بن أبى جعفر ، فقد خدم أبا إسحق (وليس إسحاق كما ورد فى المخطوطين) إبراهيم بن على بن يوسف ، وهو الذى انقرضت على يده دولة المرابطين فى المغرب سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م)

(٧) هو محمد بن هود الماسى ، أصله من أهل سلا . وقد خرج بالسوس داعياً ضد الموحدين . وجمع لمحاربتهم جيشاً كبيراً ، وهزمهم فى البداية ، ولكنه هزم فى النهاية وقتل وذلك فى أواخر سنة ٥٤١ هـ (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٢) .

بحَجَرهم الذى رموا به البلاد ، وأعيا أمره ، وهزم جيوشهم ، التى جهزوها إليه وانتدب منهم إلى ملاقاته ، أبو حفص عمر بن يحيى الهِنْتاتى ، فى جيش خشن من فرسان ورَجّاله ، كان أبو جعفر بن عطية ، من الرَّجالة ، مُرْتَسماً بالرماية ، والتقى الجمْعان ، فهُزم جيش الماسى ، وظهر عليه الموحدون[1] . وقتل الدَّعى المذكور ، وعظُم موقعُ الفتح عند الأمير الغالب يومئذ أبو حفص عمر ، فأراد إعلام الخليفة عبد المؤمن ، بما سنّاه الله ، فلم يَلْق فى جميع من استصحبه من يُجلى عنه ، ويُوفى ما أراده ، فذكر له أن فتًى من الرماة يُخاطر بشىء من الأدب والأشعار والرسايل فاستحضره ، وعرض عليه غرضه . فتجاهل وظاهر بالعجز ، فلم يقبل عذره ، واشتدّ عليه ، فكتب رسالة فائقة مشهورة ، فلما فرغ منها وقرأها عليه اشتد إعجابُه بها وأحسن إليه ، واعتنى به ، واعتقد أنه ذُخْرٌ يتحف به عبد المؤمن. وأنفذ الرسالة ، فلما قُرئت بحضر أكابر الدولة ، عظُم مقدارها ، ونَبُه فضل منشيها ، وصدر الجواب ومن فصوله الاعتناء بكاتبها[2] ، والإحسان إليه ، واستصحابُه مكرّماً . ولما أُدخل على عبد المؤمن سأله عن نفسه ، وأحظاه لديه وقلّده خُطّة الكتابة ، وأسند اليه وَزارته ، وفوّض إليه النظر فى أموره كلها ؛ فنهض بأعباء مافُوِّض إليه ، وظهر فيه استقلاله وغناؤه ، واشتهر بأجمل السّعى للناس واستمالتهم[3] بالإحسان وعمّت صنايعُه ، وفشا معروفه ، فكان محمود السيرة ، مُنْجَب المحاولات ، ناجح المساعى ، سعيد المأخذ ، مُيَسَّر المآرب ، وكانت وزارته زَيْناً للوقت ، كما لا للدولة .

محنته

قالوا ؛ واستمرت حالته إلى أن بلغ الخليفة عبد المؤمن أن النصارى

(١) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » الموحدين . وهو تحريف .
(٢) هكذا وردت فى « ك » . ووردت محرفة فى « ج » بكتابتها .
(٣) هكذا فى « ت » . وفى « ج » واستمالاتهم .

غزوا[١] قَصَبة ألمرية، وتحصنوا بها، واقترن بذلك تقديم ابنه يعقوب على إشْبيلية ، فأصحبه أبا جعفر بن عطيه ، وأمره أن يتوجه بعد استقرار ولده بها إلى ألمرية ؛ وقد تقدم إليها السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن ، وحَصَر من بها النصارى ، وضيَّق عليهم ، ليحاول أمر إنزالهم ، ثم يعود إلى إشبيلية ، ويتوجه منها مع واليها[٢] ، إلى منازلة الثائر بها على الوهيبي ؛ فعدل على ما حاوله من ذلك ؛ واستنزل النصارى من ألمريّة على العزم بحسن محاولته[٣]، ورجع السيد أبو سعيد إلى غرناطة ، مُزْعَجَين إليها ، حتى يسبقا جيش الطاغية ؛ ثم انصرف إلى إشبيلية ليقضى الغرض من أمر الوهيبي . فعندما خلا منه الجوُّ ، ومن الخليفة مكانه ، وجدت حُسَّاده ، السبيل إلى التدبير عليه ، والسعى به ، حتى أوغَروا[٤] صدر الخليفه ؛ فاستوزر عبد المؤمن ابن عبد السلام بن محمد الكومى . وانبرى لمطالبة[٥] ابن عطية ، وجدَّ فى التماس، عوَرَاته ، وتشنيع سقطاته، وأغرى به صنايعه ،وشحن عليه حاشيته ،فبرُّوا وراشُوا وانقلبوا ، وكان مما نقم على أبى جعفر ، نكاة القَرْح بالقَرْح ، فى كونه لم يقف فى اصطناع العدد الكثير من اللمتونيين ، وانتياشهم من خمولهم ، حتى تزوج بنت يحيي الحمار من أمرائهم ؛ وكانت أمها زينب بنت على بن يوسف ، فوجدوا[٦] السَّبيل بذلك إلى استئصال شأفته [والحـكام][٧] . حتى نظم منهم مروان بن عبد العزيز ، طليقُه ومُسْتَرَقُّ اصطناعه ، أبياتا طرحت بمجلس عبد المؤمن .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » عدوا .

(٢) وردت فى المخطوطين : وليها . وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ولا يته . والأولى أصلح للسياق .

(٤) فى المخطوطين : وأغروا .

(٥) وردت فى المخطوطين : لمطالبته . والتصويب أرجح .

(٦) وردت فى المخطوطين : فوجد بالمفرد . والسياق يقتضى صيغة الجمع .

(٧) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين . ولم نستبن صلتها بالسياق .

قل للإمام[١] أطال الله مدته ... قولاً تبين لذى لبٍّ حقائقه
إن الزواجين[٢] قوم قد وُترتهم ... وطالب الثأر لم تُؤمَن[٣] بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميلٌ ... لذاك ما كثرت فيهم علائقُه
فبادرِ الحزم فى إطفاء نارهم ... فربما عاق عن أمر عوائقُه
هم العدوُّ ومن والاهم كهُمُ ... فاحذر عدوَّك واحذر مَنْ يُصادقه
الله يعلم أنى ناصحٌ لكم ... والحقُّ أبلَجُ لا تخفى طرائقه

قالوا ، ولما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة فى معناها وغِر صدره على وزيره الفاضل أبى جعفر ، وأسرَّ له فى نفسه تغيُّراً ، فكان ذلك من أسباب نكبته . وقيل أفضى إليه بسر فأفشاه[٤] . وانتهى ذلك كله إلى أبى جعفر وهو بالأندلس ، فقلق وعجّل بالانصراف إلى مرَّاكُش ، فحُجب عند قدومه ، ثم قيد إلى المسجد فى اليوم الثانى بعده ، حاسر العمامة ، واستحضر الناس على طبقاتهم وقرّروا ما يعلمون من أمره[٥] ، وما صار إليهم منه ، فأجاب كلٌّ بما اقتضاه هواه ، فأمر بسجنه ، ولفَّ معه أخوه أبو عقيل عطية ، وتوجَّه عبد المؤمن فى إثر ذلك زايراً إلى تُربة المهدى . فاستصحبهما منكوبين بحال ثقاف ؛ وصدرت عن أبى جعفر فى هذه الحركة ، من لطايف الأدب ، نظما ونثرا فى سبيل التوسل بتُربة إمامهم ،

---

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » الأمير . والأولى أرجح .

(٢) فى المخطوطين : الزراحين . وهو تحريف . والزراجين كلمة أطلقها المهدى ابن تومرت على المرابطين ومفردها زرجان ، وهو طائر أسود البطن ، أبيض الريش ، شبه المهدى المرابطين به لأنهم بيض الثياب سود القلوب (نظم الجمان تحقيق الدكتور مكى ص ٨٥) .

(٣) هكذا وردت فى « ج » وفى « ك » توقد .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » فافشى .

(٥) فى المخطوطين : أمرهم . والتصويب من الاستقصاء .

عجائب لم تُجِد(١) ، مع نفوذ قَدَر الله فيه ؛ ولما انصرف من وُجهته أعادها معه ، قافلاً إلى مراكش ؛ فلما حاذى(٢) تاقمّرت(٣) ، أنفَذ الأمر بقتلهما ، بالشَّعْراء المتَّصلة بالحصن على مقربة من الملاَّحة هنالك ، فمضيا لسبيلهما ، رحمهما الله .

شعره وكتابته

كان مما خاطب به الخليفة عبد المؤمن مُسْتعطِفاً كما قلناه من رسالة :

« تالله لو أحاطت بي خطيئةٌ ، ولم تنفَكّ نفسي عن الخيرات بطيئةً ، حتى سَخِرتُ بمن في الوجود ، وأنِفْتُ لآدم من السجود ، وقلتُ إن الله لم يُوحِ إلى الفُلك إلى نوح ، وبَرَيْتُ لقرار ثَمُود نبلاً ، وأبرَمتُ لحطَب نار الخليل حَبْلا ، وحطَطْتُ(٤) عن يونس شجرة اليَقْطِين ، وأوقدتُ مع هامان على الطين ، وقبضتُ قبضةً [من الطَّير](٥) من أثر الرسول فنبذتُها ، وافتريْتُ على العَذْراء البتول فقذفتُها ، وكتبتُ صحيفة القَطيعة بدار الندوة ، وظاهرتُ الأحزاب بالقُصْوى من العَدْوة ، وذَمَمْتُ كل قُرشى ، [وأكرمتُ لأجل وحشى كل حبشى](٦) ، وقلتُ إن بيعة السَّقيفة(٧) لا توجب لإمام(٨) خليفة ، وشحنتُ

---

(١) فى المخطوطين : توجد ، وهو تحريف ظاهر .

(٢) وردت فى « ج » ، حاذت . وفى « ك » حاد .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ح » ، قمرت . وينطق اسم هذه البلدة أحياناً : تاكرت وتغمرت .

(٤) وردت فى المخطوطين : انحططت ، والتصويب يقتضيه السياق .

(٥) وردت هاتان الكلمتان فى « ك » وأغفلتا فى « ج » .

(٦) وردت هذه العبارة فى المخطوطين هكذا . (وأكرمت لأجل كلى وحشى) والزيادة والتصويب من الإستقصاء .

(٧) ردت فى « ك » ، واغفلت فى « ج » .

(٨) هكذا وردت فى « ج » وفى « ك » إمام . والأول أصوب .

شفرة غلام المغيرة [بن شعبة][١] ، واعتَقَلتُ من حصار الدار وقتل أشمُطها[٢] بشُعبة ، وغادرت الوجه من الهامة خضيباً ، وناولت من قَرْع سن الحسين قضيباً ، ثم أتيت حَضْرة المَعْصوم لائذاً . وبقبر الإمام المهدىِّ عائذاً[٣] لقد آن لمقالتى أن تُسْمع ، وأن تُغفر لى هذه الخطيئاتُ أَجْمع :

فعفواً أمير المؤمنين فَمَنْ لنـــا ... بحَمْلِ قلوبٍ هدَّها الخفقانُ
عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد ... بان العزاء لفرط البَثِّ والحزَن
قد أغرقتنا ذنوبٌ كلها لُجَجٌ ... وعطفةٌ منكُمُ أنجى من السفُن
وصادفَتْنا سهامٌ كلها غَرَضٌ ... لها ورحمتُـكُمُ أوْقى من الجُنَنِ
هيهات للخَطْب أن تسطو حوادثه ... بمن أجارَتْهُ رحماكم من المِحن
من جاء عندكم يَسْعى على ثقة ... بنَصْره لم يَخَفْ بؤساً من الزمن
فالثوب يَطْهُر بعد الغسل من دَرَن ... والطَّرْف ينهض بعد الرَّكض من وَسَن
أنتم بَذَلتُم حيـاة الخَلْق كلهم ... من دون منٍّ عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من أحْيَتْ مكارمُـكم ... تلك الحياتَيْن من نَفْسٍ ومن بَدَن
وصِبْيَة كفراخ الوُرق من صِغَر ... لم يألفوا النَّوْح فى فرع ولا فَنَن
قد أوْجَدَتْهم[٤] أيادٍ منك سابغة ... والـكلُّ لولاك لم يُوجد ولم يَكُن

ومن فصول رسالته التى كتب بها عن أبى حفص ، وهى [التى][٥] أورثته الـكتابة العليّة والوزارة كما تقدم قوله :

---

(١) هاتان الكلمتان ساقطتان فى « ح » .
(٢) وردت فى المخطوطين : شمطها .
(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » لائذا .
(٤) وردت فى المخطوطين : أوجبتهم . والتصويب من الاستقصاء .
(٥) ساقطة فى المخطوطين .

« كتبنا هذا من وادى ماسّة بعد ما تزحزح أمر الله الكريم ، ونصر الله المعلوم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . فتح بسرى الأنوار إشراقاً ، وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبّه للأمانى النائمة جفوناً وأحداقاً ، واستغرق غاية الشكر استغراقاً ، فلا تطيق الألسن كُنْهَه[1] وَصْفَه إدراكاً ولا لحاقاً ؛ جمع أشتات الطبّ والأدب ، وتقلّب فى النعم أكرم مُنْقلب ، وملأ دِلاء الأمل إلى عقد الكَرَب :

فتحٌ تُفَتَّح أبوابُ السماء له وتبرزُ الأرض فى أثوابها القُشُب

وتقدّمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مُهْلة . كان أولئك الضالّون المرتدون قد بطروا عدواناً وظلماً ، واقتطعوا الكفر مَعْنًى وإسماً ، وأملى لهم الله ليزدادوا إثماً[2] ؛ وكان مقدَّمهم الشقى قد استمال النفوس بخزعبلاته ، واستهوى القلوب بهُولاته ، ونصب [له][3] الشيطان من حبالاته ، فأتته المخاطبة من بُعْد وكَثَب ، ونَسَلَت إليه الرسل[4] من كل حَدَب ، واعتقدته الخواطر أعجبَ عَجَب ؛ وكان الذى قادهم لذلك ، وأوردهم تلك المهالك ، وصولُ مَنْ بتلك السواحل ، ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس ، فيما سلف من الأعوام ، واشتغل على زَعْمه بالصيام والقيام ، آناء الليل والأيام ، لبسوا الناموس أثواباً ، وتدرّعوا الرياء جلباباً ، فلم يفتح الله لهم إلى التوفيق باباً » .

ومنها فى ذكر صاحبهم :

« فصُرع والحمد لله لحينه ، وبادرت إليه بوادر مَنُونه ، وأتته وافدات الخطيئات عن يساره ، ويمينه ، وكان يدّعى أن المنِيَّة فى هذه الأعوام لا تصيبه ، ويزعم أنه

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الا لكنه ، وهو تحريف .

(٢) واردة فى « ج » ، وساقطة فى « ك » .

(٣) وردت فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .

(٤) هكذا فى « ج » . ووردت فى « ك » الرمل .

يُبشّر بذلك والنوائب لا تنوبه ؛ ويقول فى سواه قولاً كثيراً ، ويَخْتَلِق [١] على الله إفكاً وزوراً ؛ فلما عاينوا هيئة اضطجاعه ، ورأوا ما خَدَّته [٢] الأسنة فى أعضائه [٣] ، ونفذ فيه من أمر الله مالم يقدروا على استرجاعه ؛ هُزِم لهم من كان لهم من الأحزاب ، وتساقطوا على وجوههم كتَسَاقُط الذّباب ، وأعطوا عن بَكْرة [٤] أبيهم صَفْحَة الرقاب ، ولم تقْطِر كلومهُم إلا على الأعقاب ؛ فامتلأت تلك الجهات بأجسادهم ، وأَذِنَت [٥] الآجال بانقراض آمالهم ، وأخذهم الله بكفرهم وفسادهم ؛ فلم يُعايَن منهم إلا من خرَّ صريعاً [٦] ، وسقى الأرض نَجيعاً ، ولقى من وقع الهِنْديّات أمراً فظيعاً ؛ ودعت الضرورة باقيهم إلى التّرامى فى الوادى ، فمن كان يؤمل الفرار منهم ويَرْتجيه ، ويَسْبَحُ طامعاً فى الخروج إلى ما يُنجيه ، اختطفته الأسنّة اختطافاً ، وأذاقته موتاً ذُعافاً ؛ ومن لجَّ فى الترامى على لجُجَه ، ورام البقاء فى ثَبَجِه ، قضى عليه شرقُه ، وأَلوى فَرِقته غَرقه [٧] . ودخل الموحِّدون إلى الباقية الـكائنة فيه ، يتناولون قتالهم طعناً وحرباً [٨] ، ويلقونهم بأمر الله هَوْناً عظيماً وكرْباً ، حتى سَطَت [٩] مراقات الدماء على صفحات الماء ، وحكت حُمرتها على زُرْقه ، حمرة الشّفق على زُرُق السماء ؛ وظهرت العِبرة للمُعْتبر ، فى جرى الدماء جَرْيَ [١٠] الأبحُر » .

---

(١) فى المخطوطين : ويخلق . والسياق يقتضى التصويب .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » خطبته .

(٣) وردت محرفه فى المخطوطين : فى « ج » أعطايه . وفى « ك » اغطابه .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، الكرة .

(٥) فى المخطوطين : وأدنت . وهو تحريف .

(٦) وردت فى المخطوطين : سريعاً . والتصويب أنسب .

(٧) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، عرقه .

(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » و« الملكية » وضرباً .

(٩) وردت محرفة فى المخطوطين : اسطت فى « ج » . واسمطت فى « ك ».

(١٠) وردت فى المخطوطين : تجرى . والتصويب يقتضيه السياق .

دخوله غرناطة

احتل بغرناطة عام إحدى وخمسين وخمسمائة ، لما استدعى أهل جهات ألمرية ، السيّد [أبا سعيد][1] إلى منازلة من بها النصارى ، وحشد ، ونزل عليها ، ونصب المجانيق على قصبتها ، واستصرخ من بها الطاغية[2] ، فأقبل إلى نصرهم ، واستمدّ السيد أبو سعيد الخليفة ، فوجّه إليه الكبير أبا جعفر بن عطية صُحبة السيد أبي يعقوب إبنه ، فلحق به ، واتّصل الحصار شهوراً سبعة ، وبُذل الأمنُ لمن كان بها ، وعادت إلى مَلَكَة الإسلام ، وانصرف الوزير أبو جعفر صُحبة السيد أبي يعقوب إلى إشبيلية ، وجرت أثناء هذه أمور يطول شرحها ؛ ففِي أثناء هذه الحركة دخل أبو جعفر غرناطة ، وعُدّ فيمن ورد عليها .

مولده

بمرّاكُش عام سبعة وعشرين وخمسمائة[3] .

وفاته

على حسب ما تقدم ذكره ، لليلة بقيت من صفر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة .

---

(١) وردت هذه الكلمة فى «ك» وأغفلت فى «ج» .

(٢) يقصد بالطاغية هنا ألفونسو ريموندس ملك قشتالة الذى حكم من سنة ١١٢٦–١١٥٧ م. وفى عصره استطاعت الأساطيل والجيوش النصرانية المتحدة أن تنتزع ألمرية من يد المرابطين (٥٤٢هـ – ١١٤٧ م) . واستمرت ألمرية فى يد النصارى زهاء عشرة أعوام حتى حاصرها الموحدون بشدة وفق ماهو مسطور . وحاول النصارى وحليفهم ابن مردنيش أمير بلنسية وخصم الموحدين ، إنقاذها من السقوط . ولكن ذهبت جهودهم سدى ، وسقطت ألمرية فى يد الموحدين ، وعادت إلى قبضة الإسلام فى سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) ، وأفرج عن حاميتها النصرانية بالأمان .

(٣) هذا سهو من ابن الخطيب . والصحيح أن مولد ابن عطية ، كان وفقا لابن الأبار فى سنة ٥١٧ هـ (الحلة السيراء – القاهرة – ج ٢ ص ٢٣٨) . وهذه الرواية أكثر اتفاقا مع مراحل حياته .

أحمد بن محمد بن شعيب الكِرْيانى

من أهل فاس ، يكنى أبا العباس ، ويعرف بابن شُعيب من كِريانة ، قبيلة من قبائل الرِّيف الغربى[1] .

حـــاله

من « عائد الصِّلة » : من أهل المعرفة بصناعة الطب ، وتدقيق النظر فيها ؛ مشاركاً فى الفنون ، وخصوصاً فى علم الأدب ، حافظاً للشعر ؛ ذُكر أنه حفظ منه عشرين ألف بيت للمُحْدثين ، والغالب عليه العلوم الفلسفية ؛ وقد مُقت لذلك ، وتهتّك فى علم الـكمياء ، وخلع فيه العِذار ، فلم يُحل بطائل ، إلا أنه كان تفوّه[2] بالوصول ، شَنْشَنة المَفْتونين بها على مدى الدهر . وله شعر رائق ، وكتابة حسنة ، وخط ظريف . كتب فى ديوان سلطان المغرب مُرئسا ، وتسرَّى جارية روميّة إسمها صُبْح ، من أجمل الجوارى حُسْناً ، فأدّبها حتى لقنت حظاً من العربية ، ونظمت الشعر ، وكان شديد الغرام بها ، فهلـكت أشدّ ما كان حباً لها ، وامتداد أمل فيها ، فـكان بعد وفاتها لا يُرى إلا فى تأوُّه دائم ، وأسف مُتمادٍ ، وله فيها أشعار بديعة فى غرض[3] الرِّثاء .

مشيخته

قرأ فى بَلَده فاس على كثير من شيوخها ، كالأستاذ أبى عبد الله بن أجْروم نزيل فاس ، والأستاذ أبى عبد الله بن رُشَيد[4] ؛ ووصل إلى تونس ، فأخذ منها

(١) وردت فى « ج » العربى ، والتصويب من الملكية . وقبائل الريف المغربية هى من القبائل البربرية .

(٢) هكذا فى المخطوطين بصيغة الماضى .

(٣) وردت فى المخطوطين : عرض .

(٤) هكذا ورد اسمه فى « ج » . وفى « ك » رشد .

الطبّ والهيئة على الشيخ رُحْلَة[1] وقته فى تلك الفنون ، يعقوب بن الدرّاس .

وكان مما خاطب به الشيخ أبا جعفر بن صَفْوان ، وقد نشأت بينهما صداقة أوجبها القدر المشترك من الولوع بالصّنعة المَرْموزة ، يتشوّق إلى جهة كانوا [يَخْلُون بها][2] للشيخ فيها ضَيْعة بخارج مالَقَة كلأها الله :

وعى الله وادىَ شِنْيانَة ... وتلك الغَدَايا[3] وتلك الّليال

ومَسْرحنا بين خُضر الغصون ... وَوَدْق المياه وسِحْر الظّلال

ومَرْتَعُنا تحت أدْواحه ... ومكْرَعُنا فى النَّمير[4] الزُّلال

نُشاهد منها كعَرْض الحُسام ... إذا ما انْتَشَت فوقه كالعَوال

ولله من دُرِّ حَصْبائه ... لآلٍ وأحْسِن بها من لآل

وليلٍ به فى سُتُور[5] الغُصون ... كخودٍ ترنّمٍ فوق الحِجال

وأسحارُه كيف راقَتْ وصحّ النسيمُ بها فى اعتدال

ولله منك أبا جعفر ... عميدَ[6] الجلال حميدَ الخِلال

تُطارحُنى برُموز الكنو ... ز وتُسفر لى عن معانى المعال

وتُبْدِلُنى[7] فى شجون الحديث ... وبا طِيبَه كلّ سِحْرٍ حَلالِ

فألْقُطُ من فيك سِحْرَ البيان ... مجيباً به عن عريض النَّوال

أفدتُ الذى دونها معشرٌ ... كثير المقال قليل النَّوال

فأصبحتُ لا أبْتَغى بعدها ... سواك وبعدَ كما لا أُبال

(١) أى رحالة .

(٢) هذه العبارة وردت فى « ج » . وأهملت فى « ك » .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : الغدايا .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » النهر .

(٥) وردت فى المخطوطين : الستور .

(٦) هكذا فى « ج » وفى « ك » عبد

(٧) هكذا فى « ج » . وفى « الملكية » ، وتبدل لى .

وخاطب الفقيه العالم أبا جعفر بن صفوان يسأله [عن][١] شيء من علم الصناعة بما نصه :

دارُ الهوى نجدٌ وساكِنُها أقصى أمانى النفس من نَجْدِ

ومما صدَّر به رسالة :

أيُجمَعَ هذا الشَّمل بعد شَتاته ويُوصل هذا الحَبْلُ بعد انْبتاته
أما لِلْبِلِى آية عيسَوِيّةٌ فيَنشُر ميِّتَ الأُنْس بعد مماته
ويُورِدُ عَيْنى بعد مِلْح مدامعى برؤيته فى عَذْبِه وفُرَاته

وأنشد له صاحبنا الفقيه الجليل صاحب العلامة[٢] بالمغرب ، أبو القاسم بن صفوان قوله :

يارُبَّ ظَبْيٍ شعاره نُسْك ألحاظُه فى الورى لها فَتك
يَتْرُك من هامَ به مُسكتئباً لا تعجبوا أن قومه التُّرك
أشكو له مالقيتُ من حُرق فيمش[٣] لاهياً إذا أشكو
صَبَرْتُ حتى أطلَّ عارضُه فكان صبرى ختامُه مِسْك

ومن المعاتبة والفكاهة قوله :

وبائعٌ للكتب يبتاعها بأرخص السَّوم وأغْلاه
فى نِصْف الاستذكار أعطيتُه ومحّض العين وأرضاه

وله أيضاً :

يا من توعَّدنى بحادث هَجْره إن السُّلوّ لَدُون ما يتوعَّد

---

(١) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٢) صاحب العلامة أوكاتب العلامة ، هو الذى يتولى التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية ، وكانت هذه الوظيفة من أهم الوظائف الإدارية فى القصور المغربية .

(٣) وردت فى المخطوطين محرفة : (فئى : فشا) . والتصويب من « الملكية » .

هذا عِذارك وهو موضع سَلْوَتى　　فأكفِفْ فقد سبق الوعيدَ الوَعدُ
وأظن سَلْوَتَنا غداً أو بعده　　فبذاك خبّرنا الغرابُ الأسود

وله أيضاً :

قال العذول تنقصاً لجماله　　هذا حبيبُك قد أطلّ عِذاره
لابل بدا فصلُ الربيع بِخَدِّه　　فلذا تساوى ليله ونهاره

وله يرثى :

ياقبرَ صُبْحٍ حلَّ فيك　　بهجتى أسْنَى الأمانِ(١)
وغدوتَ بعد عيانها(٢)　　أشهى البقاع إلى العيان
أخشى المَنية إنها　　[تقْصى](٣) مكانك عن مكانِ
كم بين مَقْبور بفـ　　ـاس وقابر بالقَيْرُوان

وله أيضاً يرثيها :

ياصاحبَ القبر الذى أعلامُه [درست](٤)　　وثابت حُبُّه لم يُدْرس
ما اليأس مُنك على التصبُّر حاملى　　أيأسْتَنى فكأننى لم أيأس
لما ذهبْتَ بكل حُسْن أصبحت　　نفسى تُعانى شَجْو كلِّ الأنفس
أصْباحُ أيّامى ليال كلُّها(٥)　　لاتنجلى عن صُبحِك المُتَنَفِّس

---

(١) هكذا وردت فى «ك» وفى الملكية . وفى «ج» الأمانى .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت». بقاعها .

(٣) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين بالرسم الآتى (تصصى) . ووردت فى «ت» تنى . واعتقد أن هذا التصويب فى محله .

(٤) الزيادة من «الملكية» .

(٥) وردت هذه الشطرة محرفة فى المخطوطين : (صبح أيامى ليل كلها) . وفى «ت» (صبح أيامى كلها ليل) . والوزن لا يستقيم بهذه الصورة .

وقال فى ذلك :

أعلمتَ ما صنع الفراق[١] غداة جَدَّ به الرِّفاق[٢]
ووقفتَ منهم حيث للنَّـ ـظرات والدمع استباق
سبقتْ مطاياهم فما أبطَى[٣] بنفسك فى السباق
أأطقتَ حمل صدودهم للبَيْن خَطْبٌ لا يُطاق
عن ذات عرق أصعَدُوا أتقول دارُهم[٤] العراق
نزلوا [ببرقة ثَمْهدٍ][٥] فلذاك ما شئت البراق[٦]
وتيامَنُوا عَسْفاً أن يقفوا بمُجْتَمع الرِّفاق
ماضرَّهم وهم المُنى لو وافقوا بعض الوفاق
قالوا تفرَّقنا غداً فشُغِلت عن وعد التَّلاق
عمداً[٧] رأوا قَتْل العميـ ـد فكان عيْشُك فى اتِّفاق
أوْلى لجسمك[٨] أن يرقَّ[٩] ودمعُ عيْنِك أن يُراق
أمَّا الفؤاد فعندهم دَعْه ودَعْوى الاشتياق
أعتاد حب[١٠] محلهم فحلَّ صدرك عنه ضاق

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » الفريق ، وهو تحريف .
(٢) فى المخطوطين . « الفراق » مرة أخرى . والتصويب من« ت » .
(٣) فى المخطوطين : انبطى . والتصويب من « ت » .
(٤) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : وراهم . وهو تحريف.
(٥) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطات الثلاثة . ووردت فى الملكية (ببرقة ثهمد) .
(٦) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطين . وفى « ت » :(فلذاك مشتت البراق) .
(٧) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين :عدا .
(٨) هكذا فى « ج » وفى « الملكية » بجسمك .
(٩) وردت فى المخطوطين : يرنى . وفى الملكية ، يروق .
(١٠) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » حجب .

واها لسالفة الشـبا ب مضَتْ بأيامى الرقاق
أبقَتْ حرارةَ لوعةٍ بين الترايب والتّراق
لا تَنْطفى وَوُرودُها من أدمعى كأسٌ دِهاق

وقال أيضاً :

ياموحِشى والبعدُ دون لقائه أدعوك عن شَحَطٍ وإن لم تَسْمع
يُدْنيك منى الشوق حتى إننى لأَراك رَأْى العين لولا أدمعى
وأحنُّ شوقاً للنّسيم إذا سَرَى لحديثكم وأصيخُ كالمُسْتطلع
كان اللّقا فكان حظّىَ ناظِرى وسْطَ الفراق فصار حظّى مَسمع
فابعَثْ خيالك تُهْدِه نار الحَشي إن كان يجهلُ من مقامى مَوْضِع
واصحبْه من نومى بتُحفَة قادم فصَدَى فَليل رِكابكم لم تُجْمِع[1]

دخولُه غَرْناطة

دخل غَرْناطة على عهد السابع من ملوكها الأمير محمد لقربٍ من ولايته فى بعض شئونه ؛ وحقق[2] بها تغيير أمر الأدوية[3] المنفردة التى يتشوف الطيب إليها والشحرور ، وهى بقرية شون[4] من خارجها .

« وفاته » رحمه الله ؛ توفى بتونس فى يوم عيد الأضحى من سنة تسع وأربعين وسبعماية .

---

(١) وردت هذه الشطرة محرفة فى المخطوطين كالآتى : (فصدا سفل ركابكم لم محع) .

(٢) فى المخطوطين وفى الملكية : وخفق . وهو تحريف .

(٣) فى المخطوطين : الدولة . وهى كلمة لا محل لها هنا . وكلمة الأدوية هى الصحيحة ، لأن المترجم له هنا طبيب .

(٤) قرية شون من ضواحى مدينة غرناطة ، وهى Jun الحديثة ، وتقع فى شمالها الشرقى .

أحمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن حسين بن على بن سليمان بن عرفة[١] اللخمى

الفقيه ، الرئيس ، المتفنّن ، حامل راية مذهب[٢] الشعر فى وقته ، المشار إليه بالبنان[٣] فى ذلك ببلده ، يكنى أبا العباس .

حـــاله

كان فذًّا فى الأدب ، طِرْفاً فى الإدراك ، مهذب الشمايل ، ذَلِق اللسان ، ممتع المجالسة والمحاضرة ، حُلو الفكاهة ، يرمى كل غرضٍ بسهم ، إلى شرف النشأة[٤] وعزِّ المرتبة ، وكرم المَحْتِد ، وأصالة الرياسة .

حدثنى الشيخ أبو زكريا بن هُذَيل ، قال : حضرت بمجلس ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الحكيم ، وأبو العباس بدْرُ هالته ، وقُطْبُ جلالته ، فلم يُجر بشىء[٥] إلا ركض فيه ، وتكلم بملء فيه . ثم قمنا إلى زبّارين[٦] يصلحون شجرة عنب ، فقال لعريفهم حقٌّ هذا أن يقْصُر ، ويُطال هذا ، ويُعمل كذا . فقال الوزير ، ياأبا العباس ماتركت لهؤلاء أيضاً ، حظًّا من صناعتهم ، يستحقون به الأجرة ؛ فعجبنا من استحضاره[٧] ، ووساعة[٨] ذرْعه ، وامتداد حظ كفايته .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » (ابن أبى عرفه) .

(٢) هكذا وردت فى « ج » والملكية . وفى « ك » (مهذب) .

(٣) وردت فى المخطوطين : بالبيان ، وهو تحريف ظاهر .

(٤) وردت فى المخطوطين محرفة : (الشاة) .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » شىء .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، ربارين .

(٧) وردت فى المخطوطين : استحفارة .

(٧) وردت فى المخطوطين : استحفارة .

(٨) أى سعة . وقد وردت (ساعة) فى المخطوطين .(وإساعة) فى « ت » والملكية .

قدومه على غرناطة

قدم عليها مع الجُملة من قومه عند تغلب الدولة النصرية على بلدهم ، ونزول البلاء والغلاء والمحنة بهم ، والجلاء بهم فى آخر عام خمسة وسبعمائة ، ويأتى [التعريف بهم][١] بعد إن شاء الله ؛ وكان أوفر الدواعى فى الاستعطاف لهم بما تقدم بين يدى أدعيائهم[٢] ، ودخولهم على السلطان ، [أن][٣] الذى تنخل[٤] بمثله السَّخائم ؛ وتذهب الإحَن[٥] ؛ وخطب لنفسه ، فاستمرت ، حاله لطيف المَنْزِلة ، معروف المكانة ، ملازماً مجلس مُدبِّر الدولة ، مرسوماً بصداقته[٦] مشتملاً عليه ببرِّه ، إلى أن كان من تقلُّب الحال ، وإدالة الدولة ، ما كان .

شــعره

وشعره نمطٌ عال ، ومحل البراعة حال ، لطيف المبوب ، غزير المائية[٧] ، أنيق الديباجة ، جمُّ المحاسن ؛ فمنه فى مذهب المدح ، يخاطب ذا الوزارتين أبا عبد الله ابن الحكيم :

تملَّكتَ رِقِّى بالجمال فأجمل ... وحكَّمْتَ قلبى بجَوْرك[٨] فاعدل
أنت الأمير على الملاح ومن يَجُرْ ... فى حكمه إلا جفونك يُعزل

---

(١) أضفنا هذه العبارة المحتملة لاستقامة السياق .

(٢) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : إذعامهم ، وفى الملكية ، أدعامهم .

(٣) واردة فى « ت » . وساقطة فى المخطوطين .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » تنحل .

(٥) وردت فى « ج » الأجر . وفى « ك » الأجر . وفى « ت » الأحر .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » صدقاته .

(٧) فى المخطوطات الثلاثة : المائية .

(٨) وردت فى المخطوطين ، بجود . وفى « ت » ، فجود . والتصويب من أزهار الرياض .

إن قيل أنت البدرُ فالفضل الذى ... لك بالكمال ونقصه لم يُجهل
لولا الحظوظ[1] لكُنْتَ أنت مكانه ... ولكان دونك فى الحضيض الأسفل
عينـاك نازلتا القلوب فكلُّها ... إما جريحٌ أو مُصاب المَقْتل
هزَّت ظُباها بعد كسر جفونها ... فأصيب قلبى فى الرَّعيل الأول
مازلت أُعذل فى هواك ولم [يزل][2] ... سمعى عن العُذّال فيك بمعزل
أصبَحْتُ فى شغل بحبك شاغلٍ ... عن أن أصيخ إلى كلام العُذَّل
لم أهمل الكتمان لكن أدمعى ... هَمَلَت ولو لم تعدنى لم تهمل
جَمَع الصحيحين الوفاء مع الهوى ... قلبى وأملى الدمعُ كَشْفَ المشكل
ما فى الجنوب ولا الشمال جواب ما ... أهدى إليك مع الصَّبا والشَّمأل
خَلَّنَا له من طيب عَرْفك نفحة ... تجيء بها[3] دماء عليلها المُتَعلل
إن كنت بعدى حُلْتَ عما لم أحُل ... عنه وأهملتَ الذى لم أهمل
أو حالت الأحوال فاستبدلتَ بى ... فإن حبى فيك لم يُسْتَبدل[4]
لاقيتُ بعدك ما لو أنّ أقلَّه ... لاقى الثرى لأذاب[5] صُمَّ الجَنْدل
وحملت فى حُبِّك ما لو حُمِّلت ... شمُّ الجبال أخفَّه لم تَحْمل
من حَيْف دهرٍ بالحوادث مُقدمٍ ... حتى على حَبْس الهِزَبْر المُشْبل[6]
قد كنتُ منه قبل كرِّ صروفه[7] ... فوق السَّنام فصرتُ تحت الكَلكل

---

(١) هكذا فى «ت» وأزهار الرياض . وفى المخطوطين : الخصوص .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وفى الملكية . وفى «ت» ، أصح . والإضافة عن أزهار الرياض .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» ضحاياها .

(٤) هكذا وردت هذه الشطرة فى الملكية ووردت فى «ك» و«ج» كالآتى (فإنى بحبى لم أستبدل) . والأولى أنسب للمعنى والسياق .

(٥) فى المخطوطين : لذاب .

(٦) هكذا فى «ك» . وفى «ج» المسبل .

(٧) فى المخطوطين : صروفها .

ونُصُول شَيْبٍ قد أَلمَّ بِلِمَّتى — وخِضاب أبى شيبة لم تَنْصِلِ
ينوى الإقامة ما بقيت وأقْسَمَت — لا تنزلُ اللذات ما لم يَرْحل
ومسير ظَعْنٍ ودان حميمُهُ — لاقى الحِمام وإنَّه لم يفعل
يغلوى على جسدى[1] الضلوع فقلبه — بأواره يغلى كغلى المرجل
فى صدره ما ليس فى صدرى له — من مثله مثقالُ حَبَّة خَرْدل
أعرضتُ عنه ولو أشَفَّ لذمة — شعرى[2] لجرّعه نقيع الحنظل
جُلِّيت فى حَلْبات سَبْقٍ لم يكن — فيها بمــرتاح ولا بمؤمِّل[3]
ما ضرَّه سبقيه فى زمن مضى — أنَّ المُجَلِّى فيه دون الفُسْكُل
ساءته منِّى عَجْرَفيّةُ قُلَّبٍ — باقٍ على مر الحوادث حُوَّل
متحرِّق[4] فى البذل مدَّة سيره — متجلِّدٌ فى عُسْره مُتَجمِّل
حتى يثوبَ له الغِنَى من ماجدٍ — بقضاء حاجات الكرام مُوَكَّل
مثلُ الوزير ابن الحكيم وماله — مثلٌ يقوم مقامه مُتَمثِّل
ساد الورى بحديثه وقديمه — فى الحال والماضى وفى المستقبل
من بيت مجد قد [سمت بقبابه][5] — أقيال لَخْمٍ فى الزمان الأوّل
سامى الدعائم طال[6] بيت وزارة — ومشاجع وأبى الفوارس نهشل
يَلْقَى الوفود ببَسْط وجهٍ مُشرق — تجلو طلاقتُه هموم المُجْتَلى
فلآملى جَدْواه حَوْل فنائه — لَغَط القطا الأسراب حول المَنْهل

---

(١) هكذا فى «ج» و«ت». وفى الملكية، جسد. وفى «ك»: قلبى.
(٢) هكذا فى «ك». وفى «ج»، شجرى.
(٣) فى المخطوطين: بمتؤمل.
(٤) وردت فى «ك» متخرق. وفى «ج» مخترق.
(٥) هكذا فى «ج» و«الملكية». وفى «ك» · أسست بقبابه
(٦) فى المخطوطين: طالت، وكذا فى الملكة. وهو لا يتفق مع الوزن.

وإذا نحى بالعدل[1] فصل قضية ... لم تحظ فَصْلا من إطالة مُفْصل
يقضى على سخب الخصوم وشَغْبِهم ... ويقيم مُغريهم مقام المزمل
ويلقّن الحج العَيِىّ تحرّجاً ... من راحِ عند اللَّجاج وأعزل
فإذا قضى صور المُحِقّ بحقّه ... عنه وحاق[2] عتابُه بالمُبْطل
عَجِلٌ على من يستحقّ مثوبةً ... فإذا استحقّ عقوبة لم يَعْجَل
يا كافىَ الإسلام كلّ عظيمة ... ومعيده غضًّا كأن لم يَذْبُل

وقال أيضاً يمدحه بقصيدة من مطولاته ، وإنما اجتلبتُ من مدحه للوزير ابن الحكيم لكونه يمدح أديباً ناقداً ، وبليغاً بالكلام بصيراً ، والإجادة تلزم فيه منظومه ، إذ لا يوسع القريحة فيه عُذْراً ، ولا يُقبل من [الطّمع قدماً][3]، وهى :

أما الرّسوم فلم تَرِقّ لما بى ... واستَعْجَمَت عن أن تردّ جوابى
واستبدلت بوحوشها من أنـ ... ـس بيضِ الوجوه كواعب أتراب
ولقد وقفت بها أُرَقْرِق عَبْرَةً ... حتى اشتكى طول الوقوف صحاب
يبكى لطول بكاى فى عَرَصاتها ... صحبى ورجّعت الحنينَ ركاب

ومن شعره فى المقطوعات غير المطولات :

لم يبق ذو عين لم يُشْبِه ... وجهك من زَيْن بلا مَيْن
فلاح بينهما طالعاً ... كأنه القمر بلامَيْن

ومن ذلك قوله :

كأنما الخال مصباحٌ بوَجْنته ... هبّت عواصف أنفاسى فعطّف

---

(١) وردت فى المخطوطين : بالعد . وهو تحريف .

(٢) فى المخطوطين : وعاق .

(٣) هكذا وردت فى « ج » وفى الملكية . وفى « ك » : الطبع قدراً .

أو نقطةٌ قطرت فى الخد إذ رسمت خطُّ الجمال بخطٍّ اللأم والألِف][1]

ومن ذلك قوله :

وعدتنى أن تزُور يا أملى فلم أزل للطريق مُرْتقِبا
حتى إذا الشمس للغروب دَنت وصيَّرت من لُجَينِها ذهبا
أنْسَنى البدرُ منك حين بدا لأنَّه لو ظَهَرْتَ لاحْتَجَبا

ومن ذلك قوله :

هجرُكم مالى عليه جَلَد فأعيدوا إلىَّ الرضى أو فعدُّوا
ما قسى قلبى من هِجرانكم ولقد طال عليه الأمد

ومن ذلك قوله :

أبْدَى عِذَارُك عُذْرى فى الغرام به وزادنى شغفاً فيه إلى شغَف
كأنّه ظن أنى قد نسيت له عَهْداً فعرَّض باللام والألف

ومما هو أطول من المزدوجات قوله :

ويوم كساه الدُّجى[2] دَكْنَ[3] ثيابه وهبَّت نسيم الروض وهو عليل
ولاحت بأفلاك الأفق[4] كواكبٌ لها فى البدور الطَّالعات أفُول
وجالت جياد الرَّاح بالرَّاح جولةً فلم تحلُ إلا والوقار قَتيل

ومن ذلك :

عذلونى فيمن أحب وقالوا دَبَّ نملُ العِذَار فى وجنتيه

---

(١) هذان البيتان قد وردا فى « ح » و« الملكية » ، وأغفلا فى « ك » .
(٢) وردت فى المخطوطين : الدجن .
(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : ذكر .
(٤) وردت فى المخطوطين محرفة : الإفك .

وكذا النمل كلما حلّ شيئاً ... منع النفس أن تميل إليه
قلت قَبْل العِذار أعذر فيه ... ثم من بعده ألام عليه
إنما دبّ نحو [شَهْدِ بفيه][1] ... فلذاك انتهى إلى شفتيه

وإحسانه كثير ، ومثله لا يقنع منه بيسير .

وفاته

قال فى « عائد الصلة » : « ولما كان من تغلّب الحال ، وإدالة الدولة ، وخلع الأمير ، وقتل وزيره ، يوم عيد الفطر من سنة سبع وسبعمائة ، وانتهبت دار الوزير ، ونالت الأيدى يومئذ ، مَن شَمَله دهليز بابه ، من أعيان الطبقات ، وأولى الخُطط والرُّتب ، ومنهم أبو العباس هذا رحمه الله ؛ فأفلت تحت سلاح مشهُور ، وحيزٍ مَرْقوف ، وثوب مسلوف[2] ؛ فأصابته بسبب ذلك علّة أياماً ، إلى أن أودت به ، فقضت عليه بغرناطة ، فى الثامن والعشرين لذى حجة من سنة سبع وسبعمائة ؛ ودفن بمقبرة الغرباء من الرُّبَيط عَبْر الوادى تجاه قصور[3] نجد ، رحمة الله عليه » .

أحمد بن على المِلْيانى[4]

من أهل مرّاكش ، يكنى [أبا عبد الله][5] وأبا العباس .

---

(١) وردت فى « ج » (شهد فيه) . وفى « ك » شهديه : والتصويب من « الملكية » .

(٢) مرقوف أى مرتعد مرتجف ، ومسلوف أعنى رقيق .

(٣) هكذا فى « ك » والملكية . وفى « ج » : قطور .

(٤) نسبة إلى مليانة . وهى مدينة قديمة من مدن المغرب الأوسط تقع جنوب غربى الجزائر

(٥) وردت فى « ج » والملكية . واغفلت فى « ك » .

صاحب العلامة[1] بالمغرب ، الـكاتب الشهير البعيد الشأن فى اقتضاء التِّرَة ، المثل المضروب [فى][2] العفّة ، وقوة الصَّريمة ، ونفاذ العزيمة .

« حاله » : كان نبيه البيت ، شهير الأصالة ، رفيع المـكانة ، على [سجية][3] غريبة كانت فيه ، من الوقار ، والانقباض ، والصَّمت . أخذ بحظ من الأدب ، حسن الخط ، مليح الـكتابة ، قارضاً للشعر ، يُذهب نفسه فيه كل مذهب .

وصمته

فتلك فَتْـكة شنيعة أساءت الظنّ بحَمَـلة الأقلام على مرّ الدهر ؛ وانتقل إلى الأندلس بعد مشقة ، وجرى ذكره فى كتاب « الإكليل » بما نصه :

« الصّارم ، الفاتك ، والـكاتب الباتك ، أبىٌّ اضطراب فى وقار ، وتجهّمٍ تحته أنس عقار ؛ اتخذه صاحب المغرب ، صاحب علامته[4] . وتوّجه تاج كرامته ؛ وكان يطالب جملة [من][5] أشياخ مراكش بثأر عمّه ، ويطوقهم دمه بزعمه ، ويقصر على الاستبصار منهم بنات همّه ، إذ سعوا فيه حتى اعتقل ، ثم جدّوا فى أمره حتى قُتل ؛ فترصّد كتاباً إلى مراكش يتضمن أمراً جزْماً ، ويشلّ من أمور الملك عزماً ، جعل الأمر فيه بضرب رقابهم ، وسَبى أسبابهم ؛ ولما أكّد على حامله فى العَجَل وضايقه فى تقدير الأجل ، تأنى حتى علم أنه قد وصل ، وأن غرضه قد حصل . فرّ إلى تلمسان ، وهى بحال حصارها ، فاتصل بأنصارها[6] ، حالاً بين أنوفها وأبصارها ؛

(١) سبق أن أوضحنا اختصاص هذا المنصب (أنظر الحاشية فى ص ٢٧٤) .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٣) واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » والملكية .

(٤) وردت فى المخطوطين : علامة .

(٥) ساقطة فى المخطوطين ، وواردة فى « ت » .

(٦) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » بأقطارها .

وتعجب من فراره ، وسوء اغتراره ، ورجَحت الظنون فى آثاره . ثم اتَّصلت الأخبار بتمام الحيلة ، واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة ، وتَرْكها شَنْعَةً على الأيام ، وعاراً فى الأقاليم على حَمَلة الأقلام ؛ وأقام بتِلمْسان إلى أن حُل مُخَنَّقُ حصارها ، وأزيل اللقيان[1] الضيقة عن خصرها ؛ فلحق بالأندلس ، فلم يَعْدم برًّا ورعْياً مستمراً ، حتى أتاه حِمامه ، وانصرمت أيامه » .

شـــعره

من الذى يدل على بره[2] ، وانفساخ خطاه فى النَّفاسة ، وبعد شأوه ، قوله :

العز ما ضَربَت عليه قبابى ... والفضل ما اشتملت عليه ثيابى
والزَّهرُ ما أهداه غصن[3] براعتى ... والمِسْك ما أبداه نقش كتابى
والمجدُ يمنع أن يزاحِم مَوْرِدى ... والعزم يأبى أن يُسام جَنابى
فإذا بلوتُ صنيعةً جازيتُها ... بجميل شكرى أو جزيل ثوابى
وإذا عقدتُ مودّةً أجرَيْتُها ... مجرى طعامى من دَمِى وشرابى
وإذا طلبتُ من الفراقد والسُّهى ... ثأراً[4] فأوشِك أن أنال طلابى

وفاته

توفى رحمه الله يوم السبت تاسع ربيع الآخر عام خمسة عشر وسبعمائة ، ودفن بجبَّانة باب إلبيرة ، تجاوز الله عنه .

---

(١) هكذا فى « ج » . الملكية وفى « ك » العبان . .
(٢) هكذا وردت فى « ج » والملكية . وفى « ك » ، أفوه .
(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : غضر .
(٤) وردت فى المخطوطين : آثاراً . وهو تحريف .

أحمد بن محمد بن عيسى الأموى

يكنى أبا جعفر ، ويعرف بالزيّات

حاله

من أهل الخير والصلاح والأتباع ، مفتوح عليه فى طريق الله ، نيِّر الباطن والظاهر ، مطَّرِح التصنُّع ، مُسْتَدل ، مجانب للدنيا وأهلها ، صادق الخواطر ، مُرْسَل اللسان بذكر الله ، مبذول النصيحة ، مثابر على اتِّباع السُّنة ، عارف بطريق الصوفيَّة ، ثبْتُ القدم عند زلَّاتها[1] ؛ ناطق بالحكمة على الأمية ؛ جميل اللقاء ، متوغل فى الكَلَف بالجهاد ، مرتبط للخيل ، مبادر للهَيْعة ، حريص على الشهادة ، بركة من بركات الله فى الأندلس ، يعز وجود مثله .

وفاته

توفى رحمه الله ببلده غرناطة ، يوم الخميس الثانى والعشرين لجمادى الثانية من عام خمسة وستين وسبعمائة ؛ وشارف الإكْتِهال .

أحمد بن الحسن بن على بن الزيات الكلاعى

من أهل بَلِّش مالقة[2] ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بالزيّات ، الخطيب ، المتصوِّف الشهير .

حاله

من « عائد الصلة » : كان جليل القدر ، كثير العبادة ، عظيم الوقار ، حسن

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، قولاتها .

(٢) بلش مالقة Velez Malaga ، سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١١٢) .

الخُلق ، مخفوض الجَناح[١] ، متألق[٢] البِشْر ، مبذول المؤانسة ، يُذكِّر بالسَّلف الصالح ، فى حُسْن شيمته ، وإعراب لفظه ، مزدحم المَجْلس ، كثير الإفادة ، صبوراً على الغاشية ، واضح البيان ، فارس المنابر غير مُدافَع ، مستحق التصدُّر فى ذلك ، بشروط قلما كَمَلت عند غيره ؛ منها حسن الصورة ، وكمال الأبَّهة ، وجَهْوَريّة الصوت ، وطيب النَّغمة ، وعدم التَّهيُّب ، [والقدرة على الإنشاء][٣] ، وغَلَبة الخشوع ، إلى التفنُّن فى كثير من المآخذ العلمية ، والرياسة فى تجويد القرآن ، والمشاركة فى العربية ، والفقه ، واللغة ، والأدب ، والعروض ، والمحاسَّة[٤] فى الأصلين ، والحفظ للتفسير .

قال لى شيخنا أبو البركات بن الحاجّ ، وقد جرى ذكر الخطابة : ما رأيت فى استيفائها مثله . كان يفتتح [مجالس تدريسه][٥] أكثر الأحيان ، بخُطَب غريبة ، يطابِق بها مفاصل الأغراض ، التى يشرع فى التكلم فيها ، وينظم الشعر دائماً فى مراجعاته ومخاطباته ، وإجازاته ، من غير تأنٍّ ولا روِيّة ، حتى اعتاده مَلَكةً بطبعه ؛ واستُعمل فى السِّفارة بين الملوك ، لدحْض السَّخائم ، وإصلاح الأمور ، فكانوا يوجبون حقَّه ، ويلتمسون بركته ، ويلتمسون دعاءه .

مشيخته

تحمَّل العلم عن جملة ؛ منهم خاله الفقيه الحكيم أبو جعفر أحمد بن على المَذْحِجى

---

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ح » والملكية ، محفوظ الجناد .

(٢) وردت كلمة (كثير) فى المخطوطين وفى الملكية قبل هذه الكلمة . ولا موضع لها هنا إلا أن كانت كلمة (متألق) تقرأ (تألق) . وفى ذلك تجاوز .

(٣) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين وفى الملكية (والقدر على الإمشاء) . أو الأشاء

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى والملكية ، من محس ، والمقصود به هنا الإتقان والبراعة .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى « الملكية » مجالسه .

من أهل الحمّة[1] ، من ذوى المعرفة بالقرآن والفرائض ؛ ومنهم القاضى أبو على الحسين بن أبى الأحوص الفهرى ، أخذ عنه قراءةً وإجازة ؛ ومنهم العارف الرّبانى ، أبو الحسن فضل بن فضيلة ، أخذ [عنه][2] طريقة الصوفية وعليه سَلك ، وبه تأدّب ، وبينهما فى ذلك مخاطبات ؛ ومنهم أبو الزهر ربيع بن محمد بن ربيع الأشعرى ، وأبوعبد الله محمد بن يحيى أخوه ؛ ومنهم [أبو الفضل][3] عياض ابن محمد بن عياض بن موسى ، قرأ عليه ببِلّش وأجازله ؛ ومنهم الأستاذ أبوجعفر ابن الزبير، والأستاذ أبوالحسن التّجلى ، وأبو محمد بن سماك ؛ وأبو جعفر بن الدّباع ؛ وأبو جعفر بن يوسف الهاشمى الطّنجْلى[4] ؛ والأستاذ النحوى أبو الحسن بن الصّائغ ؛ والكاتب الأديب أبو على بن رشيق التّغْلبى ؛ والرّاوية أبو الحسن بن مَسْتَقور[5] الطائى ؛ والإمام أبو الحسن[6] بن أبى الربيع ، والأستاذ أبو إسحاق الغافقى الميربى ؛ والإمام العارف أبو محمد عبد العظيم بن الشيخ البَاوى ، بما كان من إجازته العامة لكل من أدرك عام أحد وأربعين وستمائة ؛ وغير هؤلاء ممن يشُقّ إحصاؤهم .

تصانيفه

كثيرة ، منها المسماة « بالمقام المَخْزون فى الكلام المَوْزون » ؛ والقصيدة[7] المسماة « بالمشرف[8] الأصْنى فى المأرب الأوْفى » وكلاهما ينيف على الألف بيت ؛

(١) الحمة أو الحامة سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١٦٩) .

(٢) ساقطة فى المخطوطين ، وواردة فى الملكية .

(٣) وردت هذه الزيادة فى « ج » والملكية ، وأغفلها « ك » .

(٤) الطنجلى نسبة إلى طنجة . وترسم أحياناً الطنجالى ، والطنجى .

(٥) وردت فى المخطوطين : ابن مسفور ، وهو تحريف .

(٦) هكذا وردت فى « ح » . وفى « ك » أبو الحسين .

(٧) وردت فى المخطوطات الثلاثة (العقيدة) والتصويب أرجح .

(٨) هكذا أرسمت فى « ك » . وفى « ج » ، الشرف .

و«نظم السُّلوك فى [شيم الملوك] »[1] ؛ و «المُجْتَنَى النَّضير والمُقْتَنى[2] الخطير» ؛ و«العبارة الوجيزة عن الإشارة » ؛ و«اللطائف الرُّوحانية والعوارف الربَّانية » .

ومن تواليفه : « أُسُّ مبنى العلم ، وأس معنى الحلم » فى مقدمة علم الـكلام ؛ و«لذَّات السمع من القراءات السَّبْع » نظماً ؛ و«وصفُ نفائس اللآلى ، ووصفُ عرائس المعالى » فى النحو ؛ و« قاعدة البيان وضابطة اللسان » ، فى العربية ؛ و« لهجة اللافظ وبهجة الحافظ » ؛ والأرجوزة المسماة « بقُرَّة عَيْن السائل وبُغية نفس الآمل» فى اختصار السيرة النبوية ؛ و«الوصايا النظامية فى القوافى الثلاثية» ؛ وكتاب « عُدَّة الداعى ، وعُمْدة الواعى » ؛ وكتاب « عوارف الـكرم ، وصلات الإحسان ، فيما حواه العين من لطائف الحِـكَم وخلق الإنسان» ؛ وكتاب «جوامع الأشراف والعنايات ، فى الصَّوادع والآيات » ؛ و « النَّفْحة الوسيمة والمِنْحة الجسمية »[3] ، تشتمل على أربع قواعد اعتقاديَّة وأصوليَّة وفروعيَّة وتحقيقيَّة ؛ وكتاب « شُروف المَذَارق فى اختصار كتاب المشارق » ، و «تلخيص الدّلالة فى تخليص الرسالة» ؛ و « شُذور الذَّهب فى صروم الخطب » ؛ و « فائدة المُلْتقط وعائدة المُغْتبط » ؛ وكتاب «عُدَّة المُحِق وتُحْفة المُسْتحق » .

نــثره

من ذلك خُطْبة أُلغيت الألف من حروفها ، على كثرة ترددها فى الـكلام وتصرفها ، وهى :

« حمدتُ ربى جلَّ من كريم محمود ، وشكرتُه عزَّ من عظيم موجود ، ونزَّهته عن جهل كل مُلْحد كفور ، وقدّسته عن قول كل مُفسد غَرور ، كبير لو تقدم ،

(١) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» والملكية (نظم الساوك) مرة أخرى . وهو سهو ظاهر .

(٢) هكذا فى «ك» . وفى «ج» المنتقى ، والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى الملكية «السنحة فى الوسمة والمنحة»

فى فهم نجد ، قدير لو تصور فى رسم لحد ؛ لو عدّته فكرةُ التصورْ[١] لتهوّر ، ولو حدّته[٢] فكرة لتعذّر ؛ ولو فُهمت له كيفية لبطل قِدَمُه ، ولو عُلمت له كيفية لحصل عدمُه ؛ ولو حصره[٣] طرْفٌ لقُطِع بتجسُّمه ، ولو قهره وصْفٌ لصدع بتقسمه ؛ ولو فُرِض له شبحٌ[٤] لرهقه[٥] كيف ؛ ولو عرض له ، للحق عجلٌ وريْث ؛ عظيم من غير تركُّب قُطْر ، عليمٌ من غير ترتُّب فكر ؛ موجود من غير شىء يُمسكه ، معبود من غير وهم يُدْرِكه ؛ كريمٌ من غير عِوَض يُلْحِقُه ، حكيم من غير غرض يَلْحقُه ؛ قوى من غير سبب يجمعه ، علىٌّ من غير سبب يرفعه ؛ لو وجد له جنس لعُورض فى قيموميته[٦] ، ولو ثبت له حِسٌّ لنُوزع فى ديموميته ».

ومنها : « تقدّس عن لمٍّ فِعله ، وتنزه عن سَمٍّ فضله ، وجلَّ عن ثمٍّ قدرته ، وعزَّ عن عَمٍّ عزّته ، وعظمت عن مَن صفته ، وكثرت عن كَمْ مِنَّته ؛ فتق ورتق وصوَّر وخلق ، وقطع ووصل ، ونصر وخذل ؛ حَمِدْتُه حَمْدَ من عرف ربه ؛ ورهب ذَنْبه ، وصفَتْ حقيقةُ يقينه قلبَه ، وذكرت بصيرةُ دينه لبَّه ، فنهض[٧] لوعى بشروط نفضته وحدّ ، وربط سِلْك سلوكه وشدّ ، وهدم صرح عتوّه وهدّ ، وحرس مَعْقِل عقله وحد ، طرد غرور غرّته ورذله ؛ علم [حلم][٨] تحقيق فنحا نحوه ، وتفرَّد له عز وجل بثبوت ربوبيته وقِدَمه ، ونعتقد[٩] صدور كلٍّ

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » تصور

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » حدته . والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » حصر .

(٤) وردت فى المخطوطين : شح ، وهو تحريف .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » لمرقه .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين وفى الملكية .

(٧) فى الملكية ، فنبه .

(٨) ساقطة فى المخطوطين والملكية . وواردة فى « - » .

(٩) هكذا وردت فى الملكية وفى المخطوطين . وتعتقد . والأولى أرجح .

جوهر وعَرَض عن جوده وكرمه ؛ وأشهد بتبليغ محمد صلى ربه عليه وسلم ، رسوله وخير خَلْقِه ، وتُمكن بنهوضه فى تَبْيين فرضه ، وتبليغ شرعه ؛ ضرب قبّة شَرْعه ، فنسخت كلَّ شَرْع ؛ وجدَّد عزيمته فقمع عدوَّه خير قَمْع ؛ قوَّم كل مُقَوَّم بقويم مِحَنه ؛ وكريم هَدْيه ؛ وبيَّن لقومه كيف يركنون فَوْره بقصده ؛ وسديد سعيه ؛ بشَّر مطيعه ، فظَفِر برحمته ؛ وحذَّر عاصيه فشقى بنقمته .

« وبعد فقد نُصِحتم لو كنتم تعقلون ، وهُديتم لو كنتم تعلمون ، وبُصِّرتم لو كنتم تبصرون ، وذكِّرتم لو كنتم تَذْكرون ؛ وظَهَرتْ لكم حقيقةُ نَشْركم وبرزت لكم خبيئةُ حشركم ؛ فلم تركضون فى طَلْق غفلتكم ، وتغفلون[1] عن يوم بَعْثكم ؛ والموت عليكم سيفٌ مسلول ، وحكم عَزْم غير مَفْلول ؛ فكيف بكم يوم يُؤخذ كل بذنبه ؛ ويُخبر بجميع كسبه ؛ ويُفرّق بينه وبين صحبه ، ويَعْدَم نصرة حزبه ؛ ويُشْغل بهمِّه[2] وكَرْبه ؛ عن صديقه وتربه ؛ وتُنْشر له رقعته وتعين له بقعته ؛ فربح عبدٌ نظر وهو فى مَهَل لنفسه ؛ وترسَّل[3] فى رضى عمله جنَّة لحلول رَمْسه ؛ وكسر صنم شهوته ليقرَّ فى بحبوحة قُدْسه[4] ؛ وحصَرَ[5] بنظر يُنْزله سَرِيرَ سروره بين عقله وجسمه[6] .

ومنها : « فتنبه ويحك من سِنَتك ونومك وتفكر فيمن هلك من صحبك[7] وقومك ؛ هتف بهم من تَعْلم ، وشبَّ عليهم منه حَرَق مظلم ؛ فخُرِّبت بصيحته ربوعهم ؛ وتفرّقت لهوله جموعهم ، وذُلَّ عزيزهم ، وخُشِيَ رفيعهم ، وضُمَّ تميعهم ؛ فخرج كل منهم عن قَصْره ، ورُمى غير مُوَسّد فى قبره ؛ فهم بين سعيد

(١) هكذا فى «ج» ، وفى «ك» ، وغافلون . وهو تحريف .

(٢) هكذا فى الملكية وفى «ج» بقوله . والأولى أرجح

(٣) فى المخطوطين : وترسيل .

(٤) هكذا فى «ك» . وفى «ج» قدمه .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» ، وحصن .

(٦) هكذا فى «ج» والملكية . وفى «ك» حسه .

(٧) هكذا فى «ج» والملكية . وفى «ك» صحبتك

فى روضته مُقَرَّب ، وبين شقى فى حفْرته معذَّب ، فنَسْتَوهب منه عز وجل عصمته من كل خطيئة ، وخصوصيَّة تقى من كل نفس جريئة» .

كتب إلى شيخنا الوزير ، ابن ذى الوزارتين ، ابن الحكيم ، جواباً عن مخاطبة كتبها إليه يلتمس منه وصايته ونُصْحَه هذا الشعر :

جلَّ اسم مولانا اللَّطيف الخبير   وعزّ فى سلطانه عن نَظير
هو الذى أوجد ما فوقها   وتحتها وهو العليم الخبير
ثم صلاة الله تَتْرى على   ياقوتة الكون البشير النذير
وصحبه الأُولى نالوا مرأى   يرجع عنه الطَّرْف وهو الحسير
وبعد فأنفسهم جوهر   للأرواح منه ما للأثير
فإنك استدعيت من ناصر   نُصْحاً طويلا وهو منه قصير
ولستُ أهلا أن أرى ناصحاً   لقلَّة الصدق وخُبث الضمير
وإنما يحسنُ نصحَ الورى   من ليس للشَّرْع عليه نكير
ومستحيلٌ أن يقود امرأً   يدُ امرئٍ واهى المبانى ضرير
واعجبا يُلتمس الخير من   مُعْتَقَل العقل مهيض كسير
لكن إذا لم يكن بدٌّ فعن   [جهد أوفِّيك بتبر][1] يسير
فالْقِنه إن كنت به قانعاً   درًّا نظيماً يَزْدَرى بالنثير
لازم أبا بكر على منهج   ذاك تَفُزْ منه بخير كثير
واقنع بما يكفى ودع غيره   فإنما الدنيا هباء نَثِير
بُنىّ لا يخدعنك[2] هذى الدُّنا   فإنها والله شىء حقير
أين المشيدات أما زُلزلت   أين أخو الإيوان أين السدير[3]

(١) وردت فى المخطوطين : (جهرا وفيك تبرز - تبرر) .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» يخدعك .
(٣) هكذا وردت فى «ك» . ووردت فى المخطوطين وفى الملكية : الغدير . والأولى أرجح .

أين أنو شِروان أضْحَى كأن   لم يَكُ أين المُعتدى أزْدَشير
هذا مقالٌ من وعاه اهتدى   وحيط من كل مَخُوف مُبير
وهى[1] أبو بكر به أحمدا   وأحمدُ فى الوقت شيخ كَبير
إنقرضت[2] أيامــه وانتهى   وَهنًا ومن قبلُ أتاه النَّذير
وهـا هو اليوم على عُــدَّة   مُبْرمه للشَّر وما من عذير

ومن شعره فى طريقة الذى كان ينتحله :

شهود ذاتك[شيء عنك][3] محجوب   لو كنت تُدْركه لم يبق مطاوب
علوٌ وسُفْل ومن هذا وذاك معا   دَوْر على نقطة[4] الإشراق منصوب
ومَنْزِل النفس منه ميمٌ مذكرة[5]   إن صح للغرض الظنيِّ مرغوب
وإن تنـاءت مساويهـا فمنزلهـا   أوجُ الـكمال وتحت الروح تَقْليب
والروح إن لم تَخُنْه النَّفْس قام له   فى حضرة المُلك تخصيصٌ وتقريب

ومن شعره :

دَعْنى على حُـكم الهوى أتضرَّع   فعسى يلين لنا الحبيب ويَخْشع
إنى وجدت أخا التضرُّع فايزًا   بمراده ومن الدُّعا مـا يُسمع
أهلا ومـا شيء بأنْفَع للفتى   من أن يَذِلَّ عسى التذلُّل ينفع
وامْحُ اسم نفسك طالبًا إثبـاته   واقنع بتفريقٍ لعلك تجمــع
واخضع فمن دأب المحب خضوعهُ   ولربمـا نال المُنى من يَخْضع

---

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» أضحى .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» انقضت .

(٣) وردت هاتان الكلمتان فى المخطوطين هكذا : (شرعية) . والتصويب من «ت» (الزيتونة) .

(٤) فى «ج» نطقه . وفى «ك» نطيقه .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» مركزة .

ومن شعره :

مالى بباب غير[1] بابك موقف لا[2] ولا لى عن فنائك مَصْرِف
هذا مقامى ما حَيِيتُ فإن أمُت فالذل مأوى للضراعة مَألف
غرضى وأنت به عليم لمحنةٌ تذر الشَّتيت الشّمل وهو مؤلّف
وعليك ليس على سواك مُعَوّلى جاروا علىّ لأجل [ذا أو أنصفوا][3]

ومن المقطوعات فى التجنيس :

يقال خِصال أهل العلم ألفٌ ومن يَجْمَع الخصال الألْف سادا
ويجمعها الصَّلاح فمن تَعَدّى مذاهبَه فقد جمع الفسادا

ومنه فى المعنى :

إن شئت فوزاً بمطلوب الكرام غداً فاسْلُكْ من العمل المرضىّ مِنْهاجا
واغلب هوى النفس لا تغرُرْك خادعة فكل شىء يحطّ القدر منها جا

دخوله غرناطة

دخل غرناطة مراراً عدة تشذّ عن الحصر ، أوجبتها الدّواعى بطول عمره ، من طلب العلم وروايته ، وحاجة عامة ، واستدعاء سلطان ، وقدوم من سفارة . كان الناس يَنْسالون[4] عليه ويغشون منزله ، فيما أدركت ، كلما تبوّأ ضيافة السلطان ، تبرّكاً به ، وأخذاً عنه .

مولده

ولد ببَلّش بلده فى حدود تسع وأربعين وستمائة

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » غيرك . وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين والملكية . وفى « ك » كلا .

(٣) وردت هذه العبارة محرفه فى المخطوطين : داك وأنصف .

(٤) فى « الملكية » يتسللون .

وفاته

توفى ببلِّش سَحَر[١] يوم الأربعاء السابع عشر من شوال عام ثمانية وعشرين وسبعمائة . وممن رثاه شيخنا ، نسيج وحده ، العالم الصالح الفاضل ، أبو الحسن بن الجيَّاب بقصيدة أولها :

على مثله خضابة الدهر فاجع تفيض نفوسٌ لا تفيض المدامع

ورثاه شيخنا القاضى أبو بكر بن شِبْرين رحمه الله ، بقصيدة أولها :

أيساعد رائده الأمـــل أم يُسْمع ســـائله الطلل
يا صاح فَديتُك ما فَعَلتَ ذا من الأحباب وما فعلوا[٢]
فأجاب الدمعُ منـــاديَه أمَّا الأحباب فقد رحلوا[٣]

ورثاه من هذه البلدة طائفة ، منهم الشيخ الأديب أبو محمد بن المرابع الآنى اسمه فى العيادة له ، بحول الله ، بقصيدة أولها :

أدعوك ذا جزع لو انَّك سامع ماذا أقول ودمع عينى هامع

وأنشد خامس يوم دفنه قصيدة أولها :

عَبْرة تفيض حزناً وثُــكلا وشجونٌ تعم بعضاً وكُلَّا
ليس إلا صُبابة أضرمتهـــا حسرةٌ تبعث الأسى ليس إلاّ

وهى حسنة طويلة .

إبراهيم بن محمد بن مُفرِّج بن هَمُشك

المتأمِّر ، رومى[٣] الأصل .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » منحر

(٢) فى المخطوطين : فعل رحل

(٣) يقصد برومى الأصل هنا ، قشتالى أو إسبانى .

أوّليته

مُفَرَج أو هَمُشك[1] ، من أجداده ، نصرانى أسلم على يدى أحد ملوك بنى هود بسَرَقُسْطة ؛ نزح إليهم ، وكان مقطوع إحدى الأذنين ، فكان النصارى إذا رأوه فى القتال عرفوه ، وقالوا هامُشك ، معناه ترى المقطوع الأذن ، إذ « ها » عندهم قريب مما هى فى اللغة العربية ، و « المُشك » المقطوع الأذنين فى لغتهم[2] .

نباهتُه وظهوره

ولما خرج بنو هود عن سرقسطة ، نشأ تحت خمول ، إلا أنه شهم متحرك ، خدم بعض الموحِّدين فى الصَّيد ، وتوسل بدلالة الأرض ؛ ثم نزع إلى ملك قَشْتالة واستقر من النصارى ؛ ثم انصرف إلى بقيّة اللّمْتونيين[3] بالأندلس بعد شفاعة وإظهار توبة . ولما وُلّى يحيى بن غانِيَة قرطبة ، إرْتَسم لديه برسمه . ثم كانت الفتنة عام تسعة وثلاثين [وثار][4] ابن حَمْدِين[5] بقرطبة ، وتسمى بأمير المؤمنين ، فبعثه رسولا ثقة بكفايته ودربته وعُجْمة لسانه ، لمحاولة الصلح بينه وبين ابن حَمْدِين ، فأغنى ونَبُهَ قدرُه ؛ ثم غلى مِرجل الفتنة وكثر الثوار بالأندلس ،

---

(١) ترسم بالإسبانية Hamusco ومن ثم كان ضبطها على هذا النحو .

(٢) وأصلها بالقشتالية He mochico ومعناها ها هو المقطوع أو المصاب . وأما مقطوع الأذن فهى بالقشتالية El desorejado .

(٣) أى المرابطين ، وهم كما رأينا ينتسبون إلى قبيلة لمتونة .

(٤) هذه الكلمة واردة فى « ج » والملكية . وساقطة فى « ك » .

(٥) ورد اسمه فى « ج » (ابن أحمدين) . وفى « ك » (ابن أحمد) وكلاهما تحريف . وصوابه (ابن حمدين) . وابن حمدين هذا هو القاضى أبو جعفر بن حمدين بن محمد بن على بن حمدين . ثار بقرطبة فى رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، واستبد بحكمها ، وتلقب باسم المنصور بالله ، وحكمها فى البداية نحو أسبوعين ، ثم انتزعها منه سيف الدولة بن هود لأيام قلائل وعاد ابن حمدين إلى رياسته واستمر فى رياسة قرطبة زهاء عشرة أشهر ، ثم انتزعها منه ابن غانية زعيم المرابطين بالأندلس ، وفر ابن حمدين ناجياً بنفسه . راجع الحلة السيراء لابن الأبار (دوزى) ص٢٢٥ و٢٢٨ . (والقاهرة) ج٢ ص٢٥١ و٢٥٥ وعصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان ج ١ ص ٣١٢ — ٣١٤ .

فاتصل بالأمير ابن عِياض بالشرق وغيره ، إلى أن تمكن له الامتزاز[١] بحصن شَقُوبش ، ثم تغلب على مدينه شَقُورة[٢] وتملكها وهى ماهى من النِّعمة ، فغلظ أمره ، وساوى محمد بن مَرْدنيش[٣] أمير الشرق وداخله ، حتى عقد معه صهراً على ابنته ، فاتصلت له الرياسة والإمارة . وكان يُعد سيفاً لصهره المذكور ، مُسَلَّطاً على من عصاه ، فقاد الجيوش ، وافتتح البلاد إلى أن فسد مابينهما ، فتفاتنا وتقاطعا ، وانحاز بما لديه من البلاد والمعاقِل ، وعُدَّ من ثوار الأندلس أولى الشوكة الحادَّة ، والبأس الشديد ، والشَّبا المرهوب . وآثاره بعد انقباض دولته تشهد بما تأثَّل من مُلْك وسَلَف من الدولة ؛ والدَّار الآخرة خير لمن اتقّى . قال ابن صفوان :

حدَّثتنا عن عزَّة ابن هَمُشك   وديار شكوى الزمان فَتَشْكُ[٤]

حـاله

قال محمد بن أيوب بن غالب ، المدعو بابن حمامة : أبو إسحاق الرئيس ، شجاع بُهْمَة من البُهَم[٥] . كان رئيساً شجاعاً مقداماً شديد الحزم ، سديد الرأى ، عارفاً بتدبير الحرب ، حمىّ الأنف ، عظيم السَّطوة ، مشهور الإقدام [مُرتكباً للعظيمة][٦] . قال بعض من عرف به من المؤرخين ؛ وهو وإن كان قائد فرسان ، هو حليفُ فتنته وعُدْوان ، ولم يصحب قط متشرِّعاً ، ولا نشأ فى أصحابه من كان متورِّعاً ، سلَّطه الله على الخلق ، وأملى له فأضر بمن جاوره من أهل البلاد ، وحُبب إليه العيث فى العباد .

---

(١) هكذا فى « ج » والملكية . والإمتزاز أى الامتناع .

(٢) سبق التعريف مدينة شقوره Segura de Sierra (أنظر الحاشية فى ص ١٧٣) .

(٣) سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ٢١٨) .

(٤) وردت فى المخطوطين : فتشبك .

(٥) تطلق على الشجاع الذى يستبهم على أقرانه مأتاه والبهمة هى الصخرة الصامتة .

(٦) وردت فى « ك » ، مرتكب العظمة . ولكنها وردت محرفة فى « ج » (مرتبكاً للطيمة) .

سيرته

كان جباراً قاسياً ، فظا غليظاً ، شديد النَّكال ، عظيم الجرأة والعبث بالخلق ؛ بلغ من عيثه[١] فيهم ، إحراقهم بالنّار ، وقذفهم من الشواهق والأبراج ، وإخراج الأعصاب والرِّباطات عن ظهورهم ، عن أوتار القِسِىّ بزعمه ، وضمّ أغصان الشجر العادى بعضها إلى بعض ، وربط الإنسان بينها[٢] ، ثم تسريحها ، حتى يذهب كل غصن بحظّه من الأعضاء ؛ ورآه بعض الصالحين فى النوم بعد موته ، وسأله مافعل الله بك فأنشده :

من سرَّه العيثُ فى الدنيا بِخلقَة من ... يصور الخَلق فى الأرحام كيف يشا
فليصْبرِ اليوم صبرى تحت بَطشَته ... مغالّا[٣] يمتطى جَمْرَ الغضا فرْشا

شجاعته

زعموا أنه خرج من المواضع التى كانت لنصره مُتَصَيَّداً ، وفى صحبته محاولو اللهو[٤] وقارعو أوتار الغناء[٥] ، فى مائة من الفرسان ، ونقاوة أصحابه ؛ فما راعهم إلا خيل العدو هاجمه على غِرَّة ، فى مائتى[٦] فارس ضِعْف عددهم ؛ فقالوا العدو فى مائتى فارس ، فقال وإذا كنتم[٧] أنتم لمائة ، وأنا لمائة ، فنحن قدرهم ؛ فعدّ نفسه بمائة . ثم استدعى قَدَحاً من شرابه ، وصرف وجهه إلى المُغَنِّى ؛ وقال أعد[٨] لى تلك الأبيات ، كان يغنيه بها فتعجبه :

---

(١) وردت فى « ج » ، عبثه . وفى « ك » غشه .
(٢) فى « ج » بينهما .
(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ح » مغلا .
(٤) هكذا فى الملكية ، وفى « ج » الهوى .
(٥) وردت فى المخطوطين وفى الملكية ، أوتار غنى :
(٦) وردت فى المخطوطين والملكية : مائتين . وهو تحريف .
(٧) وردت فى المخطوطين : كان . والتصويب لازم للسياق .
(٨) وردت فى المخطوطين : عد .

يتلقى النَّدا بوجهٍ حَيِّ وصدورَ القَنا بوجه وَقاح
هكذا هكذا تكون المعالى طرُق الجَدِّ غيرُ طرق المزاح

فغنّاه بها ، واستقبل العدوّ ، وحمل عليه بنفسه وأصحابه ، حملة رجل واحد ، فاستولت على العدو الهزيمة ، وأتى على معظمهم القتل ، ورجع غانماً إلى بلده . ثم ضربت الأيام ، وعاود التصيُّد فى موضعه ذلك ، وأطلق بازَه على حَجَلة ، فأخذها ، وذهب ليذكيها ، فلم يحضره خنجرُ ذلك الغرض فى الوقت ، فبينما هو يلتمسُه ، إذ رأى نصلاً من نِصال المُعْتَرَك من بقايا يوم الهزيمة ، فأخذه من التراب ، وذبح به الطائر ، ونزل واستدعى الشراب ، وأمر المغنى فغَنَّاه بيتى أبى الطيب :

تذكرت ما بين العُذَيْبِ وبارقٍ مجرَّ عَوَالينا ومجرى السوابق
وصحبةَ قوم يذبحون قنيصهم بفَضلات ماقد كسّروا فى المَفارق

وقد رأيت من يروى هذه الحكاية عن أحد أمراء بنى مَرْدَنيش ، وعلى كل حال فهى [من][1] مُسْتَطْرف الأخبار .

دخوله غرناطة

قالوا ، وفى سنة ست وخمسين وخمسمائة ، فى جمادى الأولى منها ، قصد إبراهيم ابن هَمُشْك بجمعه مدينة غَرْناطة ، وداخل طائفة من ناسها ، وقد تشاغل الموحِّدون بما دهمهم من اختلاف الكلمة عليهم بالمغرب ، وتوجُّه الوالى بغرناطة السيد [أبى][2] سعيد إلى العُدْوة ، فاقتحمها ليلاً واعتصم الموحدون بقَصَبتها ، فأجاز بهم[3] بأنواع الحرب ، ونصب عليهم المجانيق ، ورمى فيها من ظَفِر به منهم وقتلهم بأنواع من القتل . وعند ما اتصل الخبر بالسيد أبى سعيد ، بادر إليها فأجاز البحر ، والتف[4]

(١) زيادة يقتضيها السياق . وهى ساقطة فى المخطوطين .
(٢) وردت فى المخطوطين وفى الملكية : أبو . وهو تحريف يقتضى التصويب .
(٣) هكذا فى «ك» . وفى «ج» والملكية ، لهم .
(٤) هكذا وردت هذه الكلمة فى «ج» . ومكانها بياض فى «ك» .

به السيد أبو محمد [بن](١) أبى حفص بجميع جيوش الموحدين والأندلس ؛ ووصل الجميع إلى ظاهر غرناطة ، وأصحر إليهم ابن هَمُشك ، وبرز منها ، فالتقى الفريقان « بمرج الرّقاد »(٢) من خارجها ، ودارت الحرب بينهم ، فانهزم جيش الموحدين ، واعترضت الفلّ تخومُ الفدادين(٣) وجداول المياه التى تتخلل المَرْج(٤) ، فاستولى عليهم القتل ، وقتل فى الوقيعة السيد أبو محمد ؛ ولحق السيد أبو سعيد بمالقة ؛ وعاد ابن هَمُشك إلى غرناطة فدخلها بجُملة من أسرى القوم ، أفحش فيهم المُثْلة ، بمرأى من إخوانهم المَحْصورين ؛ واتصل الخبر بالخليفة بمراكش ، وهو بمَقْرَبة(٥) سَلا ، قد فرغ من أمر عدوّه(٦) ، فجهز جيشاً ، أصحبه السيد أبا يعقوب ولده ، والشيخ أبا يوسف بن سليمان زعيم وقته ، وداهية زمانه ؛ فأجازوا البحر ، والتقوا(٧) بالسيد أبى سعيد بمالَقَة ، وتتابع الجَمْع ، والتفّ بهم من أهل(٨) الجهاد من المطوعة ، واتصل منهم السير إلى قرية دِلَر(٩) من قرى غرناطة ؛ وكان من استمرار الهزيمة على ابن هَمُشك الذى أمده بنفسه(١٠) وجيشه ، من نصارى وغيرهم ، ما يأتى ذكره عند اسم ابن مَرْدَنيش فى الموحدين ، فى حرف الميم بحول الله تعالى .

---

(١) وردت فى « ك » . وأغفلت فى « ج » .

(٢) كان هذا الاسم يطلق على موضع بظاهر غرناطة على بعد بضعة كيلو مترات من قرية الطرف Atarfe فى سفح جبل إلبيرة Sierra de Elvira على مقربة من نهر شنيل . ومقابلها الحديث هو Majorrocal أو Merrojal (S. de Lucena Al - Andalus 1944, p. 505)

(٣) أى الحدائق والبقاع .

(٤) هو مرج غرناطة الشهير La Vega . وقد سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ٩٩)

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » بقربة . وفى الملكية (وهو بقربة من) .

(٦) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » عوده .

(٧) وردت فى المخطوطين : وتلقوا . وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٨) أثبتها « ك » ، وأغفلها « ج » .

(٩) هكذا ورد اسمها صحيحاً فى « ج » . وفى « ك » دلن ، وهو تحريف . وقرية دلر ما تزال تقوم حتى اليوم . وتقع فى جنوبى غرناطة على مقربة من قرية « البذول » وهى بالإسبانية Dilar

(١٠) هكذا فى الملكية . وفى « ج » أمره بنفسه . وفى « ك » أمره لنفسه .

إنخلاعه للموحدين عما بيده
وجوازه للعدوة ، ووفاته بها

قالوا ، ولما فسد ما بينه وبين ابن مردنيش بسبب بنته التى كانت تحت الأمير أبى محمد بن سعد بن مردنيش إلى أن طلّقها ، وانصرفت إلى أبيها ، وأسلمت إليه ابنها منه ، مختارة كنفَ أبيها إبراهيم ، نازعةً فى انصرامه إلى عروقها ، فلقد حكى أنها سئلت عن ولدها ، وإمكان صَبْرها عنه ، فقالت : جَرْوُ كلبٍ ، جرو سوء ، من كلب سوء ، لاحاجة لى به ، فأرسلت كلمتها فى نساء الأندلس مثلاً ، فاشتدت بينهما الوَحشة والفتنه ، وعظُمت المحنة ، وهلك بينهما من الرعايا المَمرُورين ، المضطَّرين ، بقنّينة[1] الثوار ممّن شاء الله بهلاكه ، إلى أن كان أقوى الأسباب فى تدمير[2] ملكه .

ولما صرف ابن سعد عزمه إلى بلاده ، وتغلب على كثير منها ، خدم ابن هَمُشك الموحّدين [ولاذ بهم][3] واستجارهم ، فأجاز البحر ، فقدم على الخليفة عام خمسة وستين وخمسمائة ، وأقرّه بمواضعه ، إلى أوائل عام أحد وسبعين ، فطولب بالانصراف إلى العُدْوة بأهله وولده ، وأُسكن مِكْناسَة وأُقطع بها سآماً[4] لها خطر ، واتصّلت تحت عنايته إلى أن هلك

وفـاته

قالوا ، واستمر[5] مُقام ابن همشك بمكناسة غير كبير ، وابتلاه الله بفالج

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وقنينة أعنى حظيرة .

(٢) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين : تدبر . وواضح أنه تحريف لكلمة تدمير وهو ما يؤيده سياق الكلام .

(٣) وردت هذه العبارة فى « ج » والملكية ، وأغفلها « ك » .

(٤) هكذا فى المخطوطين والملكية ، والسوام والسائمة أى الإبل الراعية .

(٥) وردت فى المخطوطين : واستمرب وهو تحريف .

غريب الأغراض ، شديد سوء المزاج ، إلى أن هلك ؛ فكان يدخل الحمّام الحار ، فيشكو حرّه بأعلى صراخه ، فيخرج ، فيشكو البرد كذلك ، إلى أن مضى سبيله .

إبراهيم بن أمير المسلمين أبى الحسن بن أمير المسلمين أبى سعيد عثمان بن أمير المسلمين(١) أبى يوسف يعقوب بن عبد الحقّ

يكنى أبا سالم .

أوليته

الشمس تخبر(٢) عن حِلَى(٣) ، وعن حُلَل . فهو البيت الشهير ، والجلال الخطير ، والمُلْك الكبير ، والفَلَك الأثير ، ملاك المسلمين ، وحُماة الدين ، وأمراء المغرب الأقصى من بنى مَرين(٤) ؛ غيوث المواهب ؛ وليوث العرين(٥) ، ومعتَمد الصَّريخ ، وسهام الكافرين . أبوه السلطان أبو الحسن ، الملك الكبير ، البعيد(٦) شأو الصِّيت والهمة والعزيمة ، والتحلِّى بحُلَى السُّنة ، والإقامة لرسوم المُلْك ، والاضطلاع بالهمّة ، والصبر عند الشدة . وأخوه أمير المسلمين ، فذلكَةُ الحَسَب ،

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، أمير المؤمنين . وهو سهو .

(٢) فى المخطوطين : تنكر . وفى الملكية يمكن . والتصويب من « ت » . (الزيتونة)

(٣) هكذا فى « ج » . وفى الملكية « حال .

(٤) بنو مرين هم بطن من بطون قبيلة زناتة البربرية الشهيرة ، وكانوا فى بداية أمرهم من القبائل البدوية المتنقلة . وفى أوائل القرن السابع الهجرى ساروا نحو المغرب الأقصى ، ونفذوا إلى أراضى الموحدين . وكانت دولة الموحدين تجوز دور انحلالها . وبدأت المعارك بينهم وبين الموحدين فظهروا عليهم تباعاً واستولوا على فاس سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) ، ثم استولوا على مراكش سنة ٦٦٩ هـ (١٢٦٩ م) وانتهت بذلك دولة الموحدين . وقامت مكانهم دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى من ذلك الحين . واشتد بأسها وسطع نجمها . وظهر فيها ملوك عظام مثل أبى يوسف يعقوب منشىء دولتهم ، وأبى الحسن على بن عثمان ، وولده أبى عنان فارس . ثم أبى سالم إبراهيم ، (وهو المترجم هنا) . وقد لبثت دولة بنى مرين دهراً سنداً لمملكة غرناطة بالأندلس . وقد عبروا البحر مراراً وتكراراً لغوثها وإنجادها

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : الهر . والأولى أرجح وأصلح للسياق .

(٦) هكذا فى « ج » وفى « ك » [illegible]

ونير النَّصَبة ، وبَدْرَة المعدن ، وبيت القصيد ، أبو عنان ، فارس ، الملكُ الكبير ، العالم المُتَحَبرٌ ، العامل النظّار ، الجواد ، الشجاع ، القَسْوَر ، الفصيح ، مدد السعادة ، الذى خرق الله [به](١) سياج العادة ، فما عسى أن يطلُبَ اللسان ، وأين تقع العبارة ، وماذا يحصُرُ الوصف . عينُ هذا المجد فوّارة ، وحَسْبُ هذا الحَسَب اشتهاره ، قولا بالحق ، وبعداً عن الإطراء ، ونشراً للواء النَّصَفة ، حفظ الله [على](٢) الإسلام ظِّلهم ، وزيّن بيدور الدين والدنيا هالتهم ، وأبقى الكلمة فيمن اختاره منهم .

حاله

كان شابا(٣) كما تَطلّع وَجهُه ، حسن الهيئة ، ظاهر الحياء والوقار ، قليل الكلام ، صليفة عن اللفظ ، آدَمَ اللون(٤) ، ظاهر السكون والحَيْرية والحشمة ، فاضلاً ، متخلقاً ، قدّمه أبوه ، أمير الرتبة ، موُفّى الألقاب ، بوطن سِجِلْماسَة ، وهى عمالة ملكهم(٥) ، فاستحق الرتبة فى هذا الباب بمزيد هذه الرتبة المشترط لأول تأليفه . ولما قبضه الله إليه ، واختار له ما عنده ، أحوج ما كانت الحال إلى من ينظم الشّت ، ويجمع الكلمة ، ويصون الدّما سبحانه(٦) أحوج ما كانت الدنيا إليه ، وصير [إلى وارثه طواعية](٧) وقسراً ومستحقًّا وغِلاباً ، وسَلْماً ، وذاتاً وكَسْباً ،

---

(١) زيادة يستلزمها السياق .

(٢) أثبتها « ك » . وأغفلها « ج » .

(٣) فى المخطوطين : شيا .

(٤) أعنى أسمر اللون .

(٥) هكذا وردت فى « ت » وفى الملكية . وفى المخطوطين ملك . والأولى أرجح .

(٦) وردت فقط فى « ج » . ومكانها بياض فى « ك » .

(٧) وردت هذه العبارة محرفة فى « ج » (إلى وازنه طوعية) . ومكانها بياض فى « ك » . والتصويب من « ت » (الزيتونة) .

السلطان أخيه ، تحصل هو | وأخ له |[1] اسمه محمد ، وكنيته أبو الفضل ، يأتي التعريف بحاله في مكانه إن شاء الله ؛ فأبق[2] ، وأغذى ، واجتنب الهوى ، وأجاب داعي البر والشفقة والتقوى ، فصرفهما إلى الأندلس ؛ باشرتُ إركابهما البحر بمدينة سلا ثاني اليوم الذي انصرفت من بابه ؛ وصدرتُ عن بحر جوده ، وأفضتُ بإمارة عنايته ، مُصْحباً بما يعرض[3] لسان الثناء من صنوف كرامته ، في غرض السفارة عن السلطان بالأندلس ، تغمده الله برحمته ؛ ونزل مَرْبَلّة[4] من بلاد الأندلس المصروفة إلى نظره ، واصلاً السير إلى غرناطة .

دخوله غَرْناطة

قدم هو وأخوه عليها ، يوم عشرين من جمادى الأولى ، من عام اثنين وخمسين وسبعمائة . وبرز السلطان إلى لقائهما ، إبلاغا في التَّجلة ، وانحطاطاً في ذِمة[5] التَّخَلق ؛ فسعياً إليه مُرْتَجلين ، وفاوضهما[6] ، حتى قُضيت الحقوق ، واستَفْرَجت[7] تفقُّدَه وجرايتَه ، وحلاّ بأحظى الأمكنة ، واحتَفيا[8] في سرير مجلسه مقسومٌ بينهما الحظ ، من هشّتِهِ ولَحْظَتِه ؛ فأما محمد فسوّلت له نفسه الأطماع ، واستفزَّته الأهواء ، أمراً كان قاطع أجله ؛ وسَعْد أخيه اختاره الله من

---

(١) هكذا وردت في المخطوطين . وفي « ت » أخوه .

(٢) وردت في المخطوطين : فانى . والتصويب من «ت» .

(٣) هكذا وردت في « ج » و « ت » والملكية . وفي « ك » يخرس .

(٤) ورد اسم هذا المكان محرفاً في المخطوطات الأربعة : في « ك » جربله . و « ج » جذبلة . و « ت » والملكية جربة . والمرجح المقصود ، هو مربلة ، وهي من ثغور الأندلس الجنوبية . وقد سبق التعريف بها (الحاشية في ص ١٩٧) وكانت وقتئذ من الثغور الأندلسية التي بيد بني مرين .

(٥) هكذا وردت في « ج » والملكية . وفي « ت » محرفة نعة . ووردت في « ك » دست .

(٦) هكذا في « ج » . وفي « ك » قارضهما .

(٧) في « ج » واستقرحت . وفي « ك » استقرح . والتصويب من « ت » والملكية .

(٨) في « ت » واحتفا وكذا في « ج » . وفي المخطوطين : احتفى .

دونه . وأما إبراهيم المترجم به ، فجَنَح إلى أهل[1] العافية ، بعد أن ناله اعتقال ، بسبب إرضاء أخيه أمير المسلمين فارس ، فى الأُخريات لشهر ذى حجة من عام تسعة وخمسين وسبعمائة ، وتقديم ولده الصبىّ ، المُـكنى بأبى بكر ، المسمى بسعيد ، لنظر وزيره فى الحزم والـكفاية ، حَرَّكه الاستدعاء ، وأقْلَقَتْه[2] الأطماع وهبَّ به السائل[3] . وعَرَّض بغرضه إلى صاحب [الأمر][4] بالأندلس ، ورفق عن صُبوحه ، فشكا إلى غير مُصْمت ، فخرج من الحضرة ليلا من بعض مجارى المياه ، راكباً للخطار ، فى أخريات جمادى الأولى من العام بالحضرة المـكتنفة الجوار ، من ثغور العدو ، ولَحِق بملك قشتالة ، وهو يومئذ بإشْبيليَة ، قد شرع فى تجْرِبةٍ إلى عدوّه من بَرْجلونه[5] ، فطرح عليه نفسه ، وعرض عليه مخاطبات استدعائه ، ودسَّ له المطامع المرتبطة بحصول غايته ، فقبل سعايته ، وجهز له جَفْناً من أساطيله ، أُركب فيه ، فى طائفة تَحْريكه ، وطَعَن بحر المغرب إلى ساحل أزمور[6] ، وأقام به منتظراً إلى إنجاز المواعد ، ممن بمرّاكش ، فألفى [الناس][7] قد حَطَبوا فى حَبْل منصور بن سليمان ، وبايعوه بجملتهم ، فأخفق مسعاه ، وأخلف ظنه ، وقد أخذ منصور بمُخَنَّق البلد الجديد دار مُلْك فاس[8] ، واستوثق له الأمر ،

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة . (أصل) وقد رجحنا هذا التصويب لأنه أنسب للسياق .

(٢) وردت محرفه فى المخطوطين : قلقه . وفى « ت » وقلمت .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » والملكية الرسائل . والأولى أرجح .

(٤) هذه الكلمة واردة فى « ج » و « ت » ، وساقطة فى « ك » .

(٥) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة : فى « ج » و«ك» والملكية ، رحلونه . وفى «ت» رجوله . والصواب (برجلونه) أو برشلونة ، وهى يومئذ عاصمة مملكة أراجون .

(٦) أزمور أوأزمورة من ثغور المغرب الأقصى الغربية ، وتقع شمالا على المحيط بعد رباط الفتح شمالى مراكش .

(٧) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٨) وردت فى « ج » دار ملك فارس ، وهو تحريف ،والمقصود فاس . والبلد الجديد ضاحيتها الملكية ، وكانت مقر ملك بنى مرين .

فانصرف الجَفْنُ أدراجه . ولما حاذى لبلاد غُمارة من أحواز أصِيلاَ[١] ، تنادوا به[٢] قومٌ منهم . وانحدروا إليه ، ووعدوه الوفاء له ، فنزل إليهم ، واحتملوه فوق أكْتَادهم ، وأحدقوا[٣] به فى سفح[٤] جبلهم . وتنافسوا فى الذّب عنه . ثم كَبَسُوا[٥] أصِيلاً فملكوها [وضُيِّق بطنجة][٦] ، فدخلت فى أمره ، واقتدت بها سَبْتة ؛ وجبل الفتح ؛ واتصل به بعض الخاصة ، وخاطبة الوزير المحصور . وتخاذَل أشياع منصور ، فخذلوه[٧] ، وفروا عنه جهاراً ، بغير علَّة ، وانصرفت الوجوه إلى السلطان أبى سالم . فأخذ بيعاتهم عَفْواً[٨] ، ودخل البلد المحصور ، وقد تردد بينه وبين الوزير المحصور . مخاطبات فى رد الدعوة إليه ؛ فدخل البلد يوم الخميس خامس عشرة شعبان من عام التاريخ ؛ واستقر[٩] وجدّد الله عليه أمره ، وأعاد ملكه ، وصرف عليه حقّه ؛ وبلى[١٠] هذا الأمير من سير الناس إلى تجديد عهد أبيه ، وطاعتهم إلى أمره ، وجنوحهم إلى طاعته ، وتمنِّي مدته ؛ حال[١١] غريبة ، صارت عن كَثَب إلى أضدادها ، فصرف ولده إلى اجتثاث شجرة أبيه ، فالتقط من الصِّبية بين مُراهق ومُحتلم ومُسْتجمع ، طائفة تناهز العشرين ؛ غلماناً

---

(١) هى من ثغور المغرب الأقصى الغربية . وتقع على المحيط جنوبى طنجة .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » تنادر . والأصوب أن يكون الفعل بالمفرد . ولكنه يرد قبل الفاعل بالجمع فى أحيان كثيرة . وهذه خاصة فى بعض الأساليب الأندلسية المتأخرة .

(٣) وردت فى المخطوطين : وأحزنوا . والتصويب من « ت » .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » سطح .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة : كسبوا . وهو تحريف ظاهر .

(٦) وردت فى المخطوطين : (وصينوا لطنجة) وهو تحريف . والتصويب من « ت »

(٧) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » (فغدروه) والمعنى واحد .

(٨) هكذا وردت فى « ج » و « ت » . وفى « ك » عنوا .

(٩) هكذا فى المخطوطين : وفى « ت » واستنقذ

(١٠) هكذا فى المخطوطين وفى « ت » وأخذ .

رَدَنَة ، قُتلوا إغراقاً من غير شُفْعَة[1] توجب إباحة قطرة من دمائهم ، ورأى أن قد | خلاله الجو|[2] ، فتواكل ، وآثر الحجْبَة . وأشرك الأيدى فى مُلْكه ؛ فاستبيحت أموال الرعايا ، وضاقت[3] الجبايات . | وكثرت الظلامات |[4] . وأخذ الناس حرمانُ العطاء ، وانفتحت أبواب الإرجاف . وحُدت [أبواب][5] القواطع . إلى أن كان من أمره ما هو معروف .

وفى أول من شهر رجب عام واحد وستين وسبعمائة . تحرّك الحركة العظمى إلى تلمسان . وقد استدعى الجهات ، وبعض البلاد . ونهَدَ فى جيوش تجرُّ الشوك والحَجَر ، ففر سلطانها أمام عزمه[6] ، وطار الذعر بين يدى الضّلالة ؛ وكنا قد استغثنا القرار فى إيالته[7] ، وانتهى بنا الإزعاج إلى ساحل سَلاَ من ساحل مملكته ؛ فخاطَبْتُه وأنا يومئذ مقيم بتُربة أبيه . مُتذمِّمٌ بها . فى سبيل استخلاص أملاكى بالأندلس ، فى غرض التهنئة والتوسُّل :

«مولاى ، فتّاحُ الأقطار والأمْصار ، فائدة الزمان والأعْصار ، أثيرُ هِبات الله الآمنة من الاعْتِصار ، قدوةُ أولى الأيدْى والأبصار » .

وفاته

وفى ليلة العشرين من شهر ذى قعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة ، ثار عليه

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » و « ت » شفقة . والأولى أنسب للسياق .
(٢) وردت محرفة فى المخطوطين هكذا : (حلا له الحق) .
(٣) هكذا فى « ت » . وفى « ج » ، وصوبقت . وفى « ك » وصربقت .
(٤) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين : (وكثر الظلمات)
(٥) هذه الكلمة ساقطه فى « ك » . وواردة فى الأخرين .
(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » العزم .
(٧) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » أظله .

بدار المال . وبلد الإمارة المعروف [بالبلد الجديد][(١)] . من مدينة فاس . الغادر[(٢)] مُخْلِفَهُ عليها عمر بن عبد الله بن على . نَسَمَةَ السوء ، وجُمّاع الشؤم . المثل البعيد فى الجرأة على قدر . اهتبل[(٣)] غرة انتقاله . إلى القصر السلطانى . بالبلد القديم . مُحْتولا إليه . حَذِراً من قاطع فلكىّ [الجدر منه][(٤)] استعجله ضعفُ نفسه . وأعانه على فرض صحته به . وسدَّ الباب فى وجهه ، ودعا الناس إلى بيعة أخيه المعتوه ، وأصبح حائراً بنفسه ، يروم استرجاع أمر ذهب من يده . ويطوف بالبلد . يلتمس وجهاً إلى نجاح حيلته[(٥)] . فأعياه ذلك . ورَشَقت مَنْ معه السهام . وفرّت عنه الأجناد والوجوه ، وأسلمه الدهر ، وتبرأ منه الجدُّ ، وعندما جنَّ عليه الليل ، فرّ على وجهه ، وقد التفت عليه الوزراء . وقد سُفِّهت أحلامهم . وفالت آراؤهم ، ولو قصدوا به بعض الجبال المنيعة ، لولّوا وجوههم شطر مظنّة الخلاص ، واتصفوا بعذار الإقلاع[(٦)] ، لكنهم نكلوا عنه . ورجعوا أدراجهم . وتسللوا راجعين إلى برٍّ غادرٍ[(٧)] الجُمْلة . وقد سلبهم الله لباس الحياء والرُّجلة[(٨)] . وتأذّن الله لهم بسوء العاقبة ، وقصد بعضَ بيوت البادية ، وقد فضحه نهار الغداة[(٩)] .

---

(١) وردت هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : «البلد القديم الجديد » وعلى كلمة القديم علامة تدل على الشك . والصواب ما أثبتناه .

(٢) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين : العاد : وفى « ت » : المعادى . وفى الملكية« الغادى» والتصويب أرجح للسياق .

(٣) أى احتال واغتنم .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين والملكية . وفى « ت » (الجد رقية) . هو حذره من نبوءة على حتفه .

(٥) هكذا فى « ت » : وفى المخطوطين : حابه .

(٦) هكذا فى الملكية . وفى « ج » بعذار الإبلاغ . وفى « ت » بعذر الإبلاغ

(٧) هكذا وردت فى « ج » وفى « ت » (من عادر) وفى « ك » (من عادى) . وهو تحريف .

(٨) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (الرحلة) . والرجله أى الرجولة .

(٩) هكذا وردت فى « ت » . ووردت محرفة فى المخطوطين : (العدو) .

واقتفى البعث[1] أثره ، حتى وقعوا عليه ، وسِيق إلى مصرعه ، وقُتل بظاهر البلد ، ثاني اليوم الذي كان غدر فيه ، جعلها الله له شهادة [ونفعه بها][2] ، فلقد كان بقيّة البيت ، وآخر القوم ، دماثة وحياء ، وبُعْداً عن الشر ، ورُكوناً للعافية .

وأنشدتُ على قبره الذي ووريت به جثّته بالقلعة من ظاهر المدينة ، قصيدة أدّيت فيها بعض حقه :

بنى الدنيا بنى لَمْع السَّراب   لِدُوا للموت وابْنوا للخراب

إبراهيم بن يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص
عمر بن يحيى الهنتاني ، أبو إسحاق

أمير المؤمنين بتونس ، وبلاد إفريقية ، ابن الأمير أبي زكريا ، أمير إفريقية ، وأصل الملوك المُتأثّلين العزّ بها ، والفرع الذي دَوَّح بها ، من فروع الموحّدين بالمغرب ، واستِجلابُه بها أبا محمد عبد المؤمن بن على ، أبا الملوك من قومه ، وتغلبُ ذريته على المغرب وإفريقية والأندلس معروف كله ، يفتقر بسطه[3] إلى إطالة كثيرة ، تخرج عن الغرض .

وكان جدُّ هؤلاء الملوك من أصحاب المهدى ، في العشرة الذين [هبُّوا لبيعته][4]

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » (اتبعت) . وساقطة فى « ت » والملكية .

(٢) وردت فى المخطوطين . وأغفلت فى « ت » .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : سبطه .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى « ك » . وفى « ج » (هبوا لبيعته) . وفى « ت » (هيوءالبمه) وفى الملكية (هبوا البيعة) .

وصَحِبوه فى غُربته ، أبو حفص ، عمر بن يحيى ، ولم يزل هو وولده[1] من بعده ، مرفوعَ القَدْر ، معروف الحق .

ولما صار الأمر للناصر أبى عبد الله بن المنصور ، أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن بن على ، صرف وجهه إلى إفريقية ، ونزل بالمَهْدِيّة ، وتلوَّك[2] إليه ابن غانية[3] فيمن لفَّه من العرب والأوباش ، فى جيش يسوق الشجر والمَدَر ، فجهز إلى لقائه عسكراً لنظر الشيخ أبى محمد عبد الواحد[4] بن أبى حفص ، جدهم الأقرب ، فخرج من ظاهر المهدية فى أُهْبة ضخمة ، وتَعْبِية[5] مُحكمة ، والتقى الجمعان فكانت على ابن غانية ، الدايرة ، ونُصر الشيخ محمد نصراً لا كفاء له ، وفى ذلك يقول أحمد بن خالد من شِعْر عندهم :

فتوحٌ بها شُدَّت عرى الملك والدين ... تراقب مَنّا منكم غير مَمْنُون

وفُتحت المهدية على هيئة ذلك الفتح ؛ وانصرف الناصر إلى تونس ؛ ثم تفقد

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة : ووالده . وهو تحريف ظاهر .

(٢) وردت فى المخطوطين : (وقلول) . وهو تحريف . وفى « ت » والملكية (وآتى) وهى فى حيز هذا المعنى .

(٣) هو يحيى بن إسحاق المسوفى المعروف بابن غانية الميورقى ، من أسرة بنى غانية وهم أسرة من القواد المرابطين اشتهرت بالمغرب والأندلس . وكان بنو غانية حينما انهارت دولة المرابطين فى المغرب والأندلس ، قد استولوا على الجزائر الشرقية (وكبراها ميورقة) وأقاموا بها دولة مستقلة ، ووضعوا خطتهم لمناوأة الدولة الموحدية ، وضرب سلطانها فى أفريقية أهم ولاياتها الشرقية . ونجح بنو غانية فى تنفيذ خطتهم مدى حين . واستولوا بالتحالف مع الأعراب الحمليين على معظم ثغور ومدن إفريقية ومن بينها العاصمة تونس . ولبثت الدولة الموحدية ترسل لقتالهم البعوث دون جدوى . حتى كانت الحملة التى قادها الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص ، فاستطاع أن يسحق قوى يحيى بن غانية فى موقعتين : الأولى سنة ٦٠٢ هـ ، والثانية فى سنة ٦٠٦ هـ . وسحقت بذلك مغامرات بنى غانية فى إفريقية .

(٤) وردت فى المخطوطين (أبى محمد بن عبد الواحد) . وفى « ت » عبد المؤمن . وهو تحريف ظاهر .

(٥) وردت فى المخطوطين وكذا فى الملكية : وتبعية .

البلاد ، وأحكم ثقافها[١] ، وشرع فى الإياب إلى المغرب ، وترجّح عنده تقديم أبى محمد بن أبى حفص المصْنُوع له بإفريقية ، على مُلْكها ، مستظهراً منه بمضاء وسابقة وحزم ، بسط يده فى الأموال ، وجعل إليه النظر فى جميع الأمور ، سنة ثلاث وستمائة . ثم كان اللقاء بينه وبين ابن غانية فى سنة ست بعدها ، فهزم ابن غانية ، واستولى على محلته ، فاتصل سعده ، وتوالى ظُهره ، إلى أن هلك مشايعاً لقومه من بنى عبد المؤمن ، مظاهراً بدعوتهم عام تسعة وعشرين وستمائة[٢] .

وولى أمره بعده ، كبيرُ ولده ، عبد الله ، على عهد المستنصر بالله بن الناصر من ملوكهم ، وقد كان الشيخ أبو محمد زُوحم ، عند اختلال الدولة ، بالسيد أبى العلاء الكبير ، عم أبى المستنصر على أن يكون له اسم الإمارة بقَصَبة تونس ، والشيخ أبو محمد على ما لسائر نظره ، فبقى ولده عبد الله على ذلك بعد ، إلى أن كان ما هو أيضاً معروف من تصيّر الأمر إلى المأمون أبى العلاء إدريس ، ووَقْعه السيْف فى وجوه الدولة بمراكش ، وأخذه بثَرّة[٣] أخيه وعمه منهم . وثار أهل الأندلس على السيد أبى الربيع بعده بإشبيلية وجَعْجَعوا[٤] بهم ، وأخذوا فى التشريد بهم ، وتبديد دعوتهم ، واضطربت الأمور ، وكثُر الخلاف ، ولحق الأمير أبو زكريا بأخيه بإفريقية ، وعرض عليه الاستبداد . فأنِف من ذلك . وأنكره عليه إنكاراً شديداً ، خاف منه على نفسه ، فلحق بقابِس فارًّا . واستجمع بها مع شيخها مَكّى . وسلف شيوخها اليوم من بنى مكى ، فمهّد له ، وتلقاه بالرحب ، وخاطب له الموحدين سرًّا . فوعدوه بذلك ، عند خروج عبد الله من تونس إلى الحركة ،

---

(١) ثقافها أى تحصينها . وقد وردت محرفة فى « ت » ثقاتها .

(٢) هذا سهو تاريخى وقع فيه ابن الخطيب . والحقيقة أن وفاة الشيخ أبى محمد عبد الواحد وقعت فى سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » (بثرة) . والثرة الطفة الكثيرة الدم . والمقصود هنا الأخذ بالثأر .

(٤) هكذا وردت فى « ك » ؛ وفى « ج » والملكية وجمعوا . والأولى أنسب للسياق .

من جهة القيروان . فلما تحرك [نحوا عليه](١) ، وطلبوا منه المال ، وتلكأ ، فاستدعوا أخاه الأمير أبا زكريا ، فلم يَرُعه وهو قاعد فى خبائه آمِنٌ فى سربه ، إلا ثورة الجند به ، والقبض عليه ، ثم طردوه إلى مراكش ، وقعد أخوه الأمير أبو زكريا مقعده ، وأخذ بيعة الجند والخاصّة لنفسه ، مستبدًّا بأمره ، ورحل إلى تونس ، فأخذ بيعة العامة ، وقتل السّيد الذى كان بقصبتها ، وقبض أهل بجاية حين بلغهم الخبر على واليها السّيد أبى عمران ، فقتلوه تغريقاً ، وانتظمت الدولة(٢) ، وتأثل الأمر ، وكان حازماً داهية مشاركا فى الطّلب أديباً راجح العقل ، أصيل الرأى ، حسن السياسة ، مَصْنوعاً له ، مُوفقاً فى تدبيره ، جبى(٣) الأموال ، واقتنى العُدَد ، واصطنع الرجال ، واستكثر من الجيش ، وهزم العرب ، وافتتح البلاد ، وعظُمت الأُمْنَة بينه وبين الخليفة بمراكش الملقب بالسّعيد ، وعزم كل منهما على ملاقاة صاحبه ، فأبى القَدَر ذلك ، فكان من مهلك السعيد بظاهر تِلِمْسان ما هو معروف ، واتصل بأبى زكريا هَلاكُ ولده ولى العهد أبى يحيى ببجاية ، فعظم عليه حزنه وأفرط جزعُه ، واشتهر من رثائه فيه قوله :

ألا جازِعٌ يبكى لفَقْد حبيبه ... فإنى لعَمْرى قد أضرَّ بى الثُّكْلُ
لقد كان لى مالٌ وأهل فقدتُهُم ... فهأنا لا مالٌ لدَىَّ أهل ولا أهل
سأبكى وأرثى حسْرَةً لفراقهم ... بكاء قريحٍ لا يَمَلُّ ولا يَسْلُ
فلَهْفِى(٤) ليوم فرَّق الدهر بيننا ... ألا فَرَجٌ يرُجى فينتظم الشّمل
وإنى لأرضى بالقضاء وحكمه ... وأعلم ربى أنه حاكم(٥) عَدْل

---

(١) هكذا وردت فى « ج » والملكية . وفى « ك » ، نحوا عنه . والأولى أنسب للسياق .
(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » الدعوة . والأولى أنسب للسياق .
(٣) وردت فى المخطوطين : (مجبى) . والمعنى يستقيم بالتصويب .
(٤) وردت فى « ج» فلهجى . والتصويب فى الملكية .
(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، حكم . وبالأولى يستقيم الوزن .

نسبه(١) ابنُ عَذارى المراكشي فى البيان المُغْرِب . واعتلّ بطريقه فمات ببلد العُنّاب لانقضاء أربعة من مهلك السعيد، وكان موت السعيد، يوم الثلاثاء، مُنْسَلخ صفر سنة ست وأربعين وستمائة . وبويع ولده الأمير أبو عبد الله بتونس وسنه إحدى وعشرين سنة، فوجد مُلكاً مُؤسساً، وجُنْداً مجنّداً، وسلطاناً قاهراً، ومالا(٢) وافراً، فبلغ الغاية فى الجبَروت والتِّيه والنَّخوة والصَّلف، وتسمى بأمير المؤمنين . وتلقب(٣) بالمستنصر بالله ؛ ونَقِم(٤) عليه أرباب دولته أموراً ، أوْجَبت مداخلة عمه أبى عبد الله بن عبد الواحد المعروف باللحيانى ومن إليه سراًّ بداره . وانتهى الخبر للمستنصر . فعاجل الأمر قبل انتشاره برأى الحَزَمة من خصّته ، كابن أبى الحسين . وأبى جميل بن أبى الكَمالات بن مَرْدَنيش . وظافر الكبير ، وقصدوا دار عمه فكبسوها(٥) . فقتلوا من كان بها ، وعدّتهم تناهز خمسين ، منهم عمه ؛ فسكن الإرجاف . وسَلِم المنازع . وأعطت مقادها(٦) ، واستمرت أيامه . وأخباره فى الجود والجُرأة . والتعاظم على ملوك زمانه . مشهورة . وكانت وفاته سنة أربع وسبعين وستمائة . [وولى أمره](٧) بعده ابنه الملقب بالواثق بالله . وكان مَضْعوفاً(٨) ، ولم تطل مدته .

عاد الحديث ، وكان عمه المُترجَم ، لما اتصل به مهلك أخيه المستنصر ، قد أجاز البحر من الأندلس ، ولحق بتلمسان ، وداخل كثيراً(٩) من الموحّدين بها ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : نسب . فى الملكية نسب ذا ، وبالتصويب يستقيم الكلام نوعاً .

(٢) وردت فى المخطوطين : وآمالا .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ح » تقلب .

(٤) وردت فى المخطوطين والملكية : ونظم . والتصويب من « ت » .

(٥) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين : (فجا مكسبوها) وهو تحريف ظاهر .

(٦) هكذا وردت فى « ح » والملكية . وفى « ك » مقالدها . والمعنى واحد .

(٧) هكذا وردت فى « ج » . ووردت محرفة فى « ك » (ووامره) .

(٨) هكذا وردت فى المخطوطين . وهى كلمة يكثر المؤلف من استعمالها .

(٩) فى المخطوطين : كثير .

كأبى هلال ، فهيّأ له أبو هلال تملّك بجاية ، ثم تحرك إلى تونس،فتغلب عليها ، فقتل الواثق،وطائفة من إخوته وبنيه،منهم صبيٌّ يسمى الفضل ، وكان أنهضهم [1]، واستبدّ بالأمر ، وتمّت بيعته بإفريقية ، وكان من الأمر مايذكر .

حـاله

كان أيِّدا [2]، جميلا وسيما ، رَبْعَة بادنا ، آدَمَ اللون ، شجاعاً بُهْمَةً ، عَجِلاً غير مرَاخٍ [3] ، ولا حازم ، منحطًّا فى هوى نفسه ، مُنْقاداً للَّذة ، بريئاً من التشمُّت فى جميع أمره . وولى الخلافة فى [4] حال كبَرِه ، ووخطه الشيبُ ، وآثر اللهو ، حتى زعموا أنه فُقِد [فوُجِد] [5] فى مزرعة باقلاً مزهرةٍ أُلفى فيها بعد جهد ، نائماً بينها، نشوان يتناثر [6] عليه سقْطُها ، واحتجب عن مباشرة سلطانه ، فزعموا أن خالصته [7] [أبا الحسن بن سهل ، داخل الناس بولده أبى فارس] [8] فى خلعه ، والقيام مكانه ، وبلغه ذلك ، فاستعدّ وتأهّب ، واستركب الجند ، ودعا ولده ، فأحضره ينتظر الموت من يمينه وشماله ، وأمر للحين فَقُتل وطرح بأزقّة المدينة ، وعجّل بإزعاج ولده إلى بجاية ، وعاد إلى حاله .

دخوله غرناطة

قالوا ، ولما أوقع الأمير المستنصر بعمّه أبى عبد الله ، كان أخوه أبو إسحاق،

---

(١) هكذا فى « ج » والملكية . ومكانها بياض فى « ك » .

(٢) أيداً . أعنى قوياً .

(٣) وردت فى « ج » مراحاً . وفى « ك » مرحاً . والتصويب من الملكية .

(٤) وردت فى المخطوطين بعد فى ، كلمة (كل) وهى هنا حشو لا محل له فأسقطناها . وهى ساقطة بالفعل فى الملكية .

(٥) ساقطة فى المخطوطين . والإضافة . من « ت » .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة : بناثر . وهو تحريف .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » خاصة . والمقصود هنا ، صفيه وموضع ثقته .

(٨) هكذا ورد ما بين الحاصرتين فى « ت » وفى « الملكية » ووردت فى المخطوطين (أبا الحسن بن سهيل الناس داخل ولده أبا فارس) والأول أرجح .

ممن فرَّ بنفسه إلى الأندلس ، ولجأ إلى أميرها أبى عبد الله بن الغالب بالله أبى عبد الله [بن][(١)] نصر ، ثانى ملوكهم[(٢)] فنوَّه به ، وأكرم نزله[(٣)] ، وبوَّأه بحال عنايته ، وجعل دار ضيافته لأول نزوله القصر المنسوب إلى السَّيد[(٤)] خارج حضرته ، وهو آثرُ قصوره لديه ، وحضر غزوات أغزاها ببلاد الروم ، فظهر منه فى نكاية العدو وصدامه [سهولة وغناء][(٥)] .

ولما اتصل به موت أخيه تعجَّل الانصراف ، ولحق بتلمسان ، وداخل منها كبيراً من الموحدين ، يعرف بأبى هلال[(٦)] بباجة[(٧)] كما تقدم ، فملَّكه أبو هلال منها بجاية ، ثم صعد[(٨)] تونس فملكها ، فاستولى على مُلك ابن أخيه [وما ثَمَّ من ذمَّة][(٩)] ، وارتكب الوزْر[(١٠)] الأعظم فيمن قُتل معه ، وكان من أمره ما يأتى ذكره إن شاء الله .

إدبار أمره بهلاكه على يد الدعيّ الذى قيَّضه الله [لهلاك حينه][(١١)]

قالوا ، واتَّهم بعد استيلائه على الأمر فتًى من أخِصَّاء[(١٢)] فتيان المستنصر ، اسمه

---

(١) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة ويقتضيها السياق .

(٢) هذا السلطان هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن الأحمر . حكم مملكة غرناطة بعد وفاة أبيه مؤسس المملكة فى سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) حتى سنة ٧٠١ ، (١٣٠٢ م) . وكان يلقب بالفقيه لعلمه وتقواه .

(٣) فى الملكية مثواه والمعنى واحد .

(٤) هو القصر الذى ماتزال بقية منه تقوم حتى اليوم خارج غرناطة . ويعرف عند الإسبان بقصر شنيل Alcazar Genil . وقد سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ١١٩) .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (وسهولة عنا) . وهو تحريف .

(٦) وردت هذه العبارة فى « الملكية » كالآتى : (وداخل منها كبيرا من الموحدين كأبى هلال بباجة) .

(٧) وردت فى « ج » (ببجاية) وهو تحريف . وباجة هى بلدة أخرى غير بجاية ، تقع غربى تونس .

(٨) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : صعد ، وهو تحريف .

(٩) هكذا فى « ك » وفى « ت » . وفى « ج » والملكية (وما ثم من ذمه) .

(١٠) وردت فى الثلاثة : الوزير ، وهو تحريف ظاهر .

(١١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » (بهلاك حينه)

(١٢) هكذا وردت فى المخطوطين وفى « ت » (خصيات)

نُصير ، بمال وذخيرة ، وتوجه إليه طلبُه ، ونال منه . وانتهز القتى فرصةً لحق فيها بالمغرب واستقر [بحلال المراعة] [1] من عرب دَبّاب ، وشارع الفساد عليه ، بجملة جهده ، حريصاً على إفساد أمره ، وعثر لقضاء الله وقدره بدَعِيّ [2] من أهل بجاية يعرف بابن أبي عمارة .

حدثني الشيخ المُسِن الحاج أبو عثمان اللّواتي من عدول المياسين [3] ، متأخر الحياة إلى هذا العهد ، قال خُضْتُ [4] مع ابن أبي عمارة ببعض الدكاكين بتونس ، وهو يتكهَّن لنفسه ما آل إليه أمره ، ويعد بعض ما جرى به القدر ، وكان أشبه الخلق بأحد الصبية الذين ماتوا [5] ذبحاً ، بالأمير أبي إسحاق ، وهو الفضل ، فلاحت لنُصيرَ وجهُ حيلته [6] ، فبكى حين رآه ، وأخبره بشَبَهه بمولاه ، ووعده الخلافة ، فحرك نَفْساً مُهيأة [7] في عالم الغيب المحجوب إلى ما أبرزته المقادر [8] ، فوجده منقاداً لهواه ، فأخذ في تلقينه ألقاب المُلْك ، وأسماء رجاله ، وعوايده ، وصفة قصوره ، وأطلعه على إمارات جرت من المستنصر لأمراء العرب ، سرًّا كان يعالجها نُصير ، وعرَضَه على العرب ، بعد أن أظهر العويل ، ولبس الحداد ، وأركبه ، وسار بين يديه حافياً ، حُزْناً لما ألفاه عليه من المضْيعة ، وأسفاً لما جرى عليه ، فبايعته العرب النَّافرة ، وأشادوا بذكره ، وتقوَّوا بما قرره من إمارته ، فعظُم أمره . واتصل بأبي إسحاق نبأه فبرز إليه ، بعد استدعاء ولده من بِجاية ، فالتقى الفريقان ، وتمت على الأمير أبي إسحاق الهزيمة ، وَاستَلْحم الكثير ممن كان معه ؛ وهلك ولده .

---

(١) هكذا وردت في المخطوطين والملكية . وفي « ت » (بحلال المراعة)

(٢) وردت هذه الكلمة في المخطوطين : (يعمى) . وفي « ت » (بد) . وهو تحريف ، والصواب ما أثبتناه ، وهو اللقب الذى عرف به ابن أبي عمارة .

(٣) المرجح أن هذه الكلمه اسم موضع ، ونذكر أنه يوجد بمراكش حي يسمى حي المواسين

(٤) وردت في المخطوطين : (حطت) . وفي « ت » (خطت) . والتصويب أرجح .

(٥) وردت في المخطوطين و« الملكية » : (نوا) فقط . وهو سهو ظاهر .

(٦) هكذا وردت في و«الملكية » . وفي «ح» (حبلمة) وفي «ك» (حبلة) . وفي« ت» (حليته) . والأولى أرجح .

(٧) وردت في المخطوطين : (مهيآت) وهو تحريف .

(٨) هكذا في المخطوطين . وفي « ت » المقابر . وهو تحريف .

ولجأ أخوه الأمير أبو حفص لقلعة سنان. وفرّ هو لوجهه حتى لحق ببجاية، وعاجله ابن أبى عمارة؛ فبعث جريدة من الجند[1] لنظر أشياخ من الموحّدين، أغرت[2] إليهم الإيقاع، فوصلت[3] إلى بجاية؛ فظن من رآه من الفَلّ المنهزم، فلم يعترضه مُعترض عن القَصَبة. وقُبض على الأمير أبى إسحاق، فطوّقه الحِمام، واحتُزّ رأسه، وبُعث إلى ابن أبى عمارة به؛ وقد دخل تونس، واستولى على مُلكها، وأقام سنين ثلاثة، أو نحوها [فى][4] نعماء لا كفاء له، واضطلع بالأمر. وعاث فى بيوت أمواله، وأجرى العظائم على نسائه ورجاله إلى أن فشا أمره، واستقال[5] الوطن من ثمرته[6] فيه؛ وراجع[7] أرباب الدولة بصايرهم فى شأنه، ونهد[8] إليه الأمير أبو حفص طالباً بثأر أخيه، فاستولى، ودحض عاره، واستأصل شأفته، ومثل به؛ والمُلك لله، الذى لا تزن الدنيا جناح بعوضة عنده.

وفى هذا قلت عند ذكر أبى حفص فى الرجز المسمى [بنظم][9] الملوك، المشتمل على دول الإسلام أجمع؛ على اختلافها إلى عهدنا. فمنه فى ذكر بنى حفص:

وأوّلهم يحيى بن عبد الواحد ... وفضلهم ليس له من جاحد
وهو الذى استبدّ بالأمور ... وحازها ببَيْعة الجُمهور
وعظُمت فى صُقعه آثارُه ... ونال مُلكاً عالياً مقدارُه

(١) وردت فى «ت» الخبر. وهو تحريف واضح.
(٢) فى المخطوطين : أوغرت. والتصويب من «ت».
(٣) فى المخطوطين : فوصل. والتصويب من «ت».
(٤) واردة فى «ت» وساقطة فى «الملكية» ومكانها فى المخطوطين، (سك) وهما حرفان لا معنى لهما هنا.
(٥) هكذا وردت فى المخطوطين. وفى «ت». استقل.
(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (ثمرته). والتصويب أنسب للسياق.
(٧) هكذا فى المخطوطين. وفى «ت» وراجعت.
(٨) هكذا فى المخطوطين. وفى «ت» والملكية : نهض، والمؤدى واحد.
(٩) هكذا فى «ت» و «الملكية». وفى المخطوطين بقطع. والمقصود هنا كتاب ابن الخطيب المسمى (رقم الحلل فى نظم الدول). وقد سبقت الإشارة إلى غير مرة.

ثم تولى ابنه المستنصر وهو الذى عَلْياه لا تَنْحصر
أصاب ملكا رئيساً[١] أوطانه وافق عزًّا سامياً سُلطانه
ودولةً أموالها مجموعة وطاعةً أقوالها مسموعة
فلم تَخَفْ من عمدها انتكاثاً وعاث فى أموالها عِيَاثا
هبَّت بنصر عزِّه الرياح وبقيت بسعده الرِّماح
حتى إذا أدركه شَرَك الرَّدى وانتحب النَّادى عليه والنَّدا
قام ابنه الواثق بالتَّدبير ثم مضى فى زمن يسير
سطا عليه العمُّ إبراهيم والمُلْك فى أربابه عقيم
وعن قريبٍ سلب الإمارة عنه الدعىُّ[٢] ابن أبى عمارة
عَجيبةٌ من لَعِب الليالى ماخَطَرت[٣] لعاقل ببال
واخْتَرَمَ السيف أبا إسحاقا أباهلال لَقِىَ المَحَاقا
واضطربت على الدَّعى الاحوا ل والحق لايغلبه المحال
ثم أبوحفص سما عن قرب وصيَّر الدَّعى رهين[٤] التُّرب
ورجع الحق إلى أهليه وبعده محمد يليه

وهذه الأمور تستدعى الإطالة ، مخلةٌ بالغرض ، ومَقْصِدى أن أستوفى ماأمكن من التواريخ التى لم يتضمنها ديوان ، وأختصر ماليس بقريب[٥] ؛ والله ولى الإعانة[بمنه][٦] .

---

(١) هكذا فى «ت» ، و«ج» . وفى «ك» : رايسا .
(٢) هكذا وردت فى «ت» . وفى المخطوطين : الداعى .
(٣) وردت فى المخطوطين : خاطرت .
(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : وهق ، وهو تحريف .
(٥) وردت فى المخطوطين : بغريب . والتصويب أنسب السياق .
(٦) وردت فقط فى «ج» .

إبراهيم بن محمد بن أبى القاسم بن أحمد بن محمد ابن سهل بن مالك بن أحمد بن إبراهيم بن مالك الأزدى

يُكنى أبا إسحاق .

أوليتـــــه

منزلُ جدِّهم الداخل إلى الأندلس ؛ قرية « شون »[1] من عمل ، أو قيل من إقليم إلبيرة . قال [ابن البستى][2] : بيتهم فى الأَزْد ، ومجدهم ما مثله مجد . حازوا الكمال[3] ، وانفردوا بالأصالة والجلال ، مع عفّة وصيانة ووقار ، وصلاح وديانة ، نشأ على ذلك سلفُهم ، وتبعهم الآن خلفُهم . وذكرهم مُطَرِّف بن عيسى فى تاريخه[4] ؛ فى رجال الأندلس ؛ وقال ابن مَسْعدة[5] ، وقفت على عَقْد قديم لسلفى ؛ فيه ذُكر محمد بن إبراهيم بن مالك الأَزْدى ، وقد حُلِّى فيه بالوزير الفقيه أبى أحمد بن الوزير الفقيه أبى عمرو إبراهيم . وتاريخ العقد سنة ثلاث وأربعمائة ؛ فناهيك من رجال تَحَلُّوا[6] بالجلالة والطهارة منذ أزيد من أربعمائة سنة ؛ ويُوصفون

---

(١) سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١٢٩) .

(٢) وردت فى المخطوطين : ابن البسر . والمرجح أنه ابن البستى ، وهو من أدباء الأندلس فى القرن الثالث الهجرى .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ح » : الكلام .

(٤) مطرف بن عيسى الغسانى من أدباء غرناطة فى القرن الرابع الهجرى . وقد صنف كتاباً عن « فقهاء إلبيرة » ، وآخر عن شعرائها .

(٥) سبق أن وردت ترجمة ابن مسعدة (ص ١٦٢ – ١٦٦) . وأورد ابن الخطيب ثبت مؤلفاته (ص ١٦٤) .

(٦) وردت فى المخطوطين : تجاوا . والتصويب أرجح .

فى عقودهم بالفقه والوزارة منذ ثلاثمائة [سنة][1] فى وقت كان فيه هذا المنصب فى تَحْلية الناس ، ووصفهم ، فى نهاية من الضَّبط والحِرْز[2] ، بحيث لا يُتَّهم فيه بالتَّجاوُز لأحد ، لاسيا فى العقود ، فكانوا لايصفون فيه الشخص إلا بما هو [الحقُّ فيه][3] والصدق؛ وما كان قصدى فى هذا إلا أن شَرَفَهم غير واقف عليه ، أو مستندٌ فى الظهور إليــه ؛ بل ذكرهم على قديم الزمان شهير وقَدْرهم خطير .

قلت ، ولما عُقد لولدى عبد الله أسْعَده الله ، على بنت الوزير أبى الحسن بن الوزير أبى الحسن القاسم[4] [بن][5] الوزير أبى عبد الله بن الفقيه العـالم الوزير[6] ، حَزْمِ فخارهم ، ومُجدِّدِ آثارهم ، أبى الحسن سهل بن مالك ، خاطبتُ شيخنا أبا البركات بن الحاجّ ، أعرض ذلك عليه ؛ فكان من نص مراجعته[7] ، فسبحان الذى أرشدك لبيت السِّتر والعافية والأصالة ، وشحوب[8] الأبرار ، قاتلك الله ما أجلَّ اختيارك . [وخَلَفُ][9] هذا البيت الآن على سُنَن سلفهم من التحلِّى بالوَزارة ، والاقتياد من العظمة الزاكية ، والاستناد القديم الـكريم ،

---

(١) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الحوز .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » : حق به . وفى « الملكية » أحق به . والأولى أوجح وأنسب للسياق .

(٤) وردت بعدها كلمة (الوزير) أكثر من مرة . والظاهر أنها وردت سهو إذ لا محل لها هنا وورودها قبل الاسم ولهذا أغفلناها .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى « ت » . ووردت فى « ج » إبى . وفى « ك » بن أبى . وهو اضطراب فى النسخ لا يعتد به .

(٦) هذه الكلمة ساقطة فى « ت » .

(٧) وردت فى المخطوطين : فراجعته . والتصويب من « ت » .

(٨) هكذا وردت فى « ج » و « ك » وكذا فى الملكية . ووردت فى « ت » سحوب .

(٩) وردت فى المخطوطين : وخف . وفى « ت » وحق . وهو تحريف وسحكه ، التصويب واضحة .

واغتنام العمر بالنُّسك ، عناية من الله اطَّرد[1] لهم قانونها ، واتصلت عادتها والله ذو الفضل العظيم .

حـــاله

كان من أهل السرِّ والخصوصيَّة ، والصَّمت والوقار ، ذا حظ وافر من المعرفة بلسان العرب ، ذكيّ الذهن ، متوقد الخاطر ، مليح النادرة ، شَنْشَنته معروفة فيهم . سار بسيرة أبيه ، وأهل بيته ، فى الطهارة والعدالة ، والعفاف والنزاهة .

« وفاته »[2] : . . . . . .

إبراهيم بن فرج بن عبد البر الخولانى

من أهل قرطبة ، يُكنى أبا إسحاق ، ويعرف بابن حُرَّة[3] .

« أوّليّتُه » : من أهل البيوتات بالحضْرة ، ولى أبوه القَهْرَمة[4] ، لثانى الملوك من بنى نصر ، فتأثَّل مالاً ونباهةً .

حـــاله

هذا الرجل من أعْيان القطر ، ووزراء الصُّقع[5] ، وشيوخ الحضْرة ، أغنى هذه المَدَرة يداً ، وأشغلهم بالعرض[6] الأدنى نفساً ، تحرّف بالتَّجر المربوب فى حجر

---

(١) هكذا رسمت فى المخطوطين . والمقصود اضطرد .

(٢) ورد بعدها فى المخطوطات الأربعة بياض . ولم نهتد إلى تاريخ الوفاة المنشود .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : ابن جره . وفى الملكية : ابن جده .

(٤) هكذا وردت فى « ك » وفى « ج » : فهرمة . والمقصود بها هنا إحدى وظائف القصر السلطانى الخاصة .

(٥) وردت فى « ك » كالعادة : السقع .

(٦) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : بالفرض . و « ت » : بالحضرة . والأولى أصلح للسياق .

الجاه ، ونما ماله ؛ تحاط به الجدات ، وتنمو الأموال ، ففار تنورها ، وفهق حوضها ؛ كثير الخوض فى التصاريف الوقتية ، والأدات الزمانية ، وأثمان السلع ، وعوارض الأسعار ، متبجح[١] بما ظهرت به يده من علق مَضَنّة[٢] هُرِّى المدينة ، الذى ينفق على أسواقها ، عند ارتفاع القيم ، وتميز الأسعار ، وبلوغها الحد الذى يراه كفؤ حبته ، ومنتهى ثمن غلته ؛ غَرِقُ الفكر ، يخاطبُ الحيطان والشجر والأساطين ، محاسباً إياها على معاملات وأغراض فنية ، يُرى من التلبس شيئاً من المعارف والآداب والصنائع ، وحجة من الحجج [فى][٣] الرزق ؛ تغلب عليه السذاجة والصحة ، دَمِثٌ ، متخلق ، متنزل ، مختصر الملبس والمطعم ، كثير التبذل ، يعظم الانتفاع به فى باب التوسعة ، بالتسلف[٤] والمداينة ، حسن الخلق[٥] ، كثير التجمل [مُبْتَلَى بالمُوقِب والطانز][٦] : يسمع ذى القحة ، ويُصِمُّ على ذوى المسألة[٧] .

ظهوره وحظوته

لبس الحظوة شملة ، لم يفارق طرقها رقبته ، إذ كان صهراً للمتغلب على الدولة أبى عبد الله بن المحروق[٨] ، صار يسهم فى جذور خطته ، وألقى فى مرقة حظوته ؛

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : فتبجح . والأولى أرجح .

(٢) وردت فى « ج » : مطنة . وفى « ك » مظنة .

(٣) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم المعنى .

(٤) هكذا رسمت فى « ج » . وفى « ك » و « ت » : بالسلف .

(٥) وردت فى المخطوطين : الحق . والتصويب من « ت » .

(٦) هذه العبارة واردة فى المخطوطين . وساقطة فى « ت » والملكية . والموقب والطانز أى القادح والساخر .

(٧) هكذا وردت فى « ك » و « ت » . وفى « ج » المتبلة وهو تحريف .

(٨) وردت فى « ت » محرفة : ابن محروق . وصحته ابن المحروق . وهو وزير محمد بن الأحمر الثالث . وقد توفى قتيلا فى سنة ٧٢٨ هـ .

مشتملا على حاله ، بعباءة[١] جاهه ؛ ثم صاهر المصيّر الأمر إليه بعده القائد الحاجب أبا النعيم رضوان ، مولى الدولة النصرية ، وهلم جرا ، بعد أن استعمل فى السِّفارة إلى العُدْوة وقَشْتالة ، فى أغراض تليق ببعثه ، مما يوجب فيه المياسير والوجوه ، مُشَرَّفين مُعزَّزين بمن يقوم بوظيفة المخاطبة والجواب ، والرد والقبول ؛ ووُلِّيَ وزارة السلطان ، لأول مُلكه فى طريق من ظاهر جبل الفتح إلى حضرته ، وأياماً يسيرة من أيام اختلاله ، [إلى][٢] أن رغب الخاصَّة من الأندلسيين فى إزالته ، وصُرف الأمر إلى الحاجب المذكور ، الذى تسقَّط مع رياسته المنافسة ، وترضّى به الجملة .

محنتـه

وامتُحن هو وأخوه ، بالتَّغْريب إلى تونس ، عن وطنهما ، على عهد السلطان الثالث من بنى نصر . ثم آب عن عهد غير بعيد ؛ ثم أسِن واسْتَسَرَّ أديمُه ، وضَجر عن الركوب إلى فلاحته التى هى قُرة عينه ؛ وحظُّ سعادته ، يتطارح[٣] فى سكّة المترددين[٤] بإزاء بابه ، مباشرُ الثَّرى بثوبه ، قد سَدكت[٥] به شكايةٌ شائنة ، قلما يَفْلت منها الشيوخ ، ولا من شَرَكها ، فهى تزفه[٦] بولاء ، بحال تقتحمها العين شَعَثاً[٧] ، وبُعْداً عن النظر ، فلم يُطْلق[٨] الله يده من جِدته على يده ، فليس فى سبيل دواء ولا غذاء إلى أن هلك .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين وفى الملكية . وفى « ت » : بعبادة . والأولى أرجح . وهى (العباءة) .

(٢) إضافة لا بد منها لاستقامة السياق .

(٣) وردت فى المخطوطين : يتطاح : وهو تحريف .

(٤) وردت فى المخطوطين وفى الملكية : المرتدين . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٥) أى علقت به ولزمته .

(٦) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » تنزفه .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ج » شعة .

(٨) كذا فى « ك » . وفى « ج » : يطل .

« وفاته » ، فى وسط شوال عام سبعة وخمسين وسبعمائة .

« مولده » ، فى سنة خمس وسبعين [وستمائه][1] .

إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهّاق الأوسى

يكنى أبا إسحاق ، ويعرف بابن المرأة .

حـــاله

سكن مالَقَة دهراً طويلا ، ثم انتقل إلى مُرْسية ، باستدعاء المُحَدث أبى الفضل المُرْسى والقاضى أبى بكر بن مُحْرز ، وكان متقدماً فى علم الـكلام ، حافظا ذاكراً للحديث والتفسير ، والفقه والتاريخ ، وغير ذلك . وكان الـكلام أغْلَبَ عليه ، فصيح اللسان والقلم ، ذاكراً لكلام أهل التصوف ، يطرِّز مجالسه بأخبارهم . وكان بحراً[2] للجمهور بمالقة ومرسية ، بارعاً فى ذلك متفنناً له ، متقدما فيه ، حسن الفهم لما يلقيه له وثوب على التمثيل والتَّشبيه ، فيما يقرب للفهم ، مؤثراً للخُمول ، قريباً من كل أحد ، حسن العشرة ، مؤثراً بما لديه . وكان بمالقة يتَّجر بسوق الغزل . قال الأستاذ أبو جعفر وقد وصمه ، وكان صاحب حيل [ونوادر][3] مستظرفة ، يُلهى بها أصحابه ، ويؤنسهم ، ومتطلعاً على أشياء غريبة من الخواص وغيرها ، فتن بها بعض الطلبة ، واطَّلع كثير ممن شاهده على بعض ذلك ، وشاهد منه بعضهم ما يمنعه الشرع من المُرْتـكبات الشّنيعة ، فنافره وباعده بعد الاختلاف إليه ، منهم شيخنا

---

(١) وردت فى المخطوطين : (سبعمائة) ووردت فى الملكية : خمس وثمانين وستمائة .

(٢) وردت فى « ج » بحر . وفى « ك » ، لحق . والأولى مع التصويب متفقة مع السياق .

(٣) وردت فى المخطوطين . ونوارج . والتصويب من « ت » .

القاضى العَدل المسمَّى الفاضل أبو بكر[1] بن المرابط رحمه الله ؛ أخبرنى من ذلك بما شاهد[2] مما يقبُح ذكره ، وتبَرَّأ منه من كان سعى فى انتقاله إلى مرسية ، والله أعلم بغيبه وضميره .

تواليفه[3]

منها شرحُه كتاب الإرشاد لأبى المعالى ، وكان يعلمه من حفظه من غير زيادة وامتداد . وشرح الأسماء الحسنى . وألف جزءا فى إجماع الفقهاء ، وشرح محاسن المجالس لأبى العباس [أحمد] بن العريف . وألّف غير ذلك . وتواليفه[4] نافعة فى أبوابها ، حسنة الرصف والمبانى .

« من روى عنه » ، أبو عبد الله بن أحلى ، وأبو محمد عبد الرحمن بن وصلة .

« وفاته » ؛ توفى بمرسية سنة أحد عشر وستمائة .

إبراهيم بن أبى بكر بن عبد الله بن موسى الأنصارى

تِلِمسانى وقرشى الأصل ، نزل بسَبْتَة ، يكنى أبا إسحاق ، ويعرف بالتلِمسانى .

حاله

كان فقيهاً عارفاً بعقد الشروط ، مبرّزاً فى العدد[5] والفرايض ، أديباً ، شاعراً ، محسنا ، ماهراً فى كل ما يحاول . نظم فى الفرايض ، وهو ابن ثمانية وعشرين سنة[5]

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » أبو البركات . وهو تحريف .
(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : باشهادة .
(٣) كذا فى « ج » . وفى « ك » : تآليفه .
(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » القدر .
(٥) هكذا فى « ج » . وفى الملكية : ثمانية عشر .

أرجوزة محكمة بعلمها، ضابطة، عجيبة الوضع. قال ابن عبد الملك، وخبرت منه فى تكرارى عليه، تيقُّظا وحضور ذهن، وتواضعاً، وحسن إقبال وبر، وجميل لقاء ومعاشرة، وتوسطاً صالحاً فيما يناظر[1] فيه من التواليف، واشتغالاً بما يعنيه من أمر معاشه، وتخاملا[2] فى هيئته ولباسه، يكاد ينحط عن الاقتصاد، حسب المألوف والمعروف بسَبْتة. قال ابن الزبير، كان أديباً لغويا، فاضلا، إماماً فى الفرائض.

مشيخته

تلا بمالقة على أبى بكر بن دَسْمان، وأبى صالح محمد بن محمد الزّاهد، وأبى عبد الله ابن حفيد، وروى بها عن أبى الحسن سهل بن مالك؛ ولقى أبا بكر بن مُحرز، وأجاز له، وكتب إليه مُجيزاً، أبو الحسن بن طاهر الدباج، وأبو على الشلوبين؛ ولقى بسبتة، الحسن أبا العباس بن على بن عصفور الهوارى، وأبا المُطَرِّف أحمد ابن عبد الله بن عُميرة، فأجازوا له؛ وسمع على أبى يعقوب بن موسى الحسانى الغُمارى.

«من روى عنه»؛ روى عنه الكثير ممن عاصره، كأبى عبد الله بن عبد الملك وغيره.

تواليفه

من ذلك الأرجوزة الشهيرة فى الفرائض، لم يصنَّف فى فنها أحسن منها. ومنظوماته فى السِّير، وأمداح النبى، صلى الله عليه وسلم، من ذلك المُعَشّرات على أوزان العرب، وقصيدة فى المولد الكريم؛ وله مقالة[3] فى علْم العروض الدوُبيتى.

---

(١) هكذا فى «ك». وفى «ج» و«الملكية»: يناط فيه. والأولى أرجح.

(٢) وردت فى المخطوطين: وتتحاملا. والتصويب يقتضيه السياق.

(٣) هكذا فى «ك». وفى «ج» و«الملكية»: مقام. والأولى أرجح.

شـــعره

وشعره كثير ، مبرّز[1] الطّبقة بين العالى والوسط ، منْحازاً أكثر إلى الإجادة جمّة ، وتقع له الأمور العجيبة فيه كقوله :

الغَدرُ فى الناس شيمةٌ سَلَفَت   قد طال بين الوَرَى تصرُّفها
ما كلُّ مَنْ سَرَت له نِعَمٌ   منك يرى قَدْرها ويعرفُها
بل ربما أعقَب الجزاء بهـا   مضرةٌ عنك عزَّ مَصْرفُها
أما ترى الشمس تَعْطف بالنـ   ـور على البَدْر وهو يَكْسِفُها

دخوله غرناطة

أخبر عن نفسه أن أباه انتقل به إلى الأندلس ، وهو ابن تسعة أعوام ؛ فاستوطن به غرناطة ثلاثة أعوام ، ثم رحل إلى مالقة ، فسكن بها مدّة ، وبها قرأ معظم قراءته . ثم انتقل إلى سَبْتة ، وتزوج بها أخت الشيخ أبى الحكم مالك بن المُرَحَّل . وهذا الشيخ جد صاحبنا وشيخنا أبى الحسين التلمْسانى لأبيه ، وهو ممن يُطرّز به التأليف ، ويُشار[2] إليه فى فنون لشهرته .

ومن شعره ، وهو صاحب مطولات مجيدة ، وأمادح مُبدية فى الإحسان مُعيدة[3] ، فمن قوله يمدح الفقيه أبا القاسم العزَفى أمير سبتة :

أرأيت من رَحَلُوا وزمُّوا العِيسا   ولا نزلوا على الطلول حبيساً
أحَسِبْتَ سوف يعود نَسْفُ تُرابها   [يوماً][4] بما يَشْفى لديك نسيساً
هل من مُؤْنِسٍ ناراً بجانب طورها   لأُنيسها أم هل تحس حسيساً

(١) وردت فى المخطوطين : مبرد .
(٢) وردت فى المخطوطين : ويشر .
(٣) وردت فى المخطوطين : بعيدة . والتصويب أرجح .
(٤) الزيادة من « الملكية » .

«مولده» ، قال ابن عبد الملك ، أخبرنى أن مولده بتلمسان سنة تسع وستمائة .

« وفاته » ؛ فى عام تسعين وستمائة بسبتة ، على سن عالية ، فَسَحَت مدى الانتفاع به .

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأنصارى الساحلى
المشهور بالطُوَيْجِن ، من غرناطة .

حـــاله

من كتاب « عائد الصلة » ؛ كان رحمه الله ، نسيجَ وحده فى الأدب ، نظماً ونثراً ، لا يُشَق فيهما غُبارُه ، كلام[1] صافى الأديم ، [غزير المائية][2] ، أنيق الدّيباجة ، موفور المادة ، كثير الحلاوة ، جامعٌ بين الجزالة والرّقة ؛ إلى خط بديع ، ومشاركة فى فنون ، وكَرَم نفس ، واقتدار على كل محاولة . رحل بعد أن اشتهر فضله ، وذاع أُوَجه ، فشرّق ، وجال فى البلاد . ثم دخل إلى بلد السّودان ، فاتصل بملكها ، واستوطنها زماناً طويلا ، بالغاً فيها أقصى مبالغ المَكِينَة ، والحُظْوة ، والشُّهرة ، والجلالة ، واقتنى مالا دَثْراً[3] ؛ ثم آب إلى المغرب ، وحَوّم على وطنه ، فصرفه القدر إلى مُسْتَقَره من بلاد السودان ، مُستزيداً من المال . وأهدى إلى ملك المغرب [هديّة][4] تشتمل على طُرَف ، فاثابه عليها مالا خطيراً ؛ ومدحه بشعر بديع كتبناه عنه . وجرى ذكره فى كتاب « التاج » بمانصه :

« جوّاب الآفاق ، ومحالف الإباق ، ومُنفق سَعْد الشعر كل الإنفاق ؛ رفع

---

(١) هكذا فى « ك » . فى « ج » : الكلام .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : عزيز المانعة . وفى الملكية (المادة) .

(٣) وردت فى المخطوطين : دبرا ، وهو تحريف . وفى الملكية (تبرا) .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . ويقتضى إثباتها السياق .

ببلده للأدب رايةً لاتحجم ، وأصبح فيها يسوِّى ويُلْجِم ؛ فإن نَسَب ، جرى ونَظَم نَظْم الجُمان الجامد ؛ وإن أبَّن ورَثَى ، غبَّر فى وجوه السوابق وحَثا ؛ ولما اتَّفق كسادُ سوقه ، وضِياق حقوقه ، أخذ بالحَزْم ، وأدخل على حروف علايه عوامل الجزم ؛ يسقُط على الدول سقوط الغَيْث ، ويحِلُّ كِناس الظِّبا وغاب اللَّيث ؛ شيَّع العجائب ، وركَض النَّجائب ؛ فاستضاف بِصَرام ؛ وشاهد [البرابى][1] والأهرام ؛ ورمى بعزْمته الشأم ؛ فاحتلَّ ثغوره المَحُوطة ، ودخل دِمَشق ، وتوجَّه الغُوطَة ؛ ثم عاجلها بالعراق ؛ فحيا بالسَّلام مدينة السَّلام ، وأوْرَدَ [بالرَّافدين][2] رَوَاحِله ، ورأى اليمَنَ وسواحله ؛ ثم عَدَل إلى الحقيقة عن المجاز ، وتوجه إلى شأنه الحجاز ؛ فاستلم الرُّكن والحجر ، وزار القبر الكريم لمَّا صَدَر ؛ وتعرَّف بمجتمع الوفود بملك[3] السُّود ، فغمره بإرفاده ؛ وصحِبَه إلى بلاده ، فاستقرَّ بأوَّل أقاليم العَرْض ، وأقصى ما يَعْمُر من الأرض ، فحلَّ بها محل [الحُمْر فى الغار][4] ، والنور فى سواد الأبصار ؛ وتقيَّد بالإحسان ؛ وإن كان غريب الوجه واليد واللسان ؛ وصدرت عنه رسائلُ أثناء إغرابه ، تشهد بجلالة آدابه ، وتعلُّق الإحسان بأهدابه »[5] .

نثره

فمن ذلك ما خاطب به أهل غَرْناطة بلده ؛ وقد وصل إلى مَرَّاكُش :

---

(١) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين هكذا . الفرابى . وظاهر من ورودها إلى جانب «الأهرام» أن المقصود هو البرابى ، وهى الكلمة التى تطلق فى التواريخ الإسلامية على المعابد الفرعونية .

(٢) وردت هذه الكلمة هكذا فى المخطوطين : بالرفدس . وقد رجحنا أنها تحريف كلمة (الرافدين) وهما الدجلة والفرات ، وهى هنا متسقة مع المعنى .

(٣) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» بلد . وهو تحريف .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» : وفى «ك» و «ت» (الخمر فى القار) . والأولى أرجح .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : ناهوابه ، وهو تحريف ظاهر .

« سلام ليس دارين شماره ، وحلق الروض والنضير به صداره ، وأنسى نجداً شمه[١] الزكى وعراره[٢] ؛ جرّ ذيله على الشجر فتعطّر ، وناجى غصن البان فاهتزّ لحديثه وتأطّر ؛ وارتشف الندى من ثغور الشّقائق ، وحيّا خدود الورد تحت أردية الحدائق ؛ طَرِبت له النَّجدية المُسْتهامة ، فهجرت صباها ببطن تِهامة ، وحَنّ ابن دهمان لصباه ، وسلا به التَّميمى عن ريَّاه[٣] ، وأنسى النُّميرى ما تضوَّع برقيب من بطن نعمايه ؛ واستَشْرف السمر والبان ، وتخلق بخلوقة الآس والظَّيَّان[٤] ؛ حتى إذا راقت أنفاس تحياته ورقّت ، وملكت نفائس النفوس واستَشْرقت ؛ ولبست دارين فى ملائها ، ونظمت الجوزاء فى عِقد ثنائها ، واشتغل بها الأعشى عن روضه ولَهى ، وشهد ابن بُرْد شهادة[٥] أطراف المساويك لها ؛ خيَّمت فى رَبْع الجود بغَرْناطة ورقت ، وملأت دَلْوها إلى عقد كَرَبه[٦] ، وأقبلت[٧] منابتُ شرقها عن غربه ، لا عن عَرْفه ؛ هناك تترى لها صدور المجالس تحمل صدوراً ، وترايبُ المعالى تُحلّى عقوداً نفيسة وجذوراً[٨] ؛ ومحاسن الشرف تحاسن البروج فى زهرها ، والأفنية فى إيوانها ، والأندية فى شعب بَوّانها[٩] ؛ لو رآها النعمان لهجر سَديره ، أو كِسرى لنبذ إيوانه وسريره ، أو سيف لقصرّ عن غُمدانه ، أو حسّان لترك جِلّق لغسّانه[١٠] .

---

(١) وردت فى المخطوطين : شجه .

(٢) وردت فى المخطوطين : وعزاره . والتصويب متفق مع السياق .

(٣) هكذا فى « ت » . وفى « ك » زيادة . وفى « ج » ديانة .

(٤) وردت فى « ج » و « ت » ، والضيان . وفى « ك » والعنان وهو تحريف . والظيان هو نبات برى من نوع النباتات الزاحفة الملتفة .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » و « ت » ركبت .

(٧) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » ، وانبات .

(٨) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » وجدورا .

(٩) « شعب بوان » هو اسم يطلق على أرض بفارس على مقربة من أرجان ، وكانت فى القديم من متنزهات الدنيا (راجع معجم ياقوت — مصر — ج ٤ ص ٢٩٧)

(١٠) والجلق اسم يطلق على دمشق أو غوطة دمشق .

بلاد بها نيطت عليّ تمـائمي ... وأول أرض مسّ جلدي ترابها

فإذا قضيتُ من فَرْض السلام خَتْما ، وقَضَت من فاره[1] الثناء حَتْما، ونفضت طيب عرارها[2] على تلك الأنداء ، واقتطفت أزاهرَ محامدها أهلُ الود القديم والإخاء ، وعمّت مَن هنالك من الفضلاء ، وتلَتْ سُوَر[3] آلائها على منبر ثنائها ، وقصّت وعَدَّفت على من تحمل من الطلبة بشارتهم ، وصدرت[4] عن إشارتهم ، وأنارت[5] نجماً حول هالتهم المنيرة ودارتِهم ؛ فهناك تقصّ أحاديث وجْدي على تلك المناهج ، لا إلى صلة عالج ؛ وشوقي إلى تلك العَلْيا ، لا إلى عبلة والجزا[6] إلى ذلك الشريف الجليل ؛ فسقى الله تلك المعاهد غَيْداقاً[7] يهمى دعاؤها[8] ، ويغرق رَوْضها إغراقاً[9] ؛ حتى تتكالل منه نحور زَنْدها دُرًّا ، وترنو عيون أطراف نرجسها إلى أهلها سَرَراً[10] ؛ وتتعانق قدود أغصانها طرباً، وتعطف خصور مذانبها على أطراف كُثْبانها لَعِبا ، وتضحك ثغور أقاحها عند رقص أدواحها عُجْباً ؛ وتحمرّ خدود وردها حياء ، وتشرق حدائق وردها سناء، وتهدى إلى ألسنة صباها [خبر طيبة][11] وإنباء ؛ حتى تشتغل المطرية عن روضتها المردودة ، والمُتَكَلِّيء[12] عن مشاويه المجودة؛ والبكرى عن شقائق رياض روضته

---

(١) هكذا فى «ح». وفى «الملكية» فارط ، والأولى أرجح .
(٢) وردت فى «ج» غرايرها . و «ك» عرايرها . و «ت» غابرها . وهو كله تحريف .
(٣) هكذا فى «ك» . وفى «ح» و «ت» سر .
(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة : صدر . والتصويب يقتضيه السياق .
(٥) فى المخطوطات الثلاثة : وأنار . والتصويب يقتضبه السياق .
(٦) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الملكية وفى «ت» وانجر .
(٧) وردت فى المخطوطين : غيدانا . وفى «ت» غيوثاً .
(٨) هكذا وردت فى «ت» . وفى «ج» دعاوا . وفى «ك» دعافا .
(٩) هكذا فى «ج» . وفى «ك» اغترقا .
(١٠) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ت» شزراً . وفى «ج» برزا .
(١١) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطات الأربعة .
(١٢) فى المخطوطين والملكية : والمكلى . والتصويب من «ت» .

النديّة ، والأخطل عن خلع [بيعته الوشيّه][1] . فما الخُوَرنق وسُراد ، والرُّصافة وبغداد ، وما لفّ النِّيل فى مَلأته كرماً إلى أفدين سقايته ، وحارته غمدان عن محراب ، وقصر وابرية[2] البلقاء عن غوطة ونهر ، بأحسن من تلك المشاهد التى تساوى فى حسنها الغائب والشاهد ؛ وما لمصر تفخر[3] بنيلها ، والألفُ[4] منها فى شَنِيلها[5] ، وإنما زيدت الشين هنالك [ليعد بذلك][6] :

ويا لِلّه من شوق حَثيث ... ومن وَجْدٍ تَنَشَّطَ[7] بالصميم

إذا ماهاجه وجدٌ حديث ... صَبا منها إلى عهـــدٍ قديم

أجْنَح إنسانى[8] فى كل جانحة . وأندق لسانى من كل جارحة ؛ وأهيم وقلبى رهين الأنين ، وصريع البَيْن ؛ تهْفَق به الرياح البليلة إذا ثارت ، وتطير به أجنحة البروق الخافقة أينما طارت ؛ وقد كنت أستنزل قُرْبهم براحة الأجل ، وأقول عسى وطن يدنيهم[9] ولعل ؛ وما أقْدَر الله أن يُدْنى على الشَّحَط ، ويُبرى[10] جراح البين بعد اليأس والقَنَط . هذا شوقى يستعيرُه البُركان لناره ، وَوَجْدى لايجرى قَيْس فى مضماره ؛ فما ظنُّك وقد حمت حول المورد الخَصِر ، ونسمت ريح المْنبِت الخَضِر ؛ ونظرت إلى تلك المعاهد من أمم ؛ وهمست باهتصار ْ او ذلك

---

(١) وردت فى « ج » و « ك » : (بيعة الموشية) . وفى « ت » : (بيعة المرسية) .

(٢) هكذا فى « الملكية » . وفى « ك » وقصر وابدره . وفى « ج » برريه . وفى « ت » برأيه .

(٣) وردت فى « ج » تفحر . وفى « ك » تهجر . وهو تحريف .

(٤) وردت فى المخطوطين : الف . وهو تحريف .

(٥) وردت محرفة فى المخطوطين : شيلها ، شلها .

(٦) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ت » والملكية (ليعن بذلك) . وفى « ج » (ليعن ذلك) . والأولى أرجح وأصلح للسياق .

(٧) وردت فى المخطوطين : نشبط . وفى « ت » نشيط .

(٨) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : أساى .

(٩) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » يدنو بهم .

(١٠) وردت فى « ت » ويبرا . وفى المخطوطين : ويأمر .

المجد اليانع والكرم ؛ وإن المحبَّ مع القُرب لأعظم هَمًّا ، وأشدُّ فى مقاساة الغرام غمًّا :

وأبرح[١] ما يكون الشوق يوماً إذا دَنَتْ الدّيار من الديار

وقَرُبت مسافة الدُّوَّار ؛ لكن الدهر ذو غِيَر[٢] ، ومن ذا[٣] يحكم على القَدَر ؛ وما ضرَّه لو غفل قليلا ، وشفى بلقاء الأحبّة غليلا ، وسمح لنا بساعة اتفاق ووَصَل ذلك الأمل القصير بباع ، وروى مسافة أيام ، كما[٤] طوى مراحل أعوام .

[لدّ إبليس][٥] أفلا أشفقت من عذابى ، وسَمَحْت ولو بسلام أحبابى :

أسلمْتَنى إلى ذَرْع البيد ، ومحالفة [الذميل والوخيد][٦] ، والتنقُّل فى المشارق والمغارب ، والتمطِّى فى الصّهوات والغوارب ؛ ياسابق البين دع مَحْمَله ، وما بقى فى الجسم ما يَحْمِله ؛ ويابنات جديل ، مالكن وللذميل[٧] ؛ ليت سَقَمى عقيم فلم يلد ذات البين ، المُشَتِّتَة مابين المحبين ؛ ثم ماللزّاجر الكاذب ، وللغُراب النّاعب ، تجعله نذير[٨] الجلاء ، ورايد الخلاء ، ما أبعد من زاجر ، عن رأى الزّاجر ، إنما فعل ماترى ، ذات الغارب والقِرَى ، المختالةُ فى الأزمَّة والبرى ، المترددة بين التّأويب والسُّرى ؛ طالما باكَرَت النّوى ، وصَدَعت صَدْع الثوى[٩] ، وتركت الهايم بين رَبْعٍ مَحيل ، ورسم مستحيل ؛ يتفو[١٠] الأثرُ نحوه ، ويُسْئل الطَّلل

---

(١) فى « الملكية » وأشد .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » أغير . وفى « ت » غيار .

(٣) وردت فى المخطوطين وفى « الملكية » : وماذا .

(٤) وردت فى المخطوطين : كيما . والتصويب من « ت » .

(٥) هكذا فى الملكية » . وفى المخطوطن : (لذا يليس) . وفى « ك »لك ابليس . والأولى أرجح

(٦) وردت هذه العبارة فى « ت » و « ح » : (الدميل والوحيد) . وفى « ك » : (الوصيل والوحيد) . والتصويب من « الملكية . والذميل هو السير المتوسط . والوخيد هو السير الواسع الخطى .

(٧) هكذا ورد فى « ج » و « ت » . وفى « ك » وللمدميل .

(٨) وردت فى المخطوطين : قدر . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٩) وردت فى المخطوطين : النوى . والتصويب من « ت » .

(١٠) هكذا وردت فى « ج » و « ت » و « [illegible] » . وفى « [illegible] » يعفو . [illegible] يصح السياق

عن عهده ؛ وإن أنصفَت فما لعين معقودة[١] ، وإبل مطرودة ، مالت عن الحوض والشَّوط ، وأسلمت إلى الحَبل[٢] والعصا والسَّوط ؛ ولو خُيِّر النائى لأقام ، ولو تُرك القَطا ليلا لنام ؛ لكن الدهر أبو براقش ، وسهمٌ بينه وبين بنيه غيرُ طائش ؛ فهو الذى شتَّت الشمل وصَدَعه ، وما رُفع سيفٌ بعماده إلا[٣] وضعه ، ولا بلّ غليلا أحرقه بنار وجده ولا نفعه . فأقسم ما ذاتُ[٤] خضاب وطَوْق ، شاكيةُ غرام وشوق ؛ برزت[٥] فى مِنَصَّتها ، وترجمت عن قضيتها ، أو غُربت عن بيتها ، ونَفَضَتْ شرارة زفرتها عن عينها ؛ مَيْلا حكت المَيْلاوالغريض ، وعَجْماء ساجلت بسَجْعها القريض ؛ وكَصَّت الفود فكأنما نقرت العود ، وردّدت العويل ، كأنما سمعت النَّقيل ؛ نبَّهت الواله فثاب ، وناحت بأشواقها فأجاب . حتى إذا افترَّ بريقُها[٦] ، استراب فى أنَّتها ، فنادى يا حصيبةَ السّاق ، مالَكِ والأشواق ، أباكيةٌ ودموعك[٧] راقية ، ومحررة وأعدانك حالية ؛ عطِّلت الخوافى ، وحُلِّيت القوادم ، وخُضِّبت الأرجل ، وحضرت[٨] المأتم[٩] . أمَّا أنتِ فنزيعة خِمار ؛ وحليفة أنوار وأشجار ، تَتَردَّدين بين منبر وسرير ، وتتهادين بين روْضة وغَدير ؛ أسرفتِ فى الغناء ، وإنما حكيت خرير الماء ، وولعت بتكرير الرَّاء ؛ فقالت أعد نظر البقير[١٠] ، ولأمر ما جَدَع أنفَه قَصير ؛ أنا التى أغرَمَتْ فى الرُّزء ،

---

(١) هكذا فى « ك » و « الملكية » . وفى « ج » ، مصفوه .

(٢) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » الجبل .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة وكذا فى «الملكية» : من . والتصويب يقتضيه المعنى للسياق .

(٤) وردت فى الثلاثة : ماذا . وفى « الملكية » ماذا خطاب . والتصويب أرجح .

(٥) هكذا فى « ج » و « الملكية » . وفى « ك » و « ت » بررت .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » و « الملكية » بربتها . وفى « ت » بريتها .

(٧) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » : دموع .

(٨) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : حضرت . وفى « الملكية » خضرت .

(٩) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، المأثم .

(١٠) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين و « الملكية » . البهير ، والأولى أرجح .

فكنيت[1] عن الكل بالجزء ؛ كنت أربع بالفيافى ما آلاف ، وآنسُ مع مقيلى ، بُكرته وأصيلى ؛ تحتال من غدير إلى شَرْج[2] ، وتنتقل من سرير إلى سَرْج ؛ آوُنة تلتقط الحَبّ ، وحيناً تتعاطى الحُبّ ؛ وطورا تترا كض الفَنَن ، وتارة تتجاذب الشَّجن[3] ؛ حتى رماه الدهر بالشَّتات ، وطرَفه بالآفات ؛ فهأنا بعده دامِيةُ العين ؛ دائمة الأين ، أتعلل بالأثر بعد العَين ؛ فإن صعدت منارى[4] ، ألهبت منقارى ؛ أونكأت أحشائى ، خُضِّبت رجلى بدمائى ؛ فأقسم لا خلعت طَوْق عهده ، حتى أردى[5] من بعده ؛ بل ذات خَفْض وتَرَف ، وجمال باهر وشَرَف ؛ بسط الدهر يدها ، وقبض ولدها ؛ فهى إذا عقدت التَّمائم على تريب ، أو لفّت[6] العمائم على نجيب ، حشت المفؤود[7] ، وأدارت عين الحسود ؛ حتى إذا أينعت فَسالها ، وتقضى حَمْلُها وفصالها ، عمرَ لحدُها بوحيد كان عندها وسطى ، وفريد أضحى فى نحر[8] عشيرتها سِمْطا ؛ استحثّت له مَهَبّات النسيم الطَّارق ، وخافت عليه من خَطَرات اللَّحظ الرَّاشق ؛ فحين هشّ للجياد ، ووهب التمائم للنِّجاد ونادى الصريم ، يالآل والحريم ؛ فشد الأناة ، واعتقل القناة ، وبرز يختال فى عيون لامه ، ويتعرّف منه ريحه بألفه ولامه ؛ فعارضه شَثْن[9] الكفين ، عارى الشعر والمَنْكبين ، فأسلمه لحَتْفه ، وترك حاشية ردائه على عِطفه ؛ فحين أنبهم لشاكلته ماجرى [برزت لترى][10] :

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » وتكشف . وفى « ت » ونسكت . وفى « الملكية » وتكست . والأولى أرجح .

(٢) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : سرج . والشرج ، مسيل الماء .

(٣) هكذا وردت فى « ت . : وفى المخطوطين والملكية : الشجر .

(٤) هكذا فى « ج » و « الملكية » . وفى « ك » « نارى» .

(٥) وردت فى المخطوطات الأربعة : أردموه .

(٦) فى المخطوطين : ليف . وفى « ت » ألف .

(٧) هكذا فى « ج » و « ك » . وفى « ت » المقتودة .

(٨) وردت فى المخطوطات الأربعة : نحره .

(٩) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » شنن . وشثن أى خشن .

(١٠) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » و « ت » و « الملكية » . وفى « ك » : (ابرزت الثرى)

فلم تلق غيرَ خمس قوايم ... وأشلاء لحم تحت ليث سخايل[١]
يحطّ على أعطافه وترايبه ... بكفٍ حديد النّاب صُلب المفاصل

أعظم من وجد إلى تلك الآفاق، التي أطلعت وجوه الحسن والإحسان، وسفرت عن كمال الشرف، وشرف الكمال عن كل وجه[٢] حُسّان؛ وأبرزت من ذوى الهمم المُنيفة، والسِّير الشريفة، ما أقرَّ عين العلياء، وحلَّى جيد الزمان؛ فتَقَوا[٣] للعلم أزهاراً أربت على الروض المَجود، وأداروا للأدب هالَةَ استدارتْ حولها بُدُور السُّعود؛ نظم الدهر محاسنهم حُلِيًّا فى جيده ونحره، [واستعار لهم][٤] الأفق ضياء شمسه وبَدْره، وأعرب بهم الفخر عن صميمه، وفسح لهم المجد عن مصدره؛ فهم إنسان عين الزمان، وملتقى طريقى[٥] الحسن والإحسان؛ نَظَمت الجوزاء مفاخرهم، ونثَرت النَثْرة مآثرهم، واجتلبت الشِّعرى[٦] من أشمارهم؛ وطلع النور من أزرارهم[٧] واجتمعت الثُّريّا لمعاطاة أخبارهم؛ وود الدَّلو لو كرع فى حوضهم؛ والأسدُ لو ربض حول رَبضهم، والنعايم[٨] لو غُذّيت بنعيمهم؛ والمجرة لو استمدت من فيض كرمهم؛ عَشِق[٩] المسك محاسنهم فرقَّ؛ وطَرب الصبح لأخبارهم فخَرَق جبينه وشَقَّ؛ وحام النِّسر حول حمامهم وحلّق؛ وقدَّ

(١) هكذا فى «ج» وفى «الملكية». وفى «ك» محاتل.

(٢) وردت بعد هذه الكلمة فى «ت» كلمة: الوجوه. وهى كلمة لا موضع لها هنا. والغالب أن ورودها فى «ت» من باب السهو.

(٣) هكذا فى «ج». وفى «ك» و «ت» فتقوى.

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» و «ت» وفى «الملكية». ولكنها وردت فى «ك» واستعلاهم.

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين. وفى «ت» طريق. والأولى أنسب للسياق.

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة: الشعر. والتصويب يقتضيه السياق.

(٧) هكذا فى «ك» و «ت». وفى «ج» أزنارهم.

(٨) وردت فى «ت» و «الملكية»: والنعيم، مفردة والجمع أنسب للسياق. و المخطوطين (والتعليم) وهو تحريف.

(٩) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج».

الفخار جدار[١] محامدهم وخلق؛ إلى بلاغة أخرست لسان لَبِيد ، وتركت عبدالحميد غيرَ حميد؛ أهلَ ابن هلال لمحاسنهم وكبّر ، وأعطى القارى[٢] ما زجر به قلمه وسطّر ، وأيس إياس من لحاقهم[٣] فأقصر لما قصّر .

ومنها : فما للوَشْي تألّق ناصعهُ ، وتأنق يانعهُ[٤] ، بأحسن مما وشتْه أنفاسُهم ، ورسمته أطراسُهم ؛ فكم لهم من خَريدة غذّاها العلم ببره[٥] ، وفريدة حلّاها البيان بدُرِّه ؛ واستضاءت المعارف بأنوارهم ، وباهَتْ الفضايل بسَناء منارهم ، وجُليت المشكلات بأنوار عقولهم وأفكارهم ؛ جَلَّوا عروس المجد وحَلّوا ، وحلّوا[٦] فى ميدان السيادة ونشأوا ؛ وزاحموا السُّهى[٧] بالمناكب ، واختطوا التُّرْب فوق الكواكب ؛ لزم محلّهم التّكبير ، كما لزمت الياء التّصغير ، وتقدموا فى رُتبة الأفهام ، كما تقدّمت همزة الاستفهام ؛ ونزلوا من مراتب العَلْياء ، مَنْزِلة حروف الاستِعلاء ؛ وما عسى أن أقول ودون النهاية مدًى نازح ، وما أغنَى الشمس عن مَدْح المادح ؛ وحَسْبي أن أصف ما أعانيه من الشوق ، وما أجدُه من التّوق ؛ وأعلّل نفسى بلقائهم ، وأتعلّلُ بالنسيم الوارد من تِلْقائهم ، وإن جلانى الدهر عن ورود حوضهم ، وأقعدنى الزمان عن اجتناء رَوْضهم ؛ فما ذهب ودادى ، ولا تغيّر اعتقادى ، ولا جفّت أقلامى عن مدادهم ولا مدادى ؛ وأنا ابن جَلا فى وجْدِهم ، وطلاّع الثّنايا إلى كَرَم عهدهم ؛ إن دعوا إلى وُدٍّ صميم وجدونى ، أضع[٨] العمامة عن

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » مدار ، وهو تحريف .
(٢) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : الغارى .
(٣) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين و « الملكية » : وحاقهم .
(٤) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : أنعه . وهو تحريف .
(٥) هكذا فى « ت » . فى المخطوطين : بروه .
(٦) هكذا فى « ت » و « ج » . وفى « ك » وحذوا .
(٧) وردت فى المخطوطات الثلاثة : السهر . وقد رجحنا التصويب . إذ هو أكثر اتساقاً مع المعنى والسياق .
(٨) هكذا فى « ت » و « الملكية » . وفى المخطوطين : أوضع .

ذوى[1] عهد قديم عرفونى[2] ؛ ولو شرعوا نحوى قلم مُسكاتبتهم[3] ، وأسحوا[4] بالعلق الثمين من مخاطبتهم ، لسكفوا من قلبى العانى قَيْد[5] إساره ، وبلوا صدى وَجْدى المتحَرق بناره ؛ فنى السكتابة بُلغة الوطر ، وقد يُغنِى عن العين الأثر ؛ والسلام الأثير السكريم الطيب الريّا[6] ، الجميل المحيّا ، [يخص محلّهم][7] الأثير ، وكبيرهم إذ ليس فيهم صغير ؛ ويعودُ على من هنالك من ذوى الوُدّ الصميم ، والعهد القديم ، من أخٍ بَرّ وصاحب حميم ؛ ورحمة الله وبركاته » .

ولا خفاء ببراعة هذه الرسالة[8] على طولها ، وكثرة أصولها ، وما اشتملت عليه من وصف وعارضة ، وإشارة وإحالة ، وحلاوة وجزالة .

شعره

ثبت لدىّ من متأخر شعره قوله من قصيدة ، يمدح بها ملك المغرب ، أمير المسلمين ، عند دنوّ ركابه من ظاهر تِلِمْسان ببابه أولها :

خَطَرت كميّاس[9] القنا المُتأطر[10]   وَرَنت بألحاظ الغزال الأعفر

ومن شعره فى النسب :

زارت وفى كل لحظ [طَرْفُ][11] محترس   وحول كل كِناس كفُّ مفترس

---

(١) هكذا فى « ج » و « الملكية » . وفى « ك » ذدى .

(٢) هذه الكلمة واردة فى المخطوطين . وساقطة فى « ت » .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » كتابتهم . والأولى أنسب للسياق .

(٤) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : أوسحوا .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » قد .

(٦) هكذا فى « ت » . وفى « ك » الثريا . وفى « ج » الريأى .

(٧) هكذا وردت فى « ج » . وفى « الملكية » (يخص علاهم) .

(٨) هكذا فى « ت » والملكية . ووردت محرفة فى المخطوطين : الرياسة .

(٩) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : كماد .

(١٠) وردت فى « ت » : المتناظر . وفى المخطوطين : الناظر وهو تحريف .

(١١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وكذا فى « الملكية »

يشكو لها الجيدُ ما بالحلْى من هَدَر ... ويشتكى الزَّند ما بالقلب من خَرَس

متى[١] تلا خدُّها الزّاهى الضّحى نَطَقَت ... سيوفُ ألحاظهـا من آية الحرس

فى لحظها سحرُ فِرْعون ورقيتها[٢] ... آيات[٣] موسى وقلبى موضِع القَبَس

تُخفى النَّمومَيْن من حَلْى ومُبْتَسَم ... تحت الكتُومين من شَعْر ومن غَلَس

وتُرسل اللَّحظ نحوى ثم تهزأ بى ... تقول بعد نُفُوذ[٤] الرَّمْية احترس

أشكو إليها فؤاداً واجلاً[٥] أبداً ... فى النّازعات وما تنفك من عبَس

ياشُقّة النَّفْس إن النَّفس قد تَلِفت ... إلا بقيّــة رجْع الصّوت والنَّفَس

هذا فؤادى وجَفْنى فيك قد جمعا ... ضدّين فاعتبرى إن شئتِ واقتبِسى

ويا لطارق[٦] نوم منكِ أرّقنى ... ليـــلا ونَبَّهنى للوجد ثم نَسِى

ما زال يشرب من ماء القلوب فلمْ ... أبصرته ذابلاً يشكو من اليَبَس

ملأتِ طَرْفى عن وردٍ تفتح فى ... رياض خدّيك صلّا[٧] غير مُفترس

وقلت للَحظ والصُّدغ احرُسا فهما ... ما بين مُصْمٍ وفتّاك[٨] ومُنْتكس

وليـلة جئتها سَحَراً[٩] أجوس بها ... شَبا العوالى وخيسَ الأخْنَف الشَّرس

أستفهم الليل عن أمثـال أنجُمه ... وأسال العِيس[١٠] عن سرب المها الأُنس

وأهتك السّــتر لا أخشى بوادرَه ... ما بين مُنتهز طوراً ومُنتهس

(١) وردت فى المخطوطين محرفة : فى « ك » معنى . وفى « ج » ممى .

(٢) وردت فى المخطوطين : ورمتها .

(٣) فى المخطوطين آية . والتصويب من « ت » .

(٤) واردة فى « ج » و « ت » . وساقطة فى « ك » .

(٥) وردت فى المخطوطين : ووجه . والتصويب من « ت » و « الملكية » .

(٦) وردت فى « ج » و « ت » ، ويالطرف . وفى « ك » وبالطارف .

(٧) وردت فى المخطوطين : ضلا . وفى « ت » والملكية : بالأصيل .

(٨) فى المخطوطين : ومايله .

(٩) فى المخطوطات الأربعة : ليلا ، وهو تحريف .

(١٠) هكذا فى « ج » و « الملكية » . وفى « ك » : العبس .

بتنا نُعاطى بُها ممزوجة مزَجت — حُلْو[1] الفكاهة بين اللين والشرس
أنسكحتها من أبيها وهى آيسةٌ — فثار أبنـــاؤها فى ساعة العرُس
نورٌ ونارٌ أضـاءا فى زُجاجتها — فذاك خدُّك يا ليلى وذا نَفَس
حتى إذا آب نور[2] الفجر فى وضح[3] — معرك جال بين الفجر والغَلَس
وهيمَنَت بالضنا تحت الصباح صباً — قد أنذرتها ببرْدِ القلب واللمْس
قامت تجر فضول الريط آنسة[4] — كريمة الذيل لم تجنح إلى دَنَس
تلوثُ فوق كثيب الرمل مِطْرَفَها — وتمسَحُ النّوم عن أجفانها النُّعُس
فظـل قلبى يقفوها بملتهبٍ — طوراً ودمعى يتلوها بمنبجِس
دهر يُلوّن لونَيه كعادته — فالصبحُ فى مأتمٍ والليل فى عُرس

وإحسانه كثير، ومقداره كبير. ثم آبَ إلى بلاد السودان، وجَرت عليه فى طريقه محنة، ممن يعترض الرفاق ويُفسد السبيل. واستقرَّ بها على حاله من الجاه والشهرة، وقد اتخذ[5] أماء للتسرِّى من الزُّنجيّات [ووزق][6] من الجوالك أولاداً كالخنافسة. ثم لم يلبث أن اتصلت الأخبار بوفاته بتُنبُكتو[7]، وكان حيًّا فى أوائل تسعة وثلاثين وسبعمائة.

---

(١) فى المخطوطات الأربعة : حل .

(٢) فى المخطوطات الثلاثة : ليل .

(٣) ساقطة فى المخطوطات الأربعة .

(٤) ساقطة فى المخطوطين . وفى « الملكية » من طهر .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » أخذ .

(٦) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين ، وكذا فى الملكية ولكن السياق يقتضيها بداهة .

(٧) هى بلدة من أعمال السودان الغربى، ونقع على مقربة من منحنى نهر النيجر . وقد كانت فى العصور الوسطى عاصمة لمملكة كبيرة زاهرة هى مملكة غانة السوداء . وقد كانت هذه المنطقة معروفة للرحل المسلمين، وقد زارها الرحالة ابن بطوطة ووصفها فى رحلته . ولكن يوجد قول فى الجغرافيا الحديثة بأن الذى اكتشفها هم الرحل الأوربيون فى القرن الثامن عشر . وهو زعم باطل .

إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أسد بن موسى بن إبراهيم ابن عبد العزيز بن إسحاق بن أسد بن قاسم النميرى

من أهل غَرْناطة ، يكنى أبا إسحاق ويعرف بابن الحاجّ .

أوليتــه

بيت نبيهٌ ، يزعم من يُعنى بالأخبار ، أن جدَّهم الداخل إلى الأندلس ثَوابة ابن حمزة النُّميرى ، ويشركهُم[1] فيه بنو أرقم الوادى شيون[2] . وكان سكناه بجهة وادى آش ، ولقومه اختصاصٌ وانتقال ببعض جهاتها ، وهى شَوْظر ، والمنظر ، وقرسيس ، وقطارش[3] ؛ تغلب العدو عليها على عهد عبد العزيز ، وآوى جميعهم إلى كَنَف الدولة النصرية ، فانخرطوا فى سِلك الخدمة ، وتمحَّض خلفُهم بالعمل . وكان جده الأقرب إبراهيم ، رجلا خيراً | من أهل الدين |[4] والفضل والطهارة والذكاء ؛ كتب للرؤساء من بنى إشْقَيلُولة ، عند انفرادهم بوادى آش . واختصَّ بهم ، وحصل منهم على صِهْرٍ بأم ولدٍ بعضهم ، وضبط المهمَّ من أعمالهم . ثم رابته منهم سجايا ، أوجبَت انصرافه عنهم ، وجنوحه[5] إلى خالهم السلطان الذى كاشفوه بالثورة ، فعرف حقَّه ، وأكرم وفادته . وقبل بيانه ؛ فقلده ديوان جنده ، واستمرت أيام عُمره تحت رَعْيه ، وكَنَف عنايته . وكان ولده

---

(١) هكذا فى « ج » و « الملكية » . وفى « ك » : ويشكرهم .

(٢) الوادى شيون ، أو الوادى آشيون . نسبة إلى مدينة وادى آش .

(٣) شوظر أو شوذر . وهى الآن Jodar الحديثة ، بلدة من أعمال ولاية جيان تقع جنوبى مدينة أبدة بقليل . ولم نوفق إلى تحقيق مواقع الثلاثة الأخرى أو أسمائها الإسبانية . ولكن يبدو من أقوال ابن الخطيب أنها كانت تقع جميعاً فى هذه المنطقة الواقعة شرقى جيان وشمال وادى آش .

(٤) الكلمة الأولى من هذه العبارة واردة فى « ك » وساقطة فى « ج » . والكلمة الثانية واردة فى « ج » وساقطة فى « ك » .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » . وجنوحهم . وهو تحريف .

عبد الله أبو صاحبنا المترجم به ، صَدْراً من صدور المستخدمين فى كبار الأعمال ، على سُنن[1] رؤسائهم ، مِكْساباً مِتْلافاً[2] ، سرى النفس ، [غاض الحواز][3] . ولى الأشغال بغرناطة وسَبْتة ، عند تصيُّرها إلى إيالة بنى نصر ، وجرى طلاقه هذا، فى صلّ دنيا عريضة ، تغلّبت عليه بآخرة . ومضى لسبيله ، مصدوقاً بالكفاية ، وبراعة الخط ، وطيب النفس ، وحسن المعاملة .

حـاله

هذا الرجل نشأ على عفاف وطهارة ، امتهك صُبابة ترف من بقايا عافية، أعانته على الاستظهار ببزّة ، وصانته من التحرّف بمهنة . ثم شدّ وبهُرت خصاله ، فبَطح بالشِّعر . وبلغ الغاية فى إجادة الخط ، وحاضر بالأبيات ، وأُرسم فى كتابة الإنشاء ، عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، مُستحقاً حسن مِمَّة ، وبراعة خط ، وجودة أدب ، وإطلاق يد ، وظهور كفاية ؛ وفى أثناء هذا الحال ، يُقيد ولا يفتر ، ويروى الحديث ، ويعلق[4] الأناشيد ، ولا يغِبُّ النظم والنثر ، ولا يُعفى القريحة ، مُمَتّى ، مخولا فى العناية ، مشتملا على الطهارة ، بعيداً فى زمان الشَّبيبة عن الرِّيبة ، نزيهاً على الوسامة عن الصَّبوة[5] والرُّقية ، أعانه على ذلك ، نخوة فى طبعه ، وشفوفٌ وهمّة[6] . كان مليح الدُّعابة ، طيِّب الفكاهة ،

---

(١) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » سر .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . ووردت فى « ج » متلافافا .

(٣) وردت هذه العبارة فى المخطوطين غاص الحواز . وفى « ت » : (غاص للحوار) وفى الملكية (غاصا للحوار) .

(٤) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين و « الملكية » : ويغلق .

(٥) هكذا وردت فى « ت » . وفى « ج » الكبوه . و « ك » الطبوة .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » و « ت » : ووهمه .

[آثر المشرق](١) ، فانصرف عن(٢) الأندلس فى محرم عام سبعة وثلاثين وسبعمائة ، وألم بالدول ، محركاً إياها بشعره ، هازّاً أعطافها بأمداحه ؛ فعُرف قدرُه ، وأعين على طِيَّته ؛ فحجّ وتطوّف ، وقيَّد ، واستكثر ، ودوَّن فى رحلة سفره ؛ وناهيك بها طُرفة ؛ وقفل إلى إفريقية ، وكان عَلِق بخدمة بعض ملوكها ، فاستقرَّ ببجاية لديه ، مضطَّلعاً بالكتابة والإنشاء . ثم انتقل إلى خدمة سلطان المغرب ، أمير المسلمين أبى الحسن ؛ ولم ينْشِب أن عاد إلى البلاد المشرقية ، فحج ، وفَصل إلى إفريقية ، وقد دالت الدولة بها بالسلطان(٣) المذكور ، فتقاعد عن الخدمة ، وآثر الانقباض ؛ ثم ضرب الدهر ضرباته ، وآل حال السلطان إلى ماهو معروف ، وثابت الموحِّدين برملة بجاية بارقة لم [تكد تنقد](٤) حتى خَبَت ، فعاد إلى ديوانه من الكتابة عن صاحب بجاية . [ثم](٥) أبى مؤثراً للدَّعة فى كَنَف الدولة الفارسية(٦) ، ونَفَض عن الخدمة يده ، لا أُحقِّق مضطراً أم اختياراً ، وحجة كليهما قائمة لديه ، وانقطع إلى تربة الشيخ أبى مَدْين بعُبَّاد(٧) تلمسان ، مؤثراً للخُمول ، عزيزاً به ، ذاهباً مذهب التَّجِلَّة من التجريد والعكوف بباب الله ، مفْخَراً لأهل نِحلته(٨) ، وحجة على أهل الحرص والتهافت ، من ذوى طبقته ، راجع الله بنا إليه بفضله . ثم جبرته الدولة الفارسية على الخدمة ، وأبرَّته بزَّة

---

(١) وردت هذه العبارة فى المخطوطات الأربعة : (إلى أثر المشرق) وهو مالا يدل على معنى معين . ونعتقد أن التصويب على هذا النحو يحقق المعنى المقصود .

(٢) وردت فى المخطوطين (إلى) وهو ما يتعارض مع ما يلى . ونعتقد أن التصويب يساعد على استقامة السياق .

(٣) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : السلطان .

(٤) وردت هذه العبارة فى المخطوطين : « تكن تقد » . وحكمة التصويب ظاهرة .

(٥) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق والمعنى .

(٦) نسبة إلى السلطان فارس أبى عنان .

(٧) العباد هى ضاحية صغيرة تقع على مقربة من تلمسان ، وبها مزار ولى المغرب الشهير « سيدى أبو مدين » وهو فى الأصل العلامة الأندلسى الشهير شعيب بن الحسين المتوفى سنة ٥٩٤ هـ .

(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » نحلته .

النّسك ، فعاد إلى ديدنه من الكتابة ، رئيساً ومرؤوساً . ثم أفلت نفيَه موتُ السلطان أبي عنان فلحق بالأندلس ، وتُلُقِّيَ ببرٍّ وجراية ، وتنويه وعناية ، واستعمل في السفارة إلى الملوك ؛ ووُلِّي القضاء في الأحكام الشرعية بالقليم بقرب الحَضْرة ؛ وهو الآن بحاله الموصوفة ، صَدْراً من صدور القطر وأعيانه ، يحضر[١] مجلس السلطان ، ويُعَدُّ من نبهاء من يُنتاب بابه ، وقد توسط من الاكتهال ، مقيماً لرسم الكتابة والظرف مع الترخيص للباس الحرير ، والخِضاب بالسواد ، ومصاحبة الأبّهة ، والحرص على التّجلة .

وجرى ذكره في « التاج المُحلى » بما نصه : « طَلَع شهاباً ثاقباً ، وأصبح بشِعره للشِّعرى مُصاقباً ، فنَجَم وبرع ، وتمَّم المعاني واخترع ؛ إلى خط يستوقف الأبصار رايقُه ، وتقيِّدُ الأحْداق حدايقُه ، وتفتن الألباب فنونه البديعة وطرايقه ، من بليغ يطارد[٢] أسراب المعاني البعيدة فيقتنصها ، ويغوص على الدرر الفريدة فيخرجها ، ويستخلصها بطابع مذاهبه دافقة ، وتأييد رايته خافقة ، نَبُهَ في عدمه شرف البيان من بعد الكرى ، وانتُدب بالنشاط إلى تجديد ذلك البِساط وانبرى ، فدارت الأكواس[٣] ، وتضوَّع الورد والآس ، وطاب الصَّبوح ، وتبدل الروح المَروح ، ولم تزل نفحاته تتأرَّج ، وعقائلُ بناته تتبرَّج ، حتى دُعي إلى الكتابة ، وخطب إلى تلك المثابة[٤] ، فطرَّز المفارق برقوم أقلامه ، وشنَّف المسامع بدُرِّ كلامه ؛ ثم أجاب داعي نفسه التي ضاق عنها جُثمانه ، لا بل زمانه ، وعظُم لها فكره وغمُّه ، وتعب [في][٥] مداراتها ، وكما قال أبو الطيب المتنبي : « وأتعَبُ

---

(١) هكذا في « ك » . وفي « ج » و « الملكية » : بحضرة .

(٢) في المخطوطين « والملكية » : يطارب والتصويب يقتضيه السياق .

(٣) وردت في المخطوطين : الكباس . والتصويب من « الملكية » .

(٤) هكذا وردت في « الملكية » . وفي « ج » (المثوبة) . والأولى أرجح .

(٥) إضافة يقتضيها السياق .

خلق الله من راد محمده » ، فارتحل ادنيّته ، واقتعد غارب[1] مطيّته ، فحجَّ وزار ، وشد للطَّواف الإزار . ثم هبا إلى المغرب وحوَّم ، وقفل قفول النسيم عن الروض بعد ما تلوَّم ، وحطَّ بإفريقيه على نار القِرى ، وحمد[2] بها صباح السُّرى ، ولم يلبث أن تنقلِ ، ووجِر الحميمُ شِفافه وتنغل ، ثم بدا له أخرى فشرّق ، وكان عزمُه أن يجتمع فتفرّق » .

مشيخته

روى عن مشيخة بلده وأشجر ، وقيَّد واستكثر ، وأخذ فى رحلته عن أناس شتّى يشق إحصاؤهم[3] .

تواليفُه

منها كتاب « المُساهلة والمسامحة ، فى تبيين طرق المداعبة والممازحة » و « إيقاظ[4] الكرام ، بأخبار المنام » و « تنعيم الأشباح بمحادثة[5] الأرواح » ، وكتاب « الوسائل ونزهة المناظر والخمائل » و « الزُّهرات وإجالة النَّظرات » وكتاب فى « التَّورية » على حروف المعجم ، أكثره مروى بالأسانيد عن خلق كثير ، والله تعالى يَخُره ، وجزء فى تبيين المشكلات الحديثة الواصلة من زُبيد اليمن[6] إلى مكَّة ، وجزء فى بيان اسم الله الأعظم ، وهو كبير الفائدة ، و « نزهة الحدَق فى ذكر الفِرَق » ، وكتاب الأربعين حديثاً البُلدانية ، والمُستدرك عليها من البلاد التى دخلتها ، ورويت فيها ، زيادة على الأربعين ، و « روضة العباد المستخرجه من الإرشاد » ، وهو من تأليف شيخنا القطب أبى محمد الشافعى ؛

---

(١) وردت فى المخطوطين : غاب . وهو تحريف .

(٢) فى « ج » : وحم . وفى « ك » وحمل . والتصويب بمقتضيه السياق .

(٣) هكذا وردت فى « الملكية » . وفى « ج » احصارهم

(٤) وردت فى المخطوطين : إيقاض .

(٥) وردت فى المخطوطين : محادثة .

٦) وردت محرفة فى المخطوطين : (زبيد المن) .

والأربعون حديثاً التي رويتها عن الأمراء والشيوخ ، الذين [رَوُوا][1] عن الملوك والأمراء ؛ والشيوخ الذين رَوُوا عن الملوك والخلفاء القريب عهدهم ؛ ووصلت بها خاتمة ذكرتُ فيها فوائد مما رويته عن الملوك والأمراء ، وعن الشيوخ الذين رووا عن الملوك والأمراء ؛ وكتاب « اللّباس والصُّحبة » وهو الذى جُمعت فيه طرق المتصوِّفة ، المدَّعى أنه لم يجمع مثله ؛ وكتاب فيه شَطْر الحماسة لحبيب ، وهو غير مُكْمَل ؛ ورجز فى الفرائض على الطريقة البديعة التى ظهرت ببلاد الشرق ؛ ورجز صغير فى الحَجْب والسِّلاح ، ورجز فى الجدَل ؛ ورجز فى الأحكام الشرعية سمّاه[2] ، « بالفصول المُقْتضبة فى الأحكام المُنْتَخبة » ؛ وكتاب سمّاه « بثاليث القوانين ، فى التَّوْرية والاستخدام والتَّضْمين » ، وهو كله من نظمه ؛ وله تأليف سماه « بفَيْض العُباب ، وإجالة قِداح الآداب ، فى الحركة إلى قُسَنْطينة وازّاب »[3]

شعره

ومن شعره فى المقطوعات :

طاب العَذيب بماء ذِكرك وانثنى ... فكأنما ماء العذيب سلافُهُ
واهتزّ من طربٍ لانياكِ الحِمَى ... فكأنَّما بأناتِهِ أعطافُهُ

ومن ذلك :

ليَ المدحُ يروى منذ كنت كأنما ... تصورت مدحاً للوَرَى وثناء
ومالى هجاء فاعجبنّ لشاعر ... وكاتبِ سرٍّ لا يُقيم هِجاء

(١) واردة فى « ج » و « الملكية » . وساقطة فى « ك » .

(٢) وردت فى المخطوطين : سميته . والتصويب يقتضيه السياق .

(٣) وردت فى المخطوطين : الذباب . وهو تحريف . والزاب من أقاليم المغرب الأوسط . وقسنطينة مدينة بالجزائر على مقربة من بجاية .

ومن ذلك :

ولى فرسٌ من علْية الشُّهب سابق ... أصرِّفُه يوم الوغى كيف أطلب
عدوتُ له فى حَلْبة القوم مالكا [يتابُعنى][1] ماشئت [فى السبق][2] أشهب

وقال ، وقد وقف حاجب السلطان على عين ماء « فيض الثغور » وشرب منها :

تعجبتُ من ثَغْر هذى البلاد ... وها أنت من [عَيْنه شارب][3]
فلله ثغر أرى شـارباً ... وعينٌ بدا فوقهـا حاجبُ

ومن ذلك :

وحمراء فى الكأس مشمولة ... تحث على العَوْد[4] فى كل بيت
فلا غَرْو أن جاءنى سـابقا ... إلى الأنْس خلٌّ[5] يحثُّ الكميت

وقال مُضمِّنا ، وقد تذكر حمراء غرناطة ، وبابها الأحْفل المعروف « بباب الفَرَج »[6] :

أقول وحمراء غرناطة تشوق ... النفـوس وتَسْبى المُهَج
ألا ليت شعرى بطول السُّرى ... أرتنا الوجى واشتكت[7] العرج
ومالىَ فى عرجٍ رغبـةٌ ... ولكن لأقْرَع باب الفَرَج

وقال مُلْغزا فى قلم وهو ظريف :

أحاجيك ما واشٍ يُراد حديثه ... ويهوى الغريب النازح الدَّار إفصاحَه

---

(١) هكذا وردت هذه الكلمة فى « ج » . وفى « ك » : فتى يعنى .

(٢) الزيادة من « الملكية » ومكانها بياض فى « ج » .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى الملكية : (عينها تشرب) .

(٤) أغفلت فى المخطوطين : والإضافة من الملكية ونفح الطيب .

(٥) وردت فى المخطوطين : حل . والتصويب من النفح .

(٦) كان باب الفرج هو باب قصر الحمراء الرئيسى الذى يلى « باب الشريعة » . وهو باب مدخلها الحالى . وقد اختفى اليوم « باب الفرج » .

(٧) وردت فى « ك » . واستكتب . وفى « ج » واستكتبه .

تراهُ مع الاحيان أصفَرَ ناحلا   كمثل مريض وهو قد لازم الرّاحة

وقال :

وقالوا رمى فى الكأس وَرْداً فهل تَرَى   لذلك وجهاً قلت أحْسِن به قَصْدا
ألم تجد اللذات فى الكأس حَلْبة   فلا تُنكروا فيها الكُمَيت ولا الوَرْدا

وقال :

[كُماة تلاقت تحت نقع سيوفهم   وللهام رَقْصٌ كلما طلب الثّار
فلا غرو أن غَنّتْ وتلك رواقصٌ   . . . فيهمُ فى ماردِ الحرب أو تار][1]

وقال :

وعارضٌ فى خـدِّه نباتُه   فحُسْنه بين الورى يَسْحرنا
أجْرَى دموعى إذ جَرت شوقا له   فقلتُ هذا عارضٌ مُمطرنا

وقال وقد توفى السلطان أبو يحيى بن أبى بكر صاحب تونس ، وولى ابنه أبو حفص[2] بعد قتله لإخوته :

وقالوا أبو حفص حَوَى المُلْك غاصباً   وإخوته أولى وقد جاء بالنُّكر
فقلت لهم كفوا فما رضى الوَرَى   سوى عُمَر من بعد موت أبى بكر

وقال مضمِّنا ، وقد حضر الفتى الكبير عَنْبر قتالا ، وكان فارساً مذكوراً عند بنى مَرين :

ولقد أقول وعنبرٌ ذاك الفتى   يَلْقى الفوارس فى العَجَاج الأكور
ياعاثرين لدى الجلاد لَعاً فقد   بسَقَت[3] لكم ريح الجلاد بعنبر

---

(١) ورد هذان البيتان بنصهما فى « ك » ، وأغفلا فى « ج » وفى « الملكية » .
(٢) هكذا وردت فى « ك » . ووردت فى « ج » أبو جعفر . والأولى متفقة مع سياق الشعر
(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » تبعت .

وقال وقد اشتاق إلى السُّبيكة[1] خارج حمراء غرناطة :

وإن إفراط بُكائى لم يَرُعْ منى عريكة
قد أذاب العين لما زاد شوقى للسُّبيكة[2]

* * *

لما نزلتُ من السَّبيكة صادنى ظبىٌ وددت لديه أن لم أنزل
فاعجب لظبى صاد ليثاً لم يكن من قبلها مُتخبِّطاً[3] فى أحبل

وقال وهو ظريف :

قد قارب العشرين ظبىٌ لم يكن ليَرَى الوَرَى عن حبه سُلْوانا
وبدا الربيع بخدِّه فكأنما وافى الربيعُ ينادم النُّعمانا

وقال :

أتَوْنى فعابوا من أحبُّ جماله وذاك على سَمْع المُحب خفيف
فما فيه عيبٌ غير أنَّ جفونه مِراضٌ وأنَّ الخصْر منه ضَعيف

وقال :

أيا عجباً كيف تهوى الملوكُ محلِّى وموطن أهلى وناسى
وتحسِدُنى وهى مخدومةٌ وما أنا إلا خديمٌ بِفاس

نثره

ونثره تِلوَ نظمه فى الإجادة، وقد تضمَّن الكتاب المسمى «بنُفاضة الجراب»[4]

---

(١) كان اسم « السبيكة » يطلق على الساحة الكبيرة اليانعة الواقعة جنوب شرق الحمراء . (أنظر لزيادة التعريف الحاشية فى ص ١١٦) .

(٢) أدمج هذان البيتان فى المخطوطين فى بيت واحد . وهما ساقطان فى « الملكية » .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : متحصنا .

(٤) « نفاضة الجراب فى علالة الإغتراب » هو أحد كتب ابن الخطيب التى وضعها قبل «الإحاطه» وقد أشرنا إليه فى المقدمة عند الكلام على مؤلفات ابن الخطيب . ومنه قطعتان مخطوطتان . الأولى توجد بمكتبة الإسكوريال وتتضمن السفر الثانى منه . والثانية توجد بخزانة الرباط العامة وتتضمن السفر الثالث . وقد وردت رسالة إبى إسحق بن الحاج ورد ابن الخطيب عليها فى هذه القطعة الأخيرة (راجع تفاصيل الوافية عن هذا الكتاب فى كتابى « لسان الدين بن الخطيب » ص ٢٤٢ — ٢٤٥) .

منه ذكر كل بديع ؛ فما ثبت فيه ، مما خاطبته به . وقد ولى خطة القضاء بالإقليم ، أداعبه . وأثير ماتستحويه عجائبه :

أيا قاضى العدل[1] الذى لم تزل تمتارُ شهب الفضل من شمسك
قعدتَ للإنصاف[2] بين الورَى فاطلب لنا الإنصاف من نفسك

« مالقاضى ، أبقاه الله . ضاق ذَرْعُ عدله الرَّحيب ، عن العجيب ؛ وهمَّ عن العَتْب ، وضَنَّ[3] على صديقه حتى بالكتْب ؛ أمِن المُدَوَّنة الكبرى ركب هذا التحريج ، أم من المَبْسوطة ذهب إلى هذا الأمر المريج ؛ أم من الواضحة امتنع عن الإمام ببديع الوفاء والتعريج ؛ من أمثالهم إرضَ من أخيك بعُشْر وُدِّه إذا وُلِّىَ ، وقد قَنِعنا والحمد لله بحبَّة من مُدِّه ، وإشارة من دَرْجه ، وبرَّة وصاعة[4] معتدلة ، من زمان بلوغ أشُدِّه ؛ فما باله يعدِلُ مع الغِنى ، ويحُوج إلى العَنا ، مع قرب الجَنَى ؛ المحلة حُلة ضالع ، ومطمع وطامع ، ومَرْأى[5] ورأى ، ومستمع وسامع ، والكَنَفُ واسع ، والمكان لاناء ولا شاسع ؛ والضَّرع حافل ؛ والزَّرع كافي كافل ؛ والقريحةُ وارية الزَّند ، والإمامة خافقة البَنْد ؛ وهب أن البُخْل يقع بها فى الخِوان على الإخوان . فما باله يسمح بالبيان ، وليس الخبر كالعِيان ؛ ويتعدى حظَّ الجِنان ، لاخَطَّ البنان ؛ أعيذ سيدى من ارتكاب رأىٍ ذميم ، ينقل إلى غيرها بيتُ تَميم ، ويقصدُ معناه بتَميم . وهلا تلا حم ؛ وعهدى بالسياسة القاضِوية[6] ، وقد نامت [فى مهاد أهل الظرف][7] ، نوم أهل الكهف ، ولم

---

(١) وردت فى المخطوطين : اعدل .
(٢) وردت فى المخطوطين : للانصراف . وحكمة التصويب ظاهرة .
(٣) وردت فى المخطوطين : وطر . وهو تحريف .
(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : واسعة . والأولى أرجح .
(٥) هكذا فى « ج » : والملكية . وفى « ك » مراء .
(٦) فى « ك » ، العاطوبة . وفى « ج » ، القاطوية . وفى « الملكية » القاطرية .
(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى « ك » . وفى « ج » (فى مهد الترف) .

تُبال بمردَّد الويل واللَّهف ، أو شَرْبةٍ لحفظ الصِّحة بخَتْجا. ودقَّت لإعادة الشبيبة عفْصًا وَرد سَخْتَجا ، وغطَّت الصبح بالليل إذا سجا ، ومدَّت[1] على ضاحى البياض صِلًّا[2] سَجْسجا ، وردَّت سَوْسن العارض بنَفْسجا[3] ، ولَبِس بحرها الزَّاخر من طُحلُب البحر مُنتَسجا ، وأحكامُ العامة ، ومزين[4] المرأة ينصح ويُرشد ، ويطوى المحاسن وينشُد ، حتى حسُنت الدَّارة ، وصحَّت الاستِدارة ، وأعجبه الوجهُ الجميل ، والقدُّ الذى يميد فى دَكَّة الدَّار ويميل . وأغرى بالسواك السميم والتكميل ، وولج بين شَفَرتى سيد الميل ، وقيل لو صاح اليمين خاب فيك التَّأميل ، وامتدَّ جناح برنس السَّرِق ، واحتفل[5] الغصن الرَّطيب فى الورق ، ورشَّ الوَرْد بمائه عند رَشْح العرق ، وتهيأ لمنطلَق . فقرأت عليه نساء أعوانه ، وكتبة ديوانه ، سورة الفَلَق ، من بعد ما وَقَف الإمليق[6] حُجَّابه على إقدامهم ، وسحبهم جلاوزته من أقوامهم ، فمثلوا واصطفُّوا ، وتألَّفوا والتفوا ، وداروا وحفُّوا ، وما تسللوا ولا خفوا[7] ، كأنما أسمعتهم صيحة النَّشر ، وأُخرجوا لأول الحَشْر . فعيونهم بملتقى المِصْراع معقودة ، وأذهانُهم لمكان الهيبة مفقودة ، وحبالتهم قبل الطلب بها منقودة ، فبعد ما فرَّش الوساد . وارتفع بالنِّفاق الكساد ، وذارع[8] البكا وتأرج الحُسَّاد ، واستقام الكون وارتفع الفساد ، وراجعت أرواحَها الاجسادُ ، جاءت السَّادة القاضوية فجلست . وتنعَّمت الأحداقُ بالنظر فيها واختَلَست ،

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ومرت .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » هلا .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » سفسجا .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ح » و « الملكية » ومدين .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » واحتمل .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » الأملين .

(٧) وردت فى المخطوطين والملكية : وحفوا .

(٨) هكذا فى « ك » . وفى « ج » و « الملكية » : ودارع .

وسجّت الأكفُّ حتى أفْلَست ، وزانت شمُسها ذلك الفَلَك ، وجَلَت[1] الأنوار ذلك الحَلك ، وفُتحت الأبواب وقالت هَيْت لك ، ووقفت الأعوانُ مِتَماطَين ومَثَلوا خَطَّين ، وتشكَّلوا مجرّةً تنتهى منك إلى البطين ، يُعلنون بالهديّة ويجهرون ، [ولا][2] يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، من كل شهاب ثاقب وطائفٍ غاسِق واقب . وملاحظ مُراقب ، كَيشُ الإزار ، بعيد المزار ، حامل الأوبار[3] ، خصيم[4] مبين ، وارثٌ سوفسطائياً[5] عن رثين ، مضطلّع بفقه البين[6] وحريمها ، فضلاً عن تلقين الخصوم [وتعليمها][7] ، يرأسهم العريف المقرّب ، والمقدّم المُدرّب ، والمُشافه المُباشر ، والنّابج الشاكر ، والنّهج العاشر ، الذى يقتضى خلاص العَقْد ، ويقطع الكالى والنَّقد ، ويزكّى ويجرّح ، ويُمسك ويسرّح ويطرّح ، ويحمل من شاء أو يشرّح . والمُسيطر الذى بيده ميزان الرِّزق[8] ، وجميع أجزاء المُفْتَرق ، وكافة[9] قابلة ، وحم الدَّواة الفاغرة ، ورشا بلالة الصُّدور الواغرة ، فإذا وقف الخصمان بأقصى مطرح الشعاع ، أيّان[10] يجتمع الرعاع ، وأعلنا النّدا ، وطلب الأعداء . وصاحا جعل الله أنفسنالك الفِداء ، ورُفع الامر إلى مُقطِع الحق ، والأولى بالمثوبة الأحق ، أخذتْهما الأيدى دفْعاً فى القُفيِّ ، ورفعا السِّتر اللَّطيف الخَفِيّ ، وأمسكا[11] بالحِجْر والأكمام ، ومنعا المباشرة

(١) فى المخطوطين : وجلب . وهو تحريف .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » و « الملكية » .

(٣) وردت فى المخطوطين : للأورباد .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، خيم .

(٥) وردت فى المخطوطين : سوفطائياً .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » البيق .

(٧) واردة فى « ت » و « الملكية » . وساقطة فى المخطوطين .

(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » الورق .

(٩) هكذا وردت فى « ج » والملكية . وفى « ك » كفة .

(١٠) وردت فى «ج» « والملكية » أمان . وفى «ك» وأماى . ونعتقد أن التصويب أنسب للمعنى .

(١١) وردت فى « ج » : وإمساكاً . وفى « ك » وإمسا . وهو تحريف .

والإلمام ؛ فإذا أدلى بحجته مَنْ أدلى ، وسمعها دينه عدلا ، وحقّ القول ، واستقر[1] الهَوْل ، ووَجَبت اليمين . أو الأداء الذى يفوت له الذخر[2] الثمين ، أو الرهن أو الضمين ، أو الاعتقال الذى هو على أحدها كالأمين ؛ نَهَش الصِّل ، الذى سليمه لأهل ، ولَسَبَت[3] العقارب ، التى لا يُفلتها الهارب ، ولا تخفى منها المشارب ؛ وَكم تحت ظلام الليل من غرارة يحملها غِر ، وصدّه ريح فيها صِرّ ؛ ويهدى ارتقاب قُلّة شهْد ، وكبش يُجَرّ بقرنيه ، ويدْفع بعد رفع ساقيه ؛ ومِعْزى وجَدْى وقلائد ، [وسرب][4] دجاج ، ذوات بجاج ، يفْضحن[5] الطّارق ، ويشعثن[6] المَفارق ، فمتى يستفيقُ سيدى مع هذا اللّغط العائد بالصِّلة ، واللهو المتّصلة ، وتفْرغ يده البيضا لأعمال ارْتياض ، وخطِّ سوادٍ فى بياض ، أو حَنينٍ لدَوْحٍ أو رياض ؛ أو إمتاع طَرْف ، باكتشاف حَرْف ، أو إعمال عدل لرسول فى صَرْف ، أو حَشْو طَرْف ، بتُحفة ظَرف ؛ شأنُه أشدّ استغراقاً ، ومثواهُ أكثر طِراقاً ، من ذكرى حبيبٍ ومنزل ، وأمٍّ مُعَدّل ؛ وكيف يستخدمُ القلم الذى يصرف ماءها الحبر[7] ، بذَوْب التّبر ، فى ترّهاتٍ عَدِيم جَناها ؛ وأقْطع جانب الخيبة لفظها ومعناها ؛ اللّهم إلا أن تحصل النفس على كفاية تُحتم لها الصّدر ، ويُشام من خلالها اللّجين [الرفيع][8] القدر ، أو يحي للفكاهة والأنس ، أو يُنفق لديها ذمامٌ على الجِنس ؛ فربما تقعُ المخاطبة المبرورة ، وتبيحُ هذا المُرْتكَب الصعب الضرورة ؛

---

(١) فى المخطوطين : استنفر .

(٢) فى المخطوطين : الزخر .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : ألبست فى « ك » . والبيت فى « ج » .

(٤) وردت مكانها فى المخطوطين : وهو درب .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » بمحصر . والأولى أنسب للمعنى .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » يشتعن .

(٧) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » البحر .

(٨) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين ، وواردة فى « ت » .

والمرغوبُ من سيّدنا القاضى أن يَذْكُرَنا(١) يوماً بالإغفال فى نعيمه ، ولايخيِّبَ آمالنا المتعلّقة بأذيال زعيمه ، ويُسْهِمَنا حظاً من فرائد خطّه ، لامن فوايد خُطْأته ، ويجعلَ لنا كِفْلا من فضل بُرِيته وحِنْطَته(٢) لا من فضل هِرَّته وقِطَّته(٣) ؛ فقد غَنينا عن الحلاوات بحلاوات لفظه ، وعن الطرَف المجموعة ، بفُنون حِفْظه ، وعن قَصَب السُّكر ، بقصب أقلامه ؛ وعن جنى الرَّوْم برَوامه ، وبهَدْيه ، عن جَدْيه ؛ وبمجاجَته ، عن دجاجته ؛ وبدَلَجه عن أُتْرُجه ؛ وعن البُر ببِرّه ، وعن الحَبِّ بحُبِّه ؛ ولا نأمُل إلا طاوع بطاقته ، وقد رضينا بوُسْع طاقته ؛ وإلا فلا بدَّ أن يجيش جيش الكلام إلى عَتْبه ، ونوالى عليه ضرايب الكتايب ، حتى يتَّقى بضريبة كَتْبه . والسلام(٤) » .

فراجعنى بما نصه :

فنيت عن الإنصاف منّى لأننى كما قُلْتُ لكم من فراقكم قاضِ
فمن سمعنا أو من بعينك إننى(٥) بكلّ الذى تَرْضاه يا سيدى راضِ

« عَمَرَكَ الله أيها الإمام الفذُّ ، ومن بمَدْحه تطرَب الأسماع وتَلَذُّ ، أوحدُ الدنيا وحائزُ الرُّتبة العليا ؛ ولولا أنك فوق مايقال ، والزَّلة إن لم تظهر العجز عن وصْفك لاتقال ، لأَطلتُ فى القول ، وهَدَرْتُ هدير(٦) قَرْع الشَّول ، لكن تحصيل الحاصل مُحال ، ولكل فى تهيُّب كالك مقال ، ومقامٌ وحال ؛ ولولا أنَّ الدعاء مأمول ، وهو يظهر الغَيْب مَقْبول ، والزيادة من فضل الله لاتنتهى ، والنِّعم قد توافيك ،

(١) وردت فى المخطوطين : يذكر . والتصويب يقتضيه السياق .
(٢) وردت فى المخطوطين : بريته ومظنه . والتصويب من « الملكية » .
(٣) فى المخطوطين : وقطعته . والتصويب يقتضيه السياق .
(٤) وردت هذه الكلمة فى « ك » . وأغفلت فى « ج » و « الملكية » .
(٥) وردت هنا الشطرة فى المخطوطين هكذا : (فن سمعنا أو بعنك إنى) فى الزى .
(٦) فى المخطوطين : هديع . والتصويب يقتضيه السياق .

فوق ما تشتهى، لأريت[1] أن ذلك [أمرٌ][2] كفى، وأمرٌ ظهر [فيه ما خَفى][3]

[إن قلتُ لازلتَ مرفوعاً فأنت كذا   أو قلتُ زانك ربِّي فهو قد فعَلا][4]

إيه ياسيدى ما هذه السكايات السِّحرية والأنفاس النَّفيسة الشَّجرية، والألفاظ التى أنالت المرغوب وخالطت بشاشتُها القلوب، والنَّزَعات الرّائقة، والأساليب الفائقة، والفصاحة التى سلبت العقول، والبلاغة التى أوجبَت الذُّهول، والبيان الذى لا يضيق صحيفه[5]، ولا يبلغ أحد مدّه ونَصيفه؛ يميناً بما احتوى من المحاسن، واللطائف التى لم يكن ماؤها بالآسن، وقسماً ببراعتك التى هى الواسى المُطاع، وطِرْسِك الذى أبهجت به الأبصار والأسماع؛ لقد عادلى بكتابتك عيدُ الشّوق، وجاد لى بخيالك جدُّ التَّوق، ولعَهدى بنفسى رَهْن أشجانى[6]، غيرَ مُحاولة عُقدة [لسانى][7]، أشدَّ من الصخرة جَلَدًا، وأغلظَ من الإبل كبداً؛ حتى إذا بدَت حقيدة[8] القلب وهبَّ نسيمه الرَّطْب، وأفيْح ورده العَذْب، وأضاء بنوره الشَّرق والغرب، ولم يبق لى بثٌّ ولا شَجَن، ولا شاقنى أهل ولا وطن؛ ومضى سيف اللسان بعد النبوّ، ونَهَض طَرْف الفكر بعد البُكر، وهزَّنى الطَّرب المثيرُ[9] للأفراح، ومشى الجَذَل[10] فى أطرافى وأعطافى مشيَ الرَّاح؛ بيد أنى خَجِلت ولا خَجْلة ربّة الخِدْر[11]،

---

(١) هكذا وردت فى «ج» وفى الملكية. وفى «ك» لرأيتك.

(٢) وردت فقط فى «ك». وساقطة فى باقى المخطوطات.

(٣) وردت هذه العبارة فى «ج». وأغفلت فى «ك».

(٤) هذا البيت وارد فى «ج» و «الملكية». وساقط فى «ك».

(٥) هكذا وردت فى «ج» و «الملكية». وفى «ك» حصيفه.

(٦) وردت فى المخطوطين: الشحانى. وهو تحريف ظاهر.

(٧) وردت فى «ك» و «الملكية». وأغفلت فى «ج».

(٨) هكذا فى «الملكية». وفى «ج» حقيرة. وفى «ك» حريقة.

(٩) هكذا فى «ك». وفى «ج» المتين.

(١٠) وردت فى المخطوطين: الجزل.

(١١) وردت فى المخطوطين: الحذر.

وتضاءلت نفسى لجلالة ذلك القَدْر ؛ وقلت مالى بشرْبة من كأس بيانه ، وقَطْرة من بُحور إحسانه ؛ حتى أُؤدِّى ، ولو بعض حقِّك ، وأُكتب عَقْد ملْك رقِّ لرقك ، إننى على ماوليتُ من الصَّدقة والصَّداقة وبعد طلاقك ؛ لكنى أقوم فى حقك مُسْتَغفِراً ، ولا أرضى أن أكون لذمَّة المخدوم خفراً ؛ على أننى أقول ، قد كتبتُ فلم يُردَّ جوابى ، وجَرَمْت فهاج الجوى بى ' ولعَمْرى قد لزمت فيه خطّة الأدب ، ولم أر التَّثقيل على المولى الرَّفيع الرُّتب ؛ فأما وقد نَفقَتْ عندك بضاعتى المُزْجاة ، وشملنى من لدُنْك الحلم والأناة ، وشرَّفتنى بالخطاب الكريم ، والرسالة التى عرفتُ فى وجهها نُضْرة[1] النعيم ؛ فما أبغى إلا إيرادها[2] عليك وكلها خراج ، ولبُرْدها فى الإجادة إنْهاج ؛ ولعلك ترضى التَّخْريج من مُدَوَّنة الأخبار ، والمَبْسُوطة والواضحة ، لكن من الأعذار . وأمَّا الولاية التى يقْنع بسببها من الوُد بالعُشْر ، أو بحبَّة من المُدّ إلى يوم النَّشْر ، فلابد أن يكون القانع محتاجاً للوالى ، ومُفْتقِراً إلى التفقُّد[3] المتوالى ؛ وأما إذا كان القانع هو الذى تولىّ الخُطّة ، وأُكْسِبَ الهرَّ[4] الذى أشار إليه والقطَّة ، فهو قياسٌ عكسه كان أقْيَس ، بل تعليمٌ لمن وجد فى نفسه خيفةً وأوجس ؛ وهأنا قد فهمْتُ وعلمتُ ، من حسن تأديبك ما علمتُ ، وعلى ما فرَّطت فى جَنْبك نَدمت ، وإلى المعذرة[5] والحمد لله أُلهمت ؛ ومع ذلك أعيدُ حديث الشيخ [القاضى][6] ، وذكر عهدك به فى الزمان الماضى ؛ فلقد أجاد ، فى الخضاب[7] بالسَّواد ، واعتمد على قول المالكى الذى هَدَى [إلى الرَّشاد][8] ، وأوجبه بعضهم فى بلاد الجهاد ؛

---

(١) هذه الكلمة واردة ثابتة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٢) وردت فى المخطوطين والملكية : أيراها .

(٣) وردت فى المخطوطين : تفقد .

(٤) وردت فى المخطوطين : الهند .

(٥) وردت فى المخطوطين : العذرة .

(٦) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين و « الملكية » ، وواردة فى « ت » .

(٧) وردت فى المخطوطين : بالخطاب . والتصويب يقتضيه السياق .

(٨) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : للرشاد .

وبيّن عمرُ منافع الخضاب[1] الصادقة الإشهاد ، وخضَب بالسَّواد جماعة من الصَّحابة الأمجاد ، وكان ذلك ترخيصاً لم يُعد شَرْعاً ، لـكنه دفع شرًّا وجلب نَفْعاً ، لا كأخيه الذى أبكى عين الحَميم ، وأنشد قول الرّضيّ يوم السقيم ، وفجع قلوب أترابه ، ولم يأت بيت النّصْف من بابه ، وإلا فقد علم أن فى الخير مشروع ، وتعجُّل الشىء قبل أوانه ممنوع ، وستَغْبط أخاك ولو بعد حين ، وما كل صاحب يحمد[2] فى إيضاح وتبيين ، وإنى لأرجو أن تتزوجها بكْراً ، تلاعبها وتلاعبك ، أو ثَيِّباً تَقْصُر عن حبها مآربك ، فلا جرَم ترجع إلى الخضاب ، وحينئذ تُمتِّع برشف الرُّضاب ، وإلا قالت سيدى ، لا تعظم المُنى ، ولا تجعل القَطْر قبل أن يموت[3] عمر ، لَعَمْرُ الله إن هذا الموقف صَعْب ، قد ملأ الروح منه رَوْعٌ ورُعْب ، وإن أضاف إلى ذلك غَلَبة الأوهام ، وظن الشيخوخة الصادرة عن نيل المرام ، سكن المُتحرك المطلوب ، وتنغّص عند ذلك المحبوب ، والله يُعينك أيها المولى ، ويواليك من بَسْطه أضعاف ما ولى . وأما الأوصاف التى حسَبْتَها[4] أوصافى ، وأوْجَبْتَ حُكْمها بالقياس على خلافى[5] ، فهى لعَمْرى أوصاف لا تُراد ، ومراعٍ لا شك أنها تراد ، غير أنى بعيد العَهد بهذه البلاد ، [لا أمت لها][6] إلا بالانتساب والميلاد ، لا كالقضاة الذين ذكرتَ[7] لهم عهداً ، ونَظَمْت حلاهم[8] فى جيد الدهر عقْداً ، ولو أنك [بسرك][9] بَصَّرتنى بشروط القضاء وسجايا أهل الصَّرامة والمضاء ، لحققت المَناط ، وأظهرت الزهد

(١) وردت فى المخطوطين هنا أيضاً : الخطاب .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » يحمل .

(٣) هكذا وردت فى « ت » . ووردت فى المخطوطين والملكية : أموت . والأولى أرجح .

(٤) وردت فى المخطوطين : حبستها .

(٥) وردت فى المخطوطين : خلاف .

(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » والملكية . وفى « ك » : لا أمتثلها .

(٧) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : يذكر .

(٨) هكذا فى « ح » . وفى « ك » : حالهم .

(٩) هذه الكلمة واردة فى الملكية ، وساقطة فى باقى المخطوطات .

والاغتباط ؛ لكنى جهلت [والآن ألهمت](١) ؛ وما عُلِّم الإنسان إلا ليَعلم ، والله يهدينا إلى الذى يكون أحسنُ وأقوم ؛ وإنى لأُعْلِم سيدى بخبرى (٢)، وأطلع جلاله على عُجْرى وبُجرى ؛ ولكنى رَحَلتُ عن تلك الحَضْرة ، وعَدِمت النَّظرة فى تلك النَّظْرة ؛ لبستُ الإهمال ، واطّلعت فى السفر والاعتمال ، فأقيم بادى الكآبة ، مُهتاج الصَّبابة ، قد فارقتُ السكن ، وخلفت الدار مثيرةَ الشَّجن :

وكانت جَنَّتى فخرجتُ منها كآدم حين أخرجَه الضِّرار

حتى إذا حطَطْتُ رَحْلى بالقرى ، وقَنِعت بالزَّاد الذى كفى معياراً والقِرى ؛ أُدْخلت إلى دار ضيقة المسالك ، شديدة(٣) الظُّلمة كالليل الحالك، تُذَكرنى القَبْر وأهواله [وتُنْسينى الذى أهواه](٤) ، بل تزيد على القبر برَفَل(٥) لا يُتخلص ، وبراغيث كريعة الكتّان حين تُمَحَّص ؛ وبعوض يطيل الّلهز(٦) ، ولا تغنّى حتى تشرب ، وبوق يسقط سقوط النَّدى ، ويَزْحف إلى فراشى زَحْف العدا ؛ وأراقم خارجة من الكُوَى(٧) ، وحيَّات بلدْغها نزَّاعة للشَّوى ؛ وجنون يُسمع عزيفها(٨) . وسُرَّاق لا يعدم تخويفها ؛ هذا ولا قَرَق(٩) لمن بالقَهْر حُبس ، إلا حصيرٌ قد اسودَّ من طول مالُبس ؛ لايُجتزى(١٠) فى طهارته بالنَّضْح ، ولا يُجشد من جلس عليه إلا بالجرح ؛ حتى إذا سجا الليل ، وامتدَّ منه على الآفاق الذيل ، فارقنى

---

(١) هكذاوردتهذه العبارة فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (والىالآن أمهلت) والأولىأرجح .

(٢) وردت فى المخطوطين : بخبر .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : الشديدة .

(٤) وردت هذه العبارة فى « ج » و « الملكية » . واغفلت فى « ك » .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : بزيل .

(٦) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » و « الملكية » : المنى . والأولى أصوب .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ح » : الكرى .

(٨) وردت فى المخطوطين : عزيمها . وفى الملكية عزفها . والتصويب أرجح .

(٩) هكذا وردت فى المخطوطين : والقرق ، هو المكان المستوى .

(١٠) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : يجن .

العونُ فراق السكرى ، ورأيت الدمع لما جرَى قد جرَى ؛ فأتوسَّدُ والله ذراعى ولأحمد والله اضطِّجاعى ؛ فكِلاَ لَيْلَىَّ محمومين . والوجه والشعر محمولان على الرأس والعين ؛ حتى إذا طلع الصبح ، وآن لبالى وعيونِ الخصوم الفَتْحُ ، أتانى عونٌ قد انحنى ظهره ظهره ، ونيف عن المائة عمرُه لا يشعر[1] بالجون الصَّيِّب . ولا تُسمعه كلمات أبى الطيِّب ؛ برْبَرى الأصل ، غير عارف بالفَصْل ؛ حتى إذا أذِنْتُ للخصوم ، وأردتُ إحياء الرسوم ، دخل على غولان عاقلان[2] ، وأثقل كتفى منهما مايلان ، قد أكلا الثوم النِّىء والبصل ، وعَرَقا فى الزنانير عرقاً اتصل ، يُهديان إلىَّ تلك الروائح ، ويظهران لى المخازى والفضائح ؛ فإذا حَكَمْتُ لأحدهما على خصمه ، وأردت الفصل الذى لا مطمع فى فَصْمه ، هرب العونُ هربا ، وتفى من النجاة بنفسه أربا ؛ واجتمع إلى النصحاء ، وجاء المرضى والأصحّاء ، كل يقول أتريد تعجيل المنايا ، وإشكال الولايا ، وإتعاب صديقك السيد العِماد ، بمَرْتبةٍ كما فعل مع القاضى الحداد ، فأقول هذا جهاد ، ومالى فى الحياة مُراد ، فأرتكبُ الخطر ، وأقضى فى الحكم الوَطَر . والله يسلِّم ، ويُكمِلُ اللطف ويتمِّم . وأما إذا جاء أحدكم لكَتْب عقد ، وطمعتُ فى نسيئةٍ أو نقد ، قطعتُ يومى فى تفهمُّم مقصده ، مستعيذاً بالله من غضبه وحَرَده ؛ حتى إذا ماتخلَّصتُ منه ، وملأت السِّجل بما أثبتُه عنه ، كشف عن أنياب عُضل ، وعبس عبوس المحب لانقطاع وَصْل ؛ وقال لقد[3] أخطأتَ فيما كتبتَ ، ورسمتَ ما أردت وأحببتَ ؛ فأكتُبُ عقداً ثانياً وثالثاً ، وأرتقبُ مع كل كلام حادث حادثاً ؛ فإذا رضى ، فأسأله كيف ؛ ومِن السالى[4] الذى أظهره ، أو اسمه[5] أو السيفَ ، أخرج من فمه دِرْهماً نَتِناً ، قد لزم ضِرساً عَفِناً ؛ فأُعاجله فى البخُور ، وأُحكُّه فى

(١) هكذا فى « ج » . وفى « الملكية » يسمع .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » و « الملكية » غافلان . والأولى أرجح .

(٣) وردت فى المخطوطين : لو . (٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : البسان .

(٥) وردت فى المخطوطين : اسم . وبهذا التعديل يستقيم المعنى نوعاً .

الصُّخور ، حتى إذا حُمل لمن يبيع خبز الذوة مُنتناً ، ويرى أنه قد فَضَل بذلك أُنسا وحُسْناً ، وجده ناقصاً زايفاً . فيرجع حامله وَجِلاً خايفاً ؛ ويبقى القاضى فقيدَ الهجُوع ، يشدُّ الحجر على بطنه من الجوع ؛ على أننى أَحمَدُ خلاء البَطْن . وما بجسمى لا يُحكى من الوَهن ؛ لتعذر[1] المرحاض ، وبُعد ماء الحياض ؛ وكُمُون السِّباع فى الغياض ، وتعلُّق الأفاعى بالرِّداء الفِضْفاض ؛ ونجاسة الحجارة ، وكثرة تردُّدِ السَّيارة ، والانكشاف للريح العقيم ؛ والمطر المُنْصَبِّ إلى الموضع الذميم . هذه الحال، وعلى شرحها مجال[2] ؛ وقد صَدقتُك سُنن فكرى ، وأعلمتُك بذات صَدْرى ؛ فتَجَلَّى الغرارة غُرور ؛ وشهود الشَّهد زور ، والطَّمع فى الثَّمرة إصرار ؛ ودون التِّبر[3] يعلم الله تَيَّار . وأما الكَبْشُ فحظِّى منه غُبارُه إذا خطر ؛ والثَّور بقَرْنه إذا العيد حَضَر ؛ كما أن حظِّى من الجَدْى التأذِّى بمسلكه ؛ وإنَّ جَدْى السماء لأقربُ لى من تملكه ؛ وأنا من الحلاوة سالمُ ابنُ حَلاوة ؛ ولا أعهد من طَرْف الطرف الدَّماوة ؛ ودون الدَّجاج كل مُدَجَّج ، وعِوَض الأُترجة بكل مَعْرج ؛ ولو عرفتُ أنك تقبل على علاّتها الهدايا ؛ وتُوجبُ المزيد لأصحابك المزايا[4] ؛ لبعثتُ بالقُماش ؛ وأنفذْتُ الرياش ؛ وأظهرتُ الغِنى ؛ والوقوف بمبنى المُنى ، وأوردتُها عليك من غير هَلَع ؛ مظَّلمة فى الجَوْف بعد بَلْع ؛ من كل ساحليَّة تُقَرِّب إلى البحر ، وغُدْوية لا تَعدُ ، وصدر مجلس الصَّدر ؛ حتى أجمعَ بين [الفاكهة][5] والفُكاهة ، ويبدو لى بعد الشقف وجوه الوجاهة ؛ وأتبرأ من الصَّدِّ المذموم ، ولا أكون أهدأ من القطا لطارق[6] اللُّوم ، لأنك زهَدْتَ فى الدنيا زُهد ابن أدْهم ، وألْهمَك الله من ذلك أكرم

(١) وردت فى المخطوطين : لتعد . والتصويب يقتضيه السياق .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : محال .

(٣) هكذا فى «ك» . وفى «ج» و «الملكية» البر .

(٤) وردت فى المخطوطين : المرايا . وهو تحريف .

(٥) هذه الكلمة واردة فى «ك» و «الملكية» . وساقطة فى «ج» .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» . لطوق . والأولى أنسب للسياق .

ما ألم ؛ فيَدُك من أموال الناس مقبوضة ، وأحاديث اللُّها الفاتحة لِلها مرفوضة ؛ وإذا كان المرء على دين خليله ، ومن شأنه سلوك نَهْجه وسبيله ، فالأليقُ أن أزهد فى الصّفراء والبَيْضاء ، وأقابل زُخْرف الدنيا بالبغضاء ، وأحقق وأرجو على يدك حسن التخلّى ، والاطلاع على أسرار التّجلّى ؛ حتى أسعد بك فى آخرتى ودنياى ، وأجد بركة خاطرك فى مماتى ومَحْياى ؛ أبقاك الله بقاء يُسر ، وأمْتَع بمناقبك التى يحسِدُها الياقوت والدُّر ، ولا زلتَ فى سيادة تروق نَعْتاً ، وسعادة لاترى فيها عِوَجا ولا أمتاً ، وأقرأ عليك سلاماً عاطرالعَرف ، كريم التأكيد والعَطْف [ما رثى لحالى راث ؛ وذكرت أدّاية حراث][1] ، ورحمة الله وبركاته . وكتبه أخوك ومَمْلوكك ، وشيعةُ مَجْدك ، فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى عام أربعة وستين وسبعمائة » .

مولده

بغرناطة عام ثلاثة عشر وسبعمائة .

محنته

توجّه رسولا عن السلطان إلى صاحب تِلمْسان السلطان أحمد بن موسى بن يوسُف بن عبد الرحمن بن يحيى بن [يَغْمُراسِن بن زيّان] :[2] وظفر بالجَفْن الذى رَكبه العدو ، بأحْواز جزيرة حبيبة[3] ، من جهة وَهْران ، فأُسر[4] هو ومن بأسطول

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى المخطوطين مع اختلاف يسير . وساقط فى « ت » والملكية .

(٢) ورد هذان الإسمان محرفين فى المخطوطين هكذا : (عمراسان بن زياد) . والتصويب من « اللمحة البدرية » .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : حبيه . وهو تحريف . وجزيرة حبيبة تقع غربى مدينة وهران على مقربة الشاطىء .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : فاتسر .

سفره من المسلمين ؛ وبلغ الخبر (1) فعظم الفجع ؛ وبين نحنُ نَروم سفر أسطول يأخذ الثار ، ويستقرى (2) الآثار ، فيقيل العثار ؛ إذا اتَّصل الخبر بمهادنة (3) السلطان المذكور ، فَفُدى (4) من أُسر بذلك المال الذى يَنيف على سبعة آلاف من العَيْن فى ذلك ؛ فتخلَّص من المحنة لأيام قلائل ، وعاد ؛ فتولى السلطان إرضاءه عمّا فقد ، وضاعف له الاستغناء وجَدَّد ؛ وكان حديثه من أحاديث الفَرَج بعد الشدة محسوباً ، وإلى سعادة السلطان منسوباً . وأنشدته [شعراً فى مصابه ، بعدها] (5) ؛ وقد قضيت له من بِرِّ السلطان على عادتى ، ما جَبَر (6) الكَسْر ، وخَفَض الأمر :

خَلُصْتَ كما خَلُص الزِّبْرقان ... وقد مَحَق النُّور عنه السِّرا

وفى السَّبْق والرأرِ ... فى هذا سِرٌّ وفى ذا أسرار

وكان تاريخ هذه المحنة المُرْدَفة المِنحة (7) ، حسبما نقلته من خطه ؛ قال ، « اعلموا ياسيدى أبقاكم الله تعالى ، أن سفرنا من ألمرِيَّة ، كان فى يوم الخميس السادس لشهر ربيع الآخر من عام ثمانية وستين وسبعمائة ، وتغلب علينا العدو فى عَشيَّة يوم الجمعة الثانى منه ، بعد قتال شديد ؛ وكان خروجُنا من الأسر فى يوم السبت الثانى والعشرين لربيع الثانى المذكور ، وكان وصولى إلى الأندلس فى أسطول مولانا نصره الله ، فى جمادى الآخرة من العام المذكور ، بعد أن وصلوا قَرْطاجَنَّة وأخذوا أجفاناً ثلاثة من أجفان العدوِّ ، وعمل المسلمون (8) الأعمال الكريمة » .

---

(1) وردت فى المخطوطات الثلاثة : البحر . وحكمة التصويب واضحة .

(2) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : ويستغرق .

(3) وردت فى المخطوطين : بمهادة . وفى « ت » بمهادات . وهو تحريف .

(4) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » و « الملكية » : وفك ، والمعنى واحد .

(5) وردت هذه العبارة فى المخطوطات الثلاثة وكذا فى « الملكية » على النحو الآتى : (سعة أصابه بعدها) . وهو تحريف لا معنى له . وقد حاولنا بما أثبتناه أن نقرب المعنى المقصود .

(6) وردت فى المخطوطات الثلاثة : يجبر . وصيغة الماضى هنا لازمة لاستقامة السياق .

(7) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : (المحنة) مرة أخرى وهو تحريف .

(8) وردت فى المخطوطين : المسلمين . وهو خطأ اقتضى التصويب .

إبراهيم بن خلف بن محمد بن الحبيب بن عبد الله ابن عمر بن فَرْقَد القُرشى العامرى

قال ابن عبد الملك ، كذا وقفتُ على نَسَبه بخطه فى غير ما موضع من أهل مُورَة[1] ، وسكن إشبِيلية .

حـاله

كان مُتفنِّناً فى معارفه ، محدِّثاً ، راوية[2] ، عَدْلا ، فقيها ، حافظاً ، شاعراً ، كاتباً ، بارعاً ، حسن الأخلاق ، وطِيء الأكناف ، جميل المُشاركة لإخوانه وأصحابه ، كتب بخطه الكثير من كبار الدواوين وصغارها ، وكان من أصحِّ الناس كُتْباً ، وأتقنهم ضَبْطاً وتقييداً ، لاتكاد تلقى فيما تولى تصحيحه خللا ، وكان رؤوفاً شديد الحنان على الضعفاء والمساكين واليتامى ، صَليباً فى ذات الله تعالى ، يعقِد الشروط مُحْتَسِباً ، لايقبل ثواباً عليها إلا من الله تعالى .

مشيخته

تلا بالسَّبع على أبى عمران موسى بن حبيب ، وحدَّث عن أبى الحسن بن سليمان ابن عبد الرحمن المُقْرى ، وعبد الرحمن بن بَقِيّ ، وأبى عمرو ميمون بن ياسين ، وأبى محمد بن عتَّاب ، وتفقه بأبوى عبدالله بن أحمد[3] بن الحاجّ ، وابن حميد ،

---

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ح» (مرده) وفى «الملكية» بدرة ، وهو تحريف . وموره ، وبالإسبانية Mora ، هى بلدة من أعمال طليطلة ، وتقع فى جنوبها الشرقى على مقربة منها .

(٢) هكذا فى «ك» . وفى «ج» راوياً .

(٣) هكذاوردت فى المخطوطات الثلاثة . وفى «الملكية» (بأبى عبد الله بن محمد ... الخ) .

وأبي الوليد بن رشد ؛ وأجاز له أبو الأصْبَغ بن مناصف ، وأبو بكر بن قُزمان ، وأبو الوليد بن طريف .

« من روى عنه » ؛ روى عنه أبو جعفر ، وأبو إسحاق بن تلى المَرْدالى ، وأبو أمية إسماعيل بن سعد السعود بن عُفير ، وأبو بكر بن حكم الشّمرسى ، وابن خير ، وابن تسع ، وابن عبد العزيز الصدفى ، وأبو الحجاج ابراهيم بن يعقوب ، وأبو على ابن وزير ، وأبو الحسن بن أحمد بن خالص ، وأبو زيد محمد الأنصارى ، وأبو عبد الله ابن عبد العزيز الذّهبى ، وأبو العباس بن سَلْمة ، وأبو القاسم بن محمد بن إبراهيم المُراعى ، وأبو محمد بن أحمد بن جُمْهور ، وعبد الله بن أحمد الأطْلس .

تواليفه [1]

دوّن برنامجاً مُمْتعاً ذكر فيه شيوخه ، وكيفية أخذه عنهم ، وله رجزٌ فى الفرائض مشهور ، ومنظومٌ كثير ، وترسّل منُوع ، وخُطَب مختلفة المقاصد ، ومجموعٌ فى العَرُوض .

دخوله غرناطة

قال المؤرخ : وفى عام أربعة وخمسين وخمسمائه ، عند تغيب الخليفة بالمَهْدِيّة استدعى السيد أبو سعيد الوالى بغرناطة ، عند استقراره بها ، الحافظ أبا بكر بن الجد ، والحافظ أبا بكر بن حبيش ، والكاتب أبا القاسم [2] بن المُراعى ، والكاتب أبا إسحاق بن فَرْقد ، وهو هذا المترجم به ، فأقاموا معه مدّة تقرب من عامين اثنين بها .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وترد أحياناً : تآليفه .

(٢) وردت فى المخطوطين : ابن القاسم . والتصويب من « ت » .

شـــعره

مما ينقل عنه قصيدة شهيرة فى رثاء الأندلس :

ألا مُسْعِدٌ مُنجزٌ ذو فِطَن يبكى بدمعٍ مَرِين هَتِن
جزيرةُ أندلسٍ حسرةً[1] لا غالب[2] من حقود الزَّمن
ويَنْدُب أطلالها آسِفاً ويَرْثِى من الشِّعر ما قد وَهَن
ويَبكى الأيام ويبكى اليتامى ويَحكى الحَمام ذوات الشَّجَن
ويشكو إلى الله شكوى شجٍ[3] ويدعـــوه فى السِّر ثم العلن
وكانت رِباطاً لأهـــل التُّقى فعادت مناطاً لأهل الوَثَن
وكانت معـــاذاً لأهل التُّقى فصارت ملاذاً لِمَن لم يَدِن
وكانت شَجىً فى حُلوق العِـــدا فأضحى لهم مالُها مُحْتَجن

وهى طويلة ؛ ولدىّ خلاف فيمن أفْرَط فى استحسانها . وشعره عندى وسَط .

ومن شعره وهو حجَّة فى عُمْره عند الخلاف فى ميلاده ووفاته . قال :

ثمانون عاماً مع سِتٍّ عُمِّرت وليتنى أُرَقْتُ دموعى بالبـكاء على ذَنْب
فلا الدّمع فى محو الخطيئة غُنْيَةٌ إذا هاج من قلبٍ مُنِيب إلى الرَّب
فياسامعَ الأصوات رحماك أرْتَجى فهَبْ لى انسكاب الدمع من رِقَّة القلب
وزَكِّ الذى تَذْريه من شيمةٍ[4] تعلَّق بالمَظْلُوم من شدَّة الكَرْب

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » و « ت » حسرت .

(٢) وردت فى المخطوطين : عالياً . والتصويب من « ت » .

(٣) وردت فى المخطوطين : (شجم) . والتصويب من « ت » .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » شيمتى .

وزكِّ مثابى(١) فى العقود وكَتْبِها | لوجهك لم أُقْبِل ثواباً على كَتْبِ
ولا تحرمِنى أجْرَ ما كنتُ فاعلاً | لحقِّ اليتامى عندى من لِذِى صَعْبِ
ولا تخزنى يوم الحساب وهوله | إذاجئتُ مذعوراً من الهَوْلِ والرُّعبِ

مـــولده

حسبما نُقل من خط ابنه أبى جعفر ، ولد ، يعنى أباه سنة أربع وثمانين وأربعمائة .

« وفاته » : بعد صلاة المغرب من ليلة الثلاثاء [الثامن عشر](٢) من محرم عام اثنين وسبعين وخمسمائة . ونُقل غير ذلك .

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عبيدس بن محمود النفرى أُبَّدِى(٣) الأصل ، غَرناطى الإستقرار ، ويكنى أبا إسحاق .

حـــاله

خاتمة الرُّحَّال(٤) بالأندلس ، وشيخ المجاهدات وأرباب المعاملات ، صادق الأحوال ، شريف المقامات ، مأثور الإخلاص مشهور الكرامات ، أصْبَرُ الناس على مجاهداته ، وأدومهم على عملٍ وذكرٍ وصلاة وصوم ؛ لا يفْتُرُ عن ذلك ولا ينام ، آية الله فى الإيثار ، لا يدَّخر شيئاً لغد ، ولا يتحرَّف بشىء ؛ وكان فقيهاً حافظاً ، ذاكراً للغة(٥) والأدب ، نحوياً ماهراً ، درس ذلك كلَّه أول أمره ؛ كريم

---

(١) وردت فى المخطوطين : منابى . وهو تحريف . وفى « ت » مقامى . والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » (الثامن والعشرين عشر) وهو خلط لا معنى له .

(٣) نسبة إلى مدينة أبدة Ubeda . وقد سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١٥٥) .

(٤) وردت فى المخطوطات الأربعة : الرجال . وهو تحريف ظاهر .

(٥) وردت فى الملكية وفى المخطوطين : للغات . وهو تحريف . ولا نظن أن المقصود بها غير العربية .

الأخلاق ؛ غلب عليه التصوُّف فشُهر به ، وبمعرفة طريقه الذى نَدّ[١] فيها أهل زمانه ، وصنَّف فيها التصانيف المفيدة .

ترتيب زمانه

كان يجلس إثْر صلاة الصبح لمن يقصده من الصالحين ، فيتكلم لهم بما يجريه الله على لسانه ، ويُيَسِّر من تفسير ، وحديث وعظة ، إلى طلوع الشمس؛ فيتنفَّل صلاة الضُّحى ، وينفصل إلى منزله ، ويأخذ فى أوراده ، [من قراءة][٢] القرآن والذِّكر والصلاة إلى صلاة الظهر ، فيُبكِّر فى رواحه ، ويُوالى التنفُّل إلى إقامة الصلاة؛ ثم كذلك فى كل صلاة ، ويصل مابين العِشاءين بالتنفل ، هذا دأْبُه أبدا .

وكان أمره فى التوكُّل عجباً ، لايَلْوى على سبب ، وكانت تُجْبَى إليه ثمرات كلِّ شىء ، فيدفع ذلك بجملته ، وربما كان الطعام بين يديه ، وهو محتاجٌ ، فيعرِض من يسأله ، فيدفعه جُمْلة ، ويبقى طاوياً ؛ فكان الضعفاء والمساكين له لياذاً يَنْسِلون من كل حَدَب ، فلا يردُّ أحداً منهم خائباً ؛ ونفع الله بخدمته وصحبته ، واستخرج بين يديه عالَماً كثيراً .

مشيخته

أخذ القراءة عن أبى عبد الله الحَضْرمى ، وأبى الكوم جُودى بن عبدالرحمن؛ والحديث عن أبى الحسن بن عمر الوادى آشى ، [وأبى محمد عبد الله بن سليمان][٣] ابن حَوطِ الله ؛ والنحو واللغة عن ابن يُربوع وغيره . ورَحَل وحجَّ ، وجاور وتكرَّر .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ندب .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : وقراءة .

(٣) وردت فى « ك » أبو محمد سليمان . وفى « ج » والملكية (وأبى سليمان محمد) والصحيح ما أثبتناه .

ولَقِى هناك غير واحد ، من صدور العلماء وأكابر الصوفية ؛ فأخذ صحيح البخارى سماعاً منه سنة خمس وستمائة عن الشَّريف أبى محمد بن يونس ، وأبى الحسن على بن عبد الله بن المغربانى ، ونصر بن أبى الفرج الحضرمى ؛ وسُنَن أبى داود وجامع التِّرمذى على أبى الحسن بن أبى المكارم نصر بن أبى المكارم البغدادى، أحد السامعين على أبى الفتح الكروخى ، وأبى عبد الله محمد بن مسترى الحمة[1] ؛ وأبى المعالى[2] بن وَهَب بن البنا ؛ وببجاية عن أبى الحسن على بن عمر ابن عطيّة .

«من روى عنه» ؛ روى عنه خلق لا يحصون كثرة[3] ؛ منهم أحمد بن عبد المجيد ابن هُذيل الغسّانى ، وأبو جعفر بن الزبير ، وغيره .

تواليفه

صنّف فى طريقه التصوُّف وغيرها تصانيف مفيدة ؛ منها «مواهب العقول[4] وحقائق المَعْقُول» ؛ و «الغيرة المذْهلة ، عن الحَيْرة والتَّفرقة والجَمْع» ؛ و «الرحلة العنوية » ؛ ومنها « الرسائل فى الفقه والمسائل » ؛ وغير ذلك .

شـعره

له أشعار فى التصوف بارعة ؛ فمن ذلك مانقلته من خط الكاتب[5] أبى إسحاق ابن زكريا فى مجموع جمع فيه الكثير من القول :

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وربما أغفلت كلمة (ابن) قبلها . وربما كانت اسم البلد المعروف بالأندلس (الحمة أو الحامة) .

(٢) وردت فى المخطوطين : ابن المعالى . وهو تحريف .

(٣) وردت فى المخطوطين والملكية : كثير . وهو تحريف .

(٤) هكذا ورد العنوان فى «ك» . وفى «ج» : مواهب القلوب . والأولى أرجح لاتفاقها فى السجع مع الشطر الآخر من العنوان .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : الكتاب . وهو تحريف .

يضيق عليّ من وَجْدى الفضاء ... ويُقْلقنى[١] من الناس العَناء
وأرضُ الله واسعة ولكن ... أبَتْ نفسى تحيطُ بها السماء
رأينا العرش والكرسيَّ أعلا ... فوالَيْناهما حَرَم الوَلاء
فأين الأينُ منا أو زمانٌ ... بحيث لنا على الكُلِّ اسْتِواء
شَهِدْنا للإلَه بكل حُكْم ... فغاب القلبُ وانكشف الغطاء
ويَدْعونى الإلَه إليه حقًّا ... فيُؤْنِسُنى من الخوف الرَّجاء
ويَقْبِضُنى ويُبْسِطُنى ويقضى ... بتَفْريق وجمعى ما يشاء
ويَعِي فى وجود الخَلْق مَحْواً ... يُنعَتُ[٢] من تولاَّه الفَناء
فكم أخفى وجودى وقت فَقْدِى ... كأن الفَقْد والإحْيا[٣] سواء
فسُكْرٌ ثم صَحْوٌ ثم سكر ... كذاك الدهر ليس له انقضاء
فوصفى حالَ[٤] من وصفى ولكن ... ظهورُ الحقِّ ليس له خَفاء
إذا شمسُ النهار بَدَتْ تولّت ... نجومُ الليل ليس لها انجلاء

و[من][٥] شعره :

كم عارف سَرَحَت فى العلم همَّتُه ... فعقْلُه لحجاب العقل هَتَّاك
كساه نور الهدى بُرْداً وقلَّده ... درًّا ففى قلبه لِلعِلم أسلاك
كسب ابن آدم فى التحقيق كِسْوته ... إن القلوب لأَنْوار وأَحْلاك
كَلِّف فؤادك ما يبدى عجائبه ... إن ابن آدم للأَسْرار دَرَّاك

---

(١) هكذا وردت فى « الملكية » . وفى « ج » ويسليني . والأولى أرجح .
(٢) هكذا فى « ج » و « الملكية » . وفى « ك » : نيمت .
(٣) وردت فى المخطوطين : (أو حياً) .
(٤) وردت فى المخطوطين : حلى .
(٥) ساقطة فى المخطوطين والملكية .

كيف وكم ومتى والأين منسلب | عن وصف باريها والجهل تبّاك
كبرٌ وقدّس [ونزّه][1] ما أطقت فلم | يصل إلى مَلِك الأملاك أملاك
كرسيه ذلّ والعرش [استكان][2] له | ونزه الله أملاك وأفلاك
كل يقر بأن العجز قيّده | والعجز [عن دَرْك][3] الإدراك دراك

وقال، وهو ما اشتُهر عنه، وأنشدها بعض المشارقة فى رحلته فى غرض اقتضى ذلك، يقتضى ذكره طولا :

يامن أنامله كالمُزْن هاميةٌ | وجُودُ كفّيه أجْرى من يجاريها
بحقٌ من خلق الإنسان من عَلَقٍ | أنظر إلى رِقْعَتى وافهم معانيها
أنى فقيرٌ ومسكين بلا سبب | سوى حروف من القرآن أتلوها
سفينةُ الفقر فى بحر الرّجا[4] غرِقت | فامْنُن عليها بريحٍ منك يُجْريها
لايعرفُ الشوقَ إلا من يكابِدُه | ولا الصّبابة إلا من يعانيها

وقالْ القاضى أبو عبد الله بن عبد الملك، وقد ذكره ؛ على الجُملة فبه خُتم جِلّة أهل هذا الشأن بصُقع الأندلس، نفعه الله ونفع به .

مولده

ولد بجيّان سنة اثنتين وستين وخمسمائة أو ثلاث وستين .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين والملكية . وواردة فى « ت » .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٣) هكذا وردت فى « ت » . وفى « ك » : دون . وفى « ج » : در ، وهو تحريف .

(٤) هكذا وردت فى « ت » و « الملكية » ، وفى المخطوطين : الدجا . والأولى أرجح بالنسبة للمعنى المقصود .

إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى بكر التسولى

من أهل تازى[١] ؛ يكنى أبا سالم ، ويعرف بابن أبى يحيى .

حـــاله

من أهل[٢] «الكتاب المؤتمن»[٣] ؛ كان هذا الرجل قيّماً على التهذيب، ورسالة ابن أبى زيد ، حسن الإقراء لهما ؛ وله عليهما تقييدان نبيلان ، قيّدها أيام قراءته إياها على أبى الحسن الصغير ؛ حضرت مجالسه بمدرسة عُدْوة الأندلس من فاس، ولم أر فى متصدّرى بلده أحسن تدريباً منه . كان فصيح اللسان ، سهل الألفاظ، موفياً حقوقها ، وذلك لمشاركته الحضَر فيما فى أيديهم من الأدوات ؛ وكان مجلسه وقْفاً على « التهذيب » و « الرسالة » ؛ وكان مع ذلك شيخاً فاضلاً ، حسن اللقاء ، على خلق بائنة من أخلاق أهل مِصره[٤] . امتُحن بصحبة السلطان ، فصار يستعمله[٥] فى الرسايل ، فمر فى ذلك حظٌّ كبير من عُمره ضايعاً ، لا فى راحة دنيا ، ولا فى نصيب آخرة ؛ ثم قال هذه سنّة الله فيمن خدم الملوك ، ملتفتاً إلى ما يُعطُونه ، لا إلى مايأخذون من عُمره[٦] وراحته ؛ أن يبوؤا[٧] بالصفقة الخاسرة ، لَطَفَ الله بمن ابتُلى بذلك ، وخلّصنا خلاصاً جميلاً .

ومن كتاب « عائد الصلة » : الشيخ ، الحافظ ، الفقيه ، القاضى ، من

---

(١) وردت فى المخطوطين : تيزى وفى الملكية تيزين . وهو تحريف لاسم المدينة المغربية القديمة.

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين والملكية . وواردة فى « ت » .

(٣) هذا الكتاب وعنوانه الكامل «الكتاب المؤتمن فى أنباء أبناء الزمن» هو من تأليف ابن الحاج البلفيقى شيخ ابن الخطيب .

(٤) هكذا فى « ك » و « ت » . وفى « ج » : عصره .

(٥) وردت فى المخطوطين : يتعلمه . وهو تحريف .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية . غيره .

(٧) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : تبوأ .

صدور المغرب ، مُشاركاً فى العلم ، متبحراً فى الفقه ؛ كان وجيهاً عند الملوك ، صَحِبهم ، وحضر مجالسهم ، واستُعمل فى السفارة ، فلقيناه بغرناطة ، وأخذنا بها عنه ؛ تام السَّراوة[1] ، حسن العهد ، مليح المجالس ، أنيق المحاضرة ، كريم الطبع ، صحيح المذهب .

تصانيفه

قيد على « المُدوَّنة » ، بمجلس شيخه القاضى أبى الحسن ، كتاباً مفيداً ؛ وضم أجوبته على المسائل فى سِفر ؛ وشرح كتاب « الرسالة »[2] شرحاً عظيم الفائدة .

مشيخته

لازم أبا الحسن الصغير ، وهو كان قارئ كُتُب الفقه عليه ، وجل انتفاعه فى التفقه به ؛ وروى عن أبى زكريا بن أبى ياسين ، قرأ عليه كتاب « المُوطأ » ، إلاّ كتاب « المكاتب» ؛ وكتاب « المدبّر »[3] ، فإنه سمعه بقراءة الغير ؛ وعن أبى عبد الله بن رشد ، قرأ عليه « المُوطأ » ، « وشفاء » عياض ؛ وعن أبى الحسن ابن عبد الجليل السّدارى ، قرأ عليه « الأحكام الصغرى » لعبد الحق ؛ وأبى الحسن ابن سليمان ، قرأ عليه « رسالة» ابن أبى زيد[4] ، وعن غيرهم .

وفاته

فُلِج بآخرة ، فالتزم منزله بفاس ، يزوره السلطان فَمَن دونه ؛ وتوفى بعد عام ثمانية وأربعين وسبعمائة .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : السرارة . والسراوة هى الرياسة .

(٢) الرسالة هى « رسالة » ابن أبى زيد القيروانى وهى من شروح الفقه المالكى .

(٣) هكذا رسمت فى « ج » . وفى « ك » : المدر .

(٤) إن الكتب التى ورد ذكرها فى هذه الترجمة كلها من كتب الحديث والفقه . وقد رأينا أن نثبتها بعناوينها ومؤلفيها كاملة فى الملحق الخاص بذلك .

إبراهيم بن محمد بن على بن محمد بن أبى العاصى التَّنُوخى

أصله من جزيرة طريف[1] ، ونشأ بغرناطة واشتهر .

حـاله

من « عائد الصلة » : كان نسيج وحده حياءً ، وصَدَقة ، وتخلُّقاً ، ومشاركة ، وإيثاراً . رَحَل عند استيلاء العدو على جزيرة طريف ، عام أحد وسبعين وستمائة ، مُتحولاً إلى مدينة سَبْتة ، فقرأ بها واستفاد . وورد الأندلس [فاستوطن][2] مدينة غرناطة ، وكتب فى الجملة عن سلطانها ، وترقى مَعارج الرتب ، حالاً مُحالا ، من غير اختلاف على فضله ، ولا نزاع فى استحقاقه ؛ وأقرأ فنوناً من العلم ، بعد مهلك أستاذ الجماعة ، أبى جعفر بن الزبير[3] ، بإشارة منه به ؛ ووُلّى الخطابة والإمامة بجامعها منتصف صفر عام ستة عشر وسبعمائة ، وجمع بين القراءة والتدريس ، فكان مُقرِئاً للقرآن ، مبرِّزاً فى تجويده ، مدرساً للعربية والفقه ؛ آخذاً فى الأدب ، متكلماً فى التفسير ، ظريف الخط ، ثَبْتاً محققاً لما ينقله ؛ وألقى الله عليه من المحبة والقبول ، وتعظيم الخلق له ، ما لا عَهْد بمثله لأحد ؛ بلغ من ذلك مبلغاً عظيماً ، حتى كان أحبَّ إلى الجمهور من أوصل أهلهم وآبائهم ؛ يتزاحمون عليه فى طريقه ، يتمسّحون به ، ويسعون بين يديه ، ومن خلفه ؛ ويتزاحم مساكينُهم على بابه ، قد عوّدهم طَلاقة وجهه ، ومواساته لهم بقُوتِه ، يفرّقه عليهم متى وجدوه ، وربما أعجلوه قبل استواء خُبزه ، فيفرّقه[4] عليهم عجيناً . له فى ذلك أخبار غريبة .

---

(١) هى مدينة طريف التى سميت باسم طريف بن مالك أول من عبر البحر إلى اسبانيا من قواد المسلمين . وهى على نتوء فى جنوبى غربى المثلث الإسبانى مقابل الجزيرة الخضراء واسمها بالإسبانية Tarifa

(٢) وردت هذه الكلمة فى « ك » . وأغفلت فى « ج » والملكية .

(٣) سبقت ترجمته فى هذا المجلد من الإحاطة (ص ١٨٨ - ١٩٣) .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » مفرقه .

وكان صادعاً بالحق ، غيوراً على الدين ، مخالفاً لأهل البدَع ، ملازماً للسنة ، كثير الخشوع والتخلُّق على علوّ الهمة ، مَبْذول المشاركة للناس والجِدّ فى حاجاتهم ، مُبتلى بوسواس فى وضوئه ، يتحمل الناس من أجله مَضَضاً فى تأخير الصلوات ومضايقة أوقاتها .

مشيخته

قرأ ببلده على الخطيب القاضى المُقرى أبى الحسن عُبيد الله بن عبد العزيز القرشى المعروف بابن القارئ ، من أهل إشبيلية ؛ وقرأ بسَبْتة على الأستاذ إمام المقرئين لكتاب الله ، أبى القاسم محمد بن عبد الرحمن بن الطيِّب بن زَرْقون القَيْسى الضرير ، نزيل سبتة ، والأستاذ أبى إسحاق الغافقى المريونى ؛ وقرأ على الشيخ الوزير أبى الحَكَم بن منظور القيسى الإشبيلى ، وعلى الشيخ الراوية ، الحاج أبى عبد الله محمد بن الكتامى التِلِمسانى بن الخَضّار ؛ وقرأ بغرناطة على الأستاذ أبى جعفر ابن الزبير ، وأخذ عن أبى الحسن بن مستقور [1] .

شعره

كان يَقرِض شعراً وسطاً ، قريباً من الانحطاط . قال شيخنا أبو بكر ابن الحكيم [2] فى كتابه المسمى «بالفوائد المُنتخبة ، والموارد المُستعذبة » ؛ كتب إليه شيخنا وبركتُنا أبو جعفر بن الزيات فى شأن شخص من أهل البيت النبوى بما نصه :

---

(١) وردت فى المخطوطين : مسمفور . وهو تحريف يرد دائماً فى المخطوطين بالنسبة لهذا الاسم .

(٢) سبقت الإشارة إليه (انظر الحاشية فى ص ١٥٧) . وقد ترجم له ابن الخطيب فيما بعد ، فى المجلد الثانى من الإحاطة .

رجـــل يدّعى القرابة للبيـــــت وإن الثريا[1] منه بمعزل
سأل منى خطابـكم وهو هذا ولـكم فى القلوب أرفع مَنْزل
فهبوه دعاءكم وامنحونى منه حظًّا يُنْمى الثواب ويَجزِل
وعليـكم تحيـة الله ما دا م أمير الهدى يُولّى وَيعزل

فأجابه :

يا إمامى ومَنْ به قطركم ذا ك وحادى البلاد أطْيَب منزل
لم أضَعْ ما نظمتم من يدى حتى أنيـل الشّريف تحفة منزل
وحبـاه بكل مَنْح جزيل مَنْ غدا يمنحُ الثّواب ويجزل
دمتم تنشرون علْماً ثوابُ الله فـيه لـكم أعزّ وأجْـزل
[تذكرون الله ذكراً كثيراً][2] وعليـكم سكينةُ الله تنْزل
وطلبتمُ منى الدّعاء وإنى عند نفسى من الشروط بمعْزِل
لـكن ادعو ولتَدْعُ لى يرضا الله وأبدى فهم ذكر قد أُنزل
وحديث الرسول صلى عليه كل وقت ووب لنا الغيثُ ينزل
وعليـكم تحيّتى كل حين ما اطمأنّت بمكة أمُّ معزل

قال ، ومما أنشدنى من نظمه أيضاً فى مَعْرض الوصيَّة للطلبة :

إعمل بعلمك تُوت علماً إنما عدوى علوم المرء منح[3] الأقوم
وإذا الفتى قد نال علماً ثم لم يعمل به فـكأنما لم يَعْلَم

---

(١) وردت فى المخطوطين والملكية : الثرى . والتصويب من « ت » .
(٢) وردت هذه الشطرة فى المخطوطين وفى الملكية محرفة : (ولذكر الله كثيراً) .
(٣) وردت فى المخطوطين : تمنح .

وقال موطئاً على البيت الأخير :

أمولاى أنت الغفور الكريم   لبذل النَّوال مع المَعْذِرة[١]
علىَّ ذنوبٌ وتصحيفها   ومن عندك الجودُ والمغفرة

إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد ابن خميس بن نصر [بن][٢] قيس الأنصارى الخزْرجي

أمير المؤمنين[٣] بالأندلس رحمه الله .

أوَّليَّته

تُقرِّر عند ذكر للملوك من قومه فى اسم صِنْو جدّه ، أمير المسلمين أبى عبد الله الغالب بالله .

حــــاله

من كتاب « طُرفة العصر فى تاريخ دولة بنى نصر »[٤] من تصنيفنا : « كان رحمه الله ، حسن الخُلُق ، جميل الرواء ، رجل جد ، سليم الصدر ، كثير الحياء ، صحيح العقل ، ثَبْتاً فى المواقف ، عفيف الإزار ، ناشئاً فى حِجر الطهارة ، بعيداً عن الصَّبوة ، بريًّا من المعاقرة[٥] ، نشأ مشتغلا بشأنه مُتَبَنِّكاً نعمة أبيه ،

---

(١) وردت فى « ج » (لبذول النوال والمعذرة) والتصويب من « الملكية » .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وواردة فى الملكية .

(٣) هذا اللقب تجاوز من ابن الخطيب . وقد كان لقب « أمير المسلمين » هو اللقب الصحيح للملوك بنى نصر .

(٤) سبق التعريف بهذا الكتاب فى المقدمة .

(٥) وردت فى المخطوطين والملكية : المعاقدة . والتصويب من اللمحة البدرية .

مختصًا بإيثار السلطان جدّه أبي أمه ، وابن عم والده ، منقطعاً إلى الصيد ، معروف اللذة إلى استجادة سلاحه ، وانتقاء مراكبه ، واستفراه[١] جوارحه ، إلى أن أفضي إليه الأمر ، وساعدته الأيام . وخدمه الجد ، وتنقّل إلى بيته المُلْك به ، وثوى فى عقبه الذّكر ، فبذل العدل فى رعيته ، واقتصد فى جبايته ، واجتهد فى مدافعة عدو الله ، وسدّ[٢] ثُلْم ثغوره ، فكان غرة فى قومه ، ودُرَّة فى بيته ، وحسنَةً من حسنات دهره . وسيرد نبذٌ من أحواله ، مما يدل على فضل جلاله » .

صفته

كان معتدل القدّ ، وسيم الصورة ، عَبْل اليدين ، أبيض اللون ، كثير اللحية ، بين السواد والصهوبة[٣] أنجل أعْيَنَ أفْوهَ مليح العين ، أقنى الأنف ، جَهير الصوت ، أمه الحُرّة الجليلة ، العريقة فى الملوك ، فاطمة بنت أمير المؤمنين ، أبى عبد الله نُخْبة المُلك ، وواسطة العِقْد ، وفخر الحَرَم ، البعيدة الشأو فى العز والحُرْمَة ، وصِلة الرّعى ، وذكر التراث[٤] . واتصلت حياتها ، ملتَمَسة الرأى ، برنامجا للفوائد ، تاريخاً للأنساب ، إلى أن توفيت فى عهد حفيدها السلطان أبى الحجّاج ، رحمها[٥] الله ، وقد أنَفَت على تسعين من السنين ، فكان الحفل فى جنازتها ، مُوازياً لمنصبها ، ومتروكها ، المفضى إليه خطيرُه ، وقلت فى رثائها :

---

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » والملكية : واستفراء . وهو تحريف .

(٢) فى المخطوطين : وتسد . والتصويب من الملكة .

(٣) الصهوبة هى احمرار الشعر .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : الثمرات . والأولى أرجح .

(٥) هكذا وردت فى « ج » ؛ وفى « ك » : رحمه . والأولى أرجح هنا . والمقصود بها السلطانة لا السلطان .

نَبيتُ على علم بغائله الدهر ونعلم أن الخلق فى قَبْضة الدهر
ونركن للدنيا [اغتراراً بقهرها][1] وحَسْبُكَ من يرجو الوفاء من الغَدْر
ونُمْطل بالعزم الزّمان سفاهةً فيومٌ إلى يوم ، وشهرٌ إلى شهر
وتُغْرى بها نفسى المطامع والهوى ونرفض ما يَبْقى فياضَيْعَةَ العُمْر
هو الدهر لا يبقى على حدَثانه جديدٌ[2] ولا ينفك من حادث نُكْر
وبين الخطوب الطّارقات تَفَاضُلٌ كفضل من اغْتالَتْهُ فى رِفعة القَدْر
ألم تر أن المجـد أقوت ربوعُه وصوّح من أدْواحه كل مُخْضَر
ولاحَتْ على وجه العلاء كآبة فقطّب من بعد الطلاقة والبِشر

وثبتٌ اسمها فى الوَفيات من الكتاب المذكور بما نصه :

« السلطانةُ الحرة ، الطاهرة ، فاطمة بنت أمير المسلمين ، أبى عبد الله ابن أمير المسلمين الغالب بالله ، بقيّة نساء الملوك ، الحافظة لنظام الإمارة ، رعياً للمتَات[3] ، وصلةً للحرْمة ، وإسداء للمعروف ، وسَتْرًا للبيوتات[4] ، واقتداء بسلفها [الصالح][5] ، فى نزاهة النفس ، وعُلُوِّ الهمة ، ومتانة الدين ، وكشف الحجاب ، ونفاذ العزم ، واستشعار الصبر ، تُوفيت فى كفالة حفيدها ، أمير المسلمين أبى الحجاج ، مواصلا برَّها ، ملتمساً دعاءها ، مستفيداً تجربتها وتاريخها ، مباشراً مُواراتها بمقبرة الجنان ، داخل الحمراء ، سَحَر يوم الأحد السابع لذى حجة ، من عام تسعة[6] وأربعين وسبعمائة » .

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » والملكية . ووردت فى « ك » : اغتراراً بفقرها .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » والملكية : حديث . والمؤدى واحد .

(٣) من متا متاً . أى وصل . والمقصود : رعياً للصلات .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » للبيوت . والأولى أنسب للمعنى المقصود .

(٥) هذه الكلمة واردة فى « ج » والملكية وساقطة فى « ك » .

(٦) فى الملكية : سبع .

أولاده

تخلّف[١] من الولد أربعة ، أكبرهم محمد ، ولى الأمر من بعده ؛ وفَرَج شقيقه التالى له بالسن ، المنصرف عن الأندلس بعد مهلك أخيه المذكور ، المتقلب فى الإيالات ، الهالك أخيراً فى سجن قصبة[٢] المرية عام أحد وخمسين وسبعمائة ؛ مظنونا به الاغتيال ؛ ثم أخوه [أمير المسلمين][٣] أبو الحجاج ، تغمده الله برحمته ، أقْعَدُ القوم فى المُلك[٤] ، وأبعدُهم أمَدًا فى السعادة ، [ثم][٥] إسماعيل أصغرهم سناً ، المبُتلى فى زمان الشبيبة فى الثِّقاف[٦] المخيف مدة أخية ، المستقر الآن مُوادعاً مرْفودا ، بقصر المُسْتَخلص[٧] من ظاهر شالُوبانية[٨] ؛ وبنتين ثنتين من حَظِيّته عَلْوة ، عقد عليهما أخوهما أبو الحجاج ، لرجلين من قرابته .

وزراؤه

وزر له أول أمره القائد البُهمة ، أبو عبد الله محمد بن أبى الفتح الفهرى ، وبيت هؤلاء القواد شهير ، ومكانتهم من الملوك النصريين مكينة ؛ أشرك معه فى الوزارة الفقيه الوزير أبا الحسن على بن مسعود بن على بن مسعود المحاربى ، من أعيان الحَضْرة ، وذوى النباهة ؛ فجاذب[٩] رفيقه حَبْلَ الخُطَّة ؛ ونازعه لباس الحُظوة ، حتى ذهب باسمها ومسماها ؛ وهلك القائد أبو عبد الله بن أبى الفتح ، فخَلَص له شِربها ؛ وسيأتى التعريف بكل على انفراد .

---

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى اللمحة البدرية .

(٢) وردت فى المخطوطين : قصبات . والمفرد هنا أرجح . ولا محل للجمع . وقد كانت قصبة المرية من أعظم وأمنع قصبات الأندلس . وما تزال تقوم بها إلى اليوم بقية كبيرة من الأسوار والأبراج تدلى بما كانت عليه من المناعة والفخامة معاً .

(٣) هذه العبارة واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٤) وردت فى المخطوطين : الملوك . والتصويب من اللمحة .

(٥) واردة فى « ج » والملكية . وساقطة فى « ك » . (٦) الثقاف أى الإعتقال .

(٧) المستخلص أعنى أملاك السلطان . وقد سبقت الإشارة إليها .

(٨) شالوبانية وبالإسبانية Salobrena . سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١١٢) .

(٩) وردت فى المخطوطين : فجاذف . والتصويب يقتضيه السياق .

كتابه

كتب عنه لأول أمره بمالقة ، ثم بطريقه إلى غرناطة ، وأياماً يسيرة بها ، الفقيه الكاتب أبو جعفر بن صَفْوان المتقدم ذكره ، [ثم ألقى المقادة][1] إلى كاتب الدولة قبل ، شيخنا أبى الحسن بن الجيَّاب ، فاصل الخُطَّة ، وبارى القوس[2] ، واقتصر عليه إلى آخر أيامه .

قضاته

استَقْضى أخا وزيره ، الشيخ الفقيه أبا بكر بن يحيى بن مسعود بن على ، رجل الجزالة ، وفَيْصل[3] الحُكْم ، فاشتد فى إقامة الحكم[4] ، وغَلُظ بالشرع ، واستعان بالجاه ، فخيف سطوته ، واستمر قاضياً إلى آخر أيامه .

رئيس جنده الغربى

الشيخ البُهْمة ، لباب قومه ، وكبير بيته ، أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء إدريس ابن عبد الله بن عبد الحق ، مشاركا له فى النعمة ، ضارباً بسهم فى المنحة ، كثير التجنِّى[5] والدّالة ، إلى أن هلك المخلوع ، وخلا الجو ، فكان منه بعض الإقصار .

الملوك على عهده

وأولاد بعُدوة المغرب ، كان على عهده من ملوك المغرب السلطان الشهير ،

---

(١) هذه العبارة ساقطة فى المخطوطين وفى الملكية ، وبدونها يختل السياق . وقد أضفناها من اللمحة .

(٢) وردت فى المخطوطين : القدس . وهو تحريف ظاهر .

(٣) وردت فى المخطوطين : وفصل . والتصويب من اللمحة .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين والملكية . وفى « اللمحة » الحق . وقد آثرنا النص الأصلى مع تكراره .

(٥) وردت فى المخطوطين : التحنى . وفى الملكية التخنى .

جوادُ الملوك ، الرَّحْب الجنَاب(١) ، الكثير الأمل ، خِدن العافية، ومحالف الترفيَة، مُفحم النِّعيم ، السعيد على [خاصته وعامتة](٢) ، أبو سعيد عثمان بن السلطان الكبير، المجاهد ، المُرابط ، أبى يوسف بن عبد الحق . وجرت بينه وبينه المراسلات ، واتصلت أيامه بالمغرب بعد مهلكه ، وصدراً من أيام ولده أبى عبد الله حسبما مر عند ذكره .

وبمدينة تِلِمْسان ، وطن القِبْلة ، الأمير أبو حمّو موسى بن عثمان بن يَغْمُراسِن بن زيّان ؛ ثم توفى قتيلا على عهده بأمر ولده المذكور ، واستغرقت أيام ولده المذكور الوالى بعده ، إلى أن هلك فى صدر أيام أبى الحجاج ؛ وجرت بينه وبين الأمير مراسلات وهدايات .

وبمدينة تونس ، الشيخ المُتَلَقِّب(٣) بأمير المؤمنين أبو يحيى زكريا بن أبى حَفْص المدعو باللِّحيانى ، المتوثب(٤) بها على الأمير أبى البقاء خالد [بن أبى زكريا](٥) بن أبى حفص ، وهو كبير ، إلا أن أبا حفص أكبر سناً وقدراً ؛ وقد تملك تونس تاسع جمادى الآخرة من عام ظهر له [اضطراب مَنْ بها](٦)، أحد عشر وسبعمائة (٧)، وتم له الأمر ، واعتقَل أبا البقاء بعد خَلْعه ، ثم اغتاله فى شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، ثم رَحَل عن تونس لما ظهر له من اضطراب أمره بها ، وتوجّه إلى طرابلس فى وسط عام خمسة عشر ، واسْتَناب صِهره الشيخ أبا عبد الله بن أبى عمر ، ولم يعد

---

(١) وردت فى اللمحة البدرية ، وفى المخطوطين والملكية الجنان . والأولى أرجح .

(٢) وردت فى المخطوطين : (خاصة وعامة) . والتصويب من اللمحة .

(٣) هكذا فى اللمحة . ووردت فى المخطوطين : المقلب . وهو تحريف .

(٤) وردت فى «ج» : الموثب . وفى «ك» المثوب .

(٥) الزيادة من الملكية .

(٦) وردت هذه العبارة فى المخطوطين : (من اضطراب بها) . ونعتقد أن التصويب أرجح للمعنى والسياق .

(٧) وردت فى الملكية (ثلاثة عشر ، والصواب ما أثبتناه .

بعد إليها . ثم اضطرب أمر إفريقية ، وتنوّبه عدة من الملوك الحفصيين ، منهم الأمير أبو عبد الله بن أبي عمر المذكور ، وأبو عبد الله بن اللّحياني ، والسلطان أبو بكر ابن الأمير أبي زكريا بن الأمير أبي إسحاق ، لَبِنة تمامهم ، وآخر رجالهم ، واستمرت أيامه إلى أيام ولده الأمير بالأندلس ومعظم أيام ولديه ؛ رحم الله الجميع .

ومن ملوك الروم بقَشْتاله ؛ كان على عهده مقروناً بالعهد القريب من ولايته ، الطاغية هراندة بن شانْجه بن ألهنشة بن هراندة[1] المجتمعُ له مُلْكُ قشتالة وليون ، وهو المتغلب على إشبيلية ، وقُرطبة ، ومُرسية ، وجيّان ؛ ابن ألهنشة الذي جرت له وعليه هزيمة الأرك والعِقاب[2] ؛ ابن شانْجه[3] بن ألهنشة المسمى إنبرذور[4] ، وهو الذي أفرد صهره وزوج بنته بملك برتقال[5] ؛ إلى أجداد ، يخرجنا تقصي ذكرهم عن الغرض .

ومن ملوك رَغُون[6] من شرق الأندلس ، الطّاغية جايمش بن بِطره بن جايمش[7]

---

(١) هو فرناندو بن ألفونسو التاسع ملك ليون . ولى الملك سنة ١٢١٤ م . وكان من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية . وهو الذى استولى على قواعد الأندلس الكبرى : قرطبة وإشبيلية وجيان وغيرها . وقد سلكه الإسبان فى ثبت القديسين . وأسبغوا عليه لقب القديس فرناندو San Fernando وحكم حتى وفاته سنة ١٢٥٢ م . وقد أورد ابن الخطيب نسبته محرفة .

(٢) ألهنشة أى ألفونسو . وهو ألفونسو الثانى ملك قشتالة . هو الذى هزم فى معركة «الأرك» Alarcos سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) أمام جيوش الموحدين بقيادة الخليفة الموحدى يعقوب المنصور . أما معركة العقاب ، فقد وهم ابن الخطيب بإيرادها على هذا النحو . والحقيقة أنها هى المعركة التى هزم فيها الموحدون بزعامة خليفتهم محمد الناصر ، أمام الجيوش النصرانية المتحدة بقيادة ألفونسو الثامن ، وذلك فى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وتعرف بالإسبانية بموقعة Las Navas de Tolosa

(٣) شانجه بالإسبانية Sancho

(٤) وردت فى المخطوطين : (اشردون) وهو تحريف لكلمة (إنبرذور) ومعناها الإمبراطور

(٥) وردت فى المخطوطين وكذا فى «الملكية» محرفة : (برطال) .

(٦) رغون أعنى مملكة أراجون .

(٧) جايمش (وقد رسمت فى المخطوطين والملكية جامس) هو بالإسبانية Jaime (خايمى) أى يعقوب . وبطره هو بيدرو Pedro أو بطرس . وقد حكم خايمى ملك أراجون من سنة ١٢٢٧ لى سنة ١٢٧٤ م . وهو المستولى على بلنسية وشاطبة وجزائر البليار (الجزائر الشرقية) .

الذى تغلب على بَلَنسِية ، ابن بِطرُه بن ألهَنْشة ، إلى أجداد عدة كذلك . ثم هلك فى أخريات أيامه ، فولى مُلْك أرغون بعده ألهنشة بن جايمش إلى أخريات أيامه.

وببُرتُقال ألهنشة[١] بن يومس بن ألهنشة بن شانجه ابن ألهنشة بن شانجه بن ألهونشة ، ويسمو أولا دُوقاً .

ذكر تصيرُّ الأمر إليه

لما وَلِى الأمر بالأندلس ، حرسها الله ، السلطان أبو الجيوش نصر بن السلطان أبى عبد الله محمد بن السلطان الغالب بالله أبى عبد الله بن نصر، يوم عيد الفطر من عام [ثمانية][٢] وسبعمائة ، بالهجوم على أخيه أبى عبد الله الزَّمِين المُقْعد ، الآمن فى ركن بيته ، واغتيال ابن الحكيم وزيره ببابه ، والإشادة بخلعه حسبما يأتى فى موضعه ، استقرّ الأمر على ضعف أخيه ، وسارع دِخْلته ، فساءت السيرة لمنافسة الخاصة ؛ وكان الرئيس الكبير عميدُ القرابة ، وعَلَم الدولة أبو سعيد فرج ، ابن عم السلطان المخلوع ، وأخيه الوالى بعده ، راسخاً قدمه وعُرْفه ، بعثوبة الوارث ؛ ولنظره عن أبيه المُسوَّغ عن جده مالَقَة وما إليها ، ولنظره مدينة سَبْتة ، المُضافة إلى إيالة المخلوع عن عهد قريب ، قد أفرد بها ولده المترجم به ، وجميعهم تحت طاعته ؛ وفى زمان انقياد سوغ مديد[٣] الدولة ، بل مد سَرْوِها[٤] لِما شاء عز وجل من احتوائهم فى حبل هذا الدايل ، يتعقبون على الرئيس الكبير أموراً تثيرُ مخيمة[٥] الصدور ، وتستدعى فرض الطاعة ، وتحتوى على مظنات مُخلة[٦] ؛ واحترسوا

---

(١) هو ألفونسو الثالث الذى حكم البرتغال من ١٢٤٨ – ١٢٧٨ م .

(٢) مكان هذه الكلمة بياض فى المخطوطين وفى الملكية .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : مدين .

(٤) وردت فى المخطوطين : سرورها . والتصويب أنسب السياق .

(٥) هكذا وردت هذه الكلمة فى المخطوطين وفى الملكية :

(٦) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » والملكية . جملة .

صافيات منافعه، وأوعزوا(١) إلى ولاة الأعمال بالتضييق على رجاله، وصرفوا سُنَنه عن نظره. ولما بادر إلى الحضرة لإعطاء صفقة البَيْعة وتهنئة السلطان نصر، [عن روحه](٢) وابن عمه، على عادته، داخله بعض أرباب الأمر، مُحذراً، ومُشيراً بالامتناع ببلده. والدُّعاء لنفسه، ووعده بما وسعه. فاستعجل الانصراف إلى بلده. ولم تمر إلا برهة، واشتعلت(٣) نار الفتنة، وهاجت مراجل الحفيظة، فتلاحق به ولدُه، وأظهر الانفراد والاستعداد فى سابع عشر رمضان من هذا العام. وأقام ولده إسماعيل، برسم الملك والسلطان، ورتّب له ألقاب الملك، ودوّن ديوان الملك بحسبه(٤)، ونازل حَضْرَة(٥) أنتقيرة(٦)، وناصبها القتال، فتملّكها؛ ودخلت مَرْبلّة(٧) فى طاعته؛ وتحرّك إلى بَلّش(٨) فنازلها، ونصب عليها المجانيق فدانت؛ فضخُمت(٩) الدعوة، ومكنت الجباية، والتفّ إليه من مساعير الحروب ومن أجاب. وتحرك إلى غرناطة فى أول شهر محرم، عام اثنى عشر وسبعمائة، ونزل بقرية العَطْشا من مرجها(١٠). وبرز السلطان نصر فى جيش خشن، مُستجاد(١١) العدة، وافر الرَّجل، فكان اللقاء ثالث عشر الشهر؛ فأظهر [الله](١٢) أقلّ الفئتين؛ وانجرّت(١٣) على

---

(١) فى المخطوطين: وأغروا.

(٢) هكذا فى المخطوطين والملكية، ومعناها عن نفسه.

(٣) وردت فى المخطوطين والملكية محرفة: واستعملت.

(٤) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين: بجبسه. والتصويب من الملكية.

(٥) وردت فى «ك»: حضر وفى «ج» صر. والمرجح ما أثبتناه.

(٦) أنتقيرة وبالإسبانية Antaquera مدينة أندلسية حصينة تقع شمال غربى مالقة.

(٧) مربلة وبالإسبانية Marbella من ثغور الأندلس الجنوبية. وقد سبق التعريف بها. (أنظر الحاشية فى ص ١٩٧).

(٨) سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١١٢).

(٩) هكذا فى «ج». وفى «ك» وردت محرفة: فطمخت.

(١٠) وردت فى المخطوطين: جها. وهو تحريف. والتصويب من اللمحة البدرية.

(١١) وردت فى «ج»: مستجد. وفى «ك» مستنجد. والتصويب من اللمحة.

(١٢) أضفنا هذه الكلمة من اللمحة. وهى ساقطة فى المخطوطين.

(١٣) هكذا فى «ج» واللمحة البدرية. وفى الملكية: وجرت.

الجيش الغرناطى الهزيمة، وكبا بالسلطان نصر فرسه فى مجرى سق لبعض الفدن، فنجا بعد لأْى ودخل البلد مفلولا؛ وانصرف الجيش المالقى ظاهراً إلى بلده؛ وطال بالرئيس وولده الأمر وضرَّستها الفتنة، وعظُم احتياجه إلى المال، وكادت تفضحه المُطاولة؛ وزاحمه الملك بمكلَّف ضخم، فاقتضى ذلك إذعانه إلى الصلح، وإصغاره المهادنة، على سبيله من المقام ببلده، مُسلِّماً للسلطان فى جبايته، جاريةً وطايفةً فى رياسته وأرزاق جنده؛ فتم ذلك فى ربيع الأول من العام المذكور. ثم لَقِحت فتنة فى العام بعده، فعادت جَذعة، وكانت ثورة الأشياخ فى غرناطة فى رمضان من العام المذكور هاتفين بخَلْعان السلطان، وطاعة مخلوعهم، وطالبين منه إسلام وزيره خِدْن[1] الروم، المتهم[2] على الإسلام أبى عبد الله بن الحاجّ. ثم لحق زعماؤهم بمالقة عند اختلال ماأبرموه، فكانت الحركة الثانية لغرناطة بعد أمور اختصرتها، من استبداد [السلطان أبى الوليد][3] بأمره، والانحطاط فى القبض على أبيه، إلى هوى جنده، والتصميم فى طلب حقه؛ فاتصل سيرُه، واحتلَّ بلَوْشة سِرَار شوال فتملَّكها[4]. ورحل قافلا إلى وطنه، طريد كلب الشتاء، وافر الخزانة، واقتضى الرأى الفائل ممن له النظر الجاش من زعيم شيوخ جندها، اتهاماً له بالطاغية[5]، فسجنه. ثم بدا له فى أمره، ثم سرَّحه بعد استدعاء يمينه، فوغُرت صدور حاشيته، وتبعهم من كان على مثل رأيهم، وهو شوكة حادة، فصرفوا الوجوه إلى السلطان المقبل الحظ، المحبوب إليه هوى الملك، بما راعه؛ ثانياً من عِنانه بأحواز أرجدونة[6]، إلا تثويب داعيهم، فكرَّ إلى المدينة وبرز إليه

(١) فى المخطوطين : جذل . والتصويب من اللمحة البدرية . والخدن أى الصديق .

(٢) فى المخطوطين : المبهم . والتصويب من اللمحة .

(٣) هذه الإضافة من اللمحة البدرية . وهى ساقطة فى المخطوطين .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : فشملها . والتصويب من اللمحة .

(٥) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين : (بالصفاغية) . والمرجح صواب ما أثبتناه .

(٦) هى فيما يرجح مدينة أرشدونة Archedona وهى تقع شمالى مالقة على مقربة من أنتقيرة .

جيشها ، ملتفا على عبد الحق بن عثمان ، فأبلى ، وصدّق الحملة ، فكادت تكون الدائرة ؛ فلولا ثبوت السلطان لما استقبلت بأسفلهم الحملة ، فولوا منهزمين، وتبعهم إلى سور المدينة ، وقد خفّت الّلفيف والغوغاء النّاعقون بالخلعان ، الشّرهون إلى تبديل الدّعوات ، وإلى تسنم المآذن والمنارات والرّبا ، وبرز أهل رَبَض البيّازين[1] ، الهافون إلى مثل هذه البوارق ، إلى شُرف رَبْوتهم ، كل يشير مستدعيا ، إعلاناً بسوء الجوار ، وملل الإيالات ، والانحطاط ، وبعد التلون والتقلب ، وسآمة العافية ؛ شَنْشَنة معروفة فى الخَلْق مألوفة . وبودر غلق باب إلبيرة ، ففُض قفله ، ودُخلت المدينة ، وجاء السلطان إلى معقل الحمراء بأهله وذخيرته وخاصته ، وبرز السلطان أبو الوليد بالقصبة القُدْمى تجاهها ، بالدار الكبرى المنسوبة لابن المَوْل ، يُنفذ الصكوك ، ويذيع[2] العفو ، ويؤلف الشّارد ؛ وضعُفت بصاير المحصورين ، وفَشِلوا على وجود الطّعمة ، ووفور المال ، وتمكّن المَنَعة ؛ فالتمسوا لهم ولسلطانهم عهداً نزلوا به ، مُنتقلين إلى مدينة وادى آشْ ، فى سبيل العِوَض بمال معروف ، وذخيرة موصوفة ؛ وتم ذلك ، وخرج السلطان رحمه الله مخلوعاً ، ساء به القرار ، جانياً على ملكه الأخابيث[3] والأغمار ، ليلة الثامن والعشرين من شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، واستقرّ بها موادعاً مرة ، ومحارباً أخرى ، إلى أن هلك حسبما يأتى ذكره . وخلا للسلطان الجو ، وصُرفت إليه المقادة ، وأطاعه القاصى والدّانى ، ولم يختلف عليه اثنان ؛ والبقاء الخُلص لله وحده .

مناقبه

اشتد رحمه الله على أهل البِدَع ، وقصر الخوض على ما تضطر إليه الملة ؛ ولقد

(١) كان ربض البيازين أهم أحياء غرناطة الإسلامية . وما زال يقوم بها إلى اليوم وهو يقع فى شمالها الشرقى مواجهاً لهضبة الحمراء . وبالإسبانية .Albaicin

(٢) هكذا فى « ج » واللمحة البدرية . وفى « ك » : ويدفع .

(٣) وردت فى المخطوطين محرفة : الأجانيث .

تُذوكر بين يديه [أهل](١) البيت . فبذل فى فِدْية بعضهم ما يعزُّ بذله ، ونقل منهم بعضاً من [حِرَف خبيثة](٢) ، فزعموا أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فشكر له ذلك . واشتدّ فى إقامة الحدود ، وإراقة المسكرات ، وحظر(٣) تجلّى القينات للرجال فى الولائم ، وقَصَر طربهن على أجناسهن من الناس ؛ وأخذ يهود(٤) الذمة بالتزام سِمةٍ تُشهرهم ، وشارة(٥) تميزهم ، وليوفىَّ حقهم من المعاملة التى أمر بها الشارع فى الخطاب والطُّرق ، وهى شواشى صُفْر .

ولقد حدَّث من يخفُّ حديثه ، من الشيوخ أولى المجانة والدَّعابة ، قال : كنا عاكفين على راح(٦) ، وبرأسى شاشيّة ملف حمراء ، فحاول أصحابى إنامتى ، حتى أمكن ذلك ، وبادروا إلى رقاع من ثوب أصفر ، فصنعوا منها شاشية ، ووضعوها فى رأسى ، مكان شاشيتى ، وأيقظونى ، فقمت لشأنى ، وقد هيئوا ثمناً لشراء بَقْل وفاكهة ، وجهزونى لشرائه ، فخرجت حتى أتيت دكان السوق ، فساومته ، فلما نظر إلىّ قال لصاحبه : جزى الله هذا السلطان خيراً ، والله لقد كنت أبادر هذا اللّعين بالسلام عند لقائه أظنه مُسْلماً ، وبصق علىّ ؛ فَهَمَمْتُ أن أوقع به ، ثم فَطِنتُ للحِلية ، فانتزعتها ، وبادرت فأوسعتهم ذمًّا ، وعظُم خجلى ، وسبقنى إليهم عينُ لهم علىّ ، فكاد الضحك يُهلكهم عند دخولى . ومناقبه كثيرة .

جهاده وبعض الأحداث فى مدته

والتأثت(٧) الأمور ، لأول مدته ، فجَرَت على جيشه بمظاهرة [جيش](٨) المخلوع لجيش

---

(١) أغفلت فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٢) وردت فى المخطوطين : (من صروف جيشته) . والتصويب من اللمحة .

(٣) هكذا فى « ك » . ووردت فى « ج » حضر .

(٤) وردت فى « ك » : اليهود . وأغفلت فى « ج » .

(٥) وردت فى المخطوطين : وإشارة . والتصويب من اللمحة .

(٦) وردت فى المخطوطين : راحة .

(٧) أساءت وتحرى جت . (٨) الزيادة من الملكية .

الرُّوم، الهزيمة الشنيعة، بوادى قُرْتونة ؛ أوقع بهم الطاغية بطره[١]، كافل ملك الروم، المُملَّك صغيرا على عهد أبيه، وعمه الذّاب عنه، ففشا فى الأعلام القتل، وذلك فى صفر من عام ستة عشر وسبعمائة ؛ وظهر العدو بعدها فغلب[٢] على حصن شمّانس[٣] وحصن بجيج، وحصن طشْكر، وثغر رُوط. ثم صرفت[٤] المطامع عزمه إلى الحضرة، فقصد مرْجها[٥]، وكف الله عاديته، وقمعَه، ونصر الإسلام عليه، ودالت للدين عليه الهزيمة العظمى بالمرج من ظاهر غرناطة على بريد منها ؛ واستولى على محلّته النهب، وعلى فرسانه ورجاله القتل، وعظم الفتح، وبهرَ الصنع وطار الذكر، وثاب السّعد. وكانت الوقيعة سادس جمادى الأولى من عام تسعة عشر وسبعمائة[٦]، وفى ذلك يقول كاتبه شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب :

الحمـد حقٌّ الحمـد للرحمن ... كافى العدو وناصر الإيمان

ومُكيِّف الصنع الكريم ودافعُ الـ ... ـخَطْب العظيم وواهب الإحسان

فى كل أمر للمُهَيْمِن حكمة ... أعْيت على الأفكار والأذهان

واستقر ملكهم[٧] القتيل بأيدى المسلمين بعد فرارهم، فجعل فى تابوت خشب، [ونُصب][٨] بالسور المُتازل من الحمراء يسار الداخل بباب يعقوب من أبوابها، إذاعةً للشهرة، وتثبيتاً لتخليد الفخر.

---

(١) هودون بيدرو Don Pedro. وكان وصيا على الملك الصبى ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة

(٢) أثبتها «ك». وأغفلها «ج».

(٣) وردت فى المخطوطين : متمايس. وهو تحريف لإسم (شمانس) وقد كان أحد الحصون القريبة من غرناطة. وبالإسبانية Sietemanos أعنى الأيدى السبعة.

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : صفرت.

(٥) مرج غرناطة الشهير LaVega.

(٦) فى هذا التاريخ الذى يورده ابن الخطيب للموقعة بعض التحريف. ويضع ابن خلدون تاريخ الموقعة فى سنة ٧١٨ هـ (ج ٤ ص ١٧٣ و ج ٧ ص ٢٥٠). وهو يوافق تاريخها الميلادى فى أوائل فى مايو سنة ١٣١٨ م. وراجع كتابى «نهاية الأندلس» (الطبعة الثالثة) ص ١١٨.

(٧) إن الذى هلك فى الموقعة ووضع جثمانه فى التابوت هودون بيدرو الوصى على الملك الصبى وليس هو ألفونسو الحادى عشر.

ومن الغريب أننى فى هذه الأيام بعد خمسين سنة تماماً[1]، تفقدت ذلك المكان فى بعض ما أباشره، أيام نيابتى عن السلطان بدار مُلْكه على عادتى. فألفيته قد علا عليه كوم من الحجارة، رجم الصبيان إياه. فظهر لى تجديد الإشادة به، والاستفتاح بوقوع مثله. ولما كُشف عن الرِّمة لتُنقل إلى وعاء ثان، أُلفى بعَظْم[2] القَطَن[3] العريض منها، سنانٌ مُرْهب ثبت فى العظم. انتُزِع منه. وقد غالبتنى الرقة والإجهاش، وقلت اللهم ادّخر رضوانك لمن أودع[4] فى هذه الرِّمة الطاغية، سنان جهادك إلى اليوم، وأثبه وارفع درجته، إنك أهل لذلك.

«رجعٌ»؛ واستقامت الأيام، وهلك المخلوع، فصفا الجو، واتّحدت الكلمة، وأمكن الجهاد. فتحرك فى شهر رجب من عام أربعة وعشرين وسبعمائة، وأعمل القصد إلى بلاد العدو، ونازل حصن إشْكر[5]، الشَّجى المعترض فى حلق بَسْطة، فأخذ بمُخَنَّقه، ونشر الحرب عليه، ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط كرة حديد محماة طاق البرج المنيع من معقله، فاندفعت يتطاير شررها، واستترت بين محصوريه[6]، فعاثت عياث الصواعق السماوية، فألقى الله الرعب فى قلوبهم، وأتوا بأيديهم، ونزلوا قسراً على حكمه فى الرابع والعشرين من الشهر؛ وأقام بظاهره، فصيره دار جهاد، وعمل فى خندقه بيده، وانصرف؛ فكانت غزاة جمّة البركة عظمت بها على الشرق الجدْوى، وأنشد الشعراء فى هذه الوجهة قصائد أشادت بفضلها، وشهرت من ذكرها. فمن ذلك عن كاتب سره[7] قوله:

---

(١) يوافق ذلك سنة ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م).

(٢) وردت فى المخطوطين: بعظن.

(٣) القطن هو ما انحدر من الظهر واستوى.

(٤) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج» والملكية: وضع.

(٥) إشكر وبالإسبانية Huescar هى بلدة حصينة تقع شمال شرقى مدينة بسطة.

(٦) وردت فى المخطوطين: محصوبه.

(٧) هكذا فى «ك» واللمحة البدرية. وفى «ج» (كتاب بيره) وهو تحريف

أما مَداك فغاية لم تُلْحق ... أعْيَت على غرّ الجياد السُّبّق

ورفع إليه شيخنا الحكيم أبو زكريا بن هُذيل ، قصيدة أولها :

بحيث القباب[1] الحُمْرُ والأُسْدُ الوَرْدُ ... كتائبُ سكان السماء لها جند

أنشدنى منها فى وصف النفط قوله :

وظنوا بأن الصّعق والرّعد فى السما ... فحاقَ بهم من دونها الصّعق والرّعدُ

غرائب أشكالٍ سما هُرْمُسٌ بها ... مهنّدةٌ تأتى الجبال فتنهدُّ

ألا إنها الدنيا تريك عجائباً ... وما فى القوى منها فلا بد أن يبدو

وفى العاشر لشهر رجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، تحرّك للغزو بعد أخذ الأهبة والاستكثار والاجتهاد المطوعة ، وقصد مدينة مَرْتُش[2] العظيمة السّاحة ، الطيبة البقعة ، فأضْرَب[3] بها المحلّات[4] و[كان][5] القصد إجمام الناس ، فصوّب الحشود ووجهها إلى مابها[6] من بَحْر الكروم والملتفّات ، وأدواح الاشجار ، فأمعنوا فى إفسادها ، وبرز حاميتها [فناشبت الناس][7] القتال ، فحَميت النفوس ، وأريد منع الناس ، فأعيا أمرهم وسال[8] منهم البحر ، فتعلقوا بالأسوار ، وقيل للسلطان بادر بالركوب ، فقد دُخل الرّبض ، فركب ووقف بإزائها ، فدخل البلد عنْوة ، واعتصم أهله بالقصَبة ، فدُخلت أيضاً القصبة عنوة ، وانطلقت أيدى الغوغاء على من بها من

---

(١) هكذا فى «ج» . وفى اللمحة : البنود .

(٢) مرتش ، وبالإسبانية Martos هى بلدة أندلسية حصينة تقع جنوب غربى مدينة جيان وشمال شرقى مدينة بيانة .

(٣) وردت فى المخطوطين وكذا فى « الملكية » : فاضطرب . والتصويب من اللمحة .

(٤) وردت فى المخطوطين : المحالات . والتصويب من اللمحة .

(٥) الزيادة من اللمحة وهى سافطة فى المخطوطين .

(٦) وردت فى المخطوطين محرفة : بابها .

(٧) وردت محرفة فى المخطوطين والملكية : (فناشب الناس) . والتصويب من اللمحة .

(٨) فى المخطوطين والملكية : وهال .

ذكر وأنثى كبيراً أو صغيراً ، فساءت القِتْلة ، وقُبحت الأُحدوثة . ورُفعت من الغد آكام من الجثث ، صعدت ذُراها المؤذِّنون ، وقَفَل إلى غرناطة بنصر لا كفأ له ، فكان دخوله من هذه الغُزاة في الرابع والعشرين لرجب المذكور .

وفـــاته

ولما فصل من مَرْتُش نقم على أحد الرؤساء من قرابته ، وهو ابن عمه محمد ابن إسماعيل المعروف بصاحب الجزيرة ، أمراً تقرّعه عليه ، وبالغ في الإهال له ، وتوعّده بما أثار حفيظته ، فأقدم عليه بالفَتْكة الشنعاء التى ارتكبها منه بباب قصره ، بين عبيده وأرباب دولته ، آمَنَ ما كان سرباً ، وأعزَّ سلطاناً وجُنداً ؛ وذلك يوم الإثنين ثالث يوم من دخوله من مرتُش ، بعد أن عاهد في الامر جُمْلة من القرابة والخُدّام؛ فوثب به ، وهو مجتاز بين السِّماطين من ناسه إلى مجلس كان يجلس فيه للناس ؛ فاعتنقه وانتضى خنجراً كان ملصقاً في ذراعه ، فأصابه بجراحات ثلاث ، إحداهن في عنقه ، بأعلى تَرْقُوته ، فخرَّ صريعاً . وصاح بكرٌ وزيره ، فعمَّته سيوف الحاضرين من أصحاب الفاتك ، ووقعت الرَّجة ، وسُلت السيوف ، وتشاغل كل بمن يليه ، واستُخلص السلطان من يديه ، وحيل بينه وبينه ؛ وحين[1] تشاغل القوم بالوزير ، رُفع السلطان وظن أنه قد أفلت جريحاً ، فوقع البُهْت ، وبادروا الفرار ، فسُدت المذاهب ، فقُتلوا حيث وجدوا ، وأخذت الظنة قوماً من أبريائهم ، فامتُحنوا ، ونهب الغوغاء دورهم ، وعلِّقت بالجدرات أشلاؤهم ؛ وكان يوماً عصيباً ، وموقفاً صعباً ، واحتُمل السلطان إلى بعض دور قصره ، وبه صُبابة روح ، أشبه شيء بالعدم ، للزُّوق العمامة بفوهة[2] شُرْيانه المبتور ، ففاض لحينه بنفس زوال العمامة ، رحمه الله .

---

(١) هكذا في «ج» . وفي «ك» : وعند .

(٢) وردت في «ج» : يفهو . وفي «ك» بعهو . والتصويب من اللمحة .

وكان من أخذ البيعة لولده الأمير أبى عبد الله من بعده ، ما هو معروف فى موضعه . ودفن غَلَس ليلة الثلاثاء ، ثانى يوم فاته ، بروضة الجنة من قصره ، إلى جانب جده ؛ وتنوهى الاحتفال بقبره نقشاً ، وتخريماً(١) ، وإحكاماً ، وحَلْياً ، وتمويهاً ، يشق على الوصف ، وكُتب بإزاء رأسه فى لوح الرخام ما نصه ، من كلام شيخنا ، بعد سطر الافتتاح :

« هذا قبر السلطان الشهيد(٢) فتّاح الأمصار ، وناصر مِلّة المصطفى المختار ، ومحيي سبيل آبائه الأنصار ، الإمام العادل ، الهمام الباسل ، صاحب الحرب والمحراب الطاهر الأنساب والأثواب ، أسعد الملوك دولة ، وأمضاهم فى ذات الله صَوْلة ، سيف الجهاد ، ونور البلاد ، ذى الحسام المسلول فى نصرة الإيمان ، والفؤاد المعمور بخشية الرحمن ، المجاهد فى سبيل الله ، المنصور بفضل الله ، أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل ابن الهمام الأعلى ، الطاهر الذات والفخار(٣) ، الكريم المآثر والآثار ، كبير الإمامة النصرية ، وعماد الدولة الغالبية ، المقدس ، المرحوم أبى سعيد فرج ، ابن علم الأعلام وحامى حمى الإسلام ، صِنْو الإمام الغالب ، وظهيره [المقدس](٤) العلى المراتب ، المقدس ، المرحوم أبى الوليد إسماعيل بن نصر ، قدّس الله روحه الطيب ، وأفاض عليها [غيث](٥) رحمته الصيِّب ، ونفعه بالجهاد والشهادة . وحيّاه بالحسنى والزيادة ، جاهد فى سبيل الله حقّ الجهاد ، وصنع الله له فى فتح البلاد ، وقتل كبار الأعاد ، ما يجده مذخوراً يوم التناد ، إلى أن قضى الله بحضور أجله ، فختم عمره بخير عمله ، وقَبَضه إلى ما أعدّ له من كرامته وثوابه ، وغُبار الجهاد طىُّ أثوابه ، فاستشهد رحمه الله شهادةً أثبتت له فى الشُّهداء من الملوك قَدَماً ، ورفعت له فى أعلام السعادة عَلماً .

---

(١) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » تخميراً . وفى اللمحة : تنجيداً .

(٢) هكذا وردت فى اللمحة . وفى المخطوطين : الشهير .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى الملكية المفاخر . وفى « اللمحة » النجار .

(٤) وردت فقط فى « ج » (٥) واردة فى اللمحة . وساقطة فى المخطوطين والملكية .

« وله رضى الله عنه فى الساعة المباركة بين يدى الصبح من يوم الجمعة سابع عشر شوال عام سبعة وسبعين وستمائة ؛ وبويع يوم الخميس السابع والعشرين لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة . واستشهد فى يوم الإثنين السادس والعشرين لشهر رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة . فسبحان الملك الحق . الباقى بعد فناء الخلق »

وبعده من جهة اللوح الأخير :

تخص قبرك ياخير السلاطين ... تحية كالصبا مرت بدارين
قبر به من بنى نصر [إمام هدى](١) ... عالى المراتب فى الدنيا وفى الدين
أبو الوليد وما أدراك من ملك ... مستنصر واثق بالله مأمون
سلطان عدل وبأس غالب وندى ... وفضل تقوى وأخلاق ميامين
لله ما قد طواه الموت من شرف ... وسر مجد بهذا اللحد مدفون
ومن لسان بذكر الله منطلق ... ومن فؤاد بحب الله مسكون
أما الجهاد فقد أحيا معالمه ... وقام منه بمفروض ومسنون
فكم فتوح له تزهو المنابر من ... عجب بهن وأوراق الدواوين
مجاهد نال من فضل الشهادة ما ... يجبى(٢) عليه بأجر غير ممنون
قضى كعثمان فى الشهر الحرام ضحى ... وفاة مستشهد(٣) فى الدار مطعون
فى عارضيه غبار الغزو تمسحه ... فى جنة الخلد أيدى حورها العين
يُسقى بها عين تسليم وقاتله ... مردد بين زقوم وغسلين
تبكى البلاد عليه والعباد معاً ... فالخلق ما بين أحزان أفانين
لكنه حكم رب لا مرد له ... [فأمره](٤) الجزم بين الكاف والنون
فرحمة الله رب العالمين على ... سلطان عدل بهذا القبر مدفون

---

(١) وردت فى « ج » والملكية . وأغفلت فى « ك » .
(٢) وردت فى المخطوطين (يجرى) والتصويب من اللمحة .
(٣) وردت فى المخطوطين والملكية : مشتهر . والتصويب من اللمحة .
(٤) ساقطة فى المخطوطين والمالكية . وواردة فى اللمحة .

بعض ما رثى به

[وعظمت فيه][1] فجيعةُ المسلمين لما ثَكلوا من جهاده وعزمه ، وبلوه من سعده وعزٍّ نصره ، فكثرت[2] فيه المراثى ، وتراهنت فى شَجْوِه القرائح ، وبكاه الغادى والرائح . فمن المراثى التى أُنشدت على قبره ، قول كاتبه [شيخنا][3] أبى الحسن بن الجَيَّاب .

أيا عَبرة العين امزجى الدمع بالدَّم ... ويازفرة الحزن احكمى وتحكَّمى
ويا قلب ذُب وَجْدًا وغمًّا ولَوْعةً ... فإنّ الأسى فرضٌ على كل مُسْلم
ويا سلوةَ الأيَّام لا كنتِ فابعدى ... إلى [حيث ألقت][4] رحلها أم قشعم
وصح بأناة الصبر سُحقاً تأخرى ... وقل لشكاة الحزن أهلا تَقَدَّمى
ولِمْ لا وشمسُ الملك والمجد والهُدى ... وفتَّاح أبواب النَّدى والتكرُّم
ثوَى[5] بين أطباق الثرى رهن غُربة ... وحيداً وأصْمَته الليالى بأسهم
على مَلك الإسلام فاسْمَحْ بزَفْرَةٍ ... تُساقط درًّا بين فَذٍّ وتوْأم
على عَلَمِ الأعلام والقمر الذى ... تجلَّى بوجه العصر غُرَّة أدهم
على أوْحَدِ الأملاك غير منازع ... أصالة أعراق وفضل تقدُّمِ
ومَنْ مثل إسماعيل نورٌ لمُهْتَد ... ويُشرى لمكروبٍ وعفوٌ لمُجْرِم
وما مثلُ إسماعيل للبأس والندى ... لأَصْرَاخ مذعور وإغناء مُعدم
وما مثلُ إسماعيل للحرب يجتنى ... به الفتحُ من غَرس القنا المتحطِّم

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين والملكية ، ووارد فى اللمحة .

(٢) فى المخطوطين : فكثر .

(٣) وردت فى اللمحة . وأغفلت فى المخطوطين .

(٤) هذه العبارة واردة فى « ك » والملكية . وساقطة فى « ج » .

(٥) وردت فى المخطوطين : ترى.

وما مثل إسماعيل سَهْمُ سعادةٍ أصاب به الإسلام شاكلة الدم
شهيدٌ سعيدٌ صبّحته شهادة تبوأ منها فى الخلود التنعم
أتت وغُبار الغزْو طيّ ثيابه ظهيرُ أمانٍ من دخان جَهَنّم
فتبًّا لدارٍ لا يدوم نعيمُها فما عِرْسها إلا طليعةَ مأْتمَ
ولا أنسُها إلا رهينٌ بوَحْشَة ولا شَهْدُها إلا مشُوبٌ بعلقم
فيا من يرى الدنيا مُجاجة نحْلَة ألا فاعتبرها فهى نَبْتة أرْقَم
فمن شام منها اليوم برق تبسُّم ففى الغد تلقاه بوجه جهنّم
فضاحكُها باكٍ وجَذْلانُها شجٍ وطالعُها[1] هاوٍ ومُبْصرها عَمٍ
وسرّاؤها تَفْنى[2] وضرّاؤها معاً فكلتاهما طيفُ الخيال المُسَلِّم
سَطَتْ بملوك الأرض من بعد آدم تُبَدِّد منهمُ كلَّ شمْلٍ مُنظم
فكم من قصير قصّرت شأو عُمْره فخرّ صريعاً لليَدَيْن وللفم
وكم كسرت كسرى وفضّت جيوشه فلم تُحمِه منها كتائبُ رسْتُم
ولو أنها ترعى إمام هداية لأعفَت عليًّا[3] من حُسام ابن مُلْجَم[4]
وما قَتلَتْ عثمان فى جَوْف داره فقدس من مُستَسْلِم ومُسلِّم
وما أمكنت فيروز[5] من عُمر الرِّضى فَهدَّت من الإسلام أرفع مَعْلَم

إلى آخرها. وتضمن إجمالَ ما ذكر من ذلك، التاريخُ المُسمى «بقطع السلوك»[6] المنظوم رجزًا من تأليفى بما نصه :

(١) هكذا فى «ك». وفى «ج». وطالقها.
(٢) فى المخطوطين : تنى.
(٣) وردت فى المخطوطين : علينا. وهو تحريف ظاهر.
(٤) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى قاتل الإمام على بن أبى طالب.
(٥) هو أبو لؤلؤة فيروز قاتل الخليفة عمر بن الخطاب.
(٦) هذا هو اسم آخر يورده ابن الخطيب لكتابه المسمى : «رقم الحلل فى نظم الدول».

وعندما خيف انتشار السِّلك ووزر الرُّوم وزير الملك

تدارك الأمر الإمام الطّاهر فعالج الدار طبيبٌ ماهر

وهو أبو الوليد إسماعيل والشمس لا يفقدها دليل

ابن الرئيس الماجد الهمام فرْدُ العلا وعَلَم الأعلام

وجده صِنو الإمام الغالب مناقبٌ كالشُّهب الثواقب

فقاد من مالقة الجنودا ونشر الأعلام والبُنودا

وعاد نصر بعدى حمرائه أتى وأمر الله من ورائه

لخلع الأمر وألقى باليد من بعد عهد موثّق مؤكّد

وسار[1] فى الليل إلى وادى الأشى[2] والملك لله يعز من يَشَا

ولم يزل فيها إلى أن ماتا وطلّق الدنيا بها بتاتا

واتّسق الأمر وقرّ الملك وربما جر الحياة[3] الهلك

ومن الرجز المذكور فى وصف جهاده ومقتله :

وكان يوم المرج فى دولته ففرق الأعداء من صولته

وفتح المعاقل المنيعة وابتهجت[4] بعدله الشريعة

وانتبه الدهر له من نومه على يدى طائفة من قومه

بكى عليه الحرب والمحراب وندبته الضُّمّر العُرّاب

---

(١) وردت فى المخطوطين : وصار .

(٢) يقصد به مدينة وادى آش .

(٣) هكذا فى اللمحة . وفى المخطوطين : المهلك .

(٤) هكذا فى «ج» والملكية . وفى «ك» وانبهجت .

إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر

السلطان الذى احتال[١] على أخيه، المتوثب على ملكه، يكنى أبا الوليد.

حاله

كان صبيًّا كما اجتمع وجهه، بادنًا، دمث الخلق، ليّن الجانب، شديد البياض كثيف الحاشية، متصلا بالجفوة، لطول الحجْبة، وبعد التمرن والحُنْكة غُرًّا، فاقداً لحسن الأدب، عريقةً ألفاظه فى العُجمة. تصيَّر الأمر إلى أخيه السلطان خيرتهم ولُباب بيتهم، يوم قتل أبوهما، وله مزية السن والرَّجاحة[٢]، والسكنى بمحل وفاة الأب، فأبقى عليه، وأسكنه بعض القصور لِصقه[٣]، ولم يضايق أُمّه فيما استأثرت به من بيت المال، إذ كان إقليدُه فى يدها، وبيضاؤه وصفراؤه[٤] فى حكمها، ورفّه مُتبوّأه، واستدعى له ولأخيه المعلم الذى كان السبب فى إفاتة إرماقهما، وإعدام حياتهما، الشيخ السِّفْلة[٥] محمد البطروجى البائس، [قِرد ذلك السِّرب][٦] فاستمرت أيام احتجابه وانتظاره على قصره، إلى رمضان من عام ستين وسبعمائة. وحرك سماسرة[٧] الفتنة له ولأمه جواز الطمع فى المُلْك، ودندنوا لها حتى رقصت على إيقاعهم، وخفت إلى مواعدهم، وشمروا إلى خلاص الأمر، وأحام الوثبة صِهرُه الرئيس

---

(١) هكذا فى «ج». وفى «ك» اختال.

(٢) وردت فى «ك»: الرحاجة. وفى «ح» الزجاجة.

(٣) هكذا فى «ك». وفى «ج»: لصقمه.

(٤) هكذا فى «ك». وفى «ج»: وصفراؤها.

(٥) هكذا فى «ك». وفى «ج»: السلفة.

(٦) وردت محرفة فى المخطوطين: (حد ذلك السر). وفى الملكية (فرد ذلك السرفا).

(٧) وردت فى المخطوطين وفى الملكية: سمسارة.

[أبو عبد الله][(١)] ، حِلف الشؤم زوج أخته ، محمد بن إسماعيل ، الشهير الكائنة ، المذكور فى موضعه من حرف الميم . فسيَّرت إليه أمه المال ، فبثه فى الدّعرة والشرار ، حتى تم غرضه ، واقتحم القلعة من بعض أسوارها عند البالية ، وقد هُدم منها شىء فى سبيل إصلاحه ، ليلة الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان من عام ستين وسبعمائة ؛ والسلطان ليلتئذ غير حالّ بها ، فملؤوها لَجباً ولَغطاً[(٢)] وصراخاً وهَوْلا وتَنْويراً ، فى جُملة تناهز المائة ؛ وانضاف إليهم أخوانُ رأيهم من حُرّاسها وسكانها ؛ فألبس الناس ، وسُقِط فى أيديهم . وأهدى الليل فتكته[(٣)] هائلة ، وأدّاها شنيعة ، فاقتصر كل على النظر لنفسه ، واقتسموا فرقتين ، قصدت إحداها دار كبير الدوله ، وقَيُّوم التفويض ، وشيخ رجال الملك رضوان . المستبدّ بإحالة كورتها ، الشيخ الدّهول ، معزوز القدر [ورائب النّكتة][(٤)] ، ومُعود الإقالة ، وجرّار رَسَن[(٥)] الأطواد ، وطول الإملا ، الماشى على خدّ الدنيا ، المغضوض البصر عن النّظر ، المستهين بكل سَبّة[(٦)] وحية تسعى ، المعوَّل على نظره ، وقوة سَعْده[(٧)] وإجابة دعوته ، مع كونه نسيج وحده فى عفافه وديانته ، ورضى الناس به ، وسقوط منافستهم من أجله ، ومُأويهم على موئل لفظه ، وبساط معاملته ، وصحة عقده . فعالجوا بابه طويلاً وتولّجوا داره ، وقتلوه بين أهله وولده .

وقصدت الأخرى دار الأمير المترجم به ومعها صهره ، فأخرجوه[(٨)] ، وأركبوه على فرس ، راعِد الفرائض ، منتقع اللون ، مختلط القول ، تحف به داياته بين

(١) فى المخطوطين والملكية : أباهو .
(٢) هكذا فى «ك» والملكية . وفى «ج» : وغلطا .
(٣) هكذا فى «ك» والملكية . وفى «ج» : فتكة .
(٤) هكذا وردت فى الملكية . ووردت فى المخطوطين (وربب النكتة – النكنه) والأولى أرجح
(٥) الرسن هو الحبل .
(٦) وردت فى المخطوطين : سبتا .
(٧) هكذا فى «ك» . وفى «ج» سعادته .
(٨) هكذا وردت فى الملكية . ووردت فى المخطوطين : فأرجوه .

مُوَلَّولة[(١)] ، وتافلة ومعوّذة ، قد جعلوا به سيفاً مُصْلتاً على سبيل اللّواعب بالنّصول والرّواقص ، فى مدارج اللهو ، واستُخرجت طبول الملك فقرعت . وقيدت الخيل من مرابطها فرُكبت ، وقصدت الخزائن السلاحية[(٢)] ففُرقت ، وتم الأمر . وحل من الريب على دار الإمارة القصد ، وخرجت الكتب إلى البلاد والقواعد ، فالتقت باليد أمهاتها لقطع من بها من أولى الأمانة ، بتمام الأمر ، وهلاك السلطان ، قتم له الأمر . وبادر أخوه السلطان لحينه[(٣)] لظهر سابق كان مرتبطاً عند مُجْرٍ[(٤)] له من الجنة لصق القلعة ، فاستأجر الليل ، ووافق الحزم ، فاستقر بوادى آش . وكان أملاكٌ بها ، ونازلته المحلات . وأخذ بمخنّقه الحصص . واستُنصرت لمنازلته الناس . وأُعملت الحيل ، وتأذّن الله بثبوت قدمه ، وانتقاله إلى مَلِك المغرب صبح عيد النحر من العام المذكور ؛ إلى أن أعاد الله إليه أمره وردّ عليه حقه . وتولى بعد اليأس جبره ، حسبما يذكر فى موضعه إن شاء الله .

وخلا الجو لهذا الأمير المضعوف ، واستولى على أريكة المُلك الأغمار وأُولو البطالة . وأولياء[(٥)] صهره الرئيس . خاطبها له ابتداء ثم ناقلها[(٦)] إلى نفسه انتهاء ، وحاملها إلى غايته دَرَجاً . وإلى إعاقته سُلّماً ، وهو ما هو من غش الحبيب . وسوء العقد . ودَخَل السريرة ، واستيطان المكروه ، فأغرى منه بالعهد نفساً مطاوعةً للشهوة . متبرِّمة بالامتحان والخَلْوة ، بريّة [من][(٧)] نور العلم وتهذيب الحكمة ،

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ملولة .

(٢) هكذا فى الملكية . ووردت فى « ج » (وقصرت الخزائن عن الأسلحة) وهو تحريف .

(٣) رسمت فى « ج » : لحبر . ومكانها بياض فى « ك » . وقد رجحنا التصويب لاتساقه مع المعنى .

(٤) وردت فى المخطوطين والملكية : بمتجرا . ونعتقد أن التصويب يتفق مع السياق .

(٥) رسمت فى المخطوطين ناقصة : ولا .

(٦) وردت فى المخطوطين : نقلها . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٧) ساقطة فى المخطوطين والملكية . ويقتضيها السياق .

ناشئة بين أخابيث القسوة ، جانية أمانى الشهوة والمخالفة ، مضادّة للفلاح(١) ، حايدة عن سبيل النجاة ، بمحل اغتراب عن النُّصحاء ، وانتباذ عن مقاعد الأحرار ، فجرى طَلَق الجموح فى التخلف ، حتى كبا لفيه ويديه ، وأعان نسمة السوء الرئيس على نفسه ، وقد كان اصطنع الرجال ، واستركب أولى البسالة ، وأسالف الدّعرة ، واختص فى سبيل خدمته والذب عنه ، بالبؤساء والمساعير ، يُشركهم فى الأكلة . ويصافيهم النعمة . واظلم مابينهما ، فحذر كل جانب أخيه ، [إلا أن المهين كان أضعف من أن يستأثر بخطة المعالجة ، ويهتدى إلى سبيل الحزم](٢) . وفى عشىّ يوم الأربعاء [السابع والعشرين](٣) من شهر شعبان ، شارفه من مَسْكَمن(٤) غدوه الرَّحب بجوار قصره ، وارتبط به الخيل واستكثر من الحاشية ، وأخفى المساعير ، وداخل المَوْرورى(٥) المشئوم على الدولة ، فبادر رجاله سدّ الأبواب ، وانخرط فى جملة أو باشه من باب السلطان ، من الرَّجْل لنظر مماليه فى العنا ، وعونه على الهول المورورى ، فأحاط به ، وقد بادر الاعتصام بالمصنع ثانى الصرح المنسوب إلى هامان سموًّا ونفالاً فى السُّكاك(٦) وسعة ذرع . وبعد مارقى وصرخ بالناس ، يناشدهم الذّمام ، خف إليه منهم الكثير ، وتراكوا بالطريق تحته ، وتولى استنزاله عن سِويّه مماوك أبيه ، العِلج المخذول عبّاد ، وقد تحصّل فى قبضته الغادر ، ففَتَل له فى الغارب والذّروة ، ووعده الحياة ، فنزل عن أمان فُسحة الغَدْر الصّراح ، والوفاء المُسْتباح . ولحين استهاله ، أمر نقله(٧) إلى المُطْبَق ،

(١) وردت فى «ك» . وأغفلت فى «ج» والملكية .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين وفى الملكية .

(٣) تاريخ اليوم ساقط فى المخطوطات الثلاثة . وقد أكلناه من اللمحة البدرية .

(٤) وردت فى المخطوطين : ممكن .

(٥) المورورى ، هو حسبما ورد فى اللمحة البدرية ، وزير الرئيس المتوثب ابن عم السلطان المنتصب إسماعيل بن يوسف . والإسم ينسب إلى بلدة مورور . وهى من قواعد الأندلس القديمة وتقع جنوب شرق إشبيلية وبالإسبانية Moron.

(٦) السكاك هنا أى الجو . (٧) وردت فى «ج» نبله . وفى «ك» نبله .

فقيد مُختبلاً كثير الضراعة ، إلى الأرِيّ[1] لصق قصره ، وتعاوَرَته السيوف ؛ وأُلحق به صغيره قَيس ، استُخرج من بعض الخزاين ، وقد جَهَدت[2] أمه فى إخفائه ؛ فمضى لسبيله ، وطُرح رأسه على الرعاع المجيبين لندائه ، فانفضوا لحينه ، وبقى مطروحاً موارى ، بحِلْس[3] دابة من دواب الظهر ، إلى يوم بعده ، فوورى هو وأخوه بمقربة من مدفن أبيهم . فكان من أمرها عبرة . وقد استوفى [ذلك][4] الكتاب المسمى « بنُفاضة الجراب » من تأليفنا .

وزراء دولته

قَدَّم للوزارة عشية[5] يوم ولايته ، محمد بن إبراهيم بن أبى الفتح الفهرى ، بطالع الشؤم ، ولَعْبَة النحس . عهدى بالطبيب الإسرائيلى الحبرى العظيم المهارة [فى الفن النجومى][6] ، إبراهيم بن زَرْزار ، يتطاير بتلك الولاية بكَوْن النَّحس الأعظم فى درجة طالعها ، جِذْواً انفرد بنَحْز أديم الجُهَّالة ، المعدودون فى البَهْم والهَمَج[7] ، الذين لا يعبأ الله بهم ؛ فكان الخبر وفوق الخبر ، فلم يُرَ فى الأندلس وزارة أثقل وطأة ، ولا أخبث عهداً ، ولا أعظم شرَهاً ، ولا أكثر حَجْراً منها ثم كان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين من رجل حَبَرْكة[8] ، كَمِد اللون ، تنطِف سحنتُه مرّةً ومُمَّا ، غائر العين مطأطىء الرأس ، طَرِفٌ فى الحقد والطمع ، وعىٌّ المنطق ، وجمود الكف ، معدنٌ من معادن الجهل ، مثلٌ فى الخيانة ؛ تناول

---

(١) الأرى هو محبس الدواب .

(٢) وردت فى المخطوطين : جهد. (٣) الحلس هو كساء الدابة .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وقد أضفناها من الملكية .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ح » عشى .

(٦) هذه العبارة واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٧) وردت فى المخطوطين والملكية . المهج . وهو تحريف لا يستقيم مع السياق .

(٨) هكذا رسمت فى المخطوطين . ولكن الرسم الشائع هو (حبركى) . والرجل الحبركى هو : الغليظ الطويل القصير الرجلين ، ويكاد يكون مقعداً من ضعفهما .

الأمر مُزاحماً فيه بالرئيس المتوثب. وابن عم نفسه، الغادر، الضخم الجرارة، بالوَعْث المهين، وثور النقل، وثعبان الفواكه، وصاعقة الأخْوِنه[1]، ووكيل الدولة المنحط عن خلالهم بالأبوّة والنشأة؛ فجرت أمورها أسوأ مجاريها، إلى ان كان ما أذن الله به، من مداحلة الرئيس الغادر، على قتل أميره المسكين المَهين، مقلده [أنوَه الرتب][2]، وتاركه وخطة الخيانة؛ ثم أخذه الأخْذَة الرابية بيد من أمدّهُ فى الغى، وظاهره فى الخزى؛ فجعله نكالاً لما بين يديه وما خلْفَه، وموعظةً للمتّقين، حسبما يأتى فى اسمه بحول الله تعالى.

كاتبه

واستعمل فى الكتابة صاحبنا الرجل الأخرق، الطُوال، الأهوج، البرئ من الخلال الحميدة، إلا ما كان من وَسَط الخط وسوقيّ السجع، والدرك الأسفل من النظم، عبد الحق بن محمد بن عطية المحاربى، الآتى ذكره. وهو الذى أفرده الله جل جلاله، بالغاية البعيدة من مجال سوء العهد، وقلة الوفاء. وتولى القضاء، أبو جعفر أحمد بن أبى القاسم بن جُزَى أياماً، ثم شَهَّر به قوم من الفقهاء منافسيه، ورشقوه بما أوجب صرفه؛ وَقَدّم للقضاء الشيخ المُسِن[3]، الطويل السّباحة فى بحر الأحكام، المُفرى الوَدَجَين والحلقوم بسِكّين القضاء، المنبور[4] بالموبقات فيه، تجاوز الله عنه، سَلْمون بن على بن سلمون. وشيخ الغزاة على عهده، يحيي بن عُمر بن عبد الله ابن عبد الحق، شيخ الغزاة لأخيه، أصبح يوم الكائنة فى قياده، ونصح له فأمر له؛ وضاعف برّه.

---

(١) جمع خوان وهو المائدة.

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى «ك». وفى «ح» والملكية: أبوه الرتبة.

(٣) وردت فى المخطوطين: الحسن.

(٤) أى المعروف والمشهور.

الملوك على عهده (١)

مولده

فى يوم الإثنين الثامن والعشرين لربيع الأول من عام أربعين وسبعمائة .

« وفاته » ؛ حسبما تقرر آنفاً فى يوم الأربعاء [السابع والعشرين](٢) لشعبان من عام أحد وستين وسبعمائة .

أبو بكر بن إبراهيم ، الأمير أبو يحيى المسوفى(٣) الصحراوى

من أمراء المرابطين ، صهرُ على بن يوسف بن تاشفين ، زوج أخته ، وأبو(٤) ولده منها يحيى ، المشهور بالكرم .

« أوّليته » ؛ معروفة تُستقرأ(٥) عند ذكر ملوكهم .

حاله

كان مثلاً فى الكرم ، وآيةً فى الجود(٦) ، أنسى أجواد الإسلام والجاهلية إلى الغاية ؛ فى الحياء والشجاعة والتبريز فى ميدان الفضائل . استوزر الوزير الحكيم الشهير أبا بكر بن الصائغ ، واختصه ؛ فتجمّلت دولته ونبُه قدره . وأخباره معه شهيرة .

---

(١) هذا العنوان ثابت فى المخطوطين وفى الملكية . ولكن لم يثبت بعده شىء .

(٢) تاريخ اليوم ساقط فى المخطوطات الأربعة .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة : المسيوفى . وهو تحريف لكلمة (المسوفى) نسبة لقبيلة « مسوفة » إحدى بطون صنهاجة .

(٤) وردت فى المخطوطين والملكية : فبنوا .

(٥) وردت فى المخطوطين : تستقر .

(٦) وردت محرفة فى المخطوطين : (أجود . جود) .

ولايتـــه

ولِىَ غَرناطة سنة خمسمائة . ثم انتقل منها إلى سَرَقُسْطة . عند خروج المستعين ابن هود [إلى] روطة[1] . فأقام بها مراسم المُلك ، وانهمك فى اللذات ، وعكف على المُعاقرة ، وكان يجعل التَّاج بين ندمائه ، ويتزيَّا بزى الملوك[2] إلى أن هلك بها تحت مضايقة طاغية الروم المستولى عليها بعد .

خروجه من الصحراء

قال المؤرخ : كان أبوبكر هذا رئيساً على بعض قَبيلهِ فى الصحراء ، وكان ابن عمه منفرداً بالتدبير ؛ فاتفق يوماً أن دخل على ابن عمه فى خبائه[3] ، وزوج ابن عمه تمتشط[4] فى موضع قريب من الخباء ؛ فاشتغلت نفسُ أبو بكر بالمرأة لحسنها وجمالها . فحين دخل قال لابن عمه ، فلانة تريد الوصول إليك ؛ وإنما قصد الاستئذان لرجل من أصحابه ، فنطق باسم المرأة لشُغْل باله بها : فقال له ابن عمه بعد طول صَمْت وفكرة ، وقد أنكر ذلك ، عهدى بهذا الشخص لا يستأذن علينا . فرجع عقله ، وثاب لبُّه ، وعلم قدر ما من القبيح وقع فيه[5] ، فخرج من ذلك المجلس ، وركب جمله ، وهان عليه مفارقة وطنه من أجل العار ، واستصحب نفراً قليلا من أصحابه على حال استعجال ، ورحل ليلا ونهاراً ، حتى وصل سِجِلْماسَة[6] أولى عِمالات على بن يوسف ابن عمه ؛ واتصل به قدومه ، فأوجب حقّه ، وعرف قدره ، وعقد له على أخته ، وولاّه على سَرَقُسْطة دار ملك بنى هُود بشرق الأندلس ، بعد ولاية غرناطة .

---

(١) روطة Rueda قاعدة أندلسية قديمة تقع على نهر خالون غربى سرقسطة . وكان يلجأ إليها بنو هود لمناعتها كلما شعروا بالخطر على ملكهم ، وما تزال بها أطلال حصنها الأندلسى .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى الملكية : الملك . (٣) وردت فى المخطوطين : خباء .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : تمشط .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى الملكية (صار إليه) .

(٦) سجلماسة من قواعد المغرب القديمة . وهى تقع جنوبى فاس .

نبذة من أخباره فى الكرم

قالوا ؛ لما حل بظاهر سجلماسة ، مجهول الوفادة ، خافى الأمر ، نزل بظل نخلة بظاهرها ، لا يعرف أحداً ولا يقصده ، فجاء فى ذلك الموضع رجل حدادٌ فقَراه[1] بعَنْز[2] كان عنده ، وتعرف له ، وأبو بكر يستغرب أمره ؛ فلما فرغوا من أكلهم ، قال للحداد ألا تصحبنا لموضع أملنا ، وتكون أحد إخواننا ، حتى تحمد لقاءنا ، فأجابه ؛ وصحبه الحداد ، وخدمه ، فلما قرُبوا من مَرَّاكُش ، استأذن أبو بكر ، علىّ بن يوسف بن تاشُفين ، وأعلمه بنفسه ، فأخرج له علىّ بن يوسف فرساً من عتاق خيله ، وكسوة من ثيابه وألف دينار ، فأمر أبو بكر بدفعها للحداد ، فبُهتَ الحداد ؛ وانصرف الرسول مُوَجَّهاً إلى مرسله فأخبره بما عاين من كرمه وفعله ، فأعاده إليه فى الحين بفرس أخرى ، وكسى كثيرة ، وآلاف من المال ، فلما دخل مَرَّاكُش ، ولقى علىّ بن يوسف وأنزله ، أنزل الحداد مع نفسه فى بيت واحد ، وشاركه فى الأموال التى توجَّه بها[3] ، فانصرف يجرّ وراءه دنيا عريضة .

ولما ملك سَرَقُسطة ، اختصَّ الوزير الحكيم أبا بكر بن الصائغ[4] ، ولطفَ منه محله . ذكر أنه غاب يوماً عنه وعن حضور مجلسه بسرقسطة ، ثم بكر من الغد ؛ فلما دخل قال له أين غِبْتَ يا حكيم عنا ؟ فقال يا مولاى أصابتنى سوداء واغتممت ، فأشار إلى الفتى الذى كان يقف على رأسه ، وخاطبه بلسان عجميّة ، فأحضره طبقاً مملوءاً مثاقيل مُخْشَمة[5] وعليها نوادير ياسمين [فدفعه][6] كله إليه ، فقال ابن باجّة :

---

(١) أى أضافه وأكرمه .

(٢) وردت فى المخطوطين : نعمر . والتصويب من الملكية .

(٣) هكذا وردت فى الملكية . وفى « ج » (توجب بها) والأولى أرجح .

(٤) سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ١٨٩) .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » مخشيمة .

(٦) ساقطة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

يا مولاي لم يعرف جالينوس من هذا الطِّب، فضحك.

وذكر أنه أنشد شعراً في مدحه، وقد قعد للشراب، فاستفزَّه الطرب، وحَلف أن لا يمشي إلا من فوق المال إلى منزله في طريقه. فالتمس الخدام برْنسه بأن كانوا يطرحون من المال شيئاً له خطر، على أوعيته حتى يغمرها، فيمشي خَطْواً إلى أن وصل إلى منزله؛ وحسد الحكيم أصحابه، ولم يقدروا على مطالبته. واتفق أن سار الأمير أبو بكر، وأمر أصحابه بالتأهب والاستعداد. فاستعد ابن باجّة، واتّخذ الأقْبية والأخْبية، واسْتَفْرَه[1] الجياد من بغال الحمولة، فكانت له منها[2] سبعة صُفر الألوان، حمل عليها الثياب والفرش والمال؛ فلما نزل الأمير بمقره، مرّت عليه البغال المذكورة في أجمل الهيئات؛ فقال لجلسائه لمن هذه البغال، ومن يكون من رجالنا هذا؟ فأصابوا العزّة. فقالوا هي للحكيم ابن الصائغ صاحب سرقسطة، وليعلم مولانا أن في وسط كل حِمل منها ألف دينار ذهباً سوى المتاع والعدة؛ فاستحسن ذلك. وقال أهذا حق؟ قالوا نعم، فدعا الخازن على المال، وقال له ادفع لابن باجة خمسة آلاف دينار ليُكمل له ذلك اثنى عشر ألفاً، فقد سمعته غير ما مرة يتمنى أن يكون له ذلك؛ ثم بعث عنه في الحين وقال له، يا حكيم ما هذا الاستعداد، فقال له يامولاي كل ذلك من هِباتكم وأعْطياتِكم، ولِما علمتُ أن أظهار ذلك يسركم، فسر بذلك. وأخباره رحمه الله كثيرة.

محنتـــه

قالوا، ولما وُلّي غرناطة سنة خمسمائة، ثار بها، وانبرى على قومه لأمر رابه[3]. فانتبذ عنه قومه[4]، وناصبوه الحرب، حتى استنزلوه عَنْوة، وقبضوا عليه، ووجَّهوه

(١) وردت في المخطوطين: واستفر.

(٢) وردت في المخطوطين: منه.

(٣) في المخطوطين: أربه.

(٤) هكذا في «ج». وفي «ك» والملكية أهله. والمؤدى واحد.

إلى علي بن يوسف ، فآثر الإبقاء عليه ، وعفا عنه ، واستعمله[1] بسرقسطة ؛ كذا ذكره الملاحي ، وأشار إليه . وعندي أن الأمر ليس[2] كذلك ، وأن الذي جرى له ذلك ، أبو بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين فيُتحَقّق .

وفاته

توفي بسرقسطة في سنة عشر وخمسمائة بعد أن ضاق ذَرْعُه بطاغية الروم ، الذي أناخ عليه بكلكله . وعندما تُعُرّف[3] خبر وفاته ، واتصلت بالأمير أبي إسحاق إبراهيم بن تاشفين ، وهو يومئذ والي مُرْسِية ، بادر إلى سرقسطة ، فضَبَطها ، ونظر في ساير أمورها ، ثم صدر إلى مرسية .

رثاؤه

ورثاه الحكيم أبو بكر بن الصائغ بمراث اشتهر عنه منها قوله :

سـلام وإلمام ووسميٌّ مُزْنَةٍ ... على الجَدَث[4] الثاني الذي لا أزوره

أحقٌّ أبو بكر تقضّي فلا ترى ... تردُّ جماهير الوفود ستوره

لئن أنِسَت تلك اللحود بلَحْده ... لقد أوْحَشَت أقصاره وقصورُه

ومن ذلك قوله :

أيها الملك المُفَدّى لعَمْـرى ... نعى المجدُ ناعيك يوم قمنا فَنُحْنا[5]

كما تقارعتَ والخطوبَ إلى أن ... غادرتك الخطوبُ في التُّرب وهَنَا[6]

---

(١) هكذا وردت في «ك» . وفي «ج» : واستعملوه .
(٢) وردت هذه الكلمة في «ك» وأغفلت في «ج» .
(٣) هكذا في «ج» . وفي الملكية تقرر .
(٤) في المخطوطين : الحدث .
(٥) هكذا في «ج» . وفي «ك» فبحنا .
(٦) هكذا في المخطوطين . وفي «ت» : رهنا .

غير أنى إذا ذكرتك والدهـــر أخال اليقين فى ذاك ظَنّا[1]
وسألنا متى اللقــاء فقيل الحَشْـ ـر قلنا صبراً إليـــه وحُزْنا

إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على
أمير المؤمنين الملقب بالمأمون ، مأمون الموحدين

أوليتـــه

جَدُّه[2] عبد المؤمن ، جِذْع الشجرة ، ويُنبوع الجداول ؛ هو ابن على بن علوى بن يَعْلَى بن موار بن نصر بن على بن عامر بن موسى بن عَون الله بن يحيى بن ورجايغ بن سطفور بن نفور بن مطماط بن هزرج بن قيس بن عَيلان بن مُضر بن نِزار بن معدّ بن عدنان . وكان طالباً بربرياً ضعيفاً ، خرج مع عمه يؤم المشرق ، وكان رأى رؤيا هالَتْه تدل على مُلْك[3] ، إذ كان صفحتُه من طعام على رُكبتيه ، يأكل منها الناس ، وكانت أمه رأت وهى حاملٌ ، كأنّ ناراً خرجت منها أحرقت المشرق والمغرب ؛ فكانت فى نفسه حركة ، لأجل هذه الرؤيا ؛ فلما حل بسِجِلْماسة[4] ، سمع بها عن المهدى . وكان رجلاً يُعرف بأبى عبد الله السُّوسى ، ووُصِف له بالعلم ، فتَشَوَّف إلى لقائه ، ليرى ما عنده فى تأويل رؤياه ؛ فانصرف إليه مع بعض الطلبة ، فلقِى رجلا قد وسَمه ، على مايزعم الناس ، حدْثان من أبى حامد الغزالى ، وعَلِقت به دعوة منه ؛ فى إذهاب مُلْكِ أهل اللِّثامِ ، لحرق

---

(١) هكذا فى الملكية . وفى المخطوطين : ضناً .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : جدهم .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « الملكية » الملك .

(٤) سبق التعريف بها (ص ٤٠٥) .

كتابه[١] على أيديهم ، فهو مُغرًى بالخروج عليهم ، مهيأ[٢] فى عالم الغيب إلى تخريب دعوتهم ؛ فوافق شنٌّ طبَقِه «وما اجتمع[٣] الدّآن إلا ليقتتلا»[٤] والله غالب على أمره . فأجلسه . وسأله عن اسمه ، وبلده ، وسنه ، ونسبه ، بالتعريف ؛ وأمره أن يخفى من أمره ، وعبَّر له رؤياه ، بأنه يملك الأرض ؛ فاهتزّت الآمال وتعاضدت ، ونفذت مشيئةُ الله ؛ بأن دالت الدولة ، وهلك محمد بن تومرت[٥] المهدى ؛ فأفضى الأمر [إلى عبد المؤمن][٦] ، واستولى على مُلْك اللّمْتونيين ، فأباد خَضْرَاءهم ، واستأصل شأفتهم ، واستولى على مُلْك المغرب ، فأقام به رسماً عظيماً ، وأمراً جسيماً ، وأورثه بنيه من بعده . والله يؤتى مُلْكه من يشاء .

حـاله

كان رحمه الله شهماً شجاعاً ، جريئاً[٧] ، بعيد الهمة ، نافذ العزيمة ، قوىَّ الشكيمة ، لبيباً ، كاتباً أديباً ، فصيحاً ، بليغاً ، أبيًّا ، جواداً ، حازماً . وذكره ابن عسكر المالَقى ، فى تاريخ بلده ؛ قال [دخل][٨] مالقة من قِبَل أخيه ، فوصل إليها فى الحادى عشر من مُحرم ، وهو شاب حَدَث ، فكان منه من نباهة القَدْر وجلالة النفس ، وأُبَّهة المُلْك ، مايعجز عنه كثير من الملوك . ولحين وصوله عقد مجلس مذاكرة ، استظهر[٩] له نبهاء الطلبة ، وكان الشيخ على بن عبد المجيد[١٠]

(١) أهل اللثام أو الملثمون ، هم المرابطون . وكان أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين قد أمر بإحراق كتاب الإمام الغزالى : «إحياء علوم الدين » ، وتكفير مؤلفه وذلك فى سنة ٥٠٣ هـ

(٢) هكذا وردت فى «ج » . وفى « ك » : مهيئاً .

(٣) فى المخطوطين والملكية : أجمع . والتصويب يقتضيه السياق .

(٤) هكذا وردت فى «ج » . وفى « ك » : ليلتقيا ، والأولى أرجح للسياق .

(٥) وردت فى المخطوطين : تامرت . وهو رسم آخر لاسم المهدى .

(٦) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » والملكية : لعبد المؤمن .

(٧) فى المخطوطين والملكية : جريا .

(٨) ساقطة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٩) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : استحضر .

(١٠) هكذا فى « ج » . وفى « الملكية » عبد الحميد .

يحضره . وكان يبدو منه مع [حداثة سنة](١) ، من الذكاء والنبل والتفطن ، ما كان يُبهت الحاضرين ، وكانوا ينظرون منه إلى بَدْرِىّ الحسن ، وأسَدِىّ الهيبة ، وكهلىّ الوقار والتؤدة ؛ واشتغل بما يشتغل به الملوك من تفخيم البناء ، كبنيان رياض السيد الذى على ضفة الوادى(٢) بمالَقَة المعروف باسمه ، لله ورسوله ، وكان عُرفاء البنّائين لا يتصرفون إلا بنظره ؛ واستمرت ولايته مفَخَّم الأمر ، عظيم الولاية ، إلى أن نُقل منها إلى قرطبة ، ثم نقل إلى إشبيلية وفيها(٣) بويع الخلافة .

تصيُّر الأمر إليه ، وجوازه إلى العُدوة

قام على أخيه العادل بين يدى مقلعة ، بممالأة أخيه السيد أبى زيد ، أمير بَلَنْسية وتحريكه إياه ، فتم له ذلك ، وعُقدت له البيعةُ بمرَّاكُش والأندلس . ثم إن الموحدين فى مراكش بدا لهم فى أمره ، وعدلوا عنه إلى ابن عمه أبى زكريا ابن الناصر ؛ [واتصل به خبر خلعهم إياه](٤) فهاجت نفسُه ، وَوَقَدت جمْرتُه ، واستعدّ لأخذ ثاره ، ورحل من إشْبِيلية ، واستصحب جمعاً من فرسان الروم ، واستَجاز البحر سنة ست وعشرين وستمائة ، قاصداً مراكش ؛ وبرز ابن عمه إلى مدافعته ، والتقى الجَمْعان فكانت الهزيمة على يحيى بن الناصر ، وفر إلى الجبال ، واستولى القتل على جيشه . ودخل المأمون مراكش فأمر بتقليد شُرفاتها بالرءوس فعَمَّتها على اتساع السَّاحة ؛ واستحضر النّاكثين لبيعته وبيعة أخيه ، وهم كبار الدولة ، واستَفْتى قاضيه بمرأى(٥) منهم ، واستحضر خطوطهم وبيعاتهم ، فأفتى بقتلهم ، فقتل جماعتهم ، وهم نحو مائة رجل ؛ واتّصل البحث عمن أفْلَت منهم ، وصرف عزمه إلى محو آثار دولة الموحِّدين ، وتغيير رسمها ، فأزال اسم مَهْديها من

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « الملكية » حداثته .

(٢) يقصد بالوادى هنا نهر « وادى المدينة» Guadalmedina الذى يخترق ثغر مالقة . وقد أجدبت ضفافه اليوم .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » وبها .

(٤) هكذا فى « ج » ووردت فى الملكية كالآتى (واتصل به خبرهم بما أرادوا من إخلاعه) .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : برى .

الخطبة والسكة والمآذن ، وقطع النداء عند الصلاة « تاصليت الإسلام » وكذلك « منسوب رب » « وبادرى »[1] وغير ذلك ، مما جرى عليه عمل الموحدين ؛ وأصدر[2] فى ذلك رسالة حسنة ، من إنشائه ، يأتى ذكرها فى موضعه . وعند انصرافه من الأندلس ، خلا للأمير أبى عبد الله بن هُودْ الجو ، بعد وقائع خلت بينهما ، وانتهز النصارى الفرصة ، فعظُمت الفتنة ، وجلّت المحنة .

دخوله غرناطة

لم يصح عندى أنه دخل غرناطة ، مع غَلَبة الظن القريب من العلم بذلك ، إلا طريقه إلى مدافعته المتوكل بن هُود بجهة مرسية ؛ فإنه تحرك لمعالجة أمره فى جيش إشبيلية باستدعاء أخيه السيد أبى زيد والى[3] بَلَنْسِية ، بعد هزائم جرت بصُقع[4] الشرق لابن هود ؛ فتحرك المأمون إليه ، واحتل غرناطة ، فى رمضان من عام خمسة وعشرين وستمائة ، وأنفذ منها كتابه إلى أخيه ، يقوّى بصيرته ، ويعلمه بنفوذه إليه ؛ والتف عليه جيش غرناطة وما والاها ، واتصل سيرُه إلى الشرق ، فبرز ابن هود إلى لقائه ، فكان اللقاء بخارج لُورَقة[5] ، فانهزم ابن هود ، وفرّ إلى مرسية ، وعساكر الموحدين فى عقِبه ؛ واستقصاء مثل هذا يخرج عن الغرض .

وخاطب لأول أمره ، وأخذ الناس ببيعته . من بأقطار الأندلس ، صادعاً بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والحضّ على الصلوات وإيتاء الزكاة ، وإيتاء الصدقات ، والنهى عن شرب الخمر والمسكرات[6] والتحريض على

---

(١) هذه العبارات فيما يبدو ، بربرية الأصل .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . و فى « ج » : وأصدل .

(٣) وردت فى « ج » إلى . والتصويب أرجح للسياق .

(٤) وردت فى « ك » كالمعتاد : بسقع .

(٥) لورقة من القواعد الأندلسية القديمة . وهى تقع جنوب غربى مرسيه فى الطريق إلى غرناطة . وبالإسبانية Lorca .

(٦) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : المسكر .

الرعاية[١] فمن كتابه : « الحمد لله الذى جعل الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر أصلين يتفرع منهما مصالحُ الدنيا والدين، وأمر بالعدل والإحسان ، إرشاداً إلى الحق المُبين ؛ والصلاة [والسلام][٢] على سيدنا محمد [النبى][٣] الكريم ، المبعوث بالشريعة التى طهرت الجيوب من الأدران ، واستخدمت بواطن القلوب وظواهر الأبدان ، طوراً بالشدة ، وتارة باللين ؛ القائل ، ولا عدول عن قوله : « ومن اتَّقى الشُّبُهات استبرأ لدينه وعرضه » تنبيهاً على ترك الشك لليقين ؛ وعلى آله أعلام[٤] الإسلام ، الملقين راية الإسلام باليمين ، الذين مكنهم الله فى الأرض، فأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونَهَوا عن المنكر، وفاء بالواجب لذلك التمكين .

ومن فصل : « وإذا كنا نوفى الأمة تمهيد دنياها ، ونُعنى بحماية أقصاها وأدناها ، فالدين أهمّ وأولى ، والتهمّم [بإقامة الشريعة وإحياء شعائرها][٥] ، أحقّ أن يُقَدم[٦] وأحرى ، وعلينا أن تأخذ بحسَب ما يأمر به الشرع ونَدَع ، ونتبع السنن المشروعة ونَذَر البِدَع . ولنا أن لا ندخر عنها نصيحة ، ولا نغبنها أداة[٧] من الأدوات مريحة ، ولنا عليها أن تطيع وتسمع » .

ومن فصل : « وأول ما يتناول[٨] به الأمر النافذ، الصلاةُ لأوقاتها ، والأداء

---

(١) هكذا وردت فى « ك » والملكية . ووردت فى « ج » الدعاية .

(٢) ساقطة فى المخطوطين والملكية .

(٣) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الأعلام .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » . ووردت فى « ك » كالآتى : (بإحياء الشريعة وإقامة شعائرها) .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : يقوم .

(٧) وردت فى المخطوطين : إدارة .

(٨) هكذا فى « ك » . وفى « ج » تناول .

لها على أكمل صفاتها ، وشهودها إظهاراً لشرائع الإيمان فى جماعتها . فقد قال عليه الصلاة[١] والسلام : أحبُّ الأعمال إلى الصلاة لأوقاتها . وقال : أول ما يُنظر فيه من أعمال العبد الصلاة . وقال عُمر : إن أهمَّ أموركم عندى الصلاةُ فمن حَفِظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيَعُ . وقال : لاحظَّ فى الإسلام لمن ترك الصلاة ، وهى الركنُ الأعظمُ من أركان الإيمان ، والسور الأوثق لأعمال الإنسان ، والمواظبة على حضورها فى المساجد ، وإيثارُ ما لصلاة الجماعة من المزية على صلاة الواحد ، أمرٌ لا يضيعه المفلحون ، ولا يحافظ عليها إلا المؤمنون . قال ابن مسعود رضى الله عنه : لقد رأينا ، وما يتخلف عنها إلا المنافق[٢] معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى يتهادى بين الرَّجُلين ، حتى يقام[٣] فى الصَّف . وشهود الصبح ، وعشاء[٤] الآخرة شاهد بمحضر الإيمان . ولقد جاء : حضور[٥] الصبح فى جماعة يَعْدِل قيام ليلة ، وحسبكم بهذا الرُّجحان . ومن الواجب أن يُعتنى بهذه القاعدة الكبرى من قواعد الدين ، ويأخذ[٦] بها فى جميع الأمصار الصغيرُ والكبيرُ من المسلمين ، ونيط فى إلزامها قوله عليه الصلاة والسلام : مُرُوا أبناءكم بالصلاة لسَبْع واضربوهم عليها لعَشْر سنين » . وهى طويلة فى معانى متعددة .

نثره ونظمه

ولما غيّر رسوم المُوحِّدين ، وأوقع بأرباب دولتهم خبرُ النكث ببيعته ، وبيعتى أخيه وعمه ، كتب إلى الأقطار عن نفسه ، ولمْ يكل إنشاءه بكتابة رسالة بديعة اشتملت على فصول كثيرة تُنظر فى كتاب «المغرب» و«البيان المُغرب» وغير ذلك . وكتابا بخطه إلى أهل أنْدُوجَر[٧] : « إلى الجماعة والكافة من أهل فلانة ، وقاهم الله عثرات

(١) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٢) وردت فى «ج» : المنافقون . والتصويب من الملكية . (٣) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : يقوم .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين والملكية . وفى « ك » العشاء .

(٥) هكذا فى « ح » . وفى « ك » : شهود . والمؤدى واحد .

(٦) وردت فى المخطوطين : ويؤخذ . والتصويب لازم للسياق .

(٧) هى بلدة أندلسية تقع شمال شرق قرطبة على نهر الوادى الكبير . وبالإسبانية Andujar

صارماً لاهوادة عنده . قال المؤرخ ؛ كان الناصر يستخلفه فى سطح القصر إذا خرج إلى مغازيه . وحكى ابن حارث ، أن ابن معاذ وابن صالح أتيا يوماً ، فلما أخذا مجلسهما نظر إليهما ، وقال ألقُوا[١] ما أنتم مُلقون فأبْهَتهُما . ودخل عليه محمد بن وليد يوماً ، فكلمه فى شىء ، فقال أسلم سمعنا وعَصينا ، فقال ابن وليد ونحن قلنا واحتسْنا . وأتاه فى بعض مجالسه شهود ، بعضهم من أهل المدينة بقرطبة ، وبعضهم من شُلار من الرَّبَض الشرقى ، يشهدون فى تَرْشيد امرأة من الرَّبض الغربى ، فلما أخذوا مجالسهم ، فتح باب الخوخة التى فى المجلس الذى يجلس بدهليزه ، ونادى من بخارجه فاجتمعوا ؛ اسمعوا عجباً[٢] لله دَرُّ الشاعر حيث يقول :

واحت مُشَرِّقة ورُحت مغرِّباً   شتَّان بين مُشرِّق ومغرِّب

هؤلاء من أهل المدينة وشُلار ، يشهدون فى ترشيد امرأة[٣] من ساكنات آخر بلاط مُغيث ؛ ثم سكت فدهِش القوم وتسللوا[٤] . وبلغه عن بعض الشهود المتهمين أنه أُرْشى فى شهادته ببِساط ، فلما أتى ليؤديها ، ودخل على أسلم ، جعل يخلع نعليه عند المشى على بساط القاضى ، فناداه أبا فلان البِساط ، الله الله ؛ فتنبه بأن أمره عند القاضى ، ولم يجسر على أداء شهادته تلك . وخاصم فقيهٌ عند أسلم رجلاً فى خادم أغربها[٥] ، وجاء بشاهد أتى به من إشبيلية ؛ فقال ياقاضى هذا شاهدى فاسمع منه ، فصعَّد أسلم فى الشاهد وصوَّب ، وقال أمحتسبٌ[٦] أو مكتسبٌ[٧] أصلحك الله ؛ فقال الشاهد أحْسِن الظن أيها القاضى ، فليس هذا إليك ، هذا إلى الله المُطَّلع على

---

(١) وردت فى المخطوطين : أقوا . وهو تحريف .

(٢) فى المخطوطين : عجباً .

(٣) وردت فى المخطوطين : امرأتين .

(٤) وردت فى المخطوطين : وتسلا .

(٥) وردت فى المخطوطين : أعربها .

(٦) محتسب أى مدخر أجره عند الله .

(٧) وردت فى المخطوطين : مستكب . وهو تحريف ظاهر .

أولى الفساد على الدول ، وصلبهم فى الأشجار والأسوار[١] ، مما كَلِف السَّلمى بحفظها واستظرافها :

أهلُ الحرابة والفساد من الورى   يعــزون فى التشبيه بالذُّكّار
ففساده[٢] فيه الصلاح لغيره   بالقَطْع والتَّعليق فى الأشجار
ذُكّارهم ذِكرى إذا ماأُبصروا   فوق الجُذوعِ وفى ذُرى الأسوار
لو عمَّ عفو الله سائر خَلْقه   ما كان أكثرهُمُ من أهل النَّار

توقيعه

قال ابن عسكر ؛ وكانت تصدر منه توقيعات نبيلة . فمنها أن امرأة رفعت[٣] رقعتها بأحد من الأجناد ممن نزل دارها ، وصدر لها أمر يُنْــكر ؛ فوقّع على رقعتها: « يُخرَج هذا النازل ، ولا يُعوَّض بشىء من المنازل » . وغير ذلك مما اختصرناه .

بنوه

أبو محمد عبد الواحد ولىُّ عهده ، وأمير المؤمنين بعد وفاته ، الملقب بالرشيد ؛ وعبد العزيز ، ومان ؛ وأبو الحسن على ، الملقب بالسعيد ، الوالى بعد أخيه الرشيد.

« بناته » : ؛ ابنة العزيز ، وصفية ، ونجمة ، وعائشة ، وفتحونة ؛ وأمهات الجميع روميات ، وسُرِّيَّات مغربيات .

وزراؤه

وزَرَ له الشيخ أبو زكريا بن أبى الغُمْر وغيره .

---

(١) وردت فى المخطوطين : الصور .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ففاسدة .

(٣) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

«كُتّابه»، كتب له جملة من مشاهير الكتاب، منهم[1] أبوزكريا الفازازى، وأبو المطرّف بن عَميرة، وأبو الحسن الرُّعَينى، وأبو عبدالله بن عيّاش، وأبو العباس ابن عُمران، وغيرهم. وما منهم إلا شهير كبير.

وفاته

توفى رحمه الله بوادى أم الربيع[2] وقد طوى المراحل من ظاهر سَبْتَة، مُقلعا عن حصارها، مبادراً إلى مَرّاكُش، وقد اتصل به دخول يحيى بن الناصر إياها، فأعدّ السير وقد اشتد حَنَقه[3] على أهلها، وأقسم أن يُبيح حماها للروم، ويُذهب اسمها ومَسَمّاها، فهلك عند دنوه منها فجأة. فكانت عند أهل مراكش من غُرَر الفرج بعد الشدة؛ وكتمت زوجُه حُبابة الرومية، أم الرشيد ولده، خبر وفاته إلا عن الأفراد من قواد[4] النصارى وبعض الأشياخ، واتفق القول على مبايعة ابنها المذكور، بيعةً خاصّة ثانى يوم وفاته؛ ثم حمل فى هودج وأشيع أنه مريض، وزحفت الجيوش على تَعْبِيته؛ وبرز يحيى بن الناصر من مراكش إلى لقائه، والتقى الجمعان فانهزم يحيى، واستولى الرشيد عليه، ودخل مراكش فاستقام الأمر؛ وكانت وفاة المأمون أبى العَلا رحمه الله، ليلة الخامس عشر لمحرم عام ثلاثين وستمائة.

وجرى ذكر المأمون والمهدى وأوّليّتهم فى الرجز المتضمن ذكر بالمسلمة[5] من نَظْمى بما نصه بعد ذكر الدولة اللّمتونية:

ونَجَمَ المهدى وهو الدّاهية   فأصبحت تلك المبانى واهية
واستحكمَ الأمرُ له واجمعا   فى خبر نذكر منه لُمَعَا

(١) فى المخطوطين: من.
(٢) هكذا فى «ج». وفى «ك»: أم ربيع.
(٣) فى «ك»: خنقه.
(٤) وردت فى المخطوطين: عواد. وفى الملكية عوايد. وهو تحريف.
(٥) هو كتاب ابن الخطيب: «رقم الحلل فى نظم الدول» الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة.

لم يأل فيها أن دعا لنفسه ‏ ‏ وكان فى الحزم فريد جِنْسه
أغرَب فى ناموسه ومذهبه ‏ ‏ وفى الذى سَطّره من نسبه
وعنده سياسةٌ وعلمٌ ‏ ‏ وجرأةٌ وكرم وحلمُ [١]
ووافقت أيامُه فى الناس ‏ ‏ لدولة المسْترشِد العبَّاسى
ثم انقضت أيامُه المُنيفَة ‏ ‏ وكان عبدَ المُؤْمن الخليفة
فضاء لونُ سَعْدِه ووضحا ‏ ‏ ولاح مثل الشمس فى وقت الضُّحى
ثم تِلِمْسان وفاساً فتحا ‏ ‏ ومُلْك أصحاب اللثام [٢] قد محا

ولما انتهى القول إلى المأمون المترجم به ، بعد ذكر من يليه وعبد المؤمن [٣] جده ، قلت :

ثم تولى أمرهم أبو العَلا ‏ ‏ فسلَّط البيض على بيض الطُّلا
وهو الذى أركب جيش الروم ‏ ‏ وجدّ فى إزالة الرسوم

أسباط بن جعفر بن سليمان بن أيوب بن سعد السعدى سعد بن بكر بن عفان الإلبيرى

هذا هو جدُّه سعيد بن جُودى ، بن سَوادة ، بن جُودى ، بن أَسْباط ، أمير المغرب . وقدرهم بهذه المدينة شهير .

حاله

وكان من أهل العلم والفقه ، والدين المتين ، والورع الشديد ، والصلاح الشهير .

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » وحزم .
(٢) هم المرابطون أو الملثمون كما تقدم .
(٣) وردت فى « ك » . وعبد الرحمن وهو سهو ناسخ .

نباهتـــه

ولاه الأمير عبد الرحمن قضاء إلبيرة حين بلغه زهده وورعه ؛ وأنّه لم يَشْرك إخوته فى شىء من ميراث أبيه ، إذ كان لم يحْضُر الفَتْح ، فبرئ به إليهم ؛ وابتاع مَوْئلاً بوطنه أنيط به ماله ، وانفرد به للعبادة والتبتُّل . فاستَقْدَمه هشامُ ؛ فركب حماره وقدم عليه فى هيئة رثّة بذلة ، فتوسَّم فيه الخير ، وقدّمه ووسّع له فى الرِّزق ، ووهب له ضياعاً كثيرة ، تُعرف اليوم باسمه ؛ وتُوفى هشام وهو قاض بإلبيرة ، فأقرّه ابنه الحكم ثم ولاّه شُرطته ، إلى أن توفى أسباط ؛ قلت ، انظر حال الشرطة عند الخلفاء مَنْ كان يُختار لها لولايتها[1] .

أسلم بن عبد العزيز بن هشام بن خالد بن عيد الله بن خالد

ابن حسين بن جعفر بن أسلم بن أبان

مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ يكُنى أبا الجَعْد .

أوّليته

من أهل شرق الأندلس ، أصلهم من لَوْشة كَفتِيَّة غرْناطة[2] وموضعهم بها معروف ، وإلى جدهم يُنْسب جبل أبى خالد المُطل عليها ، وكان لهم ظهور هنالك ، وفيهم أعلام وفضلاء .

---

(١) وردت فى المخطوطين : لولاية .

(٢) لوشة هى بلد ابن الخطيب . وقد سبق التعريف بها فى المقدمة . وكان ابن الخطيب يسميها « بنت غرناطة » و« فتية غرناطة » اعتزازاً بها .

حـــاله

كان أسلَمَ من خيار أهل إلبيرة ، شريف البيب ، كريم الأبُوة ، من كبار أهل العلم ، وكانت فيه دُعابة ، لم يُنسب إليه قط بسببها خِزْية[١] فى دين ولا زَلَّة . قال أبو الفضل عِياض[٢] ؛ كان أسلم من خيار أهل إلبيرة ، رفيعُ الدرجة فى العلم ، وعلوّ الهمة فى الإدراك ، والرواية والدِّيانة ، والصُّحبة ، وبُعد الرِّحلة فى طلب العلم ، معروف النَّصيحة والإخلاص للأُمراء .

مشيختـه

لقِىَ بمصر ، المدنى ، ومحمد بن عبد الحَكَم ، ويونس ، والربيع بن سليمان المؤذن ، وأحمد بن عبد الرحيم البرْقى . وسمع من على بن عبد العزيز ، وسليمان ابن عمران بالقيْرُوان .

« من روى عنه » ؛ سمع منه عثمان بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن يونس ، ومحمد بن قاسم ، وغير واحد ؛ وانصرف إلى الأندلس من رحلته ، فنال الوجاهة العظيمة .

ولايتـــــه

ولاّه قضاء الجماعة[٣] بغرناطة ، الناصرُ لدين الله ، أول ولايته ، وسط[٤] سنة ثلاثمائة ، إلى أن استعفى سنة تسع وثلاثمائة فأعفاه ، ثم أعاده . وكان فى قضائه

---

(١) هكذا فى « ح » . وفى « ك » : مرية .

(٢) هو فقيه المغرب الكبير ، الحافظ عياض بن موسى اليحصبى السبتى المتوفى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) . وقد كتب عنه المقرى كتابه الضخم « أزهار الرياض فى أخبار عياض » وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد .

(٣) قضاء الجماعة أعنى رياسة القضاء العليا . أو منصب قاضى القضاة .

(٤) هذه الكلمة واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

صارماً لاهوادة عنده . قال المؤرخ : كان الناصر يستخلفه فى سطح القصر إذا خرج إلى مغازيه . وحكى ابن حارث ، أن ابن معاذ وابن صالح أتيا يوماً ، فلمّا أخذا مجلسهما نظر إليهما ، وقال ألقُوا[١] ما أنتم مُلقون فأبْهتهُما . ودخل عليه محمد بن وليد يوماً ، فكلمه فى شىء ، فقال أسلم سمعنا وعَصينا ، فقال ابن وليد ونحن قلنا واحتسْبنا . وأتاه فى بعض مجالسه شهود ، بعضهم من أهل المدينة بقرطبة ، وبعضهم من شُلار من الرَّبَض الشرقى ، يشهدون فى تَرْشيد امرأة من الرَّبض الغربى ، فلما أخذوا مجالسهم ، فتح باب الخوخة التى فى المجلس الذى يجلس بدهليزه ، ونادى من بخارجه فاجتمعوا ، اسمعوا عجباً[٢] لله دَرُّ الشاعر حيث يقول :

راحت مُشَرِّقة ورُحت مغرِّبا   شتَّـان بين مُشرِّق ومغرِّب

هؤلاء من أهل المدينة وشُلار ، يشهدون فى ترشيد امرأة[٣] من ساكنات آخر بلاط مُغيث ، ثم سكت فدهِش القوم وتسللوا[٤] . وبلغه عن بعض الشهود المتهمين أنه أُرْشى فى شهادته ببساط ، فلما أتى ليؤديها ، ودخل على أسلم ، جعل يخلع نعليه عند المشى على بساط القاضى ، فناداه أبا فلان البِساط ، الله الله ؛ فتنبه بأن أمرَه عند القاضى ، ولم يجسر على أداء شهادته تلك . وخاصم فقيهٌ عند أسلم رجلاً فى خادم أغربها[٥] ، وجاء بشاهد أتى به من إشبيلية ؛ فقال ياقاضى هذا شاهدى فاسمع منه ، فصعَّد أسلم فى الشاهد وصوّب ، وقال أمحتسبٌ[٦] أو مكتسبٌ[٧] أصلحك الله ؛ فقال الشاهد أحْسِن الظن أيها القاضى ، فليس هذا إليك ، هذا إلى الله المُطَّلع على

---

(١) وردت فى المخطوطين : أقوا . وهو تحريف .
(٢) فى المخطوطين : عجباً .
(٣) وردت فى المخطوطين : امرأتين .
(٤) وردت فى المخطوطن : وتسلا .
(٥) وردت فى المخطوطين : أعربها .
(٦) محتسب أى مدخر أجره عند الله .
(٧) وردت فى المخطوطين : مستكب . وهو تحريف ظاهر .

ما فى القلوب ، ولم تقعد هذا المقعد لتسأل عن هذا وشَبَهَه ، وإنما عليك الظاهر ، وتَـكِلُ الباطن إلى الله ، فإن شئت ، فاسمع الشهادة كما يلزمنى أداؤها ، ثم اقبلها أو اضرب بها الحائط . وفى رواية أخرى، وليس لك أن تـكشف السِّتر المُنسَدل بينك وبينى ، فإن هذا التفسير للشهود يوقِف عن الشهادة عندك ، ويعرِّضُ لإهانتك أهلَ لائقةٍ ، وفى ذلك من ضياع الحقوق مالا يخفى ؛ فأخجل أسلم كلامُه ؛ وقال له ، لك ما قلت . فأدِّ شهادتك يرحمك الله . قال ، فأين الخادم تحضر حتى أشهد على عينها ، قال أسْلَمَ وفقيهٌ أيضاً ؟ هاتوا الخادم ، فجاءت من عند الأمين ، فلما مَثُلَت بين يديه ، نظر منها مليًّا ، ثم قال ، أعرفُ هذه[1] الخادم ملـكا لهذا الرجل ، لا أعرِف مِلْـكه زال عنها بوجه من الوجوه ، إلى حين شهادتى هذه ، سلامٌ على القاضى ؛ ثم خرج ، فبقى أسلم متعجباً منه .

محنتــــه

كُفَّ بصره فى أخريات أيامه ، فطلب لأجل ذلك الإعفاء فأعفى ، ولزم بيته صابراً مُحْتَسِباً إلى حين وفاته .

مولده : سنة إحدى وثلاثين ومائتين .

أسد بن الفرات بن بشر بن أسد المرّى

من أهل قرية الصِير مورّته من إقليم البساط[2] من قرى غرناطة .

---

(١) وردت فى المخطوطين هذا .

(٢) وردت فى المخطوطين والملكية : الطين مورته . وهو تحريف . وقرية الصير مورته هى قرية Sierra Murada الحديثة وتقع على مقربة من غرناطة . هذا وتوجد فى نسبة أسد بن الفرات ومولده رواية أخرى ، هى أنه أسد بن الفرات بن سنان ، وأنه من أهل نيسابور ، وولد بحران سنة ١٤٢ هـ وقدم مع أبيه طفلا إلى إفريقية (راجع الحلة السيراء لابن الأبار (١٩٦٤) ج ٢ ص ٣٨٠ .

حـاله

كان عظيم القَدْر والشرف والشهرة ، أصيل المعرفة والدين .

مشيخته

خرج إلى المشرق ، ولقى مالك بن أَنَس رضى الله عنه ؛ وروى عنه سُحنون ابن سعيد .

تآليفـــه

ألف كتاب « المختلطة » ، وولى القضاء بالقيْروان أجمل ما كانت وأكثر علماً ، وولاه زيادة الله[1] غزو صقلية ؛ ففتحها وأبلى بلاء حسناً .

وفاته[2]

توفى رحمه الله محاصراً [سَرَقوسَة][3] منها سنة ثلاث عشر ومائتين .هذا ما وقع فى كتاب أبى القاسم اللاّحى . وذكره عياض فذكر خلافاً فى اسمه وفى أوّليته .

---

(١) زيادة الله بن الأغلب أمير إفريقية (تونس) من سنة ٢٠١ — ٢٢٣ ﻫ (٨١٦ — ٨٣٨ م)

(٢) ساقطة فى المخطوطين .

(٣) وردت « سرقسطة » فى المخطوطات الأربعة . فإما أن يكون الناسخ قد حرف الاسم الحقيقى وإما أن يكون ابن الخطيب ومن نقل عنهم ،قد أخطأوا فى ذكر هذا الاسم . ذلك أن المدينة التى توفى أسد بن الفرات وهو محاصر لها هى ثغر « سرقوسة » Syracusa الواقع جنوب شرق صقلية . أما سرقسطة فهى المدينة الأندلسية المعروفة وقد كانت قاعدة الثغر الأعلى ، وتقع فى شمال اسبانيا وسط ولاية أراجون الحديثة .

أبو بكر المخزومى الأعمى المورورى [المُدوَّرى][1]

حـالـه

كان أعمى ، شديد القِحَة والشَّر ، معروفاً بالهجاء ، مُسَلَّطاً على الأعراض ، سريع الجواب ، ذكى الذهن ، فطناً للمعاريض ، سابقاً فى ديوان الهجاء ، فإذا مدح ضعف شعره .

دخوله غرناطة

وذكر شىء من شعره ، ومهاترته مع[2] نزهون بنت القلاعى .

قال أبو الحسن بن سعيد ، فى كتابه المسمى « بالطالع السعيد » ، قدم على غرناطة أيام ولاية أبى بكر بن سعيد عمل[3] غَرْناطة ، ونزل قريباً منه[4] ، وكان يسمع به ، فقال صاعقةٌ يرسلها الله عز وجلّ على من يشاء من عباده ، ثم رأى أن يبدأه بالتأنيس والإحسان ، فاستدعاه بهذه الأبيات :

يا ثانيــــا للمَعَرِّى　　فى حُسن نظمٍ ونَثْرِ
وفَرْط ظَرْف ونُبْلٍ　　وغَوْص فهم وفِــكْرِ

---

(١) وردت هذه الكلمة فى هامش «ج» مضافة إلى « المورورى » . والمورورى نسبة إلى مورور وقد سبق التعريف بها (ص ٤٠١) . والمدورى نسبة إلى بلدة المدور . وقد نسب ابن سعيد ، أبا بكر المخزومى إليها (راجع المغرب ج ١ ص ٢٢٣). والمدور وبالإسبانية Almodovar بلدة أندلسية تقع شمال شرقى قرطبة على مقربة من المدينة الملكية Ciubad Real الحديثة .

(٢) وردت فى المخطوطين كلمة (الأسم) قبل اسم نزهون . ولم نهتد إلى علة وجودها فحذفناها .

(٣) هكذا فى « ج » وفى « ك » : على . والمقصود هنا « ولاية غرناطة » .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى « ك » والملكية .

صل ثم واصل حَفِيًّا بكل شكر وبرٍّ
وليس إلا حديث كما زها عِقد دُرٍّ
وشَادنٌ قد تغنى على ربابٍ وزَمْرِ
وما يسامح فيه الغفور من كأس خَمْرِ
وبيننا عَقدُ حِلْفٍ لِبانُ شِرْكٍ وكُفْرِ
فَقُم نجدِّده عهداً بطيب شُكر وسُكر
والكأسُ مثلُ رَضاع ومن كَمِثْلِكَ يدرى[1]

ووجّه له الوزير [أبو بكر بن سعيد][2] عبداً صغيراً قاده . فلما استقر به المجلس ، وأفعمته روائح النَّد والعود والأزهار ، وهزّت عِطفه الأوتار ، قال :

دارُ السُّعَيدىّ ذِى أم دارُ رِضوان ما تشتهى النفسُ فيها حاضرٌ دانِ
سقت أبارقها للند سُحب ندًى تحدو برعد لأوتارٍ وألحانِ
والبرقُ من كل دَنٍّ ساكبٌ مَطَرا يحيي[3] به مَيْتَ أفكار وأشجان
هذا النعيم الذى كنا نُحدَّثه ولا سبيل له إلا بآذانِ

فقال أبو بكر بن سعيد « ولا سبيل له إلا بآذان » ؛ فقال [حتى][4] يبعث [الله][5] ولدَ زنا كما أنشدتُ هذه الأبيات ؛ قال : وإن قائلها أعمى ، فقال : أما أنا فلا أنْقى بحرف فى ذلك . فقال من صَمَت نجا . وكانت نزهون بنت القلاعى الآتى ذكرها[6] حاضرة ، فقالت ونراك[7] يا أستاذ قديم النعمة ، بندٍّ وغناء وطيب

---

(١) كتبت هذه الأبيات فى المخطوطين كل منها شطرة واحدة يكملها بيت آخر .
(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى « ت » وساقط فى المخطوطين .
(٣) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .
(٤) هذا فى « ج » . وفى « ك » يحدا .
(٥) هاتان الكلمتان أغفلتا فى المخطوطين . والتكملة من « ت » .
(٦) فى المخطوطين : الآتية .
(٧) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : وزيك .

شراب ، تتعجب من تأتِّيه ، وتشبهه بنعيم الجنة ، وتقول ما كان يلم إلا بالسماع ، ولا يُبلغ إليه إلا بالعِيان ؛ لكن من يجىء من حصن المُدَوَّر ، وينشأ بين تُيوس وبَقَر ، من أين له معرفةٌ بمجالس النِّعَم . فلما استوفت كلامها تنَحنح الأعمى ، فقالت له دعه ، فقال من هذه الفاعلة ؟ فقالت عجوز مقام أمك ، فقال كَذَبْتِ ما هذا صوت عجوز ، إنما هذه نغمة قَحْبة محترقة تُشَمُّ روائح كذا منها على فرسخ ؛ فقال له أبو بكر : يا أستاذ هذه نزهون بنت القلاعى الشّاعرة الأديبة ، فقال سمعت بها لا أسْمَعَها الله خيراً ، ولا أراها إلا[1] . . . فقالت له يا شيخَ سوءٍ تناقَضْتَ ، وأى خير أفضل للمرأة ؟ ففكر المخزومى ساعة ثم قال :

على وَجْه نزهون من الحسن مَسْحة وإن كان قد أمسى من الضوء عاريا
قواصدُ نزهون تُدَارِك غيرها ومن قَصَد البحر استقل السوّاقيا

فأعملت فكرها وقالت :

قل للوضيع مقالاً يُتلى إلى حين يحشر
منَ المدوَّر أُنشئت والخرا منه أعْطَر
حيثُ البداوة أمْسَت فى أهلها[2] تتَبَخْتر
لذلك أمسيتَ صبًّا بكل شىء مدوَّر[3]
خُلقتَ أعمى ولكن تهيمُ فى كل أعْوَر
جازيتُ شعراً بشعر[4] فقل لعَمرى من أشْعَر
إن كنتُ فى الخَلق أنثى فإنّ شِعْرى مُذَكَّر

---

(١) كلمة زائدة وردت فى « ب » والملكة ورأينا حذفها .

(٢) هكذا فى المخطوطين : وفى « النفح » : مشيها . وفى « المغرب » : جهلها .

(٣) هكذا ورد هذا البيت فى المخطوطين . وورد فى المغرب كالآتى (لذلك أمسيت تهوى : حلول كل مدور) .

(٤) فى المغرب : « جاوبت هجوا بهجو »

فقال لها أسمعى :

ألا قل لنزهونة ما لها　　تجرُّ من التّيـه أذيالهـا
ولو أبصرت بَشّةً[١] شمرت　　كما عودتنى سِربالهـا

فحَلف أبو بكر بن سعيد ألا[٢] يزيد أحدهما على الآخر فى هَجْوه كلمة ؛ فقال المخزومى أكونُ هجّاء الأندلس وأكفُّ عنها دون شىء ؛ فقال أنا أشترى منك عرضَها فاطلب ، فقال بالعَبْد الذى أرسلته فقادنى إلى منزلك ، فإنه لينُ القدِّ رقيق الملمس . فقال أبو بكر لولا أنه صغير كنت أبلّغك فيه مرادك ، وأهبه لك ؛ ففطن لقصده ، وقال أصْبِرُ عليه ، حتى يكبرُ ، ولو كان كبيراً ما آثرتنى على نفسك ؛ فضحك أبو بكر وقال قد هَجوتَ نثراً ، وإن لم تَهْجُ نظماً ؛ فقال أيها الوزير ، لاتبديل لخَلْقِ الله ؛ وانفَصَل المخزومى بالعَبْد بعد ما أصلح بينه وبين نزهون .

وقال يمدح القاضى بغرناطة أبا الحسن بن أضحى رحمهما الله :

عجباً للزمان يطلب هَضْمى　　وملاذى منه علىُّ بن أضحى
جاره قد سما على النَّطح عزًّا　　ليس يخشى من حادث الدهر نَطْحا
فكأنى [علوْتُ][٣] قرن [فلان]　　أى تَيْس مُطول القرن ألْحَـا

فقال له ابن أضحى ، هلا اقتصرت على ما أنت بسبيله ، فكم تقع فى الناس ؛ فقال أنا أعمى وهم حُفَرٌ فلا أزال أقَعُ فيها ، فقال فأعجبنى كلامه على قُبْحه . وحديث مُقامِه بغرناطة يقتضى طويلا .

وفاته

قال أبو القاسم بن خلف ، كان حيًّا بعد الأربعين وخمسمائة .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين والملكية : وفى المغرب : فيشة .

(٢) فى «ك» : أن لا .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين و«الملكية» . والتكملة من المغرب (ص ٢٢٥) .

أصْبَغ بن محمد بن الشيخ المهدى

يُكنى أبا القاسم ، عالم مشهور ،

حـــاله

كان محقِّقاً بعِلْم العَدَد والهندسة ، مقدَّماً فى علم الهيئة والفلك وعلم النجوم ، وكانت له مع ذلك عناية بالطِّب .

توآليفه

تواليفه حسان ، وموضوعاته مفيدة ، منها كتاب « المَدْخل إلى الهندسة » فى تفسير كتاب إقليدس . ومنها كتاب ثمار العدد المعروف « بالمعاملات » . ومنها كتابه الكبير فى الهندسة تقصّى فيه أجزاءها . ومنها كتاب[١] فى الآلة المعروفة بالأسطُرلاب . ومنها تاريخه الذى ألّفه وهو تاريخ كبير .

وفـاته

قال ابن جَماعة فى تاريخه ، أخبرنى أبو مروان[٢] ، سليمان بن عيسى الناشى المهندس ، أنه توفى بمدينة غرناطة قاعدة الأمير حبُّوس ليلة الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت لرجب سنة ست وعشرين وأربعمائة ، وهو ابن ست وخمسين سنة[٣] شمسية[٤] . وعدّه من مفاخر الأندلس .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : كتابان .

(٢) وردت بعدها فى المخطوطين كلمة : (أن) . ولعلها تحريف تكرار للحرفين الأخيرين من كلمة (مروان) . أو أصلها (بن) . وقد رأينا حذفها .

(٣) وردت فى « الملكية » خمس وستين .

(٤) وردت فى المخطوطين : شمية . ونرجح التصويب .

أبو على بن هدية

من أهل غرناطة .

حـــاله

قال أبو القاسم المَلَّاحى فيه : من أهل الدين ، والفضل ، والأمانة ، والعدالة ، والمعرفة بالتكسير والأعمال السلطانية ، ووُلّى « المُسْتَخلَص »[١] بغرناطة ، فنقّب وأجاد النظر. قال ابن الصَّيرفى : ولما وُلى الوزير أبو على بن هديَّة المستخلص، وباشر جلائل الأمور ودقائقها بنفسه ، حَمَى المناصِفين ، ورفع المؤن والكُلَف[٢] عنهم ، ووسعَ بسَليف البذر[٣] عليهم ، وآثرهم بالنَّصَفَة بالتزام حصَّة بيت المال ؛ ولم يكن له حُجّاب ولا بوّاب ، فكان القوىُّ والضعيفُ ، والمشروف والشريف ، والكبير والصغير ، والرجل والمرأة ، شرعاً سواء فى الوصول إليه ، والتكلم فى مجلسه ، فلم يُهتَضم جانب، ولا دُحِضت حجة ؛ إلا أنه ارتفعت الرِّقْبة ، وزالت الهَيْبة ، وأُمحِق نور الخُطَّة ؛ وخصّ أحباس[٤] جامع غرناطة بنَظَره ، بفضل مال كثير من غلّته[٥] ؛ ونُبه باجتماعه ليزيد به بلاطين فى مَسقفه من شرقه وغربه ، فأكمل الله ذلك بسعيه وعلى يديه ؛ ورام رَبْع المسْتَخلص ، وزاد به فى حمَّاماته ؛ ورَمّ[٦] حوانيته ، واستحدث منيحة[٧] سمَّاها المُسْتَحدثة. وغرس قضبان الجوْز فى مواضع

---

(١) أنظر الحاشية فى ص ١١٦ .

(٢) وردت فى المخطوطين : الكف .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : الزرع .

(٤) الأحباس هى ما يحبس لأغراض الخير ، وهى الأوقاف .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : خلته .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » وردم . والأولى أرجح .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين والملكية .

المياه ، وعوّض بما ذهب ، وشمّر فى جمع المال ، ووالى الحفْز على العمل ، ونصح بمقتضى جُهده ، ومنتهى وُسْعه ، ولم تُمد يدُه فى مصانعة ، ولامالت إلى مُداخلة ، ولـكنه لم يُحمل فى حق ولا نُوقِش فى باطل .

أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطّنْجالى

من أهل لَوْشَة .

نبيلةٌ حَسِيبةٌ ، تُجيد قراءة القرآن ، وتشارك فى فنون من الطَّلب ، من مبادىء غريبة ، وخلف وإقراء مسائل الطّب ، وتنظم أبياتاً من الشعر . وذكرتها [فى][1] خاتمة « الإكليل »[2] بما نصه : « ثالثة حَمْدَة وولّادة ، وفاضلة الأدب والمَجادة ، تقلدت المحاسن من قبل ولّادة ، وأولدت أبكار الأفكار قبل سِنِّ الوِلادة . نشأت فى حِجر أبيها ، لايدخر عنها تدريجاً ولا سهماً ، حتى نهض إدراكُها وظهر فى المعرفة حِراكها ، ودرّسها الطبَّ ففهمت أغراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه » . وفى ذكر شعرها :

« ولما قَدِم أبوها من المغرب ، وحَدّث بخبرها المُغرب ، توجه بعض الصدور إلى اختبارها ، ومطالعة أخبارها ، فاستنبل أغراضها واستحسنها ، واستطرف[3] لَسْنها ، وسألها عن الخط ، وهو أكسدُ بضاعة جُلبت ، وأشَحُّ درَّة حُلبت . فأنشدَته من نظمها :

(١) ساقطة فى المخطوطين .

(٢) هو كتاب ابن الخطيب المسمى : « الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم الجواهر » . وقد سبق التعريف به فى المقدمة .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : واستطرب . والمؤدى واحد .

الخطُّ ليس له فى العلم فائدة   وإنما هو تَزْيينٌ بقرطاس
والدرس سؤلى لا أبغى به بدلاً   بقَدْر علم الفَتى يَسْمو على الناس

وراجعها بعض المجّان(١) يغفر الله له :

إن فرط الدرس ياأمى(٢) سحق(٣)   وهذا هو المشهور فى الناس
فخذ من الدرس شيئاً تافها   خطا وبالفهم يحيي كل الناس

ومن شعرها فى غرض المدح :

إن قيل من الناس ربُّ فضيلةٍ   حاز العلا والمجد منه أصيلُ
فأقول رضْوانُ وحيدُ زمانٍ   إن الزمان بمثـله لَبَخيلُ

بُلُكِّين(٤) بن باديس بن حبُّوس بن ماكْسَنْ بن زيرى بن مناد الصّنْهاجى

الأمير الملقب بسيف الدولة ، صاحب أمر والده والمرشح للولاية بعده .

حـاله

قال المؤرخ : كان زيرى بن مناد ، ممن ظهر فى حرب ابن يزيد بإفريقية ، واتّسم هو وقومه بطاعة العُبَيْديين أمراء الشيعة ، فكانوا حرباً لأضدادهم من زَناتة

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : المجاز .
(٢) فى المخطوطين : يا أملى .
(٣) فى المخطوطين : سحقا .
(٤) ترسم دائما فى المخطوطين بالقاف : (بلقين) . وقد سبق أن أوضحنا حكمة التعديل (راجع الحاشية فى ص ٢٦١) .

الموالين لأملاك المَرَاونه[١] لنحقق جدِّهم خَزَر[٢] بولايته عثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ فلما صار الأمر إلى بنى مَناد بعد انتقال مُلك الشيعة إلى المشرق ، وولى الأمر باديس بن منصور بن بُلُكِّين بن زيرى ، ذهب أعمامه وأعمام أبيه إلى استضعافه ، فلم يُعطهم ذلك من نفسه ، ووقعت بينهم الحرب التى قتل فيها عم أبيه ماكْسَن بن زيرى ، فرهب[٣] الباقون منهم صولة باديس ، وخافوا عاديته على أنفسهم ، على صغر سنِّه ، فخاطب شيخُ بيته يومئذ زاوى بن زيرى ومعه أبناء أخيه ، المُظَفَّر ابن أبى عامر ليجوز إليه إلى الأندلس رغبة فى الجهاد ، فألفى همَّه بعيدة ، وملكاً شامخاً ، ينهب إلى استخدام الأشراف واصطناع الملوك ، فأذن فى ذلك ، فدخل منهم جماعةٌ الأندلس مع أميرهم زاوى بن زيرى ، ومعه أبناء أخيه حُباسة وحَبُّوس وماكْسَنْ ، فأنزلهم المظفَّر وأكرمهم ، إلا أنهم كابدوا مشقة من دهرهم الذى أصارهم يخدمون بأبواب الملوك من أعدائهم غيرهم ؛ فلما انهدمت الإمامةُ ، وانشقَّت عصا الجماعة ، سعَوا فى الفتنة سعى غيرهم ، من سائر قبائل البرابرة[٤] ، عند تشديد أهل الأندلس للبربر ، وانحازوا عند ظهورهم على أهل الأندلس ، بملوك بنى حَمُّود[٥] ، إلى بلاد تضمهم ، فانحازت صَنهاجة مع شيخهم ورئيسهم زاوى بن زيرى إلى مدينة غرناطة . ثم آثر زاوى العودة إلى وطنه إفريقية ، فخرج عن الأندلس حسبما يتفسر فى موضعه . والتفَّ قومهُ على ابن أخيه حبُّوس بن ماكْسَن ، فى جماعة عظيمة تحمى حَوْزته ، وأقام بها مُلكاً ، وغلب على ما اتصل بمدينته من الكور ، فتملَّك قَبْرة وجيَّان[٦] ، واتسع نظره ، وحَمَى وطنه ورعيَّته ممن جاوره من البرابر ؛ وكان

---

(١) المراونة أعنى بنى مروان أو الأمويين خلفاء الأندلس. (٢) هكذا فى «ك». وفى «ج» خوز .

(٣) وردت فى المخطوطين : فذهب . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٤) هكذا فى «ك» وفى «ج» . ويجرى ابن الخطيب على ذكر «البربر» بلفظ البرابرة . والبرابر . (٥) وردت فى المخطوطين : بنى حميد . وهو تحريف .

(٦) حيان Jaen سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١٨٨) . وتقع قبرة Cabra جنوب جيان وقد سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١١١) .

داهية شجاعاً ، فدامت رياسته ، واتصل ملكه ، إلى أن هلك . فولى بعده ابنه باديس ، وسيأتى التعريف به ؛ وولد له ابنه بُلُكِّين هذا المترجم به ، فرشحه إلى ملكه ، وأخذ له بيعة قومه ، وأهّله[1] للأمر من بعده . قال المؤرخ : ونشأ لباديس ابن حبّوس ، ولدٌ اسمهُ بُلُكِّين ، وكان عاقلاً نبيلاً ، فرشحه للأمر من بعده ؛ وسمّاه سيف الدولة ؛ وقال : وُلّى مالَقَة فى حياة أبيه ، وكان نبيلاً جليلاً ؛ ووقفْتُ على كتاب بخطه نصه بعد البسملة :

« هذا ما التزمه واعتقد العمل به ، بُلُكِّين بن باديس ، للوزير القاضى أبى عبد الله بن الحسن الُجذامى[2] سلّمه الله . اعتقد به إقراره على خُطّة الوزارة ، والقضاء فى جميع كُوَره ، وأن يجرى من الترفيع والإكرام له ، إلى أقصى غاية ، وأن يُحمل على الجراية فى جميع أملاكه بالكُوَر المذكورة ، حاضرتها وباديتها ، الموروثة منها ، والمكتسبة ، القديمة الاكتساب والحديثة ؛ وما ابتاع منها من العالى[3] رحمه الله وغيره ، لا يلزمها وظيفٌ بوجه ، ولا يُكلّف منها كُلفَة ، على كل حال ، وأن يجرى فى قرابته ، وخَوَله وحاشيته وعامرى ضيعه ، على المحافظة والبرّ والُحرية . وأقسم على ذلك كله بُلُكِّين بن باديس بالله العظيم ، والقرآن الحكيم ؛ وأشهد الله على نفسه وعلى التزامه له ، وكفى بالله شهيداً . وكُتب بخط يده مستهل شهر رمضان العظيم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، والله المُستعان » .

ولا شك أن هذا المقدار يدل على نبل ، ويعرف عن كفاية .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وملكه . والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . ووردت محرفة فى « ك » : الحراص .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : المعالى . و« العالى » هو خليفة الأندلس إدريس ابن يحيى المعتلى من بنى حمود ، وقد حكم غرناطة وقرمونة ولقب بالعالى . وخلع سنة ٤٣٨ ﻫ بعد أربع سنين من حكمه .

سبب وفاته

قال صاحب البيان المغرب وغيره: وأمضى باديسُ كاتب أبيه ووزيرَه إسماعيل ابن نغرالة[١] اليهودى على وزارته وكتابته وسائر أعماله، ورفعه فوق كل منزلة؛ وكان لولده بلُكِّين، خاصة من المسلمين يخدمونه، وكان مُبْغِضاً فى اليهودى، فبلغه أنه تكلم فى ذلك لأبيه، فبلغ منه كلَّ مَبْلغ؛ فدبر[٢] الحيلة، فذكروا أنه دخل عليه يوماً فقَبَّل الأرض بين يديه، فقال له الغلام: ولم ذلك؛ فقال: يرغب العبد أن تدخل داره مع من أحْبَبْتَ من عبيدك ورجالك؛ فدخل إليه بعد ذلك، فقدم له ولرجاله طعاماً وشراباً، ثم جعل السُّم فى الكأْس لابن باديس، فرام القىءَ[٣]، فلم يقدر عليه، فحمل إلى قصره وقضى نحبه فى يومه؛ وبلغ الخبر إلى أبيه ولم يعلم السبب، فقرر اليهودىُّ عنده أن أصحابه وبعض جواريه سمُّوه. فقتَل باديس جوارى ولده، ومن فتيانه وبنى عمّه [جماعة كبيرة][٤]، وخافه[٥] سائرهم ففرّوا عنه. وكانت وفاته سنة ست وخمسين وأربعمائة. وبعده قتل اليهودى فى سنة [تسع وخمسين][٦].

---

(١) وردت فى المخطوطين: (ابن نعراله). ويسميه ابن بسام فى الذخيرة: ابن النغريلى: (ج ١ – ٢ ص ٢٦٥). وورد فى البيان المغرب: ابن نغزاله (ج ٣ ص ٢٦٤). والتسمية الأولى أرجح.

(٢) هكذا وردت فى «ج». وفى «ك»: فدفن.

(٣) وردت فى «ك»: القبر. وفى «ج» وردت اللفظة غير واضحة: الفل أو البل. والتصويب من البيان المغرب.

(٤) هذه الزيادة من البيان المغرب وهى لازمة للسياق.

(٥) وردت فى المخطوطين: وخافوه. وهو رسم خاطىء. وكثيراً ما يرد الفعل بالجمع قبل الفاعل فى المخطوطات المغربية.

(٦) وردت فى «ك» ثمان. وفى «ج» والملكية ثمانين. وهو خطأ اقتضى التصويب وفقاً لما يرد بعد فى الفصل الذى عنوانه: «ذكر مقتل اليهودى يوسف بن إسماعيل ...»

باديس بن حبُّوس بن ماكْسَن بن زيرى ابن مَناد الصِّنهاجى

كنيته أبو مَناد ، ولقبه الحاجب المُظفَّر بالله ، الناصر لدين الله .

أوَّليَّته

قد تقدم الإلْماع بذلك عند ذكر ابنه بُلُكِّين .

حاله

كان رئيساً يَبِساً ، طاغيةً ، جباراً ، شجاعاً ، داهية ، حازماً ، جَلْداً ، شديد الأمر ، سديد الرأى ، بعيد الهمة ، مأثور الإقدام، شَره السيف ، وارى زناد[1] الشرّ ، جمّاعة للمال ؛ ضخُمت به الدولة ، ونبُهت الألقاب ، وأمنت لحمايته[2] الرعايا ، وطمَّ تحت جناح سيفه العُمران ، واتسع بطاعته المُرهبة الجوانب بيأسه النظر ، وانفسخ المُلْك ، وكان ميمون الطائر ، مُطْمَ الظفَر[3] ، مصنوعاً له فى الأعداء ، يقنع أقتاله[4] بسلمه ، ولا يطمع أعداؤه فى حربه . قال ابن عسكر : يكنى أبا مسعود ، وكان من أهل الحزم وحماية الجانب ، وكان يخطب ويدعو للعَلَويِّين بمالقه ، فلما توفى إدريس بن يحيى العالى ، ملك مالقة سنة ثمان وأربعين وأربعمائة .

---

(١) وردت فى المخطوطين بزناد .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» : لحميته .

(٣) أعنى كثير الظفر .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» : أمثاله .

وقال الفتح فى قلائده[(١)] : « كان باديس بن حبوس بغرناطة[(٢)] عاثياً[(٣)] فى فريقه ، عادلاً عن سُنن العدل وطريقه ؛ يجترئ على الله غير مراقب ، ويُسرى إلى ما شاء [غير ملتفت][(٤)] للعواقب ؛ قد حجّب سنانُه لسانَه ، وسبقت إساءته إحسانَه ؛ [ناهيك][(٥)] من رجل لم يَبتْ من ذنبٍ على ندَم ، ولم يشرب الماء إلا من قُليب دَم ؛ أحزم[(٦)] من كاد ومكر ، وأجرم[(٧)] من راح وابتكر ؛ وما زال متّقداً[(٨)] فى مناحيه ، متفقداً لنواحيه ، لا يرام بريْث ولا عجَل ، ولا يبيت له جار إلا على وَجَل » .

أخباره فى وقائعه

يُنظر إيقاعه بزُهير[(٩)] العامرى ومن معه فى اسم زُهَير ، [فقد ثبت منه هنالك][(١٠)] نبذة . وإيقاعه بجيش ابن عبّاد بمالقة عندما طرق مالقة وتملّكها ، واستَصْرخ من استمسك بقصبَتها من أساودتها . وغير ذلك مما هو معلوم . وشهرته مغنية عن الإطالة.

ومن أخباره فى الجبرية والقسوة . قال ابن حيّان ، عندما استوْعب الفتْكة بأبى نصر بن أبى نور اليفرنى[(١١)] أمير رُنْدة المنتزى[(١٢)] بها وقتله ، ورجوعها إلى ابن عباد ؛

(١) هو كتاب : « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان .
(٢) فى المخطوطين : غرناطة . والتصويب من « القلائد » .
(٣) هذا فى القلائد . وفى المخطوطين والملكية عابثاً .
(٤) وردت فى المخطوطين والملكية : (لا ملتفتا) . والتصويب من القلائد .
(٥) ساقطة فى المخطوطين والملكية . وواردة فى القلائد .
(٦) هكذا فى القلائد . وفى المخطوطين والملكية أجرم .
(٧) هكذا فى القلائد . وفى المخطوطين : أفجر .
(٨) فى المخطوطين : ممتداً . والتصويب من القلائد .
(٩) هكذا وردت فى « ج » والملكية . وفى « ك » : ابن مقيم . وهو خطأ بين .
(١٠) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » والملكية . ووردت فى « ك » : (وثبت فى ذلك منه)
(١١) وردت فى « ج » والملكية السفرى . وفى « ك » الأسفرى . وهو تحريف والصواب ما أثبتناه .
(١٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : المشرى .

حكى أبو بكر الوسنشانى[١] الفقيه عن ثقة عنده من أصادقة التُّجار، أنه حضر مدينة غرناطة ، حَضْرَة باديس بن حبُّوس الجبار ، أيام حدث على أبى نصر صاحب تاكُرُنّا ما حدث ، وأن أميرها باديس قام للحادثة[٢] وقعد ، وهاج من داء عَصَبيّته ما قد سكن ، وشقّ أثوابه ، وأعلن أعواله ، وهجر شرابه الذى لا صبر له عنه ، وجفا ملاذّه ، وأوهمتهُ نفسُه الخبيثة تمالؤ رعيَّته من أهل الأندلس ، على الذى دهى أبا نصر ، فسوّلت له نفسه حَمْل السيف على أهل حضرته جميعاً ، مستحضراً[٣] لهم ، وكيماً ينبرهم[٤] ، ويخلص برابرته وعبيده فيريح نفسه ، ودبر أن يأتى ذلك إليهم عند اجتماعهم بمسجدهم الجامع الأقرب أيام الجمعة ، من قوة همومه ، وشاور وزيره اليهودى يوسف بن اسماعيل ، مُدبرَّ دولته الذى لايقطع أمراً دونه ، مُسْتَخْلياً مُسْتَكْتِماً بسرِّه ، مصمماً فى عزمه ، إن هو لم يوافقه عليه ؛ فنهاه عن ذلك وخطَّأ رأيه فيه ، وسأله الأناة ومَحْض الرويّة ، وقال له هَبْك وصلت إلى إرادتك ممَّن بحضَرتك ، على ما فى استباحتهم من الخطر ، فأنَّى تقدر على الإحاطة بجميعهم من أهل حَضْرتك ، وبسائط أعمالك ؟ أتراهم يطمئنون إلى الذُّهول عن مصائبهم ، والاستقرار فى موضعهم ؟ ما أراهم إلا سيوفاً ينتظمون عليك فى جموع ، يُغرقونك فى لُجَجها أنت وجندك ؛ فردَّ نصيحته ، وأخذ الكتمان عليه ، وتقدم إلى عارضه باعتراض الجند فى السلاح ، والتَّعبية لركوبه يوم الفتكة ، يوم تلك الجمعة ، فارتجّ البلد . وذُكر أن اليهودى دسّ نسواناً إلى معارف لهنّ من زعماء المسلمين بغرناطة ، ينهاهم عن حضور المسجد يومهم ، ويأمرهم بإخفاء أنفسهم ؛ وفشا الخبر فتخلّف الناس عن شهود الجمعة ، ولم يأته إلا نفر من عامّتهم ، اقتدوا بمن أتاه[٥] من مشيخة البربر

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الرسنلشانى . والملكية الوساشى .
(٢) وردت فى المخطوطين والملكية : بالحادثة : والتصويب أنسب .
(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » مستعرضاً .
(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » والملكية ينفدهم .
(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : أتاهم .

وأغفال القادمين ؛ وجاء إلى باديس الخبر . والجيش فى السلاح حوالى قصره ، فساءه وفُتَّ فى عَضُده. ولم يَشُكَّ فى فشو سرِّه، وأحضر وزيره وقلّده البَوْح بسرِّه فأنكر ما قرفه[1] به ؛ وقال ومن أين يُنكر على الناس الحذر، وأنت قد استركبت جندك وجميع جيشك فى التَّعْبية، لا لسَفَر ذكرته، ولا لعَدُو وثب إليك، فمن هناك حدس القوم على أنك تريدهم ، وقد أجمل[2] الله لك الصنع فى نِفارهم ، وقادك إصارَهم ، فأعِد نظرك يا سيدى ، فسوف تحمد عاقبة رأيى وغِبطةَ نُصحى . فنصّح وزيرَه شيخٌ من موالى صَنْهاجته ، فانعطف لذلك بعد لأْى ، وشرح الله صدره . ويجرى[3] التعريف بشىء من أمور وزيره .

قال ابن عَذَارى المراكُشى فى كتابه المسمى « بالبيان المغْرب » : أمضى باديسُ كاتب أبيه ووزيره ابن نَغْرالة اليهودى ، وعمالاً متصرِّفين من أهل مِلَّته ، فاكتسبوا الجاه فى أيامه واستطالوا على المسلمين . قال ابن حَيَّان ؛ وكان هذا اللعين فى ذاته ، على مازَوى الله عنه من هدايته ، من أكْمَل الرجال علماً وحلماً وفهماً ، وذكاء ، ودماثة ، وركانة ، ودهاء ، ومكرًا ، ومِلْكا لنفسه ، وبَسْطاً من خلقه ، ومعرفةً بزمانه ، ومداراة لعَدُوِّه، واستِسلالاً لحقودهم بحلْمه ؛ [ناهيك][4] من رجل كتب بالقَلَمين ، واعتنى بالعِلْمَين ، وشغف باللسان العربى ، ونظر فيه ، وقرأ كُتُبَه ، وطالع أصوله ؛ فانطلقت يده ولسانه ، وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربى ، فيما احتاج إليه من فصول التَّحميد لله تعالى. والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، والتزكية لدين الإسلام. وذكر فضائله ، ما يريده ، ولا يقْصُر فيما يُنْشئه عن أوسط كتَّاب الإسلام ؛ فجمع لذلك « السَّجيج فى علوم الأوائل الرياضية »

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : قربه .
(٢) فى المخطوطين والملكية : أجمع . والتصويب أنسب للسياق .
(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ويجى .
(٤) أضفنا هذه الكلمة إذ يلوح لنا أنها سقطت فى المخطوطين سهواً .

وتقدم منتحليها(١) بالتدقيق(٢) للمعرفة النُّجومية ؛ ويشارك فى الهندسة والمنطق ، ويفوق فى الجدل كل مُسْتَول منه على غاية ؛ قليل الكلام مع ذكائه ، ماقتاً للسباب ، (٣) دائمَ التفكر ، جَمّاعةٌ للكتب . هلك فى العَشْر الثانى لمحرم سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، فجلَّل اليهود نعشه ، ونكَّسوا لها أعناقهم خاضعين ، وتعاقدوه جازعين ، وبكوه مُعْلنين ؛ وكان قد حمل ولده يوسف المُكنى بأبى حسين على مطالعة الكتب ، وجمع إليه المعلمين والأدباء من كل ناحية ، يُعلِّمونه ويدارسونه ، وأعْلَقه بصناعة الكتابة ، ورشحه لأول حركته ، لكتابة ابن مخدومه بُلُكِّين برتبة(٤) المترشح لمكانه ، تمهيداً لقواعد خدمته ؛ فلما هلك إسماعيل فى هذا الوقت ، أدناه باديس إليه ، وأظهر الاغتباط به ، والاستعاضة بخدمته عن أبيه .

ذكر مقتل اليهودى يوسف بن إسماعيل ابن نغرالة(٥) الإسرائيلى

قال صاحب البيان ؛ وترك(٦) ابناً له يسمى يوسف لم يعرف [ذلّ الذِّمّة ، ولا قذر اليهودية](٧) . وكان جميل الوجه ، حادّ الذهن(٨) ، فأخذ فى الاجتهاد فى الأحوال ، وجمع المال ، واستخراج الأموال ، واستعمال اليهود على الأعمال ، فزادت منزلته عنده

(١) فى المخطوطين : منتجليها .
(٢) هكذا فى «ك» . وفى «ج» بالتدين .
(٣) هكذا فى «ج» . وفى «ك» للاسباب .
(٤) وردت فى المخطوطين : بريه .
(٥) هكذا وردت لأول مرة صواباً فى «ك» . ولكنها على الأغلب ترد محرفة فى المخطوطين .
(٦) فى المخطوطين : وتحرك .
(٧) وردت فى المخطوطين : (ذل اليهودية ولا قدر الذمة) . والتصويب من البيان المغرب . (ج ٣ ص ٢٦٤) .
(٨) هكذا فى «ك» . وفى «ج» : الزهد .

أميره ؛ وكانت له عليه عيون فى قصره من نساء وفتيان ، يشملهم[1] بالإحسان، فلا يكاد باديس يتنفس ، إلا وهو يعلم ذلك . ووقع ماتقدم ذكره ، فى ذكر بُلُكِّين من اتهامه بسمّه[2] ، وتوليه التهمة به عند أبيه ، للكثير من جواريه وخدّامه ، وفَتْك هذا بقريب له ، تِلْوٍ له فى الخدمة والوجاهة، يدعى بالقائد ، شعر منه بمزاحمته إياه فتكة شهيرة ، واستهْدَف للناس فشَغَلت به ألسنتهم ، ومُلئت غيظاً عليه صدورهم ، وذاعت قصيدة الزاهد أبى إسحاق الإلْبيرى ، فى الإغراء بهم ؛ واتفق أن أغارت على غرناطة بعوثٌ صُمادِحية[3] تقول إنها باستدعائه ، ليصير الأمر الصَّنْهاجىُّ إلى مجهزها[4] الأمير بمدينة ألمريَّة . وباديس فى هذه الحال منغمسٌ فى بطالته ، عاكفٌ على شرابه . ونُمِى هذا الأمر إلى رهطه من صَنْهاجة ، فراحوا[5] إلى دار اليهودى مع العامة ، فدخلوا عليه ، فاختفى ، زعموا فى بيت فَحم ، وسَوَّد وجهه ، يروم التنكير فقتلوه لمّا عرفوه ، وصلبوه على باب مدينة غرناطة ، وقُتل من اليهود فى يومه ، مقتلةٌ عظيمة ، ونُهبت دورهم ، وذلك سنة تسع وخمسين وأربعمائة . وقبرُه اليوم وقبر أبيه يعرف أصلاً من اليهود ينقلونه بتَواتُرٍ عندهم ، أمام باب إلبيرة ، على غَلْوة ، يعترض الطريق ، على لحده[6] حجارة كدان جافية الجِرْم ؛ ومكانه من الترفُّه والترْف والظَّرْف والأدب معروفٌ ؛ وإنما أتينا ببعض أخباره لكونه ممن لا يمتنع ذكره فى أعلام الأدباء والأفراد إلا بحلته[7] .

---

(١) وردت فى المخطوطين : يشغلهم . وفى البيان : شغلهم . ونعتقد أن التصويب أرجح .

(٢) وردت فى المخطوطين : بنسمه . وهو تحريف .

(٣) نسبة إلى المعتصم بن صمادح أمير المرية يومئذ .

(٤) وردت فى المخطوطين : مجهدها .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : فوجوا .

(٦) وردت فى المخطوطين الحدة .

(٧) وردت فى المخطوطين : محلة .

مكان باديس من الذكاء وتولعه بالقضايا الآتية

قال ابن الصَّيرفى ؛ حدثنى أبو الفضل جعفر الفتى ، وكان له صدقٌ . وفى نفسه عزّة وشهامة وكرم . وأثنى عليه ، وعرّف به ، حسبما يأتى فى اسم جعفر المذكور. قال ، خاض باديس مع أصحابه فى المجلس العلى ، من دار الشَّراب بقصره . واصطفّت الصقّاليب[١] والعبيد بالبَرْطَل[٢] المتصل به لتخدم إرادته . فورد عليه نبأ قام لتعرُّفه عن مجلسه ، ثم عاد إلى موضعه وقد تجهّم وجهه ، وخبُثت نفسه ، فحذر ندماؤه على أنفسهم ، وتخيلّوا وقوع الشر بهم ؛ ثم قال أعلمتم ما حدث ، قالوا لا والله يُطْلع على خير ؛ قال : دخل المُرابط[٣] الدمِّنة ؛ فسُرى عن القوم . وانطلقت ألسنتهم بالدعاء بنصره[٤] ، وفُسْحة عمره . ودوام دولته ؛ ثم وَجموا لُوجومه . فلما رأى تكدر صَفْوهم ، قال أقبلوا على شأنكم . ما نحن وذاك ، اليوم خمر وغداً أمر[٥] ؛ بيننا وبينه أمداد الفَجْو ، والنَّشور الجبال وأمواج البحار ؛ ولكن لا بد له أن يتملّك بلدى ، ويقعد منه مقعدى . وهذا أمر لا يلحقه أحد منا ، وإنما يَشْقى أحفادُنا . قال جعفر ، فلما دخل الأمير القصر ، عند خَلْعه حفيد باديس برحبة مُؤَمِّل[٦] ، طاف بكل ركن ومكان منه . وأنا فى جملته حتى انتهى إلى ذلك المجلس ، فبُسط له ما قَعَد عليه ،

---

(١) هم الصقالبة . وهم المماليك من مختلف الجنسيات الأوربية الذين غصت به قصور الأندلس منذ أواخر القرن الثالث الهجرى . (راجع فى نشأة الصقالبة وأحوالهم وظهورهم فى الأندلس ، كتابى « دولة الإسلام فى الأندلس » الطبعة الرابعة ج ٢ ص ٢٠٥ و ٢٤٩ و ٢٥٠ ؛

(٢) البرطل هو الرسم العربى للكلمة القشتالية Portal وهو البهو ذو الشرفات المعقودة على الأعمدة .

(٣) يريد الإشارة إلى يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين وعبوره إلى الأندلس .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : فى نصره .

(٥) وردت فى المخطوطين : آخر . وهو تحريف للقول المأثور .

(٦) وردت فى المخطوطين محرفة : (برعبه مؤمل) . و« رحبة مؤمل » اسم مكان بغرناطة الإسلامية . كان يقع فى جنوب غربى الحمراء وجنوب ربض الفخارين ويشتهر برياضه ومنتزهاته ومكانه اليوم الحى الغرناطى المسمى Campo del Principe .

فتذكرت قول باديس. وتعجبت منه تعجباً ظهر علىّ ؛ فالتفت إلىّ أمير المسلمين مُنكراً ، وسألنى مابى ، فأخبرته وصَدَقْتُه ، وقصصت عليه قول باديس ، فتعجّب ، وقام إلى المسجد بمن معه ، فصلى فيه ركعات . وأقبل يترحّم على قبره .

وفـــاته

قال أبو القاسم بن خلف : توفى باديس ليلة الأحد الموفى عشرين من شوال سنة خمس وستين وأربعمائة ، ودفن بمسجد القصر . قلتُ ، وقد ذهب أثر المسجد ، وبقى القبر يحفُّ به حلْقٌ له باب ، كل ذلك على سبيل من الخمول ، وجَدَثُ القبر رخام ، إلى جانب قبر الأمير المجاهد أبى زكريا يحيى بن غانية[1] المدفون فى دولة[2] المُوَحِّدين به .

وقد أدال اعتقاد الخليفة فى باديس بعد وفاته ، قِدمُ العهد بتعرفُ أخبار جَبَرُوته وعتُوٍّ على الله سبحانه ، لما جبلهم عليه من الانقياد للأوهام [والانصياع للأضاليل][3] ؛ فعلى حفرته اليوم من الازدحام بطلاب الحوائج والمسْتَشْفين من الأسقام ، حتى أولو الدواب الوجيعة ، ما ليس على قبر معروف الكَرْخى ، وأبى يزيد البسطامى .

ومن أغرب ما وقفت عليه رقعة رفعها إلى السلطان على يدى ، رجل من أهل الخير مُكَتِّبٌ[4] يؤمُّ فى مسجد القصبة القُدْمى من دار باديس ، يُعرف بابن باق ، وهو يتوسل إلى السلطان ويسأل منه الإذن فى دفنه [مجاوراً لقبره][5] . وعفو الله

---

(١) سبق التعريف به (تراجع الحاشية فى ص ٩٧) .
(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : بدولة .
(٣) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين والملكية . (وانقطاع الأصاليل) .
(٤) أى يكتب للناس ما يرغبون كتابته .
(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » . ووردت فى « ك » : (بجوار القبر) .

أوسع من أن يضيق على مثله ، ممن أسرف على نفسه ، وضيّع حقّ ربه . ودايره اليوم طاول قد تغيرت أشكالها وقسّم التملّك جنّاتها ، ومع ذلك فمعاهدها إليه منسوبة ، وأخباره متداولة .

وقد ألمعت فى بعض مشاهده بقولى من قصيدة ، غريبة الأغراض ، تشتمل على فنون[1] أثبتها إحماضاً وفكاهة ، لمن يطالع هذا الكتاب ، وإن لم يكن جلبها ضرورياً فيه . فمنها :

عسى خَطْرة بالرّكب ياحادى العِيس على الهَضْبة الشّماء من قصر باديس

بَكْرون بن أبى بكر بن الأشقر الحضْرمى

يكنى أبا يحيى .

حـــاله

كان من ذوى الأصالة ومشايخ الجند ، فارساً نجداً حازماً سديد الرأى ، مسموع القول ، شديد العُضْلة[2] أيْدًا ، فَحْلاً وسيماً . قائداً عند الجند الأندلسى ، فى أيام السلطان ثانى ملوك بنى نصر ، من[3] أحفل ماكان الأمر ، يجرّ وراءه دنيا عريضة ، وجبى الجيش على عهده مغانم كثيرة .

قال شيخنا ابن شِبْرين[4] فى تذكرة ألفيتها بخطه ، كان له فى الخدمة مكانٌ

(١) وردت فى المخطوطين : فنوق .
(٢) أى الدهاء
(٣) كذا فى «ج» . وفى «ك» : بين .
(٤) هكذا فى «ك» و «الملكية» . وفى «ج» : ابن شيرين . وهو تحريف .

كبير ، وجاهٌ عريض ، ثم صرفه الأمر عن رسمه ، وأنزله الدهر عن حكمه ، تغمدنا الله وإياه برحمته .

وفاته

فى عام أربعة عشر وسبعمائة ، ودفن بمقبرة قومه بباب إلبيرة .

بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية الداخل

يُكنى أبا النصر ، رُومى الأصل .

حاله

كان شجاعاً داهية ، حازماً فاضلا ، مصمما تقياً ، علماً[1] من أعلام الوفاء . لازم مولاه فى أعقاب النكبة ، وصحبه إلى المغرب الأقصى ، مختصاً به ذابًّا عنه ، مشتملا عليه ، وخطب له الأمر بالأندلس ، فتم له بما هو مذكور .

قال أبو مروان[2] فى المُقتَبِس : إن عبد الرحمن لما شرّده الخوف إلى قاصية المغرب ، وتنقل بين قبائل البربر ، ودنا من ساحل الأندلس —وكان بها همُّه— يستخبر من قرب ، فعرف أن بلادها مُفترقةٌ بفرقتى المضرية واليمانية ، فزاد ذلك فى أطماعه ، فأدخل إليهم بدراً مولاه يُحسّس[3] عن خبرهم : فأتى القوم وبلى ما عندهم ، فداخل اليمانيين منهم ، وقد عَصَفت ريح المضريين بظهور بنى العباس بالمشرق ، فقال لهم ما رأيكم فى رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم ، فيقيم أَوَدكم ويُدرّ ككم آمالكم . فقالوا : وَمَنْ لنا به فى هذه الديار ؟ فقال بدرٌ :

(١) وردت فى المخطوطين والملكية . عالما . وهو تحريف .

(٢) هو ابن حيان مؤرخ الأندلس وقد سبقت الإشارة إليه غير مرة .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «ك» . يحسس .

ما أدناه منكم ، وأنا الكفيل لكم به ، هذا فلان بمكان كذا وكذا يُقدِّمَنّ نفسه [فقالوا : نجيء به أهلا][(١)] إنّا سُراعٌ إلى طاعته ؛ وأرسلوا بدراً بكتبهم[(٢)] يستدعونه ، فدخل إليه بأيمن طائر ؛ واستجمع إليه خلق [كثير][(٣)] من أنصاره قاتل بهم يوسف الفِهرى ، فقهره لأول وقائعه ، وأخذ الأندلس منه وأورثها عقبه .

محنته

قال الراوى : وكان من أكبر من أمضى عليه عبد الرحمن بن معاوية حُكم سياسته وقوّمه معدَلَته[(٤)] ، مولاهُ بدرُ المعتقُ منه بكل ذمّة محفوظة ، الخائضُ معه لكل غَمْرة مرهوبة ، وكل ذلك لم يُغن عنه نقيراً لما أسلف فى إدلاله عليه ، وكثر من الانبساط لحُرْمته [فجمح مركب تحامله][(٥)] حتى أورده ألّا يضيق[(٦)] الصدر عنه ، وآسف أميره ومولاه ، حتى كبح عِنانه عن نفسه بعد ذلك كبْحَة أقعى بها أو شارفَ حِمامه ، لولا أن أبقى الأمير على نفسه التى لم يزل مسرفاً عليها . قال ، فانتهى فى عقابه[(٧)] لمّا سَخِط عليه أن سلب نعمته ، وانتزع دوره وأملاكه وأغرْمه على ذلك كله أربعين ألفاً من صامته ، ونفاه إلى الثغر ، فأقصاه عن قربه ، ولم يُقلْه العَثرة[(٨)] إلى أن هلك ، فرفع طمع الموادة عن جميع ثُقله وخدمته ، وصيّر خبرَه مثلا فى الناس بعده .

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » ، وفى « ك » : (فقال يجى أهلا به) .

(٢) وردت فى المخطوطين : بكتبكم .

(٣) هذه الزيادة من الملكية .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : معتدلة .

(٥) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين : (فجمع به مركب لحامله) . وبالتصويب يتضح المعنى ويستقيم السياق .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : يطيق .

(٧) كذا فى « ج » . وفى « ك » أعقابه .

(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » العشرة .

تاشُفين بن على بن يوسف أمير المسلمين بعد أبيه بالعُدْوة

صالى[١] حروب الموحدين .

أوَّليته

فيما يختص به التعريف بأوليةقومه، ينظر فى اسم أبيه وجده إن شاء الله. قال ابن الورّاق فى كتاب المقياس وغيره : وفى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة : ولّى [الأمير][٢] على بن يوسف أمير لَمْتُونة، الشهير بالمرابط[٣] ولده الأمير المسمى بسير عهده من بعده. وجعل له الأمر فى بقية حياته ؛ ورأى أن يولى ابنه تاشُفين الأندلس ، فولاه مدينة غرناطة، وألمريّة ثم قرطبة مضافة إلى ما بيده. قلت ، وفى قولهم رأى أن يولى الأندلس فولاه مدينة غرناطة ، شاهد كبير على ما وصفناه[٤] من شرف هذه المدينة ؛ فنظر فى مصالحها ، وظهر له بركة[٥] فى النصر على العدو ، وخدمه الجَدُّ الذى أسلمه ، وتبرأ منه فى حروبه مع الموحّدين حسبما يتقرر فى موضعه ، فكانت له على النصارى وقائع عظيمة بَعُد لها الصيتُ ، وشاع الذكر حسبما يأتى فى موضعه . قال، فكبُر ذلك على أخيه سِير ولى عهد أبيه ، وفاوض أباه فى ذلك وقال له : إن الأمر الذى أهّلتنى إليه لا يحسُن لى مع تاشُفين ، فإنه قد حمل الذكر والثناء دونى ، وغطَّى على اسمى . وأمال إليه جميع أهل المملكة ، فليس لى معه اسمٌ ولا ذكرٌ . فأرضاه بأن عزله عن الأندلس وأمره بالوصول إلى حَضرتْه ، فرحل عن الأندلس فى أواسط سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ووصل مرّاكش ، وصار من جملة[٦] من يتصرف بأمر أخيه سِير ويقف ببابه كأحد حُجّابه ؛

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » . طالى أو كالى . (٢) الزيادة من الملكية .

(٣) وردت فى المخطوطين : بالمرابطين . وهو تحريف ظاهر .

(٤) وردت فى المخطوطين : أوصلنا . والتصويب من مخطوط رواق المغاربة بالأزهر المرموز له بحرف « ر . م » . (٥) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وفى « ر . م » : بارقة .

(٦) كذا فى « ج » . وفى « ك » والملكية : الجملة .

فقضى الله وفاة الأمير سير على الصورة القبيحة حسبما يذكر فى اسمه ، وثـكله أبوه واشتد جزعه عليه ، وكان عظيم الإيثار والإرضاء لأمه قمر ، وهى التى تسببت [فى](١) عزل تاشفين وإخماله نظراً إلى ابنها. فقطع المقدار بها عن أملها بهلاكه.

ولما توفى [الأمير](٢) سير ، أشارت الأم المذكورة على أبيه بتقديم ولده إسحاق ، وكان رؤوماً لها قد تولت تربيته عند هلاك أمه وتبنته ، فقال لها ، هو صغير السن لم يبلغ الحُلُم ؛ ولـكن [حتى](٣) أجمع الناس فى المسجد خاصة وعامة ، وأخبرهم فإن صرفوا الخيار إلىّ ، فعلت ما أشرتِ به . فجمع الناس وعرض عليهم الأمر ؛ فقالوا كلهم فى صوت واحد : تاشفين ، فلم توسعه السياسة مخالفتهم ؛ فعقد له الولاية بعده ونقش اسمه فى الدنانير والدراهم مع اسمه ، وقلده النظر فى الأمور السلطانية ، فاستقر بذلك . وكتب إلى العُدْوَة والأندلس وبلاد المغرب ببيعته(٤) ، فوصلت البيعات من كل جهة . ثم رمى به جيوش الموحدين الخارجين عليه ، فنبا جده ومرضت أيامه ، وكان الأمر عليه لا له ،بخلاف ماصنع الله له بالأندلس .

قال أبو مروان الوراق : [وكان أمير المسلمين](٥) على بن يوسف بن تاشفين قد أمل فى ابنه تاشفين مالم تـكن الأقدار تساعده به ، فتشاءم به وعزم على خلعه [وصرف عهده](٦) إلى إسحاق ولده الأصغر، ووجه إلى عامله على إشبيلية أغمات أن يصل إليه ليجعله شيخ ابنه ، إلى أن وافاه خبرٌ أمضه وأقلقه ولم يمهله ،فأزعج تاشفين إلى عدوه على غير أهبة بتفويضه إياه ، وصرف المدد فى إثره ، وتوفى لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين [لفعله ذلك](٧) .

---

(١) ساقطة فى المخطوطين والملكية : وإثباتها انسب للسياق .
(٢) ساقطة فى المخطوطين ، وواردة فى « ر . م » والملكية .
(٣) ساقطة فى المخطوطين والملكية ،وواردة فى « ر . م » .
(٤) وردت فى المخطوطين والملكية : فى بيعته .
(٥) هكذا فى « ر . م » . وفى المخطوطين والملكية : الأمير .
(٦) هكذا فى «ر . م». وفى المخطوطين والملكية : (وصرفه وعهده) .
(٧) هكذا وردت فى« ج » والملكية . وفى « ك » (تفعله ذلك) . وأغفلها « ر . م » .

مُلكه ووصف حاله

فأفضى إليه ملك أبيه ـ بتفويضه إياه فى حياته ـ لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، وكان بطلا شجاعاً حسن الرّكبة والهيئة ـ سالكاً ناموس الشريعة ، مائلاً إلى طريقة المستقيمين . وكُتُب المريدين ؛ قيل إنه لم يشرب قط مُسكراً ولا استمع إلى قينة[1] ، ولا اشتغل بلذة[2] مما يلهو به الملوك .

الثناء عليه

قال ابن الصيرفى : وكان بطلاً شجاعاً ، أحبَّه الناس ، خواصهم وعوامهم ؛ وحسنت سياسته فيهم ، وسدَّ الثغور ، وأذكى على العدو العيون . وآثر الجند ، ولم يكن منه إلا الجدُّ . ولم تنل عنده الحظوة[3] إلا بالعناء والنجدة . وبذلك حمل على الخيل . وقلد الأسلحة ، وأوسع الأرزاق ، واستكثر من الرماة . وأركبهم ، وأقام همتهم [للاعتناء بالثغور ومباشرة الحرب ، ففتح الحصون وهزم الجيوش وهابه العدو][4] ولم ينهض إلا ظاهراً[5] ولا صدر إلا ظافراً[6] . وملك الملك ومهد بالحزم وتملك نفوس الرعية بالعدل ، وقلوب الجند بالنَّصَفَة . ثم قال : ولولا الاختصار الذى اشترطناه لأوردنا من سَنِى[7] خلاله مايضيق عنه الرّحْب ، ولا يسعه الكُتُب .

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين والملكية : (غنية . عينة) .

(٢) هكذا فى « ك » و « ر . م » . وفى « ج » بمرة .

(٣) هكذا فى « ر . م » . وفى المخطوطين : حظوة .

(٤) الزيادة فى ما بين الحاصرتين واردة فى « ر . م » فقط .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى الملكية و « ر . م » ظهر .

(٦) هكذا فى المخطوطين وفى الملكية و « ر . م » ظفر .

(٧) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : (من سنن خلاله) . والأولى أرجح .

دينه

قال المؤرخ، عكف على زيارة قبر أبى وهب الزاهد بقرطبة. وصاحب أهل الإرادة، وكان وطىء الأكناف[١]، سهل الحجاب. يجالس الأعيان ويذاكرهم؛ قال ابن الصيرفى، ولما قدم غرناطة أقبل على صيام النهار، وقيام الليل، وتلاوة القرآن، وإخفاء الصَّدقة[٢]، [وإنشاء العدل][٣]، وإيثار الحق.

دُعابته

قالوا مر يوماً بمرج القرون، من أحواز قلعة يحصُب[٤] فقال لزمّال من عبيده كان يمازحه هذا مرجُك؛ فقال الزمّال، ماهو إلا مرجك ومرج أبيك، وأما أنا فمن أنا؟ فضحك وأعرض عنه.

دخوله غرناطة

قالوا. وفى عام ثلاثة وعشرين وخمسمائة. ولى الأمير أبو محمد تاشفين بن أمير المسلمين علىّ بن أمير المسلمين يوسف، ووافاها فى السابع عشر لذى حجة؛ فقوّى الحصون وسدّ الثغور وأذكى العيون، وعمد إلى رحبة القصر، فأقام بها السقائف والبيوت، واتخذها لخزن السلاح ومقاعد الرجال، وضرب السهام[٥]؛ وأنشأ

---

(١) أى النواحى.

(٢) هكذا فى « ر. م ». وفى المخطوطين : صدقته.

(٣) هذه الزيادة واردة فقط فى « ر. م ».

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : (يصحب). وقلعة يحصب من حصون غرناطة القديمة. وكانت تعرف بقلعة بنى سعيد. وقد سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١١١).

(٥) هكذا وردت فى « ر. م ». وفى المخطوطين : الهام.

السّق ، وعمل التّراس ، ونسج الدّروع ، وصقل البيضات والسيوف ، وارتبط[١] الخيل . وأقام المساجد فى الثغور . وبنى لنفسه مسجداً بالقصر ، وواصل الجلوس ، للنظر فى الظّلامات[٢] ، وقراءة الرّقاع ، وردّ الجواب ؛ وكتب التوقيعات ، وأكرم الفقهاء والطلبة ، وكان له يوم فى كل جمعة ، يتفرغ فيه للمناظرة .

وزراؤه

قال أبو بكر ؛ وقرن الله به ممن ورد معه ، الزبير بن عمر اللّمتونى ، نُدْرة[٣] الزمان كرماً وبسالة ، وحزماً وأصالة . فكان كما جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ولى شيئا من أمور المسلمين فأراد الله به خيراً ، جعل الله له بطانة خير ، وجعل له وزيراً صالحاً ، إن نسى شيئاً ذكّره ، وإن ذكره أعانه » .

عُمّـــاله

الوزير أبو محمد الحسين بن زيد بن أيوب بن حامد بن منحل[٤] [بن يزيد][٥] .

كتّـــابه

الرئيس العالم أبو عبد الله بن أبى الخصال ، والكاتب المؤرخ أبو بكر الصيرفى [وغيرهم][٦] .

---

(١) هكذا وردت فى « ر . م » وفى المخطوطين : ورباط .

(٢) وردت فى المخطوطين : الظلمات . والتصويب من « ر . م » .

(٣) هكذا وردت فى « ك » و « ر . م » . وفى « ج » : نورة .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . و « ر . م » . وفى « ك » : محمد .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فقط فى « ر . م » .

(٦) الزيادة واردة فقط فى « ر . م » .

ومن أخبار [جهاده] (١)

خرج الأمير تاشفين فى رمضان عام أربعة وعشرين وخمسمائة بجيش غرناطة ومطوعتها، واتصل به جيش قرطبة إلى حصن السُّكة من عمل طليطلة، وقد اتخذه العدو ركاباً لإضراره بالمسلمين، وشحنه وجَمَّ به شوكة حادة بقومس (٢) مشهور؛ فأحدق به، ونشر الحرب عليه، فافتتحه عنوة وقتل من كان به، وأحيا (٣) قائده «فرند» (٤) ومن معه من الفرسان، وصدر إلى غرناطة، فبرز له الناس بروزاً لم يعهد مثله. وفى شهر صفر من عام خمسة وعشرين أوقع بالعدو المضيق على أوليته. وفى ربيع الأول من عام ستة وعشرين، تعرّف خروج عدو طُليطلة إلى قرطبة، فبادر الأمير تاشفين إلى قرطبة، ثم نهد (٥) إلى العدو فى خفٍّ، وترك السيقة والثقل بأرجونة. وقد اكتسح [العدوّ] (٦) بشنت إشطيبن (٧) والوادى الأحمر. وأسرى الليل، وواصل الركض، وتلاحق بالعدو بقرية براشة. فتراءى الجمعان صُبْحاً، وافتضح الجيش، ونشرت الرّماح (٨) والرايات، وهدرت الطبول، وضاقت المسافة، وانتبذ العدو عن الغنيمة، والتف الجمع، فتقصرت الرّماح، ووقعت المسابقة، ودارت الحرب على العدو، وأخذ السيف مأخذه، فأتى القتل على آخرهم، وصدر إلى غرناطة ظافراً (٩). وفى آخر هذا العام خرج العدو «للنمط» وقد احتفل فى جيشه

---

(١) الزيادة واردة فقط. فى «ر م». ووردت فى المخطوطين والملكية: ومن أخباره.

(٢) القومس هنا من ألقاب الشرف، وهو باللاتينية Comes أو الكونت.

(٣) هكذا فى المخطوطين. وفى «ر.م»: واستحى.

(٤) هكذا فى «ر.م». وفى المخطوطين والملكية: «فرنك». وفرند هو Fernando.

(٥) أى برز.

(٦) واردة فقط فى «ر.م».

(٧) هكذا فى «ر.م»، وهو الرسم الصواب لهذا الاسم. وفى المخطوطين: (بشط اشطن) وهو تحريف. وشنت اشطيبن وبالإسبانية San Esteban قاعدة حصينة قديمة من قواعد ولاية جيان.

(٨) فى المخطوطين: الريح.

(٩) وردت فى المخطوطين (ظاهراً). والتصويب أنسب للسياق.

إلى بلاد الإسلام، فصبّح إشبيلية يوم النصف من رجب، وبرز إليه الأمير أبو حفص عمر بن على بن الحاج [١]، فكانت به الدَّبرة فى نفر من المسلمين استشهد جميعهم؛ ونزل العدو على فرسخين من المدينة فجلّلها [٢] نهباً وغارةً، فقتل عظما، وسبى عظما؛ وبلغ الخبر الأمير تاشفين، فطوى المراحل، ودخل إشبيلية، وقد أسرَّها؛ واستؤصلت باديتها، وكثر بها التأديب والتنكيل [٣] فأخذ أعقاب العدو، وقد قصد ناحية بَطَلْيَوْس وباجة ويابرة [٤] فى ألف عديدة من أنجاد الرجال، ومشهور الأبطال، [فراش جَوْلاً عَهْداً بالرّوع] [٥]، فظفر بما لا يحصيه أحد، ولا يقع عليه عدد؛ وانثنى على رِسْل [٦] انتقل السيقة، وثقته ببعد الصّارخ، وتجشمت بالأمير تاشفين الأدلاء كل ذروة وثنيّة، وأفضى به الإعداد إلى فلاة بقرب الزّلاقة، وهو المهيع الذى يضطر العدو إليه، ولم يكن إلا كلاّ ولا، حتى أقبلت الطلائع منذرةً بإقبال العدوّ، والغنيمة فى يده قد ملأت الأرض؛ فلما تراءى الجمعان، واضطربت المحلات، ورتبت المراكب، فأخذت مصافها، ولزمت الرجال مراكبها، فكان القلب مع الأمير ووجوه المرابطين وأصحاب الطاعات؛ وعليه البنود الباسقات، مكتّبة بالآيات، وفى المجتَبين [٧] كبار الدولة من أبطال الأندلس، عليهم حُمْر الرايات بالصور الهائلة؛ وفى الجناحين أهل الثغر والأوشاب من أهل الجلادة، عليهم الرايات المُرقّعات [٨] بالعَذَبات المجزّعات [٩].

---

(١) هكذا ورد هذا الاسم فى «ج» وورد فى الملكية (أبو جعفر محمد بن الحاج) والدبرة أى الهزيمة.

(٢) هكذا فى «ك». وفى «ج» فحللها. (٣) فى المخطوطين: التآكل.

(٤) بطليوس Badajoz من أعظم قواعد الأندلس القديمة، تقع فى جنوب غربى اسبانيا على حدود البرتغال. وباجة Beja من قواعد الأندلس القديمة. وتقع بكورة الغرب Algarve جنوب البرتغال. ويابرة Evora تقع فى البرتغال شمال باجة، وقد كانت من أهم قواعد الأندلس البرتغالية.

(٥) وردت هذه العبارة فى المخطوطين والملكية: (فراس حوالا عهد بالروع). ونعتقد أن التصويب يؤدى معنى يستقيم مع السياق.

(٦) يبدو أن هنا كلمة ساقطة، ولعلها «حتى».

(٧) وردت فى «ج»: المجتبين. ومكانها بياض فى «ك». والتصويب من «الملكية».

(٨) أعنى خرق الألوية.

(٩) هكذا فى (ج» وفى «الملكية» (بالمعذبات المشرعات).

وفى المقدمة مشاهيرُ زَناته[1] ولفيفُ الحشَم بالرايات المُصبَغات المُنَبَّقات[2]. والتقى الجمعان، ونزل الصبر، وحَمِيت النفوس، واشتدّ الضرب والضّراب وكثرت الحملات؛ فهزم الله الكافرين، وأعطوا رقابهم مُدْبرين، فوقع القتل، واستلَحَمَ العدوَّ السيفُ، واستأصله الهلاك والأسار؛ وكان فتحاً جليلا لا كفاء له، وصدر الأمير تاشفين ظافراً إلى بلده فى جمادى من هذا العام. ولو ذهبنا لاستقصاء حركات الأمير تاشفين وظهوره لاستدعى ذلك طولا كثيراً.

بعض ما مدح به

فمن ذلك:

أما وبيضُ الهند عنك خصوم فالرّوم تبذل ماظباك تَرُومُ
تمضى سيوفُك فى العدا ويردها[3] عن نفسه حيث الكلام وخيم

وهذه القصائد قد اشتملت على أغراضها الحماسية. والمُلْك سوقٌ يُجْلب إليها ما يُنْفق عندها.

وفاته

قد تقدم انصرافُه عن الأندلس سنة إحدى وثلاثين وخمساية، وقيل سنة اثنين، واستقرارُه بمرّاكُش مرؤوساً لأخيه سير، إلى أن أفضى إليه الأمرُ بعد أبيه قال، واستقبل تاشفين مدافعة جيش [أمير][4] الموحدين، أبى محمد عبد المؤمن بن

(١) من أشهر القبائل البربرية، وموطنها شرق المغرب الأوسط فى جنوبى منطقتى تلمسان ووهران.

(٢) أى المزركشة.

(٣) وردت فى المخطوطين: ويردها.

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين. ويستلزمها السياق.

على خليفة مَهْديهم ، ومقاومة أمر قضى الله ظهوره ، والدفاع عن مُلْكٍ بلغ مداه ، وتَمّت أيامه. كتب[1] الله عليه ، فالتأث سَعْدُه ، وفلّ جَدّه ، ولم تقم له قائمةٌ إلى أن هُزم ، وتبدّد عسكره ، ولجأ إلى وَهْران ، فأحاط به الجيش ، وأخذه الحصار ؛ قالوا فكان من تدبيره أن يلحق ببعض السواحل ، وقد تقدم به وصول ابن ميمون قائد أسطوله ، ليرفعه إلى الأندلس ؛ فخرج ليلا فى نفر من خاصّته فرّقهم الليل ، وأضلّهم الروع ، وبدّدتهم الأوعار ، فمنهم من قتل ، ومنهم من لحق بالقطائع البحرية ؛ وتردّى بتاشفين فرسُه من بعض الحافّات ، ووجُد ميتاً فى الغد ، وذلك ليلة سبع[2] وعشرين لرمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ؛ وصلبه الموحّدون ، واستولوا على الأمر من بعده ، والبقاء لله تعالى[3] .

ثابت بن محمد الجرجانى ثم الإستراباذى[4]

يكنى أبا الفتوح .

حاله

قال ابن بسّام ؛ كان الغالب على أدواته علمُ اللّسان ، وحفظ الغريب ، والشعر الجاهلى والإسلامى ، إلى المشاركة فى أنواع التعاليم ، والتصرّف فى حمل السلاح ، والحذق بأنواع الجُنْدية ؛ والنفاذ فى أنواع الفروسيّة ، فكان الكاملُ فى خلال جمّة . قال أبو مروان ، ولم يدخل الأندلس أكمل من أبى الفتوح فى علمه وأدبه قال ابن زيدون

(١) هكذا وردت فى الملكية . وفى « ج » كتاب .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : تسع . والتاريخ الأول هو الصحيح .

(٣) روجعت هذه الترجمة بأكلها على مخطوط « رواق المغاربة » بالأزهر .

(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (الأسترابادى) ، وهو تحريف . وصوابه الإستر بادى نسبة إلى إستراباذ . وهى بلد قديمة فارسية من أعمال طبرستان ، وإليها ينتسب كثير من العلماء .

لقيتُه بغرناطة ، فأخذْت عنه أخبار المشارقة ، وحكايات كثيرة ؛ وكان غزير الأدب، قويّ الحفظ فى اللغة ، نازعاً إلى علم الأوائل من المنطق والنجوم والحكمة ، له بذلك قوة ظاهرة .

طروؤه على الأندلس

قال صاحب الذخيرة ؛ طرأ على الحاجب منذ صَدْر الفتنة للذائع من كرمه فأكرمه ورفع شأنه، وأصحبه ابنه ، المرشَّحَ لمكانه ، فلم يزل له بهما المكان المكين ، إلى أن تغيرّ عليه يحي لتغير الزمان ، وتقلب الليالى والأيام بالإنسان[١] ؛ ولحق بغرناطة بعسكر البرابرة، فحلّت به من أميرهم باديس الفاقرة[٢] .

من روى عنه

قال أبو الوليد ؛ قرأت عليه بالحضرة[٣] الحماسة فى اختيار أشعار العرب ، يحملها عن أحمد بن عبد السلام بن الحسين البصرى، ولقيه ببغداد سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة ، عن أبى رياش أحمد بن أبى هشام بن شِبْل العَبْسى بالبصرة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، وله[٤] فى الفضائل أخبار كثيرة .

محنته ووفاته

لحقه عند باديس مع عمه يَدّير بن حُباسه تهمةٌ فى التدبير عليه ، والتسوُّر على سلطانه ، دعتهما إلى الفرار عن غرناطة ، واللِّحاق بإشبيلية . قال أبو يحي الورّاق ؛ واشتدّ شوق أبى الفتوح إلى أهله عند هربه مع يدّير إلى إشبيلية لما بلغه أن باديس

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : بالأسن .

(٢) الفاقرة أى الداهية .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : (بحضرتى . بحضرة) . والحضرة هنا أعنى غرناطة .

(٤) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

قبض على زوجته وبنيه وحبسهم بالمُنَكَّب عند العبد قدّاح صاحب عذابه . وكان لها من نفسه موقعٌ عظيمٌ[١]، وكانت أندلسيَّة جميلة جدًّا لها طفلان ذكرٌ وأنثى ، لم يُطِق عنهما صبراً وعمل على الرجوع إلى باديس طمعاً فى أن يصفح عنه ، كما عمل مع عمّه أبى ريش ؛ فاستأمن إلى باديس يوم نزوله على باب إستِجة إثر انهزام عسكر ابن عباد ، وفارق صاحبَه يدّير ، ورمى هو[٢] بنفسه إلى باديس من غير توثُّق بأمان أو مراسلة ؛ فلما أُدخل[٣] عليه وسلم ، قال له ابتدى ، بأى وجهٍ جئتنى يانمام[٤] ما أجرأك على خَلْقك ، وأشدّ اغترارك[٥] بسحرك ، فرّقت بين بنى ماكْسَنْ ، ثم جئت تخدعُنى كأنك لم تصنع شيئاً ؛ فلاطفه ، وقال اتق الله ياسيدى ، وارعَ ذمامى ، وارحمْ غُربتى وسوء مقامى ، ولا تُلزمنى ذنب ابن عمك ؛ فما لى سبب فيه ، وما حملنى على الفرار معه إلا الخوف على نفسى لسابق خُلطته ؛ ولقد لَفَظتنى البلاد إليك مُقرًّا بما لم أجنِه رغبة فى صفحك ، فافعل أفعال الملوك الذين يجلون عن الحقد على مثلى من الصعاليك ؛ قالُ بل أفعلُ ماتستحقّه إن شاء الله ؛ أن تنطلق إلى غرناطة ، فدُم [على][٦] حالك ، والق أهلك إلى [أن][٧] أُقبل ، فأصلح من شأنك . فاطمأن إلى قوله ، وخرج إلى غرناطة وقد وُكِّل به فارسان ، وقد كتب إلى قدّاح بحبسه ؛ فلما شارف إلى غرناطة قبض عليه ، وحَلَق رأسه ، وأُركب على بعير ، وجُعل خلفه أسودُ فَظٌّ ضخم يوالى صَفْعه ، فأدخل البلد مُشَهَّراً ، ثم أودع حبساً ضيقاً ، ومعه رجل من أصحاب يَدّيرٍ أُسر فى الوقعة من صَنْهاجة ، فأقاما فى الحبس معاً إلى أن قَتَل باديس .

---

(١) وردت فى المخطوطين : عظيمة . والتصويب من « الملكية » .

(٢) أثبتها « ج » . وأغفلها « ك » .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » . دخل .

(٤) وردت فى المخطوطين : (إتمام) . وقد رجحنا هذا التصويب الذى يستقيم به السياق .

(٥) وردت فى المخطوطين : اعتراك . وهو تحريف .

(٦) ساقطة فى المخطوطين . ويستلزمها السياق .

(٧) زيادة يستلزمها السياق .

مقتله

قال أبو مروان فى الكتاب المسمى بالمتين(١) ؛ واستراح [باديس](٢) أياماً فى غرناطة يَهيم(٣) بذكر الجرجانى ، ويعضُّ أنامله ، فيعارضه فيه أخوه بُلُكِّين ، ويكذب الظنون وسعى فى تخليصه. فارتبك باديس فى أمره أياماً ، ثم غافص(٤) أخاه بلكين فقتله وقتاً أمن فيه [أمر](٥) معارضته ، لاشتغاله بشرابٍ وآله(٦)، وكانت من عادته؛ فأحضر باديس الجُرْجانى إلى مجلسه ، وأقبل يشتمه ويسبه ويُبكِّته ، ويطلق الشماتة ويقول ، لم تُغْنِ عنك نجومك يا كذَّاب ، ألم يعد أميرُك الجاهل ، يعنى بدير ، أنه سوف يظفر بى ويملكُ بلدى ثلاثين سنة ، لِمَ لم تدقق(٧) النظر لنفسك وتحذر ورطتك ؛ قد أباح الله لى دمك . فأيقن(٨) أبو الفتوح بالموت ، وأطرق ينظر إلى الأرض ، لا يكلمه ولا ينظر إليه ؛ فزاد ذلك فى غيظ باديس ، فوثب من مجلسه والسيفُ فى يده ، فخبط به الجرجانى حتى جدّ له وأمر بحزِّ رأسه ؛ قال ، وقُدِّم الصِّنهاجى الذى كان محبوساً معه إلى السيف ، فاشتد جزعُه ، وجعل يعتذر من خطيئته ، ويلحُّ فى ضراعته(٩) ؛ فقال له باديس أما تستحى يا ابن الفاعلة ؛ يصبر المعلم الضعيفُ القلب على الموت مثل هذا الصبر ، ويملكُ نفسه عن كلامه لى واستعطافى ،

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين : بالتين . والمتين كالمقتبس ، من أشهر مؤلفات أبى مروان ابن حيان التاريخية وأضخمها ، ولكن لم يصل إلينا شىء منه .

(٢) ساقطة فى المخطوطين : وواردة فى « ت » .

(٣) هكذا فى « ك » وفى « ج » : يهم .

(٤) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » وعافص . وغافص أخاه أعنى فاجاه وأخذه على غرة .

(٥) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٦) فى « ك » : والآلة . وفى « ج » : والاه .

(٧) وردت فى « ج » محرفة ، تدقن ، وفى « ك » والملكية : تتقن والأولى أرجح .

(٨) وردت محرفة فى المخطوطين : (فايق) .

(٩) وردت فى المخطوطين : غراصته .

وأنت تجزع مثل هذا الجزع : وطال ما أعددت نفسك فى أشدّاء الرجال ، لا أقال الله مقيلك : فضرب عنقه ، وانقضى المجلس .

ومن تمام الحكاية مما جلبه ابن حيّان . قال ، وكلّم الصنهاجيّون باديس فى جثّة صَنْهاجِهم[1] المقتول مع أبى الفتوح . فأمرنى بإسلامها إليهم ، فخرجوا بها من فورهم إلى المقبرة على نعش، فأصابوا قبرا قد احتُفر لميْت من أهل البلد ، فصبُّوا صاحبهم الصَّنهاجى فيه ، وواروه من غير غُسل ولا كفن ولا صلاة. فعجب الناس من تَسَحّيهم[2] فى الاغتصاب حتى الموتى فى قبورهم .

مولده

سنة خمسين وثلاثمائة .

وفاته

كما ذُكر ليلة السبت لاثنتين بقيتا من محرم سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ؛ قال برهون من خُدام باديس : أمرنى بمواراة أبى الفتوح إلى جانب [قبر][3] أحمد بن عباس وزير زُهير العامرى ، فقبرْاُهما فى تلك البقعة مُتجاوران[4] ، وقال اجعل قبرَ عدُوٍّ إلى جانب عدو إلى يوم القِصاص ، فيالهما قبران أَجَمّا[5] أدبا لا كفاء له ، والبقاء لله سبحانه .

---

(١) كذا فى «ج» . وفى «ك» : صنهاجم .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» والملكية : تسحبهم .

(٣) واردة فى «ج» . وساقطة فى «ك» .

(٤) فى المخطوطين : مجاوراً .

(٥) فى «ج» : أحما . وفى «ك» : أحبا .

جعفر بن أحمد بن على الخزاعى

من أهل غرناطة ؛ ويعسوب الثاغية والراغية[١] من أهل رَبَض البيّازين[٢] يكنى أبا أحمد الشهير ذكره بشرق الأندلس ، المعروف بكرامة الناس ، المقصود الحُفرة ، المحترم التُّربة حتى من العدو ، والرائق بغير هذه الملة . خرج قومه من وطنهم عند تغلب العدو على الشرق ، فنزلوا ربض البيّازين جوفى المدينة ، وارتاشوا ، وتلثّموا[٣] ، وبنوا المسجد العتيق ، وأقاموا رسم الإرادة ، يرون أنهم تمسكوا من طريق الشيخ أبى أحمد بآثاره ، فلا يَغُبُّون بيته ، ولا يقطعون اجتماعاً ؛ على حالهم المعروفة من تلاوة حسنة ، وإيثار ركعات ، ثم ذكر ثم ترجيع أبياتٍ فى طريق التصوف ، مما يُنسب للحسين بن منصور الحلاج[٤] وأمثاله ، يعرفونها منهم مشيخةٌ ، قوالون هم [فحول][٥] الأجمة وضرائك[٦] تلك القطيعة ، يهيجون بلابلهم ، فلا ينشبون أن يحمى وطيسُهم ، ويخلط مَريعُهم بالهَمَل[٧] ، فيرقصون رقصا غير مُساوق للإيقاع الموزون ، دون العجال[٨] الغالبة منهم ، بإفراد كلمات من بعض المقول ، ويكرُّ بعضهم على بعض ، وقد خلعوا خَشِن ثيابهم ؛ ومرقوعات قَباطيهم ودرانيكهم[٩] ، فيدوم حالهم حتى يتصببوا عرقاً ، وقُوّالُهم يحرّكون

---

(١) يعسوب أى رئيس . والثغاء هو صريخ الشاة ، والرغاء هو صوت البعير . والمقصود أهل الشغب .

(٢) هو أحد أحياء غرناطة . وسبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ٣٨٧) .

(٣) هكذا فى المخطوطين : وقد يعنى ذلك أنهم كانوا يضعون اللثام على وجوههم وأنهم اتخذوا طريقة الملثمين أى المرابطين الدينية .

(٤) سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ٢١٩) .

(٥) وردت فى المخطوطين والملكية : فحل . والتصويب لازم للسياق .

(٦) وردت فى المخطوطين صراديك . ونرجح أنها « ضرائك » ومعناها النسور .

(٧) مريعهم أعنى أكابرهم . والهمل ، الأصاغر والرعاع .

(٨) هكذا فى « ك » والملكية . وفى « ج » : الجمال .

(٩) قباطيهم ودرانيكهم . من الواضح أنها أصناف الثياب التى يرتديها أهل هذه الطريقة .

فتورهم ، ويزمرون روحهم ، يخرجون بهم من قول إلى آخر ، ويَصلون الشيء بمثله ، فربما أخذت نوبة رقصهم بطرفى الليل التمام ، ولا تزال المشيَّعة لهم يدعونهم ، ويحاجونهم[1] إلى منازلهم ؛ وربما استدعاهم السلطان إلى قصره مُحمضاً فى لطايف نعيمه بإخشيشانهم ، مبدياً التبرُّك بألويتهم[2] ؛ ولهم فى الشيخ أبى أحمد والد نحلتهم ، وشحنة قلوبهم ، عصبيةٌ له وتقليد بإيثاره ، أنفجت[3] لعقده أيمانهم ، وشرطٌ فى صحة دينهم ، وارتكبوا فى النفور عن سماع المِزمار القَصَبى المسمى بالشّبابة الذى أُرخص فى حضور الولائم ، مع نَفْخ بَرَعه العدد[4] الكثير من الجِلّة الصلحاء القُدْوة مرتكباً ، حتى ألحقوه بالكبائر الموبقة ، وتعدَّوا اجتنابه جِبلة وكراهةً طِباعيةً ، فتزْوى عند ذكره الوجوه ، وتُقتحم عند الاتّهام به الدُّور ، وتسقط فيما بينهم بفلتة سماعه أخوةُ الطريق ؛ وهم أهل سذاجة وسلامة ، أولو اقتصاد فى ملبس وطعمة واقتيات بأدنى بُلْغة ، ولهم فى التعصب نزعة خارجيةٌ[5] ، وأعظمهم ما بين مُكْتسب[6] مُتسَبِّب ؛ وبين معالج مَدرَة ، ومُريع حياكة ، وبين أظهرهم من الذُّعرة[7] والصعاليك كثير ؛ والطُّرُق إلى الله عدد أنفاس الخلايق جعلنا الله ممن قُبل سعيه ، وارتضى ما عنده ، ويسَّره لليسرى .

حـــاله

قام هذا الرجل مقام الشيخ أبى تمام قريبه على هيئة مهالكه ، فسدَّ مسدَّه ، على

---

(١) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : (ويحاجون بهم) .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : (بالومبهم . بالوليهم) . وهى ساقطة فى الملكية .

(٣) أعنى أثارت وأخرجت .

(٤) كذا فى «ك» . وفى «ج» : العود .

(٥) نسبة إلى مذهب الخوارج .

(٦) وردت محرفة فى المخطوطين : مكسب .

(٧) هكذا فى «ك» . وفى «ح» : الزرعة .

حال فتور وغرارة[1] حتى لان متنُ الخطة ، وخف عليه بالمران ثقْلُ الوظيفة ، فأمّ وخطب ، وقاد الجماعة من أهل الإرادة . وقضى فى الأمور الشرعية بالرَّبَض ، تحت ضِبْنِ[2] قاضى الجماعة وهو الآن بعده على حاله ، حسنُ السَجيَّة ، دمثُ الأخلاق ، ليِّن العريكة ، سهل الجانب ، مقترن الصدق والعفَّة ، ظاهر الجِدَة ، محمود الطريقة ، تطأه أقدام الكُلَف ، وتطرح به المطارحُ القاصية ، حَوَا على الشفاعات ؛ مستور الكفاية فى لَفْق الضعف ، متوالى شعلة الإدراك فى حِجْر الغفلة ؛ وجهٌ من وجوه الحَضْرة فى الجمهورية ، مرعىُّ الجانب ، مخفَّف الوظايف : مقصوداً من مُنْتامى[3] أهل طريقه بالهدايا ، مُسْتَدعى إلى من بالجهات منهم فى كثير من الفصول ، ظاهرُ الجدوى فى نَفير الجهاد ، رحمه الله ، ونفع بأهل الخير .

مولده

عام تسعة وسبعمائة .

وفاته

[يوم الإثنين التاسع والعشرين لرمضان خمسة وستين وسبعمائة][4] .

جعفر بن عبد الله بن محمد بن سِيدبُونة الخزاعى

من أهل شرق الأندلس من نظر[5] دانية ، يكنى أبا أحمد الولى الشهير .

---

(١) وردت فى المخطوطين والملكية : وعرارة . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) تحت ضبنه أى فى كنفه وتحت رعايته .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : متناف . والمقصود هنا أنصار أهل الطريقة

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط فى « ك » والملكية . وفى « ج » أثبتت « الوفاة » قبل « المولد »

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : سفر . ومعناها من أعمال دانية وقد سبق التعريف بدانية (أنظر الحاشية فى ص ٢٦٣) .

حـــــاله

كان أحد الأعلام المنقطعي القرين فى [طريق][1] كتاب الله ، وأولى الهداية الحقة ، فذ ، شهير ، شائع الخلة ، كثير الأتباع ، بعيد الصيت ، توجبُ حقَّه حتى الأمم[2] الداينة بغير دين الإسلام ، عند التغلب على قرية[3] مدفنه بما يُقضى منه بالعجب . قال الأستاذ أبو جعفر بن الزُّبير عند ذكره فى الصِّلة : أحد أعلام المشاهير[4] فضلاً وصلاحاً ؛ قرأ ببلَنْسية ، وكان يحفظ نصف « المدوَّنة »[5] وأقرأها ، ويؤثر الحديث والتفسير والفقه ، على غير ذلك من العلوم .

[مشيخته][6]

أخذ القراءات السبع عن المقرئ أبي الحسن بن هُذيل ؛ وأبي الحسن بن النِّعمة ؛ ورحل إلى المشرق ، فلقى فى رحلته جِلَّة ، أشهرهم وأكبرهم فى باب الزهد وأنواع سَنى الأحوال ، ورفيع المقامات ، الشيخ الجليل ، الولى لله[7] تعالى ، العارف[8] ، أبو مدين شُعيب بن الحسين المقيم ببِجاية ؛ صحبه وانتفع به ، ورجع من عنده بعجايب دينية ، ورفيع أحوال إيمانية ؛ وغلبت عليه العبادة ، فشهر بها حتى رحل إليه الناس للتبرك بدعائه ، والتيمُّن برؤيته ولقائه ، فظهرت بركته على القليل والكثير منهم[9] ،

---

(١) واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » والملكية .
(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » الإمام .
(٣) وردت فى المخطوطين : قراءة . والمرجح التصويب . وبه يستقيم المعنى .
(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » الشهيرة .
(٥) يرجع فى التعريف بهذا المصنف إلى الملحق الخاص بالكتب .
(٦) ساقطة فى المخطوطين وواردة فى الملكية .
(٧) فى المخطوطين : الوالى . وقد سبق التعريف بأبى مدين ولى المغرب الشهير (الحاشية ص ٣٤٤) .
(٨) وردت فقط فى « ك » .
(٩) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين بعد كلمة بركته . وقد أخرناها ليستقيم السياق .

وارتوروا زُلالا من ذلك العذب النّمير ، وحظه من العلم مع عمله الجليل موفور ، وعِلمهُ نورٌ على نور . لقيت قريبه الشيخ أباتمام[1] غالب بن حسين بن سِيدبُونة حين ورد غرناطة ، فكان يحدث عنه بعجائب .

دخوله غرناطة

وذكر المعتنون بأخباره بالحضْرة إلى طريقه ، أنه دخل الحضرة وصلّى فى رابطة الرُّبُط من باب . .[2] وأقام بها أياماً ، فلذلك المسجد المزية عندهم إلى اليوم . وانتقل الكثير من أهله وأذياله عند تغلُّب العدو على الشرق على بلدهم ، إلى هذه الحضرة ، فسكنوا منها رَبَض البيّازين ، على دين وانقباض وصلاح ، فيحجون بكنوز من أسراره، ومبشراتة مضنونٌ[3] بها على الناس . وبالحضرة اليوم منهم بقية تقدّم الإلماع بذكرهم .

وفاته

توفى رحمه الله بالموضع المعروف بزَناتة فى شوال سنة أربع وعشرين وستمائة، وقد نِيف على الثمانين .

الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبى الأحوص
القرشى الفهرى

نشأ بغرناطة ، يكنى أبا على ، ويعرف بابن الناظر .

---

(١) وردت فى المخطوطين : « أبو تمام » . والخطأ فى رسم الأسماء الخمسة شائع فى المخطوطين. ونعتقد أنه سهو من الناسخ .

(٢) بياض فى المخطوطات الأربعة .

(٣) فى المخطوطين وفى الملكية : مظنون .

حـاله

كان متفنناً فى جملة معارف ،أخذ من كل علم سَنى بحظ وافر ، [حافظاً][1] للحديث والتفسير ، ذاكراً للأدب واللغة والتواريخ ، شديد العناية بالعلم ، مُكبًّا على استفادته وإفادته ،حسن اللقاء لطلبة العلم ، حريصاً على نفعهم ، جميل المشاركة لهم . وقال الأستاذ : كان من بقايا أهل الضبط والإتقان لما رواه ، وآخر مُقرئى القرآن ، ممن يعتبر [2] فى الأسانيد ومعرفة الطرق والروايات ، متقدماً فى ذلك على أهل وقته ، وهو أوفر من كان بالأندلس فى ذلك ، [أقرأ][3] القرآن والعربية بغرناطة مدة ، ثم انتقل إلى مالَقَة فأقرأ بها يسيراً ، ثم انقبض عن الإقراء ، وبقى خطيباً بقصبة مالقة نحواً من خمسة وعشرين سنة ، ثم كرَّ منتقلا إلى غرناطة ، فولى قضاء ألْمِريّة ، ثم قضاء بَسْطة ، ثم قضاء مالقة .

« وصمته » ، قال الأستاذ: إلا أنه كان فيه خُلُق[4] أخلَّت به ، وحملته على إعداء ما ليس من شأنه ، عفا الله عنه ، فكان ذلك مما يزهَّد فيه .

مشيخته

روى عن الأستاذ المقرئ أبى محمد عبد الله بن حسين السكَّاب ، أخذ عنه قراءة السبع وغير ذلك ، وعن أبى على وأبى الحسن بن سهل بن مالك الأَزْدى ، وأبى عبدالله محمد بن يحيى المعروف بالحلبى ، وجماعة غير هؤلاء ، ورحل إلى إشبيلية فروى بها عن الشيخ الأستاذ أبى على أكثر كتاب سيبويه تفقُّهاً ، وغير ذلك .

---

(١) وردت فى « ك » والملكية .

(٢) وردت فى المخطوطين : يعبد . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٣) ساقطة فى المخطوطين والملكية . ويستلزمها السياق

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » خلة . ومؤدى واحد .

وأخذ عن جماعة كثيرة من أهلها، وقدم عليها إذ ذاك القاضى أبو القاسم بن بَقِيّ ، فلقيه بها وأخذ عنه ؛ ورحل إلى بلَنْسِية ، فأخذ بها عن الحاج [أبى الحسن](١) ابن خيرة ، وأبى الربيع بن سالم ؛ وسمع عليه جملةً صالحة ، كأبى عامر بن يزيد بن أبى العطاء بن يزيد وغيرهم ؛ وبجزيرة شُقْر عن أبى بكر بن وضّاح ؛ وبمُرْسِية عن جماعة من أهلها ؛ وبأوريُولة عن أبى الحسن بن بَقىّ ؛ وبمالقة عن آخرين ، وتحصّل له جماعة نيفوا على الستين .

« تصانيفُه » ؛ منها المُسلسلات ، والأربعون حديثاً ، والترشيد فى صناعة التّجويد ، وبرنامج رواياته وهو نبيل .

«شعره» ؛ كان يقرض شعراً لا يُرْضى لمثله ، ممن برّز تبريزه فى المعارف .

مولده

يوم الخميس لاثنى [عشر](٢) ليلة بقيت من شوال سنة خمسين وستمائة .

« وفاته » ؛ توفى بغرناطة لأربع عشر ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة [تسع وتسعين](٣) وستمائة .

الحسن بن محمد بن الحسن النباهى الجُذامى

من أهل مالقة ، يكنى أبا على .

أوليّتــه

قال القاضى المؤرخ أبو عبد الله بن أبى عسكر فيه ؛ من حُسّباء مالقة وأعيانها

---

(١) ساقطة فى «ك» .   (٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطات الثلاثة . ويقتضى إثباتها السياق .

(٣) وردت فى المخطوطين : ثمانين . والتصويب من كتاب قضاة الأندلس (ص ١٢٧) وهو أرجح .

وقضاتها ، وهو جَدُّ بنى الحسن المالَقيين : وبيته بيت قضاء وعلم وجلالة ، لم يزالوا يرثون ذلك كابراً عن كابر ؛ استَقْضَى جدَّه المنصور بن أبى عامر ، وكانت له ولأصحابه حكاية[1] مع المنصور .

قال القاضى ابن بياض ، أخبرنى أبى ، قال : اجتمعنا يوماً فى متنزَّه لنا بجهة النَّاعُورة بقرطبة مع المنصور بن أبى عامر فى حداثة سنّه ، وأوان طَلَبه ، وهو مُرتَج مُؤمِّل ، ومعنا ابن عمه عمرو بن عبد الله بن عسكلاجة[2] ، والكاتب ابن المَرْعزى ، والفقيه أبو الحسن المالقى ؛ وكانت سفرة فيها طعام ، فقال ابن أبى عامر من ذلك الكلام الذى كان يتكلم به ، لابد أن نملك الأندلس ، ونحن نضحك منه ومن قوله . ثم قال : يتمنَّى كلٌّ واحد منكم علىّ ما شاء أُوَلِّيه ؛ فقال عمرو : أتمنى أن توليني المدينة ، نضرب ظهور الجنَّات ؛ وقال ابن المرعزى وأنا أشتهى الأسْفَح[3] ، القضاء فى أحكام السُّوق ؛ وقال أبو الحسن : وأنا أحب هذه ، أن [توليني][4] قضاء مالَقَة بلدى . قال موسى بن غَدْرون ، قال لى تمن أنت ، فشَقَقْتُ لحيته بيدى ، واضطربت به وقلت قولا قبيحاً من قول السفهاء . فلما مَلَك ابن أبى عامر الأندلس ، ولىّ ابن عمه المدينة ، وولى ابن المَرْعَزى أحكام السوق ، وولى أبا الحسن المالقى قضاء ريُّه[5] ؛ وبلغ كل واحد ما تمنى ، وأخذ منّى مالا عظيماً أفقرنى لقبح قولى : فبيت بنى الحسن شهير ، وسيأتى من أعلامه ما فيه كفاية .

حساله

قال ابن الزُّبير ، كان طالباً نبيلاً من أهل الدين والفضل والنُّهى والنباهة .

---

(١) فى المخطوطين جاءت كلمة (ولأصحابه) ، بعد كلمة (حكاية) . ووضعها فى مكانها أنسب.

(٢) وردت فى المخطوطين (عمر بن عبد الله بن عسقلان) وهو تحريف . والصحيح ما أثبتناه

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : الأسفنج . والأسفح ، أعنى الأقل جدوى .

(٤) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٥) هو الاسم القديم لولاية مالقة .

[« نباهته » ؛ قال ابن الزبير فى كتاب نُزهة البصائر والأبصار ، استُقْضِى بغرناطة][1] .

وفاته

توفى سنة اثنين وسبعين وأربعمائة ؛ ذكره ابن بَشْكُوال فى الصِّلة ، وعرَّف بولايته قضاء غرناطة ، وذكره ابن عسكر ، وتوهَّم فيه الملاَّحى ، فقال ، هو من أهل إلبيرة .

حسن بن محمد بن حسن القيسى

من أهل مالقة ، يكنى أبا على ، ويعرف بالقِلنار .

حـاله

كان رحمه الله بقيَّة شيوخ الأطباء ببلده ، حافظاً للمسائل الطِّبية ، ذاكراً للدواء ، فسيح التَّجربة ، طويل المُزاولة ، متصرفاً فى الأُمور التى ترجع إلى صناعة اليدين[2] صدلة وإخراعةً[3] ، محارباً ، مقدوراً عليه فى أُخرياته[4] ، ساذجاً ، مخشوشناً ، كثير الصحة والسلامة ، محفوظ العقيدة ، قليل المصانعة ، بريًّا من التشمت ؛ يعالج معيشته بيده فى صُبابة فلاحة . أخذ صناعة الطب عن أبى الحسن الأُركشى[5] .

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فقط فى « ج » .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الدين .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وقد تعنى (صيدلة واختراعاً) .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : آخر أيامه .

(٥) نسبة إلى أركش Arcos وهى بلدة أندلسية صغيرة من أعمال شريش تقع على نهر وادى لكه .

ومعرفة أعيان النبات عن المُصْحفى وسَرَح معه ، وارتاد منابت[1] العُشب فى صحبته ، فكان آخر السحَّارين[2] بالأندلس ؛ وحاول عمل التِّرياق الفارق بالديار السلطانية عام اثنين وخمسين وسبعمائة مبرِّزاً فى اختيار[3] أجزائه، وإحكام تركيبه؛ وإقدام على اختبار مرهُوبِ حياته ؛ قتلاً وصَنْجاً وتقريصاً ، بما يعجب من إدلاله فيه ، وفراهته عليه .

حسن بن محمد بن باصَة[4]

يكنى أبا على ، ويعرف بالصَّعْلَعَل ، رئيس المؤقِّتين بالمسجد الأعظم من غرناطة؛ أصله من شرق الأندلس .

حاله

كان فقيهاً إماماً فى علم الحساب والهيئة ؛ أخذ عنه الجِلّة والنبهاء قائماً على الأظلال والرُّخائم والآلات الشعاعية[5] ، ماهراً فى التعديل ، مع التزام السُّنَّة ، والوقوف عندما حدَّ العلماء فى ذلك ، مداوم النظر ، ذا مُسْتَنْبَطات ومُسْتدركات وتواليف ، نسيج وحده ورَجْحَة وقته .

وفاته

توفى بغرناطة عام ستة عشر وسبعمائة .

(١) فى المخطوطين : مناقب . والتصويب أرجح .
(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : السحارير .
(٣) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : اختبار .
(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» ماصه .
(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : الشاعية .

الحسن بن محمد بن على الأنصارى

من أهل . . .(١) يكنى أبا على ويعرف بابن كسرى .

حاله

كان متقدماً فى حفظ الأدب واللغة ، مبرزاً فى علم النحو ، شاعراً مجيداً ، ممتع المؤانسة ، كثير المواساة ، حسن الخُلُق ، كريم النفس . مُثرًّا(٢) فى نظم الشعر [فى غير فن](٣) ، مدح الملوك والرؤساء ، مؤثراً للخمول على الظهور ، وفى تخامُله يقول شعراً ثبت فى موضعه .

مشيخته

روى عن أبى بكر بن عبد الله بن ميمون الكندى ، وأبى عبد الله الكندى ، وأبى الحكم بن هرودس (٤) ، وأبى عبد الله بن غالب الرُّصافى .

« ممن روى عنه » ، روى عنه أبو الطاهر أحمد بن على الهوارى السَّبْتى ، وأبو عبد الله إبراهيم بن سالم بن صالح بن سالم .

نباهته وإدراكه

من كتاب نُزهة البصائر والأبصار ، قال القاضى أبو عبد الله بن عسكر ، نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضى رحمه الله ما معناه :

---

(١) مكانها بياض فى المخطوطين .

(٢) أعنى خصباً مكثراً .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : (فى فن غير) .

(٤) وردت فى المخطوطين : ابن هردوس . والتصويب من صلة ابن الزبير (رقم ١٨٤) .

قال ، حدثنى الفقيه الأديب أبو على ، قال كنت بإشبيلية . وقد قصدتها لبعض الملوك ، فبينما أنا أسير فى بعض طرقها ، لقيتُ الشيخ أبا العباس ، فسلَّمتُ عليه ، ووقفت معه ، وكنت قد ذُكر لى أن بها رجلا من الصالحين ، زاهداً ، فاضلاً ينتقد من الشعر فى الزهد والرقائق ، ببدائع تعجب [وكان بالمغرب قد قصّد المربىّ والنادر][1] ، فسألنى أبو العباس عن مصيرى ، فأعلمته بقصدى ، فرغب أن يصحبنى إليه ، حتى أتيناه ، فرأيناه رجلاً عاقلاً ، قاعداً فى موضع قذر ، فسلمنا عليه ، فرد علينا ، وسألناه عن قعوده فى ذلك الموضع ، فقال أتذكَّرُ الدُّنيا وسيرتها ، فزِدْنا به غبطة ؛ ثم استَنْشدناه فى ذلك الغرض من كلامه ، ففكَّر ساعة ثم[2] أنشدنا كلاماً قبيحاً ، تضمن من القبيح ومن الإقذاع والفواحش ما لا يحلُّ سماعه ، فقمنا نَلْعنه ، وخجلت من أبى العباس ، واعتذرت له . ثم اتفق أن اجتمعنا فى مجلس الأمير الذى كنت قد قصدته ، فقال أبو العباس ، إن أبا على قد حفظ لبعض الحاضرين شعراً فى الزهد ، من أعذب الكلام وأحسنه ، فسألنى الأمير وطلب منى إنشاده ، فخجلت ثم ثاب إلىّ عقلى ، فنظمت بيتين فأنشدتهما إياه وهما:

أشهد ألا إلــه إلا الله   محمد المصطفى رسول الله
لا حَوْل للخَلْق فى أمورهم   إنما الحَوْلُ كلُّه لله

قال ، فأعجب الأمير ذلك واستحسنه .

ومن مقاماته بين يدى الملوك وبعض حاله ، نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضى أبى الحسن بن أبى الحسن ، قال ، المروى منسوب إلى قرية بقرب مالقة ، وهو الذى قال فيه الشيخ أبو الحجاج بن الشيخ رضى الله عنه :

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وفقط أدخلنا الباء على كلمة « المغرب » فصارت تؤدى معنى يستقيم مع السياق . وهو أن هذا الزاهد كان أثناء مقامه بالمغرب ينظم القصائد المفضلة النادرة

(٢) وردت فى المخطوطين كلمة (قال) بعد (ثم) فلم نر موضعاً لإثباتها .

إذا سمعت مَنْ أسرى ومن إلى المسجد أسرَى
فَقُلْ ولا تَتَوَقَّف أبا على[1] بن كِسْرى

قال وهو قريب الأستاذ الأديب أبى على[2] الإسْتِجى[3] ومعلّمه، وأحدطلبة الأستاذ أبى القاسم السُّهيلى، وممن نبع[4] صغيراً، وارتحل إلى غَرْناطة ومُرسية، وهو الذى أنشد فى طفولته السيد أبا إسحاق بإشبيلية :

قسماً بِحِمْص[5] وإنّه لعظيم وهى المقامُ وأنت إبراهيم

وكان بالحَضْرة أبو القاسم السُّهيلى، فقام عند إتمامه القصيدة، وقال لمثل هذا أُحْسِيك الحسا، وأواصل فى تعليمك الإصباح والإمْسا، وكان يوماً مشهوداً[6].

وأنشد الأميرَ أبا يعقوب حين حلّها :

أمَعْشَر أهل الأرض فى الطول والعرض بهذا استنادى[7] فى القيامة والعرض
لقد قال فيك الله ما أنت أهـــله فيقضى بحكم الله فيـــك بلا نَقْضِ
وإياك يُعْنى ذو الجــــلال بقوله كذلك مَكَّنَّا ليوسُف فى الأرض

وذكره ابن الزُّبير، وابن عبد الملك، وابن عسكر، وغيرهم.

---

(١) كذا فى «ج». وفى «ك»: أبوعلى.
(٢) فى المخطوطين: أبو على. وهو تحريف كثيراً ما يقع أمثاله فى المخطوطين.
(٣) نسبة إلى مدينة إستجه Ecija من قواعد الأندلس القديمة، وتقع جنوبى غربى قرطبة على على مقربة منها.
(٤) هكذا فى «ك». وفى «ج» تبع. وقد تكون: نبغ. والمعنى قائم بدون تصويب.
(٥) كان اسم حمص يطلق على مدينة إشبيلية لما كان بينها وبين حمص الشام من وجوه الشبه فى الموقع والمناخ. قال أبو البقاء الرندى فى مرثيته الشهيرة مشيراً إلى إشبيلية:

وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن

(٦) وردت فى المخطوطين: مشهوراً. والتصويب أنسب.
(٧) وردت فى «ك»: أستاذى. وفى «ج»: السادى. والتصويب من «ت».

ومن شعره فى معنى الانقطاع والتسليم إلى الله تعالى ، وهى لزومية ، ولنختتم بها ، ختم الله لنا بالحسنى :

إلهى أنت [الله][1] رُكنى وملجئى ... ومالى إلى خَلْق سواك رُكون
رأيتُ بَنِي الأيام عُقْبى سكونهم ... حِراكٌ وفى عُقبى الحِراك سكون
رِضًى بالذى قَدَّرتَ تسليم عالِم ... بأن الذى لا بدَّ منه يكون

وفاته

توفى بمدينة مالَقَة فى حدود ثلاث وستمائة .

الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق التغلبى

يكنى أبا على ، مُرْسِىٌّ [الأصل][2] سَبْتِىُّ الاستيطان ، مُنْتَمٍ إلى صاحب الثورة على المعتمد .

حاله

كان نسيج وحده ، وفريد دهره ، إتقاناً ومعرفة ، ومشاركة فى كثير من الفنون اللسانية والتعالمية ، متبحراً فى التاريخ ، ريّاناً من الأدب ، شاعراً مُفْلِقاً ، عجيب الإستنباط . قادراً على الإختراع والأوضاع ، جَهْم المحيا ، موحش الشكل ، يضم بُرْداه طوياً لا كفاء له ، تحرّف بالعدالة ، وبرّز بمدينة سَبْتَة ، وكتب عن أميرها ، وجرت بينه وبين الأديب أبى الحكَم مالك بن المُرَحِّل من المُلاحات

---

(١) ساقطة فى المخطوطين .

(٢) وردت فى «ك» . وأغفلت فى «ج» . والملكية

والمهاترات أشدّ ما يجرى بين متناقضين ، آلت به إلى الحكاية الشهيرة ، وذلك أنه نظم قصيدة نصها :

لكلاب سَبْتَة فى النباح مدارك ... وأشدها [دَرَكاً لذلك](١) مالكُ
شيخ تفانى فى البطالة عُمْره ... وأحال فكّيه الكلامُ الآفك
كَلْبٌ له فى كل عِرْض عضةٌ ... وبكل مُحْصَنَة لسانٌ آفك
مُتْهم بذوى الخنا مُتَزَمِّعٌ(٢) ... متهازلٌ بذوى التُّقى متضاحكُ
أحلى شمائله السِّبابُ المُفترى ... وأعفُّ سيرته الهجاء الماعك
وألذُّ شىء عنده فى محفل ... لَمْزٌ لأستار المحافل هاتك
يَغْشى(٣) مخاطرَه اللئيمُ تفكُّها ... ويَعاف(٤) رؤيته الحليمُ النّاسك
لو أن شخصاً يستحيلُ كلامُه ... خِرْءًا لَلَاكَ الخرء منه لائك(٥)
فكأنه التمساح يقذف جوفه ... مِن فيه ما فيه ولا يتماسك
أنفاسُه وفُساؤه من عنصر ... وسُعالُه وضُراطُه متشارك
[ما ضرفا من معدّ الله ... لو أسلمته نواجذٌ وضَواحك](٦)
فى شعره من جاهلية طَبْعه ... أثقالُ أرضٍ لم ينلها فاتك
صدر وقافية [تعارضتا معاً](٧) ... فى بيت عَنْسٍ أو بعُرْسٍ فارك
قد عَمَّ أهل الإرض بِلَعْنه ... فللأعنية فى السماء ملائكُ
ولأعجَبُ العجبين أنّ كلامه ... لخلاله مِسكٌ يروح ورامَك

(١) وردت مكانها فى « ج » : رأس — وفى « ك » : وشن . والتصويب من « ت » (الزيتونة)
(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : متدمع .
(٣) وردت فى « ج » والملكية (تخشى) والتصويب أرجح .
(٤) فى المخطوطين : ويعافر .
(٥) وردت هذه العبارة فى «ج» والملكية (للاك الحرومية لائك) . وفى «ك» : (الملاك الحروسه) .
(٦) هكذا ورد هذا البيت فى المخطوطين وفى الملكية .
(٧) فى المخطوطين والملكية : تعارض فى بت .

إن سام[١] مكرُمةً جثا متثاقلا ... يَرْغو كما يرغو البعير البارك
ويدبُّ فى جُنْحِ الظلام إلى الخنا ... عَدْواً كما يعدو الظَّليم الراتك
نَبَذَ الوقار لصبْيةٍ يَهْجُونَه ... فسياله فرشٌ لهم[٢] وأرائكُ
يُبْدى لهم سوآته ليسوءهم ... بمسالك لا يرتضيها سالك
والدهر باكٍ لانقلاب صروفه ... ظَهراً لبَطن وهُو لاه ضاحك
والسِّنُّ تَنصحهُ بأفصَح منطق ... لو كان ينجو بالنَّصيحة هالك
تُبْ يا ابن تسعين فقد جُزْتَ المدَا ... وارتاح لِلُّقْيا بِسِنِّك مالك
[أوَ ما ترى من حافديك[٣] تشابها ... ابنٌ يضاجع جَدَّه ويُناسك
هيهات أيَّة عِشْرة لَهَجَتْ به ... هَفوات مملوك وطيِّع مالك
يا ابن المُرحَّل لو شهدت مُرَحَّلا ... وقد انحنى بالرَّحل منه الحارك
وطريدُ لومٍ لا يحل بمَعْشَر ... الا أمال قَفَاه صفعٌ دالك
[مركوب لهوِ لجاجة وركاكةٍ][٤] ... وأراك من ذاك اللجاج البارك
لرأيت لِلعَين اللئيمة سحنة ... وعلا بصَفْع عَرْك أُذْنك عاركُ
وشغُلتَ عن ذم الأنام بشاغل ... وثَناك خصمٌ من أبيك مُماحك
قسماً بمن سَمَكَ السماء مكانها ... ولديه نفس رداءِ نفسك شائك
لأقول للمغرور منك بشيبةٍ ... بيضاء طيُّ الصُّحفِ منها حالك
لا تأمَنَنْ للذئب دفع مضَرَّة ... فالذئبُ إن أعفيتَه بك فاتك[٥]
عارٌ على الملِكِ المنزه أن يرى ... فى مثل هذا للملوك مسالك
فكلامُه للدِّين سمٌّ قاتل ... ودنوُّه للعِرض داءٌ ناهك

---

(١) فى «ج» و «ت» (ان سم) . (٢) هكذا فى «ج» . وفى «ت» (كلهم) .
(٣) هكذا فى «ت» . وفى «ك» : (لو ما ترى حنفد) . وورد البيت كله فى «ج» كالآتى : (لو اما ترى حفيدا من ابن يضاجع جده ويناسك) وفى الزيتونة (أو ما ترى حفيد ابن الخ) .
(٤) فى «ك» و «ت» (مركوب لهو المحجة ركاكة) (٥) فى «ك» أشارك .

فعليه ثم على الذى يُصغى له ... ويلٌ يعاجُله وحتْفٌ واشك
وأتاه من مثواه آتٍ مُجْهِزٍ ... لِدَم الخناجر بالخناجر سافك

وهى طويلة تشتمل من التعريض والصريح على كل غريب ، واتخذ لها كِنانة خشبية كأوعية الكتب ، وكتب عليها : «رقاص مُعَجَّل، إلى مامِلك بن المُرَحَّل». وعمد إلى كلب ، وجعلها فى عنقه ، وأوْجَعه خبطاً حتى لا يأوى إلى أحد، ولا يستقر ، وطرده بالزقاق متكتما بذلك . وذهب الكلب وخلفه من الناس أمّة ، وقرئ مكتوب الكِنانة [1] ، واحتُمِل إلى أبى الحكم ، ونُزِعت من عنق الكلب ، ودُفعت إليه ، فوقف منها على كل فاقِرةٍ [2] كفّت من طِماحه ، وغضّت عن عِنان مجاراته ، وتُحدِّث بها مدة ، ولم يَغِب عنه أنها من حيل ابن رشيق ؛ فعوّق سهام المُراجعة ، ثم أقصر مكبُوحا ، وفى أجوبته عن ذلك يقول :

كلاب المزابل آذيننى [3] ... بأبوالهن على باب دارى
وقد كنتُ أوجِعُها بالعصا ... ولكن عوَت من وراء الجدار

واستدعاه بآخرة أمير المغرب السلطان أبو يعقوب ، فاستكتبه ، واستكتب أبا الحكم صدَقةً ، فيقال أن جرّ عليه خَجْلَةً كانت سبب وفاة أبى على . ودخل الأندلس ، وحَطَّ بها بألمريّة ، وقد أصيب بأسر عياله ، فتوسل إلى واليها من قرابة السلطان الغالب بالله ، بشعر مدحه فيه من قصيدة أولها :

مُلْقِى النوى ملقٍ لبعض نوالكا ... فاشفِ المُحبَّ ولو بِطَيْف خيالكا

ومنها :

لا تحسَبَنّى من فلانٍ أو فلا [4] ... أنا من رجال الله ثم رجالِكا

---

(١) فى «ك» : الكتابة .
(٢) أى داهية .
(٣) فى «ك» والملكية : أدبتنى .
(٤) فى «ك» : فل .

ومنها :

نصب العدو حبائلا لحبـــائبي وعَلِقْتُ فى استخلاصها بحبالـكا

وفى خاتمها :

وكفاك شرَّ العين عيبٌ واحد لا عيب فيه سوى فلول نصالـكا

ولحق بغرناطة ، ومدح السلطان بها ، ونجحت لديه مشاركة الرئيس بألمريّة . فجبر الله حاله ، وخلّص أسره .

ومما جمع فيه بين نثره ونظمه [ما كتبه][1] لمّا كتب إليه الأديب الطبيب صالح بن شريف بهاتين القصيدتين ، اللتين تَنازع فيهما الأقوامُ ، واتفقوا[2] على أن يحكم بينهما الأحلام ، وعبّر عن ذلك الأقلام ، ولينظرهما من تشوّق إليهما بغير هذا الموضع .

تواليفه

وأوضاعه غريبة ، واختراعاته عجيبة ، تعرّفت أنه اخترع فى سفرة الشطرنج شكلا مستديراً . وله الكتاب الكبير فى التاريخ ، والتلخيص المسمى « بميزان العمل » وهو من أطرف الموضوعات ، وأحسنها شهرة[3] .

وفاته

كان حيا عام أربعة وسبعين وستمائة[4] .

---

(١) ساقطة فى « ك » وفى الملكية .

(٢) فى « ك » وانتفوا .

(٣) وردت فى المخطوطين : شهير .

(٤) هكذا فى « ح » . وفى « ك » وسبعمائة . وهو تحريف .

حبُّوس بن ماكْسَن بن زِيرى بن مَناد الصَّنهاجى

يكنى أبا مسعود ، ملك إلبيرة وغرناطة ، وما والاها .

حاله وأوّليته

أما أوّليّته فقد مر ذلك بما فيه كفاية عند ذكر بُلكّين . ولما دخل زاوى ابن زيرى على الأندلس غبّ إيقاعه بالمرتضى ، الذى نَصَبَته الجماعة ، واستيلائه على محلّته بظاهر غرناطة ، وخاف تمالؤ الأندلس عليه ، ونظر للعاقبة ، فأسند الأمر إلى ابن أخيه ، حَبُّوس بن ماكْسَنْ ، وكان بحصن أشتر[1] ، فلما ركب البحر من المُنَكَّب ، وودّعه به زعيم البلدة وكبير فقهائها أبو عبد الله بن أبى زَمَنين ، ذهب إلى ابن أخيه المذكور واستقدمه ، وجرت بينه وبين ابن عمه المُتخلِّف على غرناطة من قبل والده ، محاورة أنجلت عن رحيله تبعاً لأبيه ، وانفرد[2] حبُّوس ، فاستبد بالملك ، ورأب الصَّدْع سنة أحد عشر وأربعمائة ، قال ابن عَذارى فى تاريخه : فانحازت صَنهاجة مع شيخهم ورئيسهم حبُّوس بن ماكْسَن ، وقد كان أخوه حُباسة هلك فى الفتنة ، وبقى منهم معه بعد انصراف زاوى إلى إفريقية ، جماعة عظيمة ، فانحازوا إلى مدينة[3] غرناطة ، وأقام حبُّوس بها مُلْكاً عظيماً ، وحامى رعيته ممن جاوره من سائر البرابرة المنتشرين حوله ، فدامت[4] رياسته .

وفاته

توفى بغرناطة سنة ثمان وعشرين وأربعمائة .

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين والملكية : أشد . وأشتر من حصون غرناطة القديمة .

(٢) فى المخطوطين والملكية : وأنفذ .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : المدنية .

(٤) كذا فى « ج » . وفى « ك » : فرامت .

الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

صفته وحاله

كان أصْهَبَ العين ، أسمر ، أقنى ، مُعسَّل اللحية ، جهير الصوت ، طويل الصُّلب ، قصير الساقين ، عظيم الساعد ، أفصم[١] ؛ وكان ملكاً جليلاً ، عظيم الصِّيت ، رفيع القدر ، عالى الهمة ، فقيهاً بالمذهب ، عالماً بالأنساب ، حافظاً للتاريخ ، جمّاعاً للكتب ، محبّاً فى العلم والعلماء ، مشيراً[٢] للرجال من كل بلد ؛ جمع العلماء من كل قطر ؛ ولم يكن فى بنى أمية أعظم همة ، ولا أجلّ رتبة فى العلم ، وغوامض الفنون منه . واشتهر بهمته بالجهاد ، وتُحدّثَ بصدقاته فى المَحْل، وأملته الجبابرة والملوك .

دخوله إلبيرة

قال ابن الفيّاض ؛ كُتب إليه من الثغر الجنوبى[٣] أن عظيم الفرَنْجة من النصارى حشدوا إليه [وسألوه المِرة][٤] بطول المحاصرة[٥] ؛ فاحتسب شخوصه بنفسه إلى ألْمرية[٦] فى رجب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ، فى جحفل لجِبٍ من

(١) كذا فى «ج» . وفى «ك» : أفقم . وساقطة فى الملكية .

(٢) كذا فى «ج» والملكية . وفى «ك» : مشاراً .

(٣) وردت فى المخطوطين : الجنوى وهو تحريف . وما يرد بعد ذلك يؤيد صحة التصويب .

(٤) هكذا فى«ك». وفى «ج» والملكية (وسأله المبرة) والمقصود هنا : وسألوه الاستمرار .

(٥) وردت فى المخطوطين : مطول المحاضرة .

(٦) وردت فى «ج» : المريبة . وفى «ك» : المرتلة . وقد رجحنا أن يكون الثغر المقصود «ألمرية» . وهو قريب ما رسمه «ج» . وقد يكون هذا الثغر أيضاً هو ثغر «مربلة»وهو قريب من الرسم الذى أورده «ك» .

نَجدة[1] الأولياء وأهل المراتب . ولما أحَلّ إلبيرة ورد عليه كتاب أحمد بن يَعْلَى من طرطوشة بنصر الله العزيز وصنعه الكريم على الرّوم ؛ ووافى ألمريّة ، وأشرف على أمورها ، و نظر إلى أسطولها وجدّده ، وعُدَّته يومئذ ثلاثمائة قطعة ، وانصرف إلى قرطبة .

مولده

لست بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثمائة .

وفاتـه

لأربع خلون من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة ، وعمره نحوٌ من ثلاث وستين سنة ، وهو خاتمة العظماء من بنى أمية .

الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان بن أَمية

كنيته أبو العاصى .

« صفته » ؛ آدَمُ ، شديد الأُدْمة[2] ، طويل ، أشمّ ، نحيف ، لم يخْضِب .
بنُوه تسعة عشر من الذكور ، منهم عبد الرحمن ولى عهده .

« بناته » ؛ إحدى وعشرون ؛ أمه أمٌّ ولَد اسمها زُخْرُف .

---

(١) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : صفحة . وفى الملكية (صفوة) والمؤدى واحد .
(٢) الأدمة : أى السمرة .

« وزراؤه وقواده » : خمسة منهم إسحاق بن المنذر ، والعباس بن عبد الله ، وعبد الكريم بن عبد الواحد ، و فُطَيس بن سليمان ، وسعيد بن حسّان .

« قضاته » : مُصْعَب بن عمران ، وعمر بن بشر، والفرج بن كنانة[1] ، و بشر ابن قَطَن ، وعبد الله بن موسى ، ومحمد بن تَليد ، وحامد بن محمد بن يحيى .

« كتابه » : فُطَيس بن سليمان . وعِطَاف بن زيد ، وحجّاج بن العقيلى .

« حاجبه » : عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث .

حـــاله

كان الحكم شديد الحزم ، ماضى العزم ، ذا صولة تتقى ؛ وكان حسن التدبير فى سلطانه ، وتولية أهل الفضل ، والعدل فى رعيته ، مبسوط اليد بالعطاء الكثير ، وكان فصيحاً ، بليغاً ، شاعراً مُجيدا ، أديباً ، نحويا .

قال ابن عذارى : كانت فيه بطالة ، ، إلا أنه كان شجاعاً ، مبسوط اليد[2] عظيم العفو ، وكان يسلط قضاته وحكّامه على نفسه ، فضلاعن ولَدِه وخاصته ، وهو الذى جرَتْ على يده الفَتْـكةُ العظيمةُ بأهل رَبض قُرْطُبة[3] . الذين هاجوا به وهتفوا بخُلعانه ، فأظهره الله عليهم ، فى خَبَر شهير ؛ وهو الذى أوقع بأهل طُليطلة أيضاً ، فأبادهم بحيلة الدُّعاء إلى الطعام بما هو معلوم .

---

(١) وردت فى المخطوطين : قتامه ، وهو تحريف والصواب ما أثبتناه . وقد كان الفرج بن كنانة ، قاضى الجماعة بقرطبة أيام الحكم بن هشام (أنظر قضاة الأندلس ص ٣٥ . وقضاة قرطبة - القاهرة - رقم ٢٣) .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى البيان المغرب : باسط الكف (ج ٢ ص ٨١) .

(٣) الربض : ضاحية قرطبة . وقد حدثت هذه الواقعة التى نكل فيها الحكم بثوار ضاحية الربض سنة ٢٠٢ هـ (٨١٧ م) .

دخوله غرناطة

قالوا، وبإلبيرة وأحوازها تلاقى مع عمه أبى أيوب سليمان بن عبد الرحمن، فهزمه وقتله حسبما ثبت فى اسم أبى أيوب.

شعره

قالوا؛ وكان له خمس جَوارٍ قد استخلَصَهُنَّ لنفسه، وملَّكَهُنَّ أمره؛ فذهب يوماً إلى الدخول عليهن، فتأبَّين عليه، وأعرضْنَ عنه، وكان لا يصبر عنهن، فقال:

قُضُبٌ من البان ماسَتْ فوق كُثْبانِ ... وَلَّين عنى وقد أزْمَعن هِجْرانى
ناشدتُهُنَّ بحقِّى فاعتزَمْنَ على الـ ... ـعصيان حتى خلا منهن هِمْيانى[1]
مَلَكْننى مِلْكَ من ذَلّت عزيمتُه ... للحُبِّ ذُلَّ أسيرٍ مُوثَقٍ عانِى
من لى بِمُغتَصِباتِ الرُّوحِ من بَدَنِى ... يَغْصِبْنَنِى[2] فى الهوى عِزِّى وسُلْطانى

ثم عَطَفْن عليه بالوصال فقال:

نلتُ الوصال بعـــد البُعـاد ... فكأنِّي مَلَكْتُ كلَّ العِباد
وتناهى السرورُ إذ نلت مالم ... يُغْنِ عنه تَكاثُفُ الأجنـاد

مناقبه

أنهى إليه عباس بن ناصح[3] وقد عاد [من][4] الثغر[5] أن امرأة من ناحية

(١) فى الملكية و «ج» (هيمان).

(٢) وردت فى المخطوطين: عصبتنى. وهو تحريف.

(٣) وردت فى المخطوطات الأربعة: صالح. والتصويب من البيان المغرب (ج ٢ ص ٧٥)

(٤) ساقطة فى المخطوطين. ولازمة للسياق.

(٥) كلمة الثغر يقصد به هنا. «الثغر الأدنى» الذى يشمل طليطلة وأعمالها. وهو يقابل اليوم ولاية قشتالة الجديدة. وأما الثغر الأعلى فقد كان يشمل سرقسطة وأعمالها. ويقابل اليوم ولاية أراجون (راجع الحاشية فى ص ١٨٢).

وادى الحجارة[١] سمعها تقول . واغوناه . ياحكم ضيعتنا ، وأسلمتنا ، واشتغلت عنا حتى استأسد[٢] العدو علينا ؛ ورُفع إليه شعر فى هذا المعنى والغرض ، فخرج من قُرْطُبة كاتماً وُجْهَته ، وأوْغَل فى بلاد الشرك ، ففتح الحصون ، وهدّم المنازل ، وقتل وسبى ، وقفل بالغنائم على الناحية التى فيها تلك المرأة ؛ فأمر لأهل تلك الناحية بمال من الغنائم يفْدُون به أسْراهم . ويصلحون به أحوالهم ؛ وخصّ المرأة وآثرها ، وأعطاها عدداً من الأسرى ، وقال لها ، هل أغاثكِ الحكَم ؟ قالت أى والله أغاثنا وما غَفَل عنا ، أعانه الله وأعز نصره .

وفاته

توفى لأربع بقين لذى الحجة سنة ست ومائتين ، وكان عمره اثنين وخمسين سنة . وجرى ذكره فى الرجز من نظمى فى تاريخ دول الإسلام[٣] بما نصه :

حتى إذا الدهر عليه احتكما قام بها ابنه المسمّى حكما
واسْتَشْعَرَ الثورة فيها وانقَبَض مستوحِشاً كالليْثِ أقْعَى وَرَبض
حتى إذا فُرصُته لاحَتْ تَفِض فأفحش الوقعة فى أهل الرَّبَض
[وكان جبَّارا بعيدَ الهِمَّة لم يَرْعَ من آلٍ بها أو ذمَّة][٤]

(١) وادى الحجارة فى مدينه من مدن الأندلس القديمة ما تزال قائمة حتى اليوم . وهى تقع شمال غربى مدريد على مقربة منها . وبالإسبانية Guadalajara .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : أست أسر .

(٣) هو كتاب رقم الحلل الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة .

(٤) هذا البيت وارد فى المخطوطين والملكية ، وساقط فى « ت » .

حكم بن أحمد بن رجا[١] الأنصارى

من أهل غرناطة ، يُكنى أبا العاصى .

حاله

كان من قرائها[٢] ، ونبهائها ؛ وكان من أهل الفضل والطلب ، وإليه يُنسب مسجدُ أبي العاصى ، وحمام أبي العاصى ودربُه بغرناطة . وكفى بذلك دليلا على الأصالة والتأثل ؛ ذكره أبو القاسم ولم يذكر [من][٣] أمره مزيداً على ذلك .

حاتم بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله ابن سعيد بن الحسن بن عثمان بن سعيد بن عبد الملك بن سعيد بن عمار بن ياسر

« أوليّته » . قد مرّ بعض[٤] ذلك وسيأتى بحول الله .

حاله

قال أبو الحسن بن سعيد فى كتابه الموضوع فى مآثر القاهة[٥] : كان صاحب

---

(١) هكذا ى « ت » . وى « ك » : وجا . وفى « ج » : رجاء .

(٢) فى « ج » : قراريها . وهو تحريف . وفى « ك » وزارئها ، وفى « الملكية » غررها . والأولى أرجح . وتؤيده سيرة المترجم له .

(٣) ساقطة فى المخطوطين .

(٤) فى المخطوطين : بعين . وهو تحريف .

(٥) هو كتاب « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » والقلعة هى قلعة يحصب .

سيف وقلم وعلم ، ودخل فى الفتنة المَرْدَنِيشِيَّة[١] حسبما مر ذلك عند ذكر أخيه أبى جعفر ، فصار من جُلَساء الأمير أبى عبد الله [محمد][٢] بن سعد بن مَرْدَنيش بمرسية ، وأرباب آرائه ، وذوى الخاصَّة من وزرائه ، وكان مشهوراً بالفروسية والشجاعة [والرأى][٣] .

حكاياته ونوادره

قال ، كان التَنْدِير والهزل قد غلبا عليه . وعُرِف بذلك فصار يُحمل منه مالا يحمل من غيره ؛ قالوا ، فحضر يوماً مع الأمير محمد بن سعد ، يوم الجلاب[٤] من حروبه ، وقد صبر الأمير صبراً جميلاً[٥] ، ووالى الكَرّ المرَّة بعد المرة . وذلك بمرأى من حاتم ؛ فرد رأسه إليه . وقال ياقائداً أبا الكَرَم كيف رأيت ، فقال له حاتم ، لو رآك السُّلطان اليوم لزاد فى مرتَّبك . فضحك ابن مَرْدَنيش . وعلم أنه أراد بذلك : لا تليق به المُخاطرة . وإنما هو للثَّبات والتدبير . وقال له يوماً وقد جرى ذكر الجَنَّات ، جُنَّ اليوم ياأبا الكرم على بستانك بالزَّنقات ، وأردت أن أكون من ضيافتك ؛ فقال عبد الرحمن بن عبد الملك وهو إذ ذاك وزير الأمير ، وبيده المجابى والأعمال . لعل الأمير اغتر بسماع اسمه حاتم . مافيه من الكرم إلا الاسم ؛ فقال الحاتم[٦] . ولعل الأمير اغتر[٧] بسماع [أمانة][٨] عبد الرحمن ، فقدمة على وزرائه ، وما عنده من

(١) نسبة إلى ابن مردنيش . وقد سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ٢١٨) .

(٢) الزيادة من عندنا إكمالا للاسم .

(٣) الزيادة من « ت » .

(٤) وردت فى « ح » يوم الحلاب . وهو تحريف والصواب (الجلاب) . والجلاب أو فحص الجلاب هو اسم لمكان يقع على مقربة منغربى مرسية . وقد نشبت فيه الموقعة التى تسمى بهذا الاسم بين قوات ابن مردنيش والموحدين . وهزم فيها ابن مردنيش هزيمة ساحقة ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٥٦٠ ﻫ (أكتوبر سنة ١١٦٤ م) .

(٥) كذا فى « ج » . وفى « ك » : عظيما .

(٦) هكذا فى المخطوطين .

(٧) ساقطة فى المخطوطين . ويحتمها السياق .

(٨) واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

الأمانة إلا الاسم ؛ فقال ابن مَرْدنيش وقد ضحك ، الأولى فهمتُ ، ولم أفهم الثانية ؛ فقال له كاتبه أبو محمد السلمى ، إنما أشار إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : أمين هذه الأمة ، وأمين فى أهل السماء ، وأمين فى أهل الأرض[1] ؛ فطرب ابن مردنيش ، وجعل يقول : أحسنتما .

شعره

قال أبو الحسن ، ولم أحفظ[2] من شعر حاتم ما أورِدُه فى هذا المكان إلا قوله يخاطب حفصة الرَّكُونية الشاعرة ، التى يأتى ذكرها ، حين فرَّ إلى مرسية ، وتركها بغرناطة :

أحنُّ إلى ديارك ياحيـــاتى [وأبصر ذو وهد سيل الظبات][3]
وأهوى أن أعود إليك لـكن [خفوق البند عاق عن القنات][4]
وكيف إلى جَنابك[5] من سبيل وليس يحُـــلُّه إلا عُـــداتى

مـــولده

فى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة . وقال أبو القاسم الغافقى فيه عند ذكره : كان طالباً نبيهاً جميلاً سَرِيًا ، تام المروءة ، جميل العشرة .

وفـاته

قال ، مات بغرناطة سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

---

(١) وردت فى « ج » (أمير فى أهل السماء وأمير فى أهل الأرض) والتصويب من الملكية .

(٢) كذا فى « ج » . وفى « ك » : حفظت .

(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطين .

(٤) وردت هذه الشطرة فى المخطوطين كالآتى : (خفوق البندر عاق القنات) .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : جانبك .

حُباسة [بن ماكْسَن بن زيرى بن مناد الصّنهاجى] [١]

كان شهماً ، هيِّباً ، بُهْمَةً من البُهم ، كريماً فى قومه ، أبيًّا فى نفسه ، صَدْرًا من صدور صَنْهاجة ؛ وكان أشجع من أخيه حَبُّوس .

وفــــاته

قال أبو مروان عند ذكر وقعة « رمداى » بطرف قرطبة فى حروب البرابرة لأهلها فى شوال عام اثنين وأربعمائة ، قال : واسْتَلْحَم حُباسة بن ماكْسَن الصنهاجى ابن أخى زاوى بن زيرى ، [وهو] [٢] فارس صنهاجة طُرًّا وفَتاها ؛ وكان قد تقدم إلى هذه الناحية . زعموا لما بلغه اشتداد الأمر فيها . فرمى بنفسه على طُلَّابها . واتفق أن ركِب بسرج طَرِى العمل مُنفتح اللِّبْد ، وخانه مقعدُه عند المجاولة ؛ لتقلُّبه على الصَّهوة ؛ وقيل إنه كان مُنتبذًا على ذلك ، فتطارح على من بإزائه ، ومضى قُدُماً بسَكْرَى شجاعته ونشْوته ، يصافح البيوت بصفحته ، ويستقبل القنا بلَبَّاته ، لا يعرض له شيء إلا حطَّه ، إلى أن مال به سرجُه . فأتيح حِمامُه لاشتغاله بذلك ، بطعنة من يد المسمى النبيه النصرانى . أحد فرسان الموالى العامريين ؛ فسقط لفيه ، وانتظمته رماحُ الموالى فأبادته ؛ وحامى أخوه حَبُّوس ، وبنو عمه . وغيرهم من أنجاد البرابرة على جثته ، فلم يقدروا على استنقاذها . بعد جلاد طويل . وغلب عليه الموالى فاحتزُّوا رأسه ، وعجّلوا به إلى قصر السلطان . وأسْلَموا جسده للعامة ؛ فركبوه بكل عظيمة . واجتمعوا إليه اجتماع البُغاث [٣] على كبير الصُّقُورة . فجرُّوه فى الطرق

---

(١) وردت كلمة حباسة فقط فى المخطوطين وفى الملكية . والزيادة ما بين الحاصرتين من عندنا . ويبدو أن هذه الترجمة وردت فى الإحاطة فى غير موضعها من حيث الترتيب الأبجدى .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى الملكية .

(٣) فى المخطوطين : النفاث .

وطافوا به الأسواق ، وقطعوا بعض أعضائه، وأبدوا شِواره وكبده بكل مكروه من أنواع الأذى، بأعظم ما رُكب ميت ؛ فلما سئموا تجراره[١] ؛ أوقدوا له ناراً فحرقوه بها جرياً على ذميم عادتهم ، فى قُبْح المثلة. وإثم القُدْرة ؛ وانجلت الحروب فى هذا اليوم لمُصابه ، عن أمر عظيم. وبلغ من جميع البرابرة الحزن عليه مناله ، ورأت أن دماء أهل قُرْطبة جميعاً لاتعدله . من الكتاب « المتين » .

حبيب بن محمد بن حبيب

من أهل النَّجَش[٢] ، من وادى المنصورة[٣] أخوه مالك ، النّجشى ، دباب الحَلَقات ، ومراد أذناب المقربين .

حـــاله

كان على على سجيّة غريبة من الإنقباض المشوب[٤] بالاسترسال ، والأمانة مع الحاجة ، بادى الزّى[٥] واللسان ؛ يحفظ الغريب من اللغة ، ويحرِّك شعراً لا غاية وراءه فى الرَّكاكة. وله قيامٌ على الفقه وحفظ القرآن ونَغَمةٌ حسنة عند التّلاوة . قَدِم الحضرة غير ما مرة ، وكان الأستاذ، إمامُ الجماعة. وسيبويه الصناعة ، أبو عبدالله ابن الفخّار المعروف بالبيرى[٦] ، أبا مثواه ومحطَّ طيّته ، يطلب منه مشاركته[٧] بباب السلطان فى جراية يرغب فى تسميتها ، وحال يروم إصلاحها ، فقصدنى مُصْحباً

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى الملكية .

(٢) هكذا فى « ج » وفى الملكية (النحش) . والأولى أرجح .

(٣) وادى المنصورة هو المنطقة الواقعة على نهر المنصورة الذى يخترق شمال ولاية المرية بين برشانة ومدينة المنصورة الواقعة على النهر المذكور .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : المنشوب .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى الملكية (الرأى) والأولى أرجح .

(٦) أعنى الإلبيرى نسبة إلى إلبيرة .

(٧) وردت فى المخطوطين محرفة (متاركته . ماركته) .

منه رقعة تتضمن الشَّفاعة ؛ وعرض علىّ قصيدة من شعره [يروم][1] إيصالها إلى السلطان ، فراجعت الأستاذ برقعة أثبتها على جهة الإحماض[2] وهى :

« ياسيدى الذى أتشرّفُ ، وبالانتماء إلى معارفه أتميّزُ ، وصل إلىَّ عميدُ حصن النجش ، وناهض أفراخ ذلك العُش[3] ، تلوح عليه مخائل أخيه المسمى بمالك ، ويترجَّح به الحكم فى الغاية فى أمثال تلك المسالك ، أشبه من الغُراب بالغُراب ، وإنها لمن عجائب الماء والتراب ؛ فألقى من ثنائكم الذى أوْجَبَتْه السيادةُ والأبوةُ ، ما يقصر عن طيب الأُلُوّة ؛ وتخجل عند مشاهدته الغرر المَجْلُوّةُ ؛ وليست بأولى بِرٍّ[4] أسْدَيتمُ ، ومكرُمة أعدْتم وأبْدَيتم ، والحسنات وإن كانت فهى [إليكم][5] منسوبة . وفى أياديكم محسوبة ، وبَلَوتُ من الرجل طلعة نُتَفَة ، لم يغادر من صفات النبل صفة ، حاضر بمسائل [من][6] الغريب ، وقعد مقْعَد الذكى[7] الأريب ، وعرض علىّ حاجته وغرضه ، وطلب منى المشاركة ، وهى منى لأمثاله مُفْتَرَضة ، ووعدنى بإيقافى على قصيدة حَبَّرها ، وأنسى بالخبر خبرها ؛ وباكرنى بها اليوم مُباكرة السَّاقى بدِهاقه ، وعرَضها علىّ عرض التاجر نفائِسَ أعلاقه ؛ وطلب منى أن أهذب له ما أمكن من معانيها وألفاظها ، وأجلو القذى عن ألحاظها ؛ فنظرت منها إلى روضٍ كثرت أثغابه[8] وجيشٍ من الكلام زاحم خواصَّه أوشابه ، ورُمْتُ الإصلاح ما استطعتُ ، فعجزتُ عن ذلك وانقطعتُ ، ورأيت لاجدوى[9] إلى ذلك الغرض ؛ ما لم تُبَدَّلُ الأرض غير الأرض . وهذا

(١) ساقطة فى المخطوطين . (٢) أى على سبيل التفكهة .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : العشر .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى الملكية (يد) .

(٥) ساقطة فى المخطوطين . (٦) الزيادة من الملكية .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الزكى .

(٨) أغفلت فى المخطوطين . والملكية .

(٩) هكذا فى « ك » . ك ، وفى « ج » : جدلوا .

الفنّ . أبقى الله سيدى ، ما لم يمتّ إلى الإجادة بسبب وثيق ، وينتمى فى الإحسان إلى مجد عريق ، كان رفضه أحسن وأحمد ، واطراحُه بالفائدة أعود ؛ وإذا اعتبره مَن عدل وقسط ، وجده طريقين لا يقبل الوسط ، فمنهما مالٌ يُقتنى ويُدَّخَر ، وسافلٌ يُهزء به ويُسخَر ، والوسط ثقيل لا يُتَلبَّس به [نبيل][1] . قيل لبعضهم ألا تقول الشعر ؟ فقال أريد منه ما لا يتأتى لى ، ويتأتّى لى منه ما لا أريدُه . وقال بعضهم ، فلان كمُغَنٍّ وسط لا يجيد فيُطرب ، ولا يُسىء فيُسلى[2] . فاقتضى نظرُكم الذى لا يفارق السَّداد والتَّوْفيق ، وإرشادُكم الذى رافقه[3] الهدى ونعم الرفيق ، أن يشير عليه بالاستغناء عن رفعها ، والامتساك عن دفعها ؛ فهو أقوى لأمته[4] ، وأبقى على سكنته وسَمْته ، وأستر لما لديه ، قبل أن يمدَّ أبو حنيفة رجليه ؛ [وإنْ][5] أصمّت عن هذا العَذْل مسامعه ، وهفت به إلى النجاح مطامعه ، فليعتمد على الاختصار ، فذو الإكثار جمٌّ العثار ، وليَعْدل إلى الجادة عن ثنيات[6] الطُّرُق ، ويجتزئ عن القلادة بما أحاط بالعُنُق ؛ فإذا رتّبها[7] وهذبها ، وأوردها من موارد العبارة أعذبها ، توليتُ زفافها وإهداءها ، وأمطتُ بين يدى الكفوء الكريم رداءها ، والسلام » .

حمدة بنت زياد المُكتِّب

من ساكنى وادى الحمّة بقرية بادى من وادى آش .

---

(١) وردت فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : فيلهى . والمؤدى واحد .

(٣) فى المخطوطين : أرفقه .

(٤) الأمت هو المكان المرتفع . والمقصود هنا مقامه ومكانه .

(٥) ساقطة فى المخطوطين . ويستلزمها السياق .

(٦) فى المخطوطين وفى الملكية . نبيات . والتصويب أرجح .

(٧) فى المخطوطين وفى الملكية : رهبا . وهو تحريف .

حمالها

قال أبو القاسم : نبيلة ، شاعرة ، كاتبة ؛ ومن شعرها وهو مشهور :

أباحَ الدمعُ أسراري بِوادي ... له في الحُسْنِ آثارٌ بَوادي
فمن نَهْرٍ[1] يطوفُ بكلِّ روضٍ ... ومن روضٍ يطوف بكل وادي
ومن بين الظِّبا مهاة إنس[2] ... [سبَتْ لبّي][3] وقد سلبت فؤادي
لها لحظٌ ترقّده لأمرٍ ... وذاك الأمرُ يمنعُني رُقادي
إذا سَدَلت ذوائبها عليها ... رأيت البدْر في جُنْح السوادي
كأن الصُّبْحَ مات له شقيق ... فمن حزن تسربل في الحدادي

ومن غرائبها :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا[4] ... وما لهم عندي وعندك من ثار
وشَنّوا على آذاننا[5] كل غارة ... وقلّت حُماتي عند ذاك وأنصاري
رَمَيْتُهمُ[6] من مُقْلَتيك وأدمُعي ... ومن نفَسي [بالسيف والسيل][7] والنار

وقال أبو الحسن بن سعيد في حَمْدة وأختها زينب : شاعرتان ، أديبتان ، من أهل الجمال ، والمال ، والمعارف والصَّون ، إلا أن حُبَّ الأدب : كان يَحْمِلُهما على مخالطة أهله ، مع صيانة مشهورة ، ونزاهةٍ موثق بها .

---

(١) فى المخطوطين وفى الملكية : واد . والتصويب من النفح .
(٢) فى المخطوطين وفى الملكية . رمل . والتصويب من النفح .
(٣) هكذا فى النفح . وفى «ح» هت لى . وفى «ك» هبت لبى . وفى المغرب : لها لبى .
(٤) هكذا فى المخطوطين وفى الملكية . وفى النفح والمغرب : فراقنا .
(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والمغرب : أسماعنا .
(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى المغرب والنفح : غزوتهم .
(٧) فى المخطوطين والملكية : السيل . والبل . والتصويب من النفح .

حفصة بنت الحاج الرَّكُونى[١]

من أهل غرناطة ، فريدة الزمان فى الحسن ، والظرف ، والأدب ، واللَّوْذَعيَّة ؛ قال أبو القاسم ، كانت أديبة ، نبيلة ، جيِّدة البديهة ، سريعة الشعر .

بعض أخبارها

قال الوزير أبو بكر بن يحيى بن محمد بن عمر الهَمْدانى ، رَغبتْ أختى إلى حَفْصة أن تكتب شيئاً بخطها فكتبت .

يارَبَّةَ الحُسْن بل يارَبَّةَ الكَرَم ... غُضِّى جفُونَك عما خطه القلم
تصفحيه [بِلَحْظ الوُدُّ مُنْعمة][٢] ... لا تحفلى بقبيح[٣] الخَطِّ والكَلِم

قال أبو الحسن بن سعيد ، وقد ذكر أنهما باتا بحَوْز مُؤَمَّل[٤] فى جَنَّة له هنالك على ما يبيتُ عليه أهل الظرف والأدب ، قال :

رعى الله ليلاً لم يُرَع بمذمم ... [وعانا ووارانا بحَوْز مُؤَمَّل][٥]
وقد نفحت من نحو نجد أريجه[٦] ... إذا نَفَحت هبَّت بريح[٧] القَرَنْفَل
وغرّد قمرىٌّ على الدَّوْح وانثنى ... قضيبٌ من ريحان من فوق جدول
يَرَى الرَّوْض مسروراً بما قد بدا له ... عناق وضَمٌّ وارتشافُ مُقَبَّل

---

(١) نسبة إلى ركانة Requena ، وهى بلدة أندلسية قديمة تقع غربى ثغر بلنسية .
(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . ووردت محرفة فى المخطوطين : (خط الود سقيه)
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح : برديء .
(٤) هو بقعة من متنزهات غرناطة الإسلامية اشتهرت بجمالها . (راجع الحاشية فى ص ٤٤١) .
(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطين ووردت فى النفح كالآتى : (عشية دارانا بحوز مؤمل) .
(٦) فى المخطوطين : أريجية . والتصويب من النفح .
(٧) فى النفح : بريا .

فقالت :

لعمرك ما سرّ الرياض وصالُنا[١] ... ولكنه أبدى لنا الغلّ والحسد
ولا صفّق النهرُ ارتياحاً لقُربنا ... ولا مَدّح[٢] القمرىُّ الاّ لما وجد
فلا تحسبنّ الظّن الذى أنت أهلُه ... فما هو فى كل المواطن بالرّشد
فما خِلْت هذا الأُفق أبدى نجومه ... لأمرٍ سوى كى ما يكون لنا رصد

قال أبو الحسن بن سعيد ، وبالله ما أبدع ما كَتَبت به إليه وقد بلغها[٣] أنه عَلِق بجارية سوداء أسعتْ له من بعض القصور ، فاعتكف معها أياماً وليالى . بظاهر غَرْناطة ، فى ظلّ مَمْدود ، وطيب هوى مَقْصور وممدود :

يا أظرف الناس قَبْل حال ... أوقعه نحوه القَدَر
عَشِقْتَ سوداء مثل ليل ... بدائعُ الحُسْن قَدْ سَتر
لا يظهر البِشْرُ فى دُجاها ... كلاَّ ولا يُبْصَرُ الخَفَرُ
بالله قل لى وأنت أدْرَى ... بكُلِّ مَنْ هام فى الصور[٤]
مَنْ الذى هام فى جِنان ... لا نُوّار فيه ولا زَهر

فكتب إليها[٥] بأظرف اعتذار ، وألطف أنوار :

لا حُكْم إلا لآمر ناهٍ ... له من ذَنْبه مُعْتَذر
له مُحيّا به حياتى ... أعيذُ مداه بالسّور
كصُحْبة العيد فى ابتهاج ... وطَلْعة الشّمس والقمر

---

(١) هكذا فى المخطوطين والملكية . وفى النفح : (لعمرك ما سر الرياض بوصلنا) .

(٢) فى النفح : غرد .

(٣) فى المخطوطين : بلغنا ، وهو تحريف .

(٤) فى المخطوطين : المسطور .

(٥) هكذا فى «ك» . وفى «ج» : إليه .

سَعْدُه لم أمِل إليه إلا اطِّرافاً له خَـبَر
عَدِمت صُبْحى فاسوَد عشْـ ـقى وانعكس الفِكْرُ والنظَّار
إن لم تَلُح يانعيم رو حى فكيف لا تَفْسُدُ الفِكَر

قال . وبلغنا أنه خلا مع حاتم وغيره من أقاربهم . لهم طربٌ ولهو . فمرّتْ على الباب مُسْتترة . وأعطت البوّاب بطاقةً فيها مكتوب :

زائر قد أتى بجيد غزال[1] طامع من مُحبه بالوصال
أترا كم بإذنـكم مُسْعِفيه أم لـكم شاغلٌ من الأشغال

فلما وصلت الرقعة إليه ، قال ورب الـكعبة ، ما صاحبُ هذه الرقعة إلا الرُّقيعة حفصة ، ثم طلبت فلم تُوجد . فـكتب إليها راغباً فى الوصال والأُنس الموصول :

أىْ شغْل عن الحبيب يعُوق يا صاحباً قد آن منه الشُّروق
صِلْ وواصلْ فأنْتَ أشهى إلينا من جميع المنى فـكم ذا تَشُوق
بحياة الرِّضَى يَطِيبُ صَبوحٌ عَرْفاً إن جَفَوْتَنا أو غبُوق
لا وَذلُّ الهوى وعزِّ التلاقى واجتماع إليـه عَزَّ الطريق

وذكرها الأستاذ فى «صلَته» ، فقال : وكانت أستاذة وقتها ، وانتهت [إلى][2] أن علَّمت النساء فى دار المنصور ، وسألها يوماً أن تُنْشده ارتجالاً فقالت :

أمنن علىَّ بصكٍّ يكُونُ للدهر عُدَّة
تخط يمناك فيـه الحمدُ لله وَحْدَه

قال : فَمَنّ عليها ، وحرزَ لها ما كان لها من مِلْك .

---

(١) فى نفح الطيب : الغزال .

(٢) ناقصة فى المخطوطين ويقتضيها السياق .

وفاتها

قالوا : تُوفيت بحَضْرَة مرّاكُش فى آخر سنه ثمانين أو إحدى وثمانين وخمسمائة .

الخضر بن أحمد بن الخضر بن أبى العافية

من أهل غرناطة ، يكنى أبا القاسم .

حـاله

من كتاب « عائد الصلة » : كان رحمه الله صَدْراً من صدور القضاة ، من أهل النظر والتقييد ، والعُكوف على الطَّلب ، مضطَّلعاً بالمسائل ، مسائل الأحكام ؛ مهتدياً لمظنّات النُّصوص ، نسخ بيده الكثير ، وقيَّد على الكثير من المسائل ، حتى عُرف فضله ، واستشاره الناس فى المشكلات . وكان بصيراً بعَقْد الشروط ، ظريف الخطاب[1] ، بارع الأدب . شاعراً مُكْثراً ، مصيباً غرض الإجادة . وتصرّف فى الكتابة السلطانية ، ثم فى القضاء ، وانتقل فى الولايات[2] الرفيعة النَّبيهة . وجرى ذكرُه فى « التَّاج المُحَلّى » بما نصه :

« فارس فى ميدان البيان . وليس الخبرُ كالعِيان ؛ وحاملُ لواء الإحسان ، لأهل هذا الشَّان ؛ رَفَل فى حُلَل البدائع فسحب أذيالها ، وشَعْشَع أكواس العجائب فأدار جرياً لها ، واقتحم على الفحول أغْيالها[3] ، وطَمَح إلى الغاية البعيدة

---

(١) هكذا فى « ح » والملكة . ووردت فى « ك » الخط . والأولى أرجح .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ح » : الولاية . والأولى أنسب للسياق .

(٣) أى أجماتها .

فنالها . وهو كوكب للمعضلات(١) فقال أنا لها . عكف واجتهد . وبرز إلى مقارعة المشكلات ونهد . فعلّم وحصّل . وبلغ الغاية وتوصّل ، وتولّى القضاء ، فاضطلع بأحكام الشرع . وبرع فى معرفة الأصل والفرع . وتميّز فى المسائل بطول الباع ، وسعة الذراع . فأصبح صدراً فى مصره وغرّة فى صفحة عصره وسيره من بديع كلامه ، وهنات(٢) أقلامه . وغرر إبداعه(٣) ودرر اختراعه . ما يستنير لعلم الحليم ، وتُلقى له البلغاء يد التسليم » .

شعـــره

قال فى غرض الحكمة والأمثال :

عزّ الهوى نقصان والرأىُ الذى ... يُنجيك منه [إذا اوتأبيتَ مرءوما](٤)
فإذا رأيتَ الرأى يتّبعُ الهوَى ... خالِفْ وفاقهما تُعَدّ حكيما
[وكيف تخاف من الحليم مراجياً](٥) ... خِفْ مِنْ تَصيحكَ ذى السفاهة شوما(٦)
واحذر مُعادات الرجال توقّياً ... منهم ظلوماً كنت أو مظلوما
فالناس إما جاهـلٌ لا يتّقى ... عاراً ولا يخشى العقوبةَ لُؤما
أو عاقلٌ يُرمى بسهم مكيدةٍ ... كالقوس تُرسل سهمها مسموما
فاحْلَمْ عن القسمَين تَسْـلَمْ منهما ... وتَسُدْ فتُدْعى سيّداً وحليما
ودَع المعادات التى من شأنها ... أن لا تُديم على الصّفاء قديما

---

(١) كذا فى «ج» . وفى «ك» المخترعات .
(٢) هنات أى الكلمات البديعة النادرة .
(٣) هكذا فى «ج» . وفى «ك» الملكية براعته . والأولى أرجح وأكثر اتفاقاً مع السياق .
(٤) وفى نص آخر : (إن تأبت حزيما) .
(٥) وفى نص آخر : (فما تروم من الحليم مراحاً) .
(٦) فى «ك» : شرما . وفى «ج» : نترما .

أبت المغالَبَةُ الودَاد فلا تـكُنْ ممن يُغـالب ماحَييت نَديمـا
وإذا مُنيت[١] بقُرْبه فاخفِضْ له جَنـاحَ الذّل واخضَعْ ظاعِناً ومُقيما
إنَّ الغريب لـكالْقَضِيب مُحـاير إن لم يمِـلِ للريح عاد رميما
وارْع[٢] الـكفاف ولا تجاوز حَدَّه ما بعْدَه يَجْنِى عليك هُمُـوما
وابْسُطْ يَدَيْك متى غَنيت ولا تـكُنْ فيما يـكونُ به المـديحُ ذَميما
وإذا بذَلت فلا تُبذر إنَّ ذا التبـذير [يومئـذ أخُوه][٣] رجيما
وعِف الورود إذا تزاحم مَوْرِدٌ واحسَبْ ورودَ المـاء منه حميا
واصحَبْ كريم الأصل ذا فَضْلٍ فمن يَصْـحَب لئيم الأصْل عُدَّ[٤] لئيما
فالفضلُ من لِبْس الـكرام فمن عرا عنه فليس لمـا يقول كريما
إن المقارَنَ بالمقارِن يقتَدى مثلٌ [جَرَى جَرْى الرياح][٥] قديما
وجِمـاعُ كلٍّ الخير فى التقوى فلا تَعْدَم حُـلَى التَّقوى تُعَدَّ عديما

وقال يصف الشَّيْب من قصيدة . وهى طويلة : أولها :

لاح الصباحُ ، صباحُ شَيْب المَفْرِق فاحمـد سُراك نجوتَ ممَّا تَتَّقى
هى شَيْبَةُ الإسلام فاقْدِر قَدْرَها قد أعتقَتْـك وحَقٌّ قدر المُعْتِقِ
خَطَّت بفَوْدك أبيضاً فى أسْـودٍ بالعكس من مَعْهُود خطٍّ مُهرَق
كالبَرْق راعَ بسَيْفه طَرَف الدُّجا فأعار دُهْمَته شَـتات الأبْلَق
كـالفَجْر يُرْسِـل فى الدُّجْنَة خيطه ويجُر[٦] ثوب ضـيائه بالمشرِق

(١) فى المخطوطين : منيت .
(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : واربع . والأولى أرجح .
(٣) هكذا فى « ج » والملكيه . وفى « ك » : مثل أخيه .
(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : بعد .
(٥) هكذا فى « ج » وفى الملكيه . وفى نص آخر : (جرى بين الأنام) .
(٦) فى المخطوطين : ويحرك .

كالماء يســتُرُه بقعر طحلب ... فتراه بين خــلاله كالزِّئبق

كالحيَّــــة الرقشـاء إلا أنه ... لا يَبْرَأُ الملسوعُ منـه إذا رقى

كالنَّجم عُدَّ لرَجْم شيطان الصِّبا ... يا ليت شيطان الصِّبا لم يُحْرَق

كالزَّهْرِ إلا أنه لم يَسْتَنِم(١) ... إلا بغُصْنٍ ذابلٍ لم يُورق

كتَبَسُّم الزِّنجى إلا أنــه ... يُبكى العيونَ بدمعه المُتَرَقْرِق

وكذا البياض قذى العيون ولا ترى ... للعين(٢) أبــكى من بَياض المَفْرِق

ما للغَوانى وهُو لون خدودهــا ... يجزعن من لألائه المُتألق

وأخَلْته لمع السُّيوف [ومن يشم ... لمع السُّيوف](٣) على المفارق يَفرق

هو ليس ذاك ولا الذى أنـكرتُه ... فـكُنْ خائفاً ما خِفْنَ منه واتّق

داء يَعــزُّ على الطبيب دواؤه ... ويَضيع خُسْرا فيه مالُ المُنْفق

لـكنه والحقُّ أصدقُ مِقْوَلٍ ... شَيْنُ المسىء الفعـل زينُ المتَّقى

ومن مقطوعاته قوله :

أقلَّ فما الفَقْر بالمرء عارٌ ... ولا دارُ من يألفُ الهَوْن دارا

وما يُـكْسبُ العزَّ إلا الغنى ... غنى النَّفْس فاتَّخذه شعارا

وما اجتمع الشَّمْلُ فى غيره ... فيَحسُن إلا وساء انتشارا

فدَهْرُ غــيرك لا تَنْظرن ... فيألم قلبُك [منه](٤) انـكسارا

وهُزِّى إليك بجذع الرِّضى ... تساقط عليك الأمانى ثمارا

---

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى نص : يبتسم .

(٢) فى المخطوطين : للعيون .

(٣) هذه الكلمات وردت فى « ح » وفى الملكية ، وأغفلت فى « ك » .

(٤) ساقطة فى المخطوطين .

وقال أيضاً :

العلمُ حُسنٌ وزَينُ ... والجهلُ قُبْحٌ وشَيْنُ
والمال عزٌّ وعَيْشٌ ... والفقرُ ذُلٌّ وحَيْنُ
والناسُ أعضاء جِسْم ... فمنهم أستٌ وعَيْنُ
هذى مقالةُ حقٍّ ... ما فى الذى قلت مَيْن

وقال أيضاً :

إن أراك الزمانُ وجهاً عَبُوساً[١] ... فستَلْقاه[٢] من بعد ذاك طلْقا
لا يهمَّنْكَ حالُه إنّ فى طرْ ... فة عَيْنٍ ترتاح فيه وتَشْقى[٣]
أى عزٍّ رأيت أو أىَّ ذلٍّ ... لذوى الحالتين فى الدهر يَبْقى
سَلْ نجومَ الدجى إذا ما استنارت ... ما الذى فى وقت الظَّهيرَة تَلْقى
وتفكَّر وقُلْ بغير ارتياب ... كلُّ شىء يَفْنى وربك يَبْقى

وقال أيضاً :

لو أن أيام الشَّباب تعود لى ... عَوْد النَّضارة للقَضيب المورق
ما إن بَكَيْتُ على شباب قد ذَوى ... وبقيتُ منتظراً لآخر مونق

وقال فى القلم :

لك القلمُ الأعلى الذى طال فخرُه ... وإن لم يكن إلا قصيراً مُجَوّفا
تُعلمُ منه [الناس][٤] أبْدَعَ حكمة ... فما هو أمضى ما يكونُ مُحَرّفا

---

(١) هكذا فى «ح» . وفى «ط» : حبوسا .
(٢) فى المخطوطين : فستلق .
(٣) فى المخطوطين : ويشق .
(٤) ساقطة فى المخطوطين وفى الملكية .

وقال فى التشبيه :

كأنما السُّوسن الغضُّ الذى افتُتحت منه كمائمه المبيضَّة اللون
بنانُ كفٍّ فتاةٍ قط ماخَضَبَت[1] تَلْقى بها مَنْ يراها خيفةَ العَيْن

وقال يُعرِّض بقوم من بنى أرْقم :

إذا ما نزَلْت بوادى الآشى فقل ربٌّ من لَدْغه سَلِّم
وكيف السلامةُ فى مَوْطِنٍ به عُصْبَةٌ من بنى أرْقم

وقال مزرياً بالفقه . وهو بديع :

لى دَيْنٌ على الليالى قديمٌ ثابتُ الرَّسْم منذُ خمسين حِجَّة
أقاعداً بالحكم عليها أم لها فى تقادُم الدَّهر حُجَّة

ونختم مقطوعاته بقوله :

نجوْت بفضل الله مِمَّا أخافهُ ولِمَ لا وخَيْرُ العالمينَ شَفيعُ
وما ضِعْتُ فى الدنيا بغير شفاعة فكيف إذا كان الشفيعُ أضيع

وقال أيضاً :

عليك بتقوى الله فيما تَرُومُهُ من الأمر تخْلُص بالمرام وبالأجر
ولا تَرْجُ غيرَ الله فى نَيْل حاجةٍ ولا دَفْع ضُرٍّ فى سِرار ولا جَهْر
فمن أمَّ[2] غير الله أشْرَك عاجلا وفارقه إيمانُه وهو لا يَدْر

---

(١) هكذا فى «ح» . وفى «ك» . خطبت .
(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» رام .

وفاتـه

توفى قاضياً ببُرجَة [١] ؛ وسيق إلى غرناطة فدفن بباب إلبيرة عصر يوم الأربعاء آخر يوم من ربيع عام خمسة وأربعين وسبعمائة .

خالد بن عيسى بن إبراهيم بن أبى خالد البلوى

من أهل قَنْتُورية [٢] ، من حصون وادى المنصورة .

حـاله

هذا الرجل من أهل الفضل والسذاجة ، كثير التواضع ، منحطٌّ فى ذمة التخلُّق ، نابه الهيئة ، حسن الأخلاق ، جميلُ العشرة ، مُحبٌّ [٣] فى الأدب ؛ قضى ببلده وبغيره ، وحجَّ وقيَّد رحلته فى سفرْ [٤] ، وصف فيه البلاد ومن لَقِى ، بفصول جلب أكثرها من كلام العماد الأصبهانى ، وصَفْوان وغيرهما ، من مُلح . وقفَل إلى الأندلس . وارتَسَم فى تونس فى الكتابة عن أميرها زماناً يسيراً ، وهو الآن قاض ببعض الجهات الشرقية .

وجرى ذكره فى الرِّحلة [٥] التى صدرت عنى فى صُحْبة الرَّكاب السلطانى عند

---

(١) سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١٥٨) .

(٢) قنتورية . وبالإسبانية Cantoria . وهى بلدة صغيرة من أعمال ولاية ألمرية . تقع على نهر المنصورة على مقربة من بلدة المنصورية . وقد سبق التعريف بهذا النهر وواديه (راجع الحاشية فى ص ٤٨٧) .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ك » محبب .

(٤) وردت فى المخطوطين : سفن . وهو تحريف . وقد قام البلوى برحلته فى المشرق بين سنتى ٧٣٦ و ٧٤٠ هـ . وزار المغرب ومصر والشام والحجاز وأدى فريضة الحج ووضع عن رحلته كتاباً سماه « تاج المفرق فى تحلية أهل المشرق » وهو لايزال مخطوطاً .

(٥) هى رسالة ابن الخطيب المسماه « خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف » . وقد عرفنا بها فى المقدمة .

تفقد البلاد الشرقية . فى فصل حفظه الناس ، وأجروه فى فكاهاتهم وهو :

« حتى إذا الفجر تبلّج[1] . والصبح من باب المشرق تولّج . عدنا[2] وتوفيق الله قائد ، وكنفنا[3] من عنايته صلة وعائد ، تتاقى ركابنا الأفواج ، وتحيّينا المضاب والفجاج إلى قنتوريّة ، فناهيك من مرحلة قصيرة كأيام الوصال ، قريبة البكر من الآصال ، كان المبيت بإزاء قلعتها السّامية الارتفاع ، الشهيرة الامتناع ؛ وقد برز أهلها فى العديد والعدّة . والاحتفال الذى قدم به العهد على طول المدّة ، صفوفاً بتلك البقعة خيلا ورجلا كشطرنج الرّقعة ، لم يتخلّف ولد عن والد ، وركب قاضيها ابن أبى خالد ؛ وقد شهرته النزعة ، الحجازيّة ، وقد لبس من الحجازىّ ، وأرخى من البياض طيلسانا[4] ، وتشبّه بالمشارقة شكلاً ولساناً ، وصبغ لحيته بالحنّاء والكتم[5] ، ولاث عمامته واختتم ، والبداوة تسمه على الخرطوم ، وطبع الماء والهواء يقوده قود الجمل المخطوم ، فداعبته مداعبة الأديب للأديب ؛ والأريب للأريب ، وخيّرته بين خصلتين ، وقلت نظمت مقطوعتين ، إحداهما مدح ؛ والأخرى قدح ؛ فإن همت ديمتك ، وكرمت شيمتك ، فللذين أحسنوا الحسنى . وإلا فالمثل الأدنى . فقال ، انشدنى لأرى على أىّ أمرى أتيت ، وأفرق بين ما جنّيتنى وما جنيت . فقلت :

قالوا وقد عظمت مسبرة خالد ... قارى الضيوف بطارف[6] وبتالد
ماذا تمنت[7] به فجئت بحجّة ... قطعت بكل مجادل ومجالد

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : تابج .
(٢) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » : زهدنا
(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » وكنفه .
(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : كيطاسان .
(٥) هو نبات تخضب به السواد .
(٦) فى المخطوطين : بالطارف . وهو لا يستقيم مع الوزن والسياق .
(٧) فى المخطوطين : تمت .

أن يَفْـتَرِقْ نسبٌ يُؤلِّفُ بيننا أدبٌ أقمناه مقـــام الوالد

وأما الثانية فيكفى من البَرْق شُعاعُه ، وحَسْبُك من شَرّ سَماعُه . ويَسيرُ التنبيهِ كافٍ للنَّبيه[1] ؛ فقال ، لستَ إلى قِراى بذى حاجة ، وإذا عزمت[2] فأصالحك على دجاجة ؛ فقلت ضريبةٌ غريبةٌ ، ومُؤْنَةٌ قريبةٌ : عجِّل ولا تُؤَجِل ، وإن انصرم أمدُ النهار فأسْحِل ؛ فلم يكن إلا كَـلَّا ولا ، وأعوانُه من القَلْعة تَنْحدر ، والبِشْرُ منهم بقُدومها يَبْتَدر . يزفُّونها كالعَروس فوق الرؤوس . فمن قائل يقول أمُّها يمانيَّة ، وآخرُ يقول أخُوها الخصِىّ المُوَجَّه إلى الحَضْرة العَليَّة ، وأذْنُوا مرابِطَها من المضْرب بعد صلاة المَغْرب ، وألحَفُوا فى السؤال ، وتشطَّطُوا فى طلب النَّوال ؛ فقلتُ يابَـنى اللَّـكيعة جئتم ببازى ، بماذا كنت أجازى ، فانصرفوا وما كادوا يفعلون ، وأقبل بعضُهم على بعض يتلاوَمُون ؛ حتى إذا مُلَّت لذَبحها المُدى ، وبلغت من طول[3] أعمارها المَدَى ، قلت ياقوم ظَفِرتم بقُرَّة[4] العين ، وابْشِرُوا باقتراب[5] اللقاء . فقد ذَبَحْتُ لَكم غُراب البَيْن » .

ولقد بلغنى أنه لهذا العهد بعد أن طال المَدَى ، يتظلَّم من ذلك ، ويَنْطوى من أجله على الوَجْدَة ؛ فـكتَبْتُ إليه : وصل الله عِزَّة الفقيه النَّبيه ، العديم النظير والتَّشبيه ؛ وارث العدالة عن عمِّه وابن أبيه ، فى عزَّة تُظلِّله ، وولاية تتوّج جاهه وتُـكلِّله .

---

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ح» : التنبه .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : أعزمت .

(٣) وردت فى «ج» . وأغفلت فى «ك» .

(٤) وردت فى «ج» . وأغفلت فى «ك» .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . ووردت محرفة فى «ك» . بالتراب .

داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر ابن حَوْط الله الأنصارى الحارثى الأُنْدى[١]

يكنى أبا سليمان .

أوليته

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير ، من بيت علم وعفاف ، أصله من أُنْدَة[٢] ، حصن بشرق الأندلس ، وانتقل أبو سليمان هذا مع أخيه أبي محمد إلى حيث يذكر بعد .

حاله

قال ابن عبد الملك ، كان حافظاً للقراءة . عارفاً بإقراء القرآن بها : أتقن ذلك عن أبيه ، ثم أخيه كبيره أبي محمد ، محدِّثاً متسع الرواية ، شديد العناية بها ، كثير السماع ، مُكثراً ، عَدْلاً ، ضابطاً لما ينقله ، عارفاً بطرق الحديث ، أطال الرِّحلة فى بلاد الأندلس ، شرقها وغربها ، طالبا للعلم بها ، ورحل إلى سَبْتَة وغيرها من بلاد الأندلس العدوية[٣] . وعُني بلقاء الشيوخ كباراً وصغاراً ، والأخذ منهم ، أتمَّ عناية ؛

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (الأبدى) نسبة إلى أبدة . وهو تحريف . وصوابه (الأندى) نسبة إلى بلدة « أندة » كما هو مسطور فى سياق الترجمة فى غير موضع .

(٢) أندة بلدة أندلسية صغيرة من بلاد ولاية بلنسية .

(٣) أعنى الجهات التى كانت تابعة للأندلس فى العدوة الأخرى من البحر .

وحصل له بذلك مالم يحصل لغيره ، وكان فهِـماً بصيراً بعَقْد الشروط ، حاذقاً فى استخراج نُـكَتِها ، تَلَبس بكَتْبها زماناً طويلًا بمسجد الوحيد من مالقة ، وكان محبَّاً فى العلم وأهله ، حريصاً على إفادته أيّاهم ، صَبُوراً على سماع الحديث ، حسن الخُلُق طيِّب النفس ، متواضعاً ، ورعاً ، مُنْقبَضاً ، ليِّن الجانب ، مخفوض الجناح ، حسن الهُدى ، نزيه النفس ، كثير الحياء ، رقيق القلب ، تعدَّد الثناء عليه من الجِلَّة .

قال ابن الزُّبير ؛ كان من أهل العدالة والفضل ، وحسن الخُلق ، وطيب النفس والتوَاضع ، وكثرة الحياء . وقال ابن عبد المجيد ، كان ممن فضّله الله بحسن الخلق والحياء على كثير من العلماء . وقال أبو عبد الله بن سلمة [مثلَ ذلك][1] . وقال ابن[2] . . . بمثله .

مشيخـتــــه

قال الأُستاذ ؛ أقرأ بمُرْسِيه ، وأخذ بها ، وبقُرطبه ، ومالقة ، وإشبِيلية ، وغَرْناطة وسَبتة ، وغيرها من بلاد الأَندلس ، وغرب العُدْوه ؛ واعتناؤُه يُعينُه [وأخاه][3] بباب الرُّواة ، والأَخذ عن الشيوخ ، حتى اجتمع لهما مالم يجتمع لأَحد من أهل عَصْرها ؛ فمن ذلك أبُوهُما أبو داود[4] . وأبو الحسن صالح بن يحي بن صالح الأَنصارى ، وأبو القاسم بن حسن ، وأبو عبد الله بن حُمَيد ، وأبو زيد السُّهَيلى ، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن عراق الغافقى ، وأبو العباس يحي بن عبدالرحمن المَجْريطى[5] ، وعن

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : كذلك .

(٢) لم يرد بعدها باقى الاسم فى المخطوطات الأربعة .

(٣) وردت فى المخطوطين : (أخباره) . وقد رجحنا أن يكون تحريفاً لكلمة (واخاه) . يؤيد ذلك باقى السياق .

(٤) وردت فى « ج » واغفلت فى « ك » .

(٥) نسبة إلى مجريط (وبالإسبانية Magerit). وهى القاعدة الإسلامية الحصينة التى كانت تقع شمال مدينة مدريد الحديثة ، والتى حرف اسمها فيما بعد إلى اسم العاصمة الإسبانية .

ابن بَشْكُوال[١] . وأخذ عن أبى بكر بن الجد . وأبى عبد الله بن زَرْقون ، وأبى محمد ابن عبد الله . وأبى عبد الله بن الفخَّار الحافظ . وأبى العباس بن مضاء ، وأبى محمد ابن بُونه[٢] . وأبى محمد بن عبد الصمد بن يعيش الغَسَّانى . وأبى بكر بن أبى حمزة ، وأبى جعفر بن حَكَم الزَّاهد . وأبى خالد بن يزيد بن رفاعة ، وأبى محمد عبد المنعم ابن الفَرَس ، وأبى الحسن بن كَوْثَر ، وأبى عبد الله بن عَرُوس ، وأبى بكر بن أبى زَمَنِين ، وأبى محمد بن جُمْهُور ، وأبى بكر بن النيَّار ، وأبى الحسن بن محمد بن عبد العزيز الغافِقى الشُّقُورى . وأبى القاسم الُحوفى القاضى . وأبى بكر بن بيبش[٣] بن محمد ابن بيبش[٣] العَبْدَرى ، وأبى الوليد بن جابر بن هشام الحَضْرَمى ، وأبى بكر ابن مالك الشَّريشى ، وأبى عبد اليُسْر الجزيرى ، وأبى بكر بن عبد الله السَّكَّسَكى[٤] وأبى الحجاج ابن الشيخ الفهرى ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم .

قضاؤه وسيرته فيه

قال ابن أبى الربيع[٥] لازمت ابنَي[٦] حوطِ الله ، فكان أبو محمد يفوق أخاه والناسَ فى العلم ، وكان أبو سليمان يفوق أخاه والناسَ فى الحِلْم . واستُقضى بسَبْتَة والْمَرِيَّة والجزيرة الخضراء ، وقام قاضياً بها مدة ، ثم نقل منها إلى قضاء بَلَنْسِيَة آخر ثمان وستمائة ، ثم صُرف بأبى القاسم بن نُوح ، وقُدِّم على القضاء بمالقة فى حدود إحدى عشر وستمائة ، فشُكرت أحوالُه كلها ، وعُرف فى قضائه بالنزاهة . قال

---

(١) وردت فى المخطوطين محرفة : ابن شكوال .

(٢) وردت فى المخطوطين محرفة : بونو . وبونوا . والتصويب من « صلة الصلة » (ص ٧) .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . ووردتا محرفتين فى « ج » : (بيبشر . بيش) .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، والسكساكى .

(٥) فى المخطوطين : ابن الربيع .

(٦) وردت فى المخطوطين : أبى : والتصويب يستلزمه السياق .

أبو عبد الله بن سَلمة ؛ كان إذا حضر خصوم[1] ، ظهر منه [من][2] التواضع ، ووطْأة الأكْناف . وتَبيين المراشد والصبر على المُداراة . والمُلاطفة ، وتَحْبيب الحق ، وتكْريه الباطل ، ما يُعجز عنه . ولقد حضرتُه . وقد أوْجَبَت الأحكامُ عنده[3] الحدود على رجل ، فهاله الأمر ، وذَرَفت عيناهُ . وأخذ يَعْتِبُ عليه ويؤنبهُ على أن ساق نَفْسه إلى هذا ؛ وأمر بإخراجه ليُحَدَّ بشهود فى موضع آخر لرقّة نفسه ، وشدّة إشفاقه . واستمرت ولايته بمالقة إلى أن توفى .

مولده

ببلدة أُنْدَة سنة ستين وخمسمائة .

وفاته

قال أبو عبد الرحمن بن غالب ؛ توفى إثْر صلاة الصبح من يوم السبت سادس ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وستمائة ، ودفن إثر صلاة العصر يوم وفاته ، بسفح جبل فَارَة[4] ، فى الروضة المدفون بها أخوه أبو محمد ، فأتْبعَه الناس ثناء جميلا ؛ ذُكر ، واختلفوا فى جنازته ، وخَرج إليها النساء والصبيان داعين مُتبكّين .

رِضْوان النَّصْرى الحاجبُ المُعَظّم

حَسَنَةُ الدولة النصرية ، وفخرُ مواليها .

---

(١) هكذا فى الملكية . وردت فى « ح » حضر خصما . وفى « ك » خصوماً .

(٢) ساقطة فى المخطوطين : ولازمة للسياق .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ح » عد .

(٤) هو الجبل الذى يشرف على مدينة مالقة من ناحية الجنوب الشرقى . وهو يقع تجاه قصبة مالقة . ويقع عليه الحصن المسمى بنفس الاسم . وهو بالإسبانية Gibralfaro

أوَّليته

رومىّ الأصل . أخبرنى أنه من أهل القَلْصَادَة(١) ، وأن انتسابه يتجاذبه القَشْتَالِيةُ من طَرَف العمومة ، والبَرْجلُونِيّة (٢) من طرف الخُؤولة ، وكلاهما نبيه فى قومه . وأن أباه ألجأهُ الخوف بدم ارتكبه فى محل أصالته من داخل قَشْتالة إلى السُّكنى بحيث ذكر ؛ ووقع عليه سِباء(٣) فى سن الطفولية(٤) ، واستقرّ بسببه بالدار السلطانية ، ومحَضَ(٥) إحراز رقّه ، السلطان دايل قومه ، أبو الوليد المارّ ذكره ؛ فاختصّ به ، ولازمه قبل تَصْيير المُلْك إليه ، مؤثراً له مغتبطاً بحائل فضله ، وتماثُل استقامته ؛ ثم صُيِّر الملك إليه فتدرَّج فى معارج حُظوته ، واختصَّ بتربية ولده ، وركَنَ إلى فضل أمانته ، وخلطه فى قُرْب الجوار بنفسه ، واستَجْلى الأمور المُشْكلة بصِدْقه . وجعل الجوائز السنيّه لعظماء دولته على يده ؛ وكان يوجب حقَّه ، ويعرف فضله ، إلى أن هلك ؛ فتعلّق بكنَف ولده ؛ وحَفِظ شمْله ، ودبَّر مُلْكه ، فكان آخر اللّخْف ، وستراً للحرم ، وشجًى للعِدا وعُدّة فى الشِّدة ، وزَيْناً فى الرَّخاء ، رحمة الله عليه .

حـــاله وصفته

كان هذا الرجل مليح الشَّيْبة والهيئة . معتدل القدّ والسِّحْنة . مُرهب البدن .

---

(١) وردت فى المخطوطين : (القلصارة) بالراء . وهو تحريف . وصوابه القلصادة . وهى بلدة La Calzada de Calatrava الواقعة جنوب قشتالة فى شمال مدينة بياسة فى منتصف الطريق بينها وبين طليطلة .

(٢) القشتالية نسبة إلى قشتالة Castile . والبرجلونية نسبة إلى برجلونة أو برشلونة أو بعبارة أخرى إلى أراجون .

(٣) أى أسر .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين .

(٥) فى المخطوطين : محمض .

مُقبل الصورة، حسن الخلق ، واسع الصدر[١] . أصيل الرأى ، رصين[٢] العقل ، كثير التجمل ، عظيم الصبر ، قليل الخوف فى الهَيْعات ، ثابت القدم فى الأزمات ، ميمون النَّقيبة[٣] ، عزيز النَّفس . عالى الهِمَّة . بادى الحشمة . آية فى العفة ، مثلا فى النزاهة ، ملتزماً للسُّنَّة ، دؤُباً على الجماعة ، جليس القِبْلة ، شديد الإدراك مع السكون ، ثاقب الذهن مع إظهار الغَفْلة ، مليح الدُّعابة مع الوقار والسكينة ، مستظهراً لعيون التاريخ ، ذاكراً للكثير من الفقه والحديث ، كثير الدَّالة[٤] على تصوير الأقاليم وأوضاع البلاد ، عارفاً للسياسة ، مُكرماً للعلماء ، مُتركاً للهوادة[٥] ، قليل التصنُّع ، نافراً من أهل البِدَع ، متساوى الظاهر والباطن ، مقتصداً فى المطعم والملبس.

مكانته من الدين

اُتُّفق على أنه لم يُعاقر مُسكراً [قط][٦] ولا زُنَّ بهَناة ، ولا لُطِخ بريبة ، ولا وُصم بخلَّة تَقَدح فى مَنصِب ، ولا باشر عقاب جاز[٧] ، ولا أظهر شفاء من غائظ ، ولا اكتسب من غير التَّجر والفلاحة مالا .

آثاره

أحدث المدرسة بغرناطة . ولم تكن بها بعد ، وسبَّب إليها الفوائد ، ووقف

(١) وردت بعدها فى المخطوطين هذه العبارة : (متين . سليم الصدر) . ويلوح لنا أنه تكرار وتحريف . ولهذا رأينا حذفها .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : رصيد .

(٣) أى محمود الخبر .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين : والمقصود بها العلم والإحاطة .

(٥) فى المخطوطين : للهودة .

(٦) الزيادة من الملكية .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين ، والملكية . وقد تعنى عقاب مستحق له .

عليها الرِّباع المُغلّة ، وانفرد بِمَنقَبها[١] : فجاءت نسيجة وحدها بهجة وصدراً وظرفاً وفخامة ، وجَلَب الماء | الـكثير إليها من النهر |[٢]، فأبّد سقْيَة عليها ، وأدار السُّور الأعظم على الرَّبَض الـكبير المنسوب للبيّازين[٣] : فانتظم منه النَّجد والغُور ، فى زمان قريب ، وشارف التمام إلى هذا العهد : وبنى من الأبراج المنيعة فى مَنالم الثُّغور وروابى[٤] مطالعها المُنْذِرة ، ما يَنيفُ على أربعين بُرْجا ؛ فهى ماثلة كالنجوم مابين البحر الشرقى من ثغر بيرة[٥] إلى الأحواز الغربية ؛ وأجرى الماء بجبل مَوْرُور ، مُهتدياً إلى ماخفى على من تقدّمه ؛ وأفذاذ أمثال هذه الأنقاب يشقُّ تعداده .

جهـــــاده

غزا فى السادس والعشرين من محرم عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة بجيش مدينة باغة[٦] ؛ وهى ما هى من الشهرة ؛ وكرم البُقعة . فأخذ بمُخنَّقها ؛ وشدّ حصارها وعاق الصريخ عنها ؛ فتملّـكها عَنْوة ؛ وعمَّرها بالحماة ، ورتّبها بالمُرابطة ، فكان الفتح فيها عظيما . وفى أوائل شهر المحرم من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة غزا بالجيش عَدْو المشرق ؛ وطوى المراحل مجتازاً على بلاد قَشْتالة ؛ لُورَقة ومُرْسية ؛ وأمعن فيها ؛ ونازل حصن المُدَوَّر ، وهو حصن أمِن غائلة العدو [مُكْتَنَفٌ بالبلاد ؛ مُدّ بالبَسِيني[٧] ؛ موضوعٌ على طيّة التجارة ؛ وناشبه القتال ، فاستولى عَنْوة][٨] عليه منتصف المحرم من العام المذكور ، وآبَ ملوء الحقائب سَبياً وغُنْماً .

---

(١) أى بفضلها ومأثرتها .

(٢) هذه الزيادة من الملكية . ووردت مكانها فى «ج» كلمة (الموقف) .

(٣) ما تزال ثمة إلى اليوم بقية من هذا السور قائمة وراء ربض البيازين بغرناطة .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : ورواق .

(٥) بيرة Vera وقد سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١٠٩) .

(٦) باغة وبالإسبانية Priego هى بلدة حصينة قديمة تقع شمال لوشة فى ولاية جيان .

(٧) الآلات والتجهيزات الضخمة .

(٨) ما بين الحاصرتين وارد فى «ك» . وساقط فى «ج» .

وغزواته كثيرة ، كظاهرة الأمير الشهير أبي مالك على مُنازَلة جبل الفتح ، وما اشتهر عنه فيه من الجد والصبر ، وأوثر عنه من المَنْقَبة ، الدّالة على صحة اليقين، وصدق الجهاد ، إذ أصابه سهم فى ذراعه وهو يصلى ، فلم يشغله عن صلاته، ولا حمله توقعُ الإغارة على إبطال عمله .

ترتيب خدمته

وما تخلل عن ذلك من محنته

لما استوثق أمرُ الأمير المخصوص بتربيته ، محمد ، ابن أمير المسلمين أبى الوليد نصر ، وقام بالأمر وكيل أبيه الفقيه أبو عبد الله محمد بن المحروق ، ووقع بينه وبين المترجم عهدٌ على الوفاء والمُناصحة ، ولم يلبث أن نكبه وقبض عليه ليلة كذا من رجب عام ثمانية وعشرين وسبعمائة ، وبعثه ليلا إلى مَرْسَي المُنَكَّب[1] ، واعتقله فى المُطْبَق من قصبتها بَغْياً عليه ، وارتكب فيه أُشنُوعة أساءت به العامة ، وأنذرت باختلال الحال ؛ ثم أجازه البحر ، فاستقر بتِلِمْسان ؛ ولم يلبث أن قُتل المذكور ، وبادر سلطانه الموتور بفرقته[2] عن سُدَّته ؛ فاستدعاه[3] فاحتل محله من هَضْبة المُلك مُتَمَلِّياً ماشاء من عز وعناية ؛ فصُرفت إليه المقاليد ، ونيطت به الأمور ، وأُسلم إليه المُلك ، وأُطلقت يده فى المال[4] ؛ واستمرت الأحوال إلى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، والتاث الأمر ، وظهر من سلطانه التنكر[5]

---

(١) المنكب Almunecar هو ثغر صغير يقع على البحر الأبيض المتوسط فى جنوبى ولاية غرناطة . وقد اشتهر فى تاريخ الأندلس بنزول عبد الرحمن الداخل فيه .

(٢) وردت فى المخطوطين : بفرقيه ، وهو تحريف . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٣) فى المخطوطين : استدعاه .

(٤) وردت فى المخطوطين : الحال . ونعتقد أن التصويب فى محله .

(٥) فى المخطوطين : المتنكر .

عليه ، فعاجله الحِمام فخلّصه الله منه ؛ وولى أخوه أبو الحجاج من بعده ، فوقع الإجماع على اختياره للوزارة أوائل المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، فرضى الكلّ به . وفرحت العامة والخاصة للخطة ، لارتفاع المنافسات بمكانه ، ورضى الأضداد بتوسطه . وطابت النفوس بالأمن من غائلته ؛ فتولى الوزارة وسَحَبَ أذيال المُلك . وانفرد بالأمر ، واجتهد فى تنفيذ الأحكام . وتقدُّم الولاة . وجواب المخاطبات ، وقُوّاد الجيوش ، إلى ليلة الأحد الثانى والعشرين من رجب عام أربعين وسبعمائة ، فنكبه الأمير المذكور نكبة ثقيلة[1] البرك ، هائلة الفجأة من غير زلة مأثورة ، ولا سَقَطة معروفة ، إلا مالا يُعدم بأبواب الملوك من شرور المنافسات ، ودبيب السِّعايات الكاذبة ؛ وقبض عليه بين يدى محراب الجامع من الحمراء[2] إثر صلاة المغرب ، وقد شهر الرجال سيوفهم فوقه يحفون به ، ويقودونه إلى بعض دور الحمراء ؛ وكبس ثُقات السلطان منزله ؛ فاستوعبوا ما اشتمل عليه من نعمة . وضم إلى المستخلص[3] عقاره . وسوغ الخبرُ عظيم غلاته ؛ ثم نقل بعد أيام إلى قصبة ألمرية محمولا على الظّهر ، فشدّ بها اعتقاله ، ورتب الحرس عليه إلى أوائل شهر ربيع الثانى من عام أحد وأربعين وسبعمائة ، فبدا للسلطان فى أمره واضطر إلى إعادته[4] . ووجد نَقْد نصحه . وأشفق لما عَدِم من أمانته ، والانتفاع برأيه ، وعرض عليه بما لنوم الكفّ والإقصار عن ضَرِّه ؛ فعفا عنه ، وأعاده إلى محله من الكرامة ، وصرف عليه من ماله . وعرض الوزارة فأباها . واختار برد العافية ، وأنِس لذة التّخلى ، فقُدم لذلك منْ سدّ الثغور . فكان له اللفظ ، ولهذا الرجل المعنى ؛ فلم [يزل][5] مفزعاً للرأى ، مُحلّى فى العظة على الولاية ، كثير الآمل والغاشى ،

---

(١) فى « ح » بقبلة . و « ك » نفيلة . والتصويب أرجح .

(٢) مسجد الحمراء الكبير ، كان يقوم فوق هضبة الحمراء على مقربة من القصر ، ومكانه اليوم كنيسة سنتا مريا الواقعة على مقربة من قصر شارلكان القائم تجاه قصر الحمراء .

(٣) المستخلص أى أملاك السلطان .

(٤) وردت فى المخطوطين : إعانته . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٥) ساقطة فى المخطوطين .

إلى أن توفى السلطان المذكور غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، فشعب الثأى [١] ، وحفظ البلوى ، وأخذ البيعة لولده سلطاننا الأسعد أبى عبد الله ، وقام خير قيام بأمره ، وجرى على معهود استبرائه [٢] . وقد تحكمت التجربة ، وعلت السن ، وزادت أنسة الخشية ، وقربت من لقاء الله الشقة ، فلا تسأل عما حط من خَل ، وأفاض من عدل ، وبذل من مداراة ، وحاول عقد السلم ، وسد أمور الجند على القل ، ودامت حاله متصلة على ما ذكر ، وسنه تتوسط عشر التسعين إلى أن لحق بربه . وقد علم الله أنى لم يحملنى على تقرير سيرته ، والإشادة بمنقبته داعية ، وإنما هو قول بالحق ، وتسليم لحجة الفضل ، وعدل فى الوصف ، والله عز وجل يقول : « وإذا قلتم فأعدلوا » .

وفـــاته

فى ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان من عام ستين وسبعمائة ، طرق منزله بعد فراغه من إحياء ثلث الليل ، مُتَبذِّل اللبسة ، خالص الطوية ، مقتضياً للأمن مستشعراً للعافية ، قائماً على المسلمين بالكَلّ ، حاملا للعظيمة ، وقد بادره الغادرون بسلطانه ، فكسروا غَلْقه بعد طول معالجة ، ودخلوا عليه وقتلوه بين أهله وولده ، وذهبوا إلى الدائل برأسه ، وفجعوا الإسلام ، بالسائس الخصيب المتغاضى [٣] ، راكب متن الصبر ، ومطوق طوق النزاهة والعفاف ، وآخر رجال الكمال والستر الضافى على الأندلس ، ولوثم من الغدبين رأسه وجسده ، ودفن بإزاء لحود [٤] مواليه [٥]

---

(١) وردت فى « ك » الشائن . وفى « ج » الشانى .

(٢) تقرأ فى المخطوطين : استبراده . وهو تحريف .

(٣) وردت فى « ج » والملكية ، المغاضى . وفى « ك » المقاضى .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : (لجود . انجود) .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : مواليفه .

من السبيكة[١] ظهراً . ولم يشهد جنازته إلا القليل من الناس، وتُبُرِّكَ بعد بقبره . وقلت عند الصلاة عليه ، أخاطبه دون الجهر من القول لمكان التقية :

أرضوان لا تُوحشك فَتْكةُ ظالم ... فلا موردٌ إلا سيتلوه مَصْدَر
ولله سرٌّ فى العباد مُغَيَّبٌ ... يشهد بخافيه[٢] القضاء المقدَّرُ
مُحَيَّك مرتاحٌ إليك مُسَلِّمٌ ... عليك ورضْوان من الله أكْبرُ
فحثَّ المَطاَ لَيْسَ النعيم مُنَغَّصٌ ... ولا العيشُ فى دار الخلود مُكدَّرُ

زاوى بن زِيري بن مَناد الصَّنْهاجى

الحاجب المنصور ، يكنى أبا مُثْنى .

أوليته

قد مر ما حدث بين أبيه زيرى وبين قرابته من ملوك إفريقية ، وباديس بن منصور من المُشاحنة التى أوجبت مخاطبة المُظفر بن أبى عامر فى اللِّحاق بالأندلس ، وإذنه فى ذلك . فدخل الأندلسَ منهم على عهده جماعة وافرة من مساعير الحروب وآثار[٣] الحتُوف ، مع شيخهم هذا وأميرهم ، ودخل منهم معه أبناء أخيه ماكْسَن وحُباسة وحَبّوس . وقاموا فى جُمْلة المظفَّر ، وزاوى مخصوصٌ باسم الحجابة ، فلما اختل بناء الخلافة ، بمحمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدى ، أذلّهم وتنكر لهم ، وأشاع بينهم وبين أمثالهم من البرابر ، المُغايرة ، فكان ذلك سبب الفتنة التى يسمّيها أهل الأندلس

(١) سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١١٦) .
(٢) وردت فى المخطوطين : تجافيه .
(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وأطار .

بالبربرية ؛ فانحاشوا ، ونفروا[١] عهده ، وبايعوا سليمان بن الحكم ، واستعانوا بالنصارى، وحركوا على أهل قرطبة خصوصاً ، وعلى أهل الأندلس عموماً . ماشاء الله من استباحة[٢] ، وإهلاك النفوس ، وغلبوا على مُلك الأندلس ، وماوراء البَيْضَة ، واقتسموا أمهات الأقطار ، وانحازوا[٣] إلى بلاد تضمّهم ، فانحازت صَنْهاجة مع رئيسهم المذكور إلى غرناطة ، فأَوُوا إليها ، واتخذوها ملجأً ، وحماها زاوى المذكور، وأقام[٤] بها ملكاً ، وأثّل بها سلطاناً لذويه ، فهو أوّل من مدّن غرناطة ، وبناها وزادها تشييداً وَمَنَعَة ، واتصل ملكه بها، وارتشحت عروقه ، إلى أن كان من ظهوره بها وأحوازها ، على عساكر الموالى ، الراجعين بإمامهم المُرتضى إلى قرطبة ، البادين بقتاله ، والآخذين بكَظَمه ، بما تقرر ويتقرر فى اسم المُرْتضى، من باب المُحمّدين بحول الله .

وكان زاوى كبش الحروب ، وكاشف الكروب ، خدم قومه شهير الذّكر أصيل المجد ، المثل المضروب فى الدهاء ، والرأى ، والشجاعة ، والأنفة، والحزم .

قال بعضهم ، أحكم التدبير ، والدولة تسمده ، والمقادر[٥] تنجده ، وحكيت له فى الحروب حكايات عجيبة .

بعض أخباره في الرأي

قال أبو مروان ، وقد مرّ ذكر الفتنة البربرية ، لما خلص ملأ القوم ، لتشاور أميرهم ، وهم فرض فى خروجهم من قرطبة ، عند ما انتهوا إلى فحص هلال ،

---

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» والملكية : وتفدوا .
(٢) وردت فى «ج» . واستبحه . وفى «ك» استباحات .
(٣) هكذا فى «ك» . وفى «ج» واجتازوا .
(٤) فى المخطوطين : وقام .
(بمعنى القده) هنار .

واجتمعوا على التأسّى : وضرب لهم زعيمهم زاوى بن زيرى بن مَناد الصّنهاجى ، مثلا بأرماح خمسة جمعها مشدودة . ودفعها لأشدّ من حضره منهم ، وقال : إجهد نفسك فى كسرها كما هى وأغمزها . فعالج ذلك فلم يقدر عليه ؛ فقال له حلها وعالجها رُمحا رُمحا ، فلم يبعُد عليه دقّها ؛ فأقبلَ على الجماعة ، فقال : هذا مَثَلكم يابرابرة ، إن جُمعتم لم تُطاقوا ، وإن تفرّقتم لم تبقوا ، والجماعة فى طلبكم ، فانظروا لأنفسكم وعجلوا ، فقالوا نأخذ[1] بالوثيقة ، ولا نُلقى[2] بأيدينا [إلى][3] التهلكة ؛ فقال لهم بايعوا لهذا القرشى سليمان ؛ يرفع عنكم الأنَفَة فى الرياسات[4] ، وتستميلون إليه العامة بالجنسية ؛ ففعلوا ، فلما تمّت البيعة ، قال إن مثل هذا الحال لايقوى على أهل الإستطالة ، فيقيّد له رئيس كل قبيله منكم ، قبيلة يتكفّل السلطان بتقويمهم ، وأنا الكفيلُ بصَنْهاجة ؛ قال ، وامتازت بطون القبائل على أرحامها[5] ، وقبائلها إلى أفخاذها وفصائلها ؛ فاجتمع كل فريق منهم على تقديم سيّده ، فاجتمعت صَنْهاجة على كبيرها زاوى ، ولم تزل[6] تلك القبائل المتألفة بالأندلس لطاعة أميرها المنادين[7] [له][8] إلى أن أورثوهم الإمارة .

التـــوقيع

قالوا ، ولما نازله المُرْتَضى الذى أَجْلَبَ به الموالى العامريين بظاهر غرناطة ، خاطبه

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : نأخذوا .

(٢) وردت فى المخطوطين : نلقوا على منوال ما يقع فى مواطن كثيرة من إيراد الفعل بالجمع مكان المفرد . وقد فضلنا التصويب ليستقيم السياق .

(٣) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى الملكية .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : الرياسة .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : أرحامهم .

(٦) وردت فى المخطوطين : ولم تر الذم . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٧) فى المخطوطين : المنادس .

(٨) ساقطة فى المخطوطين ، ويقتضيها السياق .

بكتاب يدعوه فيه إليه طاعته ، وأجل موعده فيه ؛ فلما قرئ على زاوى قال لكاتبه ، اكتب على ظهر رقعته : « قل يا أيها الكافرون » السورة . فلما بلغت[1] المرتضى أعاد عليه كتاباً يعده فيه بوعيده ، فلما قرئ على زاوى ، قال رد عليه : « ألهاكم التكاثر » إلى آخرها ، فازداد المرتضى غيظاً ، وناشبه القتال ، فكان الظهور لزاوى .

قال المؤرخ ؛ واقتتلت صنهاجه مع أميرهم مستميتين لما دهمهم من بحر العساكر ، على انفرادهم وقلة عددهم ، إلى أن انهزم أهل الأندلس ، وطاروا على وجوههم ، مُسْلِمُوهم وإفرنجهم ، لايلوون[2] على أحد . فأوقع[3] البرابر[4] بهم السيف ، ونهبوا تلك المحلات . واحتووا على مالا كفاء له اتساعاً وكثرة ؛ ظل الفارس يجيء من أتباع المنهزمين ومعه العشرة ، ولا تسل عما دون ذلك من فاخر النهب . وخير الفساطيط ، ومضارب الأمراء والرؤساء .

قال ابن حيان ؛ فحل بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس مصيبة أنست ماقبلها ، ولم يجتمع لهم جمع بعدها وفروا بإدبار ، وباءوا بالصغار .

منصرفه عن الأندلس

قال المؤرخ ؛ ولهول ماعاينه زاوى من اقتدار [أهل][5] الأندلس فى أيام تلك الحروب وجعاجعهم . وإشرافهم على التغلب عليه ، هان سلطانه عنده بالأندلس ، وخرج عنها نظراً إلى عاقبة أمره ، ودعا بجماعة من قومه لذلك فعصوه ، وركب البحر

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » . أبلغ .
(٢) وردت فى المخطوطين : يلوا . وقد لزم التصويب .
(٣) وردت فى المخطوطين : فوقع .
(٤) هكذا فى المخطوطين . وهو يستعمل هنا كلمة « البرابر » للتعبير عن البربر . وقد استعمل من قبل كلمة « البرابرة » فى مواطن عدة .
(٥) واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

بجيشه وأهله ، فلحق بإفريقية وطنه . قال ، فكان من أغرب الأخبار فى الدولة الحَمُّودية[١] انزعاجُ ذلك الشيخ زاوى عن سلطانه بعد ذلك الفتح العظيم الذى [ناله][٢] على أهل الأندلس ، وعبورُه البحر ، بعد أن استأذن ابن عمه المُعز بن باديس ، فأذِن له . وحَرِص بنو عمه[٣] بالقَيْرُوان ، على رجوعه لهم [لحال سنّه][٤] ، وتقريبهم يومئذ مَنْ مِثْلُه من مشيختهم لمهلك جميع إخوتهم ، وحصوله هو [على][٥] مُقَرِّر بنى مناد الغريب الشأن ، فى أن لا تُحجب عنهم نساؤهم [وكن][٦] زُهاء ألف امرأة فى ذلك الوقت ، هُن ذوات مَحْرَم من بنات أخوته وبناتهن وبنى بنيهن . وكان رحيل زاوى عن الأندلس سنة ستة عشر وأربعمائة . قال ابن حيّان ، وأخبار هذا[٧] الداهية كثيرة ، وأفعاله ونوادره مأثورة .

زهير العامرىّ ، فتى المنصور بن أبى عامر

حـــاله

كان شهماً داهية ، سديد المذهب ، مؤثراً للأناة ؛ ولى بعد خَيْران صاحب ألمريّة ، وقام بأمره أحمد قيام ، سنة تسعة عشر وأربعمائة ، يوم الجمعة لثلاث خلون من جمادى الأولى . وكان أميراً بمرسية ، فوجه عنه خيران حين أحسّ بالموت ، فوصل

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : المحمودية .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . ويستلزمها السياق .

(٣) فى المخطوطين : بنى عمه . وهو تحريف شائع فى المخطوطين .

(٤) وردت هذه العبارة فى المخطوطين : (بحال سيئة) . ونعتقد أن هذا التصويب الذى نورده من « الذخيرة » ، أرجح وأنسب للمعنى والسياق .

(٥) إضافة يقتضيها السياق .

(٦) إضافة يقتضيها السياق .

(٧) فى المخطوطين : هذه .

إليه . وكان عنده إلى أن مات . فخرج زُهير مع ابن عباس[1] إلى الناس ، فقال لهم : أمّا الخليفة خيران فقد مات ؛ وقد قدّم أخاه زهيراً هذا فما تقولون ؟ فرضى الناس به ، فدامت مدة[2] ولايته عشرة أعوام ونصف عام إلى أن قُتل .

مناقبـــه

قال أبو القاسم الغافقى ؛ وكان حسن السيرة جميلها ؛ بنى المسجد فى ألمريّة[3] ، وداد فيه من جهاته الثلاث المشرق والمغرب والجوف ؛ وبنى مسجداً ببجّانة[4] ، وشاور الفقهاء ، وعمل بقولهم ؛ وملك قرطبة ، ودخل قصرها ، يوم الأحد لخمس بقين من شعبان سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، ودام سلطانُه عليها خمسة عشر شهراً ونصف شهر .

قال ابن عذارى ؛ وأما زُهير الفتى فامتدّت أطنابُ مملكته من ألمَرِيّة إلى قرْطُبة ونواحيها ، وإلى بيَّاسة[5] ، وإلى الفَجِّ من أول طليطلة . وقالوا[6] : قرّ ما بينه وبين باديس [فأرسل باديس][7] إلى زهير رسوله مكاتباً مستدعياً تجديد المحالفة[8] ، فسارع زهير ، وأقبل نحوه ، وضيّع الحزم ، واغترّ بالعُجْب ،

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ابن العباس وهو تحريف . وابن عباس هو أحمد بن عباس ابن زكريا الأنصارى وزير خيران العامرى . وقد سبقت ترجمته (ص ٢٥٩ — ٢٦٢) .

(٢) أغفلت هذه الكلمة فى « ك » .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » بالمرية .

(٤) وردت فى « ج » بجاية وهو تحريف . وبجانة وبالإسبانية Pechina بلدة صغيرة تقع شمال شرق المرية .

(٥) وردت فى المخطوطين : بيانه . والتصويب من «البيان المغرب» . والواقع أن بيانه كانت داخل المملكة الإسلامية جنوبى قرطبة والاستيلاء عليها لا يعتبر توسعاً ذو شأن . أما بياسة (وبالإسبانية Baeza) فقد كانت فى الشمال ، فى أطراف المملكة الإسلامية .

(٦) ما يلى من كلام ابن حيان فى « المقتبس » نقله ابن بسام فى « الذخيرة » . وقد رجعنا فى تحقيق بعض ما ورد فيه إلى الذخيرة (القسم الثانى من المجلد الأول ص ١٦٦ وما بعدها)

(٧) أغفلت هذه العبارة فى المخطوطين : ونقلناها عن الذخيرة .

(٨) فى المخطوطين : المخالفة . والتصويب من الذخيرة .

ووثق بالكثرة . أشبه شيء بمجيء الأمير الشيخم إلى عامل من عماله قد ترك رسم الاتقاء بالنُّظراء وغير ذلك من وجوه الحزم وأعرض عن ذلك كله ؛ وأقبل ضارباً بسوطه(١) ، حتى تجاوز الحدَّ الذى جرت العادة بالوقوف عنده من عمل باديس دون إذنه ؛ وصيَّر الأوعار والمضايق خَلْف ظهره ، فلا يفكر فيها ، واقتحم البلد ، حتى صار(٢) إلى باب غرناطة . ولما وصل خرج باديس فى جَمْعه ، وقد أنكر اقتحامه عليه ، وعدَّه حاصلاً فى قَبْضته ؛ [فبدأه بالجميل](٣) والتَّكريم ، وأوسع عليه وعلى رجاله فى العطاء والقِرى ، والتعظيم بما مكَّن اغترارهم ، وثبَّت طُمأنينتهم ؛ ووقعت المناظرة بين زهير وباديس ، ومن حضرها من رجال دولتيهما . فنشأ بينهما عارض الخلاف(٤) لأول وهلة ، وحمل زهير أمره على التَّشطُّط ؛ فعزم باديس على اللقاء ووافقه عليه قوم من خُدَّامه ، فأقام المراتب ، و نصب الكتائب ، وقطع قنطرة لا محيد عنها لزُهير ، والخائن(٥) لا يشعر ؛ وغاداه عن تعبية مُحكَمة ، فلم يرُعه إلا رجة(٦) القوم راجعين ، فدهش زُهير وأصحابه ، إلا أنه أحسن تدبير الثبات لواستتمه ؛ وقام فنصب الحرب ، وثبت فى قلب العسكر ، وقدم خليفته هُذيلا فى وجوه أصحابه إلى الموالى ، فلما رأتهم(٧) صنهاجة ، علموا أنهم الحُماة والشَّوكة ، ومتى حُصدوا(٨) لم يثْبت مَنْ وراءهم ، فاختلطوا بهم ، واشتد القتال ، فحكم الله لأقلِّ الطائفتين من صنهاجة ليُرى قدْرَته ، فانهزم زهير وأصحابه وتقطَّعوا ،

---

(١) هكذا فى الذخيرة . وفى المخطوطين : سوطه .

(٢) فى المخطوطين : طار .

(٣) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين : (فبدا له بالجيل . فبدا له بالحيل) . والتصويب من الذخيرة .

(٤) ساقطة فى «ك» . وواردة فى الملكية (خلاف) .

(٥) هكذا فى الذخيرة . وفى المخطوطين ، وفى البيان المغرب : الخائن .

(٦) فى المخطوطين : وجوه . والتصويب من البيان المغرب .

(٧) وردت فى المخطوطين رأوهم . والتصويب أنسب .

(٨) فى المخطوطين : حضروا . والتصويب من الذخيرة .

وعمل السيف فيهم فمزّقوا ، وقتل زهير ، وجُهل مصرعه، وغنم[١] رجال باديس من المال والمرافق والأسلحة والحلية والعُدة والغلمان والخيام ، مالا يُحاط بوصفه . وكانت وفاة زهير يوم الجمعة عقب شوال ، سنة تسع وعشرين وأربعمائة بقرية ألفُنْت[٢] خارج غرناطة .

طلحة بن عبد العزيز بن سعيد البطليوسى وأخواه أبو بكر وأبو الحسن بنو القبطرنة[٣]

يكنى أبا محمد .

حالهم

كانوا عيوناً من عيُون الأدب بالأندلس، ممن اشتهروا بالظرف ، والسّرو[٤] والجلالة . وقال أبو الحسن بن بسّام وقد ذكر أبا بكر منهم ، فقال ، أحد فرسان الكلام ، وحملة السيوف والأقلام ، من أسرة أصالة ، وبيت جلالة ، أخذوا العلم أولا عن آخر ، وورثوه كابراً عن كابر ، ثلاثة[٥] كهقعة الجوزاء[٦] ، وإن أربوا

---

(١) وردت فى المخطوطين : وختم .

(٢) ألفنت . وبالإسبانية Daifontes . بلدة صغيرة تقع على قيد نحو خمسة كيلو مترات من شمالى غرناطة .

(٣) وفى هامش « ج » : (الوزراء بنو القبطرنة) . وقد وردت التسمية فى « قلائد العقيان » (بنو القبطرنية) . ووردت فى كتاب المغرب لابن سعيد (ح ١ ص ٣٦٧) : (بنوالقبطورنة) . وواضح أن هذه التسمية ليست عربية . والراجح فى شأنها أنها ترجع إلى أصل إسبانى ، وأن أصحابها هم على الأغلب من الأندلسيين المولدين .

(٤) وردت فى « ج » . والملكية (والسر) وفى « ك » : والسرور .

(٥) فى « ك » : كلاثمة .

(٦) ثلاثة كهقعة الجوزاء . أعنى ثلاثة نجوم فوق منكب الجوزاء ، وهى الشاة التى يشق البياض ظهرها .

عن الشهر فى السنا والسناء . كتب أبو محمد عبد العزيز وأخواه عن ملك لمتُونة، ودخلوا معه غرناطة . ذكر ذلك غير واحد . واجتزأت[١] بذكر أبى محمد . وأتبعه أخويه اختصاراً .

شعره

من شعر أبى محمد ، قوله فى الاستدعاء :

هلم إلى رَوْضنا[٢] يا زُهَـــيرُ ولُحْ فى سماء المنى يا قمر
وفوّق إلى الأنس سَهْمَ الإخا ء فقد عُطِّلت قوسُه والوتر
إذا لم تكن عندنا حاضراً فما بغصون الأمانى ثمر
وقعتَ من القلب وقْعَ المنى وحُزْتَ من العين حُسْنَ الحَوَر

قال أبو نصر[٣] ؛ بات مع أخويه فى أيام صباه، واستطابة جنوب الشَّباب[٤] وصَبَاه، بالمُنية المسماة بالبديع؛ وهو روض كان المتوكل يُكَلَف بموافاته ، ويبتهج بحسن صفاته ، ويقطف رَيحانه وزهره ، ويقف عليه إغفاءه وسهره ، ويستفزُّه الطرب متى ذكره ، وينتهز فرص الأنس فيه روحاته وبُكَره ، ويدير حمياه على ضفة نهره[٥] ، ويخلع سرَّه فيه لطاعة جَهْره ، ومعه أخواه ؛ فطاردوا اللذات حتى أنضَوها[٦] ؛ ولبسوا بُرُود السرور فما نَضَوها ؛ حتى صرعتهم العقار ،

---

(١) فى « ج » : وفى « ك » : واجتزت . وهو تحريف .
(٢) فى المخطوطين : أرضنا . والتصويب من « قلائد العقيان » .
(٣) هو أبو نصر الفتح بن خاقان مؤلف « قلائد العقيان » .
(٤) فى المخطوطين والملكية . الشمال . والتصويب من القلائد .
(٥) هكذا فى « ج » وفى القلائد . وفى « ك » : قصره .
(٦) هكذا فى « ج » والقلائد والملكية : وفى « ك » (قضوها) .

وطلحتهم[1] تلك الأوقار ؛ فلما همّ رداء الفجر أن يَنْدى ، وجبين الصبح أن يَبْتَدى ، قام الوزير أبو محمد فقال :

يا شقيقىّ وافى الصّباح بوجهه ‏ ‏ ‏ ستَر اللّيلَ نورُه وبهاؤه

فاصطبح واغتنم مَسَرَّة يومٍ ‏ ‏ ‏ لَستَ تَدْرى بما يجىء مساؤه

ثم استيقظ أخوه أبو بكر فقال :

يا أخى قم ترَ النّسيم عليلا ‏ ‏ ‏ باكرَ الرّوضَ والمُدام شَمُولا

[فى رياض تعانقَ الزهرُ فيها ‏ ‏ ‏ مثلُ ما عانق الخليلُ خليلا][2]

لا تنم واغتـــنم مَسَرَّة يوم ‏ ‏ ‏ إنّ تحت التّراب نوماً طويلا

ثم استيقظ أخوهما أبو الحسن [وقد ذهب من عقله الوسن][3] ، فقال :

يا صاحبىّ ذَرَا لَوْمى ومعْتَبَتى ‏ ‏ ‏ قم نصطبح قهوة[4] من خير ما ذخروا

وبادرا غفْـلَة الأيّام واغتنما ‏ ‏ ‏ فاليوم خمرٌ و يبدو فى غد خبرُ[5]

وقال أبو بكر فى بقرة أخذها له الرنق[6] صاحب قُلُمُورِيه[7] ، وقد أعاد أرضه:

وأفقدنيها الرنق أمّا حَفِيّة ‏ ‏ ‏ إذا هى حَفّت ألفت بين وفدين

---

(١) هكذا فى «ك» ، والقلائد . وفى «ج» : طرحتم .

(٢) هذا البيت ساقط فى المخطوطين والملكية . ونقلناه عن «القلائد» .

(٣) ما بين الحاصرتين من القلائد .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : نهوة . والمقصود بالقهوة هنا معناها القديم وهو الخمر

(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى «ج» والقلائد . ووردت فى «ك» كما يلى : (فاليوم خمر وليل وفى غد خبر) .

(٦) وردت فى المخطوطين وفى الملكية : (الرتو) وهو تحريف لكلمة (ابن الرنق) ، (أو ابن الريق) وهو الاسم الذى تطلقه الرواية الإسلامية على ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال (١١٢٨ — ١١٨٥ م) وصاحب مدينة قلمرية التى كانت يومئذ عاصمة للبرتغال . وقد عاش أبو بكر فى هذا العصر وتوفى بعد سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) فى عهد الملك المشار إليه .

(٧) هكذا رسمت فى المخطوطين ، والرسم الأصح : قلمرية . وهى مدينة أندلسية قديمة تقع فى شمالى البرتغال . وبالإفرنجية **Coimbra** .

تعنفنى أمّى على أنْ رثَيْتُها ... وأن أتبعتهـــا الدّم من عين
لهــا الفَضْلُ عندى أرْضَعتنى ... [وبالرغم مابلّغتنى وأمى حولين] (١)

محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر

الرئيس المتوثّب على المُلْك ، وحيُّ كرسى الإمارة ، وعاقدُ صفقة الخُسْران المُبين ، يكنى أبا عبد الله .

أوَّليَّته ، معروفة .

حـــاله

« من نُفاضة الجِراب » وغيره ؛ كان شيطاناً ، ذميم الخُلُق ، حَرْفوشاً ، على عُرْف المشارقة ، مُترامياً للخسائس ، مَألَفاً للدّعرة والأجلاف والسُّوَّار (٢) وأولى الريب ، خبيثاً كثير النُّـكر ، منغمساً فى الهِنْ ، كَلِفاً بالأحداث ، مُتقلباً عليهم فى الطرق ، خليع الرَّسَن ، ساقط الحشمة ، كثير التّبَذّل ، [قوّاد عُصْبَة كِلابٍ] (٣) ، معالجاً لأمراضها ، مباشراً للصّيد بها ، راجلًا فى ثياب مُنْتاب الشّعر من الجلود والسوابل والأسمال ؛ عقد له السلطان على بنته لوقوع القحط فى رجال بيتهم ، ونوّهه (٤) بالولاية ، وأركبه ، وأغضى له عن مُوبِقات تَقصُر به ، إلى أن هلك ؛ وحاد الأمر عن شقيق زوجه ، واستقرّ فى أخيه ، وثقُل على الدولة ،

---

(١) هكذا رسمت فى المخطوطين : وتوجد نصوص أخرى .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : السرار . والسوار أى الناقمون .

(٣) فى المخطوطين والملكية : (قواداً عصبة كلاباً) . وهو تحريف .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : وتوجهه .

لكراهة طلعته ، وسوء الأحدوثة به . فأمر بترك المباشرة ، والدخول للقلعة[١] ، وأذن له فى التصرف فى البلد والفحص . وأبقيت عليه النعمة ، فداخل أم زوجه ، وضمن لها تمام الأمر لولدها ، وأمدته[٢] بالمال ، فنظر من المساعير شيعة ، من كسرة الأغلاق ، وقتلة الزقاق ، ومختلسى البضائع ، ومخيفى السابلة ، واستضاف[٣] من أسافلة الدولة ، من آسفته بإقصار قصد ، أو مطل وعد ، أو حط رتبة ، أو عزل عن ولاية ، فاستظهر منهم بعدد ولا ، كالشقى الدليل المزوورى ، الغريب الطور ، وإبراهيم بن أبى الفتح المنبوذ بالإضليع ، قرين الجهل ، ومستور العظيمة ، وارتادوا عورة القلعة فاهتدوا منها إلى ماشاءوا وتألفوا[٤] بخارج ؛ ثم تسللوا ببطن الوادى المعروف « بهدارُه »[٥] ، إلى أن لصقوا بجناح السور الصاعد ، الراكبة قوسه جرية النهر ، وصعدوا مساوقين جناحه المتصل بسور القلعة ، وقد نقص كثير من ارتفاعه ، لحدثان إصلاح فيه ، فتسوروه عن سلم ، ودافع بعض محاربيهم بعضاً ، فى استباق أدراجه ، فدخلوا البلد فى الثلث الأخير من ليلة الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان ، [عام ستين وسبعمائة][٦] ثم استغلظوا بالمشاعل[٧] ، وقتلوا نائب الملك رضواناً النصرى ، سايس الأمر ، وبقية المشيخة ، واستخرجوا السلطان الذى هو يزيفه[٨] ، فنصبوه للناس ، وتم الأمر ،

---

(١) هكذا فى « ج » وفى « ك » والملكية .

(٢) فى المخطوطين : وأمرته . وهو تحريف .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى الملكية : واستظهر .

(٤) هكذا فى « ح » . وفى « ك » : وتابعوا .

(٥) هداره أو حداره ، وبالإسبانية El Darro هو اسم النهر الذى يخترق غرناطة ، وهو فرع صغير من نهر شنيل .

(٦) هذه الزيادة من اللمحة البدرية .

(٧) فى المخطوطين : بالمشاغيل . والتصويب من اللمحة .

هذا وقد وردت فى « ك » وفى « ج » بعد كلمة المشاغيل هذه العبارة (واسموا الناس ومور) ولم نوفق إلى تصويبها أو استقرائها فتركناها . وهى بالفعل ساقطة فى الملكية .

(٨) هكذا فى « ك » . وفى « ح » : يفه .

بما دلّ على احتقار الدنيا عند الله ؛ وانخرط هذا الخَبّ[1] فى طور غريب من التنزُّل للسلطان ، والاستخدام لأمه ، والتهالُك فى نُصحه . وخلط نفسه فيه ، وتبذل فى خدمته : يتولى له الأمور . ويمشى فى زىّ الأشراط بين يديه . ويتأتى لشهواته، ويتظاهر بحراسته . ولما علم أن الأمر يشُق تصيُّره إليه من غير واسطة، بغير انقياد الناس إليه ، من غير [تَدْريج كاده][2] ، فألطف الحيلة فى مساعدته على اللذَّات ، وإغرائه بالخبائث ، وشغْله بالعَهَر ، وقتْله بالشَّهوات المنحرفة ، وجعل يتبرأ من دَنيّته وينفق بين الناس من سلع اغتيابه ، ويرى الجماهير الإنكار لصَنيعه ، ويزين لهم الاستعاضة منه بعد ما غَلُظَتْ[3] شوكته . وضمّ الرجال إلى نفسه مُورياً بحفظه ، والاستظهار على صَوْنه . وفى الرابع من شعبان [عام] أحد وستين وسبعماية . ثار به فى محل سكناه فى جواره . واستجاش أولياء غدره : وكبس منزله، مداخلا للوزير المشئوم ، عاقداً معه صفقة الغدر . وامتنع السلطان بالبُرْج الأعظم ، فاستنزله وقتله ، كما مر فى اسم المذكور قبل ، واستولى على المُلْك . فلم يختلف عليه اثنان . واشتغل طاغية الروم بحرب ، كان بينه وبين القطالنيين[4] . فمالأ لمسالمته، فاغتبط الصنيع وتهنَّا المنحة : وتشطط على الروم فى شروط غير معتادة . سامحوه بها مكيدةً واستدراجاً . واجتاز أميرُ المسلمين المصابُ بغدره إلى الأندلس ، طالباً لحقّه ، ومبادراً إلى ردّ أمره ، فسُقِط فى يده ، ووجّه الجيش إليه بمثواه من بلد رُنْدَة ، فانصرف عنها خائباً ، ورجع أدراجه ، يشُكّ فى النجاة ، وتفرغ إليه الطاغية ، [ففضّ عليه جَمّه][5] ؛ وقد أجرت عليه شوكته وقيعةً ، نصر الله

(١) فى المخطوطين : الحب .

(٢) وردت هذه العبارة فى المخطوطين والملكية ، وفيها بعض الغموض . وكاده من الكده وهو الغلبة ، وقد تعنى الإخضاع القهرى .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ح » : غلظ .

(٤) أعنى القطلان سكان قطلونية .

(٥) هذا ما أثبته « ك » . وفى « ج » والملكية : (ففغر عليه فه) . والمؤدى واحد .

فيها الدِّين . وأولى لهذا الوعد[1] . فلم يُقْله[2] العَثْرة بعدها . ونازل حصونه المهْتضمة ، واستولى على كثير منها ، وحام فلم يُصْحر غَلْوة . وأكذب ماموَّه به من البسالة . وظهر[3] للناس بلبس الصوف ، وأظهر التَّوبة على سريرة دَخِلة ، وفسق مبين ؛ وقل ما بيده ، ونفد بيت ماله ، فلم يجد شيئاً يرجع إليه ، من بعد ما سبك الآنية والحلْية ، وباع العقار لتبذيره ، وسَحَّه المـال سحّاً ، فى أبواب الأراجيف والاختلاف ، والبهج بالغنا ، فشرف الإنقاب إلى الفرار ، وأزمع إلى الانسلال . وعندما تحرك السلطان إلى غربى مالقة ، ونجَعَ أهلها بطاعته ودخلوا فى أمره ،وسقط عليه الخبر . اشتمل على الذخيرة جمعاء ، وهى التى لم تشتمل خزائن الملوك مطلقاً على مثلها ، من الأحجار واللؤلؤ والقَصَب ،والتفَّ عليه الجمع المستميت ، جمعُ الضلال ومَرَدةُ الغَىّ ، وخرج عن المدينة ليلة الأربعاء السابع عشر من جمادى الآخرة ، وصوب وجهه إلى سلطان قَشْتالة ، مكْظومٌ تجنيه ، وموتُورٌ سوء جواره ، من غير عهد ، إلا ما أمل من التبقى عنده من التَّذْميم به ، وضمان إتلاف الإسلام ، واستباحة البلاد والعباد بنُكْرته[4] .

ولما استقر لديه نَزْله ، تَقبَّض عليه ، وعلى شرذمته المُنيفة على ثلاثمائة فارس من البغاة[5] ، كشيخ جنده الغربى إدريس بن عثمان بن إدريس بن عبد الله بن عبد الحق ، ومن سواه ؛ تحصل بسببهم بيد الطَّاغية ، كلُّ ما تسمو إليه الآمال ، من جواد فاره ، أو مَنْطقة ثقيلة ، وسلاح مُحَلّى ، وجَوْشَن وفيع ، ودِرْع حصينة ، وُبلْبُلة[6] منيمة . وبيضة مذهبة ، وبِزَّة فاخرة ، وصامت عتيد ، وذخيرة

(١) فى المخطوطين : الوعد .
(٢) فى المخطوطين : يلقه : وهو تحريف .
(٣) فى المخطوطين : وطور .
(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : (بكرته . فكرته) .
(٥) وردت فى المخطوطين : (البغاوة . البغارة) .
(٦) وردت فى المخطوطين : وبلبة .

شريفة ، فتنخّل[1] منهم متولى التسوّر ، فجعلهم أسْوة وأسهم فى القتل ، خرّ بعضهم يومئذ على بعض ، فى القتل ، وأخذتهم السيوف ، فحلّوا بعد الشّهرة ، والتمثيل فى أزقة المدينة ، وإشاعة النداء فى الجزيرة ، ثانى رجب من العام المؤرخ به ، وركب أسْوق سايرهم الأداهم ، واستخْلَصهم الإسار ، وبادر بتوجيه رؤسهم ، فنَصِبَت من فوق العَوْرة التى كان منها تسوّرهم القلعة ، فسكنت بها إلى أن استُنْزلت وووريت ؛ وانقضى أمرُه على هذه الوتيرة[2] مشئوماً دَبيراً ، لم يُمتّعه الله[3] بالنعيم ، ولا هنّاه سكنى المحل الكريم ، ولا سوّغه راحة ، ولا ملأه مَوْهبة ، ولا أقام على فضله حجّة ، ولا أعانه على زُلْفة . إنما كان رئيس السرّاق وعريف الخراب ، وإمام الشّرار ، نَكَد يوماً فى نفسه ، وقد رفعت إليه امرأة من البدو تدعى أنها سُرِقت دارها ، قال : إن كان ليلا بعد ماسدّ باب الحمراء علىّ وعلى ناسى ، فهى والله كاذبة ، إذ لم يبق سارق فى الدنيا ، أو فى البلاد[4] ، إلا وقد تحصل خلفه ، وقانا الله المحن ، وثبّتنا على مستقر الرّشد ، ولا عاقنا عن جادة الاستقامة .

وزراء دولته

استوزر الوزير المشئوم مُمدّه فى الغىّ ، الوغد ، الجهول ، المرتاش من السرقة ، الحقود على عباد الله لغير علّة عن سوء العاقبة ، المخالف فى الأدب سُنن الشريعة ، البعيد عن الخير بالعادة والطبيعة ، دودة القزّ ، وبَغْل طاحونة الغدر ، وزقّ القَطْران[5] ، محمد بن إبراهيم بن أبى الفتح الفهرى ؛ فانطلقت يدُه على الإبشار ،

(١) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : فتتخذ .
(٢) وردت فى المخطوطين : الوثيرة .
(٣) هذه الكلمة أغفلها «ك» .
(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» . البلد .
(٥) هكذا فى المخطوطين والملكية .

ولسانه على الأعراض ، وعينه على النظر الشَّزْر ، وصدره على التأوه والرّين ؛ يَلقى الرجل كأنه قاتل أبيه ، مُحدقاً إلى كميّه ، يحتَرِشُ بهما خبيئة ، أو يظن بهما رشوة ؛ فأجاب الله دعاء[(١)] المضطّرين ، ورغبات السَّائلين ، وعاجله بالأخْذَة الرّابية ، والبَطْشة القاضية ؛ فقبض عليه فى ليلة السبت العاشر لرمضان من العام المذكور ، وعلى ابن عمه العصرفوط[(٢)] وعلى الُحيرا من نواهض بيتهما[(٣)] وأنفذ الأمر بتعريضهم[(٤)] ، فمضى حكم الله بهذه المنّية الفرعونية فيهم [لا تبديل لكلمات الله][(٥)] ، قاهر الجبابرة ، وغالب الغلاب ، وجاعل العاقبة للمتقين .

واستوزر بعده ، أولى الناس وأنسبهم إلى دولته ، وأحقهم بمظاهرته ، المسوس الجبَّار اليأس والفطرة ، المختْبل الفكرة ، القِيل ، المرُجَّس ، الُحول ، الشهير[(٦)] ، الضَجر ، محمد بن على بن مسعود ؛ فيما بُلِى الناس على طول الُخمرة ، وانفساح زمان التجربة ، أسوأ تدبيراً ، ولا أشرّ معاملة ، ولا أبذأ لساناً ، ولا أكثر شكوى ومعاتبة ، ولا أشحّ يداً ، ولا أجدَب خِواناً ، من ذلك المشئوم [ينعق البوم][(٧)] ، ينعُق بما لا يسمع ، ويسرد الأكاذيب ، ويسىء السّمع ، فيسىء الإجابة ، ويقود الجيش فيعود بالخيبة ، إلى أن كان الفرار ، فصَحبه إلى مصرعه ؛ وكان ممن استؤثر به القيدُ الثقيل ، والأسر الشديد ، والعذاب الأليم ، عادة بذلك عبد «المالاخوينا»[(٨)] ، التى كان يَحْجب سِمَتها ، زمان ترفيهه ، فقضت عليه سيِّء المِيْتة ، مُطّرح الجثة. سترنا الله بستره ولا سَلَبنا فى الحياة ، ولا فى الممات ثوب عنايته .

---

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» والملكية : دعوة .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» والملكية : العصربوط .

(٣) فى المخطوطين : بينهما .

(٤) هكذا فى «ج» والملكية . وفى «ك» بتفريطهم .

(٥) هكذا وردت فى «ج» والملكية . وفى «ك» (لا مبدل لكلمته) .

(٦) هذه الكلمة ساقطة فى «ج» .

(٧) ساقطة فى الملكية وردت فى المخطوطين : (ينعق اليوم) ، والمرجح ما أثبتناه .

(٨) هكذا فى المخطوطين والملكية . والظاهر أنه يعنى بذلك مرضاً نفسيا معينا .

كاتب سره

صاحبُنا الفقيه الأهْوَج ، قصب الريح ، وشجرة الخَوَر ، وصوت الصَّدى ، أبو محمد عبد الحق بن عَطية ، المستبد بتدبير الدَّبير ، خُطاً فوق الرِّقاع الجاهلة ، ومسارَّةً فى الخلوات الفاسقة ، وصَدْعاً فوق المنابر السكَيبية ، بحلة لثِّ الراية ، ويذُبُّ عنه ذبَّ الوالدة ، ينتهى فى الاعتذار عن هَناته إلى الغايات القاصرة .

قضاته

شيخنا أبو البركات ، قيسُ لَيْلى القضاء ، المخدوعُ بزخرُف الدنيا على الكَبْرة والعناء . لطف الله به ، وألهمه رشده .

شيخ الغزاة على عهده

إدريس بن عثمان بن إدريس بن عبد الحق بن مَحْيو[1] ، بقية بيت الدَّبْرة ، ووشيجة الشجرة المُجْتثَّة . عُذِّب فى الجُمْلة من أهل بيته عند القبض عليهم . واستقرَّ فى القبض الأشهب من قَبيلِه بالمغرب ، مُطْلَق الإقطاع ، مرموقاً بعين التجِلة ، مكنوفاً بشهرة الأب ، إلى أن سُعى به إلى السلطان ، نسيج وحده فارس بن على ، واستشعر البَثَّ فطار به الذُّعر لايلوى عِناناً ، حتى سقط بإفريقيَّة . وعبر البحر إلى ملك بَرْجلونة[2] ؛ ثم اتَّصل بالدولة النصرية ، بين إدالة الغدر[3] ، وإيالة الشَّر ، فقلَّده الدائلُ مشيخة الغُزاة ، ونوَّه به ، فاستراب مُعْزُله يحيى بن عمر ، ففرَّ إلى

(١) وردت فى المخطوطين : فحو . وهو تحريف .

(٢) أعنى برشلونة . يريد ملك أراجون .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : (العذر . العدد) .

أرض الروم حسبما يذكر فى اسمه ؛ فقام له بهذا الوظيف . ظاهر الشهرة والأبهة ، مخصوصاً منه بالتجلة . إلى أن كان ما كان من إزمانه وفراره ؛ فوفّى له وصَحِبه وكا به . وقاسمه المَنْسجة شقّ الأبلة . واستقرّ بعد قتله أسيراً عانياً علق الدهر[1] ، لضنانة العدو بمثله . إلى أن أفلت من دون الأغلاق . وشدّ الوثاق . ولحق بالمسلمين فى خبر لم يشتمل كتابُ الفَرَج بعد الشدّة على مِثله ، والإغراب منه ، يستقرّ فى اسمه إلماع[2] به ؛ ثم استقر بالمغرب مُعْتقلا ، ثم مات رحمه الله .

من كان على عهده من الملوك

وأولاً بمدينة فاس دار مُلْك المغرب ، السلطانُ ، الخيِّرُ ، الكريم الأبوّة ، المودود قبل الولاية ، اللّين العريكة ، الشهير الفضل فى الحياة ، آية الله فى إغراب الصُّنع ، وإغراب الإدبار[3] ، أبو سالم إبراهيم بن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، أمير المسلمين . المترجم به فى حرف [الألف][4] . ولما قُتل يوم الحادى والعشرين لذى قعدة من عام اثنين وستين ، قام بالأمر بعده أخوه المُتَحَيِّل أبو عامر تاشفين بن على إلى أواخر صفر عام ثلاثة وستين ؛ ولحق بالبلد الجديد ، الأميرُ أبو محمد زيان بن الأمير أبى عبد الرحمن بن على بن عثمان المترجم به فى بابه ، ثم المتولى من عام ثمانية وستين وسبعمائة السلطان أبو فارس[5] عمّه المؤمَّل لِلَمِّ الشَّعَث ، وضَمِّ النَّشْر ، وتجديد الأمر بحول الله ، ابن السلطان الكبير المُقَدَّس ، أبى الحسن بن سعيد بن يعقوب بن عبد الحق ، وهو بعد متّصل الحال إلى اليوم .

---

(١) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » . الدهن

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الأمام .

(٣) هكذا فى المخطوطين .

(٤) مكانها بياض فى المخطوطين . وقد ترجم ابن الخطيب لهذا الأمير فيما تقدم فى حرف الألف . (ص ٣٠٣ — ٣١٠) .

(٥) هو الملك أبو فارس عبد العزيز المرينى . وقد حكم المغرب من سنة ٧٦٨ هـ إلى وفاته فى ربيع الثانى سنة ٧٧٤ هـ .

وبتلمسان الأمير أبو حمو، موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيي ابن يغمراسن(١) بن زيان.

وبإفريقية الأمير الخليفة على عرفهم. إبراهيم بن أمير المؤمنين أبي يحيي ابن حفص.

وبقشتالة، بطره بن ألهنشة(٢) بن هراندة بن شانجه المصنوع له، ولي النعمة منه، ومستوجب الشكر من المسلمين لأجله، بإراحته منهم.

وبرغون، بطره بن شانجه(٣).

وبرندة، مزاحمه بالملك(٤) الفخم، أمير المسلمين حقيقة، المرتب الحق، المعقود البيعة، وصاحب الكرة، وولي حسن العاقبة، مجتث شجرته الخبيثة، وصارخ إيالته الدنية، أبو عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبي الحجاج، بن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر.

مولده

مولد هذه النسمة المشئومة أول يوم من رجب عام اثنين وثلاثين وسبعمائة.

وفاته

توفى قتيلاً ممثلا به بطيلاطة(٥)، من ظاهر إشبيلية، فى ثانى من رجب عام ثلاثة وستين وسبعمائة، وسيقت رؤوس أشياعه(٦)، الغادرين مع رأسه إلى الحضرة فصلبت بها. وفى ذلك قلت:

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين: (بغراسان).

(٢) هو بيدرو الثالث بن ألفونسو الحادى عشر. وقد حكم قشتالة من سنة ١٣٥٠ إلى سنة ١٣٦٨ م

(٣) هو بيدرو الرابع ملك أراجون وقد حكم من سنة ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٨٧ م.

(٤) هكذا فى «ج». وفى «ك» بالمنكب.

(٥) طيلاطة أو طلياطة هى بلدة أندلسية تقع على مقربة من جنوب غربى إشبيلية وجنوب شرق لبلة.

(٦) هكذا فى «ج». وفى «ك»: أتباعه.

في غير حِفظ الله من هامَةٍ　　هام بها الشَّيطان في كل واد
لا خلَّفَتْ ذِكْراً ولا رَحْمَةً　　في فَمِ إنسانٍ ولا في فؤاد

محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد ابن أحمد بن خميس بن نصر الخَزْرَجي

أمير المسلمين بالأندلس بعد أبيه رحمه الله .

أوَّليَّتــه

معروفة .

حــاله

كان معدوداً في نُبَلاء الملوك . صيانة . وعِزًّا وشهامة ، وجمالاً . وخَصْلاً ؛ عَذْب الشمائل، حُلْوًا لبِقاً ، لَوْذَعِيًّا هشًّا ، سخيًّا ؛ المثلَ المضروب به في الشجاعة المقتَحِمة حدَّ التهور(١) ، حِلْسَ(٢) ظهور الخيل ، وأفرسَ من جال على ظهورها(٣) ، لا تقع العين ، وإن غُصَّت الميادين على أدْرَب بركض الجياد منه ، مغرماً بالصَّيد ، عارفاً بِسمات السَّقار(٤) وشَيات الخيل ؛ يحب الأدب ، ويرتاح إلى الشعر وينبِّه على العُيون ، ويلِمُّ بالنادرة الحارَّة . أُخذت له البيعة يوم مهلك أبيه ، وهو يوم الثلاثاء السابع والعشرين لرجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة . وناله الحَجْب . واشتملت

(١) في المخطوطين : اهور .
(٢) هكذا في « ك » . وفي « ح » ، جلس . وكلتاهما صالحة لمعنى المقصود .
(٣) في المخطوطين : ظهوره .
(٤) السقار أي الصقورة .

عليه الكفالة إلى أن شبّ وظهر . وفتك بوزيره ، المتغلب على ملكه ، وهو غلام لم يَبْقِل خَدُّه ، فهِيب شأنُه[1] ، ورُهبت سطوته ، وبرز لمباشرة الميادين، وارتياد المطارد ، واجتلاء الوجوه[2] ، فكان ملء العيون والصدور .

ذكاؤه

حدّثني القائد أبو القاسم بن الوزير عبد الله بن عيسى وزير جدّه ، قال ؛ تُذُوكر يوماً بحضرته تباينُ قول المتنبي :

ألا خَدَّدَ[3] الله وَرْدَ الخدود ... وقد قُدُودَ الحِسان القُدود[4]

وقول امرئ القيس :

وإن كنتِ قد سَاءتْكِ مني خَلِيقةٌ ... فسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ

وقول إبراهيم بن سَهل :

أنّي له من دَمِي المَسْفُوك مُعْتَذَراً ... أقولُ حَمّلْتُه في سفكه تَعَبا

فقال رحمه الله ، بديهةً : بينهما مابين نَفْس مَلِكٍ عربي وشاعِر ، ونَفْس يهودي تحت الذِمَّة ، وإنما تتنفّس بِقَدْرِهمّتها ، أو كلاماً هذا معناه . ولما نازل مدينة قَبْرَة[5] ودخل جَفْنَها عَنْوَةً ، ونال قصبتها ، ورماها بالنَّفْط ، وتغلّب عليها ، وهي ما هي عند المسلمين ، وعند النصارى ، من الشهرة والجلالة ، بادرناه نُهنيه بما نُسق له ، فزَوَى وجهه عنا ، وقال ، ماذا تهنونني[6] به ، كأنكم رأيتم تلك الخِرْقة

---

(١) وردت محرفة في المخطوطين : شاه .

(٢) هكذا في « ج » . وفي « ك » : الوجدة .

(٣) وفي نص (أياخدد) .

(٤) هكذا في « ج » . وفي « ك » القدور .

(٥) سبق التعريف بها (انظر الحاشية في ص ١١١) .

(٦) وردت محرفة في المخطوطين : هونني . تهمونني .

بكذا يعنى العلَمَ الكبير فى منار إشبيلية(١)، فعجبنا من بُعد همّته، ومرمى عزمه.

شجاعته

أقسم أن يغير على باب مدينة بيّانَة(٢) فى عدّة قليلة عيّنها الميْمنُ، فوقع البَهت وتُوقِّعت الفاقِرةُ، لقرب الصَّريخ، ومَنَعة الحَوْزة، وكثرة الحامية، واتصال(٣) تُخوم البلاد، ووفور الفرسان بذلك الصُّقْع؛ وتنخَّل أهل الحفاظ، وهجم على باب الكفار نهاراً، وانتهى إلى باب المدينة، وقد برزت الحامية، وتوقع فرسان الرُّوم الكُمَناء، فأقْصَرُوا عن الإحصار، وحَمِى المسلمون فشدُّوا عليهم، فأعطوهم الضَّمَّة ودخلوا أمامهم المدينة؛ ورمى السلطان أحد الرجال النَّاشبة بمزراق كان بيده مُحَلى السنان رفيع القيمة، وتحامل يريد الباب فمنع الإجهاز عليه، وانتزاع الرُّمح الذى كان يجرُّه خلفه، وقال اتركوه يُعالج به رُمْحَه أن كان أخطأته المنِيَّة، وقد أفلت من أُنْشُوطة خطر عظيم.

جهـــاده ومناقبه

كان له وقائع فى الكفار، على قلة أيامه، وتحرك ونال البلاد، وفتح قَبْرة، ومُقَدّم جيش العدو الذى بَيَّت بظاهرها وأثْخن فيه، وفتح الله على يده مدينة

---

(١) المقصود به منار جامع إسبلبة الأعظم الذى شيده الخليفة يعقوب المنصور الموحدى. وقد حول أعلاه فيما بعد إلى برج الأجراس لكنسبه إشبيلية العظمى. وما يزال قائماً حتى اليوم ويعرف باسم «الخيرالدا» La Giralda وهو من أجل الآثار الأندلسية.

(٢) بيانة سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ٢٠٣).

(٣) فى المخطوطين: واتصل.

باغوة[١] ، وتغلب المسلمون على حصن قَشْتالة ، ونازل حصن قَشْرة[٢] بنفسه لدى قُرْطبة ، فكاد أن يتغلب عليه ، لولا مددٌ اتّصل للنصارى به . وأعظم مناقبه تخليص جَبَل الفَتْح[٣] ، وقد أخذ الطاغيةُ بكَظَمه ، ونازله على قرب العهد من تملك المسلمين إياه ، وناخ بكلكله ، وهدّ بالمجانيق أسواره ، فدارى[٤] الطّاغية ، واستنْزل عزمَه وتحَنّه ، ولحق فى موضع اختلاله ، إلى أن صرفه عنه ، وعقد له له صلحاً ، ففازت به قِداح الإسلام ، وتخلّصه من بين ناب العدو وظُفْره ؛ فكان الفتح عظيما لا كِفاء له .

بعض الأحداث فى دولته

وفى شهر المحرم من عام سبعة وعشرين وسبعمائة، نشأت بين المتغلِّب على دولته ، وزيره ، وبين شيخ الغزاة وأمير القبائل العُدْوية[٥] ، عثمان بن أبى العلاء ، الوَحْشة وألقحت ريحها السعايات ، فصبَّت على المسلمين شؤبوب فتنة عظُم فيهم أثرها معاطباً ، وسُمّ الانصراف عن الأندلس ، فلحق بساحل المريَّة ، وأحْوزَته المذاهب ، وتحامت جواره الملوك ، فداخل أهل حصن أَنْدَرَش[٦] ، فدخل فى طاعته ؛ ثم استضاف إليه مايجاوره ، فأعضل الداء[٧] ، وتفاقمت اللأْواء[٨] ، وغامت سماء الفتنة ، واستنفد[٩]

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . ونرجح أنها ... باغة Priego التى سبق التعريف بها ، وهى قريبة من قبرة .

(٢) حصن قشرة ونرجح أنه حصن Castro الواقع بين بيانة وقبرة .

(٣) أعنى جبل طارق .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : فدار .

(٥) أعنى القبائل المغربية .

(٦) سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ١٥٨) .

(٧) وردت فى المخطوطين : الدواء . وهو تحريف .

(٨) وردت محرفة فى المخطوطين والملكية : الألواء . واللأْواء أعنى الشدة .

(٩) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : واستفز .

خزائن الأموال المستعدة لدفاع العدو ، واستلحق الشيخ أبو سعيد عم السلطان ، وقد استقر بتلمسان، فلحق به ، وقام بدعوته فى أخريات صفر عام سبعة وعشرين وسبعمائة ؛ واغتنم الطاغية فتنة المسلمين فنزل ثغر بيرة[1] ، وكاب الجهاد ، وشجى العدو ، فتغلب عليه ، واستولى على جملة من الحصون التى تجاوره ، فاتسع نطاق الخوف ، وأعيي داء الشر ، وصرف إلى [نظر][2] ملك المغرب ، فى أخريات العام ، رُنْدَة ومَرْبلّة[3] وما يليهما[4] ، وترددت الرسائل بين السلطان وبين شيخ الغزاة ، فأجلَت الحال عن مهادنة ، ومُعاودة للطاعة ، فصرف أميرهم أدراجه إلى العُدوة ، وانتقلوا إلى سكنى وادى آش على رَسْم الخدمة والحماية على على شروط مقررة[5] ؛ وأوقع السلطان بوزيره ، وأعاد الشيخ إلى محله من حضْرته ؛ أوائل عام ثمانية وعشرين بعده ، واستقدم القائد الحاجب أبا النعيم رضوان من أعاصم حباليه[6] قتيله ، فقام بأمره أحسن قيام . وعبر البحر بنفسه بعد استقرار ملكه فى الرابع والعشرين من شهر ذى حجة من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ، فاجتمع مع ملك المغرب السلطان الكبير أبى الحسن بن عثمان ، فأكرم نزْله ، وأصحبه إلى الأندلس ، وحباه بما لم يُحْبَ به ملك تقدمه ، من مقرَّبيّات الخيل . وخطير الذخيرة . ومستجاد العُدّة ؛ ونزل الجيش على أثره جبل الفتح ؛ وتوجه الحاجب أبو النعيم بأكبر إخوة السلطان . مُظاهراً على سبيل

---

(١) وردت فى المخطوطين : ويده – وبره . ويلوح لنا أن المقصود هنا هو ثغر بيرة Vera الواقع شمال شرقى المرية على مقربة من البحر الأبيض المتوسط ، وكان يومئذ أقصى ثغور الأندلس الشرقية (أنظر الحاشية فى ص ١٠٩) .

(٢) هذه الكلمة الزائدة من اللمحة البدرية .

(٣) رندة من أهم وأمنع قواعد الأندلس القديمة وتقع غربى مالقة . وقد لعبت أدوارا هامة فى تاريخ مملكة غرناطة . ومربلة سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١٩٧) .

(٤) هكذا فى « ك » . ووردت محرفة فى « ج » : وما آل إليه

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى « ك »

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين .

النيابة ، وهيّأ[1] الله فتحه . ثم استنقاذه[2] بلحاق السلطان ، ومحاولة أمره كما تقدم، فتمّ ذلك يوم الثلاثاء الثاني عشر لذي حجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة .

وزراء دولته

وزَرَ له وزير أبيه ، وأخذ له البيعة ؛ وهو مُثخن[3] بالجراحات ، التي أصابته يوم الفَتْك بأبيه السلطان أبي الوليد ، ولم ينشب[4] أن أجهز جُرْح تجاوز عَظْم الدماغ ، بعد مُصابرة ألم العلاج الشديد ، حسبما يأتي في اسمه ؛ وهو أبو الحسن علي بن مسعود بن يحيى بن مسعود المحاربي ؛ وترقى إلى الوزارة والحجابة وكيل أبيه محمد بن أحمد المحروق ؛ من أهل غرناطة ؛ يوم الإثنين غرة شهر رمضان من عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، ويأتي التعريف بهم . ثم اغتيل بأمره ، عشيّ ثاني يوم من محرم فاتح تسعة وعشرين وسبعمائة . ثم وزر له ؛ القائد أبو عبد الله بن القائد أبي بكر عتيق بن يحيى بن المَوْل من وجوه الدولة ؛ وصدور من يَمُتّ بوصْلِه ؛ إلى السابع عشر من رجب من العام ؛ ثم صُرف إلى العُدْوة ؛ وأقام رسم الوزارة والحجابة والنيابة ، أبو النعيم مولى أبيه ، إلى آخر مدته ، بعد أن التأث[5] أمرُه لديه ، وزاحمه بأحد المماليك المسمى بعصام حسبما يأتي ذكره في موضعه إن شاء الله.

رئيس كتابه

كتب له كاتب أبيه قبله ، وأخيه بعده ، شيخُنا نسيجُ وحده ، أبو الحسن علي بن الجَيّاب الآتي ذكره في موضعه إن شاء الله .

---

(١) في المخطوطين والملكية : هنا . وهو تحريف .

(٢) في المخطوطين والملكية : استقاده .

(٣) هكذا في « ح » . وفي « ك » : ثخن .

(٤) في المخطوطين : يتشبث . والتصويب من اللمحة البدرية .

(٥) أي التبس .

قضاته

استمرت الأحكام لقاضي أبيه ، أخي وزيره ، الشيخ الفقيه أبي بكر بن مسعود رحمه الله إلى عام سبعة وعشرين وسبعمائة ، ووجّهه رسولاً عنه إلى ملك المغرب، فأدركته وفاته بمدينة سَلا ، فدفن بمقبرة سلا . رأيت قبرَه بها رحمه الله . وتخلّف ابنه أبا يحيى مسعود عام أحد وثلاثين وسبعمائة ، وتولى الأحكام الشرعية القاضي أبو عبد الله محمد بن يحيى بن بكر الأشعرى ، خاتمة الفقهاء ، وصدر العلماء ، رحمه الله ، فاستمرت [له][1] الأحكام إلى تمام مدة أخيه بعده .

أمــه

رومية اسمها « عَلْوَة » . وكانت أحظى لدّاتها[2] عند أبيه ، وأمّ بِكره ، إلى أن نَزَع عنها فى أخريات أمره ، لأمر جرّته الدالّة ، وتأخرت وفاتها عنه إلى مدة أخيه .

من كان على عهده من الملوك
بأقطار المسلمين والنصارى

فبفاس ، السلطان الكبير ، الشهير ، الجواد ، خِدْنُ[3] العافية ، وحِلْفُ السعادة ، وبحر الجود ، وهَضْبة الحلم ، أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى بذل[4] المعروف ، وقرّب الصلحاء والعلماء ، وأدنى مكانهم ، وأعمل

(١) الزيادة من الملكية .
(٢) وردت فى المخطوطين : لذاتها .
(٣) هكذا فى « ح » والملكية . وفى « ك » : حون . وهو تحريف .
(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » . بدا .

إشارتهم ، وأوسَعَ بأعطيته المؤمنين المُسْتَرْفِدين ،وعظُم قدره ، واشتهر فى الأقطار صيته ، وفشا معروفه ، وعُرفت بالكف عن الدماء والحرمات عفّته ، إلى أن توفى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة عام أحد وثلاثين وسبعمائة ، ثم صار الأمر إلى ولده السلطان ، مُقتفى سُنَنه فى الفضل والمجد ، وضخامة السلطان ، مبرًّا عليه ، بالبأس المرهوب ، والعزم الغالب ، والجدّ الذى لا يشوبه هزل ، والاجتهاد الذى لا يتخلله راحة ، الذى بَعُد مداه ، وأذعن لصولته عُداه ، واتصلت [ولايته][1] مدته ، ومعظم مدة أخيه الوالى بعده .

وبتِلِمْسان الأمير عبد الرحمن بن موسى بن يَغْمُراسن ، من بنى عبد الواد ، مُشَيِّد القصور ، ومُرَوِّض الغروس[2] ، ومُتَبنِّك[3] الترف ، واتّصل إلى تمام مدته ، وصدرا من مدة أخيه بعده .

وبتونس الأمير أبو يحيى ، أبو بكر بن الأمير أبى زكريا بن الأمير أبى اسحاق لَبِنة تمام قومه ، وصَقْرُ الجوارح من عُشّه ، وسابق الجياد من حَلْبته ، إلى تمام المدة ، وصدراً كبيراً من دولة أخيه بعده .

ومن ملوك النصارى ، ملك على عهده الجفْرتين[4] القنيطية والتاكرونية[5] ، الطاغية المرهوب الشّبا ، المسلط على دين الهدى ، ألهنشة[6] بن هِراندة بن شانجه بن ألفُنْش بن هراندة ، الذى احتوى على كثير من بلاد المسلمين حتى الجفرتين[7]

---

(١) هذه الكلمة سقطة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٢) فى المخطوطين : العروس .

(٣) فى المخطوطين : متبك . وهو تحريف . والتصويب من اللمحة . وتبنك أى أقام فى ظله .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » الخفرتين .

(٥) وردت فى المخطوطين والملكية : التاركونيه . وهو فيما يبدو تحريف لكلمة : التاكرونية .

(٦) هو ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة الذى حكم من سنة ١٣١٢ إلى سنة ١٣٥٠ م .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الخفرتين . ويلوح لنا أن المقصود هنا هو افتتاح النصارى لثغرى الجزيرة الخضراء وطريف . وهما المتقابلان للمثلث الإسبانى . والجفر صفة لما اتسع جنباه .

واتصلت أيامه إلى أخريات أيام أخيه ، وأوقع بالمسلمين على عهده ، وتملك الجزيرة الخضراء وغيرها .

وبرّغون ، ألفنش[١] بن جايمش بن ألفنش[٢] بن بطره بن جايمش الذى استولى على بلَنْسِية ، ودام إلى آخر مدته ، وصدواً من مدة أخيه . وقد استقصينا من العيون أقصى ما سمح به الاستقصاء ، وما أغفلناه أكثر ، ولله الإحاطة .

مولده

فى الثامن من شهر المحرم من عام خمسة عشر وسبعمائة .

وفاته

وإلى هذا العهد مات ، وغرت عليه من رؤوس الجند ، من قبائل العُدْوة ، الصُّدور ، وشُحنت عليه القلوب غيظاً ، وكان شَرِهاً لسانُه ، غير جزوع ولا هيّاب، فربما يتكلم بملء فيه[٣] من الوعيد الذى لايخفى على المُعْتَمد به ، وفى ثانى يوم من إقلاع الطاغية من الجَبَل ، وهو يوم الأربعاء الثانى عشر من ذى حجة، وقد عزم على ركوب البحر من ساحل مربلة[٤]، فهو مع وادى ياروا من ظاهر جبل الفتح ، تخفيفاً للمؤنة ، واستعجالا للصُّدور ، وقد أُخذت على حركته المراصد ، فلما توسط كمين القوم ، ثاروا إليه وهو راكب بَغْلا أثابه به ملك الروم ، فشرعوا فى عَتْبه بكلام غليظ ، وتأنيب قبيح ، وبدأوا بوكيله فقتلوه ، وعجّل بعضهم بطَعْنه ، وترامى عليه مملوك من مماليك أبيه ، زَنَمة[٥] من أخابيث العلوج يسمى زِياناً ، صُونع على

---

(١) هذا خطأ من المؤلف . فقد كان الجالس على عرش أراجون يومئذ هو بيدرو الرابع بن خايمى (جايمش) وقد حكم سنة ١٣٣٦—١٣٨٧م . أما بلنسية فقد سقطت فى يد النصارى سنة ١٢٣٨م

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : (القتيل . الفسيل) .

(٣) وردت فى المخطوطين والملكية : بما فيه .

(٤) وردت فى «ج» والملكية (منزله) . وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

(٥) أى وغد زنيم .

مباشرة الإجهاز عليه ، فقضى لحينه بسَفح الربوة الماثلة ، يسرة العابر(١) للوادى ممن يقصد جبل الفتح ، وتركوه بالعراء بادى البوار ، مسلوب البزّة ، سيء المصرع ، قد عدَت عليه نعمُه ، وأَوْبقَه(٢) سلاحه ، وأسْلمه(٣) أنصاره وحُماته .

ولما فرغ القوم من مبايعة أخيه السلطان أبى الحجاج ، صُرفت الوجوه يومئذ إلى دار الملك ، ونُقل القتيل إلى مالقة ، فدُفن على حاله تلك برياضٍ تجاور مُنْية السيد ، فكانت وفاته ضحوة يوم الأربعاء الثالث عشر لذى حجة من عام ثلاث وثلاثين وسبعمائة . وأقيمت على قبره بعد حين قُبة . ونُوِّه بقبره ؛ وهو اليوم ماثلٌ رَهْن غرْبة ؛ وجالب عِبرة . جعلنا الله للقائه على حذر وأُهبة ؛ وبِلَوْح الرخام الماثل عند رأسه مكتوب :

هذا قبرُ السلطان الأجلّ ، الملك الهمام ، الأمضى الباسل ، الجواد ذى المجد الأثيل ، والملك الأصيل ، المقدس ، المرحوم ، أبى عبد الله محمد بن السلطان الجليل ، الكبير ، الرفيع ، الأوحد ، المجاهد ، الهمام ، صاحب الفتوح المسطورة ، والمغازى المشهورة ، سلالة أنصار النبى صلى الله عليه وسلم ، أمير المؤمنين(٤) ، وناصر الدين ، الشهيد ، المقدس ، المرحوم أبى الوليد [بن فرج](٥) بن نصر ، قدَّس الله روحه وبرَّد ضريحه . كان مولده فى الثانى لمحرم عام خمسة عشر وسبعمائة ، وبويع فى اليوم الذى استُشْهد فيه والدُه رضى الله عنه السادس والعشرين [رجب عام خمسة وعشرين](٦) وسبعمائة ؛ وتوفى رحمه الله فى الثالث عشر لذى حجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، فسبحان من لا يموت » .

---

(١) فى المخطوطين : العابرة . والتصويب من اللمحة .

(٢) فى المخطوطين : وأوافقه والتصويب من اللمحة .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وأسلموه .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى اللمحة : المسلمين .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين والإضافة من اللمحة .

(٦) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين وواردة فى اللمحة .

ياقبرَ سلطانِ الشجاعة والنَّدى فرع الملوكِ الصيدِ أعلام الهدى
وسلالةِ السلفِ الذى آثارُه وضَّاحَة[1] لمن اقتدى ومن اهتدى
سلفٌ لأنصار النبى نجـــارُه قد حلّ منه فى المـــكارم مَحْتِدا
متوسّطُ البيت قد أســسته سادة الأملاك[2] أوحد أوحدا
بيتٌ بنـاه مُحَمَّـــدُون ثلاثةٌ من آل نصر أورثوه مُحَمَّدا
أودعتَ وجهاً قد تهلل حسنه بدراً بآفاق الجلالة [قد بدا][3]
ونداً يَسُحُّ على العفاة مواهباً مُثنى الأيادى السابغات وموحدا
يَبْـكيك مذعورٌ بك استَعْدى على أعدائه فسقَيْتَهم كاس الردى
[يبكيك محتاجٌ أتاك مُؤَمِّلا فغدا وقد شَفَعَتْ يداك له اليدا][4]
أما سمـــاحُك فهو أسْنى ديَّة أما جلالك فهو أسْمَى مصعدا
جادت ثَرَاك من الإلَـه سحابةٌ لرضاه عنك تجودُ هذا المَعْهدا

وشرٌّ ماتبع هذا السلطان تواطؤ قتلته من بنى أبى العلاء وأصهارهم وسواهم من شيوخ خدَّامه ، كالوكيل فى مدة أخيه بعد ، الشيخ الذهول مسافر بن حركات[5] وسواه ، على اكتتاب عَقْد بعد[6] وفاته ، بأمور من القول تَقْدح فى أصل الديانة، وأغراض تقتضى إلى الوهن فى الدِّين ، وهَنَات تسوِّغ إراقة دمه الذى توفَّرت الدواعى على حِياطته ، والذَّب عنه ، تولى كُبْرها شيخنا أبو الحسن بن الجَيَّاب ، مرتـكباً منها وصمة[7] مَحَتْ على غُرر فضله إلى كثير من خُدَّامه ومماليكه ، وبعثوا

---

(١) فى المخطوطين والملكية : واضحة ؛ والتصويب من اللمحة .

(٢) فى المخطوطين : أملاك . والتصويب من اللمحة .

(٣) هكذا فى اللمحة . وفى المخطوطين : مر بداً . وفى الملكية مبر داً .

(٤) هذا البيت وارد فى اللمحة . وساقط فى المخطوطين .

(٥) هكذا فى « ج » والملكية : وفى « ك » حرطات .

(٦) وردت فى « ح » . وأغفلت فى « ك » .

(٧) هكذا فى « ح » . وفى « ك » : وصمته .

بها إلى ملك المغرب ، فاقتطعت جانب التمهيل والتأخير واللبث عن الحكم ، والتعليل عن السماع ، وبُروز(١) الأغراض ، واتباع السيئة أمثالها . وقد كان رحمه الله من الجهاد(٢) وإقامة رسم الدين ، بحيث تزَل عن هذه الهنّات صفاته ، وتُنْكر هذه المذمّات(٣) صفاته ، وكان بمكانٍ من العز ، وإرسال السَّجية ، ربما عذله الشيخ فى بعض الأمر ، فيَسجُم إضجاراً وتمليحاً بإخراجه ؛ ولم يمر إلا الزمان اليسير ؛ وأوقع الله بالعُصْبة المتمالئة عليه من أولاد عبد الله ، فسَفَتْهُم رياح النَّكبات ، واستأصلت نعمَهم أيدى النَّقِمات ، ولم تقم لهم من [بعد](٤) ذلك قائمة . والله غالب على أمره .

وتَبِعت(٥) هذا السلطان نفوس أهل الحرية ، ممن له طبع رقيق ، وحسٌّ(٦) لطيف ، ووفاء كريم ، ممن كان بينه وبين سطوته دفاعٌ . وفى جو اعتقاده له صفاء ؛ فصدرت مراثٍ(٧) مؤثرة ، وأقاويل للشجون مهيجة ، نثبت(٨) منها يسيراً على العادة . فمن ذلك مانظمه الشيخ الكاتب القاضى أبو بكر بن شبرين ، وكان على فصاحة ظرفه ، وجمال روايته ، غُراب قُرْبه ، ونائحة مأتمه ، يرثيه ويُعرِّض ببعض من حمل عليه من ناسه وخدامه :

استقلّا ودعانى طائفاً بين المغانى
وانعما(٩) بالصبر إنى لا أرى ما تريان

(١) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : وبدو .
(٢) فى المخطوطين : الجياد . وهو تحريف .
(٣) هكذا فى «ك» . وفى «ج» . المهمات .
(٤) ساقطة فى المخطوطين .
(٥) وردت فى المخطوطين : وتبعث .
(٦) وردت فى المخطوطين : وحسن .
(٧) فى المخطوطين : مداثر .
(٨) واردة فى «ك» وساقطة فى «ج» .
(٩) هكذا فى اللمحة . وفى المخطوطين والملكية : واقسما . والأول أرجح بالنسبة للمعنى .

ومن قوله :

عينُ بكى لميْت غادروه ... فى ثراه مُلْقَى وقد غدروه
دفنوه ولم يُصَلِّ عليــه ... أحدٌ منهم ولا غسّلوه
إنما مات يوم مات شهيداً ... فأقاموا رسماً ولم يَقْصِدوه

محمد بن محمد [بن محمد] (١) بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن نصر بن قيْس الخزْرَجى

ثالثُ الملوك من بنى نصر . يكنى أبا عبد الله .

« أوّليّته » : معروفة .

حـــاله

كان من أعاظم أهل بيته . صيتاً وهمّة . أصيل المجد . مليح الصورة . عريق الإمارة . ميمون النَّقيبة . سعيد [النَّصْبة](٢) عظيم الإدراك ؛ تهنَّأ العيش مدة أبيه ، وتملّى(٣) السياسة [فى](٤) حياته . وباشر الأمور بين يديه . فجاء نسيج وحده إدراكاً ، ونُبْلا . وفخاراً . وشأواً . ثم تولى الأمر بعد أبيه فأجراه على ديدنه ؛ وتقبل سيرته ؛ ونسج على منواله ؛ وقد كان الدهر ضايقه فى حصّته(٥) ؛ ونغّصه

---

(١) ساقطة فى المخطوطين : وإثباتها ضرورى لصحة الاسم .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين والملكية . والإضافة من اللمحة .

(٣) فى المخطوطين : وتملأ . وهو رسم آخر لنفس الكلمة .

(٤) زيادة يستلزمها السياق .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ح » : غصته .

ملاذّ الملك بزمانة[١]، سَدِكت[٢] بعينيه لمداخلة السّهر ، ومباشرة [أنوار][٣] ضخام الشمع ، إذ كانت تُتخذ له منها جذوع فى أجسادها مواقيت تخبر بانقضاء ساعات الليل ، ومضى الرُّبع[٤]، وعلى التزامه لسكِنّة وغيبوبته فى كِسْر بيته ، فقد خدمته السُّعود ، وأمات بابه الفتوح ، وسالمته الملوك ، وكانت أيامُه أعياداً .

وكان يَقْرض الشعر ، ويُصغى إليه ، ويثيب عليه ، فيجيز[٥] الشعراء ، ويرضخ للندماء[٦] ، ويعرف مقادر العلماء ، ويُوا كل[٧] الأشراف والرؤساء ، [ضاربا][٨] فى كل إصلاح بسهم[٩] ، مالئا من كل تجربة وحُنكة ، حارّ النادرة ، حسن التوقيع ، مليح الخط ، تغلب عليه الفظاظة والقسوة .

شعره

كان له شعر مُسْتَظرف من مثله ، لا بل يَفْضُل به الكثير ممن ينتحل الشعر من الملوك . ووقَعْتُ على مجموع له ، ألّفه بعض خدّامه ، فنقلت من مطولاته :

واعَدَنى وعدًا وقد أخلَفا ... أقلُّ شىء فى المليح[١٠] الوفا

وحال عن عَهْدى ولم يَرْعَه ... ما ضَرّه لو أنّه أنْصَفا

---

(١) أعنى بمرض مزمن .

(٢) سدكت أى لزمت .

(٣) الزيادة من النفحة .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفحة : المزيع .

(٥) هكذا فى النفحة . وفى « ج » : ويحسن . وفى « ك » : يحرز .

(٦) فى المخطوطين : (التداد . الند) . والتصويب من النفحة .

(٧) فى المخطوطين ويوكل .

(٨) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من النفحة .

(٩) هكذا فى النفحة . وفى المخطوطين : سباهم .

(١٠) هكذا فى المخطوطين والملكية . وفى النفحة : الملاح .

ما بالُها لم تتعَطَّف على ... صاحبٍ لها ما زال مُسْتَعْطِفا
يَسْتَطْلِع الأنباء من نحـوها ... ويرقُبُ البَرْق إذا ما هَفا
خَفِيتُ سُقْماً عن عيون الوَرَى ... وبان حُبى بعد ما قد خَفا
لله كم [من] لَيلةٍ بتُّها ... أُدِير من ذاك اللمَى قَرْقَفا
متَّعتنى بالوَصْل منها وما ... أخْلَفَتْ وعداً خِلت أن يُخلفَا

ومنهـــا :

مَلَّكْتُكِ [القلب][1] وإنى امرؤٌ ... علىّ مُلك الأرض قد وُقِّفا
أوامرى فى الناس مسموعَةٌ ... وليس مِنِّى فى الوَرَى أشْرفا[2]
يُرهف سيفى فى الوغى متسلطاً ... ويُتقى عزمى إذا ما أُرْهِفا
وتُرْتَجى يمناى يوم النَّدى ... تخَالُها السُّحب غدت وُكفا
نحنُ ملوك الأرض مَنْ مثلنا ... حزْنا تَليد الفَخر والمُطْرَفا
نُخَاف إقداماً ونُرجى ندًا ... لله ما أرْجَى وما أخْوَفا
لى رايةٌ فى الحرب كم غادَرتْ ... رَبْع العِدا قاعاً بها صفْصَفا
ياليت شعرى والمُنى جمة ... والدهرُ يوماً هل يُرَى مُنْصِفا
هل يَرْتَجِى العبدُ[3] تداينـكم ... أو يُصْبح الدهر له مُسعفا[4]

مناقبه

وأعظم مناقبه المسجدُ الجامع بالحمراء[5]، على ما هو عليه، من الظرف والتنجيد،

---

(١) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى اللمحة .
(٢) فى المخطوطين : أسرف . والتصويب من اللمحة .
(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وفى اللمحة : (هل نرتجى اليوم) .
(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : مضعفاً .
(٥) سبق التعريف بموقعه . (أنظر الحاشية فى ص ٥١١) .

والتَّرقيش ، وفخامة العُمُد ، وإحكام أنوار الفضة ، وإبداع ثُراها ، ووقف عليه الحمّام بإزائه ، وأنفق فيه مال الجزْية ، وأغرَمها لمن يليه من الكفار ، فدوا به زرعاً ، نَهَد إليه صائفتهُ[١] لانتسافه ، وقد أهمّتهم فتنة ، فظاهر بها مَنْقَبة يتيمة ، ومعلوّة[٢] فذّة ، فاق بها من تقدمه ، ومن تأخره من قومه .

جهـــاده

أغزى الجيش لأول أمره مدينة المنظر[٣] ، فاستولى عليها عَنْوة ، وملك من احتوت عليه المدينة ، ومن جملتهم الزّعيمة صاحبة المدينة ، من أفراد عقائل الروم ، فقَدِمت الحَضْرة فى جملة السَّبى ، نبيهة المَرْكَب ، ظاهرة الملابس ، رائقة الجمال، خُص بها ملك المغرب ، فاتّخذها لنفسه ، وكان هذا الفتح عظيماً، والصيت بمزايه عظيما بعيداً [أنشدنى][٤] .

ما نقل عنه من الفظاظة والقسوة

هجم لأول أمره على طائفة من مماليك أبيه ، وكان سيِّئ الرأى فيهم ، فسجنهم فى مُطْبَق الأرىّ من حمرائه ، وأمسك مفتاح قفله عنده، وتوعّد من يُرْمِقُهم بقُوت بالقتل، فمكثوا أياما ، وصارت أصواتهم تعلو بشكوى الجوع، حتى خَفَتَتْ ضعفاً[٥]

---

(١) أعنى قوات الجيش التى تخرج صيفاً للغزو .

(٢) هكذا فى «ك» . وفى «ج» : معلومة .

(٣) يفهم من كلام ابن الخطيب فى مناسبة سابقة (راجع ص ٣٤٢) أن هذه البلدة كانت من أعمال وادى آش . ولكن يبدو من ذكرها مع بلدة شوذر (شودر) Jodar أنها ربما كانت من أعمال جنوبى ولاية جيان ، وعلى مقربة من البلدة المذكورة . وعلى أى حال فإنا لم نستدل بالبحث على وجودها ، أو مقابلها الإسبانى . وأغلب الظن أنها دثرت .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . ولم يرد بعدها شعر .

(٥) فى المخطوطين : خفضت . وفى الملكية خففت . وبالتصويب يستقيم المعنى .

بعد أن اقتات آخرُهم موتاً من لحم من سبقه ؛ وحملت الشفقة حارساً كان برأس المُطْبق، على أن طرح لهم خُبْزاً يسيراً، تنقص أكله، مع مباشرة بأفواههم. ونمى إليه ذلك، فأمر بذبحه على حافة الجُبِّ ؛ فسالت عليهم دماؤه؛ وقانا الله مصارع السُّوء؛ ومازالت المقالة(١) عنها شنيعة ، والله أعلم بجريرتهم لديه .

وزراؤه

بقى على خطة الوزارة. وزير أبيه أبو سلطان عزيزُ بن على بن عبد المنعم الدانى، الجارى ذكره بحول الله فى محله . مُتَبَرِماً بحياته إلى أن توفى . فأنشد عند موته :

مات أبو زيد فواحسرتا إن لم يكن مات من جمعة
مصيبة لا غفر الله لى أن كنت أجريتُ لها دمعة

وتمادى بها أمره ، يقوم بها حاشيته. وقد ارتاح إليها مُتوليها بعده، المترفِّع(٢) بدولته ، القائد الشهير ، البُهْمة أبو بكر بن الموْل . حدَّث قارىء العَشْر من القرآن بين يدى السلطان ، ويعرف بابن بَكْرُون ، وكان شيخاً مُتَصَاوناً ظريفاً ، قال : عزم السلطان على تقديم هذا الرجل وزيراً ، وكان السلطان يؤثر الفَأل ، وله فى هذا المعنى وساوسُ مُلازمة ، فوجَّه إلىّ الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلى يومئذ ، أبو عبد الله بن الحكيم المستأثر بها دونه ، والمُتَقَفُّ لسكُرتها قبله ، وخرج لى عن الأمر ، وطلب منى أن أقرأ آياً يخرج فألها عن الغرض ؛ قال فلما غدوت(٣) لشأنى تلوتُ بعد التعوُّذ قوله عزَّ وجلَّ : « ياأيها الذين آمنوا لاتَتَّخِذوا بِطَانَةً من دُونِكم لا يألونكم خَبالاً ، ودُّوا ماعنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم، إلى قوله لنا»(٤)

---

(١) وردت فى المخطوطين والملكية : المالقة وهو تحريف .

(٢) فى المخطوطين والملكية : المتوقع .

(٣) فى المخطوطين عدوت

(٤) واردة فى « ج » وساقطة فى « ك » .

فلما فرَغت الآيةُ ، سمعتُه حاد عن رأيه الذى كان أزمعه . وقدَّم للوزارة كاتبه أبا عبد الله بن الحكيم فى ذى قعدة من عام ثلاثة وسبعمائة . وصَرَف إليه تدبير مُلكه . فلم يلبث أن تغلَّب على أمره ، وتقلَّد جميع شئونه ، حسبما يأتى فى موضعه إن شاء الله .

كُتَّابه

استقل برياسته وزيره المذكور ، وكان ببابه من كُتَّابه(١) جملةٌ تباهى بهم دسوت الملوك ، أدباً وتفنناً وفضلاً وظَرْفاً ، كشيخنا تِلْوه وولى الرُّتبة الكتابية من بعده ، وفاصل الخُطبة على أثره . وغيره ممن يشار إليه فى تضاعيف الأسماء ، كالشيخ الفقيه القاضى أبى بكر بن شِبرين(٢) . والوزير الكاتب أبى عبد الله بن عاصم ، والفقيه الأديب أبى إسحاق بن جابر . والوزير الشاعر المُفلِق أبى عبد الله اللَّوْشى ، من كبار القادمين عليه ، والفقيه الرئيس أبى محمد الحضْرمى ، والقاضى الكاتب أبى الحجاج الطُرْطوشى ، والشاعر المُكْثِر أبى العباس القَرَّاق(٣) وغيرهم .

قضاته

استمرت ولاية قاضى [أبيه](٤) الشيخ الفقيه أبى عبد الله محمد بن هشام الألْشِي(٥) قاضى العدل ، وخاتمة أولى الفضل ، إلى أن توفى عام أربع وسبعمائة .

---

(١) فى المخطوطين : كتاب .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : بشرين . وهو تحريف

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : العراق . وفى الملكية . الفراق .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى اللمحة .

(٥) نسبة إلى ألش Elche وهى بلدة أندلسية قديمة تقع على مقربة من أوريولة فى شرقى الأندلس وهى اليوم مصيف جميل وتشتهر بغابات النخيل التى تمتد بجانبها لمسافة طويلة .

وتولى له القضاء ، القاضى أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد [بن محمد بن أحمد](١) القُرَشى المنبور(٢) بابن فركون ، وتقدم التعريف به ، والتنبيه على فضله ، إلى آخر أيامه .

مَنْ كان على عهده من الملوك بالأقطار

وأول ذلك بفاس ؛ كان على عهده بها ، السلطان الرفيع القدر ، السامى الخطر ، المرهوب الشَّبا ، المستولى فى العز وبعد الصيت على المدى ، أبو يعقوب يوسف بن يعقوب المنصور ، بن عبد الحق ، وهو الذى وطّد الدولة المَرِينيَّة ، وجبا الأموال العريقة ، واستأصل من تُتَّقى شوكته من القرابة وغيرهم ، وجاز إلى الأندلس فى أيام أبيه وبعده ، غازياً ، ثم حاصر تِلِمْسان ، وهلك عليها فى أوائل ذى قعدة عام ستة وسبعمائة ، فكانت دولته إحدى وعشرين سنة وأشهراً . ثم صار الأمر إلى حافده أبى ثابت عامر بن الأمير أبى عامر عبد الله بن يوسف بن يعقوب بعد اختلاف وقع ، ونزاع انجلى عن قتل جماعة من كِبارهم ، منهم(٣) الأمير أبو يحيى بن السلطان أبى يوسف ، والأمير أبو سالم بن السلطان أبى يعقوب ؛ واستمر الأمر للسلطان أبى ثابت إلى صفر من عام ثمانية وسبعمائة ، وصار الأمر إلى أخيه أبى الربيع سليمان تمام مدّة مُلْكه وصدرا من دولة أخيه نصر ، حسبما يذكر فى موضعه إن شاء الله .

وبتِلِمْسان الأمير أبو سعيد عثمان [بن يَغْمُراسن](٤) . ثم أخوه أبو عمران(٥) موسى . ثم ولده أبو تاشفين عبد الرحمن إلى [آخر](٦) مدة أخيه(٧) .

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى « ج » . وساقط فى « ك » .

(٢) وردت فى المخطوطين : المنوز . وهو تحريف . وفى الملكية الملقب . والمنبور أى المعروف أو الشهير .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين والملكية : سلم . بلم .

(٤) واردة فى « ك » وفى اللمحة . ومكانها فى « ج » : (ثم بغمر أخيه) .

(٥) فى « ج » أبو عمر ، وفى « ك » أبو محمد . وهو تحريف .

(٦) هذه الكلمة واردة فى اللمحة . وساقطة فى المخطوطين .

(٧) وردت فى « ج » واللمحة مدته . والتصويب من الملكية .

وبتونس ؛ السلطان الفاضل ، الميمون النَّقيبة . المشهور الفضيلة ، أبوعبد الله محمد بن الواثق يحيى بن المستنصر أبى عبد الله بن الأمير أبى زكريا بن أبى حفص . من أولى العفَّة ، والنزاهة ، والتؤدة ، والحشمة ، والعقل ، عنى بالصالحين ، واختص بأبى محمد المرجانى ، فأشار بتقويمه ، وظهرت عليه بركته ، وكان يرتبط إليه ، ويقف فى الأمور عنده ، فلم تعدم الرعية بركة ولا صلاحاً فى أيامه ، إلى أن هلك فى ربيع الآخر عام تسعة وسبعمائة ، ووقعت بينه وبين هذا الأمير المترجم به المراسلة والمهاداة .

وبقَشْتَالَة ؛ هراندة بن شانجه بن أدفونش بن هراندة(١) ، المستولى على إشبيليَّة وقُرْطبة ، ومُرْسية ، وجَيَّان ، ولا حول ولا قوة الا بالله ؛ هلك أبوه وتركه صغيراً ، مكفولا على عادتهم ، فتنفَّس المُخَنَّق ، وانعقدت السلم ، واتصل الأمان مدة أيامه ، وهلك فى دولة أخيه .

وبرغون ؛ جايمش بن ألفنش بن بطْرُه(٢) .

الأحداث

فى عام ثلاثة وسبعمائة ، نَقِم على قريبه الرئيس أبى الحجاج بن نصر الوالى بمدينة وادى آش (٣) . أمراً أوجب عزله عنها ، وكان مقيما بحضرته فاتخذ [الليل] جملا(٤) وكان أمْلَكَ بأمرها ؛ وذاع الخبر ، فاستركب الجيش ؛ وقد حدَّماينزل فى استدلابه ، وجدَّد الصكوك بولايته خوفاً من اشتعال الفتنة ، وقد أخذ على يديه ، وأغرى أهل

---

(١) هو الملك فرناندو الثالث المسمى بالقديس فرناندو San Fernando . وقد سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ٣٨٣) .

(٢) وردت فى المخطوطين : نصره . وهو تحريف .

(٣) فى المخطوطين : واداش : وهو تحريف .

(٤) أضفنا كلمة (الليل) ليستقيم المعنى . والظاهر أنها سقطت من المخطوطين سهواً . وهذا التعبير يستعمله ابن الخطيب فى غير مناسبة . ومعناه « سار تحت جنح الليل » .

المدينة بحربه ، فتداعوا لحين شعورهم باستعداده وأحاطوا به ، فدهموه وعاجلوه ، فتغلبوا عليه، وقيد إلى بابه أسيراً مُصَفَّداً، فأمر أحد أبناء عمه فقتله صَبراً ، وتملأ فتحاً كبيراً ، وأمن فتنة عظيمة . وفى شهر شوال من عام خمسة وسبعمائة قرع الأسماع النبأ العظم ، الغريب ، من تَمَلك سَبْتَة وحصولها فى قبضته ، وانتزاعها من يد رئيسها أبى طالب عبد الله بن أبى القاسم ، الرئيس الفقيه ، ابن الإمام المحدث أبى العباس العَزَفى حسبما يتقرر فى اسم الرئيس الفقيه أبى طالب إن بلَّغنا الله ذلك ، واستأصل ما كان لأهلها من الذخائر والأموال ، ونقل رؤساءها ، وهم عدَّة ، إلى حَضْرَته غرناطة فى غرة المحرم من العام ، فدخلوا عليه ، وقد احتفل بالمُلْك ، واستركب فى الأبَّهة الجندُ ، فلثموا أطرافه ، واستعدفه شعراؤهم بالمنظوم من القول ، وخطباؤهم بالمنثور منه ، فطمأن روعهم(١) وسكَّن جأشهم ، وأسكنهم فى جواره ، وأجرى عليهم الأرزاق الهلالية ، وتقدمهم فى الفصول إلى أن كان من أمرهم ما هو معلوم.

اختـــلاعه

فى يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة أُحيط بهذا السلطان ، وأتت الحيلة عليه ، وهو مصاب بعينيه ، مقعدٌ فى كِنّه ، فداخلت طائفة من وجوه الدولة أخاه، وفتكت بوزيره الفقيه أبى عبد الله بن الحكيم ، ونَصَبَتْ للناس الأمير أبا الجيوش نصراً أخاه ، وكبست منزل السلطان ، فأُحيط به ، وجُعل الحرس [عليه](٢) ، وتُسُومِع بالكائنة فكان البَهْت ، وسال من الغوغاء البحر ، فتعلقوا بالحمراء ، يسألون عن الحادثة ، فشغلوا بانتهاب(٣) دار الوزير ، وبها من مال الله ما يفوت الوصف . وكان الفَجع فى إضاعته على المسلمين ، وإطلاق الأيدى الخبيثة عليه

(١) فى المخطوطين : روحهم . (٢) ناقصة فى المخطوطين ويقتضيها السياق .
(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : بنهاب .

عظيما؛ وفى آخر اليوم عند الفراغ من الأمر، دخل على السلطان المخلوع، الشهداء عليه بخلعه، بعد نقله من دار مُلكه إلى دار أُخرى، فأملَى رحمه الله، زعموا، وثيقة خلعه، مع شَغْب الفكر، وعِظَم الداهية. وانتقل رحمه الله بعد، إلى القصر المنسوب إلى السيد[1] بخارج الحضرة؛ أقام به يسيراً، ثم نقل إلى مدينة المُنَكَّب، وكان من أمره مايذكر إن شاء الله.

ومما يؤثر من ظَرْفه، حدّث من كان منوطاً به من خاصته، مدة أيام إقامته بقصر نَجْد، قبل خلعه، قال: أرسل الله[2] الأغْرِبة على سقف القصر، وكان شديد التطيُّر والقلق لذلك حسبما تقدم من الإشارة إلى ذلك بحديث العَشر. وكان من جملتها[3] غُرابٌ[4]، شديد الإلحاح، حادّ النّعيب والصياح. فأغرى به الرماة من مماليكه بأنواع القِسِىّ. فأبادوا من الغرْبان[5] أمّة، وتخطّأ الحَتْفُ ذلك الغراب الخبيث [العِبقّان][6]. فلما انتقل إلى سكنى الحمراء، ظهر ذلك الغراب على سقفه، ثم لما أُهبِط مخلوعاً إلى قصر شَنيل[7] تبعه، وقام فى بعض السّقف أمامه، فقال[8] يخاطبه رحمه الله: يامشئوم، يامحروم بين الغربان، قد خَلَّصتَ أمرنا، ولم يبق لك علينا طلب، ولا بيننا وبينك كلام. إرجع إلى هؤلاء المحارم فاشتغل بهم. قال، فأضحكنا على حال الكآبة بعذوبة منطقه، وخفّة روحه.

---

(١) سبق التعريف به و بموقعه خارج غرناطة (أنظر الحاشية فى ص ١١٩).

(٢) هكذا فى «ج». وفى «ك»: تعالى.

(٣) وردت فى المخطوطين: جملتهم.

(٤) فى المخطوطين: غربب.

(٥) فى المخطوطين: غربان.

(٦) وردت هذه الكلمة محرفة فى «ج»: (العبتاق). ولم ترد فى «ك» والصواب: العبقان. وهو السيئ الخلق

(٧) هو قصر السيد الذى سبق التعريف به. وتعرف بقاياه حتى اليوم فى غرناطة بقصر شنيل Alcazar Xenil

(٨) هكذا فى «ك» وفى «ج»: فقام

وفاته

قد تقدم ذكرُ استقراره بالمُنَكَّب . وفى أخريات شهر جمادى الآخرة عام عشرة وسبعمائة ، أصابت السلطان نصراً سكتةٌ ، تُوقِّع منها موته ، بل شُكَّ فى حياته ؛ فوقع التفاوض الذى تمحض[1] إلى التوجيه عن السلطان المخلوع الذى بالمنكَّب ليعود إلى الأمر ، فكان ذلك وأُسرع إلى إيصاله[2] إلى غرناطة فى مِحَفَّة ، فكان حلوله بها فى رجب من العام المذكور . وكان من قَدَر الله ، أن أفاق أخوه من مرضه ، ولم يتم للمخلوع الأمر ، فنقل من الدار التى كان بها إلى دار أخيه الكبرى ، فكان آخر العهد به . ثم شاعت وفاته أوائل شوال من العام المذكور ، فذُكر أنه اغتيل غريقاً فى البركة فى الدار المذكورة لما تُوقع من عادية[3] جواره ؛ ودفن بمقبرة السَّبيكة ، مدفن قومه ، بجوار الغالب بالله جده ، ونُوِّه بجدثه وعليه مكتوب ما نصه :

« هذا قبر السلطان الفاضل ، الإمام العادل ، علم الأتقياء ، أحد الملوك الصلحاء ، المُخْبِت[4] الأوّاه ، المجاهد فى سبيل الله ، الرَّضِى الأَوْرَع ، الأَخْشَى الله الأَخْشَع ، المراقب فى السرِّ والإعلان ، المعمور الجنان بذكره واللسان ، السالك فى سياسة الخلْق وإقامة الحقِّ ، مِنهاج التقوى والرِّضوان ، كافلُ الأمة بالرأفة والحنان ، الفاتح لها بفضل سيرته ، وصِدْق سريرته ، ونور بصيرته ، أبواب اليُمْن والأمان ، المُنيب الأَوَّاب ، العامل مايجدُه نوراً مُبيناً يوم الحساب ، ذى الآثار السَّنِيَّة ، والأعمال الطاهرة ، القائم فى جهاد الكفار بماضى العَزْم وخالص النيَّة ،

---

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» : تخمص وهو تحريف .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : أصالة .

(٣) وردت فى المخطوطين : علادته .

(٤) هكذا فى «ج» وفى اللمحة . وفى «ك» المبخت .

المقيم قسطاس العدل ، المنير مِنهاج الحلم والفضل ، حامى الذِّمار ، وناصر دين المصطفى المختار ، المُقتدى بأجداده الأنصار ، المتوسِّل بفضل ما أسْلَفوه من أعمال البر والجهاد ، ورعاية العباد والبلاد ، إلى الملك القهَّار ؛ أمير المسلمين ، وقامع المعتدين ، المنصور بفضل الله ، أبى عبد الله ، ابن أمير المسلمين الغالب بالله ؛ السلطان الأعلى ، إمام الهُدى ، وغمام النَّدى ، مُحيي السُّنَّة ، حسن الأُمَّة ، المجاهد فى سبيل الله ، الناصر لدين الله ، أبى عبد الله ، ابن أمير المسلمين الغالب بالله ، أبى عبد الله ، بن يوسف بن نصر ، كَرَّم الله وجهه ومَثْواه ، ونعَّمه برضاه . وُلد رضى الله عنه يوم الأربعاء الثالث لشعبان المكرم [من عام خمسة وخمسين وستمائة . وتوفى قدس الله روحه ، وبرّد ضريحه ، ضحوة يوم الإثنين الثالث لشوال عام ثلاثة عشر](١) وسبعمائة ، رفعَه الله إلى منازل أوليائه الأبرار ، وألْحَقه بأئمَّة الدين ، لهُم عُقْبى الدّار ، وصلى الله على سيدنا محمد المختار ، وعلى آله ، وسلم تسليما » .

ومن الجانب الآخر :

رِضَى المَلِك الأعلى يرُوح ويَغْتَدى ... على قَبْر مــولانا الإمام المُؤيَّد
مقرٌّ(٢) العُلى والمُلْك والبأس والنَّدى ... فقَدِّس من مَغْنى كريم ومشهــد
ومثوى الهُدى والفضل والعدل والتُّقى ... فبُورك من مثْوى زكى ومَلْحد
فيا عجباً طَــودُ الوقار جـــلالةً ... ثوى تحت أطباق الصفيح المُنَضَّد
وواسِطةُ العقـــد الكريم الذى له ... مآثر فخرٍ(٣) بين مثنى وموحـد
محمــد الرِّضَىُّ سليل محمــد ... إمامُ النَّدى نجلُ الإمام محمــد
فيا نُخْبَةَ الأمــلاك غير منــازَعٍ ... ويا علمَ الأعــلام غير مُفَنَّد

(١) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطات الثلاثة ووارد فى اللمحة .
(٢) هكذا فى « ج » واللمحة . وفى « ك » : قصر .
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى اللمحة : مجد .

بكتْكَ بلادٌ كنت تحمى[1] ذِمارها[2] ... بعَزْمٍ أصيلٍ أو برأى مُسدَّد
وكم مَعْلَم للدين أوضَحت رَسْمه ... [بَنَي][3] لك فى الفردوس أرفع مصعد
كأنّك ما سُست البلاد وأهلها ... بسيرة مَيْمُون النَّقيبة مُهتَد
كأنك ما قُدت الجيوش إلى العِدا ... فصيَّرتهم نَهْبَ القنا المُتقصِّد
وفَتَحْتَ من أقطارهم كلَّ مُبهم ... فتحتَ به باب النَّعيم المُخَلَّد
كأنك ما أنفقت عُمرك فى الرِّضى ... بتجديد غَزْوات وتشييد مَسْجد
وإنصافِ مظلومٍ وتأمين خائفٍ ... وإصراخ مذعورٍ وإسعاف مُجْتَد
كأنّك ما أحيَيْت للخَلْق[4] سُنَّة ... تُجادل عنها باللسان وباليد
كأنّك ما أمضَيْت فى الله عَزْمَةً ... تُدافع فيها بالحُسام المهنَّد
فإن تُهْمَل الدنيا عليك وأهلُها ... بذاك ثوبُ الله يَلقاك فى غَدٍ
تَعَوَّضْتَ ذُخراً من مقام خلافة ... مقيمٍ منيبٍ خاشع متعبِّد
وكل الورى مَنْ كان أو هو كائنٌ ... صريعُ الرَّدى إن يَكُن فكأن قَدِ
فلا زال جاراً للرسول محمد ... بدارِ نعيمٍ فى رِضَى الله سَرْمَد
وهذى القوافى قد وَنَيتُ بنظمها ... فياليتَ شعرى هل يَصيخُ[5] لمُنْشد

محمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر الأنصارى الخزرجى

ثانى الملوك الغالبين من بنى نصر، وأساس أمرهم، وفَحْلُ جماعتهم.

---

(١) هكذا فى «ح». والمكية واللمحة.

(٢) فى اللمحة قصورها

(٣) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وواردة فى اللمحة. وفى المكية. بكن.

(٤) هكذا فى «ح» وفى اللمحة: للحق

(٥) هكذا فى «ح» وفى «ش» تصيح.

أوّليَّتُــه

تُقرر بحول الله فى اسم أبيه الآتى بعد حسب الترتيب المشترط .

حــاله

من كتاب « طُرْفة[١] العصر » من تأليفنا ؛ كان هذا السلطان أوْحَد الملوك جلالة ، وصرامة ، وحزماً[٢] . مهّد الدولة ، ووضع ألقاب خدمتها . وقرّر مراتبها ، واستجاد أبطالها . وأقام رسوم المُلك فيها ، واستَدرّ جباياتها ؛ مستظهراً على ذلك بسعة الذّرع ، وأصالة السياسة ، ورصانة[٣] العقل ، وشدة الأسر[٤] ووفور الدهاء ، وطول الحُنْكة ، وتملؤ[٥] التجربة ؛ مليح الصورة ، تام الخَلْق ، بعيد الهمّة ، كريم[٦] الخُلُق ، كثير الأناة . قام بالأمر بعد أبيه ؛ وباشره مباشرة الوزير أيام حياته ، فجرى على سُنن أبيه ، من اصطناع أجناسه ، ومداراة عدوه ، وأجرى صدقاته ، وأرْبَى[٧] عليه بخلال ، منها براعة الخط ، وحسن التوقيع ، وإيثار العلماء ، والأطباء ، والعدلين[٨] ، والحكماء ، والكتاب ، والشعراء ، وقَرْض الأبيات الحسنة ، وكثرة المُلَح ، وحرارة النّادرة . وطما بحرٌ من الفتنة لأول استقرار أمره ، وكثُر عليه المُنتَزون والثُوّار ، وارتجّت الأندلس ، وسط أَكلُبُ[٩] الكفار ، فصبر لزلزالها ، رابط الجأش ، ثابت المركز ، وبذل من الاحتيال ، والدّهاء ،

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ظرف .

(٢) هكذا فى « ج » والمحققة . وفى « ك » جزما .

(٣) هكذا فى « ج » . واللمحة . وفى الملكية (ورزانة) .

(٤) وردت فى « ج » الأمور . والتصويب من اللمحة

(٥) فى المخطوطين والملكية : وتلو . والتصويب من اللمحة .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : كثير .

(٧) هكذا فى « ج » . وفى الملكية . واوفى .

(٨) هكذا فى المخطوطين . وفى اللمحة : المنجمين .

(٩) فى المخطوطين : كلب . وهو تحريف .

المكنوفين بجميل الصبر، [ما أظفره](١) بخلوّ الجوّ. وطال عمره، وجَدَّ صيتُه(٢)، واشتهر فى البلاد ذكره، وعظمت غزواته. وسيمر من ذكره مايدل على أجل من ذلك إن شاء الله.

شعره وتوقيعه

وقفتُ على كثير من شعره، وهو نَمَطٌ منحط بالنسبة إلى أعلام الشعراء(٣)، ومُسْتظرفٌ من الملوك والأمراء. من ذلك، يخاطب وزيره:

تذكر عزيزَ ليالٍ مَضَتْ وإعطاءنا المال بالرّاحتين
وقد قَصَدتْنا ملوكُ الجها ت ومالوا إلينا من العُدْوتين
وإذا سأل السَّلْمَ منّا اللّعين(٤) فلم يَحْظَ إلا بِخُفَّى حُنين

وتوقيعه يشُذُّ عن الإحصاء، وبأيدى الناس إلى هذا العهد كثير من ذلك؛ فما كتب به على رقعة كان رافعها يسأل التصرُّف فى بعض الشهادات ويلح عليها:

يموتُ على الشّهادة وهو حىٌّ إلهى لا تمته على الشهادة

وأطال الخطّ عند إلهى إشعاراً بالضّراعة عند الدعاء والجد. ويذكر أنه وقع بظهر رقعة لآخر اشتكى ضرر أحد الجند المُنْزلين فى الدّور، ونَبَزَه(٥) بالتعرُّض لزَوْجه: «يُخرج هذا النّازل ولا يُعوَّضُ بشىْء من المنازل»(٦).

---

(١) وردت فى المخطوطين وفى الملكية: وما أظهره. والتصويب من اللمحة.
(٢) وردت محرفة فى المخطوطين: (صمتته. صنته).
(٣) هكذا فى «ك». وفى «ج»: الشعر.
(٤) وردت فى المخطوطين: لمعين. والتصويب من اللمحة.
(٥) أى اتهمه.
(٦) يلاحظ أن هذه القصة وردت قبل ذلك منسوبة للمأمون خليفة الموحدين (راجع ص ٤١٦).

بنـــوه

ثلاثة ، ولىُّ عهده أبو عبد الله المتقدم الذكر ، وفرج المُغتال أيام أخيه ، ونصر الأمير بعد أخيه .

بنـــاته

أربع ، عقَد لهن ، جمع أبرزهن إلى أزواجهن ، من قرابتهن ، تحت أحوال ملوكية ، ودُنيا عريضة ، وهن : فاطمة ، ومؤمنة ، وشمس ، وعائشة . وفاطمة منهن أمُّ حفيده إسماعيل الذى ابتزَّ ملك بنيه عام ثلاثة عشر وسبعمائة .

وزيره

كان وزيره ، الوزير الجليل الفاضل ، أبو سلطان ، لتقارب الشَّبه ، زعموا فى السِّن والصورة ، وفضل الذَّات ، ومتانة الدين ، وصحَّة الطبع ، وجمال الرُّواء ، أغنى وحسُنَت واسطتُ ، ورُدمت إليه الوسائل ، وطُرِّزت باسمه الأوضاع ، واتصلت إلى أيامه أيام مُستوزره ، ثم صدراً من أيام ولى عهده .

كتّابُه

ولى له خُطَّة الكتابة والرياسة العليا فى الإنشاء جملةٌ ، منهم كاتب أبيه أبو بكر ابن أبى عمرو اللَّوشى ، ثم الأخَوان أبو على الحسن والحسين ، إبنا محمد بن يوسف ابن سعيد اللَّوشى ؛ سَبَق الحسنُ وتلاه الحسين ، وكانا [توأمين](١) ، ووفاتهما متقاربة . ثم كتب له الفقيه أبو القاسم محمد بن محمد بن العابد الأنصارى ، آخرُ

---

(١) وردت فى المخطوطين وفى الملكية : رامين . والتصويب من اللمحة .

الشيوخ ، وبقيةُ الصُّدور والأدباء ؛ أقام كاتباً [مدة][(١)] إلى أن أبْرَمه انحطاطه في هوى نفسه ، وإيثاره المعاقَرَة ، حتى زعموا أنه قاء ذات يوم بين يديه . فأخَّره عن الرُّتبة ، وأقامه في عداد[(٢)] كُتَّابه إلى أن توفى تحت رِفْده[(٣)]. وتولى الكتابة الوزير أبو عبد الله بن الحكيم ، فاضطَّلع بها إلى آخر دولته .

قضـــاته

تولى له خُطَّة القضاء ، قاضى أبيه ، الفقيه العدل ، أبو بكر بن محمد بن فتح الإشبيلي الملقب بالأشبرون . تولى قبل ذلك خُطة السُّوق ، فلقى سكران[(٤)] أفرط فى قحته[(٥)] ، واشتد فى عربدته ، وحمل على الناس ، فأفرجوا عنه ؛ فاعترضه واشتدّ عليه حتى تمكن منه بنفسه ، واستنصر[(٦)] فى حدِّه ، وبالغ فى نكاله ؛ واشتهر ذلك عنه ، فجُمع له أمرُ الشرطة وخُطَّة السوق ؛ ثم ولى القضاء ، فذهب أقصى مذاهب الصَّرامة ، إلى أن هلك ؛ فولى خطّة القضاء بعده الفقيه العدل أبو عبد الله محمد بن هشام من أهل أُلْش[(٧)] ، لحكاية غَبَطت السلطان بدينه ، ودلّته على محله من العدل والفضل ؛ فاتَّصلت أيام قضائه إلى أيام مُسْتَقْضِية ، رحمه الله .

---

(١) ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من المحة

(٢) هكذا فى المحة . وفى المخطوطين : إعداد .

(٣) أى تحت كنفه وعطائه .

(٤) فى المخطوطين والملكية . سكراناً .

(٥) وردت محرفة فى المخطوطين : (محنه . محنته) .

(٦) هكذا فى المخطوطين والملكية . وفى اللمحة البدرية : استبصر .

(٧) هكذا وردت فى اللمحة . وفى المخطوطين : الشر . وهو تحريف ظاهر . وقد سبق التعريف بمدينة ألش (نظر الحاشية فى ص ٥٤٩) .

جهـــاده

وباشر هذا السلطان الوقائع ، فانجلت ظلماتها ، عن صبح نصره ، وطرزت مواقعها بطراز جلادته وصبره . فمنها وقيعة المدران وغيرها ، مما يضيق التأليف عن استقصائه . وفى شهر المحرم من عام خمسة وتسعين وستمائة[1] ، على تفئة[2] هلاك طاغية الروم ، شانجه بن أدفونش[3] ، عاجل الكفار لحين دهشتهم ، فحشد أهل الأندلس ، واستنفر المسلمين ، [فاغتنم][4] الداعية ، وتحرك فى جيش ، يجر الشوك والشجر ، ونازل مدينة قيجاطة[5] وأخذ بكظمها ، ففتحها الله على يديه ، وتملك بسببها جملة من الحصون التى ترجع إليها . وكان الفتح فى ذلك عظيما ، وأسكنها جيشاً من المسلمين ، وطائفة من الحامية ، وأشرقت العدو بريقه . وفى صائفة عام تسعة وتسعين وستمائة ، نازل مدينة القبذاق[6] فدخل جفنها ، واعتصم من تأخر أجله بقصبتها ، ذات القاهرة العظيمة الشأن ، الشهيرة فى البلدان ، فأحيط بهم ، فخذلوا وزلزل الله أقدامهم ، فألقوا باليد ، وكانوا أمنع من عقاب الجو . وتملكها على حكمه ، وهى من جلالة الوضع ، وشهرة المنعة ، وخصب الساحة ، وطيب الماء ، والوصول إلى أفلاذ الكفر ، والاطلاع على عوراته ، بحيث شهر . فكان تيسر فتحها من غرائب الوجود ، وشواهد اللطف ، وذلك فى صلاة الظهر من يوم الأحد

---

(١) هكذا فى اللمحة وهو الصواب . وفى «ك» سبعمائة صححت إلى ستمائة . وفى «ح» سبعمائة وهو تحريف .

(٢) أى على أثره وعلى حينه .

(٣) هكذا رسمت فى «ك» . وفى «ح» . دفونش .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من اللمحة .

(٥) هى مدينة أندلسية قديمة من أعمال ولاية جيان تقع على مقربة من أبدة . ومكانها اليوم المدينة الإسبانية الحديثة Quesada .

(٦) هكذا فى «ج» واللمحة . وفى «ك» : النبذان . والقبذاق Alcaudete مدينة أندلسية قديمة من أعمال ولاية قرطبة .

الثامن لشهر شوال عام تسعة وتسعين[1] وستمائة ؛ وأسكن بها رابطة المسلمين ، وباشر العمل فى خندقها بيده رحمه الله ، فتساقط الناس ، من ظهور دوابّهم إلى العمل ، فتم ما أريد* منه سريعاً .

وأنشدنى شيخُنا أبو الحسن الجيّاب بهنئه بهذا الفتح :

عدوُّك مقهورٌ وحِزبك غالبُ ... وأمرُك منصور وسَهْمُك صائبُ
وشخصُك مهما لاح للخلْق أذْعَنَت ... لهَيْبَتِه عجم الورَى والأعاربُ

وهى طويلة .

من كان على عهده من الملوك

كان على عهده بالمغرب ، السلطان الجليل ، أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ، الملقب بالمنصور ؛ وكان ملكاً صالحاً ، ظاهر السذاجة ، سليم الصدر ، مخفوض الجناح ، شارعاً أبواب الدّالة عليه منهم ، أشبه بالشيوخ منه بالملوك ، فى إجمال اللّفظ ، والإغضاء عن الجفْوة ، والنداء بالكُنية[2] . وهو الذى استولى على مُلك ، الموحدين ، واجتث شجرتهم من فوق الأرض ، وورث سلطانهم ، واجتاز إلى الأندلس ، كما تقدّم مرّات ثلاث أو أزيد منها ، وغزا العدُوّ ، وجرت بينه وبين السلطان المُترجم به أمور ، من سلْم ومُناقضة ، وإعتاب ، وعَتْب[3] ، حسبما تدلُّ على ذلك القصائد الشّهيرة المُتداولة . وأولها ما كتب به على عهده ، الفقيه الكاتب الصّدر ، أبو عمرو بن المُرابط ، فى غرض استنفاد للجهاد :

هل من مُعينى فى الهوى أو مُنْجدى ... من مُتْهم فى الأرض أو مُنْجد

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » وسبعين . وهو تحريف .

* وهنا ينتهى مخطوط دار الكتب المصرية المرموز له فيما تقدم بحرف « ك » . وقد قطع الكلام قطعا فى لوحته الأخيرة رقم ١٢٢ مما يدل على أنه لم يكن سوى قطعة كبيرة من كتاب « الإحاطة » حسبما أوضحنا ذلك فى مقدمة الكتاب .

(٢) وردت فى « ج » : والكينة . والتصويب من اللمحة .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى اللمحة ، وعتب وإعتاب .

وتوفى السلطان المذكور بالجزيرة الخضراء فى عُنْفُوان وَحْشة بينه وبين هذا السلطان فى محرم خمسة وثمانين وستمائة ، وولى بعده ولده ، المعظم الهمّة ، القوى العزيمة ، أبو يعقوب يوسف ، وجاز إلى الأندلس على عهده ، واجتمع به بظاهر[1] مَرْبلّة ، وتجدّد العهد ، وتأكد الوُدُّ ، ثم عادت[2] الوَحْشة المُفْضية إلى تغلب العدو على مدينة طريف ، فُرْضَة[3] المجاز الأدنى ، واستمرت أيام السلطان أبى يعقوب إلى آخر مدة السلطان المترجم به ، ومدة ولده بعده .

وبوطن تِلمْسان ، أبو يحيى يَغْمور ، وهو يَغْمُراسِن بن زَيَّان بن ثابت بن محمد ابن بندوسن[4] بن طاع الله بن على بن يمل ، وهو أوحدُ أهل زمانه جرأة وشهامة ، ودهاء ، وجزالة ، وحزماً . مواقفه فى الحروب شهيرة ، وكانت بينه وبين بنى مَرين وقائع ، كان عليه[5] فيها الظهور ، وربما نَدَرت الممانعة ، وعلى ذلك فقوى الشكيمة ، ظاهر المنعة . ثم ولى بعده ولده عثمان إلى تمام مدة السلطان المترجم به ، [وبعضاً من دولة ولده][6] .

وبوطن إفريقية ، الأمير الخليفة ، أبو عبد الله بن أبى زكريا بن أبى حَفْص ، الملقب بالمستنصر ، المثل المضروب ، فى البأس والأنفَة ، وعِظَم الجَبَروت ، وبُعد الصيت ، إلى أن هلك سنة أربعة وسبعين وستمائة ؛ ثم ولده الواثق بعده ، ثم الأمير أبو إسحاق[7] وقد تقدم ذكره . ثم كانت دولة الدَّعِىّ ابن أبى عمارة[8] المتوثّب على مُلْكهم ؛ ثم دولة أبى حفص مَسْتَنْقِذها من يده ، وهو عمر بن أبى زكريا ابن عبد الواحد ؛ ثم السلطانُ الخليفةُ الفاضل ، الميمون النَّقيبة ، أبو عبد الله

---

(١) هكذا فى اللمحة . وفى « ج » : على ظاهر .
(٢) فى « ج » عاهد . والتصويب من اللمحة . (٣) هكذا فى اللمحة . وفى « ج » : فرصة .
(٤) هكذا فى اللمحة . وفى « ج » : بندوهن . والأولى أرجح .
(٥) فى « ج » عليها . والتصويب من اللمحة .
(٦) هذه الزيادة من اللمحة . (٧) هكذا فى اللمحة . وفى « ج » إسحاق .
(٨) سبق أن عرف ابن الخطيب بأخباره (أنظر ص ٣١٦ – ٣١٨) .

[محمد][1] بن الواثق يحيى بن المستنصر أبى عبد الله ، بن الأمير زكريا .

وبوطن النّصارى ، بقَشْتالة ، أُلفُنش بن هِراندة ، إلى أن ثار عليه ولده شانجُه ، واقتضت الحال إجازة سلطان المغرب ، واستجار به : وكان من لقائه بأحواز الصَّخرة من كورة تا كُرُنّا ما هو معلوم . ثم ملك[2] بعده ولده شانجُه ، واتّصلت ولايته مدة أيام السلطان ، وجرت بينهما خطوب إلى أن هلك عام أربع وسبعين وستمائة . وولى بعده ولده هِراندة سبعة عشر عاماً ، وصار المُلك إليه ، وهو صبىّ صغير ، فتنفّس مُخنَّق [أهل][3] الأندلس ، وغزا سلطانهم [وظهر][4] إلى آخر مدته.

وبرَغُون ، أُلفُنْش بن جايمش بن بِطْره بن جايمش المستولى على بلنسية. ثم هلك وولى بعده جايمش ولده ، وهو الذى نازل مدينة ألمرية على عهد نصر ولده ، واستمرت أيام حياته إلى آخر مدته . وكان لانظير له فى الدّهاء ، والحزم ، والقوة.

ومن الأحداث فى أيامه

على عهده تفاقم الشّر ، وأعيا داء الفتنة ، ولقحت حرب الرؤساء ، الأصهار من بنى إشْقِيلولة ؛ فمن دونهم ، وطنّب سُرادِق الخلاف ، وأصاب الأسْر وفحول الثروة الرؤساء ؛ فكان بوادى آش الرئيسان أبو محمد وأبو الحسن ، وبمالَقَة وقارِش الرئيس أبو محمد عبد الله ، وبقُمارش ، رئيس آخر [هو][5] الرئيس أبو إسحاق . فأما الرئيس أبو محمد فهلك ، وقام بأمره بمالقة ، ولده ، وابن أخت السلطان المترجم به . ثم خرج عنها فى سبيل الانحراف والمُنابذة إلى ملك المغرب ؛ ثم تصيّر أمرها إلى السلطان ، على يد واليها من بنى على . وأما الرئيسان فصابرا[6]

---

(١) الزيادة من الملكية .

(٢) وردت فى « ج » والملكية : هلك ، وهو تحريف ، والتصويب من اللمحة .

(٣) هذه الكلمة الزائدة واردة فى اللمحة . (٤) هذه الزيادة من اللمحة .

(٥) ساقطة فى « ج » . ويقتضيها السياق . (٦) فى « ج » : فصار و التصويب من اللمحة.

المضايقة . وعزماً على النطاق والمقاطعة بوادى آش زماناً طويلا . وكان آخر أمرهما الخروج عن وادى آش إلى ملك المغرب . مُعَوَّضين[١] بقصر كتامة . حسبما يذكر فى أسمائهم . إن بلّغنا الله إليه .

وفى أيامه . كان جواز السلطان المجاهد أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق . إلى الأندلس . مُغازياً ومجاهداً فى سبيل الله . فى أوائل عام اثنين وسبعين وستمائة، وقد فسد مابين سلطان النصارى وبين ابنه[٢] . واغتنم المسلمون الغِرّة، واستدعى سلطان المغرب إلى الجواز . ولحق به السلطان المترجم به . وجمع مجلسه بين المُنْتَزين عليه وبينه . وأجلت الحال عن وحْشَة . وقُضِيت الغُزاة . وآب السلطان إلى مستقرّه .

وفى العام بعده . كان إيقاع السلطان ملك المغرب بالزعيم « ذُنُونَه »[٣] . واستئصال شأفته، وحصْدُ شوكته . ثم عبر البحر ثانية بعد رجوعه إلى العُدْوة . واحتلّ بمدينة طريف فى أوائل ربيع الأول عام سبعة وسبعين وستمائة . ونازل إشبيلية . وكان اجتماع السلطانين[٤] بظاهر قُرطبة . فاتصلت اليد . وصلُحت الضمائر . ثم لم تلبث الحال أن استحالت إلى فساد، فاستولى ملك المغرب على مالقة . بخروج[٥] المنتزى بها إليه . إلى يوم الأربعاء التاسع والعشرين لرمضان عام سبعة وسبعين وستمائة . ثم رجعت إلى مُلك الأندلس بمداخلة من كانت بيده ولنظره[٦]، حسبما يأتى بعد إن شاء الله .

---

(١) فى «ج» : معرضين . وهو تحريف .

(٢) وردت فى «ج» (وابنه) والتصويب من اللمحة .

(٣) هو دون نونيو دى لارا Nuno de Lara صهر ملك قشتالة ألفونسو العاشر . و. . . قائد الجيش القشتالى فى هذه المعركة الشهيرة التى نشبت . . . المغربية و . . . بقيادة السلطان أبى يوسف يعقوب على مقربة من مدينة . . . وذلك فى ربيع الأول سنة ٦٧٤ هـ . (سبتمبر سنة ١٢٧٥ م) .

(٤) هكذا فى اللمحة : ووردت فى «ج» السلطان .

(٥) فى «ج» : وخروج . والتصويب من اللمحة .

(٦) وردت فى «ج» قبلها كلمة (وعائم) . والظاهر أنها وضعت هنا سهواً .

وعلى عهده نازل طاغية الروم الجزيرة الخضراء ، وأخذ بمُخَنَّقِها ؛ وأشرف على افتتاحها ، فدافع الله عنها ؛ ونفَّس حصارها ، وأجاز الرُّوم بحرها ، على يد الفئة القليلة من المسلمين ؛ فعظم المَنْحُ ؛ وأسفر الليل ، وانجلَت الشِّدة ؛ فى وسط ربيع الأول من عام ثمانية وسبعة وسبعين وستمائة .

مـــولده

بغرناطة عام ثلاثة وثلاثين وستمائة . وأيام دولته ثلاثون سنة ، وشهر واحد ، وستة أيام .

وفـــاته

من كتاب « طُرْفة العصر » من تأليفنا فى التاريخ ؛ قال ؛ واستمرت الحال إلى أحد وسبعمائة ؛ فـكانت فى ليلة الأحد الثامن من شهر شعبان فى صلاة العصر ؛ وكان السلطـان رحمه الله فى مصـلاّه ؛ متوجِّهاً إلى القِبْلة لأداء فريضته ؛ على أتم ما يكون عليه المُسْلم من الخَشْية والتأهُّب ؛ زعموا أن شَرَقاً كان يعتاده[1] لمادة كانت تنزل من دماغه ، وقد رَجَمَت الظنون فى غير ذلك لتناوله عشيَّة يومه كعكا اتخذت له بدار ولى عهده ؛ والله أعلم بحقيقة ذلك . ودفن منفرداً ، عن مدفن سلفه ، شرقىَّ[2] المسجد الأعظم ، فى الجِنان المتَّصل بداره . ثم ثُنى بحافده السلطان أبى الوليد ، وعُزِّز بثالث كريم من سُلالته ؛ وهو السلطان أبو الحجاج ابن أبى الوليد ؛ تغمد الله جميعهم برحمته[3] ؛ وشمَلَهم بواسع مغفرته وفضله .

تم المجلد الأول
من كتاب « الإحاطة »

---

(١) هكذا فى «ج» والمكية ، واللمحة . (٢) فى الزيتونة (بشرق) . (٣) فى الزيتونة (بعفوه) .

الملاحق والفهارس

صفحة

إستدراكات

— ١ —

سقطت فى صفحة ١٠٤ هذه الحاشية الخاصة بالتعريف بأحمد بن موسى (الوارد إسمه فى أول السطر الثالث من الصفحة المذكورة) . ونصها ما يأتى :

« وهو أحمد بن موسى العروى من مؤرخى الأندلس . ألف كتابا عنوانه « تاريخ الأندلس » ذكره حاجى خليفة فى معجمه «كشف الظنون» . ولكنه لم يصل إلينا . . وتوفى سنة ٣٨٨هـ (٩٩٨م) »

— ٢ —

وردت فى صفحة ١٧٦ (السطر الرابع) فى ترجمة (أحمد بن محمد بن على ابن أحمد بن على الأموى) ما يأتى : « وولى قضاء مدينة الأرش » . وعلقنا نحن على اسم هذه المدينة فى الحاشية رقم ٢ من الصفحة المذكورة بقولنا « والظاهر أن هذا الاسم محرف » .

وقد تحققنا أن صحة الاسم هو مدينة الأربس (بضم الباء) . ومدينة الأربس هذه ذكرها الشريف الإدريسى فى معجمه الجغرافى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » (طبع رومة — نابولى ١٩٧٢ ص ٢٩١) . وذكر أنها تقع بين باجة والقيروان ، وبينها وبين باجة مرحلتان . وبينها وبين القيروان ثلاث مراحل ، وأنها تقع فى وطأة من الأرض عليها سور تراب جيد ، وفى وسطها أعين ماء جارية ، لا تجف ، ولها معدن الحديد .

وكذلك ذكرها ياقوت فى معجمه الجغرافى فى فقرة طويلة ، وذكر أنها « مدينة وكورة بإفريقية . وأكثر غلتها الزعفران ، وبها معدن الحديد . وبينها وبين القيروان ثلاثة أيام من جهة المغرب . وينتسب إليها بعض أكابر العلماء » (القاهرة ج ١ ص ١٧٠ , ١٧١) .

والظاهر أن هذه المدينة قد دثرت لأنها لا تظهر اليوم فى خرائط تونس .

ثبت المراجع

— ١ —

هذه طائفة من أهم المراجع التى رجعنا إليها فى البحث والتحقيق .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأبى العباس المقرى (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .
أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض (القاهرة ١٩٤٠ — ١٩٤٢) .
تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر) — طبعة بولاق .
التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (لجنة التأليف والترجمة ١٩٥١) .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنترينى (الأجزاء الثلاثة المنشورة بعناية جامعة القاهرة) .
كتاب الصلة لابن بشكوال (القاهرة ١٩٥٥) .
تكملة الصلة لابن الأبار القضاعى (المكتبة الأندلسية والقاهرة ١٩٥٦) .
صلة الصلة لابن الزبير (المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروفنسال — الرباط ١٩٣٧) .
الحلة السيراء لابن الأبار (المنشور بعناية العلامة دوزى (ليدن ١٨٥١) . والمنشور بعناية الدكتور حسين مؤنس (القاهرة ١٩٦٤) .
الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة لابن عبد الملك المراكشى (الأقسام ١ و ٢ والسفران الرابع والخامس بقسميه (بيروت ١٩٦٥) .
اللمحة البدرية فى الدولة النصرية لابن الخطيب (القاهرة ١٩٢٨) .
الكتيبة الكامنة فى أهل المائة الثامنة لابن الخطيب (بيروت ١٩٦٣) .
كناسة الدكان بعد انتقال السكان لابن الخطيب (القاهرة ١٩٦٦) .
روضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب (القاهرة ١٩٦٨) .
نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب (السفر الثانى المنشور بعناية الدكتور مختار العبادى . والسفر الثالث المخطوط المحفوظ بخزانة الرباط العامة) .
تاريخ اسبانيا الإسلامية (قسم من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب بيروت ١٩٥٦) .
تاريخ قضاة الأندلس لأبى الحسن النباهى (المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروفنسال القاهرة ١٩٤٨) .

قلائد العقيان للفتح بن خاقان (القاهرة ١٢٨٤ هـ) .
المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى (القاهرة ١٩٥٣و ١٩٥٥) .
جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروفنسال (القاهرة ١٩٤٨) .
البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى .
الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (القاهرة ١٣٠٦ هـ) .
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى (القاهرة ١٣٣٢ هـ) .
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للشريف الإدريسى (طبع رومة ونابولى سنة ١٩٧٢)
معجم البلدان لياقوت الحموى (القاهرة ١٩٠٦) .
ديوان أبى الطيب المتنبى (القاهرة ١٩٤٤) .
ديوان ابن خاتمة (دمشق ١٩٧٢) .
لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكرى . لمحمد عبد الله عنان .
نثير الجمان فى شعر من ضمنى وإياه الزمان للأمير إسماعيل بن الأحمر .

— ٢ —

Brockelmann : Geschichte der Arabischen Literatur.
Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.
Direnbourg : Les Manuscrits arabes de l'Escurial (V.I. & V. III)
P. Boigues : Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores y Geograficos Arabigo - Espanoles (Madrid 1898)
D. Pascual Gayangos : Mohamedan Dynasties in Spain.
F. Codera : Mision Historica en Argelia y Tunis (Madrid 1872)
F. J. Simonet : Descripcion del Reino de Granada sacada de los Autores Arabigos (Granada 1872)
F. J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897)
Isidro de las Cagigas : Los Mozarabes (Madrid 1947).
G. Remiro : Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino.
M. Asin Palacios : Contribucion a la Toponomia Arabe de Espana.
L. S. de Lucena : Toponomia Granadina (Al-Andalus V. XVII - 2. 1952)
A. Gonzalez Palencia : Historia de la Literatura Arabigo-Espanola.
M. Müller : Beitrage zur Geschichte der Westlichen Araber (München 1866)

فهرست الموضوعات والتراجم

صفحة

القسم الأول

فى حلى المعاهد والأماكن
والمنازل والمساكن

القسم الثانى
فى حلى الزائر والقاطن
والمتحرك والساكن

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهرست الرسـائل والقطع النثرية

صفحة

فهرست الشعر والشعراء(١)

(١) نورد هنا أسماء الشعراء مرتبة على حروف المعجم ، ونشير الى شعرهم بايراد الشطرة الأولى من البيت الأول من كل قصيدة أو مقطوعة من المنظوم .

فهرست الكتب والرسائل

التي ورد ذكرها خلال الكتاب

ت ـ ت

ج — خ

د — ذ

ر — ز

س — ش

ص — ع

ف — ق

ك

ل — م

فهرست القبائل والطوائف والدول

فهرست البـــلدان والأماكن

— ب —

ت — ث

— ج —

ح — خ

د — ز

— م —

فهرست الأعـلام

ب — ت

س — ش

ص — ظ

ع — غ

ف — ل

— م —

— ن —

هـ — و

— ى —

« تمّ طبع الطبعة الثانية من المجلد الأول من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » بمطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر بمدينة القاهرة المعزية فى يوم ٢٠ من رمضان المعظم سنة ١٣٩٣ هـ الموافق ليوم ١٦ من أكتوبر سنة ١٩٧٣ »

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٧٨٥

HISTORY AND BIOGRAPHICAL DICTIONARY OF GRANADA

entitled

AL - IHATA FI AKHBAR GHARNATA

BY

VIZIER LISAN - ud - DIN IBN - ul - KHATIB

Edited with an Intro duction an l Notes

BY

MOHAMED ABDULLA ENAN

Author of : Moorish Empire in Spain. Age of the Almoravides and Almohades. End of the Moorish Empire in Spain. Monumentos Moros en Espana y Portugal, Life and Work of Ibn Khaldun. Life and Work of Ibn - ul - Khatib; etc.

Vol. I

Second and Revised Edition

Publisher : Al-Khanghi Bookshop, Cairo

Al-Tibaa Almusriyah Co. Press

Cairo - 1973

الإحاطة في أخبار غرناطة

لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب

حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه

محمد عبد الله عنان

المجلد الثاني

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الأولى
١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م

القــاهرة
الشركة المصرية للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو المجلد الثانى من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » نقدمه إلى القراء والباحثين، بعد أن تم بحمد الله، تحقيقه، وتزويده بمختلف الحواشى التفسيرية، وبعد أن تم كذلك إخراج الطبعة الثانية من المجلد الأول ، من هذه الموسوعة الأندلسية الكبرى.

ونود أن نبدأ هنا بالإشارة إلى بعض حقائق تتعلق بالأصول المخطوطة ، التى رجعنا إليها فى تحقيق هذا المجلد الثانى من كتاب « الإحاطة »، فقد رجعنا فى ذلك إلى الأصول الآتية :

أولا — مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد (مخطوط العلامة جاينجوس) المحفوظ بها برقم CXLII .

ثانياً — مخطوط جامع الزيتونة بتونس المحفوظ الآن بدار الكتب الوطنية برقم 8135

ثالثاً — مخطوط الإسكوريال المحفوظ بمكتبة دير سان لورنزو بالإسكوريال برقم ١٦٦٨ الغزيرى ، ورقم ١٦٧٣ ديرنبور .

رابعاً — مخطوط الخزانة الملكية بالرباط المحفوظ بها برقم 1840

وقد اتخذنا مخطوط جاينجوس ، حسبما فعلنا بالنسبة للمجلد الأول، أساساً، لتدوين نص المجلد الثانى ومقارنته . والواقع أنه لا يوجد بين هذه الأصول المخطوطة، ما يتضمن المجلد الثانى من كتاب الإحاطة بصورة مستقلة، سوى مخطوط جامع الزيتونة ، الذى يقدم إلينا كتاب الإحاطة فى ثلاثة أجزاء متتالية ، والذى يوصف خطأ ، بأنه هو النسخة الوحيدة الكاملة من الإحاطة فى العالم . وقد سبق أن وصفنا هذا المخطوط وخصائصه وأحجام أجزائه بإفاضة، فى مقدمة المجلد

الأول . وبينا بوضوح ما يعتوره من ضروب النقص والتصحيف . وكيف أن القول بأنه هو النسخة الكاملة الوحيدة من الإحاطة ،لا يطابق الواقع ، فلا حاجة بنا هنا إلى التكرار .

هذا، وقد سلكنا فى تنظيم محتويات هذا المجلد الثانى من كتاب « الإحاطة » وتبويبه مسلكاً جديداً ، راعينا فيه نظام « الأسفار » التى جعلها ابن الخطيب أساساً لتبويب كتابه ، ومن ثم فإننا لم نتخذ مخطوط جامع الزيتونة ، بالرغم من وصفه المتقدم ، أساساً وحيداً لتصنيف هذا المجلد الثانى من الإحاطة . ذلك أن الجزء الثانى من مخطوط الزيتونة ، يتضمن عقب نهاية ترجمة (محمد بن يوسف ابن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحى) ابن زمرك — الإشارة الآتية :

(انتهى السفر السادس هنا ، والحمد لله رب العالمين)

ويتضمن مخطوط جاينجوس ، عقب ترجمة محمد بن يوسف الصريحى — ابن زمرك المذكور — نفس هذه العبارة .

ويتضمن مخطوط الإسكوريال السالف الذكر ، رقم ١٦٧٣ ديرنبور ، فى رأس صفحة العنوان العبارة الآتية :

(تملك هذا السفر الثانى من مختصر الإحاطة .. بن جعفر بن محمد القيت لطف الله بهم ونفعهم) .

ومن الواضح أن « السفر الثانى » يقصد بها هنا « الجزء الثانى ».ذلك لأنه قد وردت فى الصفحة التالية فى بداية المخطوط هذه الإشارة :

(ومن السفر السابع المفتتح بقوله : ومن الطارين منهم فى هذا الباب) .

وإذاً فإن مخطوط الإسكوريال ، يبدأ وفقاً لترتيب نظام الأسفار الذى اتخذ أساساً لتبويب كتاب «الإحاطة»، عقب انتهاء السفر السادس من المخطوطين السابقين ، مخطوط الزيتونة ، ومخطوط جاينجوس، بالسفر السابع . وعلى ذلك وبعد دراسة مقارنة عميقة، لمختلف المخطوطات التى بين أيدينا ، رأينا أن نتخذ نظام الأسفار قاعدة لتبويب «الإحاطة» ،وأن نبدأ بعد نهاية السفر السادس من مخطوطى الزيتونه وجاينجوس ، فى تدوين تراجم السفر السابع الذى يفتتح به مخطوط الإسكوريال .

ويجب أن نعلم بهذه المناسبة ،أن كتاب «الإحاطة» يشغل وفقاً لنظام الأسفار المشار إليه ، والذى اتخذه المؤلف قاعدة لتقسيمه وتبويبه ، إثنى عشر سفراً،يضم مخطوط الإسكوريال منها ستة أسفار ، من السفر السابع إلى السفر الثانى عشر ، ويلى هذا السفر الأخير ، ترجمة ابن الخطيب مكتوبة بقلمه . وهذه الأسفار فيما يبدو — عدا السفر الأخير — متقاربة الأحجام ،يحتوى كل منها على نحو أربعين ترجمة ، وهذا عدا السفر الأخير الذى يضم ثمان تراجم فقط . ومعنى ذلك أن مخطوط الإسكوريال يمثل بحجمه وعدد أسفاره ،نصف المؤلف الأصلى ، وتكون نسخة الإسكوريال هذه ، مكونة من جزئين كبيرين ، وصل إلينا منهما فقط هذا الجزء الثانى ، الموسوم فوق صفحته الأولى بأنه (السفر الثانى) من مختصر الإحاطة ،وهو من محتويات المكتبة الزيدانية الشهيرة ،التى استولى عليها الإسبان فى عرض البحر فى أوائل القرن السابع عشر ، وضمت إلى محتويات المكتبة الملكية بالإسكوريال ، وذلك حسبما فصلناه فى مقدمة المجلد الأول .

هذا وقد رأينا أن نفتتح المجلد الثانى ، بترجمة السلطان محمد بن يوسف ابن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج بن يوسف بن نصر الخزرجى (السلطان محمد الغنى بالله) سلطان ابن الخطيب . هذا فى حين أن النصف الأول من ترجمة هذا السلطان ،يرد فى نهاية الجزء الأول من مخطوط الزيتونة ،فى اللوحات الخمس عشرة الأخيرة (ص ٣٠٦ — ٣٣٥) . ونحن قد وقفنا بالمجلد الأول عند ترجمة السلطان (محمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر الأنصارى الخزرجى) ثانى الملوك النصريين .

وقد أحصينا التراجم التى وردت بالمجلد الثانى من مخطوط الزيتونة عقب الانتهاء من (السفر السادس) حتى نهايته ، فوجدناها سبعاً وأربعين ترجمة،تبدأ بترجمة (محمد بن أحمد بن عبد الله الإستجى) وتنتهى بترجمة (محمد بن على بن عبد الله اللخمى) وهى آخر التراجم الواردة بالمجلد المذكور ، وكلها من حرف الميم (المحمدون) . ووجدنا بالمراجعة الدقيقة أنه قد ورد منها فى مخطوط الإسكوريال سبع وثلاثون ترجمة ، وردت متباعدة تتخللها تراجم كثيرة أخرى من (المحمدين) أيضاً ،وتنتهى بترجمة ، محمد بن على بن عبد الله اللخمى فى اللوحة رقم 146 .

ونود أن ننوه بانه إلى جانب البواعث النظامية والفنية ، التى حملتنا على انتهاج هذه الخطة ، توجد ثمة بواعث علمية هامة ، تتلخص فى أن مخطوط الإسكوريال ، يتناول كثيراً من التراجم المذكورة بتوسع وإفاضة، ويقرنها بكثير من مختارات المنظوم والمنثور ، التى لم ترد فى مخطوط الزيتونة ، ومنها تراجم كثيرة لشخصيات أدبية بارزة ، أمثال ابن الحداد الوادى آشى ، وابن مرج الكحل ، وابن الجنان ، وابن أبى الخصال ، وذى الوزارتين ابن الحكيم ، وابن طفيل ، ومحمد بن عبد العزيز التجيبي البرشانى ، وابن قزمان ، وابن القصيرة ، وابن خميس الحجرى ، وابن جزى ، وغيرهم . وقد وردت معظم هذه التراجم فى مخطوط الزيتونة فى نصوص موجزة ، ينقصها الكثير من مختارات الشعر والنثر ، التى يوردها مخطوط الإسكوريال ، وهو ما يحملنا على الاعتقاد بأن مخطوط الإسكوريال ، هو أقرب المخطوطات التى انتهت إلينا ، إلى نص كتاب الإحاطة المطول ، وهذا بالرغم من كونه يوصف فى صفحة العنوان ، وفى نهايته بأنه «مختصر الإحاطة» . وهذا كله إلى أن نص مخطوط الإسكوريال ، يمتاز بسلامته ، وخلوه من كثير من الأخطاء وضروب التصحيف ، التى ترد خلال نص مخطوط جامع الزيتونة .

وهناك إلى جانب ما تقدم فارق التاريخ . ذلك أن مخطوط الإسكوريال قد نص فى نهايته ، على أنه قد تم نسخه فى أوائل شهر ربيع الآخر عام خمسة وتسعين وثمانمائة ، وذلك بمدينة غرناطة ، هذا فى حين أن مخطوط الزيتونة قد تم نسخه حسبما ورد فى نهاية الجزء الثالث منه ، فى شهر جمادى الثانية عام 1273 ، فهو إذن مخطوط حديث . وميزة القدم بالنسبة لمخطوط الإسكوريال ، وكونه قد كتب فى غرناطة موطن مؤلف «الإحاطة» ، وبعد وفاته بنحو قرن وربع فقط ، تسبغ عليه أهمية خاصة ، من حيث الاطمئنان إلى سلامة النص ، وإلى أنه قد نقل من أصول معتبرة يعول عليها .

ولسنا بحاجة إلى أن نعيد هنا شيئاً مما ورد فى مقدمتنا للمجلد الأول ، من البيانات والشروح عن كتاب «الإحاطة» ، وعن مصادره وتاريخ تأليفه ، أو عن مؤلفه ابن الخطيب ، وعن حياته ، وخلاله الفكرية والأدبية اللامعة ، فكل ذلك قد استوفيناه فى مقدمتنا بإفاضة ، يرجع إليها فى المجلد الأول .

ويحتوى المجلد الثانى من كتاب « الإحاطة » على إحدى وثمانين ترجمة ، ويضم طائفة من الرسائل الهامة ،التى دبجها ابن الخطيب بلسان سلطانه،فى الحث على الجهاد ، وجمع كلمة الأمة فى الذود عن الدين والوطن ، كما يضم طائفة كبيرة من تراجم مشاهير رجالات الأندلس ، مثل المعتمد بن عباد ، والمتوكل ابن هود ومحمد بن سعد بن مردنيش أمير الشرق ، والمنصور بن أبى عامر ، ومحمد بن الأحمر الكبير ، مؤسس مملكة غرناطة ، ومحمد الغنى بالله ، سلطان ابن الخطيب . ومن أكابر الكتاب والأدباء والشعراء ، مثل ابن جبير ، وابن زمرك ، وابن مرج الكحل ، وابن شلبطور ، وابن أبى الخصال ، وأبى عبد الله بن الحكيم ، وابن غالب الرصافى ، وأبى بكر بن القصيرة ، وابن قزمان ، وابن خميس الحجرى ، وغير هؤلاء وهؤلاء .

وتتضمن هذه التراجم كثيرا من الحقائق والتفاصيل التاريخية والأدبية الهامة . هذا فضلا عما تقرن به من مختار المنثور والمنظوم .

وقد عنينا فى هذا المجلد أسوة بالمجلد الأول ، بشرح وتحقيق الأعلام التاريخية والجغرافية ، فى حواشى خاصة ، وربما حدث خلال ذلك بعض تكرار فى التعريف بأعلام أو بلاد سبق التعريف بها فى المجلد الأول . ولكن ذلك لا ينتقص من أهميتها ، لأنها فى مكانها أقرب إلى التناول والإفادة .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا المجلد الثانى من « الإحاطة » سوف يصدر بعون الله ، فى ربيع أو صيف هذا العام — سنة ١٩٧٤ . وتوافق هذه السنة الذكرى الستمائة لوفاة ابن الخطيب ، وتقع هذه الذكرى فى خريف العام المذكور . وقد أشرنا فى ختام مقدمة المجلد الأول ، إلى أهمية إحياء هذه الذكرى والإحتفاء بها ،وأهبنا بالدوائر العلمية والأدبية فى مختلف البلاد العربية ، ولاسيما المغرب ، الذى قضى فيه ابن الخطيب أخصب فترات حياته ،ومازال يثوى الثواء الأخير بأرضه ، أن تقوم بتنظيم الاحتفاء بهذه الذكرى العلمية الجليلة ، وقد علمنا مع الغبطة أن الحكومة المغربية . تعنى الآن بالعمل لإحياء هذه الذكرى فى موعدها . ونحن نرجو لها من الله العون والتوفيق فى تحقيق هذه الأمنية النبيلة .

القاهرة فى غرة المحرم سنة ١٣٩٤
الموافق ٢٤ يناير سنة ١٩٧٤

محمد عبد الله عنان

رموز المخطوطات

رأينا وفقاً لما تم فى المجلد الأول ، أن نرمز إلى المخطوطات التى رجعنا إليها فى تحقيق هذا المجلد الثانى من كتاب « الإحاطة » على النحو الآتى :

١ — مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد (مخطوط جاينجوس) بحرف «ج» .

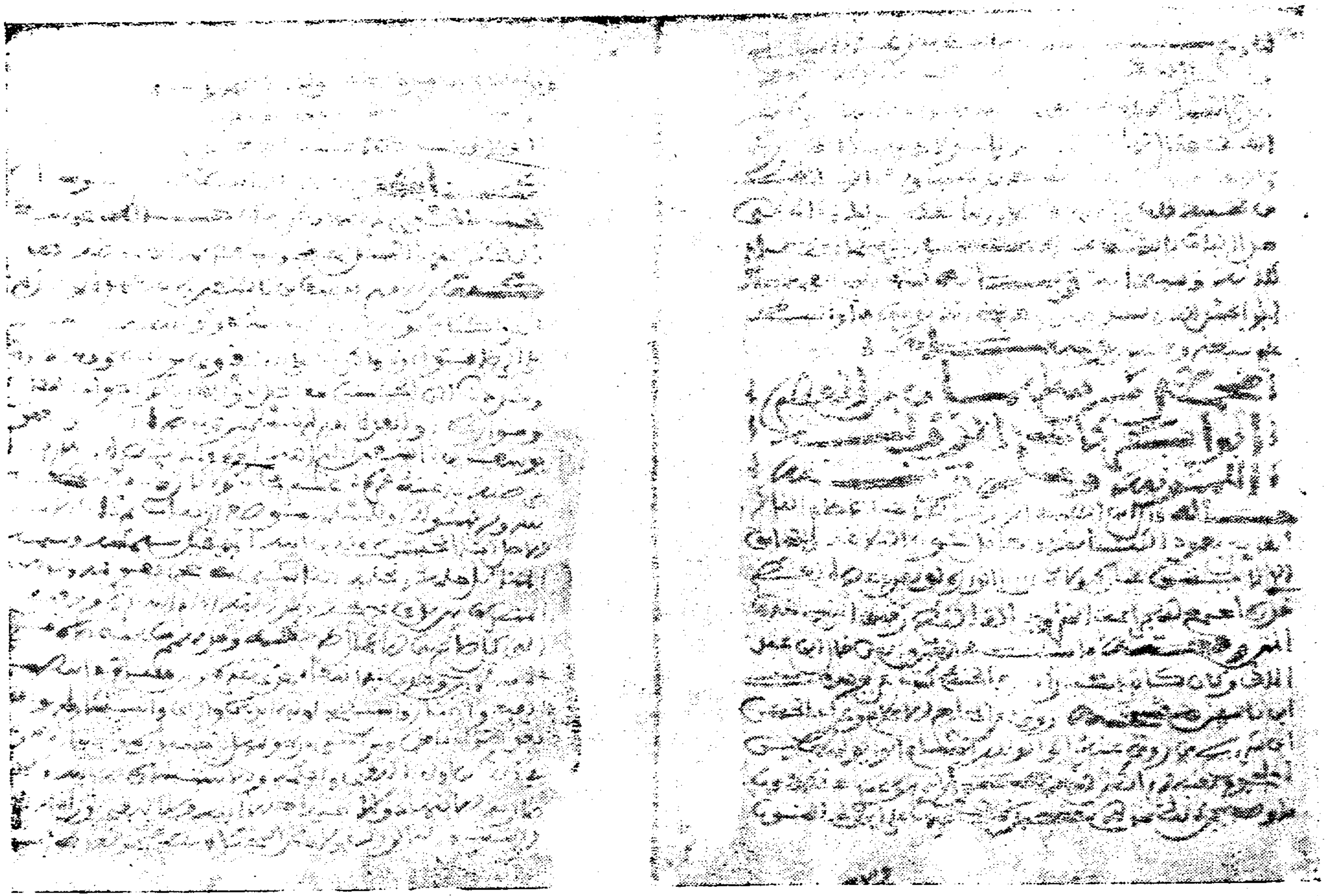
٢ — مخطوط جامع الزيتونة بتونس بكلمة « الزيتونة » .

٣ — مخطوط الخزانة الملكية بالرباط بكلمة « الملكية » .

٤ — مخطوط مكتبة الإسكوريال بكلمة « الإسكوريال » .

٥ — وجرينا فى التعبير عن مخطوطى جاينجوس والزيتونة ، بكلمة « المخطوطين » .

٦ — وفى التعبير عن جاينجوس والزيتونة والملكية « بالمخطوطات الثلاثة » .



صفحتان من الجزء الثاني من كتاب (الإحاطة) من مخطوط جامع الزيتونة المحفوظ الآن بدار الكتب الوطنية بتونس برقم 8135



صفحتان من القسم الثانى من كتاب (الإحاطة) من مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ دير نبور المحفوظ بمكتبة دير الإسكوريال

الإحاطة

في أخبار غرناطة

المجلد الثاني

محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج ابن يوسف بن نصر الخزرجى(١)

أميرُ المسلمين لهذا العهد بالأندلس ، صدرُ الصدور ، وعلمُ الأعلام ، وخليفةُ الله ، وعمادُ الإسلام ، وقدوةُ هذا البيت الأصيل ، ونيرُ هذا البيت الكريم ، ولُبابُ هذا المجدِ العظيم ، ومعنى الكمال ، وصورة الفضل ، وعنوانُ السعدِ ، وطاير اليُمن ، ومحوّلُ الصُنْع ، الذى لاتبلغ الأوصاف مداه ، ولا تُوفى العبارة حقه ، ولا يَجْرِى النظم [والنثر](٢) فى ميدان ثنَايِه ، ولا تنتهى المدائحُ إلى عَلْيائِه .

أوّليتـــــه

أشهرُ من إمتاع الضُّحى ، مستوليةٌ على المدا ، بالغةٌ بالسَّعَةِ بالانتساب(٣) إلى سَعْد بن عُبادة عَنان السماء ، مُبْتَجِحةٌ(٤) فى جهاد العِدا ؛ بحالة من مَلَكَ جزيرة الأندلس ، وحَسْبُك بها ، وهى بها فى أسْنَى(٥) المَزَاين والحُلى ، وقُدُماً فيه بحسَب لمن سمع ورأى .

---

(١) وردت فى الزيتونة إزاء اسم هذا السلطان العبارة الآتية فى الهامش الأيسر (ترجمة سلطان المصنف) . هذا وقد وردت بداية هذه الترجمة فى نهاية الجزء الأول من مخطوط الزيتونة، فرأينا أن نبدأ منها بالمراجعة عليه .

(٢) هذه الكلمة زائدة فى الزيتونة .

(٣) هذا فى «ج» . وفى «الملكية» والزيتونة (على الانتساب) .

(٤) هكذا فى «ج» و «الملكية» من ابتجح ، أى افتخر وتباهى .

(٥) فى الملكية ، والزيتونة ، أبهى .

حـــــاله

هذا السلطان أيمنُ أهلِ بيته نقيبةً ، وأسعدُهم ميلاداً وولايةً ، قد جمع الله له بين حُسْن الصورة ، واستقامة البِنْية ، واعتدالِ الخُلُق ، وصحّة الفكر ، وثُقُوب الذِّهن ، ونُفوذِ الإدراك . ولطافةِ المسايل ، وحُسْن التأنّي ؛ [وجُمع له من الظَّرْف][1] مالم يُجمع لغيره ، إلى الحِلْم ، والأناة اللذين يُحبُّهما[2] الله ، وسلامةِ الصدر ، التي هي من علامة الإيمان ، ورقّة الحاشية ، وسُرْعة العَبْرة ، والتبريز في ميدان الطهارة والعفّة ، إلى ضخامة التَّنجُّد ، واستجادةِ الآلات ، والكَلَف بالجهاد ، وثَباتِ القدَم ، وقوةِ الجأش ،ومشهور البَسالة ، وإيثار الرِّفق ، وتوخّي السَّداد ، ونُجْح المحاولة . زادَهُ الله من فضله ، وأبقى أمرَه في ولَدِه ، وأمْتعَ المسْلمين بعُمْره . ساق الله [إليه] المُلْك طواعيةً واختياراً ، إثْر صلاة عيد الفِطْر على بَغْتَة[3] وفاة المقدَّس أبيه ، من عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، لمخايِل الخير ، ومَزيّة السِّن ، ومَظَنّة البَركة ، وهو يافعٌ ، قريبُ العهد بالمُراهقة ، فأنْبَتَهُ الله النَّباتَ الحسَنَ ، وسَدَل[4] به السِّترَ ، وسَوَّغ العافية ، وهنّأ العَيْش ؛ فلم تشُحَّ في مدته السماء ، ولا كَلِب[5] الأعداء ، ولا تبدّلت الألقاب ، ولا عُونِيت الشدائد ، ولا عُرِف الخوف ، ولا فُورِق الخِصْب ، إلى أن كانت عليه الحادثةُ ، ونابَهُ التَّمحيص ، الذى أكسبه الحُنْكة ، وأفاده العِبْرة ، فشهد بعناية الله في كَفِّ الأيدي العادية ، وأخطأ [ألَم][6] السِّهام الرّاشقة ، وتخْييب الآمال

---

(١) وردت في «ج» (وجمال الظرف) . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

(٢) وردت في «ج» والزيتونة ، يحبهم . والتصويب لازم لاستقامة السياق .

(٣) كذا في «ج» و «الملكية» والزيتونة .

(٤) هكذا في «ج» . وفي «الملكية» والزيتونة ، وسبل .

(٥) هكذا في المخطوطات الثلاثة .

(٦) الزيادة من «الملكية» ، والزيتونة .

المكايدة ، وانسدال أزورقة السّتر والعصمة ، ثم العودة ، الذى عرّف الإسلام ، [بدار الإسلام][(١)] قدرها ، وتملأ عزّها ، ورجّح[(٢)] وزنها ، كما اختبر ضدها فرصة الملك ، وشاع العدلُ ، وبعُدَ الصيتُ ، وانتشر الذّكرُ ، وفاض الخير ، وغزُرَ القطرُ ، فظهرت البركات ، وتوالت الفتوح ، وتخلّدت الآثار . وسيرد من بيان هذه الجمل ، مايسعه الترتيب بحول الله .

ترتيب دولته الأولى

إذ هو ذُو دَوْلتين ، ومُسوّغ ولايتين ، عزّزهما الله ، بمُلْك الآخرة ، بعد العُمْر الذى يملأ صحايف البرّ ، ويخلّد حُسْن الذّكر ، ويُعرف إلى الوسيلة ، ويُرفع فى الرفيق الأعلى الدّرجة ، عند الله خيرٌ وأبقى للّذين آمنوا ، وعلى ربّهم يتوكلون .

وزراؤه وحجابه

انتدب إلى النّيابة عنه ، والتّشمير إلى الحجابة ببابه ، الشيخَ القايدَ المعتمدَ بالتّجلّة ، المُتحول من اُلخدّام النّبهاء ، المتسود الأبوة ، المخصوصَ بالقِدْح المُعلّى من المزية ، المُسَلّم له فى خُصُوصيّة الملك والتربية ، ظهيرَ العلم[(٣)] والأدب ، وأمينَ الجِد ، ومولى السّلَف ، ومُفْرِغَ الرأى إلى هذا العهد ، وعِقْدَ سُفْرةِ[(٤)] السلطان ، وبقيةَ رجال الكمال من مشيخة المماليك ، وخيار الموالى ، أبا النعيم رِضوان رحمه الله ، فحَمد الكُل ، وخَلَف السلطان ، وأبقى الرُّتَب ، وحَفِظ الألقاب ، وبذل الإنصاف ، وأوسع الكَنَف ، واستدعى النّصيحة ، ولم يَأل جَهْداً فى حُسن

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة ، وفى «ج» و «الملكية» (بهذه الاسلام) .
(٢) هكذا فى «الملكية» والزيتونة ، وفى «ج» واسترجح . والأولى أفضل .
(٣) وردت فى «ج» و «الملكية» ، العمر ، والتصويب أرجح .
( ) هكذا فى «الملكية» والزيتونة . ووردت فى «ج» سفراً .

السِّيرة ، وتَظاهُر المَحْض ، وأفردنى بالمزيّة[١] وعاملنى بما يرتدُّ عنه جسرُ أطرُف الموالاة والصُّحبة ، ووفَّى لى الكَيْل الذى لا يقتضيه السِّن ، والقُرْبَة من الاشتراك فى الرتبة[٢] ، والتَّزحزُح عن الهَضْبة ، والاختصاص باسم الوَزارة على المُشْهَر والغَيبة ، والمحافظة على التَّشيُّع والقِدمة ، بلغ فى ذلك أقصى الغايات . مَدارجَ التخلق المأثور عن الجِلّة ، والتودد إلىَّ [المرَّة بعد المرَّة][٣] ، واختصصتُ بفَوْت المَدَّة بالسلطان ، فكنتُ المنفرد بسرِّه دونه ، ومَفْضَى همه ، وشِفاء نفسِه ، فيما يُنْكِره من فتنةٍ تقع فى سيرته . أو تَصَيُّر توجيه السَّذاجة فى معاملاته ، وصلاح ما يتغيَّرُ عليه من قلبه ، إلى أن لحق بربِّه .

شيخ الغزاة ورئيس الجند الغربى لأول أمره

أقر على الغُزاة شيخَهم على عهد أبيه ، أبا زكريا يحيي بن عمر بن رحّو بن عبد الله بن عبد الحق ، مَطْمَح الطَّوافِ[٤] ، ومَوْفى الاختيار ، ولُباب القوم ، وبقيّةَ السلف . حَزْماً ودهاء ، وتجربةً [وحُنْكة وجِدّاً وإدراكاً][٥][ناهيك][٦] من رجُلٍ فَذِّ المَنازِع ، غريبِها ، مستحقٌّ التقديم ، شجاعةً وأصالةً ، ورأياً ومباحثةً ، لسَابةِ قبيلهِ ، وأَضْحَى قِسْهم ، وكِسْرَى ساستِهم ، إلى لُطْف السَّجية ، وحُسْن التأنِّي ، لغرض السلطان ، وطرق التَّنزل للحاجات . ورقّة غزل الشَّفاعات . وإمتاع المجلس ، وثُقوبِ الذِّهن والفهم ، وحُسن الهيئة . وزادَهُ خصوصيَّة ملازمته

---

(١) وردت فى «ج» و «الملكية» بالزبدة ، والتصويب أرجح .

(٢) وردت فى «ج» وفى «الملكية» بالزينة ، والتصويب أرجح .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» والزيتونة (المدة بعد المدة) . والأولى أرجح .

(٤) هكذا فى «الزيتونة» ، وفى «ج» و«الملكية» (الطرف) والأولى أرجح .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» والزيتونة (وحركة وجدا) .

(٦) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة ، ويقتضيها السياق .

مجلسَ الرِّقاع المعروضة ، والرُّسُل الواردة . وسيأتى ذكره فى موضعه بحول الله تعالى .

كاتب سره

قمتُ لأول الأمر بين يديه بالوظيفة التى أسندها(١) إلىّ أبوه المولى المقدس ، رحمه الله ، من الوقوف على رأسه ، والإمساك فى التهانى والمبايعة بيده . والكتابة والإنشاء والعَرض والجواب . والخِلْعة والمُجالسة ، جامعاً بين خدمةِ القلَم ، ولقبِ الوزارة ، معزَّزَ الخُطَط برسم القيادة ، مخصوصاً بالنيابة عنه فى الغَيْبة ، على كل ما اشتمل عليه سورُ القلعة والحَضْرَة ، مطلقَ أمورِ الإيالة ، محكماً فى أشتاته تحكيم الأمانة ، مُطلق الجراية ، ظاهرَ الجاه والنعمة . ثم تضاعف العزُّ ، وتأكد الرَّعىُ ، وتمحَّض القربُ ، فنقلنى من جَلْسَة المواجهة ، إلى صَفِّ الوزارة ؛ وعاملنى بما لامزيد عليه من العناية ، وأحلّنى المحل الذى لا فوقه فى الخُصُوصيّة ، كافأ الله فضلَه ، وشكرَ رعيه ، وأعلى محلَّه عنده .

وأصْدَر لى هذا الظَّهيرَ لثانى يوم ولايته : هذا ظهيرٌ كريمٌ ، صفى شِربُهُ . وسفَّرنى فى الرسالة عنه ، إلى السلطان ، الخليفة الإمام ، ملك المغرب ، وما إليه من البلاد الإفريقية ، أبى عِنان ، حسبما يأتى ذكره . ثم أعفانى فى هذه المدة الأولى ، عن كثير من الخدمة ، ونوّه بى عن مباشرة العَرْض بين يديه بالُجملة ، فاخترت للكَلِّ والبِذْلة ، وما صان عنه فى سبيل التجلّة ، وإن كان منتهى أطوار الرِّفعة ، الفقيه أبا محمد بن عطية ، مُسْتَنْزَلاً عن قضاه وادى آش وخَطابَتها ، فكان يتولى ما يُكتَب بنظرى ، وراجعاً لحكمى ، ومتردِّداً لبابى ، مُكْتَفَى

(١) وردت فى «ج» والملكية ، أسند . والتصويب أفضل .

المؤنة فى سبيل(١) الحمل الكلى ، إلى وقوع الحادثة ، ونفوذِ المشيئة بتحويل الدولة .

قضاته

جدَّد أحكام القضاء والخطابة لقاضى أبيه الشيخ الأستاذِ الشريف ، نسيج وحْدِه ، وفريدِ دهره(٢) ، إغراباً(٣) فى الوقار ، وحُسْنِ السَّمت(٤) وأصالة البَيْت ، وتبحُّراً فى علوم اللِّسان ، وإجهازاً فى فَصْل القضايا ، وانفراداً ببلاغة الخُطْبَة ، وسَبْقاً فى ميدان الدهاء والرَّجاحة ، أبى القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحَسَنى ، الجانح إلى الإيالة النَّصْرية من مدينة سَبْتَة . وسياتى التعريف به فى مكانه إن شاء الله . وتوفى رحمه الله بين يدَى حدوثِ الحادثة ، فأُرْجِىء الأمر بمكانه ، إلى قُدوم مُتَلَقِّف الكُرَة ، ومُتَعاور تلك الخُطَّة . الشيخ الفقيه القاضى ، أبى البركات قاضى أبيه . ووليها الأَحقُّ بها بعده ، إذ كان غايباً فى السِّفارة عنه ، فوقع التَّمحيصُ قبل إبرام الأمر على حال الإسْتنابة .

الملوك على عهده

وأوَّلُهم بالمغرب ، السلطان ، [الإمام](٥) ، أميرُ المسلمين ، أبو عِنان ابن أمير المسلمين أبى الحسن بن أمير المسلمين أبى سعيد بن أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحقِّ ، البعيدُ الشأو فى ميدان السَّعادة ، والمُصْمى أغراضَ السَّداد ، ومُعظَّمُ الظَّفَر ، ومُخَوَّلُ المَوْهبة ، المستولى على آماد الكمال ،

---

(١) وردت فى الزيتونة بعد هذه الكلمة عبارة (المؤمنة فى) وهى عبارة لا معنى لها هنا ، ومن ثم فقد أغفلناها .

(٢) هكذا فى «ج» ووردت فى «الملكية» ، عصره .

(٣) وردت فى «ج» إعرابا . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

(٤) هكذا وردت فى «الملكية» والزيتونة . وفى «ج» السمة ، والأولى أرجح .

(٥) الزيادة من الزيتونة .

عقلاً وفضلًا وأبَّهةَ ورُواءاً . وخَطّاً وبلاغةَ ، [وحفظاً وذكاء][1] وفهماً وإقداماً ، تغمَّده الله برحمته . بعثني إلى بابه رسولاً على إثر بيْعته ، وتمام أمره ، وخاطباً إثره ووُدَّه ، مُسْتَرِنداً[2] من منْحة قبولِه ، فألفيتُ بشراً مَبذولاً ، ورفداً ممنوحاً ، وعزّاً باذخاً ، يضيق الزمان عن جلالته ، وتقصُر الألسنة عن كُنْهِ وصْفِه ، فكان دخولى عليه فى الثامن والعشرين من شهر ذى قعدة عام خمسة وخمسين المذكور ، وأنشدتُه بين يدى المُخاطبة ، ومُضْمن الرسالة :

خليفةُ الله ساعَدَ القَدَر علاكَ مالاح فى الدُّجا قمرُ

فأحْسَب وكفى ، واحتفل واحتفى ، وأفضتُ بين يدى كرْمته[3] ، إلى الحضور معه فى بعض المواضع المطلة على مورد رحب . هاج به الخُدَّام أسَدًا ، أزْوَد ، شَثْن الكفَّين مُشْعر[4] اللِّبدة ، حتى مَرَق عن تابوت خشبى كان مسجونا به ، من بعد إقلاعه ، من بعض كُواه ، وأثارته من خَلْفه ، واستشاط وتوقّد بأساً . وجُلب[5] ثورٌ عَبِلُ الشَّوى ، منتصبُ المَروْى ، يقدمهُ صُوارٌ[6] من الجواميس ، فقَرُبت الخُطا ، وحَمِيت الوغى ، وبلغ الزئير والجُوار ما شاء ، فى موقف من ميلاد الشيم العلى [يخشى][7] الجبانُ مقارعة العدا ، ويوطنُ نفسه الشجاعُ على ملاقاة الرّدَى ، وخار الأسدُ عن المبارزة ، لما بلَغ منه ثقافاً عن رد المناوشة ، ومضطلعاً بأعباءِ المُحامَلة ، فتخطاه إلى طائفة من الرِّجالة ، أولى عُدَّة ،

(١) هكذا وردت فى «الملكية» والزيتونة . ووردت فى «ج» إدراكاً .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» مستزيداً .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٤) وردت فى «ج» مقشعر . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (وجلبت) . والتصويب أنسب للسياق .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة (صواراً) فاقتضى التصويب .

(٧) هذه الإضافة أو ما فى معناها لازمة لإستقامة السياق .

وذوى دُرْبةٍ[١]، حمل نفسه متطارحا كشهاب الرَّجم، وسَرَك الدُّجا، وأخذتْه رماحُهم بإبادته[٢]، بعد أن أرْدَى بعضَهم، وجُدِّل بين يدى السلطان، متخبطا فى دمه. وعرَّض بعض الحاضرين، وأغْرَى بالنظم فى ذلك، فأنشدتُه:

أنعامُ أرضِك تقهر الآســـادا ... طبعاً كما الأرواح والأجسادا

وخصايصٌ لله بث ضروبها ... فى الخَلْق ساد لأجلها من سادا

إن الفضايل فى حماك بضايعٌ ... لم تَخْش من بعد النِّفاق كسادا

كان الهِزَبْرُ محارباً فجزيته ... بجزاء من فى الأرض رام فسادا

فابغ المزيدَ من آلايه بشكره ... وأرغم بما خُولتَه الحُسّادا

فاستحسن تأتِّى القريحة، وإمكان البديهة، مع قَيْد الصِّفة، وهيبةِ المجلس. وكان الانصراف بأفضل ما عاد به سفيرٌ، من وادٍ[٣] أصيل، وإمدادٍ مَوْهوبٍ، ومهاداة أثيرة وقطار مجنوب، وصامت محْمول، وطُعْمةٍ مسُوغةٍ. وكان الوصول فى وسط محرم من عام ست وخمسين وسبع ماية، وقد نجح السَّعىُ، وأثمر الجَهد، وصدَقت المخيلةُ، وقد تضمّن رَحْلى الوُجْهة، والأخرى قبلها جزء. والحمد لله الذى له الحمد فى الأولى والآخرة. وتوفى زعموا بحيلةٍ، وقيل حَتْفَ أنْفه، لمّا نَهكَه المرض، وشاع عنه الإرجاف، وتنازع ببابه الوزراء، وتسابق إلى بابه الأبْناء. وخاف مُدبِّر أمرِه، عايدةَ ملامتِه، على توقع بُرْئه، وكان سيفُه[٤] يسبق على سوطه، والقبرَ أقربُ إلى من تعرض لعَتْبه من سِجْنه، فقضى موضعَ هذا السبيل خاتمةُ الملوك الجلّة، من أهل بيته. جدّد الملك، وحفِظ الرسوم، وأجْرَى الألقاب،

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (ذرية). والتصويب أرجح.

(٢) فى «ج» و «الملكية» ببارته، والتصويب من«الزيتونة».

(٣) هكذا وردت فى «الملكية» والزيتونة. وفى «ج» ود.

(٤) فى «ج» و «الملكية» سفيه. والتصويب من «الزيتونة».

وأغْلَظ العقاب ، وصيّر إيالته أضيق من الخَدّ(١) . وأمدّ الأندلس ، وهزم الأضداد ، وخلّد الآثار ، وبنى المدارس والزوايا ، واستجلب الأعلام . وتحرّك إلى تِلِمْسان فاستضافها إلى إيالته،ثم ألحق بها قُسَنْطينة وبجاية ، وجهز أسطوله إلى تونس ، فدخلها وتملكها ثِقاتُه فى رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائه ، واستمرّت بها دعوته إلى ذى قعدة من العام ، رحمة الله عليه . وكانت وفاتُه فى الرابع عشر لذى حجة من عام تسع وخمسين وسبعمائة . وصار الأمر إلى ولده المسمى بالسّعيد ، المكني بأبى بكر ، مختار وزيره ابن عمر الفَدُووى(٢) . ورام ضَبْط الإيالة(٣) المشرقيةَ فأعياه ذلك ، وبايع الجيشُ الموجهُ إليها منصورَ بن سليمان ، ولجأ الوزير وسلطانُه إلى البلد الجديد ، مثوى الخلافة المرينيّة ، فكان أملك بها . ونازله منصور بن سليمان ، ثم استَنْفَضَى اليه أمرُ البلدلحزم الوزير وقوّةِ شكيمته . وغادر(٤) السلطان أبو سالم إبراهيم بن السلطان أبى الحسن أخو الهالك السلطان أبى عنان [الأندلس](٥) ، وقد كان استقر بها بإزعاج أخيه إيّاه عن المغرب ، كما تقدم فى اسمه ، فطلَع على الوطن الغربىّ بإعانةٍ من ملك النصارى ، عانى فيها هَوْلاً كثيراً ، واستقرّ بآخرة بعد إخفاق شيعته(٦) المرّاكُشية ، بساحل طَنْجة ، مستدعىً ممن بجبال غُمارة ، ودخلت سَبْتة وَطنْجة فى طاعته . وفرّ الناس عن منصور بن سليمان ، ضربة لازبٍ ، وتُقُبِّض عليه وعلى ابنه ، فقتلا صبراً ،

---

(١) فى المخطوطات الثلاثة (الحد) والتصويب أرجح .

(٢) وردت فى «ج» الفدوى . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

(٣) وردت فى «ج» والزيتونة «الأبالى» . والتصويب من «الملكية» .

(٤) وردت فى «ج» (ونعص) . وفى «الملكية» والزيتونة (وبعض) . وهى كلمة لا معنى لها هنا . وقد أضفنا كلمة(وغادر) ليستقيم السياق.

(٥) ساقطة فى المخطوطين . ولازمة للسياق .

(٦) وردت فى «ج» سعية . والتصويب من الزيتونة ، وبه يستقيم المعنى ، لأن السلطان أبا سالم نزل أولا بساحل دكالة على مقربة من منطقة مراكش ، ثم تحول عنها بعد فشله إلى الشمال .

نفعهما الله . وتملك السلطان أبو سالم المدينة البيضاء يوم الخميس عشر لشعبان عام ستين وسبعمائة ، بنزول الوزير وسلطانه عنها إليه . ثم دالَتْ الدولة . وكان من لحاق السلطان برُنْدة ، واستعانته على ردّ ملكه ما يأتى فى محله ، والبقاء لله سبحانه .

وبتلمسان السلطان أبو حمّو[1] موسى بن يوسف بن يحيي بن عبد الرحمن بن يَغْمُراسن بن زيان ، قريب العهد باسترجاعها ، لأول أيام السعيد .

وبتونس الأمير إبراهيم بن الأمير أبي بكر بن الأمير أبي حفص بن الأمير أبي بكر بن أبي حفص بن إبراهيم بن أبي زكريا يحيي بن عبد الواحد ، لنظر الشيخ رأس الدولة ، وبقية الفضلاء ، الشهير الذكر ، الشائع الفضل ، المعروف السياسة ، أبي محمد عبد الله بن أحمد بن تافراقين[2]. تحت مضايقة من عرب الوطن .

ومن ملوك النصارى بقَشْتالة ، بِطْرُه بن ألهنشة بن هرانده بن شانجه بن ألفنش بن هراندة ، إلى الأربعين ، وهو كما اجتمع وجهه ، تولى[3] الملك على أخريات أيام أبيه فى محرم عام أحد وخمسين وسبعمائة . وعُقد معه سلم على بلاد المسلمين . ثم استمر ذلك بعد وفاته فى دولة ولده المترجم به ، وغمُرت الرّوم . وألقت العصا ، وأغضت القضاء ، وأجالت على الكثير من الكبار[4] الرّدى ، بما كان من إخافته سائر إخواته لأبيه ، من خاصّته ، العجلة الغالبة على هواه ، فنبذوه على سوء[5] بعد قتلهم أمهم ، وانتزوا عليه بأقطار غرّسهم فيها أبوهم قبل موته برعيّة أمّهم . وسلك لأول أمره سيرة أبيه فى عدوله عن عهوده بمكابيه لمنصبه ،

---

(١) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» والزيتونة (أبو عمران) . وهو كنية السلطان المشار إليه

(٢) هكذا رسمت فى «ج» . وترسم أحياناً بالكاف : تافراكين .

(٣) وردت مكانها فى «ج» ، وكاولى . والتصويب من الملكية والزيتونة .

(٤) وردت فى «ج» والزيتونة (كبار) . والتصويب لازم للسياق .

(٥) وردت فى «ج» سوا . والتصويب من «الملكية» .

إلى اختصاص عجلة ، أنف بجرّاه كبارُ قومه ، من أجل ضياع بَذْره وانقراض عَقِبه ، فمال الخوارج عليه ، ودبّروا القبض عليه ، وتحصّل فى أنشوطة ، يقضى أمْرَه بها إلى مطاولة عقله أو عاجل خلعٍ ، لولا أنه أفْلَت وتخلّص من شرارها . فاضطره ذلك إلى صِلة السلْم ، وهو الآن بالحالة الموصوفة .

الأحداث فى أيامه

لم يحدث(١) فى أيامه حَدَث إلا العافية المُسِحّة(٢) والهُدْنة المتّصلة ، والأفراح المتجدّدة ، والأمنة المُستَحكمة ، والسّلم المُنعقدة . وفى آخر جمادى عام ست وخمسين وسبعمائة لحق بجبل الفتح فشمّم شعبته ، وأبرّ مَتْبوته(٣) ، كان على ثغره العزيز على المسلمين ، من لدُن افتتاحه ، الموْسُوم الخطة ، المخصوص بمزية تشييده ، عيسى [بن] الحسن بن أبى مَنديل ، بقيّة الشيوخ أولى الأصالة والدّهاء ، والتزّى بزى الخير ، والمثل السابر فى الانسلاخ من آية السعادة ، والإغراقِ فى سوء العقبى . والله غالبٌ على أمره . فكان أملك بعصامه ، وقرّ عينه بلقاء ولده ، والتمتع منه بجوادٍ عتيق . مُلّى من خلال السياسة ، أرْداه سوء الحظ ، وشؤمُ النّصْبة(٤) ، واظلمَّ ما بينه وبين سلطانه ، مسوغه برداء العافية على تَفَه صِغر ، وملبسه رداء العفّة على قِدْح الأمور ، أبدى منها الخوف على ولده ، وعَرَض دَيْسَم عزمه ، على ذوبان الجَبَل ، فانحدُّوا فى هواه ، وغرُّوه بكاذب عُصْبةٍ(٥) ، فأظهر الامتناع سادس ذى قعدة من العام المذكور ، واتصلت الأخبار ، وساءت

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة ، تحدت . فاقتضى التصويب .

(٢) وردت فى «ج» و «الملكية» ، المسبحة . والتصويب من الزيتونة .

(٣) أعنى قام بتعلية أسواره وأصلاح أجزائه الخربة المالكة .

(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى «ج» ، النصفة ، والأولى أرجح .

(٥) وردت فى «ج» عصبة التصويب من «الملكية» والزيتونة .

الظنون ، وضاقت الصدور ، ونُكست الرؤوس لتوقّع الفاقرة ، بانسداد باب الصّريخ ، وانبتات سبب النّصرة ، وانبعاث طمع العدوّ [وانحدّت الأطماع][١] في استرجاعه واستقالته ، لمكان حصانته ، وسموّ الذّروة ، ووفور العُدّة ، ووجود الطُّعمة ، وأخذه بتلاشي الفرصة . ثم رَدِفت الأخبار بخروج جيشه[٢] صُحبة ولده إلى منازلة أشْتُبونة[٣] ، وإخفاق أمله فيها ، وامتساك أهلها بالدعوة ، وانتصافهم من الطائفة العادية ؛ فبُودِر إليها من مالَقة بالعُدد . وخُوطِب السلطان [من][٤] ملك المغرب أيّده الله ، بالجلية ، فتحققت المُنابذة ، واستقرّت الظنون . وفي الخامس والعشرين من شهر [ذي قعدة][٥] ، ثار به أهلُ الجبل ، وتبرّأ منه أشياعه ، وخذلوه بالفرار ، فأخذت شِعابُه ونقابه ، فكرّ راجعاً أدْراجه إلى القاعدة[٦] الكبيرة . وقد أعجله الأمر ، وحملته الطمأنينة على إغفال الاستعداد بها ، وكوثر[٧] فألقى به ، وقد لحق به[٨] بعضُ الأساطيل بسَبْتة ، لداعي تسوُّر تُوطّي[٩] على إمارته ، فقيد هو وابنه ، وخيض بهما البحرُ للحين ، ولم ينتطح فيها عَنْزان ، رحمه الله ، سَنام فِئة ألقت بَرْكها[١٠] ، وأناخت بكَلْكَلها ، وقد تُدُرّ أنها واقعةٌ ، ليس لها من دون الله كاشفة ، فقد كان من بالجبل بَرِموا على إيالة ذينك المرتسمين[١١] ،

---

(١) وردت في «ج» و «الملكية» (وركمت الأطماع) . والتصويب من الزيتونة .

(٢) وردت في «ج» والزيتونة بعدها كلمة ، إلى ، وهي حشو لا محل له .

(٣) أشتبونة ، وبالإسبانية Estpona ، ثغر أندلسي صغير ، يقع جنوبي اسبانيا ، وشمال جبل طارق في منتصف المسافة بينه وبين ثغر مربلة .

(٤) الزيادة من «الملكية» والزيتونة .

(٥) مكانها بياض في المخطوطات الثلاثة ، ونعتقد صحة ما أثبتناه ، وهو متفق مع ما سيأتي

(٦) وردت في المخطوطات الثلاثة (القاهرة) . وهو تحريف ظاهر . والتصويب أرجح .

(٧) هكذا وردت في المخطوطات الثلاثة . وقد تعني كثرة خصومه .

(٨) وردت بعدها في المخطوطات الثلاثة كلمة (الأسطول) ، ووجودها هنا يخل بالسياق والأغلب أنه من باب السهو .

(٩) هكذا وردت في «ج» والزيتونة . وفي الملكية (سور تولمي) .

(١٠) هكذا في «ج» . وفي الزيتونة ، بركابها .

(١١) وردت محرفة في «ج» ، المرتسين . «والتصويب من «الملكية» .

والقوا أجوارها ، وأعطوهما الصفقة ، بما أطمعهما فى الثورة[١] . ولكل أجل كتاب . واحتمل إلى الباب السلطانى بمدينة فاس ، وبرز الناس إلى مباشرة إيصالهما مجلوبين فى منصّة الشهرة ، مرفوعين فى هضبة المُثلة . ثم أمضى السلطان فيهما حُكمَ الفساد ، بعد أيام الحرابة ، فقُتل الشيخ بخارج باب السمّارين من البلد الجديد ، بأيدى قرابته ، فكان كما قال الأول :

أضحت[٢] رماح بنى أبيه تنوشه   لله أرحامٌ هناك تُشقق

وقُطعت رِجْل الولد ويدُه ، بعد طول عمل وسوء تناول . ولم ينشب أن استنفذه حِمامُه فأضحى عِبرة فى سُرعة انقلاب حالهما من الأمور الحميدة : حُسنُ طاعةٍ ، وذياع حَمْد ، وفَضْل شهرة ، واستفاضة خَيْريّة ، ونباهة بيت ، وأصالة عزٍّ ، إلى ضد هذه الخلال ، وقانا الله مصارع السوء ، ولا سلب عنا جِلباب السِّتر والعافية .

وسدّ السلطان ثَغْر الجبل بآخر[٣] من ولده اسمه السعيد ، وكنيته أبو بكر ، فلحق به فى العشر الأول من المحرم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، ورتّب له بطانته ، وقدر له أمره ، وسوّغه رزْقاً رغداً ، وعيشاً خَفْضاً . وبادر السلطان المترجم له ، إلى توجيه رسوله ، قاضياً حقه ، مقرّر السّرور بجواره ، وأتبع ذلك ما يليق من الحال من برٍّ ومهاداة ونزَل ، وتعقبت بعد أيام المكافآت[٤] ، فاستحكم الوُدُّ ، وتحسنت الأُلْفة إلى هذا العهد . والله وليّ توفيقهم[٥] ومُسنى الخير والخيرة[٦] على أيديهم .

---

(١) فى المخطوطات الثلاثة (الثروة) وهو تحريف .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى الزيتونة ، ظلت .
(٣) وردت فى «ج» بأمر ، والتصويب من «الملكية» .
(٤) هكذا وردت فى «الملكية» والزيتونة . وفى «ج» المكافاة . والأولى أرجح .
(٥) وردت فى «ج» تفويقهم . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .
(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى الملكية» والزيتونة ، ، الخيرات . والأولى أرجح .

الحادثة التي جرت عليه

واستمرت أيامه كأحسن أيام الدول ، خفضُ عيش[1] ، وتوالى خِصب ، وشياعُ أمْن . إلا أنّ شيخْ الدولة القايد أبا النعيم رحمه الله ، أضاع الحَزْم . وإذا أراد الله إنفاذ [قضايه وقَدَره][2] ، سلب ذوى العقول عقولهم ، بما كان من أمنه جانب القصر[3] الملزم دار سكناه ، من عِلْية فيها أخو السلطان ، بتهاونه بحيل أمّه المداخلة فى تحويل الأمر اليه ، بجملة من الأشرار ، دار أمرهم على زوج ابنتها الرئيس محمد بن إسماعيل بن فرج من القرابة الأخلاف . وإبراهيم بن أبى الفتح . والدليل الموروري[4] . وأمدته بالمال ؛ فداخل القومُ جملةً من فرسان القيود ، وعَرَة الشُجون . وقلاميد الأسوار . وكانت تتردد إليه فى سبيل زيارة بنتها الساكنة فى عِصمة هذا الخبيث ، المنزوع العصمة ، خارج القلعة حتى تم يوم الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان من العام ، اجتمعوا وقد خَفِي أمرهم ؛ وقد تألفوا عددا يناهز الماية بالقوس الداخل من وادى هَدَّارُه الى البلد ؛ الصق الجناح الصاعد منه إلى الحمراء ، وكان بسورها ثَلْم ، لم يتم ما شرعوا فيه من إصلاحه ؛ فنصبوا سُلما أُعِدَّ لذلك ، وصعدوا منه . ولما استوفوا ؛ قصدوا الباب المُضاع المَسْلحة ، للثقة بما قبله ؛ فلما تجاوزوه أعلنوا بالصياح ، واستغلظوا بالتهويل . وراعوا الناس بالاستكثار من مشاعل الخلفاء ، فقصدت طايفة منهم دار الشيخ القايد أبى النُّعيم ؛

---

(١) وردت فى «ج» عيشة . وقد آثرنا لفظة «الملكية» والزيتونة .

(٢) هذا ما ورد فى «ج» . وفى «الملكية» ، والزيتونة (أمر من أوامره) . والمؤدى واحد .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (الصبر) وهو تحريف . ونعتقد أن المعنى يستقيم بالتصويب

(٤) الموروري أو الدليل الموروري ، هو أحد الزعماء الذين اشتركوا مع الرئيس محمد بن إسماعيل بن فرج فى تدبير الثورة ، التى نشبت فى رمضان سنة ٧٦٠ هـ ، وانتهت بعزل محمد الغنى بالله ، وإجلاس أخيه إسماعيل بن يوسف مكانه على العرش . وقد ولاه هذا السلطان وزارته ، وجعله حافظ الباب وأمين السدة . راجع الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٤٠١ و ٥٢٤ . واللمحة البدرية ص ١١٦ .

فاقتحمته غلاباً وكسرت أبوابه ، وقتلته فى مضجعه ، وبين أهله وولده ، وانتهبت ما وجدت به . وقصدت الأخرى دار الأمير ، الذى قامت بدعوته ، فاستنجزته واستولت على الأمر . وكان السلطان متحولاً بأهله[١] الى سكنى « جَنَّة العريف »[٢] خارج القلعة ، فلما طرقه النبأ ، وقرعت سمعَه الطبول سَدَّده الله ، وساند[٣] أمره فى حال الحيرة ، إلى امتطاء جواد كان مُرتبطا عنده فى ثياب تَبَذُّله ومصاحباً لأفراد من ناسه ، وطار على وجهه ، فلحق بوادى آش قبل سُبوق نكبته ، وطُرق مكانُه بأثر ذلك ، فلم يُلْفَ فيه ، واتُّبِع فأعيا المُتْبِع . ومن الغَد ، استقام الأمرُ لأولى الثورة ، واستكملوا لصاحبهم أمر البَيْعة ، وخاطبوا البلاد فألْقَت إلى صاحبهم بالأزِمّة ، وأرسلوا [إلى][٤] ملك النصارى فى عقد الصلح . وشرعوا فى منازلة وادى آش ، بعد أن ثبت أهلُها مع المُعتصم بها ، فلازمته المحلات وولى عليه التضييق . وخيف فوات البدر ونفاد القوة ، فشرع السلطان فى النظر لنفسه ، وخاطب السلطان أبا سالم ملك المغرب فى شأن القدوم عليه ، فتلقاه بالقبول وبعث من يمهد الحديث فى شأنه ، فتمّ ذلك ثانى يوم عيد النّحر من العام . وكنت عند الحادثة على السلطان ، ساكناً بجنتى المنسوبة إلىّ من الحَضْرة ، منتقلا إليها بجملتى ، عادةُ المُترَفين ، إذ ذاك من مثلى ، فتخطانى الحَتْف ، ونالتنى النكبةُ ،

---

(١) هكذا فى «ج» والملكية ، وفى الزيتونة (بأمره) .

(٢) هو قصر صغير أنيق يقوم فوق ربوة عالية ، تقع على مقربة من شمال شرقى قصبة الحمراء . وقد كان فيما يبدو بموقعه الجميل وروعة المناظر الطبيعية التى تحيط به ، مصيفاً لسلاطين غرناطة ، ويعرف بالإسبانية El Generalife . وقد كان الوقت الذى وقع فيه الانقلاب الذى يرويه ابن الخطيب وهو أواخر رمضان سنة ٧٦٠ هـ يوافق أوائل سبتمبر سنة ١٣٥٧ ، أعنى أوائل فصل الخريف .

(٣) هكذا فى «ج» ، وفى «الملكية» والزيتونة (وسواس) وهو تحريف .

(٤) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة ويقتضيها السياق .

فاستُأصلت النعمةُ العريضةُ ، والجِدة الشهيرة ، فما ابتقَت طارفاً ولا تليداً ، ولاذَرَت قديماً ولا حديثاً ، والحمد لله مُخَفف الحساب ، وموقظ أولى الألباب ، ولَطَف الله بأن[1] تَعَطّف السلطان بالمغرب إلى شفاعةٍ بي بخطه ، وجعل أمرى من فصول قَصْده . [ففُكَّت عنى][2] أصابعُ الأعداء ، واستُخْلصت من أنيابهم ، ولحِقْتُ بالسلطان بوادى آش . فذهب البأس ، واجتمع الشَّمل . وكان رحيلُ الجميع ثانى عيد النحر المذكور . فكان النزول بفحص ألفَنْت . ثم الانتقال إلى لَوْشة ، ثم إلى أنتقيره ، ثم إلى ذَكْوان ، ثم إلى مَرْبلّة[3] يضم أهلُ [كلٍّ][4] محل من هذه [مأتماً للحسرة ، ومناحةً للفُرْقة][5] . وكان ركوب البحر صَحْوة الرابع والعشرين من الشهر ، والاستقرار بمدينة سَبتة ، وكفى بالسلامة غُنْماً ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

وكان الرحيل إلى باب السلطان ، تحت برٍّ لا تسعه العبارة ، ولقاؤنا إياه بظاهر البلد الجديد لإلمام ألمَّ عاقَهُ عن الإصحار[6] والتغنّى على البعد ، يوم الخميس السادس لمحرم من عام أحد وستين بعده . فى مَرْكب هايل ، واحتفال رايع رايق ، فعُورض فيه النزول عن الصَّهوات ، والبرُّ اللايق بمناصب الملوك ، والوصولُ إلى الدار السلطانية[7] ، والطعامُ الجامع للطبقات وشيوخ القبيل . وقمتُ يومئذ فوق رأس السلطان وبين يدى مؤمِّله ، فأنشدتُه مُغرياً بنَصره ، كالوسيلة بقولى :

---

(١) وردت فى «ج» . ولم ترد فى الملكية . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) وردت فى «ج» والزيتونة (ففكَكت عن) . والتصويب أفضل للسياق .

(٣) إن هذه البلاد كلها تقع فى الطريق من وادى آش إلى لوشة أولا ، ثم جنوبا بغرب إلى انتقيرة ، ثم إلى ذكوان ، ثم إلى مربلة على شاطىء البحر المتوسط . وقد كانت بعد سقوط الجزيرة الخضراء وجبل طارق فيما بعد من أهم ثغور العبور بين الأندلس والمغرب .

(٤) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة ، وبها يستقيم السياق .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت فى «الملكية» والزيتونة كالآتى : (مأتم الحسرة ومناحة الفرقة) .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى الملكية والزيتونة (الإحصار) وهو تحريف .

(٧) هكذا فى «ج» . ووردت فى الملكية والزيتونة (الإمامية) .

سلا هَلْ لديها مِن مُخُبِّرة ذِكْرُ   وهل أعْشَب الوادى ونَمّ به الزهر

فهاج الامتعاض[١]، وسالت العَبَرَات. وكان يوماً مشهوداً. وموقفاً مشهوراً، طال به الحديث. وعَمَرت به النوادى. وتوزّعَتنا[٢] التزايل على الأمل. شكَرَ الله ذلك وكتَبَه لأهله. يوم الافتقار إلى رَحْمته. واستمرت الأيام، ودالت الدولة للرئيس بالأندلس. والسلطان تغلبُه المواعيد. وتونسُه الآمال. والأسبابُ تَتَوفّر، والبواعث تَتَأَكّد. وإذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابه. واستقرّت بِى الدارُ بمدينة سَلا، مرابطاً، مُسْتمتعاً بالغَيْبة، تحت نِعمةٍ كبيرة، وإعفاء من التكليف.

وفى اليوم السابع لشوال من عام التاريخ، [قَعَدَ السلطان بقُبّة العرْض][٣] بظاهر جنّة المُصارَّة لتشييعه[٤]، بعد اتخاذ مايصلح لذلك: من آلةٍ وحِلْية[٥]، وقد برز الخلق، لمشاهدة ذلك الموقف المُسِيل للدموع، الباعث للرّقّة، المُتْبَع بالدّعوات، لماقذَف الله فى القلوب من الرحمة، وصَحِبه به فى التغرُّب من العناية، فلم تَنْبُ عنه عين، ولا خَلَ له مَوْكِب. ولا تقلّصت عنه هيبةٌ، ولا فارقته حشمةٌ، كان اللهُ له فى الدنيا الآخرة. وأجاز، واضطربت الأحوال. بما كان من هلاك مُعِينه السلطان أبى سالم، وغَدْر الخبيث المُؤْتمن على قَلْعته به، عمر[٦] بن عبد الله بن على، صَغّر الله حِزْبَه[٧]. وخَلّد خِزْيَه، وسُقِط

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة: الامتعاط.

(٢) وردت فى المخطوطين (وتورعتنا)، وبالتصويب يستقيم السياق.

(٣) هذه العبارة ساقطة فى المخطوطين. ونقلناها من «اللمحة البدرية» و «النفح».

(٤) وردت فى «ج» وتشييعه. وفى «الملكية» والزيتونة وتشيعه وهو تحريف. والمقصود هنا هو تشييع سلطان غرناطة المخلوع.

(٥) وردت فى «ج» وحيلة. وهو تحريف.

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة محرفة (عامر). والصواب ما أثبتناه.

(٧) وردت فى «ج» خزيه. والتصويب من «الملكية» والزيتونة.

في يده ، إلا أنه تَبَتَت في رُنْدة من إيالة الأندلس ، الراجعةِ إلى إيالة المغرب[١] ، قدمُه ، فتعلّل بها ، وارتاشَ بسببها ، إلى أن فتح اللهُ عليه ، وسدّد عزْمه ، وأراه لمّا ضَعُفَت الحيل صُنْعَه ، فتحرك إلى برّ مالَقة ، وقد فَغَر عليها العدو فمَه . ثم أقبل على مالقة ، مستميتاً دونها ، فسهّل الله الصَّعب ، وأنجح القصد ،واستولى عليها . وانثالت عليه لحينها البلادُ . وبدا الريس المُتَوَثِّب على الحضْرة ، بعد أن استَوْعَب الذخيرة والعُدّة ، في جُملةٍ ضخمةٍ ممن خاف على نفسه ، لو وفَّى بذمّة الغادر وعهده ، واستقرّ بنادى[٢] صاحب قَشْتالة ، فأخَذه بجريرته[٣] ، وحَكّم الحيلة في جنايته وغَدْره ، وألحق به من شاركه في التَّسوّر من شيعته ، ووجّه إلى السلطان برؤوسهم تَبَع رأسه . وحثّ السلطان أسعده الله خُطاه إلى الحضْرة ، يتلقّاه الناسُ ، مُسْتبشرين ، وتتزاحمُ عليه أفواجُهم مُستقبلين مُستغفرين ، وأحقّ الله الحقّ بكلماته ، وقَطَع دابر الكافرين .

وكان دخولُ السلطان دار مُلْكه ، وعَوْدُه إلى أريكة سلطانه ، وحلولُه بمجلس أبيه وجَدّه ، زوال يوم السبت المُوفي عشرين لجمادى الثانية من عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، جعلنا الله من همّ الدنيا على حَذَر ، وألْهَمَنا لِما يَخْلُص عنده من قول وعمل. وتخلّف الأميرُ وولدُه بكرُهُ ، أسعدهُ الله ، بمدينة فاس فيمن معه من جملة ، وخلّفه من حاشية . [ولدّ المُسْتولي[٤] على مُلْك المغرب في إمساكه إلى أن يسترجعَ رُندة في مُعارضة هدفَه . ثم إن الله جمع لأبيه بجمع شمْله ، وتمّم المقاصد بما عمّه من سعده . وكان وصُولي إليه معه ، في مَحْمل اليُمن[٥] والعافية ، وعلى كِسْر التّيْسير من الله

---

(١) كانت رندة يومئذ ضمن القواعد التي نزل عنها ملوك غرناطة لملوك المغرب (بني مرين) لتكون لجيوشهم قواعد للنزول والرباط عند عبورها إلى الأندلس لإنجادها .

(٢) وردت في المخطوطات الثلاثة (بنا) والتصويب لازم لاستقامة المعنى .

(٣) وردت في «ج» بجريرة . وفي «الملكية» (في جزيرة) وهو تحريف .

(٤) هكذا في «ج» . وفي الزيتونة (المتوثب) (٥) هكذا في «ج» . وفي الزيتونة (اليسر) .

والعناية][1] يوم السبت المُوفى عشرين شعبان عام ثلاثة وستين وسبعمائة .

ترتيب الدولة الثانية السعيدة الدور
إلى بيعة الكور

هَنّأ المسلمين بركتها الوافرة ، ومزاياها المُتكاثرة . السلطان أيده الله قد مرّ ذِكرُه ، ويسر الله من ذلك ما تيسّر .

وزراؤه

اقتضى حَزْمُه إغفالَ هذا الرَّسم جُملة ، مع ضرورته فى السياسة . وعظم الدخول ، حذَراً[2] من انبعاث المكروه له من قِبَله ، وإن كان قدّم[3] بهذا اللقب فى طريق[4] مُنْصَرفه إلى الأندلس . وإيّاماً من مُقامه برُنْدة ، فنَحَله عن كُرْه ، على بن يوسف بن كُماشة ، من عِتاق[5] خدّامه وخدّام أبيه . مُستصحباً إيّاه ، مَسدول التَّجمُّل على باطن نفْرة ، مختومُ الجُرْم ، على شوكه ، فى حَطْبه فى حَبْل المتغلب ، وإقراضِه السيئةَ من الحسنة ، والمنزل الخَشِن ، إلى الإنفاق منه على الخِلال الذّميمة ، ترأسها خاصّة الشّوم ، علاوة على حَمْل الشيخ الغريب الأخبار ، والطّمع فى أرزاق الدور[6] ، والاسترابة بمودّة الأب ، وضيق العَطَن[7] ، وقِصَر

(١) وردت فى «الملكية» مقابل هذه الفقرة التى بين الحاصرتين ، فقرة أخرى لا تمت إليها بأية صلة ، وذلك على النحو الآتى : (يصل فيها اليتيم والأرملة ، فيفرح الضعيف ، وينتظر حصول الزمن ، يعتمد .... ويعاقب الوزعة فى الأغلاط إلى أحسن الملكة .... فى الأمر عن سعد . وكان ... فى ترك الحظ ، والتبرى من سجية الانتقام ، والكلف بما تيسر من الله والعناية ، يوم السبت ...)

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة : حوزا . والتصويب أرجح .

(٣) وردت فى « ج » والملكية (قدوه) . وفى الزيتونة (قدمه) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) وردت فى المخطوطين : طريقه .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة : عقاق . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٦) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى «ج» والملكية (الدر) .

(٧) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (الطعن) . وهو تحريف .

الباب ، وعىّ اللسان ، ومشهور الجُبْن . ولما وقع القَبْضُ ، وساء الظن ، بعثه من رُندة إلى الباب المَرينى ليخلى منه جُنْدَه ، ويجسّ مرض الأيام . بعد أن نقل من الخُطة كفْعَبَه ، فتيسر بعدَ مُنصرفه الأمر ، وتسَنّى الفتح . وحمله الجَشَعُ الفاضح ، والهوى المتّبع ، على التشطُّط لنفسه ، والكَدْح لخويْصّته بما أقطعه الجَفْوة ، وعسُر عليه العودة على السلطان بولده ، إلى أن بلغ الخبرُ برجوع أمره . ودخول البلاد فى طاعته . فألقى ماتعيّن إليه ، وأهوى به الطمعُ البالغ فى عَرْش الدولة ، ويرْتاشُ فى ريق انتقامها . وتحرّك وراية الإخفاق خافقةٌ على رأسه ، قُطبَ مَخْلَصه ، وجُوجوةَ عَوْده ، من شيخ تدور بين فَتْكه رَحَى جَعْجَعة ، وتثور بين أضْلاعه[1] حَيّة مكيدة ، وينْعق[2] فوق مساعيه غرابُ شومٍ وطيرة . وحدّث حرفاؤه صَرْفاً من مداخلة سلطان قشتالة ، أيامهذه المجاورة ، فبلغ أمنيته من ضربٍ وعدٍ ، واقتناء عهدٍ ، واتخاذ مددٍ ، وترْصيد دار قرارٍ ، موهماً نفسه البقاء والتعميرَ والتملّى ، وانفساح المدةِ والأمرِ ، وقيادةِ الدَّجَن[3] عند تحوُّل الموطِن لِملّة[4] الكُفْرِ ، يسْمح[5] لذلك . لنقصان عقله ، وقِلّة حَيائه وضعف غَيْرته . وطَوى المراحل، وقيّض حُمّى تزَلزَل[6] لمافكاهُ ، أضلّها الحسرةُ . وانتزاء[7] الخبائث . وتلقّاه بمالقة ، إيعازُ السلطان بالإقامة بها ، لما يتّصل به من سوء تصريفه ، ثم أطْلَع شافع الحياء فى استقامة وطنه طَوْق عَتْبه ، وصَرَفه إلى مَنْزله ، ناظراً فى علاج مَرَضه . ثم لمّا أفاق

---

(١) فى «ج» أغلاطه . والتصويب من الملكية .

(٢) وردت فى «ج» ويلحق . والتصويب من الملكية وهو أرجح .

(٣) الدجن من تدجن أى بقى بأرض الوطن بعد سقوطها فى أيدى النصارى . والمدجنون هم المسلمون الأندلسيون الذين كانوا يبقون فى الأرض التى يفتتحها النصارى .

(٤) وردت فى «ج» الملكة ، وفى «الملكية» لملكة . ونعتقد أنه تحريف . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى الملكية والزيتونة (ينجح) والأولى أرجح .

(٦) وردت فى «ج» تولول . وفى «الملكية» تزلزلول . وهو تحريف .

(٧) وردت فى المخطوطين : انتزام . ونعتقد أن التصويب أرجح .

وقفه دون حدّه ، ولم يَسْنِد إليه شيئاً من أموره ، فشرع فى دَيْدَنه من الفساد عليه ، وتمرّس سلطان قشتالة ، شاكياً إليه بثّه ، وأضجر لسُكنى باديته بالثغر ، فراب السلطانُ أمرَه ، وأهمّه شأنه ، فتقبّض عليه وعلى ولده ، وصُرِفا فى جملة من دائرة السّوء ممن ثَقُلت[١] وطأته ، فغُرّبوا إلى تونس ، أوايل شهر رمضان من عام ثلاثة وستين . ثم لما قَفَل من الحج ، واستقرّ ببجاية يُريد المغرب ، حَنّ إلى جوار النّصْرانية ، التى ريمَ سلفُه العبوديّة إليها ، فعبر البحر إلى بَرْجلونه ، ينفُض عناء طريق الحجّ على الصّلبان ، ويقْفُو على آثار تقْبيل الحجر الأسْوَد ، تقبيلَ أيدى الكُفّار . ثم قصد باب المَغرب رسولاً عن طاغية[٢] بَرْجلونه فى سبيل فسادٍ على المسلمين ، فلم ينجح فيه قصدُه ، فتقاعد لمّا خَسر فيه ضمانه ، وصَرَف وكْدَه إلى الاتصال بصاحب قَشْتالة ، وعَنّ على كَتْبٍ إليه بخطّه ، يتنفّقُ عنده ويُغْريه بالمسلمين ، فتُقُبِّض عليه ، وسُجن بفاس مع أرباب الجرائم . وعلى ذلك استقر حالُه إلى اليوم ، وأبرأُ إلى الله من التّجاوز فى أمره . ومن يُضْلِل الله فما له من هاد .

ولمّا وفَدْتُ على السلطان بولَدِه ، وقرّت عينى بلقايه ، تحت سَدَادِه وعِزّه ، وفوق أريكةِ مُلْكه ، وأدّيتُ ما يجب من حقّه ، عرضتُ عليه غَرَضى ، ونَفَضْتُ له خِزانة سِرِّى ، وكاشفتُه ضميرى بما عقدتُ مع الله عهدى ، وصرفتُ إلى التّشْريق[٢] وَجْهى ، فعلِقت بى لركُومه علوقُ الكرامة ، ولاطَفنى بما عاملت البرّ بين الدّعر والضّنانة ، ويضربُ الآماد[٣] [وخرج لى عن الضرورة ، وأرانى أن مُؤازرته أبرّ القُرَب ، وراكننى إلى عَهْدٍ بخطّه ، فَسَح فيه لعامين أمدَ النواء ،

(١) وردت فى «ج» والزيتونة ثقلة . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة : طا — فقط . والتصويب ضرورى لإستقامة السياق .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . والمقصود بها السفر إلى المشرق لقضاء فريضة الحج .

واقتدى بشُعَيب صلوات الله عليه في طلب الزِّيادة على تلك النِّسبة ، وأشهَد من حضر من العِلْية ، ثم رمى إلى بعد ذلك بمقاليد رأيه ، وحكَّم عقلي في اختيار عَقْلِه ، وغَطَّى من جَفائي بحلْمِه ، وحَثَا في وجوه شهواته تراب زَجْرى ، وَوَقَف القبولَ على وَعْظى ، وصَرَف هواه في التحول ثانياً وقصدى ، واعترف بقبول نصحى ، فاستعنتُ بالله ، وعاملتُ وجهه فيه][1]. وصادقنى مُقارَضَة الحقِّ بالجهاد ، ورمى إلى بدُنْياه ، وحكَّمنى فيما مَلَكَته يداه ، وغَلَّبنى على أمْره لهذا العهد ، والله غالبٌ على أمره . فأكل المقامُ ببابه إلى هذا التاريخ مُدَّةً أجْرى الله فيها ، من يُمْن النَقيبة ، واطِّراد السَّداد ، وطَرْد[2] الهوى ، ورَفْض الزُّور[3] ، واستشعار الجِدّ ، ونُصْح الدِّين ، وسَدّ الثغور ، وصَون الجباية ، وإنْصاف المُرْتَزقة ، ومُحاولة العدُوّ ، وقَرْع الأسماع بلسان الصِّدق ، وإيقاظ العُيون من نوم الغَفْلة ، وقَدْح زِناد الرُّجولة ، ما هو معلوم ، يُعضِّد دعواه ، ولله المنّة ، سجيةُ السَّذاجة ، ورفعُ التَّسمُّت[4] ، وتكوُّر المِنْسأه ، وتَفْويت العَقار في سبيل القُربة ، والزُّهد في الزِّبْرج ، وبثّ حِبال الآمال ، والتَّعزيز بالله عن الغَنيمة ، وجعل الثوب غطاء الليل ، ومقعد المطالعة فراش النَّوم ، والشغل لمصلحة الإسلام لزِيم الأنفاس ، فأثمر هذا الكرخ[5]، وأنْتَجَ هذا المسعى مناقب الدولة ، بلغت أعنان[6] ، وآثاراً خالدة ، مابقيت الخضراء على الغبراء ، وأخباراً تُنقل وتُروى، إن عاندها الحاسدُ ، فَضَحه الصَّباح المنيرُ ، وكاثَرهُ القَطْرُ المُنْثال ، وأعْياه السَّيل المتَدافع :

---

(١) هذه الفقرة التي بين الحاصرتين وردت في نفح الطيب (ج ٣ ص ٤١) ولم ترد في «ج» ولا في «الملكية» والزيتونة .

(٢) وردت في المخطوطات الثلاثة (أطراد) مرة أخرى . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٣) هكذا وردت في «ج» . ووردت محرفة في «الملكية» (الدور) .

(٤) هكذا وردت في «ج» . وفي الزيتونة (التسمية) .

(٥) هكذا وردت في الملكية والزيتونة ، وفي «ج» (الكرج) .

(٦) هكذا وردت في المخطوطات الثلاثة .

فما يختص من ذلك بالسلطان ، فخامةُ الرتبة ، ونباهةُ الألقاب ، وتجمُّلُ الرياش ، وتربع[١] الشريعة ، وارتفاعُ التّشاجُر ببابه . والمنافسةُ والاغتباطُ منه ، بمجالس التنبيه والمذاكرة ، وبِدارُ الدموع فى حال الرّقة ، والإشادةُ باحتقار الدنيا بين الخاصة ، وتعيينُ الصدقات فى الأوقات العديدة ، والقعودُ لمباشرة المظالم ستة عشر يوماً فى كل شهر من شهور الأهِلّةِ ، يصلُ إليه فيها اليتيمُ والأرْمَلة ، فيفرحُ الضعيف ، وينتظر حضورَ[٢] الزمن ، ويتغمّدُ هفوة الجاهل ، ويتأثر لشكوى المصاب ، ويعاقِب الوَزَعة على الأغلاط ، إلى إحسان[٣] المَلَكة فى الأسرى ، والإغرابِ فى باب الحِلْم ، والإعياء فى ترك الحظ ، والتبرّى من سجِيّة الانتقام ، والتّكلّف بارتباط الخيل ، واقتناء أنواع السلاح ، ومباشرةِ الجهاد ، والوقار فى الهيعات ، وإرسال سجيّة الإيمان ، وكسادِ سوقِ المكيدة ، والتصامُمُ عن السعاية ؛ هذا مع الشباب الغضّ ، والفاحم الجَعْد ، وتعدّد[٤] حبائل الشيطان فى مسالك العُمْر ، ومطاردة قانِص اللّذات فى ظلِّ السّلم ، ومغازلةِ عيونِ الشهوات من ثنايا الملوك . وأيْمُ الله الذى [به][٥] تُستخلص الحقوق ، وتُيسر السُّتور ، وتُستوثق العهود [ولا][٥] تطمئن القلوب إلاّ به ؛ ما كاذَبْتُه ، ولا راضيتُ فى الموادة طَوْله ، ولا سامحتُه فى نقيض هذه الخلال . ولقد كنتُ أعجبُ من نفاق أسواق الذّكرى لديه ، وانتظام أقْيسة النصح عنده ، وإيقاع نبات الرُّشد فيه نصيحة ، وأقول بارك الله فيها من سجيّة ، وهَنّأ المسلمين بها من نَفْس زَكيّة . وسيأتى بيانُ هذه النتائج ، وتفسيرُ مُجملِ هذه الفضايل بحول من لا حول إلا به

---

(١) وردت فى «ج» (فسوبع) وفى الملكية (فهوبع) . ونعتقد أن السياق يستقيم بالتصويب .
(٢) وردت فى «ج» (حصوا) وفى «الملكية» والزيتونة (حصو) وهو تحريف .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى الملكية (أحسن) . والأولى أرجح .
(٤) وردت فى «ج» التعدد . والتصويب من الملكية والزيتونة .
(٥) ساقطة فى المخطوطين ولازمة للسياق .

سبحانه . والحال متصلة على عهده الوثير من إعانته بالوسوع[١] ، والخروج له عن هذه المُهْدة ، والتسليم له فى البقيّة ، إرهافاً لسيف جهاده ، وجلاء لمرآةِ نُصحه ، وتسوية لميزان عدله ، وإهابة [لَمحْمد رُشده ، شدّ العُقدة ،عقدة وغيرةً على حُرْمة ماله وعِرْضه][٢]،ورعايةً للسان العِلْم المُنْبىء عن شأنه ، ونيابةً عنه فى مَعْقِل مُلْكه، ومُستودع ماله وذخيرته ، ومحافظة على سِرِّه وعلانيته[٣] لحُرَمه وولده ، وعُمراناً للجوانح بتفضيله وحُبِّه ، معاملةً أخلص الله قصدها لوجهه ، وأمْحَضها من أجله ، ترفعه عن جِراية [وحَل هلالُها ، وإقطاع تَنْجَم قدرتُه ، أو فِصلة تعبثُ البنان بنشيرها ، وخُطَّة تشد إليه على منشورها][٤] . والله يُرْجح ميزانى عنده، ويحظى وسيلتى لديه ، ويحرِّك مكافأة سعيى فى خواطر حَجِّه ، وينَبِّهُ لتبليغ أملى من حَجِّ بيت الله ، وزيارة رسول الله ، بمنّه وكرمه ، فما على استِحْثاث الأجَل من قرار ، ولا بعد الشَّيب من إعذار ، وحسبُنا الله ونعم الوكيل .

أولاده

كُل له فى هذا الوقت من الوَلَد أربعة ، ثلاثتهم ذكورٌ ، يوسف بكرهُ ، وأراه يتلوه سعد ، ثم نصر ، غِلمة رُوقَة ، قد أفرغهم الله فى قالب الكمال ، إذا رأيتَهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ، فَسَحَ الله لهم أمَدَ السعادة ، وجعل مساعيهم جانحة إلى حُسنى[٥] العُقبى ، سالكاً [بهم][٦] سبيل الاهتداء بفضل الله ورحمته .

---

(١) هكذا فى «الملكية» والزيتونة . وفى «ج» (بالوسع) .
(٢) هذه الفقرة واردة فى « ج » و« الملكية» . وساقطة فى الزيتونة .
(٣) وردت فى «ج» وعناية . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .
(٤) ما بين الحاصرتين ساقط فى الزيتونة .
(٥) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» نعم . والمؤدى واحد .
(٦) ساقطة فى «ج» . ووردت فى «الملكية» والزيتونة ، على . وبالتصويب يستقيم السياق .

قضـــاتـه

قدّم لأول قدومه ، الفقيه القاضى ، الحسيب ، الخيِّر ، أبا جعفر بن أحمد بن جُزَى ، شاكراً بلاءه بمالَقة ، إذ كان قد ألقاه قاضياً بها المُتَغَلّب ، فلم يألُ جهداً فى الإجْلاب على من اعتصم بقَصَبتها ، والتحريض على اسْتِنْزَالهم ، فاتّخذ زُلْفَةً لديه ، فأجرى الأحكام ، وتوخّى السَّداد . ثم قدّم [إليها](1) الفقيه القاضى الحسيب ، أبا الحسن على بن عبد الله بن الحسن ، عينَ الأعيان ببلده مالقة ، والمخصوص برسم التَّجلَّة ، والقيام بوظيفة العَقْد والحلّ بهـا فى الدولة الأولى ، وأصالة البيت، والانقطاع(2) إليه ، ومصاحبةِ رِكابه فى طلب [المُلْك](3) ، ومُتَسَوِّر المشاق من أجله ، وأولى الناس باستِدْرار خلفِ دولته ، فسدّدَ وقارب ، وحَمَل الـكَلّ ، وأحسن فصاحة [الخُطبة](4) والخُطاة ، وأكرم المَشْيخة وأرضى ، واستشعر النّزاهة ، ولم يَقِف فى حُسْن التأنِّي عند غاية ، واشتمل معها لِفَق الخطابة ، فأبرز وأعلم ، تسمِّياً وحِفْظاً وَجَهْوريّةً ، فاتُّفِق فى ذلك على رجاحته(5) ، واستصحب(6) نظره على الأحباس . فلم يقف فى النصح عند غاية ، أعانه الله .

كتَّـابُه

أسند الـكتابة إلى الفقية المُدْرِك ، المبرِّز فى كثير من الخلال(7) ، ملازمُه

---

(١) ساقطة فى «ج» . وواردة فى الملكية والزيتونة .
(٢) وردت فى «ج» والزيتونة (الإقطاع) . وبالتصويب يستقيم السياق .
(٣) ساقطة فى المخطوطين ، وإثباتها لازم السياق .
(٤) هذه الزيادة من الزيتونة .
(٥) هكذا وردت فى «الملكية» والزيتونة . وفى «ج» رجحانه . والأولى أنسب للسياق .
(٦) هكذا فى الملكية والزيتونة ووردت محرفة فى «ج» . واستحب .
(٧) وردت فى «ج» الخلل . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

أيضاً فى طلب المُلْك . [ومطاردة قَنَص الحظّ](١) أبى عبد الله بن زَمرك . ويأتى التعريف بجميعهم .

شيخ غزاته

مُتولى ذلك فى الدولة الأولى ، الشيخُ أبو زكريا يحيى بن عمر بن رَحُّو بن عبد الله بن عبد الحق ، قدّمه إليها مُعْتباً إياه ، طاوياً بِساط العدوّ بالجملة ، قدّموها بابنه عثمان [على](٢) الخاصّة يومئذ ، لمظاهرته فى الوُجهة ، وسعيه فى عَوْدة الدّولة . واستمرت الحال إلى اليوم الثالث عشر لشهر رمضان من عام أربعة وستين وسبعمائة ، وكان القبضُ على جُمْلتهم ، وأجلى(٣) هذا البيت من سُفرة السياسة مدّة . مجتزياً فيه بنَظَره على رَسْمه فى الوَزاة من قَبيلِهِ . ثم قدّم إليها موعودَه بها القديمَ الخدمة ، وسالفَ الأذْمَة ، لمّا لجأ إلى وادى آش مفلتاً من وَبْقَة(٤) الحادثة ، الشيخ أبا الحسن على بن بدر الدين بن موسى بن رَحُّو بن عبد الله بن عبد الحق . حلف السَّداد أيامه(٥) ، والمقاربة والفضل والدّماثة ، المخصوصَ على اختصار بيُمْن النَّقِيبة ، واستمرت أيامه إلى نَقْبَة القفول عن غزوة جَيّان أخريات محرم من عام تسعة وستين ، وتوفى رحمه الله حَتْفَ أنفه ، فاحتُفل لمواراته ، وإقرابه من تأبّيه ، واستغفارِه ، والاعترافِ بصدق موالاته ، وتَفْجيعه لفقدِهِ ، وما أعربَ به من وفاء نَجْده ، وَقدّم لها عهْداً طُرف اختياره ، الأمين(٦) ، الشَّهم ، البُهْمَة . خِدْن الشُّهرة ، والمشار إليه بالبَسَالة ، وفرع المُلْك

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت مقابلها فى «الملكية» (ومطارحة الحظ) وفى الزيتونة (ومطاردة الحظ) .

(٢) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة . ويقتضيها السياق .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» والزيتونة وأحلى . والأولى أرجح .

(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى «ج» والملكية (وثبة) . والأولى أرجح .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٦) وردت فى «ج» الأمير . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

والأصالة ، عبد الرحمن بن الأمير أبى الحسن على بن السلطان أبى على عمر بن أمير المسلمين أبى سعيد عثمان بن أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، إذ كان قد لحق به ، بعد ظهور أُتيح(١) له بوطنه من المغرب ، استقر مبايَناً بعمالة سِجلْماسة وما إليها ، وطنِ جَدِّه ، ومِيراثِ سلفه ، ففَسّح له جانبَ قبوله ، وأحَلّه من قُرْبه محلّ(٢) مثله ، وأنزله بين ثغر الاغتباط ونَحْره ، ثم استظهر به على هذا الأمر ، فأحسن الاختيار ، وأعزّ الخطة ، وهو القايم عليها لهذا العهد ، وإلى الله أسباب توفيقه .

ظَرْفُ السلطان وحُسن توقيعه

بَذّ فى هذا الباب من تقدّمه ، وكثرة وقوعه ، بحيث لا [يُعدّ نادرُه](٣) ، وقليلُ الشىء يدُل على كثيره . مرّ بى يوماً ومعى ولدُه ، يروم اتخاذ حذق القرآن ، فقلتُ له أيّدك الله ، الأميرُ يريد كذا ، ولا بدّ له من ذلك ، وأنا وكيله عليك فى هذا ، فقال حسبُنا الله ونعم الوكيل . ولا خفاء ببراعة هذا التوقيع . وغرابةِ مقاصده . ومجالسُه على الأيام معمورة بهذا ومثله(٤) .

الملوك على عهده

بالمغرب السلطان الجليل إبراهيم [بن السلطان] أبى الحسن ، بن السلطان أبى سعيد بن السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق . تولى مُلك المغرب حسبما تقدم فى اسمه(٥) ، وألقى إليه بالمقاليد ، واستوسَقَت له الطاعة ، وبحسب ما بثّ الله من

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (أبيح) . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (على) . والتصويب أنسب للسياق .

(٣) وردت فى«ج»و «الملكية» (يعد نادك) . وفى الزيتونة (يعددك) . وبالتصويب يستقيم المعنى

(٤) وردت فى «ج» ولمثله . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (اسم أبيه) . وهو تحريف والصواب ما أثبتناه ، لأن المقصود هنا هو الإشارة إلى اسم السلطان إبراهيم أبى سالم . وقد مرت ترجمته فى المجلد الأول ص٣٠٣ .

إشرئباب(١) الخلق إليه ، وتعطُّشهم إلى لقاية ، ورغبتهم فى إنهاضه إلى ملك أبيه ، كان انقلابهم إلى ضد هذه الخلال ، شرقاً بأيامه وإحصاء لسقطاته ، وولعاً باغتيابه وتربصاً لمكروه به ، إذ أخفقت فيه الآمال ، واستولت الأيدى من خُدّامه على مُلكه . وقيّض الله لإبادة أمره ، وتغيُّر حالة وهدّ ركنه ، الخائن الغادر نسمةُ السوء وقَذار ناقةِ الملك ، وصاعقة الوطن [وحَرْد السِّيد](٢) عمرُ بن عبد الله بن على مؤتمنة(٣) على البَلَد الجديد ، دارِ ملكه ومستودع ماله وذخيرته ، فسدّ الباب دونه . وجهرَ بخُلْعانه . وفض فى اتّباع الناعق المشئوم سورَ ماله ، وأقام الدّعوة باسم أخيه أبى عمر ، ذى اللَّوثة ، الميئوس من إفاقته ، وذلك ضحوة اليوم الثامن عشر لشوال من عام اثنين وستين وسبعمائه . وبادر السلطان أبو سالم البيعة من مُتَحول سكناه بقصر البلد القديم(٤) ، وصابر الأمر عامّة اليوم . ولما جنّ الليل ، فرّ لوجهة ، وأسلم وزراءه وخاصّتَه ، وقيّدت خطاه الخيريَّة ، فأوى الى بعض البيوت ، وبه تلاحق متبوعُه ، فقيد إلى مصرعه السُّوء بظاهر بلده ، وحُزّ رأسه ، وأوتى به إلى الغادر . وكان ما بين انفصال السلطان عنه مُودَّعا إلى الأندلس بإعانته ، ومطوّق فضل تلقيه وقفوله وحسن كفالته ، ثمانية أشهر ويوم واحد . واستمرت دعوة أخيه المُمَوَّه به إلى الرابع والعشرين من صفر من عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، واستدعى من باب قَشْتالة الأمير محمد أبو زيّان بن الأمير أبى زيد بن عبد الرحمن بن السلطان المعظم أبى الحسن . وقد استقر نازعاً إليه أيام عمه السلطان أبى سالم ، وقع عليه اختيارُ

---

(١) هكذا وردت فى الملكية والزيتونة . وفى «ج» (أشر) وهو تحريف . والاشرئباب هو المحبة والميل .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة والملكية . وفى «ج» (جرد السيد) .

(٣) وردت فى «ج» ويتمنه . وهى املاء قديمة .

(٤) أى مدينة فاس القديمة أوفاس البالى حسبما تسمى . وذلك بعكس البلد الجديد ، وهو الضاحية الملوكية التى أنشأها بنو مرين بجوار فاس .

هذا الوزير الغادر ، إذ وافق شنٌّ تغلُّبه طبقَ ضعفه ، وأعمل الحيلة فى استجلابه ، فوصل حسب غرضه ، وأجريت الأمور باسمه ، وأعيد أخوه المعتوه إلى مكانه ، واستمرت أيام هذا الأمير مغلوباً عليه ، مغرىً بالشراب على فيه [وبين الصَّحب](١) إلى أن ساءت حاله ، وامتلأت بالموجدة على الوزير نفسه ، فعاجله بحتفه ، وباشر اغتياله ، وأوعز إلى خدامه بخَنْقه ، وطَرْحه بحاله فى بعض سواقى قصره ، مُتْبِعاً ببعض أوانى خمره ، يوهمُ بذلك قاتلهُ ، تردّيه سكراً ، وهَوْيه طفوحاً . ووقف عليه بالعدول عند استخراجه ، وندَب النّاس إلى مواراته ، وبايع يومه ذلك أبا فارس عبد العزيز وارث ملك أبيه السلطان أبى الحسن ، المنفرد به ، وخاطب الجهات بدعوته ، وهو صبىٌّ ظاهرُ النبل والإدراك ، مشهورُ الصَّون ، وأعمل الحيلة لأول أمره ، على هذا الوزيرَ مخيف أريكة مُلْكه ، ومظنّة البِدا فى أمره ، فطوقه الحمام [واستأصل ما زرَّاه](٢) من مال وذخيرة . شكرَ اللهُ على الدولة صنيعهَ وفى ذلك يقول :

لقد كان كالحجاج فى فتكاته تحاذره البرآء دوْماً وتخشاه
تغـدَّا به عبد العزيزُ مبادراً وعاجله من قبل أن يتعشاه

وكان بعده وليّه الحق ونصيره لا إلـه إلا هو . وهو اليوم ملكُ المغرب ، مزاحماً بابن أخيه ، السلطان أبى سالم ، المعقود البيعة بمرّاكش وما إليها ، جمع الله شتات الإسلام ، ورفع عن البلاد والعباد مضرَّة الفتنَة .

وبتلمسان السلطان أبو حمو موسى بن الأمير أبى يعقوب يوسف بن عبد الرحمن ابن يحيى بن يغمُراسن بن زيّان . حسبما كان فى الدولة الأولى ، متفقها(٣) منه على خلال الكرم [والحزم](٤) مضطلعاً بأمره(٥) والقيام على ما بيده .

---

(١) وردت فى المخطوطين (وبين العصب) . وهى ساقطة فى الزيتونة . ونعتقد أن المعنى يستقيم بهذا التصويب .

(٢) وردت فى «ج» (واستأصل ما رناه) . وفى «الملكية» والزيتونة (واستأزر مازراه) . ولذا اخترنا الصحيح من العبارتين .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . (٤) الزيادة من الزيتونة

(٥) وردت فى «ج» (بدجا أمره) . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

وبتونس ، الأمير أبو سالم إبراهيم بن الأمير أبي يحيى بن أبي حفص ، حسبما تقدم ذكره .

ومن ملوك النصارى

فبقَشْتالة سلطانُها المتقدم الذكر في الدولة الأولى ، بطْرُه بن السلطان أَلْهَنْشة بن هراندة بن شانجُه بن ألهنشة بن هراندة ، متأكِّدة بينهما السِّلْم الجمّة ، والمُدنة المُبْرمة ، بما سَلَفَ من مظاهرته إيّاه ، والحرص على [ما استَحْسَانه][1] من المغرب في أسطوله ، وبعثِه إليه برأسِ عدوِّه المتوثِّب على ملكه ، ورؤوس أشياعه الظالمين الغَدَرة ، وأتباعه[2] الفجَرة ، مستمرةً أيامه إلى وسط شعبان عام سبعة وستين ، صارفاً وجْهَه إلى محاربة صاحب برجلونة ، مستولياً على كثير من قواعده الشهيرة ، وقلاعه المنيعة ، لما أسْلَفَه به من إجازته[3] أخيه أنْدَريق المدعو بالقُنْد[4] ، ومظاهرته حتى ساءت أحواله وأحوالُ عدوِّه ، وأوْهَنَت الحركات قوى جيشه ، وأضْعَفَ الاحتشادُ ثمرة أرضه ، واشرأبّت القلوبُ إلى الانحراف عن دعوته ، ومالت النفوس إلى أخيه ، وقامت البلاد بدعوته ، وتلاحقت الوجوه بجهته ، ورام التمسُّك بإشبيلية دارِ ملكه ، فثار أهلُها به في عام سبعة وستين . فخرج فارًّا عنها...[5] به والسلاح يهشُّ إليه ، وبعد أن استظهر بخويصته ، وأحمل ماقدَر عليه من ذخيرة ، ورفع من له من ولدٍ وحُرمة ، رأى سُخْنة العين من انتهاب قصوره ،

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة في «الملكية» والزيتونة . ووردت في «ج» محرفة (على اسخاته) . وقد تعني هنا ما وعده به من إجازته في أسطوله .

(٢) هكذا وردت في «الملكية» والزيتونة . ووردت في «ج» (أشياعه) مرة أخرى .

(٣) هكذا في «ج» . وفي الملكية والزيتونة (إجازة) .

(٤) الإشارة هنا إلى الكونت هنري دي تراستمارا أخي بيدرو غير الشرعي ، ومنافسه في انتزاع العرش . وقد استجار بملك فرنسا فحشد له جيشاً من المرتزقة وحارب أخاه بيدرو وانتصر عليه (سنة ١٣٦٦) .

(٥) هنا بياض في المخطوطات الثلاثة .

وتشعيث منازله ، وعياث الأيدى فى خزائنه ، وأسمعه الناس من مَحْض التأنيب[١] وأعراض الشمات ، مالا مزيد عليه ، ولاذ بصاحب بُرْتغال ، فنأى عنه جانبه لما يجنيه أبواه من مخالفة رأى الأمة فيه ، فقصد بلاد غَلِيسية ، وتلاحق أخوه أنْدَريق بحضرة إشبيلية ، فاستوى على المُلْك وطاعت لأمره البلاد ، وعاجله المسلمون لأول أمره ، فاستولوا على كثير من الثغور والحمد لله .

ولما توسّد له الأمر تحول لاستئصال شأفة المخلوع ، فأجلى عن غَلِيسية فى البحر ، واستقر ببلد بَيُونة[٢] ، مما وراء دُروب قَشْتالة ، وانتبذ عن الخِطّة القشتالية وأمر نفسه ، ولجأ إلى ابن صاحب الأنْكَتِيرة[٣] ، وهو المعروف ببرَنْسين أبى الأمير ، وبين أول أرضه وبين قَشْتالة ، ثمانية أيام . فقَبِله ولدُ السلطان المذكور ، الساكن بأول ما تلقاه من تلك الأرض ، وسَفَر بينه وبين أبيه . فأنكر الأب استئذانه إياه ، والمراجعة فى نَصْره ، حَمِيّةً له ، وامتعاضاً للواقع . وحالُ هذه الأمة غريبة فى الحماية الممزوجة بالوفاء والرقّة ، والاستهانة بالنفوس فى سبيل الحمد ، وبين يدى العَشَايق ، عادة العرب الأُول . وأخبارهم فى القتال غريبةٌ ، من الاسترجال والزحف على الأقدام ، أميرُهم ومأمورُهم ، والجُثُوّ فى الأرض ، أو دفنٍ ببعض الأرض فى التّراب ، والاستظهار فى حال المحُاربة ببعض الألحان المُهَيِّجة ، ومآتُهم

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (التأنيث) ، وحكمة التصويب واضحة .

(٢) بيونة Bayonne ، هى ثغر ولاية غسقونية الفرنسية الواقع فى زاوية خليج بسكونية بين حدود فرنسا واسبانيا . والإشارة هنا إلى هـذا القسم من جنوب فرنسا الذى يشمل ولايتى أكوتين وجويين .

(٣) صاحب الأنتكيرة أى ملك انجلترا ، وهو يومئذ الملك إدوارد الثالث . وابنه ولى العهد ، واسمه أيضاً إدوارد (الأمير الأسود) . وقد كان يحكم باسمه ولايتى أكوتين وجويين ، اللذين انتزعهما أبوه من ملك فرنسا ، على أثر هزيمته إياه فى موقعة بواتييه (سنة ١٣٥٥) وذلك ثمناً لتنازله عن دعواه فى عرش فرنسا (بطريق الميراث عن أمه الفرنسية) .

قيمهُم غريبة جافيةٌ ، وكلُّهم [فى][1] درُوع ، والإحجامُ عندهم ، والتقهقر مقدار الشبر ذنبٌ عظيم . وعارٌ شنيع ، ورماتهم يتبثّون للخيل فى الطراد . وحالُهم فى باب التحلى بالجواهر ، وكثرة آلات الفضة ، غريبٌ . وبعد انقضاء سبعة عشر يوماً كان رجوعه ورجوع البرنس[2] المذكور معه مُصاحَباً بأمراء كثيرين من خُتْرانه[3] وقرابته ، وبعد أن أسلفوه مالا كثيرا ، واختص منه صاحب الأنتكيرة ، بمائتى ألف دينار من الذهب إلى ما اختص به غيره ، وارتهنوا فيه ولَدَه وذخيرتَه . وكان ينفق على نفسه وجيشه بحسَب دينار واحد من الذهب للفارس فى ثلاثة أيام . وكان تأليفُ الجيوش فى بَنْبلونَة فى أزْيَد من ثلاثين ألفاً ، وعسُر عليهم المجازُ على فحص أحدونيه ، لبلاد تُمسك لطاعة القُنْدِ أخيه[4] ، فصالح القومُ صاحب نَبَارّه[5] على الإفراج لهم ، ونزلت المحلاتُ فى فحص نَبارّة ، ما بين حدود أرض نبارّة وقَشْتالة ، ونزل المُتَصَيِّر إليه أمرُ قَشْتاله ، القُنْد بإزايها فى جموعٍ لم تنتظم لمثله ، إلا أنه لشهامته واغْتِراره ، أجاز خندقاً كان بين يديه ، وعبر جسراً نَشِب فيه عند الجَوْلة . وكان اللقاء بين الفريقين يوم السبت سادس إبريل العجمى ، وبموافقة شعبان من عام ثمانية وستين . وكان هذا الجمْع الإفرنجى الآتى من الأرض الكبيرة[6] فى صفوف ثلاثة ، مرتبة بعضها

---

(١) واردة فى «الملكية» والزيتونة . وساقطة فى «ج» .

(٢) نعتقد أنه يقصد هنا بكلمة (البرنس) — وسوف تأتى مرة أخرى — الأمير إدوارد ولى العهد .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . ومعناها مخادعيه أو الأمراء الذين يتظاهرون بنصرته .

(٤) يقصد الإشارة هنا إلى الكونت هنرى دى تراستمارا أخى الملك بيدرو .

(٥) نبارة — وفى الإستعمال الشائع نبره — هى مملكة Navarra أو بلاد البشكنس الواقعة غربى جبال البرنيه ، وجنوب شرق خليج بسكونية ، وعاصمتها مدينة بنبلونة .

(٦) الأرض الكبيرة تعنى فى الجغرافية العربية القديمة فرنسا . ويعرف جنوب فرنسا كذلك بغاليس La Gaule .

خلف بعض ، ليس فيهم فارسٌ واحد ، إنما هم رجّالة، سواء[١] أميرهم ومأمورهم ، فى أيديهم عِصِى[٢] جافيةٌ فى غِلظ المعاصِم ، يَشْرَعونها أمامهم ، بعد إثبات زجاجها[٣] فيما خلفهم من الأرض ، يستقبلون منها وجوه عدوّهم ، ونحورَ خَيْلِه ، ويجعلونها دعايم وتُسكّات ابناء مصافِّهم ، فلم تُقْلِقهم[٤] الحملات ، وبين أيديهم من الرُّماه النَّاشبة الدّارعة ، مالا يُحصيهم إلا الله عز وجل . وسايرهم السلطانُ ، مُسْتدعى نَصْرهم راجلاً أميالا برأيهم؛ إلى أن أعيا بعد ميلين منها فأرْكبوه بغلة حملوه بينهم عليها، إلى موقف اللقاء والقُنْدُ[٥] . وكان على مقدمة القوم الدك[٦] أخو البرنس ، والبرنس[٧] مع السلطان مُسْتَجيره فى القَلْب، والقُنْد المعروف بقُندار مانيان ، وكثيرٌ من الأمراء ، ردا وسيفُه دونهم ، ومن خَلْف الجميع الخيلُ يجنّبها ساستهم وغلمانهم وخدّامهم ، ووراءها دوابٌّ الظَّهْر وأبغالهم ، وفى أثناء هذه العَبِيَّة من البنود وآلات الحرب والطرب والأبواق ما يطول ذكره . وكان فى مقدمة القُنْد المُسْتأثر بمُلْك قشْتالة ، أخوه شانجه فى رَجل قشتالة ، قد ملأ السَّهل والجَبَل ، ومن خلفهم أولو الخيل الجافية القبيلية، المُسْبَغة الدُّروع ، من رأس إلى حافر ، فى نحو ألف وخمساية ، وفى القلب أخوه الآخر دَنْطية[٨] فى جمهور الزُّعماء والفرسان والدَّرق ، وهو الأكثر من رجال الجيش اليوم ، ومن ورائهم السلطان أنْدَريق[٩] فى لفيف من الناس . ولما حمل بعضهم على بعض أقدم رماةُ الفرَنْج ، ثقة

(١) وردت فى «ج» سوى ، والتصويب أرجح .

(٢) وردت فى المخطوطين (عصا) وهو تحريف .

(٣) ومفردها (الزج) وهو عبارة عن الحديدة المثبتة أسفل الرمح .

(٤) هكذا وردت فى الملكية والزيتونة . وفى «ج» (تقلقلهم) والأولى أرجح .

(٥) أى الكونت هنرى دى تراستامارا السالف الذكر .

(٦) يقصد هنا أن يشير إلى أخى ولى العهد إدوارد ، دوق لانكستر Duke of Lancaster وكان من قواد الحملة المذكورة .

(٧) وردت فى «ج» والزيتونة (والبرق) . وهو تحريف .

(٨) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الزيتونة (أخوه نطية) .

(٩) هو كما تقدم الكونت هنرى دى تراستامارا .

بدرُوعهم، فعظُم أثرهم فيمن بإزايهم من رماة عدوهم ورجالهم، [لكونهم كشفاء، فكشفوا إيام][١]. وحملت خيل قشتالة الدّارعة، فزحزحت كرَّ المصّافِّ الإفرنجى، واتصل الحربُ بالبرنس، وهو مطلٌّ عليهم فى رَبْوة. فصاح بهم بحيث أسمع، وتناول شيئاً من التراب فاستفّه، وكسر ثلاثَ عِصِيٍ[٢]، وفعل من معه [مِثل][٣] فعله، وهى عادتهم عند الغضب. وعلامةُ الإقدام الذى لا نكوصَ بعده. ووجه إلى أخيه فى المقدمة، يقول له، إن وجدت فى نفسك ضعفاً، فاذكر أنك ولدُ صاحب الأنتكيرة. وحمل الكلُّ حملةَ رَجلٍ واحدٍ، فلم تجد الخيلُ الدّارعة سبيلا، وقامت فى نحورها تلك الأسِنّة، فولوا منهزمين.

ولما رأى القُنْد هزيمة أخيه، تقدَّم بنفسه[٤] بمن معه من مَدَد[٥] الأمة الرّغُونية[٦]، وهو ينادى، ياأهل قَشْتالة، يا مَوَالى، إياكم والعار. هأنذا، فلم يثبُت أمره[٧]، وتراجع فُلُّه. فعند ذلك فرّ فى أربعة من أولى ثقته. واستولى القتْلُ والأسرُ على خاصّته، وتردى المنهزمون فى الوادى خلفهم. فكان [ذلك][٨] أعوَن الأسباب على هَلْكهم، فأناف عددُ من هلك فى هذه الوقيعة، حسبما اشتهر، خمسين ألفاً. وامتلأت أيدى هذه الأمة من الأسلحة والأموال والأمتعة والأسرى الذين يُفادونهم [بمال عظيم][٩]، واتصل القُنْد المنهزم بأرض رَغُون[١٠]،

(١) هكذا وردت فى «الملكية». وفى «ج» (لكونهم كشفاء فكشفوهم). وفى الزيتونة (لكونهم كتفا فكشفوا إيام).

(٢) وردت فى المخطوطين : عصاة — عصات. والتصويب أفضل.

(٣) هذه الزيادة من «الملكية» والزيتونة.

(٤) وردت فى المخطوطات (فى نفسه). والتصويب أنسب للسياق.

(٥) هكذا فى «الملكية» والزيتونة. وفى «ج» (هذه) وهو تحريف.

(٦) أى الأمة الأرجونية.

(٧) وردت بعدها فى المخطوطين كلمة (ولا) ووجودها هنا سهو لا يستقيم معه السياق.

(٨) أثبتنا هذه الكلمة ليستقيم السياق.

(٩) هكذا وردت هذه العبارة فى «الملكية». ومكانها فى «ج» (العظيمة) وهو تحريف.

(١٠) رغون هى مملكة أراجون

ثم نجم من البلاد الفرنسية . ودخل أخوه بهذه الأمة أوايل البلاد معترفاً بحميد(١) سَعْيِهم ، وعزيز نَصْرِهم ، وقد رابه استيلاؤهم ، وأوجسه تغلبهم . [وساءه فى الأرض الرَّعادة عيانهم](٢) فاستأذنهم فى اللحوق بقواعد أرضه . وَقبض الأموال التى تجبى(٣) منها نفقاتهم . وقَبَض منها ديونهم قِبَله . وحثّ السّير ، فوصل طُلَيْطلة ، لايُصدّق بالنجاة ، وخاطب السلطان المُترجم به . وقدر ودّه(٤) ، وحذّره سَوْرَة هذه الأمة . التى فاض بحرُها وأعيا أمرُها . وأنهى إليه شرّها ، وشَرِه إلى اسْتِيصال المسلمين . وحدّ له مواعِدَها التى جُعلت لذلك . ووصل إشْبيليّة ، وانثالت البلاد عليه ، وعادت الإيالة إلى حُكْمه ، ثم شرع فى جعل الضرايب ، وفرض الأموال ، وأخافَ الناس [بالطّلَب والتّبعات](٥) فعاد نفورُهم عنه جزَعاً . وامتنعوا من الغُرْم ، وطردوا(٦) العُمّال . وأحسّ بالشّرّ ، فتحصّن بإشبيلية ، وجهاتها على نفسه ، وطال على الأمة الواصلة فى [سبيل](٧) نَصْره الأمرُ . فرجَعت إلى بلادها ، ووقيت نفْرة الفرسان ، وأولى الأتباع . وأظهروا الخلاف ، وكَشفت جيّان وجْهَها فى خُلعانه ، والرُّجوع إلى دعوة أخيه المُتَصرّف ، فتحرّك إليها السلطان المترجمُ به ، بعد أن احتَشَد المسلمين ، فكان من دخولها عَنْوَة ، واستباحةِ المسلمين إياها وتخريبها ، ما هو مذكور فى مَوْضعه . ثم ألحقت بها مدينة

---

(١) وردت فى «ج» والزيتونة (بحمد) . والتصويب أرجح .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط فى الملكية والزيتونة .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» يجرى . والأولى أنسب للسياق .

(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الملكية (وقرر رده) وفى «ج» (و قر ردده) والأولى أرجح .

(٥) وردت فى «ج» والزيتونة (والطلب بالتبعات) والتصويب أنسب للسياق .

(٦) هكذا فى «ج» والزيتونة . وفى «الملكية» وطرحوا . والأولى أرجح .

(٧) هذه الزيادة من «الملكية» والزيتونة .

أبَدَة ، الذاهبة فى مخالفة مذاهبها والحمد لله . وخالَفَت عليه قرطبةُ ، واستقر بها من الكبار جملة ، كاتبوا أخاه ، واستعجلوا ، فتعرَّف فى هذه الأيام ، أنه قد بلغ أرض بُرْغُشْ ، ونارُ الفتنة بينهم ، ويدُ الإسلام لهذا العهد ، والمُنْية[1] لله ، وحده غالبة[2] .

وإنما مَدَدنا القول فى ذكر هذه الأحوال الرُّومية ، لغرابة تاريخها ، وليُسْتَشعر الحذرُ ، ويُؤخذ من الأمة المذكورة وغيرها ، والله ولى نصر المؤمنين بفضله[3] .

وبأرض رَغُون سلطانُها الساكن على الدولة الأولى .

بعض مناقب الدولة لهذا العهد

وأولا ما يَرْجِع إلى مناقب الحِلْم والكَظْم من مآزق[4] الجهاد الأكبر ، وهو جهادُ النفس .

فمن ذلك أن السلطان لما جَرَت الحادثة ، وَعَظَه[5] التمحيص ، وألجأ إلى وادى آش لايملك إلاّ نفسه فى خبر طويل ، بادر إلى مخاطبة ثقته بقصبة المريّة ، قلعة المُلْك ، ومَظِنّة الامتناع ، ومِهاد السّلامة ، ومَخْزن الجباية والعُدّة ، وقد أصبح محلُّ استِقراره ، بينها ، وبين المُنْتَزى سدًّا ، وبيعة أهلها لم ينسخ الشرعُ منها حُكماً يناشدُه الله فى رَمَقه ، ويتملّقه فى رَعْى ذِمّته ، والوفاء له ، وإبراء غُرْبته ،

(١) كذا فى «ج» والملكية ، وفى الزيتونة (والهيبة) .

(٢) هكذا وردت فى «الملكية» . وفى «ج» عالية . والأولى أنسب للمعنى .

(٣) يبدى ابن الخطيب فى سرد حوادث الحرب الأهلية فى قشتالة ، وما تخللها من تدخل ملك فرنسا ، ثم ولى عهد انجلتر أوصاحب إمارة أكوتين وجوبين لهذا العهد ، كل إلى جانب فريق من الفريقين المتحاربين — يبدى فى ذلك كله دقة واضحة ، وحسن معرفة بأطوار المعارك المختلفة ونتائجها ، وكذلك بالأوضاع الجغرافية لاسبانيا وفرنسا فى ذلك العصر .

(راجع كتابى نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين — الطبعة الثالثة — ص ١٤٣ — ١٤٥) .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى الزيتونة (مداق) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» والزيتونة . وفى الملكية (وعظمه) .

وتمسّكه من أمانته ، فردّ عليه أسوأ الرد . وسجن رسوله فى المُطْبق ، وخرج منها لعدُوّه(١) ، وناصح بعد فى البَغْى عليه . فلما ردّ الله الأمر ، وجَبَرَ الحق ، أعْتَبَ وأجْرى عليه الرِّزق . ولما ثار فى الدولة الثانية الدليلُ البركى(٢) ، هاتفاً بالدعوة لبعض القرابة ، وأكْذَبه الله ، وعقّه الشيطان بعد نَشْر راية الخلاف ، وجَعَل للدولة ، علوَّ اليد ، وحسنَ العاقبة . وتمكّن من المذكور ، أبقى عليه ، وغلّب حكم المصلحة العامة فى استحيائه ، وهو من مُغْرِبات الحِلْم المبنى على أساس الدين ، وابتِغاء وجه الله .

ولما أجلى عن الترشيح من القرابة ، بعد تَقَرُّب(٣) التهمة ، وغَمْس الأيدى فى المعصية ، صُرفوا إلى المغرب صَرْف العافية ، وأجْرَى على من تخلّفوه عوايد الأرزاق ، ومرافِق المواسم ، ووَعَد(٤) ضعفاءهم بالإرْفاد ، وتجوفى عما يَرْجع للجميع من عَقَار ورِباع ، وأسْعفت(٥) آمالهم فى لحاق [ذويهم](٦) من أهلٍ وولد .

ومما يرجع إلى عوايد الرِّفق ، ومرافق العدل من مأزق(٧) فى جهاد النفس ، وقوفُ وكيلِ الدولة ، مع من يجاور مُسْتَخلص السلطان(٨) من العامرين(٩) ومما ولى الفلاحة ، وقد ادّعوا أضراراً ، يجرُّه الجوار بين يدى القاضى بالحَضْرة ، حتى بعد مُنْقَطع الحقّ ، على ما يخص السلطان من الأصول التى جرَّها الميراث عن كريم السَّلَف . ولا كقضية التاجر المعروف بالحاج اللبّاس ، من أهل مدينة وادى آش ،

(١) هكذا وردت فى الملكية والزيتونة . ووردت مكانها فى «ج» (لدرىء لعدوه) .
(٢) سوف نشير إليه فى حاشية قادمة .
(٣) هكذا فى « الملكية ». والزيتونة. وفى «ج» قرب .
(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة (توعد) . وبالتصويب يستقيم السياق .
(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (واستعفت) وهو تحريف .
(٦) هذه الكلمة لم ترد فى المخطوطين . وقد أثبتناها لاستقامة المعنى .
(٧) هكذا فى المخطوطات الثلاثة .
(٨) مستخلص السلطان هو كما سبق شرحه الأملاك السلطانية الخاصة .
(٩) العامرين أى الذين يعمرون الأرض ويفلحونها .

وقد [تحصلت فى][1] داره ، من قِبَل التاجر المذكور جاريةٌ من بنات الروم ، فى سبيل تفوُّت الذمم ، ومُسْتَهلك المتولات[2] ، وتَرَقَّت إلى تربية وَلَدَه ، وأصبحت بعض الآظار لأمرايه . واتَّصل بها كَلَفه ، وزاد هيامُه ، وغَشِى مدافن[3] الصَّالحين من أجلها ، وأُنْهِيَتْ إليه خبره وبثُّه . وقررتُ عنده شَجْوَه ، وألمعتُ بما يُنقل فى هذا الباب عن الملوك قبْله ، فبادر إلى إخراجها من القصر بنفسه ، وانتزاعها من أيدى الغِبْطة ، انتزاعَ القَهْر . بحاله فى جميل الزِّى ، فمُكِّنت منها يدُ عاشقها الذَّاهل ، وقد خفَّت[4] نفسُه ، وسكن حِسُّه ، وكاد لقاؤه إيَّاها أن يَقضى عليه . و نظاير هذا الباب متعددة .

ومن مواقف الصِّدْق والإحسان من خارق جهاد النفس . بناء المارستان الأعظم حسنةُ هذه التخوُّم القُصوى . ومزيّةُ المدينة الفُضْلى . لم يهتد إليه غيرُه [من][5] الفتح الأول ، مع توفُّر الضرورة ، وظهور الحاجة ، فأغرى به همَّةُ الدِّين ، ونفسُ التقوى ، فأبرزه موقفُ الأخدان[6] ؛ ورحلةُ الأندلس ، وفذلكة[7] الحسنات ، فخامةَ بَيْت ، وتعدُّد مساكن ، ورحْبَ ساحة ، ودرُور مياه ، وصحَّةَ هواء ، وتعدُّد خزاين ومتوضآت ؛ وانطلاقَ جراية وحسنَ ترتيب ، أبرَّ على مارستان مصر[8] ، بالسَّاحة العريضة ، والأهْوية الطَّيبة ، وتَدفُّق المياه

---

(١) ورد مكانها فى المخطوطات الثلاثة (تخلصت من) وهو تحريف . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٣) وردت فى «ج» مدفن . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) وردت فى «ج» والزيتونة (خافت) وهو تحريف .

(٥) الزيادة من «الملكية» والزيتونة .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٨) يلوح لنا أن ابن الخطيب يشير هنا إلى المارستان المنصورى الكبير ، الذى أنشأه السلطان المنصور بن قلاوون سنة (٦٨٣ هـ) بميدان بين القصرين بالقاهرة ، وهو أقرب المارستانات القاهرية عهداً بعصر ابن الخطيب .

من فورات المرمل ، وأسُود الصخر ، وتموُّج البحر ، وانسدال الأشجار . إلى موافقته إياى ، وتسويغه ما اخترعتُه[١] بإذنه . وأجريتُه[٢] بطيب نَفْسه ، من اتخاذ المدرسة والزاوية ، وتعيين التُّربة ، مُغيراً [فى ذلك كله][٣] على مقاصد الملوك ، نقشاً عليه ، بطيب اسمه فى المزيد ، وتخليد فى الجُدُرات للذِّكر[٤] ، وصوناً للمدافن غير المعتادة ، فى قلب بلده بالمقاصر والأصْونة ، وترتيل التلاوة ، آناء الليل ، [وأطراف][٥] النهار . وكل ذلك إنما يُنسب إلى صَدَقاته ، وعلوّ همّته . ويشهد بما ينبه الحسّ إلى المَنْقَبة العظمى ، فى هذا الباب ، من إمداد جبل الفتح ، مع كونه فى إيالة غيره ، وخارجٌ عن مُلْكة حُكْمه ، وما كان من إعانته ، وسَدّ ثَغْره ، فانهار إليه على خطر الشُّرى ، والظهر البعيد المسمى ، ما ملأ الأهواء ، وقطع طمع العُداة ، أُنْفقت عليه الأموال ، ما إن مفاتحه لتنوء بالعُصْبة أولى القوة ، يُودِر بذلك ، بين يدى التفاؤل ، بنزول العدوّ إياه ، فكان الكِرى[٦] على إيصال الطعام إليه ، بحساب درهم واحد وربع درهم للرَّطل من الطعام ، منفعة فَذّة ، وحسنة كبرى ، وبدعاً من بِدع الفَتْوى .

وفى موقف الاستعداد لعدُوّ الإسلام ، من خارق جهاد النفس ، اطلاق البُنى[٧] ، للمدّة القريبة ، والزمان الضيق ، باثنين وعشرين ثَغْراً من البلاد المجاورة للعدو ، والمشتركة الحدود ، مع أراضيه ، المترامية النيران لقرب جوابه ، منها ثغر

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة : اخترعه ، والماضى هنا أنسب للسياق .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة : وأجرات . وقد لزم التصويب لاستقامة السياق .

(٣) هذه الزيادة واردة فى «الملكية» والزيتونة .

(٤) وردت فى «ج» الذكر ، فلزم التصويب .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى «ج» وواردة فى «الملكية» والزيتونة .

(٦) الكرى هنا يقصد بها الكراء أو الأجر .

(٧) البُنى هنا جمع بناء

أرجدونة(١) ، المستولى عليه الخراب . أنفق فى تجديد قصبته . واتخاذ جُبِّه . ما يناهز عشرين ألفاً من الذهب،فهو اليوم شَجَى العدو ، ومُعْتَصَم المسلمين .وحصن أشِر ، وما كان من تحصين جبله بالأسوار والأبراج . على بعد أقطاره . واتخاذ جباب الماء به . واحتفار السانية(٢) الهايلة برَبَضِه . ترك بها من الآثار ما يشهد بالقوة لله . والعناية بالإسلام . ثم ختم ذلك بتشييد حصن الحمراء . رأس الحضْرة ، ومَعْقِل الإسلام ، ومَفْزَع المُلْك .ومَعْقِد(٣) الأيدى.وصِوان المال والذَّخيرة . بعد أن صار قاعاً صفصفاً .وخراباً بَلْقَعاً . فهو اليوم عروسٌ يُجلى المَهْضَب . ويغازل الشهب ، سكن لمكانه الإرجاف . وذوت نجوم الأطماع . ونقل إليه مال الجبايه .المُتَفَضِّل لهذا العهد . بحسب التدبير . ونفَّذ الخراج . وصوَّن الألقاب . وقمع الخزانة بما لم يتقدم به عهد . من ثمانين سنة . والحمد لله . وتجديد أساطيل الإسلام ، وإزاحة علل جيوش المَرْج . وعساكر البحر . فهى لهذا العهد ، مَلْس الأديم ، شارعة الشَّبا ، مُنقضَّة جفانُها إلى مساواة الأعداء ، راكبةٌ ظهور المحاسن ، قلقة الموافق ، قُدُماً إلى الجهاد،قد تعدَّد إغزاؤها ، وجاست البحر سوابحُها ، وتُعرِّفت بركتها والحمد لله ، وأنصاب جيش الجهاد ، استغرق الشهور المستقبلة . لرود(٤) الصفراء والبيضاء الأهلّة إلى أكف أهلها ، على الدوام ، بعد أن كانت يتحيفها المَطْل ، وينقصها المطال ، والحمد لله .

وفى(*) مواقف الجهاد الحسِّى .وبيع النُّفوس من الله ، وهو ثمرة الجهاد الأول ،

---

(١) أرشدونة وأرجدونة Archlidona . هى بلدة حصينة تقع شمالى مالقة على مقربة من حدود قشتالة فى هذا العصر .

(٢) السانية هى الكلمة الأندلسية لآلة الرى المعروفة بالساقية .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة هنا (معقل) مرة أخرى . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» والزيتونة (لدور) .

(*) هنا يبدأ الجزء الثانى من كتاب « الإحاطة » بمخطوطة جامع الزيتونة بتونس . وسوف نوالى المراجعة عليه إلى جانب مخطوطى جاينجوس والخزانة الملكية .وسوف نرمز لهبكلمة (الزيتونة) .

ما لا يحتاج عليه إلى دليل . من الجوف[١] إلى حصن أشر ، قُبُل الثغر ، والجارحُ المطلّ على الإسلام ، والعزم على افتتاحه . وقد غاب الناس من مساورته ، وأعْيي عليهم فتحه ، فلزمه السلطان بنفسه . بياض يوم القَيْظ . مُحرضاً[٢] ، للمقاتلة ، مُواسياً لهم[٣] ، خالطاً نفسه بالمُسْتَنفَرة ، يصابر لهيب النار . ووقع السلاح ، وتعميم الدُّخان ، مُفْديا للسكلمات . مُحَرِّضاً لذوى الجراح ، [مباشراً الصلاة على الشهداء][٤] إلى أن فتحه الله [على يده][٥] ، بعزمه وصبره ، فباشر رَمَّ سوره بيده ، وتحصين عَوْرته بنفسه ، ينقل إليه الصَّخر ، وينال الطِّين ، ويخالط الفَعَلَة ، لقرب محلِّ الطاغية ، وتوقع المفاجأة . ثم كان هذا العمل قانوناً مُطَّرِداً فى غيره ، ودَيْدَناً فى سواه ، حسبما نذكر فى باب الجهاد .

وفى باب النصيحة للمسلمين من مآزق[٦] الجهاد الأكبر . ما صدر فى هذه الدولة ، من مخاطبة الكافة ، بلسان الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، صَدَعَت بذلك الخطباء [من فوق أعواد المنابر ، وأسْمَعَت آذان المحافل . مالم يتقدم به عهدٌ فى الزمان الغابر][٧] .

نص الكتاب

ولما صَحَّت الأخبار بخروج الأمة الإفرنسية إلى استئصال هذه البُقَيعة[٨] ،

(١) وردت فى المخطوطين (الخوف) . ونعتقد أن التصويب أرجح .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» متحرضا .

(٣) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (الأول) . بالتصويب يستقيم السياق .

(٤) وردت هذه الزيادة فقط فى «ج» .

(٥) هذه الزيادة واردة فى «الزيتونة» . وساقطة فى «ج» والملكية .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٧) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» و «الملكية» ، وساقط فى «الزيتونة» .

(٨) هكذا وردت فى «الملكية» والزيتونة . ووردت فى «ج» البقعة .

والله متم نوره ، ولو كره الكافرون ، صدر من مخاطبة الجمهور فى باب التحريض بما نصه :

«من أمير المسلمين عبد الله محمد ، بن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج بن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد نصر ، أيده الله ونصره ، وأوى (١) أمره ، وخلّد مآثره. إلى أوليائنا الذين نُوقظ من الغفلة أحلامهم ، وندعُوَهم لما يظهر من الارتياب إيمانهم ، ويُخلص لله أسرارهم وإعلانهم ، يرثى لعدم إحسانهم ، وخيبة قيامهم ، ويغار من استيلاء النَّفَلات على أنواعهم وأجناسهم ، و نسأل الله لهم ولنا إقالة العَثَرات ، وتخفيض الشدائد المُنتَورات ، وكَفّ أكُفّ العوادى المُبتَدرات . إلى أهل فلانة ، دافع الله عن فِئتهم الغريبة(٢) ، وعرَّفهم فى الدرارى ، والحُرَم ، عوارف الالطائف التربية(٣) وتداركهم بالصنايع العجيبة ، سلام عليكم أجمعين ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى لا نشرك به أحداً ، ولا نجد من دونه مُلْتحداً ، مبتلى قلوب المؤمنين أيها أقوى جلداً ، وأبعدُ فى الصبر مداً ، ليزيد الذين اهتدوا هدًى . والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، الذى أنقذ من الرّدى ، وتكفل بالشفاعة [لمن](٤) غدا ضارباً هام العِدا ، ومجاهداً من اتخذ مع الله ولدا ، والرضى عن آله الذين كانوا لسماء ملته عمداً ، فلم ترعهم الكتايب الوافرة ، وكانوا لهم أقل عدداً ، ولا هالتهم أممُ الكفر ، وإن كانت [أظهر جمعاً ، وأكثر عدداً](٥) صلاة لا تنقطع أبدا ، ورضًى ، لا يبلغ مداً . فإنا كتبنا إليكم ، كتبكم

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الزيتونة (واوى)

(٢) وردت فى «ج» (الغرى) وفى «الملكية» (الغربى) . والتصويب أنسب للسياق .

(٣) وردت فى المخطوطين (الغريبة) . والتصويب أرجح .

(٤) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة . وساقطة فى المخطوطين .

(٥) هكذا وردت هذه الجملة فى «الزيتونة» . وفى «الملكية» . ووردت فى «ج» (أكثر جمعاً وأظهر عدداً) .

الله فيمن امتلأ قلبه غضباً لأعدايه[١] وحَمِيّةً ، ورمى بفكره غرض السّداد ، فلم يُخط منه هدفاً ولا رمِيّة . وقد اتصل بنا الخبر ، الذى يوجب نصح الإسلام ، ورَعْى الجوار والذّمام[٢] ، وما جعل الله للمأموم على الإمام ، فوجب علينا إيقاظكم من مراقدكم المُسْتغرقة ، وجَمْع أهوايكم المُفْترقة ، وتهيئكم إلى مصادمة الشدايد المُرْعدة المُبْرقة ، وهو أنّ كبيرَ النصرانية ، الذى أليه ينْقادون ، وفى مرْضاته يصادقون[٣] ويعادون ، وعند رؤية صليبه يبكون ويَسْجدون ، لما رأى الفتن قد أكلتهم خَضْماً وقَضْماً . وأوسعتهم هَضْماً فلم تُبْقِ [لهم][٤] عصباً ولا عظماً ، ونَثَرت ما كان نَظْماً ، أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق ، ويرفع ما طرَق ، ويرفى[٥] ما مزّق الشتّات وخَرّق ، فرمى الإسلام بأمة عددُها كالقطر المُنْثال ، والجراد الذى تضرب به الأمثال ، وعاهدهم وقد حضر التمثال ، وأمرَهم وشأنُهم الامتثال ، أن يدمنوا لمن ارتضاه الطاعة ، ويجمعوا من مِلّتَه الجماعة ، ويطلعُ السكل على هذه الفئة القليلة الغريبة ، بغتةً[٦] كقيام السّاعة ، وأقْطعَهم ، قطع الله بهم ، [العباد والبلاد][٧] . والطّارف والتّلاد ، وسوّغهم الحريم المستضعف والأولاد ، وبالله نَسْتدفع مالا نطيقه . ومنه نسأل عادة الفَرَج . فما سُدت لديه طريقةٌ ، إلا أنّا رأينا غفلة الناس مع تصميمهم مؤذنةً بالبَوار . وأشفقنا للذين من وراء البحار ، وقد أصبح معظمهم فى لهوات الكفار ، وأردنا أن نَهزّهم بالموعظة ، التى[٨] تكحل البصاير بميل الاستبصار . وتلهمكم الاستنصار بالله ، عند عدم الانتصار ،

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» . ووردت فى «ج» (لله) وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . وفى «ج» الذمار .

(٣) هكذا فى الزيتونة والملكية . وفى ج (يصافون) .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى «ج» وواردة فى الزيتونة والملكية .

(٥) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى الزيتونة (يرمى) وهو تحريف .

(٦) وردت فى «ج» و «الملكية» (سقية) . والتصويب أنسب للسياق .

(٧) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى «الزيتونة» (البلاد والعباد) .

(٨) هكذا فى «الملكية» و «الزيتونة» . وفى «ج» الذى ، وهو تحريف .

فإن جَبَر الله الخواطر بالضراعة إليه، والانكسار . و نسخ الإعسار بالإيسار ، وأنجد اليمين باتهاء اليسار ، و إلا فقد تعيّن فى الدنيا والآخرة حظُّ الخسار[١] فإن من ظهر عليه عدوُّ دينه ، وهو عن الله مَصْروف ، وبالباطل مشغوف ، و بغير[٢] العُرْف معروف . وعلى الحطام المسْلوب ملهوف ، فقد تلَّه[٣] الشيطان للجبين ، وخسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . ومن نفذ فيه قَدَرُ الله عن أداء الواجب وَبذَل المجهود ، وآجر بالعُبُو دية وجهَ الواحد الأحَد المعبود ، ووطّن النفس عن الشهوات الموبقة [فى][٤] دار الخلود ، العايدة بالحياة الدّايمة والوجود . أو الظُّهور على عدوه المحشود إليه صبرا[٥] على المقام المحمود وبَيْعاً تكون الملائكة فيه من الشهود ، حتى تعيث يد الله فى ذلك البناء المهدوم ، بقوة الله المحمود ، والسَّواد الأعظم الممدود ، كان على أمر رَبِّه بالحياء المردود «قل هل تربَّصون بنا إلا إحدى الحُسْنيين ونحن نَتَرَبَّصُ بكم أن يصُيبكم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا إنَّا معكم متربِّصون »[٦]. فالله اللهُ فى الهمم ، فقد خَبَتْ ريحُها . واللهُ اللهُ فى العقايد . فقد خَفَتَت مصابيحُها . والله الله فى الرُّجولة فقد فلَّ حدُّها . والله الله فى الغَيْرة . فقد نَعَس حدُّها . واللهُ الله فى الدِّين . فقد طمع العدوُّ فى تحويله . والله الله فى الحريم . فقد مدَّ إلى استرقاقه يدُ تأْميله . والله الله فى المساكن التى زَحَف لسُكناها

(١) وردت فى «ج» و «الملكية» (الخسران) . والتصويب أنسب لسياق السجع .

(٢) وردت فى «ج» (ويصير) . ونعتقد أن هذا تحريف . والتصويب أنسب للمعنى .

(٣) تله أى صرعه .

(٤) ساقطة فى «ج» والملكية ، وإثباتها أنسب للمعنى .

(٥) واردة فى «ج» . وساقطة فى الملكية .

(٦) يقول لنا المقرى فى نفح الطيب ، إن هذه الرسالة أو الموعظة التى تبدأ من هنا ، وتنتهى فيما بعد بعبارة (والسلام الكريم يخصكم أيها الأولياء ورحمة الله وبركاته) كتبها على بن الخطيب (وليس الدوه لسان الدين) على لسان السلطان ، نداء إلى الأمة ، واستنهاضا لهمتها ، على مثل رسائل عديدة وجهها إليها ابن الخطيب نفسه (راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤١٥ — ٤١٨) .

والله الله فى الملة التى يريد إطفاء نورها وسناها [وقد كل فضلها وتناهى][1] . والله الله فى القرآن العظيم . والله الله فى الجيران . والله الله فى الطارف والتالد . والله الله فى الوطن الذى توارثه الولدُ عن الوالد . اليوم تستأسد النفوسُ المَهينة. اليوم يُستنزل الصبرُ والسكينة . اليوم تحتاج الهِمَمُ [أن][2] ترعى هذه النفوس الكريمة الذمم . [اليوم يُسلك سبيل العزم والحزم والشدة والشمم][3] اليوم يرجع إلى الله تعالى المصرون اليوم يفيق من نومه الغافلون والمغترون . قبل أن يتفاقم الهَول ، ويحقَّ القول ، ويُسد الباب ، ويَحيق[4] العذاب ، ويُسترق بالكفر والرقاب . [فالنساء تقى بأنفسهن أولادهن الصغار][5] . والطيور ترفرف لتحمى الأوكار ، إذا أحست العياث بأفراخها والإضرار . تمر الأيام عليكم مرَّ السحاب وذهاب الليالى لكم ذهاب][6]. فلا خبر يفضى إلى العين ، ولا حديث فى الله[7] تعالى يُسمع بين اثنين ، ولا كدّ[8] إلا لزينة يُحلَّى بها نحر وجيد ، ولا سعى إلا فى[9] متاع لا يغنى فى الشدائد ولا يفيد . وبالأمس ندبتم إلى التماس [رُحمى أو رضى][10] مسخِّر السحاب ، واستقالة كاشف العذاب ، وسؤال مرسل الديمة ، ومحيي البَشَر والبهيمة ، وقد أمسكت عنكم رحمةُ السماء ، واغبرت جوانبكم المخضرة احتياجا إلى بلالة الماء ، وفى السماء رزقُكم وما توعدون . وإليها الأكفَّ تمدون ،

---

(١) هذه الزيادة من نفح الطيب .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطات الثلاثة ، وإثباتها لازم للسياق .

(٣) هذه الزيادة واردة فى نفح الطيب .

(٤) هكذا فى « ج » والملكية . وفى «الزيتونة» (ويحق) والمؤدى احد .

(٥) هذه الزيادة واردة فى نفح الطيب .

(٦) هذه الجملة ساقطة فى المخطوطات الثلاثة وواردة فى النفح .

(٧) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (بالله) .

(٨) وردت فى المخطوطات الثلاثة (تقد . تعد) والتصويب من النفح .

(٩) واردة فى «الزيتونة» ، وساقطة فى المخطوطين .

(١٠) هذه الزيادة من نفح الطيب .

وأبوابها بالدعاء تقصدون ، فلم يَضْجَر[١] منكم عددٌ معتبر ، ولا ظَهر للإنابة [ولا للصدقة][٢] خَبَر ، وتتوقَّوون[٣] عن إعادة الرغبة إلى الغنى الحميد ، والولى الذى إن شاء يُذْهبكم ويأت بخلق جديد . وأيم الله لو كان لَهْوا لارتُقبت الساعات [وضاقت المُتّسعات][٤] . وتزاحمت على جماله وغُصَّت الجماعات[٥] . أتعزُّزاً على الله وهو القوى العزيز ، وتابيساً على الله ، وهو الذى يُميز الخبث من الطيب ، والشِّبه من الإبريز ، أمُنابذة والنواصى بيده ، أغروراً فى الشدايد بالأمل [والرجوعُ بعد إليه][٦] . من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ثم يُنزل الرزق ويقيده ، من يُرْجع إليه فى المُلمّات ، من يُرجى فى الشدايد والأزمات ، من يوجد فى المحْيا والممات ، أفى الله شك يختلج القلوب ، أم غيرُ الله يدفعُ المكروه ، ويُيسِّر المطلوب[٧] . تغضلون على الملجأ إليه فى الشدايد ، [بواسمَ الجهل ، وثرّة الأهل][٨] وطايفة منكم قد بررت إلى استسقاء رحمته ، تمدُّ إليه الأيدى والرقاب . وتستكشف بالخضوع لعزته[٩] العِقاب[١٠] ، وتستعجل إلى مُواعد إجابة الارتقاب ، وكأنكم أنتم ، عن كَرَمه قد استغنيتم ، أو على

---

(١) وردت فى «ج» (يضجر) . وفى الملكية و«الزيتونة» (يحضجر) والتصويب من النفح .

(٢) الزيادة من نفح الطيب .

(٣) وردت فى المخطوطين (وتترفل) والتصويب من النفح .

(٤) وردت فى «ج» و «الملكية» . (المساعات) والتصويب من النفح .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » . ووردت فى النفح كالآتى (وتزاحمت على أنديته الجماعات) .

(٦) هذه الزيادة من النفح .

(٧) واردة فى «ج» والنفح . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٨) هكذا وردت فى «ج» و «الملكية» . وساقطة فى الزيتونة . ووردت فى النفح كالآتى (مرائد الفضل وثرة الجهل) .

(٩) كذا فى «ج» والملكية . وفى النفح (لعظمته) .

(١٠) هكذا وردت فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» و «الملكية» (العذاب) . والأولى أنسب للسياق .

الامتناع من الرجوع إليه بنَيتم . أما تعلمون كيف كان نبيكم صلوات الله وسلامه عليه من التبلّغ باليسير ، والاستعداد إلى (دار الرحيل)[١] الحق والمَسير ، ومداومة الجوع، وهَجْر المهجوع ،والعمل على الإياب إلى الله والرجوع. دَخلت عليه فاطمةُ رضى الله عنها ، وبيدها كسرة شعير ، فقال ما هذه يا فاطمة ، فقالت يا رسول الله ، خَبَزْت[٢] قرصة ، وأحببت أن تأكل منها ، فقال يافاطمة ، أما أنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث. وكان صلى الله عليه وسلم ، يستغفر فى اليوم سبعين مرة ، يلتمسُ رُحماه ، ويقوم وهو المغفور له ما تقدّم من ذَنْبه وما تأخَّر ، حتى تورَّمت قدماه ، وكان شأنه الجهاد ، ودأبه الجِدُّ والاجتهاد ومواقف صبره تعرفها الربى والوهاد . فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون . وإذا لم تهتدوا بهديه فبمن تهتدون ، وإذا لم تُرضوه باتباعكم ، فكيف تعتزون إليه وتَنْتسبون، وإذا لم ترغبوا فى الاتّصاف بصفاته غضباً لله (تعالى)[٣] وجهاداً ، وتقللاً من العَرَض[٤] الأدنى [وسُهادا ففيم ترغبون ، فابتروا حبال الآمال ، فكل آت قريب ، واعتبروا بمُثلات][٥] ما دَهَم من تقدم من أهل البلاد والقواعد ، فذهو لكم عنها غريب ، وتفكروا فى منابرها التى كان يعلوها واعظُ أو خطيب، ومطيلٌ ومطيب ، ومساجدها المتعددة الصفوف ، والجماعات المعمورة بأنواع الطّاعات ، وكيف أخذ الله فيها بذنب المترفين من دونهم ، وعاقب الجمهور بما أغمضوا عيونهم ، وساءت بالغفلة عن الله عُقْبى جميعهم ، وذهبت النقمات[٦]

---

(١) وردت فى «ج» للرحيل . وما أثبتناه عن النفح .

(٢) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى «الزيتونة» (أخبزته) .

(٣) الزيادة من نفح الطيب .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى النفح وفى «الملكية» (الغرض) .

(٥) الزيادة من نفح الطيب .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة (المنقمات) . والتصويب من النفح .

بعاصيهم ، ومن داهن فى أمره من مطيعهم ، وأصبحت مساجدهم [مناصب](١) للصلبان، واستبدلت مآذنهم بالنواقيس من الأذان . هذا والناس ناس ، والزمان زمان. (فما)(٢) هذه الغفلة عن من اليه الرُّجعى وإليه المصير [وإلى متى التّساهل فى حقوقه ، وهو السميع البصير ، وحتى متى مَدّ الأمل فى الزمن القصير](٣) وإلى متى نسيان اللَّجأ إلى الولى النصير . قد تداعت الصلبان مُجلبة عليكم ، وتحركت الطواغيت من [كل](٤) جهة اليكم . أفيَخْذُلكم الشيطان وكتابُ الله قائم فيكم ، وألسِنة الآيات تناديكم ، لم تمحُ سطورُها ، ولا احتجب نورُها ، وأنتم بقايا من افتتحَها من عدد قليل ، وصابرَ فيها كلّ خَطْب جليل ، فوالله لو تمحّض الإيمان ورضى الرحمن ، ما ظهر التَّثليث فى هذه الجزيرة على التوحيد ، ولا عَدِم الإسلام فيها عزمَ التأييد .ولكن شمل الداء،وصَمّ النداء، وعَميت الأبصار،فكيف الاهتداء ، والبابُ مفتوح ، والفضلُ ممنوح ، فتعالوا نستغفر الله جميعاً ، فهو الغفور الرحيم ، ونستقبل مُقيل العَثَرات ، فهو الرَّؤوف الحليم ، ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدَّمت أيدينا ، فقَبُول المعاذير من شأن الكريم . سُدَّت الأبواب ، وضَعُفت الأسباب ، وانقطعت الآمال إلا منك يا كريم [يا فتّاح](٥) ، يا وهّاب . يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله يَنْصُركم ، ويُثَبِّت أقدامكم [يا أيها الذين آمنوا](٦) قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غِلْظَةً ، واعلَموا أن الله مع المتّقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا ، وأنتم الأعلَوْن إن كنتم مؤمنين . يا أيها الذين آمنوا ، اصْبِروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . أعدُّوا الخيل

(١) الزيادة من النفح .
(٢) الزيادة من النفح .
(٣) الزيادة من النفح .
(٤) الزيادة من النفح .
(٥) الزيادة من «الزيتونة» والنفح .
(٦) الزيادة من النفح .

وارتبطوها ، وروضوا النفوس على الشهادة واغبطوها ، فمن خاف الموت رَضِي بالدنِيَّة ، ولابد على كل حال من المَنِيَّة ، والحياة مع الذل ليست من شيم أهل العقول والنفوس السَّنِيَّة . واقتنوا السلاح والعُدَّة ، وتعرَّفوا إلى الله فى الرَّخاء يعرفكم فى الشدَّة ، واستشعروا القوة بالله [تعالى][1] على أعدايه وأعدايكم ، واستميتوا من دون أبنايكم ، وكونوا كالبُنْيان[2] [المرصوص][3] لحملات العدو النازل بفَنايكم ، وحُطُّوا بالتعويل على الله وحْدَه بلادكم . واشتروا من الله جل جلاله أبناءكم .

ذكروا أن امرأة احتمَلَ السَّبْعُ ولَدَها ، وشَكَتْ إلى بعض الصالحين ، فأشار عليها بالصدقة [فتصدّقت][4] ، برغيف . فأطْلق السبع ولَدها . وسمعت النِدا [يا هذه][5] لُقمةٌ بلقمة ، وإنَّا لما استَوْدَعناه لحافظون . أهجروا الشهوات ، وَاسْتَدْرَكوا الباقيات[6] من قبل الفَوات ، وأفْضِلوا لمساكينكم من الأقوات ، واخشعوا لما أنزل الله [تعالى][7] من الآيات ، وخذوا نفوسكم[8] بالصَّبر على الأزمات ، والمواساة فى المُهِمَّات ، وأيقظوا جفونكم من السِّنات . واعلموا أنكم رُضَّع[9] ثَدْى كلمة التوحيد ، وجيران البلد الغريب ، والدِّين الوحيد ، وحزب التمحيص ،

---

(١) الزيادة من نفح الطيب .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» . ووردت فى «ج» وفى النفح (كالبناء) والأولى أنسب للسياق .

(٣) هكذا فى «ج» . ووردت بالملكية» محرفة (المرسوس) .

(٤) الزيادة من النفح .

(٥) الزيادة من النفح .

(٦) هكذا وردت فى «الملكية» و «الزيتونة» . وفى «ج» والنفح (البقية) .

(٧) الزيادة من النفح .

(٨) وردت فى «ج» و «الملكية» (من لكم) . والتصويب من النفح .

(٩) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» . ووردت فى «ج» والنفح (رضعاء) .

ونَفَر [المرام][١] العَوِيص ، فتفقّدوا مُعاملتكم مع الله [تعالى][٢] ، فمهما رأيتم الصّدق غالباً . والقلب للمولى الكريم . مراقباً[٣] وشهابَ اليقين ثاقباً ، فثقوا بعناية الله التى لا يَغْلبكم معها[٤] غالب ؛ ولا ينالكم [من أجلها][٥] عدوٌّ مُطالب ، وأنكم فى السّتر الكثيف وعصمة الخبير اللّطيف . ومهما رأيتم الخواطرَ مُتبَدِّدة ، والظنونَ بالله متردِّدة ، والجهات التى تخاف ، وتُرْجى متعدِّدة ، والغفلة عن الله ملا بِسُها مُتجدِّدة . وعادة [دواعى][٦] الخذلان دايمة ، وأسواق الشهوات قايمة . واعلموا أن الله منفِّذٌ فيكم [وعدَه][٧] ووعيدَه فى الأمم الغافلين ، وأنكم قد ظلمتم أنفسكم . ولا عدوان إلا على الظّالمين . والتوبة تردُّ الشارد ، والله يحب التوّابين ، ويحب المُتطهِّرين . وهو القائل : « إن الحسنات يُذْهِبْن السيِّئات ، ذلك ذكرى للذّاكرين » . وما أقربُ صلاح الأحوال ، إذا صَلَحت العزايم ، وتوالت على حزب الشيطان الهزايم ، وخملت الدُّنيا الدنيَّة فى العُيون ، وصدقت فيها عند الله الظُّنون : « يأيها الناس إنَّ وَعْدَ الله حقٌّ ، فلا تغُرَّنَّكم الحياة الدنيا ، ولا يغُرَّنَّكم بالله الغَرُور » . وتوبوا سراعاً إلى طهارة القلوب ، وإزالة الشوْب ، واقصدوا أبواب غافر الذنوب[٨] ، وقابل التّوب . واعلموا أن سوء الأدب مع الله ، بفتح أبواب الشدايد ، ويسُدُّ طريق[٩] العوايد ، فلا تَمْطُلوا بالتوبة أزمانكم ، ولا تأمنوا مكر الله ، فتغَشوا إيمانكم ، ولاتُعلِّقوا

---

(١) و(٢) الزيادة من النفح .

(٣) هكذا وردت فى «ج» والنفح . ووردت فى « الملكية » و الزيتونة (راغبا وراقبا) .

(٤) هكذا فى الزيتونة و «النفح» . وفى «ج» عليها .

(٥) هكذا وردت فى الزيتونة و «الملكية» . وفى «ج» لأجلها .

(٦) الزيادة من النفح .

(٧) الزيادة من النفح .

(٨) هكذا فى الزيتونة . وفى «ج» و النفح (الذنب) والأولى أنسب للسياق .

(٩) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى النفح (طرق) .

متابعكم بالضرائر [١] . فهو علام السرائر ، وإنما علينا معاشر الأولياء أن ننصحكم ، وإن كنا أولى بالنصيحة . ونعتمدكم بالموعظة الصريحة ، الصادرة عن علم الله عن صدق القريحة . وإن شاركناكم فى الغفلة ، فقد ناديناكم [٢] إلى الاسترجاع والاستغفار ، وإنما لكم الدنيا نفس مبذوله فى جهاد الكفار . وتقدم إلى ربكم العزيز الغفار ، وتقدم لديكم إلى مواقف الصبر . التى لا ترتضى ، بتوفيق الله الفرار ، واجتهاد فيما يعود بالحسنى وعقبى الدار . والاختيار لله ولى الاختيار . ومصرف الأقدار . وها نحن نسرع فى الخروج إلى مدافعة هذا العدو . [ونفدى بنفوسنا] [٣] البلاد والعباد . والحريم [المستضعف] [٤] والأولاد . ونصلى من دونهم [نار] [٥] الجلاد . ونستوهب منكم الدعاء إلى من وعد بإجابته . وتقبل من صرف إليه وجه إنابته . اللهم كن لنا فى هذا الانقطاع نصيراً ، وعلى أعدائك ظهيراً . ومن انتقام عبدة الأصنام مجيراً ، [اللهم] [٦] قو من ضعفت حيلته ، فأنت القوى المعين ، وانصر من لا نصير له إلا أنت ، إياك نعبد ، وإياك نستعين . اللهم ثبت أقدامنا [وانصرنا] [٧] عند تزلزل الأقدام ، ولا تسلمنا عند لقاء عدو الإسلام ، فقد ألقينا إليك يد الاستسلام ، اللهم دافع بملائكتك [٨] المسومين ، [عمن ضيقت أرجاؤه ، وانقطع إلا منك رجاؤه [٩] . اللهم هيئ لضعفائنا ، وكلنا ضعيف فقير

(١) هكذا فى الزيتونة و « النفح » . ووردت محرفة فى « الملكية » وفى « ج » (الغرايز الفراير) .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (سبقناكم) .

(٣) وردت فى« ج » والملكية (ونفدى بنفسنا) . وفىالزيتونة (ونفد بنفسنا) . والتصويب من النفح .

(٤) الزيادة من النفح .

(٥) الزيادة من النفح .

(٦) الزيادة من النفح .

(٧) الزيادة من النفح .

(٨) وردت فى المخطوطين (بلايتك) والتصويب من النفح .

(٩) وردت فى المخطوطات الثلاثة (رجاؤنا) والتصويب من النفح .

[إليك](١) . ذليلٌ بين يديك حقيرٌ . [رحمة تُروى بالأزمة وتشبع ، وقوةً تطّرد وتُستَتبع ، ياغِلاب الغُلاّب . ياهازم الأحزاب . يا كريم العوايد . يا مُفرّج الشدايد ، ربّنا أفرِغ علينا صبراً ، وثبّت أقدامنا . وانصُرنا على القوم الكافرين](٢) . اللّهم اجعلنا ممن تيَقّظ [فتيقّظ](٣) ، وذَكَر فتذَكَّر ، ومن قال لهم الناسُ إن الناسَ قد جمعُوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً . وقالوا حسبُنا الله ونِعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ ، لم يَمسَسْهم سوء ، واتبعوا رِضوان الله ، والله ذو فضل عظيم . وقد وَرَدَت علينا المخاطبات من قِبَل إخواننا المسلمين ، الذين عرّفنا في القديم والحديث اجتهادَهم ، وشكرنا في ذات الله [تعالى](٤) جِهادَهم ، بني مَرين ، أولى الامتِعاض الله والحَمِيّة ، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزِيّة ، بعَزْمهم على الامتعاض لحقّ الجِوار . والمُصارخة التي تليق [بالأحرار](٥) [والنَّفْرة لانتهاك ذِمار بيتهم المختار . وحركة سلطانهم](٦) محلّ أخينا بمن له من الأولياء والأنصار ، إلى الإعانة على هؤلاء الكُفّار ، ومدافعة أحزاب الشيطان وأهل النّار . [فاسألوا الله تعالى](٧) إعانَتهم على هذا المَقْصد الكريم الآثار . والسعى الضّمين(٨) للعزّ والأجْر والفَخَار . والسّلام الكريم يخصّكم أيها الأولياء ورحمة الله وبركاته . في الثاني عشر من شهر رمضان المعظم من عام سبع وستين وسبعمائة . عرّفنا الله خيره . صحّ هذا . فكان دفاعُ الله أقوى ، وعصمته أكفَى . والحمد لله على عوايده الحُسنَى .

---

(١) الزيادة من «الزيتونة» .

(٢) ما بين القوسين إبتداء من (عمن ضيقت) ساقط كله في النفح . وما بين القوسين إبتداء من (رحمة تروى) ساقطة في الزيتونة .

(٣) الزيادة من الزيتونة .

(٤) الزيادة من النفح .

(٥) الزيادة من «الزيتونة» والنفح .

(٦) ما بين القوسين ساقط في الزيتونة .

(٧) ما بين الحاصرتين وارد في النفح . ووردت في «ج» و «الملكية» (فاسل . فارسل) .

(٨) هكذا وردت في النفح . ووردت في «ج» و «الزيتونة» (الضامن) .

ومن الغيرة على الدين ، وتغيُّر أحوال الملحدين ، من مآزق جهاد النفس ، ما وقع به العمل من إخماد البِدَع . وإذهاب الآراء المضلة ، والاشتداد على أهل الزَّيْغ والزَّنْدَقة . وقد أضاقت[1] أرباب هذه الأضاليل الشريعة ، وسُدّت مضرُّهم فى الكافّة ، فيُسلَّط عليهم الحكّام . واستدعيت الشهادات . وأخذهم التّشريد ، فهل تُحِسُّ منهم أحداً ، أو تسمع لهم رِكزاً .

وقُيِّد فى ذلك عنى مقالات أخرى . منها رسالة « الغَيْرة على أهل الحَيْرة » ، ورسالة « حَمْل الجمهور على السُّنن المشهور » . ورسالة « أنْشَدتُ على أهل الرِّد » . فارتفع الخوضُ ، وكسَدَت تلك الأسواق الخبيثة . وصُمَّ[2] منها الصَّدا ، ووضُح نار الهُدى ، والحمد لله ، ولو تتبعت مناقب الهدا ، لأخرج ذلك عن الغرض .

الأحداث

وفى غرة ذى الحجة كانت الثورة الشَّنعاء ، المُجْحفة بالدولة ، وقد كان السلطان أُنْذِر بطائفة ، تُداخل بعض القرابة ، فعاجَلَه بالقبض عليه ، وهو فى محل ولايته ، فصُفِّد وأُحمِل إلى قَصَبة ألمريّة ، وخاف أرباب المكيدة افتضاح الأمر ، فتعجَّلوا إبْراز الكامن ، وإظهار الخَبيث ، وتولّى ذلك جُملة من بنى غرون ذُنابى بيت الإدبار ، وقد عابهم من بنى مطرون ، يدور أمرهم على الدَّليل البَرْكى[3] ، فأكذب الله دَعْوتهم ، بعد أن أركبوا الشيخ عليًّا بن نصر ، ونصبوه تلقاء القلعة بباب البُنُود[4] ، ودَعَوا الناس إلى بيعته . وأخذ السلطان حِذْره ، وناصبهم

(١) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» (أضيقت) .

(٢) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» وفى «الملكية» وضم .

(٣) الدليل البركى يشير به إلى أحد وزراء الغنى بالله ، وهو الذى قام بتدبير تلك الثورة التى نشبت فى سنة ٧٦٧ ﻫ (١٣٦٦ م) .

(٤) باب البنود هو من أبواب حى القصبة الجديدة من غرناطة . وكان يقع قبالة الحمراء وقباله القصبة القديمة ، يفصله عن قصبة الحمراء نهر حدره .

القتال ، وأشاع العَطا ، واستركب الجيش ، وعمّر الأسوار . فأخفق القصد ، وفرّ الدليلُ البركى ، وتقبّض على الرئيس المذكور ، وجعل الله العاقبة الحسنة للسلطان .

وكان مما أمليته يومئذ بين يدى السلطان - من الكلام المرسل - ما هو نصه ، بعد الصّدر : وإلى هذا فمما أفادته الفِطَر السليمة ، والحِلْم والقضا بالشريعة ، والنَّقل الشرعى والسَّنن المَرْعى ، أنَّ مُغالب الحقّ مغلوب ، ومزاحمَ الله مهزوم ، ومكابرَ البرْهان بالجهل موسُوم ، ومرتع الغىّ مهجور ، وسيفَ العُدوان مفلول ، وحظّ الشيطان مَرْكوس ، وحزبَ السلطان منصور . ولا خفاء بنعمة الله علينا ، التى أطْرَدَها[1] فى المواطن العديدة ، والهَضْبات البعيدة ، والشُّبُهات غير المُبِينة ، والظُّلمات الكثيفة ، معلنٌ بوُفور الحظّ من رحمته ، وإبراز[2] القِداح فى مجال كَرامته ، والاختصاص بسِما اختياره . فجعلَ العصمةَ ليلةَ الحادث علينا من دون مَضْجع أماناً ، ونَهَجَ لنا سبيل النّجاة بين يَدَى كَسْبه علينا ، وسخّر لنا ظَهْرى الطَّريف والطريق ، بعد أن فرّق لنا بحر الليل ، وأوضح لنا خفىّ المسالك ، وعبّد لنا عاصِى الحَزْم ، ودمّث غَمْر الشَّعْراء[3] ، وأوْطَأنا صَهْوة المَنَعَة ، وضَرَب وجوه الشِّرذمة المُتبِّعة ، بعد أن ركضوا قَنِيب[4] البَراذِن البادِنة ، من خزاين إهدائنا ، المُتجمِّلة بحَلْى رَكْبنا ، وتحمّلوا السلاح والرِّياش المُختار من أثير صِلاتنا ، وأبْهَروا الأنفاس التى طال ما رفعها إيناسُنا وأبلَغها الريقُ تأمينَنا ، وصبّبُوا العَرَق الذى أفضله طعامُنا ، شَرِهين إلى دَمِنا ، المَحْظور بالكتاب والسُّنّة ، المحوطِ بسياج البَيْعة ، المحصّن عنهم بتقديم النِّعمة ، وحُرْمة الأب ومُتَعدّد الأذمّة ، فجعل

(١) وردت فى «ج» اطرادها ، وفى «الملكية» اطردها . والتصويب من «الزيتونة» .

(٢) وردت فى «ج» وبراز . وفى «الملكية» (وبواز) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٣) الشعراء هى الأرض الكثيرة الشجر .

(٤) قنيب أى الجمع المتكائف .

الله بيننا وبينهم حاجزاً ، وسَدَّ ليأجُوجِهم [من][1] المَرَدَة[2] مانعاً ، وانقلبوا يُعضون الأنامل الغَضَّة من سُرَيْط جفاننا ، ويقلِّبون الأكُفَّ التى أجْدَبها الدَّهر ، ترفيعاً من المهن المُتَرتِّبة[3] [فى][4] خدمتنا ، قد حالهم صِغار القَدْر . وذلُّ الخَيْبة ، وكَبَح[5] الله جماعتهم عن التَّنَفق بتلك الوسيلة . واحتَلَلْنا قَصَبة وادى آش ، لانملك إلا أنفُسَا ، لم يَشُبْها غشُّ المِلَّة ، ولا كيادُ الأمة . ولا دَنَّسها والحمد لله عارُ الفاحشة . ولا وَسَمَها الشُّوم فى الولاية ، [ولا][6] أحبط عمل نجابَتِها[7] دَخْلُ العقيدة ، ولا مرضُ السَّريرة ، مذ سَلَّمنا المَقادة لمن عَطَف علينا القلوب ، وصَيَّر إلينا مُلْكَ أبينا من غير حَوْل ولا حيلة ، نرى أنَّها أمْلاكُ لحرمتنا . وأعْلَمُ بما كنَّا[8] ، وأرحَمُ بنا ، فتشَبَّثت بها القدَم ، وحَمِيت لنا من أهلها ، رعاهم الله الهِمَم ، وصَدَقت فى الذَّبِّ عنَّا العزايم ، وحاصرنا جيشُ العدُو ، وأولياء الشياطين ، وظهر[9] الباطل ، فبان الظَّفَر والاستقبال ، وظَهَرت الفيةُ القليلة ، والله مع الصابرين ، فغُلِبوا هناك وانقلبوا صاغرين . ومع ما لنا من الضِّيق ، وأهمَّنا من الأمر ، فلم نُطْلق[10] به غارة ، ولا شَرِهنا إلى تغيير[11] نِعْمة ، ولا سرَّحنا عنا اكتساحٌ على[12] هجمة ، ولا شِعنا لِبْساً فى بيتٍ ولا حُلَّة ، وأمْسَكنا الأَرْماق

(١) الزيادة من «الزيتونة» .

(٢) وردت فى «ج» (المودة) . والتصويب من «الملكية» .

(٣) هكذا وردت فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (المتربة) .

(٤) وضعناها ليستقيم السياق .

(٥) هكذا وردت فى «الملكية» و «الزيتونة» . وفى «ج» (وجمح) . والأولى أنسب للسياق

(٦) الزيادة من «الزيتونة» .

(٧) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (نجاتها) .

(٨) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (بمالنا) .

(٩) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» (وطهر) .

(١٠) وردت فى «ج» (نطق) والتصويب من «الزيتونة» .

(١١) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (تنير) والمؤدى واحد .

(١٢) هكذا فى «الزيتونة» وفى «الملكية» وفى «ج» (إلى) .

بيَسير الحلال(١) الذى اشتملته خزائننا من أعْشار وزَكَوات ، وحظوظ من زِراعات ، وارتقبنا الفَرَج مِمَّن مَحَّص بالشِّدة ، والإقالة ممن نَبَّه من الغفلة ، وألْهم الإقلاع والتَوْبة . ثم وفَّقَنا(٢) سبحانه ، وألهمنا من أمْرِنا رَشداً ، وسلك بنا طريقاً فى بَحْر الفِتنة يَبساً ، فِدْناه بحقن الدماء، وتأمين الأرْجاء ، وشَكَرْنا على البَلاء ، كشُكْرِنا إيّاه [على](٣) الآلاء . وخَرَجْنا عن الأندلس ، ولقد كاد ، لولا عِصْمَتُه ، بأن نذهب [مذاهب الزَّوْراء](٤) ، ونَسْتأصل الشّأفة ، ونستأصل العَرْصة ، سبحانه ما أكْملَ صُنْعه ، وأجْملَ علينا سِتْره ، إلى أن جُزْنا البحر ، ولحقنا بجوار سلطان المغرب ، لم تَنْبُ عنّا عيْنُ ، ولا شَمَخَ علينا أنفُ . ولا جَل علينا بَرَكْب(٥) ، ولا هَتَفت(٦) حولنا غاشية(٧) ، ولا نُزِع عنّا [التقوى والعَفاف](٨) سِتر ، بل كان الناس يُوجبون لنا الحقَّ الذى أغْفَله الأوغاد(٩) من أبناء دولتنا، والضَّفادع ببركة نعمتنا، حتى إذا الناس عافوا الصَّيحة(١٠)، وتَمَلَّوا(١١) الحسرة، وسيموا الخسار والخيبة ، وسامهم(١٢) الطَّغام الذين لا يرجون لله وقاراً ، ولا يألون لشعايره المعظَّمة احتقاراً ، كلابُ الأطماع ، وعَبَدَةُ الطاغوت ، ومدَبّرو

(١) وردت فى «ج» (الحال) والتصويب من الزيتونة .

(٢) هكذا فى «ج» . ووردت محرفة فى «الزيتونة» و «الملكية» (أوقفنا . وقفنا) .

(٣) الزيادة من الزيتونة .

(٤) فى المخطوطين (مذاهب ندمت الزوراء) . ونعتقد أن التصويب أفضل للسياق .

(٥) الركب — الجماعة من عشرة إلى ما فوق .

(٦) وردت فى «ج» (خفت) وفى الملكية (حفت) . وفى الزيتونة (هتف) . والتصويب أوجه .

(٧) وردت فى «ج» غايشة . والتصويب من الملكية .

(٨) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الملكية» (العفاف والتقوى) .

(٩) هكذا فى «ج» . وفى الزيتونة (الأعوان) والأولى أنسب للسياق .

(١٠) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (الهجية) .

(١١) هكذا فى «الملكية» . وفى «ج» (وملوا) . والأولى أنسب للسياق .

(١٢) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (وساسهم) .

حُجُون الجهل. ومياسِيس أسواق البُعد عن الرَّب. وعرايس مَحْرم الزينة ، ودُود القزّ ، وثِغار النَّهم. الأعزّة[١] على المؤمنين بالباطل. الأذلَّة[٢] فى أنفسهم بالحق، ممن لا يُحسن المحاولة . ولا يلازم الصَّهوة . ولا يحمل السلاح . ولا يُنزه مجتمع الحِشمة عن الفحشاء ، ولا يُطعم المسكين ، ولا يشعر بوجود الله ، جاروا[٣] من شقيّهم[٤] [المحروم][٥] ، على مضعوفٍ مُلْتف فى الحَرَم المحصور ، مُحتف بلُطف المهد ، مُعلَّل بالخداع ، مسلوب الجرأة بأيدى انتهازهم ، شؤمٍ على الإسلام، ومعرَّةٍ فى وجه الدين ، أخذ الله منهم حق الشريعة ، وأنصف أيمّة الملّة. فلم ينشِبوا أن تهارشوا ، فعَضَّ بعضُهم ، واستأصلهم البَغْى ، وأُلحم للسيف ، وتفُنن القتل ، فمن بين مُجدَّل ، يُوارى بأحلاس الدَّواب الوَبِرة[٦] ، وغريقٍ يُزف[٧] به إلى سوء المَيْتة ، واستُبيحت حُرمة الله ، واستُضيم الدِّين، واستُبيحت المحرّمات ، واستُبْضعت الفروج فى غير الرِّشْدة . وساءت فى عدوِّ الدِّين الحيلة، فتحرَّكنا عن اتفاق من أرباب الفُتْيا ، وعزمٍ من أولى الحريّة ، وتحريض من أولى الحَفِيظة والهمّة ، وتداخرٍ[٨] من الشوكة ، وتحريك من وراء البحر من الأُمة ، فـكان ما قد علمتم من تَسْكين الثَّايرة [وإشكا العديم][٩] ، وإصمات الصارخ ، وشَعْب الثَّأى ، ومعالجة[١٠] البلوى ، وتدارك القَطْر ، وقد أشْفَى ، وكشف الضرِّ والبأسا [أما

(١) هكذا فى «ج» . وفى الزيتونة (العزة) . وفى الملكية (الغرة) . والأولى حسب السياق .

(٢) وردت فى «ج» (الأقلة) . والتصويب من «الملكية» .

(٣) هكذا فى «الملكية» . وفى «ج» داروا .

(٤) وردت فى «ج» سقيهم . والتصويب من «الزيتونة» .

(٥) الزيادة من «الزيتونة» .

(٦) وردت فى «ج» الدبرة . والتصويب من «الملكية» و «الزيتونة» .

(٧) هكذا وردت فى «ج » . ووردت فى «الملكية» و «الزيتونة» (يروف) والأولى أنسب السياق .

(٨) هكذا فى «ج» و «الملكية» . والتداخر تعنى هنا الدفع .

(٩) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» .

(١٠) وردت فى «ج» (معاجلة) والتصويب من «الزيتونة» .

الجبوة فالتمسها . وجل الرب . واستشاط عليها جو السماء](١) . وأما مرافق البحر ومرافده . فسدت طرقها أساطيل الأعداء . وأما الحمية فبددها(٢) فساد السيرة ، وغمط الحق ، وتفضيل الأذى . وأما المال فاصطلم السفه بيضاءه وصفراءه ، وكبس خزاينه حتى وقع الإدقاع والإعدام . وأقوى العامر . وافتقرت الجابي والمغابن ، واغتربت جفون السيوف من حلاها . وجردتموه الآلة إلى أعلاها(٣) ، والدغل المستبطن [الفاضح](٤) ، ويمحض الحين ، وأسلمت للنواء العرصة ، وتخربت الثغور من غير مدافعة ، واكتسحت الجهات فلم يترك بها نافخ ، ووقع القول ، وحق البهت ، وخذل الناصر ، وتبرأت الأواصر ، فحاكنا العدو إلى النصفة . ولم نقره على الدنية ، وباينناه أحوج ما كنا إلى كدحه ، وأطمع ما أصبحنا فى مظاهرته على الكفار مثله ، اعتزازاً بالله ، وثقة به ، ولجأ إليه وتوكلاً عليه ، سبحانه ما أبهر قدرته ، وأسرع نصرته ، وأوحى أمره ، وأشد قهره . وركبنا بحر الخطر ، بجيش [من التجربة](٥) ونهدنا قدماً ، لانهاب(٦) الهول ولا نراقبه ، وأطللنا على أحواز ريه(٧) فى الجمع القليل ، إلا من مدد الصبر المفرد ، إلا من مظاهرة الله الغفل ، إلا من زينة الحق المظلل جناح عقابه بجناح الروح ، تسد جياده بصهيل العز ، المطالعة غرره بطليعة النصر . فلما أحس بنا المؤمنون المطهرون(٨) بساحتهم . انتزوا من عقال الإيالة الظالمة ، والدعوة الفاجرة ،

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» و «الملكية» . وساقط فى الزيتونة .

(٢) هكذا فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» و «الملكية» (فشدها) . والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» علاها .

(٤) هذه الزيادة من « الزيتونة » . ولكن قد وردت كلمة (الفاضح) فى «ج» بعد كلمة (الحين) .

(٥) هكذا وردت فى «الملكية» وفى «الزيتونة» . وفى « ج » (من تجاربه) .

(٦) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (نهب) والتصويب أرجح .

(٧) وردت فى «ج» و «الملكية» (احواز أربه) وهو تحريف . وولاية ريه المذكورة هنا هى الولاية الأندلسية التى تقع بها مالقة وأحوازها من الشمال والغرب .

(٨) وردت فى «ج» (المضطهدون) . والتصويب من «الملكية» وهو أرجح .

وتبرأوا من الشرْذِمة الغاوية . والطّايفة المُناصبة لله المحاربة . وأقبلوا ثُنَيَّات وأفراداً، وزُرافات ووحداناً. ينظرون بعيون لم تُرْوَ من غَيْبتنا. من مُحيًّا رحمةٍ، ولا اكتحلت بمنظر رأفةٍ، ووجوه عليها قسوة الخَسْف، وإبشار عليها بوسُ الجهد، يتعلقون بأذيالنا تعلق الغريق، يئنون من الجوع والخوف أنين المرضى، ويجهَشُون بالبكاء، ويُعلنون لله ولنا بالشكوى. فعرّفناهم الأمان من الأعداء، وأول عارفةٍ جعلونا عليهم، وصرفنا وجه التّأمين والتّأنيس، وجميل الوُد إليهم، وخارَطْناهم[1] الإجْهاش والرّقْعة، ووَثّبْنا[2] لهم من الذّلة، واستولينا على دار الملك ببلدهم[3]. فأنْزَلنا منها أخابيث كان الأشقياء مُخلّفُوهم بها، من أخلاف لا يزال تطأ إبشارهم الحدود، وتأنف من استكفايهم البهود، وانثالت علينا البلاد، وشَمّر الطاغية ذيله عن الجهات، وواجع الإسلام رَمَق[4] الحياة، وحَثَثْنا السير إلى دار الملك، وقد فرّ عنها الشقي الغاصب. بشوكةِ بغيه، التى أمدّته فى الغيّ، وأجْرَته على حُرمة الله، وقصد دار قَشْتالة، بكل ماصانَتْ الحقاق من ذخيرة، [وحجبت الأمهاء من خرزَة ثمينة][5] يتوعدون المسلمين بإدالة الكفر من الإيمان، واقتياد جيوش الصُّلبان، وشدّ الحيازِم إلى تبديل الأرض غير الأرض، وسَوْم الدّين، وطمس معالم الحق، كياداً لرسول الله فى أمته، ومناصبةً [له][6] فى حنيفيّته، وتبديلا لنعمة الله كُفْراً. ولمعروف الحقّ نُكراً، أصبح[7] له الناس على مثل الرَّضْف، يرتقبون إطلال الكريهة، وسقوط الظُّلّة،

---

(١) وخارطناهم (هكذا فى ج والملكية) معناها وبكينا بكاء شديداً.

(٢) وثبنا بالتشديد معناها، أكرمناهم وأقلناهم من الذلة.

(٣) هكذا فى «الزيتونة» و«الملكية». وفى «ج» ببلادهم.

(٤) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» و«الملكية» (الى) والأولى أرجح للسياق.

(٥) هذه العبارة واردة فى «ج» و«الملكية». وساقطة فى «الزيتونة».

(٦) وردت فى «ج» (لله)، وفى «الملكية» (لرسول الله) مرة أخرى. والتصويب أنسب للسياق

(٧) وردت فى «ج» (أصح) والتصويب من «الملكية».

وعودة الكَرَّة ، وعُقْبى المَعَرَّة ، والله من ورائهم مُحيط ، وبما يعملون محيط ، ولدعاء المستضعفين من المؤمنين مُجيب ، ومنهم وإن قعدوا فى أقصى الأرض قريب . ولم نقدم [منذ][1] حللنا بدار الملك شيئاً على مراسلة صاحب قشتالة فى أمره ، نناشده العَهْد ،ونُطرى له الوفاء ، ونُناجزه إلى الحق ، ونقوده إلى حُسْن التلطُّف، إلى الذى نشاء من الأمن ، لحسم الداء ، واجتثّ الأعداء ، وناصح الإسلام وهو أبدا عدُوه ، وحَزَم الدين ، وهو المعضل[2] من أدْوايه ، وصارت صُغرى عناية الله بنا ، التى كانت العُظمى ، واندرجت أُولاها فى الأخرى ، وأتت ركايبُ اليُمْن واليَمين ، تترى ، ورأى المؤمنون أن الله لم يخلق هذا الصُّقْع سدًى ولا هباء عبثاً ، وأن له فينا خبيئةُ غيب ، وسرُّ عناية ، يبلِّغُنا إياها ، ويطوِّقنا طوقها ، لامانع لعطايه ، ولا مُعدِّد لآلايه ، له الحمد ملء أرضه وسمايه .

فمن اضطردت له هذه العجايب ، فحملته[3] عوايق الاستقامة مزيّة جيوب التقوى ، كيف لا ينمى ، ويدين لله بمناصحته ، ويحذر عناد الله بمخالفته ، ويخشى عاقبة أمره ، إنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . فقلمنا أظفار المطالبة [وأغضينا عن البقيّة][4] وسوّغنا من كشف وجهه فى حَرْبنا نعمة الإبقاء ، وأقْطعنا رَحِم من قطع طاعتنا جانب الصَّفح ، وأدْرَرْنا لكثير ممن شَحّ عنا ولو بالكلمة الطيبة جورية[5] الرزق ، ووهّبنا ما وجب لنا من الحق ، ودنّا له بكظم الغيظ ، وعَمَرنا الرُّتب بأربابها ، وجردنا الألقاب بعد خرابها ، وقبضنا

(١) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة وبإثباتها يستقيم السياق .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت محرفة فى «ج» (المعضل) .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (فحملة) . والتصويب أنسب للمعنى .

(٤) وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (واغضينا على البقية) . وفى «ج» (واغضينا طرف التبعية) .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة والمقصود بها (الجراية) .

الجباية مُحمَّلة كَنَد العادة ، مقودة بزمام الرِّفق . ممسوحاً عطفها بكف(١) الطواعية . فبلّنا صدأ الجيش المَمْطول بالأماني ، المُعلل بالكذب ، المُستخدم فى الذب عن مجاثم الفحشاء ، ومراقد العَهْر ، وداريْنا الأعداء ، وحسمنا الداء ، وظهر أمر الله وهم كارهون . إلا أن تلك الشرذمة الخبيثة ، أبقت جرائيم نفاق ، رَكبها انحجار الغدر ، وبَذَر بها حصيدُ الشر ، وأخلطوا الحقايب الآمنة ممن ساء ظنه ، وخبُث فكره ، وظن أن العقاب لا يفلته ، والحق لا يَنْدَرُه ، والسياسة لا تحفزُه ، فدبت عقاربهم ، وتدارت طَوافاتهم ، وتأبَّت(٢) فسادُهم ، فدبَّروا أمراً تبره الله تتبيرا ، وأوسعه خزياً وبيلا ، وجعلوا يرتادون من أذيال القرابة ، مَن استخلصه الشيطان وأصحبه الخذلان ، من لا يصلح(٣) لشيء من الوظائف ، ولا يستقل ببعض الكُلف . فحركوا منهم زاهق(٤) زمانه ، من شر الدوّاب الذين لا يسمعون ، فأجَّرهم رسَنه ، وتوقف(٥) وقفة العين بين الورد والصَّدر . بخلال ما أطامنا الله طلع نيّته ، فعاجلناه بالقبض ، واستودعناه مَصْفداً ببعض الأطباق البعيدة ، والأجباب(٦) العميقة ، فخرج أمرهم ، وخافوا أن تحترش السعايات ، صباب مكرهم ، وتتبع نفاقهم ، فأقدموا إقدام العير على الأسد ، استعجالا للحين ، ورجماً لحكم الخيار ، وإقداما على التى هى أشد ، تولى كبرها ، وكشف وجهه فى معصيتها الخبيث البركى(٧) حِلف التهور والخرق ، المموه بالبسالة وهو الكذوب النكوث الفلول ، تحملنا هفوته ، وتغمدنا

---

(١) وردت فى المخطوطين (الكف) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» و «الملكية» (وتبات) . والأولى انسب للسياق .

(٣) وردت فى «ج» و «الملكية» (يصح) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٤) هكذا وردت فى «ج» و «الملكية» وفى الزيتونة (زهو) والأولى أرجح .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (ووقف) .

(٦) وردت فى «ج» (والأجبال) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٧) البركى . وقد سبق أن عرفنا بصاحب هذا الاسم .

بالعدو قديماً وحديثاً زلته ، وأعرضنا فيه عن النصيحة ، وأبقينا له حكم الولاية ، وأمنا من نفرته ، وتعافقنا عن غرته . وسوغنا الجرايم التى سبقت ، والجراير التى سلفت ، من إفساد العهد وأسر المسلمين ، والافتيات على الشرع ، والصدوع بدعوى الجاهلية ، فلم يفده . إلا بَطَراً ، ولم يزده إلا مكراً ، والخير فى غير أهله يستحيل شرًّا ، والنفع ينقلب ضُرًّا . والتفت عليه طايفة من الخلايق[1] بنوغرون قرية الجبل والمشأمة ، وأذناب بيت الإدبار ، ونفاية الشرار ، عَرَك جرأتهم مكان بحرهم البائس ، ابن بطرون[2] ، الضعيف المُنة السقيط الهمة ، الخامل التفصيل والجملة . وغيرهم ممن يأذن الله بضلال كيدهم وتخييب سعيهم ، فاقتحموا البلد صبيحة يهتفون بالناس أن قد طرق حِمامهم ، وأن العدو قد دَهَمَهم ، ملتفتين يرون أنهم فى أذى الهم ، وأن رماحهم تنهشهم وتنوشهم ، وسُرعانهم ترهقهم ، كأنهم سقطوا من السماء ، أو ندروا من بين الحصباء . ثم جالوا فى أزقة البلد يقذفون فى الصِّفاح نارَ الحُباحب[3] ركضاً فوق الصخر المرصوف ، وخوضاً فى الماء غير المرهوف . ثم قصدوا دار الشيخ البائس محمد بن أحمد بن نصر ، نفاية البيت ، ودُردى القوم ، ممسوخ[4] الشكل ، قبيح اللثغ ظاهر الكدر ، لإدمان المعاقرة ، مَزْنون[5] بالمعاقرة والربت على الكَبْرة ساقط الهمة . عديم الدين والحشمة ، مُتَنَمّت[6] فى البخل والهلع ، إلى أقصى درجات الخسة . مثل فى الكذب والنميمة ، معيَّب[7] المثانة . لا يُرق بوله ، ولا يجف سَلَسُه[8] . فاستخرجوه مُبايعاً فى الخلافة ، منصوباً بأعلى كرسى الإمامة ، مدعواً

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (الخلائف) . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» ابن بطون .

(٣) نار الحباحب : أى ما تطاير من شرر النار فى الهواء من تصادم حجارة أو نحو ذلك .

(٤) هكذا فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» (من شيوخ) . والأولى أرجح .

(٥) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (موقون) . والمزنون ، المحقون البول .

(٦) وردت فى «ج» وفى «الملكية» (منتجة) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٧) وردت فى «ج» (عيب) وفى «الملكية» معيب .

(٨) فى «ج» (سلسلة) والتصويب من «الزيتونة» .

بالأيدى لكونه قلقاً لا يثبت على الصَّهوة. مختاراً لحماية البَيْضة. والعدل فى الأمة، مُغْتما للذب عن الحنيفية السَّمْحة، وصعدوا به إلى ربوة بإزاء قلعتنا، مُنتترا باب البنود(١)، مستندا إلى الربض. مطلا على دار الملك، قد أقام له رسْم الوزارة ابن مطرون(٢) السكارى، الكسيح الدروب برسم المَسُومة، الحَرْدُ، المهينُ الحجة، فخلُ(٣) طاحونة الغَدْر، وقِدْر السُّوق والخيانة، واليهودى الشكل والنَّحل، وقرعت حوله طبول الأعراس، إشادة بخمُول أمره، واستهْجان آلته. ونُشرت عليه رايةٌ فال رأيها، وخاب سعيُها، ودارت به زِعْنِفة من طغام من لا يُملى ولا يزيد المَكا والصَّفير من حيله، وأنبثَّ فى سكك البلد مُنَاديه، وهَتَف أولياء باطله باسمه وكُنْيته. وانتجزوا مواعيد الشيطان فأخلَفت، ودعوا سمَاسير الغرور فصمَّت، وقدحوا زناد الفتنة فصلَدت وما أوارت. ولحين شعُرنا بالحادثة، ونظرنا إلى مَرَج الناس، واتصل بنا ريح الخلاف، وجهير الخُلعان. استعنّا بالله وتوكلنا عليه، وفَوّضنا أمرنا إلى خير الناصرين، وقلنا ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق، وأنت خير الفاتحين، واستركبنا الجند. وأذَعْنا خَبرَ العطاء، وأطلقنا بريح الجهاد، ونَفير الجلاد، وملأنا الأكُفّ بالسلاح، وعَمَرنا الأبراج بالرجال. وقرعنا طبول الملك، ونشرنا ألوية الحق؛ واستظهرنا [بخالصة الأمراء](٤) أولياء الدعوة، وخاطبنا فقيه الرَّبض، نخبر مخبره، ونُسبر غَوْره، فألفيناه متوارياً فى وكره، مُرعيا على دينه، مُشْفقاً من الإخطار برُمّه، مشيراً بكُمّه. وتفقدنا البلد، فلم نَرْتب بأحد من أهله. فلما كَمُلت البيعة. وفَخُمت الجملة، أنْهدنا الجيش، ولى أمرنا،

---

(١) هو أحد أبواب غرناطة القديمة، وقد سبق التعريف به.

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية». ووردت فى «ج» ابن بكرون.

(٣) هكذا وردت فى «ج». ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (بل). ونعتقد أن الأولى أرجح.

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج». ووردت فى «الملكة» (بخلاصة الأمر). والأولى أنسب للسياق.

الذى اتخذناه ظهيراً ، واستنبطناه مشيراً ،والتزمناه جليساً وصهيراً(١) . ولم ندخر عنه محلا أثيرا ، الشيخ الأجل ، أبا سعيد عثمان بن الشيخ أبى زكريا يحيي بن عمر بن رَحُّو ، مُمهد الرعب بقدومه ، والسعد فى خدمتنا بخدمه ، فى جيش كثيف الجملة ، سابغ العُدَّة، مُزاح(٢) العلة ، وافر الغاشية ، أخذ بباب الربَض وشُمابه ، ولفّ عليه أطنابه ، وشرع إليه أمله . ولم يكن إلا كلا ولا حتى داسه بالسنابك ، وتخلله مجرُ العوالى ، ومجرى السوابق ، وهو الحِمى الذى لا يُتوعد ، والمجدُ الذى لا يغرُب ، فلولا تظاهر مشيخته بشعار السِلْم ؛ واستظلاله بظلال العافية ، لحتّ(٣) الفاقرة ، ووقعت به الرَّزية(٤) . وفر الأعداء لأول وهلة ، وأسلموا شقيهم أذلّ من وتَد فى قاع ، وسُلَحْفة فى أعلى يَفاع ، فتُقُبِّض عليه ، وأخذت الخيلُ أعقاب الغَدَرة أشياعه ، وقيد إلينا يرسُف فى قيد المُهْزم ، ثُعْلُبان مكيدة ، وشَكيَّة ضلال ومَظِنّة فضيحة ، وأضحوكة سمر . فتضرع بين أيدينا ، وأخذته الملامة ، وعلاه(٥) الخزى ، وثُلَّ إلى المُطْبق ، حتى نستدعى حكم الله فى جُرمه ، ونقتضى الفتيا فى جريرته ، ونختار فى أقسام ما عرضه الوحى من قتلته . وهدأت الثائرة ، والحمد لله من يومها ، واجتثت شجرة الخلاف من أصلها ، فالحمد لله الذى أتم نوره ولو كره الكافرون « إن هؤلاء مُتبرٌ ماهُمْ فيه ، وباطلٌ ما كانوا يعملون » . وماذا رابهم منّا ، أصغر الله مُنْقلبهم ، وأخزى مَردَّهم ، واستأصل فُلْكهم . أولا يتبنى أمر وارثه . ثم عوده إلينا طواعية ، ثم رفعنا وطأة العدو وحَرْبه ، ومددنا ظلال

---

(١) هكذا فى «الزيتونة» «والملكية» . ووردت محرفة فى «ج» (وسهيرا) .

(٢) وردت فى «ج» (قداح) والتصويب من «الملكية» .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (المرتبة) وفى «الملكية» (المرينه) . والأولى متفقة مع السياق .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» و«الملكية» (وجلاه) والأولى أنسب للسياق .

الأمن دفعة ، وأنفأنا[١] رَمق الثغور، حين لم يجدوا حيلة إلا ما عرفوا من أمنه، وبلوا من حَيْطته[٢] وتسوّغاً من هدنه ،وانسحبت فوق آمالهم وحريمهم من عِفّة. وأظهر الله علينا من نعمة . ربنا أنك تعلم ما نخفى وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء . اللهم ألبسنا سريرتنا، وعاملنا بدَخْلتنا فيهم، وإن كنا أردنا لجماعتهم شرًّا ،وفى دينهم إغماضا ، وعن العدل فيهم عدولا ، فعاملنا بحسب ما تبلوه من عقيدنا[٣] ، وتستكشفه من خبيئتنا ، وإن كنت تعلم صحة مُناصحتنا لسَوَادهم ؛ واستنفادنا الجَهد فى إتاحة عافيتهم ، ورعى[٤] صلاحهم ، وتسكيف[٥] آمالهم ، فصلْ لنا عادة صُنْعك فيهم ، ومَسّنا طاعتهم ، واهد بنا جماعتهم ، وارفع بنظرنا إطاعتهم ، يا أرحم الراحمين .

ولما أسفر صبح هذا الصُّنع عن حُسن العفو ، وأستقر على التى هى أزكى ، وظهر لنا لا تخاف بالله دركا ولا تخشى ، وأن سبيل الحق أنجى ومحجّته أحجَى ، خاطبنا كم نجلو[٦] نعم الله قبلنا[٧] عليكم ، ونُشيد بتقوى الله بناديكم ، وعنايته لدينا ولديكم ، ونهدى طرف صُنْعه الجميل قبلنا إليكم ليكسبكم اعتبارا ، فزجُّوا الله وقارا ، وتزيّدوا يقيناً واستبصاروا ، وتصفّوا العين من اختار لكم اختيارا . وهو حسبنا ونعم الوكيل ،والله يصل سعدكم ،ويحرس مجدكم . كتب فى كذا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . صحّ هذا

---

(١) هكذا وردت فى «ج» و «الملكية» .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» وفى «الملكية» (حيطه) . والأولى أنسب للسياق .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (عقدنا) . والأولى أرجح .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى الزيتونة» (وروم) والمؤدى واحد .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى الزيتونة (تكلف) . والأولى أنسب السياق .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» (بحلو) وهو تحريف .

(٧) هكذا فى «ج» و«الزيتونة» . وفى «الملكية» (قبلكم) .

الجهاد فى شعبان من عام سبعة وستين وسبعمائة

اقتضى نظر الحزم، ورأى الاجتهاد للإسلام، إطلاق الغارات على بلد الكفرة من جميع جهات المسلمين، فعظم الأثر، وشهر الذكر، واكتسحت الماشية، وألحم السيف. وكان ثغر بُرغة[1]، الفايزة به يد الكفرة، لهذه السنين القريبة، قد أهمّ القلوب، وشغل النفوس، وأضاق الصدور، لانبتات[2] مدينة رُنْدَة، بحيث لا يخلُص الطَّيف، ولا تبلغ الرسالة من الطَّير وغيرها إلى ناحية العدو[3]. فوقع العمل على قصده، واستعانة الله عليه، واستُنْفِر لمنازلته أهل الجهات الغربية من مالَقة ورندة، وما بينهما، ويَسّر الله فى فَتْحه، بعد قتال شديد، وحرب عظيمة[4]، وجهاد شهير، واستولى المسلمون عليه، فامتلأت أيديهم أثاثاً وسلاحاً ورياشاً وآلة، وطُهِّرت للحين مساجدُه، وزُيِّنت بكلمة الله مشاهده [وأنست بالمؤمنين معاهده][5] ورُتِّبت فيه الحماةُ والرماةُ، والفرسان الكماة، واتّصلت بفتحة الأيدى، وارتفعت العوايق. وأوضحت بين المسلمين وأخوانهم السُبل، والحمد لله. وتوجّهت بفتحه الرسايل، وعُظمت المنن الجلايل، وفرّ العدو لهذا العهد عن حصن السهلة، من حصون الحُفرة اللَّويْشية، وسُدَّ الطريق المائلة، وذلك كله فى العشر الأوسط[6] لشعبان من هذا العام. ثم أجْلَب[7] المسلمون فى رُندة فى أخرياته

---

(١) هكذا فى «ج». وفى الزيتونة» (بغرة). وهو تحريف. وبرغة بالإسبانية Burgo، وهى تقع شرق رندة.

(٢) وردت فى «ج» و «الملكية» (لانتباب). وبالتصويب يستقيم المعنى. والانبتات معناها الانقطاع.

(٣) وردت بعد هذه الكلمة فى المخطوطات الثلاثة هذه العبارة المضطربة (وابه من الاعانة مسلما بها للاستباحة) وقد رأينا الاغضاء منها نظرا لاضطرابها وغموضها.

(٤) وردت فى «ج» و «الملكية» (عظيم). فاقتضى التصويب.

(٥) الزيادة من «الزيتونة».

(٦) هكذا فى «ج» وفى «الملكية» (الأول).

(٧) هكذا فى «ج» و «الزيتونة». ومعناها احتشدوا.

وقصدوا(١) [باغة وجيرة](٢) فاستنزلوا أهلها ، وافتتحوها ، فعظمت النعمة ، واطّرد الفتح ، واتسعت الجهة .

وكانت مما خوطبت به [الجهة المرينيّة](٣) من إملائى :

المقام الذى نبشره بالفتح ونحيّيه ، ونعيد له خبر المسرّة بعد أن نبديه ؛ ونسأل الله أن يضع لنا البركة فيه . ونشرك مساهمته فيما نهصره من أغصان [الزهور ونجنيه](٤) ونعلم أن عزة الإسلام وأهله أسنى أمانيه ، وإعانتهم أهمّ ما يعنيه . مقام محل أخينا الذى نعظم قدْره ، ونلتزم برّه . ونعلم سرّه فى مساهمة المسلمين وجهرَه ؛ السلطان الكذا ، الذى أبقاه [الله](٥) فى عمل الجهاد ونيته ، متكفلة بنشر كلمة الله طويّتُه ، متممةً من ظهور الدين الحنيف أمنيّته . معظّمٌ جلاله : ومُجْزَلٌ ثنايه ، ومؤمّل عادة احتفاله بهذا الوطن الجهادى واعتنايه . أيّد الله أمره ، وأعزّ نصره . سلام [كريم](٦) عليكم ، ورحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله ، واصل سبب الفتوح ، ومُجزل مواهب النّصر الممنوح . ومؤيد الفية القليلة بالملايكة والرّوح . والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه ، الآتى بنور الهدى بيّن الوضوح . الداعى من قبوله ورضوانه إلى المنهل المورود والباب المفتوح ، والرّضا

(١) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة السياق .

(٢) ورد مكانها فى «ج» (باعة وعارجير) وفى «الملكية» (باعه وعار واجره) وفى «الزيتونة» (باعث وعار وجيره) . وهذا كله تحريف شديد . والصحيح ما أثبتناه وهو (باغة وجيرة) . وهما حصنان يقعان بين رندة ومالقة . وقد استولى عليهما المسلمون بقيادة السلطان الغنى بالله فى شعبان سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) . (راجع كتابى نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (الطبعة الثالثة) ص ١٤٨ .

(٣) المقصود هنا بالجهة المرينية هو بلاط فاس . وكان ملك المغرب يومئذ هو السلطان أبو زيان محمد حفيد السلطان أبى الحسن المرينى ، وقد حكم من سنة ٧٦٢ هـ إلى سنة ٧٦٨ هـ .

(٤) وردت فى «ج» (الظهور ونجنيه) . والتصويب من «الملكية» .

(٥) الزيادة من «الزيتونة» و «الملكية» .

(٦) الزيادة من «الزيتونة» و «الملكية» .

عن آله وأصحابه . أسود الشُّروج. وحماة(١) الشُّروح ، والمقتفين نهجه فى جهاد عدو الله بالعين القارَّة والصدر المشروح. والدعاء لمقامكم العلى بالعز الرفيع الصُّروح فإنا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم سبُوغ المواهب ، ووضوح المذاهب ، وعزة الجانب ، وظفرة الكتايب . من حمراء غرناطة حرسها الله ، ونعم الله وا كفة السحايب ، كفيلةٌ بنيل الرغايب. والله يصل لنا ولكم عوارف اللطايف ، ويجعل الشَّهيد دليلاً على الغايب . وإلى هذا وصل الله إعزازكم ، وحرس أحْوازكم وعَمَّر بالحقيقة من أمراد مجازنا ومجازكم. فإنا بادرنا تعريفكم بما فتح الله علينا من الثغر العزيز على الإسلام ، العايد رزؤه الفادح على عبادة الأصنام ، رِكاب الغارات ، وممكّن حياة المضَرَّات ، ومخيف الطريق السَّابلة ، والمسارح الآهلة ، حصن بُرغة(٢) ويسَّر الله فى استرجاعه مع شهرة امتناعه ، وتطهَّرَ من دنس الكفار [وأنيرت مئذنته](٣) بكلمة الشهادة الساطعة الأنوار ، وعجلنا(٤) ذلك على حين وضعت الحرب فيه أوزارها ، ووفت الأوتار أوبارها(٥) ، فسار الكتاب إليكم ، وأجير الأجر لم يجف عرقُه ، وعذر الاستعجال لاحبة طرقُه . ولما عُدنا إلى حضرتنا ، بعد ماحصَّناه وعَمَّرناه ، وأجزلنا نظر(٦) الحزم له وفرقناه . لم تكد البنود لمسَرَّة فتحه أن تعاد إلى أماكن صونها ، مرتقبة عادة الله فى عونها ، حتى طرقت الأنباء السارة بتوالى الصنع وانفراده بتَشْفيع أفراده ، وذلك أن أهل رُندة حرسها الله ، نافسوا جيرانهم من أهل مالقة ، كان الله لجميعهم ، وتولى شكر صنيعهم ، فيما كان من امتيازهم

---

(١) هكذا فى «ج» و «الملكية» . ووردت فى «الزيتونة» (حملة) .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (حصن أشر) . ولكن من الواضح هنا أنه يقصد حصن (برغة) الذى افتتح فى هذه الغزوة . أما حصن أشر فقد افتتح فى الغزوة التالية حسبما يجىء .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (وإنارة مأذنته) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» (وجعلنا) . والأولى أرجح .

(٥) وردت فى «ج» (أوتارها) . والتصويب من «الملكية» .

(٦) وردت فى «ج» (نصر) . والتصويب من «الملكية» .

بحصن برغة ، الجار المُصاقب لها ، فحميت هممهم السنيَّة ، وهانت فى الله موارد المنيَّة . وتضافر العمل والنية . وظهر نُجح المقاصد الدينية فى إتاحة الفتوح الهنيَّة ، فوجهوا نحو حصن وحبر(١) ، وهو الداين صحر(٢) المدينة ونحرها . والعدوُّ الذى لا يفتر عن ضرها ، والحيَّة الذكر التى هى مروان(٣) أمرها ؛ فنتحوه بعون الله وقوته ، وتهنَّوا بعده سلوك الطريق ، وإشاعة الريق ، ومراصد الحرس . ومجاوِّ الجرس ، وأنصفوا ، وانصرفوا إلى حصن باغة ، من مشاهد تلك الحفرة(٤) ، فناشبوه القتال . وأذاقوه الوبال ، وفوقوا إليه النبَّال ، ففتحة الله فتحاً هيناً . لم تُفَتْ فيه للمسلمين نفس ولا تطرَّق لنصر التيسير لَبْس ، فقابلنا بها لشكر هذه النعم المتوالية ، والمِنَن المتقدِّمة والتالية . وأعدنا الأعلام إلى مراكزها المشرفة(٥) المَرَاقب ، والطبول إلى قرعها عملا من الإشارة بالواجب ، وشكرنا الله على اتصال المواهب ، ووضوح المذاهب ، وخاطبنا مقامكم الذى نرى الصَّنايع متواترة بنيته الصالحة وقصده ، ويُعتد فى الحرب والسِّلم بجده ، علماً بأن هذه المسرات ، نصيبكم منها النصيب الأوفى ؛ وارتياحكم إلى مثلها لا يخفى . ونحن نرقبُ ما تنجلى عنه هذه النكايات ، التى تفتّت كَبد العدو تناَليها ، وتروع أحوازه وما يليها ، ولابدَّ له من امتعاض يروم به صرع المعرَّة ، ويأبى الله أن ذلك يأتى بالكرَّة ، والله يجعلها محركات لحتفه المرقوب ، وحينه المجلوب ، ويحقق حق(٦) القلوب . فى نُصرة المطلوب ، عرَّفناكم بما تريدون عملا(٧) بواجب برِّكم ، ومعرفةً بقدركم . وما يتزايد نعرفكم به ، ويتصل سبب التأكيد والتعجيل بسببه والسلام .

---

(١) هكذا ورد اسمه فى «ج» . وفى «الزيتونة» (وصبر) .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» (وحير) .
(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» (مراوات) .
(٤) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» . وفى «الملكية» (الحضرة) .
(٥) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» (المشرقة) والأولى أرجح .
(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .
(٧) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (علما) والأولى أرجح .

الغزاة إلى حصن أشر (١)

وفى أوائل شهر رمضان بعده. أعمل السلطان الحركة السعيدة إلى حصن أشِر. وهو قُفل(٢) الثغر الذى فضّه الطاغية، وسورها الذى فرغه (٣) الكفر. وجارحُه المحلّق على البلاد. والمتحكم لولا فضل الله فى الأموال والأولاد. فتأذن الله برد مُغْتَصِبه، والشفا من وَصَبه، وأحاط به وناصبه الحرب. ففتحه الله على يده عَنْوة. على سموّ ذروته، وبعد صيته وشهرته، واختيار(٤) الطاغية فى حاميته بعد حرب لم يسمع بمثله، فاز بمزية الحمد فيها السلطان، لمباشرته إياها بنفسه، وحمل كَلّها فوق كاهله، واتقاد ما خَمَد من الحَمِيّة بتحريضه. ثم لما كان بعد الفتح من [استخلاص القَصَبة](٥) وسدّ ثَلْمِها بيده، ومصابرة جو القيظ عامّة يومه، فحاز ذكراً جميلاً وحلّ من القلوب محلا أثيراً، ورحل منها، بعد أن أسكن بها من الفرسان رابطة مُتخيرة، ومن الرُّماة جُملة، وتخلّف سلاحاً وعُدّة، فكان الفتح على المسلمين فى هذا المَعْقِل العزيز عليهم جليلا، والمنّ من الله جزيلا، والصنع كثيراً، وصدرت المخاطبة للمغرب بذلك، على الأسلوب المرسل الخلى من السجع الغنى.

الغزاة المُعْمَلة إلى أطريرة

فى شهر شعبان من عام ثمانية وستين وسبعمائة، كانت الحركة إلى مدينة أُطريرة(٦)

---

(١) وردت فى كل من «ج» و «الزيتونة» (آش). وهو تحريف. وحصن أشر يقع على مقربة من أطريرة شرقى إشبيلية. وقد وقع غزو أطريرة عقب ذلك حسبما يجىء. واستولى المسلمون بقيادة السلطان الغنى بالله على حصن أشر فى رمضان سنة ٧٦٧ ﻫ وقاموا بتحصينه.

(٢) فى الزيتونه (قبل).

(٣) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية».

(٤) وردت فى «ج» وفى «الملكية» (اختبار). ونعتقد أن التصويب أرجح.

(٥) وردت مكان هذه العبارة فى «ج» (مواساة الفعلة). ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (مواسات الفتح). وهى عبارات لا معنى لها. وبالعبارة الموضوعة يستقيم المعنى والسياق.

(٦) أطريرة وبالإسبانية Utrera هى مدينة صغيرة تقع جنوب شرقى إشبيلية، وشرقى نهر الوادى الكبير.

بنت إشبيلية. و بلدة تلك الناحية الآمنة. مهاد الهدنة البعيدة عن الصَّرْمة. حرك إليها بعدُ المدى ، وآثرها بمحض الرَّدى ، من بين بلاد العدا ، ما أسلف به أهلها المسلمين ، من قتل أسراهم فى العام قبله . فنازلها السلطان أول رمضان ، و ناشبها الحرب واستباح المدينة وَربَضها عنوة. و لجأ أهلها إلى قصبتها المنيعة . ذات الأبراج المشيدة، و أخذ القتال بمُخَنَّقهم ، و أعان الزحام على استنزالهم ، فاستنزلوا على حكم المسلمين ، فيما يناهز خمسة ، بما لم يتقدمه عهد، ولا اكتحلت به فى هذه المدة عين. ولا تلقته عنها أذن ، و امتلأت أيدى المسلمين ، بما لم يعلمه إلا الله ، من شتىّ الغنايم ، وأنواع الفوايد ، واقتسم الناس السَّبي رُبُما على الأكفال والظهور ، وتقديرا بقدر الرجال ، وحَمْلا فوق الظهور للفرسان. وعُمْرا نا للسروج والأعضاد بالصِّبية، وبرز الناس إلى ملاقاة[1] السلطان. فى هول من العزّ شهير من الفَخْر ، وبعيد من الصيت ، قَرَّت له أعينهم، وقعد لبيعتهم أياما تباعا ، وملأ بهم البلاد هدايا وتحفاً والحمد لله [وصدرت المخاطبة بذلك إلى السلطان بالمغرب بما نصه من الكلام المرسل من إنشائى][2] .

الغزاة إلى فتح جيّان

وفى آخر محرم من عام تسعة[3] وستين وسبعمائة ، كانت الحركة الكبرى إلى مدينة جَيَّان ، إحدى دور الملك ، ومدن المَعْمود ، وكرسيَّة[4] الإماره ، ولوان المدن الشهيرة ، افتتحها الله عَنْوة ، ونقل المسلمون ما اشتملت عليه من النِّعم والأقوات والأموال والأنعام والأثواب والدَّواب والسِّلاح، ومكَّنهم من قتل المُقاتلة ، وسبْي الذرية ، وتخريب الديار ، ومحو الآثار ، واستِنْساف النِّعم ، وقطع الأشجار . وهذا الفتح

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (قفول) . والأولى أنسب للسياق .

(٢) هذه الجملة واردة فى «الزيتونة» وفى «الملكية» . وساقطة فى «ج» .

(٣) وردت فى «الزيتونة» (سبعة) وهو تحريف .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

خارق . تعالى أن يحيط به النّظم والنثر . فذكرُه أطْير . وفخره أشْهر . وصدرت في ذلك المخاطبة من إملائي إلى ملك المغرب . وأصاب الخاقَ عقب القفُول في هذه الغزاة . مرضٌ وافد . فشا في الناس كافة ، وكانت عاقبته السّلامة ؛ وتدارك الله بلطفه . فلم يتسع المجال لإنشاد الشعراء ، ومواقف الإطراء . إلى شغْل عن ذلك[1] .

الغَزاة إلى [مدينة][2] أُبدة

وفي أول ربيع الأول من هذا العام ، كان الغزو إلى مدينة أُبَّدَة ، واحتلّ بظاهرها جيش المسلمين ، وأبلى السلطان في قتالها ، وقد أخذت بعد جارتها جيّان أقصى أُهبة . واستعدّت بما في الوُسع والقوة ، وكانت[3] الحرب بها مشهورة . وافتتحها المسلمون فانتهبوها ، وأعفَوا مساكنها العظيمة البِناء ، وكنايسها العجيبة المرأى ، وألصقوا أسوارها بالثّرى ، ورأوا من سَعَة ساحتها ، وبُعد أقطارها ، وضخامة بناها ، مايُكذّب الخبر فيه المرأى ، ويُبَلِّد الأفكار ، ويُحَيِّر النُّهى . ولله الحمد على آلايه التي لا تحصى . وقفَل المسلمون عنها ، وقد أخربوها ، بحيث لا تعْمُر رباعها ، ولا تأتلف حجورها وجموعها . وصدرت المخاطبة بذلك إلى صاحب المغرب من إنشائي بما نصه :

وإلى هذا العهد جرت الحادثة على ملك قشتالة ، بِطْرُه بن أذْفونش بن هِراندة بن شانْجُهُ ، وهو الذي تهيأ به الكثير من الصُّنع للمسلمين ، بمزاحمة أخيه أندريق[4]

---

(١) وردت بعد ذلك في «ج» العبارة الآتية (العدو إلى مدينة أبدة) . وهي عبارة لا محل لها هنا .

(٢) الزيادة من «الزيتونة» .

(٣) وردت في المخطوطات الثلاثة (وكان) وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٤) سبق أن أوضحنا أن هذا الاسم يقصد به الدوق هنري دي تراستمارا الأخ غير الشرعي الملك بيدرو الثالث (بطره) ملك قشتالة .

فى الملك وتضييقه عليه ، [وحِياز سَبْعة][(١)] من كبار أصحابه ، وأهل ملته إليه ، وافتقار بطره المذكور إلى إعانة المسلمين ، وإجلابهم على من آثر طاعته ضده ، فانهزم بظاهر حصن مُنْتيل ، ومعه عدد من فرسان المسلمين ، ولجأ إلى الحصن على غير أهبة ولا استعداد ، فأخذ أخوه الذى هزمه بمُخَنَّقه ، وأدار على الحصن البنا ، وفرّ جيشُ المحصور ، فاجتمع فلّه بأحواز أُبَّدَة ، وراسلوا المسلمين فى مظاهرتهم على استنقاذهم ، فتوجهت الفُتْيا بوجوب ذلك . ووقع الاستِنْفار والاحتشاد حرصاً على تخليصه ، ليسبِّبَ بقاؤه بقاء الفتنة تستأصل الكفر ، وتشغل[(٢)] بعض العدو ببعضه .

وفى أثناء هذه المحاولة تَباطَن[(٣)] الحاينُ المحصور بمن معه ، وبعُد عليه الخلاص من ورطته ، ومساهمة المسلمين إياه فى محنته ، وانقطعت عنه الأنباء بفرج من كربته ، فداخل بعض أمراء أخيه وظُهَرايه ، ممن يباشر حصاره ، وكان قومساً شهيراً من المَدَد الذى ظاهره ، من أهل إفْرَنْسية ، ووعده بكل مايطمع من مال ومَهْد ، وتَوْفية عهد . فأظهر له القبول ، وأضْمَرَ الخديعة . ولما نزل إليه ، سَجَنه ومن لحق به من الأدِلاّء [وأولى الحرّة بالأرض][(٤)] وأمسكه ، وقد طَيَّر الخبر إلى أخيه ، فأقبل فى شِرذِمة من خواصه وخُدّامه ، فهجم عليه وقتله ، وأوْسَع العفو من [كان][(٥)] محصوراً معه ، وطير إلى البلاد برأسه ، وأوْغَر التِّبْن[(٦)] فى جُثَّته ، ولَبس ثياب

---

(١) وردت فى الزيتونة (وحياز من السبعة) وفى «الملكية» (وحياز من أسفه) . وفى «ج» (من أسط) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاث (واستغل . واشتغل) فاقتضى التصويب .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٤) هذه العبارة واردة فى «ج» وفى «الملكية» وساقطة فى «الزيتونة» .

(٥) ورد مكانها فى «الزيتونة» (وهو) وفى «الملكية» (من هو) . والتصويب أنسب السياق .

(٦) وردت فى «ج» (راوغر تبر) وفى «الزيتونة» (وادعز تبن) وفى «الملكية» (واوغر تبن) وبالتصويب يستقيم السياق .

الحزن من أجله ، وإن كان معترفاً بالصَّواب فى قتله . وخاطب البلاد التى كانت [على][١] مِثْل الجمر من طاعة ، الجاهر[٢] بِظاهرة المسلمين ، وما جَرَّ ذلك من افتتاح بلادهم ، وتخريب كنايسهم ، والإتيان على نِعَمهم ، فأجابته ضَرْبَةً ، واتفقت على طاعته ، فلم يختلف عليه منها اثنان ، إلاَّ ما كان من مدينة قَرْمُونة . واجتمعت كلمة النصارى ، ووقع ارتفاع شتاتهم ، وصرفوا وجوههم إلى المسلمين ، وشاع استدعاؤهم جميع من بأرض الشرق من العَدُوِّ الثقيل ببرجلونه[٣] ، وعدوِّ الأُشْبُونة ، والعدو الثَّقيل الوطأة بإفرانسيَّة . وقد كان الله جل جلاله ، ألهم أهل البصاير النظر فى العواقب ، والفكر فيما بعد اليوم أَعْمَل . ووقع لى إذنُ السلطان ، المُخْلى بينى وبين النصائح ، فى مخاطبة سلطان النصارى المَنْكوب لهذا العهد ، فأشرتُ عليه بالاحتراز من قومه ، والتَّفَطُّن لمكايد من يَحْطُب فى حَبْل أخيه ، وأريتُه اتخاذ مَعْقِل يحرز ولده وذخيرته ، ويكون له به الخيار على دهره[٤] ، واستظهرتُ[٥] له على ذلك بالحكايات المتداولة ، والتواريخ المعروفة ، لتتَّصل الفتنة بأرضهم . فقبل الإشارة وشكر النصيحة ، واختار لذلك مدينة قَرْمونة ، المختصّة بالجوار المُكَتَّب ، من دار مُلْكهم إشبيلية ، فشيّد هضابها ، وحصّن أسوارها ، وملأها بالمخازن طعاماً وعُدّة ، واستكثر من الآلات ، واستظهر عليها بالثقات ، ونقل إليها المال والذخيرة ، وسجن بها رِهان أكابر إشبيلية ، وأسرى المسلمين ، وبالغ فى ذلك ، فيما لاغاية وراءه ولا مطمع ، ولا ينصرف إلى مصرعه الذى دعاه القَدَر إليه ، حتى تركها عُدّة خَلْفه ، وأودع بها ولده وأهله ، ولجأ إليها بعض من خُدَّامه ممن لايقبل مَهْدَنة[٦]

---

(١) هذه الكلمة لازمة لاستقامة السياق .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (الجاير) . والتصويب أرجح .

(٣) هى مدينة برشلونة عاصمة مملكة أراجون وقتئذ .

(٤) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» . وفى «الزيتونة» (ظهره) .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (استطرت) . والتصويب أنسب للسياق .

(٦) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وردت فى «ج» وفى «الملكية» (مصدنة) والأولى أنسب للسياق .

ضده، ولا يقر أمان عدوه، والتفوا على صغير من وَلَده كالنَّحل على شَهْده، ولجأوا إلى المسلمين، فبَغَّض عليهم الكرَّة والفتح بقاء هذا الشَّجَى المُعترض فى حَلْقه، وأهمَّه تغيير أمره، وجَعْجَع به المسلمون لأجله، وأظهروا لمن انحاز بقرمونة الامتساك بعهده، فعَظُم الخَرْق، وأظهر الله نُجْح الحيلة، وصدَّق [بها] (١) المُخَيِّلة، وتفتَّر الأمر، وخَمَدت (٢) نار ذلك الإرجاف. واشتغل الطاغية بقَرْمونة، بخِلال ماخوطب به صاحب الأرض الكبيرة (٣)، فطَمَّعه فى المظاهرة، وتحَطَّب له مُلْك قشْتالة، وعقد السِّلم مع صاحب بُرْطُغال (٤) والأشبونة، ونشأت الفتن بأرضهم، وخرجت عليهم الخوارج، فأوجب إزعاجه إلى تلك الجهة، وإقرار ما بالبلاد المجاورة للمسلمين من الفرسان والحماة تقاتل وتدافع عن أحوازها، وجعل الخصص مُوَجَّهة قَرْمونة، وانصرف إلى سَدِّ الفتوق التى عليه بلُطف الحيلة، ببواطن أرضه وأحشاء عمالته، وصار فى مُلكه أشْغَل من ذات النِّحيين. [فساغ الرِّيقُ] (٥). وأمكن العُذر، وانتهز الغُرَّة، واستؤنفت الحركة (٦). فكانت إلى حصن مُنْتيل والحويز، ففتحهما الله فى رمضان من عام سبعين وسبعمائة، ثم إلى ثغر رُوطَة، ففتحه الله [عن] (٧) جَهْد كبير، واتصل به حصن زَمْرَة (٨). فأمن الإسلام عادية العدُوِّ بتلك الناحية، وكبَس أهلُ رُندة، بإيعاز من السلطان إليها، وإلى من بالجَبَل، جبل الفتح، حصن برج الحكيم والقَشْتور، فيسر الله فتحهما فى رمضان أيضاً.

---

(١) الزيادة من الزيتونة.

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (وخمد). وبالتصويب يستقيم السياق.

(٣) الأرض الكبيرة هى فرنسا.

(٤) هكذا وردت فى «ج»، وفى «الملكية» و«الزيتونة» (برتقال).

(٥) واردة فى «ج» و«الملكية»، وساقطة فى «الزيتونة».

(٦) وردت فى «ج» وفى «الملكية» (الحركات) والتصويب أنسب السياق.

(٧) الزيادة من «الزيتونة».

(٨) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» و«الملكية» (حصن مرة).

ثم كانت الحركة إلى الجزيرة الخضراء ، باب الأندلس . وبكرُ الفتح الأول ، فكانت الحركة إليها شهر ذي الحجة من العام المذكور . ووقع تحريض الناس بين يدى قصدها فى المساجد بما نصه :

معاشر المسلمين المجاهدين . وأولى الكفاية عن ذوى الأعذار من القاعدين . أعلى الله بعلوِّ أيديكم كلمة الدين . وجعلكم فى سِوى الأجر والفخر من الزاهدين . إعلموا رحمكم الله . أن الإسلام بالأندلس . ساكِن دار . والجزيرة الخضراء بابُه ، ومُبعد مغار ، والجزيرة الخضراء رِكابه . فمن جهتها اتصلت فى القديم والحديث أسبابه . ونَصَرته على أعدايه وأعداء الله أحبابُه . ولم يشك العدو الكافر الذى استباحها ، وطَمَس بظُلْمة الكفر صباحها[١] . على أثر اغتصابها . واسْوِداد الوجوه المؤمنة لمصابها ، وتبديل محاربها . وعلوق أصله الخبيث فى طيِّب تُرابها ، أن صريع الدين الحنيف بهذا الوطن الشريف . لاينتعش ولايقوم . بعد أن فُرى الحُلْقوم . وأن الباق رمقٌ يذهب . وقد سُدَّ إلى التَّدارك المذهب . لولا أن الله دفع الفاقِرة وَوَقاها . وَحَفِظ المَشْكَنة[٢] وَاستبقاها . وإن كان الجبل[٣] عصمه الله نِعْم البقية . وبمكانه حفَّت التقية . فحسبُك من مصراع بابٍ تُلِمّ بثانيه ، ومُضايق جِوارٍ حيل بينه و بين أمانيه . والآن ياعباد الله قد أمكنكم الانتهاز ، فلا تُضَيِّعوا الفرصة ، وفترَ المُخَنَّق فلا [تَسُوِّغه غُصَّة][٤] . وَاعمُروا البواطن بحَمِيَّة الأحرار . وَتعاهدوا مع الله معاهد الأولياء الأبرار . وَانظروا للعون من الذَّرارى وَالأبكار ، والنشأة الصِّغار ، زُغْب الحواصل فى الأكوار ، والدين المنتشر بهذه الأقطار ،

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاث (صاحبها) و بالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٣) الجبل هنا يقصد بها جبل الفتح أو جبل طارق .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» وفى «الملكية» (تسوها) .

واعملوا للعواقب، تحمدوا عملكم ، وأخلصوا لله الضماير ، يُبَلِّغكم من فضله أملكم، فما عُذْر من سَلَّم فى باب وَكْره . وماذا ينتظر من أذعن الكَيْد عدوّه ومكره . من هذه الفُرْضة، دخل الإسلام تروّع أسوده . ومن هذه الجهة طلع [الفتح الأول][(١)] تَخْفق بُنوده ، ومنها تقتحم الطير الغريب . إذا رامت الجواز وفُوده ، فيبصر بها صافّات والدليل يقوده . البابُ المسدود ياعباد الله فافتحوه ، وَجْهُ النّصر تجلّى ياعباد الله فالمَحُوه ، الداء العُضال ياعباد الله فاستأصلوه ، حَبْلُ الله يارجال الله قد انقطع فصِلوه . فى مثلها تَرْخُص النفوس الغالية ، فى مثلها تُخْتَبر الهِمَمُ العالية ، فى مثلها تُشهر[(٢)] العقايد الوثيقة ، وتُدَسُّ الأحباس العريقة ، فنَضَّر الله وجه من نظر إلى قلبه ، وقد امتلأته[(٣)] حمِيَّة الدين ، وأصبح لأن تكون كلمة الله هى العليا مُتَهَلِّل الجبين .

اللهم إنا نتوسل إليك بأسرار الكتاب الذى أنزلته ، وعناية النبى العربى الذى أوْفَدَت[(٤)] من خصوص الرَّحمات وأجْزَلت ، وبكل نَبِيّ[(٥)] ركع لوجهك الكريم وسجد ، وبكل وَلِى [سدَّه من إمدادك كما وجد][(٦)] . ألا ما رَدَدْت علينا ضالّتنا الشاردة، وهنّأتنا بفتحها [من][(٧)] نعمك الواردة ، يامُسهل المآرب العسرة ، ياجابر القلوب المنكسِرة ، ياولى الأمة الغريبة ، يامُنزل الألطاف القريبة ، اجعل لنا من ملايكة نَصْرك مدداً ، وانجز لنا من تمام نُورك الحق موعداً . ربنا آتنا من لدُنك رحمة ، وهيِّء لنا من أمرنا رَشَداً .

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الملكية» (الفتوح الأولى) .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» و «الملكية» (تشحر) وهو تحريف .

(٣) هكذا فى «ج» و «الزيتونة» . ووردت فى الملكية (أملته) .

(٤) وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» و(فدت) . والتصويب أرجح

(٥) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (ولى) .

(٦) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الملكية» و «الزيتونة» .

(٧) وضعنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

فوقع الانفعال ، وانتشرت الحِمِيَّة ، وجُهزت الأساطيل . وكانت مُنازلتها يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور ، وعاطاها المسلمون الحرب ، فدُخلت البِنْية(١) وهى المدينة الملاصقة لها عَنْوة ، قتل بها من الفرسان الدَّارعة عِدَّة ، وصُرفت الغنايم إلى المدينة الكبرى . فرأوا من أمْر الله ، ما لا طاقة لهم به ، وخذلهم الله جلَّ جلاله ، على مَنَعة الأسوار [وبُعد مهاوى الأغْوار ، وكثرة المدِّ والعُدَد](٢) . وطلبوا الأمان لأنفسهم . وكان خروجهم عنها يوم الإثنين الخامس والعشرين من الشهر المذكور ، السعيد على المسلمين ، فى العيد(٣) والسرور ، [برُد الدين](٤) . ولله الحمد على آلايه ، وتوالى نعمه وإرغام أعدايه .

وفى وسط ربيع الأول من عام أحد وسبعين وسبعمائة ، أعْمَل الحركة إلى أحْواز إشْبيلية دار الملك ، ومحل الشَّوكة الحادَّة ، وبها نايبُ سلطان النصارى ، فى الجمع الخَشِن من أنجاد فرسانهم ، وقد عظُم التضييق ببلدة قَرْمونة ، المنفردة بالانْتِزاء على مَلِك النصارى ، والانحياز إلى خدمة المسلمين ، فنازل المسلمون مدينة أشُونة(٥) ، ودخلوا جفْنها عَنْوة ، واعتصم أهلها بالقَصَبة ، فتعاصت ، واستُعجل الإقلاع منها لعدم الماء المَرْوى والمحلاَّت ، فكان الانتقال قُدُماً إلى مدينة مُرشانة(٦) [وقد أحدقوا بها](٧) . وبها العُدَّة والعديد من الفرسان الصَّناديد ، ففتحها الله سبحانه ، إلا

(١) البنية وبالإسبانية La Pena هى بلدة صغيرة تقع على المحيط غربى مدينة الجزيرة الخضراء وشمالى مدينة طريف .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فقط فى «ج» ، وساقط فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» . وفى «ج» (العيدين) .

(٤) هاتان الكلمتان واردتان فقط فى «ج» .

(٥) أشونة وبالإسبانية Osona بلدة تقع جنوب شرقى إشبيلية ، على مقربة من شرقى مدينة مورور .

(٦) مرشنة وبالإسبانية Marchena بلدة تقع جنوب شرقى قرمونة وإشبيلية ، وشمال مورور .

(٧) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (وقد أحدث إبنها) . وهو فيما يبدو تحريف . وبالتصويب يستقيم السياق .

القَصَبة، واستولى المسلمون فيها، وفى جارتها من الدواب والآلات على ما [لا](١) يأخذه الحصر. وقُتل الكثير من مُقاتلتها. وعمَّ جميعها الهَدم والإحراق، ورَفعت ظهور دواب المسلمين من طعامها، ماتقلَّه أظْهر(٢) مراكب البحار ما أوجب فى بلاد المسلمين التوسعة، وانحطاط الأسعار. وأوْجب الغلاء فى أرض الكفار، وقفل والحمد لله فى عزٍّ وظهور. وفرح وسرور.

مولده السعيد النَّشبيَة(٣)، الميمون الطلوع والجبية

المقترن بالعافية. منقولا من تهليل نشأته المباركة. وحِرْز طفولته السعيدة، فى نحو ثلث ليلة الإثنين والعشرين من جمادى الآخرة عام تسعة وثلاثين وسبعمائة. قُلتُ: ووافقه من التاريخ الأعجمى [رابع ينير من عام ألف وثلاثمائة وسبعة وسبعين](٤) التاريخ الصفر. واقتضت صناعة التعديل بحسب قيمودا وبطليموس، أن يكون الطالع ببرج(٥) القمر، لاستيلائه على مواضع الاستقبال المتقدم للولادة، ويكون التخمين على ربع ساعة وعشر ساعة، وثلث عشر الساعة السادسة من ليلة الإثنين المذكورة. والطالع من بُرج السُّنبلة، خمس عشرة درجة. وثمان وأربعون دقيقة من درجة. كان الله له فى الدنيا والآخرة. وحسْبُنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة. وإثباتها لازم لاستقامة السياق.

(٢) هكذا فى «ج». وفى «الزيتونة» (ظهور).

(٣) وردت فى «ج». و «الملكية» (النشية) ونعتقد أن كلمة (النشبية) ومعناها النشأة أنسب للتوافق.

(٤) إن هذا التاريخ الميلادى الذى يورده ابن الخطيب (وهو ٤ يناير سنة ١٣٧٧ م مقابل التاريخ الهجرى لمولد السلطان الغنى بالله وهو (٢٢ جمادى الثانية سنة ٧٣٩هـ) ينطوى على خطأ حسابى بين. والحقيقة أن مقابل التاريخ الهجرى المذكور بالميلادى هو ٢١ يناير سنة ١٣٣٨ م.

(٥) هكذا وردت فى «الملكية». ووردت فى «ج» (بدرج) والأولى أرجح.

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس
ابن نصر بن قيس الخزرجى الأنصارى

من ولد سعد بن عُبادة: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ابن سليمان ابن حارثة [بن خليفة](١) بن ثَعْلبة(٢) بن طريف بن الخَزْرج بن حارثة بن ثعلبة ابن عمر بن يَعْرُب بن يَشْجُب بن قحطان بن هُمَيْسع بن يمن بن نَبْت بن إسماعيل ابن إبراهيم، صلى الله عليه وعلى محمد الكريم. أمير المسلمين بالأندلس ودايلها [وخدمة النَّصْريين بها](٢)، يكنى أبا عبد الله ويلقب بالغالب بالله.

أوّليــــته

وقد اشتهر عند كثير ممن عُني بالأخبار أن هذا البيت النَّصْرى من ذرِّية سَعْدبن عُبادة سيد الخَزْرج. وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وصنَّف الناس فى اتصال نَسَبهم [بقيس بن سعد بن عبادة](٣) غيرَ ما تصنيف. وأقوى ما ذُكر، قولُ الرَّازى: دخل الأندلس [من ذرِّية](٤) سعد بن عُبادة رجلان، نزل أحدهما أرض تاكُرُونّا(٥) [ونزل](٦) الآخر قرية من قرى(٧) سقرسطونة(٨) تعرف بقرية

---

(١) وردت هذه الزيادة فى «ج» وفى «الملكية»، ولم ترد فى «الزيتونة».

(٢) وردت هذه العبارة فى «ج» فقط. (وخدم .. الخ) وهى تؤدى معناها بتصحيح الكلمة الأولى. والخدمة هى الحلقة المحكمة.

(٣) هكذا وردت فى «ج». ووردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» (بسعد بن عبادة).

(٤) هذه الزيادة من «الزيتونة».

(٥) يطلق هذا الاسم أحياناً على منطقة رندة.

(٦) الزيادة من «الزيتونة».

(٧) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية». وفى «ج» (نظر).

(٨) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية». ووردت فى «ج» (سرقسطة). ونحن نعتقد أنه لامجال هنا لذكر سرقسطة التى تقع بعيداً فى الشمال، وما يلى يدل على أن سقرسطونة – وإن لم نعثر على مكان بهذا الاسم – إنما يقصد بها مكان يقع فى منطقة جيان.

الخزرج ، وتشأ بأحواز أرجونة(١) من كنبانية(٢) قرطبة ، أطيب البلاد مدرة ، وأوفرها غلة ، وهو بلده ، وبلد جده ، فى ظل نعمة ، وعلاج فلاحة ، وبين يدى نجدة وشهرة ، بحيث اقتضى ذلك ، أن يفيض شريان الرياسة ، وانطوت أفكاره على نيل الإمارة [ورآه مرتادو أكفاء الدول أهلا . فقدحوا رغبته ، وأثاروا طمعه](٣) .

حدث شيخنا الكاتب الشاعر . محمد بن محمد بن عبد الله اللوشى اليحصبى ، وقد أخبرنى [أنه كان يوجد] بمدينة جيان [رجل] من أهل المالية(٤) ، وكان له فرس أنثى من عتاق الخيل . على عادة أولى المالية . وكان له من أهل الثغور ، من ارتباط الخيل ، والتنافس فى إعداد القوة . وشهرت هذه الفرس . فى تلك الناحية ، وبعث الطاغية ملك الروم فى ابتياعها ، فعلقت بها كف هذا الرجل ، وآثر بها نفسه ، وازداد غبطة بها لديه ، ورأى فى النوم قايلا يقول له ، سر إلى أرجونة ، بفرسك ، وابحث عن رجل اسمه كذا ، وصفته(٥) كذا ، فاعطه إياها(٦) ، فإنه سيملك جيانا وسواها ، ينتفع بها عقبك . وأرجى الأمر . فعرض عليه ثانية ، وحث فى ذلك فى الثالثة ، فسأل ثقة له خبيراً بتلك الناحية وأهلها . فقال له المخبر ، وكان يعرف بابن يعيش ، فوصفه له ، فتوجه الفقيه إلى أرجونة ، ونزل بها ، وتسومع به ،

---

(١) أرجونة بلدة من بلاد ولاية جيان تقع ، فى جنوب غربى أندوجر ، على مقربة من نهر الوادى الكبير وبالإسبانية Arjona .

(٢) يقصد بكلمة كنبانية هنا ، السهل المنبسط من الأرض ، وهى مأخوذة من كلمة Campo الإسبانية ومعناها الحقل .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فقط فى «ج» .

(٤) هكذا وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» و «الملكية» (المانية) والأولى أنسب للسياق . ويبدو أنه قد شطبت من هذه العبارة بعض كلمات . وربما كان تركيب العبارة كلها كالآتى (وقد أخبرنى أنه كان يوجد بمدينة جيان رجل من أهل المالية) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» (ونعته) والمؤدى واحد .

(٦) وردت فى «ج» و «الملكية» (إياه) . فلزم التصويب .

وأقبل السلطان وأظهاره وتكلموا فى شأنه . فذكر غرضه فيه، وأظهر العجز عن الثَّمَن، وسأل منه تأخير بعضه، فأسعفه، واشترى منه الفرس، بمال له خطر. فلما كمل له القصد، طلب منه الخلوة به فى المسجد من الحصن، وخرج له عن الأمر. وأعطاه بيعته، وصرف عليه الثَّمَن . واستكتمه السلطان خيفة على نفسه وانصرف إلى بلده .

قال : وفى العام بعده، دعا إلى نفسه بأرْجُونة، وتملك مدينة جَيَّان . واختُلف فى السبب الذى دعاه إلى ذلك، فقيل إن بعض العمال، أساء معاملته فى حق مخزنى، وقيل غير ذلك .

حاله

هذا الرجل كان آيةً من آيات الله فى السَّذاجة والسلامة والجُمْهورية، جنديًّا، ثغريًّا شهماً، أيِّداً، عظيم التَّجلُّد، رافضاً للدَّعة والرَّاحة، مؤثراً للتقشف، والاجتزاء باليسير، مُتبلِّغاً بالقليل، بعيداً عن التَّصنُّع، جافى السلاح، شديد العزم، مَرْهوب الإقدام، عظيم التَّشْمير، [مُقْرِياً لضيفه][(١)]، مُصْطنعاً لأهل بيته، فظًّا فى طلب حظِّه، مُحْمِياً لقرابته وأقرانه وجيرانه، مباشراً للحروب بنفسه، تتغالى الحُكاة فى سلاحه، وزينة دُبُوره[(٢)]. يخْصِف النعل، ويلبس الخشن، ويؤثر البداوة، ويستشعر الجدّ فى أموره. سَعُد بيوم الجمعة، وكان فيه تملُّكه جيَّان، ثم حضرة المُلْك غَرناطة، وقيل يوم قيامه، شرع فيه الصَّدَقة الجارية على ضُعفاء الحَضْرة، وبنيهم إلى اليوم . وتملك مدينة إشْبيلية فى أخريات ربيع الأول من عام ظهوره، وهو عام تسعة وعشرين وستماية نحواً من ثلاثين يوماً . وملك قرطبة فى العشر الأول لرجب من العام المذكور، وكلاهما عاد إلى مُلْك ابن هود .

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

ولما تم له القصد من تملك البَيْضة ، والحصول على العُمال، مباشراً للحسابات بنفسه ، فتوفر ماله ، وغُصَّت بالصامت خزاينه ، وعقد السَّلم الكبير ، وتهنأ أمره ، وأمكنه الاستعداد، فأنعم(١) الأهواء . وملأ(٢) بطن الجبل المتصل بالقلعة حُبُوباً مختلفة . وخزاين دَرَّة . ومالاً وسلاحاً وارية(٣) ظهراً . وكُراعاً . فوجد فايدة استعداده ، ولجأ إلى ما ادَّخره من عتاده .

سيرته

تظاهر لأول أمره بطاعة الملوك بالعُدْوة وإفريقية، يَخْطُب لهم زماناً يسيراً . وتوصل بسبب ذلك إلى أمدادٍ منهم وإعانة . [ولقبل ما](٤) افتتح أمرَه بالدعاء للمستنصر العباسي ببغداد ، حاذياً حذو سميه ابن هُود، لِلَهج العامة في وقته، بتقلد تلك الدعوة ، إلى أن نزع عن ذلك كله .

وكان يعقِد للناس مجلساً عاماً ، يومين في كل أسبوع . فترتفع إليه الظلامات ، ويُشافِه طالب الحاجات ، وتنشده الشعراء . وتدخل إليه الوفود ، ويُشافه أرباب النصايح في مجلس اختصَّ به أهل الحَضْرة ، وقضاة الجماعة ، وأولى الرتب النَّبيهة في الخدمة ، بقراءة أحاديث من الصَّحيحين ، ويختم بأعْشار من القرآن . ثم ينتقل إلى مجلس خاص ، ينظر فيه في أموره(٥) فيصرف كل قصد إلى من يليق به ذلك . ويؤا كل بالعشِيَّات خاصته من القرابة ؛ ومن(٦) يليهم من نُبهاء القُوَّاد .

أولاده

أعقب ثلاثة من الذكور ، محمداً وليَّ عهده ، وأمير المسلمين على أثره ؛ والأميرين

(١) كذا في «ج» و «الزيتونة» . ومعناها هنا : سكن .
(٢) وردت في المخطوطات الثلاثة (وملك) وهو تحريف . و بالتصويب يستقيم السياق .
(٣) وردت في «ج» و «الزيتونة» (وراية) والتصويب من «الملكية» .
(٤) هكذا وردت في المخطوطات الثلاثة . ومعناها هنا ، وقبل ذلك .
(٥) وردت في «ج» و «الزيتونة» (أمره) وبالتصويب يستقيم السياق .
(٦) وردت في «ج» و «الزيتونة» (وما) . والتصويب أرجح .

أبا سعيد فرج . وأبا الحجاج يوسف ؛ تُوُفيا على حياته ؛ حسبما يتقرر بعد إن شاء الله .

وزراء دولته

وزر له جماعة . الوزير أبو مروان عبد الملك بن يوسف بن صَنادِيد(١) زعيم قاعدة جيّان ؛ وهو الذى مَكّنه من ناصية جيّان المذكورة . واستوزر على بن ابراهيم الشيبانى من وجوه حَضْرته، وذوى النَّسَب من الفضلاء أولى الدَّماثة والوقار. واستوزر الرييس أبا عبد الله بن الرييس أبى عبد الله الرَّميمى . واستوز الوزير أبا يحيى ابن الكاتب من أهل حضرته . وغيرهم ممن تبلغ به الشهرة مبلغاً فيهم .

كُتّابه

كتب له من الجلّة جماعة . كالكاتب المحدّث الشهير أبى الحسن على بن محمد ابن محمد بن سعيد اليحصُبى اللَّوشى . ولما توفى كتب عنه ولده ، أبو بكر بن محمد . هؤلاء مشاهير كُتّابه . ومن المرءوسين(٢) أعلام كأبى بكر بن خطاب وغيره .

قضاته

ولى له قضاء(٣) الجماعة . القاضى العالم الشهير ، أبو عامر يحيى بن عبد الرحمن ابن ربيع الأشعرى ؛ من جِلّة أهل الأندلس فى كِبَر البيت ، وجلالة المنصب ، وغزارة العلم . ثم ولى بعده الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الجليل ابن غالب الأنصارى الخزْرجى . ثم ولى بعده الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم

---

(١) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (ابن صنادين) وهو تحريف . والصواب ما أثبتناه .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (المدرسين) وهو تحريف .

(٣) وردت فى «ج» (قاضى) والتصويب من «الزيتونة» .

ابن عبد السلام التميمى . وهذا الرجل من أهل الدين والأصالة ، وآخر قضاة العدل . ثم ولى بعده الفقيه القاضى أبو عبد الله محمد بن عياض بن موسى اليحصبى . ثم ولى بعده [الفقيه](١) القاضى الحسيب أبو عبد الله بن أضْحَى ، وبيته شهير ، [ولم تطل مدته](٢) . وولى بعده آخر قضاته أبو بكر محمد بن فتح بن على الإشبيلى الملقب بالأشْبِرون .

الملوك على عهده

بمرَّاكُش المأمون إدريس ، مأمونُ الموحِّدين ، مُزاحماً بأبى زكريا يحيى ابن الناصر ابن المنصور بن عبد المؤمن بالجَبَل . ولما توفى المأمون ولِىَ الرشيد ، أبومحمد عبد الواحد فى سنة ثلاثين وستماية . ووَلِى بعده أبو حفص عمر بن إسحاق المرتضى ؛ إلى أن قتله إدريس الواثق أبو دَبُّوس فى عام خمسة وستين . وولى بعده يسيراً بنو عامر بن على بمراكش(٣) ، وتعاقب منهم على عهده جِلّة ؛ كالأمير عثمان وابنه مَحمو ، وأخيه أبى يحيى بن عبد الحق . واستمر الملك فى أسنّ أملاكهم ، أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق بن مَحْيُو إلى آخر أيامه .

وبتلمسان ، شبيهه يَغْمُراسن بن زيّان أول ملوكهم . وتقدمه أخوه أكبر منه برهة . ويَغْمْراسن [أول من](٤) أثّل الملك ، وحاز الذّكر ، واستحق الشهرة .

وبتونس ، الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص . وَخاطبه السلطان المترجم به ، والتمس رِفْدَه ، وقد حصل على إعانته ، ووَلِى بعد موته ولده المستنصر أبو عبد الله ، ودامت أيامه إلى أول أيام ولد السلطان المترجم له عام أربعة وسبعين .

(١) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

(٢) واردة فى «ج» ، وساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) هكذا فى «الزيتونة» وفى «ج» (مراكش) .

(٤) هذه العبارة ساقطة فى «ج» وفى «الزيتونة» . وبإثباتها يستقيم السياق .

وبقشتالة هِراندة[1] بن ألمنشة بن شانجُه الإنبرَطور. وهراندة هذا هو الذى ملك قرطبة وإشبيلية، ولما هلك ولى بعده ألفُنش[2] ولده ثلاثاً وثلاثين سنة، واستمر ملكه مدة ولايته. وصدرًا من دولة ولده بعده.

وبرَغون جايمش ابن بطرُه ابن ألفُونش قُمط بَرْجلونه. وجايمش هذا هو الذى ملك بلَنْسية[3]، وصيّرها دار ملكه[4] من يد أبى جميل زيّان ابن مَرْدَنيش.

لمع من أخباره

قام ابن أبى خالد بدعوته بغرناطة، كما ذكر فى اسمه، ودعاه وهو بجيّان. فبادر إليها فى أُخريات رمضان من عام خمس وثلاثين وستمائة، بعد أن بعث إليه الملأ من أهلها ببيعتهم مع رجلين من مَشْيختهم. أبى بكر الكاتب، وأبى جعفر التنّيز ولى.

قال ابن عذارى فى تاريخه، أقبَل وما زيُّه بفاخر، ونزل عشى اليوم الذى وصل بخارج غَرناطة. على أن يدخلها من الغد، ثم بدا له فدخلها عند غروب الشمس، نظراً للحزم.

(١) المقصود بهراندة هنا، هو فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون (١٢١٧ — ١٢٥٢م)، وهو الذى استولى على قرطبة فى سنة ٦٣٣ ﻫ (١٢٣٦ م) وإشبيلية سنة ٦٤٦ ﻫ (١٢٤٨ م)، واستولى كذلك على جيان وغيرها من القواعد الأندلسية. وهو يعتبر من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية. وقد أسبغت عليه صفة القداسة، ولقب بفرناندو المقدس (سان فرناندو).

(٢) هو ألفونسو العاشر الملقب بالعالم أو الحكيم El Sabio. حكم قشتالة عقب وفاة أبيه فرناندو فى سنة ١٢٥٢، واستمر فى حكمها حتى سنة ١٢٨٢م، ثم ثار عليه ولده سانشو وانتزع منه العرش، وتوفى مخلوعاً منبوذاً فى سنة ١٢٨٤م.

(٣) جايمش المشار إليه هنا، هو خايمى الأول ابن بيدرو الثانى ملك أراجون. تولى الملك بعد وفاة أبيه حدثاً فى سنة ١٢١٣ م. وهو الذى افتتح الجزائر الشرقية من أيدى المسلمين (١٢٣٢ م). ثم افتتح ثغر بلنسية فى سنة ٦٣٦ ﻫ (١٢٣٨ م) ومرسية سنة ٦٦٥ ﻫ (١٢٦٦م). وتوفى بعد حكم طويل سنة ١٢٧٦ م. ويلقب بخايمى الفاتح.

(٤) هكذا فى «ج». وفى «الملكية» (سلطانه). والمعنى واحد.

وحدث أبو محمد البَسْطى قال - عاينته يوم دخوله وعليه شاشيّة(١) بِلفٍ مضلعة أ كتافها مُخَرَّقة ، وعند ما نزل بباب جامع القصبة ، كان مؤذن المغرب فى الحيْعلة ، وإمامه يومئذ أبو المجد المرادى قد غاب . فدفع الشيخُ السلطانَ إلى المحراب ، وصلى بهم ، على هيئته تلك ، بفاتحة الكتاب . « وإذا جاء نصر الله والفتح » . والثانية بِقُل هو الله أحد . ثم وصل قصر باديس . والشمع بين يديه .

وفى سنة ثلاث وأربعين وستماية ، صالح طاغية الروم ، وعقد معه السِّلْم ، الذى طاحت(٢) فى شروطه جيّان . [وكان](٣) واقع بالعدو الراتب تجاه حَضْرته ، المختص بحصن بليلاش(٤) على بريد من الحضرة . وكان الفتح عظيما . ثم حالفه الصُّنع بما يضيق المجال عن استيعابه . وفى حدود اثنين وستين وستمائة [صالح طاغية الروم ، وعقد معه السلم](٥) . وعقد البيعة لولى عهده ، واستدعى القبائل للجهاد .

مولده

فى عام خمسة وتسعين وخمسمائة بأرْجُونة ، عام الأَرَك(٦) .

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (شاية) فلزم التصويب .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (طاقت) . والتصويب أنسب لاستقامة السياق .

(٣) وضعنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» بليش .

(٥) وردت هذه العبارة فى «الملكية» فقط .

(٦) وردت (الأركة) فى «ج» و «الملكية» . وهو تحريف ظاهر . وقد وهم ابن الخطيب فى ذكر تاريخ موقعة الأرك ، إذ ذكر أنه سنة ٥٩٥ هـ . والحقيقة أن معركة الأرك وقعت فى سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥م) بين الجيوش الموحدية بقيادة الخليفة يعقوب المنصور ، والجيوش القشتالية بقيادة ألفونسو الثامن ، وأحرز فيها الموحدون نصرهم الباهر . والأرك بالإسبانية Alarcos . وهى تقع على مقربة من مدينة (ثيوداد ريال) . وسنرى فيما بعد أن هذا التاريخ سوف يصحح وذلك بتصحيح تاريخ مولد ابن الأحمر وهو سنة ٥٩١ هـ .

وفـــــاته

فى منتصف جمادى الثانية من عام واحد وسبعين وستمائة ، وَرَدَ عليه وقد سنّ . جماعة من كُتّاب[1] الزعايم ، يقودون جيشاً من أتباعهم ، فبرز إلى لقايهم بظاهر حَضْرته ، ولما كرّ آيباً إلى قصره . سقط ببعض طريقه ، وخامره خَصَر ، [وهو][2] راكب ، وأردفه بعض مماليكه ، واسمه صابر الكبير ، وكانت وفاته ليلة الجمعة التاسع والعشرين لجمادى الثانية المذكورة ، ودفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بسَنام السّبيكة[3] ، وعلى قبره اليوم منقوش :

« هذا قبر السلطان الأعلى ، عزّ الإسلام ، جمال الأنام ، فخر الليالى والأيام ، غياث الأمة ، غيث الرحمة ، قطب الملة ، نور الشريعة ، حامى السنة ، سيف الحق ، كافل الخلق ، أسد الهيجاء ، حِمام الأعداء ، قوام الأمور ، ضابط الثغور ، كاسر الجيوش ، قامع الطغاة ، قاهر الكفرة والبغاة ، أمير المؤمنين[4] ، علم المهتدين ، قدوة المتقين ، عصمة الدين ، شرف الملوك والسلاطين ، الغالب بالله ، المجاهد فى سبيل الله ، أمير المسلمين ، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الأنصارى ، رفعه الله إلى أعلى عِليّين ، وألحقه بالذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين ، والشهداء والصالحين . ولد رضى الله عنه ، وأتاه رحمة من لدنه . عام أحد وتسعين وخمسمائة[5] ، وبويع له يوم الجمعة السادس والعشرين [من رمضان

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٢) أثبتناها ليستقيم السياق .

(٣) هو السهل المنبسط الذى تشرف عليه الحمراء من الناحية الشرقية .

(٤) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» . ووردت فى «الزيتونة» (المسلمين) ، وهو لقب يقصد به هنا التكريم فقط . ويلاحظ كذلك أنه يرد لقب (أمير المسلمين) فيما بعد .

(٥) هذا هو التاريخ الحقيقى لمولد محمد بن الأحمر ، وليس ما ذكره ابن الخطيب من قبل وهو سنة ٥٩٥ هـ . وهذا التاريخ الصحيح لمولد ابن الأحمر ، يوافق تاريخ موقعة الأرك .

عام خمسة وثلاثين][1] وستماية ، وكانت وفاته يوم الجمعة بعد صلاة العصر التاسع والعشرين لجمادى الآخرة عام أحد وسبعين وستماية ، فسبحان من لا يفنى سلطانه، ولا يبيد ملكه ، ولا ينقضى زمانه ، لا آله الا هو الرحمن الرحيم» .

ومن جهه أخرى :

هذا محل العُلى والمجد والكرم … قبر الإمام الهمام الطاهر العلم
لله ما ضمّ هذا اللحد من شرف … ومن شِيَمَ عُلوية الشّيم
بالجود والباس ما تحوى صفايحه … لا بأس عَنْترة ولا ندى هرم
مُغنى الكرامة والرضوان يعهده … فخر الملوك الكريم الذات والشيم
مقامُه فى كلا يومى ندّى ووغى … كالغيث فى مجد وكالليث فى أجم
مآثر تُليت آثارها سوراً … تقر بالحق فيها جملة الأمم
كأنه لم يسر فى محفل لَجِب … تضيق عنه بلاد العُرْب والعجم
ولم يباد[2] العدا منه ببادرة … يفتر منها الهدى عن ثغر مبتسم
ولم يجهز لهم خيلا[3] مضمرة … لا تشرب الماء إلا من قُلَيب دَم
ولم يقم حكم عدل فى سياسته … تأوى رعيته منه إلى حَرَم
من كان يجهل ما أولاه[4] من نعم … وما حواه لدين الله من حُرُم
فتلك آثاره فى كل مَكْرَمة … أبدى وأوضح من نار على علم
لا زال تَهمِى على قبر تضمّنه … سحايب الرحمة الوكّافة[5] الدِّيم

---

(١) أضفنا هذه العبارة من عندنا ليستقيم السياق .

(٢) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (يقاد) والتصويب أنسب لاستقامة السياق .

(٣) وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» (جيشا) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) وردت فى «ج» (لولاه) . وهو تحريف .

(٣) هكذا فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» الواكفة ، وهو لا يستقيم مع الوزن

محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر بن محمد بن أبي الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى ، المنصور بن أبي عامر

مُعَظَّم الظَّفَر ، وخِدن السَّعد ، وملق عُفِيٍّ الجد ، وجوّ رياح[1] الشهرة ، وديوان فنون السياسة ، وحجاجُ الدولة العَبْشمية[2] ، في التُّخوم المَغْربية ، المَزِىّ[3] بالظَّرف وكمال السَّجية ، والجهاد العظيم ، العريق[4] في بحبوحة بلاد الكفار ، رحمه الله تعالى .

أوليتـــه

دخل جَدُّه عبد الملك الأندلس مع طارق [مولى][5] موسى بن نصير في أول الداخلين من المغرب ، وكان له في فتحها أثرا جميلا . وإلى ذلك أشار مادحه محمد بن حسان :

وكل عدو أنت تهزم[6] عرشه   وكل فُتوح عنك يُفتح بابها
برأيك عبد المليك الذى له   حَلا فتحُ قرطبة وانتهابهـا

ونزل عبد الملك الجزيرة الخضراء لأول الفتح ، فساد أهلها ، وكثُر عقبه بها ، وتكررت فيهم النَّباهة ، وجاوروا الخلفاء بقرطبة . وكان والد محمد هذا ،

---

(١) هكذا وردت في «ج» . ووردت في «الزيتونة» و «الملكية» (رناج) وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت في «ج» . وفي «الزيتونة» (الأموية) . والعبشمية من أوصاف الدولة الأموية .

(٣) هكذا وردت في المخطوطات الثلاثة . والمزى أي الفائق اللامع .

(٤) وردت في «ج» و «الزيتونة» (العريقة) وهو تحريف .

(٥) الزيادة من «الزيتونة» .

(٦) وردت في «ج» (تهدم) . والتصويب من «الزيتونة» .

من أهل الدين والعفاف والزهد فى [الدنيا][1] والقُعود عن السلطان . سمع الحديث ، وأدّى الفريضة ، ومات منصرفا عن الحج بأطْرابُلس .

حـــاله

كان هذا الرجل بِكْرَ الدهر ، وفايدة الأيام ، وبَيْضَةَ العمر ، وفرد الخلق فى اضّطراد السّعد ، وتَمَلك العاجل من الحظ ، حازما ، داهية ، مشتملا على أقطار السؤدد ، هويّا[2] إلى الأقاصى ، وطموحا ، سوساً تَمِيّا ، مُصْطَنعا للرجال ، جالباً للأشراف ، مستميلاً[3] للقلوب ، مُطْبِقاً المفاصل ، مُزيحا للعِلل ، مستبصرا فى الاستبداد ، خاطباً جميل الذكر ، عظيم الصبر ، رحيب الذرْع ، طموح الطرف ، جَشِم السيف ، مُهادى جياد العقاب والمَثُوبة ، مَهيبا ، جَزْلا ، مُنْكسف اللون ، مُصْفَر الكف ، آية الله جل جلاله فى النَّصر على الأعداء ومصاحبة الظفر[4] ، وتوالى الصُّنع .

نباهته

قال المؤرخ ، سلك سبيل القضاء فى أوّليَّته ، مقتفياً آثار عمومته وخؤولته ، يطلب الحديث فى حداثته ، وكتب منه كثيراً ، ولقى الجلّة من رجاله ، ثم صحب الخليفة الحكم مُتَحزِّباً[5] فى زُمْرته ، وولى له الأعمال من القضاء والإمامة . ثم استكفاه ، فعدل عن سبيله ، وصار فى أهل الخدمة . ثم اختصّه بخدمة أم ولده هشام ، فزاد بخاصّته لولى العهد ، عزا ومكانةً من الدولة ، فاحتاج الناس إليه ، وغَشَوا بابه ، وبلغ

---

(١) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» و«الملكية» (هديا) والأولى أنسب للسياق .

(٣) وردت فى «ج» (مستليما) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٤) وردت فى «ج» الصفر . وفى «الزيتونة» السفر . والتصويب من «الملكية» .

(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» وفى «الملكية» متخرجا . وهو تحريف .

الغاية من أصحاب السلطان معه[١]، إسعافٌ، وكرم لقاء، وسهولةُ حجاب، وحسن أخلاق. فاستطار ذكره، وعَمَر بابه، وساعده الجد. ولما صار أمر المسلمين إليه، فبلغ التى لا فوقها عزًا وشهرة.

الثنــاء عليه

قال، وفى الدولة العامرية، وأعين محمد على أمره، مع قوة سعده، بخصال مُؤَلفة[٢] لم تجتمع لمن قبله، منها الجود، والوقار، والجَدُّ والهيبة، والعدل والأمن، وحب العمارة، وتثمير المال، والضبط للرعية، وأخذهم بترك الجدل والخلاف والتَّشَغُّب. من [غير][٣] وَهَن فى دينه، وصحة الباطن، وشرح كل فضل، وجَلْب كل ما يوجب عن المنصور فيه.

غزواته وظهوره على أعدايه

واصل رحمه الله الغزو بنفسه، فيما يناهز خمسين غزوة، وفتح فيها البلاد، وخَضَد شوكة الكفر، وأذلّ الطواغيت [وفضّ مصاف الكفار][٤]، وبلغ الأعماق، وضرب على العدو الضرايب، إلى أن تلقاه عظيم الروم بنفسه [وأتحفه بإبنته][٥] فى سبيل الرغبة فى صِهْره، فكانت أحظى عقايله، وأبرّت فى الدين والفضل على ساير أزواجه، وعقد اثنى عشر بروزاً إلى تلقى ملوك الروم القادمين عليه [مُصْطَهرين بإلحاح سيفه][٦] منكبّين على لثم سريره.

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة.

(٢) هكذا فى «ج» وفى «المثلثة».

(٣) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم المعنى والسياق.

(٤) هذه العبارة واردة فقط فى «ج». وساقطة فى المخطوطين الآخرين.

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (وأتحفه بها) وهو تعبير غامض. وبالتصويب يتضح المعنى ويستقيم السياق. والإشارة هنا إلى زوجة المنصور النافارية ابنة سانشو غرسية ملك نافار. وقد أهداها للمنصور زوجة له، فاعتنقت الإسلام، وسميت (عبده)، وأنجب منها المنصور ولده عبد الرحمن الملقب بشنجول أى سانشو الصغير نسبة لجده ملك نافار. وكانت عبده أحظى نساء المنصور وأحبهم لديه.

(٦) هذه العبارة واردة فى «ج». وساقطة فى المخطوطين الآخرين.

شعره

ومما يؤثر من شعره :

رميتُ بنفسى هَوْلَ كل عظيمة وخاطرتُ والحر الكريم يخاطر
وما صاحبى إلا جنانٌ مُشَيَّعٌ وأسمرُ خطِّى وأبيضُ باتر
ومن شيمتى أنى على طالب أجود بمال لا تقيه المعاذر
وإنى لزجّاء الجيوش إلى الوغى أسودٌ تلاقيها أسودٌ خوادر
فسدتُ بنفسى أهل كل سيادة وكاثرتُ حتى لم أجد من أكاثر[1]
وما شدتُ بنيانا ولكن زيادةً على ما بنى عبد المليكُ وعامر
رفعنا العلى بالعوالى سياسةً[2] وأورثناها فى القديم مُعافر

وبلغ فى مُلكه أقطار المغرب ، إلى حدود القبلة[3] ، وبمدينة فاس ، إثر ولده المُقَلَّد فتح تلك الأقطار ، ونَهَدَ أوليك الملوك الكبار .

دخوله غرناطة

قال صاحب الديوان فى الدولة العامرية ، وقد مر ذكر المنصور ، قُومس الفِرنجة بمدينة برشلونة : وهذه الأمة أكثر النصرانية جمعاً ، وأوسعها ، وأوفرها من الاستعداد ، وما أوطئ من الممالك والبلاد ، وفتح من القواعد ، وهزم من الجيوش . وقفل المنصور عنها ، وهو أطمع الناس فى استيصالها ، ثم خصّهم بصايفة سنة خمس وسبعين ، وهى الثالثة عشر لغزواته ، وقد احتفل لذلك ،

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الثلاثة . وفى نص آخر : (وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر) .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الثلاثة . وفى نص آخر : (رفعنا العوالى بالعوالى مثلها) .

(٣) بلاد القبلة تقع فى جنوب المغرب على مشارف الصحراء الكبرى شمال شرق موريتانيا ، وتسكنها قبائل صنهاجة الكبرى .

واستبلغ فى النفير . واستوفى أتم الأبهة ، وأكمل العُدَّة . فجعل طريقه على شرق الأندلس ، لاستكمال ما هنالك من الأطعمة . فسلك طريق إلبيرة ، إلى بَسْطة ، إلى تُدْمير ؛ وهزم فى هذه الغزوات بُريل ملك فِرَنْجة[١] ونازل مدينة برجاونة ؛ فدخلها عَنْوة يوم الإثنين النصف من صفر ، سنة أربع وسبعين أو خمس بعدها .

قلت وفى دخول المنصور بجيشه بلد إلبيرة ، ما يحقق دعوى من ادَّعى دخول المعتمدين من[٢] أهل الأندلس[٣] لذلك العهد ؛ إذ كان يصحب المنصور فى هذه الغزوة ، من الشعراء المرتزقين بديوانه من يذكر ؛ فضلا عن ساير الأصناف على ندارة هذا الصنف من الخدام ، بالنسبة للبحر الزاخر من غيرهم .

والذى صح أنه حضر ذلك ، أبو عبد الله محمد بن حسين الطُّبنى[٤] . أبو القاسم حسين بن الوليد ، المعروف بابن العريف . أبو الوضَّاح بن شُهَيد . عبد الرحمن بن أحمد . أبو العلا صاعد بن الحسن اللغوى[٥] . أبو بكر زيادة الله بن على بن حسن التميمى . عمر بن المنجم البغدادى . أبو الحسن على بن محمد القرشى العباسى . عبدالعزيز بن الخطيب المحرود . أبو عمر يوسف بن هارون الزيّادى . موسى بن أبى طالب . مروان [بن عبد الحكم][٦] بن عبد الرحمن . يحيى بن هُذَيل بن

---

(١) هو الكونت بوريل أمير إمارة قطلونية وقت أن غزاها المنصور . ولم تكن قطلونية قد تحولت بعد إلى مملكة أراجون .

(٢) وردت مكانها فى المخطوطات الثلاثة كلمة (هل) . ونعتقد أنه بهذا التصويب يستقيم السياق .

(٣) وردت فى «ج» بعد هذه الكلمة كلمة (إياك) ، وهى كلمة لا محل لها هنا .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطات (الطيبى) . والصواب ما أثبتناه . وكان الطبنى من آثر شعراء المنصور لديه . والطبنى نسبة إلى طبنة من أرض الزاب بالمغرب .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة ، وإذا كانت الكلمة من الألقاب فهى خطأ وصحتها (البغدادى) . وإن كانت وصفاً فهى صحيحة لأن أبا العلاء صاعد بن الحسن البغدادى ، كان شاعراً ولغوياً فى نفس الوقت .

(٦) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

عبد الملك بن هذيل المكفوف . سعد بن محمد القاضي . ابن عَمْرون القرشي المرواني . على النقاش البغدادي . أبو بكر يحيى بن أمية بن وَهَب . محمد بن إسماعيل الزبيدي صاحب المختصر في اللغة . أحمد بن درّاج القَسْطَلِيّ مُتَنَبِّي الأندلس . أبو الفرج مُنَيل بن مُنيل الأشجعي . محمد بن عبد البصير . الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد . محمد بن عبد الملك بن جَهْوَر[1] . محمد بن الحسن القرشي من أهل المشرق . أبو عبيدة حسان بن مالك بن هاني . طاهر بن محمد المعروف بالمُهَنَّد . محمد بن مُتَرِّف بن شُخَيص سعيد بن عبد الله الشَّنْتريني . وليد بن مَسْلَمَة المرادي. أغلب بن سعيد . أبو الفضل أحمد بن عبد الوهاب . أحمد بن أبي غالب الرُّصافي . محمد بن مسعود البَلْخي ، عُبادة بن محمد بن ماء السماء . عبد الرحمن بن أبي الفهد الإِلْبيري . أبو الحسن بن المضيء البَجْلي الكاتب . عبد الملك بن سهل . الوزير عبد الملك بن إدريس الجزيري . قاسم بن محمد الجيّاني .

قال المؤرخ ، هؤلاء [مَنْ] [2] حفظته منهم . وهم أكثر من أن يحصوا ، فعلى هذا يتبنى القياس في ضخامة هذا الملك ، وانفساح هذا العز .

وفاته

توفى رحمه الله منصرفا من غزاته المسماه بقَنالش والرّيد ، وقد دوّخ أقطار قَشْتالة ، ليلة الإثنين سبع وعشرين لرمضان عام اثنين وتسعين وثلاثمائة ، وقد عهد أن يُدفن[3] ببلد وفاته ، بعد وصية شهيرة صدرت عنه ، إلى المُظفَّر ولده ، فدفن بمدينة سالم ، التي بناها في نَحْر العدو من وادي الحجارة ، وبقَصْرها . وقبره

(١) وردت في المخطوطات الثلاثة (هجور) وهو تحريف . وآل جهور من بيوت الوزارة المشاهير .

(٢) وضعنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٣) وردت مكانها في المخطوطات كلمة (يعرف) . وحكمة التصويب ظاهرة .

معروف إلى اليوم . وكان قد اتخذ له من غُبار ثيابه الذى علاها فى الجهاد . وعاء كبيرا بحديه رحمه الله . وكُتب على قبره هذا الشعر :

آثارُه تنبيك عن أخبــاره حتى كأنك بالعيــان تراه
تا الله لا يأتى الزمان بمــثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه

محمد بن عباد بن [محمد بن][1] إسماعيل [بن محمد بن إسماعيل][1] بن قريش ابن عباد بن عمرو بن أسْلَم بن عمرو بن عِطاف بن نعيم ، لخمى النسب

أوليتــه

دخل الأندلس جَدُّه عِطاف مع بَلْج بن بشر القشيرى . من أشراف الطّالعة البلجية ، وهم من عرب حمص من أرض الشأم ، وموضعه بها يعرف بالعَريش فى آخر الجفار بين مصر والشأم . ونْزل عِطاف بقريه تعرف بيومين من إقليم طُشَانة[2] على ضفة النهر الأعظم[3] من أرض إشْبيلية . ولما هلك قريش ، ورث[4] السيادة إسماعيل بن قريش ، وهو القاضى المشهور بالفضل والدهاء[5] ، يكنى أبا الوليد . وُلِّى الشرطة الوسطى لهشام بن الحكم ، وخُطَّة الإمامة إلى صلاة الجمعة . ثم خلفه أبو القاسم المنفرد برياسة إشبيلية ، المُتْحف فيها بخُطَط الوزارتين والقضاء والمظالم . وعز جاهه ، وكثرت حاشيته ، وتعدَّدت[6] غلمانه ، وأذعنت

(١) نقلنا هذه الزيادة فى النسبة من «الحلة السيراء» لابن الأبار (القاهرة ١٩٦٥) ج ٢ ص ٣٤

(٢) إقليم ، أو بلدة طشانة ، وبالإسبانية Tucina ، تقع شمال شرقى إشبيلية ، وشمال غربى قرمونة ، على مقربة من جنوبى نهر الوادى الكبير .

(٣) النهر الأعظم هو نهر الوادى الكبير .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» «ملك» ، والمؤدى واحد .

(٥) وردت فى «ج» و «الزيتونة» كلمة (والده) . ونعتقد أنها تحريف لكلمة (الدهاء) .

(٦) هكذا فى «الزيتونة» وفى «ج» (وتقدمت) . والأولى أرجح .

له عُداته . ثم خلفه الأمير المعتضد ولده ، وكان خيِّراً حازما ، سديد الرأى ، مَصْنُوعاً له فى الأعداء ، فلما توفى ، تصيَّر الأمر إلى ولده المترجم به ، المكنى أبا القاسم إلى حين خلعه .

حـاله

قالوا كلُّهم ، كان المعتمد ، رحمه الله ، فارسا شجاعاً ، بطلا مِقْداما ، شاعرا ماضياً ، مشكور السيرة فى رعيته . وقال أبو نصر فى قلائده[1] « وكان المعتمد على الله ملكا قمع العدا ، وجمع بين البأس والنَّدا . وطلع على الدنيا بَدْرَ هُدى . لم يتعطل يوماً كفُّه ، ولا بنانه ، آونة يراعه ، وآونة سنانُه . وكانت أيامه مواسم ، وثغوره برَّة بواسم » . لقبه أولا الظَّافر ، ثم تلقب بالمعتمد ، كَلَفاً بجاريته اعتماد ، لمّا ملّكها ، لتتفق حروف لقبه بحروف اسمها ، لشدة ولوعه بها .

وزراؤه

ابن زَيْدون[2] . وابن عمَّار ، وغيرهم .

أولاده المَلَّكون

عبيد الله ، يكنى أبا الحسن ، وهو الرَّشيد . وهو الذى لم يوافق أباه على استِصْراخ المرابطين ، وعرّض بزوال الملك عنهم ، فقال : أحبُّ إلىّ أن [أكون راعى][3] إبل بالعُدْوة من أن ألقى الله ، وقد حُوِّلت الأندلس دار كفر ، وكان قد ولاه عهده ، وبويع له بإشبيلية ، وهو المحمول معه إلى العدوة . ثم الفَتْح ، وهو الملقب بالمأمون ، كان قد بويع له بقرطبة ، وهو المقتول بها ، المُحْمَل رأسه الى

---

(١) هو كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة بعد ابن زيدون كلمة (ابن خلدون) وهو خطأ تاريخى بين

(٣) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (يكون لراعى) . وبالتصويب يستقيم السياق .

محلّة العدوّ المرابطين ، المحاصرة لأبيه بإشبيلية ، ثم يزيد الراضى ، وكان قد ولاه رُنْدَة ، فقتل لما مَلَكها اللمتُونيُون(١) . ثم عبد الله . ويكنى أبا بكر . هؤلاء الأربعة من جاريته اعتماد . السيدة الكبرى . والمدعوة بالرُّميكيّة منسوبة إلى مولاها رُمَيْك بن حجاج الذى ابتاعها منه المعتمد .

مُلمَّة

لما تكالب أذفونش(٢) بن فردلاند على الأندلس بعد أخذه مدينة طُلَيْطلة(٣) ضيق بالمعتمد ، وأجحف فى الجزية ، التى كان يُتّقى بها على المسلمين عاديتهُ ، وعلى ذلك أقسم(٤) أخذها وتجنَّي عليه ، وطمع فى البلاد ، فحكى بعض الإخباريين أنه وجه إليه رسله فى آخر أمره لقبض تلك الضريبة ، مع قوم من رؤساء النصارى ، ونزلوا خارج باب إشبيلية ، فوجه إليهم المال ، [مع بعض الوزراء ، فدخلوا على اليهودى المذكور فى خبايه ، وأخرجوا المال](٥) ، فقال لهم ، لا أَخَذْتُ منه هذا العيار ولا أخذت منه إلاّ ذهباً مشجّراً(٦) ، ولا يؤخذ منه فى هذا العام إلا أجفان البلاد ونُقل كلامه إلى المعتمد ، فبادر بالقبض عليه وعلى النصارى ، ونكَّل بهم ، وقُتل اليهودى بعد أن بذل فى نفسه زنة جسمه ذهباً ، فلم يُقبل منه ، واحتبس النصارى ، وراسله الطاغية فى إطلاقهم ، فأبى إلا أن يُخلى منه حصن الحدود ، فكان ذلك .

---

(١) اللمتونيون هم المرابطون ، نسبة إلى قبيلتهم البربرية المغربية «لمتونة» .

(٢) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (أذفنوش) والتصويب من «الملكية» . وهو ألفونسو السادس ملك قشتالة .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (قرطبة) وهو سهو تاريخى . والصواب ما أثبتناه . وقد استولى ألفونسو السادس على طليطلة من ملكها القادر بن ذى النون فى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٨٥ م) . وكانت أول قاعدة أندلسية كبرى تسقط فى أيدى النصارى .

(٤) وردت فى «ج» . وفى «الملكية» (قسم) . ولم ترد فى «الزيتونة» .

(٥) ما بين الحاصرتين ساقط فى «الملكية» .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وربما كانت (مشهراً) .

واستصرخ اللَّمْتُونيِّين، وأجاز البحر بنفسه . وأقسم الطاغية بأيمانه المغلَّظة ألاَّ يرفع عنه يده . وهاجت حفيظة المعتمد ، واجتهد فى جواز المرابطين ، وكان مما هو معلوم من الإيقاع بالطاغية [فى] وقْعَة الزَّلاّقة[١] فإنه الذى أصلى نارها بنفسه ، فعظم بلاؤه ، وشَهُر صبره ، وأصابته الجراح فى وجهه ويده ، رحمه الله . وفى ذلك يقول أبو بكر بن عُبادة المرِّى :

وقالوا كَفُّهُ جُرحت فقلنا ... أعاديه تُواقعها الجراح
وما لمرتد[٢] الجراحة ما رأيتم ... فتوهِنُها المناصل والرِّماح
ولكن فاض سيلُ البأس منها ... ففيها من [مجاريه انسياح][٣]
[وقد صحَّت · وسحَّت بالأمانى ... وفاض الجود منها والسَّماح
رأى منه أبو يعقوب فيها ... عُقاباً لا يُهاض له جناح
فقال له لك القِدْحُ المُعَلَّى ... إذا ضُربت بمشهدك القِداح][٤]

ولما اتصلت به الصَّيحة ، بين يدى دخول المدينة ، ركب فى أفراد من عبيده ، وعليه قميص يَشِفُّ عن[٥] بدنه ، والسيف مُنتضًى بيده ، ويمم باب الفَرَج[٦] ، فتقدَّم الداخلين ، فردهم على أعقابهم ، وقتل فارساً منهم ، فانزعجوا أمامه ، وخَلَّفوا الباب ، فأمر بإغلاقه ، وسكنت الحال ، وعاد إلى قصره . وفى ذلك يقول :

---

(١) وقعة الزلاقة هى الموقعة الكبرى التى نشبت بين الجيوش المرابطية والأندلسية المتحدة بقيادة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطى عاهل المغرب والمعتمد بن عباد ، والجيوش النصرانية المتحدة بقيادة ألفونسو السادس ملك قشتالة . وانتهت بنصر المسلمين الباهر ، وسحق الجيوش النصرانية وذلك فى يوم ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) . ويقع مكان الموقعة وهو سهل الزلاقة على مقربة من شمال شرقى مدينة بطليوس .

(٢) هكذا وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» . ووردت فى «القلائد» (وما أثر) .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (محاربته انتياح) . والتصويب من «القلائد» .

(٤) نقلنا هذه الأبيات الثلاثة من «القلائد» تكملة للقصيدة (ص ١٣) .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (على) . والتصويب أرجح .

(٦) هو أحد أبواب إشبيلية الإسلامية ، وقد كان يقع جنوب المدينة على مقربة من القصر

[إن يسلب القوم العِدا مُلْكى وتُسْلمنى الجموع
فالقلبُ بين ضلوعه لم تُسْلِم القلبَ الضلوع](١)
قد رُمْت يوم نزالهم ألا تحصِّننى الدروع
وبرزتُ ليس سوى القميص عن الحشا شيء دفوع
أجلى تأخر لم يكن بهواى ذلّى والخضوع
ماسرتُ قط إلى القتال وكان من أملى الرجوع
شيمُ الأولى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع(٢)

جوده

وأخبار جُوده شهيرة، ومما يُؤثر من ذلك، على استصحاب حال العزّ، ووفور(٣) ذات اليد، وأدوات(٤) الملك : غريب . والشاهد المقبول بقاء السجيّة ومصاحبة الخُلق الملكية، مع الإقتار والإيسار، وتقلب الأطوار. وتعرّض له الحصرى القرموني(٥) الضرير بخارج طنجة، وهو يجتاز عليها فى السواحل من قَهْر واعتقال؛ بأشعار ظاهرة المَقْت ، غير لائقة بالوقت، ولم يكن بيده، زعموا، غير ثلاثين ديناراً كانت بخُفّه ، معدّة لضرورة ضَرَر وأزمة ، وأطبع عليها دمه ، وأدرج قطعة شعر طيّها اعتذار عن نَزْرها ، راغباً فى قبول أمرها، فلم يراجعه الحصرى بشيء عن ذلك ، فكتب إليه :

---

(١) نقلنا هذين البيتين ، وهما فاتحة القصيدة من الحلة السيراء (ج ٢ ص ٦٥) .

(٢) هذا الشعر فى المخطوطات الثلاثة ملىء بالتحريف والتصحيف . وقد اكتفينا بنقل النص السليم عن الحلة السيراء .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (ووفود) .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (وأداة) . وفى الملكية (وأداوة) .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « الملكية » . ووردت محرفة فى « الزيتونة » (القيرموانى) والقرمونى نسبة إلى مدينة قرمونة الواقعة شمال شرقى إشبيلية .

قل لمن جمع العـــلم وما أحصى صـــوابه
كان فى الثمرة تيـــسْعَرُ فانتظـــرنا جـــوابه
قد أتينـــاك فهـــلاّ جَلَب الشِّعر جوابه

حلمـــه

رُفع إليه صَدْرَ دولته شعر، أُغرى فيه، بأبى الوليد بن زيدون، وهو شهير، وتُخيِّرَ (١) له موقع وتَرَصَّد حين، وانتظر به مُوْجِره، وهو :

يا أيها الملك [الأعزّ](٢) الأعظم أقطع وريدَىْ كل باغ يُسْلِم(٣)
واحسم بسيفك(٤) كل منـافق يُبدى الجميل وضدُّ ذلك يكتم
لا تتركَنْ للناس موضع شُبهة وأحزم فمثلك [فى العظائم](٥) يحزم
قد قال شاعر كِنْدة فيما مضى قولا على مرّ الليـــالى يُعْـلم
لا يسلم الشرف الرفيع(٦) من الأذى حتى يُراق على جوانبه الدَّم(٧)

فوقّع على الرقعة :

كَذبت مُنا كم صرِّحوا أو جَمْجموا الدِّينُ أمتن والسجيَّةُ أكرم
خنْتم ورُمْتم أن أخون وإنمـا حاولتم أن يستخف يلملم
وأردتم تضييق صَدْرٍ لم يَضِق والسُّمر فى صَدْر(٨) النُّحور تُحطّم

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .
(٢) ساقطة فى «ج» وواردة فى الزيتونة . ووردت مكانها فى «القلائد» (العلى) .
(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (يلثم) ، وفى «القلائد» (ينثم) .
(٤) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (بنفسك) . والتصويب من «القلائد» .
(٥) هذا ما ورد فى «الزيتونة» وفى «القلائد» : وهو ساقط فى «ج» .
(٦) وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» (الشريف) . وهو ما يخالف النص المعروف المتداول .
(٧) أورد ابن الخطيب هذه الأبيات الخمسة فقط من القصيدة : وهى تقع فى سبعة وعشرين بيتاً ، وقد نشرت كاملة فى «القلائد» (ص ١٤ و ١٥) .
(٨) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . ووردت مكانها فى «القلائد» (ثار) .

وزحمتم بمحالكم لمُجَــرِّب ... مازال يَثْبُتُ المُحال فيَهــزِمُ
أنّى رجوتم غَدْرَ من جرّبتم ... منه الوفاء وظَنُّ من لا يظلــم
أنا ذاكم لا السّعى[1] يثمر غرسه ... عندى ولا مَبْنى الصَّنيعة يُهدم
كُفُّوا وإلا فارقُبوا لى بطشــة ... يَبْقى[2] السَّفيه بمثلهــا يتحلَّم

توقيعه ونثره فى البديهة

كتب مع الحمايم إلى ولده الرشيد عَقِب الفراغ من وقعة[3] الزَّلاّقة[4] .

يابنى ، ومن أبقاه الله وسلمه ، ووقاه الأسْواء وعَصَمه . وأسبغ عليه آلاءه وأنْعُمَه كتبته ، وقد أعزّ الله الدين ، وأظهر المسلمين . وفتح لهم على يدى مستدعيات الفتح المبين . بما يسَّره الله فى أمْسِه وسناه . وقدَّره سبحانه وقضاه . من هزيمة أذفُونش ابن فِرْدلَند لعنه الله وأصلاه . وإن كان طاح للجحيم ، ولا أعدمه وإن كان أهْلَ العيش الذَّميم ، كما قنعه الخزىُ العظيم . وأتى القتل على أكثر رجاله وحُماته ، واتصل النَّهب ساير اليوم ، والليلة المتصلة به ، بجميع محلَّاته ، وجمعٌ من رؤوسهم بين يدىّ ، من مشْهُورى رجالهم ، ومنْ كورى أبطالهم ، ولم يختر منهم إلا من شَهُر وقرّب ، وامتلأت الأيدى مما سُلب ونُهب . والذى لامرية فيه ، أن الناجى منهم قليل ، والمُفْلت من سيوف الجزع والبعد قتيل[5] ، ولم يُصِبْنى بفضل الله إلاّ جرح أشوى ، وحسن الحال عندنا والله وزَكىّ ، ولا يُشْغل بذلك بال ، ولا يُتَوهم غير الحال التى أشرت إليها حال ، والأدفونش بن فرذلاند ، إن لم يصبح تحت السيوف

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . ووردت مكانها فى «القلائد» (البغى) .

(٢) وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» و «القلائد» (يلق) . ونعتقد أن التصويب أرجح وأنسب للسياق .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (غزوة) .

(٤) سبق أن قدمنا تعريفاً موجزاً بموقعة الزلاقة (أنظر الهامش فى ص ١١١) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» . ووردت فى «الملكية» (قليل) .

فسيموت لامحالة كمداً ، وإن كان لم تعلقه أسراد الحمام [فغداً ، فإن برأسه طمرة ولحام][١] . فإذا ورد كتابي هذا ، فمُر بجمع الخاص والعام ، من أهل إشبيلية ، وجيرانها الأقربين ، وأصفيائنا المحبين ، في المسجد الجامع . أعزهم الله . وليُقرأ عليهم فيه ، ليأخذوا من المسَرّة بأنصبائهم ، ويضيفوا شكراً لله إلى صالح دُعائهم [والحمد لله على ماصنع حقّ حَمْده ، جلّ المزيد لأمر حين ، إلاّ من عِنده . والسلام][٢] .

تلطفه وظرفه

قال أبو بكر الدّاني[٣] : سألني في بعض الأيام عند قدومي عليه بأغمات ، قاضياً حق نعمَته ، مُستكثراً[٤] من زيارته ، مُستمتعاً[٥] برايق أدبه ، على حال محنته ، عن كُتُبي ، فأعلمته بذهابها في نَهْب حضرته . وكنت قد جَلبتُ في سَفَرتي تلك ، الأشعار الستة ، بشرح الأستاذ أبي الحجاج الشّنتَمري الأعلم ، وكانت مستعارة ، فكتمتها عنه . ووَشى إليه أحد الأصحاب . فخجل بكرمه وحُسن شِيمته ، من الأخذ معي في ذكر ما كتمتُه ، فاستطرد إلى ذلك بغرض نبيل ، ونحا فيه نحواً ، يعرُب عن الشّرف الأصيل ، وأملى عليّ في جملة ما كان يُمليه :

وكواكب لم أدْرِ قبل وجوهها ... أنّ البـــدور تدور في الأزرار
نادمتُها في جَنْح ليـــل دامس ... فأعَرْنه مثـــلا من الأنوار

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة في «ج» . ووردت في «الزيتونة» (فغد برأس طرة ولحام) . وكلتاهما يشوبها الغموض .

(٢) مابين الخاصرتين وارد فقط في «ج» ، في هامش الصفحة . وساقط في المخطوطين الآخرين .

(٣) هو أبو بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة ، من شعراء عصر الطوائف ، اتصل ببلاط إشبيلية وغدا شاعر المعتمد الأثير لديه ، وقد نظم الكثير في مديحه . ولما ذهبت دولة المعتمد ، ونفي أسيراً إلى المغرب ، زاره أبو بكر في أغمات . وله في دولة المعتمد وأيامه ، وفي محنته وأسره قصائد كثيرة . وله في تاريخ الدولة العبادية كتاب عنوانه «نظم السلوك في مواعظ الملوك»

(٤) وردت في المخطوطات الثلاثة (مستكراً) والتصويب أنسب للسياق .

(٥) هكذا وردت في «الزيتونة» و «الملكية» . وفي «ج» (متمتعاً) .

في وسَط رَوضة نرجس كعيونها ما أشبه النُّوار بالنُّـــوا
فإذا تواصَفنــا الحديث حسِبتني ألهـــو بمُلتقط لدرّ نثـــار
فإذا اكتحلتْ برق[١] ثغر باسم سَـكَبت جُفوني أغزر الأمطار
حذر الملام وخيفة من جفـــوة تذر الصدور على شفير هار
ترك الجوارى الآنسات مذاهبى وسولها ظفَر بريشة الأشعار

فلم أتمالك عند ذلك ضحكاً ، وعلمت أن الأمر قد سُرِّى إليه ، فأعلمته قصتها . فبسط العُذر بفضله . وتأوّل الأمر . وقسّم الأشعار على ثلاثة من بَنيه . ذوى خطٍّ رائع ، ونقل حَسَن . وأدب بارع . أخذوا في نسخها . وصرفوا الأصل لأجل قريب .

محنتـــه

ولم يلبث أمير اللمتونيين بعد جوازه إلى الأندلس ، وظهوره على طايفة[٢] الروم ، أن فسَد ما بينه وبين رؤساء الطوائف بالأندلس ، وعزم على خلعهم . فأجاز من سَبْتة العساكر ، وسرّب الأمداد . وأخذ المعتمد بالعزم يحصّن حصونه ، وأودع المعاقل عُدَّته ، وقسّم على مظان الامتناع ولده . وصَمَدت الجموع صَمْدة بنيه ، ونازل الأمير سير إشبيلية ، دار المعتمد ، وحَضْرة ملكه ، ونازل الأمير محمد بن الحاج قرطبة ، وبها المأمون ، ونزل جَرُور[٣] من قواده رُنْدة ، وبها الرَّاضى ابن المعتمد . واستمر الأمر ، واتصلت المحاصرة ، ووقعت أمور يضيق الكتاب عن استقصايها . فدخلت قرطبة في جمادى الآخرة عام أربع وثمانين وأربعمائة ، وقُتل الراضى ،

---

(١) هكذا وردت في «الزيتونة» و «الملكية» . وفى «ج» ببرق .

(٢) هكذا وردت في المخطوطات الثلاثة . وربما كانت أيضاً تحريفاً لكلمة (طاغية) . والمؤدى واحد .

(٣) وردت في المخطوطات الثلاثة (قرور) . والصواب ما أثبتناه .

وجُلب رأسه فِطيف به بمرأى من أبيه . وكان دخول إشبيلية على المعتمد، دخول القَهْر والغَلبة، يوم الأحد لعشر بقين من رجب(١)، وشملت الغارة، واقتُحمت الدُور، وخرج ابن عباد فى شِكَّته(٢) . وابنه مالك فى أمّته معهما فقُتل مالك الملقب بفخر الدولة ورَهِقت الخيل،وكَثُر ، فدخل القصر مُلقياً بيده . ولما جَنّ الليل، وجّه ابنه الأكبر الرشيد إلى الأمير . فحُجب عنه ، وَوكّل بعض خدمه به ، وعاد إلى المعتمد فأخبره بالإعراض عنه. فأيقن بالهَلَكة ، وودّع أهله وعلا البكاء ، وكثُر الصُراخ، وخرج هو وابنه، فأُنزلا فى خِباء حصين، ورُقبا بالحرس، وأُخرج الحُرَم من قصره، وضُم مااشتمل عليه. وأُمر بالكَتْب إلى ولده برُنْدة ففعل . ولما نزل، واستُوصلت ذخيرته، سلا(٣) . وأُجيز المعتمد البحر. ومن معه إلى لمنجة، فاستقرّ بها فى شعبان من العام. وفى هول(٤)البحر عليه فى هذا الحال، يقول رحمه الله

لم أنسَ والموت يدنى ويُقصينى	والموت كأنّ المُنَى يأتينى
أبصرتُ هولاً لوأن الدهر أبصَره	لما خُوِّفا لأمر ليس بالدُّون
قد كنت ضانًّا بنفس لا أجود بها	فبعتُها باضْطرار بَيْعَ مَغْبون
كم ليلة بتُّ مطوياً على حَرَق	فى عَسْرٍ من عيون الدبر(٥)فى العين
فتلك أحسنُ أم ظلات به	فى ظلّ عزّة سلطان وتمكين
ولم يكن والذى تَعْنو الوجوه له	عِرْضى مُهاناً ولا مالى بمخزون
وكم خلوتُ من الهيجا بمعترك	والحربُ تَرْفل فى أثوابها الجُون
يارب إن لم تدع حالا أسَرُّ به	فهب لعبدك أجراً غير ممنون

(١) وردت فى «ج» بعد هذه الكلمة ، كلمة (النهب) ، ولا مكان لها فى السياق .
(٢) فى شكته أى فى سلاحه وعدته .
(٣) هكذا فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» (سل) .
(٤) وردت فى «ج» و «الملكية» (هو — هوا) . وبالتصويب يستقيم المعنى .
(٥) وردت فى «ج» (الدير) . والتصويب من «الزيتونة» .

وجرى على بناته شيء يوم خروجهن، واضطرتهن الضيقة إلى معيشتهن من غزل أيديهن، وجرّت عليه محن طال لها سَجنه[١] وأقعده قيده. إلى [أن][٢] نقل إلى أغمات وَريكة[٣]. وحُلّ عنه الاعتقال. وأُجرى عليه رزقه، تبلّغ به لمدة من أعوام أربعة، واستنقذه حِمامه، رحمة الله عليه.

وصوله إلى غرناطة

قال ابن الصيرفى. وقد أجرى ذكر تملّك يوسف بن تاشفين غرناطة، وخلع أميرها عبد الله بن بُلُقّين حفيد باديس، يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من رجب عام ثلاثة وثمانين: ولحق ابن عباد [وحليفه ابن مَسْلَمَة][٤] بخيل ورَجْل ورُماة وعَدد، وحلّ ذلك من [ابن] عباد تضمناً لمسرّة أمير المسلمين. وتحققاً[٥] بموالاته، فدخلا عليه، وهنّياه، وقد تحكّمت فى نفس ابن عباد الناعية فى إسلام غرناطة إلى ابنه، بعد استصفاء نعمة صاحبها، عوضاً عن الجزيرة الخضراء، وكان قد أشخصه معه، [فعرّض بغرضه][٦]، فأعرض أمير المسلمين عن الجميع إعراضاً، كانت مُنية [كل منهما][٧] التخلّص من يده، والرجوعَ إلى بلده. فأعمل ابن عباد

---

(١) وردت فى «ج» (سجنه). والتصويب من «الملكية».

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق.

(٣) أغمات أو أغمات وريكة، هى بلدة قديمة حصينة تقع على قيد نحو أربعين كيلو مترا من جنوب شرقى مراكش، وكانت قبل إنشاء مراكش عاصمة للدولة المرابطية.

(٤) وردت هذه العبارة فى المخطوطات الثلاثة (وخليفة بن مسلمة). وهو تحريف. والصواب ما أثبتناه. وابن مسلمة هو المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس. ويعرف بنو الأفطس أيضا ببنى مسلمة باسم جدهم ومؤسس دولتهم عبد الله بن محمد بن مسلمة.

(٥) وردت فى «ج» و«الزيتونة» (وتحققوا). وبالتصويب يستقيم السياق.

(٦) وردت مكان هذه العبارة فى المخطوطات الثلاثة عبارة مضطربة مكررة (فعرض به فأعرض عنه بغرضه: فأعرض به ما عرض عنه غرضه .. الخ). وبهذا التصويب الموجز يستقيم المعنى والسياق.

(٧) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» (كل واحد منهما).

الحيلة . فكتب ، يزعم[١] أنه وردت عليه تحثه من إشبيلية فى اللحاق ، أنباء[٢] مهمة طرقت بتحرك العدو . واستأذن بها فى الصدور ، فأخذ له ولحليفه ابن مسلمة ، فانتهزا[٣] الفرصة ، وابتدرا الرجعة . ولحق كل بموضعه يظن أنه ملك رياسة أمره .

مولده

ولد المعتمد على الله بمدينة باجة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة . وولى سنة إحدى وستين . وخلع سنة أربع وثمانين .

وفاته

كانت وفاة المعتمد [على الله][٤] بأغمات فى ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، بعد أن تقدمت وفاته وفاة الحرة اعتماد . وجزع عليها جزعاً ، أقرب[٥] سرعة لحاقه بها . ولما أحس بالمنية . رثى نفسه بهذه الأبيات وأمر أن تكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى ... حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد
[بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت ... بالخصب أن أجدبوا بالرى للصادى]
بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا ... بالموت أحمر بالضرغامة العادى
[بالدهر فى نقم بالبحر فى نعم ... بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى]
نعم هو الحق [فاجأنى على][٦] قدر ... من السماء ووافانى لميعاد

---

(١) فى «ج» (زعم) . والتصويب أنسب للسياق .

(٢) وردت فى «ج» (لأنباء) . فاقتضى التصويب .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (فاستنهزا) . والتصويب أفضل .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . وفى «ج» (رحمه الله) .

(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» و «الملكية» (أقر) .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . ووردت فى «المعجب» . وفى مصادر أخرى (حابانى به) .

ولم أكن قبل ذاك النّعش أعلمُه … أنَّ الجبال تُهادى فوق أعواد
[كفاك فارفق بما استُودِعت من كرم … روّاك كلُّ قطوب البرق رعاد]
[يبكى أخاه الذى غيَّبتَ وابله … تحت الصَّفيح بدمع رائح غادى]
[حتى يجودك دمعُ الطَّل منهمراً … من أعين الزَّهر لم تبخل بإسعاد][1]
فلا تزل صلوات الله نازلةً … على دفينك لا تُحصى بتَعداد

بعض مارثى به

قال ابن الصيِّرفى، وخالف فى وفاة المعتمد، فقال: كانت فى ذى حجة. فلما انفصل الناس من صلاة العيد. حفَّ بقبره ملأ، يتوجعون ويترحمون عليه، وأقبل ابن عبد الصمد، فوقف على قبره وأنشد:

ملكُ الملوك أسامعٌ فأنادى … أم قد عَدَتك عن السَّماع عوادى
لما خَلَت منك القصورُ فلم تكن … فيها كما قد كنتَ فى الأعياد
أقبلتُ[2] فى هذا الثرى لك خاضعاً … وتخِذتُ قبرك موضعَ الإنشاد[3]

ثم خرّ يبكى، [ويُقَبِّل القبر][4] ويعفِّر وجهه فى التُّراب، فبكى ذلك الملأ حتى أخضلوا ملابسهم، وارتفع نشيجهم[5] فلّله درُّ ابن عبد الصمد، وملاذ ذلك البلد.

---

(١) وردت هذه القصيدة ناقصة فى المخطوطات الثلاثة. وقد أكملناها بالأبيات التى بين الخواصر. وأوردها المراكشى فى «المعجب» (١٣٢٢ هـ) ص ٨٧.

(٢) وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» (قبلت). وفى «الملكية» (مثلت).

(٣) أورد ابن الخطيب مطلع هذه القصيدة فقط. وقد أوردها الفتح فى «القلائد» كاملة (قلائد العقيان ص ٣١).

(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة (ويقبل فى القبر).

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة بعد هذه الكلمة عبارة (دمع البار). ولا مكان لها فى السياق.

محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مَرْدَنِيش الجذامى

قال بعضهم ينتمى فى تجيب. الأمير أبو عبد الله.

أوَّليتـــــه

معروفة. وعلى يد أبيه جَرَت الوقيعة الكبرى بظاهر إفراغة. على ابن رُذْمير الطاغية، فجلّت الشُّهرة، وعظُمت الأَثَرة. قال بعضهم، تولى أبوه سعد قيادة إفراغة وما إليها. وضبطها. ونازلها[1] ابن رذمير. فشُهر غناؤه بها فى دفاعه، وصبره على حصاره، إلى أن هزمه الله [عزّ وجلّ][2]، على يدى ابن غانية[3]. وظهر بعد ذلك فحُسن بلاؤه. وبعُد صيته. ورأس ابنه محمد، ونَفَق فى أُلْفَته. وكان بينه وبين ابن عِياض المتأمِّر بمُرْسية صِهر، ولاّه لأجله بَلَنْسية. فلما توفى ابن عياض، بادرها ابن سعد، وبلَغه أثناء طريقه، غدر العدُوُّ بحصن جَلال، فكرّ [وقاد له][4] وفتحه. وعاد فملك بلنسية، وقد ارتفع له صيتٌ شهير، ثم دخلت مُرْسية فى أمره، واستقام له الشَّرْق، وعظُمت حاله.

---

(١) هكذا وردت فى «ج» وفى «الزيتونة». وفى «الملكية» (ونازله).

(٢) هذه الزيادة من «الزيتونة».

(٣) موقعة إفراغة المشار إليها هنا، هى الموقعة الحاسمة التى نشبت بين ألفونسو المحارب (ابن رذمير) ملك أراجون وبين المرابطين تحت أسوار مدينة إفراغة الواقعة على نهر سنكا أحد فروع نهر إيبرو بالثغر الأعلى، بقيادة يحيى بن غانية اللمتونى. وكان الأرجونيون قد ضربوا عليها الحصار وقاومتهم حاميتها الإسلامية بقيادة واليها سعد بن محمد بن مردنيش أشد مقاومة، وصمدت حتى وافت القوات المرابطية. ومنى الأرجونيون فى الموقعة بهزيمة ساحقة، وكان ذلك فى يوم ٢٣ رمضان سنة ٥٢٨ هـ (٧ يوليه ١١٣٤ م). وقتل ألفونسو المحارب خلال الموقعة أو توفى بعدها بأيام قلائل غما ويأسا.

(٤) هكذا فى المخطوطات الثلاثة.

حـالـه

قال ابن حمامة : ساد من صغره بشجاعته ونجابته(١) ، وصيت أبيه ، فمال بذلك إلى القيادة . وسنه أحدى وعشرون سنة . ثم ارتقى(٢) إلى المُلْك الراسخ ، والسلطان الشامخ ، بباهر شجاعته وشهامته . فسما قدره . وعظم أمره . وفَشَى فى كل أمة ذكره .

وقال غيره ، كان بعيد الغُور ، قوىّ السَّاعد ، أصيل الرأى . شديد العزم ، بعيد العفو ، مؤثراً للانتقام ، مرهوب العقوبة .

وقال فى مختصر « نورة المُريدين »(٣) كان عظيم القوة فى جِسْمه ، ذا أيد فى عظمته . [جزّارة فى لحمه](٤) ، وكان له فروسيّة ، وشجاعة . وشهامة . ورياسة .

بطالته وجوده

قال وكان له يومان فى كل جمعة . الإثنين والخميس ، يشرب مع ندمايه فيهما ، ويجود على قُوّاده ، وخاصته وأجْناده ، ويذبح البقر فيهما(٥) ، ويفرق لحومها على الأجناد ، [ويحضر القِيان بمزاميرهن وأعْوادهن](٦) ، ويتخلل ذلك لهو كثير ، حتى مَلَكَ القلوب من الجند ، وعاملوه بغاية النُّصح . وربما وَهَب المال فى مجالس أُنْسه .

ذكر أنه استدعى يوماً ابن الأزرق أحَد قُوّاده ، فشرب معه ومع القرابة ،

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (ونجدته) والأولى أرجح .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (ارتفع) .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (ثور المريدين) . والصواب ما أثبتناه . وثورة المريدين كتاب من تاليف ابن صاحب الصلاة الباجى مؤرخ الموحدين وصاحب كتاب (المن بالإمامة) . ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا .

(٤) وردت هذه العبارة فقط فى «ج» . وهى ساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (فى المواسم) والأولى أرجح وأكثر اتفاقا مع السياق .

(٦) هذه العبارة واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» .

فى مجلس قد كساه بأحمر الوشى والوطىء[١] والآنية من الفضة وغيرها،وتمادى فى لهو وشراب عامة اليوم. فلما كمل نهاره معهم،وهبهم الآنية. وكلّ ما كان فى المجلس من الوشى[٢]وغير ذلك.

ما نقم عليه ووصم به

قالوا،كان عظيم الانهماك فى ميدان البطالة،واتخذ جُمْلة من الجوارى. فصار يُراقد منهن جملة تحت لحاف واحد. وانهمك فى حُب القِيان، والزمر والرقص. قالوا،وكان له فتى اسمه حسن، ذو رقبة سمينة. وقفاً عريض. فإذا شرب، كان يرزّه، ويعطيه بعد ذلك عطاء جزيلا. وفى ذلك يقول كاتبه المعروف بالسّالمى، وكان يحضر شرابه. ويخمر[٣].

أدر كؤوس المدام والرّز   فقد ظفرنا بدولة العـــزّ
ونعم الـكفّ من قفا حسن   فإنها فى ليانة الخـــزّ
وصاحبٌ إن طلبتُ أخدعه   فلم يكن فى بذله بمعتزّ
انحنى على أخداعى فاطربنى   وهزّ عنقى أيما هـــزّ

وأجزل صلة السّالمى حين أنشدها إياه، واشتهرت هذه الأبيات بالشرق، واستظرفها الناس. [فردّ مُرسية دار مجونه، وبلغ فى زمانه ألفا وأربعين][٤]. وآثر زىّ النصارى من الملابس، والسلاح، واللّجم، والسّروج. وكلف بلسانهم يتكلم مُباهتة[٥]، وألجأه الخروج عن الجماعة. والانفرادُ بنفسه (إلى الاحتماء)[٦]

---

(١) هذه الكلمة واردة فقط فى «ج» وساقطة فى المخطوطين الآخرين.

(٢) هكذا وردت فى «الملكية» و «الزيتونة». ووردت مكررة فى «ج» (فرش وآنية)

(٣) وردت فى «ج» وفى «الملكية» (ويخف – يخفه). والتصويب من «الزيتونة».

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى المخطوطات الثلاثة. ولم تتضح حكمة وجوده هنا. والظاهر أنه قد سقطت منه بعض كلمات.

(٥) هذه الكلمة واردة فى «ج» وفى «الملكية» وساقطة فى «الزيتونة».

(٦) أضفنا هذه الزيادة ليستقيم المعنى والسياق.

بالنصارى ، ومُصانعتهم ، والاستعانة بطواغيتهم . فصالح صاحب بَرْشلونة لأول أمره على ضريبة . وصالح ملك قَشْتالة على أخرى . فكان يبذل لهم فى السنة [خمسين ألف مثقال][1] . وابتنى لجيشه من النصارى منازل معلومات وحانات للخمور ، وأجحف برعيته لأرزاق من استعان به منهم ، فعظُمت فى بلاده المغارم وثقُلت ، واتخذ حوانيت بيع الأدْم والمرافق ، تختنق[2] بجانبه ، وجعل على الأغنام وعروض البقر ، مؤناً غريبة . وأما رسوم الأعراس والملاهى ، فكانت قبالاتها غريبة . حدث بعض المؤرخين عن الثقة ، قال كنت بجيّان مع الوزير أبى جعفر الوَقّشى ، فوصل إليه رجل من أهل مرسية ، كان يعرفه ، فسأله الوزير عن أحوال ابن مرْدَنيش وعن سيره فقال الرجل ، أخبرك بما رأيته من جَوْر عُمّاله وظلمهم . وذلك أن أحد الرعية بشاطبة واسمه محمد بن عبد الرحمن ، كان له بنظر شاطبة ، ضُويعة يعيش بها ، وكان لازمُها أكثر من فايدها ، فأعطى لازمَها حتى افتقر ، وفرّ إلى مُرْسية . وكان أمر ابن مردنيش ، أنه مَنْ فرّ من الرعيّة أمام الغزو[3] ، أخذ ماله للمخزن . قال الرجل الشّاطبى ، فلما وصلت إلى مرسية فارّا عن وطنى ، خدمتُ الناس فى البُنْيان ، فاجتمع لى مثقالان سَعْديّان ، فبينما أنا أمشى فى السوق . وإذا بقوم من أهل بلدى شاطبة ، ومن قرابتى ، فسألتهم عن أولادى وزوجتى ، فقالوا إنهم فى عافية ، ففرحت فرحا عظيما ، وسألتهم عن الضُّويعة ، فقالوا إنها باقية بيد[4] أولادك ، فقلت لهم عسى تَبيتوا عندى الليلة ، فاشتريت لحما وشرابا ، وضَرَبنا دفًّا . فلما كان عند الصباح ، وإذا بنقر عنيف

(١) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» و «الملكية» (خمسين ألفا من المثاقيل) .

(٢) هكذا وردت هذه الكلمة فى المخطوطات الثلاثة . وربما كان القصد أنها تزدحم .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (العدو) .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (عند) .

بالباب . فقلت من أنت ، فقال أنا الطُرّقون الذى بيده قَبالة اللهو ، وهى متَّفقة بيدى . وأنتم ضربتم البارحة الدُّف فأعطنا حق العُرْس الذى عَملت . فقلت له والله ما كانت لى [عُرْس](١) . فأُخذت وسُجنت . حتى افتديت بمثقال واحد من الذى خدمت به . وجئت إلى الدار . فقيل لى أن فلاناً وصل من شاطبة السّاعة . فمشيت لأسأله [عن أولادى . فقال تركتهم فى السّجن . وأُخذت الضُّويعة من أيديهم فى رسم الجبالى . فرجعت](٢) إلى الدار . إلى قرابتى . وعرّفتهم بالذى طرأ علىّ . وبكيت طول ليلتى ، وبكوا معى . فلما كان من الغد . وإذا بناقر بالباب . فخرجت . فقال أنا رجل صاحب المواريث . أُعلمنا أنكم بكيتم البارحة . وأنه قد مات لكم ميت من قرابتكم [غنى](٣) . وأخذتم كلّ ما ترك . فقلت والله ما بكيتُ إلا نفسى . فكذبنى وحملنى إلى السجن ، فدفعت المثقال الثانى . ورجعت إلى الدار [وقلت أخرج إلى الوادى . الى باب القنطرة . أغسل ثيابى من دَرَن السجن . وأفرّ إلى العدوة](٤) فقلب لامرأة تغسل الثياب . إغسلى مما علىّ . وجرّدتها . ودفعت لى زناراً ألبسه . فبينا أنا كذلك . واذا بالخيل قائد [ابن](٥) مردنيش ، يسوق ستين رجلا من أهل الجبل ، لابسى الزنانير . فرآنى على شكلهم . فأمر بحملى إلى السُّخرة والخدمة بحصن مسقوط عشرة أيام . فلبثت أخدم وأحضُر مدة عشرة أيام . وأنا أبكى واشتكى للقايد المذكور ، حتى أشفق على وسرّحنى . فرجعتُ أريد مرسية . فقيل لى عند باب البلد . كيف اسمك فقلت محمد بن عبد الرحمن ، فأخذنى الشرطى . وحُملت [الى] القابض بباب القنطرة . فقالوا هذا مَنْ كتبتُه من

(١) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٣) الزيادة من «الزيتونة» .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٥) أضفنا هذه الكلمة تصحيحاً للاسم .

أرباب الحالى بكذا وكذا دينار . فقلت والله ما أنا إلا من شاطبة . وإنما إسمى وافق ذلك الاسم، ووصفتُ له ما جرى على ، فأشفق وضحك منى ، وأمر بتسريحى فسرت على وجهى الى هنا .

بعض الأحداث فى أيامه ، ونبذ من أخباره

استولى على بلاد الشّرق ، مُرْسية وبَلَنْسية وشاطبة ودانية ، ثم اتسع نطاق ملكة ، فولّى جيّان [وأُبدّة وبيّاسة][1] . وبَسْطة ووادى آش ، وملك . قَرْمونة ، ونازل قرطبة وإشبيلية . وكاد يستولى على جميع بلاد الأندلس . فولّى صِهره ابن هَمُشْك . وقد [مرّ][2] فى باب إبراهيم ، مدينة جيّان [وأُبدّة وبَيّاسة][1] ، وضيّق منها على قرطبة . واستولى على إستجة ، ودخل غَرناطة سنة سبع وخمسين وخمسماية وثار عليه[3] يوسف بن هلال من أصهاره بحصن مطرنيش[4] وما إليه . ثم تفاسد ما بينه وبين صهره [الآخر ابن هَمُشْك][5] ، فكان سبب إدْبار أمره . واستولى العدو فى مدة ابن سعد على مدينة طُرْطُوشة عام ثلاثة وأربعين وخمسماية . وعلى حصن إقليج . وحصن شرانية .

دخوله غرناطة

ولما دخل ابن هَمُشْك مدينة غرناطة ، وامتنعت عليه قصبتُها . وهزم

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» وساقط فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق . وقد مرت ترجمة ابن همشك فى المجلد الأول ص٢٩٦ .

(٣) وردت (على) فى «ج» و «الزيتونة» ؛ فلزم التصويب لاستقامة المعنى .

(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة (حصن يطرقش) . وهو تحريف . والصحيح ما أثبتناه . و حصن مطرنيش يقع على مقربة من بلنسية .

(٥) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» .

الجيش المُصْرَخ لمن حُصر بها من الموحدين بمرج الرُّقاد(١) وثاب أثناء ذلك أمرُ الموحدين . فتجهز لنصرهم السيد أبو يعقوب . وأجاز البحر. واجتمعوا بالسيد أبي سعيد بمالقة . استمد(٢) ابن هَمُشْك صهره الأسعد . أبا عبد الله محمد بن سعد . فخرج بنفسه فى العسكر الكبير من أهل الشرق والنصارى . فوصل إلى غرناطة ، واضطربت محلته بالربوة السامية المتصلة بربض البَيّازين . وتُعرف إلى اليوم بكُدية مردنيش [وتلاحق جيش الموحدين بأحواز غرناطة . فأبينوا جيش عدوهم . فكانت عليه الدَّبرة ، وفر ابن مردنيش](٣) فلحق بجيان ، واتصلت عليه الغلبة من لدُن منتصف عام ستين فلم يكن له بعده ظهور .

وفاتــه

وظهر عليه أمر الموحدين ، فاستخلصوا معظم ما بيده ، وأوقعوا بجنده الوقايع العظيمة . وحُصر بمدينة مرسية ، واتصل حصاره ، فمات أثناء الحصار فى عاشر رجب من عام [سبعة](٤) وستين وخمسماية وله ثمانية وأربعون عاما ، ووصل(٥) أمره أبو القمر هلال(٦) ، وألقى باليدين إلى الموحدين ، فنزل على عهدٍ ورسومٍ حسبما يأتى فى موضعه .

---

(١) موقعة مرج الرقاد ، نشبت بين الموحدين وبين قوات ابن‌همشك صهر ابن مردنيش على أثر استيلائه غرناطة فى جمادى الأولى سنة ٥٥٦ هـ ، فى الموضع المسمى مرج الرقاد ، ويقع على مقربة من غرناطة على سفح جبل إلبيرة ومقابله مكان يسمى اليوم Majorracal وقد هزم الموحدون فى تلك المرقعة هزيمة شديدة

(٢) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (استمر) . وهو تحريف .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» ، وساقط فى «الزيتونة» وفى «الملكية» .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى «ج» وواردة فى «الزيتونة» وفى «الملكية» (عام احد وستين وخمسمائة) . وهو خطأ . والصحيح ما أثبتناه .

(٥) وردت فى ج (وهم) وفى «الملكية» (وضم) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٦) هلال ، أبو القمر ، هو ولد محمد بن سعد بن مردنيش . وقد أقنعه القادة والأشياخ على أثر وفاة أبيه بالتسليم للموحدين . فصدع برأيهم وأعلن طاعته للموحدين . وسار إلى إشبيلية يؤكد ذلك بنفسه لخليفة الموحدين أبى يعقوب يوسف ، وتوثقت فيما بعد أواصر المودة بين الخليفة الموحدى وبين آل مردنيش ؛ ولاسيما حين تزوج الخليفة إبنة محمد بن سعد .

محمد بن يوسف بن هود الجذامى، أمير المسلمين

بالأندلس، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب السلطانية بالمتوكل على الله.

أوليته

من ولد المستعين بن هود. وأوّليتهم معروفة، ودولتهم مشهورة، وأمراؤهم مذكورون. خرج من مرسية تاسع رجب عام خمسة وعشرين وستماية إلى «الصخور»[١] من جهاتها فى نفر يسير من الجنود [معه][٢] وكان الناس يستشعرون ذلك. ويرتقبون ظهور مسمىً باسمه واسم أبيه، ويندّدون[٣]. بإمْرته وسلطانه. وجرى عليه بسبب ذلك امتحان فى زمن الموحِّدين مرات، إذ كان بعض الهاتفين بالأمور الكاينة، والقضايا المستقْبلة، يقول لهم، يقوم عليكم قايم من صنف الجند، اسمه محمد بن يوسف. فقتلوا بسببِ ذلك شخصاً من من أهل جيّان. ويقال [إن][٤] شخصاً ممن ينتحل ذلك، لقى ابن هود، فأمعن النظر إليه، ثم قال له [أنت سلطان الأندلس][٥]، فانظر لنفسك، وأنا أدلُّك على من يقيم مُلْكك، فاذهب إلى المُقَدَّم الغَشْتى[٦] فهو القايم بأمرك.

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (الحضور). والصواب ما أثبتناه. وهو «الصخور» أو «الصخيرات» حسب يأتى بعد.

(٢) الزيادة من «الزيتونة» و «الملكية».

(٣) هكذا وردت فى «ج». ووردت فى «الملكية» و «الزيتونة» (يندرون) والأولى أرجح

(٤) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة السياق.

(٥) هكذا وردت فى «ج». ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (أنت السلطان بالأندلس).

(٦) وردت فى المخطوطات (الغشى) وهو تحريف.

وكان الغَشتى رجلا صُعلوكا يقطع الطريق ، وتحت يده جماعة من أنجاد الرجال ، وسباع الشرّار ، قد اشتهر أمرهم ، فنهض إلى المقدم ، وعرض عليه الأمر ، وقال نستفتح بمُغاوَرَة إلى أرض العدو ، على اسمك وعلى سعدك ، ففعلوا ، فجلبوا كثيرا من الغنايم[1] والأسرى ، وانضاف إلى ابن هود طوايفُ مثل هؤلاء ، وبايعوه « بالصخيرات »[2] كما ذكر ، من ظاهر مرسية[3] ، وتحرّك إليه السيد أبو العباس بعسكر مرسية ، فأوقع به وشرَّدَه ، ثم ثاب إليه ناسه ،وعدل إلى الدّعاء للعباسيين ، فتبعه اللَّفيف ، ووصل تقليد الخليفة المستنصر بالله ببغداد ، فاستنصر[4] الناس فى دعوته ، وشاع ذكرُه ، وملك القواعد ، وجيّش الجيوش ، وقهر الأعداء ، ووفّى للغَشتى بوعده ، فولاّه أسطول إشبيلية ، ثم أسطول سَبْتة ، مضافا إلى أمرها ، وما يرجع إليه ، فثار به أهلها بعد وخلعوه ، وفرّ أمامهم فى البحر ، وخفى أثره إلى أن تحقق استقراره أسيراً فى البحر بغرب الأندلس ، ودام زماناً ، ثم تخلص فى سن الشيخوخة ، ومات برباط آسِفى .

حاله

كان شجاعاً ، ثَبْتاً ، كريماً حييًّا ، فاضلاً ، وفيًّا . متوكِّلاً عليه[5] ، سليم الصدر ، قليل المبالاة ، فاسْتَعْلى لذلك عليه ولاته بالقواعد ، كأبى عبد الله بن الرَّميمى بالمريّة ، وأبى عبد الله بن زُنون بمالقَة ، وأبى يحيى عُتْبَة بن يحيى الجَزُولى بغرناطة. وكان مَجْدُوداً ، لم ينهض له جيش . ولا وُفّق لرأى . لغَلَبة الخِفَّة عليه ، واستعجاله الحركات . ونشاطه إلى اللقاء ، من غير كمال استعداد .

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (الغنم) . والتصويب أرجح .

(٢) هى الصخور أو الصخيرات كما سبق شرحه .

(٣) وردت فى «الزيتونة» (غرناطة) وهو خطأ ظاهر .

(٤) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» . ووردت فى «الزيتونة» (فانتصر) .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» ، ووردت محرفة فى «ج»(كقلبه) . والتصويب من «أعمال الأعلام» .

بعض الأحداث فى أيامه

جرت عليه هزائم. منها هزيمة السلطان الغالب بالله إيّاه مرّتين، إحداها بظاهر إشبيلية، وركب البحر فنجا[١] بنفسه. ثم هزمه بإلبيرة من أحواز غرناطة، زعموا كل ذلك فى سنة أربع وثلاثين وستماية أو نحوها.

وفى سنة خمس وثلاثين، كان اللقاء بينه وبين المأمون إدريس أمير الموحدين بإشبيلية، فهزمه المأمون أقبح هزيمة. واستولى على محلّته. ولاذ منه بمدينة مُرْسية.

ثم شغل المأمون الأمر، وأهمّته الفِتْنة الواقعة بمرّاكُش، فصرف وجهه إليها. وثاب الأمر للمتوكل، فدخلت فى طاعته المريَّة، ثم غرناطة، ثم مالَقة. وفى سبع وعشرين وستماية، تحرك بفضل شهامته بجيوش عظيمة، لإصْراخ[٢] مدينة مارِدَة، وقد نازلها العدوُّ وحاصر، ولقى الطّاغية بظاهرها، فلم يتأنّ زعموا، حتى دفع بنفسه العدوَّ، ودخل فى مَصافّه[٣]. ثم لما كرّ إلى ساقَتِه، وجد الناس منهزمين لما غاب عنهم، فاستولت عليه هزيمةٌ شنيعة. واستولى العدو على ماردة بعد ذلك.

وفُتِح عليه فى أمور. منها تملُّكه إشْبيلية سنة تسع وعشرين وستماية، وولى عليها أخاه الأمير أبا النجاة سالمًا الملقب بعماد الدولة. وفى سنة إحدى وثلاثين، رَجَعت قرطبة إلى طاعته، واستوْسَق أمره. وتملّك غرناطة ومالقة عام خمسة وعشرين وستمائة، ودانت له البلاد. وفى العشر الأول من شوال، دخل فى طاعته الريِّسان أبو زكريا، وأبو عبد الله، إبنا الرئيس أبى سلطان [عزيز][٤] بن

---

(١) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» و«الملكية» (ثم نجا) والمؤدى واحد.

(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة. وفى «أعمال الأعلام».

(٣) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة (مصابه — مصارفه — مصامه). وبالتصويب يستقيم السياق.

(٤) الزيادة من «أعمال الأعلام».

أبي الحجاج بن سعد . وخرجا عن طاعة الأمير أبي جميل ، وأخذا البيعة لابن هود على ما في أيديهما . وفي سنة ست وعشرين وستمائة ، تملك الجزيرة الخضراء عَنْوة ، يوم الجمعة التاسع لشعبان من العام . وفي العشر الوسط من شوال ورد عليه الخبر ليلا بقصد العدوّ وجهة مدينة وادي آش . فأسرى ليله مسرجاً[١] بقية[٢] يومه ، ولحق بالعدو على ثمانين ميلا ، فأتى على آخرهم ، ولم ينج منه أحد .

أخـــوته

الرئيس أبو النجاة سالم ، [وعلامته وثِقْتُ بالله][٣] ، ولقبُه عماد الدولة ، والأمير أبو الحسن عضد الدولة ، وأسره العدو في غارة[٤] ، وافتكّه بمال كثير ، والأمير أبو إسحاق شرفُ الدولة . وكلهم يُكتَب عنه ، من الأمير فلان .

والـــده

أبو بكر الملقب بالواثق بالله ، أخَذَ له البَيْعة على أهل الأندلس ، في كذا ، ووُلِّي بعده وليّ عهده ، واستقلّ بملك مرسية ، ثم لم يَنْشَب أن هلك .

دخوله غرناطة

[دخل غَرْناطة][٥] مرّات عديدة ، إحداها في سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، وقد وردت عليه الرّاية والتقليد من الخليفة العباسي ببغداد . وبمصلَّى غرناطة ، قرىء على الناس كتابه ، وهو قايم ، وزيّه السَّواد ، ورايته السوداء بين يديه ،

---

(١) وردت في «ج» (مضرجا) والتصويب من «الزيتونة» .

(٢) وردت في المخطوطات الثلاثة (بجاية) وهو تحريف ظاهر . وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

(٣) هذه العبارة واردة في «ج» ، وساقطة في «الزيتونة» .

(٤) هكذا في «ج» . وفي «الزيتونة» و «الملكية» (غزوة) .

(٥) هذه العبارة واردة في «الزيتونة» و «الملكية» ، وساقطة في «ج» .

وكان يوم استسقاء ، فلم يستتم على الناس قراءة الكتاب يومئذ ، إلاَّ وقد جادت السماء بالمطر ، وكان يوماً مشهوداً ، وصُنْعاً غريباً ، وأمر [بعد انصرافه][١] ، أن يُكتب عنه بتلك الألقاب التي تضمنها الكتاب المذكور إلى البلاد .

وفاته

اختلف الناس في سبب وفاته ، فذُكر أنه قد عاهد زَوْجَه ألاَّ يتخذ عليها امرأة طول عمره، فلما تصيَّر إليه الأمر ، أعجبته روميَّة [حصلت له بسبب السَّبي][٢] من أبناء زعمائهم ، من أجمل الناس ، فستَرَها عند ابن الرَّميمي خليفته ، فزعموا أن ابن الرميمي عَلِق بها . ولما ظهر حَمْلُها . خاف افتضاح القصة ، فدبَّر عليه الحيلة ، فلما حلَّ بظاهر المريَّة ، عرض عليه الدخول إليها ، فاغتاله ليلاً ، بأن أقعد له أربعة رجال ، قضوا عليه خَنْقاً بالوسايد . ومن الغد ادَّعى أنه مات فجأة ، ووقف عليه العُدُول ، والله أعلم بحقيقة الأمر[٣] سبحانه . وكانت وفاته ليلة الرابع والعشرين من جمادى الآخرة عام خمسة وثلاثين وستماية . وفي إرجاف الناس بولاية ابن هود . والأمر قبل وقوعه ، يقول الشاعر :

هُمامٌ به زاد الزمان طَلاقة ... ولذَّت لنا فيه الأماني مَوْرِدَا
فقُلْ لبني العباس ها هي دولةٌ ... أغار بها الحقُّ المبين وأنجدا
فإن الذي قد جاء في الكُتْبِ وصفُه ... بتمهيد هَذِي الأرض قد جاء فاهتدا[٤]
فإن بَشَّرتنا بابن هُود محمد ... فقد أظهر الله ابنَ هودٍ محمدا

---

(١) هكذا وردت في «ج» . وفي «الزيتونة» (بعد أن انصرف) .
(٢) هكذا وردت هذه العبارة في «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت في «ج» (في سبي الروم)
(٣) هكذا وردت في « ج » . ووردت في الزيتونة و الملكية (ذلك) .
(٤) هكذا وردت في «ج» . و «الزيتونة» . وفي« الملكية» (فابتدا) .

محمد بن أحمد بن زيد بن أحمد بن زيد بن الحسن بن أيوب ابن حامد بن زيد بن منخل الغافقى

يكنى أبا بكر من أهل غرناطة . وسكن وادى آش .

أوّليتـــــه

أصل هذا البيت من إشْبِيلية ، وذكره الرّازى فى الاستيعاب ، فقال ، وبإشبيلية بيتُ زيد الغافقى ، وهم هناك جماعة كبيرة، فرسانٌ ولهم شرف قديم ، وقد تصرفوا فى الخدمة . بَلَدِيُّون[1]، ثم انتقلوا إلى طُلَيْطُلة ، ثم قُرْطبة ، ثم غَرناطة . وذكر الملاّحى فى كتابه[2] ، الحسن بن أيوب بن حامد بن أيوب [بن زيد][3]، وعدّه من أهل الشُّورى ، وقُضاة الجماعة بغرناطة . وأحمد بن زيد ابن الحسن هو المقْتُول يوم قيام بنى خالد ، بدعوة السلطان أبى عبد الله الغالب بالله بن نصر ، وكان عامِلَ المتوكل على الله بن هود بها ، وعمّن جُمع له بين الدِّين والفضل والماليَّة .

حاله ونباهته ومحنته ووفاته

كان هذا الرجل عَيْناً من أعيان الأندلس ، وصدراً من صدورها . نشأ عفًّا

---

(١) البلديون تطلق على العرب الأوائل الذين دخلوا الأندلس واستقروا بها قبل قدوم الشاميين مع بلج بن بشر القشيرى أو الطالعة البلجية .

(٢) الملاحى ، هو محمد بن عبد الواحد الغافقى ، وأصله من الملاحة وهى قرية من أعمال البيرة . وقد برع فى الأدب والرواية والشعر وألف عدة كتب تاريخية ، أشهرها كتابه [illegible] البيرة وأنسابهم [illegible] وهو [illegible] وقد ذكر [illegible] سنة ٦١٩ هـ .

(٣) [illegible] .

مُتَصاوناً عُزُوفاً ، وطِلاوةً[1] نزيهاً [أبيّاً كريم الخؤولة][2] ، طيِّب الطُّعمة ، حُرّ الأصالة ، نبيه الصِّهر[3] . ثم استُعْمل فى الوزارة ببلده ، ثم قُدِّم على من به من الفرسان ، فأوْرَدَهم الموارد الصفيَّة بإقدامه ، واستباح من العدوِّ الفرصة،وأكسبهم الذكر والشهرة ، وأنفق فى سبيل الله ، إلى غضاضة الإيمان ، وصحة العقد ، وحُسن الشِّيمة ، والاسترسال فى ذكر التواريخ ، والأشعار الجاهليَّة ، والأمثال ،والتمسك بأسباب الدين ، وسَحْب أذيال الطَّهارة ، وهجر الخبايث ، وإيثار الجدّ ،والانحطاط فى هوى الجماعة .

مشيختـــــه[4]

قرأ بغرناطة على شيخ الجماعة أبى عبد الله بن الفَخَّار ،وببلده على الأستاذ أبى عبد الله الطُرْسونى ، وبه انتفاعُه ،وكان جَهْوَرى الصَّوت ، متفاضلا ، قليل التَّهيُّب فى الحفل . ولما حدث بالسلطان أبى عبد الله من كِياد دولته ، وتلاحق بوادى آش مُفْلِتاً ، قام بأمره ، وضبط البلد على دعوته ، ولمْ المُداهنة[5] فى أمره، وجعل حِيَل عدوه دُبُر أذنه ، إلى أن خرج عنها إلى العُدْوة ، فكان زمان طريقه مُفْدياً له بنفسه ، حتى لحق بمَأْمَنه ، فتركها مغربة .

خبر فى وفاته ومَعْرَجه[6]

وكانت الحمد لله على مَحْمده ، واستأثر [به الدّاخل][7] ، فشدَّ عليه يدَ

---

(١) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» .

(٢) وردت فى «ج» (أبيا كريم الخولة) والتصويب أرجح . وساقطة فى «الزيتونة» «الملكية» .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» وفى «الزيتونة» (الظهر) .

(٤) ساقطة فى «ج» . وواردة فى «الزيتونة» .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (المراهنة) .

(٦) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» .

(٧) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (بالداخل) .

اغتباطه ، وأغرى به عقد ضَنانَته ، وخلطه بنفسه ، ثم أغرى به لمكانته من الشهامة والرياسة ، فتُقُبِّض عليه ، وعلى ولده ، لُباب بنى وقته ، وغُرَّة أبناء جنسه ، فأودعهما مُطْبِق أرباب الجرايم ، وهَمَّ باغتيالهما[1] ، ثم نقلهما إلى مدينة المُنَكَّب ليلة المنتصف لمحرم من عام اثنين وستين وسبعمائة فى جُمْلة من النُّبهاء ، مأخوذين بمثل تلك الجريرة ثم صُرف الجميع فى البحر إلى بجاية، فى العشر الأول لربيع الأول مُصَفَّدين . ولما حلّوا بها ، أقاموا تحت برٍّ وتجلّة ؛ ثم ركبوا البحر إلى تونس ، فقطع[2] بهم أسطول العدو بأحواز تكرْنت ، ووقعت [بينه و][3] بين المسلمين حرب، فكرُم مقام المترجم يومئذ ، وحُسن بلاؤه . قال المُخْبر ، عهدى به ، وقد سلَّ سيفاً ، وهو يضرب العدو ويقول ، اللهم ا كتُبْها لى شهادة . واستولى العدو على من كان معه من المسلمين ، ومنهم ولده ، وكُتب[4] افتُكَّ الجميع ببلد العُنّاب[5] ، وانصرف ابنه إلى الحج ، وآب لهذا العهد بخلال حميدة كريمة . من سُكون وفضل ودين وحياء ، وتلاوة ، إلى ما كان يجده من الرّكض ويمانيه من فروسية ، فمضى على هذا السبيل من الشهادة ، نفعه الله ، فى ليلة الجمعة الثامن لرجب من عام اثنين وستين وسبعمائة .

شعره

أنشدنى قاضى الجماعة أبو الحسن بن الحسن [له] [6] :

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (باغتياله) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٣) أضفنا هذه العبارة ليستقيم السياق .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» (القبلة) . والأولى أرجح . والعناب هى ثغر بونة .

(٦) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

يا أيها المرتجِى لُطفَ خالقــه وفضلَه فى صلاح الحال والمـآل
لو كنتَ توقن حقاً لُطفَ قُدْرته فاشْمَخ بأنفك عن قيلٍ وقال
فإن لله لطفا عزّ خالقنـــا عن أن يُقاس بتَشْبيه وتمثـال
وكل أمْرٍ وإن أعياك ظاهرُه فالصُّنع فى ذاك لايجرى على بال

محمد بن أحمد بن محمد(١) الأشعرى

من أهل غَرناطة، يكنى أبا عبد الله. ويعرف بابن المحروق، الوكيل بالدار السلطانية، القَهْرُمان بها، المُسْتَوْزر آخر عمره، سداد من عَوْن.

حاله وأوليته وظهوره

كان رحمه الله من أهل العفاف والتَّصاوُن، جانحاً إلى الخير. مُحبّاً فى أهل الإصلاح، مغضُوض الطَّرف عن الحُرَم(٢)، عفيفاً عن الدماء، مستمسكاً(٣) بالعدالة، من أهل الخصوصِيَّة، كتب الشروط، وبرّز فى عُدول الحضرة، وكان له خط حسن، ومشاركة فى الطلب، وخصوصاً فى الفرايض، وحظُّه تافه(٤) من الأدب. امتدح الأمراء، فترقى إلى الكتابة [مرؤوساً مع الجملة](٥). وعند الإيقاع بالوزير ابن الحكيم، تعيّن لحصر ما استرفع من مُنْتَهَب ماله، وتحصّل بالدار السلطانية من آثاثه وخُرْثيِّه(٦)، فحزم واضطلع بما كان داعية ترقيه إلى الوكالة، فساعده

(١) هكذا وردت فى «ج». ووردت فى «الزيتونة» (أحمد).

(٢) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية»، وفى «الزيتونة» (الحرام).

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية». ووردت فى «ج» (متمسكا).

(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة.

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (مروورسا مع الجملة) ونعتقد أن تصويب الكلمة الأولى يعطى العبارة معنى مناسبا.

(٦) الخرث أى أثاث البيت.

الوقت ، وطَلَع له جاه كبير ، وتملَّك أموالاً عريضة ، وأرضاً واسعة(١) ، فجمع الدنيا بحزمه ومثابرته على تَنْمِية داخِله . [وترقى](٢) إلى سماء الوزارة فى الدَّولة السادسة من الدول النَّصْرية ، بتدبير شيخ الغَزَاة ، وزعيم الطايفة عثمان بن أبى العلاء ، فوصله إلى إدْوار دنياه ، والله قد خبَّأ له المكروه فى المحبوب ، وتأذَّن الله سبحانه بنفاد أجله على يده ، فاستولى وحَجَب السلطان . ثم وقعت بينه وبين مُرَشِّحه الوَحْشَة الشهيرة ، عام سبع وعشرين وسبعمائة ، مارساً(٣) لمكان الفتنة ، صِلَة فارط فى حَجْب السلطان ، وأجلى جُمْهور ما كان ببابه ، ومنع من الدخول إليه . فاضطربت حاله ، وأعمل التدبير عليه ، فهجم عليه بدار الحُرَّة الكبيرة جَدَّة السلطان ، وكان يعارضها فى الأمور ، ويجعلها [تكأة لغرضه](٤) ، فتيان من أحداث المماليك ، المُسْتبقين مع محجوبه ، تداولاه سَطًّا بالخناجر ، ورمى نفسه فى صِهريج الدار ، وما زالا يتعاورانه من كل جانب [حتى فارق الحياة](٥) رحمه الله تعالى .

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبى جعفر بن الزُّبير ، وكانت له فيه فراسة صادقة .

---

(١) وردت بعد هذه الكلمة فى المخطوطات الثلاثة هذه العبارة المضطربة (إلى ضاف طريقتها التى لو كان له) وقد آثرنا الإغضاء عنها .

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم المعنى والسياق .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . ووردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» (ماوسا) والأولى أرجح .

(٤) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٥) أضفنا هذه العبارة ليستقيم السياق .

محمد بن فتح بن على الأنصارى

يكنى أبا بكر [ويشهر بالأشبرون](١) . قاضى الجماعة .

حاله

كان طرفاً فى الدهاء والتخلق والمعرفة بمقاطع الحقوق ، ومغامز الريب ، وعلل الشهادات ، فذا فى الجزالة ، والصرامة ، مقداماً(٢) ، بصيراً بالأمور ، حسن السيرة ، عذب الفكاهة ، ظاهر الحظوة ، على الرتبة . خرج من إشبيلية عند تغلب العدو عليها ، وولى القضاء بمالقة وبسطة . ثم ولى الحسبة(٣) بغرناطة ، ثم جمعت له إليها الشرطة . ثم قدم قاضياً ، واستمرت ولايته نحواً(٤) من ثلاثين سنة .

وفاته

توفى ليلة الحادى عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وتسعين وستمائة .

محمد بن أحمد بن على بن حسن بن على بن الزيات الكلاعى

ولد الشيخ الخطيب أبى جعفر بن الزيات ، من أهل بلش يكنى أبا بكر .

---

(١) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» وفى «الملكية» .

(٢) وردت فى «ج» بعد هذه الكلمة (صارما) . وهى ساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» . وقد أغضينا عنها لأنها تكرار لا محل له .

(٣) وردت فى « الزيتونة » (الخدمة) وفى «ج» و «الملكية» (الجذعة — الخدعة) . ونعتقد أن التصويب أرجح ، وهو يستقيم مع المعنى والسياق .

(٤) هكذا فى «ج» وفى «الملكية» (مدة) .

حالـــه

من « عائد الصلة » من تأليفنا(١) . كان رحمه الله شبيهاً بأبيه، فى هَدْيه، وحُسن سَمْته ووقاره، إلا أنه كان حافظاً للرتبة. مقيماً للأُبّهة، مُستدعياً بأبيه ونفسه للتجلّة. بقية من أبناء المشايخ، ظَرفاً وأدباً ومروءة وحشمة، إلى خطٍّ بديع قيد البصر، ورواية عالية. ومشاركة فى فنون. وقراءة، وفقه. وعربية. وأدب وفريضة، ومعرفة بالوثاق والأحكام. تولى القضاء ببلده، وخلف أباه على الخطابة والإمامة، فأقام الرّسم، واستُعمل فى السِّفارة، فسدَّ مسدَّ مِثله، وأقرأ ببلده، فانتفع به .

مشيختـــه

قرأ على الأستاذ الخطيب أبى محمد بن أبى السَّداد الباهلى. وبغَرناطة، على شيخ الجماعة الأستاذ [أبى جعفر](٢) بن الزبير . ومن أعلام مشيخته، جَدُّه للأُم خال أبيه، الحكيم العارف أبو جعفر ابن الخطيب [أبى الحسن بن الحسن المَذْحِجى الحمى](٣) . والخطيب الربَّانى أبو الحسن فضل بن فضيلة، والوزير أبو عبد الله ابن رُشيد .

محمد بن على بن عبد الله بن محمد بن الحاج

يكنى أبا عبد الله، ويُعرف بابن الحاج .

---

(١) «عائد الصلة» هو حسبما بينا فى مقدمة «المجلد الأول» مجموع صغير من التراجم كتبه ابن الخطيب ليكون ذيلا على كتاب «صلة الصلة» لابن الزبير . وجمع فيه طائفة من تراجم الأعلام اللاحقين . وهو يقتبس منه فى كثير من تراجم الإحاطة .

(٢) ساقطة فى «ج» وواردة فى «الزيتونة» .

(٣) هذه الزيادة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» .

أوّليّتـــــه وحاله

[كان أبوه نجاراً من مُدَجّنى مدينة إشْبيلية][1] من العارفين بالحِيَل الهندسية، بصيراً باتخاذ الآلات الحربية الجافية، والعمل بها، وانتقل إلى مدينة فاس على عهد أبى يوسف المنصور بن عبد الحق، واتخذ له الدُّولاب، المنفسح القُطر [البعيد المدى][2]، مُلَيّن المركز والمحيط، المتعدّد الأكواب، الخفىّ الحركة، حسبما هو اليوم ماثل[3] بالبلد الجديد، دارِ الملك بمدينة فاس، أحد الآثار التى تحدو إلى مشاهدتها الرُّكاب، وبناء دار الصَّنعة بسلا. وانتقل بعد مهلك أبيه إلى باب السلطان ثانى الملوك من بنى نصر، ومتّ إليه بوسيلة، أدْنَت محلَّه، وأسْنَت جراياته، إلى أن تولى وزارة ولده أمير المسلمين، أبى الجيوش نصر، واضطّلع بتدبيره. ونقم الناس عليه إيثاره لمقالات الرُّوم، وانحطاطَه فى مَهْوى[4] لهم، والتشبُّه بهم فى الأكل والحديث، وكثير من الأحوال والهيئات والاستحسان؛ وتَطْريز المجالس بأمثالهم وحِكَمهم، سمةٌ وسمت منه عقلا، لنشأته بين ظَهْرانيهم، وسبقت إلى قوى عقله المكتسب فى بيوتهم، فلم تفارقه بحال، وإن كان آية فى الدهاء، والنظر فى رجُلٍ بعيد الغور، عميق الفكر، قايم على الدِّمْنَة، مُنْطوٍ على الرَّضْف، لين الجانب، مبذول البشر[5]، وحيد زمانه فى المعرفة بلسان الرُّوم

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» وساقط فى «الملكية». ووردت مكانه فى الزيتونة الجملة الآتية (كان جده من مدينة إشبيليه). وما ورد فى «ج» أدق وأرجح، يؤيد ما ورد بعد من وصف الأب بالمعرفة بالحيل الهندسية. والمدجنون فى تاريخ الأندلس كما سبق هم المسلمون الذين بقوا فى القواعد الأندلسية المغلوبة تحت حكم النصارى. وبالإسبانية Mudejares

(٢) هكذا وردت فى «ج» ووردت فى «الملكية» (البعيد المدار المحيط).

(٣) هكذا فى «ج». وفى «الزيتونة» (مؤثل).

(٤) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» (تهرى). وفى «الزيتونة» (بهم).

(٥) هكذا فى «ج». وفى «الملكية» و«الزيتونة» (بشرة).

وسيرهم ، مُحْـكم الأوضاع [فى] أدب الخـــدمة ، ذَرِب[١] بالتصرف فى أبواب الملوك .

وكان من ثورة العامة بسلطانه ما تقدم ، وجَهرُوا بإسلامه إليهم ، وقد ولوه بسبب الثورة ، وطَوّقوه كِياد الأزمة . فضَنَّ به السلطان ضَنانة ، أعْرَبَت عن وفايه ، وصان مُهْجتة. واستمر الأمر إلى أن خُلع الملك عن الملك . وكان نُزول [الوزير[٢] المذكور تحت خفارة شيخ الغزاة ، وكبير الطايفة . عثمان بن أبى العلى ، فانتقل محفوظ الجملة ، مَحُوط الوفر . ولم يَنْشِب إلى أن لجأ إلى العُدْوة ، واتصل بالأمير أبى على عمر بن السلطان الـكبير أبى سعيد ، فحرّكه . زعموا ، على مُحادّة أبيه ، وحمله على الانْـتِزاء ، فكان ما هو معلوم من دُعايه إلى نفسه ، ومنازعة أبيه][٣] ، ولقايه إياه بالمُقَرمِدة[٤] وفَلِّ جيشه ، وفى أثنايه هلك المترجم به .

وفاتـه

توفى بفاس الجديد فى العشر الأول من شعبان عام أربع عشرة وسبعماية .

محمد بن رضوان بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أرقم [النّميرى][٥] من أهل وادى آش ، يكنى أبا يحيى .

حالـه

كان صَدْرًا شهيرا ، عالما عَلَمًا ، حَسِيبا ، أصيلا ، جَمَّ التحصيل ، قوى

---

(١) وردت فى «ج» (دربا) . وبالتصويب من «الملكية» .

(٢) واردة فى «ج» وفى «الملكية» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) هذه الفقرة الطويلة المحصورة بين الحاصرتين كلها ساقطة فى «الزيتونة» .

(٤) المقرمدة هى بلدة صغيرة تقع على مقربة من جنوب شرقى فاس .

(٥) هذه الزيادة واردة فى «الملكية» .

الإدراك ، مضطلعاً بالعربية واللغة . إماما فى ذلك ، مشاركاً فى علوم من حساب وهيئة وهندسة . قال الشيخ . كان فى هذا كله أبرع من لقيته ، إلى سَرَاوة وفضل وتواضع ودين ، جارياً فى ذلك على سُنن سلفه . وعلو مَحْتِده . جالسته . رحمه الله . كثيراً عند [عِلْية][1] من أدركته بغرناطة ، لإقامته بها [وتكرر لقائى إياه بها][2] وبغيرها ، فرأيت أصيلا جليلا ، قد جمع علما وفضلا ، وحُسْن خلق ، وكان حَسَن التقييد ، لخطه رونق يمتاز به ، ويبعد عن غيره ، وُلِّىَ القضاء ببلده . ثم ولى بعد مدة بِبُرْشانة[3] فحُمِدت سيرته .

مشيخته

أخذ القراءات السبع عن أبى كرم جودى بن عبد الرحمن . وقرأ عليه الغريب[4] واللغة ، ولازمه فى ذلك ، وأجاز له [إجازة][5] عامة . وأخذ من غيره ببلده ، وصحب بغَرناطة جُملة[6] من العلماء بها ، أيام اختلافه إليها ، وإقامته بها .

تواليفه

ألف كتابا سماه « الاحتفال فى استيفاء ما للخَيْل من الأحوال » ، وهو كتاب ضخم وقَفْتُ عليه من قبله وأفَدْتُه . واختصر الغريبَ المُصَنَّف . وله تقاييد

---

(١) ساقطة فى «الزيتونة» و«الملكية» .

(٢) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» (وتقرر لقائى إياه بها) .

(٣) برشانة وبالإسبانية Purchena بلدة أندلسية تقع على نهر المنصورة غربى مدينة المنصورة وشمالى ثغر المرية .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٥) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٦) هكذا فى المخطوطات الثلاثة . وقد تكون (جلة) .

منثور ومنظوم في علم النجوم. ورسالة في الإسْطُرْلاب الخطى والعمل به. وشجرة في أنساب العرب.

وفاتـه

توفي ليلة السبت السابع عشر لشهر ربيع الآخر عام سبع وخمسين وسبعماية،

محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد [بن إبراهيم بن محمد][١] بن خلف بن محمد بن سليمان بن سوار بن أحمد بن حزب الله بن عامر بن سعد الخير[٢] بن عيّاش

المكنى بأبي عَيْشون بن مُحَّود، الداخل إلى الأندلس صحبة موسى بن نصير، ابن عَنْبَسة بن حارثة بن العباس بن المرداس، يكنى أبا البركات، بلفيقي[٣] الأصل، مَرْوى[٤] النشأة والولادة والسلف، يعرف بابن الحاج، وشهرَ الآن في غير بلده بالبِلفيقي، وفي بلده بالمعرفة القديمة.

أوليتـه

قد تقدم اتصال نسبه بحارثة بن العباس بن مِرْداس، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأحد خطبايه وشعرايه. رييس في الإسلام. ورييس في الجاهلية. وكان لسلفه. وخصوصاً لإبراهيم من الشهرة بولاية الله؛ وإيجاب الحقِّ من خُلُقه

---

(١) الزيادة بين الحاصرتين من «الزيتونة».

(٢) في «الزيتونة» (سعد) فقط.

(٣) بلفيق نسبة إلى بلفيق Belfiq وهي بلدة من بلاد ولاية ألمرية، تقع جنوبي برشانة. على مقربة من نهر المنصورة وشمالي ثغر ألمرية.

(٤) مروى هنا نسبة إلى «ألمرية».

ما هو مشهور ، حسبما تنطق به الفهارس ، يعضُد هذا المجد من جهة الأمومة ، كأبى بكر بن صُهيب ، وابن عمه أبى إسحاق ،وغيرهم ، الكثير ممن صنّف فى رجال الأندلس ، كأبى عبد المجيد المالقى ، وابن الأبار ، وابن طلحة ، وابن فُرتُون ، وابن صاحب الصلاة ، وابن الزُّبير ، وابن عبد الملك ، فلينظر هناك .

حالـه

نشأة ببلده ألمَرِية عمود[١] العفة ، فضفاض جِلْباب الصِّيانة ، غَضيض طرف الحياء،نائى جَنبَ السَّلام، حليف الانقباض والازْوِرار ، آوياً إلى خالص النَّشَب وبَحْت[٢] الطُّعمة ، لا يُرى إلا فى منزل من سأله ، وفى حَلَق الأسانيد ، أو فى مسجد من المساجد خارج المدينة المعدَّة للتَّعبُّد ، لا يجىء سوقاً ، ولا مجمعا ، ولا وليمة ، ولا مجلس حاكم [أو وال][٣] ، ولا يلابس أمراً من الأمور ، التى جرت عادته أن يلابسها بوجه من الوجوه . ثم ترامى إلى رحْلةٍ[٤] ، فجاس خلال القطر الغربى إلى بجاية ، نافضاً إياه من العلماء والصلحاء والأدباء والآثار بتَقْييده ، وأخذه قيام ذكر ، وإغفال شهرة . ثم صرف عِنانه إلى الأندلس ، فتصرف فى الإقراء ،والقضاء ، والخطابة. وهو الآن نسيجُ وحْدِه فى أصالة عريقة ، وسجيَّة على السلامة مفطورة [فما شيت من صدر سليم ، وعَقْدٍ وثيق ، وغُورٍ قريب ، ونُصح مَبْذول ، وتصَنُّع مرفوض][٥] ونفس ساذجة ، وباطن مساو للظاهر ،

---

(١) هكذا فى المخطوطات الثلاثة .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (وتحت) وهو تحريف .

(٣) هذه الزيادة من «الملكية» .

(٤) وردت فى «ج» (حلة) والتصويب من «الزيتونة» و «الملكية» .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» و «الملكية» . وساقط فى «الزيتونة» .

ودمعة سريعة . وهزل يثمر تجلّة . وانبساط يفيد حسن نيّة . إلى حسن العهد . وفضل المشاركة . ورقّة الحاشية . وصلابة العود ، وصدق العزيمة ، وقوة الحامية ، وبلاغة الموعظة . وجلّة الوقت . وفايدة العصر ، تفنناً وإمتاعاً ، فارس المنابر غير الهيّابة ، ولا الجزوع ، طيّب النغمة بالقرآن ، مُجْهشاً فى مجال الرّقة ، كثير الشفقة لصالح العامة ، متأسفاً لضياع الأوقات ، [مُدْمعا على الفيئة](١) ، مُجمّاً ، مُحوّلا فى رياسة الدين والدنيا . هذا ما يُسامح فيه الإيجاز ، ويتجافى عنه الاختصار ، ويكفى فيه الإلماع والإشارة ، أبقى الله شيخنا أبا البركات .

مشيخته . ولايته

تقدم قاضياً بقنالش(٢) ، فى جمادى الثانية عام خمسة عشر وسبع ماية(٣) ثم وُلّى مَرْبَلّة ، وإستبونة(٤) ثم كانت رحلته(٥) إلى بجاية . ثم عاد فقعد بمجلس الإقراء من مالقة للكلام على صحيح مسلم ، متفقا على اضطلاعه بذلك . ثم رحل إلى فاس . ثم آب إلى الأندلس ، واستقر ببلده ألمرية ، فقعد بمسجدها الجامع للإقراء [ثم قُدّم قاضياً ببرجة ودلاية ، والبنيول(٦) وفنيانة(٧) ، ثم نقل

(١) هذه العبارة واردة فى «ج» ، وساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٢) قنالش من بلاد وادى المنصورة فى شمال ولاية المرية، وتقع على مقربة من بلفيق بلد ابن الحاج .

(٣) هكذا فى «ج» وفى «الزيتونة» (خمسة وسبعماية) .

(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة (مرية) وهو تحريف . ومربلة وبالإسبانية Marbella هى ثغر أندلسى صغير يقع على البحر المتوسط جنوب غربى مالقة . وإستبونة أو إشتبونة تقع بعدها على الشاطىء وقد سبق التعريف بها .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (ولايته ورحلته) .

(٦) برجة Berja من بلاد ولاية ألمرية وتقع غربى ثغر المرية . ودلاية Dalias تقع جنوب شرق برجة . والبينول Albinol من بلاد ولاية مالقة ، وتقع غربى النهر الأحمر وشمال شرق متريل .

(٧) فنيانة هى بلدة صغيرة من بلاد ولاية ألمرية تقع جنوب شرق وادى آش .

عنها إلى بيرة(١) ، ثم غربى ألمرية](٢) . ثم قُدِّم قاضياً بمالقة ، ثم قُدِّم بغربها مضافاً إلى الخطابة ، ثم أعيد إلى قضاء ألمرية ، بعد وفاة القاضى أبى محمد بن الصايغ.

ومن كتاب «طُرْفة العصر»(٣) من تأليفنا فى خبر ولايته ما نصه :

فتقلد الحكم فى الثالث والعشرين لشعبان من عام سبع وأربعين وسبعمائة ، ثالث يوم وصوله مُسْتَدْعَى ، وانتابه(٤) الطَّلبة ، ووجوهُ الحضرة والدولة ، مهنئين بمثواه من دار الصيانة ، ومحل التَّجِلَّة ، إحدى دور الملوك بالحمراء . فطَفِقوا يَغْشونه [بها](٥) زَرَافات ووُحداناً ، فى إتاحة الخير ، وإلهام السَّداد ، وتسْوِيغ الموهبة. وكان وصوله ، والأفُق قد اغْبَرَّ ، والأرض قد اقشعَرَّت لانصرام حظٍّ من أيام الشتاء الموافق لشهر ولايته ، لم يَسِح فيه الغمام بقطرة ، ولا لمعت السماء بنزعة ، حتى أضرَّت(٦) الأنفس الشح ، وحَسَر العُسر عن ساقه ، وتوقفت البُذور ، فساعده الجَدُّ بنزول الرَّحمة عند نزوله من مِرْقاة المنبر ، مُجابة دعوة استسقايه ، ظاهرةً بَرَكة خشوعه ، ولذلك ما أنشدته فى تلك الحال :

ظمِئَتْ إلى السُّقيا الأباطح والرُّبا   حتى دعونا العام عاما مجدباً
والغيث مسدول الحجاب وإنما   علِم الغمامُ قدومَكم فتأدّبا

وتولى النظر فى الأحكام فأجال قداحها ، مضطَّلعا بأصالة النظر ، وإرجاء المُشْتَبهات ، وسلك فى الخطابة طريقةً مُثلى ، يفرغ فى قوالب البيان أغراضها ،

(١) بيره بلدة صغيرة تقع شمال شرقى ألمرية على مقربة من مصب نهر المنصورة .
(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .
(٣) قد تم التعريف به فى مقدمة المجلد الأول . وعنوانه الكامل «طرفة العصر فى تاريخ دولة بنى نصر» . ولم تصلنا منه أية نسخة مخطوطة .
(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (وانتبه) و «الملكية» (وانتباه) وهو تحريف .
(٥) هذه الزيادة من «الملكية» .
(٦) هكذا فى المخطوطات الثلاثة .

ويَتَصَرف على الأحكام السكوابن والبساطات أساليبها. من المحاكاة[1]. باختلاف القبض والبَسْط. والوعد والوعيد. حظوظها على مَقْبِض العدل. وسبب الصواب يقوم على كثير[2] مما يَصْدع به، من ذلك شاهدُ البديهة. ودليلُ الاستيعاب. قال شيخنا أبو البركات: ثم صُرِفت عنها للسبب المتقدم. وبقيتُ مقيما بها، لما اشتهر من وقوع الوباء بالمَرِيّة، ثم أعدت إلى القضاء والخطابة بالمرية، وكتب بذلك فى أوايل رجب عام تسعة[3] وأربعين. وبقيت على ذلك إلى أن صُرِفت بسبب ما ذكر. ثم أعدت اليها فى أواخر رجب سنة ست وخمسين، عسى أن يكون الانقطاع لله سبحانه. فأنا الآن أتمثل بما قاله. أبو مُطَرِّف[4] بن عَميرة رحمه الله:

قد نُسبنا إلى الكتابة يوماً[5] ... [ثم جاءت][6] خُطَّة القضاء تليها
وبكلٍّ لم نُطق للمجد إلاّ[7] ... منزلاً نابياً وعيشاً كريها
نِسْبَةٌ بُدِّلت فلم تتغير ... مِثْلُ ما يزعم المهندس فيها

بَدَّل من لفظ الكتابة إلى الخطَابة. وأغرب ما رأيت ما أحكى لك، وأنت أعلم ببعض ذلك، أن أفضل ما صَدَر عنى فى ذلك، الخطة من العمل الذى أخلصتُ لله فيه، ورجوت منه المَثوبة عليه، وفيه مع ذلك مفْتَخر

(١) هكذا فى «ج» و «الملكية». وفى «الزيتونة» (المحاكات).
(٢) هكذا وردت فى «الملكية» وفى «الزيتونة». وفى «ج» (الكثير).
(٣) هكذا فى «ج». وفى «الملكية» و «الزيتونة» (سبعة).
(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة. وهى ترسم عادة (أبو المطرف).
(٥) وردت هذه الشطرة فى ترجمة ابن عميرة فى المجلد الأول من الإحاطة (ص ١٧٧) كالآتى: (قد عكفنا على الكتابة حينا).
(٦) هكذا فى «الزيتونة». وفى «ج» (واتصلت).
(٧) وردت هذه الشطرة فى ترجمة ابن عميرة كالآتى (وبكل لم يبق للجهد إلا) (المجلد الأول ص ١٧٧).

لمن أراد أن يفتخر [غير](١) ملتفت للدنيا . فعليه عولت سبحانه . انتهى كلامه .

تصانيفه

كتب إلى بخطه [ما نصه] . وهو فصل من فصول : وأما تواليفى فأكثرها، أو كلها غير متممة . فى مبيضات . منها كتاب ، قد يكبو الجواد فى أربعين غلطة [عن أربعين من النقاد ، وهو نوع من تصحيف الحفاظ للدارقطنى ، منها سلوة الخاطر](٣) فيما أشكل من نسبة النسب الرتيب إلى الذاكر . ومنها كتاب «قدر جم فى نظم الجمل» . ومنها كتاب «خطر فبطر ، ونظر فحظر ، على تنبيهات على وثائق ابن فتوح» . ومنها كتاب «الإفصاح فيمن عرف بالأندلس بالصلاح» . ومنها «حركة الدخولية فى المسألة المالقية» . ومنها خطرة المجلس فى كلمة وقعت فى شعر استنصر به أهل الأندلس» جزء صغير . ومنها «تاريخ المرية» غير تام . ومنها ديوان شعره المسمى «بالعذب والأجاج فى شعر أبى البركات ابن الحاج» . ومختصرة سماه القاضى الشريف «اللؤلؤ والمرجان اللذان من العذب والأجاج يستخرجان»(٤) . ومنها «عرايس بنات الخواطر المجلوة على منصات المنابر» يحتوى على فصول الخطب التى أنشئت بطول بنى والخطابة . ومنها «المؤتمن على أنباء أبناء الزمن»(٥) . ومنها تأليف [فى](٦) أسماء الكتب ، والتعريف بمؤلفيها ،

---

(١) الزيادة من «الملكية» .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى «الملكية» وفى «الزيتونة» . وساقط فى «ج» .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» و «الملكية» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٤) هذا العنوان هو كما ورد فى «ج» وفى «الزيتونة» . ولكن المقرى يورده لنا فى «نفح الطيب» كالآتى : (اللؤلؤ والمرجان من بحر أبى البركات الحاج يستخرجان» .

(٥) ورد هذا العنوان فى «الملكية» كالآتى : (المستومان على أبناء الزمان) .

(٦) الزيادة من «الزيتونة» .

على حروف المعجم . ومنها « ما اتفق لأبى البركات فيما يُشبه الكرامات » ومنها كتاب « ما رأيتُ وما رُءِى لى من المقامات» .ومنها كتاب «المرجع بالدَّرك على من أنكر وقوع المشترك» ومنها «مُشَبَّهات اصطلاح العلوم » . ومنها « ما كثر وروده فى مجلس القضاء »(١) . ومنها « الغَلَسِيَّات » ، وهو ما صدر عنى من الكلام على صحيح مُسْلم أيام التكلُّم عليه فى التَّغْليس . ومنها«الفصول والأبواب، فى ذكر من أخذ عنى من الشيوخ والأتباع والأصحاب » .

ثم قال ، وقد ذهب شَرْخُ الشَّباب ونشاطُه ، وتقطَّعت أوصاله ، ورَحَل رِباطه، وأصبحت النفس تنظر لهذا كله بعين الإمهال والإغفال ، وقلّة المبالاة التى لا يصل أحد بها إلى مَنال . وهذه الأعمال لا يُنشِّط [إليها إلا](٢) المحرِّكات التى هى مفقودة عندى ، أحدها طلبةٌ مجتمعون متعطِّشون إلى ما عندى ، متشوِّفون غاية التَّشوُّف ، وأين هذه بألمرية . الثانى ، طلبُ رياسة على هذا ، ومتى يرأس أحد بهذا اليوم ، وعلى تقدير أن يرأس به وهو محالٌ فى عادة هذا الوقت ، فالتشوُّف لهذه الرياسة مفقود عندى . الثالث ، سلطانٌ يلاُّ يد من يُظهر مثل هذا ، على يده غبطة ، وما تم هذا . الرابع ، نيَّةٌ خالصة لوجه الله تعالى فى الإفادة ، وهذا أيضاً مفقود عندى ، ولابد من الإنصاف . الخامس ، قَصْدُ بقاء الذِّكر . وهذا خيال ضعيف بعيد(٣) عنى . السادس ، الشفقة على شيء ابتدى ، [وسعى فى](٤) تحصيل مباديه ، أن يضيع على قَطْع ما سوى هذا الإشفاق ، وهذا السادس ، هو الذى فى نفسى منه شيء ، وبه أنا أقيد أسماء من لَقِيت ، وما أخذتُ ، ويكون إن شاء الله

---

(١) هذا العنوان وارد فقط فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٢) أضفنا هاتين الكلمتين ليستقيم السياق . ووردت مكانهما فى المخطوطات الثلاثة (الى) وهى لا تكفى لربط المعنى .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (بعد) . والتصويب أرجح .

(٤) وردت فى «ج» (ونغوبى) وفى «الزيتونة» (ونعى فى) . وبالتصويب يستقيم السياق .

إبرازٌ [إذا](١) الصُّحف نُشرت . وأكثر زمانى يذهب فى كيفية الخروج عما أنا فيه . فإذا يَنظُر إلىَّ العاقل فى هذا الوقت بعين البصيرة ، لا يسعه إلا الشفقة علىَّ والرحمة لى . فإنه يرى رَجُلا مُطْرِقاً أكثر نهاره ، ينظر إلى مآله ، فلا ينشطُ إلى إصلاحه ، وهو سابع(٢) ولا يَلْبس بالعبادة وهو فى زمانها المُقارب للفَوْت ، ولا ينهضُ إلى إقامة حق كما ينبغى لعدم المُعين ، ولا يجْنَح إلى شيء من راحات الدنيا ، ويشاهدُ من علوم الباطل(٣) الذى لا طاقة له على رَفْعه ما يُضَيِّق صدر الحرّ [يقضى](٤) نصف النهار ، مُحْتلا(٥) فى مكان غير حَسَن ، تارةً يُفكر ، وتارةً يكتب ما هو على يقين منه أنه كذا لا يُنْتفَع به . ونِصْف النهار يقعد للناس ، تارةً يرى ما يكره ، وتارة يسمع ما يكره ، لا صديق يُذَكِّره بأمر الآخرة ، ولا صديق يُسْليه بأمر الدنيا ، يكفينى من هذه الغزارة(٦) . اللهم إليك المشتكى يا من بيده الخلق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

شعـــره

من مُطَوَّلاته فى النزعة الغربية [التى](٧) انفرد بها ، منقولا من ديوانه . قال . ومما نظمته بِسَبْتة فى ذى الحجة من عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، فى وصف حالى ، وأخذَها عنى الأستاذ بسبتة ، أبو عبد الله بن هانى ، والأديب البارع أبو القاسم الحسينى ، وأبو القاسم بن حزب الله ، وسواهم . ولما انفصلت من

---

(١) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم المعنى والسياق .
(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وربما كانت هنا للترقيم ، أى سابع الأمور .
(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .
(٤) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .
(٥) وردت (محتل) فى المخطوطات الثلاثة . فلزم التصويب .
(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة وربما كانت (القذارة) .
(٧) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

سبتة إلى بلاد الريف[١] زدْت عليها إبياتا فى أولها وكثر ذلك بوادى لو[٢] من بلاد الريف وهى :

تأسفتُ لا كن حين عزَّ التأسُّف وكفكفتُ دمْعاً حين لا عينَ تذرفُ
ورام سكوناً وهو فى رِجْــل طاير ونادى بأُنسٍ والمنازل تعنف
أراقب قلبى مرّةً بعــد مــرة فألْفيــه ذيَّاك الذى أنا أعرِفُ
ســقيمٌ ولا كن لا يحُسُّ بدايه سوى مَنْ له فى مأزق الموت مَوْقف
وجاذب[٣] قَلْباً ليس يأوى لمألَفٍ وعالج نَفْساً داؤُها يتضــاعف
وأعْجَبُ ما فيــه استواه صفاته إذ الهَمُّ يُشْقيه أو السرُّ يَنْزِف[٤]
إذا حَلَّت الضَّرّاء لم ينفعــل لهــا وإن حلّت السّراء لم يتَكيَّف
مذاهبُــه لم تُبْدِ غاية أمْــرِه فؤادٌ لعمرى لا يُرى منه أطْرُفُ
فما أنا من قوم قُصــارى هُمومِهم بنُــوهم وأهلُهــم وثوْبٌ وأرغُفُ
ولا لىَ بالإسراف فكرٌ محــدثٌ سيغدو حَبيبى أو سيَشْعر مُطْرف
ولا أنا مِمَّن لهْوُه جــلَّ شأنه بروضٍ أنيق أو غــزال مُهَفْهف
ولا أنا مِمَّن أُنْسُــه غايةَ المُنَى بصــوتٍ رخيمٍ أو نديم وفرْقف
ولا أنا مِمَّن تَزْدَهيــه مصانعٌ ويُشْبيه بُستان ويلهيه مُخَــرِّف
ولا أنا ممن همُّه جمْعُهــا فإن تراءت يَثِب[٥] بسَعْي لها وهو مُرْجِف
على أنَّ دهــرى لم تَدَع لى صُروفه من المــال إلا مَسْحة أو مجلف

(١) بلاد الريف هى المنطقة التى تقع بالمغرب الأقصى جنوبى الطرف الأخير من البحر المتوسط قبل امتداده شمالا إلى ثغر سبتة ، وتسكنها قبائل غمارة .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (وادى آش) وهو تحريف اضح لأن وادى آش من مدن الأندلس .

(٣) فى «الزيتونة» (وجاوب) .

(٤) وردت فى «ج» يترف . والتصويب من «الملكية» .

(٥) وردت فى «ج» (ثبت) . والتصويب من «الملكية» .

ولا انا ممن هـــذه الدار همّه — وقد غرّه منها جمالٌ وزُخْــرف
ولا أنا ممن للسّـــؤال قد انْبرى — ولا أنا ممن صان عنه التّعَفّف
ولا أنا ممن نجّح الله سَعْيهـــم — فهمّتهم فيهـــا مُصَـــلّى ومُصْحف
فلا فى هَوًى أضحى إلى اللهـــو قايداً — ولا فى تُـقًى أمْسى إلى الله يزْلِف
أحارب دهرى فى نقيض طبـــاعه — وحَرْبُك من يقضى عليك تَعَجْرف
وأنظره شَزْراً بأصْلَف ناظـــر — فيعرِض عنّي وهو أزْهى وأصْلَفُ
وأضبُطه ضَبْط المحدّث صُحْفَـــه — فيخرج فى التَّوْقيع أنت المُصْحِفُ
ويأخذ منى كلّ ما عزّ نيـــــلُه — ويبدو بجهلى منه فى الأخذ مُخْتَف(١)
أدور له فى كل وَجْهٍ لعلّـــنى — سأُثْبته وهو الذى ظلّ يحـــذف
ولمـــا يئسنا منـــه تَهنّا ضرورة — فلم تَبْق لى فيها عليه(٢) تشوُّف
تـــكلّفتُ قطع الأرض أطلب سَلْوةً — لنفسى فما أجـــدى بتلك التكلُّف
وخاطرتُ بالنفس العـــزيزة مُقْدماً — إذا ما تخطّى النَّصْلُ قصد مُرْهف
وصرّفت نفسى فى شـــئون كثيرة — لحظّى فلم يظفر بذاك التّصرّف
وخُضت لأنواع المعـــارف أبْحُراً — ففى الحين ما استجرتُها وهى تَـنْزَف(٣)
ولم أحْلُ من تلك المعـــانى بطايل — وإن كان أهـــلوها أطالوا وأسْرَفوا
وقد مرّ من عمـــرى الألذّ وها أنا — على ما مضى من عَهْـــده أتلهّف
وإنى على ما قد بَقى منه إن بقى — لحرمة ما قد ضاع لى أتخوّف
أعُدّ ليالى العمر والفرض صَوْمها(٤) — وحسْبُك من فَرْض المُحال تعسّف

---

(١) هكذا فى «الملكية». وفى «ج» (بختف) . وفى «الزيتونة» (مختف) والأولى أرجح .
(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» و «الملكية» (عليها) .
(٣) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» . وفى «الملكية» (تنزف) .
(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «الملكية» و «ج» (طولها) .

على أنها إن سلّمت جدَلِيَّـــهُ(١) تعارض آمالاً عليهـــا يُنَيِّف(٢)
تُحدّثني الآمال وهى كذيهـــا(٣) تُبَدِّل فى تحديثهـــا وتُحـــرِّف
بأنِّىَ فى الدُّنيـــا سأقضى مآربى وبعدُ يحِقُّ الزهـــدُ لى والتقشُّف
وتلك أمان [لا حقيقة](٤) عندها أفى قَرْنى الضِّـــدَّين يبقى التكَلُّف
وربَّ أخِلَّاء(٥) شكوتُ إليهـــم ولكن لفهم الحـــال إذ ذاك لم يَفُ
فبعضهـــم يُزرى علىَّ وبعضهـــم يغضُّ وبعضٌ يُرثى ثم يَضْـــدُف
وبعضهـــم يومى إلىَّ تعجُّباً وبعضٌ بما قد رأيته(٦) يتـــوقف
[وبعضهـــم يُلقى جوابه على مُقتَضى العقل الذى عنه يتوقَّف](٧)
يسوء استماعاً ثم يُعَـــدُّ إجابة على غير ما تحذُوه يحذو ويخصف
[ولا هو يبدى لى علىَّ تعقُّلا](٨) ولا هو يُرثى لى ولا هـــو يَعْنِفُ
وما أمْـــرُنا إلا ســـواء وإنما عرفنـــا وكلٌّ منهم ليس يعرف
فلو قد فرَغنـــا من علاج نفوسنـــا [وحطُّوا الدنيَّة من عليل وأنْصَفُ](٩)
أما لهم من عـــلَّة أزْمَت بهـــم ولم يعرفـــوا أغوارها وهى تَتْلَف
وخُضْنا لهم فى الكُتب(١٠) عن كُنْه أمرهم ومثلى عن تلك الحقائق يكشِفُ

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» و «الملكية» (جد ليلة) .
(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . وفى «ج» (تنيف) .
(٣) وردت فى «ج» و «الملكية» (كرينها) .
(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . وفى «ج» (حقيقة) .
(٥) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (الخلا) . والتصويب من «الملكية» .
(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وربما كانت (رأيه) .
(٧) هذا البيت وارد فى «ج» و «الزيتونة» وساقط فى الملكية .
(٨) هكذا وردت هذه الشطرة فى « الملكية » . ووردت فى «ج» و «الزيتونة» (فلا هو يبدى عن تعقل على) .
(٩) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الثلاثة مع تحريفات يسيرة فى كل منها ..
(١٠) هكذا وردت فى «ج» و «الملكية» . وفى «الزيتونة» (الكتاب) .

وصنّفْتُ فى الآفات كلَّ غريبـــة   فجـــاء كما يَهْوى الغريبُ المُصَنِّف
وليس عجيباً من تركّب جهلهـــم   فإن يحْجبوا عن مثل ذاك وصرّفُ (١)
إذا جاءنا بالسُّخف من نَزْو عقـله   إذا ما مَثَلناه أزْهَى وأسْخَف
فمـــا جاءنا إلا بأمــــرٍ مناسب   أينهض عن كنفِّ الجبـــان المثقَّف
ولا كن عجيبُ الأمر علمى وغفلتى   فدْيتُكم أىُّ المحاسن(٢) أكْشِف
إلا أنها الأقدار يظهــــرُ سرُّها   إذا ما وفى المقدور فالرأى يَخْلف
أيا ربِّ إن الْأب طاش بمـــا جرى   به قلمُ الأقــــدار والقلبُ يَرْجُف
وإنّا لندعوهم ونخشى وإنمـــا   على رسْمِك الشرعى من لك يَعْـكُف
أقول وفى أثنـــاء ما أنا قايلٌ   رأيتُ المنـــايا وهى لى تتخطَّف
وإنى مع السّاعات كيف تقلّبت   لأسْهرها إن فوَّقَت مُتَهدِّف
وما جرَّ ذا التّسويف إلاّ شَبيبتى   تُخيِّل لى طولَ المــدى فأسَوِّف
إذا جاء يومٌ قلتُ هـــو الذى يلى   ووقتُك فى الدنيا جليسٌ مُخَفَّف
أقدِّم رِجْلاً عنـــد تأخير أختها   إذا لاح شمسٌ فالنَّفْس تَـكْسِف
[كأنِّى لدانى المراقد منهـــم](٣)   ولم أودعهم والخضُّ ريّان يَنْسِف
وهَبْنى أعيش هل إذا شاب مَفْرِقى   وولّى شبابى هل يُباح التّشوُّف
وكيف ويستدْعى الطريق رياضةً   وتلك على عصر الشَّباب تُوَظَّف
متى يقبـــل التَّوبم غير عطوفة   وبى بعدُ حِسًّا فالنَّـار تَنْسِف
ولو لم يكن إلاّ ظُهورة(٤) سره   إذا ما دنا التَّدليس هان التنطُّف

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٢) هكذا فى «ج» و «الزيتونة» . وفى «الملكية» ([illegible]) .

(٢) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» . ووردت فى «الملكية» (كأن لدانى لمراقد منهم) وهذا لا يستقيم مع الوزن .

(٤) هكذا وردت فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (ظهره) .

أمَوْلى الأسارى أنت أوْلى بعذرهم ... وأنت على الملوك أحقُّ وأعْطف
قَذَفْنا بلجِّ البحر والقيدُ آخذٌ ... بأرْجُلنا والرِّيح بالموج تعصف
وفى السكوْن من سرِّ الوجود عجايب ... أطلَّ عليها العارفون وأشْرَفُ
وَكَمَت(١) عليهم نكْتَةٌ(٢) فتأخَّروا ... ودَدْتُ بأن القوم بالكل أسْعَفُ
فليس لنا إلاَّ أن نحطَّ رقابنا ... بأبواب الاسْتِسلام والله يُلْطف
فهذا سبيلٌ ليس للعبد غيرها ... وإلاَّ فماذا يستطيع المُكَلَّف

وقال، وضمنها محاورة بينه وبين نفسه، وقيدتُها عنه زوال يوم الثلاثاء التاسع والعشرين لمحرم خمس وخمسين(٣) وسبعمائة، برابطة العُقاب(٤)، متعبد الشيخ ولى الله أبى إسحاق الإلبيرى، رحمه الله، فمنها:

يأبى شجونُ حديثى الإفصاح ... إذ لا تقوم بشرحه الألواح
قالت صفيةُ [إذ مررت](٥) بها ... أفلا تَنْزِل ساعة ترتاح
[فأجبتُها لولا الرقيبُ لكان(٦) لى] ... ما تَبْتغى بعد الغُدُوِّ رواح(٧)

---

(١) هكذا فى «ج» وفى «الملكية» (ركمت).

(٢) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة». وفى «الملكية» (نكتة).

(٣) هكذا فى «ج». وفى «الزيتونة» (خمس وسبعين)، وهو تحريف ظاهر، لأن هذا التاريخ المتأخر يوافق أواخر أيام ابن الخطيب بالمغرب قبيل مصرعه بوقت يسير.

(٤) رابطة العقاب كانت إحدى الروابط التى تخصص للعبادة، وكانت تقع على مقربة من غرناطة. وأبو إسحق الإلبيرى هو أبو اسحق إبراهيم بن سعيد التجيبى الإلبيرى، وهو فقيه ورع وشاعر غرناطى توفى فى أواخر سنة ٤٥٩ هـ واشتهر بقصيدته فى التحريض على البطش باليهود أيام باديس بن حبوس ملك غرناطة بعد أن اشتد طغيانهم، وكان من أثرها أن قام الشعب الغرناطى وفتك باليهود وذلك فى صفر سنة ٤٥٩ (راجع كتابى دول الطوائف (الطبعة الثانية) ص ١٣٥ و ١٣٦).

(٥) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (عند ما مرت)، وهو لا يستقيم مع وزن الشعر. فلزم التصويب.

(٦) هكذا وردت هذه الشطرة فى «الملكية». مع إضافة كلمة إلى. ووردت محرفة فى «ج» (فاجبت لولا أن الرقيب لكان لى).

(٧) هكذا فى «ج» و «الملكية». وفى «الزيتونة» (رباح).

قالت وهل فى الحىِّ حىٌّ غيْرنا ... فاسمح فديتُك فالسماح رباح
فأجبتها إن الرقيب هو الذى ... بيَدَيْه منّا هــذه الأرواح
وهو الشهيدُ على موارد عَبْده ... سيّان ما الإخفـاء والإفصاح
قالت وأين يكون وجُود الله إذ ... تخشى ومِنْه هذه الأفراح
فافرح بإذن الله جلّ جلاله ... واشطَحْ فنَشْوان الهوى شطّاح
وابهج على ذِمَم الرجال ولا تخف ... فالحُكْمُ رحْبٌ والنَّوال مباح
وانزل على حكم السُّرور ولا تُبِل ... فالوقت صافٍ ما عليك جُنَاح
واخلع عِذارك فى الخلاعة ياأخى ... باسم الذى دارَتْ به الأقداح
وانظر إلى هذا النهار فسِنّه ... ضَحِكت ونور جبينه وضّاح
أنواره ضَحِكت وأتْرَع كأسه ... فقد استوى ريحانُه والرّاح
وانظر إلى الدنيا بنظرة رحمة ... فجفاؤها بوفائهــا يَنْزاح
فأجبتُها لو كنت تعلم ما الذى ... يبدو لتاركها وما يَلْتــاح
ما كان معنًى غامضٌ من أجله ... قد ساح قوم فى الجبال وتاحُ(١)
حتى لقد سَكِروا من الأمر الذى ... هاموا به عند العِيان وساحُ
لعَذَرْتنى وعلمتَ أنى طالب ... ما الزهد فى الدنيا له مِفتاح
فاترك صفيّك(٢) قارعاً باب الرضى ... والله جل جــلاله الفتّاح
يا حىُّ حىِّ على الفلاح وخَلِّنى ... فجماعتى حثّوا المَطِى وراحُ(٣)

وقيدتُ من خطه فى جملة ما كتب إلي مانصه :

ومما نظمته بغرناطة ، وبعضه ببَرْجة(٤) ، وهو مما يعجبنى ، وأظنه كتبا لك ، وهو غريب المنزع ، وإنه لكما قال :

(١) هكذا فى «ج» و«الزيتونة» .
(٢) هكذا فى «ج» و«الزيتونة» .
(٣) هكذا فى «ج» و«الزيتونة» .
(٤) سبق التعريف بها .

خُذْها على رغم الفقيه سُلافة ... تُجَلّى بها(١) الأقمار فى شمس الضُّحى
أبدى أطبـــاء القلوب لأهلها ... منها شراباً للنفوس مُبَرِّحا
وإذا امرؤٌ(٢) قال فى نَشْوانها ... [قل أنت](٣) بالإخلاص فيمن قد صحا
ياقوتة (٤) دارت على أربابها ... فاهتَزَّت الأقـــدام منها واللِّحا
مُزِجت فغار الشيخ من تَرْكيبها ... فلذاك جرَّدها وصاح وسرَّحا
فبدت فغار الشيخ من إظهارها ... فاشتدَّ يبْتَدر الحجاب مُلَوِّحا
لا تعترض أبداً على مُسْتَتِرٍ فقد ... قد غار من أسرارها(٥) أن يُفْضَحا
وكذاك لا تَعْتَب على مُسْتَهتر ... لم يدر ما الإيضاح لمّا أوضحا
سكرانُ(٦) يعثرُ فى ذيول لسانه ... كُفْراً ويحسَبُ أنه قد سبَّحا
كَمْ الهوى حربُ بعضٍ وبعض ... ضاق ذَرْعاً بالغـــرام فبرَّحا
لاتخشينَّ على العـــدالة هاتفاً ... ثغر(٧) ارتياح العاشقين فجرَّحا
الحبُّ خمرُ العارفين وقد صَفَتْ ... حتماً على من ذاقها أن يَشْطَحا
فاشطح على هذا الوجود وأهله ... عجباً فليس براجح من رَجَّحا
كبرُ عليهم أنهم موتى على ... غير الشَّهادة ما أغرَّ وأقبحا
واهزأ بهم فمتى يَقُل نُصَحاؤهم ... أهِـجْ فقُلْ حتى ألاقى مُفْلحا
وإذا أُريبُهم(٨) استخفَّ فقُلْ له ... بالله يا يحي بن يحي دَعْ جِحا

---

(١) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» . وفى «الزيتونة (به) .
(٢) وردت فى «ج» (المرأى) . وفى «الزيتونة» و «الملكية (المرم) . والتصويب أرجح .
(٣) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» (ما أنت) .
(٤) وردت فى « ج » وفى « الملكية » (يا قوة) . وبالتصويب يستقيم الوزن والمعنى اللاحق .
(٥) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» . وفى الزيتونه (استارها) .
(٦) هكذا وردت فى «الملكية» . وفى «ج» (بسكران) .
(٧) هكذا وردت فى «الملكية» . وفى «ج» (نقر) .
(٨) وردت فى «ج» وفى «الملكية» (زرهم) .

أَبَنِي سُلَيم قد نجا مجنونكم مجنونُ ليلى العارفين به قد محا
هل يستوى من لم يُبِح بحبيبه مع من بذِكر حبيبه قد أفصحا
فافرحْ وطِبْ وابهَجْ وقل ما شئت ما أملحَ الفقراء ياما(١) أمْلَحا

ومن مقطوعاته التي هي آيات العجايب، وطرفُ حُلل البدايع في شتى الأغراض والمقاصد، قوله يعتذر لبعض الطلبة، وقد استدبره(٢) ببعض حُلَق العلم بسَبْتة :

إن كنتُ أبصرتُك لا أبصرَت بصيرتى فى الحق بُرْهَانهـا
لا غَرْو أنى لم أُشاهدكم فالعين لا تُبْصر إنسانها

ومنها قوله فى غرض التورية، وهو بديع فى معناه :

يلومونى بعد العِذار على(٣) الهوى ومثلى فى وَجْدى له(٤) لا يُفَنَّد
يقولون لى أمسك عنه قد ذهب الصِّبا وكيف يُرى الإمساك والخيط أسود

ومنها قوله فى المُجَبَّنات(٥)، وهو من الغريب البديع :

ومُصْفَرّة الخدين مطويّة الحشا على الُجبن والمُصْفَرُّ يؤذن بالخوف
لها هيئة(٦) كالشمس عند طلوعها ولكنها فى الحين تَغْرُب فى الجَوْف

ومنها قوله فى النُّصح، ولها حكاية تقتضى ذاك :

لا تَبذُلَنّ نصيحةً إلا لمن تَلْقى لبَذْل النُّصح منه قَبُولا
فالنصحُ إن وجَدَ القبولَ فضيلةٌ ويكون إن عَدِم القبولُ فضولا

---

(١) هكذا وردت فى«ج» . وفى «الزيتونة» و «الملكية» (ما) .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» و«الزيتونة» (استدركه) .
(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وفى النفح .
(٤) هكذا وردت فى النفح . ووردت فى «ج» (به) .
(٥) هكذا وردت فى النفح . وفى المخطوطات الثلاثة (المجنبات) . والأولى أرجح حسبما يبدو من سياق البيت التالى .
(٦) هكذا وردت فى «ج» و «الملكية» . ووردت فى النفح (بهجة) .

ومنها فى الحكم :

ما رأيت الهموم تدْخل الا من دروب العُيون والآذان
غُضّ طرْفاً وسُدّ سمعاً ومهما تاْق همّاً فلا تثق بضمان

ومنها قوله ، وهو من المعانى المبتكرات :

حزُنت عليك العينُ يامُغْنى الهوى فالدمع منها بعد بُعدك ما رَقا
ولذاك [قد صُبغت][1] بلون أزرق أو ما ترى ثوْب المآتم أزرقا

ومنها قوله فى المعانى الغريبة . قال، ومما نظمته فى عام أربعة وأربعين فى التفكر فى المعانى ، مُغْلق العينين :

أبحث فيما أنــا حصّلته عند انْغماض العين فى جفْنهــا
أحسبنى كالشــاة مجترّة تمضغ ما يخرج من بطنهــا

وقال ،ومما نظمته بين أنْدَرش وبرْجة[2] عام أربعة وأربعين ، وأنا راكب مسافر ، وهو مما يُعجبنى ، إذ ليس كل ما يصدر عنى يُعجبنى . قلتُ وُيحقّ أن يعجبه :

تطالبنى نفسى بمــا ليس لى به يَدَان فأعطيها الأمان[3] فتقبل
عجبتُ لخصْم لجّ فى طلباته يصالح عنها بالمحال فيفصل

[قال ومما نظمته فى السنة المذكورة من ذم النساء :

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . وفى النفح (ما ظهرت) .

(٢) نعود هنا إلى الإشارة إلى برجة لورودها مع أندرش . فبرجة وأندرش كلتاهما من مقاطعة المرية ، تقع الأولى شرقى النهر الأخضر ، وتقع الثانية غربية على مقربة من مصبه . ومما هو جدير بالذكر أن أندرش هى البلد التى أقام فيها أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس بعد سقوط غرناطة فى سنة ١٤٩٢ ، ومكث بها نحو عامين ، ثم غادرها إلى منفاه فى المغرب .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (الأمانى) .

ما رأيت النّساء يَصْلُحن إلا   للذى يَصْلح الكنيف من أجله
فعلى هذه الشريطة صالحـــهن لا تَمُدُّ بأمرئ عن محلّه](١)

قال . ومما نظمته فى السنة المذكورة :

قد هجرتُ النساء دهرا فلم أبلـــغ آذانى(٢) صفهاتهن الذميمة
ما عسى أن يُقال فى هجو من قد   خصّه المصطفى بأقبح شيمة
أو يبقى لنا قِصَر العقل والديـــن إذا عُدَّت المثـــالب قيمة

وقال ، وما نظمته فى تاريخ لا أذكره الآن . هذان البيتان ، ولم أر معناها لمن مضى . ولو رحل رجل إلى خراسان ، ولم يأت إلا بهما ، كان ممن لم يخفق مسعاه ، ولا أجدب مرعاه ، ينفتح بهما للقلب باب من الراحة فسيحٌ ، إذا أجهده ما يكابد من المَضاضة . ونَقْض العهود ، واختلاف الوعود . وهذه المحنة من شرٍّ ما ابتُلى به بنو آدم ، شِنْشِنَة نعرفها من أمرهم . ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنَسى :

رعى الله إخوان الخيانة إنهم   كفَوْنا مؤونات البقَا على العهد
فلو قد وفَوْا كنا أسارى(٣) حقوقهم   نراوح بين النسّيئة والنقد

وقال يُداعبنى ، وعلى سبيل الكناية يخاطبنى ، ولقد لقيت(٤) ، رجلا ببلاد الهند يعرف بأبى البركات ابن الحاج ، وكان بَرِد(٥) فى بستان كان له ، فقلت أهجوه عام أربعة وأربعين وسبعمائة :

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» وساقط فى «الزيتونة» .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» «الملكية» (أذنى) .
(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (أسرى) . ونعتقد أن الوزن يستقيم بالتصويب .
(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (رأيت) .
(٥) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» و «الملكية» (بردا) .

قالوا أبو البركات جَمّ(١) ماؤه فغدا أبو البِركات لا أبا البركات
قُلنا لأن يُكنى بموجوداته أولى من أن يكنى بمعْدُومات

ومما نظمته عام خمس وأربعين وسبعمائة :

قد كنتُ معذورا بعلى وما أبثُّ من وعظى بين البشر
من حيث قد أمُلْت إصلاحهم بالوعظ والعلم فخان النظر
فلم أجد أوْعَظَ للناس من أصوات وُعّاظ جلود البقر

ومما نظمته بمرسى تلهى ، من بلد هُنَين(٢) ، عام ثلاثة وخمسين ، وقد أصابنى هَوَسٌ فى البحر وخاطبت به بعض الأصحاب :

رأسى به هَوَس جديد لا الذى تَدْريه من هوس قديم فيه
قد حلّ ما أُبديه من هذا كما قد حلّ من ذاك الذى أُخفيه

ومن الملح قوله ، قال ، وبِتُّ بحمام الخندق من داخل ألمرية ليلة الجمعة الثامن من شهر محرم عام اثنين وثلاثين منفرداً ، فطُفِى [المصباح](٣) ، وبقيت مُفكرا ، فخطر ببالى ما يقول الناس من تخيُّل الجنّ [فى](٤)الأرحاء والحمامات ، وعدم إقدام كافة الناس إلاّ ما شذّ عند دخولها منْفردين بالليل : لا سيما فى الظلام ، واستشعرتُ قوة فى نفسى عند ذلك ، أعراضٌ وأوهام ، فقلت مرتجلا ، رافعاً بذلك صوتى :

زعم الذين عقولهم قدرُهـا إن عُرِضت للبيع غير ثمين

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى«ج» (هم) . وفى «الملكية» (ضم) . وهو تحريف

(٢) هنين أو مرسى هنين هو ثغر صغير يقع غربى وهران ، وشمال تلمسان على شاطىء البحر المتوسط .

(٣) هذه الكلمة ساقطة فى «ج» . وواردة فى «الزيتونة» وفى «الملكية» .

(٤) الزيادة من «الزيتونة» و «الملكية» .

أن الرّحا معمورة بالجن والحمّـــــام عندهم [كذا][1] بيقين
إن كان ماقالوه حقاً فاحضروا للحرب هذا اليوم من صِفّين
فلئن حضرتم فاعلموا بحقيقة بأنى مُصارع قيسِ المجنون

قال ، ودخلت رياضا يوما ، فوجدتُ كِساء منشوراً للشمس لم أعرفه من حوايجى ، ولا من حوايج حارسة البستان ، فسألتها فقالت ، هو لجارتى فقلت :

مَنْ مُنْصِفِى من جارتى[2] جارت علىّ مالى كأنى كنتُ من أعدائها
عمدتُ إلى الشمس التى انتشرت[3] على أرضى وأمّت فيه [بيس كسائها][4]
لولا غُيوم يوم تَيَبُّس الكسا سرتُ لحجب الشُّحب جل ضياءها
لقضيتُ منهم الخســار لأننى أصبحتُ مُزوَرّاً على بُخلائها

قلت ، وصرت إلى مَغْنًى[5] بحَمَّة بجّانة[6] وسار معى كلبٌ كان يحرس رياضى اسمه قَطْمير ، وهو فيما يُذْكر كلب أهل الكهف ، فى بعض الأقوال ، فتَبِعنى من ألمرّية إلى الحمة ، ثم من الحمة إلى ألمرية ، فقلت :

رحلتُ وقطميرُ كلبى رفيقى يونس قلبى بطُول الطريق
فلما أنختُ أناخ حذائى يلاحظنى لحظ خلّ شفيق
ويرعى أذمّة رفقى كما يتغنّى الصديقُ الصدوق

---

(١) أضيفت هذه الكلمة ليستقيم وزن الشعر .
(٢) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» . ووردت فى «الزيتونة» (جاريتى) .
(٣) هكذاو ردت فى «ج» و «الزيتونة» . وفى «الملكية» (انتثرت) .
(٤) هكذ وردت فى «ج» . وفى «الملكية» .
(٥) وردت فى «ج» (مالى) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٦) بجانة ، وبالإسبانية Pechina بلدة تقع على نهر أندرش ، على مقربة من شمال شرقى المرية .

على حين قومى بنى آدم بلُؤمهم لم يوفُوا حقوقِ
ولا فرق بين الأباعِدِ منهم وبين أخ مُسْتَحب شفيق
أو ابن متى تلقاه تَلَقَّه هوىً اشتياق بقلب خَفُوق
فما منهم من ولىٍّ حميم ولا ذى إخاء صحيح حقيق
وناهيك ممن يُفضِّل كلباً عليهم فياويلهم من رفيق
ألا من يرقّ لشيخ غريب أبى البركات الفتى البلْفيق

وقال ، ومما نظمته بتاريخ لا أذكره هذان البيتان :

وأين الخير من(١) زمانى وأهله على أننى للشَّر أوَّلُ سابق
لحا الله دهراً قد تقدَّمْتُ أهلَه فتلك لعَمْرُ الله إحدى البَوايق

ومن النزعات الشاذة الأغراض :

لا بارك الله فى الزُّهاد إنهم لم يتركوا عرَض الدنيا لفضلهم
بل أثقلتهم تـكاليف الحياه فلم يُصابروها فملُّوا ثقل حملهم
وعظّم الناس منهم تركها فغدوا من غبطة التَّرك(٢) فى حرص لأجلهم
نعم أُسلِّمِ أن القوم إذ زهدوا زاداً وأعلَى الناس طرًّا فضل تركهم
من حيث قد أحْرَزوا التَّرجيح دونهم لاشيء أبين(٣) من ترجيح فضلهم
فالمالُ والجود والراحات(٤) غايةُ ما يحكى لنا الزهد فى ذا عن(٥) أجَلِّهم

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» (عن) .
(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة ..
(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وفى نص (أحسن) .
(٤) وردت فى «ج» (الراحة) . وبالتعديل يستقيم السياق .
(٥) وردت فى «الملكية» (فى ذاك) وفى «ج» (فيه) وفى «الزيتونة» (فى) . وبالتصويب يستقيم السياق .

والزاهدون براحات(١) القلوب مع الأبـــدان سُرُّوا وعزُّوا بعد ذلِّهم
فكل ما فرّقوا قد حصّلوا غرضاً(٢) منه وزادوا ثناء الناس كلِّهم

قال ، ومما نظمته عام أربعين فى ذم الخمر من جهة الدنيا ، لامن جهة الدين ، إذ ليس بغريب :

لقد ذمَّ بعضَ الخمر قومٌ لأنها تُـكرُّ على دين الفتى بفساد
وقد سلَّموا قول الذى قال إنها تحلُّ من الدنيا بأعظم ناد
وتذهب بالمال العظيم فلن ترى لمُدْمنها من طارفٍ وتلاد
فيُمْسى كريماً سيِّدًا ثم يغتدى سفيهاً حليفَ الغىِّ بعد رشاد
وقالوا تسلِّى وهو عاريةٌ لهـا وإلاّ فلم يأتوا لذاك بشـــاد
وصلةٌ ونور(٣) وحسناء طفلة ومَرْأى به للظَّريف سير جواد
وهل يُداوَى من مرارتها التى أواخرها مقرونةٌ بِهِـــاد
ولو أُشرب الإنسان مَهْلاً بهذه لأصبح مسروراً بأطْيَب زاد
ومن حُسْن حال الشَّاربين يقَيُّونها(٤) بالرغم [من] برقٍ وساد
ومن حُسْن ذا المحروم أنَّ مُدامَه إذا غَلَبت تـكسوه ثوبَ رُقاد
فيختلف النُّدمان طرًّا لروحه ويحدوهم نحو المروءة حادى
ومن حُسْنه بين الورى ضربُ ظهره فيُمسى بلا حرب رهين جلاد
مجانينُ فى الأوهام قد ضلَّ سعيهم يخففون بيعاً بحسن غَواد(٥)

(١) وردت فى «ج» (براحة) . وبالتعديل يستقيم السياق .

(٢) هكذا وردت فى « الزيتونة » و « الملكية » . ووردت فى « ج » (عوضا) والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى «الملكية» . وفى «ج» (نوار) .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» (وغاد) .

ومن نظمه فى الإنحاء على نفسه ، واستبعاد وجوه المطالب فى جنسه ، مما نظمته يوم عرفة عام خمسين [وأنا منزو فى غار][1] ببعض جبال المرية :

زعموا أن فى الجبال قوماً[2] … صالحين قالوا من الأبدال
وادّعوا أن كل من ساح فيها … فسيلقاهم على كل حال
فاخترقنا تلك الجبال مراراً … بنعال طوراً ودون نعال
ما رأينا فيها سوى الأفاعى … وشبا عقرب كمثل النبال
وسباعاً[3] يخترون بالليل عدواً … لا تسلنى [عنهم] بتلك الفيال[4]
ولو كنّا لدى العدوة الأخرى … رأينا نواجذ الرّئبال
وإذا أظلم الدجى جاء إبليس … إلينا يزور طيف الخيال
هو كان الأنيس فيها ولولا … ه أصيبت عقولنا بالخبال
خلّ عنك المحال يامن تعنّى … ليس تلقى الرجال غيرُ الرجال

قال ، ومن المنازع الغريبة ذمّ الأصحاب [ومدح][5] الأعداء ، فمن ذلك قولى :

جزى الله بالخير [أعداءنا][6] … فوردهم أنقى[7] المصدر
هم حملونا على العرف كرهاً … وهم صرفونا عن المنكر
وهم أقعدونا بمجلس حكم … وهم بوّؤونا ذرى المنبر

(١) هذه الزيادة من النفح .
(٢) فى النفح (رجالا) .
(٣) هكذا وردت فى «الملكية» . وفى «ج» و «الزيتونة» (وسباع) . والأول أرجح .
(٤) هكذا وردت فى «ج» و «الملكية» . وفى النفح (الفيافى) .
(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (وذم) . والتصويب يقتضيه السياق ، وتؤيده معانى الأبيات .
(٦) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة . وإثباتها لازم لضبط المعنى والسياق .
(٧) كذا فى «ج» و «الزيتونة» . وفى الملكية (أنقى)

وهم صيَّرونا أئمة علم ودين وحسْبُك من مَفْخَر
عدوِّى بأول فِدى مَأْثَم وإن جيتُ بالإثم لم يعْذُر
وأنت ترى تمحيص من يَعْدل [بين المسىء وبين البَر](١)
ولا زَوّد الله أصحابنا بزاد تُقىً ولا خيِّر
هم جَرَّؤونا على كل إثم وما كنتُ لولاهم بالمُخْبر(٢)
وعدُّوا من إكبار آثامنا فكانوا أضرَّ من الفاتر(٣)
أعارنى القوم ثوب التُّقى وإنى مما أعارونى بَرى
إذا خدعونى ولم ينصحوا وإنى بالنُّصح منهم حَرِ
فمن كان يَكْذِب حال الرِّضى يَصْدُق فى غضب يَفْتَر(٤)
بَلَى سوف تلقى لدى الحالتين يحكُمُ النَّفْس هوى الفَرِ
فياربِّ أبق علينا عقولنا(٥) نَبيع بها وبها نَشْتَرِ

قال ، وما رأيتُ هذا المعنى قط لأحد ، ثم رأيت بعد ذلك لبعضهم ما معناه :

عُداتى لهم فضلٌ على ومِنَّة فلا أذْهَبَ الرحمن عنِّى الأعاديا
هم بَحَثوا عن زلَّتى فاجتنبتها وهم نافسُونى فاكتسبتُ(٦) المعاليا

فوقع حافرى(٧) على ساق هذا . [قال] ومما نظمته ، متخيِّلا(٨) أنى سابقٌ معناه :

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» (يعادل بين المسىء والبر) .

(٢) وردت فى «ج» (بالخبر) والتصويب من «الملكية» .

(٣) هكذا وردت فى «الملكية» . وفى «ج» (الفتر) . والأولى أصلح للسياق .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . والمقصود بها هنا (يفترى) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى الملكية (عقولا) .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (فارتكبت) .

(٧) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى «الزيتونة» (حافى) .

(٨) وردت فى «ج» (مختلا) . والتصويب من «الزيتونة» .

خَلَسْنا ليلة من كفِّ دهرٍ ... ضَنِين[١] بالليالى الطيِّبات
سَلَكنا للهوى والعقل فيها ... مسالكَ قد جُلين عن الشَّتات
قَضَينا بعض حقِّ النفس فيها ... وحقُّ الله مرعىٌّ الثَّبات[٢]
فلم نر قَبْله فى الدهر وقتاً ... بَدَت حسناتُه فى السيِّئات

ثم رأيت بعد ذلك [على هذا][٣] .

لا وليالٍ على المُصَلَّى ... تسرق فى نُسكها الذنوب

فوقعت ساقى على حافر هذا المحروم ، إلا أنى جَرَّدت ذلك فى المعنى ، وأوضحتُه ، وجَلَوته على كرسى التَّقْعيد والتَّنْجيد ، فلولا التاريخ لعاد سارق البرق .

نــــثره

وأما نثره فنمطٌ مرتفع عن مُعتاد عصره ، استِنْفاراً وبلاغة ، واسترسالا وحلاوة ، قلما يُعَرِّج على السَّجع ، أو يأمر على التَّـكايف ، وهو كثير بحيث لا يَتَعين عيونُه ، ولـكن نُلمع منه نُبْذة ، ونَجلب منه يسيراً . كتب إلىَّ عند إيابى من الرِّسالة إلى ملك المغرب ، متمثِّلا ببيتين لمن قبله ، صدَّر بهما :

يا أيتها النفس إليه اذهبى ... فحبُّه المشهور من مذهبى
إيأسى التَّوْبَةَ من حُبِّه ... طلوعُه شمساً من المغرب

بل محالُّك[٤] ، أمْثَلُ من التَّمثيل بالشمس ، فلو كان طلوعك على هذه الأقطار

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (ظنين) وهو تحريف .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (الأهمات) .

(٣) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

(٤) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (نجلك) . والتصويب من «الملكية» .

شمساً ، لأصبح [جُلُّها لك](١) عُبَّاد . ولو كان نزولك مطراً لتكيَّفَتْ الصُّخور تُراباً دَمِثاً . ولولا معرفتنا مَعْشر إخوان(٢) الصَّفا ، بأقْرار(٣) أنفسنا ، لحكمنا بأن قلوبنا تمايمُ لأصدقائنا ، ولكن سبقت عيون السعادة ، بالكلآت(٤) فلو تُصادف بالرضى محلاً ، لأن تحصيل الحاصل مُحال ، لا زلتَ محروساً ، بعين الذى لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم [مَكْنُوفةً ببَرَكة الذى يرومه رايم](٥) والسلام .

وكتب إلىَّ عندما تقلَّدتُ من رياسة الإنشاء ماتقلدت : تخصكم يا محلَّ الإبن الأرْضَى ولادة ، والأخَّ الصادق إخلاصاً ووُدًّا ، خصَّكم الله من السعادة بأعلاها مَرْقى ، وأفضلها عُقبى ، وأحمدها غِنيً ، وأكرمها مسعى ، تحيَّة اللَّهفان(٦) إلى أيام لقائك ، المُسْلى(٧) عنها بتأميل العود إليها ، المُزْجى أوقاته بترداد الفِكر فيها ، محمد بن الحاج ، أبقاه الله ، عن شوق ، والذى لا إله إلا هو ، لم أجد قط مثلَه إلى ولىٍّ حميم . والله على ما نقول وكيل ، معرِّفاً أننى بعَلاقه(٨) ، وتُصْابينى عن كسره مجامعُه(٩) ، لما اعتنى به من توقِّيكم بالرُّتبة ، التى ما زال أحبَّاؤكم(١٠) بها مَمْطولى بِرْه . على أنك لم تَزد بذلك رُتْبة على ما كنت باعتبار الأهليَّة ، والمكانة

---

(١) هكذا فى «الزيتونة» . ومكانها فى «ج» (للقايك) . وفى «الملكية» (حلها بك) .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (إخواننا) . وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وهى جمع قرارة . ومعناها هنا الأعماق . وقد تكون تحريفا لكلمة (بأسرار) والمؤدى واحد .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٦) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» . ووردت فى «الزيتونة» (إسعاد) ونعتقد أن الأولى أرجح .

(٧) هكذا وردت فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (المتسلى) .

(٨) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٩) وردت فى «ج» و «الملكية» (مجامعه) . والتصويب من «الزيتونة» .

(١٠) وردت فى «ج» (أحباؤها) والتصويب من «الزيتونة» وهو أكثر تمشياً مع السياق .

العليَّة ، إلا عند الأطفال والأغفال ، والمُحْلَقين من النساء والرجال ، لا كن أفزعتنا هذه المخاطبة المحظيَّة[1] في قالب الجمهور ، ولم نسر فيها ، على الأصح ، لا كن على الجمهور . ولو كانت مَصَارِف الوجود بيدى ، لوافَتْك من الوجود ، منازلُ أسمايه منازل ، وأوطأتك أفلاكه مَرا كب ، وأوْرَدتك كوثره مَشْرباً ، وأحللتك أرفعه مَعْقِلا ، وأقْبَسَتْك بُدوره[2] مصباحاً ، وأهدتك[3] أسراره تحفاً . وقد تبلغ المقاصدُ مبالغَ لا تنتهى أقاصيها الأعمال ، فنحن وما نُضْمره لتلك الجملة الجليلة الفاضلة ، مما الله رقيبٌ عليه ، ومحيطٌ بدقايقه . ولو كانت لهذا العَبْد الغافل ، المأسور في قيد نفسه ، المحزُون على انتهاب الأيام ، رأس[4] عمره في غير شيء ، دعوةٌ يساعدها الوَجْدُ حتى يغلبَ على ظنّه ، أن العَليم بذات الصدور ، ولاّها من قبوله بارقةً تخصّك بها ، والله شهيد على ما تُكِنّه الأفئدة ، وهو حسبُنا ونعم الوكيل .

والفضلُ جمٌّ ، والمحاسنُ عديدة ، فلنقتصر اضطراراً ، ولنكُفَّ[5] امتثالاً للرسم ، وانقياداً ، أمْتَع الله به .

---

(١) هكذا وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» . وفى «الملكية» (المخطيبة) .

(٢) وردت فى «ج» (بدوره) . والتصويب من «الملكية» .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (وأهديتك) . وبالتصويب يستقيم السيق .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» .

(٥) هكذا وردت فى «الملكية» . وفى «ج» و «الزيتونة» (ونكف) .

محمد بن عبد الله[١] بن منظور القيسى

من أهل مالقة . يكنى أبا بكر

أوّليته

أصله من إشْبيلية ، من البيت المشهور بالتَّعيين والتقدَّم ، والأصالة ، تشهد بذلك جملة أوضاع ، منها « الروض المحظور[٢] فى أوصاف بنى منظور » ، وغيره

حالـه

من كتاب « عائد الصلة » . كان جمَّ التواضع والتخلّق ، كثير البرّ ، مفرط[٣] الهَشّة ، مبذول البِشر ، عظيم المشاركة ، سريع اللسان إلى الثَّناء ، مُسْترسلا فى باب الإطراء ، دَرِباً على الحكم ، كثير الحُنْكة ، قديم العالة ، بصيراً بالشُّروط . وُلّى القضاء بجهات كثيرة ، وتقدم بمالقة ، بلده[٤] فشُكرت سيرته ، وحُمدت مدارته ، وكان سريع العَبْرة ، كثير الخِشْية ، حسن الاعتقاد ، معروف الإيثار والصدَّقة ، شايع الإقراء[٥] لمن ألمّ بصقْعه ، واجتاز على محلّ ولايته ، جاريا على سُنن سلفه ، ينظم وينثر ، فلا يقصر .

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبى محمد بن أبى السَّداد الباهلى ، ولازمه وانتفع به ، وسمع

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» (عبيد الله) .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» (المنثور) .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (مفوض) والأولى أرجح .

(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة (ببلده) . والتصويب أكثر تمشياً مع السياق .

(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» (القراء) وهو تحرف .

على غيره من الأعلام ، كالخطيب الولى أبى عبد الله الطّنجالى ، والعَدْل الراوية المُسنّ أبى عبد الله بن الأديب ، والمسن أبى الحكم مالك بن المُرَحَّل ، وعلى الشيخ الصوفى أبى عبد الله محمد بن أحمد[١] الأقشرى الفاسى ، ولبس عنه خِرْقة التَّصوف ، وعلى الخطيب أبى عبد الله بن رُشيد ، وعن الشيخ القاضى أبى المجد بن الأحوص ، وعلى ابن مجاهد الرُّندى المعروف بالسَّمار ، والخطيب أبى العباس بن خميس بالجزيرة الخضراء ، وعلى الخطيب الزاهد أبى عبد الله السلاّل . وكتب إليه بالإجازة ، أبو عبد الله بن الزبير ، والفقيه أبو الحسن ابن عَقيل الرُّندى ، والوزير المُعمَّر أبو عمر[٢] الطَّنجى ، وأبو الحكم بن منظور ابن عم أبيه ، والأستاذ أبو عبد الله بن الكماد . نقلت ذلك من خطه .

تواليفه

أخبرنى أنه ألف « نفحات المُسُوك ، وعيون التِّبر المَسْبُوك[٣] فى أشعار الخلفاء والوزراء والملوك » . وكتاب « السُّحُب الواكفة والظِّلال الوارفة ، فى الرد على ما تضمنه المضنون[٤] به على غير أهله من اعتقاد[٥] الفلاسفة » . وكتاب الصَّيِّب الهتّان الواكف بغايات الإحسان المشتمل على أدعية مستخرجة من الأحاديث الصحيحة النبوية وسُور القرآن » . وكتاب « البرهان والدليل فى خواص سور التَّنْزِيل ، [وما فى قراءتها فى النوم من بديع التأويل] »[٦] . وكتاب يشتمل

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة بعد هذا الاسم كلمة (أمين) وهو اسم آخر لم تجر العادة بوروده على هذا النحو .

(٢) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» . ووردت فى «الزيتونة» (أبو على) .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (المسكوك) . وفى «الملكية» (المسوك) . والأولى أرجح .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» (المظنون) .

(٥) وردت فى «ج» (الاعتقاد) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٦) ما بين الحاصرتين ساقط فى «الزيتونة» .

على أربعين حديثاً فى الرقايق . موصولة الأسانيد . وكتاب « تحفة الأبرار فى مسألة النبوة والرسالة ، وما اشتملت[1] [عليه][2] من الأسرار » . وكتاب « الفعل المبرور ، والسعى المشكور ، فيما وصل إليه ، أو تحصل لديه من نوازل القاضى أبى عمر بن منظور »

شعره

ومن شعره قوله :

ما لِلعُطاس [ولا][3] لِلفَال من أثرِ   فثق فديتُك بالرحمن واصطبرِ
وسلِّم الأمر فالأحكامُ ماضيةٌ   تجرى على السَّنن المربوط بالقدرِ

محمد بن على بن الخضر بن هارون الغسانى

من أهل مالقة يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن عَسْكر

حاله

من كتاب « الذيل والتكملة »[4] . كان مُغْرِياً[5] مُجَوِّدا ، نحوياً ، متوقِّد

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (اشتمل) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) الزيادة من «الزيتونة» .

(٣) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم الوزن والسياق .

(٤) هو كتاب «الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة» للعلامة المغربى الثقة ابن عبد الملك المراكشى المتوفى فى سنة ٧٠٣ هـ . وهو معجم نفيس للتراجم ، يتضمن تراجم جمهرة كبيرة من أعلام المغرب والأندلس حتى القرن السابع الهجرى . ويقع فى أربعة مجلدات كبيرة . ومنه أجزاء مخطوطة بمكتبة باريس الوطنية والمتحف البريطانى ومكتبة الإسكوريال ودار الكتب المصرية . وقد نشرت منه الأسفار الأول والثانى والرابع والخامس ببيروت (سنة ١٩٦٤ — ١٩٦٥) .

(٥) هكذا وردت فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (مغريا) وفى «الزيتونة» (معربا) . والأولى أرجح .

الذهن ، متفنناً فى جملة معارف . ذا حظٍّ صالح من رواية الحديث ، تاريخياً ، حافظاً ، فهيماً ، مشاوراً ، دؤوباً فى الفَتْوى ، متيناً فى الدِّين ، تامَّ المروءة ، سنِيّاً فاضلا ، مُعَظَّماً عند الخاصة والعامة ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، رحيب الصَّدْر ، مسارعا إلى قضاء الحوائج ، شديد الإجمال ، محسنا إلى من أساء إليه ، نفّاعا بجاهه ، سَمْحاً بذات يده ، متقدّما فى عقد الوثائق ، بصيرا بمعانيها ، سريع البديهة فى النظم والنثر ، مع البلاغة ، والإحسان فى الفنَّين

وُلِّىَ قضاء مالقة نايباً عن القاضى أبى عبد الله بن الحسن مدة ، ثم وُلِّى مستَبِدّاً بتقديم الأمير أبى عبد الله بن نصر(١) ، يوم السبت لليلتين بقيتا من من رمضان [عام](٢) خمس وثلاثين . وأشفق من ذلك وامتنع منه [وخاطبه مُسْتَعفياً ، وذكر أنه لا يصلح للقيام بما قلده من تلك الخُطّة تورُّعاً منه](٣) فلم يُسْعفه . فتقلَّدها ، وسار فيها أحسن سيرة ، وأظهر الحقوق التى كان الباطل قد غَمرها ، ونفّذ الأحكام .

وكان ماضى العزيمة ، مِقْداما ، مهيباً ، جزْلا فى قضائه ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، واستمر على ذلك بقية عمره

مشيخته

روى عن أبى إسحاق الزّوالى(٤) ، وأبى بكر بن عتيق بن منزول ، وأبى جعفر الجيان ، وأبى حسن الشُّقُورى ، وأبى الحجاج بن الشيخ ، وأبى الخطّاب بن واجب ، وأبى زكريا الإصْبهانى مُقيم(٥) غرناطة

(١) هو الأمير محمد بن الأحمر الكبير مؤسس مملكة غرناطة . وقد حكم من سنة ٦٣٥-٦٧١ هـ

(٢) هذه الزيادة من «الملكية» .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» وساقط فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٤) هكذا فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (الزرالى) . ومكانها بياض فى «الزيتونة» .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . والمعنى المقصود هنا هو (المقيم بغرناطة) .

من روى عنه

روى عنه أبو بكر بن خميس ابن أخته ، وأبو العون ، وأبو عبد الله ابن بكر الإلبيرى . وحدّث عنه بالإجازة ، أبو عبد الله الأبّار، وأبو القاسم ابن عمران ، وكتب بالإجازة للعراقيين من أهل بغداد الذين استدعوها من أهل الأندلس ، حسبما تقدم فى رسم أبى بكر بن هشام ، وضمنها نظماً ونثراً اعترف له بالإجادة فيهما .

تصانيفه

صنَّف كتباً كثيرة ، أجاد فيها وأفاد . منها المُشْرع الروّى فى الزيادة على المَرْوى . ومنها أربعون حديثاً التزم فيها موافقة اسم شيخه ، اسم الصابى ، وما أراه سبق إلى ذلك ، وهو شاهدٌ بكثرة شيوخه، وسعة روايته . ومنها نُزْهة الناظر فى مناقب عمّار بن ياسر . ومنها الخبر المختصر ، فى السّلوى عن ذهاب البَصَر ، ألفه لأبى محمد بن أبى الأحوص الضرير الواعظ . ومنها رسالة فى ادِّخار الصبر ، وافتخار القَصْر والفقْر . ومنها الإكمال والإتمام فى صلة الإعلام بمجالس الأعلام من أهل مالقة الكرام . وله اسم آخر ، وهو مطلعُ الأنوار ونزهة الأبصار ، فيما احتوت عليه مالَقة من الرؤساء والأعلام والأخيار ، وتقيّد من المناقب والآثار . واخترَمته المنيَّة عن إتمامه فتولى إتمامَه ابن أخته أبو بكر محمد بن خميس المذكور ، وقد نقلتُ منه فى هذا الكتاب .

شعره

ومن شعره . وقد نُعيت إليه[1] نفسه [قبل][2] أن تغَرُّب من سماء معارفه شمسه :

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (إلى) .

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

ولما انقضى إحدى وخمسون حجة كأنى منها بعد كَرْب[1] أحلم
ترقَّيت أعلاها لأنظر فوقها مدى الحَتْف منى عَلَّىَ منه أسلم
إذا هو قد أدنت إليه كأنما ترقَّيت [فيه نَجْوة][2] وهو سُلَّم

وقال فى أحدب :

وأحدبُ تحسب فى ظهره جابِيهٌ فى نهر عايمة
مُثَلَّث الخِلْقة لا كنَّه فى ظهره زاوية قايمة

ومن أمثال نظمه قوله ، وقد استُدْعِيت منه إجازة :

أجبتك لأنى لما رُمتَه أهلٌ ولا كنّ ما أجبت مُحتمل سهل
[وما العلم إلاّ بحرٌ طال مدانه][3] ومالى نَحم[4] فى الورود ولا نَهل
فكيف أرانى أهل ذاك وقد أتى على المحتيان[5] البطالةُ والجهلُ
وأسأل ربى العفو عنى فإنه لما يرتجيه العَبْدُ من فضلٍ أهلُ

مولده : [تخميناً][6] فى نحو أربع وثمانين وخمسماية .

وفاته : ظهر يوم الأربعاء لأربع خلون من جمادى الآخرة ، عام ستة وثلاثين وستماية .

---

(١) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (بكر) .
(٢) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة . «ج» (فيها نحوه) . وفى «الزيتونة» و «الملكية» (فيه نحوه) .
(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (وما العلم البحر طاب مذاقه) .
(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . وفى «ج» (سهل) .
(٥) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .
(٦) هذا الكلمة واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» .

محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن أحمد بن محمد بن أبى بكر بن سعد الأشعرى المالقى

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن بكر ، من ذرية بَلْج بن يحيى بن خالد بن عبد الرحمن بن يزيد بن أبى بُردة . واسمه عامر بن أبى عامر بن أبى موسى . واسمه عبد الله بن قيس صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ذكره ابن حزم[١] فى جملة من دخل الأندلس من العرب[٢] .

حـــاله

من « عائد الصلة » . كان من صدور العلماء ، وأعلام الفضلاء ، سذاجةً ونزاهة ومعرفة وتفنناً . فَسِيحَ الدرس ، أصيل النظر ، واضح المذهب ، مؤثراً للإنصاف ، عارفاً بالأحكام والقراءات ، مبرِّزاً فى الحديث ، تاريخاً وإسناداً ، وتعديلاً وتجريحاً ، حافظاً للأنساب والأسماء والكُنى ، قايماً على العربية ، مشاركاً فى الأصول والفروع ، واللغة والعَرُوض والفرايض والحساب مخفوض الجناح ، حسن التخلق ، عطُوفاً على الطلبة ، مُحباً فى العلم والعلماء ، مجلاًّ لأهله ، مطَّرح التصنع ، عديم المبالاة بالملبس ، بادى الظاهر ، عزيز النفس ، نافذ الحكم ، صوَّالة . معروف بِنُصرة [من أَزَرَ إليه][٣] . تقدم للشياخة ببلده مالقَة ، ناظراً فى أمور العَقْد والحل ، ومصالح الكافة . ثم وُلِّى القضاء بها ، فأعزَّ الخطة ، وترك

(١) فى كتابه (جمهرة أنساب العرب) .

(٢) وردت فى «ج» و «الملكية» (المغرب) والتصويب من «الزيتونة» .

(٣) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

المهوادة ، | وإنفاذ الحق |[1] ملازماً للقراءة والإقراء ، محافظاً للأوقات ، حريصاً على الإفادة .

ثم ولّى القضاء والخطابة بغرناطة فى العشر الأول لمحرم سبعة وثلاثين وسبعماية ، فقام بالوظايف ، وصدع بالحق ، وجرَّح الشهود فزيَّف منهم ما ينيف على السبعين عدداً ، واستهدف بذلك إلى معاداة ومناضاة ، خاض ثبَجها، وصادم تيّارها ، غير مبال بالمغبَّة ، ولا حافل بالتَّبِعة ، فناله لذلك من المشقة ، والكيد العظيم ، ما نال مثله . حتى كان يمشى إلى الصلاة ليلا فى مِسَلّة . لا يطمئن على حاله . جرت فى هذا الباب حكايات إلى أن استمرت الحال على ما أراده الله . وعزم عليه الأمير فى بعض من الخُطَّة ، ليردّه إلى العدالة ، فلم يجد فى قناته مَغْمَزاً ، ولا فى عوده مَعْجَما ، وتصدَّر لبثِّ العلم بالحضرة ، يقرى[2] فنوناً متعجّمة ، فنفع وخرَّج ، ودرَّس العربية والفقه والأصول ، وأقرأ القرآن ، وعلم الفرايض والحساب ، وعقد مجالس الحديث ، شرحاً وسماعا ، على سبيل[3] من انشراح الصَّدر ، وحُسْن التجمُّل ، وخَفْض الجناح .

وذكره القاضى المؤرخ أبو الحسن بن الحسن ، فقال ، وأما شيخنا ، وقريبنا مصاهرةً ، أبو عبد الله بن أبى بكر ، فصاحب عزم ومَضاء ، وحُكْمٍ صادع وقضاء . كان له رحمه الله ، مع كل قَوْلة ، صَوْلة ، وعلى كل رابع لا يعرف ذرَّة ، فأحرق قلوب الحَسَدة والصُّب، وأعزَّ الخطة ، بما أزال عنها من الشوائب، وذهَّب وفضَّض[4]

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . والمقصود بها ترك أهدار الحق ، أو بعبارة أخرى الحرص على إقامته .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (يقرأ) .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (سبل) .

(٤) ذهب وفضض ، أى جعلها ناصعة كالذهب والفضة .

كواكب الحق بمارفه ، ونَفَذَ فى المشكلات ، وثَبَت فى المذهلات ، واحتج وبكّت ، وتفقّه ونسكّت [١] .

توقيعـــــه

قال ، وحدثنا صاحبنا ، أبو جعفر الشَّقُورى ، قال كنت قاعداً فى مجلس حُكمِهِ ، فرفعَت إليه امرأة رُقعة ، مضمونها أنها مُحبَّة فى مُطَلِّقها . وتبتغى من يَسْتَشْفع [٢] لها فى رَدِّها ، فتناول الرُّقعة ، ووقع فى ظهرها للحين من [غير] [٣] مُهلة : الحمد لله ، من وقف على ما بالمقلوب [٤] ، فليصغ لسماعه إصاغَة مُغيث ، وليَشْفَع للمرأة عند زوجها ، تأسِّياً بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لبَرْبَرَة فى مُغيث . والله يُسْلم لنا العقل والدين ، ويسلُكُ بنا مسالك المُهْتَدين . والسلام يعتمد على من وقف على هذه الأحرف من كاتبها ، ورحمة الله . قال صاحبنا ، فقالى لى بعض الأصحاب ، هلاّ كان هو الشفيع لها . فقلت الصحيح أنّ الحاكم لا ينبغى أن يباشر ذلك بنفسه على النصوص .

شعـــــره

ولم يُسْمع له شعر إلاّ بيتين فى وصف قوس عربى النَّسَب فى شعر من لا شعر له ، وهما :

هام الفؤاد فى بنت النَّبع والنَّشم　　[زوراً تُزْرى بعطف البان والصَّنم] [٥]
قَوامُ قامتها تمـــامُ معتنفهـــا　　من يلق مقتلها تُصميـــه أو تَصم

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة مرة أخرى (وبكت) . ونعتقد أن التعديل أرجح وأكثر تمشياً مع مقتضيات البيان والسجع .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» «والملكية» ، وفى «ج» (يشفع) والأولى أرجح .

(٣) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٤) بالمقلوب هنا يقصد بها ما بظهر الورقة .

(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى «ج» و «الزيتونة» . ووردت فى «الملكية» (زورا ترى بعطف البان والصنم) .

مشيخته

قرأ على الأستاذ المُتَفَنِّن الخطيب أبي محمد بن أبي الشداد الباهلي القرآن العظيم جَمْعاً وإفراداً ، وأخذ عنه العربية [والفقه][(١)] والحديث . ولازمه ، وتأدب به .

وعلى الشيخ [الراوية][(٢)] الصالح أبي عبد الله محمد بن عيَّاش الخَزْرجي القرطبي ، قرأ عليه كثيراً من كُتُب الحديث ، منها كتاب صحيح مُسلم ، وسمع عليه جميعه إلا دولة واحدة . ومن أشياخه القاضي أبو القاسم قاسم بن أحمد بن حسن بن السَّكوت . والفقيه [المُشاور][(٣)] ، الصَّدر الكبير ، أبو عبد الله بن ربيع ، والخطيب[(٤)] القُدْوة الولى أبو عبد الله بن أحمد الطَّنجالى ، والشيخ القاضي أبو الحسن ابن الأستاذ العلامة أبي الحجاج بن مصامد ، والأستاذ خاتمة المُقْرِيين أبو جعفر بن الزُّبير ، والخطيب المحدِّث أبو عبد الله بن رُشَيد . والخطيب الولى الصالح أبو الحسن بن فضيلة ، والأستاذ أبو الحسن بن اللَّباد المشرفى[(٥)] . والشيخ الأستاذ أبو عبد الله بن الكماد السَّطِّي اللَّبليـى . وأجازه من أهل سبتة شيخ الشُّرَفا أبو على بن أبي التُّقى طاهر بن ربيع ، والعدل الراوية أبو فارس عبد العزيز بن الهوارى ، وأبو إسحاق التلمسانى . والحاج [العدل][(٦)] الراوية أبو عبد الله بن الحصّار ، والأستاذ المقرى ابن أبي القاسم بن عبد الرحيم القيسى ، والأستاذ أبو بكر ابن عُبيدة ، والشيخ المعمر أبو عبد الله بن أبي القاسم بن عبيد الله الأنصارى . ومن أهل إفريقية الأديب المعمر أبو عبد الله محمد بن هارون ، وأبو العباس أحمد

---

(١) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى المخطوطين الآخرين .

(٢) واردة فى «ج» وساقطة فى المخطوطين الآخرين .

(٣) واردة فى «ج» وساقطة فى المخطوطين الآخرين .

(٤) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» . وفى «الملكية» (والفقيه) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» . وفى «الملكية» (المسرف) .

(٦) الزيادة من «الزيتونة» .

ابن محمد الأشعرى المالقى [نزيل تونس](١) ومحمد بن محمد بن سيِّد الناس اليَعْمُرى، وعثمان بن عبد القوى البَلَوَى . ومن أهل مصر النسَّابة شرف الدين عبد المؤمن ابن خلف الدمياطى. والمحدِّث الراوية أبو المعالى أحمد بن إسحاق ، وجماعة غيرهم من المصريين والشاميين والحجازيين .

مـــولده

فى أواخر ذى حجة من عام أربعة وسبعين وستماية .

وفـــاته

فُقِد فى مصاب المسلمين يوم المناجزة بطريف(٢) شهيداً [مُحَرِّضاً](٣) ، زعموا أن بَغْلَة كان عليها [كَبَتْ به](٤) ، وأقاق رابط الجأش ، مجتمع القُوى . وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يكن عنده قوة عليه. وقال انصرف هذا يوم الفزج ، إشارة إلى قوله تعالى فى الشهداء « فرحين بما آتاهم الله من فضله » ، وذلك ضحى يوم الإثنين السابع من جمادى الأولى عام أحد وأربعين وسبعمائة .

---

(١) واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٢) موقعة طريف هى الموقعة العظيمة التى نشبت بين الجيوش الإسبانية المتحدة بقيادة ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة ، وبين الجيوش المغربية بقيادة السلطان أبى الحسن المرينى ومعها قوات الأندلس بقيادة السلطان يوسف أبى الحجاج ملك غرناطة ، على مقربة من ثغر طريف ، وعلى ضفاف نهر سالادو الصغير ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ (أكتوبر سنة ١٣٤٠ م) وهزم فيها المسلمون هزيمة شديدة . وكانت محنة عظيمة بالنسبة للمغرب والأندلس .

(٣) واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٤) واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد
ابن على بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن ناصر بن حسّون بن القاسم
ابن الحسن بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب
[رضى الله تعالى عنه](١)

حسبما نقل من خطه :
أوّليّته معروفة [كان وليتّه مثله](٢) .

حالــه

هذا الفاضل جُملة من جُمل الكمال ، غريب فى الوقار والحصافة ، وبلوغ المدى ، واستولى على الأمم حِلْماً وأناة ، وبُعْداً عن الريب(٣) ، وتمسكاً بعُرى النزاهة ، واستمساكاً مع الاسترسال ، وانقباضاً مع المُداخلة ، معتدلُ الطريقة ، حسن المداراة ، مالكاً أزمّة الهوى ، شديد الشفقة ، كثير المواساة ، مَغار حَبْل الصبر ، جميل العشرة ، كثيف سِتْر الحيا ، قوى النفس ، رابط الجأش ، رقيق الحاشية ، مُمتع المجالسة ، متوقد الذهن(٤) ، أصيل الإدراك ، بارعاً بأعمال(٥) المشيخة ، إلى جلال المُنْتَمى ، وكرم المَنْصِب ، ونزاهة النفس ، وملاحة الشّيْبة(٦) . وحمل راية البلاغة ، والإعلام فى ميادين البيان ، رُحْلة الوقت فى التبريز بعلوم اللسان . حاي

(١) هذه العبارة واردة فى «الزيتونة» و «الملكية» . وساقطة فى «ج» .

(٢) هذه العبارة واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» . و «الملكية» .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» . ووردت فى «ج» (المريب) .

(٤) هكذا فى «الزيتونة» وفى «الملكية» . وفى «ج» (الزهد) وهو تحريف .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (بإغفال) ، ونعتقد أن التصويب يتمشى مع السياق

(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

الخصل [والفضل](١) فى ميدانها. غريبةُ غَريزة الحِفْظ. مُقْنِعة الشّاهد. مُسْتبحرة النظر، أصيلةُ التوجيه، بريّة عن النَّوك والغفلة. مرهفةٌ باللغة والغريب، والخبَر والتاريخ والبيان. وصناعة البديع. وميزان العَرُوض. وعلم القافية وتقدُّماً فى الفقه، ودرساً له. وبراعةً فى الأحكام، وإتقان التَّدريس، والصبر، والدُّؤوب عليه، بارعُ التصنيف، حاضر الذهن. فصيحُ اللسان [مَفْخَرة من مفاخر أهل بيته](٢).

ولايتـــــه

قَدِم على الحَضْرة فى دولة الخامس من ملوك بنى نصر(٣)، كما استجمع شبابه، يَفْهَق عِلْماً باللسان، ومعرفةً بمواقع البيان، وينطق بالعَذْب الزُّلال من الشعر، فَسُهِّل له كَنَف البر، ونُظِم فى قلادة كتاب الإنشاء، وهو إذ ذاك ثمينةُ(٤) الخَرَزات، محكمةُ الرَّصف(٥) [فشاع](٦) فضله، وذاع رجَله(٧). [ثم تقدم](٨)، فنقل من طور الحكم، إلى أن قُلِّد [الكتابة](٩) والقضاء والخَطابة بالحاضرة، بعد ولاية غيرها [التى أعقبها ولاية مالقة](١٠) فى الرابع من شهر ربيع الآخر

---

(١) واردة فى «الزيتونة» و «الملكية». وساقطة فى «ج».

(٢) هكذا وردت هذه الجملة فى «ج»، وفى «الملكية». ووردت فى «الزيتونة» (مفخر أهل بيته).

(٣) الخامس من ملوك بنى نصر، ملوك غرناطة، هو السلطان أبو الوليد إسماعيل، وقد حكم من سنة ٧١٣ إلى سنة ٧٢٥ هـ (١٣١٤ — ١٣٢٥ م).

(٤) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة (ج — ثمنية. الزيتونة — تمية. الملكية — تمنية).

(٥) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة». وفى الملكية (وصف). والأولى أرجح.

(٦) أضيفت هذه الكلمة ليستقيم السياق.

(٧) وردت فى «ج» و «الملكية» (أرجله).

(٨) واردة فى «ج». وساقطة فى «الزيتونة».

(٩) الزيادة من «الزيتونة».

(١٠) هذه العبارة واردة فى «ج». وساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية».

عام سبع وثلاثين وسبعماية . فاضطلع بالأحكام . وطبّق مِفْصَل الفضل [ماضى الصَّريمة ، وحِيّ الإجْهار](١) . نافذ الأمر . عظيم الهيبة . قليل النَّاقد ، مُطْعم التوفيق ، يَصْدَع فى مواقف الخُطَب ، بكل بليغ من القول ، مما يُريق ديباجته ، ويشفّ صِقاله ، وتبرأ من كَلال الخطباء جوانبه وأطْرافه . واستعمل فى السِّفارة للعدوّ ناجح المسعى ، ميمون النَّقيبة ، جزيل الحياء والكرامة . إلى أن عُزل عن القضاء فى شعبان من عام سبعة وأربعين وسبع ماية . من غير زلَّة تَخفِض(٢) ، ولا هَنَة تؤثر ، فتحيَّز إلى التَّحليق لتدريس العلم ، وتفرَّغ لإقراء العربية والفقه ، ولم يَنْشِب أميرُه المنطوى على الهاجس . المُغْرى بمثله ، أن قدَّمه قاضياً بوادى آش ، بِنْت حضرته ، معزَّزة بسندها الكبير الخُطَّة . فانتقل إليه بجملته ، وكانت بينه وبين شيخنا أبى الحسن بن الجيَّاب . صداقةٌ صادقة ، ومودة مستحكمة ، فجرت بينهما أثناء هذه النَّقلة . بدايع . منها قوله . يوسِ عنه . خُطَّة القضاء التى اخترعها ، ويوليها خطة الملامة :

لا مرحباً بالناشز الفــــارك ... إن جُهلت رفعةُ مقــــدارك

لو أنها قد أوتيت رُشْــدها ... ما برحت تَعْشـــو إلى نارك

أقسمتُ بالنُّـــور المبين الذى ... منـــه بدت مِشكاة أنوارك

ومَظْهرِ الحكم الحكيم الذى ... يتلو عليه طيِّب أخبـــارك

ما لقيت مثلك كفـــواً لها ... ولا أوَتْ أكرم(٣) من دارك

ثم أعيد إلى القضاء بالحضرة ، فوليها ، واستمرت حاله وولايته على متقدِّم سَمْته من الفضل والنَّزاهة والمُراجعة فيما يأنف فيه من الخروج عن الجادَّة ، إلى أن

---

(١) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٢) هكذا وردت فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (تحفظ) . والأولى أنسب لاستقامة السياق .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (الكريم) . وبالتصويب يستقيم الشعر والمعنى .

هلك السلطان مُسْتَقْضية مأموماً به . مُقتدياً بسجدته . يوم عيد الفطر . خمسة وخمسين وسبعماية . وولى الأمر ولده الأسعد. فجدّد ولايته. وأكّد تجلّته . ورفع رتبته. واستدعى مجالسته

مشيخته

قرأ ببلده سَبْتة على أبيه الشريف الطاهر. نسيج وحده [في القيام](١) . وعلى أبي عبد الله بن هانى [وبه جلّ](٢) انتفاعه ؛ وعليه جلّ استفادته .وأخذ عن الإمام شيخ المشيخة أبي إسحاق الغافقي . وروى عن الخطيب أبي عبد الله الغمارى ، والخطيب المحدث أبي عبد الله بن رُشَيد . والقاضى أبي عبد الله القرطبي. والفقيه الصالح أبي عبد الله بن حُريث . وأخذ عن الأستاذ النظار أبي القاسم بن الشاط وغيره .

محنته

دارت عليه يوم مَهْلك السلطان المذكور [رَحىَ الوَقيعة](٣)، فَمَرَكته بالثِّقال، وتخلّص من شِرارها هَوْلاً(٤) ، لتَطارح الأمير المتوَثِّب(٥) أمام المَرِيّة عليه . خاتماً في السَّجدة. ودَرْس الحُماة إياه عند الدَّجْلة ، من غير التفات لمحل الوَطْأة. ولا افتقاد(٦) لمحل(*) صلاة تلك الأمّة. فغشيه من الأرْجُل ، رَجْلُ الرُّبى كثيرة.

---

(١) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٢) الزيادة من «الزيتونة» .

(٣) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٤) كذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» .

(٥) وردت فى «ج» (المتبت) والتصويب من «الزيتونة» .

(٦) هكذا وردت فى «الملكية» . وفى «ج» (إبتغاء) .

(*) إلى هنا تمت المراجعة على مخطوط «الإحاطة» المحفوظ بخزانة الرباط الملكية ، إلى جانب مخطوط الزيتونة . وهو ينتهى حسبما ذكرنا فى المقدمة بالترجمة الحالية . وستجرى المراجعة منذ الآن فصاعدا على مخطوط «الزيتونة» وحده .

والتفَّ عليه مُرسل طيلسانه. سادًّا مجرى النَّفَس إلى قلبه. فعالج الحِمام وقتاً. إلى أن نَفَّس الله عنه. فاستقلَّ من الرَّدَى. وانتبذ من مُطَّرَح ذلك الوَغَى. وبُودِر بالفِصاد، وقد أشْفَى. فكانت عثرة لقيت لَمًّا ومتاعاً. فسمح له المدى آخر من يوثق به. من محل البَث. ومودعات السِّرِّ من حظيات المَلِك. أن السلطان عرض عليه قبل وفاته في عالم الحلم، كونه في محراب مسجده. مع قاضيه المُتَرجم به. وقد أقدم عليه كلبٌ. أصابه بثوبه، ولطَّخ ثوبه بدمه. فأهمَّته رؤياه. وطرقت به الظنون مطارقها. وهمَّ بعزل القاضي، انقياداً لبواعث الفكر، وسدًّا لأبواب التوقيعات. وقد تأذن الله بإرجاء العزم. وتصديق الحلم. وإمضاء الحكم. جلَّ وجهه. وعزَّت قدرته. فكان من الأمر ما تقرر في محله.

تصـــــانيفه

وتصانيفه بارعةٌ، منها، رَفْعُ الحُجُب المستورة في محاسن المَقْصُورة(١)، شرح فيها مقصورة الأديب أبي الحسن حازم بما تنقطع الأطماع فيه. ومنها رياضة الأبي في قصيدة الخزرجي، أبدع في ذلك بما يدل على الاطلاع وسَداد الفهم. وقيَّد على كتاب التَّسْهيل لأبي عبد الله بن مالك تَقْييداً جليلاً، وشرحاً بديعاً، قارب التمام. وشرع في تَقْييدٍ على الخبر المسمى، بدُرَر السِّمْط في خبر السِّبْط. ومحاسنه جمة، وأغراضه بديعة.

شعـــــره

وإما الشعر فله فيه القِدْح والمُعَلَّى، والحظُّ الأوفى، والدَّرجة العليا. طبقة وقته،

---

(١) «المقصورة» المشار إليها هنا هي القصيدة الطويلة التي وضعها أديب المغرب الكبير الإمام أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني الأندلسي في مدح الخليفة الحفصي أبي عبد الله محمد المستنصر بالله، والشرح الذي وضعه لها أبو القاسم محمد بن أحمد الحسني السبتي هو شرح كبير يقع في مجلدين ومنه نسخ مخطوطة في الخزائن المغربية وغيرها. وقد طبعت المقصورة وشرحها بالقاهرة (سنة ١٣٤٤ هـ)

ودرجة عصره، وحجة زمانه. كلامُه متكافئ في اللفظ والمعنى، صريح الدّلالة، كريم الخِيْم، متحصّد الحَبْل. خالص السَّبْك. وأنا أثبت منه جزءاً، خصَّني[١] به، سمّاه جهد المقل. اشتمل من حرّ الكلام، على مالا كفاء[٢] له.

الحمد لله تردُّدُه أخرى الليالي. فهو المسئول أن يعصمنا من الزَّلل[٣]، زلل القول. وزلل الأعمال. والصلاة على سيدنا محمد خاتم الإرسال. هذه أوراق ضمنتُها جملة من بنات فكري، وقِطعاً مما يُجيش به في بعض الأحيان صدري، ولو حَزَمت[٤] لأضربت عن كَتْبِها كل الإضراب، ولَزِمت في دَفْنها وإخفايها دين الأعراب. لا كني[٥] آثرت على المحو الإثبات، وتمثلت بقولهم[٦] [إن خير ما][٧] أوتيَتْه العربُ الأبيات. وإذا هي عُرِضت على ذلك المجد، وسألها كيف نجت من الوأد. فقد أوتيتُها من حُرَمكم[٨] إلى ظلّ ظليل. وأحللتُها من بنايكم، مُعَرَّساً ومقيل، وأهديتُها علْماً بأن كرمكم، بالإغضاء عن عيوبها جَدُّ كفيل، فاغتنم قلة التهدية مني، إن جَهْد المقل غير قليل، فحسبُها شرفاً أن تبوَّأت في جَنابك كنَفاً، وكفاها مجداً وفخراً. أن عَقَدت بينها وبين فكرك عَقْداً وجِواراً، [ومما قلت في حرف الهمزة][٩].

م ــــــ ولده

بسَبْتة في السادس لشهر ربيع الأول من عام سبعة وتسعين وستماية.

---

(١) وردت في «ج» (أخصني). والتصويب من «الزيتونة».

(٢) هكذا وردت في «ج». وفي «الزيتونة» (كفو).

(٣) وردت هذه الكلمة في «الزيتونة» وحده، ووردت محرفة (الزلال).

(٤) هكذا في «ج». وفي «الزيتونة» (حرمت).

(٥) هكذا في «ج» وفي «الزيتونة» (لاكني).

(٦) وردت في «ج» (بقوله). والتعديل أنسب للسياق.

(٧) هكذا وردت هذه العبارة في «ج». ووردت في «الزيتونة» (إن من أحسن ما).

(٨) وردت في «ج» (كرمكم). والتصويب من «الزيتونة».

(٩) وردت هذه العبارة هكذا في المخطوطين. ولم يليها شيء.

وفـــاته

وفى قاضياً بغرناطة فى أوايل شعبان من عام ستين وسبعماية .

محمد بن أحمد بن عبد الملك الفشتالى (١)

قاضى الجماعة بِبَيْضَة الإسلام فاس، يكنى أبا عبد الله .

حالـه

هذا الرجل له أبُوّة صالحة ، وأصالة زاكية ، قديم الطلب ، ظاهر التخصُّص ، مفرط فى الوقار [نابه البزّة والركبة ، كثير التّهمة ، يُوهم به الفارّ](٢) ، وصدرُ الصُّدُور فى الوثيقة والأدب ، فاضل النفس ، مَمْحُوض النصح ، جميل العشرة لإخوانه ، مُجرى الصّداقة [نُصحاً ، ومشاركة ، وتَنفيقا ، على سجيّة الأشراف وسُنَن الحُسباء](٣) ، مديدُ(٤) الباع فى فن الأدب ، شاعر مجيد ، كاتب بليغ ، عارف بالتّحسين والتّقبيح ، مَنْ أدركه ، أدرك عَلَماً من أعلام المشيخة . قدّمه السلطان الكبير العالم أبو عنان فارس ، قاضياً بحضرته ، واختصّه ، واشتمل عليه ، فاتصل بعده سعدُهُ(٥) ، وعُرف حقه . وتردد إلى الأندلس فى سبيل الرسالة عنه ، فذاع فضله ، وعُلم قدره . ولما كان الإزعاج من الأندلس نحو النَّبْوَة(٦) التى أصابت

(١) نسبة إلى فشتالة وهى إحدى القبائل الجبلية التى تقطن فى شمالى مدينة فاس .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٣) هذا أيضاً وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٤) وردت فى المخطوطين (مديع) ، وبالتصويب يستقيم السياق .

(٥) وردت فى «ج» وكذا فى «الزيتونة» (استعاله) . ونعتقد أن بهذا التصويب يستقيم السياق .

(٦) هكذا وردت فى « الزيتونة » . وفى «ج» (بحو النبوة) . والنبوة هنا تعنى السقطة أو النكسة .

الدولة ، بَلَوْتُ من فضله و نصحه وتأنيسه ، ما أ كدَّ الغبطة ، وأوجب الثناء ، وخاطبته بما نصه :

من ذا يَعُدُّ فضائل الفِشْتالى | والدهر كاتب آيها والتّالى
عَلَمٌ إذا التمسوا الفنون بعلمه | مرعى المُشيح[1] ونُجعة المُكتال
نال الذى لا فوقها من رفعة | ما أمّلتها حيلةُ المحتال
وقضى قياس تراثه عن جَدّه | إن المُقدَّم فيه عين التالى

قاضى الجماعة ، بماذا أثنى على خلالك المُرْتَضاة[2] ، أبِقَدِيمك المُوجب لتَقْديمك ، أم بحديثك الداعى لتحمُّل حديثك ، وكلاها غاية بَعُدَ مرماها ، وتحامى المُتَصور حماها ، والضالع لا يسام سَبْقاً ، والمُنْبَتُّ لا أرضا قطع ، ولا ظهراً أبقى . وما الظن بأصالة تعترف [بها][3] الآثار وتشهد ، وأُبُوّة صالحة : كانت فى غير ذات الحق تزهد ، وفى نيل الاتصال به تجهد ، ومعارف تقرر قواعد الحق وتمهد ، وتهزم الشُّبه إذا تشهد . وقد علم الله أن جوارك لم يُبق للدهر على جوار ، ولا حَتَّ من غصنى ورقاً ولا نوّارا[4] . هذا وقد زأر على أسَدٍ وحمل ثوراً[5] . فقد أصبحتُ فى ظل الدولة التى وقف على سيدى اختيارها ، وأظهر خلوصُ إبريزه معيارَها ، تحت كنف وعزٍّ مؤتنف ، وجوار أبى دلف ، وعلى ثقة من الله بحسن[6] خلف . وما منع من انتساب ما لديه من الفضائل إلا رحلةٍ ،

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (المهم) .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (المرضاة) والأولى أرجح .

(٣) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٤) وردت فى المخطوطين (نورا) ونعتقد أنه بالتصويب يستقيم السياق .

(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (نورا) وهو تحريف .

(٦) وردت فى «ج» (بجس) . وفى «الزيتونة» (تجس) . وبالتصويب يستقيم السياق .

لم يَبْرُكْ بعد حَمْلها ، ولا قرّ عملها ، وأوحال حال بيني وبين مُسوّر البلد القديم(١) مَهْلها . ولولا ذلك لاغتبطت الزّايد(٢)، واقتنيت الفوايد ، والله يطيل بقاه ، حتى تتأكد القربة ، التي تُنسي(٣) بها الغُرْبة ، وتعظم الوسيلة ، التي لا تَتَذكَر معها الفضيلة . وأما ما أشار به من تقييد القصيدة التي نَفِق سوقها استحسانه ، وأنس باستظرافها إحسانه ، فقد أعمل وما أمهل ، والقصور باد إذا تأمَّل ، والإغضاء أولى ما أمَّل ، فإنما هي فكرة ، قد أخمدت نارها الأيام ، وغيرت آثارها اللِّيام . وقد كان الحق إجلال مطالعة سيدى من خَلَلها ، وتنزيه رجْله عن تقبيل مُرتجلها . لاكنَّ أمْرَه مُمْتثل ، وأتى من المجد أمراً لا مرد له مَثَل . والسلام على سيدى من مُعظم قدره ، ومُلْتزم برِّه ، ابن الخطيب ، ورحمة الله .

فكتب إليّ مراجعاً ، وهو المليء بالإحسان :

وافت يجرُّ الزهو فضلة بُردها ... حسناء قد أضْحَت نَسيجة وحدها
لله أى قصيـــدة أهديت لو ... يهتدى المُعارض نحو غاية قصدها
لابن الخطيب بها محاسنُ جَمَّةٌ ... قارعت عنه الخطوب فَفَلَّت من حدِّها
سِرُّ البــلاغة عنه أودع حافظاً ... قد صانه حتى فَشَى من عنــدها
في غير عقْــدٍ نفثته(٤) بسحرها ... فلذا أتى سَلِساً منظَّم عقْــدها
لم أدر ما فيهــا وقمت معاوناً(٥) ... من طرسها أو مُعْلماً من بُرْدها

---

(١) يقصد مدينة فاس القديمة أو فاس البالى ، وذلك تمييزاً لها عن «البلد الجديد» وهو ضاحيتها الذى به مقر الملك والبلاط .

(٢) وردت فى «ج» (الرايد) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٣) وردت فى المخطوطين (تنسى) . وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٤) وردت فى «ج» (نفثت) . وفى «الزيتونة» (نبشت) . والتصويب رجح .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين .

حتى دفعتُ بها لأبعــــد غاية | باعاً نَقْصُر فى البلوغ بحدِّها
حدآن(١) من نظم ونثر إنَّ من | يلقاها منها بذِلّة عبْـــدها
أولى يداً(٢) بيضاء موليها فما | لى مزيّة أن أقوم بحمــدها
ورفضت تـكذيب المُنى متشيِّماً | لَعَلّ مرآها يُصادق وعدَها
فبذلتُ شعرى رافعاً من بِرِّها | وهززتُ عِطْفى رافلا من بُرْدها

خُذْها أعزَّ الله جنابك، وأدال للأُنْس على الوَحْشة اغترابك، كغُبّة(٣) الطائر المتجعد، ونُهبة الثاير المسْتَوْفز، ومِقّة(٤) اللَّحظ، قليلةُ اللَّفظ، قد جُمعت من سُوامها وانقحامها، بين نَظْم قيد، وصُلود زَنْد، ونَوّعت، فعلى إقدامها وانحجامها(٥) إلى قاصر ومُعْتَد، وليتنى إذا جادت سحابةُ ذلك الخاطر الماطر الوَدْق، وانجاب(٦) العانى عن مُزْنَة فكرتى، بتقاضى الجواب، انجياب(٧) الأَوْق، وأيقنتُ أنى قد سُدَّ على باب القول وأُرْتِج، وقلت هذه السَّالفة السكلية فَمَدت لها الدَّاتة من تـكلّم الإمرة [ولم أفه إذ أعوزت المُرَّة بالحُلْوة](٨)، لا كنى قلتُ، وجَهْدُ المُكثر كجُهْد المُقِلّ، والواجب قد يقلُّ الامتثال فيه بالأَقَلّ. فبعثت بها على علاّتها، وأبلغتها عذْرها. فى أن كتَبَت عن شوقها بِلِغاتها، وهى لا تَعْدَم من سيدى فى إغضاء كريم، وإرضاء سليم. والله عزَّوجل يَصِل بالتأنيس الحَبْل، ويجمع الشَّمْل.

(١) وردت فى «ج» (خوان). والتصويب من «الزيتونة».
(٢) وردت فى المخطوطين (يد). ولزم التصويب.
(٣) وردت فى المخطوطين (كتفة). وبالتصويب يستقيم السياق. والغبة هى البلغة اليسيرة.
(٤) هكذا فى المخطوطين. ويقصد بها هنا اللحظ الضعيف أو الفاتر.
(٥) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» (وانجامها).
(٦) وردت فى المخطوطين (وانجابة). وبالتصويب يستقيم السياق.
(٧) وردت فى «ج» (انجاب) فلزم التصويب.
(٨) هذه العبارة واردة فى «ج». وساقطة فى «الزيتونة».

والسلام الكريم يخصّ تلك السيادة. ورحمة الله وبركاته . من محمد بن أحمد الفشتالى .

وهو الآن قاض بفاس المذكورة، محمود السيرة. أبقاه. وأمتع به .

محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن على [بن داود] (١) القرشى المقّرى

يكنى أبا عبد الله ، قاضى الجماعة بفاس وتلمسان .

أوليتــــه

نُقلت من خطّه، قال ، وكان الذى اتخذها من سَلَفنا قراراً بعد أن كانت لمن قبله مراراً ، عبد الرحمن بن أبى بكر بن على المقّرى ، صاحب أبى مَدْيَن (٢) ، الذى دعا له ولذرّيته ، بما ظهر فيهم من قَبُول وتبيُّن . وهو أبى الخامس [فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن] (٣) ، وكان هذا الشيخ عُرْوِى الصلاة ، حتى أنه [ربما] (٤) امتُحن بغير شيء فلم يُؤنس منه التفاتٌ ،

(١) الزيادة من «الزيتونة» . وهى غير واردة فى نفح الطيب .

(٢) الشيخ أبو مدين هو ولى المغرب الكبير . وضريحه بضاحية تلمسان المسماه «العباد» . وهو فى الأصل العلامة الأندلسى شعيب بن الحسين الأنصارى ، ويكنى أبا مدين . ولد سنة ٥٢٠ هـ بقنطلانة من أعمال إشبيلية ودرس حينا بالأندلس ، ثم عبر البحر إلى المغرب . ودرس فى سبتة وفاس ومراكش . ثم مال إلى التصوف ، واعتنق طرائقه ، وسافر إلى المشرق وأدى فريضة الحج . ثم عاد إلى المغرب ، ونزل بثغر بجاية . وكان حجة لا يبارى فى الشريعة والحديث وعلوم الدين . واشتهر أبو مدين أثناء حياته بكراماته . وسمع به الخليفة الوحدى يعقوب المنصور ، وبما يتمتع به من واسع الشهرة والنفوذ ، فأمر باستدعائه إلى مراكش ، فأخذ إلى الخليفة ، ولكنه توفى فى طريقه على مقربة من تلمسان وذلك فى ربيع الأول سنة ٥٩٩ هـ . ودفن برابطة العباد ضاحيتها . وما زال ضريحه لى اليوم مزاراً يقصده الألوف من الزوار من سائر أنحاء المغرب .

(٣) الزيادة من نفح الطيب (ج ٣ ص ١١٢) . (٤) الزيادة من نفح الطيب .

ولا استُشْعِر منه شعور(١) . ويقال إن هذا الحضور مما أدركه من مقامات شيخه أبي مدين . ثم اشتهرت ذريّتُه على ما ذُكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهّدوا، طريق الصحراء بحفر الآبار، وتأمين التُّجار. واتخذوا طَبْل الرَّحيل، وراية التَّقدم عند المسير. وكان ولد(٢) يحيى. الذى كان أحدهم أبو بكر. خمسة رجال. فعقدوا الشَّركة بينهم فيما مَلَكوه، وفيما يملكونه على السواء بينهم والاعتدال . وكان أبو بكر ومحمد. وهما أرومَتا نسبي من جميع جهات [الأم والأب](٣) بتِلمسان ، وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسِجِلْماسة ، وعبد الواحد(٤) وعلى . وهما شقيقاهُم الصغيران . بأى والاتن(٥) فاتخذوا هذه الأقطار والحوايط والدِّيار . فتزوجوا [النساء](٦). واستولدوا الإماء . وكان التلمساني يبعث إلى الصَّحراوى(٧) [بما يُرسم له من السلع . ويبعث إليه الصحراوى بالجِلْد والعاج والجَوْز والتِّبر ، والسِّجلماسى كِلسان الميزان](٨) يعرّفهما بقدر الرُّجْحان والخُسْران . ويكاتبهما بأحوال التُّجار ، وأخبار البُلدان، حتى اتسعت أموالُهم ، وارتفعت فى الفخامة أحوالُهم ، ولما افتتح التَّكْرُور [كورَة](٩) أى والاتن وأعمالها ، أُصِيبت أموالُهم ، فيما أُصيب من أموالها ، بعد أن جَمع من كان بها منهم إلى نفسه الرِّجال ، ونَصَب [دون ماله](١٠) القتال . ثم اتصل بملكهم فأكرم مَثْواه ، ومكّنه

(١) وردت فى المخطوطين (شهور) والتصويب من النفح .

(٢) هكذا فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (أولاد) .

(٣) فى النفح (أبى وأمى) .

(٤) وردت فى «ج» و « الزيتونة» (عبد الرحمن) والتصويب من النفح .

(٥) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» . وأى والاتن موضع بالصحراء .

(٦) الزيادة من النفح.

(٧) فى «ج» (الصحراء) . والتصويب من النفح .

(٨) ما ورد بين الحاصرتين كله ساقط فى «ج» و «الزيتونة» ووارد فى النفح .

(٩) الزيادة من النفح .

(١٠) هكذا وردت فى «ج» . وفى النفح (دونها دف مالهم) .

من التجارة بجميع بلاده ، وخاطبه بالصديق الأحبّ ، والخلاصة الأقرب . ثم صار يكاتب مَنْ بتلمسان ، يَسْتَقْضى منهم مآربه ، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة ، وعندى من [كُتُبه](١) وكُتُب الملوك بالمغرب ، ما ينبىء عن ذلك . فلما استَوثقوا(٢) من الملوك ، تذلّلت(٣) لهم الأرض للسّلوك ، فخرجت أموالهم عن الحدّ ، وكادت تفوق الحصر والعَدّ ، لأن بلاد الصحراء ، قبل أن يدخلها أهل مصر(٤) | كانت تجلب لها من المغرب |(٥) ما لا بال له من السّلع ، فيُعَاوض عنه [بما له بالٌ من الثمن](٦) . [ثم قال أبو مدين](٧) « الدنيا ضمّ جنبِ أبى حمو ، وشمل ثوباه . كان يقول لولا الشناعة لم أزل فى بلادى تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السّلع ، ويأتون بالتّبر الذى كل أمْرِ الدنيا له تَبع ، ومن سواهم يحمل منها الذّهب ، ويأتى إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب ، إلى ما يُغير من العوايد ، ويجرُّ السفهاء إلى المفاسد »(٨) .

ولما هلك هؤلاء الأشياخ ، جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم [ولم يقوموا](٩)

---

(١) الزيادة من النفح .

(٢) وردت فى «ج» (است تقوى) وفى «الزيتونة» (استانتوى) والتصويب من النفح .

(٣) هكذ فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (ذالت) .

(٤) إن الإشارة إلى أهل مصر هنا مما يستوقف النظر ، ويحمل على الاعتقاد بأن التجار المصريين ، كانوا فى ذلك العصر (القرن الرابع عشر الميلادى) يؤمون هذه الأقطار (ممالك السودان الغربى) بكثرة .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » و «الزيتونة» . ووردت فى النفح (كان يجلب إليها من المغرب) .

(٦) وردت هذه العبارة فى «ج» (بمال ومال من الثمن) . وفى «الزيتونة» (بمال من التبر) . والتصويب من النفح .

(٧) هذه العبارة واردة فى المخطوطين ، وساقطة فى النفح .

(٨) وردت هذه الفقرة التى بين الشولتين فى المخطوطين وفى نفح الطيب ، مع تغيير يسير فى بعض الألفاظ . ولم نفهم حكمة نسبتها هنا إلى الشيخ أبى مدين . وهى على العموم ظاهرة الإضطراب .

(٩) وردت فى المخطوطين (ويقولوا) . والتصويب من النفح .

بأمر التشمير قيامهم ، وصادفوا توالى الفتن ، ولم يَسْلموا من جور السلطان[١] ، فلم تزل حالهم فى نقصان إلى هذا الزمان [فها أنا ذا لم أُدْرِك فى ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فصولَه عَيْشاً ، وأصوله حُرْمة . ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب ، وأسبابُ كثيرة تعين على الطلب ، فتفرَّغتُ بحول الله عز وجل للقراءة ، فاستوعبتُ أهل البلد لقاء ، وأخذت عن بعضهم عَرَضا وإلقاء ، سواء المقيم القاطن والوارد والظاعن][٢]

حـــاله

هذا الرجل مشارٌ إليه بالعُدوة المغربية[٣] اجتهادا ، ودُؤوبا ، وحفظاً وعناية ، واطلاعا[٤] ، ونَقْلاً ونزاهة ، سليمُ الصدر ، قريب الغور ، صادق القول ، مسلوب التَّصنُّع ، كثير الهَشَّة ، مفرط الخفَّة ، ظاهر السذاجة ، ذاهبٌ أقصى مذاهب التخلُّق ، محافظٌ على العمل ، مثابر على الانقطاع ، حريص على العبادة ، مضايق فى العَقْد والتوجُّه ، يكابد من تحصيل النيَّة بالوجه واليدين مشقَّة ، ثم يُغافِص الوقت فيها ، ويوقعها دُفْعة متبعاً إياها زعْقَةَ التكبير ، برَجْفة ، ينْبو عنها سمعُ من لم يكن تأنَّس بها عادة ، بما هو دليل على [حُسْن][٥] المعاملة ، وإرسال السَّجية ، قديمُ النِّعمة ، مُتصل الخَيْريَّة ، مكبٌّ على النظر والدرس والقراءة ، معلوم الصِّيانة والعدالة ، منصفٌ فى المذاكرة ، حاسرُ الذراع عند المباحثة ، راحبٌ عن الصَّدر فى وَطيس المناقشة ، غيرُ [مختار][٦] للقرْن ، ولا ضانٌّ

---

(١) فى النفح (السلاطين) .

(٢) هذه الفقرة التى بين الحاصرتين لم ترد فى المخطوطين ، ونقلناها عن النفح .

(٣) وردت فى المخطوطين (الغربية) .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (اضطلاعا) .

(٥) هذه الزيادة من النفح .

(٦) هذه الزيادة من النفح .

بالفايدة ، كثير الالتفاف ، متقلّب الحدقة(١) ، جهيرٌ بالحُجّة ، بعيد عن المُراء والمُباهتة ، قايل(٢) بفضل أولى الفضل من الطّلبة ، يقوم أتم القيام على العَرَبيّة والفقه والتفسير ، ويحفظ الحديث ، ويتهَجّرُ(٣) بحفظ الأخبار والتاريخ والآداب ، ويشارك مشاركة فاضلة فى الأصلين والجَدل والمَنْطق ، ويكتب ويُشْعر مصيباً فى ذلك [غرض الإجادة](٤) . ويتكلم فى طريقة الصّوفية كلام أرباب المقال ، ويعتنى بالتّدوين(٥) فيها . شَرّق وحجّ ، ولقى جِلّة ، واضطَّبن(٦) رحلةً مفيدة ، ثم آب إلى بلده ، فأقرأ به ، وانقطع إلى خدمة العلم . فلما وَلى ملك المغرب السلطان ، محالفُ الصُّنع ونشيدةُ الملك ، [وأثير الله من بين القرابة والإخوة](٧) أمير المسلمين أبو عنان فارس ، اجْتَذبه وخَلطه بنفسه ، واشتمل عليه ، وولاّه قضاء الجماعة بمدينة فاس ، فاستقلّ بذلك أعظم الاستقلال ، وأنفَذَ الحكم(٨) ، وألان [الكلمة ، وآثر التّسْديد ، وحَمَل الكَلّ ، وخفض الجناح ، فحسُنت عنه القالة ، وأحبّته](٩) الخاصّة والعامة . حضرتُ بعض مجالسه للحكم ، فرأيت من صبره [على اللّدد ، وتأتّيه للحجج](١٠) ورِفْقه بالخصوم ، ما قضيتُ منه العجب .

---

(١) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (الحداقة) ، والتصويب من النفح .

(٢) وردت فى «ج» (قايد) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٣) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (يتحين) . والتصويب من النفح .

(٤) هذه الزيادة من النفح .

(٥) وردت فى «ج» (بالزميق) . والتصويب من «الزيتونة» والنفح .

(٦) وردت فى «ج» (واضطر) . والتصويب من «الزيتونة» والنفح .

(٧) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» وساقط فى «الزيتونة» .

(٨) هكذ فى «ج و «الزيتونة» . وفى النفح (الحق) .

(٩) ما بين الحاصرتين ساقط فى «ج» و «الزيتونة» . ووارد فى النفح .

(١٠) هذا وارد فى «ج» والنفح ، وساقط فى «الزيتونة» .

دخوله غرناطة

ثم لما أُخِّرَ عن القضاء، استُعمل بعد لأى فى الرِّسالة: فوصل الأندلس، أوايل جمادى الثانية من عام ست وخمسين وسبعمائة. فلما قَضَى غرض الرسالة، وأبْرَم عَقْد وُجهته. واحتلَّ مالقة فى مُنْصَرفه، بَدَا له فى نَبْذ الكُلْفة، واضطِّراح وظيفة الخدمة، وحلّ التَّقييد، إلى ملازمة الإمْرة، فتقاعد، وشهر غرضه، وبتّ فى الانتقال، طمع من كان صحبته، وأقبل على شأنه، فَخُلِّىَ بينه وبين همِّه. وتُرِك وما انتحله[(١)] من الانقطاع إلى ربِّه. وطار الخبر إلى مُرسله، فأنف من تخصيص إيالته بالهجرة، والعدول عنها، بقَصْد التَّخَلى والعبادة، وأنكر ما نَحله[(٢)] غاية الإنكار، من إبطال عمل الرسالة، والانقباض قبل الخروج عن العُهْدة، فوَغَرُ صدره على صاحب الأمر: ولم يبْعُد حَمْله على الظِّنَّة والمواطأة على النَّفرة، وتجهزت[(٣)] جملةٌ من الخدَّام المُجْلين[(٤)] فى مآزق الشُّبهة، المضطَّلعين بإقامة[(٥)] الحجة، مُولين خِطَّة الملام [مُخَيَّرِين بين سحايب عاد من الإسلام][(٦)] مظَنَّة إغلاق النعمة[(٧)]، وإيقاع المُثْلة، والإساءة[(٨)] بسبب القطيعة والمُنابذة. وقد كان المترجمُ به لحق بغرناطة فتذمَّم بمسجدها، وجار بالانقطاع إلى الله، وتوعَّد من يجيُره، بنكير من يُجير ولا يُجار عليه [سبحانه][(٩)] فأهمَّ أمره، وشغلت القلوب آبدته، وأمسك

---

(١) هكذ وردت فى النفح. ووردت فى «ج» و «الز يتونة» (انتحل).

(٢) هكذا وردت فى «ج». و «الزيتونة». وفى النفح (ما حقه).

(٣) وردت فى «ج» (تجهز). والتصوب من النفح.

(٤) هكذ وردت فى «ج» والنفح. وفى «الزيتونة» (المجبلين).

(٥) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (لاقالة). والتصويب من النفح.

(٦) هذه العبارة وردت محرفة فى «ج» و «الزيتونة». واتبعنا فيها نص النفح.

(٧) هكذ وردت فى «الزيتونة». وفى «ج» والنفح (النقمة) والأولى أرجح.

(٨) هكذ وردت فى «الزيتونة». وفى «ج» والنفح (الإشادة) والأولى أرجح.

(٩) الزيادة من النفح.

الرسل بخلال ما صدرت شفاعةُ [اقتضت له رفع التَّبِعة](١) ، وتَرْكه إلى تلك الوجهة .

ولما تحصَّل ما تيسَّر من ذلك ، انصرف محفوفاً بعالِمَي(٢) القطر ، قاضي الجماعة أبي القاسم الحسني المترجمُ به قَبْله ، والشيخ الخطيب أبي البركات بن الحاج ، مُسْتَهِلين(٣) لوروده ، مُشافهين للشفاعة في غرضه ، فأقشعت الغُمَّة ، وتنفَّست الكُرْبة . [وجرى أثناء هذا من المراسلة والمراجعة ، ما تضمَّنه الكتاب المسمى « بكُناسة الدُّكان بعد انتقال السُّكان » المجموع بسلا](٤) ما صورته(٥) :

« المقامُ الذي يحبُّ الشَّفاعة ، ويَرْعى الوسيلة ، ويُنجز العُدَّة ، ويتمم الفضيلة ، ويُضْفي بجدُه المننَ الجزيلة ، ويُعيي حمدُه المادحَ العريضة الطويلة . مقام محلّ والدنا الذي كرمُ مجدُه ، ووضح سعدُه ، وصحَّ في الله تعالى عقدُه ، وخلُص في الأعمال الصالحة قصدُه ، وأعجز الألسنةَ حمدُه ، السلطان الكذا(٦) ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله سبحانه لوسيلة يرعاها ، وشفاعة يكْرُم مسعاها ، وأخلاق جميلة تجيب دعوة الطَّبع الكريم إذا دعاها ،

(١) هكذ وردت هذه العبارة في «ج» و «الزيتونة» . وفي النفح (اقتضى فيها رفع التبعة) .

(٢) هكذا وردت في «الزيتونة» و النفح . ووردت في «ج» (بعلمي) .

(٣) هكذا وردت في «ج» و «الزيتونة» . وفي النفح (مسلمين) والأولى أرجح .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد في «ج» . وساقط في «الزيتونة» .

(٥) إن الرسالة التالية لم ترد في المخطوطين . وقد أوردها المقرى في نفح الطيب مباشرة ضمن ترجمة جده ، وهي التي نقلها بلا ريب من مخطوط أكمل من «الإحاطة» . ومن ثم فقد رأينا من الواجب إكمال الترجمة بإيراد هذه الرسالة ، معتمدين في ذلك على نصها الذي أورده المقرى ، وكذلك على نصها الأصلي الوارد بكتاب (كناسة الدكان بعد انتقال السكان) . (راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١١٣ و ١١٤ وكناسة الدكان — القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٥٤ — ١٥٧) .

(٦) المقصود بالسلطان الكذا هنا ، هو السلطان فارس أبو عنان المريني ابن السلطان أبي الحسن الكبير ، ملك المغرب المتوفى في أواخر سنة ٧٥٩ هـ .

مُعَظِّم سلطانه الكبير ، ومُمَجِّد مقامه الشهير ، المُتَشَيِّع لأبوّته الرفيعة ، قولا باللسان ، واعتقادا بالضمير ، المعتمد منه بعد الله على الملجأ الأحمى ، والولىّ النصير . فلان[1] . سلام كريم ، طيب بَرٌّ عميم ، يخص مقامكم الأعلى ، وأبوّتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله ، الذى جعل الخُلُق الحميدة دليلا على عنايته بمن حلاّه حُلاها ، وميَّز بها النفوس النفيسة ، التى اختصها بكرامته وتولاّها ، حمداً يكون كُفْواً للنعم التى أولاها ، وأعادها ووالاها ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله ، المترَقّى من درجات الاختصاص أرْفَعها وأعلاها ، الممتاز من أنوار الهداية بأوْضَحها وأجْلاها ، مُطلِع آيات السعادة يروق مُجتَلاها . والرضا عن آله وصحبه الذين خَبَر صدق ضمائرهم لمّا ابتلاها ، وعَسُل ذكرهم فى الأفواه فما أعْذَب أوصافهم على الألْسُن وأحلاها . والدعاء لمقام أبوّتكم ، حرَس الله تعالى عُلاها ، بالسعادة التى يقول الفتحُ أنا طلاّع الثّنايا وابن جلاها ، والصّنائع التى تخترق المفاوز بركائبها المُبشِّرات فتفْلِى فَلاها . فإنا كتبنا إليكم ، كتَبَ الله تعالى لكم عزّةً مشيَّدة البناء ، وحشد على أعلام صنائعكم الكرام جيوش الثناء ، وقلّدكم قلائد مكارم الأخلاق ، ما يشهد لذاتكم منه بسابقة الاعتناء . من حمْراء غَرناطة حرسها الله ، والوُدُّ باهر السّناء ، مُجدٌّ على الأناء ، والتَشيُّع رَحْب الدّسيعة والفناء .

وإلى هذا ، وصل الله تعالى سعْدكم ، وحرس مجدكم ، فإننا خاطبنا مقامكم الكريم ، فى شأن الشيخ الفقيه الحافظ الصالح أبى عبد الله المقّرى ، خار الله تعالى لنا وله . وبلّغ الجميع من فضله العميم أمَله ، جواباً عمّا صدر من مثابتكم فيه ، من الإشارة المُتمثَّلة ، والمآرب المُعْمَلة ، والقضايا غير المهملة ، نُصادركم بالشفاعة التى

---

(١) هو السلطان محمد الغنى بالله ملك غرناطة (الأندلس) الذى حكم منذ سنة ٧٥٥ هـ ، وتوفى سنة ٧٩٣ هـ ، والذى يخصه ابن الخطيب فى بداية هذا المجلد بترجمة مستفيضة .

مِثْلُها بأبوابكم لا يُردّ ، وظمآها عن مَنْهل قبولكم لا تجلى ولا تُصَدّ ، حسبما سنّه الأب الكريم والجدّ . والقبيلُ الذى وضُح منه فى المكارم . الرسمُ والحدّ . ولم نصدر الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدقُ المُخيَّلة . وتبَلّج صُبح الزّهادة والفضيلة ، وجُود النفس الشّحيحة بالعَرَض الأدنى البَخيلة . وظهر تخَلّيه عن هذه الدار . واختلاطَه باللفيف والغُمار ، وإقباله على ما يُعنى مثله من صلة الأوراد ، ومداومة الاستغفار . وكُنّا لما تعرّفنا إقامته بمالقة لهذا الغرض الذى شهَره ، والفضل الذى أبْرَزه للعيان وأظهره ، أمَرْنا أن يُعتنى بأحواله . ويُعان على فراغ باله ، ويُجرى عليه سَيْبٌ من ديوان الأعشار الشرعية وصريح ماله ، وقلنا أما أتاك من غير مسألة مستندٌ صحيح لاستدلاله ، ففرّ من مالقة على ما تعرّفنا لهذا السبب ، وقعد بحضرتنا مستُورالمُنْتمى والمُنْتَسب ، وسكن بالمدرسة بعض الأماكن المعدّة لسكنى المُتَسِّمين بالخير ، والمحترفين ببضاعة الطَّلب ، بحيث لم يُتعَرّف وروده ووصوله إلاّ ممن لا يُؤبَه بتعريفه ، ولم تتحقق زوائده وأصوله لقلّة تَصْريفه . ثم تلاحق إرسالكم الجِلّة ، فوجبت حينئذ الشفاعة ، وعُرضت على سوق الحلم والفضل من الاستِلْطاف والاستِعْطاف البضاعة ، وقررنا ما تحققناه من أمره ، وانقباضه عن زَيْد الخلق وعُمَره ، واستقباله الوُجهة التى من ولىّ وجهه شَطْرَها فقد آثرأثيراً ، ومن ابتاعها بمتاع الدنيا ، فقد نال فضلا كبيراً ، وخيراً كثيراً ، وسألنا منكم أن تبيحوه ذلك الغرض الذى رماه بعزمه ، وقصَر عليه أقصى همّه . فما أخْلق مقامكم أن يفوز منه طالب الدّنيا بسَهْمِه ، ويحصل منه طالب الآخرة على حظّه الباقى وقَسْمه ، ويتوسل الزاهد بزهده والعالمُ بعلمه ، ويعوّل البرىء على فضله . ويثق المذنب بحِلْمه . فوصل الجواب الكريم بمجرد الأمان ، وهو أرَبٌ من آراب ، وفائدة من جِراب ، ووجْهٌ من وجوه إعراب ، فرأينا أن المَطْل بعد جفاء ، والإعادة ليس يثقلها خفاء ، ولمجدكم بما ضمّنا عنه وفاء ،

وبادرنا الآن إلى العزم عليه فى ارتحاله ، وأن يكون الانتقال عن رضاً منه من صفة حاله . وأن يُقتَضى له ثمرة المَقْصِد ، ويبلغ طِيَّة الإسعاف فى الطريق إن قصد، إذ كان الأمان لمثله ممن تعلّق بجناب الله: من مثلكم حاصلاً ، والدِّين المتين بين نفسه وبين المخافة فاصلا ، وطالبنا كيمياء السَّعادة بإعانتكم واصلا . ولما مُدَّت اليد فى تسويغ حالة هَدْيكم عليها أبداً يُحرِّض ، وعلمكم يُصرِّح بمزيتها ولا يُعرِّض ، فكمِّلوا أبقاكم الله ما لم تَسَعْنا فيه مشاحةُ الكتاب ، وألحقوا بالأصل حديث هذه الإباحة ، فهو أصحُّ حديث فى الباب ، ووفُّوا غرضنا من مجدكم ، وخلُّوا بينه وبين مراده من ترك الأسباب ، وقَصْد غافر الذنب وقابل التَّوب بإخلاص المتاب ، والتَّشمير ليوم العَرْض وموقف الحساب ، وأظهروا عليه عناية الجناب ، الذى تَعلَّق به ، أعلق الله به يدكم من جَنَاب ، ومعاذ الله أن تعود شفاعتُنا من لَدُنكم غير مُكمَلة الآراب . وقد بعثنا من ينوب عنا فى مشافهتكم بها أحمد المناب ، ويقتضى خلاصها بالرَّغْبَة لا بالغلاب ، وهما فلان وفلان . ولولا الأعذار لكان فى هذا الغرض إعمال الرِّكاب بسَبْق إعلام الكتاب ، وأنتم تُولُون هذا القَصْد من مكارمكم ما يوفر الثناء الجميل ، ويُرْبى على التَّأميل ، ويكتُب على الودِّ الصريح العقد وثيقة التَّسْجيل . وهو سبحانه يُبقيكم لتأييد المجد الأثيل ، وإنالة الرِّفْد الجزيل . والسلام الكريم يخص مقامكم الأعلى ، ومثابتكم الفضلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته . فى الحادى والعشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة وخمسين وسبعمائة [والله ينفع بقَصْده ، وييسر علينا الرجعة إلى وَجْهه وفضله»](١)

مشيخته

قال : فممَّن أخذتُ عنه ، واستفدت منه علماءها(٢) [يعنى تلمسان](٣)

(١) هذه الخاتمة واردة فى المخطوطين دون الرسالة .

(٢) وردت فى «ج» (علماؤها) . وفى «الزيتونة» (عالميها) . والتصويب من نفح الطيب .

(٣) الزيادة من نفح الطيب . وهى لازمة لاستقامة السياق .

الشامخان ، وعالماها الراسخان ، أبو زيد عبد الرحمن ، وأبو موسى عيسى ، إبنا محمد بن عبد الله بن الإمام ، وحافظها ومُدرِّسها ومُفتيها أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المِشْذالى ، صهر شيخ المتأخرين ، أبي على ناصر الدين على إبنته ، ومشكاةُ الأنوار التى [يكاد زيتها](١) يضيء ولو لم تمسسه نارٌ ، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن حكيم السكنانى السَّلوى رحمه الله . ومنهم القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور ، والشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسن(٢) البَرُّونى ، وأبو عمران موسى بومِن المَصْمودى الشهير بالبخارى . قال سمعت البرُّونى يقول : كان الشيخ أبو عمران يُدرِّس البُخارى ، ورفيق له يدرِّس صحيحَ مُسْلم ، وكانا يُعرفان بالبُخارى ومُسلم ، فشهدا عند قاض ، فطلب المشهودُ عليه بالإعذار فيهما ، فقال له أبو عمران أُمكِّنُهُ من الإعذار فى الصَّحيحين،البُخارى ومسلم ، فضحك القاضى ، وأصلح بين الخصمين . ثم قال، ومن شيوخى الصلحاء الذين لقيت بها ، خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن على الخياط ، أدرك أبا إسحاق الطيَّار . ومنهم أبو عبد الله بن محمد السكرمونى ، وكان بصيراً بتفسير الرُّؤيا ، فمن عجايب شأنه ، أنه كان فى سجن أبى يعقوب يوسف ابن عبد الحق [مع من](٣) كان فيه ، من أهل تلمسان أيام محاصرته لها ، فرأى أبا جمعة على التَّلالسى الجرايحى منهم ، كأنه قايم على ساقيةٍ دايرةٍ ، وجميع أقداحها وأقواسها تصب [فى](٤) نقير فى وسطها ، فجاء ليشرب ، فاغترف الماء ، فإذا فيه فرْثٌ ودَم ، فأرسله ، واغترف فإذا هو كذلك ، ثلاثاً أو أكثر ، ثم عَدَل إلى خاصَّة ماء ، فجاءها وشرب منها . ثم استيقظ ، [وهو النهار](٥) ، فأخبره ، فقال

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (زيتها يكاد) .
(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (الحسين) .
(٣) وردت فى المخطوطين (بن) . وبالتصويب يستقيم السياق .
(٤) وردت فى المخطوطين (من) والتصويب أرجح .
(٥) هكذا وردت فى المخطوطين .

إن صَدَقت الرؤيا ، فنحن عن قليل خارجون من هذا السجن . قال كيف ، قال الساقية الزمان ، والتّمير السلطان ، وأنت جرايحى ، تدخل يدك فى جوفه فينالها الفَرْث والدّم ، وهذا ما لا يحتاج معه [إلى دليل][1]، فأُخْرج ، فوجد السلطان مطعونا بخنجر ، فأدخل يده فى جوفه ، فناله الفرث والدّم ، فخاط جراحته وخرج ، فرأى خاصّة ماء ، فغسل يده وشرب . ولم يلبث السلطان أن توفى ، وسَرَّحوا من كان فى سجنه . ومن أشياخه الإمام لسيجُ وحده ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن أحمد الآبلى التلمسانى ، وهو رُحْلَة الوقت فى القيام على الفنون العقلية ، وإدراكه وصحّة نظره .

حدّث قال : قَدِم على مدينة فاس ، شيخُنا أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلى ، عُرف بن المُسَفِّر . رسولا من صاحب بجاية . وزاره الطلبة ، فكان مما[2] حدّثهم أنهم [كانوا][3] على زمان ناصر الدين ، يَسْتَشْكلون كلاماً وقع [فى][4] تفسير سورة الفاتحة من كتب فخر الدين ، واستشكله الشيخ معهم . وهذا نصه : ثَبَتَ فى بعض العلوم العقلية ، ان المُرَكَّب مِثْل البسيط فى الجنس ، والبسيطُ مثل المُرَكَّب فى الفصل ، وأن الجنس أقوى من الفصل . فأخبروا بذلك الشيخ الآبلى لما رجعوا إليه ، فتأمله ثم قال ، هذا كلام مُصَحَّف ، وأصله أن المركَّب قَبْل البسيط فى الحِسِّ ، والبسيط قبل المركَّب فى العَقْل ، وان الحِسَّ أقوى من العقل ، فأخبروا ابن المُسَفِّر ، فاعجّ : فقال لهم الشيخ ، التمسوا النسَخ ، فوجدوا فى لَفْظ بعضها كما قال الشيخ .

---

(١) أضفنا هذه العبارة لاستقامة المعنى والسياق .

(٢) وردت فى «ج» (ممن) والتصويب من «الزيتونة» .

(٣) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة السياق .

(٤) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة السياق .

رحلته

رحل إلى بجاية مُشَرِّقاً ، فلقى بها جلَّة ، منهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيي الباهلى، ابن المُسَفِّر. ومنهم قاضيها أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبى يوسف يعقوب الزَّواوى ، فقيه ابن فقيه . ومنهم أبو على حسن بن حسن إمام المَعْقولات بعد ناصر الدين . وبتونس قاضى الجماعة وفقيهها أبو عبد الله بن عبد السلام ، وحضر دروسه ، وقاضى المَنا كح أبو محمد اللخمى ، وهو حافظُ فقهائها فى وقته ، والفقيه أبو عبد الله بن هارون شارح ابن الحاجِب فى الفقه والأصول . ثم حجَّ فلقى بمكة إمام الوقت[١] أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن التَّوْزَرى المعروف بخليل ، وإمام المقام أبا العباس رضىِّ الدين الشافعى ، وغير واحد من الزايرين والمجاورين وأهل البلد . ثم دخل الشام ، فلقى بدمشق ، شمس الدين بن قيِّم الجَوْزية صاحب ابن تَيْمِيَّة ، وصدر الدين الغُمارى[٢] المالكى ، وأبا القاسم بن محمد اليمانى الشافعى وغيرهم . وببيت القدس أبا عبد الله بن مُثْبت[٣] ، والقاضى شمس الدين ابن سالم ، والفقيه أبا عبد الله بن عثمان ، وغيرهم .

تصـــانيفه

ألَّف كتاباً يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية ، ضمَّنها كل أصيل من الرأى والمباحثة . ودوَّن فى التَّصوُّف ، إقامة المُريد ، ورِحْلة المُتَبتِّل ، وكتاب الحقايق والرَّقايق ، وغير ذلك .

شـــعره

نقلتُ من ذلك قوله . هذه لمحةُ العارض لتكملة [أَلْفِيَّة][٤] ابن الفارِض ،

(١) وردت هذه الكلمة فى «ج» (الموقف) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) وردت فى المخطوطين (الغازى) والتصويب من النفح .

(٣) وردت هكذا فى «ج» والنفح . ووردت محرفة فى «الزيتونة» (منبت) .

(٤) الزيادة من النفح .

سَلَبَ الدهر من فرايدها(١) مائة وسبعة وسبعين ، فاستعنت على ردِّها بحول الله المعين .

من فصل الإقبال

رفضتُ السِّوى(٢) وهو الطهارة عندما تلفَّعتُ فى مرط الهوى وهو زينتى(٣)
وجئتُ الحِمَى وهو المُصَلَّى مُيمماً بوُجهة قلبى وجهها وهو قِبلتى
وقمتُ وما استفتحت إلاّ بذكرها وأحْرَمْتُ إحراماً لغير تحِلَّة
فدينى إن لاحَتْ ركوعٌ وإن دَنَت سجُودٌ وإن لاهت قيامٌ بحَسْرة
على أننا فى القُرْب والبُعْد واحدٌ تألَّفْنا بالوصل عين التَّشتُّت
وكم من هَجِير خُضت ظمآن طاوياً إليها وديْجُورٍ طويتُ برحلةِ
وفيها لقيتُ الموت أحْمَرَ والعِدا مُزَرَّقةٌ أسنان الرِّماح وحدّةٍ
وبينى وبين العَذْل فيها منازلٌ تُنسيك أيام الفُجَّار ومؤنة
ولمــا اقْتَسَمنا خطَّتَينا فخامل فجارٌ بلا أجــــر وحاملُ بَرَّة
خلا مَسْمعى من ذكرها فاستعدته فعاد ختامُ الأمر أصلَ القضيَّة
وكم لى على حُــكم الهوى من تجلُّدٍ دليلٌ على أن الهوى من سَجيَّتى
يقول سَميرى والأسا سالم الأسى ولا تُوضع الأوْزار إلاّ لِمحْنة
لو أنَّ مجوساً بَتَّ موقدَ نارِها لمــا ظلَّ إلا مَنْهَلًا ذا شريعة
ولو كنتُ بَحْراً لم يكن فيه نَضْحة لعين إذا نارُ الغرام استحرَّتِ

(١) هكذا فى النفح . وفى «ج» (فوايدها) .

(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى المخطوطين (الهوى) .

(٣) ورد فى المخطوطين هذا البيت فقط من القصيدة ، وهى فى خمسة وثلاثين بيتاً . وقد أوردها المقرى كاملة فى نفح الطيب ، وذكر خلال حديثه عن جده ، أنه نقلها عن «الإحاطة» . وكذا نقل بعدها من «الإحاطة» أربع قصائد طويلة أخرى من نظم جده . وقد رأينا نحن تكملة النص الأصلى ، أن ننقل هذه القصائد كلها (نفح الطيب ج ٣ ص ١٦٧ — ١٧٣) .

فلا رَدْم من نَقيب المعاول آمنُ ولا هَدْم إلاك شُيِّد بقـــوة
فم تقول الأسْفِطْسات منك أو علام مزاجٌ ركِّبت أو طبيعة
فإن قام لم يَثْبُت له منك قاعدٌ وإلاّ فأنت الدهرُ صاحب قِعْدة
فما أنت يا هذا الهوى ماء أو هوا أم النار أم دسّاس عِرْق الأمومة
وإنى على صبرى كما أنت واصفٌ وحالى أقوى القائمين بحُجَّة
أقل الضَّنى إن عجَّ من جسمى الضَّنى وما شاكه مِغْشار بعض شَكِيَّتى
وأيسرُ شوقى أننى ما ذكرتُها ولم أنسَها إلا احترقتُ بلَوْعة
وأُخفى الجوى قرْعُ الصواعق منك فى جَواى وأخفى الوَجْد صبر المودة
وأسهل ما ألقى من العَذْل أننى أحبُّ أفلى ذكرها وفضيحَتى
وأوَجُ حظوظى اليوم منها حضيضُها بالأمس وَسْلُ حرِّ الجُفون الغزيرة
وأوجز أمرى إنّ دهـــرى كلَّه كما شاءت الحسناء يوم الهزيمة
أرُوحُ وما يلقى التأسُّفُ راحتى وأغدُو وما يعدُو التفجُّع خِطَّتى
وكالبيضِ بيضُ الدهر والسُّمر سوده مساءتُها فى طىٍّ طيبِ المسرة
وشأنُ الهوى ما قد عرَفت ولا تسل وحسْبُكَ أن لم يُخْبِر الخب رؤيتى
سقامٌ بلا بُرء ضلالٌ بلا هَدْى أوام بلا رىٍّ دمٌ لا بقيمـــة
ولا عَتْبَ فالأيام ليس لها رضاً وإن تُرْض منها الصَّبْرَ فهو بغُيتى
ألا أيها اللُّوَّام عنى قَوِّضــوا رِكاب ملامى فهو أولُ محنتى
ولا تَعْذِلونى فى البكاء ولا البُكى وخلُّوا سَبيلى ما استطعتم ولوْعتى
فما سَلْسَلَت بالدمع عينى إن جَنَت ولكن رَأت ذاك الجمال فجُنَّتِ
تجلَّى وأرجاء الرَّجاء حَوالِكٌ ورُشدى غاوٍ والعمايات عَمَّت
فلم يَسْتَبن حتى كأنى كاسفٌ وراجعتُ أبصارى له وبَصِيرتى

ومن فصل الاتصال

وكم موقف لى فى الهوى خُضت دونه ... عُباب الرّدى بين الظُّبا والأسنة
فجاوزت فى حدّى مُجاهدتى له ... مُشاهدتى لما سَمَت بى همتى
وحلّ جمالى فى الجلال فلا أرى ... سوى صورةَ التّنزيه فى كل صورة
وغِبت عن الأغيار فى تِيه حالتى ... فلم أنتبه حتى امتحى اسمى وكنيتى
وكاتبتُ ناسوتى بأمارة الهوى ... وعدت إلى اللاهوت بالمطمئنة
وعلمُ يقينى صار عيناً حقيقة ... ولم يبق دونى حاجبٌ غير هَيْبَتى
وبدّلت بالتّلوين تمكين عزّة ... ومن كل أحوالى مقامات رِفعَة
وقد غبت بعد الفرق والجمع موقفى ... مع المحو والإثبات عند تثبتى
وكم جُلت فى سَمِّ الخِياط وضاق بى ... لبَسْطى وقَبْضى بسط وجه البسيطة
وما اخترت إلا دنَّ بقراط زاهدا ... وفى مَلَكوت النفس أكبر عبرة
وفقرى مع الصّبر اصطفيت على الغنى ... مع الشكر إذ لم يحظ فيه مَثُوبتى
وأكتم حبى ما كَنى عنه أهله ... وأكنى إذا هُم صرّحوا بالحبيّة
وإنى فى جنسى ومنه لواحد ... كنوع فَفَصْل النوع علّةُ حصّتى
تسبّبت فى دعوى التوكل ذاهباً ... إلى أنّ أجْدَى حيلتى ترك حيلتى
وآخر حَرْفٍ صار منى أولا ... مريداً وحَرْف فى مقام العُبودة
تعرّفت يوم الوقف منزلَ قومها ... فبتّ بجمع سدّ خرق التشتّت
فأصبحت أقضى النفس منها مُنى الهوى ... وأقضى على قلبى برعى الرعية
فبايعتُها بالنفس داراً سكنتُها ... وبالقلب منه منْزلا فيه حلّت
فخلّص الاستحقاق نفسى من الهوى ... وأوجب الاسترقاق تسليمَ شُفْعة
فيا نفسُ لا ترجع تقطّع بيننا ... ويا قلبُ لاتجزع ظَفِرت بوحدة

ومن فصل الإدلال

تبدَّت لعيني من جمالك لمحة ... أبادت فؤادي من سناها بلمحة
ومرَّت بسمعي من حديثك مُلحة ... تبدَّت لها فيك القِران وقرَّتِ
ملامي أبن عذري استبن وجدِّي استعن ... سماعي أعِن حالي أبِن قائلي أصمتِ
فمن شاهدي سُخط ومن قارئي رضا ... وتلوين أحوالي وتمكين رُتبتي
مَرامي إشارات مَراعي تعكر ... مَراقي نهايات مَراسي تثبُّتِ
وفي موقفي والدّار أقوت رسومها ... تقرّب أشواقي تبعُّد حسرتي
مَعاني إمارات مغاني تذكُّر ... مَباني بِدايات مثاني تلفت
وبُثُّ غرامٍ والحبيب بحضرة ... وردُّ سلام والرقيب بغفلة
ومطلعُ بَدْرٍ في قضيب على نقا ... فُوَيق محلّ عاطل دون دجية
ومَكْمَن سِحْرٍ بابلي له بما ... حوت أضلُعي فعلُ القَنا السّمهريّة
ومنبتُ مِسْك من شقيق ابن منذر ... على سوسن غض بجُنَّة وجَنَّة
ووصفُ اللآلي في اليواقيت كلما ... تعلّ بصرف الرّاح في كل سَحْرةِ
سلّ السلسبيل العذب عن طعم ريقه ... ونُكهته يخبرك عن عِلْم خبرة
ورُمّان كافور عليه طوابع ... من الندّ لم تحمل به بنتُ مُزْنة
ولُطف هواء بين خَفْق وبانة ... ورِقّة ماء في قوارير فِضّة
لقد عزّ عنك الصّبر حتى كأنّه ... سُراقة لحظ منك للمتلفّت
وأنت وإن لم تبق مني صُبابة ... مُنى النفس لم تقصد سواك بوُجهة
وكلّ فصيح منك يُسرى لمسمعي ... وكل مليح منك يَبْدو لمُقْلتي
تهون عليّ النّفسُ فيك وإنها ... لتكرُم أن تغشى سواك بنظرة
فإن تنظريني بالرِّضا تُشفَ علّتي ... وإن تظفريني باللقا تُطف غُلّتي

وإن تذكريني والحيــاة بقيدها   عدلتُ لأمنى مُنْيتى بمنيَّتى
وإن تذكريني بعد ما أسكنُ الثرى   تجلَّت دُجاه عند ذاك وولَّتِ
صِليني وإلاّ جدِّدى الوعد تُدركى   صُبابة نفس أيقنت بتَفَلُّت
فمــا أم بَوُّها لك بتنـــــوفة   أقيم لها خلف الخِلاب فدرَّت
فلما رأته لا ينـــــازع خلفهــا   إذا هى لم ترسل عليه وضَنَّت
بَكَتْ كلما راحت عليه وأنهــا   إذا ذكرته آخر الليل حَنَّتِ
بأكثر منى لَوْعَةً غير أنى   رأيت وقار الصَّبر أحسن حِلْية
فرحتُ كما أغدو إذا ما ذكرتها   أُطامن أحشائى على ما أجَنَّت
أهوِّن ما ألقاه إلاّ من القِلَى   هوًى ونوًى نيلُ الرِّضا منك بغيتى
أخوض الصِّلَى أطفِى العُلا والعلوّ لا   أصل السّلا أرعى الخَلَى بين عَبْرتى
ألا قاتل الله الحمامة غَــــدْوة   لقد أصْلت الأحشاء نيران لَوْعَةِ
وقاتل مَغْناها وموقفَ شَجْوِها   على الغُصن ماذا هيَّجت حين غنَّتِ
فغنَّت غِنــاءً أعجمياً فهيَّجت   غرامى من ذكرى عهود تولَّت
فأرسلَتْ الأجفان سُحُباً وأوقدت   جَوَاى الذى كانت ضُلوعى أكَنَّتِ
نظرت بصحراء البريقين نظرة   وصلتُ بها قلبى فَضَلَّ وضَلَّت
فيالهما قلباً شجِيًّا ونظـــرة   حجازِيَّةً لوجُنَّ طرف لُجنَّت
وواعجباً للقلب كيف اعترافُه   وكيف بَدَت أسراره خَلْفَ سترة
وللعين لما سُوئلت كيف أخبرَت   وللنفس لما وُطِّنت كيف ذَلَّتِ
وكنا سلَكنا فى صعود من الهوى   يُسامى بأعلام العُلا كلَّ رُتْبة
إلى مستوًى ما فوقه مستـــوى   فلما توافَيْنــــا ثبتُّ وزلَّتِ
وكنا عقدنا عقْدة الوصل بيننا   على نحر قُربان لدى قَبْر شيبة
مؤكدةً بالنَّذر أيام عهــــده   فلما تواثَقْنا اشتَدَدْتُ وحلَّت

ومن فصل الاحتمال

أزور اعتماراً أرضها بتنسُّك ... وأقصد حِجا بيتها بتحلَّة
وفى نشأتى الأخرى ظهرتُ بما علمَتْ ... له نشأتى الأولى على كل فِطرة
ولولا خفاء الرَّمز لا ولن ولم ... تجدها لشملى مَسْلَكا بتشتُّتِ
ولو لم يجدِّد عهدُنا عقد خِلَّة ... قضيتُ ولم يَقْضِ المُنى صِدْقُ توبة
بعثتُ إلى قلبى بشيراً بما رأت ... على قدم عَيْناى منه فكفَّتِ
فلم يعد أن شام البشارة شامٌ ما ... جفا الشَّام من نُور الصفات الكريمة
فيالك من نورٍ لو أنَّ التفاتةً ... تُعارَض منه بالنفوس النفيسة
تحدِّث أنفاسُ الصَّبا أن طيبَها ... بما حَمَلته من حُراقة حُرْقَة
وتدىء آصالُ الربيع عن الرُّبا ... وأشجاره إن قد تجلَّت فجلَّت
وتخبر أصوات البلابل أنها ... تغنَّت بترجيعى على كل أيْكة
فهذا جمالى منك فى بُعْد حَسْرتى ... فكيف به إن قرَّبتنى بخلة
تبدَّى وما زال الحجاب ولادنا ... وغاب ولم يُفقده شاهد حضرتى
له كل غَيْر فى تجلِّية مظهرٌ ... ولا غَيْر إلا ما محت كفُّ غيرةٍ
تجلِّى دليلٍ واحتجابُ تنزهٍ ... وإثباتُ عرفانٍ ومحوُ تَثَبُّت
فما شِئت من شىء وآليتُ أنه ... هو الشىء لم تُحْمد فجار أليَّتى
وفى كل خَلْقٍ منه كلُّ عجيبة ... وفى كلِّ خلق منه كل لطيفةٍ
وفى كل خافٍ منه مَكْمن حِكْمة ... وفى كل بادٍ منه مظهرُ جَلْوة
أراه يقلِّب القَلْب واللُّغز كامناً ... وفى الزَّجر والفَأل الصحيح الأدلَّة
وفى طىِّ أوفاق الحساب وسرِّ ما ... يتم من الأعداد فابدأ بستةٍ
وفى نفثات السِّحر فى العُقَد التى ... تُطوِّع لها كلُّ الطِّباع الأبيَّةِ

يصور شكلا مِثل شَكل ويَعْتَلى　　عليه بأوهام النفوس الخبيثة
وفى كل تَصْحيف وعضو بذاته اخْتِلاج وفى التَّقْويم مَجْلى لرؤية
وفى خُضْرة الكمُّون تُزْجى شرابه　　مواعيدُ عرْقوب على أثر صُفْرة
وفى شجر قد خُوِّفت قَطْع أصلها　　فبان بها حَمْل لأقْرَب مدة
وفى النَّخل فى تَلْقيحه واعتبر بما　　أتى فيه عن خير البَرِيَّة واسكتِ
وفى الطابع السَّبْتى فى الأحرف التى　　يُبِين منها النَّظْم كل خفية
وفى صَنْعة الطِّلَّسم والكيمياء والكنُوز　　وتَغْوير المياه المَعِينة
وفى حِرز أقسام المؤدب مُحْرز　　وحزب أصيل الشاذلى وبكرةِ
وفى سِيمياء الحاتِمىِّ ومذهب ابن سَبْعين إذ يُعزى إلى شرِّ بدْعة
وفى المَثَل الأولى وفى النَّحل الأُلى　　بها أوهموا لما تَسَاموا بسنَّة
وفى كل ما فى الكَوْن من عجب وما　　حَوَى الكون إلاَّ ناطقاً بعجيبة
فلا سرَّ إلاَّ وهو فيه سريرةٌ　　ولا جَهْر إلا وهو فيه كحِلْية
سلْ الذِّكر عن إنصاف أصناف ما بِنى　　عليه الكلامُ من حُروف سليمة
وعن وَضْعها فى بعضها وبلوغِ ما　　أتَتْ فيه أمضى عدِّها وتَثَبُّت
فلا بدَّ من رَمْز الكنوز لذى الحِجا　　ولا ظُلم إلا ظُلم صاحب حِكْمة
ولولا سلامٌ ساق للأَمْن خِيفتى　　لعاجل مسَّ البرد خوفى لمَيْتَتى
ولو لم تَدَاركنى ولكن بعطفها　　دَرَجت وجاءنى أن نَعَتْني خَيْبتى
ولو لم تؤانسنى عنا قبل لم ولم　　قضى العَتْبُ منى بُغية بعد وَحْشَتى
ونعم أقامت أمر مِلْكى بشكرها　　كما هوَّنت بالصبر كلَّ بليَّةِ

ومن فصل الاعتقال

سَرَت بفؤادى إذ سرت فيه نظرتى　　وسارت ولم تُثْن العِنان بعطفة

وذلك لما أطْلَع الشمس فى الدُّجى   مُحَيَّا إبنةِ الحيِّين فى خَير ليلة
يمانيَّة لو أنْجَدت حين أنجدت   لما أبْصَرت عيناك حيًّا كَمِيِّت
لأصحمة فى نُصْحها قــدم نبى   لكل نجاشِى بها حِصْن ذِمَّة
ألِمَت فحطّت رَحْلها ثم لم يكن   سوى وقفةُ التَّوديع حتى استقلَّتِ
فلو سَمَحت لى بالتِفات وَحْل من   مهاوى الهوى والهُون جدُّ تفَلُّتى
ولـكنها هَمَّت بنـا فتذكَّرَتْ   قضاء قُضاة الحُسْن قِدَما فصَدَّتِ
أجَلَّت خيالا إننى لا أُجِـلُّه   ولم أنْتَسب منه لغير تَعِـلَّة
على أننى كُلِّى وبعضى حقيقةٌ   وباطلُ أوصافى وحقٌّ حقيقتى
وجِنْسى وفَصْلى والعوارض كلها   ونوعى وشخصى والهواء وصورتى
وجسمى ونفسى والحشا وغرامُه   وعقلى وروحانِيَّتى القُدْسِيَّة
وفى كل لفظ عنه مَيْلٌ لمسمى   وفى كل معنًى منه معنى لِلَوْعتى
ودهرى به عيدٌ ليوم عرُوبة   وأمرى أمرى والوَرَى تحت قَبْضتى
ووقتى شهود فى فِناء شَهِدتُه   ولا وقت لى إلا مَشاهد غَيْبة
أراه معى حِسًّا ووهْمًا وأنه   مناطُ الثُّريَّا من مدارك رؤيتى
وأسمعُه من غير نُطْق كأنه   يُلَقِّن سمعى ما تُوَسْوس مُهجتى
ملأتُ بأنوار المحبَّــــة باطنى   كأنَّك نورٌ فى سِرار سَريرتى
وجَلَّيت بالإجلال أرجاء ظاهرى   كأنَّك فى أُفُقى كواكبُ زينةِ
فأنت الذى أُخفيه عند تسَتُّرى   وأنت الذى أُبْديه فى حين شُهْرتى
فتِه أحتمل واقْطَع أصِل وأعْلِ استَفِل   ومُرْ أمْتَثِل وأمْلِل أمِل وارْم أثْبُت
فقلبى إن عاتَبْتُه فيك لم أجد   لعَتْبى فيه الدهر موقعَ نُكْتة
ونفسى تَنْبُو عن سواك نَفاسةً   فلا تَنْتَمى إلا إليك بِمِنَّةِ
تَعلَّقت الآمال منك بفوق ما   أرى دُونه ما لا ينـال بحيلة

وحامَتْ حواليها وما وافقت رِحمى … سحائبُ يَئسٍ أمطرت ماءَ عَبْرتى
فلو فاتنى منك الرِّضى ولحقْتنى … بعفو بكيتُ الدهر فَوْتَ فَضيلة
ولو كنتُ فى أهل اليمين مُنَعَّماً … بكيتُ على ما كان من سَبْقيَّة
وكم من مقام قمتُ عنك مسائلا … أرى كل حىّ كلَّ حىٍّ وميِّت
أتيتُ بفاراب أبا نَصْرها فلم … أجد عنده عِلماً يُبَرِّد غُلَّتى
ولم يدر ما قولى ابنُ سيناء سائلاً … فقُلْ كيف أرجو عنده بُرْءَ عِلّتى
فهل فى ابن رُشْد بعد هذين مُرْتجى … وفى ابن طُفيل لاحْتِثاث مَطِيَّتى
لقد ضاع لولا أن تدارَكنى رِحمى … من الله سعى بينهم طول مُدَّتى
فقَيَّض لى نَهْجاً إلى الحقِّ سالكاً … وأيقظنى من نَوم جهلى وغَفْلتى
فحصَّنْتُ أنظار الجُنْد جُنَيْدها … بترك قُلِّى من رغبةٍ ريح رهبة
وكسَّرت عن رَجْل ابن أدهم أدْهَمَا … وأنقذتُه من أسْر حُبِّ الأسْرة
وعجت على حلّاج سُكْرى بصَلْبه … وألقيتُ بإمام التَّفانى بهوَّة
فقَوْلى مشكورٌ ورأيى ناجح … وفعلى محمود بكلِّ محَلَّة
رضيتُ بعِرْفانى فأعْلَيْت للعلا … وأجْلَسنى بعد الرِّضا فيه جُلَّتى
فعشتُ ولا ضيراً أخاف ولا قِلًى … وصرتُ حبيباً فى ديار أحِبَّتى
فها أنا ذا أُمسى وأُصبح بينهم … مُبَلَّغ نفسى منهم ما تَمَنَّت[(١)]

وأنشدنى قوله فى حال قبض وقيَّدتُها عنه :

إليك بسطتُ الكفَّ أستنزل الفَضْلا … ومنك قبضتُ الطَّرف أستشعرُ الذُّلّا
وها أنا ذا قد قَدِمت يقْدمنى الرَّجا … ويُحجمنى[(٢)] الخوفُ الذى خامر العَقْلا

---

(١) وإلى هنا انتهى ما نقلناه عن نفح الطيب من شعر جد المقرى الذى ورد فى «الإحاطة» وأغفله المخطوطان .

(٢) هكذا وردت هذه الكلمة فى «ج» وفى «ريحانة» (يحجبنى) وفى نفح الطيب (ويحجم بى) .

أُقدِّم رِجْلا إن يفيءُ[١] برقُ مطمع[٢] وتظلِّم أرجائى فلا أُنْقِل الرِّجْلا
ولى عَثَرات لست آمل أن هوَت بنفسى ألاَّ أستقلَّ وأن أُصلَّى[٣]
[فإن تُدْركنى رحمةٌ أنتعش بها وإن تكن الأخرى فأوْلى بى الأَوْلى][٤]

قال ، ومما نظمته من الشعر :

وجْد[٥] تُسعِّره الضلو ع وما تُبَرِّده المدامع
همٌّ تحركه الصَّبـــــــا بة والمهابةُ لا تُطاوع[٦]
أملى إذا وَصَلَ الرَّجا أسبابَه فالموت[٧] قاطع
بالله ياهذا الهـــــــوى ما أنت بالعُشَّاق صانِع

قال ومما كتبت به لمن بلغنى عنه بعض الشيء :

نحن إن تسأل بناس معشر أهل ماء فجَّرته الهمم
عربٌ من بيضهم أرزاقُهم ومن السُّمر الطوال الخيم
عرّضت أحسابهم أرواحهم دون نَيلَ العِرض وهى الكرم
أورثونا المجد حتى أننا نَرْتضى الموت ولا نزْدحم
ما لنا فى الناس من ذنب سوى أننا نَلْوى إذا ما اقتحموا[٨]

قال ، ومما قلته مذيِّلا به قول القاضى أبى بكر بن العربى :

---

(١) وردت فى المخطوطين (يقضى) والتصويب من النفح .
(٢) وردت فى المخطوطين (مظهر) والتصويب من النفح .
(٣) وردت فى المخطوطين (أصلا) والتصويب من النفح .
(٤) هذا البيت وارد فى النفح وساقط فى المخطوطين .
(٥) وردت فى «ج» (وحوت) . وفى «الزيتونة» (وحرة) . والتصويب من النفح .
(٦) وردت فى «ج» (تطلع) وفى «الزيتونة» (تطامع) . والتصويب من النفح .
(٧) وردت فى «ج» (خوف) . والتصويب من النفح .
(٨) هذه الأبيات وردت فى النفح نقلا عن «الإحاطة» . وهى ساقطة فى المخطوطين .

أما والمسجدُ الأقصى   وما يَتلى به نصَّا
لقد رقَصَت بنات الشو   ق بين جوانحى رقصا

قولى :

فأقلع بى إليه هوًى   جناحا عَزْمُه قُصَّا
أقلَّ القلبَ واستمدى   على الجُثمان فاستَعصى
فقمتُ أجول بينهمـا   فلا أدنى ولا أقصى[١]

قال ، ومما قلته فى التورية بشأن راوى المدوّنة :

لا تعجبن لظبى[٢] قد دَها أسداً   فقد دها أسداً من قبل سُحنون

قال ، ومما قلته من الشعر :

أُنبتُ عوداً بنعماء بدأتُ بهـا   فضلا وألبَسْتُها بعد اللّحى الورقا
فظلّ مُسْتَشعراً مُستدثرا أرِجا   ريّان ذا بهجة يستَوْقف الحَدَقا
فلا تُشِنه بمكروه الجنَى فلِـكَم   عوّدتُه من جميل من لَدُن خُلقا
وأنف القَذَى عنه وأَبِر الدهر منبته   وغذّه برجاء واسقِه غَدَقا
واحفَظْه من حادثات الدهر أجمعها   ما جاء منها على ضوءٍ وما طَرَقا[٣]

ومما قيدتُ عنه أيام مجالسته ومقامه بغرناطة ، وقد أجرى ذكر أبى زيد ابن الإمام ، أنه شهد مجلساً بين يدى السلطان أبى تاشفين عبد الرحمن ابن أبى حمّو ، ذكر فيه أبو زيد المذكور ، أن ابن القاسم مُقَيد بالنظر بأصول مالك ، ونازعه أبو موسى عُمران بن موسى المِشْذالى ، وادّعى أنه مُطْلق الاجتهاد ، واحتج له بمخالفته لبعض ما يرويه أو يبلغه عنه

---

(١) هذه الأبيات وردت فى النفح نقلا عن «الإحاطة» . وهى ساقطة فى المخطوطين .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى النفح . وفى «الزيتونة» (اصبى) .
(٣) هذه الأبيات وردت فى النفح نقلا عن الإحاطة . وهى ساقطة فى المخطوطين .

لما ليس من قوله ، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة . قال فلو تقيد بمذهبه ، لم يخالفه لغيره . فاستظهر أبو زيد بنص لشرف الدين بن التلمسانى . ومثّل فيه الاجتهاد المخصوص باجتهاد ابن القاسم ، بالنظر إلى مذهب مالك ، والمزنى إلى الشافعى . فقال أبو موسى عمران ، هذا مثال ، والمثال لا يلزم صحته ، فصاح به أبو زيد [ابن الإمام][1] وقال لأبي عبد الله بن أبي عمر تكلم [فقال][2] لا أعرف ما قال هذا الفقيه ، والذى أذكره من كلام أهل العلم [أنه][3] لا يلزم من فساد المثال فساد المُمثَّل به ، فقال أبو موسى للسلطان ، هذا كلام أصولى محقق ، فقلت لهما يومئذ ، وأنا حديث السن ، ما أنصفهما الرجل ، فإن المثل كما يؤخذ على جهة التحقيق ، كذلك يؤخذ على جهة التقريب ، ومن ثمّ جاء ما قال هذا الشيخ ، أعنى ابن أبي عمران . وكيف لا وهذا سيبويه يقول ، وهذا مثال ولا يُتكلم به ، فإذا صح أن المثال قد يكون تقريباً ، فلا يلزم صحة المثال ولا فساد المثل [لفساده][4] فهذان القولان من أصل واحد .

وقال ، شهدتُ مجلساً آخر عند هذا السلطان ، قُرِئ فيه على أبي زيد [ابن الإمام][5] حديث : لقّنوا موتاكم لا إله إلا الله ، من صحيح مسلم . فقال له الأستاذ أبو إسحاق [بن حكم السلوى][6] هذا المُلَقَّن مُحتضر حقيقة ، ميّت مجازاً فما وجه [ترك][7] مُحتَضِريكم إلى موتاكم ، والأصل الحقيقة ، فأجابه أبو زيد بجواب لم يقنعه . وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض التنقيح ، فقلت

---

(١) واردة فى «ج». وساقطة فى «الزيتونة» .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وواردة فى النفح .

(٣) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وواردة فى النفح .

(٤) الزيادة من النفح .

(٥) هذا وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٦) هذا وارد فى «ج» وساقط فى الزيتونة .

(٧) الزيادة من النفح .

زعم القرافى أن المُشْتق [إنما](١) يكون حقيقة فى الحال . مجازاً فى الاستقبال . مختلفاً فيه فى الماضى . إذا كان محكوما به . وأما إذا كان متعلق الحكم كما هنا ، فهو حقيقةٌ مُطْلقاً إجماعا . وعلى هذا التقرير ، لا مجاز ولا سؤال . ولا يقال إنه احتج على ذلك بما فيه نظر ، لأنا نقول إنه نقل الإجماع ، وهو أحد الأربعة ، التى لا يُطالب عنها(٢) بالدليل ، كما ذكر أيضاً . بل نقول إنه أساء حيث احتج فى موضع الوفاق ، كما أساء اللخمى وغيره فى الاحتجاج على وجوب الطّهارة ونحوها . بل هذا أشنع لكونه مما علم كونه من الدِّين ضرورة . ثم إنا لو سَلَّمنا نفى الإجماع ، فلنا أن نقول إن ذلك [إشارة إلى](٣) ظهور العلامات التى يعقبها الموت عادة ، لأن تلقينه قبل ذلك ، إن لم يدهش ، فقد يُوحش ، فهو تنبيه على وقت التلقين ، أى لقّنوا [من](٤) تحكمون بأنه ميت . أو يقال إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام(٥). ألا ترى اختلافهم فيه ، هل هو أخذ من حضور الملايكة [أو حضور الأجل ، أو حضور الجُلّاس](٦) . ولا شك أن هذه حالة خفِيّة(٧) يُحتاج [فى نصبها إلى دليل الحكمة](٨) أو(٩) إلى وصفٍ ظاهر يضبُطها . وهو ما ذكرناه ، أو من حضور الموت ، وهو

---

(١) وردت فى المخطوطين (لا) . والتصويب من النفح .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (مدعيها) .

(٣) الزيادة من النفح .

(٤) ساقطة فى «ج» . وواردة فى الزيتونة .

(٥) هكذا فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (الأفهام) .

(٦) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين ووارد فى النفح .

(٧) وردت فى «ج» (خفيفة) . وفى «الزيتونة» (حقيقة) والتصويب من النفح .

(٨) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وورد مقابلها فى النفح ما يأتى (فى نصبها دليلا على الحكم) .

(٩) ساقطة فى «ج» . وواردة فى «الزيتونة» .

[أيضاً](١) مما لا يُعرَّف بنفسه ، بل بالعلامات . فلما وجب اعتبارها(٢) . وجب كون تلك التسمية إشارة إليها . والله أعلم .

وقال ، وكان أبو زيد يقول(٣) . فيما جاء من الأحاديث . ما معنى قول ، ابن أبي زيد . وإذا سلَّم الإمام(٤) ، فلا يلبث بعد سلامه ولينصرف ، وذلك بعد أن ينتظر من يُسلِّم من خلفه لئلا يمر بين يدى أحد . وقد ارتفع عنه حكمه ، فيكون كالداخل مع المسبوق جمعاً بين الأدلة .

وقلت ، وهذا من مُلَح الفقيه(٥) . وقال كان أبو زيد يعنى الإمام ، يُصَحِّف قول الخونجى فى الجمل والمقارنات التى يمكن اجتماعه معها ، فيقول ، والمفارقات(٦) ، ولعله فى هـــذا كما قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعى لما قرأ عليه :

وغرَّرْتنى(٧) وزعمتَ أنك لابن فى الصَّيف تَأمُرُ

فقال :

وغرَّرْتنى وزعمتَ أنك لا تَنى بالضَّيف تأمر

فقال ، أنت فى تصحيفك أشهر من الحُطيئة ، أو كما يُحكى عن الشافعى أنه لما صلى فى رمضان بالخليفة ، لم يكن يومئذ يحفظ القرآن ، فكان ينظر فى المصحف ، وقرأ الآية « صنعة الله أصيب بها من أساء . إنما المشركون نحس .

(١) ساقطة فى المخطوطين وواردة فى النفح .
(٢) وردت فى المخطوطين (اعتبارها) . والتصويب من النفح .
(٣) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .
(٤) واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .
(٥) وردت فى «ج» (الفقه) والتصويب من «الزيتونة» .
(٦) وردت فى المخطوطين (والمقاربات) والتصويب من النفح .
(٧) وردت فى المخطوطين (وعورتنى . وعوزتنى) والتصويب من النفح .

وعدها إياه ؛ تقية لـكم خير لـكم . هذا أن دعوا للرحمان ولدا . لـكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

وقال ، ذكر أبو زيد بن الإمام فى مجلسه يوماً ، أنه سُئل بالمشرق عن هاتين الشريطتين : «ولو علم الله فيهم خَيْرًا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتوَلَّوْا وهم مُعرضون» فإنهما يستلزمان بحكم الإنتاج « ولو علم الله فيهم خيراً لتولوا وهم معرضون » [وهو](١) محال . ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين ، فقال ابن حكم(٢) ؛ قال الخونجى ، والإهمال بإطلاق لفظه . لو وأن فى المتَّصلة ، فهاتان القضيتان على هذا مُهْملتان ، والمهملة فى قوة الجزْئية(٣) ، ولا قياس على جُزْئيَّتين . فلما اجتمعت ببجاية بأبى على حسين بن حسين ، أخبرته بهذا ، وبما أجاب به الزَّمخشرى وغيره ، مما يرجع إلى انتفاء أمر تـكرار(٤) الوسط . [فقال لى الجوابان فى المعنى سواء ، لأن القياس على الجزئيَّتين إنما امتنع لانتفاء أمر تـكرار الوسط](٥) . وأخبرت بذلك [شيخنا](٦) أبا عبد الله الآبلى ، فقال إنما يقوم القياس على الوَسط ، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن [لا](٧) يكون من جُزْئيتين ولا سالبتين ، إلى ساير ما يُشترط . فقلت ما المانع [من كون هذه الشروط تفصيلاً لمُجْمل ما ينبنى عليه الوسط وغيره ، وإلا فلا مانع](٨) لما قاله ابن حسين . قال الآبلى ؛ وأجبتُ بجواب السَّلوى ، ثم رجعت إلى ما قاله الناس ،

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وواردة فى النفح .
(٢) هكذا وردت فى «ج» والنفح . وفى الزيتونة (ابن الحكم) .
(٣) وردت فى «ج» (الخيرية) وفى «الزيتونة» (الخبرية) . والتصويب من النفح .
(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (تكرير) . والأولى أنفذ .
(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» والنفح . وساقط فى الزيتونة .
(٦) هذه الكلمة ساقطة فى «ج» . وواردة فى «الزيتونة» والنفح .
(٧) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى النفح .
(٨) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» والنفح . وساقط فى «الزيتونة» .

لوجوب كون مُهملات القرآن كلّية ، لأن الشّرطية لا تنتج جزئية . فقلت هذا فيما يُساق منها للحجة مثل « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفَسَدتا » . أما فى مثل هذا فلا قلت . وكان يلزم السؤال الأول لو لم يكن للمتولى سبب تأخر ، حسبما تبين فى مسألة ، لو لم يطع الله ، فلينظر ذلك فى اسم شيخنا أبى بكر يحيى بن هُذيل رحمه الله .

وقال ، لما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن بن فَرْحون ، نزيل طيبة ، على تربتها السلام سأل ابن حكم عن معنى هذين البيتين :

رأت قمر السماء فأذكرتنى ليالى وصلنا بالرَّقمتين

كلانا ناظرٌ قمراً ولكن رأيت بعينها ورأت بعينى

[ففكَّر ثم قال](١) لعل هذا الرجل كان ينظر إليها ، وهى تنظر إلى قمر السماء ، فهى تنظر إلى القمر حقيقة ، وهو لفَرْط الاستحسان يرى أنها الحقيقة . فقد رأى بعينها لأنها ناظرة الحقيقة . وأيضاً وهو ينظر إلى قمر مجازا ، وهو لإفراطه استحسانها(٢) يرى أن قمر السماء هو المجاز ، فقد رأت بعينه لأنها ناظرةُ المجاز . قلت ، ومن هذا يُعلم وجه الفاء فى قوله تعالى « فاذكرونى أذكركم » والفاء فأذْكَرتنى [بمثابة قولك أذكرتنى](٣) ، فتأمله ، فإن بعض من لا يفهم كلام الأستاذ كل الفهم ، ينشده « وأذكرتنى » . فالفاء فى البيت الأول ، مُنبِّهة على الثانى ، وهذا النحو يسمى « الإيذان فى علم البيان »

وقال ، سألنى ابن حكم عن نسب هذا المُجيب فى هذا البيت :

ومهفهفُ الأعطاف قلتُ له انتسب فأجاب ما قَتْلُ المُحب حرام .

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . ومكانها فى المخطوطين (فقال) .

(٢) هكذا وردت هذه الكلمة فى «ج» . وفى «الزيتونة» (استحسانه إياها) .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . ووارد فى النفح .

ففكرت ثم قلت له ، أراه تميمياً لإلغائه « ما » النافية . فاستحسنه منى [لصغر سنى يؤمئذ][(١)] . وسأل [ابن فرحون][(٢)] ابن حكم يوماً ، هل تجد فى التنزيل ستَّ فاءات مرتبة ترتيبها فى هذا البيت :

رأى[(٣)] فحبَّ فرام الوَصْلَ فامتنعت ... فَسَام صبراً فأعيا نيله فقضى

ففكر ابن حكم ، ثم قال نعم قوله عز وجل « فطاف عليها طائفٌ من ربِّك وهم نائمون ، فأصبَحت كالصَّريم ، فتَنَادوا إلى آخرها » ، فمنعت له البناء فى [فتنادوا] . فقال لابن فرحون ، فهل عندك غيره ، فقال نعم ، قوله عز وجل « فقال لهم رسول الله ، ناقةَ الله وسُقْياها إلى آخرها » فمنع لهم بناء الآخرة لقراءة الواو . فقلت له امنع [ولا تُسند][(٤)] ، فيقال إن المعانى قد تختلف باختلاف الحروف ، وإن كان السَّند لا يسمع [الكلام][(٥)] عليه . وأكثر ما وجدت الفاء تنتهى فى كلامهم إلى هذا العدد ، سواء بهذا الشرط وبدونه ، كقول نوح عليه السلام « فعلى الله توكلتُ فاجمعوا أمركم وشركاءكم » . وكقول امرئ القيس « غشيت ديار الحى بالبكرات ، البيتين » لا يقال قوله ، فالحبُّ سابع ، لأنا نقول إنه عطف على عاقل المجرد منها ، ولعل حكمة السّتة أنها أول الأعداد التامة ، كما قيل فى حكمة خلق السموات والأرض فيها . وشأن اللسان عجيب .

---

(١) هذه الإضافة من النفح .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من النفح .

(٣) وردت فى «ج» (وأنى) . والتصويب من النفح .

(٤) هذه العبارة واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» .

(٥) الزيادة من النفح .

وقال ، سمعت ابن حكم يقول ، كتب[1] [بعض][2] أدباء [فاس][3] إلى صاحب له :

إبعث إلى بشيء مدارُ فاس عليه
وليس عندك شيء مما أشيرُ إليه

فبعث [إليه][4] ببطّة من مَرى شُرب [يشير بذلك إلى][5] الرِّياء

وحُدِّث أن قاضيها[6] أبا محمد عبد الله [بن أحمد بن المَلْجوم دعى][7] إلى وليمة ، وكان كثير البَلْغم ، فوضع بين يديه صِهره أبو العباس بن الأشقر غُضارا من اللَّوز المطبوخ بالمَرى ، لمناسبته لمزاجه ، فخاف أن يكون قد عَرّض له بالرياء . وكان ابن الأشقر يُذكر بالوقوع فى الناس ، فقدّم له القاضى غُضار المَقْروض ، فاستحسن الحاضرون فِطْنته .

وقال عند ذكر شيخه أبى محمد عبد الله بن عبد الواحد المجادى [دخلت عليه بالفقيه أبى عبد الله السَّطى فى أيام عيد . فقدّم لنا طعاما ، فقلت لو أكلت معنا ، فرجونا بذلك ما يُرفع من حديث . « من أكل مع مغفور له ، غُفر له » فتبسّم ، وقال لى ، دخلت على سيدى أبى عبد الله الفاسى بالأسكندرية . فقدّم لنا طعاما ، فسألته عن هذا الحديث ، فقال وقع فى نفسى شيء ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فسألته عنه . فقال لم أقُله ، وأرجو أن يكون كذلك ،

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح (بعث) .
(٢) الزيادة من النفح .
(٣) الزيادة من النفح .
(٤) الزيادة من النفح .
(٥) الزيادة من النفح .
(٦) وردت فى المخطوطين (قاضيه) والتصويب من النفح)
(٧) ما بين الحاصرتين ورد فى النفح . وساقط فى المخطوطين .

وصافحته بمصافحته الشيخ أبا عبد الله زيان . بمصافحته أبا سعيد عثمان بن عطية الصعيدى ، بمصافحته أبا العباس أحمد المُلَثَّم ، بمصافحته المُعَمَّر . بمصافحته رسول الله صلى الله عليه وسلم][1] .

وحدَّث عن شيخه أبى محمد الدَّلاصى ، أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد ، فكان يخصه لدينه وعقله ، بالنداء باسمه ، وإنما كان يَنْعَق بمماليكه [ياساق][2] ، يا طَبَّاخ ، يا مُزَيِّن . فناداه ذات يوم ، يافرَّاش ، فظن أن ذلك لموجدة عليه . فلم ير أثر ذلك ، وتصوَّرت له به خَلْوة ، فسأله عن مخالفته لعادته ، فقال له لا عليك ، كنتُ يومئذ جُنُباً ، فكرهت أن أذكر اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على تلك الحالة . وقال أنشدنى المجاصى ، قال أنشدنى [الإمام][3] نجم الدين الواسطى ، قال أنشدنى شرف الدين الدمياطى ، قال أنشدنى تاج الدين الآمدى ، مُؤلف الحاصل ، قال أنشدنى الإمام فخر الدين لنفسه :

نهايةُ إقدام العقول عِقَال ... وأكثرُ سَعْى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وَحْشة من جسومنا ... وحاصلُ دنيانا أذىً ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قِيلٌ وقال
وكم مِن رجال قد رأينا ودولة ... فبادوا جميعاً مُسرعين وزالوا
وكم مِن جبال قد علت شُرُفاتِها[4] ... رجالٌ فماتوا والجبال جبال

وقال ، وقد مرَّ من ذكر الشريف القاضى أبى على حسين بن يوسف [بن يحيى][4] الحسنى فى عِداد شيوخه [وقال][5] حدثنى أبو العباس الرُّندى ، عن القاضى أبى العباس

(١) هذه الفقرة المحصورة بين الحاصرتين كلها ساقطة في المخطوطين . وواردة فى نفح الطيب .
(٢) الزيادة من النفح .
(٣) الزيادة من «الزيتونة» .
(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» و نفح . وفى «ج» (شروفها) .
(٤) الزيادة من النفح .
(٥) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة السياق

ابن الغماز - [قال لما قدم القاضى أبو العباس بن الغماز من بلنسية ، نزل بجاية ، فجلس بها فى الشهود مع عبد الحق بن ربيع ، فجاء عبد الحق يوماً ، وعليه بُرْنس أبيض ، وقد حسنت شارته ، وكملت هيئته ، فلما نظر إليه ابن الغماز أنشده :

لبس البُرْنس الفقيهُ فباهى ورأى أنه المليح فتَاها

لو زُلَيخا رأته حين تبدَّى لتمنَّته أن يكون فتاها

وقال أيضاً إن ابن الغماز](١) جلس لارتقاب الهلال بجامع الزَّيتُونة(٢) ، فنزل الشهود من المئذنة وأخبروا أنهم لم يهلُّوه . وجاء حفيد له صغير ، فأخبره أنه أهَلَّه ، فردهم معه ، فأراهم إياه ، فقال ما أشبه الليلة بالبارحة ، وقد وقع لنا مثل هذا مع أبى الربيع بن سالم(٣) ، فأنشدنا فيه :

توارى هلال الأفق عن أعين الوَرَى وأرْخَى حجاب الغَيْم دون محيَّاه

فلما تصدَّى لارتقاب شقيقه تبدَّى له دون الأنام فحيَّاه

وجرى فى ذكر أبى عبد الله بن النجار ، الشيخ التعالِبى(٤) من أهل تلمسان ، فقال ذكرتُ يوماً قول ابن الحاجب فيما يُحرَّم من النساء بالقرابة ، وهى [أصول

---

(١) ما بين الحاصرتين كله ساقط فى المخطوطين ووارد فى النفح.

(٢) جامع الزيتونة ، هو جامع تونس الأعظم ، ومن أقدم الجوامع فى العالم الإسلامى. أنشأه حسان بن النعمان فى أواخر القرن الأول من الهجرة ، وأعيد بناؤه مراراً . وما زالت توجد به أجزاء من بناء القرنين الثالث والرابع .

(٣) هو الحافظ أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميرى الكلاعى من أهل بلنسية . ولد سنة ٥٦٥ هـ . وكان عمدة المحدثين والرواة فى عصره . وله مؤلفات كثيرة منها كتاب «الإكتفاء فى مغازى رسول الله ومغازى الثلاثة الخلفاء ، وكتاب فى تاريخ الصحابة والتابعين . وقد توفى مجاهداً شهيداً فى موقعة أنيشة التى نشبت بين المسلمين والنصارى على مقربة من بلنسية فى شهر ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ . وسوف يترجم له ابن الخطيب فى الإحاطة فيما بعد .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» ، وفى «ج» (التعاليمى) .

وفصول](١) . أول أصوله ، وأول فصل من كل [أصل](٢) وإن علا ، فقال إن تُركّب لفظ التَّسمية العُرْفية(٣) من الطرفين حلّت وإلا حرُمت . فتأملته . فوجدته كما قال ، لأن أقسام هذا الضابط أربعة . التَّركيب من الطرفين . كابن العم [وابنة العم](٤) مقابله كالأب والبنت . والتركيب من قِبَل الرجل . كابنة الأخ والعم مقابله كابن الأخت والخالة .

وذكر الشيخ الرئيس أبا محمد [عبد المهيمن بن محمد] الحضْرمى . وقال . كان يُنكر إضافة الحوْل إلى الله [عزَّ وجلَّ](٥) ، فلا يجيز أن يقال «بحَوْل الله وقُوَّته» ، قال ، لأنه لم يُرد إطلاقه . والمعني يقتضى امتناعهُ لأن الحول كالحيلة ، أو قريبٌ منها .

وحَكي عن شيخه أبي زيد عبد الرحمن الصَّنهاجي . عن القاضي أبي زيد [عبد الرحمن بن علي](٦) الدُّكالي ، أنه اختصم عنده رُجُلان في شاة . ادَّعي أحدهما أنه أودعها الآخر ، وادَّعَى الآخر أنها ضاعت منه [فأوْجَب اليمين على المُودع أنها ضاعت](٧) من غير تضييع . فقال كيف أُضَيِّع . وقد شغلتني حراستُها عن الصلاة . حتى خرج وقتها ، فحكم عليه بالغرْم . فقيل له في ذلك ، فقال تأوَّلتُ قول عُمر [ومن ضَيَّعها](٨) فهو لما سواها أضْيَع .

وحكى عن الشيخ الفقيه رُحْلة الوقت أبي عبد الله الآبلي . حكاية في باب الضَّرب ،

---

(١) وردت في المخطوطين (أصوله وفصوله) والتصويب من النفح .

(٢) وردت في المخطوطين (فصل) والتصويب من النفح

(٣) هكذا وردت في «ج» والنفح . وفي «الزيتونة» (العربيه) وهو تحريف

(٤) الزيادة من النفح .

(٥) الزيادة من النفح .

(٦) الزيادة من النفح .

(٧) ما بين الحاصرتين ساقط في المخطوطين ووارد في النفح .

(٨) ساقطة في المخطوطين وواردة في النفح .

وقوة الإدراك، قال . كنت [يوماً](١) مع القاسم بن محمد الصنهاجي . فوردت عليه. طُومارَة من قبل القاضي أبي الحجاج الطرطوشي فيها :

خيراتُ ما تحويه مبذولةٌ ومطلبي تَصْحيف مَقْلُوبها

فقال لى ما مطلبُه، فقلت « نارنج» . ودخل عليه وأنا عنده بتلمسان الشيخ الطبيب أبو عبدالله الدبّاغ المالقي ، فأخبرنا أن أديباً استجدى وزيراً بهذا الشَّطْر : « نَمَّ حبيبُ قلَّما يَنْصِف » فأخذته وكتبته ، ثم قلبته وصحّفته فإذا به قصبتا مِلَفٍّ شحمى .

وقال، قال شيخنا الآبلى ، لما نزلتُ تازة(٢) مع أبي الحسن بن برّى ، وأبي عبد الله التُّرْجالى(٣) ، فاحتجت إلى النوم ، وكرهت قطعهما إلى الكلام ، فاستكْشَفْتُ منهما عن [معنى](٤) هذا البيت المعرى :

أقول لعبد الله لما سقاؤنا ونحن بوادى عبد شمس وهاشم

فجعلا يفكران فيه ، فنمتُ حتى أصبحا ولم يجداه ، وسألونى عنه ، فقلت معناه « أقول لعبد الله لِما ' وهى سقاؤنا ، ونحن بوادى عبد شمس ، شِمْ لنا بَرْقا » .

قلت ، [وفيه نظر](٥) ، وإن استَقْصَينا مثل هذا ، خرجنا عن الغرض .

---

(١) هذه الكلمة واردة فى المخطوط بعد عبارة (فوردت عليه) . وهذا مكانها وفقاً للنفح ، وهو أنسب .

(٢) وردت فى المخطوطين (تازا — تاز) . والأصح أنها تازة أو تازى ، وهى من مدن المغرب الأوسط .

(٣) نسبة إلى «ترجاله» وبالإسبانية Trujillo . وهى مدينة أندلسية تقع على مقربة من جنوبى نهر التاجه ، وشمال شرقى بطليوس .

(٤) الزيادة من النفح .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين . ووردت فى النفح كالآتى (وفى جواز مثل هذا نظر) .

مــولده

نقلت من خطه ، كان مولدى بتلمسان ، أيام أبى حمّو موسى بن عثمان بن يَغْمِراسِن بن زيّان . وقد وقفتُ على تاريخ ذلك ، ورأيت الصَّفح عنه ، لأن أبا الحسن بن موسى ، سأل أبا الطاهر السِّلَفى عن سِنِّه ، فقال ، أقبل على شأنك ، فإنى سألتُ أبا الفتح بن زيّان بن مَسْعَدة عن سنه ، فقال ، أقبل على شأنك ، فإنى سألت محمد بن على بن محمد اللّبّان عن سنه فقال ، أقبل على شأنك ، فإنى سألت [حمزة بن يوسف السَّهمى عن سنه ، فقال ، أقبل على شأنك ، فإنى سألت أبا بكر محمد بن على النَّغزى عن سنه ، فقال ، أقبل على شأنك][(١)] ، فإنى سألت بعض أصحاب الشافعى عن سنه ، فقال ، أقبل على شأنك ، فإنى سألت أبا إسماعيل التِّرمِذى عن سنه ، فقال ، أقبل على شأنك ، فإنى سألت الشافعى عن سنه ، فقال أقبل على شأنك ، فإنى سألت مالك[(٢)] بن أنس عن سنه ، فقال ، أقبل على شأنك ، ليس من المروءة إخبار الرجل عن سنه .

وفاتـــه

توفى بمدينة فاس فى أخريات محرم من عام تسعة وخمسين وسبعمائة[(٣)] وأراه توفى فى ذى حجة من العام قبله . ونقل إلى تُربة سلفه بمدينة تِلِمسان حرسها الله .

محمد بن عِياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبى

من أهل سَبْتة ، حفيد القاضى الإمام أبى الفضل [عِياض][(٤)] ، يكنى أبا عبد الله .

---

(١) هذا كله ساقط فى الزيتونة .

(٢) وردت فى «ج» (السايب) وهو تحريف ، وحكمة التصويب واضحة .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى الزيتونة (عام تسعة وسبعمائة) وهو تحريف .

(٤) ساقطة فى «ج» . وواردة فى «الزيتونة» .

حـــاله

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير . كان من عُدُول القضاة . وجلّة سراتهم . وأهل النزاهة فيهم . شديدَ التحرى فى الأحكام ، والاحتياط . صابراً على الضعيف فيهم والملهوف ، شديد الوطأة على أهل الجاه وذَوى السَّطوة . فاضلا . وقوراً . حسن السَّمت (١) . يُعرِّفُه كلامه أبداً . ويزيِّنه ذلك لكثرة وقاره ، محبًّا فى العلم وأهله ، مُقرِّباً لأصاغر الطلبة ، ومكرِّماً لهم ، ومُعتنياً بهم ، مُعْمِلا جَهْده فى الدَّفع عنهم ، لما عسى أن يسوءهم . ليحبِّبَ إليهم العِلْم [وأهلَه](٢) . ما رأينا بعده [فى هذا مِثله](٣) . سكن مالقَة مع أبيه ، عند انتقال أبيه إليها ، إلى أن مات أبوه سنة خمس وخمسين وستماية .

حدّثنى شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب ، [وجرى ذكر إعرابه لفظ من حديثه عن شيوخه](٤) . قال دخلت على القاضى المذكور ، فسأل أحدُنا عن أبيه ، فقال ابن فلان ، وذكر معرفةً مشتركة بين تجّار فاس . فقال أيهما الذى ينحت فى الخشب ، والذى يعمل فى السلاح ، فما فَطِن لقصده لسذاجته وحدثنى عن ذكر جَزالته . أنها كانت تقع له مع السلطان مُسْتَقْضيه . مع كونه مرهوباً ، شديدَ السَّطوة ، وقايع تُنْبي عن تصميمه ، وبُعْده عن المواداة . منها أن السلطان أمر بإطلاق محبوس ، كان قد سجنه . فأنْفَذ بين يدى السلطان الأمر للسَّجان [بحبسه](٥) ، وتوعَّده إن أطلقه . ومنها إذاعة ثبوتِ العيد ، فى أُخْريات يوم ، كان قد أمل السلطان البُرُوز إلى العيد فى صباحه ، فنزل عن القلعة ينادى ، عبد الله يا ميمون ، إخبر الناس عن عيدهم اليوم ، وأمثال ذلك .

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (السمة) . والأولى أنسب للسياق .

(٢) الزيادة من «الزيتونة» .

(٣) هذه العبارة وردت فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٥) الزيادة من «الزيتونة» .

مشيخته

قرأ بسَبتة، وأسْنَد بها. فأخذ عن أبي الصبر أيوب بن عبد الله الفِهرى وغيره، ورحل إلى الجزيرة الخضراء. فأخذ بها كِتاب سيبويه وغيره تفقهاً[(١)] على النحويّ الجليل أبي القاسم عبد الرحمن، ابن القاسم القاضى المُتَفنن. وأخذ بها أيضاً [كتاب][(٢)] «إيضاح الفارسى» عن الأستاذ أبي الحجاج بن مَغْرور، وأخذ بإشبيليةَ وغيرها عن آخرين. وقرأ على القاضى أبي القاسم بن بَقِيٍّ بن نالخة. وأجاز له. وكتب له من أهل المشرق جماعة كثيرة، منهم أبو جعفر محمد ابن أحمد بن نصر بن أبي الفتح الصَّيْدلانى، وأجاز له بإصْبَهان[(٣)]، وهو سِبْط حسن ابن مَنْدة، أجاز له فى شوال سنة ثمان وتسعين وخمسمائة. وتحمل عن أبي على الحداد، شيخ السِّلَفى الحافظ عن محمود الصيرفى ونظايرهما، وجماعة من إصبهان كثيرة كتبوا [له][(٤)] بالإجازة. وكتب له من غيرها من البلاد [نيفٌ وثمانون][(٥)] رجلا، منهم أحد وستون رجلا كتبوا له مع الشيخ المحدث أبي العباس الغربى، والقاضى أبي عبد الله الأَزْدى، [وقد نصح على جميعهم فى برنامجيهما، واستوفى أبو العباس الغربى نصوص الإسْتِرعَات، وفيها اسم القاضى أبو عبد الله بن عِياض][(٦)].

من روى عنه

قال الأستاذ أبو جعفر رحمه الله، أجاز لى مرتين اثنين. وقال حدثنى

(١) هكذا وردت فى المخطوطين. وربما كانت (تفقها).

(٢) أضيفت هذه الكلمة إيضاحاً للسياق.

(٣) وردت فى المخطوطين (أصبهان). وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق.

(٤) أضيفت هذه الكلمة لاستقامة السياق.

(٥) هكذا فى «ج». وفى «الزيتونة» (ما ينيف على الثمانين) والمؤدى واحد.

(٦) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج وساقط فى «الزيتونة».

أبو عبد الله مشافهة بالإذن ، أنبأنا أبو الطاهر بركات بن إبراهيم الخُشُوعى كتابةً من دمشق، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن أحمد الرَّازى المعروف بابن الحطَّاب بالحاء المهملة ، أخبرنا محمد بن أحمد بن عبد الوهاب البغدادى بالفسطاط ، أخبرنا موسى ابن محمد بن عَرَفة السمسار ببغداد ، قال أبو عمرو بن أحمد بن الفضل النِّفَزِى ، أخبرنا إسماعيل بن موسى ، أخبرنا[1] عمر بن شاكر عن أنَس بن مالك، قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأتى عَلَى الناس زمان : الصَّابر[2] منهم عَلَى دينه، كالقابض على الجمر .

هذا الإسناد قريب يعزُّ مثله فى القرب لأمثالنا ، ممن مولده بعد الستمائة ، وإسماعيل بن موسى من شيوخ التِّرمِذى ، قد خرَّج عنه الحديث المذكور ، لم يقع له فى مُصَنَّفه ثلاثى غيره .

مولده

بسبتة سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

وفـــاته

توفى بغرناطة يوم الخميس الثامن والعشرين لجمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة .

محمد بن عياض بن موسى بن عياض بن عمر ابن موسى بن عياض اليحصبى

من أهل سَبْتة ولد الإمام أبى الفضل ، يكنى أبا عبد الله .

---

(١) واردة فى المخطوطين (نا) فقط .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى نص (القابض) .

حـــاله

كان فقيهاً جليلا ، أديباً ، كاملاً . دخل الأندلس ، وقرأ على ابن بَشْكُوال كتاب الصِّلة، ووُلى قضاء غرناطة، قال ابن الزُّبير، وقفت على جزء ألفه [فى شىء][1] من أخبار أبيه ، وحاله فى أخذه وعلمه ، وما يرجع إلى هذا ، أوْقَفَنى عليه حفدته بمـالقة .

وفـــاته

توفى سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير [بن محمد][2] بن سعيد
ابن جبير بن محمد [بن مروان][3] بن عبد السلام [بن مروان
ابن عبد السلام بن جبير][3] الـكِنانى

الواصل إلى الأندلس .

أوّليـــته

دخل جَدُّه عبد السلام بن جُبير فى طالِعة بَلْج بن بِشر بن عِياض القُشَيرى فى محرم ثلاث وعشرين ومائة . وكان نزوله بكورة شَذُونَة . وهو من ولد ضَمْرة

---

(١) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٢) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٣) هذه الزيادات فى النسبة من كتاب «الذيل والتكلة» لابن عبد الملك (السفر الرابع — مخطوط المتحف البريطانى لوحة ١٣٠) .

ابن كِنانة بن بكر بن عبدمناف بن كنانة بن خُزَيمة بن مُدْركة بن إلياس [بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان][1] . بَلَنْسى الأصل ، ثم غَرْناطى الاستيطان . شَرَّق ، وغَرَّب ، وعاد إلى غرناطة .

حـــاله

كان أديباً بارعاً[2] ، شاعراً مجيداً ، سَنِيًّا فاضلا ، نزيه الهِمة ، سَرِىّ النفس ، كريم الأخلاق ، أنيق الطريقة [فى الخط][3] . كتَب بسَبتة عن أبى سعيد عثمان ابن عبد المؤمن ، وبغرناطة عن غيره من ذوى قرابته ، وله فيهم أمداح كثيرة . ثم نزع عن ذلك ، وتوجَّه إلى المشرق ، وجرت بينه وبين طايفة من أدباء عصره ، مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته . ونَظْمه فايق ، ونثره بديع . وكلامه المُرْسل ، سهل حسن ، وأغراضه جليلة ، ومحاسنه ضخمة ، وذِكْره شهير ، ورحلته نسيجة وحْدِها ، طارت كل مطار ، رحمه الله .

رحلتـــــه

قال من عُنى بخبره ، رحل ثلاثاً من الأندلس إلى المشرق ، وحجّ فى كل واحدة منها . فَصَل [عن غرناطة][4] أول ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوال ، ثمان وسبعين وخمسماية ، صحبة أبى جعفر بن حسان ، ثم عاد إلى وطنه غَرناطة لثمان بقين من محرم واحد وثمانين . ولقى بها أعلاما يأتى التعريف[5] بهم فى مشيخته ، وصنّف الرحلة المشهورة ، وذكر [مناقله][6] فيها [وما شاهده][7]

(١) هذه الزيادة من «الذيل والتكملة» — المخطوط السابق الذكر .

(٢) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) الزيادة من «الذيل والتكملة» .

(٤) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

(٥) وردت فى «ج» (التعرف) والتصويب من «الزيتونة» .

(٦) هكذا وردت فى «ج» وفى «الذيل والتكملة» . وفى الزيتونة (ما نقله) .

(٧) وردت فى «ج» (مشاهده) والتصويب من الزيتونة والذيل والتكملة .

من عجايب البُلدان، وغرايب المشاهد، وبدايع الصَّنايع، وهو كتاب مُؤنس ممتع، مُثير سَوَاكِن النفوس إلى [الرِّفادة على](1) تلك المعالم [المكرمة والمشاهد العظيمة](1)

ولما شاع الخبرُ المُبْهِج بفتح [بيت](2) المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى(3)، قَوِى عزمُه على عمل(4) الرحلة الثانية، فتحرك إليها من غرناطة، يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وخمسماية، ثم آبَ إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشر خلت من شعبان سبع وثمانين. وسكن غرناطة، ثم مالقَة، ثم سَبْتة، ثم فاس، منقطعاً إلى إسْماع الحديث والتصوُّف، وتَرْوِية ما عنده. وفَضْلُه بديع، ووَرَعُه يتحقق، وأعماله الصالحة تَزْكُو(5). ثم رحل الثالثة من سبتة، بعد موت زوجته عاتِكة أم المجد بنت الوزير أبى جعفر الوَقَّشِى، وكان كَلِفاً بها، فعظُم وجْدُه عليها. فوصل مكة، وجاور بها طويلا، ثم بيت المقدس، ثم تحوّل بمصر والإسكندرية، فأقام يُحدِّث، ويُؤخذ عنه إلى أن لحق بربه.

مشيخته

روى بالأندلس عن أبيه، وأبى الحسن بن محمد بن أبى العَيْش، وأبى عبد الله بن أحمد بن عروس، وابن الأصِيلى. وأخذ العربية عن أبى الحجاج بن يَسْعون. وبسبتة عن أبى عبد الله بن عيسى التميمى السَّبتى. وأجاز له أبو الوليد ابن سبكة، وإبراهيم بن إسحاق بن عبدالله الغَسَّانى التونسى، وأبو حفص عمر بن

(١) الزيادة من «الذيل والتكملة».

(٢) أضفنا هذه الكلمة تكملة لاسم المدينة.

(٣) وردت (ابن بورى) فى «ج»، وفى «الذيل والتكملة». ووردت فى «الزيتونة» (ابن برى).

(٤) هكذا فى «ج». وفى «الزيتونة» (إعمال).

(٥) وردت فى المخطوطين (تذكر). والتصويب من «الذيل والتكملة».

عبد المجيد بن عمر القرشي الميَّانجي[١] ، نزيلا مكة ، وأبو جعفر أحمد بن علي القرطبي القَنْكي ، وأبو الحجاج يوسف بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد البغدادي ، وصَدْر الدين أبو محمد عبد اللطيف الخُجَري ريس الشَّافعية بإصبهان . وببغداد العالم الحافظ[٢] المُتَبحر [نادرة الفَلَك][٣] أبو الفرج ، وكناه أبو الفضل ابن الجَوْزي . وحضر بعض مجالسه الوَعْظية [وقال فيه][٤]« فشاهدنا رجلا ليس بعمرو ولا زيد[٥] ، وفي جوف الفِرا كلُّ الصَّيد » . وبدمشق أبو الحسن أحمد بن حمزة بن علي بن عبد الله بن عباس السُّلمي الجِواري . وأبو سعيد عبد الله بن محمد ابن أبي عَصْرون ، وأبو الطاهر بركات الخُشوعي ، وسمع عليه ، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الإصْبَهاني من أئمة الكتاب ، وأخذ عنه بعض كلامه ، وغيره ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأخضر بن علي بن عساكر ، وسمع عليه ، وأبو الوليد إسماعيل [بن علي][٦] بن إبراهيم [والحسين بن هِبَةَ الله بن محفوظ بن نصر الرَّبْعي . وعبد الرحمن بن إسماعيل بن أبي سعيد الصُّوفي ، وأجازوا له ، وبحَرَّان الصُّوفي العارف أبو البركات حيَّان بن عبد العزيز ، وابنه الحاذي حذوَه][٧] .

من أخذ عنه

قال ابن عبد الملك ، أخذ عنه أبو إسحاق بن مُهيب ، وابن الواعظ ، وأبو تمام

(١) وردت في «ج» (المبايجي) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٢) وردت هكذا في «الزيتونة» . وفي «ج» (الواعظ) . والأولى أرجح حسبما يبدو بعد في السياق .
(٣) ما بين الحاصرتين ساقط في «الزيتونة» .
(٤) الزيادة من «الذيل والتكملة» .
(٥) هكذا وردت في «الزيتونة» . ووردت في «ج» (ليس من عمرو ولا زيد) .
(٦) الزيادة من «الزيتونة» .
(٧) ما بين الحاصرتين ساقط كله في «الزيتونة» .

ابن إسماعيل، وأبو الحسن بن نصر بن فاتح بن عبد الله البجائى ، وأبو الحسن [بن على][(١)] الشادى . وأبو سليمان بن حوط الله . وأبو زكريا . وأبو بكر يحيى بن محمد بن أبى الغصن[(٢)] ، وأبو عبد الله بن حسن بن مُجير . وابو العباس بن عبد المؤمن البنّانى ، وأبو محمد بن حسن اللّواتى[(٣)] وابن تامتيت ، وابن محمد المورُورى ، وأبو عمر بن سالم، وعثمان بن سفيان بن أشقر التّميمى التونسى .

وممن [أخذ عنه][(٤)] بالإسكندرية ، رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله : وبمصر رشيد الدين بن العطّار[(٥)]. وبفخرُ القضاة بن الجيّاب ، وابنه جمال القضاة .

تصانيفه

منها نظمُه . قال ابن عبد الملك : « وقفت منه على مجلد [متوسط][(٦)] يكون على قدر ديوان أبى تمام حبيب بن أوس . ومنه جزء سماه « نتيجة وَجْدِ الجوانح فى تأبين القَرِين الصالح » فى مراثى زوجه أم المجد . ومنه جزء سماه « نظم الجمان فى التشكى من إخوان الزمان » . « وله ترسيل بديع ، وحِكَمٌ مُسْتجادة »[(٧)] ، وكتابُ رحلته . « وكان أبو الحسن الشّادى ، يقول إنها ليست من تصانيفه ، وإنما قيّد معانى ما تضمنته ، فتولى ترتيبها ، وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه ، على ما تلقاه منه »[(٧)] . والله أعلم .

---

(١) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين .

(٣) وردت فى المخطوطين (اللوابى) . والتصويب من « الذيل والتكملة » .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (روى عنه) .

(٥) وردت فى المخطوطين (عطار) . والتصويب أرجح .

(٦) هذه الزيادة من «الذيل والتكملة» .

(٧) هاتان الفقرتان نقلهما ابن الخطيب عن «الذيل والتكملة» مع تغييرات يسيرة .

شـــعره

من ذلك القصيدة الشهيرة التى نظمها ، وقد شارف المدينة المكرّمة طِيبة ، على ساكنها من الله أفضل الصلوات ، وأزكى التسليم :

اقول وآنستُ بالليل نارا ... لعل سِراج الهدى قد أنارا
وإلاّ فما بالُ أفق الدُّجى ... كأنّ سَنا البرق فيه استَطارا
ونحن من الليل فى حِندِسٍ ... فما باله قد تجلّى نهارا
وهذا النَّسيم شذا المِسْك قد ... أُعير أم المسك منه استعارا
وكانت رواحِلُنـا تشتكى ... وَجاها فقد سابَقَتْنا ابْتِدارا
وكنا شكونا عناء السُّرى ... فعدنا نُبارى سِراع المهارا
أظن النفوس قد استَشْعرت ... بلوغَ هوًى تخِذته شِعارا
بشاير صبح السُّرى آذنت ... بأنّ الحبيب تدانى مَزارا
جرى ذكرُ طيبَة ما بيننا ... فلا قَلْبَ فى الركب إلاّ وطارا
حنيناً إلى أحمد المصطفى ... وشوقاً يُهيج الضلوع اسْتِعارا
ولاح لنا أُحُدٌ مُشرِقاً ... بنور من الشُّهداء استعارا
فمن أجل ذلك ظلّ الدُّجى ... يحل عقُود النجوم انتثارا
ومن طَرَبِ الرَّكْبِ حثَّ[1] الخطا ... إليها ونادى البِدار البدارا
ولما حللْنا فِنـاء الرسول ... نزَلنا بأكرم مجدٍ جوارا
وحين دنونا لفرض السلام ... قَصَرنا الُخطا ولزِمنا الوقارا
فما نُرسل اللَّحظ إلا اختِلاساً ... ولا نُرجع الطَّرف إلاّ انكِسارا
ولا نُظهر الوجد إلاّ اكتتاماً ... ولا نلفُظ القول إلاّ سِرارا

(١) وردت فى المخطوطين (حط) . والتصويب من الذيل والتكملة .

سوى أننا لم نُطـق أعيُناً ... بأدمعها غلَبَتْنا انفجارا
وقفنا بروضة دار السلام ... نُعيد السلام عليها مرارا
[ولولا مهابته](١)في النفوس ... لثمنا الثّرى والتزمنا الجدارا
قضينا بزَوْرَته حجَّنا ... وبالعُمْرَتين ختمنا اعتماراً
إليك إليك نبيَّ الهُدَى ... ركبتُ البحار وجُبْت القفارا
وفارقتُ أهلى ولا منَّةٌ ... وربَّ كلام يجرُّ اعتذارا
وكيف يمنُّ على من به ... نُؤمل للسيِّئات اغتفاراً
دعانى إليك هوىً كامنٌ ... أثار من الشوق ما قد أثارا
فناديتك لبَّيك داعى الهوى ... وما كنت عنك أطيق اصطباراً
[ووطنت نفسى بحكم الهوى ... علىَّ وقلتُ رضيتُ اختيارا](٢)
أخوض الدُّجى وأروض السُّرى ... ولا أُطْعِم(٣) النوم إلاّ غِرارا
ولو كنت لا أستطيع السبيل ... لطرتُ ولو لم أُصادف مطارا
[وأجدَرُ من نال منك الرضى ... محبٌّ ثراك على البُعد زارا](٤)
عسى لحظةٌ منك لى فى غدٍ ... تُمهد لى فى الجِنان القرارا
فما ضلَّ من بسُرَاك(٥) اهتدى ... ولا ذُلَّ من بذَرَاك استجارا

وفى غبطةِ مِنْ منَّ الله عليه لحج بيته ، وزيارة قبره صلى الله عليه وسلم يقول :

هنيئاً لمن حجَّ بيتَ الهُدى ... وحطَّ عن النفس أوزارها

---

(١) هكذا فى «ج» و«الذيل والتكملة» . وفى الزيتونة (ومن إيمانه) .
(٢) فى «الزيتونة» أدمج هذا البيت والذى قبله فى بيت واحد :
فناديت لبيك داعى الهوى ... على وقلت رضيت اختيارا
(٣) هكذا وردت فى «ج» و«الذيل والتكملة» . وفى «الزيتونة» (أطمع) .
(٤) هذا البيت ساقط فى «الزيتونة» . (٥) فى «الذيل والتكملة» (بهداك) .

وإن السعـــادة مضمونة لمن حجَّ طيبةَ أو زَارهـــا

وفى مثل ذلك يقول :

إذا بلغ المرء أرض الحجاز فقد نال أفضلَ ما أمَّله
وإن زار قبر نبيٍّ الهُدى فقد أكمل الله ما أمَّـــله

وفى تفضيل المَشْرق :

لا يستوى شرقُ البلاد وغربُها الشرقُ حاز الفضل باستحقاق
أنظر [إلى جمال الشمس] [1] عند طلوعها زَهْراء تُعجب بهجة الإشراق
وانظر إليها عند الغروب كئيبة صفراء تعقب ظُلمة الآفاق
وكفى بيوم طلوعها من غَرْبها أن تؤذن الدنيا بعزم [2] فراق

وقال فى الوصايا :

عليك بكتمان المصايب واصْطَبر عليها فما أبقى الزمان شَفِيقا
كفاك بالشكوى إلى الناس أنها تَسُرُّ عدوًّا أو تُسِيء صديقا

وقال :

وصانِعُ [3] المعروف فلتَةُ عاقل إن لم تَضَعْها فى محلٍّ عاقل
كالنفس فى شهواتها إن لم تكن وقفاً لها عادت بضرٍّ عاجل

نـثره

من حكمه قوله : إنْ شرُف الإنسان ، فشرفُه [4] وإحسان . وإن فاق

(١) هكذا وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» . وفى نص (ترى الشمس) .
(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (بشوك) .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (فصانع) .
(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «الذيل والتكملة» (فضل) .

فتفضلٌ وإرفاق(١) . ينبغى أن يحفظَ الإنسان لسانه · كما يحفظ الجفنُ إنسانه . فربٌ كلمة تقال . تُحدث عثرة لا تُقال . كم كَسَتْ فَلَتات الألسنة الحِداد ، من ورائها ملابس حِداد(٢) . نحن فى زمن لا يَحْظَى(٣) فيه بنفاق إلا من عامل بنفاق . شغَل الناس عن | طريق الآخرة |(٤) بزخارف الأغراض . | فلجؤوا فى |(٥) الصُّدود عنها والإعراض . آثروا دنيا هى أضغاث أحلام ، وكم هفَت فى حبها من أحلام ، أطالوا فيها آمالهم(٦) ، وقصَّروا أعمالهم . ما بالهُم ، لم يتفرغ لغيرها بالهُم ، ما لهَم فى غير ميدانها اسْتِبَاق ، ولا (بِسوَى هواها)(٧) اشتياق . تالله لو كُشِفت الأسرار ، لما كان هذا الإصْرار ، ولسَهرت العُيون(٨) ، وتفجَّرت من شئونها الجُفُون(٨) . فلو أن عينَ البصيرة من سِنَتها هابّةٌ ، لرأت جميع ما فى الدنيا ريحا هابّة [ولكن استولى العَمَى على البَصَاير](٩) ولا يعلم الإنسان ما إليه صاير . أسأل الله هدايةَ سبيله ، ورحمةً تورد نسيم الفردوس وسَلْسَبيله ، إنه الحنَّان المنَّان لا ربّ سواه(١٠) .

ومنها : فَلَتات الهِبات ، أشبه شيء بفلتات الشَّهوات . منها نافعٌ لا يعقبُ ندما ، ومنها ضارٌّ يبقى فى النفس ألمًا . فضرَرُ الهبة وقوعُها عند من لا يعتقد

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (وإفراق) . وفى «التكملة» (واتفاق) .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «التكملة» (الحداد) .

(٣) وردت فى المخطوطين (يحصى) . والتصويب من «التكملة» .

(٤) وردت فى المخطوطين (الطريق) . والتصويب والزيادة من «التكملة» .

(٥) وردت فى المخطوطين (فمجوا) . والتصويب والزيادة من «التكملة» .

(٦) وردت فى المخطوطين (إلمامهم) . والتصويب من «التكملة» .

(٧) وردت فى «ج» (سوى هداها) والتصويب من «التكملة» .

(٨) هكذا وردت فى «ج» . ولكن وردت فى «الزيتونة» (العين الجفن) .

(٩) هكذا وردت هذه العبارة فى «الزيتونة» . ووردت محرفة فى «ج» كالآتى : (ولكن استولى على العمى ريح البصاير) وكلمة ريح هنا حشو لا معنى له .

(١٠) رجعنا فى نص «التكملة» فى تصويب كثير من عبارات هذه الفقرة .

لحقِّها أداء ، وربما أثرت عنده اعتداء . وضررُ الشهوة أن لا توافق ابتداء ، فتصير لمتبِّعها[١] داء ، مثلُها كمَثَل السُّكر يلتذُّ صاحبه[٢] بحلاوة جِناه ، فإذا صحا يعرف قدر ما جَناه . عكسُ هذه القضية هى الحالة المرضية .

مولده

ببَلَنْسِيَةَ سنة تسع وثلاثين [وخمسماية][٣] وقيل بشاطبة [سنة أربعين وخمسماية][٤]

وفاتـه

توفى بالإسكندرية ليلة الأربعاء التاسع والعشرين لشعبان أربع عشرة وستماية

محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد
ابن محمد بن عبد الرحمن بن على بن شِبْرِين[٥]

يكنى أبا بكر ، شيخنا الفقيه القاضى المؤرخ الكاتب البارع رحمة الله عليه

أوّليتـه

أصله من إشْبيلِيَة ، من حصن شانْت من كورة باجَة ، من غربى صُقْعها ، يعرفون فيها ببنى شِبْرين[٥] ، معرفة قديمة . وُلّى جدُّه القضاء بإشبيلية ، وكان من

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (لمستعمها) . وفى الذيل والتكملة (لمستعملها) .

(٢) وردت فى المخطوطين (صاحبها) وبالتصويب يستقيم السياق .

(٣) الزيادة من الزيتونة .

(٤) هكذا فى «ج» . ووردت مكان هذا التاريخ فى «الزيتونة» (فى هذا التاريخ) .

(٥) وردت فى «ج» فى الموضعين (ابن شيرين) . والتصويب فى الموضعين من «الزيتونة» .—

كبار أهل العلم (تشهد بذلك الصلاة)[١] . وانتقل أبوه منها عند تغلُّب العدو عليها عام ستة وأربعين وستمائة ، فاحتل رُنْدة ثم غرَناطة ، ثم انتقل إلى سُكنى سَبْتة ، وبها وُلد شيخنا أبو بكر ، وانتقل عند الحادثة إلى غرناطة ، فارتَسم بالكتابة السلطانية ، وولى القضاء بعدة جهات ، وتأثل مالاً وشهرة ، حتى جرَى مجرى الأعيان من أهلها .

حالـــه

كان فريد دهره ، ولسيج وحده فى حُسْن السَّمْت[٢] والرُّواء ، وكمال الظَّرف وجمال الشَّارة ، وبراعة الخطّ ، وطيب المجالسة . خاصِّيا ، وقورا ، تام الخُلُق ، عظيم الأبهَّة ، عذب التِّلاوة لكتاب الله ، من أهل الدين والفضل والعدالة ، تاريخيًّا ، مقيِّدا ، طُلَعَة اختيار [أصحابه][٣] محققا لما ينقله ، فَكِهاً مع وقاره ، غَزِلاً ، لوْذَعيًّا ، علىّ شأن الكتابة ، جميل العشرة ، أشد الناس على الشعر ، ثم على المحافظة ، ما يحفظه من الأبيات من غير اعتيام ولا تنقيح ، يُناغى الملكين فى إثباتها ، مقرِّرةَ التواريخ ، حتى عظم حجم ديوانه ، [تفرّدت أشعاره بما أبرّ على المكثرين][٤] مليحَ الكتابة ، سهلها ، صانعاً ، سابقاً فى ميدانها ، راجحا كفّة المنثور . وكانت له رحلةٌ إلى تونس ، اتّسع بها نِطاق روايته . وتقلَّب بين الكتابة والقضاء ، منحوسَ الحظ فى الاستعمال ، مُضَيَّقا فيه ، وإن كان وافر الجَدِّ ، مُوسَّعا عليه .

ـــوهو الاسم الصحيح . وابن شبرين من شيوخ ابن الخطيب الأثيرين ، وقد ذكره فضلا عن هذه الترجمة فى مواضع كثيرة من الإحاطة ، راجع المجلد الأول من الإحاطة (١٩٧٣) ص ٩٧ ، و ٤٤٣ ، و ٥٤١ ، ٥٤٩ .

(١) وردت هذه العبارة فى «ج» دون حكمة واضحة من إيرادها فى هذا المكان .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (السمة) .

(٣) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» وساقطة فى «ج» .

(٤) هذه العبارة واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» .

وجرى ذكره فى كتاب « التاج المحلى »[١] بما نصه :

خاتمةُ المحسنين ، وبقية الفُصحاء اللَّسِنين ، ملأُ العيون هَدْياً وسَمْتاً ، وسالك من الوقار طريقة ، لا تَرى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً ، ماشئت من فضل ذات ، وبراعة أدوات . إن خطَّ ، نزل ابن مُقلة عن دَرَجته [وإن خطَّ][٢] . وإن نظم أو نثر ، تيمت البالغاء ذلك الأثر . وإن تـكلم أنْصَتَ الحفلُ لاستماعه ، وشرع[٣] لدُرَره النفيسة صِدْق أسماعة . وفد على الأندلس عند كاينة سَبتة ، وقد طرحت النَّوى برحاله ، وظَعَنَ عن رَبْعه بتوالى إمحاله ، [ومُعَمَرَّف بلاده][٤] ، والمستولى على طارِفِها وتالِدِها ، أبو عبد الله بن الحكيم ، قدَّس الله صداه ، وسقى مُنْتداه ، فاهتزّ لقدومه اهتزاز الصّارم ، وتلقاه تلقى الأكارم ، وانْهَض إلى لقايه آماله ، وألقى[٥] له قبل الوسادة ماله ، ونَظَمه فى سِمْط الـكُتاب ، وأسْلاه عن أعمال الاقتاد ، ونزل ذمامه تأكُّداً فى هذه الدول ، وقُوفى له الآتية منها على الأُول ، فتصرَّف فى القضاء بجهاتها ، ونادته السيادة هاك وهاتها ، فجدَّد عهد حُـكّامه العدول من سَلَفه وقضاتها . وله الأدب الذى تحلّت بقلايده اللّبات والنُّحور ، وقَصُرت عن جواهره البحُور . وسيمر من ذلك فى تضاعيف هذا المجموع ما يشهد بسِعَة ذَرْعه ، ويخبر بكرم عُنْصره ، وطيِّب نبعه[٦] .

---

(١) هو كتاب «التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى» ، وهو أحد كتب ابن الخطيب التاريخية ، ويتضمن مختصراً لتاريخ مملكة غرناطة وتراجم أعيانها فى القرن الثامن الهجرى . وقد سبق التعريف به فى مقدمة المجلد الأول .

(٢) واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة (وسمع) والأولى أرجح .

(٤) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (وأمنى) .

(٦) كذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (نعمه) والأولى أرجح .

مشيخته

قرأ على جده لأمه الأستاذ الإمام ، أبي بكر بن عُبيدة الإشبيلي ، وسمع على الرييس أبي حاتم ، وعلى أخيه أبي عبد الله الحسين ، وعلى الأستاذ أبي إسحاق الغافقي، وعلى الشريف أبي على بن أبي الشرف ، وعلى الإمام أبي عبد الله بن حُريث. وسمع على العَدْل أبي فارس عبد العزيز الجزيري . وسمع بحضرة غرناطة على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير ، [وعلى العدل أبي الحسن بن مستقور] (١) وعلى الوزير أبي محمد بن المُؤذن ، وعلى الخطيب أبي عبد الله بن رُشيد . وبمالقة على الخطيب ولى الله تعالى ، أبي عبد الله الطّنجالى ، وعلى الوزير الصّدر أبي عبد الله ابن ربيع ، وعلى القاضي العدل أبي عبد الله بن بُرطال . وببجاية على الإمام أبي على ناصر الدين المِشْذالى ، وعلى أبي العباس الغَبْرِيني . وبتونس على أبي على بن عُلوان ، وعلى قاضي الجماعة أبي إسحاق بن عبد الرَّفيع ، وسمع على الخطيب الصُّوفى ولىّ الله تعالى ، أبي جعفر الزيات ، والصوفى أبي عبد الله بن بُرطال ، وعلى الصدر أبي القاسم محمد بن قايد الكلاعى . [و أجازه عالم](٢) كثير من أهل المشرق والمغرب .

شعره

وشعره متعدّدُ الأسفار ، كثير الأغراض . وفى الإكثار مُجالّى الإختيار ، [فمنه قوله](٣) :

---

(١) هذا الاسم ساقط فى «الزيتونة» . وقد ورد اللقب محرفاً فى «ج» (مغمسور) . والتصويب من كتاب قضاة الأندلس للنباهى .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (وأجازوه علماء) .

(٣) أضفنا هذه العبارة تكملة للسياق .

أخذتِ بكظم الرُّوح يا ساعة النوى ... وأضرمتِ فى طىّ الحشى لاعجَ الجوى
فمَن مُخبرى يا ليت شعرى متى اللقا ... وهل تَحْسُن الدنيا وهل يرجع الهوى
سلا كلُّ مشتاق وأكثر وجــدُه ... وعند النّوى وجدى وفى ساكن الهوى
ولى نيّة ما عشت فى حِفظ عهــدهم ... إلى يوم ألقاهم وللمرء ما نوى

وقال :

بانوا فمــن كان باكياً يبْك ... هذى رِكاب الشّرى بلا شكّ
[فمن ظهور الرِّكاب معمــلة ... إلى بطون الرُّبى إلى الفُلك
تصدّع الشملُ مثلما انحــدرت ... إلى صبوب جواهر السِّلك](١)
كُنْ بالذى حدَّثوا على ثقـــة ... ما فى حديث الفراق من إفْكِ
من النّوى قَبْلُ لم أزل حَذِراً ... هذا النّوى جلّ من مالك المُلك

وقال :

يا أيها المُعْرِض اللاهى ... يسوءنى هجْــرُك والله
[فياليت شِعرى كم أرى فيك ... لا أُقفك عن ويْه وعزاه
ويحيي مغيرى إلى باخل واه ... مَنْ ذا الذى رآه](٢)
من يُرد الله فيه فتنـــةً ... يُشغــله فى الدنيا بتيَّاه
يا غصن البان ألاَ عَطفةً ... على مُعنّي جسمُــه واه
أوسَعنى بعدك ذُلاًّ وقدراً ... يُثنى عنــدك ذا جاه(٣)

---

(١) أكملنا هذه المقطوعة بهذين البيتين . وقد أوردها ابن الخطيب ضمن خطاب الوداع الذى وجهه إلى مليكه الغنى بالله حينما غادر الأندلس إلى المغرب لآخر مرة (راجع المجلد الأول من «الإحاطة» ص ٣٣) .

(٢) أورد كل من المخطوطين نصوصاً مضطربة لهذين البيتين . وقد حاولنا جهد الاستطاعة أن نخرج من هذه النصوص المضطربة أفضل صيغة ممكنة . بيد أن هذه الصيغة ليست واضحة كل الوضوح .

(٣) هذا البيت وارد فى «ج» وساقط فى «الزيتونة» .

ذِكْرُكَ لا ينفكُّ عن خاطري ... وأنت عني غافلٌ ساه

يكفيك يا عثمان من جفوني ... لو كان ذَنْبي ذنب جهجاه

هيهات لا مُعترض[1] لي على ... حُكْمِكَ أنت الآمر النَّاه

قلت جهجاه المشار إليه رجل من غُفَّار [قيل][2] إنه تناول عصا الخُطْبة من يد عثمان رضى الله عنه، فكسرها على ركبته، فوقعت فيها الأَكِلة فهلك .

وقال :

يامن اعاد صباحى فقده حَلَكا ... قَتَلت[3] عبدك لكن لم تخف دركا

مصيبتى ليست كالمصائب لا ... ولا بُكائى عليها مثل كلِّ بُكا

فمن أُطالب فى شَرْع الهوى بدمى ... لَحْظى ولحظُك فى قَتْلى قد اشتركا

وقال ، وقد سبقه إليه الرُّصافى ، وهو ظريف :

أشكو إلى الله فَرْطَ بِلبالى ... ولوْعَةً لا تزال تُذْكى لى

بمهجتى حايكٌ شُغلت به ... حُلو المعاني طِرازه عالى

سألتـه أَيْم خالِه فأبي ... ومَنْ ذا نَخْوة وإذلال

وقال حالى يصُون خالى ... يُدنى فَوَيحى بالحال والحال

يقرِّبُنى الآلِ من مواعده ... وأتقى منـه سَطوة الآل

لكن على ظُلْمه وقسوته ... فلستُ عنه الزَّمانَ بالسَّالى

وقال أيضاً مضمناً :

لى همة كلما حاولت أُمْسِكها ... على المذَلَّة فى أرجاء[4] أرضيها

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (متعرض) .

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم المعنى والسياق .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (أملت) .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (أرجال) .

قالت ألم تكنْ أرض الله واسعةً حتى يهاجر عبدٌ مؤمن فيها

وقال مُسترجماً من ذنبه ، ومُستوحشاً من شَيْبه :

قد كان عيبى من قبل فى غَيْبِ فمذ بدا شَيْبى بدا عَيْبى
لا عُذْر اليوم ولا حُجة فَضَحْتَنى والله يا شَيْبى

وقال :

أثقلَتنى الذنوب ويحى وويْسى ليتنى كنت زاهداً كأُوَيس

وجَرَت بينه وبين السلطان ثالث الأمراء من بنى نصر[1] ، بعد خلعه من مُلْكه ، وانتِثار سِلْكه ، واستقراره بقصبة المُنكَّب ، غريباً من قومه ، مُعَوَّضاً بالسهاد من نومه ، قد فلَّ الدهر سباته ، وتركه يندب مافاته ، والقاضى المترجم به يومئذ ، مُدَبِّرُ أحكامها ، وعَلَمُ أعلامها ، ومتولى نَقْضها وإبرامها ، فارتاح يوماً إلى إيناسِه ، واجتلاب أدبه والتماسه ، وطلب منه أن يعبر عن حاله بِبَيانه ، وينوب فى بثّه عن لسانه ، فكتب إليه :

قفا نَفَساً فالخطْب فيها يهون ولا تَعْجلا إن الحديث شجون
علِمنا الذى قد كان من صَرْف دهرنا ولسنا [على][2] علم بما سيكون
ذكرنا نعيماً قد تقضى نعيمُه فأقلقنا شوقٌ له وحنين
وبالأمس كُنا كيف شِئنا وللدُّنا[3] حِراكٌ على أحكامنا وسكون

(١) هو أبو عبد الله محمد المخلوع ، محمد بن محمد بن الأحمر ، وقد حكم مملكة غرناطة من سنة ٧٠١ إلى سنة ٧٠٨ هـ . ثار عليه أخوه أبو الجيوش نصر ، واضطرمت ضده الثورة فى عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ ، وأرغم على التنازل عن العرش ، ثم أعتقل بحصن المنكب ، ولبث فيه حتى توفى فى سنة ٧١٢ هـ .

(٢) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة الوزن والمعنى . وهكذا وردت هذه الشطرة فى «ج» . وفى «الزيتونة» (ولا نعلموا بذا الذى سيكون) .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (وللدنيا) .

وإذا بابُنا مَثْوى الفؤاد ونحونا ... تُمَدُّ رقاب أو تُشير عيون
فَنَغَصٌ من ذاك السرور مَهْناً ... وكَدَرٌ من ذاك النعيم مَعين
ونبا عن الأوطان بين ضرورة ... وقد يَقْرُب(١) الإنسان ثم يَبين
أيا معهد الإسعاد(٢) حُيِّيت معهداً ... وجادَك من سَكْب الغمام هَتُون
تريد الليالى أن تُهين مكانَنا ... رُويدك إن الخير ليس يَهون
فإن تكن الأيام قد لَعِبت بنا ... ودارت علينا لِلْخطوب فنون
فمن عادة الأيام ذلُّ كِرامها ... ولكنَّ سَبيل الصابرين مُبين
لئن خاننا الدهر الذى كان عَبْدنا ... فلا عجب إنَّ العَبيد تَخون
وما غضَّ منا مَخْبَرى غير أنه ... تضاعف إيمانٌ وزاد يقين

وكتب إلى الحكم بن مسعود، وهو شاهد المواريث بهذه الدُّعابة التى تستخفُّ الوقور، وتَلِج السَّمع المَوْقور :

أطال الله بقاء أخى وسيدى، لأهل الفَرايض، يُحسِن الاحتيال فى مُداراتهم، وللمنتقلين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط فى أمواتهم، ودامت أقلامه مُشْرعة لِصَرْم الأجل المُنْسَأ، مُعدَّة لتحليل هذا الصِّنف المُنْشَأ من الصَّلصال والحمأ. فمن ميِّتٍ يُغسل وآخر يقبر، ومن أجَلٍ يُطوى، وكَفَنٍ يُنشر، ومن رَمْس يُفتح، وباب يُغلق. ومن عاصبٍ يُحْبَس، ونَعْشٍ يُطلق. فكلما خَرُبت ساحة، نشأت فى الحانوت راحة. وكلما قامت فى شَعْبٍ مناحة، اتَّسعت للرزق مِساحة. فيبا كر سيدى الحانوت، وقد اختَسى مَرَقته، وسهَّل عَنْقَفته، فيرى الصَّعْبة بالمناصب شَطْراً. فيلحظ هذا برفق، وينظر إلى هذا شَزْراً. ويأمر بشقِّ الجيوب تارة، والبحثِ عن الأوساط أخرى. ثم يأخذ القَلَم أخذاً رفيقاً. ويقول وقد خامَرَه

(١) هكذا وردت فى «ح». ووردت فى «الزيتونة» (يغرب).
(٢) هكذا وردت فى «ح». ووردت فى «الزيتونة» (الإسناه) وهو تحريف.

السرور، رَحِم الله فلانا ، لقد كان لنا صديقاً ، وربما أدْبَره[١] بالانزعاج الحَثيثُ ، وقال مستريحٌ منه كما جاء فى الحديث . وتختلف عند ذلك المراتب ، وتَتَبين الأصدقاء والأجانب ، فينْصرف هذا ، وحظه التهـيب ، والنظر الحديد، وينفَصِل هذا ، وبين يديه المُنْذر الصيِّت ، والنعش الجديد . ثم يَغْشى دار الميت ويسَلُ عن السكَيْت والسكيت ، ويقول عليٌّ بما فى البَيْت. أين دعاء الثَّاغية والرَّاغية . أين عقود الأملاد بالبادية . وقد كانت لهذا الرجل حالاً فى حال . وقد ذُكر فى الأسماء[٢] الخمسة [فقيل][٣] ذو مال . وعيون الأعوان تَرْنو من علٍ[٤]، وأعناقهم تَشْريبٌ إلى خلف الكِلَل ، وأرْجُلهم تدبٌّ إلى الأسْفاط دَبيب الصُّقور[٥] إلى الحَجَل . والموتى قد وجبت منهم الجنوب ، وحضر المَوْروث والمَكْسوب . وقُيِّد المَطْعوم والمشروب . وعُدَّت الصحاح . ووُزِنت[٦] الأرْطال ، وكِيلت الأقْداح . والشُّهود يُغلطون على الورثة فى الأوليَّة [ويصونهم بالبتات][٧] فى النشأة الأوَّلية. والروائح حين تُفعم الأرض طيباً ، وتُهدى الأرواح شذاً يفعل فى إزعاجها على الأبدان فِعلا عجيباً . والدلاَّلْ يقول هذا مِفتاح الباب . والسِّمسار يصيح قام النِّدا فما تنتظرون بالثبات . والشاهد يصيح فتَمْلو صيحته ، والمُشْرف يَشْرب فتسقط سِبْحته . والمحتضر يهسُّ ألا حيٌّ فلا تسمعون [ويباهى لون العباء عليه][٨] الجواب رب أرْجعون . ما هذا النَّشيج والضَّجيج . مُتٌّ كلا لم أمُت .

---

(١) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (أدره) .
(٢) وردت فى «ج» (أسماء) والتصويب من الزيتونة .
(٣) وردت فى المخطوطين (فقال) . وبالتصويب يستقيم السياق .
(٤) وردت فى «ج» (من خل) . والتصويب أرجح .
(٥) وردت هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (الصقر) .
(٦) وردت محرفة فى «ج» . و «الزيتونة» (وزيت . وزينت) .
(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وهى بحالتها لا تدل بمعنى واضح .
(٨) هذه العبارة واردة فى «ج» ، وساقطة فى «الزيتونة» .

ومن حجَّ له الحجيج . فترتفع له الأصوات ، كى لا يُفسح فيه المهات . ويُبْقر بطنه برَغمه ، ويُحفر له بجانب أبيه وبحذا أمِّه. ثم يشرع فى نفسه الفَرْض،ولو أ كفئت السموات على الأرض . ويقال لأهل السِّهام ، أحْسِنوا ، فالإحسان ثالث مراتب الإسلام . وقد نصَّ ابن القاسم على أجرة القَسَّام . وسوَّغه أصْبَغ وسُحنون ، ولم يختلف فيه مطرِّف وابن الماجشون . إن قِيل إيصال الحقائق إلى أرْجايها،حَسَن لجزاء الإحسان إحسان . وقيل إخراج النِّسَب والسكسور كِفايه ، [فللكاهنين حُلْوان](١). اللهم غَفْراً ، ونَستقيل الله من انْبِساط يجرُّ غدْواً ، ونَسَلُ الله حَمْداً يوجِب المزيد من نَعْمايه وشكراً . ولولا أن أُغفل(٢) عن الخصْم ، وأُثقل رَحْل الفقيه أبى النجم ، لأستغلَّن المجلس شرْحاً(٣)ولكان لنا فى بَحْر المُباسطة سبْح ، ولأفَضْنا فى ذكر الوارث والوُرَّاث(٤). وبيَّنَّا العِلَّة فى أقسام الشهود ، مع المُشْتغل بنسبة الذكور مع الأناث . والله يَصِل عزَّ أخى ومجده ، ويَهب له قوة تخصُّه بالفايدة ، وجدَّه(٥) ، ويَزيده بصيرة يتَّبع بها الحقوق إلى أقصاها ، وبَصَراً لايُغادر صغيرة ولا كبيرةً إلا أحصاها ، ودام يُحصى الخراريب والفَلوس والأطار ، ويملأ الطُّوامر بأقلامه البديعة الصَّنعة ، [ويصل](٦) الطُّومار بالطُّومار والسلام .

والشيء بالشيء يذكر ، قلتُ ، ومن أظرف ما وقعتُ عليه فى هذا المعنى .

---

(١) وردت هذه العبارة فى «ج» . ولم ترد فى «الزيتونة» . ولم تتضح لنا حكمة إيرادها على هذا النحو .

(٢) وردت فى «ج» (المحفل) . وقد آثرنا نص «الزيتونة» .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (شرح) .

(٤) واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» .

(٥) هذه الكلمة واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» .

(٦) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم المعنى والسياق.

قال بعض كتاب الدولة الحكمية(١) بمنورقة ، وقد ولاه خطة المواريث ، وكتب إليه راغباً فى الإعفاء :

ومانلتُ من شغل المواريث رُقعة [سوى شرح](٢) نعش كلما مات ميت
وأكتب للأموات صكاً كأنهم يخاف عليهم فى الجياب التفلت
كأنى لعزرائيل صرتُ مُناقضاً بما هو يمحو كلَّ يوم وأُثبت(٣)

وقال ، فاستظرفها الرئيس أبو عثمان بن حكم(٤) وأعفاه .

مولده : فى أواخر أربعة وسبعين وستماية .

وفاته

قال فى العايد(٥) ، ومضى لسبيله ، شهاباً من شهب هذا الأفق ، وبقية من بقايا حلبة السبق ، رحمه الله ، فى ليلة السبت الثانى من شهر شعبان المكرم عام سبعة وأربعين وسبعماية ، وتخلف وفراً لم يشتمل على شىء من الكتب ، لإيثاره اقتناء النقدين ، وعين جراية لمن يتلو كتاب الله على قبره [على حدٍّ من التعزرة والمحافظة على الإتقان](٦) . ودفن بباب إلبيرة(٧) فى دار اتخذها لذلك .

---

(١) الدولة الحكمية هى دولة سعيد بن حكم الأموى حاكم منورقة . وسيجرى التعريف به أدناه .

(٢) ورد مكان هاتين الكلمتين فى «ج» (غير أن أشرح) . وفى «الزيتونة» (سوى أن أشرح) فلزم التصويب لاستقامة الشعر .

(٣) هذا البيت وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٤) هو أبو عثمان سعيد بن حكم الأموى ، وقد حكم جزيرة «منورقة» ثانية الجزائر الشرقية وقتاً ، بعد سقوط جزيرة ميورقة فى أيدى الأرجونيين . واستمر على حكمها حتى توفى سنة ٦٨٠ ﻫ (١٢٨١ م) . وخلفه فى حكمها لبضعة أعوام أخرى ، ولده أبو عمر حكم بن سعيد (راجع كتابى عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (القسم الثانى) ص ٤٠٨ و ٤٠٩) .

(٥) المرجح أنه يشير إلى كتاب «عايد الصلة» الذى سبق التعريف به .

(٦) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٧) باب إلبيرة هو أحد الأبواب الباقية من أبواب غرناطة الإسلامية . وهو يقع شمال غربى المدينة على مقربة من ساحة الثيران الحديثة . وما يزال يحتفظ بهيكله الإسلامى كاملا . وإلى جانبه قطعة من سور غرناطة القديم .

محمد بن أحمد بن قُطبة الدَّوسى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا القاسم .

حـــاله

مجموع خِلال بارعة ، وأوصاف كاملة ، حسن الخطّ ، ذاكرٌ للتاريخ والأخبار ، مستول على خصال حميدة من(١) [حُسْن رواء](٢) وسلامة صدر ، إلى نزاهة الهِمَّة ، وإرسال السَّجية ، والبُعد عن المُصانعة ، والتحلّى بالوقار والحِشْمة ، شاعر ، كاتب . ومناقبه يقْصُر عنها الكثير من أبناء جنسه ، كالفروسيَّة ، والتجنُّد(٣) ، والبسالة(٤) ، والرِّماية ، والسِّباحة ، والشطرنج ، [متحمِّد بحَمْل القَنا](٥) ، مع البراعة ، مديم(٦) على المروءة ، مُواس للمحاويج من معارفه . ارتسم فى الديوان فظهر غِناؤه ، وانتقل إلى الكتابة ، معزَّزَة بالخطط النَّبيهة العِلْمية ، وحاله الموصوفة متَّصلة إلى هذا العهد ، وهو معدود من حَسَنات قطره .

وثُبت فى « التاج المحلى » بما نصه : « سابقٌ رَكْض المُحَلَّى ، أتى من أدواته بالعجايب ، وأصبح صدراً فى الكُتّاب ، وشَهْماً فى الكتايب . وكان أبوه رحمه الله ، بهذه البلدة ، قُطْبَ أفلاكها ، وواسطَة أسْلاكها ، ومُؤْتمن روسايها وأملاكها ، وصدرَ وجالها ، وولىّ أرباب مجالها ، قد نشَل ابنه(٧)

---

(١) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» . وساقطة فى «ج» .

(٢) هذه العبارة ساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . والمقصود بها الانخراط فى سلك الجندية .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ومكانها فى «ج» (الثقافة) ، والأولى أرجح وأكثر اتفاقاً مع السياق .

(٥) هذه العبارة ساقطة فى «الزيتونة» .

(٦) وردت فى «ج» (مدع) والتصويب من «الزيتونة» .

(٧) وردت فى «ج» (بينه) والتصويب من «الزيتونة» .

سهامَها ، فخبر عدالةً وبراعةً وفهماً ، وألقاه[١] بينهم قاضياً شهماً ، فظهر منه نجيباً ، ودعاه إلى الجهاد سميعاً مجيباً[٢] . فصَحِب السَّرايا الغَرِيبة المُغيرة ، وحضر على هذا العهد من الوقايع الصغيرة والكبيرة . وعلى مُصاحبة البعوث ، وجَوْب السُّهول والوعوث ، فما رفض اليراعة الباتِر ، ولا ترك الدَّفاتر للزمان الفاتِر .

شعره

وله أدب بارع المقاصد قاعدٌ للإجادة بالمراصد ، وقال من الرَّوْضيات وما في معناها :

دعيني ومَطْلول الرِّياض فإنني ... أنادم في بَطْحايها[٣] الآسَ والوَرْدا
أعلل هذا بخُضْرة شارب ... وأحكي بهذا في تورُّدِه الخدَّا
وأزهر غُصْنُ البان رائد لسة ... ذكرتُ به لينَ المعاطف والقدّا

وقال :

وليـلٌ أدرناها سُلافاً كأنها ... على كفِّ ساقيها تُضْرِمُ ناراً
غُنينا[٤] عن المصباح في جِنْح ليلها ... بِخَدٍّ مدير لا بكأس عقار

وقال :

يومُنا يوم سرور فلتقُم ... تَصْدَعِ الهمَّ بكاسات المدام
إنما الدُّنيا منام فلتكن ... مغرماً فيها بأحلى المنام

(١) وردت في المخطوطين (وألفاهم) . وبالتصويب يستقيم السياق .
(٢) هذه الكلمة واردة في «الزيتونة» ، وساقطة في «ج» .
(٣) وردت في المخطوطين (بطحايه) . والتصويب أنسب للسياق .
(٤) هكذا في «ج» . وفي «الزيتونة» (وغنينا) .

وقال :

وبى منك ما لو كان للشرب ماصحاً ... وبالهيم ماروّت صداها المناهلُ
أحبك ما هبّت من الروض نسمة ... وما اهتز غصنٌ فى الحديقة مايل
فإن شئت أن تهجر وإن شئت فلتقبل فإنى لمـــا حملتنى اليوم حامل

وقال :

كم قلتُ للبدر المنير إذا بدا ... هيهات وجهُ فلانة تحكىّ لنا
فأجابنى بلسان حال واعتنى ... لا الشمس تحكيها فأحكيها أنا
وصرفت وجهى نحو غُصْن أملدَ ... قد رام يُشْبه قدّها لما انثنا
فضحكت هُزءاً عند هزّ قوامها ... إذا رام أن يحكى قواماً كالقنا[١]

وكتبت إليه فى غرض يظهر من الأبيات :

جوانحنا نحو اللقاء جوانحُ ... ومقدار ما بين الدّيار قريب
وتمضى الليالى والتزاوُر مُعوز ... على الرغم منّا وإنّ ذا لغريب
فديتك عجّلها لعينى زيارة ... ولو مثل ما ورد اللحاظ مريب
وإنّ لقائى جل عن ضرب موعد ... لأكرمَ ما يُهدى الأديب أريب

فراجعنى بقوله ، والتجنّى شيمةٌ :

لعمرك ما يومى إذا كنت حاضراً ... سوى [يوم صبٍّ][٢] من عداه يغيب
أزور فلا ألقى لديك بشاشةً ... فيبعد منى[٣] الخطْوُ وهو قريب
فلا ذنب للأيام فى البعد بيننا ... فإنى لداعى القُرب منك مجيب
وإنّ لقاءً جاء من غير موعد ... ليحسنَ لا كن مرّة ويَطيب

---

(١) وردت فى المخطوطين (كالعنا) . وبالتصويب يستقيم المعنى .
(٢) وردت مكانها فى المخطوطين (منه) .
(٣) وردت مكانها فى «ج» (منه) .

وإحسانه كثير . وفيما ثبت كفاية لئلا نخرج [عن غرض الاختصار][1].

محمد بن محمد بن أحمد بن قُطبة الدَّوسى

يكنى محمد أبا بكر ، أخو الذى قبله .

حـــــــاله

تِلْوُه فى الفضل والسَّراوة ، وحُسْن الصورة [ونصاعة الطَّرف][2] مُرْبٍ عليه بمزيد من البشاشة والتنزُّل ، وبَذْل التودُّد . والتبريز فى ميدان الانقطاع . متأخر عنه فى بعض خلال غير هذا . ذكىّ الذهن ، مليح الكتابة . سهلها ، جيِّد العبارة [متأتِّى اليراع][3] ، مغلق اليد ، حسن الخطّ ، سريع بديهة المنثور ، مهمّ ، مخول فى التخصُّص والعدالة . كتب الشّروط بين يدى أبيه ، ونسخ كثيرا من أمّهات الفقه ، واستظهر كتباً ، من ذلك « المقامات الحريرية » . وكتب بالدار السلطانية ، واختص بالمراجعة عمّن بها ، والمفاتحة أيام حركات السلطان عنها إلى غيرها . حميد السيرة ، حسن الوساطة ، نجدِىّ الجاه ، مشكور التصرُّف ، خفيف الوطأة . ووُلّى الخطابة العليّة . مع الاستمساك بالكتابة . ولم يُؤْثر عنه الشعر ، ولا عوّل عليه .

محمد بن محمد بن محمد بن قطبة الدَّوسى

يكنى أبا بكر ، وقد ذكرنا أباه وعمه ، ويأتى ذكر جَدِّه

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ومكانها فى «الزيتونة» (عن الغرض) .

(٢) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» .

حـاله

نبيل المقاصد فى الفن الأدبى ، مشغول به ، مفتوح من الله عليه فيه [شاعر مَطْبوع مُسكثر](1) انقاد له مَرْكِب النظم ، فى سن المراهقة ، واشتهر بالإجادة ، وأنشد السلطان ، وأخذ الصِّلة ، وارتسم لهذا العهد فى الكتابة . وشرع فى تأليف يشتمل على أدباء عصره .

شعره

ومما خاطب به أحد(2) أصحابه :

إذا شمتُ من نحو الحمى فى الدُّجا بَرْقا ... أبى الدَّمعُ إلا أن يسيل ولا يرقى
ومهما تذكرتُ الزمان الذى مضى ... تقطَّعت الأحْشاء من حرٍّ ما ألقى
خليليَّ لا تجزع لمَحْل فأدمعى ... تبادر سَقْياً فى الهوى لمن استَسْقى
وما ضرهُ من أصبحتُ ملك يمينه ... إذا رقّ(3) لى يوما وقد حازنى رِقّا
فنيتُ به عشقا وإن قال حاسدٌ ... أضلّ الورى من مات فى هاجر شقّا
تلهّب قلبى من تلهب خـده ... فيا نِعم(4) ذاك الخدُّ فاض بأن أشْقَى

ومنها

وكم من صديق كنت أحْسَبُ أنه ... إذا كذبَت أوهامُنا رفع الصدّقا

[محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدَّوسى

ابن عم المذكورين قبله ، يكنى أبا القاسم .

(1) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (شاعراً مطبوعاً مكسراً) .

(2) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (بعض) .

(3) وردت فى المخطوطين (راق) . والتصويب أنسب للمعنى والسياق .

(4) وردت فى «ج» (فنعم) . والتصويب من «الزيتونة» .

حـاله

حسن الصورة ، لازَم القراءة على شيوخ بلده ، ونظم الشعر على الحَداثة ، وترشح للـكـتْب بالدار السلطانية مع الجماعة ، ممن هو فى نظمه .

ومن شعره . كتب إلىّ بما نصه :

أحْسَب وحده يوم رأسك ربما تُعطى السلامة فى الصراع سُلّما][1]

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدَّوسى

أخو الفقيه أبى بكر بن القاسم بن محمد المذكور

حـاله

شاب حسن فاضل ، دَمِث ، متخلّق ، جميل الصورة ، حسن الشكل ، أحمر الوجْنَتين[2] . حفِظ كتُبا من المبادى النحوية ، وكتب خطًا حسنا ، وارتسم فى ديوان الُجنْد مثل والده ، وهو الآن بحاله الموصوفة .

شعره

قيد أخوه لى من الشعر الذى زعم أنه من نظمه ، قوله :

حلفت بمن[3] ذاد عنىٌّ الـكَرَى وأسهر جَفْنى ليــلاً طويلا
وألْبَس جسمى ثياب النُّحول وعذَّب بالهجر قَلْبى العليلا
ما[4] حُلْت عن وُدِّه ساعة ولا اعتضُت منه سواه بديلا

(١) هذه الترجمة الموجزة واردة فى «ج» ، وساقطة فى «الزيتونة» .
(٢) وردت فى «ج» (الوجنة) والتصويب من «الزيتونة» .
(٣) وردت فى «ج» (لمن) والتصويب من «الزيتونة» .
(٤) وردت فى المخطوطين (لما) . وحكمة التصويب واضحة .

محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيي بن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزَىّ الكلبي

من أهل غرناطة وأعيانها ، يكنى أبا عبد الله .

أوّليّته

تُنظر(١) فى اسم أبيه فى ترجمة الْمُقْرِيين والعلماء .

حاله

من أعلام الشهرة على الفَتاوة(٢) . وانتشار الذكر على الحَداثة . تبريزاً فى الأدب ، واضطلاعا بمعاناة الشعر ، وإتقان الخطّ ، وإيضاحا للأحاجى والمُلْغِزات . نشأ بغرناطة فى كنَف والده رحمه الله . مقصُور التّدريب عليه ، مشاراً إليه فى ثُقُوب الذهن ، وسَعَة الحفظ ، ينطوى على نُبل لا يظهر أثرُه [على التفاتة ، وإدراك ، تُغَطِّى شُعْلتَه مخيِّلة غير صادقة ، من تغافله . ثم جاش طبعُه ، وفَهِق حوضُه ، وتفجّرت ينابيعه ، وتوقد إحسانه](٣) .

ولما فقد والده ، رحمه الله ، ارتسم فى الكتابة . فبذّ جلّة الشعراء ، إكثارا واقتدارا ، ووفور مادة ، مجيدا فى الأمْداح . عجيباً فى الأوْضاع ، صدّيقا(٤) فى النّسيب ، مطبوعا فى المقطوعات . معتدلا فى الكتابة ، نشيط البنان ، جَلْدًا على العمل ، سيّال المجاز (٥) ، جَمُوح عِنان الدُّعابة ، غَزِلا ، مُؤْثرا للفكاهة ،

(١) وردت فى المخطوطين (تنظم) ، فلزم التصويب .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (الفتاوى) وهو تحريف ، والمقصود بها هنا (الفتوة) .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين .

(٥) هكذا فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (المزاح) . والأولى أرجح .

انتقل إلى المغرب لشفُوف خَصْله ، على ما قد قسّم(١) الحظوظ . سبحانه من رَزَقه بهذه البلاد . فاستقرّ بباب مَلِكه . مَرْعِى الجناح ، أثير الرتبة . مطلق الجراية ، مقرَّر(٢) السِّهام . مُعْتبا وطنه [راضيا عن جيرته . دَيْدَنُ من يستند إلى قديم ، ويتحيّزُ إلى أصالة](٣) .

تواليفه

أخبرنى عند لقايه أياى بمدينة فاس فى غرض الرسالة ، عام خمس وخمسين وسبعماية ، أنه شرع فى تأليف تاريخ غرناطة ، ذاهبا هذا المذهب ، الذى انتُدبت إليه ، ووقفت على أجزاء منه تشهد باضطِّلاعه ، وقيَّد بخطِّه من الأجزاء الحديثة(٤) والفوايد والأشعار ما يفوت الوَصْف ، ويفوق الحَد . وجرى ذكره فى « التاج » بما نصه :

« شمسُ فى البلاغة بازغة(٥) ، وحجّة على بقاء الفِطرة الغريزية(٦) فى هذه البلاد المغربية بالغة ، وفريدةُ وقت أصاب من فيها نادرة أو نابغة ، من جِذْع ابن على القادح ، وجَرَى من المعرفة كل بارح ، لو تعلّقت الغوامض بالثُرَيّا لنالها ، وقال أنا لها . وربما غَلَبت(٧) الغَفْلة على ظاهره ، وتنطَفِق أكمامُها على أزاهره ، حتى إذا قدح فى الأدب زَنْده ، تقدمّ المواكب بَنْدَه ، إلى خطّ(٨)

---

(١) وردت فى المخطوطين (قاسم) والتصويب أنسب للسياق .

(٢) وردت فى المخطوطين هكذا (مقدر مقرر) . وقد آثرنا الكلمة الثانية .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٤) هكذا فى المخطوطين . والمقصود بها فيما يبدو ، الحديثة وقت كتابة هذا التاريخ .

(٥) وردت فى المخطوطين (بارعة) . والتصويب أنسب للمعنى والسياق .

(٦) وردت فى المخطوطين (الغربية) . والتصويب أنسب لصفة الفطرة .

(٧) وردت فى «ج» (وبلغت) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٨) وردت فى المخطوطين (حظ) . والتصويب أرجح .

بادع[١] ، يعنُو[٢] طَوال الطويل منه [إلى سرٍّ وبراعة ، كما ترضى المِسْك والكافور عن طِرْس وحبر][٣] .

شعـره

فمن غرامياته وما فى معناها [قوله][٤]

متى يتلاقى شايق ومشُـوق ويُصبح عيرُ الحُبِّ وهو طليق
أما أنها أمنية عزّ نيلُها ومَرْمى لعمرى فى الرَّجا سحيق
ولكنى خدعتُ قلبى تعلَّة أخافُ انصداع القلب فهو رقيق
وقد يُرزق الإنسان من بعد يأسه وروضُ الرُّبى بعد الذبول يروق
تباعدتُ لما زادنى القربُ لوعةً لعل فؤادى من جَواه يَفيق
ورمتُ شفاء الداء بالداء مِثلَه وإنى بألاّ أشتَفى لحَقيق
وتالله ما للصَّب فى الحب راحةٌ على كل حال إنه لمَشُوق
ويارِبِّ قد ضاقت علىّ مَسالكى فها أنا فى بحْر الغرام غريق
ولا سلوةٌ ترجى ولا صبرٌ ممكن وليس إلى وصْل الحبيب طريق
ولا الحبُّ عن تعذيب قلبى يَنْثَنى ولا القلبُ للتَّعذيب[٥] منه يُطيق
شجونٌ يضيق الصَّدر عن زَفَراتها وشوقٌ لِطاق الصبر عنه يضيق
نثرتُ عقود الدَّمع ثم نظمتُها [قريضاً فذا دُرٌّ وذاك عقيق][٦]

(١) وردت فى «ج» (براعة) . والتصويب من الزيتونة .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (يرنو) .
(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى «الزيتونة» .
(٤) هذه الزيادة من «الزيتونة» .
(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (بالتعذيب) والأولى أكثر تمشياً مع المعنى .
(٦) هكذا وردت هذه الشطرة فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» كالآتى : (قريض فصار لون ذاك عقيق) .

بكيتُ أسىً[1] حتى بكى حاسدِ[ى معى][2] كأنَّ عذولى عاد وهو صديق
ولو أن عند الناس بعض محبّتى لما[3] كان يُلقى فى الأنام مُفيق
أيا عينُ كفى الدمع ما بقى السكرى إذا منعوك النّوم سوف تذوق
ويا نائماً عن ناظرى أما ترى لشمسك من[4] بعد الغروب شروق
رويدك رِفقاً بالفؤاد فإنه عليك وإن عاديتَه لشفيق
نقضتَ عهودى ظالما بعد عقْدها إلا إن عَهْدى كيف كنتُ وثيق
كتمتُك حُبى يعلم الله مدّة وبين ضلوعى من هواك حريق
فمازلتَ بى حتى فُضحت فإن أكن صبرتُ بعد اليوم لستُ أطيق

وقال :

ومُوَرَّد الوَجَنات معسول اللّمى فتّاكُ بلحْظ العين فى عشّاقه
الخمر بين لِثاته والزَّهر فى وجناته والسِّحر فى أحداقه
ينادى غصنُ البان فى أثوابه ويلوحُ بدرُ التّم فى أطواقه
من للهلاك بثَغْره أو خَدِّه هَبْ أنه يُحكيه فى إشراقه
ولقد تشَبَّهت الظِّبا بشُبْهة من خلقه وعَجَزْن عن أخلاقه
نادمته وسناً محيّا الشمس قد ألقى على الآفاق فَضْل رِواقه
فى روضة ضحكت ثغورُ أقاحها وأمال فيها المُزْن من آماقه
أسقيه كأس سُلافة كالمِسْك فى نَفَحاته والشهْد عند مذاقه
صفراء لم يُدِر الفتى أكواسها إلاّ تداعى همُّه لفراقه

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى «الزيتونة» .
(٢) ما بين الحاصرتين ساقط فى «ج» ووراد فى «الزيتونة» .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (ما) .
(٤) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

ولقد تَلين الصَّخر[١] من سَطَواته   فيعود للمعهود من إشفاقه
وأظلُّ أرشف من سُلافة[٢] ثغره   خمراً تُداوى القلب من إحراقه
ولربما عطَفَته عندى نشوةٌ   فشفَى الخيالُ بضمِّه وعناقه
أرجو نِداه إذا تبسّم ضاحكا   وأخاف منه العتْب فى إطراقه
أشكو القساوة من هواى وقلبه   والضَّعف من جَلَدى ومن ميثاقه
ياهل لعَهْدٍ قد مضى من عودة   أم لا سبيل بحالةٍ للحاقه
ياليت شعرى لوكانت لذلك حيلةٌ   أو كان يُعطى المرء باستحقاقه
فلقد يروق الغُصن بعد ذُبوله   ويَتِم بدرُ التِّم بعد مُحاقه

ومما اشتهر عنه فى هذا الغرض :

ذهَبت حشاشةُ قلبى الصَّدوع   بين السَّلام ووقفة التوديع
ما أنصف الأحبابُ يوم وداعهم   صَبّاً يحدِّث نفسه برجوع
أنجِد بغَيْثك ياغمام فإننى   لم أرْضَ يوم البَيْن قلَّ[٣] دموع
من كان يبكى الظّاعنين بأدمع   فأنا الذى أبكيهم بنجيع
إيه وبين الصَّدر منى والحشا   شَجَنٌ طُوِيَت على شَجاه ضلوع
هات الحديثَ عن الذين تحمَّلوا   واقدح بزَنْد الذِّكر نار ولُوع
عندى شجون فى التى جنَت النوّى   أشكو الغَداة وهنّ فى توديع
من وَصْلى الموقوف أو من سُهدى الموصول[٤] أو من نَومى المقطوع
ليت الذى بينى وبين صَبابتى   بعد الذى بينى وبين هُجوع

---

(١) وردت فى المخطوطين (الخمر) . وبالتصويب يستقيم المعنى .
(٢) وردت فى المخطوطين (أقاح) . وبهذا التعديل يستقيم المعنى والسياق .
(٣) وردت فى المخطوطين (فعل) . وبالتصويب يستقيم المعنى .
(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» الموصوف . والأولى أنسب للمعنى والسياق .

يا قلب لا تجزع لما فعَل النّوى فالحرُّ ليس لحادث بجَزُوع
أبَعْد ما غُودِرت فى أشراكه تَبْغى النّزوع ولات حين نُزوع
ومهفهفٌ مهما هبت ريح الصّبا أبْدت له عطْفاه عطف مُطيع
جمع المحاسن وهو منفرد بها فاعْجَب لحسنٍ مفْردٍ مجموع
والشمس لولا إذنه ما آذَنَتْ خجلا وإجـلالاً له مَطْلوع
ما زلتُ أسقى خدّه من أدمعى حتى تفتّح عن رياض ربيع
إن كان يرنُو عن[1] نواظر شَادِنٍ فلربَّ ضِرغام بهنَّ صريع
عجبا لذاك الشعر زاد بفُرْقه حُسْنا كحسن الشِّعْر بالتّصريع
منع الـكرَى ظلما وقد منع الضّنا فشقيت بالممنوح والممنوع
جرّدت ثوب العزّ عنى طائعاً [أتراه يَعْطِفه علىّ خضوع][2]
لم أنتفع لِبسْا من الملبوس فى حُبِّى ولا بِمذارى المخـلوع
بجماله استَشْفَعت فى إجماله ليحوز أجْرَ مُنَعَّمٍ[3] وشفيع
يا خادعى عن سَلْوتى وتصبُّرى لولا الهوى ما كنتُ بالمخدوع
أوْسَعْتنى بعـد الوصال تفرّقا وأثَبْتَنى سوءاً لحُسْن صَنيع
أسرعتَ فيما ترتضى[4] فجزيتَنى بطويل هُجران إلىّ سريع
أشْرَعت رُمحا من قِوامك دايلاً فمنعتَ من ماء الرُّضاب شروعى
خُذ من حديثِ تولعى وتولُّهى خبراً صحيحاً ليس بالمصنوع
يَرْويه[5] خدِّى مُسْنِدا عن أدمعى عن مُقْلتى عن قلبى المصدوع

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (على) .
(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطين . وفى نص آخر : (أتراه يولى عطفه لخضوعى)
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى نص (مشفع) .
(٤) ... [illegible] ([illegible]) . والتصويب أنسب للسياق .
(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (برو) وهو تحريف .

كم من ليالٍ فى هواك قطعتُها وأنا لذكراهنّ فى تَقْطيع
لا والذى طبَعَ الكرام على الهوى وبرٌ(١) سوا أنّ الهوى المطبوع
ما غيّرتْنى الحادثات ولم أكن بمذيع سرٍّ للعهـــود مُضِيع
لا خَيْر فى الدنيا وساكِنِها معا إن كان قلبى منك غير جميع

وقال فى غير ذلك [فى غرض](٢) يظهر من الأبيات :

وقالوا عداك البختُ والحزم عندما غدوتَ غريب الدّار منزُلك الفنتُ
ألم يعلموا أن اغترابى حُزامة وأن ارتحالى عن دارِهم هو البَخْت
نعم لستُ أرضى عن زمانى أو أرى تَهادى السفنِ المواخرِ والبُخْتِ
لقد سيمتْ نفسى المقام ببلدة بها العيشةُ النَّكراء(٣) والمكسب السُّحت
يُذل بها الحرُّ الشريف لعَبْده ويجفوه بين السَّمت(٤) من سنةٍ ستٌّ
إذا اصطافها المرءُ اشتكى من سَمُومها أذًى ويرى فيه أذًّا يَبتٌّ
ولستُ كقوم فى تعصبهم عتْوًا يقولون بغدادُ لغرناطة أختُ
رغبتُ بنفسى أن أساكن مَعْشراً مقالُهم زورٌ ووُدُّهم مَقْت
يدسّون فى لين الكلام دَوَاهياً هى السُّم يالآل المشود لها لَتٌّ
فلا دَرَّ دُرُّ القوم إلاّ عصيبة إلىّ بإخلاص المودة قد متُّوا
وآثرتُ أقواماً حمدتُ جوارهم مقالُهم صدقٌ ووُدُّهم بَحْت
لهم عن عِيان الفاحشات إذا بدت تَعامٍ وعن ما ليس يعنيهم صَمْتُ
فما ألِفوا لهوا ولا عَرَفوا خَنىً ولا علموا أن الكرُوم لها بِنْت
به كل مُرتاحٍ إلى الضَّيف والوَغى إذا ما أتاه منهما النبأ البَغْتُ

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (ومن) .
(٢) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (النكداء) .
(٤) وردت فى «ج» (الستين . والتصويب من «الزيتونة» .

وأشعَثُ ذی طِمْرین أغناه زُهده فلم یتشوَّف للذی ضمَّه التَّخت
صبورٌ علی الإیذاء بغیضٌ علی العدا معینٌ علی ما یتَّقی جاشه الشَّت
ولی صاحبٌ مثلی یمانٍ جعلته جلیسی نهاراً أو ضجیعی إذا بتُّ
وأجْرَدُ جرَّار الأعنة فارِح كُمَيْتٌ وخيرُ الخيل قداحُها الكُمْت
تسامَتْ به الأعراق(١) فی آل أعوج ولا عِوَج فی الخلق منه ولا أَمْتُ
وحسْبی لعضات النوائب مُنْجدا علیها الكُمَیت الهند والصَّارم الصَّلت
قطعتُ زمانی خبرةً وبلوتُه فبالغَدر والتَّخفیف عندی له نَعْت
ومارستُ أبناء الزمان مُباحثا فأصبح حَبْلی منهم وهو مُنْبَتّ
وذی صلَفٍ یمشی الهُوینا ترفقًا علی نفسه كیلا یزایلها السَّمت
إذا غبتُ فهو المَرْوة القوم عندهم له الصَّدر من نادیهم وله الدَّسْت
وإن ضمَّنی یوما وإیاه مَشْهد هو المُعْجم السُّكَیت والعمَّة الشَّخْتُ
فحسبی عُداتی أن طویتُ مآربی علی عزمهم حتی صفَا لهم الوقت
وقلتُ لدنیاهم إذا شئت فاغربی وكنت متی أعزم فقلبی هو البَتّ
وأغْضیتُ عن زلاَّتهم غیر عاجز فماذا الذی یبغُونه لهم الكَبْتُ

وقال :

لا تُعد ضَیفك إن ذهبت لصاحب تعتدّه لكن تخیَّر وانْتَق(٢)
أو ما تری الأشجار مهما رُكِّبت إن خُولِفت أصنافها لم تعلق

ومنه فی المقطوعات :

وشادن تیَّمنی حبُّه حظِّی منه الدهر هجرانُه
موردّ الخدین حُلو اللَّمی أحمر مُضْنی الطَّرف وسْنانه

---

(١) هكذا وردت فی «ج» . وفی «الزیتونة» (الأعذار) .
(٢) وردت فی «ج» (وأنفق) ، والتصویب أرجح .

لم تنطَو الأغصان فى الروض بل ضلّت له تسجد أغصانه
يا أيها الظَّبى الذى قلبُه تُضرَّم فى القلب[١] نيرانُه
هل عَطْفةٌ ترجى لصبٍّ شبح ليس يرجى عنك سُلوانه
يود أن لو زُرْته فى الكَرَى لو متِّعَت بالنوم أجفانُه
قد رام أن يكتُبَ ما نابَه والحبُّ لا يمكن كتْمانه
فأفضيتُ أسراره واستوى إسراره الآن وإعلانُه

وقال :

نهار وَجْه وليلُ شِعر بينهما الشَّوق يُسْتَثار
قد طَلَبا بالهوى فؤادى فأين لى عنهما الفرار
وكيف يُبْغى النجاة شيء يطلبُه الليل والنهار

وقال فى الدُّوبيت :

زارَتْ ليلا وأطْلَعت فجْرها صُبْحًا جَمَعت بين صبح وظلام
لما بَصُرت بالشمس قالت يافتى [جَمْعُ الإنسان بين](٢) الأختينِ حَرام

وقال فى غرض التَّورية :

أبِح لى [فى](٣) رياض المحاسن نظرةً إلى ورد ذاك الخدِّ أُرْوى به الصَّدى
وبالله لا تَبْخَل علىَّ بعَطْفَة فإنى رأيت الرَّوض يوصف بالنَّدا

وقال :

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (قلبى) .
(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (الجمع بين الأختين) .
(٣) الزيادة من «الزيتونة» .

وعاشقٌ صلى ومحـــرابُهُ وجْهُ غزال ظلّ يهـــواه
قالوا تعبّـــد فقلت[1] نعم تعبُّداً يفهــــــم معنـاه

وقال وهو مليح جداً :

وصديق شـكى بمـا حمَّـــلوه من قضاء[2] يَقْضى بطول العَناء
قلتُ فارْدُدْ ماحمَّـــلوك عليهم قال من يستطع رَدَّ القضـــاء
لسانان هَجَيا[3] من خاصماه لسان الفتى ولسان القضـــاء
[إذا لم تَحُزْ واحـــداً منهما فلست أرى لك أن تنطقا][4]

وقال :

تلك الذُّوابه ذُبْتُ من شوقى لها واللَّحظ يحميها بأىِّ ســـلاح
يا قلبُ فانجح لا إخالك ناجياً[5] من فِتْنة الجَعْـــدى والسفّاح

[وإحسانه كثير . ويدل بعضُ الشىء على كلّه . ويخْبُرُ طلُّ الغيث على وبْله][6] .

وفاتـــه

اتصل بنا خبر وفاته بفاس مَبْطوناً فى أوايل ثمانية وخمسين وسبعماية . ثم تحقَّقْتُ [أن ذلك][7] [فى آخر شوال من العام قبله][8]

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (قلنا) .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (قضى) .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (يهجيا) .

(٤) هذا البيت وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (ناجحا) . والأولى أرجح لاستقامة المعنى .

(٦) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٧) أضفت هاتين الكلمتين ليستقيم السياق .

(٨) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . وورد مكانها فى «الزيتونة» العبارة الآتية (ثم تحققت أن ذلك فى أوائل ربيع الأول من ذلك العام) . والكلام عليه علامة الشطب ابتداء من كلمة (فى أوائل) .

محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم ابن يحيى بن محمد بن الحكيم اللخمى

يكنى أبا القاسم .

حاله

من كتاب « عائد الصلة » : فرعُ دوحة الأصالة والخصوصيَّة ، والعلم والدين ، والمكانة والجلالة ، [مُجلى بيته][1] . ومجدِّد مآثره [برًّا ، ومجاملة ، وخيريَّة][1] . نشأ بأطراف جُمْلته من الفنون ، من حساب وفريضة وأدب وقراءة ووثيقة ، إلى خطٍّ حسن ، وأدب تكفَّله[2] ، حتى انقاد له أوكاد . أُعْبِط[3] فى وقيعة الطاعون قاضياً ببعض الجهات ، وكاتباً للدار السلطانية ، فكانت فيه الفجيعة عظيمة .

وجرى ذكره فى « التاج المحلَّى » بما نصه : « من فروع مجدٍ وجلالة ، وورث الفضل لاعن كَلالة . أشرف[4] ، مجيدٌ ، معظَّمٌ ، مُخَوَّل فى العشيرة[5] ، وصل لُباب المجد بفرايد الخلال الأثيرة ، وأصبح طِرْفاً[6] فى الخير والعفاف ، واتَّصف من العدالة بأحسن اتِّصاف ، وسلك من سُنَن سَلَفه ، أثَرَ هذا ، لا يزال يُرشده ويدلُّه ، ويسدِّدُه فيما يعقده أو يحُله ، واتَّسَم بِمِيسَم الحيا ، والحيا خيرٌ كله ، إلى نزاهة لاترضى بالدُّون ، ونجابة تتهالك فى صون[7] الفنون . وطمح فى هذا العهد

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (تكلفه) .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت مخرفة فى «ج» (اغتط) . وأعبط أى هلك .

(٤) وردت فى «ج» (يشرب) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (العشرة) .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين . والطرف ، أى القوى .

(٧) وردت فى المخطوطين (هون) . وبالتصويب يستقيم المعنى .

إلى نَمَط فى البلاغة رفيع، وجَنَح إلى مساجلة [ما يستحسنه (١) من مُخْترع وبديع، وصدوت منه طُرَف تُسْتَملح، وتُسْتَحلى إذا استحلى. ونحن نورد ما أمكن من آياته، ونجلى بعض غُرَرِه وشيَّاته.

شعره

ومن مقطوعات آياته:

وهبّت فهزّت عند ما رأتْ به … الطّلا مثل الطفل يرضع فى المهد
والرّوض حياه المُزْن خلعة برقة … وباتت رُباه من حِباه على وعد
يحدثنا عن كَرْمها(٢) ما من مُزْنها(٢) … فتُبْدى ابتسام الزّهر فى لثمة الخدّ
عَجِبنا لما رأينا من برِّها … بدور حُباب الكأس تلعب بالنرد

وقال:

شَرِبنا وزَنْجى الدَّياجى مُوقدٌ … مصابيحَ من زهر النجوم الطَّوالع
عقاراً رأته حين أقبل حالكاً … فجاءت بِعُصْفُرٍ من اللون فاقِع
عجبتُ(٣) لها ترتاع منه وإنها … لفى الفرْقد قرّت لِدَم المدامع(٤)

وقال:

لاح فى الدُّرِّ العقيق فحيّا … أم مزاجٌ(٥) أدّاه صرف المحيّا

---

(١) وردت فى «الزيتونة» (من يستحسنه). ووردت فى «ج» (من يقتبسه) والأولى أنسب للمعنى والسياق.

(٢) هكذا وردت فى «ج». ووردتا فى «الزيتونة» (كرمه. قربه).

(٣) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» (عجبا).

(٤) هكذا فى «ج». وفى «الزيتونة» (المراضع)، والأولى أرجح.

(٥) وردت فى «ج» (زجاج). والتصويب من «الزيتونة».

من بنات الكروم والرّوم بكرا ... أقبلت ترتدى حياً يُهَيّا
خلتُها والحباب يطفو عليهــا ... شفقاً فوقه نجــومُ الثُّريّا
قهوةٌ كالعروس فى الكأس تُجلَى ... صاغ من لؤلئها المزج حَلْيا

وقال :

ويوم أُنْس صَقيل الجوِّ ذى نظر ... كأنه من وَميض البرق[١] قد خُلقا
مازلتُ فيه لشمس الطَّست[٢] مُصْطحباً ... وبالنجــوم وبالأكواس مُغْتَبِقا
صفراء كالعَسْجد المسبُــوك إن شَرِبت ... تبدى احمراراً على الخدّين مؤتلقا
[كذلك الشمس فى أخرى عَشِيَّتها ... إذا توارت أثارت بعدها شَفَقا][٣]

وقال :

بنَفْسى حبيبٌ صال[٤] عامل قدِّه ... علىّ ولمّا يَنْعطف وهو كالغُصن
ويا عَجَباً منــه متى صار ذابلا ... ونُضْرته تُنار عن حَوْطة اللّدُن
وأعجبُ مِن ذا أن سَيْف لِحاظه ... يمزّق أفلاذ الحَشَى وهو فى الجَفْن

وقال :

بأبى وغير أبى غزال نافــر ... بين الجوانح يَغْتَدى ويرُوح
قمرٌ تلألأ واستنار حبيبُــه ... غَارَت[٥] به بين الكواكب بُوح
لم يرض غير القلب منزلةً فهل ... يا ليت شِعْــرى بالذِّراع يلوح

ومما نسب لنفسه وأنشدنيه :

(١) هكذا فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (الروض) والأولى أنسب للمعنى .
(٢) وردت فى «ج» (الطسب) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٣) هذا البيت وارد فى «الزيتونة» وساقط فى «ج» .
(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (جال) والأولى أنسب للمعنى .
(٥) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (عادت) .

ليلُ الشَّباب انجاب أول وهلة عن صُبح شَيْبٍ لست عنه براض
إن سرَّنى يوماً سوادُ خِضـابه فنُصولُه عن ساق ببيـاض
هلاّ اختفى فهو الذى سرق الصِّبا والقَطْع فى السَّرقات [أمر ماض][1]
فعليه ما استطاع الظهور بلَمَّتى وعلىَّ أن ألقـاه بالمِقْراض

وفاتـــه

توفى رحمه الله بغرناطة فى السابع عشر شهر ربيع الآخر عام خمسين وسبعمائة، فى وقيعة الطاعون، ودفن بباب إلبيرة [رحمة الله عليه][2] .

محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد [بن على][3] ابن محمد اللَّوشى اليحصُبى

يكنى أبا عبد الله ويعرف باللوشى

أوّليته

من لوْشَة . وقرأ العلم بها، وتعرف بالسلطان الغالب بالله محمد قبل تَصَيُّر الملك [له][4] وتقدم عنده . تضمن ذكْرَه الكتاب المسمى « بطُرْفة العصر

(١) وردت فى المخطوطين (أرماض) . وهو تحريف . وبالتصويب يستقيم المعنى .
(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى «الزيتونة» .
(٣) هذه الزيادة فى النسبة واردة فى «الزيتونة» .
(٤) الزيادة من «الزيتونة» .

فى أخبار بنى نصر »[1] ، وتقرر ذلك فى حرف الحاء فى اسم أبى عمر اللوشى ، كاتب الدولة النصرية رحمه الله .

حاله

من كتاب « عايد الصلة » . كان رحمه الله من أهل الحسب والأصالة ، شاعراً ، مدّاحا . نشأ مُدللاً فى حُجور الدولة النصرية ، خفيفاً على أبوابها ، مُفَضَّلا على مُدّاحها . ثم تجنّى بآخرة ، ولزم طورًا من الخمول فى غير تَشَكٍّ ، أعرض به عن أرباب الدُّنيا ، وأُعْرِض عنه ، واقتصر على تبلُّغ من علالة مُؤمَّل كان له خارج [غرناطة][2] غيرُ مُساد من ثَلْمه ، ولا مُصْلَح فى خَلَله ، أخذ نفسه بالتَّقَشُّف ، وسوء المسكن ، والتهاون بالمَلْبَس ، حملا عليها فى غير أبواب الرياضة ، مجانباً أرباب الخُطَط ، وفياً لمن لحقته من السلطان مَوْجِدة ، تختلف معاملته لمن يعرفه فى اليوم مرّات ، من إعراض عنه ، وقَبُول عليه ، ولصوق به ، كل ذلك عن سلامة ، وتهيُّب نفس . مليح الدُّعابة ، ذا كرا لفنون من الأناشيد ، حسن الجدّ ، متجافياً عن الأعراض .

وجرى ذكره فى « التاج » بما نصه : « شاعر مُفْلق ، وشهابٌ فى أفق البلاغة متألِّق ، طبَّق مفاصل الكلام بحُسام لسانه ، وقلَّد نُحُور الكلام ، ما يُزْرى بجواهر الملوك من إحسانه . ونشأ فى حُجور الدولة النصرية مُدللاً بمتاته ، متقلبا من العزّ فى أفانينه وأشتاته ، إذ لسَلَفه الذِّمام الذى صفَت[3] منه الحياض

---

(١) هو مؤلف وضعه ابن الخطيب فى تاريخ الدولة النصرية منذ قيامها حتى عصره ، وهو غير كتاب «اللمحة البدرية» الذى يتناول نفس الموضوع . ولم يصل إلينا هذا الكتاب ضمن مؤلفات ابن الخطيب التاريخية (راجع كتابنا لسان الدين بن الخطيب ص ٢٥٠ ، والمجلد الأول من الإحاطة (الطبعة الثانية — ص ٥٨) .

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٣) وردت فى «ج» (بعث) . والتصويب من «الزيتونة» .

والحمام، والوداد الذى قصُرت عنه الأنْداد . والسابقة التى أزْرَى بخبرها العيان، وشهدت بها أرْجُونة[١] وجيّان ، محبِّرْ نمرة الطيب . وله همّة [عالية][٢] ، بعيدة المرمى ، كريمة المنتمى ، حَمَلته بآخرة على الانقباض والازدراء ، والزهد فى الازدياد والاستكثار ، والاقتصاد والاقتصار ، فعطَف على انتجاع غلَّته ، والتزام محلَّته ، ومُباشرة فلاحة صان بها وجْهَه ؛ ووفَّاه الدهر حقَّه ونجمه ، واحتجبت عقايلُ بيانه لهذا العهد وتقنّعت ، وراودتْها النفس فتمنّعت ، وله فكاهة ، وأُنْس الزمان ، مناجاة القينات ، عند البَيات ، وأعذبُ من معاطاة[٣] الرَّاح فى الأقداح » .

شــعره

قال ، [وله أدبٌ بلغ فى الإجادة الغاية][٤] ، ورفع للجبين من السُّنن الرّاية . ومن مقطوعاته يودع[٥] شيخنا الفقيه القاضى أبا البركات بن الحجاج :

رأونى وقد أغرقت فى عَبَراتى   وأحرقتُ فى نارى لدى زَفَراتى
فقالوا سلُوه تعلموا كُنْه حاله   فقلتُ سَلُوا عنى أبا البركات
فمن قال إنى بالرَّحيل مُحْدث   روت عنه أجفانى غريبَ ثبات
ونادى فؤادى رَكْبه فأجابه   ترحَّل وكُن فى القوم بعض عُدات

ومن مقطوعاته البديعة من قصيدة مجازيّة :

سيخطب قسُّ العزم فى منْبر السُّرى   وهل فى الدُّنا[٦] يوم المسير أطيق

---

(١) هى موطن بنى نصر ملوك غرناطة ، وقد سبق التعريف بها .   (٢) الزيادة من «الزيتونة» .
(٣) وردت فى «ج» (معاطب) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» كالآتى : (وله أدب بليغ فى الإجادة بلغ الغاية) .
(٥) وردت فى المخطوطين (يردد) والتصويب أنسب للمعنى والسياق .
(٦) وردت فى المخطوطين (الدنيا) . وبالتصويب يستقيم الوزن .

وأقطع زَند الهَجْر والقَطْع حقُّه   فمازال طيبُ العمر عنى يسترِق

مولده : فى حدود ثمانية وسبعين وستمايه

وفاتـه

فى الموفى عشرين من شهر ربيع الثانى من عام اثنين وخمسين وسبعماية

محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن الحكيم اللخمى

يكنى أبا بكر

أوّليتـه

[مرت][1] فى اسم ذى الوزارتين .

حـاله

من كتاب « عائد الصلة » : « كان صَدْر أبناء أصحاب النِّعم ، وبقيَّة أعلام البيوت ، ترَفَ نشأة ، وعزَّ تربية ، وكرَم نفس ، وطيبَ مجالسة ، وإمتاع محاضرة ، وصحة وفاء ، وشياع مشاركة فى جملة فاضلة . محدِّثا تاريخيا ، كاتباً بليغا ، حسن الخطِّ ، مليح الدُّعابة ، ظريف التوقيع ، متقدم الحيلة[2] فى باب التحسين والتنقيح . يَقْرِض الشعر ، ويَفك المُعمَّى ، ويقوم على جُمل الكتاب العزيز . حفظاً وتجويداً . وإتقانا ، ويسرُد نِتَف التاريخ . وعيون الأخبار ، إلى حُسْن الخلق ، وكمال الأبَّهة ، وحلاوة اليساطة ، واحتمال المُنابَثة .

---

(١) الزيادة من «الزيتونة» .

(٢) وردت فى «ج» (الحيلة) . وفى «الزيتونة» (الحملة) . وبالتصويب يستقيم المعنى .

والمثابرة على حفظ المودة. والاستقالة من الهفوة . والتمسك بالاستعتاب والمعذرة. كتب بالدار السلطانية أكثر عمره . وتصدر بعد فى قيادة المواضع النبيهة ، [محارباً ذا قدرة فى ذلك](١) . ومع ذلك فشايع المعروف، ذايع المشاركة . قيّد الكثير . ودون وصنّف ، وحمل عن الجلّة ممن يشق إحصاؤهم ، وكان غرّة من غرر هذا القطر ، وموكبا من مواكب هذا الأفق ، لم يتخلف بعده مثله .

وجرى ذكره فى « التاج المحلّى » بما نصه : « ماجدٌ أقام رسم المجد بعد عفَايه ، ووفّى الفضل حق وفايه . بيتُه فى رُندة ، أشهر فى الأصالة من بيت امرئ القيس، وأرسى فى بحبوحة الفخر(٢)، من قواعد الرضوى وأبى قبيس . استولى على الجود [البديع](٣) البعيد المدا ، وحجّت إليه من كل فج طلّاب الندا ، وعشت إلى ضوء ناره ، فوجدت على النار التقى والهدى . وولّى الوزارة النصرية ، التى اعتصر منها طريفاً بتالد ، فأحيت مآثرها الخالدة مآثر يحيى بن خالد(٤) . ولما أدار عليها الدهر كأس النوايب ، وخلص إليها سهمه [الصايب](٥) بين صحايف الكتب وصفايح الكتايب ، تطامت من خلالها الرايقة لباب الوجود ، وبكتها بسيل أجفانها عينُ الباس والجود ، وطلع على أعقاب هذه الفضايل

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» كالآتى : (محاربا مقدورا عليه) . والأولى أكثر تمشياً مع المعنى والسياق .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (الفضل) .

(٣) الزيادة من «الزيتونة» .

(٤) هو يحيى بن خالد البرمكى وزير هارون الرشيد . وأحد أعلام أسرة البرامكة الشهيرة ، التى استولت على السلطة فى الدولة العباسية ، واضطر الرشيد إلى نكبتها (سنة ١٨٧ هـ) حرصاً على سلطانه ، وتحررا من قبضتها .

(٥) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

[مُحَلَّى من صفحاتها](١) وأعاد لوساعده الدهر من لَمَحاتها ، وارتقى من الكتابة إلى المحلِّ النَّبيه ، واستحقها من بعض ميراث أبيه ، [وبنى](٢) وشيَّد ، ودوَّن فيها وقيَّد وشهر في كُتُب الحديث وروايته ، وجَنَى ثمرة رِحْلة أبيه ، وهو في حِجْر ذُؤابته(٣). وأنشأ الفهارس ، وأحيى الأثَر الدَّارس ، وألف كتابه المسمى « بالموارد المُسْتَعذبة والمقاصد المُنْتخبة » فَسَرَح(٤) الطَّرْف ، وروضُه طيِّب الجنى والعَرْف ، وله شعرٌ أنيق الحِلْية ، حاز في نمط العِلْية . وبيني وبين هذا الفاضل وداد صافي الحِياض(٥) ، وفكاهة كقِطَع الرِّياض ، ودُعابة سَحبت الدَّالة أذيالها ، وأدارت الثِّقة والمِقَة جريالها . وسيمر في هذا الديوان كل رايق المحيا ، عاطر الريّا .

مشيخته

قرأ على [الأستاذ](٦) أبي جعفر الحريري ، والأستاذ أبي الحسن القِيجاطي ، والأستاذ إسحق بن أبي العاصي . وأخذ عن الطّم والرّم ، من مشايخ المشرق والمغرب . فمنهم الولي الصالح فضل بن فضيلة المعافري ، إلى العدد الكثير من أهل الأندلس ، كالخطباء الصلحاء أبي عبد الله الطَّنجالي ، وأبي جعفر الزيَّاتي ، وأبي عبد الله بن الكمّاد ، وغيرهم من الرُّنديين والمالقيين والغَرْناطيين ، حسبما تضمنه برنامجه .

تواليفه

ألف الكتاب المسمى ، «الفوائد المُنْتَخبة والموارد المُسْتَعْذبة »(٧) . وكَمَّل

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة في «الزيتونة» ، ووردت محرفة في «ج» كالآتي : (بحلى من صباحها) .

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٣) وردت في «ج» (دابته) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٤) هكذا وردت في «ج» . ووردت في «الزيتونة» (فسمح) وهو غريب .

(٥) هكذا وردت في «ج» . وفي «الزيتونة» (الحياطة) .

(٦) الزيادة من «الزيتونة» .

(٧) سبق أن ورد عنوان هذا الكتاب فيما تقدم كالآتي : «الموارد المستعذبة والمقاصد المنتخبة» .

التاريخ المسمى « بميزان العمل » لابن رَشيق . ودوّن كتاباً فى عبارة الرؤيا سماه « بشارة القلوب بما تخبره الرؤيا من الغُيوب » و « الأخبار المُذَهَّبة » و « الإشارة الصُّوفية ، والنُّـكت الأدبية » . والهَوْدج فى الـكتب . والإشارة فى ألف إنشاده .

شعره وكتابته

قال فى التاريخ مانصه : « وتهادته إلى هذا العهد رُتَب السِّيادة ، واستُعْمل فى نبيهات القيادة ، فوُجِّه إلى معقل قرطمة[1] من كورة ريُّه وهو واليه ، وبطاحُه فى مجرى جِياده وصَحرٌ عواليه . وقد حللتُ مالَقة صُحبة الرَّكب[2] السلطانى فى بعض التَّوجُّهات ، إلى تلك الجهات ، فى بعض ما أتحف [من مقعده][3] ، المتصل المستمر ، بهدِّية مشتملة على ضروب من البرِّ . فخاطبته مقيما لسوق[4] الانبساط ، وغير حايدٍ عن الوِداد والاغتباط ، على ما عوّل [عليه][5] من حمل الإفراط ، والانتظام فى هذا المعنى والانخراط :

ألامُ على أخذ القليل وإنما أُعامل أقواماً أقلَّ من الذَّر
فإن أنا لم آخـــذْه منهم فقدتُه ولا بد من شىء يُعين على الدهر

سيدى أطلق الله يدك بما تَمْلك ، وفَتَر عن منحك البُخل لئلاّ تهلك .

(١) وردت فى المخطوطين (قرطبة) وهو تحريف ظاهر ، لأن قرطبة كانت قد سقطت فى أيدى النصارى قبل ذلك بنحو قرن ، ولأنها من جهة أخرى ليست واقعة فى كورة ريه او كورة مالقة . والصواب هو «معقل قرطمة» Cartama . وقرطمة هى بلدة حصينة تقع غربى ثغر مالقة وسط كورة ريه .

(١) هكذا وردت فى «ج» ، وفى «الزيتونة» (الركاب) .

(٣) وردت فى «ج» (ما تفقده) ، والتصويب من «الزيتونة» .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (سوق) .

(٥) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة السياق .

كنت قد هوَّمت(١) ، وحذَّرنى القلق فتلوَّمت . ولَوْمى(٢) كما علمتَ سيءُ الخصال ، عزيز الوِصال . يطُل دَيْنى ويعاف طيره وِرْد عيني . فإذا الباب يدقُّ بحجر ، فأنبأنى عن ضَجَر ، وجارُ الجنب يُؤخذ بالذَّنب . فقمت مُبادراً وجَزِعت . وإن كان الجَزَع منى نادراً . واستفهمتُ من وراء(٣) الغَلْق ، عن سبب هذا القَلَق . فقالت امرأة من سكان البوادى . رابئةُ الفؤاد يا قوم ، رسول خَيْر ، وناعق طَيْر ، وقرعُ إذلال لا فرعُ إدلال . خُطُّوا شعار الحَرْب والحَرَب ، فقد ظفرتم ببلوغ الأرَب ، فتأخرتُ عن الإقدام ، وأنهدْتُ إليه ، نَحن(٤) عمر بن أبي ربيعة عمن كان بالدَّار من الخُدّام . فأسْفَرت الوقيعة عن سلام وسُلم ، ولم يَزِن أحد منا بكلِم . ونظرتُ إلى رجل قرطبى الطَّلعة والأخلاق ، خاوٍ على الإطلاق . تنهّد قبل أن يُسَلِّم ، وارتمض(٥) لما ذهب من الشَّبيبة وتألّم . شَنْشَنة معروفة . وعين(٦) تلك الجهات معاذ الله مصْرُوفة . وقد حمَّلته سيادتكم من المبرَّة ضروباً شتَّى . وتجاوَزْتَ فى المسرّات غاية حتى . ولم تُضع عضواً من جَسَده ، فضلا عن مَنْكبه ويده ، إلاّ علقْتَهْ وعاءً ثقيلا ، وناطَتْ به زَنْبيلا . واستلقى كالمَنيِّ إذا ترك المُعْترك . وعَلَت حوله تلك الأثقال . وتعاورها الانتقال(٧) [وكثُر بالزُّقاق القيلُ والقال . فلما تخلَّصتْ إلى الدار(٨) ، وسترتْ معرقتها بالجدار ، وتناولها

---

(١) وردت فى «ج» (هرمت) والتصويب من «الزيتونة» .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (قومى) والأولى أنسب للمعنى والسياق .

(٣) وردت فى «ج» (دار) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٤) وردت فى «ج» (نحن) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٥) وردت فى «ج» (وارتمط) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٦) وردت فى «ج» (وعن) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٧) ما سيأتى منذ بداية هذه الحاصرة حتى نهايته عند الحاصرة الختامية -- كله ساقط فى «ج» . ووارد فى «الزيتونة» وقد اعتمدنا فى نقله على مخطوط «الزيتونة» دون سواه .

(٨) وردت فى «الزيتونة» (بالدار) والتصويب أنسب للسياق .

الاختبار الفاضح ، وبان قصورُها الواضح ، فتلاشت ، بعد ما جاشَت ، ونظرت إلى قَعْب من اللَّبن الممزوق الذى لا يُستعمل فى البيوت ، ولا يباع فى السُّوق ، فأذكرتني قول الشاعر :

فى تلك المكارم لا قُعبان من لبن   شِيبَت بماء فعادت بعدُ أبوالا

أما زُبْده فرُفع ، وأما جُبْنه فاقتِيت به وانتُفع . وأما من بعثه من فضلاء الخُدَّام فدُفع ، وكأنى به قد ألحّ وصُفع ، والتفت إلى قُفَّة قد خِيطت ، وبعُنق ذاك البايس قد نِيطت ، رَمَّس[1] فيها أفراخ الحمائم ، وقُلِّدت بجيده[2] كما يُتقلد بالتمائم ، وشُدَّ حبلُها بمخنقه ، وأُلزم منها فى العاجل طائرُه فى عنقه ، هذا بعد ما ذُبحت ، وأما حشوها فرُبحت . ولو سلكتم الطريقة المُثْلى ، لحفِظتم جثتها من العفَن ، كما تُحفظ جُثة القتلى ، وأظنكم لم تغفلوا هذا الغرض الأدنى ، ولا أهملتم هذه الهمم الذى غريزة فى المَبْنى . فإنى رميتُ منها اللَّهو رمى المُختبر ، فكلح من مرارة الصبر ، ولما أخرجتُها من كَفَن القفّة ، واستدعيت لمواراتها أهل الصُّفة ، تمثلت تمثّل اللبيب بقول أبى تمام حبيب :

هُنّ الحَمام فإن كسَرْت عِيافة   من حائهنّ فإنهن حِمـــام

ولو أن إحدى الدَّجاجتين لاحت عليها مُخَيِّلة يسر ، لكانت من بقايا مواطى ديوك بنى مُرّ ، وبعث بها حلالُك حلاله . وأهدى منها اجتهاد من أحْسَن . ولم يكن بالهدية ما يُذكر ، ولا كانت مما يُنكر ، أستغفر الله ، فلو لم تكن التُّحفة ، إلا تلك الفكاهة العاطرة والغمامة الماطرة . التى أحسَبُها الأمل الأقصى ، وتجاوزت إلاّ مِن التى لا تُعد ولا تُحصى ، للزم الشكر ووجب ، وبرز من حُرّ المدح ما تيسّر

---

(١) وردت فى «الزيتونة» (رمس) ، وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٢) وردت فى «الزيتونة» (بلبسه) . وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

واحتجب . فالمكارم وإن تغيّرت أنسابُها ، وجُهل انتسابُها . وادُّعى إرثُها واكتسابُها ، إليكم تنشر يدها ، وتسعى لأقدامها ، ولبَيْتكم تميل بهواديها ، وبساحتكم يسيل واديها ، وعلى أرضكم تسحُّ غواديها . ومِثلى أعزكم الله ، لا يُخفى من قدر تُحفكم الحافلة ، ولا يَقْدر من شكرها على فريضة ولا نافلة ، ولكنها دُعابة معتادة ، وفكاهة أصدرتها وِدادة . ولا شك أنكم بما جُبلتم عليه قديماً وحديثاً ، تغتفرون(١) جفائى ، الذى سيّرتموه سَمَراً وحديثاً ، فى جنب وفائى ، وتُغضون وتتحملون ، وبقول الشاعر تتمثلون ، وأسمع من الألفاظ اللغوية التى يُسر بها سمْعى ، وإن ضمنت شتمى ووصفى :

بعثت بشىء كالجفاء وإنما — بعثت بعُذْرى كالمُدلِّ إلى غدر
وقلت لنفسى لا تَرَدعى(٢) فإنه — كما قيل شيء قد يُعين على الدهر
وما كان قدر الوُدِّ والمجد مثله — فخذه على قدر الحوادث أو قَدْرى
وإن كنت لم أحسن صنيعى فإننى — سأحسن فى حُسن القبول له شكرى
وقَدْرُك قدر النيل عندى وإننى — لدى قدرك العالى أدقُّ من الذَّر
قَنَعتُ وحظّى من زمانى وودُّكم — هباء ومثلى ليس يقنع بالنزْر
أتانى كتاب منك باهٍ مبارك — لقيتُ به الآمال باهتة(٣) الثغر
جلا من بَنات الفِكر بكْراً وزفَّها — إلى ناظرى تختال فى حَبْر الحبر
فألفاظها كالزَّهر والزهر يانع — وقَدْرُ المعانى فى الأصالة كالزهر
نجوم معانٍ فى سماء صحيفة — ولكنها تُسرى النجوم ولا تسرى
تضمَّن من نوع الدعابة ما به — رجوتُ الذى قد قيل فى نَشْوة الخمر

---

(١) وردت فى «الزيتونة» (تعدون) . والتصويب أكثر تمشياً مع السياق .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة»

رعى الله مَسْراها الكريم فجلَّ ما ... جَلَتْه من البُشْرى وأبْدَتْ من البِشْر
لعمرى لقد أذكرتنى دوله الصِّبا ... وأهديت لى نوع الجلال من السِّحر
ولما أتتْ تلك الفكاهة غَدْوةً ... وجدتُ نشاطاً سائراليوم فى بِشْرى
ولا سيما إن كان مُلحم بُرْدها ... عميدُ أولى الألباب نادرةُ العصر
نشرتُ بها ماقد طويتُ بِساطَه ... زماناً وبى طىٌّ الأمور مع النشْر
ونعم خليل الخير أنت محافظاً ... على سُنَنِ الإخلاص فى السِّرِّ والجهر
ودونَكَها تلهو بها وتديرها ... سُحَيْرِيّة الأنفاس طيِّبة النَّشر](١)

فراجعنى بقوله :

وقد منّ سيدى الجواب ، محتوياً على العجب العُجاب ، فيالكِ من فكاهة كَوْثَرية المناهل ، عَنْبرية المسايل ، ولو لم يكن إلاّ وصْفُ القرطبِى المستوى(٢) الطَّلعة ، الشُّرَطى الصنْعة . وأما وصف اللبن وفراخ الحمام ، فقد بَسَطتم فى المزاح القول . وامتنعتم فى الكلام الفَصْل . وذلك شيء يعجز عن مُساجلتكم فيه فيه أربابُ البلاغة والبيان ، فكيف بمثْلى ممن له القول المُهَلهل النَّسيج ، الواهى البيان . ولابد من عرْض ذلك على سيدى(٣) القُطْب الكبير الإمام ، وأستاذنا عَلَمَ الأعلام ، وكبير أيمة الإسلام . فيحكم بيننا بحكم الفَصْل . ويُنصف بما لديه من الحق والعدل . وقد كنت أحيد عن مراجعتكم حِيدَة الجبان . وأميل عن ذلك ميلة الكَوَدْن(٤) عن مجاراة السُّمْر الهِجان . وأعدل عن مساجلة أدبكم المتّان . عدول الأعْزَل عن مبارزة جيِّد السِّنان . إلى أن وثقت بالصفح .

---

(١) إلى هنا انتهى ما نقلناه منذ الخاصرة الفاتحة من مخطوط «الزيتونة» . وهو ساقط كله فى «ج» .
(٢) وردت فى «ج» (المشوى) . والتصويب أرجح .
(٣) وردت فى «ج» (سبيل) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٤) هكذا فى المخطوطين . والكودن ، هو البطىء المتثاقل فى مشيته .

وعوّلت على ما لديكم من الإغضاء والسَّمْح ، ووجّهتُ حاملة السّر والظروف ، كي تتصل الهدايا ولا ينقطع المعروف . وأستقيل من انبساط يجرُّ عُذْراً . وأسأله سبحانه وتعالى حمداً يوجب المزيد من إنعامه وشكراً . دام سيدى وآماله مساعدة . والسلامة على فضله واحدة .

ومن شعره فى النُّسك واللّجأ إلى الله تعالى :

أيامن له الحكم فى خَلْقه ومن بِكْرِبى له أشتكى
تولّ أمورى ولا تُسْلمنى وإن أنت أسْلمتنى أهلك
تعاليتَ من مُفْضل[1] منعم ونُزِّهت من طالب مُدْرِك

ومن ذلك ونقلته من خطِّه :

تصبّر إذا ما أدركتك مُلمّة فصُنْعُ إلـه العالمين عجيب
وما يدْرك الإنسان عارٌ بنَكْبَة يُنْكب فيها صاحب وحبيب
ففى مَنْ مضى للمرء ذى العقل أُسوة وعيش كرام الناس ليس يَطيب
ويوشك أن تَهمى سحايب نعمةٍ فيخصُبُ[من][2] ربع السّرور جَديب
إلـهك يا هذا مجيبٌ لمن دعا وكلٌّ الذى عند القريب قريب

مولده : عام خمسة وستين وستماية .

وفـــاته

من « عائد الصلة » . قال ، وختم الله عمره بخير العمل من الإنابة والتهجُّد ، والتزام الورد ، وإن كان مُسْتصحب الخيرية . وحلّ ببلد ولايتهم رُنْدة ، فكانت بها تُرْبته فى الثالث والعشرين لربيع الآخر عام خمسين وسبعماية .

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (فاضل) والأولى أرجح .
(٢) أضيفت هذه الكلمة لاستقامة الشعر والمعنى .

محمد بن محمد بن علي بن العابد الأنصاري

ولد المذكور بعد ، الكاتب بالدار السلطانية .

حاله

من كتاب طُرْفة العصر وغيره ، قال ، [كان](١) كاتباً مشهوراً ، بايغاً ، ذا معرفة ، بارع الخطّ ، أوْحَد زمانه في ذلك ، وقوراً ، معذَب(٢) اللفظ ، منحداً في هوى نفسه ، محارفاً(٣) بحرفة الأدب على جلالة قدره . وكتابته نقيّة ، جانحة إلى الاختصار .

شعره

وثيق تقلّ فيه أرواح المعاني ، كشعر أبيه ، وتوشيحه فائق . تولى كتابة الإنشاء لثاني الملوك النصريين(٤) ، واستمر قيامه(٥) بها على حَجْر شديد من السلطان وتحمل ، لملازمته المعاقرة وانهماكه في البطالة ، واستعمال الخمر ، حتى زعموا أنه قاء يوما بين يديه ، فأخّره عنها ، وقدّم الوزير أبا عبد الله بن الحكيم . وفي ذلك يقول :

أمن عادة الإنصاف والعدل أن أجْفا(٦) ... لأن زعموا أني تحسّيتُها صِرْفا

وأقام بقية عمره تحت رِفْدٍ وبرّ .

---

(١) ساقطة في المخطوطين . وإضافتها لازمة لاستقامة السياق .

(٢) هكذا وردت في المخطوطين ، والمقصود بها (عذب) .

(٣) هكذا وردت في المخطوطين والمقصود بها (محترفا) .

(٤) ثاني ملوك بني نصر هو السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن الأحمر . وقد حكم مملكة غرناطة من سنة ٦٧١ هـ حتى سنة ٧٠١ هـ (١٢٧٢ - ١٣٠٢ م) .

(٥) وردت في «ج» (قيامة) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٦) وردت في المخطوطين (جفا) . والتصويب يستقيم السياق .

وفاته

توفى فى حدود التسعين وستمائة . وكان شيخنا ابن الجيّاب [قد آثره](١) بكُتُبه . وكانت نفيسة أعلاها بخط أبيه رحمه الله .

محمد بن مالك المُرّى الطُّغْنَرى (٢)

من أهل غرناطة ، من ذوى البيتية(٣) والحسب فيها . ذكره الأستاذ(٤) ، فى الكتاب المسمى بالصلة ، والغافقى (٥) ، وغيرها .

حالـــــه

أديب نبيل ، شاعر ، على عهد الأمير عبد الله بن بُلُقّين بن باديس صاحب غرناطة . قال وكان أولا يميل إلى البطالة والراحة . ثم إنه استيقظ من غفلته ، وأقلع عن راحته ، وأجبّ فى توْبته . وكان من أهل الفضل والخير والعلم .

من تواليفه كتابه الشهير فى الفلاحة ، وهو بديع ، سمّاه « زهرة البستان ، ونُزْهة الأذهان » ، عبرة فى الظَّرف . قال ، وجرى له مع سَماجة(٦) ، خليفة

---

(١) وردت فى المخطوطين (فآثره) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) ورد هذا الاسم محرفاً كله فى «ج» كالآتى : (محمد بن ملك الميرى الصعرى) . وكذا فى الزيتونة» (محمد بن ملك المرى الصعرى) والإسم الصحيح هو ما أثبتناه . والطغنرى نسبة إلى (طغنر) . هى قرية من قرى غرناطة ، وقد سبق التعريف بها .

(٣) وردت فى «ج» (البيتمة) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٤) الأستاذ هنا يقصد بها الأستاذ أبو جعفر بن الزبير صاحب كتاب (صلة الصلة) . وقد سبق التعريف به .

(٥) الغافقى يقصد بها هنا ، محمد بن عبد الواحد الغافقى الشهير بالملاحى . وقد سبق التعريف به

(٦) هو من شيوخ قبيلة صنهاجة البربرية . وقد تولى الوزارة لعبد الله بن بلقين أمير غرناطة . وكان وزيراً حازما قوى العزم ، شديد السطوة ، فبرم به عبد الله ، وصرفه بالحسنى ، فسار فى أهله وأمواله إلى المرية ، وعاش فى كنف صاحبها ابن صمادح .

عبد الله بن بلقّين قصة . إذ فاجأه سماجة مع إخوان له ، ولم يَشعروا به ، فأنشده ابن مالك ارتجالا ، وقد أخذ بلجام دابته :

بينما نحن فى المُصَلَّى لساق(١) وجناح العشِىّ فيه جُنوح
إذا أتانا سماجـــةُ يتلألأ رَدّى الشمس من تجليله يوح
فطفِقْنا يقول بعضٌ لبعض أغُبوقٌ شرابُنا أم صَبُوح

قال ، فتكلم الوزير سماجة [باللسان البربرى](٢) مع عبيده ، فرجعوا مسرعين ، ووقف سماجة مع الوزير ابن مالك ، إلى أن أتاه عبيدُه ، بوعاء فيه جملة كبيرة من الدراهم ، تنيف على الثلاثمائة دينار . فقال ادفعوها إليه،وانصرف. وأتاهم العبيد مع الدراهم ، بطعام وشراب . قال ابن مالك ، وذلك(٣) أوّل مال (٤) تأثَّلتُه(٥) .

شعـــره

[ومنه](٦)

صبّ على قلبى هوى لاعج ودبّ فى جسمى ضناً دارج
فى شادنٍ أحمر مُسْتأنـــس لسانُ تَذْكارى(٧) به لاهج
قدُّ نُعـــمان إذا ما مشى وما عسى يفعـــله عالج

(١) وردت فى المخطوطين (نسق) . وبالتصويب يستقيم الوزن والسياق .
(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (باللسان الغربى) .
(٣) وردت فى «ج» (بذلك) والتصويب من «الزيتونة» .
(٤) وردت فى «ج» (ما) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٥) وردت فى المخطوطين (تأثله) . وبالتصويب يستقيم السياق .
(٦) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» . وساقطة فى «ج» .
(٧) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (تذاكرى) .

فقدهُ من رقّــــةٍ مايسٌ ... وردْفه من ثُقله مــايج(١)
عنوان ما فى ثوبه وجهه(٢) ... تَشَابه الداخل والخـارج
فلا تَقِيسوه ببدْرِ الدُّجــى ... ذا مُعْلَم الوجه وذا ســاذج

وقد نسبها بعض الناس لغيره

وفاتـه

قال الأستاذ ، كان حيًّا [سنة] ثمانين وأربعمائة . وأمر أن يكتب على قبره :

ياخليلى عرِّج على قبرى تجد ... من أكلة التُّرب بين جنبى ضريح
خافتُ الصوت إن نطقتُ ولـكن ... أى نطق إن اعتبرت فصيح
أبصَرَت عينى العجايب لـكن ... لما فرّق الموت بين جسمى وروح(٣)

محمد بن على بن محمد [بن عبد الله](٤) بن عبد الملك الأوسى(٥) المدعو بالمُقْرب ، من إقليم الآش(٦)

حـاله

كان حسن النظم والنثر ، ذكيًّا من أهل المعرفة بالعربية والأدب ، موصوفا بجودة القريحة ، والنبل والفِطْنة .

---

(١) هكذا فى «ج» وفى «الزيتونة» (مارج) والأولى أنسب للسياق .
(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» ((جسمه) والأولى أنسب للسياق .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (الروح) .
(٤) الزيادة فى النسبة من «الزيتونة» .
(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (الأسدى) .
(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (لاش) . ولا يوجد فى الجغرافية الأندلسية إقليم بهذا الاسم . ولعل المقصود هنا هو إقليم وادى آش . وقد أورد اسمه على سبيل الاختصار .

ذكره الملاحى: وقال حدثنى قاضى الأحكام بغرناطة، أبو القاسم الحسن بن قاسم، الهلالى صاحبنا. قال، كان الأستاذ أبو عبد الله العقرب جارنا، قد وقع بينه وبين زوجه، زهرة بنت صاحب الأحكام أبى الحسن على بن محمد تنازع؛ فرفعته إلى القاضى بغرناطة، أبى عبد الله بن السماك العاملى، وكنت يومئذ كاتباً له، فرأى القاضى قوته وقدرته على الكلام وضعفها، وإخفاق(١) نظمها، وشفق لحالها. وكان يرى أن النساء ضعاف، وأن الأغلب من الرجال يكون ظالمهن. وكان كثيرا ما يقول فى مجلسه: رُويدك، رفقا بالقَوارير. وحين رأى، [ما صدر عن القاضى من الجَمَل](٢)، فقلت له وأين حلاوة شعرك، والقاضى أديب، يهتز إليه ويرتاح، فطلب منى قرطاساً، وجلس غير بعيد، ثم كتب على البديهة بما نصه:

لله حىٌّ يا أميم حواك ... وحَمائمٌ فوق الغصون حواكِ
غَنَّين حتى خِلتهن عَنَيْنَنى ... بغنائهن فنُحت [فى](٣) مَغْناك
ذكَّرتنى ما كنت قد أنسيتُه ... بخطوب هذا الدهر من ذكراك
أشكو الزَّمان إلى الزَّمان ومن شكى ... صَرْفَ الزمان إلى الزمان فشاكى
يا ابن السَّماك المُسْتَظل(٤) برمحه ... والعُزَّل ترهب ذا السلاح الشاكى
راع الجوار فبيننا فى جوّنا ... حق السُّرى والسير فى الأفلاك

---

(١) وردت فى المخطوطين (اتفاق). وبالتصويب يستقيم المعنى.

(٢) هكذا وردت هذه الجملة فى «الزيتونة». ووردت محرفة فى «ج» كالآتى: (ان القاضى من الحمل).

(٣) هذه الكلمة واردة فى «ج». وساقطة فى «الزيتونة».

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة». وفى «ج» (المستقل). والأولى أرجح.

وابسط إلى الخلق المذنب ببسطة ظَرْف الكرام بعفّة النُّسّاك
وأنا ذاكر إن لم يَفُتْ من لم يَمُتْ فتداركْ ثم داركْ ثم[1] ذاك

ثم دفعها إلى القاضى ، فكتب القاضى بخطه فى ظهر الرقعة : لبَّيك ، لبيك . [ثم أرسلنى][2] أصالح بين العَقْرب وزوجه ، فإن وصل صلحهما إلى خمسين دينارا ، فأنا أؤديها عنه من مالى ، فجمعت بينهما ، وأصلحت بينهما عن تراض منهما ، رحمهما الله تعالى .

محمد بن على بن عبد الله بن على القيسى العرادى[3]

من أهل غرناطة

حاله

كان فتى حسن السَّمت ، ظاهر السكون ، بادى التَّصَوُّن والعفَّة ، دمث الأخلاق ، قليل الكلام ، كثير الحياء ، مليح الخط ، ظريفه ، بادى النَّجابة . أبوه وجَدُّه من تجار سوق العطار ، نُبهاء السوق . نظم الشعر ، فجاء منه بعجب ، استرسالا وسهولة ، واقتداراً ، ونفوذا فى المُطَوَّلات ، فأنفِتْ[4] له من الإغفال ، وجذبتْهُ إلى الدار السلطانية ، واشتدَّت براعته ، فكاد يستولى على الأمر . لولا أن المَنية اخترمته شابا ، فتشكل منه الشعر ، قريعُ إجادة ، وبارع ثُنَيَّة شهرة ، لو انفسح له الأمد .

(١) هذه الكلمة ساقطة فى «الرى وثة» .

(٢) وردت فى «ج» (ثم أرسل عنى) . وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين وقد تكون من عرد عرودا أى قوى واشتد .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين .

مولده : فى ذى الحجة عام أحد وثلاثين وسبعمائة .

وفـــاته

توفى مبطونا على أيام قريبة من إسراعه بغرناطة ، عن سن قريبة من العشرين ، فى عام خمسة وخمسين وسبعمائة . وأبوه أمين العطارين .

محمد بن على بن العابد الأنصارى

يكنى أبا عبد الله ، أصله من مدينة فاس .

حـــــاله

من خطِّ القاضى أبى جعفر بن مَسْعدة ، عَلَم كُتّاب دار الإمارة النَّصرية الغالِبيَّة ، الذى بِنُوره يسْتَصْبحون ، وسراجُهم الذى بإشراقه وبهجته ، ونَهْج مَحْتِدِه يهتدون . رفع لواء الحمد ، وارتدى[1] بالفهم والعلم والحلم . كان رحمه الله إماماً فى الكتابة ، والأدب ، واللغة ، والإعراب ، والتاريخ والفرايض والحساب ، والبرهان عليه [عارفاً بالسِّجلات والتَّوثيق][2] أرْبَى على الموثِّقين من الفحول ، المبَرِّزين فى حِفْظ الشعر ونظمه ، ونسبته إلى قائله حافظاً مبَرِّزاً . درس الحديث ، وحفظ الأحكام لعبد الحق الإشبيلى ، ونسخ الدواوين الكبار ، وضبط كتب اللغة . وقيَّد على كتب الحديث ، واختصر التّفسير للزمخشرى ، وأزال عنه الاعتزال ، لم يفْتَر[3] قط من قراءة أو درس أو نسخ أو مطالعة ، ليله ونهاره .

---

(١) وردت فى المخطوطين (وارند) . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٢) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» . وقد وردت فى «ج» محرفة كالآتى (عارف والسجلات والتوثيق) .

(٣) وردت فى «ج» (يفتن) . والتصويب من «الزيتونة» .

لم يكن في وقته[1] مِثْلُه .

مشيخته

أخذ بفاس عن أبي العباس أحمد بن قاسم بن البقال الأصولي ، وأبي عبد الله بن البيوت المقَّري ، وعن الزاهد أبي الحسن بن أبي الموالي ، وغيرهم .

شعره

ومنه قوله :

طرقَت تَتِيه على الصَّباح الأَبْلج ... حسناء تختال اختيال تَبرُّج

في ليلة قد أَلْبَسَت بظلامها ... [نِضْفاض بُردٍ بالنجوم مُدَبَّج][2]

وشعره مدون كثير .

وفاته

توفي بحضرة غرناطة عام اثنين وستين وسبعمائة [في ذي القعدة منه][3] .

محمد بن هاني بن محمد بن سعدون الأزدي الإلبيري الغرناطي

من أهل قرية سُكون ، يكنى أبا القاسم ، ويعرف بالأندلسي ، وكأنها تفرقة بينه وبين الحكمي أبي نواس .

---

(١) وردت في «ج» (وقتله) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة في «ج» . ووردت في «الزيتونة» كالآتي : (فضفاض النجوم مدبج) .

(٣) هذه العبارة واردة في «ج» وساقطة في «الزيتونة» .

أوّليتـــــه

قال غير واحد من المؤرخين ، هو من ذرية يزيد بن حاتم بن قَبِيصة(١) بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرة ، وقيل من ولد [أخيه](٢) رُوح بن حاتم .

حـــاله

كان من فحول الشعراء ، وأمثال(٣) النظم ، وبرهان البلاغة ، لا يُدرك شأوه ، ولا يُشَقّ غُباره ، مع المشاركة فى العلوم ، والنفوذ فى فكّ المعمّى . خرج من الأندلس ابن سبع وعشرين سنة ، فلقى جوهراً [المعروف بالكاتب مولى المعزّ بن المنصور العُبَيْدى صاحب المغرب](٤) وامتدحه ، وكان لئيما ، فأعطاه مائتى درهم ، فوجَد لذلك ، وقال أما هنا كريمٌ يُقصد ، فقيل بلى ، جعفر بن يحيى بن على بن فلاح بن أبي مروان ، وأبو على بن حمدون ، فامتدحهما(٥) ، ثم اختصّ بجعفر بن يحيى وأبى على ، فبالغا(٦) فى إكرامه ، وأفاضا عليه من [النعم و](٧) الإحسان مالم يمرّ بباله ، وسارت أشعاره فيهما ، حتى أُنشدت للمعزّ العبيدى ، فوجهه جعفر بن على إليه فى جُملة طُرف وتُحف بعث بها إليه ، كان أبو القاسم أفضلَها عنده ، فامتدح [المعز لدين الله](٨) ، وبلغ المعزّ من من إكرامه الغاية . ثم عاد إلى إفريقية ، ثم توجه إلى مصر ، فتوفى بِبَرْقَة .

(١) وردت محرفة فى المخطوطين (فيضة . قبطة) . والصواب ما أثبتناه (عن الوفيات) .
(٢) الزيادة من (الوفيات) .
(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وهى هنا جمع (مثيل) . ومعناها الفاضل .
(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .
(٥) وردت فى المخطوطين (فامتدحهم) ، فاقتضى التصويب .
(٦) وردت فى «ج» (فبلغا) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٧) الزيادة من «الزيتونة» .
(٨) وردت فى المخطوطين (المعز بالله) . والصواب ما أثبتناه .

وجرى ذكره فى « تخْليص الذهب »(١) من تأليفنا بما نصه : « العُقاب الكاسرة ، والصَّمصامة الباترة ، والشَّوارد التى تهادتها الآفاق ، والغايات التى أعجز عنها(٢) السِّباق » .

«وصمته»: وذكره ابن شَرَف فى مقاماته ، قال : وأما ابن هانى محمد ، فهو نَجْدِى الكلام ، سَرْدِى النظام ، إلا أنه إذا ظهرت معانيه ، فى جزالة مبانيه ، رَمى عن(٣) منجنيق لا يؤثر فى النَّفيق . وله غَزَل مَعَرِّى(٤) ، لا عُذْرى ، لا يقنع بالطَّيف ، ولا يُصفع بغير السيف [وقد قدَّه به الذات ، وعُظم شأنه فاحتمل الثواب](٥) ، وكان يَقِف دولته فى أعلى منزلته [ناهيك](٦) من رجل يستعين على صلاح دنياه ، بفساد أُخْراه(٧) ، لرداءة دِينه ، وضَعْف يقينه . ولو عَقِل ما ضاقت عليه معانى الشِّعر ، حتى يستعين عليه بالكفر .

شـــعره

كان أول ما مدح به جعفر بن على قوله :

أحْبِب بتَيَّاك القبـــاب قبابا لا بالحُداة ولا الرَّكاب ركابا
فيها قلوب العاشقين تخالُها عَنَمَاً بأيدى البِيض والعتَّابا

وقال يمدح جعفر بن على من القصيدة الشهيرة :

أليلتُنا إذ أرْسَلت وارداً وحِفاً وباتَتْ لنا الجوزاء فى أُذنها شَنَفَا

(١) هو كتاب «تخليص الذهب فى اختيار عيون الكتب الأدبيات» . وهو من مؤلفات ابن الخطيب التى لم تصل إلينا .
(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (عندها) .
(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (على) .
(٤) هكذا وردت فى المخطوطين .
(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .
(٦) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .
(٧) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (آخرته) .

وبات لنا ساقٌ يقوم على الدُّجى بشمعةِ صُبْحٍ لا تقَطّ(١) ولا تُطفا
أغنُّ غضيضٌ جَفَّف اللين قدَّه وأثقَلَت الصَّهباء أجفانه الوَطْفا
ولم يُبقِ إرعاش المُدام له يداً ولم يُبقِ إعناتُ(٢) التَّثنِّي له عطْفاً
نزيفٌ قضاه السُّكر إلا ارتجاجه إذا كلَّ عنها الخصر حمّلها الرِّدفا
يقولون حِقْف(٣) فوق خَيْزُرانة أما يعرفون الخَيْزُرانة والحِقْفا
جعلنا حَشايانا ثيابَ مُدامنـــا وقدَّت لنا الظَّلماء من جِلْدها لحفا
فمن كبدٍ تُدنى إلى كبدٍ هَوَى ومن شَفَةٍ تُوحى(٤) إلى شَفَة رَشْفا
بِمَيْشك نبِّه كأسه وجفـــونه فقد نبَّه الإبريقُ من بعد ما أغْفا
وقد فكّت الظلماء بعض قيودنا وقد قام جيش الليل للصبح فاصْطَفّا
وولّت نجـــوم للثريا كأنها خواتيم(٥) تبدو فى بَنان يدٍ تَخْفا
ومــــرّ على آثارها دُبرانها كصاحب ودىء كُمِّنَت(٦) خيله خَلْفا
وأقبلت الشِّعرى العبور مُلمّة(٧) بمرْزَمها(٨) اليعْسُوب تجنُبه طرفا
وقد قبّلتها أختهــــا من ورائها لتخرق من ثُمَيّا مَجَرّتها سِجْفا
تخاف(٩) زئير الليث قدَّم نَثْرةً وبربر فى الظَّلماء يَنْسفها نسفا
كأن مُعَـــلّا قُطْبها فارسٌ له لواءان مَرْكوزان قد كره الزَّحفا

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (تغط) . والأولى أنسب للسياق .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (أعبات) وهو تحريف .
(٣) وردت فى المخطوطين (خفف) . وبالتصويب يستقيم السياق .
(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (ترمى) والأولى أنسب للسياق .
(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (خواتم) .
(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (أكت) .
(٧) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (مبلة) .
(٨) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (بمرزامها) .
(٩) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (تخال) .

كأن السِّماكين اللذين تظاهرا ... على لُبَّتَيْه ضامنان له الحَتْفا
فذا رامحٌ يَهْوِى إليه سِنانُه ... وذا أعزلُ قد عضَّ أنمَلَه لَهْفا
[كأنّ قُدامى النَّسر والنَّسر واقع ... قُصِصْن فلم تسم الخوافى له ضَعْفا](١)
كأن أخاه حين دَوَّم طايرا ... أتى دون نصف البَدْر فاختطف النِّصفا
كأن رقيب الليل أجْدَل مَرقب ... يُقَلِّب تحت الليل فى ريشه طَرْفا
كأن بنى نَعْش ونَعْشٍ مُطافل ... بوَجْرة قد أضْلَلْن فى مُهْمَه خِشْفا
كأن سُهاها عاشقٌ بين عُوَّد ... فآونةً يبدو وآونة يخفا
كأن سُهَيلا فى مطالع [أُفقه](٢) ... مفارق إلفٍ لم يجد بعده إلْفا
كأن الهَزِيع الأبنُوسِىّ مُوهنا ... سَرى بالنسيج الخُسْروانى مُلْتَفّا
كأن ظلام الليل إذ مال ميلَة ... صريعُ مُدام بات يَشْرب بها صِرْفا
كأن نجوم الصُّبح خاقان مَعْشر(٣) ... من التُّرك نادى بالنَّجاشى فاستَخْفا
كأن لواء الشمس غُرَّة جعفر ... رأى القِرْن فازدادت طلاقتُه ضِعْفا
[وقد جاشت الظلماء بيضاً صوَارماً](٤) ... ومركوزةً سمرا وفضفاضة زَغْفا
وجاءت عِناق الخيل تَرْدى كأنها ... تخطُّ لنا أقلام آذانها صُحُفا
هنالك تَلْقى جعفراً خَيْر جعفر ... وقد بُدِّلت يُمناه من لينها عنفا
فكاينْ(٥) تراه فى الكريهة عاجلا ... عزيمتُه بَرْقاً وصَوْلته خَطْفا

---

(١) هذا البيت ساقط فى «ج» . ووارد فى «الزيتونة» ، وفى شطرته الثانية بعض التحريف والنقص كالآتى (قصص فلم يستطع ضعفا) .

(٢) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» . وساقطة فى «ج» .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (مشمر) وهو تحريف .

(٤) هكذا وردت هذه الشطرة فى «الزيتونة» . وقد وردت فى «ج» كالآتى (وقد جاشت الدنيا بيضا صوارما) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (كاين) .

وشعره كثير مدوّن ، ومقامه شهير . وفيما أوردناه كفاية . وهو من إلبيرة[١] الأصيلة[٢] .

وفـــاته

قالوا ، لما توجّه إلى مصر ، شرب ببَرقة وسَكِر ونام عُريانا ، وكان البرد شديداً فأفلج[٣] ، وتوفى فى سنة إحدى وستين وثلاثمائة ، وهو [ابن][٤] اثنين وأربعين سنة . ولما بلَغت المعز وفاته ، تأسّف عليه وقال ، هذا رجل كنا نطمع[٥] أن نفاخر به أهل المشرق .

محمد بن يحيي بن محمد بن يحيي بن على بن إبراهيم [بن على][٦] الفسّانى البرجي [الغرناطى] [٦]

يكنى أبا القاسم من أهل غرناطة .

حـــاله

فاضل مُجمع على فضله ، صالح الأبوة ، طاهر النشأة ، بادى الصّيانة والعفّة ،

---

(١) إن رواية ابن الخطيب عن كون ابن هانى من «إلبيرة الأصيلة» (وكان موقعها بجوار غرناطة) تخالف الرواية الجارية من كونه قد ولد ، وفقالا ابن خلكان ، بمدينة إشبيلية (الوفيات ج ٢ ص ٥) . ويلوح لنا أن رواية ابن خلكان هى الأرجح . لأنها أقدم بكثير من رواية ابن الخطيب ، وأقرب لعصر الشاعر .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (الأصلية) والمؤدى واحد .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (ففلج) . والأولى أفضل .

(٤) ساقطة فى «ج» . وواردة فى «الزيتونة» .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (نريد) .

(٦) هذه الزيادة فى النسبة واردة فى «الزيتونة» . ووردت فى هامش «ج» عبارة (ابن يحيى البرجى) .

طرْف فى الخير والحشمة ، صدْرٌ فى الأدب ، جمٌّ المشاركة ، ثاقب الذهن ، جميل العشرة(١) ، مُمتع المجالسة ، حسن الخطّ والشعر والكتابة ، فذٌّ فى الانطباع ، صَنيع(٢) اليدين ، يحكم على الكثير من الآلات العِلمية ، ويجيد تفسير الكتاب . رحل إلى العُدْوة ، [وتوسّل إلى ملكها](٣) ، مُجدِّد الرسم ، ومقام الجلّة ، وعلَم دَسْت الشعر والكتابة [أمير المسلمين](٤) أبي عنان فارس ، فاشتمل عليه ونوّه به ، وملأ بالخير يدَه ، فاقتنى جِدةً وحَظوة وشُهرة ، وذكراً ؛ وانقبض مع استرسال المُلك ، وآثر الراحة ، وجَهَد فى التماس الرِّحلة(٥) الحجازية ، ونبذ الكلّ ، وسلا الخُطّة ، فأسعفه سلطانه بغرضه ، وجعل حَبْله على غاربه ، وأصحبه رسالة إلى النبيِّ الكريم من إنشائه ، متصلة بقصيدة من نظمه ، وكلاهما تعْلن(٦) فى الخلفاء بُعْدَ شأوه ، ورسوخَ قدم عِلْمه ، وعراقة البلاغة ، فى نَسَب خَصْله ، حسبا تضمَّنه الكتاب المسمى « بمُساجلة البَيان » . ولما هلك ووُلِّى ابنه ، قدّمه قاضياً بمدينة مُلْكه(٧) ، وضاعف التّنويه به ، فأجرى الخُطّة ، على سبيل من السّداد والنزاهة . ثم لمّا وُلِّى السلطان أبوسالم عمُّه ، أجراه على الرسم المذكور . وهو الآن بحاله الموصوفة ، مَفْخر من مفاخر [ذلك الباب السلطانى على تعدُّدِ

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (المعاشرة) .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (صبغ) وهو تحريف . وصنيع أى ماهر فى الصنعة .

(٣) وردت مكانها فى المخطوطين هذه العبارة المحرفة (وترسل إلى ملطف) . والتصويب من نفح الطيب .

(٤) الزيادة من النفح .

(٥) وردت فى المخطوطين (الراحة) وهو تحريف . والتصويب من النفح .

(٦) هكذا فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (تعلى) .

(٧) مدينة ملكة ، أى المدينة التى بها مقر ملكه ، وهى مدينة فاس .

مفاخره [(١) يحظى](٢) بكل اعتبار .

شعـــره

[(٣) ثبتَ فى كتاب « نفاضة الجراب » من تأليفنا ، عند ذكر المَدْعَى الكبير بباب ملك المغرب ، ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذِكر من أنشد ليلتئذ من الشُّعَراء مانصه :

وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضى ، جُملة السَّذاجة ، وكرم الخلق ، وطيب النفس ، وخِدْن العافيه ، وابن الصَّلاح والعبادة ، ونشأة القرآن ، المُتحيز إلى حزب السلامة ، المنقبض عن الغُمار ، العَزُوف عن فضول القول والعمل ، جامع المحاسن ، من عقل رصين ، وطَلَب ممتع ، وأدب نقَّادة ، ويدِ صَناع ، أبو القاسم ابن أبى زكريا البرْجى ، فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة الفريدة :

أصغى إلى الوَجْد لما جدَّ عاتبُه	صبٌّ له شغل عمَّن يعاتبــه
لم يُعط للصبر من بعد الفراق يدا	فضَلَّ مَن ظلّ إرشاداً يخاطبه
لولاالنَّوى لم يَبِت حيران مكتئبا	يُغالب الوجد كتْماً وهو غالبه
يستودعُ الليلَ أسرار الغرام وما	تمليه أشجــانه فالدمع كاتبه
لله عصرٌ بشَرْقىِّ الحمى سَمَحت	بالوصل أوقاته لو عاد ذاهــبه
يا جيرة أوْدَعوا إذ ودَّعوا حَرَقا	يُصلى بها من صميم القلب ذائبُه

(١) ما بين الحاصرتين منقول من نفح الطيب . وقد ورد مكانه فى المخطوطين (ذلك السلطان) .

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٣) أورد لنا المقرى فى «نفح الطيب» ترجمة أبى القاسم البرجى نقلا عن كتاب «الإحاطة» . وقد وردت بها بعد كلمة «شعره» النبذة المسطورة ، ثم القصيدة الكبيرة التى نظمها البرجى فى مديح الرسول ، وهى تحتوى على [illegible] و[illegible] بيتاً ، وهذا كله سقط فى المخطوطين . ومن ثم فقد اعتمدنا فى نقلهما على «نفح الطيب» (ج ٣ ص ٤٤٢ - ٤٤٥) .

يا هل ترى تجمع الأيّام فُرْقتنا ... كعهدنا أو يردُّ القلبُ ساكبُه
ويا أُهَيل ودادى والنَّوى قذفٌ ... والقربُ قد أُبهمت دونى مذاهبُه
هل ناقض العهدَ بعد البُعْد حافظُه ... وصادع الشَّمل يوم الشعب شاعِبُه
ويا ربوع الحمى لازلت ناعمةً ... يبكى عهودَكِ مُضْنَى الجسم شاحبُه
يا مَن لقلبٍ مع الأهواء مُنعطفٌ ... فى كل أوْبٍ له شوقٌ يُجاذبه
يسمو إلى طَلَب الباقى بهمّته ... والنفس بالمَيْل للفانى تطالبُه
وفتنة المرء بالمألوف مُعْضِلة ... والأُنس بالإلف نحوا الإلف جاذبُه
أبكى لعهد الصِّبا والشَّيب يضحك بى ... ياللرِّجال سَبَت جِدّى ملاعبه
ولن ترى كالهوى أشجاه سالفُه ... ولا كوعد المُنى أحلاه كاذبُه
وهمّةُ المرء تُغْليه وتُرخِصه ... من عزّ نفْساً لقد عزّت مطالبُه
ما هان كسبُ المعالى أو تناوُلُها ... بل هان فى ذاك ما يلقاه طالبُه
لولا سُرى الفَلَك السّامى لما ظهرت ... آثارُه ولما لاحت كواكبُه
فى ذمّة الله رَكبٌ للعلا رَكِبوا ... ظَهْر السُّرى فأجابتهم نجائبُه
يرمون عَرْض الفلا بالسَّير عن غرض ... طَيَّ السِّجل إذا ما جدّ كاتبه
كأنهم فى فؤاد الليل سِرُّ هوًى ... لولا الضِّرام لما خفّت جوانبه
شدّوا على لهبِ الرَّمضاء وطأتَهم ... فغاص فى لجّة الظَّلماء راسبُه
وكلّفوا الليل من طول السُّرى شططاً ... فخلّفوه وقد شابَتْ ذوائبُه
حتى إذا أبْصَرُوا الأعلام ماثلة ... بجانب الحُرَم المحمىّ جانبُه
بحيث يأمن من مَوْلاه خائفُه ... من ذنبه وينال القصدَ راغبه
فيها وفى طِيبة الغرَّاء لى أمل ... يصاحب القلبَ منه ما يصاحبه
لم أنس لا أنس أياماً بظلّهما ... سقى ثراه عميمُ الغيث ساكبُه
شوقى إليها وإن شطّ المزار بها ... شوقُ المقيم وقد سارت حبائبه

إن ردّها الدهر يوماً بعد ما عبثت ... في الشّمــل منا يداه لا نعاتبه

معاهدُ شرُفت بالمصطفى فلهـــا ... من فضله شرفٌ تعلو مراتبه

محمد المُجْتَبَى الهادى الشّفيع إلى ... ربِّ العباد أمين الوحى عاقبُه

أوْفى الورى ذمماً أسماهم هِمماً ... أعلاهم كرماً جلّت مناقبـــه

هو المُـكْمل فى خَلْق وفى خُلُق ... زَكت حُلاه كما طابت مناسبه

عنايةٌ قبل بدء الخلق سابقة ... من أجلها كان آتيه وذاهبه

جاءت تُبَشّر نا الرُّسُلُ الكرام به ... كالصبح تبدو تباشيراً كواكبه

أخباره سرٌّ عِلْم الأوّلين وسـل ... بِدَيْرِ تَيْماء ما أبداه راهبُـه

تطابق الكونُ فى البُشْرى بمولده ... وطبّق الأرض أعلاماً تجاوبه

فالجنّ تهتف إعلاناً هواتفـه ... والجنّ تقذف إحراقاً ثواقبُه

ولم تزل عصمة التأييد تكنفُه ... حتى انجلى الحقّ وانزاحت شوائبه

سرى وجنح ظلام الليل مُنْسدل ... والنّجم لا يهتدى فى الأفق ساربُه

يسمو لكل سماء منه منفـــرد ... عن الأنام وجبرائيل صاحبه

لمُنْتهى وَقَف الرُّوح الأمين به ... وامتاز قُرباً فلا خَلْقٌ يُقاربه

لقابَ قوسين أو أدنى فما علمت ... نَفْسٌ بمقدار ما أولاه واهبه

أراه أسرار ما قد كان أوْدعه ... فى الخَلْق والأمرِ باديه وغائبه

وآب والبدرُ فى بحر الدُّجى غرقٌ ... والصبح لمّا يؤب للشرق آيبُه

فأشرقت بسَناه الارضُ واتّبعت ... سُبُل النجاة بما أبدت مذاهبه

وأقبل الرُّشد والتاحت زواهره ... وأدْبَر الغىّ فانجابت غياهبه

وجاء بالذكـــر آياتٍ مفصلةً ... يهدى بها من صراط الله لاحبُه

نورٌ من الحِكَم لا تخبو سواطعه ... بَحْرٌ من العلم لا تفنى عجائبُه

له مقام الرّضا المحمود شاهده ... فى موقف الحشر إذ نابت نوائبه

والرُّسل تحت لواء الحمد يقدمُها محمدٌ أحمد السامى مراتبه
له الشفاعات مقبولاً وسائلها إذا دهى الأمر واشتدت مصاعبه
والحوض يروى الصدى من عَذْب مورده لا يشتكى غُلَّة الظمآن شاربه
محامد المصطفى لا ينتهى أبدا تَعْدادُها هل يعُدُّ القَطْر حاسبه
فضلٌ تكفل بالدارين يوسِعُها نُعْمى ورُحْمى فلا فضلٌ يناسبه
حسبى التوسلُ منها بالذى سَمَحت به القوافى وجلتها غرائبه
حيَّاه من صلوات الله صَوْبُ حياً تُحْدِى إلى قبره الزاكى نجائبه
وخلَّد الله مُلْك المستعين به مؤيد الأمر منصوراً كتائبُهُ
إمام عدل بتقوى الله مشتمل فى الأمر والنهى يُرضيه يُراقبه
مسدَّدُ الحكْم ميمونٌ نقيبتُه مظَفَّر العزم صِدْق الرأى صائبه
مشمِّرٌ للتقى أذيال مجتهـــد جرَّارُ أذيال سحب الجود ساحبه
قد أوسعت أمل الراجى مكارمُه وأحسَبت رغبة العافى رغائبه
وفاز بالأمن مجبوراً مسالمه وباء بالخزى مقهوراً مُحاربه
كم وافدِ آمـــلٍ معهودَ نائله أثنى وأثنَت بما أولى حقائبهُ
ومستجير بعـــزٍّ من مَثابته عزَّت مراميه وانقادت مآربه
وجاءه الدهر يَسْترضيه مُعتذراً مُستغفراً من وقوع الذنب تائبه
لولا الخليفةُ إبراهيم لانبهمت طرق المعالى ونال الملك غاصبهُ
سَمَتْ لنيل تراث المجد همتُه والملكُ ميراث مجدٍ وهو عاصبه
يُنميه للعزِّ والعَلْيا أبو حسن سَمْح الخلائق محمودٌ ضرائبه
من آل يعقوب حَسْبُ الملك مفتخراً بباب عزِّهم السامى تعاقبه
أطواد حِلْمٍ رسا بالأرض محتِدُه وزاحمت مَنْكِب الجوزا مناكبُه
تحفها من مَرِين أبحرٌ زَخَرَت أمواجها وغمامٌ ثار صائبه

بكل نجم لدى الهيجاء ملتهبٌ … ينقضُّ وسط سماء النقْع ثاقبه
أكُفُّهم فى دياجيها مطالعُهُ … وفى نحُور أعاديهم مغاربُهُ
ياخير من خَلُصت لله نيتُه … فى المُلْك أو خَطَب العلياء خاطبه
جرّدت والفتنةُ الشّعواء مُلْبِسة … سيفاً من العزم لا تنبو مضاربه
وخُضْتَها غير هيّاب ولا وَكِلٍ … وقلما أدرك المطلوب هائبه
صبَّرت نفساً لعُقْبي الصبر حامدةٌ … والصبر مذ كان محمودٌ عواقبه
فليَهْنِ دينُ الهدى إذ كنت ناصرُه … أمنٌ يواليه أو خوفٌ يجانبه
لا زال ملكك والتأييد يخدمه … تقضى بخفض مُناويه قواضبُهُ
ودمتَ فى نِعَم تضفوا ملابسُها … فى ظلِّ عزٍّ علاً تصفو مشاربه
ثم الصلاة على خير البرية ما … سارت إليه بمشتاق ركائبه][1]

ومن شعره ما قيّده لى بخطه صاحب قلم الإنشاء بالحضرة المَرِينية[2]، الفقيه الرئيس الصدر المتفنن [أبو زيد بن خلدون][3].

صحا القلب عما تعلمين فأقلعا[4] … وعطّل من تلك المعاهد أرْبُعا
وأصبح لا يلوى على حدِّ منزل … ولا يَتْبع الطّرف الخليّ المُودِّعا
وأضحى من السُّلوان فى حِرز مَعْقِلِ … بعيدٌ على الأيام أن يتضعضعا
[يرد الجفان النُّجْل عن شُرُفاته … وإن لحظت عن كل أجيَدَ أتْلَعا][5]

(١) إلى هنا تم ما نقلناه عن «نفح الطيب» مما نقله بدوره عن «الإحاطة» فى ترجمة أبى القاسم البرجى خاصاً بشعره ، وهو كذلك مما دونه ابن الخطيب بكتابه «نفاضة الجراب» . وكل ذلك حسبما قدمنا ساقط فى مخطوطى «ج» و«الزيتونة» . ونعود بعد ذلك لاستئناف النقل عن المخطوطين .

(٢) الحضرة المرينية أو حاضرة بنى مرين ، هى ضحية مدينة فاس المسماة «بالبلد الجديد» .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى «ج» . وورد فى «الزيتونة» والنفح .

(٤) هكذا فى «ج» والنفح وفى «الزيتونة» (فأقنعا)

(٥) هكذا ورد هذا البيت فى «النفح» . وقد ورد محرفا فى المخطوطين على النحو الآتى :

(يرى الحيوان الخل من شرفاته … وإن لحظت عن كل أجيد املعا — ملعد) .

عزيز على داعى الغرام انقيادُه   وكان إذا ناداه[1] للوَجْد أهْطَعا
أهاب به للشَّيب أنصحَ واعظٍ   أصاخ له قلباً مُنيباً ومَسْمعا
وسافر فى أفق التفكر والحِجا   زواهرُه لا تبرح[2] الدهر طُلَّعا
لعمرى لقد انضَيْتُ[3] عزمى تطلُّباً   وقضيت[4] عُمْرى رُقْية وتطلعا
وخُضْت عُباب البحر أخضرَ مُزْبدا   ودُسْت أديم الأرض أغبرَ أسْفَعا

ومن شعره حسبما قيده المذكور :

نهاه النُّهَى بعد طول التجارب   ولاح له منهج الرُّشد لاحِب
وخاطبه دهْره ناصحــــاً   بألسنة الوعظ من كل جانب
فأضحى إلى نصحــــه واعياً   وألْغَى حديث الأمانى الكواذب
وأصبح لا تَسْتبيه الغـــوانى   ولا تَزْدريه حظوظُ المناصب

وإحسانه كثير فى النظم والنثر ، والقُصار والمطولات . واستعمل فى السفارة إلى ملك مصر [وملك][5] قَشْتالة ، وهو الآن قاضى مدينة فاس ، نسيجُ وحده ، فى السلامة والتخصيص ، واجتناب فضول القول والعمل ، كان الله له .

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد ابن يوسف [بن محمد][6] الصَّريحى

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن زَمْرك . أصله من شرق الأندلس ، وسكن سلفهُ رَبَض البَيَّازين من غرناطة ، وبه[7] وُلد ونشأ ، وهو من مفاخره[8] .

---

(١) وردت فى «ج» أنداه . والتصويب من «الزيتونة» والنفح .
(٢) هكذا وردت فى «ج» و «النفح» . وفى «الزيتونة» (يرتجى) .
(٣) هكذا فى «الزيتونة» والنفح وفى «ج» أمضيت (٤) هكذا فى «ج» و «النفح» وفى «الزيتونة» وقطعت
(٥) الزيادة من النفح :   (٦) هذه الزيادة فى النسبة واردة فى «الزيتونة» .
(٧) هكذا فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (وبها) .. والظاهر أن الإحالة هنا على غرناطة .
(٨) هكذا فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (مفاخرها) . والإحالة هنا على غرناطة .

حاله

هذا الفاضل صدرٌ من صدور طلبة الأندلس وأفراد نُجبَائها ، مختصٌ ، مقبول، هشٌ ، خَلوب، عذب الفكاهة، حلو المجالسة حَسَن التوقيع ، خفيف الروح، عظيم الانطباع ، شَرِه المذاكرة، فَطِن بالمعاريض ، حاضر الجواب، شُعْلة من شعل الذكاء ، تكاد تَحْتَدِم(١) جوانبه ، كثير الرقة، فكِه ، غَزِل ، مع حياء وحشمة ، جوادٌ بما فى يده ، مشارك لإخوانه . نشأ عفّاً ، طاهراً ، كَلِفاً بالقراءة ، عظيم الدُّؤوب ، ثاقب الذهن ، أصيل الحفظ ، ظاهر النبل ، بعيدٌ مدى الإدراك، جيِّد الفهم ، فاشتهر فضله ، وذاع أَرَجُه(٢)، وفشا خبره ، واضطَّلع بكثير من الأغراض، وشارك فى جُملة(٣) من الفنون ، وأصبح [مُتَلَقِّف كُرَة](٤) البحث، وصارخ الحَلْقة(٥) وسابق الحَلْبة ، ومظنّة الكمال . ثم ترقى [فى](٦) دَرَج(٧) المعرفة والاضطِّلاع ، وخاض لُجَّة الحفظ ، وركض قلم التَّقييد والتَّسويد والتعليق، ونصب نفسه للناس ، متكلماً فوق الكرسى [المنصوب](٨) وبين الحَفْل المجموع ، مُستظهِرا بالفنون التى بَعُد فيها شأوُه ، من العربية والبيان واللغة ، وما يقذف به [فى] لُج النقل ، من الأخبار والتفسير . متشوِّفاً مع ذلك ، إلى السُّلوك ، مصاحباً للصُّوفية ، آخذاً نفسه بارتياضٍ ومجاهدة ، [ثم عانى الأدب ، فكان أَمْلك به ، وأعمل الرِّحلة

---

(١) هكذا فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (تنحرم) وهو تحريف .

(٢) وردت فى المخطوطين (رجله) والتصويب من النفح .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح (كثير) .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . وقد وردت محرفة فى المخطوطين كالآتى (متقلب من كثرة) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» وفى النفح . ووردت فى «الزيتونة» (الحلقة) .

(٦) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٧) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» والنفح (درجة) والأولى أرجح .

(٨) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى النفح .

فى طلب العلم|(١) والازدياد ، وترقّ إلى الكتابة ، عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب ، أبى سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبى الحسن على بن عثمان ابن يعقوب ، ثم عن السلطان ، وعرف [فى] باب الإجادة . ولما جرت الحادثة على | السلطان|(٢) صاحب الأمر بالأندلس ، واستقرّ بالمغرب ، أنُس به ، وانقطع إليه ، وكرّ صحبة رِكابه ، إلى استرجاع حقه ، فلُطف منه محلُّه ، وخصّه بكتابة سرّه . وثابت الحال ، ودالت الدولة ، وكانت له الطايلة (٣) ، فأقرّه(٤) على رسمه ، معروف الانقطاع والصاغية ، كثير الدالة ، مضطّلعا بالخُطّة ، خطًّا وإنشاءً ولسنًا ونقداً ، فحسُن منابُه ، واشتهر فضله ، وظهرت مشاركته ، وحسُنت وساطته(٥) ووسع الناس تخلّقه ، وأرضى السلطان حمْله(٦) . وامتد فى ميدان النثر والنظم باعُه ، فصدر عنه [من المنظوم](٧) فى أمداحه ، قصائد [بعيدة الشأو](٨) فى مدَى الإجادة ، حسبما يشهد بذلك ، ما تضمّنه اسم السلطان أيّده الله فى أول حرف الميم ، فى الأغراض المتعددة من القصائد والميلاديّات ، وغيرها . وهو بحاله الموصوفة [إلى الآن](٩) . أعانه الله وسدده .

شيوخه

قرأ العربية على الأستاذ رُحلة الوقت(١٠) فى فنّها أبى عبدالله بن الفخّار [ثم](١١)

---

(١) ما ورد بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . ووارد فى النفح .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين ، وواردة فى النفح .

(٣) وردت فى المخطوطين (طايلة) . والتصويب من النفح .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «النفح» . ووردت فى «ج» (فأقر له) وهو تحريف .

(٥) هكذا فى «ج» والنفح . ووردت فى «الزيتونة» (واسطته) .

(٦) هكذا وردت فى «الزيتونة» والنفح . ووردت فى «ج» (جملة) .

(٧) هذه العبارة واردة فى النفح . وساقطة فى المخطوطين .

(٨) هذه العبارة واردة فى «ج» وفى النفح . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٩) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح (إلى هذا العهد) .

(١٠) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» . وفى النفح (المغرب) .

(١١) الزيادة من النفح .

على إمامها القاضى الشريف . إمام الفنون اللِّسانية ، أبى القاسم محمد بن أحمد الحسنى ، والفقه والعربية على الأستاذ المفتى (١) أبى سعيد بن لُب ، واختص بالفقيه الخطيب الصَّدر المحدِّث أبى عبد الله بن مرزوق ، فأخذ عنه كثيراً من الرِّواية ، ولقى القاضى الحافظ أبا عبد الله المقَّرى عندما قدم رسولا إلى الأندلس وذاكره ، وقرأ الأصول [الفقهية] (٢) على أبى على منصور الزَّواوى ، وروى عن جملة ، منهم القاضى أبو البركات بن الحاج ، والمحدِّث أبو الحسن بن التلمسانى ، والخطيب أبو عبد الله بن اللوشى ، والمقرىء أبو عبد الله بن بيبش . وقرأ بعض الفنون [العقلية] (٣) بمدينة فاس على الشَّريف الرُّحلة الشهير أبى عبد الله [العَلَوى] (٤) التِّلمسانى [واختص به اختصاصاً لم يخلُ فيه من إفادة مران ، وحُنكة فى الصِّناعة] (٥) .

شعره

وشعره مترام إلى نمط (٦) الإجادة ، خفاجى (٧) النَّزعة ، كَلِف بالمعانى البديعة ، والألفاظ الصَّقيلة ، غزير المادة . فمنه فى غرض النَّسيب :

رضيتُ بما تَقْضى علىّ وتحكُم ... أُهان فأقصى أم أُصافى فأُكْرَم

إذا كان قلبى فى يديك قيادُه ... فمالى عليك فى الهوى أتحكَّم

على أن رُوحى فى يديك بقاؤُه ... بوَصْلك يحيى أو بهجرك يُعدم

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين وفى النفح .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى النفح .

(٣) الزيادة من النفح .

(٤) الزيادة من النفح .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» وفى «النفح» وساقط فى «الزيتونة» .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «النفح» (هدف) .

(٧) وردت فى المخطوطين (خفاجيد) . والتصويب من النفح .

وأنت إلى المُشْتاق نارٌ وجنَّة ... ببُعدك يَشْقى أو بقُربك يَنْعم
ولى كَبِد تَنْدى إذا ما ذُكِرتم ... وقلبٌ بنيران الشوق(١) يَتَضَرَّم
ولوكان ما بى منك بالبرق ما سَرى ... ولا استصحب الأنواء تبكى وتَبْسُم
أراعى نجوم الأفْق فى اللَّيل ما دَجَى ... وأقْرب [من عينىّ للنوم](٢) أنجم
ومازلت أخفى الحبّ عن كل عاذل ... وتُشْفى دموع الصَّبّ ما هو يَكتم
كأنى الهوى ثوب السِّقام وإنه ... متى صحَّ حبُّ المرء لا شىء يُسْقم
فيامَنْ له العقل الجميل سجيَّة ... ومن جُود يمناه الحيا يَتعلم
وعنه يُروّى الناس كلَّ غريبة ... تُخَطُّ على صفح الزمان وتُرسم
إذا أنت لم تَرحم خضوعى فى الهوى ... فمن ذا الذى يَحْنى(٣) علىّ ويرحم
وحلمك حِلْمٌ لا يليق بمذنب ... فما بال ذنبى عند حِلْمك يعظُم
ووالله ما فى الحىِّ حىٌّ ولم ينل ... رضاك وعمَّته أياد وأنعم
ومن قبل ما طوّقتنى كل نعمة ... كأنىِّ وإياها سِوار ومِعْصَم
وفتَّحتَ لى باب القَبول مع الرضى ... [يغضُّ الحىُّ طرفى كأنى مُجرم](٤)
ولو كان لى نفس تخونك فى الهوى ... لفارقتُها طوعاً وما كنت أندم
وأترك أهْلى فى رضاك إلى الأسى ... وأُسلم نفسى فى يديك وأسلم
أما والذى أشْقَى فؤادى فى الهوى ... وإن كان فى تلك الشَّقاوة يَنْعُم

---

(١) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» (التشوق).

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة». ووردت فى «ج» (من نومى للعين). والأولى أنسب للوزن والسياق.

(٣) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» (يحنو).

(٤) هكذا وردت هذه الشطرة فى «ج». ووردت فى «الزيتونة» كالآتى: (فمابال ذاك الباب دونى مبهم).

لأنت من قلبي ونزهةُ خاطري ومورد آمالي وإن كنتُ أُحْرَم (١)

[ومن ذلك ما خاطبني به ، وهي من أول نظمه ، قصيدةٌ مطلعها : «أما وانصداع النُّور في مطلع الفجر» وهي طويلة(٢) . ومن بدائعه التي عَقُم عن مثلها قياسُ قيس ، واشتهرت بالإحسان اشتهار الزُّهد بأُوَيس ، ولم يحل مُجاريه ومُباريه إلا بويح وويس ، قوله في إعذار الأمير ولدِ سلطانه المنوَّه بمكانه ، وهي من الكلام الذي عُنيت الإجادة بتَذْهيبه وتهذيبه ، وناسب الحسن بين مديحه ونَسيبه :

معاذ الهوى أن أصحبَ القلب ساليا وأن يُشْغِل اللوّام بالعذل باليا

دعاني أعْطِ الحبَّ فضل مقادتي ويقضي عليَّ الوجدُ ما كان قاضيا

ودون الذي رام العواذلُ صَبْوةٌ رَمَتْ بي في شُعْب الغرام المراميا

وقلبٌ إذا ما ابرق أوْمض موهِناً قدحتُ به زَنداً من الشوق واريا

خليليَّ إني يوم طارقة النَّوى شَقَيت بمن لو شاء أنعُم باليـا

وبالخيف يوم النَّفر يا أمَّ مالك تخلفت قلبي في حِبالك عانيا

وذي أشر عَذْب الثَّنايا مخصر يَسْقى به ماء النعيم الأقاحيـا

أحُوم عليه ما دَجى الليل ساهرا وأصبح دون لِوِرْد ظمآنَ ضاريا

يضيء ظلام الليل ما بين أضْلُعي إذا البارق النَّجدي وهنا بدا ليا

(١) وردت هذه القصيدة في «ج» ولم ترد في «نفح الطيب» . ومن جهة أخرى فإن ترجمة ابن زمرك التي ينقلها إلينا المقرى في نفح «الطيب» من «الإحاطة» تتضمن عدة قصائد طويلة لم ترد في «المخطوطين» . وقد رأينا أن نتتبع نص الترجمة في «نفح الطيب» ، وأن نورد من هذه القصائد أجزاء فقط لأنها من المطولات . ثم نعود بعد ذلك فنتتبع نص المخطوطين .

(٢) يقول في هذه القصيدة بعد أبيات :

لك الله فذ الجلالة أوحد تطاوعه الآمال في النهى والأمر

أجيرتَنا بالرَّمل والرَّمل منزل ... مضى العيش فيه بالشَّبيبة حاليا
ولم أر ربْعا منه أقضَى لبـانة ... وأشْجَى حمَاماتٍ وأحلى مَجانيا
سقت طلَّه الغر الغوادى ونَظَمَت ... من القَطْر فى جيد الغصون لآليا
أبشكم أنِى على النَّأى حافــظٌ ... ذِمام الهوى لو تحفظون ذماميا
أناشدكم والحُرُّ أوفى بعهــده ... ولن يَعْدَم الخير والأحسان جازيا(١)

وورد على السلطان أبى سالم ملك المغرب رحمة الله تعالى عليه وفدُ الأحابيش بهدية من ملك السودان ، ومن جملتها الحيوان الغريب المسمى بالزَّرافة ، فأمر من يعانى الشعر من الكُتّاب بالنظم فى ذلك الغرض ، فقال وهى من بدائعه :

لولا تألُّق بارق التَّذكار ... ما صاب واكف دمعى المدْرار
لكنه مهما تعرَّض خافقاً ... قَدَحت يد الأشواق زَنْد أُوارى
وعلى المَشُوق إذا تذكر معهداً ... أن يُغرى الأجفان باستعْبار
أمذكرى غرناطة حلَّت بها ... أيدى السحاب أزرَّة النُّوار
كيف التخلُّص للحديث وبيننا ... عَرْض الفلاة وطافح زخَّار
وغريبةٌ قطعت إليك على الونى ... بيداً تبيدُ بها همومُ السَّارى
تُنسيه طِيَّته التى قد أمَّها ... والرَّكب فيها ميِّت الأخبار
يقتادُها من كل مُشتمل الدُّجى ... وكأنما عيناه جذوةُ نار
خاضوا بها لُجَج الفَلا فتخلَّصت ... منها خلوص البَدْر بعد سَرار
سَلِمت بسعدك من غوائل مثلها ... وكفى بسعدك حامياً لذمار
وأتتك يامَلك الزمان غريبةً ... قَيْد النَّواظر نزهة الأبصار
مَوْشيَّة الأعطاف رائقة الحُلى ... رقَمَت بدائعها يد الأقدار

(١) تقع هذه القصيدة فى أربعة وثمانين بيتا . وقد وردت فى نفح الطيب ج ٤ ص ٢٧٥ ، ٢٧٨ .

راق العيون أديمها فكأنه روض تفتح عن شقيق بهار
ما بين مبيض وأصفر فاقع سال اللجين به خلال نضار
يحكى حدائق نرجس فى شاهق تنساب فيه أراقم الأنهار(١)

وأنشد السلطان فى ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب ما فرغ من البنية الشهيرة ببابه رحمه الله تعالى .

تأمل أطلال الهوى فتألما وسيما الجوى والسقم منها تعلما
أخو زفرة هاجت له منه ذكرة فأنجد فى شعب العزام وأتهما

وأنشد السلطان فى وجهة للصيد أعملها ، وأطلق أعنة الجياد فى ميادين ذلك الطراد وأرسلها قوله :

حياك يا دار الهوى من دار نوء السماك بديمة مدرار
وأعاد وجه رباك طلقاً مشرقاً متضاحكاً بمباسم النوار
أمذكرى دار الصبابة والهوى حيث الشباب يرف غصن نضار
عاطيتنى عنها الحديث كأنما عاطيتنى عنها كؤوس عقار
إيه وإن أذكيت نار صبابتى وقدحت زند الشوق بالتذكار
يا زاجر الأظعان وهى مشوقة أشبهتها فى زفرة وأوار
حنت إلى نجد وليست دارها وصبت إلى هندية والقار
شاقت به برق الحمى واعتادها طيف الكرى بمزارها المزوار(٢)

ومن شعره فى غير المطولات :

---

(١) تقع هذه القصيدة فى نحو تسعين بيتاً . وقد وردت مع الاختصار فى نفح الطيب ج ٤ ص ٢٧٨ — ٢٨٠ .

(٢) تقع هذه القصيدة فى أربعة وسبعين بيتاً . وقد وردت فى نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٠ — ٢٨٣ . وإلى هنا ينتهى ما أورده نفح الطيب من مطولات ابن زمرك . ومن بعدها نستأنف تدوين نص المخطوطين .

لقد زادنى وجداً وأغرى بى الجوى ... ذبالٌ بأذيال الظلام قد التفّا
تُشير وراء الليل منه [بنانةٌ](١) ... مُخضّبة والليل قد حجب الكفّا(٢)
تلوح سناناً حين لا تنفح(٣) الصّبا ... وتبدو سواراً حين تُثنى له العطفا
تطعنُ به ليلا يُطارحنى الجوى ... فآونةً يبدو وآونة يَخْفى
إذا قلت لا يبدو أشال لسانَه ... وإن قلت [لايخبو الصّبابة إذ لفّا](٤)
إلى أن أفاق الصبح من غَمْرة الدجى ... وأهدى نسيم الروض من طيبة عرفا(٥)
لك الله يا مصباح أشْبهت مُهجتى ... وقد شفّها من لوعة الحب ما شفّا

[ومما ثبت له فى صدر رسالة :

أرور بقلبى معهد الأُنْس والهوى ... وأنهبُ من أيدى النسيم رسائلا
ومهما سألتُ البرق يهفو من الحِمَى ... يبادره دمعى مجيباً وسائلا
فياليت شعرى والأمانى تَعَلُّل ... أيرعى لى الحىّ الكرام الوسائلا
وهل جيرَتى الأولى كما قد عَهِدتُهم ... يوالون بالإحسان من جاء سائلا](٦)

ومن أبياته الغراميات(٧) :

قيادى(٨) قد تملّكه الغرام ... ووَجْدى لا يطاق ولا يُرام

---

(١) الزيادة من النفح .
(٢) هذا البيت وارد فى «ج» وفى النفح . وساقط فى الزيتونة .
(٣) هكذا وردت فى «ج» والنفح . ووردت فى «الزيتونة» (تفتى) .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» و «الزيتونة» . ووردت فى النفح كالآتى (لا يخفى الضياء به كفا) .
(٥) هذا البيت وارد فى «الزيتونة» وفى النفح . وساقط فى «ج» .
(٦) لم يرد هذا الشعر فى المخطوطين ، ونقلناه عن نفح الطيب .
(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» وفى النفح . ووردت فى «الزيتونة» كالآتى (ومنه مثل ذلك) .
(٨) هكذا وردت فى «ج» والنفح وفى «الزيتونة» (فؤادى) .

ودمعى دونه صوب الغوادى ... وشَجْوى فوق ما يَشْدو الحمام
إذا ما الوَجْد[1] لم يَبْرح فؤادى ... على الدُّنيا وساكنها السّلام

وفى غرض يظهر من الأبيات :

ومُشْتمل بالحسن أحْوى مهفهف ... قضى رجعُ طَرْفى من محاسنه الوَطر
فأبصرت[2] أشباه الرياض محاسناً ... وفى خدِّه جُرح[3] بدا منه لى أثر
فقلت لجلاّسى خذوا الحَذَر إنما ... به وَصَبٌ من أسهم الغنج والحَوَر
ويا وجنةً قد جاورت سيف لحظه ... ومن شأنها تُدمى من [اللّمح بالبَصَر] [4]
تُخَيِّل للعينين جُــرحاً وإنمـا ... بدا كَلَف منه على صفحة القمر

ومما يرجع إلى باب الفخر ، ولعمرى لقد صدق فى ذلك :

يا لايمى[5] فى الجود والجودُ شيمتى ... جُبلت على آثارها يوم مولدى[6]
ذَرينى فلو أنّى أخَــلَّد بالغنى ... لكنتُ ضنيناً بالذى مَلَكت يدى

ومن مقطوعاته :

لقد علم الله أنّي امــرؤ ... أجرُّ ثوب العفاف القَشيب
فـكم غَمض الدهر أجفــانه ... وفازت قِداحى بوصل الحبيب
وقيل رقيبُك فى غفــلة ... فقلت أخاف الإلـه الرّقيب

(١) وردت فى المخطوطين (الجد) . والتصويب من النفح .
(٢) وردت فى المخطوطين (فأبصر) والتصويب من النفح .
(٣) هكذا وردت فى «النفح» . ووردت فى المخطوطين (حسن) والأولى أرجح .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى «النفح» ووردت فى المخطوطين (اللحظ والبصر) والأولى أرجح
(٥) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «النفح» (ألائمة) .
(٦) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «النفح» . ووردت فى «ج» (مولود) وهو تحريف .

[وفى مدح كتاب الشفا(١) طلبه الفقيه أبو عبد الله بن مرزوق عندما شرع فى شرحه :

ومَسْرَى رِكاب للصَّبا قد وَنَت به نجائبُ سُحْب للتراب نزوعها
تسلُّ سيوف البرق أيدى حُداتها فتنهل خوفاً من سَطاها دموعُها

ومنها :

ولا مثل تعريف الشِّفاء حقوقه فقد بان فيه للعقول جميعهـــا
بمرآة حُسْن قد جَلَتْها يد النهى فأوصافه يَلْتاح فيه بديعُهـــا
نجوم اهتداء والسداد يجُنها وأسرار غَيْب واليراع تُذيعها
لقد حُزت فضلا ياأبا الفضل شاملا فيُجزيك عن نصح البرايا شفيعُها
ولله ممن قد تصـــدّى لشرحه فلبّاه من غرّ المعانى مطيعهـــا
فكم مُجمل فصّلت منه وحكمة إذا كتَمَ الإدماج منه تُشيعهـــا
محاسن والإحسان يبدو خلالها كما افترَّ عن زَهر البِطاح ربيعها
إذا ما أصُول المرء طابت أرُومةً فلا عجب أن أشْبَهتهـا فروعُها
بقَيت لأعلام الزمان تُنيلهـــا هُدًى ولأحداث الخطوب ترُوعها](٢)

ومما امتزج فيه نثره ونظمه ، وظهر فيه أدبه وعلمه ، قوله يخاطبنى جواباً عن رسالة خاطبت بها الأولاد ، وهم مع مولانا أيده الله بالمُنَكَّب :

مالى بحمل الهوى يدان(٣) من بعد ما أعوز التّدانى
أصبحت أشكو من زمان ما بتُّ منه على أمان

---

(١) هو كتاب «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» وهو أشهر كتب الحافظ الفقيه القاضى عياض بن موسى السبتى المتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) .

(٢) تقع هذه القصيدة فى عشرين بيتاً . وهى غير واردة فى المخطوطين ، وقد وردت فى النفح (ج ٤ ص ٣٨٤) .

(٣) هكذا وردت فى . «الزيتونة» وفى «ج» (يدانى) .

ما بال عينيـــك تسجُمان   والدمع يرفضُ كالجُمان
ناداك والإلْفُ عنك وانٍ   والبعد من بعده كوان
يا شُقّة النفس من هوان   لُجج(١) فى أبْحُرِ الهوان
لم يُثن عن هــواك ثان   يا بُغية القلوب قد كفانِ

يا جانحة الأصيل ، أين يذهب قرصُك المذهّب ، وقد ضاق بالشوق المَذْهب . أمْسَت شموس [الأنس](٢) محجوبة عن عينى ، وقد ضرب البُعْد الحجاب بينها وبينى ، وعلى كل حال . من إقامة وارتحال . فما تَحَلّك من قلبى محلا بينها . وما كنت لأقنع من وجهك تخيُّلا وشبيهاً . ومن أين انتظمت لك عقول التّشبيه واتّسقت ، ومن بعض المواقع والشمس لو قطعت(٣) . صادك مَنْذور ، وأنت تتجمل بثَوْبى زُور ، وجيبُ الظلام على دينارك حتى الصباح مَزْرور ، ووراءك من الغُروب غريمٌ لا يرحم ، ومُطالب تُتقلب منه فى كفّه المطالب . ويا بَرْق الغمام من أى حجاب تبتسم ، وبأى صبح تَرْتسم ، وأى غفُل من السحاب تَسِم . أليْسَت مباسم الثغور لا تُنجد بأفقى ولا تغور . هذا وإن كانت مباسِمُك مُساعدة ، والجوُّ مُلبس لها من الوُجوم شعاراً ، فلطالما ضَحِكت فأبكت الغوادى ، وعقّت الرايح والغادى . أعوذ بواشِم البروق ، بنواسم الطَّفَل والشروق ، ذوات الزايرات المتعددة الطُّروق ، فهى التى قطعت وهاداً ونجادا ، واهتدت بسيف الصباح من السحاب قُرابا . ومن البروق نجادا ، واهتدت خبر الذين أحبُّهم مُسْتطرفاً مُسْتجَاداً ، فمالها ولعلها . والله يَصِل فى أرض الوجود نَهْلها وعلّها ، وأن يُبل ظَمِين الشوق بنسيمها البليل ، وأن نعوضه من نار الغَليل بنار الخليل ، وخير طبيب يداوى الناس وهو عليل . فشكواى إلى الله لا أشكو

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» ، (يحج) وهو تحريف .
(٢) أضيفت هذه الكلمة ليستقيم المعنى والسياق .
(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (نطقت) والأولى أرجح .

إلى أحد . هل هو إلا فرد تسْطو رياح الأشواق على ذُبالته ، وعُمر الشوق قد شبَّ على الطَّوْق ، ووهب الجمع للفرق ، ولم يقنع بالمشاهدة بالوصف دون الذَّوق . وقلب تُقسم أحشاؤه الوَجْد ، وقَسَمٌ بالله الغَوْر والنَّجْد . وهموم متى وردت قُليب القلب ، لم تَبرح ولم تُعَد ، فلله الأمر من قبل ومن بعد .

أستغفر الله ياسيدى الذى يوقد[1] أفكارى حلوُ لقائه ، وأتنسّم أرواح القبول من تلقايه . وأسأل الله أن يُديم لى آمالى[2] بدوام بقايه . إن بعُد مداه ، قربت منّا يَداه ، وإن أخطأنا رِفدُه أصَبْنا نَداه . فثمرات آدابه الزُّهر تجىء إلينا ، وسحايب بَنانه الغُرّ تُصوِّب دوالينا أو علينا ، على شَحَط هواه ، وبُعد منتواه . ولا كرسالة سيدى الذى عمَّت فضايله وخصَّت ، وتلت على أولياء نعمته أنباء الكمال وقصَّت ، وآى[3] قفى كل منها عجبا ، ونال من التماح غُرَّتها واجتلاء صفحتها أرَباً . فلقد [كرُمت عنه][4] بالاشتراك فى بُنوَّته الكريمة نَسباً ، ووصلتُ لي بالعناية [منه][5] سبباً . تولى سيدى خيرك من يتولى خير المحسنين ، ويُجزل شكر المُنعِمين . أما ما تحدَّث به من الأغراض البعيدة العَذِيبة ، وأخبر عنه من المعانى الفريدة العجيبة ، والأساليب المُطيلة ، فيعجز عن وصفه ، وإحكام رَصْفه ، القلمُ واللسان ، ويعترف لها بالإبْداع المستولى على أمد الإحسان البديع وحسّان . ولقد أجهدت جِياد الارتجال ، فى مجال الاستعجال ، فما سمحت القريحة إلا بتوقُّع الآجال ، وعادت من الإقدام إلى الكلال . فعلمت أن تلك الرسالة الكريمة ، من الحق الواجب على مَنْ قرأها وتأملها ، أن لا يجرى فى لُجة من

---

(١) وردت فى «ج» (ترقدن) . وفى «الزيتونة» (توقدون) . وبالتصويب يستقيم المعنى .
(٢) وردت فى المخطوطين (مالى) . وهو تحريف ظاهر .
(٣) وردت فى «ج» (وألوان) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (لابت عنى) .
(٥) إضافة يقتضيها السياق .

ميادينها ، ويديم يراع سيدى الإحسان كرينها . لاكن على أن يفسح الرياض للقَصِى مدى ويقتدى بأخلاق سيدى التى هى نُور وهُدى . فإنه والله يبقيه ؛ ويقيه مما يتّقيه، بعد ما أعاد فى شـكوى البَيْن وأبدى ، وتظلم من البعد واستعْدى(١) ، ورفع حكم العِتاب عن ذوات التّسيم والاقتِعاب ، ورعى وسيلة ذكرها فى مُحْكم الكتاب . وولّى فضله ما تولى ، وصرف هواه إلى هوى المولى أن صُور(٢) السعادة على رأيه ، أيده الله تُجلَّى ، وغرة فكره المقدس ، أيده الله تَتَحلَّى . شكر الله له عن جميع نِعمه التى أولى ، وحفظ عليه مراتب الكمال التى هو الأحق بها والأولى . وقد طال الكلام ، وجَمَحت الأقلام . ولسيدى وبركتى الفضل ، أبقى الله بركته ، وأعلى فى الدارين درجته ، والسلام الكريم يخصكم ، من مملوككم ابن زَمرك ، ورحمة الله وبركاته ، فى الخامس عشر لجمادى الأولى عام تسعة وستين(٣) .

وخاطبنى كذلك، وهو من الكلام المرسل : أبو معار فى، وولىُّ نعمتى، ومعيد جاهى، ومقوِّمُ كمالى ، ومَوْرد آمالى ، ممن توالى نعمه علىّ ، ويتوفر قسمه لدى ؛ وأبوء له بالعجز، عن شكر أياديه . التى أحيت الأمل ، وملأت أ كُفَّ الرغبة ، وأنطقت الحدايق ، فضلا عن اللسان ، وأياديه البيض وإن تعددت ، ومِنَنُه العميمة، وإن تجدَّدت ، تقصر عن إقطاع أسمى شرف المجلس فى الروض المعطور بيانه . فماذا أقول ، فيمن صار مؤثراً إلى بالتقديم ، [جالياً صورة](٤) تشريفى ،

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (استدعا) . والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (سور) .

(٣) وردت فى المخطوطين (وسبعين) ، وهو تحريف ظاهر ، متى ذكرنا أن ابن الخطيب قد توفى سنة ٧٧٦ هـ .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . ووردت محرفة فى «الزيتونة» (جانبا سورة) .

بالانتساب إليه فى أحْسَن التقويم . . . (1) وإنى ثالث اثنين أتشرف بخدمتها ، وأسحب فى أذيال نعمتها .

خليلىّ هل أبصرتما أو سمعتما   بأكرم من تمشّى إليه عبيـــد

اللهم أوْزِعنى شكر هذا المُنْعِم ، الذى أثقلَت نعمه ظهر الشكر ، وأنهضت كمال(2) الحمد ، اللهم أدم بجميع حياته ، وأمتع بدوام بقايه الإسلام والعباد ، وأمسك بيُمن آرائه رَمَق ثغر الجهاد . يا أكرم مسئول ، وأعزَّ ناصر . تفضل سيدى ، والفضل عادته ، بالتعريف بما يقرُّ عين التطلُّع(3) ويقنع غُلَّة التشوُّف . ولقد كان المماليك لما مَثُلنا بين يدى مولانا ، أيده الله ، لم يقدم عملا عن السؤال [ولا](4) عن الحال ؛ إقامةً لرسم الزيارة ، وعملا بالواجب ، فإننى أرى الديار بطرفى ، فعلى أن أرى الديار بعينى ، وعلى ذلك يكون العمل إن شاء الله . وإن سأل سيدى شَكَرَ الله احتفاءه ، وأبقى اهتمامه ، عن حال المماليك ، من تعب السفر ، وكدّ الطريق ، فهى بحمد الله دون ما يظن . فقد وصلنا المُنَــكَّب تحت الحفظ والـكلاءة ، مُحْرزين شرف المساوقة ، لمواكب (5) المولى ، يمّن الله وُجْهته ، وكتب عِصْمته ، واستقرَّ جميعنا بمحل القَصَبة ، وتاج أهبتها ، ومهبِّ رياح أجرابها ، تحت النعم الثرَّة ، والأُنْس الـكامل الشامل . قرّب الله أمد لقايكم ، وطلع على ما يسرُّ من تلقايكم . ولمـا بلغنا هذه الطِّيَّة ، وأنخنا المطيَّة ، قمنا بواجب تعريفـكم على الفور بالأدوار ، ورفعنا مخاطبة المالك على الابتدا . والسلام .

مولده : فى الرابع عشر من شوال ثلاث وثلاثين وسبعمائة .

[انتهى السفر السادس هنا . والحمد لله ربّ العالمين]

---

(1) كلمة غير مقروءة .   (2) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (كامل) .

(3) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (المتطلع) . والأولى أرجح وأكثر تمشياً مع السياق .

(4) ساقطة فى «ج» . وواردة فى «الزيتونة» .

(5) هكذا فى «ج» . و «الزيتونة» (لمراكب) . والأولى أرجح .

ومن السفر السابع المفتتح بقوله
ومن الطارئين منهم فى هذا الباب *

محمد بن أحمد بن محمد بن أبى خيثمة الجبّانى

سكن غرناطة يكنى أبا الحسن

حـــاله

كان مبرِّزاً فى علوم اللسان نحواً ولغةً وأدباً، متقدما فى الكتابة والفصاحة، جامعاً فنون الفضائل، على غَفْلة كانت فيه.

مشيختـــه

روى عن أبى الحسن بن سهل، وأبى بكر بن سابق، وأبى الحسن بن الباذِش، وأبى على الغسانى وغيرهم. وصحب أبا الحسن بن سِراج صحبة مُواخاة.

توالیفه

صنَّف فى شرح غريب البخارى مصنَّفا مفيداً.

توفى ليلة الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة أربعين وخمس ماية.

محمد بن أحمد بن عبد الله بن أحمد الإستجِّى الحميرى

من أهل مالَقة، وأصله من إستِجّة[1]، انتقل سلفه إلى مالقة، يكنى أبا عبد الله.

(*) هنا يبدأ مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ديرنبور.

(١) هى بلدة أندلسية متوسطة تقع على ضفة نهر شنيل فرع الوادى الكبير، جنوب لجربى غربى قرطبة وبالإسبانية Ecija.

حـــــاله

كان من جملة(١) حَمَلة العلم ، والغالب عليه الأدب ، وكان من أهل الجلالة ، [ومن بيت علم ودين](٢) . أقرأ ببلده ، وقعَد بالجامع الكبير منه ، يتكلم على صحيح البخارى ، وانتقل فى آخر عمره إلى غَرناطة .

وقال الأستاذ(٣) ، كان من أبرع أهل زمانه فى الأدب [نظما ونثرا](٤) .

شعـــــره

منقولا من خط الوزير الرّاوية أبى محمد عبد المنعم بن سِماك ، وقد ذكر أشياخه فقال : الشيخ المتفنن الأديب ، البارع ، الشاعر المُفْلق ، قرأ على أشياخها ، وأقْرَأ وهو دون(٥) العشرين سنة . وكانت بينه وبين الأستاذ المقرى الشهير أبى العباس الملقب بالوَزَعى قرابة ، وله قصيدة أولها :

« ما للنسيم لدى الأصيل عليلا »

ومنها :

حتى النسيم إذا ألمّ بأرضهم   خلعوا عليه رقّةً ونُحولا

[وكان يقول : كان الأستاذ أبو العباس ، يستعيدنى هذا البيت ، ويقول نعم أنت قريبى ، وقَدِم على غرناطة أظن سنة تسع وثلاثين وستمائة](٦) .

---

(١) هذه الكلمة واردة فى مخطوط الإسكوريال ، وساقطة فى المخطوطين .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، ووردت فى المخطوطين (من بيت أهل العلم والدين) . والأولى أرجح .

(٣) يقصد بها الأستاذ أبو جعفر أحمد بن الزبير ، صاحب كتاب «صلة الصلة» ، المتوفى سنة ٧٠٨ هـ .

(٤) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال ، وفى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (بن) .

(٦) الفقرة الواردة بين الحاصرتين مطموسة وممحاة فى الإسكوريال ، وقد نقلناها عن «ج» .

محنتـــه

قال الأستاذ جرى له قصة ، نُقل بعض كلامه فيها ، على بعض أحاديث الكُتّاب من جهة استشهاد أدبى عليه فيها ، غالب أدبه. فأطلق عِنان الكلام ، [وما أكثر مما يطاق فيما يأنفُهُ، إدراكات](١) تلك الأفهام . ولكل مَقام مقال . ومن الذى يَسْلم من قيل وقال. وكان ذلك سبب الانقطاع ، ولم يُؤت من قصر باع ، وانتقل إلى غرناطة ، فتوفى فى أثر انقطاعه(٢) وانتقاله .

شعره

من ذلك قوله فى غرض يظهر من الأبيات :

قضوا فى رُبى نَجْد [فنى القلب مرساه](٣) وغنّوا إن أبصرتم ثَمَّ مغناه
أما هذه نجـــد أما ذلك الحِمَى فهـل عَمِيت عيناه أم صُمت(٤) أذناه
دعوه يُوفى ذِكــــره باتشامه ديون هواه قبل أن يتـوفاه
ولا تسألوه سَلْوَةً فمِن العَنـا رياضة من قد شاب فى الحب فَوْداه
أيحْسَب من أصْلَى(٥) فؤادى بحبه أنى أسْلُو عنـــه حاشاه حاشاه
متى غَدَرَ الصَّبُّ الـكريم(٦) وفى له وإن أتلف القلبَ الحزين تلافاه
وإن حَجَروا معنـاه وصَرّحوا به فإن معناه أحقُّ بمعنـــــاه
ويا سابقاً عِيس الغرام سيــوفه وكلٌّ إذا يخشاه فى الحب يخشاه
أرِحْها فقد ذابت من الوَجْد والسُّرى ولم يبق إلا عَظْمها أو بقــاياه

---

(١) ما بين الحاصرتين مكانه بياض فى الإسكوريال .
(٢) واردة فى المخطوطين وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (وفى الحى مرباه) . والأولى أبلغ .
(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال و«ج» (صم) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» و«الزيتونة» (أبلى) .
(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (الكئيب) .

ويا صاحبي عُجْ بي على الخيف من مُنَى | وما التغنّي لى من بأنّى ألقـاه
وعرِّج على وادى العقيق لعلّنى(١) | أسايل عمّن كان بالأمس مأواه(٢)
وقل لّليالى قد سلَفن بعَيْشـه | وعُمْرٌ على رغم العذول قطعناه
هل العود أرجوه أم العُمْرُ ينقضى | فأقضى ولا يُقْضَى الذى أتمنـاه

[ومن شعره أيضاً ، قوله ، رحمه الله :

سَرَت من رُبى نجد مُعطَّرة الرَّيّا | يموت لها قلبي وآونة يحيـا
تمسح أعطاف الأراك بليـلة | وتنثر كافوراً على التربة اللّميـا
ومرتد فى حِجْر الرياض مريضة | فتُحيي بطيب العَرْف من لم يكن يحيا(٣)
وبشّرت بأنفاس الأحِبّة سحرة | فيسرع دمعُ العين فى إثْرِها جَرْيا
سقنى الله دهراً ذِكْره بنعيمـه | فكم لجفونى عند ذِكراه من سُقيا
ملنى مُحيّـاه الأنيق وحُسْنُه | ومن خُلُق قد كنت لا أحمل النأيا
وبى رَشأ من أهل غرناطة غدا | يجود بتعذيبى ويبخل باللُّقيـا
رمانى فأصابنى بأول نظـرة | فياعجباً من علم الرَّشأ الرَّميـا
وبدَّد جسـمى نوره وكأنه | أشمة شمس قابلت جسدى مليّا
تصوَّر لى من عالم الحُسْن خالصاً | فمن عجب أن كان من عالم الدنيا
وهمَّ بأن يرقى إلى الحور جسمه | فثقّلته كُتُباً وحمّلته حَلْيـا
إذا ما انثنى أولاح أوجاح أوْ رنا | سبا القُضْب والأقمار والمِسْك والضيا
رعى الله دهراً كان ينشر وصله | برود طواها البين فى صدره طيّا](٤)

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى المخطوطين (فإننى) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (سكناه) .

(٣) وردت فى المخطوط (فنحيا) وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) هذا الشعر المحصور بين الحاصرتين وارد فقط فى الإسكوريال . وساقط فى المخطوطين .

مشيخته

ومما يشتمل على أسماء شيوخه ، ويدل على تبحّره فى الأدب ورسوخه ، إجازته أبا الوليد إسماعيل بن تبر الأيادى ، وعندها يقال ، أتى الوادى .

إن لى عند كل نفحة بستان ... من الورد أو من الياسمينا
نظرةٌ والتفاتة أتمنىّ ... أن تكونى حللت فيما تلينا

ما هذه الأنوار اللايحة ، والنُّوار الفايحة ، إنى لأجد ريح الحكمة ، ولا مُفَنِّد ، وأرد مورد النعمة ولا مُنْكد(١) ، أمِسْكُ دارين ينهب ، أم المَنْدل الرطب فى الغرام المُلْهب ، أم نَفَحت أبواب الجنة ففاح نسيمها ، وتوضحت أسباب المِنَّة ، فلاح وسيمُها .

مُحيَّاك أم نور الصباح تبسَّما ... وريّاك أم نور الأقاح تنسَّما
فمن شمَّ من ذا نفحة رق شيمةً ... ومن شام من ذا لمحة راق مَبْسِما

أجل خُلق الإنسان من عَجَل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتفهموا أسرار الحِكَم وتعوا ، وإذا رأيتم رياض الجنة فارتَعُوا ، يعنى مجالس الذِّكر ، ومأنس النظر والفكر ، ومطالع المناظرة ، ومواضع المحاضرة ، فهذه بتلك ، وقد انتظمت الجواهر النبوية فى سِلْك ، ولهان حِمىً للعطارة(٢) وطيس ، بين مِسْك المداد ، وكافور القراطيس . فيا أيها المعلم(٣) الأوحد ، والعالم الذى لا تنكر أمامته ولا تُجحد ، حوَّمت على علم الملوك ، ولزمْت بحلم طريق الحكم المسلوك ، فلم تعد أملَ الحكماء ، ولم تَعْدُ إلا بعمل العلماء ، وقد قال حكيمهم الفاضل

(١) هكذ وردت فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (يكند) .
(٢) هكذ وردت فى الإسكوريال وفى «ج» . وفى «الزيتونة» (للمعاطرة) .
(٣) هكذ وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (العلم) والأولى أرجح .

وعظيمهم [الذى لا مُناظر له ولا مُفاضل](١) . إذا خدمتَ الأُمراء ، فكن بين [استلطاف واستعطاف](٢) ، تَجْنِ المعارف والعوارف ، دانية القِطاف . فتُعلّمهم وكأنك تتعلّم منهم ، وتُرويهم(٣) ، وكأنك تروى عنهم ، فأجريتَ الباب ، وامتَرَيتَ من العلم اللُّباب ، ثم لم تُبعد ، فقد فعل النحويون ذلك فى يَكْرُم ، ويَعِد ، ويَعِزُّ(٤) ، ولا غرو أن تقرأ على من هو دونك . وتَستجيز الإجازة [عن القوم العظام](٥) ، يقصدونك . فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أمره الله بأن يقرأ على أُبيّ [بن كعب](٦) ، [فهل فى حىٍّ الخواطر الذكية من حىّ](٧) ، فقال له رضى الله عنه ، [الله أمرك](٨) أن تقرأ علىّ ، والعناية الرّبانية ، تُنادى إلىّ إلىّ ، وإذا قال لى من أحبُّ مولاى ، واستعار لزينته حُــلاى :

فما على الحبيب من اعتراض ‏ ‏ ‏ وللطّبيب تصرّفٌ فى المُراض
قــد يَرْحل المرء لمطلوبه ‏ ‏ ‏ والسبب المطلوب فى الرّاحل

عجتَ متواضعاً ، فما أبرمتَ فى معاجك ، ولا ظلمت فى السؤال ، نعجته إلى نعاجك ، فإنه سرُّ الله ، لايحلُّ فيه الإفشاء ، وحكمةُ الله البالغة ، والله يؤتى

---

(١) هكذ وردت هذه العبارة فى لمخطوطين (ج ، والزيتونة) . ووردت فى الإسكوريال كالآتى (الذى لا يناظر ولا يناضل) . و الأولى أرجح .

(٢) هكذ وردت هذه العبارة فى لمخطوطين . وفى الإسكوريال (استعطاف واستلطاف) . و الأولى أرجح .

(٣) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى المخطوطين .

(٤) ساقطة فى الإسكوريال . وواردة فى المخطوطين .

(٥) هكذ وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وفى الإسكوريال مكانها (للاعلام) .

(٦) الزيادة عن المخطوطين .

(٧) هذه الزيادة واردة فى الإسكوريال وفى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى المخطوطين (آمرك) . والأولى أرجح .

الحكمة من يشاء ، وإن لبست من التواضع شعاراً ، ولبست عن الترفع تنبيهاً[١] على السر المكتوم وإشعاراً . فهذه الثريا من العجايب إذا ارتفعت فى أعلى صعودها ، وأسمى راياتها الخافقه وبنودها . نهايةُ وجودها الحسّى عدم ، وغاية وصفها الشبهى ، أن تُشَبَّه بقدم ، فإذا همّت بالركوع ، وشمّت فى المغرب ريح الوقوع ، كان لها من السمو القِدْح المُعَلَّى ، وعادت قرطاً تتزين به الآذان وتتحلَّى .

وفى الشرق كأسٌ وفى مغاربها قِرْطٌ وفى وسط السماء قــــدم

هذه آثار التواضع متلُوّة السُّور ، مجلُوّة الصُّور ، وكان بعضهم إذا أعطى الصدقة ، يعطيها ويده تحت يد السايل ، وهكذا تُفْهم المسايل . فإنه لما سَمِع النبوة تقول ، اليد العليا خير من اليد السُّفلى ، أراد أن يؤثر المقام[٢] الأعلى . ولما أعطى أبو بكر ، رضى الله عنه ، ماله كله ، أعطى عُمر رضى الله عنه النصف [من المال][٣] لا احتياطاً على ماله ، ولكن ليقِف لأبى بكر فى مقام القصور عن كماله ، تَفْويضاً وتسليماً ، وتنبيهاً لمن كان له قَلْب وتعليما . وروى الدارقطنى[٤] [رحمة الله عليه][٥] يحبس أباه[٦] بركابه ، فلا يُنكر عليه ، فقيل له فى ذلك ، فقال رأيته يبادر إلى فضيلة فكرهت مخالفته .

فوق السماء وفوق الزُّهْر ما طلبوا وإذا ما أرادوا غايــــة نزلوا

وإلى هذا وصل الله حِفْظك ، وأجزل من الخيرات حظّك ، فإنه وصلتنى الكُرّاسة المباركة ، الدالة على التفنن فى العلوم والمشاركة ، فبينا أنا أتلو الإجازة ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى «ج» . وفى «الزيتونة» (شبها) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (بالمقام) . والتصويب من «ج» .

(٣) هذه الزيادة من «ج» .

(٤) هو الحافظ الإمام أبو الحسن على الدارقطنى ، نسبة إلى دار القطن أو دار قطن وهى محلة كانت ببغداد ، وكان من أقطاب الفقه الشافعى ، وتوفى سنة ٣٨٥ هـ .

(٥) هذه الزيادة واردة فى الإسكوريال .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة (أبوه) ، وبالتصويب يستقيم السياق .

وأريق صدور البيان وإعجازه ، أُلقي إلي كتاب كريم ، إنه من أبي الوليد ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، فخرْت ، ووقفت كأنني سُحِرت ، وقلت ساحران تظاهرا معاً ، وأحدهما قاتلي ، فكيف إذا اجتمعا .

فلو كان رُمحاً واحداً لاتَّقيته(١) ولا كنه رمحٌ وثان وثالث

[ومن لَعِبت بشيمته المثــانى فأحْرَى أن تطير به المثالث](٢)

وطار بى الشوق كل مطار ، وقرأت سماء فكرتى سورة الانفطار ، وكِدْت أصعد إلى السماء توقُّداً ، واختلط بالهواء تودُّدا .

كانت جواهرنا أوايل قبل ذان(٣) فالآن صارت بالتحول ثوان(٤)

وُجدت وراء الحسن وهى كثيفة فوجودهن (٥) الآن فى الأذهان

ولم يكف أن بُهِرت بالحُسْن الخلوب ، حتى أُمرت أن أنظم على ذاك الأسلوب ، وبالحرىّ لذلك النثر البديع ، الحريرىّ أو البديع ، ولذلك النَّظم العجيب ، المُتنبى أو حبيب ، ولذلك التصوف الرقيق ، الحارث بن أسد ذى التحقيق . وأما الحديث ، فما لك تقطع تلك المسالك ، إلا أن العربية(٦) ليس لأحد معه فيها دليل ، أستغفر الله إلا للخليل ، لا كن أصول الدين مجريَّة ، تركت تلك الميادين . هنالك

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى «ج» (لاستنيته) . وفى «الزيتونة» (لما التقيته) .

(٢) هذا البيت وارد بمكانه فى «ج» و« الزيتونة » . ولكنه وارد فى الإسكوريال بعد كلمة (الإنفطار) الواردة فى الجملة التالية .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (ذا) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (تبيدان) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى «ج» . وفى «الزيتونة» (فوجودها) .

(٦) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى المخطوطين .

الله تجمع كل مَنْقَبة جليلة ، فترى الفضيلة لا ترد فضيلة ، فمر الرديف وقد ركب غضنفرا ، أو المُدّعى صفة فضل ، وكلُّ الصيد فى جوف الفِرا . من يُزحم[١] البحر يغرق، ومن يُطعم الشجر يَشْرُق . وهل يُبارى التوحيد بعمل ، أو يُجارى البُراق بجمل . ذلك انتهى إلى سِدْرة المنتهى . وهل[٢] انبرى ليلطم خدَّه فى الثرى . لا تقاس الملايكة[٣] بالحدَّادين ، ولا حُكماء يونان بالفدادين . أفى طريق الكواكب يُسلك ، وعلى الفَلَك الأثير يُستملك[٤]. أين الغَدُ من الأمس ، وظلمة الغَسَق من وضَح الشمس . ولولا ثقتى بغمام فضلك الصَّيِّب لتمثلت لنفسى[٥] بقول أبى الطيب :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غُبارى ثم قال له الحق

فإن رضيت أيها العلم ، فما لجرح إذا أرضاكم ألم . [تر][٦] كيف أجارى أعْوج بمغرب أهْوج وأجارى ذا العِقال بجحش فى عِقال . ظهر بهذه الظُّلمة ، ذلك الضياء ، وبضدِّها تتبين الأشياء . وما يزكو بياض العاج حتى يُضاف إلى سواد الأبنوس . ألفاظ تذوب رقَّة ، وأغراض تملك حُبَّ الكريم ورِقَّة الزَّهر ، والزَّهر بين بَنان وبيان ، والدرُّ طَوْع[٧] لسان وإحسان .

وقالوا ذاك سحرٌ بأهــلى فقلت وفى مكان الهــاء باء

---

(١) وردت فى الإسكوريال (يرحم) . ووردت فى المخطوطين (يحزم) . ونعتقد أن التصويب أنسب للمعنى .

(٢) وردت فى الإسكوريال (وهذا) . والتصويب من «ج» .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال و «ج» . وفى «الزيتونة» (الملوك)

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . ووردت فى الإسكوريال (يستغلب) . والأولى أنسب للسياق .

(٥) هذه الكلمة واردة فقط فى الإسكوريال .

(٦) هذه الكلمة واردة فى المخطوطين ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٧) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (بين) .

وأما محاسن أبي الوليد ، فيقصر عنها أبو تمام وابن الوليد .

معان لبِسْن ثياب الجمـــال وهزّت لها الغانيات القُـدُودا
كَسَوْن عَبِيداً ثياب عَبيـد وأضحى لبيدُ لديها بليـداً

وكيف أعجب من إجرايك لهذه الجياد ، وأياديك[1] من إياد . أورِثْت هذه البراعة[2] المساعدة ، عن قسٍّ بن ساعدة . أجدُّك أنت الذى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ، كأنى أنظر إليه فى سوق عكاظ على جَمَل أوْرَق ، وهو يقول أيها الناس : مطرٌ ونبات ، وآباء وأمهات، إلى قوله :

فى الذاهبـين الأوّلين من القرون لنا بصـاير
لما رأيت موارد للمـوت ليس لهـا مصـادر
أيقنت أنى لا محـالة حيث صار القـوم صاير

إيه بغير تمويه . رجَع الحديث الأول إلى ماعليه المُعوَّل . سألْتَنى أيها السيد الذى يجب إسعافه ، أن أرغم[3] أنْفَ القلم حتى يجرى رُعافه ، وأن أ كْحِل جُفون الأوراق بمداد الأقلام ، وأن أجمع الطُّروس والأمِدَّة ، بين إصباح وإظلام ، وأطرِّز بياض السَّوسن بخضرة الآس ، وأبرز العلم الأبيض تحت راية بنى العباس ، فقلت مبادراً مُمْتَثِلاً ، وجُلْت فى ميدان الموافقة متمثِّلاً :

لَبَّيك لَبَّيك أضعافاً مضاعفة إنى أجَبْتُ ولكن داعى الكرم
أتى من المجد أمرٌ لامَرَدَّ له أمشى على الرأس فيه لا على القدم[4]

دعاء والله مُجاب ، ونداء ليس دونه حِجاب

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة (وإنه أيك — وإذايك) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) هكذا الكلمة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى المخطوطين .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . ووردت محرفة فى الإسكوريال (ارهن) .

(٤) وردت فى المخطوطين (القدم) . والتصويب من الإسكوريال .

| كتبت ولو أنى أستطيع لإجلال قدرك بين البشر
قددتُ اليراعة من أنملى وكأنّ المداد سواد البصر | (١)

نعم أجزتُ سيدى الفقيه الأجل، الخطيب الأكرم، العالم العَلَم، الأوحد الأكمل، الحسيب الأحفل الأطول، أبا الوليد بن الفقيه الأجل، المعظم(٢) الموقر، المكرم المبارك الأظهر، المرحوم أبى زكريا يحيي بن سعيد(٣) بن قترى الأيادى القَرْمونى(٤)، وبنيه السادات، النجباء المباركين، أبا القاسم أحمد، وأبا إسحق إبراهيم، وأبا الحسين بتزيا(٥). ونعمت الأغصان والشجرة، والأفنان والثمرة، أقرّ الله بهم أعيُن المجد، ولازالوا بدورا فى مطالع السّعد. ولا برحوا فى مكارم يجنون نُوّارها، ويَجتَلون أنوارها، وتُفيض عليهم [يد](٦) العناية الالاهية نَهرها السكَوْثرى ونهارها، جميع ماوريتُه، قراءة وسماعا، وإجازة ومناولة من العلوم على اختلافها، وتباين أصنافها، بأى وجه رويته، وعلى أى وصف تقلّدتُه ودريتُه، وكذلك أجزتهم جميع ما قلتــه وأقوله. من مَسْطور(٧) ومَرْسوم، ومنثور ومنظوم، وتصرّفت فيه من منقول ومفهوم، وقصايدى المسماة بالرُّوحانيات، ومُسْتَراتِى الحبيبات. وما نظمته من الوَتَريات، وشرحى لشعر أبى الطيب المسمى(٨) «بظهور الإعجاز بين الصدور والأعجاز»،

---

(١) هكذا ورد هذان البيتان فى الإسكوريال. ووردا فى المخطوطين مرسلين على صفة المنثور.

(٢) واردة فقط فى الإسكوريال.

(٣) هكذا وردت فى «ج». وفى الإسكوريال (إسماعيل).

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة». وفى الإسكوريال (القزموفى) وفى «ج» (الفزموفى) والأولى أرجح.

(٥) هكذا وردت فى «ج» والإسكوريال. وهى ساقطة فى «الزيتونة».

(٦) واردة فى الإسكوريال، وساقطة فى المخطوطين.

(٧) واردة فى الإسكوريال، وساقطة فى المخطوطين.

(٨) واردة فى الإسكوريال، و«الزيتونة»، وساقطة فى «ج».

وكتابى المسمى « شمس البيان فى لَمْس البَنان » ، والزهرة الفايحة فى الزّهرة اللايحة ، ونفَح الكمامات فى شرح المقامات ، واقتراح المتعلمين فى اصطلاح المُتكلمين ، وكتاب التَّصوُّر والتصديق فى التوطية لعلم التحقيق ، ورَقْم الحُلل فى نظم الجمل[1] ، [ومفتاح الإحسان فى إصلاح اللسان][2] . وما أنشأته من السلطانيات نظماً ونثرا ، وخطابة وشعراً . والله تعالى يجعل أعمالنا خالصة لوجهه بمنّه وكرمه . فليقل الفقيه الأجل ، وبنوه الأكرمون[3] رضى الله عنهم ، [أنبأنا وأخبرنا وحدّثنا][4] أو ما شاءوا من ألفاظ الرواية ، بعد تحرى الشروط المرعيّة ، فى الإجازات الشرعية ، وإن ذهبوا حفظ الله كمالهم ، وأواهم فى الدارين آمالهم ، إلى تَسْمية من لى من المشايخ قدّس الله أرواحهم ، وزحزح عن النار أشباحهم :

فمنهم الأستاذ الخطيب الكبير ، العالم الفاضل الجليل ، البَقيّة الصالحة ، آخر الأدبا ، وخاتمة الفضلاء ، أبو جعفر أحمد بن يحيى بن إبراهيم الحميرى القرطبي الدار ، رضى الله عنه . قرأت عليه بقرطبة ، شعر أبى الطيب ، قراءة فهم لمعانيه ، وأعراب لألفاظه ، وتحقيق للغته ، وتنقير عن بديعه . وكذلك قرأت عليه أكثر شعر أبى تمام . وسمعتُ عليه كتاب الكامل لأبى العباس [المبرد][5] ، ومقامات التميمى ، كان يرويها عن مُنْشِيها ، وكانت عنده بخط أبى الطاهر . وتفقهت عليه « تَبْصِرة الضمرى » . وكان على شياخته[6] رحمه الله ، ثابت الذهن ، مُقبل الخاطر ، حافظا المعُمَّيا .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى «ج» (الدول) وهو تحريف لأن (رقم الحلل فى نظم الدول) هو اسم كتاب لابن الخطيب .

(٢) هكذا ورد اسم هذا الكتاب فى الإسكوريال ، وورد فى «ج» (مفتاح الإحسان فى اصطلاح الإحسان) .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وردت فى الإسكوريال (المباركون) .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . ووردت فى الإسكوريال (أخبرنا أو انبأنا) .

(٥) أضفنا هذه الكلمة زيادة فى الإيضاح .

يروع رَكانةً ويذوب ظَرْفاً   فما تدرى أشيخ أم غـــلام

نأتيه بمقاطيع(١) الشعر فيصلحها لنا ، ويقف على ما نستحسنه(٢) منها ، فنجده أثْبَت منا ، ولقد أنشدته يوماً ، فى فتىً مفقود العين اليسرى :

لم تزو إحدى زهرتيه ولا انثنت   عن نورها وبديع ما تحويه
لـكنه قد رام يُغلق جَفْنـــه   ليصيب بالسَّهم الذى يرميه

فاستفادها وحفظها . ولم يزل رحمه الله ، يعيدها مستحسناً لها ، متى وقع ذكرى . وكان يروى عن الإمام المازَرِى بالإجازة ، وعن القاضى أبي مروان بن مَسَرّة ، وعن الأستاذ عباس ، وعن أبى عبد الله بن أبى الخصال .

ومنهم الفقيه الأجل [العالم العَدْل](٣) ، المحدِّث الأكمل ، المتفنن ، الخطيب ، القاضى أبو محمد بن حَوْط الله . سمعت عليه كتباً كثيرة بمالقة ، بقراءة الفقيه الأستاذ أبى العباس بن غالب ، ولقيته بقرطبة أيضاً ، وهو قاضيها . وحدثنى عن جَدِّى ، وعن جملة(٤) شيوخ . وله برنامج كبير . وأخوه القاضى الفاضل ، أبو سليمان أيضاً منهم .

ومنهم الفقيه الأجل ، العالم العَلَم ، الأوحد ، النحوى ، الأديب المتفنن ، أبو على عمر بن عبد المجيد الأزدى ، قرأت عليه القرآن العزيز مفردات ، وكتاب الجمل ، والإيضاح وسيبويه تفقهاً ، وكذلك الأشعار الستّة تفقهاً ، وما زلت مواظباً له إلى أن توفى رحمه الله . وكان فريد عصره فى الذكاء [والزكا](٥) ، ولم يكن فى حَلْبة الأستاذ

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى الإسكوريال (بمقطعات) . وفى «ج» (بمقاطع والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى المخطوطين (نسخناه) وهو تحريف .

(٣) هذه العبارة واردة فى المخطوطين ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (جلة) والأولى أرجح .

(٥) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى المخطوطين .

أبي زيد السُّهيلي أنجب منه [على كثرتهم](١) . وقد قال الأستاذ أبو القاسم السهيلي للإمام المنصور رضى الله ،هو أقْعَدُ لكتاب سيبويه منا . وقال لى يوما ، وقد نظر إلى طالب يُصغى بكليته إلى ثان ، فقلت ماذا ، فقال إنّ حُبَّ الشيء يعمى ويَصم(٢) ، فقلت له ، ويعيد الصُّبح [ليلا](٣) مُدْلَهِم ، فاستحسنه .

ومنهم الفقيه الأجل ، الأديب الأريب الكامل ، اللغوى الشهير ، أبو على ابن كسرى المَوْرى ، قريبى ومُعَلِّمى . وكان من طلبة أبي القاسم السُّهيلى ، وممن نبغ صغيراً . وهو الذى أنشد فى طفولته السيد أبا أسحق الكبير بإشبيلية :

قسما بحُمْص وإنه لعظيم فهى المقام وأنت إبراهيم

وكان بالحَضْرة(٤) الأستاذ أبو القاسم السهيلى ، فقام عند إتمامه القصيدة ، فقال لمثل هذا كنت أُحْسِبك الحسا ، [ولمثل هذا](٥) كنت أواصل فى تعليمك الإصباح والإمسا . وقد أنشد هذا لأمير المؤمنين أبى يعقوب رضى الله عنه :

أمعشر أهل الأرض بالطُّول والعَرْض بهذا أنادى فى القيامة والعرض
فقد قال الله فيك ما أنت أهلُه فيقضى بحكم الله فيك بلا نَقْض
فإياك يُعنى ذو الجلال بقوله كذلك مكَّنَّا ليوسف فى الأرض

ومنهم الفقيه الأجل ، العالم المحدث ، الحافظ الفاضل المؤثر ، السيد أبو محمد القرطبى . قرأت عليه القرآن بالروايات مفردات ، وتفقهت فى الجمل والأشعار ،

---

(١) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى المخطوطين .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (ويصمى) .
(٣) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى المخطوطين .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (بالحاضرة) .
(٥) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى المخطوطين .

وأجازنى [جميع][1] ما رواه . وكذلك فعل كل واحد ممن تقدم ذكره . وكان رحمه الله آخر الناس علماً ونزاهة وحسن خلق ، وجمال سَمْت [وأبهة][2] ووقار ، وإتقان وضبط ، وجودة وحفظ .

ومنهم الفقيه الأجل ، الحاج الفاضل ، الشهيد فى كاينة العِقاب[3] ، المحدِّث الورع ، الزاهد الطاهر ، أبو عبد الله بن حسين بن صاحب الصلاة الأنصارى ، وعليه كان ابتداى للقراءة ، وكان مباركاً التعليم . حسن التفهيم ، شديد التواضع .

ومنهم الفقيه الأجل الفاضل الورع ، المحدث ، الحاج المُلْهم ، المجاب الدعوة ، الميمون النقِيبة الأوّاب . أبو الحجاج بن الشيخ . رضى الله عنه . وهذا الكتاب[4] على الإطالة منى . ولكن القرطاس فَنِى ، والسلام الأتمّ عليكم ، ورحمة الله وبركاته . قال ذلك ، وكتبه ، العبد المعترف بذنبه ، الراجى رحمة ربه . محمد بن عبد الله الحميرى ثم الإستِجى ، فى أواسط شعبان المكرم من عام أحد وأربعين وستمائة .

وفاتـــــه

من خط الوزير أبى محمد عبد المنعم بن سماك . قال ، قَدِم غرناطه ، أظن سنة تسع وثلاثين وستمائة ، وشكى علّة البطن مدة ثمانية أشهر بدار أبى [رحمه الله][5] ، ومرّضناه الثلاثة الأخوة ، إلى أن توفى رحمه الله ، ودفن بمدفنه ، مَغْنى الأدب ، بروضة الفقيه أبى الحسن سهل بن مالك .

---

(١) واردة فى المخطوطين . وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى المخطوطين .

(٣) كاينة العقاب هى الموقعة الكبرى التى نشبت بين الجيوش الموحدية بقيادة الخليفة الموحدى الناصر لدين الله ، والجيوش الإسبانية المتحدة بقيادة ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، فى هضبة سانتا إيلينا شمال غربى مدينة أبدة ، وهزم فيها الموحدون هزيمة ساحقة ، وذلك فى صفر سنة ٦٠٩ هـ (يوليه ١٢١٢ م) . وتسمى بالإسبانية Las Navas de Tolosa

(٤) وردت هكذا فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (الكتب) . (٥) الزيادة من الإسكوريال.

محمد بن أحمد بن على الهوّارى [1]

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن جابر من أهل ألمريّة .

حـــاله

رجل كفيف البصر ، مدلٌّ على الشعر ، عظيم الـكفاية والمِنّة ، على زَمانَتِه. رحل إلى المشرق ، وتظافر برجل من أصحابنا يعرف بأبى جعفر الإلبيرى ، صارا رَوْحين فى جسد ، ووقع الشِّعر منهما بين لَحْيَي أسد ، وشمَّرا للـكُدْية ، فـكان وظيف الـكفيف النَّظم ، ووظيف البصير الـكَتْب، وانقطع الآن خبرهما . وجرى ذكره فى الإكليل بما نصه : محسوبٌ من طلبتها الجِلَّة ، ومعدود فيمن طلع بأفقها من الأهِلَّة ، رحل إلى المشرق ، وقد أصيب ببصره ، واستهان فى جنب الاستفادة بمشقّة سفره ، على بيان عذره ، ووضوح ضُرّه .

شعره

وشعره كثير ، فمنه قوله :

سلوا مَسَرَّ ذاك الخال فى صفحة الخدّ ... متى رقموا بالمسك فى ناعم الورد
ومن هو غصن القدّ منها لِفتنتى ... وأودعـــه رُمَّانتى ذلك النَّهد
ومزمتى القُضْب اللَّدان بوصلها ... إلى أن أعزو الحسن من ذلك القد
فتاة تفُتُّ القلب منى بمقـــلة ... له رقّة الغُزْلان فى سَطْوة الأُسْد
تمنيت أن تُهدى إلى نهـــودها ... فقالت رأيتَ البَدْر يُهْداه أو يُهْدِ
فقلت وللرُّمان بدٌّ من الجِنا ... فتـــــاهت وقالت باللَّواحظ لا الأيْدِ
فقلت ليس للقلب عندك حاصلٌ ... وقالت قلوب الناس كلُّهم عندى

---

(١) لم ترد هذه الترجمة فى «ج» ، ولا فى «الزيتونة» . ووردت فقط فى الإسكوريال .

وقلت اجعليني من عُبَيدك في الهوى فقالت كفاني كم لحُسْنى من عَبْد
إذا شئت أن أرضاك عَبْداً فمُتْ هوًى ولا تشكى واصبر على ألم الصَّد
ألم تر أن النَّحل يحمل ضُرَّها لأجل الذي تجنيه من خالص الشهد
كذلك بذْلُ النَّفيس سهلٌ لذى النُّهى لما يكسِبُ الإنسان من شرف الحمد
ألست ترى أزجاته طالما أضاع كريمُ المال في طلب المجد

ومن شعره أيضاً قوله :

عرِّج على بان العُذَيب ونـادِ وأنشد فَدَيْتَكَ إن خلَّ فؤادى
وإذا مررت على المنازل بالحِما فاشرح هنالك لَوْعتى وسُهادى
إيه فديتُك يا نُسَيْمة خبِّرى أرب الأحبَّة والحِمى والوادى
ياسعد قد بان العُذَيب وبانُه فانزل فديتُك قد بدا إسعادى
خُذْ في البِشارة مهجتى يوما إذا بان العُذيب ونوَّر حُسْنُه سعادى
قد صحَّ عيدى يوم أُبْصِر حسنها وكذا الهلال علامة الأعياد

ومما نقلناه من خبر قيّده لصاحبنا الفقيه الأستاذ أبي على منصور الزواوي ، ومما أدعاه لنفسه :

علىَّ لكل ذى كرم ذِمام ولى بمدارك المجـد اهتمام
وأحسن ما لدى لقاء حُرٌّ وصحبته مَعْشَرٌ بالمجد هـام
وإنى حين أُنسب من أُناس على قِمَم النجوم لها مقام
يميل بهم إلى المجد ارتياح كما مالت بشارَبُها المـدام
هم لبسوا أديم القيـل بُرْداً ليسفر من مرادهم الظـلام
هم جعلوا مُتون العيش أرضا فمذ عزموا الرَّحيل فقد أقامُ

فمن كلٍّ البلاد لنا ارتحال ... وفى كل البلاد لنا مقام
وحَوْل موارد العلياء منها ... لنا مع كل ذى شرف زِحام
تصيب سهامُنا غَرَض المعالى ... إذا ضلَّت عن الغَوْص السِّهام
وليس لنا من المجد اقتناع ... ولو أن النجوم لنا قيام
نُنزه عِرضَنا عن كل لَوْم ... فليس يَشين سُؤدَدَنا ملام
ونبذل لا نقول العام ماذا ... سواء كان خِصب أو حُطام
إذا ما المَحْلُ عمَّ بلاد قوم ... أثبناها فجاد بنا الغمام
وإن حضر الكرام ففى يدينا ... مَلاك أمورهم ولنا الكلام
وفينا المُستشار بكل عِلْم ... ومِنَّا اللَّيث والبطل الهمام
فميدان الكلام لنا مداه ... وميدان الحروب بنا يُقام
كلا الأمرين ليس له بِقَوم ... سوانا يوم نازلة تمام
يُريق دم المداد بكل طِرس ... وليس سوى اليراع لنا سهام
ونكتب بالمثقَّفة العوالى ... بحيث الطِّرس لبَّات وهام
إذا عَبَست وجوه الدهر منا ... إليها فانثنت ولها انتقام
لقد علِمت قلوب الرُّوم أنا ... أناس ليس يُعوزنا مرام
وليس يُضيرنا أنا قليل ... لعَمْرُ أبيك ما كَثُر الكرام
إذا ما الرّاية الحمراء هُزَّت ... نعم فهناك للحرب ازدحام
وما أحمرّت سدًى بل من دِماً ... ليس على جوانبها انسجام
تُظَلِّل من بنى نصر مُلوكا ... حلال النَّوم عندهم حرام
فكم قطعوا الدُّجى فى وصل مجد ... وكم سَهروا إذا ما الناس نامْ
أبا الحجاج لم تأت الليالى ... بأكرم منك إن عُدَّ الكرام
ولا حَمَلت ظهور الخيل أمضى ... وأشجع منه إن هُزَّ الحسام

وأنى جئت من شرقٍ لغربٍ ورُمْت بى الزمان كما تُرام
وجُرِّبت الملوك وكل شخص تحدَّث عن مكارمه الأنام
فلم أر مثلكم يا آل نصر جمال الخَلْق والخُلُق العظام

ومنها :

لأندلس بكم شرفٌ وذكرٌ تودُّ بلوغ أدناه الشـآم
سقى صوبُ الغمام بلاد قوم هم فى كل مَجْدبة غمـام
إليك بها مهذّبةُ المعـانى يزيِّنها ابتسام وانتظـام
لهـا لجناب مجدكم انتظام طَواف وفى أركان إسلام

نجزت وما كادت ، وقد وطِئ الإبطاء صروحكم ، وأعيا الإكثار حارثها وسروجها ، والله ولىُّ التجاوز بفضله .

محمد بن أحمد بن الحدّاد الوادى آشى

يكنى أبا عبد الله

حـــاله

شاعر مُفْلِق ، وأديب شهير ، مُشار إليه فى التعاليم ، منقطع القرين منها ، فى الموسيقى ، مضطلع بفَلَكُ المُعمَّى . سكن ألمرية ، واشتهر بمدح رؤسائها من بنى صُمادح . وقال ابن بسّام ، كان أبو عبد الله هذا ، شمسُ ظَهيرة ، وبحر خَبَر وسيرة ، وديوان تعاليم مشهورة ، وضَح فى طريق المعارف ، وضوح الصبح المتهلل ، وضرب فيها بقدح ابن مُقْبل ، إلى جلالة مَقْطع ، وأصالة مَنْزع ، ترى العلم ينمُّ على أشعاره ، ويتبين فى منازعه وآثاره .

توأليفه

ديوان شعر كبير معروف . وله فى العَروض تصنيف، مزج فيه بين الأنحاء[١] الموسيقية[٢] ، والآراء الجليلة .

بعض أخباره

حدّث بعض المؤرخين ، مما يدل على ظَرْفه ، أنه فقد مَسكَناً[٣] عزيزاً عليه ، وأحوجت[٤] الحال إلى تكلُّف سَلْوة، فلما حضر الندماء ، وكان قد رَصَد الخسوف بالقمر[٥] ، فلما حقَّق أنه قد ابتدأ ، أخذ العُود وغنّى :

شقيقك غُيِّب فى لحده وتَشرّق يا بَدْرُ من بعده
فهلاّ خُسِفت وكان الخسوف حداداً لَبِست على فَقْده

وجعل يردِّدُها ، ويخاطب البَدْر ، فلم يتم ذلك ، إلا واعترضه[٦] الخسوف ، وعَظُم من الحاضرين التعجُّب . قال ، وكان مُنى فى صباه بصبية من الرُّوم ، نصرانية ، ذهبت بلُبِّه وهواه ، تسمى نُوَيرة ، افتضح[٧] بها ، وكثر نَسِيبهُ .

شعــــره

قال فى الغرض المذكور :

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الألحان) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الذخيرة . وفى المخطوطين (الوصفية) وهو تحريف .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى «ج» . وفى «الزيتونة» (مسكنا) .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح ووردت فى المخطوطين (واحتاج) .
(٥) هكذا وردت فى المخطوطين . ووردت فى الإسكوريال (القمرى) .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (واستعرضه) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (فنعم) .

حديثك ما أحلى [فزيِّدى وحدِّثى](1) عن الرَّشإ الفردِ الجمال المثلَّث

[ولا تسأمى](2) ذِكْراه فالذكر مؤنسى وإن بعَثَ الأشواق من كل مَبْعَث

وبالله فارقى خَبْل نفسى بقوله وفى عقد [وجْدى](3) بالإعادة فابعث

أحقًا وقد صرَّحْتُ ما بىَ أنه تبسَّم [كاللاهى بنا المُتَعَبِّث](4)

وأقسم بالإنجيل أنِّىَ شابق(5) وناهيك دمعى(6) من مُحِقٍّ مُحنِّث

ولا بدَّ من قصٍّ على القسِّ قصتى عساه مُغيث المُدْنَف المُتَغوِّث

ولم يأتهم عيسى بدين قساوة فيقسو على بَثِّى ويلهو بمكْرَث

وقلبى من حُلَى التجلُّد عاطل هوًى فى غزال الواديين المرعَّث

سيصبح(7) سرِّى كالصبح مُشْهرًا ويُمْسى حديثى عُرْضة المتحدِّث(8)

ويُغْرى بذكرى بين كأس وروضة ويَشْدُو بشعرى فوق مَثْنَى ومَثْلَثِ

ومن شعره فى الأمداح الصُّمادِحية :

لعلك بالوادى المقدس شاطئ وكالعنبر الهندى ما أنت واطئ

وإنى فى ريّاك واجد عَرْفِ ريحهم فروح الجوى بين الجوانح ناشئ

ولى فى السُّرى من نارهم ومنارهم هداةٌ حداةٌ والنجوم طوافئ

---

(1) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين وفى الذخيرة . وفى الإسكوريال (فزيدى وحدث) .

(2) هكذا وردت فى الإسكوريال والذخيرة . ووردت محرفة فى المخطوطين (ولا تنسى من) .

(3) الزيادة من الذخيرة .

(4) هكذا وردت فى الإسكوريال والذخيرة ومكانها بياض فى «ج» . وهذا البيت ساقط فى « الزيتونة » .

(5) هكذا وردت فى المخطوطين وفى الإسكوريال . وفى الذخيرة (المائن) .

(6) هكذا وردت فى الإسكوريال والذخيرة . ووردت فى المخطوطين (دمى) والأولى أرجح .

(7) هكذا فى الإسكوريال والذخيرة . وفى المخطوطين (فيصبح) والأولى أكثر تمشياً مع السياق .

(8) هكذا فى المخطوطين والذخيرة . وفى الإسكوريال (للتحدث) .

لذلك ما حَنَّت ركايبي وحَمْحمت   عِرابي وأوحى سيرُها المتباطىء
فهل هاجها ما هاجني أو لعلّها   إلى الوَخْد من نيران وَجْدى لواجىء
رُويداً فذا وادى لُبَيْنى وإنه   لَوِرْد لُباناتى وإنى لظامىء
ميادين تَهيامى ومسرح ناظرى   فللشَّوق غايات لها ومبادىء
ولا تحسبوا غِيداً حمَتْها مقاصر   فتلك قلوبٌ ضُمِّنَتها جآجىء

ومنها :

محا مِلَّة السُّلْوان مبعثُ حسنه   فكلٌّ إلى دين الصَّبابة صابىء
فكيف أُرَقّ كلْمُ طرفك فى الحشا   وليس لتمزيق المهنّد رافىء
ومالى لا أسمو مراداً وهمَّةً   وقد كرُمت نفسٌ وطابت ضآضِىءُ
وما أخرتنى عن تَناهٍ مبادىءٌ   ولا قصّرت بى عن تَباهٍ (١) مناشىءُ
ولكنه الدهر المناقض فعله   فذو الفضل منحطٌّ وذو النقص نامى
كأنَّ زمانى إذ رآنى جُذَيْله   [يلابسُنى منه](٢) عدوٌّ ممالىء
فداويتُ إعتابا وداوأتُ عاتباً   ولم يغْنِنى أنى مُدارٍ مدارىء
فألقيت أعباء الزمان وأهلَه   فما أنا إلاّ بالحقائق عابىءَ
ولازمتُ سَمْتَ الصمت لا عن مَذَامةٍ   فلى منطق للسَّمع والقلب صابىء
ولولا علا المَلْك ابنِ مَعْن محمد   لما بَرِحت أصدافهنّ اللآلىء
لآلىء إلاّ أنّ فكرى غائص   وعلمى [ذُوماء](٣) ونطقى شاطىء
تجاوز حدَّ الوهم واللحظ والمُنَى   وأعْشَى الحجا لألاؤه المتلألىء

---

(١) هكذا وردت فى الذخيرة . ووردت فى الإسكوريال (تناه) مرة أخرى .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى الذخيرة (قلانى فلى) والأولى أرجح

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذخيرة (دأماء) .

فتنعكسُ الأبصار وهى حَواسِرٌ وتنقلب الأفكار[١] وهى خواسِىء[٢]

وقال من أخرى :

أقبلن فى الحبرَات يَقْصرن الخُطا ويُرين حُلل الوارشين القَطا

سربُ الجوى لا الجوُّ عُوِّد حُسْنه أن يَرْتَعى حَبَّ القلوب ويلقُطا

مالت معاطِفُهن من سكر الصبًا ميلا يخيف قُدودها أن تسقطا

وبمَسْقِط العَلَمين أوضح مَعْلَمَ لمُهَفْهف سَكَن الحسا والمَسْقِطا

ما أخجل البَدْر المنير إذا مشى يختال والخُوط النضير إذا خطا

ومنها فى المدح .

يا وافدى شرق البلاد وغربها أكرمتما خَيل الوفادة فاربطا

ورأيتما مَلِك البريَّة فاهنأ ووردتما أرض المريَّة فاحطُطا

يدمى نُحور الدَّارعين إذا ارتأى ويُذِلُّ عزّ العالمين إذا سطا[٣]

وإحسانه كثير . دخل غرناطة ، ومن بنات عملها وطنه[٤] رحمه الله .

محمد بن إبراهيم بن خيرة[٥]

يكنى أبا القاسم . ويعرف بابن المَوَاعيني ، حرفة أبيه ، من أهل قرطبة .

---

(١) هكذا وردت فى الذخيرة . ووردت فى الإسكوريال (الأبصار) مرة أخرى .

(٢) لم ترد من هذه القصيدة ، التى وردت كلها فى الإسكوريال وفى الذخيرة ، فى «ج» وفى «الزيتونة» سوى البيتين الأولين .

(٣) ورد هذا الشعر فى الإسكوريال . ولم يرد فى «ج» ولا «الزيتونة» .

(٤) يقصد بها مدينة وادى آش ، وهى من أعمال ولاية غرناطة .

(٥) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى «ج» ولا «الزيتونة» .

واستدعاه السيد أبو سعيد الوالى بغرناطة إليه ، فأقام عنده مدة من عامين فى جملة من الفضلاء مثله .

حاله

قال ابن عبد الملك ، كان كاتباً بليغاً ، شاعراً مجيداً ، إستكتبه أبو حفص ابن عبد المؤمن ، وحَظِى عنده حُظوة عظيمة ، لصهر كان بينهما بوجه ما ، ونال فى جاهاً عظيما ، وثروة واسعة . وكان حَسِن الخطّ ، رايقه ، سلك فيه فى ابتدايه مَسْلك المتقن أبى بكر بن خيرة .

مشيخته

روى عن أبى بكر بن عبد العزيز ، وابن العربى ، وأبى الحسن شُريح ، ويونس بن مُغيث ، وأبى عبد الله حفيد مَكِّى ، وابن أبى الخِصال ، وابن بقىّ .

تواليفه

له تصانيف تاريخية وأدبية منها « ريحان الآداب ، ورَيْعان الشباب » لانظير له . والوِشاح المُفَصَّل . وكتاب فى الأمثال السايرة . وكتاب فى الأدب ، نحا فيه منحى أبى عمر بن عبد البَرّ فى « بهجة المجالس » .

توفى بمرّاكُش سنة أربع وستين وخمسمائة .

محمد بن إبراهيم بن على بن باق الأموى [(١)]

مُرْسى الأصل ، غَرناطى النشأة ، مالَقى الإسكان ، يكنى أبا عبد الله .

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال . ولم ترد فى «ج» ولا «الزيتونة» .

حـاله

من عايد الصلة : كان رحمه الله ، كاتباً أديباً ذكيا ، لَوْذعيا ، يجيد الخطّ ، ويرسل النادرة ، ويقوم على العمل ، ويشارك فى الفَرِيضة . وبذّ السباق فى الأدب الهزلى المستعمل بالأندلس . عَمّر زمانا من عُمْره ، محارفاً للفاقة ، يعالج بالأدب الـكُدية ، ثم استقام له المَيْسم ، وأمـكنه البَخْت من امتطاء غاربه ، فأنشبت الُحظوة فيه أناملها بين كاتب وشاهد ومحاسب ومدير تَجْر ، فأثرى ونما ماله ، وعظُمت حاله ، وعهد عند ما شارف الرحيل ، بجملة تناهز الألف من العين ، لتُصْرف فى وجوه من البِرّ ، فتوهم أنها [كانت][1] زكاة امتسك بها .

وجرى ذكره فى التاج بما نصه : مديرُ أكْواس البيان المعتّق ، ولعوبٌ بأطراف الـكلام المُشَقّق ، انتحل لأول أمره الهَزْل من أصنافه ، فأبرز دُرّ معانيه من أصدافه ، وجَنى ثمرة الإبداع لحين قِطافه . ثم تجاوزه إلى المُعَرَّب وتخطّاه ، فأدار كأسه المُترع وعاطاه ، فأصبح لفنّيه جامعاً ، وفى فلَـكيه شهاباً لامعاً ، وله ذكاء يطير شرَرُه ، وإدراك تتبلجْ غُرره ، وذهن يكشف الغوامض ، ويَسْبق البارق الوامِض ، وعلى ذلاقَة لسانه ، وانفساح أمَد إحسانه ، فشديدُ الضَّنانة بشعره . مُغْلٍ لسِعْره .

شعره

أخبرنى الـكاتب أبو عبد الله بن سلمة ، أنه خاطبه بشعر أجابه عنه بقوله ، فى رَوِيّه :

أحْرَز الخصْل من بنى سلمة   كاتبٌ تخـــدم الظُّبا قَلَمه
يحمل الطِّرسَ عن أنامله   إثر الطرْس[2] كلما رقّه

(١) هذه الكلمة زائدة فى النفح .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الحسن) والأولى أرجح .

ويعدُ البيان بفكرته مُرسلاً حيث يمّمت دِيَمُه
خَصَّني مُتْحفاً بخمس إذا بَسَم الرَّوض فهنّ مُبْتَسِمة
قلت أُهدى زهر الرُّبا خَضِلا فإذا كل زهرة كَلِمة
أقسم الحُسْن لا يفارقُهـا فأبَرّ انتقاؤها قَسَمه
خَطَّ أسطارها ونمّقها فأتت كالعقود منتظمة
كاسياً من حلاه لى حُللاً رَسَمها من بديع ما رَسَمه
طالباً عند عاطشٍ نَهَلاً ولديه الغُيوث مُنْسَجِمة
يبتغى الشِّعر من أخى بَلَه أخرَس العىُّ والقُصور فَمَه
أيها الفاضل الذى حَمِدت(١) ألسنُ المدح والثَّنا شيمه
لا تُكلّف أخاك مقترحا نشر عارٍ لديه قد كتمه
وابق فى عزةٌ وفى دَعَة صافى العَيْش وارداً شِيَمه
ما ثنى الغصن عطفه طرباً وشدا الطاير فوق نغمه

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبى جعفر الزُّبير ، والخطيب أبى عثمن بن عيسى .

توفى بمالقة فى اليوم الثامن والعشرين لمحرم عام اثنين وخمسين وستمائة ، وأوصى بعد أن حُفر قبره ، بين شيخيه الخطيبين أبى عبد الله الطَّنجالى ، وأبى عثمن بن عيسى ، أن يدفن ، وأن يكتب على قبره هذه الأبيات :

ترحّم على قبر ابن باقٍ وحيِّه فمن حَقّ مَيْت الحىّ تسليم حيِّه
وقل آمن الرحمن رَوْعة خائف لتفريطه فى الواجبات وَغيِّه

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (حفظت) .

قد اختار هذا القبر فى الأرض راجياً ... من الله تخفيفاً بقرب[1] وليه
فقد يشفع الجار الكريم لجاره ... ويشمل بالمعروف أهل نَديه
وإنى بفضل الله أوثق واثق ... وحَسْبى وإن أذنَبْتُ حبُّ نبيه

محمد بن إبراهيم بن سالم بن فضيلة المعافرى[2]

من أهل ألمرية يدعى بالبيوّ ، ويكنى أبا عبد الله

حاله

من الإكليل الزاهر[3]، شيخٌ أخلاقُه ليِّنة ، ونفسه كما قيل هيِّنة ، ينظم الشعر سهلا مساقه ، مُحكما اتِّساقه ، على فاقة مالها من إفاقة . أُنشد السلطان بظاهر بلده قوله :

سَرَتْ ريح نَجْد من رُبى أرض بابل ... فهاجت إلى مَسْرى سراها بلابِل
وذكَّرنى عَرْفُ النَّسيمِ الذى سرى ... معاهدَ أحباب سُراة أفاضل
فأصبحت مشغوفاً بذكرى منازل ... ألفت فواشوقى لتلك المنازل
فياريح هُبِّى بالبطاح وبالرُّبا ... ومُرِّى على أغصان زهر الخمائل
وسيرى بجسمى للتى الروح عندها ... فروحى لديها من أجلِّ الوسائل
وقولى لها عنى مُعَنَّاك بالهوى[4] ... له شوق معمودٍ وعَبْرة ثاكل

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (بقدر) .

(٢) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ، ولم ترد فى «ج» ولا «الزيتونة» .

(٣) وعنوانه الكامل «الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم التاج من الجواهر» من كتب ابن الخطيب الصغيرة . وفيه يترجم لبعض أعلام معاصرية . وذلك بإيجاز وبأسلوب مسجع وقد سبق التعريف به عند استعراض كتب ابن الخطيب و مقدمة المجلد الأول من الإحاطة

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بالنوى)

فيا بأبي هيفاء كالغصن تَثَنّى بقَدٍّ يَقُدُّ كاد يَنْقَدُّ مايل
فتاة براها الله من فِتْنَة فمن رآها ولم يُفتن فليس بعاقل
لها مَنْظَرٌ كالشمس فى رَوْنق الضُّحا ولحظٌ كحيلٌ ساحر الطَّرْف بابل
بطيب شَذَاها عطَّرت كل عاطر كما بحُلاها زيَّنَت كل عاطل
رمَتْني بسهم من سهام جفُونها فصادف ذاك السَّهم منى مقاتل
فظلِلْت غريقاً فى بحار من الهوى وما الحب إلا لُجَّةٌ دون ساحل
فيامَنْ سَبَت عقلى وأفْنت تجلُّدى صِلِيني فإن البُعْد لا شك قاتل
فلى كبد شَوْقَ إليك تفَطَّرت وقلب بنيران الجَوى فى مشاعل
ولى أدمع تُحـكى ندا كفُّ يوسف أمير العلى الأرْضَي الجميلُ الفضايل
إذا مدَّ بالجود الأنامل لم تزل بحور النَّدى تهْمى بتلك الأنامل

ومن شعره قوله من قصيدة :

بَهَرَت كشمس فى غُلالة عَسْجد وكبَدْرِ تِم فى قضيب زَبَرْجد
ثم انثنَت كالغصن هزَّته الصَّبا طرباً فتزرى بالغصون الميَّد
حَوْراء بارعة الجمال غَريدة تزهى فتزرى بالقضيب الأمْلَد
إن أدْبَرَت لم تُبق عقل مدبِّر أو أقبلت قتلت ولـكن لاتَدِ

توالیفـــــــه

قال شيخنا أبو البركات ، وابتُلى باختصار كتُب الناس ، فمن ذلك مختصره المسمى « بالدُّرر المنظومة الموسومة فى اشتقاق حروف الهجا المرسومة » ، وكتاب فى حكايات تسمى روضة الجنان ، وغير ذلك .

توفى فى أواخر رمضان من عام تسعة وأربعين وسبع ماية ، ودخل غرناطة غير مرة .

محمد بن إدريس بن على بن إبراهيم بن القاسم

من أهل جزيرة شُقْر[١] ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن مَرْج الكُحْل

حـــاله

كان شاعراً مُفْلقا غزلا[٢] ، بارع التوليد ، رقيق الغزل . وقال الأستاذ أبو جعفر : كان شاعراً مطبوعاً ، حسن الكفاية ، ذاكراً للأدب ، متصرفاً فيه . قال ابن عبد الملك : وكانت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ، ظهرت فيها إجادته . وكان مُبْتَذل اللباس ، على هيئة[٣] أهل البادية ، ويقال إنه كان أُمِّيًّا .

من أخذ عنه

روى عنه أبو جعفر بن عثمان الورّاد ، وأبو الربيع بن سالم ، وأبو عبد الله بن الأبّار ، وابن عسكر ، وابن أبي البقاء ، وأبو محمد بن عبد الرحمن بن بَرْطلة ، وأبو الحسن الرعينى.

شعره ودخوله غرناطة

قال فى عُشيَّةٍ بنهر الغُنْداق ، خارج بلدنا لَوْشة بنت الحضْرة ، والمحسوب

---

(١) هى بلدة من أعمال شرقى الأندلس» تقع شمال شاطبة بينها وبين بلنسية ، على نهر شقر El Jucar ، وعلى مقربة من مصبه فى بقعة فى منتهى الخصب والنضرة ، وقد كان إلى جانبها داخل مصب النهر الجزيرة الشهيرة فى الشعر الأندلسى — جزيرة شقر — وهى التى اشتهرت بإنجابها رهطا كبيرا من العلماء . وبالاسبانية Alcira

(٢) هذه الكلمة واردة فى «ج» والإسكوريال ، وساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين وفى النفح . وفى الإسكوريال (أهل) وهو سهو ظاهر فى تكرار نفس الكلمة .

من دخلها فقد دخل إلبيرة ، وقد قيل إن هذا النهر من أحواز بَرْجة ، وهذا الخلاف داع إلى ذكره .

عَرِّج بمُنْعَرج الكُثَيب الأعْفر ... بين الفُرات وبين شطِّ الكوثر
ولنَغْتَبقها قهوةً ذهبيَّةً ... من راحتَيْ أحْوى المراشف أحور
وعشيَّةٍ قد(١) كنت أرقب وقتها ... سَمَحت بها الأيام بعد تعذُّر
[نلنا بها آمالنا](٢) في روضة ... تُهدى لنا بشِقِّها شميم العنبر
والدهر من ندم يسَفِّه رأيه ... فيما مضى منه بغير تكدُّر
والوُرْق تشدو والأراكةُ تنْثنى ... والشمس ترْفُل في قميص أصفر
والرَّوض بين [مُفَضَّضٍ ومُذَهَّب](٣) ... والزهر بين مُدَرْهم ومُدَنَّر
والنهر مَرْقوم الأباطح والرُّبى ... بمُصَنْدَل من زَهْره ومُعَصْفر
وكأنَّه وكأنَّ خضرة شطِّه ... سيفٌ يسل على بِساط أخضر
وكأنما(٤) ذاك الحَباب فِرِنْدُه ... مهما طفا في صَفحة كالجوهر(٥)
وكأنَّه وجهاته محفوفةٌ ... بالآس والنُّعمان خدٌّ مُعَذَّر
نهر يهيم بحُسْنه من لم يهم ... ويُجيد فيه الشِّعْر من لم يَشْعر
ما اصفرَّ وجه الشمس عند غروبها ... إلا لفُرْقة حُسْن ذاك المنظر

ولا خفاء ببراعة هذا النظم . وقال أيضا :

(١) هكذا وردت في «ج» و «الزيتونة» . ووردت في الإسكوريال والنفح (كم) والأولى أنسب للسياق .

(٢) هكذا وردت في الإسكوريال و«ج» . ووردت في النفح (قلنا بهذا مالنا) ، وهو تحريف .

(٣) هكذا في الإسكوريال والنفح . وفي المخطوطين (مذهب ومفضض) .

(٤) هكذا في الإسكوريال والنفح . وفي «ج» (وكأن من) .

(٥) هذا البيت ساقط في « الزيتونة » .

أرأت جفونك مِثْله من مَنْظر [١] ظلٌّ وشمس مثل خدِّ مُعْذَر

وهذا تتميم عجيب لم يُسبق إليه . ثم قال منها :

وقرارة [٢] كالعَشْر بين خميلة سالت مذانبُها بها كالأسْطُر

فكأنّها مَشْكولة بمُصَنْدل من يانع الأزهار أو بمُعَصْفر

أملٌ بلغناه بهَضْب حديقة قد طرَّزته يدُ الغمام المُمْطر

فكأنه والزَّهر تاجٌ فوقه مُلْكٌ تجلَّى فى بِساط أخضر [٣]

راق النَّواظر منه رايقُ مَنْظر يصف النَّضارة عن جِنان الكوثر

كم قاد [خاطر خاطر] [٤] مُسْتَوْفز وكم استفزَّ جماله من مُبْصر

[لولاح لى] [٥] فيما تقدَّم لم أقل عرِّج بمُنْعَرج الكثيب الأعْفَر

قال ابو الحسن الرُّعينى ، وأنشدنى لنفسه :

وعُشَيَّةٌ كانت قنيصة فِتْية ألفوا من الأدب الصَّريح شيوخا

فكأنما العنقاء قد نَصَبوا لها من الانحناء إلى الوقوع فخوخاً

شَمِلَتهم آدابهم فتجاذبوا سرَّ السُّرور محدِّثاً ومُصِيخا

والوَرَق تقرأ سيرة الطَّرب التى يُنْسيك منها ناسخاً منسوخا

والنهر قد صَفِحت به نارنجةٌ فتيمَّمت من كان فيه مُنيخا

فتَخالُهم حُلل السَّماء كواكبا قد قارنت بسعودها المرِّيخا

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال والنفح . وفى المخطوطين (إذا أجفانك مثله منظر) . وهو تحريف

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح ، وفى المخطوطين (وقراءة) .

(٣) هذا البيت ساقط فى المخطوطين ، «ج» و «الزيتونة» .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى «ج» و «الزيتونة» (كم قاد خاصر مستوفر) .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال و«الزيتونة» والنفح . وفى «ج» (لولا ذلتى) .

خرق العوائد فى السُّرور نهارُهم فجَعَلْتُ أبياتى لهم[١] تاريخا[٢]

ومن أبياته فى البديهة :

وعندى من مَراشِفها حديث يُخبِّر أن ريقتها مُـــدام

وفى أجفانها السَّكْرى دليل وما ذُقْنا ولا زَعَم الهُمام

تعالى الله ما أجْرَى دموعى إذا عنَّت لُمقْلتى الخيـــام

وأشجانى إذا لاحت بروق وأطْربنى إذا غنَّت حَمـام

ومن قصيدة .

[عذيرى من الآمال خابت قُصودها[٣] ونالت جزيل الحظّ منها الأخابث

وقالوا ذكَرْنا بالغنى فأجبتُهم خمولاً وماذكرٌمع البُخْل ماكث

يهون علينا أن يبيد أثاثُنا وتبقى علينا المَكْرُمات الأثابت

وما ضرَّ أصلا طيِّبا عدمُ الغنى إذا لم يغيره من الدهر حادث][٤]

وله يتشوق إلى أبى عمرو بن أبى غياث :

أبا عمرو متى تُقْضى الليالى بلقيا كم وهُنَّ قَصَصْنَ ريشى

أبَتْ نفسى هوًى إلاّ شريشاً وما بعد الجزيرة من شَرِيش

وله من قصيدة :

طَفَلَ المساء وللنسيم تضوُّع والأنْسُ يَنْظِمُ[٥] شملنا ويجمع

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (له) . والأولى أنسب للسياق .

(٢) هذه القصيدة واردة فى الإسكوريال والنفح ، وساقطة فى المخطوطين .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين وفى النفح . ووردت فى الإسكوريال (قصورها) .

(٤) هذه الأبيات واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى المخطوطين .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين وفى الإسكوريال . ووردت فى النفح (يجمع) .

والزهر يضحك من بكاء غمامة ريعت لشيمَ سيوف برق تلمع
والنهر من طَرَب يصفّق مَوْجه والغصن يرقص والحمامة تَسْجَع
فانعم أبا عمران واله بروضة حَسُن المصيف بها وطاب المَرْبع
يا شادن البان الذى دون النقا حيث التقى وادى الحِمى والأجرع
[الشمس يغرب نورُها ولربما كَسَفَت ونورك كل حين يَسْطَع][1]
إن غاب نورالشمس بِتنا[2] نتقى بِسَناك ليلَ تفرّق يتطلّع]
أفلَت فناب سناك عن إشراقها وَجلاً من الظلماء ما يتوقع
فأمنتُ يا موسى الغروب ولم أقلْ فوَددتُ يا موسى لو انّك يوشع

وقال :

ألا بشّروا بالصبح منى باكياً أضرَّ به الليل الطويل مع البكا
ففى الصبح للصَّبّ المُتَيَّم راحة إذا الليل أجْرَى [دمعه][3] وإذا شكا[4]
ولا عجب أن يُمسك الصبح عَبرتى فلم يزل الكافور للدّم مُمْسِكا

ومن بديع مقطوعاته قوله :

مَثَلُ الرِّزق الذى تطلبه مَثَلُ الظِّلّ الذى يمشى معك
أنت لا تدركه مُتّبعا فإذا ولّيت عنه أتْبَعك

وقال :

دخلتم فأفسدتم قلوباً بمُلْككم[5] فأنتم على ما جاء فى سورة النمل

---

(١) هذا البيت ساقط فى المخطوطين وفى الإسكوريال . ووارد فى النفح .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال والنفح (لسنا) . والأولى أرجح وأكثر تمشياً مع السياق .
(٣) هذه الكلمة واردة فى المخطوطين وفى النفح ، وساقطة فى الإسكوريال .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . ووردت فى المخطوطين (بكا) .
(٥) هكذا وردت فى المخطوطين والإسكوريال . وفى النفح (بملكها) .

وبالعدل[١] والإحسان لم تتخلقوا فأنتم على ما جاء فى سورة النحل

وقال أبو بكر محمد بن محمد بن جَهْور : رأيت لابن مرج الكحل مَرْجاً أحمر قد أجهد نفسه فى خدمته فلم يُنْجب ، فقلت :

يا مَرْج كُحْل وَمن هذى المروج له ما كان أحوج هذا المرج للكَحَل
يا حُمرة الأرض من طيب ومن كَرَم فلا تسكن طَمِعاً فى رزقها العَجِل
فإنّ من شأنها إخلاف آمِلها[٢] فما تفارقها كيفيّة الخجل

فقال مجيباً بما نصه :

يا قائلا إذ رأى مَرْجى وحُمْرته ما كان أحوج هذا المرج للكحل
هو احمرارُ دماء الرُّوم سيّلها بالبيض من مرّ من آبائى الأول
أحببتُه إنّ مَنْ فُتنت به فى حُمرة الخدّ أو إخلافه أملى

وفاته

توفى ببلده يوم الإثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وستماية ، ودفن فى اليوم بعده .

محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى

من أهل مرسية ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن الجنّان

حاله

كان محدِّثا راوية ، ضابطا ، كاتباً بليغا ، شاعراً بارعا ، رايق الخطّ ،

---

(١) هكذا فى المخطوطين والإسكوريال . وفى النفح (وبالجود) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى المخطوطين (آمالها) .

دينًا فاضلا ، خيِّرا ، ز كيًّا . استكتبه بعض أمراء الأندلس ، فكان يتبرَّم من ذلك ، ويقْلَق[1] منه . ثم خلَّصه الله منه . وكان من أعاجيب الزمان فى إفراط القَمَاءة[2] ، حتى يظن رائيه إذا استدبره ، أنه طفلٌ ابن ثمانية أعوام أو نحوها . متناسب الخِلقة ، لطيف الشمايل ، وقورا . خرج من بلده ، حين تمكَّن العدو من بَيْضَته عام أربعين وستماية ، فاستقرّ بأوْرُيولة[3] ، إلى أن استدعاه إلى سَبْتة ، الرييس بها ، أبو على بن خلاص ، فوفد عليه ، فأجْل وفادته ، وأجْزل إفادته ، وحَظِى عنده حُظْوة تامة . ثم توجه إلى إفريقية ، فاستقرّ ببجاية . وكانت بينه وبين كُتَّاب عصره مكاتبات ، ظهرت فيها براعته .

مشيخته

روى ببلده وغيرها عن أبى بكر عزيز بن خطَّاب[4] ، وأبى الحسن بن سهل ابن مالك ، وابن قَطْرال ، وأبى الرَّبيع بن سالم ، وأبى عيسى بن أبى السَّداد ، وأبى على الشَّلوبين ، وغيرهم .

من روى عنه

روى عنه صهره أبو القاسم بن نبيل ، وأبو الحسن محمد بن رُزَيق .

شعره

[قال القاضى أبو عبد الله بن عبد الملك ، وكان له فى الزُّهد ، ومدح النبى

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال و «ج» . وفى «الزيتونة» (يضيق) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (القامة) وهو تحريف .

(٣) أوريوله وبالإسبانية Orihuela من بلاد شرقى الأندلس . تقع على نهر شقورة شمال شرقى مرسية . وقد لعبت فى تاريخ شرقى الأندلس دورا هاما ، وسقطت فى أيدى الأرجونيين فى سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى المخطوطين (ابن خاطب) وهو تحريف .

صلى الله عليه وسلم بدايع ، و نظم فى المواعظ للمذكِّرين كثيرا](١). فمن ذلك قوله فى توديع رمضان وليلة القدر :

مضى رمضان وكأنْ بك قد مضى ... وغاب سَنَاه بعد ما كان أوْمَضا
فيا عهدَه ما كان أكْرَم مَعْهدا ... ويا عصْرَه أعْزِز علىّ أن انقضا
ألمَّ بنا كالطيف فى الصيف زائرا ... فخيَّم فينا ساعة ثم قوَّضا
فياليت شعرى إذ نوى غُرْبةَ النَّوى ... أبالسُّخط عنا قد تولىّ أم الرضا
قضى الحقَّ فينا بالفضيلة جاهداً ... فأى فتىً فينا له الحق قد قضا(٢)
وكم من يدٍ بيضاء أسدى لذى تُقَى ... بتَوْبته فيه الصحايفَ بيَّضا
وكم حُسْنٍ قد زاده حُسْناً وسَنَى ... محاه وبالإحسان والحُسْن عوَّضا
فلله من شهرٍ كريم تعــرَّضت ... مكارمه إلاّ لمن كان أعرضا
نَفى بينه وبين شجونك مَعْلَما ... وفى إثره ارسل جفونك فَيَّضا
وقِفْ بثُنيَّات(٣) الوداع فإنهــا ... تُمحِّص مشتاقاً إليها وتُمْحِضا
وإن قَضَيْتَ قبل التفرُّق وقْفَةً ... فمُقْضِيها من ليلة القدر ما قضا
فيا حُسْنُها من ليلة جلَّ قدرها ... وحضَّ عليها الهاشميُّ وحرَّضا
لعل بقايا الشهر وهى كريمــةٌ ... تُبيِّن سراً للأواخر(٤) أغْمَضا
وقد كان أضْفَى وِرْدَه كى يفيضه ... ولا كن تلاحى [من تلاحى](٥) فقيَّضا
وقال اطلُبُوها تَسْعَدوا بِطِلابها ... فحرَّك أرباب القلوب وأنْهَضــا
جزى الله عنــا أحمد الجزا على ... كَرَمٍ أضفــاه بُرْداً وفَضْفَضــا

---

(١) وردت هذه الفقرة التى بين الحاصرتين فى المخطوطين . ولم ترد فى الإسكوريال .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (مضى) والأولى أنسب للسياق .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (بثنايات) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (فى الاواخر) .
(٥) هكذا وردت الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (إثبات فيها) . وهى ساقطة فى «ج»

وصلّى عليه من نبيٍّ مبـــاركٍ   رؤوف رحيم للرسالة مُرْتضـا
له عِزّةٌ أعلى من الشمس منزلا   وعَزْمَته(١) أمضى من السّيف مُنْتَضا
له الذِّكر يهمى فضَّ مِسْك ختامه   تأرّج من ريّا فضـايله الفَضـا
عليه سلام الله ما انهل ساكِبٌ   وذهَّب مُوشِّي الرياض وفَضَّضا

ومن ذلك قصيدة فى الحج :

[تذاكر الذِّكر وتُهييج اللّواعجا   فعالَجْن أشجاناً يُكاثرن عالجا
ركاباً سَرَت بين العُذَيْت وبارق   نوايبج فى تلك الشِّعاب نواعِجا
تيمَّمْن من وادى الأراك منازلا   يطرنها إلا فى الأراك سَجاسجا
لهن من الأشواق حادٍ فإن   وَنَت حُداه يُرجِّعن الحنين أهازجا
ألا بأبِي تلك الركاب إذا سرت   هَوادى يملأْن الفلاة هوادجا
بَراهم سَواهمُ أو مُراهم فأصبحوا   رسوماً على تلك الرسوم عَوَالجا
لهم فى مُنًي أسنى المُنا ولدى الصّفا   يرجون من أهل الصّفا المناهجا
سَمابهـــم طَوْفٌ ببيتٍ طامح   أراهم قبـاباً للعُـلى ومعـارجا
فأبدوا من اللّوعات ما كان كامنا   وأذْرَوا دموعاً بل قلوباً مناضجا
ولمـا دنوا نودوا هُنَيّا وأقبـلوا   إلى الرُّكن من كل الفجاج أدارجا
وقَضوا بتقبيل الجـدار ولَثْمه   حقوقاً تُقَضِّى للنفوس حوايجا
إذا اعتنقوا تلك المعـالم خِلْتَهم   أساور فى إيمانهـا وجهالجـا
فلله ركبٌ يمّموا نحو مكة لقد   كَرُموا قصداً وحلّوا منـاسجا
أناخوا بأرجاء الرَّجاء وعرَّسوا   فأصبح كلٌّ ما بزّ القِدْح فالجا
فبشروا لهم كم خوّلوا من كرامة   فـكانت لما قدّموه نتايجـا

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (وعزمتنا) والأولى أنسب للسياق .

بفتح بابٍ للقبول وللرِّضا ... ووَفْدُهم أضحى على الباب والجا
تميَّزَ أهلُ السَّبق لا كن غيرهم ... غدا همَجاً بين الخليقة هامجا
أيلحق جِلْسٌ للبيوت مَداهُم ... ولم يَلْعب فى تلك المدارج دارجا
ألا ليت شعرى للضرورة هل أرى ... إلى الله والبيت المحجَّب خارجا
له الله من ذى كُرْبَة ليس يُرْتجى ... لمرتجيها يوما سوى الله فارجا
قد أُسْهِمَت شتىَّ المسالك دونه ... فلا نَهْجَ يَلْقى فيه لله ناهجاً
يخوض بحار الذَّنب ليس يهابُها ... ويُضْعَق ذُعْراً إن يرى البحر هائجا
جبانٌ إذا عنَّ الهدى وإذا الهوى ... يعَنُّ له كان الجرىء المهارجا
يتيه ضلالا فى غَيابة همِّه ... فلا حجر تهديه لرُشْدٍ ولاحِجا
فواحَرَبا لاح الصباح لمُبْصرٍ ... وقلبىَ لم يُبْصر سوى الليل إذ سَجا
لعلَّ شفَيعى أن يكون معاجلا ... لداء ذنوب بالشِّفاء مُعالجا
فيُنْشِقَنى بيتُ الإله نوافحاً ... ويُعبق لى قبر النَّبى نوافجا
فمالى لإمالى سوى حُبِّ أحمد ... وصَلت له من قرب قابٍ وشائجا
عليه سلام الله من ذى صَبابة ... حليفِ شَجاً يكفى من البعد ناشجا
ولو أنصفت أجفانه حقّ وجده ... سفَكت دما للدموع موازجا] (١)

كتابته

وكتابته شهيرة، تُضرب بذكره فيها الأمثال، وتُطْوى عليه الخناصر. قالوا، لما عقد (٢) أمير المسلمين، أبو عبد الله محمد بن يوسف [بن هود] (٣) البيْعة لابنه الواثق بالإمارة من بعده، تولى إنشاءها. وجعل الحاء المهملة

(١) وردت هذه القصيدة فى الإسكوريال فقط؛ ولم ترد فى المخطوطين «ح» و«الزيتونة».
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى المخطوطين (جعل).
(٣) الزيادة من الاسكوريال.

سَجْعها مُرْدِفا إياها بالألف ، نحو صباحا وصلاحا[(١)] ، وما أشبه ذلك . طال مجموعها فناهزت الأربعين . وطاب مَسْمَعُها[(٢)] ، فأحرزت بُغْية المُسْتَمِعين : فكتب إليه أبو المُطَرِّف بن عَمِيرة ، رسالته الشهيرة ، يداعبه في ذلك . وهي التي أولها :

« تحييك الأقلام تحيّة كِسْرى ، وتقف دون مداك حَسْرى » . ومنها في الغرض : « ومالك أمِنْت تغيُّر الحالات[(٣)] ، فشَنَنْت غارتك على الحاءات ، ونَفَضْت عنها المهارق ، وبعثت في طلبها السَّوابق ، ولَفَظْتَها من الأفواه ، وطَلَبْتَها بين الشِّفاه ، حتى شهد أهل اللسان[(٤)] ، بتزحزحها عن ذلك المكان ، وتوارت بالحُلوق . ولو تغَلْغلت إلى العُروق ، لآثرتها جيادُك ، واقْتَنَصها قلمك ومِدادك » [وهي طويلة][(٥)]

فراجعه[(٦)] بقوله : « ما هذه التحية الكِسْرَويّة ، وما هذا الرأي ، وما هذه الرويّة ، [أتَنْسكيت من الأقلام ، أم تَبْسكيت من الأعلام ، أم كلا الأمرين تُوجه القصد إليه][(٧)] وهو الحقّ مُصَدِّقا لما بين يديه . وإلاّ فعهدي بالقَلَم ، يتسامى عن عكسه ، ويترامى إلى الغاية البعيدة بنفسه ، فتى لانَتْ أنابيبه للعاجم ، ودانت أعارُبه[(٨)] بدين الأعاجم . واعجبا لقد اسْتَنْوق الجَمَل ، واختلف القول

(١) هكذا في المخطوطين . وفي الإسكوريال (وفلاحا) .

(٢) هكذا في المخطوطين . وفي الإسكوريال (مسموعها) .

(٣) هكذا في المخطوطين . وفي الإسكوريال (الحارات) .

(٤) هكذا في الإسكوريال . وفي المخطوطين (الشان) .

(٥) الزيادة من الإسكوريال .

(٦) هكذا في المخطوطين . وفي الإسكوريال (فأجابه) .

(٧) ما بين الحاصرتين وارد في «ج» والإسكوريال . وساقط في «الزيتونة» .

(٨) هكذا وردت في الإسكوريال وفي «ح» . وفي «الزيتونة» (إعرابه) .

والعمل . لأمر ما جدَع أنفه قَصِير ، وارتد على عقبه الأعمى[1] أبو بُصير . أمس استَسْقى من سحابه ، فلا يسقيني ، واستشفى بأسمائه فلا يُشفيني . واليوم يُحلّى محل أنو شروان ، ويشكو منى شكوى اليزيدية من بنى مروان ، ويزعم أنى أبطَلْت سحره ، كما أبطل سِحْرُ بردوران ، ويخفى فى نفسه ما الله مُبْديه ، ويستجدى بالأثر[2] ما عند مُسْتَجْديه . فمن أين جاءت هذه الطريقة المُتَّبعة ، والطَّريفة المُبْتَدعة ، أيظن أن مُعَمَّاه لا يفُكّ ، وأنه لا يتجلَّى هذا الشَّك . هل هذا[3] منه إلا إمحاض النيَّة ، وإحماض تفْنِية ، ونَشْوةٌ من خَمْرة الهَزْل ، ونخوة من ذى ولاية آمِن العَزْل . تالله لولا محلُّه من القَسَم ، وفضله فى تعليم النَّسم ، لأسمعته ما يَنْقَطع به صلَفه ، وأودعته ما ينْصَدع به صدَفه ، وأشَدْتُ بشرف المَشْرِق ومجده ، وأشرْتُ إلى تعاليه عن اللَّعب بجدِّه . ولكن هو القلم الأول ، فقوله على أحسن الوجوه يتأول[4] ، ومَمْدُود فى تهذيبه ، كلُّ ما لسانه يهذى به . وما أنسَانيه[5] إلاّ الشيطان أياديه أن أذكرها[6] ، وأنما أقول ليت التحيَّة كانت لى فأشكرها ، ولا عَتْبَ إلا على الحاء ، المُبَرِّحة بالبَرحاء ، فهى التى قَيَّمت قيامى فى الأندية ، وقامت علىّ قيام المُعْتَدية ، يتظلَّم وهو عَيْنُ الظالم ، ويُلين القول ، وتحته سُمّ الأراقم ، ولعَمْر البراعة وما نَصعت ، واليراعة وما صنَعت ، ما خامرنى هواها ، ولا كلفْت بها دون سواها . ولقد عرَضَت نفسها علىّ مرارا ، فأعْرَضت عنها أزوراراً ، ودفعتها عنى بكل وجه ، تارة بلُطف ،

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى المخطوطين .
(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (بالأسد) .
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (ذلك) .
(٤) وردت فى المخطوطين (يتأمل) والتصويب من الإسكوريال .
(٥) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (أنسانى) .
(٦) وردت فى المخطوطين (أذكره) والتصويب من الإسكوريال .

وأخرى بنجه، وخفتُ منها السآمة، وقلت انكحى أسامة. فرضيت منها بأبى جَهْم وسوء سَلْكته. وابن أبى سفيان وصَعْلَكته، وكانت أسرع من أمّ خارجة للخطبة، وأسمح من سجاح فى استنجاح تلك الخطبة. ولقد كنت أخاف من انتقال الطباع فى عِترتها، واستثقال الاجتماع من عشرتها(١)، وأرى من الغَبْن والسَّفاه(٢) [أخذها، وترك بنات الأفواه والشِّفاه](٣) إذ هى أيسر مؤنة، وأكثر معونة. فغلطى فيها، أن كانت بمنزل تتوارى صَوْناً عن الشمس، ومن نِسْوة خَفِرات لا ينطقن إلا بالهَمْس، ووجدتها أطْوَع من البَنان للكَفّ، والعِنان للوَكْف، والمعنى للإسم، والمَغْني للرّسم، والظّلّ للشخص، والمُستبدل للنص. فما عرفت منها إلا خبرا(٤) أرضاه [حتى حَسِبْتها](٥) من الحافظات للغَيْب بما حفظ الله، فعجبت لها الآن كيف زلّت نعلُها، ونَشَزَت فنشرت ما استكْتَمها بَعْلُها، واضطربت [فى رأيها](٦) اضطراب المختار أبى عبيد، وضربت فى الأرض تسعى علىّ بكل مَكْر وكيد، وزعمت أنّ حرف الجيم خدعها، والآن أخْدَعُها، وأخبرها أن سيُبلّغ بخبرها الخابور، وأحضرها لصاحبها كما أُحضر بين يدى قيصر سابُور، فقد جاءت إفكاً وزورا، وكثرت من أمرها شُزورا، وكانت كالقَوْس أرْنتْ وقد أصْمَت القَنيص والمراودة، قالت ما جزاء، وهى التى قدّت القميص، وربما يُظن بها الصدق، وظنّ الغيب

---

(١) هكذا ورد ترتيب هاتين الكلمتين فى المخطوطين. وفى الإسكوريال (عشرتها ... عترتها).

(٢) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» (والسافة). وفى الإسكوريال (السفه) والأولى أكثر تمشيا مع السياق.

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال. وساقط فى المخطوطين.

(٤) هكذا وردت فى «ج». ووردت فى «الزيتونة» والإسكوريال (خيرا). والأولى أنسب للسياق.

(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال. وفى «ج» (وحسبتها).

(٦) هذه العبارة وردة فى المخطوطين. وساقطة فى الإسكوريال.

تَرْجِيم ، ويقال [لقد خفُضت الحاء . بالمجاورة لهذا الأمر الجسيم][(١)] ، وتنتصر لها أختها[(٢)] التى خيّمت بين النرجسة والرَّيحانة ، وختمت السورة باسم جعلت ثانيه أكرم [نبىٍّ على الله سبحانه][(٣)] ، فإن امتعضْتَ لهذه المتظَلِّمة ، تلك التى سبقت بكلمتها بشارة المتكلّمة ، فأنا ألوذ بعدلها ، وأعوذ بفضلها ، وأسألها أن تقضى قضاء مِثلها ، وتعمل بمقتضى: فابعثوا حَكَماً من أهله ، وحكما من أهلها . على أنّ هذه التى قد أبْدَت مَيْنها ، ونَسِيت الفضل بينى وبينها ، أن قال الحَكَمان منها كان النشوز ، عادت حَرُورية العجوز ، وقالت التّحكّم فى دين الله لا يجوز ، فعند ذلك يُحَصْحِص الحق ، ويعلم من الأوْلى بالحكم والأحقّ ، ويصيبها ما أصاب أروَى ، من دعوةِ سعيدةِ حين الدَّعوى ، وياوَيحها أن أرادت [أن تجنى علىّ فجنت لى ، وأناخَتْ][(٤)] لى مَرْكَب[(٥)] السعادة ، وما ابْتَغَت إلاّ خَتْلى ، فأتى شرُّها بالخير ، وجاء النفع من طريق ذلك الضّير . أتراها علمت بما يثيره اعوجاجُها ، وينجلى عنه عَجاجُها . فقد أفادت عظيم الفوايد ، ونظيم الفرايد ، ونَفْس الفَخْر ، ونَفِيس الذُّخر[(٦)] ، وهى لا تنكر[(٧)] أن كانت من الأسباب ، ولا تذكر إلا يوم المُلاحاة والسِّباب . وإنما يستوجب الشكر جسيماً ، والثناء الذى يتضوّع نسيماً ، الذى شرّف إذ أهدى أشرف السّحاءات[(٨)] ، وعرّف بما كان من انتحاء تلك

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (لقد حفظت الحوار بالحوار) . وفى الإسكوريال (لقد خفضت بالجوار هذا الجيم) .

(٢) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» والإسكوريال . وساقطة فى «ج» .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» والإسكوريال .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال و «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٥) هكذا وردت فى «ج» والإسكوريال . وفى «الزيتونة» (موكب) .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال و «الزيتونة» . وفى «ج» (الدر) .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (تشكر) .

(٨) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (السجلات) .

الحاء المذمومة فى الحاءات ، فإنه وإن ألمّ بالفكاهة ، فما أملى من البداهة ، وسُمِّى باسم السابق السكيت ، وكان من أمر مداعبته كَيْت وكيت ، [وتلاعب بالصِّفات][1] ، تلاعُب السَّيل[2] بالصفاة ، والصَّبا بالبانة ، والصِّبا بالعاشق ذى اللُّبانة ، فقد أغْرَب بفنونه ، وأغرى القلوب[3] بفُتُونه ، ونفث بجَفْنه[4] الأطراف ، وعَبث من الكلام المُشَقَّق الأطراف ، وعلم كيف يُلخِّص البيان ، ويُخلِّص العقْيان . فمن الحق أن أشكره على أياديه البيض ، وأن آخذ لفظه من معناه فى طَرَف النقيض . تالله أيها الإمام الأكبر ، والغمام المُسْتَمطر ، والخبر الذى يُشْفى سايله ، والبحر الذى لا يُرى ساحله ، ما أنا المراد بهذا المَسْلك ، ومن أين حَصَل النور لهذا الحَلَك ، وصحّ أن يُقاس ، بين الحدَّاد والملك . إنه لتواضُع الأعِزَّة : [وما يكون للأكارم عند المكارم من الهِزَّة[5]][6] ، وتحريض الشيخ للتلميذ ؛ فى إجازة الوضوء بالنَّبيذ . ولو حضر الذى قُضى له بجانب الغربى أمرُ البلاغة ، وارتضى ماله فى هذه الصناعة ، من حُسْن السَّبك لحلْيتها والصِّياغة ، وأطاعته فيما أطلعته طاعة القوافى الحسان ، وأتْبعَته فيما جمعته لكن بغير إحسان لأذعن كما أذْعَنْت ، وظَعَن عن محل دعوى[7] الإجادة ، كما ظَعَنْتُ . وأنَّى يُضاهى الفُرات المَعِين[8] بالنُّغْبَة ، ويُباهى بالفلوس من أوتى من الكنوز ما أنَّ مفاتحه لتنوء بالعُصبة ، وأى

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» والإسكوريال . وفى «الزيتونة» (وتلاعبت الصفات) .

(٢) واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى المخطوطين .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (القلب) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (بخفيه) .

(٥) وردت فى الإسكوريال «ج» (الهزة) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، «الزيتونة» . وفى «ج» (وما يكون عند الكرام من الهزة)

(٧) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى المخطوطين .

(٨) واردة فى الإسكوريال و «الزيتونة» ، وساقطة فى «ج» .

حظٌّ للكلالة فى النَّشب ، وقد اتصل للورثة عمود النَّسب. هيهات والله بُعْد[(١)] المَطْلب .وشتَّان الدُّر والخَشْلب . وقد سيم القَلْب ، ورجع إلى قيادة السَّلب ، وإن كنا ممن تقدم لشدة الظمأ إلى المَنْهل، وكن أقْدَم إلى عين تَبُوك بعد النَّهى للعل والنَّهل[(٢)] . فقد ظهرت بذلك المعجزة عِياناً ، وملىء ما هناك جِناناً ، وما تعرَّضْنا بإساءة الأدب واللَّوم، ولكن علمنا أن آخر الشُّرَّاب ساقى القوم ، وإن أسْهَبْنا فما نِلْنا رتبة ذلك الإيجاز ، وإن اغْرَقنا فهوانا فى الحجاز ، فلكم قَصِيرات الحِجال، ولنا قصيرات الخطا فى هذا المجال ، وإكثارنا فى قِلَّة ،وجارنا من الفقر فى فقر[(٣)] وذلّة . ومن لنا بواحدة يُشرق ضياؤها، ويَخْفى للنجوم خجلُها منها وحياؤها ، إن لم تُطل فلأنها للفروع كالأصل ، وفى المجموع كليلة الوصل . فلو سطع[(٤)] نورها الزاهر ، ونورها الذى تطيب منه الأنوار الأزاهر ، لسَجَدت النَّيِّران ليوسف ذلك الجمال ،ووجدت نَفَحات ريّاها فى أعطاف الجنوب والشمال، وأسرعت نحوهاالنفوس إسراع الحجيج يوم النَّفْر ، وسار خبرها[(٥)] وسَرَى ، فصار حديث المُقيمين والسَّفْر . وما أظن تلك السَّاحرة فى تَدلِّيها ، إلا السَّاحرة بتَجَنِّيها، إذ كانت ربيبتَها ، بل ربيبتها ،هذه التى سبقَتْنى لمّا سقَتْني بسينها ، ووجَدْتُ ريحَها ، لما فَصَلت من مصرها غيرها . وحين وصلت ، لم يدلنى على سابقها[(٦)] إلا عَبيرُها ، وكم رامت أن تَستَتِر عنى بلَيْل حَبَرِها فى هذه المغانى . فأغرانى بهاؤها[(٧)] ، وكل مُغْرَم مُغْرى ببياض صُبْح الألفاظ والمعانى . وهل كان ينفعها

---

(١) واردة فى «الزيتونة» . وساقطة فى الإسكوريال و«ج» .

(٢) واردة فى المخطوطين . وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى المخطوطين .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (قطع) والأولى أنسب للسياق .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال و «ج» . وفى «الزيتونة» (حديثها) .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال و «الزيتونة» . وفى «ج» (ساريها) .

(٧) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال (بها) . وساقطة فى «الزيتونة» .

تلفُّحُها بمِرْطِها وتلفُّعها ، إذ نادتها المودة ، فقد عرّفناك يا سوْدة . فأقبلتُ على شمِّ نَشْرها ، وعرْفها ولثم سطْرها وحرْفها ، وقرّيتُها[1] الثناء الحافل ، وقرأتها فزُيِّنَت بها المحاضر والمحافل . ورُمْتُ أمر الجواب ، فغرّتني فى الخطاب ، لكن رسمتُ هذه الرقْعة التى هى لديكم بعجْزى واشية ، وإليكم منِّى على استحياء ماشية ، وإن رقّ وجهها فما رقّت لها حاشية ، فمُنوا بقبولها على عِلاّتها[2] ، وانقعوا بماء سماحتكم حرّ غُللها ، فإنها وافدةُ من استقرّ قلبهُ عندكم وثوى ، وأقرّ بأنه يَلْقُطُ فى هذه الصناعة ما يُلْقى للمساكين من النّوى . بقيتم ، سيدى الأعلى للفضل والإغضاء ، ودمتم غرّة فى جبين السمْحة البيضاء ، واقتضيتم السعادة المتصلة مدّة الاقتضاء ، بيُمْن الله سبحانه . انتهى .

ومحاسنه عديدة ، وآماده بعيدة .

دخوله غرناطة

دخلها مع المتوكل مخدومه ، أو وَجَده بها .

من روى عنه : روى عن أبى الحسن سهل بن مالك .

وفاتـه

قال الأستاذ فى الصلة : انتقل إلى بجاية فتوفى بها فى عشْر [الخمسين][3] وستمائة .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (وزودتها) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (عللها) .

(٣) الزيادة من الإسكوريال .

محمد بن محمد بن أحمد بن شلبطور الهاشمى [١]

من أهل المريّة ، يكنى أبا عبد الله . من وجوه بلده وأعيانه ، نشأ نَبيه البيت ، ساحباً بنفسه وبماله ذَيْل الحُظوة ، متحلّياً بخَصْل من خطٍّ وأدب . وزيراً ، متجنداً ، ظَريفاً ، دَرِباً على ركوب البحر وقيادة الأساطيل . ثم انحطَّ فى هواه انحطاطاً ، أضاع مروءته ، واستهلك عَقاره ، وهدّ بَيْته ، وألجأه أخيراً إلى اللِّحاق بالعُدْوة فهلك بها .

وجرى ذكره فى الإكليل بما نصه : مجموع شعر وخطّ ، وذكاء عن درجة الظُّرفاء ، غير مُنْحط إلى مَجادة أثيلة البيت ، شهيرة الحىّ والمَيْت . نشأ فى حِجْر الترف والنعمة ، محفوفاً بالماليّة الجمّة ، فلما غَفَل عن ذاته ، وترعرع بين لِدَاته ، أجرى خيول لذّاته ، فلم يَدَعْ منها ربعاً إلا أقفره ، ولا عَقاراً إلا عَقَره ، حتى حطَّ بساحلها ، واستولى بسِعْر [٢] الإنفاق على جميع مراحلها ، إلا أنه خَلَص بنفْسٍ طيِّبة ، وسَرَاوة سماؤها صيِّبة ، وتمتع ما شاء من زِيرٍ وبَمّ ، وتأنّس لا يعطى القياد لهم . وفى عفو الله سِعَة ، وليس مع التوكل على الله ضِيعَة .

شعــــــره

من شعره [قوله] [٣] يمدح السلطان ، وأنشدها إياه بالمضارب من وادى الغَيْران عند قدومه من المرية

---

(١) وردت هذه الترجمة فقط فى الإسكوريال ، ولم ترد فى «ج» ، ولا «الزيتونة» . ويبدو من لقب هذا الشاعر وهو شلبطور — وبالإسبانية Salvador — أنه ينتمى إلى أصل من المولدين ، أعنى الإسبان الذين دخلوا فى الإسلام ، منذ فتح الأندلس . وينتمى إلى هؤلاء المولدين كثير من أعلام الأدب والتفكير الأندلسى .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى نفح الطيب (بسفه) .

(٣) الزيادة من النفح .

أثغرُك أم سمطٌ من الدُّر يُنظم ... وريقُك أم مِسْك به الرَّاح تُختم

ووجهُك أم بادٍ من الصُّبح نيِّر ... وفرعُك أم داجٍ من الليل مُظْلم

[أعلِّل منك النفس والوَجْدُ مُتْلِفي](١) ... وهل ينفع التَّعليل والخطْب أعظم(٢)

وأقنع من طَيف الخيال يَزورني(٣) ... لو ان جُفونى بالمنام تَنْعَم

حَمَلتُ الهوى حيناً فلمّا علمته ... سلوتُ لأنى بالمكارم مُغْرم

ولى فى أمير المسلمين محبَّة ... فؤادى مَشْغوف بها ومُتَيَّم

بلغتُ المُنى لما لَثَمْتُ يمينه ... فها أنذا فى جنَّة الخلد أنْعَم

يصوغ قَوِمى الشِّعر فى طيب ذكره ... ويُحْسِن فيه النَّظم من ليس يَنْظِم

فاستمْسك الدِّين الحنيف زمانه ... وقام منارُ الحقِّ والشِّرك مُغرم

له نظرٌ فى المشكلات مُؤيدٌ ... والله مُهدٍ إلى الرشد مُلْهِم

ويستغرق طارحاً فيه وابل جُوده ... فمن فِعله فى جوده يتَعلَّم

فلو أن أمْلاك البَسيطة أنصفوا ... لألقوا إليه الأمر طوعاً وسَلَّم

وفى الدِّين والدنيا وفى البأس والنّدى ... لكم يا بنى نصر مقامٌ معظَّم

ومنها :

إليك أمير المسلمين اقتَضَيْتُها ... حمايل شكر طيرُها مُتَرَنِّم

تَنُمُّ بعَرْف المسك أنفاسها ... إذا يفوه لراوٍ فى النّدى بها فَمُ

فباسمك سُيِّرت فى المسامع ذكرُها ... ويغزى فى أقصى البلاد ويُشْئِم

ولو أننى فى المدح سَحْبان وائل ... وأنجدنى فيه حبيبٌ ومُسْلم

لما كنت إلاّ عن عُلاك مُقصِّر ... ومن بعض ما نشدت وتُولى وتُنعم

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (اعلل منك الوجد والليل ملتق) .

(٢) هكذا وردت فى الاسكوريال . وفى النفح (مؤلم) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بزورة) .

بَقِيت ملاذاً للأنام ورحمة ... وساعدك الإسعاد حيث يُيَمَّمُ

ومن شعره مذيلا على البيت الأخير حسبما نُسب إليه :

نامت جفونك يا سُؤلى ولم أنم ... ماذاك إلا لفرط الوَجْد والألم[1]

أشكو إلى الله مابى من محبتكم ... فهو العليم بما نلقى من السَّقَم[2]

إن كان سَفْكُ دمى أقصى مرادِكم ... فما غَلَتْ نظرة منكم بسفك دَمِ

ومما نسب إليه كذلك :

قِفْ بى وناد بين تلك الطُّلول ... أين الأُلى كانوا عليها نُزُول

أين ليالينا بهم والمُنَى ... نَجْنيه غضاً بالرضا والقبول

لا تَحْمَلوا بعض الذى حملوا ... يوم تولَّت بالقِباب الحُمول

إن غِبْتم يا أهل نَجْد ففى ... قلبى أنتُم وضلوعى حُلول

ومما خاطبنى به :

تالله ما أوْرَى زِناد القَلَق ... سوى ريح[3] لاح لى بالأبرق

أيقنت بالحين فلولا نَفْحة ... نَجْدِيَّة منكم تلافَتْ رَمَق[4]

لكنت أقضى بتلظِّى زفرة ... وحسرة بين الدموع تَلْتَق[4]

فآه من هول النَّوى وما جَنَى ... على القلوب موقف التَفَرُّق

يا حاكى الغُصْن انثنى مُتَوَّجا ... بالبدر تحت لِمَّةٍ من غَسَق

الله فى نَفْس مُعَنًّى أقْصَدت ... من لاعج الشَّوق بما لم تُطِق

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (والسقم) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الألم) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بريق) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (رمق ، نلتق) .

أنى على أكثرها برح الأسى دع ما مضى منها وأدرك ما بقى[1]
ولو بإلمام خيال فى الكرى إن ساعد الجفنُ رقيبَ الأرق
فرُبَّ زورٍ من خيالٍ زائر أقرَّ عينى وإن لم يَصْدُق
شُفيت من بَرْح الأسى لو أنّ مَنْ أصبح رقّى فى يديه مُعْتِق[1]
ففى مُعاناة الليالى عائق عن التّصابى وفنون القَلَق
وفى ضمان ما يعانى المرء من نوايبِ الدهر مَشيب المَفرق
هذا لعَمْرى مع أنى لم أبتْ منها بشكوى رَوْعة أو فَرَق
فقد أخذت من خُطوب غَدْرها[2] بابن الخطيب إلاّ من ممّا أتّقى[1]
فخر الوزارة الذى ما مثله بدرٌ علا فى مغرب أو مشرق
ومذ أرانيه زمانى لم أبل من صَرْفه من مُرْعد أو مُبْرق
لا سيا مذ حَطَطْتُ فى حما جواره[3] الأمنع رَحْل أينق
أيقنت أنى فى رجائى[4] لم أخِبْ وأنّ مسعى بغُيتى لم يخفق
نُدب له فى كل حُسْن آية تناسَبَت فى الخَلْق أو الخُلُق
فى وجهه مَسْحة بِشْرٍ إن بدت تبَهرجت أنوار شمس الأفق
تُعتبر الأبصار فى لألائها[5] عليه من نور السّماح المشرق
كالدهر فى استينائه وبطشه كالسيف فى حدّ الظّبا والرونق
إن بَخُل الغيث استهلّت يده بوابل من غيث جُود غَدِق
وإن وَشَت صفحة طِرْس انجلا ليلُ دُجاها عن سَنى مُؤتلق

(١) هكذا وردت كلها فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (بقى ، معتق ، اتقى ، اينق) .
(٢) هكذا وردت فى النفح . ووردت فى الإسكوريال (دهرها) والأولى أنسب للمعنى .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى النفح (مقامه) .
(٤) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (رجا) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الألاء ما) .

بمثلها من حَبَرات أخجلت ... حواشى الرَّوض خُدود المَهْرق
ما راق فى الآذان أشْناف سِوَى ... مُلتَقِطات لفظه المُفْترق
تود أجياد الغوانى أن يُرى ... حَلْيُها من درٍّ ذاك المنطق
فسَلْ به هل آده الأمر الذى ... حُمّل فى شَرْخ الشباب المونَّق
إذا رأى الرّأى فلا يخطئه ... يُمْنُ اختيارٍ للطريق الأوْفق
أيه أبا عبد الإله ها كَها ... عذراء تَحْثُو فى وجوه السَّبق
خذها إليك بِكْر فِكْر يَزْدرى ... لديك بالأعْشى لدى المُحَلق
لازلت مرهوب الجناب مُرتجًى ... مَوْصول عزٍّ فى سُعودٍ تَرْتَقِى
مُبَلَّغُ الآمال فيما تبتغى ... مُؤَمَّنُ الأغراض فيما تتَّقى

ناب فى القيادة البحرية عن خاله القايد أبى على الرُّنداحى ، و وُلى أسطول المُنَكَّب برهة . توفى بمراكش فى عام خمسة وخمسين وسبعمائة رحمه الله .

محمد بن محمد بن جعفر بن مُشتمل الأسلمى (١)

من أهل ألمرية ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بالبليانى .

حاله

قال شيخنا أبو البركات ، ناب عنى فى بعض الأعمال بألمريّة ، وخطب بنَجانس من غربيها ، ثم خطب بجِهة مُرْشانة ، وهو الآن بها ، وعقد الشروط قبل بألمريّة . عفيفٌ طاهر الذّيل ، نبيل الأغراض ، مهذّب الأخلاق ، قيّمٌ على القراءات ،

(١) وردت هذه الترجمة فقط فى الإسكوريال ، ولم ترد فى «ج» ولا فى [illegible] .

والنحو والأدب ، جيِّدُ الشعر والكتابة . . . . . .(١) من الضبط ، وإجادة العبارة عن المعنى المراد .

تواليفه

قال ، له رَجَز فى علم الكلام جيد ، ورجز آخر فى ألفاظ فصيح ثعلب ، عرِیٌّ عن الحشو ، على تَقْعير فيه يُغتفر لما جمع من اقتصاره ، وله تأليف فى الوبا سماه بإصلاح النيَّة فى المَسْلة الطاعونية .

مشيخته

قال ، أخذ عنى وعن أبيه جملة من الدواوين ، وعن غيرى من أهل بلده .

شعره

قال ، ومما أنشدنى من شعره قوله :

هَفا بِى من بين المغانى عقيقُها ... ومن بينه انفَضَّت لعينى عقيقُها
ومالَتْ لليد قبابُه وأشرَقَـــتْ ... بالدمع منها شروقُها
يهيجُ أنفاسِى غراماً نسيمُها ... وتَقْدَح نارُ الشوق عندى بروقُها
ومن دون واديها ظِباً خوادل ... حكى لحظُها مافى الشِّفار رقيقُها
فلو برزت الشمس منهنَّ فى الضحى ... مُخَدَّرة أضحت كالاً تفوقها
نسيم الصَّبا أن سُيِّرت نحو الحِمَى ... فقل تحي الدِّيار النَّازحات تشوقُها
غريب كَيِيب مُسْتهام مُتَيَّم ... جريح الجفون السَّاهرات عريقُها
فهل عَطْفة تُرجى وهل أمل يُرى ... بعودة أيام تقضَّى أنيقها
سقى وتعلم من أدمع الصبِّ جُودها ... من دِيَم الغَيْث المُلتات ريقها

---

(١) مكانها بالمخطوطات كلمات مشوهة وممحاة .

قال وأنشدنى أيضاً ، وقال كُلِفت إجازة هذا البيت الأول من هذه القصيدة ، إذ ليس لى :

مَنْ عادى ومَنْ ناصرى ومُنْصِفى ... هذا دمعى سَفَكَتْه بنتُ المنصف
أو من يُخَلِّصنى وقد أوهى صحيحُ ... الجسم منى لحظُ طرفٍ مُدنف
جَفْنٌ تحيّر والهوى يُهديه ... لفؤادِ كلٍّ من الهوى لم يألف
مُتَناعسٌ يُهدى السُّهاد ويصرع ... البَطَل الكَمِىَّ بلحظه المُتَضَعِّف
تبدو و تَشْدو للعيون وللمسامع ... فهى بين مُكَحَّل ومُشَنَّف
مَلَكَت بصنعتها عنان عِنانها ... وعدَت عليها كأنْ لم تُعْرَف
تُغْنى إذا غنَّت بطيب صوتها ... عن أن يُزَوِّد لحنها بالمِعْزَف
أما تغَنَّت أو تَدَنَّت تهتف ... قُمْرى نَغَمَتها وغصٌّ المِعْطَف
يأتى على تكرُّر ما غنَّت به صدقاً ... بكلٍّ غريب أو مُسْتَطرف
تُهدِى للنفوس على اختلاف طباعها ... من نَيْلها ما تشتهى بتلطف
كنَّا وجَفْن الدهر عنا ناعِسٌ ... خَلْف سِتْرٍ للأمان مُسَجَّف
حتى وشَى بالسِّر دهرٌ حاسد ... كَلِفٌ بتَنْغيص الكريم الأشْرَف
واخَجْلتا إن لم أمُتْ يوم النَّوى ... لهفاً وما إن كنتُ بعدُ بمنْصِف
لكننى مما نَحِلت وذُبْت لم ... يَرَنى الحِمام فكنتُ عنه أُخْتَف
كم ذا أبيتُ وليس لى من مُسعد ... فى حالتى غير الدموع الذُرَّف
يا هل ترى هذا الزمانُ وصرفُه ... هل يَسْمحان بعودةٍ وتألُّف
صبراً أبا يعقوبهم فهى النَّوى ... لولا هَمَتْ شوقا للقيا يوسف

قال وأنشدنى أيضاً لنفسه ، والبيت الأخير لغيره :

ما للأحِبّة فى أحكامهم جاروا ... نأوا جميعاً فلا خِلٌّ ولا جار

كيف البقا وقد بانت قبابهم ... وقد خلَت منهم وأسفى الدّار
حُداة تَمسُّهم بالقلب قد رحلوا ... ياليتهم حملوا الجثمان إذ سار
جار الزمان علينا فى فراقهم ... من قبل أن تنقضى للصبِّ أوطار
ساروا فخيَّمت الأشواق بعدهم ... مالى عليها سوى الآماق أنصار
تراك يارَبْعَهم ترجو رجوعهم ... ياليت لو ساعدَت فى ذاك أقدار
ودّعت منهم شموساً ما مطالعها ... إلاّ من الوَشْى أطواق وأزرار
أستودع الله من فاز الفراق بهم ... وخلّفوا ودمعُ العين مِدْرار

قلت ، ولا خفاء بتَخَلُّف هذا النمط عن الإجادة ، والله يَقْبِض ويَبْسُط ، وشافِعُنا عرضُ الإكثار .

توفى فى آخر أربعة وستين وسبع مائة .

محمد بن محمد بن حزب الله

من أهل وادى آش ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف باسم جدّه .

حـــاله

دَمِثٌ ، متخلق ، سهل الجانب ، كثير الدُّعابة ، خفيف الروح ، له خطٌّ حسن ووراقة بديعة ، وإحكام لبعض العمليّة ، واقتدار على النظم . اتصل بباب السلطان ملك المغرب ، وارْتَسم كاتبا مع الجُمْلة ، فارْتاش ، وحسُنت حاله .

وجرى ذكره فى الإكليل الزاهر[1] بما نصه : راقمٌ واشى ، رقيق الجوانب والحواشى ، تزهى بخطّه المهارق والطروس ، وتتجلّى فى حُلل بدايعه ، كما تتجلى

(١) هو من كتب ابن الخطيب الصغرى . وقد سبق التعريف به .

العَرُوس ، إلى خُلُق كثير التجمل ، ونفس عظيمة التحمُّل . ودود[1] سهل الجانب ، عذب المذانب . لمّا قُضيت الوقيعة بطريف[2] ، أقال الله عثارها ، وعجّل ثارها ، قذف به موج ذلك البحر ، وتفلّت إفلات الهَدْى المقرب إلى النحر ، ورمى به إلى رُندة[3] القرار ، وقد عرى من أثوابه ، كما عرى الغرار ، فتعرّف للحين بأديبها المُفْلق ، وبارقها المتألق أبى الحجاج المُنْتَشَا فرى ، فراقه ببشر لقايه ، ونَهَل على الظمأ فى سِقاته ، وكانت بينهما مخاطبات ، أنشدنيها بعد إيابه ، وأخبرنى بما كان من ذهاب زاده ، وسَلْب ثيابه .

وخاطبنى من شرح حاله فى ارتحاله بما نصه : ولما دخلتُ رُندة الأنيقة البطاح ، المحتوية على الأدب والسّماح ، والعلم والصلاح ، أبرز القدر أن لقيت بها شيخنا المُعَمَّر رئيس الأدباء ، وقُدْوة الفقهاء ، أبا الحجاج المُنْتَشافرى ، وكنت لم أشاهده قبل هذا العِيان ، ولا سَمَح لى بلقاية صرفُ الزمان ، ولم أزل أ كْلَفُ بمقطوعاته العجيبة ، وأولع بضرايبه الغريبة ، وتأتى منه مخاطبات تُزْرى بالعقود بهجة ، وتطير لها العقود لهجة . نَظْمٌ كما تنفّس الصبح عن تَسْنيمه ، ونثر كما تأسس الدُّر بتنظيمه ، فأحلّنى منه محلّ الروح من الجسد ، وشهد لى أنى أعزُّ مَنْ عليه وَرَد ، ورآنى قد ظهرت على مَضاضة الا كتياب ، لكونى قريبُ عهدٍ بالإياب ، مهزوماً انهزام الأحْزاب ، خالى الوطاب ، نَزْر الثياب ، فقال فيم الجزع ، ذهب بحـــول الله الخوف ، وأمِنَ الفزع ، فأجبته عَجِلاً ، وقلت أخاطبه مرتجلا .

(١) وردت فى المخطوط (وود) وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٢) سبق أن عرفنا بموقعة طريف ، وهى التى نشبت بين المسلمين والنصارى على ضفاف نهر سلادو على مقربة من طريف فى سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) وهزم فيها المسلمون هزيمة فادحة (راجع ص ١٨٠) .

(٣) هى من قواعد الأندلس الخالدة ، وتقع فى شمال المثلث الإسبانى ، غربى مالقة ، وجنوبى نهر وادى لكه . وقد سقطت فى أيدى النصارى فى سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) .

لا تجزعي نفسي لفقد معاشري ... وذهاب مالي في سبيل القادر
ورُندة ها أنتِ خير بلاده ... وبها أبو حجاج المنتشافري
سيُريك حُسْن فرايد من نظمه ... فتُزيل كل كآبة في الخاطر

فأجابني مرتجلا :

سُراي ياقلبي المشوق وناظري ... بمزار ذي الشَّرف السَّني الطاهر
روضُ المعارف زهرها الزّاهي ... ومَن أوصافه أعْيَت ثنا الشاكر
ولوادِ آشِ فخار لم يزل ... من كابن حزبِ الله نورَ النّاظر
وافى يُشَرِّف رُندة بقدومه ... فغدت به أفقا لبدر زاهر
من روضة الأُدباء أبدى زهرة ... قد أينعت عن فكر حَبْر ماهر
جمع المآثر بالسَّناة وبالسَّنا ... أعْظِم به من صانعٍ لمآثر
ما زلت أسمع من ثَناء مآثراً ... كانت لسامعها معاً والذّاكر
حتى رأى بصري حقائق وصفه ... فتنعَّمَت كالأقمار نواظري
لازال محبُوًّا بكل مسرَّة ... تجرى له بالحظِّ حكم مُقادر

ثم خاطبه القاضي المُنتشافري بعد انصرافه إلى وطنه بقوله :

أبي الدمع بعدك إلا انفجارا ... لدهر ببُعدك في الحُكْم جارا
أذاق اللقاء الحُلو لو لم يصل به ... للنَّوى جَرْعاتِ مُرارا
رعى الله لَمْح ذاك اللقاء وإن ... يكُ أشواقنا قد أثاراً
قصاراى شكواى طول النوى ... وفقدى أناة وصل قِصاراً
سقَتْ القِداح من بعده ... فوادى القريح قد أذْكَتْ أوارا
ألا يا صبَاً هُبَّ من أرْبُعي ... إلى واد آش تُحيي الدِّيارا
ألا خُصَّ من رَبْعها منزلا ... بأربابه الأكْرَمين استنارا

وهم إلى حزْب إلآلـه الألى تساموا فَخاراً وطابوا نِجاراً

فأجابه بأبيات منها :

تألّق بَرْق العُلا واستنارا فأجّج إذ لاح فى القلب نارا

وذكّرنى وقت أُنسٍ مضا بُرندة حيث الجـــلال استشارا

وكانت لنفسى سَناً فى حماها طوالا فأصبحت لديها قِصارا

فأجريت دمع العُيون اشتياقاً ففاضت لأجل فراقى بحارا

وقالت لى النفس من لم يجد نصيراً سوى الدّمع قلّ انتصارا

قطعتُ المُنا عندها لمحة وودّعتها وامتطيت القِفارا

وضيّعت تلك المُنا غفلة ووافيت أبْغى نابس ديارا

ومنها :

أرِقْتُ لذاك السّنا ليلة وما نومها ذُقْتُ إلاّ غِرارا

وجسمى أجلّ الجسوم التهاباً وقلبى أشدّ القلوب انكِسارا

إلى أن تجرّعت كأس النّوى وقلت زمانى على الشّمل جارا

وصبّرتُ نفسى لِفقْدانها هنالك بالرّغم ليس اختيارا

وقال من قصيدة :

حللتُ لبرق لاح من سَرْحتى نَجْدْ حنين تِهامى تَحِنُّ إلى نجد

وقلت لعل القلب تبْرا كلومُهُ ومن ذا يصُدُّ النار عن شِيمة الوَقْد

إن شاركتنى فى المحبّة فُرْقة فها أنا فى وجْدى وفى كَلَفى وجْدُ

وهو إلى هذا العهد بالحال الموصوفة .

محمد بن إبراهيم بن عيسى بن داود الحميرى(١)

من أهل مالقة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن عيسى

حاله

كان أديباً ، حسن الخطّ ، جيّد النظم ، متظرّفاً ، لوذعياً ، مطبوعاً ، مُنْحطاً فى هواه ، جامحاً فى ميدان بطالته ، معاقراً للنَّبيذ ، على حِفْظ للرسم ، واضْطلاع بالخدمة ، وإيثار للمروءة ، ومعرفة بمقادير الأمور ، وتشبُّث بأذيال الحُظْوة . كتب للرياسة السَّعيدية بمالَقة ، ونظر على ألقاب جِباياتها ، وانتفع الناس بجاهه وماله ، ووقع الثناء على حسن وساطته . ثم سافر عنها ، وقد سَمَتْ بجادة السلطان فى غرض انتقالها إلى العُدْوة ، مُعوَّضة بمدينة سلا من مالقة . وكان ما كان من معاجلة الأمر ، والقبض على الريِّس ، وقيام ولده بالأمر ، فأبتَّ المذكور بالعُدْوة ، وكانت بها وفاته .

وجرى ذكره فى الإكليل الزاهر بما نصه : [عَلَمٌ](٢) من أعلام هذا الفن ، ومشَعْشِعى راح هذا الدَّن ، بمجموع أدوات ، وفارس يَرَاعة ، ظريف المَنْزَع ، أنيق المرأى والمسْمَع ، اختص بالرياسة ، وأدار فَلَك إمارتها ، واتّسم بِاسم كتابتها ووزارتها ، ناهضاً بالأعباء ، راقياً(٣) فى دَرَج التقريب والاجْتِباء ، مُصانعاً دهره فى راحٍ وراحة ، آوياً إلى فضل وسماحة ، وخِصْب ساحة ، كلما فرغ من شأن خدمته ، وانصرف عن ربِّ نعمته ، عقد شِرْباً(٤) ، وأطفأ من الاهتمام

---

(١) وردت هذه الترجمة فقط فى الإسكوريال . ولم ترد فى «ج» ولا «الزيتونة» .

(٢) الزيادة من نفح الطيب .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح صاعداً .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تربا) والأولى أنسب للمعنى والسياق .

بغير الأيام حرْباً ، وعكف على صوت يَستعيده ، وظرْف يبديه ويعيده . فلما تقلّبت بالرياسة الحال، وقُوِّضت منها الرحال ، استقر بالمغرب غريباً ، يقلب طرْفاً مُسْتريبا ، ويلحظ الدنيا تَبِعةً عليه وتثريباً ، وإن كان لم يعدم من أمرائها حُظْوةً وتقريباً ، وما برح يبوح بشَجَنة ، ويرتاح إلى عهود وطنه .

شعره وكتابته

مما كتبه ، وبيّن فيه أدبه قوله :

يا نازحين ولم أفارق منهم ... شوقاً تأجّج في الضّلوع ضرامُه
غيّبتمُ عن ناظرى وشخصكم ... حيث استقر من الضلوع مقامُه
رَمَت النّوى شملى فشُتّت نظمه[(١)] ... والبَيْنُ رام لا تطيش سهامه
وقد اعتدى فينا وجدّ مُبالغا ... وجَرَت بحكم جوره أحكامُه
أترى الزمان مُؤخراً فى مدّتى ... حتى أراه قد انقضت أيّامه

تحملها يا نسيم نجْدية النّفَحات ، وَجْدِيّة اللّفحات ، يؤدى عنى نَغَمُها[(٢)] إلى الأحِبّة سلاماً ، ويورد عليهم لفحُها بَرْداً وسلاماً ، ولا تقل كيف تُحمِّلنى ناراً ، وتُرسل على الأحِبّة منى إعْصارا . كلا إذا أهديتهم تحية إينامى ، وأنِسوا من من جانب هُبُوبك[(٣)] نار ضرام أنفاسى ، وارتاحوا إلى هُبُوبك ، واهتزّوا فى كفّ مَسْرى جَنُوبك ، وتعلّلوا بها[(٤)] تعليلا ، وأوسعوا آثار مَهَبِّك تقبيلا ، أرسلها عليهم بَلِيلا ، وخاطبهم بلطافة تَلَطُّفك تعليلا . ألم ترونى كيف جئتكم بما حَمّلنى عليلا .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (شمله) .
(٢) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى النفح .
(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (حقوقك) . والأولى أنسب للمعنى والسياق .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (بك) .

كذاك تركتُه مُلْقًى بأرض ... له فيها التعلُّل بالرِّياح
إذا هبَّت إليه صَبا إليها ... وإن جاءته من كلٍّ النواح
تساعده الحمايم حين يَبكى ... فما ينفكُّ موصول النِّياح
يخاطِبْن مهما طِرْن شوقاً ... أما فيكنَّ واهِيةُ الجناح

ولولا تعلله بالأماني، وتحدُّث نفسه بزمان التَّداني، لكان قد قضى نَحْبَه، ولم أبلغكم إلا نَعْيه أو نَدْبه، لا كنه يتعلل من الآمال بالوعد المَمْطول، ويَتَطاوح[1] باقتراحاته على الزمن المجهول، ويحدث نفسه، وقد قنِعت من برُوق[2] الآمال بالخُلَّب، ووثِقت بمواعيد الدهر القُلَّب؛ فيناجيها بوحى ضميره، وإيماء تصويره، كيف أجِدُك يوم الالتقاء بالأحباب، والتخلُّص من رِبْقة الاغتراب، أبائنة الحضور أم بادية الاضطراب. كأنِّى بك وقد استفزَّك ولَهُ السرور، فصرفك عن مشاهدة الحضور، وعاقَتْك غشاوة الاستِعْبار للاستِبشار، عن اجْتِلاء مُحيّا ذلك النهار.

يوم يداوى زمانانى من أزمانى ... أزْ بَر[3] تَنغِيص أحيانى فأحيانى
جعلتُ لله نَذْراً صومه أبداً ... أفِى به وأوْفى شرط إيمانى
إذا ارتفعنا وزال البُعْد وانقطعت ... أشْطان دهر قد التفَّت بأشطانى
أعدده خير أعياد الزمان إذا ... أوْطَأنى السعد فيه تُرْبَ أوطانى

أرأيت كيف ارتياحى إلى التَّذكار، وانقيادى إلى مُعلَّلات توهُّمات الأفكار، كأنَّ البُعْد باستغراقها، قد طُويت شُقَّته، وذهبت عنى مشقته، وكأنِّى بالتَّخَيُّل بين تلك الخمايل أتنَسَّم صَباها، وأتَسَنَّمُ رُباها، وأجنى أزهارها، وأجتلى

(١) هكذا فى النفح وفى الإسكوريال (يطارح) والأولى أنسب للمعنى.
(٢) هكذا فى النفح. وفى الإسكوريال (برق).
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال. ووردت فى النفح (أزال).

أنوارها ، وأجول فى خمايلها . وأتنعّم ببُكرها وأصايلها ، وأطوف بمعالمها ، وأتنشق أزهار كمايمها ، وأُصيخ بإذن الشّون إلى سَجْع حمَايمها ، وقد داخَلَتْنى الأفراح ، ونالت منى نَشْوة الارتياح . ودنا السُّرور لتوشُّم (١) ذهاب الأتراح. (٢) فلما أفقت من غَمَرات سُكرى ، ووثبت من هفوات فكرى ، وجدَّدت مرارة ما شابه لُبّى فى استغراق دهرى ، وكأنّى من حينئذ عالجت وقفَة الفِراق . وابتدأت منازعة الأشواق ، وكأنما أغمَضَتْنى للنوم ، وسمح لى بتلك الفكرة الحِلم :

ذَكَرَ الدِّيارَ (٣) فهاجه تذكارُه ... وسَرَت به من حينه أفكارُه
فاحتلَّ منها حيث كان حُلولُه ... بالوهم فيها واستقرَّ قراره
بالقُرْب الآمال من هفواته ... لو أنه قضَتْ بها أوطاره

فإذا جيتَها أيها القادم ، والأصيل قد خلع عليها بُرْداً مُورساً ، والربيع قد مدّ على القِيعان منها سُنْدُساً ، اتَّخِذْها فَدَيْتُك مُعَرَّساً . واجْرر ذيولك فيها تبَخْتُراً ، وبثّ فيها من طيب نفَحَاتك عَنْبرا ، وافتَقْ عليها من نوافح أنفاسك مِسكاً أذْفَرا ، واعطف بعاطف بانِها ، وارقص قُضُب ريحانها ، وصافح صفحات نهرها ، ونافِح نفَحات زهرها . هذه كلها أمارات ، وعن أسرار مقاصدى عبارات ، هنالك تنتعش بها صُبابات ، تعالج صَبابات ، تتعلَّل بإقبالك ، وتَمسَكف على لَثْم أذيالك ، وتبدو لك فى صِفَة الفانى المُتهالك ، لاطِفها بلطافة اعتِلالك ، وترفّق بها ترفُّق أمثالك ، فإذا أمالت بهم إلى هواك الأشواق ، ولَوَوا إليك الأرؤس والأعناق ، وسألوك عن اضطرابى فى الآفاق . وتقلبي بين الأشآم والأعراق ، فقل لهم عَرَض له (٤) فى أسفاره ، ما يعرض للبَدْر فى سَرَاره ، من سِرِّ السُّرار ، وطاقِ

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (لتوهم) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (الانتزاح) والتصويب من النفح .
(٣) هكذا وردت فى النفح وفى الإسكوريال (عقبو) والأولى أنسب للمعنى .
(٤) هكذا فى النفح وفى الإسكوريال (لهم)

الْمَحاق ، وقد تركتُه وهو يُسامر الفَرْقَدين ، ويُساير النيِّرين ، وينشد إذا راعه البَيْنُ :

وقد نكون وما يُخشى [١] تفرُّقُنا والیوم نحن وما يُرجى تلاقينا

لم يفارق وعْثاء الأسفار ، ولا ألقى من [٢] يده عصا التَّسيار ، يتهاداه للغَوْر والنَّجد . ويتداوله الأرْقال والوَخْد ، وقد لفَحَته الرَّمْضاء ، وسَئِمه الإنْضاء . فالجهات تلفُظُه ، والآكام تُنْهِظه ، تحمل هومَه الرَّواسم ، [وتَحْنِي به النَّواسم] [٣] .

لا يستقرُّ بأرض حين يَبْلُغُها ولا له غير حَدْو العِيس إيناس

ثم إذا استَوْفوا سؤالك عن حالى ، وتقلبي بين حالى [٤] حِلِّي وتَرْحالى ، وبلغت القلوب منهم الحناجر ، وملأت الدموع المحاجر ، وابتلَّت ذيولك بمائها ، لا بل تضرَّجَتْ بدمائها ، فحيِّهم عني تحيَّة مُنْفصل ، وودِّعهم وَداع مُرتحل . ثم اعطف عليهم رِكابك ، ومهِّد لهم جَنابك ، [وقل لهم] [٥] إذا سألني عن المنازل بَعْد سُكانها ، والرُّبوع بعد ظَعْن أظعانها ، بماذا أجيبُه ، وبماذا [٦] يسكن وَجِيبُه ، فسيقولون لك هى البلاقِعُ المُقْفرات التى أصبحت نَكِرات .

صُمَّ صداها وعَفَّى رسمُها واستعْجَمت عن منطق السايل

قل لهم كيف الرَّوض وآسُه ، وعمَّاذا [٧] تتأرَّجُ أنفاسه ، عهدى به والحمامُ يردد

---

(١) هكذ فى النفح . وفى الإسكوريال (ولا) والأولى أنسب للسياق .

(٢) هكذ فى النفح . وفى الإسكوريال (عن) .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، ووردت فى النفح (وتحياته البواسم) . والأولى أكثر تمشياً مع المعنى والسياق .

(٤) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .

(٥) هذه الزيادة من النفح .

(٦) هكذ وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (ولماذا) . والأولى أنسب للمعنى والسياق .

(٧) هكذ وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (وبما) . والأولى أنسب للمعنى .

أسجاعه، والذُّباب يغنى به هَزِجاً، فيحكُّ بذراعه ذراعَه: وغُصونه تعتنق، وأحشاء جداوله تَصْطَفِق، وأَسحاره تَتَنَسَّم، وآصالُه تَغْتَبِق(١): كما كانت بقية نَضْرَتِه، وكما عهدتها أنيقةَ خُضْرَته، وكيف التفاتةُ عن أزرَق نَهْره، وتأنُّقه فى تكاليل أكاليله ببانع زهره. وهل رقَّ نسيم آصاله، وصَفَتْ موارد جداوله، وكيف انفِساحُ ساحاته، والتفافُ دَوْحاته، وهل تمتدُّ كما كانت مع العَشِىِّ فَيْنانة سَرْحاته. عهدى بها، المديدة الظِّلال، المُزَعْفَرَة السِّربال، لم تُحدِّق الآن به عُيون نَرْجِسه: ولا مُدَّ بِساط سُنْدسه. وأين منه مجالس لذَّاتى، ومعاهد غَدَواتى ورَوَحاتى، إذ أبارى فى المُجُون لمن أبارى، وأُسابِق إلى اللَّذات كلَّ من يُجارى. فسيقولون لك ذَوَتْ أفنانُه، وانقَصَفت أغصانه، وتكدَّرت غُدْرانه، وتغيَّر ريحُه وريحانه، وأقفرت معالمه، وأُخْرِست حَمائِمه، واستحالت به حُلَلُ خمائله، وتغيَّرت وجوه بُكَره وأصايله. فإن صَلْصَل حَنِين رَعْد، فَمَنْ قلبى لفراقه خَفَقْ، وإن تلألأ برقٌ، فمن حَرِّ حشاى ائتلَق، وإن سَحَّت السُّحب فمُساعدة لجفنى، وإن طال بكاؤها فعنِّى، حيَّاها الله منازل لم تَزَلْ بمَنْظوم الشَّمل أواهل. وحين انْتَثَر نُثِرت أزهارها أسفاً، ولم تُثْن الريح من أغصانها مِعْطَفاً، أعاد الله الشَّمل فيها إلى مُحكم نظامه، وجعل الدهر الذى فرَّقه يتأنَّق فى أحكامه. وهو سبحانه يَجْبُر الصَّدع، ويُعجِّل الجمع، إنه بالإجابة جَدير، وعلى ما يشاء قدير. إيهٍ بنىَّ كيف حال من استَوْدَعْتهم أمانَتَك، وأَلزَمْتَهم صَوْنك وصِيانَتك، وألبَسْتهم نَسَبك، ومهدت لهم حَسَبك، الله فى حِفْظهم، فهو اللَّائق بفعالك، والمناسب لشرف خِلالك، إرْعَ لهم الاغتراب لديك، والانقطاع إليك، فهم أمانَةُ الله

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال، ووردت فى النفح (تتوسم). والأولى أكثر تمشياً مع السياق.

[تعالى][1] فى يَدَيْك ، وهو سبحانه يحفَظُك بحفظهم ، ويوالى بلَحْظِك أسباب لَحْظِهم ، وإن ذهبتم إلى معرفة الأحوال ، فنَعِم الله مُمْتدَّة الظِّلال ، وخَيْراته[2] ضافية[3] السِّربال ، لولا الشوق المُلازم ، والوَجْدُ الذى سكَن الحيازم .

ووقفت من شعره على قصيدة من جملة رسالة ، أثبتها وهى :

أَلِلْبرق يبدو تَسْطير الجوانح ... وللوَرْق تشدو وتستهل السَّوابح
وقلبى للبرق الخَفُوق مُساعد ... ووجدى لِلْوَرق الشكالى مُطاوح
إذا البرق أَوْرَى فى الظلام زِنادى ... فلِلْوَجد فى زِنْد الصَّبابة قادح
وكم وقْفَةٍ لى حيث مال بى الهوى ... أُغادِ بها شكوى الجوى وأُراوح
تنازِعُنى منها الشُّجون فأشتكى ... ويكثُر بَثِّى عندها فأسامح
أبُثُّه شجونى والحمام يُصيخ لى ... ويُسعدنى فيها تُبيح التَّباوح
وتطرب أغصان الأراك فتَنْثنى ... إلى صَفْحة النهر الثَّقيل تصافح
فتبتسم الأزهار منها تعجُّباً ... فتُهدى إليها عَرْفها وتُنافح
كذلك حتى ماد عطف شغفى ... وطَرْفى أبدى هزَّةً وهو مارح
فلما التَظَى وجْدِى ترنَّم صاهِلاً ... فقلتُ أمِثْلى يَشْتكى الوَجْدَ نابح
صرفت عَدُوَّ البِيد أرخو عِنانه ... وقلتُ له شمِّر فإننى سابح
تهيأ لقطع البِيد واعتسِف السُّرى ... سيلقاك غَيْظان بها وممايح
مُحَمْحَمٍ لو يستطيع نُطْقاً لقال له ... بمثلى تَلْقى هذه وتُكافح
وحمَّلتُهُ عَزْماً تعوَّد مِثْله ... فقام به مُسْتقبلا من يُناطح
ويمَّمت بيداً لم أصاحب لجوَّها ... سوى جِلْدٍ لا يتَّقى منه فاضح

---

(١) هذه الزيادة من النفح .

(٢) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (وخيره) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وارفة) .

وماضى الغرارين استجدت مضاه   إذا جردت يوم الجلاد الصفايح
ومندمج صدق الأنابيب نافذ به   عند كرى فى الحروب أفاتح
وميرت فلا ألقى سوى الوحش نافراً   وقد شردت فى الظبا السوانح
تحدق نحوى أعيناً لم يلح لها   سناً لك أسنى ولا هو لايح
وقد زأرت أسد تقحمت غيلها   فقلت تعاوت إنها لنوابح
وكم طاف بى للخبر من طايف بها   فلم أصغ سمعاً نحوها وهو صايح
ويعرض لى وجهاً دمياً ومنظراً   شنيعاً له تبدو عليه القبايح
فما راعنى منه تلون حاله   بل أيقظ عزمى فانثنى وهو كالح
فلما اكتست شمس العشى شحوبها   ومالت إلى أفق الغروب تنازح
تسربلت للإدلاج جنح دجنة   فها أنذا غرسى إلى القصد جانح
فخضت ظلام الليل والنجم شاخص   إلى بلحظ طرفه لى لامح
يرده شزراً إلى كأنما   على له حقد به لا يسامح
وراقب من شكلى السماك نظيره   خلا لزمكلى أعزل وهو رامح
يخط وميض البرق لى منه أسطراً   على صفحة الظلماء فهى لوايح
إذا خطها ما بين عينى لم أزل   أكلف دمعى نحوها فهو طامح
ومازلت سراً فى حشى النبل كامناً   إلى أن بدا من ناسم الصبح فاتح
وهب نسيم الصبح فانعطفت له   قدود غصون قد رقتها صوادح
تجاذب ذكرى أحاديث لم أزل   يرددها منى مجد ومازح
وملت إلى التعريس لما اتقذنى السرى   أروض له نفسى وعزمى جامح
ومال الكرى بى ميلة سكنت لها   على نصب الوعثاء منى الجوارح
كمن أخذت منه الشمول بثارها   فبات يشقى وهو ريان طافح
وقربت الأحلام لى كل مأمل   فأدنته منى وهو فى الحق نازح

أرتنى وجُوهاً لو بذلتُ لقُربها ... حياتى لمَنْ بالقُرْب منه يُسامح

لقلَّ لها عمرىَ وما ملكتُ يدى ... وحدّثت نفسى أنْ تجْرى رابح

وما زلتُ أشكو بيننا غُصص النَّوى ... وما طوّحت بى فى الزمان الطوايح

فمنها ثغور للسُّرور بواسمٌ ... لقُربه ومنها للفراق نوايح

تُقرِّبها الأحلامُ منِّى ودونها ... مهامِهُ فيها للهَجير لوافح

وبحرٌ طمَت أمواجه وشآبيب ... وقفر به للسَّالكين جوايح

قضيتُ حقوق الشوق فى زَوْرة ... للكرَى فإنَّ زيارات الكرَى لموانح

يقرِّبنَّ آمالا تباعدُ بينها ... وتعْبَث فيها للنفوس الطّوايح

فلما تولىَّ عنى النوم أعقبَتْ ... همومٌ أثارتها الشُّجون فَوادح

وعُدْت إلى شكوى البلاء ولم أزل ... أردِّدها والعُذْر منِّى واضح

وما بلغَتْ عنى مشافهةُ الكرَى ... تُبلِّغُها عنى الرياح اللّوافح

وحَسْبُك قلبٌ فى أسار اشتياقه ... وقد أسْلَمتَه فى يدَيه الجوانح

وفاته

قال شيخنا أبو بكر بن شبرين ، توفى بسِجلْماسة فى صفر عام ستة عشر وسبعماية .

محمد بن محمد بن عبد الله بن مقاتل

من أهل مالقة ، يكنى أبا بكر .

(١) وردت هذه الترجمة فقط فى الإسكوريال ، ولم ترد فى «ج» و لا «الزيتونة» .

حـــاله

من كتاب الإكليل : نابغةُ مالِقية ، وخَلَفٌ وبقية ، ومَغْرِبى الوطن أخلاقه مَشْرِقية . أزْمَعَ الرحيلِ إلى المشرق ، مع اخضرار العود ، وسواد المَفْرِق ، فلما توسّطت السفينة اللُّجج ، وقارعت الثَّبَج ، مال عليها البحر ، فسقاها كأس الحِمام ، وأولدها قبل التمام ، وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها ، وانضم على نوره سوادُها ، جملة من الطلبة والأدباء ، وأبناء السراة الُحسَباء ، أصبح كلٌّ منهم مُطيعاً لداعى الرَّدى وسَميعاً ، وأحيوا فُرادى وماتوا جميعاً ، فأجْرُوا الدموع حزناً ، وأرسلوا العَبَرات عليهم مُزْنا . وكان البحر لمّا طَمَس سُبُل خلاصهم وسدَّها ، وأحال هَضْبَة سفينتهم وهدَّها ، غار على نفوسهم النَّفِيسة واستردها . والفقيه أبو بكر ، مع إكثاره ، وانقياد نِظامه ، ونِثاره ، لم أظفر من أدبه إلا بالقليل التافه ، بعد وداعه وانصرافه .

فمن ذلك قوله وقد أبصر فتى عاثراً :

ومُهفهف هافى المعاطف أحورُ ... فَضَحت أشعةُ نوره الأقمارا
زلّت له قدم فأصبح عاثراً ... بين الأنام لعا لِذاك عثارا
لو كنت أعلمُ ما يكون فرشتُ فى ... ذاك المكان الخدَّ والأشْفارا

وقال متغزّلا :

أيا لبنى الرِّفاء تُنضى[(١)] ظباؤهم[(٢)] ... جُفون ظِباهم والفؤاد كليم
لقد قطع الأحشاء منهم مهفهفٌ ... له التِّبر خَدٌّ واللُّجين أديم
يسدِّد إذ يرمى قسىّ حواجب ... وأسهمها من مقلتيه تسوم
وتُسقمنى عيناه وهى سقيمة ... ومن عجبٍ سُقْمٌ جناه سقيم

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (تمضى) .
(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (ظباهم) .

ويذبُل جسمي في هواه صَبابةً　　وفي وَصْله للعاشقين نعيم

توفي في حدود أخريات عام تسعة وثلاثين وسبعماية غريقاً بأحواز الغِبْطة من ساحل ألمريّة .

محمد بن أحمد بن أحمد بن صفوان القيسى (١)

ولد الشيخ أبي الطاهر ، من أهل مالقة .

من كتاب الإكليل : نبيلٌ فطن ، متحرك ذهن ، كان أبوه رحمه الله ، يتبّرم بجداله ، ويخشى مواقع رَشْق نِباله ، ويُشِيم بأرقّ الاعتراض فى سؤاله ، فيُشفق من اختلال خلاله ، إذ طريقه إنما هى أذواق لاتشرح ، وأسرار لاتفضح . وكان ممن اخترم ، وجُدّ حبلُ أمله وصُرم ، فأفَل عقب أبيه ، وكان له أدب يخوض فيه .

فمن ذلك ، وقد أبصر فتى وسيما على ريحانه :

بدرٌ تجلّى على غصن من الآس　　يُبْرى ويُسْقم فهو الممرض الآسى
عادى المنازل إلا القلب منزلة　　فماله وجميع الناس من ناس

وقال :

ياعالمـــا بالسّر والجهرْ　　وملجأى فى العُسْر واليُسر
جُدْ لى بمــا أمِلتُه منك　　يامولاى واجْبرُ بالرّضا كَسْرى

وفاته : فى عام خمسة وسبعماية .

---

(١) هذه الترجمة واردة فى الإسكوريال فقط ، ولم ترد فى "ج" ولا "الزيتونة" .

محمد بن محمد بن عبد الواحد بن محمد البلوى(١)

من أهل المرية ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بنسبه ، وقد مر ذكر أبيه فى العمال .

حاله

هذا الرجل من أبناء النعم ، وذوى البيوتات ، كثير السكون والحياء ، آل به ذلك أخيراً للوثة ، لم يستفق منها لطف الله به . حسن الخط ، مطبوع الأدب ، سيال الطبع ، معينه . وناب عن بعض القضاة ، وهو الآن رهينُ ما ذكر ، يتمنى أهله وفاته ، والله ولىُّ المعافاة ، بفضله .

وجرى ذكره فى الإكليل بما نصه : من أولى الخلال البارعة والخصال ، خطًّا رايقا ، ونظما بمثله لايقا ، وذُعابة يسترها بجُهْم ، وسكوتاً فى طيِّه إدراك وتَفَهُّم . عُنى بالرواية والتقييد ، ومال فى النظم إلى بعض التوليد ، وله أصالة ثبتت فى السَّرْو عروقها ، وتألقت فى سما المجادة بروقها ، وتصرف بين النيابة فى الأحكام الشرعية ، وبين الشهادات العملية المرعية .

شعره

ومن شعره فيما خاطبنى به ، مهنئاً فى إعذار أولادى أسعدهم الله ، افتتح ذلك بأن قال .

قال ، يعتذر عن خدمة الإعذار ، ويصل المدح والثنا على بُعد الدار ، وذلك(٢) بتاريخ الوسط من شعبان فى عام تسعة وأربعين وسبعمائة :

---

(١) هذه الترجمة واردة فقط فى الاسكوريال . ولم ترد فى «ج» ولا «الزيتونة» .

(٢) ورد فى المخطوط (ولان) وهو تحريف اقتضى التصويب .

لا عذر لى عن خدمة الإعذار   وإن نأى وطنى وشطّ مزارى
أو عاقنى عنه الزمان وصرفه   نَقْضُ الأمان عادة الأعصار
قد كنت أرغب أن أفوت بخدمتى   وأخطر حلىّ عند باب الدار
باب المسرّة بالصنيع وأهله   متشمراً فيه بفضل إزار
من شاء أن يلقى الزمان وأهله   ويرى جلا الإشعاع(1) فى الأفكار
فليأت حىّ ابن الخطيب ملبّيا   فيفوز بالإعظام والإكبار
كم ضمّ من جيد كرام فضلهم   يسمو ويعلو فى ذوى الأقدار
إذ حيث ناديه فقف عنى   وقل نلتُ المنى بتلطّف ووقار
يا من له الشرف القديم ومن   له الحسَبُ الصميم المدّ يوم فخار
يهنيك ما قد نلتَ من أمل به   فى الفرقدين النَّيرين يسار
نجلاك قُطبا كل تجْر باذخ   أملان مرجُوَّان فى الاعتبار
عبد الإله وصنوهُ قمر العلا   فرعان من أصل زَكا وبحار
ناهيك من قمرين فى أفق العلا   ينمّيهما نورٌ من الأنوار
زاكى الأرومة مغرق فى مجده   جم الفضايل طيّب الأخبار
رقّت طبايعه وراق جماله   فكأنما خُلقا من الأزهار
وجلّت شمايل حُسْنه فكأنما   خلعت عليه رقة الأسحار
فإذا تكلم قلت ظلّ ساقط   أو وَقْع درٌّ من نُحور جوار
أو فُت مسك الحبر فى قرطاسه   بالروض غبّ الواكف المدرار
تتّسم الأقلام بين بنانه   فيريك نظم الدرّ فى الأسطار
فتخال من تلك البنان كأنما   نَهِلت تُفتّح ناضر النّو ر

(١) وردت فى المخطوط (الإشاع)، وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق.

تلقـاه فيّـاض الندى مُتهلّلا يلقاك بالبِشر والاستِبشار
بحر البلاغة قسُّهـا وأيادُها سَحْبانها خَبَرٌ من الأخبار
إن ناظَر العلمـاء فهو أمامهم شرفُ المعارف واحد النظـار
أَرْبَى على العلماء بالصِّيت الذى قد كان فى الآفاق كل مطار
ما ضرَّه إن لم يجىء متقدّماً السَّبْقُ يعرف آخر المضمار
إن كان أخَّره الزمان لحكمة ظهرت وما خفيت كضوء نهار
الشمس تُحجب وهى أعظم نيِّر وتُرى من الآفاق إثر دَرار
يا ابن الخطيب خطبتُها لعلاكم بِكْراً تُزف لكم من الأفكار
جاءتك من خجل على قَدَم الحيا قد طُيِّبت بثنايك المِعطـار
وأنت تؤدى بعض حق واجب عن نازح الإمكان والأفكار
مدَّت يد التَّطفيل نحو عُلاكم فتوحَّشت من جودكم بنضار
فابذل لها فى النَّقد صفحك إنهـا شكوى التَّقصير فى الأشعار
لازلت فى دَعَةٍ وعزٍّ دايم ومسرَّةٍ تترى مع الأعصار

ومن السُّلطانيات قوله من قصيدة نسيبها :

تبسم ثغر الدهر فى القُضُب المُلْد فأذكى الحيا خَجلةً وجنةَ الورد
ونبَّه وَقْعُ الطَّل ألحاظ نرجس فمال الوَسْنان وعاد إلى الشهد
ونمَّ سَبُرُ الروض فى مِسكة الدُّجا نسيم شذا الخير كالمسك والنِّد
وغطّى ظلام الليل حُمرة أفقه كما دار مُسْوَدُّ العِذار على الخدِّ
وباتت قلوب الشُّهب تخفق رقَّة لما حلَّ بالمشتاق من لَوْعة الوَجْد
وأهمَى عليه الغيم أجفان مُشْفق بذكره فاستمطر الدَّمع للخدِّ
ومنهـا

كأنى لم أقِف فى الحىّ وقفَةَ عاشق ... غداة افترقنا والنّوى زُنْدها يُمدُّ
وناديت حادىَ العِيس عرِّج ... لعلى أبثُّك وجدى إن تمر على نجْد
فقال اتَّئِد يا صاح مالك ملجأً ... سوى الملك المنصور فى الرِّفق والرِّفْد

ومما خاطبنى به قوله :

عَلِّلونى ولو بوعدٍ مُحال ... وحِلُّونى ولو بطيف خيال
واعلموا أننى أسير هواكم ... لست أنفكُّ إلا عن عِقال
فدموعى من بينكم فى انسكاب ... وفؤادى من سحركم فى اشتغال
يا أُهَيْل الحِمَى كفانى غرامى ... حَسْبى بما قد جرّ . . . (١) ال
مَنْ مُجيرى من لحظِ ريم ظلوم ... حلَّل الهجر بعد طيب الوصال
ناعسُ الطرف أسمر الجفن منى ... طال منه الجوى بطول الليال
بابلىُّ اللَّحاظ أصْمَى فؤاده ... ورماه من غَنْجه بنبال
وكسا الجسم من هواه نُحولا ... قصده فى النَّوى بذاك النحال
ما ابتدا فى الوصال يوماً بعطف ... مُذ روى فى الغرام باب اشتغال
ليس لى منه فى الهوى من مُجِير ... غير تاج العُلا وقطب الكمال
علم الدين عزُّه وسناه ذِرْوَة ... المجد بَدْرُ أفق الجلال
هو غيثُ النَّدا وبحر العطايا ... هو شمس الهدى فريد المعال
إن وَشَى فى الرقاع بالنقش قلنا ... صفحة الطِّرس حُلِّيت باللآل
أو دَجا الخطب فهو فيه شِهاب ... رايةُ الصبح فى ظلال الضلال
أوينا العَضْب فهو فى الأمن ماض ... صادقُ العزم ضيق المجال
لستَ تلقى مِثاله فى زمان ... جلَّ فى الدَّهر يا أخى عن مثال
قد نأى حُبِّى له عن دیاری ... لا لجَدْوى ولا لنَيْل نوال

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال يتخللها البياض .

لـكن اشتقت أن أرى منه وجهاً   نوره فاضح لنور الهـلال
وكما همت فيـه ألثم كفّا قد   أتت بالنوال قبل السؤال
سألها ابن الخطيب عذراً أجابت   تلثم النعل قبل شسع النعال
وتوفى حق الوزارة عمن هو   ملك لهـا على كل حال

محمد بن محمد بن الشـــديد (١)

من أهل مالقة ، يكنى أبا عبد الله .

حـــاله

ذكر فى الإكليل بمـا نصه : شاعر مجيد ، حوك الـكلام ، ولا يقصر فيه عن درجة الأعلام . رحل إلى الحجاز لأول أمره ، فطال بالبلاد المشرقية ثواؤه . وعميت أنباؤه ، وعلى هذا العهد وقفت [له] على قصيدة بخطّه غرضها نبيل ، ومرعاها غير وبيل ، تدل على نفس ونفس ، وإضاءة قبس . وهى :

لنـا فى كل مـكرمة مقـام   ومن فوق النجوم لنـا مقام
روينا من مياه المجـــد لمّا   وردناها وقد كثر الزحام

ومنها :

فنحن هم وقل لى من سوانا   لنا التقديم قدماً والـكلام
لنا الأيدى الطوال بكل ضرب   يهز به لدى الروع الحسام
ونحن اللابسون لـكل درع   يصيب الشمس منهن انثلام
بأندلس لنـا أيام حرب   مواقفهن فى الدنيا عظام

---

(١) هذه الترجمة واردة فى الإسكوريال فقط . وقد نقل المقرى عن الإحاطة نبذة فى ترجمة المذكور جاء فيها أنه محمد بن قاسم بن أحمد بن ابراهيم الأنصارى الجيانى الأصل ثم المالقى . ثم نقل عنه بعد ذلك ما أورده ابن الخطيب فى الإكليل (النفح ج ٤ ص ٤ و ٤٢).

ثَوى منها قلوب الرُّوم خوفاً ... يُخَوَّف منه فى المَهْد الغلام
حَمَينا جانب الدين احتسابا ... فما هو لا يُهان ولا يُضام
وتحت الراية الحمراء منَّا ... كتايبُ لا تطاق ولا ترام
بنو نَصْرٍ وما أدراك[1] ماهم ... أُسود الحرب والقوم الكرام
لهم فى حربهم فَتَكات عمرو ... فللأعمار عنــدهم انصرام
يقول عداتُهـــم مهما أَلَمُّوا ... أتونا ما من الموت اعتصام
إذا شرعوا الأسنَّة يوم حرب ... فحقَّق أنَّ ذاك هو الحِمام
كأن رماحهم فيها نجـــوم ... إذا ما أشبه الليلَ الغمام[2]
أناس تخلف الأيام ميْــتاً ... بحىٍّ منهم فلهم دوام
رأينا من أبى الحجاج شخصاً ... على تلك الصفات له قيـــام
مُوَقَّى العِرْض محمود السجـايا ... كريم الـكفِّ مقـدام همام
يجول بذهنه فى كل شىء ... فيدركه وإن عزَّ المـرام
قويم الرأى فى نُوَب الليـالى ... إذا ما الرأى فارقه القوام
له فى كل معضلة مضاء ... مضاء الـكفِّ ساعده الحُسام
رؤوف قادر يغضى ويعفو ... وإن عظم اجتناء واجترام
تطوف ببيت سُؤْدُده القوافى ... كما قد طاف بالبيت الأنام
وتسجد فى مَقام عُلاه شكرا ... ونعم الرُّكن ذلك والمقام
أفارسها إذا ما الحرب أَخْنَتْ ... على أبطالهـا ودنا الحِمام
وممطرها إذا ما السحب كفَّت ... وكفُّ أخى الندى أبداً غمام

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى المخطوطات (ما أدريك) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (القتام) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بيحيا) .

لك الذكر الجميل بكل قطر ... لك الشرف الأصيل المُسْتدام
لقد جِئنا[1] البلاد فحيث سِرْنا ... رأينا أن مُلْكك لا يرام
فَضُلت ملوكها شرقاً وغرباً ... وبتَّ لملكها يقظاً ونامُ
فأنت لكل مَعْلُوَّة مدار ... وأنت لكل مَكْرُمة إمام
جعلتَ بلاد أندلس إذا ما ... ذكرت تغار مصرُ والشآم
مكان أنت فيه مكان عزٍّ ... وأوطان حَلَلْت بها كرام
وهبتُك من بنات الفكر بكْرا ... لها من حُسْن لقياك ابتسام
فنزِّه طرف مجدك فى حُلاها ... فللمجد الأصيل بها اهتمام

محمد بن مسعود بن خالصة[2] بن فرج بن مجاهد ابن أبى الخصال الغافقى

الإمام البليغ ، المحدِّث الحجَّة ، يكنى أبا عبد الله . أصله من فَرْغَليط من شُقُورة ، من كورة جيّان ، وسكن قرطبة وغرناطة .

حـــاله

قال ابن الزُّبير عند ذكره : ذو الوزارتين ، أبو عبد الله بن أبى الخصال . كان من أهل المعارف الجمَّة ، والإتقان لصناعة الحديث ، والمعرفة برجاله ، والتقييد لغريبه ، وإتقان ضَبْطه ، والمعرفة بالعربية واللغة[3] والأدب ، والنَّسَب

(١) وردت فى الإسكوريال (جئت) . والتصويب من النفح .
(٢) هكذا وردت فى «ج» ، وفى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال (خلصة) .
(٣) وردت فى الإسكوريال و«الزيتونة» . وساقطة فى «ج» .

والتاريخ ، متقدماً فى ذلك كله . وأما الكتابة والنظم ، فهو إمامهما المتفق عليه ، والمُتَحاكم فيهما إليه .

ولما ذكره أبو القاسم الملاّحى بنحو ذلك قال : لم يكن فى عصره مثله ، مع دين وفضل وورع .

قال أبو عمرو بن الإمام الإستِجّى فى سِمْط الجُمان ، لما ذكره : البحر الذى لا يُماتح ولا يُشاطر ، والغيث الذى لا يُساجل ولا يُقاطر[(1)]، والروض الذى لا يُفاوح ولا يُعاطر ، والطّود الذى لا يزاحم ولا يخاطر ، الذى جمع أشتات المحاسن ، على [ماء غير ملح][(2)] ولا آسِن ، وكثُرت فواضله ، فأمِنت المُماثل والمُحاسن ، الذى قُصِرت البلاغة [على مَحْتده][(3)] ، وألقيت أزمة الفصاحة فى يده ، وتشرّفت الخطابة والكتابة باعتزائهما إليه ، فنَثَل كِنانتها ، وأرسل كامِنها ، وأوضح أسرارها ودفائنها ، فحَسْبُ الماهر التّحرير ، [والجِهبذ العلامة البصير][(4)] إذا أبدع فى كلامه ، وأينع فى روض الإجادة نِثارُه ونظامه ، [وطالت قَنى الخُطّية الذبل أقلامه][(5)] ، أن يستنير بأنواره ، [ويقْتَفى بعض مناهجه وآثاره][(6)] وينثر على أثوابه مِسْك غُباره ، وليعلم كيف يتفاضل الخبَر والإنشاء ، ويتلو إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

[وعضّه العقُور أبو نصر][(7)] فى قلائده . حيث قال ، « هو وإن كان خامل المَنْشَأ نازلَه ، لم يُنْزله المجدُ منازله ، ولا فرَع للعَلاء هِضابا . ولا ارتشف للسّنا رضابا ،

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (يخاطر) والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» و «الزيتونة» . ووردت فى الإسكوريال (على غير طوق) . والأولى متمشية مع المعنى والسياق .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى الإسكوريال (عليه) . والأولى أنسب للسياق ومقتضيات السجع .

(٤ و ٥ و ٦) هذه العبارات الثلاثة المحصورة بين الحواصر واردة فى الإسكوريال . والأولى منها ساقطة فى المخطوطين . والثانية والثالثة ساقطة فى «ج . وواردة فى «الزيتونة» .

(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ومكانها فى المخطوطين (وذكره الفتح فى قلائده) وأبو نصر هو كنية الفتح بن خاقان صاحب القلائد .

فقد تميَّز بنفسه ، وتحيز من [أبناء](١) جنسه ، وظهر بذاته ، ونَخَرَ بأدواته » .

مشيخته

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير ، فى الصلة ، روى عن الغسانى ، والصَّدفى(٢) وأبي الحسن بن الباذش ، وأبى عمران بن تليد ، وأبى بحر الأسدى ، وأبى عبد الله النَّفَزِى ، وجماعة غيرهم .

تواليفه

قال الأستاذ ، وأما كتبه وشعره(٣) وتواليفه الأدبية ، فكل ذلك مشهور ، متداول بأيدى الناس ، وقلَّ من يُعلم بعده ، أن يجتمع له مثله ، رحمه الله .

من روى عنه

روى عنه ابن بَشْكوال ، وابن حبيش ، وابن مضاء وغيرهم : وكل ذلك ذكره فى رِحاله، وهو أعرف بتقدُّمه فى احتفاله .

شعـــــره(٤)

وله شعر كثير . فمن إخوانياته ما خاطب به أبا إسحق بن خفاجة :

هبَّ النسيم هبوب ذى إشفاق ... يُذهبن الهوى بجناحه الخفّاق

---

(١) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين . وهى ساقطة فى الإسكوريال . وفى القلائد
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (الصديق) .
(٣) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال والزيتونة . وساقطة فى «ج» .
(٤) لم يرد فى «ج» و «الزيتونة» من شعر ابن أبى الخصال سوى عشرة أبيات ، فى حين أن شعره فى مخطوط الإسكوريال يملأ عدة صفحات من لوحة ٢٢ إلى لوحة ٢٨ ، ويرد ضمن ذلك الأبيات العشرة التى وردت فى المخطوطين . ومن ثم فقد رأينا أن نتبع مخطوط الإسكوريال فى إيراد شعره .

وكأنما صبح الغصون بنَشْوة — باحت لها سراير العشاق
وإذا تلاعبت الرياح ببانه — لعب الغرام بمهجة المشتاق
مَهْ يانسيم فقد كبُرت عن الصَّبا — لم يبق من تلك الصَّبابة باق
إن كنتَ ذاك فلست ذاك ولا — أنا قد أذِنتَك مفارقى بفراق
ولقد عَهِدت سُراك من عُدَد الهوى — والموت فى نظرى وفى استنشاق
أيام لو عَنَّ السُّلو لخاطـرى — قرَّبته هَدْياً إلى أشواق
الهوى إلفِى والبطالة مَرْكبى — والأمن ظِلّى والشباب رواق
فى حيث قُسِّمت المُدامة قسمةً — ضيزى لأن السكر من أخلاق
لا ذنب للصَّهْباء أنى غاصب — ولذاك قام السكر باستحقاق
ولقد صدَدْتُ الكأس فانقبضت — بها من بعدما انْبسَطت يمين السَّاق
وتركتُ فى وسط النَّدامى خلَّة — هامت بها الوُسْطى من الأعلاق
فاستَنْكَرُونى مذكِّرين وعندهم — أنى أدين اللهو دين نفاق
وحَبابُها نَفَث الحَباب وربما — سَرِكت يد الملسوع منه براق
وكأنه لما توقّر من فوقهـا — نورٌ تجسَّم من ندى الأحداق
لو بادح نَفْح النَّوى فى روضة — فأثارها وسَرى عن الأحداق
ولقد جلوا والله يدرأ كيدهم — فتَّانة الأوصاف والأعراق
أغوى بها إبليس قدْماً آدَماً — وهى السِّر يرتمى فى هواها الباق
تالله أصرف نحوها وجْدَ الرضا — لو شَعْشَعت برضا أبى إسحاق

ومن نسيبه :

وليله عنبـرية الأفق — رَوَيت فيها السرور من طرق
وكمت حرّان فاقتدحتُ بها — ناراً من الرّاح برّدت حُـرق

وافت بها عاطلا وقد لبست غِلالةً فُصِّلت من الحدَق

فأجابها الدهر من بنيه دُجا لقيته كالإصباح فى نسَق

قامت لنا فى المقام أوجُههم وراحُهم بالنجوم والشَّفق

وأطلع البدر من ذُرى غصن تَهفو عليه القلوب كالورق

من عبد شمس بدَا سناه وهل ذاك النور إلا لذاك الأُفق

مدَّ بحمراء من مُدامته بيضاء كفٌّ مسكيَّة العبَق

فخلتها وردة مُنعَّمة تحمل من سُوسنٍ على طبق

نشرَت فى الراح حين نشرتُها ما غادرت مقلتاه من رَمق

وقال :

[يا حبذا ليله لنا سلَفت أغرت بنفسى الهوى وما عرَفت

دارت بظلمائها المُدام فكم نرْجِسة من بنفسِج قَطَفت][1]

وقال [فى مُغَنٍّ زار ، بعده أغبَّ وشطَّ المزار][2] .

[وافى وقد عظُمت علىَّ ذنوبه فى غيبةٍ قبُحت[3] بها آثاره

فمحا إساءته لنا إحسانهُ واستغفرت لذنوبه أوتاره[4]][5]

وقال يعتذر عن استبطاء مُكاتبة :

ألم تعلموا والقلب رَهْنٌ لديكم يخبِّركم عنى بمُضْجِره بعدى

---

(٢) ورد هذان البيتان فى «ج» و «الزيتونة» .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وقد ورد مكانها فى المخطوطين (فى غائب آب بعد ما غب المزار) . ويلوح لنا أن عبارة الإسكوريال هى الأرجح . حيث وردت فى البيت الثانى كلمة (أو تاره) ، وهى مما يقترن بذكر المغنى .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (حفليت) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (أنواره) . وفى الزيتونة (أماره) .

(٥) ورد هذان البيتان فى «ج» و «الزيتونة» .

فلو قلّبتنى الحادثات مكانكم لأنهتْها وفَرَى واوُ دلأنها خدِّى
ألم تعلموا أنى وأهلى وواحــدٌ فدا ولا أرضى بتَفْدِية وَحْدى

ومن قوله فى غرض المــدح يخاطب تاشفين بن على(١) ويذكر الوقعة بكَرْكى ، يقول فيها :

الله أعطاك فَتْحاً غير مشترك وردَّ عزمك عن فَوْتٍ إلى دَرَك
أرسل عِنان جوادٍ أنت راكبُه واضْمُمْ يديك ودَعْهُ فى يد المَلَك
حتى يصيرَ إلى الحسنى على ثقة يُهدى سبيلك هادٍ غير مُؤتمك
قد كان بُعْدُك للأعداء مَمْلكة حتى استدَارَت عليهم كورةُ الفلك
سارت بك الجردا وطار القضا بها والحينُ قد قيدَّ الأعداء فى شَرَك
فما تركت كَمِيًّا غير مُنعفِر ولا تركت نجيعاً غير مُنْسَفك
ناموا وما نام موتور على حَنَق أسدى إذا فرصة من السلك
فَصَبَحَتْهم جنود الله باطشةً والصبح من عَبَرات الفجر فى مُسُك
من كل مُبتدر كالنَّجم مُنكدر تفيض أنفسهم غيظاً من المَسَك
فطاعنوكم بأرماح وما طَعنت وضاربوكم بأسياف ولم تحِك
تعجل النحر فيهم قبل موسمه وقدَّمَ الهدى منهم كل ذى نُسْك
فالطير عاكفة والوحش واقفة قد أثقلتها لحوم القوم عن حَرَك
عَدَت على كل عادٍ منهم أسر بعثه فى حَنْجر رَحْب وفى حَنَك
كلى هنيئاً مريئاً واشكرى مَلِكاً قَرَنْتِ أسيافه فى كل مُعترك

---

(١) هو الأمير تاشفين بن على بن يوسف المرابطى ، أمير المسلمين بالمغرب والأندلس (٥٠٠ – ٥٣٧ هـ) . وقد ولاه أبوه شئون الأندلس سنة ٥٢٢ هـ . وقد خاض تاشفين عدة معارك ظافرة ضد القشتاليين ، كانت منها معركة كركى فى سنة ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) . وكركى بلدة حصينة تقع على مقربة من قلعة رباح جنوبى نهر وادى يانه .

فلو تنضّدت الهامات إذ نشرت ... بالقــاع للغيظـــان بالنبك
أبرح وطالب بباقى الدهر ماضيه ... فيوم بَدْرٍ أقامه الفيء فى فَدَك
وكم مضى لك من يوم بِنْتَ له ... فى ماقط برماح الخطّ مشتبك
بالنَّقْع مرْتكم بالمــوت مُلْتَيم ... بالبِيض مشتمل بالشُّمْر مُحْتبك
لحصُ القِباب إلى لحص الصعاب ... إلى أرْيُولة مَداساتٍ إلى السَّكَك
وكم على حَبْر محمود وجارته ... للرُّوم من مُرْتكل غير مُترك
وفِّيْت للصغر حتى قِيل قد غدروا ... سَمَوْت تطلب نصر الله بالدَّرك
فأسْلَمتهم إلى الإسلام غَدْوَتهم ... وأذْهَب السيف مابالدَّن من حُنْك
يا أيهــا الملك السامى بهمته ... إلى رضى الله لا تَعْدَم رضى المَلِك
مازلت تسمعه بشرى وتطلعه ... أخرى كدرٌّ على الأجياد مُنْسَلِك
بيَّضت وجه أمير المؤمنين بهــا ... والأرض من ظُلْمة الإلحاد فى حَلَك
فاستَشْعر النَّصر واهتَّزت منابره ... بذكر أرْوَع للكفار مُحْتَنك
فأخْلَدَك ولمن والاك طاعته ... خُلودَ بِرٍّ بتقوى الله مُمْتسِك
وافيتَ والغيثُ زاخر قد بكا طَرَباً ... لمَّا ظفرت وكم بلَّه من الضَّحك
وتمّ الله ما أنشأت من حسْن ... بكل مُنْسَبك منه ومُنْتَمك
وعن قريب تُباهى الأرض من زهير سماهــا ... بهــا غَضَّة الحَبْك

فعُد وقُد واعتمد وأجد وسُدْ وأبِد
وقُلْ وصِلْ واستَطِل واستولِ وانتَهِك

وحسْبُك الله فرداً لا نظير له ... تغنيك نُصْرته عن كل مُشْترك

ومن قوله فى غرض الرثاء ، يرثى الفقيه أبا الحسن بن مغيث :

الدهر ليس على حُرٌّ بمؤتَمن ... وأى عِلْق تخطّته يد الزمن

يأبى العفا على الدنيا وساكنها كأن أدبر لم يسكن إلى سكن
ياباكيا فرقة الأحباب عن شحط هلا بكيت فراق الروح للبدن
نور تقيد فى طين إلى أجل وانحاز عنواً وخلى الطين فى الكفن
كالطير فى شرك يسمو إلى درك حتى تخلص من سقم ومن درن
إن لم يكن فى رضى الله التقا وهما فيالها صفقة بتت على دغن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتنقا أظنها محرقة كانت على دخن
ورب سار إلى وجه يسر به وافى وقد نبت المرعى على الدمن
أتى إلى الله لا سمع ولا بصر يدعو إلى الرشد أو يهدى إلى السنن
فى كل يوم فراق لا بقاء له من صاحب كرم أو سيد قمن
أعيا أبا حسن فقد الذين مضوا فمن لنا بالذى أعيا أبا حسن
كأن البقية فى قوم قد انقرضوا فهاج ما شاء ذاك القرن من شجن
يعد فداً وفى أثوابه رمز من كل ذى خلق عمرو وذى فطن
وإن من أوجدتنا كل مفتقد حياته لعزيز الفقد والظعن
من للملوك إذا خفت حلومهم بما يقاوم ذاك الطيش من سكن

ومنها :

يا يوناس لا تسر أصبحنا لوحشتنا نشكو اغتراباً وما بنا عن الوطن
ويامطاعا مطيعاً لا عناد له فى كل أمر على الإسلام مؤتمن
كم خطت كارتجاج البحر مبهمة فرجتها بحسام سل من لسن
طود المهابة فى الجلا وإن جذبت عنانه خلوة هزت ذرى وتر
أكرم به سبباً تلقى الرسول به لخمس واردة فى الفرض والسنن
ناهيك من منهج سمح القصور به هوى فمن قدر عال إلى فدن

من كل وادى التُّقى يسقى الغمام به ... فيستهل شروق الضَّرع باللبن
تجمَّلَتْ بك فى أحسابها مُضَر ... وأصلُ مجدك فى جُرْثومة اليمن
من دولة حولها الأنصار حاشدة ... فى طامح شامخ الأركان والقُنَن
من الذين هُمْ رووا وهُمْ نصروا ... من عَيْشةالدِّين لامن جَذْوة الفتن
إن يَبْدُ مطَّلع منهم ومُستمع ... فارغب بنفسك عن لحظ وعن أُذُن
ما بَعْد منطقه وشْىٌ ولا زَهْرٌ ... ولا لأعْلاق ذاك الدُّر من ثَمَن
أقول وفينا فضلُ سُودَده ... استغفر الله ملءُ السِّر والعلَن
محمدٌ ومغيثٌ نِعْم ذا عوضاً ... هما سُلالة ذاك العارض الهتِن
تقيلا هَدْيه فى كل صالحة ... نصر السَّوابق عن طَبْع وعن مَرَن
ما حلَّ حَبْوَته إلا وقد عقدا حُبًّا ... بما اختار من أيدٍ ومن مِنَن
غُرُّ الأحِبَّة عند حسن عهدهما ... وإن يونسَ فى الأثواب والجُنَن
علماً وحلماً وترحيباً وتَكْرِمة ... للزايرين وإغضاء على زَكَن
يا وافد الغيث أوْسِع قبره نزَلا ... ورَوْماً حول ذاك الدِّيم من سُكن
وطبق الأرض وبْلًا فى شفاعته ... فنعم رايد ذاك الرِّيف واليَمَن
وأنتِ يا أرض كونى مرَّةً بأبى ... مثوًى كريم ليوم البَعْث مُرْتهن
وإن تردَّت بتُرْبٍ فيك أعظُمه ... فكم لها فى جِنان الخُلْد من رَدَن

ومن شعره قوله مخمِّساً [كتب بها](١)، وقد أقام بمراكش يتشوق إلى قرطبة :

بَدَت(٢) لهم بالغَور والشَّمل جامع ... بروقٌ بأعلام العُذَيب لوامع

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى المخطوطين (وكتبها) .
(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (سمحت) والأولى أنسب للسياق .

فباحت بأسرار الضمير المدامع   ورُبَّ غــــرام لم تنله المسامع

[أذاع بها] (١) من فيضها التصويب (٢) .

[ألا فى سبيل الشَّوق قَلْبٌ مؤثلُ   بركب إذا شاه والبروق تحمل

هو المــــوت الا إننى أتحمَّل   إذا قلت هذا مَنْهل عزَّ مَنْهل

وراية ُ برقٍ نحوها القلبَ يجنبُ .

أبى الله إمَّا كل بُعْدٍ فثــابت   وإما دنُوُّه الدار منهم ففايت

ولا يُلفت البين المصَمِّم لافت   ويارب َّ حىّ البارقَ المتهافت

غرابٌ بتفريق الأحبَّة ينْعَبُ .

خذوا بدمى ذاك الوَسِيق المُضَرَّجا   وروضاً بغَيْض العاشقين تأرّجا

عفى الله عنـــه قاتلاً ما تحرَّجا   تمشّى الرَّدى فى نَشْره وتدرَّجا

وفى كل شىء للمَنِيَّة مذهب .

سَقى الله عهـــداً قد تقلَّص ظلُّه   حيا قَطْرُه يحيى الرُّبا مستهله

وعى به شخصاً كريماً أجِله   يُصبِحُ فؤادى تارة ويُعِلُّه

ويُلْمِّه بالذكر طَوْراً ويُشْعِب

رمانى على قُرْب بشَرْخ ذكائه   فأعْشَت جُفونى لظرة من ذكايه

وغُصْت بأدنى شُعبة من سمايه   شِعابى وجا البحر فى غُلوَائه

فكل قرب ودع خدَّيه يركب

ألم يأته أنىَّ ركنتُ قعـــوداً   وأجمعت عن وفْزِ الـكلام قعودا

ولم أعتصر للذّكْر بَعْدك عودا   وأزهقنى هذا الزمان صُعودا

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (ودام بها) .

(٢) هذه المقطوعة الحماسية واردة فى المخطوطين .

فربعُ الذى بين الجوانح سَبْسَب .

على تلك من حال دعَوْتُ سميعا ... وذكرتُ رَوْضاً بالعقاب مَرِيعا
وتملأُ الشعب المذحِجى جميعاً ... وسرباً بأكناف الرُّصافة ريعا
وأحداق عينٍ بالحِمام تُقَلَّب

ولم أنسَ ممشانا إلى القصْرِ ذى النَّخل ... بحيث تجافى الطُّود عن دَمِثٍ سهل
وأشرفُ لا عن عظم قدْرٍ ولا فضل ... ولكنه للمُلْك قام على رِجْل
يقيه تباريحَ الشمال ويَحْجُب .

فكم توجُّع ينتابُه برسيسه ... ويرتحل الفتى بأرجل عيسه
إبق أمَّ عمرو فى بقايا دَرِيسه ... كسحق اليمانى مُعْتليه نفيسُه
فرُقْعته تُسْبى القلوب وتُعجب

وبيضاء للبيض البهاليل تعتريه ... وتَهْتَزُّ بالبان جلالا وتَنْتَزِى
سوى أنها بعد الصَّنيع المُطَرَّز ... كساها البِلَى والثُّكْل أثواب مُعْوِز
يبكى وتبكى للزايرين وتَنْدِب .

وكم لك بالزهراء من مُتردد ... ووقفة مُتَّسق الجامع مُقصد
يسكن من خَفْق الجوانح باليد ... ويَهْتِك حُجَب النَّاصر بن محمد
ولا هيبةٌ تُخْشى هنالك وتُرهب .

لنعم مقام الخاشع المُتَنسك ... وكانت فى محلِّ المَبْشَمين المُمَلَّك
متى يورد النَّفْس العزيزة يَسْفِك ... وإن يَسُم نحو الأبلق الفرد يملك
وأى مرام رامه يتصعَّب

قصورٌ كان الماء يعشق مَبْناها ... فطوْراً يُرى تاجاً بمَفْرِق أعلاها

وطوراً يرى خَلخالَ أسْوقِ سُفّلاها إذا زَلّ وَهْناً عن ذوايبَ بِهواها

يقول هَوَى بدراً أو انقضَّ كوكب

أتاها على رَغْمِ الجبال الشّواهق وكلٌّ مُنيف للنجوم مُراهق

وكم دَفعت فى الصّدر منه بعانق فأوْدَعَ فى أحشائها والمفارق

حساباً بأنفاس الرياح يَذْرَب

هى الخود من قرن إلى قدم حُسْناً تناصف أقصاها جمالا مع الأدنى

ودَرَج كالأفلاك مبنى على مبنى توافقْن فى الإتقان واختلف المعنى

وأسباب هذا الحُسْن قد تتشعّب

فأين الشّموس الكالفات بها ليلاً وأين الغُصون المائسات بها مَيْلا

وأين الظِّبا السابحات بها ذيلا وأين الثّرى رَجْلا وأين الحصا خيلا

فوا عجبا لو أن من يتعجب

كم احتَضَنَت فيها القِيان المزاهرا وكم فاوَحَتْ فيها الرِّياض المجامِرا

وكم ساهَرتَ فيها الكواكب سامِرا وكم قد أجاب الطاير فيها المزامرا

عظيم من الدنيا شعاع مُطنَّب

كأن لم يكن يُقضى بها النّهى والأمر ويُجبى إلى خزائنها البرُّ والبحر

ويُسْفر مخفوراً بذمّتها الفخر ويُصبح مختوماً بطينتها الدهر

وأيامه تُعْزى إليها وتُنْسب

ومالك عن ذات القِرِىّ النّواضج وناصحةٌ تُعْزى قديماً لناصح

وذى أثرٍ على الدهر واضح يُخبر عن عهدٍ هنالك صالح

ويَعْمُرُ ذكر الذاهبين ويخرب

تلاقى عليه فيضُ نهرٍ وجدول　　تَصَعَّد من سِفْلٍ وأقبل من عَلِ
فهـذا جنوبىّ وذلك شمأل　　وما اتفقا إلا على خير منزل
وإلا فإن الفضل منه مُجَرّب

كأنهما فى الطِّيب كانا تنافرا　　فسارا إلى وَصْل التضاء وسافرا
ولما تلاقى السابقان تناظرا　　فقال ولىُّ الحق مَهْلاً تظافرا
فـكلُّكما عَذْبُ المجاجة طيِّب

ألم يعلما أن اللَّجاج هو المقْتُ　　وأن الذى لا يقبل النَّصْف مُنْبَتٌ
وما منكما إلّا له عندنا وقت　　فلما استبان الحقُّ واتجه السَّمْت
تقشَّع من نور المودة غَيْهَب .

وإن لها بالعامريَّة لَمَظْهـرا　　ومُسْتَشْرَفاً يُلهى العيون ومَنْظراً
ورَوْضًا على شطىّ خضارة أخضرا　　وجَوْسق مَلِكٍ قد علَا وتجبَّرا
له تَرَّةٌ عند الكواكب تُطلب

غيره فى عُنْفوان المـوارد　　وأثبته فى ملتـقى كل وارد
وأبْرزه للأرْيَحىِّ المجاهـد　　وكلُّ فتى عن حُرْمة الدين زايد
حفيظتُه فى صدره تتَلَهَّب

تَقَدَّم عن قصر الخلافة فرسخا　　وأصْحَر بالأرض الفضاء ليصرخا
فخالته أرض الشِّرك فيها مُنَوَّخا　　كذلك من جاس الدِّيار ودوَّخا
فرَدْعَتُه فى القلب تَسرى وتُرهب

أوليك قوم قد مضوا وتصدَّعوا　　قضوا ما قضوا من أمرهم ثم ودَّعوا
فهل لهم رِكْزٌ يُحَسُّ ويُسْمع　　تأمّل فهذا ظاهر الأرض بَلْقَع
إلا أنهم فى بطنها حيث غُيَّب.

ألستَ ترى أن المقام على شَفا   وأن بياض الصُّبح ليس بذى خَفا
وكم رَسْم دارٍ للأحِبَّة قد عفا   وكأنَّ حديثاً للوفود مُعرَّفاً
فأصبح وحش المُنْتدى يُتجنَّب

ولله فى الدَّارات ذات المصانع   أخلّاء صِدْقٍ كالنجوم الطَّوالع
أُشيِّع بينهم كلَّ أبيض ناصع   وأَرْجع حتى لست يوماً براجع
فياليتنى فى قِسْمتى أتهيَّب

أقرطبة لم يُثْننى عنك سُلْوانٌ   ولا بمثل إخوانى بمَغْناك إخوان
وإنى إذا لم أسْقَ ماءك ظمآن   ولكنْ عَدانى عنك أمرٌ له شان
وموطنى آثارٌ تعُدُّ وتُكتب

لك الحقُّ والفضل الذى ليس يُدفع   وأنتِ لشَمْسِ الدِّين والعلم مطلع
ولولاك كان العلم يُطوى ويُرفع   وكل التُّقى والهُدى والخير أجمع
إليك تناهى والحسود مُعذَّب

ألم تكُ خُصَّت باختيار الخلايف   ودانت لهم فيها ملوك الطَّوايف
وعضَّ ثِقاف المُلْك كلَّ مخالف   بكل حسامٍ مُرْهف الحدِّ راعف
به تُحقن الآجال طوراً وتُسكب

إلى مُلْكها انقاد الملوك وسلَّموا   وكعبتُها نَدا الوفود ويمَّموا
وفيها استفادوا شَرْحهم وتعلَّموا   وعاذوا بها من دهرهم وتحرَّموا
فنكَّب عنهم صرفه المتَسحّب

علوتِ فمَا فى الحُسْن فوقك مُرْتقا   هواؤك مختارٌ وتُرْبك مُنْتقا
وجسرُك للدنيا وللدِّين مُلْتقى   وبيتُك مربوع القواعد بالتُّقا

إلى فضله لأ كباب تُنْضى وتُضرب

تولّى خيار التابعين بقاءه ... وخَطَوا بأطراف العَوالى فناءه
ومدّوا طويلا صيتَه وثناءه ... فلا زال مخلوعٌ عليه سَناه
ولا زال سَعْىُ الكايدين يُخيِّب

وبالغَ فيـــه كلُّ أروَع أصْيَد ... طويل المعالى والمكارم واليد
وشادوا وجادوا سيِّداً بعد سيد ... فبادوا جميعاً عن صنيع مُخَلَّد
يقوم عليـــه الثناء ويخطُب

مصابيحه مثْلُ النجوم الشّوابك ... تمزّق أثواب النجوم الحَوالك
وتحفظه من كل لاهٍ وسالك ... أجادِل تنقضُّ انقضاض النّيازك
فإبشارهم بالطّبْطَبية تُنهب

أجِدُك لم تَشهد بها ليلة القَدْر ... وقد جاش بِرُّ الناس منه إلى بحر
وقد أُسْرِجت فيه جبالٌ من الزّهر ... فلو أن ذلك النُّور يُقْبس من فجر
لأوْشَك نور الفجر يَفْنى ويَنْضَب

كأن للثُّرَيّاوات أطوادُ من نرجس ... ذوائبه تَهْفو بأدنى تنفُّس
وطيب دخان النَّد من كل مُعْطَس ... وأنفاسُه فى كل جسم ومَلْبَس
وأذياله فوق الكواكب تُسحب

إلى أن تبدَّت راية الفجر تزحف ... وقد قضى الذى لا يُسوِّف
تولوا وأزهار المصابيح تُقْطف ... وأبصارُها صوناً تغضُّ وتُطْرِف
كما تُنْصل الأرماح ثم تُركَّب

سلامٌ على غيابها وحضورها ... سلام على أوطانها وقصورها

سلام على صخراتها وقبورها ولا زال سورُ الله من دون سورها

فحسن دفاع الله أحمى وأرهَب

وفي ظهرها المعشون كل مرفَّع وفي بطنها المَمْشوق كل مُشَفع

متى تأته شكوى الظلَّامة تُرفع وكل بعيد المُستغاث مُدَفَّع

من الله في تلك المواطن يَقْرُب

وكم كُرْبة ملء الجوانح والقلب طرَقت وقد نام المواسون من صَحْب

برَوعتها قبر الولي لي وَهَب ونا ديت في التُّرب المُقَدَّس ياوب

فأبَتْ بما يهوى الفؤاد ويَرْغَب

فيا صَحْبي حان قَبْلَك مصرعي وكنتَ على عهد الوفا والرِّضا معي

فحطَّ بضاحي ذلك الثَّرى مَضْجعي وذرْني لجار القوم غير مُرَوَّع

فعندهم للجار أهـــلٌ ومرحبُ

رعى الله من يرعى العهود على النَّوى ويُظْهر بالقول المُحَبَّر ما نوى

وليبنيته من مُسْتَحكم الوُدِّ والهوى يرى كلَّ وادٍ غير واديه مُجْتَوى

وأهدى ســبيله الذي يُتَجَنَّب](١)

كتابتـــه

وكتابة ذي الوزارتين رحمه الله ، كالشمس(٢) شهرة ، والبحر(٣) والقَطْر

---

(١) إن جميع الشعر الخماسي المحصور بين الحواصر وارد كله في الإسكوريال . وساقط في المخطوطين .

(٢) هكذا وردت في المخطوطين . وفي الإسكوريال (الشمس) .

(٣) ساقطة في «ج» وواردة في الإسكوريال والزيتونة .

كثرة ، ونحن نثبت له شيئاً من ذلك ليلّا يخلو هذا الكتاب من شيء من بيّانه .
كتب يراجع الوزير أبا بكر بن عبد العزيز ، من رسالة ، كتب بها إليه مع حاج يضرب القُرعة :

أطال الله بقاء وليّ (١) ، وإمامي (٢) ، الذى له إكْبارى وإعْظامى ، وفى سِلْكه اتّسامى وانْتِظامى ، [وإلى مُلْكه انتسابى واعْتِزابى ، وبوُدّه افتخارى وانْتِرابى](٣) ، للفضايل مجيباً ومبدياً ، وللمحامد مشتملا ومُرْتدياً (٤) ، وبالغرايب مُتْحفاً ومُهْدياً ، [ولازال الرَّخاء وأزل ، وجدَّ من المصافاة وهَزَل ، وسَحَت من المراعاة وجَزُل](٥) . وصل كتابهُ صحبة عرّاف اليمامة ، وفخر (٦) نَجْد و تِهامه ، [يُقرِّظه ويزَكّيه ، ويصفه بالحبِّ (٧) يفسِّره ويجُليه](٨) ، والخفيِّ (٩) يظهره ويبديه . ولعله رائدٌ ، لابن أبى صايد ، أو هاد للمسيح الدّجال قايد . أشهد شهادة إنصاف ، أن عنده لَعَضْباً صاف (١٠) ، ولو كان هناك ناظر صادق (١١) طافٍ ، ولله خبايا الألطاف ، لقلتُ هو بادٍ غير خافٍ ، من بين كل ناعلٍ وحافٍ . وسأخبرُك أيدك الله ، بما اتّفق ، وكيف طار ونَعَق . وتوسّد الكرامة ، وارتفق ، [طَرَقَ له وصلُك

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (رييسى) .
(٢) ساقطة فى «ج» وواردة فى الإسكوريال و «الزيتونة» .
(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال . وساقط فى «ج» و «الزيتونة» .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى«ج» . وفى «الزيتونة» (مجتديا) .
(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال و«الزيتونة» مع فروقات يسيرة ؛ وساقط فى «ج» .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى «ج» (وحادى) . والزيتونة (وحرا) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (الحق) .
(٨) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال والزيتونة . ومكانه فى «ج» عبارة (يقرظه ويجليه) فقط .
(٩) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (والخفاء) .
(١٠) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى «ج» (أصداف) .
(١١) وردت فى المخطوطين . وساقطة فى الإسكوريال .

ونَعْتَك ، وثقّفه بَرْيك ونحتك ، ورفعه للعيون جَدُّك وبختك][1] ، وامتدت نحوه النواظر ، واستشرفه الغايب والحاضر ، وتسابق إليه النّابه[2] والخامل ، وازدحم عليه العاطل والعامل . هذا يلتمس مزيداً ، وذاك يبتغي حظاً[3] جديداً ، وهذا يطلب تقليداً ، [وذلك يسُلُّ إلى مغاليقه إقليداً][4] . فكلما حَزَب ، وغلّ وجلب ، حَلَب واستدَرّ ، وتلقاه [وإن ساءه الغيب][5] بما سَرّ . وكنت وانتخبت جملة من الأعيان ، ووافقت ثُلّة من جِلّة الإخوان ، على تمشية أمره ، وتوشية ذِكره ؛ فلما صَدَقت تلك الفِرقة ، واستوت بهم تلك الفُرْقة ، أحضرناه للسِّبار ، وأقعدناه للنقد والاختيار ، وأردنا أن نقف على جلايا تلك الأخبار ، فأحضرنا طَحْناً ونَطْماً ، وسَرَينا عنه من الوَحْشَة قَطْماً ، وقلنا له خذ عفوك ، ولا توردْنا[6] إلاّ صَفْوك ، ولا تصانعنا في الكريهة التي نراها ، والحادثة تستفظع ذكراها ؛ فما عندنا جهل ، وما منّا إلا مُحْتَنِك كَهْل ، لا يتكاده حَزَن ، ولا يستخفه سهل ، فسكن جايشُ فَوْره ، وضرب بلحيته على زَوْره ، ثم صعّد فينا النظر وصوّب ، واستهل صارخاً وثوّب [وتحرّج من الكذب وتحوّب][7] ، وقال لست للعشرة خابطاً ، ولا للطَّرْف غامضاً ، ولا عن الصدق إذا صَدَع حايداً ، ولا للغَدْر ممّن وقع منه ذايداً ، ولا بمعجزات النبُوّة لاعباً ، ولا لصريح الجدّ مُداعياً ، ولا تطيبُني مسألة ولا حُلْوان ، ولا تستفزني نَضايد كثيرة ولا ألوان . إنما هو رَسْمٌ وخَطٌّ ،

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد في الإسكوريال و« الزيتونة » . وساقط في «ج» .

(٢) هكذا وردت في المخطوطين . وفي الإسكوريال (النبيه) .

(٣) هكذا وردت في الإسكوريال والزيتونة . وفي «ج» (شيئا) .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد في الإسكوريال و« الزيتونة » . وساقط في «ج» .

(٥) هذه العبارة واردة في الإسكوريال . وساقطة في المخطوطين .

(٦) هكذا وردت في الإسكوريال وفي «ج» . وفي « الزيتونة » (تزدنا إلى) .

(٧) هذه العبارة واردة في الإسكوريال والزيتونة . وساقطة في «ج» .

ورفع وحَطٌّ ، ونَحْسٌ وسعدٌ ، ونقد ووعد ، ويوم وغَد(١) . فقلنا له الآن صحَّت الوفادة [وأينَعَت الإرادة](٢) . ثم نظر إلينا نظر المستقِلّ واجتذب النِّطع اجتذاب المُدِل(٣) ، ونثل الطِّجن وهاله ، وأداره حتى [استدار هاله](٤) ، ثم قال يا أيها الملأ هذا المبتدأ(٥) ، فأيكم يبدأ . فرمقني القوم بأبصارهم ، وفغروا وكبَّروا ، وليتهم [عند ذلك](٦) صفَّروا . فقلت يا قوم قد عضضتُ على ناجذي حِلْماً ، [وقتلت شأني كلّه عِلْماً](٧) ، [وعقدت بيني وبين غدٍ سَلْماً](٨) ، فكيف أستكشف عما أعرف ، وأستفهم عما لا يستبهم . على الرحمن توكلت ، وعلى الشيطان تركت ، ومن كسبي أكلت ، [وفي مبرك السلامة برَكت](٩) ، وجبايات الأمور تركتني وتركتُ ، والنفس(١٠) المطمئنة رجوت ، ولعلني قد نجوتُ ، [وأصبت فيما نحوتُ](١١) . فلحظتني عند هذه المقالة عينُهُ ، وطواني(١٢) صدقُه ومَيْنه . [ثم صار القوم دوني أنجية ، وأعدّ له كل تورية

---

(١) هكذا وردت في المخطوطين . وفي الإسكوريال (وبعد) والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة في الإسكوريال . ووردت في المخطوطين و« ج » و« الزيتونة » (وتعينت الزيادة) .

(٣) هكذا وردت في الإسكوريال . ووردت في «ج» (المستثقل) . وفي الزيتونة (المقل) .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة في الإسكوريال . وفي المخطوطين (استهالها) .

(٥) هكذا في المخطوطين . وفي الإسكوريال (النبأ) .

(٦) هذه العبارة واردة في المخطوطين وساقطة في الإسكوريال .

(٧) هكذا وردت هذه العبارة في الإسكوريال و « الزيتونة » . وورد مكانها في «ج» (وقلت كل ذلك أتقنه حفظا) .

(٨) هذه العبارة واردة في الإسكوريال . وساقطة في المخطوطين .

(٩) هكذا وردت هذه العبارة في الإسكوريال و« الزيتونة » . ووردت في «ج» كالآتي (وعن مبرك الشيطان نكلت) .

(١٠) هكذا وردت في المخطوطين . وفي الإسكوريال (المسة) .

(١١) هكذا وردت هذه العبارة في الإسكوريال . ووردت في «ج» والزيتونة (صدقت — أصبت فيما قد رجوت).

(١٢) هكذا وردت في الإسكوريال و" الزيتونة " . وفي «ج» (وأدهشني) .

وتَعْمية . فقال قايل منهم ، تعالوا نشترك فى ضمير ، ونَرْمِه بهذا الطاغية ابن رُذْمير [(١) ففى كل قلب منه نَدَب كبير ، والسؤال عنه دين وأدب ، فإن أصابه استرحنا من النَّصَب والشُّخوص . وجرنا من العموم إلى الخصوص ، وإن أخطأه فهو لما سواه أخْطَأ ، ولما يدَّعيه ويريدُه منه أبْطَأ . فقالوا نِعْم ما عرضت ، وأحْسِن بما رويت وفَرَضت . فلما رأيناه يُثْقل التَّمريض ، ويُحكم التقرير والتعويض ، قلنا له حقِّق ضميرك كل التحقيق ، وضع مِسْبحتك فى فى الدقيق . [فابتدر ما أمر](٢) وحسَرَ عن ذراعه وشمَّر ، ومرت أصبُعه فى خطِّه مر الذَّر المتهالك ، ووقعت وَقْع القطار المُتَدارك ، [لا تمس الطَّحن إلا تحليلا ، وغَمْزاً كالوهم قليلا](٣) فطوراً يستقيم سبيلا ، وتارة يستدير إكليلا ، وآونة يأتى بالسماء ونجومها قَبِيلا . فكان هنالك لنعش من بنات ، وللثُّريَّا من إخوات ، وطير قابضات ، وصافَّات وأسراب ناشراتٍ خافقات . فلما استوفى عُدَدَه ، وبلغ أمَدَه ، وختم طرائقَه وقِدَدَه ، وأعطى الأصول وفروعها ، وتدبَّر تفاريقها وجموعها ، فجمع وتقبَّض ، وفَتَر ثم انتفَض ، [وصعَّد ذهنه وتسافه ، وأخذ الطَّحن فَسافَه](٤) ، وزفر وشهق ، وعشَّر ونَهق ، وألصق بظهره حشاه ، وكتم الرَّبو ثم أفشاه ، وقال هذا الذى كنت أخشاه ، عَمِيتم الأثر ، [وكتمتم حقيقة الخبر](٥) . [وعَثَّرتم خاطى فما عَثَر ، ونثرتم نظام الحَدْس فما انتثر](٦) .

---

(١) هذه العبارة ما بين الحاصرتين واردة فى الإسكوريال . ولم يرد منها فى المخطوطين سوى عبارة (ثم صار القوم إلى ذكر الطاغية ابن رذمير) .

(٢) هذه العباوة واودة فى الإسكوريال وساقطة فى المخطوطين .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى « الزيتونة » كالآتى (لا تمس الضحى إلا عليلا ، وعمراً كالموسم ولو خليلا) . وهى ساقطة فى «ج» .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال و « الزيتونة » . وساقط فى «ج» .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى المخطوطين وساقط فى الإسكوريال

(٦) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال و « الزيتونة » وساقط فى «ج» .

سألتم عن رُوح شارد، وشيطان مارد، وصادر مع اللَّحظات وارد. لا يوطن داراً، ولا يأوى قراراً ولا يُطعم النَّوم إلا غِراراً. نعم أمْرُه عندى مستقر، هو زِنْديق مُسْتتر، وشهاب من شُهُب الكفر مستمر. ثم رجّع البصر واختصر، وعاد إلى الحساب يتقرّاه، والصواب يتحرّاه. وتتبّع أديم الطّحن فقرَاه. وقال أعوذ بالله من شرّ ما أراه. إلى كم أُرى فى غلاء وبلاء ؛ كأنى لست ذا أمْرار وأحْلاء، تالله لو كانت قرْعة رفعة وعلاء ؛ ما غاب عنى اللّحيانى ذو السبَّلة، ولواجهنا البياض ذو الغُرّة المستقلة، مواجهة حسان لجَبَله. النَّحس على هذه الروح قد رُتّب[1] ؛ وكُتب عليه [من الشقاء][2] ما كُتب ،وأخرج النّصرة الداخلة من العتَب. ثم أشار إلى الحُمرة، وكأنما وضع يده على جَمْرة، وقال كَوْسَجَ نَمِيٌّ، وسِناط الوجه شَقِيٌّ، وثِقاف وطريق، وجماعة وتفريق، وقَبْضُ خلوج، ومَنْكوس مارج. ثم وضع عمامته، ولَوْلَب[3] هامته، وأمال وجهه فجراً طلقاً، ثم عرضه مجناً مُطرقاً، وعقد أنامله عضًّا. [وأدْمَى صدره دعًّا ورضًّا، وقطع بَصَره لحاً وغضاً، وتكفأ وتقلعّ][4] وأدْلَعْ لسانه فاندَلَع. فقلنا شرٌّ تأبطه، أوشيطان يتخبَّطه، أو قرَين يستنزله ويَخْتِلُه[5] أو رؤى فى الذروة والغارب يَفْتِله. [ثم تجاحظ وتحاذر. وتضاءل وتنازر][6] ، وقال، والذى أحيا عازِر، وأخرج إبراهيم[7] من آزرْ، وملك عِنان الريح وأذعن له كل شىء

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال و« الزيتونة ». وفى «ج» (غلب).

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى « الزيتونة » (من اتناوه). وهى ساقطة فى «ج».

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى «ج» (أبدى). والزيتونة (وأ ركب).

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال. وساقط فى المخطوطين.

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى «ج». وفى « الزيتونة » (ويختلبه).

(٦) هكذا ورد ما بين الحاصرتين فى الإسكوريال. وفى المخطوطين (ثم تجاحظ وتكادن، وتضاءل وتبادن).

(٧) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى المخطوطين (البرائح).

بالسجود والتَّسْبيح ، إنه لمن عُبَّاد المسيح . هيهات هيهات . لا أُخْضِع بِظَنّ ، ولا يُقَعْقَع لى بِشَن ، ولا أُنازع من هذه الفنون فى فَنّ . قد ركبت أثْباج البحار ، وقطعت نِياط المَفاوز والقِفار . وشافهني الحَرَم والبيت ، وصافحني الحجر الكُمَيْت ، وأحْرَمت ولَبَّيت ، وطُفت ووفَّيت ، وزُرْت المصطفى صلى الله عليه وسلم وتحفَّيت . ثم مِلْت على عَدَنْ ، وانحدرت عن اليمن ، واستسقيت كل راعِدة ، وأتيت كل قاعِدة ، ورأيت صاحب الجمل قُس بن ساعدة ، ووردت عُكاظ ،وصدّقت الحُفّاظ ، وقُدت العصية بِنِسْع ، ومسَحت الشامات بأخْمُس و تِسع ، ووقفت حيث وقف الحكمَان ، وشهِدت زحف التُّركان ، وكيف تصاولت القُروم ، وغُلبت الرُّوم ، [وهزم المدبر المقبل ، واكتسحت الجحاش الإبل][(١)] . فقلنا لله أنت ، لقد جَلَيت عن نفسك ، وأربى يومُك على أمسك ، ولقد صدق مُطْريك ، ووَفت صحيفة تزكِّيك ، [وما كانت فراستنا لتخيب فيك][(٢)] . فماذا تَستَقْرى من اللوح ، وترى فى ذلك الروح ، بِعَيْشك [ألا ما أمْتَعْتنا][(٣)] بالإفشاء والبَوْح . فرجع فى البحث أدْواجه ، وطالع كواكبه وأبْراجه ، وظل[(٤)] على مادة الطَّحن ، يرقُم ويَرمُق ، ويفْتُق ويَرْتَق . ثم جعل يبتسم ، وقال أحلف بالله وأقسم ، لقد استقام النّسم ، وإنه لسكما أرسم وأسِم ، وإنى لا أجده إلا لاغباً مَبهوراً ، ومنكوداً مقهوراً . ولن يلبث إلا شهوراً ، قد أفَل طالع[(٥)] جَدّه ، وفَلّ حَدّه ، وأتى عليه نقى خَدّه ، وصبيٌّ لم يَمْلك أبوه ومَلَك

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال . وساقط فى المخطوطين .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . وفى الإسكوريال و«الزيتونة» (وما كانت فراسة — فراستنا لتتاه فيك) . والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (الا ما أمعنت) .

(٤) هذه الكلمة واردة فى «ج» وساقطة فى الإسكوريال و«الزيتونة» .

(٥) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» والإسكوريال .

جَدُّه ، فقلنا صرّحت وأوضحت ، وشَهَرت هذا المَسْتُور وفضحت ، وإن ساعدك قدر ، وكان لك عن هذا الوُرود صَدَر ، فحظك مُبْتدر ، وخطّك[١] صاف لا يشوبه كَدَر . فقال هذا أمر قد آن أو كان ، وسيأتيكم الخبر الآن . فانفصلنا وأصْغَينا الآذان ، وجعلنا نتلقى الرُّكبان ، فلم يَرُعْنا إلا النّعمى الناجمة ، والبُشرى الهاجمة بما بان ، فأدهمنا فى شأنه ، ولم يكن يعاوده خوف طغيانه ، فإذا الخبر لم يَخْطُ صِماخه ، وكأنما كان عوداً وافى مناخه ، أو طايراً أمَّ أفراخه . فلم يَنْشِب أن أقبل يَصْمُد نحونا أى صَمْد ، ويتعرضنا على عَمْد ، تعرّض الجوزاء للنجوم ؛ [وينقضّا انقضاض نَيازك النجوم][٢] ، وقال ألم يأنُ أن تدينوا لى بالإكبار ، وتعلموا أنى من الجهابذة السكبار ، فقلنا منك الإسْجاح ، فقد مَلَكت ومنك ولك النجاح ، أيّة سَلَكت . فأطْرق زَهْواً ، وأعرض عنا لَهْواً ، وقال اعلموا أن القُرْعة لو طوت أسرارها ، ومنعتنى[٣] أخبارها ، لمزّقتُ صِدارها ، وذَرَوْتُ غُبارها ، ولكان لى عنها أوسع مُنْتَدح ، وأنجد زِناد يُقْدح ، أين أنتم عن رَصْدى الأحْلاك ، وعِلمى بالأفلاك ، أنا فى مَرَج الموج ، وأوْج الأوْج ، والمتفرد بعلم الفَرْد والزَّوج ، ومُسْتَرط السَّرَطان ، ومُسْتَدير الدَّبران ، وبايع المُشْترى بالميزان ، والقابض بيوم[٤] الحساب والعمل ، على روق الثَّور وذنب الحَمَل ، [أعْقِد نَصْل العقرب][٥] ، وأُقيِّد الأبعد والأقرب ، لصَيْد أوابِدها بالدقايق

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال و« الزيتونة » . وفى «ج» (ولحظك) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (وانقض انقضاض المارد المرحوم) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (غيبتنى) .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (بيد) . والأولى أرجح

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (عندى نعل العقرب) والأولى أرجح .

والدَّرَج ، حتى اضطرَّ سارحها إلى الحَرَج ، وأصبحها فى أضيق مُنْعَرج]⁽¹⁾ ، [أنا استذكرت بالأنبار فَرْحَة الإقبال وتَرْحة الإدبار]⁽²⁾ ، وطالعت إقليدس ، فاستنبطتُه ، وصارعت المَجَسْطِي فجَسْطَنته ، وارتَمطْتُ إلى الأرْتماطيقى ، [وأطَقْتُ الأوطيق]⁽³⁾ ، ولحظتُ التحليل بحل ما عقده ، وانتَضَيْتُه ما مَطَل به الجهابذة ، فنفذه . وعاينتُ⁽⁴⁾ زُحل ، حين استقلَّ على بعيره⁽⁵⁾ ورَحَل ، وضايقتُه فى ساحته ، وحصرتُه فى مِساحته ، وحضرت قِرانه ، وشَهِدت تقدُّمه ومُرانه ، وشاهدته [شَفْراً بشَفْر]⁽⁶⁾ ، وناجانى برقاً يُعد فى الكُفر ، وتخريبه لمُلْك الصُّفر ، [وتفريقُه لبلاد اللَّطِينة]⁽⁷⁾ وإنجاز الوعد فى فتح قُسَنْطينة . أنا عقدت رشا الدَّلو ، وذَرَوْتُ غُبار الحُوت للفِلْو . أنا اقتدحتُ [سَقْط الجوْزَهر]⁽⁸⁾ ، فلاح بعد خفايه وظَهَر . أنا استثَرْتُ⁽⁹⁾ الهلال من مكامن سَرَره ، [وأخذت عليه ثنايا سَفَره]⁽¹⁰⁾ ، وقَدَدْتُ قُلامته من ظُفُره ، ودللت طير الصَّاير على شجره ، فجنيتُ المُرّ من ثمره ، أنا طرقت الزُّهرة فى خِدْرها ، وصالحتها من الفكرة بيد

(١) هكذا وردت هذه الفقرة فى الإسكوريال . ومكانها فى المخطوطين (واضطر من ها هنا إلى الحرج ، وأجمعهم فى ضيق المنعرج) .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (أنا استدركت بالانبار ، حركة الإقبال والإدبار) . والأولى أبلغ معنى .

(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال و « الزيتونة » . وساقطة فى « ج » .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين وفى الإسكوريال (أنا عادلت) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال و « الزيتونة » . وفى « ج » (رحيله) .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (شبرا وشبر — شبرا بشبر) .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الاسكوريال (وتقريبه لبلادهم طينه) . والأولى أدل على المعنى .

(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (زند جوزائه — الجوزاء) .

(٩) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (استخرجت) .

(١٠) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال و « الزيتونة » . وساقطة فى « ج » .

لم تَدْرِها . أنا أذكيت على ذكاء فظلّت تَلْتهب . وأحْرَزتها من الوهم شَطَناً ، [أجذبها به فتنجذب](١) . أنا أنعى المُعْتَبرين حياتَها ، [فيشبهون الحسنة ، ويتحرّون أوقاتها ، حتى تَنْتَشر بعد الطيّ حياتُها](٢) ، وتستقيل من العِثار آياتها . أنا انتضيت للشباب شَرْخاً ، وأضرمت للمرّيخ عقاراً ومَرَخاً ، حتى أتغانى بملاحم حُروبه ، وحوادث طلوعه وغُروبه ، وتلمّظه إلى النّجيع ، وولوغه فى مُهْجة البطل الشّجيع . أنا أبرى من اللَّمَم ، وأشفى من الصّمم ، وأنقل العَطْس إلى الشَّمَم . فقلنا أما الأولى ؛ فقد سلّمنا لك جميعها ، وأمّا هذه الثلاثة فلن تستطيعها . قال فلِمَ تعجزون ولا تَسْتَخزون . فقلنا من كان له علاج فبنفسه يبدأ ، ونَغَب بغيره . ولسنا نريدك ، ولكن تهتزّ يدُك . قال أما من بينهم رَوِى . وألقى فى رُوعه ما ألقى فى رُوعى ، فَمَثله كالصّارم ، حُسْنُه فى فِرِنْده ، لا غِمْده ، وجماله فى حَدّه لا فى خَدّه ، والمرء كما قيل بأصغَرَيه ، لا بمَنْخَريه ، والشأن فى الحَيْزوم ، لا فى الخَيْشوم ، وفى الذَّكَرين ، لا فى الأُنْثَيين ، وبعد فهو كلام ظاهره إجمال ، وباطنه احتمال ، وسأنبّئكم [بغزارة سَيْله ، وفجر ليله](٣) . أما الأفطس فيدلى الضّفْنة ، ويتزوج فى آل جِفْنة . فإن الله أنمّ ، جاء الولدُ أنمّ ، وإن نام عِرْقُ خاله ، بَقِى الولد بحاله . وأما الأصمّ ، فيخرج عن الغلام ، وبلا فال ، ويدأب فى بنى السّميعة بَرَكة الإسميّة والفال ، فإن الله أراد ، ظَفِر بالمُراد ، وجاء ابنه(٤) أنمّ من قراد . فأحسّ من بعض الحاضرين تمريضاً ، وعاين طَرْفاً غضيضاً ،

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ومكانها فى المخطوطين (حتى جرت جرى المهذب) .

(٢) هذه العبارة واردة فقط فى « الزيتونة » .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ح» (بفجر سيله لا بفجر ليله) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (الولد) . والمؤدى واحد .

فتعسكر وتشذر](١) ، وطوّف وحذّر ، وقال صاحب الشريعة ، سمّاهم بنى السّميعه ، قوموا يا بنى اللّكيعة ، فقد قطعتم رزقى ، وآذيتم(٢) طُرُقى ، وأذللتم ضَرْبى وطَرْقى ، وسدَدْتم طَوْقى ، وأخذتم على أفُقى غَرْبى وشَرْقى . [ذَرُونى للتى هى للبَلِيّة تَجْني، ثم الوَجْد يَعنى . لو شَرِب نواديه إثر تَجَنّ](٣) . ثم نجا بعَزْمته سَجِيلاً ، وأرسل بنات نَعْشٍ ذيلا ، وقد أفاد بما استصحب من مَيامِنك ليلاً [كذّبنى أيدك الله عند نواه](٤) ولم يُطْلعنى طَلْع ما نواه ؛ وما ذاك إلا لمطمع نَوَاه ، ومَغْنَم هواه فرُفِعت لى بعد وداعه نَجْوه ، ورَمَتْنى بشخصه نَجْوة [فقلت ما أراك إلا غائل ، أوْرثت عنك الحبائل](٥) . فسُراك سُرى قَيْن ، وحديثك مَيْن ، ألم تعبر دُجَيْلا ، ويممت سُهَيْلا . فقال طَرِبتُ إلى الأصفية الصّغار ، وشاقنى الشوق بين الطّواغيت والأصْفار . فقلت له هلم إلى خطٍّ نعيده ، وحظٍّ نستفيده . فقال لولا أن تقولوا الساعة متى ، وتطالبونى بإحياء الموتى ، لما أجمعتُ إلى الغرب غروباً ، ولأريتُكم من الحذْق ضروباً . ثم قال إن لى بالخضْرة أفراخاً ، وأمّا استصرختُ عليها استصراخاً ، وانسلختُ منها انسلاخاً ، وأعيا علىّ أمره ، فلم أعلم له ظَعْناً ولا مناخاً . فلبثت كذلك أياماً ، قد اغتمّ علىّ أمره اعتياماً ، ولم أعرف له إنجاداً ولا اهتماماً(٦) ، فإذا به وقد اضمرتُ عنه يأساً ، ولم أطمع فيه رأساً ، قد أشَبّ لى شباباً ، ولمعت صلعتُه شِهاباً ، تسكتنفه ضُرّة ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (فتكدر وتشور) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى «ج» (وداريتم) . و« الزيتونة » (واورديتم) .

(٣) هكذا وردت هذه الفقرة التى بين الحاصرتين فى « الزيتونة » . وهى ساقطة فى «ج» . وفى الإسكوريال وردت على النحو الآتى : (ذرونى التى هى الليل يجز ، ثم الوقد يمن ، لو شرب نواديه ترن) .

(٤) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال و« الزيتونة » . وساقطة فى «ج» .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى المخطوطين . وساقطة فى الإسكوريال .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (اتهاما) . و« الزيتونة » (اتهاما) .

وبيُمناه قوْصَرة، وتزود يسراه جرة. فقلت له قاتلك الله. [ما أشد فقداتك، إلا فقدتك، وما أذكر وجداتك إلا وجدتك][١] أين أفراخُك، والأمُّ التى جذبها استِضْرانك. فقال الصعلوك، لو أعلم مذاهبه، تحُرِّم مناهبه، وتحُدم مراهبه. ذَرْنى وعلاجى، أحاجى وأداجى، وأعاين وأناجى، وأتقلب فى بَرَكة دُعاء الباجى. فقلت له مالك والمَيْت، ورحم الله من مَيِّت. قال، لمّا أذن الله فالتأمت[٢] الشِّيمة، وتمزّقت عنى المَشِيمة، هممت بالسَّرْق، ولففت فى الخِرْق، [وفارقت من الضيق مُنتداه][٣]، وأفلتتْنى يداه؛ فحنكنى السعد[٤] بتمْر المدينة، وسقانى من ماء البَلْدة الأمينة، وعوّذنى بدعوات متينة، فها أنا كما ترى [أتهادى واجتنب][٥] وأستحْلى وأستعْذب. فقلنا لعَمْرك[٦] إنه لفضلٌ عميم، لولا الصّميم، [وإنها لمَنقَبة][٧]؛ لولا العقبة [وأثرة مُلتمسة، لولا العَطْسة][٨]. فقال دعنا من زخاريفك، وأغضض من عِنان تصاريفك. البازل لا يكون إلا ذميا، والليث لا يوجد إلا شتيما[٩] ثم [قام وحَمل][١٠]، وابتدر وارتحل:

عيشُنا كلّــه خُــدَع ... فاترك اللــوم عنك وَدَع
أنا كالليــث والليـــوث ... بأرسانهـــا[١١] ترُع

---

(١) هذه الفقرة واردة فى الإسكوريال. ووارد منها فى "الزيتونة" عبارة (ما أشد بفقدك إلا وما أدركها) وهى ساقطة كلها فى «ج».

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى المخطوطين (بالتمام).

(٣) هكذاوردت هذه العبارة فى المخطوطين. وورد مكانها فى الإسكوريال (ومثلت فى منتداه).

(٤) هذه الكلمة واردة فى المخطوطين. وساقطة فى الإسكوريال.

(٥) هكذا وردت هاتان الكلمتان فى الإسكوريال والزيتونة. وفى «ج» (استحلى واستجذب)

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى المخطوطين (لعمر الله).

(٧) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة. وفى «ج» (ونوائل ممتقبة).

(٨) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال والزيتونة. وساقط فى «ج».

(٩) هكذا وردت فى المخطوطين. وفى الإسكوريال (ستيما).

(١٠) هكذ فى الإسكوريال. وفى المخطوطين (قال وأحمل).

(١١) هكذا فى الإسكوريال وفى المخطوطين (بأساتها) والأولى أرجح.

ولها الأوجُه السَّيمة من يَلْقهــــا يُرَع
أىُّ حسن لمـازن بيه الدَّل يُخترع
أنا كالسَّيف حدُّه لا يبالى بمـا وقع
إنمـا الحُسْن للمهاة وللظَّبى يا لَـكع

فقلت تبًّا لك ساير اليوم ، إنك لتَريش وتَبرى ، وتُقدُّ وتفرى ، وتحاسن وتُقابح(١) ، وتُهارش وتُنابح ، [وتُحب وتتأمل ، وتحُسن وتغافل](٢) وتُشاعر وتُراجز ، وتُناطح وتناجز . وأنت على هذا كله مُصِرٌ(٣) ، ما جزاؤك إلا ريح فيها صِرٌ ، فما هو إلا أن غفلت عنه لمحة طَرْف ، أو نفحة عَرْف ، ثم التفتُّ ، وإذا به قد أفلس ، وكأنما كان برْقاً خُلَّس ، ولم أدر أقام أو جلس .

ومحاسنه القَطْرُ(٤) الذى لا يُعد ، والأمر الذى يأخذه الحدُّ . وكفى بهذه الرسالة دليلا على جلالة مقداره ، وتدفُّق بحاره [وفَخَاره](٥) ، لما اشتملت عليه من بلاغة وبيان ، وبساط حال أنت على خبره بعيان ، وعلوم ذات افتنان ، خلد الله عليه الرحمة ، وضاعف له [المنة والنعمة](٦) .

[مولده : بأوايل ربيع الثانى عام خمس وستين وأربع مابة](٧) .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال و«الزيتونة» . وفى «ج» (وتخاشن) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى المخطوطين كالآتى : (وتخب وتجب وتناقل وتخاتل — تحامل) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (معجب بها — مغرما) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (كالقطر) .

(٥) هذه الكلمة واردة فى المخطوطين ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين ، وفى الإسكوريال (المنحة) .

(٧) هكذا وردت هذه الفقرة فى «الزيتونة» . وهى ساقطة فى - . ووردت فى الإسكوريال (ولد سنة خمس وستين وأربعماية) .

وفـاته

من خط الحافظ المحدث أبي القاسم بن بشكوال رحمه الله . كان ممن أصيب أيام الهَرَج بقرطبة ، فعظم المصاب به ، الشيخ[١] الأجل ، ذو الوزارتين ، السيد الكامل [الشهير الأثير][٢] ، الأديب [اللغوى السَّرى][٣] الكاتب البليغ ، معجزة زمانه [وسابق أقرانه][٤] ، ذو المحاسن الجمة ، [الجليلة الباهرة][٥] ، والأدوات الرفيعة الزكية ، الظاهرة الكاملة ، المُجْمع على تناهى نباهته ، وحَمْد[٦] خصاله وفصاحته ، [من لا يُشق غباره ، ولا تلحق آثاره ، معجزة زمانه فى صناعة النثر والنظم][٧] ، أبو عبد الله بن أبى الخصال [رحمه الله تعالى ورضى عنه][٨] ونضّر وجهه . أُلْفِي مقتولا قرب [باب داره][٩] بالمدينة ، وقد سلب ما كان عليه ، بعد نهب داره ، واستيصال حاله ، وذهاب ماله . وذلك يوم السبت الثانى عشر من شهر ذى الحجة من سنة أربعين وخمسماية . فاحتمل إلى الرَّبض الشرقى[١٠] بحومة الدرب ، فغُسِّل هنالك وكُفن ، ودفن بمقبرة ابن عباس عصر يوم الأحد بعده ، ونعى إلى الناس وهم مشغولون بما كانوا بسبيله من الفتنة . فكثر التفجع لفَقْده ، والتأسف على مصاب مثله ، وأجمعوا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (الفقيه) .

(٢) هذه الزيادة من المخطوطين .

(٣) هذه الزيادة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى المخطوطين .

(٤) هذه الزيادة من المخطوطين .

(٥) هذه الزيادة من المخطوطين .

(٦) هذه الكلمة واردة فى المخطوطين ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٧) هذا وارد فى المخطوطين ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٨) هذا وارد فى المخطوطين ، وساقط فى الإسكوريال .

(٩) هكذا وردت فى المخطوطين ، وفى الإسكوريال (داره)

(١٠) كان « الربض الشرقى » من قرطبة يقع فى بسيطها المسمى [illegible] أو « الشرقية » فى شمالها الشرقى ، عند منحنى نهر الوادى الكبير

على أنه كان آخر رجال الأندلس علماً وحلما، وفهما ومعرفة. وذكاء وحكمة ويقظة، وجلالة ونباهة، وتفنناً فى العلوم. وكان له [رحمه الله] (١) اهتمام بها، وتقدم فى معرفتها وإتقانها. وكان رحمه الله، صاحب لغة وتاريخ (٢) وحديث، وخبر وسير، [ومعرفة برجال الحديث، مضطلعا بها] (٣)، ومعرفة [بوقائع العرب] (٤) وأيام الناس، وبالنثر والنظم. وكان جزْل القول، عذب اللفظ، حلو الكلام [عذب الفكاهة] (٥) فصيح اللسان، بارع الخطّ [حسَنه ومُتقنه] (٥). كان فى ذلك كله واحد عصره. ونسيج وحده، يُسلَّم إليه فى ذلك كله، مع جمال مَنْظره، وحسن خلقه، وكرم فعاله، ومشاركته لإخوانه. وكان مع ذلك كله [جميل التواضع، حسن المعاشرة لأهل العلم] (٦) مسارعا لمهماتهم، نهاضاً بتكاليفهم، حافظا لعهدهم، مكرما لنُبهائهم، واسع الصدر، حسن المجالسة والمحادثة، كثير المذاكرة، جمّ الإفادة. له تصانيف جليلة (٧) نبيهة، ظهر فيها علمه وفهمه، أخذها الناس عنه مع ساير ما كان يحمله ويتقنه، عن أشياخه الذين أخذ عنهم، وسمع منهم، وقرأ عليهم (٨).

وقال غيره: قتل بدرب الفرعونى بقرب رَحَبة آبان، بداخل مدينة قرطبة، قرب باب عبد الجبّار يوم دخلها النصارى مع أميرهم ملك طليطلة، يوم قيام

---

(١) زائدة فى المخطوطين.

(٢) زائدة فى المخطوطين.

(٣) الزيادة من المخطوطين.

(٤) الزيادة من المخطوطين.

(٥) الزيادة من المخطوطين.

(٦) هذه الزيادة من المخطوطين.

(٧) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة. وفى «ج» (رفيعة القدر).

(٨) تتبعنا فى هذه الفقرة الأخيرة نص المخطوطين والإسكوريال، وأخرجناها فى صياغة مشتركة.

ابن حَمْدين ، واقتتاله مع يحيى بن على بن غانية المسّوفى [المُلَثّم المرابطى][1] يوم الأحد لثلاث عشرة مضت من ذى الحجة عام أربعين وخمسمائة . قتله بَرْبَرُ المصامدة وجّالة أهل دولة اللثام لحسْن ملبسه ، ولم يعرفوه ، وقتلوا معه [ابن أخته][2] عبد الله بن عبد العزيز بن مسعود ، وكان أنكحه إبنته ، فقتلا معا . وكان محمد خيرة الشيوخ ، وعبد الله خيرة الأحداث ، رحمهما الله تعالى .

محمد بن مُفَضل بن مُهَيب اللخمى[3]

يكنى أبا بكر من أهل شِلب[4] من العَليا .

حاله

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير ، كان منقبضاً عن الناس ، أديبا ، شاعرا ، خمّس عشرينيات الفازازى ، رحمه الله تعالى . وذكره صاحب الذيل . وقال لى شيخنا أبو البركات ، وهو جدّه ، أبو أبيه ، ما معناه : كان شريفاً ، عالى الهمة ، عظيم الوقار ، ألوفا ، صَمُوتا ، نحيف الجسم ، آدم اللون ، خفيف العارض ، مُقطّب الوجه ، دائم العبوس ، شامخ الأنف ، إلا أنه كان رجلا عالما راسخا ، عظيم النزاهة ، حافظا المروءة ، شهير الذكر ، خطيباً مِصقعاً ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى المخطوطين (من المرابطين) .

(٢) زائدة فى الإسكوريال .

(٣) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال فقط . ولم ترد فى «ج» . ولا «الزيتونة» .

(٤) هى بلدة برتغالية صغيرة ، تقع فى نهاية ولاية الغرب الأندلسية ، فى جنوبى البرتغال على مقربة من المحيط . وينتسب إليها الشاعر الكبير أبو بكر بن عمار . وبالبرتغالية Silves

مَهيبا كشهرته ، قديم الرياسة ، يُعضِّد حديثَه قديمَه . واستقر بألمرية ، لما تغلب العدو على بلَد سلفه . ولما توفى شيخ المشايخ ، أبو إسحق بن الحجاج ، تنافس الناس من البلدين ، وغيرهم ، فى خِطْبة بنته . قال شيخنا أبو البركات ؛ ومن خطه نقلت ، وكان ابن مَهيب واحداً منهم فى الإلحاح بالخُطبة ، متقدما فى حَلْبتهم ، بجيوش الأشعار . ورام غلبَتَه ذوو اليسار ، من حيث كان بحمراء جيش الإعسار ، فأذلهم بالمقابلة فى عُقر الدار ، فلم يرجعوا من الغنيمة إلا بالفرار . قلت ، وجلب فى هذا المعنى شعراً كثيراً ، ناسب الغرض . ونال من المُتَغلب على ألمريّة ، على عهده ، حُظْوة ، فاستظهر به تارة على معقل مَرْشانة[1] وتارة على الرسالة إلى الحَضْرة الحفصية بتونس . ولما آب من سفره إليها ، سعى به لديه بما أوجب أن يحجُرَ عليه التّصرف ، وسجنه بمنزله . فلما قصد ألمرية الغالب بالله[2] ، مُسْتَخلصا إياها من يد الرييس أبى عبد الله بن الرَّميمى[3] ونَزل بمدينتها ، وحاصر قَصَبتها ، وقع اختيار الحاصر والمحصور على تمين ابن مهيب ، بمحاولة الأمر ، وعقد الصلح ، رضىً بدينه وأمانته ، فعَقَد الصلح بينهما على أن يسلم ابن الرميمى القصبة ، ويُعان على ركوب البحر بماله وأهله وولده ، فتأتّى ذلك وا كتَسب عند الغالب بالله ، ما شاء من عزّة ونَجلة .

وقفنى شيخنا أبو البركات على ظهير سلطانى ، صدر عن الأمير الغالب بالله ، يدل على جلالة قدره نصه :

---

(١) سبق التعريف بها .

(٢) الإشارة إلى الغالب بالله هنا يقصد بها محمد بن يوسف بن نصر أو محمد بن الأحمر الكبير مؤسس مملكة غرناطة ، وكانت ألمرية وقت قيامه ، فى يد منافسه المتوكل بن هود ، وعليها من قبله الوزير أبو عبد الله بن الرميمى . وتوفى ابن هود فى ألمرية فى ظروف غامضة فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ . فلما ملك ابن الأحمر غرناطة واستقر بها فى رمضان من هذا العام ، سار إلى المرية وحاصرها واستولى عليها .

هذا ظهيرٌ كريم ، أظهر العناية الحافلة لمُسْتَوجبها ومُسْتَحِقها ، وأجراه من الرعاية الكاملة على الحبِّ طرقُها . أمر بإحكام أحكامه ، والتزام العمل بفصوله وأقسامه ، الأمير عبد الله محمد بن يوسف بن نَصْر ، نَصَر الله أعلامه ، وأدام لإقامة قِسْط العدل أيامه ، لوليِّه العليِّ المكانة ، وصفيِّه الملىء بأثرَى المعرفة والدِّيانة ، الحرىِّ بما اختصه ، أيده الله ، من الحفظ لمرتبته السامية والصِّيانة . للشيخ الفقيه ، الجليل ، العالم ، الأوحد ، العَلَم ، الأتقَى ، الأزهر ، الفاضل ، الخطيب الأرفع ، المحدث الثقة ، الرَّاوية ، الصالح ، السَّنِى ، الحافظ ، الحافل ، الماجد ، السَّرِى ، الطاهر ، المُكرَّم ، المبرور ، الكامل ، أبى بكر بن الشيخ الوزير الأجل ، الفقيه ، الحسيب ، الأصيل ، الأمجد ، المكرم ، المبرور ، الأفضل ، المرحوم ، أبى عمرو ابن مَهِيب ، أدام الله عزَّة جانبه ، ووصل بالعلم والعمل ارتقاء مراتبه ، أقام به الشَّواهد على اعتقاده ، أنه أخلَصُ أوليائه وُدّاً ، وأفضلهم قصداً ، وأكرمهم عهداً ، حين ظهرت له ، أيده الله ، آثار آرائه الأصيلة ، وبانت فى الصلاح والإصلاح ، مَيامِنُ مناقبه الجميلة ، ووجب له من العناية والمزيّات ، أتمّ ما توجبه معارفه ، وتقتضيه مجادته وزَهادته ، التى لا يُفنِّد فى وصفها واصف . وأعلن ، بأنه دام عزّه ، أحقُّ من حُفِظَت عليه ، مرتبةُ صدور العلماء الراسخين فى العلم ، وأُبْقِيت مزيّةُ ما تميز به من التّقى والوَرَع الكافى والحِلْم ، وبَرّع بصلة العناية بجانبه ، لما أهّلته إليه معرفته من نَفْع المتعلمين ، وإرشاد من يَسْترشده فى مسايل الدين من المسلمين ، وأفصَح بأنه أولى مخصوص بالتجلّة والتوقير ، وأجدُر مَنْصُوص على أن قَدْره لديه معتمدٌ بالتكريم والتكبير . وأمَرَ ، أعلى الله أمْرَه ، أن يستمر له ، ولزوجه الحرّة الأصيلة الزكية ، التقية الصالحة ، المصونة المكرمة المبرورة ، عائشة بنت الشيخ الفقيه الجليل العالم الصالح السّنى ، الزاهد الفاضل ، المرحوم المقدس ، الأرضَى ، أبى إسحق بن الحاج ، ما اطَّردت به العادة لهما قديماً

وحديثاً ، وتضمنه الظهيران الكريمان . المؤرخ أحدهما بالعشر الأواخر لشوال عام خمسة وثلاثين وستماية ، من صرف النظر فى أعشارها وزكواتهما إليهما ، ليضعا ذلك فى أحقّ الوجوه ، ويؤديا فيه حق لله تعالى ، ما مِثْلُهما علماً ودينا من يؤديه ، موكولاً ذلك لله ، إلى ما لديهما ، من نشر الأمانة ، مصروفا إلى نظرهما الجارى ، مع العلم والديانة ، وتجديد أحكام ما بأيديهما من الظهاير والأوامر القديمة والحديثة ، المتضمنة تسْويغ الأملاك ، على اختلافها ، وتباين أجناسها وأوصافها ، لهما ولأعقاب أعقابهما ، على التأبيد والتخليد ، والمحاشاة من اللوازم ، والمغارم وللمغارم ، وأن يطّرد لشركائهما ، وعَمَرَة أملاكهما ، ووكلايهما ، وحواشيهما ، ومن اتصل بهما ، جميل العناية ، وحفيل الرعاية ، وموصول الحماية ، الاستمرار الذى يطّرد العمل به مدى الأيام ، وتتوالى التمشية له ، من غير انصرام على الدوام ، مُوَفىً بذلك ، ما يحق لجانب الفقيه العالم ، الأوحد الأسنى ، أبى بكر ، أدام الله عزته ، من حظوظ الإجلال ، مُنْتَهىً فيه ، إلى أبعد آماد العنايات الشريفة ، الفَسيحة المجال ، مُقْضىً على حقّ ما انفرد به من العلم ، واتصف به من الديانة ، اللذين أضفَيا عليه ملابس البهاء والجلال . فمن وقف على هذا الظهير الكريم من الولاة والعمّال ، وساير ولاة الأشغال ، وليتلقّه بغاية الائتمار والامتثال ، إن شاء الله . وكتب فى الثانى عشر من ذى الحجة عام ثلاثة وأربعين وستمائة .

مشيخته

أخذ عن أبى العباس أحمد بن مُنْذر الإشبيلى ، تلا عليه بإشبيليه . وعلى عباس ابن عطية أبى عمرو . وروى عن أبى محمد عبد الكبير الإشبيلى ، وصَحِب أبا الحسن بن زَرْقون ، وتفقه عليه . وانتقل إلى المرية . فصحب أبا إسحق البِليفيقى وأخذ عنه ، وتزوج ابنته . وأجاز له أبو عبد الله بن هشام الشوّاش وغيره . ثم انتقل آخر عمره إلى سَبْتة .

شعره

نقلت من خطّ شيخنا أبي البركات قوله في غرض الوصية :

أليل النّوى هل من سبيل إلى فَجْر ويا قلبُ كم تأسى ويا دمعُ كم تجرى
أبى القلبُ إلا أن يهيم بحبِّكم وأن تبرحوا إلا القليل عن الفكر
رحلتُ عنكم لا بقلبي وإنما تركتُ لديكم حين ودَّعتكم سِرِّى
أعود بدهر الوَصْل من حين هَجْركم ورُبّ وصال مُسْتعاد من الهجر
للعُباب نفسى لست أنفق قربكم ازْهدى فيكم بل حَرِصت على البرّ
تُقَطّع أكبادٌ عليكم صَبَابة فاصبر إن الخير أجْمَعَ فى الصبر
وبالقلب من لا يصلح الصبر عنهم وإن كان خيرا فهو عنهم من الشر
فلولاهم ما كنت أحسَبُ ساعة فقدتكم فيها عِياناً من العُمْر
ألا يا أخى فاسمع وُصاتى فإنها لبثّك لعَمْرى من أخ سالم الصَّدر
يُحبك فى ذات الإلَه ويبتغى بحبك عند الله مُدَّخر الأجر
لا إنما التوفيق كنت من أهله مراعاة حقّ الله فى السرّ والجهر
بتوحيده فى ذاته وصفاته وأفعاله أيضا وفى النّدى والأمر
فثابر على القرار والأثَر الذى يصحّ عن المختار والسادة الغُرّ
وعُدّ لك الخيرات عما سواهما وكن بها مُستمسكا أبد الدهر
إذا يسلك الشيطان فجّاً سوى الذى سلكت ولا يلفى سبيلا إلى مكر
وفرّق الأجناس حاشى تقيهم فقد ظهر الإفساد فى البرّ والبحر
ولا تنسَنِي واذكر أخاك بدعوة فإنك منه يا أخى لعَلَى ذِكر

قال شيخنا أبو البركات . ومن شعره ، ومن خطّه نقلت :

للصالحين إلى الصلاح طريق رَحُبَت بهم وغدَت عليك تضيق

صرفوا النفوس من الهوى عن صَوْبها ... فغدت إلى طلب النّجاة تَتُوق

منها بعد أبيات :

ياقرّة العين استمع من ناصح ... فى صدره قلبٌ عليك شفيق

أنت الشّقيق ولادةً ولذلك لى ... روحٌ لروحك فى الخلوص شقيق

لا تخدعنك تُرّهات أحدثت ... وخزعبلات للجهول تروق

واعكف على القرآن دهرك واجتمع ... فالشّغل عنك لغيره تفريق

إن الحديث وفِقْهه وعلومه ... هذا الذى للمؤمنين يليق

واهجر بنى الدنيا فإنّ بهجرهم ... يتضاعف الإيمان والتصديق

والحقْ بقوم قد عنَوا بتجارة ... نَفَقَت لهم يوم القيامة سُوق

واحفظ لسانك عن إذاية مُسْلم ... فسِبابه قال الرسول فسوق

لا تُبلك همّ الرزق فهو مُقَدّر ... والعبد طول حياته مرزوق

ولترض بالرحمن ربّا حاكماً ... ودع الفضول فمنه ضلّ فريق

حلّوا عقال عقولهم وتحكّموا ... إن التحكم بالعقول مُروق

ولقد أتتك نصيحتى ولشمسها ... فى أفق حُبك يا حبيبُ شُروق

فكن القريب مكانه من نفعها ... فمكان سدّتها إليك سحيق

واصطد ببارى العزم أطيار الرضا ... فأخوك غايةُ بازِه التّحليق

ولتجعل التسبيح شأنك إنه ... فى الصّعب ممن شأنُه التّصفيق

واقنع بعلم الوَحْى علماً ثم لا ... يذهب بك التّشقيق والتوفيق

لا ترض فيه بالدنيّة ولتَمُتْ ... عَطَشاً إذا لم تُسْق منه رحيق

ما كلُّ علمٍ يُهْتدى بحصوله ... منه الرّكيك نعمْ ومنه رقيق

كمدارك الأصوات منها طيّبٌ ... تسلو النفوس به ومنه نهيق

وعليكمُ منى تحيةُ من له ... قلبٌ إليكم أجمعه مَشُوق

وقال ، ألفيت بخطه ما نصه ، وكان بعض السفهاء قد كتب إلى بيتين من شعر وها :

إليك أبا بكر رفعت وسيلتى ... ومثلك من تُلقى إليه الوسائل
غَرقت ببحر الذُّل يوما وليس لى ... بأرضكم إلا اهتمامك ساحل

وأساء المحاولة فى دفعها ، فصرفته ، ولم أقف عليهما ، فضرب عليهما ، وكتب فى ظهرها :

حلَلْتَ أبا بكر بموطن عزة ... فأنسيتَ ما قد كنتَ فيه من الذُّل
وأصلك من كِبْر وكن مُتكبِّرًا ... وكيف يطيب الفرع من ذلك الأصل

وكتبت إليه صحبة دراهم وجَّهت بها إليه :

جفوتَ وما زال الجفـــا سجية ... لمثلك ما إن زال تُبْلى بها مَثْلُ
وما قلتَ فى أصلى فِـكْذبة فاجر ... رأى الفرع محموداً فعاب على الأصل
وبالإفك ما عثرتَ لا بحقيقـــة ... فما الـكِبْرُ من شأنى ولا كنتُ فى ذل
وما زلت والله الحميد مُـكرَّماً ... وفى نائبات الدهر للعقد والحلِّ
ولو كنتَ من يتَّقى الله لم تـكن ... تُهد متى تَسْخط وعند الرِّضا تَحُل
أما قلتَ أنى ساحل لك عندما ... غَرقت ببحر الذُّل فى زمن المَحْل
وكيف نَسَخْتَ المدح بالذم قبل أن ... تبثُّ لى الشكوى وتُدْلى بما تُدْل
ولـكن لُؤم الطبع يحمل أهـــله ... على الصَّعب من سبِّ الـكرام أوالنَّيْل
إن كان بعض الـكِبْر نقصا فإنه ... عليك من الأوغاد يُحسب فى الفَضْل
وما الذُّل إلا ما أتى بك نحونا ... فقيراً من التَّقوى سليباً من العقل
ومطلوبك الدُّنيا تخذها خسيسةً ... توافى خسيس النَّفْس والقول والفعل
وما الجود إلا ما أصبتَ مكانه ... ومهما فَقَدْتَ الأصل لا عار فى البُخْل

ومثلُك من يُجفى ويقلب خاسئـــاً ... فلستَ لإسداء الصَّنيعة بالأهل
ولـكننى عوّدت نفسى عادةً ... من البَذْل لم أعدل بهـــا قط عن نَذْل
فخذها لحاكَ الله غير مبــارك ... لسعيك فيها يا بن خانية النَّعل
ومثلى من يُوذَى فيحتمل الأذى ... ولـكنه قد يُدر الجهل بالجهل
وقد قال من لا شك فى قـــوله ... من الحـكما القتلُ أذهبُ للقتل
فإن زِدْتَنا زدنا وإن كنتَ نادماً ... قَبِلناك أخذاً فى أمورك بالعدل
ففى كل شيء لستُ عنك مقصِّرا ... بما شئت من قطع وما شئت من وصل

قال الشيخ ، قول الماجى ، وأصلك من كبر ، معناه التعريض يكون سلف أبى بكر بن مَهيب ، علوا فى أنفسهم وتـكبروا ، فثاروا بسبب ذلك بطبيرة(١) وجهاتها ، ثار منهم عبد الرحمن جدُّ أبى بكر ، ثم حسن ، ثم عامر أخوه ، وإلى هذا أشار أبو بكر بن مهيب بقوله فى بعض شعره :

إن لم أكن ملـكا فـكنتُ رئيّاً

وأنشد فى الصلة الزبيرية(٢) قوله رحمه الله :

أملى من الدنيا المباحة كِسْرة ... أُبقى بها رمقى ودارٌ نابيـــة
قد أضْرَب الزمان عن سكانها ... فـكأنّها فى القفْز دارٌ خالية

ومن شعره فى المقطوعات :

ترحَّل صبرى والولوع مقيم ... وصحّ اشتياقى والسُّلوُّ سقيم
فياليت شعرى هل أفوز بعطف ... من زيّنت خدّى ورْداً عليه أقوم

---

(١) طبيرة Tavera ، هى بلدة من بلاد ولاية الغرب الأندلسية تقع فى جنوبى البرتغال على شاطىء المحيط ، على مقربة من مصب نهر وادى يانة . وقد وقعت بها عدة ثورات فى أوائل العهد الموحدى فى ، منتصف القرن السادس الهجرى .

(٢) الصلة الزبيرية ، يقصد بها كتاب «صلة الصلة» لأبى جعفر بن الزبير .

ويا جنّة قد حيل بيني وبينها بقلبي من شَوْقي إليك جحيم

دخوله غرناطة

قال الشيخ ، دخل غرناطة مرتين ، أخبرني بذلك الشيخ القاضي أبو الحسن ابن عُبيدة ، وهو بصير بأخباره ، إذ هو من أصحاب سلفه ، وممن رافق جدّه في الكَتْب عن بعض الأمراء مدة ، وفي الخطابة بالمرِيّة أخرى .

توفي بسبتة أول ليلة من جمادى الآخرة عام خمسة وأربعين وستماية

محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي

حـاله

من صلة ابن الزبير : كان كاتباً بارعاً ، شاعراً مجيداً ، له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام ، وغير ذلك ، مع نباهة وحُسْن فهم ، [ذو فضل وتعقل][1] وحسن سَمْت . وورد على غرناطة ، واستُعمل في الكتابة السلطانية مدة ، وكان معلوم[2] القَدْر ، معظما عند الكافة[3] . ثم إنه رجع إلى مُرْسية ، وقد ساءت أحوالها ، فأقام بها مدة ، ثم انفصل عنها ، [وقد اشتدت أحوالها][4] ، واستقر بالعُدْوة بعد مُكابدة .

قلت ، أخبرني شيخنا أبو الحسن الجياب رحمه الله ، قال ، كان شَكِس[5]

(١) هكذا وردت في الإسكوريال و «الزيتونة» . وفي «ج» (ذا نباهة) .
(٢) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي المخطوطين (عظيم) .
(٣) هكذا وردت في المخطوطين . وفي الإسكوريال (صنفه) .
(٤) هذه الجملة واردة في الإسكوريال ، وساقطة في المخطوطين .
(٥) هكذ وردت في المخطوطين . وفي الإسكوريال (شكه) وهو تحريف .

الأخلاق ، متقاطبا ، زاهياً[١] بنفسه ؛ ابتدأ يوماً كتاباً مُصَدَّراً بخطبته ، فقال فيه يصف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم « عفوة العفوة »[٢] ، وتركه لأمر عرض له ، فنظر إليه الفقيه عمر اللَّوْشي ، وهو كاتب المقام السلطاني ، فظن لقصوره أنه وَهِمَ ، وأراد « الصفوة » فأصلحه ، فلما عاد ونظر إليه مزّقه ، وكسر الآلة ، وقال لا أقيم بموضع [بلغ فيه الجهل إلى هذا القَدْر][٣] ، ويتَسَوَّر به الإصلاح، على قلم يُطْمع بعد في مقامه . وانصرف ، واستقر بتِلِمْسان ، كاتباً عن سلطانها أبي يحيي يَغْمُرَا سن[٤] بن زيّان . وزعموا أن المستنصر أبا عبد الله بن الأمير أبي زكريا ، استقدمه على عادته في استدعاء الكتاب المشاهير والعلماء[٥] وبعث إليه ألف دينار من الذهب العَيْن ، فاعتذر ورد عليه المال ، وكانت[٦] ، أشق ما مر على المستنصر ، [وظهر له عُلُوُّ شأنه][٧] ، وبعدُ همّته .

مشيخته

روى عن القاضيين أبي عيسى بن أبي السّداد ، وأبي بكر بن مُحْرز ، وعن الأستاذ أبي بكر محمد بن محمد المعروف بالقرشي ، وقرأ وسمع على هؤلاء ببلده ، [وأجاز له كتابةً أبو الربيع بن سالم وغيره][٨] .

---

(١) هكذ في المخطوطين . وفي الإسكوريال (ذاهبا) .

(٢) هكذا وردت في الإسكوريال . ومعناها (خيرة الخيرة) . ووردت في المخطوطين (صفوة الصفوة) .

(٣) هكذا وردت في المخطوطين . وفي الإسكوريال (يحصل فيه هذا الغلبز) .

(٤) هكذا وودت في المخطوطين ، وهو الاسم الكامل . ووردت في الإسكوريال (يغمور) وهو مختصر الاسم .

(٥) واردة في الإسكوريال ، وساقطة في المخطوطين .

(٦) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي المخطوطين (فكان ذلك) .

(٧) هكذا وردت في «ج» . وفي الإسكوريال «والزيتونة» (لأجل بأوه) .

(٨) هذه الجملة واردة في الإسكوريال «والزيتونة» . وساقطة في «ج» .

شعـــــره

من ذلك قوله :

أقنع بما أوتيته تَنَلْ الغِنا ... وإذا دَهَتْكَ مُلِمَّةٌ فتصبّر
واعـــلم بأن الرزق مقسوم فلو ... رُمْنا زيادة ذرَّة لم نقـــدر
والله أرحم بالعباد فلا تسل ... أحداً تَعِش عَيْشَ الكرام وتُؤجر
وإذا سخطت لبؤس حالك مرة ... ورأيت نفسك[قدغَوَتْ فاتبصر](١)
وانظر[إلى من كان دونك](٢)تدّكر ... لعظيم نعمته عليك وتشكر

[ومما قاله فى صباه :

يا دعـــوة شاكٍ ما قـــد ... دهاه من لِحاظ رشاك
ظبى تصدّى للقـــلوب يصيدها ... من ناظرَيه فى سلاح شاك
ورَمَى وإن قالوا رنـــا عن ... فاترٍ ساج عليه سيم النُّسّاك
قد كنت أحذر بطشه لو أننى ... أبصرت منه مخايل الفتّاك
أو ما عليه ولا عليه حاكمٌ ... يحمى ثُغُورك أو يُحوط حماك
أو ما لجارك ذمّةٌ مـــرعيَّة ... أبدا يَطَلُّ دمُ الغريب طِلاك
إنى استنمت إلى ظلالك ضلّة ... فإذا ظباءُك ماضيات ظباك
مالى أخاطب بانَةً ما أن تعى ... قولا ولا تَرْثى لدمعة بـــاك
أكريمة الحيّين هـــل لمُتَيَّم ... رَحْمَى لديك فأرتجى رحماك
أصبتنى بعد المشيب وليس من ... عذْر لمن لم يُصبه ثراك
لولا ما جذبت عِنانى لوعةٌ ... والله يشهد أننى لَوْلاك

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (قد ثبت فاستغفر) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (إلى من دون حالك) .

لما دعا داعى هـــواك أجبتُه   من لا يجيب إذا دَعَتْ عيناك
أصليتَنى نار الصدود وإننى   راضٍ بأن أُصْلَى ولا أسلاك
وأبحت ما منع التشرّع من دمى   بالله مَنْ أفتاك قتل فتاك
وتركتُ قلبى طايراً متخبطا   شباك خَتْلك أو بطون سباك
ومنعتُ أجفانى لذيذ منامها   كى لا يتيح لى الكرَى لُقياك
ولقد عجبتُ وأنتِ جدُّ بخيلة   أن أعرْتِ الشمس بعض حُلاك
إنى لأيأسُ من وصلك تارة   لكن أُعلِّلُ مَطْمعى بعُلاك
أسماك أنك قد خفضت مكانتى   هلّا خَلَعْتِ علىّ من سماك
إنى مُعَنّاكِ المتيَّم فليكن   حظّى لديكِ مناسبا مَعْناك
تثنى معاطفك الصبّا خوطيّة   وكذا الصبّا فصباك مثل حِماك
أبعدتنِى منها بطعنة رامحٍ   ألذاك سمّتك الورى بسماك
أأموت من عطَش وثغرك موْرِدٌ   فيه الحياة استَوْدعتْها فاك
هــــلا تنى عن حُلوةٍ فلعلة   وضعتِ أداة النفى فى اسم لِماك

وقال يجيب أبا عبد الله بن خميس رحمـــه الله ، عن قصيدة بعث بها إليه أولها :

رُد فى حدايق مايها مرتادٌ   قد لذّ مَورودٌ وطاب مُراد
زُرْق الأسنة دون زُرق إِجَامها   وظباً كما رَنت العيون حِداد

هذه الأبيات :

نعم المراد لمن غدى يرتاد   مرعًى يرفّ نبــــاته ومهاد
سالَتْ عـــلى العافى جداوله   كما صالت على العادى بدا ناد
فشدَدتُ رَحْــــل مَطيّتى منه   إلى حيث السيادة تُبتنى وتُشاد

وركبتُ ناجيةً مباريةَ الصبّا خَضْراً فوق خضارة تُعتاد
يغتادُها سكانها قُلُبٌ على من كان من سكانها استبداد
عجباً لهم أحلامهم عاديَّةٌ تَمْضِى عليهم حكمها أعواد
خبّر تِلِمْساناً بأنى جيتُها لمّا دعانى نحوها الرُّواد
وعاقتها سمعاً ولم أر حُسْنها إلا أناساً حدّثوا فأجادُ
ولرُبَّ حُسْنٍ لا تُسواه ناظرٌ ويراه لا يخفى عليه فؤاد
ودخلتُها فدخلت منها جنَّةً سكانها لا تخفى ولا حياد
ورأيت فضلا باهرا ومكارما وعلًا تفاخر دونها التَّعداد
أهل الرُّواية والدراية والنَّدَا فى نُورهم أبدا لنا استِمْداد
فهم إذا سُئِلوا بحار معارف ولدى السكينة والنهى أطواد
درجاتها ينحطُّ عنها غيرهم ومن الورى قَترٌ ومنه وهاد
فأجلهم وأحلُّهم من مهجتى بمكانةٍ ما فوقها مُزْداد
وأودُّ حين أخطُّ أُطيب ذكرهم لو أنَّ أسْوَد مُقْلَتى مِداد

وقال يخاطبه وقد وقف على بعض قصيدة :

[رقّت حواشى طبعِك ابن خميس فهفا قريضُك بى وهاج رَسيسى
ولمثله يَصْبُو الحليم ويشترى ما للشروق به وسيرُ العِيس
لك فى البلاغة والبلاغةُ بعض ما تحويه من أثرٍ محلٌ رييس
نَظْمٌ ونثر لا تُبارى فيهما مُهدت ذاك وذا بعلم الطُّوس][1]

وقال عند وفاته وربما نُسبت لغيره :

ربِّ أنت الحليم فاغفر ذنوبى ليس يعفو عن الذنوبِ[2] سواكا

(١) الشعر المحصور بين الحاصرتين واردكله فى الإسكوريال . وساقط فى المخطوطين .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (الذنب) .

رب ثبت عند السؤال لسانى　　وأقمنى عـــلى طريق هُدا كا
رب كن إذا وقفتُ ذليلا ناكـــسَ الرأى استحى أن أرا كا
رب من لى والنار قد قَرُبت لى　　[وأنا قد أبحتُ عهد حِما كا](١)
رب مالى من عُدَّةٍ لمـآلى(٢)　　غير أنى أعددت صِدْق رجا كا
رب أقررتُ أنى عبدَ سوء　　حِلْمُك الجمُّ غرَّه فعصا كا
رب أنت الجواد بالخير دوماً　　لم تزل راحماً فهب لى رضا كا
رب إن لم أكن لفضلك(٣) أهْلاً　　باجْتِرائى فأنت أهلٌ لذا كا

نـــــثره

ومن نثره ما خاطب به صديقين له بمرسية من مدينة إشبيلية :

كتبتُه ، كتب الله لـكما فوزاً بالحسنى ، وأجْنا كما من ثمرات(٤) إحسانه أكثر ما يُجنى . من إشبيلية ، وحالى بحمد الله حسنة ، ونفسى بحب قربكما مُرْتَهنة ، وعلى بما لديكما من السَّراوة التى جُبلتما على فِطْرتها ، [وامتَزَجْتُما فى الاجتلاء بغُرَّتها](٥) ، علم لا يدخله الشك ، ويَنْبنى إلى وُدِّكما الذى لبسته مُعْلمًا وتقلَّدتُه مُحْرِماً ، لا يعبر عن معناها إلا عما لا يزال ، ولا ينفكُّ . فلنثْنِ عِنان القلم عن مداده ، ونأخذ فى حديث سواه . وصلنا إشبيلية ضحوة يوم الثلاثاء خامس ربيع الآخر ، ولقينا الإفانْت(٦) على ميابين ، وفُزْنا بما ظهر من بِشْره واعتنايه بقرار

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى المخطوطين كالآتى (وأنا تحت أحد وحما كا) .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (لما بى) والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (لذلك) . والأولى أرجح .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (ثمرة) .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (وامتزتما بقوتها) .

(٦) الإفانت هنا يقصد بها «الإنفانتى» Infante ، وهو لقب يطلق على ولى عهد ملك قشتالة ، ويجب أن نذكر أن إشبيلية كانت فى الوقت الذى يتحدث فيه الكاتب عنها قد سقطت فى أيدى القشتاليين وذلك فى شعبان سنة ٦٤٦ هـ (نوفمبر ١٢٤٨ م) ، وغدت مدينة نصرانية ، ثم جعلت عاصمة لمملكة قشتالة .

الخاطر ، وقرة العين ، و نزلنا فى الأخْبِية خارج البلد ، موضعا(١) يعرف بالقنب ، فد تفجر عيونا ، وجمع ماؤه وهواؤه من المحاسن فنونا ، وعرض علينا النزول فى الدّيار داخل المدينة ، فرأينا المقام فيه(٢) ، أحد الأسباب المُسْعِدة(٣) على حفظ الصحة المَعِينة . ورغبنا عن المدينة لحرّها الوهاج ، وغبارها العَجاج ، ومايها الأجاج . ولما ثاب من النشاط البارح ، واستقل من المَطيّ الرازح ، طفت فى خارجها وداخلها ، ووقفت(٤) على مبانيها المشيَّدة ومنازلها ، ورأيت انسياب أراقِيشها ، وتقصيت آثار طُرْيانَتِها(٥) و براقِيشها(٦) فشاهدتُ من المبانى العتيقة ، والمنارة(٧) الأنيقة ، ما يملأ(٨) أعين النظّار ، وينفسح فيه مجال الاعتبار . على أنى ما رأيتها إلا بعد ما استولى عليها الخسْف . وبان عنها الظَّرف ، ونبا عنها الطَّرف ، فلا ترى من مغانيها إلا طللا دارسا ، ولا تلمح من بدايعها(٩) إلا مُحيّا عابسا ، لكن الرائى إذا قدّر وضعها الأول ، وركب وهمه من مبانيها ما تحالّ ، وتخيل فى ذهنه حُسْنها وتمثل، تصور حُسْناً يدعو إلى المجون ، ويُسْلى عن الشجون

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى «ج» (سيوضع) .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى الإسكو ريال (فيها) . وفى «ج» (القنب) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى «ج» (المساعدة) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (واطلعت) .

(٥) طريانتها يقصد بها طريانة Triana ضاحية إشبيلية الجميلة الواقعة إزاءها على الضفة الغربية من نهر الوادى الكبير . وما تزال طريانة حتى اليوم من أجمل ضواحى إشبيلية .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى الاسكوريال (وفلسها) . وفى الزيتونة (وعشها) والأولى أرجح وأنسب للسياق .

(٧) المنارة يقصد بها هنا منارة الجامع الأعظم الواقعة فى قلب إشبيلية ، وهى التى حولت فيما بعد من أعلاها إلى برج لأجراس كنيسة إشبيلية العظمى ، التى بنيت فوق موقع الجامع ، وما تزال حتى اليوم من أعظم الآثار الأندلسية الباقية . وتعرف بالإسبانية باسم (لاخيرالدا) La Giralda .

(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى «ج» (بستميل) .

(٩) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (معالمها) .

[لولا أنها عُرِضت لأشمط راهب . لما دان إلّا بدَن ، ولا تقرّب بغير قارب](١)

وحسبي أن أصفها بما يقيها من القبول ، وأقول إنها فى البلاد بمنزلة الربيع من الفصول ، ولولا أن خاطرى مُقَسَّم وفكرى حده مثلم ، لقضيت من الإطناب وطَراً ، ولم أدع من معاهدها(٢) عيناً إلا وصفتها ولا أثراً .

توفى بتامسان يوم عاشوراء سنة ست وثمانين وستماية .

محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأمى(٣)

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن الصايغ ، بالصاد المهملة ، والغين المعجمة ، من أهل ألمريّة .

حـــاله

من خطّ شيخنا أبى البركات فى «الكتاب المُؤْتمن على أنباء أبناء الزمن» . كان سهلا ، سَلِس القياد ، لذيذ العشرة ، دَمِث الأخلاق ، ميالا إلى الدَّعة ، نَفُورا عن النَّصَب ، يركن إلى فضل نباهة وذكا ، يُحاسب بها عند التحصيل والدراسة ، والدُّؤوب على الطلب ، من رجل يجرى من الألحان على مضمار لطيف ، ولم يكن له صوت رخيم ، يُساوق إنطباعه فى التّلحين ، يخبر ذلك بالأوتار . وحاول من ذلك بيده مع أصحابه ، مالاذ به الظرفاء منهم . واستُعمل بدار الأشراف بألمرية ، فأحكم تلك الطريقة فى أقرب زمان ، وجاء زمامه يروق من ذلك العمل شأنه . ثم

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال و«الزيتونة» . وساقط فى «ج» .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (معالمها) .
(٣) وردت هذه الترجمة فى مخطوط الإسكوريال فقط ولم ترد فى «ج» ولا «الزيتونة»

نهضت به همته إلى أرفع من ذلك ، فسار إلى غرناطه ، وقرأ بها العربيه وغيرها ، وانخرط فى سلك نبهاء الطلبة لأدنى مدة . ثم رحل إلى بلاد المشرق فى حدود العشرين وسبعمائة ، فلم يتجاوز القاهرة لموافقة هواها علّة ... كان يشكوها ، وأخذ فى إقراء العربية بها ، وعُرف بها إلى أن صار يدعى بأبى عبد الله النحوى . قال شيخنا المذكور ، ورأى فى صغره فارةً أنثى ، فقال هذه قُرَيْنَة ، فلُقِّب بذلك ، وصار هذا اللقب أغلب من إسمه ومعرفته .

وجرى ذكره فى التاج بمانصه : لجُّ معرفةٍ لا يغيض ، وصاحب فنون يأخذ فيها ويفيض . نشأ ببلده مشمراً عن ساعد اجتهاده ، وشارك فى فُنن العلم ووهاده ، حتى أينع روضُه ، وفَهق حوضُه . ثم أخذ فى إراحة ذاته ، وشام بارقة لذّاته ، ثم سار فى البطالة سير الجموح ، وواصل الغبُوق بالصَّبوح ، حتى قضى وطره ، وسيم بطَرَه ، وركب الفُلْك ، وخاض اللُّجج الحُلْك ، واستقر بمصر على النعمة العريضة ، على شك فى قضاء الحجَّة العريضة ، وهو بمدرستها الصالحية ، نبيه المكانة ، معدود فى أهل العلم والديانة .

مشيختــــه

قرأ بالمرية على المكتِّب أبى عبد الله المَيُورْقى ، وأخذ عن شيخ الجماعة أبى الحسن بن أبى العيش ، وقرأ بالحضرة على الخطيب أبى الحسن القيجاطى وغيره . وأخذ بالقاهرة عن الأستاذ أبى حيّان ، وانتفع به وبجاهه .

شعــــره

قال شيخنا أبو البركات ، وكان أخذ من قَرْض جيد الشعر بالحظِّ الوافر . فمن شعره ما نقله إلينا الحاج الحافظ المُكَتِّب أبو جعفر بن غصن ، حسبما قيّده عنه بمصر .

بعُد المــزار ولوّعته أشواق   حُـكما بفيض مدامع الآماق

وخفوقُ نجْدِى النسيم إذا سَرى | أذكى لهيب فؤادى الخفّاق
أمُعَلِّلِي إن التّواصل فى غـــدٍ | من ذا الذى لغدٍ فَدَيتُك باق
إن الليالى سَبَقٌ قـد أقبلت | وإذا تولّت لم تُنـــــل بلحاق
فصفحٌ تمدّوه على الحمى سقى الحِما | صوبُ الغمام الواكف الرّقراق
فيه لذى القلب السليم وداده | قلبٌ سليم ياله من راق
قلبٌ غداة فراقهم فارقتـــــــه | لا كان فى الأيام يومُ فراق
يا سارياً والليل ساجٍ عاكف | يَفْتَرِى للملا بنجايب ونياق
عرِّج على مَثْوى النّبى محمد | خيرُ البرية ذى المنْخُل البَراق
ورسول ربِّ العالمين ومن له | حفظُ العهود وصحةُ الميثـــاق
الظّاهر الآيات قام دليلهـــــا | والطّاهر الأخلاق والأعراق
بَدْرُ الهـــــدى البادى آياتُه | وجَبينُهُ كالشمس فى الإشراق
الشّافع المقبول من عَمّ الورى | بالجـــــود والإرفاد والإرفاق
والصّادق المأمون أكرم مُرْسَلٍ | سارت رسالتُه إلى الآفاق
أعلى الكرام نداً وأبسطهم يداً | قَبَضَتَ عنان المجد باستحقاق
وأشدُّ خلق الله إقداما إذا | حمى الوطيس وشمّرت عن ساق
أمضاهُم والخيل تعثر فى القنا | وتجُول سبْحاً فى الدّم المِهراق
من صيّر الأديان ديناً واحداً | من بعد إشراق مضى ونفاق
وأحلّنا من حُرمة الإسلام فى | ظلٌّ ظليل وارف الأوراق
لو أن للبدْر المنـــــير كمالُه | ما ناله كسْفٌ ونـكسُ مَحاق
لو أن للبحرين جـــود يمينه | أمِن السّفين غوايل الإغراق
لو أن للآباء رحمة قلبـــــه | ذابت نفوسُهم من الإشفاق
ذو العلم والخُفِيّ المُنْجــــلى | والجاه والشّرف القديم الباق

آياته شُهُبٌ وغرُّ بنـــانه ... سحبُ النَّوال تُدَرُّ بالأرزاق
فاحت فُيوح الأرض وهو غياثُها ... ورَبت رُبى الإيمان وهو الشاق
ذو رأفة بالمؤمنين ورحمـــة ... وهُدًى وتأديبٍ بحُسْن سياق
وخصال مَجْد أفردت بالخصْل فى ... مَرْسى الفخار وغاية السبـــاق
ذو المعجزات الغُرِّ والآى التى ... كم آية فقدت وهُنَّ بواق
ثنت المعارض خيراً لما حكت ... فَلْق الصباح وكان ذا إفلاق
يقظ الفؤاد سُرًى وقد هَجَع ... الورى لمقام صدق فوق ظهر بُراق
وسما وأملاك السما تحفُّــة ... حتى تجاوزهن سَبْع طِبـــاق

منها :

ياذا الذى اتصل الرجا بحبله ... وانبتَّ من هذا للورى بعلاق
حُبِّى إليك وسيلتى وذخيرتى ... إنى من الأعمال ذو إملاق
وإليك أعملت الرواحل ضُمَّراً ... تختال بين الوخْد والأعناق
تُجبا إذا نشرت تلك الفلا ... تَطْوى الفلا مُمْتدَّة الأعناق
يحدو بهن من النحيب مردَّدٌ ... وتقودهن أزِمَّة الأشـــواق
غرضٌ إليه فوَّقْنا أسْهُماً ... وهى القِسِىّ بُرين كالأفواق
وأنخْتُها بفنايك الرحب الذى ... وَسع الوَرَى بالنايل الدفاق
وثوى مؤمِّلك الشفاعة فى غدٍ ... وكفى بها هبةً من الرزاق
وعليك يا خير الأنام تحيةٌ ... تحيي النفوس بنَشْرها الفتَّاق
تتأرَّج الأرجاء من لَفَحاتهـا ... أرَجُ النَّدى بمدحك المِصْداق

منها :

قسماً بطيب تُراب طيبَة إنه ... مِسْكُ الأنوف وإثْمد الأحداق
وأثبار مسجده الذى برحابه ... لمعامل الرحمن أى نفـــاق

لا جود فيه بأدمع أسلاكها ... منظومةٌ بترايبٍ وتراق
أغدو بتقبيل على حَصْبايه ... وعلى كرام جُدُره بعناق
وعليك ذا النُّورين تسليم له ... نورٌ يلوح بصفحه المُهْراق
كُفْؤاً لنبي وكفوا على جنّة ... خُيِّرت له بشهادة وصداق
وعلى أب السِّبْطين من سبق الأُلَى ... سبقوا إلى الإسلام أيّ سباق
الطاهر الصِّهر ابن عم المصطفى ... شَرفٌ على التعميم والإطلاق
مُبْدى القضا من وراء حجابها ... ومُفَتِّح الأحكام عن إغلاق
يغزو العُداة بغلظة فيعيدهم ... بصوارم تفرى القفار رقاق
راياتُه لا شىء من عِقيانها ... بمطار يوم وغىً ولا بمُطاق
وعلى كرامٍ ستّة عثرت بهم ... عند النظام ليالى النُّسّاق
ما بين أروع ما جدٍ نيرانه ... جَنْح الظلام تشبُّ للطُّرّاق
وأخى حروب صدّه رشفُ القنا ... عما قدود مثلهن رقاق
ما غرّدت شجواً مطوقة وما ... شقت كمام رّوض عن أطواق
وعلى القرابة والصّحابة كلِّهم ... والتابعين لهم ليوم تلاق

ولماسنّي الله فى الرُّوم الوقعة المُبيرة والوقيعة الشهيرة[1]، التى أجلْت عن قتل مليكهم معركتُها، وانتهت للفتح معركتها وحركتها، وعمّت الإسلام بانتعاش فلّ السكفر بركتُها، قَدِم مع الوفود من أهل بلده، وهنّأ أمير المسلمين[2] بفتحه ذلك، وطلوع ولده، فقال :

---

(١) الإشارة هنا إلى الموقعة التى نشبت بين القشتاليين بقيادة الدون بيدرو والدون خوان الوصيين على ملك قشتالة ألفونسو الحادى عشر ، والجيش الغرناطى بقيادة شيخ الغزاة أبى سعيد عثمان ابن أبى العلاء فى هضبة إلبيرة على مقربة من غرناطة ، وذلك فى ٢٠ ربيع الثانى سنة ٧١٨ ﻫ (مايو سنة ١٣١٨م) وهزم فيها النصارى هزيمة فادحة ، وقتل دون بيدرو وزميله دون خوان وجمهرة من النبلاء والقادة والكبراء النصارى، وغرق من النصارى عدد جم بنهر شنيل، وحصل المسلمون على مقادير عظيمة من الغنائم والأسلاب . وكان ذلك فى عهد السلطان أبى الوليد إسماعيل (٧١٣ — ٧٢٥ ﻫ)

(٢) أمير المسلمين المشار إليه هنا هو السلطان أبو الوليد إسماعيل السابق ذكره .

أمليكُ أم بدرُ الدّجا الوضّاح ... وحُسامه أم بارق لمّـــاح
أعلى المسالك ما بنته يدُ التُّقى ... وعمادها الأعلام والأرْماح
وأحَقُّ من يدعى خليفةُ ربّهِ ... ملك خلافته هُدًى ونجــاح
كأمير أندلس وناصرها الذى ... أفنى العُداة حُسامه السفّــاح
أسمى الملوك أبوالوليد المُرْتضى ... وأعزُّ من شَرُفت به الأمداح
هو دَوْحةُ الملك العَلِي فروعُها ... وبراحَتَيْهِ ترزق الأدْواح
وبمحو رسم عداته بلبّـــاته ... نطق الكتابُ وخُطّت الألواح
بدْرُ الكمال لو أن بَدْرا مثله ... لم يبد خشْية نوره الإصباح
بحرُ النّوال لو أن بدرا مثله ... لارتاع خشْية فَيْضه المـــلاّح
ولمثله قاد الجياد عــــدوُّه ... فَخبا له قدْحٌ وخاب قِداح
أهْواه شيطان الهوى فى لُجّة ... إن الهوى بأليفه طَمّـــاح
طمعُ الشُقى أضـــلّه وأذلّه ... كل المطامع للغَبِى فُضــاح
فأبادهم وملوكهم فتحٌ بدا ... وبَبَعْد جَدّك رُبّنا فتّاح
وقواصل تُبْرى بهن مفاصل ... وصِفاحٌ يُفْرى بهن صِفـــاح
لم تُفْن كلّهم سيوفُ الهند بل ... لسيوف جُودك فى النفوس جراح
ما زال حتُّ عُداك يحسد مَيْتَهم ... ويحثُّ فَوْتاً عاجلا فيُراح
فاقتلْ كبيرهم واحي صغـــيرهم ... واسب النّسا فما عليك جُناح
تستبيح ما حاط العُداة وما حووا ... وحِماك يامنصور ليس يُباح
يامّة الكُفران تفنيداً وهــــل ... لجفون أعْمَى ينجلى مصباح
أتركتم بِطرو[1] وحيدا مُفْردا ... يَشْدو عليه الطاير الصيّاح

---

(١) بطرو هنا هو الدون بيدرو (وبالعربية بطره) الوصي علي ملك قشتالة المتقدم ذكره .

وجُوان[1] يرتشف الندى فنديمه غِربانه ووساده الصّفاح
وكذلك المُطْران جاد رسومه قطرُ المنايا الصارم الطفّاح
أروسٌ أم تَبيض النعام بمَرْجنا أصنافكم هذى أم الأشباح
ما لِلمطامير اشتكت من ضيقها بالمال والأسرى وهنّ فساح
جارَتْ بكم أبطالنا فكأنكم كَشْحٌ وجيش المسلمين وشاح
تبا لرُومى يهيم براحة أيرام عن خَيْل الإلَه براح
قُصّت قوادمكم فما إقدامكم والليل جَنح الكُفْر تغيض جناح
هذا فلا تستعجلوا ببلادكم ستَرون كيف يكون الاستفْتاح
قد انثْنَت بطحاؤنا بحطامكم ونباتُها الريحان والتفاح
تالله ماكنتم بأول عسكر أمَلَ النجاح وحِينُه يجتاح
القسُّ غرّكم ليهلك نَسْلكم بسيوفنا إنْ إفْكَه لصراح
كم ذا يسخِّركم ويَسْخَر منكم غدراً ومكراً إنه لوَقاح

منها :

وفوارس نشوا لنهب فراس طلبوا انتشاو الدما للسراح
أرْبَوا على الأسَد الهِزَبْر بسالةً مع أنهم غرُّ الوجوه صِباح
خاضوا بحار الحرب يطْمُو بحرُها ووطيسها حامى الصِّلى لفاح
ماهم ببذل نفوسهم ونفيسهم عن النوال والنِّزال سِحاح
وإذا هم ذُكروا بنادٍ فانْتَشَق مسكا تضوع عرْفُه النفّاح
نغدا وراح النصر يُقدم جمعهم ويحفهم حيث اعتدوا أو راح
سناك مولانا بسَعْدٍ مُقبل خُلصاه قد عمّتهم له أفراح

(١) جوان هو الدون خوان الوصى على ملك قشتالة المشار إليه فيما تقدم .

وينجلك البدْر الذى آفاقــــه ملْكٌ وهالتهُ هُدى وصلاح
بدرُ البدور فلا بدار عليــــه وبذا نارت أربعٌ وبِطاح
فلكم عدوّ أفلّ بزوغهُ خَسَفَت به الأوجال والأتْراح
وهُنا ونالك بالأمير تجـــدّدٌ كلٌّ بحبك نفسهُ ترتاح
قد جاء بعد العسر يسرٌ شامل قد جاء بعد الشدّة الإنجاح
فالحمد لله الذى قـــد خصّنا ولنا بحمدك بعده إفصاح
وعلى المقام المولَوى تحيةٌ كالزّهر إذ تُهدى شذاه رياح
ما خطّ مدحُك فى الطّروس مُحبِّر ومُحيِي دجاجر الأصيل صباح

وقال يرثى الخطيب ببلده ، الشهير الفاضل ، أبا الحسن بن شعيب رحمه الله .

بَوادِى لقد حملتِ ماليس لقواه فراقٌ ولى شرف الأرض تقواه
بُليت بذا التفريق فاصبر فربما بلغتَ بحسن الصبر ما تمنّاه
شجا كل نفس فقْد أنفَسِ جوهر تُعد ولا تُحصى كِرام سجاياه
بكى كلُّنا حزناً عليه كما بكى لفُرْقته محـــرابه ومُصَلاه
فلله خَطْب جليل لقد رمى أجلّ خطيب بالجلالة مُصْماه
فلولا كم يغلب تأسّينا الأسى ولم يشمل الشّملَ التفجعُ لولاه
فلم يبق إلا من جفَا جفْنُه الـكرَى ومن جانبَتْ وصلَ المضاجع جَنْباه
وفاة لمرئٍ وفىّ فوُفّى أجرُه وأصْفىَ بإصفاه الإلــه وصافاه
أبى الحَسَن العدْل الرّضا المحسن الذى أتتْه بأضعاف الزيادة حُسْناه
خطيبٌ جلا فصل الخطاب بيانُه وأعدلَ قاض فاضل فى قضاياه
وجسم الهدى الرّحب السبيل وروحه ولفظُ العُلى الفخر الأصيل ومعناه

مطيعٌ رفيع خاضع متواضع كريم ... حليم طاهـــر القلب أوّاه
متى يمشى هوْناً ليس إلاّ لمسجد ... تميد خجلا أرضٌ بها حطّ نعْلاه
تكلّمه عرفٌ وذكر وحكمة ... تلذ بها الأسماع ما كان أحلاه
كذا صمتُهُ خوفٌ وفكر وخَشْية ... فما زال يخشى الله والكل يخشاه
يصوم وقد طال النهار مهجَراً ... وتبحر بالليل للتغمّض عيناه
فكم دارس أحياه من أربُع التُّقا ... وكم غاسِق من حِنْدِس الليل أحياه
فياطيِّبا أصلاً وذكراً وتُرْبَة ... ومنه استفاد الطَّيِّب أطيب ريّاه
وفى حشرقة نحن ومرتجاً وباطنا ... وأمن سنى شمس الضحى من محيّاه
محيّاً يروى النــاظرين تهلُّلاً ... فتعرفه فى الصالحين بسيماه
بُحبِّك هامَتْ كل نفس منيبة ... كذا من أحبَّ الله حببه الله
فما أنْعَمَ الأرض التى بك قُدِّست ... وآثر ذياك الضريح وأنداه
بُشراك إنا قد شغلنا بحزننا ... ورِضْوان بُشْراه بذلك بُشراه
عزاً لأهْليه الأهِلة أنهـــم ... لهم يعْتزى من بعده العزُّ والجاه
نال شُعيب فى الزمان بدُورَه ... ولم تكن الشمس المنيرة إلاّه
أعزّى أولى الإيمان كلا بفقده ... نَعَمْ وأسنيه بجنَّة مأواه
سقى الله وسْمِىّ الحيا ذلك الثرى ... وغاداه صَوْبُ الغاديات وميّاه
كما قد سقاه ليـــلة الدَّفن ربُّه ... من الغيث وكاف السحاب وأسخاه
ترضُّوا عن القاضى الإمام خطيبكم ... فقد رضى الرحمن عنه وأرضاه
وصلُّوا على هادى الأنام نبيكم ... صلاةً بها يمحو المسىء خطاياه
عليك سلام الله ما الروض فاح ... إن سَرَتْ سَحَراً ريح الصَّبا بخزاماه

توفى رحمه الله فى رمضان تحقيقاً من سنة خمس على شك وسبع ماية[١] ، أخبرنى بذلك من يُوثق به .

محمد بن عبد الله بن الحاج البضيمة[٢]

من أهل مالقة ، وتردد كثيراً على الحضرة ، مُسْترفداً ومُنْشداً ، وفى غير ذلك من الأغراض يكنى أبا عبد الله .

حـاله وشعره

من الإكليل[٣] : شاعر اتّخذ النظم بضاعة ، وما ترك السعى فى مذاهبه ساعة ، أجرى فى الملا ، لا فى الخلا ، وجعل ذكره دِلوه فى الدِّلا ، وركض فى حَلْبة النجبا النجايب ، ورمى فى الخراطى بسهم صايب ، فخرج بْهُرْجُه ونَفَق ، وارتَفَد بسببه وارْتَفَق . وهو الآن قد سالمته السنون ، وكأنّما أمِن المَنُون ، من رجل مَكْفُوف الأذى ، حسن الحالة إلا إذا ، هذا قُلت ، ثبت هذا والمذكور حيٌّ ، وقد مات رحمه الله .

ومن شعره :

---

(١) من الواضح أن تاريخ وفاة ابن لب الأمى ، لا يمكن أن يكون سنة ٧٠٥ هـ حسبما يذكر ابن الخطيب وقد فاته ما ذكره من قبل من أنه قدم مع الوفود إلى غرناطة للتهنئة فى النصر الذى أحرزه أمير المسلمين على النصارى فى الوقيعة التى حدثت سنة ٧١٨ هـ ، وأنه أى ابن لب قد ذكر فى شعره دون بيدرو ودون خوان قائدى القشتاليين الذين [illegible] فى الموقعة ، كما أنه هنأ السلطان أبى الوليد فى شعره . ولم يحكم السلطان أبو الوليد إلا من سنة ٧١٣ هـ . وربما كان التاريخ الصحيح لوفاة ابن لب الأمى هو سنة ٧٢٥ هـ .

(٢) وردت هذه الترجمة فقط فى مخطوط الإسكوريال .

(٣) سبق التعريف بكتاب «الإكليل الزاهر» .

رجاى فى المولى العظيم عظيم غَنيت به حيث الغنى بعديم
وحَسْبى الرجا فيمن عليه مُعوَّلى حديث حديثٍ لم يزل وخديم
وماعرَفت نَفْسى سوى باب فضله على ثقةٍ أن الكريم كريم
فإن قيل عنِّى مُذنب قلت سيِّده كفيل بغفران الذنوب رحيم
وما اعتَصم المملوك إلا بحَبْله فجانبُه نُعْمَى لنا ونَعيم
رضاه سبيلٌ للنجاة وحبُّه طريق لجنّات النَّعيم قديم

وأنشد يوما الأمير ثالث الأُمراء من بنى نصر[1] يهنيه بالملك ويُعزِّيه :

على من تُنْشَر اليوم البُنود وتحت لواء من تُسْرى الجنود

وقال [على هذا الكذا ، الذى بين يديك][2] فخجل ، وعظُم استظراف الحاضرين لذلك .

توفى فى كذا وسبعمائة .

محمد بن عبد الله بن فُطَيس[3]

يكنى أبا عبد الله من أهل مالَقة . وقال الأُستاذ[4] من بيت فُطيس الألْبيريين .

---

(١) ثالث الأمراء من بنى نصر هو السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد الفقيه . وكان ضريراً ، ويلقب بمحمد المخلوع . وقد حكم من سنة ٧٠١–٧٠٨ هـ (١٣٠١–١٣٠٨ م) .

(٢) وردت هذه العبارة فى اللمحة البدرية كالآتى (على هذا الزبلخ الذى ترى قدامك – يعنى نفسه (ص ٤٨) .

(٣) وردت هذه الترجمة فقط فى مخطوط الإسكوريال .

(٤) الإشارة هنا إلى الاستاذ أبى جعفر بن الزبير صاحب كتاب صلة الصلة .

حــــاله

قال ، طبيبٌ ماهر ، وأديب شاعر ، كان فى أيام بنى حسّون[1] ، يخفّ عليهم ، وله فيهم أمداح كثيرة . يُذكر أنه دخل يوماً على القاضى أبى مروان بن حسُّون ، بعد انقطاع عن زيارته ، فعَتَبه القاضى ، فاعتذر ، ثم أنشد :

يا حاملاً من عُـــــلاه تاجاً ... ومن سَنَـا وجهه سراجا
لو كان روْدى عـــــديل وُدِّى ... لـكنت من بابك الرِّتاجا
إن لم يعُـــــرِّج عليك شخصى ... نَفْسى وروحى عليك عاجا

وذكره ابن عسكر[2] فى كتابه .

محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن فتوح [ابن محمد بن أيوب][3] ابن محمد بن الحكيم اللخمى ذو الوزارتين

يكنى أبا عبد الله رندى النشأة ، إشبيلى الأصل ، يرجع بيته ، وبيت بنى حجاج ، وبيت بنى عباد ، إلى جُرثومة واحدة ، وانتقل سلفُه إلى رندة [فى دولة بنى عباد ، ويحيي جد والده هو المعروف بالحكيم لطبِّه . وقدم ذو الوزارتين على

---

(١) الإشارة هنا إلى القاضى أبى الحكم بن حسون قاضى مالقة فى أواخر العهد المرابطى . وقد ثار على المرابطين بمالقة واستولى على الحكم وذلك حوالى سنة ٥٤٠ هـ ، وتسمى بالأمير ، وجعل أخاه أبا الحسن بن حسون قائداً لجيشه . ولكن المرابطين فى القواعد المجاورة تألبوا عليه ودبروا إسقاطه بالتفاهم مع بعض خدامه ، واستطاعوا الاستيلاء على القصبة . فامتنع ابن حسون بقصره ، واضطر فى النهاية إلى الانتحار ، فاقتحم المرابطون القصر ، وبعثوا برأسه إلى مراكش (سنة ٥٤٧ هـ).

(٢) هو محمد بن على بن الخضر بن هارون الغسانى ويعرف بابن عسكر ، وقد ترجم له ابن الخطيب فيما تقدم من هذا المجلد (ص ١٧٢–١٧٥) .

(٢) هذه الزيادة من الإسكوريال .

بحضرة غرناطة أيام السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر ، إثْر قفوله من الحج فى رحلته التى رافق فيها العلّامة أبا عبد الله بن رُشَيد الفهرى ، فألحقه السلطان بكُتّابه ، وأقام يكتب له فى ديوان الإنشاء ، إلى أن توفى هذا السلطان ، وتقلد الملك بعده ولى عهده أبو عبد الله المخلوع ، فقلّده الوزارة والكتابة ، وأشرك معه فى الوزارة ، أبا سُلطان عبد العزيز بن سلطان الدّانى . فلما توفى أبو سُلطان ، أفرده السلطان بالوزارة ، ولقّبه ذا الوزارتين ، وصار صاحبَ أمره ، إلى أن توفى بحضرة غرناطة قتيلا ، نفعه الله تعالى : غَدْوة يوم الفِطر ، مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة ، وذلك لتاريخ خلع سلطانه ، وخلافة أخيه أمير المسلمين ، أبى الجيوش ، مكانه][1] .

حـــاله

[كان رحمه الله تعالى عَلَماً فى الفضيلة والسّراوة ، ومكارم الأخلاق ، كريم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحُرْمة ، عالى الهمة ، كاتباً بليغاً ، أديباً ، شاعراً ، حسن الخطّ ، يكتب خطوطاً على أنواع ، كلها جميلة الانطباع ، خطيباً ، فصيح القلم ، زاكى الشِّيَم ، مُؤْثِراً لأهل العلم والأدب ، برًّا بأهل الفضل والحَسَب ، نفقت بمدته للفضائل أسواق ، وأشرقت بإمداده للفضائل آفاق][2] . ومن «عائد الصلة» : كان رحمه الله فريد دهره سماحة[3] ، وبشاشة ، ولَوْذَعية ، وانطباعاً ، رقيق الحاشية ، نافذ العَزْمة[4] ، مؤثراً للمديح ، طَلْقاً للأمل ، كهفاً للغريب ، بَرْمَكى

---

(١) هذه الفقرة الطويلة المحصورة بين الحاصرتين واردة فى النفح وساقطة فى «الزيتونة» وفى الإسكوريال . وفقط وردت فى هذين المخطوطين بعد كلمة رندة ، وقبل بداية الفقرة ، هذه العبارة «فناهيك من أصالة وجلالة وكرم طعمة» .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط فى « الزيتونة » . وفى الإسكوريال . ووارد فى النفح .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى « الزيتونة » : (ساحة) .

(٤) هكذا وردت فى « الزيتونية » والإسكوريال . وفى «ج» (العزيمة) .

المـائدة ، مُهَلَّبي الحَلْوى[١] . ريّان من الأدب ، مضطلعًا بالرواية ، مستكثراً من الفائدة . يقوم على المسائل الفقهية ، ويتقدم الناس فى باب التّحسين والتّقبيح ، ورَفْع راية[٢] الحديث والتّحديث ، نَفَّق بضاعة الطلب ، وأحيا معالم الأدب ، وأكرم العلم والعلماء[٣] ، ولم تُشغله السياسة عن النظر ، ولا عاقه تدبير الملك عن المـالعة والسماع ، والإفراط[٤] فى اقتناء الـكتب ، حتى ضاقت قصوره عن خَزائنها ، وأثْرَت أنديته من ذخائرها . قام له الدهر على رِجْل ، وأخدمه صدور البُيوتات ، وأعلام الرِّياسات ، وخُوطب من البلاد النازحة ، وأُمِّل من[٥] الآفاق النائية .

رحلته و نباهته

رحل إلى الحجاز الشريف من بلده ، على فَتاء سِنِّه ، أول عام ثلاث وثمانين وستمائة ، فحج وزار ، وتجول فى بلاد المشرق ، مُنْتجعاً عوالى الرواية فى مظانّها ، ومُنَقِّراً عنها عند مُسِنِّى شيوخها ، وقيد الأناشيد الغريبة ، والأبيات المُرَقِّصة ، وأقام بمكة شرفها الله ، من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم ، فأخذ بها عن جماعة يأتى ذكرهم فى مشيخته . وانصرف إلى المدينة المشرّفة ، ثم قَفَل مع الرَّكْب الشامى إلى دمشق ، ثم كرَّ إلى المغرب ، لا يمر بمجلس عِلْم أو تعَلُّم إلا رَوَى أو رُوِّى . واحتل رندة حرسها الله أواخر عام خمسة وثمانين وستمائة ، وأقام بها عَيْناً فى قرابته ، وعَلَماً فى أهله ، مُعَظَّماً عندهم[٦] ، إلى أن أوْقَع السلطان بالوزراء

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (الحلوة) والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (رؤية) . وفى الإسكوريال (آية) . والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (العامل) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (وأفرط) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال و«الزيتونة» (فى) .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال و«الزيتونة» (لديهم) والمؤدى واحد .

من بنى حبيب ، أو قيعة البَرْمَكية . وورد زندة فى أثر ذلك ، [فى شهر جمادى الآخرة من عام ستة وثمانين وسمانية][(١)] فتعرّض إليه ، ومدحه[(٢)] ، وهنّأه بقصيدة طويلة ، من أوليات شعره ، أولها :

هل إلى ردّ عَشِيّات الوصــال سبب أم ذاك من ضَرْب المُحال

فلما أنشدها إياه ، أعجب به ، وبحُسْن خطّه ونَصاعة ظَرْفه ، فأثنى عليه ، واستدعاه إلى الوفادة على حَضْرته[(٣)] ، [فوفد إليها فى آخر العام المذكور][(٤)] ، فأثبته فى خواصّ دولته ، [وأحْظاه لديه][(٥)] إلى أن رقّاه إلى كتابة الإنشاء ببابه . واستمرّت حاله ، مُعظَّم القَدْر ، مخصوصاً بالمزيّة ، إلى أن توفى السلطان ، ثانى الملوك من بنى نصر ، وتقلد الملك بعده ، ولىّ عهده أبو عبد الله ، فزاد فى إحظائه وتقريبه ، وجمع له بين الكتابة والوزاوة ، ولقبه بذى الوزارتين ؛ وأعطاه العلامة ، وقلّده الأمر ، فبَعُد الصّيت وطاب الذّكر ، إلى أن كان من الأمر ما يأتى [به الذكر][(٦)] قريباً إنشاء الله تعالى .

مشيخته[(٧)]

قرأ بُرُنْدة على الشيخ النحوى أبى الحسن على بن يوسف العَبْدَرى الدّفاح ،

---

(١) هذه الزيادة واردة فى «الزيتونة» . وساقطة فى «ج» والإسكوريال .

(٢) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» . وساقطة فى «ج» والإسكوريال .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (الحضرة) .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال و«الزيتونة» . ووردت فى «ج» كالآتى : (فوفد آخر عام ستة وثمانين) .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . وفى «الزيتونة» (وأحيا ملكه) وفى الإسكوريال (وأحفايا ملكه .)

(٦) هذه الزيادة واردة فى «الزيتونة» والإسكوريال .

(٧) جاء فى مخطوط الإسكوريال تحت كلمة «مشيخته» ما يأتى : «قلت لم أر فى هذا الكتاب مشيخة أطول منها فاختصرتها لطولها . على أنى فى هذا الإختصار لهذا الكتاب أقيد المشيخة قاصداً للتبرك بذكر أشياخ العلم وحملة الدين وقادته ، جعلنى الله ممن انتظم فى غمارهم ، وسلك مسلك أتباعهم =

القرآن العظيم بالروايات السّبع . والعربية وغير ذلك . وعلى الخطيب بها أبى القاسم ابن الأيْسَر ، وأخذ عن والده جميع مَرْوِيّاته . واستجاز له فى صغره أعلام ذلك الزمان ، وأخذ فى رحلته عن الجِلّة [من الجملة][(١)] الذين يضيق عن أمثالهم الحصر .

فمنهم أبو اليمن جار الله بن عساكر ، لقيه بالحَرَم الشّريف ، وانتفع به ، واستكثر من الرواية عنه . ومنهم الشيخ أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم الحرّانى المعروف بابن هِبَة الله الحرانى . [ومنهم الشيخ الشريف أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمر بن معطى بن الإمام الجزائرى ، جزائر المغرب ، نزيل بغداد . ومنهم الشيخ أبو الصفا خليل بن أبى بكر بن محمد المرادى الحنبلى ، لقيه بالقاهرة . ومنهم الشيخ رَضِى الدين القَسْطَميني أبو بكر . ومنهم الشيخ شرف الدين الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدُّمياطى إمام الديار المصرية فى الحديث ومؤرخها وحافظها][(٢)] . ومنهم عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن أحمد الخيمى شهاب الدين أبو عبد الله نزيل مَشْهد الحُسَين بن على ، قرأ عليه قصيدته البائية الفريدة التى أولها :

يا مُطّلباً[(٣)] ليس لى فى غيره أرب   إليك آل التقّى وانتهى الطلب

== وآثارهم . وبعد ما نقل الشيخ ابن الخطيب منها نحو الثلاثة أوراق ، قال فى آخر ذلك ، «إلى طايفة كثيرة من أهل المشرق والمغرب» . ومن الواضح أن هذا كلام الناسخ الذى قام «باختصار» الكتاب . ولكننا رأينا أن لا نجاريه فى ذلك ، وأن نذكر مشيخة ابن الحكيم مفصلة حسبما وردت فى مخطوطى «ج» «والزيتونة» .

(١) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

(٢) وردت الأسماء المحصورة بين الحاصرتين فى مخطوط الزيتونة على النحو الآتى : « وشرف الدين أبو العباسي من أهل الجزاير عمالة إفريقية ونزيل بغداد ، ومنهم خليل بن أبى بكر بن بكر بن محمد المرادى نايب قاضى الحنابلة بالقاهرة المصرية يكنى أبا الصفا لقيه بالقاهرة المعزية ، ومنهم أبو بكر بن عمر بن على القسطمانى رضى الدين ، ومنهم عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن بن شرف الدين الحضرى الدمياطى ...» .

(٣) هكذا وردت فى « ج » ، وفى النفح . وفى الزيتونة (ياطالبا) »

ومنها البيت المشهور الذى وقع النزاع فيه :

يا بارقاً بأعالى الرَّقتين بدا لقد حكيتَ ولكن فاتك الشَّنب[١]

ومنهم عبد المولى يحيى بن حماد البعلبكى، مولده سنة إحدى عشرة وستمائة. ومنهم محمد بن بكر بن خلف بن أبى القاسم الصَّفار . ومنهم الشيخ أبو الفضل الأديب جمال الدين بن أبى الخير بن على بن عبد الله بن رواحة . ومنهم محمد بن يحيي بن عبد الله القرشى جمال الدين أبو صادق ، ومن تخريجه الأربعون المروية بالأسانيد المصرية . وسمع الحَلَبيّات[٢] من ابن عماد الحرّانى ، والشيخ أبي الفضل عبد الرحيم خطيب الجزيرة ، ومولده سنة ثمان وتسعين وخمسمائة . ومنهم الشيخ محمد بن غباس الأشعرى تقى الدين الحافظ أبو القاسم . ومنهم الشيخ محمد بن إسماعيل بن عبد الله بن عبد المجيد الأنماطى . ومنهم أبو البدر بن عبدالله ابن أبى الزبير الكاتب المصرى . ومنهم الشيخ عبد الرحيم بن عبد المنعم بن خلف التَّدميرى . ومن رؤساء شيوخه ، الشيخ محيي الدين أبو الفضل . ومنهم زينب بنت الإمام أبي محمد عبد اللطيف بن يوسف [بن محمد بن على][٣] البغدادى ، تُكنى أم الفضل ، وسمعت[٤] من أبيها . ومنهم محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد الخُراسانى ، أبو عبد الله مُوَفَّق الدين ، وألبسه خِرْقة التصوف . ومنهم الشيخ محمد بن يحي بن هَبِيرة الشَّيبانى شرف الدين . ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن عيسى بن عيسى بن يوسف بن إبراهيم بن إسماعيل السِّلَفى . ومنهم الشيخ على بن عبد الكريم بن عبد الله الدِّمشقى ، أبو الحسن ، ولد سنة سبع وتسعين

---

(١) هذا البيت وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (تحمل عن) .

وخمسماية . ومنهم الشيخ غازى بن أبي الفضل بن عبد الوهاب الجلاوى . ومنهم الشيخ نور الدين على بن محمد أبى البركات الأنصارى المقرىء بحَرَم الخليل . سمع من أبي الحسن على بن شجاع . [ومنهم يوسف بن دواد بن عيسى بن أيوب الحنفى][1] .

ومنهم الملك الأوحد يعقوب بن الملك الناصر صلاح الدين ، وداود بن الملك المعظّم عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب . ومنهم عبد المنعم بن يحيى بن إبراهيم بن على بن جعفر القرشى الزُّهرى خطيب القُدْس . ومنهم الشيخ عبد الحفيظ ابن بَدْران ، ويُدْعى علىّ الدين من أهل بانياس ، سمع من ابن صيصرى . ومنهم الشيخ على بن عبد الرحمن بن عبد المنعم المقدّسى . ومنهم الشيخ محمد بن محمد بن سالم ابن يوسف بن أسلم القرشى ، جمال الدين . ومنهم عبد الواسع بن عبد الكافى شمس الدين . ومنهم الشيخ أحمد بن أحمد الزَّجاجى [البغدادى الإمام تقى الدين . ومنهم عبد الجميل بن أحمد بن الزَّجاج][2] . ومنهم فاطمة بنت إبراهيم بن محمد بن محمود بن جوهر البعلبكى ، الشيخة الكاتبة الخيرّة أم الخير . ومنهم الشيخ يوسف ابن أبي ناصر السفاوى . ومنهم الشيخ عبد السلام بن محمد [بن مزروع][3] أبو محمد عفيف الدين . ومنهم الشيخ أحمد بن عثمان بن محمد الشافعى البخارى شمس الدين . ومنهم الشيخ عبد الله بن خير بن أبى محمد بن خلف القرشى . ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الباقى بن على الصوّاف شرف الدين . ومنهم الشيخ على بن محمد بن أبى القاسم بن محمد بن محمد بن أبى بكر بن زُرِيق الكاتب ، لقيه بتونس . ومنهم الشيخ سليمان بن على بن عبد الله الكاتب التِلمسانى عفيف الدين الصوفى الأديب نزيل دمشق ، ومولده بتلمسان .

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «الزيتونة» . وساقط فى «ج» .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى «الزيتونة» وساقط فى «ج» .

(٣) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

ومنهم الشيخ محمد بن على بن أحمد بن على بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد الميمونى البُستى القسطلانى قطب الدين ، الإمام المفتى شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة المُعِزِّية . ومنهم الشيخ عبد الكريم بن على بن جعفر القرشى جمال الدين . ومنهم الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الظاهر جمال الدين . ومنهم محمد بن محمد بن إبراهيم النجاشى . ومنهم الشيخ عبد الله بن محمد بن محمد بن أبى بكر الطبرى إمام الروضة النبوية ثم الصخرة القُدْسية . ومنهم الشيخ فخر الدين عثمان بن أبى محمد بن إسماعيل بن جَنْدرة . ومنهم الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العَلِى بن أنسكرت فخر الدين . ومنهم الشيخ ثابت بن على بن عبد العزيز بن قاسم بن عبد الرازق ، سمع على ابن المغير البغدادى . ومنهم الشيخ أمين الدين أبو الهامات جبريل بن إسماعيل بن سيد الأهل الغسانى[1] . ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله الأندلسى الأصل شرف الدين ، سمع من علم الدين الشيخونى وغيره . ومنهم الشيخ محمد بن محمد الشامى الشافعى الدمشقى إمام مسجد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، يدعى شمس الدين ، سمع من الزبيدى . ومنهم الشيخ يحيى بن الخضر بن حاتم الأنصارى ، يعرف بابن عزِّ الدولة .

وأجاز له جماعة ، منهم ابن عماد الحرّانى ، ومنهم ابن يحيى بن محمد بن محمد الهَمْدانى كمال الدين ، وسمع من ابن الزَّجاج وابن رَوَاح الحِميرى . ومنهم الشيخ عبد الملك أبو المعالى بن مُفَضّل الواسطى ، عُرف بابن الجَوزى سمع على جماعة ، منهم شُعيب الزعفرانى ، ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن ياسر بن شاكر الحاكمى . ومنهم الإمام مفتى المسلمين رضى الله عنه . ومنهم أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن خليل العَسْقَلانى المكّى . ومنهم الخطيب أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد بن محمد بن رُحَيمة الكِنانى خطيب بجايه . ومنهم قاضى القضاة ببلاد إفريقية أبو العباس

(١) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» ، وساقطة فى «ج» .

ابن الغمّاز[1] البَلَنْسى ، لقيه بتونس . ومنهم الفقيه العلامة الوزير أبو القاسم محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزى الكلبى . ومنهم الشيخ أبو محمد عبدالله بن يوسف الخلابى . ومنهم الشيخ المغربى أبو محمد الحجاج ابن يوسف بن إبراهيم بن عتّاب، لقيه بتونس . ومنهم الشيخ الفقيه أبو بكر بن محمد ابن إبراهيم بن محمد بن يربوع السَّبتى . ومنهم الإمام قُدْوة النحاة أبو الحسين[2] عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن أبى الربيع القرشى . ومنهم الإمام أبو على ناصر الدين منصور بن أحمد ابن عبد الحق الزّواوى المِشْدالى من أهل بجاية . ومنهم الخطيب القاضى أبو عمرو إسحق بن أبى إسحق بن عبد الوهاب الرُّندى . إلى طائفة كبيرة من أهل المشرق والمغرب .

محنته

أغْرَى به الأمير ولى العهد ، بسبب أمور اختلف فيها ، منها أبيات فى هَجْو الدولة النصرية ، الله أعلم بصحة نِسْبتها إليه ، فأوقع به [وناله بين يديه نكالٌ كبير][3] أفْلَت منه برفق[4] ، واختفى مدة فى المآذن المُقْفَلة والأماكن الخفيّة ، حتى أصحى له جوُّ سخطه ، [وقضى الله برد أمره إليه ، واستيـــلايه على ما وراء بابه][5] .

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (الغمار) .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (أبو الحسن) .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» «والزيتونة» . ووردت فى الإسكوريال على النحو الآتى (فتنوول بين يديه بنكال كبير) .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (برمق) .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال «والزيتونة» . ووردت فى «ج» (وقضى الأمر باستلايه).

من روى عنه(١)

أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحق بن أبي العاصى ، وتدبّج معه رفيقه عبد الله بن رُشيد وغير واحد . وكان ممدوحاً ، وممن مدحه الرئيس أبو محمد عبد المُهَيمن الحَضْرمى ، والرئيس أبو الحسن بن الجيّاب ، وناهيك بهما . ومن بديع مدح ابن الجياب له ، قصيدة رائية رائقة ، يهنّيه فيها بعيد الفطر منها فى أولها :

يا قادماً عمّت الدنيـــا بشائرُهُ ... أهـــلا بمقْدمك الميمون طائره
ومرحباً بك من عيد تحف به ... من السعادة أجناد تُظاهــــره
قدِمت فالخلق فى نُعْمى وفى جَذَل ... أبْدَى بك البشر باديه وحاضره
الأرض قد لبست أثواب سُنْدسها ... والرّوض قد بَسَمت منه أزاهره
حاكت يدُ الغيث فى ساحاته حُللا ... لمّا سقاها دوا كاً منك باكره
فلاح فيها من الأنـــوار باهرها ... وفاح فيها من النُّوار عاطـــره
وقام فيها خطيب الطّير مرتجلا ... والزهر قد رُصِّعت منه منابره
مُوشّى ثوبٍ طـواه الدهر آونة ... فها هو اليوم للأبصار ناشره
فالغُصْن من نَشْوة يثْنى معاطفه ... والطّير من طربٍ تَشْدو مزاهره
وللكِمام انشقاق عن أزاهرها ... كما بَدت لك من خلٍّ ضمائرُهُ
لله يومك ما أذكى فضـــائله ... قامت لدين الهوى فيه شعائره
فكم سَريرة فضلٍ فيك قد خبئت ... وكم جمالٍ بدا للناس ظاهـــره
فافْخَر بحـــقٍّ على الأيام قاطبة ... فما لفضلك من نِدٍّ يظاهـــره
فأنت فى عصرنا كابن الحكيم إذا ... قِيسَت بفخرٍ أولى العَلْيا مفاخره

---

(١) وردت الفقرة التالية تحت هذا العنوان والقصيدة التى تليها ، وهى من نظم ابن الجياب فقط فى مخطوط جاينجوس . ولم ترد فى « الزيتونية» ولا فى «الإسكوريال» .

يَلْتَاح منه بأفق المُلْك نور هُدى ... تضاءل الشمس مهما لاح زاهره
مجدٌ صميم على عرش السِّماك سَما ... طالت مبانيه واستعلت مظاهره
وزارة الدِّين والعِلْم الذى رُفعت ... أعلامه والنَّدى الفيّاض زاخره
وليس هذا ببدع من مكارمه ... ساوت أوائله فيه أواخره
يَلقى الأمور بصدرٍ منه منشرح ... بحرٌ وآراؤه العظمى جواهره
راعى أمور الرّعايا مُعْمِلاً نظراً ... كمثل عَلْياه معدوماً نظائرُهُ
والملك سَيّر فى تدبيره حُكْماً ... تنال ما عجزت عنه عساكره
سياسةُ الحكم لا بطشٌ يكدرها ... فهو المَهيب وما تُخشى بوادره
لا يَصْدُر الملك إلا عن إشارته ... فالرُّشد لا تتعداه مصادره
تجرى الأمور على أقصى إرادته ... كأنما دهره فيه يُشاوره
وكم مقام له فى كل مَكْرُمة ... أنْسَت مواردُه فيها مصادرَه
ففضلُها طبّق الآفاق أجمعها ... كأنه مَثَلٌ قد سار سائره
فليس يَجْحَدُه إلا أخو حَسَدٍ ... يرى الصباح فيُعْشِى منه ناظره
لا مُلْك أكبر من مُلْكٍ يدبره ... لا مُلْك أسعد من مُلْكٍ يؤازره
يا عِزَّ أمرٍ به اشتدَّت مضاربه ... يا حُسْن مُلْكٍ به ازدانت محاضره
تُثْنى البلاد وأهلوها بما عرفوا ... ويشهد الدهر آتيه وعابره
بُشْرى لآمله الموصول مأمَلُه ... تَعْساً لحاسده المقطوع دابرُه
فالعِلْمُ قد أشرقت نوراً مطالعُه ... والجود قد أسبلَت سَحًّا مواطره
والناس فى بِشْر و المُلْك فى ظَفَرٍ ... عالٍ على كلّ عالى القدر قاهره
والأرض قد مُلئت أمناً جوانبها ... بِيُمْن من خَلُصت فيها سرائره
وإلى أياديه من مثْنى وواحدة ... تساجل البحر إن فاضت زواخرُه
فكلَّ يوم تَلْقانا عوارفُه ... كساه أمواله الطولى دفاتره

فمن يؤدّى لما أولاه من نِعَم شكراً ولو أن سَحْبانا يُظاهره
يا أيها العَبْد بادِر لَثْم راحَتِه فلثْمُها خيرُ مأمول تُبادره
وافخر بأن لَقيت ابن الحكيم على عصرٍ يُباريك أو دهر تُفاخره
ولّى الصيام وقد عُظِّمت حرمتُه فأجرُه لكَ وافيه ووافره
وأقبل العيدُ فاستقبل به جَذَلاً واهْنَأ به قادماً عمّت بشائرُه

ومن مدح الرئيس أبى محمد عبد المهيمن الحَضْرمى له قوله :

تراءى سَحيرا والنسيم عليل وللنَّجم طَرْف بالصباح كليل
وللفجر نَهرٌ خاضه الليل فاعتلت شوى أدْهم الظَّلماء منه حجول
بريقٌ بأعلى الرَّقْمتين كأنه طلائع شُهُب والسماء تجول
فمزّق ساجى الليل منه شرارة وخرّق سِتر الغيم منه نُصول
تبسّم ثغرُ الروض عند ابتسامه وفاضت عيونٌ للغمام همول
ومالت غصون البان نَشْوى كأنها يُدار عليها من صِباه شُمول
وغنّت على تلك الغصون حمائم لهن حفيفٌ فوقها وهَديل
إذا سَجَعت فى لحنها ثم قَرْقرت يطيح خفيفٌ دونها وثقيل
سقى الله رَبْعاً لا يزال يشوقنى إليه رسومٌ دونها وطلول
وجاد رباه كلما ذرّ شارق من الوَدْق هتّانُ أجشُّ هَطول
ومالىَ أستَسْقى الغمام ومَدْمعى سفوحٌ على تلك العِراص هَمُول
وعاذِلةٌ باتت تلوم على السُّرى وتُكثر من تعذالها وتُطيل
تقول إلى كم ذا فراقٌ وغربةٌ ونأىٌ على ما خيّلت ورحيل
ذرينى أسعى للتى تُكسِب العلا سناء وتُبقى الذكر وهو جميل
فأما ترينى من ممارسة الهوى نحيلا فحدُّ المَشْرفى نحيــــل
وفوق أنابيب اليراعة صَفْوة تزين وفى قدّ القناة ذبول

ولولا السُّرى لم يَجْتَلِ البدرُ كاملا ولا بات منه للسُّعــود نَزِيل
ولولا اغتراب المرء فى طلب العلا لما كان نحو المجد منه وصول
ولولا نوال ابن الحكيم محمد لأصبح رَبْعُ المجد وهو مُحيل
وزيرٌ سما فوق السِّماك جلالة وليس له إلاّ نجــوم قَبِيل
من القوم أما فى النَّدىّ فإنهم هضاب وأما فى النَّدى فسيول
حَوَوا شرف العَلْياء إرثا ومَكْسِباً وطابت فروعٌ منهم وأصول
وما جونةٌ هطّالة ذات هَيْدب مَرَتْها شمول مُزْجِف وقبول
لها زَجَل من رَعْدها ولوامع من البَرْق عنها للعيون كُلول
كما هَدَرت وسط القِلاص وأرسلت شقاشقها عند الهياج فحول
بأجْوَدِ من كفّ الوزير محمد إذا ما توالت للسِّنين مُحول
ولا روضةٌ بالحسن طيّبة الشّذا يَنُم عليها أذْخَرٌ وجليــل
وقد أُذْكيت للزّهر فيها مجامر تُعَطِّر منها للنسيم ذيول
وفى مُقَل النُّوار للطّل عَبْرة تُرَدِّدُها أجفانها وتُحيــل
بأطيب من أخلاقه الغُرّ كلما تفاقم خَطْبٌ للزمان يهــول
حويتَ أبا عبد الإله مناقباً تفوت يَدَى مَنْ رامها وتطول
ففَرناطة مِصْرٌ وأنت خَصِيبها ونائلُ يمناك الكريمة نِيلُ
فداك رجالٌ حاولوا دَرْك العلا ببخلٍ وهل نال العلاء بخيل
تخيّرك المولى وزيراً وناصحاً فــكان له مما أراد حصول
وألقى مقاليد الأمور مُفوِّضا إليك فلم يَعْدل بيمينك سُول
وقام بحفظ المُلْك منك مؤيد نَهوضٌ بما أعيا سواك كفيل
وساس الرعايا منك أشْوَسُ باسل مبيدُ العِدا للمُعْتَفِين مُنيل
وأبْلَجُ وقّاد الجبين كأنما على وَجْنتيه للنضار مَسِيل

تهيم به العلياء حتى كأنها بُثَيْنة فى الحبِّ وهو جميل
له عزمات لو أعير مضاؤها حُسامٌ لما نالت ظُباه فلول
سَرى ذكره فى الخافقين فأصبحت إليه قلوب العالمين تميل
وأغدى قَرِيضى جودُه وثناؤه فأصبح فى أقصى البلاد يجول
إليك أيا فخر الوزارة أرْقلت برَحْلى هوجاء النَّجاء ذَلول
فَلَبَّيْتُ إلى لقياك ناصيةَ الفَلا بأيدى رِكابٍ سيرهنّ ذَميل
تُسَدِّدُنى سهماً لكل ثَنيَّة ضوامرُ أشباه القِسِىّ نحول
وقد لفَظَتنى الأرض حتى رَمَتْ إلى ذَراك برحلى هَوْجل وهجول
فقيّدت أفراسى به وركائبى ولذَّ مقامٌ لى به وحلول
وقد كنت ذا نفْسٍ عَزُوفٍ وهمّة عليها لأحداث الزمان دَخُول
وتهوى العُلا حظى وتُغْرى بضده لذاك اعْتَرَته رقّةٌ ونحول
وتأبى لى الأيام إلا إدالةً فَصَونك لى أن الزمان مُديل
فكل خضوعٍ فى جنابك عِزّةٌ وكل اعتزازٍ قد عَداك خُمول(١)

شعره

وبضاعته فى الشعر مُزْجاة ، وإن كان أعْلَمَ الناس بنقده(٢) ، وأشدهم تيقُّظا(٣) [لمواقعه الحسنة وأضدادها](٤) . فمن ذلك قوله ، ورفعه إلى السلطان

(١) وردت هذه القصيدة فى «ج» فقط . ولم ترد فى «الزيتونة» ولا فى الإسكوريال .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (به) «والزيتونة» (بنبره) .
(٣) هكذا وردت فى «ج» «والزيتونة» . وفى الإسكوريال (تفطنا) .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى «ج» (لموافقة الحسن وضده)

ببلده رُندة ، وهو إذ ذاك فتى يملأ العين أبّهة ، ويستميل القلوب لباقة ، وهى[١] ، ومن خطه نقلتُ :

هل إلى رد عَشِيـــات الوصال ... سبب أم ذاك من ضَرْب المُحال
حالة يسرى بهـــا الوهم إلى ... أنها تُثْبِت بُرءاً باعتـــلال
وليـــالى ما تبقّى بعـــدها ... غيرُ أشواقى إلى تلك اللّيال
إذ مجال الوصْل[٢] فيها مسرحى ... ونَعيمى آمرٌ فيهـــا ووال
ولحالات التّراضى جـــولةٌ ... مَزَجَت بين قَبُول واقتبال
فبوادِى الخيف خوفى مُسْعَدٌ ... وبأكناف مُنًى أسْنَيَ نوال
لست أنْسَى الأُنسُ فيهـا أبداً ... لا ولا بالعَذْل فى ذاك أُبال
وغزالٌ قد بدا لى وجهه ... فرأيتُ البَدْرَ فى حال الكمال
ما أمال التيه من أعطافـــه ... لم يَكُن إلا على فضل اعتدال
خُصَّ بالحسْن فما أنت ترى ... بعده للناس حظّاً فى الجمـــال
من تسلى عن هواه[٣] فأنا ... بسواه عن هواه غيرُ سال
فلئن أتعبـــنى حُبى له ... فكم نِلْتُ به أنعم حال
إذ لآلىء جيـــده من قبلى ... ووشاحاه يمينى وشمـــال
خَلِف النومَ لى السُّهـــدُ به ... وترامى الشخص لا طيف الخيال
فيـــداوى بِلماه ظمئى ... مَزَجُك الصهباء بالمـاء لزُلال
أو أشادت ثنا المَلِك الأوحـــد الأسمى الهُمام المُتعـال
مَلِكٌ إن قلت فيه مَلِكاً ... لم تكن إلا محقّا فى المقـال

---

(١) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى «ج» (الليل) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى «ج» «والزيتونة» (هواها) . والأولى أنسب للسياق .

أيّد الإسلام بالعــــدل فما ... أن ترى رسماً لأصحاب(١) الضلال
ذو أيادٍ شملت كلَّ الورى ... ومعالٍ يالها خــيرُ معَال
همّة هامت بأحـــوال التقى ... وصفات بالجلالات حِـوال
وقف النفس على إجهـــادها ... بين صوم وصلاة ونوال(٢)

ومنها فى ذكر القوم الموقع بهم :

وفريق من عُتاة(٣) عاندوا ... أمره فاستوجبوا سوء نكال(٤)
غرّهم طولُ التّجـــافى عنهم ... مع شيطانٍ لهم كان(٥) مُوال
فلقـــد كانت بهم رُنْدة أو ... أهلهـا فى سـوء تدبير وحال
ولقد كان النِّفاق مَذْهَباً ... فاشياً بين هاتيك التـــلال
ما يعود اليوم إلا بادروا ... برواة ونـكيرات ثقـال
طُوّقوا النُّعمى فلمـا أنكروا ... طُوّقوا العَدْل بذى البيض العَوال
[ماطل الدهر بهم غريمه ... فهو الآن وفى بعد المطـال
ولقد كنت غريم الدهر إذ ... شدّنى جورُهم شدّ عِقال
ولـكم نافرتُه مجتهداً عندما ... ضاق بهم صَدْرُ احتمال](٦)
أعقبوا جزاء ما قد أسْلفوا ... فى الدُّنا ويعقبوه فى المآل

وهى طويلة ومنها :

أيهـا المـــولى الذى نعماؤه ... أعجزت عن شكرها كُنْهَ المقال

---

(١) هكذا فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (أرباب) .

(٢) هذا البيت وارد فى «ج» والإسكوريال . وساقط فى «الزيتونة» .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى «ج» (عقاد) ، وفى «الزيتونة» (عناة) . والأولى أرجح .

(٤) هكذا وردت فى «ج» «والزيتونة» . وفى الإسكوريال (النكال) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (دال) .

(٦) هذه الأبيات الثلاثة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى «ج» و «الزيتونة» .

ها أنا أنشدكم مهنئاً من بديع النّظم بالسِّحر الحلال
فأنا العبد الذى حُبُّكم لم يزل والله فى قلبى وبال
أورَقت روضة آمالى لكم وتولاّها الكبير المتعال[1]
واقتنيت الجاه من خِدْمتكم فهو ما أدّخره من كنزِ مال[2]

ومنها :

يا أمير المسلمين هذه خدمة تنبئ عن أصدق[3] حال
هى بنت ساعة أو ليلة سهلت الحبّ فى ذاك الجلال
ما عليها إذ أجادت مَدْحها من بعيد الفهم يُلغيها وقال
فهى فى تأدية الشكر لكم أبداً بين احتفاء واحتفال

وكتب رحمه الله يخاطب أهله من مدينة تونس :

حىِّ حىَّ بالله يا ريح نَجْد[4] وتحمّل عظيم شوقى ووجدى
وإذا ما بثثْتَ حالى فبلّغ من سلامى لهم على قدر وُدّى
ما تناسيتُهم [وهل فى مغيبى][5] هم[6] نسونى على تطاول بُعْدى
بى شوق إليهم ليس يُعْزى لجميل ولا لسُكّان[7] نَجْد
يا نسيم الصّبا إذا جئت قوماً ملئت أرضُهم بشيح ورَنْد
[فتلطف عند المرور عليهم وحقوقاً لهم على فأدِّ

(١) وردت هذه الشطرة فى «الزيتونة» والإسكوريال والنفح على النحو الآتى : (مذ تولاها الرباب المنوال) .
(٢) هذا البيت وارد فى «الزيتونة» والإسكوريال ، وساقط فى «ج» .
(٣) هكذا وردت فى «ج» و«الزيتونة» والنفح . وفى الإسكوريال (صادق) .
(٤) هكذا وردت فى الزيتونة والإسكوريال . ووردت فى «ج» (مجد) وهو تحريف .
(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» و«الزيتونة» والنفح . وفى الإسكوريال (وها فى يقينى)
(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والنفح والاسكوريال (ما) .
(٧) هكذا وردت فى والإسكوريال والنفح . وفى «ج» (أسكان) . وفى الزيتونة (كساكن) .

قل لهم قد شدوت من وَجْدهم[١] | في حال شوق لكل رُنْد[٢] وزَنْد[٣]
وإن استفسروا حديثي فإني | باعتناء الإله بلغتُ قصدي
فلله الحمد إذ حباني بلطف | عنده قلَّ كل شكر وحمد

[قال شيخنا أبو بكر ولده ، وجدت بخطه رحمة الله عليه ، رسالة خاطب بها أخاه أبا إسحق إبراهيم افتتحها بقصيدة أولها][٤] .

ذَكَرَ اللِّوى شوقاً إلى أقماره | فقضى أسًى أو كاد من تذكاره
وعلا زفيرُ حريق[٥] نار ضلوعه | فرمى على وَجَناته بشراره
لو كنتَ تُبصر خطّه في خدّه | لقرأتَ سرَّ الوَجْد من أسطاره
يا عاذليه اقصِروا فلربما[٦] | أفْضَى عتابُكم إلى إضراره
إن لم تعينوه على برجائه | لا تُنكروا بالله خَلْع عِذاره
ما كان أكتمه لأسرار الهوى | لو ان جُند الصبر من أنصاره
ما ذنبُه والبَيْنُ قَطّع قلبه | أسفاً وأذكى النار في أعشاره
بَخِل اللِّوى بالساكنيه وطيفهم | وحديثه ونسيمه[٧] ومزارِه
يا برقُ خُذ دمعي وعرِّج باللِّوى | فامْنحْه في باناته وعَراره

---

(١) هكذا وردت في «ج» . وفي «الزيتونة» (أجلهم) .

(٢) هكذا وردت هاتان الكلمتان في «ج» . وفي «الزيتونة» (ورخد وندى) .

(٣) هذان البيتان ساقطان في الإسكوريال وواردان في «ج» وفي «الزيتونة» والنفح .

(٤) هكذا وردت هذه الفقرة في الإسكوريال . ووردت في «ج» على النحو الآتي : (وافتتح مخاطبته لأخيه الأكبر أبي أسحق إبراهيم بقصيدة أولها) .

(٥) هكذا وردت في «ج» والنفح . وفي الإسكوريال (رحيق) .

(٦) هكذا وردت في «ج» والنفح . وفي الإسكوريال (فلشدما) .

(٧) هكذا وردت في الإسكوريال والنفح . وفي «ج» (ونسيبه) .

وإذا لقيتَ بها الذي بإخائه ... ألقَى خطوب الدهر أو بجواره
فاقر السلام عليه قَدْر محبتى ... فيه وترْفيعى إلى مقداره
وألِمْ بسائر أخوتى وقرابتى ... من لم أكُنْ لجوارهم بالكاره
ما منهم إلا أخٌ أو سيدٌ ... أبداً أرى دأبى على إكباره
فاثبتْ لذاك الحىِّ أن أخاهم ... فى حِفْظِ عهدهم على استبصاره
ما مَنْزل اللذات فى أوطانه ... كلاَّ ولا السُّلوان من أوطاره[1]

وقال رحمه الله فى غرض كلّفه سلطانه القول فيه :

ألا واصِلْ مواصلة العقار ... ودَعْ عنك التخلُّقُ بالوقار
وقُمْ واخلع عِذارك فى غزال ... يحقُّ لمثله خلعُ العِذار
قضيبٌ مائس من فوق دِعْص ... تعمَّم بالدُّجى فوق النهار
ولاح بخدّه ألف ولام ... فصار مُعَرَّفاً بين الدرارى[2]
رمانى قاسمٌ والسين صاد ... بأشفار تنوب عن الشِّفار
وقد قُسِّمت محاسن وجنتيه ... على ضِدين من ماء ونار
فذاك الماء من دمعى عليه ... وتلك النار من فرط استِعار
عجبتُ له أقام بربْع قلبى ... على ما شَبَّ فيه من الأوار
ألفتُ الحبَّ حتى صار طبعاً ... فما أحتاج فيه إلى ادِّكار
فمالى عن مذاهبه ذهاب ... وهذا فيه أشعارى شِعارْ

وقال العلامة ابنُ رُشَيد فى «ملء العَيْبة» ، لما قَدِمنا المدينة سنة ٦٨٤هـ ، كان معى رفيقى الوزير أبو عبد الله بن أبى القاسم الحكيم ، وكان أرْمَد ، فلما دخلنا ذا الحليفة أونحوها ، نزلنا عن الأكوار ، وقوِى الشوق لقرب المزار ، فنزل وبادر

---

(١) هذا البيت زائد فى الإسكوريال . هذا ولم ترد هذه القصيدة فى مخطوط الزيتونة .
(٢) هكذا فى «ج» . وفى الإسكوريال (الدرار) .

إلى المشى على قدميه احتساباً لتلك الآثار ، وإعظاماً لمن حلّ فى تلك الديار ، فأحسَّ بالشفاء ، فأنشد لنفسه فى وصف الحال قوله :

ولما رأينا من ربوع حبيبنا ... بيَثْرب أعلاماً أثرْن لنا الحبا
وبالتُّرب منها إذ كَحَلْنا جفوننا ... شُفينا فلا بأساً نخاف ولا كربا
وحين تبدَّى للعيون جمالها ... ومن بعدها عنا أديلت لنا قُرْبا
نزلنا من الأكوار نمشى كرامة ... لمن حلّ فيها أن نُلمّ به رَكْبا
نُسِحُّ سِجال الدمع فى عَرَصاتها ... ونَلْثِم من حبٍّ لواطئه التُّرْبا
وإنّ بقائى دونه لخسارة ... ولو أن كَفِّى تملأُ الشرق والغَرْبا
فياعجباً ممن يحبُّ بزَعْمه ... يقيم مع الدعوى ويستعمل الكُتْبا
وزلاّت مثلى لا تعدُّ كثيرةً ... وبُعدى عن المختار أعظمها ذَنْبا[1]

ومن شعره قوله :

ما أحسن العقل وآثاره ... لو لازم الإنسان إيثاره
يصُون بالعقل الفتى نفسه ... كما يصون الحرُّ أسراره
لاسيما إن كان فى غُرْبةٍ ... يحتاج أن يُعْرَف مقدارُه[2]

وقوله رحمه الله :

إنى لأعْسِر أحياناً فيلحقنى ... يُسْرٌ من الله أن العُسْر قد زالا
يقول خيرُ الورى فى سُنَّة ثبتت ... أنْفِقْ ولا تخْشَ من ذى العرش إقلالا[3]

وهو من أحسن ماقاله رحمه الله .

ومن شعره قوله :

---

(١) لم ترد هذه القصيدة فى مخطوط «الزيتونة» ولا فى الإسكوريال .
(٢) لم ترد هذه الأبيات فى «الزيتونة» .
(٣) لم يرد هذان البيتان فى «الزيتونة» .

فقدتُ حياتي بالفراق[١] ومن غدا بحال نوًى عمن يحب فقد فقد
ومن أجل بُعدى من ديارٍ أَلِفْتُها جحيم فؤادى قد تلظّى وقد وقَدْ

وحُكى أن ذا الوزارتين المترجم، لما اجتمع مع الفقيه الكاتب ابن أبي مَدْين،
أنشده ابن أبي مدين :

عشِقْتُكمو بالسّمع نيل لقاكم وتَجْمُ الفتى يهوى لغَمْرٍ كطارِفه
ويُحَبِّبنى ذِكْرُ الجليس إليكمو فلما التقينا كنتم فوق وصْفِه[٢]

فأنشده ذو الوزارتين ابن الحكيم قوله :

ما زلت أسمع عن عَلْياك كلَّ سَنِي أبهى من الشمس أو أجْلَى من القمر
حتى رأى بَصَرِى فوقَ الذى سَمِعَت أذنى فوفّق بين السّمع والبصر[٣]

ومن نظمه مما يكتب على قوس :

أنا عُدَّةٌ للدين فى يد مَنْ غدا لله منتصراً على أعدائه
أحكى الهلال وأسْهُمى فى رَجْمِها لمن اعتدى تحكى رجوم سمائه[٤]
قد جاء فى القرآن أنى عُدّة إذ نصَّ خير الخلق مُحْكَم آيه[٥]
وإذا العدوُّ أصابه سهمى فقد سَبَق القضاء بهلكه وفنائه

ومن توقيعه ما نقلته من خط ولده أبى بكر فى كتابه المسمى «بالموارد المستعذبة»،
وكان [بمدينة وادى آش][٦] الفقيه [الكذا أبو عبد الله محمد بن غالب][٧]

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال . وفى «ج» (بالعراق) .
(٢) لم يرد هذان البيتان فى «الزيتونة» .
(٣) لم يرد هذان البيتان فى «الزيتونة» .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» و«الزيتونة» (نجوم) والأولى أوجه .
(٥) هذا البيت ساقط فى الزيتونة .
(٦) هكذا وردت فى الزيتونة والإسكوريال . وفى «ج» (بوادى آشي) .
(٧) هذه كلها زيادات وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال .

الطريفى ، فكتب يوماً إلى [الشيخ][١] خاصة والدى [وخلاصته][١] أبى جعفر ابن داود قصيدة [طويلة][١] على روى السين يشتكى فيها من [جَوْر][١] مشرف بلدهم إذ ذاك أبى القاسم بن حسّان منها :

فيا صفىّ أبى العباس كيف ترى ... وأنت كيِّس[٢] من فيها من أكياس[٣]
ولُوه إن كان ممن ترتضون به ... فقد دنا الفتح للأشراف فى فاس[٤]

ومنها يستطر ذكر ذى الوزارتين [رحمه الله][٥] :

للشرق فضلٌ منه أشرقت شهبٌ ... من نورهم اقتبسُونا كل مقباس[٦]

فوقع عليها رحمة الله تعالى عليه [ورضوانه][٧] :

إن أفرطَت بابن حسّان غوائلُه ... فالأمر يكسوه ثوب الذُّل والياس[٨]
وإن تزلّ به فى جَوْره قَدَمٌ ... كان الجزاء له ضرباً على الرّاس
فقد أقامنى المولى بنعمته ... لبثّ أحكامه بالعدل فى الناس

كتابته

وهى مرتفعة[٩] عن نمط شعره[١٠]. فمن ذلك رسالة كتبها عن سلطانه فى فتح مدينة قيجاطة[١١] :

---

(١) هذه كلها زيادات وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال (أكيس) .

(٣) هذا البيت ساقط فى الزيتونة .

(٤) هكذا وردت فى «ج» والإسكوريال . وفى «الزيتونة» (جلاس) .

(٥) هذه الزيادة من الإسكوريال .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (أقباس) .

(٧) الزيادة من الزيتونة .

(٨) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (الباس) . والأولى أرجح .

(٩) هكذا فى «ج» «والزيتونة» . وفى الإسكوريال (مترفعة) وهو تحريف .

(١٠) هكذا فى «ج» و«الزيتونة» وفى الإسكوريال (تطمه) .

(١١) قيجاطة وبالإسبانية Quesada ، مدينة أندلسية من أعمال ولاية جيان تقع على مقربة من نهر الوادى الكبير شمال شرقى مدينة جيان . وينتسب إليها عدد من العلماء .

من الأمير فلان ، أيده الله ونصره ، [ووفقه لما يحب ، حتى يكون ممن قام بفرض الجهاد ونشره][1] . إلى ابننا الذى نمنحه الحُبّ والرضى ، [ونسأل الله أن يهبه الخلال التى تُسْتحسن][2] ، والشِّيم التى تُرتضى ، الولد الأنْجب[3] ، الأرْضى ، الأنجد ، الأرْشد ، الأسْعد ، محمد ، والى الله تعالى إسعاده ، وتولى بالتوفيق والإرشاد سَداده[4] ، وأطْلع عليه من أنباء الفتوح المُبَشِّرة بالنصر الممنوح ، ما يكمل من بغُيته فى نصر دين الإسلام [ويُسْنى][5] مراده .

أما بعد حمد الله ، الذى جعل الجهاد فى سبيله أفضل الأعمال ، [الذى يقربه إلى رضاه][6] ، وندب إليه بما وعد من الثواب عليه ، فقال يا أيها النبى حَرِّض المؤمنين على القتال ، تنبيها على محل الثقة ، بأن الفئة القليلة من أوليائه ، تغلب الفئة الكثيرة من أعدائه ، وتُدارك دين الإسلام بإنجاز وعده فى قوله ، ولَيَنْصُرَنَّ الله من ينصره ، على رغم أنف من ظن [أنه خاذله ، تعالى الله عن خِذْلان جنده][7] . والصلاة والسلام على نبيه ورسوله ومُجتباه ، لهداية الخلق لسلوك سبيل الحق ، والعمل بمقتضاه . قال تعالى فيما أنزل : قاتلوا الذين يَلونكم من الكفار ، تحريضاً على أن يمحو ظلام ضلالهم بنور هداه . صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله الأبرار ، وأصحابه الأشداء على الكفار ، الذين جرَّدوا فى نُصْرَة دينه

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . وفى الإسكوريال كالآتى (وكافأ سعيه الذى وقفه على إقامة فرض الجهاد ونصره) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . وفى الإسكوريال (ونشكر الله على ما وهبنا من الخلال) .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (الأحب) .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (مراده) .

(٥) الزيادة من الإسكوريال . وورد مقابلها فى «الزيتونة» (وينهى) .

(٦) الزيادة من الزيتونة .

(٧) ورد مكان هذه العبارة فى الزيتونة والإسكوريال ما يأتى (إنه إن خذله أفاض الكفر دماه) .

صَوارمَ(١) العزم ، وأمضوا ظُباه ، وفتحوا ما زَوَى له من مشارق الأرض ومغاربها ، حتى عمَّ الإسلام حدَّ المعمور ومنتهاه . فإنا كتبنا لكم . كتب الله لكم من سماع البشائر ما يعود بتحويل(٢) الأحوال ، وأطلع عليكم من أنباء الفتوح ما يلوح بآفاق الآمال(٣) ، مُبَشِّرا باليُمْن والإقبال . من قيجاطة ، وبركات ثقتنا بالله وحده ، تُظْهِر لنا عجائب مكنونات أَلْطافه ، وتجنينا ثمار النصر فى إبّان قِطافه ، وتُسَخِّر(٤) لنا وِرْدَ مَشْرع الفتح فترِد عذب نِطافه ، والحمد لله الذى هدانا لأن نتَقَلَّد نجادها ، ونمتطى جوادها ، ونستورِى زنادها ، ونستفتِح بها(٥) مغالق المآرب ، [ولطائف المطالب](٦) حتى دَخَلت الملة الحنيفية فى هذه الجزيرة الأندلسية ، أغوارها وأنجادها . وقد تقرر عند الخاص والعام من أهل الإسلام ، واشتهر فى جميع الأقطار اشتهار الصبح فى سواد الظلام ، أنا لم نزَل نَبذُل جُهْدنا فى أن تكون كلمة الله هى العُلْيا ، ونسمح فى ذلك بالنفوس والأموال رجاء ثواب الله ، لا لغرض(٧) دُنيا ، وأنّا ما قصّرنا فى الاستنْصار والاستِنْفار [ولا قصَّرنا عن الاعتضاد لكل من أمّلنا معونته(٨) والاستظهار](٩) ، ولا اكتفينا بمُطَوَّلات الرسائل وبنات الأفكار ، حتى اقتحمنا بنفوسنا لُجَج البحار ، وسمحنا بالطَّارف من أموالنا والتِّلاد ، وأعطينا رجاء [نُصْرَة الإسلام](١٠) موفور الأموال والبلاد ،

(١) هكذا وردت «فى الزيتونة» والإسكوريال . وفى «ج» (صارم) .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال (بتمهيد) .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (الإيمان) . والأولى أرجح وأنسب للسياق .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (وتسجل) . والأولى أرجح .

(٥) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .

(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . وفى الإسكوريال (ونستسهل مصاعب المطالب) .

(٧) هكذا وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال . وفى «ج» (لعرض) .

(٨) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (معاملته) . والأولى أرجح .

(٩) ما بين الحاصرتين ساقط فى الإسكوريال .

(١٠) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (نصر الله) .

واشترينا بما أنعم الله به علينا ، ما فَرَض الله على كافة أهل الإسلام من الجهاد ، فلم يكن بين تَلْبية المدعوِّ وزُهده ، وبين قبوله وردِّه ، إلا كما يحْسُو الطائر ماء الثِّماد ، وبأبى الله أن يكل نصر هذه الجزيرة إلى سواه ، وأن يجعل فيها سَبَبًا(١) إلا لمن أخلص لوجهه الكريم علانيته ونجواه. ولما أسلم الإسلام بهذه الجزيرة الغربية(٢) إلى مثاويه ؛ وبقى المسلمون يتوقعون حادثاً ساءت ظنونهم لباديه ؛ ألقينا إلى الثقة بالله تعالى [وحده](٣) يدَ الاستسلام ، وشمَّرنا عن ساعد الجِدِّ والاجتهاد فى جهاد عبَدَة الأصنام، وأخذنا بمقتضى قوله تعالى ، وأنفِقوا فى سبيل الله أخْذَ الاعتزام ، فأمدَّنا الله تعالى بتوالى البشائر ، ونَصَرنا بألطاف أغْنَى فيها خلوصُ الضمائر عن قُوَّاد(٤) العساكر ، ونقلنا على أيدى قُوَّادنا ورجالنا من السَّبايا والغنائم ، ما عُدَّ ذكره فى الآفاق كالمثل السائر ، وإن تَعُدُّوا نعمة الله لا تُحصوها ، وكيف يُحصيها المحصى أو يحْصُرها الحاصر . وحين أبْدَت لنا العناية الرّبانية وجوه الفُتُوح(٥) سافرة المُحَيَّا . وانْتَشَقْنا [نسيم](٦) النَّصر الممنوح عَبِق الرَّيا ، استخرنا الله تعالى فى الغزو بأنفسنا ، ونعم المُسْتَخار ، وكتبنا إلى من قرب من عمَّالنا بالحض على الجهاد والاستِنْفار . وحين وافى من خفَّ للجهاد من الأجناد والمُطوِّعين ، وغدوا بحكم رغبتهم فى الثواب على طاعة الله مجتمعين ، خرجنا بهم ، ونَصْرُ الله تعالى أهدى دليل ، وعناية الله بهذه الفئة المُفْرَدة من المسلمين ، تقضى(٧) بتَقْريب

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال . وفى «ج» (شيئا) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (الغربية) والزيتونة (العربية) . والأولى أرجح بالنسبة للمعنى المقصود .

(٣) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى الإسكوريال و«الزيتونة» (قود) .

(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال . وفى «ج» (الفتح) والأولى أرجح وأكثر تمشياً مع السياق .

(٦) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .

(٧) هكذا وردت فى «ج» والإسكوريال . وفى «الزيتونة» (تقتضى) .

البعيد من آمالنا ، وتكثير القليل . ونحن نسأل الله تعالى أن يحملنا على جادّة الرّضا والقبول ، وأن يرشدنا إلى طريق يفضى إلى بلوغ الأمنية والمأمول ، إلى أن حَلَلْنا عشيّة يوم الأحد ثانى يوم خروجنا بمقربة[1] حصن اللّقْوة[2] ، فأدَرْنا به . التّدبير ، واستشرنا من أوليائنا من تحققنا نصحه فيما يشير ، فاقتضى الرأى المقترن بالرّشاد ، المؤذن بالإسعاد ، قصد قيجاطلة [لما رجى من][3] تيسير فتحها ، وأملا فى إضاءة فجر الأمانى لديها ، وبيان صُبْحها ، فسِرْنا [نحوها][4] فى جيش ؛ يجرُّ على المَجَرّة ذيل النقع المُثار ، ويضيق عن كثرته واسع[5] الأقطار ، ويُقِرُّ عين الإسلام ، بما اشتمل عليه من الحُماة والأنصار [تطير بهم نيّاتهم][6] بأجْنِحَة العزم إلى قبض أرواح الكفار . فلما وصلنا إلى وادى يانه[7] على مَقْربة منها ، نزلنا به نُريح الجياد ، ونكمل التأهُّب للقتال والاستعداد ، وبات المسلمون ليلتهم يسألون الله تعالى بأن يمنحهم[8] الإعانة بتأييده والإمداد . وحين فجر الفجر وأنار النّهار ، وقدحت به الأصباح زَنْد الأنوار ، رَكِبنا إليها والعساكر قد انتظمت عقودها ، والسيوف قد كادت تلفظها غُمودها ، وبصائر الأولياء المجاهدين قد لاح من نصر الله تعالى معهودها . فلما وصلناها ، وجدنا ناسًا قد سَبَقوا إليها بالبُوس ، وهَتَكوا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» و«الزيتونة» (بمقبرة) وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت فى «ج» و«الزيتونة» . وفى الإسكوريال (اللقون) .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى «ج» (رغبة فى تيسير) . وفى «الزيتونة» (من تيسير) .

(٤) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (واسعة) وفى الإسكوريال (واسعات) .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت محرفة فى «ج» (يطير بهم ثباتهم) «والزيتونة» (يطير بهم ثيابهم) .

(٧) الإشارة هنا إلى نهر وادى يانه وبالإسبانية Guadiana ، الذى تقع قيجاطلة على مقربة من شرقيه .

(٨) هكذا وردت فى «ج . وفى «الزيتونة» (يلهم) وفى الإسكوريال (يلهمهم) .

سِتر عِصْمَتها المحروس، [وأُذِنَ لها](١) بزوال النعم، وذهاب النفوس ، فعاجلها الأولياء بالقتال ، وأهدوا إليها حُمْر المنايا من زُرْق النِّصال ، [ورَشَقوا جنودها بالنِّبال ، وجَدّوا بنات الآجال](٢) ، فلما رأوا ما لا طاقة لهم به ، لاذوا بالفرار من الأسوار ، وولّوا الأدبار ، وودّعوا الديار وما فيها من الآثار . وتَسَنَّم المسلمون ذِرْوة البلد الأول فملكوه ، وخرَقوا حجاب السِّتر المسدول عليه وَهَتَكوه ، وتسرعوا إلى البلد الثانى ، [وقد ملأ النصارى أسواره](٣) من حُماة رجالهم ، وانتقوهم من مُتَخَيَّرى أبطالهم ، ممن وثقوا بإقدامه فى حماية ضلالهم ، فحمل عليهم(٤) المسلمون حَمْلة عرّفوهم بها كيف يكون اللِّقاء ، [وصَرَفوهم إلى ما تنصرف إليه أرواحهم من الشَّقاء](٤) ، وأظهروا لهم [من صدق العزايم](٥) ما علموا

[redacted]

تُبَشِّر بتيسير كل مرام[١] . ودخلوا المدينة ، فألفوا بها من القُوت والعَتاد ، والمتاع الفاخر ، الذى يربو على التَّعداد ، [ما ملأ][٢] كلَّ يمين وشمال ، وظهروا عليها بعد بلوغ الأمانى على الكمال ، [وقتلوا بها من الحُماة أعداء ، أبدوا فى حماية ضلالهم ماضى الغِنا والاعتزام][٣] وأعملوا فيهم ماضى العوامل وشَبا الإضرام . وارتفع النصارى إلى القَصَبة لائذين بامتناعها ، مُعْتصمين بعُلُوِّها وارتفاعها ، مُتَخَيِّلين [لضلالهم ، وعدم استبصارهم][٤] أن نور الهدى لا يحلُّ بديارهم . فرأينا أن نُرقى الرجال إلى أبراج البلد وأسواره ، وأمرناهم أن يبيتوا طول ليلتهم مُضَيِّقين على من اعتصم بالقصبة فى حِصاره ، وعَمَدنا بالعسكر المظفر إلى موضع استيطانه من المحلة المنصورة واستقراره . فلما بدا ضوء الصباح بنور الإشراق ، ولاح وجْه[٥] الغزالة طارحاً شعاعه على الآفاق ، أمرنا بترتيب العساكر على القصبة للحصار ، وعيَّنا لكل جماعة منهم جهةً يبادرون إلى منازلتها بالقتال أشدَّ[٦] البدار ، فانتهى المسلمون من ذلك [إلى غاية لم][٧] تَخْطُر للكافرين ببال ، وجرَّعُوهم كؤوس المنايا ، وأداروا بها بنات الحَنايا ، [فأفضت السِّجال][٨] وأظهر الكفار ، مع وقوعهم فى بحر الموت صبرا وطمعوا ، أن يقيموا بذلك لصُلْبانهم

---

(١) هكذا وردت فى «ج» والإسكوريال . وفى «الزيتونة» (مراد) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال و«الزيتونة» . وفى «ج» (فملئوا) .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، وفى «الزيتونة» مع تحريف يسير . ووردت فى «ج» كالآتى (وقتلوا من بها من أهل الضلال والظلام) .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى الإسكوريال و«الزيتونة» (متخيلين لاستبصارهم فى ضلالهم) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» وفى الإسكوريال و«الزيتونة» (قرن) .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفي الإسكوريال (أوفى) .

(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى «ج» (الذى لم) والأولى أفصح وأنسب للسياق) .

(٨) الزيادة من الإسكوريال .

عُذْرا . فلما رأوا من عزْمنا مالم تتخيله ظنونُهم وأوهامهم ، وصابرَهم المسلمون عند النّزال مصابرةً عَظُم فيها إقدامهم [وثَبَتَت أقدامهم](١) ألقوا بأيديهم إلى التّهلكة ، إلقاء [من هاله لَمعان الأسنة ، واهتزاز رُدَيْنيات القنا](٢) ، ولاذوا بطلب الأمان لياذ الغريق بالساحل ، بعد ما أشرف على الفناء وهبط زعيمهم ، مقتحما خطر تلك المسالك ، متضرِّعا تضرع من طمع فى الحياة بعد ما أخذته أيدى المهالك ، وشَرَط أن يُمَلِّكنا القصبة . ويبقى خديماً لنا بما بيده من البلاد الكثيرة [والكَتِيبة](٣) المنتخبة ، فلم نظهر له عند ذلك قبُولا ، [ولم نجعل له](٤) إلى تكميل ما رغب فيه سبيلا ، فقاده البَأس الشديد إلى الإذعان ؛ ورغب أن يُكمل ما نريده على شرط(٥) الأمان . فأسْعَفْنا رغبته على شروط ، بعُد عَهْدُ المسلمين بمثلها ، [وهُيّئت الأسباب بما نعتمده](٦) من الثقة بالله وحده فى أمورنا كلها ، وذلك على كذا وكذا . وحين كَمُلت الشروط حق التكميل ، وظهرت لنا [منه](٧) إمارات الوفاء الجميل ، دخلنا القصبة حماها الله ، وقد أغْنى [يوم](٨) النصر عن شَهْر السلاح ، كما أغنى ضوء الصبح [عن نور المصباح](٩) ، ورُفعت على أبراجها حُمر الأعلام ، ناطقةً عن الإسلام ، بالتعريف والإعلام . وفى الحين وجهنا من يَقْبِضْ تلك الحصون ، ويُزيل ما بها من جُرْم(١٠) الكفر المأفون ، أمناء

---

(١) هذه الزيادة من الإسكوريال .

(٢) مابين الحاصرتين ساقط فى الإسكوريال ، ووارد فى «ج» و«الزيتونة» .

(٣) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا وردت فى «ج» و«الزيتونة» . وفى الإسكوريال (ولا جعلنا له) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» و«الزيتونة» (شروطاً) .

(٦) هكذا وردت فى «ج» «والزيتونة» . وفى الإسكوريال (وهيأت أسبابها ما يعتمد) .

(٧) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .

(٨) هذه الكلمة زائدة فى «الزيتونة» .

(٩) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال (عن فعل الصفاح) و«الزيتونة» (عن فعل المصباح) .

(١٠) هكذا وردت فى «ج» وفى الزيتونة والإسكوريال (حريم) .

رجالنا . فالحمد لله على هذه النعمة التى أحدثت للقلوب استبشارا ، وخَفَضت [عَلَم التثليث][١] ، ورفعت للتوحيد منارا ، وأظهرت للملّة الحنيفية على أعدائها اعتلاء واستكبارا . وهذا القدر من الفتح [وإن كان][٢] سامى الفَخْر باقى الذكر بقاء الدهر ، فإننا لنرجو من فضل الله أن يُتْبعه[٣] بما هو أعلى منه متانةً ، وأعظم[٤] فى قلوب أهل الإيمان موقعاً وأعز مكانة ، وأن يرغم بما يظهر على أيدينا من عز الإسلام ، أنف من أظهر له عنادا وخِذْلانا . فاستبشروا بهذا الفتح العظيم وبشِّروا ، واشكروا الله عليه ، فواجب أن تشكروا . وقد كتبنا هذا ، ونحن على عزمنا فى غزو بلاد الكفار ، والسعى الحميد [إلى التنكيل بهم][٥] والإضرار ، والمسلمون أعزهم الله فى أرضهم يشنون المغار[٦] ، ويمتلكون الأنجاد منها والأغوار ، ويكثرون القتل والأسار ، ويُحكِّمون أينما نزلوا السَّيف والنار ، [والسلام][٧] .

ومن نثر آخر إجازة ما صورته :

[وها أنا أجرى منه على حسن مُعْتَقَده ، وأَكِله فى هذا الغرض إلى ماوآه بمقتضى توَدُّده ، وأُجيز له ولولديه ، أقرّ الله بهما عينه ، وجمع بينهما وبينه ، رواية جميع ما نقلته وحملته ، وحُسْنُ اطلاعه يُفَصِّل من ذلك ما أجملته ، فقد أطْلَقتُ لهم الإذن فى جميعه ، وأبحْتُ لهم الحَمْل عنى ، ولهم الاختيار فى تنويعه . والله سبحانه وتعالى يُخلص أعمالنا لذاته ، ويجعلها فى ابتغاء مُرضاته . قال هذا محمد بن

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (علما) . وفى الإسكوريال (للشرك علما) .

(٢) هذه الزيادة من الإسكوريال .

(٣) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» . وفى الإسكوريال (يشفعه) .

(٤) هكذا فى «ج» والإسكوريال . وفى «الزيتونة» (وأسنى) .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى الزيتونة والإسكوريال (فى القطع بهم) .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (الغارات) . وفى الإسكوريال (المغوار) .

(٧) واردة فى «الزيتونة» والإسكوريال . وساقطة فى «ج» .

عبد الرحمن بن الحكيم حامداً لله عز وجل ، ومصلّياً ومسلماً][1] .

وفاته

قُتل رحمه الله صَبيحة عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة ، وذلك لتاريخ خلع سلطانه . واستولت يد الغوغاء على منازله ، شغلهم بها مُدبِّر الفتنة ، خيفة من أن يعاجلوه قبل تمام أمره . فضاع بها مال لا يُكتب ، وعُروض لا يُعلم لها قيمة من الكُتُب ، والذّخيرة والفرش والآنية والسلاح والمتاع والأُخْرَتِيّ ، وأُخْفِرت ذمّته ، وتُعُدِّي به عُدوة القتل إلى المُثْلة ، وقانا الله مصارع السوء ، فَطِيف بشِلوه ، وانتُهب فضاع [ولم يُقبَر][2] ، وجرت فيه شناعة كبيرة ، رحمه الله تعالى .

مولده

بُرُنْدَة ظهر يوم الإثنين الحادى والعشرين من ربيع الأول المبارك ، من عام ستين وستمائة[3] . وممن رثاه شيخنا أبو بكر بن شِبْرين رحمه الله تعالى بقوله :

[سَقَى الله أشْلاء كرُمْن على البِلى … وما غَضَّ من مقدارها حادث البَلا

ومما شَجانى أن أُهِين مكانُها … وأُهمل قَدْرٌ ما عهدناه مُهْمَلا

ألا أصْنع بها يادهرُ ما أنت صانعُ … فما كنتَ إلا عَبْدَها المُتَذَلّلا][4]

سَفَكْتَ وما كان الرَّقُوء نواله … لقد جئتَها شَنْعاء فاضحةَ المَلا

يكنى سبنتى أزرق العين مُطْرِقٌ … عدا فغدا فى غَيِّه متوغِّلا

لنِعْمَ قتيلُ القوم فى يوم عيده … قتيلٌ تبكيه المكارم والعُلا

(١) هذه الفقرة التى بين الحاصرتين وردت فقط فى «ج» . ولم ترد فى «الزيتونة» ولا فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت في «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (فلم يجبر) والأولى أرجح وأكثر تمشيا مع السياق .

(٣) هذه الفقرة الخاصة بمولد ابن الحكيم لم ترد فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» والإسكوريال

(٤) هذه الأبيات الثلاثة هى التى وردت فقط من القصيدة فى «الزيتونة» .

إلا إن يوم ابن الحكيم لَمُشْكِلٌ ... فؤادى فما ينفكُّ ما عشتُ مُشْكِلا
فَقَدْناه فى يوم أغرَّ مُحَجَّلٍ ... ففى الحَشْرِ نلقاه أغرَّ مُحجَّلا
تَمَتْ نحوه الأيام وهو عَمِيدُها ... فلم تشكر النُّعمى ولم تحفظ الوَلا
تعاوَرَت الأسياف منه مُمَدَّحاً ... كريماً سمافوق السّما كين مَنْزِلا(١)
وخانته رِجْلٌ فى الطَّوافِ به سَعَتْ ... فناء بِصَدْرٍ للعلوم تحمَّلا
وجَدلٌ لم يَحْضُره فى الحيّ ناصرٌ ... فمن مُبْلِغ الأحياء أن مُهَلْهَلا
يد الله فى ذاك الأديم مُمَزَّقا ... تبارك ما هَبَّتْ جنوباً وشَمْألا
ومِن حَزَنى أن لَسْتُ أعرف مَلْحَداً ... له فأوى للتُّرْب منه مقبّلا
رُوَيْدك يا مَنْ قد غدا شامتاً به ... فبالأمس ما كان العماد المُؤَمَّلا
وكنا نُغادى أو نُراوح بابَه ... وقد ظلَّ فى أوْج العُلا مُتَوقِّلا
ذكرناه يوماً فاستهلَّت جفوننا ... بدمع إذا ما أمحَل العام أخْضَلا
وما زج منه الحُزْن طول اعتبارنا ... ولم نَدْرِ ماذا منهما كان أطْوَلا
وهاج لنا شَجْواً تذكُّرُ مجلسٍ ... له كان يَهْدى الحيَّ والملأُ الأُلى
به كانت الدنيا تُؤخر مُدْبراً ... من الناس حَتْماً أو تُقدم مُقْبلا
لِتَبْكِ عيونُ الباكيات على فتًى ... كريم إذا ما أسْبَغَ العُرْفَ أجْزَلا
على خادم الآثار تُتْلَى صِحاحُها ... على حامل القرآن يُتْلَى مفصلا
على عَضُدِ المُلْكِ الذى قد تضوَّعت ... مكارمه فى الأرض مِسْكاً ومَنْدلا
على قاسم الأموال فينا على الذى ... وضعْنا لديه كل إصْرٍ على علا
وأنَّى لنا من بعده مُتَعَلَّلٌ ... وما كان فى حاجاتنا مُتَعَلِّلا
ألا يا قصيرَ العُمْر يا كاملَ العُلا ... يميناً لقد غادَرْت حُزْناً مؤثّلا
يسوء المُصَلَّى أن هَلَكْتَ ولم تَقُمْ ... عليك صلاةٌ فيه يشهدها المَلا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (مرحلا) . والأول أرجح .

وذاك لأنّ الأمر فيــه شهادةٌ　　وسُنَّتُها محفوظةٌ لن تُبَدَّلا
فيا أيها المَيْت الكريم الذى قضى　　سعيداً حميداً فاضلاً ومُفَضلا
لتَنْهَل من ربٍّ السماء شهادة　　تُلاقى بِبُشْرَى وجْهك المتهلِّلا
رثيْتُك عن حبٍّ ثَوى فى جوانحى　　فما ودَّع القلب العميد[وما قلا] (١)
ويارُبَّ من أوليته منك نعمةً　　وكنتَ له ذُخْراً عتيداً ومَوْئلا
تناساك حتى ما تَمُرُّ ببــاله　　ولم يَدَّكر ذاك النَّدى والتَّفَضُّلا
يُرابض فى مَثْواك كلَّ عشيَّةٍ　　صَفِيف شَواء أو قديداً مُعَجَّلا
كَفى الله من ينسى الأذمَّة رافضاً　　ويَذْهل مهما أصبح الأمر مُشْكلا
حنانَيْك يا بَدْرَ الهُدى فلشدَّما　　تركتَ بدُور الأفق بعد أُفَّلا
وكنتَ لآمالى حيــاةً هنيئةً　　فغادرت منى اليوم قَلْباً مُقَتَّلا
فلا وأبيــك الخير ما أنا بالذى　　على البُعْد يَنْسى من ذِمامك ماخلا
فأنت الذى آوَيْتَنى مُتغرِّباً　　وأنت الذى أكرمتنى مُتَطَفِّلا
[فإن لم أنلْ منك الذى كنتُ آملاً　　فما كنتَ إلا المُحسِن المُتَفَضِّلا] (٢)
فآليتُ لا ينفكَ قلبى مُكَمَّداً　　عليك ولا ينفكُّ دمعى مُسْبَلا

محمد بن عبد الرحمن العقيلى الجراوى (٣)

من أهل وادى آش ، وسكن غرناطة .

حـاله

فقيه أديب مُتَطَبِّب ، متفنن فى علوم جمة ، شاعر مطبوع ، يكنى أبا بكر .

---

(١) هكذا فى «ج» . وفى الإسكوريال (ولا قلا) .
(٢) هذا البيت زائد فى الإسكوريال .
(٣) هذه الترجمة واردة فقط فى مخطوط الإسكوريال .

مدح الأمير على بن يوسف اللمتونى بقوله :

رحلوا الركايب موهناً فأذاع عُرْفُهم السنا
والحلى قد أغرى بهم لما ترنم مُعلنا
كم حف حول جماهم من كل خطار القنا

قال أبو جعفر بن الزبير ، ينفك منها قصايد :

رحلوا الركاب موهناً ليكتموا ظَعْن الحُمول وهل توارى الأنجم
فأذاع سرهم السنا ورمى بهم فلٌّ الذميل شذام المُتَنَسم
كم حف حمل قبابهم وركابهم من ليث غاب فى براثنه الدم
من كل خطار القناة مموه بين الرحيل تَصَبُّه يستسلم

وهى طويلة ، خاطب بها أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، وقال فى وصف القصيدة :

أيا ملكا يسمو بسَعْد مُساعد وقَدْرٍ على علوّ الكواكب صاعد
نظمت قصيداً فى علاك مُضَمَّناً ثلاث قواف فى ثلاث قصايد
إذا فُصلت أغْنَى عن البعض بعضُها وإن وُصلت كانت ككعب وساعد

فأجازه بظهير كريم بتحرير ماله وتنويهه .

محمد بن عبد الرحمن (1) المُتأهل

من أهل وادى آش يعرف (2) بعمامتى

حاله

من التاج : ناظم أبيات ، وموضح غُرر وشَيات ، وصاحب توقيعات

(1) هكذا وردت فى أواخر الجزء الأول من مخطوط الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (عبد الرحيم) .

(2) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (المعروف) .

رفيعات ، وإشارات ذوات شارات . وكان شاعراً مِكثاراً ، وجواداً لايخاف[١] عِثاراً . أُدْخل على أمير بلده المخلوع عن مُلْكه ، بعد انتِثار[٢] سِلْكه ، وخروج الحضرة عن ملكه ، واستقراره بوادى آش ، مروع[٣] البال ، معلّلا بالآمال ، وقد بلغه دخول طبرنش فى طاعته ، فأنشده من ساعته :

خذهـــا اليك طبرنشا شفِّع بهـــا وادى الأشا
والأم تتبـــع بنتهـــا والله يفعـــل ما يشا

ومن نوادره العذبة يطلب خطة الحسْبة :

أنلنى يا خير البرية خُطَّة ترفعنى قَدْراً وتكسبنى عزاً
فأعتزُّ فى أهلى كما اعتز بَيْدَقٌ على سُفْرة الشطرنج لما انتنى فرزاً

فوقع الأمر بظهر رقعته ، ما ثبت فى حرف النون عند ذكره ، والاحتجاج بفضله .

وفاته

كان حياً بعد سنة سبع عشرة وسبعمائة . وفد على الحضرة مرات كثيرة .

محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طُفَيل القيسى

من أهل وادى آش ، يكنى أبا بكر .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (يخلف) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «الزيتونية» (استنثار) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مودوع) .

حـــاله (١)

كان عالماً ، صدْراً ، حكيما ، فيلسوفاً ، عارفاً بالمقالات والآراء ، كلفاً بالحكمة المشرقية ، محققاً ، متصوفاً ، طبيباً ماهراً ، فقيهاً بارع الأدب ، ناظماً ، ناثراً ، مشاركاً فى جملة من الفنون .

مشيخته

روى عن أبى محمد الرُّشاطى ، وعبد الحق بن عطية وغيرهما .

حُظوته ودخوله غرناطة

اختصّ بالريس أبى جعفر ، وأبى الحسن بن مَلْحان . قال ابن الأبار فى تُحفْته ، وكتب لوالى غرناطة وقتاً .

تواليفه

رسالة حىّ بن يقظان ، والأرجوزة الطبيّة المجهولة ، وغير ذلك .

شعــره

قال ، وهو القايل من قصيدة فى فتح قَفْصة سنة [ست وتسعين](٢) وأُنفِذت إلى البلاد :

ولما انقضى الفتح الذى كان يُرتجى   وأصبح حزب الله أغْلَبَ غالب
وأنجزَنا وعدٌ من الله صادق   كفيل بإبطال الظنون الكواذب
وساعدنا التّوفيق حتى بينّت   مقاصدنا مشروحة بالعواقب

(١) واردة فى «الزيتونة» وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال و«الزيتونة» . وهو تحريف ، وصحته (ست وسبعين) أعنى عام ٥٧٦ هـ وهو العام الذى افتتح فيه الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف مدينة قفصة ، التى خرجت على طاعته ، وكان فى ركابه طبيبه الخاص أبو بكر بن طفيل المترجم له . وقد أنفذت قصيدة ابن طفيل مع رسالة الفتح التى بعثت إلى البلاد .

وأذعن من عَلَيا هلالُ بن عامرٍ أبى وليّ الأمر كلٌّ مجانب
وهبّوا إذا هبَّ النسيم كما سرى ولم يتركوا بالشّرق علْقة آيب
يغَصّ بهم عرْض الفلا وهو واسع(١) وقد زاحموا الآفاق من كل جانب
كأنّ بسيط الأرض حلْقة خاتمٍ بهم وخِضَمٌ البحر بعض المذانب
ومدّ على حكم الصغار لسلمنا يديه عظيمُ الروم فى حال راغب
يُصرِّح بالرويا وبين ضلوعه نفْسُ مذعور ونفْرة راهب
وعِى من لسان الحال أفصحُ خطْبة ما وضحت عنه فِصاح القواضب
وأبصر متْن الأرض كفة حامل عليه وإصراه فى كفٍّ حالب
أشرنا بأعناق الجياد إليكم وعُجْباً عليكم من صدور الرّكايب
إلى بقْعة قد بيّن الله فضلها بمن حلَّ فيها من ولىٍّ وصاحب
على الصّفوة الأدْنَين منّا تحيةٌ توافيهم بين الصّبا والجنايب

وله أيضاً :

ألمّت وقد نام الرقيب(٢) وهوّما وأسْرَت الوادى(٣) العقيق من الحما
وراح إلى نجْدٍ فرُحتُ منْجدا ومرّت بنعمان فأضحى منُعَّما
وجرّت على ترْب المُخْضِبِ ذيلها فما زال ذاك التّرب نهباً مقسما
تناقله أيدى التجار لطيمة ويحمله الدارين أيّان يمما
ولما رَأتْ أن لا ظلام يجنها وأن سُراها فيه لن يتَكتما
سرت(٤) عذبات الرّبط عن حرٍّ وجهها فأبدت شعاعا يرفع اليوم مظلما(٥)

(١) وفى بعض النصوص تروى هذه الشطرة كالآتى (يغص بهم عرض الفيافى وطولها) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المعجب لعبد الواحد المراكشى (المشيح) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى المعجب (إلى الوادى) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى المعجب (نفت) .
(٥) وردت هذه الشطرة فى المعجب كالآتى (فأبدت محيا يدهش المتوسما) .

فكأنّ تجلّيها حجاب جمالها ... كشمس الضحى يَعْشَى بها الطَّرف كلّما
ولما رأت زُهْر الكواكب أنها ... هي النيّر الأسمى وإن كان باسما
بكت أسفاً أن لم تفُزْ بجوارها ... وأسْعَدها صوبُ الغمام فأسْجَما
فجاءت يَمُجُّ القَطْر ريّان بُرْدها ... فتنْفِضه كالدُّر فذّاً وتوأما
يضم علينا الماء فضل زكاتها ... كلٌّ بل سقط الطّلّ نوراً مُكَمَّما
ويَفْتَقُ نَضْح الغيث طيب عَرْفها ... نسيم الصَّبا بين العرار مُنَمَّما
جلّت عن ثناياها وأوْمَضَ برقُها(١) ... فلم أدر من شقّ الدُّجُنّة منهما
وساعدني جَفْنُ الغمام على البكا ... فلم أدر وجْداً(٢) أيّنا كان أسْجَما
ونظم سِمْطى ثغرها ووشاحها ... فأبصرتُ دُرَّ الثغر أحْلَى وأنْظما
تقول وقد ألْمَمْتُ أطراف كفّها ... يدى وقد أنْمَلتْ أخْمَصُها الفما
نشدتُك لا يَذْهَبْ بك الشوق مذهباً ... يُسَهِّل صعباً أو يُرَخِّص مأثما
فأقصرْتُ لا مُستغنياً عن نوالها ... ولكن رأيتُ الصَّبر أوفى وأكرما(٣)

وقال:

أتذكر إذ مسحتُ بفيك عَيْنِى ... وقد حلّ البكا فيها عقوده
ذكرتُ بأن ريقك ماء وَرْد ... فقابلتُ الحرارة بالبروده

وقال:

سألتُ من المليحة بُرْء دائي ... بِرَشْفٍ بُرُودها العذب المزاج
فما زالت تُقبّل فى جفوني ... وتُبْهِرُنى بأصناف الحِجاج
وقالت إن طَرْفك أصلاً لدائك ... فلْيقَدَّم في العلاج

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى المعجب (بارق) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المعجب (دمعا) .
(٣) هذه القصيدة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى «الزيتونة» .

توفى بمراكش سنة إحدى وثمانين وخمسماية وحضر السلطان[1] جنازته .

محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبيد الله
ابن عيّاش التُّجيبي البُرْشاني

من أهل حصن بُرْشانة[2] المحسوب فى هذه العمالة ، يكنى أبا عبد الله ، كاتب الخلافة .

حـــاله

قال القاضى أبو عبد الله بن عبد الملك[3] ، كان كاتباً بارعاً ، نصيحاً ، مُشرفاً على علوم اللسان ، حافظاً للّغات والآداب ، جزْلا ، سَرىّ الهمة ، كبير المقدار ، حسن الخلق ، كريم الطباع ، نفّاعاً بجاهه وماله ، كثير الاعتناء بطلبة العلْم ، والسعى الجميل لهم ، وإفاضة المعروف على قُصاده ، مستعيناً على ذلك بما نال من الثروة والحُظْوة والجاه ، عند الأمراء من بنى عبد المؤمن ، إذ كان صاحب القلم الأعلى ، على عهد المنصور وابنه ، رفيع المنزلة والمكانة لديهم ، قاصداً الإعراب فى كلامه ، لا يخاطب أحداً فى كلامه من الناس ، على تفاريق أحوالهم ، إلا بكلام مُعْرَب ، وربما استعمله فى مخاطبة خدمته وأمته ، من حُوشىّ الألفاظ ، مالا يكاد يستعمله ، ولا يفهمه إلّا حُفّاظ اللغة من أهل العلم ، عادة أَلِفَها واستمرت حاله عليها .

---

(١) المقصود بالسلطان هنا ، هو الخليفة الموحدى يعقوب المنصور ، وكان ابن طفيل طبيبه الخاص ، وصديقه الأثير لديه .

(٢) برشانة وبالإسبانية Purchina بلدة تقع على نهر المنصورة شمالى المرية وقد سبق التعريف بها .

(٣) هو القاضى ابن عبد الملك المراكشى صاحب كتاب «الذيل والتكملة» وقد سبق التعريف به .

مشيخته

روى عن أبى عبد الله بن حُميد ، وابن أبى القاسم [السُّهَيلى][1] ، وابن حُبَيْش ، [وروى عنه بنوه أبو جعفر ، وأبو القاسم ، وعبد الرحمن ، وأبو جعفر ابن عثمان ، وأبو القاسم البلوى][1] .

تواليفه

له اختصارٌ حسن فى إصلاح المنطق ، ورسايل مشهورة ، تناقلها الناس ، وشعرٌ يُحْسِن فى بعضه .

جاهه

حدث الشيخ أبو القاسم البلوى ، قال كنت أخِفُّ إليه ، وأشفع عنده فى كبار المسايل ، فيسرع فى قضايها . ولقد عَرَضت لبعض أصحابى من أهل بلاد الأندلس حاجةٌ مُهِمَّةٌ كبيرة ، وجب علىّ السعى فيها ، والتماس قضايها وفاء لربِّها ، ولم يكن لها إلا ما قَدَّرتُ من حسن نظره فيها ، ورجوته من جميل أثره فى تيسير أمرها ، وكان قد أصابه حينئذ التياثٌ لَزِم من أجله داره ، ودخلت عليه عايداً ، فأطال السؤال عن حالى ، وتبسَّط معى فى الكلام ، مبالغة فى تأنيسى ، فأجْملت ذكر الحاجة ، ورغبت منه فى الشَّفاعة عند السلطان فى شأنها ، وكان مضطجعاً ، فاستوى جالساً ، وقال لى ، جَهِل الناس قَدْرى ، وكرَّرها ثلاثا ، فى مثل هذا أشفع إلى أمير المؤمنين ، هات الدَّواة والقرطاس ، فناولته إياها ، فكتب برغبتى ، ورفعه إلى السلطان ، فصُرِف فى الحين مُعَلَّما ، فاستدعانى ، ودفعه إلىّ ، وقال يا أبا القاسم ، لا أرضى منك أن تُحْجِم عنى فى التماس قضاء حاجة تعرَّضت لك خاصة ، وإن كانت لأحد من معارفك عامة ، كَبُرت أو صَغُرت ، فألتزِم قضاءها ،

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «الزيتونة» وساقط فى الإسكوريال .

وعلىّ الوفا ، فإن لكل مكسب زكاة ، وزكاة الجاه بذله .

وحدثنى شيخى أبو الحسن بن الجياب ، عمن حدثه من أشياخه ، قال ، عرض أبو عبد الله بن عيّاش والكاتب ابن القالى[1] على المنصور كتابين ، وهو فى بعض الغزوات ، فى كَلَب البَرْد ، وبين يديه كانون جمر . وكان ابن عياش بارع الخط ، وابن القالى ركيكه ، ويفضله فى البلاغة ، أو بالعكس الشك منى . وقال المنصور أى كتب لو كان بهذا الخط ، وأى خط لو كان بهذا الكتب ، فرضى ابن القالى ، وسخط ابن عياش . فانتزع الكتاب من يد المنصور ، وطرحه فى النار وانصرف . قال ، فتغيّر وجهُ المنصور ، وابتدر أحد الأشياخ ؛ فقال يا أمير المؤمنين ، طَعَنْتُم له فى الوسيلة التى عرّفته ببابكم ، فعَظُمت غَيْرَتُه لمعرفته بقَدْر السبب الموصل إليكم . فسُرِّى عن المنصور ، وقال لأحد خدّامه ، إذهب إلى السّبى ، فاخْتَر أجمل نساء الأبكار ؛ وأت بابن عياش ، فقل له هذه تُطْفِى من خُلُقك . قال ابن عياش يخاطب ولَدَه ، وقد حدّث الحديث : هى أُمُّك يا محمد أو فلان .

بعض أخباره مع المنصور

ومحاورته الدّالة على جلالة قدره

قال ابن خميس ؛ حدّثنى خالى أبو عبد الله ابن عسكر ، أن الكاتب أبا عبد الله بن عيّاش ، كتب يوماً كتاباً ليهودى ، فكتب فيه ، ويحمل على البرّ والكرامة . فقال له المنصور[2] ، من أين لك أن تقول فى كافر ، ويحمل على البرّ والكرامة . فقال ففكّرت ساعة ، وقد علمت أن الاعتراض يلزمنى ، فقلت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذا أتاكم كريمُ قومٍ ، فأكرموه ؛

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (ابن القالى) .

(٢) وردت بعد هذه الكلمة فى الإسكوريال الكلمات الآتية (ففكرت ساعة وقد علمت) . وهى مكررة وقد جاء مكانها بعد .

وهذا عام فى الـكافر ، وغيره . فقال نعم هذه الـكرامة ، فالمبرة أين أخذتها ، قال فسكتُّ ولم أجد جوابا ، قال فقرأ المنصور ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم « لا ينهاكم الله عن الذّين لم يقاتلوكم فى الدّين ، ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبَرّوهم وتُقْسِطوا إليهم ، إن الله يُحبّ المُقْسِطين » . قال فشهدتُ بذلك ؛ وشكرته .

شعــــره

من شعره :

بلنسية بَيْنى عن العلياء سَلْوَةٌ ... فإنك روضٌ لا أحِنُّ لزَهرك
وكيف يحبُّ المرء داراً تَقَسَّمت ... على صارِمَىْ جِذع[1] وفِتْنَة مُشْرك

وذكره الأديب أبو بحر صفوان بن إدريس فى « زاد المسافر » عند اسم ابن عيّاش ، قال ، اجتمعنا فى ليلة بمرّاكش ، فقال أبو عبد الله ابن عيّاش :

وليلةٌ من ليالى الصَّفح قد جمعت ... إخوان صِدْقٍ ووصْلٌ للدهر غير مُخْتلس
كانوا على سُنَّة الأيام قد بعدُوا ... فألَّفَتْ بينهم لو ساعد الغَلَسُ

وقال من قصيدة :

أشِفارها[2] أم صارِمُ الحجّاج ... وجفُونها أم فِتْنَةُ الحلاّج
فإذا نظرتَ لأرضها وسمائها ... لم تَلْفَ غير أسِنَّةٍ وزُجاج

وقال فى المُصْحف الإمام ، المنسوب إلى عثمان بن عفان ، لما أمر المنصور بتَحْليَته بنفيس الدُّرّ من قصيده :

---

(١) وردت فى الإسكوريال (جوع) والتصويب من «الزيتونة» .
(٢) كذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (بأشفارها) .

وتَقَلْتَ من كلِّ مُلْكٍ ذخيرةً كأنهم كانوا بَرَسْمِ مكاسبه
فإن وَرِثَ الأملاكَ شَرْقاً ومَغْرباً فكم قد أخلُّوا جاهلين بواجبه
وألبَسْتَهَ الدُّر والياقوت حِلْيةً وغيرُك قد روّاه من دَمِ صاحبه

كتابته

قال ابن سعيد[1] فى المُرْقصات والمُطْربات ، أبو عبد الله بن عيّاش ، كاتب الناصر وغيره ، من بنى عبد المؤمن ، وواسِطَةُ عِقْد تَرْسِيله ، قوله فى رسالة كتبها فى نزول الناصر على المَهْدِية بحراً وبراً ، واسترجاعها من أيدى المُلَثَّمين[2] :

ولما حَلَلْنا عُرىَ السفَر ، بأن حللنا حِمَى المَهْدِيّة ، تناءلنا بأن تكون لمن حَلَّ بساحتها هَدِيّة ، فأحْدَقْنا بها إحداق الهُدْب بالعَيْن ، وأطَرْنا لمختلس وصالها غِرْبان البَيْن ، فبانت بليلة باسِرِيّة[3] ،وصابَح يوماً صافحته فيه يد المَنِيّة . ولما اجْتَلَينا منها عروساً ، قد مُدَّ بين يديها بِساط الماء ،وتوجهت بالهلال ، وقَرَّطَته بالثُّريا ، ووُشِّحَت بنجوم السّماء ، والسُّحب تَسْحَب عليها أرْدانها ، فتَرَنْدِيها تارة مُتَلَثِّمةً ، وطوراً سافرةً ، وكأنما شُرُفاتها المُشْرفة أنامل مُخْضَبة بالدّياجى ،

---

(١) هو على بن موسى بن سعيد الأندلسى المعروف بابن سعيد المغربى ، وأصله من سادة قلعة يحصب من أعمال غرناطة . وهو سليل أسرة من الأدباء تعاقبت فى تصنيف مؤلف أدبى وتاريخى ضخم أتمه على بن موسى آخر من نبغ من الأسرة ، وهو يضم كتابين كبيرين هما «المشرق فى حلى المشرق» «والمغرب فى حلى المغرب» وموضوعهما الحديث عن فضائل مدن المشرق والمغرب . ولابن سعيد كتب أخرى منها «المرقص والمطرب» ، و«الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد» «وملوك الشعر» ، وغيرها . ومولده سنة ٦١٠ هـ وتوفى بدمشق فى سنة ٦٧٣ هـ . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد .

(٢) يقصد بالملثمين هنا بنو غانية ، سادة ميورقة ، وأولياء المرابطين (الملثمين) . وكانوا قد غزوا إفريقية ، فى أواخر القرن السادس الهجرى ، واستولوا على معظم قواعدها ومنها ثغر المهدية ، الذى استرده الموحدون من يحيى بن غانية الميورقى فى سنة ٦٠٢ هـ ، فى عهد الخليفة الناصر بن يعقوب المنصور .

(٣) هكذا وردت هذه الكلمة فى «الزيتونة» ، وفى الإسكوريال كلمة محرفة رسمها (مابغية) .

مختتمة بالكواكب الزاهرة، تضحى عن شنب لا تزال تقبّله أفواه المجانيق، وتُمسى باسمة عن لعس، لا تبرح ترشفه شفاه سهام الحريق. خطبناها، فأرادت التنبيه على قدرها، والتوفير فى إعلاء مهرها، ومن خطب الحسناء، لم يغله المهر، فتمنعت تمنّع المقصورات فى الخيام، وأطالت إعمال العامل فى خدمتها، وتجريد الحسام، إلى أن تحققت عظم موقعها فى النفوس، ورأت(١) كثرة ما ألقى لها من نثار الرؤوس، جنحت إلى الإحصان بعد النشوز، ورأت اللجاج فى الامتناع من قبول الإحسان لا يجوز، فأمكنت زمامها من يد خاطبها، بعد مطاولة خطبها وخطابها، وأمتعته على رغم رقبيها بعناقها، ورشف رضابها، فبانت معرّسا، حيث لا حجال إلا من البنود، ولا خلوق إلا من [دماء](٢) أبطال الجنود، فأصبح وقد تلألأت بهذه البشاير وجوه الأفكار، وطارت بمسارها سوابح البرارى، وسوانح البحار. فالحمد لله الذى أقرّ الحقّ فى نصابه، واسترجعه من أيدى غصّابه، حمداً يجمع شمل النعم، ويلقحها كما تلقح الرياح الديم، فشنفوا الأسماع بهذه البشاير، واملئوا الصدور بما يرويه لكم من أحاديثها كل وارد وصادر، فهو الفتح الذى تفتحت له أبواب السماء [وعمّ الخير واليمن به](٣) بسيلى الثرى والماء، فشكر الله عليه فرض، فى كل قطر من أقطار الأرض.

دخل غرناطة، مرتاداً، ومتعلما، ومجتازاً.

مولده: ببرشانة بلده، عام خمسين وخمس مائة.

وفاته: توفى بمراكش فى شهر رجب الفرد من عام ثمانية عشرة وستماية، رحمه الله.

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة». وفى الإسكوريال (وزادت) وهو تحريف.

(٢) واردة فى الإسكوريال، وساقطة فى «الزيتونة».

(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال. وساقطة فى «الزيتونة».

محمد بن على بن محمد بن إبراهيم بن محمد الهَمْدانى(١)

من أهل وادى آش ، يكنى أبا القاسم ويعرف بابن البرّاق .

حاله

قال ابن عبد الملك ، كان محدِّثاً حافظاً ، راوية مكثرا ، ثقة ضابطاً ، شُهِر بحفظ كتب كثيرة ، من الحديث ، وغيره ، ذا نظر صالح فى الطّلب ، أديباً بارعاً ، كاتباً بليغاً ، مُكثراً لجيِّده ، سريع البديهة فى النظم والنثر ، والأدب أغلبُ عليه . قال أبو القاسم بن المواعينى ، ما رأيت فى عباد الله ، أسْرَعَ ارتجالا منه .

مشيخته

روى عن أبى بحر يوسف بن أحمد بن أبى عَيْشون ، وأبى بكر بن زَرْقون ، وابن قيد ، وابن إبراهيم بن الملى ، وابن النِّعمة وصَحْبه(٢)، ولَقِيه بمرّاكش ، ووليد بن مُوفق ، وأبى عبد الله بن يوسف بن سعادة ، ولازمه أزيد من ست سنين ، وأكثر عنه ، وابن العُمْرسى ، وأبى العباس بن إدريس ، والخرّوبى ، وتلا عليه بالسّبع ، وأكثر عنه ، وعَرَض عليه من حفظه كثيراً ، وابن مضاء ، وأبى على بن عرب ، وأبى القاسم بن حُبَيش ، وابن عبد الجبار ، وأبى محمد بن سهل الضرير ، وعاشر وقاسم بن دحمان ، وأبى يوسف بن طلحة . وأجاز له أبو بكر بن العربى ، وابن خير ، وابن مَنْدلة ، وابن تمارة ،

(١) هذه الترجمة واردة فى الإسكوريال فقط ، وساقطة فى «الزيتونة» و«ج» .

(٢) وردت فى الإسكوريال (ونحبه) ، وهو فيما يبدو تحريف اقتضى التصويب .

وأبو الحسن شريح ، وابن هُذيل ، ويونس بن مُغيث ، وأبو الجليل مفرج بن سلمة ، وأبو عبد الله حفيد مكى ، وأبو عبد الرحمن بن مساعد ، وأبو عامر محمد بن أحمد السالمى ، وأبو القاسم بن بشكوال ، وأبو محمد بن عبيد الله وأبو مروان البيّاضى ، وابن قُزمان ، وأبو الوليد بن حجاج .

من روى عنه

روى عنه ابنه أبو القاسم ، وأبو الحسن بن محمد بن بقى الغَسّانى ، وأبو عبد الله محمد بن يحيى الشُّكرى ، وأبو العباس النَّباتى ، وأبو عمرو بن عيّاد ، وهو أسنّ منه وأبو الكرم جودى .

تواليفه

صنّف فى الأدب مصنَّفات منها « بهجة الأفكار ، وفرصةُ التَّذكار فى مختار الأشعار » ، ومباشرة ليلة السَّفح ، ومقاله فى الإخوان ، خَرَّجها من شواهد الحِكم ، ومصنَّف فى أخبار معاوية ، والدُّر المنظم فى الإحسار المعظَّم ، ومجموع فى الألغاز ، وروضة الحدائق فى تأليف الكلام الرائق ، مجموع نظمه ونثره ، وملقى السبل فى فضل رمضان ، وقصيدته فى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ، وخطرات الواجد فى رثاء الواحد ، ورجوم الإنذار بهجوم العِذار ، إلى غير ذلك .

محنته

غرّبه الأمير ابن سعد[1] من وطنه ، وألزمه سكنى مُرْسية ، ثم بَلَنْسية . ولما مات ابن سعد آخر يوم من رجب سبع وستين وخمس ماية ، عاد إلى وطنه واستقر به يفيده الديّة ، إلى آخر عمره .

---

(١) هو الأمير محمد بن سعد بن مردنيش الجذامى أمير بلنسية ومرسية ، وقد سبق أن ترجم له ابن الخطيب فيما تقدم (ص ١٢٠ – ١٢٧) .

شعره

وشعره كثير . فمن ذلك القصيدة الشهيرة فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر صحابته :

بالهَضْبِ هَضْب زرود أو تلعاتها ساقتك هاتفة على نَغَماتها
مصدورة تفتن فى جيعها فيبين نَفْثُ السِّحر فى نَفَثاتها
إن راغها راد الضحى أو راعها جَنْح الدُّجا سيَّان فى ذكراتها
هذا يُمَتِّعُها وذاك يشوقها والموت فى يَقَظاتها وسِناتها
ولولا التعلل بالكَرَى ينتابُها نضحت فزَوْرُ الطَّيف برْحُ شِكاتها
لكن بين جُفونها وهِنامها خرزاً تثير النهب فى كَرَّاتها
ولئن نحقت لها به فتقول مَنْ يَلْقى الرِّياح بمُلتقى هبَّاتها
مَطْلُولة الفَرْعين يُلحفها الرُّبى كَنَفاً ويَلْثِمُها المُنى زهراتها
وتُسيغها ماء النَّخيلة جُرْعةً لِغياضها من مُجْتَنى نجلاتها

منها :

يا من تبلَّج نوره عن صادع بالواضحات الغُرِّ من آياتها
يا شارعاً فى أمة جعلت به وسداً فنالت مستدام حياتها
فى دار خُلْدٍ لا يَشِيب وليدُها حيث الشَّباب يرفُّ فى جَنَّاتها
وتَنَسُّم الرُّضوان فى أكنافها وشِمِيُ الرَّيحان من جَنَباتها
يا مُصْطَفاها مُرْفِعٌ قَدْرها بأكُنفُها يا مُنْتهى عَلْياتها
يا مُنْتَقاها من أرُومة هاشم يا هاشِمَ الصُّلبان فى نَزَاوتها
يا خاضِداً للشِّرْك شَوْكة حزبه يايافعاً للعُرْب فى جَمَراتها

قلت ، نقل الشيخ أزيد من ذلك أو ضعفه أو نحوه . إلى أن قال ، وهى طويلة ، قلتُ وثقيلة الرُّوح . ولقد صدق فى قوله .

ومن شعره :

يا بَدْرُ تِمٍّ طالعاً فى الحَشى ... بَرَّح بى منك أوان المغيب
حظُّك من قلبى تعذيبُه ... وحظّه منك الأسى والوجيب
فمن يكن يُزهى بلبس المُنى ... فإن زَهْوى بلحاس النَّحيب
فى ساعة قصر أنيسابها ... غيبتُه لى وحضور الرَّقيب
لعلّ من باعد ما بيننا ... يُفرِّج الكُرْبة عما قريب

[وقال](1) :

دنوا القِباب بأدمع مَفْضُوضة ... ذوى للفراق وأكبُدٍ تتَضرَّم
فالنَّفْس فى تلك الرُّبوع حبيبةٌ ... والقلب فى إثْر الوداع مُقَسَّمُ
هل لى بهاتيك الظِّبا إلماعة ... أم هل لذاك السِّرب شملٌ يُنْظَم
حَقّا فقدتُ الذّات عند فراقهم ... فالشَّخص يُوجد والحقيقة تُعْدَم

وفاته

توفى ببلده لثلاث بقين من رمضان ست وتسعين وخمس مائة . قال أبو القاسم المواعينى ، عَثَر فى مَشْيه فسقط ، فكان سبب مَنِيَّته ، ودخل غرناطة ، فى غير ما وُجْهة منها ، راويا عن أبى القاسم بن الفرس . ومع ذلك فهو من أحوازها وبُنَيَّاتها .

محمد بن على بن محمد بن على بن محمد بن خاتمة الأنصارى (2)

من أهل ألمريّة ، يكنى أبا عبد الله .

حاله

من كتاب الإكليل ما نصه : ممن ثَكلته اليراعة ، وفَقَدته البراعة ، تأدّب

---

(1) وضعنا هذه الكلمة لاختلاف الشعر .

(2) وردت لمحمد بن خاتمة الإنصارى أيضا فى «الزيتونة» ترجمة موجزة لا تعدو أربعة عشر سطراً.

بأخيه[١] ، وتهذب ، وأراه فى النظم المَذْهب ، وكساه من التفهّم والتعليم البُرْد المُذهَّب ، فاقتفى واقتدى ، وراح فى الحَلْبة واغتدى ، حتى نَبُلَ وشَدا . ولو أمهله الدهر لبلغ المدا . وأما خطُّه فقيد الأبصار ، وطُرْفة من طُرَف الأمصار ، واعتبط يانع الشَّبيبة ، مُخْضَرَّ الكتيبة .

شعـــــره

كفُّوا الملام فلا أُصْغى إلى العَذَل ... عقلى وسمعى عن العُذّال فى شغل

[يقول فى هذه القصيدة :

هَزْلُ المحبَّة جِدٌّ والهوان هوًى ... والصبُّ يتلف بين الجدّ والهزل
مَنْ مُسْعِدٍ وفؤادى لا يساعدنى ... أو مَنْ شَفيعى وذلّى ليس يشفع لى
أُعلِّل النَّفْس بالآمال أُطْمِعُها ... حتى وقَعْتُ من التَّعليل فى عِلل
لئن كنتَ تجهل ما فى الحبِّ من محَنٍ ... أنا الخبير فغيرى اليوم لا تَسَلِ
أنا الذى قد حَلَبْتُ الحبَّ أشْطُرَه ... فلم يُفِدنى لا حولى ولا حيلِ
لا أشرب الرّاح كى أحْلُو براحتها ... لكن لأدْفَع ما بالنَّفْس من كسلِ
ولا أجول بطَرْفى فى الرياض سوى ... ذِكْرى لأيامنا فى ظلِّها الأول
أنا العَهْدُ مضى ما كان أعْذَبَهُ ... لم يبق لى غير آيات من الخبَل
كم فَدَيْتُك يا قلبى وأنت على ... تلك الغِواية لم تَبْرَح ولم تزل
فاخْتَرْ لنفسك إما أن تُصاحبَنى ... حُلْواً وإلا فَدَعْنى منك وارتحِلِ
فقد تبعتُك حتى سرتُ من شَغَفى ... ولَوْعتى فى الهوى أعجوبة المُثُل

ومن شعره :

ومَضَ البرقُ فثار القَلَق ... ومضى النَّوم وحلَّ الأرق

---

(١) وردت ترجمة أخيه أحمد بن خاتمة فى المجلد الأول من الإحاطة (١٩٧٣) ص ٢٣٩ – ٢٥٩ .

ويَنْعانى من غرامى قد شكا ودموعى من وُلوعى تَنْطق
ودليــلى فى غَلِيــلى زَفْرَتى وعــذابى بانتِحابى أصْدَق
وحَسُودى من وَقُودى رقَّ لى ضِمْناً فيهــا الحمى والأيْفَق
وعِشيّــات تَقَضَّت باللِّوى فى مُخيِّلى الدهر منها رونق
إذ شبابى والتّصابى جُمعا ورياض الأُنْس غضٌّ مُونَق
شتَّ يوم البَيْن شملى ليت ما خُلق البين لقلبٍ يعشق
آه من يوم قضى لى فُرْقة شاب منِّى يوم حلّت مِفْرَق

ومن ذلك :

أيا جيرةَ الحيِّ المُمَنَّع جارُه سقى ريقَكم دمعى إذا بَخُل الوَبْل
متى غِبْتم عنى فأنتم بخاطرى وإن تقصدوا ذُلِّى فقد لذّ لى الذُّل
عذابكم قُرْبٌ وبُخْلُكم ندى وإذلا لكم عزٌّ وهُجرانكم وَصْل
وأنتم نَعَيمى لا نَعِمْتُ بغيركم ورَوْضى لا ما أريد ولا ظِلُّ](١)

ومن ظريف نزعاته قوله :

الرَّفْعُ نَعْتُكم لا خابكم أملُ والخفْضُ شيمةُ شأنى والهوى دُول
هل منكم لى عطف بَعْد بُعْدِكم إذ ليس لى منكم يا سادتى بَدَل

وفاته

اعتُبط فى الطاعون فى أوايل ربيع الأول عام خمسين وسبعمائة . وَرَدَ إلى الحضرة غير ما مرة

(١) كل ما ورد من الشعر بين الحاصرتين ساقط فى « الزيتونة » ، ووارد فى الإسكوريال .

محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قُزْمان الزُّهرى (١)

من أهل قرطبة يكنى أبا بكر

حـــاله

نسيجُ وَحْده ، أدباً وظرفاً ولَوْذَعيَّة وشهرة . قال ابن عبد الملك ، كان أديباً بارعاً ، محسناً ، شاعراً حُلو الـكلام ، مليح التَنْدِير ، مبرِّزاً فى نظم الطريقة الهزلية ، بلسان عوام الأندلس ، الملقب بالزَّجَل . قلتُ وهذه الطريقة بديعةٌ يتحكمَّ فيها ألقاب البديع ، وتَنْفَسِخ لـكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر . وبلغ فيها أبو بكر مَبْلغاً حَجَرَهُ الله عن سواه . فهو آيتُها المعجزة ، وحجَّتها البالغة ، وفارسها العَلَم ، والمُبْتَدَى فيها والمُتَمِّم ، رحمه الله . وقال الفَتْح (٢) فيه : «مبرِّزٌ فى البيان ، ومُحرِزٌ السَّبق عند تسابق الأعيان ، اشتمل عليه المتوكل على الله اشتمالا رقَّاه إلى مجالس ، وكساه ملابس ، واقتطع أسمى الرُّتَب وتبوَّأها ، ونال أسنى الخُطط وما تملأها » .

شعـــــره

قال الفَتْحُ ، وقد أثبت له ما يُعلم به رفيع قدره ، ويُعرف كيف أسا الزمن بغدره ، قوله :

ركِبوا السيول (٣) من الخيول وركَّبوا   فوق العَوالى السُّمْرِ زُرْقَ قِطاف
وتجللوا الغُدْران من ماذيهم   مرتجة إلا على الأكتاف (٤)

---

(١) لنا فى خاتمة هذا المجلد تعليق على هذه الترجمة .

(٢) هو الفتح بن خاقان صاحب كتاب «قلائد العقيان» المتوفى سنة ٥٣٥ هـ .

(٣) وردت فى الإسكوريال (الحيول) والتصويب من القلائد .

(٤) وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال كالآتى : (مرتجة إلا على على الأكتاف) . والتصويب من « القلائد » .

[وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبى الخصال يستدعيه إلى مجلس أُنْس :

أنى أهزُّك هزَّ الصَّارم الخذِم ... وبيننا كلُّ ما تدريه من ذِمَمِ
ذاك شاك من قَطْع أُنْس أنت واصلُه ... بمـا لديك من الآداب والحِكم
وشتَّ شملُ كِرام أنت ناظمُه ... ورُدَّ دعوة أهل المجد والكرم
ولو دُعيت إلى أشـالها لسَعتْ ... إليك سعى مَشُوقٍ هائم قَدِم
وإن لشطْتَ لتصريفى صرفتُ له ... وجهى وكنتُ من الأعوان والخَدَم
وما أريد سوى عفوٍ تجـود به ... وفى حديثك ما يُشْفى من الألم
أنت المُقدَّم فى فخرٍ وفى أدب ... فاطلَعْ علينا طلوع السيِّد العَمِم

فأجابه رحمه الله :

أتى من المجد أمرٌ لا مَرَدَّ له ... نمشى على الرأس فيه لا على القَدَم
لَبَّيك لبيك أضعافا مُضاعفة ... إنى أجبْتُ ولـكن داعى الـكَرَم
لى همَّة ولأهل العزِّ مَطْمَحُها ... لا زلتَ فى كلِّ مجد مطمح الهمم
وإن حَقَّك معروف وملتَزم ... وكيف يُوجد عندى غيرُ مُلتَزِم
زَفْنٌ[1] وَرقْصٌ وما أحببتَ من مُلَح ... عندى وأكْثر ما تَدْريه من شِيَم
حتى يكون كلامُ الحاضرين بها ... عند الصَّباح وما بالعهد من قِدَم
يا ليلة السَّفح هلاَّ عُدت ثانية ... سقى زمانك هطَّالٌ من الدِّيم][2]

وقال فى غرض النَّسيب :

يارُبَّ يوم زادنى فيه ... من أطْلَعَ من غُرّه كوكبا
ذو شَفَةٍ لمْياء معسولة ... يَنْشَعُ من خدَّيه ماء الصِّبا

---

(١) زفن أى طرب ورقص .

(٢) الشعر الذى بين الحاصرتين كله ساقطه فى «الزيتونة» .

قلت له وهَبْ لى بها قُبْلَةً … فقال لى مُبتسما مُرحِّبا
فذقت شيئا لم أذُقْ مثله … لله ما أحْلى وما أعْذبا
أسْعدنى الله بإسعـــاده … يا شقوَتى يا شقوتى لو أبا

وقال :

جئت لتوديعه وقد ذرفت … عيناى من حَسْرة وعيناه
فى موكب البَيْن باكِيَيْن ولا … أصعَب من موقف وقفناه
معانقاً جيدَه على حذر … فمن رآنى مُقَبِّلاً فاه
نَغّص توديعُه لعاشقه … ما كان من قبل قد تمناه

وقال يعتذر ارتجالا وأحسن ما أراد :

يا أهل ذا المجلس السّامى سَراوتُهُ … ما مِلت لـكننى مالت بى الرّاح
وإن أكن مُطْفئا مصباح بيتكم … فـكلُّ من فيكمُ فى البيت مصباح

وقال يُهنى بعرس :

صَرَفت إليك وجوهَها الأفراح … وتـكنّفتك سعادةٌ ونجـــاح
فاقضِ المآرب فى زمان صالح … لا سُدَّ عنك من الزّمان صلاح
إن كان كالشمس المنيرة حُسنْها … فالبَدْرُ أنت وما عليك جُناح
لا فرق بينكما لرأيٍ فاستوى … زىُّ النسـاء قلادةٌ ووشـــاح
هل يُوقد المصباح عندكما مُهَجًا … وكلاكما بِبَهائه مصبـــاح
أحْرَزْتَ يا عبد العزيز محاسنا … كثُرت فلم تَسْتَوفِها الأمداح
يا من له كَفٌّ تجود وأضلعٌ … مَطْوِى على حِفظ الوداد شحاح
ما ألقَتْ الحاجات دونى قُفْلها … إلا ويمن يمينك المِفْتاح
فى كل ما تنحو إليه ملاحةٌ … وكذاك أفعال المَليح مِلاحُ](١)

(١) الشعر الذى بين الحاصرتين ساقط فى الزيتونة .

ومن حكمه قوله :

كثير المال تبذله فيبقى ... ولا يبقى مع البخل القليل
ومن غرست يداه ثمار جود ... ففي ظل الثناء له مقيل

وقال رحمه الله :

وعهدي بالشباب وحسن قدّي ... حكى ألف ابن مقلة في الكتاب
فصرت اليوم منحنيا كأني ... أفتش في التراب على الشباب

وقال رحمه الله :

يمسك الفارس رمحاً ... وأنا أمسك فيها قصبة[1]
وكلانا بطل في حربه ... إن الأقلام رماح الكتبة

قال ابن عبد الملك : أنشدت على شيخنا أبي الحسن الرُّعيني ، قال ، أخبرنا الراوية أبو القاسم بن الطَّيلسان ، قال سألته ، يعني أبا القاسم أحمد بن أبي بكر هذا ، أن ينشد شيئاً من شعر أبيه المُغْرِب[2] ، فأخرج لي قطعة بخط أبيه وأنشده . وقال أنشدني أبي رحمه الله لنفسه :

أحسنُ ما نيط في الدُّعا لمن ... رُتِّب في خُطة من الخطط
خلَّصك الله من عوايقها ... ودُمْتَ في عِصْمة من الغلط
مُقَرِّباً منك ما تُسَرُّ به ... وكل مكروهة على شحط
الكلُّ بالعدل منك مغتبط ... وليس في الناس غيرُ مُغْتَبِط
وليس يخليك من أنا لكها[3] ... من عملٍ بالنجاة مُرْتبط

(١) هكذا في الإسكوريال . وفي «الزيتونة» (القصبة) .

(٢) هكذا وردت في «الزيتونة» . وفي الإسكوريال (المعرب) . والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت في الإسكوريال ، وفي «الزيتونة» (أما لكيها) .

فانفُذْ بعون الله مُجتهِدا ... بقلب |صَفِيِّ بالضمير |[1] مرتبط
يا صاحب الأمر والذي[2] يدُه ... نايِلها للعُفاة غير بَطِ
رفَعْتم يا بنى رَفاعة ما كان ... من المعلُوّات | فى هَبَط |[3]
ومِنْبر الحق من سوّاه بكم ... فها هو الآن غيرُ مُختلط
وانْضَبط الأمر واستقام لكم ... ولم يكن من قبل ذا بمُنْضَبِط
أتَيْتَ فى كل ما أتيتَ به ... فالغيثُ بعد الرجا والقنَط
جَلَلْت عمّن سِواك منزلةً ... فلستَ مِمّن سِواك فى نَمَط
أنت من المجد والعُلا طرفٌ ... وكلُّهم فى العُلا من الوَسَط

كتابته

وقفتُ من ذلك على أفانين . منها فى استهلال شهر رمضان قوله :

سلام على أُنس المجتهدين ، وراحة المُتهجِّدين ، وقرّة أعين المهتدين ، والذى زيّن الله به الدُّنيا ، وأعزّ به الدين . شرّف الله به الإسلام ، وجعل أيامه رُقوما فى عواتق الأيام . وشهوره غُرَراً فى جِباه الأعلام ، وحلّ به عن رقاب الأمة قلايد الآثام ، ونزّه فيه الأسماع عن المكاره ، وصان الأفواه من رَفَثِ الكلام . أشهد أن الله أثنى عليك ، وأدخل من شاء الجنّة على يديك ، وخصّك من الفضايل بما يعشى فيه التفسير حتى يَكلّ ويَسْأم ، ذلك اللسان ويملّ ، وأبادت ذنوب الأمة بمثل ما أبادت الشمس الظّلّ ، ذلك الذى يتهلل للسماء هلاله ، ويهتزّ العرش لجلاله ، وترتج الملايكة فى حين إقباله ، وتدخل الحور العين فى زينتها تكريماً ، وتلتزم إجلاله وتعظيماً ، ويهتدى فيه الناس إلى دينهم صراطاً مستقيما ، وتُغَلّ الشياطين على ما

---

(١) هكذا وردت هاتان الكلمتان فى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال (صافى الضمير) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (التى) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (منهبط) .

خُيِّلت . وتذوق وبال ما كادت به وتخيلت ، ويشمرّ التقى لعبادة ربّه ذيلا ، وتهبط الملايكة إلى سماء[1] الدنيا ليلا ، وينتظم المتقُّون فى ديوانه انتظام السِّلك . ويكون خُلوف فَم الصايم عند الله أطيب من ريح المسك ، وتفتح الجنّة أبواباً ، ويُغفر لمن صامه إيماناً واحتساباً ، جزاءً من ربك عطاءً حسابا ، وبما فضَّلك الله على سائر الشهور ، وقضى لك بالشَّرف والفضل المشهور . فرَضَك فى كتابه ، ومدحك فى خطابه ، حيث قال ، شهرُ رمضان الذى أُنْزِل فيه القرآن هُدًى للناس ، وبينات من الهدى والفُرقان ، يعنى تكبيرُ الناس عليك ، وتقليبُ أحداقهم بالنظر إليك ، حين لثُمت بالسحاب ، ونظرتَ من تحت ذلك النِّقاب ، وقد يمتاز الشَّيْب وأن استتر بالخضاب ، حتى إذا وقف الأيمَّة منك على الصَّحيح ، وصرَّحوا برؤيتك كلَّ التصريح ، نَظَرت كل جماعة فى اجتماعها ، وتأهَّبت القرَّاء لإشفاعها ، واندفعت الأصوات باختلاف أنواعها ، وتضرعت[2] الألباب ، وطلبت المواقف أواخر الأعشار والأحزاب ، وابتديت ألّم[3] ذلك الكتاب ، عندما أوقدت قناديل كأنما قد بَدَت من الصباح ، ورقصت رقص النواهد عند هبوب الرياح ، والله نُور السموات والأرض ، مَثَلُ نوره كمِشْكاة فيها مصباح ، فأمَّلك المسلمون فى سرٍّ وجهر ، وحُطَّت أثقال السيئات عن كل ظَهْر ، والتمست الليلةُ التى هى خيرٌ من ألف شهر ، فنشط الصالحون بك صوماً ، وهجر المُتَهجِّدون فى ليلك نوماً ، وأكْمَلْنَاك إن أذن الله ثلاثين يوما . فيا أيها الذى رَحَل رحل[4] بعد مُقامة ، وقام للسَّفر من مقامه ، ورأى من قضى حقَّه ، ومن قصَّر فى صيامه ، فمشى الناس إلى تَشْييعه ، وبَكُوا لفراقه وتوديعه ، ونَدِم المُضَيِّع على ما كان من تَضْييعه ، ولم يبق

(١) وردت فى الإسكوريال (السماء) والتصويب من «الزيتونة» .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال (واصطرعت) .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال (أ.ل.م) .

(٤) هكذا وردت هذه الكلمة مكررة فى الإسكوريال . ولم تكرر فى الزيتونة .

بدوام العيش إلى وقت رجوعه ، فعضّ على كفّه ندما ، وبكتْ عينه ماء وكبده دماً . رويدا حتى أمرح فى ميدان فراقك ، وأتضرع إلى حنانك وإشفاقك ، وأتشفى من تقبيلك وعناقك ، وأسأل منك حاجة إن أراد الله قضاها ، وشاء نفوذها وإمضاها ، إذا أنت وقفت لربٍّ العالمين ، فقبلك من قوم ، وردّك فى وجوه آخرين . إن تثنى جميلا ، فعسى يصفح لعهده وإن أسا ، فعلم الله أنى نويت التوبة أولا وآخراً ، وأملت الأداء باطنا وظاهرا ، وكنتَ على ذلك لو هدى الله قادراً ، وإنما عُلم ، من تقصير الإنسان ما عُلم ، وللمرء ماقُضى عليه به وحُكم ، وإن النفس لأمارةٌ بالسّوء إلا من رَحم ، فإن غَفَر فبطَوْله وإحسانه ، وإن عاقب فبما قدّمتَ يدُ العبد من عصيانه ، فياوَحْشَةٌ لهذه الفرقة ، ويا أسفا على بعد الشُّقة ، ويا شدة[1] ما خلّفْتَه لنا بفراقك من الجهْد والمشقة ، ولطالما هَجَر الإنسان بك ذنبه ، وراقب إعظاما لكربه ، وشَرَحْتَ إلى أعمال البرِّ قلبه . ومع هذا أتراك ترجع وتُرى ، أم تُضَمُّ علينادونك أطباق الثّرى . فياوَيْلتا إن حلّ الأجل ، ولم أقضِ دينْك ، ورجَعْتَ وقد حال الموت بينى وبينك . فأغْرب ، لا جعله الله آخر التوديع ، وأىّ قلب يستطيع .

وقال فى استهلال شوال :

ولكل مقام مقال . الله أكبر هذا هلالُ شوّال قد طَلَع ، وكرّ فى منازله وقَطَع ، وغاب أحد عشر شهراً ، ثم رَجَع . مالى أراه رقيق الاستهلال ، خفىّ الهلال ، وروحاً تردّد فى مثل الخلال ، ما باله أمسى الله رسْمَه ، وصحّح جسمه ، ورفع فى شهور العام اسمه ، على وجهه صُفْرةٌ بَيِّنة ، ونار إشْراقه ليِّنة ، وأرى السحاب تعتمده وتَقِف ، وتغشاه سُوَيْعة وتنصرف ، ما أراه إلاّ بطُول ذلك المقام ، وتوالى الأهوال العِظام . أصابه مرض فى فصْلٍ من فصول العام ، فعادته كما يُعاد المريض ، وبكته

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (وياشر) والأولى أرجح .

الأيام الغُرُّ والليالى البِيض ، وقُلْنَ كلأك الله وكفاك ، وحاطك وشفاك ، وقُلْ كيف نجدك ، لافُضَّ فاك ، هذا على الظَّن لا على التحقيق ، ومجازٌ لا يحكُمُ التَّصديق . وإنه لَيَبْعُدُ مثل هذا المقدار ، أن يَقْدح فيه طول الغَيْب ، وتواتُر الأسفار . أليس هو قد أَلِفَ مجالى الرِّياح ، وصَحِب بَرْد الصَّباح ، وشاهد الأهْوِية مع الغَدْو والرَّواح ، وطواها بتجربته طَىَّ الوِشاح . ما ذاك إلا أنَّه رأى الشمس فى بعض الأيام ماشيةً ، والحُسْن يأخذ منها وسَطاً وحاشيةً ، ودلائل شبابها ظاهرةٌ فاشيةٌ ، فوقع منها فى نفسه ما وقع ، وثَبَت على قلبه من النَّظر ما زرع ، ووقع فى شَرَكها ، وحقَّ له أن يقع . فرَثَتْ هى لحاله وأشفقت ، ونَهَجت بوصالها وتأنَّقت ، وقطعت من معدن نَيْلها وأنفقت ، ورأت أنها له شاكلةٌ يبلغ أمَلَها ، وتبلغ مَأْمَله ، ولذلك ما مدَّت لذيذ السَّماح ، فتعرَّضت بالعشِيِّ ، وارتصدها فى الصباح ، مع ما أيقنّا به من الانقطاع ، ويئسْنا من الاجتماع ، كما نَفِد القَدَر ، وصدر الخبر. وقال تعلمن لا الشمس ينبغى لها أن تُدْرِك القمر ، فوَجَد لذلك وجْداً شديداً ، وأذاقه مع الساعات شوقاً جديداً ، وأصبح بها دنِفاً ، وأمسى عميداً ، حتى سَلَب ذلك بَهاه ، وأذهب سَناه ، وورده النحول كما شاه ، ولقى منها مثل ما لقى غَيْلانُ من مَيَّته ، وجميلٌ من بُثَيْنته ، وحنّ إليها حنين عُروة إلى عَفْرا ، وموعدها يوم وهَب ناقته الصَّفراء . على رِسْلك أنى وَهمت ، وحَسِبت ذلك حقاً وتوهَّمت . والآن وقد فَطِنت ، وأصبت الفَصَّ فيما ظننت ، إنه لقى رمضان فى إقباله وضَمَّه نقْصان هلاله ، وصامه فجأة ولم يكُ فى باله ، فأثّر ذلك فى وجهه الطَّلْق ، وأضعفه كما فعل بساير الخَلْق ، وها هو قد أقبل من سفره البعيد ، فَقُل هو هلال الفِطْر أو قُلْ هو هلال العيد ، فلَقَه صباح مَشِى الناس فيه مَشْى الحَباب ، ولبسوا أفضل الثياب ، وبرزوا إلى مُصَلَّاهم من كل باب ، فارتفعت هِمّةُ الإسلام . وشرُفَت أمة محمد عليه السلام ، وخَطَب بالناس ودعا للإمام ، عندما طلعت

الشمس بوجه كَدَوْرِ المرآة ، ولونٍ كصفا المهراة . وخرج لا يُنْسيها ريمُ الفلاة . وقضوا السُّنَّة ، وبذلوا الجهد فى ذلك والمِنَّة ، وسألوا من الله أن يُدْخِلهم الجنَّة ، ثم خطبوا حمداً لله وشكراً ، وذكروه كذكرهم آباءهم أو أشدَّ ذكراً ، ثم انصرفوا راشدين ، وافترقوا حامدين ، وشَبَّكَ الشيخ بيديه ، ونظر الشّاب فى كفَّيه ، ورجعوا على غير الطريق الذى أتوا عليه ، فلقد استَشْفَى من الرُّؤية ذو عينين ، وتذكَّر العاشق موقف البَيْن ، وشقَّ المُتَنَزِّه بين الصَّفين ، فنقل عينيه من الوَشْيِ إلى الدِّيباج ، ووجوهٌ كضوء السِّراج ، وعيونٌ أقْتَل من سيف الحَجّاج ، ونظراتٍ لا يُدفع داؤها بالعلاج ، وقد زُيِّنت العيون بالتَّكحيل ، والشعود بالتَّرجيل ، وكرَّر السِّواك على مواضع التَّقبيل ، وطُوِّقت الأعناق بالعقود ، وضُرب الفِكر فى صفحات الخدُود ، ومُدَّ بالغالية على مواضع السجود ، وأقبلت صَنْعا بأوْشيتها ، وعنت بأرديتها ، ودخلت العروس فى حِلْيَتها ، ورُقِّت الكفوف بالحنّاء ، وأُثْني على الحُسْن وهو أحقُّ بالثناء ، وطُلِّقت التَّوبة ثلاثاً بعد البناء ، وغصَّ الذِّراع بالسِّوار ، وتُختِّم فى اليمين واليسار ، وأُمسكت الثياب بأيدى الأبكار ، ومشت الأماء أمام الأحرار ، وتقدمت الدَّايات بالأطفال الصِّغار ، وامتلأت الدُّنيا سرراً ، وانقلب الكلُّ إلى أهله مسروراً . وبينما كانت الحال كما نَصَصْت ، والحكاية كما قَصَصْت ، إذ تلألأت الدنيا بَرْقاً ، وامتدَّ مع الأُفُقين غرباً وشرقاً ، وردَّ لمعانه عيون الناظرين زُرْقاً ، ولولا أنه جرَّب حتى يَدْرا ، لقيل قد طلعت مع الشمس شمسٌ أخرى ، حتى أقبل من شَرُفَت العربُ بنسبه ، وفَخَر الإسلام بسببه ، من انتَسَب إلى زَهْرةٍ وقُصَيّ ، وازدانت به آل غالب وآل لؤى ، من إذا ذكر المجد فهو مُمْسك بنَدِه ، أو الفضل فهو لابسٌ بُرْدَه ، أو الفخر فهو واسِطَةُ عِقْده ، أو الحُسْن فهو نسيج وحده ، الذى رفع لواء العليا ، وعارضت مكارمه صوب[1] الحبا ، وحَكَت محاسنه زهرة الحياة الدنيا . فأما

(١) أول الكلمة فى المخطوط مختف تحت الحبر ونرجح هذه القراءة .

وجهه فكما شَرَقت الشمس وأشْرَقت ، وغَرُبت كواكب سمائها وشَرُقت ، وتفتّحت أطواق الليل عن غُرر مجده وتشقّقت . ولولا حياً يغلب عليه ، وخَفَرٌ يصحبه إذا نظرت إليه ، لاستحال النهار ، وغارت لنوره كواكب الأسحار ، ولكاد سَنا بَرْقه يذهب بالأبصار ، لا يحفل بالصبح إذا انفَلَق ، ولا بالفجر إذا عمّ آفاق الدُّجا وطبّق ، ولو بدا للمسافر فى ليله لطَرَق ، قد عجم الأبنوس على العاج ، وأدار جَفْناً كما عَطَف على أطفالها النِّعاج ، يَضْرب بها ضرب السيف ، ويُلم بالفؤاد إلمام الطَّيف ، ويتلقّاها السِّحْر تلقّى الكريم للضيف ، لو جرّدها على الرِّيم لوقف ، أو على فِرْعون ما صرف من سِحْره ما صرف ، أو على بِسْطام ابن قَيْس لألقى سِلاحه وانصرف . وأما أدواته فكما انشقّت الأرض عن نباتها ، وأخذت زُخْرُفها فى إنباتها ، ونَفَح عَرف النَّسيم فى جَنَباتها ، يتفنّن أفانين الزهر ، ويتقلب تقلُّب الدهر ، وتطْلعُ له نوادر كالنجوم الزُّهر ، لو أبصره مُطَرِّف ما شهر بخطأه ، ولا جرَّ من العُجْب ذيل مِرْطِه ، ولا كان المخبر معه من شَرْطه . وأما أنه لو قُرى على سحبان كتابَه ، وانحدر على نهره عُبابه ، وملأت مسامعه أطنابه وأسبابه ، ما قام فى بيانه ولا قَعد ، ولنزل عن مَقامه الذى إليه صَعد ، ولا خَلّف من بلاغته ما وعد . لعَمْرُك ما كان بِشْر بن المعتمر يتفنّن للبلاغة فنوناً ، ولا يتقبّلها بطوناً ومُتوناً ، ولا أبو العتاهية ليُشْرِطَها كلاماً موزوناً ، ولا نمّق الحسَنُ بن سهل الألفاظ ، ولا رَفَع قسُّ بن ساعدة صوتَه بعُكاظ ، ولا أغاظ زيدُ بن على . هشاماً بما أغاظ . وأما مكارمه فكما انْسكب الغيث عن ظِلاله وخرج الوَدْقُ من غِلاله ، فتدارك النَّعمة عن فوتها ، وأحيا الأرض بعد مَوْتها . ذلك الشريف الأجلُّ ، الوزير الأفضل ، أبو طالب ابن القُرشى الزُّهرى ، أدام الله اعتزازه ، كما رَقَم فى حُلَل الفخر طِرازه ، فاجتمعت به السيادة بعد افتراقها . وأشرق وجه الأرض لإشراقها ، والتفّت الشباب

بالشباب ، وضمّ الرّكاب بالرّكاب ، ولاعهدٌ كأيام الشباب ، فوصل القريب البعيد ، وهنوه كما جرت العادة بالعيد ، فوقف مع ركابه وسلّمت ، وجرت كلاماً وبه تكلّمت ، فقلت تقبّل الله سعيك ، وزكّى عملك ، وبلّغك فيما توده أملك ، ولا تأملتَ وجهًا من السّرور إلا تأمّلك ، ونفعك بما أوليت ، وأجزل حظّك على ما صُمْت وصلّيت ، ووافقْتك لعلّ وساعدتك ليْت ، وهنّاك عيد الفطر وهنّأته ، وبداك بالمسرات وبدأته ، وتبرأ لك الدهر مما تحسد وبرّأته . وهكذا يحول الله أعيادٌ واعتياد ، وعمرٌ فى دوام ، وعزٌّ فى ازدياد ، والسّنة تفصح بفضلك إفصاح الخطباء من إياد ، وأقرأ عليك سلام الله ما أشرق الضّحا ، ودام الفِطْر والأضحى (1) .

دخوله غرناطة

دخل غرناطة ، وتردّد إليها غير ما مرة ، وأقام بها ؛ وامتدح ابن أضحى (2) وابن هانى ، وابن سعيد وغيرهم من أهلها . قال ابن سعيد فى « طالعه » (3) ، وقد وصف وصول ابن قزمان إلى غرناطة ، واجتماعه بجنّته بقرية الزاوية (4) من خارجها ، بنزْهون القليعية الأديبة ، وما جرى بينهما ، وأنها قالت له بعقب ارتجال بديع ، وكان لبس غِفارة صفراء ، أحسنت يا بقرة بنى إسرائيل ، إلا أنك لا تَسُرُّ النّاظرين ، فقال لها إن لم أسُر الناظرين ، فأنا أسُر السامعين ، وإنما يُطلب سرور

---

(1) وردت هذه الرسالة التى قيلت فى شوال ، فى مخطوط الإسكوريال فقط ، (لوحة ٥٧–٥٩) ولم ترد فى «الزيتونة» .

(2) هو أبو الحسن على بن عمر بن أضحى ، وهو أحد ثوار الأندلس ، فى أواخر عهد المرابطين . وقد ثار بغرناطة فى سنة ٥٣٩ هـ ولكنه لم يستطع الصمود ضدهم ، فاعتصم بالقصبة وتوفى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) .

(3) سبق التعريف بابن سعيد ، و«طالعه» أى كتابه (الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد) .

(4) الزاوية هى قرية صغيرة تقع على مقربة من غرناطة . وبالإسبانية La Zubia

الناظرين منك، يا فاعلة ياصانعة . وتمكن السُّكر من ابن قزمان، وآل الأمر إلى أن تدافعوا معه حتى رموه فى البركة ، فما خرج منها إلا وثيابه تقطر ، وقد شرب كثيراً من الماء ، فقال إسمع ياوزير ثم أنشد :

إيه أبا بكر ولا حَوْل لى   بدفع أعْيان وأنْذال
وذات جُرْحٍ واسع دافق   بالماء يحكى حال أذيال
غرَّقتنى فى الماء يا سيدى   كَفِّرْه بالتغريق فى المال

فأمر بتجريده ، وخلع عليه ما يليق به [ولم ير](١) لهم بعد عهدهم بمثله .

ولم ينتقل ابن قزمان من غرناطة ، إلا بعد ما أُجزل له من الإحسان ، ومدحه بما هو فى ديوان أزجاله .

محنته

جرَت عليه بابن حَمْدين(٢) محنة كبيرة ، عظُم لها نكاله ، بسبب شَكاسَةِ أخلاق كان موصوفا بها ، وحدَّةٍ شَقِى بسببها . وقد ألمّ الفتح فى قلايده بذلك ، واختلّت حاله بآخرة ، واحتاج بعد انفصال أمر مخدومه الذى نَوَّه به .

توفى بقرطبة لليلة بقيت من رمضان سنة خمس وخمسين وخمسماية ، والأمير ابن سعد يحاصر قرطبة . رحمه الله .

محمد بن غالب الرُّصافى

يكنى أبا عبد الله ، بلنسى الأصل ، سكن غرناطة مدة ، ثم مالقة

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال (ومر) والأولى أرجح وبها يستقيم المعنى .

(٢) هو القاضى أبو جعفر بن حمدين قاضى قرطبة . ثار بقرطبة عندما ضعف أمر المرابطين فى سنة ٥٣٩ هـ ، وأعلن نفسه أميراً عليها واستمرت رياسته بها نحو عام . ثم تغلب عليه ابن غانية قائد المرابطين . وجرت له بعد ذلك خطوب لم يتمكن خلالها من استرداد رياسته . وتوفى سنة ٥٤٦ هـ .

حـــــاله

قال الأستاذ(١) ، كان فحلا من فحول الشعراء ، ورئيسا فى الأدباء ، عفيفا ، ساكنا ، وقورا ، ذا سَمْت وعقل . وقال القاضى(٢) ، كان شاعرا مُجيدا ، رقيق الغزل ، سلِس الطبع ، بارع التَّشْبيهات ، بديع الاستعارات ، نبيل المقاصد والأغراض ، كاتباً بليغاً ، ديِّنا ، وقورا ، عفيفاً ، متفقها ، عالى الهمة ، حسن الخَلْق والخُلق والسَّمت ، تام العقل ، مُقْبِلا على مايعنيه من التَّعيش بصناعة الرَّفى(٣) التى كان يعالجها بيده ، لم يَبْتَذل نفسه فى خدمة ، ولا تعرض لانتجاعٍ بقافيةٍ ، خلا وقت سُكناه بغرناطة ، فإنه امتدح واليها حينئذ ، ثم نَزَع عن ذلك ، راضيا بالخُمول حالاً ، والقناعة مالاً ، على شدة الرغبة فيه ، واغتنام ما يصدر عنه .

أخبار عقله وسكونه

قال الفقيه أبو الحسن شاكر بن الفخّار المالقى ، وكان خبيراً بأحوالة : ما رأيت عمرى رجلا أحسن سَمْتا ، وأطول صَمْتا ، من أبى عبد الله الرصافى . وقال غيره من أصحابه ، كان رفاء ، فما سمع له أحد من جيرانه كلمة فى أحد . وقال أبو عمرو ابن سالم ، كان صاحباً لأبى ، ولقيته غير ما مرة ، وكان له موضع يخرج إليه فى فصل العصير ، فكنت أجتاز عليه مع أبى فألثم يده ، فربما قبّل رأسى ، ودعا لى ، وكان أبى يسأله الدعاء فيخجل ، ويقول أنا والله أصغر من ذلك . قال ، وكان بإزايه أبو جعفر البلنسى . وكان مُتوقِّد الخاطر ، فربما تكلم مع أحد التجار ، فكان منه هفوة ، فيقول له جلساؤه ، شتّان والله بينك وبين أبى عبيد الله فى العقل والصمت ، فربما طالبه بأشياء ليجاوبه عليها . فما يزيد على التبسم .

---

(١) الأستاذ هنا ، يعنى الأستاذ أبو جعفر بن الزبير صاحب كتاب (صلة الصلة) .

(٢) القاضى يقصد بها هنا ، القاضى ابن عبد الملك المراكشى صاحب «الذيل والتكملة» .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال (الرفو) .

فلما كان أحد الأيام، جاء البلنسي ليفتح دكانه. فتعمد إلقاء الغلق من يده، فوقع على رأس أبي عبد الله . وهو مقبل على شغله، فسال دمه، فما زاد على أن قام ومسح الدم، ثم ربط رأسه، وعاد إلى شغله. فلما رأى ذلك منه أبو جعفر ترامى عليه، وجعل يقبل يديه، ويقول، والله ما سمعت برجل أصبر منك، ولا أعقل.

شعره

وشعره لا نهاية فوقه رونقا ومائية، وحلاوة وطلاوة، ورقة ديباجة، وتمكن ألفاظ، وتأصل معنى. وكان رحمه الله، قد خرج صغيرا من وطنه، فكان أبداً يكثر الحنين إليه، ويقصر أكثر منظومه عليه. ومحاسنه كثيرة فيه، فمن ذلك قوله:

خليلي ما للبيد قد عبقت نشرا ... وما لرؤوس الركب قد رجحت سكرا
هل المسك مفتوتاً بمدرجة الصبا ... أم القوم أجروا من بلنسية ذكرا
خليلي عوجا بي قليلا فإنه ... حديث كبرد الماء في الكبد الحرا
قفا غير مأمورين ولتتصديا ... على ثقة للمزن فاستسقيا القطرا
بجسر معان والرصافة إنه ... على القطر أن يسقي الرصافة والجسرا
بلادي التي ريشت قويدم بها ... فريخاً وأورثتني قرارتها وكرا
فبادي أنيق العيش في ريق الصبا ... أبى الله أن أنسى اغتراري بها غرا
لبسنا بها ثوب الشباب لباسها ... ولكن عرينا من حلاه ولم نعرا
أمنزلنا عصر الشبيبة ما الذي ... طوى دوننا تلك الشبيبة والعصرا
محل أغر العهد لم نبد ذكره ... على كبد إلا امترى أدمعا حمرا
أكل مكان كان في الأرض مسقطاً ... لرأس الفتى يهواه ما عاش مضطرا
ولا مثل مدحو من المسك تربة ... تملى الصبا فيه حقيبتها عطرا

نباتٌ كأن الخدَّ يحمل نوره   تخال لُجيناً فى أعاليه أو تِبْرا
وما كترصيع المجـرّة جَلّلت   نواصيَه الأزهار واشتبكت زُهْرا
أنيقٌ كريّان الحياة التى خَلَت   طليقٌ كريْعان الشَّباب الذى مرّا
وقالوا هل الفردوس ما قد وصفتَه   فقلت وما الفردوس فى الجنّة الأُخرا
بلنسِيْية تلك الزّمـــردة التى   تَسيل عليها كل لؤلؤة نَهْرا
كأنّ عروساً أبدع الله حُسْنها   فصيَّر من شَرْخ الشَّباب لها عُمرا
يويد منها شَعْشَعانية الضُّحى   مضاحكةُ الشمس البُحَيرة والبَحْرا
تُراجم أنفاس الرياح بزَهْرها   نجوماً فلا شيطان يُقرِّبها ذعرا
وإن كان قد مُدَّت يدُ البَيْن بيننـا   من الأرض ما يَهْوى المُجدُّ به شَهْرا
هى الدُّرة البيضاء من حيث جِدَّتها   أضاءت ومن للدُّر أن يشبه الدُّرا
خليلى أن أصْدر لها فإنهـا   هى الوطن المحبوب أوكَلْتَه الصَّدرا
ولم أطْوِعنها الخطْو هجراً لها إذاً   فلا لَثَمت نَعْلى مسا كنها الخضْرا
ولكن إجلالاً لتُرْبتهـا التى   تضُمّ فتاها النَّدْب أو كَهْلَها الحرَّا
أكارمُ عاث الدهر ما شاء فيهم   فبادت لياليهم فهل أشْتكى الدهرا
هجوعٌ ببطن وأرضٌ قد ضرّب الرَّدى   عليهم قُبيبات فُويق الثَّرى غُبْرا
تقضَّوا فمن نجم سالكٍ ســاقطٍ   أبى الله أن يرعى السِّماك أو النَّسْرا
ومَنْ سابق هذا إذا شا غايةً شا   وغير محمود جياد العلى خُضْرا
أناسٌ إذا لاقيت من شِيت منهم   تلقَّوك لا غثٌّ الحديث ولا غُمْرا
وقد دَرَجت أعمارهم فتطلَّعــوا   هلال ثلاث لو شفا رَقّ أو بَدْرا
ثلاثة أمجاد من النَّفَر الألى   زكَوا خبراً بين الورى وزكوا خُبْرا
تَـكَلتهم ثُـكْلاً دَهَى العين والحشَى   فعَبْر ذا أمَّا وسَجْر ذا جمـرًا
كفى حزَنًا أنى تباعدت عنهــم   فلم ألق من سَرَى منها ولا سُرا

وإلى متى أسلُ بهم كلّ واكب ... ليُظهــــر لى خَيْراً تأبط لى شرا
أباحتْه عن صالحاتٍ عَهِدتُها هناك ... فيَسْبِنى بما يَقصِم الظَّهــــرا
مُحيّا خليلٍ غاض ماء حيـــاته ... وساكنُ قصرٍ أضرّ مسكنُه القَبْرا
وأزْهَر كالإصباح قد كنت أجْتلى ... سناءً كما يستقبل الأرِقُ الفَجْـــرا
فتىً لم يكن خِلْوُ الصفّات من النّدى ... ولم يتناس الجود أصْرَمَ أم أثرا
يَصْرِف ما بين اليراعة والقنـــا ... أنامله لا بل هَواطله الغُرّا
طويلُ نجادِ السيف لان كأنمـــا ... تخطّى به فى البرد خَطّيّة سمرا
سَقَتْه على ما فيك من أريحيـــة ... خلايقُ هنّ الخمرُ أو تشبه الخمرا
ونَشْرُ محيا للمكارم لو سَرَت ... حُمياه فى وجه الأصيل لما اصفرّا
[هل السّعد إلا حيث حط صعيده ... لمن بلّ فى شفْرى ضريح له شفْرا
طَوَيْنَ الليالى طيّهن وإنمـــا ... طَوَين عنى التّجـــلد والصّبرا
فلا حُرِمت سقياه أدمعُ مُزْنَةٍ ... ترى مَبْسِم النّوار عَنْبر مُعْتَرّا
وما دعوتى للمُزْن عُذْراً لدعوتى ... إذا ما جَعَلْتَ البعْد عن قُربه عذرا](١)

وقال يرثى أبا محمد بن أبى العباس بمالقة:

أبنى البلاغة فيم حفلُ النادى ... هَبْها عُــكاظ فأين قِسّ أياد
أما البيان فقد أجرّ لسانه ... فيكم بفَتْـكته الحِمام العـاد
عَرَشت سمـــا عُلايكم ما أنتم ... من بَعْد ذلـكم الشّهاب الهادى
حُطّوا على عُمُدالطريق فقدخبَت ... لآلُ ذاك الـكوكب الوقّاد
ما فُلّ لهزمه الصّقيل وإنمـــا ... نُثرت كعوب قنــاكم المناد
إيه عميد الحىّ غير مُـــدافع ... إيه فِدى لك غابر الأمجـاد
ما عذر سِلْكٍ كنت عِقْد نظامه ... إن لم يَصِرْ بُرَداً إلى الأباد

---

(١) الأبيات المحصورة بين الحاصرتين ، واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى «الزيتونة» .

حيث الزمان عليك شكلاً أن يرى ... من طول ليل في قميص حداد
يُومي بأنجمه لما قلّدته ... من درّ ألفاظ وبيض أياد
كشفُ الحجاب فما ترى مُتفضلا ... في ساعة تُصغي به وتُناد
ألمِم بربعك غير مأمورٍ فقد ... غُصّ الفنا بأرجُل القُصّاد
خبراً يُبلّغه إليك ودونه ... أمن العُداة وراحة الحُسّاد
قد طأطأ الجبَلُ المنيف قذاله ... للجار بعدك واقشعرّ الواد
أعِد التفاتك نحونا وأذنه ... مِثل الحديث لديك غيرُ معاد
وامسح لنا عن مُقْلتيك من الكرى ... نوماً تكابد من بُكى وسُهاد
هذا الصباح ولا تهب إلى ... متى طال الرُّقاد ولات حين رقاد
وكأنما قال الرّدى نَمْ وادعاً ... سَبَقت إلى البُشرى بحُسْن معاد
أمُوسَّداً تلك الرخام بمرقد ... أخْشِن به من مرقد ووِساد
خَصِبَت بقدْرك حفرةٌ فكأنها ... من جوفها في مِثل حرف الصّاد
وثَرٍ لجنبك من أثاث مُخيّم ... تُرْب ندٍّ وصفائح أنضاد
يا ظاعناً رَكِبَ السُّرى في ليلةٍ ... طار الدليلُ بها وحاد الحاد
أعزز علينا أن حططْت بمنزل ... تَبِلٌ عن الزُّوار والعُوّاد
جار الأفراد هنالك جيرةً ... سُقْياً لتلك الجيرة الأفراد
السا كنين إلى المعاد قِبابُهم ... منشورةُ الأطناب والأعماد
من كل مُلْقية الجراب بمَضْرِب ... ناب البِلَى فيه عن الأوْتاد
بمَرّس السَّفر الألى ركبوا ... السُّرى مجهولة الغايات والآماد
سِيّان فيهم ليلةٌ ونهارُها ... ما أشبه التّأويب بالإستاد
لِحَق البطون من اللّعب على الطّوى ... وعلى الرّواحل عُنفوان الزاد
لله هم فلشدّ ما نفَضوا من ... أمتعة الحياة في حقايب الأجساد

يا ليت شعرى والمنا لكَ جنّة والحال مرذنةٌ بطول بعاد
هل للعُلا بك بعدَها من نهضة أم لانقضاء نَوَاك من ميعاد
بأبى وقد ساروا بنعْشِك صارمٌ كثُرَت حمايِلُه على الأكتاد
ذُلّت عواتق حامليك فإنهم شامُوك فى غِمْدٍ بغير نجاد
نعم الذّما البرُّ ما قد غـوّروا جُثمانه بالأبرَق المُنقـاد
عَلْيا خُصّ بها الضريح وإنما نعم الغُـوَير بأبؤُس الأنجاد
أبنى العباس أىُّ حلاحـل سَلَبَتْكم الدُّنيا وأىُّ مَصَاد
هل كان إلّا العَين وافق سهمها قَدَراً فأقصد أيّما إقصاد
أخْلِل جد لا يُسدّ مكانه بالإخْوة النُّجباء والأولاد
ولِكمْ يُرى بك من هضاب لم يكن لولاك غيرُ دَكادك ووِهاد
ما زلت تُنعشها بسَيْبِك قابضاً منها على الأضْباع والأعضاد
حتى أراك أبا محمد الرّدى كيف انهداد بَواذخ الأطواد
يا حرّها من جمْرَةٍ مَشْبُوبةٍ يلقى لها الأيدى على الأكتاد
كيف العزاء وإنها لرَزِيّةٌ خرج الأسى فيها عن المُعْتاد
صدع النُّعاة بها فقلتُ لمَدْمَعى كيف انسكابُك يا أبا الجواد
لك من دَمِى ما شيت غير مُنَهْنَهٍ صب كيف شيت مُعَصفر الأبراد
بقُصَير مجتهد وحَسْبُك غاية لو قد بلغْت بها كبير مُراد
أما الدموع فهى أضعفُ ناصرٍ لكنّهن كثيرةُ التَّعداد
ثُم السّلام ولا أغبَّ قراره وأرَتْك صوب روايح وغَواد
تُسقيك ما سَفَحت عليك يراعة فى خدِّ قرطاس دموعُ مِداد

ومن غراميّاته وإخوانيّاته قوله من قصيدة :

عاد الحديثُ إلى ما جرَّ أطْيَبِه والشيء يبعث ذِكْرَ الشيء عن سبب

إيه عن الكُدْية البيضاء إنّ لها هوًى يغلب أخيك الواله الوَصِب
راوح بها السَّهل من أكنافها وأرح رِكابنا لَيْلنا هذا من التعب
وانضح نواحيها من مُقْلتيك وسَلْ من الكثيب الكريم العهد في الكُتب
وقل لسَرْحَته يا سرحة كَرُمت على أبي عامر عُزًّى عن السُّحب
يا عذبة الماء والظل انعمى طفلا حُيِّيتِ مُمْسِيةً ميّادة الغصب
ما ذا على ظِلّك الألمى وقد قلَصت أفياؤه لو ضَفَى شيئاً لمغترب
أهكذا تنقضى نَفْسى لديك ظماً الله فى رمقٍ من جارك الجُنُب
لولاك يا سَرْحُ لم يبق الفلا عطِلا من السُّرى والدُّجا خفاقة الطُّنُب
ولم نَبِت نتقاضى من مدامعنا دَيْناً لتُرْبك من رقراقها السَّرِب
إنّا إذا ما تصدّى من هوى طَلَلٍ عُجْنا عليه فحَيَّيناه عن كَثَب
مُسْتَعْطِفين سَخِيّات الشئون له حتى يُحاك عليه مُوَّق العُشْب
سَلِي خُمَيلتك الرّيّا بأية ما كانت تَرُفُّ بها ريحانة الأدب
عن فِتْيَةٍ نزلوا على سَرَارتها عفَت محاسنهم إلاّ من الكُتُب
محافظين على العَلْيا وربّما هزّوا السجايا قليلا بابنة العِنَب
حتى إذا ما قضوا من كأسها وطراً وضاحكوها لدى جِدٍّ من الطَّرب
راحوا رواحاً وقد زيدت عمائمهم حُلُماً ودارت على أسْنَى من الشُّهب
لا يظهر الشكر حالا فى ذوايبهم الا التفات الصبا فى السَّنَن العَذَب
المُنْزِلين القوافى من معاقلها والخاضدين لديها شَوْكة العَرَب[(١)]

ومن مقطوعاته قوله :

دعاك خليل والأصيـــل كأنه عليلٌ يقضى مدة الزمن الباق
إلى شط مُنْساب كأنّك ماؤه صفاً ضميراً وعذوبةَ أخـــلاق

(١) هذه القصيدة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى «الزيتونة» .

ومَهْوى جناحٍ للصَّبا يمسح الرُّبا — خفيٌّ الخوافى والقوادم خفّاق
وفتيانُ صدقٍ كالنجوم تألّفوا — على النّأى من شتّى بروج وآفاق
على حين راح البرق فى الجو مُغمداً — ظُباه ودمع المُزْن فى جَفْنه راق
وجالت بعينى فى الرياض التفاتةٌ — حَبَسْتُ بها كأسى قليلا عن السّاق
على سَطرٍ خيرى ذكرتك فانثنى — يميلُ بأعناقٍ ويَرْنُو بأحداق
وقِفْ وقفةَ المحبوب منه فإنها — شمايل مَشْغوفٍ بمرآك مُشْتاق
وصِلْ زهرات منه صفْرٍ كأنهـا — وقد خَضِبَت قَطْراً محاجر عشّاق

وقال وكلفها فى حايك [وهو بديع][1] .

قالوا وقد أكثروا فى حبه عَذَلُ — لو لم تهم بمُزال القَدْر مُبتذل
فقلت لو أنّ أمرى فى الصَّبابة لى — لاخترت ذاك ولكن ليس ذلك لِ
فى كل قلب عزيزات مُذَلَّلةٌ للحُسْن — والحُسْنُ مَلِكٌ حيث جلّ وَلِ
علقته حبيبىّ الثغر عاطـــرُه — درّى لون المحيّا أحْوَرُ المُقَل
إذا تأملتَه أعطاك ملتفتــاً — ما شِيت من لحظات الشّادن الوَجِل
هيهات أبغى به من غيره بَدَلا — أُخرى الليالى وهل فى الغير من بدل
غُزَيّل لم تزل فى الغَزْل جايلةٌ — بنانهُ جَوَلان الفِكر فى الغَزَل
جذلان تلعب بالمحراك أنمله — على السَّدى لَعِب الأيام بالأمل
ما أن يَنِي تعب الأطراف مشتغلا — أفديه من تعب الأطراف مشتغل
ضَرْباً بكفّيه أو فحصاً بأخمصه — تَخَبُّط الظَّبى فى أشراك مُحْتبل

وقال :

ومهفهفٌ كالغصــن إلاّ أنه — سلب التثنى النوم عن أثنايه
أضحى ينـام وقد تخدّد[2] خدُّه — عرقاً نقات الورد رُشّ بمـايه

(١) هاتان الكلمتان واردتان فى الإسكوريال ، وساقطتان فى «الزيتونة» .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المعجب (تحبب) .

وقال :

أدِرْها فالغمامة قـــد أجالت سيوف البَرْق فى لِمَم البطاح
وراق الروضُ طاووساً بهيّاً تهبُّ عليه أنفاس الرياح
تقول وقد ثنى قُزَحٌ عليــه ثياب الغَيْم مُعْلمة النــواح
خذوا للصَّحو أهبتكم فإنى أعرتُ المزْن قادِمَتى جَناح

وقال :

أدِرْها على أمر فما ثم من بأس وإن جدَّدت آذانها ورقُ الآس
وما هى إلا ضاحكات غمايم لواعبُ من ومْض البروق بمقياس
ووفد رياح زَعْزَع النَّهر مدة كما وطيت دِرْعاً سنابك أفراس

وقال فى وصف مغنٍّ مُحسن :

ومُطارح مما تحس بنـــانه صوتاً أفاض عليه ماء وقاره
يُثنى الحمام فلا يروح لوكره طرباً ورزق بنيه فى منقاره

وقال يصف جدول ماء عليه سَرْحة ، ولها حكاية معروفة :

ومُهَدَّل الشَّطين تحسب أنه مُتَسَيِّلٌ(١) من درَّة لصفايه
فاءت عليه مع العَشِيَّة(٢) سرحة صدئت لفيئتها صفيحةُ مايه
فتراه أزرق فى غِلالة سُمْرة كالدَّارع استلقى بظلٍّ لوايه(٣)

نـــثره

قال من مقامة يصف القلم :

قصير كالأنابيب لكنه يطول مضاً طَوال الرِّماح
إذا عبَّ للنفس فى دامِسٍ ودبَّ من الطِّرس ، فوق الصِّفاح
تجلَّت به مُشكلات الأمور ولان له الصعب بعد الجِماح

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى المعجب (متسايل) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المعجب (الهجيرة) .
(٣) هذا البيت ساقط فى الزيتونة .

فلولا هو(١) لغَدَت أغصان الاكتساب ذاوية(٢)، وبيوت الأموال خاوية، وأسرعت إليها البُوسى، وأصبحت كفؤاد أمِّ موسى، فهو لا محالة تَجْرُها الأربح، وميزانها الأرجح. به تُدِرُّ ألبانها، وتثمر أفنانها، وتستمر أفضالُها وإحسانُها، وهو رأس مالها، وقطبُ عُمَّالها وأعمالها. وصاحب القلم قد حوى المملكة بأسرها، وتحكم في طَيِّها ونَشْرها، وهو قُطْب مدارها، وجُهَيْنة أخبارها، وسرُّ اختيارها واختبارها، ومظهر مجدها وفخارها، يعقد الرَّايات لكل والٍ، ويمنحهم من المَبَرة كلَّ صافية المقيل، ضافية السِّربال، يُطفى جَمرة [الحربِ](٣) العَوان، ويكايد العَدُوَّ بلا صارم ولا سِنان، يَقُدُّ المفاصل، ويتخلل الأباطح والمعاقل، ويقمع الحواسد والعواذل.

وفاته: توفى بمالقة يوم الثلاثاء لإحدى عشرة بقيت من رمضان سنة اثنين وسبعين وخمسماية. وقبره مشهور بها.

محمد بن قاسم بن أبى بكر القرشى المالقى

من أهل مالقة، وسكن غرناطة وتردد إليها

حاله

كان لبيبا لوذعيا. جامعاً لخصال؛ من خطٍّ بارع وكتابة، ونظم، وشطرنج، إلى نادرٍ حار، وخاطر ذكى، وجُرأة. توجه إلى العُدْوة، وارتَسَم بها طبيبا، وتولى النظر على المارِسْتان بفاس فى ربيع الثانى من عام أربعة وخمسين وسبعمائة

شعره

أنشدنى بمدينة فاس عام ستة وخمسين، فى وُجْهتى رسولا إلى المغرب، قوله فى رجل يقطع فى الكاغد:

(١) هكذا فى الإسكوريال «والزيتونة». وهى مقابل الرسم الحديث (فلولاه).
(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة». وفى الإسكوريال (خاوية) وهو تحريف.
(٣) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» وساقطة فى الإسكوريال.

أبا على حُسَينـــا أين الوفا منك أينا
قد بيّن الدمعُ وجْدى وأنت تزداد بَيْنا
بلّت لحاظك قلبي تا لله ما قلتُ مينا
قط الفص لهذا سبب الصبّ مينا
بقيت تفتر حُسْنا ودمتَ تزداد زَيْنا

وقال أيضاً :

فَضْلُ التجارات باد في الصناعات لولا الذى هو فيها هاجرٌ عات
حاز الجمال فأعياني وأعجزني وإن دعيت بوصّاف ونعّات

وكان شديد المغالطة، ذاهباً أقصى مذاهب القِحة، يحرك من لا يتحرك، ويُغضب من لا يغضب. عتَب يوما جدّته على طعام طبختْه له، ولم يستَطِبْه، وكان بين يديه [القِط] يصدعه بصياح طالبه، فقال له ضجرا، خمسمائة سوط، فقالت له جدّته لم تعط هذه السياط للقط، إنما عنَيْتني بها، وأعطيتها باسم القط، فقال لها حاش لله يا مولاتى، وبهذا البخل تدريني أو الزحام عليها، بل ذلك للقط حلالا طيباً، ولك أنت ألف من طِيبَة قَلْب، فأرسلها مثلا، ومازلنا نتفكه بذلك، وكان في هذا الباب لا يُشَق غباره.

مولده : بمالقة عام ثلاثة وسبع ماية .

وفاته: بعث إلىّ الفقيه أبو عبد الله الشّديد، يعرفني أنه توفي في أواسط عام سبعة وخمسين وسبعمائة .

محمد بن سليمان بن القصيره

أبو بكر، كاتب الدولة اللّمتونية، وعلَمُ وقته .

حـاله

قال ابن الصيرفى[1] الوزير الكاتب ، الناظم ، الناثر ، القايم بعمود الكتابة ، والحامل للواء البلاغة ، والسابق الذى لا يُشَق غباره ، ولا تخمد أبداً أنواره . اجتمع له براعة النثر ، وجَزالة النظم ، رقيق النَّسيج ، حَصيف المَتْن ، رُقعته ماشيت فى العين واليد . قال ابن عبد الملك ، وكان كاتبا مجيدا ، بارع الخطّ ، كتب عن يوسف بن تاشُفين .

مشيختـه

روى عن أبى الحجاج الأعلم ، وأبى الحسن بن شُرَيح ، وروى عنه أبو الوليد هشام بن يوسف بن الملجوم ، لقيه بمرّاكُش .

شعـره

وهو عندى فى نمط دون ما وُصف به . فمن ذلك قوله من قصيدة أنحى فيها على ابن ذى النُون ، ومدح ابن عباد ، عند خلع ابن جَهْوَر ، أبى الوليد ، وتَصْيير قرطبة إليه :

فسَلْ عنه أحشاء ابن ذى النون هل سَرَى إليها سكون منذ زلزلها الذُّعر
وهل قَدَرت مذ أَوْحشَته طلايعُ الظهور عليه أن تُؤْنسه الخمر
[ألم يَجْن يحيى من تعاطيك ظلّه سَجا لك هيهات الشُّهى منك يا بَدْر
لجاراك واستوْفَيْت أبعد غاية وآخره عن شأوك الكف والعثر
فأحرزتَ فَضْل السَّبْق عفواً وكفُّه على رَغمه مما توهّمه صفْر
ويا شدّ ما أغرته قرطبةٌ وقد أبْثَرتْها خَيْلُنا فكان لك الدُّر][2]

(١) ابن الصيرفى ، مؤرخ الدولة المرابطية . سبق التعريف به .

(٢) الأبيات الأربعة التى بين الحاصرتين ساقطة فى «الزيتونة» .

ومنها :

[أتتك وقد أزرَى بهجة حُسْنها ... ولا لأنها من جوْر مالـكها طِمْر
فألبستها من سابغ العدل حلّة ... زهاها بها تيهٌ وغازلها كِبْر
وجاءتك متفالا فضمّخ جيبها ... وازْدانها من ذكرك المُعْتلى عطر
وأجريت ماء الجود فى عرَصاتها ... فروَّض حتى كاد أن يُورُق الصَّخرُ
وطاب هوا أفقِها فكأنها ... تهبُّ نسيماً فيه أخلاقُك الزُّهر
وما أدْرَكتْهم فى هواك هوادةٌ ... وما أئتمروا إلاّ لِما أمر البرُّ
وما قلدوك لأمرٍ إلا لواجب ... جنتَه فيه المُجرِّبُ والغَمْرُ
وبوّأهم فى ذِروة المجد معْقلا ... حرامٌ على الأيام إلمامه حَجَر
وأوردهم من فَضْل سَيْبك مورداً ... على كثرة الوارد مشرعه غَمْرْ
فلولاك لم تُفْصل عُرى الإصْر عنهم ... ولا انفكّ من رِبْق الأذى لهم أسْرُ
أعَدْتَ نهار ليلهم ولطالما ... أراهم نجوم الليل فى أُفقه الظهر
ولا زلت تُؤويهم إلى ظلّ دَوحةٍ ... من العزّ فى أرحابها النّعَما خُضْرُ](١)

كتابته

وهى من قلّة التصنّع والإخشِوشان، بحيث لا يخفى غرضها. ولـكل زمان رجاله. وهى مع ذلك تُزينها السذاجة، وتشفع لها الغضاضة. كتب عن الأمير يوسف بن تاشفين ولاية عهده لولده :

« هذا كتاب توليةٍ عظيم جسيم، وتوصيةٍ حميم كريم، مُهدت(٢) على الرِّضا قواعده، وأُكدت بيد(٣) التقوى [مواعده](٤) ومعاقده، وسُدِّدت

(١) هذه القصيدة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى « الزيتونة » .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بنيت) وفى نص آخر (صدرت) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (على) .
(٤) الزيادة من « الزيتونة » .

إلى الحُسنَى مقاصده ، وأُبعدت عن [الهوادة والهوى](١) مصادرُه ومواردُه . أنفذَه أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبو يعقوب يوسف بن تاشُفين ، أدام الله أمره ، وأعزّ نصره ، وأطال فيما يرضيه منه ، ويرضى به عنه عمره ، غير مُحابٍ ، ولا تارك فى النصيحة لله ولرسوله والمسلمين ، مَوْضِع ارتياب لمرتاب ، الأمير الأجل أبى الحسن علىّ ابنه ، المُتَقبِّل همِيَمَة وشِيمه ، المتأثّل حلمه وتحلمه ، الناشىء فى حِجْر تَقْويمه وتأديبه ، المتصرف بين يدى تخريجه وتَدْريبه ، أدام الله عزّه وتوفيقه ، ونهج إلى كل صالح من الأعمال طريقه ، وقد تهمَّم بمن تحت عصاه من المسلمين ، وهدى فى انتقاء من يخلفه هدى [المتقين ، ولم ير أن يتركهم بعد سُدًى غير مدينين](٢) واعتام فى النِّصاب الرفيع ، واختار واستنصح أولى الرأى والدين ، واستشار فلم يوقع(٣) بعد طول تأمل ، وتراخى مدة ، وتمثل اختياره ، واختبار من فاوضه فى ذلك من أولى التقوى(٤) والحُنكة واستشارة الأعْلية ، ولا صار بدونهم الارتياد والاجتهاد إلاّ إليه ، ولا التقى رُوّاد الرأى والتشاور إلا لديه. فولاّه عن استحكام بصيرة ، وبعد طول مَشُورة ، عهده ، وأفضى إليه الأمر والنهى ، والقَبْض والبَسْط [عنده](٥) بعده ، وجعله خليفته السّاد فى رعاياه مَسدّه ، وأوطأ عَقِبه جماهير الرجال ، وناط به مهمّات الأمور والأعمال ، وعهد إليه أن يتّقى الله مااستطاع ، ولا يعدل عن سَمْت العدل وحُكم الكتاب والسُّنة ، فى أحد عصا أو أطاع ، ولاينام عن حُماه(٦) الحَيْف والخوف بالاضطّجاع ، ولا يتليّنُ دون معان شكوى ، ولا يتصَام عن مُسْتَصرخ لذى بَلْوى ، وأن ينظم

(١) وردتا هكذا فى الإسكوريال . ومكانهما فى « الزيتونة » (الحوادث) .
(٢) ما بين الحاصرتين ساقط فى » الزيتونة » .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (يوافقه) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (التقى) .
(٥) هذه الكلمة زائدة فى الزيتونة .
(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (جماه) .

أقصى البلاد وأدناها فى سِلك تدبيره ، ولا يكون بين القريب والبعيد بَوْنٌ فى إحصائه[١] وتقديره . ثم دعا أدام الله تأييده ، لمبايعته ، أدام الله عزه ونصره ، مَنْ حضر ودنا من المسلمين ، فلبّوا مسرعين ، وأتوا مُهْطِعين ، وأعطوا صفقة إيمانهم متبرّعين متطوعين ، وبايعوه على السمع والطاعة، والتزام سُنَن[٢] الجماعة، وبذل النصيحة جهد[٣] الاستطاعة ، ومناصفة من ناصفه . ومُحاربة من حاربه ، ومكايدة من كايده ، ومُعاندة من عانده، لا يدَّخرون فى ذلك على حال المَنْشَط مقدرة ، ولا يحتجون[٤] فى حالتى الرضا والسخط إلى مَعْذرة . ثم أمر بمخاطبة ساير أهل[٥] البلاد لمبايعته ، كل طائفة منهم فى بلدها[٦] ، وتعطيه كما أعطاه من حضر ، صفقة يدها ، حتى ينتظم فى التزام طاعته القريب والبعيد ، ويجتمع على الاعتصام بحبل دعوته ، الغايب والشهيد ، وتَطْمئنّ من أعلام الناس وخيارهم نفوسٌ قلقة ، وتنام عيونٌ لم تزل مخافة إقذائها مُورقة[٧] ، ويشمل الناس كافة السرور والاستبشار ، وتتمكن لديهم الدَّعة ، ويتمهَّد القرار ، وتنشأ لهم فى الصلاح آمال ، ويستقبلهم جَدٌّ صالح وإقبال . والله يبارك لهم بَيْعة رضوان ، وصَفْقة رُجْحان ، ودعوة يُمنٍ وأمان ، إنه على ما يشاء قدير ، لا إله إلا هو ، نعم المولى ونعم النصير . شهد على إشهاد أمير المسلمين بكل ما ذكر عنه فوق هذا من بيعته، ولقيه حَمْلة[٨] عنه ممن التزم البيعة المنصوصة قبل ، وأعطى صفقته طائعاً متبرعاً

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (أحكامه) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (سنة) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (قدر) .
(٤) هكذا فى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال (يحجون) والأولى أرجح .
(٥) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى «الزيتونة» .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (وطنها) .
(٧) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى «الزيتونة» .
(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (جملة) .

بها . وبالله التوفيق . وكُتب بحضرة قرطبة فى ذى الحجة سنة ست وتسعين وأربعمائة » .

دخل غرناطة غير ما مرّة ، وحْدُه ، وفى رِكاب أميره .

توفى فى جمادى الآخرة من عام ثمانية وخمسمائة(١) .

محمد بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم التميمى المازنى

من أهل سَرَقُسْطَة ، ودخل غرناطة ، وروى عن أبى الحسن بن الباذِش بها ، يكنى أبا الطاهر . وله المقامات اللُّزوميات المعروفة .

حـــاله

كان كاتباً لغوياً شاعراً ، مُعْتَمَداً فى الأدب ، فرداً ، متقدماً فى ذلك فى وقته ، وله المقامات المعروفة ، وشعره كثير مُدَوَّن .

مشيخته

روى عن أبى على الصَّدفى ، وأبى محمد بن السيد ، وأبى الحسن بن الأخضر ، وأبى عبد الله بن سليمان المعروف بابن أخت غانم ، وأبى محمد بن عتّاب ، وأبى الحسن بن الباذِش ، وأبى محمد عبد الله بن محمد التُّجيبى الدُّكلى ، وأبى القاسم ابن صوابه(٢) ، وأبى عمران بن أبى تلَيد ، وغيرهم . أخذ عنه القاضى أبو العباس ابن مَضاء ، أخذ عنه الكامل المُبَرِّد ، قال . وعليه اعتمد فى تَقييده . وروى عنه المُقْرى المُسن ، الخطيب أبو جعفر بن يحيى الكتانى ، وذكره هو وابن مضاء .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (وربعمائة) . وهو تحريف . والتصويب من «الزيتونة» .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (صرافه) .

توفى بقرطبة ظهر يوم الثلاثاء، الحادى والعشرين من جمادى الأولى، سنة ثمان وثلاثين وخمسماية، بزَمانة لازمته نحوا من ثلاثة أعوام، نفعه الله.

شعــــره

أيا قمــر أتطلع من وشاح ... على غصنٍ فاخر من كل راح
أدار السحر من عينيه خمراً ... مُعَتَّقة فأسْكَر كلَّ صاح
وأهْدَى إذ تهادى كلُّ طيبٍ ... كخُوط البان فى أيدى الرياح
وأحيا حين حيّا نَفْسَ صَبٍّ ... غدت فى قبضة الحب المتاح
وسوّغ منه عَتْبى بعد عتب ... وعلّانى براح فوق راح
وأجْنانى الأمانى فى أمانٍ ... وجُنْحُ الليل مسدول الجناح

وقال أيضاً:

ومُنَعَّم الأعطاف معسول اللّمَا ... ماشيت من بِدْع المحاسن فيه
لمّا ظفرتُ بليلة من وصله ... والصَّب غيرُ الوصل لا يشفيه
أنْضَحْتُ وردة خدّه بنفسى ... وظللت أشرب ماءها من فِيه

وقال أيضاً:

حَكَتْ السُّلاف صفاته بحبابها ... من ثَغْره ومذاقها من رَشْفه
وتوردت فحكت شقايق خدّه ... وتأرّجت فنسيمها من عَرْفه
وصفَتْ فوق[1] أديمها فكأنها ... من حُسْن رونق وجنتيه ولُطْفه
لعِبَت بألباب الرجال وغادرت ... أجسامهم صَرْعى كفِعْلة طَرْفه

---

(١) هكذا فى «الزيتونة». وفى الإسكوريال (فرق) وهو تحريف.

« ومن الغرباء فى هذا الحرف »

محمد بن حسن العُمرانى الشريف

من أهل فاس

حـــاله

كان جِهَوِياً ساذجاً ، خشن البزة ، غير مُرهف التّجند ، ينظم الشعر ، ويذكر كثيراً من مسائل الفروع ، ومعانات الفرائض ، يُجَمْجِم بها فى مجالس الدّروس ، تشق به المدرسون ، على وتيرة من صحة السَّجية ، وحسن العهد ، وقلة التصنُّع .

وجرى ذكره فى الإكليل : كريم الانتماء ، مستظل[1] بأغصان الشجرة الشّماء ، من رجل سليم الضمير ، ذى باطن أصْفَى من الماء النّمير ، له فى الشعر طبع يشهد بعروبية أصوله ، ومضاء نصوله .

فمن ذلك قوله يخاطب السلطان أمير المسلمين ، وقد أمر له بكسوة :

مَنَحتَ مُنِحتَ النصر والعز والرضا ... ولازلت بالإحسان له مُقرضاً
ولا زلت للعَلْيا جَنَى مُـكارِماً ... وللإمر الملك العزيز مُقيضا
ولا زالت الأملاك باسمك تُتَّقى ... وجيشك وفْراً يملأ الأرض والفضا
ولا زلت ميمون النَّقيبة ظافراً ... مهيباً ووهّاباً وسيفك مُنتضا
تقِرُّ به الدِّين الحنيف وأهله ... وتقمع جَبّاراً وتُهلك مُبْغِضا
وَصَلت شريف البيت من آل هاشم ... وخَولته أسنى مرادٍ ومقْتَضا
وجُدْت بإعطاء اللُّجين وكُسْوة ... سَتُـكْسَى ثوباً من النور أبيضا
وما زالت الأنصار تفعل هكذا ... نال علىٌّ فى الزمان الذى مضا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح ، متظلل .

هم نصروا الهادى وآووا وجَدَّلوا ... بحدِّ ذُباب السيف من كان مُعرضا
نُخذْ ذا أبا الحجاج من خير مادح ... لخير مَليكٍ فى البريّة مُرْتَضا
فقد كان قبل اليوم غاض قريضه ... فلما رأى الإحسان منك تَفَيّضا
ونَظمُ الفتى يسمو على قدر ما يرى ... من الجود مهما ينقضى نيلُه انقضا
ومن حِكَمِ القول الّلهى مَتَح الّلهى ... ومن مدح الأملاك يرجو التَّعرضا
فلا زال يهديك الشريف قصائدا ... ينال بها منك المودة والرضا

وقال يخاطب من أخلفته بوارق الأمل فيه، وخابت لديه وسائل قوافيه :

الشعر أسنى كلام خُصَّ بالعرب ... والجود فى كل صِنف خير مُكتسب
وأفضل الشعر أبيات يقـدمها ... فى صدر حاجته من كان ذا أدب
فما يُوفى كَريمٌ حقَّ مادحه ... لو كان أوْلاه ما يحويه من نَشَب
المـال يَفْنى إذا طال الثَّواء به ... والمدح يبقى مدى الأزمان والحِقَب
وقد مدحتُ لأقوام ذى حسب ... فيما ظننتُ وليسوا من ذوى حسب
مدحتهم بكلام لو مدحتُ به ... دهرى أمنتُ من الإملاق والنَّصب
فعاد مدحى لهم هجواً يضدقه ... من لؤمهم عودتى عنهم بلا أرب
فـكان ما قلتُ من مدحهم كذباً ... أستغفر الله من زورٍ ومن كذب

وقال فى غرض يظهر من الأبيات ، يخاطب السلطان :

مالى أرى تاج الملوك وحوله ... عُبدان لا حلم ولا آداب
فـكأنه البازى الصُّيود وحوله ... نَغرٌ يقلب ريشه وغراب
يا أيها الملك الـكرام جدوده ... أسنى المحافل غيرُها أتراب
أبْدِلهما من بالبيض من صَفَّيهما ... إن العبيـد محلُّها الأبواب

وفـــاته

توفى فى حدود ثمانية وأربعين وسبعمائة أو بعد ذلك .

محمد بن محمد بن إبراهيم بن المرادى ابن العشاب

قرطبى الأصل ، تونسى الولادة والمنشأ ، ابن نعمة وغنى جاه وحرمة

حـــاله

كان حيِيًا فاضلاً كريماً ، سخيًا . ورد على الأندلس ، مُفْلِتاً من نكبة أبيه، وقد عَرَكته عَرْك الرَّحى لثقالها ، على سُنَن من الوقار والدِّيانة والحِجا، يقوم على بعض الأعمال النبيهة .

وجرى ذكره فى الإكليل بما نصه : جواد لا يُتعاطى طلقه ، وصبح فضل لا يُماثل فَلَقُهُ . كانت لوالده رحمه الله ، من الدول الحفصيّة منزلة لطيفة المحل ، ومفاوضة فى العَقْد والحلّ ، ولم يزل يسمو[(١)] به قدم النَّجابة ، من العمل إلى الحجابة . ونشأ ابنه هذا، مَقْضى الديون ، مُفدّى بالأنفس والعيون . والدهر ذو ألوان ، ومارِق حرب عَوان ، والأيام كُرات تُتَلقَّف ، وأهوال[(٢)] لا تتوقَّف ، فألوى بهم الدهر وألحى ، وأغام جوَّهم[(٣)] بعَقِب ما أضحى ، فشملهم الاعتقال؛ وتعاورتهم النُّوب الثقال ، واستقرَّت بالمشرق رِكابه ، وحطَّت به أقتابه ؛ فحجّ واعتمر ، واستوطن تلك المعاهد وعَمَر ، وعكف على كتاب الله فجوَّد الحروف ، [وأحكم الخلف المعروف][(٤)] وقيّد وأسند ، وتكرَّر إلى دور الحديث وتردد ، وقدم على هذا الوطن قدوم النَّسيم البليل على كَبِد العليل . ولما استقر به[(٥)]

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تسمو) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أحوال) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (جوه) . والتصويب من النفح .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ومكانها فى النفح (وقرأ المعروف) .

(٥) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (بها) .

قراره ، واشتمل على جَفْنه غِراره ، بادرتُ إلى مؤانسته ، وثابرت على مجالسته . فاجتليت للسَّرو شخصاً ، وطالعت ديوان الوفا مُسْتَقْصا .

شعــره

وشعره ليس بحايد عن الإحسان ، ولا غُفْلٍ من النكت الحِسان . فمن ذلك ما خاطبني به :

بِيُمن أبي عبد الله محمد يُمَن ... هــدأ القُطْر وانسجم القَطْرُ
أفاض علينا من جزيل عطايه ... بحورَ الدِّيَم المدِّ ليس لها جَزْرُ
وأنسنا لمَّا عَدِمنــا مَغانياً ... إذاذُكرت في القلب من ذكرها عِبر
هنيياً بعيد الفطر يا خير ماجد ... كريم به تسمو السِّيادة والفخر
ودمت مدى الأيام في ظل نعمة ... تُطيع لك الدنيا ويَعْنُو لك الدهر

ومما خاطب به سلطانه في حال الاعتقال :

لعل عفوك بعد السُّخط ينشاني ... يوماً فيُنعش قلب الوالد العان
مولاى رحماك إني قد عَهِدتك ... ذا حلم وعفو وإشفاق وتَحْنان
فاصرف حَنانك واعطف عليّ ... وجُدْ برحمةٍ منك تحيي جسمي الفان
فقد تناهى الأسى عندى وعذّبني ... وشرَّد النوم عن عيني وأعيان
وحقّ آلايك الحُسْنى ومالك من ... طوْلٍ وفضلٍ وإنعام وإحسان
إني ولو حلّت البلوى على كَبِدى ... وأسبكت فوق خدّ دمعي القان
لواثقٌ بحنــانٍ منك يطْرُقني ... عما قريب وعفوٍ عاجل دان
دامت سعودُك في الدنيا مضاعفة ... تذل طوعاً كلُّ سلطان

محمد بن محمد بن عبد الملك بن محمد
ابن سعيد الأنصارى الأوسى

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عبد الملك ، من أهل مرّاكُش ؛ وسكن غرناطة .

حـــاله

من عايد الصلة : كان رحمه الله غريب المَنْزَعْ ، شديد الانقباض ، محجوب المحاسن ، تنبو العين عنه جهامة ، وغرابةَ شكل ، ووَحْشَة ظاهر ، فى طىٍّ ذلك أدبٌ غضٌّ ، ونَفْسٌ حرَّة ، وحديث ممتع ، وأبوَّة كريمة ، أحد الصابرين على الجَهْد، المتمسكين بأسباب الحشمة ، الراضين بالخصاصة . وأبوه قاضى القضاة ، نسيجُ وحده ، الإمام العالم، التاريخى ، المُتَبَحِّر فى الأدب[1] ، تقلَّبت به أيدى الدهر بعد وفاته لتَبِعةٍ سُلِّطت على نسبه ، فاستقر بمالقة ، متحارفا مقدورا عليه ، لا يُهتدى لمكان فضله ، إلا من عثر عليه جُزافا .

شعـره

من لم يصُنْ فى أمل وجهه   عنك فصُنْ وجهك عن ردِّه
واعرف له الفضل وعرِّف به   حيث أحلّ النفس من قصده

ومما خاطبنى به قوله :

وُلِّيت ولايةً أحسنت فيها   ليعلم أنها شَرُفت بقدرك
وكم والٍ أســـاء فقيل فيه   دنىُّ القَدْر ليس لها بِمُدرك

وأنشدنى فى ذلك أيضاً رحمة الله عليه :

وُليت فقيل أحسنَ خير والٍ   فعاق مدى مداركهـــا بفضله

---

(١) الإشارة هنا إلى أبيه القاضى ابن عبد الملك المراكشى صاحب « الذيل والتكملة » .

وكم والٍ أساء فقيـــــل دنا فمحا محاسنها بفعـــله

ومما خاطب به السلطان يَسْتَعديه على من مَطَّله من العمال ، وعذّر عليه واجبه من الطعام والمال :

مولاى نصيراً فكم يُضام مَنْ ماله غيرك اعتصام
أمرتَ لى بالخلاص فمر لى عنده المال والطعـــام
فقال ما اعتـــاده جواباً وحَسْبى الله والإمـــام
هذا مقامٌ ولا فعـــال بغير مولاى والســـلام

وفاتـه

فقد فى وقيعة على المسلمين من جيش مالقة بأحواز إستبّة[1] فى ذى قعدة من عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة .

محمد[بن خميس][2] بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد ابن خميس الحَجْرى حَجْرُ ذى رُعين التِّلمسانى

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن خميس

حـاله

من عايد الصلة : كان رحمه الله نسيج وحده زهداً وانقباضاً ، وأدبا وهمة ، حسن الشّيبة ، جميل الهيئة ، سليم الصّدر ، قليل التّصَنُّع ، بعيدا عن الرِّيا

---

(١) يبدو أن هناك لبسا فى إيراد هذا الاسم . لأن إستبة تقع جنوب شرق مدينة إستجة على مقربة من قرطبة . والظاهر أن المقصود هنا ، هو ثغر إشتبونة Estepona الصغير الواقع على شاطىء البحر المتوسط بين مربلة وجبل طارق ، على مقربة من ثغر مالقة .

(٢) هذه الزيادة فى النسبة من « الزيتونة » . (ج ٢ لوحة ٢٣٩)

والهوادة[١] عاملا على السياحة والعُزلة ، عالما بالمعارف القديمة . مضطلعاً بتفاريق النِّحل ، قايماً على صناعة العربية والأصلَين ، طبَقَةُ الوقت فى الشعر . وفحلُ الأوان فى النظم المُطوَّل ، أقدر الناس على اجتلاب الغريب ، ومزج الجزالة بالسَّلاسة ، ووضع الألفاظ البَيانيَّة مواضعها . شديد الانتقا والإرجا ، خامدَ زُر الرَّوية ، منافسا فى الطريقة منافسة كبيرة . كتب بتلمسان عن ملوكها من بنى زيّان ، ثم فرَّ عنهم ، وقد أوجس منهم خيفةً ، لبعض ما يجرى بأبواب الملوك . وبعد ذلك بمدة ، قدم غرناطة ، فاهتز الوزير ابن الحكيم لتَلقِّيه ، ومتَّ إليه بالوسيلة العلمية ، واجتذبه بخُطْبة[٢] التلميذ ، واستَفَزَّه[٣] بتأنيسه وبرّه ، وأقعده للإقراء بجواره . وكان يروم الرِّحلة ، وينوى السفر ، والقضاء يُثَبِّطه . حدثنى شيخنا الرئيس أبو الحسن بن الجياب ، قال بلغ الوزير أبا عبد الله الحكيم أنه يروم السفر فشقَّ ذلك عليه ، وكلَّفنا تحريك الحديث بحضرته . وجرى ذلك . فقال الشيخ أنا كالدَّم بطبعى ، أتحرك فى كل ربيع .

شعــره

وشعره بديع . فمن ذلك قوله يمدح أبا سعيد بن عامر ، ويذكر الوَحْشَة الواقعة بينه وبين أبى بكر بن خَطَّاب :

مشوق زار رَبعك يا إماما — محا آثار دمنتها التثاما
تتبع ريقه الطَّل ارتشافاً — فما نفعت ولا نَقَعت أُواما
وقبَّل خدَّ وَرْدَتها جهارا — وماراعى لِضُرَّتهـــا ذماما
وما لحريم بيتك أن يدانى — ولا لعُلا قـــدرك أن يُساما
ولـكن عاش فى رسم مَغْنًى — تجشَّمه سلاماً واستلاماً

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى أزهار الرياض (الهوى) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (بمخطفة) والتصويب من الزيتونة .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال ربما قرئت (واستفسره) .

نَفَس روضة المَطْلُول وَهَنا ... خزنٌ وشمٌ ريّاه فهاما
تلقى طيب بـ... ته(١) حديثا ... رَوَت مُسْنَداً عنه النُّعاما
فيا نَفَسَ الصَّبا إن جيت ساحا ... ولم تعرف لسا كنها مَقاما
وأخطأتَ الطريق إلى حِماها ... فردَّتك العرادة والخزاما
فلا تُبْصر بسَرْحتها قضيبا ... ولا تُذْعِر بمسرحها سواما
وعانق قُرْبانتها ارتباطاً ... وصافح كفَّ سَوْسِنها التزاما
ونافح عَرْف زَهْرتها كِباً ... تعاطِك ماء ريقتها مُداما
ويا بَرْقاً أضاء(٢) على أوال ... يمانياً متى جيت الشَّآما
أثغر إمامة أنت ابتساماً ... أم الدُّر الأُوامى انتظاما
خفقتَ ببطن واديها لِواً ... ولُحت على ثُنَيَّتها حُساما
أمُشْبِهُ قلبي المُضْنى احتداما ... على م ذُدت عن عيني المناما
ولم [أسهرتني وطردتَ](٣) عنى ... خيالاً كان يأتيني لِماما
وأبلغ منه تأريقاً لجفنى ... كلامٌ أثخن الأحشا كِلاما
تعرَّض لى فأيقظت(٤) القوافى ... ولو تُرك القطا يوماً لناما
وقيل وما أرى يومى كأمسى ... جَدَعْتَ رواطبا وقَلَبْتَ هاما
وجرَّعتَ العدوَّ سُمَّاً زُعافاً ... فكان لحسدٍ مَوْتاً زُواما
دعوت زعيمهم ذاك ابتياسا ... ورُعْت خميسهم ذاك اللَّماما
نزعت شواه كبشهم نطاحا ... ولم أترك لقَرْمِهم سِناما
أضام وفى يدى قلبي لماذا ... أضام أبا سعيد(٥) أو علاما

---

(١) هكذا فى الإسكوريال حرفان بينهما بياض .
(٢) وفى نص (أطل) .
(٣) وفى نص (أسكرتنى وصددت) .
(٤) وردت فى الإسكوريال (فأنبطت) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال وفى نص آخر (بغير جرم) .

به وبمـا أذلق من لسانى   أفل الصارم العَضْب انهزاما
وغرام الوزير أبى سعيد   أصرفه إذا شئت انتقاما
به وبنجله البَرّ انتصارى   لمـا أكلوه من لحمى حراما
أعثمن بن عامر لا تكِلْنى[1]   لدهـــر علّم الشح الغماما
وردتُ فلم أرِد إلا سرابا   وشمت فلم أشِم إلا جهاما
قَطَعْتُ الأرضَ طولاً ثم عرضاً   أزور بَنى ممالـكها الـكراما
وجاجانبى على كرم نداهم   وأعجلت الخوافى والقداما
وذلّت المدامع من إبائى   وقبّلت البراجم والسّلاما
ومن أدَبِى نصبتُ لهم حبالا   أصيد بهـا النّعام ولا الثُّغاما
فلم أر مثل رَبْعى دار أُنْس   ولم أر مثـــل عثمن إماما
ولا كأبيه أوكُنْى أبيـه   أبىّ يُحيي غيوثاً أو رِهاما
كفانى بابن عامر خَفْضُ عَيْش   ورفع مكاتبى إلا أضاما
وإنى من ولايك فى يفـــاع   أقابل منهم بَدْرَهم التّماما

ومن شعره رحمه الله قوله :

تُراجع من دنياك ما أنت تارك   وتَسْلُها[2] العُتْبَي وهاهى فارِك[3]
تؤمل بعد الترك رجع ودادها   وشر وداد ما تود الترائك
حلا لك منها ماخلا[4] لك فى الصّبا   فأنت على حـــلوايه متهالك
تظاهر بالسُّلوان عنها تجمُّلا   فقلبُك محزون وثغرُك ضاحك

---

(١) وردت هذه الشطرة فى نص آخر كالآتى (خليلى إن قدرت فلا تكلنى) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تسألها) .

(٣) ورد فى مخطوط الإسكوريال (اللوحة ٦٨ فى أسفل الصفحة) ما يأتى : الفرك بغض المرأة زوجها ، وقد فركته تفركه فهى فارك .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حلا) والأولى أرجح .

تنزهتُ عنها نَخْوةً لا زهادة ... وشَعْر عِذارى أسودُ اللون حالك
ليالى تغْزى بى وإن هى أعرَضت ... زنانب من ضَوَّاتها وعَواتِك
غصون قُدودٍ فى حِقاف روادفٍ ... تَمايَلُ من ثِقَلٍ بين الأرايك
تُطاعِنُنى منهن فى كل ملعب ... ثُدِىٌّ كأسنان الرماح فواتك
وكم كِلَّةٍ فيها هتكتُ ودونها ... صدور العوالى والسُّيوف البواتك
ولا خِدْنٌ إلا ما أعدت رَدينه ... لطالبهـا أو ما تحيَّر هالك
تُضِلٌّ فؤاد المرء عن قصد رشده ... فواترُ ألحاظ للظُّبـا الفواتك
وفى كل سِنٍّ لابن آدم وإن تَطُل ... سنوه طِباع جَمَّـةٌ وعوايك
وإلا فمالى بعد ما شاب مَفْرِقى ... وأعْجَز رأيى عجزٌ من الوَّكارك
أجوب إليها كلَّ بَيْداء مَمْلَقٍ ... ترافقنى فيها الرجال الحواتك(١)
واسترشد الشُّهب الشوابك جار ... إذا اشْتَبهت فيها حَىٌّ المسالك
نُهازِز أمثال الجياد تُودةً ... أغَوارِب أمثال الهضاب تَوامِك
ظَما، وما غير السَّماوة مورد ... ويَنْحى وما دون الصُّواة مبارك
ذو أهل عن عضٍّ الرجال ظهورها ... إذا ما اشتكت عضَّ السروج الموارك
إذا ما نبا عن سُنْبُك الأرض سُنْبك ... هَلَعْن فلانَتْ تحتهنَّ السَّنابك
تَقُدٌّ بنا فى كل قاع وفَدْفَدٍ ... بوَايكها والمُنْغيات الدَّراهك
فأمامُها وىٌّ كالسحاب مَوالِع ... وأمامُها رَكاً كالرِّياح بَواشك
قِلاصٌ بأطواف الجديل بَوالع ... وجُرْدٌ لأوساط الشَّكيم عَوالك
ترامى بها ليد النُّوق كل مُرْتَمى ... فهنَّ نُوَّاح للرَّدى أو هوالك
وكم منزل خَلَّيتُه لطلابها ... تُعَفِّيه تعدِّى السَّافيات السَّواهك

---

(١) الحواتك من حتك أى أسرع فى السير .

يمرُّ به زُوَّاره وعفاته ... وما آن به إلا الصُّوُوق الحبايك
وآثارتنا تقادم عهدهم ... وهنَّ عليه جانيات بوارك
لوارب أفراس ونؤى حذاة ... ثلاث أثافٍ كالحمام سوادك
تمرُّ عليه نسمة الفجر مثلما ... تمرُّ على طيب العروس المداوك
وأركبَ كالشهد ينفح بُرْدَه ... لمجهولِ حَىٍّ ماله للدَّهر مُبانك
يطالبها مِنّي غريمٌ مُماحك ... ويَمْطُلُنى منها عديمٌ مُماعِك(١)
أحاول منها لما تعذَّر فى الصِّبا ... ومن دونه وقْعُ الحمام المُواتك
يَسْلى الفتى منها وإن راق حُسْنُها ... حَسايف لا تُحصى ومَبارك
فمنها مَلالٌ دايم لا تَمَلَّه ... وتُرور إفكٍ عن رِضى الحقِ آفك
تُهاون بالإفك الرجال جهالةً ... وما أهْلَكَ الأحياء إلاّ الأفايك
تزن طول تَسْهادى وقدرى تَمَلْمُلى ... طِوال الليالى والنجوم النَّوابك
تَغير على الدهر منه جَحافل ... كأنَّ مُدَوَّم الرَّجم فيها نَيازك
فليت الذى سوَّدتُ فيها مُعوَّضٌ ... بما بيَّضت منى دُجاها الحوالك
ألا لا تُذكِّرينى تِلمسان والهوى ... ومادَهكت منّا الخطوب الدَّواهك
فإنَّ ادِّكار ما مضى من زمانها ... لجسْمى وللصَّبر الجميل لناهك
ولا تَصِفَنّ أمواهها لى فإنها ... لنيران أشواقى إليها مُحاوك
ومَنْ حال عن عهدٍ أو أخفر ذِمَّةً ... فإنى على تلك العهود لرامك
سَقى منزلى فيها وإن نَحَّ رسْمُه ... عِهاد الفؤادى والدُّموع السَّوافك
وجادت ثَرى قبرٍ بمسجد صالح ... رواعِدُها والمُدْجِنات الحواشك
ولا أقلَعت عن دار يوسن مُزْنة ... يُروى صداه اقطرها المتدارك

(١) ورد فى هامش المخطوط : مماعك (المماطل) والمعك (اللجاج) . وفى القاموس معك ، أى مطله ودافعه .

إلى ان يَروق النّاظرين رُواؤها ... ويُرضى الرُّعاوى نبْتُها المتلاحك
ويصبح من حول الحيا فى عراصها ... زُرّق تحكى بُسْطَها ودَرَانك(١)
ولا برحت منه ملايكةُ الرِّضى ... تصلّى على ذاك الصَّدى وتبارك
وطوبى لمن روى منازله الحيا ... ويُبشرى لمن صلّت عليه الملايك
ألا ليت شعرى هل تُقْضى لُبانتى ... إذا ما انقضت عشرٌ عليها دكادك
وهل تمكّن الطّيفُ المُغِبُّ زيارة ... فيرقب أو تُلقى إليه الرّوامك
وهل تَغفَلُ الأيام عنها بقدر ما ... تُودى إليها بالعِتاب الحالك
ويا ليت شعرى أى أرض تقلّنى إذا ... كلٌّ عن رحلى الجلال السكالك
وأى غرار من صَفاها يجننى ... إذا فقدتنى مسّها والدّكادك
إذا جَهِل الناس الزمان فإننى ... بدونهم دون الأنام لحائك
تَثَبَّت إذا ما قمتَ تعمل خطوة ... فإن بقاع الأرض طُرًّا شوائك
ولا تَبْتذِل وجهاً لصاحب نعمة ... فما مثلُ بذل الوجه للسّتر هاتك
تجَشّم ما استطعت واحذر أذاهم ... ولا تَلْقَهم إلّا وهرُّك شائك
فكلٌّ على ما أنعم الله حاسد ... وكلٌّ إذا لم يَعْصِم الله حاسك
ولا تأنس ريبة الزمان فإنه ... بمَنْ فات منا لا محالة فاتك
ثنى مصاب بربر وأعاره ... وترضى ذكامى فارس والهنادك
وبدّرت الليالى الجون خوضى لجاجها ... وتعرف إقدامى عليها المهالك
فما أذْعَنت إلا إلى عُشار ... ولا أصفقت إلا على الشكاشك
ولا قَصَدت إلا فنائى وقودها ... ولن أملت إلا قتامى الضرارك
به شَرُفت أذواؤها وملوكها ... كما شَرُفت بالنّوبهار البرامك
فلا تدْعُوَن غيرى لدفع مُلِمّة ... إذا ما دهى من حادث الدهر داهك(٢)

(١) فى هامش المخطوط : الدرانك ضرب من البسط .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (داعك) .

فما إن لذاك الصوت غيرى [١] سامع ... وما إن لبيت المجد بعدى سامك
يغص ويشجى نهشل ومجاشع ... بما أورثتنى حمير والسكاسك
تفارقنى روحى [٢] التى لست غيرها ... وطيب ثناى [٣] لاصق بى صايك
وماذا عسى ترجو لداتى وأرتجى ... وقد شمطت منا اللحا والأفانك [٤]
يعود لنا شرخ الشباب الذى مضى ... إذا عاد للدنيا عقيل ومالك

ومن شعره أيضاً قوله :

سحت بساحك يا محل الأدمع ... وتصرمت سفاً عليك الأضلع
ولطالما جادت ثرى الآمال من ... جاوى مؤملك الغيوث الهمع
لله أيام بهـــا قضيتهـــا ... قد كنت أعلم أنها لا ترجع
فلقد رشفت بها رضاب مدامة ... بنسيم أنفاس البديع تشعشع
فى روضة يرضيك منها أنها ... مرعى لأفكار الندام [٥] ومشرع
تجرى بها فقر سكنت [٦] رهانها ... أجدى بميدان الكلام وأسرع
فقر كريعان الشباب وعهدنا ... بجنابها وهو الجناب الأمنع
نفاثة الأنواء فى عقد الثرى ... والنفث فى عقد الثرى لا يمنع
حتى إذا حاك الربيع برودها ... وكسا رباها وشيه المتنوع
بدأت كمايم زهرها تبدى بها ... بدعاً تفرق تارة وتجمع
قد ضم منها ما تجمع مغلق ... إذ بت منها ما تفرق مصقع

---

(١) وردت فى الإسكوريال (غير) . والتصويب من النفح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (الروح) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ثنائى) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الافانك) .
(٥) وفى نص (الندامى) .
(٦) وفى نص (كميت) .

وكلاهما مهما أردت مُسالم ومُحارب ومؤمن ومروّع
كل له شَرْع البيان مُحَلِّل المُنْكَر فى مثل هذا مُدْفَع
حيث ازدهت أنوار كلِّ حديقة أدباً يُنْظَم تارة ويُسجع
فمُزَجَّل من رقها ومُهلَّل ومُسَمَّطٌ من نظمها ومُصَرَّع
أبدى البديعُ بها بدايعَ صُنْعه فمُجَنَّس ومُبدَّل ومُرَصَّع
ومُوَشَّح ومُرَشَّح ومُصَدَّر ومكرَّر ومُفَرَّع ومُتَبَّع
كلٌّ يروق بها بحُسْن(١) رُوايه وإذا تُزين به كلامك تبرع
ولقد غدوت بها وفى وَكْناتها طيرٌ لها فوق الغصون تُرَجِّع
بمُطهَّم الفكر الذى ما إن له إلاّ بمُستَّن الأدلة مرتع(٢)
قيد المغالب لا يزال تَحثُّه بين الجياد لعتقه أو يوضع
أرمى به الأمدَ البعيد وإنه حِمْلٌ يضلُّ به الدليل الأصمع
من بعد ما عفَت السَّوارى سُبْله ومَحت معالمه الرِّياح الأربع
لكننى جَدَّدت داثر رسمه فطريقه من بعد ذلك مَهْيَعُ
أوضحت فيهم حدوده وضُروبه والكلُّ فى كلِّ المسالك يَنْفع(٣)
حتى وَرَدْتُ من السماع موارداً فيها لظمآن المباحث مَكرع
مع كل مصقول الذكاء تخدْسُه لذكاء أسرار الطبايع مَطْلع
يرتاد من نجعْ العناصر نُجْعَة فيها مصيفٌ للعقول ومَرْبَع
لا شىء أبدع من تجاوُرها وما يُبْتَدى بها ذاك التجاور أبدع
فإذا تشعشَع مزجها أورى بها نار الحباحب مزْجَها المُتَشعْشع

---

(١) وردت فى الإسكوريال (حسن).
(٢) هكذا فى الإسكوريال. وفى نص (مصرع).
(٣) هكذا فى الإسكوريال. وفى نص (يدفع).

فَسكِينُ سرٍّ حياته بحبابها ... من بعد قَدْح زنادها مستودع
وهنا تُفاض عليه صورته التى ... لبهائها شُمُّ الطبايع تخضع
من واهب الصُّور [التى قد خصَّها][1] ببديع حكمته الحكيمُ المبدع
ربٌّ له فى كل شئ حكمة ... يقضى بها البَدْعى والمُتشرع
وحلاتُ من أرض الرياضة أربُعاً ... نفسى الفداء لها وهذى الأربع
قامَتْ زواياها فما أوتادها ... إلّا تقوم ما تقيم الأضلع
وتناسب أقدارُها نسباً لها ... لو كنتَ تُبْصرها فروعٌ فُرَّع
فأجلُّ ما تد تمته بجـلولها ... مِن بارق لجناب رُشدى يلمع
لا شك أنَّ وراءه مطراً له ... فى كل ضَرْب من قيادى مُوقع
بحرُ رَوىٌّ مُترَعٌ ملّاحهُ ... من فيضه هذا الرَّوِى المترع
لم لا أضيع بها عِهاد مدامعى ... إنى إذاً لعهُودها لمضَيَّع
خلّىّ لو لم تسعدانى فى البكا ... لقطعتُ من حبليكما[2] مايُقطع
أرأيتما نَفْساً تفارق جسمها ... وبه تَنعُّمُها ولا تتوجَّع
عَظُمت رزيتُها وأى رزيّة ... ظلّت لها أكبادنا تَتَصدَّع[3]
هذى حمامُك ياعلىّ سَواجعٌ ... وأخالها أسفًا عليها تُسْجع
إن طارَحتنى ورْقها فبأضلعى ... شوقٌ يطارحه ادّ كارٌ مُوجع
آه على جسمى الذى فارقتُه ... لا كنتُ مِمَّن جسمه لا يَرْجع
ومِن العُجاب رجوعُ ما أودى[4] به ... دهرٌ بتشتُّت[5] الأحِبة مولع

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الذى قد خصه) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (حبلكما) والتصويب أرجح للوزن والسياق .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (تتقطع) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (أردى) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (بتشتيت) .

الجورُ منه إذا استمر طبيعةٌ | والعدلُ منه إذا استقام تَطَبّع
هذى عقوبة زلَّةٍ سَلَفَت بها | من أكل طُعْمته التى لا تُشبع
قد كنتُ أمنع رَسْخ نفسى قبلها | واليوم أوجبُ أنه لا يُمنع
لِمَ لا وقد أصبحتُ بعد محلّةٍ | فيها السحايب بالرغايب تهمع
دار يدرُّ الرزق من أخلاقها | ولكم دعا داعٍ بها من يُوضع
وكأنّ مجلسها البهىَّ بصدرها | مَلِكٌ بأعلى دَسْته[1] متربِّع
وكأن مجْمَرَ عنبرٍ بفنائها | يُذكى ما قد سيف[2] منه يسطع
وكأنها المُتَوكلية بهجةً | وعلىٌّ بن الجَهْم فيها يُبدع
فى حجر ضَبٍّ خافض بجواره | من كان قَبْلُ له العوامل تُرْفع
يا نَفْثة المصدور كم لكِ قبلها | من زَفْرَةٍ بين الجوانح تَسْفَع
وعساك تَنْقع غُلة بك إنها | بجحيم ما أسبلته لا تنقع
لله أنت مذاعةً أودعتها | من كل سِرٍّ بالضمائر يُودَع
بدويّةٌ فى لفظها ونظامها | حضَريةٌ فيما به يُتَرَجَّع
لِمَ لا تَشْفَعَ فى الذى أشكو بها | ومثالُها فى مثله يُتَشفع[3]
كَمُلَت وما افترعت فأى خريدة | لو كان يفرعها همام أروع
بارت على فأصبحت لحيائها | منى بضافى مِرْطها تتلفَّع

ومن شعره قوله يمدح ذا الوزارتين أبا عبد الله بن الحكيم ، وهى من مشاهير أمداحه :

---

(١) وردت فى الإسكوريال (دستها) . والتصويب أرجح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (ضاع) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (تشفع) والتصويب أرجح .

سَل الريح إن لم تُسْعد السفن أنواء فعند صَباها من تِلِمسْان أنباء
وفى خَفقان البرق منها إشارة إليك بها تُنْمى إليها وإيماء
تمرُّ الليالى ليلةً بعد ليلة وللأذن إصغاءُ وللعين إكلاء
وإنى لأصْبُو للصَّبا كلما سَرَت وللنجم مهما كان للنَّجم أصباء
وأُهدِى إليها كل حين[1] تحيّةً وفى ردِّ إهداء التحية إهداء
واستَجْلِب النوم الغِرار ومضجعى قَتادٌ كما شاءت نواها وسُلاء
لعل خيالاً من لَدُنْها يمرُّ بى ففى مره بى من جَوَى الشرق إبراء
وكيف خُلوص الطَّيف منها وحولها[2] عيونٌ لها فى كل طالعة راء
وإنى لمشتاق إليها ومُنبِّىء ببعض اشتياقى لو تمكن إنْباء
وكم قايلٍ تَفْنى غراماً بحبها وقد أخلقت منها مِلاء وإملاء
لعشرة أعوام عليها تجرَّمت إذا مضى قيظٌ بها جاء إهْراء
يطنب فيها عابثون[3] وخُزَّب ويرحل عنها قاطنون وأحياء[4]
كأن رماح الذاهبين لمُلكها قِداح وأموال المنازل أبداء
فلا تبغينَّ فيها مناخاً لراكب فقد قَلَصت منها ظِلال وأفياء
ومن عجبى[5] أن طال سَقَمى ونَزْعها وقسم إضنائى علينا وإطناء
وكم أرجفوا غيظاً بها ثم أرجؤا فيكذبُ إرجاف ويَصْدق إرجاء
يرددها عياً بها الدهر مثلما يُرَدِّد حرفُ الفاء فى النطق فأفاء
فيامنزلاً نال الردَى منه ما اشتهى تُرى وهل لعُمْر الأنس بعدك إنساء

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يوم) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ودونها) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (عائثون) .
(٤) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (وثناه) والأولى أرجح .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (عجب) .

وهل للظى الحرب التى فيك تلتظى … إذا ما انقضت أيام بؤسك إطفاء
وهل لى زمانٌ أرتجى فيه عودةً … إليك ووجهُ البشر أزهرُ وضّاء
فوا سيئ حالى(١) إن هلكتُ ولم أقل … لصحبى بها الغرُّ الكرام الاهاؤا
ولم أطرق الدّير الذى كنتُ طارقاً … كعادى(٢) وبدر الأفق أسلغ مسناء
أطيفُ به حتى تهـــرّ كلابهُ … وقد نام عسّاس وهوّم سبّاء
ولا صاحب الأحسام ولهـــذم … وطرفٌ لحدّ الليل مذ كان وطّاء
وأسحمُ قارى كشعرى حُلْكةً … تلألأ فيه من سنى الصبح أضواء
فما لشرابى فى سواك مرارةٌ … ولا لطعامى دون بابك إمراء
وبادارى الأولى بدوب [حلاوة](٣) … وقد جدّ عيشٌ فى بلاها وأرْداء
أما [آن] أن يحمى حماك كعهده … وتجتاز أحماشٌ(٤) عليك وأحماء
أما آن أن يعشو لنارك طارقٌ … جنيب له رفعٌ إليك ودأداء
يُرجى نوالا أو يؤمل دعوةً … فما زال قارٍ فى ذُراك وقُرّاء
أحن لها ما أطّتْ النّيبُ حولها … وما عاقها عن مورد الماء إظماء
فما فاتها منى نزاع على النّوى … ولا فاتنى منها على القرب إجْشاء
كذلك جدّى فى صحابى وأسرتى … ومن لى به من(٥) أهل وُدّى إن فاؤوا
ولولا جوار ابن الحكيم محمد … لما فات نفْسى من بنى الدهر إقْماء
حمانى فلم تنتب محلى نوايبُ … بسوءٍ ولم ترْزأ فؤادى أرْزاء
وأكْفاء بيتى فى كفالة جاهه … فصاروا عبيداً لى وهم لىَ أكْفاء

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (فواجربالى) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص آخر (بليل) .
(٣) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (أصحاب) .
(٥) هكذا فى الاسكوريال . وفى النفح (فى) .

يؤمُّون قصدى طاعةً ومحبةً   فما عُقْتهُ عافوا وما شئْتُه شاء(١)
دعانى إلى المجد الذى كنتُ آملا   فلم يكُ لى عن دعوة المجد إبطاء
وبوَّأنى من هَضْبة العزِّ تَامِكَةً   يناجى الشُّبا منه(٢) صعود وطأطاء
[يشايعنى فيها](٣) إذا سرتُ حافظٌ   ويَكْلأُنى منها إذا نمتُ كَلاَّء
ولا مثلُ نومى فى كفالة غيره   وللذيب إلمام وللصِّلِّ إلمـاء
بغيضةِ ليثٍ أو بمرقب خالب   تَنِد(٤) كِساً فيه وتقطع أكساء
إذا كان لى من نايب المُلْك كافلٌ   ففى حينما هوَّمتُ كِنٌّ وإدْفاء
وأخوانُ صدقٍ من صنايع جاهه   يُبادرنى منهم قيامٌ وإيلاء
سُراعٌ لما يُرجى من الخير عندهم   ومن كل ما يُخشى من الشر إبراء
إليك أيا عبد الإله صنعتها   لزوميَّةً فيها لوَجْدِى إفشاء
مُبَرَّأةٌ مما يعيبُ لزومَها   إذا عاب أكفاء سواها وإيطاء
أذعتُ بها السر الذى كان قبلها   عليه لأحناء الجوانح إضْفاء
وإن لم يكن كلُّ الذى كنتُ(٥) آملاً   واعْوَز إكلاء فما عاز إكماء
ومن يتكلف مُفْحَما شُكر منةٍ   فمالى إلى ذاك التكلُّف إلجاء
إذا مُنْشِدٌ لم يكن عنك ومُنْشِئ   فلا كان إنشاد ولا كان إنشاء

ومن شعره قوله .

أطار فؤادى برق ألاحا   يُقِمُّ ضم بعد لو كرّ جناحا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (شاءوا) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (منها) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يشيعنى منها) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تبز) .
(٥) وردت فى الإسكوريال (أنت) . والتصويب من النفح .

كأنّ تألقَه فى الدُّجا حُسام جبان يهاب الكفاحا
أضاء وللعين إغفاءةٌ تلذُّ إذا ما سنى الفجر لاحا
كمعنى خفىٍّ بدا بعضُه وزِيد بيانا فزاد اتِّضاحا
كأن النجوم وقد غرُبت نواهلُ ماءٍ صَدَرْن قُماحا(1)
لواغب(1) باتت تُجدُّ السُّرى فأدركها الصبح روحى طِلاحا
وقد لبس الليل أسماله فمحَّت(1) عليه بلاً وانصياحا(1)
وأيقظ روض الرُّبا زهره فحيّا نسيمُ صَباه الصَّباحا
كأن النهار وقد غالها مبيت مال حواه اجتياحا
أبى يَسْتَفيض دموعى امتياحا ويُلهب نار ضلوعى اقتداحا
فلم يلْقَ دجن انتحابى شحيحا ولم يلفَ زَنْدَ اشتياقى شَحاحا
ولولا توقُّد نار الحشى لانفدتُ ماء جفونى امتياحا
ومّما يُشَرِّد عنى الكرى هديل حَمام إذا نمتُ صاحا
ينوح علىّ وأبكى له فأقطع لَيْلى بكاً أو نياحا
أعين أريحى أطلت الأسى عليك وما زدت إلاّ انتزاحا
دعينى أردُّ ماء دمعى(2) فلم أرد بعد مايك ماءً قَراحا
أحنُّ اليك إذا سفت ريحا وأبكى عليك إذا ذُقت راحا
وأفنى النياحا إليك وكم أشحتُ بوجهى عنك اتشاحا
ولولا سَخايم قوم أبوا إيابى ركبت إليك الرِّياحا
أباحوا حِماى وكم مرة حَميتُ حِمى عِرْضهم أن يُباحا

---

(1) ورد فى هامش المخطوط ما يأتى : قمح البعير إذا رفع رأسه وامتنع من الشراب ريا — لواغب روحى طلاحا : كل ذلك بمعنى أعيا — مح الثوب إذا بلى ، وانصاح الثوب إذا انشق .
(2) وفى نص : عينى .

ودافعتُ عنهم بشعْرى انتصارا ... فـكان الجزاء جلاء المتاحا
أباعوا ودادى بخسا فسَلْ ... أكان سماحهم بى رباحا
وأغروا بنفسى طلابهـا ... سَرَاراً فجاءوا لقتلى صَراحا
وآلو يمينا على أنّ مـا ... توهَّمت لم يكُ إلاّ مزاحـا
فشاورتُ نفسى فى ذا فمـا ... رأت لى بغير الفلاة فلاحـا
فبتُّ أناغى نجوم الدُّجـا ... نجاءً فلم ألق(١) إلا نجاحـا
أجوب الدياجير وحدى ولا ... مؤانس إلّا القطا والسِّراحا(٢)
وإلّا الثعـالب تحتس فى ... مبيتى فتملأ سمعى ضُباحا(٣)
أجوز الأُفاحيص فيحاً قفـارا ... وأعرو الأداحى غبرا فساحا
فأعي شَوارد هذى عداء ... وأعلو لَواغى تلك صياحا
وجواب بدو إذا استنبحوا ... أجابوا عَواءً وأمُّوا النِّباحا
يرون قِتالى فى الحجر حِلاّ ... وإذهاب نفسى فيه مُباحـا
قصدتُ هناهم(٤) فلم أُخطِهم ... أعاجمُ شوس العيون قباحا
فَسَلْ كيف كان خلاصى من ... أسارهم أسرى أم سَراحـا
ولا مثلُ بيتٍ تيمَّمته فلم ... ألفَ إلّا الغنا والسَّماحـا
عيابا ملاء ونيباً سمـانا ... وغيداً خدالاً(٥) وعوداً أقاحا
وإلا أعاريب شُمُّ الأنوف ... كرامُ الجدود فصاحاً صباحا
وإلاّ يعافير سودُ العيون ... يَرَيْن فساد المُحِب صلاحا
يردِّدْن فينا لِحاظاً مُراضا ... يُمْرِضن منّا القلوب الصِّحاحا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (ألف) .
(٢) فى الهامش : جمع سرحان وهو الذئب . (٣) الضباح هو صوت الثعلب .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (سناهم) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (حسانا) .

وتحت الوَجاج طِلاً رَبْرَب   لوْ أنّ القيان رفعْن الوَجاحا
أراني محاسن منه فلم   أطق عن حِماه بقلبي بَراحا
مُحيّاً وسياً وفرْعاً أثيثا   وقدّاً قويماً وردْفاً رداحا
وأبدى لعيني بدايع لم   يدع لى عقلاً بها حين راحا
إذا لم يُرد غيرَ سَفْك دمى   فحِلٌّ وبل له ما استباحا
وما زلتُ مُمْحاً بنفسى كذا   متى ما رأيتُ الوجوه الملاحا
وبابن رُشَيْد تعوَّذت من   هواه فقد زدتُ فيه افتضاحا
وقد ضاق صدرى عن كتْمه   وأودعته جَفْن عينى فباحا
وبابن رُشيد تعوَّذت من   خُطوب أجلْن علىّ القِداحا
ألحّ الزمان بأحداثه   فألقيتُ طوعاً إليه السِّلاحا
أعاد شبابى مَشِيباً كما   سمعت وصيّر نسكى طَلاحا(١)
وفرّق بينى وبين الأُهيل   ولم يَرَ ذا عليه جُناحا
أخى وسمِيٌّ أصيخ مُسْعداً(٢)   لشجوِ حَزين إليك استراحا
فقد جَبَّ ظهرى على ضعفه   كُداماً وأدهى شواتى نطاحا
وطوّح بى عن تِلِمسان ما   ظننتُ فراقى لها أن يُتاحا
وأعجل سيرى عنه ولم   يدعنى أوَدِّع تلك البِطاحا
نأى بصديقك عن رَبْعِه   فكان له النَّأى موتاً صُراحا
وكان عزيزاً على قومه   إذا هاج خاضوا إليه الرِّماحا
فها هو إن قال لم يُلتفت   إليه امتهاناً له واطِّراحا
عجبتُ لدهرى هذا وما   ألاقى مساءً به وصباحا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (صلاحا) . والأولى أرجح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (مسمعا) .

لقد هدّ منّى رُكناً شديداً ... وذلل منى حياءً لقاحا
وُقيت الردى من أخٍ مخلص ... لو استطعتُ طرتُ إليه ارتياحا
وإنى على فَيْح ما بيننا ... لأتبع ذاك الشذا حيث فاحا
أحن إليه حنين الفحول(١) ... ونَوْح الحمام إذا هو ناحا
وأسأل عنه هبوب النسيم ... وخَفْقَ الوميض إذا ما ألاحا
وإن شِيت عِرْفان حالى وما ... يُعانيه جسمى ضَنًى أو صَحاحا
فقلبٌ يذوب إليك اشتياقا ... وصدرٌ يفاح إليك انشراحا
وغرس وداد أصاب فضاء ... نَدياً وصادف أرضاً بَراحا
كراسخ مجد تأثّلته ... فلم تخش بعد عليه امتصاحا
وعليــــاء بوّأتها لو بَغَى ... سموّاً إليها السِّماك لطاحا
مكارمُ جُمعت أفذاذُها ... فكانت لعطف(٢) عُلاك وِشاحا
ودرسُ علومٍ تهيم بها ... عَمَرْت الغدْوَ به والرّواحا
نشأتَ عن الخير واعتَدتَه ... فلم تَدْرِ إلا التقى والصَّلاحا
وقُمْتَ(٣) لها أيما رحــلة ... كَسَحْت المعارف فيها اكتساحا
بهرتَ رجال الحديث اقتداء ... وفُتَّ رجال الكمال اقتراحا
فما [إن جليس](٤) إذا قلت قال ... أو أن الخطيب إذا لحُتَ لاحا
ولو لم تحــجّ بها مكة ... لحجّ الملايك عنك صُراحا
وأما أنا بعد نَهْى النُّهى ... فما زادنى(٥) الطبعُ إلا جماحا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (العجول) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (لعضب) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (رحلت) .
(٤) وردت محرفة فى الإسكوريال (ابن حبيش) .
(٥) وردت فى الإسكوريال (زاد) والتصويب لازم لاستقامة الوزن والسياق .

أدير كؤوسَ هواى اغْتِباقا ... وأشرب ماء دموعي اصْطِباحا
فبرَّد جواى بردٌ جواب ... تُوَبِّخ فيه مَثْنى الوُقاحا
وهنّ بنيّات فكرى وقد ... أتَيْنكَ فاخفِض لهنّ الجَناحا

ومن شعره رحمه الله قوله يمدح ذا الوزارتين المتقدم ذكره ، ويذكر غِفارةً وجَّهها له مع هديه :

كَبَت العِدى إنعامُك البَغْت ... فَلِى الهنا وللعِدى الكَبْتُ
يا من إلى جَدوى أنامله ... يُزْجى[1] للسُّفين وتُزْجَر البُخت
لولاك لم يُوصل بناحية ... وخْدٌ ولم يُقْطع بها دَشت[2]
لولاك لم يَطلُع بها نَشرٌ ... منه ولم يَهْبِط بها خَبْت
خَوَّلتنى مالم تَسَعْه يدى ... فأصابنى من كثره غَمَتُ
شتّى أيادٍ كلما عظُمت ... عندى تلكأ خاطرى الْهَتُّ
يَعْيَى لسانى عن إذاعتها ... ويضيقُ عن شكرى لها الوقت
وطّأت لى الدنيا فلا عِوَجٌ ... فيما أرى منها ولا أَمْتُ
أمكَنْتَنى منها فما ليدى ... رده ولا لمقالتى عتٌ
بائنتَ فى برّى ولا نَسَبٌ ... أُدلِى إليك به ولا حَسَبُ
لكنّ حَسْبِى إن مَتَتُّ به ... يوماً إليك ودادى البَحْتُ
بوركتَ من رجل برؤيته ... يُوسى الضّنا ويُعالج الغَتُّ
لو سار فى بهماء مقفِرة ... فى حيث لا ماء ولا نَبْتُ
لتفجّرَ الماء النّمير بها ... ولأعشبت أرجاؤها[3] المَرْتُ

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (يرجى) .
(٢) الدشت هنا بمعنى الصحراء .
(٣) مكانها بياض بالمخطوط . والإضافة من (المنتخب النفيس) .

لا تحسَبَنَّ البُخْت نيل غِنًى ـــ نيلُ الرضا منه هو البَخْتُ
آلت جلالتُه وحقَّ لها ـــ أن لا يحيط بكُنْهِها نَعْتُ
أظْهَرْتَ دِينَ الله فى زمن ـــ ما زال يَغْلِب حقَّهُ البَهْتُ
شَيَّدتَه وهدَدْتَ مُمتعضاً ـــ لضياعه ما شيَّد الجِبْتُ
أمَّنْتَ أرض المسلمين فلا ـــ ذئب يُخاف بها ولا لصت
وحَفِظْتَهَا من كل نايبة ـــ تُخشى فأنت حفيظُها الثَّبْت
ونهجتَ سبيل المَكْرُمات فما ـــ لمؤمل عن غايه ألتُ
لم تُبق غُفْلاً من مَتالعها ـــ إلا وفيه لحاير بُرْتُ
هادِنْ طُغاة الكفر ما هدأت ـــ حتى يجىء نهارُها الَمحْتُ
دَعْها تودِّع فى معاقلها ـــ ما لم تَعُدُّ جُفلتها العَفْتُ
كم ذُدْتَها عنَّا وقد هَبَرت ـــ لهراشنا أشداقها الهَرَت
بوقوف طَرْفِك عند شدَّته ـــ يَبْأى ويَفْخَرُ مُلْكها الرَّت
ويشكر ما أظْهَرْت من كرم ـــ فى ذاك تفصح عُجْمُها المَرْتُ
لك من ممالكها وإن رَغُمت ـــ ما جال فيه جوادك الحتُّ
ولكل أصْيَد من بطارقها ـــ فى كلِّ أرَى له دعت
لولا لباك البيض ما أرِقَت ـــ للقائها أفْراسُنا الكُمْتُ
عنده لمَنْ يَنْتابُه مقَّةٌ ـــ ولمن يُنيب لغيره مَقْتُ[1]
ولو أن بِيضَك لم تَسُلْ لما ـــ ذُلَّت أنوفُ طُغاتها الشُّلْت
يا ابن الحكيم أمِنْت صرف ردًى ـــ أبداً له فى أثلتى نَحْت
وبيُمْنه أنِسْتُ من أملى ـــ ما لم يكن يوماً له عــــرت

---

(١) هذا البيت مدون بهامش المخطوط . وفى نص (الملقت) .

مَثْنَى الوزارة مـــوئلى وله ... ما دمت أمْلاك قدرتى أقتُ
وببأسه أُطْنِى شرارةَ من ... يَعْشُو وأقْدَحُ أنف من يَعْتُ
عمَّ الورى جوداً وفضلَ غِنًى ... حتى تساوى العَـــدُّ والغَلْتُ
وهمَى على عالٍ ومُنْخَفِــض ... لم يبق فـــوقٌ لا ولا تحتُ
ظل إذا نصطافُ معتـــدلٌ ... عَطِرِ الشَّـــذا وحْياً إذا نَشْتُ
يتضاءل الصبح المنير إذا ... لاقى سَنَــاه جبينك الصَّلْتُ
حتى كأنّ شمس الضحى قمرٌ ... وكأن ضوء شعاعها نُفَتُ
وغريبةٌ فى لُطف صَنْعتها ... يَمْضِى الزمانُ وما لها أُخْتُ
يَنْأى النَّدى بها إذا لَبِسَت ... ويَتِيه إن طُويتْ بها التختُ
زنجيَّةٌ لــكن لَمحْتِــدها ... فى الرُّوم يعنو القسُّ والشَّنْتُ(١)
مثلُ العروس على مِنَصَّتهـا ... من شأنهـا التَّزْيين والزَّتُّ
لأكون أنحلُ ما أكون هُدًى ... فيهـا فيَقْبَلُ جسوىَ الشَّخْتُ
وبمثل شَيْبِى فوق حُلْكَتها ... يَبْدو الوقارُ ويحفظُ السَّمْتُ
تُظهرينى بلباسهـــا وبه ... عندى لها الإيثار ما عِشْتُ
لازلتَ تؤثرنى بهـــا أبداً ... ولا تَفِ من يشْقى(٢) بذا السَّلْت
وبقيتَ تُدرك ما تُريد وما ... تَهوى بقـاءً ماله فتُّ

ومن شعره أيضاً فى المدح قوله رحمه الله من قصيدة ثبتت فى ديوانٍ مجموع من أمداحه منها قوله :

طرَقَتْك وهناً أخت آل علاج ... والرَّكْبُ بين دَكادك وحِراج
فى ليلة لَيْلاء لم ينبح بها ... كلبٌ ولم يصرخ أذينُ دجاج

---

(١) يرمز بها هنا إلى القداسة — مثل شنت ياقب ، وشنت مريه . وبالإسبانية Santo
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (يشجى) .

أنىّ اهتدَت لمضالين توهنوا ‏ ‏ منها لهتْك دياجرٍ ودَيــاج
مُتَسَربلى بُرْدَ الظَّلام كأنهم ‏ ‏ فيه قِداح فى رماية ساج
وثقوا بحمود السُّرى وتسلَّموا ‏ ‏ لمخارمَ مجهولةٍ وفجــاج
ومنازلٌ دُرْسُ الرسوم بلاقعٌ ‏ ‏ أخوين(١) من هيج ومن هجْهاج
مَحَتْ معالمُهنَّ غير مَثْلَمٍ ‏ ‏ كسِوار تاج أو كدَمْلج عاج
ومَواثلٌ مثل الحَمام جواثمٌ ‏ ‏ وُرْقٌ وأسْحَمُ دائم التَّشحاج
ومُشَجَّجٌ مازال مَنْهل الحيا ‏ ‏ يبكى صداه بدمعه الثجّـاج
حتى أعاد لعوده أوراقَه ‏ ‏ خُضْرَ الظِّلال ذكيّة الآراج
وكسا عَراة عِراصه من وَشْيه ‏ ‏ حُللا تُبَوِّر صنْعة الديباج
لا مثل ليلات [مَضَيْن سريعة](٢) ‏ ‏ برَّدت حرارة قلبى المهتاج
أدركتَ منها فى صباى مطالبى ‏ ‏ وقضيتُ منها فى شبابى حاجِ
كم ليلة مرَّت ولم يشعر بها ‏ ‏ غيرى وَغير منادمى وسِراج
بتنا نُديِر إلى انبلاج صباحها ‏ ‏ كأس الهوى صِرفاً بغير مِزاج
وتُدير أعيُننا حديثَ غرامنا ‏ ‏ بمرامزٍ من فِضِّها(٣) وأحاج
بمآرج(٤) النفَحات من دارين أو ‏ ‏ بمدارج النَّسمات من دَرَّاج
وخلوص وُدٍّ فى نقاء سريرة ‏ ‏ كسلاف راحٍ فى صفاء زُجاج
أمحضته حَظِّى من الزمن الذى ‏ ‏ أعْيى مراسى أهله وعــلاج
واخترتُ قرب جواره لخلوصه ‏ ‏ وتركت كلَّ مماذق مزّاج
ما فى زمانك غيره فاخلص له ‏ ‏ غَيْباً وداهنْ من أردتَ وداج

---

(١) وردت فى الإسكوريال (أقوين) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (بنصب سويقة) . والتصويب من (المنتخب) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى نص (فضة) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (بموزج) .

لا تحملنَّ بغيره واستَغْنِين ... بوقاره عن كل غَمْر ماج
أترُكُ بنى الدنيا وأعرض عنهم ... فمساك[1] تُطْعِم لذَّة الإثلاج
نزَّهت نفسى عنهم بنواله ... وحَفِظْتها من جاهه بسياج
أصبحتُ من آلايه وولايه ... فى عزَّة ضَحْيا وعزٌّ داجِ
ولو أننى عجت الركابَ مُيَمِّما ... أحداً سواه ما حمِدتُ مَعاجِ
طَلْقٌ إذا احتلك الزمان أنار فى ... ظلمائه كالكوكب الوهّاج
طُودُ الرَّصانة والرَّزانة والحِجا ... بحرُ النَّدى المتلاطم الأمواج
وغمامُهُ الهامى على آمــاله ... من غير إرْعاد ولا إرْعاج
وهِزَبْرُ آجام القنى الضّارى إذا ... سقطت عواتمها[2] على الأزْجاج
ضَمِنَ الإِلَه له على أعدايه ... ما شاء من ظَفَرٍ ومن إفلاج
أبقى أبو عبد الإِله محمدٌ ... ما شاد والده أبو الحجّــاج
وبنى أبو إسحق قبل وصنوُه ... رُكنا الضعيف ومعدنا[3] المحتاج
وجرى على آثار[4] أسْلاف لهم ... دَرَجوا وكلّهم على مِنْهاج
ما منهم إلا أعزٌّ مباركٌ ... مصباح ليل أو صباح عَجاج
بيتٌ بنوه من سراوة حِمْيَر ... فى الذُّروة العَلْياء من صِنْهاج
كم كان فى الماضين من أسلافهم ... من ربِّ إكليل وصاحب تاج
أساسُ كل رياسةٍ ورؤسُ ... كل سياسةٍ وليوث كل هياج
أعْيَتْ نجوم الليل من سهر وما ... أعيا أبو موسى من الإدلاج

---

(١) وردت فى الإسكوريال (بأسا) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (عواملها) . والتصويب من المنتخب .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى نص (ه ولا).
(٤) وردت فى الإسكوريال (أسال) .

حتى أصارته لرحمة ربه يومَ العقاب وقيعةُ الأعلاج
وأقيم نَجْلُ أخيه بعد مقامه فيهم يطاعن مثله ويواج
فردا يَلفُّ كتايباً بكتايب ويكبُّ أفواجا على أفواج
حتى تجلَّى دجنُ كل عجاجة عنهم وأمسك رَعد كل ضجاج
مَنْ مِثْلُ يوسف في قراع[1] كتايب ولقاء أعـــداء وخوض لجاج
أو مَنْ يشقُّ من الأنام غُبارَه في ردِّ آراء ونقض حُجاج
إن خاض يوماً في بيان حقيقة [أنهى عن][2] الثَّوري والحلاّج[3]
وإذا تـكلم في الغَريب وضَبْطه لم يَعْبأ بالمُثنى والزّجّاج
أنسَتْ قصايد جرول[4] أشعارُه وأراجز العجلي[4] والعجّاج
جمع الفصاحة والصَّباحة والتقا والجود في وَجْد وفي إحراج
تخشاه أُسْدُ الغاب في أجماتها والرُّوم في الأسوار والأبراج
إنّا بني قحطان لم نُخلق لغـــير غياث ملهوف ومنعة لاج
نُبْرِى طَلا الأعراب في الهيجا وفي اللأواء سوف نمارى الأعراج
بسيوفنـا البيض اليمانيَّة التي طُبعت لحزٍّ غلاصِم وودِاج
تأبى لنا الإحجام عن أعدائنا يوم اللّقاء طهارة الأمشاج
أنصارُ [خير العالمين][5] وحزبه وحماتُه في الجَحْفل الرَّجْراج
وفُداته بنفوسهم ونفَيسهم من غَدْرِ مُغتـال وسُبّة هاج
هم صَفْوة الخلق التي اختيرت له وسواهم همَجٌ من الأمهاج

---

(١) هكذا في الإسكوريال . وفي نص (نزال) .
(٢) هكذا في الإسكوريال ، وفي نص (أربى على) .
(٣) هكذا في الإسكوريال . وفي نص (الحجاج) . والأولى أرجح .
(٤) ورد في هامش المخطوط ما يأتي : جرول هو الحطيئة . والعجلي هو أبو النجم .
(٥) هكذا في الإسكوريال . وفي نص (دين الهاشمي) .

إلاّ الأُلى سبقوا بباهر فضلهم   من ساير الأصحاب والأزواج
وكفى بحِكْمتنا إقامةُ حُجَّة   وبرُكْنِنا من كَعْبَةَ الحجّاج
ولنا مفاخرُ فى القديم شهيرةٌ   كالصُّبح فى وَضَحٍ وفى إبْلاج
منَّا التَّبابعة الذين ببابهم   كانت تُنيخ جُباةُ كل خراج
ولأمرهم كانت تَدين ممالكُ الـ   ـدُّنيا بلا قهر ولا إحراج
من يقتدح زَنْداً فإن زِنادَهم   فى الجود واريةٌ بلا إخراج
أبوابُهم مفتوحة لضيوفهم   أبداً بلا قُفْل ولا مِزْلاج

ومما اشتهر من شعره قوله :

أرّق عينى بارقٌ من أثال   كأنّه فى جُنْح ليلى ذُبالْ
أثار شوقاً فى ضمير الحشى(١)   وعَبْرتى فى صحن خدّى أسالْ
حكى فؤادى قلقاً واشتعال   وجَفْن عينى أرَقاً وانهمالْ
[جوانحُ تلفح نيرانُها   وأدمعٌ تنهل مثل العَزال](٢)
قولوا وشاةَ الحُبِّ ماشئتم   مالذّة الحب سوى أن يُقال
عُذْراً لِلُوّامى ولا عــذر لى   فزلَّة العالِم ما إن تُقال
قم نطرد الهمَّ بمشمولةٍ   تقصِّر الليل إذا الليــل طال
وعاطِها صفراء ذمِّيَّةً   تمنعها الذِّمَّة من أن تُنال
كالمِسْك ريحاً واللّما مَطْعما   والتِّبر لوناً والهوا فى اعتدال
عتَّقها فى الدَّنِّ خَمَّارُها   والبِكْرُ لا تعرف غير الحِجال
لا تُثْقِب المصباح لا واسْقِنى   على سَنَى البرق وضوء الهلال
فالعيشُ نومٌ والرَّدى يَقَظةٌ   والمرء ما بينهما كالخيال

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الحشا) .
(٢) هذا البيت وارد فى النفح . وساقط فى الإسكوريال .

خُذْها على تَنْغيم مِسْطارِها ... بين خَوابيها وبين الدَّوال
فى روضة باكر وَسْمِيُّها(١) ... أخمل دارين وأنْسَى أوال
كأن فار المِسْك مَفْتُوقةٌ(٢) ... فيها إذا هبَّتْ صَباً أو شمال
من كلِّ(٣) ساجى الطَّرْف ألحاظُه ... مُفَوَّقات أبداً للنضال
مَن عاذرى والــكل لى عاذل(٤) ... من حَسَنِ الوجه قبيح الفِعال
من خُلْبِي الوَعْد كذَّابه ... لَيَّان لا يعرف غير المِطال
كأنه الدهر وأىُّ امرئٍ ... يبقى على حال إذا الدهر حال
أما ترانى آخــذاً ناقضاً ... عليه ما سوَّغَنى(٥) من محال
ولم أكن قــطُّ له عائباً ... كمثل ما عابَتْه قَبلى رجال
يأبى ثراء المــال عِلْمى وهل ... يجتمع الضِّدَّان علمٌ ومال
وتأنفُ الأرضُ مُقامى بهــا ... حتى تهادانى ظهور الرجال
لولا بنــو زيَّان ما لَذ لى العيــشُ ولا هانَتْ علىّ اللَّيــال
هم خوَّفوا الدهر وهم خفَّفوا ... على بنى الدهر(٦) خُطاه الثِّقال
وَرِثت(٧) من عامرهم ســيِّداً ... غَمْرَ رداء الحَمْد غَمْرَ(٨) النَّوال
وكعبةٌ للجود منصــوبةٌ ... يسعى إليها الناس من كل حال(٩)

---

(١) وردت فى الإسكوريال (وسميته) . والتصويب من النفح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (مفتوتة) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (كف) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (عاذر) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (سوفنى) .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الدنيا) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (لقيت) .
(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (جم) .
(٩) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بال) .

خُذْها أبا زيّان من شاعــــر مُسْتَمْلَحَ النَّزعة عَذْبِ المقال
يَلْتَقِطُ الألفــاظ لَفْظَ النَّوى ويَنْظِمِ الآلاء نَظْم اللآل
مُجارِياً مهيــار فى قــــوله ما كنتُ لولا طمعى فى الخيال[1]

ومما قال أيضاً ، واشتمل ذلك على شيء من نظمه ونثره . وهذا الرجل مُغْرِبُ النزعة ، فى شفوف نظمه على نثره :

عجباً لها أيذوق طعم وِصالهــا من ليس يطمع[2] أن يمُرّ ببالهــا
وأنا الفقير إلى تَعِلَّة ســاعةٍ منها وتمنعني زكاة جمــالها
كم [ذا وعن][3] عينى الـكَرَى متأنفٌ[4] يبدو ويَخْفَى فى خفى مطالها
يسمو لها بَدْرُ الدُّجا مُتضايلاً كتضاءل الحَسْناء فى أسمالها
وابنُ السَّبيل يجىء يَقْبِس نارها ليلاً فتمنحه عَقيلة مالها
يعتادُنى فى النوم طيفُ خيالها فتصيبُنى ألحاظُهــا بنِبــالهــا
كم ليلةٍ جادت به فـكأنّمــا زُفَّت على ذُكاء وقتَ زوالهــا
أَسْرِى فعِطْرُها[5] وعُطْلُ شُهبها يأبى شَذا المِعْطار من مِعطالها
وسوادُ طُرّته كجَنْح ظلامها وبياضُ غُرّته كضوء هلالها
دعنى أَشُمُّ بالوهم أدنى لمحة[6] من ثغرها وأشمُّ مِسْكَة خالها
ما راد طَرْفى فى حديقة خدِّها إلا لِفتنْتَه بحُسْن دلالهــا

---

(١) وقصيدة مهيار مطلعها : ما كنت لولا طمعى فى الخيال أنشد ليلى بين طول الليال (النفح ج ٣ ص ١٨٧) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يأمل) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (كم ذاد عن) والتصويب من النفح .

(٤) وردت فى الإسكوريال (متألق) . والتصويب من النفح .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فعطلها) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (لمعة) .

أنسيبُ شِعْرِى رَقَّ مثل نَسيمها　　　فشمول راحِك مثلُ ريح شمالها
وانقل أحاديث الهوى واشرح غـــريبَ لُغاتها وأذكر ثقات رِجالها
وإذا مررتَ برامةٍ فتَوقَّ من　　　أطلايها وتمشَّ فى أطـــلالها
وانصب لمَغْزِلهـا حِبالة قانصٍ　　　ودَعْ الـكرى شَرَكاً لصيد غزالها
وأسِل جداولها بفَيْض دموعها　　　وانْضَح جوانحها بفضل سِجالها
أنا من بقيَّة معشرٍ عرَّكتهم　　　هذى النَّوى عَرْكَ الرَّحى بثِفالها
أ كرِم بها فئةً أريق نجيعُها　　　بَغْياً فراق العينَ حسنُ جمالها[1]
حلَّت مُدامة وَصْلها وحلَّت لهم　　　فإن انتشُوا فبُحُوها وحَلالها
بلغت بهِرْمِسَ غاية ما نالهـا　　　أحدٌ وناء بهـا لبعد منـالهـا
وعدَتْ على سُقراط صورة[2] كأسها　　　فهريقُ ما فى الدَّن من جريالها
وسَرَت إلى فاراب منها نفحةٌ　　　قُدْسية جاءت بنُخبة آلِهـا
ليصوغَ من ألحانه فى حانها　　　ما سَوَّغ القسيس من أرْمالها
وتعلقت[3] فى سُهْرَوَرْدَ فأسهرت　　　عيناً يُؤَرِّقُها طروق خيالهـا
فخبا شهاب الدِّين لمـا أشرقت　　　وخبا[4] فلم يثبت لنور جلالها
ما جُنَّ مثل جُنونه أحـــد ولا　　　سَمحت يدٌ بيضـا بمثل نوالها
وبدت على الشُّوذى منها نفحة[5]　　　ما لاح منهـا غير لمعة آلهـا
بَطُلت حقيقتـــه وحالت حالُه　　　فيما يُعبِّر عن حقيقته حالهـا
هذى صُبـابتهم ترِقُّ صَبـابةً　　　فيروق شاربهـا صفاء زُلالهـا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مآلها) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (سورة) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وتغلغلت) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وخوى) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نشوة) .

إعلم أبا الفضل بن يحيى أننى ... من بعدها أجرى على آسالها
فإذا رأيتَ مُوَلَّهاً مثلى فخذ ... فى عَذْله إن كنت من عُذَّالها
لا تعْجَبن لمـا ترى من شأنها ... فى حِلِّها إن كان أو تَرْحالها
فصلاحُها بفسادها ونعيمُهـا ... بعذابهـا ورشادُها بضلالهـا
ومن العجايب أن أقيم ببلدة ... يوماً وأسْلَمُ من أذى جُهَّالهـا
شغُلوا بدُنيـاهم أما شَغَلَتْهم ... عنى فكم ضُيِّعت من أشغالهـا
حُجبوا بجهلهم فإن لاحَتْ لهم ... شمسُ الهُدى عشوا[1] بضوء ذُبالها
وإن انْتَسَبْتُ فإننى من دَوحةٍ ... تتقيل الأقيال برد[2] ظلالهـا
من حمير[3] من ذى رُعين من ذُرى ... حَجْر من العظماء من أقيالهـا
وإذا رجعتُ لطينتى معنًى فما ... سِلسالُهم بأرَقَّ من صِلصالهـا
لله درُّك أى نَجْل كريمـة ... وَلَدَته فاس[4] منك بعد حيالها[5]
ولأنت لاعَدِمتُك والد فخرها ... وسِماك سُؤدَدِها وبدرُ كمالها
أغلِظ على من عاث من أنذالها[6] ... واخشع لمن تلقـاه من أبدالها[7]
والبس بما[8] أوليتهـا من نعمة ... حُلَلَ الثنـاء وجُرَّ من أذيالهـا
خذها أبا الفضل بن يحيى تحفة ... جاءتك لم يُنسج على منوالها
ماجال فى مِضمارها شِعرٌ ولا ... سمحت[9] قريحة شاعر بمثالهـا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى أزهار الرياض (عبثوا) .
(٢) فى الإسكوريال (أرد) . والتصويب من الزيتونة .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة .
(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (فلس) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (أبذالها) .
(٧) وردت فى الإسكوريال (أبدانها) . التصويب من الزيتونة .
(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (لما) .
(٩) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (سحت) .

واتلُ أبا البركات من بَرَكاتها وادفع بِمحال شكوكه بمحالها

هذه أمتَعَ الله ببقايك، وأسعد بلقايك. وأراهابما تؤمله من شريف اعتنايك، وترجوه من جميل احتفايك، ما تعرفُ به من احتذايك، وتعترفُ له ببركة اعتفايك، كريمة الأحياء، وعقيلة الأموات والأحياء، بنت الأذواء والأقيال، ومقصورة الاسِرَّة والحجال؛ بل أسيره الأساور والأحجال. على أنها حليفةُ آلام وأوْصأب، وأليفةُ أشجان وأطْراب، صُبابة أغراب من صُبّابة أعراب، جاورَت سَيْفَ بن ذى يزن فى رأس غُمدان، وجاوزتْ مَسْلَمة بن مخلد يوم جابية الجوَلان، وذَلَقَت لسان ابن أخته حسّان، فتضاءلت لرقة حَدِّه جسوم بنى عبد المُدان، وقرَّبه وماشيم من غِمْدِه قيد ابن الإطنابة بين يدى النُّعمان، قوبت ببنى جَفْنة مزار جِلِّق، وسَعرت لبنى تميم نار مُحْاق، ومرَّت على مُعتاد غالب، فما أنِست ناره، وطافَت ببيت عبد الله بن دارم، فلم ترض جواره، ولو حلت بفَناية، واستَحَلَّت ما أحل لها من مبذول حِبائه، لاغتُفر لها ما جَنَته ببطن أوُاره، وكَلَّاتَ لها حبوتا مجاشع وزرارة، مزقت على مزيقيا حُلَلاً، وأذهبت يوم حليمة مثلا، وأركبت عَنزاً شر يومها يَجْدَع[1] جَمَلا، وناطت بأذن مارية[2] قِرْطها، وجرّت على أثر الكندى مِرْطَها، وقفها بين الدَّخول فَحَوْمَل فوَقفت، وأنفها يومَ دارة جلْجُل فأنفت منه وما ألِفَت، عقر ناقته وانتهَس عبيطها، ودخل خِدْر عُنَيْزَة وأمال غَبيطها. أغْرت أبا قابوس بزياد، واسْرَجَت للزبيدى فَرَس أبى داود[3]، ونافرت بحاتم طَىّ كعب إياد، وساورت المساور

(١) هكذا فى الإسكوريال. وفى نص (يحدج).
(٢) وردت فى الإسكوريال (ريه) والتصويب من (المنتخب).
(٣) هكذا فى الإسكوريال. وفى نص (أدو اد).

بمثل جُوده السّاير . ولئن بلت الجعفرى لبيدا ، فلقد استعبدت الأسدى عبيداً ، وقطعت به فى أثر سُلَيماه الأسدية(١) بيداً ، أرته المنية على حربة هندها المَلحوب ، وما حال [قريضه](٢) دون جريضه ، وأقفر من أهله مَلْحُوب ؛ ومازالت تخبط فى شعاب الأنساب ، فتُرْشِد ، وتُنْشِد ضالتها اليمانية ، فتنشد :

إن كنت من سيف بن ذى يزن فانزل بسيف البحر من عدَن
وذَرِ الشآم وما بنـــاه به الـــرُّومى من قصر ومن فَدَن(٣)

تعلف سُيَلْ العرم، وترد غسان، وتمهد لها أهضام تبالة، فتقول مرعى ولا كالسّعدان، تساجل عن سَمَيحة بابن خُرام ، وتناضل بسمير يوم خزام ، وتَنْشى قاتل ستة آلاف ، وكاسى بيت الله الحرام ثلاثة الأفواف ، فلو ساجلَت بتُبّعها أبا كَرْب، وأرته ضراعة خدها التّرب ، لسا جلَت به أخضر الجلدة فى بيت العرب ، ماجداً يملا الدّلو إلى عقْد الكَرْب ، بل لو حطت بفناء بيتها الحجرى رَحْلها(٤) ، وساجلت بفناء جَدّها ذى رُعين، لاستوْفت سجلها . كم عاذت بسيفها اليَزنى ، فأدركت ذحلها ، ولاذت برُكنها اليمنى فأجْزل مَحلُّها . ولواستسقت بأوديتها ، لأذهبت مَحْلها . كافحت عن دينها الحنيفى ، فما كُهم حُسامها ، ونافحَت عن نبيّها الأمىّ ، فأيّدت بروح القدس سهامها . سدّت باب الدرب دون بنى الأصْفَر ، وشدّت لموته ثوب موتٍ أحمر ، وما شَغلها كَسْرُ تاج كِسْرى عن قَرْع هامة قَيْصر . ولقد حلت من سنام نسبها اليعربى باسمك ذُروة ، وتعلقت من ذمام نبيها العربى بأوثق عُرْوة. تفرّد صاحب تيماء بأبْلقه الفرد فعزّ ، وتمرد ربُّ دَوْمة الْجندل لما كان من مارد فى حِرز ، فما

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (الأمهرية) .
(٢) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال . وواردة فى المنتخب .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى رواية (مدن) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (رجلها) .

ظنك ، أعزك الله ، بمن حلّ من قُدْسى عقله ، بمعقِل قُدس ، يُطار إليه فلا يُطار ، وراد من فردوس أدبه ، فى جنةٍ لا يُضام رايدُها ولا يُضار . زَها بمجاورة المُلْك فازْدهى رؤساء الممالك ، وشُغِف بمجاورة الملك ، فاشتغل عن مطالعة المسالك ، أيُشَقّ غُباره ، وعلى جبين المرزم مَثاره ، أو يُنتَهك ذماره ، وقلبُ الأسد بيتُه ، ودار أخيه أسامة زاره . ولما قَضَت من أنديتها العربية أوطارها ، واستَوْفت على أشْرَف منازعها الأدبية أطْوارها ، وعَطَّرت بنوافح أنفاسها الذكية آثارها ، وأطْلعت فى ظُلَم أنفاسها الدَّجُوجية كواكبها النيِّرة وأقمارها ، عطفت على مَعْقلتها الشاذلية فحلت عِقالها ، وأمر لها فراق الوطن. فلما استمر [لها][1] حلالها ، استودعت بطنان تبالة آلها ، وتركت أهضامها المُخْصِبة وحلالها . أطلت على دارات العرب فحيت أطلالها ، ودعت لزيارة أختها اليونانية ، أذواء حِمْير وأقيالها. أطْمَعَتها بلمعيّة ألمعيّتها الأعْجَمية ، ومثْلها يُطمع ، وجاء بها من قُدَماء الحكماء كلُّ أوْحدى الأحوذية ، فباتت تخبُّ إليه وتوضع ، باحثة عن مركز داوتهم[2] الفيثاغورية ؛ آخذة فى إصلاح هيئتهم الإنكساغورية[3] ، مؤثرةً لما تدل عليه دقائقُ حقائقِ بقايا علوم مقايسهم البرهانية ، وتشير إليه رموزُ كنوزِ وصايا عُلماء نواميسهم الكلْدَانية ، من مأثور تأثير لاهوتية قواهم السماوية ، راغبةً فيما يُفاض على على مادتها الجُسْمانية ، ويطرأ على عاقليتها الهيولانية ، من علُويات آثار مواهبها الربّانية ، موافقة لمثلهم المفارقة أفضل موافقة ، موافقةً لما وافق من شوارد آرايهم المُوَفَّقة أحسن موافقة . وتحت هذه الأستار مُخَدَّرات أسرار أضرّ بها الإسرار ، وطالما نكر معارفها الإنكار ، ونُقلت من صدور أولئك الصدور ، إلى بطون

---

(١) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى نص (دائرتهم) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى نص (الإنكسارية) .

هذه الأوراق ، فى ظهور فوق دفاتر فَلْسَفِيّات معانى علومهم الرّقاق . وفى تلك المغانى ، أبكار معانى ، سكن الجوانح والصدور ، بدل الأرايك والخدور ، ولكن فى دياجى ظُلَمِ هذه الأحاجى ، كأقمار فى أطمار ، بَهَرْن وما ظَهَرْن ، وسطعن وما لَمعْن ، فعَشِقْن وما رَمَقْن ، واستَمْلَحْن وما لَمَحْن . أدَرْن خمور أجفانهن على ماخوريات ألحانهن ، فهيَّجت البلابل نغَمُ هذه البلابل ، واستفرغته الأكياس ، مُتْرعات تلك الأكْواس . ماسِحْرُ بابل ، كخمْر بابل ، ولا [منتقى](١) أغانيهن الأوايل ، كحمايكم الهوادل ، إن وصلت هَدِيلَها بخَفِيف ، وصلن ثَقِيلهن بخفيف . إيه أيها الشَّمرى المشمعل ، دعنا من حديثك المُضْمَحِل ، سِر بنا أيها الفارس النَّدُس ، من حظيرة النَّفْس ، إلى حضرة القُدْس ، صرّح بإطلاق الجمال ، وجُل من عالَمِيتك الملَكوتية فى أفسح مجال ، تمشِ بين مقاصر قُصورها ، ومعاصر خمورها ، رخِىّ البال ، مرخِىّ السربال ، فما ينسج لك على منوال ، نادمٌ عليها من شَغَف دَنّ سُقراط ، إن استَحْسَنْتَ لها حِسان ، فما يَصْلُح لك ، صالح بن علاط . بت صَرِيع مُحيّاها ، فقد أوْصَت بمعالجة عقير مُعاقرة عُقارها بُقراط ، لا تخش صاحب شُرطتها ، فلا شَرْط له عليك ولا اشْتراط ، مالك غير مبديك الأول ، من قال امتثل الأمر ، وما عليك من أمْر وال . على رِسْلك ما هذا العَجَل ، لا خطأ تتوقّعه ولا خَطَل ، أمسكره أنت فى هذه السكريهة ، أم بطَل . لوعلم أنك ضبارية هذا الخميس ، وخبعثه(٢) ذلك الخميس ، لما عانى اليمّ رسيس ، شوقاً إليك محمد بن خميس ، على أنْ لا غالب اليوم لأنى غالب ، ولا طالبُ يُدْرِك شأو هذا الطالب ، فقهٌ بلا تفْهيق ، وحِذْقٌ فى تحَذْلُق . أقسم أبا الفضل بمالَكَ على أبى البركات [من الفضل] ، ذلك العراقى الأرُومة ، لا هذا الفارسى الجرثومة ،

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (مثقلات) والأولى أرجح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بنعشته) .

وإن يك ذلك ، إسرايلي الأصل ، وهذا إسمعيلي الجنس ، عاوى الفَضْل . فلتلك الذات ، شرفُ تلك الأدَوات. قدّم لى غالبُنا المذكور ، من بأسه الغرُّ لأرفع ، وأسمى من مقعد ، رقوطيهم المشهور ، من إغرناطة الحمراء ، ومن متبوَّأ أبى أميّتهم المرحوم ، من جنّات جزيرتهم الخضراء ، فيما لنت أبا الفضل من هذه الربجة[1] ، وألوك[2] . أوأيت فى عمرك ، مثل هذا الصعلوك ، لا والله ما على ظهر هذه الغبراء ، من يتظاهر بمثل هذه المعرفة فى بنى غَبْرا . فأى شىء هذا المَنزِع إيش ، لاحال لنا معك ولا عيش ، من يضحك على هذا العايش. ما هذا الخبل ، أحِمار بك أم نمل ، إرجع إلى ماكنت بصَدَده ، وُقيت الزلل ، خُذْ فى الجدّ فما يليق بك الهزل . رق عن ذلك فحك لنا منه أرقّ غزَل ، ماذا أقول ، وأى عقل يطاوعنى على هذا المعقول . أفحَمتنى والله عن مكالمتكم هذه المحن ، ومنعتنى من طلب مسالمتكم ، مالكم علىّ فى دنياكم هذه من الإحن . إن تكلمت كلمت ، وإذا استعجمت عُجمت . أما لهذه العلة آس ، أم على هذه الفيلة مواس ؛ ما حيلتى فى طبع بلدكم الجاسى . إما يلين لضعفى [أما يرق][3] قلبُ زمانكم القاسى . ما هذه الدِّمَن يا بنى حضراوات الدمن ، اظهرتم المَحْن ، فقلب لكم ظهر المِجَن . إن مرَّ بكم الوَلِى حمّقتموه ، وإن زَجَركم العالم فجرتم عليه ففسّقتُموه ، وإذا نجم فيكم الحكيم ، غُصِصتم به ، فكفرتموه وزندقتُموه ، كونوا فوضى ، فما لكم اليوم [مَسْراً سِواه][4] واذهبوا من مراعيكم المستوبلة ، حيث شئتم ، فقد أهملكم الرعاة . ضيّعتم النص

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (العجرته) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (والدك) .

(٣) وردت فى الإسكوريال ، (أما يلين) مرة أخرى . والتعديل من كتاب (المنتخب النفيس) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (مسراه) والتصويب من «الزيتونة» .

والشرائع ، وأظهرتم في بِدَعِكم العجايب والبَدايع . نَفَقْتُم النِّفاق ، وأقمتم سوق الفسوق على ساق . استَصْغَرتم الكباير ، وأبَحْتُم الصغاير . أين غَنِيُّكم الشاكر ، يتفقد فقيركم الصابر ، أين عالِمكم الماهر ، يرشد متعلِّمكم الحاير . مات العلمُ بموت العلماء ، وحكَم الجهل بقطع دابر الحكماء . جرِّد لنا شريعتَك يا أفضل الشارعين . أتمَّ فيها موعظتك يا أفصح التابعين . لا والله [ما يوقظكم][1] من هذا الوَسَن ، وعظ الحَسَن ، ولا يُنقذكم من فِتَن هذا الزمن ، إلا سَيْف مُلِمّه أبي الحسن والسلام .

قدم غرناطة في أواخر عام ثلاثة وسبعماية . وتوفي في يوم مقتل صاحبه الوزير أبي عبد الله بن الحكيم ، فرَّ من دهليز جاره فيمن كان بها من الأعلام ، بعد أن نُهِبت ثيابه ، حسبما جرى على غيره من الحاضرين ، وهو يقول ، هكذا تقوم الساعة بغتةً . ولقيه بعض قرابة السلطان ، ممن كان الوزير قد وَتَره ، فشرع الرُّمح إليه ، فتوسل إليه برسول الله ، فلم يقبل منه ، وطعنه ، فقتله يوم عيد الفطر عام ثمانية وسبعماية ، وآخر العهدُ به ، مطَّرحاً بالعراء ، خارج باب الفخّارين ، لا يُعلم قبره[2] ، لمكان الهرج في تلك الأيام . نَسَلُ الله جميل ستره . وساء بأثر قتله إياه حال [ذلك الرجل][3] وفسَد فكره ، وشرَد نومه ، وأصابته علّة رديّة ، فكان يَثِب المرة بعد الأخرى ، يقول ابن خميس يقتلني ، حتى مات لأيام من مقتل المذكور[4] .

---

(١) هذه الزيادة من الزيتونة ، وبها يستقيم السياق .

(٢) وردت في الإسكوريال (مكانه) . والتصويب من الزيتونة .

(٣) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي الزيتونة (قاتله) .

(٤) نود أن نشير هنا إلى أننا قد انتفعنا بمراجعة شعر ابن خميس ونثره ، على ما ورد منهما في كتاب (المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس –تلمسان سنة ١٩٦٥) لصديقنا العلامة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة المغربية .

محمد بن عمر بن على بن إبراهيم المليكشى

يكنى أبا عبد الله .

حـــاله

كان فاضلا ، متخلقاً ، أديباً ، شاعراً ، صوفياً ، جميلَ العشرة ، حسنَ الخلق كريم العهد ، طيّب النفس . كتب عن الأمراء بإفريقية ، ونال حُظوة ، ثم شرّق وحجّ ، ولقى جلّة ، ووصل الأندلس عام ثمانية عشر وسبعماية ، فلقى بغرناطة حفايةً ، وانسَحَبَت بها عليه جِراية ، ثم انصرف إلى وطنه ، وناله به اعتقال ، ثم تخلص من النّـكبة ، وأقام به ، يُزجى وقته إلى آخر عمره .

وجرى ذكرُه فى « الإكليل الزاهر » : كاتبُ الخلافة ، ومُشَعشع الأدب المزْرى بالسُّلافة ، كان يرحمه الله ، بدُل مجال ، وربّ روية وارتجال ، قدم على هذه البلاد ، وقد نَبا به وطنه ، وضاق ببعض الحوادث عَطَنُه ، فتلوّم بها تلوم النسيم بين الخمايل ، وحلّ بها محل الطّيف من الوشاح الجايل ، ولبث مدة إقامته تحت جراية واسعة ، ومبرة يانعة . ثم آثر قطره ، فولّى وجهه شَطْره ، واستقبله دهره بالإنابة ، وقلده خُطَّة الـكتابة ، واستقامت حاله ، وحطّت رحاله ، وله شعر أنيق ، وتصوّفٌ وتحقيق ، ورحلته إلى الحجاز ، سببها فى الخبر وثيق ، ونسبتها فى الصالحات[1] عريق .

شعــره

نقلت من خطّ الوزير أبى بكر بن ذى الوزاتين ، مما قيَّد عنه ، وكان خبيراً بحاله :

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الصالحت) . والتصويب من النفح .

رضى نلت من كل ما يهـــوى　　فلا توقفنى موقفَ الذّل والشكوى
وصفحاً عن الجانى المسيء لنفسه　　كفاه الذى يلقاه من شدّة البلوى
بما بيننا من خلوة معنوية　　أرقّ من النجوى وأحْلَى من السَّلوى
قفى أتشكَّى لوعةَ البَيْن ساعةً(١)　　ولا يكُ هذا آخرُ العهد بالنَّجوى
قفى [ساعة فى](٢) عَرْصَة الدار وانظرى　　إلى عاشق لا يستفيق من البلوى
وكم قد سألتُ الريحَ شوقاً إليكم　　فما حنّ مسراها إلىّ ولا ألوى
فياريح حتى أنتِ ممن يَغار بى　　ويانجدُ حتى أنتَ تهوى الذى أهوى
خُلقت ولى قلبٌ جليدٌ على النَّوى　　ولا كن على فقد الأحبَّة لا يقوى

وحدَّث بعض من عُنى بأخباره أيّام مُقامه بمالقة واستقراره، أنه لقى ليلة بباب الملعب فى أبوابها ظَبْية من ظبيات الأنس ، [وفِتْنة من فِتن](٣) هذا الجنس، فخطب وصالها واتّقى بفؤاده نصالها ، حتى همّت بالانقياد ، وانعطفت انعطاف الغُصن الميّاد ، فأبقى على نفسه ، وأمسك ، وأنف من خَلع العِـــذار ، بعد ما تنسّك ، وقال :

لم أنس وقْفَتَنا بباب الملعب　　بين الرَّجا واليأس من مُتَجَنِّب
وعُدت فكنت مراقباً لحديثها　　يا ذلّ وقْفَة خايف مُترقّب
وتذلَّلْتُ فذُلِّلت بعد تعَزُّز　　يأتى الغرام بكل أمر معجب
بدوية أبدى الجمال بوجهها　　ما شِيتَ من خدّ شريق مذهب
تدنو وتبعد نُفْـــرةً وتجنُّباً　　فتكاد تحسبها مهاة الرَّبرب
ورنَت بلحظ فاتر لك فاتن　　أنضى وأمْضى من حُسام المضرب

---

(١) وردت فى الإسكوريال (ياعاوا) . والتصويب من النفح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ساعدينى) .
(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، وفى النفح (قينة من قينات) .

وأرتك(١) بابل سحرها بجفونها ... فَسَبت وحق لمثلها أن تَسْبَى
وتضاحكت فحكت بنيّر ثغرها ... لمعاتِ(٢) نور ضياء برق خُلّب
ينظم فى عقد سمطى جوهـــر ... عن شبه نور الأقحوان الأشنب
وتمايلت كالغصن أخضله الندى ... ريان من ماء الشبيبة مُخْصب
تثنيه أرياح(٣) الصبابةِ والصبا ... فتراه بين مُشرِّق ومُغرِّب
أبَتْ الروادف أن تميل بميله ... فرَستْ وجال كأنه فى لولب
مُتَتوِّجاً بهلال وجه لاح فى ... خلل السجوف(٤) لحاجب ومُحَجّب
يامن رأى فيهـــا مُحباً مُغرماً ... لم ينقلب إلا بقلب قُلّب
ما زال مذ ولّى يحـــاول حيلة ... تدنيه من نيل المنى والمَطْلب
فأجال نارُ الفكر حتى أوْقَدت ... فى القلب نار تَشَوّق وتلهّب
فتلاقت الأرواح قبل جسومها ... وكذا البسيط يكون قبل مركّب

ومن مقطوعاته البديعة ، مما سمع منه بغرناطة ، حرسها الله ، أيام مقامه بها قوله :

أرى لك يا قلبى بقلبى محبّـــةً ... بعثتُ بها سرًّى إليك وسولا
فقابله بالبشر واقبل عشيّة ... فقد هبّ مشتكى(٥) للنسيم عليلا
ولا تعتذر بالقطر أو بلل الندى ... فأحسنُ ما يأتى النسيم بليلا

ونقلت من خط الفقيه القاضى أبى جعفر الرُّعينى ، مما أملاه علىّ بمنزله بغرناطه. قال وحضرت فى عام ثلاثة عشر وسبعماية ، يوم إحرام الكعبة العليّة ، وذلك

---

(١) وردت فى الإسكوريال (وأتاك) . والتصويب من النفح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (لمعان) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (أرواح)
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (السحاب) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مسلك)

فى شهر ذى القعدة على اصطلاحهم فى ذلك ، وصِفته أن يتزين سَدَنة البيت من شيبة بأحسن زِى ، ويعمدوا إلى كرسى ، يصل فيه صاعده ، إلى ثلث الكسوة ، ويقطعها من هنالك ، ويبقى الثلثان إلى الموسم ، وهو يوم مشهود عند سكان الحرَم ، يحتفل له ، ويقوم المنشدون أدراج الكعبة ينشدون . فقلت فى ذلك :

ألم ترها قد شمَّرت تطلب الجدّا وتخبر أن الأمر قد بلغ الحدّا
تُجِد كما جُدتَ إليها وشمِّر عن السّاعد الأقوى تنل عندها سعدا
طَوَت بُردها طى السِّجل كناية لأمر خَفِى سرّه طَوت البُرْدا
وأبدَت محيّــاها لحيّا جماله وقبّل على صون المقلة ذلك الخدّا
فكم سَتَرت سودُ البُرود جمالها وغطّته لا كن عن سنها الرّمدا
وكم خال ذاك الخال عما مُقصِّر عن العلم بالأنساب لا يعرف الحدّا
لقد سَفَرت عن وجهها الكعبة التى لها السبقُ فى حُسنها المُبدا
وقالت ألا أين مُشَكِّلى ، قصدوا إلى جمالى فقد أبدى الحجابُ الذى أبْدا
فلبَّت لها العشّاق من كل جانب يؤمُّونها يستقربون لها البُعدا
فمن نَدِف أشفى على تلف ومن مُحِبٌّ على قرب بهيم بها وَجْدا
ومن ساهر على النجوم ولم يذق بعينيه طعم النور أو يبلغ القصدا
يسائل عن بدرٍ وبدرٌ تجاهه كذلك اشتراك اللفظ قد ينغص الخدا
ومن مُسْتَهام لا يقرُّ قراره كأنّ به من حرِّ أشواقه وقدا
يقلب قلباً بين جنبيه موريا أوار الأسى فيه فتحسبه زندا
إذا ما حدى حادى الرُّكاب ركابه كأن قلوب الراكبين له تُحْدا
أحاد بها إن أنت جئت بها مِنَى ونلت المُنى والأمن فانزل ورُدْ وردا
ولا خوف هذا الخَيفُ والتربة التى سرت قد عين المصطفى عدا
وفى عرفات فاعترف وانصرف إلى مشاعر فيها يرحم المالك العبدا

وإن كنت من أوفى العبيد جرايما　　فحسن نبيل العقد من ربك العقدا
لين صدقت فيك الوعيد جرايم　　فعفواً الجميل الصفح يصدقك الوعدا
وعُد مفضياً للبيت طُف واستلم وقُم　　بها للمقام الرحب واسجد وكن عبدا
ورُد فى الثنا والحمد والشكر واجتهد　　فمن عرف الإحسان زادته حمدا
وعُج نحو فرض الحب وأقض حقوقه　　وزر قبر من أولاك من هديه رشدا

قال ، وكنت فى زمن الحداثة ، أفضل الأصيل على السَّحَر ، وأقول فيه رقة المودّع ورقّة المعتذر . فلما كان أوان الأسفار ، واتصلت ليالى السير ، إلى أوقات الأسحار ، وأيت أفق الشرق أشرق ، ووجدت القايل بفضل السَّحَر أصدق ، فابتدأت راكباً ، فلما جيت لذكر الجناب العلىّ النبوى ، أتممت ماشياً ، وأنا فى رملة بين مصر وعقبة إيله ، وقلت :

ما أحسن الأفق الشرقى إسفارا　　فكم هدا فى دُجى الإدلاج أسفارا
إذا بدا سارت الأظعان هادية　　له وصارت به الظلماء أنوارا
يجلو غياهب ليل طالما سدلت　　على المحبين فى الظلماء أستارا
ونمّ منه نسيم ثم ذا بعد على　　أحاديث كانت ثمّ أسرارا
سَرَت سحيرا فبرّت سرّ ذى سحر　　أهدت له ريح من يهواه معطارا
سرت ببانات أكناف اللوى　　فغدت كأنّ دارين قد أصبحت دارا
طابت بطيبة أرواح معطرة　　بها فأصبح أفق الشوق عطّارا
كأنما فلق الإصباح حين بدا　　خدو بهجة حسن الشمس قد وارا
حتى بدت وتبدت حسن صورتها　　فعمّته الأرض أنجاداً وأغوارا
كأنه دعـــوة المختار حين بدت　　دانت لها الخلق إعلانا وإصرارا
من نوره كل نور أنت تبصره　　ونوره زاد الأبصـــار إبصارا

هدا به الله أقواماً به سعداء ... لولاه كانوا مع الكفر كفارا
هو الشّفيع الذى قالت شفاعته ... للمُوبقين ألا لا تدخلوا النّارا
هو العفوُّ عن الجانى وإن عظُمت ... من المسيء ذنوب كان غفّارا
هو الكريم الذى ما ردّ سائله ... يوما ولو كرّر التّسآل تكرارا
هو الحبيب الذى ألقى محبته ... فى كل قلب فقلبى نحوه طارا
أحبّه كلُّ مخلوق وهام به ... حتى الجمادات أحجاراً وأشجارا
وانشقّ بدر الدُّجا من نور غُرّته ... وانهلّت السحب من كفّيه أنهارا

ومن مقطوعاته ، قال ، ومما نظمته فى ليل السُّرى ، وتخيل طيف الكرى ، أ قصيدٍ قصدته أى معنى أردته ، أشغل عنه مابى منه :

منع الهجر من سُليمى هجوعا ... فانثنى طبعها يريد الرُّجوعا
بعثَتْه ليلا يعلِّل قلباً ... مُستهاماً بها محبّاً ولوعا
لم يجد غير طَرْف جفنٍ قريح ... شاخصا نحوها يذرُّ الدموعا

وكتب إلى صديقه شيخنا أبى بكر بن شبرين من بجاية ، وهو معتقل بقصبتها، وقد امتحنه بذلك أبو عبد الله بن سيد الناس :

شَرْحُ حالى لمن يريد سؤالى ... إننى فى اعتقال مولى الموالى
مُطلق الحمد والثناء عليه ... وهو للعطف والجميل موال
لا أرى للولاة فىّ احتكاما ... وولىٌّ مال على كل وال
أرتجى بالمصاب تكفير ذنبى ... حسبما جاء فى الصِّحاح العوالى
لا تدوم الدُّنا ولا الخير فيها ... وكذا الشّر ذا وذا للزوال
فاغتنم ساعة الوصال وكم ... من محنة وهى منحة من نوال
فإذا غبتُ عنك فاحضر ... تجدها للجواب المفيد عن السؤال

فهى نورٌ للنهار والنور منها وهى الانس فى الليالى الطوال
فاستدِمْها تَدُم ولا تضجَّ منها وأدِرْها على اليمين ووال

فإنّ الكأس مجراها على اليمين ، ومسراها لفى الصبح المبين ، تغنى عن الإصباح والمصباح ، وتدنى لهم معنى النور المشرق فى الوجوه الصُباح ، وتجرى فى الأشباح ، فتسرى فى الأرواح . وهذه الرسالة طويلة ، فيها كل بديع من نظم ونثر ».

فأجابه رحمه الله :

أرغمنّ هذه القيود الثقال ربّ وُدٍّ مصيره للثقال
طال صبرى على الجديدين حتى كدت مما لقيت أن يُشقفالِ
إن بعض الرضا لديه فسيح أىّ مدد به وأىّ ابتقال
حاش لله أن أكون لشىء شاده الصانع القديم بقال
إن عندى من الثناء عليه لأمانى لم يملهنّ القال
يا إمامى الذى بودى لو أمكن اسعى إليه أوار قال
أرجُ دنياك وارج مولاك واعلم أن راجى سواه غير مُقال
وابتغاء الثواب من ربك اعمل فهو يُجزى الأعمال بالمثقال
واغتنم غيبة الرّقيب ففيها لقلوب الرجال أىُّ صقال
وأجِل فى الوجود فكر غنىٍّ عن ضروب الإنعام والأحقال
وإذا الوقت ضاق وسّعه بالصبر ولا تنس من شهير المقال
ربما تكره النفوس من الأمر له فرجةٌ كحل العِقال

لا غروَ أن وقع توان . أو تلوّم دهر ذو ألوان ، فالأمر بين الكاف والنون ، ومن صبره لم ينوء بصفقة المغبون ، وللسعداء تخصيص ، ومع التقريب تمحيص ،

وما عن القضاء محيص، والمتصرف في ماله غير مَعْتوب ، وقديم الحقيقة إلى الحيف ليس بمنسوب. وقد ورد خطاب عمادى أطاب الله محضره ، وسدّد إلى المرامى العليّة نظره ، ناطقا بلسان التفويض ، سارحا من الرِّضا فى الفضاء العريض، لايذاً بالانقياد والتسليم ، قايماً على أسكفّة باب الأدب ، لمثابة حكم الحكيم .

ومنها : والوقايع عافا كم الله وُعّاظ ونحن هُجود . وفى الحيّ إيقاظ ، وما كل المعانى تؤديها الألفاظ . وهذا الفنا الذى نشأ عن الوقت ، هو إن شاء الله عين البقيا . وإذا أحبّ الله عبداً حماه الدنيا ، وما هى إلا فتون ، وجنون فنون ، وحديث كله مُجون . وقد يجمع الله الشتيتين ، ولن يغلب عسرٌ يُسْرين ولا باس ، ويا خَطْب لا مساس ، وأبعد الله اليأس ، وإنما يوفى الأجر الصابرون ، ولا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون . وهى طويلة بديعة .

أسمع بحضرة غرناطة لما قدم عليها ، وارتسم فى جملة الكتاب بها ، وحدّث عن رضى الدين أبى أحمد إبراهيم الطبرى ، بسماعه من الشريف يونس بن يحيى الهاشمى ، بسماعه من أبى الوقت طرّاد . وعن الإمام سراج الدين أبى حفص عمر بن طراد المعرى القاضى بالحرم الشريف ، وعن شرف الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الحميد الهَمَذانى ، وعن الإمام بهاء الدين الحميرى عن أبى الطاهر السِّلفى ، وعن جماعة غيرهم . وكان وروده على الأندلس فى أوايل عام خمسة عشر وسبعماية ، وحضر بها غزوات ، ولقى من كان بها من الأعلام . ثم انصرف عنها فى أوايل عام ثمانية عشر ، وأحلّ بسبتة ، فأكرم رييسها أبو عمر يحيى بن أبى طالب العَزَفى قدومه ، وأنزله بدار جليلة ، كان بها علو مطل على البحر ، لم يتمكن من مفتاحه ، لأمر اقتضى ذلك ، فكتب إليه :

يا صاحب البلد المليح المشرق   ما مثله فى مَغْرب أو مَشْرق

منها :

وخفضتَ عيشى فيه فارفع منزلى حتى أرى الدنيا بطرْفٍ مُطْرِق

وتجول فى البلاد ، ولقى من بها ، واتصل بالأمير أبى على بسجلماسة . ومدحه بقصيدة حُفظ له منها :

فيا يوسفىَّ الحسن والصفح والرضا تصدَّق على الدنيا بسلطانك العدل

ثم اتصل بوطنه .

وفـــاته

نقلت من خط شيخنا أبى بكر المذكور : وفى عام أربعين وسبعماية ، توفى بتونس صاحبنا الحاج الفاضل المتصوِّف ، الكاتب أبو عبد الله محمد بن على المليكشى الشهير بابن عمر ، صدرٌ فى الطلبة والكتاب ، شهيرٌ ذو تواضع وإيثار ، وقبول حسن ، رحمه الله .

محمد بن على بن الحسن بن راجح الحسنى

من أهل تونس يكنى أبا عبد الله .

حـــــاله

هذا الرجل الفاضل ، صاحب رُواء وأبَّهة ، نظيفُ البزَّة ، فارهُ المَرْكب ، صدوف عن الملّة ، مقيم للرسم ، مطفِّف فى مكيال الإطراء ، جموحٌ فى إيجاب الحقوق ، مترام إلى أقصى آماد التوغُّل ، سخىُّ اللسان بالثناء نرثاره ، فكِهٌ مطبوعٌ ، حسن الخلق ،

عذب الفكاهة ، مخصوصٌ حيث حلَّ من الملوك والأمراء بالأثرَة ، وممّن دونهم بالمُداخلة والصُّحبة ، ينظم الشِّعر ، ويحاضر بالأبيات ، ويتقدّم فى باب التّحسين والتّقبيح ، ويقوم على تاريخ بلده ، ويثابر على لِقاء أهل المعرفة ، والأخذ عن أولى الرواية . قَدِم على الأندلس فى إحدى جمادين ، عام خمسين وسبعماية ، مُفْلتاً من الوقيعة بالسلطان أبى الحسن بالجهات الشرقية ، بأيدى بنى زَيَّان وأحْلافهم[1] ، فمهّد له سلطانُها ، رحمه الله ، كنَفَ برِّه ، وأواه إلى سعة رَعْيه ، وتأكّدت بينى وبينه صحبة .

شعــــره

كتبتُ إليه لأول قدومه بما نصه ؛ أحذو حذو أبيات ، ذَكَر أن شيخنا أبا محمد الحضرمى خاطَبَه بها :

أمِنْ جانب الغربى نفحةُ بارِحِ ... سَرَت منه أرواحُ الجوَى فى الجوانحِ[2]
قَدَحْتُ بها زَنْد الغرام وإنما ... تجافَيْتُ فى دين السُّلُوِّ لقادِحِ
وما هى إلا نَسمة حاجــرية ... رَمَى الشوقُ منها كلَّ قلبٍ بقادحِ
رَجَحنا لها من غير شك[3] كأنها ... شمايلُ أخلاق الشَّريف ابن راجح

---

(١) الوقيعة التى يشير إليها ابن الخطيب ، وقعت بين السلطان أبى الحسن المرينى ملك المغرب وبنى زيان ، على أثر عوده من حملته إلى تونس بعد فقدها ، وبعد غرق أسطوله فى مياهها ، مرتداً بفلول قواته عبر الجزائر فى طريقه إلى المغرب الأقصى . وكان بنو زيان ملوك تلمسان السابقين ، قد استطاعوا استردادها ، وقت سير السلطان أبى الحسن إلى تونس . فحاول السلطان أبو الحسن عند عوده مهاجمتها لاستعادتها ، فتصدى له بنو زيان فى قواتهم بقيادة أبى ثابت بن زيان ، أخى سلطان تلمسان عثمان ابن عبد الرحمن ، فهزم السلطان أبو الحسن ، ونهب معسكره ، وقتل ولده الناصر . وارتد فى فلوله ميمماً صوب المغرب من طريق الجنوب ، وكان ذلك فى أواخر سنة ٧٥٠ هـ . ويلوح لنا أن ابن الخطيب قد وهم فى ذكر السنة التى قدم فيها المترجم إلى الأندلس وأنها سنة ٧٥٠ هـ .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الجوارح) .

(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (سكر) والأول أرجح .

فتى هاشمٌ سبْقاً إلى كلّ عليّة وصبراً مُعار الحبْل(١) فى كل فادح
أصيــلُ العَلاجم السيادةُ ذكره طرازُ نُضار فى بُرود المـــدائح
وفُرْقان مجدٍ يصدع الشَّكَّ نورُه حبَا الله منه كلَّ صدرٍ بشارح
وفارسُ ميدانِ البيانِ إذا انْتضى صحايفَه أنْسَت مضاء الصَّفايح
رقيقٌ كما راقتك نَغْمَةُ ساجع وجزلٌ كما راعَتْك صولةُ جارح
إذا ما احتبى مُسْتَحْفزاً فى بلاغةٍ وخِيض خِضَمُّ القولِ منه بسابح
وقد شُرعت فى مَجْمع الحفل نحوه أسنَّةُ حربٍ للعيــون اللَّوامح
فما ضَعْضَعت منه لصولة صَادحٍ ولا ذَهَبَت منه بحكمة ناصح
تذكَّرتُ قُسًّا قايماً فى عُــكاظِه وقد غُصَّ بالشمِّ الأنوفِ الجحاجح
ليَهنِك شمسُ الدين ما حُزت من علا خواتِمُها موصولةٌ بالفـــواتح
رَعَى الله ركباً أطلع الصبحَ مُسْفِراً لمرآك من فوق الرُّبى والأباطح

ومنها:

أقول لقومى عندما حطَّ كورُها وساعدها السَّعْدان وَسْط المسارح
ذَرُوها وأرضُ الله لا تعرِضوا لها بمَعْرِض سوء فهى ناقةُ صالح
إذا ما أرَدْنا القول فيها فمَنْ لنا بطوعِ القوافى وانبعاثِ القرايح
بقيت منى نفسٌ وتُحفةُ رايد ومورِدُ ظمآن وكعبةُ مادحِ
ولا زلت تلقى الرحب والبرحيثما أرحت السُّرى من كل غاد ورايح

فأجابنى بما نصه:

أمِن مَطلَع لأنوار لمحـــةٍ لايح [تُعار لمفقُود](٢) عن الحىِّ نازحُ
وهل بالمُنى من موردِ الوصلِ يرتوى غليلُ عليلٍ للتواصـــل جانح

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى النفح (مغار الفتل).

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال. وفى النفح كالآتى (تماد لمفئود).

فيافَيْضَ عين الدمع مالِك والحِمى ... ورُنْد الحِمى والشِّيح شيحُ المشايح [1]

مَرَابع آرامى ومـــوردُ ناقتى ... فسقيا لها سُقياً لناقةِ صـــالح

سقَى الله ذاك الحىّ وَدْقاً فإنه ... حِمى لَمحاتِ العين عن لمح سايح [2]

وأبْدَى لنا حورُ الخيام تُزَفُّ فى ... حُلَى الحسن والحُسْنَى وحَلْى الملايح

ترى حىّ تلك الحور للحور مَهْيع ... يدلُّ وهل حَسْمٌ لداء التبارح

ويا دَوْحة الرَّوْيحان هل لى عودةٌ ... لعَقْر عُقار الأُنْس بين الأباطح

وهل أنتِ إلا طَلَّةٌ [3] حاتميَّـــةٌ ... تُغَصُّ نواديها بغـــادٍ ورايح

أقام بها الفخرُ ابن الخطيب مَنابراً ... لترتيل آياتِ للندى والمَنايح

وشفَّع بالإنجيل حَمْد مـــديحه ... وأوْتَر بالتَّوراةِ [4] شَفْع المدايح

وفرّق بالفُرقان كلَّ فريقـــةٍ ... نأت عن رشادٍ فيه معنى النصايح

وهل هو إلا للبَرِيَّة مُرْشِـــدٌ ... لـكل هَدى هادٍ لأرجح راجح

[فبُشْراك شمسَ الدين] [5] سادِبك الورى ... وأوْرَى الهُدى للرُّشد أوضح واضح

متى قُلتَ لم تترك مقالا لقايل ... فإن لم تَقُل لم يغْن حمدٌ [6] لمادح

فمَنْ حام بالحىّ الذى أنت أهلُه [7] ... وعام ببحرٍ من عطايك طافح

يحقُّ له أن يَشْفَع الحمـــدَ بالثّنا ... ويغدُو بذاك البحر أسبحَ سابح

ويا فوزَ مَالِكِ دُمْت صدرَ صدوره ... وبُشْرى له قد راح أرْبح رابح

بآرايك التى تدلُّ على الُهدى ... وتُبدى لمن خصَّصْتَ سُبْل المناجح

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى النفح (الأشايح) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (لامح)

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حلة) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (التورية) . والتصويب من النفح .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (فبشرى لسان الدين) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مدح)

(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ربه)

مَلَكْتَ خصال السَّبْق في كل غاية ومَلَّكت مَنْ ملكت يا ابن الجحاجح

مطامحُ آمالٍ لأشرف همّةٍ أقلُّ مراميها أجلُّ المطامح

فدونَكها يا مُهدى المدح مدحةً أجبتُ(١) بها عن مدح أشرف مادح

يُهَنِّيك بالعام الذى عمَّ حمْده مواهبُ هاتيك البحار الطوافح

فخذها مُحيِّ الفخر يا خَيْرَ مُسْبِلٍ على الخلق أغضا ستورِ التسامح

ودم خاطبَ العَليا لها خيرَ خاطبٍ وأتوق توّاق وأطمح طامح

وتلقانى بمالقة عند قدومى من الرِّسالة إلى المغرب، فى محرم عام ستة وخمسين وسبعماية، ونظم لى هذه الأبيات، ولا حول ولا قوة إلا بالله :

قدومُك ذا أبدى لذى الراية الحمرا ثغور الرِّضا تعبر عن شنب البُشرا

وأينع فجرُ الرُّشد من فَلَق الهُدى وكوّنه نهــــــرا وفجره فجرا

سَرينا له كى يحمد السَّير والسُّرى وترقب شمس الدين من فرعك الفجرا

ونصبح فى أحيان المَنِّ نستلم مواطنَكم شغفاً وآثاركم وترا

ونخطب ما يا ابن الخطيب تشا من كرايم ذاك الحى إذ نُهزُ الشُّمرا

فقابلتَ بالإقبال والبر والرِّضا وأقريتَ من يَقْرا وأقرَيت من قرّا

فأبنّا قُدْس الحمد حضرة قُدْسنا وأقدامُنا تملا وأمداحُكم تقرا

هنيًّا لنا نلنا ونلنا ولم نزل ننال ولا كن هذه المنّة الكُبرا

رأينا وزير المُلْد والمُلك واللّوى وحزب اللّوى كلٌّ يشدُّ به أزرا

سجدنا وكبّرنا وقلنا رسولُنا أتى بالذى يُرضى بشرى لنا بُشرا

ويُهنى الورى هذا الإياب فإنّ فى نتايجه للدّهر ما يُشهر الدّهرا

أرانا منّا ذا اليوم أجمل مَنْظر وجلّى لنا من وجهك الشمس والبدرا

أما والذى أوليتَ من نعمةٍ غدت تُعلّمنا للمُنعم الحمد والشكرا

---

(١) وردت فى الإسكوريال، (أصبت) . والتصويب من النفح .

لأنتَ لسان الدين للدين حُجَّة ... تؤيده سِرًّا وتعضده جَهرا
بقيت لنا كَيْفاً منيعاً مشرفاً ... ودمتَ له عَضُداً ودُمْت له نصرا
ودُمْنا بكم في كلِّ أمنٍ ومِنَّة ... نُدير المُنا خَمْرا أو نُصلي العِدا جمرا

ومن أمثل ما مدح به السلطان لأول قدومه بالنسبة إلى غير ذلك من شعره :

أما والعُيون النُّجل ترمق عن سِحر ... ووَرْدُ رياض الخدِّ والكأس والخمر
وريحانُه والرَّاح والطَّل والطِّلا ... ونَرجِسُه والزَّهر والنُّور والنَّهر
ونور جَبين الشمس في رونق الضُّحا ... وهالةُ بدرِ التِّم منتصف الشهر
لقد قلَّدت آراء يوسف مُلْكه ... قلايدَ نصرٍ لن تَبيد مع الدهر
وقد أيَّده الإسلام مِنه بناصرٍ ... نصيرٍ وخيرُ النصر نصرُ بني نصر
هم القومُ أنصارُ النبي محمدٍ وحِزْبِه ... وعصبةُ الأعلام في اليُسر والعُسر
وحسبُك من قوم حموا سَيِّد الورى ... وقاموا بنَصر الحقِّ في السِّر والجهر
سقى شِرعة الإسلام وَدْقُ سيوفهم ... رحيقَ الأماني طيِّبُ العَرْف والنَّشْر
فأصبح روضُ الرُّشْد يعبقُ طيبُه ... ودَوْحُ الهُدى بالزَّهر أزهارُه تُزري
فياسايلي عنه وعن سَطَواته إذا ... لاح محفوفاً براياته الحُمْــر
وجُزْ مع الأقدام جَيْشاً عرمرما ... وشَرِّد بالتأييد شِرْذِمة الكفر
لجليلةٍ تنبيك عما وراءها ... ولا غَرْو فالإفصاح يَعرف بالعجز
فيافوز مَنْ أدناه بالغُنْم والغِنا ... ويا وَيْلَ مَنْ أقصاه للفقْر والفقر
هنيئاً بما اختارتْ يداك وأحْرَزت ... من المُلْك والتأييد والنَّهي والأمر
لقد أصْعَدتْ مَجْدي مدائحُك التي ... ومجدُك والعَلْيا مَدَحْتُ بها شِعري
وحقٌّ لمثلي يشفع الحمد بالثنا ... ويتلو معانيه مع الشَّفْع والوَتْر
فاجْنِ ثمار الأُنس من رَوْضة المُنا ... واقطف زهير الحمد من شجر الشكر
واشرب ماء الفوز عَذْباً ختامه ... رحيقَ براح السمح في أكؤس البِشر

ولا بَرِحت أمْداحُكم تعجز النهى ... وإلاّ فكم تُنْجِى من العُسر لليسر
ولا زالت الأقدار تخدم رأيكم ... ورايَاتِكم ما دام نجمٌ للسُّرا يَسِير

وكتب إلىّ فى غرض يظهر منه نصّ المراجعة ، وحسبنا الله :

أما والذى لى فى حُلاك من الحمد ... ومالك ملاك علىّ من الرِّفد
لقد أشعَرتنى النفس أنك مُعرض ... عن المسرف اللاّئى لفطرك يستجد
فإن زلّةٌ بدت لك جَهْرة فصفحا ... فما والله إذ كُنْتُ عن عَمْد

فراجعته بقولى :

أجلّك عن عَتْبٍ يَغُضُّ من الوُدّ ... وأكرم وجه العُذْر منك عن الرَّد
ولاكننى أُهدى إليك نصيحتى ... وإن كنت قد أهديتُها ثم لم تُجد
إذا مَقُول الإنسان جاوز حدّه ... تحولّت الأغراضُ منه إلى الضِّدّ
فأصبح منه الجِدُّ هَزْلاً مُذَمَّماً ... وأصبح منه الهزل فى مَعْرِض الجِدّ
فما استطعتَ فيضاً للعِنان فإنه ... أحقُّ السجايا بالعُلا والمَجْد

توفى يوم الخميس الثالث لشعبان عام خمسة وستين وسبعماية ، وقد ناهز السبعين سنة ، ودفن بروضتنا بباب إلبيرة ، وأُعفِى شارب الشِّعر من نابى مِقصِّه . وغير هذه الدعوى قرارها تجاوز القضية .

محمد بن على بن عمر العبدرى

من أهل تونس ، شاطبى الأصل ، يكنى أبا عبد الله ، صاحبنا .

حاله

كان فاضلا من أبناء النعم ، وأخلاف العافية ، وُلّى أبوه الحِجابة بتونس عن

سلطانها برهة ، ثم عدا عليه الدهر ، واضطر ولده هذا إلى اللحاق بالمشرق ، فاتصل به سُكناه وحجّ ، وآب إلى هذه البلاد . ظريفَ النّزعة ، حُلو الضَّريبة ، كثيرَ الانطباع ، يكتبُ ويشعر ، ويَتكلّف بالأدب ، ثم انصرف إلى وطنه . وخاطبنى إلى هذا العهد ، يُعرّفنى بتقلّده خُطة العلامة ، والحمد لله .

وجرى ذكره فى كتاب « الإكليل » بما نصه : غذىُّ نعمة هامية ، وقريعُ رتبة سامية ، صُرفت إلى سلفه الوجوه ، ولم يبق بإفريقية إلاّ من يخافُه ويرجوه ، وبلغ هو مدة ذلك الشرف ، الغاية من الترّف . ثم قَلَب الدهر له ظهر المِجن ، واشتد به[1] الخمار عند فراغ الدن ، ولحق صاحبنا هذا بالمشرق ، بعد خطوبٍ مبيرة ، وشدّة كبيرة ، فامتزج بسكانه وقُطانه ، ونال من اللذات مالم ينله فى أوطانه ، واكتسب الشمايل المُذّاب ، وكان كابن الجهم ، بُعث إلى الرّصافة ، ليرقّ فذاب ، ثم حوّم على وطنه تحويم الطّائر ، وألمّ بهذه المدينة[2] إلمام الخيال الزاير ، فاغتنمتُ صفْقة وُدّه ، لحين وروده ، وخَطَبتُ موالاته على انقباضه وشروده ، فحصلتُ منه على درّة تُقتنى ، وحديقة طيّبة الجنى .

شعره

أنشدنى فى أصحاب له بمصر قاموا ببرّه :

لكل أناس مذهبٌ وسجيّةٌ ... ومذهبُ أولاد النظام المكارم
إذا كنت فيهم ثاوياً كنتَ سيداً ... وإن غبت عنهم لم تَنَلْكَ المظالم
أولئك صحبى لاعَدِمت حياتهم ... ولا عدموا السّعد الذى هو دايم
أُغَنِّى بذكراهم وطيب حديثهم ... كما غرّدت فوق الغُصون الحمايم

---

(١) وردت فى الإسكوريال (بهم) . والتصويب من النفح

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (البلاد)

ومن شعره يتشوق إلى تلك الديار ، ويتعلل بالتذكار ، قوله :

أحبَّتنــــا بمصر لو رأيتم ... بكائى عند أطـــراف النهار
لـكنتم تُشْفقون لفرط وجدى ... وما ألقاه من بُعد المزار[1]

ومن شعره :

تَغَنَّي حمام الأيك يوماً بذكرهم ... فأطرب حتى كدتُ من ذكرهم أفنى
فقلت حمام الأيك لا تُبك جيرةً ... ناءوا وانقضت وصلُهم عنّا
فقال ولم يُردِدِ جواباً لسايل ... ألا ليتنا كنا جميعاً بذا أُلحقنا

ومن جيد شعره الذى أجهد فيه قريحته ، قوله يمدح السلطان المعظم أبا الحسن في ميلاد عام سبعة وأربعين وسبعماية :

تقر ملوك الأرض أنك مولاها ... وأن الدُّنا وقف عليك قضاياها

ومنها :

طلعتَ بأفق الأرض شمْساً منيرة ... أنار على كل البلاد مُحيّاها
حَـكيتَ لنا للفاروق حتى كأننا ... بعين لا نُـكذِّب رؤياها
وسرتَ على آثاره خيرَ سيرةٍ ... قطعنا بأن الله وبُّك يرضاها
إذا ذُكِرت سيرُ الملوك بمحفل ... ونادى بها النّادى وحسّن دنياها
فجُودُك رُوّاها وماسكُك زانُها ... وعدلك زاها وذكرك حلاّها
وأنت لها كهفٌ حصين ومَعْقِل ... تلوذ بها أولى الأمور وأُخراها

ومنها بعد كثير :

ومنكم ذوو التّيجان والهمم التى ... أناف على أعْلى السّما كين أدناها
إذا غاب منهم مالكٌ قام مالكٌ ... مجدِّدٌ للبيت المقدّس علياها

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الديار)

بناها على التقوى وأسس بيتها ... أبو يوسفُ الزاكى وسيّر مبناها
وأورثها عثمن خيرَ خليفة ... وأحلمَ من ساس الأنام وأنداها
وقام عليٌّ بعده خير مالك ... وخيرُ إمام فى الورى راقب الله
على بن عمر بن يعقوب ذو العلا ... مذيق الأعادى حيثما سار بَلْواها
أدام الله وأعطى الخلافة وقتها ... ونوّر أحْلاك الخطوب وجلّاها

ووصلنى كتاب منه مؤرخ فى التاسع عشر من شهر شعبان المكرم من عام أربعة وستين وسبعماية جَدَّد عهدى من شعره بما نصه :

رحلنا فشرّقنا وراحوا فغرّبوا ... ففاضت لروعات الفراق عيُون
فيا أدمعى مُنْهَلّةً إثر بَيْنِهم ... كأنّ جفونى بالدموع عيون
فيا مَعْهداً قد بِنْتُ عنه مكلفا ... بديلى منه أنّةٌ وحنين
سقتك غوادى المُزْن كرّ عشيةٍ ... ودادُك محلول النطاق هَتُون
فإن تكن الأيام لم تقض بيننا ... بوَصْل فما يُقْضى فسوف يكون
يعزّ علينا أن نُفارق رَبْعكم ... وأنّا على أيدى الخطوب نَهون
ولو بلّغَتْنى العيرُ عنكم رسالة ... وساعد دهرٌ باللّقاء ضنين
لكنّا على ما تعلمون من الهوى ... ولا كن لأحداث الزمان فُنون

تم المجلد الثانى

من كتاب « الإحاطة »

ملحق
فى التعليق على ترجمة
محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان الزهرى ، أبو بكر
(الواردة فى صفحة ٤٩٤ — ٥٠٥)

نقل ابن الخطيب فى بداية هذه الترجمة ، ما وصفه به ابن عبد الملك المراكشى فى قوله : « كان أديباً ، بارعاً ، محسناً ، شاعراً ، حلو الكلام ، مليح التندير ، مبرزاً فى نظم الطريقة الهزلية ، بلسان عوام الأندلس ، الملقب بالزجل » . ثم علق على ذلك بقوله : « وهذه الطريقة بديعة ، يتحكم فيها ألقاب البديع ، وتنفسح لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر . وبلغ فيها أبو بكر مبلغاً ، حجره الله عن سواه ، فهو آيتها المعجزة ، وحجتها البالغة ، وفارسها العلَم ، والمبتدى فيها والمتمم » .

وهذا كلام لا غبار عليه ، إذا ذكرنا أن اسم صاحب الترجمة ، هو بالفعل اسم ابن قزمان ، أمير الزجل الأندلسى المشهور ، وأن تاريخ وفاته الذى يقدمه إلينا ابن الخطيب هو بالفعل التاريخ الصحيح . ولكن ابن الخطيب ، يورد لنا بعد ذلك فى وصفه ، فقرة من كلام صاحب «القلائد» ، وفيها أنه اتصل بالمتوكل ابن الأفطس ، وحظى لديه . وهنا يتغير الاتجاه ويبدأ الخطأ ، ويغدو ابن الخطيب ، فيما يقدمه إلينا من نظمه ونثره — وهو مالا يحتوى على أية مقطوعة من الزجل — وهو يقدم إلينا فى الواقع ترجمة شخص آخر من بنى قزمان ، هو عم إمام الزجل ، واسمه الحقيقى هو أبو بكر ، محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان القرطبى .

وقد أورد لنا ابن بشكوال فى « الصلة » ترجمة المذكور فى أسطر قلائل ، ووصفه بأنه كان « من أهل العلم والذكاء والفهم ، وكانت عنده دراية ورواية ولغة ، وأدب وافر » . ثم قال إنه توفى فى سنة ٥٠٨ هـ (كتاب الصلة — القاهرة — ج ١ ص ٥٤٠) .

وذكره الفتح فى كتاب «القلائد» ، ووصفه بالوزير الكاتب ، وأنه كتب للمتوكل ابن الأفطس ، أمير بطليوس ، المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ، وحظى لديه .

وأضاف إلى ذلك أنه اتصل فى أواخر عمره بالقاضى ابن حمدين المتغلب على قرطبة، وخدمه، ثم لقى بعد ذلك على يده ثمر الهوان والأذى، لحدّة كانت فى طبعه. وهذه الفقرة الأخيرة، لا يمكن نسبتها إلى ابن قزمان الأكبر لأن ابن حمدين لم يحكم قرطبة الا فى سنة ٥٣٩ هـ، على أثر انهيار سلطان المرابطين فى الأندلس. وإذن فهى تتعلق بحياة ابن قزمان الأصغر، وهو أمير الزجل (قلائد العقيان — القاهرة — ص ١٨٧).

وقد أوضح لنا هذه التفرقة بين ابن قزمان الأكبر (العم)، وابن أخيه ابن قزمان الأصغر (أمير الزجل) ابن سعيد الأندلسى، فى كتابه «المغرب فى حلى المغرب»، فيمن ذكره من بيت بنى قزمان. فترجم لنا أولا لأبى بكر محمد الأكبر ابن عبد الملك بن عيسى بن قزمان القرطبى، وأشار فى ذلك إلى ما ذكره عنه ابن بسام فى «الذخيرة» من خدمته للمتوكل صاحب بطليوس، ولكنه وقع بعد ذلك فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الفتح فى «القلائد» من ذكر اتصاله بابن حمدين (المغرب فى حلى المغرب — القاهرة — ج ١ ص ٩٩ و ١٠٠).

ثم ترجم بعد ذلك لأبى بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان الأصغر (ج ١ ص ١٠٠). ثم عاد فترجمه مرة أخرى (ج ١ ص ١٦٧ — ١٧١). ووصفه فى الترجمتين بأنه «إمام الزجالين بالأندلس». وأورد له فى الترجمة الثانية عدداً من مقطوعاته الزجلية الشهيرة.

ومن الواضح أن رواية ابن سعيد، وقد كتب كتابه «المغرب» حول منتصف القرن السابع الهجرى وتوفى سنة ٦٧٣ هـ، وكان بذلك أقرب إلى عصر ابن قزمان من ابن عبد الملك وابن الخطيب، هى أقرب إلى التحقيق والثقة.

وأخيراً فقد أشار ابن خلدون فى مقدمته، فى الفصل الذى عقده عن «الموشحات والأزجال بالأندلس» إلى ابن قزمان، ووصفه بأنه كان إمام الزجالين على الإطلاق، وذكر أنه كان لعهد الملثّمين، أى المرابطين (المقدمة بولاق — ص٥٢٤). وهذا تأييد آخر لرواية ابن سعيد، لأن عهد المرابطين بالأندلس كان بين سنتى ٤٨٤ و ٥٥٠ هـ، وقد توفى ابن قزمان، أمير الزجل حسبما تقدم فى سنة ٥٥٥ هـ.

فهارس المجلد الثانى

من كتاب «الإحـــاطة»

فهرست التراجم

صفحة

صفحة

مخطوط الإسكوريال المفتتح بالسفر السابع

صفحة

صفحة

فهرست الرسائل والقطع النثرية

صفحة

صفحة

فهرست الشعر والشعراء[1]

[1] نورد هنا أسماء الشعراء مرتبة على حروف المعجم ، ونشير إلى شعرهم بإيراد الشطرة الأولى من البيت الأول من كل قصيدة أو مقطوعة من المنظوم .

فهرست الكتب والرسائل

التي ورد ذكرها خلال الكتاب

س — ظ

ع — غ

ف — ك

فهرست القبائل والطوائف والدول

فهرست البلدان والأماكن

ج — خ

د — ز

س — ط

ع — غ

فهرست الأعلام

— ا —

ب — ث

ج — خ

د — ز

ف — ك

ل — م

ن — ى

كمل طبع المجلد الثانى من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة »
بمطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر ، بمدينة القاهرة المعزية
فى اليوم الرابع عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٩٤ هـ الموافق لليوم
الرابع من شهر يوليه سنة ١٩٧٤ م

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦١٥ / ١٩٧٤

HISTORY AND BIOGRAPHICAL DICTIONARY OF GRANADA

entitled

AL - IHATA FI AKHBAR GHARNATA

BY

VIZIER LISAN - ud - DIN IBN - ul - KHATIB

Edited with an Introduction and Notes

BY

MOHAMED ABDULLA ENAN

Author of : Moorish Empire in Spain. Age of the Almoravides and Almohades. End of the Moorish Empire in Spain. Monumentos Moros en Espana y Portugal, Life and Work of Ibn Khaldun. Life and Work of Ibn - ul - Khatib; etc.

Vol. II

Publisher : Al-Khanghi Bookshop, Cairo

Al-Tibaa Almisriyah Co. Press
Cairo - 1974

الإحاطة
في أخبار غرناطة

لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب

حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه

محمد عبد الله عنان

المجلد الثالث

الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م

القـــاهرة

الشركة المصرية للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو المجلد الثالث من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » . نقدمه إلى القراء والباحثين . فى كثير من الغبطة والحمد والرضى .

ولقد استوعبنا فى مراجعة المجلدين . الأول والثانى . من هذه الموسوعة الأندلسية الجليلة . سائر المخطوطات التى نوهنا بها فى مواطنها . فى مقدمة كل من هذين المجلدين . والآن ينحصر مدى المراجعة بالنسبة لهذا المجلد الثالث من « الإحاطة » فى أصلين مخطوطين .

الأول — مخطوط « المكتبة الزيدانية » . المحفوظ بمكتبة دير سان لورنزو بالإسكوريال ، برقم ١٦٨٨ الغزيرى ورقم ١٦٧٣ ديرنبور .

الثانى — مخطوط جامع الزيتونة بتونس ، المحفوظ الآن بدار الكتب الوطنية التونسية . الجزآن الثانى والثالث ، ومحملان رقمى 8135 و 8136

واعتمدنا فى المراجعة والتحقيق إلى جانب هذين الأصلين المخطوطين . على عدد من المراجع والموسوعات الأدبية والتاريخية . مثل « نفح الطيب » . و « أزهار الرياض » للمقرى ، و « الذيل والتكملة » ، للقاضى ابن عبد الملك المراكشى ، « وصلة الصلة » لأبى جعفر بن الزبير . « وجذوة الاقتباس » لابن القاضى ، وغيرها مما سبق أن ذكرناه فى ثبت المراجع فى نهاية المجلد الأول .

ويبدأ هذا المجلد الثالث من « الإحاطة » بترجمة محمد بن يحيى بن عبد الله ابن محمد بن أحمد العزفى وينتهى بترجمة عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن [illegible] ويشمل من مخطوط الإسكوريال المشار إليه مائة وثمان وسبعين

لوحة . من اللوحة ٨٥ إلى اللوحة ٢٨٣ . ويستغرق بقية السفر الثامن من «الإحاطة» ثم السفر التاسع بأكمله ، وجزءا من السفر العاشر :

ويختلف هذا المجلد الثالث من « الإحاطة » عن سابقيه فى عدة أمور ، أولها توخى الإيجاز فى كثير من التراجم . ويبدو ذلك من مقارنة عدد التراجم التى يحتويها هذا المجلد، بما يحتويه منها كل من المجلدين الأول والثانى . فبينما يحتوى المجلد الأول على ست وتسعين ترجمة ، ويحتوى المجلد الثانى على اثنين وثمانين ترجمة ، إذا بالمجلد الثالث يحتوى على مائة وأربع وتسعين ترجمة . وفى اعتقادنا أن ذلك يرجع بالأخص إلى سببين ، الأول توخى ابن الخطيب الإيجاز فى كثير من التراجم الملوكية والخلافية الأندلسية . مثل تراجم عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ، والمطرف بن عبد الله بن محمد ، وعبد الرحمن الناصر ، والخليفة المرتضى بالله وغيرهم ، وذلك لأنه تناول أخبارهم مفصلة فى كتابه « « إعمال الأعلام » . هذا بينما يفيض ابن الخطيب ، إفاضة ظاهرة فى المجلدين الأول والثانى ، فى تراجم سلاطين الدولة النصرية ، ولاسيما سلطانه محمد الغنى بالله . الذى تشغل ترجمته ، وما يتبعها من رسائل ، ثمانين صفحة من المجلد الثانى . والسبب الثانى هو تصرف ناسخ مخطوط المكتبة الزيدانية . بالاختصار المخل فى كثير من تراجم النصف الثانى من هذا المخطوط ، وحذفه معظم أبواب « المشيخة » . ومعظم القصائد والرسائل النثرية ، الملحقة بكثير من التراجم ، أو الاقتصار على اليسير منها .

على أن المجلد الثالث من « الإحاطة » يحتوى مع ذلك على كثير من التراجم الهامة ، والتراجم المطولة ، كما يحتوى على مجموعة من التراجم الملوكية . ونستطيع أن نذكر من التراجم الهامة التى وردت فى هذا المجلد ، من العلماء ورجال التفكير والأدب . تراجم محمد بن يحيى بن أحمد العزفى ، ومحمد بن أحمد بن مرزوق العجيسى ، ومحمد بن عبد المنعم الصنهاجى الحميرى ، وأبى جعفر بن الزبير . ومحمد بن يحيى بن عباد النفزى . ومحمد بن يوسف بن خاصون . وصالح بن شريف الرندى ، وعبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجارى ، وعبد الله بن

يوسف بن رضوان النجارى ، وعبد الرحمن بن خلدون الحضرمى ، وعبد الرحمن ابن يخلفتن الفازازى ، وعبد الملك بن حبيب ، وابن أبى السداد الباهلى ، وعبد الحق بن محمد بن عطية المحاربى . وعبد الملك بن سعيد بن خلف العنسى ، وعبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمى ، وعبد الحق بن إبراهيم بن سبعين العكى وغيرهم . ومن تراجم الزعماء والأمراء والملوك ، منذر بن يحيى التجيبى ، وأبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن . والسلطان أبو الجيوش نصر بن يوسف ابن نصر الأنصارى ، والصميل بن حاتم ، وعبد الله بن بلقين بن باديس ، وعبد الرحمن الداخل . وعبد الرحمن الناصر ، وغيرهم .

وقد اتبعنا فى هذا المجلد ، نفس ماسبق أن اتبعناه فى المجلدين السابقين ، من مقارنة النصوص المخطوطة ، والتعريف بالأعلام الجغرافية والتاريخية . ومن الواضح أن التعريف بهذه الأعلام قد جرى فى هذا المجلد على نطاق محدود نظرا لما سبق التعريف به فى المجلدين السابقين من الأعلام الكثيرة ، الواردة فى كتاب « الإحاطة » . ومن ثم فقد جرينا بالنسبة للأعلام المكررة فى هذا المجلد ، على الإحالة على المجلدين السابقين .

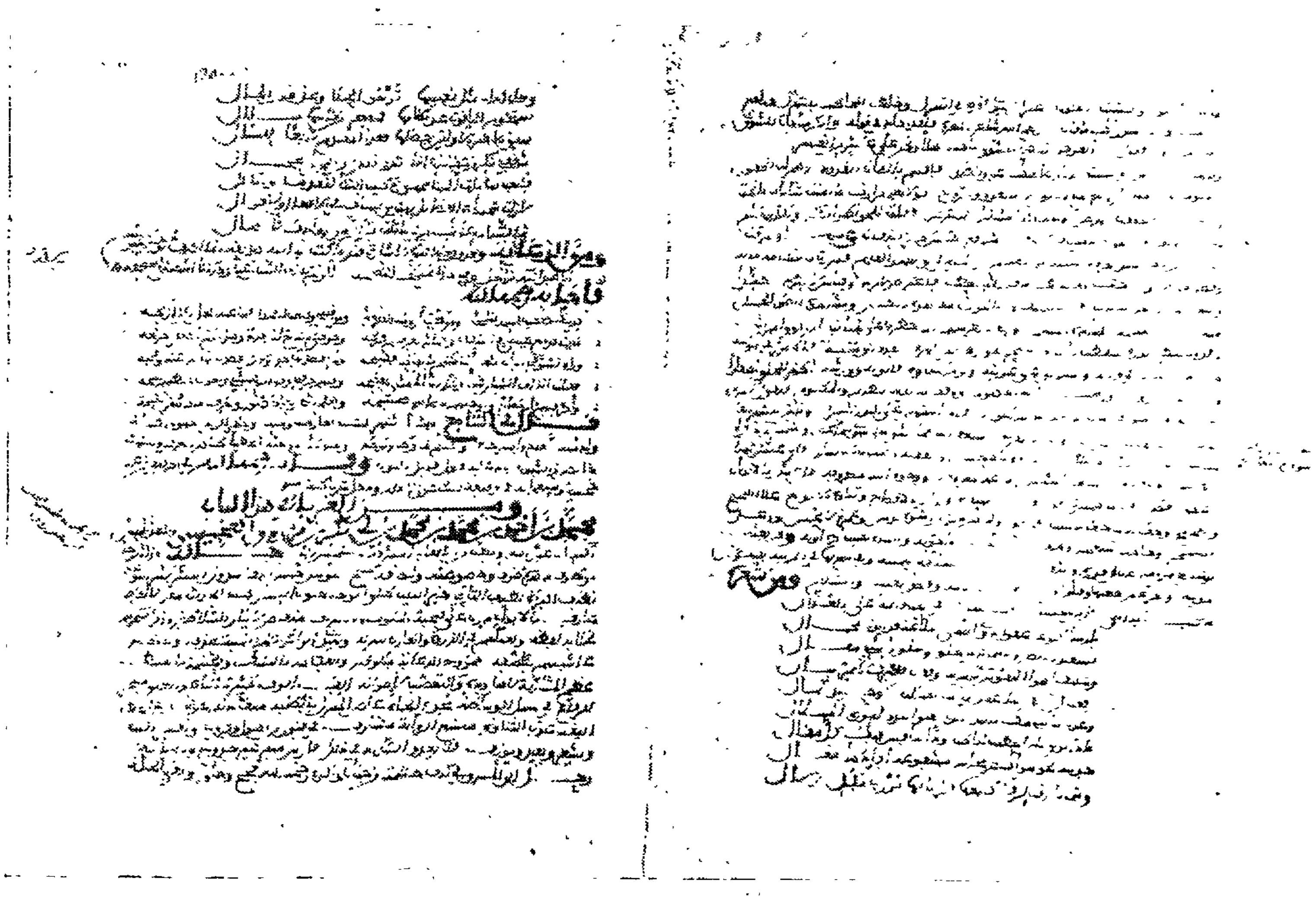
ونود أن نستدرك هنا سهوا وقع فى وصف « السفر الثانى » (الجزء الثانى) من مخطوط «الإحاطة» ، وهو مخطوط المكتبة الزيدانية المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٨٨ الغزيرى ، ورقم ١٦٧٣ ديرنبور ، فقد ذكرنا فى مقدمة المجلد الأول من الإحاطة أنه مكتوب بخط أندلسى (ص ١٣) . والحقيقة أنه مكتوب بخط مغربى . وقد أشرنا إلى ما ذكر فى نهاية هذا المخطوط من أنه قد تم نسخه بغرناطة فى أوائل شهر ربيع الأول من عام خمسة وتسعين وثمانمائة (ص ١٤) . وهذا يقصد به بالطبع المخطوط الأندلسى الأصلى ، الذى تم نسخه بغرناطة فى هذا التاريخ . ومن الواضح أن مخطوط المكتبة الزيدانية قد نقل عن المخطوط الأصلى ، وأدمجت فيه هذه الإشارة التى وردت فى خاتمته ، ونقل بالخط المغربى ، إما بغرناطة ذاتها قبل السقوط ، أو بالمغرب من نسخة منه كانت قد نقلت إليه ، واستطاع السلطان مولاى زيدان أن يحصل عليها ، وأن يضمها إلى مكتبته النفيسة .

هذا ، وقد بقى علينا بعد إخراج هذا المجلد الثالث من « الإحاطة » أن نخرج المجلد الرابع ، ثم السفر الثانى عشر منه ، وهو المتضمن لترجمة ابن الخطيب لنفسه . ويشتمل هذا المجلد الرابع والأخير من « الإحاطة » على بقية تراجم حروف العين ، والغين ، فالفاء ، فالسين ، فالهاء ، فالياء ، ويحتوى على مائة وإحدى وعشرين ترجمة ، تليها ترجمة ابن الخطيب لنفسه . وهى ترجمة مستفيضة تشغل نحو مجلد بأسره . وبإخراج هذين القسمين الأخيرين ، نختتم ، بعون الله وتوفيقه ، هذه الموسوعة الأندلسية الكبرى .

القاهرة فى غرة رمضان سنة ١٣٩٥ هـ

الموافق ٦ سبتمبر سنة ١٩٧٥ م

محمد عبد الله عنان



صفحتان من مختصر الإحاطة – مخطوط المكتبة الزيدانية المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٧٣ ديرنبور

رموز المخطوطات

رجعنا فى تحقيق هذا المجلد الثالث من « الإحاطة » حسبما تقدم إلى المخطوطين الآتيين ، ونرمز لكل منهما فى حواشى الكتاب على النحو الآتى :

١ ـ مخطوط مكتبة دير الإسكوريال المحفوظ بها برقم ١٦٨٨ الغزيرى ورقم ١٦٧٣ ديرنبور ، ونرمز له بكلمة « الإسكوريال »

٢ ـ الجزآن الثانى والثالث من مخطوط جامع الزيتونة بتونس ، المحفوظان الآن بدار الكتب الوطنية التونسية برقمى 8135 و8136 ونرمز لهما ، بكلمة « الزيتونة »

الإحاطة

في أخبار غرناطة

المجلد الثالث

محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد العَزَفى

من أهل سَبْتة ، أبو القاسم بن أبى زكريا بن أبى طالب[١] .

حـــاله

من أهل الظَّرف والبراعة ، والطبع المَعين ، والذكاء ، رئيس سَبْتة ، [وابن رؤسائها][٢] ، وانتقل الى غرناطة عند خلعه ، وانصرافه عن بلده . أقام بها . تحت رَعْيٍ حسن الرُّوا ، مألَّفًا للظرفاء ، واشتهر بها أدبه ، ونظر فى الطِّب ، ودوَّن فيه ، وبرع فى التَّوْشيح . ثم انتقل إلى العُدْوة ، انتقال غِبْطَة وأثَرَة . فاستُعْمِلَ بها فى [خُطط نبيهة][٣] ، وكتب عن ملوكها . وهو الآن بالحالة الموصوفة .

وجرَى ذكرُه فى « الإكليل » بما نصَّه : فرع تأوَّد[٤] من الرياسة فى دَوْحة . وتردَّد بين غَدْوةٍ فى المجد ورَوْحة ، نشأ والرياسة العَزَفِيَّة ، تَعِله

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (أبو القاسم بن أبى يحيى) .

(٢) هذه الزيادة واردة فى الزيتونة . ونود أن نذكر بهذه المناسبة أن رياسة آل العزفى لسبتة بدأت فى سنة ٦٤٧ هـ ، حينما قامت بها الثورة ضد الموحدين ، واتجهت باختيار قضاتها وكبير علمائها أبى القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن اللخمى العزفى رئيسا لها . واستمرت رياسة أبى القاسم لسبتة (وأحيانا لطنجة وأحوازها) حتى وفاته فى سنة ٦٧٧ هـ ، وهو الذى أكمل كتاب أبيه العلامة الورع [illegible] أبى العباس العزفى ([illegible]) [illegible] سنة ١٣ [illegible] سنة ١٩ [illegible] رياستها حتى وفاته فى سنة [illegible] ، [illegible] والده [illegible] له الرياسة [illegible] سنة ٧٢٠ هـ ، [illegible] الى [illegible] وكان آل العزفى [illegible] علماء وشعراء .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة ([illegible]) .

(٤) [illegible]

وتنهله . والدهر[١] يسير أمله الأوحى ويسهله . حتى اتّسقت أسباب سعده ، وانتهت إليه رياسة سلفه من بعده . فألقت إليه رحالها وحطّت ، ومتّعته بقربها بعدما شطّت . ثمّ كَلَح له الدهر بعد ما تبسّم ، وعاد زَعْزَعًا نسيمه الذي كان يتنسّم ، وعاقَ هلاله عن تِمّه ، ما كان من تغلُّب ابن عمه ، واستقرَّ بهذه البلاد ، نائى[٢] الدار بحكم الأقدار ، وإن كان نبيه المكانة والمقدار ، وجرت عليه جِرايةٌ واسعة ، ورعاية مُتتابعة ، وله أدبٌ كالرَّوض باكرته الغمائم ، والزّهْر تفتّحت عنه الكمائم ، رَفَعَ منهُ رايةً خافقة ، وأقام له سوقًا نافقة . وعلى تدفُّق أنهاره ، وكثرة نظمه واشتهاره ، فلم أظفر منه إلا باليسير التافه بعد انصرافه .

شـــعره

قال : أفديك يا ريح الصَّبا عوجي على تلك الرُّبا
واحْدِ النّعامى سَحرا تُرسل غماما صَببــا
على رُبىَ غَرْناطـــة لكى تقضى ماربــا
ثم أبلغى يا ريح عن صبٍّ ســـــلاما طيِّبا

ومن منظومه أيضًا في بعض القضاة الفاسيِّين ، وهو من البديع ، وورّى فيه ببابين من أبواب المدينة :

وُلِّيتَ بفـــاس أمور القضـــا فأحدثت فيها أمورًا شنيعة[٣]

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح ، وفى الزيتونة (والزمن) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نازح) .
(٣) هكذا ورد هذا البيت فى الإسكوريال «والزيتونة» . وورد فى « جذوة الإقتباس » لابن القاضى كالآتى :
(أقاضى فاس لقد شنتها واحدثت فيها أموراً شنيعة)
(طبعة الرباط ١٩٧٣ – ص ٣٠٠)

فتحْتَ لنفسك باب الفتوح ... وغلّقت للناس باب الشريعة
فبادر مولى الورى فارس ... بعزْلك عنها قُبيل الذَّريعة(١)

وقال

دع عنك قول عواذل ووشاة ... وأدِر كؤوسك يا أخا اللّذات
واخلع عِذارك لاهيا فى شُربها ... واقطع زمانك بين هاك وهاتِ
خذها إليك بكف ساقٍ أغْيَدٍ ... ليِّن المعاطف فاترِ الحركات
قد قام من ألحاظه إنسانها ... مُثبتا فى فتره اللحظات
يُسقيكها حمراءَ يسطع نورها ... فى الكاس كالمصباح فى المِشْكات
رُقت وراقت فى الزُّجاجة مَنظَرا ... لما عدت تُجلى على الرَّاحات
لا تمزِجَنَّها فى الأَبارق إنها ... تَبْدُو محاسنُها لدى الكاسات
عجبًا لها كالشمس تغْرُب فى ... فمٍ لاكنّ مطالِعَها من الوَجَنات
نلنا بها مانشْتهيه مِن المُنى ... فى جنَّة تُزْهى على الجنَّات
رَفّتْ عليها كلُّ طلٍّ سَجْسَج ... من كل غصْن يانع الثمرات
ما بين خَضِر حدايق وخمايل ... وجداول تُفضى إلى دَوْحات
سَرَى النسيم بها يصافح زهره ... فيهبُّ وهو مُورَّج النفحات
وشدا لنا فيها مُغَنٌّ شادن ... حاز المدا سَبْقًا إلى الغايات
طَربت له القُضُب اللِّدان وبادرت رجعا له تختال فى الحَبَرَات
مرت عليه رُكّعًا لاكنها ... جعلت تحيّتها لدى الرّكعات
قصرت صلاة الخوف منه فقرّبت ... قُرْبانها وحفّته بالزّهرات
والعُودُ مَثْناهُ يُطابقُ زيرَّها ... فى ردانات على رنّات
إن جُس مثلثه بان بِرنَّة ... فى البمّ منه ثقيلة النّغمات
فكان ما غنّت عليه الوُرْقُ من ... ألحانها ألقاه للقينات

---

(١) هذه الأبيات الثلاثة هى التى وردت فقط من شعر المزنى فى مخطوط الزيتونه .

عَكَفَت على أَلحانها تَشْأُو لنـا   خلف السَّتاير باخْتلاف لُغَات

فكأَنَّها عُجْم توارت بالحجاب   وردَّدت سوراً من التَّورات

نطقت بأَفصح نَغَمَة فى شدوها   تتلو علينْا هذِه الآيـــات

ومما أنشده ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إذَا لَمْ أُطِق نَحْو نَجْدِ وصولاَ   بعثْتُ الفُؤاد إلَيْها رَسُــولا

وكم حَلَّ قَلْبي رهِينًا بهـــا   غداة نَوَى الرَّكْبُ فيها النزولا

محل بها فى الحِلال التى ضُحىً   أَصبح القـوم فيهــا حلُولا

وكم بِتُّ فيها غداة النَّـوى   أَسحُّ من الْعين دَمْعًا همُولا

على شَمْس حُسْن سما ناظِرى   إليها وعَنِّى تَوَارتِ أُفُـولا

وَقَفْتُ بوادى الغضا سـاعة   لِعَلِّى أَنْدُبُ فيها الطُّلُـولا

وفى البـان من أَيْكِه ساجع   يرجِّع بالقضْبِ منها الهديلا

بحقِّ الهوَى يا حمام الْحِمَى   ترفّق بقلْبى المعُنَّى قَلِيلا

فَقَدْ هِجْت تالله أَشــواقـه   بذكرك إلفا ثانى أَو خَلِيـلا

أَلَمْ تَدْر أن ادِّكارى الهوَى   يُذِيب ويُعى الفُؤاد العَلِيلا

رعى الله تلكَ المطـايا الَّتى   إلى الحجّ وَخْدًا سَرَت أَو ذميلا

وياعجبا كيف خفَّت بهم   وحمَّلت القَلْب حملا ثَقِيلا

وَوَدَّعنى الصبر إذ ودَّعُـــوا   فما أَنْ وجدت إليه سـبيلاَ

وآثَرْتُ ياويح نفسى المقـام   وآثَر أَهْل الوِداد الرَّحِيـلا

وجادوا رَجا الرِّضا بالنفوس   وكُنْتُ بنَفْسى ضنينًا بخِيلا

نَدِمْتُ عَلَى السَّيْر إذْ فاتنى   ولازمتُ حُزْنِى دهـرا طوِيلا

وفاز المخفُّون إذْ يمَّمُـــوا   منازلَ آثارُها لن تــزولا

وحجُّوا [illegible]   محمدا الهاشميَّ الرســـولا

وفازوا بإدْرَاك ما أمَّلُوا ... ونالُوا لَدَيْهِ الرِّضا والْقَبُولا
وَلو كنت في عزمهم مثلهم ... إذًا لانْصرفت إليه عَجُولا
ولاكنني أَثْقَلَتْنِي الذنوب ... وما كنت للثِّقْل منها حَمُولا
ركبت مطيّة جهل الصِّبا ... وكانت أوان التَّصابي ذَلُولا
ومالت بي النَّفْس نحو الهوى ... وقدْ وجَدَتْني غِرًا جَهُولا
فَطُوبى لمنْ حَلَّ في طيبةٍ ... وعَرَّسَ بالسَّفح منها الحمُولا
ونال المُنَى في مِنًى عند ما ... نوَى بالمَنَازلِ منها نزولا
وأصْفى الضمايرَ نحْو الصَّفا ... يُؤمِل للْوَصْل فيه الوصُولا
وجاء إلى البيت مستبشرا ... ليطهِّر بالأمن فيه دخولا
وطاف ولَبَّى بذاك الحِمى ... ونالَ من الحجر قصْدًا وسولا
بلاد بها حلَّ خَيْرُ الورَى ... فطُوبى لمن نال فيها الحُلولا
نَبيٌّ كريمٌ سما رِفْعةً وقَدرًا جليلا ومجدا أصيلا
وكان لأُمته رحمة بفضل الشفاعة فيهم كفيلا
وكَانَ رَؤوفاً رحيمًا لهم ... عطوفا شفيعا عليهم وُصولا
لَهُ يَفْزعُون إذا ما رأوا ... لدى الحشر خسفا وأمراً مهولا
وإن جاءَ في ذنبهم شافعا ... بدى الرَّحْبُ من رَبِّهِ والقَبُولا
له معجزات إذا عُدِّدت تفوت النُّهى وتُكِلُّ العقولا
ولن يبلغ القول معشارها ... وإن كان الوَصْف فيها مُطيلا
وقُسُّ البيان وسَحْبانه يرى ... ذهنه في مداها كليلا
تَخَيَّره الله في خلقه فكان الخَطير لديه المثيلا
ولم يُر في النَّاس نِدًّا له ولا ... في الخلايق منه بديلا
وأبقى له الحُكم في أرضه ... فكان الأَمينَ عليها الوكيلا

وكل ظلام وظلم بها على الفـور لمَّا أتى قد أزيـلا
وكانت كنار لظًى فتنةً فعـادت من الأمن ظِلاً ظليلا

وقد زان حسْنُ الدجا جيله   إذا ذكر الدهر جيلا فجيلا
وأيامه غُرر قد بدت بوجـه   الدُّنـا والليـالى حجولا
رسُول كريم إذا جيتـه   ويمّمت مَغْنـاه تلْقى القَبولا
بمولده فى زمـان الربيع   ربيعٌ أتانا يُجرُّ الذُّيـولا
فأهلا به الآن من زايـر   أتانا بفضل يفوق الفضولا
وقام الإمـام به المرْتَفَى   فنـال ثوابا وأجـرا جزيلا
هو المسْتَعين أبو سالِمٍ مليك   ترفَّـع قـدرًا جليـلا
وحاز مِن الصِّيت ذِكْرًا أثيرًا   ومن كـرم الخيم مجْدًا أثيلا
سليلٌ علىّ غَمـام النَّـدى   ألا أيَّد اللهُ ذاك السَّليـلا
فَتًى أوْسَع النَّـاس من جوده   عطًا جزيلاً وبِـرًّا حفيـلا
حلاه الوقـار ولاقيـه إذا   ارتـاح للجُود يلفى عجولا
وقد شاع عنه جميل الثَّنـا   وعمَّ البسيطة عرضاً وطـولا
ومـا من بالوعـد إلاَّ وَفَـى   فلمْ يَكُ بالوعْد يومًا مَطُولا
ولا فى عُـلاه مُغـالٍ لمن   يكثر فى الملك قالاً وقيـلا
تفرَّد بالفضل فى عصـره   وكان بعُرْف الأيادى كفيلا
أطاعت له حين وافى البلاد   رضًى عند ما حلَّ فيها حلولا
وجا لطاعته أهلها سُـراعـا   يرومون فيهـا الدُّخـولا
فنبَّه قـدرُ المُوالى بهـا   وأكسف فيهـا المُعادى خمولا

ومهَّد بالأمـن أفكارها وأمَّـن بالعـدل فيهـا السبيلا

وكفَّ أكفَّ التعدّى بهـا   فلا يُظلم النـاس فيها فتيلا

وعصر الكروب الذى قد مضى　　زمـانُ المسرَّات منـه أديـلا
أتانا الى الغرب فى شوكةٍ　　بها عاد جَمْع الأَعـادى قليلا
وفوق رؤوس الطغاة انتضى　　حُسامًا ليُسْمِع فيها صليـلا
وجـرَّد من عـزمه مرهـفًا　　لحسم أُمور المنـاوى صقِيلا
وكل كَفُـور مُعَـادٍ لَهُ　　سيأخذه الله أَخْذًا وَبِيـلا
أَعـزَّ الخلايـقَ لما وَلِى　　ونوَّه من كان منهم ذليـلا
وراعى لمن جاءه داخلا　　حِمـاه من القاصدين الدَّخِيـلا
فـكان بأَفعـاله قصـده إلى　　مَنْهَج الفضل قصداً جميلا
وصحَّ انتعاش المعـالى به　　وقد كان شخصُ المعـالى عليلا
وشيَّد مبنى العُـلا بالنَّـدى　　ووثَّقه خِشْيـة أن يميـلا
يُنيـل ويُعْطى جزيـل العطـا　　فما زال أُخرى الليـالى مُنِيلا
ودام مدى الدَّهر فى رفعـة　　تغير من الحاسدين الغليـلا
ولا بَرِح السـعد فى بـابه　　يوُمٌّ به مَرْبعاً أو مَقِيـلا [1]

محمد المَـكُودى

من أهل فاس يكنى أبا عبد الله

حـالـه

من « الإكليل » : شاعر لا يتعاطى [2] ميدانه ، ومرعى [3] بيان وَرَف

(١) لم يذكر لنا ابن الخطيب كعادته مولد المترجم له ولا تاريخ وفاته . ونحن نتولى ذلك فنقول إن أبا القاسم العزفى ولد بسبتة فى شوال عام ٦٩٩ هـ ، وتوفى بفاس كاتبا للمملكة المرينية وذلك فى ١١ صفر سنة ٧٦٨ هـ (راجع أزهار الرياض – ج٢ ص ٣١٨) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يتقاضى) .

(٣) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال . (مرمى) .

عضله[١] ، وأينع سَعْدانه ، يدعو الكلام فيهطع لداعيه ، ويسعى فى اجتلاب المعانى فتنجح مساعيه . غير أنه أفرط فى الانهماك ، وهوى إلى السَّمكة من أَوْج السِّماك . وقدم على هذه البلاد مُفلتاً من رَهَق تلمسان حين الحصار ، صفر اليمين ، واليسار من اليسار ، ملئ[٢] هوى أنحى على طَريفه وتِلاده ، وأخرجه من بلاده . ولما [جدّ به][٣] البين ، وحلّ هذه البلاد [بحال تقبحها العين][٤] والسيف بهزّته ، لا بحسن بزّته ، دعوته إلى مجلس ، أعاره البدرُ هالته ، وخلع عليه الأَصيل غِلالته ، ورَوْض تفتّح كِمامه ، وهَما عليه غَمامه ، وكاس أُنْس تدور ، فتتلقى نجُومَها البُدور . فلمَّا ذَهَبت المؤانسة بخجَلِه ، وتذكر دواه ، ويومَ نَواه ، حتّى خِفْنا حُلول أجله ، جَذَبنا للمُؤَانسة زمامه ، واسْتَقَينا منها غَمَامه ، فأَمْتَع وأَحْسَب ، ونظر ونَسَب ، وتكلَّم فى المسائل ، وحضر بطُرَف الأَبيات ، وعيون الرسايل ، حتى نشر الصباح رايته ، وأطلع النهار آيته .

ومما أنشدنا ونسبه لنفسه :

غرامى فيكِ جلّ عن القياس ... وقد أسْقَيتنيه بكل كاس
ولا أنسى هواك ولو جَفانى ... عليك أقاربى طُرًّا ونَاسِى
ولا أدرى لنفسى من كمالٍ سوى ... أنّى لعهدك غيْرُ نَاسِ

وقال فى غرض معروف :

بعثْتَ بخَمْرٍ فيه ماءٍ وإنما ... بعثتَ بما فيه رايحة الخمْر
فَقُلْ عليه الشكر إذْ قَلَّ سكرُنا ... فنحن بلا سُكر وأنت بلا شُكر

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (عضاهه) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (بل) . والتصويب من النفح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (جذبه) ، والأولى أرسخ

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح ، ومكانها فى الإسكوريال (بحال تعس) ، والأولى أكثر اتساقا مع المعنى والسياق .

ومما خاطبنى به :

رَحْماك بِى فلقد خلَّدت فى خَلَدى   هوىً أَكابد منه حرَّة[١] الكبد
حللتَ عِقد سلوِّى فى[٢] فؤادى   إذ حَلَلت منه محلَّ الروح فى جسد
مَرآك بدرى وذِكراك التِذاذُ فمى   ودين حُبِّك أَضْمارى ومُعتقدى
ومن جمالك نورٌ لاح فى بَصَرى   ومن ودادك روحٌ حلَّ فى خَلَدى
لا تحسبنَّ فؤادى عنكَ مُصْطبِـر   فقَبْلَ حُبِّك كان الصبر طَوْع يدى
وهاك جسمى قد أَودى النُّحول به   فلو طلبتَ وجودًا منه لم تجد
بَما بطرفك من غَنَج ومن حَــورَ   وما بثَغْرك مِن درٍّ ومن بَرَد
كن بين طرفى وقلبى منصفا فلقد حابيت بَعْضَهما فاعدِل ولا تحِد
فقال لى قد جعلتُ القلب لى وطنا   وقد قضيت على الأَجفان بالسُّهد
وكيف تطلب عدلا والهوى حَكَمٌ   وحكمه قط لم يعدل على أَحد
من لى بأَغْيَد لا يَرْثى إلى شَجَــن   وليس يعرف ما يلقاه ذُو كمَد
ما كنتُ من قبل إذعانى لصولته   أَخال أَن الرَّشا يسطو على الأَسد
إن جاد بالوعد لم تَصْدُق مواعدُه   فإن قَنَعْت بزور الوعد لم يَعد
شكوته عِلَّتِى منه فقال الأَمر للطبيب فما بُــرْءُ الضنَـــا بيـدى
فقلت إن شئت بُرْئى أَو شِفا أَلمى   فبارتشاف لِماك الكوثرى جُــدِ
وإن بَخِلت فلى مولىً يجودُ على   ضعفى ويُبرى ما أَضْنَيْت من جسد

وخرج إلى المدح فأَطال[٣]

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (حرقة) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (عن) .

(٣) لم يذكر لنا ابن الخطيب تاريخ وفاة المترجم له . وقد توفى محمد المكودى بفاس سنة ١٥٣هـ (جذوة الاقتباس – ١٩٧٣ – ص ٢٢٩) .

المقرئون والعلماء — الأصليون منهم

محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزَىّ الكلبى

يكنى أبا القاسم من أهل غرناطة وذوى الأصالة والنباهة فيها ، شيخنا رحمة الله عليه

أَوَّلِيَّتــه

أصل سلفه من ولبة[١] من حصون البراجلة ، نزل بها أولهم عند الفتح صحبة قريبهم أبى الخطار حُسام بن ضِرار الكلبى . وعند خَلْع دعوة المرابطين ، وكانت لجدهم بجيَّان رياسة وانفراد بالتدبير .

حـــاله

كان رحمه الله ، على طريقة مُثْلى من العُكوف على العلم . والاقتصاد على الاقتيات من حُرِّ النَّشَب ، والاشتغال بالنَّظر ، والتَّقييدوالتَّدوين[٢] ، فقيها حافظاً ، قائماً على التدريس ، مشاركاً فى فنون [من][٣] العربية . والفقه ، والأُصول ، والقراءات ، والحديث ، والأدب . حفظة[٤] للتفسير مستوعباً للأقوال ، جمّاعة للكتب ، مُلوكى الخِزانة ، حسن المجلس ،

---

(١) هكذا ورد هذا الاسم فى الإسكوريال والزيتونة . وورد فى النفح (ولبه) . وهو [illegible] الغموض بصحة اسم هذا المكان ، لأن حصون البراجلة تقع فى منطقة [illegible] غرناطة . ونظن (ولبه) يقع فى ولاية الغرب الأندلسية جنوب غربى إشبيلية .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح وفى الزيتونة (التدبير) .

(٣) زائدة فى « الزيتونة » والنفح .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى الزيتونة (حافظا) .

ممتع المحاضرة ، قريب الغَور ، صحيح الباطن . تقدَّمَ خَطِيبا بالمسجدِ الأعظم من بلده على حداثة سنِّهِ ، فاتُّفِقَ على فضله ، وجرى على سنن أصالته .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ أبي جعفر بن الزبير ، وأخذ عنه العربية والفقه والحديث والقرآن . وروى عن أبي الحسن بن مَسْتَقُور[١] . وقرأ القرآن على الأُستاذ المقرى الرَّاوية المُكْثِر أبي عبد الله بن الكَمّاد ، ولازم الخطيب أبا عبد الله بن رُشَيد ، وسمع على الشَّيخ الوزير أبي محمد عبد الله بن أحمد ابن المؤذن ، وعلى الراوية المُسِن أبي الوليد الحضرمى . يَرْوى عن سهل بن مالك وطَبَقَتِه . وروى عن الشيخ الرَّاوية أبي زكريا البُرْشانى ، وعن[٢] الرَّاوية الخطيب أبي عبد الله محمَّد بن محمَّد بن على الأنصارى . والقاضى أبي المجد بن أبي على بن أبي الأحوص ، والقاضى أبي عبد الله بن بُرْطال ، والشيخ الوزير ابن أبي عامِر بن ربيع ، والخطِيب الولى أبي عبد الله الطَّنجالى ، والأُستاذ النظَّار المُتَفَنِّن أبي القاسِم قاسم بن عبد الله بن الشّاط . وألَّف الكثير فى فنون شتى .

تواليفه

منها كتاب « وسيلة المُسْلِم فى تهذيب صحيح مُسْلِم » وكتاب « الأنوار السَّنية فى الكلمات السُّنِّيَّة » وكتاب «الدَّعوات والأذكار المُخْرجة من صحيح الأخبار » وكتاب «القوانين الفقهية فى تلخيص[٣] مذهب المالكية» . «والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنْبَلِيَّة » وكتاب « تقريب الوصول إلى

(١) وردت فى الإسكوريال (مسفور) وفى الزيتونه (مسمور) وهو تحريف .
(٢) وردت فى المخطوطين (على) . والتصويب أرجح .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (تخليص) .

علم الأُصول » وكتاب « النُّور المبين فى قواعد عقايد الدين » وكتاب « المختصر البارع فى قراءة نافع » وكتاب « أصول القُرَّاء الستة غير نافع » وكتاب « الفوايد العامة فى لحن العامَّة »،إلى غير ذلك مما قيده فى التفسير والقراءات وغير ذلك . وله فِهْرِسة كبيرة . اشتملَتْ على جملة من أهل المشرق والمغرب .

شـــــعره

قال فى الأَبيات الغينيَّة ذاهِبًا مذهب الجماعة كأَبى العلاء المعرِّى . والرييس أَبى المظفر ، وأَبى الطاهِر السِّلَفى ، وأَبى الحجاج بن الشيخ ، وأَبى الربيع بن سالم ، وأَبى على بن أَبى الأَحوص ، وغيرهم ، كلهم نظم فى ذلك :

لكل بنى الدنيا مُراد ومَقْصِد ... وإنَّ مُرادى صِحَّةٌ وفَراغ
لأَبْلُغَ فى عِلم الشَّريعة مبلَغًا ... يكون به لى للجِنان بــــلاغ
وفى مثل هذا فلينافس أُولو النهى ... وحَسْبِى من الدنيا الغَرُور بلاغ
فما الفوْزُ إلاَّ فى نَعِيمٍ مؤبَّد ... به العيشُ رَغْدٌ والشَّرابُ يُسَاغ

وقال فى الجناب النَّبَوى :

أَروم امتداح المصطفى ويردُّنى ... قُصُورى عن إدراك تلك المناقب
ومَنْ لى بحصر البحر والبحرُ زاخِر ... ومن لى بإحصاء الحصى والكواكب
ولو أَن أَعضائى غدتْ أَلْسُنَا إذًا ... لما بلغت فى المدح بعض مآرب
ولو أَن كلَّ العالمين تَآلَفوا على[1] ... مدائحه لم يبلغوا بعض واجب
فأَمسكتُ عنه هَيْبةً وتَأَدُّبــا ... وخوفًا[2] وإعظاما لأَرفَع جانب

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تسابقوا إلى) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وعجزا) .

ورُبَّ سكوت كان فيه بلاغةٌ　　ورُبَّ كلام فيه عَتْب لِعَاتِبِ

وقال رحمه الله مُشْفِقًا من ذنبه :

يارِبِّ إنَّ ذنُوبى اليَوْم قد كثُرت　　فما أُطيقُ لها حصرًا ولا عددَا

وليس لى بعذاب النّار من قِبَل　　ولا أُطِيق لها صبرا ولا جلدَا

فانظر إلهى إلى ضَعْفى ومَسْكَنَتِى　　ولاَ تُذِيقنِى حرَّ الجحِيم غَدا

وقال فى مذهب الفخر :

وكم من صفحة كالشمس تبدو　　فيُسْلى[(١)] حسنُها قلب الحزين

غضضتُ الطَّرفَ عن نَظَرى إليها　　محافظةً على عِرْضِى ودِينِى

وفــاته

فُقِد وهو يُشحذ الناس ويُحرِّضهم ، ويُثبِّت بصايرهم ، يوم الكاينة بطَرِيف[(٢)] ، ضحوة يوم الإثنين السابع لجمادى الأُولى عام أحد وأربعين وسبعماية ، تقبَّل الله شهادته . وعقِبه ظاهر بين القضاء والكتابة .

محمد بن أحمد بن فتُّوح بن شُقْرال اللخمى

شرقى الأَصل من سكان غرناطة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بالطُّرسونى

حـــاله

نقلتُ من خطِّ شيْخنا أبى البركات بن الحاج . أمتع الله به كنَّى نفسه أبا عبد الرحمن[(٣)] ، ودُعى بها وقتًا ، وكُوتب بها . وكان له ابن سماه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (فيسبى) .

(٢) سبق التعريف بهذه الموقعة (راجع المجلد الثانى من الإحاطة ص ١٨٠ – حاشية) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (أبا عبد الله) .

عبد الرحيم ، فقلنا له سمّه عبد الرحمن ، ليعضِّد لك الكُنية التى اخترتَ ، فأبى . كان هذا الرجل قيِّمًا على النحو والقراءات واللغة[١] ، مجيدًا فى ذلك ، مُحْكمًا لما يأخذ فيه منه ، وكانت لديْهِ مشارَكَةٌ فى الأَصْلَيْن والمنطِق ، طَمَح إليهما بفضل نباهته وذكايه ، وشعوره بمراتب العلوم ، دون شيخ أرشده إلى ذلك . يجمع إلى ما ذكر خطًّا بارعًا ، وظَرْفًا وفُكاهةً ، وسَخَا نفس ، وجميل مشاركة لأَصحابه . بأَقصى ما يستطيع . وكان صَنَّاع اليديْن يرسم بالذَّهب ، ويُسفِّرُ ، ويُحكم عمل التَّراكيب الطِّبِّيةِ . وعلى الجملة فالرجل من أَجلِّ نبلاءِ عصره ، الذين قلَّ أَمثالهم.

مشيخته

أخذ القراءات عن الشيخ الأُستاذ [أَبى الحسن][٢] ابن أَبى العيش ، وبه تفقَّه ببلده أُلمريَّة . وقرأَ على الأُستاذ أَبى جعفر بن الزبير ، والخطيب أَبى جعفر بن الزيات ، والرَّاوية أَبى الحسن بن مَسْتَقُور ، والولى أَبى عبد الله الطَّنجالى ، وصِهْره الخطيب أَبى تمام غالب بن حسن بن سَيْدبُونه ، والخطيب أَبى الحسن القِيجاطى ، والخطيب المحدث أَبى عبد الله بن رُشَيْد وغيرهم .

شــعره

من شعره قوله :

إذا قَذَفتْ بى حينما شاءت النَّوى ... فنى كل شِعْبٍ[٣] لى إليْك طريق

وإن أنا لم أُبْصِر مُحَيَّاك باسمًا ... فإنسانُ عَيْنى فى الدموع غريق

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الفقه) .

(٢) ساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (صعب) والأولى أرجح .

فإنْ لم تَصِل كفِّى بكفِّك وافيًا [فأَشْمَال أحبابى لدّى فُتوق][1]

محنتـه

أَحْظاه وزيرُ الدَّولة أبو عبد الله ابن المحروق[2] ، واختصَّه ، ورتَّب له بالحمراء جرايةً ، وقلَّد نظره خِزانة الكتب السلطانية . ثم فَسَد ما بينهما ، فاتَّهمه ببراءات كانت تُطرح بمذَامِّه[3] بمسجد البَيَّازين[4] ، وتُرصد ما فيها ، فزعم أنه هو الذى طَرَحها بمحراب المسجد ، فقُبض عليه واعتقل ثمَّ جلاَّه إلى إفريقية .

وفـــاته

ولما بلغته بإفريقيه وفاة مُخيفه ، كرَّ راجعاً إلى الأندلس ، فتوفى فى طريقه ببونه[5] ، من بلاد العِنَّاب أو بأحوازها فى أواخر عام ثلاثين ، أو أقرب من الأواخر وسبعماية .

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال ووردت فى الزيتونة » كالآتى (باسمان أجفانى ملوق فتوق) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد المحروق . تولى الوزارة للسلطان أبى عبدالله بن اسماعيل الذى تولى الملك سنة ٧٢٥ ﻫ ، فاستبد بالأمور ، واستأثر بالسلطة ، فحقد عليه السلطان ، وبطش به فقتل بأمره فى المحرم سنة ٧٢٩ ﻫ (١٣٢٨ م) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بحرامة المسجد) والأولى أرجح .

(٤) كان جامع البيازين أحد مسجدين كبيرين يقعان فى حى البيازين أشهر أحياء غرناطة الإسلامية وكذلك أشهر أحياء غرناطة المعاصرة ، وقد حول بعد سقوط غرناطة إلى كنيسة ، وبنيت فوق موقعه كنيسة سان سلبادور San Salvador . ومازالت تقوم إلى جانبها حتى اليوم بقية من أسوار الجامع وعدة من بوائكه ، وجزء من صحنه .

(٥) هى ثغر من ثغور مملكة إفريقية (تونس) ، تقع على شاطئ البحر المتوسط شمال غربى تونس فى منتصف المسافة بينها وبين بجاية . وهى اليوم من ثغور جمهورية الجزائر الجامعة وتسمى عنابة أى بلد العناب .

محمد بن جابر بن يحيى بن محمد بن ذى النُّون التَّغلبى

ويعرف بابن الرمّالية(١) ، من أهل غرناطة ، ويعرف خلفه الآن ، ببنى مَرْزَبّة(٢) ، ولهم أصالة وقِدَم وجِدَة .

حـــاله

فقيه ، نبيه ، نبيل ، ذكى ، عنده معرفة بالفقه والأدب والعربية ، حسن المشاركة والمحاضرة ، حاضر الذهن ، ذاكرٌ لما قرأه .

مشيخته

روى عن الإمام أبى بكر بن العربى . قال أبو القاسم الملاّحى(٣) ، وحدّثنى سنة أربع وستماية ، قال حدّثنى الإمام أبو بكر بن العربى رضى الله عنه ، قال حدّثنى محمد بن عبد الملك السَّبْتى ، قال خرجت مع أبى الفضل الجَزِيرى مشيِّعين لقافلة الحاجِّ من بغداد ، ومودِّعين لها من الغَد ، وحين أصبحنا أثيرت الجمال ، وفرض الناس الرِّحال ، ونحن بموضع يعرف بجُبِّ عميرة ، إذا بفتىً شاحبِ اللّون ، حسن الوجه ، يُشيِّع الرَّواحل . راحلةً بعد أخرى ، حتى فنيت ، ومشى الحاجُّ ، وهو يقول فى أثناء تردُّده ونظره إليها :

أحجّاج بيْتِ الله فى أىِّ هوْدج وفى أىِّ بيْتٍ من بيوتكم حبى
أأبقى رهينَ القلب(٤) فى أرض غُرْبةٍ وحاديكم يحدُو فؤادى مع الرَّكب

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الذماله)

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بنى مرزقة) .

(٣) سبق التعريف به (راجع المجلد الثانى من « الإحاطة » ص ١٣٣ حاشية) . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (الحب) .

فوا أَسفا لم أَقضِ منكم لُبانتى ولم أَتمتع بالسلام وبالقرب
وفرَّق بينى بالرَّحيل وبينكم فها أنذا أَقْضِى على إِثْرِكم نَحْبِى
يقولون هذا آخرُ العهدِ منكم فقلتُ وهذا آخر العهد من قَلْب

قال ، فلما كَمَل الحاجُّ المشى ، وانقطع رجاؤه ، وجعل يخطو هائماً ، وهو ينشد ، ثمَّ رمىَ بنفسه إلى الأَرْض وقال :

خلِّ دمع العين يَنْهمل بان من تهواه وارْتَحَل
أَىُّ دمع صانه كِلفٌ فهو يوم البَيْن يَنْهمل

قال ، ثم مال على الأَرض . فبادرنا إليه فوجدناهُ ميِّتًا ، فحفرنا له لَحْدًا ، وغسَّلناه وكفَّنَّاهُ فى ردَاءٍ وصَلَّينا عليهِ . ودفنَّاه .

وفاة المترجم به سنة خمسين وستماية

محمد بن محمد بن محمد بن بيبش العبدرى

من أَهل غرناطة ، يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف بابن بيبش (١)

حـــاله

كان خيِّرًا . مُنْقَبضا . عفًّا ، مُتَصاونا . مشتغلا بما يَعْنِيه . مضطَّلعا بالعربية ، عاكفا عُمْره على تحقيق اللُّغَة (٢) ، مشاركا فى الطِّب . مُتَعَيِّشا من التِّجارة فى الْكُتب . أَثْرَى منها . وحَسُنت حاله . وانتقل إلى سُكْنى سَبْتَة ، إلى أَن حَطَطْتُ بها رسولاً فى عام اثنتين وخمسين وسبعماية . فاستدعيته ونقلتهُ إلى بلده . فقعد للإقراء به إلى أَن توفى .

---

(١) هذا الاسم ما زال ذائعا حتى اليوم فى إسبانيا ، ويعرف بصورته الإسبانية Vives

(٢) هكذا وردت فى الإحاطة ، وهى فى النسخة (تفقه) . والأولى أكثر تمشياً مع السياق .

وجرى ذكره فى بعض الموضوعات الأدبية بما نصه : مُعَلِّم مُدَرَّبٌ ، مُسَهِّل مُقَرِّب ، له فى صَنْعة العربية باع مديد ، وفى هَدَفِها سَهْم سديد ، ومشاركة فى الأدب ، لا يفارقها تَسْديد ، خاصىٌّ المنازع ، مختصرُها ، مُرتَّب الأحوال ، مقرِّرُها ، تميَّز لأول وقته بالتِّجارة فى الكتب ، فسلَّطت عليها منه أَرَضَة آكِلة ، وسهمٌ أصاب من رَمْيتها شاكلة (١) ، أَتْرَب بسببها وأثرى ، وأغنى جهةً ، وأفقر أُخرى ، وانتقلْ لهذا العهد الأخير إلى سُكْنى غرناطة مسقط رأسِهِ ، ومَنْبِت غَرْسه ، وجَرَت عليه جرايةٌ من أحباسها ، ووقع عليه قَبُول من ناسها ، وبها تلاحق به الحِمام ، فكان من تُرابها البداية وإليه التمام . وله شعر لم يَقْصُر فيه عن المدا ، وأدب توشَّح بالإجادة وارتدى

مشيخته

قرأ على شيخ الجماعة ببلده أبى جعفر بن الزبير ، وعلى الخطيب أبى عبد الله بن رُشَيْد ، والوزير أبى محمد بن المؤذن المُرادى ، والأُستاذ عبد الله بن الكَمَّاد ، وسمع على الوزير المُسنِّ أبى محمد عبد المنعم بن سِماك. وقرأ بسَبْتَة على الأُستاذ أبى إسحٰق الغافقى

شـــعره

أنشدنى بدار الصِّناعة السلطانية من سَبْتَة تاسع جمادى الأُولى من عام اثنين وخمسين المذكور ، عند توجُّهى فى غرض الرسالة إلى السلطان ملك المغرب ، قوله يجيب عن الأبيات المشهورة ، التى أكثر فيها الناس وهى :

يا ساكنا قـلبى المُعَنَّى   وليس فيه سواك ثـانِ
لأىِّ معنًى كسرتَ قلبى   وما الْتَقَى فيه ساكنان

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الشاكلة) .

فقال :

نَحلتَنى طـايعًا فؤاداً فصـار إذ حُزته مكان
لا غَرْو إذ كان لى مُضافًا إنِّى على الكَسْر فيه بانِ

وقال يخاطب أَبا العباس عميد سبتة ، أَعزَّه الله ، وهى مما أَنْشَدَنيه فى التاريخ المذكور ، وقَد أَهدى إِليه أَقلاما :

أَنا مِلك الغُرِّ التى سِيب جودُها يفيض كفيْض المُزْن بالصيِّب القطِر
أَتَتْنى منها تُحفة مثل عدِّها إِذَا انتُضِيت كانت كمُرْهَفة السُّمر
هى الصُّفر لا كن تعلم البيضُ انها مُحكمة فيها على النَّفع والضَّرِّ
مُهذَّبة الأَوصال مَمْشُوقةٌ كمـا تُصاغُ سهام الرَّمْىِ من خالص التِّبر
فقبَّلتُهـا عَشْرًا ومثَّلتُ أَنـنى ظَفِرْت بِلَثْمٍ فى أَنامِلك العشر

وأَنشدنى فى التاريخ المذكور فى ترتيب حروف الصحاح قوله :

أَساجعة بالواديين تبـوَّئى ثمـارًا جَنَتْهـا حاليـات خَوَاضِب
دعى ذكر روض زاره [1] سَقْىُ شِربه صباح ضُحى [طير طما] [2] عصايب
غرامٌ فؤادى قاذفٌ كل ليلـة متى ما نأَى وَهْنًا هـواه يُراقب

ومن مطولاته ما رفعه على يدى السلطان وهو قوله :

ديارٌ خطَّها مجدٌ قـديم وشاد بنـاءها شرفٌ صميم
وحلَّ جنابهـا الأَعلى عُـلاً يَقْصُر عنه رَضْوى أَو شميم
سقى نجدًا بها وهضابَ نجد عهـاد نـزة وحياً تميم
ولا عدِمت رُباه رباب مُزن يُغادى رَوْضهنّ ويسْـتديم

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (رامه) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى النفح (طى ظباء)

فيصبح زهرها يحكى شذاه ... فَتِيتَ المسْك يُذكيه النَّسيم
وتنثرُه الصَّبا فتريك درًّا ... نثيراً خانه عِقدٌ نَظيم
وظلَّت فى ظِلال الأَيك تشدو ... مُطَرَّقة لها صوت رخيم
تُرجِّع فى الغصون فنون سَجْع ... بأَلحان لها يَصْبو الحليم
أَهِم بملتقى الوادى تجد ... وليس سواه فى واد أَهيم
وكنت صرفْتُ عنه النفس كَرْهًا ... وما بَرِحت على نَجْدٍ تحوم
وما ينفكُّ لى ولها نزاع ... إلى مَغْنًى به ملكٌ كريم
له بيْتٌ سما فوق الثريَّا ... وعزٌّ لا يخيم ولا يريم
تبوَّأَ من بنى نَصْر عُلاها ... وأَنصار للنبى له أَروم
أَفاض على الورى نَيْلاً وعدْلاً ... سواءٌ فيه مُثْرٍ أَو عديم
ملاذٌ للملوك إذا أَلَمَّت ... صروف الدهر أَو خَطْب جَسيم
تُؤَمِّله فتأمن فى ذُراه ... وتدنو من عُلاه فيستقيم
ويبدو فى نَدَى المُلْك بَدْراً ... تحفُّ به الملوك وهم نجوم
بوجهٍ يُوسفِى الحُسْن طلقٌ ... يضِى بنوره اللَّيْلَ البَهيم
وتلقاه للعفاة له ابتسام ... ومنه لِلْعِدى أَخذ لِلّييم (١)
فيا شرفَ الملوك لكَ انقطاعى ... وإنِّى فى محلِّكم خديم
وآمالى أَملت لِمَليك حتَّى ... وردْن على نَداك وهنَّ هِيم
فللظَّما ورودُك خيْر ورد ... نَمير ماؤه عذبٌ جَمِيم
ولا أُضحى وفى مَغْناك ظلٌّ ... ظَليل حين تحتدم السَّموم
ركبتُ البحر نحوك والمطايا ... تسير لها ذميل أَو رسيم
وإنَّ عُلاك إذ عضنت بِنحلةٍ ... علىَّ فذاك العزُّ المقيم

---

(١) وردت فى الإسكوريال (للَّيم) والمصوب أَرجح .

فوأسفى على عُمْرٍ تقضَّى ... بدارٍ ليس لى فيها حَميم
سوى ذِكرٍ للفؤاد ذهبتُ عنه ... وبين جوانحى منه كُلوم
ودُون لقاها عَرْض الفيافى ... ونجدٌ موجهُ طودٌ عظيم
لعل الله يُنعم باجتماع ... ويَنْظم شَمْلَنَا البرُّ الرحيم
بقيتَ بغبطةٍ وقرارِ عينٍ ... بمُلْك سعدُه أبدًا يدوم
كما دامت حُلى الأنصار تُتلى ... يُشيد بذكرها الذكر الحكيم
عليك تحية عَطِرٌ شذاها ... تُعَرِّف الرَّوض جادَتْهُ الغُيوم

مولده بغرناطة فى رجب[1] ثمانين وستماية[2] . وتوفى عام ثلاثة وخمسين وسبعماية ، ودفن بباب إلبيرة[3] ، وتبعه من الناس ثناءٌ حسن ، رحمه الله .

محمد بن محمد النُّمرى الضَّرير

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بنَسَبِه

حـــاله

من عايد الصلة : كان حافظاً للقرآن ، طيب النَّغْمَة به ، طِرْفًا فى ذلك . من أهل المشاركة فى العلم ، واعظاً بليغاً ، أُستاذاً يقُوم على العربية قيام تحقيق ، ويستحضر الشَّواهِد من كتاب الله ، وخُطَب العرب وأشعارها ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزبنونة (حدود) .

(٢) وردت فى الإسكوريال عن مولده هذه العبارة (توفى بغرناطة فى رجب ثمانين وستمائة . بدل مولده) . وقد رأينا أن نصحح النص مباشرة على النحو الذى أوردناه .

(٣) باب إلبيرة أحد أبواب غرناطة الإسلامية ما زال قائماً حتى اليوم . وقد سبق التعريف به (انظر المجلد الأول من الإحاطة ص ١٠٧ حاشية . والمجلد الثانى ص ٢٤٩ حاشية) .

بعيدُ القرين فى ذلك ، آخذاً فى الأدب ، حَفَظَةٌ للأَناشيد والمطَوَّلات ، بقيَّة حسنة ممتعة .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ أبى عبد الله بن الفخَّار الأَرْكُشى (١) وبه تأدَّب ، ولازمه كثيراً ، فانتفع به .

شـــعره

مما صدَّر به رسالةً لزوجه وهو نازح عنها ببعض البلاد . فقال :

سلامٌ كرشف الطَّل فى مَبْسِم الورْدِ ... وميلُ نسيم الريح بالقُضب المُلْدِ
سلام كما ارتاح المُشوق مبشَّرًا ... برويا من يهواه من دون ما وَعْدِ
سلام كما يُرضى المحبُّ حبيبه من ... الجدِّ فى الإخلاص والصِّدق فى الوعد
سلام وتكريم وبِرٌّ ورحمة ... بقدر مزيد الشوق أو منتهى الوُدِّ
على ظَبْية فى الأُنْس مرتعُها الحشا ... فتأوِى إليْه لا لِشيح ولا رُنْد
ومن أطْلَع البدر التَّمام جبينُها يُرى ... تحت ليلٍ من دُجا الشعر مُسْوَد
وثغرُ أقاحٍ زانه سِمْط لؤلؤ ... يُحَبُّ به المرجان فى أحْكَم النَّضد
يجول به سلسال راحٍ معتَّـــق ... حَمَتْهُ ظُبا الأَلحاظ صَوْنًا عن الوِرْدِ
فللَّه عينًا من رأى بدر أسْـــعُدٍ ... وروضةَ أزهار عَلَتْ غُصن القَدِّ
وبُشرى لصبٍّ فاز منها بلمحـــة ... من القُرْب بُشْراه بمستكمل السَّعد
وأضحى هواها كامناً بين أضلعى ... كمزن خفىِّ النار فى باطن الزَّند
وراحتْ فراح الروح إثْر رَحْلها ... وودَّعت صبرى حين ودَّعها كَبدِ

(١) نسبة إلى بلدة أركش الأندلسية ، وقد سبق التعريف بها (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٤٦٧ حاشية) .

وصارت لى الأَيَّام تبدو لياليـاً ... وقد كان ليلُ الوصل صُبحًا بها يبدُ
فساعاتُها كالدهر طولا وطالمـا ... حكى الدهر ساعاتٍ بها قِصَرًا عِندى

ومنها :

تُرَى قلبُها هلْ هام مِنى بمثل ما ... بِقَلْبِى من الحُبِّ الملازم والوَجْد
وهل ترعى ذِمَّتى ومودَّتى كمـا ... أنا أرعاها على القُرب والبُعْد
إلَيْكَ خِطابِى والحَدِيث لغايب ... كنيتُ بلفظى عن مغيبك بالعَمْد
عليك سـلامى إننى متشوِّقٌ ... للقياك لى أو مِن جوابك بالرَّد

توفى بغرناطة تحت جراية من أُمرَايها،لاختصاصه بقراءة القرآن على قبورهم ، فى التاسع عشر من شعبان عام ستة وثلاثين وسبعماية .

محمد بن عبد الولى الرُّعينى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بالعوَّاد [(١)]

حـــاله

من « عايد الصلة » : الشيخ المُكَتِّب ، الأُستاذ الصالح ، سابق الميدان وعَلَم أعلام القرآن ، فى إتقان تجويده ، والمعرفة بطرق روايته ، والاضطِّلاع بفنونه ، لا يُشَق غباره ، ولا يتعاطى طلقه [(٢)] ، ولا تأتى الأَيَّام بمثله ، تستقصر بين يديه مدارك الأعلام ، وتظهر سَقَطات الأيمة ، مهتديا إلى مكان الحجج على المسايل ، مصروفٌ عِنان الأشغال إليه ، مستندا إلى نغمة

---

(١) ورد فى هامش المخطوط ما يأتى (الأستاذ العواد الرعينى) . وورد [illegible] (ويعرف [illegible] العواد) . ووردت فى النفح (الأستاذ ابن العواد ج ٣ ص ١٩٦) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة .

رخيمة ، وإتقان غير متكلّف ، وحفظ غزير ، وطُلِب إلى التّصدر لِلإقراء ، فأبى لشدَّة انقباضه ، فنبِّهتْ (١) بالباب السلطانى على وجوب (٢) نَصْبِه للناس ، فكان [ذلك] (٣) فى شهر شعبان من عام وفاته ، فانتفع به ، وكان أدْأب الناس على سُنَّة ، وألزمَهم لميقات وِرْد ، يجعل جيرانهُ حركته إلى ذلك ليلا ، ميقاتاً لا يختلف ولا يكذب ، فى ترحيل الليل . [شديد الطرب] مليح الترتيب ، لا تمر به ساعة ضَياعًا ، إلا وقد عَمَرَها بشأن دينى ، أو دنياوى ، ضرورى مما يسوِّغه الورع ، يلازم المكتب ، ناصحَ التعليم ، مسوِّيًا بين أبناء النِّعم ، وحُلَفاء الحاجة ، شامخ الأَنف على أهل الدُّنيا ، تُغَصُّ السِّكك عند تَرَنُّمه بالقرآن ، مساوقاً لتلاوة التجويد ، ومباشرًا أيام الأَخْمِسَة والأَثانين ، العمل فى مُوَيل كان له ، على طريقة القدماء من الإخْشِيشان عند المِهن ونَقْل آلة الخدمة ، غير مفارق للظَّرف والخصوصية . ويقرأ أيام الجمعات ، كتب الوعظ والرَّقايق على أهله ، فيُصغى إليه الجيران ، عداة لا تختلف .وكان له لكل عمل ثوبٌ ، ولكل مهنة زِىٌّ ، ما رأيت أحسن ترتيبًا منه . وهو أُستاذى وجارى الأَلصَق ، لم أتعلَّم الكتاب العزيز إلا فى مكتبه . رحمة الله عليه .

مشيخته

قرأ على بَقيَّة المقريين الأُستاذ أَبى جعفر بن الزبير ، ولازمه وانتفع به ، وعلى الأُستاذ أَبى جعفر الجَزيرى الضرير ، وأخذ عن الخطيب المحدِّث أَبى عبد الله بن رُشَيْد .

---

(١) الكلام هنا لابن الخطيب .

(٢) وردت المخطوطين (وجوه) . ونعتقد أن التصويب أرجح .

(٣) هذه الزيادة من الزيتونة .

مولده : فى حدود عام ثمانين وستماية .

وفاته : توفى رحمة الله عليه فى .....[1] الموفى ثلاثين لذى قعدة من عام خمسين وسبعماية .

محمد بن على بن أحمد الخَوْلانى

يكنى أبا عبد الله أصله من مجلقر [2] ويعرف بابن الفخار وبالبيرى، شيخنا رحمه الله

حـــاله

من « عايد الصلة » : أُستاذ الجماعة ، وعَلَم الصناعة ، وسيبويه العصر ، وآخر الطبقة من أهل هذا الفن . كان رحمه الله فاضلاً ، تقيًا ، مُنْقَبِضًا . عاكفا على العلم ، ملازِمًا للتدريس ، إمام الأيمّة من غير مُدافع ، مبرِّزًا أمام أعلام الْبَصْريِّين من النُّحاة ، منتشرُ الذكر ، بعيدُ الصِّيت ، عظِيم الشهرة ، مُسْتَبحر الحفظ ، يتفجَّر بالعربية تفجُّر البحر ، ويسترسل استرسال القَطْر ، قد خالطت دمَهُ ولَحْمه ، لا يُشْكل عليه منها مُشكل ، ولا يعوزُه توجيه ، ولا تَشِذُّ عنه حجَّة . جدَّد بالأندلس ما كان قد دَرَس من لسان العرب ، من لدُن وفاة أبي على الشلوبيين[3] . مُقيم السوق على

---

(١) اسم اليوم ساقط فى [illegible] المخطوطات .

(٢) لم نجد هذا الاسم [illegible] ابن الخطيب فى الحلل [illegible] (ص ١٢٦ - ١٣٢) ولكن وردت [illegible] وفوخر [illegible] هذا الاسم الوارد فى المخطوط (مجلقر) حرف [illegible] الاسم الصحيح .

(٣) هو [illegible] المعروف بالشلوبين [illegible] فى [illegible] العربية [illegible] هذا [illegible] والمغرب [illegible] سنة ٥٦٢ هـ ، [illegible] (١٢٤١ م) .

عهده . وكانت له مشاركة فى غير صناعة العربية من قراءات وفقه ، وعَروض ، وتفسير . وتقدم خطيبًا بالجامع الأعظم ، وقعد للتدريس بالمدرسة النَّصرية[١] ، وقلَّ فى الأندلس من لم يأخذ عنه من الطَّلبة . واستُعمل فى السِّفارة إلى العُدْوة ، مع مثله من الفقهاء ، فكانت له حيث حلَّ الشُّهرة وعليه الازدحام والغاشية ، وخرَّج ، ودرَّب ، وأَقْرَأَ ، وأجاز ، لا يأخُذ على ذلك [أجرًا][٢] وخصوصاً فيما [دون][٢] البداية ، إلا الجراية المعروفة ، مقتصدًا فى أحواله ، وقوراً ، مُفرط الطُّول ، نحيفًا ، سريع الخَطْو ، قليل الالتفات والتعريج ، متوسط الزِّى ، متبذلاً فى معالجة ما يتملَّكه بخارج البلد ، قليل الدَّهاء والتَّصنُّع ، غريب النَّزْعَة ، جامعًا بين الحِرص والقناعة .

مشيخته

قرأ بسَبْتة على الشيخ الإمام أبى إسحق الغافقى ، ولازمه كثيراً ، وأخذ عنه ، وأكثر عليه . وقرأ على الإمام الصالح أبى عبد الله بن حُريث ، والمقْرى الشريف الفاضل أبى العبَّاس الحسنى ، والشيخ الأُستاذ النظَّار أبى القاسم بن الشَّاط . وأخذ عن الخطيب المحدث أبى عبد الله بن رُشَيْد . والقاضى أبى عبد الله بن القرطبى وغيرهم . وهو أُستاذى ، قرأت عليه القرآن . وكتابَىْ الجُمل والإيضاح ، وحضرتُ عليه دولا من الكتاب ، ولازمته مدة ، وعاشرتُه . وتوجَّه صحبتى فى الرسالة إلى المغرب .

---

(١) المدرسة النصرية أو جامعة غرناطة ، أنشأها السلطان يوسف أبو الحجاج (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) ، واشتهر ذكرها فى ظل بنى الأحمر أو بنى نصر سلاطين غرناطة ، وأمها الطلاب من الأندلس والمغرب وأوربا . وما زال مكانها معروفا إلى اليوم بغرناطة ، وهو يقع تجاه الكنيسة العظمى التى أنشئت على موقع المسجد الجامع .

(٢) الزيادة من الزيتونة .

وفاته

توفى بغَرناطَة ليلة الإثنين الثانى عشر من رجب عام أربعة وخمسين وسبعماية ، وكانت جنازته حافلة . وخدمت قرايح الآخذين عنه ، ممن يُدْلى دِلو أدب . فيأتى بماءٍ أو حَمْأَة ، على كثرتهم ، تقصيراً عن الحق ، وقَدْحًا فى نسب الوفاء ، إلاَّ ما كان من بعض من تأَخَّر أَخْذه عنه ، وهو محمد بن عبد الله اللَّوشى ، فإنه قال : وعين هذه الأَبيات قرارها :

ويوم نَعى النَّاعى شِهَابَ المحامد   تغيَّرت الدنيـا لِمَصْرع واحد
فلا عُذر للعَيْنَيْن إن لمْ تُسايحا   بدمع يحاكى الوَبْل يُشفى لواجِد
مضى من بنى الفخَّار أَفضلُ ماجد   جميل المساعى للعلا جدُّ شاهد
طواه الرَّدى ما كل حىّ يهـــابه   وما ورده عـاراً يشين لوارد
لقد غُيِّبت منه المكارم فى الثَّرى   غداة نَوى وانسدَّ باب الفوايد
فياحاملى أعواده ما علمـتم   بسؤْدُدِهِ الجم الكريم المَحاتِد
ويا حُفْرةً خُطَّت له اليوم مضجعا   سقَتْكِ الغوادى الصادقات الرّواعد
إلا يا حَمام الأَيك ساعِدنى بالبكا   على عَلَم الدُّنيا وزينِ المشاهد
على أنِّى لو استطعت الفِدا فدَيْتهُ   بأَنفس آلٍ من طريف وتالد
محمد ما للنُّعْمَى لموتك غصَّة   تُوقف ولا ماءَ الحياة ببارد
وكيف وبابُ العلم بعدك مُغْلق   ومَوْرِدُه المتروك بين الموارد
أَأُستاذَنا كنت الرَّجا لآمـــل   فأَصْبَحْت مهجور الفنا لقاصد
فلا تَبْعِدن شيخ المعارف والحِجا   ليس الذى تحت التُّراب بباعد
لتَبْكِ العلـوم بعدك شَجْـوَها   ويقفُر لها رَبْعُ العُلا والمعاهد
لِيَبْكِ عليك الجودُ والدينُ والتُّقا   وحسبُ البُكا أن صرْت ملحود لاحد
أمولاى من للمشكلات يُبينهـــا   فيُجلى عمَى كلّ القلوبِ الشَّواهد

ومن ذا يحل المقْفَلات صعابَهـا ... ومن ذا الذى يهدى السبيل لحايد
فياراحلا عنّا فَزِعنا لفَقْــده ... لقد أونِسَت منك القبور بوافد
وياكوكبا غال النهار ضيـاءه ... وشيكًا وهل هذا الزمان بخـالد
سأَبكيك ما لاحت برُوقٌ لشايم ... وأَرعاك ما كان الغمام بعـابد
عليك سلام الله ما دامت الصَّبـا ... بغُصْـنٍ فى الأَراكة مـايد

[قلت : العجب من الشيخ ابن الخطيب ، كيف قال ، وخَمَدت قرايح الآخذين عنه ، وهو من أجلِّ من أخذ عنه ، حسبما قرره آنفاً ، بل أَخصُّ من ذلك ، المعاشرة والسفارة للغُدْوة . وهو مع ذلك أقدرهم على هذا الشأن ، وأسْخاهم قريحة فى هذا الميدان ، وإن أتى غيره بماءٍ أو حَمْأَةٍ ، أتى هو بالبحر الذى لا ساحل له . ولعمرى لو قام هو بما يجب من ذلك ، لزال القَدْح فى نسب وفاءِ الغير ، فعَيْنُ ما نسبه من التقصير عن الحق فى ذلك ، متوجِّه عليه ، ولاحقٌ له . ولا يبعد عنده أن يكون وقع بينهما ما أوجب إعراضه مما يقع فى الأَزمان ، ولاسيما بين أهل هذا الشان ، فيكون ذلك سببًا فى إعراض الغير مشيًا فى غرضه، ومساعدة له . والله أعلم بحقيقة ذلك كله] (١)

محمد بن على بن محمد البَلَنْسى

من أهل غَرْناطة ، يكنى أبا عبد الله

حـاله

طالبٌ هشٌّ . حسن اللِّقاء . عفيفُ النشأة . مكبٌّ على العِلْم . حريص على استفادته (٢) . مع زَمانَةٍ أَصابت يُمْنى يَدَيْه . نفعه الله . قَيَّد بأُختها

(١) من الواضح أن هذه الفقرة المحصورة بين الحاصرتين إنما هى من كلام ناسخ الكتاب .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى « الريبونة » (الإستفادة) .

وانتسخ ، قايمٌ على العربية والبيان ، ذاكر الكثير من المسائل ، حافظٌ مُتْقِن ، على نزعة عربية . من التَّجاذُع في المشي ، وقِلّة الالتفات إلا بجملته ، وجَهْوَرِيَّة الصوت . متحلٍّ بسذاجة ، حسنُ الإلقاء والتقرير ، متٌّ للمُتَغلِّب على الدولة بِضَنٍّ ، أفاده جاها واستعمالا في خُطَّة السوق ، ثمَّ اصطناعاً في الرسالة إلى ملك المغرب ، جرَّ عليه آخراً النّكبه بموقاد المحنة ، فأَرْصَد له السلطان أبو عبد الله في أُخرياتها ، رجالاً بعثهم من رُنْدَة ، فأسروه في طريقه ، وقَدِموا به سَليباً ، قدوم الشُّهرة والمُثلة ، موقِناً بالقتل . ثم عَطفَ عليهِ حَنيناً إلى حُسْن تِلاوته في محبسه ليلا ، فانتاشه لذلك من هفوة[1] بعيدة ونكبة مُبيرة . ولما عاد لمُلْكِه ، أعاده للإقراء .

مشيخته

جلّ انتفاعُه بشيخ الجماعة أبي عبد الله بن الفخَّار ، لازمه وانتفع به ، وأعادَ دُوَل تدريسه ، وقرأ على غيره . وألّف كتاباً في تفسير القرآن ، متعَدِّد الأسفار ، واستَدْرَك على السُّهيلي في أعْلام القُرآن كتاباً نبيلاً ، رفَعَه على يَدِي للسُّلْطان . وهو من فضلاء جنسه ، أعانَهُ الله وسدَّده .

محمد بن سعد بن محمد بن لُب بن حسن بن حسن بن عبد الرحمن بن بقّ

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف باسم جَدِّه

أوّليتّــه

كان القاضي العدْل أبو عبدالله بن هشام ، قاضي الجماعة[2] بالأندلس

(١) هكذا في الإسكوريال . وفي [illegible] (نبوة) .

(٢) قاضي الجماعة ، هو في نظام القضاء الأندلسي ، القاضي الأكبر ، وهو بقر[illegible] في

يجلّ سَلَفه ، وبنسبه إلى بَقيّ بن مخلد[١] ، قاضي الخلافة بقرطبة . وابن هشام ممن يُحتَج به .

حـاله

هذا الرّجل فاضل ، حسن الخُلق ، جميل العشرة ، كريم الصحبة ، مَبْذول المشاركة ، معروف الذكاء والعفّة ، مبسوط الكنَف ، مع الانقباض ، فكهٌ مع الحِشمة ، تَسَعُ الطوائفُ أكْنافَ خُلقه ، ويُعِمُّ المتضادِّين رَحبُ ذَرْعه . طالِبٌ محصِّل . حصيف العقل ، حسن المشاركة في فنون ، من فقه وقراءات ونحو وغير ذلك . تكلّم للناس بجامع الرَّبض ثُمَّ بمسجد البكري المجاور للزاوية والتربة اللتين أقمتُهما بأخشارش[٢] من داخل الحضرة ، وحلّق به لتعليم العِلْم ، فانْثال عليه المتعلم والمستفيد والسامع ، لإجادة بيانه ، وحسن تَفْهيمه .

مشيخته

قرأ القرآن بحُرْف نافع ، على أبيه ، على الشيخ الخطيب ... أبي عبد الله بن طُرفة ، والخطيب أبي عبد الله بن عامور . وقرأ العربية على إمام الجماعة الأستاذ أبي عبد الله بن الفخّار ، وجوّد عليه القرآن بالقراءات السبع ، وقرأ على الأستاذ أبي سعيد بن لُب[٣]

= نظام القضاء المشرق ، قاضي القضاة . وقد كان قاضي الجماعة الأندلسي ، ... من نوابه من ... السادة المذهب المالكي ، كما هو معروف بالأندلس والمغرب .

(١) بقي بن مخلد من أشهر فقهاء الأندلس ، وأغزرهم علما . نشأ في قرطبة ، ورحل إلى المشرق ، ودرس دراسة مستفيضة ، وبرع بالأخص في الحديث والرواية . وكان فقيها حر الرأي واسع الأفق . وكانت له حظوة لدى أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ... وزهده . وقد ابث عصرا عمدة الفقهاء والمحدثين بالأندلس ، وتوفى في سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) .

(٢) يبدو أن هذا الاسم كان يطلق على حي من أحياء غرناطة المخصص للزوايا والمدارس .

(٣) ورد في هامش المخطوط بقلم الناسخ ما يأتي تعليقا على مشيخة ابن بقي : «وروى =

شعره [1]

أنشدنى من ذلك قوله بعد الانصراف من مواراة جنازة :

كم أرى مُدْمِن لَهْوٍ ودَعــة   لستُ أخلى ساعة من تَبِعــه
كان لى عذر لدى عهد[2] الصِّبا   وأنا آمل فى العُمْـــر سَعَه
أو ما يوقظنا من كَلِّنــــا   أنفاً لقبره قد شـــيَّعه
سيِّما وقد بدا فى مَفْــرِق   ما إخال الموت قد جاء معه
فدعونى ساعة أبكى عـلى   عُمْرٍ أمسيت ممَّن ضيَّـعه

ومن شعره فى النوم ، وهو كثير ما يَطْرقه :

أباد البينُ أجنـاد التَّــلاقى   وحالت بيننا خيلُ الفـراق
فجودوا وارحموا وارثوا ورقُّوا   على مَنْ جَفْنُه سَكَب المآقى

ومن ذلك ما أنشد فى النَّوْم على لسان رجل من أصحابه :

يا صاحبيّ قِفـا المطـايا   واشْفِقَا فالعُبَيْد عَبْـده
إذا انتهى وانقضى زمـان   [هل يرسل][3] الله من يردُّه

مولده : فى الثانى عشر لصفر من عام اثنين وعشرين وسبعماية .

محمد بن سعيد بن على بن يوسف الأنصارى

من أهل مرباطة . يكنى أبا عبد الله . ويعرف بالطَّرَّاز .

من أشياخ الإمام الخطيب ابن مرزوق التلمسانى ، والشيخ الإمام القاضى أبى عبد الله المقرى [illegible] رحمه الله [illegible] ومن أخذ عنه رحمه الله الشيخ أبو عبد الله المطورى وتروح [illegible] أيضاً . والشيخ أبو عبد الله محمد بن مرزوق الحفيد روايتى والله أعلم – كاتبه»

(١) [illegible] هكذا [illegible] وفد رأينا إثباته لانتظام السجع .

(٢) [illegible] فى الإسكوريال وفى الزيتونة (عصر) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (فيرسل) .

حـــاله

من صلة ابن الزُّبير : كان رحمه الله مُقْرياً جليلا ، ومحدِّثاً حافلا ، به خُتِمَ بالمغرب هذا الباب البتَّة . وكان ضابطاً مُتْقناً ، ومُقَيِّداً حافلاً ، بارع الخطِّ ، حسن الوِراقة ، عارفاً بالأَسانيد والطُّرق والرِّجال ، وطبقاتهم ، مُقْرياً عارفاً بالأَسانيد والْقراءات ، ماهراً فى صناعة التَّجويد ، مشاركاً فى علم العربية والفقه والأُصول وغير ذلك ، كاتباً نبيلاً ، مجموعاً فاضلاً مُتَخَلِّقاً ، ثقةً فيما رَوَى ، عَدْلاً ممن يُرجع إليه فيما قيَّد وضبط ، لإتقانه وحِذْقِه . كتب بخطه كثيراً ، وترك أُمَّهات حديثيَّة ، اعتمدها الناس بعده ، وعوَّلوا عليها . وتجرد آخر عُمْره ، إلى كتاب « مشارق الأنوار » تأْليف القاضى أَبى الفضل عياض ، وكان قد تركه فى مُبَيَّضَة ، فى أَنهى درجات النسخ والإدماج والإشكال ، وإهمال الحروف حتى اخترمت منْفَعَتُها[1] ، حتى استوفى ما نقل منه المؤلف ، وجمع عليها أصولاً حافِلَةً ، وأُمَّهات جامعة ، من الأَغربة وكتب اللُّغة : فتخلَّص الكتاب على أتمِّ وجه وأَحسَنِه ، وكمُل من غير أن يسقط منه حرف ولا كلمة . والكتاب فى ذاته لم يؤلف مثله .

مشيخته

روى عن القاضى أَبى القاسم بن سَمْحون ، والقاضى ابن الطبَّاع ، [وعن أَبى جعفر بن شُراحيل وأَبى عبد الله بن صاحب الأَحكام والمتكلم ، وأَبى محمد بن عبد الصمد بن أَبى رجا][2] وأَبى القاسم الملاَّحى ، وأَبى محمد

---

(١) يبدو أن هناك بعض كلمات سقطت هنا من الناسخ . والنص متماثل فى المخطوطين

(٢) هذه الزيادة واردة فى « الزيتونة » .

الكوّاب وغيرهم ، [أخذ عن هؤلاء كلهم ببلده][1] ، وبقرطبة عن جماعة ، وبمالقة كذلك ، وبسَبْتَة . وبإشبيلية عن أبي الحسن بن زرْقون ، وابن عبد النور . وبفاس وبمرسية عن جماعة .

قلت : هذه الترجمة فى الأصل المختصر منه هذا طويله ، واختصرتها لطولها .

توفى بغرناطة ثالث شوال عام خمسة وأربعين وستمائة ، وكانت جنازته من أحفل جنازة ، إذ كان الله قد وضع له وُدًّا فى قلوب المؤمنين .

محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيَّان النِّفْزى[2]

من أهل غرناطة ، يكنى أبا حيان ، ويلقب من الألقاب المشرقية بأثير الدين

حاله

كان نسيج وحده فى ثقوب الذهن ، وصحة الإدراك [والحفظ][1] والاضطِّلاع بعلم العربية ، والتفسير وطريق الرواية ، إمام النُّحاة فى زمانه غَيْرَ مُدافِع ، نشأ ببلده غرناطة ، مشاراً إليه فى التبريز بميدان الإدراك ، وتغيير السوابق فى مِضمار التَّحصيل . ونالته نُبُوّة لحق بسببها بالمشرق ، واستقر بمصر . فنال ما شاء من عزٍّ وشهرة ، وتأثُّلٍ وبرٍّ وحُظْوة ، وأضحى لمن حلَّ بساحته من المغاربة ، ملجأً وعُدَّة . وكان شديد البَسْط ، مَهيباً ، جَهْوَرياً ، مع الدُّعابة والغزل ، وطرح السَّمت ، شاعراً مُكْثراً ، مليح

---

(١) هذه الزيادة فى الزنتونة .

(٢) نسبة إلى قبيلة نفزة ، وهى من القبائل المغربية ، التى عبر الكثير من أبنائها إلى الأندلس فى فترات مختلفة .

الحديث ، لا يُمِلّ وإن أطال ، وأسنّ جداً ، وانتفع به . قال بعض أصحابنا ، دخلت عليه ، وهو يتوضأ ، وقد استقرّ على إحدى رجليه لغسل الأخرى ، كما تفعل البُرُك والأوزّ ، فقال لو كنت اليوم جار شُلَيْر [١] ، ما تركني لهذا العمل في هذا السِّن .

مشيخته

قرأ ببلده على الأستاذ حايز الرياسة أبي جعفر بن الزُّبير ولازمه ، وانتسب إليه ، وانتفع به ، وشاد له بالمشرق ذكراً كبيراً . ويقال إنه نادى في الناس عند ما بلغه نَعْيُه ، وصلّى عليه بالقاهرة ، وله إليه مخاطبات أدبية اختصرتها ، وعلى الأستاذ الخطيب أبي جعفر على بن محمد الرُّعيني الطبّاع ، والخطيب الصالح وليّ الله أبي الحسن فضل بن محمد بن على ابن ابراهيم بن فضيلة المعافرى . وروى عن القاضى المحدِّث أبي على الحسين ابن عبد العزيز بن أبي الأحوص الفهرى ، والمكتِّب أبي سهل اليُسْر بن عبد الله ابن محمد بن خلف بن اليُسْر القُشيرى ، والأستاذ أبي الحسن بن الصايغ ، والأديب الكاتب أبي محمد عبد الله بن هرون الطائى بتونس ، وعلى المُسْند صفى الدين أبي محمد عبد الوهاب بن حسن بن اسماعيل بن مظفر بن الفُرات الحسنى بالأسكندرية ، والمُسْند الأُصولى وجيه الدين أبي عبد الله محمد ابن عبد الرحمن بن أحمد بن عمران الأنصارى بالثغر ، والمحدِّث نجيب الدين [٢] أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن المؤيِّد الهَمَذانى بالقاهرة ، وغيرهم ممن يشق إحصارهم . كالإمام بهاء الدين محمد بن ابراهيم

---

(١) يقصد أنه لو كان بغرناطة على مقربة من جبل شلير أو جبل الثلج (Sierra Nevada) الذى يشرف على غرناطة .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى « الريتونه » (حباب الدين) .

ابن محمد بن أبي نصر بن النَّحاس الشافعي . قرأ عليه جميع كتاب سيبويه في سنة ثمان وثمانين وستماية ، وقال له عند ختمه ، لم يقرأه على أحد غيره.

توالـيفه[1]

وتواليفه كثيرة ، منها شرحه كتاب « تسهيل الفوايد لابن مالك » . وهو بديع ، وقد وَقَفْتُ على بعضه بغرناطة في عام سبعة وخمسين وسبعماية. وكتابه في تفسير الكتاب العزيز ، وهو المسمى « بالبحر المحيط » تسمية زعموا موافقة للغرض . وألف كتاباً في نحو اللِّسان التُّركي ، حدَّثنا عنه الجملة الكثيرة من أصحابنا ، كالحاجّ أبي يزيد خالد بن عيسى ، والمقْرى الخطيب أبي جعفر الشَّقُوري ، والشَّريف أبي عبد الله بن راجح ، وشيخنا الخطيب أبي عبد الله بن مَرْزُوق . وقال حدَّثنا شيخنا أثير الدِّين في الجملة سنة خمس وثلاثين وسبعماية بالمدرسة الصالحية ببَيْن الْقَصْرين بمنزله منها . قال حدثنا الأُستاذ العلاَّمة المتفنن أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزُّبير ، سماعاً من لفظه ، وكَتْباً من خطِّهِ بغَرْناطة ، عن الكاتب أبي إسحق بن عامر الهَمَدَاني الطُّوسي بفتح الطاء ، حدَّثنا أبو عبد الله بن محمد العَنْسي[2] القرطبي ، وهو آخر من حدَّث عنه ، أخبرنا أبو علي الحسن بن محمد الحافظ الجيَّاني . نا حكم بن محمد .نا أبو بكر بن المهندس .نا عبد الله ابن محمد .نا طالوت بن عياد بن بصّال بن جعفر : سمعت أبا إمامة الباهلي يقول . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أكفلوا لي بيت أهلٍ لكم في الجنة . إذا حدَّث أحدكم بلا كذب ، وإذا ايتُمن فلا يخن ، وإذا

---

(١) ورد في هامش المخطوط ما يأتي : « ذكر عبد القادر المكي في مقدمه شرح التسهيل له ، أن بعضهم ذكر أن تواليف أبي حيان تربو على خمسين تأليفا ، رحمة الله تعالى عليه » .

(٢) هكذا في الإسكوريال . وفي « الزيتونة » (القيسى) .

وعد فلا يُخلف . غضوا أبصاركم ، وكفّوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم .

وقال ، أنشدنا الخطيب أبو جعفر الطبّاع . قال أنشدنا ابن خَلْفُون . قال أنشدنا أبو عبد الله محمد بن سعيد . قال أنشدنا أبو عمران موسى ابن أبي تليد لنفسه :

حالى مع الدهر فى تقلّبه كطاير ضم رِجْلَه الشَّرَكُ
فهمُّه فى خلاص مُهْجته يروم تخليصها فيَشْتَبِكُ

ومن مُلَحه : قال قدم علينا الشيخ المحدث أبو العلاء محمد بن أبي بكر البخارى الفَرَضى بالقاهرة فى طلب الحديث . وكان رجلاً حسناً طيِّب الأَخلاق ، لطيف المزاج ، فكنّا نُسايره فى طلب الحديث ، فإذا رأى صورة حسنة ، قال هذا حديث على شرط البخارى ، فنظمت هذه الأَبيات :

بدا كهلال العيد وقت طُلُوعه وماس كغُصْن الْخَيْزُران المُنَعَّم
غزالٌ رخِيمُ الدَّلِّ وافى مُواصلا موافقةً منه على رغم لُوَّم
مليحٌ غريبُ الْحُسْن أصبح مُعْلِماً بخُمْرة خدٍّ بالمحاسن مُعلم
وقالوا على شَرْط البخارى قد أَتى فقلْنا على شرط البخارى ومُسْلِم
فقال مولاى أنا البخارى فمن مُسْلِمٌ فقلت له أنت البخارى وأنا مُسْلِم

محنته

حملته حدّةُ الشبيبة على [التَّعريض للأُستاذ][١] أبي جعفر الطبّاع ، وقد وقَعَتْ بينه وبين أستاذه ابن الزُّبير الوَحْشَة فنال منه ، وتصدّى للتآليف فى الرَّد عليه ، وتكذيب روايته . فرفع أمره إلى السلطان . فامتعض له ،

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «الزيتونة» . ووردت فى الإسكوريال كالآتى : (التعرض على الأستاذ) . والأولى أفضل .

ونفّذ الأمر بتَنْكِيله ، فاختفى ، ثم أجاز البحر مُخْتَفياً ، ولحق بالمشرق يَلْتَفِتُ خَلْفه

شـــعره

وشعره كثير بحيث يتّصف بالإجادة وضدّها . فمن مطوّلاته رحمه الله قوله :

لا تَعْذِلاه فما ذو الحبِّ معذول ... العقل مُخْتَبل والقلبُ مَتْبول
هزّت له أسمراً من خُوط قامتها ... فما انثنى للصّب إلاّ وهو مقتول
جميلةٌ فصّل الحسن البديع لها ... فكم لها جُمَلٌ منـــه وتفصيـــل
فالنَّحْر مَرْمَرُهُ والنَّشْر عَنْبَرُهُ ... والثَّغْر جَوْهَرُهُ والرِّيق مَعْسُول
والطَّرْف ذُوغَنَجٍ والعَرْف ذُو أَرَج ... والخَصْر مُخْتَطفٌ والْعُنق مَجْدُول
هيفاءَ يَنْبِس فى الخَصْر الوشاح لها ... رَدْما تُخرس فى الساق الخلاخيل
من اللواتى غَذّاهُن النَّعيم فما ... يَشْقين آباؤها الصّيد البهاليل
نُزر الكلام عَمِيّات الجواب إذا ... يُسَلْن بعد الصحا خُصُرٌ مكاسيل
من حَلْيها ومناها مونسٌ وهُدى ... فليس يلحقها ذُعْـــرٌ وتضْليـــل
حلّت بمُنْعَقِـــد الزَّوراء زارةٌ ... شُوسًا غَيارى فَعقْد الصَّبر محلول
فدّ عن ذِكْر لَيْلَى اِنّ ذِكْرهَا ... على التَّنائِي لتَعْذِيبٌ وتعليـــلُ
أتاك منك نذيرٌ فأنذرن به ... وبادِرْ التَّوْبَ إن التَّوْب مقبـول
وأمُل العفر واسْلُك مَهْمهـــــا ... قَدْفا إلى رضى الله إن العفو مأمول
إن الجهاد وحجّ البيت مُخْتتمًا ... بزَوْرَة المصطفى للعَفْو تأميل
فشقَّ حَيْزوم هذا الليل مُمْتَطياً ... أخا خرام به قد يَبْلغ السؤل
أقبّ أعوج يعزى للوجيه لـــه ... وجْهٌ أغرٌ وفى الرجلين تحجيْل

جُفْـرٌ حـوافِره مُعْـرٌ قـوايمه ... ضُمْرٌ أياطِلُهُ وللذَّيْـل عثكول
إذا توجَّه أصغى وهـو ملتفت ... سـاعرٌ اعتقمـا فيهنّ تأليـل
وإن تُمارض به هَوَجًا هاج لـه ... جرىٌ يُرى البرقُ عنه وهو مخذول
يحمى حَوْزة الإسـلام مُنتقيـاً ... كتائبًا غُصَّ منهـا العَرْض والطُّول
كتائباً قد عَموا عن كل واضحة ... من الـكِتاب وغَرَّتهم أباطيـل
فى رماقِطَ ضرب الموتُ الزوام به ... سُرادقاً فعليهم منـه تَخْييـل
هيجا يُشْرف فيها المُشْرِفى عـلى ... هام العدوِّ ويصحب النّقع تَظْليل
تدير كاس شعوب فى شعوبهم ... فكلُّهم مُنْهل بالموت مَعْلُول
وإذا قَضيتَ غَزاة فالتَفِتْ عملا ... للحج فالحجُّ للإسـلام تكميل
واصل بسرٍّ يابن أندلس والطـ ... ـرف أدهم بالأشْـطان مغلُول
يُلاطِم الريح منه أبيض نُفق له ... من السحب المُزْبـد اكليـل
يعلو حَضارة منه شامخٌ جَلَلٌ ... سامٍ طَفَا وهو بالنَّكباء مَحْمُول
كأنَّما هو فى طُخيًا لُجَّـة أيْمٌ ... يَعْـرو أديـم السَّـيل شِمليـل
مازالت الموج تعليـه وتُخفضـه ... حتَّى بدا من منار الثَّغر قنديل
وكبَّر النـاس أعـلاه الرنيم ... وكلُّهم طَرْفُه بالشهد مكحـول
وصافحوا البيدَ بعد اليمِّ وابتدروا ... سُبُلاً بها لجنـاب الله توصيل
على نجايبَ تتلوه أجنابهـا خَيْلٌ ... بها الخيرُ معقـود ومعقـول
فى مَوْكِب تزحف الأرض الفضاءُ به ... أضحت ومُوحِشها بالناس مأمول
يطارد الوحشَ منه فيلقٌ لَجِبٌ ... حتى لقد ذَعرت فى بيدها الغُول
سيوفهم طُرْب نحو الحجاز فهم ... ذوو ارتياح على أكوارها ميـل
شُعثٌ رؤسهم يُبس شِفاهُهم ... خُوصٌ عيونهم غُرْبٌ مهازيـل
حتى إذا لاح من بيت الإله لهم ... نورٌ إذا هم على الغَبْرا أراحيـل

يُعَفِّرُون وجوهاً طالمــا سَمَتْ	باكين حتى أديمُ الأَرض مَبْلول
حَفُّوا بكعبة مولاهم فكَعْبُهم	عالٍ بها لهم طَوْفٌ وتَقْبيل
وبالصَّفا وقتُهم صافٍ بسعيهم	وفى مِنىً لمُنَاهم كان تَنْويل
تعرَّفوا عرفاتٍ واقفين بها	لهم إلى الله تكبير وتهليل
لما قضينا من الغرَّاءِ مَنْسَكَنَا	ثُرنا وكلٌّ بنار الشوق مشمول
شدَّنا إلى الشَّد قميات التى سكنت أَبدانُهن وأَفناهُنَّ تنقيل
إلى الرسول تُزْجى كل تعلمة	أجلٌّ من نجوة تزْجِى الدراسيل
من أُنْزِلَتْ فيه آياتٌ مطهَّرة	وأُورِثَت فيه تَوْرته وإنجيل
وعُطِّرت من شَذاه كلَّ ناحية	كأَنَّما المِسْك فى الأَرجاءِ محلول
سرٌّ من العالم العُلْوى ضمَّنه	جسمٌ من الجوهر الأرْضى محمول
نورٌ تَمَثَّل فى أبصارنا بَشَرًا	على الملايك من سِيماه تمثيل
لقد تَسامى وجبريلٌ مُصاميه	إلى مقام راخى فيه جبريل
أوحى إليه الذى أَوحاه من كَثَب	فالقلب واعٍ بِسرِّ الله مشغول
يتلو كتاباً من الرحمن جاءَ به	مطهَّرًا ظاهرٌ منه وتأْويل
جارٍ على مَنْهج الأَعراب أَعْجَزهم	باقٍ مع الدَّهر لا ياتيه تبديل
بلاغةٌ عندها كعَّ البليغ فلم	يَنْطق وفى هَدْيه صاحت أَضاليل

ومنها :

وطُولبوا أَن يُجيبوا حين رابَهم	بسُورةٍ مثله فاستَعْجز القِيل
لاذو بذَوَبان خطى وبُتر ظبا	يوم الوغا واعتراهم منه تنكيل
فمونفٌ فى جبال الوَهْد مُنْحَدر	ومُوثَقٌ فى حبال الغَدر مَكْبُول
مازال بالعَضْب هتَّاكاً سوابِغَهم	حتى انثنى العضْبُ منهم وهو مَفْلول
وقد تحطَّم فى نَحْر العدا قِصَدٌ	أصمُّ الوشج وخانتها العواميل

من لا يُعَدِّلُهُ القرآن كان لـه ... من الضِّفاد وبيض البَتْر تعديل
وكم له معجزًا غير القرآن أتى ... فيه من الحقِّ مَنْقولٌ ومعقول
فللرسول انشِقاقُ البدر نَشْهَدُه ... كما لمُوسى انْفِلاَق البحر مَنْقول
ونبع ماءٍ فراتٍ من أنامله كالعين ثَرَّت فجا الهتَّان ماءُ النيـــل
روّوا الخميس وهم زُهاء سبع ... مئٍ مع الركَّاب فَمَشْروب ومَحْمول
ومئٍ عينٌ بكفٍّ جـاءَ يحملهـا ... قَتـادةٌ وله شـكوى وتَغْـويل
فكانت أَحْسَن عينيه ولا عجبٌ ... مسَّت أناميل فيها اليُمْن مَجْعول
والْجِذْع حنَّ إليه حين فارقه ... حَنين ولْهَى لها للرُّوم مثكـول
وأشبع الكُثْر من قِلِّ الطعام ولم ... يكن ليعوزه بالكُثْر تقليـل
وفى جراب لى هنَّ عجايب كم ... يَمْتار منه فَمَبْذُول ومأكُول
وفى ارْتواءِ لى ذَرٍّ بزمزم ما يكفى تبـدَّن منــه وهـــو مَهْـزول
والعنكبوت بباب الغار قد نُسجت ... حتى كأنَّ رداءً منـه مسـدول
وفَرَّخت فى حِماه الوُرْق ساجعة ... تبكى وما دمْعُها فى الخَدِّ مطلول
هذا وكم معجزات للرسول أَتَتْ ... لها من الله أَمداد وتَأْصيـل
غَدَت من الكثر أَعْداد النجوم فما ... يُحصى لها عدداً كَتْبٌ ولا قِيل
قد انْقَضَت معجزات الرُّسل منذ قضوا نحباً وأَعْجَم منها ذلك الجيـل
ومعجزات رسـول الله باقيـةٌ ... محفوظةٌ مالها فى الدَّهـر تحويل
تكفَّل الله هذا الذِّكر يحفظـه ... وهل يَضيع الذى بالله مَكْفول
هذى المفاخرُ لا يَحْظى الملوك بها ... المُلْك منقطعٌ والوحى مَوْصول(١)

ومن مطولاته فى غرض يظهر منها :

هو العِلْم لا كالعلْم شىءٌ تَراوِدُه ... لقد فاز باغيه وأَنجح قاصده

---

(١) وردت هذه القصيدة فى الإسكوريال ، ولم ترد فى الزيتونة .

وما فضل الإنســان إلاَّ بعِلْمه   وما امتاز إلاَّ ثاقِبُ الذِّهن واقِدُه
وقد قَصُرت أَعمارُنا وعلومنــا   يطول علينا حَصْرُها ونُكابِده
وفى كلِّها خيرٌ ولكنَّ أَصلهـا   هو النَّحو فاحذر من جَهُول يُعَانِده
به يُعرف القرآن والسُّنَّة التى هما   أَصلُ دين الله ذو أَنت عابده[١]
وناهيك من علمٍ علىٍّ مُشيد   مبانيه أَعْزِزْ بالذى هو شـايِده
لقد حاز فى الدنيا فخاراً وسودَداً   أَبو الأَسود الديلى[٢] فللجرِّ سانده
هو استنبط العلم الذى جلَّ قدرُه   وطار به لِلْعُرْب ذكرٌ نعـاوده
وساد عطا نجله وابن هرمز[٣]   ويحيى ونصر ثم ميمون ماهده
وعنْبَسة قد كان أَبرعَ صَحبه   فقد قلَّدت جيدَ المعالى قلايدُه
ومازال هذا العلم تُنْميه سادةٌ   جهابذةٌ تَبْلى به وتعـاضده
إلى أَن أَتى الدَّهر العقيم بواحد   من الأَزْد تُنميه إليــه فرايده
إمامُ الورى ذاك الخَليل بن أَحمد   أَقرَّ له بالسبق فى العلم حاسدُه
وبالبَصرة الغرَّا قد لاح فجرهُ   فنارت أَدانيه وضاءت أَباعِدُهُ
يا ذكىَّ الورى ذِهْناً وأَصدق لهجة   إذا ظنَّ أَمراً قلتُ ما هو شاهده
وما أَن يَرْوِى بل جميع علومه[٤]   بدايةٌ أَعيَت كلَّ حَبْرٍ تُجـالده
هو الواضعُ الثانى الذى فاق أَولا   ولا ثالثُ فى الناس تصمى قواصده
فقد كان ربَّانىَّ أَهـل زمانــه   صُوَّمٌ قُوَّمٌ راكِعُ الليل ساجده

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (أصل ذا الدين الذى أنت عابده) .

(٢) الإشارة هنا إلى ابى الأسود الذى يعتبر أول واضع للنحو ، المتوفى سنة ٦٩ هـ .

(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (وتبادر نبطا نجله وابن حيدر) .

(٤) وردت هذه الشطرة فى الزيتونة كالآتى (وما أن يرى مثل تجمع علومه) .

يقيم منه دهره[١] فى مَثُوبة ... وثوقًا بأَنَّ الله حقاً مُواعده
فعامٌ إلى حجّ وعامٌ لغَزْوة ... فيعرفه البيْتُ العتيق ووافِدُه
ولم يُثْنه يوماً عن العلم والتُّقى ... كواعِبُ حُسْنٍ تَنْثَنى ونواهِدُه
وأكثرُ سكناه بقَفْر بحيث لا ... تُنَاغيه إلاَّ عَفْرُهُ وأوابِدُه
وما قوتُه إلاَّ شَعير يُسيغُه ... بماءٍ قَراح ليس تَغْشى موارده
عزوباً عن الدنيا وعن زَهْراتها ... وشوقاً إلى المولى وما هو واعِدُه
ولما رأى من سيبويه نجابة ... وأيقن أنَّ الحِين أدناه باعِدُه
تخيَّره إذ كان وارثَ عِلْمه ... ولا طَفَهُ حتَّى كأنَّ هو والده
وعَلَّمَه شيْئاً فشيْئاً عُلُومه ... إلى أن بَدَتْ سيماه واشتدَّ ساعده
فإذْ ذاك وافاهُ من الله وعْدُهُ ... وراح وحيدَ العصر إذ جاء واحدُه
أتى سيبويه ناشراً لعُلُومه ... فلولاه أضحى للنحو عُطْلاً شواهده
وأبدى كتاباً كان فخراً وجوده ... لقحطان إذ كعب بن عمرو مُحاتده
وجمع فيه ما تفرَّق فى الورى ... فطارِفُه يُعْزَى إليه وتالدُه
بعمرو بن عثمان بن قُنْبر الرِّضا ... أطاعت عَواصِيه وتابتْ شَوارِدُه
عليك قرآن النحو نحو ابن قنبر ... فآياته مشهودةٌ وشواهده
كتاب أَبى بِشْر[٢] فلا تكُ قارياً ... سواه فكلُّ ذاهبُ الحُسن فاقدُه
هم خُلُجٌ بالعِلْم مدَّت فعندما ... تناءت غَدَت تُزْهى وليست تُشاهده
ولاَ تُعد عما حازه إنه[٣] الفَرا ... وفى جَوْفه كلُّ الذى أنت صائده
إذا كنت يوماً مُحكماً فى كتابه ... فإنَّك فينا نابه القَدْر ماجِدُه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الدهر) .
(٢) أبو بشر ، هو كنية سيبويه ، فهو أبو بشر عمرو بن عثمان .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فهو) .

ولست تبالى إن فَكَكْت رموزه أَعضَّك دهرٌ أم عَرَتْك ثَرايده
هو العَضْبُ إنْ تَلق الهياج شَهرتَه وإن لا تُصِب حرباً فإنَّك غامده
تلَقَّاهُ كلٌّ بالقَبُول وبالرِّضى فذُو الفهم من تَبْدُو إليه مقاصده
ولم يعترض فيه سوى ابن طراوة وكان طرياً لم تقادم معاهده
وجسَّره طعنُ المُبَرِّد قبلــــه وإن الثَّمالى (١) باردُ الذِّهن خامده
هُما ماهُماصارامدى(٢) الدهرضِحْكَة يُزيِّف ما قالا وتبدو مفاسدُه
تكون صحيحَ العقل حتّى إذا ترى تُبارى أَبا بشرٍ ، إذا أَنت فاسدُه
يقول امرؤٌ قد خامر الكِبْر رأْسه وقد ظنَّ أَن النحو سهلٌ مقاصده
ولم يشتغل إلاَّ بنَزْرِ مسايلٍ من الفقه وفى أَوراقه هو راصــده
وقد نال بين الناس جاهاً ورُتْبة وأَلْهاك عن نيل المعالى ولا بِدِه
وما ذاق للآداب طعمــاً ولـم يَبِت يُعْنَى بمنظُومٍ ونثْرٍ يجاوِدُه
فينكَحُ أبكار المعانى ويَبْتَغِى لها الكَفْو من لفظ بها هو عاقِدُه
رأَى (٣) سيبويه فيه بعض نَكادة وعُجْمة لفظ لا تَحِلُّ معاقدَه
فقلت أَتيت ما أَنت أَهلٌ لفهمه وما أَنت إلاَّ غايضُ الفِكر راكدُه
لعَمْرُك ما ذو لحيــة وتَسَمُّتٍ وإطراق رأْس والجهات تساعده (٤)
فيمشى على الأَرض الهُوَيْنا كأَنَّما إلى الملإِ الأَعلى تناهَتْ مراصدُه
وإيهامُك الجُهَّال أَنَّك عــالِمٌ وأَنَّك فردٌ فى الوجود وزاهِـدُه
بأَجلَب للنَّحوِ الذى أَنت هاجرٌ من الدَّرس بالليل الذى أَنت هاجِدُه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (النخالى) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (امد) .
(٣) وردت فى الإسكوريال (أرى) . وفى الزيتونة (روى) . ونعتقد أن التصويب أرجح .
(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (تصاعده) ونعتقد أن الأولى أرجح .

أَصاحِ تجَنَّب من غَوِىٍّ مُخَـذل وخذ فى طريق النَّحو أنَّك راشده
لك الخَيْرُ فادْأَب ساهراً فى علومه [فلم تُشِمِ](١) إلاَّ ساهرالطَّرف ساهدُه
ولا تَرْجُ فى الدنيا ثوابًا فإنمـا لدى الله حقاً أنت لا شك واجدُه
ذوو النحو فى الدنيا قليلٌ حظوظهم وذو الجهل فيها وافرُ الحظِّ زايده
لهم أُسْوةٌ فيها على لغْدٍ مضى ولم يَلْقَ فى الدنيا صديقاً يساعده
مضى بعده عنها الخليل فلم ينل كفافًا ولم يَعدم حسودًا يناكده
ولاقـى أَبـابشـرٍ سـفيهَهـا غداة تمالت فى ضلال يُمادده(٢)
أتى نحو هارون(٣) يناظر شيخه فنفحـة حتَّى تبدت منـاكده
فأَطرق شيئاً ثم أبدى جوابـه بحق ولاكن أنكر الحق جاحده(٤)
وكاد علىٌّ عمراً إذا صار حاكماً وقَدْ ما علىّ كان عمرو يكايده
سقاه بكاَس لم يفق من خِمارها وأَورده الأَمر الذى هو وارده
ولابن زياد شركة فى مراده ولابن رُشَيْد بشَرَكٍ للقلب رابده
همـا جرَّعـا إلى علىٍّ وقُنْبـر أفاويق(٥) سُمٍّ لم تنجد أساوده
أَبْكِى على عمرو ولا عَمْر مثلـه إذا مُشْكلٌ أُعيا وأَعْوَز ناقده
قضى نَحْبه شَرْخ الشَّبيبة لم يُرَع بشَيْبٍ ولمْ تَعْلُق بذامٍّ معاقـده
لقد كان للناس اعتناءٌ بعلمه بشرقٍ وغربٍ تُسْتَنَار فوايـده
والآن فلا شخص على الأَرض قارىءٌ كتاب أَبى بشرٍ ولا هـو رايـده
سوى معشرٍ بالغَرْب فيهم تلَفُّتٌ إليه وشوقٌ ليس يَخْبُو مواقدْه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فلا تسافر) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (بنادده) والتصويب من الزيتونة .

(٣) هو هارون بن موسى . وكان يهوديا من أهل البصرة ، اعتنق الإسلام واشتغل بالأدب واشتهر بضبط النحو والبراعة فيه .

(٤) وردت فى الإسكوريال (جاهده) . والتصويب من الزيتونة .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (أباريق) والاولى ارجح .

وما زال منّا أَهْلُ أَنْدَلس لـه | جهابذُ تُبدى فضله وتُنـاجده
وإنى فى مصر على ضعف ناصرى | لناصِرُه ما دمت حيًّا وعاضده
أثار أثيرُ الغَرْب للنّحو كامناً | وعالجه حتّى تبدّت قواعده
وأحيا أبوحيَّان مَيْت علـومه | فأصبح عِلْمُ النحو ينفق كاسده
إذا مَغْرِبى حَطَّ بالثغر رَحْلَـه | تَيَقَّن أن النحـو أجفـاه لاحدُه
مُنينا بقوم صُدِّروا فى مجالس | لإقراءِ عِلم ضلّ عنهم مراشدُه
لقد أُخِّر التصدير عن مُسْتحقِّه | وقُدِّم غَمْرٌ خامِدُ الذهن جامدُه
وسوف يلاقى مَنْ سَعَى فى جلوسهم | عُقبَى ما أكنّت عقـــايدُه
علا عقلَه فيهم هواهُ فما دزى | بأنَّ هوى الإنسان للنّار قايدُه
أقمنا بمصر عشرين[1] حجة يُشاهدنا | ذو أمـرهم ونُشـــــــاهده
فلمّا نَنَلْ منهم مدى الدهر طايلا | ولمّا نجد فيهم صديقاً نُوادده
لنا سلوةٌ[2] فيمن سَرَدْنا حديثهم | وقد يُتَسَلَّى بالذى قـال سارده
أخِى إنْ تَصِل يوماً وبُلِّغت سالماً | لغرناطة فانفذ لما أنا عاهده
وقَبِّل ثَرَى أرض بها حلَّ مَلكنا | وسُلطاننا الشَّهْمُ الجميلُ عوايده
مُبيد العِدا قتلاً وقد عَمّ شرُّهم | ومُحيي النّدا فضلاً وقد رَمّ هامده
أفاض على الإسلام جوداً ونجدةً | فعزّ مواليه وذُلّ مُعـــانده
وعِمْ بهـا إخواننـا بتحيّــة | وخُصَّ بها الأستاذ لا عاش كايده
جزى الله عنا شيخنا وإمامنـا | وأُستاذنا الْحَبْرَ الذى عَمَّ فايده[3]
لقد أطْلَعَت جيّان أوحد عصره | فللغرب فخرٌ أعجز الشرق خالده

(١) وردت فى الإسكوريال (نحو). والتصويب من الزيتونة.

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى الزيتونة (أسوة).

(٣) يشير هنا إلى أستاذه أيام دراسته بغرناطة العلامة المحدث المقرى اللغوى أبى جعفر ابن الزبير المتوفى سنة ٧٠٨ هـ؛ وأصله من مدينة جيان. وقد ترجم له ابن الخطيب فى المجلد الأول من الإحاطة (الطبعة الثانية ص ١٨٨ — ١٩٣).

مؤرخةٌ نحويةٌ وإمامةٌ مُحَدِّثةٌ — جَلَّت وصحَّت مسانده
جاهٌ عظيمٌ من ثقيفٍ وإنما به — استوثقت منه العُرى ومساعده
وما أنْسَ لا أنسى سُهادى ببابه — بسبقٍ وغيرى نايم الليل راقده
فيجْلُو بنور العلم ظُلمة جَهْلنا — ويفتح عِلماً مُغْلَقاتٍ رصايده
وإنِّى وإن شطَّت بنا غُرْبة النَّوى — لشاكرٌ لهُ فى كل وقت وحامده
بغرناطة رُوحى وفى مصر جُثَّتى — تُرى هل يُثْنِى الفَرْدَ من هو فارده
أبا جعفر خُذْها قوافى من فتىً — تَتِيه على غُرِّ القوافى قصايده
يسيرُ بلا إذْن إلى الأُذُن حسنَها — فيرتاح سمّاعٌ لها ومناشده
غريبةُ شكلٍ كم حَوَت من غرايب — مجيدةُ أَصل أَنْتَجتها أَماجده
فلولاك يامولاى ما فاه مِقْولى — بمصر ولا حبَّرتُ ما أنا قاصده
لهذَّبتنى حتَّى أحوك[1] مُفَوَّقاً — من النظم لا يَبْلى مدى الدهر آبده
وأذكيتَ فكرى بعد ما كان خامداً — وقُيِّد شعرى بعد ما نَدَّ شاردُه
جعلتُ ختاماً فيه ذكرك إنه — هو المسك بل أغْلى وإن عزَّ ناشده

وما دُونَ المطولات قوله رحمه الله :

تفرَّدت لمَّا أن جُمعت بذات — وأُسْكِنت لما أن بَدَت حركات
فلم أرَ فى الأكوان غيراً لأننى — أَزَحْتُ عن الأغيار روح حيات
وقدَّستها عن رتبة لو تعيَّنت — لها دايماً دامت لها حسرات
فها أنا قد أصعدتُها عن حضيضها — إلى رُتبة تَقْضى لها بثبات
تشاهد مَعْنى روضةٍ أَذْهَب العنا — وأيقظنى للحق بعد سِنات
أقامت زمانا فى حجاب فعندما — تَزَحْزَح عنها رامَتْ الخلوات
لنقْضى بها ما فات من طيب أُنْسِنا بها ونَنال الجَمْع بعد شَتات

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى « الزيتونة » (أجود) .

ومن النسيب قوله :

كتَم اللسانُ ومدمعى قد باحــا ... وثوَى الأَسى عندى وأَسًى راحـا
إنى أُحب طىَّ ما نشر الهــوى ... نشرا وما زال الهـوى إفصاحـا
ومهجتى من لا أُصرِّح باسمه ... ومن الإِشارة ما يكون صُراحـا
رِيمٌ أَروم حُنــوَّه وجنــوحَه ... ويروم عنى جَفْوةً وجِماحــا
أَبدى لنــا من شَعْره وجَبينه ... ضِدَّين ذا ليــلاً وذاك صباحــا
عجبا له يأْسُو الجسوم بطبِّه ... ولـكم بأَرواحٍ أَثار جِراحــا
فبلَقْطِهِ بُرءُ الأَخيذ ولحظُـه ... أَخذ البرىَّ فمــا بُطيق براحــا
ناديته فى ليلة لا ثالث إلا ... أَخوه البــدر عارفٌ لاحا
يا حُسْنها من ليلة لو انها دامت ... ومدَّت لتوصـــــال جنــاحــا

وقال :

نورٌ بخدِّك أَم توقُّد نـــــار ... وضنىً بجَفْنك أَم فتـــور عَقار
وشذاً بريقك أم تأَرُّج مِسكة ... وسنىً بثغرك أَم شُعاع دُرار
جُمعت معانى الحسن(١) فيك فقد ... غَدت قَيْدَ القلوب وفتنةَ الأَبصار
مُتصاون خَفِر إذا ناطقتــه ... أَغضى حياً فى سكون وقــار
فى وجهه زهـرات لفظ تُجتلى ... من نرجس مع وردة وبهـــار
خاف اقتطاف الورد من جَنَباتها ... فأَدار من أَسر سيـاج عِذار
وتسلَّلت نملُ العِذار بخـده ... ليردْن شَهدة ريقه المعطــار
وبخدِّه وردٌ حمتها وردُهــا ... فوقفْن بين الورد والإِصــدار
كم ذا أُوارى فى هواه محبَّتى ... ولقد وَشَى بى فيـه فرط أُوار

ومن نظمه من المقطوعات فى شتى الأَغراض قوله رحمه الله :

أَزحت نفسى من الإِيناس بالناس ... لمَّا غَنيت عن الأَكياس باليـاس

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (المسك) والأولى أرجح .

وصرت فى البيت وحدى لا أرى أحداً　　بناتُ فكرى وكُتبى هنَّ جُلاَّسى

وقال :

وزهَّدنى فى جَمْعى المال أنه إذا　　ما انتهى عند الفتى فارق الْعُمْرا
فلا رُوحه يوما أراح من العنا　　ولم يكتسب حَمْدًا ولم يدَّخر أجرا

وقال :

سَعَتْ حيَّة من شَعره نحو صدغه　　وما انفصلت من خدِّه إنَّ ذا عجبُ
وأعجب من ذا أنَّ سلسال ريقه　　برودٌ ولاكن شبَّ فى قلبى اللهب

وقال :

راض حبيبى عارضٌ قد بدا　　يا حُسْنَه من عارض رابض
وظنَّ قوم أن قلبى سلا　　والأصل لا يَعْتَدُّ بالعارض

وقال :

سال فى الخدِّ للحبيب عِذار　　وهو لا شك سايلٌ مرحوم
وسألتُ التِثامَه فتجنَّى　　فأنا اليوم سايلٌ محروم

وقال :

جُننت بها سوداء لونٍ وناظِر　　ويا طالما كان الجنون بسوداء
وجدتُ بها بَرْد النعيم وإنَّ　　فؤادى منها فى جحيم ولأْواء

وقال فى فتى يُسمى مظلوم :

وما كنت أدرى أن مالك مُهجتى　　يَتَسَمَّى بمظلوم وظُلم جفاوه
إلى أن دعانى للصَّبا(١) فأجبته　　ومن يك مظلوما أُجيب دعاؤه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الصلا) .

وقال :

جُنَّ غيرى بعارض فترجّى ... أهله أن يفيق عما قريب
وفؤادى بعارضين مصابٌ ... فهو داءٌ أعيى دواءَ الطبيب

وقال :

شكى الخَصر منه ما يلاقى بردْفه ... وأضعف غصن البان جرُّ كثيب
إذا كان منه البعضُ يظلم بعضه ... فما حال شطِّ المزار غريب

وقال :

وذو شَفَةٍ لَمْيا زُيِّنت بشامة ... من المسك فى رشافها يذهب النُّسك
ظميت إليها ريقةً كوثرية ... بمثل لِقَائى ثَغرها يُنظم السِّلك
تعلَّ بمعسول كأَنَّ رُضابه ... مُدام من الفرد وسرُّ خاتمه مِسك

وقال :

أجلُّ شفيعٍ ليس يمكن رده ... دراهمُ بيضٌ للجروح مراهم
تُصَيِّر صعب الأَمر (١) أسهل ما ترى ... ويقضى لبانات للفتى وهو نايم

وقال :

نُعيد وُدَّ قريب ضَلَّ ... كبير عَتْب قليلٌ عتبا
كالشمس ظَرْفًا كالمسك عَرفًا ... كالخَشْف طَرفا كالصَّخر قلبا

وقال :

عُداتى لهم فضل علىَّ ومنَّة ... فلا أَذْهَب الرحمن عنِّى الأَعاديا
هم بحثوا عن زلّتى فاجتنبتها ... وهم نافَسُونى فاكتسبتُ المعاليا

مولده : ولد بغَرْناطة عام اثنين وخمسين وستماية .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (شىء) .

وفاته : أخبرنى الحاج الخطيب الفاضل أبو جعفر الشّقورى رحمه الله . قال، توفى عام خمسة وأربعين وسبع ماية بمصر ، ودفن بالقرافة . وكانت جنازته حافلة .

ومن الطاريين عليها فى هذا الحرف

محمد بن أحمد بن داود بن موسى بن مالك اللّخمى اليكّى (١)

من أهل بَلِّش (٢) يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن الكمّاد

حـــاله

من « عايد الصلة » : كان من جلّة صدور [الفقهاء] (٣) الفضلاء زهدا وقَناعة وانقباضا ، إلى دَماثة الخلق ، ولين الجانب [وحُسن اللقاء] (٤) والسّذاجة المُمَوَّهة بالغَفْلة ، والعمل على التقشُّف والعُزلة ، قديم السّماع والرِّحلة ، إماما مشهورا فى القراءات ، يُرحل إليه ، ويُعول عليه ، إتقانا ومعرفة منها بالأُصول ، كثير المحافظة والضَّبط ، محدِّثا ثَبْتًا ، بليغ التَّحرُّز ، شديد الثقة ، فقيها مُتصرِّفا فى المسايل ، أعرف الناس بعقد الشروط ، ذا حظٍّ من العربية واللغة والأدب . رحل إلى العُدْوة ، وتجول فى بلاد الأندلس ، فأخذ عن كثير من الأعلام ، وروى وقيّد وصنّف وأفاد ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (اللبكى) .

(٢) بلش اوبلش مالقة وبالإسبانية Velez Malaga هى بلدة أندلسية قديمة تقع على قيد ثلاثين كيلومترا من شرقى مالقة وعلى قيد خمسة كيلو مترات من البحر المتوسط ، ويبلغ سكانها اليوم نحو ثلاثين ألف نسمة .

(٣) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الاسكوريال .

(٤) هذه العبارة واردة فى الاسكوريال ، وساقطة فى الزيتونة .

وتصدَّر للإقراء بغرناطة وبَلِّش وغيرهما ، وتخرَّج بين يديه جملة وافرة من العلماء والطلبة ، وانتفعوا به .

مشيخته (١)

قرأ ببلده مُرْسية على الأستاذ أبي الحسن على بن محمد بن لُب بن أحمد ابن أبي بكر الرُّقُوطى ، والمُقْرى أبي الحسن بن خلف الرُّشاطى ، والمحدِّث الجليل أبي عمرو محمد بن على بن عَيْشُون اللخمى ، وعلى الشيخ الفقيه الكاتب أبي محمد بن عبد الله بن داود بن خطَّاب الغافقى المُرْسى . وممن أجازه الفقيه أبوعثمان سعيد بن عمرو البَطِرنى ، والقاضى أبو على بن أبي الأحوص ، لقيه ببلِّش مالقة وبَسْطة ، فروى عنه الكثير ، والأستاذ أبو القاسم بن الأصهر الحارثى لقيه بألمريَّة . ولقى بغرناطة الأستاذ أبا جعفر الطَّبَّاع ، والوزير الرَّاوية أبا القاسم محمد بن يحيى بن عبد الرحمن ابن جُزَىّ الكلبى ، روى عنه وأجازه . وكتب له بالإجازة جماعة كبيرة من أهل المشرق والمغرب ، حسبما تضمنه برنامجه .

تواليفه

اختصر كتاب « المُقْنع » فى القراءات اختصارا بديعا وسماه كتاب « الممتع فى تهذيب المقْنع » وغير ذلك .

شعره

من ذلك وقد وقف على أبيات أبي القاسم بن الصَّقر فى فضل الحديث :

---

(١) وردت للمترجم له فى مخطوط الزيتونة « مشيخة » طويلة من نحو لوحتين . وقد رأى ناسخ الإسكوريالأن يضرب صفحا عنها ، وأن يكتفى بقوله : « قلت له مشيخة فى الأصل طويلة أختصرتها لطولها » . وقد رأينا نحن أن نورد مشيخته مختصرة من الزيتونة ، وأن نقتصر فيها على عدد من جلة الأساتذة الذين أخذ عنهم المترجم له .

لقد حاز أَصحابُ الحديث وأَهلُه ... شأواً وتوتيراً ومجداً مُخَلَّدا
وصحَّت لهم بين الأَنام مزيَّـةٌ ... أبانت لهم عزًّا ومجدًا وسوددا
بدعوة خير الخلق افضل مُرْسَل ... محمدٌ المبعوث بالنُّـــور والْهـدا
فهم دوَّنوا عِلْم الحديث وأَتقنوا ... ونصُّوا بتبيينٍ صحيحاً ومُسْندا
وجاءُوا بأَخبار الرَّسول وصَحْبه ... على وجهها لفظاً ورسماً مقيدا
وهم نقلوا الآثار والسُّنن التى ... من أَصْبَح ذا أَخْذ بها فقد اهْتَدا
وما قصَّروا فيها بفِقْهٍ ولا ونُوا ... بل التزموا حدًّا وحزمًا مُؤكَّدا
وهم أَوضحوا من بعدهم باجتهادهم ... وتَبْيينهم سُبُل الهُدى لِمن اقْتدَا
جزاهم إِلَه العرش عنا بنصحهم ... بأَحْسَنَ ما جازى نصيحاً ومرشدا
ونَسَلْه سبحانه نَهْج هَـــديهم ... وسعياً إلى التَّقوى سبيلا ومَقْصدا(١)

ومن شعره رحمه الله قوله :

عليك بالصَّبر وكُن راضياً ... بما قضاه الله تلقى النجاح
واسلُك طريق المجد والْهج به ... فهو الذى يرضاه أهل الصلاح

وقد أَلَّف شيخنا أَبو البركات بن الحاج ، جزءًا سماه «شعر من لا شعر له» ، فيه من شعر هذا الرجل الفاضل ومثله كثير

مولده : قبل الأَربعين وستمايه . وتوفى ثانى شهر الله المحرم عام اثنى عشر وسبعماية

(١) هذه القصيدة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الزيتونة .

« انتهى ما اختُصر من السِّفر السابع من كتاب « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » . يتلوه فى السفر الثامن بعده إن شاء الله . ومن السفر الثامن من ترجمة المقربين والعلماء رحمهم الله »[١] .

---

(١) بعد أختتام السفر السابع من كتاب « الإحاطة » على هذا النحو ، أورد الناسخ نبذة طويلة استهلها بقوله أن الأستاذ أباجعفر بن الزبير قيد بخطه « تقييدا حسنا ساير فيه طبقات الأمم لصاعد فنقص منها ، وزاد فى بعض أسماء رجالها حكايات وأخبارا » . ويدور الحديث فى هذه النبذة كلها ، عن فلاسفة اليونان أوحكمائها الخمسة بيرقليس وفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ، وعن أخبارهم وآرائهم ، ويتناول بصفة خاصة آراء أرسطاطاليس ومؤلفاته وعلاقته بالأسكندر المقدونى . وقد رأينا نحن أنه لا محل لإيراد هذه النبذة ، لأنه لا علاقة لها بكتاب الإحاطة ، وهى تشغل من مخطوط الإسكوريال (لوحات ١٠٢ إلى ١٠٥) .

ومن السفر الثامن
من ترجمة المقريين والعلماء

محمد بن أحمد بن محمد بن على الغسّانى

من أهل مالقه ، يكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن حفيد الأَمين

حاله

كان من أهل العلم والفضل والدين المتين ، والدُّؤوب على تدريس كتب الفقه . استظهر كتاب « الجواهر » لابن شاس ، واضطّلع بها ؛ فكان مجلسه من مجالس الحُفَّاظ ، حُفَّاظ المَذْهَب ، وانتفع به الناس . وكان معظَّماً فيهم ، متبرَّكاً به ، على سُنن الصالحين ، من الزُّهد ، والانقباض ، وعدم المبالاة بالملبس والمطعم . وقال صاحبنا الفقيه أبو الحسن النُّباهى فى تذييله لتاريخ مالقة : كان رجلا ساذجاً ، مُخْشَوْشِنًا ، سُنِّى المنازع ، شديد الإنكار على أهل البِدع . جلس للتَّحليق العام بالمسجد الجامع . وأقرأ به الفِقه والعربية والفرايض .

مشيخته

قال ، منهم أبو على بن أبى الأَحوص ، وأبو جعفر بن الزبير . وأبو محمد بن أبى السَّداد ، والقاضى أبو القاسم ابن السَّكوت . قال ، وأنشد للزاهد أبى اسحق بن قشوم ، قوله :

يروقُكَ يوم العيد حسنُ ملابس ... ونِعْمَةُ أجسام ولينُ قـــدود
أجِل لحظات الفكر منك فلا ترى ... سِوى خِرقٍ تَبْلى وطُعْمَة دُود

وأنشد لأبي عمرو الزاهد :

تختبرُ الدُّنَير في مَيْذِقٍ ... والدِّرهم الزايف إذ يُبْهم
والمرءُ إن رُمْت اختباراً له ... مَيْذِقُه الدُّنير والدِّرهم
من عفَّ عن هذا وهذا معا ... فهو التَّقيُّ الورع المُسْلم

توالـيـــفه

له تقييد حسن في الفرايض ، وجزءٌ في تفضيل التِّين على التَّمر ، وكلام على نَوازل الفِقه .

وتوفى في الكائنة العظمى بطريف[1] .

محمد بن أحمد بن علي بن قاسم المَذْحِجي

من أهل ملتماس[2] ، يكنى أبا عبد الله

حـــاله

من « العايد » : كان رحمه الله من سُراة بلده وأعيانهم ، أُستاذاً مُتَمَنِّنًا مُقْرِياً لكتاب الله ، كاتباً بليغاً ، شديد العناية بالكُتب ، كثير المغالاة في قِيَمها وأثمانها ، حتى صار له من أعْلاقها وذخايرها ، ما عجز عن تحصيله كثير من أهل بلده . كتب بخطِّه ، وقيَّد كثيراً من كتب العلم . وكان

---

(١) سبق التعريف بهذه الموقعة (راجع المجلد الثاني من « الاحاطة » ص ١٨٠ حاشية) .

(٢) هكذا وردت في الإسكوريال . ونرجح أنها منتماس Montemas من قرى منطقة بلش ، على نمط أماكن أخرى في الأندلس الجنوبية مثل مونتيميور Montemayor ومونتي فريو Montefrio وغيرها

مُقْرياً مجوِّداً ، عارفاً بالقراءات ، بصيراً بالعربية ، ثقةً ضابطاً ، مبرِّزاً فى العدالة . حريصا على العلم استفادةً ثم إفادَةً ، لا يأنف من حَمْله عن أقرانه ، وانتفع به أهل بلده ، والغُرباء أكثر .

مشـــيخته

أخذ عن طايفة من أهل العلم . منهم الشّيخان الرُّحْلَتان . أبو عبد الله ابن الكمّاد ، وأبو جعفر بن الزيات عَظِيما بلده ، والخطيب ولى الله أبو عبد الله الطّنجالى ، والقاضى أبو عبد الله بن بكر . وروى عن الشيخ الوزير أبى عبد الله بن ربيع ، وابنه الرّاوية أبى عامر ، والخطيب الصالح أبى إسحق بن أبى العاصى . وروى عن الشيخ الرّاوية الرّحّال أبى عبد الله ابن عامر الوادى آشى وغيرهم ، ودخل غرناطة . .

مولده : ولد ببلِّش عام ثمانية وثمانين وستماية

وفاته : توفى ببلِّش عاشر شهر شعبان من عام أربعة وثلاثين وسبعماية .

محمد بن أحمد بن محمد بن على الغسّانى

من أهل مالقة ، يكنى أبا الحكم ، ويعرف بابن حفيد الأمين

حـــــاله

من « العايد »[1] : كان هذا الشيخ من أهل العلم والدِّين المتين . والْجَرْى على سُنَن الفقهاء المتقدِّمين ، عقد الشروط بمالقة مدة طويلة ، فى العدول المبرِّزين ، وجلس للتّحليق فى المسجد الأعظم من مالقة . بعد فقد

(١) أى كتاب « عايد الصلة » .

أَخيه أَبى القاسم ، وخطب بمسجد مالقة الأَعظم . ثم أُخِّر عن الخطبة لمشاحَنة وقعت بينه وبين بعض الوُلاة ، أَثمرت فى إِحْنَتِه . ولم يزل على ما كان عليه من الاجتهاد فى العبادة ، والتقييد للعلم ، والاشتغال به ، والعناية بأَهله ، إلى أن توفى على خير عمل .

مشـــيخته

قرأَ على الأُستاذ الخطيب أَبى محمد الباهِلِى ، وروى عن جلّة من الشيوخ مثل صِهره الخطيب الولى أَبى عبد الله الطَّنجالى ، وشاركه فى أَكثر شيوخه ، والأَديب الحاج الصالح أَبى القاسم القَبْتُورى (١) وغيرهم

مولده : ولد بمالقة عام ثلاثة وسبعين وستماية .

وفاته : توفى بمالقة يوم الأَربعاء الثامن عشر لذى حجة من عام تسعة وأَربعين وسبعماية . ودخل غَرْناطة غير ما مرَّة مع الوفود من أَهل بلده ، وفى أَغراضه الخاصة

محمد بن أَحمد الرَّقوطى (٢) المُرْسى

يكنى أَبا بكر

حـــــاله

كان طِرْفًا فى المعرفة بالفنون القديمة ، المنطق والهندسة والعَدَد والموسيقا

---

(١) نسبة إلى قبتور أو كبتور Captor من بلاد منطقة إشبيلية (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ٢١٤ حاشية) .

(٢) نسبة إلى رقوطة ، وبالإسبانية Ricate ، وهى بلدة صغيرة فى شرق الأندلس ، تقع على مقربة من شمال غربى مرسية على الضفة الغربية لنهر شقورة R . Segura

والطِّب ، فيلسوفاً ، طبيباً ماهراً ، آيةَ الله فى المعرفة بالألْسن . يُقْرى الأُمم بألْسِنَتهم ، فنونَهم التى يرغبون فى تعلمها ، شديد البَاو ، مترفِّعاً ، متعاطياً. عَرَفَ طاغيةُ الروم حقَّه ، لما تغَلَّب على مرسية ، فبنى له مدرسة يُقرى فيها المسلمين والنصارى واليهود ، ولم يزل معظماً عنده . ومما يحكى من مْلَحه معه ، أنه قال له يوماً ، وقد أدنى مَنْزِلَته ، وأشاد بفضله ، لو تنصَّرت وحَصَّلت الكمال ، كان عندى لك كذا وكذا ، وكْنت كذا ، فأَجابه بما أَقْنَعه . ولما خرج من عنده ، قال لأَصحابه ، أَنا الآن أَعْبُدُ واحداً ، وقد عجزتُ عما يجب له ، فكيف حالى لو كنت أَعبد ثلاثة كما أَراد منى . وطلبه سلطان المسلمين ، ثانى الملوك من بنى نصر[1] ، واستقدمه ، وتلمَّذ له ، وأَسْكَنه فى أعدل البُقَع من حضرته . وكان الطلبة يَغْشون منزلـه المعروف له ، وهو بيدى الآن ، فتُعلِّم عليه الطب والتعاليم وغيرها ، إذ كان لا يُجَارَى فى ذلك . وكان قوىَّ العارضة ، مضطَّلعاً بالْجَدَل ، وكان السلطان يجمع بينه وبين مُنْتابى حضرته ، ممن يُقدم مُنْتحلا صناعة أَو علماً ، فيظهر عليهم ، لتمكُّنه ودالَّته . حسبما يأتى فى إسم أَبى الحسن الأُبَّدى ، وأَبى القاسم بن خَلصون إنْ شـاء الله . وكان يركب إلى باب السلطان ، عظيم التُّودَة ، مُعار البَغْلة ، رايق البِزَّة ، رفيق المشى ، إلى أَن توفى بها . سمح الله له.

محمد بن إبراهيم بن المُفَرِّج الأَوْسى

المعروف بابن الدبَّاغ الإشبيلى .

---

(١) هو السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه . وقد حكم مملكة غرناطة من سنة ٦٧١ – ٧٠١ هـ (١٢٧٢ – ١٣٠٢ م) .

حـــــاله

كان واحد عصره فى حفظ مَذْهب مالك ، وفى عَقْد الوثائق ، ومعرفة عِلَلها . عارفاً بالنحو واللغة والأدب والكتابة والشعر والتاريخ . وكان كثير البشاشة ، عظيم الانقباض ، طيِّب النفس ، جميل المعاشرة ، كثير المشاركة ، شديد التَّواضع ، صبوراً على المطالعة ، سهل الألفاظ فى تعليمه وإقرايه . أَقرأ بجامع غرناطة لأكابر عُلَمايها ، الفِقه وأَصُولَه ، وأقرأ به الفُروع والعمَايد للعامة مدة . وأَقرأ بجامع باب الفخَّارين ، وبمسجد ابن عزرة وغيره .

مشـــيخته

قرأ على والده الأُستاذ أَبى إسحق إبراهيم ، وعلى الأُستاذ أَبى الحسن الدباج ، وعلى القاضى أَبى الوليد محمد بن الحاج التُّجيبى القرطبى ، وعلى القاضى أَبى عبد الله بن عِياض

وفاته : توفى برُنْدة يوم الجمعة أول يوم من شوال عند انصراف الناس من صلاة الجمعة من عام ثمانية وستين وستماية .

محمد بن إبراهيم بن محمد الأوسى

ن أَهل مُرْسية . نزيل غَرْناطة ، يكنى أَبا عبد الله . ويعرف بابن الرَّقَّام الشيخ الأُستاذ المتفنن

حـــــاله

كان نسيج وحده ، وفريد دهره ، علماً بالحساب والهندسة والطب

والهيئة ، وغير ذلك . مديدُ الباع . أصيل المعرفة . مضطَّلعاً . متبحراً لا يُشَق غبارة . أقرأ التعاليم والطب والأُصول بغرناطة لما استقدمه السلطان ثانى الملوك من بنى نصر من مدينة بجاية ، فانتفع الناس به . وأوضح المشكلات ، وسُيلَ من الأَقطار النازحة فى الأَوهام العارضة ، ودوَّن فى هذه الفنون كلها ، ولخَّص ، ولم يفتر من تقييد وشرح وتلخيص وتدوين

تواليـــــفه

وتواليفه كثيرة ، منها كتابه الكبير على طريقة كتاب « الشِّفا » ، والزِّيج القويم الغريب المَرْصد ، المَبْنيَّة رسايله على جداول ابن إسحق ، وعدّل مناخ الأَهلَّة ، وعليه كان العمل . وقيد أبْكار الأفكار فى الأُصول ، ولخَّص المباحث ، وكتاب الحيوان والخواص . ومقالاته كثيرة جداً ، ودواوينه عديدة .

وفاته : توفى عن سنٌ عالية بغرناطة فى الحادى والعشرين لصفر من عام خمسة عشر وسبع ماية

محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف بن حُميد(١) ابن مأمون(٢) الأنصارى

ونسبه أبو محمد القرطبى ، أَمَويًّا من صَرِيحهم . بَلَنْسى الأَصل ، يكنى أبا عبد الله

(١) وردت فى الإسكوريال إلى جانب هذا الإسم كلمة (مكبرا)
(٢) وردت فى الإسكوريال (ابن مانون) ، ونرجح التصويب .

حاله

كان صَدْراً فى مُتْقِنِى القرآن العظيم ، وأيمَّة تجويده ، مبرِّزاً فى النحو ، إماماً معتمداً عليه ، بارع الأدب ، وافر الحظِّ من البلاغة ، والتَّصرُّف البديع فى الكتابة ، طيِّب الإمتاع بما يورده من الفنون ، كريم الأخلاق ، حَسِن السَّمْت ، كثير البِشْر ، وقوراً ، ديِّنًا ، عارفًا ، ورعًا ، وافر الحظِّ من رواية الحديث

مشيخته

روى عن أبى إسحق بن صالح ، وأبى بكر بن أبى ركب ، وأبى جعفر ابن ثعبان ، وأبى الحجاج التمقَّال ، وأبى الحسن شُريح ، وأبى محمد عبد الحق ابن عطية ، وأبى الحسن بن ثابت ، وأبى الحسن بن هُذيل ، وتلا عليه بالسَّبْع ، وأبو عبد الله بن عبد الرحمن المَذْحِجى الغرناطى ، وابن فرح القيسى ، وأبى القاسم خلف بن فُرْتُون . ولم يذكُر أنهم أجازوا له . وكتب له أبو بكر[1] عبد العزيز بن سُدَير ، وابن العَزَفى ، وابن قَنْدلة ، فأبو[1] الحسن طارق بن موسى ، وابن مُوهب ، ويونس بن مُغيث ، وأبو جعفر بن أيوب ، وأبو الحكم عبد الرحمن بن غشيان ، وأبو عبد الله الجيَّانى المعروف بالبغدادى . وذكر أبو عبد الله بن يربوع أن له راوية عن أبى الحسن بن الطراوة

من روى عنه

روى عنه أبو بحر صفوان بن إدريس . وأبو بكر بن عتيق الأزدى وابن قترال . وأبو جعفر الجيَّار ، والذَّهبى . وابن عَميرة الشهيد ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال (أبا ثم (فأبا) فاقتضى التصويب .

وأبو الحسن بن عزمون . وابن عبد الرزاق . وأبو لحسن عبيد الله بن عاصم الدّارى ، وأبو الربيع بن سالم ، وأبو زكريا الجعفرى . وأبو سليمان ابن حَوْط الله ، وأبو عبد الله الأَنْدَرَشى ، وابن الحسين بن محبر . وابن ابراهيم الريسى ، وابن صلتان ، وابن عبد الحق التلمسنى ، وابن يربوع ، وأبو العباس العَزَفى ، وأبو عثمن سعد الحفَّار . وأبو على عمر بن جميع . وأبو عمران بن إسحق ، وأبو القاسم الطيب بن هرقال ، وعبد الرحيم ابن إبراهيم بن قريش الملاَّحى ، وأبو محمد بن دُلف بن اليُسر . وأبو الوليد ابن الحجاج .

تواليـــفه

له شرح على « إيضاح الفارسى » ، وآخر على « جُمَل الزَّجَّاجى »

مولده : ببلنسية سنة ثلاث عشرة وخمسماية

وفاته : توفى بمرسية إثر صدوره عن غرناطة عشى يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأُولى سنة ست وثمانين وخمسماية

محمد بن حَكَمَ بن محمد بن أحمد بن باق الجذامى

من أهل سَرَقُسطة . سكن غرناطة ثم فاس . يكنى أبا جعفر

حـــاله

كانَ مُقْرِياً مجَوِّداً محققاً بعلْم الكلام وأُصول الفِقه . محصِّلا لهما . متقدِّماً فى النحو . حافظاً للغة ، حاضر الذِّكر لأَقوال تلك العلوم . جيِّد

الخاطر . متوقّد الذهن . ذكيّ القلب . فصيح اللسان . وَلِّيَ أحكام فاس وأفتى فيها ، ودرّس بها العربية . كتاب سيبويه وغير ذلك

مشـــيخته

روى عن أبي الأَصْبَغ بن سهل ، وأبوى الحسن الحضرمى ، وابن سابق ، وأبي جعفر بن جرّاح . وأبي غالب السَّرَقُسْطى . الأَديبين ، وأبوى عبد الله ابن نصر . وابن يحيى بن هشام المحدِّث ، وأبي العباس الدلاءى ، وأبي عبيد الله البكرى ، وأبي عُمر أحمد بن مروان القَيْرُوانى ، وأبي محمد ابن قورش ، وأبي مروان بن سِراج . وأجاز له أبوالوليد الباجى رحمه الله .

من روى عنــه

روى عنه أبو إسحق بن قرقول ، وأبو الحسن صالح بن خلف ، وأبو عبد الله بن حسن السَّبْتى ، وأبو الحسن الأُبَّدى ، وتوفى قبله ، وابن خلف بن الأَيْسر ، والنَّميرى ، وأبو العباس بن عبد الرحمن ابن الصَّقر ، وأبو على حسن بن الجزَّار ، وأبو الفضل بن هرون الأَزْدى ، وأبو محمد عبد الحق بن بُونه ، وقاسم بن دَحْمان . وأبو مروان بن الصَّقيل الوقَّشى[1]

توالیـــفه

شرح « إيضاح الفارسى » . وكان قيّماً على كتابه . وصنّف فى الجدل مُصَنَّفَيْن ، كبيراً وصغيراً . وله عقيدة جيدة

وفاته . توفى بفاس . وقيل بتلمسان سنة ثلاث وثلاثين وخمس مائة[2]

---

(١) هكذا وردت فى [illegible] نسبة إلى وشقة .

(٢) ورد فى « جذوة الاقتباس » أن وفاته كانت بتلمسان .

محمد بن حسن بن محمد بن عبد الله بن خَلَف بن يوسف ابن خلف الأنصارى

من أهل مالَقة . يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن الحاج . وبابن صاحب الصلاة .

حـــاله

كان مُقْرياً صَدْراً فى أيمَّة التَّجويد ، محدثاً مُتْقناً ضابطاً ، نبيل الخَطّ والتقييد ، ديِّناً ، فاضلا . وصنَّف فى الحديث ، وخطب بجامع بلده . وأمَّ فى الفريضة زماناً ، واستمرت حاله كذلك ، من نشر العلم وبثه إلى أنْ كرَّمه الله بالشهادة فى وقيعة العِقاب[1] .

دخوله غرناطة ، راوياً عن ابن الفَرَس ، وابن عَرُوس ، وغيرهما

مشـــيخته

روى بالأندلس عن الحجاج ابن الشيخ ، وأبى الحسن بن كوثر ، وأبى خالد يزيد بن رَفاعة ، وأكثر عنه ، وأبوى عبد الله بن عرُوس ، وابن الفخَّار ، وأبى محمد بن حَوْط الله ، وعبد الحق بن بْونَه ، وعبد الصَّمد ابن يَعِيش ، وعبد المنعم بن الفَرَس ، وأجازوا له . وتلا القرآن على أبى عبد الله الإِسْتجىّ . وروى الحديث عن أبى جعفر الحصَّار . وحجّ فى نحو

---

(١) موقعة العقاب وبالإسبانية Las Navas de Tolosa ، نشبت فى شهر صفر سنة ٦٠٩ ، بين الجيوش الإسبانية المتحدة ، وبين الجيوش الموحدية وسبق التعريف بها (راجع المجلد الثانى من الإحاطة ص ٣٢٩ حاشية) .

سنة ثمانين وخمسماية . وأخذ عن جماعة من أهل المشرق ،كأبى الطَّاهر الخشوعى وغيره

وفاته : توفى شهيداً محرضا صابرا يوم الاثنين منتصف صفر عام تسعة وستماية

محمد بن محمد بن أحمد بن على الأنصارى

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن قِرال ، من أهل مالَقة

حـــــاله

طالبٌ عفيف مجتهد خيِّر . قرأ بغرناطة ، وقام على فنِّ العربية قياماً بالغاً ، وشارك فى غيره ، وانْتَسَخ الكثير من الدَّواوين بخطٍّ بالغ أقصى مبالغ الإجادة والحُسْن ، وانتقل إلى مالَقة فأَقْرأ بها العربية ، واقتدى بصِهره الصَّالح أبى عبد الله القطَّان ، فكان من أهل الصلاح والفضل . وتوفى فى محرم عام خمسين وسبعماية.

محمد بن محمد بن إدريس بن مالك بن عبد الواحد بن عبد الملك ابن محمد بن سعيد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الله القضاعى

من أهل إسطبونة[1] ، يكنى أبا بكر ، ويعرف بالقللوسى

حـــــاله

كان رحمه الله إماماً فى العربية والعَروض والقوافى ، موصوفاً بذلك .

---

(١) إسطبونة أو إشتبونه وبالاسبانية Estepona ثغر صغير يقع على شاطىء البحر المتوسط ، جنوبى غربى مالقة ، وشمالى جبل طارق ، على مقربة من ثغر مربلة .

مَنْسُوباً إليه ، يحفظ الكثير من كتاب سيبويه ، ولا يفارقه بَياض يومه ، شديد التعصُّب له ، مع خِفَّةٍ وطيش يحمله على التوغُّل فى ذلك . حدَّثنى شيخنا أبو الحسن بن الجيَّاب رحمه الله ، قال ، وقف أبو بكر القللوسى يوما على القاضى أبى عمرو بن الرَّنْدون ، وكان شديد الوقار ، مَهِيباً ، وتكلم فى مسألة من العربية ، نقلها عن سيبويه ، فقال القاضى أبوعمرو . أخطأ سيبويه . فأصاب أبا بكر القللوسى قلق كاد يلبط به الأرض ، ولم يقدر على جوابه بما يَشْفى به صدره لمكان رُتبته ، قال ، فكان يدور بالمسجد ، والدموع تنحدر على وجهه ، وهو يقول أخطأ من خطَّأه ، يكرِّرها والقاضى أبو عمرو يتغافل عنه ، ويزرى عليه . وكان مع ذلك. مشاركاً فى فنون ، من فقه وقراءات . وفرايض ، من أعلام الحُفَّاظ للغة ، حُجَّة فى العَرُوض والقوافى ، يُخَطط بالقاف عند ذكره فى الكتب . وله فى ذلك تواليف بديعة . وُلِّىَ الخطابة ببلده مدة ، وقعد للتدريس به ، وانْثال عليه الناس وأخذوا عنه . ونسخ بيده الكثير وقيد ، وكان بقطره عَلَما من أعلام الفضل والإيثار والمشاركة

تواليفــه

نظم رَجَزاً شهيراً فى الفرايض عِلْمًا وعَمَلاً ، ونظم فى العَرُوض والقوافى وألَّف كتاب « الدُّرة المكنونة فى محاسن إسطبونة » ، وألف تـأليفاً حسناً فى تَرْحيل الشمس ، وسوسطات الفجر ، ومعرفة الأوقات ، ونظم أرجوزة فى شرح ملاحن ابن دُرَيد ، وأرجوزة فى شرح كتاب « الفصيح » . ورفع للوزير ابن الحكيم كتاباً فى الخواص وصنعة الأمدَّة والتطبُّع الشاب. غريباً فى معناه

مشـــيخته

قرأ على الأُستاذ أَبي الحسن بن أَبي الربيع ، ولازمه ، وأَخذ عنه . وعن أَبي القاسم بن الحصَّار الضرير السَّبْتى ، وعلى الأُستاذ أَبي جعفر بن الزُّبير بغرناطة ، وغيرهم .

شـــــعره

من شعره قوله من قصيدة يمدح ابن الحكيم :

عُلاهُ رياضٌ أَورقت بمحامد تُنَوِّر بالْجَدْوى وتُثْمر بالأَمل
تَسِحُّ عليها من نَداه غمامةٌ تروى ثرى المعروف بالعَلِّ والنيل
وهل هو إلاَّ الشمس نفْساً ورِفعةً فيَغْرُب بالجَدْوى ويَبْعُد بالأَمل
تَعُمُّ أَياديه البريَّة كلها فَدانٍ وقاصٍ جودُ كفَّيْه قد شَمِل

وهى طويلة . ونقلت من خطٍّ صاحبنا أَبي الحسن النُّباهى . قال يمدح أَبا عبد الله الرُّنداحى :

أَطْلِع بأُفُق الرَّاح كاس الرَّاح وصِل الزَّمان مَساءه بصباح
خُذْها على رغم العَذول مُدَامةً تَنْفى الهموم وتَأْتِ بالأَفراح
والأَرض قد لَبِست بُرود أَزاهر وتَمَنْطقت من نهْرها بوِشاح
والجوُّ إذْ يبكى بدمع غمامة ضَحِك الربيع له بثغر أَقاح
والرَّوض مرقومٌ بوَشْى أَزاهر والطَّير يَفْصَح أَيُّما إفصاح
والغُصْن من طَرَبٍ يميل كأَنما سقيت بكفِّ الرِّيح كأْس الراح
والوردُ مُنتظم على أَغصانه يَبْدو فتحسَبُه خدُودَ ملاح
وكأَنَّ عَرف الريح من زَهر الرُّبى عَرْف امتداح القايد الرُّنداح

وفاته : ببلده عصر يوم الجمعة الثامن عشر لرجب الفرد سنة سبع وسبعماية

محمد بن محمد بن محارب الصّريحى

من أهل مالَقة . يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن أبى الجيش

حـــاله و أوّليّتـــه

أَصل سلفه من حصن يُسْر من عمل مُرْسية ، من بيت حَسَبٍ وأَصالة ، ولخؤولته بالجهة التاكرُونيّة ثورة

وقلت فيه فى « عايد الصلة » : كان من صُدور المُقْريين ، وأعلام المُتَصَدِّرين تفنُّناً واضطِّلاعاً ، وإدراكاً ، ونظراً . إماماً فى الفرايض والحساب قايماً على العربية ، مُشاركاً فى الفقه والأُصول ، وكثير من العلوم العقلية . قعد للإقراء بمالقة ، وخطب بجامع الرَّبَض

مشـــيخته

قرأ على الأُستاذ القاضى المُتَفَنِّن أبى عبد الله بن بكر ، ولازمه . ثم ساء ما بينهما فى مسأَلة وقَعَت بمالقة ، وهى تجويز الخُلْفِ فى وَعْد الله ، شنَّع فيها على شيخنا المذكور ، ونَسَبه إلى أن قال ، وعُدْ الله ليس بلازم الصِّدق ، بل يجوز فيه الخُلْف . إذ الأَشياءُ فى حقه متساوية ، وكتب فى ذلك أَسئلة[1] للعلماء بالمغرب ، فقاطعه وهَجَره . ولمَّا وُلِّىَ القاضى أبو عبد الله بن بكر القضاء ، خافه ، فوجَّه عنه إثر ولايته ، فلم يشك فى

(١) وردت فى الإسكوريال (أسولة) فاقتضى التصويب .

الشر ، فلما دخل عليه ، رحَّبَ به ، وأظهر له القَبول عليه ، والعفو عنه ، واستانف مودَّته ، فكانت تُعَدُّ فى مآثر القاضى رحمه الله

ورحل المذكور إلى سَبْتة ، فقرأ بها على الأُستاذ أبى إسحق الغافقى ، ومن عاصره ، ثم عاد إلى مالقة ، فالتزم التدريس بها إلى حين وفاته

دخوله غرناطة

دخل غرناطة مرات ، متعلِّماً ، وطالب حاج . ودُعى إلى الإقراء بمدرستها النَّصرية [١] ، عام تسعة وأربعين وسبع مائة ، فقدم على الباب السُّلطانى ، واعتذر بما قُبل فيه عُذره . وكان قد شرع فى تقييدٍ مفيد على كتاب « التسهيل » [٢] لابن مالك . فى غاية النبل والاستيفاء والحَصْر والتَّوجيه ، عاقته المنية عن إتمامه .

وفاته : توفى بمالقة فى كاينة الطاعون الأعظم [٣] فى أُخريات ربيع الآخر من عام خمسين وسبعماية ، بعد أن تصدق بمال كثير ، وعهد بريع مُجد لطلبة العلم ، وحبس عليهم كتبه

محمد بن محمد بن لُب الكِنانى

من أهل مالقة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن لُب

---

(١) المدرسة النصرية أو مدرسة أو جامعة غرناطة ، هى المدرسة الشهيرة التى أنشأها السلطان يوسف أبو الحجاج ، فى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) . وقد سبق التعريف بها (أنظر ص ٣٦ من هذا المجلد من الإحاطة) .

(٢) هو كتاب « تسهيل الفوايد وتكميل المقاصد » فى النحو للعلامة اللغوى الكبير ابن مالك الجيانى ، صاحب الألفية الشهيرة . المتوفى سنة ٦٧٢ هـ .

(٣) الطاعون الأعظم أو الوباء الجارف هو الوباء العظيم الذى طاف بالمشرق وأوربا والأندلس سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨م) وقد كتب عنه ابن الخطيب رسالة « مقنعة السائل عن المرض الهائل » وقد أشرنا إليها فى المجلد الأول من الإحاطة (ص ٦٨) .

حـــاله

كان ذاكراً للعلوم القديمة . مُعتنياً بها . عاكفاً عليها . مُتقدِّماً فى علمها على أهل وقته . لم يكن يشاركه أحد فى معرفتها ، من الرياضيَّات والطبيعيَّات والإلاهيَّات . ذاكراً لمذاهب القُدَماء . ومآخذهم فى ذلك . حافظاً جداً ، ذاكراً لمذاهب المُتكلِّمين ، من الأشْعريَّة وغيرهم ، إلا أنه يوثر ما غَلَب عليه من مآخذ خصومهم . وكان نفُوذه فى فهمه ، دون نفوذِه فى حِفْظه ، فكان مُعْتَمده على حفظه فى إيراده ومناظرته ، وكان ذاكراً مع ذلك لأُصول الفِقه وفروعه ، عَجَبًا فى ذلك ، إذا وَرَدت مسألة ، أوْرَد ما للناس فيها من المذاهب . وعزم عليه آخر عمره ، فقعد بجامع مالقة ، يتكلم على الموطَّا ، وما كان من قبل تهيَّأ لذلك ، إلاَّ أنه سَتَرَ عليه حفظُه ، وتعظيمُ أهل بلده له . قال ابن الزُّبير ، وكانت فيه لَوْثَة ، واخْشِيشان ، وكان له أربٌ فى التَّطْواف ، وخصوصاً بأرض النصارى[1] ، يتكلم مع الأساقِفة فى الدِّين ، فيظهر عليهم ، وكانت أموره غريبة ، من امتزاج اليَقَظَة بالغَفْلة ، وخلْط السَّذاجة بالدُّعابة . يحكى عنه أنه كانت له شجرة تين بداره بمالقة ، فباع ما عليها من أحد أهل السُّوق ، فلما همَّ بجمعها ، ذهب ليمهد للتِّين بالورق فى الوعاء ، فمنعه من ذلك ، وقال له إنما اشتريت التين ، ولم تدخل الورق فى البيع ، فتعب ذلك المشترى ما شاء الله ، وجَلَب ورقاً من غيرها ، حتى انقضى الأمر ، وعزم على معاملته فى السنة الثانية . فأولُ ما اشترط الورق ، فلما فرغ من الغلَّة ، دعاه فقال له ، احمل ورقك . فإنه يُوذينى ، فأصابه من المشقة فى جَمْعه من أطراف

(١) وردت فى الإسكوريال (النصرى) ، وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

الغصون ما لم يكن يَحْتَسِب ، ولم تأت السنة الثالثة ، إلاَّ وللرجل فقيه ، اشترط مقدار الكفاية من الورق ، فسامحه ورَفَق به .

دخل غرناطة وغيرها . وأخباره عجيبة . قال أبو جعفر بن الزُّبير : عَرَض لى بمالقة مسايلُ ، يرجع بعضها إلى الطريقة البَيَانيَّة ، والمآخذ الأَدبية ؛ وضحت ضرورة إلى الأَخذ معه فيها ، وفى آيات من الكتاب العزيز ، فاستدعيته إلى منزلى ، وكان فيه تخَلُّق ، وحسن ملاقاة . مع خفَّته الطبيعية وتشتُّت منازِعه ، فأَجاب ، وأخذتُ معه فى ذلك ، فأَلفيتُه صايماً عن ذلك جملة .

وصْمَتُه

قال ، وكان القاضى الجليل ، أبو القاسم بن ربيع ، وأخوه أبو الحسن ينافرانه على الإطلاق ، ويحذران منه ، وهو كان الظاهر من حاله . قال ، واستدعانى فى مرض اشتَدَّ به ، قبل خروجى من مالقة على انفراد ، فتنصَّل لى مما كان يُذَنُّ(١) به ، وأكثر البكاء ، حتى رَثَيْتُ له .

وفاته : توفى بمالقة ، ووصَّى قبل موته بوصايا من ماله . فى صدقات وأشباهها ، وحبَس داره وطايفةً من كتُبه على الجامع الكبير بمالقة .

محمد بن محمد البـدوى

الخطيب بالرَّبَض من بَلِّش ، يكنى أبا عبد الله

حـــاله

من « العايد » : كان رحمه الله حسن التِّلاوة لكتاب الله ، ذا قَدَم فى

(١) يذن هنا بمعنى يوصم ويتهم من (الذن) وهو القذر

الفقه ، له معرفة بالأَصلين ، شاعراً مُجيداً ، بصيراً ، بليغاً فى خُطْبَته ، حسن الوعظ ، سريعَ الدِّمعة . حجَّ ولقى جلَّةً . وأَقرأ ببلِّش زماناً ، وانتفع به ، ولقى شدايد ، أصلُها الحَسَد

مشيخته

قرأ الْعِلْم على الشَّيْخَين الْمُقْرِيَين ، الحُجَّتَين ، أَبى جعفر بن الزَّيَّات ، وأَبى عبد الله بن الكَمَّاد ، وقرأ العربية والأَصلَيْن ، على الأُستاذ أَبى عمرو ابن مَنْظُور ، ولازمه وانتفع به ، وقرأ الفقه على الشيخ القاضى أَبى عبد الله ابن عبد السَّلام بمدينة تونس .

شعـــره

من شعره قوله فى غرض النسيب :

خالٌ على خدِّك أَمْ عَنْبَـــر ولُؤْلُؤٌ ثَغْـــرُك أَم جَوْهر
أَوْرَيت نار الوَجْد طَىَّ الحشا فصـــارت النَّـار به تَسْعَر
لو جُدْتَ لى منك برَشْف اللَّما لقلت خَمْر عَسَلٍ سُـكَّر
دعنى فى الحُبِّ أَذُبْ حَسْرَةً سفكُ دم العاشق لا يُنكر

وقال :

عَيْنَاى تفهم من عَيْنَيْك أَسرارا وورد خدِّك يُذْكى فى الحشا نارا
ملكتَ قَلبَ مُحِبٍّ فيك مُكْتَيِبٍ قد أثَّر الدَّمع فى خدَّيـــه آثارا
رُضاب ثغرك يروى حرَّ غُلَّتـــه يا ليت نفسى تَقْضى منه أوطارا
أنعِم بطَيْف خيالٍ منك أَلمحُه ماذا عليك بطَيْف منك لو زارا
نَفْسى فداؤك مــن ظَبْى به كَلَفٌ يَصْبو له القلب مضطَّرا ومُخْتارا

وقال :

أَيها الظَّبي تَرَفَّق بكَئِيب قد هَلَكْ
أَلِذَنْبٍ تَتَجَنَّى أَمْ لشَيءٍ يُوصلك
إنَّ رُوحى لكَ مِلكٌ وكذا قَلْبِيَ لَكْ
إنَّما أَنت هِلالٌ فَلَكَ الْقَلْبُ فَلَكْ

ومن مجموع نظمه ونثره ما خاطبني به ، وقد طلبتُ من أدَبه لبعض ما صدر عني من المجموعات : « يا سيدى أَبقاك الله بَهْجَةً للأَعيان الفضلاء ، وحُجَّةً لأَعْلام العَلاء ، ولا زلت تسير فوق النِّسر ، وتجرى فى الفضايل على كرم النَّجْر . ذكر لى فلان أَنكم أَردتُم أَن يَرِد على كمالكم ، بعضُ الهذيان ، الصادر عن مُعَظِّم جلالكم ، فأَكبرتُ ذلك ، ورأيتنى لستُ هنالك ، وعجبتُ أَن يُنْظم مع الدُّر السِّبَج ، أَو يضارع العَمَشُ الدَّعَج . بيد أَنَّ لنَظْم الدُّرِّ صُنَّاع ، والحديث قد يُذاع ، ولا يُضاع ، وحين اعتذرْتُ له فلم يَعْذُرْنى ، وانتظرته فلم ينظُرْنى ، بعد أَن استعفيتُه فأَبى ، واستنهضت جواد الإِجابة فكبى ، وسلك غير طريقى ، ولم يُبَلِّغنى ريقى ، وفَّيْتُ الغرض ، وقضيْتُ من إجابته الحَقَّ المُفْتَرض ، ورددت عن تَعْذاله النَّصيح ، وأَثْبَتُّ هنا ما معناهُ صحيح ، ولفظه غير فصيح :

بريتُ من حولى ومن قوَّتى بحَوْل من لا حَوْل إلاَّ له
رثقتُ بالخالق فهو الذى يُدَبِّر الْعَبْد وأفعاله

وقلت بالحرم عند المُلْتَزم من المنظوم فى مثل ذلك :

أَمولاى بالبـاب ذو فاقة وهذا يحطُّ خطايا الأُمم
فَجُدْ لى بعفوك عن زلَّتى يجُود الكريم بقدر الكَرَم

ومما أعددته للوِفادة على خير من عُقِدت عليه أَلْوِيةُ السِّيادَة :

حَمَدتْ إليك مع الصباح سُراها وأَتَتْك تطلُب من نَداك قِراها
وسَرَت إليك مع النَّسيم يمينُها شوقًا يسابق فى السُّرى يُسْراها

ولولا العَجَز لوصلتُ ، والعذر لأَطلتُ ، لكن ثَنيتُ عنانى لثنايك » لحُسْن اعتنايك ، وقلت معتذراً من الصُّورة لمجدكم ، وتالياً سورة حمدكم :

المجد تخبر عن صِدق مآثره وناظُم المجد فى العَلْياء ناثِرُه
والجُود إنْ جَدَّ جَدُّ المرء يُنْجِده وقلَّما ثمّ فى الأَيَّـام ذاكِرُه
من نال ما نِلتَ من مجدٍ ومن شرفٍ فليس فى الناس شخصٌ يُنَاظره
يا سيداً طاب فى العَلْياء مَحْتِده ما جداً رسَخَت فيـــه أَواصِرُه
سَرَيْتَ فى الفضل مُسْتَنًّا عـــلى سُنَنٍ فى الفضل مآربُه حقاًوسامره
ورِثْتَه عن كبيـر أَوْحـدِ عِلْمٍ كذاك يحمله أَيضاً أَكابـرُه
مُبَارَكُ الْوجه وضَّاحُ الجبين له نورٌ يُنير أَغـرُّ النُّـور باهرُه
مُوَفَّق بكفيلٍ من عنايته مُرَقَّـع الغُذر سامى الذِّكر طـاهرُه
رَعَيْتَ فى الفضل حقَّ الفضل مجتهداً مفهومُ مجدك هذا الحكم ظاهرُه
عَلوْتَ كالشمس إشراقاً ومنزلةً فأَنت كالغيث يُحْيِي الأَرض ماطرُه
يَنُمُّ بالفضل منك الفضلُ مشتهرا كما يَنُم بزَهْر الرَّوض عاطرُه
دُم وابقَ للمجد كَهْفاً والعُلاَ وَزَراً[1] فإنما المجد شخصٌ أَنت ناظرُه
مُؤَمَّلاً منك خيراً أَنت صانِعُهُ وصانعُ الخير عند الله شاكرُه
وما وُلِّيت وما أَوْلَيْت من حسنٍ فللنَّاس والعالم العُلْوى ذاكرُه
بقيتَ تُكسِب من والاك مَكْرَمةً وناصرًا أبدًا من قَلَّ ناصــره

---

(١) الوزر هو الجبل المنيع أو الملجأ والمعتصم .

عذراً لك الفضل عماجيت من خطإٍ   أَنْ يُخْطِ مثلى يوماً أنت عاذره
ثم السلام على عَلْياكَ من رجل   تُهدى الذى يَخْفَى ضمــايره

دخوله غَرْناطة : دخلها غير ما مرَّة ، ولقيتُه بها لتقضِّى بعض أغراض بباب السلطان ، مما يليق بمثله .

مولده : . . . . . . (١)

وفاته : توفى ببلِّش فى أُخريات عام خمسين وسبعماية .

محمد بن عبد الله بن مَيْمون بن إدريس بن محمد ابن عبد الله العبدري

قرطبي ، استوطن مدينة مرَّاكُش ، يكنى أبا بكر .

حــــاله

كان عالماً بالقراءات ، ذاكراً للتفسير ، حافظاً للفقه واللغات والأدب ، شاعراً مُحسِناً ، كاتباً بليغاً ، مبرِّزاً فى النحو ، جميلَ العشرة ، حسنَ الخلق ، متواضعاً ، فَكِه المحاضرة ، مليح المُداعبة . وصنَّف فى غيرما فنٍّ من الْعِلْم وكلامه كثير مدوَّن ، نظماً ونثراً .

مشــيخته

روى عن أبى بكر بن العربى ، وأبى الحسن شُريح ، وعبد الرحمن ابن بقى ، وابن الباذش ، ويونس بن مُغيث ، وأبى عبد الله بن الحاج ، وأبى محمد بن عتَّاب ، وأبى الوليد بن رُشد ، ولازمه عشرين سنة . قرأ

---

(١) بياض فى الأصل .

عليهم وسمع ، وأجازوا له ، وسمع أبا بَحْر الأسدى ، وأبوى بكر عيَّاش ابن عبد الملك ، وابن أبي ركب ، وأبا جعفر بن سانجة [١] ، وأبا الحسن عبد الجليل ، وأبا عبد الله بن خلف الأَيْسَرى ، وابن المُناصف ، وابن أُخت غانم ، ولم يَذْكر أنهم أجازوا له ، وروى أيضاً عن أبوى عبد الله مكِّى ، وابن المعمر ، وأبي الوليد بن طَريف .

من روى عنه : روى عنه أبو البقاء يعيش بن القديم ، وأبو الحسن ابن مؤمن ، وأبو زكريا المرجيعى ، وأبو يحيي أبو بكر الضرير واختص به .

تواليـــفه

من مُصَنَّفاته « مَشاحِذ الأفكار فى مآخذ النظار » وشَرْحاه الكبير والصغير على « جُمل الزجَّاجى » ، وشرح أبيات الإيضاح العَضُدى ، « ومقامات الحريرى » ، وشرح مُعشَّراته الغَزَليَّة ، ومُكَفِّراته الزهدية ، إلى غير ذلك ، وهما مما أبان عن وفُور علمه ، وغَزَارة مادَّته ، واتِّساع معارفه . وحسن تصرفه .

دخل غرناطة راوياً عن الحسن بن الباذِش ومِثله .

محنتـــه

كان يحضر مجلس عبد المؤمن [٢] مع أكابر من يحضره من العلماء ، فيشِفُّ على أكثرهم بما كان لديه من التحقيق بالمعارف . إلى أن أنشد

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وقد تكون صحتها (شانجه) ، وهو تعريب لاسم ملوك اسبانيا المشهور (سانشو) Sancho . وربما كان هذا العالم من طائفة المولدين (أى مسلمى الإسبان) .

(٢) هو الخليفة عبد المؤمن بن على ، أول خلفاء الدولة الموحدية بعد المهدى ابن تومرت . واستطالت خلافته بعد وفاة المهدى فى سنة ٥٢٤ هـ حتى وفاته فى سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) وقد اشتهر بمجالسه العلمية التى كانت تضم مئات من طلبة العلم . (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ١٤١ حاشية)

أبا محمد عبد المؤمن أبياتاً كان نَظَمها فى أبى القاسم عبد المنعم بن محمد ابن تسْت وهى :

أبا قـاسم والهـوى جنَّـة وها أنا من مَسِّها لم أفُـق
تقحَّمت جامح نار الضلوع كماخضتَ بحر دموع الحَدَق
أكُنت الخَليلَ أكُنتَ الكَليمَ أمِنْتَ الحريق أمِنْتَ الغَرَق

فهجره عبد المؤمن ، ومنعه من الحضور بمجلسه ، وصرف بنيه عن القراءة عليه ، وسَرى ذلك فى أكثر من كان يقرأُ عليه ، ويتردَّد إليه . على أنه كان فى الطبقة العُليا من الطَّهارة والعفاف .

شـعره

قال فى أبى القاسم المذكور ، وكان أزرَق ، وقد دخل عليه ومعه أبو عبد الله محمد بن أحمد الشاطبى ، وأبو عثمان سعيد بن قوسرة . فقال ابن قوسرة :

عابوه بالزُّرْق الذى يَجْفُونه والماءُ أزْرَقُ والعينَان كذلكا

فقال أبو عبد الله الشَّاطبى :

الماءُ يُهدى للنفوس حياتهـا والرُّمح يُشْرِع للمَنُون مسَالكا

فقال أبو بكر بن ميمون المُتَرْجم به :

وكذلك فى أجفانه سَبَبُ الرَّدى ولاكن أرى طِيب الحياة هُنالكا

ومما استفاض من شعره قوله فى زمن الصِّبا عفا الله عنه :

لا تكترث بفراق أوطان الصِّبا فعسى تنال بغيرهن سُعُـودا
والدُّر يُنظَم عند فَقْد بحـاره بجميل أجياد الحِسان عقـودا

ومن مشهور شعره :

توسَّلْتُ يا ربى بأنِّى مؤمــن وما قلت أنِّى سَامعٌ ومُطِيعُ
أَيُصْلِى بِحرِّ النار عاصٍ مُوحِّدٌ وأنت كريمٌ والرسول شَفِيعٌ

وقال فى مرضه :

أَيَرتجى العيش من عَلَيه دلائلُ للرَّدى جليَّة
أَوَّلُها مُخْبِر بشــــانٍ ذاك أمـــانٌ وذا مَنيَّــة

وفاته : توفى بمراكش يوم الثلاثاء اثنى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة سبع وستين وخمسماية ، ودفن بمقبرة تاغزوت داخل مراكش ، وقد قارب السبعين سنة .

محمد بن عبد الله بن عبد العظيم بن أرقم النُّميرى

من أهل وادى آش[1] ، يكنى أبا عامر .

حـــاله

كان أحد شيوخ بلده وطَلَبته ، مشاركاً فى فنون ، من فقه وأدب وعربية ، وهى أغلبُ الفنونِ عليه ، مطرِّح السَّمْت ، مُخْشَوْشِن الزِّى ، قليل المبالاة بنفسه ، مُخْتصراً فى كافة شيونه ، مليحُ الدُّعابة ، ... الحمل ، كثير التواضع ، وبيته معْمُور بالعلماء أُولى الأَصالة والتَّنْبيه ، تصدر ببلده للفُتْيا والتدريس والإسماع .

(١) تقع وادى آش ، وبالإسبانية Guadix شرق حضرة غرناطة . وإليها ينتسب كثير من الوزراء والعلماء والأدباء . وقد سبق التعريف بها (أنظر ص ١٠٩ من المجلد الأول من الإحاطة — حاشية) .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ القاضى أبى خالد بن أرْقم ، والأُستاذ أبى العبّاس ابن عبد النّور . وروى عن أبيه مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الوزير العالم أبى عبد الله بن ربيع ، والقاضى أبى جعفر بن مسعدة ، والأُستاذ أبى جعفر بن الزبير ، وولى الله الحسن بن فضيلة .

ورحل إلى العُدْوة ، فأَخذ بسَبْتة عن الأُستاذ أبى بكر بن عُبيدة ، والإمام الزاهد أبى عبد الله بن حريث ، وأبى عبد الله بن الخضار ، وأبى القاسم بن الشّاط ، وغيرهم .

شـــعره

وهو من الجزء المسمى «بشعر من لا شعر له» والحمد لله . فمن ذلك قوله يمدح أبا زكريا العزفى بسبتة ، ويذكر ظفره بالأُسطول من قصيدة أولها :

أمّا الوصال فإنّه كالعيد　　　عُذر المتيّم واضح فى الغِيد

وفاته : توفى ببلده عام أربعين وسبعماية . ودخل غرناطة ، راوياً ومتعلماً ، وغير ذلك .

محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فرج بن الجَدّ الفهرى

الحافظ الجليل يكنى أبا بكر ، جليل إشبيلية ، وزعيم وقته فى الحِفْظ . لبْلِى(١) الأصل ، إشبيلى ، استدعاه السّيد أبو سعيد والى غرناطة ، فأقام بها

(١) نسبة إلى مدينة لبلة وبالإسبانية Niebla ، وهى أحدى مدن ولاية الغرب الأندلسية Algarve ، وتقع غربى إشبيلية على الضفة اليمنى للنهر الأحمر Rio Tinto ، ومازالت حتى اليوم تحتفظ بأسوارها الموحدية المحيطة بها كاملة . وقد سقطت لبلة فى يد ألفونسو العاشر (الحكيم) ملك قشتالة فى سنة ٦٥٥ ﻫ (١٢٥٧ م) .

عنده ، فى جُمْلةٍ من الفضلاءِ مثله سِنين . ذكر ذلك صاحب كتاب « ثَوْرة المُريدين »[١] .

حـــاله

كان فى حِفْظ الفقه بَحْرًا يَغْرِفُ من مُحِيط . يقال إنه ما طالع[٢] شيئاً من الكتب فَنَسِيَه[٣] ، إلى الجلالة والأَصالة ، وبُعْد الصِّيت ، واشتهار المَحَلِّ . وكان مع هذا يتكلَّم عند الملوك ، ويَخْطُب بين يديها ، ويأْتى بعُجَاب ، وفى كتاب « الإعلام » شيءٌ من خبره ، قال ابن الزبير .

مشـيخته

روى عن أَبى الحسن بن الأَخضر ، أَخذ عنه كتاب سيبويه وغير ذلك ؛ وعن أَبى محمد بن عتَّاب ، وسمع عليه بعض المَوَطَّأْ ، وعن أَبى بَحْر الأَسدى ، وأَبى الوليد بن طَريف ، وأَبى القاسم بن منظور القاضى ، وسمع عليه صحيح البخارى كله ، وشُرَيح بن محمد ، وأَبى الوليد بن رُشد . وناوله كتاب « البيان والتحصيل » . وكتاب « المقَدِّمات » . لقى هؤلاءِ كلهم ، وأَجازوا له عامة . وأَخذ أَيضاً عن مالك بن وهيب .

من حدَّث عنه

أَبو الحسن بن زَرْقون ، وأَبو محمد القرطبى الحافظ ، وإبنا حوط الله ، وغيرهم . وعليه من خُتمت به المائة السادسة كأَبى محمد بن جُمْهور ،

---

(١) كتاب « ثورة المريدين » من تأليف ابن صاحب الصلاة صاحب كتاب « المن بالإمة » (الخاص بتاريخ الموحدين) . وهو يعالج فيما يبدو مما وصل إلينا من الإشارات تاريخ وفلسفة ابن قسى وزملائه ، زعماء ثورة الغرب فى بداية حكم الموحدين للأندلس . ولم يصل هذا الكتاب إلينا .

(٢) وردت فى الإسكوريال (طلع) . والتصويب من الزيتونة .

(٣) وردت فى الإسكوريال (فانسيه) ، والتصويب من الزيتونة .

وأبى العبَّاس بن خليل وإخوته الثلاثة أبى محمد عبد الله ، وأبى زيد عبد الرحمن ، وأبى محمد عبد الحق . قال الأُستاذ أبو جعفر بن الزبير : حدَّثنى عنه ابن خليل وأبو القاسم الجيَّانى ، وأبو الحسن بن السَّراج .

مولده : [بلبلة][1] فى ربيع الأول سنة ست وتسعين وأربعماية ؛ وتوفى [بإشبيلية][1] فى شوال سنة ست وثمانين وخمسماية . ذكره ابن الملجوم ، وأبو الربيع بن سالم ، وابن فُرْتون .

محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن على بن محمد ابن أحمد بن الفخَّار الُجذامى

يكنى أبا بكر ، أرْكُشى[2] المولد والمنشا ، مالَقى الاسْتيطَان ، شَرِيشى[3] التدرُّب والقراءة .

حـــاله

من « عايد الصِّلة » : كان رحمه الله خيِّراً صالحاً ، شديد الانقباض ، مُغْرقاً فى باب الورَع ، سليم الباطن ، كثير العكوف على العلم والمُلازمة ، قليل الرياء والتصنُّع . خرج من بلده أرْكُش عند استيلاء العدو على قصبتها ، وكان يَصِفها ، وينشد فيها من شعر أُستاذه الأَديب أبى الحسن الكرْمانى :

أكرم بأرْكُش دارا ... تاهَتْ على البَدْر قَدْرا
يخاطب المجدُ عنها ... لقلبِ تَدْنى شُكْرا

---

(١) الزيادة من « جذوة الاقتباس » .

(٢) نسبة إلى مدينة أركش وقد سبق التعريف بها .

(٣) نسبة إلى شريش وبالإسبانية Xerex أو Jerez ، هى مدينة أندلسية تقع على نهر وادى لكه على مقربة من ثغر قادس .

واستوطن مدينة شَرِيش ، وقرأ بها ، وروَّى بها عن علمائها ، وأقرأ بها .
ولما استولى العدو عليها لحق بالجزيرة الخضراء ، فدرَّس بها ، ثم عبر البحر إلى سَبْتة . فقرأ بها وروَّى . ثم كرَّ إلى الأندلس ، فقصد غرناطة ،وأخذ عن أهلها . ثم استوطن مالَقة ، وتصدَّر للإقراء بها ، مفيدُ التعليم ، متفَنِّنه ، من فقه وعربية وقراءات وأدب وحديث ، عظيمُ الصبر ، مستغرقُ الوقت . يدرس من لَدُن صلاة الصبح إلى الزَّوال . ثم يُسْند ظهره إلى طاق المسجد بعد ذلك ، فيقرى ، وتأتيه النساءُ من خَلْفه للفُتْيا ، فيُفْتِيهنَّ على حال سؤالاتهنَّ إلى نِصْف ما بيْن العصر والعِشاء الأُولى . ثم يأْتى المسجد الأعظم بعد الغروب ، فيقعُد للفُتيا إلى العِشاء الآخرة ، من غير أن يَقْبل من أحد شيئاً . ومن أخذَ منه بعد تَحْكِيم الوَرَع ، أثابه بمثله . ما رئى فى وقته أوْرع منه . وكان يتَّخذ روميَّةً مملوكةً ، لا يشتمل منزله على سواها ، فإذا أَنِس منها الضَّجر للحصر وتمادى الحجاب، أعتقها[1] ، وأصْحَبها إلى أرضها .
ونشأت بينه وبين فقهاءِ بلده خصومة[2] فى أمور عَدُّوها عليه ، مما ارتكبها اجتهاده فى مناط الفَتْوى ، وعقد لهم أمير المسلمين بالأندلس ، مجلساً ، أجلى عن ظهوره فيه ، وبقاءِ رسمه ، فكانت محنَة ، وخلَّصه الله منها .
وبلغ من تعظيم الناس إيَّاه ، وانحياشهم إليه مَبْلَغاً لم ينَلْه مثلُه ، وانتُفع بتعليمه ، واستُفيد منه الأدب ، على نُسْكه وسذاجته .

مشيخته

قرأ ببلده شَرِيش على المُكَتِّب الحاج أبى محمد عبد الله بن أبى بكر ابن داود القيسى . وعلى الأُستاذ أبى بكر محمد بن محمد بن الرَّباح ، وعلى

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (أطلقها)
(٢) هكذا وردت فى الزيتونة ، ووردت فى الإسكوريال (مشاحة ، مشاحنة) والأولى أرجح .

الأُستاذ أَبى الحسن على بن إبراهيم بن حكيم السَّكونى الكَرْمانى . أخذ عنه العربية والأَدب ، وعلى الحافظ أَبى الحسن على بن عيسى المعروف بابن متيوان ، وعلى الأُصولى الكاتب أَبى الحسن هلال بن أَبى سِنان الأَزدى المُرَّاكشى ، وعلى الخطيب أَبى العرب إسمعيل بن إبراهيم الأَنصارى ، وعلى الفقيه أَبى عبد الله الجُنَيدى المعروف بالغرَّاق ؛ وعلى الفقيه العَدَدِى أَبى عبد الله محمد بن على بن يوسف المعروف بابن الكاتب المِكْناسى . وقرأَ بالجزيرة الخضراءِ على الخطيب الصالح أَبى محمد الرَّكبى ، وروى عنه ، وقرأَ بها على الخطيب أَبى عُبيد الله بن خميس ، وعلى الأُصولى أَبى أُميَّة . وقرأَ بسَبْتة على الأُستاذ الفَرَضى إمام النحاة أَبى الحسن بن أَبى الربيع ، وعلى أَبى يعقوب المحبسانى ، وعلى المحدِّث أَبى عمرو عثمان بن عبد الله العَبْدَرى ، وعلى الفقيه المالكى الحافظ أَبى الحسن المِثيوى ، والأُصولى أَبى الحسن البَصرى ، والفقيه المُعَمَّر الراوية أَبى عبد الله محمد الأَزْدى ، والمحدث الحافظ أَبى محمد بن الكَمَّاد ، وعلى الأُستاذ العَرُوضى الكفيف أَبى الحسن بن الخَضَّار التلمسانى . ولقى بغرناطة قاضى الجماعة أَبا القاسم ابن أَبى عامر بن ربيع ، والأُستاذ أَبا جعفر الطبَّاع ، وأَبا الوليد إسمعيل ابن عيسى بن أَبى الوليد الأزدى ، والأُستاذ أَبا الحسن بن الصَّائغ . ولقى بمالقة الخطيب الصالح أَبا محمد عبد العظيم بن الشيخ، والرَّاوية أَبا عبد الله محمد بن على بن الحسن الجُذامى السُّهيلى . وسمع على الرَّاوية أَبى عمرو ابن حوْط الله ، وعلى الأُستاذ أَبى عبد الله بن عباس القرطبى

تواليفه

كان رحمه الله مُغْرًى بالتأليف ، فأَلَّف نحو الثلاثين تأليفاً فى فنون مختلفة . منها كتاب « تَحْبِير نظم الجُمان فى تفسير أُم القرآن » ،

و « انتفاع الطَّلبة النُّبهاء فى اجتماع السَّبعة القُرَّاء » . و « الأَحاديث الأَربعون بما ينتفع به القارئون والسَّامعون » ، وكتاب « مَنْظُوم الدُّرَر فى شرح كتاب المختصر » ، و « كتاب نصح المقالة فى شرح الرسالة » ، وكتاب « الجواب المختصر المرُوم فى تحريم سكنى المسلمين ببلاد الرُّوم » ، وكتاب « استواءُ النَّهج فى تحريم اللعب بالشطرنج » ، وكتاب « الفَيْصل المنْتَضى المهزوز فى الرَّد على من أنكر صِيام يوم النَّيْرُوز » ، وكتاب « جواب البيان على مُصارمة أهل الزمان » ، وكتاب تفضيل صلاة الصبح للجماعة فى آخر الوقت المُخْتار على صلاة الصبح للمنفرد فى أول وقتها بالابتدار » ، وكتاب « إرشاد السَّالك فى بيان إسناد زِياد عن مالك » ، وكتاب « الجوابات المُجْتمعة عن السُّؤالات المُنَوَّعة » ، وكتاب « إملا فوايد الدول فى ابتداء مقاصد الجمل » ، وكتاب « أجوبة الإقناع والإحساب فى مشكلات مسايل الكتاب » ، وكتاب « مَنْهج الضَّوابط المُقَسَّمة فى شرح قوانين المُقَدِّمة » ، وكتاب « التوجيه الأَوضح الأَسما فى حذف التنوين من حديث أسما » ، وكتاب « التكملة والتَّبْرية فى إعراب البسملة والتَّصْلية » ، وكتاب « سَحُّ مُزْنَة الانتخاب فى شرح خُطْبة الكتاب ». ومنها اللَّايح المعتمد عليه فى الرد على من رفع الخبر بلا إلى سيبويه ، وغير ذلك من مُجيد ومُقصر

شـــعره

وشعره كثير ، غريب النَّزْعة ، دالٌ على السَّذاجة ، وعدم الاسْتِرابة والشعور ، والغَفْلة المُغْرِبة عن السَّلامة ، من ارتكاب الحوشى ، واقتحام الضِّرار[1] ، واستعمال الأَلْفاظ المشتركة التى تتشبَّث بها أطراف الملاحين

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الضراير) .

والمعاريض ، وَلَع كثير من أهل زمانه بالرّد عليه ، والتّملّح بما يصدر عنه ، منهم القاضى أبو عبد الله بن عبد الملك .

ومن منتخب شعره قوله :

أُنظر إلى ورد الرِّياض كأنّه ديباجُ خَدٍّ فى بَنان زَبَرْجد

قد فَتَّحته نضارةٌ فبدا لـه فى القلب رونق صُفْرةٍ كالعَسْجد

حَكَت الجوانب خدَّ حبٍّ ناعم والقلبُ يحكي خدَّ صبٍّ مُكْمَد

حدَّث الفقيه العدل أبو جعفر أحمد بن مُفضل المالقى ، قال ، قال لى يوما الشيخ الأُستاذ أبو بكر بن الفخّار ، خرجت ذات يوم وأنا شاب من حَلَقة الأُستاذ بشَرِيش ، أعادها الله للاسلام ، فى جملة من الطلبة ، وكان يقابل باب المسجد حانوت سَرّاج ، وإذا فتىً وسيمٌ فى الحانوت يَرْقُم جِلْداً كان فى يده ، فقالوا لى لا تجاوز هذا الباب ، حتى تَصْنع لنا شعراً فى هذا الفتى . فقلت :

وربَّ معـذَّر للحبِّ داع (١) يروق بهاءُ مَنْظَره البهيج

وشَى فى وجنتيه الحسنُ وشْياً كوَشْى يَدَيْهِ فى أدم السروج

مولده : بحصن أَرْكُش بلده ، وكان لا خْبِر به ، فى ما بين الثلاثين والأربعين وستماية .

وفاته : توفى بمالَقة فى عام ثلاثة وعشرين وسبعماية ، وكانت جنازته بمالقة مشهورة

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى « الزيتونة » (دارع) .

محمد بن علي بن عمر بن يحيي بن العربي الغساني

من أهل الحَمّة من عمل ألْمَرِيَّة ، يكني أبا عبد الله ، ويعرف بابن العربي وينتمي في بني أسْود من أعيانها .

حــــاله

من « العايد » : كان رحمه الله من أهل العلم والدين والفضل ، طَلْقُ الوجه ، حسن السَّيْر ، كثير الحياء ، كأنَّك إذا كلَّمْته تُخاطب البكرَ العَذْراءَ ، لاَ تلْقَاهُ إلاَّ مُبْتَسِماً ، في حُسْن سَمْت ، وفضل هوىً ، وجميل وقار ، كثير الخشوع ، وخصوصاً عند الدخول في الصّلاة ، تلوح عليه بذلك ، عند تِلاوته سِيمَى الحضور ، وحلاوة الإقبال . وكان له تحقُّقٌ بضبط القراءات ، والقيام عليها ، وعناية بعلم العربية ، مع مشاركة في غير ذلك من الفنون السّنية ، والعلوم الدينية . انْتَصب للإقراء والتدريس بالحمّة المذكورة ، فقرَّب النُّجْعَة على أهل الحصون والقرى الشَّرقية ، فصار مُجْتَمعاً لأرباب الطُّلب من أهل تلك الجهات ومُرْتفقاتهم . وكان رجلا صالحا ، مُبارك النيَّة ، حسن التَّعليم ، نفَع الله به من هنالك ، وتخرَّج على يديْهِ جمْعٌ وافر من الطَّلَبة ، عَمَرت بهم سايِرُ الحصُون . وكان له منزلٌ رحبٌ للقاصدين ، ومُنْتَدًى عذبٌ للواردين . تجول في آخِرَة بالأندلس والعُدْوة ، وأخذ عمن لقى بها من العلماء ، وأقام مدَّةً بسَبْتة ، مُكبًّا على قراءة القرآن والعربية . وبعد عوده من تَجْواله لزم التصدُّر للإقراء بحيث ذكر ، وقد كانت الحواضر فقيرة لمثله ، غير أنه آثر الوطن ، واختار الاقتصاد .

مشيخته

أخذ بألْمَرِيَّة عن شيخها أبى الحسن بن أبى العَيْش ، وبغرناطة عن الأُستاذ أبى جعفر بن الزُّبير ، والعَدل أبى الحسن بن مَسْتقور . وببلِّش عن الأُستاذ أبى عبد الله بن الكمَّاد ، والخطيب أبى جعفر بن الزيات . وبمالَقة عن الأُستاذ أبى عبد الله بن الفخَّار ، والشَّيخ أبى عبد الله محمد بن يحيى بن ربيع الأَشعرى . وبالجزيرة عن خطيبها أبى العبَّاس بن خَميس . وبسَبْتَة عن الأُستاذ أبى إسحق العافقى ، والخطيب أبى عبد الله بن رُشيد ، والإمام الصالح أبى عبد الله محمد بن محمد بن حُريث ، والقاضى أبى عبد الله القرطبى ، والزَّاهد أبى عبد الله بن مُعَلَّى ، والشيخ الخطيب أبى عبد الله الغِمارى . وبمكناسَة عن القاضى وارياش . وبفاس من الحاج الخطيب أبى الربيع سليمان بن مِفتاح اللجَّاى ، والأُستاذ أبى الحسن بن سليمان ، والأُستاذ أبى عبد الله بن أَجْرُوم الصَّنهاجى ، والحاج أبى القاسم بن رجا ابن محمد بن على وغيرهم ، وكل من ذُكر أجاز له عامة ، إلاَّ قاضى مكناسة أبى عبد الله محمد بن على الكلبى الشهير بوارياش .

مولده : فى أول عام اثنين وثمانين وستماية

وفاته : توفى بالحمَّة ليلة الإثنين الثامن عشر لشهر محرَّم عام ثمانية وأربعين وسبعماية .

محمد بن على بن محمد العَبْدرى

من أهل مالَقة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف باليَتيم

حـــاله

كان رحمه الله أحد الظرفاء من أهل بلده ، مليح الشكل ، حسنَ الشَّيبة ،

لَوْ ذَعياً فى وقار ، رشيقَ النظم والنثر ، غَزِلا مع الصَّون ، كثير الدُّعابة من غير إفْحاش ، غزير الأَدب ، حسنَ الصَّوت ، رايِق الخَطِّ ، بديع الوِراقة ، مَغْسُول الأَلْفاظ ، مُمْتِع المُجالسة ، طَيِّب الْعِشْرة . أَدَّب الصِّبيان مدة ، وعقد الشروط أُخرى ، وكان يقرأُ كتب الحديث والتفسير والرَّقايق للعامة بالمسجد الأَعظم ، بأَعْذَب نَغَمة ، وأَمْثَل طريقة ، مذ أَزيد من ثلاثين سنة ، لم يُخِل منها وقتاً إلا ليلتين ، إحداهما بسبب امتساكنا به فى نُزْهة برياض بعض الطلبة . لم يُخلف مثلَه بعده . وخطب بقَصَبة مالقة ، ومال أَخيراً إلى نظر الطِّب، فكان الناس يميلون إليه ، وينتفعون به لسِياغ مشاركته ، وعُموم انقياده ، وبرِّه ، وعمله على التَّودُّد والتَّجمُّل .

وجرى ذكره فى « التَّاج المُحَلَّى » بما نصُّه : مجموع أَدوات حِسان ، من خطٍّ ونَغَمة ولِسان ، أوراقُه روضٌ تضَوَّع نَسَماته ، وبِشْرُه صبح تتأَلَّق قَسَماته ، ولا يُخْفى سِماته . يُقَرْطِس أَغراض الدُّعابة ويُصْميها ، ويُفَوِّق سِهام الفُكَاهة إلى مراميها ، فكلَّما صدرت فى عصره قصيدةٌ هازلة ، أَو أَبياتٌ مُنْحَطَّة عن الإجادة نازِلة ، خَمَّس أَبياتها وذيَّلها ، وصَرَف معانيها وسهَّلها ، وتركها سمَر النُّدمان ، وأُضحوكة الزمان . وهو الآن خطيب المسجد الأَعلى من مالقة ، مُتَحلٍّ بوقار وسكينة ، حال من أَهلها بمكانة مَكِينة ، لسهولة جانبه ، واتِّضاح مقاصِده فى الخَيْر ومذاهبه . ، واشتغل لأَوَّل أَمره بالتَّعليم والتَّكْتِيب ، وبلغ الغاية فى الوقار والتَّرتيب ، وللشَّباب لم يَنْصِل خضابه ، ولا شُلَّت للمَشِيب عِضابُه ، ونفسه بالمحاسن كَلِفة ، وشأنه كله هوىً ومحبَّة . ولذلك ما خاطبه به بعض أُودَّايه ، وكلاهما رمى أَهله بِدايه ، حسبما يأتى خلال هذا المَقُول وفى أَثنايه بحول الله .

شعره

كتبتُ إليه أسأل منه ما أُثبتُ فى كتاب « التَّاج » من شعره ، فكتب إلى :

أما العرام فلم أُخلل بمَذْهبه ... فَلِمَ حَرَمْتَ فُؤَادِى نَيْل مَطْلَبه
يا مُعْرضاً عن فؤادٍ لم يزل كَلِفاً ... بحُبِّه ذا حِذار من تَجَنُّبه
قطعتَ عنه الذى عوَّدتَه فغدا ... وحظُّه من رضاه بَرْق خُلَّبه
أيام وَصْلِك مبْذُولٌ وبرُّك بى ... مُجْدِدٌ قد صفا لى عَذْبُ مَشْربه
وسَمْعُ وُدِّك عن إفْك العَواذل فى ... شُغْلٍ وبدرُ الدُّجى نَاسٍ لمَغْربه
ألأَنْت تمنَعنى نَيْل الرِّضا كَرَماً ... ولا فُؤَادى بوانٍ فى تَطَلُّبه
لله عَرفك ما أذكى تَنَسُّمه ... لو كنتَ تمنَحُنى استنشاق طِيِّبه
أنت الحبيبُ الذى لم أتَّخِذ بدلا ... منه وحاشَ لقلبى منْ تَقَلُّبِه
يا ابن الخطيب الذى قد فُقْتَ كلَّ سناً ... أزال عن ناظرى إظلام غَيْهَبه
محمدُ الحَسِن فى خَلْقٍ وفى خُلُق ... كَمُلَت باسمك معنى الحُسْن فازْه به
نأَيْت أو غِبْتَ مالى عن هواك غِنًى ... لا ينقُصُ البدر حُسْناً فى تَغَيُّبِه
سِيَّان حالُ التَّدانى والبُعاد وهل ... لمُبْصِرِ البَدْرِ نَيْلٌ فى تَرَقُّبه
يا منْ أُحْسِن ظَنِّى فى رضاهُ وما ... ينْفَكُّ يُبدى قَبِيحاً منْ تَغَضُّبه
إن كان ذَنْبى الهوى فالقلب منِّى ... لا يُصْغى لسَمْع ملامٍ منْ مُؤَنِّبه

فأجبته بهذه الرسالة ، وهى ظريفة فى معناها :

« يا سيدى ، الذى إذا رُفعت رايةُ ثَنايه تلقَّيتُها باليَدَيْن . وإذا قُسِّمت سِهام وِدَاده على ذوى اعتِقاده ، كنت صاحبَ الفريضة والدِّين . دام بقاؤك لطُرْفَةٍ تُبديها ، وغَريبَةٍ تُرْدِفُها ، بأُخرى تَليها ، وعقيلةِ بيانٍ تُحليها ونفسٍ أخذ الحُزْنُ بكَظْمِها ، وكَلِف الدَّهر بشتِّ نَظْمها ، تُونِسها وتُسْليها ، لم أزل أعَزَّك الله ، أَشُدُّ على بدايعها يَدَ الضَّنين ، وأقْتَنِى دُرَرَ كلامك ،

ونَفَثات أَقلامِك ، اقْتِناءَ الدُّرِّ الثمين ، والأَيام بلقياك تَعِد ولا تَسْعِد ، وفى هذه الأَيام انثالَتْ علىَّ سماؤُك بعد قَحْط ، وتوالت علىَّ آلاؤُك على شَحْط ، وزارَتْنِى من عقَايل بَيانك كلُّ فاتِنة الطَّرف ، عاطِرة العَرْف ، رافِلَة فى حُلل البيان والظَّرف ، لو ضُربت بيوتُها بالحجاز ، لأَقرَّت لنا العربُ العاربة بالإِعجاز ، ماشِيت منَ رَصْف المَبْنى ، ومطاوعة اللَّفظ لغرض المَعْنى ، وطيب الأُسلوب ، والتَّشَبُّث بالقلوب . غير أَن سيِّدى أَفرط فى التَّنَزُّل ، وخلط المخاطبة بالتَّغَزُّل ، وراجع الالْتِفات ، ورام اسْتِدراك ما فات . يرحم الله شاعر المعرَّة ، فلقد أَجاد فى قوله ، وأَنكر مناجاةً للشَّوْق ، بعد انْصِرام حَوْله فقال :

أَبَعْدَ حَوْلٍ تُناجى للشَّوق ناجية ... هلاَّ ونحن على عَشْر من العُشْر

وقد تَجَاوَزْتَ فى الأَمل ، وأَنْسَيتَ أَخبار صاحِبك عبد الصَّمد ، فأُقسمُ بأَلِفات القُدود ، وهَمَزات الجُفُون السُّود ، وحاملى الأَرْواح مع الأَلواح ، بالغَدْوِ والرَّواح ، لولاَ بُعْد مَزَارِك ، ما أَمِنْتُ غايلةَ ما تَحْت إزَارِك . ثمَّ إنِّى حقَّقْتُ الغرض ، وبحثتُ عن المُشْكل الذى عَرَض ، فقلتُ للخواطِر انتِقال ، ولكلِّ مَقام مَقال ، وتختلفُ الحوايجُ باختلاف الأَوقات ، ثم رفع اللَّبسَ خبرُ الثِّقات .

ومنها : وتعرَّفتُ ما كان من مُراجعة سيدى لحرفة التَّكْتِيب والتَّعْلِيم ، والحَنِين إلى العهد القديم ، فسُررت باستقامة حاله ، وفَضْل ماله . وإنْ لاحظ المُلاحظ ما قال الجاحظ ، فاعتراضٌ لا يُرَدُّ ، وقياس لا يُضطَّرد . حبَّذا والله عيش أَهل التَّاديب ، فلا بالضَّنْك ولا بالجَدِيب ، معاهدةُ الإِحسان ، ومشاهدةُ الصُّور الحِسان ، يميناً إنَّ المُعَلِّمين لسادةُ المُسْلمين . وإنِّى لأَنظر منهم ، كلما خطرت على المكاتب ، أَمراً فوق المراتب ، من كل مُسَيْطِر

الدُّرَّة ، مُتَقَطِّب الأَسِرَّة ، مُتَنَمِّر لِلْوارِد تَنَمُّر الهِرَّة ، يَغْدو إلى مَكْتبه ، والأَمير فى مَوْكِبه ، حتى إذا استقلَّ فى فرشه ، واستولى على عرْشه ، وترنَّم بتلاوة قانُونِه وورْشِه ، أظهر للخَلْق احتقاراً ، وأنْدَى بالجبال وقاراً ، ورُفعت إليه الخصوم ، ووَقَف بين يديه الظَّالم والمظلوم ، فتقول كِسْرى فى إيوانه ، والرَّشيد فى زمانه ، والحجَّاج بين أَعْوانه . وإذا استولى على البَدْر السَّرار ، وتبين للشهر القرار[1] ، وتحرك إلى الخَوْج ، تحرُّك القرد إلى الفَرْج . أستغفر الله مما يشقُّ على سيدى سماعه ، وتشمئزُّ من ذكراه طباعُه ، شِيم الِّلسان ، خَلْطُ الإساءة بالإحسان ، والغفلة من صِفات الإنسان . فأَىُّ عَيْشٍ هذا العيش ، وكيف حال أمير هذا الجيش ، طاعة معروفة ، ووجُوهٌ إليه مَصْروفة ، فإن أشار بالإنصات ، تتحقق الغُصَّات ، فكأنَّما طَمَسَ الأَفْواه ، ولام بين الشِّفاه . وإن أمر بالإفْصاح ، وتِلاوَة الأَلْواح ، علا الضَّجيج والعَجيج ، وحفَّ به كما حفَّ بالبيت الحجِيج . وكم بين ذلك من رِشْوة تُدَسُّ ، وغَمْزة لا تُحَسُّ ، ووعْد يُسْتَنْجز ، وحاجة تُسْتَعْجَل وتُحْفَز . هنَّأَ الله سيدى ما خوَّله ، وأنْساه بِطيب آخِره أوَّلَه . وقد بعثتُ بدُعابتى هذه مع إجلال قَدْرِه ، والثِّقة بسَعَة صَدْره ، فليَتَلَقَّها بيمينه ، ويَفْسَح لها فى المَرْتبة بَيْنَه وبيْن خَدِينه ، ويُفْرغ لمراجعتها وقتاً من أَوْقاته ، بمُقْتَضَى دِينه ، وفَضْلِ يَقِينه ، والسَّلَام .

ومن شعره ما كتب به إلىَّ :

آيات حسنك حُجَّة للقـــال ... فى الحب قائمةٌ على العُــذّال
يا مَنْ سَبا طوعا عقول ذوى النُّهى ... ببلاغةٍ قد أُيِّدَت بجمـــال
يستَعْبِد الأَبصار والأَسماع ما ... يجْلُو ويتْلُو من سَنِيِّ مقـــال

(١) وردت فى الإسكوريال (العرار) . ونعتقد أن التصويب أرجح .

وعليكَ أهواءُ النفوس بأَسرها   وُقفت فَطيرُك لا يمرُّ ببال
رفعت لريُّه [1] فى البلاغة رايةً   لمّا احتلَلْت بها وحيدَ كمال
وغدت تُباهى منك بالبَدْر الذى   تَعْنو البدور لنُوره المُتَلالِ
ماذا ترى ياابن الخطيب لخاطب   وُدًّا ينافس فيك كلَّ مقال
جَذَبَتْه نحو هواك غُرٌّ محاسنٍ   مشفوعةٌ أفرادها بمعال
وشمايلُ رقَّت لرقَّة طبعها   فزُلالها يُزْرى بكل زُلال
وحَلْىُ آداب بمثل نَفِيسها   تَزْهو الحُلا ويحلُّ قدر الحال
يستخدم الياقوت عند نِظامها   فَمُقَصِّرٌ مَنْ قاسَها بلآل
سبق الأَخيرُ الأَوَّلين بفضلها   فغدا المُقَدَّم تابعا للتَّال
شغفى بذكرٍ من عقايلها إذا   تبدو تُصان من الحِجا بحِجال
فابعث بها نِلْتَ المُنَا ممهورةً   طيبَ الثَّنا لنَقْدها والكال
لا زلتَ شمساً فى الفضايل يُهتدى   بسَناك فى الأَفعال والأَقوال
ثم السَّلام عليك يَتْرى ما تَلتْ   بُكرُ الزَّمان روادفَ الآصال

ومن الدُّعابة ، وقد وقعت إليها الإشارة من قبل ، ما كَتَب به إليه صديقه الملاطف أبو على بن عبد السَّلام :

أَبا عبد الله نداءَ خلٍّ وفىٍّ   جاءَ يمنحك النَّصيحة
إلى كم تألف الشُّبان غيًّا   وخِذْلانا أما تخشى الفَضيحة

فأَجابه رحمه الله :

فَدَيْتك صاحب السِّمة المليحة   ومن طابَتْ أَرومته الصَّريحة
ومن قلبى وضعتُ له محلاً   فما عنه يحلُّ بأَن أزيحه
نأَيْتُ فدمع عينى فى انسكابٍ   وأَكبادٌ لفُرْقَتكم قَريحة

---

(١) ريه هنا هو اسم الولاية الأندلسية التى يقع بها ثغر مالقة بلد المترجم له . وبالإسبانية **Rejio**

وطَرْفى لا يُتـــاح له رُقـــاد   وهل نوْمٌ لأَجفـــانٍ جَريحة
وزاد تَشَوُّقى أَبيـــاتُ شـــعر   أَتت منكُمُ بأَلفاظٍ فصيحة
ولم تَقْصِد بها جَدًّا ولاكن   قَصدتَ بها مُداعبةً قبيحة
فقلت أَتَأْلفُ الشبّان غيًّــا   وخِذْلانا أَما تخشى الفضيحة
وفيهم حِرْفَتى وقوامُ عَيْشى   وأَحوالى بخُلْطَتهم نجيـــحة
وأَمـــرى فيهم أَمـــرٌ مُطـــاع   وأَوجُهُهم مصابيحُ صَبيحة
وتعلم أَنَّنى رجلٌ حَصُـــورٌ   وتعرفُ ذاك معـــرفة صحيحة

قال فى « التّاج »(١) : ولما اشتهر المَشِيب بعارضه ولِمَّته ، وخَفَر الدهر لعمود صباه وإذمَّته ، أَقْلَع واسْترجع ، وتـأَلّم لما فَرطَ وتوجَّع ، وهو الآن من جلَّة الخطباءِ ، طاهرُ العِرض والثَّوْب ، خالصُ من الشَّوْب ، بادٍ عليه قبولُ قابِل التوب .

وفاته رحمه الله : فى آخر صفر من عام خمسين وسبعماية فى وقيعة الطاعون العام(٢) ، ودخل غرناطة .

ومن الغرباء فى هـذا البـاب

محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبى بكر بن مرزوق العَجيسى

من أَهل تِلمْسان ، يكنى أَبا عبد الله ، ويلقب من الأَلقاب المشرقية بشمس الدين

---

(١) هو كتاب « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » من كتب ابن الخطيب الصغيرة . وقد سبق ذكره فيما تقدم غير مرة .

(٢) سبق التعريف بهذا الطاعون فى ترجمة ابن محارب الصريحى (راجع ص ٧٩ من هذا المجلد – حاشية) .

حــــاله

هذا الرجل من طُرَفِ دهره ظَرْفًا وخصوصيَّة ولطافةً ، مليح التوسُّل[١] حسن اللقاء ، مبذول البِشر ، كثير التَّوَدُّد ، نظيف البِزَّة ، لطيف التَّأَتِّى ، خَيِّر البيت ، طَلْقُ الوجه ، خَلُوب اللسان ، طَيِّب الحديث ، مُقْدر الأَلفاظ ، عارف بالأَبواب ، دَرِبٌ على صُحبة الملوك والأَشراف ، مُتقاضٍ لإيثار السلاطين والأُمراء ، يَسْحِرُهُم بخلابة لفظه ، ويَفْتِلهم فى الذِّروة والغارِب بتَنَزُّله ، ويَهْتَدى إلى أغراضهم الكمينة بحِذْقة ، ويَصْنع غاشِيتهم بتلطُّفه ، ممزوجُ الدُّعابة بالوقار ، والفكاهة بالنُّسك ، والحِشْمة بالبَسْط ، عظيم المشاركة لأَهل وُدِّه ، والتَّعَصُّب لإخوانه ، إلْفٌ مأْلوف ، كثِير الأَتباع والعِلْق ، مُسخَّر الرِّقاع فى سبيل الوساطة ، مُجْدِى الجاه ، غاصُّ المنزل بالطَّلبة ، مُنْقاد الدَّعوة ، بارع الخط ، أنيقه ، عذب التِّلاوة ، متَّسع الرِّواية ، مشاركٌ فى فنون ، من أُصول وفروع وتفسير ، يكتب ويَشْعر ويُقيِّد ويؤلف ، فلا يعدو السِّداد فى ذلك ، فارسُ مِنْبرٍ غير جَزوع ولاهيابة[٢] .

رَحَل إلى المشرق فى كنَفِ حِشْمة من جناب والده رحمه الله ، فحجَّ وجاور ، ولقى الجِلَّة ، ثم فارقة ، وقد عُرِف بالمشرق حقُّه ، وصَرَف وجهَه إلى المغرب ، فاشتمل عليه السلطان أبوالحسن أميرُهُ ، اشتمالا خَلَطه بنفسه ، وجعله مَفْضَى سِرِّه ، وإمام جُمْعته وخطيب مِنْبَره ، وأَمين رسالته ، فقَدِم فى غَرَضها على الأَندلس فى أَواخر عام ثمانية وأَربعين وسبعماية ، واجْذبه سلطانُها رحمه الله ، وأَجراه على تلك الوَتِيرة ، فقلَّده الخُطْبة بمسجده فى السادس لصفر عام ثلاثة وخمسين وسبعماية ، وأَقْعَده للإقراء بالمدرسة من

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى جذوة الاقتباس (الترسل) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (هياب) .

حَضْرته . وفى أُخريات عام أَربعة وخمسين بعده أَطْرَف عنه جِفْنَ بِرِّه ، فى أُسلوب طِماحٍ[(١)] ودالَّة ، وسبيل هوىً وقِحَة ، فاغتنم العِبْرة ، وانتهز الفُرصة ، وأَنْفَذ فى الرَّحيل العَزْمة ، وانصرف عزيز الرِّحلة ، مغبوط المُنْقلب ، فى أَوايل شعبان عام أَربعة وخمسين وسبعماية ، فاستقرَّ بباب ملك المغرب ، أَمير المؤمنين أَبى عِنان فارس فى مَحلٍّ تَجِلَّة ، وبِساط قُرْب ، مُشترك الجاه ، مُجْدى التوسُّط ، ناجعُ الشَّفاعة ، والله يتولاَّه ويزيدهُ من فضله .

مشيخته

[من كتابه المسمى « عُجالة المستوفز المستجاز فى ذِكر من سُمع من المشايخ دون من أَجاز ، من أَئمة المغرب والشَّام والحجاز » . فممن لقِيه بالمدينة المشرَّفة على ساكنها الصلاة والسلام ، الإِمام العلاَّمة عزّ الدين محمد أَبو الحسن ابن على بن إسمعيل الواسطى صاحب خُطَّتى الإِمامة والخطابة بالمسجد النبوى الكريم ، وأَفرد جزءًا فى مناقبه . ومنهم الشيخ الإِمام جمال الدين أَبو عبد الله محمد بن أَحمد بن خلف بن عيسى الخزرجى السَّعدى العبَّادى ، تحمَّل عن عفيف الدين أَبى محمد عبد السلام بن مزروع وأَبى اليُمن وغيره . والشيخ الإِمام خادم الوقت بالمسجد الكريم ونائب الإِمامة والخطابة به ، ومُنْشِد الأَمداح النبوية هنالك][(٢)] . وبمكةً شرَّفها الله ، الشيخ المُعَمَّر الثِّقة شرف الدين أَبو عبد الله عيسى بن عبد الله الحجى المكىّ . والشيخ الصالح شرف الدين خضر بن عبد الرحمن العجمى . والشيخ مُقْرى الحرم

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الزيتونة (طمع) .

(٢) هذا ما ورد فى الزيتونة عن مشيخة ابن مرزوق . وورد عنها فى الإسكوريال ما يأتى فقط (منقولة من خطه وكتابه المسمى عجالة المستوفز المستجاز . فى ذكر من سمع من المشايخ دون من أجز من أئمة المغرب والشام والحجاز ، اختصرتها لطولها إذ هى نحو من ثلاثة أوراق) . وقد أضفنا نحن إليها عدة أسماء أخرى . وأوردها المقرى بجملتها فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٢٠١ و ٢٠

برهان الدين إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم الآبلى المِصْرى . والشيخ الإمام الصالح أبو محمد عبد الله بن أسْعَد الشافعى الحُجَّة ، انتهت إليه الرِّياسة العلمية والخُطط الشَّرعية بالحَرَم . والشيخ قاضى القضاة وخطيب الخطباء عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن جَماعة الكِنانى قاضى القضاة بمصر . وبمصر الشيخ علاءُ الدين القُونَوى . والتَّقى السعدى ، وقاضى القضاة القَزْوينى ، والشرف أقضى القضاة الإخميمى ، وكثيرون غيرهم . وسمع من عدد عديد آخر من أعلام القضاة والحُفّاظ والعلماء بتونس ، وبجاية ، والزَّاب ، وتِلِمْسان .

محنتـــه

اقتضى الخوض الواقع بين يدى تاميل الأَمير أبى الحسن رحمه الله ، وتوقُّع عودة الأَمر إليه ، وقد ألقاه اليمُّ بالسَّاحل بمدينة الجزاير ، أن قَبض عليه بتِلْمسان ، أُمراؤُها المتوثِّبون عليها فى هذه الفترة ، من بنى زَيّان ، إرضاءً لِقَبيلهم ، المتَّهم بمُداخلته ، وقد رَحل عنهم دسيساً من أَميرهم عثمن بن يحيى بن عبد الرحمن بن يَغْمَراسِن ، فصُرف مأْخوذًا عليه طريقهُ ، مُنْتَهباً رَحْلُه ، مُنْتَهكةٌ حُرْمَتُه ، وأُسْكن قرارة مُطْبق عميق القَعْر ، مُقْفَل المَسْلَك ، حَريز القفل ، ثانى اثنين . ولأَيام قُتل ثانيه ذبحاً بمقربة من شَفى تلك الرَّكيَّة ، وانقطع لشدَّة الثِّقاف أثره ، وأيقن الناس بفوات الامْر فيه . ولزمان [من] (١) محنته ظهرت عليه برَكةُ سَلفِه ، فى خبر ينظر بطرقه (٢) إلى الكرامة ، فنجا ولا تَسَلْ كيف ، وخلَّصه الله خلاصاً جميلا ، وقَدِم على الأَندلس ، والله ينفعه بمحنته (٣) .

---

(١) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (بطرف) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بنيته) ف

شـــعره

وما وقع من المكاتبة بيني وبينه .

رَكِب مع السلطان خارج الحمراء ، أيام ضَربَت اللّوز قبابَها البيض ، وزَيَّنت الفَحْص العريض ، والرَّوض الأَرِيض ، فارتجل في ذلك :

[أُنظر إلى النَّوار في أغصانه ... يحكي النجوم إذا تبدَّت في الحَلَك](١)
حيًّا أَمير المسلمين وقال قد ... عَمِيَت بصيرةُ من بغيرك مثَّلك
يا يوسفًا حُزْت الجمال بأَسره ... فمحاسنُ الأَيام تُومى هَيْت لك
أَنت الذى صَعَدت به أَوصافُه ... فيقال فيه ذا مليكٌ أَو مَلِك

ولما قدمتُ على مدينة فاس في غرض الرسالة ، خاطبني بمنزل الشاطبي على مَرْحلة منها بما نصه :

يا قادماً وافى بكل نجــاج ... أَبْشِر بما تلقاه من أفــراح
هذى ذُرى ملك الملوك فلُذْ بها ... تنل المُنى وتفز بكل سماح
مغنى الإمام أَبي عنــان يمِّمن ... تظفر ببحر في العلى(٢) طفَّاح
من قاس جُودَ أَبي عنان ذى الندى ... بسواه قاس البحر بالضَّحضاح
ملكٌ يفيض على العفاة نواله ... قبل السُّوال وقبل بَسْطة راحِ
فلجود كعب وابن سعدى في الندى ... ذكرٌ محــاه من نِداه مــاحِ
ما أن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ... من أَريَحىٍّ للنــدى مُرتاحِ
بَسَط الأَمان على الأَنام فأَصبحوا ... قد أُلحفوا منه بظلِّ جناحِ
وهَمَى على العافين سيبُ نواله ... حتى حكى سَحَّ الغمام السَّاحِ
فنوالُه وجلالُه وفعالُه فاقت وأَعْيَت أَلْسُـن المُـدَّاحِ

---

(١) هذا البيت وارد في « الزيتونة » والنفح ، وساقط في الإسكوريال .

(٢) هكذا في الاسكوريال والنفح . وفي الاستقصا (بالندا) (ج ٢ ص ٩٢) .

وبه الدُّنا أضحت تروق وأصبحت كلُّ المنى تنقــاد بعد جِمــاح
من كان ذا تَرحٍ فرؤية وجهه مِتْلافةُ الأَحــزان والأَتــراح
فانهض أبا عبد الإِلّه تَفُزْ بما تبغيه من أمل ونيــل نجــاح
لازلتَ ترتشف الأَمانى راحةً من راحةِ المولى بكلِّ صبــاح

والحمد لله ياسيدى وأخى على نِعمِه التى لا تحصى حَمْداً يؤم به جميعنا المقصد الأَسنى ، فيبلغَ الأَمدَ الأَقصى ، فطالما كان مُعَظِّم سيدى للأَسى فى خبال ، وللأَسف بين اشْتِغال بال ، واشْتِعال بلبال . ولقدومكم على هذا المقام العَلِي فى ارتقاب ، ولمواعدكم بذلك فى تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب ، فها أَنت تَجْتلى ، من هذا المقام العَلِي ، لتُشَيِّعَك وجوه المسرّات صباحاً ، وتتلقى أَحاديث مكارمه ومواهبه مُسندة صِحاحاً بحول الله. ولسيدى الفضل فى قبول مَرْكُوبه الواصل إليه بسَرْجِه ولجامه ، فهو من بعض ما لدى المحب[1] من إحسان مولاى وإنعامه . ولعمرى لقد كان وافداً على سيدى فى مُسْتَقَرِّه مع غيره . فالحمد لله الذى يَسَّر فى إيصاله على أَفضل أَحواله .

فراجعته بقولى :

راحَتْ تذكِّرُنى كؤوس الرّاح والقُرْب يخفض للجنوح جناح
وسَرَت تدُلُّ على القبول كأَنما دَلَّ النسيم على انبلاج صباح
حسناءُ قد غَنِيَت بحُسْن صفاتها عن دَمْلج وقلادةٍ ووشــاح
أمْسَت تحضُّ على اللِّياذ بمن جَرَتْ بسُعوده الأَقلام فى الأَفــراح
بخليفة الله المؤيـد فـارسٍ شمس المعالى الأَزهر الوضّاح
ما شِيت من هِممٍ ومن سيمٍ غدت كالزَّهر أو كالزهر فى الأَدْواح

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (المعظم) .

فضلُ الملوك فليس يُدرك شأوه   أنَّى يُقاس الغَمْرُ بالضَّحضاح
أسْنَى بنى عبَّاسهم بلوائه المنصور أو بحسامه السفَّاح
وغدت مغانى المُلْك لما حَلَّها   تَزْهى ببدر هُدًى وبحر سماح
وحياةٌ من أهداك تحفة قادم   فى العَرْف منها راحة الأرواح
مازلتُ أجعل ذكرَه وثناءه   رُوحى ورَيحانى الأريج وراح
ولقد تمازج حبُّه بجوارحى   كتمازُج الأجسام بالأرواح
ولو أننى أبصرت يوما فى يدى   أمرى لطرتُ إليه دُون جناح
فالآن ساعدنى الزَّمان وأيْقَنَتَ   من قُرْبه نفسى بفوز قِداح
إيه أبا عبد الإلاه وإنه   لنداءُ وُدٌّ فى عُلاك صُراح
أما إذا استنْجَدْتَنى من بعد ما   رَكَدَت لما خَبَت الخطوب رياح
فأليكها مهزولة وأنا امرؤ   قرَّرت عجزى واطَّرحتُ سلاح

سيدى : أبقاك الله لعهد تحفظه ، وولىٌّ بعين الولاء تلحظُه . وصلتنى رُقعتك التى ابْتَدَعْتَ ، وبالحق من مدح المولى الخليفة صَدَعْتَ ، وألِفْتَنى وقد سَطَتْ بى الأوحال ، حتى كادت تُتلف الرِّحال ، والحاجة إلى الغذاء ، قد شمَّرت كشح البَطِين ، وثانية العَجْماوين قد تُوقع فَوات وقتها ، وإن كانت صَلاتُها صَلاة الطِّين ، والفكر قد غاض مَعِينُه ، وضَعُف وعلى الله جزاءَ المولى الذى يُعينه ، فغَزَتْنى بكتيبة بيان أسدُها هَصُور ، وعَلَمُها منصور ، وألفاظُها ليس فيها قُصور . ومعانيها عليها الحُسْن مَقْصور ، واعتراف مثلى بالعجز فى المضايق حولٌ ومِنَّة . وقول لا أدرى للعالم فكيف لغيره جنَّة . لاكنها بَشَّرتنى بما يقل لمهديه[1] بذل النفوس وإن جَلَّت ، وأطْلَعَتْنى من

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والاستقصاء (لمؤديه) .

السرَّاءِ على وجه تحسده الشمس إذا تَجَلَّت ، بما أعلمت [(١)] به من جميل اعتقاد مولانا أَمير المؤمنين أَيده الله ، فى عَبْدِه ، وصِدْقِ الْمخيَّلة فى كَرَم مَجْده . وهذا هو الجود المحض ، والفضل الذى شُكْرُه هو الفَرْض . وتلك الخلافة المَوْلويَّة تتَّصف بصفة [(٢)] من يبدأُ بالنَّوال ، من قَبْل الضَّراعة والسؤال ، من غير اعتبار للأَسباب ، ولا مجازاة للأَعمال . نسأَل الله أن يُبقى منها على الإِسلام أَوْفى الظِّلال ، ويبلِّغَها من فضله أَقْصى الآمال . ووصل مابعثه سيدى صحبتها من الهديَّة ، والتحفة الودية ، [وقبلتُها امتثالاً] [(٣)] ، واستجليتُ منها عِتقاً وجمالاً . وسيدى فى الوقت أَنسبُ إلى اتخاذ ذلك الجِنس ، وأَقدرُ على الاستكثار من إناث البَهْم والإِنْس . وأَنا ضعيف القدرة ، غير مستطيع لذلك إلا فى النَّدْرة ، فلو رأَى سيدى ، ورأْيُه سَداد ، وقصدُه فضل ووِداد ، أَن ينقل القَضِيَّة [إلى باب العارِية من باب الهِبة] [(٤)] مع وجوبِ الحقوق المترتبة ، لبَسْط خاطرى وجَمْعه ، وعمل فى رفع المؤُنة على شاكِلة حالى معه ، وقد استصحبت مركوبا يَشُقُّ علىَّ هجره ، ويناسب مقامى شكله ونَجْره ، وسيدى فى الإِسعاف على الله أَجرُه ، وهذا أَمر عرض ، وفرض فُرِض ، وعلى نظره المُعوَّل ، واعتماد إغضائه هو المعقول الأَول . والسلام على سيدى من مُعَظِّم قدره ، ومُلْتَزم بِرِّه ، ابن الخطيب ، فى ليلة الأَحد السابع والعشرين لذى قعدة سنة خمسة وخمسين وسبعماية ،

---

(١) هذا فى الإسكوريال . وفى النفح والاستقصاء (أعلمنى) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والاستقصاء (بصمت) .

(٣) هذه العبارة واردة فى النفح والاستقصاء ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) وردت هذه العبارة فى الإسكوريال (من باب الهدية إلى باب العارية) والتصويب من النفح والاستقصاء .

والسَّماءُ قد جادت بمطرٍ سَهِرت منه الأَجفان ، وظُنَّ أنه طُوفان ، واللَّحاق فى غَدٍ بالباب المولوى ، مؤملٌ بحول الله .

ومن الشعر المنسوب إلى محاسنه ، ما أُنشد عنه ، وبين يديه ، فى ليلة الميلاد المعظم ، من عام ثلاثة وستين وسبعماية بمدينة فاس المحروسة :

[أيا نسيم](1) السَّحر بالله بلِّغ خبرى
إن أنت يوماً بالحِمى جررتَ فضل المئزر
ثم حثَثت الخطو من فوق الكثِيب الأَعْفر
مُستقرياً فى عُشْبه خفىَّ وطىءِ المَطَر
تروى عن الضّحاك فى الروض حديثَ الزَّهر
مُخَلَّق الأذيال بالعبير أو بالعَنْبر
وصِف لجيران الحِمى وجْدى بهم وسَهَرى
وحقهم ما غيَّرَتْ وُدِّى صروفُ الغِيَر
لله عهدٌ فيه قضيتُ حميدَ الأثر
أيَّامه هى التى أَحْسُبُها من عُمرى
وياللَّيل فيه ما عيبٌ بغير القِصر
العمر فَيْنَان ووجهُ الدهر طَلِق الغُرر
والشَّمل بالأَحباب منظوم كنَظْم الدُّرر
صفوٌ من العيش بلا شائبة من كدر
ما بين أهل تَقْطِف الأُنْس جَنْى الثمر
وبين آمال تُبيح القُرْب صافى الغُدُر
يا شجراتِ الحىِّ حيَّاك الحَيا من شجر

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (قل لنسيم) .

إذا أجال الشوق فى تلك المغانىَ فكرى
خرّجت من خدّى حديث الدمع فوق الطُّرر
وقلتُ يا خدُّ ارو من دمعى صِحاح الجوهرى
عهدى بحادى الرَّكب كالْوَرْقاء عند السَّحَر
والعِيسُ تَجْتاب الفَلا واليَعْملات تنبرى
تخبط بالأخْفاف مظلوم البَرا وهو بَرِى
قد عَطَفت عن مَيْدٍ والتفَّت عن حَور
قِسىٌّ سيرٍ ما سوى العزم لها من وَتر
حتى إذا الأعلام حلِسَت لحفىٍّ البشر
واستَبْشَر النازحُ بالقرب ونَيْل الوَطَر
وعيَّن الميقاتَ للسَّفر نجاحُ السَّفر
والناس بين مُحْرم بالحجِّ أو مُعْتَمر
لَبَّيك لَبَّيْك إلـه الخلق بارى الصُّور
ولاحت الكَعْبة بيتُ الله ذات الأَثر
مقامُ إبراهيم والمأمُنُ عند الذَّعَر
واغتنم القومُ طَواف القادم المُبْتَدر
وأعقبوا رَكْعتى السَّعى استلام الحَجر
وعَرَّفوا فى عَرَفات كل عَرْف أذْفَر
ثم أفاض الناس سعياً فى غد للمَشعر
فوقفوا وكبَّروا قبل الصباح المُسْفر
وفى مِنىً نالوا المُنى وأيقنوا بالظَّفَر
وبعد رَمْى الجمَرات كان حَلْق الشَّعْر

أكرم بذاك الصحب[١] والله وذاك النَّفَر[٢]
يا فَوْزَه من مَوْقف يا رَبْحَه من مَتْجَر
حتى إذا كان الوَدا ع وطَواف الصَّدَر
فأيٌّ صبر لم يَخُن أو جَلَد لم يَغْدُر
وأيٌّ وجْدٍ لم يَصُل وسَلْوة لم تُهجر
ما أفجع البَيْن لقلب الواله المُسْتَغْفِر[٣]
ثم ثَنَوا نحو رسو ل الله سَيْر الضُّمَّر
فعاينوا فى طِيبة لألاءَ نور نَيِّر
زاروا رسول الله واستَشْفَعوا بلَثم الجُدُر
نالوا به ما أمَلوا وعرَّجوا فى الأَثر
على الضَّجيعين أبى بكر الرِّضا وعُمر
زيارة الهادى الشُّفيع جَنَّةٌ فى المَحْشَر
فأحسَن الله عزا ءَ قاصِدٍ لم يَزُر
ربْعٌ ترى مُسْتَنزل الآى به والسُّور
وملتقى جبريل بالهادى الزَّكيّ العُنْصر
وروضةُ الجَنَّة بين روضة ومِنْبر
مُنْتَخَب الله ومُختار الوَرَى من مُضَر
والمُنْتَقى والكون من ملابس الخلق عَرِى
إذْ لم يكن فى أُفُق من زُحل أو مُشْترِ[٣]

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (السفر) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (السفر) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (المستعبر) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ومشترى) .

ذو المعجزات الغُـرِّ أمثال النجوم الزُّهر
يَشْهد بالصِّـدق لـه منها انشِقـاق القَمَـر
والضَّب والظَّـبي إلى نُطْق الحَصَى والشَّجر
من أطْعَم الألْفَ بصا ع فى صَحيح الخَبَـر
والجيشُ روَّاه بمـا ء الرَّاحـة المُنْهمـر
يا نُكْتةَ الكون التى فاتَت مَنـال الفِكَر
يا حجة الله على الرا ئـح والمبتكـر
يا أكرم الرُّسُل عـلى الله وخيـرَ البَشَـر
يامن له التَّقدم الحـقُّ على التَّأَخـر
يامن لـدى مولـده المُقـدَّس المُطَهَّـر
إيوان كِسْرى ارتَجَّ إذ ضاقت[1] قُصُور قَيصر
ومَوْقد النـار طفـا كأنهـا لمَ تُسْعـر
يا عُمْدتى يا مَلْجئى يا مَفْـزعى يـا وَزَرِى
يا من له اللِّواء والحَـوْض وَوِرد الكَوْثـر
يا منقذَ الغَـرْقى وهم رَهْن العـذاب الأكبر
إن لم تُحقِّـق أمـلى بُؤْتُ بسـعى المُخسِر
صلَّى عليك الله يـا نور الدُّجـا المُعْتَكر
يا ويحُ نفسى كم أرى [من غَفْلتى فى عُمَر][2]
واحسروا من قِـلّة الـزَّاد وبعد السَّـفر
يُحِجُّنى والله بالبرهـان وعُظْ المنبـر

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ضاءت).
(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . وفى النفح (فى غفلة من عمرى) .

يا حُسْنَها من خُطب لو حرَّكت من نظر(١)
يا حُسْنها من شجَر لو أوْرَقَت من ثَمَر
أومِّل الأزْمنة والأمر بكفِّ القَدر
أُسَوِّفُ العزم بها من شهر لِشَهر
من صَفَر لرجَبِ من رجب لصَفَر
ضيّعتُ فى الكَبْرة ما أعددته فى صِغَر
وليس ما مَرَّ من الأيام بالمُنْتَظر
وقلَّ ما أن حَمِدْتُ سلامةً فى غَرَر
ولى غريم لا يَنى عن طلب المُنْكسِر
يا نفس جدِّى قد بدا الصبح ألا فاعْتَبِرى
واتّعظى بمن مضَى وارْتَدعى وازْدَجِرى
ما بعْد شَيْب الفَوْد من مُرْتَقب فشمِّرى
أنتِ وإن طال المدَى فى قَلْعة أو سَفَر
وليس من عُذر يُقيم حجَّة المُعْتذر
يا ليت شِعرى والمُنَى تَسْرِق طيبَ العُمر
هل ارتجى من عودةٍ أو رجعةٍ أو صَدَر
فأُبرِّد الغُلَّة من ذاك الزُّلال الخصِر
مقتدياً بمن مضى من سَلَفٍ ومَعْشر
نالوا جوار الله وهو الفَخْر للمفتخر
أرجو بإبراهيم مو لانا بلوغ الوَطَر

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نظرى) .

فوعـده لا يمتـرى   فى الصِّدق منه المُمْتر[١]
فهو الإمـام المُرْتضى   والخيـر ابن الخيِّـر
أكرمِ من نال المنى[٢]   بالمُرْهفـات البُتـر
مُمَهِّد الملك وسيفُ الحـقِّ والليث الجَـرى
خليفـة الله الـذى   فاق بحسن السِّـير
وكان منه الخُبر فى   العَلْيـاء وفق الخَبـر
فصدِّق التَّصديق مـن   مـرآه للتَّصـور
ومسـتعين الله فى   وِرْدٍ لـه وصَـدَر
فاق الملوك الصِّـيد بالمَجد الرَّفيـع الخَطر
فأصبحـت ألقابُهـم   مَنْسِـيَّة لم تُذْكـر
وحاز منهم[٣] أوحـدُ   وصْفَ العديد الأكثر
برأيـه المأمون أو   عسـكره المُظَفَّـر
بسيفه السَّفاح أو   بعَـزْمه المُقْـتَدِر
بالعَلَم المنصـور أو   بالذَّابل المُسْتَنصِر[٤]
بابن الإمـام الطـاهر البَرِّ الزَّكى السِّير
مدحُكَ قد علَّم نظـم الشِّعر مَنْ لم يَشْعر[٥]
جُهدُ المُقِلِّ اليوم من   مثلى كوُسْع المُكْثر
فإن يُقَصِّـر ظاهـرى   فلم يُقَصِّـر مُضْمِر

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تمترى) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (العلا) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (منه) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (المنتصر) .
(٥) هذه الأبيات الأخيرة كان قد نظمها ابن مرزوق فى مديح ملك المغرب يومئذ السلطان أبى سالم ابراهيم المرينى ، ولكنه اتى مصرعه فى ذى القعدة ٧٦٢ هـ قبل حلول المولد النبوى .

ووَرَدْتُ على باب السلطان الكبير العالم أبي عنان ، فبلوتُ من مشاركته ، وحَميد سعيه ، ما يليق بمثله . ولما نَكَبَه لم أقَصِّر عن مُمْكن حيلةٍ في أمره. ولما هلك السلطان أبو عنان رحمه الله ، وصار الأمر لأخيه [المتلاحق من الأندلس أبي سالم بعد الولد المُسَمَّى بالسَّعيد][(1)] كان ممن دَمَّثَ له الطَّاعة ، وأناخ راحلة المُلْك ، وحَلَب ضِرْع الدَّعوة[(2)] ، وخطب [عروس][(3)] المَوْهبة ، فأنْشَب ظُفْره في مَتات مَعْقود من لَدُن الأَب ، مَشْدود من لدن القُرْبة[(4)] ، فاستحكم عن قُرْب ، واستغلظ عن كَثَب ، فاستولى على أمره ، وخَلَطه بنفسه ، ولم يستأثر عنه ببَثَّة ، ولا انفرد بما سوى بضع أهله ، بحيث لا يَقْطَعْ في شيء إلاَّ عن رأيه ، ولا يَمْحُو ويُثْبِت إلاَّ واقفاً عند حدّه . فغَشِيت بابه الوفود ، وصُرِفت إليه الوجوه ، ووُقِفت عليه الآمال ، وخَدَمته الأشْراف ، وجُلِبت إلى سُدَّته بضايعُ العقول والأموال ، وهادَتْه الملوك ، فلا تحْدُو الحُداة إلاَّ إليه ، ولا تحطُّ الرِّحال إلاَّ لديه . إن حَضَر أجرى الرسم ، وأنفذ الأمر والنَّهي لَحْظًا أو سِراراً أو مكاتبةً ، وإن غاب ، تردَّدت الرِّقاع ، واختَلَفت الرُّسل . ثم انفرد أخيراً ببيت الخَلْوة ، ومُنْتَبذ المُنَاجاة ، من دونه مُصْطَفُّ الوزراء ، وغايات الحُجَّاب[(5)] ، فإذا انصرف تَبِعَته الدُّنيا ، وسارت بين يديه الوزراء ، ووقَفَت ببابه الأُمراء ، قد وَسِع الكلُّ لحْظَه ، وشَمِلهم بحسَب الرُّتب والأموال رعيُه ، ووَسَم أفْذادَهُم تسويدُه ، وعُقِدت ببَنان عِلْيتهم بَنانهُ . لاكن رِضى الناس غايةٌ

---

(١) هذه الزيادة من النفح . ومكانها في المخطوط هذه العبارة (بعد ولده) .

(٢) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (الدولة) .

(٣) هذه الزيادة من النفح

(٤) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (التقرب) .

(٥) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (الحجابة) .

لا تُدرك ، والحِقد(١) بين بنى آدم قديم ، وقَبيلُ الملك مبايِنٌ لمثله،فطُويت الجوانح منه على سَل ، وحُنيت الضُّلوع على بَثٍّ ، [وأُغْمضت الجفون على قَذًى](٢) إلى أن كان من نَكْبته ما هو معروف جعلها الله له طُهورا .

ولما جَرَت الحادثة على السلطان(٣) [بالأندلس](٤) ، وكان لحاقُ جميعنا بالمغرب ، جَنَيْتُ ثمرة ما أَسلفتُه فى وُدِّه ، فوفَّى كَيْل الوَفا ، وأَشْرَك فى الجاه ، وأَدرَّ الرِّزْق ، ورفع المجلس [بعد التَّسْبيب فى الخلاص](٥) ، والسَّعى فى الجبْر ، جَبَرَهُ الله [تعالى وكان له](٦) أحوج ما يكون إلى ذلك ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، إلَّا من أتى الله بقلب سليم .

ولما انقضى أمرُ سلطانه رحمه الله ، وقَذَف به بحرُ التَّمحيص إلى شطِّه، وأضحى جوُّ النَّكبة بعد انطِباقه ، آثرَ التَّشْريق بأهله وجُمْلته ، واستقرَّ بتونس ، خطيب الخلافة ، مقيماً على رسمه من التَّجلَّة ، ذايع الفضل هنالك والمشاركة ، وهو بحاله الموصوفة إلى الآن كان الله له .

وكنت أَحْسَسْتُ منه فى بعض الكُتُب الواردة ، صاغية إلى الدُّنيا ، وحنيناً لما فارق من غُرُورها ، فحملنى الطُّور الذى ارتكبتُه فى هذه الأيام بتوفيق الله ، على أن خاطبته بهذه الرسالة ، وحقُّها أن يجعَلها خدمَة الملوك ممن يُنسب إلى نُبل ، أو يُلم بمعرفة ، مُصْحَفاً يَدْرسُه ، وشِعاراً يَلْتَزِمه ، وهى:

سيدى ، الذى يدُه البيضاءُ لم تَذْهب بشهرتها المكافاة ، ولم تختلف

---

(١) هذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الحسد) .
(٢) هذه الزيادة من النفح .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الدول) .
(٤) هذه الزيادة من النفح .
(٥) وردت فى الإسكوريال (تسبيب الخلاص) . والتصويب من النفح .
(٦) الزيادة من النفح .

فى مَدْحها الأَفعال ، ولا تَغايرت فى حَمدها الصِّفات ، ولا تزال تعترف بها العِظام الرُّفات ، أَطْلَقك الله من أَسْر الكَوْن ، كما أَطلقك من أَسر بَعْضه ، ورشَّدك فى سَمايه العالية وأَرضِه ، وحقَّر الحظَّ فى عَيْن بصيرتك بما يَحْمِلُك على رفضه . اتَّصل بى الخبرُ السَّار من تَرْكك لشأْنك ، وإِجْناءِ الله إِيَّاك ثمرة إِحْسانك ، وإِنْجياب ظَلام الشِّدة الحالِك ، عن أُفُق حالك . فكبَّرتُ لانتشاق عفو الله العاطر ، واسْتَعْبرتُ لتضاؤل الشِّدة بين يَدَىْ الفَرَج ، لا بِسوى ذلك من رِضى مخلوق يُؤمَر فيأْتَمر ، ويدعُوه القضاءُ فَيبْتَدِر ، إنما هو فَيْءٌ وظِلٌّ ليس له من الأَمر شَيء ، ونسأَله جلَّ وتعالى أن يجعلها آخر عهدك بالدُّنيا وبَنيها ، وأَوَّلَ مَعارج نَفْسك ، التى تُقَرِّبها من الحقِّ وتُدْنيها ، وكأَنَّنى والله أُحِسُّ بثِقَل هذه الدعوة على سمعك ، ومضادَّتِها ولا حول ولا قوة إلا بالله لطَبْعِك ، وأنا أُنافِرك إلى العقل الذى هو قِسطاس الله فى عَالَم الإِنسان ، والآلَةُ لبثِّ العدل والإِحسان ، والمَلِك الذى يَبين عنه تُرْجمان اللِّسان ، فأَقول ليتَ شِعرى ما الذى غَبَط سيدى بالدُّنيا ، وإن بلغ من زِبْرِجها الرُّتبة العليا ، وأَفرِض المِثال لحالة إقبالها ، ووَصْل حِبالها ، وضَراعة سِبالها ، وخشوع جِبالها . أَلِتَوقُّع المَكروه صَباح مَسا ، وارتقاب الحِوالة التى تُديل من النَّعيم البَأْسا ، ولزوم المنافسة التى تُعادى الأَشراف والرؤسا . أَلترتُّب العَتْب ، حتى على التَّقصير فى الكَتْب ، وظَعِينة جارِ الجَنْب ، وولوع الصَّديق بإِحصاء الذَّنْب . أَلِنَسْبة وقايع الدولة إليك وأَنت بَرى ، وتطويقك المُوبِقات وأَنت منها عَرِى . أَلِاسْتِهدافك للمَضَّار التى تُنْتجها غيرةُ الفُروج ، والأَحقاد التى تَضْطبِنُها رَكْبَةُ السُّروج وسَرْحةُ المُروج ، ونجوم السَّما ذاتِ البُروج . أَلِتَقْليدك التَّقْصير فيما ضاقت عنه طاقتُك ، وصحَّت إليه فاقَتُك ، من حاجة لا يَقْتَضى قَضاها الوجود .

ولا يُكَيِّفُها الرُّكوع لِلْمَلك والسُّجود . أ لِقَطْع الزَّمان بين سلطانٍ يُعبد ، وسِهام للغيوب تُكبَّد ، وعَجاجةٍ شرٌ تَلبَّد . وأُقْبوحة تُخلَّد وتُوبَّد . ألِوَزير يُصانع ويُدارى ، وذى حُجَّة صحيحة يُجادل فى مُرْضاة السُّلطان ويُمارى ، وعَوْرةٍ لا تُوارَى . ألِمُباكرة كلِّ عايبٍ حاسد ، وعدوٍّ مُسْتَأْسِد ؛ وسوق للإنصاف والشَّفَقة كاسِد ، وحالٍ فاسد . ألِلْوفود تتَزاحم بِسُدَّتك ، مُكَلِّفة لك غير ما فى طَوْقك ، فإن لم تَنَل أغراضها ، قَلَبت عليك السَّما من فوقك . ألِجُلَساءِ ببابك ، لا يَقْطعون زمن رجوعك وإيابك ، إلاَّ بقَبيح اغْتِيابك . فالتَّصرُّفات تُمْقَت ، والقَواطع النُّجوميَّات تُوَقَّت ، والألاق[1] تُبَثُّ ، والسعايات تُحثُّ ، والمساجد يُشْتَكى فيها البَثُّ ، يعتقدون أن السلطان فى يَدك ، بمنزِلة الحِمار المدبُور . واليَتِيم المَحْجُور ، والأَسير المأمُور . ليس له شهوةٌ ولا غَضب . ولا أملٌ فى المُلْك ولا أَرَب . ولا مَوْجِدةٌ لأَحد كامنةٌ . وللشَّر ضامِنة . وليس فى نفسه عن رأى نُفْرة . ولا بإزاء ما لا يقبله نَزْوة وطَفْرة . إنما هو جارِحَةٌ لصَيْدك . وعانٍ فى قَيْدك . وآلةٌ لتَصرُّف كَيْدك ، وأنَّك عِلَّة حَيْفه ، ومُسَلِّط سيفه . الشُّرَّار يُسْمِلون عُيُون الناس باسمك ، ثم يُمَزِّقون بالغَيْبَة مزْق جِسمك . قد تنَخَّلهم الوجودُ أخبثَ ما فيه . واختارهم السَّفيه فالسَّفيه ، إذ الخير يُسرُّه الله عن الدُّول ويُخْفيه . ويُقْنِعه بالقليل فَيَكفيه . فهم يَمْتاحون بك . ويولُونك المَلامة . ويَقْتَحمون عليك أبواب القوْل . ويسدُّون طُرَق السَّلامة . وليس لك فى أثناء هذه إلاَّ ما يعْوِزك مع ارتفاعه ، ولا يفُوتك مع انْقِشاعه . وذهاب صُداعه . من غِذَاءٍ يُشبع ، وثوبٍ يُقْنع ، وفِراشٍ يُنيم ، وخَديم يَقْعُد ويُقيم . وما الفايدة فى فُرُشٍ تحتها جَمْر الغَضا ، ومال من ورابه سُوء القَضا . وجاهٍ تُحَلِّق عليه

---

(١) الألاق جمع ألقية ، ومعناها الألغاز والاحاجى .

سيفٌ مُنْتَضا . وإذا بَلَغَت النَّفْس إلى الالتِذاذ بالا تَمَلك ، واللَّجاج حول المَسْقط الذى تعلم أنها فيه تَمَلك . فكيف يُنْسب إلى نُبْل أو يُسَر مع السعادة فى سُبُل . وإن وجَدْتَ فى القُعود بمَجْلِس التَّحية بعض الأَريحيَّة ، فليْتَ شِعْرى أىُّ شيءٍ زادَها ، أو معْنىً أفادَها ، إلاَّ مُباكرةِ وجْهِ الحاسِد ، وذى القلب الفاسِد ، ومواجهَة العدوِّ المُسْتَاسِد . أو شَعُرْتَ ببعض الإيناس فى الركوب بين الناس ، هَل الْتَذَّت إلاَّ بحِلْم كاذب ، أو جذبها غيرُ الغرور مُجاذِب . إنما الحِلْية وافَتْك من يُحدِّق إلى البزَّة ، ويستطيل مدَّة العِزَّة ، ويرتاب إذا حُدِّث بخبرك ، ويَتَبَع بالنَّقد والتَّجسُّس مواقع نظرك ، ويمنَعُك من شارة أُنْسِك . ويحتال على فراغ كِيسك ، ويُضْمِر الشرَّ لك ولرَسْيك . وأَىُّ راحة لمن لا يُباشر قَصْده ، ويَسِير متى شا وَحْده ، ولو صحَّ فى هذه الحال لله حظٌّ ، وهَبْه زهيداً ، أو عَيَّن للرُّشد عملاً حميداً ، لساغ الصَّابُ[1] . وخَفَّت الأَوْصاب . وسَهُل المُصاب . لاكن الوقتُ أشْغَل ، والفكرَ أَوْغَل ، والزَّمنُ قد غَمَرته الحصصُ الوهْمِيَّة ، واستَنْفَدت منه الكمِّيَّة . أما ليلُه ففكرٌ أو نومٌ . وعَتْبٌ يَجرُّ الضِّراس ولَوْم ، وأما يومُه فَتَدْبير ، وقَبيل ودَبير ، وأمور يعيا بها ثَبير ، و بلاءٌ مُبير ، ولَغَطٌ لا يدخل فيه حكيمٌ كبير . وأنا بِمثل ذلك خَبِير . ووالله يا سيِّدى ، ومَن فَلَق الْحبَّ وأخرج الأَبَّ . وذَرا من مَشى وما دبَّ . وسمَّى نفسه الربَّ . لو تعلَّق المال الذى يَجِدُه هذا الكَدْح ، ويُورى سَقِيطه هذا القَدح ، بأَذيال الكواكب . وزاحمت البدْرَ بِذْرُه بالمناكب ، لا وَرِثه عَقِب ، ولا خَلَص به مُخْتَقِب ، ولا فاز به سافرٌ ولا مُنْتَقِب . والشَّاهد الدُّول والمشايم الأُول . فأين الرِّباع المُقْتَنَاة ، وأين الدِّيار المُبْتَداة . وأين الحدايق المُغْتَرسات . وأين الذَّخاير

---

(١) ورد فى هامش المخطوط ما يأتى الصابة شجرة مرة . وجمعه صاب .

المُخْتَلسات . وأين الودايع المُؤَمَّلة ، وأين الأَمانات المُحَمَّلة ، تأْذَن الله بِتَتْبيرها ، وإدناءِ وتار التيَّار من دنانيرها ، فقلما تلقى أَعقابهم إلا أَعْرُباً للطُّمور ، مُتَرَمِّقين بجرايات الشُّهور ، مُتعلِّلين بالهباءِ المَنْثور ، يُطْردون من الأَبواب التى حُجِب عندها آباؤهم ، وعُرِف منها إباؤُهم ، وشُمَّ من مقاصيرها عَنْبَرُهم وكِباؤُهم ، لم تُسامحهم الأَيام إلا فى إرثٍ مُحَرِّرٍ ، أَوحلاَل مُقَرَّر ، وربما محَقَهُ الحَرام ، وتعذَّر منه المرام . هذه أَعزَّك الله حالُ قَبُولها ومالها مع التَّرفيه ، وعلى فرض أَن يَسْتَوْفى العُمْر فى العزِّ مُسْتَوفيه . وأَما ضِدُّه من عدوٍّ يتحكَّم وينْتَقم ، وحُوتُ بَغْى يَبْتَلِع ويَلْتَقم ، وطَبَقٌ يَحْجب الهوا ، ويُطيل فى التُّراب الثَّوا ، وثُعبان قَمِيدٌ[(١)] يعضُّ السَّاق ، وشوبُوب عذاب يُمَزِّق الإبشار الرِّقاق ، وغيلةٌ يهديها الواقِبُ الغاسق ، ويَجْرَعُها العدوُّ الفاسق ، مع الأُفول والشُّروق . فهل فى شيءٍ من هذا مُغْتَبَطٌ لنفس حُرَّة ، أَو ما يساوى جُرْعةَ حالٍ مُرَّة .. واحَسْرتاه للأَحلام ضَلَّت ، وللأَقدام زَلَّت ، ويا لها مُصيبةٌ جَلَّت . ولسيدى أن يقول حَكَمْتَ علىَّ باستِثْقال الموعِظة واسْتِجْفانها ، ومُراوَدة الدُّنيا بين خِلاَّنِها وأَكفايها ، وتناسى عدم وفايها ، فأَقول الطَّبيب بالعِلَل أَدرى ، والشَّفيق بسُوءِ الظَّن مُغْرَى . وكيف لا وأَنا أَقِف على السَّحاآت ، بخطِّ سيدى ، من مَطارح الاعتِقال ، ومَثاقِف النُّوبِ الثِّقال ، وخَلَوات الاستعداد لِلقاءِ الخُطوب الشِّداد ، ونَوْش الأَسِنَّة الحِداد ، وحيث يَجْمُل بمثله أَلاَّ تَصْرِف فى غير الخضوع لله بَناناً ، ولا يَثْنِى لمخلوق عِناناً . وأَتعرف أَنها قد ملأت الجوّ والدوّ ، وقَصَدَت الجَماد والبوّ ، تقتحم أَكُفَّ أَولى الشَّمات ، وحَفَظَة المذَمَّات ، وأَعوان النُّوب المُلِمَّات ، زيادة فى الشَّقا ، وقَصْد أَبرياءِ من الاخْتِيار والانْتِقا ، مُشْتَملة من التَّجاوز

---

(١) قمد أعنى طويل من قمد قمدا أى طال جسمه .

على أغْرَب من العَنْقا ، ومن النِّفاق على أشْهر من البَلْقا . فهذا يُوصف بالإمامة ، وهذا يُنسب فى الجود إلى كَعْب بن مامة ، وهذا يُجعل من أهل الكرامة ، وهذا يُكَلَّفُ الدُّعاءَ وليس من أهله ، وهذا يُطْلب منه لقا الصَّالحين وليسوا من شَكله ، إلى ما أحْفَظَنى والله من البحث عن السُّموم ، وكُتُبِ النجوم ، والمَذْمُوم من المعلوم ، هلاّ كان من يَنْظُر فى ذلك قد قُوطع بتاتاً ، وأعتقد أن الله قد جعل لزَمَنِ الخير والشَّر مِيقاتاً ، وأنّا لانملك موتاً ولا نُشوراً ولا حياتاً ، وأنَّ اللَّوح قد حَصَر الأشياءَ مَحْواً وإثباتاً ، فكيف نرجُو لما منَعَ منالاً ، أو نستطيعُ مما قدر إفلاتاً . أَفِيدُونا ما يُرجِّح العقيدة المُقرَّرة ، نَتَحَوَّلْ إليه ، وبيِّنوا لنا الحقَّ نُعوِّل عليه . الله الله ياسيدى فى النَّفْس المُرَشَّحة ، وللذّات المُخلاّتِ بالفضايل المُوَشَّحة . والسّلف الشهير الخيِّر ، والعُمْر المُشْرف على الرِّحلة بعد حَثِّ السَّير ، ودَعْ الدنيا لأهلها ، فما أوْكَسَ حُظوظَهم ، وأخَسَّ لحُوظَهم ، وأقلَّ متاعهم ، وأعجل إسْراعهم ، وأكثر عَناءهم ، وأقْصَرَ أناءَهم :

ما تَمَّ إلا ما رأيــــت وربما تعْيي السَّـــلامة
والنـــاس إما جـــائرٌ أو حايرٌ يشكو ظُلامة
والله ما احْتَقَب الحريصُ ســوى الذُّنوبِ أو الملامة
هل ثَمَّ شكٌّ فى المعــاد الحقٌّ أو يوم القيــامة
قُولوا لنــا ما عندكم أهلَ الخَطابة والإمامة

وإن رميتُ بأحجارى ، وأوحرت المرَّ من أشجارى ، فوالله ماتلبَّست منها لليوم بشيءٍ قديم ولا حديث ، ولا استَأثَرتُ بطيِّب فَضْلاً عن خبيث . وما أنا إلا عابِرُ سبيل ، وهاجرُ مرعىً وَبيل ، ومُرتقبُ وعدِ قدر فيه الإنجاز ، وعاكفٌ على حقيقة لا تعرف المجاز قد فرَرْتُ من الدنيا

كما يُفَرُّ من الأَسَد ، وحاولت المقاطعة ، حتى بين رُوحى والجَسَد ، وغَسَل الله قلبي ، وله الحمد ، من الطَّمع والحسَد ، فلم أُبْقِ عادة إلاَّ قطعتُها ، ولا جنَّةً للصَّبر إلاَّ ادَّرَعتُها . أَمَّا اللِّباس فالصُّوف ، وأما الزُّهد فيما فى أيدى الناس فمَعْروف ، وأما المال الغَبِيط فعلى الصَّدقة مصروف . ووالله لو علمتُ أنَّ حالى هذه تتَّصل ، وعُراها لا تنفصل ، وأن ترتيبي هذا يدوم ، ولا يجيزُنى الوعد المحتوم ، والوقت المعلوم ، لمتُّ أَسَفاً ، وحَسْبى الله وكَفَا . ومع هذا ياسيدى ، فالموعظةُ تُتَلقَّى من لسان الوُجود ، والحكمةُ ضالَّةُ المُؤْمن يطلُبها ببذل المجهود ، ويأْخذُها من غير اعتبار بمحلِّها المذمُوم أو المحمود . ولقد أعْمَلْتُ نظرى فيما يكافئ عنى بعض يَدِك ، أو ينْتَمى فى الفضل إلى أَمَدِك ، فلم أر لَكَ الدُّنيا كَفًّا . هذا لو كنت صاحب دُنيا ، وألفيت بذل النَّفس قليلاً لك من غير شرطٍ ولا ثُنَيًّا . فلما أَلْهَمَنى الله لمخاطبتك بهذه النَّصيحة المفْرَغة فى قالَب الجَفا ، لمن لا يُثْبت عين الصَّفا ، ولا يُشيم بارقَة الوَفا ، ولا يعرف قاذُورَة الدُّنيا مَعْرِفة مِثْلى من المُتَدَنِّسِين بها المُنْهمكين ، وينظر عَواره الفادِح بعين اليقين ، ويعلم أنها المومِسة التى حُسْنها زُور ، وعاشقها مغْرور ، وسُرورها شُرور ، تَبَيَّن لى أنى قد كافَيْتُ صنِيعَتَك المتقدِّمة ، وخرجتُ عن عهدتك المُلْتَزَمة ، ومَحَضْتُ لله النُّصح الذى يُقِرُّ بعزِّ الله ذاتك ، ويُطيب حياتك ، ويُحيِي مَواتك ، ويريح جَوارِحَك من الوَصَب ، وقَلْبَكَ من النَّصب ، ويُحقِّر الدنيا وأَهْلَها فى عَيْنك إذا اعْتَبَرْت ، ويُلاشى عَظايمها لديك إذا اخْتَبَرْت ، كلُّ من تقع عليه عينُك حقِيرٌ قليلٌ ، وفقيرٌ ذليل ، لا يَفْضُلك بشيء إلاَّ باقْتِفاء رُشْد أو تَرْك غيٍّ . أثوابهُ النَّبيهة يَجرِّدها الغاسل ، وعُرْوة غيره يُفَصِّلها الفاصل ، ومالهُ الحاضر الحاصل ، يَعيث فيه الحُسام الفاصل ، والله

ما تَعَيَّن للخَلَف إلاَّ ما تَعَيَّن للسَّلَف ، ولاَ مصيرُ المجموع إلاَّ إلى التَّلف ، ولا صَحَّ من الهِياط والمِياط ، والصِّياح والعِياط ، وجَمْع القيراط إلى القيراط ، والاستظهار بالوَزَعة والأَشْراط ، والخَبْط والخَبَّاط ، والاسْتِكثار والاغْتِباط ، والغُلُوّ والاشْتِطاط ، وبِنا الصَّرح وعمل السَّاباط ، ورفع العماد وإدارة الفُسْطاط ، إلاَّ أَلَمٌ يُذهب القوة ، ويُنْسى الآمال المرجُوَّة ، ثمَّ نَفَسٌ يصعد ، وسَكَرات تتردَّد ، وحسرات لِفراق الدُّنيا تتجدَّد ، ولسانٌ يَثْقُل ، وعينٌ تُبصر الفراق الحقَّ وتمقُل . قل هو نبأٌ عظيم ، أنتم عنه مُعْرضون . ثم القَبْرُ وما بعده ، والله منجزٌ وعيدَهُ ووعْدَه . فالإضرابُ الإضرابُ ، والتُّراب التُّراب ، وإن اعتَذَر سيدى بقِلَّة الجَلَد ، لكثرة الوَلد ، فهو ابن مَرْزوق ، لا ابن رَزَّاق ، وبيده من التَّسبُّب ، ما يتكفَّل بإمساك أَرْماق . أين النَّسْخُ الذى يَتَبلَّغ الإنسان بأُجرَته ، فى كِنٍّ حُجْرته ، لا بل السؤال الذى لا عار عند الحاجة بمَعَرتَّه ، السؤال والله أقومُ طريقاً ، وأَكرم فريقاً ، مِنْ يد تمتَدَّ إلى حَرام ، لا يَقُوم بمرام ، ولا يُومِّن من ضِرام أُحْرِقت فيه الحُلل ، وقُلِبت الأَديان والمِلَل ، وضُربت الابْشار ، ونُحرت العِشار ، ولم يَصل منه على يَدَى واسِطةِ السُّوء المِعْشار . ثم طُلب عند الشِّدَّة ففُضِح ، وبان سَوْمه ووَضَح ، اللهم طهِّر منَّا أَيْدِينا وقلوبَنا ، وبلِّغنا من الانصراف إليك مَطْلُوبَنا ، وعرِّفنا بمن لا يَعْرف غيرك ، ولا يَسْتَرْفِد إلاَّ خَيْرك ياأَلله . وحقيقٌ على الفُضلاء إن جَنَح سيدى منها إلى إشارة ، أو أَعمل فى احْتِلابها إضباره . أَو لَبِس منها شَارَة ، أَو تَشَوَّف إلى خدمة إمارة . ألا يُحْسنوا ظنونهم بعدها بابن ناس . ولا يَغْتَرُّوا بِسَمْتٍ ولاخَلْقٍ ولا لِباس ، فما عَدَا عمَّا بَدا . تَقْضى العُمْر فى سِجْنٍ وَقَيْد ، وعَمْرو وزَيْد ، وضرٌّ وكَيْد ، وطِراد صَيْد ، وسَعْد وسَعيد ، وعَبْد وعَبيد ، فمتى تظهرُ الأَفكار ،

ويَقِرُّ القرار ، وتُلازَم الادِّكار ، وتُشام الأَنوار ، وتَتجلَّى الأَسرار ، ثم يقع الشُّهود الذى تذهب معه الأَفكار ، ثم يحقُّ الوُصول الذى إليه من كلِّ ما سواه القَرار ، وعليه المَدار . ووَحَقِّ الحقِّ ، الذى ما سواه فباطل ، والفَيْض الرَّحْمانى ، الذى رَبابهُ لا بد هاطل ، ما شاب مُخاطبتى لك شايِبةٌ بريْب ، ولقد مَحَضْتُ لك ما يَمْحَضه الحبيب إلى الحبيب (١) ، فيحمل جَفاً فى الذى حَمَلَتْ عليه الغَيْرة ، ولا تَظُنَّ بى غيْره . وإن أَقْدَر قَدْرى فى مُكاشفة سيادتك بهذا البَثّ ، فى الأُسلوب الرَّث ، فالحقُّ أَقْدَم ، وبناؤه لا يُهْدَم ، وشأْنى معروف فى مُواجهة الجبابرة ، على حِين يَدى إلى رِفدِهم مَمْدُودة ، ونَفْسى فى النُّفوس المُتَهافِتة عليهم مَعْدُودة ، وشَبابى فاحِمٌ ، وعلى الشَّهوات مُزَاحِمٌ ، فكيف بى اليوم مع الشَّيْب ، ونُصْح الجَيْب ، واستِكْشاف العَيب ، إنما أَنا اليوم على كلِّ مَنْ عَرَفنى كَلٌّ ثقيل ، وسيفُ العَذْل فى كفِّى صَقِيل، أَعْذِل أَهْل الهوى ، وليست النُّفوس فى القَبُول سَوا ، ولا لكلِّ من ضَرٍّ دَوا ، وقد شَفَيْتُ صَدْرى ، وإن جَهِلتُ قدْرى ، فاحْمِلنى حَمَلَكَ الله على الجادَّة الواضحة ، وسَحَب عليك سِتْر الأُبوَّة الصَّالحة ، والسَّلام .

ولما شَرَح كِتابَ « الشِّفا » (٢) للقاضى أَبى الفَضْل عِياض بن موسى ابن عِياض رحمه الله ، واستَبْحر فيه ، طلب أَهل العُدْوتين بنَظْم مقطوعات تَتَضمَّن الثَّناء على الكِتاب المذكور ، وإطْراء مؤلِّفه ، فانْثال عليه من ذلك الطَّم والرَّم ، بما تعدَّدت منه الأَوراق ، واختَلفت فى الإجادة وغيرها

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الجيب) . ونعتقد أن التصويب أرجح .

(١) كتاب « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » هو أعظم كتب القاضى الإمام الحافظ عياض ابن موسى بن عياض اليحصبى السبتى المتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد فى حرف العين .

الأَرزاق ، إيثاراً لِغَرضه ، ومبَادَرَةً من أهل الجهات لإسعاف أَرَبِه ، وطُلب مِنى أن أُلِمَّ فى ذلك بشيء ، فكتبت فى ذلك :

شِفا عياضٍ للصُّدور شِفاءُ ... وليس بفضل قد حَواه خفاءُ
هديَّةُ برٍّ لم يكن لجَزِيلها ... سوى الأَجروالذِّكرالجميل كَفاءُ
وفَّ لِنَبِيِّ الله حقَّ وفـائه ... وأَكْرَم أَوصاف الكِرام وفاءُ
وجاء به بَحْرًا يقول بفضله ... على البَحْر طَعْمٌ طيِّبٌ وصفاءُ
وحقُّ رسول الله بعد وفـاته ... رَعاه وإغفالُ الحُقوق جَفاءُ
هو الذُّخر يُغنى فى الحياة عَتـاده ... ويَتْرُك منه اليقينُ رِفـاءُ
هو الأَثَرُ المحمود ليس يَنالُه دُثُـور ولا يُخْشى عليه عَفـاءُ
حَرَصْت على الإِطْناب فى نَشْر فضـله وتَمْجِيده لو ساعدتنى فاءُ

واستزاد من هذا الغرض ، الذى لم يَقْنَع منه بالقليل ، فبعثتُ إليه من محل انتقالى بمدينة سَلا حرسها الله :

أَأَزاهـر ريـاض ... أم شفاءٌ لِعيـاض
جدَّل الباطلَ للحـق ... بأَسـياف مَـواض
وجلا الأَنـوار بُرهـا ... ناً بحَقٍّ[(١)] وافتراض
وشفى من يشتكى الغُلَّـة فى زُرْق الحيـاض
أَيُّ بُنيـان مُعـارٍ[(٢)] ... آمنٍ فَوْق انقضـاض
أَىُّ عهد ليس يُـرَمى ... بانتـكاث وانتقـاض
ومَعـانٍ فى سـطور ... كأُسُود فى غِيـاض
وشـفاءٌ لصـدور ... من ضَنى الجهل مُراض

---

(١) وردت فى الإسكوريال (بخلف) والتصويب من النفح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال و فى النفح (مقال) .

حَرِّر القصد فما شِينَ بنقد واعتراض
يا أبا الفضل أدْر بأنَّ الله عن سَعيك راض
فاز عبدٌ أقْرَض الله برُجحان القِراض
وجُنْت عزَّ المَزايا من طِوال وعِراض
لك يا أصْدق راوٍ لك يا أعْدَل قاض
لرسول الله وفَيْتَ بجدٍّ وانتهاض
خيْرُ خَلْق الله فى حالٍ وفى آتٍ وماض
سدَّد الله ابنَ مرزوق إلى تلك المُراض
زُبدة العِرفان مَعْنى كلِّ نُسْك وارتِياض
فتوَلَّى بَسْط ما أجْمَلتَ من غير انقِباض
ساهرٌ لم يَدْر فى استخلاصه طَعْمَ اغتِماض
إن يكن دَيْنا على الأيسام قد حان التَّقاض
دام فى عُلُوٍّ ومن عاداه يهوى فى انخِفاض
ما وشَى الصُّبح الدِّياجى فى سوادٍ ببَياض

ثم نظمتُ له أيضاً فى الغرض المذكور ، والإكثار من هذا النمط ، فى هذا الموضع ، ليس على سبيل التَّبجُّح بغرابته وإجادته ، ولاكن على سبيل الإشادة بالشَّرح المشار إليه ، فهو بالغٌ غاية الإستِبْحار .

حُيِّيت يا مُخْتَطَّ سَبْت بن نوح ... بكل مُزْن يَغْتَدى أو يروح
وحمل الرِّيحان ريح الصَّبا ... أمانةً فى كُلٍّ إلى كلِّ روح (١)
دارُ أبى الفضل عِياض الذى ... أضحت برِيَّاه رياضاً تَفوح
يا ناقِل الآثار يُعنى بها ... وواصلاً فى العلم جَرْى الجَمُوح

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الاسكوريال . وفى النفح (أمانة فيك إلى كل روح) .

طِرفك فى الفخر بعيدُ المدا ... طَرفك للمجد شديدُ الطُّموح
كفاك إعجازاً كتاب الشـفا ... والصبح لا يُنكر عند الوضوح
لله ما أجزلت فِينا به من ... مِنحة تَقْصُر عنها المُنوح
روضٌ من العلم هَمَى فوقه ... من صَيِّب الفِكر الغمامُ السَّفوح
فمن بيان الحقِّ زَهْرٌ نَدٌ[1] ... ومن لسان الصِّدق طيرٌ صَدُوح
تأرَّج العَرْف وطاب الجَنَى ... وكيف لا يُثمر أو لا يفوح
وحُلَّةٌ من طيب خير الورى ... فى الجَيب والأعطاف منها نُضوح
ومُعَلَّمٌ للدين شيَّدته ... فهذه الأعلام منه تَلُوح
فقل لهامان كذا أو فلا ... يامَنْ أضلَّ الرُّشدَ تَبْنى الصُّروح
فى أحسَنِ التَّقويم أنشأته ... خَلْقاً جديداً بين جِسْم ورُوح
فعُمْره المكتوب لا يَنْقضى ... إذا تَقَضَّى عُمْرُ سامٍ ونُوح
كأنَّه فى الحَفْل ريحُ الصَّبا ... وكلُّ عطف فهو غُصْنٌ[2] مَروح
ما عُذر مَشْغوفٍ بخير الورى ... إن هاج منه الذِّكر أنْ لا يَبُوح
عجبتُ من أكباد أهل الهوى ... وقد سطا البُعد وطال النُّزوح
إن ذُكر المحبُوب سالت دِما ... ما هنَّ أكباد ولكن جُروح
يا سيِّدَ الأوضاع يا مَنْ له ... بِسَيِّد الإرسال فضلُ الرُّجوح
يا مَنْ له الفخر على غيره ... والشُّهب[3] تَخْفى عند إشراق يوح[4]
يا خَيْر مشروح وفىَّ واكْتفى ... منه ابنُ مرزوق بخير الشُّروح

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بدا) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (غصن) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (والشمس) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بوح) .

فَتْحٌ من الله حَبــــاه بــه ومن جَناب الله تاتى الفُتوح

مولده : بتلمسان عام أحد عشر وسبعماية[١]

محمد بن عبد الرحمن بن سعد التَّميمى التَّسلى[٢] الـكَرْسوطى

من أهل فاس ، نزيل ما لَقة يكنى أبا عبد الله .

حــــاله

الشيخ الفقيه المُتَكلِّم أبو عبد الله ، غزيرُ الحِفْظ ، مُتَبحِّر الذِّكر ، عديم القَرين ، عظيم الاطِّلاع ، عارفٌ بأسماء الأوضاع ، يَنْثال منه على المسايل كَثيب مَهِيل ، ينقل الفِقْه منسوباً إلى أمانة ، ومنوطاً برِجاله ، والحديث بأسانيده ومُتُونه ، خَوّار العِنان[٣] ، وسَّاع الخَطْو ، بعيدُ الشأْو ، يفيض من حديث إلى فقه ، ومن أدب إلى حكاية ، ويتعدى ذلك إلى غرايب المَنْظُومات ، مما يختصُّ بنظمه أُولو الشَّطارة والحِرفة من المغاربة ، ويستَظهر مُطوَّلات القِصاص ، وطَوابير الوُعَّاظ ، ومَساطير أهل الكُدْية ، فى أُسلوب وَقاح ، يَفْضحه الإعراب ، حسن الخُلُق جمٌّ الاحتمال ، مُطرِّح الوَقار ، رافضُ التَّصَنُّع ، مُتَبَذِّل[٤] اللِّبْسة ، رَحيب أكْناف المرارة لأَهل الولايات ، يُلقى بمعاطِنهم البَرْك ، وينوط بهم الوسائل ، كثيرُ المشاركة

---

(١) جاء فى « جذوة الاقتباس » أنه توفى بعد الثمانين وسبعمائة (ص ٢٢٧). وورد فى هامش المخطوط ما يأتى بعد ذكر مولد ابن مرزوق : « قال الشيخ جلال الدين السيوطى فى تاريخ النحاة ، مات فى ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وسبعمائة » . هذا ولم يكن من الميسور أن يذكر ابن الخطيب وفاته ، وقد توفى قبله بخمسة أعوام .

(٢) نسبة إلى قبيلة « تسولة » إحدى قبائل البربر النازلة فى شمال غربى المغرب الأقصى .

(٣) خوار العنان أى سهل المعطف لينه .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . ومتبذل اللبسة [illegible] وذلك بخلاف مبتذل اللبسة أعنى رث الملابس .

لوُصلايه ، مُخْصِبٌ على أهل بيته ، حَدِبٌ على بَنيه . قَدِم على الأَندلس عام اثنين وعشرين وسبعماية ، فأَقام بالجَزيرة مقرياً بمسجد الصَّوَّاع منها ، ومسجد الرَّايات . ثم قدم على مالَقة وأقرأ بها ، ثم قدم على غرناطة عام خمسة وعشرين وسبعماية ، فتعرف على أَرباب الأَمر ، بما نجحت حيلتهُ ، وخفَّ به موقعه ، فلم يَعْدم صلةً ، ولا فقد مِرْفَقَةً ، حتى ارتاش وتأَثَّل بمحل سُكناه من مالقة ، مَدَرَةً مُغِلَّة ، وعقارا مفيدا . وطال قعوده لسَرْد الفقه بمسجدها الجامع ، نَميرٌ في الركب ، مَهْجور الحَلَقة ، حَمْلا من الخاصَّة والعامَّة ، لتلَبُّسه بالعَرَض الأَدْنى . وهو الآن خطيب مسجد القصَبة بها ، ومحله من الشهرة ، بالحِفْظ والاستِظْهار لفروع الفقه ، كبير .

مشيخته

قرأ القرآن على الجماعة بالمغرب والأندلس ، منهم أبوه ، والأستاذ أبو الحسن القيجاطى البَلوى ، وأَبو إسحق الحريرى ، وأبو الحسن بن سُليمن ، وأَبو عبد الله بن أَجْرُوم . وقرأ الفقه على أَبى زيد الجَزولى ، وعبد الرحمن بن عفَّان ، وأَبى الحسن الصغير ، وعبد المؤمن الجاناتى[(١)] ، وقرأ الكتاب بين يديه مدة ، ثم عَزَله ، ولذلك حكاية . حَدثنى الشيخ أبو عبد الله الكرْسوطى ، المُترجم به ، قال قرأْتُ بين يديه ، فى قول أَبى سعيد فى التهذيب ، والدَّجاج والأوز المُخلات ، فقال أنظر هل يُقال الدَّجاج أَو الجدّاد ، لغة القرآن أَفصح ، قال الله تعالى : وجُدَدٌ بيض ، [وحمرٌ مختلفٌ أَلْوانها][(٢)] . وغرابيب سُود . فأرزى به ، ونقل إليه إزاره[(٣)] ، فعزله . وقعد بعد ذلك للاقراء بفاس ، كذا حدث وأخذ عن

---

(١) هكذا و ـ ـ فى الاسكو ـ ـ ال ، وفى الخذوة (الجناتى)

(٢) هذه العبارة وردة فى « الزيتونة » وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هكذا وردت فى « الزيتونة » . وفى الإسكوريال (أزراوه) .

أبى إسحق الزناتى[١] . وعن خلف الله المجاصى . وأبى عبد الله بن عبد الرحمن الجَزُولى ، وأبى الحسين المزدغى ، وأبى الفضل ابنه ، وأبى العبَّاس بن راشد العُمرانى ، وأبى عبد الله بن رُشَيد . وروى الحديث بسَبْتة عن أبى عبد الله الغمارى ، وأبى عبد الله بن هانى ، وذاكر أبا الحسن بن وشَّاش . وبمالقة عن الخطيب الصالح الطَّنجالى ، وأبى عمرو بن مَنظور . وبغرناطة عن أبى الحسن القِيجاطى ، وأبى إسحق بن أبى العاصى . وببلِّش عن أبى جعفر الزيات

تواليفه

منها « الغُرَر فى تكميل الطُّرر » ، طرر أبى إبراهيم الأعرج . ثم « الدُّرر فى اختصار الطُّرر » المذكور . وتقييدان على الرسالة ، كبيرٌ وصغيرٌ ، ولخَّص « التهذيب » لابن بشير ، وحذف أسانيد المُصَنَّفات الثلاثة ، [البخارى ، والترمذى ، ومسلم][٢] ، والتزم إسقاط التكرار ، واستدراك الصِّحاح[٣] الواقعة[٤] فى التهذيب على مسلم والبخارى .وقيّد على مختصر الطُّليطلى ، وشرع فى تقييدٍ على قواعد الإمام أبى الفضل عِياض بن موسى ابن عياض ، برَسْم ولدى أسْعَدُه الله .

شـــعره

أنشدنى ، وأنا أُحاول بمالَقة لَوْث العمامة ، وأستعين بالغير على إصلاح العمل ، وإحكام اللِّياثة :

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (البرناسى).
(٢) هذه الزيادة واردة فى « الزيتونة » وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) وردت فى الإسكوريال (الصحايح) . والتصويب من النفح
(٤) وردت فى الإسكوريال ، وفى « الزيتونة » (المرافقة) .

أَمُعَمَّمَا قمرًا تكامل حُسنه أربى على الشمس المنيرة فى البَها
لا تلتمس ممَّن لديكِ زيـادة فالبدرُ لا يَمْتار من نُور السُّها

ويَصدُر منه الشعر مُصَدَّراً ، لا تَكْنِفه العِناية .

محنتــه

أُسِر ببحر الزُّقاق[١] ، قادمًا على الأَندلس ، فى جُملة من الفضلاءِ ، منهم والده . واستقر بطَرِيف[٢] عام ستة وعشرين وسبعماية ، ولقى بها شدَّةً ونكالاً ، ثم سُرِّح والده ، لمحاولة فِكاك نفسه ، وفُكَّ ابنه ، ويَسَّر الله عليه ، فتخلَّصا من تلك المحنة فى سبيل كُدْية ، وأَفْلَت من بين أَنْياب مشقَّة

بعض أَخباره

قال ، لقيتُ الشيخ ولى الله أبا يعقوب بساحل بادس[٣] ، قاصداً الأَخذ عنه ، والتَّبرك به ، ولم يكن رآنى قط ، وأَلفيتُ بين يديه عند دخولى عليه ، رجلاً يقرأُ عليه القرآن . فلما فرغ ، أراد أن يقرأَ عليه أَسْطُراً من الرِّسالة . فقال له ، اقْرأْها على هذا الفقيه . وأَشار إلىَّ ، ورأَيْتُ فى عَرْصة له أُصول خَصٍّ ، فتمَنَّيت الأَكل منها ، وكان ربَّاعها غير حاضر ، فقام عن سُرعة ، واقتلع منها أُصُولا ثلاثة ، ودَفَعها إلىَّ ، وقال كُل . فقلت فى نفسى ، تصرف فى الخَضْرة قبل حضور ربَّاعها . فقال لى ، إذا أَردت

---

(١) بحر الزقاق ، يطلق على الطرف الغربى الضيق من البحر المتوسط ، الواقع شرقى جبل طارق أو جبل الفتح ، فيما بين ثغر ألمرية شمالا ومليلة جنوبا . وقد يشمل مضيق جبل طارق نفسه .

(٢) ثغر طريف أو جزيرة طريف . سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٣٧٤ حاشية) .

(٣) بادس أو باديس ثغر مغربى صغير يقع على شاطىء البحر المتوسط الجنوبى مقابل ثغر مالقة الأندلسى ، وغربى ثغر مليلة الإسبانى .

الأكل من هذه الخَضْرة ، فكُل من هذا القسم فإنَّه لى . قلت . وخَبَرْتُ من اضطِّلاع هذا المترجم به بعبارة الرُّؤيا ، ما قضيت منه العَجَب فى غير ما شيء جَرَّبتُه . وهو الآن بحاله الموصوفة . وأصابه لهذا العهد جلاءٌ عن وطنه ، لتوفر الحَمْل عليه من الخاصِّ والعامِّ ، بما طال به نَكَده . ثم آلَتْ حاله إلى بعض صلاحٍ ، والله يتولاَّه .

مولده : بمدينة فاس عام تسعين وستماية .

محمد بن عبد المنعم الصَّنهاجى الحميرى

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن عبد المنعم ، من أهل سَبْتة . الأُستاذ الحافظ

حــــاله

من « العايد » : كان رحمه الله رجلَ صِدْقٍ ، طيِّب اللهجة . سَليم الصدر ، تام الرُّجولة ، صالحاً ، عابداً ، كثير القُرب والأَوْراد فى آخر حاله ، صادق اللسان . قرأ كثيراً ، وسنُّه تنيف على سبع وعشرين . ففات [1] أهل الدُّؤُب والسَّابقة ، وكان من صدور الحُفَّاظ . لم يَسْتَظْهر أحدٌ فى زمانه من اللُّغة ما استَظْهره . فكاد يستظهر كتاب التَّاج للجَوْهرى وغيرَه . آيةً تُتلى ، ومثلاً يُضْرب . قايماً على كتاب سيبويه ، يَسْرُده بلَفْظه . اختبَرَهُ الفاسيون فى ذلك غير ما مرة . طبقةٌ فى الشطرنج ، يلعَبُها محجوباً . مُشاركاً فى الأُصول آخذاً فى العلوم العقلية . مع المُلازمة للسُّنَّة . يُعرب أبداً كلامَه ويزينه

---

(١) وردت فى الإسكوريال (فساى) والتصويب من « الزيتونة »

مشيخته

أخذ ببلده عن الأُستاذ أبي إسحق الغافِقى ، ولازَم أبا القاسم بن الشَّاط ، وانتفع به وبغيره من العلماء .

دخوله غرناطة

قدم غَرْناطة مع الوفد من أهل بلده ، عند ما صارت إلى إيالة الملوك من بنى نَصْر ، لما وصلوا بالبَيْعة .

وفاته : كان من الوَفد الذين استأْصلهم الموَتان [عند][1] مُنْصرفهم عن باب السلطان ، ملك المغرب ، بأَحْواز تيزى[2] ، حسبما وقع التَّنبيه على بعضهم .

محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن إدريس بن سعيد ابن مسعود بن حسن بن محمد بن عمر بن رُشَيْد الفهرى

من أهل سبتة ، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن رُشَيد

حـــاله

من « عايد الصلة » : الخطيبُ المحدِّثُ ، المُتبَحِّر فى علوم الرِّواية والإسناد . كان رحمه الله فريدَ دهره عدالةً وجلالةً ، وحِفْظاً وأدباً . وسَمْتاً وهدياً ، واسع الأَسْمِعة ، عالى الإسناد . صحيح النَّقل ، أصيل الضَّبط ، تام العناية بصناعة الحديث . قيما عليها بصيرا بها ، محققا فيها ، ذاكراً فيها للرجال ، جمَّاعةً للكُتُب ، محافظاً على الطَّريقة . مضطَّلعاً بغيرها ،

---

(١) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة السياق

(٢) بلدة تازة المغربية ، وهى تقع شمال شرق فاس .

من العربية واللغة والعَرُوض ، فقيهاً أَصيل النَّظر ، ذاكراً للتفسير ، رَيّان من الأَدب . حافظاً للأَخبار والتواريخ ، مُشاركاً فى الأَصْلَين ، عارفاً بالقراءات ، عظيم الوقار والسَّكينة ، بارع الخَطِّ ، حسن الخُلْق ، كثير التَّواضع ، رقيق الوَجْه ، مُتَجمِّلاً ، كَلِف الخاصة والعامَّة ، مبذول الجاه والشَّفاعة . كَهْفاً لأَصناف الطَّلَبة . قَدِم على غَرْناطة فى وزارة صديقه ، ورَفيق طريقه فى حجِّه وتَشْريقه ، أَبى عبد الله بن الحَكِيم ، فلقى بِرّاً ، وتقدَّم للخطابة بالمَسْجد الأَعظم ، ونَفَع الله لَديْه بشفاعته المبْذُولة ، طايفةً من خَلْقِه ، وانصرف إثْر مَقْتَلِه إلى العُدْوة ، فاستقرَّ بمدينة فاس ، معظَّماً عند الملوك والخاصَّة ، معروف القَدْر عندهم .

مشيخته

[قرأَ ببلده سَبْتَةُ على الأُستاذ إمام النُّحاة أَبى الحسن بن أَبى الربيع كتاب سيبويه ، وقيد على ذلك تقييداً مفيداً ، وأَخذ عنه القراءات . وأَخذ أَيضاً عن الأُستاذ أَبى الحسن بن الخطَّار . ورَحَل من بلده سبتة لأَداء الفريضة . حَجَّ ولَقِى المشايخ عام ثمانية وثمانين وستماية ، فوافى فى طريقه الحاجَّ المحدِّث الرَّاوية ، ذا الوزَارتين بعد ، أَبا عبد الله الحَكِيم ، وأَخذ عن الجِلَّة الذين يُشَقُّ إحْصاؤُهم . فمِمَّن لَقِى بإفريقية الرَّاوية العَدْل أَبا محمد عبد الله بن هارون يرْوى عن ابن بقىّ ، والأَديب المتَبَحِّر أَبا الحسن حازم ابن محمد القرطاجنىّ . وروى بالمشْرق عن العَددِ الكثير كالإمام جار الله أَبى اليُمْن بن عساكر . لقيه بباب الصَّفا تِجاه الكَعْبة المُعَظَّمة ، وهو موضعُ جلوسه للسَّماع ، غرَّة شوال عام أَربعة وثمانين وستماية ، وعن غيره ، كأَبى العِزّ عبد الرحمن بن عبد المنعم بن على بن نصْر بن مَنْظور بن هبة الله

وغيرهم ممن ثَبَت فى اسم مُرافقة فى السَّماع والرِّحلة أبى عبد الله بن الحكيم رحمه الله . فليُنْظر هنالك][1]

توالیفـــــه

أَلَّف فوايدَ رحلته فى كتاب سمَّاه « ملء العَيْبة فيما جُمع بِطُول الغيْبَة فى الوُجْهتين[2] الكَريمتين ، إلى مكَّة وطيبة » . قال شيخنا أبوبكر ابن شِبْرين ، وقفتُ على مُسْوَدَّته ، ورأَيتُ فيه فنوناً وضروباً من الفوايد العِلْمية والتاريخ ، وطَرْفاً من الأَخبار الحِسان . والمُسْندات العَوالى والأَناشيد . وهو ديوانٌ كبير[3] ، ولم يُسبق إلى مثله . قُلْتُ ورأَيتُ شيئاً من مُخْتَصره بسَبْتَة .

دخوله غــرناطة

ورَد على الأَندلس فى عام اثنين وتسعين وستماية . فعَقَد مجالِس للخاصِّ والعامِّ ،يُقرى بها فنوناً من العِلْم . وتقدَّم خطيباً وإماماً بالمسجد الأَعظم منها . حدَّثنى بعضُ شيوخنا ، قال ، قَعَد يوماً على المِنْبَر ، وظَنَّ أَن المُؤَذِّن الثالث قد فرغ ، فقام يَخْطُب والمؤَذِّن قد رفع صوته بأذانه ، فاستعظم ذلك بعضُ الحاضرين ، وهمَّ آخر بإشْعاره وتَنْبيهه . وكلَّمه آخر ، فلم يُثْنه ذلك عَمَّا شَرَع فيه ، وقال بديهةً . أَيها الناس . رَحِمَكم الله ، إنَّ الواجب لا يُبْطِله المَنْدوب . وأن الأَذان الذى بعد الأَوّل غير مَشْرُوع الوُجوب ، فتأَهَّبوا لطلب العلم . وانتَبهوا . وتذَكَّروا قوله عزَّ وجلَّ :

---

(١) نقلنا مشيخة ابن رشيد عن مخطوط الزيتونة . وهى ساقطة فى الإسكوريال . وفقط أورد عنها الناسخ هذه العبارة (قلت اختصرتها لطولها وبكونها ثابت فى اسم مرافقه فى السماع والرحلة أبى عبد الله بن الحكيم رحمه الله) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الجهتين)

(٣) وردت فى الإسكوريال (كثير) والتصويب من الزيتونة .

وما آتاكم الرَّسول فخذُوه ، وما نَهاكم عنه فانْتَهُوا ، وقد رُوِّينا عنه صلى الله عليه وسلَّم ، أنه قال ، مَنْ قال لأخيه والإمام يَخْطُب ، أُصْمُتْ ، فقد لغا ، ومن لغا فلا جُمْعَةَ له . جَعَلَنا الله وإيَّاكم مِمَّنْ عَلِم فَعَمِل ، وعَمِل فَقُبِل ، وأخْلَص فتَخَلَّص . وكان ذلك مما اسْتُدِلَّ به على قُوَّة جَنانه ، وانقِياد لِسانه لبَيَانه .

شــعره

وله شعر يتكلفه إذ كان لايَزِن أعاريضه إلاَّ بميزان العَرُوض . فمن ذلك ما حدَّث به ، قال لما حَلَلْتُ بدمشق ، ودخلتُ دار الحديث الأشْرَفِيَّة ، برَسْم رُؤْية النَّعْل الكَريمة ، نَعْلِ المُصْطفى صلوات الله عليه ، ولَثَمْتُها ، حَضَرَتْني هذه الأبيات :

هنيئاً لعينى أن رأَتْ نَعْل أحْمَدِ ... فيا سَعْدُ جَدِّى قد ظَفِرْت بأسْعَد [١]
وقَبَّلتُها أشْفِى الغَليل فزادنى ... فيا عَجَبا زاد الظَّما عند مَوْرِد
فللّه ذاك اللَّثْم فهو ألَذُّ مِن ... لِما شَفَةٍ لَمْيا وخَدٍّ مُوَرَّد
وللّه ذاك اليوم عيدًا ومعْلماً ... بتاريخه أرَّخْتُ مَوْلد أسْعَد
عليه صلاةٌ نَشْرُها طَيِّبٌ كما ... يُحبُّ ويَرْضى ربُّنا لمحَمَّد

[وقال ، وقلت فى موسم عام ستة وثمانين وستماية ، بِثَغْر سَبْتة حرسها الله تعالى :

أقول إذا هبَّ النَّسيم المُعَطَّر ... لعلَّ بشيراً باللقاء يُبشِّر
وعالى الصَّبا مرَّت على رَبْع جِيرتى ... فعَنْ طِيبهم عَرْفُ النَّسيم يُعبِّر
وأذكر أوقاتى بسَلْمَى وبالحِمى ... فتَذْكو لَظىً فى أضْلعى حين أذْكُر
ربوعٌ يودُّ المِسْك طِيبَ ترابها ... وبهوى حصىً فيها عقيقٌ وجوهر

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى « الجذوة » (بمقصدى) .

بها جيرةٌ لا يَخْفِرون بذِمَّةٍ   هُمْ لمواليهم جَمالٌ ومَفْخَرُ
إذا ما اجْتَلت زُهْر النجوم جمالَهم   تغار لباهى نُورهم فتغُورُ
ومن جُود جَدْواهم يُرى اللَّيْثُ   يَغمُر ومن خَوْف عَدْواهم يَذْعَر
ومن سَيْب يمناهم يُرى الرَّوضُ يزهر   ومن فَيض نَعْماهم يُرى البحرُ يَزْخَر
رَعى الله عَهْداً بالمُصَلَّى عَهِدتُه   وروضُ المُنَى غَضٌّ يرِقُّ ويَنْضُر
زماناً نَعِمنا فيه والظلُّ وارفٌ   بجنّات عَدْن تحتَها العَذْب يَخْضَر
ولله أيامُ المُصَلَّى وطيبُها وأنفُسُنا بالقُرْب والأُنْس تُجْبَرُ
بحيث يُرى بدرُ الكمال وشمسُه   وروضتُه فِرْدَوسٌ وحوضٌ ومِنْبَرُ
أروم دُنُوًّا من بَهاءِ جَمالها   ولَثْماً فتأْبى هَيْبةٌ وتَوَقُّرُ
خضعتُ وذُلّى للْحبيب تعززٌ   فطَرْفِىَ مَغْضُوض وخدِّى مُعَفَّر
ووجهُ سروري سافرٌ مُتَهلِّلٌ   وحالى بهم حُلَلٌ وعَيْشى أَخْضَرُ
فطُوبى لِمنْ أضحى بِطيبَةَ ثاوياً   يجرُّ أذيال الفَخَار ويَنْشُر
وإذ فات عَيْنِى أنْ تَراهم فردِّدوا على مسْمعى ذكر المُصَلَّى وكرِّروا
وَرَدْتُ فياطيب الوُرود بطيبةَ   صَدَرْتُ فواحُزْنى فلا كان مَصْدَرُ
رَماني زَماني بالفِراق فغرَّني   على مِثل مَنْ فارقتُ عَزَّ التَّصَبر
وأَضْمَرتُ أشجانى ودمعى مُظْهِرٌ   وأَسْرَرْتُ هِجْرانى وحالى تُخَبِّر
فَمِن أدْمُعى ماءٌ يَفِيضُ ويَهْمُر   ومن أَضْلُعى نارٌ تفُور وتَسْعَر
فجسمى مُصْفَرٌّ وفَوْدى أبيضُ   وعَيْشِى مُغْبَرٌّ ودمعى أحْمَرُ
وحين دنا التَّوديع ممَّن أُحِبُّه   وحان الذى مازلت منه أحْذَر
ونادى صِحابى بالرَّحيل وأَزْمَعوا   وسارت مطاياهم وظِلتُ أُقَهقِر
وآوى إليه الجيد حتى وجَعْته   وظلَّ فؤادى لَوْعَةً يَتَفَطَّر
وقفتُ لأَقْضِى زَفْرةً وصُبابة   ولا أنْثَنى فالموت أجْدى وأجْدَر

ولو أنَّنى بعتُ الحيــاة بنظـرةٍ لأَبَتْ وحظِّى فيه أَوْفى وأَوْفَــر
وما باخْتِيارى إنما قَدَرٌ جــرى رضيتُ بما يَقْضى الالَه ويُقْدر
حَنِينِى إلى مَغْنى الجمـال مواصل وشوق إلى مَعْنى الجمال مُوَفَّر
وغيرُ جميل أن يُرى عن جمالهـا فؤادى صَبُوراً والمَسِير مُيَسَّر
أَيَصْبُر ظمآنٌ يُغـال بغُـلَّة وفى روضة الرِّضوان شَهْدٌ وكوثر
فيا عَيْنَها الزَّرقاء إنَّ عُيونَهـا من الحُزْن فيضٌ بالنَّجيع تُفَجَّر
سأَقطع لَيلى بالسُّرى أَو أَزورُهـا وأَحمى الكَرَى عيناً لبعدك يظهر
وأُنْضِى المطايا أَو أُوافى رَبْعهـا فَتُنْجِدُنى طَوْراً وطوراً تُغَوِّر
حظَرتُ على نفسى الحِذار من الرَّدى أَتَحْذَرُ نَفْسُ الحبيب تُسَيِّر
أَيُنْكر تَغْـرير المشُوق بنفسـه وقد علموا أَنَّ المُحبَّ مُغَـرَّر
وقفتُ على فَتْوى المحبِّين كلِّهم فلم أجد التَّغرير فى الوَصْل يُنكر
وإنى إذا ما خَطْرَةٌ خطَرت قَضَــت بهَمِّى وعَزْمى همَّةٌ لا تأَطَّرُ
أُقِيمُ فأُلْفِى بين عَيْنَىْ هِمَّــتى وسَيْرى فى سُبُل العُلا ليس يُنكر
إذا ما بَدَت لِلعين أَعـلام طِيبــةَ ولاحت قِبابٌ كالكواكب تَزْهَر
وللقُبَّة الزَّهراء سَمْكٌ سَما عُـلاً وراق سَنًى كالشمس بل هو أَزهَرُ
لها مَنْظَرٌ قَيْدُ النَّواظر والنُّهى لها ساكنٌ من نـورد البَدْرُ يبدُر
فعرِّجوا على كَمَلِ الكمال وسلِّموا سَلِمتم وبُلِّغتم مُنـاكم فأَبْشِروا
بنفسى لا بالمال أَرْضَى بِشارة إذا لاح نورٌ فى سَناها مُبَشِّر
وما قَدْرُ نَفْسى أن تكـون كفاً ولكنها جُهْد[1] المُقِلِّ فأُعْـذَر
أَقول إذا أَوْفَيْتُ أَكْرم مُرْسَـلٍ قِراىَ عليكم أَنَّ ذنبى يُغْفَـر
وأَحْظى بتَقْريب الجِوار مُكَرَّماً وأَصفحُ عن جَوْر البُعـاد وأَعذُر

---

(١) وردت فى الإسكوريال (جهل) والتصويب أرجح .

وأَرْتَعِ في ظلِّ الجنـان منعَّماً — وأُمْنَى بقُرْبٍ من حِمـاك وأُجْبَر
هُناك هناك القُرْب فانْعِم بنَيْله — بحيث ثَوى جِسْمٌ كريمٌ مُطَهَّر
ودَعْ عنك تَطْواف البـلاد وخَيْمِن — بطيبة طابَتْ فهى مسكٌ وعَنْبـر
فَخَرْتُ بمَدْحى للنَّبيِّ محمد ومن — مدْحه المدَّاح يزهى ويفخـر
أطلتُ وإنِّى فى المديح مُقَصِّـر — فكلُّ طويلٍ فى معاليك يُقَصِّـر
فما بَلَغت كفُّ أمرى متناولٌ بها — المجدَ إلاَّ والذى نِلتَ أكبـرُ
وما بلغَ المُهدون فى القول مِدْحةً — وإن أطنَبوا إلاَّ الذى فيك أفْخَرُ
عليك صلاةُ الله ما مرَّ سـبقٌ — إليك وما هبَّ النَّسيم المعَطَّـر

وقال يرثى إبنا نجيباً ثَكله بغرناطة :

شبابٌ ثَوى شابتْ عليه المفارق — وغُصن ذَوى تاقت إليه الحدايق
على حين راق النَّاظرين بسـوقه — رَمَتـه سـهامٌ للعيـون رَواشـق
فما أَخْطَأت منه الفؤادَ بعَمْدهـا — فلا أَبْصَرَتْ تلك العيـون الرَّوانق
وحين تَـدانَى للكمـال هِلالُـه — أَلمَّ به نَقْـص وجَـدَّت مَواحق
إلى الله أشكو فهو يُشكَى نوازعاً — عِظـاماً سـطاها للعِظـام عَوارِق
ولا مثلُ فُقدان البَنِيِّ فجيعـةٌ — وإن طـال ما لجَّت وجلَّت بوايق
محمدُ إن الصَّبر صَبْرٌ وعلقـمٌ — على أنه حُلْو المَثُوبة سـابق
فإن جَزَعاً فالله للعَبْد عـاذِر — وإن جَلَداً فالوعد لله صـادق
وتالله مـا لىَ بعد عَيْشِك لـذَّةٌ — ولا راقنى مَرْأَى لعَيْنى رايـق
فأنَّى بـه والمذكرات عديـدةٌ — فنُبلٌ وهَمٌّ للعوايد خـارق
فأين التفَتُّ فالشخص للعين ماثل — وإن أستَمع فالصَّوت للأُذُن طارق
وإن أَدْعُ شخصاً باسمه لضرورة — فإن اسمَك المحبوبَ للنُّطق سابق
وإن تقرعَ الأَبواب راحةُ قـارع — يطيرُ عندها قلبٌ لِذكْرك خـافق

وكلٌّ كتاب قد حويتَ فمُذْكَـرٌ　　وآثـــاره كلٌّ إليـك توايـــق
سبقتَ كهولةً فى الطُّفولة لا تَنِى　　وأَرْهَقْتَ أشياخاً وأنت مُراهـــق
فلو لمْ يُغِلْكَ المْوتُ دُمتَ مَجْليًّا　　واقبل سِكِّيتاً وجيبةً ولاحِـــق
على مَهَلٍ أحرزتَ ما شـيتَ ثانِيـاً　　عِنانَك لا تَجْهد وأنت مُسـابق
رأتك المنايا سـابقاً فأَغَرْتَهـــا　　فجُـدٌّ طِـلاباً إنَّهـن لَواحـــق
لِينْ سُلِبت منِّى نفيسُ ذخــائر　　فإنِّى بمذخُور الأُجُـور لواثـق
وقد كان ظَنِّى أنَّنى لك سـابقٌ　　فقد صار عِلمى أنَّنى بك لاحـق
غَريبين كُنَّا فرَّق البَيْنُ بيننــا　　فأَبْرَحُ ما يَلْقى الغريبُ المُفارق
فبَيْنٌ وبعدٌ بالغــريب توكُّلاً　　قد رعى بما حَمَلْتُ والله ضـايق
عسى وطنٌ يَدْنُو فتدْنُو مُنًى　　وأَىُّ الأمـانى والخطوبُ عوايق
فلولا الأَسى ذاب الفؤاد من الأَسى　　ولولا البُكا لم يَحْمل الحُزْنَ طايق
فخطٌّ الأَسى خطًّا تروقُ سـطورُه　　وتَمْحو البكا فالدَّمع مـاحٍ وساحق
فياواحداً قد كان للعين نُورهـا　　اتلُ ضِيًا بَعْدَ بُعْدك غاســـق
عليك سلام الله ما جَنَّ ساجعٌ　　وما طلعت شمسٌ وما ذرَّ شارق
وما هَمَعَتْ سحبٌ غَوادٍ روايــحٌ　　وما لَمَعت تَحْدُو الرَّعودُ بوارق
رجاد على مثواك غيثٌ مـروضٌ　　عبَّادٌ لِرضوان الإلّه موافق[(١)]

محنتــه

تعرَّض إليْه قومٌ ، يوم قتل صديقه أبى عبد الله الحكيم بإذاية قبيحة . وأُسمع كل شارق من القول على ألسنة زعانفة فجَر وتَرَهم القتيلُ ، فتخلَّص ولا تَسَلْ كيف ، وأزمع الرَّحيل فلم يلبث بعد ذلك .

وفاته : كانت وفاته بمدينة فاس . فى اليوم الثامن من شهرم المحرم

(١) هذا الشعر كله وارد فى الإسكوريال . وساقط فى الزيتونة .

مفتتح عام أحد وعشرين وسبعماية . ودفن فى الجبانة التى بخارج باب الفُتوح بالرَّوضة المعروفة بمطْرح الجنَّة ، التى اشتملت على العلماء والصلحاء والفضلاء ، من الغرباء الواردين مدينة فاس . وكان مولده بسبتة عام سبع وخمسين وستماية .

محمد بن على بن هانى [اللَّخمى] [1] السَّبْتى

يكنى أبا عبدالله ، ويعرف باسم جدِّه ، أصلهم من إشبيلية .

حـــاله

كان رحمه الله فريدَ دهره فى سمُوِّ الهمَّة ، وإيثار الاقتصاد والتَّحلِّى بالقناعة ، وشُموخ الأَنْفِ على أهل الرِّياسة ، مُقتصراً على فايدة [2] رَبْع له ببلَده ، يتبَلَّغ مع الاستقامة ، مع الصَّبر والعمل على حفظ المروءة ، وصَوْن ماءِ الوَجْه ، إماماً فى علم العربيَّة ، مبرِّزاً متقدماً فيه ، حافظاً للأَقوال ، مُسْتوعباً لطريق الخلاف ، مُستحضراً لحُجَج التَّوجيه ، لا يُشَقُّ فى ذلك غُبارُه ، ريَّان من الأدب ، بارع الخَطِّ ، سهلَ مَقادة الكلام ، مُشاركاً فى الأَصْلين ، قايماً على القِراءات ، حَسِن المجلس ، رايق البِزَّة ، [بارع] المحاضرة ، فايق التَّرسُّل ، متوسط النَّظم ، كثير الاجتهاد والعكوف ، مليح الخُلق ، ظاهر الخشوع ، قريبَ الدِّمعة ، بيته شهير الحسَب والجَلالة .

وجرى ذكره فى « الإكليل الزاهر » [3] بما نصه : عَلَمٌ تشير إليه الأَكفُّ

---

(١) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (فايد) .

(٣) كتاب « الإكليل الزاهر » من كتب ابن الخطيب الصغرى وقد سبق التعريف به (أنظر مقدمة المجلد الأول من الإحاطة ، ص ٥٨ ، والمجلد الثانى ص ٣٤١ حاشية) .

ويعمل إلى لقايه الحافر والخفّ، رفع للعربيّة ببلده رايةً لا تتأخر ، ومرَج منها لُجّة تزخَر . فانفسخ مجالُ درسِه ، وأثمرت أدْواح غرْسِه ؛ فركَض بما شا وبرّح ، ودوّن وشرَح ، إلى شمايل تَمَلّك الظّرفُ زمامها ، ودُعابة راشَتْ الحلاوة سِهامها . ولما أخذ المسلمون فى مُنازلة الجَبَل(١) وحِصاره ، وأصابوا الكُفر منه بجارِحة أبْصاره ، ورَمَوا بالثُّكل فيه نازح أمْصاره ، كان ممن انتُدب وتطوّع ؛ وسمع النِّدا ، فأهطع ، فلازمه إلى أن نَفِدَ لأهله القُوت ، وبلغ من فَتْحة الأجل الموْقوت ، فأقام الصَّلاة بمحرابه ، وقد غيَّر مُحيَّاه طولُ اغترابه ، وبادَرَه الطَّاغية قبل أن يستقرَّ نصلُ الإسلام فى قِرابه ، أو يَعْلُق أصلُ الدِّين فى تُرابه . وانتُدب إلى الحصار به وتبرَّع ، ودعاه لَجلُه فلبَّى وأسرع . ولما هَدَر عليه الفَتِيق ، [وركعت إلى قِبْلَته المجانيق](٢) ، أصيب بحَجَر دوَّم عليه كالجارح المُحَلِّق ، وانقضَّ إليه انقضاض البارق المتألِّق ، فاقْتَنَصه ، واخْتَطفه ، وعمد إلى زَهْره فقَطَفه(٣) فمضى إلى الله طَوْع نيَّته ؛ وصَحِبَتْه غَرابة المنازع حتى فى مَنِيَّته .

مشيخته

قرأ على الأستاذ العلاَّمة أبى إسحق الغافقى ، وعلى الأُستاذ النحوى أبى بكر بن عُبيدة ، واعتمد عليه ، وقرأ على الإمام الصالح أبى عبد الله ابنُ حُريث .

تواليفه

ألّف كُتُباً ،منها كتاب «شرحُ التَّسهيل لابن مالك»، وهو أجلُّ كتبه،

---

(١) الجبل يقصد بها جبل طارق أو جبل الفتح .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى النفح (وركع إلى قبلة المنجنيق) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فاقتطفه) .

أَبْدَع فيه ، وتنافس [الناس][١] فيه . ومنها « الغُرَّة الطَّالعة فى شعراءِ المائة السابعة » . ومنها « إنشاد الضَّوَّال ، وإرشاد السُّؤَّال فى لحن العامة » ، وهو كتاب مفيد . « وقوت المُقيم » . ودوّن ترسُّل رييس الكتَّاب أَبى المُطَرِّف بن عَميرة وضمه فى سفرين . وله رجز فى الفرايض مفيد

شــعره

حدَّثنا شيخُنا القاضى الشَّريف ، نسيجُ وحده ، أَبو القاسم الحسنى ، قال ، خاطبت الأُستاذ أَبا عبد الله بن هانى رحمه الله بقصيدة من نظمى أَولها :

هلَّت الحديثَ عن الكَرْب الذى شَخصـــا

فأَجابنى عن ذلك بقصيدة فى رَوِيِّها :

لولا مَشيبٌ بفَوْدى للفؤاد عَصـــا … نَضَيْتُ فى مُهمَّه التَّشْبيب لى قَلصا
واستوقفت عَبَراتى وهى جــــاريةٌ … وكفاءٌ توهمَّ[٢] رَبْعاً للحبيب قَصا
مُسايلاً عن لَياليه التى انْتَهَزَت … أَيدى[٣] الأَمانى بها ماشِيَتَه فُرَصـــا
وكنتُ جاريتُ فيها من جرى طَلْقاً … من الإجــادة لـم يُحْجم ولا نَكَصا
أَصـــاب شـاكِلة المَرْمَى حين رَمَى … من الشَّوارد ما لولاه ما اقْتُنَصـــا
ومن أَعدَّ مكان النُّبل نُبْـــل حجاً … لم يَرْض إلاَّ بأَبكار النُّهى قَنَصا
ثم انْثَنَى ثانياً عَطْف النَّسيب إلى … مَدْحٍ به قد غلا ما كان قد رَخصا
فظلتُ[٤] أَرفل فيها لِبْسةً شرُفت … ذاتًا ومُنْتَسبًا أَعْزِز بــه قَمصـــا

---

(١) الزيادة من النفح .

(٢) وردت فى الإسكوريال (يومم) . والتصويب من النفح .

(٣) وردت فى الإسكوريال (فيها) . والتصويب من النفح .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى النفح .

يقول فيها وقد خوِّلتُ مِنْحتها ... وجُرِّع الكاشحُ المُغْرَى بها غُصَصا
هذى عَقايلُ وافَتْ متك ذا شرفٍ ... لولا أياديه بِيع الحَمْدُ مُرْتخصا
فقلت هلاَّ عكستَ القول منك له ... ولم يكن قابلا من مَدْحه الرُّخصا
وقلت ذى بِكْر فِكرٍ من أخى شرفٍ ... يُرْدى ويُرْضى بها الحُسَّاد والخُلَصا
لها حَلْىُ حُسْنِيَّاتٍ على حُلَلٍ ... حُسْنِيَّةٌ تَسْتَبى من حلَّ أو شَخَصا
خُوِّلْتُها وقد اعتزَّت ملابسها ... بالبَخْت ينقاد للإنسان ما عَوِصا
خُذْها أبا قاسم منِّى نتيجةَ ذى ... وُدٍّ إذا شِيت وُدًّا للوَرى خَلَصا
جاءت تجاوب عما قد بعثتُ به ... إن كنت تأْخذ من[1] درِّ النحور حَصا

وهى طويلة . ومما ينسب إليه ،وهو مليح فى معناه :

ما للنَّوى مُدَّت لغير ضرورة ... ولقَبْل ما عهدى بها مَقْصوره
إن الخليل وإن دَعته ضرورة ... لم يَرْضَ [ذلك][2] فكيف دون ضروره

وقال مضمِّنا :

لا يَلُمنى عاذِلى حتى[3] يرى ... وجه من أهوى فلَوْمى مستحيل
لو رأى وَجْه حبيبى عاذلى ... لتفارَقْنا على وجْه جميل

وقال فى الفخر :

قل للمُوالى عِشْ بغِبْطة حامد ... وللمُعادى بتْ بضغْنة حاسد
المُزْن كفِّى والثُريَّا همَّتى ... وذكا ذكرى والسُّعود مقاصد

وقال فى غير ذلك .

غَنِيتْ بى دون غيرى الدَّهر عن مثلٍ ... بعضى لبعضى أضْحَى يَضْرِب المثلا

---

(١) وردت فى الإسكوريال (س) . والتصويب من النفح .
(٢) هذه الزيادة من « الزيتونة » والنفح .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (حين)

ظَهْرى انحنى لمشيبٍ لاح واعجَبا	غضٌّ إذا أينعت أزهـــاره ذَبُلا
أذلك أم زهرُ لاحَت تخبِّر أن	يوم الصِّبا والتَّصابى آنس الطَّفَلا

ومما جَمع فيه بين نظمه ونثره ، ما راجع به شيخَنا القاضى الشريف أبا القاسم الحسنى عن القصيدة الهمزية التى ثبتت فى اسمه :

يا أَوْحَد الأُدبا أَو ياأَوحد الفُضــــلا	أَو ياأَوحد الشُّــــرفاء
من ذا تراه أَحقَّ منك إذا التَوَتْ	طرقُ الحِجاج بأَن يجيب نداء
أَدبٌ أَرقُّ من الهواءِ وإِن تَشــا	فمن الهـوى والمـاء والصَّهباء
وأَلذُّ من ظُلْم الحبيب وظُلْمــه	بالظَّـاء مفتوحاً وضمُّ الظَّــاء
ما السِّحْر إلاَّ ما تَصُــوغ بنانُه	ولسانُه من حِلْيــة الإنشــاء
والفضــلُ ما حلَّيتَه وحَبَيتَــــه	وحَبَوْتَنى منـه بخيــر حِبــاء
أَبكارُ فكرِك قد زُفِّفَت بمدْحَتى	تمشى روايعهــا على اســتحياء
لا من قُصورٍ بل لتُقْصيهــا من	حيثُ لم يَظْفَــرنَّ بالإِرْفــاء
لاكن جُبِــرن وقد جُبلن[1] على	الرِّضا فالجَبْر للأَبــكار للإِبساء
هذا إلى الشَّرف الذى قد فزتَ	من عليــائه بالعــزَّة القَعْسـاء
شرفُ السَّليل من الرسول وسيلةٌ	قامت بابن سَــنًا وابن سَــنَّاء
حسنٌ وأَبو حسن وفاطمة ابنــة	الهــادى البريَّةَ خــاتَم النُّبلاء
شــرفٌ على شــرفٍ إلى شَرَفين	من ذا حـاز ما حُزْت من عَلْيـاء
هذى ثلاثٌ أَنت واحدُ فخـرِها	فاشْمَخ لها شرفاً بأَنفِ عــلاء
من رام رُتْبتك السَّنية فليقِف	دون المـرام مواقفَ الإِقصــاء
هذى مآثرُ قد شَـأَوْتَ بصيتها	من كان من آبَ لهـا أو شـاء
والليثُ يُرْهب زأْره فى موطـنٍ	ما كان من نَقْــدٍ به أو شــاء

(١) وردت فى الإسكوريال (جابن) ونعتقد أن التصويب أرجح .

يكفيك من نَكد المُعاند أن يُرى ... مُتَقَلِّد الأَعضـــاءَ بالبَغْضــاءِ
السِّنُّ يُفنى بالأَنامل قـــرعه ... أَو عضُّه متوقِّـــد الأَحشـــاءِ
أَتْحَفْتَنى بقصيـدة هَمْـــزِيَّة ... مقصـــورةٍ ممـــدودةِ الآراءِ
كم بين تلك وهذه لاكنَّهـا ... غطىٌّ على هذى ذهـابُ فَتـاءِ
ذو الشيب يعذُره الشَّــباب فمـا لهم بذكا نُبلٍ أَو بنُبْلِ ذكاءِ
من قارب الخمسين خَطْواً سنُّه ... فمحالُه مستوجبُ الإِبطـــاءِ
أَبُنىَّ إنك أنت أَسْـدى من بـه ... يتعـاظمُ الآبـــاءُ بالأَبنـــاءِ
لله نفثة سحر ما قد شِدت لى ... من نفث سحرك فى مشـادِ ثنـاءِ
عارضتَ صفْوانـاً بها فأَرَيْتَ ما ... يَسْتَعْظِم الرَّاوى له والرَّاءِ
لو راءَ لؤلؤك المُنَظَّم لم يَفُز ... فى نظم لؤلؤه بغيـر عنـــاءِ
بوَّأْتَنى منهـا أَجلَّ مبوَّإٍ ... فلأَخْمَصى مُستَوطن[1] الجَوْزاءِ
وسَمَى بهـا أَسْمى سـايرٍ فأَنا بما ... أَسديتَ ذو الأَسماءِ فى الأَسماءِ
وأَشَدْت ذِكْرى فى البلاد فلى بها ... طولُ الثَّناءِ وإن أَطلتُ ثواءِ[2]
ولقَومى الفَخر المَشِيد بَنيتُه ... بأَحسن تَشييد وحُسن بناءِ
فَلْيهْن هانيهم يدٌ بيضـــاءُ ما ... أَنَّ مثلها لك من يدٍ بيضـــاءِ
حَلَّيتُ أَبياتا[3] لهم[4] لخمِيَّةً ... بحُلا عُـلاً مُضَريةٍ غَـــرَّاءِ
فَلْيَشْمُخوا أنفـا بمـا أَوليتَهم ... يا مُحْــرِز الآلاءِ بالإِيـــلاءِ

هذا ، بُنىَّ ، وصل الله لكَ ولِى بكَ عُلُوَّ المقدار ، وأَجرى وِفق أَو فوق إرادتك أَو إرادتى لك جاريات الأَقدار . ما سَمَح به الذهن الكَليل واللسان

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (مستوطناً) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (ثناء) مرة أخرى ، والتصويب من النفح .
(٣) وردت فى الإسكوريال (أبا) . والتصويب من النفح .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (له) .

الفَلِيل فى مراجعة قصيدتك الغرّاء، الجالِية للسَّراء ، الآخذة بمجامع القلوب ، الآتية[١] بجوامع المطلوب ، الحَسنة المهْيع والأُسلوب ، المتَحليِّة بالحُلى الحَسَنيَّة[٢] ، العريقة المُنْتَسب فى العُلى الحسنية ، الجالبة صَدا قلوبٍ ران عليها الكسل ، وخانها المُسْعِدان ، السُّؤل والأَمل ، فمتى حامت المعانى حولها ، ولو أَقامت حولها ، شَكَتْ وَيْلها وعَوْلها ، وحُرِمت من فَرِيضة الفضيلة عَوْلها ، وعَهْدى بها ، والزمان زمان ، وأَحكامُه الماضية أَمانِى مَقْضيَّة وأَمانٍ ، تتوارد آلافها ، ويجمع إجماعها وخلافُها ، ويساعدها من الأَلفاظ كلُّ سهل مُمْتع ، مفترقٍ مُجمع ، مُستأَنِسٍ غريب ، بعيد الغُور قريب ، فاضح الحُلا ، واضح العُلا ، وضَّاح الغُرَّة والجبين ، رافعٌ عمود الصبح المُبين ، أَيِّد من الفصاحة بإِياد ، فلم يَحْفل بصاحِبِ طيٍّ وإِياد ، وكسى بضاعة[٣] البلاغة ، فلم يعبأْ بهمَّام وابن المراغة . شفاءُ المحزون ، وعلمالسِّر المخزون ، ما بين منثُوره والمَوْزون . والآن لا مُلهج ولا مُبْهج [ولا مرشد ولا منهج][٤] عُكِست القضايا فلم تُنتج ، فتبلَّد القلب الذَّكى ، [ولم يرشح القُلَيب البَكى][٥] ، وعمَّ الإفحام وغمَّ الإحجام ، وتمكن الإكداء والإجبال ، وكُوِّرت الشَّمسُ وسُيِّرت الجبال ، وعَلَتْ سآمة ، وغَلَبت نَدَامة ، وارتفعت ملامة ، وقامت لنَوْعى الأَدب قِيامة . حتى إذا ورد ذلك المهْرَق ، وفرَّع غُصْنُه المُورق ، تغنَّى به الحمام الأَوْرَق ، وأَحاط بعِداد عُداته الغَصَص والشَّرق ، وأَمن من الغَضَب والسَّرَق ، وأَقبل الأَمْنُ ، وذهب بإقباله الفَرَق ،

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الموفية) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (السنية) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نصاعة) .

(٤) الزيادة من النفح . (٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ومكانها فى النفح (ولم يرشح القلم الذكى) .

نفخ فى صُور أهل المَنْظُوم والمَنْثُور ، وبُعثر ما فى القُبور ، وحُصِّل ما فى الصدور ، وتراءت للأَدب صُور ، وعَمَرت للبلاغة كُور ، وهَمَت للبراعة دُرر ، ونُظمت للبراعة دُرر ، وعندها يَتَبَيَّن أنك واحدُ حَلْبة البيان ، والسَّابق فى ذلك الميدان ، يوم الرِّهان ، فكان لك القدم ، وأقرَّ لك مع التأخر السَّابق الأَقْدَم ، فوحقِّ نَصاعة[١] ألفاظ أجَدْتَها ، حين أوردْتها ، وأَسَلْتها حين أرْسَلْتها ،وأزَنْتها حين وَزَنْتها ، وبراعةِ معانٍ سَلَكْتهَا حين مَلَكْتها ، وأَرْوَيْتها حين روّأتها[٢] وأَرْوَيتها ، وأَصَلْتها حين فصَّلتها ووَصَلْتها ، ونظام جعلته لجسد البَيان قَلْباً ، والمِعْصَمة قَلَماً ، وهَصرْتَ حدايقه غَلَباً ، وارتكَبْت روِيَّةً صَعْبا ، ونِثاراً أتْبَعته له خَديماً ، وصيَّرته لمُدير كأْسِه نديماً ، ولحفظ ذِمامه المُدَامِى ، أو مُدامه الذِّمامى مُديماً ، لقد فَتَنَتْنى حين أتَتْنى ، وسَبَتْنى حين نَصَبَتْنى[٣] ، فذهَبَتْ خِفَّتُها بوَقارى ، ولم يَرُعْها بعد شيبُ عِذارى ، بل دعت للتَّصابى فقلت مرحبا ، وحَلَلْتُ لِفتنتها الحَبا ، ولم أحفل بشَيْب ، وأَلْفَيْتُ مارد نِصابى نُصيب ، وإن كنَّا فرَسَى رِهان ، وسابِقِى حَلْبة ميدان ، غير أن الجِلْدة[٤] بيضاء ، والمرجو الإغْضاء ، بل الإرضاء . بُنىَّ كيف رأيْت لِلْبيان هذا الطَّوع ، والخروجَ فيه من نَوْع إلى نوع . أَين صَفْوان بن إدريس ، ومحلُّ دَعْواه بين رِحلة وتعْريس ، كم بين ثُغاء [بقر][٥] هذا الفَلا ، وبين زئير[٦] لَيْثِ العَريس . كما أنى أَقْطَعُ

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فصاحة) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (رويتها) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (صبتنى) .
(٤) وردت فى الإسكوريال (الجادة) . والتصويب من النفح .
(٥) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال . وواردة فى النفح .
(٦) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى النفح ، وأثباتها لازم لاستقامة السياق

عِلْماً ، وأَعْلم قَطْعاً . وأَحكمُ مضاءً، وأمضى حُكماً ، أنه لو نُظر إلى قصيدتك الرَّائقَة ، وفَريدتك الحالية الفايقة ، المعارَضَة بها قصيدتُه ، المُنْتَسخة بها فريدتُه ، لذهب عرْضاً وطولاً ، ثم اعتقد لك اليَدَ الطُّولى ، وأَقرَّ بارتفاع النِّزاع ، وذهبت له تلك العُلالات والأَطماع ، ونسى كَلمته اللُّؤلؤية ، ورجع عن دعواه الأَدبيَّة ، واستغفرَ الله ربَّه من تلك الإِلَهية . بُنيَّ وهذا من ذلك، من الجَرْى فى تلك المسالك ، والتَّبسُّط فى تلك المآخذ والمتارك ، أَيَنْزِع غيرى هذا السَنْزَع ، أم المرءُ بِشِعْره[1] وابنِه مُولع . حيّا الله الأَدب وبنيه ، رأعاد علينا من أَيَّامه وسِنيه ، ما أعلى مَنازِعَه ، وأَكْبا مُنازِعَه ، وأجلَّ مآخذَه ، وأَجْهَل تارِكَه ، وأَعْلَم آخذه ، وأَرقَّ طباعَه ، وأحقَّ أَشْياعه وأَتْباعه ، وأَبْعَد طريقَه ، وأَسْعَد فريقَه ، وأَقْوَم نَهجَه ، وأوثق نسْجَه ، وأَسْمَح أَلفاظه . وأَفْصَح عُكاظه ، وأَصْدق معانيه وأَلفاظه ، وأَحْمَد نِظامه ونِثاره ، وأَغْنى [شِعاره ودِثارد][2] . فعايِبُه مَطْرود ، وعاتِبُه مَصْفود ، وجاهله مَحْصُود . وعالِمه مَحْسُود . غير أن الإحسان فيه قليل ، ولطريق الإصابة فيه عِلْمٌ ودليل : من ظَفِر بهما وصَل ، وعلى الغاية القصوى منهما حَصَل ، ومن نَكَبَ عن الطريق ، لم يَعد من ذلك الفَريق ، فليَهْنْك أيها الإبن الذّكى ، البَرُّ الزّكى ، الحبيبُ الحَفِى ، الصَّفِى الوَفى ، أنك حاملُ رايته ، وواصلُ غايته ، ليس أَوَّلوه وآخِروه لذلك بمنكرين ، ولا تجد أَكثرهم شاكرين . ولولا أن يَطُول الكتاب ، ويَنْحَرف الشُّعراءُ والكُتَّاب ، لفاضَتْ ينابيع هذا الفصْل فَيْضاً ، وخرَجت إلى نوع آخر من البلاغة أيضاً ، قرّتْ عُيون أَودّايك . ومُلِئَتْ غَيظاً صدور أَعْدايك . ورَقِيتَ درَج الآمال ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بنفسه) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (دثاره وشعاره) . والتصويب من النفح . وهو أكثر تمشيا مع السياق .

ووُقيت عَيْن الكمال ، وحُفِظ منْصبُك العالى ، بفضل ربِّك الكبير المتعالى . والسلام الأَتم الأَكمل[١] الأَعم يخُصُّك به ، من طال فى مَدْحه أَرْقالك وأَغْذاذك ، وراد رَوْضُ حَمْده طلّك ورَذاذك [وَغَدت مصالحُ سَعْيه فى سعى مصالحك ، وسينفَعُك بحول الله وقوته ، وفَضْله ومِنّته مُعاذُك][٢] وَوَسَمْتَ نفسك بتلميذه ، فسَمَتْ نفسُه بأَنه أُسْتاذُك ، ابن هانى ورحمة الله وبركاته .

دخوله غرناطة : دخل غرناطة مع الوَفْد من أَهل بلده عند تصيُّرها إلى الإيالة النَّصرية ،حسبما ثبت فى موضعه .

توفى بجبل الفتح ، والعدوُّ يحاصره ، أَصابه حَجَرُ المنجنيق فى رأْسه ، فذهب به ، تقبَّل الله شهادته ونفعه ، فى أَواخر ذى قعدة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية[٣] .

وممن رثاه قاضى الجماعة شيخنا القاضى أَبو القاسم الحسنى ، وهى القصيدة التى أولها :

سَقَى الله بالخَضْراءِ أَشلاءَ سُؤْدد   تَضَمَّنَهنَّ التُّرْب صوب الغمايم

وقد ثبت فى «جُهد المُقِل» فى اسم المذكور فليُنْظر هنالك .

وممن رثاه شيخنا القاضى أَبو بكر بن شِبْرين رحمه الله بقوله :

قد كان ما قال اليَزيد[٤]   فاصبر فحُزْنُك لا يفيـــد

---

(١) واردة فى النفح . وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .

(٣) كان النصارى (الفشتاليون) قد انتزعوا جبل الفتح (جبل طارق) من المسلمين فى سنة ٧٠٩ هـ - ١٣١٠م) ولبث المسلمون يتحينون الفرص لاسترداد هذا الثغر المنيع ، وبعث السلطان محمد بن اسماعيل (ابن الأحمر) ملك غرناطة يستنجد بملك المغرب السلطان الكبير أبى الحسن المرينى فلبى نداءه . وحاصرت القوات المتحالفة جبل طارق بشدة من البر والبحر ،واستطاعت فى النهاية أن ترغم الحامية النصرانية على التسليم (سنة ٧٣٣ هـ - ١٣٣٣ م) ، وأن تسترد الجبل الذى فى يد للمسلمين عصرا آخر .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (البريد) .

أَوْدَى ابن هـالى الرِّضـا فاعتـادنى للثَّكل عِيد
بحـرُ العلـوم وصدْرُهـا وعميدُها إذ لا عَميـد
قد كان زَيْنـاً للـوُجو د فَفيه قد فُجع الوُجود
العِلْمُ والتَّحقيق والتوفيـق والحَسَب التَّليـد
تَنْدى خـلايِقُه فقـل فيها هى الرَّوض المَجُـرد
مُغْضٍ عن الإخـوان لا جَهْمُ اللقـاء ولا كَنـود
أَوْدَى شـهيداً بـاذلاً . مجهوده فعم الشَّـهيد
لم أَنْسَـه حين المعـا رف باسمه فينا تشـيد
وله صُبـوب فى طـلاًّ ب العلم يَتْلـوه صُعـود
لله وقـت كان يَنظِمُـنا كما نُظِـم الفريـد
أيـام نَغْـدو أَو نَرُو ح وسَعْينـا السَّعى الحميد
وإذا المَشِيخةُ جَثْـمُ هَضَبـات حِلم لا تَبيـد
ومُرادُنا جم النَّبـا ت وعَيْشُنا خَضِـر البُرود
لَهْفى على الإخـوان والأَتـراب كلُّهم فقيـد
لو جِيتُ أَوطـانى لأنـكرنى التَّهـايم والنُّجـود
ولراعَ نفسى شيبُ من غادَرْته وهـو الوَليـد
ولطَفتُ ما بين اللُّحـو د وقد تَكاثَرت اللُّحـود
سُرعان ما عاث الحِمـا م ونحن أَيقـاظٌ هُجـود
كم رُمْتُ إعمال المَسـير فقيَّدت عزمى قُيـود
والآن أَخْلَفَت الوعـو د وأَخلَقَت تلك البُـرود
ما للفتى ما يبْتَـغى والله يفعـل ما يُريـد
أعلى القديم المُلْك يـا وَيْلاه يَعْترض العبيـد

يا بَيْنُ قد طال المدى   أَرْعِد وأَبْرِق يا يَزيد
ولكل شيء غاية   ولربما لان الحَديد
إيهٍ أبا عبد الإلَه   ودونَنا مَرْمى بعيد
أين الرسايل منك تأ   تينا كما نُظِم[١] العقود
أين الرُّسوم الصالحا   ت تصرَّمَتْ أين العُهود
أنعم مساءً لا تخطَّتـ   ـك[٢] البشاير والسُّعود
وأقدم على دار الرِّضا   حيث الإِقامة والخُلود
والقَ الأَحبَّة حيث دا   رُ المُلْك والقَصْر المَشِيد
حتى الشَّهادة لم تَفُتْـ   ـك فنجمُك النَّجم السَّعيد
لا تَبْعُدَن وعْدٌ لَوْ انَّ   المَيْت[٣] فى الدنيا يعود
ولين بُليت فإنَّ ذكـ   ـرَك فى الدُّنا غَضٌّ جديد
تالله لا تَنْساك أَنْدِ   بة العُلى ما اخضَرَّ عُود
وإذا تسومح فى الحقو   ق فحقُّك الحقُّ الأَكيد
جادَتْ صداك غمامةٌ   يُروى[٤] بها ذاك الصَّعيد
وتعَهَّدتك من المُهَيمن   رحمةٌ أبداً وجُود

محمد بن يحيى العَبْدرى

من أهل فاس . يكنى أبا عبد الله . ويعرف بالصِّدفى

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نسق) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تخطيك) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (البدم) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يرين) وهو تحريف .

حــاله

قال الأُستاذ فى « صلته »[1] : إمامٌ فى العربية ، ذاكر للُّغات والآداب ، متكلمٌ ، أُصولى مفيد ، مُتَفَنِّن ، حافظ ، ماهر ، عالم ، زاهد ، ورِعٌ ، فاضل . أخذ عِلْم العربية والآداب عن النَّحوى أَبى الحسن بن خروف ، وعن النَّحوى الأَديب الضَّابط أَبى ذَرٍّ الخُشَنى ، وأَكثر عنهما ، وأَكْمَل الكتاب على ابن خروف ، تَفَقُّهاً وتَقْييداً وضَبْطاً . وكان حسن الإِقراء ، جيِّد العبارة ، متين المعارف والدِّين ، شديد الوَرَع ، مُتواضعاً جليلاً ، عالماً عاملا ، من أَجلِّ من لَقِيتُه ، وأَجْمعِهم لفنون المعارف ، وضُروب الأَعمال ، وكان الحِفْظ أَغْلبَ عليه ، وكان سريع القَلَم إذا كَتَب أَو قيَّد ، وسمعتُه يقول ، ما سمعت شيئاً من أَحد من أَشياخى ، من نُكتِ العِلْم ، وتَفْسير مُشْكلٍ ، وما يرجع إلى ذلك ، إلاَّ وقيَّدتُه ، ولا قيَّدتُ بخطِّى شيئاً إلاَّ حَفِظته ، ولا حَفِظت شيئاً فنَسِيتُه . هذا ما سمعت منه .

مشيخته

أَخذ العربيَّة عن الأُستاذ أَبى الحسن بن خروف ، وعن النَّحوى الأَديب الضَّابط أَبى ذَرٍّ الخُشَنى . وأَكثر عنه ، وأَخذ معهما عن أَبى محمد بن زيدان ، ولازم ثلاثَتَهم ، وسمع وقرأ على الفقيه الصالح أَبى محمد صالح وأَخذ[2] عن غير من ذكر .

دخوله غرناطه

قال ، دخل الأَندلس مراراً بيَسير بضاعةٍ كانت لديه يتَّجرُ فيها ،

---

(١) يقصد بها كتاب « صله الصلة » لابى جعفر بن الزبير (راجع ترجمته فى المجلد الأول من الإحاطة ص ١٨٨) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وأكثر) والأولى أرجح .

ودخل إشبيلية ، وتردَّد آخر عمره إلى غَرْناطة ومالَقة إلى حين وفاته .

توفى رحمه الله شهيداً بمَرْسى جبل الفتح . دخل عليهم العدوُّ فيه . فقاتل حتى قُتل ، وذلك سنة أحد وخمسين وستماية . وسمعتُه يتوسل إلى الله ، ويسأله الشهادة .

المحدِّثون والفقهاء والطلبة النجباء

وأولا الأصليـــون

محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الزُّبير

من أهل غرناطة ، ولد الأُستاذ الكبير أبى جعفر بن الزبير ، يكنى أبا عمرو

حـــاله

هذا الشيخ سِكِّيتُ حَلْبَة ، ولدُ أبيه فى عُلُوِّ النَّباهة . إلا أنه لَوْذَعى فكِه ، حسن الحديث ، رافضٌ للتَّصنُّع ، ركض طَرَف الشَّبيبة فى ميدان الراحة ، مُنكباً عن سُنَن أبيه وقومه ، مع شُغوفِ إدْراك ، وجودة حِفْظ . كانا يُطْمِعان والدُه فى نجابته ، فلم يَعْدَم قادحاً . ورحل إلى العُدْوة ، وشرَّق[1] ونال حُظْوة ، وجَرَتْ عليه خطوب . ثم عاد إلى الأَندلس على معروف رَسْمه يَتَكوَّر بها ، وهو الآن قد نال منه الكِبَر ، يُزْجى الوقت بمانَقة ، متعلِّلا بوقفِ من بعض الخِدم المَخْزِنيِّة ، لطف الله به .

---

(١) شرق أى رحل إلى الشرق .

مشـــيخته

استجاز له والده الطِّم والرِّم ، من أهل المغرب والمشرق ، ووَقَف عليه منهم فى الصِّغر وقفاً لم يغتبط به عمره ، وادَّكره الآن بعد أُمَّة ، عندما نقَرَ عنه لديه . فأثْرَت به يده من عُلُوٍّ رواية ، وتوفُّر سببٍ مبَرَّة ، وداعيةٍ إلى إقالة عَثْرة ، وسَتْر هَيْبةِ شَيْبَةٍ . فمن ذلك الشيخ الإمام أبو على ناصر الدين منصور بن أحمد المِشدالى ، إجازةً ثم لقاءً وسماعاً ، والشيخ الخطيب الرَّاوية أبو عبد الله بن غريون . وأجازه الأُستاذ أبو إسحق الغافقى ، وأبو القاسم بن الشَّاط ، والشَّريف أبو العباس أحمد الحسنى ، والأُستاذ الإمام أبو الحسين عبد الله بن أبى الربيع القُرشى نزيل سبْتة . ومحمد ابن صالح بن أحمد بن محمد الكتّانى الشّاطبى ببجاية ، والإمام أبو اليمن ابن عساكر بالمسجد الحَرام ، وابن دَقيق العيد وغيرهم . ومن أهل الأَندلس أبو محمد بن أبى السَّداد ، وأبو جعفر بن الزيات ، وأبو عبد الله بن الكَمَّاد ، وأبو عبد الله بن ربيع الأَشْعَرى ، وأبو عبد الله بن بُرْطال ، وأبو محمد عبد المنعم بن سِماك ، والعَدْل أبو الحسن بن مَسْتَقور . وأجازه من أهل المشرق والمغرب : عَالَمٌ كبير .

شـــعره

وبضاعته فيه مُزْجاة ، فمن ذلك ما خاطبنى به عند إيابى من العُدْوة فى غرض الرسالة عن السلطان :

نوالى الشُّكر للرحمن فَرْضا ⁂ عَلَمُ نِعَمٍ كَسَتْ طولاً وعَرْضا
وكم لله من لُطف خَفِىٍّ لنـــا ⁂ منه الذى يشاءُ .... [1] وأمضا
بمَقْدَمك السَّعيد أتت سُعُود ⁂ تنال بهـا نَعيم الدَّهـر مَحْضا
فيا بُشرى لأَندلسٍ بمـا قد ⁂ به والاك بارينا وأَرْضـــــا

---

(١) هنا بياض فى الإسكوريال .

ويا لله من سَفرٍ سعيد قد … أَقْرَضْتَ المُهَيمنَ فيه قَرْضا
نَهضْت بنِيَّةٍ أَخْلَصت فيها … فأَتَتْ بكل ما يَبْغى ويَرْضا
وثَبَتَّ لنُصرة الإِسلام لمَّا … عَلِمت بأَنَّ الأَمْرَ إِليك أَفْضا
لقد أَحْيَيْتَ بالتَّقْوى رسُوماً … كما أَرْضَيْت بالتَّمْهيد أَرْضا
وقُمْت بسنَّة المختار فينا … تُمَهِّد سُنَّةً وتُقيم فَرْضا
ورُضْتَ من العُلوم الصَّعْبَ حتى … جَنَيْتَ ثمارها رَطْباً وغَضا
فرأَيُك ناجحٌ فيما تراه … وَعَزْمُك من مَواضى الهنْد أَمْضا
تُدبِّر أَمر مولانا فيَلْقَى المُسيءُ لديك إِشْفاقاً وإِغضا
فأَعْقَبَنا شِفاً وانبِساطاً … وقد كانت قلوبُ الناس مَرْضا
ومن أَضْحَى على ظمإٍ وأَمْسَى … يَرِد إن شاءَ من نُعْماك خَوْضا
أَبا عبد الآلَه إِليك أَشكو … حين نابُ الفَقْر عضَّا
ومِنْ نُعماك اسْتَجْدى لِباسا … يَفيض به علىّ الجاهُ فَيْضا
بقيتَ مُؤَمَّلاً تُرجى وتُخشى … ومِثْلُك من إذا ما جاد أَرْضا

توفى فى التاسع لمحرم من عام خمسة وستين وسبعماية .

محمد بن أحمد بن خلف بن عبد الملك بن غالب الغسَّانى

من أَهل غرناطة ، يكنى أَبا أَبكر ، ويعرف بالقُلَيعى .

أَوَّليته : قد جرى من ذكره ، وذكر بَيْته فى الطبقات ما فيه كفاية(١)

حاله

كان نبيه البيت ، رفيع القدر ، عالى الصيت . من أَهل العِلْم والفضل والحَسَب والدِّين ، وأَجمع على اسْتِقْضائه أَهلُ بلده بعد أَبى محمد بن سَمْحون سنة ثمان وخمسماية .

---

(١) أورد ابن الخطيب ترجمة وافية لأبيه ، فى المجلد الأول من الإحاطة (ص ١٤٧ - ١٥٠).

توفى بغرناطة ،أوايل صفر عشرة وخمسماية . ودفن فى رَوْضة أبيه
ذكره ابن الصِّيرفى وأطْنَب.

محمد بن أحمد بن محمد الدَّوْسى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن قطبة .

حـــاله

من « عايد الصلة » : كان رحمه الله شيخ الفقهاء والموثِّقين ، صَدْرَ أرباب الشورى ، نسيج وحده فى الفضل ، والتَّخلُّق والعدالة ، طِرْفاً فى الخير ، مُحَبَّباً إلى الكافة ، مجبولا على المشاركة ، مطبوعا على الفضيلة ، كَهْفاً للغُرباءِ والقادمين ، مَألفاً للمتعلمين ، ثِمالاً للأَسرى والعانِين ، تخلَّص منهم على يَدَيْه أُممٌ ، لقصد الناس إيَّاه بالصَّدقة ، مقصوداً فى الشَّفاعات ، مُعْتَمداً بالأَمانات ، لا يُسْدَل دونه سِتْر ، ولا تُحْجَب عنه حُرْمة ، فقيها حافظا ، إخباريا محدِّثا ممتعا ، متقدما فى صناعة التوثيق ، حسن المشاركة فى غيرها ، كثير الحضِّ على الصدقة فى المُحُول والأَزمات ، يقوم فى ذلك مقامات حميدة ، ينفع الله بها الضعفاء ، وينقاد الناس لموعِظته ، ويؤثِّر فى القلوب بصِدقه . فُقد بفِقدانه رَسْمٌ من رسوم البرِّ والصَّدقة.

مشيخته

قرأ على الأُستاذ الكبير أبى جعفر بن الزُّبير ،والخطيب ولىِّ الله أبى الحسن ابن فضيلة ، وروى عن الشيخ الوزير المُسِنِّ المحدث أبى محمد عبد المنعم ابن سماك ، وأبى القاسم بن السَّكوت المالقى ، والخطيب أبى عبد الله

ابن رُشيد . والقاضى أبى يحيى بن مسعود ، والعَدْل أبى على البَجْلى ، وأبى محمد عبد المؤمن الخولانى . وأجازه جماعة من أهل المشرق والمغرب ، وناب عن بعض القضاة بغرناطة . ولد عام تسعة وستين وستمائة ، وتوفى فى الثالث لربيع الأول من عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة . وكانت جنازته مشهودة .

محمد بن إبراهيم بن عبدالله بن أحمد بن محمد ابن يوسف بن رويبل الأنصارى

من أهل غرناطة ، ويكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن السرَّاج . طُليطلى الأصل ، طبيبُ الدار السلطانية .

حـــاله

من « العايد » : كان رحمه الله من أهل التَّفَنُّن والمعرفة ، مُتناهى الأُبَّهة والحُظْوة ، جميل الصورة ، مليح المجالسة ، كثير الدُّعابة والمؤانسة ، ذاكراً للأخبار والطُّرَف ، صاحب حظٍّ من العربية والأدب والتفسير ، قارضاً للشِّعر ، حسن الخط ، ظريف الوِراقة ، طِرْفاً فى المعرفة بالعُشْب ، وتمييز أعيان النَّبات ، سَنِيًا ، محافظاً ، مُحبا فى الصالحين ، ملازما لهم ، مُعْتَنياً بأخبارهم ، مُتَلْمذاً لهم . انحاش إلى الوَلى أبى عبد الله التُّونِسى ، وانقطع إليه مدة حياته ، ودوَّن أحواله وكراماته . وعيَّن رَبْع ما يستفيده فى الطِّب صدقة على يَدَيْه . أجرى ذلك بعد موته لبنيه . ونال حظاً عريضاً من جاه السلطان ، فاطَّرح حظَّ نفسه مع المساكين والمحتاجين ؛ فكان على باوِه على أهل الدنيا ، يوثر ذوى الحاجة ، ويخِفُّ إلى زيارتهم ، ويَرْفِدهم ، ويُعينهم على معالجة عِلَلهم .

مشيخته

قرأ الطِّب على الشيخ الطبيب ، نسيج وحده أبى جعفر الكَزْنى ، رييس الصناعة فى وقته ، ولقى فيه الأُستاذ إمام التَّعاليم والمعارف ، أبا عبد الله الرَّقوطى المُرْسى وغيره . وقرأ القرآن على المقرى الشهير أبى جعفر الطبَّاع بالروايات السَّبع ، والعربية على الأُستاد أبى الحسن بن الصايغ الإشبيلى ، وأكثر القراءة على شيخ الجماعة العلامة أبى جعفر بن الزُّبير .

تواليفه : ألَّف كتباً كثيرة ، منها فى النَّبات والرؤيا . ومنها كتاب سماه ، « السِّرّ المُذاع فى تفضيل غَرْناطة على كثير من البقاع » .

شعره

من ذلك قوله مُلَغِّزاً فى المَطَر :

وما زايرٌ مهما أتى ابْتَهَجَتْ بـــه ... نفوسٌ وعمَّ الخَلقَ جوداً وإحسانا
يُقيمُ فيشكو الخلقُ منه مُقـامَه ... ويَكرُبهم طُرًّا إذا عَنْهم بــــانا
يَسُرُّ إذا وافى ويَكْرُب إن نــأَى ... ويُكْرَه منـه الوصل إن زار أحيانا
وأعجبُ شيءٍ هَجْـرُ حبٍّ مواصلٍ ... به حين يُطِل هواه إن لم يُطِل خانا

محنتـه

ذكر أنه لما توفى السلطان ثانى الملوك من بنى نصر[١] فجأة ، وهو يُصَلِّى المغرب ، وباكر الطبيب بابه غداة ليلة موته . سأل عن الطعام القريبِ عَهْدِ موته بتَناوُله . فأُخْبِر أنَّه تناول كَعْكاً وصَلَته من ولىِّ عهده ،

(١) ثانى ملوك بنى نصر بمملكة غرناطة هو محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه . وقد ولى الملك عقب وفاة أبيه محمد بن الأحمر الكبير فى سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) . وحكم مملكة غرناطة حتى وفاته فى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠٢ م) .

فقال كلاماً أوجَب نكبته ، فامتُحن بالسِّجن الطويل ، والتُمست الأسباب الموصلة إلى هلاكه ، ثم أُجلى إلى العُدْوة . ثم دالت الأَيام ، فعاد إلى وطنه مستأنفا ما عَهِده من البرِّ وفَقَده من التَّجلَّة .

ميلاده : بغرناطة عام أربعة وخمسين وستماية .

وفاته : ليلة الخميس التاسع من شهر ربيع الأول من عام ثلاثين وسبعماية .

محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن أبي زَمَنِين المُرِّى

يكنى أبا عبد الله ، وبيته معلوم

حاله : كان من أهل المعرفة والنُّبل والذكاء

مشيخته

قرأ القرآن على أبي بكر بن النَّفيس ، وأبي عبد الله بن شُهيد المُرِّى المُقرى بطخشارش من غرناطة . ودرس الفقه عند المُشاور أبي عبد الله بن ملك المقرى ، وأبي الحسن على بن عمر بن أَضْحى ، وعلى غيرهما من شيوخ غرناطة .

توفى سنة أربعين وخمسماية .

قلت ، وإنما ذكرت هذا المترجم به مع كونى اشترطت صدر خطبته ، ألاَّ أذكر هذا النمط لمكان مُصاهرتى فى هذا البيت . ولعل حافِدَ هذا المترجم به من ولدى ، يطَّلع على تَعْدادهم وذكرهم فى هذا التاليف وتردادهم ، فيكون ذلك محرضا له على النَّجابة ، محرضا للإجابة . جعلنا الله ممَّن انتمى للعِلم وأهله ، واقتفى من سُنَنِه واضح سُبُله .

محمد بن جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم بن حسّان القيسى

الوادآشى الأَصل والمعرفة ، التُّونسى الاستيطان ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن جابر

حـــاله

من « عايد الصلة » : نشأ بتونس ، وجال فى البلاد المشْرقية والمغْربية ، واستكثر من الرِّواية ونقّب عن المشايخ ، وقيّد الكثير ، حتى أَصبح جَمَّاعة المغرب ، وراوية الوقت . ثم قدِم الأَندلس ظريف النَّزْعة ، عظيم الوقار ، قَويم السَّمْت ، يأْوى فى فضل التَّعَيش إلى فضل ما كان بيده ، يصرفه فى مصارف التجارة . وقعد للإسماع والرِّواية ، وانتقل إلى بَلِّش ، فقرأ بها القرآن العظيم والروايات السَّبع ، على الخطيب أَبى جعفر بن الزيات . ثم رحل إلى المغرب ، ثم أعاد الرِّحلة الحجازية ، وأعْرَق ، فلقى أُمَّةً من العُلماءِ والمحدِّثين ، وأَصبح بهم شيخَ وَحْده ، انْفِساحَ رواية ، وعُلُوَّ إسناد.

مشيخته

من شيوخه قاضى الجماعة بتونس أبو العباس بن الغمَّاز الخَزْرجى البَلَنْسى . وقاضى الجماعة بها أَبو إسحق بن عبد الرفيع . وقاضى قضاة الدِّيار المصرية بدر الدين بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن على بن جماعة بن صخر الكِنانى . وقاضى الجماعة ببجاية . أَبو العباس الغُبْرينى . وسراج الدين أَبو جعفر عمر بن الخضر بن طاهر بن طرّاد بن إبراهيم ابن محمد ابن منصور الأَصْبَحى . وأَبو محمد عبد الغفار بن محمد السَّعدى المصرى . ورضىُّ الدين إبراهيم بن عمر بن إبراهيم الخليلى الجعفرى . وشرف الدين أَبو عبد الله بن الحسن بن عبد الله ابن الحافظ عبد الغنى

ابن عبد الواحد بن سرور المقدسى . وأبو الفضل أبو القاسم بن حمّاد بن أبى بكر بن عبد الواحد الحضرمى اللبيد . وعبد الله بن يوسف بن موسى الخِلاسى . وعبد الله بن محمد بن هرون . وإبراهيم بن محمد بن أحمد ابن محمد بن عبد الله بن الحاج التُّجيبى . وأحمد بن يوسف بن يعقوب ابن على الفِهرى اللَّبلى[١] . وولده جابر بن محمد بن قاسم معين الدين ، وعزُّ الدين أبو القاسم بن محمد بن الخطيب ، وجمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الباقى بن الصَّفَّار ، وأبو بكر بن عبد الكريم بن صدقة العزفى ، ومحمد بن إبراهيم بن أحمد التجيبى ، وأبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن أحمد بن على بن إبراهيم بن عقاب الجُذامى الشاطبى ، وعبد الرحمن بن محمد بن على بن عبد الله الأنصارى الأسدى القيْرُوانى ، وأبو القاسم خلف بن عبد العزيز القَبْتُورى[٢] ، وعلى بن محمد بن أبى القاسم ابن رَزين التُّجيبى . وأحمد بن موسى بن عيسى البَطِرنى[٣] ، وغر القضاة فخر الدين أبو محمد عبد الواحد بن منصور بن محمد بن المنير ، وتقى الدين محمد بن أحمد بن عبد الخالق المصرى ، وصَدْر النحاة أبو حيَّان ، وظهير الدين أبو محمد بن عبد الخالق المخزومى المقدسى الدَّلاصى ، ورضىُّ الدين بن إبراهيم بن أبى بكر الطَّبرى . والمُعمِّر بهاءُ الدين أبو محمد القاسم بن مظفر بن محمود بن هِبَة الله بن عساكر الدمشقى . وأما من كتب إليه فنحو مائة وثمانين من أهل المشرق والمغرب .

قدم غرناطة فى أول عام ستة وعشرين وسبعماية ، فهو باعتبار أصاله أصلى ، وباعتبار قدومه طارئ وغريب .

---

(١) نسبة إلى مدينة لبلة من قواعد الغرب الأندلسى .

(٢) نسبة إلى قبتور أو كبتور من بلاد منطقة إشبيلية .

(٣) نسبة إلى بطرنة . وهى بلدة أندلسية صغيرة تقع شمال غربى بلنسية .

تواليفه

له تواليف حديثيّة جُمْلة ، منها أربعون حديثاً ، أَغْرَب فيها بما دلّ على سَعَة خَطْوه وانفساح رَحْله .

وفاته : كان حيا سنة أربعين وسبعماية ، وبلغنى أنه توفى عام سبعة بعدها .

محمد بن خلف بن موسى الأنصارى الأوسى

من أهل إلبيرة ، يكنى أبا عبد الله .

حـــاله

كان مُتكلِّما ، واقفا على مذاهب المُتَكَلِّمين ، متحققا برأى الأَشعرية ، ذاكراً لكتب الأُصول والاعتقادات ، مشاركا فى الأَدب ، مقدَّماً فى الطِّب.

مشيخته

روى عن أَبى جعفر بن محمد بن حكم بن باق ، وأَبى جعفر بن خَلَف ابن الهيثم ، وأَبَوَى الحسن بن خَلَف العَنْسى ، وابن محمد بن عبد العزيز ابن أحمد بن حمْدين ، وأبوى عبد الله بن عبد العزيز المَوْرى ، وابن فرج مولى الطلاَّع ، وأَبى العباس بن محمد الجُذامى . وأَبى على الغسانى ، وأَبى عمرو زياد بن الصَّفار ، وأَبى القاسم أحمد بن عمر . وأخذ علم الكلام عن أَبى بكر بن الحسن المُرادى . وأَبى جعفر بن محمد بن باق، وأَبى الحجاج ابن موسى الكلبى . وتأَدَّب فى بعض مسائل النحو بأَبى القاسم بن خَلَف ابن يوسف بن فُرْتُون بن الأَبرش .

من روى عنه : روى عنه أبو إسحق بن قرقول ، وأبو خالد المروانى ،

وأبو زيد بن نزار ، وأبو عبد الله بن الصَّيقل المرسى ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن سمعان ، وأبو الوليد بن خيرة .

تواليفه

من تواليفه : « النُّكت والأمالى فى الرَّد على الغزالى » ، و « الإيضاح والبيان فى الكلام على القرآن » ، و « الوصول إلى معرفة الله ونبوة الرسول » ورسالة « الاقتصار على مذاهب الأيمَّة الأخيار » ، ورسالة « البيان فى حقيقة الإيمان » ، والرَّد على أبى الوليد بن رشد فى مسألة الاستواء الواقعة له فى الجزء الأول من مُقدِّماته ، و « شرح مشكل ما وقع فى المَوَطَّإ وصحيح البخارى » ، وقد كان شرع فى تصنيفه عام ثمانية عشر وستماية[1] فى شوال منه ، وبلغ فى الكلام فيه إلى النُّكتة الرابعة والخمسين ، وقطعت به قواطع المرض ، وشرع فى معالجة العين لرؤيا رآها ، يقال له أَلِّفتَ فى نور البَصيرة ، فألِّف فى نور البَصَر تَنْفع وتَنْتَفع ، فأقبل على تأليفه فى مداواة العين ، وهو كتاب جمٌّ الإفادة ، ثم أكمل النُّكت .

شعره

وكان له حظٌّ من قرض الشعر ، فمن ذلك ما مدح به إمام الحرمين أبا المعالى الجُوينى :

خُبُّ حَبر يكنَىَّ أبا المعالى   هو دينى ففيه لا تعذلونى
أنا والله مُغْرم فى هواه   عَلِّلونى بذكره علِّلونى

مولده : ولد يوم الثلاثاء لإثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة سبع وخمسين وخمسماية .

---

(١) ورد هذا التاريخ فى الإسكوريال « والزيتونة » (عام ثمانية عشر وخمسمائة) . ومن الواضح أنه تاريخ محرف ، وأن الحقيقة فيه أنه (ثمانية عشر وستمايه) حسبما أثبتناه . وذلك أولا ، =

محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله الْخَوْلانى

غرناطى يكنى أبا عبدالله ويعرف بالشَّريشى

حـــاله

من أهل التَّصاوُن والحشمة والوقار ، مُعْرِق فى بيت الخَيْريَّة والعفَّة ، وكان والده صاحبنا رحمه الله ، آيةً فى الدُّؤوب والصَّبر على انتِساخ الدَّواوين العِلْمية والأجزاء ، بحيث لا مَظِنَّة معرفة أو حُجرة طَلب تخلو عن شيء من خطِّه إلاَّ ما يَقِل ، على سكون وعدالة وانقِباض وصبر وقناعة ، وأكتب للصِّبيان فى بعض أطواره . ونشأ ابنه المذكور ، ظاهر النُّبل والخصوصيَّة مشاركاً فى فنون ، من عربية وأدب وحساب وفريضة ، وتصرَّف فى الشهادة المَخْزَنيَّة برهة ، ثم نُزِع عنها انقياداً لداعى النَّزاهة ، وهو الآن بحاله الموصوفة

شـــعره

وشعره من نمط الإجادة ، فمن ذلك قوله :

بى شادن أهيف مَهْمَى انْثنى ... يحكى تَثنِّيه القضيب الرَّطيب
ذو غُرَّةٍ كالبدْر قد أُطْلِعت ... فوق قَضِيب نابتٍ فى كَثيب
خضت حَشا الظَّلماءِ من حُبِّه ... أَخْتَلِس الوصل حِذارالرَّقيب
فبتُّ ولِلْوَصْـل لنـــا ثالثٌ ... يضُمُّنا ثوبُ عفافٍ قَشِيب
حتى إذا ما الليل ولَّى وقـــد ... مالت نجوم الأُفْق نحو الغروب
ودَّعْتُه والقلـب ذو لَوْعـــة ... أسيل من مـاءِ جفونى غُروب

لأن الفيلسوف ابن رشد الحفيد صاحب «المقدمت» توفى سه ٥٩٥ هـ ، وثانيا ، لأن ابن الخطيب نفسه يقول لنا إن صاحب الترجمة قد ولد سنة ٥٥٧ هـ .

فلست أدرى حين أودعتــه　　قلبٌ بأضلاعى غدا أم قُلَيب

ومن ذلك فى النسيب :

يا أجْمَل الناس ويا مَنْ غَدَتْ　　غُرَّتُه تمحـو سَـنا الشمس
أنعم على عَبْدِك يا مالــكى　　دون اشتراء ومُنَى نفـسى
بأن تُرى وُسْطى لعِقدى وأن　　تُعيد رَبْعى كامل الأُنـس
فإن تَفَضَّلت بما أرْتجى　　أبقيتنى فى عـالم الإنس
وإن تكن تُرْجعنى خايبــاً　　فإنـنى أُدْرَجُ فى رَمْـسى

وقال فى فضل العِلم :

يا طالب العِلم اجتهد إنــه　　خيرٌ من التّالد والطّـارف
فالعلم يَذْكُو قَدْر إنفــاقه　　والمال إذا أنْفَقْتَه تَالِــف

وترقّ إلى هذا العهد بإشارتى إلى التى لا فَوْقها من تَعْليم وَلَدِ السلطان، والرِّياسة القرآنية بباب الإمارة، والإمامة بالمسجد الجامع من القلعة [(١)] ، حَميدُ الطريقة فى ذلك كله، معروفُ الحق، تولاه الله.

مولده : عام ثمانية عشر وسبعماية.

محمد بن محمد بن على بن سُودة المُرّى

يكنى أبا القاسم

أوَّليَّتــه

من نُبهاء بيُوتات الأندلس وأعيانها ، سكن سلفُه البُشارَّة [(٢)] ،

(١) الإشارة هنا إلى قلعة (أوقصبة) الحمراء الملاصقة للقصر السلطانى .

(١) منطقة البشارة أو البشرات هى المنطقة الجبلية الواقعة على جنوبى سفوح جبال سيرانفادا Sierra Nevada ، جنوب غربى غرناطة ، وعلى مقربة من البحر المتوسط . وبالإسبانية Alpujarras . وتشتهر برقاعها الخصيبة وحدائق فواكها اليانعة .

بشارة بني حسّان ، وولى جدُّه الأشغال ، حميد السيرة ، معروف الإدانة .

حـــاله

هذا الفتى من أهل الخُصوصِيَّة والسكون والحياء، المانع عن كثير من الأغراض . مال إلى العلوم العقلية ، فاستَظْهر على المُماسَّة فى بعض أغراضها بالدؤوب والعكوف ، المورِّثين تأثير حبل الرَّكيَّة فى جحرها ، فتصدَّر للعلاج ، وعانى الشِّعر ، وأُرْسم فى الكتابة ، وعُدَّ من الفضلاء ، وظهرت على عباراته اصطِلاحات الحكماء . وتشوَّف إلى العهد للرِّحلة الحجازية ، والله يُيَسِّر قصده .

مشيخته

قرأ الطبَّ والتَّعْديل على الحَبْر طبيب الدّار السُّلطانية ، فارس ذَيْنك الفنَّين ، إبراهيم بن زَرْزار اليهودى ، ورَحل إلى العُدْوة . فقرأ على الشَّريف العالم الشهير ، رُحلة الوقت فى المغرب ، أبى عبد الله العَلَوى ، وبلقايه نجح

شــعره

أنشد السلطان قوله :

جاد الحِمى صَوْب الغمام هُتونه ... تُزْجى البُروق سحابه فتُعينه
وسقى ديار العامرية بعد ما ... وافى بجَرْعا الكثيب معينه
يندى بأفنان الأراك كأنه ... عقدٌ تناثر بالعقيق ثمينه
ومحى الكثيبُ سكوبَه فكأنه ... خطٌّ تطَلَّس ميمُه أو نونُه
حتى إذا الأرواح هبَّت بالضُّحا ... مسحت عليه بالجناح تُبينه
وكأنَّه والرعد يحـدو خلفه ... صبٌّ يطول إلى اللقاء حنينه
أوسعَّ دمعي فوق أكناف اللِّوى ... جادت بلؤلؤة النفيس عيونه

والبرق فى حُلل السَّحاب كأنه   مكنون سرٌّ قد أُذيع مَضُمونه
أو ثوبُ ضافية الملابس كاعبٌ   عمدت بحاشية النُّضار تَزِينه
هنَّ الديار برامَة لا دهرُها   سَلِسُ القياد ولا العِتاب يلينه
ولقد وقفتُ برَسْمِها فكأنَّنى   من ناحِل الأَطلال فيه أكونُه
قلبى بذاك اللِّوى خلَّفتُه   ألوى بمُزْدَلِف الرِّفاق ظعينُه
لا تَسَلْ العُذَّال عنى فالهوى   ذا يخامر بالضُّلوع دفِينه
إن يَخْفَ عن شرحى حديث زُمَيرتى   فعلى الفنون فريضةٌ تُبينيه
عجباً لدمعى لا يكفُّ كأنما   جدوى أبى عبد الاله هُتُونه
مُحيى المكارم بعدما أُودى بها   زمنٌ تقلَّب بالكِرام خَؤُونُه
مولى الملوك عَميدُ كلِّ فضيلة   عَلِق الزمان ثمينُه ومكينُه
يُصْغى إلى داعى النَّدى فيهزُّه   وبملتقى الجَمْعين طال سكونه
من ذا يُسابق فضله لوجوده   ويلُجِّ فَيْض البحر فاض يمينه
إن تَلْقَه تَلْقَ الجمال وقاره   والحلمُ طبعٌ والسَّماحة دينُه
غَمَر الأَنام نوالهُ ومَحا الضــلال رشاده وجلا الظَّلام جبينُه
أَحْيا رسُومَ الدين وهى دَوارس   ولطالما صَدَع الشكوك يقينُه
شمس الهدى حَتْفُ العِدا مُحْيِى النِّدا بحر الجِدا طول المدى تمكينه
ليثُ الشَّرى غوثُ الورى قمر السُّرى سنُّ القِرى عمَّ القرى تأْمينه
فلبأْسه يوم الوغى ولعزمه   جاش الهِزَبْرُ إذا الهِزَبر يخُونُه
لا تَسَلْ الهيجاءُ عنه إنه   يصل المراد كما تحبُّ ظنونه
لو كان يُشْغله المنام عن العُلا   هجر المنام وباعدته جُفونه
وإذا تطاولت الملوك بماجد   بمحمد دون الأَنام يكونُه
يابْنَ الأُلَى نصروا الرسول ومن بهم نطق الكِتاب فصيحُه ومُبينه

خصُّوا ببيعته وحاموا دونَـه — نَهْج الرِّضا حتى تَقَاوم دينـه
أمعاضِدَ الإسلام أنت عميدُه — وخليفةُ الرحمن أنت أمينُه
لم يبق إلا من بسَيْفك طايعٌ — وألفُنْشُ[١] فى أقصى البلاد رهينه
وبجيشِك المنصور لو لاقيتُه — أدرى بمُشْتَجر الرِّماح طعينُه
ولو اصْطَنَعت إلى العدوِّ إدالةً — طاعَتْ إليك بلادُه وحصونُه
خُذْها إليك قصيدةً من شاعر — حُلو الكلام مهذَّبٌ تَبْيينه
جعل القوافى للمعالى سُلَّماً — فجنى القَريضَ كما اقتَضَتْه فنونه
غطَّى هواه عقله واقتـــاده — يُحصى النجوم جهالةً تَزْيينُه

ولو أخَذَته أيدى التحرير والنَّقد ، لرُجى أن يكون شاعراً ، وبالجملة فالرجل معدود من السُّراة بَيْتاً وتخصُّصاً .

محمد بن عبد العزيز بن سالم بن خلف القيسى

مُنَكِّبى[٢] الأصل يكنى أبا عبد الله ، طبيب الدَّار السلطانية .

حـــاله

من « عايد الصلة » : كان رحمه الله فذًّا فى الانطباع واللَّوْذَعية ، حسن المشاركة فى الطِّب ، مليح المحاضرة ، حَفِظَةٌ ، طُلَعةٌ ، مستحضراً للأدب ، ذاكرا لصناعة الطب ، أخذها عن إمام وقته ، أبى جعفر الكَزْنى ، وانتصب للعلاج ، ثم انتقل إلى الخدمة بصناعته بالباب السلطانى . ووُلِّى الحِسْبة ، ومن شعره يخاطب السلطان على ألسنة أصحابنا الأطباء الذين

(١) يقصد بها هنا ملك قشتالة ، وقد كان هذا الاسم يطلق على ملوك النصارى لان معظمهم كان يحمل اسم ألفنش (الفونسو) .

(٢) منكبي الأصل ، أي ينتمي إلى ثغر المنكب Almuñecar . الواقع شرقى مالقة .

جَمَعَتْهُم الخدمة ببابه يومئذ ، وهم أبو الأَصْبَغ بن سعادة ، وأبو تمام غالب الشَّقورى :

قد جمعنا ببابكم سَطْر عِلم لبلوغ المنى ونيل الإرادة
ومن أسمائنا لكم حُسْنُ فالٍ غالبٌ ثم سالمٌ وسعادة

توفى فى شهر رجب من عام سبعة عشر وسبعماية .

محمد بن عبد الله بن أبى زَمَنِين

من أهل إلبيرة ، يكنى أبا عبد الله

حـــاله

من الملاحى[1] : قال وُلِّى الأحكام ، وكان فقيها نبيها .

وفاته : توفى بغرناطة فى عَشْر الستين وأربعمائة

قلت ، قد تقدمَ اعتذارى عن إثبات مثله فى هذا المختصر ، فلينظر هناك إن شاء الله .

محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن ابراهيم بن محمد بن أبى زَمَنِين عدنان بن بشير بن كثير المُرِّى

حـــاله

كان من كبار المحدِّثين والعلماء الراسخين ، وأجلُّ وقته قدراً فى العلم والرِّواية والحفظ للرَّأى والتمييز للحديث ، والمعرفة باختلاف العُلماء ،

---

(١) هو أبو القاسم الملاحى صاحب كتاب «تاريخ علماء إلبيرة » وقد سبق التعريف به . وسوف يورد لنا ابن الخطيب ترجمته بعد قليل .

مُتفنّناً فى العلم ، مضطّلعا بالأدب ، قارضاً للشّعر ، متصرفاً فى حفظ المعانى والأَخبار ، مع النُّسك والزُّهد ، والأَخذ بسُنَن الصالحين ، والتخلُّق بأخلاقهم . لم يزل أُمَّةً فى الخير ، قانتاً لله ، مُنيباً له ، عالما زاهدا صالحا خيِّراً متقشِّفا ، كثير التَّبتُّل والتَّزلُّف بالخيرات ، مسارعاً إلى الصالحات ، دايمُ الصلاة والبكاء ، واعظًا ، مذكراً بالله ، داعياً إليه ، ورِعاً ، مُلَبّى الصدقة ، معينا على النّايبة ، مواسيا بجاهه وماله ، ذا لسانٍ وبيانٍ ، تُصغى إليه الافئدة ، فصيحا ، بهيًّا ، عربيًّا ، شريفا ، أَبِيَّ النفس ، عالى الهمة ، طيِّب المجالسة ، أنيس المشاهدة ، ذكيا ، راسخاً فى كل جمٍّ من العلوم ، صَيْرفيا جهْبِذاً ، ما رُؤى[1] قبله ولا بعده ، مثله .

مشيخته

سكن قرطبة ، وسمع بها من أحمد بن مطرِّف ، ووَهَب بن مَسَرَّة الحِجارى ، وعن أَبان بن عيسى بن محمد بن دنيِّر ، وعن والده عبيد الله بن عيسى .

من روى عنه : روى عنه الزاهد أبو اسحق إبراهيم بن مسعود الإلبيرى وغيره .

تواليـــفه

أَلف كتاب المُغْرب فى اختصار « المُدَوَّنة » ثلاثين جزءاً ، ليس فى المختصرات مثله بإجماع ، والمُهَذَّب فى تفسير « المُوَطَّأ » . والمُشْتمل فى أُصول الوثايق ، وحياة القلوب . وأُنُس الفريد ، ومُنْتَخب الاحكام . والنصائح المَنْظُومة ، وتفسير القرآن .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (رىء) ونعتقد أن التصويب أفضل .

مولده : فى المحرم سنة أربع وعشرين وثلاثمائة .

وفاته : توفى فى شهر ربيع الثانى عام ثمانية وتسعين وثلاثمائة بحاضرة إلبيرة ، رحمه الله ونفع به .

محمد بن عبد الرحمن بن الحسن بن قاسم بن مُشْرف بن قاسم ابن محمد بن هانى اللخمى القايصى

يكنى أبا الحسن

حـــاله

كان وزيراً جليلا ، فقيها رفيعا ، جوادا ، أديبا ، جيِّد الشعر ، عارفا بصناعة النَّحو والعَرُوض ، واللغة والأدب والطب ، من أهل الرِّواية والدِّراية

مشيخته

روى عن الحافظ أبى بكر بن عطيَّة ، وأبى محمد بن عَتَّاب ، وأبى الوليد بن رُشد القاضى الإمام ، والقاضى أبى محمد عبد الله بن على بن سَمْجون .

شـــعره

من شعره قوله :

يا حُرقَةَ البَيْنِ كَوَيْتِ الحشا حتى   أَذَبْتِ القَلْـبَ فى أضْلُعـه
أذكيتِ فيـه النَّـارِ حتى غـدا   يَنْسَاب ذاك الذَّوْبُ من مَدْمَعه
يا سُؤْلَ هذا القلب حتى متى   يوسى برَشْف الرِّيق من مَنْبعه
فإنَّ فى الشَّهد شِـفاً للـورى   لاسيما إن يَصِر من مَكْـرِعه
والله يُدنى منـكم عاجـــلا   ويبلِّغ القلبَ إلى مَطْمعه .

مولده : ولد فى الثلث الأخير من ليلة الجمعة لثلاث بقين لذى حجة سنة ثمان وتسعين وأربعمائة .

توفى فى آخر جمادى الأخرى سنة ست وتسعين وخمسمائة .

محمد بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن أحمد بن يوسف ابن أحمد الغسانى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عبد الله

حـــاله

كان محدِّثاً نبيلا حاذقا ذكيا ، وله شرح جليل على كتاب «الشِّهاب» ، واختصارٌ حسن فى « اقتباس الأنوار» للرُّشاطى . وكان كاتباً وافر الحظِّ من الأدب ، يَقْرِض شعراً لا بأس به .

من شعره فى ذكر أنساب طبقات العرب :

الشَّعبُ ثم قبيلةٌ وعمـــارةٌ　　بَطْنٍ وفَخْذٍ والفَصِيلة تابعُه
فالشَّعب يَجمع للقبائل كلها　　ثم القَبِيلةُ للعِمارة جـامعة
والبَطْنُ يجمعه العِمار فاعْلَمَن　　والفخذ يجمعه البطون الواسعة
والفخذُ يجمع للفصايل كلها　　جاءت على نسقٍ لها مُتَتابعة
فخُزيْمة شعبٌ وإنّ كِنــانة　　لقبيلةٌ عنها الفَصايل شاسِعة
وقُرَيْشُها تسمو العبارة يافَتى　　وقُصَىٌّ بطنُ الأعادى قامِعة
ذا ما ثَمَّ فخذٌ وذا عبَّاسُـها　　الا الفصيلة لا تُناط بسابِعة

ولد بغرناطة سنة ثمان وستين وخمسماية .

وفاته : بمُرْسية فى رمضان تسع عشرة وستماية .

محمد بن عبد الواحد بن إبراهيم بن مُفَرِّج بن أحمد بن عبد الواحد ابن حُرَيث بن جعفر بن سعيد بن محمد بن حَقْل الغافقى

من ولد مروان بن حقل النازل بقرية الملاَّحة من قَنْبِ قَيْس[١] من عمل إلبيرة ، يكنى أبا القاسم ويعرف بالملاَّحى . وقد نقلنا عنه الكثير ، وهو من المفاخر الغَرْناطية .

حـــاله

كان محدِّثا راوية مُعْتنيا ، أديبا ، مؤرخا ، فاضلا جليلا . قال الأُستاذ فى « الصلة » : كان من أفضل الناس ، وأحسَنِهم عِشْرَةً ، وألينِهم كلمة ، وأكثرهم مروءة ، وأحسنِهم خَلْقاً وخُلُقاً ، ما رأيت مثله ، قدَّس الله تربتَه . وذكره صاحب « الذيل »[٢] ،الأُستاذ أبو عبد الله بن عبد الملك ، وأطنب فيه ، وذكره المحدِّث أبو عبد الله الطنجالى ، وذكره ابن عساكر فى تاريخه .

مشيخته

روى عن أبيه أبى محمد ، وأبى القاسم بن بَشْكُوال ، وأبى العبَّاس بن اليتيم ، وعالمٍ كثير من غير بلده ، ومن أهل بلده سوى أبيه ، وعن أبى سليمان داود بن يزيد بن عبد الله السَّعدى القلعى ، لازمه مدة . وعن أبى خالد بن رَفاعة اللخمى ، وأبى محمد عبد الحق بن يزيد العَبْدرى ،

---

(١) سبق التعريف بهذين الموضعين ، الملاحة وبالإسبانية La Mala ، وقنب قيس ، بالإسبانية Cambea (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٥٨ ، و١٢٨ ، و١٢٩ حواشى) .

(٢) أعنى كتاب « الذيل والتكملة » . وقد ورد بعد هذه الكلمة فى مخطوط الإسكوريال كلمة (ذكره) مرة أخرى ونعتقد أن وجودها هنا سهو من الناسخ ، ومن ثم فقد أغفلناها .

وأبى جعفر عبد الرحمن بن الحسن بن القصير ، وأبى بكر بن طلحة ابن أحمد بن عبد الرحمن بن عطية المُحاربى ، وأبى محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم ، وأبى جعفر بن حَكَم الحصَّار ، وأبى عبد الله بن عَرُوس ، وأبى الحسن بن كَوْثر ، وأبى بكر الكَتَنْدى ، وأبى إسحق بن الجلاَّ ، وأبى بكر بن أبى زَمَنِين ، وأبى القاسم بن سمْجون ، وأبى محمد عبد الصمد ابن محمد بن يَعيش الغسانى . وكان من المكثرين فى باب الرِّواية ، أهل الضبط والتقييد والإتقان ، بارعَ الخَطِّ ، حسن الوراقة ، أديبا بارعا ذاكرا للتاريخ والرجال ، عارفا بالأنساب ، نقَّادا حافظا للأسانيد ، ثقةً عَدْلاً ، مشاركاً فى فنون ، سياسياً . وروى عنه الأُستاذ ، واعتنى بالرواية عنه . وقال الأُستاذ ، حدَّثنى عنه من شيوخى جماعة ، منهم القاضى العدْل أبو بكر بن المُرابط .

تواليفه

أَلَّف كتابه فى « تاريخ علماء إلبيرة » ، واحتفل فيه . وألف كتاب « الشجرة فى الأَنساب » ، و « كتاب الأَربعين حديثاً » ، و« كتاب فضايل القرآن » ، و « برنامج روايته » وغير ذلك .

مولده : سنة تسع وأربعين وخمسماية

وفاته : توفى فى شعبان سنة تسع عشرة وستماية ببلده .

محمد بن على بن عبد الله اللخمى

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بالشَّقُورى ، منسوباً إلى مدينة شْقورة[1]

(١) هى بلدة أندلسية حصينة تقع شمال شرقى مدينة أبدة ، وشمال غربى مرسية على مقربة من نهر شقوره وبالإسبانية Segura .

ومنها أهله ، صاحبُنا طبيب دار الإمارة ، حفظه الله .

حـاله

هذا الرجل طِرْفٌ فى الخير والأمانة ، فذٌّ فى حسن المشاركة ، نقِىٌّ فى حب الصَّالحين ، كثير الهوى إلى أهل التقوى، حَذِرٌ من التفريط ، حريص على التَّعلُّق بجناب الله . نشأ سابِغ رداءِ العفَّة ، كثيفَ جِلْبابِ الصِّيانة ، متصدِّراً للعلاج فى زمن المُراهقة ، مُعِمًّا ، مُخوَّلا فى الصِّناعة بادِىَ الوقار فى سَنِّ الحشمة . ثم نظر واجتهد ، فأَحْرَزَ الشهرة بدِينه ، ويُمْن نَقِيبته ، وكثرة حِيطته ، ولطيف علاجه ، ونُجْح تجربته . ثم كَلِف بصحبة الصالحين ، وخاض فى السلوك ، وأخذ نفسه بالارتياض والمُجاهدة ، حتى ظهرت عليه آثار ذلك . واستدعاه السلطان لعلاج نفسه ، فاغْتَبط به ، وشدَّ اليَدَ عليه ، وظهر له فضله ، وهو لهذا العهد ببابه ، حميدُ السيرة ، قويم الطريقة ، صحيح العَقد ، حسن التدبير ، عظيم المشاركة للناس ، أشدُّ الخلق حرصاً على سعادة من صَحِبه ، وأكثرهم ثناءً عليه ، وأَصْرَحُهم نصيحة له ، نبيلُ الأَغراض ، فَطِن المقاصد ، قايمٌ على الصنعة ، مُبِين العبارة ، معتدل فى البحث والمذاكرة ، متكلم فى طريقة الصُّوفية ، عديم النظير فى الفضل ، وكرم النَّفس .

شيوخه

قرأ على جده للأب ، وعلى الحكيم الوزير خالد بن خالد من شيوخ غرناطة ، وعلى شيخنا الحكيم الفاضل أبى زكريا بن هُذَيل ، ولازمه ، وانتفع به ، وسلك بالشيخ الصُّوفى أبى مُهذِّب عيسى الزيات ثم بأَخيه الصالح الفاضل أبى جعفر الزيات ، والتزم طريقته ، وظهرت عليه بَرَكته .

تواليفه

ألف كتبا نبيلة ، منها « تحفة المتوسل فى صنعة الطب» وكتابا أسماه « الجهاد الاكبر » ، وآخر سماه «قمع اليهودى عن تعدى الحدود» أحسن فيه ما شاء .

شــعره

أنشدنى بعد ممانعة واعتذار ، إذ هذا الغرض ليس من شأنه :

سالت رِكاب العِز أين رِكابى ... فابدى عِنادا ثم رد جـوابِى
ركابُك مع سيرى يسيرُ بسيره ... بغير حُلول مذ حَللتَ جَنابِى
فلا تلتفت سيراً لذاتك إنما ... تسير بها سيراً لغير ذهـاب

وهى متعددة .

ولد فى عام سبعة وعشرين وسبعماية .

محمد بن على بن فرج القَرِبْليانى[١]

يكنى أبا عبد الله ويعرف بالشُّفرة[٢]

حــاله

كان رجلا ساذِجا ، مشتغلا بصناعة الطب ، عاكفا عليها عمره محققا لكثير من أعيان النَّبات ، كَلِفًا به ، مُتَعَيِّشاً من عُشْبه أول أمره ،

---

(١) بهذه الترجمة يبدأ الجزء الثالث من كتاب الإحاطة ، مخطوط الزيتونة الذى يحفظ بدار الكتب التونسية الوطنية (مكتبة العطارين) برقم 8136 . ومخطوط المتحف البريطانى (من كتاب الإحاطة (المحفوظ برقم Or. 8674 ، ومخطوط مكتبة الرباط العامة المنقول عنه . ويحمل رقم 2704ك (الكتانية)

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الشفر) .

وارتاد المنابِت ، وسَرَّح بالجبال ، ثم تصدَّر للعلاج ، ورأس به ، وحفظ الكثير من أقوال أهله ، ونسخ جملة من كنّانيشه على ركاكة خطِّه ، وعالج السلطان نصر المُسْتَقر بوادى آش ، وقد طرق من بها مرضٌ وافد [حمل علاجه المُشاقَحة لأجله ، وعظُم الهلاك فيمن اختصَّ بتدبيره ، فطوَّف القلب المبارك بَمبْراه . ثم رحل إلى العُدْوة ، وأقام بَمراكُش سنين عدة ، ثم كرَّ إلى غرناطة فى عام أحد وستين ، وبها هلك على أثر وصوله .

مشيخته

زعم أنه قرأ على أبيه ببلده من قَربْليان بلد الدَّجن[١] ، وأخذ الجِراحة عن فوج من مُحسنى صناعة عمل اليَد من الرُّوح . وقرأ على الطبيب عبد الله بن سِراج وغيره .

تواليفه : ألف كتاباً فى النَّبات .

وفاته : فى السابع عشر لربيع الأول عام أحد وستين وسبعماية] [٢]

محمد بن على بن يوسف بن محمد السَّكونى

يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن اللؤلؤة ، أصله من جهة قمارش [٣]

حـــالـه

رحل فى فتايه ، بعد أن شدا شيئا من الطلب ، وكَلِف بالرواية والتقييد

(١) أى البلد الذىيسكنه المسلمون الذين تحت حكم النصارى . والظاهر أن هذه البلدة ، أى قربليان كانت داخلة فى حدود قشتالة .

(٢) كل ما هو محصور بين الحاصرتين وارد فى مخطوط الزيتونة . وساقط فى الإسكوريال .

(٣) قمارش بلدة أندلسية حصينة تقع شمال شرق ثغر مالقة فى سفح جبال سيرا نفادا (جبل الثلج) ، وبالاسبانية Comares .

فلقى مشيخةً ، وأخذ عن جِلّة ، وقدم على بلده حسن الحالة ، مستقيم الطريقة ، ظاهر الانقِباض والعفّة ، وأدخل الأندلس فوايد وقصايد ، وكان ممن ينتفع به لو أمهلته المنية .

شعره

مما نسبه إلى نفسه من الشعر قوله :

يا من عليه اعتمادى　　في قِلِّ أمرى وكُثْره
سَهِّل على ارتحالى　　إلى النّبى وقَبْرِه
فذاك أقْصَى مُرادى　　من الوُجود بأَسْرِه
وليس ذا بعزيز　　عليك فامنن بيُسْرِه

ومن ذلك :

أمن بعد ما لاح المَشيب بمفْرِقى　　أميل لزُور بالغُرور مصاغ
وأرتاح للّذات والشّيب مُنذر　　بما ليس عنه للأَنام مراغُ
ومن يَمُتْ قبل المشيب فإنه　　يُراع بهول بعده ويُراغ
فيارَبِّ وفِّقنى إلى ما يكون لى　　به للذى أرْجُوه منك بلاغ

توفى مُعْتَبطاً فى وقيعة الطاعون(١) عام خمسين وسبعماية ، خطيباً بحصن قُمارش .

(١) إن وقيعة الطاعون التى يشير إليها ابن الخطيب هنا والتى سبق أن أشار إليها غير مرة والتى سوف يشير إليها فيما بعد مرارا أخرى باسم الطاعون الأعظم ، هى كارثة الوباء الجارف الذى اجتاح أمم الشرق والغرب معا فيما بين سنتى ١٣٤٨ و ١٣٤٩ م (٧٥٠ هـ) ، والذى طاف بالأندلس كما طاف من قبلها بمصر وبلاد المغرب وحمل منها مئات الألوف . وتشير إليه الرواية الإسلامية باسم « الفناء الكبير » وقد سبق التعريف بهذا الحادث .

محمد بن سُودة بن إبراهيم بن سودة المُرِّى

أصله من بُشُرَّة غرناطة ، يكنى أبا عبد الله .

حـــاله

من بعض التواريخ المتأخِّرة : كان شيخاً جليلاً ، كاتباً مجيداً ، بارع الأدب ، رايق الشعر ، سيَّال القَريحة ، سريع البديهة ، عارفاً بالنَّحو واللغة والتاريخ ، ذاكراً لأيام السَّلف ، طيِّب المحاضرة ، مَليح الشَّيبة ، حسن الهيئة ، مع الدِّين والفضل ، والطَّهارة والوقار والصَّمت .

مشيخته

قرأ بغرناطة على الحافظ أبى محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم بن الفَرَس، وغيره من شيوخ غرناطة . وبمالقة ، على الأُستاذ أبى القاسم السُّهيلى وبجيَّان على ابن يَرْبُوع ، وبإشبيلية على الحسن بن زَرْقون وغيره من نُظَرائه .

أدبه

قال الغافِقى ، كانت بينه وبين الشيخ الفقيه واحد عصره أبى الحسن سَهْل بن مالك، مُكاتبات ومُراجعات، ظهرت فيها براعتهُ ، وشَهدت له بالتقدم يراعَتُه .

محنتــــه

أصابَتْه فى آخر عمره نكبةٌ ثقيلة ، أُسِر هو وأولاده ، فكانت وفاتُه أسفاً لما جرى عليهم نفعه الله . توفى فى حدود سبعة وثلاثين وستماية .

١٨٣

محمد [بن يزيد] (١) بن رَفاعة الأموى (٢) البيرى (٣)

أصله من قرية طُرُّش (٤)

حـــاله

طلب العلم وعنى بسمعه (٥) ، ونسخ أكثر كتبه بخطه ، وكان لُغَويا شاعرا ، من الفقهاء المُشاورين الموثِّقين ، ووُلِّى الصلاة بالحاضرة ، وعُزل وسَرَد الصَّوم عن نَذْرٍ لَزِمه عُمْره .

مشيخته

سمع من شيوخ إلبيرة ، محمد بن فُطيس ، وابن عَمْريل ، وهاشم ابن خالد ، وعثمان بن جهير ، وحفص بن نجيح ، وبقرطبة من عُبيد الله ابن يحيى بن يحيى وغيره .

من حكاياته : قال المؤرخ ، من غريب ما جرى لأبى على البغدادى فى مَقْدَمه إلى قرطبة ، أن الخليفة الحكَم ، أمر ابن الرِّماحس عامله على كُورَتَى إلبيرة وبجّانة ، أن يجىء مع أبى على فى وفد من وجوه رعيَّته ، وكانوا يتذاكرون الأدب فى طريقهم ، إلى أن تجاروا يوما وهم سايرون ، أدب عبد الملك بن مَرْوان ، ومُساءلته جلساءه عن أفضل المناديل ، وإنْشاده بيت عَبْدَة بن الطبيب :

---

(١) الزيادة فى النسب من الزيتونة . ووردت مصححة فى هامش الإسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الأسدى) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الإلبيرى) .

(٤) طرش وبالإسبانية Torrox بلدة أندلسية صغيرة تقع بين المنكب وبلش مالقة على مقربة من البحر المتوسط .

(٥) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (بجمعه) والأولى أنسب .

ثمّتَ قُمنا إلى جُرُدٍ مُسَوَّمة   أعرافُهُنَّ لأَيْدينا مَناديل

وكان الذّاكر للحكاية أبو على ، فأنشد الكلمة فى البيت أعراقُها ، فلوى ابن رفاعة عِنانه منصرفاً ، وقال ، مع هذا يُوفد على أمير المؤمنين ، وتُتَجشَّم الرِّحلة العظيمة ، وهو لا يقيم وَزْنَ بيت مشهور فى النَّاس ، لا يَغْلط فيه الصِّبيان ، والله لاتَبعتُه خطوة ، وانصرف عن الجماعة ، ونَدَبه أميره ابن الرِّماحس ، ورامَه بأن لا يفعل ، فلم يجد فيه حيلة ، فكتب إلى الخليفة يعرِّفُه بابن رفاعة ، ويصف ما جرى معه ، فأجابه الحَكَم على ظهر كتابه : الحمد لله الذى جَعَل فى بادية من بوادينا من يُخْطِّىء وفد أهلِ العراق ، وابن رَفاعة بالرِّضا أولى منه بالسُّخط ، فدعه لشَأْنه ، وأقدم بالرَّجُل غيرَ منتَقِصٍ من تكريمه ، فسوف يُعليه الاختبار أو يحطُّه .

توفى سنة ثلاث أو أربع وأربعمائة(١)

محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن على
ابن أبى بكر بن خميس الأنصارى

من أهل الجزيرة الخضراء

حـــاله

كان فاضلا وقورا ، مشاركا ، خطيبا ، فقيها ، مُجَوِّداً للقرآن ، قديمَ الطَّلب . شهير البيت ، معروف التَّعَيُّن ، نَبيه السَّلف فى القَضاء ، والخطابة والإقراء ، مضى عمره خطيباً بمسجد بلده الجزيرة الخضراء ،

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (وثلاثمائة) وهو تصحيف واضح ، وصحته ما اثبتناه وهو (أربعمائة) ، لأن الخليفة الحكم المستنصر توفى بعد حكم دام ستة عشر عاما فى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) .

إلى أن تغلَّب العدوُّ عليها ، وباشر الحِصار بها عشرين شهرا ، نفعه الله ثم انتقل إلى مدينة سَبْتَة ، فاستقرَّ خطيبا بها إلى حين وفاته .

مشيخته

قرأ على والده رحمه الله ، وعلى شيخه ، وشيخ أبيه أبي عمر ، وعباس ابن الطُّفيل الشهير بابن عَظيمة ، وعلى الأُستاذ أبي جعفر بن الزُّبير ، والخطيب أبي عبد الله بن رُشَيد بغرناطة عند قدومه عليها ، والقاضي أبي المجد بن أبي الأحوص قاضي بلده ، وكتب له بالإجازة الوزير أبو عبد الله بن أبي عامر بن ربيع ، وأجازه الخطباء الثلاثة أبو عبد الله الطَّنجالى ، وأبو محمد الباهلى ، وأبو عثمن بن سعيد . وأخذ عن القاضى بسَبْتة أبي عبد الله الحَضْرمى ، والإمام الصالح أبي عبد الله بن حُريث ، والمحدث أبي القاسم التُّجيبى ، والأُستاذ أبي عبد الله بن عبد المنعم ، والأخوين أبي عبد الله وأبي إبراهيم ابنى يَرْبوع . قال ، وكلُّهم لقيتُه وسمعتُ منه . وأجاز لى إجازة عامة ما عدا الإمام ابن حُريث فإنه أجاز لى ، ولقيته ولم أسمع عليه شيئاً ، وأجاز لى غيرهم كناصر الدين المِشْدالى ، والخطيب ابن عَزْمون وغيرهما ، ممن تضمنه برنامجُه .

تواليفه

قال ، وكان أحدُ بُلَغاء عصره ، وله مُصنَّفات منها ، «النَّفْحة الأَرَجيَّة ، فى الغزوة المَرْجيَّة» ، ودخل غَرْناطة مع مثله من مشيخة بلده فى البَيْعات ، أظن ذلك .

توفى فى الطَّاعون بسبتة آخر جمادى الآخرة من عام خمسين وسبعمائة .

محمد بن أحمد بن عبد الله العطار

من أهل ألمريّة .

حاله : من بعض التّقييدات ، كان فتّى وسيماً ، وقوراً ، صيّباً ، متعفّفاً ، نجيبا ، ذكيا . كَتَب عن شيخنا أبي البركات بن الحاج ، وناب عنه في القضاء ، وانتقل بانتقاله إلى غرناطة ، فكَتَب بها . وكان ينظم نظما مترفّعاً عن الوَسَط . وجرى ذكره في « الإكليل » بما نصّه : ممّن نبغ ونَجُب ، وخُلق له البرّ بذاته ووجب ، تحلى بوقار ، وشَعْشع للأدب كاس عُقار ، إلا أنه اختُرِم في اقتبال ، وأُصِيب الأجل بنِبال .

ومن شعره قوله من قصيدة :

دعاني على طول البُعاد هواها ... وقد سَدَّ أبواب اللّقا نَواها
وقد شمتُ برقا للّقا مُبَشِّراً ... وقد نَفَحَتْ ريح الصَّبا بشذاها
وجنَّ دُجى ليل بخيل بصُبحه ... كما بَخِلت لَيْلَى بطيف سُراها
وقاد زماني قايدُ الحبِّ قاصدا ... ربوعا ثَوتْ لَيلى بطول قَناها
وناديت والأشواق بالوَجْدبَرَّحت ... ودمعى أجرى سابغاً لِلِقاها
أيا كَعْبَةَ الحُسْن التي للنفس تُرتجى ... رضاها وحاشى أن يَخيب رجاها
أحبك يا لَيلى على البُعد والنوى ... وبى منك أشواق تَشُبُّ لظاها
لين حُجبت لَيلى عن العين إننى ... بعين فؤادى لا أزال أراها
إلى أن بدا الصبح المُشَتِّت شَمْلنا ... وما بَلَغَتْ نفس المشُوق مُناها
فمدّت يميناً للوَداع ودمعها ... يُكفكِفُه خوفُ الرقيب سُراها
وقالت وداعا لا وداع تفَرُّق ... لعلَّ الليالى أن تديل نَـواها
تُذَكِّرنا لَيلى معاهد باللّـوى ... رعى الله ليلاتِ اللِّوى ورعاها

توفى فى الطاعون الأعظم عام خمسين وسبعمائة .

محمد بن أحمد بن المراكشى

من أهل ألمريّة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بالمُراّكشى .

حـــاله

كان فتى جميل الرؤيا(١) ، سكُوتا ، مَطْبوعا على المُغافَصَة(٢) والغَمْز ، مهتديا إلى خِفىِّ الحيلة ، قادرا على المُباحثة ، ذكياً ، مُتَسَوِّرا(٣) على الكلام فى الصّنايع والألقاب ، من غير تدَرُّب ولا حُنْكَة ، دمِثُ الأخلاق ، لين العريكة ، انتحل الطب ، وتصدّر للعلاج والمداواة ، واضطّبن أغْلوطةً صارت له بها شهرة ، وهى رِقٌّ يشتمل على أعداد وخطوط وزايرجة ، وجداول غريبة الأشكال ، تحتها علامات فيها اصطلاحات الصّنايع والعلوم ، ويتصل بها قصيدة رويُّها لام الألف أولها ، وهى منسوبة لأبى العباس السبتى.

يقول سَبْتِىٌّ ويحمد ربــه　　　مُصَلٌّ على هاد إلى الناس أرْسلا

وأنها مدخل للزّيرجة ذكر أنه عثر عليها فى مَظِنَّة غريبة ، وظفر برسالة العمل بها ، وتحرى بالإعلام بالكنايات ، [والإخبار بالخَفِىِّ](٤) وتَقْدِمَة المعرفة ، والإنذار بالوقايع ، حتى استهوى بذلك جماعة من المَشْيخة ، ممن

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (الرواية) . وهو تحريف .

(٢) المغافصة أى المفاجأة .

(١) وردت فى الزيتونة (مستورا) وفى الإسكوريال (ستسورا) وهو تحريف . والتصويب أنسب للمعنى والسياق .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (وإخراج الخبء) والأولى أفصح وأنسب للسياق .

كان يركَنْ إلى رُجحان نظره ، وسلامة فِطرته ، واستُغِلَّت الشهادة له بالإصابة ، سجيَّة النفوس فى حِرصها على إثبات دعاوى المتَحَرِّفين ، أخبرنى بعضهم أنه خبَّأ له عَظْماً صغيراً ، يكون فى أطراف أجنحة الطَّير ، أخذه من جناح ديك ، وزعم أرباب الخَواصّ أنه يُزيل الإعياء إذا عُلِّق ، فتصرَّف على عاداته [من الدخول](١) فى تلك الجداول ، وأخذ الأعداد الكثيرة ، يَضرِبُها آونة ، ويُقْسِمها أخرى ، ويستخرج من تلك الجداول جيوباً وسِهاماً ، ويأخذ جذوراً ، وينتج له العمل آخراً حروفاً مقطعة . ببُقيها الطرح ، يُولف منها كلاما ، تُقْتَنص منه الفائدة ، فكان فى ذلك بيت شعر :

وفى يدكم عَظْمٌ صغير مُدَوَّر يُزيل به الإعيا مَنْ كان فى السَّفر

وأخبرنى آخرون أنه سُيل فى نازلة فقهية لم يُلق فيها نص . فأخبر أن النص فيها موجود بمالقة ، فكان كذلك . وعارض ذلك كله جلَّةٌ من أشياخنا ، فذكّرنى الشيخ نسيج وحده ، أبو الحسن بن الجياب أنه سامره يُخرج خبيئته سواد لَيْلة ، فتأمَّل ما يصنعه ، فلم يأْت بشيء ، ولا ذهب إلى عمل يُتعقَّل ، وظاهر الأمر أن تلك الحال كانت مبنيَّة على تَخْيِيل وتخمين ، تختلف فيه الإصابة وضدها ، بحسب الحالة والقابل ، لتصرُّف الحيلة فيه ، فاقتضى ذلك تأميل طائفة من أهل الدّول إياه ، وانتسخوا نظاير من تلك الزيرجة المموَّهَة ، ممطُولين منه بطريق التصرُّف فيها إلى اليوم ، واتصل بالسلطان ، فأُرسم ببابه ، وتعدَّى الإنْس إلى طبِّ الجن ، فافتضح أمره ، وهُمَّ به ، فنجا مُفلِتاً . ولم تزل حاله مضطربة ، إلى أن دُعى من العُدْوة وسلطانها ، منازل مدينة تلمسان ، ووصلت الكتب عنه ،

---

(١) الزيادة من الزيتونة .

فتوجّه فى جَفْن هُيِّيءَ له ، ولم ينشِب أن تُوفى بالمحلّة فى أوايل عام سبعة وثلاثين وسبعماية .

محمد بن بكرون بن حزب الله

من أهل مالقة ، يكنى أبا عبد الله .

حـــاله

من أهل الخصوصيّة والفضل ، ظاهر الاقتصاد ، كثير التخلّق ، حسن اللقاء ، دايم الطريقة ، مختصر الملبس والمأكل ، على سُنن الفضلاء وأخلاق الجِلّة . انتظم لهذا العهد فى نَمَط من يُستجاز ويُجيز . وكان غَفلاً فأقام رسْماً محموداً ، ولم يُقَصِّر عن غاية الاستعداد .

مشيخته

منهم الأستاذ مولى النعمة على أهل بلده ، أبو محمد عبد الواحد بن أبى السَّداد الباهلى ، قرأ عليه القرآن العظيم أربعة عشر خَتْمة قراءة تَجْويد وإتقان بالأحرف السَّبعة ، وسمع عليه كتباً كثيرة ، وقال عند ذكره فى بعض الاستدعاءات : ولازمته رضى الله عنه وأرضاه إلى حين وفاته ، ونلتُ من عظيم بركاته ، وخالص دعَواته ، ما هو عندى من أجلِّ الوسايل ، وأعظم الذخيرة ، وأفضل ما أعْدَدْتُه لهذه الدَّار والدار الآخرة . وكان فى صَدْر هذا الشيخ الفاضل كثير من عِلْم اليقين . وهو عِلْمٌ يجعله الله فى قَلْبِ العبْد إذا أحبَّه ، لأنه يؤول بأهله إلى احتمال المكروه ، والتزام الصَّبر ، ومُجاهدة الهوى ، ومُحاسبة النَّفس ، ومراعاة خواطر القلب ، والمُراقبة لله ، والحياء من الله ، وصحّة المعاملة له ، ودوام الإقبال عليه ، وصحّة النِّية ،

واستشعار الخَشْية . قال الله تعالى : إنما يَخْشى الله من عِباده العُلماء ، فكفى بخَشْية الله عِلْماً ، وبالإقبال عليه عزا . قلت ، وإنما نقلت هذا ، لأنّ مثله لا يصدر إلا عن ذى حركة ، ومُضْطَّبن بَرَكة ، ومنهم الشيخ الخطيب الفاضل ولى الله ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الطَّنجالى .

دخل غرناطة راويًا ، وفى غير ذلك فى شئونه ، وهو الآن ببلده مالَقة يخطب ببعض المساجد الجامعة بها على الحال الموصوفة .

محمد بن الحسن بن أحمد بن يحيى الأنصارى الخزرجى

الميُورقى(١) الأصل ، سكن غرناطة .

حـــاله

كان محدِّثاً عالى الرِّواية ، عارفا بالحديث وعلَله ، وأسماء رجاله ، مشهورا بالإتقان والضبط ، ثِقَةً فيما نَقل ورَوى ، ديِّناً ، زكيا ، متَحاملا ، فاضلا ، خيِّراً ، مُتَقَلِّلا من الدُّنيا ، ظاهرىَّ المذهب داوُديَّه(٢) ، يَغْلِب عليه الزهد والفضل .

مشيختـه

روى بالأندلس عن أبى بكر بن عبد الباقى بن محمد الحجارى ، وأبى على الصَّدَفى الغسانى ، وأبى مروان الباجى ، ورَحل إلى المشرق رحجَّ ، وأخذ بمكة كرمها الله ، عن أبى ثابت وأبى الفتح عبد الله بن محمد البيضاوى وأبى نصر عبد الملك بن أبى مسلم العُمرانى . قلت وغيرهم اختصرتهم

---

(١) نسبة إلى مدينة ميورقة Mallorca عاصمة جزيرة ميورقة ، كبرى الجزائر الشرقية (البليـار) .

(١) يريد الإشارة هنا إلى خلف بن داود الإصفهانى ، مؤسس المذهب الظاهرى المتوفى سنة ٢٧٠هـ.

لطولهم . وقفَل إلى الأَندلس فحدَّث بغير بلده منها ؛ لتجواله فيها .

من روى عنه : روى عنه أبو بكر بن رزق ، وأبو جعفر بن الغاسل وغيرهم .

محنتـــه

إمتُحن من قِبل على بن يوسف بن تاشْفين ، فحُمل إليه صحبة أَبي الحكم بن يُوجان ، وأَبي العباس بن العَريف ؛ وضُرب بالسَّوط عن أَمره ، وسجنه وقتا ، ثم سرَّحه وعاد إلى الأَندلس ، وأَقام بها يسيراً ، ثم انصرف إلى المشرق ، فتوقف بالجزاير ، وتوفى بها فى شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وخمسماية .

محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصارى الساحلى

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف ببلده مالقة بالمُعَمَّم .

حـــاله

كان طبقةِ من طبقات الكُفاة ، ظَرْفاً ورُواءً وعارضةً وترتيباً ، تجلَّل بفضل شهرة أَبيه ، وجعل بعض المُتْرفين من وزراءِ الدُّول بالمغرب أَيام وَجَّهْتُه إليه ؛ صُحبة الشيخ الصالح أَبيه فى غرض السفارة ، مالاً عريضاً لينفقَه فى سبيل البِرِّ ، فبنى المدرسة غربى المسجد الأَعظم ، ووَقَف عليها الرِّباع ، وابتنى غيرها من المساجد . فحَصَلت الشهرة ، ونبُه الذِّكر ، وتطوَّر ، ورام العُروج فى مَدارج السُّلوك . وانقطع إلى الخَلْوة ، فنَصَلَت الصِّبغة ، وغَلَبَت الطَّبيعة ، وتأَثَّل له مال جم ، اختُلف فى سبب اقتنايه ،

[وأظهر][1] التجر المُرْهَف الجوانب بالجاه العَريض ، والحِرص الشّديد ، والمُسامحة فى باب الوَرَع ، فتبَنَّك به نعيما من ملبس ومطعم وطيبٍ وتَرَفُّه ، طارد به اللّذة ما شاء فى باب النِّكاح استِمتاعا وذَواقاً يَتْبع رايد الطَّرف ، ويُقَلِّد شاهد السَّمع ، حتى نُعى عليه . ووُلِّىَ الخطابة بالمسجد الأعظم بعد أبيه ، فأقام الرسم ، وأوْسَع المنبر ما شاء من جَهْوَرِيَّةٍ وعارضةٍ ، وتسوَّر على أعراضٍ[2] ، وألفاظ فى أسلوب ناب عن الخشوع ، عريق فى نسب القِحة . ثم رَحَل إلى المشرق مرة ثانية ، وكرَّ إلى بلده ، مليحَ الشَّيبة بادى الوقار ، نبيه الرُّتْبة ، فتولى الخطابة إلى حين وفاته .

مشيخته

حسبما قيَّدتُه من خطٍّ ولده أبى الحسن ، وارثِه فى كثير من خِلاله ، وأغلبُها الكفاية . فمنهم والده رحمه الله . قرأ عليه وتأدب به ، ودوَّن فى طريقه ، حسبما يتقرر ذلك . ومنهم الأستاذ أبو محمد بن أبى السداد الباهلى ، ومنهم الشيخ الرَّاوية أبو عبد الله بن عيَّاش ، والخطيب الصالح أبو عبد الله الطَّنجالى ، والخطيب الصالح أبو جعفر بن الزيات ، والأُستاذ ابن الفخار الأرْكُشِى ، والقاضى أبو عمرو بن منظور ، والأُستاذ ابن الزبير وغيرهم ، كابن رُشيد ، وابن خميس ، وابن بُرطال ، وابن مَسْعَدة ، وابن ربيع ، وبالمشرق جماعة اختصرتهم لطولهم .

تواليفه

وتسوَّر على التأليف ، بفرط كفايته ، فمما يُنسب إليه كتاب :

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) وردت فى المخطوطين (أعراض) . والتصويب أرجح بالنسبة للمعنى والسياق .

« التجر الرَّبيح فى شرح الجامع الصحيح » . قال ، منه ما جرّده من المْبيّضة . ومنه ما لم يسمح الدهر بإتمامه . وكتاب بهجة الأَنوار . وكتاب الأَسرار ، وكتاب « إرشاد السَّايل لنهج الوسايل »[١] ، « وكتاب بُغْية السَّالك فى أشرف المسالك » فى التَّصوف . وكتاب « أشعة الأَنوار فى الكشف عن ثمرات الأَذكار » . وكتاب النَّفحة القُدْسيَّة ، وكتاب « غُنية الخطيب بالاختصار والتَّقريب » فى خُطب الجُمَع والأَعياد ، وكتاب « غرايب النُّجب فى رغايب الشُّعب » ، شُعب الإيمان ، وكتاب فى مناسك الحج . وكتاب « نَظْم سِلْك الجواهر فى جيِّد معارف الصُّدور والأَكابر » ، فِهْرِسة تحتوى على فوايد من العِلم وما يتعلق بالرواية ، وتَسْمِية الشيوخ وتحْرير الأَسانيد .

دخوله غرناطة

دخلها مراتٍ تشذُّ عن الإحصاء . ولد عام ثمانية وسبعين وستاية ، وتوفى بمالقة فى صبيحة ليلة النصف من شعبان عام أربعة وخمسين وسبعماية .

محمد بن محمد بن يوسف بن عمر الهاشمى

يكنى أبا بكر ، ويعرف بالطنجالى ، ولد الشيخ الولى أبى عبد الله .

حـــاله

من ذيل تاريخ مالَقة للقاضى أبى الحسن بن الحسن . قال ، كان هذا العالم الفاضل ممن جمع بين الدِّراية والرِّواية ، والتراث[٢] والاكتساب . وعُلُو الانتِساب ، وهو من القوم الذين وصلوا الأَصالة بالصَّوْل ، وطول

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (المسايل) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (والثراة) .

الأَلسِنة بالطَّول . وهدُوا إلى الطَّيِّب من القول . أَثَرُ الشُّموخ يَبْرُق من أَنْفِه ، ونسيم الرُّسوخ يَعْبَقُ من عَرْفه . وزاجر الصَّلاح يُومى بِطَرْفِه ، فتخالُه من خَوْف الله ذا لَمَمٍ ، وفى خلُقه دماثة ، وفى عِرنِينه شَمَمٌ . ووصفه بكثير من هذا النَّمط .

ومن « العايد » : كان من أهل العلم والتَّفَنُّن فى المعارف والتُّهمُّم بطلبها ، جمع بين الرِّواية والدِّراية والصلاح . وكانت فيه خِفَّةٌ ، لفَرْط صِحَّةٍ وسذاجة وفضل رُجولة[1] به ، بارع الخطِّ ، حسن التَّقييد ، مَهيباً جَزْلاً ، مع ما كان عليه من التَّواضع ، يحبُّه الناس ويعظمونه . خطب بالمسجد الأَعظم من مالقة . وأقرأ به العِلم .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ أَبى محمد الباهلى ، وأبيه الوَلِى الخطيب رحمه الله . وروى عن جَدِّه أَبى جعفر ، وعن الرَّاوية الأُستاذ الكبير أبى جعفر بن الزبير، والرَّاوية أَبى عبد الله بن عيَّاش ، والقاضى أَبى القاسم بن السَّكوت ، وغيرهم ممن يطول ذكره ، من أهل المشرق والمغرب .

وفاته : توفى بمالقة فى أول صفر من عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية [وكان عُمْره][2] نحواً من تسع وخمسين سنة .

محمد بن محمد بن مَيْمُون الخزرجى

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بلا أَسْلم ، لكثرة صُدور هذه اللفظة عنه ، مُرْسِى الأَصل ، وسكن غرناطة ووادى آش وألمريّة .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وجولة) .

(٢) أضفنا هذه الزيادة ليستقيم السياق .

حـــالـه

من كتاب « المؤتمن »[١] : كان دَمِث الأخلاق ، قبل أن يحرجه شيء من [مُضَيِّقات الصُّدور][٢] يشارك في العربية ، والشعر النازل عن الدرجة الوسطى ، لا يخلو بعضه عن لَحْن . وكان يتعيش من صناعة الطِّب . وجرَت له شهرة بالمعرفة [تَرْفَعُ به بتلك الصِّناعة على حَدِّ شهرةٍ ترك النَّصيحة فيها ، فكانت شُهرتُه بالمعرفة ترفع به][٣] . وشُهرتُه بترك النصيحة تُنْزله ، فيمرُّ بين الحالتين بشَظَف العيش ، وَمقْتِ الكافَّة إيّاه .

قلت ، كان لا أسْلم ، طِرْفاً في المعرفة بطُرُق العلاج ، فسيح التَّجربة ، يشارك في فنون ، على حال غَريبةٍ من قِلَّة الظَّرف ، وجَفاء الآلات ، وخَشْنِ الظاهر ، والإزراء بنفسه وبالناس ، متقدِّم في المعرفة بالخُصوم ، يُقصد في ذلك . وله في الحرب والحِيَل حكايات ، قال صاحبنا أبو الحسن ابن الحسن : كانت للحكيم لا أسْلم خَمْرٌ مُخبَّأةٌ ، في كَرْم كان له بالمريَّة عَثَر عليها بعض الدَّعرة ، فسرقها له . قال ، فعمد إلى جرَّةٍ وملأها بخمر أخرى ، ودفنها بالجهة ، وجعل فيها شيئاً من العقاقير المُسَهِّلات[٤] ، وأشاع أن الخمر العَتِيقة التي كانت له لم تُسرق ، وإنما باقية ، بموضع كذا . فعمدَ إليها أولئك الدَّعرة ، وأخذوا في استعمالها ، فعادت عليهم بالاستِطْلاق القَبيح المُهْلك . فقصدوا الحكيم المذكور . وعرضوا عليه ما أصابهم . فقال لهم إيه . أدُّوا إليَّ ثمن الشَّريبة . وحينئذ أشرَعُ لكم في

(١) وعنوانه الكامل «المؤتمن على أنباء أبناء الزمن» من تأليف أبي البركات ابن الحاج البلفيقي ، من شيوخ ابن الخطيب الأثيرين .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة في الإسكوريال . وفي الزيتونة (ضيق الصدر) .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد في الإسكوريال وساقط في الزيتونة .

(٤) هكذا في الإسكوريال . وفي الزيتونة (المسهلة) .

الدواء ، ويقع الشِّفا بحول الله . فجمعوا له أضعاف ما كان يساويه خَمْرُه ، وعالجهم حتى شفوا بعد مشقّة . وأخباره كثيرة .

وفاته : توفى عقب إقلاع الطّاغية ملك برجلونة عن ألمريّة عام [تسعة] (١) وسبعماية. وخلفه ابنٌ كان له يسمى إبراهيم ، ويعرف بالحكيم ، وجرى له من الشُّهرة ما جرى لأبيه ، مرت عليه ببَخْتٍ وقَبُول ، وتوفى بعد عام خمسين وسبعماية .

محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصارى

جيَّانى الأَصل مالَقِيه ، يكنى أبا عبد الله ويعرف بالشُّدَيِّد على بِنْية التصغير ، وهو كثير التردُّد والمُقام بحضرة غرناطة .

حــــاله

من أهل الطَّلب والذكاء والظَّرف والخُصوصِيَّة ، مجموع خِلال من خطٍّ حسن واضطِّلاع بحمل كتاب الله . بُلْبُل دَوْح السَّبع المثانى ، وما شطة عروس أبى الفرج الجوزى ، وآية صُقْعه فى الصَّوت ، وطيب النَّغمة ، اقتحم لذلك دسوت الملوك،وتوصَّل إلى صُحبةالأشراف ، وجرَّ أذْيال الشهرة . قرأ القرآن والعَشْر بين يدى السلطان ، أمير المسلمين بالعُدْوة ، ودنا منه محلُّه ، لولا إيثار مَسْقَط رأسه . وتقرَّب بمثل ذلك إلى ملوك وطنه ، وصلَّى التَّراويح بمسجد قصر الحمراء ، غريب المنْزِع ، عذْبُ الفكاهة ،

---

(١) ورد مكانها بياض فى المخطوطين . والحادث الذى يشير إليه ابن الخطيب هو قيام خايمى الثانى ملك أراجون (وعاصمتها يومئذ برشلونة أو برجلونه) بغزو ثغر المرية فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م) وذلك بالاتفاق مع ملك قشتالة فرناندو الرابع الذى قام فى نفس الوقت بغزو الجزيرة الخضراء وجبل طارق. ولكن جند الأندلس استطاعوا أن يهزموا الجيش الأرجونى ورده عن المرية وبذلك، نجت من خطر السقوط (راجع كتابى نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (الطبعة الثالثة ص ١١٥و١١٦).

ظريف المجالسة ، قادرٌ على الحكايات ، مستورٌ حِمى الوقار ، مُلَبٍّ داعى الانبساط ، على استرجاعٍ واستقامة ، مبرور الوِفادة ، مُنَوَّه الإنزال ، قُلِّد شهادة الدِّيوان بمالقة ، مُعَوَّلاً عليه فى ذلك . فكان مَغار جبل(١) الأمانة ، صَلِيب العود ، شامخًا ، صادقَ النَّزاهة ، لوحاً للألقاب ، مُحرزاً للعمل .

ووُلِّى الحِسبة بمالقة حرسها الله تعالى ، فخاطبته فى ذلك أداعِبُه ، وأُشير إلى قوم من أجداده ، وأُولى الحَمْل عليه بما نصه :

يا أيها المُحْتَسِبُ الجـزل ... ومن لديه الجَدُّ والهَزْلُ
تُهنيك والشكر لمولى الورى ... ولايةٌ ليس لها عَـزْلُ

كتبتُ أيها المحتسب ، المُنتمى إلى النزاهة المُنْتَسب ، أُهَنِّيك ببلوغ تمنِّيك ، وأُحذِّرك من طمع نفسٍ بالغرور تُمَنِّيك . فكأنى وقد طافت بركابك السَّاعة ، ولزم لأمرك السَّمع والطَّاعة ، وارتفعت فى مصانعتك الطِّماعة ، وأخذت أهل الرِّيب بَغْتة كما تقوم الساعة . ونَهضت تَقعد وتقيم ، وسكوتُك الريح العقيم ، وبين يديك القِسْطاس المُسْتَقيم ، ولابُدَّ من شَرَكٍ يُنصب ، وجماعة على ذى جاه تتَعَصَّب ، وحالة كَيْتٍ بها الجناب الأَخْصَب . فإن غَضَضْتَ طَرْفَك . أَمِنت عن الولاية صَرْفَك . وإن ملأْت ظَرْفَك ، رَحلت عنها حَرْفَك . وإن كَفَفْتَ فيها كَفَّك . حفَّك العزُّ فيمن حفَّك . فكن لقالى المَجْبَنة قالياً ، ولحُوت السَّلَّة ساليا . وابدِ لدقيق الحَوارى زُهْد حَوارى ، وازهد فيما بأيدى الناس من العَوارى . وسِر فى اجتناب الحُلو(٢) على السبيل السَّوا . وارفض فى الشِّوا(٢) دواعى الأهوا . وكن على الهرَّاس . وصاحب فريد الرَّاس . شديدِ المَراس . وثِبْ

---

(١) وردت فى الإسكوريال (حبل) والتصويب من الزيتونة .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة على التوالى : الحلوى . الشوى . الأهوى .

على بايع طَبيخ الأعراس ، ليثاً مزهوب الافتراس ، وأدِّب أطفال السُّوق فى السوق ، سيَّما من كان قبل البلوغ والسُّبوق ، وصَمِّم فى استخراج الحقوق ، والناس أصناف ، فمنهم خَسيس يطمع منك فى إكْلة ، ومُسْتَغْدٍ عليك بوَكْزَة أو رَكْلة . وحاسدٌ فى مطيَّةٍ تُركبْ ، وعطيَّة تُسْكَب ، فاخفض للحاسد جناحك ، وسدِّد إلى حربه رِماحك، وأشبع الخَسيس منهم مَرَقَةً دَسِمةً فإنه حَنِقٌ ، ودسَّ له فيها عَظْماً لعله يَخْتَنِق ، واحفُر لشرِّيرهم حُفْرةً عميقةً . فإنه العدوُّ حقيقةً ، حتى إذا حَصَل ، وعلمت أن وقت الانتصار قد وصَل . فأَوْقِع وأَوْجِع ، ولا تَرْجع ، وأولِياه من [حِزْب][1] الشيطان فأَفْجِع ، والحقُّ أقوى ، وإن تعْفُو أقرب للتقوى . سدَّدك الله إلى غرض التَّوْفيق ، وأغْلَقَنا من الحقِّ بالسَّبب الوثِيق ، وجعل قدومَك مقروناً برُخص اللَّحم والزَّيت والدَّقيق . بمَنِّه وفضله .

مشيخته

قرأ القرآن على والده المُكَتِّب النَّصوح رحمه الله ، وحَفِظ كُتباً كرسالة أبى محمد بن أبى زيد . وشهاب القُضاعى . وفصيح ثَعْلب[2] . وعَرَض الرِّسالة على ولى الله أبى عبد الله الطَّنجالى ، وأجازه . ثم على ولده الخطيب أبى بكر . وقرأ عليه من القرآن ، وجَوَّد بحَرْف نافع على شيخنا أبى البركات . وتَلا على شيخنا أبى القاسم بن جُزَى . ثم رَحَل إلى المغرب ، فلقى الشيخ الأُستاذ الأَوحد فى التِّلاوة . أبا جعفر الدرَّاج . وأخذ عن

---

(١) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٢) رسالة ابن أبى زيد القيروانى المتوفى سنة ٣٨٩ هـ ، من أشهر متون الفقه المالكى . وكتاب « الشهاب » لأبى عبد الله القضاعى الشافعى المصرى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ من كتب الحديث . وله « مسند الشهاب » فى الحديث أيضاً . وكتاب الفصيح أو فصيح ثعلب من كتب اللغة والبلاغة لأبى العباس أحمد بن يزيد بن ثعلب اللغوى النحوى المتوفى سنة ٢٩١ هـ .

الشَّريف المُقْرى أبى العباس الحسنى بسَبْتة ، وأدْرَك أبا القاسم التُّجيبى ، وتلا على الأُستاذ أبى عبد الله بن عبد المنعم ولازمه ، واختصَّ بالأُستاذ ابن هانى السَّبتى ،ولقى بفاس جماعةً كالفقيه أبى زيد الجَزُولى ، وخَلَف الله المجاصى ، والشيخ أبا العباس المِكناسى ، والشيخ البقية أبا عبد الله بن عبد الرازق ، وقرأ على المُقْرى الفَذِّ الشهير فى التَّرنُّم بألحان القرآن أبى العباس الزَّواوى سَبْع خَتْمات . وجمع عليه السَّبع ، والمُقْرى أبى العباس بن حِزب الله ، واختصَّ بالشيخ الرييس أبى محمد عبد المُهيمن الحَضْرى .

شــعره

من شعره ما كَتَب به إلى وزير الدولة المَغْربيَّة فى غرض الاسْتِلْطاف :

يا من به أبداً عُرفت ومن أنا　　لولاه لى دامَتْ عُــلاه وداما
لا تأْخُذَنْك فى الشَّديد لوْمةٌ　　فشُخَيْص نَشْأَته بفضلك قاما
ربَّيْتُــه عَلَّمتُــه أَدَّبْتُــه　　قدَّمتــه للفَرْضِ منك إماما
فجزاك ربُّ الخلق خيرَ جِزاية　　عنِّى وبوَّأك الجِنــان مُقاما

وهو الآن بالحالة المَوْصوفة ، مستوطناً حضرة غرناطة . وتالياً الأُعشار القرآنية ، بين يدى السلطان أعزَّه الله ، مرفَّع الجانب ، معزَّز الجِراية بولايته أَحْباس المدرسة ، أطْرُوفة عَصْره . لولا طَرَشٌ نَقَص الأُنْس به ، نفعه الله .

ولد بمالقة فى عاشر ربيع الأُول من عام عشرة وسبعماية .

ومن الغُرباء في هذا الاسم

محمد بن أحمد بن ابراهيم بن محمد التلمساني الأنصاري

السَّبْتي الدَّار ، الغَرْناطي الاستيطان ، يكنى أبا الحسين ، ويعرف بالتِّلِمْساني .

حـــاله

طِرْفٌ في الخير والسلامة ، مُعرق في بيت الصَّون والفضيلة ، مُعِمٌّ(١) تَخَوَّل في العدالة ، قديم الطَّلب والاستعمال ، معروف الحقِّ ، مليح البَسْط، حُلو الفكاهة ، خفيف إلى هَيْعة الدُّعابة ، على سَمْتٍ ووقار ، غَزِلٌ ، لوْذَعيّ ، مع استرجاع وامتِساك ، مُتْرَف ، عريقٌ في الحضارة ، مؤثر للراحة ، قليل التَّجلُّد ، نافرٌ عن الكدّ ، مُتَّصل الاستعمال ، عريضُ السعادة في باب الولاية ، محمول على كَتَد المبرَّة ، جار على سُنن شيوخ الطَّلبة والمُقْتاتين من الأرزاق المُقَدَّرة ، أولي الخُصوصيَّة والضَّبط ، من التَّظاهر بالجاه على الكِفاية . قدِمَ على الأندلس ثمانية عشر وسبعماية ، فمهَّد كنفَ القَبُول والاستعمال ، فوُلِّي الحِسْبة بغرناطة ، ثم قُلِّد تنفيذ الأرزاق ، وهي الخُطَّة الشرعية ، والولايةَ المُجْدِية ، فاتَّصلت بها ولايته . وناب عنِّي في العَرْض والجواب بمجلس السلطان ، حميدُ المنْأى في ذلك كله ، يقوم على كتاب الله حِفْظاً وتَجْويداً ، طيِّب النَّغَمة ، راوياً محدِّثاً ، إخبارياً ، مُرتاحاً للأدب ، ضارباً فيه بسَهْم ، يقوم على كُتُب السِّيرة النَّبوية ، فذاً في ذلك . قرأه بالمسجد الجامع للجمهور ، عند لِحاقه بغرناطة ، مُعرباً به عن نفسه ، منبِّهاً على مكانه ، فزعموا أن رجلا فاضَتْ نفْسُه وجْداً لشَجْو نَغَمَتِه ، وحُسْن

(١) معم ، أعني الذي يعم بخيره الناس .

إلْقايه . وقرأ التَّراويح بمسجد قصر السلطان إماماً به ، واتَّسم بمجلسه بالسَّلامة والخير ، فلم تُؤْثر عنه فى أحد وَقيعة ، ولا بَدَرَتْ له ، فى الحَمْل على أحد بِنتُ شَفَه .

مشيخته

منهم الشَّريف أبو على الحسن بن الشريف أبى التُّقا طاهر بن أبى الشَّرف ربيع بن على بن أحمد بن على بن أبى الطاهر بن حسن بن موهوب بن أحمد بن محمد بن طاهر بن أبى الشرف الحسن بن على بن على بن محمد بن على ابن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسن بن على بن الحسن بن على ابن أبى طالب . ومنهم والده المُتَرجم به ، ومنهم أبوه وجدُّه ، ومنهم الأمير الصالح أبو حاتم أحمد بن الأمير أبى القاسم محمد بن أبى العباس أحمد بن محمد العَزَفى ، والمُقْرى أبو القاسم بن الطيب ، وإمام الفريضة أبو عبدالله محمد بن محمد بن حُريث ،والأُستاذ مُلْحِق الأبناء بالآباء أبو إسحق الغافقى ، والكاتب النَّاسك أبو القاسم خلف بن عبد العزيز القبتورى ، والأُستاذ المُعمَّر أبو عبد الله بن الخضَّار ، والخطيب المحدث أبو عبد الله ابن رُشَيد ، والخطيب الأديب أبو عبد الله الغُمارى ، والأُستاذ أبو البركات الفضل بن أحمد القنطرى ، والوزير العابد أبو القاسم محمد بن محمد ابن سهل بن مالك ، والولى الصالح أبو عبد الله الطَّنجالى ، والخطيب الصالح أبو جعفر بن الزيات ، والقاضى الأعْدل أبو عبد الله بن بُرطال ، والشيخ الوزير المعمر أبو عبد الله بن ربيع ، والصُّوفى الفاضل أبو عبد الله ابن قَطْرال ، والأُستاذ الحسابى أبو اسحق البَرْغواطى . هؤلاء لقيهم وقرأ وسمع عليهم . وممن كتب له بالإجازة ، وهم خلق كثير . كخال أبيه ، الشيخ الأديب أبى الحكم مالك بن المُرَحَّل ، والخطيب أبى الحسن فضل

ابن فضيلة ، والأُستاذ الخاتمة أَبى جعفر بن الزبير ، والعَدْل أَبى الحسن ابن مَسْتَقور ، والوزير المُعمر أَبى محمد بن سِماك ، والخطيب أَبى محمد مولى الرييس أَبى عُثمن بن حَكَم ، والشيخ الصالح أَبى محمد الحَلاسى ، والقاضى أَبى العباس بن الغمَّاز ، والشيخ أَبى القاسم الحضرمى اللَّبيدى ، والعَدْل المُعمر الراوية أَبى عبد الله بن هرون ، والمحدث الراوية أَبى الحسن القَرافى ، وأَبى إسحق إبراهيم بن أَحمد بن عبد المحسن بن هبة الله بن أَبى المنصور ، والإِمام شرف الدين أَبى محمد الدُّمياطى ، وبهاء الدين بن النَّحاس ، وقاضى القضاة تقى الدين بن دَقيق العِيد ، وضياء الدين أَبى مهدى عيسى بن يحيى بن أَحمد ، وكتب فى الإجازة له :

ولدتُ لعام من ثلاث وعشرة وستٍّ مئين هجــرةٍ لمحمد
تطوَّفتُ قُدُماً بالحجاز وإننى بمصر هو المَرْبَلىُّ وسَبْتة مَوْلِد

إلى عالم كثير من أَهل المشرق ، يشق إحْصاؤهم . قد ثبت معظمهم فى اسم صاحبه أَبى محمد عبد المهيمن الحضرمى رحمه الله .

محنتـــه

نالته محنة بجرْى الأُمور الاشتغالية وتَبَعاتها ، قال الله فيها لعَثْرته لعاً ، فاستقلَّ من النَّكبة ، وعاد إلى الرُّتبة . ثم عفَّت عليه بآخرةٍ ، فهلك تحت بَرْكها بعد مناهزة التسعين سنة . نفعه الله .

ولد عام ستة وسبعين وستماية ، وتوفى فى شهر محرم من أَربعة وستين وسبعماية .

محمد بن على بن محمد بن على بن محمد بن يوسف بن قَطْرال الأنصارى

من أَهل مرَّاكُش ، يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف بابن قطرال .

حــاله

من « العايد » : كان رحمه الله فاضلا صوفيا، عارفا ، متحدِّثا ، فقيها ، زاهداً ، تجرَّد عن ثَرْوة معروفة ، واقتصر على الزُّهد والتَّخلِّي ، وملازمة العبادة ، والغُروب عن الدنيا . وله نَظْمٌ رايق ، وخطٌّ بارع ، ونثر بليغ ، وكلام على طريقة القَوْم . رفيع الدَّرجة ، عالى القدر . شرح قصيدة الإسرايلى ، بما يشهد برسوخ قدمه ، وتجوَّل فى لقاء الأكابر على حال جميلة من إيثار الصَّمت والانقباض والحِشمة . ثم رَحَل إلى المشرق حاجاً صَدْر سنة ثلاث وسبعماية .

مشيخته

من شيوخه القاضى العالم أبو عبد الله محمد بن على ، والحافظ أبو بكر بن محمد المُرادى . والفقيه أبو فارس الجَرَوى ، والعلَّامة أبو الحسين بن أبى الربيع ، والعَدْل أبو محمد بن عبيد الله . والحاج أبو عبد الله بن الخضَّار . وأبو إسحق التِّلمسانى . وأبو عبد الله بن خميس . وأبو القاسم بن السَّكوت . وأبو عبد الله بن عيَّاش . وأبو الحسن بن فضيلة . وأبو جعفر بن الزبير ، وأبو القاسم بن خير . هؤلاء كلهم لَقِيهم . وأخذ عنهم . وكتب له بالإجازة جُملة ، كالقاضى أبى على بن الأَحْوَص ، وأبى القاسم العَزَفى . وأبى جعفر الطَّنجالى . وصالح بن شريف ، وأبى عمرو الدَّارى . وأبى محمد بن الحجَّام . وأبى بكر بن خُبَيش ، وأبى يعقوب بن عقاب . وعز الدين الجداى . وفخر الدين بن البخارى ، وابن طرخان . وابن البوَّاب . وأمين الدين بن عساكر . وقطب الدين بن القسْطلَّانى . وغيرهم .

شعره .

وأما شعره فكثير بديع . قال شيخنا القاضى أبو بكر بن شِبْرين كتبت إليه :

يا مُعمل السَّير أىّ إعمال سلِّم على الفاضل ابن قَطْرال

من أبيات راجعنى عنها بأبيات منها :

زارَتْ فأَزْرَتْ بمسْك دارَين تَفْتَنُّ للحسن فى أفانين

ومثلُها فى شتَّى محاسنها ليست بِبِدْع من ابن شِبرين

توفى بحرم الله عاكفًا على الخير وصالح الأعمال ، مُعرضا عن زَهْرة الحياة الدنيا ، إلى أن اتصل خبر وفاته ، وفيه حكاية ، عام تسعة وسبعماية

ودخل غرناطة برسم لقاء الخطيب الصالح أبى الحسن بن فضيلة . وغير ذلك .

العُمال فى هذا الاسم وأولا الأصليون

محمد بن أحمد بن محمد بن الأكحل

يكنى أبا يحيى .

حاله

شيخٌ حسن الشَّيْبة ، شامل البياض ، بعيدُ مدى الذَّقن ، خدُوع الظاهر ، خَلُوب اللفظ ، شديد الهوى إلى الصُّوفية ، والكَلَفِ بإطراء الخيريَّة ، سيا عند فِقْدان شُكر الولاية ، وجِماح الحُظوة ، من بيت صَوْنٍ وحشمة ، مُبين عن نفسه فى الأغراض ، مُتقدِّم فى معرفة الأُمور العملية ، خايض مع الخايضين فى غُمار طريق التصوُّف ، وانتحال كيمياء السَّعادة ، راكبٌ مَتْن دعوى عريضة فى مَقام التَّوحيد ، تُكذِّبُها أحوالُه الرَّاهنة جُمْلةً ،

ولا تسْلم له منها نُبذة . لمعاصاة خلقه على الرياضة واستيلاء الشَّره ، وغَلَبِ سلطان الشَّهوة . فلم يَجْن من جعْجاعه المُبرم فيها إلا استِغراق الوقت فى القواطع عن الحق . والأَسف على ما رَزَته الأيام من مَتاع الزُّور ، وقِنْية الغرور ، والمَشاحة أيام الولاية ، والشَّباب الشاهد بالشَّره ، والحَلف المتصل بياض اليوم . فى ثمن الخَرْدلة باليمين التى تجرُّ فساد الأَنْكِحة ، والغَضَب الذى يَقْلب العَين ، والبَذا الذى يُصاحب الشَّين ، مغلُوبٌ عليه فى ذلك ، ناله بسببه ضيقٌ واعتقالٌ ، وتفْويت جِدَةٍ ، وإطْباق رَوْع ، وقيدٌ للعذاب ، فأَلقيتُ عليه رِدائى . ونفَّس الله عنه بِسَبَبى ، محواً للسَّيئة بالحَسَنة ، وتوسُّلاً إلى الله بترك الحظوظ ، والمِنَّةُ لله جلَّ جلالُه على ذلك .

شـعره

خاطبنى بين يَدَىْ نكبته أوخَلْفَها بما نصه . ولم أكن أظن الشِّعر مما تلوكه جَحْفلتُه ، ولكن الرجل من أهل الكفاية :

راجَوْتُك بعد الله يا خيرَ مُنجد | وأكرَم مأمُول وأعظمَ مُرفِد
وأفضلَ من أمَّلْتُ للحادث الذى | فقدتُ به صبرى وما مَلَكَتْ يَد
وحاشى وكلاَّ أن يَخيب مامَلى | وقد عَلِقتُ بابن الخطيب محمد
وما أنا إلاَّ عَبْدُ أنْعُمه التى | عهدتُ بها يُمْنَ وإنجاح مَقْصِد
وأشرف من حضَّ الملوك على التُّقى | وأَبْدى لهم نُصْحاً وصيَّةَ مُرشد
وساسَ الرَّعايا الآن خيرَ سياسةٍ | مباركةٍ فى كل غَيْبٍ ومَشْهد
وأعْرَض عن دُنْياه زُهدا وإنها | لمظهرةٌ طوعاً له عن تَودُّد
وما هو إلاَّ اللَّيث والغَيْث إن | أتى له خايفٌ أوجاء مغْناه مُجْتَد
وبحرُ علوم دُرُّه كلماته إذا | رُدّدت فى المحفل أىّ تردُّد

صُقَيل مَرْأى الفِكر ربٌّ لطايف … محاسنها تُجلى بحسن تَعبُّد
بديعٌ عَروجَ النفس للملإ الذى … تجلَّت به الأَسرار فى كل مَصْعد
شفيقٌ رقيقٌ دايم الحلم راحمٌ … وأىُّ جميل للجميل معوَّد
صفوحٌ عن الجانى على حين قُدْرة … يواصل تقوى الله فى اليوم والغَد
أَيا سيدى يا عُمْدتى عند شدَّتى … ويا شِربى متى ظَميت ومَوْردي
حَنانَيْك والطُفْ بى وكن لى راحماً … ورفقاً على شيخٍ ضعيف مُنَكَّد
رَجاك رجا الذى أَنت أَهلُه … ووافاك يُهدى الثَّنا المُجَدَّد
وأَمَّكَ مضطَّراً لرحماك شاكياً … بحالٍ كحَرِّ الجمر حين تَوَقُّد
وعندى افتقار لأَنوالٍ مواصلاً … لأَكرم مولى حاز أَجراً وسَيِّد
ترفَّق بأَولادٍ صغار بكاؤهم … يَزيد لوَقْع الحادث المتزيِّد
وليس لهم إلاَّ إليك تطلُّع … إذا مسَّهم ضرٌّ أَليم التَّعهُّد
أَنِلْهم أَيامولاى نظرةَ مُشْفِقٍ … وجُدْ بالرِّضا وانظر لشملٍ مُبَدَّد
وقابل أَخا الكُرْه الشَّديد برحمة … وأَسْعِف بغُفران الذُّنوب وأَبعد
ولا تنظُرَن إلاَّ لفضلك لا إلى … جريمةِ شيخ عن محلِّك مُبعد
وإن كنتُ قد أَذنبتُ إنى تايبٌ … فعاوِد لى الفعلَ الجميل وجدِّد
بقيتَ بخير لأَنوال وعزَّة … وعيش هنى كيف شِيت وأَسْعد
وسخَّرك الرحمن للعَبْد إنَّه … لمتْنٌ وداعٍ للمَحَلِّ المُجَدَّد

وقد وُلِّى خُططاً نَبيهة ، منها خُطة الاشتغال على عهد الغادر المُكايد للدَّولة ، إذ كان من أَوْلياء شيطانه وممدِّيه فى غيِّه ، وسماسير شَعْوذته ، فلم يزل من مُسيطرى ديوان الأَعمال ، على تهوُّر واقتحام كَبْرة ، وخطٌّ لا غاية وراءه فى الرَّكاكة ، كما قال المعرِّى :

تمشَّت فوقه حُمرُ المنايا … ولكن بعد ما مَسِخت نَمالا

استحضرته يوما بين يدى السلطان . وهو غُفْل لفَكٍّ ما أُشْكل من مغْمَيَّاتِه فى الأَعمال عند المطالعة . فوصل بحال سيئة . ولما أُعْتِب بسببه ، ونعيتُ عليه هُجنته ، أحسن الصَّدر عن ذلك الوِرْد ، ونَدَر فى نفسه ، وقال حيَّا الله رداءة الخطِّ ، إذا كانت ذريعةً إلى دخول هذا المجلس الكريم ، فاستُحسن ذلك . لطف الله بنا أَجمعين .

توفى عام سبعة وستين وسبعماية .

محمد بن الحسن بن زيد بن أيوب بن حامد الغافقى

يكنى أبا الوليد .

أَوَّلِيَّته

أَصله من طُليطلة ، انتقل منها جدُّ أبيه ، وسكنوا غرناطة ، وعدُّوا فى أهلها .

حـــاله

كان أَبو الوليد طالباً نبيلا ، نبيها ، سَرِيًّا ، ذكيا ، ذا خطٍّ بارع ، ومعرفة بالأَدب والحساب ، ونَزَع إلى العمل فكان محمود السِّيرة ، مشكور الفعل . ووُلِّى الإشراف فى غير ما موضع . قلتُ ، وآثاره فى الأَملاك المنسوبة إليه ، التى من جُملة المُسْتَخْلَص السلطانى بغرناطة وغيرها ، مما يدل على قِدَم ، وتَعِمَّة أصيلة .

توفى بمدينة إشبيلية سنةْ ثمان وثمانين وخمسماية ، وسنه دون الخمسين .

محمد بن محمد بن حسّان الغافقى

إشبيلى الأَصل ، غرناطى المنشأ . يكنى أبا عبد الله . ويعرف بابن حسان .

حـــاله

من « العايد » : كان من أهل السَّرْو والظَّرف والمروءة ، وحسن الخلق . تولى الإشراف بغرناطة ، وخُطَّة الأشغال ، فحسن الثناء عليه . وله أدب ومشاركة . حدَّثني بعض أشياخنا ، قال ، كنت على مائدة الوزير ابن الحكيم ، وقد تحدَّث بصَرْف ابن حسّان عن عمل كان بيده ، وإذا رُقْعة قد انتهت اليه أحفظ منها :

لـكم أيادٍ لكم أيـاد   كـــرَّرتُها إنها كثيرة
فإن عـزمتم على انتقالى   ريَّه أبْغِـى أو الجزيرة
وإن أبيـتم الاَّ مُقامى   فنعمةٌ منكـم كبيـرة

وقال لى بعضهم ، جرى بين ابن حسّان هذا ، وبين أحد بنى علاّق[1] ، وهم أعيان، كلام وملاحة[2] فقال ابن حسّان ، إنما كان جدكم مولى بنى أضحى ، وجدّاً بنى مشرف ، فاستَعدى عليه ، ورفعه إلى الوزير ابن الحكيم فيما أظن ، فلما استفهمه عن قوله ، قال أعزَّك الله ، كنت بالكُتْبيين ، وعُرض علىّ كتاب قديم فى ظهره أبيات حفظتها وهى :

أضحى الزمان بأضحى وهو مبتسم   لنوره فى سماء[3] المجـد إشـراق
فلم يـــزل ينتمى للمجد كل فتى   تطيب منه مواليـــد وأعـــراق
فإن تُـرد شرفـاً يمم مُشَرِّفـه[4]   وإن تـرد عِلْق مجـد فهـو علاّق

فعلم الوزير أن ذلك من نظمه ، ونتيجة بديهته ، فعجب من كفايته ، وترضّى خصمه . وصرفهما بخير. وتوفى فى شهر رجب ثلاثة عشر وسبعماية.

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بنى غيلان) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (ملاحاة) والتصويب من الزيتونة .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (سناء) .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مشرفهم) .

محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن موسى بن ابراهيم
ابن عبد العزيز بن اسحق بن أحمد بن أسد بن قاسم النُّميرى المدعو بابن الحاج

يكنى أبا عمرو ، وقد مر ذكر أخيه

حـــاله

تولى خطَّة الإشراف بلَوْشَة وأنْدَرَش[1] ومالقة . ووُلِّىَ النظر فى مختص ألمريَّة ، والأعشار الرومية بغرناطة . وكان له خط حسن ، وجودة كاملة ، وحُسْن خُلُق ، ووَطْأَةُ أكْناف ، تشهد له بجلالة قَدْرِه ، ورفيع خَطَره . وصاهَر فى أعيانٍ كالوزير أبى عبد الله بن أبى الحسن [فاضلٌ ، سَرِىٌّ ، متخلِّق ، حسن الضريبة ، متميِّز بخصال متعددة ، من خطٍّ بديع ، ونظم ، ومشاركة فى فنون ، من طب وتعديل ، وارتياض سماع ، وذكر التاريخ . حَجَّ وجال فى البلاد . ولقى جِلَّة ، وتولى بالمغرب خُططا نبيهة علية[2]][3] . ثم كرَّ إلى الأندلس عام ستين وسبعماية ، فاجْرى من الاستعمال على رَسمه . ثم اقتضت له العناية السلطانية بإشارتى ، أن يُوجه فى غرض الرسالة إلى تونس وصاحب مصر ، لما تقدَّم من مُرانه على تلك البلاد ، وجوَلاته فى أقطارها ، وتعَرُّفه بملوكها والجلَّة من أهلها ، فآب بعد أعوام ، مشكور التصرُّفات ، جاريا على سُنَنَ الفضلاء ، مضطَّلعا بالأحوال التى أُسندت إليه من ذلك . فلم يزل مُعْتَنى به ، مُرَشَّحا إلى الخُطط التى تطمح إليها نفس مثله ، مُسْنِدا النَّظر فى زمام العسكر الغربى إلى ولده ، الذى

---

(١) سبق التعريف بها (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ١٥٨ حاشية) .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (عملية) والأولى أرجح وأنسب للسياق .

(٣) الفقرة التى بين الحاصرتين وردت فى الزيتونة فى أول الترجمة .

يخلفه عند رحلته نايبا عنه ، مُعَزَّزاً ذلك بالمرتبات والإحسان . تولاه الله وأعانه

شـــعره

مدح السلطان ، وأنشد له فى المواليد النبوية . ورَفع إلى السلطان بحضرتى هذه الأبيات :

مولاى يا خَير أعلام السلاطين ... ومن له الفضل فى الدنيا وفى الدِّين
ومن له سِيَرٌ ناهيك من سِيَرٍ ... وافَتْ بأكرم تحسين وتحصين
شرَّفتَ عَبْدك تشريفا له رُتَــبٌ ... فوق النجوم التى فوق الأفق تُعلين
وكان لى موعدٌ مولاى أنجــزه ... وزاد فى العزّ بعد الرُّتبـــة الدُّون
والله ما الُّشكر منى قاضياً وَطَـرى ... ولــو أتيتُ به حيناً عـلى حِين
ولا الثَّناءِ مُوفٍ حــقَّ أنْعُمِه ... ولـو ملأْتُ به كل الدَّواوين
لكن دُعايِ وحُبى قـد رضيتهما ... كفا أفعـاله الغــر الميـــامين
وعند عَبْدِك إخلاصٌ يواصـــله ... فى خِدمة لم يـــزل للخير تُدنين
وسوف أنصح كل النصح مغْتنما ... رضى إمــام له فضـــل يُـرَجِّين
جوزيتَ عنى أمـير المسلمين بما ... ترضـاه للمُلْك من نصرٍ وتَمْكين
وأنت أكرمُ من ساس الأنســـام ... ومن عم البلاد بتسْكين وتَهْـدين
ومن كمِثْل أبى عبد الآله إذا أضحى ... الفَخــار لنــا رحْبُ الميــــادين
محمد بن أبى الحجّاج خيرةُ من ... أهْدِى إليه مدحا بالسَّعد يحْظين
وجهٌ جميل وأفعـــال تنــاسبهُ ... ودولةٌ دولـــةُ المــأْمون تُنْسين
لازال فى السَّعد والإسعاد ما سَجَعَتْ ورْق الحمام على قضْب البساتين][1]

---

(١) هذا الشعر وارد فى الإسكوريال . وساقط كله فى الزيتونة .

٢١١

محمد بن عبد الرحمن الكاتب

يكنى أبا عبد الله من أهل غرناطة . أصله من وادى آش

حـــاله

كان طالبا نبيها [كاتبا] [١] جليلا ، جيِّد الكتابة . كَتَب عن بعض أبناءِ الخليفة أبى يعقوب ، واختصَّ بالسيد أبى زيد بغرناطة ، وبشرق الأَندلس ، وكان أثيراً عنده مكرَّماً . وكان رحمه الله شاعرا ، مطبوعا ، ذا معرفة جيدة بالعَدَد والمساحة ، ثم نَزَع عن الكتابة ، واشتغل بالعمل ، فراش فيه ، ووُلِّى إشراف بُنيات غرناطة . ثم وُلى إشراف غرناطة ، فكفَّ يده ، وظهرت نصيحته . ثم نُقل إلى حضرة مرّاكُش ، فوُلى إشرافها مدة ، ثم صُرف عنها إلى غرناطة ، وقُدِّم على النظر فى المُسْتَخلص إلى أن توفى .

منـــــاقبه

أَشْهَد لما قربْت وفاتُه . أنه كان قد أَخرج فى صحَّته وجوازه ، أَربعة آلاف دُنير من صميم ماله لتتميم القنطرة التى بنيت على وادى شنجيل [٢] بخارج غرناطة [٣] . وكان قبل ذلك قد بنى مسجد دار القضاءِ من ماله ، وتـأنّق فى بنائه ، وأَصلح مساجد عدة ، وفعل خيرا . نفعه الله .

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هو نهر شنيل الذى يخترق غرناطة من شرقها (enil ـ او Genil) . ويسمى أيضا فى الجغرافية الأندلسية بنهر سنجيل أو شنجيل من اسمه اللاتينى .

(٣) وردت بعد هذه الكلمة فى الزيتونة عبارة (وشرق الاندلس) فرأيت إهمالها لأنها ليست مستقيمة مع السياق . ووجودها هنا حشو لا محل له .

شعره

من شعره ما كتب به إلى الشيخ أبي يحيى بن أبي عمران وزير الخلافة ، وهو بحال شكاية أصابته :

شكوتُ فأضنى المجدَ بَرْحُ شِكاتهِ ... وفارق وجه الشمس حسنُ آياته
وعادت بِعُديك الزَّمان زمانةً ... تعدَّت إلى عوّاد وأُساته
وغِيض ما للبَشَر لما تبسَّطت ... يدٌ للسُّقْم فى ساحات كافى كفاته
فكيف بمقصُوصٍ وصلتَ جَناحه ... وأدْهَم قد سَرْبَلْتَه بشاته
ومُمْتَحن لولاك أذعن خبرةً ... وهان على الأيام غَمْزُ قنَاته
أَمَعْلَق آمالى ومطْمح همَّتى ... وواهبُ نفسى فى عِداد مباته
سأَستقبل النُّعمى ببرِّك غضَّة ... ويصْغُر ذنبُ الدهر فى حَسَناته
وتسطو عينُ الحق منك بمُرْهَفٍ ... تُراع الخطوب الجُور من فَتكاته
وتطْلَع فى أفق الخلافة نيرًّا ... تُطالعنا الأقمار من قَسَماته
حرامٌ على الشكوى اعتياد مطهر ... حياة الدُّنا والدين طيَّ حياته
فما عَرَضَتْ فى قصده بمَساءة ... ولكن ترجّت أن تُرى فى عفاته] (١)

مشيخته

قال الغافقى ، قرأ بمالقة على الأستاذ أبي زيد السُّهيلى رحمه الله .

وتوفى بغرناطة سنة سبع وستماية ودفن بداره بجهة قنطرة القاضى منها على ضفة الوادى .

(١) هذا الشعر وارد فى الإسكوريال ، وسقط كله فى الزيتونة .

محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن الحسن بن عثمان ابن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر

أوليَّتــه

قد وقع التَّنبيه عليها ويقع بحول الله .

حـــاله

كان وزيرا جليلا بعيدَ الصيت عالى الذكر رفيع الهمَّة ، كثير الأمل(١) .

نباهته

ذكره ابن صاحب الصلاة فى تاريخه فى الموحدين (٢) ، فنبَّه على مكانة محمد بن عبد الملك منهم فى الرأى والحُظْوة، والأَخذ عنه (٣) فى أمور الأَندلس ، وأثنى عليه . وذكره أبو زيد السُّهيلى فى شرح السِّيرة الكريمة ، حتى انتهى إلى حديث كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الموجه إلى هرقل ، وأن محمد بن عبد الملك عاينه عند أذفونش ، مكَرماً ، مُفْتَخَراً به . والقضية مشهورة . وأما محلُّه من أمداح الشعراء ، فهو الذى مدحه الأَديب أبو عبد الله الرُّصافى بقوله :

أبداً تفيض وخاطــراً متوقِّداً دعها تَبِتْ قَبسَاً على عَلِم الندَّا

وفيه يقول أبو عبد الله بن شرف من قصيدة :

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الأمال) .

(٢) ابن صاحب الصلاة هو عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة الباجى المتوفى حول سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) وكتابه المشار إليه هو كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، ونوجد منه قطعة كبيرة مخطوطة بالمكتبة البودلية بأكسفورد، وقد قام بنشرها الأستاذ عبد الهادى التازى ببيروت سنة ١٩٦٤)

(٣) وردت فى الإسكوريال (معه) والتصويب من الزيتونة .

يارحمة الله للـــرّاجى ونِقْمته　　لـكل باغٍ طِغا عن خيرَةِ الـرُّسُل
لم تُبق منهم كفورا دون مَرْقبــة　　مطالعاً منك حَتْفا غير مُنْفصـل
كما بُزاتُك لم تترك بأَرضهـــم　　وحشًا يَفِرُّ ولا طيرا بلا وَجـــل

وكان كثير الصَّيد ، ومتردِّد الغارات .

مناقبه فى الدين

قالوا لما أنشده أبو عبد الله الرُّصافى فى القصيدة التى مطلعها :

لمحـلك التَّرفيـــع والتَّعظـــيم　　ولوجهك التقّـــديس والتَّكريم

حلف ألاّ يسمعها ، وقال علىَّ جايزتاك ، لكنَّ طباعى لا تحتمل مثل هذا ، فقال الرُّصافى ، ومن مثلُك ، ومن يستحق ذلك فى الوقت غيرك ، فقال له ، دعنى من خِداعك أنا وما أعلمه عن نفسى .

شـــعره

أنشده صاحب « الطالع » [(١)] ، ولا يذكر له غيره :[(٢)]

فلا تُظهرَن ما كان فى الصدر كامناً　　ولا تركَبَنْ بالغيظ فى مَرْكَب وَعْر
ولا تَبْحثن فى عُذْر من جاء تايباً　　فليس كريما من يباحث فى عُذْر

ووُلى من الأعمال للموحدين كثيراً ، كمُخْتَص حضرة مراكش ، ودار السلاح ، وسَلا ، وإشبيلية ، وغرناطة ، واتصلت ولايته على أعمال غرناطة ، وكان من شيوخها وأعيانها .

محنتـــه

وعُمل فيه عقد بأن بداره من أصناف الحلى ، مالا يكون إلا عند الملـوك ،

---

(١) هو كتاب « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » لأبى الحسن على بن سعيد ، وقد سبقت الإشارة إليه غير مرة .

(٢) وردت فى الإسكوريال (قوله) ، وهو تحريف . والتصويب من الزيتونة .

وأنه إذا ركب فى صلاة الصبح ، من دار الرُّخام التى يجرى الماءُ فيها ، فى إثنى عشر مكانا ، شوَّش الناس فى الصلاة ، دوِىُّ الجلاجل بالبُزاة ، ومناداة الصيادين ، ونباح الكلاب ، فأمر المنصور بالقبض عليه ، وعلى ابن عمه صاحب أعمال إفريقية أبى الحسين ،فى سنة ثلاث وسبعين وخمسماية . ثم رضى عنهما ، وأمر محمد بن عبد الملك أن يكتب بخطه كلَّ ما أُخِذ له ، فصرفه عليه، ولم ينقصه منه شيء ، وغرم ما فات له .

ولد سنة أربع عشر وخمسماية ، وتوفى بغرناطة سنة تسع وثمانين وخمسماية .

محمد بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن الحسن ابن عثمان بن محمد بن عبد الله بن عمار بن ياسر العَنْسى

يكنى أبا بكر ، وقد تقدَّم التَّعريف بأوليته .

حـــاله

قال فى « الطالع » ساد فى دولة الملثَّمين(١) ، وولُّوه بغرناطة الأعمال ، وكانت له دار الرُّخام المشهورة بإزاء الجامع الأعظم بغرناطة . قال الغافقى فيه : شيخ جليلٌ ، فقيهٌ نَبيه من أهل قلعة يَحْصُب(٢). كان فى عداد الفقهاء ، ثم نزع إلى العمل ، ووُلِّىَ إشراف غرناطة فى إمارة أبى سعيد الميمون بن بدر اللمتونى . وقال صاحب « المُسْهِب » وحسب القلعة كَوْن هذا الفاضل الكامل منها ،وقد رقم بُرد مَجْده بالأدب ،ونال منه بالاجتهاد

---

(١) الملثمون أو أهل اللثام هم المرابطون .

(٢) قلعة يحصب أو قلعة بنى سعيد ، تقع شمالى غرناطة ، وهى بلدة Alcala la Real الحديثة وقد سبق التعريف بها (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ١١١ حاشية) .

والسجيَّة القابلة ، أعلى سبب ، وله من المكارم ما يُغيِّر فى وجه كعب وحاتم ، لذلك ما قصدته الأدباء ، وتهافتتْ فى مدحه الشعراء ، وفيه أقول :

وكان أبو بكر من الكُفْر عصمةً ورَدَّ به الله الغُواة إلى الحق
وقام بأمر الله حافظٌ أهلَه بلين وسَبْط فى المسبَّرة والخُلق
وهذا أبو بكر سليل ابن ياسر بغرناطة ناغاه فى الرَّأى والصِّدق
فهذا لنا بالغَرْب يَجنى معالما تُباهى الذى أحيا الدِّيانة بالشَّرق

وقد جرى من ذكره عند ذكر أبى بكر بن قُزْمان ، ويجرى عند ذكر نَزْهون بنت القِلاعى ما فيه كفاية ، إذ كان مَفْتُوناً بها ، وبِحَمدَة وزَيْنب بِنْتَى زِياد المؤدِّب من أهل وادى آش ، وفيهما يقول :

ما بين زينب عمرى أحثُّ كأسى وحَمْده
وكل نظم ونثر وحكمة مُسْتَجدَّه
وليس إلاّ عفافٌ يُبَلِّغ المرءَ قَصْده

ولذلك ما سعى به المخزومى الأعمى ، وقد سَها عن رَسْم تفقُّده ، فكَتب إلى علىِّ بن يوسف فى شأنه بما كان سبب عَزْله ونكبته :

إليك أمير المؤمنين نصيحة يجوز بها البحر المُجَعجع شاعر
بغرناطة ولِّيت فى الناس عاملاً ولكن بما تَحْويه منه المآزر
وأنت ما تَخفى عليك خَفِيَّةٌ فسل أهلها فالأمر للناس ظاهر
وما لإلآه العرش تفنيه حَمْدةُ وزينبُ والكأس الذى هو داير

شعره : من ذلك قوله :

يا هذه لا تَرومى خداع من ضاق ذَرْعه
تبكى وقد قَتَلْتِينى كالسَّيف يقطر دمْعه

وقال عفى الله عنه :

لقد صَدَعتْ قلبي حمامةُ أيْكَة　　أثارت غراماً ما أجــلَّ وأكْرما
ورقَّ نسيم الرِّيح من نحو أرضِكم　　ولطُفَ حتى كاد أن يتكلَّمــا

وقال فى مذهب الفخر :

فَخَرْنا بالحديث بعد القديم　　من معالٍ توارَثت كالنجوم
نحن فى الحرب أجْبُلٌ راسيات　　ولنا فى النَّدى لُطْف النَّسيم

ولد فى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وتوفى سنة تسع وثلاثين وخمسماية .

ومن الطارئين فى هذا الاسم من العمال

محمد بن أحمد بن المتأهِّل العبدرى

من أهل وادى آش ، يكنى أبا عبد الله .

حـــاله

كان رجلا شديد الأدْمَة ، أعْين ، كثُّ اللحية ، طِرْفاً فى الأمانة ، شديد الاستِرابة بجليسه ، مُخِيناً لرفيقه ، سيِّء الظن بصديقه ، قليل المداخلة ، كثير الانْقِباض ، مُختصر الملبس والمطعم ، عظيم المحافظة على النَّفير والقِطْمِير ، مُستوعب للحَصْر والتَّقييد ، أسير محي وعابد زِمام ، وجَنِيب أمانة ، وحِلْس سقيفة ، ورَقيب مُشرف ، لا يقبل هوادة ، ولا يُلابس رِشوة ، كثير الالتفات ، متفقِّداً للآلة ، متمماً للعمل .

جرى ذكره فى بعض الموضوعات الأدبية بسبب شِعْرٍ خامل نسب إليه بما نصه : رجل غليظ الحاشية ، معدودٌ فى جنس السَّائمة والماشية ، تُلِيت على العمال به سُورة الغاشية ، ولِى الأشغال السلطانية ، فذعَرت الجُباة

لولايته ، وأيقنوا بقيام قيامتهم لطلوع آيته ، وقَنِطوا كل القُنوط ، وقالوا جاءت الدَّابة تُكلمنا ، وهى إحدى الشروط ، من رجل صايم الحُسْوَة، بعيد عن المُصانعة والرِّشوة ، يتجنب الناس ، ويقول عند المخالطة لهم لا مَساس ، عهدى به فى الأَعمال يَخْبِط ويَتْبَر ، وهو يهلِّل ويكبِّر ، ويحسِّن ويقبِّح ، وهو يسبح ، انتهى . قلت ، ووُلِّى الأَشغال السلطانية ، فضم النَّشر ، وأَوْصَد باب الحيلة ، وبثَّ أَسباب الضَّياع ، وتُرُصِّد ليلا وأُصيب بجراحة أَخطأَته ، ثم عاجَلَته الوفاة ، فنُفِّس عن أَقْتاله المُخَنَّق .

شِعره : قال يخاطب بعض أُثَرَاءِ الدَّولة قبل نباهته :

عمادى ملاذى مُوَيلى ومُؤَمَّلى ... ألا انعم بما ترضاه للمتأَهِّل

وحقِّق بنَيْل القصد منك رجاءه ... على نحو ما يُرضيك يا ذا التَّفَضُّل

فأَنت الذى فى العِلم يُعْرف قدرُه ... بخير زمان منه لازلت فيه تَعْتلى

فهُنِّيت يا مَغْنى الكمال برتبة ... تقِرُّ لكم بالسَّبق فى كل مَحْفل

توفى عام ثلاثة وأربعين بغرناطة أو قبل ذلك بيسير ، وله خط حسن ، وممارسة فى الطلب ، وقد توسط المعترك .

محمد بن محمد بن محمد بن عبد الواحد البَلوى

من أهل ألمريَّة ، يكنى أبا بكر .

أَوليته

من كتاب « المؤتمن »[1] قال ، يُشْهر بنَسَبه وأصل سَلَفه من جهة بِيرة[2]

(١) سبق التعريف به (أنظر ص ١٩٥ من هذا المجلد) .

(٢) بيرة بلدة أندلسية تقع جنوب المنصورة الواقعة على نهر المنصورة ، شمال شرق ألمرية وبالإسبانية Vera

إما من بجّانة(١) ، وإما من البريج(٢) ، واستوعب سبب انتقالهم .

حـــاله

من « عايد الصلة » ، كان أحد الشيوخ من طبقته ، وصدر الوزراء من نمطه ببلده ، سراوَةً وسماحةً ، ومبرّةً(٣) وأدباً ولوذعيّةً ودُعابة ، رافع راية الانْطِباع ، وحايز قَصب(٤) السبق فى ميدان التّخلُّق ، مبذول البِر ، شايع المشاركة .

وقال فى « المؤتمن » ، كان رجلا عاقلا ، عارفا بأقوال الناس ، حافظا لمراتبهم ، مُنْزِلاً لهم منازِلَهم ، ساعياً فى حوايجهم ، لا يَصْدرون عنه إلا عن رضىً بجميل مُداراته . التفت إلى نفسه ، فلم يَنْس نصيبه من الذُّل ، ولا أغفَل من كان يالفُه فى المنزل الخَشِن ، واصلا لرَحْمِه ، حاملا لوَطْأة من يَجْفُوه منهم ، فى ماله حظٌّ للمساكين ، وفى جاهِهِ رِفْدٌ للمضطّرين ، شيخا ذكيٌّ المُجالسة ، تَسْتَطيب معاملته ، على يقين أنه يَخْفى خلاف ما يُظهر ، من الرجال الذين يصلحون الدُّنيا ، ولا يَعْلُق بهم أهل الآخرة ، لعَرْوه عن النَّخوة والبَطَر ، رحمه الله . تكرَّرت له الولاية بالديوان غير ما مرَّة ، وورد على غرناطة ، وافداً ومادحاً ومُعَزِّياً .

مشيخته [وما صدر منه](٥)

قرأ على ابن عبد النُّور ، وتأدَّب به ، وتلا على القاضى أبى على بن أبى الأحْوَص أيام قضايه ببَسْطة ، ونظم رَجَزاً فى الفرايض.

---

(١) بجانه وبالإسبانية Pechina ، تقع غربى نهر أندرش وشمال غربى ثغر المرية . وقد سبق التعريف بها (المجلد الثانى من الإحاطة ص ١٦٢ حاشية) .

(٢) بلدة من بلاد مقاطعة المرية تقع على مقربة من بجانه .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مبارة) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (قصبة) .

(٥) الزيادة من الزيتونة .

شــعره

قال الشيخ[1] فى « المؤتمن » ، كانت له مشاركة فى نظم الشعر الوَسَط ، وكان شِعْرُ تلك الحَلْبة الآخذة عن ابن عبد النور ، كأنه مصوغٌ من شعر شيخهم المذكور ، ومحذُوٌّ عليه ، فى ضعف المعانى ، ومِهنة الألفاظ . تنظُر إلى شعره ، وشعر عبد الله بن الصَّايغ ، وشعر ابن شُعبة ، وابن رُشَيد ، وابن عُبَيد ، فتقول ذرِّية بعضُها من بعض .

فمن ذلك ما نظمه فى ليلة سماع واجتماع بسبب قدوم أخيه أبى الحسن من الحجاز :

إلهى أجرنى إننى لك تايب ... وإنى من ذَنْبِى إليك لهارب
عَصَيتك جَهْلا ثم جئتُك نادما ... مقرّاً وقد سُدَّت علىَّ المذاهب
مضى زمن بى فى البطالة لاهيا ... شبابىَ قد ولىّ وعُمرىَ ذاهب
فخُذْ بيدى واقبل بفضلك تَوْبتى ... وحقِّق رجائى فى الذى أنا راغب
أخاف على نفسى ذنوباً جَنيتُها ... وحاشاك أن أشقى وأنت المُحاسِب
وإنى لأَخْشَى فى القيامة موقفاً ... ويوماً عظيماً أنت فيه المُطالِب
وقد وُضع الميزان بالقِسْط حاكما ... وجاء شهيدٌ عند ذاك وكاتِب
وطاشَتْ عقول الخَلق واشتدَّ خوفهم ... وفرَّ عن الإنسان خلٌّ وصاحب
فما ثَمَّ من يُرجى سواك تفضُّلا ... وإن الذى يرجُو سواك لخايب
ومن ذا الذى يُعطى إذا أنت لم تَجُدْ ... ومن هو ذو مَنْعٍ إذا أنت واهب
عُبَيْدُك يا مولاى يدعوك رغبة ... وما زلتَ غفَّاراً لمنْ هُو تايب

---

(١) يقصد بها هنا أبو البركات بن الحاج شيخ ابن الخطيب .

دعوتُك مضطّراً وعفوُك واسع   فأَنت المجازى لى وأنت المعاقبِ
فهَبْ لى من رحْماك ما قدرجوته   وبالجُود يا مولاى تُرجى المواهب
توسَّلت بالمختار من آل هاشم   ومن نَحْوه قصداً تُحثُّ الرَّكايب
شفيعُ الوَرى يوم القيامة جاههُ   ومنقذُ من فى النار والحقُّ واجب

ومما بلغ فيه أقْصى مَبالغ الإجادة ، قوله من قصيدة هنَّا فيها سلطاننا أَبا الحجاج بن نصر ، لما وفد هو وجملة أَعيان البلاد أولها :

يُهْنى الخلافة فتّحت لك بابها   فادخل على اسم الله يُمْنا غابها

منها وهو بديع ، استُظرف يومئذ :

يا يوسفياًّ باسمه وبوجهه اصعد لِمنْبَرها وصُن مِحرابها
فى الأَرض مكَّنك الإِلّه كيوسف   ولتمْلُكَنَّ بربِّها أَربابها
بلغَتْ بكم آرابها من بعد ما   قالت لذلك نسوةٌ ما رابها
كانت تُراود كُفوها حتى إذا   ظَفِرت بيوسف غلَّقت أبوابها

[قلت ، ما ذكره المؤلف ابن الخطيب رحمه الله ، فى هذا المُترجم به ، من أنه ينظم الشعر الوَسَط ، ظهر خلافه : إذا أُثبت له هذه المقطوعة الأَخيرة . ولقد أَبدع فيها وأَتى بأَقصى مبالغ الإجادة كما قال ، وحاز بها نمطاً أَعلى مما وصفه به . وأَما القصيدة الأُولى فلا خفاء أَنها سهلة المأْخَذ ، قريبة المنْزع ، بعيدة من الجزالة . ولعل ذلك كان مقصوداً من ناظمها رحمه الله] [١] .

توفى ببلده عن سن عالية فى شهر ربيع الآخر عام ثمانية وثلاثين وسبعماية .

---

(١) وردت هذه الفقرة بين الحاصرتين فى مخطوط الإسكوريال فقط . ومن الواضح أنها من تعليق الناسخ .

ورثاه شيخنا أبو بكر بن شِبْرين رحمه الله بقوله :

يا عين سِحِّى بدمع واكِفٍ سَرِب لحامل الفضل والأَخلاق والأَدب
بكيتُ إذ ذُكِر الموتى على رجل إلى بلى من الأَحياء مُنْتَسب
على الفقيه أبى بكر تضمَّنه رَمْسٌ وأَعمل سيرا ثم لم يؤُب
قد كان بى منه وُدٌّ طاب مشرعُه ما كان عن رغَبٍ كلاَّ ولا رَهَب
لكن ولا على الرحمن مُحتسبا فى طاعة الله لم يمذُق ولم يشب
فاليوم أصبح فى الأَجداث مُرتهنا ما ضرَّت الريح أُمْلُودا من الغضب
إنا إلى الله من فَقْد الأَحبَّة ما أَشدَّ لذعا لقلب الثَّاكل الوَصِب
من للفضائل يُسديها ويُلحمها من للعُلى بين مَوْروث ومُكْتسب
قُلْ فيه أَمَا تَصِفُ رُكْناً لمُنْتبذ رَوْضٍ لمُنْتَجع أُنْسٍ لمُغْتَرب
باقٍ على العهد لا تَثْنيه ثانية عن المكارم فى وِرْد ولا قُرْب
سهل الخليقة بادى البِشر مُنبَسط يَلْقى الغريب بوجه الوالد الحَدِب
كم غيَّر الدهر من حال فَقَلَّبها وحال إخْلاصُه ممتدَّة الطُّنُب
سامى المكانة معروف تقدُّمه وقَدْره فى ذوى الأَقدار والرُّتب
أَكْرِم به من سجايا كان يحملها وكلها حَسَن تُنبيك عن حَسَب
ما كان إلا من الناس الأُلى دَرَجوا عقلا وحلما وجوداً هامى السُّحب
أمسى ضجيعَ الثَّرى فى جَنب بلقَعَةٍ لكن محامدَه تبقى على الحُقُب
ليست صَبابة نفسى بعده عجباً وإنما صبرها من أعجب العُجب
أجاب دمعى إذ نادى النعىُّ به لو غَيْرَ مَنْعاه نادى الدمع لم يُجب
ما أَغفل المرءُ عمَّا قد أُريد به فى كل يوم تناديه الرَّدى اقترب
يا ويحُ نفسى الأَنفاس مَضَت هدراً بين البطالة والتَّسويف واللَّعب
ظننت أَنى بالأَيـام ذو هـزءٍ غلطت بل كانت الأَيام تهزأُ بى

أشكو إلى الله فقرى من معاملة ... لله أنجو بها فى مَوْقِف العَطَب
ما المال إلا من الله قوًى فأَفْلَح ... من جاءَ القيامة ذا مالٍ وذا نَشبِ
أَبا بكر الأَرْضَى نداءَ أَخٍ باكٍ ... عليك مدى الأَيـام مُكْتَئبِ
أَهلاً بقَدْمتك الميمونُ ظاهرها ... على محل الرِّضى والسَّهل والرَّحب
نـم فى الكرامة فالأَسباب وافرة ... وربما نِيلَت الحُسنى بلا سبب
لله لله والآجـال قاطعـةٌ ما ... بيننا من خطابات ومن خُطَب
ومن فرايـد آداب يُحَـبِّرها ... فيودع الشُّهب أفلاكاً من الكُتب
أما الحياة فقد مُلِّيتَ مدَّتهـا ... فعوّض الله منها خير مُنْقَلب
لولا قواطعُ لى أشراكها نُصبت ... لزُرْت قبرك لا أشكو من النَّصب
وقلّ ما شُفيت نفسٌ بزَوْرة ... من حِلِّ البَقيع ولكن جُهْد ذى أَرب
يا نُخْبةٌ ضمها تُرْبٌ ولا عجب ... إن التراب قديما مدفن النُّخُب
كيف السبيل إلى اللُّقيا وقد ضربوا ... بينى وبينك ما بقى من الحجب
عليك منى سلام الله يتبعُـه ... حسنُ الثّنا وما حيِّيت من كثب

محمد بن محمد بن شُعْبة الغسّانى

من أهل أَلمريّة ، يكنى أبا عبد الله .

حـاله

قال شيخنا أبو البركات فى الكتاب « المؤتمن » ، من أهل أَلمريَّة ووجوهها لا حظَّ له فى الأَدب ، وبضاعتُه فى الطلب مُزَجاة . قطع عمره فى الأَشغال المخْزنيَّة ، وهو على ذلك حتى الآن . قلت هذا الرجل أحد فرسان الطريقة العَمَليَّة ، ماضٍ على لين ، متحرك فى سكون ، كاسدٌ سوقَ المروءة ، ضانٌ بما يملك من جدَة ، مُنْحَطٌّ فى هوَّة اللّذة ، غير مُعْرج على رَبْع الهمَّة ، لطيفُ

التَّأَنِّى ، مُتَنزِّل فى المعاملة ، دَمِث الأخلاق ، مليحُ العمل ، صحيح الحِساب ، مُنجب الولد .

مشيخته : قرأ على ابن عبد النُّور ،والقدرُ الذى يُحِس به عنه أخذه .

شعره : من شعره يخاطب أبا الحسن بن كُماشة :

وافى البَشِير فوافى الأُنس والجَذَل … وأَقبل السَّعدُ والتوفيق والأَمل
وراقَت الأَرض حُسْناً زاهراً وسَنىً … واخضرَّت منها الرُّبى والسَّهل والجبل
ولاح وجهٌ على بعد ذا فَغَدا … له شعاعٌ كضوءِ الشَّمس مُتَّصل
مذ غاب أَظلمت الدنيا لنا وغَدَت … أَحشاؤُنا بلهيب الشَّوق تشتعل
وحين أَشرقت الدُّنيا بغرّته … عاد الظَّلام ضياءً وانتفى الخَبَلُ
إيهٍ أَبا حَسَن أَنت الرجاءُ لنا … مهْمَى اعترَت شدَّةٌ أَو ضاقت الحيل
وأَنت كهفٌ منيعٌ مَنْ نَحاك فقد … نال المُنَى وبدا عيشٌ له خَضِل
يا سيداً قد غدا فى المجد ذا رُتب … مشَيَّدة قد بنَتْها السَّادة الأُول
بنو كُماشَة أَهل الفضل قد شُهروا … باهَتْ بهم فى قديم الأَعصُر الدُّول
السَّالكون هدىً السابقون مدىً … والباذلون ندىً والناس قد بُخِلُ
أَنت الأَخيرُ زماناً والقديم عُلاً … والسَّيد المرْتَجى والفارسُ البطل
إن كُنْتَ جئت أَخيرا فلقد … أَضحى بجودِ يديك يُضْرب المثل
حُزْت المآثر لا تُحصى لكثرتها … من رام إحصاءها سُدَّت له السُّبل
جُزْت البُدور سنىً والفرْقَدين عُلاً … وأَنت تجرُّ النَّدى والوابل الهطِل
من جاءَ يطلب منك السَّلم قابلَه … وجهٌ طليق ولفظٌ كله عسـل
ومن يرُد غير ذا تبًّا له وردىً … لقد ترفَّع فى بُرج له زُحـل
هنَاك ربُّك ما أَولاك من نعم … وعِشْتَ فى عزَّة تَتْرى وتتَّصـل
ولا عَدِمت مدى الأَيـام مَنْزلةً … من دُونها رفعةٌ فى الأَبْرُج الحمل

وخُذْه بعدُ سلاما عاطراً أرِجاً   يدوم ما دامت الأسحار والأُصل
من خادمٍ لِعُلاكم مخلصٍ لكم   من حُبِّكم لا يُرى ما عاش يَنْتقل
تقبيلُ كفِّك أعْلى ما يؤمله   فجُدْ به فشِفا الحايم القُبَل

وفاته ، فى أول عام أربعة وستين وسبعماية .

محمد بن محمد بن العراقي

وادى آشي ، يكنى أبا عبد الله .

حـــاله

فاضل الأُبوة ، معروف الصَّون والعفَّة ، بادى الاستِقامة ، دَمِث الأخلاق ، حسن الأَدوات ، ينظِم وينثرُ ، ويجيد الخَطَّ ، تولى أعمالا نَبيهة ، ثم عَلِقت به الحرفة ، فلقى ضغطاً ، وفقد نَشَبًا ، واضطر إلى التحول عن وطَنه إلى برِّ العُدْوة عام ستة وخمسين وسبع ماية ، وتُعرِّف لهذا العهد أنه تولى الأَشغال بقُسَنْطينة الهواء[1] من عمل إفريقية .

شـــعره

كتب إلىَّ وقد أبى عملا عُرِض عليه :

أأصمتُ ألفاً ثم أنطق بالخُلْف   وأفْقِد ألفاً ثم آنس بالجِلف
وأُمْسك دهرى ثم أنطق عَلْقماً   ويمحق بَدْرى ثم أُلحق بالخسف
وعزُّكم لا كنتُ بالذُّل عاملاً   ولو أن ضَعْفى يَنْتَمى إلى حَتْف
فإن تُعملونى فى تصرُّف عزَّةٍ وعـــدل وإلاَّ فاحسموا علَّة الصَّرف
بقيت وسُحْب العَطْف منكم   تُظلُّنى وعطفُ ثَنائى دائماً ثانى العطف

(١) هكذا كانت تسمى مدينة قسنطينة (معجم البلدان - مصر ج ٧ ص ٨٩) . وهى اليوم من مدن الجزائر الزاهرة .

محمد بن عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن فُرتون الأنصارى

من أهل مالقَة ، يكنى أبا القاسم ويعرف بالهنا

أوَّليتّــه

يُنسب إلى القاضى ببَطَلْيَوْس ، قاضى القضاة رحمه الله . وبمالقة دورٌ تنسب إلى سَلَفِه تدل على نباهة ، وقد قيل غير ذلك . والنَّص الجَلى أولى من القِياس .

حـــاله

من « عايد الصلة » : الشيخ الحاج المحدِّث صاحب الأَشغال بالدار السلطانية . صَدْرُ نَمَطه، وفريدُ فنِّه ، رجولةً وجزالةً واضطلاعا وإدراكا وتجلُّدا وصبراً . نشأ بمالقة ، معدوداً فى أهل الطَّلب والخصُوصيَّة ، ورَحل إلى الحجاز الشَّريف فى فِتايه[1] ، فاستكثر من الرِّواية ، وأَخذ عن أكابرِ من أَهل المشرق والمغرب ،حسبما يشهد بذلك برنامجه .

وكان على سُنن من السَّرْوِ[2] والحشمة ، فذًّا فى الكِفاية ، جريًّا مِقداما مَهيبا ، ظريف الشَّارة ، فارِه المَرْكب ، مليح الشَّيبة ، حسن الحديث ، وقَّاد الذهن ، صابراً على الوظايف ، يَخْلط الخوض فى الأُمور الدُّنيوية ، بعبادةٍ باهظة ، وأَوْراد ثقيلة ، ويجمع ضِحك الفاتِك ، وبُكاء النَّاسِك ، فى حالة واحدة ، هشًّا ، مفرط الحِدّة ، يَشْرُد عليه مَجْلُ[3] لسانه فى

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (سرايه) والمعنى واحد .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الصبر) والاولى أرجح وأنسب للسياق .
(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (مجد) والأولى أرجح .

وخُذْه بعدُ سلاما عاطراً أرِجاً   يدوم ما دامت الأسحار والأُصل
من خادمٍ لِعُلاكم مخلصٍ لكم   من حُبِّكم لا يُرى ما عاش يَنْتقل
تقبيلُ كفِّك أعْلى ما يؤمله   فجُدْ به فشِفا الحـايم القُبَل

وفاته ، فى أول عام أربعة وستين وسبعماية .

محمد بن محمد بن العراقي

وادى آشى ، يكنى أبا عبد الله .

حـــالـه

فاضل الأُبوة ، معروف الصَّون والعفَّة ، بادى الاستِقامة ، دَمِث الأخلاق ، حسن الأَدوات ، ينظِم وينثرُ ، ويجيد الخَطَّ ، تولى أعمالا نَبيهة ، ثم عَلِقت به الحرفة ، فلقى ضغطاً ، وفقد نَشَبًا ، واضطر إلى التحول عن وطَنه إلى برِّ العُدْوة عام ستة وخمسين وسبع ماية ، وتُعرِّف لهذا العهد أنه تولى الأَشغال بقُسَنْطينة الهواء[1] من عمل إفريقية .

شـــعره

كتب إلىَّ وقد أبى عملا عُرِض عليه :

أأصمتُ ألفاً ثم أنطق بالخُلْف   وأَفْقِد ألفاً ثم آنَس بالجِلف
وأُمْسك دهرى ثم أنطق عَلْقماً   ويمحق بَدْرى ثم أُلحق بالخسف
وعزُّكم لا كنتُ بالذُّل عاملاً   ولو أن ضَعْفى يَنْتَمى إلى حَتْف
فإن تُعملونى فى تصرُّف عزَّةٍ وعـــــدل وإلاَّ فاحسموا علَّة الصَّـرف
بقيت وسُحْب العَطْف منكم   تُظِلُّنى وعطفُ ثناتى دائماً ثانى العطف

(١) هكذا كانت تسمى مدينة قسنطينة (معجم البلدان - مصر ج ٧ ص ٨٩) . وهى اليوم من مدن الجزائر الزاهرة .

محمد بن عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن فُرتون الأنصارى

من أهل مالقَة ، يكنى أبا القاسم ويعرف بالمنا

أوَّليَّتـه

يُنسب إلى القاضى ببَطَلْيَوْس : قاضى القضاة رحمه الله . وبمالقة دورٌ تنسب إلى سَلَفِه تدل على نباهة ، وقد قيل غير ذلك . والنَّص الجَلى أولى من القِياس .

حـــاله

من « عايد الصلة » : الشيخ الحاج المحدِّث صاحب الأَشغال بالدار السلطانية . صَدْرُ نَمَطه، وفريدُ فنِّه ، رجولةً وجزالةً واضطلاعا وإدراكا وتجلُّدا وصبراً . نشأ بمالقة ، معدوداً فى أهل الطَّلب والخصُوصيَّة ، ورَحل إلى الحجاز الشَّريف فى فِتايه[1] ، فاستكثر من الرِّواية ، وأخذ عن أكابرِ من أهل المشرق والمغرب ،حسبما يشهد بذلك برنامجه .

وكان على سُنن من السَّرْوِ[2] والحشمة ، فذًّا فى الكِفاية ، جريًّا مِقداما مَهيبا ، ظريف الشَّارة ، فارِه المَرْكب ، مليح الشَّيبة ، حسن الحديث ، وقَّاد الذهن ، صابراً على الوظايف ، يَخْلط الخوض فى الأُمور الدُّنيوية ، بعبادةٍ باهظة ، وأَوْراد ثقيلة ، ويجمع ضِحك الفاتِك ، وبُكاء النَّاسِك ، فى حالة واحدة ، هشًّا ، مفرط الحِدّة ، يَشْرُد عليه مَجْلُ[3] لسانه فى

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونه (سرايه) والمعنى واحد .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونه (الصبر) والاول أرجح وأنسب للسياق .
(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (مجد) والأولى أرجح .

المجالس السلطانية بما تعروه المندمة بسببه . قايما على حفظ القرآن وتَجْويده وتلاوته . ذا خصال حميدة . صنَّاع اليد ، مقتدرا على العمليات من نسخ ومقابلة وحساب . معدودا من صُدُور الوقت وأعلام القُطر ، ورجال الكمال .

مشيخته

أخذ عن الجلَّة من أهل بلده كالأُستاذ أبي محمد بن أبي السَّداد الباهلي ، لازمه وانتفع به ، والخطيب أبي عثمان بن عيسى أخذ عنه[1] ، والولى أبي عبد الله الطَّنجالى ، وغيرهم مما يطول ذكرهم من العُدْوة والأَندلس والمشارقة .

محنتــه

لقى نَصَباً فى الخدمة السلطانية ، وغَضًّا من الدهر لبَأْوه ، بتَعَنُّته وعدم مبالاته مرات ، ضُيِّق لها سِجْنه ، وعُرِض عليه النِّكال ، ونِيل منه بالإهانة كلَّ مَنال ، وأُغرم مالا أَجْحف بمُحْتَجَنِه ، وعُرِّض للأَيدى نفايس كُتبه ، وعلى ذلك فلم يَذْعر سربهُ ، ولا أَضْعَفَتْ النكبة جاشَه .

ولد عام ثلاثة وسبعين وستماية . ومات ميْتة حسنة . صلى الجمعة ظهرا ، وقد لزِم الفراش . ونَفَث دَمَ الطاعون . ومات مُستقبل القِبلة ، على أتم وجوه التأهب ، سابع شوال من عام خمسين وسبعماية .

محمد بن عبد الله بن محمد بن مقاتل

من أهل مالقة . يكنى أبا القاسم . أزدى النسب . إشبيلى الأَصل . من بيت نزاهة ونباهة .

(١) ورد بعد هذا الاسم فى مخطوط الربوة ما يلى (ومن أهل المشرق جار الله نور الدين ، وأبو محمد عبد الله بن عبد المؤمن القرشى الدلاصى ، قرأ عليه القرآن بالحرم الشريف) .

حـــاله

كان فاضلا وقوراً سَمْحاً ، مليح الدُّعابة ، عذبُ الفكاهة ، حُلو النادرة ، يكتُبُ ويُشْعر ، طِرْفاً فى الانطباع واللَّوذعيَّة ، آيةٌ فى خلط الجدِّ بالهزْل . وُلِّى الإشراف بمدينة مالَقة ، وتقلَّب فى الشهادة المَخْزنية عُمْره .

شـــعره

من شعره يخاطب ذا الوزارتين أبا عبد الله بن الحكيم رحمه الله :

فؤادى من خَطْب الزمان سَقيم　　وفيه لسَهْم الحادثات كلُوم
ولم أَشْكُ دائِي فى البريَّة لامرئٍ　　أأشكو به وابنُ الحكيم حكيمُ

توفى بمالقة يوم الخميس عاشر شهر رمضان من عام تسعة وثلاثين وسبعماية .

محمد بن على بن عبد ربه التجيبى

من أهل مالقة ، يكنى أبا عمرو

حـــاله

كان راويةً ثقةً ، بارع الأَدب ، بليغ الكتابة ، طيِّب النفس ، كامل المروءة ، حَسِن الخلق ، جميل العشرة ، تلبَّس بالأَعمال السلطانية دهرا ، ووُلِّى إشراف غرناطة وغيرها ، إلى أن قَعَد لشكاية منعته من القيام والتَّصرُّف فعَكَف على النَّظر ، فانْتفع به .

مشيخته

كانت له رِحْلة سَمِع فيها بالأَسكندرية على أَبي عبد الله بن منصور وغيره ، وروى عنه الأَخوان سالم وعبد الرحمن ابنا صالح بن سالم .

تواليفه

له اختصار حسن فى « أغانى الإصبهانى » ، وردٌّ جيِّد على ابن غَرْسِيَّة فى رسالته الشُّعُوبية [1] لم يَقْصُر فيها عن إجادة .

وتوفى لسبع خلون من محرم من عام اثنين وستماية .

الزُّهاد والصُّلحاء والصُّوفية والفقراء وأولا الأصليون

محمد بن إبراهيم بن محمد بن محمد الأنصارى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عبد الله ويعرف بالصنَّاع .

حـــاله

من « عايد الصلة » : الشيخ الصُّوفى ، الكثير الأَتباع ، الفَذُّ الطريقة المُجَنَّب إلى أَهل الثغور من البادية . كان رحمه الله شيخاً حسن السَّمت ، كثير الذِّكر والمداومة ، يقود من المُخْشَوشِنين عددَ ربيعة ومضر ، يعمل الرِّحلة إلى حُصونهم ، فيتألَّفون عليه ، تألُّف النَّحل على أُمرائها ويعَاسِيبها ، مُعلنين بالذِّكر ، مهرولين ، يغشُون مثواه ، بأَقواتهم على حالها ، ويتناغُون

---

(١) ابن غرسية ، هو أبو عامر بن أحمد ، وهو مولد أندلسى من كتاب شرق الأندلس ، وقد نشأ بدانية فى كنف مجاهد العامرى صاحب مملكة دانية والجزائر (٤٠٠ – ٤٣٦ هـ) ، واشتهر برسالته فى «تفضيل العجم على العرب» التى وجهها إلى ابن الحداد الشاعر ببلاط المعتصم بن صمادح أمير المرية . وهذه الرسالة تفيض تحاملا ضد الجنس العربى ، وتبالغ فى تعداد نقائصه ومثالبه ، وتشيد بالعكس بصفات العجم (أى الروم أو النصارى) . وقد كان لرسالة ابن غرسية وقع عميق فى سائر الأوساط الفكرية والأدبية فى عصره وبعد عصره ، ورد عليه كثيرون من المفكرين والأدباء فى رسائل عنيفة يسفهون فيها آراءه واتهاماته للجنس العربى (راجع كتابى دول الطوائف – الطبعة الثانية ص ٢٠٤ – ٢٠٨ – ونص رسالة ابن غرسية فى نفس الكتاب (ص ٤٥٥ – ٤٥٩) .

فى التماس القرب منه ، ويباشرون العمل فى فِلاحة كانت له بما يعود عليه بوفر وإعانة . وكان من الصالحين ، وعلى سُنن الخِيار الفضلاء من المسلمين ، وله حظٌّ من الطَّلب ومشاركة ، يقوم على ما يحتاج إليه من وظائف دينِه ، ويتكلم فى طريق المتصوِّفة على مذهب أبى عبد الله السَّاحلى شيخه ، كلاما جَهْوريا ، قريب الغَمْر (١) . وكان له طمع فى صناعة الكيمياء تَهافَتَ على دفاتيرها ، وأهل مُنْتَحليها ، ليستعين بها بزعمِه على آماله الخيْرِيَّة ، فلم يَحُلْ بطايل .

مشيخته

قرأ على أستاذ الجماعة أبى جعفر بن الزبير ، وكانت له فى حاله فراسةٌ . حدَّثنى بذلك شيخنا أبوعبد الله بن عبد الولى رحمه الله . وسلك على الشيخ الصالح أبى عبد الله السَّاحلى .

وتوفى ليلة الاثنين السابع من شهر شوال عام تسعة وأربعين وسبعماية، وكانت جنازته آخذة فى الاحتفال ، قَدِم لها العهد ، ونَفَر لها الناس من كل أوب ، وجىء بسريره ، تلوح عليه العناية ، وتحفُّه الأَتباع المقتاتون من حِلِّ أموالهم وأيديهم من شيوخ البادية ، فتولوا مواراته ، تعلو الأَصوات حوله ، ببعض أذكاره .

محمد بن أحمد الأنصارى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بالموَّاق .

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (القصر) .

لازم أبو العباس أبا الحسن الشاذلى][1] . قال : ولقيه بعد هذا الشيخ أَبى عبد الله جماعات فى أقطار شتَّى ، ينتسبون إليه ، ويَجْرون من ملازمته الأَذْكار فى أوقات معينة على طريقته ، وله رسايل منه إليهم طوال وقصار ، يوصيهم فيها بمكارم الأَخلاق ، ومُلازمة الوظايف ، وخرج عنه إليهم على طريقة التَّدْوين ، كتابٌ سمَّاه « بالأَنوار فى المخاطبات والأَسرار » مُضْمَنُه جملةٌ من كلام شيخهم تاج الدين ، وكلام أَبى الحسن الشاذلى ،ومخاطبات خوطب بها فى سرِّه ، وكلام صاحبه أَبى بكر الرُّندى ، وحقايق الطريق ، وبعض كرامات غير مَنْ ذُكر من الأَولياء ، وذكر الموت ، وبعض فضايل القرآن.

مشيخته

قرأَ على الأُستاذ أَبى الحسن البلُّوطى وأَجازه ، وعلى أَبى الحسن بن فَضيلة وأَجازه كذلك ، وعلى أَبى جعفر بن الزبير وأَجازه ، ثم رحل فحجَّ ودخل الشام ، وعاش مدَّة من حِراسة البساتين ، واعتنى بلقاء المعروفين بالزُّهد والعِبادة ، وكان مليًّا بأَخبار من لقى منهم ، فمنهم الشيخ أَبو الفضل تاج الدين بن عطاءِ الله ، وصاحبه أَبو بكر بن محمد الرندى ،

منـــاقبه

قال ، دخلت معه إلى من خفَّ على قلبى الوصُول إلى منزله لمَّا قدم أَلمريَّة ، وهو رجل يعرف بالحاج رحيب ، كان من أَهل العافية ، ورقَّت حاله ، ولم يكن ذلك يظهر عليه ، لمحافظته على سَتْر ذلك لعلوِّ همَّته ، ولم يكن أَيضا أثر ذلك يظهر على منزله ، بل أَثاثُ العافية باقٍ فيه من

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال ، وساقط فى الزيتونة .

فَرْشٍ وماعون . فساعة وصول هذا الشيخ ، قال الله يجْبُر حالك ، فحسبتُها فراسة من هذا الشيخ . قال ، وخاطبته عند لقائى إياه بهذه الأبيات :

أَشكو إِليك بقلبٍ لست أَملكهُ ... ما لم يُرد من سبيل فهو يسلكه
له تعاقبُ أَهـــواءٍ فيقلقـــه ... هذا ويأْخذه هذا ويتــــركه
طوراً يؤمِّنهُ طورا يُخوِّفــــه ... طورا يُيقِّنُــه طورا يُشكِّــكه
حينــاً يوحشه حينـــا يونِسُه ... حينـــا يسكِّنه حينـــا يحرِّكه
عسى الذى يمسِك السَّبع الطِّباق ... على يديك يا مُطلع الأَنوار يمسِكه
فيه سقامٌ من الدنيا وزُخْرُفها ... مهمَى أَبيِّضـه بالذكر تُشركه
عسى الذى شانه السِّتْر[1] الجميل كما ... غطَّى عليه زماناً ليس يَهْتِكه

فلما قرأ منها ، فيه سقامٌ من الدنيا وزخرفها ، قال هذه عِلَّتى .

مولده : سأَلته عنه ، فقال لى عام ثمانية وستين بقرية الجيط من قرى الإقليم

وفاته : بقرية قنجة[2] خطيبًا بها ، يوم الإثنين عشرين من شهر شعبان المكرم عام خمسين وسبع ماية ، فى الوباءِ العام ، ودفن بقرية قنجة ، رحمة الله عليه ورضوانه .

محمد بن أحمد بن حسين بن يحى بن الحسين بن محمد بن أحمد ابن صفوان القيسى

وبيته شهير بمالقَة يكنى أبا الطاهر ، ويعرف بابن صَفْوان .

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، ووردت فى الزيتونة (قرتجة) والأولى أرجح نظراً لما تقدم من أن المترجم له يشهر (بالقونجى) .

حـــاله

كان مفتوحاً عليه في طريق القوم ، مُلْهَماً لرمُوزهم ، مصنوعاً له في ذلك ، مع المحافظة على السُّنة ، والعمل بها ، آخر الرَّعيل ، وكوكبَ السِّحر ، وفذلكةَ الحساب ببلده ، اقتداءً وتخلُّقا وخشوعا وصلاحا وعبادة ونصحا . رَحل فحّج ، وقَفل إلى بلده ، مُؤثراً الاقْتصار على ما لديه ، فإذا تكلَّم في شيءٍ من تلك النِّحلة ، يأتى بالعجايب ، ويفُكُّ كل غامض من الإشارات . وعُني بالجزءِ المنسوب إلى شيخ الإسلام أبي إسمعيل الرُّوبي المسمى « منازل السّارى إلى الله » فقام على تدريسه ، واضطَّلع بأَعبايه ، وقيَّد عليه ما لا يدركه إلا أولوا العناية ، ولازمه الجُمْلة من أولى الفضل والصلاح ، فانتفعوا به ، وكانوا في الناس قُدْوة . ووُلى الخطابة بالمسجد الجامع من الرَّبض الشَّرقى ، وبه كان يقعد ، فيقصده الناس ، ويتبركون به ، وكان له مشاركة في الفقه ، وقيامٌ على كتاب الله .

تواليفه

أَلَف بإشارة السلطان على عهده ، أَمير المسلمين أَبي الحجاج رحمه الله ، كتابا في التَّصوُّف والكلام على اصطلاح القوم ، كتب عليه شيخنا أَبو الحسن بن الجيَّاب بظهره ، لما وقع عليه ، هذه الأَبيات :

أيام مولاى الخليفة يوسف ... جاءت بهذا العالم المُتَصَوِّفِ
فكفى بما أَسدى من الحِكم التى ... أَبدين من سِّر الطريقة ما خَفِى
وحقايقٌ رُفع الحجاب بهن عن ... نور الجمال فلاح غير مُكيَّف(١)
كالشمس لا كن هذه أبدى سَناً ... للحُسن والمعنى لعين المُنصف

---

(١) هذه الأبيات الثلاثة فقط هى التى وردت فى الزيتونة من قصيدة ابن الجياب .

فيه حياةُ قلوبِنـــا ودواؤهـــا فمن استغاث بجرعة منها شُفِ
إن ابن صفوان إمام هِداية صافى فصَوِّفى فهـو صُـوفىٌّ صَــفِ
وإن اختبرت فإنه صفوٌ ابن صَفوٍ ظاهـــر فى طيِّـــهِ صَفْوٌ خَفِ
علمٌ تـوارثه وحـالٌ قـد خَلَت ذوقاً فنعم المقتَدى والمُقتَفِ
فلْيُهْنِلى المـولى سُـعود إيالـة فيها سراجُ نـورِه لا يَنْطَفِ
جلَّى وجـوهَ شريعـةٍ وحقيقةٍ صُبْحـاً سَنـاهُ باهـرٌ لا يَخْتَفِ
لازلتَ تسلك كل نَهْج واضح منها وتحيِى كل سَعْى مُزلـف

ومن تواليفه « جَرُّ الحُرِّ » فى التوحيد ، وعلَّق على الجزء المنسوب لأبى إسمعيل الهرَوى .

من أخذ عنه

أخذ عنه ببلده ، وتبرّك به ، جلّة ، وكان يحضر مجلسَه عالَمٌ ، منهم شيخ الشيوخ الأعلام ، أبو القاسم الكسكلان ، وأبو الحسين الكوّاب ، والأستاذ الصالح أبو عبد الله القطان ، وصهره الأُستاذ أبو عبد الله بن قرال والعاقد الناسك أبو الحسين الأَحمر وغيرهم .

شعــــره

رأيت من الشعر المنسوب إليه ، وقد رواه عنه جماعة من أصحابنا . يْذيِّل قول أبى زيد رضى الله عنه :

رأيتك تُدْنينى إليك تُباعـــدنى فأبعدتُ نفسى لابتغاء التقرُّب[1]

فقال :

هويت بِدِمْنى إليه فلم يكن بى البعد فى بعدى فصَحّ به قرب

---

(١) وردت فى الإسكوريال (لابتغاى فى القرب) وهو تحريف . والتصويب من الرينونة

فكان به سَمْعى كما بَصَرى به   وكان به لألئُ لِسانى مع القلب
فقرْبى بـه قربٌ بغيـــر تبـاعد   وقُرْبى فى بُعدى فلا شيءَ من قُرْب

وفـــاته

سافر من بلده إلى غرناطة فى بعض وجهاته إليها ، وذهب سَحَراً يرتاد ماءً لوضويه . فتردى فى حفرة تردِّيا أوهن قواه ، وذلك بخارج بَلِّش ، فرُدَّ إلى مالَقة ، فكانت بها وفاته قبل الفجر من ليلة يوم الجمعة الرابع عشر لشعبان عام تسعة وأربعين وسبعمايه .

محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصارى

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالسَّاحلى .

حـــاله

من « عايد الصلة » : المثل الساير فى عُمران أوقاته كلها بالعبادة ، وصَبره على المُجاهدة . قطع عمره فى التَّبَتُّل والتَّهجُّد لا يفْتُر لسانه عن ذكر الله ، والصلاة على نبيه ، صلى الله عليه وسلم . خرج عن مَتْروك والده ، واقتصر على التَّمعُّش من حِرفة الخياطة . ثم تعدّاها إلى النَّسخ والتَّعليم .وسلك على الشيخ أبى القاسم المُريد ، نفع الله به ، حتى ظهرت عليه سيا الصالحين ، وأقام عمره مُسْتوعباً ضروب الخير ، وأنواع القُرب من صوم وأذان وذِكر ، ونَسْخ وقراءة ، وملازمة خَلْوة . ذا حظٍّ من الفصاحة . وجُرأة على الوعظ ، فى صوت جَهير ، وعارِضَة صَليبة . اقتدى به طوايفُ من أصناف الناس على تباعُد الدِّيار ،وألزمهم الأذكار . وحوَّلهم للسلوك ، فأصبح كثير الأتباع ، بعيد الصِّيت . ووُلِّى الخطابة بالمسجد الجامع من

بلده ، ونُقل إلى الخطابة . بجامع غَرناطة فى نَبْوَةٍ عرضت له بسبب ذُنَابَى ذرِّية طرقوا الكَدَر إلى سِرْبه[1] ، ثم عاد إلى بلده متين ظَهْر الحُظْوة ، وثيق أَساس المَبرَّة .

مشيخته

قرأ ببلده مالَقة على الخطيب أبى محمد بن عبد العظيم بن الشيخ ، وأبى عبد الله بن لُب ، وأبى جعفر الحرَّار ، وأبى عبد الله بن الحُلو ، والخطيب أبى عبد الله بن الأَعْوَر .

محنتـــه

ابتلى بعد السبعين من عمره بفَقْد بصره ، فظهر منه من الصبر والشكر والرِّضاء بقضاء الله ، ما يظهر من مثله . وأخبرنى بعض أصحابه أنه كان يقول ، سألت الله أن يكفَّ بصرى خوفا من الفِتنة . وفى هذا الخبر نظرٌ لمكان المعارضة فى أمره صلى الله عليه وسلم بسؤال العافية ، والإمتاع بالأسماع والإبصار .

شـــهرته

وجعل الله له فى قلوب كثير من الخَلْق ، الملوك فَمَنْ دونَهم ، من تعظيمه ما لا شيءَ فوقه ، حتى أن الشيخ المُعَمر الحجَّة الرُّحلة أبا على ناصر الدين الوِشْدالى كتب إليه من بِجاية بما نصه : يا أيها العزيز مسَّنا وأهلنا الضُّر ، وجينا ببضاعة مُزْجاة ، فأَوْفِ لنا الكَيْل ، وتصدَّق علينا . إن الله يجزى المتصدِّقين . وبعده : من العَبْد الأصغر والمُحِب الأكبر فلان ، إلى سيِّد العارفين ، وإمام المحققين . فى ألفاظ تناسب هذا المعنى .

حدَّثنى شيخنا أبو الحسن بن الجيَّاب ، وكان من أعلام تلاميذه ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (شرفه) والأولى أرجح وأنسب للسياق .

فكان به سَمْعى كما بَصَرى به وكان به لَأْىُ لِسانى مع القلب
فقرْبى به قربٌ بغير تباعد وقُرْبى فى بُعدى فلا شيءَ من قُرْب

وفـــاته

سافر من بلده إلى غرناطة فى بعض وجهاته إليها ، وذهب سَحَراً يرتاد ماءً لوضوئه . فتردى فى حفرة تردِّيا أوهن قواه ، وذلك بخارج بَلِّش ، فرُدَّ إلى مالَقة ، فكانت بها وفاته قبل الفجر من ليلة يوم الجمعة الرابع عشر لشعبان عام تسعة وأربعين وسبعمايه .

محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصارى

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالسَّاحلى .

حـــاله

من « عايد الصلة » : المثل الساير فى عُمران أوقاته كلها بالعبادة ، وصَبره على المُجاهدة . قطع عمره فى التَّبَتُّل والتَّهجُّد لا يفتُر لسانه عن ذكر الله ، والصلاة على نبيه ، صلى الله عليه وسلم . خرج عن مَتْروك والده ، واقتصر على التَّمعُّش من حِرفة الخياطة . ثم تعدَّاها إلى النَّسخ والتَّعليم .وسلك على الشيخ أبى القاسم المُريد ، نفع الله به ، حتى ظهرت عليه سِيا الصالحين ، وأقام عمره مُسْتوعباً ضروب الخير ، وأنواع القُرب من صوم وأذان وذِكر ، ونَسْخ وقراءة ، وملازمة خَلْوة . ذا حظٍّ من الفصاحة . وجُرأة على الوعظ ، فى صوت جَهير ، وعارِضَة صَليبة . اقتدى به طوايفُ من أصناف الناس على تباعُد الدِّيار ،وألزمهم الأذكار . وحوَّلهم للسلوك ، فأصبح كثير الأَتباع ، بعيد الصِّيت . ووُلِّى الخطابة بالمسجد الجامع من

بلده ، ونُقل إلى الخطابة . بجامع غَرناطة فى نَبْوَةٍ عرضت له بسبب ذُنَابى ذرِّية طرقوا الكَدَر إلى سِرْبه(١) ، ثم عاد إلى بلده متين ظَهْر الحُظْوة ، وثيق أساس المَبرَّة .

مشيخته

قرأ ببلده مالَقة على الخطيب أبى محمد بن عبد العظيم بن الشيخ ، وأبى عبد الله بن لُب ، وأبى جعفر الحرَّار ، وأبى عبد الله بن الحُلو ، والخطيب أبى عبد الله بن الأَعْوَر .

محنتـــــه

ابتلى بعد السبعين من عمره بفَقْد بصره ، فظهر منه من الصبر والشكر والرِّضاء بقضاء الله ، ما يظهر من مثله . وأخبرنى بعض أصحابه أنه كان يقول ، سألت الله أن يكفَّ بصرى خوفا من الفِتنة . وفى هذا الخبر نظرٌ لمكان المعارضة فى أمره صلى الله عليه وسلم بسؤال العافية ، والإمتاع بالاسماع والإبصار .

شـــهرته

وجعل الله له فى قلوب كثير من الخَلْق ، الملوك فَمَنْ دونَهم ، من تعظيمه ما لا شيء فوقه ، حتى أن الشيخ المُعَمر الحجَّة الرُّحلة أبا على ناصر الدين الوِشْدالى كتب إليه من بِجاية بما نصه : يا أيها العزيز مسَّنا وأهلنا الضُّر ، وجينا ببضاعة مُزْجاة ، فأَوْفِ لنا الكَيْل ، وتصدَّق علينا ، إن الله يجزى المتصدِّقين . وبعده : من العَبْد الأصغر والمُحِب الأكبر فلان ، إلى سيِّد العارفين ، وإمام المحققين ، فى ألفاظ تناسب هذا المعنى .

حدَّثنى شيخنا أبو الحسن بن الجيَّاب ، وكان من أعلام تلاميذه ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (شرفه) والأولى أرجح وأنسب للسياق .

وصدور السالكين على يديه . قال قصدت منه خلْوة ، فقلت يا سيدى . أصحابُنا يزعمون أنك ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاخبرنى واشْف صدرى هل هذه الرؤيا عيْنِيَّة أو قلبية ، قال ، فأَفْكَر[1] ساعة ، ثم قال ، عندى شك فى رؤية ابن الجيّاب الساعة ومحادثته ، فقلت لا ، فقال كذلك الحال ، قلت وهذا أمر غريب ، ولا يصح إلا رُؤية القلب ، ولكن غَلبت عليه حتى تخَيَّل فى الحسِّ الصورة الكريمة ، إذ وجود جوهر واحد فى محلَّين اثنين محال .

شـــعره

نظم الكثير من شعر مُنْحط لا يصلح للكُتْب ولا للرِّواية ، ابتلى به رحمه الله ، فمن لبابه قوله ، وهو من الوسط :

إن كنت تـأْمل أن تنال وصالهم ... فامحُ الهوى فى القيل والأَفعال
واصبر على مُرِّ الدواءِ فإنـه ... يـاتيك بعدُ بخالص السِّلسال

تواليفه : ألف كتاباً سمّاه « إعلان الحجَّة فى بيان رسوم المحجَّة » .

توفى يوم الجمعة الرابع والعشرين لشوال عام خمسة وثلاثين وسبعماية ، وكانت جنازته مَشْهُودة ، تزاحم الناس على نعشه ، وتناولوه تمزيقاً على عادتهم من ارتكاب القِحة[2] الباردة فى مِسْلاخ حُسْن الظَّن .

محمد بن أحمد بن قاسم الأمى

من أهل مالقة . يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بالقطَّان ، الفقيه الأوَّاب المتكلم المجتهد .

(١) كذا فى الإسكوريال والزيتونة .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الحجة الباردة) .

حـــاله

من « العايد » : كان هذا الرجل غريب المَنْزَع ، عجيب التَّصوُّف . قرأ وعقد الشروط ، وتصدَّر للعدالة ، ثم تجرَّد ، وصدق فى معاملته لله ، وعول عليه ، واضطَّلع بشروط التَّوبة ، فتحلَّل من أهل بلده ، واستفاد واستَرْحم ، واستغْفَر ، ونَفَض يديه من الدُّنيا ، والتزم عبادة كبيرة ، فأصبح يُشار إليه فى الزُّهد والوَرَع ، لا تراه إلا متبسِّماً ، ملازماً لذكر الله ، متواضعاً لأصاغر عِباده ، محبا فى الضُّعفاء والمساكين ، ، جميل التَّخلُّق ، مُغْضياً عن الهِنات ، صابراً على الإفادة . وجلس للجُمهور بمجلس مالَقة ، يتكلم فى فنون من العلم ، يعظُ الناس ، ويُرشدهم ، ويُزهِّدهم ، ويحملهم على الإيثار ، فى أسلوب من الاستنفار[١] والاسترسال ، والدلالة ، والفصاحة والحفظ ، كثيرُ التأْثير فى القلوب ، يخبر بإلهام وإعانة . فمال الخلق إليه ، وتزاحموا على مجلسه ، وأعلنوا بالتَّوبة ، وبادر مُترَفُوهم إلى الإقلاع عن إجابة الشهوات ، والاستقالة من الزَّلاَّت . ودَهَم الوباءِ ، فبذلوا من الأَموال فى أبواب البرِّ والصَّدَقة ، ما لا يأْخذه الحَصْرُ ولا يُدركه الإحْصاء ولولا أن الأَجل طرقه ، لعظُم صيته ، وانتشر نفعه .

وفــــاته

توفى شَهيد الطَّاعون عصر يوم الأَربعاءِ الرابع لصفر من عام خمسين وسبعماية ، ودفن بجبانة جبل فاره[٢] ، ضحى يوم الخميس الثانى من يوم وفاته . وصلى عليه خارج باب قِنْتِنالة ، وأَلْحَده فى قبره الخطيب القاضى الصالح ، أبو عبد الله الطَّنجالى ، رحم الله جميعهم .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الاستغفار) . وفى الزيتونة (الاستعار) [illegible] أن الأسلوب أرجح .

(٢) جبل فاره وبالإسبانية Gibralfaro ، وهو الجبل [illegible] على مالقة [illegible] الجنوب . وقد سبق التعريف به (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ٥٠٦ حاشية) .

ومن رثاه الشيخ الأديب أبو الحسن الورّاد فقال :

[أَبَعْد وليّ الله دمعي يُسْجم — وغمار قلبي من كُلوم تُتَرْجم
فؤادي مَكْلُوم بحُزني لفقده — لذاك جُفُوني دمعُها كلُّه دم](١)
وماذا عسى يُغني التفجّع والبُكا — وماذا عسى يُجدي الأسى والتّبرم
سأصبر للبَلْوى وإن جلّ خطبها — فصبر الفتى عند الشّدايد يُعلم
كذا العلم بالسيف الصّقيل لدى الوَغى فُوَيق الذى من حُسْنه يُوسم
على قَدْر صبر المرء تَصْغُر عنده — خطوبٌ من الدنيا على الناس تَعظم
إلا إنها الدُّنيا تَعِلَّةُ باطل — ومَخْمَضة أحلام لِمن بات يحلَمُ
تجنّبها أهل العقول فأقْصروا — وأغرق فيها الجاهلون وأشأمُ
أعد نظراً فيها تجبك براحة — وانس بما تقضى عليك وتحكم
أعدّ لها دِرياق صبرك إنها — من البؤس والتّلوين والله أرْقم
تلفّت إلى تعذيبها لمحبها — وماذا بها يَلْقى كئيبٌ ومُغرم
يُظنّ بها ريحانةً وهي سِدْرَةٌ — ولا مُنْتَهى إلا الرّدى والتّندم
عجبت لها تَخْفى علينا عُيوبها — وذاك لأنّا في الحقيقة نُوَّم
أليس عجيباً أن يُعَوِّل عاقلٌ — على عاجلٍ من وَصْلها يَتَصَرَّمُ
وما وَصْلها مِعْشار عُشر صُدورها — ولكنه صرف للدّهر أدْوَم
إذا ابْتَسمت يوما ترقّبْ عُبُوسَها — فما إن لنا منها يَدُوم التّبَسّم
ضُحًى كان وجهُ الدّهر سبْرٌ بشرُه — فلم يُمْسِ حتى بان منه التّجهّم
دَرينا بعبد من وُلّي مكانه — مكينٌ لدى العلياء سام معظّمُ
هوَى مثل ما هوى من الأفق كوكب — فجَلّلنا ليل من الخَطْب مُظلم
تساوى لديه صَيدُها وعبيدُها — وعالِمُها النّحرير والمُتعلم

---

(١) ورد في الزيتونة هذان البيان فقط من القصيدة .

هو الموتُ لا ينفكُّ للخلق طالباً يرُوح ويغْدو كلَّ حين عليهم
وما هو إلاَّ الدَّاءُ عــزَّ دواؤه فليس لشيءٍ فى البَسِيطة يُحسم
دها كلَّ مخلوق فما منه سيِّدٌ له الجـاهُ عند الله ينجو فسَلِّم
ولـو كان ذا كان النَّبي محمد تجنَّبـه صلُّوا عليــه وسَلِّمُ
تعنَّى به موسى ويوسف قبله ونوحٌ وإدريس وشـيثٌ وآدم
به باد بهرام وتُبـرُ يَهْـرم وكُسر من كِسرى سوارٌ ومِعْصَم
وكم من عظيم الشَّأْن حلَّ برَبعه فإن تَخْتَبرْه فهو ربٌّ وأعْظَم
ولكنَّنــا نَنْسى ونَابَى حديثه ونُنْجِد فى الإعراض عنه ونُتْهِم
فحتَّى إذا حلَّ ســاحة مــاجد نظُلُّ بهـا من حَسْـرة نتـكلَّم
نَسينا حديث الموت جهلاً بغَدْره فألهمْنــا إذ هـزَّنا منه مُلهم
وفاةٌ ورمىٌ فى التُّراب مُوَسَّـد وآثــاره فوق السِّماك تُخَيِّــم
خَبــا ضوْءُ نادىَ أقْفَر ربْعُــه من العِلم والتَّعليم ربعٌ ومُعْلَمُ
تردَّى فأردَى فَقْدُه أهل ريَّـة فما منهم إلا كئيبٌ ومُغْـرَمُ
غدا أهلُها من فَجْعة بمصابه وعيشُهم صابٌ قطيع وعَلْقم
وهل كان إلاَّ والدٌ مات عنهم فيا مَنْ لقوم يُتِّموا حين أو يُتِّم
قضى نَحْبه الاستاذُ واحدُ عصره فكاد الأسى يَقْضى إلى الكلِّ منهم
قضى نحبه القطَّان فالحزن قاطن مقيمٌ بأحناء الضُّلُوع مُحَكَّم
وهل كان الاَّ روضة رَفَّ ظِلُّها أُتيح له قَيظٌ من الجَوْن صَيْلَمُ
وهل كان إلاَّ رحمةً عاد فقْدُها علامَة فَقْـد العِلم والله أعْـلَمُ
سَلْ التَّائبين العاكفين على الهدى لـكم منَّة أسدى وأهدى إليهم
أفادهم من كلِّ علم لُبــابَه وفهَّمهم أســراره فتَفَـهَّمُ
جزى الله ربُّ الناس خَيْر جزائه دليلا بهم نحو الهدى حيث يمَّمُ
أبان لهم طُرَق الرَّشاد فأقْدَموا وحذَّرهم عن كل غىٍّ فأحْجَمُ

وجاء من التّعليم للخير كله ... بأبيَن من يأتي به مَنْ يعلم
فصاحةُ ألفاظ وحسنُ عبارة ... مضى كما تمضى الحُسام المُصَمَّم
يُصيب فلا يخطى إذا مقصدا ... ولمن يجيب فلا يُبطى ولا يَتَلعثم
يحدِّث فى الآفاق شرقاً ومغرباً ... فأخباره أضحت تُخطُّ وتُرسم
سرَى فى الورى ذكرٌ له ومدايح ... يكاد بها طيرُ العُلى يترنَّم
لعَمْرُك ما ياتى الزمان بمثله ... وما ضرَّنى لو كنت بالله أُقسم
فقيهٌ نزيهٌ زاهد متواضع ... رؤوفٌ عطوف مُشفق مُتَرحِّم
يودُّ لو انَّ الناس أثْرى جميعهم ... فلم يَبْق مِسكين ولم يبق مُعدم
يودُّ لو انَّ الله تاب على الوَرى ... فتابوا فما يَبْقى من الكلِّ مُجرم
عليه من الرَّحمن أوسعُ رحمة ... فقد كان فينا الدَّهر يحنو ويَرْحَمُ

محمد بن أحمد بن يوسف بن أحمد بن عمر بن يوسف بن على بن خالد ابن عبد الرحمن ابن حميد الهاشمى الطَّنجالى

لوْشِى[١] الأَصل ، مالقى النشأة والاستيطان .

أوليته

[بيتهم نبيهُ إلى هاشميَّة النُّبْه][٢] وهم ببلدنا لَوْشة أشرافٌ ، وكانت لهم فيها ثَرْوة وثوْرة ، اجتثَّها الدهر ببعض طوارقه ، فى أبواب المُغالبات . ويمتُّ سلفُنا إليهم بصُحبة ومُصاهرة فى حديث يستدعى طولاً ، وانتقل خلفُهم إلى مالَقة .

---

(١) لوشى أى نسبة إلى لوشة Lota وهى بلد ابن الخطيب وهى تقع غرب غ ناطة جنوبى نهر شنيل .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال وفى الزيتونة وردت كالآتى : (بيتهم ينسب إلى الهاشمية أهل بيت نبيه) .

حــاله

من « عايد الصلة » : كان هذا الوَلِى الفاضل ، المُجْمَعُ على ولايته وفضله ، سهل اللقاء ، رفيقاً بالخلق ، عَطُوفاً على الضعفاء ، سالكاً سُنَن الصَّالح من السَّلف ، سَمْتاً وهَدْياً ، بصرُه مغضُوض ، ولسانه صامتٌ ، [إلاَّ من ذكر الله ، وعلمه نافع][1] وثوبُه خَشِن ، وطُعْمَتُه قد نَفِدها الورَعُ الشَّديد ، حتى اصْطَفاها مختارة ، إذا أبْصَرت بها العينُ ، سَبَقَتْها العَبْرةُ . بلغ من الخَلْق ، الملوكَ فَمَنْ دونهم الغاية ، فكان يلجأُ إليه المضطَّر ، وتُمَدُّ إلى عنايته الأيدى ، وتُحَطُّ بفنايه الوسايل ، فلا يَرْتفع عن كُلَف الناس ولا حوايجهم ، ولا يَنْقَبض عن الشَّفاعة لهم ، وإصلاح ذات بَيْنهم . له فى ذلك كلِّه أخبارٌ طريفة . واستُعمل فى السِّفارة بين مَلِكى العُدْوة والأندلس ، فى أحوال المسلمين ، فما فارق هيئته ، وركوبَ حِماره واستِصْحاب زادِه ، ولِبْس الخشِن من ثوْبه . وكان له حظٌّ رغيبٌ من فِقه وحديث ، وتفسير ، وفريضة . وُلِّى الخطابة ببلده مالقة ، واستَسْقى فى المُحول ، فسُقِى الناس .

حدَّثنى بعض أشياخنا : قال ، حضرت مُقامه ، مُسْتَسْقِياً ، وقد امتنع الغيث ، وقحط الناس ، فما زاد عند قيامنا أن قال ، أستغفر الله ، فضجَّ الخَلْقُ بالبكاء والعَجيج ، ولم يَبْرَحوا حتى سُقوا . وكراماته كثيرة ، ذايعة من غير خلاف ولا نزاع .

حدَّث بعض أشياخنا عن الخطيب الصَّالح أبى جعفر الزيات ، قال رأيت فى النَّوم قايلا يقول . فُقِد اللَّيلة من يَعْمُر بَيْت الإخلاص بالأندلس ، فما انتصف النهار ، من تلك الليلة . حتى وَرَدَ الخبر بموته .

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الزيتونة ، وساقط فى الإسكوريال .

مشيخته

من شيوخه الذين قرأ عليهم ، وأسْنَد إليهم الرواية والده رحمه الله ، وأبو عمرو بن حَوْط الله ، والخطيب أبن أبي ريحانة المَرْبلىّ ، والقاضى أبو على بن أبي الأحوص ، والراوية أبو الوليد بن العطار ، والراوية المحدث أبو بكر بن مُشليون ، والمقرى أبو عبد الله بن مسْتَقُور الطائى ، والاستاذ أبو جعفر الطبّاع ، وأبو الحسين بن أبي الربيع ، والمحدِّث أبو عبد الله بن عيّاش ، والاستاذ أبو الحسن السَّفّاج الرُّندى ، والخطيب بالمريّة أبو الحسن الغزّال . وقرأ على الاستاذ أبى جعفر بن الزبير . وأجازه من أهل المشرق جماعةٌ منهم أبو عبد الله بن رُزيق الشافعى، والعباس أحمد ابن عبد الله بن محمد الطبرى ، وأبو اليُمن عبد الصمد بن أبي الحسن عبد الوهاب بن أبي البركات المعروف بالنجام ، والحسن بن هِبَة الله بن عساكر ، وإبراهيم بن محمد الطّبرى إمام الخليل ، ومحمد بن محمد بن أحمد بن عبد ربه الطّبرى ، ومحمد بن على بن وَهَب بن مُطيع القُشَيرى ، وأبو الفتح تقىّ الدين بن أبي الحسن فخر الدين ، وعبد الله بن محمد بن أبي بكر الطبرى المكىّ الشّافعى وغيرهم .

ميلاده : بمالقة فى رجب سنة أربعين وستماية .

وفاته : بمالقة فى يوم الخميس الثامن لجمادى الأولى من عام أربعة وعشرين وسبعماية . وقد ناهز الثمانين سنة ، لم ينتقص شيءُ من أعماله المقرّبة إلى الله . من الصوم والصلاة ، وحضور الجماعات ، ومُلازمة الإقراء والرّواية ، والصبر على الإفادة .

حدث من يُوثق به . أنّ ولده الفقيه أبا بكر دخل عليه . وهو فى

حال النَّزْع ، والمَنِيَّة تُحَشْرِج فى صَدْره ، فقال يا والدى أوصِنى ، فقال وعيناه تدمعان ، يا ولدى اتَّق الله حيث كنتَ [واتْبِع السَّيِّئة بالحسنة تَمْحِها](١) ، وخالق الناس بخُلُقٍ حسن

محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البلفيقى(٢) ابن الحاج

والد شيخنا أبى البركات . وقد مرَّ فى ذكر النَّسب المُتَّصل بعباس ابن مِرداس ، والأوَّليَّة النَّبيهة ما يُغنى عن الإعادة .

حـــاله

من خطِّ ولده شيخنا على الاختصار ، قال يخاطبنى فى بعض ما كتب به إلى : ذكر أبى ، وهو ممن طلبتُم ذكره إلى فى أخباره جزءًا من نحو سبعين ورقة فى المقْسُوم ، لخَّصتُ لك من مبيَّضته ما يُذكر :

نشأ رحمه الله بسَبْتة على طهارة تامة ، وعفَّة بالغة ، وصَوْن ظاهرٍ ، كان بذلك عَلماً لشُبَّان مَكْتبه . قرأ القرآن بالقِراءات السَّبع ، وحَفِظ ما يُذكر من المبادى ، واتَّسم بالطَّلب . ثم تاقتْ نفسُه إلى الاعتلاق بالعُروة الوُثْقى ، التى اعْتلق بها سلفُه ، فنبذ الدُّنيا ، وأقبل على الآخرة ، وجَرَى على سُنن المتَّقين ، أخذاً بالأَشدِّ من ذلك والأَقْوى ، طامحاً بهمَّته إلى أقصى ما يؤمِّله السَّالكون . فرفض زِى الطَّلبة ، ولبس الخشنية(٣) ، وترك مُلابَسة الخلْق بالجُمْلة ، وبالغ فى الانقِباض عنهم ، وانقطع إلى الله

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (واتبع الحسنة بالسيئة تمحها) وهو قلب للمعنى المقصود .

(٢) نسبة إلى بلفيق ، وبالإسبانية Vellefique ، وهى بلدة أندلسية صغيرة تقع بولاية ألمرية على مقربة من جنوبى برشانة (راجع المجلد الثانى من الإحاطة ص ١٤٣ حاشية) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الخشينة) .

برباطات سَبْتة وجبالها ، وخصوصا بنيانها ، وعَكَف على ذلك سنين ثم سافر إلى المغرب ، سايحاً فى الأرض ، على زِى الفقهاءِ لِلقاءِ العُبَّاد وأهل العلم ، فأحرز من ذلك ما شاء . ثم أجاز البحر إلى جزيرة الأندلس ، ووَرَدَ ألمريَّة ، مُسْتقرَّ سَلَفِه ، وأخذ فى إيثار(١) بقايا أمْلاك بقيت لأسْلافه بها ، على ما كان عليه من التَّبتُّل والإخبات . وكان على ما تلقينا من أصحابه وخُدَّانه ، صوَّاماً ، قوَّاماً ، خاشعاً ذاكراً ، تاليا(٢) ، قوَّالا للحق ، وإن كان مرًّا كبيراً فى إسقاط التَّصنُّع والمباهاة ، لا يُضاهى فى ذلك ، ولا يُشقُّ غُباره . وقَدِم على غرناطة ، ودخل على أمير المسلمين ، وقال له الوزير ، يقول لك السلطان ما حاجتُك ، فقال ، بهذا الرسم رحلتُ ، ثم ظهر لى أن أُنْزل حاجتى بالله ، فعارٌ على من انْتسب إليه ، أن يَقْصد غيره . ثم أجاز البَحْر وقد اشتدَّت أحوال أهل الأندلس بسبب عدُوِّهم ، وقدم على مَلِكه ، ووعَظه موعظةً ، أغْنف عليه فيها ، فانفعل لموعظته ، وأجاز البحر بسببه(٣) إلى جزيرة الأندلس ، وغزا بها ، وأقام بها ما شاء الله ، [وتأدب الروم لو تم المراد](٤) قال ، وأخبره السلطان أبو يوسف ملك المغرب ، قال كل رجل صالح دخل علىَّ كانت يده ترعُد فى يدى ، إلا هذا الرجل ، فإن يدى كانت ترعُد فى يده عند مصافحته .

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (أثارة) . والأولى أنسب للسياق .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (تلا) وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بسببه) والأولى أرجح وأنسب للسياق .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وورد مكانها فى الزيتونة (وتأدب لتوهم المراد) . ولم تتضح علاقتها تماما بالسياق .

كراماته

وجلب له كرامات عدّة ، فقال فى بعضها ، ومن ذلك ما حدّثنى الشيخ المُعلم الثّقة أبو محمد قاسم الحصّار ، وكان من الملازمين له ، المنقطعين إلى خدمته ، والسّفر معه إلى البادية ، فقال ، إنى لأحفظ لأبيك أشياء من الأحوال العظيمة ، منها ما أذكره ، ومنها ما لا أستطيع ذكره . ثم قال ، حدّثنى أهل وادى الزّرجون ، وهو حُشّ(١) من أعمال سَبْتة ، قالوا ، انصرف السيد أبو عبد الله من هنا ، هذا لفظه ، فلما استقرّ فى رأس العَقبة ، المشرفة على الوادى ، صاح عليه أهل القرى ، إذ كانوا قد رأوا أسَدًا كبيراً جدا ؛ قد تعرّض فى الطريق ، ما نجا قط من صادفه مثله ، فلما سمع الضياح قال ما هذا ، فقيل له أهل القرى يصيحون عليه خِيفةً من السّبع قال ، فأعرض عنهم بيَده ، ورَفع حاجبَه كالمُتكبِّر على ذلك ، وأسْكتهم ، وأخذ فى الطّريق حتى وصل إلى الأسد ، فأشار عليه بالقضيب ، وقال له ، من هاهُنا من هاهُنا ، أُخرج عن الطريق ، فخرج بإذن الله عن الطريق ، ولم يوجد هنالك بعد . وأمثال ذلك كثيرة .

مشيخته

قرأ على الاستاذ أبى الحسين بن أبى الربيع القرشى ، وأجازه والده أبو إسحق إجازة عامة . ومن شيوخه القاضى المُسَنّ أبو عبد الله الأَزْدى ، والمحدّث أبو بكر بن مشلِيون ، وأبو عبد الله بن جَوْهر ، وأبو الحسين بن السراج ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الخزْرَجى ، وأبو عبد الله بن الأبار ، وأبو الوليد بن العطار ، وأبو العباس بن عبد الملك ، وأبو إسحق

---

(١) الحش أعنى البستان .

ابن عيّاش ، وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن عطيّة ، وأبو بكر القرطبي حُميد ، وأبو إبراهيم الطَّرسى ، والقاضى أبو عبد الله بن عِياض ، والكاتب أبو الحسن الرُّعينى ، وأبو الحسن الشَّارى ، وأبو يحيى بن الفَرَس ، وأبو إسحق بن عبيد الله ، وأبو الحسن الغزَّال ، وجماعة من الأندلس غير هؤلاء . ومن أهل العُدْوة كأبى يعقوب المحاسبى[١] وابن فُرتُون وغيرهم

محنتــه

نُمى عنه إلى السلطان بالأندلس ، أنه أغْرَى به ملك المغرب ، وتخلَّص بعد لأىٍ فى خبر طويل ، وانتهب السلطان ماله ، وألحق أملاكه بالمختص[٢] واستمر. وذلك إلى دولة والده وامتحن السَّاعون به ، فعجَّل الله عقوبتهم .

مولده : قال شيخنا نقلت من خطّ أبيه ما نصه : وُلد إبنى أبو بكر محمد أسعده الله ووفّقه ، فى النصف الأول من ليلة يوم الاثنين الحادى والعشرين لذى قعدة من سنة ست وأربعين وستّماية .

وفاته : قال ألفيْتُ بخط القاضى الأديب الكاتب أبى بكر بن شِبْرين وكان ممن حضر جنازته بسَبْتة . وكانت وفاة الفقيه النّاسك السَّالك الصالح أبى بكر محمد بن الشيخ الفقيه المحدث أبى إسحق السلمى البِلْفِيقى فى العشر الأواخر من رمضان أربعة وتسعين وستّماية بمحْرُوسَة سبتة ، ودفن إثر صلاة العصر بجبَّانة الخرُّوبة من منارتها بمقْربة من قبر ريحان الأسود العبد الصالح نفع الله به . وصلى عليه الإمام أبو عبد الله بن حُرَيث .

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (المحسانى) .

(٢) المختص هنا يقصد بها الأملاك السلطانية ، ويعبر عنها عادة فى لغة الأملاك الأندلسية (بالمستخلص) .

محمد بن يحيى بن إبراهيم بن أحمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى ابن عبّاد النُّفْزِى

من أهل رُنْدَة ، يكنى أبا عمرو ، ويعرف بابن عبَّاد ، الحاجّ الصُّوفى

حـــاله

نشأ ببلده رُنْدة ، وهو من ذوى البيوتات الأصيلة بها ، ثم رَحَل إلى المشرق ، ولقِىَ العلماء والصُّوفية ، وحضر عند المَشْيخة ، ثم كرَّ إلى الأندلس ، فتصوف ، وجال فى النَّواحى ، واطَّرح السُّموت ، وفوَّت ما كان بيده من متاع الدُّنيا ، وكان [له مالٌ](١) له خُطر ، وألقى التَّصَنُّع لأهله رأساً . وكان فيه توَلُّه وحِدَّة ، وله ذهنٌ ثاقب ، يتكلم فى المَعْقولات والمنْقُولات ، على طريقة الحُكماء والصُّوفية ، ويأتى بكل عبارة غريبة ، وآثاره هايلة من غير تمكُّن عِلْم ، ولا وَثاقة إدراك ، غير أنك لا تسمع منه إلا حَسَناً ، وهو مع ذلك طوَّاف على البلاد ، زوَّار للرُّبط ، صبَّار على المجاهدة طوْعاً وضرورةً ، ولا يسَلُ ثيابا البتَّة إلا بَذْلَةً من ثوب أو غيره ، صَدَقَةُ واحد فى وقته

محنته وفضله وشـعره

نُمِى عنه كلامٌ بين يَدَىْ صاحب المغرب ، أَسِفَ به مُدبِّر الدولة يومئذ ، فأُشخص عند إيابه إلى رُندة وسُجن بسِجْن أَرْباب الجرايم ، فكتب إلى ولىِّ الأمر :

تركتُ لكم عزَّ الغِنى فأَبَيْتُم ... وأن تتركونى للمَذلَّة والفقـر
ونازعتمونى فى الخمول وإنه ... لذى مُهْجتى أَحْلى من البنَى والأمر

(١) وردت هذه العبارة فى الزيتونة . وهى ساقطة فى الإسكوريال .

ثم قال ، يا مَنْ رمانى بِسَهْمه ، الغربُ ، قد رُدَّ عليك مَخْضُوباً بالدَّم . قال فوالله ما مَرَّت ثلاثةٌ ، حتى نفذ حُكْمُ الله فيمن عدَا عليه.

وشعره حسن يدل على طبْعٍ مَعِين ، فمن ذلك :

سُرَّى يُسِرٌّ إلىَّ أنك تارِكى | نَفْسى الفِدا لُلطْفِك الْمُتَدارِك
يا ما لكى ولىَ الفخــار بأَنّى | لك فى الهوى ملكٌ وأَنَّك مالِكِ
التَّرْكُ هَلْكٌ فاعفِنى منه وعِـد | بالوَصْل تُحيِى ذما مُحِبٌّ هالك
وأعد جميلا فى الهوى عوَّدتنى | إن لم تُعِدْه إلىَّ مَنْ للهالك
يا مُنْية القلْب الذى بِجمـاله | فُتِن الوَرى من فاتك أَو ناسك
أَأَتيهُ دونك أَو أَحار وفى سَنى | ذاك الجمال جلا الظلام الحالك
ولكم سلكتُ إليك لكن حين لم | تكن الدَّليل اختلَّ قصدُ السَّالك
ولقد عَرفْتَ بسَتْر سرِّى فى الهوى | فهجَرْتنى فكُسيتُ ثوْب الهاتك
ما السَّتر إلاَّ ما يحُوك رضاك لا | ما حَاكه للبَتْر (١) كفُّ الحايِك
ما الفضل إلا ما حَكَمْتَ به فصُنْ | وأَهتِك وصِل إن شِيت أَو كن تارك
ما لى سوى حبِّيك يا حُبِّى فدَعْ | ترْكى فهَلْكُ المِلْك ترك المالك

وقال أيضا :

هذا العقيق فسَلْ معاطفَ بانه | هل نسْمَةٌ عادتْه من نُعْمـانه
واسأَله (٢) إن زارته ماذا أَخبرت | عن أَجْرُع العَلمَيْن أَو سُكَّانه
وأَصِخْ لحسن حديثها وأَعده للمُضْـنى ففيه البُـرْءُ من أشجانه
يا حبَّذا ذاك الحديث وحبَّـذا | من قد رفـاه وحبَّذا (٣) ببيـانه

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وهى ساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى «الكتيبة الكامنة» لابن الخطيب . وفى الإسكوريال (وارسله) والأولى أرجح .

(٣) وردت فى الإسكوريال (وحب أن) . والتصويب من الكتيبة الكامنة .

وسقى الالٓه زمـــانه ومكانه   ويعزُّ قدْر زمـــانه ومكانـــه
يا سعدُ ساعِد مُسْتهاماً فيــه لا   ذُقْت الهوى ونجَوْتَ من غدْوانه
وأَصِخْ لما يَتْلو الوجُود عليك من   أَنْبائهم بلسان حالِ كيانه (١)
وأَبنه لى واقبل ذِماى بشـــارة   ويقلُّ بذل ذِماى فى تِبيـــانه
وسلِ النَّسيم يهبُّ من واديهم   شذًا خُزاماه وطيبُ لُبانـــه
ارْحَم بروحٌ منه روحى تُحْيِــه   ويُسْقِمه سُقْمى فديتُك عــانِه
وبنشْرِه انشُر نفْس مُشْـــتاق   قضتْشوقاًلنفْحَةِ نسْمة (٢) من بانه
يا سعدُ حدِّثنى فكل مُخبِّـــر   عن خسْر من أَهــواد أَو إحسانه
يا سعد حدثنى فكلٌّ حديث عنهم   ويجلُّ قدْرُ الحُبِّ عن نِسـيانه
يا سعد طارِحْنيه واملأْ مسمعى   من ســرِّه إن شيت أَو إعـلانه
أَنا فى الغرام أَخوك حقاً والفتى   لا يكتم الأَسرار من إخـوانه
قل كيف وادى وُدَّ سُكَّان الحمى (٣)   ومُنى أَمانيه ورَوْض لســانه
هل قلصت أَيْدى النَّوى من ظِلِّه   أَو ما جرى هل عاث فى جَرَيانــه
وهل الرِّبوع أَواهِلٌ بجِمالهم   فسُقًى للربو ع الوُدْق من هتَّانِه
وهل التقى بان على عهد النَّوى (٤)   وهل اللِّوى يلوى بعود زمــانه
فبرَوْض أُنْسِهم غدت نضارة   نزَّهت منها الطَّرف (٥) فى بُستانه
وأرى هجير الهجْر أَذْبل يانعاً   منه وأَذوَى الغضَّ من ريحانه
وأَحال حال الأُنْس فيه وَحْشةً   وطوى بِساط الأُنس فى هِجرانه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الكتيبة الكامنة (بيانه) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الكتيبة الكامنة (هبه) .
(٣) هكذا وردت فى الكتيبة الكامنة . وفى الإسكوريال (الفضا) .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الكتيبة (الهوى) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الكتيبة (القلب) .

آهاً ووالهفى وويْحى أن مضى ... عهدٌ عَرَفتُ الأُنْس فى أزْمـانه
وبأَجْرُع العَلمين من شرقيه ... حِبٌّ غذَّانى حُبُّه بلبـانه
حاز المحاسن كلَّها فجَمعْن لى ... كلَّ الهوى فحملتُ كلَّ هـوانه
وزهـا علىّ بعـزّةٍ فبـواجب ... أزهُو بذلّى فى يَدَىْ سلطانه
وقضى بأن أقْضى وليتَ بما قضى ... يَرضى فطيبُ العيش فى رِضوانه
واختار لى أن لا أميل لسَلْوة ... عن حُبِّه فسَلوْتُ عن سُلطانه
يا عاذِلى أو ناصحى أو لايمى ... تبغى السُّلُو ولات حين أوانـه
غلب الغرام وعزَّ سلطان الهوى ... فالكلُّ فيـه علىَّ من أعـوانه
فعلام تعْتِب مُسْتهاماً كلَّمـا ... فى الكون[1] عاذره على شيمانه
دع عنك لوْمى إننى لك ناصح ... أبدى الجمالُ العُذْر عن هَيْمانه
وإذا الفتى قام الجمـال بعُذْره ... فى الحبِّ فاتركه وثنى عِنانه
من سام قلبى فى هواه سَـلْوة ... قد سامه ما ليْس فى إمـكانه

وقال فى الغرض المذكور :

يا للرِّجال ألا حِبٌّ يسـاعدنى ... فى ذا الغرام فأبكيـه ويَبْكين
غُلبت فيه وما أجْدت مُغالبتى ... وهَنتُ والصَّبُّ أولى الناس بالهون
ركِبتُ لُجَّته وحْدى فأدْهَشنى ... ومِتُّ فى يده فردا فدلُّـونى
واضيعةَ العُمْر والبَلْوى مضاعفةٌ ... ما بين يأسٍ وآمالٍ تُرجِّـينى
والهف نَفْسى إن أوْدَت وما ظَفِرت ... فى ذا الهوى بتمنٍّ أو بتأمين
فليت شِعرى وعُمْرى ينقضى طمعاً ... أفى ذا الهوى[2] [illegible]
هل الأُولى مَلكوا رِقٍّ وقد علموا ... بذلِّى وافتقارى [illegible]

---

(١) نسقها نحى فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى الذخيرة (و الحب) .

فكم أكفكف دمعى بعدهم وأرى — مُجدَّداً نار يأْىى وهى تُبْلين
وكم أَمرُّ على الأَطْلال[١] أَنْدبها — وبالمنازل من خيفٍ وداريـنِ
وفى الفؤاد لهُم ما ليس يعلَمُه — إلَّاهمُ عِلمهم بالحـال يكفين
أهمى المدامع كَىْ أُرْوِى فتُعْطِشُنى — وأَلزم الذِّكر للسَّلوى فيُشْجِين
وكلٌّ مَنْ لمَحَتْ عينى أُسـايِلُه — عنهم فيُغْرِى بهم قَلْبِى ويُغْرين
يا أَهل نَجْدٍ وفَخْرى أن أحبَّكم — لا أَطلب الوصْل عزُّ الحبِّ يُغْنِين
هل للهوى من سبيلٍ للمُنى فلقد — عزَّت أَمانيه فى الدُّنيا وفى الدِّين[٢]

محمد بن يوسف بن خَلصون

يكنى أبا القاسم ، روطىٌّ الأَصل لوشيه[٣] سكن لَوْشَة وغرناطة ومالقة

حــــاله

كان من جلَّة المشيخة وأَعْلام الحكمة ، فاضلا ، مُنقطع القرين فى

---

(١) وردت فى الاسكوريال (الأطناب) والتصويب من الكتيبة .

(٢) إن الترجمة الموجزة التى وردت فى مخطوطى الإسكوريال والزيتونة عن ابن عباد الرندى وكذا ما أورده عنه ابن الخطيب فى «الكتيبة الكامنة» (ص ٤٠ وما بعدها) هى تراجم موجزة ينقصها الكثير من صفات ابن عباد ومزاياه العلمية والصوفية . وربما كان السبب فى هذا الإيجاز راجعا إلى اختصار الناسخ . ونحن نستدرك هنا بعض الشىء فنقول إن لابن عباد مؤلفات كثيرة ، أشهرها شرحه لكتاب الحكم العطائية الذى وضعه العلامة الصوفى المصرى تاج الدين بن عطاء الله السكندرى المتوفى سنة ٧٧٩ هـ ، وهو بالرغم من صغر حجمه يعتبر من أشهر كتب الحكم والتصوف . ولابن عباد أيضاً مجموعة فى أجوبة العلوم فى مجلدين . وقد توفى ابن عباد فى سنة ٧٩٢ هـ .

راجع ترجمة وافية لابن عباد بقلم صاحبه الشيخ أبى زكريا السراج وغيره أوردها المقرى فى نفح الطيب (ج ٣ ص ١٧٥ - ١٧٧) .

(٢) روطى نسبة إلى روطه أو روضه وبالإسبانية Rueda ، وهى بلدة صغيرة تقع على المحيط قرب ثغر شلوقة San Lucar شمال مدينة سريش . وهى غير روطة القريبة من سرقسطة . ولوشيه نسبة إلى بلدة لوشة وقد سبق التعريف بها .

المعرفة بالعلوم العَقْلية . متبحراً فى الإلهيات . إماما فى طريقة الصُّوفية . من أهل المقامات والأحوال . كاتبا بليغا . شاعرا مجيدا ، كثير الحلاوة والطِّلاوة ، قايما على القرآن ، فقيها أُصُوليا ، عظيم التخلُّق ، جميل العِشرة . انتقل من حصن رُوطة إلى الخطابة والإمامة بلَوْشَة ، كثير الدؤوب على النَّظر والخَلْوة ، مقصودا من مُنْتحِلِى ما لديه ضرورة . لم يتزوج ، وتمالأَت عليه طايفةٌ ممن شانها الغضُّ من مثله ، فانتزعج من لَوْشَة إلى مالَقة ، فتحرَّف بها بصناعة الطِّب ، إلى حين[1] وفاته .

حدثنى والدى ، وكان خبيراً بأحواله ، وهو من أصحاب أبيه . قال . أصابَتْ الناس شدَّةُ قَحْط ، وكانت طايفة من أضداده تقول كلاما مُسَجَّعا . معناه . إنكم إن أَخْرَجْتم ابن خلصون من بينكم ، مُطرتم . قال ، فانزعج عنها . ولما [كان على أميال][2] ، نزل الغيث الرغد ، قال فسَجَد بموضعه ذلك ، وهو معروف ، وقال ، سيدى ، وأساوى عندك هذا المقدار . وأوجب شُكْراناً . وقدم غَرْناطة ، وبها الأستاذ أبو عبد الله الرَّقُوطى ، وله استيلاءٌ على الحُظوة[3] السلطانية ، وشانُه اختبار من يرد على الحضرة . ممن يحمل فَناً . وللسلطان على ابن خلصون موجدةٌ ، لمدحه فى حداثته . أحد الثوار عليه بقُمارش[4] ، بقصيدة شهيرة . فلما حضر . سأله الأستاذ ما صناعتك ، فقال التصوُّف ، فالتفت إلى السلطان وقال : هذا رجل ضعيفٌ لا شيء لديه . بحيث لا يفرِّق بين الصِّناعة وغيرها ، فصرفه رحمه الله .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (حين) والتصويب من الريحونة
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحونة (ولما حين أميالا) [illegible]
(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الريحونة (الحضره) وهو تحريف .
(٤) هى بلدة من أعمال مقاطعة مالقة . وقد سبق التعريف بها (راجع ص ١٨٠ - [illegible])

تواليفه

وتواليفه كثيرة ، تدل على جلالته وأصالة معرفته ، تنطق عِلماً وحكمة ، وتروق أدباً وظَرْفاً . فمن ذلك كتابه فى « المحبة » ، وقفت عليه بخط جَدِّى الأقرب سَعيد ، وهو نهاية . وكتاب « وصف السلوك ، إلى ملك الملوك » ، عارض به مِعْراج الحاتمى ، فبان له الفضل ، ووجبت المزيَّة ، ورسالة « الفَتْق والرَّتْق ، فى أسرار حكمة الشرق » .

شعره

من ذلك قوله :

هل تعلمون مصارع العُشَّاق ... عند الوداع بلَوْعة الأشواق
والبينُ يكتُبُ من نَجيع دمايهم ... إن الشَّهيد لمن يمت بِفـــراق
لو كنتَ شاهدَ حالهم يوم النَّوى ... لرأيتَ ما يلقون غير مُطاق
منهم كئِيبٌ لا يَملُّ بكاؤُه ... قد أغْرَقَته مدامعُ الآماق
ومُحرَّق الأحشاء أشْعَلَ نارَه ... طولُ الوَجِيب بقلبه الخفَّاق
ومُولَّهٌ لا يستطيع كـلامَه ... مما يُقاسى فى الهوى ويُلاق
خَرِس اللسان فما يُطيق عبارة ... ألِم المرُورَ وماله من راق
ما للمحبِّ من المَنُون وقايةٌ ... إن لم يُغثه حبيبُه بتَلاق
مولاى عبدُك ذاهبٌ بغَرامه ... فاذْرِك بوَصْلك من دماه الباق
إنى إليك بذِلَّتى متوسِّلٌ ... فاعطف بلطفٍ منك أو إشفاق

ومن شعره أيضاً :

أعِد الحديث إذا وصفتَ جماله ... فبه نُهيج للمحِبِّ خيالَه
يا واصف المحبوب كرِّر ذكرَه ... وأدر على عشَّاقه جَرياله

فيذكر من أهْوى وشرح صفاته   لذَّ الحديث لمَسْمَعى وخلاله
طَاب السّماع بوصفه لمسامِعي   وقررّتُ عيناً مذ لمحت هِلاله
قلبى يلذُّ ملامةً فى حبِّه   ويرى رشادًا فى هواه ضلالَه
يا عاذِلى أَو ما تَرِقُّ لسامرٍ   سمع الظَّلامُ أنينَه فرَثا له

ومن شعره أيضاً :

إن كنتَ تزعم حُبَّنا وهَوانا   فلتَحْوِلَن مذلَّةً وهَـوانـا
فاسجرُ لنفسك إن أردت وِصالنا   واغضب عليها إن طَلَبْتَ رضانا
واخلع فؤادك فى طِلاب وِدادنا   واسمح بموتك(١) إن هَوَيْت لقانا
فإذا فَنِيت عن الوجود حقيقةً   وعن الفَناء فعِند ذاك تـرانا
أو ما عَلِمت الحبَّ فيه عِبْرةٌ   فاخْلِص لنا عن غيرنا وسِوانا
وابذل لُبْابَك إن وقفت ببابنا   واترك حِماك إذا فقدت حِمانا
ما لعْلَعٌ ما حاجرٌ ما رامةٌ   ما ريمُ أُنْس يَسْحر الأذهانا
إن الجمال مُخَيِّم بقِبابنـا   وظِباؤه محجوبةٌ بظُبـانـا
نحن الأَحِبَّة من يَلُذ بفَنائنـا   نَجْمَعْ له مع حُسْنِنا إحسانا
نحن الموالى فاخْضَعن لعزٍّ نَالنا   إنّا لندفع فى الهوى مَنْ هانا
إن التَّذَلُّل للتدلُّل سِـحْرٌ   فأَخْلِد إلينـا عاشِقاً ولْهانا
واصبر على ذُلِّ المحبَّة والهوى   واسمع مقالةَ هايمٍ قد لانا
نُون الهوَان من الهوى مسروقةٌ   فإذا هَوِيت فقد لَقِيت هوانا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بنفسك) .
(٢) اللعلع أعنى السراب

ومن لطيف كلامه [ورقيق شعره][1]

لو خيالٌ من حَبِيبي طَرَقا   لم يَدَعْ دمعى بخدِّى طرَقا
نسيمُ الريح منه لو سَرى   بشَذاه لأزال الحَرَقا
ومتى هبَّت عَلِيلات الصَّبا   صحَّ جسمى فهنَّ لى نَفْثٌ رَقا
عجباً يشكو فؤادى فى الهوى   لَهب النار وجَفْنى الغَرقا
يا أَهْل الحىِّ لى فيكم رشا   لم يَدَع لى رمقاً مُذْ رَمَقا
بدرُ تِمٍ طالع أثمره   غُصْن بانٍ تحته دِعْصُ نَقَا
راق حُسْناً وجمالا مثلما   رقَّ قلبى فى هواه وَرَقا
[أنسى الشمسَ ضياه ذهباً   وكَسَى البدر سَناه ورقا][2]
حُلَل الحُسْن عليه خُلِعت   فارتداها ولها قد خُلقا

ومن شعره .

دعوتُ من شَفَتَى رِفْقا على كبدى   فقال لى خُلِق الانسان فى كَبد
قلت الخيالْ ولو فى النَّوم يَقْنعنى   فقال قد كَحُلت عيناك بالسُّهد
فقلت حَسْبى بقلبى فى تذكُّره   فقال لى القلبْ والأفكارْ ملكْ يدى
قلت الوصال حياتى منك يا أملى   قال الوِصال فراق الرُّوح للجَسَد
فقلت أهْلاً بما يَرْضى الحبيبْ به   فإنَّ قلبى لا يلْوى على أحَد

ومن أقواله الصُّوفية ، وكلها تشير إلى ذلك [المعنى][3]

ركِبنا مطايا شوقنا نَبْتغى السُّرى   وللنَّجم قناديل يُضيىءُ لمن سَرا
وعينُ الدُّجا قد نام لم يدرِ ما بنا   وأجفانُنا بالسُّهد لم تَطْعَم الكرَا

---

(١) هذه الزيادة من الر... .
(٢) هذا البيت وارد فى الإسكوريال وساقط فى الرينونه .
(٣) هذه الكلمة واردة فى الرينونه وساقطة فى الإسكوريال .

إلى أن رأينا الّليل شاب قَذاله ... ولاح عمودُ الفجر غُصْناً مُنوّرا
لمحنا برأس البُعد ناراً منيرة ... فسرنا لها نَبْغى الكرامة والقرّا
وأفضى بنا السير الحثيث بسُحْرَة ... لحانَةِ ديرٍ بالنواقِس دوّرا
فلما حللْنا حَبْوَة السير عنده ... وأبصرنا القسّيس قام مُكَبّرا
وحرّك ناقوساً له أعْجَمَ الصّدا ... فأفْصَح بالسِّر الذى شاءَ مُخْبِرا[١]
وقال لنا حُطُّوا حَمِدتم مسيرَكم ... وعند الصّباح يحْمَد القوم السرى
نَعِمْتم صباحاً ما الذى قد أتى بكم ... فقُلنا له إنا أتيْناك زُوَّرا
وراحَتُنا فى الرّاح إن كنت بايعاً ... فإن لدينا[٢] فيه أربحَ مُشترى
فقال لكم عندى مُدام عتيقةٌ ... مخلَّدَةٌ من قبل آدم أعْصُرا
مُشَعْشَعةٌ كالشمْس لكن تَرَوْحَنَت ... وجلَّت عن التجسِيم قُدْماً فلا تُرى
وحلّ لنا فى الحين خَتْمُ فِدامِها ... فأسدى لنا مِسْكاً فتيقاً وعَنْبرا
وقلنا مَنْ السّاقى فلاح بوجْهه ... فأدْهَش ألْباب الأنام وحيّرا
وأشْغَلنا عن خَمْره بجمَاله ... وغيَّبنا سُكْراً فلم نَدْرِ ما جَرا

ومن شعره فى المعنى :

يانايماً يطلب الأسْرار إسْرارا ... فيك العِيان ونَبْغى بعدُ آثارا
أرجع إليك ففيك المُلكُ مُجتمَع ... والفُلْك والفَلَك العُلْوى قد دارا
أنت المِثال وكُرْسى الصِّفات فتُه ... على العوالِم إعلاناً وإسْرارا
والطُّور والدُّر[٣] منشوراً وقد كَتَبَتْ ... أقلامُ قُدْرته فى الّلوح آثارا
والبيتُ يَعْمُره سرُّ الملايك فى ... مِشكاةِ قَلْبِك قد أسْرَجْنَ أنوارا

(١) هذا البيت وارد فى الإسكوريال وساقط فى الزيتونة .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (لنا) .
(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (والرق) والأولى أرجح .

ورَفَع اللهِ سقفاً أنت تَسْكُنه ... سماؤه أطْلَعَتْ شُهُباً وأقْمارا
وبحرُ فِكْرِك مسجُورٌ بجوهره ... فغُصْ به مُخْرِجاً للدُّر أسْرارا
فإن رأيت [بوادي القُدْسِ][1] نَارَ هُدىً ... فاثْبُت فنُورُك فيها مازج النَّارا
واخْلَعْ لسَمْعِ النِّدا نَعليك مُفتقرا ... إلى المُنادى تَنَلْ عزّاً وإكبارا
وغب عن الكَوْن بالأسماء متّصِفا ... واطلُبْ من الكلِّ ربَّ الدار لا الدَّارا

ومن ذلك فى هذا المعنى :

أُطالب ما فى الرُّوح من غامض السِّر ... وقارع باب العِلْم من عالم الأمر
عَرَضْتُ لِعلمٍ أبْهمَ الشَّرْع بابَه ... لكلِّ جهول للحقائق لا يَدْرى
ولكنَّ خبيرا قد سألتُ مُحقِّقا ... فدونك فانظم ما نَثَرْتَ من الدُّر
وبين يَدَىَّ نجْواك قَدِّم وسيلةً ... تُقَى الله واكتُم ما فَهمت من السِّر
ولا تلتفت جِسْما ولا ما يخُصُّه ... من الحِسِّ والتخييل والوَهْم والفِكر
وخذ صورةً كليَّة جوهريَّة ... تَجلُّ عن التمييز[2] بالعَكْس والسَّبر
ولكن بِمرآةِ اليَقِين تولَّدت ... وليست بذاتى إن سألْتَ ولا غيرِ
كذلك لم تَحْدُثْ وليست قديمة ... وما وُصِفتْ يوماً بشَفْع ولا وَتْر
ولكن بِذاتِ الذَّات كان ظُهُورها ... إذا ما تبدَّت فى الدُّجا غُرَّة الفَجْر

ومن هذا الغرض قوله :

مُشاهدتى مَغْناك ياغايتى وقتٌ ... فما أشتكى بُعْداً وحبُّك لى نَعْتُ
مُقامى بقابى عاكفاً بجمالكم ... فكل مُقام فى الحقيقة لى تحت
لئن حالَتْ الأحوال دون لِقايكم ... فإنِّى على حُكْم المحبَّة ما حُلت
وإن كان غيرى فى الهوى خان عهدَه ... فانى وأيمُ الله عَهْدِىَ ما خُنت

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بالقدس) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (التحسيس) .

ومالِي رجاً غيرُ نَيْلِ وِصالكم ولا خوفٌ إلاَّ أن يكون له فَوْت
نعم إنْ بَدا من جانب الأُنس بارقٌ يُحرِّكنى بَسْطٌ به نحوَكم طِرْتُ
ومهما تذكرَّتُ العِتاب يهزُّنى لهيبَتِكم[1] قَبْضٌ يَغيب به النَّعت
تواجدتُ حتى صار لى الوَجْدُ مَشْربا ولاح وجودٌ للحقيقة إذ غِبْتُ
فها أنا بين الصَّحْو والمَحْو دايرٌ أقول فلا حرفٌ هناك ولا صَوْت
قُصُودى إليكم والورود عليكم ومنكم سُهودى والوجودُ إذا عَدِمت
وفى غَيْبَتِي عنِّي حضورى لديكم وعند امتحان[2] الرَّسم والمحْوأثْبَتُّ
وفى فُرْقَتِي البانى بحقٌّ جَمَعْتنى وفى جَمْع جَمْعى فى الحقيقة فرَّقت
تجلَّيتُه لى حتى دَهِشْتُ مهابة ولما ردَدْت اللَّحْظ بالسِّر لى عِشْتُ
مواردُ حقٌّ بل مواهبُ غاية إذا ما بَدَتْ تلك البوادة لى تُهْتُ
لوايح أنوار تلوح وتختفى[3] ولكن وميضَ البَرْق ليس له ثَبْتُ
ومهْمى بدت تلك الطَّوالع أدهَشَتْ وإن غُيِّبَت تلك اللَّوامع أظْلَمت
وهيهات هَيبات الجلال تردُّنى وعندالتجلِّى لامحالة دَكْدَكْت[4]
نَسَفْن جِبالى فهى قاعٌ صَفْصَفٌ وليس يُرى فيهنَّ زيغٌ ولا أَمْتُ
ولى أدمع أجَّجْن نار جَوانِحى ولى نَفَسٌ لولاه من حُبّكم ذبْتُ
ألا فانظروا قَلْبَ العيان حقيقةً فنايِي ووجُودى والحياة إذا متُّ
مراتبُ فى التَّلوين نِلتُ جميعَها وفى عالم التَّمكين عن كلِّها بِنْتُ
وعند قيامى عن فَنايِي وجدتكم فلا رُتْبةٌ عُلُويَّة فوق ما نِلت
ورودٌ وشِربٌ ثم لا رَيَّ بعده لين كنت أُرْوَى من شَرابك لا كنت

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (لطيبتكم) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (امتحا) والتصويب أرجح .
(٣) وردت فى الإسكوريال (واختفى) والتصويب من الزيتونة .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تكدكدت) .

شربتُ بأكواس الوجود مُدامة ... فلستُ أُجلي عن ورُود متى شِيت
وكيف وأقداح العَوالم كلُّها ... ولكنِّي من صاحب الدَّير أُسكِرْتُ
تعلق قوم بالأواني وإنّني ... جَمال المعاني لا المغانيَ عُلِّمتُ
وأرضعتُ كأساً لم تُدَنَّس بمزجها ... وقد نِلتُها صِرْفاً فيالعُمْرِيَ ما ضِعت
شرابٌ بها الأبرارُ طاب مزاجُهم ... وأرْضَعتُها صِرفاً لأني قُرِّبت
بها آدمُ نال الخِلافة عندما ... تبدَّت له شمساً لها نحوه سَمْتُ
ونجّت لنوحٍ حين فرَّ لفُلْكِه ... ومن بان عن أسرارها عَمْد الموتُ
وقد أخمدَت نارَ الخَليل بنورِها ... وكان لموُسى عن أشِعَّتها بُهْتُ
وهبت لروح الله روحٌ نسيمها ... فأبْصَره الأعمى وكلَّمه المَيْت
وسار بها المُختار سَيرى لربِّه ... إلى حيثُ لا فَوْق هناك ولا تَحْتُ
هنيئاً لمن قد أسْكَرَته بعَرْفها ... لقد نال ما يَبْغي وساعده البَخْتُ

ومن نثر الأستاذ الجليل أبي القاسم بن خلصون المترجم به ، قوله من رسالة :

«وصلني أيها الإبن النَّجيب ، المُخلص الحبيب ، كتابُك الناطق بخُلوص وُدِّك ، ورُسوخ عَهْدك ، وتلك سجيَّةٌ لايقة بمجدك ، وشِنْشِنَةٌ تُعرف من والدك وجَدِّك ، وصَلَ الله أسباب سَعْدك ، وأنْهَض عزم جَدِّك ، بتوفيق جَدِّك ، وبلَّغك من مأمولِك ، أقصى قَصْدك ، فلتَعْلم أيها الحبيب أن جَناني يَنْطَوي لكم أكثر مما يَنْشُره لساني . فإني مُغْرىً بِشكركم وإن أعْجَمْت ، ومُفْصِحٌ بجميل ذِكركم وإن جمْجَمْتُ ، لا جَرَم أن الوقت حَكم بما حكم ، واستولى الهرج فاستحكم ، حتى انقطعت المسالك ، وعَدِم الوارد والسَّالك ، وذلك تمحيصٌ من الله جارٍ على قضيَّة قِسْطه ، وتقليبٌ لقلوب عِباده بين إصبعي قَبْضه وبَسْطِه ، حين مُدّ على الخليقة ظلُّ التَّلوين ، ولو شاء لجعله ساكناً ، ثم جعل شمس المعرفة لأهل التَّمكين،

عليه دليلا باطنا ، ثم قبض كل الفِرق عن خاصيته قبضاً يسيراً ، حتى أطلع عليهم من الأُنْس بدراً مُنيرا . وإلى ذلك يا بُنَىَّ فإنى أحمد الله تعالى إليك على تَشْويقه إيَّاك إلى مُطالعة كُتب المعارف ، وتعطُّشك للورُود على بحر اللَّطايف . وإنَّ الإمام أبا حامد [1] رحمه الله ، لممَّن أحرز خَصْلها ، وأحْكَم فرعها وأصلها ، لا يُنكر ذلك إلا حاسدٌ ، ولا يأباه إلا مُتعَسِّفٌ جاحد . هذا وصْفُه ، رحمه الله ، فيما يخُصُّه فى ذاته . وأما تعليمُه فى تواليفه ، وطريقُه التى سَلكها فى كافَّة تصانيفه ؛ فمِن عُلمائنا رضى الله عنهم ، من قال إنه خلط النِّهاية بالبِداية ، فصارت كُتُبُه أقْربَ إلى التَّضْليل منها إلى الهداية ، وإن كان لم يقصُد فيها إلا النَّفع ، فيما أمَّه من الغَرض ، فوُجد فى كتبه الضَّرر بالعَرَض ، وممن قال بهذا الفقيه الحكيم أبو بكر بن الطُّفيل [2] . قال ، وأما أبو حامد ، فإنه مضْطرب التأليف ، يَرْبُط فى مَوْضع ، ويحِلُّ فى آخر ، ويَتَمَذْهب بأشياء ، ويَكْفُر بها ، مثل أنه كفَّر الفلاسفة باعتقادهم أن المعاد رُوحانى ، وإنكارهم حَشْرالأجْساد . وقد لوَّح هو بأن ذلك مَذْهَبَه فى آخر كتاب « الجواهزوالأربعين » وخرَّج بأنه مُعْتَقَد كِبار الصُّوفية ، فى كتاب آخر ، وقال إن مُعْتَقده كمُعْتقدهم ، وأنه وقع على ذلك بعد بحثٍ طويل وعَناءٍ شديد . قالَ ، وإنما كلامه فى كُتُبه ، على نحو تَعْليم الجُمهور . وقد اعتذر أبوحامد نفسُه عن ذلك فى آخر كتاب ، « ميزان العمل » ، على أغلب ظَنِّ ، فإن لى من مُطالعة الكتب مُدَّة . قال ، ولو لم يكن فى هذه الألفاظ إلا ما يُشَكِّك فى اعتقادك الموْروث ،

---

(١) هو حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) (١٠٥٨ - ١١١١ م) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ابن طفيل) وهو الأكثر شيوعا . وقد ترجم له ابن الخطيب فيما تقدم (راجع المجلد الثانى من الإحاطة ص ٤٧٨ - ٤٨٢) .

يَعْنى التَّقليد ، فإنه من لم يَشُكّ ، لم يَنْظُر ، ومن لم يَنْظُر ، لم يُبْصِر ، ومن لم يُبْصر فبِى العَمَى والحَيْرة . ثم تمثل بقول الشاعر :

خذ ما تراه ودَعْ شيئاً سَمِعتَ به   فى طَلْعَة الشمس ما يُغنيك عن زُحل

وذلك أنه قسّم آراءه إلى ثلاثة : رأى يُجاب به كلُّ مُسْتَرشد سايل ، بحسب سؤاله ، وعلى مقدار فهمه . ورأى يُجاب به الخاصّة ، ولا يُصَرِّحُ به للعامّة . ورأىٌ بَيْن الإنسان وبَيْن نَفْسِه ، لا يطّلِع عليه إلا مِن شَريكه فى اعتقاده . وأما الفقيه الفاضل أبو الوليد بن رُشد رحمه الله ، فإنّه بالغ فى ذلك مَبالغ عظيمة ، وذلك فى كتابه الذى وصَف فيه مناهج أدلَّة المُتَكَلِّمين ، فإنه لما تكلم على طُرُق الأَشْعَرِيَّة والمُعْتَزلة ، والفلاسفة ، والصُّوفية ، والحشويّة ، وما أحدثته [1] المُتَكلِّمون من الضّرر فى الشّريعة بتَواليفهم ، انعَطَف فقال ، وأما أبو حامد ، فإنه طَمَّ الوادى على القُرى ، ولم يَلْتَزم طريقةً فى كُتُبه ، فنراه مع الأَشْعَرية أشْعَرِيّاً ، ومع المُعْتَزلة ، مُعْتَزِلِيّاً ، ومع الفلاسفة فيلسوفاً ، ومع الصُّوفية ، صوفياً ، حتى كأنى به .

يوما يمان إذا لاقيت ذا يَمن   وإن لقيت معَدِّياً فَعَدْنان

ثم قال ، والذى يجب على أهل العلم ، أن يُنهوا الجمهور عن كُتُبه ، فإن الضّرر فيها بالذات ، والمَنْفَعة بالعَرَض . قال ، وإنما ذلك لأنه صرّح فى كتبه بنتائج الحِكمة ، دون مقدِّماتها ، وأفصح بالتّأويلات التى لا يطلع عليها إلا العلماء ، الرّاسخون فى العلم ، وهى التى لا يجُوز أن تُؤوَّل للجمهور ، ولا أن تُذكر فى غير كُتُب البُرْهان . وأنا أقول إن كتبه فى الأَصْلين ، أعنى أُصول الدين ، وأصول الفِقه . فى غاية النُّبل والنّباهة ، وبَسْطِ اللفظ ، وحُسْن التّرتيب والتّقْسيم ، وقُرْب المسائل . وكذلك كُتُبه الفقهية

---

(١) وردت فى الإسكوريال (وما أخذته) . والتصويب من الزيتونة .

والخِلافية والمَذْهَبِيَّة ، التى ألفها على مَذْهب الشَّافعى ، فإنه كان شافِعىَّ المذهب ، فى الفُروع . وأما كتبه التى ذَهَب فيها مَذْهب التصوُّف ، فهى التى يوجد فيها ما ذُكر من الضَّرر بالعَرَض . وذلك أنه بَنى الأكثر من الاعْتِقادات فيها على ما تأدَّى إلى فَهْمه من مذاهب الفلاسفة ، ونَسَبها إلى المُتَصوِّفة . وقد نبَّه على ذلك الفقيه الجليل أبو بكر الطُّرْطوشى [1] فى كتابه الذى سماه «بمراقى العارفين» . قال ، وقد دَخل على السّالكين ضرر عظيم من كُتُب هذا الرجل الطُّوسى [2] ، فإنه تَشَبَّه بالصُّوفية ولم يَلْحَق بمذاهبهم ، وخلَط مذاهب الفلاسفة بمذاهبهم ، حتى غَلِط الناس فيها . على أنَّنى أقول إن باعَه فى الفلسفة كان قَصيراً ، وإنه حَذا حذو الشيخ أبى على بن سينا فى فلسفته التى نقلها فى المقاصد ، ومَنْطِقِه الذى نقله فى مِعْيار العلم ، لكن قَصُر عنه . وتلك الاعتقادات ، منها حقٌّ ومنها باطلٌ ، وتلخيصُه لا يتأَتَّى إلا لصِنْفَين من الناس ، أعنى أهل البُرهان ، وأهل المُكاشفة ، فبحَسَب ذلك تحتاج كُتُبه إلى تَقْدِمة عُلوم البرهان ، أو رِياضة أهل المُكاشفة . ولذلك صنَّف هو مِعيار العلم ، ليكون الناظر فى كتُبه يَتَقَدَّم ، فيتَعَلَّم منه أصناف البراهين ، فيلْحَق بأهل البرهان . وقدمَّ أيضاً تَصْنِيف «ميزان العمل» ليكون المُرْتاض فيه ، وبه يَلْحَقُ بأهل المُكاشفة ، وحينئذ يُنْظَر فى ساير كتبه . وهذه الرسالة طويلة ، تكلم فيها على كُتُب أبى حامد الغزالى رحمه الله ، بما يدل على تفنُّنه ، وعلى اضطِّلاعه . رحمه الله .

---

(١) أبو بكر الطرطوشى فقيه ومفكر سياسى واجتماعى أندلسى ، ولد بثغر طرطوشة من أعمال الثغر الأعلى سنة ٤٥١ هـ ، وتلقى دراسته الأولى بسرقسطة ، ثم نزح إلى المشرق وطاف بحواضره ، وتلقى الكثير عن علمائه ، واستقر أخيراً بالإسكندرية وتوفى بها سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٧ م) ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب (سراج الملوك) وهو يعالج نظريات فى السياسة والاجتماع .

(٢) نسبة إلى طوس من أعمال فارس ، وهى مسقط رأس الإمام الغزالى .

ومن الغُرَباء فى هذا الاسم

محمد بن أحمد بن أمين بن معاذ بن إبراهيم بن جميل بن يوسف المراقى

ثم الخَلاطى ، ثم الأَقْشُرى الفارسى ، ويُنعت من النُّعوت المشرقية بجلال الدين ، من بلاد فارس

حـــــاله

كان من الصُّوفية المتجرِّدين من المالَ والعِيال ، ذا وقار وتُؤَدة ، وسُكون ومحافظة على ظاهِره . أكثر فى بلاد المشرق من الأخذ عن الشُّيوخ المحدِّثين والمُتَصوِّفين ، ثم قَدِم المغرب ، فاستوطن بعض بلاده ، ثم أجاز البَحر إلى الأندلس عام أربعة وسبعماية ، وأخذ عمّن بها من الشيوخ ، ودخل غرناطة . وكان شافعىّ المذهَب . يُشارك فى قَرْض الشِّعر .

مشـــيخته

أخذ عن أبى مروان عبد الملك الشَّريشى بفاس ، وعن أبى بكر محمد ابن محمد بن قَسِى الموميانى ، ولَبِس الخِرْقة الصُّوفية من جماعة بالمشْرِق ، وبالمغرب ، منهم الإمام أبو إبراهيم الماجَرى ، عن أبى محمد صالح ، عن أبى مَدْين .

توالـــــيفه

أُخِذ عنه تواليفُه فى نحو اللغة الفارسية ، وشرح ألفاظها . قال شيخنا . الوزير أبو بكر بن الحكيم ، كتب إلى والدى ببابه ، وقد أحسَّ بغَضٍّ من الشيخ الإمام أبى عبد الله بن خميس ، عَميد مجلس الوزارة الحكيمية :

عُبَيدٌ ببابِ العُلى واقف أيقبله المجْدُ أم ينصرف

فإن قَبِل المجدُ نِلتُ المُنا وإلاَّ فقَدْري ما أعْرف

ثم كتب على لفظه ما من وصحّحه . قال فأُذن له . واستظْرف منزعه .

محمد بن أحمد بن شاطر الجَمْحى المرَّاكشى

يكنى أبا عبد الله . ويُعرف بابن شاطِر .

حـــاله

فقيرٌ متجرِّد ، يلبس أحسن أطوار الخِرقة . ويُوثر الاصْطلاح . مَليح الشَّيبة ، جميل الصورة ، مُسْتَظْرف الشَّكل ، ملازمٌ للمسجد ، مساكنٌ بالمدارس ، محبَّبٌ إلى الخواص ، كثير الذِّكر ، متردِّدُ التأوُّه ، شارد اللِّسان ، كثير الفَلَتات ، مُطَّرِح فى أكثر الأحاين للسَّمت ، ينزع إلى هدفٍ تايه ، تَشِم عليه القِحة والمَجانة ، مُقْتَحم حِمى الحِشْمَة فى باب إيهام التَّلبيس ، يزلق سوء الاعتقاد عن صفاته ، وإن قارب الانهماك ، غير مبالٍ بناقد ، ولا حافلٍ بِذام ، ولا حامدٍ . كلما اتُّبع انفَرد ، ومَهْمى استقام شرد . تَعليب النَّفس به على غرّة . ويُحْسن الظَّن بباطنه على سُوء ظاهره . مليحُ الحديث ، كثير الاعتبار . دايم الاسترجاع والاستغفار . فعَّال الموعظة . عجيب الانتزاع من الحديث والقرآن ، مع عدم الحفظ ، مُسْتشهدٌ بالأبيات الغريبة على الأحوال . قال شيخنا القاضى أبو عبد الله بن المقّرى : لقيت فيمن لقيت بتِلمسان رجلين . أحدهما عالم الدُّنيا . والآخر نادرتها . أما العالم فشيخنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبْدرى الآبِلى . وأما النّادرة ، فأبو عبد الله بن شاطر [illegible]

كثيراً ، وأبا عبد الله بن تجلّات[1] . وأبا العباس بن البنّا ، وإخوانهم من المُرّاكشيين ومن جاورهم ، واختصّ بأبي زيد الهزْميرى ، وآثره وتبنّاه ، وكان يقول له . وألقيت عليك محبّة منّي ، فيظهر أثرُ ذلك عليه ، من سَتْر الهِنات ، ووَضْع القَبُول ، فلا تجد من يَسْتَثْقله من راض عنه أو ساخط. دخل الأندلس ، وقدم على غرناطة ، وتلوّم بها أياما .

نبذ من أقواله

فمن ذلك أنه إذا سئل عن نفسه يقول ، أنا ولىٌّ مَفْسُود ، وفى هذا من النَّصَفة ، وخِفّة الرُّوح ما لا خَفاء به . قال بعض شيوخنا ، قلت له يوما ، كيف أنت ، فقال ، كيف أنا محبوسٌ فى الدّم . ومن حكمه ، الليل والنهار حَرَسِيّان ، أحدهما أسود ، والآخر أبيض ، وقد أخَذَ بمجامع الخلق إلى يوم القيامة ، وإن مررنا إلى الله . ومرَّ يوما بأبي العباس بن شُعيب الكاتب وهو جالس فى جامع الجَزيرة ، وقد ذهَبَتْ به الفكرة ، فصاح به فلما رفع رأسه ، قال ، وله نَعْشُ خاطر ، أنظر إلى مَرْكِب عَزْرابيل ، قد رفع شِراعه ، والنّدا عليه ، اركبوا ياعزا . قال شيخنا أبو عبد الله المقّرى ، وجدته يوماً فى المسجد ذاكراً ، فقلت له ، كيف أنت ، فقال مُهيم فى روضة يَحْبُرون ، فهممتُ بالانصراف ، فقال أين تذهب من روضة من رياض الجنة ، يقام فيها على رأسك بهذا التّاج ، وأشار إلى المنار ، مملوءا بالله أكبر . قال وأنشدنى أبو العباس بن البنّا ، وكتبهما عنه :

قصدت إلى الوِجازة فى كلامى   لعلمى بالصَّواب فى الاختِصار

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تجلات) .

ولم أَحْذَر فهو ما دون فهمى ولكن خِفْتُ إِزْراءَ الكبـار
فشأن فحولة العُلماءِ شـانى وشان البَسْط تَعْلِيم الصِّغـار

قال ، وأخبار ابن شاطر تحتمل كُرَّاسة ، قلت رأيته بفاس فى أخريات عام خمسة وخمسين ، وهو الآن بحاله الموصوفة . قد أربى على السّبعين .

محمد بن محمد بن عبد الرحمن التميمى ، ابن الحلفاوى(١)

من أهل تونس ، يكنى أبا عبد الله ، نَزِيل غرناطة ، ويعرف بالتُّونسى وبابن المؤذن ببلده .

حـــــاله

من « العايد » : قال ، ولىُّ الله المُجابُ الدعوة ، الظاهرُ الكرامة ، المشهودُ له بالولاية . وَرَد الأَندلس فى جملة من تُجَّار بلده ، وبيده مالٌ كبير ، بَذَله فى معاملة ربِّه ، إلى أن اسْتَأْصَله بالصَّدقَة ، وأَنْفَقَه فى سبيل الله ، ابتغاءَ مَرْضَاتِه ، وتجرَّد عن الدنيا ، وأخذ نَفْسه بالصَّلاة والصَّوم والتِّلاوة ، وكثرة السُّجود ، والتَّطارح [على ذلك](٢) ، محفوظاً فى ذلك كله ، حِفْظَة الأَولياء ، مُذَكِّرا بمن سَلَفه من الزُّهاد ، عازباً عن الدنيا [أخذ نَفْسه](٣) بسلوك الإيتاب عنها ، رحمة للخلق ، وثمالاً للمساكين ، يتقصده الناس بصَدَقاتهم ، فيبثُّها فى ذوى الحاجات(٤) . فيتألَّف فى باب مسجده آلافٌ من رجالهم ونِسائهم وصِبْيانهم ، حتى يعمُّهم الرِّفْد ، وتسعُهم

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة (الحفاوى) .
(٢) هذه الزيادة من الزيتونة .
(٣) هذه الزيادة من الزيتونة .
(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (الحاجة) . والأولى أنسب .

الصَّدقة . وكان غريبَ الأَحوال ، إذا وَصَلَ وقت الصلاة ، يظهر عليه البِشْرُ والسُّرور ، ويدخل مَسْجده الذى ابْتَناه ، واحْتَفل فيه ، فيخلو بنفسه آخذاً فى تعبُّدات كثيرة ، غريبة شاملة لجميع أركان المسجد ، ويزْدحم الناس حول المسجد ، وأكثرهم أهلُ الفاقة ، فإذا تمكَّن الوقت ، أَذَّن أذانا مُؤَثِّراً فى القُلوب ، جَداً وصِدْقاً ووقاراً ، كان صَدْره يَنْصَدع عند قول ، لا إلَه إلاَّ الله . ثم يعيدُ التَّعَبُّد والسُّجود فى الصَّومعة وأَدْراجِها ، حتى يُفْتح باب المسجد ، وينتقل إلى صَدْر المحراب ، فيصلى ركْعات خفيفة . فإذا أقام الصلاة ، ووقف عند المحراب ، ظَهرعليه من الخَوْف والكَآبة والحُزْن والانْكِسار والتَّضَرُّع والتَّمَلُّق[1] والرَّغبة ، ما لا تفى العبارة بوَصْفه ، كأَن موقِفَه موقفَ أهل الجرايم بين أَيْدى المُلُوك الجَبابرة . فإذا أَتمَّ الصلاة على أَتَمِّ هيئاتها ، تَرى كأَن الغُبار على وجهه ، أو كأَنه حُشِر من قَبْر ، فإذا شرع فى الدُّعاء بأَثر الصلاة ، يتلُوه بتَرْداد الصلاة على النَّبي صلى الله عليه وسلم فى كل دَعْوة ، ويتوسَّل به ، وتظهر عليه أحوال من الحُضور والمُراقبة ، ويَنْجلى عن وجهه ما كان به . وكان يَخْتِم القرآن فى شهر رمضان مائة خَتْمة ، فما من ليلة ، إلاَّ ويُحيي اللَّيل كلَّه فيها بمسجده . هذا ترتيبه . ولو تَتَبَّعنا ما شوهد من كراماته وأحواله ، لخرجنا عن الغرض .

ولد بتونس فى حدود الأَربعين وستمِاية .

توفى فى شهر ربيع الثانى عام خمسة عشر وسبعماية . وكان الحَفْل فى جنازته عظيماً ، استَوْعب الناس كافَّة ، وحضر السلطان ، فمن دونه ، وكانت تَنمُّ ، زعموا ، على نَعْشه وقَبْره رائحةُ المِسْك . وتبرَّك الناس بجنازته ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزينونه (التخلق) .

وقصد قبره المرضى وأهل الحاجات . وبقى القُرَّاءُ يقرأون القرآن عليه مدة طويلة . وتُصُدِّق على قبره بجملة من مال ،ففُدِىَ به طايفةٌ من الأَسرى . وقبره بباب إلبيرة عن يمين الخارج إلى مقبرة العسَّال ، معروف هنالك .

محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن يوسف اللَّواتى

من أهل طنجة ، يكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابنِ بَطُوطَة .

حـــاله

من خطِّ شيخنا أبى البركات ، قال ، هذا رجلٌ لديه مشاركة يسيرة فى الطَّلب ، رَحَل من بلاده إلى بلاد المَشْرِق يوم الخميس الثانى من رجب عام خمسة وعشرين وسبعماية ، فدخل بلاد مصر والشام والعراق ، وعِراق العَجَم ، وبلاد الهند والسِّند ، والصين ، وصينِ الصِّين ، وبلاد اليمن . وحج عام ستة وعشرين وسبعماية . ولقى من الملوك والمشايخ عالَماً ، وجاور بمكَّة . واستقرَّ عند ملك الهند ، فحظِى لديه ، وولاَّه القضاء ، وأفاده مالاً جسيماً . وكانت رحلته على رَسْم الصُّوفية زِيا وسَجِيَّةً ، ثم قَفل إلى بلاد المغرب ، ودخل جزيرة الأندلس ، فحَكَى بها أحوال المشرق ، وما اسْتفاد من أهله ، فكُذِّب . وقال ، لقيتُه بغرناطة ، وبتنا معه ببُسْتان أبى القاسم ابن عاصم بقرية نِبْلة ، وحدثنا فى تلك الليلة ، وفى اليوم قَبْلها عن البلاد المشرقيَّة وغيرها ، فأَخْبرَ أنَّه دخل الكنيسة العُظْمى بالقُسْطَنْطِينية العظمى ، وهى على قَدْر مدينةٍ مُسَقَّفة كلها . وفيها اثنى عشر ألف أسْقُف . قلت ، وأحاديثه فى الغرابة أبْعَدُ من هذا . وانتقلَ إلى العُدْوة ، فدخل

بلاد السُّودان . ثم تُعرِّف أن ملك المغرب استدعاه ، فلحق ببابه ، وأمر بتدوين رحلته (١) .

سائر الأسماء فى حرف الميم

الملوك والأُمراء ، وما منهم إلا طارئٌ علينا أو غريب

مَزْدَلى بن تيولتكان بن حمى بن محمد بن ترقوت بن وَرْبابطن بن منصور ابن نِصاله بن أمية بن واباتن الصَّنهاجى اللتَّمونى

حـــاله

كان الأَمير مَزْدَلى عَضُدَ القايم بالدولة اللَّمتونية يوسف بن ناشُفِين ، وقريبه لالتقائهما فى تَرْقُوت ، راشَ به وبَرَى ، وجَزَّ وفَرَى ، فهو شيخ الدولة اللَّمْتُونية ، وكبير العِصابة الصَّنهاجية ، بطلاً ثَبْتًا ، بُهْمة من البُهَم بعيد الصِّيت ، عظيم الجَلَد ، شهير الذِّكر ، أَصِيل الرَّأى ، مُسْتَحكم الحُنْكَة ، طال عمره ، وحَمُدَت مواقعُه ، وبعُدَت غاراتُه ، وعظمت فى العدوِّ وقايعُه ، وشُكرت عن سلطانه نيابتُه .

من مناقبه ، استرجاع مدينة بلنسية من أَيدى الرُّوم بسَعْيه ، وردِّه إلى مُلْكَة الإسلام بحميد غِنايه فى مُنتصف رجب عام خمس وخمس ماية .

---

(١) إنه لمن بواعث الأسف والدهشة معاً ، أن يقتصر ابن الخطيب فى التعريف بابن بطوطة ، أعظم الرحل المسلمين ، على هذه الأسطر القليلة ، التى نقلها من خط شيخه ابن الحاج . وقد كان جديراً به أن يعطى سيرة هذا الرحالة العظيم شيئاً من الأهمية ، ويقدمها إلينا على الأقل فى الحيز المطول الذى ترجم فيه لمواطنه الرحالة الغرناطى ابن جبير (راجع هذه الترجمة فى المجلد الثانى من الإحاطة ص ٢٣٠-٢٣٩) والتى عرف فيها بحاله ورحلته ومشيخته ونثره وشعره بإفاضة . ولقد كان ابن الخطيب ، قبل أن يضع لابن بطوطة هذه الترجمة الموجزة ، على أوثق مودة وصداقة به ، وقد وجه إليه وقت أن كان قاضياً بالسوس بتامسنا (فى سنة ٧٦٣هـ) أثناء إقامته بسلا ، رسالة يستشيره فيها فى شراء الأرض بجواره (راجع هذه الرسالة فى كتابنا لسان الدين ابن الخطيب . ص ٣٣٤) .

دخوله غرناطه . ولى قرطبة وغرناطة وما إليهما من قِبَل يوسف بن تاشفين سنة خمس وخمسماية

قال ابن الصَّيرفى(١) . توفى ليلة الثلاثاء السابع عشر من شوال عام ثمانية وخمس ماية . غازيا على مقربة من حِصْن قسطانية ، طرق به إلى قرطبة . فوصل يوم الأَربعاء ثانى يوم وفاته ، وصَلَّى عليه إثر صلاة العصر الفقيهُ القاضى بقرطبة أبو القاسم بن حَمْدين ، ودفنه قريب أبيه ، وبُنِيت عليه روضةٌ حسنة . وكان ، نضَّر الله وجهه ، البقِّية الصالحة على نهج أمير المسلمين يوسف .

موسى بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن بن على الهنتاتى

السيد أبو عُمران .

حـــاله

بَيْتُه معروف . وكان أديباً شاعراً ، جواداً ، واختصَّ بالعادِل ، فجل قَدْرُه فى دولته ، وأمله الناس بإشبيليه فى حوايجهم لمحلِّه منهم . ولما انصرف عنها العادل إلى طلب الخلافة ، قدَّمه عليها ، فبلغ الغاية .

وفى شوال من عام اثنين وعشرين وستماية ،كانت على جَيْشه الوقيعة ، أوقعها به السيد أبو محمد البيَّاسى ، وأخباره شهيره .

وتوفى تَغْرِيقاً فى البَحْر بعد أن وُلِّى بجاية ، رحمه الله وعفا عنه .

شـــعره

قال ، وكان أبو المُطرِّف بن عَميرة ، يَنْشِد له ، يخاطب الفقيه

(٢) هو من علماء غرناطه وكتابها فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى . وقد سبق التعريف به . (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ١٠٨ حاشية) .

الأَديب أَبا الحسن بن حَريق بسْتَحِثُّه على نظم الشعر فى عَرُوض الخَببْ .

خُذْ فى الأَشْعار على الخَبَبْ ... فقُصُورك عنـه من العَجَب

هذا وبنُو الآداب قَضُــوا ... بعُلُوٍّ مَجْدِك فى الرُّتَـب

فنظم له أَبو الحسن القصيدة المشهورة ، منها :

أَبُعَيْد الشَّيب هَوَى وصَبَا ... كلَّا لا لهــوًا ولا لِعبـــا

ذرّت الســتُّون بُرادَتهــا ... فى مِسْك عِذارِك فاشْتَهَبـا

ومنها : يا نفس أَحيِى تصلى أَملاً ... عيشىروحيا تروى عجبـا

وخُذى فى شكر الكَبْرة ما ... لاح إلاصْباح وما ذَهَبـا

فيها أَحْرَزْتُ معارفَ ما ... أَبْليتَ بجِدّتـه الحِقبـا

والخمر إذا أُعْتِقَتوصَفَتْ ... أَغْلَى ثمناً منهــا عِنَبَـا

وبقيَّةُ عُمْر المرءِ له أَن ... كان بهــا طَبًّـا دَرِبَـا

هَبْنى فيهــا بإنابَتِــه ... ما هدَّمــه أَيــــام صَبَا

دخل غرناطة ، فوجَبَ ذكره مع مثله .

مَنْديل بن يعقوب بن عبد الحق بن مَحْيوَ الأمير أبو زيّان

حــالـه

كان فاضلاً عاقلاً جواداً . عيَّنه أَبوه أَمير المسلمين أبو يوسف بن عبد الحقِّ للضَّرب على أَحواز مالَقة عند الفِتنة . فاضطَّرب المحلة تجاه سُهيل[(١)] . وضيق على تلك الأَحواز ، وبَرَز إليه الجيش لنَظِر موسى بن

(١) سهيل ، وتسمى اليوم بالإسبانية Fuengirola بلدة من إقليم مالقة ، تقع على شاطىء البحر المتوسط ، على قيد نحو ثلاثين كيلو متراً غربى مالقة .

زَحُّو من قرابته ، النَّازعين عن إيالة المغرب من بنى رَحُّو . وكان اللقاء ، فوقعت به الدَّبْرة ، وانهزم جيشه ، وقُبض عليه ، وسِيق إلى السلطان ، فتلقَّاه بالبرِّ ، ورَعى ما لبَيْته الكبير من الحقِّ ، وأسكنه مجاوراً لقصره بحمرايه[1] ، مرفَّهاً عليه ، مَحْجُوزاً عن التصرُّف ، إلى أن كان ما تلاحَق بهذه الحال من وفاة أبيه السلطان أبى يوسف بالجزيرة الخضراء ، وتَصَيُّر الأمر إلى ولده السلطان أمير المسلمين أبى يعقوب يوسف . وتجَدَّدَت الأُلفة وتأكَّدت المودَّة ، وارتفعت الإِحْنَة ، فكان ما هو معروف من التقائهما على تَعْيِنَة[2] إجازة ملك المغرب أبى يعقوب البحر على ظاهر مَرْبَلَّة[3] ، وصُرف الأمير أبو زيان محبُوّا بما يليق به .

حدَّثنى شيخُنا أبو زكريا بن هُذَيل رحمه الله ، قال ، نُصب للسلطان أبى يعقوب خِباءٌ احتَفل فى اتخاذه له أميرُ سَبْتة ، فبلغ الغاية التى لاتستطيعها الملوك ، سُمُوَّ عماد ،وامتدادَ ظل ، وانفساح ساحة ،إلى إحكام الصَّنعة ، والإِعياء فى الزُّخرف . وقُعَد فيه السلطان ملك المغرب ، وأجْلس السلطان أمير المسلمين أبَا عبد الله ابن الغالب بالله ، عن يمينه ، وأخاه الأمير أبا زيَّان عن يساره ، وقرأ عِشاره المعروف بالوقَّاد ،آيةُ الله فى حُسن الصَّوت ، وبعد مَدى السَّمع ، وطيبِ النَّغمة ، قوله عزَّ وجل ، « يا أيها العزيز مَسنا وأهْلنا الضُّرُّ ، وجئنا ببضاعة مُزْجاة ، فأوف لنا الكيْل ، وتصدَّق علينا ، إنَّ الله يُجْزى المُتَصَدِّقين . قال هل علمتم ما فعلتم بيُوسُف

---

(١) بحمرايه أى قصر الحمراء مقر سلاطين غرناطة .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة وفى الإسكوريال (تعبة) .

(٣) مربلة . بالإسبانية Marbella ثغر من ثغور شاطىء اسبانيا الجنوبى المسمى بساحل الشمس Costa del sol ، نظراً لصحو منطقته ، وصفاء جوه ، تقع على نحو ستين كيلو متراً غربى مالقة (وراجع المجلد الأول من الإحاطة ص ١٩٧ حاشية) .

وأخيه ، إذ أنتم جاهلون ، قالوا إنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى قد منَّ الله علينا ، إنه من يَتَّق ويَصْبِر ، فإن الله لا يُضيع أجر المحسنين. قالوا تالله لقد آثَرَك الله علينا وإن كُنَّا لخاطئين ، قال لا تَثْريب عليكم اليوم ، يَغْفر الله لكم وهو أَرْحَمُ الرَّاحمين » . فكان مقاماً مُبْهِتاً . كان السلطان رحمه الله يقول ، لشَدَّ ما جَنى علىّ عدو الله بقِحَتِه ، والله لقد كان يُشير بيده إلى السلطان وأخيه عند قوله ، أنا يوسف وهذا أخى . ثم أجاز للعُدْوة ، فطاح بها لعَهْد غير بَعيد .

وكان الإيقاعُ بجيش الأمير أبى زيَّان فى أُخْرَيات ذى الحجة عام أربعة وثمانين وستماية . فاتصل بذلك موتُ والد أمير المسلمين أبى يوسف بالخضراء فى شهر محرم عام خمسة وثمانين بعده ، وكان لِقاء السُّلْطانين بالخضْراء فى شهر محرم عام خمسة وثمانين هذه ، وكان اللِّقاءُ كما ذُكر فى شهر ربيع الآخر من العام المذكور .

ومن الطارئين

المُطَرِّف بن عبد الله بن محمد ابن [عبد الرحمن بن الحكم] بن هشام ابن عبد الرحمن بن معاوية(١)

حـــاله

كان المطرِّف ، ولد الخليفة(٢) عبد الله أمير المسلمين بالأندلس ، شجاعاً مِقْداماً ، جَرِيًّا . صَرَفَه والده الخليفة فى الغَزَوات ، وقَوْد العساكر ، وهو الذى بنى حصن لَوْشَة ، ووَقَم كثيرا من الخوارج على والده .

(١) وردت نسبة المطرف محرفة فى الإسكوريال حيث ذكرت (المطرف بن عبد الله ابن عبد الله) وأسقط منها من بعد محمد اسم (عبد الرحمن) . ولكنها وردت صحيحة فى الزيتونة .

(٢) إن استعمال كلمة (الخليفة) هنا هو من باب التجاوز ، لأن عبد الله لم يكن سوى أمير الأندلس ، ولم تبدأ الخلافة إلا من بعده على يد حفيده عبد الرحمن الناصر .

دخوله غـرناطة

قال ابن حيّان (١) غزا المطرّف بُبَشْتِر (٢) بسبب ابن حَفْصون ، إذ كان صالح الأمير عبد الله ، ودَفع رهينةً إبنه ، فلما امتُحن الطِّفلُ ، وُجد غير ابنه ، فنهض إلية المطرّف ، وكان القايد على العسكر قَبْله عبد الملك ابن أمية ، فنهض صُحبته ، ونازل المطرّف ابن حفصون ، فهَتَك حَوْزَته ، وتقدّم إلى بِنْيَةٍ كان ابْتَناها بموضع يعرف باللّويّات ، فشرع فى خرابها ، وخرج ابن حفصون ومن معه من النّصرانية يُدافع عنها ، وعن كنيسة كانت بقُرْبها ، فغُلب ابن حفصون ، وهُدمت الكنيسة ، وقُتل فى هذه الحرب حفصُ بن المُرّة قايدُه ووُجُوه رجاله ، وعند الفراغ من ذلك . انصرف المطَرِّف ، فدخل كُورَة إلبيرة ، وبنا لَوْشَة ، وتقدّم منها إلى إلبيرة ودخلها ، ثم طاف بتلك الجهات والحصون ، ثم انصرف .

ذكر إيقاعه بعبد الملك ين أمية وسبب ، الإحنة بينه وبين أبيه

قال ، وفى هذه الحركة ، أَوْقَع بعبد الملك بن أمية ، لما كان فى نفسه لصَرْف والده عن عَقْد البَيْعة له ، وتمزيق العَهْد فى خبر يطُول . وكان والدُه قد أخذ عليه الميثاق عند خروجه إلى شَذُونة (٣) ، ألاّ يَعْرض إليه بمكروه ، وأقسم له بالإيمان ، لين نال منه شيئاً ليعاقِبَنّه بمثله ، فلما قتله ، عمد

---

(١) أبو مروان بن حيان القرطبى من أعظم مؤرخى الأندلس (٣٧٧ - ٤٦٩ ﻫ) . وقد سبق التعريف به (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ٩٢ حاشية) .

(٢) ببشتر وبالإسبانية Bobastro ، بلدة حصينة تقع فى شمال غربى مالقة ، وعلى مقربة من شمال شرقى رندة ، وكانت أيام الفتنة الكبرى من معاقل زعيم ثورة الجنوب ابن حفصون .

(٣) شذونة أو مدينة شذونة وبالاسبانية Medina Sidonia ، تقع فى منطقة الفرنتيرة فى المثلث الإسبانى على مقربة من جنوب شرقى شريش، وعلى مقربة منها كانت الموقعة الحاسمة التى انتصر فيها طارق بن زياد فاتح الأندلس على القوط سنة ٩٢ ﻫ (٧١١ م).

الوثائق عليه ، وأخذ الشّهادات فيها بالظُّلم والشُّؤم خوفاً من أبيه ، وكتب إليه يَعْتذِر له ، ويُحَكِّمه فى نفْسِه .

مقتل المطرِّف

قال ، وظهرت عليه ، فِعال قبيحة ، من أذى جِيرانه بما أكّد غايلة أبيه عليه ، وأعان عليه معاوية بن هشام ، لما ذكروا أنَّ المطرِّف كان قد خلا به ، فذكروا أنه نَزَل يوما عنده بمنزله ، وأخَذُوا فى حديثِ الأبناءِ ، وكان المطرِّف عقيماً ، فدعا معاوية بِصَبِي يَكْلَفُ به ، فجاء وبرأسه ذُؤابتان ، فلما نظر إليه المطرِّف حَسَده ، وقال يا معاوية ، أتتشبَّهُ بأَبْنَاءِ الخلفاءِ فى بَنِيهم ،وتناول السَّيف فحزَّ به الذُّؤابة ، وكان معاوية حيَّةُ قريش دهاءً ومكراً ، فأَظْهَر الاسْتِحْسان لصُنْعه وانْبَسط معه فى الأُنْس ، وهو مضّطِغن . فلما خرج كتب إلى الخليفة يسأله اتِّصاله إليه ، فلما أَوْصَله كاشفه فى أمر المطرِّفِ [بما أزْعجَه، وأقام على ذلك ليلاً أحْكَم أمره عند الخليفة] (١) بلُطْفِ حِيلته ، فأصاب مقْتَلَه سهمُ سِعايته . قال ابن الفيَّاض ، بعث الأمير عبد الله إلى دار ولده المطرِّف عَسْكراً للقبض عليه ، مع ابن مُضَر ، فقُوتِل فى داره حتى أُخِذ ، وجىء به إليه ، فَتَشَاور الوزراءُ فى قَتْله ، فأشار عليه بعضهم أنْ لا يَقْتُلَه ، وقال بعضهم إن لم تَقْتُلْه قَتَلك ، فأمر ابن مُضر بصَرْفه إلى داره ، وقَتْله فيها ، وأن يَدْفِنه تحت الرَّيحانة التى كان يشربُ الخمر تحتها ، وهو ابن سبعٍ وعشرين سنة ، وذلك فى يوم الأحد ضُحًى لعشر خلون من رمضان سنة اثنتين وثمانين ومائتين .

---

(١) هذه العبارة واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الإسكوريال .

مُنذِر بن يحي التُّجِيبي

أمير الثَّغر المُنْتزى بعد الجماعة بقاعدة سَرَقُسطة ، يكنى أبا الحكم ويُلقَّب بالحاجب المنصور ، وذى الرِّياستين

حـــاله

قال أبو مروان ، وكان [أبو الحكم][١] رجلا من عَرْض الجند ، وترقَّى إلى القيادة آخر دولة ابن أبي عامر . وتناهى أمره فى الفِتنة إلى الإمارة . وكان أبوه من الفرسان غير النُّبَهاء . فأمَّا ابنهُ منذر ، فكان فارساً نقِيُّ الفُرُوسة ، خارجاً عن مدى الجهل ، يتمسك بطَرْف[٢] من الكتابة السَّاذجة . وكان على غَدْره ، كريما ، وهَبَ قُصَّاده مالا عظيما ، فوفَدوا عليه ، وعَمُرت لذلك حَضْرَتُه سَرَقُسْطة . فحسُنت أيامُه ، وهَتَف المُدَّاح بذكره .

وفيه يقول أبو عمرو بن درّاج القَسْطَلِّيُّ[٣] قصيدته المشهورة ، حين صَرَف إليه وجهه ، وقَدِم عليه فى سنة ثمان وعشرين وأربعماية :

بُشْرَاك من طول التَّرحُّل والسُّرى ... صُبْح بِرُوح السَّفْر لاح فأسفرا
من حاجب الشمس الذى حَجَب الدُّجا ... فَجْرًا[٤] بأنهار النَّدَى مُتفجِّرا

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بضرب) .

(٣) هو أبو عمرو (وهو الأرجح فى كنيته) أحمد بن محمد بن دراج القسطلى ، من أعظم شعراء الأندلس فى أواخر عهد المنصور وأوائل عهد الطوائف . ولد سنة ٣٤٧ هـ بقسطلة من أعمال جيان . وتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) وله مدايح كثيرة لأمراء الطوائف . وقد قام على تحقيق ديوانه ونشره الدكتور محمود على مكى (دمشق سنة ١٩٦١) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (فجرى) . والتصويب من الديوان .

نادى بحىٍّ على الندى ثم اعتلا   سُبُل العُفاة مهلِّلاً ومكبِّرا
لُبَّيك أَسْمَعَنا نداك ودوننا   نَوْءِ الكواكب مُخْويا أو مُمْطرا
من كل طارق لَيْلٍ همٍّ (١) ينتحى   وجهى بوجهٍ من لقايك أزْهَرا
سارٍ ليَعْدِل عن سمايك أنْجُمى   وقد ازْدَهاها عن سَنَاك محُيِّرا
فكأنما أعْدته (٢) أسباب النّوى   نور الهدى عن يديك منورا (٣)
أو غار من همَمى فأنحى شأوها   فلَكُ البروج مغرِّبًا ومُغَوِّرا
حتّى عَلِقْتُ النّيِّرين فأعلقا   مثْنَى يدى مَلِك الملوك النَّيِّرا
فسريتُ فى حرَم الأهِلَّة مظلما   ورَفَلْت فى خِلَع السَّمُوم مهجَّرا
وشَعَبْتُ أفلاذ الفؤاد ولم أكَدْ   فحذوتُ من حَذْو الثريَّا مَنْظَرا
ستٌّ تسرّاها الجلاء مغرِّباً   وحَدا بها حادى النجاءِ مُشَمِّرا
لا يستفيق الصُّبح منها ما بدا   فَلَقاً ولا جَدْىُ الفراقد ما سَرَا
ظُعُنٌ ألِفْن القفر فى غَوْل الدُّجا   وتركْن مألوفَ المعاهد مُقْفرا
يَطْلُبن لجَّ البحر حيث تقاذفت   أمواجُه والبرُّ حيث تَنَكَّرا
هيمٌ وما يَبْغين دونك مَوْرِدا   أبدا ولا عن بَحْر جودك مَصْدرا
من كلِّ نِضْو الآل محبوكِ المنى   يُزْجيه نحوك كلُّ محبوك القَرَا
بُدْنٌ فَدَتْ منّا دماء نحورها   ببِغائها فى كل أفق مَنْحرا
نَحَرت بنا صَدْر الدّبور فأنبطت   قَلَقَ المضاجع تحت جوٍّ أكْدرا
وصَبَتْ إلى نحو الصَّبا فاستخلصت   سَكَن الليالى والنّهارَ المُبْصرا
خوصٌ نَفَخْنَ بنا البُرى حتى انثنت   أشلاؤهن كمثل أنصاف البُرا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الديوان (همى) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الديوان (أغرته)

(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال ، ووردت فى الديوان كالآتى (قدر لبعدى من يديك مقدراً) .

نَذَرَتْ لنا أَن لا تُلاقى راحـةً ... مما تُلاقى أَو تُلاقـى مُنْـذِرا
وتَقَاسَمَتْ أَن لا تُسِيغ حياتها ... دون ابن يحيى أَو تموت فتُعْذَرا
للّه أى اهلّة بَلَغَـتْ بنـا ... يُمناك يا بَدْرَ السماءِ المُقْمِرا
بل أَىَّ غُصْنٍ فى ذَراك هَصَرْته ... فجرى(١) فأَوْرَق فى يديك وأَثْمَرا
فلئن صَفا ماءُ الحياة لديك لى ... فبما شَرِقت إليك بالمـاءِ الصَّرى
ولئن خَلَعْتَ علىّ بُرْداً أَخضرا ... فلقـد لبِسْتُ إليـك عَيْشاً أَغْبرا
ولئن مددَّتَ علىّ ظـلا باردا ... فلـكم صَلِيت إليك جواً مُسْعَرا
[وكنى لمن](٢) جعل الحياة بضاعةً ... ورأى رضاك بها رخيصـاً فاشْتَرى
فمن المُبلِّغُ عن غريب نازح ... قلبـا يكـاد علىّ أن يَتَفَطّـرا
لهفـانَ لا يرتدُّ [طَرْفُ جفونه](٣) ... إلاّ تـذكَّر عَـبْرتى فاستَعْـبَرا
أَبُنَىّ لا تَذْهب بنفسك حسْرةً ... عن غَوْل رَحْلى مُنجِـدا أو مُغْورا
فلئن تركتَ الليـل فوقى داجيا ... فلقد لَقيتُ الصبح بعـدك أَزْهَرا
ولقد ورَدْتُ مياه مأْرِب حُفَّلاً ... وأَسَمْتُ خيـلى وسْط جنَّة عَبْقَرا
ونظمت للغيد الحسان قلائداً ... من تاج كِسرى ذى البهاءِ وقَيْصَرا
وحللتُ أَرضًا بُدِّلت حصباؤها ... ذَهَباً يَرِفُّ لنـاظِرىَّ وجوهـرا
وليَعْلَم الأَمـلاكُ انىَ بعـدهم ... أَلفَيتُ كلَّ الصيد فى جوف الفَرا
ورمى علىّ رداءه من دونهـم ... مَلكٌ تُخُيِّر للعُـلا فتَخَيّـرا
ضربوا قِداحهم علىّ ففـاز بى ... من كان بالقدْح المُعَلّى أَجـدرا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الديوان (نخر)

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الديوان (وكفاك من)

(٣) وردت فى الإسكوريال (فى أجفانه) وعبارة الديوان (طرف جفونه) أنسب للمعنى

مِن فَكَّكَ طرفى من تكاليف الفلا وأجار طَرْفى من تباريح السُّرى
وكفا عِتابى من ألام مُعَذِّرا وتذَمُّى ممَّن تحمَّل مُعْذرا
ومُسائلٍ عنىً السرفاق ووُدُّه لو تنبذ السانحات [1] رَحلى بالعَرا
وبقيتُ فى لُجَجِ الأَسَى مُتضلِّلا وعدلتُ عن سُبُل الهُدى مُتَحيِّرا
كلاَّ وقد آنستُ من هُودٍ هُدىً ولقيتُ يَعْرُب فى القُيول وحِمْيرا
[وأصبتُ فى سبإٍ مورِّث مُلْكه يَسْبِى الملوكَ ولايَدِبُّ لها الضَّرا] [2]
فكأنما تابعت تُبَّعَ رافعـاً أعلامَه مَلِكاً يدين له الوَرَى
والحارثُ الجَفْنِى ممنوع الحِمى بالخَيْل والآساد مبذولُ القِرى
وحططتُ رَحْلى بين نارَى حَاتِمٍ أيام يَقْرِى موسـراً أو مُعْسِرا
ولقيت زَيْد الخَيْل تحت عَجاجة يكسو غلايلُها الجيادَ الضُمَّرا
وعقدتُ فى يَمَنٍ مواثقَ ذِمَّة مشدودةِ الأسباب موثقةِ العُرى
وأتيتُ بَحْدَل وهو يرفعُ مِنبرا للدِّين والدُّنيا ويَخْفِضُ مِنْبَرا
وحطَطْتُ بين جفانها وجُفونها حَرَماً أبت حُرُماتهُ أن تُخْفَرا
تلك البحورُ تَتابعت وخلَفْتَها سعياً فكنت الجَوْهَرَ المُتَخَيَّرا
ولقد نَمَوْك ولادةً وسيادةً وكَسَوْك عِزًّا وابْتَنَوْا لك مَفْخَرا
فَمَرَتْ بالآمال [3] أكرَمَ أكْرَمٍ مُلْكاً ورثت عُلاه أكْبرَ أكْبَرَا
وشَمايل عَبِقت بها سُبُلُ الهُدى وذَرَت على الآفاق مِسْكاً أذْفَرا
أهْدَى إلى شَغَف القلوب من الهَوى وألَذَّ فى الأجْفان من طَعم الكَرى
ومشاهد لك لم تكن أيامُها ظنًّا يَريبُ ولا حديثاً يُفْتـرَى

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الديوان (السادات) .

(٢) هذا البيت ساقط فى الإسكوريال . ووارد فى الديوان .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الديوان (بالإقبال) .

لاقيت فيها الموت أسودَ أدْهَمـا … فَذَعَرْته بالسَّيف أبيضَ أحْمرا
ولو اجْتلى فى زِىٍّ قِرْنِك مُعْلَماً … لتركتَـه تحت العَجـاج مُعَفَّرَا
يـا من تَكَـبَّر بالتَّكرُّم قدرُه … حتى تكـرَّم أن يُـرى مُتكَبِّـرا
والمنذر الأعـداء بالبُشْرى لنـا … صَدَقَتْ صفاتُك مُنذرا ومُبشِّرا
ما صُوِّر الإيمانُ فى قَلْب امرئٍ … حتى يراكَ اللهُ فيـه مُصَـوِّرا
فارفع لها عَلَم الهُـدى فلمثلها … رَفَعتْك أعلام السيادة فى الذُّرَى
وانصُر نُصِرتَ من السماء فإنمـا … ناسبت [1] أنصار النبى لتُنْصَرا
واسْلَم ولا وجَدُوا لجوِّك مَنْفَساً … فى النائبات ولا لبَحْرِك مَعْبَرا [2]

سـيرته

قال ، وساس لأول ولايته عظيَم الفِرَنْجة ، فحُفِظت أطْرافُه ، وبلغ من استمالته طوايفَ النَّصرانية ، أن جرى على يديه بَحضْرته . عقد مصاهرة بعضهم [3] ، فقَرَفَته الألسنة لسَعْيه فى [نظام سِلْك النصارى] [4] . وعَمَر به الثَّغر إلى أن أَلْوت به المَنِيَّة . وقد اعترف له الناس بالرأى والسِّياسة .

---

(١) هكذا وردت فى الديوان وفى الإسكوريال (ناصبت) والأولى أرجح .

(٢) لم يرد فى الزيتونة من هذه القصيدة سوى البيتين الأولين . ووردت القصيدة برمتها فى ديوان ابن دراج القسطلى السابق ذكره (ص ١٢٤ — ١٣١) . وأورد منها ابن بسام فى الذخيرة ثلاثين بيتا (القسم الأول من المجلد الأول ص ٥٦ — ٥٨ طبعة الجامعة المصرية) .

(٣) كانت هذه المصاهرة بين سانشو ملك نافار (أنبره) ورامون بوربل أمير برشلونة حيث اقترن الأول بابنة الثانى . وعقد الزواج بقصر الأمير المنذر بسرقسطة ، وحضره الفقهاء والقساوسة وأعيان الملتين .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى : (نظام ملك النبار) وملك النبار ، هنا يعنى ملك نافار أونبره ، وكلا القراءتين صحيحه ، وتؤدى معنى مناسبا .

كِتّابه واستكتب عدة كتّاب كابن مدوّر وابن أزْرق . وابن واحب وغيرهم .

وصـــوله إلى غرناطة

وصل غَرْناطة صُحبة الأمير المُرْتَضى الآتي ذكره ، وكان ممن انهزم بانهزامه . وذكروا أنه مرَّ بسليمان بن هُود ، وهو مُثْبِت للإفرنج الذين كانوا في المحلَّة لا يريم موقفه [(١)] ، فصاح به النجَّاة ، يا بن الفاعلة ، فلستُ أقف عليك ، فقال له سليمان ، جِيت والله بها صَلَعاً ، وفَضَحْت أهل الأندلس ، ثم انْقَلع وراءه .

وفـــاته

وكانت على يَدَىْ رجل من أبناء عمه يدعى عبد الله بن حَكَم ، كان مُقَدَّماً في قُوَّاده ، أضمر غَدْره ، فدخل عليه ، وهو غافل في غِلالة ، ليس عنده إلا نفرٌ من خواصِّ خَدَمه الصُّقْلُب ، قد أكبَّ على كتاب يقرؤه ، فعلاه بسِكِّين أجهز به عليه . وأجْفَل الخدم إلَّا شَهْمٌ منهم أكبَّ عليه فمات معه . ومَلَك سَرَقُسطة ، وتمسَّك بها أياما ، ثم فرَّ عنها ، ومَلَكها ابن هُود . وكان الإيقاع به غرة ذى حجة سنة ثلاثين وأربعمائة ، رحمة الله عليه .

موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يَغْمراسن بن زيّان الأمير بتلمسان ، يكنى أبا حَمُّو .

---

(١) أى لا يبرحه .

أوّليّـــته

أوّليته معروفة تنظر فيما سلف من الأسماء .

حــــاله

هذا السلطان مُجْمعٌ على حَزْمه ، وضمّه لأطراف مُلْكه ، واضّطلاعه بأعباء مُلْك وطنه ، وصَبْره لدولة قومه وطلُوعه بسعادة قبيله . عاقلٌ ، حازمٌ ، حَصيفٌ ، ثابتُ الجأْش ، وقورٌ مَهيبٌ ، جمّاعةٌ للمال ، مباشر للأمور ، هاجر للّذات ، يَقِظ ، مُتَشَمِّر . قام بالأمر غُرّة ربيع الأول فى عام ستين [(١)] ، مُرْتاش الجَناح بالأَحْلاف من عَرَبِ القِبْلةِ ، معوِّلاً عليهم عند قصْد عدُوِّه ، وحَلَب ضِرع الجِباية ، فأَثْرى بيتُ ماله ، ونَبُهَت دولتُه ، واتَّقَتْه جيرتُه ، فهو اليوم ممن يُشار إليه بالسَّداد .

أَدبـه وشـــعره

ووجَّه لهذا العهد فى جُملة هدايا وُدِّية ، ومقاصِدَ سِنيَّة ، نسخة من كتابه المسمى «بواسِطَة السُّلوك فى سياسة المُلوك»[(٢)] ، افتتحه بقوله :

« الحمد لله الذى جعل نِعْمته على الخَلْق ، بما أَلْهمهم عليه من الحقِّ ، شاملةً شايعةً ، ويسَّر طوايفَ من عِباده لليُسْرى ، فأَتتْ إليها مُساعدة مُسارعةً ، وحضَّهم على الأَخْذِ بالحُسْنى ، ولا أَحْسَنُ من نفوس أُرْشِدت ،

---

(١) أى سنة سبعمائة وستين ٧٦٠ هـ .

(٢) توجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بمكتبة الجزائر الوطنية حفظ برقم 1374 من فهرس Fagnan وتقع هذه النسخة فى ٩٣ لوحة كبيرة مكتوبة بخط مغربى . وقد اطلعنا على الكتاب وهو يحتوى على أربعة أبواب . الأول فى « الوصايا والحِكم » والثانى فى « قواعد الملك وأركانه » والثالث فى « الأوصاف التى هى نظام الملك » والرابع فى « الفراسة » ويتخلل هذه الأبواب كثير من الأمثال والحكايات والسوابق .

فأقبلت لإرثها طالبةً ولربِّها طايعة . ولا أسمى من هِمَمٍ نظرت بحُسْن السِّياسة فى تدبير الرِّياسة . التى هى لأشْتاتِ الملك جامعةٌ . ولأسباب المَلْك مانعة ، وأظهرت من معادنها دُرَر الحِكَم ، وغُرَر الكَلِم لايحةً لامعةً ، فاجتلَت أقمارها طالعةً ، واجْتَنَتْ أزهارَها يانعةً . وصلى الله على سيدنا محمد الكريم ، المبعوث بالآيات البَيِّنات ، ساطيةً ساطِعةً ، والمُعْجزات المُعْجَمات قاصِمةً لظهور الجاحِدين قاطعةً . الذى زُويت له الأرْض ، فتَدانَتْ أفكارها وهى نابِيةٌ شاسعة ، واشتاقت له المياه ، فبَرَزَتْ بين أصابعه يانعةً ، وامْتَثَل السَّحاب أمْرَه ، فسحَّ باستِسْقايه دُررًا هاميةً هامعةً ، وحنَّ الجِذْع له ، وكان حنينُه لهذه الآيات الثَّلاث آيةً رابعةً ، إلى ما لا يُحصى مما أتتْ به مُتَواتَرات الأخبار ، وصَيْحات الآثار ، ناصرةً لنبوَّتِه ساطعةً . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، وعِتْرَتِه التى أجابت داعىَ الله خاشيةً خاشعةً ، وأذْعَنت لأوامر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكانت من الاسْتِبْداد خالية ، وللأنْداد خالعةً ، صلاة ديمَتُها دائمةٌ مُتَتابعةٌ ، وسلم كثيرا » .

جَمَع فيه الكثير من أخبار الملوك وسِيَرِهم ، وخصَّ به ولَدَه وولىَّ عهده ، فجاء مجْمُوعاً يُسْتَطْرَفُ من مِثْله ، ويدلُّ على مكانه من الأدب ومحلِّه .

وثَبَتَ فيه الكثيرَ من شِعره . فمن ذلك قصيدة أجاب فيها أحدَ رؤوس القبايل ، وقد طلب منه الرجوع إلى طاعته ، والانتظام فى سِلْك جماعته ، وهى :

تذكَّرتُ أطْلال الرُّبوع الطَّواسِم ... وما قد مضى من عهدها المُتقادم
وقفتُ بها من بَعْد[بُعْد أُنْسِها] (١) ... بصَبْرِ مُنافٍ أو بشوقٍ مُلازم
تَهيم بمَغْناهم وتَنْدب رَبْعهم ... وأىّ فؤاد بَعْدهم غيرُ هايم

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (هذا نسيمها)

تَحِنُّ إلى سلمى ومن سَكَن الحِمى ... وما حبُّ سَلمى للفتى بمُسالم
فلا تَنْدِب الأَطْلال واسْلُ عن الهوى ... ولا تَقُل فى تَذْكار تلك المَعالم
فإنّ الهوى لا يَستَفِزّ ذوى النُّهى ... ولا يَسْتَبِى إلا الضَّعيف العَزايم
صبورٌ على البَلْوى طَهُورٌ من الهوى ... قريبٌ من التَّقوى بعيدُ المآثم
ومن يَبْغ دَرْكَ المُعْلَوات ونَيْلها ... يُساق بخَلْق الشّهد مُرَّ العَلاقم
ولائمة لما رَكِبنا إلى العُلا ... بحارَ الردى فى لُجِّها المُتَلاطم
تقول بإشفاق أتَنْسى هوى الدّما ... وتنثُرُ دُرَرًا مِن دُموعٍ سَواجم
إليك فإنّا لا يَرُدُّ اعتزامَنا ... مقالةُ باك أو ملامَةُ لائم
ألم تَدْر أن اللوم لومٌ وأننا ... لنجتنب اللّوم اجتناب المحارم
فما بسوى العَلْيا هِمْنا جلالةً ... إذا هام قوم بالحسان النّواعم
بزوق السُّيوف المشرفيّات والقنا ... أحبُّ إلينا من بروق المباسم
وأما صَميل السّابحات لذى الوَغى ... فأشجى لدينا من غِنا الحمايم
وأحسنُ من قدِّ الفتاة وخدِّها ... قدود العوالى أو خدود الصوارم
إذا نحن جرّدنا الصوارم لم تَعُد ... إلا غِمادُها الأَبْحرُ الغلاصم
نواصل بين الهند [وانى الطّلا] (١) ... بتفريق مابين الطّلى والجماجم
فيرغب منا السِّلم كل مُحارب ... ويَرْهب منّا الحرب كلُّ مُسالم
نقود إلى الهيجاء كلَّ مُضمَّر ... ونقدم إقدام الأُسود الضّراغم
وما كلُّ من قاد الجيوش إلى العدا ... يعود إلى أوطنانه بالغنائم
وننصر مظلوما ونمنع ظالما ... إذا شيك مظلوم بشَوْكة ظالم
ويأْوى إلينا المُسْتجير ويلتجى ... ويحميه منّا كل ليثٍ صيارم(٢)

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وإلى الطلا) .
(٢) هكذا وردت فى « الزيتونة » . وفى الإسكوريال (ضبارم) .

ألم تر إذ جاء السَّبَيْعى(١) قاصدا إلى بابنا يَبغى(٢) التماس المكارم
وذلك لمّا أن جَفاه صِحابُه وكلٌّ خليل وُدُّه غير دايم
وأَزْمَع إرسالاً إلينا رسالةً بإخلاص وُدٍّ واجب غير واجم
وكان رأى أن المهامة (٣) بيننا فخَلَى لذات الخُفِّ ذَات المنَاسِم
وقال ألا سَلْ من عَليم مجرِّبٍ أبثٌّ له ما تحت طيِّ الحيَازم
فيبلّغُ عنه الآن خيرَ رسالةٍ تُوَدّى إلى خير الملوك الأعاظم
على ناقةٍ وجْناء كالحرْف ضامرٌ تَخَيّرها (٤) بين القِلاصِ الرَّواسم
[من اللاى يُظْلمن الظليم إذا عَدى ويُشْبهُه فى جيده والقوايم
إذا أتْلَعَتْ فوق السَّحاب جوابَها تخيَّلتُهاتعضُّالسَّحابالروَّاكَم](٥)
وإن هَمْلَجَت بالسَّير فى وسط مَهْمه نَزَلَتْ كمِثل البَرْق لاح لشايم
ولم يأمَنْ الخُلاّن بعد اختلالهم فأمْسَى وفى أكبادها أى جاجم
فقالوا فحمِّلها الحَمايِم قال لا لبُعْد المدا أو خَوْف صَيْد الحَمايم
وما القصدُ الا فى الوصول بسرعة فقالوا فحمِّلها أكُفَّ النواسم
فقال لنِعم المُرْسلات وإنّما لها ألسُنٌ مشهورة بالنَّمايم
فلم يَلْفَ فيها للأمانة مَوضعا وكلٌّ امرئ للسِّر ليس بكاتم
فحينئذ وافى إلينا بنَفْسه فكان لدَيْنا خيرُ واف وقادم
يجوب إلينا البَيْداء قصداً وبشرُنا(٦) يُضئُ له الظَّلْماء فى كلِّ عاتم
طُلَّاب العلا تَسْرى مع الوحش فى الفلا ويَصْحبُ منها كلَّ باغٍ وباغِم

(١) هكذا وردت فى « الزيتونة » . وفى الإسكوريال (السبيع) والأولى أنسب للوزن .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ببكى) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الملامة) .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تجريها) .
(٥) هذان البيتان واردان فى الإسكوريال وساقطان فى الزيتونة .
(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (سرنا) .

على سَلْهَبٍ [1] ذي صوتين مُطْعَم [2] من المُغْربات الصّافنات الصّلادم
إذا شاء أيّ الوحْش أدركه به فتحسبه فى البيد بعضَ النّعايم
ويُقدِّمه طوعاً إلينـــا رجلؤه حمايتُنـــا إيّـــاهُ من كلِّ ظـالِمِ
ألا أيها الآتى لظـــلِّ حَنانِنـــا نَزَلْتَ برَحْب فى عِراص المكارم
وقوبِلْتَ منّا بالذى أنتَ أهلُـه وفاض عليك الجودُ فَيْضَ الغَمايم
كذا دأبُنــا للقادمــين محَلّنــا حِمىً ونـدا يُنسَى به جُودُ حاتِمِ
وهذا جوابٌ عن نظامك إنّنــا بُعثْنــا به كاللؤلؤ المُتَنـــاظِم
ونحن ذوو التيجــان من آلِ حِمْير لَعَمْرُك ما التّيجــان غيرُ العَمايم
بهمّتِنا العَلْيــا سَمَوْنا إلى العُلا وكم دُون إدراك العُلا من مَلاحم
شدَدْنا لها أزْراً وشِدْنا بنـــاءها وكم مَكَثَتْ دهراً بغيـر دَعـائم
نَظَمْنــا شتيت المجـد بعد افتراقه وكم بـاتَ نَهبْـاً شملُه دون ناظم
ورُضْنا جياد المُلْك بعد جِماحها فذَلّت وقد كانت صِعاب الشّكايم
مناقِبُ زيّانيّةٌ [3] موسَوِيّـــةٌ يُذلُّ لهـا عزُّ الملوك القَمـــاقِم
يَقْصُر عن إدراكهـا كلُّ مُبْتغٍ ويعجز عن إحْصـايها كلُّ ناظم
فلله منا الحمدُ والشُّكر دايماً وصلى الله على المختار من آل هاشم
ونختَصُّكم منا السّلام الأثيرَ ما تضاحك روضٌ عن بُكاءِ الغمايم

قلت ، ولما تعرّفتُ كَلَفَه بالأدب . والإلمام بمجُاورته ، عزمتُ على لقايه ، وتشوّقتُ عند العَزْم على الرِّحلة الحجازية . إلى زيارته ، ولذلك كنت أُخاطبه بكلمة منها :

---

(١) فرس سلهب أى طويل ، وخيل سلاهب .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مطمع) .

(٣) نسبة إلى يغمراسن بن زيان بن ثابت زعيم بنى عبد الواد ، ومؤسس مملكة تلمسان المستقلة فى سنة ٦٤٠ هـ ، ورأس هذه الأسرة الملوكية .

على قَدَرٍ قد جيت قومَك يا موسى فجلّت بك النُّعمى وزالت بك البؤسى

فحالَتْ دون ذلك الأحوال . وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد . وفّقه الله ، وساير من تولّى أمراً من أمور المسلمين .

وجرى ذكره فى رجز الدول [١] من نظمى :

بادَرَها المُفدَّى الهمامُ موسى فأذهب الرحمن عنهما البُوسى
جدد فيها المُلْكَ لما أخلقا وبعث السّعد وقد كان لقا
ورتّب الرُّتبا والرُّسوما وأطْلَع الشُّموس والنُّجوما
واحْتَجنَ المال بها والعُدَّة وهو بها باق لهذى المُدَّة

ولد بمدينة غَرناطة حسبما وقعتُ عليه بخط الثِّقة من ناسه ، فى أول عام ثلاثة وعشرين وسبعماية [٢] .

مُبارك ومُظفَّر الأميران مَوْليا المنصور بن أبى عامر

حالُهما

قال أبو مروان [٣] ، ترقّيا إلى تَمَلُّك بَلَنْسية من وكالة السّاقية ، وظَهر من سِياستهما وتعاوُضِهما صحّة الأُلْفة طول حياتهما ، ما فاتا به فى معناها أشِقّاء الأُخوّة ، وعُشّاق الأحبّة . إذ نَزَلا معاً بقصر الإمارة مُخْتَلِطين ، تجمعهما مائدةٌ واحدة من غير تميُّزٍ فى شيئ ، إلا الحُرم خاصّة . وكان التّقدُّم لمُبارك فى المُخاطبة . وحفظ رسوم الإمارة . أفضلُ صرامةً وذِكْراً ،

(١) يقصد ابن الخطيب هنا الإشارة إلى كتابة (رقم الحلل فى نظم الدول) وقد عرفنا به فى مقدمة هذا الكتاب .

(٢) توفى السلطان العالم الأديب أبو حمو — موسى بن يوسف بن عبد الرحمن فى سنة ٧٩١ هـ ، قتيلا خلال ثورة قام بها ولده أبو تاشفين لانتزاع الملك منه بمعاونة بنى مرين .

(٣) يعنى أبو مروان ابن حيان (بن خلف بن حيان).

قَصّرَ عنهما مُظَفّر ، لدماثة خُلُقه ، وانحِطاطِه لصاحبه فى ساير أمره ، على نحْلته بكتابة ساذجة وفروسة ، فبلغا الغاية من اقتِنـاءِ الأَسلحة والآلات الملوكية ، والخَيْل المُغْربات ، ونفس الحُلىّ والحُلَل ، وإشادَة البناء للقُصور . واشتمل هذا الرأى على جميع أصحابهما ، ومَن تعلّق بهما من وُزرايهما وكتّابهما ، ولم يَعْرِض لهما عارضُ إنْفاق بتلك الآفاق[1] ، فانغَمسا فى النّعيم إلى قِمَم رؤوسِهما حتى انقضى أمرُهما .

قال ، وكان موتُ مبارك أنه ركب يوما من قصر بَلَنْسية ، وقد تَعرّض أهلُها مُسْتَغِيثين من مالٍ افتَرَضَه عليهم ، فقال لهم ، إن كنت لا أريد إنْفاقه فيما يَعُمُّ المسلمين نَفْعه ، فلا تُؤَخّر عقوبتى يومى هذا . وركب إثْر ذلك . فلما أتى القنطرة ، وكانت من خشب ، خرَجَت رِجْلُ فَرسِهِ من خدها فرمى به أسْفَلها ، واعترضته خَشَبة ناتِئَةٌ شَرَخَتْ وجهه ، وسَقط الفرسُ عليه ، ففاضَتْ نَفْسُه ، وكفاهم الله أمرَه يومئذ .

وفى مُبارك ومُظَفّر يقول أبو عمرو بن درّاج القَسْطَلّى رحمه الله :

أنوركِ أم أوقدتِ بالليل نارك ... لبـاغ قِـراك أو لبـاغ جـوارَك
وريّاك أم عـرفُ المجـامر أشْعَلَت ... بعـود الـكباءِ والألـوّة نـارك
ومَبْسِمُكِ الوضّاح أم ضوءُ بارق ... حَداه دُعائى أن يجود ديـارَك
[وخَلخالَكِ استنضيتِ أم قمرٌ بدا ... وشمسٌ تبّدت أم ألَحْتِ سوارَك][2]
وطُرّةُ صُبح أم جبينُـك سافـرًا ... أعَرْتِ الصباح نورَه أم أعارَك
وأنتِ هجرتِ[3] الليل إذ هَزَم الضُّحى ... كتائبَه والصُّبحَ لما استجارَك

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الأقطار) .
(٢) هذا البيت وارد فى ديوان ابن دراج (السابق التعريف به) وساقط فى الإسكوريال
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الديوان (أجرت) .

فللصُّبح فيما بين قِرطَيْك مطلعٌ ... وقد سَكَنَ الليلُ البهيم خِمارَكِ
فبالنهار لا يُغيض ظلامُه ... وبالظلام لا يُغيض نهارَك
ونجمُ الثريّا أم لآل تقسّمت ... يمينَك إذ ضمّختَها أم يسارَك
لسلطانِ حُسْنٍ فى بديع محاسِن ... يصيدُ القلوبَ النافِراتِ نِفارَك
وجُنْدُ غرام فى دروع صَبابة ... تقلَّدْن أقدار الهوى واقتدارَك
هو المُلْك لا بلْقيس أدرك شأْوُها ... مداك ولا الزبّاءُ شقَّت لُغبارَكِ
وقادحة[1] الجَوْزاء راعيتُ مَوهِناً ... بحزِّ هواك أم ترسّمتُ دارَك
وطيفُك أَسْرَى فاستثار تَشوُّق ... إلى العهد أم شَوْقى إليك استثارَكِ
ومُوقَدُ[2] أنفاسى إليك استطارَنى ... أم الرُّوح لما رُدَّ فى استطارَكِ
فكم جُزْتِ من بَحْر إلىّ ومَهْمَة ... يكادُ يُنسِّى المُسْتهام ادّكارَك
[أذوُ الحظّ من عِلم الكتاب حَذاك لى ... أم الفَلَكُ الدوّار نحوى أدارك][3]
وكيف كتمت الليل وجهَك مظلماً ... أشَعْرَكِ أغْشَيْت[4] السَّنا أم شِعارَك
وكيف اعتَسَفْت البِيد لافى ظعائنٍ ... ولا شَجَرُ الخَطِّىِّ حفَّ شجارَك
ولا أذّن الحَىُّ الجميعُ برحْلَة ... أراح لها راعى المخاض عِشارَك
ولا أرْزَمت خوصُ المهارى مجيبةً ... صهيل جياد يكتَنِفْن قِطارَكِ
ولا أذْكَتَ الرُّكْبان عنك عيونَها ... حِذار عيون لا يَنَمْن حِذارَك
وكيف رضيتِ الليل مَلْبَس طارق ... وما ذرَّ قرنُ الشمس إلا استنارَك
وكم دون رَحْلِى من بروج[5] مشيَّدة ... تُحَرِّم من قربِ المزار مزارَك

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الديوان (وقادمة) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الديوان (ومرتد) .
(٣) هذا البيت ساقط فى الإسكوريال ووارد فى الديوان .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الديوان (أغشيت) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الديوان (قصور) .

وقد زَأَرتْ حولى أسودٌ تهامَست ... لها الأُسْد أَنْ كُفِّى عن السَّمع زارَك
وأَرْضِى سيولٌ من خُيول مُظَفَّر ... وليلى نجومٌ من سماءِ مُبارَك
بحيث وجدتُ الأَمْنَ يهتف بالمُنى ... هلُمِّى إلى عَيْنَين جادا سَرارَكِ
هلُمِّى إلى بَحْرين قد مَرَج النَّدى ... عُبابَيْهما لا يَسْأَمان انتظارَك
هلُمِّى إلى سَيْفَين والحدُّ واحدٌ ... يُجيران من صَرْفِ الحوادث جارَك
هلُمِّى إلى طِرْفَىْ رِهان تقدَّما ... إلى الأمَدِ الجالى عليك اختيارَك
هلُمِّى إلى قُطبى نجوم كتايب ... تنادى نجومَ النَّعس غُورى مَغارَك[١]
وحيٍ[٢] على دَوْحَين جاد نَداهما ... ظلالَك واستَدْنى إليك[٣] ثِمارَك
وبُشراك قد فَازَتْ قِداحُك بالعُلا[٤] ... وأُعطيتِ من هذا الأَنام خِيارَك
شريكان فى صِدْق المُنَى وكلاهما ... إذا قارَن[٥] الأَقْران غير مُشارَكِ
هما سَمعا دعواك يادعوةَ الهدى ... وقد أَوْثَقَ الدهر الخئُون إسَارَك
[وسلاّ سيوفاً لم تزل تَلْتَظى أَسًى ... بثارِك حتى أَدْرَكا لك ثارَك
ويَهْنِيك يا دارَ الخلافة منهما ... هِلالان لاحا يَرْفعان منارَكِ
كلا القَمَرين بين عَيْنَيه غُرَّةٌ ... أثارت كُسُوفَيْك وجلَّت سِرَارَكِ][٦]
فقاد إليك الخيل شُعْثاً شَوازِيا ... يُلبِّين بالنَّصر العزيز انتصارَك
سوابِق هَيْجاء كأَنَّ صهيلَها ... يُجاوب تحت الخافقات شِعارَك
بكلِّ سَرِىّ العِتْق سرَّى عن الهُدى ... وكل حَمِىِّ الأَنْفِ أَحْمى ذِمارَك

---

(١) هذا البيت وارد فى الإسكوريال وساقط فى الديوان .
(٢) هكذا وردت فى الديوان . وفى الإسكوريال (وحيا) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الديوان (إلى) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الديوان (بالمنى) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الديوان (بارز) .
(٦) هذه الأبيات الثلاثة واردة فى الديوان وساقطة فى الإسكوريال .

تحلَّوا من المنصور نصراً وعزةً … فأَبْلَوْك فى يوم البلاءِ اختيارَك
إذا انتَسَبوا يوم الطِّعان لعامر … فعُمْرك يا هام العِدى لا عَمارَك
يقودُهم منهم سِراجاً كتايبٌ … يقولان للدُّنيا أَجدّى افتخارَك
إذا افْتَرَّت الرايات عن غُرَّتَيْهما … فيا للعِدى أَضْلَلْتِ منهم فِرارَك
وإن أَشْرقَ النّادى بنور سَناهما … فبُشْرى الأَمانى عَيْنَك لا ضِمارَك
وكم كشَفْنا من كُرْبة بعد كُرْبة … تقول لها النيرانُ كُفِّى أُوارَك
وكم لبَّيا من دعوة وتداركا … شَفَى رمق ما كان بالمُتَدارَك
ويانفْسُ غاوٍ كم أقرّا نفارَك … ويارجْل هاو كم أَقالا عثارَك
ولستُ بِبِدع حين قلت لهمَّتى … أَقِلِّى لإِعْتاب الزّمانِ انتظارَك
[فلله صِدْقُ العَزْم أَيَّة غِرَّة … إذا لم تُطِيعى فى لَعَلَّ اغتِرارَك][1]
فإن غالت البيدُ اصطبارَك والسُّرى … فما غال ضيمُ الكاشِحين اصطبارَك
ويا خُلَّة التَّشْويف قومى فأَغْدِقى … قِناعَك من دونى وُشدِّى إزارَك
[وحسبُك بى ياخلَّة النّاى خاطِرى … بنفسى إلى الحظِّ النفيس حِطارك][2]
فقد آن إعطاءُ النَّوى صفقةَ الهوى … وقولُك للأَيّام [جُورى مَجَارك][3]
ويا سُتْر البيضِ النَّواعم أَعْلِنى … إلى اليَعْمَلات والرِّحال بدارَك[4]
نواجىَ واستَوْدَعتهنَّ نواجيا … حِفاظَك ياهذى بذى وازدِهارَك
ودونَك أَفلاذَ الفؤاد فشمِّرى … ودونَكِ يا عينَ اللَّبيب اعتبارَك
صرفتُ الكَرى عنها بمُغْتَبَق[5] السُّرى … وقلتُ أَدِيرى والنجوم عُقارَك

---

(١) هذا البيت وارد فى الديوان وساقط فى الإسكوريال .
(٢) هذا البيت وارد فى الديوان وساقط فى الإسكوريال .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الديوان (حورى محارك) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الديوان (سرارك)
(٥) هكذا وردت فى الديوان ، وفى الإسكوريال (بمعتنق) والأولى أنسب للسياق

فإن وجَبَتْ للمغْرِبَين جنوبُهـــا | فداوي بَرقْراق السَّراب خُمارك
فأوْرى بزَنْدَى سُدفة وذُجُنَّة | إذا كانتا لى مَرْخَك وعَفــارَك
وإن خلع الليلُ الأصائلَ فاخلعى | إلى المَلِكين الأكْرَمين عِذارَك
بلنسيةٌ مثْوَى الأمانى فاطلُــبى | كنُوزَك فى أقطـارِها وادّخــارَك
سيُنْبيك زَجْرى عن بلاءٍ نسيتُه | إذا أصبحت تلك القصور قُصارك
وأظْفَرُ سَعْى بالرِّضا مِن مُظَفَّــر | وبورك لى فى حُسنِ رأى مُبــارَك
قَصِيُّ المنى[1] قد شام بارقَة الحيــا | وانشقَّت يا ظِئْر الرَّجا حُوارَك[2]
وحمداً يمينى قد تملَّأتِ بالمُــنى | وشكراً يسارى قد حَوَيْتِ يَسارك
وقل لسماءِ المُزْن إن شئت اقْلِعـى | ويا أَرْضها[3] إن شِيت غِيضى بحارك
ولا توُحشِى .يادولة العزِّ والمُنى[4] | مساءَكِ من نُورَيْهما وابتِكارَك[5]

وصولهما إلى غرناطة

وصلا مع أمثالهما من أمراء الشَّرق صحبة المُرْتَضى ، وكان من انهزام الجميع بظاهرها ، وإيقاع الصناهجة[6] بهم ما هو معلوم حسبما مر ويأتى بحول الله .

ومن ترجمة الأعيان والوزراء

بل ومن ترجمة الطارئين والغرباء منها

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الديوان (فظم) .

(٢) هكذا وردت فى الديوان . وفى الإسكوريال (جوارك) . والأولى أنسب للسياق . والحوار هو ولد الناقة الرضيع .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الديوان (ويا أرضنا) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الديوان (الندى) .

(٥) وردت هذه القصيدة برمتها فى ديوان ابن دراج القسطلى الذى سبقت الإشارة إليه (ص ١٠١ — ١٠٨) .

(٦) أى جند صنهاجة .

٢٩٨ -

منصور بن عمر بن عثمن بن يعقوب بن عبد الحق بن مَحْيُو

يكنى أبا على

أَوَّليتـــه

معروفة قد مرَّت عند ذكر إخوته وقومه .

حـــاله

كان رحمه الله فتَى القوم ، لسِناً ، مُفَوَّهاً ، مُدْركا ، متعاطيا للأدب والتاريخ ، مُخالطا للنُّبلاءِ ، مُتَسَوِّرا خُلُقَ العلماءِ ، غَزْلاً ، كَلفاً بالدُّعابة ، طُرْفَة من طُرَف أهل بيته ، قوى الشَّكيمة ، جواداً بما فى وُسْعه ، مُتَناهيا فى البَدانة . دخل غرناطة فى الجُمْلةِ من إخوانه وبنى عمِّه ، مُغَرَّبين عن مَقَرِّ الملوك بالمغرب ، وأقام بها إلى شهر ربيع الأول من عام ثلاثة وستين وسبعماية . وركِب البحر فى الخامس والعشرين منه، عندما لَحِق أخوه عبد الحكيم بالمغرب ، وبايَعه الناس ، ولاحَتْ له بارقةٌ ، لم تَكِد تَقْد حتى خَبَتْ ، فبادر إلى مُظاهرته فى جَفْنٍ غَزَوِى من أُسطول الأندلس ، وصَحِبه قومٌ ممن يَخْطُب الخُطط ، ويبْتَدر رَمَق الدول . وهال عليهم البحر ، فطَرَح الجَفْن بأحْواز غسَّاسة ؛ وقد عادتْها مُلْكة عدُوِّهم ، فيتقبَّض عليه . وأُدخل مدينة فاس ، فى الثانى لربيع الآخر من العام ، مَشْهور المَرْكب على الظَّهر . يُضرب بين يديه طبلٌ للشُّهْرة . وناقورُ المُثلة ؛ وأُجلس بين يدى السلطان . فأبْلَى بما راق الحاضرين من بيانه من العُذْر للخروج بالاستِمالة حتى لرُجى خلاصُه . واستقر مُثَقَّفاً تتعلَّق به الأراجيف ، ويحوم حول مطْرحة الاختبار إلى حين وفاته .

شـعره

أنشدنى الفقيه الأديب أبوبكر بن أبى القاسم بن قُطْبة من شِعره ، وكان صاحبُه فى الرِّحلة ، ومُزامِلُه فى أسطول المَنْحسَة ، وذلك قوله :

سوف ننال المُنى ونَرقى   مَراقى العزِّ والمَعال
إذا حطَطْنا بأَرض فاس   وحُكِّمت فى العِدَى العوال
فأَنت عندى لها حَقِيقٌ   يا حايز الفَضْل والكمال

وفاته

فى وسط جمادى الأُولى من العام . دُخل عليه فى بيت مُعْتَقله فقُتل ، ودُفن ببعض مدافنهم . رحمة الله عليه .

مُقاتل بن عطية البِرْزالى

يكنى أبا حرب ، وقال فيه أبو القاسم الغافقى ، من أهل غرناطة ، ويُلَقَّب بذىِ الوَزارتين ، ويعرف بالرُّيَّه (١) لحُمْرةٍ كانت فى وجهه .

حاله

كان من الفُرسان الشجعان لا يُصْطَلَى بناره . وكان معه من قومه نحوٌ من ثلاث ماية فارس من بنى بِرزال . وولاه الأَمير عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس مدينة اليُسانة (٢) . والتقى به ابن عباد وأَخذ بمُخَنَّقها ، وكان

(١) كذا فى الإسكوريال والزيتونة . والظاهر أن كلمة « الريه » هذه مأخوذة من الكلمة الاسبانية El Rojo ، ومعناها الأحمر . وقد كان يتسرب إلى العامة الأندلسية كثير من الكلمات القشتالية .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (اللسانة) . واللسانة ، وتسمى أحياناً اليسانة ، وبالاسبانية Lucena وهى بلدة حصينة من أعمال مقاطعة غرناطة تقع شمال غربى مدينة لوشة على مقربة من نهر شنيل .

عبد الله يَحْذَرُه . وعندما تحقَّق حركة اللَّمتونيين إليه ، صَرَفَه عن جهته ، فقلَّ لذلك ناصِرُه ، وأسرع ذهابُ أمره .

شجاعته

قال ، وحضر مُقاتل مع عبد الله بن بُلُقّين أمير غرناطة وقِيعةَ النَّيبل فى صدر سنة ثمان وسبعين وأربع مائة ، فأَبْلى فيها بلاء عظيما ، وجُرِح وجهُه ، ومُزِّق دِرعه بالطَّعن والضَّرب . وذَكر من حضرها ونجا منها ، قال ، كنتُ قد سقط الرمح من يدى ولم أشعر ، وحَمَلْتُ التِّرس ولم أعلم به ، وحَمَلَنى الله إلى طريق مِنْجاة فرَكِبْتُها ، مرَّة أَقع ومرَّة أَقوم ، فأَدركت فارساً على فرس أَدْهَم ورُمحه على عاتِقه ، ودَرَقَتُه على فَخْذِه ، ودِرعه مُهتَّكة بالطَّعن ، وبه جُرح فى وجهه يُثعب دما تحت مِغْفَره ، وهو مع ذلك ينهض على رَسْله ، فرجعت إلى نفسى فوجدت ثِقْلاً ، فتذكرت التِّرس ، فأَخرجتُ حِمالته عن عاتِقى ، وألقيته عنى ، فوجدت خِفَّة ، وعدتُ إلى العَدْوِّ ، فصاح ذلك الفارس ، خُذْ التِّرس ، قلت لا حاجة لى به ، فقال خُذه ، فتركتُه ووليِّت مسرعا ، فهمز فَرَسه ووضع سِنان رمحه بين كتِفَىّ ، وقال خذ الترس . وإلا أخرجته بين كَتفيك فى صَدْرك ، فرأيت الموت الذى فررت منه ، ورجعت إلى التِّرس فأَخذته ، وأنا أدعو عليه ، وأسرعت عَدْواً . فقال لى « على ما كنتَ فليكن عدوّك » . فاستَعَذْتُ وقلت ، ما بعثه الله إلا لهلاكى . وإذا قطعة من خَيْل الروم قد بَصرت به ، فوقع فى نفسه أنه يُسْرِع الجرى فَيسْلم وأُقْتل . فلما ضاق الطَّلق ما بينه وبين أَقْربِهم منه ، عَطَف عليه كالعُقاب ، وطعنه ففطره ، وتخلَّص الرمح منه ، ثم حمل على آخر فطعنه . ومال على الثالث فانهزم منه . فرجع إلىّ ، وقد

بهتٌّ من فعله ، ورشاش دم الجُرح . يتطاير من قناع المغْفَر لشدَّة نفسه . وقال لي يا فاعل يا صانع أَتُلقِى الرُّمح ومعك مقاتل الرِّئة .

« انتهى اختصار السفر الثامن والحمد لله رب العالمين

يتلوه فى اختصار التاسع بعده

ومن ترجمة القضاة

مؤمل بن رجا بن عكرمة بن رجا العقيلى من إلبيرة »[1]

---

(١) هذا ما ورد فى المخطوط فى ختام هذا السفر - أى السفر السابع - الذى بدأ بترجمة (محمد بن أحمد بن محمد ابن أبى خيثمة الجبائى (المجلد الثانى ص ٣١٥) ، وهو أكبر أسفار الإحاطة ، ويشغل فى مخطوط الإسكوريال من اللوحة رقم ١ إلى اللوحة رقم ١٨٨ .

ومن السِّفر التاسع من ترجمة القضاة

مُوَمَّل بن رجاء بن عِكْرِمة بن رجاء العُقيلى

من إلبيرة

حـــاله

كان شيخا مَضْعُوفا يَغْلِب عليه البَلَه ، من أهل التَّعَيُّن والحَسَب والأصالة ، عريقاً فى القضاء ، قاض ابن قاض ابن قاض . وُلى قضاء إلبيرة ، للأمير محمد .

من حكاياته : رَفَعت إليه امرأة كتابَ صَداقها ، فقال الصَّداق مفسوخٌ ، وأنتما على حَرام ، فافْترقا ، فرّق الله بينكما . ثم رمى بالصَّداق إلى من حوله ، وقال عجباً لمن يدعى [فِقْهاً] [1] ولا يعلمه ، أو يزعم أنه يُوثِّق ولا يُتْقنه ، مثل أبى فلان وهو فى المجلس يكتب هذا الصَّداق ، وهو مفسوخ ، ما أَحقَّه أن يُغَرَّم ما فيه . فدار الصَّداق على يَدَىْ كل من حضر ، وكل يقول ما أرى موضع فَسْخ ، فقال أنتم أجهلُ من كاتبه ، لكنى أعْذُرُكم ، لأن كل واحد منكم ، يَسْتُر على صاحبه خطأه ، ، أنظروا وأمنحكم اليوم ، فنظروا فلم يجدوا شيئا يوجب فَسْخاً . فدنا منه محمد ابن فُطَيس الفقيه ، فقال أصلح الله القاضى ، إن الله مَنَحك من العلم والفهم ، ما نحن مقرُّون بالعجز عنه ، فأفدنا هذه الفايدة ، فقال ، ادن فدنا منه ، فقال ، أو ليس فى الصداق « ولا يمنعها زيارة ذوى محارمها ، ولا يمنعهم زيارتها بالمعروف » . ولولا معرفتى بمحبَّتك ما أعلمتُك . فشكره

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (صداقها) .

الشيخ . وأخذ بطَرفِ لحيته يجرُّه إليه حتى قبَّلها . وكان عظيم اللحية طويلَها . شيمة أهل هذه الطَّبقة . قال ابن فُطَيس ، أَنا المخصوص بالفايدة ، ولا أعرِّفْ بها الاْ منْ تأْذنُ بتعريفه إياها ، فتبسَّم القاضى معجباً بما رأى ، وشَفَعوا إليه أن لا يفسخ الصَّداق ، وقيل للزوجين [(١)] ، لا تَطْلُبَا به عنده شيئا . ووُلِّى قضاء جيَّان .

ومن الطاربين والغربا

المهلب بن أحمد بن أبى صفرة الأسدى

من أهل أَلمريّة يكنى أبا القاسم .

حـــاله

كان من أَدهى الناس وأَفْصَحِهم ، ومن أهل التَّعَيُّن والعناية التامة ، واستُقْضى بألمريَّة .

مشـــيخته

سمع من أَبى محمد الإصبهانى . ورحل وروى عن أَبى ذرٍّ الهَرَوى .

تواليفه : أَلف كتابا فى « شرح البخارى » . أخذه الناس عنه .

وفاته : توفى سنة ست وثلاثين وأربعمائة . وقيل سنة . . . [(٢)] .

ومن ترجمة الكتاب والشعراء وهم الأصليُّون

مالك بن عبد الرحمن بن على بن عبد الرحمن بن الفرج

ابن أزرق بن سعد بن سالم بن الفرج

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى غزيرى (للعروسين) .

(٢) وردت هذه الترجمة الموجزة مكتوبة بخط نفس الناسخ فى هامش المخطوط (لوحة 188) فرأينا إثباتها ، وقد محى منها السطر الأخير ، فلم يتيسر لنا قراءته .

المُنْزل بوادى الحِجارة بمدينة الفَرَج المنسوبة إليه الآن .

قال ابن عبد الملك ، كذا كتب لى بخطِّه بسَبْتَة ، وهو مصمودى ثم شصّادى مولى بنى مخزوم ، مالَقى ،سكن سَبْتَة طويلا ثم مدينة فاس ، ثم عاد إلى سَبْتة مرة أخرى ، وبآخرة فاس ، يكنى أبا الحكم وأبا المجد ، والأولى أشهر ، ويعرف بابن المُرحَّل ، وصفٌ جرى على جَدِّه على بن عبد الرحمن لمّا رحل من شَنْتَمرِيَّة(١) حين إسْلامها للروم عام خمسة وستين وخمسماية .

حـــاله

قال الأستاد أبو جعفر بن الزبير ، شاعرٌ رقيقٌ مطبوعٌ ، مُتَقدِّمٌ ، سريعُ البدَيهة ،رشيقُ الأغراض،ذاكر للأدب واللغة . تحرَّف مدَّةً بصناعة التَّوثِيق ببلده ، ووُلى القضاء مراتٍ بجهات غرناطة وغيرها . وكان حسن الكتابة إذا كَتَب ، والشِّعر أغْلَبُ عليه . وذكره ابن خلاَّد ، وابن عبد الملك ، فأما ابن عبد الملك فلم يسْتَوْفِ له ما اسْتَوفى لغيره . وأما ابن خلاّد فقَصُر به ، إذ قال ، كانت نشأته بمالَقة بلده ، وقرارة مولده فى ناسها ووسط أجناسها ، لم يتميَّز بحسب ، ولم يتقدَّم فى ميدان نَسَب ، وإنما أنْهضَهُ أدبُه وشعرُه ، وعوَّضه بالظُّهور من الخُمول نَظْمُه ونَثْرُه ، فطَلَع فى جَبِين زمانه غُرَّةً مُنيرة ، ونَصَع فى سِلْك فُصحاءِ أوانِه دُرَّةً خطيرة ، وحاز من جِيله رُتْبَة التَقْديم ، وامتاز فى رَعِيله بإدْراك كلِّ معنى وَسِيم . والإنْصاف

(١) هى شنتمرية الشرق أو شنتمرية ابن رزين ، وبالإسبانية Albarracin وهى مدينة أندلسية ، تقع شرق وادى الحجارة . وكانت أيام الطوائف قاعدة لإمارة صغيرة تحت حكم بنى رزين ، ولما تولى محمد بن سعد بن مردنيش إمارة بلنسية (وشرق الأندلس) كانت شنتمرية ضمن أملاكه ، وهو الذى أسلمها إلى الروم (القشتالين) ، ولكن فى تاريخ أسبق من الذى يورده ابن الخطيب (نحو سنة ٥٥٠ هـ) .

فيه ما ثَبَتَ لى فى بعض التَّقْييدات وهو . الشيخ المُسِنُّ المُعَمَّر الفقيه ، شاعرُ المغرب ، وأديب صُقْعه . وحامل الرّاية ، المُعَلَّم بالشُّهرة . المثلُ فى الإكثار ، الجامع بين سهولة اللفظ ، وسَلاسَة المعنى ، وإفادة التَّوليد ، وإحكام الاختراع ، وانْقِياد القَرِيحة ، واسْتِرسال الطَّبع ، والنَّفاذ فى الأغراض . استعان على ذلك بالعِلْم بالمقاصد اللِّسانية ، لغةً وبياناً وعربيَّةً وعَروضاً ، وحِفْظا واضطِّلاَعا ، إلى نفوذ الذِّهن ، وشدَّة الإدراك ، وقُوَّة العارِضة ، والتَّبْريز فى ميدان اللَّوذعية ، والقِحة والمجَانة ، المؤيَّدُ ذلك بخفَّة الرُّوح ، وذكاء الطَّبع ، وحرارة النَّادرة ، وحلاوة الدُّعابة ، يقوم على الأَغْرِبة والأَخبار ، ويُشارك فى الفقه ، ويتقدَّم فى حفظ اللغة ، ويقوم على الفَرايض . وتولىَّ القضاء . وكَتَبَ عن الأُمراء ، وخَدَم واسْتَرْفَد ، وكان مقصوداً من رُواة العِلم والشِّعر ، وطُلاَّب المُلَح ، ومُلْتَمِسى الفوايد ، لسَعَة الذَّرع وانفِساح المعرفة ، وعلوِّ السِّن ، وطِيب المجالسة ، مَهِيبا مَخْطُوبَ السَّلامة ، مرهوباً على الأَعْراض ، فى شَدْقه شَفْرَتُه ونارُه ، فلا يتعرَّض إليه أحد بِنَقد ، أوأشار إلى قناته بغَمْز ، إلاَّ وناط به آبِدَة ، تركته فى المثلات ، ولذلك بَخَس وزنُه ، واقتُحم حِماد ، وساءت بمحاسنه القالة ، رحمه الله وتجاوز عنه .

مشيخته

تلا بالسَّبع على أَبى جعفر بن على الفخّار ، وأَخذ عنه بمالقَة وعن غيره . وصحب وجالس من أهلها ، أبا بكر عبد الرحمن بن على بن دحمان ، وأبا عبد الله الإستجى ، وابن عسكر ، وأَبا عمرو بن سالم ، وأَبا النعيم رضوان بن خالد ، وانتفع بهم فى الطريقة . وبفاس أبا زيد اليرناسنى الفقيه . ولقى بإشبيلية أبا الحسن بن الدّباغ ، وأَبا على الشّلوبين ،

وأبا القاسم بن بَقِى ، وأجازوا له . وروى عنه أبو جعفر بن الزبير ، والقاضى أبو عبد الله بن عبد الملكَ وجماعة .

دخـــوله غرناطـة

قال ابن الزبير ، تكرَّر قدومه علينا بغرناطة ، وآخر انْفِصالاته عنها آخر سنة أربع وسبعين وستمائة ، وقال لى حفيدُه أبو الحسين التِّلمسانى من شيوخنا ، أنْشَد السلطان الغالب بالله ، بمجلسه للنّاس من المقصورة بإزاء الحمراء ، قبل بناء الحمراء . وقال غيره أقام بغرناطة ، وعقد بها الشروط مدة . وقال لى شيخنا أبو الحسن الجيّاب ، وُلِى القضاء بجهات من البشارات[1] ، وشكي للسّلطان بضعف الولاية ، فأضاف إليه حصن أشْكُر يانتشر[2] ، وأمر أن يهمل هذا الاسم ولا يُشكّل ، فقال أبو الحكم رحمه الله عند وقوفه عليه ، قال لى السلطان فى تصحيف هذا الاسم ، « أشكر يا تيس »[2] وهى من المقاصد النبيلة .

تواليـــفه

وهى كثيرة متعدِّدة ، منها شِعره ، والذى دُوِّن منه أنواع . فمنه مختارُه ، وسماه بالجَولات . ومنه ، الصُّدور والمَطالع . وله العَشْرِيات والنّبويّات على حروف المُعجم ، والتزام افتتاح بيوتها بحرف الرَّوى ، وسماها ، « الوَسيلة الكبرى المرجو نفعُها فى الدُّنيا والأُخرى » . وعَشْرياته

---

(١) البشارات أو البشرات وبالاسبانية Alpujurras ، قد سبق التعريف بها (انظر هذا المجلد من الإحاطة ص ١٦٨ حاشية) .

(٢) هكذا وردت في الإسكوريال . وفى الزيتونة (اشكر يانش) . وأشكر أو حصن أشكر ، بالإسبانية Huescar محلة أندلسية تقع شمالى مدينة بسطة ، فى شمال شرقى ولاية غرناطة .

الزّهديَّة . وأرجوزته المسماة « سلك المُنْخُلُ لمالك بن المرَحَّل » نظم فيها مُنخل أبي القاسم بن المَغْرِبي ، والقصيدة الطويلة المسماة بالواضحة ، والأرجوزة المسماة « اللؤلؤ والمُرجان » والمُوَطَّأة لمالك . والأرجوزة فى العروض . وكتابه فى كان ماذا ، المسمى «بالرّمى بالحصا » ، إلى ما يَشُقُّ إحْصاره ، من الأغراض النّبيلة ، والمقاصد الأدبية .

شــعره

قال القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك ، كان مُكثرا من النَّظْم ، مُجيدا ، سريع البديهة ، مُسْتَغْرِق الفكرة فى قَرْضه ، لا يُفْتَرُ عنه حينا من ليل أو نهار . شاهدت ذلك وأخبرنى أنَّه دأبَه ، وأنه لا يَقدر على صَرْفه من خاطره ، وإخلاء باله من الخوض فيه ، حتى كان من كلامه فى ذلك ، أنه مرضٌ من الأمراض المُزمنة ، واشتهر نظمه ، وذاع شعره ، فكَلِفَت به ألسنة الخاصَّة والعامّة ، وصار رأسَ مال المُستمعين والمُغَنِّين ، وهجيرُ الصّادرين والواردين ، ووسيلة المُكَدِّين[1] ، وطِراز أوراد المؤذِّنين وبطايقة[2] البطالين ، ونحن نجتزئ منه بنبذ من بعض الأغراض تدل على ما وراءها إن شاء الله . فمن ذلك فى غرض النَّسيب :

دَنِفٌ تستَّر بالغرام طويلا ... حتى تغيّر رقَّةً ونُحولا
بُسِط الوِصال فما تمكّن جالسا ... حتى أُقيم على البِساط دليلا
يا سادتى ماذا الجَزا فَديتُكُم ... الفضلُ لو غيَّر الفتى ما قيلا
قالوا تعاطَى الصَّبر عن أحبابه ... لو كان يصبر للصُّدود قليلا
ما ذاق إلا شَرْبةً من هجرنا ... وكأنَّه شَرِب الفُرات شَمُولا

---

(١) وردت فى الإسكوريال . (الم) فقط بعدها بياض والتكملة من الزيتونة .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ومطامة) .

أيقول عِشْتُ وقد تملّكه الهوى ... لو قال مُتُّ لكان أقْوَم قيلا
حَلَفَ الغرام بحبِّنا وجَمالنا ... إن لم يدعه ميّتا فعليلا
إن الجُفُون هي السُّيوف وإنما ... قَطَعت فلم تسمع لهنَّ صَليلا
قل لِلْحبيب ولا أصرِّح باسمه ... ماذا المَلال وما عهدتُ مُلُولا
بيني وبينك ذِمَّة مرعيَّةٌ ... أتراك تقطع حَبْلها المَوْصُولا
ولكم شَرِبْتُ صفا وُدِّك خالصاً ... ولَبِستُ ظلا من رِضاك ظليلا
فيا غُصْن بانٍ بانَ عني ظلهُ ... عند الهَجير فما وجدت مَقيلا
إعطف على المُضْنَى الذي ... أحْرَقته في نَار هجرك لوعةً وغليلا
فارقتَه فتقَطَّعت أفلاذُه ... شوقاً وما ألْفَى اليك سبيلا
لو لم يكن منك التَّغيُّر لم يَسَلْ ... بالناس لو حَشَروا إليه قَبيلا
يا راحلاً عني بقلبٍ مُغْضَبٍ ... أيطيقُ قلبي غَضْبَةً ورَحيلا
قل للصَّبا هيجّتَ أشجان الصبا ... فوجدتَ يا ريحَ القبول قبولا
هل لي رسول في الرياح فاز من ... فارقته بعث النسيم رسولا
يا ليت شعري أين قرّ قرارُه ... يا قلبُ ويْك أما وجَدْت دليلا
إن لم يعد ذاك الوصال كعهدنا ... نكّلْتُ عَيْني بالبُكا تَنْكيلا

وقال نسيباً ومدحاً :

أعْدَى على هواه خصمٌ جفونه ... مالي به قِبَلٌ ولا بفنونه
إن لم تُجْرني منه رحمةُ قَلْبه ... من ذا يُجير عليه مِلْكُ يمَينه
صاب من الأتراك أصبي مُهْجتي ... فتبَدَّتْ نور الحُسن فوق جَبينه
متمَكِّن في الحُسن نون صِدغه ... فتبيَّن التَّمكين في تَنوينه
تَنْساب عقربُ صِدغه في جنَّة ... لم يَجْنِ منها الصَّبُّ غير مُنونه

ولوى ضَفـيرته فـولّى مُدْبـراً فعل الكَليم ارتاع من تبْيينه
قد أطْمَعَتـنى فيه رقَّـةُ خـدِّه لو أنكنتـنى فيه رقَّـةُ دينـه
ورجوتُ لينَ قِوامـه لو لم يكن كالـرُّمح شِـدَّةُ طَعْنه فى لِينـه
شاكى السِّلاح وما الذى فى جَفْنه أعْـدَى علىَّ من الذى بجُفُونه
ناديتُـه لمـا نَـدَت لىَ سِينُـه وشعرتُ من لـفظ السلام بسِينه
رحماك فى دَنِفٍ غـداً وحيـاتُـه ممـاتُه وحِـراكه كسُكونـه
إنه لم تمـنَّ علىَّ منَّـةَ راحـم فمُنـاه أن يلقـاه رَيْبُ مَنونـه
ولذا أبيتُ سـوى بيات غـدوه فنأْمانُه من ذاكَ ظَهْـرُ أمونه
سنُنيخُهـا فى باب أروع مـاجد فيرى محـلَّ الفصـل حقَّ يَقينه
حيث المعارف والعوارف والعـلا فى حـدِّ مجـد جامـع لفُنـونه
بدرٌ وفى الحسن بن احمد التَقَتْ نُجُبٌ مـرَرْن على العطا بركوبه
تبغى مُناها فى مِناهـا عنـده وتطُـوف بالحاجـات عند حَجونه
فرعٌ من الأصل اليمـانى طيِّبٌ ورِثَ البيـان وزاد فى تَبْيينـه
يُبـدى البشاشة فى أسرَّة وجهـه طَـوراً ويحمى العـزَّ فى عِرْنينه
بُسطت شمايلـه للـزمان كمثـل ما بَسـط الغِنـا نفوسَنـا بلُحونـه
يُثْـنى عليـه كلُّ فِعْـل سايـر كالمِسْك إذ يثْـنى على دارينه(١)

ومن النَّسيب قوله :

هو الحبيب قضى بالجور أم عَدَلا لىَّ الخيـار وأما فى هـواه فلا
تالله ما قصّر العُذّال فى عَذْلى لـكن أبَتْ أُذنى أن تسمـع العَـذلا
أما السُّلو فشئ لست أعـرفه كفى بخِلِّك غَدْراً أن يُقال سلا
جُفون غيرى أصْحت بعد ما قطرت وقلبُ غيرى صحا من بعد ما ثَمِلا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (صادينه) .

وغُصن بانٍ تثَنَّى من معــاطفه ... سقيتُه الدّمـع حتى أثمـر العَذَلا
آثره نســيمُ الشِّعـر آونــةً ... فكلما مال من أعْطـافه اعْتَدلا
أَمَلْتُ والهمـة العليـاء طامحـة ... وليس فى الناس إلا آملٌ أمـلا
وقــال إيهًا طُفيــلى ومُقترح ... ألستَ عَبْدى ومملوكى فقلتُ بَلا
ما مَنْ تحدَّث عن حُسْنى وعن كَلَفى ... بحسنه وبحبى فأَضْرِب المَثلا
نيِّطتْ خدِّى خوف القبض من ملكه ... إذا أشـار بأَدنى لحظِه قتَـلا
تُقبِّل الأَرض أعضـائى وتخـدمه ... إذا تجلَّى بظهر الغيب واتَّصلا
يا مَنْ له دولة فى الحُسْن باهـرةٌ ... مِثلى ومثلُ فؤادى يخدم الدُّوَلا

ومن نظمه فى عَروض يخرج من دوبيْتى مجزوّا مُقْصرا قوله . ومُلَحه فى اختراع الأَعاريض كثيرة :

الصبُّ إلى الجمال مايل ... والحبُّ لصـدقه دلايـل
والدمع لسايلى جـواب ... إن روجع سائل بسـائل
والحُسْن على القلوب وال ... والقلب إلى الحبيب وابل
لو ساعد من أحِبُّ سَعْدٌ ... ما حال من الحبيب حَايل
يا عَاذِلى إليك عنِّى لا ... تُقـرِّب ساحتى العـواذل
ما نازلنى[1] كمثل ظبى ... يَشْفى بلحظة المُنـازل
ما بين دفونه حُسـام ... مخـارقه لـه حمـايل
والسيف يَبِتُّ ثم يَنْبُـو ... واللحظ يُطبق المَفاصـل
والسهم يُصيب ثم يُخْطى ... واللحظ يمرُّ فى المقاتل
مهلاً فَدِى لـه حـلال ... ما أقبلُ فيه قولَ قـايل
إن صدَّنى[2] فذاك قصدى ... أو جدَّلنى فـلا أجـادل

---

(١) وردت فى الإسكوريال (ما نازل) والتصويب من الزيتونة .

(٢) وردت فى الإسكوريال (انصدى) والتصويب من الزيتونة .

يا حسن طلوعه علينـا والسُّكر بمعطفيه مايـــل
ظمآن مُخَفَّف الأعــالى ريَّان مثقَّل الأســـافل
قد نمَّ به شذا الغــوالى إذ هبَّ ونمَّت الغَــلايل
والطيب منبِّهٌ عليـــه من كان عن العِيـان غافل
والغَنْجُ مُحرِّك إليـــه من كان مُسَكِّن البلابل(١)
والسِّحر رســولُ مُقْلتيه ما أقرب عهده ببـــابل
والروض يعيـــر وجنتيه ورداً كهواى غيـــر حايل
واللين يَهُزُّ معطفيـــه كالغُصن تَهـزُّه الشَّمـايل
والكاس تلوح فى يديـه كالنَّجم بأَسْعد المنازل
يُسقيك بريقه مُدامـــا ما أملح ســاقياً مُواصـــل
يُسْبيك برقَّة الحــواشى عِشقاً ولكافَّة الشمـــايل
ما أحسن ما وجدت خـداً إذ نجم صِباى غيـــر آفـل

ومن مستحسن نزعاته :

يا راحِلين وبى من قربهم أمَـلُ لو أغنت الحِلْيتَان لى القولُ والعملُ
سِرْتُم وسار اشتياقى بَعْدَكم مثلاً من دونه السَّامِران(٢) الشِّعر والمَثَل
وظلَّ يَعْذِلُنى فى حبِّكم نَفَـــر لا كانت المحْنَتان(٣) الحبُّ والعَذَل
عطفاً علينا ولا تَبْغُوا بنا بَدَلاً فما استوى التَّابعان العطف والعمل
قد ذقت فضلكم دهرا فلا وأبى ما طاب لى الأحمران(٤) الخمر والعسل
وقد هَرمت أسًى من هجركم وجوىً وشبَّ منى (٥) اثنتان الحرصُ والأملُ

---

(١) هذا البيت وارد فى الإسكوريال وساقط فى الزيتونة .
(٢) هكذا وردت فى الزيتونة والجذوة . وفى الإسكوريال (الساران) وهو تعريف .
(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (المحتنان) .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والجذوة . ووردت فى الزيتونة (الحمران) .
(٥) وردت فى الإسكوريال (من) والتصويب من الزيتونة .

غدرتم أو مللتم يا ذَوى ثِقتى | [لِبيستْ الخَصْلتان][1] الغَدْرُ والمَلَل
قالوا كَبِرْتَ ولم تَبْرَح كذا غَزِلاً | أَزْرى بك الفاضحان الشَّيب والغَزَل
لم أنس يومَ مانادوا للرحيل ضُحى | وقَرْب المرْكَبان الطِّرْف والجمَلُ
وأشْرَقَت بهوادِيهم هــوادجهم | ولاحت الزِّينتان الحَلْى والحُلَل
ودَّعونى[2] بأَجفان مُرَضة تَغُضُّها | الرَّقْبِتَــان الخــوفُ والخجــل
كم عفَّروا بين أَيدى العيس من بطل | أصابه المُضْنِيان الغَنْجُ والكَحَل
دَارَتْ عليهم كؤوس الحبِّ مُتْرعة | وأَبا المُسْكِران الخمــر والمُقَل
وآخرين اشْتَفَوا منهم بضمِّهم | يا حبَّذا الشافيان الضَّم والقُبَــل
كأَنما الرَّوض منهم روضة أُنُفٌ | يُزهى[3] بها المُثْبِتان السَّهل والجبل
من لمُتَرق الرَّوابى والوِهَاد بهم | ماراقه المُعجبان الخَصْر والكَفَل
يا حادى العِيس خُذْنى مأخذاً حسنا | لا يستوى الضِّدَّان الرَّيْثُ والعَجَل
لم يبق لى غير ذكر أَو بُكا طَلَل | لو ينفع الباقيانُ الذِّكر والطَّلَلُ
يا ليت شعرى ولا أُنْسٌ ولا جَذَل | هل يُرفع الطَّيِّبان الأُنس والجَذَل

ومن قوله على لسان أَلْثغ ينطق بالسِّين ثاءً ويقرأُ بالرِّوِيَّين :

عَمَرْتُ رَبْع الهوى بقلــب | لقوَّة الحبِّ غير ناكس ث
لبثت فيه أَجرُّ ذيل النُّحول | أَخْبِــبْ بــه لِلاَّبس ث
إن مِتُّ شوقاً فلى غــرام | نَباته بالسِّــقام وادِس ث
أَمَّا حديث الهــوى فَحقٌّ | يصرف بَلْواه كل حادِس ث
تَعِبْتُ بالشَّوق فى حبيب | أنا به ما حَيِيت يايِس ث

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الزيتونة والخلوة . ووردت فى الإسكوريال كالآتى (لبيست الخصلتان) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (ودعوا) . والتصويب من الزيتونة .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة (ينهى) .

يَخْتال كالغُصْن مادَ فيه طرفٌ فأَزْرَى كلَّ مايس ث
دُنيـا تبدَّت لكلٍّ وأيّ فهو للدُنياد أيَّ حارس ث
يلعب بالعاشقين طرّا والكلُّ راضون وهو عابس ث

ومن شعره فى الزهد يصف الدنيا بالغرور والخدايع والزُّور :

يا خاطب الدنيا طلَبْت غروراً وقَبلتَ من تلك المجالس زورا
دنياك إمَّا فِتْنة أو محْنـة وأراك فى كِلْتيهما مقهورا
وأرى السنين تمرُّ عنك سريعةً حتى لأَحسَبُهُنَّ صِرْنَ شهورا
بينا تريك أهلَّةً فى أُفقها أبصرتَها فى إثر ذاك بُـدورا
كانت قسِياً ثم صِرْن دوايرا لابدَّ أن تَرْمِى الورى وتَـدُورا
يأتى الظلام فما يسود رُقْعةً حتى ترى مَسْطُورها منشورا
فإذا الصباح أتى ومدَّ رداءه نَقَضَ المساءُ رداءه المنشورا
يتعاقبان عليك هذا ناشر مِسْكًا وهذا ناشر كافـورا
ما المسْك والكافور إلاَّ أن ترى من فِعلك الإمْسـاك والتَّكبيرا
أمْسَى على فَوْدَيْك من لونَيْهما سِمَةٌ تَسُوم كآبةً وبُسُـورا
حتى متى لا ترعوى وإلى متى أوَ ما لقيتَ من المشيب نذيرا
أخشى عليك من الذُّنوب فربما تَلْقَى الصَّغير من الذنوب كبيرا
فانظر لنفسك إننى لك ناصح واستَغْفِر المولى تجدْه غفورا
من قَبْل ضَجْعَتِك التى تَلْقَى لها خدَّ الصِّغار على التُراب حقيرا
والهوْلُ ثم الهول فى اليوم الذى تجد الذى قدَّمْته مَسْـطورا

وقال فى المنى المذكور :

إشْفِ الوَجْد ما أبكى العُيونا وأَشْفِى الدَّمع ما نَكَأَ الجُفُونا

فيا ابن الأربعين اركَبْ سفيناً ... من التَّقوى فقد عَمَرْتَ حِينا[1]
ونُح إن كنت من أصحاب نوح ... لكى تنجو نجاة الأربعينا
بدا الشَّيْبُ فى فَوْدَيك رَقْمٌ ... فيا أهل الرَّقيم أتَسْمَعُونا
لأنْتُم أهلُ كَهْف قد ضَرَبْنا ... على آذانهم فيه سنينا
رأيتُ الشَّيْب يجرى فى سواد ... بياضاً لا كعَقْل الكاتِبينا
وقد يجرى السَّواد على بياض ... فكأنَّ الحُسْن فيه مستبينا
فهذا العكس يوذن بانعكاس ... وقد أُشْعِرتم لو تشعرونا
نباتٌ هاج ثم يُرى حُطاماً ... وهذا اللَّحَظ قد شمل العُيونا
نذيرٌ جاءكم عريان يعدو ... وأنتم تضحكون وتلعبونا
أخى إلى متى هذا التَّصابى ... جُنِنْتَ بهذه الدنيا جُنونا
هى الدنيا وإن وَصَلت وبَرَّت ... فكم قطعت وكم تركت بنينا
فلا تخدعنك أيام تليها ... ليال واخْشَها بيضاً وجونا
فذاك إذا نظرتَ سلاح دنيا ... تُعيد حراك ساكنها سُكونا
وبين يديك يومٌ أىُّ يوم ... يدينُك فيه ربُّ الناس دينا
فإما دار عِزٍّ ليس يَفْنى ... وإما دار هَوْن لن يَهُونا
فطُوبى فى غد للمتَّقِينا ... وويلٌ فى غد للمُجْرمينا
وآه ثم آه ثم آه على نفسى أكرِّرها وِثِينا
أخَىْ سمعتَ هذا الوعظ أم لا ... ألاَ لَيْتنى فى السامعينا
إذا ما الوعظ لم يُورد بصدق ... فلا خُسْرٌ كخُسْر الواعظينا

وقال يتشوق إلى بيت الله الحرام ، ويمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

شوق كما رُفعت نارٌ على عَلَم ... تَشِبُّ بين فروع الضَّال والسَّلم
ألمَه بضلوعِى وهو يُحرقها ... حتى بَرانى بَرْياً ليس بالقَلَم[2]

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (مبينا) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (للقلم) .

من يَشتريني بالبُشرى ويملكني ... عبداً إذا نَظَرت عيني إلى الحرَم
دَعْ للحبيب ذِمامي واحتَمِل رَمَقي فليس ذا قَدْم من ليس ذا قِدم
يا أهل طِيبَة طاب العَيْش عندكم ... جاوَرْتم خير مبعوثٍ إلى الأُمم
عاينتم جنَّة الفِردوس من كَثَب ... في مَهْبِط الوحي والآيات والحِكم
لنتركنَّ بها الأَوطان خالية ... ونَسلكنَّ لها البَيْداء في الظُّلم
رِكابُنا تحمل الأَوزار مُثْقَلة ... إلى محطِّ خطايا العُرْب والعَجَم
ذنوبنا يا رسول الله قد كَثُرت ... وقد أتيْناك فاستغفر لمجْترم
ذنبٌ يليه على تَكْراره ندمٌ ... فقد مضى العُمْر في ذَنْب وفي نَدَم
نبكي فَتَشْغلنا الدنيا فتُضْحكنا ... ولو صَدَقنا البكا شِبْنا دماً بدَم
يا ركبَ مصر رُويدا يلتحق بكم ... قومٌ مغاربةٌ لحمٌ على وَضَم
فيهم عُبَيْد تسوق العيسُ زَفْرتَه ... لم يَلْق مولاه قد ناداه في النَّسم
يبغي إليه شفيعاً لا نَظير له ... في الفضل والمجد والعَلياء والكرم
ذاك الحبيب الذي تُرجَى شفاعتُه ... محمدٌ خير خَلْقِ الله كلِّهم
صلى عليه إلَهُ الخَلْق ما طَلَعت ... شمسٌ وما رُفعت نارٌ على علَم

ومن مقطوعاته العجيبة في شتى الأَغراض ، وهي نقطة من قَطْر ، وبَلالة من بحر ، قوله مما يكتب على حمالة سيف ، وقد كَلِف بذلك غيره من الشعراء بسَبْتَة . فلما رآها أخفى كل منظومه ، وزعم أنه لم يأْت بشيء ، وهو المخترع المُرْقِص :

جماله كرياض جاورت نهرا ... فأَنْبَتَت شجراً راقت أزاهِرُها
كحيَّة الماءِ عامَتْ فيه وانصرفت ... فغاب أوَّلُها فيه وآخــــرها

وقوله وقد تناول الرئيس ابن خلاص[1] بيده مقصًّا فأدمى يده فأنشده :

عداوةٌ لا لكفِّك من قَدْ نَمّ ۔۔۔ فلا تعجب لِقرَّاض لئيم
لئن أَدْماك فهو لها شبيهٌ ۔۔۔ وقد يسطو اللئيم على الكريم

وقوله فى الخِضاب :

سترتُ مَشيبي بالخِضاب تعلُّلا ۔۔۔ فلم يَحْظ فشيبٌ وراب خِضابى
كأنِّى وقد زوَّرتُ لونا على الصِّبا ۔۔۔ أُعَنْون طِرْساً ليس فيه كتاب
غُراب خِضاب لم يقف من حِذاره ۔۔۔ وأغْرَبُ شىءٍ فى الحِذار غُراب

وقوله وهو من البديع المخترع :

لابدَّ من مَيل إلى جهة فلا ۔۔۔ تَنكر على الرجل الكريم مميلا
إنَّ الفؤاد وإن توسَّط فى الحشا ۔۔۔ ليميلَ فى جهة الشَّمال قليلا

وقوله وهو معنى قد قيل فيه :

لا تعجبوا للمرءِ يَجهل قَدْره ۔۔۔ أبَدًا ويعرف غيره فيَصِير
فالعين تُبْصر غيرها مع بُعده ۔۔۔ ولكن نَفْسَها لا تُبْصر

وقوله :

أرى المتعلِّمين عليك أعداء ۔۔۔ إذا أعلمتهم من كل عاد
فما عند الصَّغير سوى عُقوق ۔۔۔ ولا عند الكبير سوى عِناد

وقوله فى وصفه ذى الجاه :

يضع الناس صاحب الجاه فيهم ۔۔۔ كل يوم فى كفَّة الميزان
إن رأوه يوما تَرَجَّح وزنـاً ۔۔۔ ضاعفوا البرَّ فهو ذو رُجحان

---

(١) هو الرئيس أبو على بن أبى جعفر بن خلاص البلنسى ، تولى حكم سبتة من قبل الموحدين فى سنة ٦٣٤ هـ ، ثم خلع طاعة الخلافة الموحدية فى سنة ٦٤٢ هـ ، واعترف بطاعة الدولة الحفصية بتونس .

أَو رأُوا منه نقصَ حبَّة وزن ... ما كسوه فى حبَّة الجُلْجُلان

وأَنشدنا عنه غير واحد من شيوخنا وقد بلغ الثمانين :

يا أَيها الشيخ الذى عُمْرُه ... قد زاد عَشراً بعد سَبْعينا
سَكِرتَ من أكؤس خَمْر الصِّبا ... فحدَّك الدهر ثمانينا

وقال ، هيهات ما أَظنه يُكملها ، وقال فى الكَبْرة :

يا من لشيخ قد أَسَنَّ وقد عفَّا ... مذ جاوز السَّبعين أَضحى مُدْنَفا
خانتْه بعد وفايها أَعضاؤه ... فغدا قَعيداً لا يُطيق تصرُّفا
هَرِماً غريبا ما لديه مُؤانس ... إلاَّ حديث محمد والمصطفى

وكتب إلى القاضى أَبى الحجاج الطُّرسونى فى مراجعة :

يا سيدى شاكركم مَالِك ... قد صَيَّرت سِمِ اسمه هاء
ومن يَعِش خمساً وتسعين ... قد أَنْهَى فى التعمير إنهاء

ومن نظمه فى عُرْس ، صَنعَها بسَبْتَة على طريقه فى المجَانة :

الله أكبر فى منار الجامع ... من سَبْتة تاذين عَبْد خاشع
الله أَكبر للصَّلاة أُقيمُها ... بين الصُّفوف من البلاط الواسع
الله أكبر مُحْرِماً ومُوَجِّهاً ... ودِبْرةٌ إلى ربِّى بقلب خاضع
الحمد لله السلام عليكم ... آمين لا تُفتح لكل مخادع
إن النِّساء خَدَعْنَنى ومكَرن بى ... ومَلأْن من ذكر النساء مَسامع
حتى وقعتُ وما وقعتُ بجانب ... لكن على رأْسٍ لأَمرٍ واقع
والله ما كانت إليه ضرورة ... لكن أَمْرَ الله دون مُدافع
فَخَطبن لى فى بيت حُسْن قُلن لى ... وكَذَبْن لى فى بِنْت قُبح شانع
بِكْراً زعمن صغيرةً فى سنِّها ... حسناءُ تُسفر عن جمال بارع
خوداً لها شَعْرٌ أَثيثٌ حالك ... كالليل تُجلى عن صباح ساطع

حَوْراء يرتاع الغزال إذا رَنَتْ — بجُفون خَشْف[1] فى الخمايل رافع
تتلو الكتاب بغُنَّة وفصاحة — فيميل نحو الذِّكر قلبُ السامع
بسَّامة عن لؤلؤ متناسق — فى ثغرها فى نظمه مُتَتابع
أنفاسُها كالرَّاح فضَّ ختامُها — من بعد ما خُتمت بمِسْكٍ رائع
شمَّاء دون تَفاوت عربيَّةٌ — ببسالة وشجاعة ومَنبازع
غَيْداء كالغصن الرَّطيب إذا — مَشَتْ ناءت بردْفٍ للتعجُّل مانع
تخطو على رِجْلَىْ حَمامةِ أَيكةٍ — مخْضُوبة تُسْبى فؤاد السامع
وَوَصَفْن لى من حسنها وجمالها — ما البعض منه يُقيم عُذْر الخالع
فدنوت واستامنتُ بعد توحُّشى — وأطاع قلبٌ لم يكن بمطاوع
فحَمَلْنَنى نحو الولىِّ وجئننى — بالشَّاهدين وجِلد كبش واسع
وبعرفه من نافع لتعادل — والله عز وجلّ ليس بنافع
فشَرَطْن أشراطا علىَّ كثيرةً — ما كنت فى حَمْلى لها بمطاوع
ثم انفصلتُ وعلمتُ بأنَّنى — أوثِقْتُ فى عنقى لها بجوامع
وتَرَكْنَنى يوما وعِدْن وقلن لى — خُذْ فى البناء ولكن بمرافع
واصنع لها عُرْساً ولا تحوج إلى — قاضٍ عليك ولا وكيلٍ رافع
وقرعتُ سِنِّى عند ذاك ندامةً — ما كنت لولا خُدعت بقارع
ولزِمَتْنى حتى انفصلتُ بموعد — بعد اليمين إلى النهار الرابع
فلو اننى طَلَّقتُ كنت موفَّقاً — ونَفَضْتُ من ذاك النكاح أصابع
لكن طمعت بأن أرى الحُسْن الذى — زَوَّرن لى فذَمَمْتُ سوءَ مطامع
فنظرتُ فى أمر البناء مُعَجِّلا — وصنعتُ عُرْساً يا لها من صانع
وطمعتُ بأن تُجلى ويُبْصَر وجهها — ويَقَرُّ عينى بالهلال الطَّالع

---

[1] الخشف هو ولد الظبية .

وظننتُ ذاك كما ذَكَرْن ولم يكن ... وحَصَلتُ أيضاً فى مقام الفازع
وحَمَلننى ليلا إلى دار لهـا ... فى موضع عن كل خير سامع
دارُ خرابٍ فى مكان تَوَحُّشٍ ... ما بين آثار هنـاك بَلاقِـع
فقعدتُ فى بيت صغير مظلم ... لاشيء فيه سوى حَصِير الجامع
فسمعتُ حسًّا عن شمالى مُنْكَرًا ... وتنحنحاً يحكى نَقِيق ضفادع
فأردتُ أن أنجو بنفسى هاربا ... ووثبتُ عند الباب وثْبَة جازع
فلقِيتُهنَّ وقد أتَيْن بِجَذْوة ... فرَدَدْننى وحبَسْنَنى بمجـامع
ودخَلْن بى فى البيت واستَجْلَسْننى ... فجلستُ كالمضْرور يوم زَعازع
وأشَرْن لى نحو السَّما وقلن لى ... هذى زُوَيبعة وبنتُ زوابـع
هذى خَلِيلتك التى زَوَّجتها ... فاجلس هنا معها ليوم سابع
وبتنا النُّعمى التى خُوِّلتها ... فلقد حَصَلْتُ على رياض يانع
فنظرت نحو خَليلتى [متأمِّلا][1] ... فوجدتهـا محجـوبة ببـراقع
وأتيتها وأردت نزْع خِمارها ... فغَدت تُدافعنى بجدٍّ وازع
فوجَلْتُها فى صدرها وحذوته ... وكشفتُ هامَتها بغيظ صارع
فوجدتها قَرْعاء تحسب أنهـا ... مَقْروعة فى رأسها بمقـارع
حَوْلاء تنظر فوقها فى ساقها ... فتخالُها مَبهوتةً فى الشـارع
فَطْساء تحسبُ أن رَوْثة أنفها ... قُطعت فلا شُلَّت يمين القاطع
صمَّاء تُدعى بالبريح[2] وتارة ... بالطَّبل أو يُؤتى لها بمقامع[3]
بَكماء إن رامَتْ كلاما صوتت ... تصويتَ مِعزى نحو جَدْى راضع

(١) هكذا وردت بالزيتونة . ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) البريح هنا معناها ، التعب .

(٣) جمع قمعة . وهى عبارة عن ذباب أزرق ضخم يدخل أنوف الدواب . ويهاجم الإبل إذا اشتد الحر ويلسعها .

فَقماء إن تلتقى أسْـــنانُهـــا تفْسُو إذا نطقَت فساء الشابـع
عرجاء إن قامت تعالج مشيها أبْصَرْتَ مِشْية [ضالع أوخامع] (١)
فلقيتها وجعلت أبْصق نحوها وأفرُّ نحو دُجاً وغيثٍ هـــامع
حيرانُ أغدو فى الزُّقاق كأنَّنى لصٌّ أحِسُّ بطالب أَو تابع
حتى إذا لاح الصباح وفتّحوا باب المدينة كنت أوَّل كاسع
والله مالى بعد ذاك بأمرها علمٌ ولا بأُمور بَيْتِى الضَّايع

نثـــره

وفضَّل الناس نظمه على نثره ، ونحن نُسَلِّم ذلك من باب الكثرة ، لا من باب الإجادة . وهذه الرسالة مُعْلمة بالشهادة بحول الله .

كتب إلى الشيخين الفقيهين الأديبين البليغين أبى بكر بن يوسف بن الفخَّار وأبى القاسم خلف بن عبد العزيز القبتورى :

« لله دَرُّكما خَلِيفى صفاء ، وأليفى وفاء ، يتنازعان كاس المودَّة ، تنازُع الأكْفاء ، ويتهاديان رَيحان التحية تهادِى الظُّرفاء . قَسِيمَى نَسَب ، وقريعى حَسَب . يتجاوزان بمطبوع من الأدب ومُكْتَسب ، ويتواردان على عَلَم من الظَّرف ونسب ، رَضِيعَى لِبان ، ذَرِيعى لُبان ، يَحْرزان ميراث قُسٍّ وَسَحْبان ، ويُبرزان من الذَّكاء ، ما بان على أبان ، قَسِيمى مُجَّال ، فصيحى رويَّة وارتجال ، يَتْرعان فى أشطان البلاغة ، سجالاً بعد سجال ، ويصْرعان فى ميدان الفصاحة رجالاً على رجال . ما بالكما لا حُرِمت حبالكما ولا قُصمت نبالكما . لم تَسْمحا لى من عُقودِكما بدُرَّة ، ولم تُرشِّحانى من نُقودكما بَدْرة . ولم تفسحا لى بحُظْوة ولا مُرَّة . لقد ابتُلِيتُ من أدبكما بنهر أقْربُه ولا أشْرَبُه . وما أُرده ولا أتبرَّده . ولو كنت من أصحاب

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الخامع أو ضالع) .

طالوت لا فُسِحت لى غُرفة ، وأُتِيحَت لى تُرفة . بل لو كنت من الإبل ذوات الأَظماء ، ما جُليت بعد الظَّمإ عن الماء . ولا دخلتُ بالإشفاق مدخل العجماء . كيف وأَنا ولا فخر فى صورة إنسان ، ناطق بلسان . أُفرِّق بين الإساءة والإحسان . وإن قلت إنَّ باعى فى النَّظم قصير ، ومالى على النَّثر ولىٌّ ولا نصير . وصَنْعة النحو عنى بمعْزِل . ومنزل الفقيه ليس لى بمنزل ، ولم أُقدِم على العِلم القديم ، ولا استأثرت من أهله بنديم . فأَنا والحمدلله غنىٌّ بصَنْعة الجَفْر ، وأَقتنى اليَراع كأَنَّها شبابيك التِّبر ، وأُبْرى البريَّة المغا تنيف على الشِّبر ، وأُزين خُدود الأَسطار المُسْتوية ، بعقارب اللَّامات المُلْتوية ، ولا أَقول كأَنَّها ، فلا ينكر السيدان أعزَّهما الله ، أَنها نعم بعود أَزاعم ، وبمثل شَكَسى تُحْضَر الملاحم . فما هذا الازدراءُ والاجتراءُ فى هذا الأَمر مر المواقير . تالله لقد ظَلَمتمانى على عِلم ، واستَنَدْتما إلى غير حِلم ، أَما رَهِبْتُما شَبابى ، أَما رغبتما فى حسابى ، أَما رفعتما بين نفح صبابى ، ولَفْح صِبابى . لعمرى لقد رَكِبتما خطرا ، وهِجْتُما الأَسد بَطْرا ، وأَبحتما حِمًى مُحْتضرا ، ولم تمعنا فى هذا الأَمر نَظَرا .

أَعِدْ نظراً ياعبدَ قيس لعلَّما أَضاءت لك النَّار الحِمار المقَيَّدا

ونفسى عينُ الحمار فى هذا المضْمار ، لا أَعرف قَبيلا من دَبير ، ولا أُفرِّق بحِسِّى بين صغير وكبير ، ولا أَعهد أَنَّ حصاة الرَّمْى أَخفُّ من ثَبير ، أَليس فى ذوى كبد رُطْبة أَجر ، وفى معاملة أَهل التَّقوى والمغفرة تَجْر ، وإذا خَوَّلتُمانى نِعْمة ، أَو نَفَلْتمانى نَفَلاً ، فاليَدُ العُليا خير من اليد السُّفْلى ، وما نَقَص مال من صَدَقَة ، ولا جمالٌ من لَمْح حَدَقة ، والعِلْم يزيد بالإنفاق ، وكَتْمُه حرامٌ باتفاق ، فإن قلتما لى إنَّ فهمك سَقيم ، وعِوَجُك على الرِّياضة لا يستقيم ، فلعلَّ الذى نَصَب قامتى ، يمنُّ باسْتِقامتى ، وعسى

الذى يَشُقُّ سمعى وبصرى ، أن يزيل عِيٌّ وحَصَرى ، فأَعِى ما تَقُصَّان ، وأَجْتَلى ما تَنُصَّان ، وأَجْنِى ثِمار تلك الأَغصان ، فقد شاهَدْتما كثيراً من الحيوان ، يُنَاغى فيتعلَّم ، ويُلَقَّن فيتكلَّم . هذا والجِنْسُ غير الجنس ، فكيف المُشارك فى نَوْعِيَّة الإِنْس ، فإن قلنا إن ذلك يَشُقُّ ، فأَين الحقُّ الذى يَحِق ، والمشقَّة أُختُ المروة ، وينعكس مَساق هذه الأُخُوَّة ، فيقال المروة أُختُ المشقَّة ، والحَجيج يصبر على بُعد الشُّقَّة ، ولولا المشقَّة ، كثُر السَّادة ، وقلَّت الحَسادة ، فما ضرَّكما أيها السيِّدان ، أن تَحْسِبا تحويجى ، وتكتسبا الأَجر فى تدْريجى ، فإنكما إن فعلتما ذلك ، نُسِبت إلى ولايكما ، كما حُسِبت على علايكما ، وأُضِفْتُ إلى نَدَيكُما ، كما عُرِّفت بمنْتَداكما . ألم تعلما أنَّ المرءَ يُعرف بخَلِيله ، ويُقاس به فى كثِيره وقَلِيله ، ولعلِّى أُمْتَحن فى مَرام ، ويَعْجِم عودى رام . فيقول هذا العُود من تلك الأَعْواد . وما فى الحَلْبة من جَواد ، فأَكسُوكُما عاراً ، وأكون عليكما شِعاراً . على أنى إذا دُعيت باسمكما ، اسْتَرَبْتُ من الإِدعاء ، فلا أستجيب لهذا الدُّعاء ، ولكن أقول كما قال ابن أَبى سفيان . حين عرف الإِدارة ، وأنكر الإِمارة ، نعم أُخُوَّتى أصح ، وأنَّها بها أشح ، إلا أنَّ غيرى نُظم فى السِّلك ، وأُسْهم فى المُلْك ، وأنا بينكما كالمحجوب بين طُلاَّب ، يشاركهم فى البُكا لا فى التُّراث ، إن حضرت فكنتم فى الإِقحام . أَو لمقعد فى زحام ، وإن غِبْت فيُقْضى الأَمر ، وقد سَطَر زيد وعمرو . ناشدتكما الله فى الإِنصاف ، أن تَرْبعا بوادٍ من أَوْدِية الشِّحْر . فى نادٍ من أندية الشِّعر بل السِّحر ، حيث تَنْدرج الأَنهار ، وتتأرَّج الأزهار ، ويتبرَّج الليل والنهار ، ويقرأُ الطير صُحُفًا مُنتشرة ، ويجلو النور ثُغورا مؤشَّرة ، ويُغازل عيونُ النَّرجس الوَجِل خدُود الورد الخَجِل . وتمايل أعطاف البان ، على أَرْداف الكُثْبان ، فيرقد

النسيم العليل فى حِجر الرَّوض وهو بَليل ، وتَبْرُز هوادج الرَّاح على الرَّاح . وقد هُدِيت بأقمار . وحُلِيت بأزهار ومِزْمار ، وركبتها الصَّبا والكُميت فى ذلك المِضْمار ، ولم تزالا فى طيبٍ ، وعيش رطيبٍ ، من قباب وخُدور . وشموس وبُدور ، تَصِلان الليالى والأيام ، أَعْجازاً بصُدور ، وأنا الطَّريدُ منبوذٌ بالعراءِ ، موقوذٌ فى جهة الوراء ، لا يُدنى مَحلِّى ولا يُعْتَنى بعَقْدى ولا حلِّى ، ولا أُدْرِج من الحَرور إلى الظِّل ، ولا أُخْرِج من الحرام إلى الحِل ، ولا يُبْعث إلىَّ مع النَّسيم هَبَّة ، ولا يُتاح لى من الآتى عَبّه . قد هلكت لغواً . ولم تُقيما لى صَفْواً ، ومتُّ كمداً ، ولم تَبْعثا لبَعْثى أمداً . أتراه خَلَفْتُمانى جَرَضاً . وألْقَيْتُمانى حَرَضاً ، كم أَسْتَسْقى فلا أُسْقى . وأَسْتَرْقى فلا أُرقى : لا ماء أَشْرَبه ولا عمل فى وصْلِكما أُدرِّبه . لم يبق لى حيلة إلا الدُّعاءَ المجاب . فعسى الكرب أن يَنْجاب . اللهم كما أَمْدَدت هذين السَّيِّدين بالعِلم الذى هو جَمال ، وسدَّدْتهما إلى العمل الذى هو كمال ، وجَمَعْت فيهما الفضايل والمكارم . وخَتَمْتَ بهما الأفاضل والمكارم ، وجعلتَ الأدب الصَّريح أَقلَّ خِصالهما . والنَّظر الصحيح أقلَّ نِصالهما ، فاجْعَل اللهم لى فى قلوبهما رحمة وحناناً . وابسُط لى منهما وَجْهاً ، واشرح لى جَناناً . واجعلنى اللهم ممَّن اقتدى بهما ، وتعلَّق بأهدابهما ، وكان دأْبُه فى الصَّالحات كدأْبهما . حتى أكون بهما ثالثَ القَمَرين فى الآيات . وثالث العُمَرين فى عمل البرِّ وطول الحياة . اللهم آمين وصلى الله على محمد خاتم النبيِّين . وكأنِّى أنظر إلى سيدىَّ أعزَّهما الله ، إذا وقفا على هذا الخطاب ، ونظرا إلى هذا الاحتِطاب . كيف يُديران رَمْزاً ، ويسيران غَمْزاً ، ويقال استَتَبَّ [1] الفِصال ، وتعاطى البيذق ما تفعل النِّصال . وحَنَّ جذْعٌ ليس منهما ، وخُذْ عجفاءك وسَمِّنها .

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (استثنيت) .

فأقول وطَرْفى غَضِيض ، ومَحلِّى الحضيض ، مثلى كمثل الفرُّوج أو ثانى البُروج ، وما تقاس الأَكُفُّ بالسُّروج . فأَضْرِبا عنى أيها الفاضلان ، ما أنا ممَّن تناضلان ، والسلام » .

مولده

قال شيخنا الفقيه أبو عبد الله بن القاضى المُتَبحِّر العالم أَبى عبد الله بن عبد الملك ، سأَلته عن مولده فأَنشدنى :

يا سايلى عن مولدى كى أَذكُرَه ولدتُ يوم سبعة وعشرة
من المُحَرَّم افتتاح أَربع من بعد ستماية مُفَسِّرة

وفاته

فى التاسع عشر لرجب عام تسعة وتسعين وستماية ، ودفن بمقبرة فاس ، وأمر أن يكتب على قبره :

زر غريبا بمقرِّه نازحا ماله ولى
تركوه مُوسَّداً بين تُرْب وجَندل
ولتَقُل عند قبره بلسان التَّذَلُّل
يرحم الله عَبْده مالك بن المُرَحَّل

ومن طارئى المقريين والعلماء

منصور بن على بن عبد الله الزواوى

صاحبُنا ، يكنى أبا على .

حاله

هذا الرجل طِرْفٌ فى الخير والسلامة ، وحسن العهد ، والصَّون والطهارة

والعِفَّة . قليل التصنُّع ، مؤثرٌ للاقتصاد ، مُنقبض عن الناس . مكْفوف اللسان واليد ، مُشْتَغل بشأنه ، عاكفٌ على ما يُعنيه ، مستقيم الظاهر . ساذج الباطن . مُنصِف فى المذاكرة ، مُوجبٌ لحقِّ الخَصْم ، حريصٌ على الإفادة والاستِفادة ، مثابرٌ على تعلُّم العِلم وتعليمه ، غير أنِفٍ عن حَمْله عَمَّن دُونه ، جُملةٌ من جُمل السَّذاجة والرُّجولة وحسن المعاملة ، صَدْر من صدور الطَّلبة ، له مشاركة حسنة فى كثير من العلوم العَقْلية والنَّقلية . واطِّلاعٌ وتقييد ، ونظر فى الأُصول والمنطق وعِلْم الكلام ، ودعوى فى الحساب والهندسة والآلات . يكتب الشِّعر فلا يعدو الإجادة والسَّداد .

قدم الأَندلس فى عام ثلاثة وخمسين وسبعماية ، فلقى رَحْباً ، وعُرِف قَدْره ، فتقدم مُقرئا بالمدرسة[١] تحت جراية نبيهة ، وحَلَّق للناس متكلِّما على الفروع الفقهية والتفسير . وتصدَّر للفُتْيا ، وحضر بالدار السلطانية مع مثله . جَرَّبتُه وصَحِبْتُه . فبَلَوتُ منه دِيْناً ونَصَفَة ، وحسن عِشْرة .

محنتــــه

امتُحن فى هذا العهد الأَخير بمطالبةٍ شرعيَّة ، لمُتَوقَّف صدر عنه لما جمع الفقهاءِ للنَّظر فى ثبوت عقد على رجل نال من جانب الله والنُّبوة ، وشكَّ فى القول بتَكْفيره ، فقال القوم بإشراكه فى التكفير ولَطْخِه بالعاب[٢] الكبير ، إذ كان كثير المشاحَّة[٣] لجماعتهم ، فأَجْلَت الحال عن صَرْفه عن الأَندلس فى أَواخر شعبان عام خمسة وستين وسبعماية .

---

(١) المقصود بالمدرسة هنا ، المدرسة النصرية أو جامعة غرناطة التى أنشأها السلطان يوسف أبو الحجاج فى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (اللعاب) وهو تحريف

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (المشاحنة) والمؤدى واحد

مشيخته

طلبتُ منه تقييد مشيخته ، فكتب مما يدل على جودة القريحة ما نصه :

« يتفضَّلُ سيدى الأعلى الذى أهتدِى بمِصْباحه ، وأعْشُو إلى غُرَره وأوْضاحه . جامعُ أشْتات العلوم ، وفاتِقُ رَتْق الفهوم ، حامل راية البديع ، وصاحبُ آيات التَّورية[١] فيه والتَّرْصيع ، نُخْبة البلغاء ، وفخر الجهابذة العلماء . قايدُ جِياد البلاغة من نواصِيها ، وسايق شَوارد الحِكَم من أقاصيها ، أبو عبد الله بن الخطيب ، أبقاه الله للقريض ، يَقْطِف زَهْره ، ويَجْتَنى غُرَره . وللبديع يُطلع قَمَره ، وينظم دُرَره . وللأدب يَحُوك حُلَله . ويجمع تَفاصيله وجُمَله ، وللمعانى يَجُوس بجيوش البراعة خِلالها ، ويفتتح بعوامل اليراعة أقْفالها ، وللأسْجاع يُقَرِّطُ[٢] الأسماع بفرايدها ، ويُحلِّى النحور بقلايدها . وللنَّظْم يُورد جياده أحْلى الموارد ، ويُجيلها[٣] فى مِضْمار البلاغة من غير مُعاند ، وللنَّثر يَفْتَرع أبْكاره . ويودعها أسْراره ، ولساير العلوم يَصوغها فى مَفْرِق الآداب تاجاً ، ويَضَعُها فى أسْطُر الطُّروس سراجا ، ولازال ذا القلم الأعلى ، وبَدْر الوزارة الأوْضح الأجْلى ، ببقاء هذه الدولة المولوية والإمامة المحمدية . كعبةً لملوك الإسلام . ومَقْصِداً للعلماء الأعلام . ورضى عنهم خَلَفًا وسَلَفًا ، وبُورك لنا فيهم وسَطاً وطَرْفاً ، ولا زالت آمالنا بعَلايِهم منوطة . وفى جاههم العريض مبسُوطة . بقبول ما نَبَّه عليه ، من كَتْب شيوخى المشاهير إليه ، فها أنا أذكر ما تيسر لى من ذلك بالاختصار . إذ لا تفى بذكرهم وحُلاهم المجلَّدات الكبار .

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (آية التفويف) وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة (بقطر) وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ويحييها) .

فمنهم ، مولاى الوالد على بن عبد الله لقاه الله ، الرُّوح والريحان ، وأوسعه الرِّضا والغفران . قرأت عليه القرآن ، وبعض ما يتعلق به من الإعراب والضبط . ثم بعثنى إلى شيخنا المجتهد الإمام ، عَلَم العلماء ، وقُطْب الفقهاء ، قُدْوة النُّظار ، وإمام الامْصار ، منصور بن أحمد المشْدالى رحمه الله وقدَّس روحه ، فوجدته قد بلغ السِّنُّ به غاية أَوْجَبت جلوسه فى داره ، إلا أنه يُفيد بفوايده بعض زُوَّاره . فقرأْت من أوائل ابن الحاجب[١] عليه لإشارة والدى بذلك إليه ، وذلك أَول محرم عام سبعة وعشرين وسبعماية . واشتد الحصار ببجاية لسماعنا أن السلطان العَبْدِ الوادى[٢] ينزل علينا بنفسه ، فأَمرنى بالخروج رحمه الله ، فعاقنى عايق عن الرجوع إليه لأُتمم قراءة ابن الحاجب عليه . ثم مات رحمه الله عام أحد وثلاثين وسبعماية ، فخَصَّ مصابه البلاد وعمَّ ، ولفَّ ساير الطلبة وضم ، إلا أنه ملأَ بجاية وأَنظارها بالعلوم النظرية وقساها ، وأنظارها بالفهوم النقلية والعقلية . فصار[٣] من طلبته ، شيخنا المعظم ، ومفيدنا المُقَدَّم أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلى المعروف بالمُفَسِّر[٤] رحمه الله ، بالطريقة الحاجبية ، والكتابة الشرعية والأَدبية ، مع فضل السن وتَقْرير حَسَن ، إلى معارف[٥] تحلَّاها ، ومحاسن اشتمل حُلاها . واستمر فى ذكر شيوخه

---

(١) هو أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر المعروف بابن الحاجب ، إذ كان والده حاجبا لأحد أمراء الدولة الصلاحية المصرية . ولد بالقاهرة وبرع فى الفقه وعلوم اللغة ، واشتهر بكتبه فى النحو وفى مقدمتها « الكافية » و« الشافية » . وكانت كتبه من أهم نصوص الدراسة اللغوية طوال العصور الوسطى . وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٤٦ هـ .

(٢) نسبة إلى بنى عبد الواد ملوك مملكة تلمسان بالمغرب الأوسط .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (فغار) وهو تحريف .

(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (بالمسفر) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (معان) .

على هذه الوتيرة من التزام السَّجع ، وتقرير الحَلْ ، فأجاد ، وتجاوز[١] المعتاد . فذكر منهم محمد بن يحيى الباهلى المذكور ، وأنه أخذ عنه جملة من العلوم ، فافرده بقراءة الإرْشاد . والأستاذ أبا على بن حسن البَجْلى ، وقرأ عليه جملة من الحاصل . وجملة من المعالم الدينية والفقهية ، والكتب المنطقية ، كالخَوْنجى ، والآيات البينات . والقاضى أبا عبد الله محمد بن أبى يوسف ، قاضى الجماعة ببجاية ، وأبا العباس أحمد بن عمران الساوى اليانيولى[٢] . قال ثم ثنيت العِنان بتوجُّهى إلى تلمسان . راغباً فى علوم العربية ، والفهوم الهندسية والحسابية ، فأول من لقيت شيخنا الذى عُلِمت فى الدنيا جلالته وإمامته . وعُرفت فى أقاصى البلاد سيادته وزعامته ؛ وذكر رئيس الكُتَّاب العالم الفاضل أبا محمد عبد المهيمن الحَضْرَمى . والمحدِّث البقيَّة أبا العباس بن يَربوع ، والقاضى أبا إسحق بن أبى يحيى . وقرأ شيئا من مبادىء العربية على الأستاذ أبى عبد الله الرُّندى . ولقى بالأندلس جلَّة . فممَّن قرأ عليه إمام الصنعة العربية شيخنا أبو عبد الله بن الفخَّار الشهير بالبيرى[٣] . ولازمه إلى حين وفاته ، وكتب له بالإجازة والإذن له فى التَّحليق بموضع قُعُوده من المدرسة بعده . وقاضى الجماعة الشريف أبوالقاسم محمد بن أحمد الحسينى ، نسيجُ وحده ، ولازمه . وأخذ عنه تواليفه ، وقرأ عليه تسْهيل الفوايد لابن مالك . وقيَّد عليه . وروى عن شيخنا إمام البقية أبى البركات بن الحاج ، وعن الخطيب المحدِّث أبى جعفر الطَّنجالى . وهو الآن بالحال الموصوفة أعانه الله وأمتع به

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (جاوز) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (البانيولى) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الالبيرى) . والمؤدى واحد ، وهو النسبة إلى إلبيرة .

شـــعره

زُرنا معا والشيخ القاضى المتفنِّن أَبو عبد الله المقَّرى عند قدومه إلى الأندلس رباط العقاب(١) . واستَنْشَدتُ القاضى . وكتب لى يومئذ بخطه ، استَنْشدنى الفقيه الوجيه الكامل ذو الوزارتين أَبو عبد الله بن الخطيب ، أَطال الله بقاه كما أَطال ثناه ، وحفظ مُهجته . كما أَحسن بهجته ، فأَنشدته لنفسى :

لما رأَيناك بعد الشَّيب يا رَجُل ... لا تستقيم وأَمر النفس تمتثل

زدنا يقينـــا بما كنـــا نصدِّقه ... عند المشيب يَشِبُّ الحِرْص والأَمل

وكان ذلك بمسجد رابطة العقاب ، عقب صلاة الظهر من يوم الأَحد التاسع والعشرين لشهر ربيع الآخر من عام سبعة وخمسين وسبعماية .

وكتب الشيخ الأُستاذ أبو على يقول : منصور بن على الزَّواوى ، فى رابطة العقاب فى كذا ، أَجزْتُ صاحبنا الفقيه المعظم ، أَبا عبد الله بن الخطيب وأَولاده الثلاثة عبد الله ، ومحمداً ، وعليا ، أَسعدهم الله ، جميع ما يجوز لى وعنِّى روايته ، وأَنشدته قولى أُخاطب بعض أَصحابنا :

يحيِّيك عن بعض المنازل صاحب ... صديق غَدَتْ تهدى إليك رسايله

مُقدِّمةً حِفْظ الوداد وسـيلة ... ولا وُدَّ إلا أَن تَصِحَّ وسـائله

يُسايل عنك الدَّارَين ولم يكن ... تَغيب لبُعْد الدار عنك مسايله

وكتبت له قبل هذا مما أَنشدته عند قدومى على غرناطة :

يا مَنْ وجدناه لفظا ... حقيقةً فى المعـــالى

مقدِّمات عُـــلاكم ... أَنْتَجن كل كمـــال

---

(١) رباط العقاب أو رابطة العقاب ، كانت أحد الربط التى [illegible] ، وكانت تقع على مقربة من غرناطة ، وقد سبق التعريف بها (أنظر المجلد الثانى من الإحاطة ص ١٥٤ حاشية) .

وكل نظْمٍ قيــاس خَلَوْت منه فَخــال

وهو من لدُنْ أزعِج عن الأَندلس ، كما تقدم ذكره ، مقيمٌ بتلمسان ، على ما كان عليه من الإقراء والتدريس .

مسلم بن سعيد التِّنملّ (١)

حــــاله

كان غير نَبيه الأُبوة . ظهر فى دولة السلطان أَمير المسلمين ، ثانى الملوك من بنى نصر ، بمزيد كفاية ، فقلَّده خُطَّة الحِفازة ، وهى تعميم النظر فى المَجابى ، وضم الأَموال ، وإيقاع النَّكير فى محل التَّقصير ، ومظانٍّ الرِّيَب فنَمَت حاله ، وعَظُم جاهه ، ورُهِبت سَطْوته ، وخِيف إيقاعه ، وقَرُبت من السلطان وسيلته ، فتقدم الخُدَّام ، واستوعب أطراف الحُظوة . واكتَسَب العَقار ، وصاهر فى نَبيه البيوتات ، وأروث عنه أخبارا ، تشهد له بالجُود وعلوِّ الهمة ، وشرف النفس ، إلى أن قَضَى على هذه الوتيرة .

ذكروا أن شخصاً جلَب سِلعة نفيسة ، مما يُطْمع فى إخفايها ، حِيدَةً عن وظيفة المغْرم الباهظة ، فى مثل جِنسه ، فبينما هو يروم المحاولة ، إذ بَصُر بنبِيه المَرْكب والبِزة ، يَنْفَضُّ فى زوايا الفَحْص عن مثل مُضَّطبنَه ، فظنَّه رئيساً من رؤساء الجند ، فقصده ورغب منه إجازة خَبِيئته بباب المدينة ، وقرَّر لتخوُّفه من ظُلم الحافز الكذا مُسلم ، فأَخذها منه وخبَّأَها تحت ثيابه ، ووكَّل به . ولم يذهب المسكين الا يسيراً ، حتى سأَل عن الرجل ،

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الإبتوبه (المخلى) وهو تحريف . والتنملى ، نسبة إلى بلدة تينملل ، وهى بلدة صغيرة تقع فوق سفح جبال الأطلس ، فى جنوب غربى مراكش ، ومنها كان نهوض المهدى ابن تومرت ، ومبعث دولة الموحدين .

فأُخبِر أنَّه الذى فرَّ عنه . فسُقِط فى يده . ثم تحامل فألْفاه ينظره فى داخل السور ، فدفع إليه أمانته ، وقال سِر فى حفظ الله ، فقد عَصَمها الله من ذلك الرجل الظالم . فخَجل الرجل . وانصرف متعجِّباً . وأخباره فى السّراوة . ونْجح الوسيلة . كثيرة .

وفـــاته

توفى فى عام ثمانية وتسعين وستّماية ، وشهد أميرُه دفنه . وكان قد أسَفَّ ولى العهد بأُمور صانعه فيها من باب خدمة والده . فكان يتلَمَّظ لنكبته ، ونصب لشاته لأكله . فعاجله الحِمام قبل إيقاع نقمته به . ولما تصيَّر إليه الأَمر . نبش قَبْره ، وأخرج شِلوه . فأُحرِق بالنار ، إغراقاً فى شهوة التَّشفى رحمة الله عليه [1] .

ومن العمال الأثراء

مُؤمَّل ، مولى باديس بن حَبُّوس

حـــاله ومحنتـــه

قال ابن الصَّيرفى . وقد ذكر عبد الله بن بُلُقِّين حفيد باديس ، واستشارته عن أمره . لمَّا بلغه حركة يوسف بن تاشْفين إلى خَلعه . وكان فى الجُملة من أحبابه . رجل من عبيد جَدّه اسمه مؤمّل . وله سِنٌّ ، وعنده دهاء وفِطنة . ورأى ونَظَر . وقال فى موضع آخر . ولم يكن فى وزراء

(١) وردت هذه الترجمة فى هامش اللوحة 198 من مخطوط الإسكوريال . والظاهر أن الناسخ ، قد نسيها ، وهى واردة فى مكانها بمخطوط الزيتونة باللوحة 84 من الجزء الثانى .

مملكته وأخبار[١] دولته ، أصيلَ الرأى ، جَزْل الكلمة ، الا ابن أبى خَيْثَمة من كتبَته ، ومؤمَّل من عبيد جَدِّه ، وجعفر من فِتْيانه . رجع ، قال ، فألْطَف له مؤمِّل فى القول ، وأعلمه برِفق ، وحُسن أدب ، أن ذلك غير صواب ، وأشار إليه بالخروج إلى أمير المسلمين إذا قَرُب ، والتَّطارُح عليه ، فإنه لا تُمْكنه مُدافعته ، ولا تُطاق حَرْبُه ، والاستِجداءُ[٢] له . أحمدُ عاقبة وأيمنُ مَغبّة . وتابعه على ذلك نُظراؤه ، من أهل السِّن والحُنكة ودافع فى صدِّ رأيه الغِلْمة والأغْمار ، فاستشاط غيظاً على مؤمِّل [ومن نحا نحوه][٣] ، وهمَّ بهم ، فخرجوا ، وقد سلَّ بهم فرَقاً منه . فلما جنَّهم الليل فرّوا إلى لَوْشة ، وبها مَن أبناء عَبيد باديس قايدُها ، فملكوها وثاروا فيها ، بدعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشُفين . وبادر مؤمِّل [بالخطاب إلى أمير المسلمين المذكور][٤] وقد كان سَفَر إليه عن سلطانه ، فأعجبه عقلا ونُبْلا ، فاهتزَّ إليه ، وكان أقوى الأسباب على حركته . وبادر حفيد باديس الأمر ، فأشْخَص الجيش لنظر صِهره ، فتغلَّب عليهم ، وسِيق مؤمَّل ومن كان معه شرَّ سوْق فى الحديد ، وأُرْكِبوا على دواب هِجن ، وكُشفت رؤوسهم ، وأُرْدِف وراء كلِّ رجل من يصْفَعُه . وتقدَّم الأمر فى نَصْب الجُذوع وإحضار الرُّماة . وتلطَّف جعفر فى أمرهم . وقال للأمير عبد الله : إن قَتلتَهم الآن ، أطْفَأْت غضبك ، وأذْهَبْتَ مُلْكك . فاستخرِج المال : وأنت من وراء الانتقام ، فثقَّفهم ، وأُطْمِعوا فى أنفسهم ريثما شغله الأمر ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال (أحبا) . والتصويب من الزيتونة .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (الاىحداء) وهو تحريف .

(٣) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الزيتونة . وورد مكانها فى الإسكوريال (بخطاب يوسف المذكور) . والأولى أنسب للسياق .

أنْفَذَ إليه يوسف بن تاشفين فى حلِّ اعتقالهم ، فلم تَسَعْه مخالفته وأطلقهم . ولما ملك غرناطة على تَفْيئة تلك الحال ، قدَّم مؤمِّلاً على مُسْتَخْلصه[١] وجعل بيده مفاتيح قَصْره ، فنال ما شاءَ من مال وحُظوة ، واقتنى ما أراد من صامتٍ وذخيرة . ونُسبت إليه بغرناطة آثار، منها السِّقاية بباب الفخَّارين والحَوْز المعروف بحوز مُؤمِّل[٢] ، أدركتها وهى بحالها .

وفاته

قال ابن الصَّيرفى ، وفى ربيع الأَول من هذا العام ، وهو عام اثنين وتسعين وأربعماية ، توفى بغرناطةَ مؤمِّل مولى باديس بن حَبُّوس ، عبد أَمير المسلمين ، وجابى مُسْتَخْلصه [وكان له دهاءٌ وصبر][٣] ، ولم يكن بقارىءٍ ولا كاتب . رَزَقه الله عند أمير المسلمين ، أيام حياته ، منزلةً لطيفة ودرجة رفيعة . ولما أَشرف على المَنِيَّة ، أَحضر ما كان عنده من مال المُسْتخلص ، وأَشهد الحاضرين على دَفْعه إلى من اسْتَوْثقه على حَمْله . ثم أَبْرَأَ جميع عماله وكتَّابه . وأَنفذَ رجلا من صنايعه إلى أمير المسلمين بجُمْلَة من مال نفسه ، يريه أَن ذلك جميع ما اكْتَسَبَه فى دولته ، أيام خِدمته ، وأَن بَيْت المال أولى به ، ورغب فى سَتْر أهله وولده . فلما وصل إليه ، أَظهر الأَسف عليه ، وأَمضى تقديم صَنِيعته . ثم ذكر ما كشف البحث عنه من مُحْتَجنه ، وشقاءِ من خَلِفه بسببه ، وعدَّد مالا وذخيرة .

---

(١) المستخلص هنا يقصد بها الأملاك والأموال الأميرية .

(٢) حوز مؤمل أو رحبة مؤمل ، اسم مكان بغرناطة الإسلامية كان يقع فى جنوب غربى الحمراء ويشتهر برياضه ومتنزهاته . وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٤٤١ حاشية) .

(٣) هذه العبارة واردة فى الزيتونة . ومكانها بياض بالإسكوريال .

حـــرف النون

الملوك والأمـــراء

نصر بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر بن أحمد بن محمد بن خميس بن عقيل الخزرجى الأنصارى

أمير المسلمين بالأندلس ، بعد أبيه وجده وأخيه . يُكْنَى أبا الجيوش وقد تقدم من أوليَّة هؤلاء الملوك ما يُغْنِى عن الإعادة.

حـــاله

من كتاب « طُرْفَة العصر فى أخبار الملوك من بنى نصر »(١) من تَصْنيفنا. قال . كان فتى يملأ العيون حُسْناً وتمام صورة ، دَمِث الأخلاق . ليِّن العريكة ، عفيفاً ، مَجْبولا على طلب المدنة وحبِّ الخير . مُغْمد السَّيف . قليل الشَّر ، نافراً للبَطَر وإراقة الدماء ، مُحبا فى العلم وأهله . آخذاً من صناعة التَّعديل بحظٍّ رغيب . يخُطُّ التقاويم الصَّحيحة ، ويصنع الآلات الطَّريفة بيده ، اختصَّ فى ذلك الشيخ الإمام أبا عبد الله بن الرَّقَّام . وحيدَ عصره . فجاء واحد دهره ظَرْفاً وإحكاماً . وكان حَسِن العهد . كثير الوفاء . حَمَله الوفاءُ على اللَّجاج فى وزيره المطلوب بِعَزْله ، على الاستهداف للخَلْع .

تقدَّم يوم خلع أخيه ، وهو يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعماية ، وسنه ثلاث وعشرون سنة . فكان من تمام الخُلُق ، وجمال الصُّورة ، والتَّأنق فى ملوكى اللِّباس ، آية من آيات الله خالِقِه . واقتدى برسوم أبيه وأخيه ، وأجْرَى الألقاب والعَوايد لأولى دولتهم وكانت أيامه كما شاء الله ، أيام

---

(١) قمنا بالتعريف بهذا الكتاب . ضمن مؤلفات ابن الخطيب ، فى مقدمة المجلد الأول من « الإحاطة » (ص ٥٨) .

نحس مستمر . شملت المسلمين فيها الأزمة ، وأحاط بهم الذُّعر ، وكَلِبَ العدوُّ . وسيمر من ذلك ما فيه كفاية . وكان فتىً أىَّ فتىً ، لو ساعده الجَدُّ . والأمر لله من قبل ومن بعد .

وزراءُ دولتـــه

وزَر له مُقيم أمره ومُحكم التَّدبير على أخيه ، أبو بكر عتيق بن محمد ابن المَوْل . وبيت بنى مَوْل بقرطبة ، بيتٌ له ذكر وأصالة . ولما تغلَّب عليها ابن هود ، اختفى بها أبوه أياما عدة . ولما تملكها السلطان الغالب بالله تلك البُرْهة ، خرج إليه وصحبه إلى غرناطة ، فاتَّصلت قرْباه بعَقْده على بِنْتٍ للرئيس أبى جعفر المعروف بالعُجْاب ابن عم السلطان . واشتد عَضُدُه . ثم تأكَّدت القُرْبى بعقد مَوْل أخى هذا الوزير على بِنْت الرئيس أبى الوليد أخت الرئيس أبى سعيد ، مُنجب هؤلاء الملوك الكرام ، فقام بأمره ، واضَّطلع بأعباء سلطانه ، إلى أن كان من تغلُّب أهل الدولة عليه ، وإخافة سلطانه منه ، ما أوجب صرْفه إلى المغرب فى غَرض الرسالة ، وأُشير عليه فى طريقه بإقامته بالمغرب . فكان صَرْفاً حسناً . وتولى الوزارة محمد بن على بن عبد الله بن الحاج ، المُسَيَّر لخَلْعِه ، واجتِثاث أصله وفَرْعه ، وكان خِبًّا داهية ، أعلم الناس بأخبار الرُّوم وسيرهم وآثارهم . فحدَثَتْ بين السلطان وبين أهل حَضْرته الوَحْشة بسببه .

قضـــاته

أقر على خطة القضاء بحضرته قاضى أخيه الشيخ الفقيه أبا جعفر القرشى المُنْبز بابن فركون ، وقد تقدم التعريف به مستوفى بحول الله[1]

---

(١) وردت ترجمة ابن فركون المشير إليه ، فى المجلد الأول من الإحاطة (ص ١٥٣ - ١٥٧)

كـتّـابه

شيخنا الصدر الوجيه ، نسيج وحده أبو الحسن على بن محمد بن سليمن بن الجيّاب إلى آخر مدته

من كان على عهده من الملوك

بالمغرب : السلطان أبو الربيع سليمن بن عبد الله بن أبى يعقوب يوسف بن أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، تصيّر الأمر إليه بعد وفاة أخيه السلطان أبى ثابت عامر بأحْواز طَنْجَة ، فى صفر عام ثمانية وسبع ماية ، وكان مشكوراً ، مُبْخت الولاية . وفى دولته عادت سَبْتَة إلى الإيالة المرينيَّة ، ثم توفى بتازى(١) فى مستهل رجب من عام عشرة وسبعماية . وتولى الملك بعده عمُّ أبيه السلطان الجليل الكبير ، خِدْنُ العافية ، ووليُّ السلامة ، وممهِّد الدولة أبو سعيد عثمن بن أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق . واستمرت ولايته إلى تمام أيام هذا الأمير ، وكثيراً من أيام مَنْ بعده . وقد تقدَّم من ذكر السلطان أبى يوسف فى اسم من تقدم من الملوك ما فيه كفاية .

وبتِلمسان ، الأمير أبو حمّو موسى بن عثمن بن يَغْمِراسِن ، سلطان بنى عبد الواد(٢) ، مذلِّل الصُّقع ، والمثل السّاير فى الحزم والتيقُّظ ، وصلابة الوَجْه ، زعموا ، وإحكام القِحة ، والإغراب فى خُبْث السِّيرة . واستمرت ولايته إلى عام ثمانية عشر وسبعماية ، إلى أن سَطا به ولدهُ ، عبد الرحمن أبو تاشُفِين .

وبتونس ، الأمير الخليفة أبو عبد الله محمد بن الواثق يحيى بن

---

(١) تازى أو تازه أو تازا بلدة مغربية تقع شرق مدينة فاس ، وجنوبى ثغر المزمة .

(٢) وردت فى المخطوطين (عبد الوادى) والأصح ما أثبتناه

المستنصر محمد بن الأمير أبى زكريا بن أبى حَفْص . ثم تُوفى فى ربيع الآخر عام تسع وسبع ماية . فولّى الأمر قريبُه الأمير أبو بكر بن عبد الرحمن ابن الأمير أبى زكريا ابن الأمير أبى إسحق بن الأمير أبى زكريا بن عبد الواحد بن أبى حَفْص. ونهض إليه من بجاية قريبُه السلطان أبو البقاء خالد ابن الأمير أبى زكريا ابن الأمير أبى إسحق ابن الأمير أبى زكريا بن عبد الواحد بن أبى حفص ، فالتقيا بأرض تونس ، فهُزم أبو بكر ، ونجا بنفسه ، فدخل بُسْتانا لبعض أهل الخِدمة ، مُخْتفياً فيه ، فسُعِى به إلى أبى البقاء ، فجِيء به إليه ، فأمر بعض القرابة بقَتْله صَبْراً ، نفعه الله. وتمّ الأمر لأبى البقاء فى رابع جمادى الأولى منه ، إلى أن وفد الشيخ المعظم أبو يحيى زكريا الشهير باللِّحيانى ، قافلاً من بلاد المشرق ، وهو كبير آل أبى حَفْص نَسَباً وقَدْراً ، فأقام بإطْرابُلس ، وأنْفَذ إلى تونس خاصّتَه ، الشيخ الفقيه أبا عبد الله المَزْدُورى [1] محارباً لأبى البقاء ، وطالباً للأمر . فتمّ الأمر ، وخلع أبو البقاء تاسع جمادى الأولى عام أحد عشر وسبعماية . وتم الأمر للشيخ أبى يحيى ، واعتُقل أبو البقاء ، فلم يزل مُعْتقلا إلى أن توفى فى شوال عام ثلاثة عشر وسبعماية ، ودفن بالجبّانة المعروفة لهم بالزّلاج ، فضَرِيحُه فيما تعرّفنا بإزاء ضريح قَتِيله المظلوم أبى بكر . لا فاصل بينهما . وعند الله تجتمع الخصوم .

واتّصلت أيام الأمير أبى يحيى ، إلى أن انقرضت مدة الأمير أبى الجيوش . وقد تضمّن الإلماع بذلك الرّجز المسمى بقَطْع السلوك [2] من

---

(١) هكذا ورد اسم هذا الفقيه فى الإسكوريال وهو اسمه الصحيح . وفى الزيدانية (أبا عبد الله المرادى) وهو تحريف .

(٢) يشير ابن الخطيب هنا إلى كتابه (رقم الحلل فى نظم الدول) الذى سبقت الإشارة إليه .

نظمى . فمن ذلك فيما يختص بملوك المغرب قولى فى ذكر السلطان أبى يعقوب :

ثم تقضّى مُعظم الزمان ... مواصلاً حَصْر بنى زيّان
حتى [أتى] (١) أهل تلمسان الفَرَج ... ونَشَقُوا من جانب اللُّطْف الأرج
لما ترقّى دَرَج السَّعد دَرَج ... فانفضّ ضيق الحصر عنها وانْفَرَج
وابنُ ابْنِه وهو المسمى عامراً ... أصبح بعدُ ناهياً وآمراً
وكان لَيْثاً دامى المَخالب ... تغَلَّب الأَمر بجدٍّ غالب
أباح بالسَّيف نفوسًا عِدَّة ... فلم تَطُل فى المُلْك منه المُدةّ
ومات حَتْفَ أنفه واخْتَرما ... ثم سليمان عليها قُدِّما
أبو الربيع دهرُه ربيعُ ... يُثْنى على سيرته الجميع
حتى إذا الملْك سليمان قضى ... تصيَّر الملك لعثمن الرِّضا
فلاح نور السَّعد فيها وأضا ... وسَنَى العهدَ الذى كان مضا

وفيما يختص ببنى زُيّان ، بعد ذكر أبى زيّان :

حتى إذا اسْتَوفى زمان سَعْده ... قام أبو حمّو بها من بعده
وهو الذى سَطا عليه ولدُه ... حتى انتهى على يَدَيْه أمَدُه

وفيما يختص بآل أبى حَفْص بعد ذكر جملة منهم :

ثم الشهيدُ الأَمير خالد ... هيهات ما فى الدهر حىٌّ خالد
وزكريّا بها بعدُ ثَووا ... ثم نَوَا الرِّحلة عنها والتَوا
رحَلَ بالشرق وبالشرق ثَوا ... وربما فاز امرؤٌ بما نَوا

ومن ملوك النصارى بقَشْتاله :هرانده بن شانجه بن ألهنشه بن هرانده بن

---

(١) ناقصة فى الإسكوريال وواردة فى الزيتونة واللمحة البدرية

شانجُه[١] . ونازل على عهده الجزيرة الخضراء ، ثم أقلع عنها عن ضَرِيبةٍ وشروط ، ثم نازل فى أُخريات أمره حِصْن القَبْذاق[٢] ، وأدركه ألَمُ الموت بظاهره ، فاحتُمل من المحلَّة إلى جيّان ، وبقيت المحلة مُنِيخة على الحصن، إلى أن تُمَلِّك بعد موت الطَّاغية بأَيام ثلاثة ، كتموا فيها مَوْته . ولسبب هلاكه حكاية ظريفة ، تضمنتها « طُرْفة العصر فى تاريخ دولة بنى نصر » . وقام بعده بأَمر النصرانية ولده ألهنشُه[٣] ، واستمرت أيامه إلى عام خمسين وسبعماية .

بعض الأَحداث فى أَيامه

نازل على أول أَمره طاغية قَشْتالة ـ الجزيرة الخضراء فى العاشر والعشرين من عام تسعة وسبعماية ، وأقام عليها إلى أخريات شعبان من العام المذكور ، وأقلع عنها بعد ظهوره على الجَبَل[٤] وفوز قِداحه[٥] به : ونازل صاحب بَرْجلونة مدينة أَلمريَّة غرة ربيع الأَول من هذا العام ، وأخذ بمُخَنَّقها ، وتفرَّقت الظبا على الخِراش ، ووقَعَتْ على جيش المسلمين الناهد إليه وقِيعة كبيرة ، واستمرت المطاولة إلى أخريات شعبان ، ونفَّس الله الحَصْر ، وفرَّج الكرب . وما كاد أَهل الأَندلس يستَنْشِقُون ريح العافية ،

---

(١) هرانده أى فرناندو ، وشانجه أى سانشو ، وألهنشه أى ألفونسو ، وهو الملك فرناندو الرابع ابن سانشو الباسل الذى تولى عرش قشتالة سنة ١٢٩٦ م (٦٩٦ هـ) ، تحت وصاية أمه ماريا دى مولينا ، وتوفى سنة ١٣١٢ م .

(٢) القبذاق ، وبالإسبانية Alcaudete ، بلدة حصينة تقع جنوب غربى جيان على مقربة من شمال غربى قلعة يحصب

(٣) الهنشه أى ألفونسو ، وهو هنا ألفونسو الحادى عشر ، وقد حكم قشتالة من سنة ١٣١٢ إلى سنة ١٣٥٠ م (٧٥١ هـ)

(٤) يقصد به هنا جبل الفتح أو جبل طارق .

(٥) أى من حظه وحسن طالعه .

حتى [نشأ نجم الفتنة] [١] . ونشأت ريحُ الخلاف ، واسْتَفْسد وزير الدولة ضمائر أهلها ، واسْتَهدف إلى رعيتها بإيثار النصارى والصاغية [٢] إلى العدو ، وأظهر الرَّيِّس ابن عم الأب صاحب مالَقة أبو سعيد فرج ابن اسماعيل ، صِنو الغالب بالله ابن نصر ، الامْتِساك بما كان بيده ، والدعاء لنفسه ، وقدَّم ولده الدَّايل إلى طلب المُلْك . وثار أهل غرناطة ، يوم الخامس والعشرين لرمضان من العام ، وأعلن منهم من أعلن بالخلاف ثم خانهم التدبير ، وخَبَطُوا العَشْواء ، ونزل الحَشَم ، فلاذ الناس منهم بديارهم ، وبرَز السلطان إلى باب القلعة ، متقدِّماً بالعِفَّة عن الناس ، وفرَّ الحاسرون عن القِناع ، فلحقوا بالسلطان أبى الوليد بمالقة ، فاستَنْهضوه إلى الحركة ، وقصْد الحَضْرة ، فأجابهم وتحرَّك ، فأطاعته الحصون بطريقه ، واحتل خارج غرناطة صبيحة يوم الخميس السابع والعشرين لشوال منه ، فابتدره الناس من صايح ومُشير بثَوْبه ، ومُتطارح بنفسه . فدخل البلد من ناحية رَبَض البيَّازين ، واستقر بالقَصبة ، كما تقدم فى اسمه . وفى ظهر يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر ، نزل الحمراء دار الملك ، وانفصل السلطان المُترجم به ، موفَّى له شرط عَقْده من انتقاله إلى وادى آش ، مستبدًّا بها ، وتعْيين مالٍ مخصوص ، وغير ذلك . ورَحَل ليلة الثلاثاء الثالث لذى قعدة من العام . واستمرت الحال ، بين حرب ومُهادنة ، وجَرَتْ بسبب ذلك أُمور صَعْبة إلى حين وفاته . رحمه الله .

مولده

وُلد فى رمضان عام ستة وثمانين وست مائة . وكانت سنُّه ستاً وثلاثين

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى اللمحة البدرية (نجم شهاب الفتنة)

(٢) هكذا وردت فى اللمحة البدرية وفى المخطوطين (الطاغية) والاولى أنسب للسياق والصاغية معناها هنا الخاصة والأنصار

سنة وثلاثة أشهر، ودولته الجامعة خمس سنين وشهراً واحداً ، ومُقامه بوادى آش تسعة أعوام وثلاثة أيام .

وفـــاته

توفى رحمه الله ، ليلة الأربعاء سادس ذى قعدة من عام اثنين وعشرين وسبعماية بوادى آش ، ودفن بجامع القصبة منها ، ثم نقل فى أوايل ذى الحجة منه إلى الحَضْرة ، فكان وصوله يوم الخميس السادس منه ، وبرز إليه السلطان ، والجَمْعُ الكثير من الناس ، ووُضع سريره بالمصلى العِيدى ، وصُلِّى عليه إثر صلاة العصر ، ودفن بمقبرة سلفه بالسَّبيكة ، وكان يوما من الأيام المشهودة ، وعلى قبره مكتوب فى الرُّخام :

« هذا قبر السلطان المُرَفَّع[1] المقدار ، الكريم البيت ، العظيم النِّجار سلالة الملوك الأعلام الأخيار ، الصَّريح النَّسب فى صميم الأنصار ، الملك الأَوْحَد ، الذى له السَّلف العالى المنار ، فى المُلْك المنيع الذِّمار ، رابع ملوك بنى نصر ، أنصار دين المصطفى المختار ، المجاهدين فى سبيل الملك الغفار ، الباذلين فى رضاه كرايم الأموال ، ونفايس الأعمار . المعظَّم المقدس المرحوم ، أبى الجيوش نصر ابن السلطان الأعلى الهمام الأسمى ، المجاهد الأَحْمَى ، الملك العادل ، الطَّاهر الشَّمايل ، ناصر دين الإسلام ، ومُبيد عَبَدَة الأصنام ، المؤيد المنصور ، المقدس ، المرحوم أمير المسلمين أبى عبد الله بن السلطان الجليل . الملك الشهير ، مؤسس قواعد الملك على التَّقوى والرِّضوان ، وحافظ كلمة الإسلام ، وناصر دين الإيمان ، الغالب بالله . المنصور بفضل الله ، المقدس المرحوم ، أمير المسلمين أبى عبد الله بن نصر ، تغمَّده الله برحمته وغُفْرانه ، وبوَّأه منازل إحسانه ، وكتبه فى أهل رِضوانه . وكان

(١) هكذا وردت فى المخطوطين ، وفى اللمحة البدرية (الرفيع) .

مولده فى يوم الاثنين الرابع والعشرين لشهر رمضان المعظم عام ستة وثمانين وستماية . وبويع يوم الجمعة غُرَّة شوال عام ثمانية وسبعماية . وتوفى رحمه الله ليلة يوم الأربعاء السادس لشهر ذى قعدة عام اثنين وعشرين وسبعماية فسبحان. المَلِك الحقُّ المبين ، وارث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين. وفى جهة :

يا قبر جاد ثَراك صَوْب غمام ... يَهْمِى عليك برحمةٍ وسلام
بُورِكْتَ لَحْدًا فيه أىُّ وديعة ... ملك كريم من نِجار كرام
ماشيت من حلم ومن خلق رضى (١) ... وزكاء أعراق ومجدٍ سام
فاسْعد بنصرٍ رابع الأملاك من ... أبناء نصر ناصرى الإسلام
من خَزْرج الفخر الذين مَقامُهم ... فى نَصْر خير الخلق خير مقام
يا أيها المولى المؤَسَّس بيتُه ... فى معدن الأحساب والأحلام
ماللمَنِيَّة والشباب مساعد ... قد أقصدتك بصائبات سِهام
عجَّلت على ذاك الجمال [فغادرت] (٢) ... ربْع المحاسن طامِسَ الأعلام
فمحى الرَّدى من حُسْن وجهك آيةً ... نحو النهار لسَدْفَة الإظلام
ما كنت إلا بَدْرَ تِم باهراً ... أَخْنَى الخسوف عليك عند تمام
فعلى ضريح أبى الجيوش تحية ... كالمِسْك عَرْفا عند فضِّ ختام
وتغَمَّدته رحمة الله التى ... تُرضيه من عَدْن بدار مُقام

ومن الأعيان والوزراء

نصر بن إبراهيم بن أبى الفتح الفهرى

يكنى أبا الفتح . أصلهم من حِصن أرْيُول من عمل مرسية . ولهم فى

(١) هكذا وردت فى الزيتونة واللمحة البدرية . وفى الإسكوريال (رضا) .
(٢) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال والزيتونة ، وواردة فى اللمحة البدرية .

الدولة النَّصرية مزيَّة خُصُّوا لها بأعظم رُتَب القيادة ؛ واستُعمل بعضهم فى ولاية السلطان .

حـــاله

نقلت من خط شيخنا أبى بكر بن شِبْرين : قال : وفى السادس عشر لذى قعدة منه ؛ يعنى عام عشرة وسبعماية ، توفى بغرناطة القايدُ المباركُ ، أبو الفتح ، أحد الولاة والأعيان الذاكرين لله تعالى ، أولى النزاهة والوفاء .

نصر بن إبراهيم بن أبى الفتح بن نصر بن إبراهيم بن نصر الفهرى

يكنى أبا الفتح ، حَفيد المذكور [معه فى هذا الباب] (١) .

حـــاله

من كتاب «طُرفة العصر» : نسيجُ وحده فى الخير والعَفاف ، ولين العريكة ، ودماثة الأخلاق (٢) ، إلى بُعْد الهمة ، وجمال الأبَّهة ، وضخامة التَّجنُّد ، واستجادة المَرْكِب والعُدَّة ، وارتباط العبادة . استعان على ذلك بالنِّعمة العريضة بين مُنادية (٣) إليه بميراث . ومُكْتَسَبٍ من جرّاء المُتغلِّب على الدولة صِهْرِه ابن المحروق معياشة لُبْنَتِه . ونَمَت حال هذا الشهم النَّجد ، وشَمَخت رُتْبته حتى خُطِب للوزارة فى أُخريات أيامه ؛ وعاق عن تمام المُراد به ، إلحاح السَّقَم على بدنه ، وملازمة الضَّنا لجُثْمانه ، فمضى لسبيله ، عزيز الفَقْد عند الخاصَّة ، ذائع الثَّنا ، نقى العِرْض ؛ صدراً فى الوُلاة . وعلَماً فى القُوّاد الحُماة .

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى الزيتونة مكانها كلمة (قبله) .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة وفى الإسكوريال (الأخالق) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (متاوية) .

وفـــاته

توفى بغرناطة ليلة الجمعة التامن والعشرين لجمادى الآخرة عام خمسة وأربعين وسبعماية . وكانت جنازته آخذةً نهاية الاحتفال ، رَكِب إليها السلطان ، ووقف بإزاء لَحْدِه ، إلى أن وُورى ، تنويهاً بقَدْره ، واشادة ببقاء الحرمة على خلفه . وحمل سريره الجملة من فرسانه وأبناء نعمته .

ومن الكتاب والشعراء

نزهون بنت القليعى (١)

قال ابن الأبّار ، وهو فيها أَحْسَبُ أبو بكر محمد بن أحمد بن خلف ابن عبد الملك بن غالب الغسّانى ، غرناطية .

حـــالها

كانت أديبة شاعرة ، سريعة الجواب ، صاحبة فكاهة ودُعابة . وقد جَرَى شيء من ذلك فى اسم أبى بكر بن قُزْمان ، والمخزومى الأعمى . وأبى بكر بن سعيد (٢) .

شـــعرها

دخل الأديب أبو بكر الكُتُندى الشاعر ، وهى تقرأ على المخزومى الأعمى ، فلما نظر إليها ، قال أجز يا أستاذ :

« لو كنتَ تُبصر من تكلِّمُه » (٣) . فأُفْحِمَ المخزومى زامِعاً ، فقالت :

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزبتونة (القلعى) وذكرها ابن الخطيب من قبل (تزهون بنت القلاعى) (المجلد الأول ص ٤٢٥)

(٢) راجع المجلد الأول من الإحاطة (ص ٤٢٥–٤٢٧) ، والمجلد الثانى (ص٥٠٤و٥٠٥) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى النفح (تجالسه)

« لغَدَوْتَ أَخْرَسَ من خلاخله » ثم زادَتْ :

إليه البــدرُ يطْلعُ من أَزرّتِه والغُصن يَمْـرَحُ فى غـلايله

ولاخفاء ببراعة هذه الإجازة ، ورفاعة هذا الأَدب .

وكتب إليها أَبو بكر بن سعيد ، وقد بلغه أَنها تُخالط غيره من الأدباء الأَعيان :

يا من لـه أَلـف خلٍّ (١) من عاشـــق وعَشِيـق

أَراك خلَّيت للنّـــا س سَدَّ ذاك الطريق

فأَجابته بقولها :

حَلَلْت أَبا بكـر محـلاً منعتَـه سواك وهل غير الرفيع (٢) له صَدْرى

وإن كان لى كم من حبيب فإنما (٣) يقدِّم أَهلُ الحقِّ فضل (٤) أَبى بكر

وهذه غاية فى الحُسْن بعيدةٌ . ومحاسنها شهيرة ، وكانت من غُرَرْ المفاخِر الغَرْناطية .

حرف الصــاد

من الأعيان والوزراء

الصُّمَيل بن حاتم بن عمر بن جذع بن شِمْر [بن] ذى الجوشن (٥) الضّبابى الـكلبى

وهو من أَشراف عَرَب الكوفة .

(١) هكذا وردت فى النفح وفى الإسكوريال (شخص)

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الحبيب) .

(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى النفح . وفى الإسكوريال (وإن كان حلا لى كثيراً فإنما) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (حب) .

(٥) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (ذى الجيوش) وهو تحريف

أوليّتـــه

قال صاحب الكتاب « الخَزَايِنى »[١] جدُّه أَحدُ قَتَلة الحسين بن على ، والذى قَدِم برأسه على يزيد بن معاوية . فلما قام المختار ثايراً بالحسين ، فرَّعنه شِمر ، ولحق بالشام فأَقام بها[٢] فى عزٍّ ومَنَعة . ولما خرج كُلثوم بن عِياض غازيا إلى المغرب ، كان الصُّميل ممن ضُرب عليه البعث فى أشراف أَهل الشام . ودخل الأَندلس فى طالِعة بَلْج بن بشر القُشيرى[٣] ، فشرُف ببَدَنِه إلى شرفٍ تقدَّم له . وردَّ ابن حيَّان هذا ، وقال فى كتاب « بهجة الأَنفُس ، ورَوْضة الأُنس » ، كان الصُّمبل بن حاتم هذا جدُّه شِمْر قاتل الحسين رضى الله عنه ، من أهل الكوفة ، فلما قتله ، تمكَّن منه المُخْتار[٤] فقتله ، وهَدَم داره ، فارتحل ولدُه من الكوفة ، فرأَس بالأَندلس ، وفاق [أقرانه][٥] بالنجدة والسَّخاء .

حـــاله

قال ، كان شجاعاً ، نَجْدًا ، جوادا ، كريماً ، إلا إنه كان رجلا أُمِّيًّا لا يقرأُ ولا يكتب ، وكان له فى قَلْبِ الدول ، وتدبير الحروب ، أَخبارٌ مشهورة .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (الحزاذ)

(٢) واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال

(٣) واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال

(٤) هو المختار بن أبى عبيد الثقفى . وقد خرج بالكوفة فى سنة ٦٦ هـ مطالبا بثأر الحسين ومن قتل من آل البيت . واستولى على الكوفة ، وبايعه الناس على سنة كتاب الله ورسوله ، والمطالبة بثأر الحسين وآل البيت ، وتجرد المختار لمطاردة قتلة الحسين ، فقتل شمر بن ذى الجوشن ، و عمر ابن سعد بن أبى وقاص ، وكل من اشترك فى مأساة مقتل الحسين رضى الله عنه فى كربلاء

(٥) واردة أيضاً فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال

من أخباره . حكى ابن القوطيّة ، قال ، مرّ الصُّميل بمعلم يتلو « وتلك الأيام نُداولها بين الناس » ؛ فوقف يسمع ، ونادى بالمعلم ، يا هناه كذا نَزَلت هذه الآية ، فقال نعم ، فقال ، أرى[1] والله أن سيُشْرِكنا فى هذا الأمر ، العبيدُ والأراذل والسُّفْلة .

خبره فى الجود : قال ، كان أبو الأجرب الشاعر ، وقفاً على أمْداح الصُّميل ، وهو القايل :

بنَى لك حاتمٌ بيتًا رفيعـا ... رأيْناه على عُمُد طُـوال
وقد كان ابْتَنَى شِمْرٌ وعمـرو ... بيوتاً غير ضاحية الظِّلال
فأنت ابن الأكارم من معدٍّ ... تَعْتَلج الأباطحُ والرِّمـال

وقارّضه بإجزْاله لعَطايه ، وانتِمائه فى ثَوابه ، بأن أغْلَظَ القَسَم على نفسه ، بأن لا يراه ،إلاّ أعطاه ما حَضَره ، فكان أبوالأجرب قد اعتمد اجْتِنابه [2] فى اللقاء ، حياءً منه ، وإبقاءً على ماله ، فكان لا يزوره إلا فى العِيديْن ، قاضياً لحقِّه . وقد لقيه يوما مواجَهةً ببعض [3] الطريق ، والصُّميل راكبٌ ، ومعه إبناه فلم يحْضرُه ما يُعطيه ، فأرْجَل أحدَ ابنَيْه ، وأعطاه دابَّتَه . فضَرَب فى صُنْعه . وفيه يقول من قصيدة :

دون الصُّميل شريعـة مُوْرُودَةٌ ... لا يستطيع لها العدوُّ ورودا
فُتَّ الورى وجمعت أشتات العلا ... وحَوَيْتَ مجداً لا يُنال وجُودا
فإذا هَلَكْتَ فلا تحمَّلَ فارسٌ ... سَيْفا ولا حَمَل النساءُ وليدا

وكان صاحب أمرِه ولاّه الأندلس قَبْل الأمويين ، لهم الأسماء . وله مَعْنى الإمرة . وكان مُظفَّر الحروب . سديدَ الرأى . شهيرَ الموقف ، عظيمَ

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يارب)
(٢) وردت هذه الكلمة فى الزيتونة ، ومكانها بياض فى الإسكوريال
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (فى)

الصبر . وأَوْقعَ باليمانيةَّ وقايع كثيرة ، منها وقيعة شَقُنْدَة ، ولم يكن بالأَندلس مثلَها ، أَثْخنَ فيها القتل باليمانية .

أَنَفَته

قال ، وكان أَبيًّا للضَّيم ، مُحاميا عن العشيرة ، كلَّم أَبا الخطّار الأَمير ، فى رجل من قومه ، انتصر به ، فأَفجمه [١] ، وردَّ عليه ، فأَمرَ به ، فتَعْتَع ومالت عمامته . فلما خرج قال له بعض من على باب الأَمير ، يا أَبا الجَوْشن ما بال عمامتك مايِلة ، فقال إن كان لى قومٌ فسَيُقِيمونها ، وخرج من ليلته ، فأَفْسَد مُلكه .

وفاؤه : وخبَرُ وفائه مشهور ، فيما كان من جوابه لرسُولَى عبد الرحمن ابن معاوية إليه ، بما قطع به رجاء الهَوادة فى أَمْرِ أَميره ، يوسف بن عبد الرحمن الفِهرى ، والتَّستُّر مع ذلك عليهما [٢] ، فليُنظَر فى كتاب «المُقْتَبس» [٣] » .

دخوله غرناطة

ولما صار الأَمر إلى عبد الرحمن بن معاوية ، صَقْر بنى أمية ، وقَهَر الأَمير يوسف الفِهرى ، ووزيره الصُّميل ، إذ عَزَله الناس ، ورجع معه يوسف الفهرى والصميل إلى قرطبة . ولم يلبثا أن نَكثا ، ولحقا فَحصْ غرناطة ، ونازلهما الأَمير عبد الرحمن بن معاوية فى خَبر طويل ، واستَنْزَلهما عن عَهْد ، وعاد الجميع إلى قرطبة ، وكان يوسف والصميل يَرْكبان إلى

(١) هكذا وردت فى الزيتونة وفى الإسكوريال (فنجمه) والأولى أرجح

(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (عليها)

(٣) هو كتاب «المقتبس فى أخبار أهل الأندلس» أو «المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس» لأبى مروان بن حيان ، أعظم مؤرخى الأندلس ، وأوثقهم رواية ، وأبرعهم نندا (٣٧٧-٤٦٩ ه) وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٩٢ حاشية)

القَصْر كل جُمعة إلى أن مضيا لسبيلهما . وكان عبد الرحمن بن معاوية يستَرجع . ويقول ما رأيت مثله رجلاً . لقد صَحِبَنى من إلْبيرة إلى قرطبة ، فما مسَّت رُكْبتى رُكْبتَه ، ولا خرجت دابَّتُه عن دابَّتِي .

ومن الكتاب والشعراء

صَفْوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التُّجيبي

من أهل مُرْسية ، يُكنى أبا بحر .

حـــاله

كان أديبا ، حَسِيباً جليلا ، أَصيلا ، مُمْتِعا من الظرْف ، ريّان من الأَدب ، حافظا ، حسن الخَطِّ ، سريعَ البديهة ، تَرِفَ النَّشأَة ، على تصَاوُن وعَفاف ، جميلا سَرِيّاً ، سَمْحاً ذكيا ، مليح العِشرة ، طيِّب النفس ، ممَّن تساوى حظُّه فى النظم والنثر ، على تبايُن الناس فى ذلك .

مشـــيخته

روى عن أَبيه وخاله ،ابن عم أَبيه القاضى أَبى القاسم بن إدريس ، وأَبى بكر بن مُغاور ، وأَبى الحسن بن القاسم ، وأَبى رِجال بن غَلْبُون،وأَبى عبدالله بن حُميد ، وأَبى العباس بن مَضاء ، وأَبى القاسم بن حُبَيْش ، وأَبى محمد الحِجْرى ، وابن حَوْط الله ، وأَبى الوليد بن رُشْد . وأَجاز له أَبو القاسم ابن بَشْكُوال .

من روى عنه :أَبوإسحق اليابُرى . وأَبو الربيع بن سالم ، وأَبو عبدالله ابن أَبى البقاء . وأَبو عمرو بن سالم ، ومحمد بن محمد بن عَيْشون .

توالیــــفه

له تواليف أدبيّة منها . « زاد المسافر» ، وكتاب « الرحلة » ، وكتاب « العِجالة » سفران يتضمنان من نظمه ونثره ، أدباً لا كُفاء له . وانفرد من تأبين الحسين رضى الله عنه ، وبُكاء أهل البَيت بما ظهرت عليه بركتُه فى حكايات كثيرة .

شــعره

ثبتٌ من ذلك فى العِجالة قوله :

جاد الزمــان بـأنَّـة الجَرْعــاء ... تَوْقـــانَ من دمعى وغَيْث سماء
فالدَّمع يقضى عندها حق الهوى ... والغَيْمُ حــق البانة الغَيْنــاء
خَلَتْ الصُّدور من القلوب كما خَلَت ... تلك المَقاصِــرُ من مَهىً وظِبــاء
ولقد أقــول لصــاحبى وإنمــــا ... ذُخْــر الصَّــديق لأَمجد الأَشيــاء
يا صاحبىَّ ولا أَقُــلْ إذا أنــــا ... ناديت مَنْ إنْ تُصغِيــا لنــداء
عُوجا بحار الغَيْم فى سَقْى الحِمـا ... حتى ترى كيف انســكاب المـاء
ونسُنُّ فى سَــقْى المنــازل سُنَّــةً ... نَمْضى بهــا حُكْماً على الظُّرفــا ء
يا منزلاً نَشَطت إليــه عَـبرتى ... حتى تبَسَّـــم زهـــرُه لبــكاء
ما كنتُ قبلُ مزار رَبْعـك عالمـا ... أنَّ المدامــع أصــدقُ الأَنواء
ياليت شعرى والزَّمـــان تَنَقُّـــلٌ ... والدهــر ناسخُ شــدَّةٍ برَخــاء
هل نلتقى فى روْضــة مَوْشِيَّـــةٍ ... خفّاقـــة الأَغصـــان والأَفْياء
ونـنـال فيها من تـأَلُّفِنــا ولـــو ... ما فيه سُخْمة[1] أَعيُن الرُّقبــاء
فى حيث أَتْلَعَتْ الغصون سوالفــاً ... قد قُلِّــدت بــلآلئ الأَنْــداء

---

(١) وردت فى الإسكوريال (سخنة) والتصويب من الزيتونة

وجَرَتْ ثغور الياسمين فقبَّلت   عَيْنى عِذار الآسَة الميْساء
والورد فى شطٍّ الخليج كأنَّه   رمدٌ ألمَّ بمُقْلةٍ زرقاء
وكأنَّ غصن الزَّهْر فى خُضْر الرُّبى   زُهْر النجوم تلوح بالخَضْراء
وكأنما جاء النَّسيم مبشِّراً   للرّوض يُخبره بطول بَقاء
فكساه خِلْعة طِيبه ورمى له   بدراهم الأَزهار رَمْىَ سَخاء
وكأنَّما احتقَر الصَّنيع فبادرت   بالعُذْر عنه نَغْمة الوَرْقاء
والغُصن يرقص فى حُلى أوراقه   كالخُود فى مَوْشِيَّةٍ خضراء
وافترَّ ثغر الأُقْحوُان بما رأى   طرباً وقَهْقَه منه جَرْىُ الماء
أفْديه من أُنْسٍ تصرَّم فانقضى   فكأنَّه قد كان فى الإغْفاء
لم يبق منه غير ذِكْرٍ أو منىً   وكلاهما سببٌ لطول عَناء
أو رُقعة من صاحب هى تُحفة   إن الرِّقاع لتُحْفَة النُّبهاء
كبطاقة الوَسْمى إذ حيّا بها   إن الكتاب تحيَّة الظُّرفاء

وهى طويلة . وقال مراجعا عن كتاب أيضا :

ألا سمح الزمان به كتابا   ذرى(١) بوروده(٢) أُنسى قبابا
فلا أدرى أكانا تحت وعْدٍ   دعا بهما لبُشْرى فاستجابا
وقد ظَفِرت يدى بالغُنْم منه   فليت الدهر سنَّى لى إيابا
فلو لم أستَفِد شيئا سواه   قَنِعت بمثله عِلْقاً لُبابا (٣)
إذا أحْرَزْتُ هذا فى اغترابى   فدعنى أقْطَعُ العُمْر اغترابا
رَجَمْتُ بأُنْسه شيطان هَمِّى   فهل وجَّهْتُ طِرساً أم شِهابا
رَشَفْتُ به رُضاب الوُدِّ عذباً   يُذكِّرنىَ شمايلَك العِذابا

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (روى)
(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (فوروده)
(٣) هكذا فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (لبابا)

وكِدْت أَجرُّ أذيالى نشاطاً ولكن خِلْتُ قولَهم تَصابا
فَضَضْتُ ختامه عنى كأنى فتحتُ بفَضِّه للروض بابا
فكدت أبثه [فى جفن عينى (١)] لكى أستودع الزُّهُرَ السَّحابا
وكنت أصونه فى القلب لكن خَشِيت عليه أن يَمْسى التهابا
ولو أنَّ الليالى سامَحَتْنى لكنتُ على كتابكم الجوابا
فأُبْلى (٢) عندكم بالشكر عُذْرا وأَجْزِلُ من ثَنايكم الثَّوابا
ولكن الليالى قيَّدتنى وقيَّدت غرضى (٣) إلا الخِطابا
فما تَلْقانِيَ (٤) الأَحباب إلا سلاما أو مَناما أو كِتابا
لأَمرٍ ما يقصُّ الدهر ريشى لان السَّهم مهما رِيش صابا
وعاذلةٌ تقول ولست أُصغِى ولو أَصْغَيْتُ لم أرفع جوابا
تُخوِّفنى الدَّواهى وهى عندى أقلُّ من أن أُضِيق بها جَنابا
إذا طَرَقت أَعِدُّ لها قِراها وقاراً واحتساباً واصطبارا
وما مثلى يُخَوَّفُ بالدواهى عرينُ اللَّيث لا يخشى الذُّبابا
تُعاتبنى فلا يرتدُّ طَرْفى وهل تَسْتَرْقِص الرِّيح الهِضابا
ولو أنَّ العِتاب يُفيد شيئا ملأْتُ مسامع الدُّنيا عِتابا
وقد وصَّيتُها بالصَّمت عنى فما صَمَتت ولا قالت صوابا
تعنِّفُنى على تَرْكى بلاداً عَهِدْتُ بها القَرارة والشَّبابا
تقول وهل يملُّ السَّيف إلاَّ إذا ما فارق السيف القِرابا
فقلت وهل يضرُّ السيف فَلٌّ إذا قطَّ الجماجم والرِّقابا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بمحيص)

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فأملى)

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (عدتى)

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تلقى) .

بِخَوْضِ الهول تُكْتسب المعــــالى   يَحِلُّ السَّهل من رَكِبِ الصِّعابا
فلَيْثُ الغـاب يفترس الأَناسى   وليثُ البَيْت يفترس الذُّبابا
ولو كان انقِضاض الطَّيْر سهلا   لكانت كلُّ طـــائرة عُقابــا
دعينى والنهــــــار أسير فيه   أسير عزايم تُفْرى الصِّــلابا
أُغازل من غَزالته فتـــــــاةً   تَبيَّض فودُهـــا هَـرَماً وشـابا
إذا شـاءت مُواصَلتى تجلَّـــت   وإن مَلَّت توارَتْ لى احتجـــابا
وأُسْرى اللَّيل لا أَلوِى عِنـــانا   ولو نيل الأَمـانى لما[1] أصـابا
أُطـارِح من كواكبه كمـــاما   وأزجر من دجنته[2] غُـــرابا
وأَركب شُهُباً غُبْراً كبـــاعى   وخُضْراً مثل خـاطرى انسِيابا
وآخذ من بَنـــات الدَّهــر حقِّى   جهـاز البيت استُلِب استـلابا
ولست أذيِّل بالمدح القـــوافى   ولا أرضى بخُطَّتِها اكتســـابا
أأمدح من به أَهْجـو مديحـى   إذا طيِّبتُ[3] بالمسك الكــلاما
سأُخْزِنها[4] عن الأَسماع حتى   أَردَّ الصَّمت بينهما حِجـــابا
فلست بمادح ما عِشتُ إلاَّ   سيوفاً أو جياداً أو صِحــابا
أَبــا موسى وإنِّــى أُخَى وداد   أُناجى لو سمعت إذا أجــابا
ولــكن دون ذلك مهمهٌ لـــو   طَوَتْه الريح لم تَرْج الإِيــابا
أَخــى بــرٌّ المودَّة كلَّ بِـــرٍّ   إذا بَرَّ الأَشِــقَّة الانْتِســابا
بعثت إليك من نظمى بـــدرٍّ   شقَقْتُ عليه من فِـكرى عُبــابا
عدانى الدهر إن يَلْقاك شخصى   فأغْنَى الشِّعر عن شَخْصى ونـابا

(١) هكذا فى الزيتونة . وفى الإسكوريال كلمة غير واضحة (مى)
(٢) وردت فى الإسكوريال (دجبته) والصواب من الزيتونة .
(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (أطيب)
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (سأضربها)

وقال في الغرض الذى نظم فيه الرُّصافى من وصْفِ بلَده ، وذكر إخوانه ومعاهده[1] ، مساجلا فى العَروض والرَّوِى ، عَقِب رسالة سماها « رسالة طِراد الجياد فى الميدان . وتنازع اللُّدان والإخوان ، فى تَنْفِيق مُرْسية على غيرها من البُلْدان » .

هل رسول البَرْق يَغْتنِم الأَجْــرا … فينْشُر عنى مـاءَ عَبْرته نَشْرا[2]
معاملة أَرْبُو بهـــا غيــرَ مُذنب … فأُقْضِيه دمع العين من نقطة بَحْراً
ليُسْقِنِى من تُدْمير[3] قَطْرا مُحَبَّباً … يَقِرُّ بعين القُطْر أَن تشرب القطرا
ويَقْرِضُه ذوب اللُّجيـــن وإنمـــا … تُوفِيه عَيْنى من مدامعهـــا تِبــرا
وما ذاك تقصيراً بهـــا غير أنـــه … سَجِيَّة ماء البَحْر أَن يَذْوِى الزَّهرا
خليلى قوما فأَحْيِيا طرق الصَّبـــا … مخافة أَن تحْمِى بزَفْرتى الحــرَّا
فإن الصَّبـــا ريحٌ علىَّ كريمـــة … بآية ما تَسْرى من الجـنَّة الصُّغرا
خليلىَّ أَعْنِى أَرض مُرســـِية المُنا … ولولا توخِّى الصِّدق سَمَّيْتُها الكُبرا
محلِّى بل جوِّى الـذى عبقَتْ بـه … نواسمُ آدابى مُعطَّـــرةً نَشْــرا
ووَكْرِى الذى منه دَرَجْتُ فليتنى … فُجعت بريش العَزْم كى أَلْزَم الوكْرا
وما روضة الخَضْراء قد شَلَت بهـــا … مجرَّتُها نهراً وأَنجمُهـــا زُهْـــرا
بأَبهج منـــها والخليج مجـــرَّةٌ … وقد فَضَحت أَزهار ساحتها الزَّهرا
وقد أَسْكَرت أَزهار[4] أَغصانها الصَّبا … وما كنتُ أَعتدُّ[5] الصبا قَبْلها خمرا

---

(١) وردت قصيدة الرصافى المشار إليها فى ترجمته التى تقدمت (المجلد الثانى من الإحاطة ص ٥٠٧ – ٥٠٩) ومطلعها :

خليلى ما للبيد قد عبقت نشراً … وما لرؤوس الركب قد رجحت سكرا .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى : (فيبشر عنى ما عبرت به نثرا) .

(٣) تدمير هو اسم آخر لمرسية ، وهو اسم الولاية التى تقع فيها .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أعطاف) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أعددت) .

هنالك بين الغُصن والقطر والصَّبا ... وزهر الرُّبى وُلِدت آدابى الغَـرَّا
إذا نَظَم الغصن الحيا قال خاطرى ... تعلَّم نِظام النَّثر من هاهنا شِـعْرا
وإن نَثَرتْ ريحُ الصَّبا زهر الرُّبى ... تعلَّمتُ حلّ الشعر أُسْبِكه نثـرا
فوايد أَسْحارٍ هنـاك اقْتَبَسْتهـا ... ولم أر روضاً غيره يُقْرِىءُ السِّحرا
كأَنَّ هَزيز الريح يمدح رَوْضهـا ... فتملأُ فاه[1] من أَزاهرها دُرَّا
أَيارَنْقات [الحسن][2] هل فيك نظرة ... من الجُرْف الأَعلى إلى السِّكة الغـرَّا
فأَنظر من هذِى لتلك كأَنمـا ... أَغيرُ إذ غازَلَتْها أُختُها الأُخْـرا
هى الكاعبُ الحَسناءُ تُمِّم حسنُها ... وقُدَّت لها أَوراقُها حُللاً خَضْـرا
إذا خُطِبت أَعطت دراهم زَهْرهـا ... وما عادة الحَسْناءِ أَن تَنقُدَ المَهْرا
وقامت بِعُرس الأُنس قينةُ أَيْكةٍ ... أَغاريدها تَسْتَرْقص الغُصن النَّضِرا
فقُلْ فى خليجٍ يلبس الحُوت دِرْعه ... ولكنه لا يستطيع بهـا قصـرا
إذا ما بدا فيها الهـلال رأَيتـه ... كصفحة سيفٍ وَسْمُها قُبعة[3] خَضْرا
وإن لاح فيها البدر شَبَّهت مَتْنَه ... بسَطْرٍ[4] لجين ضَمَّ من ذهبٍ عشرا
وفى جُرْفى روض هناك تجافيـا ... لنهر يودُّ الأُفق لو زاره فَجْـرا
كأَنهما خِلاَّ صفـاءٍ تَعاتبـا ... وقد بكيا من رقَّـة ذلك النَّهرا
وكم لى بالباب الجديد[5] عشيَّةٌ ... من الأُنس ما فيه سـوى أَنَّه مرَّا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (فملأ فاها).

(٢) الزيادة من الزيتونة والنفح.

(٣) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (نبعة) والتصويب من النفح.

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة وفى النفح (بشط).

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة. وفى النفح (بابيات الحديد). والأولى أرجح وأنسب للسياق.

عَشِّيات[١] كأنَّ الدهر غُصّ[٢] بحسنها ... فأَجْلت سياط[٣] البرْق أفراسها الشُّقرا
عليهنَّ أُجرى خَيْل دمعى بوَجْنَتى ... إذا رَكِبت حُمْراً ميادينها الصفـرا
أَعهدى بالغَرْس المُنَعَّم دَوْحُـه ... سَقَتْك دموعى إنها مُزْنة شـكرا
فكم فيكِ من يوم أغـرَّ مُحجَّل ... تقضَّت أمانيه فخلَّدْتُها ذِكـرا
على مُذَنَّب كالنحر[٤] من فرط حُسنه ... تودُّ الثُّرَيَّا أن تكونَ له نَحْـرا
سقت أدمعى والقَطْرُ أيهما انبَرى ... نقا الرَّملة البيضاء فالنَّهر فالجسرا
وإخوان صِدْقٍ لو قضيت حقوقهم ... لما فارَقَتْ عينى وجوهَهم الزَّهـرا
ولو كنت أَقْضِى حَقَّ نفسى ولم أكن ... لما بِتُّ أَسْتَحلى فراقَهم المُـرَّا
وما اخترتُ هذا البُعْد إلاَّ ضَرْوة ... وهل تَسْتجير العين أن تفقد الشُّفرا
قضى الله أن [يَنْأَى بى الدهر][٥] عنهم ... أراد بذاك الله أن أَعْتَبَ الدهـرا
ووالله لو نِلْتُ المُنا ما حَمِدتها ... وما عادةُ المشْغُوف أن يُحْمِدَ الهجْرا
أيانس باللَّذات قلبى ودونهم ... مرام يجدُّ الرَّكب[٦] فى طيِّها شهرا
ويصحب هادى الليل راءً وحُرفَة[٧] ... وصاداً ونوناً قد تقوّس[٨] واصفرَّا
فدَيْتُهم بانـوا وضنُّوا بكَتْبهم ... فلا خَبَرًا منهم لقيتُ ولا خُبْـرا
ولـولا عُـلا هِمِاتهم لعَتَبْتُـهم ... ولكنَّ عُراب الخيل لا تحمل الزَّجرا[٩]

---

(١) هكذا وردت فى النفح. وفى الإسكوريال والزيتونة (عشايا).
(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (غص) وفى النفح (غصا).
(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة والنفح (بساط) والأولى أرجح.
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة. وفى النفح (كالبحر).
(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال. وفى النفح (تنأى بى الدار).
(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى النفح (الكرب) والأولى أرجح وأنسب السياق.
(٧) هكذا وردت فى النفح، وفى الإسكوريال (وحزمة).
(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال، وفى النفح (تقدس) والأولى أرجح.
(٩) هذا البيت وارد فى الإسكوريال والزيتونة، وساقط فى النفح.

ضربتُ غُبار البِيد فى مَهْرق السُّرى ⁂ بحيث جعلتُ الليل فى ضربه حِبرا
وحقَّقت ذاك الضَّرب جَمْعاً وعُدَّة ⁂ وطرحاً وتجميلا فأَخرج لى صفرا
كأَنَّ زمانى حاسبٌ مُتعسِّــــف ⁂ يُطارحنى كَسْراً أَما يُحْسن الجَبرا[1]
فكم عارف بى وهو يَحْسُب رُتبتى ⁂ فيمدَحُنى سرًّا ويَشْتِمنى جَهــرا
لذلك ما أَعْطَيْتُ نفسى حقَّهــا ⁂ وقلتُ لسِرْب الشِّعر [لا تهمُّ الفِكرا][2]
فما بَرِحت فكرى عَذَارى قصايدى ⁂ ومن خُلُق العَذْراءِ أَن تـأْلَف الخِدرا
ولست وإن طاشَتْ سهامى بـايسٌ ⁂ فإن مع العُذر الذى يُتَّقى يُسـرا

ومن مقطوعاته :

يا قمرا مَطْلَعــه أَضْلُعى ⁂ له سوادُ القلب منها غَسَق
وربما اسْتَوْقد نار الهــوى ⁂ فذاب فيها لونها عن شَفَق
مَلَكْتَنى فى دولة من صِبا ⁂ وصدَّتْنى فى شَـرَكٍ من حَدَق
عندى من حُبيبك[3] ما لو سَرَتْ ⁂ فى البحر منه شُعلة لاحترق

ومن مقطوعاته أَيضاً :

قد كان لى قلبٌ فلما فارقوا ⁂ سوَّى جناحاً للغرام وطــــارا
وجَرَتْ سَحَابٌ بالدموع فأَوقدت ⁂ بين الجوانح لَوْعةً وأُوارا
ومن العجايب أَنَّ فَيْض مدامعى ⁂ ماءٌ ويُثمر فى ضلُوعى نَارا

وشعره الرَّمْل والقطْر كثرةً ، فلنختم له المقطوعات بقوله :

قالوا وقد طال بى مَدى خطئ ⁂ ولم أَزل فى تَجرُّمى ســاهِ
أَعَدَدْتَ شيئاً ترجو النجاة به ⁂ فقلتُ أَعْــدَدْتُ رحمــة الله

---

(١) أورد الناسخ هذا البيت فى هامش الصفحة (206)
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة والنفح (لا ترم الذكرا) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حبك) .

نـــثـــره

كتب يهنى ، قاضى الجماعة أبا القاسم بن بَقى من رسالة : لان قدره[١] ، دام عُمره ، وامتُثِل نهيُه [الشرعى][٢] وأَمرُه ، أَعْلَى رتبةً ، وأَكْرَم محلا ، من أَن يَتَحَلَّى بخُطَّة هى به تتَحَلَّى . كيف يهنأُ بالقعود لسماع دَعْوة الباطل ، ولمعاناة الإنصاف المْطول من الماطل ، والتَّعب فى المعادلة ، بين ذوى المجادلة . أَما لو عَلِم المُتَشَوِّقون إلى خُطَّة الأَحكام ، المُتَشْرِقون إلى مالها من التَّبسُّط والاحتِكام ، ما يجب لها من اللَّوازم ، والشروط الجوَازم ، كبَسْطِ الكَنَف ، ورَفع الجَنَف ، والمساواة بين العدوِّ وذى الذَّنْب ، والصاحب بالجَنْب ، وتقديم ابن السَّبيل ، على ذى الرَّحم والقَبِيل ، وإيثار الغَريب على القَريب ، والتوسُّع فى الأَخلاق ، حتى لِمَنْ ليس له من خلاق ، إلى غير ذلك مما عِلْمُ قاضى الجماعة أَحصاه ، واستعمل لخُلقه الفاضل أَدناه وأَقصاه ، لَجَعَلوا خُمولهم مامولهم ، وأَضْربوا عن ظُهُورهم ، فنبذوه وراءَ ظُهُورهم ، اللهم إلا من أُوتى بَسْطةً فى العِلْم ، ورَسا طوداً فى ساحة الحِلم ، وتساوى ميزانه فى الحرب والسِّلم ، وكان [كقاضى الجماعة][٣] ، فى المماثلة بين أَجناس الناس ، فقصاراه أَن يتقلد الأَحكام للأَجر ، لا للتَّعسف[٤] والزَّجر ، ويتولاَّها للثواب ، لا للغِلْظَة فى رد الجواب ، ويأَخذها نحُسْن الجزاء ، لا لقُبح الاستهزاء ، ويلتزمُها لجزيل الذُّخْر لا للإِزْراء والسُّخر . فإذا كان كذلك ، وسلك المتولِّى هذا السَّالك ، وكان كقاضى[٥]

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة وفى النفح (محله) .

(٢) هذه الكلمة الزائدة من الذيل والتكملة ، والنفح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (كموناللا) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال وفى الذيل والتكملة والنفح (للتعنيف) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الذيل والتكملة (مثل قاضى) .

الجماعة ولا مِثْل له ، ونفع الحقُّ به عِلله ، ونَقَعَ غُلله ، فيومئذ تَهْنَأُ به خُطَّة القضاء ، ويعرف ما لله عليه[١] من اليَد البَيْضاء[٢] .

ومحاسنه فى النثر أيضاً جمة .

ومن أخباره أنه رحل إلى مرّاكُش متسبِّباً فى جهاز بِنْتٍ بَلَغَتْ التَّزويج ، وقصد دار الإمارة مادحاً ، فما تيسّر له شىءٌ من أمله . ففكَّر فى خيبة قصده ، وقال لو كنت تأَمَّلتُ جهة الله ، ومدحتُ المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وآل بيته الطاهرين ، لبلغتُ أملى بمحمود عملى . ثم استغفر الله فى توجُّهه الأَول ، وعلم أن ليس على غير الثانى من مُعَوَّل ، فلم يكن إلا أن صوّب نحو هذا القصد سَهْمه ، وأمضى فيه عزمه . وإذا به قد وُجِّه عنه ، وأُدخل على الخليفة ، فسأَله عن مقصده . فأَخبره [مفصحاً به][٣] فأَنْفَذه وزاده عليه . وأخبره أن ذلك لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النَّوم يأمره بقضاء حاجته . فانفصل مُوفَّى الأَغراض . واستمر فى مدح أهل البيت حتى اشتهر فى ذلك .

وفــــاته

سنة ثمان وتسعين وخمسماية . وسنه دون الأَربعين سنة . وصلى عليه أَبُوه ، فإنه كان بمكان من الدِّين والفضل رحمة الله عليه . وتلقيت من جهات ، أنه دخل غرناطة ، لما امتدح القايد أبا عبد الله بن صناديد بمدينة جيَّان ، حسبما يظهر من عُجالته ، من غير تحقيق لذلك .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (على) وفى النفح (عليها) والتصويب أرجح .
(٢) وردت هذه الرسالة بأكلها فى الذيل والتكلة (السفر الرابع ص ١٤٠ – ١٤٣) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بما جاء له) .

صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبى القاسم ابن على بن شريف النفرى

من أهل رُندة ، يكنى أبا الطَّيِّب .

حـــاله

قال ابن الزُّبير ، شاعر مُجيدٌ فى المدح والغَزَل ، وغير ذلك . وعنده مشاركة فى الحساب والفرايض . نظم فى ذلك . وله تواليف أدبية ، وقصايد زُهدية ، وجزءٌ على حديث جبريل عليه السلام ، وغير ذلك مما روى عنه. وكان فى الجملة معدوداً فى أهل الخير ، وذوى الفضل والدِّين . تكرَّر لقائى إياه ، وقد أقام بمالقة أشهراً ، أيام إقراءى . وكان لا يفارق مجالس إقراءى ، وأنشدنى كثيراً من شعره .

وقال ابن عبد الملك ، كان خاتمة الأُدباءِ بالأَندلس ، بارع التَّصرُّف فى منْظُوم الكلام ومنْثوره ، فقيهاً حافظاً ، فرَضِيا ، متفنِّناً فى معارف شتى ، نبيل المقاصد ، متواضعاً ، مقتصداً فى أحواله . وله مقامات بديعة فى أغراض شتَّى ، وكلامه نظما ونثرا ، مُدوَّن .

مشـيـخته

روى عن آباء الحسن أَبيه [١] ، والدبَّاج ، وابن الفخَّار الشَّريشى ، وابن قَطْرال ، وأَبى الحسن بن زَرْقُون ، وأَبى القاسم بن الجَدِّ .

تواليـــفه

أَلَّف جزءا على حديث جبريل ، وتَصْنيفا فى الفَرايض وأَعمالها ،

(١) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة .

وآخر فى العَروُض ، وآخر فى صَنْعة الشعر سماه «الوافى [١] فى عِلم القوافى» [٢] .
وله كتاب كبير سماه « رَوْضَةُ الأُنْس ، ونُزْهة النَّفس » [٣] .

دخوله غرناطة

وكان كثير الوِفادة على غرناطة ، والتردُّد إليها ، يَسْتَرْفِد : ملوكها ، ويُنْشِد أمراءها ، والقصيدة التى أوَّلها : « أواصِلَى يوماً وهاجِرَى ألفاً » ، أخبرنى شيخنا أبو عبد الله اللَّوشى ، أنه نظمها باقتراح السلطان رحمه الله . وقد أوعز إليه ألاّ يخرج عن بعض بساتين المُلْك ، حتى يُكملها فى معارضة محمد بن هانى الإلبيرى .

شعره

وهو كثير ، سهل المَأْخذ ، عذب اللفظ ، رايِقُ المعنى ، غيرُ مُؤْثر للجزالة . فمن ذلك قوله رحمه الله فى غرض المدح من السُّلطانيات :

سَرى والحبُّ أمرٌ لا يُرام ... وقد أغْرى به الشَّوق والغرام
وأغْفَى أهلُها إلاّ وُشاة ... إذا نام الحوادثُ لا تَنام
وما أخْفا بين القوم إلا ضَمناً ... وربما نفع السِّقام
فنال بها على قَدر مُناه ... وبين التَّبْض والبَسْط القِوام
وأشهى الوصلِ ما كان اختِلاسا ... وخيرُ الحبِّ ما فيه اختِتام

---

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة « الكافى » ، وكذا فى التكملة لابن عبد الملك (السفر الرابع ص ١٣٧) وصححت فى هامش الإسكوريال (الوافى) .

(٢) وعنوان الكتاب الصحيح حسبما اطلعنا على نسخة مخطوطة منه بمكتبة الرباط العامة (رقم 1730 الكتانية) هو : « الكتاب المسمى بالوافى فى نظم القوافى » ، وهو مخطوط قديم يقع فى ١٨٧ صفحة كبيرة ، مكتوب بخط مغربى جميل . وفى ديباجته ما يدل على أن مؤلفه أبا الطيب الرندى ، قد تولى منصب القضاء .

(٣) هو كتاب فى التاريخ والأدب . وقد كتبه أبو الطيب برسم حاميه السلطان محمد ابن يوسف بن الأحمر الكبير مؤسس مملكة غرناطة (٦٣٥ — ٦٧١ هـ) ، وكان شاعره الأثير .

وما أَحْلَى الوِصال لو انَّ شَيئا ... من الدُّنيا للــذَّته دَوام

بكيتُ من الفِراق بغير أرضي ... وقد يَبْكى الغَريبُ المُسْتهام

أعاذِلَتى وقد فارقت إلْفِي ... أمِثْلى فى صَبابَتِه يُلام

أأفْقِدُه فلا أبكى عليه ... يكونُ أرقَّ من قلبى الحِمام

أأنساه فأحْسَبُه كصبرى ... وهل يُنسى لمحبوب ذِمام

رُوَيداً إن بعض اللَّوم لومٌ ... ومثلى لا يُنَهْنِهُه المَلام

ويومُ نوًى (١) وضعتُ الكفَّ فيه ... على قلبٍ يطير به الهيام

ولولا أن سَفَحْتُ به جفوناً ... تفيض دَماً لأحْرَقَها الضِّرام

وليلٌ بتُّه (٢) كالدهر طولاً ... تنكَّر لى وعَرَّفه التَّمام

كأنّ سماه زُهر (٣) تجلَّى ... بزَهر الزَّهر والشَّوق الكِمام

كأنَّ البَدْر تحتَ الغَيم وجهٌ ... عليه من مَلاحته لِثام

كأنَّ الكوكب الدُّرّى كأسٌ ... وقد رقَّ الزُّجاجة والمُدام

كأنَّ سُطور (٤) أفلاك الدَّرارى ... قِسِىٌّ والرُّجوم لها سِهام

كأن مَدار قُطب بَنات نعش ... نَدِىٌّ والنجوم به نِدام

كأن بَناته الكبرى جَوارٍ ... حَوارٍ والسُّهى فيها غُلام

كأن بناته الصُّغرى جُمانٌ ... على لَبَّاتِها منها (٥) نِظام

كواكبُ بِتُّ أرعاهُنَّ حتى ... كأنِّى عاشقٌ وهى الذِّمام

إلى أن مزَّقت كفُّ الثُّريّا ... جيوبَ الأفق وانْجاب الظلام

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (النوى) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى التكملة (صبابة) والبيت ساقط فى الزيتونة .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى التكملة (روض) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (سلوك) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة ، وفى الذيل والتكملة (منه) .

فما خلتُ انصداع الفجر إلا قِراباً يُنْتَضى منه حُسام
وما شَبَّهتُ وجه الشمس إلا بوجهك أيها الملك الهُمام
وإن شَبَّهته بالبَدْر يوماً فللبَدْر الملاحةُ والتَّمام
تهلَّل منه حُسْن الدهر حتى كأنَّك فى مُحيّاه ابتسام
وعَرَّف ما تنكَّر من معالٍ كأنَّك لاسْمِها أَلِفٌ ولام
ومِلءُ العين منك جَلال مولىً صنائعهُ كغُرَّته وسام (١)
إذا ما قِيل فى يده غَمام فقد بَخُسَتْ وقد خُدع الغمام
وحَشْوُ الدِّرع أَرْوَع غالِبيٌّ يُراعُ بذِكْره الجيشُ اللُّهام
إذا ما سَلَّ سَيْف العزم يوما على أمر فسَلِّم يا سَلام
تناهى مجدُه كرماً وبأْساً فما يدرى أَمَحياً أم حِمام
نَمَّتْهُ للمكارم والمعالى سُراةٌ من بَنى نَصْرٍ كرام
هُم الأنصار هُم نَصَرُوا وآوُوا ولولا المِسْك ما طاب الخِتام
وهم قادُوا الجيوش لكل فَتْح ولولا الجَدُّ ما قَطع الحُسام
وهم مَنحوا الجزيرة من حِماهم جِواراً لا يُذَمُّ ولا يُضام
فمن حَرْبٍ تشيب له النَّواصى وسَلْم تحِيَّته سلام
بِسَعْدك يا محمد عزَّ دين له بعده الإله بك اعتصام
وباسمك تمَّ للإسلام سَلْمٌ وغبَّ السلم نصرٌ مُستدام
وكان مَرَامُه صعباً ولكن بحمد الله قد سَهُل المرام
أدام الله أَمْرَكَ من أمير ففيه لكل مَكْرَمة دوام
وأنت العُروة الوُثْقى تماما وما للعُرْوة الوُثقى انفصام
وروحٌ أنت والجسم المعالى ومعنىً أنت واللَّفظ الأنام

---

(١) فى الرينونة (وشم) .

إذا ما ضاقت الدنيـــا بحُـــرٍّ كفاه لَثْمُ كفِّك والســـلام

ومن شعره أيضا :

أواصــلتى يوماً وهاجرتى ألفـــاً وصالُكِ ما أحْلَى وهَجْرُكِ ما أجْفا
ومن عجبٍ للطَّيف أن جاء واهتدى فعاد علياً[1] عاد كالطَّيف أم أخْفا
فياسايراً لولا التخيُّل ما سَـرى وياشاهداً لولا التعلُّل ما أغفا
ألمَّ فأحيـــانى وولَّى فراعـــنى ولم أرَ أجْفَى منك طبعا ولا أشْفا
بعَيْنى شـكواى لِلْغَــرام وتيهِــه إلى أن تثنَّى عطفُه فانثنى عَطْفا
فعانقتُه شوقاً وقبَّلته هـــوًى ولا قُبلة تكفى ولا لوعـةٌ تَطْفا

ومن نزعاته العجيبة قوله ، وقد سبق إلى غرضه غيره :

يا طَلْعَـة الشمس إلاَّ إنه قمـــرٌ أمَّا هـــواك فلا يُبقى ولا يَـــذر
كيف التخلُّص من عَيْنَيك لى ومتى وفيهما القاتلان الغَنْج والحَـــوَر
وكيف يُسْلى فؤادى عن صَبابته ولو نَهى النَّاهيان الشَّيْبُ والكِبرُ
أنت المُنا والمنايا فيك قد جُمعت وعندك الحالتـــان النَّفْع والضَّرر
ولى من الشوق ما لا دَواء لـــه ومنك لى الشَّافيان القُرب والنَّظر
وفى وِصالك ما أبْقى بـــه رَمَقى لو ساعد المُسْعِدان الذِّكر والقَدَرُ
وكان طَيْفُ خيالٍ منك يُقْنعنى لو يذهب المانِعان الدَّمع والسَّـهر
ياناْبياً[2] لم يكن إلاّ ليملكَنى من بعده المُهْلكان الغَمُّ والغَيْـــر
ما غِبتَ إلا وغاب الجنسُ أجمعُه واستوحش المُؤنسان السَّمع والبصر
بما تُكِنُّ ضلوعى فى هواك بمـــن يعنو له السَّاجدان النجم والشجر
إدرك بقيَّة نفسٍ لست مُدرِكُهـــا إذا مضى الهادِيان العَيْن والأثـــر

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (معليا) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يا غايبا) .

وذلَّ حَيْرة مهجور بلا سبب ... يبكى له القاسيان الدّهر والحَجر
وإن أبيتَ فلى من ليس يُسلمنى ... إذا نبا المُذْهبان الوِردُ والصَّدر
مؤيِّداً لمَلِك بالآراء يُحْكِمها ... فى ضمنها المُبْهِجان اليُمن والظَّفر
من كالأمير أبى عبد الالّه إذا ما ... خانت القَدمان[١] البيضُ والسُّمر
الواهب الخيل آلافا وفارسها[٢] ... إذا استوى المُهْطِعان الضُّرُّ والضَّبْر
والمُشْبِه اللَّيث فى بأس وفى خَطَر ... ونِعْمَت الحِلْيتان[٣] البأس والخَفَر
تأمَّن النـاس فى أيـامه ومشـوا ... كما مَشَى الصَّاحبان الشاة والنِّمر
وزال ما كان من خوفٍ ومن حذرٍ ... فما يُرى الدَّايلان الخوف والحذر
رأيتُ منه الذى كنتُ أسمعه ... وحبَّذا الطَّيِّبان [الخَبْرُ والخُبرُ][٤]
ما شِيت من شيم عُليا ومن شيم ... كأنها الرَّايقان الظلُّ والزَّهرُ
وما أردتَ من إحسان ومن كرم ... يُنْسى به الأَجْوَدان البحرُ والمطرُ
وغُـرَّةٌ يتلألأُ من سماحتها ... كأنها النَّهران الشمس والقمر
إيه فلولا دواعٍ من محبته ... لم يَسْهُل الأَصْعَبان البَيْن والخَطَر
نأيتُ عنه اضطرارا ثم عُدت له ... كما اقتضى المُبْرمان الحِلُّ والسَّفر
فإن قضى الله أن يَقْضى به أَملى ... فحسْبى المُخْسِبان الظلُّ والثَّمر
ولست أَبْعُد إذْ والحال مُتَّسع ... أن يُبْلَغ الغايبان السُّؤْل والوَطَر

ومن شعره فى أغراض متعددة . قال فى الليل والسَّهر :

أطال ليلى الكَمَد ... فالدهر عندى سَرْمَد

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (العدمان) .
(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (ومارسا) والأولى أرجح .
(٣) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (الحيلتان) والتصويب أرجح .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الزيتونة ووردت فى الإسكوريال (الخمر والخبر) . وقد آثرنا الأولى لأنه لا محل لذكر الخمر هنا باعتبارها من الطيبات .

وما أظن أنه لِلَيـــــلة الهجـــــر غَـــــد

يا نائمـا عن لَوْعتى   عُوفيت ممـا أجـد

أَرْقُد هنيًّا إنـــنى   لا أســتطيع أرقد

لواعج (١) ما تنطفى   وأدمعٌ (٢) تضــطرد

وكبدى كبد الهوى   وأين منى الكبد (٣)

ولا تَسَلْ عن جَلَدى   والله مـالى جَــلَد

ومن شعره أيضا فى المقطوعات :

وليلة قُصِّر من طولهـــا   بزوْرَةٍ من رشـأ نافِـــر

أستوفر الدهر بها غالطــاً   فأَدْغم الأَوَّل والآخـــر

وقال من قصيدة مُغْربة فى الإحسان :

وليلة نَبَّهت أجفــــانها   والفجرُ قد فجَّر نهـر النهار

والليل كالمهْزُوم فى يوم الوغا   والشُّهب مثل الشُّهب عند الفِرار

كأنما اسْتَخْفى السُّهى خيفةً   وطُولب النَّجم بثأرٍ فثـار

لذاك (٤) ما شابت نواصى الدُّجى   وطارح (٥) النِّسر أخاه فطـار

وفى الثُّـريَّا قمـر سـافر   عن غرَّة غيَّر منها الشِّفـار

كأَن عنقوداً [بها ماثلٌ] (٦)   إذ صار كالعُرْجُون عند السِّرار

كأنهـا تُسْبكُ دينــاره   وكفُّها تَفتِّل منه سـوار

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (نواعجى)

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وادمعى) .

(٣) هكذا ورد هذا البيت فى الزيتونة وورد فى الإسكوريال كالآتى (وكبد فى كبد ، لمنى واين الكبد) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (كذاك) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (طير) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة ، وفى النفح (تثنى به) .

كأنما الظَّلمـاءُ مظلـومة ... تحَكَّم الفَجْرُ عليها فجـار
كأنما الصُّبـح لمشتاقه[(١)] ... [إقبالُ دُنيا][(٢)] بعد ذلٍّ افتِقار
كأنما الشمس وقد أشرقت ... وجهُ أبي عبد الإلـه استْنار

وفى وصف البحر والأنهار وما فى معنى ذلك :

البحر أعظمُ مما أنت تَحْسَبه ... من لم يرالبحريوما ما رأى عجبا
طامٍ له حَبَبٌ طاف على زَوْرق ... مثلُ السماءِ إذا ما ملئت شُهُبا

وقال فى وصف نهر :

وأزرق مَحفوفٌ بزهـر كأنَّه ... نجوم بأَكناف المجرَّة تَزْهَـر
يسيل على مِثْل الجُمان مُسَلسلا ... كما[(٣)] سُلَّ عن غِمْد حُسام مُجَوْهر
وقد صافح الأدواح من صَفَحاته ... حتى حبابٍ بالنَّسيم مُكَسَّـر
فما كان فى عَطْف الخليج قُلامة ... وما كان فى وجه الغدير فمُغْفَر

وفى العقل والتَّغرُّب :

ما أحسن العقـل وآثـاره ... لو لازَم الإنسـان إيثـاره
يصُون بالعقل الفتى نفسه ... كما يصون الحرٌّ أسْـراره
لا سيما إن كان فى غُـرْبة ... يحتـاج أن يُعرف مِقـداره

ومن وصفه الجيش والسلاح :

وكتيبة بالدَّارعين كثيفـة ... جرَّت ذيول الجَحْفل الجرَّار
روضُ المنايا بينها القُضُب التى ... زُفَّت بها الرَّايات كالأزهـار
فيها الكُماة بنو الكُماة كأنهم ... أُسْد الشَّرى بين القنا الخَطَّار

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (لمشاقه) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة ، وفى النفح (عز غنى) .
(٣) وردت فى الإسكوريال (كمل) والتصويب من الزيتونة .

مُتهلِّلين لدى اللِّقاءِ كأَنهــم　　خُلِقت وجوههم من الأَقمــار
من كلِّ ليثٍ فوق بَرْقٍ خاطف　　بيمينه قَدرٌ من الأَقْــــدار
من كلِّ ماضٍ قد تقلَّد مثلـه　　فيصُبُّ آجالاً على الأَعمــار
لبسوا القلوب على الدروع وأَســرعوا لأَكفِّهم ناراً لأَهل النــار
وتقدموا ولهم على أَعدايهم　　حُنقُ العِـدا وحميَّةُ الأَنصار
فارتاع ناقوس بخلع لِسـابه　　وبكى الصَّليب لِذلَّة الكُفّار
ثم انثنوا عنه وعن عُبّـاده　　وقد أَصبحو خَبَراً من الأَخبار

وفى السَّيف :

وأَبيضُ صيغ من ماءٍ ومن لَهَبٍ　　على اعتدال فلم يَخْمُد ولم يَسِـل
ماضى الغِرار يهــاب العُمْر صَوْلته　　كأَنما هو مَطْبُوع من الأَجــل
أَبهى من الوَصْل بعد الهجْر مَنْظَره　　حُسْناً وأَقْطعُ من دَيْنٍ على مــال
وأَسمر ظنَّ ما كلَّ سابِغة فخـــــاض كالأَيْم يستَشفى من النَّهـل
هـام الكماة به حبّا ولا عجــبٌ　　من لوعةٍ بمليح القَـدِّ مُعتــدل
إذا الطَّعين تلقَّــاه وأَرْعَفــه　　حَسبْتَه عاشقاً يبكى على طَلَـل

ومن ذلك قوله فى وصف قوس :

تنكَّبها كحــاجبه وسـوَّى　　بأَهداف الجُفون لها نِبــالا
فلم أَر قَبْله بـــدراً منيــرا　　تحمَّل فوق عاتِقه هِــلالا

ومن ذلك فى وصف قلم :

وأَصفرُ كالصَّبِّ فى رَوْنــق　　تظنُّ به الحُبَّ ممن نحَـــل
بديع الصِّفات حديدُ السَّبات　　يَطُول الرِّماح وإن لم يَطُــل
يُعَبِّـر عمـا وراءَ الضميــر　　ويفعل ما فَعَل الظُّبا والذُّبَل

ومن ذلك قوله فيما يظهر منها :

تفاخر السيفُ فيما قيل والقلمُ ... والفَصْلُ بينهما لا شك مُنْفَهِم
كلاهمـــا شـــرَّف الله دَرَّهُما ... وحبَّذ الخُطّتان الحُكْم والحَكَمُ

ومن ذلك قوله فى سكِّين الدواة :

أنا صَمْصامةُ الكتـــابة مالى ... من شَبِيه فى المُرْهَفات الرِّقاق
فكأنِّى فى الحُسْن يوم وِصال ... وكأنِّى فى القَطْع يوم فِـراق

ومن ذلك قوله فى المقَصِّ :

ومُعْتَنقين ما اشتهرا بعِشْــق ... وإن وُصِــفا بِضَمٍّ واعتنـــاق
لعَمْرُ أبيك ما اعتنقــا لمعْنى ... سوى معنى القَطِيعة والفِراق

ومن ذلك قوله فى الوَرْد :

الوَرْدُ ســلطان كلِّ زَهْــرٍ ... [لو انَّه دايم الوُرود](١)
بعد خدود الميـــلاح شيءٌ ... ما أَشْبَه الورد بالخُـدود

ومن ذلك قوله فى الخَيْرِىِّ (٢) :

وأزرق كمثل الســماءِ ... فيه لمن ينظر سِرٌّ عجيب
شحَّ مع الصُّبح بأَنفاسِهِ ... كأنما الصُّبح عليه رقيب
وباح بالليل بأَسْـــراره ... لما رأى اللَّيل نهارَ الأريب

ومن ذلك قوله فى الرَّيحان :

وأخضر فُسْتُقى اللون غضٌّ ... يرُوق بحسن مَنْظَره العُيونا

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال كما يأتى (ما به الملاح) . [illegible] فى [illegible] نص الشطرة الثانية للبيت الثانى كرره الناسخ مرة للبيت الأول .

(٢) هكذا [illegible] دت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الخمر) . والخيرى نبات بنور فى [illegible] [illegible] له رائحة ذكية .

أغار على التُّرنْج وقد حكاه　　وزاد على اسمه أَلِفاً ونـــونا

وقال من جملة قصايده المُطَوَّلات . التى تفنَّن فيها رحمه الله :

وغانيةٌ يُغنى عنِ العُود صوتُها　　وجاريةٌ تَسقى وساقيةٌ تَجــرى

بحيث يجُرُّ النهر ذيل مجرَّةٍ　　يرفُّ على حافاتها الزَّهر كالزَّهر

وقد هزَّت الأَرواح خِصر كتايب　　بأَلْوية بيضٍ على أَسَلٍ سُــمر

رمى قُزَحٌ نِبلاً إليها فجُرِّدت　　سيوفُ سواقيها على دارع النَّهر

وهبَّت صَبا نجدٍ فجرَّت غلايلا　　تُجَفِفِ دمع الطَّل عن وجْنة الزَّهر

كأَنَّ بصَفْح الرَّوض وَشْىُ صحيفة　　وكالأَلِفات القُضُب والطِّرس كالتِّبر

كأَنَّ به الأُقْحُوان خــواتِمــا　　مُفَضَّضة فيها فُصُوصٌ من التِّبر

كأَنَّ به النَّرجس الغضَّ أعيــا　　تُرقْرِق فى أَجفانها أَدمُع القَطْر

كأَنَّ شَذا الخَيْرِىِّ زَوْرة عاشقٍ　　يرَى أَن جَنْح الَّليل أَكْتَم للسِّر

وقال فى وصف الرُّمان :

لله رُمَّانةٌ قد راق مَنْظَرهـــا　　فمِثْلُها ببديع الحسن مَنْعُوت

القِشْر حقٌّ لها قد ضمَّ داخلــه　　والشَّحم قطنٌ والحَبُّ ياقوت

أَنظر إلى جِذْرٍ فى اللون مختلف　　البعض من سَبَجٍ والبعض من ذهب

ومن ذلك قوله فى الجزر :

إن قلتَ قصبٌ فقل قصب بلا　　زهر أو قلتُ شمعٌ فقل شمع بلا لهب

وفى الاغتراب[1] وما يتعلق به مما يقرب من المطولات :

غريبٌ كلَّمــا يلقى غريبٌ　　فلا وطنٌ لديــه ولا حَبيب

تذكَّر أَصــله فبكى اشتياقا　　وليس غريباً أَن يبكى غريب

ومما هــاج أَشــواقى حديثٌ　　جَرى فجرى له الدَّمع السَّكُوب

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الإغراء) وهو تحريف .

ذكرتُ به الشَّباب فشقَّ قلبى ... ألم تَر كيف تَنْشَقُّ القلــوب
على زمن الصِّبا فليَبْك مِثــلى ... فما زمن الصِّبا إلا عجيــب
جَهِلتُ شَبيبتى حتى تولَّت ... وقدْرُ الشىءُ يُعرف إذ يَغيب
ألا ذَكَر الآله بكل خيــر ... بلاداً لا يَضيــع بهـا أَديب
بــلادٌ ماؤهـا عذب زُلال ... وريحُ هوائها مِسْــكٌ رطيب
بها قلبى الذى قلبى المُعَنَّى ... يكاد من الحنين لــه يذوب
رُزقت الصَّبر بلين أَبى وأُمى ... كلانا بعد صاحبه كئيــب
ألا فتَوَخَّ بعدى من أُؤاخــى ... ودَعْ ما لا يُريب لما يُــريب
ولا تحـكم بأَول ما تــراه ... فإِنَّ الفجـر أوله كَـذوب
إلا إنـا خُلقنـا فى زمـان ... يَشيب بهـوله من لا يشــيب
وقد لذَّ الحِمام وطاب عنـدى ... وعَيْشى لا يلذُّ ولا يطيــب
لحَى الله الضَّرورة فهى بَلْوى ... تهين الحرَّ والبلوى ضُــروب
رأيت المال يَسْتُر كل عَيْـب ... ولا تخفى مع الفقـر العُيوب
وفَقْدُ المال فى التَّحقيق عندى ... كفقد الرُّوح ذا مِن ذا قريب
وقد أَجهدتُ نفسى فى اجتهاد ... وما أَن كلَّ مُجتهـد مُصيب
وقد تجرى الأُمور على قياس ... ولو تجرى لعاش بها اللَّبيب
كأَنَّ العقل للدُّنيــا عدُوٌّ ... فما يَقضى بها أَرَباً أَريـب
إذا لم يُرزق الإِنسان بَخْتـاً ... فمـا حَسَـناته إلاَّ ذنــوب

ومن نسيبه قوله فى بادرة من حمَّام :

بَرَزَت من الحمَّام تمسح وجهها ... عن مثل ماء الورد بالعُنَّـاب
والماءُ يقطر من ذوائب شعرها ... كالطَّل يسقط من جَناح غُراب
فكأَنها الشمس المنيرة فى الضُّحى ... طَلَعت علينا من خلال سحـاب

ومن مقطوعاته أيضاً قوله :

ومُتَيَّم[1] لو كان صوَّر نفسه ... ما زادها شيئاً سوى الإشفاق
ما كان يرضى بالصُّدود وإنما ... كَثُرت عليه مسائل العُشَّاق

وقال :

وافى وقد زانه جمال ... فيه لعشَّاقه اعتذار
ثلاثة ما لها مثال ... الوجه والخَدُّ والعِذار
فمن رآه رأى رِياضا ... الورد والآس والبَهار

ومن ذلك قوله فى ذم إخوة السوء :

ليس لإخوةٍ باللِّسان أُخُوَّة ... فإذا تُراد أُخُوَّتى لا تنفع
لا أنت فى الدُّنيا تُفَرِّج كَرْبه ... عنِّى ولا يوم القيامة تَشْفع

وقال كذلك :

ولقد عرفتُ الدهر حين خَبَرته ... وبَلَوت بالحاجات أهلَ زمان
فإذا الأُخُوَّة باللسان كثيرة ... وإذا الدَّراهم مَيْلَق الإخوان

ومن ذلك قوله فى ثقيل :

تزلزلت الأرض زلزالها ... فقلت لسكانها ما لها
فقالوا أتانا أبو عامر ... فأخرجت الأرض أثقالها

ومن ذلك قوله فى الصَّبر :

الدهر لا يُبقى على حالة ... لكنه يُقْبل أو يُدبر
فإن تلقَّاك بمكروهه ... فاصْبِر فإن الدهر لا يصبر

---

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (ومتمم) والتصويب أرجح .

ومن ذلك قولة فى الموت :

المـوت سرٌّ الله فى خَلْقـه ... وحكمـةٌ دلَّت عـلى قهـره
ما أصْعب المـوت وما بَعْده ... لـو فكـر الإنسـان فى أمره
أيـام طاعـات الفـتى وحدهـا ... هى التى تُحسب من عُمْـره
لا تُلْهِـك الدنيـا ولذاتهـا ... عن نَهْـيِ مولاك ولا أمْـرِه
وأنظُـر إلى من ملَك الأرض هل ... صحَّ لـه منهـا سـوى قَـبْره

نـثـره

قال فى كتاب « روْضة الأُنس » ما نصه :

« ويتعلق بهذا الباب ، ما خاطبنى به الفقيه الكاتب الجليل ، أبو بكر البرْذعى من أهل بلدنا ، أعزَّه الله : أُخبرك بعُجاب ، إذ لا سرَّ دونك ولا حجاب ، بعد أن أتقدم إليك أن لا تعجل باللوم إلى قبل عِلم ما لدىَّ ، فإن الدهر أخْدعُ من كفَّة الحابل ، وقلبُ الإنسان للآفات قابل . بمشيتُ يوما إلى سوق الرَّقيق ، لأخْذِ حقِّ فؤاد عتيق ، فرأيت بها جارية عسْجدية اللون ، حديثة عهد بالصَّون ، متمايلة القدِّ ، قايمة النَّهد ، بلَحْظ قد أوتى من السِّحر أوفر حظٍّ ، وفَمٍ كشَرطة رُشحت بِدم ، داخله سِمطان لولاهما ما عُرف النَّظم ، ولا حُكم على الدُّر للعظْم ، فى صدْغها لامان ؛ ما خطَّ شكلَهما قلم ، ولاقصَّ مثلهما حِلم . لها جيدٌ تتمناه الغيد ، وخَصْر هو قبضة الكفِّ فى الحَصْر ، وردِف يَظْلمه من يُشبه به بالحِقْف . ويدان خُلقتا للوشْى ، وقدمان أُهِّلتا للَّثم لا للمشْى ؛ فتطاولت إليها الأعناق ، وبُذلت فيها الأعلاق ، والمياسير عليها مُغرم[1] فى القوم . وتسوَّم أهل السَّوم ،

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (يعزم) .

وكل فيها يزيد ، ليبلغ ما يريد ، إلى أن جاءَ فتى صادقٌ فى حبه ، لا يبالى بفساد ماله فى صلاح قَلْبه ، فعدَّ المال عدًّا ، ولم يجد غيره من التسليم بُدًّا . فلما فاتَتْنى ، تركتُ الأَشواق وأَتَتْنى ، وانتَقضت عزايم صبْرى فما أَتَتْنى ، فالله الله : تدارك أَخاك سريعا ، قبل أَن تُلفيه من الوجْد صريعاً ، واستَنْزِله خادما ، قبل أَن تُصبح عليه نادماً ، ولن أَحتاج أَن أَصفها إليك مع ما قَصصْته عليك ، وقد أَهديتها دُرراً ، فخذها على جهه الفكاهة والدُّعابة .

ولا تطلع أخا جهْلٍ عليهـــا فمن لم يَدْرِ قدر الشئ عابه

فأَجبته ، نعم نعم ، أَنْعم الله بالك ، وسنى آمالك ، أَنا بحول الله أَرتادُ لك ، من نحو هاتِيك ، ما يُسْليك ويؤاتيك ، وإلا فبيضًا كاللُّجين ، هل القلب والعين ، زهرة غُصْن فى روْضة حُسن ، ذات ذَوايب ، كأَنها الليل على نهار ، أَو بنَفْسِج فى بَهار . لها وجه أَبهى من الغِنا ، وأَشْهى من نَيْل المنا ، فيه حاجبان كأَنهما قَوْس صُنعت من السِّبح ، ورُصِّعت بعاج من البلح ، على عينين ساحرتين ، بالعقل ساخِرتين ، بهما تُصاب الكُبُود ، وتُشَقُّ القلوب قبل الجُلود ، إلى فم كأَنَّه خِتام مسك ، على نِظام سِلك . سقاه الحُسن رَحِيقه ، فأَنْبَتَت دُرَرَه وعَقِيقه ، وجيدٍ فى الحسن وحيد ، على صَدْر كأَنه من مرمر ، فيه حُقَّتا عاج طوِّقتا بعَنْبر ، قد خُلقتا للعَضِّ ، فى جسم غَضٍّ ، له خَصْر مُدْمَج ، ورِدفه يتموَّج ، وأَطراف كالعَنَم ، رُقمت رَقْم القلم ، من اللاتى شَهِدن ابن المؤَمَّل ، وقال فى مثلها الأَول ، إنْ هى تاهَتْ فمثلها تاها ، أَو هى باهَت فمثلها باها ، من أَين للغُصْن مثل قامتها ، أَو أَين للبدر مثل مَرْآها . ما فَعَلت فى العقول صابية . ما فَعَلت فى العقول

عيناها . تملكني بالهوى وأملكها ؛ فهأنا عَبْدُها ومولاها ، فأيُّهما لست بذلتُ فيه الجُهد . وأرْقَيت للمجد والوُد إن شاء الله تعالى . وأنا فيا عَرَض لسيدى ، حَفِظه الله ، على ما يُحب : أعذِرُه ولا أعْذِلُه ، وأنصُره ولا أخذله لكنى أقول كما قال بعض الحكماء . لا ينبغى لمن قَلْبُه رقيق ، أن يدخل سوق الرَّقيق ، إلا أن يكون قد جمع بين المال والجمال : يتنافس فى العالى ، ويسترخص بالثمن الغالى ، ولا يُبالى بما قال الأئمة ، إذا وجد من يلايمه ، كما قال الشاعر :

ما انتفاع المُحِبِّ بالمال إذا لم يتوصَّل به لوصل الحبيب
إنما ينبغى بحكم الهوى أن يُنْفَق المال فى صلاح القلوب

والسلام على سيدى ، ما كانت الفكاهة من شأن الوَفا ، والمداعبة من شِيم الظُّرفا ، ورحمة الله وبركاته .

مولده : ولد فى محرم سنة إحدى وستماية .

وفاته : توفى فى عام أربعة وثمانين وستماية

نقلت من خط صاحبنا الفقيه المؤرخ ، أبى الحسن بن الحسن . قال : أنشدنى الشيخ الرَّاوية الأديب القاضى الفاضل أبو الحجاج يوسف بن موسى بن سليمان المنتشافرى ، قال أنشدنى القاضى الفاضل أبو القاسم ابن الوزير أبى الحجاج ابن الحُقالة . قال أنشدنى الأديب أبو الطيب صالح بن أبى خالد يزيد بن صالح بن شريف الرُّندى لنفسه ؛ ليكتب على قبره :

خليلىّ بالودِّ الذى بيننـا اجعلا إذا متُّ قبرى عُرضة للتَّرحُّم

عنى مسلمٌ يدنو فيدعو برحمة فإنى محتاج لدَعْوة مُســلم[1]

حرف العين

من ترجمة الملوك والأمراء

عبد الله بن إبراهيم بن على بن محمد التجيبى ، الرئيس أبو محمد بن إشقيلولة

أوليّـته

قد مرَّ شيءٌ من ذلك فى اسم الرئيس أبى إسحق أبيه .

حـــاله

كان أميرا شهما ، مضطّلعا بالقضية ، شهير المواقف ، أبىّ النفس ، عالى الهمة . انْتَزَى على خاله أمير المسلمين الغالب بالله[2] ، وكان أمْلَكَ

---

(١) من الذائع المعروف أن أبا الطيب الرندى (صالح بن شريف) هو ناظم قصيدة مرثية الأندلس الشهيرة التى مطلعها (لكل شىء إذا ما تم نقصان فلا يغير بطيب العيش انسان) ، والتى أوردها لنا المقرى فى نفح الطيب ، ونقلها فيما يرجح عن كتاب (الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية) والتى ما زالت حتى يومنا تحتفظ برنينها المحزن . وبالرغم من ابن الخطيب قد أورد لنا طائفة مختارة من شعر أبى الطيب ، وفيها ثلاث قصائد من مطولاته ، فإنه لم يشر بكلمة واحدة إلى مرثيته الأندلسية ، بالرغم من أنها من غرر قصائده . وهو أمر يدعو إلى الدهشة والتساؤل ، فإما أن الناسخ لمخطوط كتاب « الإحاطة » قد أغفل إيراد هذه القصيدة اختصاراً أو ظنا منه بأن شهرتها تغنى عن إيرادها . وإما أن ابن الخطيب قد أغفل إيرادها عمداً . ذلك أن هذه القصيدة قد نظمت عقب انهيار الأندلس وسقوط قواعدها الكبرى ، ونزول ابن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة عن عدد كبير من البلاد والحصون للنصارى. وقد كان ابن الخطيب من أولياء نعمة بنى نصر (بنى الأحمر) ملوك غرناطة وربيب نعمتهم ، وربما رأى أن وجود هذه القصيدة فى مؤلفه قد يسىء إلى ذكريات ابن الأحمر الكبير ، الذى وقعت فى عهده محنة الأندلس ، ثم نظمت القصيدة فى عصره أيضا بقلم شاعره الأثير أبى الطيب فرأى إغفالها .

(٢) أمير المسلمين المشار إليه هنا هو [illegible] الغالب بالله محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة (٦٣٥ – [illegible]

لما بيده من مدينة وادى آش وما إليها ، مُعزّزا بأخيه الرئيس أبى الحسن مُظاهِرُه فى الأمر ، ومُشاركه فى السلطان ، واستمرت الحال مدة حياة خاله السلطان . ولما صار الأمر إلى مُخيفه ولى العهد[(١)] . اسْتَشْرى الداءُ ، وأَعْضَل الأمر ، وعمّت الفتنة ، وزاحمه السلطان بالمُنكّب ، انفَجَم ، واعتوره بالحيلة ، حتى تحيّف أطرافه ، وكان ما هو معلوم ، من إجازة أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق[(٢)] البحر إلى الجهاد . ومال الحال بينه وبين السلطان أمير المسلمين أبى عبد الله بن نصر إلى التّقاطع ، وتصيّرت مالقة إلى الإيالة المغربية[(٣)] ، ثم عادت إلى السلطان.

وفى أخريات هذه الأحوال ، أحكم السلطان مع طاغية الرُّوم ، السّلم ، وصَرَف وجهه إلى مطالبة الرئيس أبى محمد ، صاحب وادى آش ، فالجأه الحال إلى أن صَرَف الدعوة بوادى آش إلى السلطان بالمغرب ورفع شِعاره ، فأقعد عنه . ووَقَعَتْ مراسلات ، أَجْلَت عن انتقال الرئيس أبى محمد إلى المغرب ، معوّضاً عن مدينة وادى آش بقصر كِتامة[(٤)] . وذلك فى عام تسعة وثمانين وستمائة .

---

(١) ولى العهد المشار إليه هو ولده السلطان أبو عبد الله محمد (٦٧١ – ٧٠٢) الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه ، وهو ثانى ملوك غرناطة بعد أبيه.

(٢) هو أعظم سلاطين بنى مرين ملوك المغرب ، وهو الذى قضى نهائيا على دولة الموحدين (سنة ٦٦٨ هـ) . وعبر إلى الأندلس أربع مرات برسم الجهاد ، وأحرز على النصارى عدة انتصارات باهرة استحق من أجلها لقب المنصور . وتوفى سنة ٦٨٥ هـ ،وترك دولة بنى مرين الفتية فى أوج قوتها ومجدها .

(٣) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (الغربية) وهو تحريف والمقصود (بالإيالة المغربية) هنا المملكة المغربية أو مملكة بنى مرين .

(٤) قصر كتامة أو القصر الصغير ، هو ميناء مغربى صغير يقع على مضيق جبل طارق فى منتصف المسافة بين سبتة وطنجة، قبالة ثغر طريف الإسبانى . وقد كان فى مناسبات عديدة ، منزل الجيوش الذاهبة إلى الأندلس والآتية منها .

وفـــاته

دخلتُ قصر كِتامة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من ذى قعْدة عام خمسة وخمسين وسبعماية فى غرض الرسالة ، وزُرْتُ مقبرة الرؤساء بنى إشقيلولة بظاهرها ، وفى قُبَّةٍ ضخمة البناء رَحيبة الفِناء ، نسيجة وحدها بذلك البلد ، بين منازل البِلى ، ودِيار الفَناء ، وبها قبر الرئيس أبى محمد هذا ، عن يسار الداخل ، بينه وبين جدار القِبلة قبر ، وسَنامه رخام مكتوب عليه :

قبر عزيز علينـا لو انَّ من فيه يُفْدا
أسكنتُ قرَّة عينى وقطعة القلب لَحْدا
مازال حُكْماً عليه وما القضاءُ تَعدَّا
فللصبر أحسن ثوب به العزيزُ تـردَّا

وعند رأس السَّنام الرخامى ، مَهْدٌ مائلٌ من الرخام فيه :

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وآله ، وسلَّم تسليما . هذا قبرُ الرييس الجليل ، الأَعْلى الهمام ، الأَوْحَد ، الأَسْعد ، المبارك ، الأَسْنَى ، الأَسْمَى ، الأَحْفَل ، الأَكمل ، المجاهد ، المقدس ، المرحوم ، أبى محمد عبد الله ، ابن الرئيس الجليل ، الهمام ، الأَوحد ، الأَسعد ، المبارك ، الأَمْضَى ، الأَسْنَى ، الأَسمى ، المعظم ، المرقَّع ، المجاهد ، الأَرْضَى ، المقدس ، المرحوم أبى إسحق إبراهيم بن إشقيلولة ، رحمه الله وعفا عنه ، وأسكنه جنَّته . ظهر عفا الله عنه ، بوادى آش ، أمَّنها الله ، قاعدة من قواعد الأَندلس ، وتَسَلْطن ، ونُشرت علامات سلطنته ، وضربت الطبول ، وجاهد منها العدو ، قَصَمه الله ، وظهر على خاله سلطان الأَندلس ، وأقام فى سلطنته ، نحواً من ثلاث

وعشرين سنة . ثم قام بدعوة المُلك الأعلى ، السلطان المؤيد المنصور ، أمير المسلمين ، المؤيد بالله أبى يعقوب أيَّده الله بنصره ، وأمدَّه بمعونته ويُسْره ، وأمَرَه أيَّده الله ، أن يتخلَّى عن وادى آش المذكورة ، ويَصِل للمغرب ، فتنحَّى عن الأندلس للمغرب[1] ، آنسهُ الله ، فى جمادى الأُولى من عام ستة وثمانين وستماية ، فأعطاه أيده الله ، قصر عبد الكريم[2] أمَّنه الله ، وأنعم عليه ، فأقام به مدة من ثمانية أعوام ، وجاز منه إلى الأندلس ، أمَّنها الله ، وجاهد بها مرَّتين ، ثم رجع إلى قصر عبد الكريم المذكور ، وتوفى ، شرَّف الله روحه الطَّيبة المجاهدة ، عشىَّ يوم السبت العاشر من شهر محرم سنة خمس وتسعين وستماية » .

عبد الله بن بلقّين بن باديس بن حبُّوس بن ماكْسَن بن زيرى بن مَناد الصَّنهاجى

أمير غرناطة .

أوليته : قد مرَّ من ذلك فى اسم جدِّه ما فيه كفاية .

حـــاله

لقبه المُظَفَّر بالله ، الناصر لدين الله . وَلى بعد جدِّه باديس فى شوال سنة خمس وستين وأربعمائة ، وصَحِبه سِماجه الصَّنهاجى تسع سنين . قال الغافقى ، وكان قد حاز حظًّا وافرا من البلاغة والمعرفة ، شاعرا ، جيِّد

---

(١) وردت فى الإسكوريال (للغرب) فاقتضى التصويب .

(٢) ما جاء فى هذا النقش الذى على القبر ، يخالف ما تقدم من أن السلطان أبا يوسف بعث بالرئيس عبد الله إلى قصر كتامة أو القصر الصغير ، معوضا إياه به عن وادى آش . أما قصر عبد الكريم أو القصر الكبير فهى بلدة تقع داخل المغرب على مقربة من ثغر العرايش .

الشعر ، مَطْبوُعَه ، حسن الخطّ . كانت بغرناطة رَبْعَة مُصحف بخطِّه فى نهاية الصَّنعة والإتقان . ووصفه ابن الصَّيرفى فقال ، كان جباناً مُغمْد السيف ، قلقا ، لا يَثْبتُ على الظَّهر ، عزهاة لا أَرَبَ له فى النساء ، هيّابَة ، مُفرط الجزَعَ ، يَخْلَدُ إلى الرّاحات ، ويَسْتَوزِر الأَغْمار .

خلعه

قال ، وفى عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة ، تحرَّك أمير المسلمين ، يوسف ابن تاشُفِين ، لخلع روَساءِ الأندلس ، فأَجاز البحر ، ويمم قرطبة ، وتواتَرتِ الأَنباءِ عن حفيد باديس صا حب غرناطة ، بما يُغيظُه ويُحقده ، حسبما تقدم فى اسم مؤمِّل ، مولى باديس . وقدَّم إلى غرناطة أربع محلاَّت ، فنزلت بمقربة منها ، ولم تمتَدَّ يدٌ إلى شيء يوجد ، فسُرَّ الناس واستَبْشَروا ، وأَمِنت البادية ، وتمايل أهل الحاضرة إلى القَوِى . وأسرع حفيد باديس فى المال بذ وأَلْحَق السُّوقة والحاكَّة [1] ، واستكثر من اللَّفيف ، وأَلحَّ بالكُتُبِ على أذفونش بما يُطْمِعُه . وتحقَّق يوسف بن تاشفين استِشْراف الحضرة إلى مَقْدَمَه ، فتحرَّك . وفى ليلة الأَحد لثلاث عشرة خلت من رجب ، اجتمع إلى حفيد باديس صنائعُه ،فخوَّفوه من عاقبة التربُّص ، وحَمَلوُه على الخروج إليه ، فركب وركبت أُمه وتركا القصر على حاله ، ولقى أَمير المسلمين على فرسخين من المدينة ، فترجَّل ، وسأَله العَفْو ، فعفا عنه ، ووقف عليه ، وأَمره بالرُّكوب ، فرَكِب ، وأَقبل حتى نَزَل « بالمشايخ[2] » من خارج الحضرة . واضْطربت المحلاَّت ، وأَمر مُؤَمِّلاً بثِقافه فى القصر ،فتولَّى ذلك ، وخرج الجمُّ من أَهل المدينة ، فبايعوا أَمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فَلقيَهم ، وآنَسهم ، وسكَّن جأْشهم ، فاطمأَنوا . وسهَّل مؤمِّل إليه دخول

---

(١) الحاكة أعنى السفلة وأهل الشر ، ومفردها (الحاك) .

(٢) هو ، كما يبدو ، مكان من ضواحى غرناطة الإسلامية ، يصعب اليوم تحديد موقعه .

الأَعيان ، فأَمر بكَتْب الصُّكوك ، ورَفْع أَنواع القَبالات والخراج ، إلا زكاة العَيْن ، وصَدَقة الماشية ، وعُشْر الزَّرع . واستُقصى ما كان بالقصر ، فظهر على ما يحول الناظر ، ويرُوع الخاطر ، من الأَعْلاق والذَّخيرة ، والحُلى ، ونفيس الجَوْهر ، وأَحجار الياقوت ، وقَصَب الزُّمرد ، وآنية الذَّهب والفضة ، وأَطباق البلَّور المُحكم ، والجرداذنات[١] ، والعراقيّات ، والثِّياب الرَّفيعة ، والأَنماط ، والكِلَل ، والسَّتاير ، وأَوْطِية الدِّيباج ، مما كان فى ادِّخار باديس واكتِسابه . وأَقبلت دوابّ الظَّهر من المُنَكَّب بأَحمال السَّبيك والمَسْبُوك ، واختلفت أَم عبد الله لاستخراج ما أَودِع بَطْن الأَرض ، حتى لم يبق إلا الخَرْثى والثِّقل والسَّقْط . ووزَّع ذلك الأَمير على قُوّاده ، ولم يستَأْثر منه بشيءٌ . قال ، ورَغَب إليه مؤمِّل فى دخول القصر ، فرِكَب إليه ، وكثر استحسانه إياه ، وأَمر بحِفْظِه . وتفَقَّد أَوضاعه وأَفْنِيَته . ونُقل عبد الله إلى مَرّاكش ، وسنُّه يوم خُلع ، خمس وثلاثون سنة وسبعة أَشهر ، فاستقرَّ بها هو وأَخوه تميم ، وحُلَّ اعتقالهما ، ورُفِّه عنهما ، وأُجْرى المرتَّب والمُساهمة عليهما . وأَحْسن عبد الله أَداءَ الطاعة ، مع لِين الكلمة ، فقُضِيت مآربُه ، وأُسْعِفت رَغَباته ، وخَفَّ على الدولة ، واستراح واستُرِيح منه ، ورُزِق الولد فى الخُمول ، فعاش له ابنان وبِنْتٌ ، جَمَع لهم المال . فلما تُوفى ترك مالا جَمّاً[٢] .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوط . وربما كانت (الجرجانيات) .

(٢) كان الأمير عبد الله بن بلقين ، حسبما وصفه لنا الغافقى ، أديباً شاعراً . وقد ترك لنا كتاباً عنوانه « التبيان » وهو عبارة عن مذكرات فى ترجمة حياته وحوادث عصره ، وهو عصر ملوك الطوائف ، ويتناول فيها مقدم بنى زيرى إلى الأندلس ، وإمارة والد جده حبوس بن ماكسن ، ثم إمارة جده باديس بن حبوس ، وحوادث عصره ، وحروبه وسير ملوك الطوائف المعاصرين . ومقدم المرابطين وتدخلهم فى شئون الأندلس ، ثم يتناول حوادث حياته الشخصية ، حتى انتهاء ملكه واستسلامه لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين . وقد كتب هذا السفر عبد الله بن بلقين أثناء حياته فى المنفى ؛ وأخرجه لنا العلامة الأستاذ ليفى بروفنسال بعنوان « مذكرات الأمير عبد الله » (القاهرة – دار المعارف – ١٩٥٥) .

مولده

ولد عبدالله سنة سبع وأربعين وأربعماية .

عبد الله بن على بن محمد التجيبى ، الرئيس أبو محمد بن إشقَيلولة[1]

حاله

كان رئيساً شجاعاً ، بُهْمَةً ، حازماً ، أَيِّداً ، جَلِداً . تولى مدينة مالَقة ، عقب وفاة الرئيس واليها أبى الوليد بن أبى الحجاج بن نصر ، صِنْو أمير المسلمين ، الغالب بالله ، فى أوايل عام خمسة وخمسين وستماية . وكان صِهر السلطان على إحدى بناته ، وله منه محَلٌّ كبير ، ومكان قريب ، وله من مُلكه حظٌّ رَغِيب . واستمرت حاله إلى عام أربعة وستين وستماية ، وفسد ما بينه وبين ولىِّ العهد ، الأمير أبى عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبى عبد الله الغالب بالله ، إذ وَغَر له صدرُه ، ولابنَى أخيه الرئيسين أبى محمد وأبى الحسن إبنى الرئيس أبى إسحق بن إشقيلولة المتأمِّرَين بوادى آش ، فضايقهم وأخافهم ، بما أدّاهم إلى الامتناع ، والدُّعاءِ لأنفسهم ، والاستِمْساك بما بأيديهم ، وعَمَّت المسلمين الفتنة المنسوبة إليهم . فانْتَزَى هذا الرئيس بمدينة مالَقة ، وكان أَمْلَكَ لما بيده ، واستعان بالنَّصرى ، وشَمَّر عن ساعد الجِدِّ ، فأباد الكثير من أعيان البلدة ، فى باب تَوَسُّم التهم ، وتَطَرُّق السعايات . واستولى على أموالهم . واستمرت الحال بين حرب أَجْلَت فيها غَلَبَةُ الأمير مخيفه ، ولى العهد ، بجيش النَّصرى ، ونازل مالقة أربعين يوما ، وشعَّث الكثير بظاهرها ، وتسمَّى بعَلَم الأمير عند أهل مالقة ،

(١) هذه الترجمة ساقطة ى الزيتونة .

وما بين سَلْم ومُهادنة . وفى عام ستين وستمائة ، نازله السلطان الغالب بالله صِهْرَه ، وأعيا عليه أمرُ مالقة ، لاضْطلاع هذا الرئيس بأمره ، وضَبْط مَنْ لِنظره ، واسْتِمْساكه بعُرْوَة حَزْمه .

وفى بعض الأيام ، ركب السلطان فى ثلاثة من مماليكه ، متخفياً[1] ، كاتماً غرضه ، وقعد بباب المدينة . فلما بَصُر به الرجال القائمون به ، هالهم الأمر ، وأدْهَشَتْهُم الهيبة ، فأفرجوا له ، مُوَقِّرين لجلاله ، آنِسين لقلَّة أتباعه ، فدخل ، وقصد القَصَبة ، وقد نُذِر به الرئيس أبو محمد ، فبادر إليه راجِلاً ، مُتَبَذِّلاً ، مُهَرْولاً[2] ، حافيا . ولما دنا منه ، ترامى على رِجْليه يُقَبِّلهما ، إظهاراً لحقِّ أُبُوَّته ، وتعظيماً لقَدْره ، ودخل معه إلى بِنْتِه وحَفَدَتِه ، فترامى الجميع على أطرافه يَلْثِمونها ، ويتَعَلَّقون بأذياله وأدْرانه ، وهو يبكى إظهاراً للشَّفَقَة والمودَّة ، وتكَلُّم الجميل . وأقام معهم بَياض يومه ، ثم انصرف إلى محلَّته ، وأتبعه الرئيس ، فأمَرَه بالاستمساك بقَصَبَته وملازمة محلِّ إمْرَته ، وما لبث أن شرع فى الارتحال عن ألطاف ومُهادات ، وتقدير جِرايات ، وإحْكام هَدِيَّة ، وتقرير إمارة ، إلى أن توفى السلطان رحمه الله ، فعادت الفتنة جَزِعةً ، ووالى ولدهُ أمير المسلمين بعده ، الضرب على مالَقة ، إلى أن هلك الرئيس أبو محمد ، واستقر بالأُمور ولدُه المذكور فى المحمَّدين ، وكان من الأمر ما يَنْظُره فى مكانه من أراد استيفاءه بحول الله.

عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد العَزَفى

يكنى أبا طالب ، الرئيس الفقيه ، الكبير الشَّهير ، صاحب الأمر

(١) وردت فى الإسكوريال (مخنفيا) والتصويب أنسب للسياق .

(٢) وردت فى الإسكوريال (مهزولا) . والتصويب أنسب للسياق .

والرِّياسة والإمارة بسَبْتَة ، نيابة عن أخيه الرئيس الصَّالح أبى حاتم بحُكْم الاستقلال فى ذلك ، والاستِبداد التَّام ، من غير مُطالعة لأَخيه ولا رُجوع إليه فى شيءٍ من الأُمور ، ولا تَشَوُّفٍ من أخيه إلى ذلك ، لخروجه البتَّة عنه ، وإيثاره العُزْلة . واشتغاله بنفسه .

حـــاله

قد تقدم من ذكر أوَّليته ما فيه كفاية . وكان من أهل الجلالة والصِّيانة ، وطهارة النَّشْأَة ، حافظاً للحديث ، ملازما لتِلاوة كتاب الله عارفا بالتاريخ ، عظيم الهيْبَة ، كبير القَدْر والصِّيت ، عالى الهمَّة ، شديد البَأو ، معظما عند الملوك ، جميل الشَّارة ، مُمْتَثل الإشارة لديهم ، عجيب السَّكينة والوقار ، بعيد المَرْمَى ، شديد الانقباض ، مُطاع السُّلطان بموضعه مَرْهُوب الجانب ، من غير إيقاع بأَحد ، ولا هَتْك حُرمة ، محافظا على إقامة الرُّسوم الحِسْبيَّة والدِّينية .

مشـيخته

قرأ على الأُستاذ أبى الحسين بن أبى الربيع وغيره .

نكبتـــه

تَغلَّب على بلده أيام إمارته ، وثار أهْلُه إليه فى السِّلاح والعُدَّة ليُحِيطوا بمنْ فى القَصَبَة . فخرج إليهم ، وشكر مساعيهم ، وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كُنْ عبدَ الله المقتول ، ولا تكُنْ عبدَ الله القاتل .فانصرفوا . ودخل منزله ، مُلقِياً بيده ، ومُسَلِّماً لقضاء الله [سبحانه][1] فى كِسْره ، إلى أن قُبِض عليه ، وعلى ساير بَنيه وقَوْمه ، عند ارتفاع[2] النهار

(١) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٢) وردت فى الإسكوريال (امتاع) والصويب من الزيتونة .

وانتشار المُتَغلِّبين على القصبة ، فنَقَفُوا متحرِّجين من دماء المسلمين ، وصُرفوا إلى الأَندلس،فى ضحو يوم الخميس الثانى عشر من ذى قعدة عام خمسة وسبعماية ، بعد انقضاءِ خمسة عشر يوماً من تملُّك بلدهم . فاستقر بغرناطة ، تحت سِتْر واحترام ، وجِراية فيها كَفاف . ثم لما خرجت سَبْتَة عن طاعة أمير المسلمين،انصرف القَوْمُ إلى فاس ، فتُوفى بها .

وفاته : فى شعبان المكرم من عام ثلاثة عشر وسبعماية .

عبدالله بن الجبير بن عثمن بن عيسى بن الجبير اليحصبي

من أهل لَوْشة ، وهو محْسُوب من الغرناطيين . قال الأُستاذ ، من أعيانها ذوى الشرف والجَلالة ، قلت يُنْسب إليه بها معاهد تدل على قِدَمٍ وأصالة .

حـــاله

قال أبو القاسم الملاَّحى ، كان أديبا بارع الأَدب ، كاتبا ، بليغا ، شاعراً مَطْبُوعا ، لَسِناً مُفَوَّها ، عارفا بالنحو والأَدب واللغات . وقد مال فى عُنفوان شبيبته إلى الجُنْدِية لشَهامته ، وعزَّة نفسه ، فكان فى عَسْكر المأْمون ابن عبَّاد ، واشْتَمل عليه المأْمون ، وكان من أَظرف الناس ، وأَمْلَحهم شِيبةً ، وأَحسنهم شارةً ، وأَتمهم معرفة .

مشـــيخته

أخذ عن أَشياخ بلده غرناطة ، وأَخذ بمالقة عن غانم الأَديب . وبقرطبة عن ابن سِراج

شـعره

وله فى إنشاده لدى المأمون مجال رَحْبٌ ؛ فمن ذلك قوله :

يا هاجرين أَضلَّ الله سـعيكم كم تهجرون محبِّيكم بلا سبب
ويا مُسِرِّين للإخـوان غـائلةً ومُظْهِرين وجـوه البرِّ والرَّحب
ماكان ضرَّكم الإخلاص لو طُبِعت تلك النفوس على عَلياء أَو أَدب
أَشْبَهْتُم الدهر لما كان والدُكم فأَنتم شرُّ أَبنـاءٍ لشـرِّ أَبِ

عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن على السلمانى

والد المؤلف ، رضى الله عنه ، يُكنى أَبا محمد ، غرناطى الولادة والاستيطان ، لَوْشى الأَصل ، ثم طُلَيْطِليه ، ثم قُرْطبيه .

أَوَّليتـه

كان سَلَفُه يعرفون بقرطبة ، ببنى وزير ، وهم بها أَهلُ نباهة ، وبيتُهم بيت فقهٍ وخَيْرِيَّة وماليَّة ، ونِجارهم نِجارُ فرسان يمانِيَّة . ولما حَدَث على الحَكَم بن هشام الوَقِيعة الرَّبَضِيَّة ، وكان له الفَلْج ،وبأَهل الرَّبَض الدَّبرة ، كانْ أَعلامُ هذا البيت من الجالِية أَمام الحكم ، حسبما امتُحن به الكثير من أَعلام المشيخة بها ، كالفقيه طالوت ، ويحيى بن يحيى ، وغيرهم ؛ ولحِقُوا بطُلَيْطُلة ، فاستقرُّوا بها ، ونَبا بهم وطنُهم ، ثم حَوَّموا على سُكنى المُوَسَّطة ، وآب إلى قرطبة قَبْلهم بعد عهدٍ مُتقادم ، ومنهم خَلَف وعبد الرحمن ، وقد مرَّ له ذكرٌ فى هذا الكتاب . ووُلِّى القضاءَ بالكُورة . ومنهم قوم من قَرابتهم تملَّكوا مُنْتِفْريد[١] ، الحصن المعروف الآن بالمَنَعة

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة .

والخِصْب ، وتمدَّن فيهم ، وبُنيت به القلعة السَّامية ، ونُسب إليه ذلك المجد ، فهم يُعرفون ببلدنا ببَنى المُنْتفريدين . واستقرَّ منهم جَدُّنا الأَعلى بلَوْشة خطيباً وقاضياً بالصُّقع ومُشاوراً[1] وهو المُضاف إلى اسمه التَّسْويد بلَوْشة عُرْفاً كأَنه اسمٌ مُركَّب ، فلا يقول أَحد منهم فى القديم إلا سَيِّدى سعيد . كذا تعرَّفنا من المشيخة ، وإليه النِّسبة اليوم ، وبه يُعْرف خَلَفُه ببنى الخطيب ، وكان صالحا فاضلا ، من أَهل العلم و العمل . حدثنى الشيخ المُسنُّ أَبو الحكم المنتفريدى ، وقد وقَفَنى على جِدار بُرج ببعض أَملاكنا بها ، على الطَّريق الآتية من غرناطة إلى لَوْشة ، ثم إلى غيرها ، كإِشْبِيليَة وسواها ، فقال كان جَدُّك يسكن بهذا البُرج كذا من فصول العام ، ويتلو القرآن ليلا ، فلا يتمالك المارُّون على الطَّريق ، أَن يقربوا إِصْغاءً لحُسْن تِلاوته وخُشُوعاً . وكان ولدُه عبد الله بعده ،علىوَتِيرة حسنة من الخير والنَّباهة وطيب الطُّعمة ، ثم جدّه الأَقرب سعيد على سُننه ، مُربٍ عليه بمزيد المعرفة ، وحُسن الخَطِّ . ولما وقع بلوشة بلدِه ، ما هو معروف من ثورة أَصهارهم من بنى الطَّنجالى ، وكان بينهم ما يكون بين الفحول فى الهجَمات من التَّشاجر ، فرَّ عنهم خيفةً على نفسه ، وعلى ذلك فنالَه[2] اعتقال طويل ، عَدا به عليه عن تلك الثورة . ثم بان عُذره ، وبُرِّئت ساحتُه ، واستَظْهر به السلطان ، وأَقام بغرناطة ، مُكَرَّماً ، مُؤْثَراً ، مُؤْتَمَناً ، وصاهر فى أَشراف بيُوتاتها ، فكانت عنده بنتُ الوزير أَبى العُلى أَضحى بن أَضحى الهمْدانى ، وتُوفيت تحته ، فأُنْجِز له بسببها الحظُّ فى الحمّام الأَعْظم المنسوب إلى جدها اليوم . ثم تزوج بنت القايد أَبى جعفر أَحمد بن محمد الجَعْدالة السُّلمى ، أُم

(١) كانت «الشورى» من الخطط الفرعية الملحقة بالقضاء فى العصور الأخيرة بالأندلس ، ويطلق على من يتقلدها «المشاور» ، واختصاصها يدور حول الإفتاء وإبداء الرأى فى المسائل الشرعية . (٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ناله) .

الأَب المُترجم به ، ولها إلى السلطان ثانى ملوك بنى نصر وعظيمهم[(١)] ، مَتاتٌ ببُنُوَّة الخُؤولة من جهة القوّاد الأُصَلاءِ القرطبيين بنى دحون ،فوَضَح القصد ، وتأكدت الحُظْوة . وقد وقَعَتْ الإشارة إلى ذلك كله فى محلِّه. ثم رَسَخت لولده أَبى ' القِدَمُ فى الخِدمة والعناية ، حسبما يتقرّر فى موضعه.

حـــاله

كان رحمه الله فذًّا فى حُسن الشكل والأُبَّهة ، وطلاقة اللسان ، ونصاعة الظَّرف ، وحضور الجواب ، وطِيب المجالسة ، وثُقُوب الفهم ، مُشاراً إليه فى الحَلاوة وعُذُوبة الفُكاهة ، واسترسال الانبِساط ، مُغْيِياً فى ميدان الدُّعابة ، جَزْلا ، مَهيبا ، صارما ، مُتَجَنِّدا ، رايق الخَصْل رَكْضاً وثقافةً ، وعَدْواً وسِباحةً وشَطَرَنْجا ، حافظا للمُثُل واللُّغة ، إخْباريا ، مضطلعاً بالتاريخ ، ناظما ناثرا ، جميل البِزَّة ، فارِه المرْكَب ، مليح الشَّيْبَة . نشأ بغرناطة تحت تَرَفٍ ونِعمة ، من جهة أُمِّه وأبيه ، وقرأ على أَبى إسحق بن زُرقال ، وأَبى الحسن البَلُّوطى ، ثم على أستاذ الجماعة أَبى جعفر بن الزُّبير ، ظاهرة عليه مُخَيِّلة النَّجابة والإدراك . ثم أَقْصَر لعدم الحامل على الدُّؤوب ، وانتقل إلى بَلَد سَلَفِه ، متحيِّفاً الكثير من الأُصول فى باب البَذْل وقِرَى الضُّيوف ، ومُداومة الصَّيد ، وإيثار الراحة ، مُعْتَمداً بالتَّجِلَّة ، مَقْصُود الحِلَّة ،مخطوب المُداخلة ، من أَبناءِ أَشراف الدولة ، مُنْتَجعاً لأُولى الكُدية. ولما قام بالأَمر السلطان ، أَمير المسلمين أبو الوليد ، وأُمُّه بنت السلطان ثانى الملوك من بنى نصر ،جَزم ما تقدَّم من المتَات والوسيلة ، اسْتَنْهَضه

(١) ثانى الملوك بنى نصر ، هو السلطان محمد بن محمد بن يوسف بن الأحمر الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه . حكم مملكة غرناطة عقب وفاة أبيه فى سنة ٦٧١ ﻫ (١٢٧٢ م) حتى وفاته فى سنة ٧٠١ ﻫ (١٣٠٢ م) .

للإعانة على أَمْرِه ، وجعل طريقه على بلده ، فَحَطَب[١] فى حَبْله ، وتمسَّك بدعوته ، واعْتمده بنزَله وضِيافته ، وكان أَعظَم الأَسباب فى حُصول الأَمْر بيده ، ودخوله فى حُكمه ، وانتقل إلى حضرة المُلْك بانتقاله ، فنال ما شاءَ من اصطناعه ، وحُظْوته ، وجرى له هذا الرَّسم فى أَيام من خَلَفَه من ولده إلى يوم الوقِيعة الكبرى بطَرِيف تاريخ فَقْده .

وجرى ذكره فى كتاب « الإِكليل » بما نصه : إن طال الكلام ، وجمحت الأَقلام ، كنت كما قيل ، مَادحُ نفسه يُقْرِئُك السلام ، وإن أَحجَمتُ ، فما أَسْدَيتُ فى الثَّناءِ ولا أَلْحَمْتُ ، وأَضعْتُ الحقوق ، وخِفْتُ ومعاذ الله العُقُوق . هذا ، ولو أَنِّى زَجَرْتُ طَيْر البَيان من أَوْكاره ، وجيته[٢] بعيون[٣] الإِحسان وأَبكاره ، لما قضيت حقَّه بعد، ولا قلتُ إلا التى علمت سعد . فقد كان رحمه الله ذَمْرَ عزم ، ورجل رخاء وأَزم ، تروق أَنوار خِلاله الباهرة ، وتُضىءُ مجالس الملوك من صُورتَيْه الباطنة والظاهرة ، ذكاءٌ يتوقَّد ، وطَلاقةٌ يحسد نورها الفَرْقد ، فَقَدْتُه بكاينة طريف[٤] ، جَبَر الله عِثارها ، وعجَّل ثارها .

حدَّث خطيب المسجد الأَعظم ، وهو ما هو ، من وفُور العقل ، وصحة النَّقل ، قال ، مررت بأَبيك بعد ما تمت الكَسْرة ، وخُذلت تلك الأُسرة ، وقد كبا بأَخيك الطِّرف ، وعُرض عليه الحِمام للصَّرف ، والشيخ رحمه الله

---

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (فخطب) والتصويب أنسب للمعنى والسياق .

(٢) وردت فى الإسكوريال (وجهته) والتصويب من الزيتونة .

(٣) وردت فى الإسكوريال (بعون) ونعتقد أن التصويب أرجح .

(٤) هى المعركة التى نشبت فى سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) بين القشتاليين وجيش المسلمين المتحد من المغاربة والأندلسيين . على ضفاف نهر سالادو ، على مقربة من ثغر طريف وهزم فيها المسلمون هزيمة فادحة . وقد سبق التعريف بها تفصيلا .

لم تَزِلَّ قدمُه ، ولا راعه الموقف وعِظَمُه . ولما آيس من الخلاص وطُلاَّبه ، صَرفَنى وقال أنا أولى به ، فقضى سعيداً شهيداً ، لم يَسْتَنْفِره الهوْل ، ولم يُثْنه ولا رضى عار الفرار عن ابنه .

شعره

قال فى « الإكليل » ، وكان له فى الأدب فريضة ، وفى النَّادرة العَذْبة منادح[1] عريضة . تكلمت يوما بين يديه ، فى مسائل من الطب ، وأنشدته أبياتاً من شعرى ، وقرأْتُ عليه رُقاعاً من إنشائى ، فسُرَّ وتهلَّل ، وعبَّر عما أَمل ، وما برح أن ارتجل قوله رحمة الله عليه :

الطبُّ والشِّعر والكتابة ··· سِماتُنا فى بنى النَّجابة
هنَّ ثلاث مُبَلِّغــاتٌ ··· مراتباً بعضها الحجابة

ووقَّع لى يوما بخطِّه على ظهر أبيات ، بعثتُها إليه ، أَعرض عليه نمطَها :

ورَدْتَ كما وَرَد النسيم بسحره ··· عن رَوْضة جاد الغمام رُباها
فكأنما هاروت أَوْدَع سِحْرَه ··· فيها وآثرها به وحَباها
مصقولة الأَلفاظ يبهر حسنها ··· بمثلها افتخر البليغ وباهى
فقررت عيناً عند رؤية حسنها ··· إنى أبوك وكنت أنت أباها

ومن شعره قوله :

وقالوا قد نأَوا فاصبُر ستُشْفى ··· فترياق الهوى بُعد الدِّيـــار
فقلت هِبوا بأَنَّ الحق هــذا ··· فقلبى[2] يموا فِيم اصطِبـار

ومن قوله مما يجرى مجرى الحكم والأَمثال :

عليك بالصمت فكم ناطق ··· كلامُه أدَّى إلى كَلْمــه
إن لسان المرء أهــدى إلى ··· غُرَّته والله من خصمــه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مناذج) . وفى النفح (منادم) . والأولى أرجح .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة والنفح (بقلبى) .

يُرى صغير الجِرْم مُسْتَضْعفا وجُرمه أكبر من جِـــرمه

وقال وهو من المستحسن فى التَّجنيس :

أنا بالدهر يا بنىَّ خبيـــر فإذا شئت عِلْمه فتعـــالى

كم مَليك قد ارْتغى منه روضا لم يدافع عنه الرحمن ماارتغى لا

كل شىءٍ تراه يَفْنى ويَبْقى ربُّنا الله ذو الجلال تعـالى

أنشدنى هاتين المقطوعتين .

مــولده

ولد بحضرة غرناطة فى جمادى الأُولى من عام اثنين وسبعين وستماية .

وفـــاته

بعد يوم الوقيعة الكبرى على المسلمين بظاهر طريف يوم الاثنين السابع لجمادى الأُولى عام واحد وأربعين وسبعماية .

من رثـاه

قلت فى رثايه من قصيدة أولها :

سهام المنـــا يا لاتطيش ولا تُخطى وللدهر كفٌّ تستردُّ الذى تعطى[1]

وإنَّا وإن كنا على ثَبَج الدُّنـــــا فلا بدَّ يوما أن نحـلَّ على الشَّط

وسِيَّان ذلُّ الفقر أو عِــزَّةُ الغِـنى ومن أَسْرَع السَّير الحثيث ومن يُبْطِ

تساوى على وِرْدِ الرَّدى كل وارد فلم يُغن ربُّ السَّيف عن ربَّة القرط

وقال شيخنا أبو زكريا بن هُذيل من قصيدة يَرثيه بها :

إذا أنا لم أَرْثِ الصديق فما عُذْرى إذا قلتُ أبياتا حِساناً من الشعر

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال والنفح . وفى الزيتونة كالآتى (وللدهر كف يسترد الذى يعطى) .

ولو كان شعرى لم يكن غير نَدْبة ... وأجريت دمعى لليراع عن الحِبْر
لَما كنت أَقْضِى حقّ صُحبته التى ... توخَّيْتُها عوناً على نُوب الدهر
رمانى عبد الله يوم وَداعه ... بداهيةٍ دَهْياء قاصِمَةِ الظهر
قطعتُ رجائى حين صح حديثُه ... فإن لم يوف دمعى فقد خاننى صَبْرى [1]
وهل مؤنسٌ كابن الخطيب لوحْشتى ... أَبثُّ له همِّى وأُودعُه سِرِّى

عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن جُزَىّ

من أَهل غرناطة ، يكنى أَبا محمد ، وقد مرَّ ذكر أَبيه شيخنا وأَخويه ، وتقرَّرت نباهة بَيْتهم .

حـــاله

هذا الفاضل قَرِيعُ بيت نَبِيه ، وسَلَفٍ شهير ، وأُبوَّة خيِّرة ، وأُخوَّة بليغة ، وخؤولة تميَّزت من السلطان بحُظْوة . أَديب حافظ ، قام على فنِّ العربيَّة ، مشاركٌ فى فنون لِسانِيَّة سواه ، طِرْفٌ فى الإِدراك ، جيد النظم ، مِطْواع القريحة ، باطنُه نُبْل ، وظاهره غَفْلة . قعد للإِقراء ببلده غرناطة ، مُعيدا ومُسْتقلا ، ثم تقدَّم للقضاء بجهات نبيهة ، على زمن الحداثة ، وهو لهذا العهد مَخْطوب رُتبة ، وجارٍ إلى غاية ، وعينٌ من أَعيان البلدة .

مشـيخته

أَخذ عن والده الأُستاذ الشهير أَبى القاسم حديث الرَّحمة بشَرْطِه . وسمع عليه على صِغر السِّن ، أَبعاضا من كتب عدة فى فنون مختلفة . كبعض صحيح مسلم . وبعض صحيح البخارى . وبعض الجامع للتِّرمذى .

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة والنفح . وفى الإسكوريال (صبر) .

وبعض السُّنَن للنَّسائى ، وبعض سُنَن أَبى داود ، وبعض مُوَطَّإ مالك بن أنس وبعض الشِّفاءِ لِعياض ، وبعض الشَّمايل للتِّرمذى . وبعض الأَعلام للنَّميرى، وبعض المَشْرع السَّلس فى الحديث المسَلسل لابن أبى الأَحوص ، وبعض كتاب التَّيسير لأَبى عمرو الدَّانى ، وبعض كتاب التَّبْصرة للمكىِّ ، وبعض الكافى لابن شُريح ، وبعض الهِداية للمَهْدى ، وبعض التَّلخيص للطَّبرى ، وبعض كتاب الدَّلالة فى إثبات النبوَّة والرسالة لأَبى عامر بن ربيع ، وبعض كتاب حَلْبة الأَسانيد وبُغية التلاميذ لابن الكَمَّاد ، وبعض كتاب وسيلة المُسْلم فى تهذيب صحيح مسلم من تواليف والده ، وبعض القوانين الفقهية ، وبعض كتاب الدَّعوات والأَذْكار . وبعض كتاب النُّور المبين فى قواعد عقايد الدين من تأْليفه ، وبعض تقريب الوصول إلى عِلْم الأُصول ، وبعض كتاب الصلاة، وبعض كتاب الأَنوار السُّنية فى الكلمات السُّنية ، وبعض كتاب برنامجه . كل ذلك من تاليف والده ، رحمه الله. وأَجاز له روايةً الكتب المذكورة عنه ، مع رواية جميع مَرْوِيَّاته وتواليفه وتقْيِيداته ، إجازة عامة . ولقَّنه فى صغره، جملة من الأَحاديث النبوية والمسائل الفقهية ، والمقطوعات الشعرية .

ومنهم قاضى الجماعة أَبو البركات بن الحاج ، حدَّثه بأَلمرية حديث الرحمة بشَرْطه ، وسمع عليه بها وبغرناطة عدَّة من أَبعاض كتب ، وأَجازه عامة ،وأَنشده من شعره، وشعرغيره . ومنهم قاضى الجماعة الشريف أَبوالقاسم لازمه مدة القراءة عليه . واستفاد منه . وتفقَّه عليه بقراءة غيره فى كثير من النِّصف الثانى من كتاب سيبويه ، وفى كثير من النصف الثانى من كتاب الإيضاح لأَبى على الفارسى ،وفى كثير من كتاب التَّسهيل لابن مالك، وفى القصيدة الخَزْرَجية فى العَرُوض ، وسمع من لفظه الرُّبع الواحد أَو

نحوه من تأليفه شرح مَقْصُورة حازم ، وتفقه عليه فيه ، وأنشده كثيراً من شعره وشعر غيره . ومنهم الأُستاذ أبو عبد الله البيَّانى . لازمه مدة القراءة عليه ، وتفقَّه عليه بقراءته فى كتاب التَّسهيل البديع فى اختصار التَّفْريع إلاَّ يسيراً منه ، وتفقه عليه بقراءة غيره فى أبعاض من كتب فقهية وغيرها ، ككتاب التهذيب ، وكتاب الجواهر الثمينة ، وكتاب التفريع ، وكتاب الرسالة لابن أبى زيد ، وكتاب الأَحكام لابن العربى ، وكتاب شرح العُمدة لابن دَقيق العيد ، وغير ذلك مما يطول ذكره . ومنهم الأُستاذ الأَعرف الشهير أبو سعيد بن لب ، تفقه عليه بقراءته فى جميع النصف الثانى من كتاب الإيضاح للفارسى ، وفى كثير من النصف الأَول من كتاب سيبويه ، وتفقه عليه بقراءة غيره فى أبعاض مى كتب عدة ، فى فنون مختلفة ، كالمُدَوَّنة والجواهر ، وكتاب ابن الحاجب ، وكتاب التَّلقين ، وكتاب الجُمل ، وكتاب التَّسهيل والتنقيح ، والشَّاطبيَّة ، وكتاب العُمدة فى الحديث وغير ذلك . ومنهم الشيخ المُقرى المحدِّث أبو عبد الله محمد بن بيبَش ، سمع عليه بقراءة أخيه الكاتب أبى عبد الله محمد ، جميع كتاب الموطَّأ ، وكتاب الشِّفا إلا يسيرا منه ، وأجازه روايتهما عنه ، ورواية جميع مَرْوِيَّاته ، إجازة عامة ، وأنشده جملة من شعره وشعر غيره . وممن أجازه عامة ، رئيس الكتاب أبو الحسن بن الجيَّاب ، وقاضى الجماعة أبو عبد الله بن يحيى بن بكر الأَشعرى . والخطيب أبو على القرشى ، والأُستاذ أبو محمد بن سَلْمُون ، والحاج الراوية أبو جعفر ابن جابر ، والشيخ القاضى أبو جعفر أحمد بن عَتيق الشَّاطِبِى الأَزْدِى ، والقاضى الكاتب البارع أبو بكر بن شِبْرين ، والقاضى الخطيب الأَستاذ الراوية أبو بكر بن الشيخ الخطيب الصالح أبى جعفر بن الزيات ،

والقاضى الخطيب أبو محمد بن محمد بن الصّايع . وممن كتب له بالإجازة من المشايخ ، شيخ المشايخ أثير الدين أبو حيّان محمد بن يوسف بن حيان ، وقاضى الجماعة بفاس محمد بن محمد بن أحمد المقّرى ، ورئيس الكتاب أبو محمد الحَضْرمى ، وجماعة سوى من ذُكر من أهل المشرق والمغرب .

شــعره

وشعره نبيل الأغراض ، حسن المقاصد . فمن ذلك قوله :

سَنى[1] الليلةِ الغرَّا وافَتْك بالبُشرى وأبْدى منها وجهُ القبول لك البِشرا
تهلَّل وجه الكون من طَرب بها وأشرقت للدُّنا بغُرَّتها الغَرَّا
لها المِنَّة العظمى بميلاد أحمد لها الرُّتبة العُليا لها العِزَّة الكُبْرا
طوى سِرَّه فى صدره الدهر مُدَّةً فوافى ربيعاً ناشراً ذلك السِّرَّا
حَوى شهرة الفضل الشهير وفضله فأَحْسِن به فضلاً وأَعْظِم به شَهْرا
لقد كان ليلُ الكفر فى اللَّيل قد جَفا فأَطْلَع منه فى سِمَة الهدى فَجْرا
وفى ليلة الميلاد لاحَتْ شواهد قضت أنَّ دين الكُفر قد أَبْطَل الكُفْرا
لقد أَخْمَدت أنوارها نارُ فارس وأَرْجَف كما ارْتَجَّ إيوانه كِسْرى
له معجزات يُعجِز القلبَ كنهُها ويُحْصَر إن رام اللسان لها حَصْرا
معالٍ يكلُّ الشِّعر عن نَيْل وَصْفها وتَقْصُر عن إدراك مصعده[2] الشِّعرا
به بشَّر الرُّسُل الكرام ولم تزل شمايله تُتْلى وآياته تَتْرا
ففى الصُّحف الأُولى مناقِبُه العُلى وفى الذكر آيات رَخْص له قدرا
لقد خصَّه مولاه بالقُرْب والرضى وحَسْبُك ماقد نص فى النَّجم والإسْرا
وردَّ عليه الشمس بعد غروبها وشقَّ على رغم العُداة له البَدْرا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (هنى) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة .

وكان لــه فى مايـه وطعـــامه … لطايف ربَّانية تَبْهَــر الفِكــرا
غدا المــاءُ من بين الأَصــابع نابعاً … وعاد قليل الزَّاد من يُمنه كَثْــرا
وكم نايل أَوْلَىَ وكم سائل حَبــا … وكم مُشْتَكٍ أَشفى وكم مُدْنِف أَبرا
كفى شاهدا أَن رَدَّ عَيْن قتـــادة … فكان لها الفضل المبين على الأُخرا
وحنَّ إِليــه الجِذْع عند فِـراقه … ولا حَنَّت الخَنْساءُ إِذ فارقت صَخْرا
وحقَّ له إِذ بان عنــه حبيبُــــه … ومن [ذاق طعم][1] الوَصْل لم يحْمل الهجْرا
خليلَّ والدنيا تُجَدِّد للفقر ضروبا … من الأَشواق لو تنفع الذِّكــرا
بعَيْشِكُمَا هل لى إِلى أَرض طيبَــة … سبيل فأَمَّا الصبر عنها فلا صبرا
مُنًّا للنفس من تلك المعاهد زَوْرَةٌ … أَبثُّ بها شكْوى وأَشكو بها وِزْرا
وتعفير خدِّى فى عروق تُــرابها … ليَمْحُوَ لى ذنبا ويُثْبِت لى أَجـرا
تُعَلِّلنى نفسى بإِدراكهــا المُنــا … وما أَجهدتُ عَيْشاً ولاَ مُلِّكت قفرا
ومن كانت الآمال أَقْصَى اجتهـاده … غَدَتْ كفُّه مما تأَمَّله صِفْـــرا
وكم زَجَرتهــا واعظـات زمانهــا … فما سمعت وعظاً ولا قَبِلت زجـرا
وكنت لها عَصْر الشبيبة عــاذِراً … سقاه الحيا ما كان أَقْصَره عصرا
وأَما وقد ولَّت ثلاثــون حجَّــةً … فلست أَرى للنفس من بعدها عُذرا
إِذا أَنت لم تَتْرُك سوى النفس طايعا … فلابدَّ بعد الشَّيب من تركه قسرا
ولـم أَدَّخـر إِلاَّ شـفاعة أَحمـد … لتخفيف وِزْرٍ شدَّ ما أَوْثَق الظهرا
لقد عاقَتْ كفُّ الرجــاءِ بحملـه … لعل كَسِير القلب يَقْلِبـه بِـرًّا
هو المرتَضى الداعى إِلى مَنْهج الرضا … هو المصطفى الهادى المُيَسِّر لليُسْـرا
هو الحاسر الماحى الضَّلالة بالهدى … هو الشَّافع الواق إِذا شُهر الحَشْرا
بأَى كلام يَبْلُغ المرءُ وَصْفَ مَنْ … مكارمه تستغرق النَّظم والنثـرا

---

(١) وردت فى الإسكوريال (ذا — وبعدها بياض) . والتصويب من الزيتونة .

خِلالٌ إذا الأفكار جاسَتْ خِلالها ... تكرُّ على الأعقـاب خاسِئة خَسرا
لقد غضَّ طرف النَّجم باهِرُها سنًى ... وأرغم أنْفَ الرَّوض عاطِرُها نَشْرا
سقى ليلة حَيَتْ به واكف الحيا ... فَنَعْماؤها ما إن يحيط بها شكرا
لقد خصَّها سندُ الإلـه برحمـة ... فعمَّت بها الدنيا وسكَّانَها طُـرًّا
أقمتَ أمير المسلمين حقوقهـا ... بأفعـال برٍّ أضحكت للهُدى ثَغْرا
لقد سِرت فيها إذ أتَتْك بسـرِّه ... أقرَّت لها عينـا وسُرَّت لها صدرا
عرفتَ بها حقَّ الذى عرفت بـه ... فأحسنتَها شـكرا وأوليتَها بِـرًّا
وأصْحَبْتها الإخلاص لله والتُّقـا ... وأعقَبها الإحسان والنَّايل الغَمْـرا
لدى مَصْنع ملأَ العيـون محاسناً ... تجسَّم فيه السِّحْر حتى بدا قَصْرا

منها بعد أبيات فى المدح للسلطان :

روى عن أبي الحجاج غُرُّ شمايل ... أعاد لنا دَهْمَ الليالى بهـا غُرًّا
ومن كَبَنِى نصر جلالة مَنْصب ... بهم نَصَر الرحمن دين الهدى نصرا
هم ما هم إن تَلْقَهم فى مهمَّة ... لقيت الجناب السَّهل والمعْقِل الوَعْرا
سلالة أنصار النبى محمد فسَلْ ... أحدا يُنْبِيك عنهم وسَلْ بَدْرا

ومن شعره فى المقطوعات . قال فى التورية العَرُوضية :

لقد قطعتَ قلبى يا خليلى ... بهجرٍ طال منك على العليل
ولكن ما عجيبٌ منك هذا إنه ... التَّقطيع من شـأن الخليل

وقال فى التَّورية النَّحوية :

لقد كنتُ موصولاً فأُبدِل وصْلكم ... بهجر وما مثلى على الهجر يَصْبِر
فما بالكم غيَّرتُم حال عَبْدكم ... وعهدى بالمحبوب ليس يُغَيَّر

وقال فى التَّورية مداعباً بعض المقرئين للعدد وهو بديع :

يا ناصباً علم الحساب حِبـاله ... لقناص ظَبى ساحر الألبـاب
إن كنت ترجو بالحساب وِصاله ... فالبدر يَرْزُقنا بغير حسـاب

وقال فى التَّورية العَرُوضية :

لقــد كَمُـل الــوُدُّ بيننــا ودمنــا على فَرَح شــامل
فإن دخل القَطْعُ فى وَصْلنــا فقد يدخل القَطْعُ فى الكامل

وقال فى تضمين مَثَل :

ألا اكْتُمْ حبٌّ من أَحْبَبْتَ واصبر فإنَّ الهجر يُحدثه الكلام
وإن أبداه دمعٌ أو نحــولٌ فمن بَعْد اجتهادى لا تُــلام

وقال :

وأَشْنَبُ الثَّغر له وجْنَــةٌ تعدَّت النَّحل على وَرْدهـا
ما ذاك إلاَّ حسدٌ إذ رأَت رُضابه أَعْذَب من شَهْدهــا

وقال فى التَّورية بأَسماءِ كُتُب فقهية جوابا غير مُعَمَّى :

لك الله من خلٍّ حبانى برُقعة حبتنى من أبياتها بالنوادر
رسالة رُمز فى الجمال نهاية وخيرة نظم أُتحفت بالجواهر

وقال فى التَّورية أَيضاً :

إلى الله أَشكو عُــذراً تــردَّدا إلىَّ فلما لاح سِــرِّى لهم حالوا(١)
لقد خدعونى إذ أَرُونى مــودَّة ولكنَّه لا غَرْو أَن يُخْدع الآل

وقال يخاطب رجلا من أَصحابه :

أَيا حَسَنُ إن شتَّت الدهرشَملنا فليس لوُدٍّ فى الفؤاد شَتات
وإن حُلْت عن عهد الإخاء فلم يزل لِقلبى على حفظ العُهود ثبَات
وهَبْنى سَرَتْ منى إليك إساءة أَلم تتقدَّم قبلهـا حَسَـنات

وقال فى النَّسيب :

إن كان باب القُرب قد سُدَّ بيننا ولم يبق لى فى نَيْل وَصْلِك مطمع

(١) وردت هذه الشطارة فى الإسكوريل كالآتى (والى فلما لاح سرى لهم حال وا) . ووردت فى الزيتونة كالآتى (الى فلما لاح سراهم خال) .

وأَخْفَرْتَ عهدى دون ذنب جَنَيْتُه		وأصبح وُدِّى فيك وهو مُضَيَّع
ولم تَرْثِ لى عما أُلاقى من الأَسى		وصِرْتُ أنادى منك من ليس يسمع
وضاقَتْ بى الأَحوال عن كل وُجهة		فما أَرْتَجى من رحمة الله أَوْسَعُ

ومما نظمه فى التَّضمين مخاطبا بعض المُنْتَحلين للشِّعر قوله :

لقد صرْتَ فى غَصْب القصايد ماهرا		فما اسم جميع [الشعر][1] عندك غيزل
ولم تُبق شعرا لامرئ متقـدِّم		ولم تبق شعرا يابن بشت[2] لأَول
فشِعْرُ جَرير قد غَصَبْتَ ورويُّـه		وشعر ابن مَرْج الكُحل وابن المرحَّل
وإن دام هذا الأَمر أَصبحتَ تَدَّعى		قِفا نَبْكِ من ذِكرى حَبيبٍ ومنزل

ومن المقرئين والعلماء

عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن مجاهد العبدرى الكوّاب

من أهل غرناطة ، يكنى أبا محمد الخطيب ، المقرئ

حـــاله

من « الصِّلة » : كان رحمه الله أَتْقَن أهل زمانه فى تجويد كتاب الله العزيز ، وأَبْرَعهم فى ذلك ، وأَنْفَعهم للمتعلم ، نفع الله به كل من قرأَ عليه ، وترك بعده جُملةً يُرجع إليهم فى ذلك ، ويُعمل على ما عندهم . وكان مع ذلك نَبيه الأَغراض ، فى جميع ما يحتاج إليه فى عِلْمه [ذا كرا للإختيارات التى تنسب للمقرئين][3] ، من يُرجِّح ويُعَلِّل ، ويختار ويَرُد ، موفقا فى

---

(١) الزيادة من الزيتونة .
(٢) كذا فى الإسكوريال والزيتونة .
(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الزيتونة . ووردت محرفة فى الإسكوريال كالآتى (زاكرا لاختيات المقريين) .

ذلك ، صابرا على التعليم ، دايباً عليه نهاره وليله ، ذاكرا لخلاف السَّبعة . رحل الناس إليه من كل مكان ،خاصَّتهم وعامَّهم ، وملأً بَلَده تجويدا وإتقانا ، وكان مع هذا فاضلا ورعا جليلا . خَطَب بجامع غرناطة وأمَّ به مدة طويلة ،إلى حين وفاته .

مشيخته

أخذ القراءات عن الحاج أبي الحسين بن كوثر ،وأبي خالد بن رَفاعة ، وأبي عبد الله بن عَرُوس . ورحل إلى بيَّاسة ، فأخذ بها القراءات عن أبي بكر ابن حسُّون ، وأخذ مع هؤلاء عن جعفر بن حَكَم ، وأبي جعفربن عبد الرحيم ، وأبي الحسن الصِّدفى الفاسى ، وسمع عليه كثيرا من كتاب سيبويه تفقُّها ، وأجاز له كتابةً القاضى أبو بكر بن أبي جَمْرة مع آخرين ممن أخذوا عنه .

من أخذ عنه

روى عنه الناس أهل بلده وغيرهم : منهم ابن أبي الأحْوص ، وأبو عبد الله بن إبراهيم المُقرى .

وفــــاته

توفى فى سنة ثلاث وثلاثين وستماية ، ودفن بمقبرة باب إلبيرة .

عبد الله بن على بن عبد الله بن على بن سَلْمون الـكنانى

من أهل غرناطة . يكنى أبا محمد ، ويعرف بابن سلمون

حــــاله

كان رحمه الله ، نسيجَ وَحْده ، دِيناً وفضْلا ، وتَخلُّقاً ودماثة ، ولين

جَانب ، حسن اللِّقاءِ . سليم[١] الباطن ، مُغْرقا فى الخير ، عظيم الهشَّة[٢] والقَبُول ، كريم الطَّوية ، عظيم الانقِياد ، [طيِّب اللهجة][٣] ، مُتهالكا فى التِماس الصَّالحين ، يتقلَّب فى ذلك بين الخطإ والإصابة ، صَدْراً فى أهل الشُّورى . قرأ ببلده وسمع وأَسْمَع وأَقْرأ ، وكتب الشروط مدة ، مأثُورَ العدالة ، معروف النَّزاهة ، مثلا فى ذلك ، ويقوم على العربية والفقه ، خصوصا باب البُيوع ، ويتقدَّم السِّباق فى معرفة القراءات ، منقطعُ القَرِين فى ذلك ، أشدُّ الناس خُفوفا فى الحوايج ، وأسرعُهم إلى المشاركة .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ الكبير أبى جعفر بن الزبير بغرناطة ، ولازمه ، فانتفع به ، درايةً وروايةً . وقرأ على الخطيب أبى الحسن بن فَضِيلة ، والمُكَتِّب أبى الحسن البلُّوطى ، وأبى محمد النِّفْزى ، والخطيب أبى جعفر الكُحيلى . وبمالَقة على الأُستاذ أبى محمد الباهلى . وبسَبْتَة على الأُستاذ المقرى رُحْلَةِ وقته أبى القاسم بن الطيب ، وسمع عليه الكثير . وعلى الأُستاذ أبى عبد الله الدَّراج ، ولازم مجلس إقرايه ، وعلى الشيخ المعَمَّر أبى عبد الله ابن الخطَّار الكامى ، وهو أعْلى من لقيه من تلك الحَلْبة . وأخذ بالإجازة عن العَدْل أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن النُّولى ، وروايته عاليه . لقى أبا الربيع بن سالم ، ولقى بسبتة الشَّريف الرَّاوية أبا على الحسن بن أبى الشرف ربيع ، والأَديب الكاتب أبا على الحسين بن عَتيق بن الحسين ابن رَشيق . وبفاس الفقيه أبا غالب محمد بن محمد بن عبد الرحمن

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (سالم) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الهيبة) .

(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الزيتونة .

المَغِيلى . وقرأ على الخطيب المحدث أبى عبد الله بن رُشيد . وسمع على ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الحكيم . ولقى الأديب المعمَّر مالك بن المرحَّل . وأجازه أبو عمران موسى بن الخطيب أبى الحسن الدَّارى برُندة . وأجازه من أهل المشرق كثير ، منهم عز الدين أحمد بن محمد الحسنى بقيّة الأشراف بالدِّيار المصرية ، وجمال الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهرى ، ونجم الدين أحمد بن حمدان الحرَّانى ، وجمال الدين أحمد ابن أبى الفتح الشَّيبانى ، وأحمد بن عبد المنعم الصُّوفى ، ومولده عام أحد وستماية ، وأحمد بن سَلْمان بن أحمد المَقْدسى ، وأحمد بن عبد الحميد ابن عبد الهادى ، وشمس الدين ابراهيم بن سرور المقدسى ، والخطيب بالمسجد الأعظم ببِجاية أبو عبد الله بن صالح الكِنانى ، وأبو عبد الله محمد أبى خمسة[1] محمد بن البكرى بن أبى بكر ، وأبو عبد الله محمد بن على ابن وَهَب، بن مُطيع بن أبى الطاعة القُشَيرى ، وابن دقيق العيد تقى الدين ، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة ، والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت أبى الخطاب محمد بن أحمد بن خليل السَّكونى . وأجازه نحو من المايتين من أهل المشرق والمغرب . ولقى بفاس الشِّيخة الأديبة الطيبة الشاعرة ، سارة بنت أحمد بن عثمان بن الصلاح الحلبيّة وأجازته ، وألْبَسَتْهُ خرقة التصوُّف .

قال ، وأنْشَدَتْنى قصيدة أجابت بها الخطيب المحدث ، أبا عبد الله ابن رُشيد ، أولها يعنى قصيدة ابن رُشيد :

سَرى نَسيم من حِمى ســارَّة   عاد به كلُّ نَسيم عــاطرا
وجال أفكار الدُّنــا ذكـرها   فسـار فيها مثلا ســـايرا

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين .

دايـرةٌ والمجدُ قطبٌ لهـا   دارت عليـه فَلَكًا دايـرا

فقالت :

وافى قريضٌ منكم مذ غـدا   لبعض أوصافكم ذاكـرا
أَطْلَع من أنفـاسه الحجا   ومن شَـذاه نفسـاً عـاطرا
أعاد مَيْتَ الفكر من خاطرى   من بَعْد دَفْنٍ فى الثَّرى ناشرا
يَبْهر طَرْفى حسنُ مَنْظَـره   أَحْبِبْ بـه نظما غدا باهرا
فقلتُ لهـا هـالنى حُسْنُـه   أشاعراً أصبح أم سـاحرا
أم روضة هذى التى قد نوى(1)   أم بدرُ تِم قد بدا زاهـرا
أم ضربٌ من فمـه سـايل   أم جوهر أَضْحى لنا ناثـرا
لله مـا أَعْـذَبَ ألفـاظه   وأنورَ الباطن والظَّـاهرا
يا ابن رُشيد بل أَبا الرُّشـد   يا من لم يزل لطىِّ العُلىَ ناشرا
خذ ما فَدَتْك النفس يا سيدى   وكن لمن نَظَمَها عـاذِرا
ما تصل الأُنْثى بتَقْصِيرها   لأَن تُبـارى ذَكَراً ماهـرا
لازلت تُحيِى من رُسوم العُلا   ما كان منها دارسـاً داثـرا

تصـانيفه

الكتاب المسمى « بالشافى فى تجربة ما وقع من الخلاف بين التَّيْسير والتَّبصرة والكافى » لا نظير له .

مـولده

ولد بغرناطة بلده فى الثانى والعشرين لذى قعدة من عام تسعة وستين وست مائة .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (قرا) .

وفاته

فُقد فى الوقيعة العظمى بطريف يوم الإثنين السابع لجمادى الأُولى من عام أَحد وأَربعين وسبعماية . حدث بعض الجند أنه رآه يتحامل ، وجُرْحٌ بصدره يَثْعَب دماً ، وهو رابط الجأش ، فكان آخر العهد به . تقبَّل الله شهادته .

عبد الله بن سهل الغرناطى

يكنى أَبا محمد ، ويُنْبز[1] بالوجه نافخ[2]

حــــاله

من كتاب ابن حمامة ، قال عُنى بعِلْم القرآن والنحو والحديث ، عناية تامة ، وبهذا كنت أسمع الثَّناء عليه من الأَشياخ ، فى حال طفولتى[3] بغرناطة ، ثم شُهر بعد ذلك بعِلم المَنْطق ، والعلوم الرياضية ، وساير العلوم القديمة ، وعَظُم بسببها ، وامتدَّ صيتُه من أَجلها ، وأَجمع المسلمون واليهود والنصارى ، أَن ليس فى زمانه مثله ، ولا فى كثير ممن تقدَّمه ، وبين هذه المِلل الثلاثة من التَّحاسد ما عُرف . وكانت النصارى تقصِده من طُليطلة ، تتعلَّم منه أَيام كان ببيَّاسة[4] ، وله مع قَسِّيسهم مجالسُ فى التَّناظر ، حاز فيها قَصَب السَّبق . قال ، ثم خرج عن بيَّاسة ، وسار إلى نظر ابن هَمُشْك[5] عند خروج النصارى عن بيَّاسة . وله تواليف . وهو الآن بحاله.

---

(١) ينبز معناها يلقب .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (النافخ) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (قفولتى) والتصويب من الزيتونة .

(٤) بياسة ، وبالإسبانية Baeza ، بلدة أندلسية قديمة تقع شمال شرقى جيان بينها وبين أبدة ، وقد سبق التعريف بها .

(٥) ترجم له ابن الخطيب فى المجلد الأول من الإحاطة (ص ٢٩٦ – ٣٠٢).

قلت ، تاريخ هذا القول ، عام ثلاثة وخمسين وخمسماية .

عبد الله بن أيوب الأنصارى

يكنى أبا محمد ، ويعرف بابن خرُّوج ، من أهل قلعة أيوب[1] .

حاله

فقيه حافظٌ لمذهب مالك . استوطن غرناطة وسكنها .

تواليفه

ألّف فى الفقه كتابا مفيدا سماه « المنوطة » على مذهب مالك ، فى ثمانية أسفار أتْقَن فيها كل الإتقان :

وفاتة : توفى بها سنة اثنتين وستين وخمسماية ، وقد قارب المائة .

عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصارى

مالَقى ، قرطبي الأصل ، يكنى أبا محمد ، ويعرف بالقرطبى ، وقرأ بغرناطة .

حاله

كان فى وقته ببلده ، كامل المعارف ، صدرا فى المقرئين والمجَوِّدين ، رئيس[2] المحدِّثين وإمامهم ، واسع المعرفة ، مُكْثِرا ، ثقةً ، عدلا ، أمينا ، مَكِين الرِّواية[3] ، رايق الخطِّ ، نبيل التَّقييد والضَّبط ، ناقدا ، ذاكرا

---

(١) قلعة أيوب ، وبالإسبانية Calatayud ، بلدة حصينة من أعمال الثغر الأعلى تقع جنوب غربى سرقسطة على نهر خالون أحد أفرع نهر إيبرو (إبره) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (رأس) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (يكثر الدراية) . والتصويب من الزيتونة .

أسماء رجال الحديث وطبقاتهم وتواريخهم ، وما حُلوا به من جَرْحٍ وتَعْديل ، لا يدانيه أحد فى ذلك ، عزيز النَّظر ، متيقِّظاً ، متوقد الذهن ، كريم الخلال ، حميد العشرة ، دَمِثاً ، متواضعاً ، حسن الخلق ، مُحَبَّباً إلى الناس ، نزيه النفس ، جميل الهيئة ، وقورا ، مُعَظَّماً عند الخاصة والعامة ، ديِّناً ، زاهِدًا ، ورعا ، فاضلا . نحْوياً ماهراً ، ريَّان من الأَدب ، قائِلاً الجيِّد من الشعر ، مَقْصِدا ومَقْطعاً . وكان له بجامع مالَقة الأَعظم ، مجلس عام ، سِوى مجلس تدريسه ، يتكلم [فيه][1] على الحديث ، إسْناداً ومَتْناً ، بطريقة عجز عنها الكثير من أكابر أهل زمانه . وتصدَّر للإقراءِ ابن عشرين سنة .

« من أخباره فى العلم والذكاء » : قالوا قُرِئ عليه يوما باب الابْتِداءِ بالكَلِم التى يُلفظ بها فى إيضاح الفارسى ، وكان أَحسن الناس قياما عليه فتكلم على المسأَلة الواقعة فى ذلك الباب ، المتعلقة بعلم العَرُوض ، وكان فى الحاضرين من أَحسن صناعته ، فجاذبه الكلام ، وضايقه المباحثه ، حتى أَحسَّ الأُستاذ من نفسه التَّقْصير ، إذ لم يكن له قَبْل كَبِيرُ نَظَرٍ فى العروض ، فكفَّ عن الخَوْض فى المسأَلة ، وانصرف إلى منزله ، وعكف ساير اليوم على تَصَفُّح عِلْم العَروض ، حتى فهم أغراضه ، وحصَّل تواليفه وصنَّف[2] فيه مختصراً نبيلا ، لخص فى صدره ضُروبه[3] ، وأبدع فيه بنظم مثله ، وجاء به من الغَدِ ، مُعجزاً من رآه أو سمع به ، فبُهِت الحاضرون وقضوا العجب من اقتداره وذكائه ، ونفوذ فهمه ، وسموِّ همَّته .

ومن أخباره فى الدِّين : قال أَبو أَحمد جعفر بن زعرور العاملى المالقى تلميذه الأَخصَّ به ، بتُّ معه ليلة فى دُوَيْرته التى كانت له بجبل

(١) الزيادة من الذيل والتكملة .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة والذيل والتكملة . وفى الإسكوريال (وضبط) .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (فرشه) .

فارَه[1] للإقراء والمطالعة . فقام ساعة كنت فيها يقظانا ، وهو ضاحك مسرور ، يَشِدُّ يده كأنّه ظفر بشيء نفيس ، فسألته فقال ، رأيت كأن الناس قد حُشروا فى العَرْض على الله ، وأبى بالمحدِّثين ، وكنت أرى أباعبد الله النَّميرى يؤْتى به . فيوقف بين يدى الله تعالى .فيعطى براءته ، من النَّار ، ثم يُؤْتى بى ، فأُوقِفت بين يدى ربِّى ، فأَعطانى براءتى من النَّار ، فاستيقظت ، وأنا أشدُّ عليها يدى اغتباطا بها وفرحا ، والحمد لله.

مشيخته

تلا بمالقة على أبيه ، وأبى زيد السُّهيلى ، والقاسم بن دَحْمان ، وروى عنهم ، وعن أبى الحجاج بن الشيخ ، وأبوى عبدالله بن الفخَّار ، وابن نوح ، وابن اليَتيم ، وابن كامل ، وابن جابر ، وابن بُونة . وبالمنكِّب عن عبد الوهاب الصِّدفى . وحضر بمالقة مجلس أبى إسحق بن قرقول . وبإشبيلية عن أبى بكر بن الجد ، وابن صاف ، وأبى جعفر بن مَضاء ، وأبوى الحسن عبد الرحمن بن مسلمة ، وأبى عبد الله بن زَرْقون ، وأبى القاسم بن عبدالرازق ، وأبى محمد بن جُمْهور . وبغرناطة عن أبوى جعفر بن حَكَم الحصَّار ، وابن شُراحيل ، وأبى عبد الله بن عروس ، وأبوى محمد عبد الحق النَّوالشى ، وعبد المنعم بن الفَرَس . وبمرْسية عن أبى عبد الله بن حُميد ، وأبى القاسم بن حُبيش ، وبسبتة عن أبى محمد الحجْرى . وأجاز له من الأندلس ابن مُحرز وابن حسُّون وابن خِيرة ، والأَرْكَشى ، وابن حفص وابن سعادة ، ويحيى المَجْريطى ، وابن بَشْكُوال ، وابن قُزْمان . ومن أهل المشرق جماعة كبيرة .

---

(١) جبل فاره وبالإسبانية Gibralfaro ، مكان مرتفع بشرق مالقة . وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٥٠٦ حاشية) .

شعره وتصانيفه

أَلَّف فى العروض مجموعات نبيلة ، وفى قراءة نافع . ولخَّص أسانيد المُوَطَّأ . وله المُبْدِى لخطإ الرُّندى . ودخل يوما بمجلس[1] أقرأ به أبو الفضل عِياض ، وكان أفتى منه ، غير أن الشَّيب جار عليه ، وتأَخر شَيْبُ الأُستاذ ، فقال يا أُستاذ شِبْنا وما شِبْتُم ، قال فأَنشده ارتجالا :

وهل نافعٌ أَن أخطأَ الشَّيْب مَفْرِق ... وقد شاب أَتْرابى وشـــاب لِدَّاتى

لئن كان خطْب الشَّيب يوجد حِسّه[2] ... بِتِرْبِى فمعنـــاه يقـــوم بذاتى

ومن شعره فى التَّجْنِيس :

لعمرك ما الدُّنيا بسرعة سَيْرها ... بسُكَّانها إلا طريقُ مَجـــاز

حقيقتُها أَنَّ المُقـــام بغيرها ... ولكنهم قد أُولِعـــوا بمجـاز

ومما يؤثر أيضا من شعره قوله :

سَهرتْ أَعْيُنٌ ونامت عيـــون ... لأُمـور تكُون أولا تكُـــون

فاطْرُد الهمَّ ما استطعت عن[3] ... النَّفس فحِملانك الهموم جنون

إنَّ رباًّ كفاك بالأَمس ما كان ... فسَيَكْفِيك فى غد ما يكـون

مولـده

ولد أبو محمد قُريب ظهر يوم الإثنين لثمان بقين من ذى القعدة عام ستة وخمسين وخمسماية . «وفاته » سَحر ليلة السبت أو سَحر يومها ، ودفن إثْر صلاة العصر من اليوم السابع لربيع الآخر سنة أحد عشر وستماية

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بمسجد).

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى الذيل والتكملة (عينه) .

(٣) وردت هذه الشطرة فى الزيتونة كالآتى (فاطرد الهم عن النفس ما استطعت) .

من رثـاه

رثاه الأَديب أَبو محمد عبد الله بن حسُّون البُرْجِى من قصيدة حسنة طويلة :

خليليّ هُبَّا ساعدانى بعبَـرة   وقولا لمن بالرَّى ويحكم هبُّوا
نبكى العلى والمجد والعلم والتُّقى   فمأْتمُ أَحزانى نوائحُه(١) الصحب
فقد سُلب الدِّين الحنيفى رُوحَه   ففى كل سِرْبٍ من نباهته نهب
وقد طُمِست أَنوار سنَّة أَحمد   وقد خَلَت الدنيا وقد ظَعن الرَّكب
مضى الكوكب الوقَّاد والمرْهَف الذى   يُصَحِّح فى نصِّ الحديث فما يَنبُ
تمنَّى علاه النيران ونـــورُه   وقالا بزعم أَنَّه لهما تِـــرْب
أَأَسْلُو وبحر العِلم غِيضَتْ مِياهُه   ومُحيِى رسوم العِلم يَحْجُبه التُّرب
عزيزٌ على الإسلام أن يُودَع الثرى   مُسَدِّدُه الأَسْرَى(٢) وعالمه النَّدبُ
بكى العالم العُلْوى والسَّبع حسرةً   أُولئكم حِزْبُ الله ما فوقهم حِزب
على القرطبِى الحَبْرِ أُستاذِنا الذى   على أَهل هذا العصر فضَّله الرَّب
فقد كان فيما مَضى من زمانه   به تَحْسنُ الدُّنيا ويَلْتَئِم الشِّعب
ويجمع سِرب الأُنْس روض حياته   فقد جَفَّ ذاك الرَّوضُ وافترق السِّرب
فسُحْقاً لدُنْيا خادَعَتْنا بمكرها   إذا عاقَدت سلما فمقصدُها حَرْبُ
رَكِبنا السَّهل الذَّلُول فقادنا   إلى كل ما فى طيِّه مركبٌ صعب
ونغفل عنها والرَّدى يَسْتَفِزُّنا   كفى واعظاً بالموت لو كان لى لبّ

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يوايحه)وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى الذيل والتكملة (الأهدى) .

عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عيسى بن أحمد بن إسماعيل بن سماك العاملي[1]

يكنى أبا محمد ، مالقى الأصل .

حـــاله

كان فقيهاً أديباً ، بارع الأدب ، شاعراً مطبوعاً ، كثير النّادر ، حُلو الشّمايل ، أدرك شيوخاً جِلّة ، ووُلّى قضاء غرناطة مدّة .

مشـيخته

روى عن جده لأُمه وابن عم أبيه أبى عُمر أحمد بن إسماعيل ، وأبى على [الغسّانى ، وأبى الحسن على بن عبيد الرحمن بن سَمْحون والمرسانى[2] الأديب ،

شـعره

الروض مُخضَرٌّ الرُّبى مُتَجَمِّل ... للناظرين بأجمل الألوان
وكأنما بَسَطت هناك سِوارها ... خُودٌ زَهَتْ بقلائد العِقيان
وكأنّما فَتَقَت هناك نوافِحٌ ... من مِسْكة عُجِنت بِعَرْف البان
والطّير يَسْجَع فى الغُصُون كأنّما ... تقرأ القِيان فِيه على العيدان
والماءُ مُطّرِد يسيل عُبابه ... كسلاسل من فِضّة وجُمان
بهجات حُسْن أُكْمِلت فكأنها ... حُسْنُ اليقين وبهجةُ الإيمان

وكتب إلى الكاتب أبى نصر الفتح بن عبيد الله[3] فى أثناء رسالة :

تفتّحت الكتابة عن نَسيم ... نسيمُ المِسْك فى خُلُق الكريم
أبا نصر رسَمْتَ لها رسوما ... تَخال رسومُها وضحَ النُّجوم

---

(١) وردت هذه الترجمة فى هامش لوحة 223 من مخطوط الإسكوريال . ولم ترد فى الزينونة

(٢) هكذا فى الإسكوريال .

(٣) هو الفتح بن خاقان من أشهر كتاب عصر الطوائف ، ومؤلف كتاب « قلائد العقيان » .

وقد كانت عَفَّت فأثْرتَ منها ... سراجاً لاح فى الَّليل البَهيم

فَتَحْت من الصِّناعة كل باب ... فسارَّةٌ فى طريق مستقيم

فكُتَّاب الزمان ولستَ منهم ... إذا راموا مَرَامَك فى هُموم

فما قِسٌّ بأَبدع منك لفظاً ... ولا سَحْبان مثلُك فى العلوم

« وفاته » : فى السابع والعشرين من رمضان المعظم سنة أربعين وخمسمائة وهو ابن أربع وثمانين سنة .

ومن ترجمة القضاة

عبد الله بن أحمد[1] بن محمد بن سعيد بن أيوب بن الحسن بن مُنخل بن زيد الغافق

من أهل غرناطة وأعيانها ، يُكنى أبا محمد ، ويُنسب إلى غافق بن الشَّاهد[2] بن علك بن عدنان ، لا إلى حِصْن غافق .

حـــاله

من « العايد » كان رجلا صحيح المذْهَب ، سليم الصَّدر ، قليل المُصانعة ، كثير الحركة والحِشَّة ، والجِدَة ؛ ملازم الاجتهاد والعُكوف ، لا يفتر عن النَّسخ والتَّقييد والمطالعة ، على حال الكَبْرة ؛ قديم التَّعيُّن والأَصالة ، وُلِّى القضاء عُمْره بمواضع كثيرة ؛ منها بيرة ورُندة ثم مالَقة ، مضافا إلى الخطابة بها .

(١) هكذا وردت فى الزيتونة .وفى الإسكوريال (أبى أحمد) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (الشاهك) . والتصويب من الزيتونة .

مشيخته

حجّ فى حدود سبعة وثمانين وستماية ، وروى عن جِلّة من أهل المشرق ، كالإمام تقى الدين بن دقيق العيد ، والحافظ أبى محمد عبد المؤمن الدُّمياطى ، وشمس الدين المصَنِّف(1) أبى عبد الله بن عبد السلام . وأجازه من أهل المغرب شيخ الجماعة بالأندلس أبو جعفر بن الزبير ، والقاضى ابن أبى الأحوص ، والخطيب أبو الحسن بن فضيلة ، والأستاذ أبو الحسن ابن الصّايغ الإشبيلى ، وأبو جعفر الطّباع ، وغيرهم .

تواليفه

ألّف كتابا سماه « بالمنهاج فى ترتيب مسائل الفقيه المُشاور أبى عبد الله ابن الحاج » .

مولده

ولد بغرناطة فى حدود ستين وستّماية .

« وفاته » : توفى بغرناطة يوم عاشوراء من عام أحد وثلاثين وسبعماية .

عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن أبى زَمَنِين المرِّى

يكنى أبا خالد .

حاله

كان فقيها جليلا ، ووُلِّى القضاء ببعض جهات غرناطة .

---

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (المصف) .

(٤) وردت هذه الترجمة فى لوحة 224 من مخطوط الإسكوريال . ولم ترد فى الزيتونة .

مشـــيخته

أخذ الفقه عن أبي جعفر بن هلال ، وأبي محمد بن سِماك القاضى . والعربية عن الخَضْر بن رضوان العَبْدرى . والحديث عن الحافظ أبي بكر ابن غالب ين عبد الرحمن بن عطية ، والإمام أبي الحسن على بن أحمد ، والقاضى أبي الفضل عِياض بن موسى بن عِياض أيام قضائه بغرناطة .

مولـــده

ولد سنة سبع وتسعين وأربعماية .

« وفاته » : توفى فى ذى قعدة سنة أربع وأربعين وخمس ماية .

عبد الله بن يحيى بن محمد[1] بن أحمد بن زكريا بن عيسى بن محمد بن يحيى بن زكريا الأنصارى

يكنى أبا محمد ، من أهل غرناطة ، شَرْقى الأصل ، مُرْسِيه ، من بُيوتاته النَّبيهة ، وقد مرَّ ذكر أخيه .

حـــاله

كان على طريقة حسنة من دماثة الأخلاق ، وسلامة السَّجِيَّة ، والتزام الحِشْمة ، والاشتغال بما يَعْنى . وُلِّى القضاء دون العشرين سنة ، وتصرف فيه عُمْرُه بالجهات الأندلسية ، فأظهر فيه عدلا ونزاهة ، ولم يختلف عليه اثنان مدة حياته ، من أهل المعرفة بالأحكام ، والتَّقدُّم فى عَقْد الشُّروط ، وصناعة الفَرايض ، عِلْماً وعملا ، ثاقب الذهن ، نافذاً فى صنعة العَدَد .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (عمر) .

مشـيختـه

قرأ على أبيه القاضى أبى بكر بن زكريا ، وله رواية عالية عن أعلام من أهل المشرق والمغرب . وقرأ على أبى الحسن بن فضِيلة الولىِّ الصالح ، والقاضى أبى عبد الله بن هشام الألْشِى ، والأُستاذ أبى جعفر بن الزبير ، والحاج أبى محمد[1] بن جابر ، وأبى بكر القَلَلَوْسى . وقرأ العَدَد وما أشبهه على الأُستاذ التَّعاليمى أبى عبد الله الرقَّام ، ولازمه ، [وأجازه][2] طايفة كبيرة . أخبرنى ولده الفاضل أبو بكر ، قال : وَرَد سؤالٌ من تونس مع تاجر وصل فى مَرْكِب إلى مدينة المُنَكَّب أيام قضائه بها ، فى رَجُل فَرَّط فى إخراج زَكاة مالِه سنين مُتَعَدِّدة ، سُمِّيت فى السؤال مع نِسْبَة قدر المال ، وطُلب فى السؤال ، أن يكون عَمَلَها بالأربعة الأعداد المُتَنَاسبة ، إذ عُمَلُها بذلك ، أصعبُ من عملها بالجَبْر والمُقابلة ، فعَمِلها وأخرجها بالعَمَلَين ، وعبَّر عنها بعبارة حسنة ، وكتبها فى بطاقة بخطٍّ جميل ، فذكر التاجر أنه لم يبق بتونس فقيه ، إلا ونسخ منها نُسخة ، واستحسنها .

مـــولده

ولد يوم الخميس السابع عشر لجمادى الآخرة عام خمسة وسبعين وستماية .

« وفاته » : توفى قاضيا بِبَسْطة فى التاسع عشر من رمضان عام خمسة وأربعين وسبعماية .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (العلوى) .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال .

عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الملك بن أبى جمرة الأزدى

من أهل مُرْسِيه ، نَزيل غرناطة ، يُكْنى أبا محمد ، وبيته بمُرْسِية من أعلام بيوتاتها ، شهير التَّعَيُّن والأَصالة ، ينكح[1] فيه الأُمراء .

حـــاله

كان من أعلام وقته فضلا وعدالة وصلاحا ووقارا ، طاهر النشأة ، عفَّ الطُّعمة ، كثير الحياء ، مليح التَّخَلُّق . نشأ بمرسيه ، ثم انتقل إلى غرناطة فتولَّى القضاء ببيرة وجهاتها ، ثم جاز إلى سَبْتَة ، وانعقدت بينه وبين رؤسايها المُصاهرة فى بعض بَناته . ثم آب إلى غرناطة عند رجوع إيالة سبتة إلى أميرها ، فتقدَّم خطيبا بها .

مشيخته

روى بالإجازة عن الخطيب الحافظ أبى الرَّبيع بن سالم وأمثاله .

وفـــاته

الغريبة المُسْتَحسنة . قال بعض شيوخنا ، كنت أَسْمعَه عند سجوده ، وتَبَتُّله وضَراعته إلى الله . يقول اللهم أَمِتنِى مَيْتةً حَسَنة ، ويكرِّر ذلك . فأَجاب الله دعاءه ، وتوفاه على أَتم وجوه التَّأْنيب طهارةً وخشوعاً وخضوعاً وتأَهُّباً ، وزمانا ومكاناً ، عندما صعد أَوّل دَرَجٍ من أَدراج المِنْبر ، يوم الجمعة الثالث والعشرين لشوال من عام أَحد عشر وسبع ماية ، فكان يوما مشهودا لا عهد بمثله ، مارُئى أكثر باكياً منه ، وأَكثر الناس من الثناء عليه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة ، ومعناها هنا (يتزوج من بناته الأمراء).

عبد الله بن سليمن بن داود بن عبد الرحمن بن سليمن بن عمر بن حَوْط الله الأنصاري الحارثي الأزدي

يكنى أبا محمد .

حـــاله

من « الصِّلة » : قال ، القاضي المحدِّث الجليل العالم ، كان فقيهاً جليلاً أصوليا ، نحوياً ، كاتباً ، أديباً ، شاعراً ، مُتَفَنِّناً فى العلوم ، ورعاً ، ديِّناً ، حافظاً ، ثَبْتاً ، فاضلا . وكان يُدرِّس كتاب سيبويه ، ومُسْتَصْفى أبي حامد ، ويميل إلى الاجتهاد فى نظره ، ويُغَلِّب طريقة الظَّاهرية[1] ، مشهورا بالعقل والفضل ، معظَّماً عند الملوك ، معلوم القدر لديهم ، يخطب فى مجالس الأُمراءِ والمحافل الجمهورية ، مُقَدَّما فى ذلك ، بلاغةً وفصاحة إلى أبعد مِضمار . وللملوك الموحِّدين به اعتناء كبير . وهو كان أُستاذ الناصر[2] وإخوته ، وكان له عند المنصور والدهم ، بذلك أكْرَم أثَرة ، مع ما كان مشهورا به من العلم والدِّين والفضل . وُلِّى القضاء بإشْبِيلية وقُرْطبة ومُرْسية وسَبْتَة وسَلا ومَيُورقة ، فتظاهر بالعدل ، وعُرف بما أبْطن من الدين والفضل ، وكان من العلماء العاملين ، سُنِّيا ، مُجانبا لأهل البِدع والأَهواء ، بارع الخَطِّ ، حسن التَّقييد .

مشـــيخته

تردَّد فى طلب العلم ، فسمع ببلنسية وشاطِبة ومرسية وألمرية وقرطبة

(١) طريقة الظاهرية أى المذهب الظاهرى ، وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٢٠٩ حاشية) .

(٢) الناصر هو الخليفة الموحدى محمد الناصر لدين الله ولد الخليفة يعقوب المنصور ، وقد حكم من سنة ٥٩٥ — ٦١٠ هـ (١١٩٩ — ١٢١٣ م) ، وهو المهزوم فى موقعة العقاب الشهيرة بالأندلس فى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) .

وإشبيلية ومالَقة ، وغيرها من البلاد الأندلسية ، وتحصّل له سماعٌ جمٌّ لم يشاركه فيه أحد من أهل المغرب . قرأ القرآن على أبيه ، وعلى أبى محمد عبد الصمد الغسّانى ، وأخذ عن ابن حُميد كتاب سيبويه تفقّهاً . وعن غيره ، وسمع عن ابن بَشْكُوال ، وقرأ أكثر من ستّين تأليفاً بين كبار وصغار ، وكَمَل له على أبى محمد بن عبد الله ، بين قراءة وسماع نحوٌ من ستة وثلاثين تأليفاً ، منها الصّحيحان . وأكثر عن ابن حُبيش ، والسُّهيلى ، وابن الفخّار وغيرهم . واستيفاءُ مشيخته يَشُق .

شعره

قال الأُستاذ ، أنشدنيه ابنه أبو القاسم ، ونقلت من خطه :

أتدرى أنّك الخطّاءُ حقاً وأنّك بالذى تَدْرِى رَهين
وتَعْتِب[1] الأُلى فعلوا وقالوا وذاك الظّن والإفكُ المُبين

مولده

فى محرم سنة ثمان وأربعين وخمسماية .

« وفاته »: كان آخر عمره قد أُعِيد إلى مُرْسية ، قَصَدها من الحضْرة ، فمات بغرناطة سَحَر يوم الخميس الثانى لربيع الأول اثنتى عشرة وستماية ، ونُقل منها فى تابوته الذى أُلْحِد فيه ، يوم السبت التاسع عشر لشعبان من السنة إلى مالَقة ، فدفن بها .

عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعرى

من أهل قرطبة . يكنى أبا القاسم ويعرف بابن ربيع .

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (وتغتابوا) .

حـــاله

كان رحمه الله أديبا، كاتبا شاعرا، نحويا . فقيها أصوليًّا ، مُشاركا فى علوم ، مُحبًّا فى القراءة ، وطيًّا[١] عند المناظرة ، مُتَناصفا ، سنيا ، أَشْعَرِى المذهب والنَّسب ، مُصَمِّماً على طريقة الأَشْعَرِيَّة ، مُلْتَزِماً لمذهب أهل السُّنَّة المالكى ، من بَقايا الناس وعِلْيَتِهم ، ومن آخر طَلَبة الأَندلس المشاركين الجِلَّة، المُصَمِّمين على مذهب أهل السُّنة . المُنافرين للمذاهب الفلسفية ، والمُبْتَدِعة ، والزَّيغ . وُلِّى قضاء مواضع من الأَندلس . منها مدينة شَرِيش ورُنْدة ومالَقة ، وأَمَّ وخَطَبَ بجامعها . ثم وُلِّى قضاء الجماعة[٢] بحضرة غرناطة ، وعَقَد بها مجلسا للإِقراء . فانْتَفع به طلبَتُها . واستمر على ذلك ، وكانت ولايته غرناطة نحواً من سبعة أعوام .

مشـيخته

أخذ عن أبيه أبي عامر وتفقه به ؛ وعن الخطيب أبي جعفر بن يحيى الحِمْيرى ، وتلا عليه ، وتأَدَّب به . وعن الأُستاذ أبي الحسن بن خروف ، وروى مع هؤلاء عن القاضى أبي القاسم بن بَقِى .وأبي محمد بن حَوْطِ الله، وأبي عبد الله بن أَصْبَغ وغيرهم ؛ وأَجاز له الشيخ المُسِنّ أبو الحسن على ابن أحمد بن على الغافقى الشَّقُورى ، وله به عُلُوٌّ . وبالأُستاذ الخطيب المُسن أبي جعفر بن يحيى المتقدم .

وفـــاته

توفى فى السابع عشر لشوال سنة ست وستين وستماية . ولم يَخْلِف بعْده مثله ، ولا مَنْ يُقاربه .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مرضيا) .

(٢) منصب قاضى الجماعة فى النظام القضائى الأندلسى هو منصب قاضى القضاة ، أو رياسة القضاء العليا .

عبد الله بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين الثقفى العاصمى

من ولد عاصم بن مُسْلم الداخل فى طلعة بَلْج الملقَّب بالعِريان ، أخو الأُستاذ أَبى جعفر بن الزبير ، شقيقه ، يكنى أَبا محمد .

حـــاله

كان طبيباً ماهراً ، كاتباً شاعراً ، ذاكراً للُّغة ، صَنِع[١] اليدين ، متقدِّما فى أقرانه نباهة وفصاحة[٢] ، معدوم النظير فى الشجاعة والإقدام ، يحضر الغزوات : فارساً وراجلا ، ولقى بفَحْص غرناطة[٣] ليلا ، نَصْرانياً يتجسَّس ، فأَسَرَه وجرَّه ، وأَدخله البلد : ولم يلتفت إلى ثمَنِه ، استِكْتاما لتالك الفِعلة .

مشيخته

أَخذ القرآن عن الأُستاذ أَبى عبد الله بن مَسْتَقور[٤] ، وروى عن أَبى يحيى بن عبد الرحيم ، وأَبى الوليد العطار ، وأَبى القاسم بن ربيع [وأَبى الخطار بن خليل ، وأَخذ عن أَبى عُمر بن حَوْطِ الله بمالقة ، وابن أَبى ريحانه . وبِبَسْتَة على أَبى بكر بن][٥] مشليون . وأَجاز له أَبو بكر بن مُحرز ، وأَبو الحسن الشّارى . وأَخذ عن الأُستاذ الناقد أَبى الحسن على بن محمد الكِنانى .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (كأصابع) والأولى أرجح . وصنع اليدين أى ماهر فى الأعمال اليدوية .

(٢) وردت فى الإسكوريال (فصا) فقط . وهى ساقطة فى الزيتونة .

(٣) فحص غرناطة أو مرج غرناطة La vega de Granada ، هو البسيط الأخضر الذى يقع جنوب شرق غرناطة . وقد سبق التعريف به (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ٩٩ حاشية) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (مسمفور). وفى الزيتونة (مسفور)وهو تحريف .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى الزيتونة ، وساقط فى الإسكوريال .

مولده

وُلد بغرناطة لسبع عشرة ليلة خلت من ذى قعدة سنة ثلاث وأربعين وستماية .

وفاته : توفى بها سحر أول يوم من ذى قعدة سنة ثلاث وثمانين وستماية .

عبد الله بن موسى بن عبد الرحمن بن حمّاد الصَّنْهاجى

يكنى أبا يحيى .

حاله

طالبٌ نبيل فاضل ، ورع زاهد ، مُؤْثِر فى الدنيا بما تملّكه ، تالٍ لكتاب الله فى جميع الأوقات .

أخباره [فى الإيثار] [1]

وجّه له السيد [أبو اسحاق][2] ابن الخليفة أبى يعقوب خمسماية دُنَير[3] ليُصْلح بها من شأنه . فصرَفَ جميعها على أهل السِّتر فى أقل من شهر . ومرّ بفتًى فى إشبيلية ، وأعوان القاضى يحملونه إلى السِّجن ، وهو يبكى فسأله ، فقال : أنا غريبٌ ، وطُولِبت بخمسين دُنَيْرا . وبيدى عقود ، وطولبت بضامن فلم أجده ، فقال ، له الله ، قال نعم ، قال ، فدفع له خمسين دُنيرا ، قال أشْهَد لك بها ، فضَجِر وقال إن الله إذا أعطى عبده شيئا لم يُشْهد به عليه ، وتركه وانصرف لشأنه ، وكانت عنده معرفة وأدب .

« مولده » بغرناطة فى سنة إحدى وعشرين وخمسماية[4] .

---

(١) هذه العبارة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال . (٢) الزيادة من الزيتونة .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (دينار) .

(٤) وردت هذه الترجمة فى هامش لوحة 226 من مخطوط الإسكوريال . والظاهر أن الناسخ كان قد نسيها فأثبتها فى هذا الموضع .

ومن ترجمة الكتاب والشعراء بين أصلى وطارىء

عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدى

من أهل بَلِّش يكنى أبا محمد . ويعرف بابن المُرابع[(١)]

حــــاله

من نُبهاءِ أُدباءِ البادية ، خَشِن الظاهر ، مُنْطَوٍ على لَوْذَعيَّة ، مُتوارية فى مظهر جَفْوة ، كثير الانطِباع عند الخُبْرة ، قادر على النظم والنثر ، متوسِّط الطَّبقة فيهما ، مُسْتَرْفِدٌ بالشعر ، سيَّال القريحة ، مَرْهُوب الهِجاءِ ، مشهور المكان ببلده ، يعيش من الخِدم[(٢)] المخْزَنيَّة ، بين خارِص[(٣)] وشاهد وجدٍّ بذلك وقته ، يوسِّط[(٤)] رَقاعَته ، فتنجح الوسيلة ، [ويتمشَّى له بين الرِّضا والسُّخط الغرض][(٥)] .

وجرى ذكره فى « التاج » بما نصه : « طويل القَوادم والخَوافى ، كَلِفٌ على كبر سنه بعَقايل القوافى ، شابَ فى الأَدب وشبَّ ، ونَشِق ريح البيان لمَّا هبَّ ، فحاول[(٦)] رفيعَه ، وجَزْله . وأَجاد جَدَّه وأَحْكم هَزْله . فإن مَدَح صَدَح ، وإن وصَف أَنْصَف ،وإن عَصَف قَصَف . وإن أَنشأَ ودوَّن ، وتَقَلَّب فى أَفانين البلاغة وتلوَّن ، أَفسد ما شاءَ الله وكَوَّن . فهو شيخُ الطريقة الأَدبيَّة وفَتاها ، وخطيب حَفْلها[(٧)] كلما أَتاها . لا يتوقَّف عليه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (ابن الربيع) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الخدمة) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (خارج) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (يوسع) .
(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (ويتمشى له بين السخط والرضى)
(٦) وردت فى الإسكوريال (فحاور) . والتصويب من النفح .
(٧) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح ، وفى الزيتونة (حلفه) وهو تحريف

من أغراضها غرض ، ولا يَضيع لديه منها مُفترض . ولم تزل برُوقُه تتألَّق ، ومعانيه بأذيال الإحسان تتعلَّق . حتى بَرَزَ فى أبْطال الكلام وفرْسانه ، وذَعِرت القلوب لسَطْوة لسانه ، وألْقت إليه الصِّناعة زِمامها ، ووَقَفَت عليه أحكامها . وعبَرَ البحر ، مُنْتَجِعاً بسَعْره ، ومُنْفِقاً فى سوق الكَساد من شِعْرِه ، فأبْرَق وأرْعَد ، وحذَّر وتوعَّد (١) ، وبلغ جَهْد إمكانه ، فى التَّعريف بمكانه ، فما حرَّك ولا هزَّ ، وذَلَّ فى طلب الرِّفد وقد عزَّ ، وما بَرِح أن رجع إلى وطنه الذى اعتاده ، رجوع الحديث إلى قَتاده .

شعره

قال فى « التاج » ، وقد أثْبَتَ من نَزَعاته ، وبعض مُخْترعاته ، ما يدل على سِعة باعه ، ونهضة ذِراعه . فمن النسيب قوله :

ما للمُحبِّ دواء يُذهِب الألما ... عنه سوى لِمم فيه ارتشاف لِما
ولا يَردُّ عليه نَوْمَ مُقْلته ... إلاَّ الدُّنوُّ إلى من شفَّه سَقَما
ياحاكماً والهوى فينا يُؤَيِّدُه ... هواك فىَّ بما تَرْضاه قد حَكَما
أشْغَلْتَنى بك شُغْلاً شاغلا ... فلما تناسى فديتك عنى بعد ذاك لما
ملكتَ روحى فأرْفِق قد عَلمت بما ... يلقى ولا حجَّة تبقى لمن عَلِما
ما غِبْتَ عنى إلا غاب عن بَصَرى ... بدراً إذا لاح يُجلى نورُه الظُّلَما
ما لُحْتَ لى فدَنا طَرْفى لغيرك ياموليً ... لحا فيه جَفْنى النوم قد حُرِما
طَوْعاً لطيْعك لا أعْصيك فافضِ بما ... ترضاه أرْضَى بما ترضى ولاجَرَما
إنَّ الهوى يقتضى ذلاًّ لغيرك لو ... أفادنى فيك قرْباً يُبرِّد الألما
سَلِمْتَ من كل عَيْب يا محمد لا ... كن قَلْب صبِّك من عَيْنيك ما سَلما

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (وأوعد) .

ومن مخاطباته الأدبية . ما كتب به إلى شيخ الصُّوفية ببلده مع طالعٍ من ولده :

مُماليكم قد زاد فيكم مُرابــعْ   من الأُفق الكَوْنى باليُمن طالع
بأنواركم يهدى إلى سُبُل الهدى   ويَسْمو لما تَسْمو إليه المَطالع
فواسوه منكم بالدُّعــاء فإنــه   مُجاب بفضل الله للخَلْق نافع
أفاض عليه الله من بَرَكاتكم   وأبقاكم ذو العرش ماجنَّ ساجع (١)

فوقَّع له الشيخ المخاطب بها : أبو جعفر بن الزيات رحمه الله ، بما نصه :

عسى الله يؤْتيه من العِلم حِصَّة   تُصَوَّب على الأَلباب منها يَنابع
ويجعله طَرْفاً لكل سـجيَّة   مُطهَّرة للناس فيها منـافع
ويُلْحِقه فى الصالحات بجدِّه   فيثنى عليه الكلُّ دانٍ وشـاسع
وذو العرش جلَّ إسما عميمٌ نواله   وخير الورى فى نصِّ ما قلت شافع
فما أنت دونى يا أباه مُهنأً بـه   فالسرور الكلُّ بابنك جـامع

وله يستدعى إلى الباكور :

بَدار بَدار قد آن البِــدار   إلى أكواس باكورٍ تُــدار
تبدَّت رافلاتٍ فى مُســوحٍ   له لون الدَّياجى مُستعــار
وقد رَقَمت بياضاً فى ســواد   كأَنَّ الليل خالَطه النَّهــار
وقد نَضِجت وما طُبخت بنار   وهل يُحتاج للبـاكور نـار
ولا تحتاج مَضْغاً لا وليس (٢)   عجيبٌ لا يُشَقُّ له غبــار
فقُل للخلق قُل للضِّرس دَعْنى   ففى البَلْع اكتفاءٌ واقتصار

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (شافع) .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة وفى الإسكوريال (لا لسر) .

ومما وقع له أثناء مقامات تشهد باقتداره ، مقطوعة سهلة وهى :

رَعىَ الله عهداً حوى ما حوى ... لأهل الوِداد وأهل الهوى
أراهم أموراً حَلا وِرْدُهـا ... وأعطاهم السؤل [كيف نَوا][1]
ولما حَلا الوصل صالوا له ... ورامُوه ملْوًا ومـا رَوا
وأوردهم سرًّا سِرارهم ... ورُودًا إلى الكل ذا دوا
وما أملٌ طال إلا وهـا ... ولا أملٌ صال إلا هَـوا

وقال يَرْثى ديكاً فقده ، ويصف الوجد الذى وَجَده ، ويبكى من عدم أذانه ، إلى غير ذلك من مُستَطْرف شأنه :

أوودى به الحَتْف لما جاءه الأَجل ... ديكاً فلا عِوض منه ولا بدل
قد كان لى أملٌ فى أن يعيش فلم ... يَثْبُت مع الحتْف فى بُغْيالها أمل
فقدته فلعَمْرى إنها عِظَة ... وبالمواعظ تَذرى دمعها المُقل
كأنّ مِطْرَفَ وَشْى فوق ملبسه ... عليه من كل حُسن باهر حُلل
كأن إكليل كِسْرى فوق مَفْرِقه ... وتاجَه فهو عالى الشَّكل مُحْتَفل
مؤقتٌ لم يكن بطريق له خطأٌ ... فيما يُرتِّب من وِرْد ولا خَطل
كأنَّ زرْقيل فيما مرَّ عِلمه ... عِلم المواقيت فيما رتَّب الأُول
يَرْحل الليل يُحيِى بالصِّراخ فما ... يصدُّه كَلَلٌ عنه ولا مَلَل
رأيتُه قد وَهنَت منه القُوى فهوى للأرض فعلا يُريه الشَّارب الثَّمل
لويُفْتدى بديوك الأرض قلَّ له ... ذاك الفِدا ولكن فاجأ الأَجل
قالوا الدَّواء فلم يُغْن الدَّوا ولم ... ينفعه من ذاك ماقالوا وما فعلوا

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة ووردت محرفة فى الإسكوريال (كلا بهوما) .

أَمَلْتُ فيه ثواباً أجر مُحْتَسِب   إن قلتُ ذاك صحَّ القول والعمل

وأمره السلطان أبو عبد الله سادس الملوك النَّصريين فى بعض أسفاره ، وقد نظر إلى شلَّير (١) . وتردَّى بالثلج وتعمَّم . وكَمَل ما أراد من بِزَّته (٢) وتمَّم ، أن ينظم أبياتاً فى وصفه ، فقال بديهة :

وشيخٌ جليل القدر قد طال عمره   وما عنده عِلم بطول ولا قِصر

عليه لباسٌ أبيضٌ باهر السَّنا   وليس بثوبٍ أحْكَمته يدُ البشر

وطوراً تراه كُلَّه كاسِياً به   وكُسْوته فيها لأهل النُّهى عِبر

وطوراً تراه عارياً ليس يشتكى   لحرٍّ ولا برد من الشمس والقمر

وكم مرَّت الأيام وهو كما ترى   على حاله لم يَشْكُ ضعفاً ولا كِبَر

فذاك شُلَيِّر شيخ غرناطة التى   لبهجتها فى الأرض ذكرٌ قد انتشر

بها ملكٌ [سامى المراقى أطاعه] (٣)   كبار ملوك الأرض فى حالة الصغر

تولاه ربُّ العرش منه بعِصْمةٍ   تَقِيه مدى الأيام من كلِّ ما ضَرر

نثره

ونثره كثير ما بين مخاطبات وخُطب [ومُقْطعات] (٤) ولعب ، وزَرَديَّات شأنها عجب . فمن ذلك ما خاطب به الرئيس أبا سعيد بن نصر يستجدى أضحية :

يقول شاكر الأيادى . وذاكر فخر كل نادى . وناشر غرر العز للعاكف والبادى ،والرايح والغادى . إسمعوا منى حديثاً تلذه الأسماع ،

---

(١) شلير هو الجبل الشهير المشرف على غرناطة ، ويسمى كذلك جبل الثلج ، وبالإسبانية Sierra Nevada . وقد سبق التعريف به (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ٩٦ حاشية)

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (حزنه) ومعناها الاسم المذن أو السحاب الماطر . والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (سامى المراتب طاعة) .

(٤) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الإسكوريال .

ويَسْتَطرفه الاستماع . ويشهد بحسنه الإجماع . ويجب عليه الاجتماع . وهو من الأَحاديث التي لم تتفق إلا لمثلي ولا ذكرت عن أحد قبْلي . وذلك يا معشر الأَلِبَّا ، والخُلَصاءِ الأَحِبَّا . أَني دخلتُ في هذه الأَيام داري . في بعض أَدْواري ، لأَقضي من أَخذ الغِذاءِ أَوْطاري . على حسب أطواري . فقالت لي ربَّة البيت ، لِم جئت . وبما أَتَيْت . قلت جيتُ لكذا وكذا فهات الغَذَا ، فقالت لا غَذا لك عندي اليوم . ولو أَوْدَى بك الصَّوم . حتى تَسَل الاستِخارة ، وتفعل كما فعل زوجُ الجارة ، طيَّب الله نِجارَه . وملأَ بالأَرزاق وِجارَه . قلت وما فعل قَرِيني . وأَرني من العَلامة ما أَحببتِ [أَن] تريني . قالت إنه فكَّر في العيد . ونظر في أَسباب التَّعييد . وفعل في ذلك ما يستحسنه القريب والبعيد . وأَنت قد نسيتَ ذكرَه ؛ ومَحَوْته من بالك، ولم تنظر إليه نَظْرة بعين اهتِبالك . وعيد الأَضحى في اليد . والنَّظر في شراءِ الأُضْحية اليوم أَوفق من الغَد . قلت صدقْتِ ، وبالحقِّ نطقتِ ، بارك الله فيك ، وشكر جميل تحفِّيك . فلقد نَبَّهتِ بَعْلِك لإقامة السُّنة ، ورفعت عنه من الغَفْلة مِنّة . والآن أَسير لأَبحث عما ذكرت . وأَنظر في إحضار ما إليه أَشرتِ . ويتَأَتَّى ذلك إن شاءَ الله بسَعْدك . وتنالين فيه من بلوغ الأَمرغاية قصدك . والجدُّ ليس من الهزل ، والأُضْحية للمرأة وللرجل الغَزِل . قالت دَعْني من الخرافات . وأَخبار الزَّرافات . فإنَّك حُلو اللسان ، قليل الإحسان . تَخِذْت الغُربة صُحبتك إلى ساسان . فتهاونت بالنِّسا ، وأَسَأْت فيمن أَسا . وعُوِّدت أَكل خبْزك في غير مَنديل . وإيقاد الفَتيل دون قَنْديل ، وسُكْنى الخان . وعدم ارتفاع الدُّخان . فما تقيم مَوْسِما ، ولا تعرف له مَيْسِما . وأَخَذت معي في ذلك بطويل وعريض . وكلانا في طَرَفي نَقيض . إلى أَن قلت لها إزارُك وردائي ، فقد تَفاقم بكِ أَمرُ دائي ،

وما أظنُّك إلاَّ بَعْض[1] أعدائى . قالت مالك والإزار ، شطَّ بك المَزار ، لعلك تريد إرْهانه فى الأُضْحِية والأبزار، أَخرج عنى يا مَقيت ، لا عَمِرتُ معك ولا بقيت ؛ أوَعَدِمت الدِّين ، وأخذ الورق بالعين . يلزمنى صوم سَنة ، لا أغْمَيتُ معك سِنة ، إلا إن رَجَعت بمثل ما رجع به زوج جارتى ، وأرى لك الرِّبح فى تجارتى . فقمت عنها وقد لَوَتْ رأسها ووَلوَلت[2] ، وابْتَدَرت وهَرْولت ، وجالت فى العِتاب وصَوَّلت ، وضمَّت بِنْتَها وولدها ، وقامت باللَّجج ، والانتصار بالحُجَج أَوُدَها ، فلم يسعنى إلا أن عدوت أطوف السِّكك والشوارع ؛ وأُبادر لما غدوتُ بسبيله وأُسارع ، وأَجُوب الآفاق ، وأَسِل الرِّفاق ، وأَخترق الأَسواق ، وأَقتحم زَريبة بعد زريبة ، وأَخْتَبِر منها البعيدة والقريبة ، فما اسْتَرْخَصْته اسْتَنْقَصْته ، وما استَغْليته استعليته ، وما وافق غرضى ، اعْتَرَضَنى دُونه عَدَمُ عَرْضى ، حتى انقضى ثُلثا يومى ، وقد عَيِيت بدَوَرانى وهَوَمى ، وأنا لم أتحصل من الابتِياع على فايدة ، ولا عادت علىَّ فيه من قضاءِ الأَرب عايِدة ؛ فأَوْمأْت الإياب ، وأنا أَجد من خَوْفها ؛ ما يجد صغار الغَنَم من الذِّئاب ، إلى أن مررت بقصَّاب [يقصب][3] فى مَجْزَره ، قد شدَّ فى وسطه مِئزره ، وقَصَّر[4] أثوابه حتى كشف عن ساقيه ، وشمَّر عن ساعديه حتى أَبدى مِرْفَقيه ، وبين يديه عَنْزٌ قد شدَّ يديه فى رقَبَته[5] ، وهو يجذبه فيَبْرُك ، ويجرُّه فما يتحرَّك ، ويروم سَيْره فيرجع القهقرى ، ويعود إلى وَرا ، والقصاب يشدُّ على إزاره ، خِيفَةً

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (من جملة) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (وولت) .
(٣) هذه الزيادة من الزيتونة .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (وربط) .
(٥) وردت فى الإسكوريال (رو قيه) . والتصحيح من الزيتونة .

من فِراره ، وهو يقول : اقتُله من جانٍ باغٍ ، وشيطان طاغٍ . ما أشدَّه وما ألذَّه ، وما أصدَّه ، وما أجدَّه ، وما أكثره بشَحْم . وما أطيَبه بلحم . الطَّلاق يلزمه ، إن كان عاين تَيْساً مثله أو أضْحِية تشبهه قبله ، أضْحية حَفِيلة ، ومِنحة جليلة . هنَّأ الله من رُزِقها ، وأخْلف عليه رِزْقها . فاقتحمت المُزْدَحم ، أنظر مع من نظر ، وأختبر فيمن اختبر . وأنا والله لا أعرف فى التقليب والتَّخمين . ولا أفرِّق بين العجف والسَّمين ، غير أنى رأيت صورة دون البَغْل وفوق الحمار ، وهيكلا يُخبرك عن صورة العُمَّار ، فقلت للقصَّاب كم طَلبك فيه ، على أن تُمهل الثَّمن حتى أوفِيه ، فقال ابغِنى فيه أجيرا ، وكن له الآن من الذَّبح مُجيرا ، وخُذْه بما يُرضى ، لأول التقضِّى . قلت استَمع الصوت ، ولا تَخَف الفَوْت . قال ابْتَعْه منى نَسِيَّة وخُذه هديَّة ، قلت نعم ، فشقَّ لى[(1)] الضمير . وعاكسنى فيه بالنَّقير والقَطْمير . قال تضمن لى فيه عشرين دينارا[(2)] أقبضها منك لانقضاء الحول دُنيِّرا دُنَيِّرا[(3)] . قلت إنَّ هذا لكثير ، فاسمح منه بإحاطة اليسير . قال والذى فَلَقَ الحبَّة ، وبرأ النَّسمة ، لا أنقصك من هذا . وما قلت لك سِمْسِمة ، اللهم إن شئت السَّعة فى الأجل . فأقضى لك ذلك دون أجل ، فجلبنى للابْتِياع منه ، الإنساءُ فى الأمَد[(4)] . وغلبنى بذلك فلم أفْتَقر منه لرأى والد ولا وَلَد ، ولا أحوجت نفسى فى ذلك لمشْورة أحد ، وقلت قد اشتريته منك ، فضَع البركة ، ليصحَّ النُّجح فى الحركة . فقال فقيهٌ ، بارك الله فيه ، قد بعتُه لك . فاقبِض متاعك . وثَبِّت ابتياعك . وها هو فى

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فشقنى) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (كبارا) والتصويب من الزيتونة .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (دينارا دينارا)

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الأجل) والمؤدى واحد

قَبْضِك ، فاشْدُدْ وثاقه ، وهلمَّ لنعقد عليك الوَثاقة . فانْحَدَرت معه لدكان التَّوثيق،وابتدرت من السَّعة إلى الضِّيق ، وأوْثَقَنى بالشادّة تحت عَقْد وثيق ، وحَمّلَنى من ركوب الدَّين ولحاق الشَّين فى أوْعر طريق . ثم قال لى هذا تَيْسُك فشأْنك وإياه ، وما أَظنك إلا تَغْصِياه[1] ، وأْتِ بحمَّالين أربعة ، فإنك لا تقدر أن تَرْفَعه ، ولا يتأتى لك أن يُتْبعك ولا أن تَتْبَعه ، ولم يبق لك من الكُلْفَة إلا أن يَحْصُل فى محلِّك ، فيكْمُل سرورُ أهْلك . وانطلقت للحمَّال ، وقلت هلم إلىَّ ، وقم الآن بين يدىَّ ، حتى انتهينا إلى مَجْزَرة القصَّاب ، والعَنْزُ يُطلب فلا يُصاب ، فقلت أين التَّيس يا أبا أُوَيْس . قال إنه قد فرَّ ، ولا أعلم حيث استَقَرَّ . قلت أَتُضِيع علىَّ مالى ، لتَخيب آمالى ، والله لا يُحْزنك بالعَصا كمن عَصا ، ولا رَفَعْتُك إلى الحُكّام ، تُجْرى عليك منهم الأحكام . قال مالى علم به ، ولا بمنْقَلَبه ، لعلّه فرَّ لأُمّه وأبيه ، وصاحِبَته وبَنِيه ، فعليك بالبَرِيح . فاتجهت أُنادى بالأسوَاق ، وجيران الزُّقاق ، من ثَقِف لى تَيْساً فله البِشارة ، بعد ما أتى بالأمارة ، وإذا بِرَجُلٍ قد خرج من دَهْليز ، وله هَدِير وهَزِيز ، وهو يقول من صاحبُ العَنْزِ المشُوم ، لا عَدِم به الشُّوم ، إن وَقَعَتْ عليه عينى ، يرتفع الكلام بينه وبينى . قلت أنا صاحبه فما الذى دَهاك منّى أو بلغك عنّى . قال إن عَنْزَك حين شَرَد، خرج مثل الأسد ، وأوقع الرَّهَج[2] فى البَلد ، وأضرَّ بكل أحَد، ودخل فى دهليز الفخَّارة ، فقام فيه وقَعَد ، وكان العمل فيه مطْبُوخاً ونيا، فلم يترك منه شيا ، ومنه كانت مَعِيشتى ، وبه استقامت عِيشَتى ، وأنت ضامن مالى ، فارتَفِع معى إلى الوالى ، والعَنْزُ مع هذا يَدُور وسَط الجمهور ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (إلا أنك تنعاه) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الرهجة) .

ويكُرُّ كرَّة العِفْريت المزْجور ، ويأْتى بالكَسْر على ما بقى فى الدّهليز من الطَّواجِن والقُدور ، والخَلْق قد انحسَروا للضجيج ، وكثُر العِياط والعَجيج وأنت تعرف عَفْرطة الباعة ، وما يحوون من الوضاعة ، وأنا أحاول من أخَذَه ما أستطيع ، وأرُوم الإطاعة من غير مُطيع ، والباعَة قد أكْسَبتْه من الحماقة ، ما لم يكُنْ لى به طاقة . ورجل يقول المُحْتسب ، واعرف ما تكْتَسب ، وإلى من تَنْتَسب ، فقد كثر عنده بك التَّشكِّى ، وصاحب الدهليز قُبالته يبكى ، وقد وجَدَ [عنده][1] عليك وَجْد الشكوى ، وأيقن أنك كَسَرْت الدَّعوى ، وأمر بإحضارك ، وهو فى انتظارك ، فشدَّ وَسْطك ، واحفظ إبْطَك ، وإنك تقوم على من فتح باعه للحُكم على الباعة ، ونُصب لأرباب البراهين على أرباب الشَّواهين ، ورفع على طبقة ، ليملأ طبقة ، ثم أمسكنى باليمين ، حتى أوْصَلنى للأَمين ، فقال لى أرسلت التَّيس للفساد كأنك فى نِعم الله من الحُسَّاد . قلت إنه شَرَد ، ولم أدر حيث وَرَد ، قال ولم لا أخذت ميثاقه ، ولم تشدِّد وِثاقه ، يا شرطى طَرِّده ، واطرح يدك فيه وجرِّده . قلت أتجرِّدنى الساعة ، ولست من الباعة ، قال لابدَّ من ذاك أو تضمن ما أفسده هناك . قلت الضَّمان الضَّمان ، الأَمان الأَمان . قال قد أمِّنْت إنضَمِنْت ، وعليك الثِّقاف ، حتى يقع الإنصاف ، أو ضامنٌ كاف ، فابتدر أحد إخوانى ، وبعض جيرانى ، فأَدَّى عنى ما ظهر بالتَّقْدير ، وآلت الحال للتَّكْدير . ثم أردت الانصراف بالتَّيْس ، لا كان كَيانه ، ولا كوَّن مكانه ، وإذا بالشُّرطى قد دار حولى ، وقال لى كَلْف فِعلى بأَداءِ جَعْلى ، فقد عطَّلت من أجلك شُغْلى ، فلم يك عندى بما تُكسر سورته ، ولا بما تُطفى جَمْرته ، فاسْتَرْهن مِئزرى فى بيته ليأْخذ مايته[2] .وتوجَّهت لدارى ، وقد

(١) زائدة فى الزيتونة . (٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (هاتفه) .

تقدَّمت أخبارى . وقدمت بغُبارى . وتغَيَّر صِغارى وكِبارى . والتَّيْس على كاهل الحمّال، يَرْغو كالبعير . ويزأر كالأسد إذا فُصلت العِير . فلقت للحمال إنزله على مَهَل . فهلال[1] التَّعييد قد اسْتَهَلَّ ، فحين طَرحه فى الأُسْطوان . كرَّ إلى العُدْوان ، وصرخ كالشيطان . وهمَّ أن يقْفِز الحِيطان ، وعلا فوق الجدار ، وأقام الرَّهْجة فى الدار ، ولم تبق فى الزقاق عجوزٌ إلا وَصَلَت لتراه ، وتَسَل عما اعْتَراه ، وتقول بكم اشتراه ، والأولاد قد [دارت به][2] ، وأرهقهم لَهَفُه ، ودخل قلوبهم خَوْفه ، فابتدَرَتْ ربَّة البيت . وقالت كيت وكيت ، لا خَلٌّ ولا زَيت ، ولا حىٌّ ولا مَيْت ، ولا موسم ولا عِيد ، ولا قريب ولا بعيد . سُقْتَ العِفْريت إلى المنزل ، ورَجَعت بمَعْزِل ، ومن قال لك اشْتَرِه ، ما لم تَرَه ، ومن قال لك سُقْه حتى توثِّقه ، ومتى تَفْرح زوجتُك ، والعَنْزُ أُضْحِيَتك ، ومتى تُطبخ القُدور ولَدُك منه مَعْذور . وبأَىِّ قلب تأْكل الشَّويَّة ، ولم تَخْلُص لك فيه النيَّة واقِلَّة سَعْدِها ، وأَخْلُف وعدِها . والله لو كان العَنْز يُخرج الكَنْز ، ما عَمَر لى داراً . ولا قَرَّب لى جِواراً . أُخْرُج عنى يا لَكِع ، فَعل الله بك وصَنع ، وما حَبَسَك عن الكِباش السِّمان . والضَّأْن الرَّفيعة الأَثمان ، يا قليلَ التَّحصيل ، يا من لا يعرف الخِياطة ولا التَّفْصيل . أَدُلُّك على كَبْشٍ سَمين . واسع الصدر والجَبين . أَكْحَل عَجيب . أَقْرَن مثل كبش الخَطِيب . يَعْبَق من أَوْداكه كلُّ طِيب . يَغْلِب شَحْمه على لَحْمه . ويَسِيل الوَدَك من عَظْمه ، قد عُلِف بالشَّعير ، ودُبِّر عليه أَحسن تدبير . لا بالصَّغير ولا بالكبير ، تَصْلُح منه الأَلوان . ويُسْتَطرف شِواه فى كل أَوان . ويُسْتَحسن ثَريده

---

(١) وردت فى الإسكوريال (بهلا) والتصويب من البريتونة .

(٢) الزيادة من البريتونة

وقديده فى سائر الأحيان . قلت بَيِّنى لى قولك . لأتعَرَّف فِعْلك . وأين تُوجد هذه الصِّفة . يا قليلة المَعْرفة . قالت عند مولانا ، وكَهْفِنا ومأوانا الرييس الأعلى ، الشِّهاب الأَجْلَى ، القمر الزَّاهر . الملك الظَّاهر ، الذى أعزَّ المسلمين بنِعْمَته ، وأذلَّ المشركين بنِقْمَته . واسْترْسل فى المدح فأطال وفيها ثَبَت كِفاية .

وفاته

فى كاينة الطاعون ببلده بلِّش فى أواخر عام خمسين وسبعماية ودفن بها .

عبد الله بن إبراهيم بن وَزْمر الِحجارى[1] الصَّنهاجى

الأديب المصنف ، يكنى أبا محمد .

حاله وأوَّليته

أبوه أديب مدينة الفرج بوادى الحجارة[2] ، المصَنِّف للمأمون بن ذى النون[3] كتاب « مغنيطاس الأفكار فيما تحتوى عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار » ، وكان أبو محمد هذا ماهراً ، كاتباً ، شاعراً ، رحَّالا . سكن مدينة شِلْب[4] . بعد استيلاءِ العدو على بلاده « بالثَّغر » .

---

(١) نسبة إلى مدينة « وادى الحجارة » .

(٢) مدينة الفرج هو اسم يطلق على مدينة وادى الحجارة وبالإسبانية Guadaljara وهى مدينة أندلسية حصينة ، تقع على أحد أفرع نهر التاجه على مقربة من منابعه جنوبى الثغر الأعلى . وكانت أيام المسلمين من المواقع الأندلسية الأمامية ، ونشبت حولها خلال العصور المتوالية ، وقائع عديدة بين المسلمين والنصارى .

(٣) المأمون بن ذى النون ، هو من ملوك الطوائف ، وقد حكم طليطلة من سنة ٤٣٥ إلى سنة ٤٦٧ هـ وكان من أعظم ملوك بنى ذى النون ، وأعظم ملوك الطوائف .

(٤) شلب Silves هى مدينة صغيرة بولاية الغرب الأندلسى تقع جنوبى البرتغال ، وإليها ينتمى الشاعر الكبير ابن عمار ، وقد كانت أيام بنى عباد قاعدة منطقة الغرب القصوى ، وما زالت بها بعض أطلال قصر الشراجيت الشهير .

وله فى التَّحوُّل أشعار وأخبار . قَدم غرناطة ، وقصد عبد الملك بن سعيد صاحب القَلْعَة[١] من بُنَيَّاتها ؛ واستأْذن عليه فى زىٍّ موحِش ، واستَخَفَّ به القاعدون ببابه ، إلى أن لاطف بعضهم ، وسأَله أن يُعَرِّف به القايد ، فلما بُلِّغَ عنه ، أَمر بإدخاله . فأَنشده قصيدة مطلعها :

عليك أَحالنى الذِّكر الجميل   فجيتُ ومن ثَنايك لى دَليل
أَتيتُ ولم أُقَدَّم من رسـول   لأَن القلب كان هو الرَّسول

منها فى وصف زِيِّه البدوى المُسْتقل وما فى طيِّه :

ومَثِّلنى بدَنٌّ فيه خمـر   يخف بها ومَنْظَره ثَقِيل

فأَكرم نَزْله ، وأَحْسَن إليه ، وأَقام عنده سنة ، حتى أَلَّف بالقلعة كتاب « المُسْهب فى غرايب المَغْرب » ، وفيه التَّنْبيه على الحُلى البلادية والعبَّادية . وانصرف إلى قصد ابن هود برُوطة ، بعد أن عذَله عن التَّحوُّل عنه ، فقال النَّفس توَّاقة ، ومالى بالتَّغرُّب طاقة ، ثم أَفْكَر وقال :

يقولون لى ماذا الملال تقيم فى   محلٌ فعِند الأُنْس تذهب راحلا
فقلت لهم مثل الحَمام إذا شدا   على غُصْن أَمْسَى بآخر نازلا

نكبته

قال على بن موسى بن سعيد[٢] : ولما قصد الحِجارى رُوطة ، وحلَّ

(١) القلعة أو قلعة بنى سعيد أو قلعة يحصب ، وهى الآن Alcala la Real (القلعة الملكية) بلدة حصينة تقع شمالى غرناطة . وقد سبق التعريف بها (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ١١١ حاشية) .

(٢) على بن موسى بن سعيد الأندلسى المعروف بابن سعيد المغربى من سادة قلعة بنى سعيد التى سبقت الإشارة إليها ، وهوأديب ورحالة ، وسليل أسرة من الأدباء والمؤرخين ، وهو آخر من صنف من أسرته كتاب « المغرب فى حلى المغرب » الشهير ، والذى توالى على تصنيفه عدة من أسلاف أسرته . وقد توفى بدمشق سنة ٦٧٣ هـ . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد .

لدى أميرها المستنصر بن عماد الدولة بن هود[١] . وتحرَّك لغَزْو مَنْ قَصَده من البَشْكُنس[٢] ، فَهُزم جيشه ، وكان الحِجارى أحدُ من أُسر فى تلك الوقيعة ، فاستقر ببِسْقايَة[٣] ، وبقى بها مدَّة ، يُحرِّك ابن هود بالأشعار ويحثُّه على خلاصه من الإسار ، فلم يجد عنده ذِمامة ، ولا تحرَّك له اهتمامه ، فخاطب عبد الملك بن سعيد بقوله :

أصبحت فى بِسْقاية مُسْلَماً ... إلى الأَعادى لا أرى مُسْلِماً
مُكَلَّفاً ما ليس فى طاقتى ... مُصَفَّدا مُنْتَهرا مُرْغَما
أُطَّلب بالخِدمة واحسرتى ... وحالتى تقضى بأن أُخْدَما
[فهل كريمٌ يُرْتجى للأَسِير ... يفكُّه أكرم به مُنْتَما][٤]

وقوله :

أرَبِيس الزمان أغْفَلت أمْرى ... وتلذَّذْت تاركاً لى بأَسْرِ
ماكذا يعمل[٥] الكرام ولكن ... قد جَرَى على المُعَوَّد دهرى

فاجتهد فى فدايه ، [ولم يمر شهر][٦] إلا وقد تخلص من أسره ،

---

(١) المستنصر بن هود ولد عماد الدولة عبد الملك بن المستعين بن هود ، وهو آخر بنى هود ملوك سرقسطة . وكان بعد سقوط سرقسطة فى أيدى المرابطين (سنة ٥٠٣ هـ) قد لجأ إلى بلدة روطة الحصينة الواقعة على نهر خالون جنوبى سرقسطة واستقر بها . ولما توفى خلفه فى الإمارة ولده أبو جعفر أحمد الملقب بسيف الدولة المستنصر بالله ، واستمر فى حكم روطة وما حولها تحت حماية ملك أراجون حتى خلع عنها سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) .

(٢) البشكنس Vascones هم سكان مملكة ولاية نافار (نبرة) الواقعة شمال غربى الثغر الأعلى بين سفوح البرنيه وخليج غسقونية .

(٣) بسقاية وبالإسبانية Vizcaya ، هى إحدى ولايات مملكة نافار أو نبرة ، السالفة الذكر .

(٤) هكذا ورد هذا البيت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال كالآتى (فهل كريم يرتجى له فكاك يا أكرمهم منتما) وهو نص محرف .

(٥) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (ويفعل) .

(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (ولم تمر به أشهر)

واستقرَّ لديه . فكان طليق آل سعيد . وفيهم يقول

وجدْ سعيداً مُنْجِباً خير عُصْبة   هم فى بنى أعْصارهم(١) كالمواسم
مُشَنَّفَةٌ أسماعُهم بمدايح(٢)   مُسَوَّرة أيمانُهم بالصَّوارم
[فكم لهم فى الحرب من فضل ناثرٍ   وكم لهم فى السِّلم من فضل ناظم](٣)

تواليفه

وتواليف الحِجارى بديعة . منها « الحديقة » فى البديع . وهو كتاب مشهور . ومنها « المسهب فى غرايب(٤) المغرب » . وافتتح خطبته بقوله : « الحمد لله الذى جعل العِباد من البلاد بمَنْزِلة الأَرواح من الأَجساد ، والأَسياف من الأَغماد » . وهو فى ستة مجلدات(٥) .

عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد ابن الخطيب السَّلمانى

يكنى أبا محمد .

« أوَّليَّته » ، تُنظر فى اسم جَدِّه .

حاله

حسن الشَّكل . جيِّد الفهم . يُغَطِّى منه [رمادُ](٦) السُّكون جمْرة حركة ، مُنْقَبِضٌ عن الناس . قليل البَشاشة . حسن الخَطِّ . وسِطْ النَّظم . كتَب

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى كتاب المغرب (أزمانهم)
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى كتاب المغرب (بقضايس)
(٣) هذا البيت وارد فى كتاب المغرب ، وساقط فى الإسكوريال والزيتونة
(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى المغرب « فضايل » .
(٥) لم يذكر لنا ابن الخطيب تاريخ وفاة الحجارى وقد توفى فى سنة ٥٢٠ هـ (١١٥٥ م)
(٦) الزيادة من نفح الطيب

عن الأُمراءِ بالمغرب ، وأنشدهم . واقتضى خِلَعَهم وصكُوكهم بالإقطاع والإحسان . ثم لما كانت الفِتنة ، كتب عن سلطان وطنه ، مُعزَّز الخُطَّة بالقيادة ، وأنشدهم .

مشيختة

قرأ على قاضى الجماعة ، الشيخ الأُستاذ الخطيب أبى القاسم الحسنى ، والأُستاذ الخطيب أبى سعيد فرج بن لُب التَّغلبى ، واستظهر بعض المبادى فى العربية ، واستُجيز له من أدركه ميلادُه من أهل المشرق والمغرب .

شعره

وشعره مُتَرفِّع عن الوَسَط إلى الإجادة ، بما يكفله[1] عُذْر الحَداثة ، وقد ثَبت فى اسم السلطان لهذا العهد ، أبى عبد الله بن نصر ، أيَّده الله ، ما يدل على جودة قَريحته ، وذكاء طَبْعه . ومما دوَّن الذى ثَبَت له حيث ذكر قوله :

لِمَنْ طَلَلٌ بالرَّقْمتين مُحيل ... عَفَتْ دِمْنَتَيْه شمألٌ وقبول
يلوح كباقى الوَشْم غيَّره البلى ... وجادت عليه السُّحب وهى هَمُول
فيا سعدُ مَهْلاً بالرِّكاب لَعَلَّنا ... نُسايل رَبْعاً فالمحِبُّ سَئُول
قِف العِيسَ نَنْظر نظرة تُذهب الأَسى ... ويُشْفَى بها بين الضُّلوع غليل
وعرِّج على الوادى المقدس بالحِمى ... فطاب لديه مَرْبَعٌ ومَقِيل
فيا حبَّذا تلك الديار وحبذا ... حديث بها للعاشقين طويل
دعوت لها سُقْيا الحِمى [عندما سَرى][2] ... وَميضٌ وعَرْفُ للنسيم عليل
وأرسلت دمعى للغمام مُساجلاً ... فسال على الخدَّين منه مَسيل

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يكلفه) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح مكانها كلمة (وربوعه) والأولى أرجح

فأَصبح ذاك الرَّبْعُ من بعد مَحْله ... رياضاً بها الغُصْن المرُوح[١] يميل

لَبين حال رَسْم الدار عما عَهدته ... فعَهْدُ الهوى فى القلب ليس يَحُول

ومما شَجانى بعد ما سَكن الهوى ... بـكاءُ حمـامات لهنَّ هَديـل

توسَّدن فَرْع البان والنَّجم مايل ... وقد آن من جيش الظلام رَحيل

فيا صاحبى دَعْ عنك لومى فإنَّه ... كلامٌ على سمع المُحِبِّ ثَقيـل

تقول اصطباراً عن مَعاهِدك الأُلى ... وهيهات صَبْرى[٢] ما إليه سبيل

فلله عيناً من رآنى وللأَسـا ... غَداة استَقَلَّت بالخَليط[٣] حُمول

يُطاول ليل التِّم منى مُسْهِد[٤] ... وقد بان عنى منزلٌ وخليـلُ

فياليت شعرى هل يَعُودَنَّ ما مضى ... وهل يَسْمَحَنَّ الدهر وهو بخيل[٥]

نشره

أجابنى لما خاطبتُ الجُملة من الكُتَّاب ، والسلطان رضى الله عنه ، بالمُنكَّب . فى رحلة أَعْمَلها بما نصه :

« لله من فَذَّة المعانى ، حيث مَشُوق الفؤاد عانى . لما أنارت بها المَغانى ، غَنِيين عن مُطَّرِب الأَغانى ، يا صاحب[٦] الإِذْعانى ، أَجِب بالله من دَعانى، إذا صِرت من كثرة الأَمانى ، بالشوق والوجد مثل مانى . ورَدَت سحّات سيدى التى أنشأَت لغَمام الرحمة . عند اشتداد الأَزمة رِياحاً . وملأَت

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الزيتونة (الرطب) .
(٢) هكذا وردت فى الزيتونة والنفح . وفى الإسكوريال (بكى) . والأول أرجح .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى النفح ، ووردت فى الزيتونة (بالمحيط) .
(٤) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (مسعدا) والتصحيح من النفح .
(٥) نشرت القصيدة بأكملها فى نفح الطيب (ج ٤ ص ٣٦٨-٣٦٩) وهى فى خمسين بيتا .
(٦) هكذا وردت فى الزيتونة ، وفى الإسكوريال (يا صاحبى) .

العيون محاسناً ، والصُّدور انشراحاً ، وأصبح رحيب قِرطاسها ، وعَميم فضلها [ونوالها][١] ، وأيناسُها لفرسان البلاغة ، مَغْدًى ومَراحاً . فلم أدْر أَصَحِيفة نُسخت مسطورة ، أم رَوْضة نُفحت مَمْطورة ، أطيبُ من المِسك مُنْتَشَقا ، وأَحْسَنُ من السلك متَّسَقا ، فملَّكْتُها مَقادة خاطرى ، وأودعتُها سَواد قلبى وناظرى ، وطَلَعت علىَّ طلوع الصُّبح ، على عقب السُّرى ، وخَلَصت خلوص الخيال مع سِنَة الكَرى . فلله ما جَلَبَتْ من أُنْس ، وأَذْهَبت لطايفة الشيطان من مَسٍّ ، وهاجت من الشوق ، الذى شبَّ عمرُه عن الطَّوق ، والوَجْدُ الذى أصبح وارِى الزَّنْد . فأقسم بِبارى النَّسم ، وواهب الحظوظ والقِسم ، لو أَعْطَيتُ للنَّفس مَقادتها ، وسوَّغتُها إرادتها ، ما قَنِعت[٢] بِنيابة القِرطاس والمِداد ، عن مُباشرة الأَرواح والأَجساد ، وإن أعرضت عَقَبة للشُّعير ، ورأس المزاد [وشَمَخ بأَنفه وزاد][٣] ، وما بين ذلك من عَلَم ٍ باذخ ، وطودٍ شامخ ، قد أذكرت العِقاب عُقابه ، وصافحت النجوم هِضابه ، قد طَمَح بطَرْفه . وشَمَخ بأَنفه ، وسال الوقار على عَطْفه :

مَلَكَت عِنان الرِّيح[٤] راحتُه   فجيادُها من تحتـه تَجْرى

وأما الحَمَل[٥] الهايج ، والبحر المُتَمايج ، والطَّلل المايل ، والذَّنب الشَّايل ، فمُساجلة مولاى فى ذلك المجال ، من المحال ، إذ العبد قُصاراه ألفاظ مركَّبة ، غير مرتَّبة :

هو جَهد المُقِلِّ وافاك منِّى   إنَّ جُهد المقِلِّ غير قليل

---

(١) الزيادة من الزيتونة .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (تمتعت) .

(٣) هذه العبارة واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الرمح) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (الجمال) .

وأقرأ على مولاى ، أبقاه الله . سلاما عميما ، تنسّم روضه نسيما ، ورَفَّ نظره ، وعَبق شَميماً ، والأوفر الأذكى منه عليه مُعادا ، ما سَحَّ السَّحاب إرعادا ، وأبرق الغمام رعدا والحُسام أبعادا ، ورحمة الله وبركاته . من عَبْده الشَّيِّق لوجهه . عبد الله بن الخطيب ، فى الخامس عشر لجمادى الأولى عام تسعة وستين وسبعماية .

مولده : بحضرة غرناطة . يوم السبت سابع عشر صفر عام ثلاثة وأربعين وسبعماية .

عبد الله بن محمد بن سارَّه البكرى

شَنْتَرينى[١] ، سكن ألمرية وغرناطة ، وتردَّد مادحاً ومنتجعاً [شرقاً ومغرباً][٢] ويضرب فى كثير من البلاد .

حاله

كان ذا حظٍّ صالح من النحو واللغة ، وحفظ الأشعار ، أديباً ماهراً ، شاعراً مُجيداً ، مطبوع الاختراع والتَّوليد . تجوَّل فى شرق الأندلس وغربها ، مُعَلِّماً للنحو ، ومادحاً وُلاتها ، وكَتَبَ عن بعضهم ، وتعيَّش بالوِراقة زمانا ، وكان حسن الخَطِّ ، جيِّد النقل والضَّبط .

مشيخته

روى عن أبى الحسن بن الأخضر .

---

(١) نسبة إلى شنترين . وبالبرتغالية Santarem ، وهى بلدة أندلسية قديمة من بلاد الغرب الأندلسى وتقع على نهر التاجه ، شمال شرق أشبونة .

(٢) الزيادة من الزيتونة .

من روى عنه : روى عنه أبو بكر بن مسعود ، وأبو جعفر بن الباذِش ، وأبو عثمن بن هرون ، وأبو الطاهر التَّميمى . وأبو العباس بن على اللص ، وأبو العلاء بن الجنَّان . وأبو محمد بن يوسف القضاعى ، وإبراهيم بن محمد السَّبْتى .

شعره

وشعره كثير [جيد][1] شهير . منه فى حِرْفة الوِراقة قوله :

أَما الوِراقة فهى أَيْكَة حِرْفة ... أغصانُها وثِمارُها الحِرمان
شَبَّهت صاحِبَها بإبرة خايطٍ ... يكسو العُراة وظَهْرُه عِريان

وقال فى نَجْم الرَّجيم ، وهو من التَّشبيه العَقيم :

وكوكبٌ أَبصر العِفريت مُسْترقاً ... فانقضى يُذكى سريعا خَلْفه لَهبه
كفارسٍ حلَّ إخصاراً عمامته ... تجُرها كلها من خلفه عَذَبَه

وقال منه فى المواعظ :

يا من يُصيخُ إلى داعى السَّفاه وقد ... نادى به النَّاعِيان الشَّيبُ والكِبر
إن كنت لا تسمع الذِّكر ففيم تَرى ... فى رأسك الواعيان السَّمع والبصَر
ليس الأَصَّم ولا الأعمى سِوى رجلٍ ... لم يُهده الهادِيان العيْنُ والأَثَرُ
لا الدهرُ يبقى على حال ولا الفَلَكُ ... الأَعلى ولا النِّيران الشمس والقمر
لَأُرْحَلَنَّ عن الدنيا ولو كَرْهاً ... فراقها الثاويان البَدْوُ والحضر

وقال فى موت ابْنَة له :

ألا يا موتُ كُنت بنا رؤوفا ... فجدَّدت السُّرور لنا بزَوْرة
حَمِدنا سعيك المشكور لمَّا ... كفَيْتَ مؤنة وستَرْت عَوْرة
فأَنْكَحنا الضَّريح بلا صِداقٍ ... وجهَّزنا العرُوس بغير شَوْرة

---

(١) الزيادة من الزيتونة .

وفاته

توفى عبد الله بن ساره سنة تسع عشرة وخمسمائة .

عبد الله بن محمد الشرّاط

يكنى أبا محمد ، من أهل مالَقة .

حاله

طالبٌ جليل . ذكى ، مدرك ، ظريف . كثير الصَّلَف والخَتْرُوانة[1] والإزْراء بمن دونَه . حادُّ النَّادرة ، مرسلٌ عِنان الدُّعابة . شاعر مُكثر ، يقوم على الأَدب والعربية ، وله تقدُّم فى الحساب ، والبُرهان على مسايله . استُدعى إلى الكتابة بالباب السلطانى . واختصَّ بولى العهد . ونِيط به من العمل ، وظيفٌ نَبيه[2] ، وكاد ينمو عُشبه ، ويتـأَشَّب[3] جاهُه ، لو أن الليالى أَمْهَلَته ، فاعتُبِط لأَمدٍ قريب من ظهوره ، وكانت بينه وبين الوزير أَبى عبد الله بن الحكيم ، إحْنَةٌ . تخلَّصه الحِمام لأَجلها ، من كفِّ انتقامه .

شعره

وشعره كثير ، لكنى لم أظفر منه إلا باليسير . نقلت من خطِّ صاحبنا القاضى المؤرخ أَبى الحسن بن الحسن ، من نظم أَبى محمد الشراط . فى معنىً ، كان أَدباءُ عصره ، قد كَلِفوا بالنظم فيه : يظهر من هذه الأَبيات فى شَمْعة :

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الخدعونة) والختر هو الغش والإفساد ، والغدر أحيانا .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (نبيل) .

(٣) من تأشب أى تجمع .

وكنت أَلِفْتُ قبل اليوم إلْفاً ... أُنـادى مـرة فيجيب أَلْفـاً
وكنَّا مثل وَصْلِ العَهْد وصْلا ... وكنَّا مثل وصْف الشَّهد وصْفا
ففرَّق بيننا صرفُ الليـالى ... وسوَّغنا كؤس البَيْن صِرفا
فصِرت غداة يوم البَين شَمْعا ... وسار فصار كالعَسَل المُصَفَّا
فدمعى لا يتم أَسًى وجسمى ... يُغص[1] بنار وَجْدى ليس يُطفا

ثم فى المعنى أيضا :

حالى وحالك أضحت آية عجبا ... إن كنت مُغرِّبا أو كنت مُغْتربا
إذا دنوتُ فإنى مُشعر طـرباً ... وإن نـأَيتُ فإنى مُشعل لهبـا
كذاك الشَّمع لا تنفكُّ حالته ... إلاَّ إلى الناس مهما فارق الضَّربا

ومن ذلك أيضا :

رحلتم وخلَّفتم مَشُوفكم نِسيـا ... رهينَ هيـامٍ لا يموت ولا يَحْيا
فضاقت علىَّ الارض واغْتاص مذهبى ... وما زلت فى قومى[2] ولاضاقت الدنيا
وما باختيارٍ شتَّت الدهـر بيننـا ... وهل يَمْلِك الإنسان من أمره شيَّا
فذا أضلعى لم تَخْبُ من أجلكم جوًى ... وذا أدمعى لـم تـأْل من بَعدكم جَرْيا
كأنَّنى شَمْعٌ فى فـؤادٍ وأدمـع ... وقد فارقتُ من وصلـكم رِيَّا

وذكر لى ، أن هذا صدر عنه فى مجلس أُنْس مع الوزير أبى عبد الله ابن عيسى بمالقة ، بحضرة طايفةٍ من ظرفاء الأُدباء .

وفاته

كان حيا سنة سبعمائة ، وتوفى بغرناطة ، وهو على حاله من الكتابة ، رحمه الله .

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة ، وفى الإسكوريال (يفط) والأولى أرجح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (نوى) .

عبد الله بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان النَّجارى[1]

يكنى أبا القاسم ، ويعرف باسم جدِّه ، من أهل مالقة ، وصاحب القَلم الأَعلى لهذا العهد بالمغرب .

حـــاله

هذا الفاضل نسيجُ وحده ، فهماً وانطباعاً ، ولوذعيَّة ، مع الدِّين والصَّون ، مُعِمٌّ ، مخول فى الخير ، مُشْتولٍ على خصال حميدة ، من خطٍّ وأدب وحِفظ ، مشاركٌ فى معارف جملة . كتب ببلده عَدْلاً رضًى ، وأنشد السلطان عند حلوله ببلده . ورحل عن بلده إلى المغرب ، فارتسم فى كتابة الإنشاء بالباب السلطانى ، ثم بان فضله ، ونَبُه قدره ، ولَطُف محلُّه ، وعاد إلى الأَندلس ، لما جَرَت على سلطانه الهزيمة بالقَيْرُوان[2] ، ولم يَنْتَشله الدهر بعدها مع جملة من خواصِّه . فلما استأْثر الله بالسلطان المذكور ، موْسُوم التَّمحيص ، وصيَّر أمره إلى ولده بعده ، جَنَح إليه ، ولحق ببابه ، مُقترن الوفادة ، بيُمن الطَّاير ، وسعادة النَّصْبة ، مظنَّة الاصطناع ، فحَصَل على الحُظوة ، وأصبح فى الأَمد القريب ، محلا للبَثٍّ وجليساً فى الخَلْوة ، ومؤتَمنا على خُطَّة العلامة ، من رجل ناهض بالكَلِّ ، جَلِد على العمل ، حذِر من الذِّكر ، متقلِّص ذيْل الجاه ، مُتَهيِّب[3] ، غزير المشاركة ،

---

(١) هكذا وردت واضحة فى الإسكوريال والزيتونة وجذوة الاقتباس . ووردت فى الكتيبة الكامنة (بيروت ص ٢٥٤) البخارى وهو تحريف .

(٢) من الواقع أن ابن الخطيب يشير هنا أولا إلى السلطان أبى الحسن المرينى ، ثم يشير ثانيا إلى ولده السلطان فارس أبى عنان ، وهو الذى خرج عليه عقب هزائمه فى حملته إلى تونس ، وانتزع الملك لنفسه (٧٥٢ ﻫ) واستمر فى الحكم حتى وفاته فى سنة ٧٥٩ ﻫ . وقد أشار ابن خلدون فى التعريف إلى ذلك صراحة عند ذكره لابن رضوان ، حيث قال إنه كان ممن ورد فى جملة السلطان أبى الحسن . (راجع التعريف –القاهرة ١٩٥٢ – ص ٢٢ و ٢٣) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (متصيب) .

مطفِّفٍ فى حقوق الدُّول ، عند انخفاض الأسعار . جالبٍ لسوق المُلْك ما يُنفق فيها . حارِّ النَّادرة . مليح التَّنْدير ، حُلو الفكاهة . غَزِلٍ مع العفة . حافظ للعيون . مُقَدَّم فى باب التَّحسين والتنقيح . لم ينْشِب المَلكُ أن أنِس منه بهذه الحال ، فشدَّ عليه يدَ الغِبطة . وأنْشَب فيه فيه براثِن الأَثَرَة ، ورمى إليه بمقاليد الخِدمة . فَسَما مكانُه ، وعلا كعبُه . ونما عُشُّه . وهو الآن بحاله الموصوفة ، من مفاخر قُطْره . ومناقب وطنه . كثَّر الله مثله .

مشيخته

قرأ ببلده على المُقرى أبى محمد بن أيوب ، والمُقرى الصالح أبى عبد الله المهندس(١) ، والأُستاذ أبى عبد الله بن أبى الجيش والقاضى أبى جعفر بن عبد الحق ، وروى عن الخطيب المحدِّث أبى جعفر الطَّنجالى ، والقاضى أبى بكر بن منظور . وبغرناطة عن جِلَّة ، منهم شيخنا رئيس الكتاب أبو الحسن بن الجيَّاب . وقاضى الجماعة أبو القاسم بن أحمد الحسنى ، ولازم بالمغرب الرئيس أبا محمد عبد المُهَيْمن الحَضْرمى ، والقاضى أبا إسحق إبراهيم بن أبى يحيى ، وأبا العباس بن رُبيع السَّبتى . وبتِلمسان عن أبى عبد الله الآبِلى . وأبى عبد الله بن النَّجار وغيرهما . وبتونس عن قاضى الجماعة أبى عبد الله بن عبد السلام . وعن جماعة غيرهم .

شعره

ونظمه ونثره متجاريان لهذا العهد فى ميدان الإجادة . أما شعره فمُتَناسب الوضع . سهل المأخذ ، ظاهر الرُّواء . مُحْكَم الإمرة للتَّنقيح . وأما نثره

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الربتونة (المقدسى)

فطَريف السَّجع ، كثير الدَّالة ، مُطيع لدعوة البَديهة ، وربما استعمل الكلام المُرْسل ، فجرى يراعُه فى ميدانه ملءَ عِنانه .

وجرى ذكره فى « التاج » أيام لم يَفْهق حوضُه ، ولا أزهر روضُه ، ولا تبايَنَت سماؤه ولا أرضُه . بما نصه : أديب أحسن ما شا ، وفتح قُليبه[1] فملأ الدَّلو وبلَّ الرِّشا . وعانى على حداثته الشعر والإنشا ، وله ببلده بيتٌ معمور بفضل وأمانة ، ومَجْدٍ وديانة . ونشأ هذا الفاضل على أتم العَفاف والصَّون . فما مال إلى فسادٍ بعد الكَوْن . وله خطٌّ بارع . وفهم إلى الغَوامض مُسارع . وقد أثبتُّ من كلامه ، ونَفَثات أقلامه ، كلَّ مُحكم العقود ، زارياً بِنْت العَنْقُود . فمن ذلك قصيدة أنشدها للسلطان أمير المسلمين[2] ، مهنِّيا بهلاك الأُسطول الحربى بالزُّقاق الغربى[3] ، أجاد أغراضها وسبَك المعانى وراضَها ، وهى قوله :

لعلَّكما أن ترعيا[4] لى وسـايلا فبالله عُوجا بالرِّكاب وسـايلا
بأوطانِ أوْطار قِفا ومـآربى[5] وبالحُبِّ خُصَّا بالسَّلام المَنَازلا
ألا فانشدا بين القِبـاب من الحِما فؤادَ شَجٍ[6] أضحى عن الجسم راحلا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (قليله) .

(٢) أمير المسلمين المشار إليه هنا ، هو السلطان يوسف أبو الحجاج ملك الأندلس الذى حكم من سنة ٧٣٣ إلى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٣٣ – ١٣٥٤ م) .

(٣) الزقاق الغربى يقصد بها هنا مضيق جبل طارق أو جبل الفتح كما كان يسمى عندئذ ، وكان النصارى (القشتاليون) قد ضربوا حوله الحصار فى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩م) بقصد الإستيلاء عليه . ولكنهم منوا بالفشل ، ودب الوباء إلى قواتهم . وهلك فيه ملكهم ألفونسو الحادى عشر ، وهلكت معظم سفنهم المحاصرة ، وانسطروا إلى ترك الحصار والانسحاب ، وذلك فى سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) .

(٤) هكذا ورد فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تعوجا) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ومآرب) .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (شجى) .

وبُثّا صَبًا بات هنالك واشرحا ... لهم من أحاديثى عَرِيضاً وطايلا
رعى الله مثواكم على القُرْب والنَّوى ... ولا زال هامى السُّحب فى الرَّبع هاملا
وهل لزمانٍ باللِّوى سقى اللِّوى ... مآربَ فما ألقى مدَى الدهر حايلا
فحَظِّى بعيدُ الدَّار منه بقُرْبه ... ويوردُ فيه من مُنماه مَناهلا
لقد جار دهرِى أن نأى بمطالبى ... وظلَّ بما أبقى من القُرب ماطلا
وحمَّلنى من صَرْفه ما يَؤُدنى[1] ... ومكَّن منِّى الخطوبَ شواغلا
عتَبْتُ عليه فاغتَدى لى عاتبا ... وقال اصْغَ لى لا تكن لى عاذِلا
أتَعْتَبنى إذ قد أفَدْتك موقفا ... لدى أعظم الأملاك حِلماً ونايلا[2]
مَليك حَباه الله بالخُلُق الرِّضا ... وأعْلى له فى المَكْرَمات المنازلا
مَليك علا فوق السِّماك فَطَرْفه ... غدا كهلال[3] الأُفق يُبصرنا علا
إذا ما دجا ليلُ الخطوب فبِشْرُه ... صباحٌ وبدرٌ لا يُرى الدهر آفلا
نماه من الأنصار غر أكابر ... لهم شيم ملءُ الفضاء فَضايلا
تلوا سُوَرَ النَّعماء فى حِزبهم كما ... جَلوا صُور الأيام غُراً جلايلا
تَسامَتْ لهم فى المَعْلُوات مراتب ... يُرى زُحلٌ دون المراتب زاحلا
عِصابة نصر الله طابَتْ أواخرا ... كما قد زَكت أصلا وطابت أوايلا
لقد كان رَبْعُ المجد من قبل خالياً ... ومن آل نصرٍ عاد يُبصر آهلا
إذا يُوسف منهم تلوح يمينه ... تقول سحابُ الجود والبأس هاطلا
كتايبُه فى الفتح تكتب أسطرا ... تبينُ من الأنفال فيها المَسايلا
عواملُه بالحذف تحكم فى العِدا ... كما حكموا فى حذفِ جَزْمٍ عواملا
يبدِّد جَمْع الكفر رُعبا وهيبةً ... كما بدَّدت منه اليمين النَّوافلا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (يؤده) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (ودايلا) .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (بهلال) ، والأولى أرجح .

ومنها فى وصفه الأُسطول واللقاء :

ولما استقامت بالزُّقاق أَساطل ... واستقلَّت للسُّعود محافلا
رآها عدوُّ الله فانفضَّ جمعه ... وأَبْصر أَمواج البحار أَساطِلا
ومن دَهْش ظنَّ السَّواحل أَبحُرا ... ومن رُعب خال البحار سواحلا
ومِن جُندكم هبَّت عليه عواصفٌ ... تدمِّر أَدناها الصِّلاب الجَنادلا
تُفَرِّقهم أَيدى سَبا وتبيدهم ... فقد خلَّفت فيهم حُساما وذابلا
وعهدى بمرِّ الريح للنار موقدا ... فقد أَطْفَأَت تلك الحروب المشاعلا
وكان لهم بردٌ العذاب ولم يكن ... سلاماً وما كادُوه قد عاد باطلا
حَداهم هواهم للإِسار ولِلْفَنا ... فما أَفْلَتوا من ذا وذاك حَبايلا
فهم بين عانٍ فى القُيود مُصَفَّد ... وفانٍ عليه السَّيف أَصبح صايلا
ستُهلك ما بالبِّر منهم جنودُكم[1] ... كما أَهْلَكْت من كان بالبَحْر عاجلا

وقال أَيضا يمدحه :

نَشَرْتَ لواءَ النَّصر واليُمن والسَّعد ... وأَطْلعت وجه اليُسر والأَمن والرِّفد
أَعَدْتَ لنا الدُّنيا نعيماً ولذَّةً ... أَلا للمعالى ما تُعيد وما تُبد
بنوركم والله يَكْلأُ نُوركم ... تبدَّت لنا سُبل السعادة والرُّشد
تحلىَّ لكم بالملك نَحرٌ ولَبَّةٌ ... فراق كذاك الجِيد يَزْدان بالعِقد
مآثركم قد سطَّرتها يَدُ العُلا ... على صفحات الفخر أَو مَفْرِق الحَمْد
بمَدْحكم للقرآن أَثْنى منزلا ... وقد حُزتم مجدا بجدُّكم سعد
كفاكم فخَارا أَنه لكم أَبٌ ... ومن فخره إن أَنت تدعوه بالجَدِّ
ثناؤكم هذا أَم المِسك نافحٌ ... وذكركم أَم عاطر العنْبر الوَرْد

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (جنودهم) والأولى أنسب للمعنى والسياق .

أَجَلْ ذكركم أزكى وأذكى لناشِقٍ ... كما أنكم أجلى وأعلا لمَشْهد
طلعتَ على الآفاق نـورا وبهجـة ... فما أنت إلا البَدْرُ فى طالع السَّعد
وفى جملة الأَملاك عزّ ورفعـة ... ودُم فى خلود المُلك والنصر والسعد
ولو أننى فُقْت سَحبان وايـل ... وأَرْبَيْتُ فى شعرى على الشاعر الكِند
لما قمتُ بالمِعشار من بعض ما لكم ... من الجود والأَفضال والبذل والرِّفد[1]

وقال فى شيخه أبى بكر بن منظور رحمه الله :

جلالُك أَوْلى بالعُلا المخلَّـد ... وذكرك أعلى الذِّكر فى كل مَشْهد
لمجدك كان العزُّ يذْخَر والعُـلى ... وأنَّك للأُولى بأَرْفع سُـؤدد
أَبى الله إلاَّ أن تكون مُشَـرِّفاً ... بمقعد خيـر العالمين محمـد
فهنيتَ بالفخر السَّنى محلـه ... وهَنَيت بالمجد الرَّفيع المُجدَّد
شَهِدْتُ بما أَوْلَيْتَنى من عَوارف ... وخَوَّلت من نُعمى وأَسْدَيت من يَد
وما حُزْتَ من مجد كريم نِجاره ... وما لَك من مجد ورِفعة مَحْتِد
لقد نبَّأَتْنى بالرَّواح[2] لعزّكم ... مخايُل إسْعاد ترُوح وتَغْتـد
تُحدثنى نفسى وإنِّى لصـادق ... بأَن سوف تَلْقى كاملا كلَّ مَقْصِد
دَليلى بهذا أنَّك الماجِد الـذى ... تَسامى عُلُوا فوق كل ممجَّـد
ليفخر أُولو الفخر المنيف بأَنَّكم ... لهم عَلَم أَعْلى به الكل مُقْتَـدى
إمام علوم مُعْتَلى القَدْر لم يزل ... رداءَ المعالى والعوارف يَرْتَد
وقاضٍ إذا الأَحكام أُشكِل أمرها ... جلا لها برأى الحقيقة مُرشِـد
إذا الحق أبدى نوره عند حُكمه ... رأيت له حدَّ الحُسـام المهنَّد
وإنَّ جميع الخلق فى الحقِّ عنده ... سَواسِية ما بين دانٍ وسَـيِّد

---

(١) وردت هذه القصيدة فى هامش اللوحة 234 من مخطوط الإسكوريال . ولم ترد فى مخطوط الزيتونة .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (باللعام) .

هنيأ لنا بَلْ للقضاءِ وفضله ... بقاضٍ حليم في القضاءِ مُسَدَّد
أمات به الرحمن كل ضلالة ... وأحيا بما أولاه شِرْعة أحمد
وكاينْ تراه لا يـزال ملازما ... لأمر بعُرْف أو لِزام بمسجد
وما زال قِدْماً للحقيقة حاميا ... وللشِّرعة البيضاء يُهدى ويَهتدى
ويمنح أفضالا ويولى أياديـاً ... وإحسانه للمُعْتَفين بمرصد
يُقَيِّد أحراراً بمنطق جـوده ... فما إن ينى عن مُطْلَق أو مُقَيَّد
نعم إن يكن للفضل شخص فإنما ... بشِيمته الغرّاء فى الفضل يُبْتَدى
أيا ناثراً أَسْنَى المعارف والغنا ... ويا طارقا يَطْوِى السُّرى كلَّ فَدْفَد
ألا الق عصا التِّسيار واعشِ لناره ... تجد خَيرَ نار عندها خَيْر مَوْقِد

ومن مقطوعاته قوله :

تبرَّأتُ من حولى إليك وأيْقَنْتُ ... برحماك آمالى فصحَّ يقينى
فلا أرْهَبُ الأيام إذ كنتَ ملجأى ... وحَسْبى يقينى باليقين يقينى

ومن شعره لهذا العهد منقولا من خطِّه ، قال مما نظمه فلان ، يعنى نفسه فى كتاب الشِّفا ، نفع الله به :

سل بالعُلى وَسَنَى المعارف يَبْهر ... هل زانها إلا الأيمَّة مَعْشر
وهل للمفاخر غير ما شَهِدت به ... آىُ الكتاب وخارَتْها الأعصر
هم ما هم شرفاً ونيل مَراتب ... يوم القيام إذا يَهُول المَحْشر
ورِثوا الهدى عن خير مبعوث به ... فخراً هَدْيُهم للنعيم الأكبر(١)
وعياض(٢) الأعلى قِداحاً فى العُلى ... منهم وحوله الفَخار الأظهر

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى : (ففخارهم حول العظيم الأكبر) .

(٢) هو الفقيه الحافظ عياض بن موسى اليحصبى السبتى (٤٧٦–٥٤٤هـ) . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد فى الإحاطة .

بشفايه[1] تشفى الصدور وإنه ... لرشاد نارٍ به الشهّاب النّير
هو للتّوالف روح صورتها وقل ... هو تاجُ مَفرِقها البهىُّ الأنور
أفنَتْ محاسنه المدايح مثل ما ... لمعيده بعد الثناء الأعطر
وله اليَدُ البيضاءُ فى تأليفه ... عند الجميع ففضلها لا يُنكر
هو مورد الهِيم العِطاش هَفَتْ ... بهم أشواقهم فاعتاض منه المصدر
فبه ننال من الرضى ما نَبْتَغى ... وبكَوْنه فينا نُغاث ونُمطر
أنظر إليه تميمةً من كل ما ... تخشى من الخَطْب المهول وتحذر
لكأنّنى بك يا عياض مهنأً ... بالفوز والملأُ العَلِىُّ مُبشر
لكأنّنى بك يا عياض مُنعَّما ... بجوار أحمد يَجْتلى بك مظهر
لكأنّنى بك يا عياض مُتوَّجاً ... تاج الكرامة عند ربِّك تُخبر
لكأنّنى بك راوياً من حَوْضه ... إذ لا صدىً ترويه إلاَّ الكوثر
فعلى محبّته طَوَيْتَ ضمايرا ... وَضَحت شواهدها بكَتْبك تُؤثر
ها إنّهن لشِرعة الهادى الرِّضا ... صَدفٌ يُصان بهن منها جَوْهر
فجزاك ربُّ العالمين تحيةً ... يَهب النعيم سريرها والمنبر
وسقى هَزِيم الوَدْق مضجَعك الذى ... مازال بالرَّحمى يُؤم ويُعمر

وقال فى مَحمل الكتب :

أنا الحَبْر فى حمل العلوم وإن تقل ... بأنّى حُلّى عن حُلاهن تَعْدل
أُقيِّد ضروب العلم ما دمتُ قايما ... وإن لم أَقُمْ فالعِلم عنّى بمَعْزِل
خدمتُ بتقوى الله خيرَ خليفه ... فبوَّأنى من قُربه خير منزل
أبا سالم لا زال فى الدهر سالما ... يُسَوِّغ من شُرب المنا[2] كلَّ مَنهل

---

(١) الإشارة هنا إلى كتاب القاضى عياض « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » وهو أشهر كتبه . وظاهر أن القصيدة كلها تقريظ ومديح للقاضى عياض وكتابه المذكور .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (العلا) .

وكان قد رأى ليلة الإثنين الثانية لجمادى الأُولى عام ستين وسبعماية في النوم ، كأن الوزير أبا على بن عمر بن يخلف بن عمران الفُدودى ، يأْمره أن يجيب عن كلام من كَتَب إليه . فأَجاب عنه بأَبيات نظمها فى النوم ، ولم يحفظ منها غير هذين البيتين :

وإنى لأُجزى(١) بما قد أتاه ... صديقى احتمالا لفعل الحرفاء
بتمكين وُدٍّ وإثبات عهد ... وإجزال حَمْد وبَذْل حياء

ومن نظمه فى التورية :

وبخيلٌ لما دعوه لسُكنى ... منزل بالجِنان ضنَّ بذاك
قال لى مَخْزن بدارى فيه ... جلَّ ما لى فلستُ للدار شاك
لا تعرِّج على الجِنان بسُكْنى ... ولتكن ساكناً بمخزن مالِك

ومن ذلك أيضا :

يا رُبَّ مُنشأَة عجبت لشأْنها ... وقد احتوت فى البحر أعجب شان
سكَنت بجنْبِها عصابة شدَّة ... حلَّت محلَّ الروح فى الجُثمان
فتحرَّكت بإرادةٍ مع أنها ... فى حُسنها ليست من الحيوان
وجرَت كما قد شاءَ سُكانها ... فعلمتُ أن السِّر فى السُّكان

ومن ذلك أيضا قوله :

وذى خِدَعٍ دعُوه لاشتغال ... وما عرفوه غثاً من سمين
فأَظهر زُهْده وغنَى بمال ... وجيشُ الحِرْص منه فى كَمين
وأَقسم لا فَعَلْتُ بمن خَبَّ ... فيا عجباً لخلاف مُهين
يمدُّ بسيره ويمين حِلْفٍ ... ليأْكلَ باليسار وباليمين

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (لأَنجز) .

شئ من نثره

خاطبتُه من مدينة سَلا بما نصه ، حسبما يظهر من غرضه :

مرضتُ فأَيَّامى لذاك مريضـة　　وبرؤك مقرون ببُرىء اعتلالها
فما راع ذاك الذّات للضُّر رائع　　ولا وُسِمت بالسَّقَم[1] غُرٌّ خلالها

وينظر باقى الرسالة فى خبر التَّعْريف بمؤلِّف الكتاب[2]

فراجعنى عن ذلك بما نصه :

متى شِيت أَلْى من علايك كل ما　　يُنيل من الآمال خير منـالها
كبر اعتلال من دعايك زارنى　　وعادات برٍّ لم تَرُم عن وصالها

أَبقى الله ذلك الجلال الأَعلى متطوِّلاً بتـأْكيد البرِّ ، متفضِّلا بموجبات الحمد والشكر . ورَدَتْنِى سِماة سيدى المشتملة على مَعْهُود تشريفه ، وفضله الغَنِى عن تعريفه ، متحفِّياً فى السؤال عن شرح الحال ، ومُعلناً ما تحلَّى به من كرم الخِلال ، والشَّرف العال ، والمعظَّم على ما يسُرُّ ذلك الجلال ، الوزارى ، الرياسى ، أَجراه الله على أَفضل ما عوَّده ، كما أَعلى فى كل مَكْرَمة يدَه ، ذلك ببركة دُعايه الصالح ، وحبِّه المُخَيِّم بين الجوانح . والله سبحانه المحمود على نِعمه ، ومواهب لطفه وكرمه ، وهو سبحانه المسئول أَن يسنى لسيدى قرارَ الخاطر ، على ما يسُرُّه فى الباطن والظاهر . بِمَنِّ الله وفضله ، والسلام على جلاله الأَعلى ورحمة الله وبركاته . كتبه المعظِّم الشاكر ، الداعى المحب ، ابن رضوان وفقه الله.

ومما خاطبنى به ، وقد جرَت بينى وبين المتغلب على دولتهم ، رُقاعٌ ، فيها سَلْم وإيقاع ما نصه :

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بالنسر) .

(٢) تشغل ترجمة ابن الخطيب لنفسه السفر الثانى عشر من كتاب « الإحاطة » الذى يبدأ بلوحه ٤٢٥ من مخطوط الإسكوريال (١٦٧٣ ديرنبور) ، وهو خاتمة أسفار الكتاب .

يا سيدى الذى علا مجده قَدْرا وخَطَرا ، وسما ذكره فى الأَندية الحافلة ثناءً وشكرا ، وسما فخرُه فى المراتب الدينيَّة والدنيوية حمداً وأجرا ، أَبقاك الله جميل السَّعى ، أَصيل الرأْى ، سديد الرمى ، رشيد الأَمر والنَّهى ، ممدوحاً من بُلَغاءِ زمانك ، بما يقصر بالنَّوابغ(١) والعَشِى ، مفتوحاً لك باب القَبُول ، عند الواحد الحقِّ . وصلنى كتابك الذى هو للإِعجاز آية ، وللإِحسان غاية ، ولِشاهد الحسن تَبْريز ، ولثوب الأَدب تَطْريز ، وفى النِّقد إِبْريز ، وقفت منه على ما لا تفى العبارة بعجايبه ، ولا يحيد الفضل كله عن مذاهبه ، من كل أُسلوب طار فى الجو إِعْراباً وإِغْراباً ، ومَلَك من سحر البيان خِطابا ، وحُمِد ثناه مُطالا وحديثاً مُطابا ، شأْن من قَصَر عن شأْو البلغاءِ ، بعد الإِغياءِ ، ووقف دون سباق البديع بعد الإِعْياءِ ، فلم يُشَقّ غُباره ، ولا اقتُفِيت إِلا بالوَهْم آثاره ، فلله من سيدى إِتحافٌ سَرَّ ما شاء ، وأَحْكَم الإنشاء ، وبرَّ الأَكابر والأنشاء ، فما شئت من إِفصاح وكتابة ، وبرٌ ورعاية ، وفهم وإِفهام ، وتَخْصيص وإِبهام ، وكبْح لطَرْف النَّفس وقمع ، وخَفْضٍ فى الجواب ورَفع ، وتحرُّج وتورُّع ، وترقُّص وتوسُّع ، وجَماع وأَصحاب ، وعَتَبٍ وإِعْتاب ، وإِدلال على أَحْباب ، إِلى غير ذلك من أَنواع الأَغراض ، والمقاصد السَّالمة جواهرها من الأَعراض ، جملةٌ جمعت المحاسن ، وأَمتعت السامع والمُعاين ، وحلَّت من امْتِناعها مع السهولة الحَرَم ، إِلا من زاد الله تلك المعارف ظهوراً ، وجعلها فى شرع المكارم هُدًى ونوراً . وأَما شكر الجناب الوزارى ، أَسْماه الله ، بحكم النِّيابة عن جلالكم . فقد أَبلغت فيه حمدى ، وبذلت ما عندى ، ووُدِّى لكم وُدى ، وورْثِى لكم

---

(١) هكذا وردت فى الإِسكوريال . وفى الزيتونة (بالنوابع) .

من المُخالصة لكم وِرْدى ، وكل حالات ذلك الكمال ، مُجْمع على تفضيله ، مُعتمد من الثناء العاطر بإجماله وتفصيله . وأما مُؤَدِّيه إليكم أخى وسيدى الفقيه المعظم ، قاضى **الحضرة وخطيبها** ، أبو **الحسن** ، **أدام** الله عزَّته ، وحَفِظ أُخُوَّته ، فقد قرر من أوصاف كمالاتكم ، **ما لا** تَفى بتقريره الأَمثِلة من أولى العلم بتلك السَّجايا الغُرِّ ، والشِّيم الزُّهر ، **وما تحلَّيتم** به من التقوى والبِرِّ ، والعدل والفضل ، والصبر والشكر ، ولحَمْل المتاعب فى أُمور الجهاد ، وترك الملاذ والدَّعة فى مرضاة ربِّ العباد ، والإعراض عن الفانية ، والإقبال على الباقية ، فيالها من صفات خَلَعت السعادة عليكم مَطارفها ، وأَجْزَلت عَوارفها ، وجمعت لكم تالِدها وطارفها ، زكَّى الله ثوابها وجدَّد أَثوابها ، ووصل بالقبول أسبابها . وذُكر لى أيضا من حسناتكم ، المَنْقَبة الكبيرة ، والقُرْبة الأثيرة ، فى إقامة المارستان بالحضرة[1] ، والتَّسبُّب فى إنشاء تلك المَكْرَمة المبْتكرة ، التى هى من مُهمَّات المسلمين بالمحلِّ الأَعلى ، ومن ضروريات الدين بالمزيَّة الفضلى ، وما ذَخَره القَدَر لكم من الأَجر ، فى ذلك السعى المشكور ، والعمل المبرور ، فسرَّنى لتلك المجادَة ، إحراز ذلك الفضل العظيم ، والفوز بثوابه الكريم ، وفخره العميم . ومعلومٌ ، **أبقاكم الله** ، **ما** تقدَّم من ضياع الغُرَبا والضعفا ، من المُضِى فيا سلف **هنالك** ، وقَبْل ما قُدِّر لهم من المُرْتفق **العظيم وبذلك** ؛ حتى أن من حَفِظ قول عمر رضى الله عنه . والله لو ضاعت نخلةٌ بشاطىء الفرات . لخِفت أن يُسأَل الله عنها عمر . لا شك فى أن من تقدَّم من أهل

---

(١) يشير الكاتب هنا إلى المارستان الكبير الذى أنشاه ابن الخطيب بحضرة غرناطة أيام وزارته الثانية . وذكر لنا أنه كان يفوق بسعته وروعة تنظيمه مارستان القاهرة الشهير (راجع المجلد الثانى من الإحاطة ص ٥٠) .

الأمر هُنالِكم ؛ لابدَّ من سؤاله عمَّن ضاع لعدم القيام بهذا الواجب المُغْفل. والحمد لله على ما خصَّكم به من مزية قوله صلى الله عليه وسلم ، إذا أراد الله بخليفة خيراً ، جعل له وزيرا صالحاً ، إن نَسِى ذكَّره ، وإن ذَكَر أعانه .

وأما « كتاب المحبة »(١) فقد وقف المُعَظِّم على ما وجَّهتهم منه ، وقوفاً ظهر بمزيَّة التَّأَمل ، وعَلِم منه ما تَرك للآخر للأَول ، ولم يشك فى أنَّ الفضل للحاكى ، وشتَّان بين الباكى والمُتَباكى . حقا لقد فاق التأْليف جَمْعاً وترتيباً ، وذهب فى الطُّرق الصوفية مذهباً عجيباً . ولقد بهرَت معانيه كالعرائس المجْلُوَّة حسناً ونضارة ، وبَرَعت(٢) بدايعُه وروايعُه سنًى وإنارة ، وألفاظا مُختارة ، وكؤوسا مُدارة ، وغيوثا من البَرَكات مِدْرارة ، أَحْسِن بما أدته تلك الغُرر السَّافرة ، والأَمثال السايرة ، والخمايل النَّاظرة ، واللآلىء المُفَاخرة ، والنجوم الزَّاهرة . أَما إنه لكِتاب تضمَّن زُبدة العلوم ، وثمرة الفُهوم ، وإن موضوعه للُباب اللُّباب ، وخُلاصة الأَلْباب ، وفَذْلكة الحساب ، وفَتْح الملك الوهَّاب ، سَنَّى الله لكم ولنا كماله ، وبلَّغ الجميع منَّا آماله ، وجعل السَّعى فيه خالصا لوجهه ، وكفيلا بمعرفته بمنّه وكرمه ، وهو سبحانه يُبقى بركتكم ، ويكلأُ ذاتكم الكريمة وحوْزَتكم ، بفضله [وطوله وقوته](٣) والسلام الكريم(٤) يخصكم به كثيرا أثيرا ، مُعَظِّم مقداركم ، ومُلتزم إجلالكم وإكباركم ، ابن رضوان ، وفقه الله ، وكُتب فى الثامن والعشرين لرجب من عام سبعة وستين وسبعمائة .

---

(١) «كتاب المحبة » أو « روضة التعريف بالحب الشريف » هو من أهم كتب ابن الخطيب . وبراجع فى التعريف به وأسباب تأليفه ، المجلد الأول من الإحاطة (ص ٦٢) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وبهرت) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وقوته وحوله) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (الكثير) . والتصويب من الزيتونة .

وهو الآن بحاله الموصوفة : أعانه الله . وله تردُّدٌ إلى حضرة غرناطة ، واجْتِياز وإلْمام[١] .

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر

غرناطى ، قَلْعى[٢] الأصل ، سكن مالقة .

حـــاله

قال صاحب « الطالع »[٣] هو المشهور باليربطول[٤] . زاد على أخيه بخفَّة الروح ، وطيب النوادر ، واختار سكنى مالَقة ، فما زال بها ، يمشى على كواهل ما تعاقب فيها من الدول ؛ ويقلِّب طَرْفه ، مما نال من ولاياتها[٥] ، بين الخَيْل والخَوْل ، حتى أنَّ ابن عسكر ، قاضى مالقة وعالمها ، كان من جملة مَنْ مَدَحه ، وتوسَّل به إلى بلوغ أغراضه عند القوم ، وصنَّف له شجرة الأنساب السَّعيدية . وكان قبيح المنظر ، مع كونه من رياحين الفضل والأدب . فمن الحكايات المتعلقة بذلك ، أنه دخل يوما على الوالى بغرناطة ، السَّيد أبى إبراهيم ، وجَعل يَساره ، وكان مُختصا به ، واقتضى

---

(١) توفى ابن رضوان النجارى بأنف سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة (جذوة الأقباس – القسم الثانى – ص ٤٣٧) .

(٢) قلعى الأصل نسبة إلى قلعة يحصب أو قلعة بنى سعيد . وقد سبق التعريف بها .

(٣) هو كتاب « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » لأبى الحسن على بن موسى المعروف بابن سعيد الأندلسى وقد سبقت الإشارة إليه .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (اليرطول) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ولايتها) .

ذلك أن ردَّ ظهره للشيخ الفقيه الجليل ، عميد البلدة ، أبى الحسن سهل بن مالك ، ثم التفت فردَّ وجهه إليه ، وقال اعْتَذِرُ لكم بأمر ضرورى فقال أبو الحسن ، إنما تعتذر لسيِّدنا ، فانقلب المجلس ضَحِكاً . ومنها أنه خرج إلى سوق الدواب مع ابن يحيي الحضرمى المشهور أيضا بخفَّة الروح ، وكان مَسَلَّطا على بنى سعيد ، فبينما هو واقف ، إذ النخَّاس ينادى على فَرَس ، فمٌ يشرب من القادوس ، وعَيْنٌ تحصد بالمِنْجل ، فقال له يا قايد أبا محمد ، سِرْ بنا من هنا لئلا تؤخذ من يدى ، ولا أقدر لك بحيلة ، فعلم مقصده ، ولم يخف عليه أنَّ تلك صورته ، فقال سل جارتك عنها ، فمضى لأُمه ، وأَوْقَع بينها وبينه ، فحَلِف أن لا يدخل عليها الدار . قال أبو عمران بن سعيد ، واتفق أن جُزْت بدار أم الحضرمى ، فرأيته إلى ناحية ، وهو كئِيب مُنْكسر ، فقلت له ما خبرك يا أبا يحيي ، فقال لى عن أُمِّه وعن نفسه ، النساءُ يرمين أبناءَ الزِّنا صغارا ، وهذه العجوز الفاعلة الصَّانعة ، ترمينى ابن خمسين سنة ، فقلت له وما سبب ذلك ، فقال ابن عَمِّك يوسف الجمال ، لا أخذ الله له بِيَد ، فمازلتُ حتى أَصْلَحْتُ بينها وبينه .

ومن نوادر أجوبته المُسْكتة ، أنَّه كان كثير الخِلْطَة بمرَّاكش لأحد السَّادة ، لا يفارقه ، إلى أن وُلى ذلك السَّيد ، وتموَّل ، واشتغل بدُنياه عنه . فقيل له ، نرى السيد فلانا أضْرب عن صُحْبتك ومُنادمتك ، فقال . كان يحتاج إلىَّ وقتاً كان يَتَبَخَّر بى ، وأما اليوم فإنه يتبخَّر بالعُود والنَّد والعَنْبَر . وقال له شخص كان يُلَقَّب « بفْسَيْوات » فى مجلس خاص ، أى فائدة فى « اليربطول » ، وفيم ذا يُحتاج إليه ، فقال له لا تَقُل هذا ، فإنه يقطع رايحة الفسا . فودَّ أنه لم ينطق . وتكلم شخص من المُترفين

فقال ، أمس بِعْنا الباذنجان التى بدار خالتى ، بعشرين مثقالا ، فقال لو بعتم الكريز التى فيها لساوى أكثر من مايه .

وأخباره شهيرة ، قال أبو الحسن على بن موسى ، وقَعْتُ فى رسايل الكاتب الجليل ، شيخ الكتاب أبى زيد الفازازى ، على رسايل فى حق أبى محمد اليربطول ، ومنه إليه ، فمنها فى رسالة عن السَّيد أبى العلاء صاحب قرطبة ، إلى أخيه أبى موسى صاحب مالَقة ، ويصلكم به إن شاء الله ، القايد الأجل الأَكْرَم ، الحَسِيب الأَمجد الأَنجد ، أبو محمد أدام الله كرامته ، وكتب سلامته ، وهو الأَكيد الحرُمة ، القديم الخِدمة ، المرْعى [الماتَّة والذِّمّة](1) المُسْتَحق البِرِّ فى وجوه كثيرة ، ولِمعان أثيرة ، منها أنه من عَقِب عمَّار بن ياسر رِضوان الله عليه ، وحَسْبُكم هذا مجداً مؤثَّلا ، وشرفاً موصلا ، ومنها تَعيُّن بيته وسَلَفِه ، واختصاصهم من النَّجابة والظهور ، بأَنْوَه الإِسم وأَشْرَفه ، وكونهم بين مُعْتَكف على مضجعه ، أو مُجاهد بمُرْهَفِه ومُثَقَّفه ، ومنها سَبْقُهم إلى هذا الأَمر العزيز ، وتميُّزهم بأَثرة الشُّفوف والتَّمْييز ، ومنها الانقطاع إلى أخيكم ، مُمِدِّ مَوْرده ومَصْدَرِه ، وكَرَم مَغِيبه ومَحْضَره ، وهذه وسايل شتى ، وأذمَّة قلَّ ما تتأَتَّى لغيره .

وفاته

كانت وفاته بمالقة بعد عشرين وستماية ، قال الرييس ، أبو عمر بن حَكَم ، شاهدته قد وصل إلى السيد أبى محمد البيَّاسى أيام ثورته(2) ، وهو بشنتلية(3) مع وفد مالقة بالبيعة سنة ثنتين وعشرين وستماية .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الأمانة والحرمة) .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، وكان حينما اضطرب أمر الخلافة الموحدية فى أوائل القرن السابع الهجرى واليا على جيان ، فلما تولى السيد عبد الله بن يعقوب المنصور بالأندلس ، داعيا لنفسه بالخلافة ، متسميا بالعادل ، خرج عليه ، ونهض بدوره يدعو لنفسه بالخلافة فى منطقة جيان ، واستولى على حصن جيان على أبدة وبياسة ثم قرطبة ، وعرف عندئذ بالبياسى واستمرت ثورته زهاء ثلاثة أعوام ، ثم ثار به أهل قرطبة لإفراطه فى محالفة النصارى . وقتلوه حتى قتل (٦٢١ -- ٦٢٣ هـ)

(٣) شنتيلة أو شنتبالة بلدة أندلسية تقع على مقربة من نهر شنيل جنوبى قرطبة وشرق إستجة .

ومن الصوفية والفقراء

عبد الله بن عبد البر بن سليمن بن محمد بن محمد بن أشعث الرعينى

من أهل أرْجِدونه[(١)] من كورة رَيُّه ، يكنى أبا محمد ، ويعرف بابن أبى المجد .

حـــاله

كان من أعلام الكُور سَلفاً ، وترتُّباً ، وصلاحا ، وإنابَةً ، ونيَّة فى الصالحين ، مُتّسع الذَّرع للوارد ، كثير الإيثار بما تيسَّر ، مليح التخلُّق ، حسن السَّمت ، طيب النفس ، حسن الظن ، له حظ من الطَّلب ، من فقه وقِراءات وفريضة ، وخَوْضٍ فى طريقة الصوفية ، وأدب لا بأْس به ، قطع عُمْرَه خطيبا وقاضيا ببلده ، ووزيراً ، وكتب بالدار السلطانية ، فى كل ذلك لم يفارق السَّداد .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ الجليل أبى جعفر بن الزُّبير . رَحَل إليه من وطنه عام اثنين وتسعين وستماية ، ولازمه وانتفع به ، أخذ عنه الكتاب العزيز والعربية ، وسمع عليه الكثير من الحديث ، وعلى الخطيب الصوفى المحقِّق أبى الحسن فضل بن محمد بن فضيلة المعافرى ، وعلى الخطيب المحدث أبى عبد الله محمد بن عمر بن رُشَيْد ، وسمع على الشيخ القاضى الراوية أبى محمد النَّبعدى ، والوزير المُعَمر المحدث الحَسِيب أبى محمد عبد المنعم بن سِماك العاملى ، والعَدْل الرَّاوية أبى الحسن بن مَسْتَقور . وقرأ بمالقة على الأُستاذ أبى بكر بن الفخَّار ، وأجازه من أهل المشرق طائفة .

(١) أرجدونه أو أرشدونه وبالإسبانية Archidona هى بلدة أندلسية قديمة تقع شمال مالقة فى منطقة وعرة تحيط بها الجبال .

شعره

مما حدثني ابن أُخته صاحبُنا أبو عثمن بن سعيد . قال نظم الفقيه القاضي الكاتب أبو بكر بن شِبْرين ببيت الكُتّاب مألّف الجملة ، رحمهم الله ، هذين البيتين :

أَلا يا مُحِبٌّ المصطفى زِدْ صَبابةً ... وضَمِّخ لسان الذِّكر منه بطِيبه
ولا تَعْبَأَنْ بالمُبْطلين فإنمـا ... علامة حبِّ الله حبُّ حَبِيبه

فأخذ الأَصحاب في تذييل ذلك. فقال الشيخ أبو الحسن بن الجيّاب رحمه الله :

فمن يَعْمُر الأَوقات طُرًّا بذكره ... فليس نصيبٌ في الهدى كنَصيبه
ومن كان عنه مُعْرضاً طول دهره ... فكيف يَرجيه شَفِيع ذنوبه

وقال أبو القاسم بن أبي القاسم بن أبي العافية :

أَليس الذى جَلى دُجا الجهل هَدْيُه ... بنور أَقمْنا بعده نهتدى بـه
ومن لم يكن من دَأْبه شكر مُنعم ... فمشهَدُه في الناس مثل مَغِيبـه

وقال أبو بكر بن أرقم :

نبيٌّ هدانا من ضلال وحيرة ... إلى مُرْتقى سامى المحلِّ خصيبه
فهل يَذْكُر الملهوف فضل مُجيره ... ويَغْمط شاكى الداء شُكْرَ طَبيبه

وانتهى القول إلى الخطيب أبي محمد بن أبي المجد فقال رحمه الله مذيِّلا كذلك :

ومن قال مَغْرورا حِجابُك ذكره ... فذلك مغمورٌ طريدُ عيـوبه
وذِكْرُ رسول الله فرضٌ مؤكد ... وكل مُحِقٌّ قـايل بوجـوبه

وقال يوما شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب هذين البيتين على عادة الأُدباء في اختبار الأَذهان :

جاهد النَّفْس جاهدا فإذا مـا ... فَنيت عنك فهى عين الوجود
وليكن حكمك المسدَّد فيها ... حكم سَعْد فى قَتْلـه لليهود

قال ، فأَجابه أَبو محمد بن أَبي المجد :

أَيها العارف المُعَبِّر ذوقـا — عن معـانٍ غزيرة فى الوجود
إن حال الفَنا عن كل غير — لمقام المُراد غير المُريد
كيف لى بالجهاد[1] غير معان — وعدوُّه مُظـاهرٌ بجنـود
ولو أَنى حكمت فيمن ذكرتم — حُكم سَعد لكنت جدَّ سعيد
فأَراها صَبابة[2] بى فَتونـاً — وأَرانى فى حبِّها كيـزيد
سوف أَسلو بحبكم عن سواها[3] — ولو أَبْدَت فعل المحبِّ الودود
ليس شيءٌ سوى إلآهك يبقى — واعتبر صِدق ذا بقَوْل لَبيد

وفاته

توفى رحمه الله، ليلة النصف من شعبان المكرم عام تسعة وثلاثين وسبعماية . وكان يجمع الفقراء ويحضر طائفتهم ، وتظهر عليه حالٌ ، لا يتمالك معها ، وربما أَوْحَشت من لا يعرفه بها .

عبد الله بن فارس بن زيان

من بنى عبد الوادى ، تلِمْسانى يكنى أَبا محمد ، وينتمى إلى بنى زيَّان من بيت أُمرائهم :

كذا نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضى أَبى الطاهر ... قاضى الجماعة أَبى جعفر بن فركون . وله بأَحواله عناية ، وله إليه تردُّد كثير وزيارة . قال ، ورد الأَندلس مع أَبيه ، وهو طفل صغير ، واستقرّ بقمُّورية

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (بالجماد) والأولى أرجح .
(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (حبابة) .
(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (هداها) والأولى أرجح .

فى ديوان غَزانها . ولما توفى أبوه ، سلك مسلكه برهة ، ورفض ذلك ، وجعل يتردّد بين الولد ، وانقطع لشأنه .

حاله

هذا الرجل غريب النَّزعة فى الانقطاع عن الخَلْق ، ينقطع ببعض جبال بنى مشرف ، واتخذ فيها كهوفا وبيوتا من الشَّعر أزيد من أربعين عاما ، وهلم جرًّا ، منفردا ، لا يُداخل أحدا ، ولا يُلابسه من العرب ، ويجعل الحَلْفاءِ فى عنقه .... (١) أُختلف فيه ، فمن ناسبٍ ذلك إلى التَّلْبِيس وإلى لَوْثةٍ تأْتيه ، وربما أثاب بشيءٍ ، ويطلبون دُعاه ومُكالمته ، فربما أَفْهَم ، وربما أَبْهَم .

محنته

ذكروا أنه ورِث عن أخ له مالا غنيًّا ، وقدم مالقة ، وقد سُرق تاجر بها ذَهَباً عينا ، فاتُّهم بها ، فَجَرت عليه محنة كبيرة من الضَّرب الوجيع ، ثم ظهرت براءته ، وطلب الحاكم الجايِر منه العَفْو ، فعفا عنه ، وقال لله عندى حقوق وذنوب ، لعل بهذا أكفِّرها ، وصرف عليه المال فأَباه ، وقال لا حاجة لى به فهو مال سُوءٍ ، وتركه وانصرف ، وكان من أمر انقطاعه ما ذُكر .

شيءٌ من أخباره : استفاض عنه بالجهة المذكورة شِفاءُ المرضى ، وتفريج الكُرُبات . . . . (٢) إلى غير ذلك من أخبار لا تحصى كثيرة .

وهو إلى هذا العهد بحاله الموصوفة ، وهو عام سبعين وسبعماية .

مولده : بتلمسان عام تسعين وستماية . ودخل غرناطة غير ما مرة .

---

(١) هنا كلمات ممحاة استحالت قراءتها .

(٢) هنا بقية قائمة يتخللها المحو ، فرأينا الإغضاد عنها .

قال الفقيه أبو الطاهر منها فى عام عشرة وسبعماية][(١)] .

عبد الله بن فرج بن غَزْلون اليحصبى

يعرف بابن العسّال ، ويكنى أبا محمد ، طُليطُلى الأصل . سكن غرناطة واستوطنها ، الصالحُ المقصودُ التُّربة ، المبرورُ البُقْعة ، المُفْزِع لأهل المدينة عند الشِّدة.

حـــاله

قال ابن الصِّيرفى ، كان رحمه الله ، فذًّا فى وقته ، غريب الجود ، طِرْفاً فى الخير والزهد والورع ، له فى كل جو مُتَنَفَّس ، يضرب فى كل عِلْم بسَهم ، وله فى الوعظ تواليف كبيرة ، وأشعاره فى الزهد مشهورة ، جارية على ألْسنة الناس ، أكثرها كالأمثال جيِّدة الرَّضْعة ، صحيحة المبانى والمعانى . وكان يُحلِّق فى الفقه . ويجلس للوعظ . وقال الغافقى ، كان فقيها جليلا ، زاهدا ، مُتَفَنِّناً ، فصيحا لَسِنا ، الأَغْلَبُ عليه حفظ الحديث والآداب ، والنحو ، حافظاً ، عارفاً بالتفسير ، شاعرا مطبوعا . كان له مجلس ، يُقْرأُ عليه فيه الحِفْظ والتفسير ، ويتكلم عليه ، ويقصُّ من حِفْظه أحاديث . وألَّف فى أنواعٍ من العلوم ، وكان يعظ الناس بجامع غرناطة ، غريبا فى وقته ، فذا فى دهره ، عزيزَ الوجود .

مشيخته

روى عن أبى محمد مكِّى بن أبى طالب ، وأبى عمرو ، المقرى الدَّانى ، وأبى عمر بن عبد البرِّ ، وأبى إسحق إبراهيم بن مسعود الإلبيرى الزاهد ،

---

(١) وردت هذه الترجمة ، فى بضعة أسطر قاتمة وممحاة فى آخرها ، فى هامش اللوحة 239 إسكوريال . ولم ترد فى الزيتونة . وقد رأينا أن نثبتها هنا بالرغم مما تخللها من المحو والسقط الكثير .

وعن أبيه فَرَج ، وعن أبي زيد الحشا[١] القاضي ، وعن القاضي أبي الوليد الباجي .

شعره

وشعره كثير ، ومن أمْثَل ما رُوى منه قوله :

لست وَجِيها [لدى إلَهِى][٢] في مبدإ الأمر والمعـاد
لو كنت وجيها لما بَرانى في عالَم الكَوْن والفساد

وفـاته

توفى رحمه الله يوم الاثنين لعشر خلون من رمضان عام سبعة وثمانين وأربعمائة [وأُلحد ضحى يوم الثلاثاء بعده بمقبرة باب إلبيرة بين الجبانتين . ويعرف المكان إلى الآن بمقبرة العسّال . وكان له يوم مشهود ، وقد نيف على الثمانين رحمه الله ، ونفع به][٣] .

ومن الملوك والأمراء والأعيان والوزراء

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معوية ، أمير المؤمنين الناصر لدين الله

الخليفة المُمَتَّع ، المجْدُود ، المظَفَّر ، البعيد الذكر ، الشهير الصيت .

حـاله

كان أبْيَض ، أشْهَل ، حسن الوجه ، عظيم الجسم ، قصير الساقين .

---

(١) هكذا في الإسكوريال . وفي الزيتونة (النشا) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة في الإسكوريال . ووردت في الزيتونة (بذا الأمر) .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد في هامش الإسكوريال ، استكمال واستدراك . ووارد في مكانه بالزيتونة .

أول من تسمى أمير المؤمنين ، ولى الخلافة ، فعلا جدُّه ، وبَعُد صيته ، وتوطَّأ ملكه ، وكأن خلافته كانت شمسا نافية للظلمات ، فبايعه أجداده وأعمامه وأهل بيته ، على حداثة السِّن ، وجِدّة العمر ، فجدَّد الخلافة ، وأحيا الدعوة ، وزيَّن الملك ، ووطَّد الدولة ، وأجرى الله له من السَّعد ، ما يَعْظُم عنه الوصف ، ويُجِلُّ عن الذكر ، وهيأ له اسْتِنزال الثوار والمنافقين ، واجْتِثاث جراثيمهم .

بنوه : أحد عشر ، منهم الحَكَم الخليفة بعده ، والمنذر ، وعبد الله ، وعبد الجبار .

حُجَّابه : بدر مولاه ، وموسى بن حُدَير .

قضاته : جملة منهم أَسْلَم بن عبد العزيز ، وأحمد بن بقِيّ ، ومنذر ابن سعيد البلوطى .

نقش خاتمه : عبد الرحمن بقضاء الله راض .

أمه : أم ولد تسمى مُزْنة . وبويع له فى ربيع الأول من سنة تسع وتسعين ومائتين (١) .

دخوله إلبيره

قال المؤرخ ، أول غزوة غزاها بعد أن استَحْجَب بدرا مولاه ، وخرج إليها يوم الخميس رابع عشرة ليلة خلت من شعبان بسنة ثلاثمائة مُفَوِّضاً إليه ، ومُسْتدعيا نصره ، واستِيلاف الشَّاردين ، وتأمين الخايفين . إلى ناحية كُورة جيَّان ، وحصن المُنْتلون ، فاستَنْزل منه سعيد بن هُذيل ،

(١) هكذا ورد هذا التاريخ فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (تسع وسبعين ومائتين) وكلاهما خطأ . والصواب أن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (الناصر) بويع له فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ .

وأناب إليه من كان نافراً عن الطاعة ، مثل ابن اللبّانة وابن مَسَرَّة ودحون الأعمى[١] ، وانصرف إلى قرطبة ، وقد تجول ، وأنزل كل من بحصن من حصون كورة جيان . وبَسْطَة وناجِرة[٢] وإلبيرة وبجّانة والبُشُرَّة وغيرها بعد أن عرض نفسه عليها . وعلى عهده توفى ابن حَفْصُون . وجرت عليه هزيمة الخَنْدق فى سنة سبع وعشرين وثلاثماية ، وطال عمره، فملك نيفا وخمسين سنة ، ووُجد بخطِّه ، أيام السُّرور التى صَفَتْ لى دون كدر يوم كذا ويوم كذا ، فعُدَّت ، فوجدت أربعة عشر يوما .

وفاته

فى أول رمضان من سنة خمسين وثلاثمائة[٣] .

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية

يكنى أبا المُطرِّف ، ويلقب بالمُرْتَضى .

حاله وصفته

(١) هكذا وردت هذه الأسماء فى المخطوطين . وليس فيها ما يطابق الاسم الصحيح سوى ابن مسرة . وهوالفقيه الفيلسوف أبوعبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة الجبلى (٢٦٩ – ٣١٩ هـ) . وقد اتهم أيام الناصر بالكفر والزيغ ، وأصدر الناصر فى حقه خطابه المشهور بدحض بعض آرائه وتكفيرها (راجع كتابى دولة الإسلام فى الأندلس – الطبعة الرابعة – ص ٤٣٠ – ٤٣٤ وص ٦٩٨ – ٦٩٩)

(٢) وردت فى المخطوطين (وتاجلة) . وهو تحريف ونعتقد أن الصواب ما أثبتناه .

(٣) هذه الترجمة التى اختصرها الناسخ من الترجمة الأصلية لعبد الرحمن الناصر ، هى مع الأسف ترجمة ضئيلة مضطربة ، مليئة بالأخطاء التاريخية ، وهى بهذه الصورة لا يمكن نسبتها كما هى إلى ابن الخطيب ، وقدكتب ابن الخطيب عن عبد الرحمن الناصر فصلا قويا جزلا قيما فى كتابه « إعمال الأعلام » (طبع بيروت) ص ٢٨ – ٤١ . وراجع ما ورد عن عبد الرحمن الناصر من فصول متعاقبة فى كتابى دولة الاسلام فى الأندلس (الطبعة الرابعة) ص ٣٧٢ – ٤٦٣ .

كان أَبيض أَشْقر أَقْنَى ، مخففَّ البَدَن ، مُدوَّر اللحية ، خيِّراً ، فاضلا . من أَهل الصلاح والتُّقى ، قام بدولته خيْران العامرى ، بعد أَن كثُر السؤال عن بنى أُمية ، فلم يَجِد فيهم أَسْدًا للخلافة منه ، بورعه وعفافه ، ووقاره ، وخاطب فى شأنه ملوك الطوائف على عهده ، فاستجاب الكلُّ إلى الطاعة ، بعد أَن أَجمع[١] الفقهاءُ والشيوخ ، وجعلوها شورى ، وانصرفوا يريدون قرطبة ، وبدأُوا[٢] بصَنْهاجة بالقتال ، فكان نُزوله بجبل شقشتر على محجة واط .

وفاته

يوم لثلاث خلون من جمادى الأُولى سنة تسع وأَربعمائة . وكانت الهزيمة على عساكر المُرْتَضى ، فتركوا المحلات وهربوا ، وفَشى[٣] فيهم القتل ، وظَفِرت صَنْهاجة من المتاع والأَموال ، بما يأْخذه الوصف ، وقُتل المُرْتضى فى تلك الهزيمة ، فلم يوقع له على أَثر ، وقد بلغ سنه نحو أَربعين][٤]

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أَبى العاصى بن أُمية بن عبد شمس

يكنى أَبا المُطَرِّف ، وقيل أَبا زيد ، وقيل أَبا سليمن ، وهو الداخل إلى الأَندلس ، والمُجَدِّد الخلافة بها لذريته ، والملقَّب بصَقْر بنى أُمية[٥] .

---

(١) وردت فى الزيتونة (أجمعوا) وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٢) وردت فى الزيتونة (أبدوا) والتصويب أنسب للسياق .

(٣) وردت فى الزيتونة (وفشوا) وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٤) وردت هذه الترجمة فى الزيتونة فقط . ولم ترد فى الإسكوريال .

(٥) المعروف المتداول أن عبد الرحمن بن معاوية الداخل يلقب « بصقر قريش » وليس « بصقر بنى أمية » .

حــــاله

قال ابن مفرِّج ، كان الأَمير عبد الرحمن بن معاوية ، راجِح العقل ، راسخ العلم ، ثابت الفهم ، كثير الحزم ، فذّ العزم ، بريئا من العَجْز ، مستخفا للثِّقل ، سريع النهضة ، متّصل الحركة ، لا يَخْلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دَعَة ، ولا يَكِل الأُمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد بإبْرامها برأيه . وعلى ذلك فكان شجاعا ، مقْداما ، بعيد الغُور ، شديد الحَذَر ، قليل الطُّمأْنينة ، بليغا ، مُفَوَّهاً ، شاعراً مُحْسِنا ، سَمْحا ، سَخيا ، طَلق[1] اللسان ، فاضل البنان ، يلبس البياض ، ويَعْتَمّ به ويؤثره . وكان أُعْطِى هَيْبةً من وليِّه وعدوِّه لم يُعْطَها واحد من الملوك فى زمانه . وقال غيره ، وأَلْفى الأَمير عبد الرحمن الأَندلس ثغرا من أَنْأَى الثغور القاصية ، غُفْلا من سمَة المُلْك ، عاطلا من حِلْيه الإمامة ، فأَرْهَب أَهله بالطاعة السلطانية ، وحرّكهم بالسِّيرة الملوكية ، ورفعهم بالآداب الوسطية[2] ، فأَلبسهم عما قريب المودَّة ، وأَقامهم على الطريقة . وبدأَ يدوِّن الدواوين ، وأَقام القوانين ، ورفع الأَواوين . وفرَض الأَعطية ، وأَنْفَذ الأَقْضِية ، وعقد الأَلوية ، وجنّد الأَجناد ، ورفع العِماد ، وأَوْثَق الأَوتاد ، فأَقام للمُلْك آلته ، وأَخذ للسلطان عُدَّته .

نبذة من أَوّليته

لما ظهر بنو العباس بالمشرق ، ونجا فيمن نجا من بنى أُمية ، معروفا بصفته عندهم ، وخرج يَوُّم المغرب لأَمرٍ كان فى نفسه ، من مُلْك الأَندلس ، اقتضاه حِدْثان . فسار حتى نزل القَيْرُوان ، ومعة بَدْرٌ مولاه ، ثم سار حتى

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (حلو) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الواسطية) .

لحق بأخواله من نِنْزَة ، ثم سار بساحل العُدْوة ، فى كنف قوم من زَناتة ، وبعث إلى الأندلس بدراً ، فداخل له بها من يُوثق به ، وأجاز البحر إلى المُنَكَّب ، وسأل عنها ، فقال نَكَبُوا عنها ، ونزل بشاط من أحوازها ، وقدم إليه أولو دعوته ، وعقد اللّوا ، وقصد قرطبة فى خبر يَطُول ، وحروب مُبيرة ، وهزم يوسف الفِهرى ، واستولى على قرطبة ، فبُويع له بها يوم عيد الأضحى من سنة ثمان وثلاثين ومائة ، وهو ابن خمس وعشرين سنة .

دخوله إلبيرة

قالوا ، ولما انهزم الأمير يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، لحق بإلبيرة فامتنع بحصن غرناطة ، وحاصره الأمير عبد الرحمن بن معوية ، وأحاط به ، فنزل على صُلح ، وانْعَقد بينهما عقد ، ورَهَنه يوسف ابْنَيْه أبا زيد وأبا الأسود ، وشهد فى الأمان وجُوه العسكر ، منهم أُمية بن حمزة الفِهرى، وحبيب بن عبد الملك المروانى ، ومالك بن عبد الله القرشى ، ويحيى بن يحيى اليحصبى ، ورزق بن النُّعمان الغسّانى ، وجدار بن سلامة المَذْحجى . وعمر بن عبد الحميد العبدرى ، وثعلبة بن عبيد الجذامى ، والحُريش ابن حوار السلمى ، وعتّاب بن علقمة اللخمى ، وطالوت بن عمر اليحصبى ، والجرّاح بن حبيب الأسدى ، وموسى بن خالد ، والحُصَين بن العقيلى ، وعبد الرحمن بن منعم الكلبى ، إلى آخرين سواهم ، بتاريخ يوم الأربعاء لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة تسع وثلاثين ومائة . نقلت أسماء من شهد ، لكونهم ممن دخل البلدة ، ووجب ذكره ، فاجْتَزَأت بذلك ، فرارا من الإطالة ، إذ هذا الأمر بعيد الأمد ، والإحاطة لله .

بلاغته ونثره وشعره

قال الرَّازى ، قام بين يديه رجل من جند قِنِّسرين ، يستنجد به . وقال له ، يا ابن الخلايف الراشدين والسَّادات الأكرمين ، إليك فَرَرْنا . وبك عُذْت من زَمنٍ ظلوم ، ودهرٍ غشوم ، قلَّل المال ، وذهب الحال . وصيَّر إلىَّ بذاك المنال ، فأنت ولىُّ الحمد ، ورُبى المجد ، والمَرْجو للرِّفد . فقال له ابن معاوية مسرعا ، قد سمعنا مقالتك ، فلا تعودنَّ ولا سواك لمثله : من إراقة وجهك ، بتصريح المَسْلة ، والإلحاف فى الطَّلْبة ، وإذا ألَمَّ بك خَطْبٌ [أو دهاك أمر ، أو أحرقتك حاجة](1) فارفعه إلينا فى رُقعة لا تعدو ذكيا ، تَسْتُر عليك خِلَّتك ، وتكُفُّ شماتة العدوِّ بك ، بعد رَفْعها إلى مالِكنا ومالِكها ، عن وجهه ، بإخلاص الدُّعاء ، وحسن النية وأمر له بجائزة حسنة . وخرج الناس يعجبون من حسن منطقه ، وبراعة أدبه .

ومن شعره قوله ، وقد نظر إلى نخلة بمُنْية الرُّصافة ، مُفْرَدةٍ ، هاجت شَجَنه إلى تذكر بلاد المشرق :

تبدَّت لنا وسط الرَّصافة نخلة ... تناءت بأَرض الغَرْب عن بلد النخل

فقلت شَبيهى فى التغرُّب والنَّوى ... وطول التَّنائى عن بنيِّى وعن أَهلى

نشأْتِ بأَرض أنت فيها غريبةٌ ... فمثلك فى الإِقْصاء والمنتأَى مثلى

سقَتْك غوادى المزْن من صوبها الذى ... يسحُّ ويستمرئُ السِّماكين بالوبل

وفاته

توفى بقرطبة يوم الثلاثاء الرابع والعشرين لربيع الآخر سنة اثنتين

(١) هكذا وردت هذه الجملة فى الزيتونة . ووردت مكانها فى الإسكوريال عبار (وأحرقتك أمر) .

وسبعين ومایة ، وهو ابن تسعة وخمسين عاما ، وأربعة أشهر ، وكانت مُدَّة مُلكه ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر ، وأخباره شهيرة .

وجرى ذكره فى الرَّجز المسمى بقطع السلوك ، فى ذكر هذين من بنى أُمية ، قولى فى ذكر الداخل :

وغمر الهوْل كَقَطْع الليل · بفِتنة الفِهرى والصُّمَيل
وجَلَّت الفِتنة فى أندلس · فأصبحت فريسة المُفترس
فأسرع السَّير إليها وابْتَدَر · وكلٌّ شيءٍ بقضاءٍ وقَدَر
صَقْرُ قريش عابِد الرحمن · بانى المعالى لبنى مروان
جدَّد عهد الخلفاء فيها · وأسَّس الملك لمُتْرَفِيها
ثم أجاب داعِى الحِمام · وخلَّف الأمر إلى هشام
وقام بالأمر الحفيد الناصر · والناس مَحْصُور بها وحاصر
فأقبل السَّعد وجاءَ النَّصر · وأشْرق الأمن وضاءَ القصر
وعادت الأيام فى شبابٍ · وأصبح العدو فى تِباب
سطى وأعطى وتغاضى وَوَفا · وكلما أقدره الله عَفا
فعاد من خالَف فيها وانْتَزا · وحارب الكفار دأبا وغزا
وأوقع الرُّوم به فى الخَنْدق · فانقلب الملك بسَعْى مُخفق
واتصلت من بعد ذا فتوحُ · تَغْدُو على مَشواه أو ترُوح
فاغتنموا السِّلم لهذا الحين · ووصلت إرسال قُسْطَنطين
وساعد السَّعد فنال واقْتَنا · ثم بنى الزَّهرا فيما قد بُنا
حتى اذا ما كَمُلت أيامُه · سبحان من لا ينقَضى دوامه

عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن سعيد بن محمد اللخمي

من أهل رُنْدَة وأعيانها ، يكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن الحكيم ، وجدُّه يحيى ، هو المعروف بابن الحكيم ، وقد تقدم ذكر جُملة من هذا البيت .

حـــاله

كان رحمه الله عين بلده المشار إليه ، كثير الانقباض والعُزلة ، مجانبا لأهل الدنيا ، نشأ على طهارة وعِفَّة ، مَرْضى الحال ، معدودا فى أهل النَّزاهة والعَدالة ، وأفرط فى باب الصَّدقة ، بما انقطع عنه أهل الإثراء من المُتَصَدِّقين ، ووقفوا دون شَأْوه . ومن شهير ما يُروى من مناقبه فى هذا الباب . أنه أعتق بكل عضو من أعضائه رَقَبةً ، وفى ذلك يقول بعض أدباء عصره :

أَعْتَقَ بكل عُضْو منه رَقَبـــة   واعتدَّ ذلك ذخراً ليوم العَقَبة

لا أجدُ مَنْقَبة مثل هذه المَنْقَبة

مشيخته

روى عن القاضى الجليل أبى الحسن بن قَطْرال ، وعن أبى محمد بن ابن عبد الله بن عبد العظيم الزهرى ، وأبى البركات بن مَوْدود الفارسى ، وأبى الحسن الدَّباج ، سمع من هؤلاء وأجازوا له . وأجاز له أبو أمية ابن سعد السُّعود بن عُفير ، وأبو العباس بن مكنون الزاهد ، قال الأُستاذ أبو جعفر بن الزبير ، وكان شيخنا القاضى العالم الجليل أبو الخطَّاب ابن خليل ، يَطْنب فى الثناء عليه . ووقفت على ما خاطبه به معربا عن ذلك.

شعره

منقولا من « طُرْفة العصر » من قصيدة يردِّدُها المؤذنون منها :

كم ذا أُعلل بالتَّسْويف والأَمل — قلبا تغلَّب بين الوَجْد والوَجَل
وكم أُجَرِّد أذيال الصِّبا مَرحًا — فى مَسْرح اللهو وفى مَلْعب الغَزَل
وكم أُماطل [نَفسى بالمتاب] (١) — ولاعزم فيوضح لى عن واضح السُّبل
ضَلَلْتُ والحق لا تخفى معالمه — شتَّان بين طريق الجدِّ والهَزْل

وفاته

يوم الاثنين التاسع والعشرين لجمادى الأُولى عام ثلاثة وسبعين وسبعماية

عبد الرحيم بن إبراهيم بن عبد الرحيم الخزرجى

يكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن الفَرَس ، ويُلَقَّب بالمُهْر ، من أعيان غرناطة .

حـــاله (٢)

كان فقيها جليلَ القدر . رفيع الذكر ، عارفاً بالنحو واللغة والأَدب ، ماهر الكتابة ، رايق الشعر . بديع التَّوشيح ، سريع البديهة ، جاريا على أخلاق الملوك فى مَرْكَبه وملبسه وزِيِّه . قال ابن مسعدة (٣) : وطِيءَ من درجات [العزِّ] (٤) والمجد أعلاها ، وفرع من الأَصالة (٥) مُنْتَهاها . ثم علت

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (نفسا بالمتاب) .

(٢) أغفلت فى المخطوطين . وقد رأينا إثباتها جريا على أسلوب ابن الخطيب فى ترتيب مادة تراجمه .

(٣) هكذا فى الزيتونة ، وفى الإسكوريال (أبو مسعدة) .

(٤) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (البطنة) وهو تحريف .

همَّتُه إلى طلب الرِّياسة والمُلْك . فارتحل إلى بلاد العُدْوة ، ودعا إلى نفسه، فأجابه إلى ذلك الخَلْقُ الكثير . والجمٌّ الغفير . ودَعُوه باسم الخليفة ، وحيُّوه بتحية الملك . ثم خانَتْه الأَقدار . والدهر بالإنسان غدَّار ، فأَحاطت به جيوش الناصر بن المنصور ؛ وهو فى جيش عظيم من البربر ، فقُطع رأسه ، وهُزم جيشه، وسيق إلى باب الخليفة ، فعلق على باب مَرَّاكُش ، فى شبكة حديد ، وبقى به مدة من عشرين سنة[1] .

قال أَبو جعفر بن الزبير ، كان أَحد نبهاءِ وقته ، لولا حدَّة كانت فيه ، أَدت به إلى ما حدَّثنى به بعض شيوخى من صحبه . قال ، خرجنا معه يوما على باب من أَبواب مراكش برسم الفُرْجة ، فلما كان عند الرجوع نظرنا إلى رؤوس مُعلَّقة ، وتعوَّذنا بالله من الشَّر وأَهله ، وسأَلْناه سبحانه العافية . قال ، فأَخذ يتعجب منا ، وقال ، هذا خَوَرُ طريقة وخَساسةُ همَّة ، والله ما الشرف والهمَّة إلا فى تلك ، يعنى فى طَلبِ الملك ، وإن أَدَّى الاجتهاد فيه إلى الموت دونه على تلك الصِّفة . قال ، فما برحت الليالى والأَيام ، حتى شرع فى ذلك ، ورام الثورة . وسِيق رأْسه إلى مراكش ، فعلق فى جملة تلك الرؤوس ، وكتب عليه ، أَوقيل فيه :

(١) إن عبد الرحيم بن إبراهيم بن الفرس المذكور هو فى الأصل أندلسى ينتمى إلى قبيلة «جزولة» البربرية . ويعرف بالمهر وبأبى قصبة . وكان على جانب كبير من العلم والمعرفة . نزح إلى المغرب ، وحضر ذات يوم مجلس الخليفة الموحدى يعقوب المنصور ، وبدرت منه بعض آراء خشى عاقبتها فاختفى حينا ، ثم ظهر بعد وفاة المنصورفى السوس فى منازل قبيلته جزولة ، وانتحل الإمامة ، وادعى أنه « القحطانى » الذى ورد ذكره فى الحديث بأنه لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان ، يقود الناس ، ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا . وذاعت دعوته فى بلاد السوس والتفت حوله جموع كثيرة ، وجردت عليه حكومة مراكش عدة حملات صغيرة متوالية ، كان يهزمها تباعا . ثم جهز الخليفة الناصر الموحدى حملة كبيرة لمحاربته وسحقه ، فانفض عنه معظم جموعه ، وقتل منهم من وقف إلى جانبه ، وقبض على الدعى . وقتل واحتز رأسه ، وعلق على باب مراكش ، وكان مصرع ابن الفرس وانهيار ثورته على هذا النحو فى سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م) .

لقد طَمَّح المُهر الجُمُوح لغاية　　فقطَّع أعناق الجِياد السَّوابق
جَرى وجرَتْ رجلاه لكنَّ رأسه　　أتى سابقاً والجسم ليس بسابق

وكانت ثورته ببعض جهات دَرْعة من بلاد السُّوس .

مشيخته

أخذ عن صِهره القاضى أبى محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم . وعن غيره من أهل بلده ، وتفقه بهم ، وبهر فى العَقْليَّات والعلوم القديمة ، وقرأ على القاضى المحدِّث أبى بكر بن أبى زَمَنِين ، وتلا على الأُستاذ الخطيب أبى عبد الله بن عروس ؛ والأدب والنحو على الأُستاذ الوزير أبى يحيى بن مَسْعدة . وأجازه الأُستاذ الخطيب أبو جعفر العطَّار . ومن شعره فى الثورة :

قولوا لأَولاد[1] عبد المؤمن بن على　　تأَهبوا لوقوع الحادث الجلل
قد جاء فارسُ قحطان وسيدها[2]　　ووارث الملك والغلاَّب للدول[3]

ومن شعره القصيدة الشهيرة وهى :

الله حسْبى لا أُريد سواه　　هل فى الوجود الحق إلاَّ الله
ذات الإِلَه بها تقوم دولتنا　　هل كان يوجد غيره لولاه
يا من يَلوذ بذاته أنت الذى　　لا تطمع الأَبصار فى مَرآه
لا غرو أنّا قد رأيناه بها　　فالحق يظهر ذاته وتراه[4]
يا من له وجَبَ الكمال بذاته　　فالكل غاية فوْزهم[5] لقياه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى نص آخر (لأَبناء) .
(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . وفى نص آخر (قد جاء سيد قحطان وعالمها) .
(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . وفى نص آخر (ومنتهى القول والعلاب للدول)
(٤) هكذا ورد هذا البيت فى الإسكوريال وفى الزيتونة كالآتى : (لأغرو أنا قد رأيناه : فالحق يظهر ذاته وتراه) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (قدرهم) .

أنت الذى لما تعالى جدُّه قصرت خطا الألباب دون حماه (١)
أنت الذى امتلأ الوجود بحَمْده لما غدا ملآن من نُعْمـاه
أنت الذى اخترع الوجود بأسره ما بين أعلاه إلى أدناه
أنت الذى خصَّصتنا بوجودنا أنت الذى عرَّفتنا معناه (١)
أنت الذى لو لم تَلُح أنواره لم تُعرف الأضداد والأشباه
لم أفْشِ ما أوْدَعتنيه إنَّه ما صان سرَّ الحق مَنْ أفشاه
عجز الأنام عن امتداحك إنه تتضاءل الأفكار دون مداه
من كان يعلم أنك الحقُّ الذى بَهَر العقول فحَسْبُه وكفاه
لم ينقطع أحد إليك محبَّةً إلا وأصبح حامدا عُقْباه

وهى طويلة ..

. . . .

من أهل غرناطة يكنى أبا ورد ويعرف بابن القصبجة

عديم رواء الحس ، قريب العهد بالنجعة ، فارق وطنه وعيصه ، واستقبل المغرب ... الوفادة ، وقدم على الأندلس فى أُخريات دولة الثانى من الملوك النصريين ، فمهد جانب البر له ، وقرب مجلسه ، ورعى وسيلته ، وكان على عمل بر ، من صوم واعتكاف وجهاد .

نباهته

ووقف بى ولده الشريف أبو زيد عبد الرحيم ، على رسالة كتب بها أمير مكة على عهده إلى سلطان الأندلس ثانى الملوك النصريين رحمهم الله ، وعبر فيها عن نفسه ، من عبد الله المؤيد بالله محمد بن سعد الحرسنى ، فى غرض المواصلة والمودة والمراجعة عن بر صدر عن السلطان رحمه الله من فصولها :

(١) هذا البيت وارد فى الإسكوريال ، وساقط فى الزيتونة .

«ثم أنكم رضى الله عنكم، بالغنم فى الإحسان للسيد الشريف أبى القاسم الذى انتسب إلينا ، وأويتموه من أجلنا ، وأكرمتموه ، ورفعتموه احتراما لبيته الشريف، جعل الله عملكم معه وسيلة بين يدى جدّنا عليه السلام » وهى طويلة وتحميدها ظريف ، من شنشنة أحوال تلك البال بمكة المباركة .

وفاته : توفى شهيدا فى الوقيعة بين المسلمين والنصارى بظاهر ألمرية عندما وقع الصريخ لإنجادها ، ورفع العدو البرجلونى عنها فى السادس والعشرين من شهر ربيع الأول عام عشرة وسبعمائة[١] .

ومن ترجمه المقريين والعلماء والطلبة النجباء من ترجمة الطارئين منهم

عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن أصبَغ بن حسن بن سعدون بن رضوان بن فتّوح الخثعمى

مالقى [يكنى][٢] أبا زيد ، وأبا القاسم ، وأبا الحسين ، وهى قليلة ، شُهر بالسُّهيلى .

حـــاله

كان مُقرياً مجوِّداً ، متحققاً بمعرفة التفسير ، غواصا على المعانى البديعة، ظريف التّهدِّى إلى المقاصد الغريبة[٣] ، محدِّثاً واسع الرِّواية ، ضابطا لما يحدِّث به ، حافظاً متقدما ، ذاكرا للأدب والتواريخ والأشعار والأنساب، مبرِّزا فى الفهم ، ذكيا ، أديبا كاتبا بليغا ،شاعرا مجيدا ، نحويا عارفا

(١) وردت هذه الترجمة بهامش اللوحة 242 إسكوريال ، مطموس أولها ، وغير واضح اسم صاحبها (الذى ذكر فيها بعد أنه الشريف أبو القاسم)، فرأينا أن ننقلها كما هى ، وأن تتخذ مكانها بعد ترجمة ابن الفرس .

(٢) ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى الزيتونة .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الطريفة) .

بارعا ، يَقِظاً ، يَغْلب عليه عِلْمُ العربية والأدب . استُدعى آخراً إلى التدريس بمرّاكش ، فانتقل إليها من مالقة ، محل إقرائه ، ومُتَبوَّأ إفادته ، فأخذ بها الناس عنه ، إلى حين وفاته .

مشيخته

تلا بالحَرَمين على خال أبيه الخطيب أبى الحسن بن عباس ، وبالسَّبْع على أبى داود بن يحيى ، وعلى أبى على منصور بن عَلاء ، وأبى العباس بن خلف بن رَضِى ، وروى عن أبى بكر بن طاهر ، وابن العربى ، وابن قَنْدَلَة ، وأبى الحسن شُريح ، وابن عيسى ، ويونس بن مُغيث ، وأبى الحسن بن الطَّراوة ، وأكثر عنه فى علوم اللسان ، وأبى عبد الله حفيد[1] مكّى ، وابن أخت غانم ، وابن مُعَمَّر ، وابن نجاح ، وأبى العباس بن يوسف ابن يُمْن الله ، وأبوى القاسم ابن الأَبْرش ،وابن الرَّماك ،وأبوى محمد ابن رشد ، والقاسم بن دَحْمان ، وأبوى مروان بن بُونة ، وأبى عبد الله بن بَحْر . وناظر فى « المدوَّنة » على ابن هشام . وأجاز له ولم يَلْقه ، أبو العباس عبّاد بن سرحان ، وأبو القاسم بن وَرْد .

من روى عنه

روى عنه أبو إسحق الزَّوالى ، وأبو إسحق الجانى ، وأبو أمية بن عُفير ، وأبو بكر بن دَحْمان ، وابن قَنْتوال ، والمحمدون ابن طلحة ، وابن عبد العزيز ، وابن على جو يحمات ، وأبو جعفر بن عبد المجيد ، والحفّار وسهل بن مالك ، وابن العفّاص ، وابن أبى العافية ، وأبو الحسن السَّراج ، وأبو سليمن بن حَوْط الله ، والسماتى ، وابن عياش الأَنْدرشى ، وابن عطية ،

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الزيتونة .

وابن يربوع ، وابن رُشَيد ، وابن ناجح ، وابن جَمْهُور ، وأبو عبد الله بن عيَّاش الكاتب ، وابن الجِذع ، وأبو على الشَّلُوبين ، وسالم بن صالح ، وأبو القاسم بن بَقِى ، وأبو القاسم بن الطَّيْلَسان ، وعبد الرحيم بن الفَرَس ، وابن المَلْجُوم ، وأبو الكرم جُودِى ، وأبو محمد بن حَوْط الله ، إلى جملة لا يحصرها الحدُّ .

دخل غرناطة . وكان كثير التأميل والمدح لأبي الحسن بن أَضْحَى قاضيها ورئيسها (١) . وله فى مدحه أشعار كثيرة ، وذكر لى من أَرَّخ فى الغَرْناطيين ، وأخبرنى بذلك صاحبنا القاضى أبو الحسن بن الحسن كتابة عمَّن يثق به .

تواليفه

منها كتاب « الشَّريف والإعلام بما أُبْهم فى القرآن من أَسماءِ الأعلام » . ومنها شرح آية الوصية ، ومنها « الرَّوض الآنِفْ والمشْرع الروَّا فيما اشتمل عليه كتاب السيرة واحْتَوى » . وابتدأ إملاءَه فى محرم سنة تسع وستين وخمسماية ، وفرغ منه فى جمادى منها . ومنها "حِلْية النَّبيل فى معارضة ما فى السَّبيل" . إلى غير ذلك .

شعره

قال أبو عبد الله بن عبد الملك : أنشدنى أبو محمد القطَّان ، قال أنشدنى أبو على الرُّندى ، قال أنشدنى أبو القاسم السُّهيلى لنفسه :

أُسايل عن جيرانه من لَقِيته ... وأعرض عن ذكراه والحال تنطق

---

(١) هو من ثوار الأندلس فى أواخر عهد المرابطين . وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الثانى من الإحاطة ص ٥٠٤ حاشية) .

ومالى إلى جيرانه من صَبابـة　　ولكنَّ قلبي عن صَبُوح[١] يوفِّق

ونقلت من خطِّ الفقيه القاضى أَبى الحسن بن الحسن ، من شعر أَبى القاسم السُّهيلى ، مذيِّلا ببيت أَبى العافية فى قطعة لزُوميَّة :

ولما رأَيْتُ الدَّهر تسطو خطوبه　　بكل جَليد فى الورى وُهدان

ولم أَر من حِرْزٍ أَلوذ بظلِّـه　　ولا مَنْ له بالحادثات يُـدان

فَزَعت إلى من تملَّك الدهر كفُّه　　ومن ليس ذو مُلْك له بمران

وأَعْرَضتُ عن ذكر الورى متبرِّماً　　إلى الرَّب من قاص هناك ودان

وناديتُه سـرا ليرحم عَبْـرتى　　وقلت رجائى قادنى وهَـدانِ

ولم أَدعه حتى تطاول مفضلا　　علىّ بالهام الدُّعاءِ وعـان[٢]

وقلت أَرْجِى عطفـه متمثِّلا　　ببيت لعَبْـد صـايل بَرْدان

تغطيت من دهرى بظلِّ جَناحه　　فعسى تَرى دهرى وليس بَرانى

قلت ، وما ضَرَّه ، غفر الله له ، لو سَلِمت أَساته من بَرْدان ، ولكن أَبَتْ صناعة النحو إلا أَن تخرج أَعناقها .

ومن شعره قولة :

تواضع إذا كنتَ تَبْغى العـلا　　وكنت راسيا عند صَفْو الغَضَب

فخَفْضُ الفتى نفسه رِفْعَـةٌ　　له واعتبر برُسُوب الذَّهب

وشعره كثير ، وكتابته كذلك ، وكلا هما من نمط يقصر عن الإجادة .

وقال ملغِّزا فى محمل الكُتُب ، وهو مما استُحسن من مقاصده :

حامل للعلـوم غير فقيـه　　ليس يرجو أَمرا ولا يتَّقيه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (هواه) .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال مرة أخرى (وهدان) .

يحمل العِلم فاتحا قدميه   فإذا التَقَتا[1] فلا علم فيه

ومن ذلك قوله فى المجنبات :

شَغَف الفؤاد نواعمٌ أبكار   برَّدت فؤاد الصَّب وهى حِرار
أذْكى من المِسْك العتيق لنا   نَشْقاً وألذُّ من صباً حين تُدار
وكأنَّ من صافى اللُّجين بطونَها   وكأنَّما ألوانهن نُضار
صَفَتْ البواطن والظواهر كلها   لكن حَكَتْ ألوانها الأزهار
عجباً لها وهى النعيم يصوغها   نارٌ وأين من النَّعيم النار

ومن شعره وثَبَت فى الصِّلة :

إذا قلتُ يوما سلام عليك   ففيها شِفاءٌ وفيها سِقام
شِفاً إذ قلتُها مُقْبِلا   وإن قلتُها مُدْبِرا فالحِمام
فاعْجَب لحال اختلافيهما   وهذا سلامٌ وهذا سلامُ

مولده : عام سبعة أو ثمانية وخمسماية .

وتوفى فى مرّاكش سَحَر ليلة الخامس والعشرين من شعبان أحد وثمانين وخمسماية ، ودفن لظُهره بجبّانة الشيوخ خارج مراكش ، وكان قد عَمِى سبعة [عشرة][2] عاما من عمره

[عبد الرحمن بن هانىء اللخمى]

يكنى أبا المطرف ، من أهل فرقد من قرى إقليم غرناطة .

حاله

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (انضمتا) .
(٢) واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الإسكوريال .

كان فقيها فاضلا ، وتجوّل فى بلاد المشرق . قال أنشدنى إمام الجامع[1] بالبصرة :

بلاءٌ ليس يشبهه بلاءُ عداوة غير ذى حَسَب ودين
يُنيلك منه عِرْضاً لم يَصُنْه ويَرْتَعُ منك فى عِرْضٍ مَصُون][2]

[عبد الرحمن بن أحمد بن أحمد بن محمد الأزدى]

من أهل غرناطة ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن القصير.

حاله

كان فقيها . . . .[3] جليلا ، بارع الأدب ، عارفا بالوَثِيقة ، نقّادا لها ، صاحب رواية ودِراية ، تقلّب ببلاد الاندلس ، وأخذ الناس عنه بمرسية وغيرها . ورَحل إلى مدينة فاس ، وإفريقية ، وأخذ بها ، ووُلّى القضاء بتقرش من بلاد الجريد .

مشيخته

روى عن أبيه القاضى أبى الحسن بن أحمد ، وعن عمه أبى مروان ، وعن أبوى الحسن ابن دُرّى، وابن الباذِش ، وأبى الوليد بن رشد ، وأبى إسحق بن رشيق الطليطلى نزيل وادى آش ، وأبى بكر بن العربى ، وأبى الحسن ابن وَهَب ، وأبى محمد عبد الحق بن عطيّة ، وأبى عبد الله بن أبى الخِصال ،

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (الصلاة) .

(٢) وردت هذه الترجمة الموجزة فى موضعها المعتاد بالزيتونة . وأشار إليها الناسخ بالإسكوريال فى هامش اللوحة 244 بقوله (قلت سقط هنا فى جملة من اختصرتهم عبد الرحمن بن هانى اللخمى) وأورد البيتين .

(٣) مكانها كلمات غير مقروءة .

وأبي الحسن يونس بن مغيث . وأبي القاسم بن وَرْد ، وأبي بكر بن مسعود الخُشنى ، وأبي القاسم بن بَقِى ، وأبي الفضل عِياض بن موسى بن عياض ، وغيرهم .

توالیفه

له تواليف وخطب ورسائل ومقامات ، وجَمع مناقب مَنْ أدركه من أهل عصره ، واختصر كتاب الجُمل لابن خاقان الإصبهانى ، وغير ذلك ، وألف برنامجاً يضم رواياته .

من روى عنه

روى عنه ابن الملجوم ، واستوفى خَبَرَه

وفاته

رَكِب البحر قاصدا الحج ، فتوفى شهيداً فى البحر ، قتله الرُّوم بمرسى تونس مع جماعة من المسلمين ، صبح يوم الأَحد ، فى العشر الوسط من شهر ربيع الآخر سنة ست وسبعين وخمسماية][1] .

عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد الأنصارى

يكنى أبا بكر ، ويعرف بابن الفصَّال .

حاله

هذا الرجل فاضل عريقٌ فى العدالة . ذكى ، نبيل . مُخْتَصر الجِرْم ، شعلة من شُعل الإدراك ، مليح المحاورة ، عظيم الكفاية . طالب مُتْقِن .

(١) وردت هذه الترجمة فى هامش اللوحة 244 من مخطوط الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

قرأ على مشيخة بلده ، واختصَّ منهم بولى النعمة على أبناء جنسه ، أبى سعيد ابن لُب ، واستَظْهر من حفظه كُتبا كثيرة ، منها كتاب التفريع فى الفروع ، وارتسم فى العُدول ، وتعاطى لهذا العهد الأدب ، فبرَّز فى فنِّه .

أدبه

مما جمع فيه بين نظمه ونثره ، قوله يخاطب الكتّاب ، ويُسْحر ببراعته الألباب :

لعل نسيم الريح يسرى عَليلُه ... فأهدى صحيح الوُدّ طىَّ سقيم
لتحملها عنِّى وأزكى تحيـة ... لقيتـه كهف مـانِع ورَقِيم
ويذكر ما بين الجوانح من جوىً ... وشوقٍ إليهم مُقعِد ومُقيم(١)

ياكُتَّاب المحلِّ السامى، والإمام المُتَسامى، وواكف الأدب البسَّامى، أناشدكم بانتظامى فى محبَّتكم وارتسامى ، وأُقسم بحقِّكم علىّ وحبَّذا إقسامى ، ألا ما أمْدَدتم بأذهانكم الثاقبة ، وأسْعَدتم بأفكاركم النَّيرة الواقبة ، على إخراج هذا المُسَمَّى ، وشرح ما أبهَمَه المُعَمَّى(٢) ، فلعَمْرى لقد أحْرَق مزاجى ، وفرّق امتزاجى ، وأظلم به وِهاجى ، وغطَّى على مرآة ابتهاجى ، فأعِينونى بقوة ما استطعتم ، وأقْطِعونى من مَدَدِكم ما قطعتم ، وآتونى بذلك كله إعانةً وسدًا . وإلا فها هُو بين يديكم ، ففِكُّوا غَلْقه ، واسرُدوا خَلْقه ، واجمعوا مُضَغه المتباينة وعَلْقه ، حتى يستقيم جسدًا قايماً بذاته ، متَّصفاً بصفاته المذكورة ولذَّاته ، قايلا بتسلِّيه أسلوباً مُصحفاً كان أو مقلوباً . وإن تـأبَّى عليكم وتمنَّع ، وأدركه الحياء [فتستَّر](٢) وتقنَّع ، وضرب على آذان

---

(١) هذا البيت وارد فى الإسكوريال وساقط فى الزيتونة .

(٢) زائدة فى الزيتونة .

الشُّهدا ، وربط على قلوبهم من الإرشاد له والاهتِدا : فابْعَثوا أَحدكم إلى المدينة ليسأَل عنه خَدينه :

أُحاجى ذوى العِلم والحلم ممن ترى شُعْلَة الفهم من زَنْده
عن اسم ٍ هو الموت مهما دنا وإن بات يُبْكَى على فقده
لذيذٌ وليس بذى طعم ويُومر بالغُسْل من بعده
وأَطيبُ ما يَجْتنيه الفتى لدى ربَّة الحسن أَو عَبده
مضجعه عُشْر الثلث فى حساب المُصْحف من خـــدِّه
وإن شِيت قُل مَطْعَمٌ ذمَّـه الرسول وحضَّ على بُعده
وقد جاءَ فى الذِّكر إخراجه لقوم نَبِى على عهـده
وتصحيف ضِدٌّ له آخر يُبارك للنَّحل فى شَهْده
وتصحيف مَقْلُوبه ربَّـه تردَّد من قبل فى ردِّه
فهاكم معانيه قد بدَتْ كنارُ الكريم على نَجْده

وكتب للولد أَسعده الله ، يتوسل إليه ، ويروم قضاءَ حاجته :

أَيها السيد العزيز تصدَّق فى المقام العلىِّ لى بالوسيلة
عند ربِّ الوَزارتين أَطال الله أَيـامه حسـاناً جميـلة
علَّه أَن يجيرنى من زمـان مسَّنى الضُّر من خُطاه الثَّقيلة
واستطالت علىَّ بالنَّهب جوراً من يديه الخفيفة المُسْتَطيلة
لم تَدَعْ لى بضاعة غير مُزْجاة ونَزْرٍ أَهْوَن به من قليله
وإذا ما وفَّى لى الكَيْل يوما حَشَفًا ما يُكيله سوء كيلـه
فشفى بى غَليله لا شفى بى دون ابنايه الجميع غَليلـه
من لهذا الزمان مُذْ نال منِّى ليس لى بالزمان والله حيلة
غير أَن يَشْفع الوزير ويَدْعى عبده أَو خَدِينه أَو خليله

دُمْتَ يا بن الوزير فى عِزِّك السامى ودامت به الليالى[1] كفيلة

سيدى الذى بعزّة جاهه أَصُول[2] ، وبتوسُّلى بعنايته أَبلُغ المأْمول والسُّول ، وأَروم لما أَنا أَحُوم عليه الوصول ، ببركة المَشْفُوع إليه والرسول ، المرغوب من مجدك السَّامى الصريح ، والمؤمَّل من ذلك الوجه السَّنِى الصبيح ، أَن تقوم بين يدى نَجْوى الشَّفاعة ، هذه الرُّقاعة ، وتُعين بذاتك الفاضلة النفّاعة ، من لسانك مِصْقاعة ، حتى يَنْجلى حالى عن بَلْج ، وأَتنسَّم من مهبَّات القبول طيب الأَرَج ، وتتطلع مُسْتَبْشِرات فَرْحَتى من ثَنيَّات الفَرَج ، فإن سيِّد الجماعة الأَعلى ، وملاذ هذه البَسيطة وفحْلَها الأَجْلى ، فَسَح الله تعالى فى ميدان هذا الوجود بوجُوده ، وأَضفى على هذا القُطْر ملابس السَّتر برأيه السديد وسُعوده ، وبلَّغه فى جميعكم غاية أَمله ومقصوده ، قلما تَضيع عنده شفاعة الأَكبر من ولده ، أَو يَخيب لديه من توسَّل إليه بأَزكى قِطَع كَبِده ، وبحقك أَلا ما أَمرت هذه الرُّقعة بالمثول بين يدى ذلك الزَّكى الذَّات الطاهر البُقْعة ، وقل لها قبل الحلول بين يدى هذا المولى الكريم ، والمَوْئِل الرحيم ، بعظيم التوقير والتَّبجيل ، واعلمى يا أَيتها السايل ، أَن هذا الرجل هو المؤمَّل ، بعد الله تعالى فى هذا الجيل ، والحجَّة البالغة فى تبليغ راجيه أَقصى ما يؤملونه بالتعجيل ، وخاتمة كلام البلاغة ، وتمام الفصاحة ، المُوقَف عليه ذلك كله بالتَّسجيل ، وغُرَّة صفح دين الإسلام المؤيدة بالتَّحْجيل . وهذا هو مَدُبِّر فلك الخلافة العالية بإيالته ، وحافظ بَدْر سمايها السامية بهالته ، فقِرِّى بالمثول بين يديه عيناً . ولقد قضيتُ على الأَيام بذلك دَيْناً ، وإذا قيل ما وسيلة

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الأ[illegible]) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (أطول) .

مُؤَمِّلك ، وحاجة مُتوسِّلك ، فوسيلته تشيُّعه فى أهل ذلك المعنى ، وحاجته يتكفَّل بها مجدكم الصميم ويُغْنى ، وليست تكون بخُرْمَة جاهكم من العرَض الأدنى ، وتَمَنَّ فإنَّ للإنسان هنالك ماتَمَنَّى ، وتولَّى تكليف مرسلى بحسب ما وَسِعكم ، وأنتم الأَعْلون ، والله معكم . ثم اثْن العِنان ، والله المستعان ، وأَعِيدى السلام ، ثم عودِى بسلام .

وخاطب قاضى الحضرة ، وقد أنكر عليه لباس ثوب أَصْفَر :

أَبقى الله المثابَة العليَّة ، ومَثَلُها أَعْلى ، وقِدْحُها فى المَعْلُوَّات المُعَلَّى ، مالها أَمَرَت ، لا زالت بركاتُها تَنْثال ، ولأَمرٍ ما يجب الامتِثال ، بتَغْيير ثوبى الفاقِع اللون ، وإحالته عن مُعتاده فى الكَوْن ، وإلحاقه بالأَسود الجُون أَصْبُغه حِداداً ، وأَيام سيدى أَيام سُرور ، وبنو الزمان بِعدْله ضاحكٌ ومَسْرور ، ما هكذا شِيمَةُ البَرُور ، بل لو استطعنا أن نَزْهو له كالميلاد ، ونتزيا فى أيامه بزِى الأَعْياد ، ونرفُل من المشروع فى مُخْبر ومَوْرُوس ، ونتجلَّى فى حُلل العَرُوس ، حتى تَقرَّ عينُ سيدى بكتيبة دِفاعه ، وقيمة[1] نوافله وإشْفاعه ، ففى عِلم سيدى الذى به الاهتداء ، وبفضله[2] الاقتداء ، تفضيل الأَصْفَر الفاقع ، حيثما وَقَع من المواقع ، فهو مهما حَضَر نزهة الحاضرين ، وكفاه فاقعٌ لونها تسرُّ الناظرين . ولقد اعْتَمَّه جبريل عليه السلام ، وبه تطرَّز المُحْبرات والأَعلام ، وإنه لزِىُّ الظُّرفاء ، وشارة أهل الرِّفاء ، اللهم إلا إن كان سيدى ، دام له[3] البقاء ، وساعده الارتقاء ، يُنهى أهل التَّبريز ، عن مقاربة لون الذهب الإبريز ، خيفة أن تَميل له منهم ضريبة . فيزنُّوا بريبة ، فَنعْم إذاً ونُعمى عين . وسمعاً وطاعة لهذا الأَمر الهيِّن اللَّين ، أَتْبَعُك لا زيداً وعمراً . ولا أعصى لك أمراً ، ثم

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (قيم) .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (بعلمه) مرة أخرى والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (أدام الله له) .

لا ألبس بعدها إلا طِمْراً ، وأتجرّد لطاعتك تجريداً . وأسلك إليك فقيراً ومزيداً ، ولا أتعرّض للسُّخط بلِبْس شَفيف ، استنشق هَباه ، وألبس عَباه ، وأبرأ من لِباس زِى يُنشىءُ عِتابا ، يلقى على لسانٍ مثل هذا كِتابا ، وأتُوب منه مَتابا ، ولولا أنى الليلة صِفر اليدين ، ومُعْتَقل الدَّيْن ، لباكَرْت به من حانوت صَبّاغ رأس خابِية ، وقاع مظلمة جابية ، فأصيِّره حالكاً ، ولا ألبسه حتى استَفْتِى فيه مالِكاً، ولعلى أجِدُ فأُرضى سيدى بالتَّزيّ بشارته ، والعمل بمقتضى إشارته ، والله تعالى يُبقيه للحسنات ، يُنَبِّه عليها ، ويومى بعمله[١] وحظِّه إليها ، والسلام .

وخاطبنى وقد قَدِم فى شهادة المواريث بحضرة غرناطة :

يا منتهى الغايات دامت لنا غايتك القُصْوى بلا فَوْت
طلبتُ إحيائى بكم فانتهى من قَبْله حالى إلى الموت
وحقِّ ذلك الجاهِ جاه العُلا لامِتُّ إلا أن أتى وقت

مولاى الذى أتأذّى[٢] من جَوْر الزمان بذِمام جلاله ، وأتعوّذ من نَقْصِ شهادة المواريث بتمام كماله ، شهادةً يأباها المُعْسر والحىّ ، ويودُّ أن لا يوافيه أجله عليها الحىّ ، مُناقِضة لما العَبْدُ بِسَبيله ، غير مُربح قَطْمِيرُها من قليله ، فإن ظهر لمولاى إعفاء عَبْده ، فمن عِنده . والله تعالى يُمتِّع الجميع بدوام سَعْده ، والسلام الكريم ، يختص بالطاهر من ذاته ومجده ، ورحمة الله وبركاته ، من عبد إنعامكم ابن الفصّال لطف الله به :

قد كنت أسترزق الأحياء مارزقوا شيئا ولا وفَّونى بعض أقوات
فكيف حالى لمّا أن شكوتهم رجعت أطلب قُوتى عند أموات

والسلام يعود على جَناب مولاى ورحمة الله وبركاته :

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بعلمه) .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (اتلذذ) والأولى أرجح .

وخاطب أحد أصحابه ، وقد استَخْفى لأمر قُرف به ، برسالة افتتحها بأبيات على حرف الصاد ، أجابه المذكور عن ذلك بما نصُّه ، وفيه إشارة لغَلَط وقع فى الإعراب :

يا شُعلةً من ذكاءٍ أرسَلَت شررا إلى قريبٍ من الأرجاءِ بعدقَصِ
وشبهةً حملت دعوى السِّفاح على فحلٍ يليق به مضمونها وَخِص
رحماك بى فلقد جرَّعتنى غُصصا أثار تعريضُها المكتوم من غَصِ
بلَيْتَنى بنَكْأةِ القَرْح فى كبدى، كمِثْل مرتجف المجذوم بالبَرَص

أيها الأخ الذى رَقى ومسح ، ثم فَضَح ، وغشَّ ونَصح ، ومَزَّق ثم نَصح ، وتلاعب بأطراف الكلام المشقَّق فما أفْصَح ، ما لسحَّاتك ذات الجيد المنصوص ، توهم سِمَة الوُدِّ المرصوص ، ثم تعدل إلى التأْويلات عن النُّصوص ، وتُونس على العموم ، وتُوحش على الخصوص ، لا درّ درُّه من باب برٍّ ضاع مفتاحه ، وتأْنيس حرٍّ سبق بالسجن استفتاحه ، ومن الذى أنهى إلى أخى خبر ثِقافى ، ووثيقة تحبيسى وإيقافى ، وقد أبى ذلك سَعْدٌ فرعُه باسق ، و عزٌّ عِقده متناسق . ويا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق [بنبأٍ](1) ، بل المثوى والحمد لله جنَّات وغُرف ، والمُنْتهى مجد وشرف ، فإن كان وليِّى مكترثاً فيحق له السُّرور ، أو شامِتاً ، فلى الظِّل وله الحَرور . أنا لا أزِنُّ والحمد لله بها من هناه ، ولما أدين بها من عزّى ومُناه ، ولا تمرُّ لى ببال فلست بذى سيف . ولست بنكال نفسى أرقَّ شيمة . وأكرم مَشِيمة ، وعينى أغْزَرْ دِيمة ، لو كان يُسئل لِسان عن إنسان . أو مُجاولته بملعبه خِوان . أوقفنى إخوان لا بمأزق عُدوان . لارتسمتُ منه بديوان . لا يُغنى

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال .

فى حربٍ عَوان . عين هذا الشكل والحمد لله قراره . وعنوان هذا الحدّ غراره . وأما كونى من جملة الصُّفرة . وممن أجهز سيدى الفَقار على ذى الفقرة . فأُقسم لو ضُرب القتيل ببعض البَقرة . لتعين مقدار تلك الغَفْرة . اللهم لو كنتُ مثل سيدى ممن تتضاءل النخلة السَّحوق لقامته ، ويعترف[1] عوجٌ لديه بتَمامته ودَمامَته . مُقبل الطَّعن كالبُدور فى سحاب الخُدور ، وخليفة السَّيد الذى بلغت سراويله تندُوة العدوِّ الأيِّد ، لطُلْت بباع مديد ، وساعدنى الخَلْق بساعد شديد . وأنا لى جسم شحت ، يحف به بخت ، وحَسْبُ مثلى أن يعلم فى ميدان هوى ، تُسَلُّ فيه سيوف اللّحاظ على ذوى الحِفاظ ، وتشرع سيوف القُدُود . إلى شَكاة الصُّدود[2] ، وتسطو أُولو الجُفون السُّود بالأُسُود ، فكيف أخشى تَبِعَةً تَزِلُّ عن صفاتى ، وتنافى صفاتى ، ولا تطمع أسبابها فى التلافى ، ولا تستعمل فى حربها قَنا ألفاتى . والله يشكر سيدى على اهْتِباله . ويحل كريم سِباله ، على ما ظهر لأَجلى من شَغَف باله ، إذ رَفَع ما يُنصب ، وغيَّر ما لو غيَّره الحجاج ، لكان مع الهيبة يُحصب[3] ، ونكَّت بأن نَفَقت بالحظ سوقى . وظهر لأَجله فُسوقى[4] ويا حبَّذا هو من شَفيع رَفيع ، ووسيلة لا يخالفها الرَّعْىُ ، ولا يخيب لها السَّمى . ولله دَرُّ القايل .

لله بالإنسان فى تعليمه ... بوساطة القلم الكريم عناية
فالخطُّ خطٌّ والكتابة لم تزل ... فى الدهر عن معنى الكمال كِناية

وما أقرب يا سيدى هذه الدعوى لشهامتك . وكِبرَ هامَتِك :

---

(١) هكذا وردت فى الريتونة . وفى الإسكوريال (يعترف) والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الصعود) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الريتونة (يصب) وهو تحريف .

(٤) هكذا فى الريتونة . وفى الإسكوريال (بسوق) .

لو كنت حاضرهم بخندق بَلْج … ولحمل ما قد أبرموه فصال

لخُصِصْتَ بالدعوى التى عُمُّوا بها … ولقيل(١) فصلٌ جَلاه الفصال

وتركت فرعون بن موسى عِبْرةً … تتقدَّمَنْه بسيفه الأوصال

فاحْمَد الله الذى نجَّاك من حضور وليمتها ، ولم تشهد يوم حَليمتها . وأما اعتذارك عمَّا يقِلُّ من تنقُّد الكَنْز ، ومُنْتَطح العَنْز ، فورعٌ فى سيدى أتمُّ من أن يُتَّهم بغَيْبة ، ولسانُه أعفُّ من أن يُنسب إلى ريبة ؛ لما اتَّصل به من فَضْل ضريبة ، ومقاصدٍ فى الخير غريبة ، إنما يستخفُّ سيدى أفْرط التُّهم ، رَمْىَ العوامل بالتُّهم ، فيجرى أَصحَّ مَجْرى أُختها ، ويُلبسها ثياب تَحْتها ، بحيث لا إثْم يتَرَتَّب ، ولا هو ممن تَعْتِبه ، وعلى الرجال فجنايَتُه عذبة الجِناءِ ، ومقاصده مُسْتَطْرفة(٢) لفَصْح أو كِنى . أبقاه الله رب نُفاضة وجَرادة ، ولا أخلى مِبْرَدَه القاطع من بِرادة ، وعوَّده الخير عادة ، ولا أعْدَمه بركة وسعادة ، بفضل الله . والسلام عليه من وليِّه المستزيد من وَرْش(٣) وَلْيه ، لا بل من قَلايد حَلْيه . محمد بن فركون القرشى . ورحمة الله وبركاته

فراجعه المترجم بما نصه ، وقد اتَّهم أن ذلك من إملائى :

يا مُلْبِس النُّصح ثوب الغِشِّ مُتَّهما … يلوى النَّصيحة عنه غير مُنْتَكِص

وجاهلا باتخاذ الهزْل مأْدُبة … أشدَّ ما يُتَوقى محمل الرَّخص

نصحتُه فَتَمَصانى فانقلبتُ إلى … حال يُغَصُّ بها من جُملة الغُصَص

بالأمس أنكرتُ آيات القِصاص له … واليوم يُسْمع فيه سورة القَصَص

ممَّن استَعرت ياباَبليَّ هذا السِّحر . ولم تسكن بناصِية السحر . ولا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ولقلت) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مستظرفة) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (وش) . وفى الزيتونة هكذا (اوش) [illegible] يحمل معنى مناسبا .

أعملت إلى بابل هاروت امتِطاءَ ظَهر ، ومن أين جيت بقلايد ذلك النَّحر ، أَمِنَ البحر ، أو مما وراءَ النهر . ما لمثل هذه الأَرْيَحِيَّة الفاتقة ، اسْتَنْشَقْنا مهبَّك ، ولا قَبْلَ هذه البارقة الفايقة ، استكثرنا غيَّك . يا أيها الساحر ادعُ لنا ربَّك . أأَضغاث أحلام ما تُريه الأَقلام ، أَم فى لحظة تَلِدُ الأَيام ، فرايِد الأَعلام . لقد عَهِدت برَبْعك مُحسن دُعابة ، ما فَرَعت شعابه ، أو مُصيباً فى صُبابة ، ما قرعتُ بابه ، ولا استرجعت قبلِ أن أَعْبُر عُبابه . اللهم إلاَّ أن تكون تلك الآيات البيِّنات ، من بنات يراعتك ، لا بَراعتك ومُغْتَرِسُ تلك الزُّهر ، الطالعة كالكواكب الزُّهر ، مختلسُ يدِ استطاعتك ، لا زراعتك ، وإلا فنطَّرح مصايد التعليم والإنشاء ، وننتظر معنى قوله عزَّ وجلَّ ، يؤتى الحكمة من يشاء ، أو نتوسَّل فى مقام الإلحاح والإلحاف . أن ننقل من غايلَة الحَسَد إلى الإنصاف ، وحَسْبِى أن أطلعتُ بالحديقة الأَنيقة ، ووقفتُ من مُثلى تلك الطَّريقة على حقيقة ، فألفيتُ بها بيانا قد وضَح تِبياناً أو أَطلق عنانا ، ومحاسنَ وجَدَتْ إحسانا ، فتمثَّلت إنسانا ، سرَّح لسانا ، وأجهد بنانا ، إلاَّ أنَّ صادِح أيْكتها يتململ فى قَيْظ ، ويكاد يتميَّز من الغيظ ، فيفيض ويغيض ، ويهيض وينهض ، ثم يهيض ، ويأخذ فى طويل وعريض ، بتَشْبيب وتعْريض ، ويتناهض فى ذلك بغير مَهيض ، وفاتن كمايمها[1] تَسَلُ عن الصَّادح ، ويتلقَّف عُصا استعجاله ما يُفكِّه المادح ، ويحرق بناره زَند القادح ، ويتعاطى من نفسه بالإعجاب ، ويكاد ينادى من وراء حِجاب ، إن هذا لشيئٌ عُجاب . إيه بغير تَمْويه ، رجع الحديث الأول ، إلى [ما عليه المُعَوَّل][2] ، لا درَّ درُّها من نصيحة غير

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (كمايها) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (ما اليه آمل)

صحيحة ، ووصيَّة مودَّة صريحة ، تعلقت بغير ذى قريحة ، فهى استعجلتنى بداهية كاتب ، واستطالة ظالم عاتِب [قدسلَّ مُرْهَفه واستنجد مُتْرَفه][1]، وجهَّزها نحو كُتَيِّبَته تُسفر عن تَحجيل ، بغير تَبْجيل [وسحابةسِجلٌ ترمى بسِجّيل][2] ما كان إلاَّ أن استقلَّت ، ورَمَتْنِى بدائها وانسلَّت ، وألقت ما فيها وتخلَّت ، فحَسْبِى الله ، تُغلِّب على فَهْمى ، ورُمِيت بسَهْمى ، وقُتِلت بسلاحى ، وأُسْكرت براحى ، بُريت برُيت ، مما به دُهيت ، أنت أبقاك الله لم تَدْن[3] بها منى منالاً وعِزّا ، فكيف بها تنسب إلىَّ بَعْدك وتُعزا ، نفسى التى هى أرقُّ وأجدَرُ بالمعالى وأحقُّ ، وشكلى أخفُّ على القلوب وأدقُّ ، وشمايلى أملك فلا تُسْتَرق ، ولسانى هو الذى يُسْئل فلا يُفَل ، وقدْرى يُعزّه ويُجل ، عما فَخَرْت أنت به من مَلْعب مايدة ، ومجال رِقاب مُمَايدة ، فحاشَى سيدى أن يقع منه بذلك مَفْخر ، إلا أن يكون يَلْهُوويَسْخَر ، ومَوْجُ بَحْره بالطَّيِّب والخبيث[4] تَزْخر ، وعَيْنُ شكلى هى بحمد الله ، عينُ الظَّرف[5] المُشار إليه بالبَنان والطَّرف . وأما تعريض سيدى بصِغر القامة ، وتكبِيره لغير إقامة ، فمُطَّردُ قول ، ومُدامة غَوْل ، وفريضةٌ[6] نشأ فيها عَوْل ، إذ لا مبالاة تجسم كاينا ما كان ، أو ما سمعت أن السرَّ فى السُّكان ، وإنما الجَسَد للرُّوح مكان [ولم يبق إليه فقد يروح][7] ، وقد قال ، ويسئلونك

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (قد فل مذهبه واستنجد مضربه) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (وسحابة بسجيل ترمى بتعجيل) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تدر) .

(٤) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الزيتونة .

(٥) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الزيتونة .

(٦) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (فراضة) .

(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى الزيتونة ، وفى الإسكوريال (ولم بن اليه بعد سروح) .

عن الرُّوح ، والمرءُ بقلبه ولسانه ، لا بمُسْتَظْهر عِيانه ، ولله درُّ القايل :

لم يُرضِنى أنّى بجسم هايل | والرُّوح ما وفَّت له أغراضه
ولقد رَضِيت بأنَّ جسمى ناحل | والروح سابغة به فِضْفاضة

ولما وقَّع سيدى بمكتوبى على المرفوع والمنصوب ، وظَفِرت يده بالمغْصُوب ، والباحث المغْصُوب ، لم يُقلها[1] زلَّة عالم . وإنى وقد وجدتها مُنْيَة حالم ، فعدَّد وأعاد ، وشدَّد وأشاد ، هلاَّ عَقِل ما قال ، وعلم أن المقِيل سيكون مقال ، [وزلة العالم لا تُقال][2] وأن الحرب سجال . وقبضة غيره هو المُتَلاعب فى الحجال[3] ، وبالجملة فلك الفضل يا سيدى ، ما اعتُنِى بمعناك ، وارتفع بين مغانى الكرام مَغْناك ، فمدة ركوبك الحُمْران[4] لا تُجارى ، ولا يشقُّ أحد لك غُبارا . أبقاك الله تحفظ عُرى هذا الوِداد ، ويشمل الجميع بركة ذلك النَّاد ، والسلام عليك من ابن الفضَّال ، ورحمة الله وبركاته .

وجَعَلا إلىَّ التَّحكيم ، وفوَّضا لنظرى التَّفضيل فكتبتُ :

بارِك عليها بذكر الله من قَصَص | واذكر ما أتى فى سورة القَصَص
حيثُ اغْتَدى السِّحر يلهو بالعقول | وقد أحال بين حال كَيْده وعَصِ
عقايل العقل والسحر الحلال قوتٌ | من كافل الصَّون بعد الكون جحروَص
وأَقْبَلت تتهادى كالبُدور إذا | بسِحْرٍ من فَلَكِ النُّذور فى حِصص
من للبدور وربَّات الخدور بها | المِثْل غير مطيع والمِثْلان عص
ما قُرصة البدر والشمس المنيرة أن | قِيسَت بمن سوى من جُملة القُرص

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يلقها).
(٢) هذه العبارة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (المجال) .
(٤) هكذا وردت فى المخطوطين .

تالله ماحُكْمُها يوما بمُنْتَقَض كلاَّ ولا بدرها يوما بمُنْتَقَص

إن قال حُكْمِى فيها بالسَّواد فقد أمِنْتُ ما يَحْذَر القاضى من الغُصَص

أو كنت أرْخَصْتُ فى التَّرجيح[١] مجتهداً لم يقبل الورع الفُتْيا مع الرُّخَص

يا مُدْلج ليل التَّرجيح قِف ، فقد خَفيت الكواكب ، ويا قاضى طَرْف التَّحسين والتَّقبيح ، تسامَت والحمد لله المناكب ، ويا مُسْتَوكف خَبر الوقيعة من وراء أقتام القِيعة[٢] ، تَصالحت المواكب . حَصْحَص الحقُّ فارتفع اللَّجاج ، وتعارضت الأدلَّة فسقط الاحْتِجاج ، ووضعت الحرب أوزارها فسكن العَجاج ، وطاب نَحْل الأقلام بأزهار الأحلام ، فطاب المُجاج ، وقلَّ لفرعون البيان وإن تألَّه ، وبلَّد العقول وبلَّه ، وولَّى بالغرور ودلَّه . أوسع الكَنايِن[٣] نَثْلا ، ودونك أيِّدا شَثْلا ، وشَحْرا حثلا ، لا خَطْما ولا أثلا . إن هذان لساحران إلى قوله ، ويذهبا بطريقتكم المثلى ، وإن أثرت أدَب الحليم مع قصَّة الكَليم[٤] ، فقل لمُجْمِل جياد التَّعاليم ، وواضع جغرافيا الأقاليم ، انْدَلُسا ما عَلِمت بلد الأجَم ، لا سُود العَجم ، ومداحض السُّقوط ، على شوك قَتاد القُوط ، ولم يَدْر إن محل ذات العجايب والأسرار ، التى تُضرب إليها أباط النُّجاب فى غير الإقليم الأوَّل . وهذا الوطن بشهادة القَلْب الحُوَّل . إنما هو رسمٌ دارس . ليس عليه من مُعَوَّل . فهنالك يتكلم الحق فيُفصح ويُعجم ، ويرد المَدَدَ على النفوس الجريئة ، من مطالع الأضواء[٥] فيحدِّث ويُلهم ، ويجود خازن الأمداد ، على

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (التحريج) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الوقيعة) مرة أخرى .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الكنى) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الحكيم) .

(٥) كذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الأصول) .

المُتَوسِّل بوسيلة الاستعداد ، فيقطع ويُسهم . وأما إقليمنا الرابع والخامس ، بعد أن تكافأت المناظر والمَلامِس ، وتَناصف الليل الدَّامس واليوم الشَّامس ، باعتدال ربيعي ، ومجرًى طبيعي . وذكيٌّ بليد ، ومعاش وتَوْليد ، وطَريف في البداوة وتَليد ، ليس به بِرباه ولا هَرَم ، يخدم بها دربٌ مُحترم ، ويشبُّ لقرياته حُرم ، فيفيد روحانيا يتصرف ، وربيباً يتعرَّض ويتعرَّف ، كلما استنزل صاب(١) ، وأعمل الانتصاب ، وجَلب المآرب ، وأذهب الأَوصاب ، وعلم الجواب ، وفهم الصواب . ولو فرضنا هذه المدارك ذوات أمثال ، أو مَسْبُوقة بمثال ، لتلقينا منشور القضاء بامتثال ، لاكِنَّا نخاف أن نميل بعض الميل ، فنَجْنى بذلك أبخس الجرى وإرضا الذَّميل ، ونجرٌ تنازُع الفِهْرى مع الصُّميل . فمن خيَّر ميَّز ، ومن حَكَم أزرى به وتُهكِّم ، وما سلَّ سيوف الخوارج في الزمن الدَّارج ، إلا التَّحكيم ، حتى جَهِل(٢) الحكيم ، وخلع الخِطام(٣) ، ونزع الشَّكيم ، وأضرَّ بالخلق نافع ، وذهب الطفل لجراه واليافع ، وذم النَّمام ورُدَّ الشَّافع ، وقَطَر سيف قَطَرىٍّ بكل نجيع طرىٍّ ، وزار الشَّبيب الأَسد الهصور ، وصلَّت الغزالة بمسجد الثَّقفي وهو محصور ، وانتُهبت المقاصير والقُصور ، إلا أنَّ مُسْتأْهل الوظيفة الشَّرعية ، عند الضرورة يُجبر ، والمُنْتَدب للبرِّ مُحيي عند الله ويُجبر ، واجعلنى(٤) على خزائن الأَرض ، وهو الأَوْضح والأَشهر ، فيها به يُسْتَظهر . وأنا فإن حكمتُ على التَّعجيل ، فغير مُشْهِد على نفسى بالتَّسْجيل ، إنما هو تَلْفيق يرضى وتَطْفيل ، يُعْتَب عليه من تصدَّع بالحق ويمضى إلا أن

---

(١) كذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الصاب) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (سجل) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الخصام) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (وجعلنى) .

يُغْضى ، ورأْيِى فيها المراضاة والاستِصْلاح ، وإلا فالسِّلاح والرِّكاب الطلاَّح ، والصلح خير ، وما استُدفع بمثل التَّسامح ضَير . ومن وقف عليه ، واعْتَبر مالديه ، فليعلم أنى صَدَعْتُ وقطعتُ ، والحقُّ أطعتُ ، وإن أُريد إلاَّ الإصلاح ما استطعتُ ، والسلام .

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر ابن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى

من ذرِّية عثمن أخى كُرَيب المذكور فى نُبهاء ، ثوار الأَندلس .وينتسب سلفُهم إلى وائل بن حُجْر، وحاله عند القُدُوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروف .

أَوليته

قد ذُكر بعضٌ منها . وانتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نَباهة وتعَيُّن وشهرة عند الحادثة بها ، أَو قبل ذلك ، واستقرَّ بتونس منهم ثالث المحمدين ، محمد بن الحسن ، وتناسلوا على سَراوة وحِشمة ورسوم حسنة ، وتصرَّف جدُّ المترجم به لملوكها فى القيادة

حاله

هذا الرجل الفاضل حسن الخلق ، جم الفضائل[(١)] باهر الخصْل ، رفيع القَدْر ، ظاهر الحياء ، أَصيل المجد ، وقور المجلس ، خاصِّى الزِّى ، عالى الهمة ، عَزُوف[(٢)] عن الضَّيْم ، صعب المَقادة ، قوى الجأْش ، طامحُ

(١) وردت فى الإسكوريال (الفضل) والتصويب من النفح .
(٢) وردت فى الإسكوريال (عزوب) وهو تحريف .

لقُنَن الرياسة ، خاطبٌ للحظِّ ؛ متقدم فى فنون عَقْلية ونَقْلية ؛ متعدِّد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ . صحيح التَّصوُّر ؛ بارع الخط ، مُغْرىً بالتجلَّة ؛ جَواد الكفِّ ، حسن العشرة ، مَبْذول[1] المشاركة ، مقيم لرسوم التَّعين ، عاكف على رَعْى خِلال[2] الأَصالة ، مَفْخرة من مفاخر التُّخوم المغْرِبية .

مشيخته

قرأ القرآن ببلده على المُكَتِّب ابن برال . والعربية على المقْرى الزواوى وابن العربى ، وتأَدَّب بأَبيه ، وأَخذ عن المحدث أَبى عبد الله بن جابر الوادى آشى ، وحضر مجلس القاضى أَبى عبد الله بن عبد السلام ؛ وروى عن الحافظ عبد الله السَّطى . والرئيس أَبى محمد عبد المهيمن الحَضْرمى ، ولازم العالم الشهير أَبا عبد الله الآبلى ، وانتفع به .

توجهه إلى المغرب

انصرف عن إفريقية مَنْشئه . بعد أن تعلَّق بالخدمة السلطانية على الحَداثة وإقامته لرسم العَلامة بحكم الاستِنابة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة . وعُرِف فضله ، وخَطَبه السلطان مُنْفق سوق العلم والأَدب أَبو عِنان فارس بن على ابن عثمن ، واستَقْدَمه . واستَحْضَره بمجلس المذاكرة ، فعَرَف حقه ، وأَوْجَب فضله ، واستعمله فى الكتابة أوائل عام ستة وخمسين ، ثم عظُم عليه حَمْلُ الخاصَّة من طَلَبة الحَضْرة لبعده عن حسن التأَنِّى ، وشفُوفه بثُقوب الفهم ، وجودة الإدراك . فأَغروا به السلطان إغراءً عضده ما جُبل عليه عندئذ من إغفال التَّحفُّظ . مما يريب لديه . فأَصابته شدَّة تخلَّصه

---

(١) وردت فى الإسكوريال (بذول) . والتصويب من النفح .

(٢) وردت فى الإسكوريال (طلل) وهو تحريف .

منها أجله ؛ كانت مُغَربة فى جفاء ذلك الملك ، وهَناة جواره ، وإحدى العواذل لأولى الهوى فى القول بفضله ، [واستأثر به الاعتقال باقى أيام دولته على سُنَن الأشراف من الصَّبر](١) وعدم الخُشوع ، وإهمال التوسُّل ، وإبادة المكْسُوب فى سبيل النَّفقة ، والإرضاخ على زمن المحنة ، وجارِ المنزل الخشن ، إلى أن أفضى الأمر إلى السَّعيد ولده ، فأَعْتَبَه قيِّم الملك لحينه ، وأعاده إلى رسمه . ودالت الدولة إلى السلطان أبى سالم ، وكان له به الاتصال . قبل تسوُّغ المحنة(٢) ، بما أكد حُظْوته ، فقلَّده ديوان الإنشاء مُطْلَق الجرايات ، محرَّر السِّهام ، نَبيه الرُّتبة ، إلى آخر أيامه . ولما ألقت الدولة مَقادها بعده إلى الوزير عمر بن عبد الله ، مُدَبِّر الأَمر وله إليه [قَبْل ذلك](٣) وسيلة ، وفى حَليه(٤) شركة ، وعنده حق رابَه تقصيرُه ، عما ارتمى إليه أَمَلَه ، فساءَ مابينهما إلى أن آل إلى انفصاله عن الباب المرينى .

دخوله غرناطة

ورد على الأندلس فى أوائل شهر ربيع الأَول من عام أربعة وستين وسبعماية ، واهتَزَّ له السلطان . وأَرْكَب خاصَّته لتلقِّيه ، وأكرم وفادته ، وخلع عليه ، وأَجْلَسَه بمجلسه الخاص . ولم يدَّخرعنه برا ومؤاكله ومُطايبة وفكاهة .

وخاطبنى لما حل بظاهر الحضرة مخاطبة لم تحضرنى الآن

فأجبته عنها بقولى :

حلَلْت حلول الغيث فى البلد المحْل ... على الطائر الميمون والرَّحب والسَّهل

(١) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى النفح .
(٢) وردت فى الإسكوريال (المتيحة) . والتصويب من النفح .
(٣) هذه الزيادة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى النفح .
(٤) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال (جلبه) .

يميناً بمن تَعْنُو الوجوه لوجهـه   من الشيخ والطفل المهدّإ[1] والكهل
لقد نَشَأَتْ عندى للُقْياك غبطـة   تُنْسى اغتباطى بالشَّبِيبة والأهل

أقسمت بمن حجّت قريش لبيته ، وقبرٍ صرفت أزمة الأحياء لميته ، الذى زيارته الأمنية السَّنيَّة ، والعارفة الوارفة ، واللطيفة المُطِيفة ، بين رَجْع الشَّباب يَقْطُر ماءً ، ويرفُّ نماءً ، ويُغازل عُيون الكواكب ، فضلا عن الكواعب ، إشارةً وإيماءً ، بحيث لا الوَخْط يَلم بسِياج لِمَّته ، أو يقدح ذُبالة فى ظُلمته ، أو يقوم حواريُّه فى ملّته ، من الأحابش وأُمته ، وزمانُه روح وراح ، ومَغْدى فى النَّعيم ومَراح ، وقصفٌ صراح ، ورُقٌ وجراح ، وانتخاب واقتراح ، وصدورٌ ما بها إلا انشراح ، ومسرَّات تردفها أفراح . وبين قُدومك خليعَ الرَّسن ، ممتَّعاً والحمد لله ، باليقظة والوَسَن ، مُحْكَما فى نُسْك الجنيد ، أو فتاك الحَسن ، ممتعا بظَرْف المعارف ، مالئاً أكُفَّ الصَّيارف ، ماحياً بأنوار البراهين شُبَه الزَّخارف ـ لما اخترت الشَّباب ، وإن شاقنى زمنُه ، وأعيانى ثمنُه ، وأَجْرَتْ سحاب دمعى دِمَنُه . فالحمد لله الذى رقى جنون اغترابى ، وملَّكنى أزمَّة آرابى ، وغبَّطنى بمائى وترابى ، ومألَفِ أتْرابى ، وقد أغصَّنى بلذيذ شرابى ، ووقع على سطوره المعتبرة إضْرابى ، وعَجَّلت هذه مُغَبَّطة بمناخ المطِيَّة ، ومنتهى الطِّية ، ومُلْتَقىً للسُّعود غير البطيَّة ، وتَهنِّى الآمال الوثيرة الوطيَّة ، فما شِئت من نفوس عاطشة إلى ريِّاك ، متجمِّلةً بزيِّاك ، عاقلة خطى مُهْريِّك ، وموليً مكارمه نشيدةَ أمثالك ، ومظانٌّ مثالك ، وسيصدق الخبر ما هنالك ، ويسع فضل مجدك فى التخلُّف عن الأصْحار ، لا بل اللقاء من وراء البحار ، والسَّلام .

ولما استقرَّ بالحضرة ، جَرَتْ بينى وبينه مكاتبات ، أقطعها الظَّرف

(١) هكذا وردت فى النفح ، وفى التعريف بابن خلدون ، ووردت فى الإسكوريال (المعصب) .

جانبه ، وأوضح الأدب فيهامذاهبه .فمن ذلك ما خاطبته به ، وقد تسرّى جارية روميّة إسمها هند [صبيحة الابتناء بها][1]

أُوصِيك بالشيخ أَبى بكره   لا تـأْمَنَنْ فى حالة مَكْره

واجتنب الشَّكّ إذا جئتـه   جَنَّبك الرحمن ما تكْره

سيدى ، لازلت تتّصف بالوالج ، بين الخلاخل والدَّمالج ، وتركض فوقها ركض الهمالج . اخبِرْنى كيف كانت الحال ، وهل حطّت بالقاع من خير البِقاع الرِّحال ، وأُحكم بمروَد المُراودة الاكْتِحال ، وارتفع بالسُّقيا الإمحال ، وصحّ الانتحال ، وحصحص الحقّ وذهب المُحال ، وقد طُولِعت بكل بُشرى وبِشر ، وزُفّت هندٌ منك إلى بِشر ، فللّه من عَشِيَّة تمتّ من الربيع بفرش مَوْشِيَّة ، [وابتُذِلت منها أى وساد وَحْشية][2] وقد أقبل ظبى الكِناس من الدّيماس ، ومطوق الحمَّام من الحمام ، وقد حسَّنت الوجه الجميل النَّظرية ، وأُزيلت عن الفرع الأثيث الأَبرية ، وصُقلت الخدود فهى كأَنها الأَمْرية ، وسُلِّط الدَّلك على الجلود ، وأُغريت النَّورة بالشَّعر المولود ، وعادت الأَعضاءُ يزلق[3] عنها اللَّمس ، ولا تنالها البَنان الخمس ، والسِّحنة يجول فى صفحتها الفِضِّية ماءُ النعيم ، والمسواك يلبِّى من ثنِيَّة التَّنعيم ، والقلب يرمى من الكفِّ الرّقيم بالمقعد المُقِيم ، وينظر إلى نجوم الوُشوم ، فيقول إنى سقيم . وقد تفتَّح ورد الخَفَر ، وحكم لزنجى الظَّفيرة بالظَّفَر ، واتصف أمير الحُسْن بالصُّدود المُغْتَفر ، ورُشّ بماءِ الطيِّب ، ثم أَعْلَق بباله دُخان العُود الرَّطيب . وأَقْبَلَتْ الغادة

(١) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والزيتونة . ووردت فى النفح كالآتى (وأبدلت منها أى آساد وحشيته) .

(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى المخطوطين (يزل) والأولى أرجح .

يهديها اليُمن . وتزُفُّها السعادة ، فهي تمشي على استِحياء ، وقد ذاع طيب الريَّا ، وراق حُسْن المُحيَّا ، حتى إذا نُزِع الخُفُّ ، وقُبِّلت الأكُفُّ ، [وصَحِب المزمار](١) وتجاوب الدُّف ، وذاع الأَرَج ، وارتفع الحرَج ، وتجوَّز اللِّوا والمنعرج ، ونزل على بِشر بزيارة هند الفَرَج ، اهتزَّت الأرض وربَت ، وعُوصيت الطِّباع البشرية فأَبَتْ . ولله در القائل :

ومرت فقالت متى نلتقى   فهشَّ اشتياقاً إليها الخبيث
وكاد بمــزِّق سِربالـــه   فقلت إليكِ بُســاق الحديث

فلما انسدل جَنح الظلام ، وانتَصَفت من غريم العِشاء الأخيرة فريضة الإسلام ، وخاطت خيوط المنام ، عُيون الأنام ، تأتي دُنوُّ الجلسة ، ومُسارقة الخِلسة ، ثم عضَّة(٢) النهد ، وقُبله الفم والخد ، وإرسال اليد من النَّجد إلى الوَهْد ، وكانت الإمالة القليلة قبل المد ، ثم الإفاضة فيما يُغبط ويُرغب ، ثم الإماطة لما يُشَوِّش ويُشْغب ، ثم إعمال المسير إلى السَّرير .

وصِرنا إلى الحُسنى ورقَّ كلامُنا   ورَضتْ فذلت صَعْبةٌ أيّ إذلال

هذا بعد منازعة للأطواق يسيرة ، يراها الغيد من حسن السيرة ، ثم شُرع في حل التِّكة ، ونزع الشكة ، وتهيئة الأرض الغرار(٣) عمل السِّكة ، ثم كان الوحي والاستعجال . وحَمِي الوَطيس والمجال ، وعلا الجزءُ الخفيف ، وتضافرت الخُصور الهِيف ، وتشاطر الطَّبع العَفِيف ، وتواتر التقبيل ، وكان الأَخذُ الوَبيل ، وامتاز الأَنْوك من النَّبيل ، ومنها جائر وعلى الله قَصْدُ السَّبيل ، فيالها من نِعَم مُتداركة ، ونفوس في سبيل القِحة مُتهالكة ،

(١) وردت في الإسكوريال (وصحب المزهر) وفي الزيتونة (وصحب المزمر) . والتصويب من النفح .

(٢) هكذا وردت في النفخ . وفي الإسكوريال والزيتونة (عض) .

(٣) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي الزيتونة (العرار) . وفي النفح (العزاز) .

ونَفَسٌ يقطع حروف الحلق . وسبحان الذى يُزيد فى الخلق . وعظمت المهانعة ، وكثرت باليد المُصانعة ، وطال التَّراوغ والتَّزاور . وشكى التجاور[1] وهنالك تختلف الأَحوال . وتعظم الأَهوال ، وتخسر أَو تُربح الأَموال ، فمن عَصا تنقلب ثعبانا مُبينا ، ونُونه تصير تَنينا ، وبطل لم يَهُله المعترك الهائل ، والوهم الزائل ، ولا حال بينه وبين قُرَّتِه الحائل ، فتعدَّى فتكة السُّليك إلى فتكة البرَّاض ، وتقلَّد مذهب الأَزارقة من الخوارج فى الاعتراض ، ثم شقَّ الصف ، وقد خضَّب الكف ، بعد أَن كاد يصيب البرىءَ[2] بطَعْنَه ، ويبوءُ بمَقْت الله ولَعْنته :

طَعَنْتَ ابن عبد الله[3] طعنة ثائر لها نَفَذٌ لولا الشعاع أَضاءها

وهناك هدأَ القِتال ، وسكن الخَبال ، ووقع المتَوَقَّع فاستراح البال ، وتشوَّف إلى مذهب الثنوية ، من لم يكن للتَّوحيد بمُبال ، وكثر السؤال عن البال بما بال ، وجعل الجريح يقول ، وقد نظر إلى دَمِه يسيل على قدمه :

أَنَّى له عن دَمِى المسفوك مُعْتَذر أَقول حمَّلتُه فى سَفْكه تعَبا

ومن سِنان عاد عِنانا ، وشجاع صار هِدانا[4] جبانا ، كلما شَابَتْه شائبةُ رِيبة ، أَدخل يده فى جيبه ، فانجحرت الحيَّة ، وماتت الغَرِيزة الحيَّة ، وهناك يَزيغ البصر ، ويُخْذَل المُنْتَصر ، ويَسْلم الأَسر ، ويَغْلب الحَصْر ، ويجفُّ اللُّباب ، ويظهر العاب ، ويخفق الفؤاد ، ويكبو الجواد ، ويسيل العرق ، ويَشْتَدُّ الكرب والأَرق ، وينشأُ فى محل الأَمن الفَرَق ،

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح (التحاور) .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح (البؤسى) والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى الزيتونة والنفح . وفى الإسكوريال (ابن عبد القيس) .

(٤) واردة فى المخطوطين . وساقطة فى النفح .

ويُدرك فرعونَ الغَرق . ويَقْوى اللُّجاج ويعظم الخَرْق . فلا تزيد الحال إلا شِدَّة ، ولا تعرف تلك الجارحة[1] المؤمنة إلا رِدّة :

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفتى   فأكثرُ[2] ما يجنى عليه اجتهاده

فكم مُغْرًى بطول اللَّبث ، وهو من الخَبْث ، يؤمل الكرّة ، ليزيل المعرَّة ، ويستَنْصر الخيال ، ويعمل باليد الاحتيال :

إنك لا تشكو إلى مُصْمت   فاصبر على الحِمْل الثَّقيل أو مُتْ

ومُعْتذر بمرض أصابه ، جَرَّعه أوصابه . ووجعٍ طَرَقه ، جَلَب أرَقه ، وخطيبٍ أُرْتِج عليه أحياناً ، فقال سيُحدث الله بعد عُسْرٍ يُسْرا ، وبعد عِيٍّ بيانا ، اللهم إنَّا نعوذ بك من فضائح الفرُوج إذا اسْتَغْلَقت أقفالها ، ولم تُسَم[3] بالنَّجيع أعفالها[4] ، ومن معرَّات الأقدار ، والنكول عن الأبكار، ومن النُّزول عن البطون والسُّرر ، والجوارح الحسنة الغُرر ، قبل ثَقْبِ الدُّرر ، ولا تجعلنا ممن يستحيي من البُكَر بالغَداة ، وتُعلم منه كلال الأداة ، وهو مجال فُضِحَت فيه رجال ، وفِراش شُكيت فيه أَوْجال ، وأُعْمِلت روِيَّةٌ وارتجال . فمن قائل :

أرفعه طورا على إصْبَـــعى   ورأسُه مضطربة[5] أسْفَله
كالحنَش المقتول يُلقى على   عود لكى يطرح فى مَزْبَله

أو قايل :

عدِمت من أيرى قوى حسِّه   يا حَسْرة المرءُ على نفسه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (المجارحة) . وفى النفح (الجامحة) .
(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (فأول) .
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (تتسم) .
(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال والنفح (أغفالها) . والأولى أرجح .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة والنفح (مضطرب) .

تراه قد مال على أصْلـِـه   كحائط خرَّ عـلى أُسه

وقايل :

أيحسُدنى إبليس دَاءيْن أصبحا   برجلى ورأسى دُمَّلا وزُكاما
فليتهما كانا بــه وأزيـــده   رَخاوة أير لا يريد قِيساما

وقائل :

أقول لأيرى وهو يرقب فتكة   به خِبْت من أير وغالتك داهية
إذا لم يكن للأير بَخْتٌ تعذرت   عليه وجوه .... من كل ناحية

وقايل :

تعفَّفَ فوق الخصيتين كأنه   رشاء إلى جنب الركية ملتف
كفرخ ابن ذى يَوْمين يرفع رأسه   إلى أبويه ثم يُدركه الضَّعف

وقايل :

تكرش أيرى بعد ما كان أملسا   وكان غنياً من قواه فأفلسا
وصار جوابى للمَها أن مرَرْنَ بى   مضى الوصل إلاَّ مُنْية تبعث الأسى

وقايل :

بنفسى من حَيَّيْتُه فاستخفَّ بى   ولم يخطر الهجران منه[1] على بال
وقابلنى [بالهزء والنَّجة][2] بعدما   حططت به رِجلى وجرَّدت سِربالى
وما ارتجى من موسر فوق دكَّة[3]   عرضت له شيئاً من الحَشَف البالى

عِلَلٌ[4] لا تزال تُبكى ، وعلل على الدهر تشكى ، وأحاديث تُقصُّ وتُحكى . فإن كنت أعزك الله من النَّمط الأول ، ولم تُقِلِ . وهل عند

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (يوما) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بالغور والنجد) . والبيت ساقط فى الزيتونة .
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (تكة) .
(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (هموم) .

رسم دارس من مُعَوَّل ، فقد جَنَيْتَ الثَمَر . واسْتَطَبْتَ السَّمر ، فاستدع الأَبواق من أقصى المدينة ، واخرج على قومك فى ثياب الزِّينة . واستبشر بالوفود ، وعرِّف السمع عارفة الجود ، وتبجَّح بصلابة العود ، وإنجاز الوعود ، واجن رمَّان النُّهود ، من أغصان القُدود ، واقطف ببنان[1] اللَّثم أقاح الثُّغور وورد الخدود . وإن كانت الأُخرى ، فاخفِ الكَمَد ، وأرْضِ الشمد ، وانتظر الأَمد ، واكذب التوسُّم ، واستعمل التَّبَسم ، واستكْتِم النِّسوة ، وأَفِضْ فيهن الرِّشوة ؛ وتقلَّد المغالطة وارتكب ، وجىء على قميصك[2] بدم ٍ كذبٍ ، واستنجد الرحمن ، واسْتَعن على أُمورك[3] بالكتمان

لا تظهرن لعاذلٍ أو عـاذرٍ حالَيْك فى [السرّاء والضرَّاءِ][4]

فلرحمة المتفجِّعين حـرارة فى القلب مثل شَماتة الأَعداء

وانْتَشِق الأَرَج ، وارتقب الفَرَج . فكم غمامٌ [طبَّق وما هَمَى][5] ، وما رميتَ إذ رميتَ ، ولكن الله رَمَى ؛ وأملك بعدها عِنان نفسك ، حتى تُمَكِّنك الفرصة ، وتُرفع اليك القِصَّة ، ولا تَشْتَره[6] إلى عمل لا تَنمِىءُ منه بتمام ، وخُذ عن إمام ، ولله درُّ [عُرْوة بن حزام][7] .

الله يعلم ما تركتُ قتالهم حتى رَمَوا مُهرى بأَشْقر مُزْبِد

وعلمتُ أَنى إن أُقاتِلُ دونَهم أُقتَل ولم يَضْرُر عدوِّى مشهدى

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الزيتونة (بنار) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (قميصه) . والعبارة ساقطة فى الزيتونة .
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (أمرك) .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . ووردت فى النفح (الضراء والسراء) .
(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وورد مكانها فى النفح (طما) .
(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (تسرع) .
(٧) هكذا ورد هذا الاسم فى الإسكوريال . ولم يرد فى الزيتونة سوى كلمة (عروة) . وورد فى النفح (الحرث بن هشام) .

ففررتُ منهم والأَحِبَّة فيهم   طمعا لهم بعقاب يوم مُفْسِد

واللُّبانات تَلين وتَجْمح .والمآرب تَدنو وتَنْزَح ، وتَحْرن ثم تَسْمَح ، وكم من شُجاعٍ خام . ويقظ نام ، ودليل أخطأ الطريق ، وأَضلَّ الفريق ، والله عز وجل يجعلها خلَّة موصولة ، وشَمْلاً أكنافُه بالخير مَشْمُولة ، وبِنْيَة أَركانها لركاب[1] اليُمن مأمولة ، حتى يكثر خَدَم سيدى وجواريه ، وأُسرَته وسَراريه ، وتَضْفُو عليه نعمةُ[2] باريه ، ما طُورد قَنِيص ، واقْتُحم عِيص ، وأُدْرِك مرامٌ عويص ، وأُعطى زاهد وحُرم حريص . والسَّلام .

تواليفه

شرح القصيدة المسماة بالبُرْدة شرحاً بديعا ، دلَّ فيه على انفساح ذَرْعه ، وتفنُّن إدراكه ، وغزارة حِفظه . ولخَّص كثيراً من كُتُب ابن رشد . وعلَّق للسلطان أيام نظره فى العلوم العقلية ، تقييداً مفيدا فى المنطق ، ولخَّص مُحَصَّل الإمام فخر الدين ابن الخطيب [الرازى][3]. وبذلك داعبته أول لُقية لقِيْتُه ببعض منازل الأَشراف ، فى سبيل المبرَّة بمدينة فاس ، فقلت له لى عليك مُطالبة ، فإنك لخَّصت « مُحَصَّلى » . وألف كتاباً فى الحساب . وشرع فى هذه الأَيام فى شرح الرَّجَز الصادر عنى فى أُصول الفقه ، بشيءٍ لا غاية وراءه فى الكمال[4] . وأما نثره وسُلْطانيَّاته ،

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح (لركائب) .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (نعم) .

(٣) يعرف الإمام فخر الدين الرازى (وهو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) يعرف بابن الخطيب .

(٤) ورد فى آخر اللوحة 252 إسكوريال ، بعد هذه الكلمة ، ما يأتى مدونا بقلم الناسخ : « قلت هذا المقدار هو الذى ذكره الشيخ ابن الخطيب عن تواليف هذا الفاضل المترجم به لمكان وفاة الشيخ قبل المترجم . ولو علم الشيخ رحمه الله بكتابه المشهور ، الذى سحر به الخاص والجمهور المسمى « بكتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » لحلاه بما يجب فى حقه ، وان انتهى إلى غاية فلا يتمادى فى صدقه . ولقد =

مُرْسَلُها ومُسْجَّعها ، فخُلج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادِن إبداع ، يُفرغ عنها يراعه الجرىءُ ، شبيهة البَدَاءات بالخواتم ، فى نداوة الحروف ، وقُرْب العهد بجَرْيَة المِداد ، ونفوذ أمر القريحة ، واستِرسال الطبع . وأما نظمه[1] ، فنهض لهذا العهد قُدُماً فى ميدان الشِّعر . وأُغرى نقدُه باعتبار أساليبه ، فانثال عليه جوُّه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة . من ذلك قوله يخاطب السلطان ملك المغرب لليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعمائة بقصيدة طويلة :

[أسْرَفْنَ فى هَجرى وفى تعذيبى | وأطَلْن موقف عَبْرتى ونَحيبى
وأبَيْنَ يوم البَين موقف ساعة | لوداع مَشْغُوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظّاعنين وغادروا | قلبى رَهين صَبابة ووجيب
غَرَبَت ركائبُهم ودمعى سافح | فشَرِقت بعدهم بماء غُروبى
يا ناقعاً بالعَتْب غُلَّة شوقهم | رحماك فى عَذْلى وفى تأْنيبى
يستعذبُ الصَّب الملام وإننى | ماء الملام لدَىَّ غيرُ شَريب
ما هاجنى طربٌ ولا اعتادالجوى | لولا تذكُّر مَنْزِلٍ وحَبِيب
أهفو إلى الأطلال كانت مَطْلعاً | للبدر منهم أو كِناس رَبيب
عَبَثَتْ بها أيدى البِلى وتردَّدت | فى عِطفها للدهر آى خُطوب
تبلى معاهدها وإن عهودها | ليجدُّها وصفى وحُسن نَسيبى
وإذا الديار تعرَّضت لمُتَيَّم | هزَّته ذكراها إلى التَّشْبيب
إيه على الصبر الجميل فإنه | ألْوى بدَيْن فؤادى المَنْهوب

= اخترع فيه ، من بين المناحى مذهبا عجيبا ، وطريقة مبتدعة وأسلوبا ، وسلك فيه من الحديث على العلوم ، وتنقيح الفهوم ، وما يعرض فى الاجتماع الإنسانى من الأعراض الذاتية والخيالات والحلوم، مسلكا غريبا . رحم الله مبدعه ، ومتع فى أعلى عليين مخترعه » .

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى المخطوطين (شعره) . وقد آثرنا الأول تجنبا للتكرار

لم أنسها والدهر يثنى صرفه ... ويغض طرف حاسد ورقيب
والدار مونقة محاسنها بما ... لبست من الأيام كل قشيب
يا سائق الأظعان تعتسف الفلا ... وتواصل الآساد بالتأويب
متهافتاً عن رحل كل مذلل ... نشوان من أين ومس لغوب
تتجاذب النفحات فضل ردائه ... فى ملتقاها من صبا وجنوب
إن هام من ظما الصبابة صحبه ... نهلوا بمورد دمعه المسكوب
فى كل شعب منية من دونها ... هجر الأمانى أو لقاء شعوب
هلا عطفت صدورهن إلى التى ... فيها لبانة أعين وقلوب
فتؤم من أكناف يثرب مأمنا ... يكفيك ما تخشاه من تثريب
حيث النبوة آيها مجلوة ... تتلو من الآثار كل غريب
سر غريب لم تحجبه الثرى ... ما كان سر الله بالمحجوب
يا سيد الرسل الكرام ضراعة ... تقضى من نفسى وتذهب حوبى
عاقت ذنوبى عن جنابك والمنى ... فيها تعللنى بكل كذوب
لا كالألى صرفوا العزائم للتقى ... فاستأثروا منها بخير نصيب
لم يخلصوا لله حتى فرقوا ... فى الله بين مضاجع وجنوب
هب لى شفاعتك التى أرجو بها ... صفحاً جميلا عن قبيح ذنوبى
إن النجاة وإن أتيحت لامرىء ... فبفضل جاهك ليس بالتسبيب
إنى دعوتك واثقاً بإجابتى ... يا خير مدعو وخير مجيب
قصرت فى مدحى فإن يك طيباً ... فبما لذكرك من أريج الطيب
ماذا عسى يبغى المطيل وقد حوى ... فى مدحك القرآن كل مطيب
يا هل تبلغنى الليالى زورة ... تدنى إلى الفوز بالمرغوب
أمحو خطيئاتى بإخلاصى بها ... وأحط أوزارى وإصر ذنوبى

في فتية هجروا المنى وتعوَّدوا ... إنضاء كل نَجِيبة ونَجيب
يطوى صحائف لَيْلِهم فوق الفلا ... ما شئتَ من خَبَبٍ ومن تَقْرِيب
إن رنَّم الحادى بذكرك ردَّدوا ... أنفاس مُشتاق إليك طَرُوب
أو غرَّد الرَّكب الخَلى بطيبة ... حنُّوا لمَغْناها حَنين النِّيب
ورِثوا اعْتِساف البيد عن آبائهم ... إرْثَ الخلافة فى بَنِى يعقوب
الطاعِنون الخيل وهى عَوابِسٌ ... يغشى مَثار النَّقْع كل سَبيب
والواهبون المُقْرَبات هواتناً ... من كل خَوَّار العنان لَعُوب
والمانعون الجارَ حتى عِرْضهم ... فى مُنتدى الأعداء غير مَعِيب
تُخشى بَوادِرُهم ويُرْجى حِلمهم ... والعز شيمة مرتجىً ومَهيب

ومنها بعد كثير :

سائل به طامى العُباب وقد سرى ... [تُزجى بريح](١) العزم ذات هُبوب
تهديه شُهْب أسنَّة وعزائم ... يَصْدَعْن ليل الحادث المرْهوب
حتى انجلت ظُلَم الضَّلال بسعيه ... وسطا الهدى بفَريقها المغلوب
يا ابن الأُلى شادوا الخلافة بالتقى ... واسْتَأْثروك بتاجها المعصوب
جمعوا بحفظ الدين آى مناقب ... كرمُوا بها فى مشْهد ومَغِيب
لله مجدُك طارفاً أو تالداً ... فلقد شَهِدْنا منه كل عجيب
كم رهبةٍ أو رغبةٍ لك والعُلا ... تُقْتاد بالتَّرغيب والتَّرهيب
لا زلت مسرورا بأشْرَف دولة ... يبدو الهدى من أُفقها المرقوب
تُحيي المعالى غادياً أو رائحاً ... وجديدُ سَعْدك ضامنُ المطلوب

وقال من قصيدة خاطبه بها عند وصول هديَّة ملك السودان . وفيها الحيوان الغريب المسمى بالزَّرافة :

---

(١) وردت هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (تزجيه ريح) .

قَدَحَتْ يد الأشواق من زندى | وهَفَتْ بقلبى زفرة الوَجْد
ونبذت سُلوانى على ثقة | بالقرب فاستبدلتُ بالبُعد
ولرُبَّ وصلٍ كنت آمله | فاعتَضْتُ منه مؤلم الصَّدِّ
لا عَهْدَ عند الصبر أطلبه | إن الغرام أضاع من عَهْدِى
يَلْحى العذول فما أعنِّفُه | وأقول ضلَّ فأبتغى رُشدى
وأُعارض النَّفحات أسألها | بَرْد الجَوَى فتزيد فى الوَقْد
يَهْدى الغرام إلى مسالكها | لتعلُّلى بضعيف ما تُهدى
يا سائق الوَجْناء[1] مُعْتَسِفًا | طىَّ الفلاة لطيَّة الوَجْـد
أرِح الرِّكاب ففى الصَّبا نبأٌ | يُغْنى عن المُسْتَنَّة الجُـرد
وسل الرُّبوع برامةٍ خبراً | عن ساكِنِى نَجْد وعن نَجْد
مالى تُلام على الهوى خُلُقى | وهى التى تأبى سوى الحَمْد
لأَبَيْتُ إلا الرُّشد مذ وضحت | بالمُسْتعين معالم الرُّشْد
نعم الخليقة فى هُدًى وتقًى | وبناءِ عزٍّ شامخ الطُّود
نَجْلُ السُّراة الغُرِّ شأْنُهم | كسبُ العُلا بمواهب الوَجد

ومنها فى ذكر خلوصه إليه : وما ارتكبه فيه :

لله منى إذ تأوَّبنى | ذكراه وهو بشاهق فـرد
شهمٌ يفلُّ بواتر قُضُبا | وجموع أقيال أولى أيْدِ
أوْرَيْت زَنْد العزم فى طلبى | وقضيت حقَّ المجد من قصدى
ووردتُ عن ظمأ مناهله | فرويتُ من عزٍّ ومن رِفْد
فى جنَّة المأوى لمن كَلِفت | آماله بمطالب المجد
لو لم أُعَلَّ بورْد كوثرها | ما قلت هذى جنة الخُلْد

(١) هكذا فى الإسكوريال و نفح . وفى التعريف (الأظعان) .

من مُبلّغٌ قومى ودونهم   قُذُف النّوى وتنوفَة البُعد
إنى أنَفْتُ على رجائهم   وملكت عزّ جميعهم وحدى

ومنها

ورقيمة الأعطاف حالية   موشية بوشائج البُرْد
وحشيّة الأنساب ما أنِست   فى موحش البيداء بالقوْد[(١)]
تسمو بجيد بالغ صَعَداً   شرَف الصُّروح بغير ما جَهْد
طالت رؤوس الشامخات به   ولربما قَصُرت عن الوَهْد
قطعت إليك تَنائفا وصلت   آسادها بالنّص والوَخْد
نَخْدى على استصعابها ذُلُلاً   وتَبيت طوع القِنّ والقِدّ
بسعودك اللائى ضمنّ لنا   طول الحياة بعيشة رَغْد
جاءتك فى وفْد الأحابش لا   يَرجون غيرك مُكْرِم الوفد
وافُوك أنضاءً تُقلّبهم   أيْدى السُّرى بالغَوْر والنَّجد
كالطّيف يَسْتَقْرِى مضاجعه   أو كالحُسام يُسَلُّ من غِمد
يُثنون بالحُسْنى التى سبقت   من غير إنكار ولا جَحْد
ويرون لَحْظَك من وِفادتهم   فخراً على الأتراك والهند
يا مُسْتَعيناً جلَّ فى شَرَفٍ   عن رُتبة المنصور والمَهْدى
جازاك ربُّك عن خَليقته   خير الجزاء فنِعم ما يُسدى
وبقيت للدنيا وساكنها   فى عزّة أبدا وفى سَعْد][(٢)]

وقال يخاطب صدر الدولة فيما يظهر من غرض المنظوم[(٣)] :

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى النفح (بالقرد) وهو تحريف .

(٢) كل ما تقدم من شعر ابن خلدون المحصور بين الحاصرتين ، وارد فى الإسكوريال وساقط فى الزيتونة .

(٣) المقصود بصدر الدولة هنا هو الوزير عمر بن عبد الله مدبر ملك المغرب يومئذ .

يا سيِّد الفضلاءِ دعوة مُشْفق ... نادى لشكوى البَثّ خيْر سَميع
مالى وللإقصاء بعد تَعِلَّة ... بالقرب كنت لها أجلَّ شَفيع
وأرى الليالى رَنَقَتْ لى صافيا ... منها فأصبح فى الأَجاج شروعى
ولقد خَلَصْتُ إليك بالقرب التى ... ليس الزمان لشمْلها بصَدُوع
ووثقْتُ منك بأَىٍّ وعد صادق ... إنى المصون وأنت غير مُضِيع
وسما بنفسى للخليفة طاعةٌ ... دون الأَنام هَواك قبل نُزوع
حتى انْتَحانى الكاشِحون بسعيهم ... فصَدَدْتهم عنى وكنتَ مَنيعى
رغمت نفوسهم[(١)] بنُجْح وسائلى ... وتقطَّعت أنفاسهم بصَنيِعى
وبغَوا بما نَقِموا علىَّ خلائقى ... حسداً فرامُونى بكلِّ شنيع
لا تُطْمِعَنْهم ببَذْلٍ فى التى ... قد صُنْتُها عنهم بفضل قُنوعى
أنىَّ أُضام وفى يدى القلمُ الذى ... ما كان طيِّعُه لهم بمُطيع
ولِى الخصائص ليس تأْبى رُتْبة ... حسبى بعلمك[(٢)] ذاك من تفريعى
قسماً بمجدك وهو خير أَلِيَّة ... اعتدُّها لفؤادىَ المَصْدوع
إنى لتَصْطَحِب الهموم بمضجعى[(٣)] ... فتحول ما بينى وبين هُجوعى
عطفاً علىَّ بوحْدَتى عن معشرٍ ... نَفَث الإباءُ صُلُودَهم فى رُوعى
أغدو إذا باكَرْتهم مُتَجَلِّداً ... وأروح أعْثُر فى فضول دموعى
حيرانُ أوجس عند نفسى خيفة ... فتُسِرُّ فى الأَوهام كل مروع
أطوى على الزَّفَرات قلباً إدُّه ... حملُ الهموم تَجُول بين ضلوعى
ولقد أقول لصَرْف دهر رابنى ... بحوادث جاءت على تنويع

(١) هكذا وردت فى الزيتونة ، وفى الاسكوريال والنفح (أنوفهم) .
(٢) هكذا وردت فى الاسكوريال والزيتونة . وفى النفح (بعلمى) .
(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى الاسكوريال والنفح . ووردت فى الزيتونة كالآتى (انى ليضطجع اللوم بمضجعى) .

مَهْلاً عليك فليس خَطْبُك ضائرى فلقد لبِست له أجنٌّ دروع
إنى ظَفِرْتُ بعصمة من أوحد بَذَّ الجميع بفضله المجموع

وأنشد السلطان أمير المسلمين أبا عبد الله بن أمير المسلمين أبا الحجاج، لأول قدومه ليلة الميلاد الكريم، من عام أربعة وستين وسبعمائة :

[حىٍّ المعاهد كانت قبلُ تُحْيينى بواكِف الدمع يُرويها ويُظمينى
إن الأُلى نَزَحت دارى ودارُهم تحمَّلوا القلب فى آثارهم دُونى
وقفت أنشُد صبراً ضاع بعدهم فيهم وأسأل رسَماً لا يُناجِينى
أُمثِّل الربْع من شوقٍ وألثُمه وكيف والفكر يُدنيه ويُقصينى
وينهب الوَجْدُ منّى كل لؤلؤة ما زال جفنى[1] عليها غير مأمون
سَقَتْ جفونى مَغانى الرَّبع بعدهم فالدمع وقفٌ على أطْلاله الجُون
قد كان للقلب عن داعى الهوى شُغُلٌ لو ان قلبى إلى السُّلْوان يدعونى
أحبابُنا هل لعهد الوَصْل[2] مُدَّكر منكُم وهل نَسْمة منكم تُحيِّينى
مالى وللطَّيْف لا يُعتاد[3] زائره وللنسيم عليلا[4] لا يُداوينى
يا أهل نَجْد وما نجدٌ وساكنُها حُسْناً سوى جنَّة الفِردوس والعين
أعندكم أنَّنى ما مر ذِكْرُكم إلا انْثنيت كأنَّ الرَّاح تَثْنينى
أصبُوا إلى البَرْق من أنحاءِ أرضكم شوقاً ولولاكم ما كان يُصْبِينى
يا نازحاً والمُنَى تُدْنيه من خَلَدى حتى لأَحْسِبُه قُرباً يُناجينى
أَسْلَى هواك فؤادى عن سِواك وما سِواك يوما بحال عنك يُسْليِنى
ترى الليالى أنْسَتْك ادِّكارى يا مَنْ لم يكن ذِكره الأيام تُنْسينى

(١) هكذا وردت فى الزيتونة والنفح . وفى التعريف (قلبى) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح والتعريف . وفى الزيتونة (الود) .
(٣) هكذا فى الاسكوريال والنفح والتعريف . وفى الزيتونة (يعود) .
(٤) هكذا فى الاسكوريال والنفح والتعريف . وفى الزيتونة (عليل) .

ومنها فى ذكر التفريط :

أَبعد مرِّ الثلاثين التى ذهبت ... أَولى الشَّباب بإِحسانى وتَحْسينى
أَضَعْتُ فيها نفيساً ما وَرَدْتُ به ... إلاَّ سَراب غرور ليس يَرْوِينى
واحْسَرتا من أَمانىّ كلِّها خِدَعٌ ... تريش غيِّى ومرُّ الدهر يُبرينى

ومنها فى وصف المِشْور المُبْتَنى لهذا العهد :

يامَصْنعاًشُيِّدت منه السُّعودحمى ... لايطرُق الدهر مَبْناه بتَوْهين
صرحٌ يحار لديه الطَّرْفُ مُفْتَتَنا ... فما يروقك من شكلٍ وتَلْوين
بُعْداً لإيوان كسرى إنَّ مِشْوَرَك السَّـامى لأَعظم من تلك الأَواوين
ودَعْ دمشق ومَغْناها فقصرك ذا ... أَشْهى إلى القلب من أَبواب جَيرون](١)

ومنها فى التعريض بالوزير الذى كان انصرافه من المغرب لأَجله :

من مُبلغٌ عنى الصَّحْب الأُلى جهلوا ... وُدِّى وضاع حماهم إذْ أَضاعونى
إنى أَويت من العَلْيا إلى حَرَمٍ ... كادت مَغانيه بالبُشرى تحيينى
وإننى ظاعن لم أَلْقَ بعدهم ... دهرا أُشاكى ولا خصما يُشاكينى
لا كالتى أَخْفَرَت عهدى ليالى إذ ... أُقَلِّب الطَّرف بين الخوف والهون
سُقْيًا ورَعْياً لأَيامى التى ظَفِرت ... يداى منها بحظٍّ غير مَغْبُون
ارتاد منها مليّا لا يماطلنى ... وعداً وأَرجو كريماً لا يُعنِّينى
وهاك منها قَوافٍ طيُّها حِكَمٌ ... مثل الأَزاهر فى طىِّ الرياحين
تَلُوح إن جُليت دُرّا وإن تُليت ... تُثْنى عليك بأَنفاس البساتين
عانيتُ منها بجهدى كلَّ شارِدَة ... لولا سُعودك ما كانت تُواتينى
يمانع الفِكْر عنها ما تقسَّمه ... من حُزْنٍ بطىِّ الصَّدر مكنون

(١) ما بين الحاصرتين من بداية هذه القصيدة ساقط فى « الزيتونة » . ولم يرد منها فيه سوى قسمها الأخير فى التعريض بالوزير عمر بن عبد الله .

لكن بسعدك ذَلّت لى شوارِدُها　　فُرِضْتُ منها بتحبير وتزيين
بقيت دهرك فى أَمْنٍ وفى دَعَةٍ　　ودام مُلْكُك فى نَصْرٍ وتَمْكين

وهو الآن قد بدا له فى التَّحول ، طوع أَمل ثاب له فى الأَمير أَبى عبد الله ابن الأَمير أَبى زكريا بن أَبى حفص ، لما عاد إليه مُلْك بجاية ، وطار إليه بجناح شِراع ، تفيَّأً ظله ، وصكٌّ من لدنه رآه مستقرا عنده ، يُدعِّم ذلك بدعوى تقصير خفى أَحسَّ به ، وجعله علَّة مُنْقَلبه ، وتجنٍّ سار منه فى مَذْهبه وذلك فى ......(١) من عام ثمانية وستين وسبعمائة . ولما بلغ بجاية صَدَق رأيه ، ونجحت مُخَيِّلته ، فاشتمل عليه أميرها ، وولاّه الحجابة بها. ولم يَنْشِب أَن ظهر عليه ابن عمه الأَمير أَبو العباس صاحب قسنطينة ، وتملَّك البلدة بعد مَهْلَكه ، وأَجرى المترجم به على رَسْمه بما طرق إليه الظِّنَّة بمداخلته فى الواقع . ثم ساءَ ما بينه وبين الأَمير أَبى العباس ، وانصرف عنه ، واستوطن بِسْكِرة ، متحوِّلاً إلى جوار رييسها أَبى العباس بن مَزْنىَ ، متعلِّلاً برِفْده إلى هذا العهد .

وخاطبته برسالة فى هذه الأَيام ، تنظر فى اسم المؤلِّف فى آخر الديوان .

مولده

بمدينة تونس بلده ، حرسها الله ، فى شهر رمضان من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة(٢) .

---

(١) هنا بياض فى المخطوط . ونقول تكلمة للسياق إن استيلاء الأمير أبى عبد الله محمد الحفصى على بجاية كان فى رمضان سنة ٧٦٥ هـ ، وأن ابن خلدون غادر الأندلس ، تلبية لدعوة الأمير ، حسبما يحدثنا فى « التعريف » ، فى منتصف عام ٧٦٦ هـ ، وأقلع من ثغر المرية ، فوصل إلى بجاية لخمسة أيام من سفره (رجب سنة ٧٦٦ هـ) (راجع التعريف بابن خلدون ص ٩٧ و ٩٨ — وراجع كتابى « ابن خلدون » (الطبعة الثالثة — ص ٥٠ و ٥١) .

(٢) توفى ابن خلدون بمدينة القاهرة المعزية فى السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ٨٠٨ هـ الموافق ١٦ مارس سنة ١٤٠٦ م ، ودفن ، حسبما يذكر لنا السخاوى فى ترجمته ، « بمقابر الصوفية » خارج باب النصر .

[عبد الرحمن بن الحاج بن القميى الإلبيرى

حاله : كان شاعراً مجيداً، هجا القاضى أبا الحسن بن توبة قاضى غرناطة ، ومن نصره من الفقهاء ، فضربه القاضى ضرباً وجيعاً ، وطِيف به على الأسواق بغرناطة ، فقال فيه الكاتب أبو إسحاق الإلبيرى الزاهد ، وكان يومئذ كاتباً للقاضى المذكور ، الأبيات الشهيرة :

السَّوْطُ أَبلغُ من قولٍ ومن قيل ومن نِباح سفيهٍ بالأَباطيل
من الدَّار كحر النار أبـراه يَعْقِل التقاضى أى تَعْقِيل][1]

عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد بن تفليت الفازازى

يكنى أبا زيد .

حـــاله

كان حافظاً نظَّارا [ذكيا][1] ذا حظٌّ وافر من معرفة أُصول الفقه وعلم الكلام ، وعناية بشأن الرِّواية ، مُتَبَذِّلاً فى هيئته ولِباسه ، قلَّما يرى راكبا فى حَضر إلا لضرورة ، فاضلا ، سَنِيًّا ، شديد [الإنكار][2] والإنحاء على أهل البدع ، مُبالغاً فى التحذير منهم ، عامر الإتاء[3] ، يطلب العلم شَغفًا به ، وانطباعاً إليه ، وحبّا فيه ، وحرصا عليه ، آية من آيات الله فى سرعة البديهة ، وارتجال النَّظم والنَّثر وفُور مادَّه ، وموالاة استعمال ، لا يكاد يُقيد ، ولا يصرفه عنه ، إلاَّ نسخ أَو مطالعة علم . أَو مذاكرة

---

(١) وردت هذه الترجمة الموجزة فى مخطوط الزيتونة (لوحة ١٨١ من الجزء الثانى) ولم ترد فى مخطوط الإسكوريال فرأينا إثباتها .

(٢) واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال (أتاه) . وفى الزيتونة (لأتاه) ، ونعتقد أن التصويب أنسب للسياق .

فيه ، حتى صار له مَلَكَةً ، لا يتكلف معها الإنشاء ، مع الإجادة ، وتمكُّن البراعة . وكان متلبساً بالكتابة عن الولاة والأُمراء ، ملتزماً بذلك ، كارها له ، حريصاً على الانقطاع عنه ، واختصّ بالسيد أبي إسحق بن المنصور ، وبأخيه أبي العلاء ، وبملازمتهما استحق الذِّكر فيمن دخل غرناطة ، إذ عُدَّ ممَّن دخلها من الأُمراء .

مشيخته

روى عن أبيه أبي سعيد ، وأبي الحسن جابر بن أحمد ، وابن عتيق بن مون ، وأبي الحسن بن الصايغ ، وأبي زيد السُّهيلي ، وأبي عبد الله التُّجيبي ، وأبي عبد الله بن الفخَّار ، وأبي محمد بن عبيد الله ، وأبي المعالي محمود الخراساني ، وأبي الوليد بن يزيد بن بَقِيّ وغيرهم . وروى عنه ابنه أبو عبد الله ، وأبو بكر بن سيِّد الناس ، وابن مهدي ، وأبو جعفر بن علي ابن غالب ، وأبو العباس بن علي بن مروان ، وأبو عمرو بن سالم ، وأبو القاسم عبد الرحيم بن سالم ، وابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن سالم ، وأبو القاسم عبد الكريم بن عُمْران ، وأبو يحيي بن سليمن ابن حَوْطِ الله ، وأبو محمد بن قاسم الحرار ، وأبو الحسن الرُّعيني ، وأبو علي الماقري.

تواليفه ومنظوماته

له المُعشَّرات الزُّهدية ، التي ترجمها بقوله :«المعشرات الزهدية ، والمذكرات الحقيقية الجدِّية ، ناطقة بألسِنة الوَجِلين المُشْفِقين ، شابقةً إلى مناهج السَّالكين المُشْتَبِقين. نظمها متبرِّكاً بعبادتهم[١] متيمناً بأغراضهم وإشاراتهم ، قابضاً عنان الدَّعوى عن مُداناتهم ومُجاراتهم ، مهتدياً إهداء

(١) هكذا وردت في الزيتونة ، وفي الإسكوريال (بعبداتهم) .

السُّنن الخمس ، بالأشعَّة الواضحة من إشاراتهم ، مُخَلِّدا دون أفقهم العالى ، إلى حضيضه ، جامعاً لحسن أقواله . وقبح أفعاله ، بين الشَّيء ونَقِيضه . عبد الرحمن » . وله « المُعَشَّرات الحُبِّية ، وترجمتها النَّفحات القَلْبيَّة ، واللَّفحات الشَّوْقية ، منظومة على ألسنة الذاهبين وَجْداً ، الذَّايبين كَمَداً وجَهْداً ، الذين غَرَبوا ، وبقيت أنوارُهم ، واحْتَجبوا وظهرت آثارهم ، ونطقوا وصَمَتَتْ أخبارهم ، ووفُّوا العُبُودية حقها ، ومَحُضوا المحبَّة مُسْتحقَّها ، نَظْمُ من نَسَج على مِنوالهم ، ولم يشاركهم إلا فى أقوالهم فلان» . والقصايد ، فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، التى كل قصيدة منها عشرون بيتاً ، وترجمتها الوسايل المُتَقَبَّلة ، والآثار المسلمة المُقْبِلة ، مُودَعَةً فى العشرنية(١) النبوية ، والحقايق اللَّفظية والمعنوية ، نَظْمُ من اعتقدها من أزكى الأعمال ، وأعدَّها لما يستقبله من مُدْهِش الأهوال ، وفَرَع خاطره لها ، على تَوالى القواطع ، وتَتَابُع الأشغال ، ورجا بَرَكة خاتَم الرِّسالة ، وغاية السُّودد والجلالة ، مَحْوَ ما لسَلِفه من خطإٍ فى الفعل ، وزَلل فى المقال ، والله سبحانه ولىُّ القبول للتَّوبة ، والمنَّان بتسويغ هذه المِنَّة المطلوبة ، فذلك يسير فى جَنْب(٢) قدرته ، ومَعْهُود رحمته الواسعة ومَغْفرته .

شعره

وشعره كثير جداً ، ونثره مشهور وموجود . فمن شعره فى غرض الشكر لله عز وجل ، على غَيْث جاء بعد قَحْط :

نعم الإلـه بشكره تتقيَّـد ... فالله يُشكر فى النَّوال ويُحمد
مُدَّت إليه أكفُّنـا محتـاجةً ... فأنالها من جُوده ما نعهد

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الشعرية) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (جانب) .

وأغاثنـا بغمـايمَ وكَّافـةٍ ... بالبِشر تَشْرُق والبشاير تَرْعُد
حَمَلت إلى ظمإ البَسِيطة ريَّه ... فلها عليـه منَّة لا تُجْحـد
فالجوُّ برَّاق والشُّعاع مُنَضَّض ... والماءُ فيَّاض الأثير مُعَسْجَد
والأرض فى حلى الأنيِّ كأنما ... نُطَف الغمام لؤلؤٌ وزَبَرْجد
والرَّوض مَطْلُول الخمايل باسم ... والقُضُب لِيِّنة الحمايل مُيَّد
تاهت عقول الناس فى حركاتها ... أَلِشُكْرِها أم سُكْرِها تتأَوَّد
فيقول أرباب البِطالة تَنْثَنى ... ويقول أرباب الحقيقة تَسْجُد
وإذا اهتديتَ إلى الصواب فإنها ... فى شكر خالقها تقُوم وتَقْعُد
هذا هو الفضل الذى لا يَنْقَضى ... هذا هو الجُود الذى لا يَنْفد
إحضر فؤادك للقيام بشكره ... إن كنت تعلم قَدْرَ ما تتقلَّد
وانفُضْ يديك من العِباد فكلُّهم ... عجز الحلَّ وأنت جهلا تَعْقِد
وإذا افْتَقَرت إلى سواه فإنما ... الذى بخاطرك المجال الأَبْعَد
نِعم الإلَـه كما تشاهد جُمَّةٌ ... والغائبات أجلُّ مما يُشهد
فانظر إلى آثار رحمته التى ... لا يُمترى فيها ولا يُتـردد
يا ليت شِعرى والدليل مُبَلِّغ ... من أى وجه يَسْتَريب الملْحد[١]
من ذا الذى يرتاب انَّ إلَهَهُ ... أحدٌ وألْسِنة الجماد تُوَحِّد
كل يصـرح حالـه ومقـاله ... أن ليس إلا الله ربٌّ يُعبد

ومن شعره أيضاً قوله :

عجباً لمن ترك الحقيقة جانباً ... وغدا لأرْباب الصواب مُجانبا
وابتاع بالحق المُصَحَّح حاضرا ... ما شاءَ للزُّور المُعَلَّل غـايبا

(١) وردت فى الإسكوريال (الملحد) . والتصويب من الزيتونة .

من بعد ما قد صار أَنْفَذَ أسهما … وأشدَّ عاديةً[1] وأمضى قاضبا
لا تَخْدَعَنْكَ سوابقٌ من سابق … حتى ترى الإحضار منه عواقبا
فلربما اشْتَدَّ الخيال وعاقه … دون الصَّواب هوىً وأصبح غالبا
ولِكَم إمامٌ قد أضرَّ بفهمه … كتبٌ تعبٌ من الضَّلال كتايبا
فانحرف بأفلاطون وأرسطا … طاليس ودونهما تَسْلُكُ طريقاً لاحبا[2]
ودع الفلاسفة الذَّميم جميعُهم … ومقالَهم تأتى الأحقَّ الواجبا
ياطالب البرهان فى أوضاعهم … أعزز علىَّ بأن تعمر جانبا
أعْرَضْت عن شطِّ النَّجاه ملجِّجاً … فى بحْرِ هَلْكٍ ليس يُنجى عاطبا
وصَفا الدَّليل فما نفعت بصَفْوه … حتى جعلت له الحِبر[3] شايبا
فانظر بعقلك هل ترى مُتَفَلْسِفا … فيمن ترى إلا دَعيّا كاذبا
أعْيَتْه أعباءُ الشَّريعة شِدَّةً … فارتد مَسْلُوبا ويُحْسَب سالبا
والله أسَلْ عصمةً وكفايةً … من أن أكون عن المَحَجَّة ناكِبا

ومن شعره :

إليك مددتُ الكفَّ فى كل شدَّة … ومنك وجدتُ اللُّطف فى كل نايب
وأنت ملاذٌ والأنام بمعْزِل[4] … وهل مستحيل فى الرَّجاء كرُّ آيب
فحقِّقْ رجائى فيك يا ربِّ واكفنى … شَماتة عدوٌّ أو إساءة صاحب
ومن أين أخشى من عدوٌّ إساءة … وسِترك ضافٍ من جميع الجوانب
وكم كُرْبة نَجَّيْتنى من غِمارها … وكانت شجاً بين الحَشا والتَّرايب
[فلا قوة عندى ولا لىَ حِيلة][5] … سوى حسن ظنِّى بالجميل المواهب

---

(١) وردت فى الإسكوريال (عاليه) وفى الزيتونة (عليه) . ونعتقد أن التصويب أنسب للسياق .

(٢) الطريق اللاحب أى الطريق الواضح .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (اللجى) . والأولى أصح .

(٤) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (فلا قوة عندى إلى حيلة) .

فيا مُنجي المُضطَّر عند دُعايه | أَغِثْني فقد سُدَّت على مذاهب
رجاؤك رأْسُ المال عندى ورِبْحُه | وزُهْدٌ فى المخلوق أَسْنَى المواهب
إذا عجزوا عن نَفْعهم فى نفوسهم | فتأْميلُهم بعضُ الظُّنون الكواذب
فيا محسناً فيما مضى أنت قادرٌ | على اللُّطْف فى حالى وحُسن العواقب
وإنى لأَرجو منك ما أنت أَهْلُه | وإن كنت حطا [فى] [1] كثير المعايب
[فصلٍّ على المختار من آل هاشم | إمام الوَرَى عند اشتِداد النوايب] [2]

وقال فى مُدَّعى قراءة الخطِّ دون نظر :

[وأدور ميَّاس العواطف أصبحت | محاسِنه فى الناس كالنَّوع فى الجِنس] [3]
يُدير على القرطاس أُنْمُل كفِّه | فَيُدرك أخفى الخَطِّ فى أيسر اللَّمس
فقال فريقٌ سِحْرٌ بابل عنده | وقال فريقٌ ليس هذا من الإِنْس
فقلت لهم لم تفهموا [4] سرَّ دَرْكه | على أنه للْعَقل أَجْلَى من الشمس
ستكفه [5] حبُّ القلوب فأصبحت | مداركها أجفان أُنْمُلِه الخمس

وفاته : استَقْدمه المأْمون [6] على حال وحَشْة ، كانت بينه وبينه ، فورد وُرود الرِّضا على مرَّاكُش فى شعبان سنة سبع وعشرين وستماية . وتوفى فى ذى قَعْدةٍ بعده ، ودفن بجبانة الشيوخ مع أخيه عبد الله وقرنايهما ، رحم الله جميعهم .

انتهى السفر التاسع بحمد الله

---

(١) زائدة فى الزيتونة .
(٢) هذا البيت وارد فى الزيتونة وساقط فى الإسكوريال .
(٣) هذا البيت وارد فى الزيتونة وساقط فى الإسكوريال .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تدركوا) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فتكفه) .
(٦) هو الخليفة الموحدى أبو العلاء ولد الخليفة يعقوب المنصور ، وقد تولى الخلافة فى ربيع الأول سنة ٦٢٧ هـ ، وتوفى فى أواخر سنة ٦٢٩ هـ

ومن السفــــر العاشر
العمال الأثرا في هذا الحرف

عبد الرحمن بن أسبــــاط

الكاتب المُنْجِب ، كاتب أمير المسلمين ، يوسف بن تاشُفِين .

حـــاله

لحق به بالعُدْوة ، فاتَّصل بخدمته ، وأغراه بالأندلس ، إذ ألقى إليه أمورها على صُورتها ، حتى كان ما فَرغ الله عزَّ وجل ، من استيلائه على ممالكها ، وخَلْعه لرؤسائها . وكان عبد الرحمن قبل اتصاله به ، مَقْدُورا عليه فى رِزقه ، يتحرَّف بالنَّسْخ ، ولم يكن حَسِن الخطِّ ، ولا مُعَرَّب اللفظ ، إلى أن تَسيَّر للكتابة فى باب الدِّيوان بألمريَّة ، ورأى خلال ذلك ، فى نوْمه ، شخصا يوقظه ، ويقول له قم يا صاحب رُبْع الدُّنيا ، وقصَّ رؤياه على صاحبٍ له بمَثْواه ، فبَشَّره ، فطلب من ذلك الحين السُّمُوَّ بنفسه ، فأجاز البحر ، وتعلَّق بحاشية الحُرَّة العَلْيا زينب[1] ، فاستَكْتَبته . فلما تُوفِّيت الحُرَّة . أقرَّه أمير المسلمين كاتِباً ، فنال ما شاءَ ، مما تَرْتَمى إليه الهِمَمُ . جاهاً ومالاً وشهرةً . وكان رجلا حَصِيفا ، سَكُونا ، عاقلا ، مُجلى الجاه ، حَسِن الوساطة ، شهير المكانة .

توفى فجأة بمدينة سبْتة . فى عام سبعة وثمانين وأربعمائة . وتقلد

---

(١) هى زينب بنت إسحاق النفزاوية ، زوجة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . وكانت من قبل زوجة لابن عمه أبى بكر اللمتونى . فطلقها ونزل له عنها ، حينما اعتزم السير إلى الغزو فى الصحراء ، حتى لا تشاطره حياة القفر الخشنة . وكانت زينب من أجمل وأذكى نساء عصرها .

الكتابة بعده ، أبو بكر بن القَصِيرة . ذكره ابن الصَّيرفى[١] .

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مالك المعافرى

وتكرر مالك فى نسبه

أَوَّليته

قالوا من ولد عُقْبة بن نعيم الداخل الى الأندلس ، من جند دمشق ، نزيل قرية شكنب من إقليم تاجرة الجمل من عمل بَلدِنا لَوْشَة ، غرناطى يكنى أبا محمد .

حاله

كان أبو محمد هذا أحد وزراء الأندلس ، كثير الصَّنايع ، جزْل المواهب ، عظيم المكارم ، على سُنَن عظماءِ الملوك ، وأخلاق السادة الكرام . لم يُر بعده مثله فى حال الأندلس ، ذاكرا للفقه والحديث ، بارعا فى الأدب ، شاعراً مجيداً وكاتباً بليغا ، حُلْو الكتابة والشعر ، هَشًّا مع وقار ، ليِّناً على مَضاءِ ، عالى الهمَّة . كثير الخادم والأمل .

من آثاره الماثلة إلى اليوم الحمَّام ، بجوف الجامع الأعظم من غرناطة . بدأ بناه أول يوم من جمادى الأُولى سنة تسع وخمسماية . وشرع فى الزِّيادة فى سَقْف الجامع من صَحْنه سنة ست عشرة ، وعوض أرجل قسيه ، أعمدة الرخام ، وجلب الرُّوس والموايد من قرطبة ، وفرش صحنه بكُذَّان الصُّخيرة . ومن مكارمه أنه لما وُلِّى مُسْتَخْلص غرناطة وإشبيلية ، وجَّهه أميره على بن يوسف بن تاشُفين إلى طُرْطُوشة برسم بنايها ، وإصلاح خللها ، فلما استوفى

(١) هذه الترجمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الزيتونة .

الغاية فيها ، قلّده ، واستصحب جملة من ماله لمؤنته المختصّة به ، فلما احتلّها سال قاضيها ، فكتب إليه جملة من أهلها ممن ضَعُفَ حاله وقلّ تصرفه ، من ذوى البيوتات ، فاستَعْملهم أمناء فى كل وجه جميل ، ووسّع أرزاقهم ، حتى كَمَل له ما أراد من عمله . ومن عَجَزَ أن يستعمله ، وصَله من ماله ، وصَدَر عنها وقد أنْعَش خلقا كثيرا .

شعره

من قوله فى مجلس أطربه سماعه ، وبَسَطه احتشاد الأُنس فيه واجتماعه :

لا تَلُمْنى إذا طَرِبتُ لشَجو ... يبعث الأُنْس فالكريم طَرُوب
ليس شَقُّ الجيوب حقا علينا ... إنما الحقُّ أن تُشَقَّ القلوب

وقال ، وقد قَطَف غلام من غلمانه نَوّارة ، ومدَّ بها يده إلى أبى نصر الفتح بن عبيد الله(١) . فقال أبو نصر :

وبَدْرٌ بدا والطَّرفُ مطلعُ حسنه ... وفى كفّه من رايق النَّور كوكب
يروح لتعذيب النفوس ويَغْتَدى ... ويَطْلع فى أفق الجمال ويَغْرُب

فقال أبو محمد بن مالك :

ويَحْسِد منه الغُصْن أىَّ مُهفهف ... يجىء على مثل الكَثيب ويذهب

نثره

قال أبو نصر ، كتبتُ إليه مودِّعا ، فكتب إلى مُسْتَدْعيا ، وأخبرنى رسوله أنه لما قرأ الكتاب وضعه ، وما سوّى ولا فكّر ولا رَوَى :

يا سيدى ، جرت الأيام بجمع افْتِراقك ، وكان الله جارَك فى انْطِلاقك ، فَغَيْرُك رُوِّع بالظَّعْن ، وأَوْقَد للوداع جامح الشَّجَن ، فأنت من أبناء هذا

(١) هو أبو نصر الفتح بن خاقان مؤلف « قلائد العقيان » ، المتوفى سنة ٥٣٥ هـ ، وقد سبقت الإشارة إليه غير مرة .

الزمن ، خايفةُ الخَضْر ، لا يستقرُّ على وطن ، كأنَّك والله يختار لك ما تأْتيه وما تَدَعه ، مُوَكَّل بفضاءِ الأَرض تَذْرعه ، فحسْبُ من نَوى يعِشرتك الاستِمتاع ، أن يعدَّك من العَوارى السَّريعة الارْتِجاع ، فلا يأْسَفُ على قِلَّة الثَّوى ويَنْشد : وفارقتُ حتى ما أُبالى من النَّوى .

وفاته

اعتَلَّ بإشبيلية فانتقل إلى غرناطة ، فزادت عِلَّته بها ، وتوفى رحمه الله بها فى غرَّة شعبان سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، ودفن إثر صلاة الظهر من يوم الجمعة المذكورة بمقبرة باب إلبيرة ، وحضر جنازته الخاصة والعامة .

« من رثاه » : رثاه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبى الخصال رحمه الله ، فقال :

إن كنتَ تشفق من نزوح نواه ... فهنـاك مقبرةٌ وذا مَثْـواه
قسِّم زمانك عِبرةً أَو عَبرةً ... وأَحِل تشَوُّقه على ذكـراه
وأَعْدِدْه ما امتدَّت حياتك غايباً ... أَو عاتباً إن لـم تَزُرْ زُرْنـاه
أَو نائما غَلَبت عليه رَقْدةٌ ... لمُسْهِد لم تَغْتَمض عينـاه
أَو كوكبا سَرَتْ الرِّكاب بنوره ... فمضى وبلَّغنا المحلَّ سَنـاه
فمتى تَبْعُد والنفوس تَزُوره ... ومتى تَغِيب والقُلوب تـراه
ياواحداً عَدَل الجميع وأَصلحت ... دُنْيا الجميع ودِينهم دُنيـاه
طالت أَذاتُك بالحياء كرامةً ... والله يَـكْرم عَبْـده بأَذاه
لِشهادة التَّوحيد بين لسانه ... وجَنانُه نور يُرى مَسْـراه
ويوجِّهه سيمى أَغرَّ مُحَجَّل ... مهما بدا لم تَلْتَبس سيماه
وكأَنَّما هو فى الحياة سكينة ... لولا اهْتِزازٌ فى النَّدى يغشاه
وكأَنَّه لحَظَ العُفاة توجُّعـا ... فتلازَمَتْ فوق الفؤاد يـداه

أَبْدَى رِضى الرحمن عنك ثناؤهم — إن الثَّناء علامة لِـرضـاه
يا ذا الذى شَغَف القلوب به — وذا لا تَرْتَجيه وذاك لاتخشاه
ما ذاك إلا أنه فَرْعٌ زكـا — وَسِع الجميع بظلِّه وجَنـاه
فاليوم أَوْدَى كل مَن أحببته — ونَعى إلى النفس من ينْعَـاه
ماذا يُؤمل فى دمشق مُسْهِدٌ — قد كُنتَ ناظرُه وكنتَ تراه
يَعتاد قبرك للبكا أسِفاً بما — قد كان أَضْحكَه الذى أبكاه
يا تُربةً حلَّ الوزير ضريحَها — سَقاك بل صلَّى عليك الله
وسَرَى إليك ومنك ذكرٌ ساطع — كالمسْك عاطرةً به الأفواه(١)

عبد الرحمن بن عبد الملك اليَنِشْتى

يكنى أبا بكر : أصله من مدينة باغة(٢) ، ونشأ بلَوْشة ، وهو محسوب من الغرناطيين .

حاله

كان شيخاً يبدو على مخيَّلته النُّبل والدَّهاء ، مع قُصُور أدواته . يَنْتَحل النَّظم والنثر ، فى أراجيز يتوصَّل بها إلى غرضه ، من التصرُّف فى العمل . وجرى ذكره « فى التَّاج المُحلَّى » وغيره بما نصه : قارضٌ هاجٍ ، مُداهنٌ مُداجٍ ، أَخْبَثُ من نظر من طَرْف خفى ، وأَغدرُ من تلبَّس بسعار وَفِى ، إلى مَكيدة مبثُوثَة الحبايل ، وإغراءٍ يَقطع بين الشعوب والقبايل ، من شيوخ طريقة العمل ، المُتَقَلِّبين من أحوالها ، بين الصَّحْو والثَّمْل ، المتعلِّلين برسومها ، حين اختَلط المرْعى والهمَل . وهو ناظم أَرْجاز ، ومستعمل

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

(٢) باغة وبالإسبانية Priego بلدة أندلسية من إقليم غرناطة تقع شمالى لوشة ، وعلى مقربة من قلعة يحصب .

حقيقةٍ ومجاز . نظم مُخْتَصر السِّيرة ، فى الألفاظ اليسيرة ، ونظم رَجَزاً فى الزَّجْر والفال ، نبَّه به تلك الطريقة بعد الإغفال ، فمن نظمه ما خاطبنى به مستدعياً إلى إعذار ولده :

أُريد من سيدى الأعلى تَكَلُّفه على الوصول إلى دارى صباحَ غَد
يُزيدنى شرفاً منه ويُبصر لى صناعة القاطع الحجَّام فى ولدى

فأجبته :

يا سيدى الأوحد الأسمى ومُعْتَمدى وذا الوسيلة من أهْل ومن بَلد
دعَوْت فى يوم الاثنين الصِّحاب ضُحىً وفيه ما ليس فى بَيْت ولا أحد
يوم السَّلام على المَوْلى وخدمته فاصفح وإن عَثَرت رِجْلى فخُذْ بيدى
والعُذْر أوضح من نارٍ على عَلَم فعدٍّ إن غبتُ عن لوْم وعن فَنَد
يقيت فى ظل عيش لا نفاد له مُصاحبا غير محصور إلى أمَد

ومنه أيضاً :

قل لابن سيِّد والديه لقد عَلا وتجاوز المقدار فيما يَفْخَر
ما ساد والده فيُحمد أمره إلاَّ صغير العَنْز حتى يَكْبَر

وصدرت عنه مقطوعات فى غير هذا المعنى مما عَذُب به المجْنى ، منها قوله :

إنَّ الولاية رفعةٌ لكنها أبدا إذا حقَّقتها تنتقل
فانظُر فضايل من مضى من أهلها تجد الفضايل كلُّها لا تُعْزل

وقال :

هنيا أبا إسحق دُمت موفَّقاً سعيدا قرير العين بالعُرْس والعِرس
فأنت كمثل البدر فى الحسن والتى تملكتها فى الحسن أسنى من الشمس
وقالوا عجيبٌ نور بَدْرَين ظاهر فقلت نعم إنَّ ألِفَ الجِنس للجنس

وكتب إلىَّ :

إذا ضاق ذَرْعى بالزَّمان شكوته لمولاى من آل الخطيب فيَنْفَرج

هو العُدَّة العظمى هو السيِّد الذى ... بـأوصافه الحُسْنى المكارم تَبْتَهج
وزيرٌ علا ذاتاً وقدرا ومَنْصِبـا ... فمن دونه أعْلا الكواكب يَنْدَرِج
وفى بابه نِلْتُ الأمـانى وقـادنى ... دليلُ رشادى حيث رافَقَنى الفَرَج
فلا زال فى سَعْدٍ وعـزٍّ ونعمـةٍ ... تُصان به الأموال والأهل والمُهَج

توفى فى الطاعون عام خمسين وسبعماية بغرناطة[1]

وفى سائر الأسماء التى بمعنى عبد الله وعبد الرحمن ، وأولاد الأمراء

عبد الأعلى بن موسى بن نُصير مولى لخم

أوليته

أبوه المنسُوب إليه فتح الأندلس ، ومحلُّه من الدِّين والشهرة ، وعِظَم الصِّيت معروف .

حاله

كان عبد الأعلى أميرا على سُنَن أبيه فى الفضل والدين ؛ وهو الذى باشر فتح غَرْناطة ومالَقة ، واستحق الذكر لذلك . قال الرَّازى ، وكان موسى بن نصير ، قد أخرج ابنه عبد الأعلى فيمن رتَّبه من الرجال إلى إلبيرة وتُدمير ، لفتحها ، ومضى إلى إلبيرة ففتحها ، وضمَّ بها إلى غرناطة اليهود ، مستظهراً بهم على النَّصر ، ثم مضى إلى كورة رَيُّه ، ففتحها[2]

عبد الحليم بن عمر بن عثمن بن يعقوب بن عبد الحق بن مَحْيُو

يكنى أبا محمد ، أوَّليته معروفة .

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ، ولم ترد فى الزيتونة .

(٢) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

وفَسَد ما بين أَبيه وبين جدِّه ، أَمير المسلمين ، بما أوْجب انْتِباذَه إلى سكنى مدينة سِجِلْماسة ، مُعَزَّزَةً له أَلقابُ السلطان بها . مَدُوِّخاً ما بأَحوازها من أماكن الرياسة ، منسوبة إليه بها الآثار ، كالسَّد الكبير الشهير ، وقُصور الملك . فلما نزل عنها على حكم أَخيه أمير المسلمين أَبى الحسن ، وأمضى قِتْلتَه بالفِصاد ، نشأ ولده ، وهم عدَّة بباب عمِّهم ، يَسَعُهم رِفْدُه ، ويقودهم ولده ، ثم جلاهم إلى الأَندلس إبْنه السلطان أبو عِنان ، عندما تصيَّر الأَمر إليه ، فاستقرُّوا بغرناطة ، تحت برٍّ وجراية ، قَلِقاً بمكانهم من جَلاهم ومِن بعده ، لإشارة عيون التَّرشيح إليهم ، مغازلة من كثب ، وقعودهم بحيث تَعْثُر فيهم المظَنَّة ، إلى أن كان من أمرهم ما هو معروف .

حـــاله

هذا الرجل من أهل الخير والعفاف والصِّيانة ، ودَمَث الخُلُق ، وحسن المداراة ، يألف أهل الفضل ، خاطبٌ للرُّتبة بكل جهد وحيلة ، وسُدَّ عنه باب الأَطماع . حُذِّر من كان له الأَمر بالأَندلس من لَدُن وصوله ، كى لا تختلف أَحوال هذا الوطن فى صَرْف وجود أهله إلى غزو عدو المِلَّة ، ومُحَوِّلى القِبلة ، وإعراضهم عن الإغماض فى الفِتنة المُسْلمة ، وربما نميت عنهم الحركات والهموم . فثَقَّفوا من فيها عليهم . إلى أن تبرأ ساحتهم ويُظن به السكون . فلما دالت الدولة ، وكانت للأَخابث الكرَّة ، واستقرَّت بيد الرئيس الغادر الكرَّة ، وكان ما تقدَّم الإلماع به من عمل السلطان أبى سالم ملك المغرب . على إجازة السلطان ولىِّ مُلْك الأَندلس ، المُزْعج عنها بعلَّة البَغْى . ذهب الدّايل الأَخرق إلى المقارضة . فعندما استقرَّ السلطان أبو عبد الله بجبل الفتح . حاول إجازة الأمير عبد الحليم إلى تِلمسان بعد مفاوضة . فكان ذلك فى أُخريات ذى قعدة ، وقد قُضى الأَمر

فى السلطان أبى سالم . وانحلّت العُقْدة ، وانْتَكَثت المريرة ، وولّى الناس الرجل المعتوه . وفَد إلى تِلمسان من لم يَرْض محله من الإدالة ،ولا قويت نفسه على العِوض ، ولا صابَرَت غضّ المخافة ، وحرّك ذلك من عزمه ، وقد أنجده السلطان مُسْتدعيه بما فى طَوْقة . ولما اتصل خبره بالقايم بالأمر بفاس ، ومُعْمِل التدبير على سلطانه . أعمل النظر فيهم ، زعموا بتسليم الأمر ، ثم حذّر من لحق به من أضداده ، فصمّم على الحصار ، واسْتَراب بالقَبيل المَرِينى ، وأكْثَف الحجاب دونهم بما يحرِّك أنَفَتهم ، فَنَفَروا عنه بواحدة أول عام ثلاثة وستين وسبعماية ، واتفق رأيهم على الأمير عبد الحليم ، فتوجّهت إليه وجهوهم اتِّفاقا ، وانثالوا عليه اضْطرارا ، ونازل البَلَد الجديد ، دار الملك من مدينة فاس ، يوم السبت السادس لشهر المحرم من العام . واضّطربت المحلات بظاهره ، وخرج إليه أهل المدينة القُدْمى ، فأخذ بيعتهم ، وخاطب الجهات ، فألقت إليه قواعدها باليد ، ووصلت إليه مخاطباتها .

ومن ذلك ما خوطب به من مدينة سَلا ، وأنا يومئذ بها :

يا إمام الهدى وأىّ إمـام أوْضِح الحق بعد إخفاء رسمه
أنت عبد الحليم حِلمُك نَرْ جو فالمسَمّى له نصيبٌ من اسمه

وسَلك مَسْلكا حسنا فى الناس ، وفَسح الآمال ، وأجمل اللقاء ، وتَحمّل الجفاء ، واستفزّ الخاصة بجميل التأتّى وأَخْذِ العفو ، والتّظاهر بإقامة رسوم الدِّيانة ، وحارب البلد المحصور فى يوم السبت الثالث عشر لشهر الله المحرم المذكور ، كانت الملاقاة التى برز فيها وزير المُلك ومُدير رحاه بمن اشتملت عليه البلدة من الرُّوم والجند الرُّحل ، واستُكْثِر من آلات الظهور وعُدد التّهويل ، فكانت بين الفريقين حربٌ مرّةٌ تولى كِبرها النّاشِبة ،

فأرسلت على القوم حَواصب النَّبل ، غارت لها الخَيْلُ ، واقشعرّت الوجوه، وتقهقرت المواكب . وعندها بَرَز السلطان المعْتُوه ، مصاحبةً له نَسَمة الإقدام ، وتَهوِّر الشجاعة عند مفارقة الخلال الصِّحيَّة ، وتوالت الشدّات ، وتكالَبت الطَّايفة المحصورة ، فتمرَّست بأُختها . ووقعت الهزيمة ضَحْوة اليوم المذكور على قَبِيل بنى مرين ومن لَفَّ لفَّهم ، فصَرَفوا الوجوه إلى مدينة تازِى ، واستقرَّ بها سلطانهم ، ودخلت مِكناسة فى أمرهم ، وضاق ذَرْع فاس للمُلْك بهم ، إلى أن وصل الأمير المُسْتَدعى ، طِيَّة الصبر ، وأجدى دَفع الدَّين ، ودخل البلد فى يوم الاثنتن الثانى والعشرين لصفر من العام.
وكان اللقاءُ بين جيش السلطان ، لنظر الوزير ، مُطْعَم الإمهال ومُعَوَّد الصُّنع . وبين جيش بنى مرين ، لنظر الأخ عبد المؤمن ابن السلطان أبى على . فرحل القوم من مِكناسة ، وفرَّ عنهم الكثير من الأولياء ، وأخْلُوا العَرْصَة ، واستقروا أخيراً ببلد أبيهم سِجِلْماسة ، فكانت بين القوم مُهادنة . وعلى أثرها تَعَصَّب للأخ عبد المؤمن معظم عرب الجهة ، وقد برز إليهم فى شأن استخلاص الجبابة ، فرجعوا به إلى سِجلماسة . وخرج لمدافعتهم الأمير عبد الحليم ، بمن معه من أشياخ قبيله والعرب أولى مظاهر ، فكانت بينهم حرب أَجْلَت عن هزيمة الأمير عبد الحليم ، واستَلْحم للسَّيف جملة من المشاهير . كالشيخ الخاطب فى حَبْله ، خِدْن النُّكْر وقادح زَنْد الفِتنة ، الدَّاين بالحَمْل على الدول على التفصيل والجُمْلة . المُعْتمد بالمغرب بالرأى والمشورة ، يحيى بن رحّو بن مَسْطى وغيره . وأذعن عبد الحليم بعدها للخَلْع ، وخرج عن الأمر لأخيه ، وأبقى عليه ، وتحرَّج من قتله . وتُعُرِّف لهذا الوقت صَرْفُه عنه إلى الأرض الحجازية على صحراء القِبلة ، فانتهى أمره إلى هذه الغاية .

دخوله غرناطة

قدم على الحَضْرة مع الجملة من إخوته وبنى عمّه فى ....[١] جَلاهم السلطان أبو عنان ، عندما تصيّر له الأمر ، فاستقرّوا بها ، يناهز عبد الحليم منهم بلوغ أَشُدّه .

وتوفى ....[١] وستين وسبعماية[٢]

عبد المؤمن بن عمر بن عثمن بن يعقوب بن عبد الحق بن مَحْيُو

أخو الأمير عبد الحليم يكنى أبامحمد

حـــاله

كان رجلا وقوراً ، سكونا ، نحيفا ، آية الله فى جمود الكفّ ، وإيثار المَسْك ، قليل المُداخلة للناس ، مشتغلا بما يُغنيه منخُويصة نفسه ، موصوفاً ببسالة وإقدام ، حسن الهيئة . دخل الأندلس مع أخيه ، وعلى رسمه ، وتحرّك معه ، وابن أخ لهما ، فتولى كثيرا من أمره ، ولقى الهوْل دونه . ولما استقرّوا بسِجِلماسة ، كان ما تقرّر من تَوْبته على أمره ، والعمل على خَلْعه ، مُعْتذرا زعموا إليه ، موفّيا حقّه ، موجبا تَجِلّته إلى حين انصرافه ، ووصل الأندلس خطابه ، يُعَرِّف بذلك بما نصّه فى المَدْرَجة .

ولم يَنْشِب أن أحسّ بحركة جيش السلطان بفاس إليه. فخاطب عميد الهساكره[٣] ، عامر بن محمد الهِنتاتى ، وعرض نفسه عليه . فاستدعاه .

---

(١) بياض بالمخطوط .

(٢) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

(٣) نسبة إلى هسكورة وهى إحدى القبائل البربرية المغربية ، الضاربة فى بلاد السوس جنوب شرق مراكش ، وغربى سلجلماسة .

وبَذَل له أماناً . ولما تحصَّل عنده ، قبض عليه ، وثقَّفه ، وشدَّ عليه يده ، وحَصَل على طلبه دهِيّة ، من التَّوعِّد بمكانه ، واتخاذ اليد عند السلطان بكفِّ عادِيته إلى هذا التاريخ[1]

ومن الأفراد أيضاً فى هذا الحرف وهم طارؤون

عبد الحق بن على بن عثمن بن أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق

الأمير المُخاف بعد أبيه أمير المسلمين أبى الحسن بمدينة الجزائر ، بعد ما توجَّه إلى المغرب ، وجرت عليه الهزيمة من بنى زيَّان .

حـــاله

كان صبيا ظاهر السكون والأدب ، فى سِنِّ المراهقة ، لم يَنْشِب أن نازله جيْشُ عدوِّه ، ومالأه أهل البلد ، وأخذ من معه لأنفسهم وله الأمان ، فنزل عنها ولحق بالأندلس . قال فى كتاب « طُرْفة العصر » ، وفى ليلة العاشر من شهر ربيع الأول اثنين وخمسين وسبعمائة ، اتَّصل الخبر من جهة الساحل ، بنزول الأمير عبد الحق ابن أمير المسلمين أبى الحسن ومن معه ، بساحل شُلوبانية[2] ، مُفْلِتين من دَهْق الشِّدة ، بما كان من منازلة جيش بنى زيَّان مدينة الجزائر ، وقيام أهلها بدعوتهم ، لما سَيِمَوْه من المطاولة ، ونَهكهم من الفِتنة ، وامتنع الأمير ومن معه بقَصَبَتِها ، وأخذوا لأنفسهم عهدا ، فنزلوا وركبوا البحر ، فرافقتهم السَّلامة ، وشملهم سِتْر العِصمة . ولحين اتصل بالسلطان خبره ، بادر إليه بمركبين ثَقِيلى الحِلية ، وما يناسب ذلك من بِزَّة ، وعجَّل من خدامه بمن يقوم ببرِّه ، وأصحبه

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

(٢) شلوبانية وبالإسبانية Salobrena ثغر أندلسى صغير يقع على البحر المتوسط جنوبى غرناطة وقد سبق التعريف بها (أنظر ص ١١٢ من المجلد الأول حاشية) .

إلى منزل كَرامته ، ولرابع يوم من وصوله . كان قُدومه ، وبرز له السلطان بروزاً فخما ، ونزل له ، قارضاً إياه أَحْسَنَ القَرْض ، بما أسلفه من يَد ، وأسْداه من طَوْل . وأقام ضيفا فى جواره ، إلى أن اسْتَدْعاه أخوه ملك المغرب ، فانصرف عن رِضىً منه ، ولم يَنْشِب أن هلك مُغْتالا فى جُمْلة أَرْداهم الترشيح (١) .

عبد الواحد بن زكريا بن أحمد اللحيانى

يكنى أبا ملك . وبيتُه فى الموحِّدين الملوك بتونس . وأبوه سلطان إفريقية المُتَرقِّى إليها من رُتبة الشِّياخة الموحدية .

حـــاله

كان رجلا طُوالا نحيفا ، فاضلا حَيِيا ، مقيما للرُّسوم الحَسَبِيَّة ، حسن العشرة ، معتدل الطَّريقة · نشأ بالبلاد المشرقية ، ثم اتصل بوطنه إفريقية ، وتقلَّد الإمارة بها برهة يسيرة ، ثم فرَّ عنها ولحق بالمغرب ، وجاز إلى الأندلس ، وقدم على سلطانها ، فرحَّب به ، وقابله بالبِرِّ ، ونوَّه محلَّه ، وأطْلَق جرايته ، ثم ارتحل أدراجه إلى العُدْوة ، ووقعت بينى وبينه صُحبة ، أنشدته عند وَداعه :

أبا ملكٍ أنت نجلُ الملوك — غيوثُ النَّدى وليوثُ النزال
ومثلك يرتاح للمَكْرَمات — ومالَكَ بين الورى من مثال
عزيزٌ بأنفسنا أن نرى — رِكابك مؤذنة بارتحال
وقد خَبَرْتُ منك خُلُقاً كريماً — أناف على درجات الكمال

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال . ولم ترد فى الزيتونة .

وفازَتْ لديك بساعات أُنْس   كما زار فى النَّوم طيف الخيال
فلولا تعلُّلنا أننا نَزُورك فوق بِساط الجلال
ونبلغ فيك الذى نَشْتَهى   وذاك على السَّهل المَنال
لما فَتَرت أنفسٌ من أسىً   ولا بَرِحت أدمعٌ فى انهِمال
تلقَّتك حيث احْتَلَلْت السُّعود   وكان لك الله على كل حال[1]

ومن ترجمة الأعيان والوزراء والأماثل والكبرا

عبد الحق بن عثمن بن محمد بن عبد الحق بن مَحْيُو

يكنى أبا إدريس ، شيخ الغزاة بالأندلس .

حاله

كان شجاعا عفيفاً تقيا ، وقوراً جَلِداً ، معروف الحقّ ، بعيد الصِّيت . نازَع الأمرَ قومَه بالمغرب ، وانتزى بمدينة تازى ، على السلطان أبى الرَّبيع ، وأخذ بها البيعة لنفسه . ثم ضاق ذَرْعُه ، فعبر فيمن معه إلى تِلمسان . ولما هَلَك أبو الربيع ، ووَلِى السلطان أبو سعيد ، قدَّم للكَتْبِ فى شأْنه إلى سلطان الأَندلس ، وقد تعرَّف عزمَه على اللحاق ، ولم ينشِب أن لحق بألمرية من تلمسان ، فثُقِّف بها ، قَضاءً لِحَقٍّ من خاطب فى شأْنه . ثم بدا للسلطان فى أمره ، فأَوْعَز لرُقبايه فى الغَفْلة عنه . وفرَّ فلحق ببلاد النصرى[2] فأقام بها ، إلى أن كانت الوَقيعة بالسلطان بغرناطة ، بأحواز قرية العَطْشا على يد طالبِ المُلْك أمير المسلمين أبى الوليد . وأمير يومئذ شيخ الغزاة حَمُّو بن عبد الحق ، وترجَّح الرأى فى إطلاقه وصَرْفِه ، إعلانا للتَّهديد .

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال . ولم ترد فى الزيتونة .

(٢) ومعناها هنا النصارى أى بلاد ملك النصارى أو ملك قشتالة .

فنجحت الحيلة ، وعُزل عن الخُطة ، واستُدعى عبد الحق هذا إليها ، فوصل غرناطة ، وقُدِّم شيخا على الغزاة . ولما تغلَّب السلطان أبو الوليد على الأمر ، واستَوسق له ، وكان ممن شمله أمانه ، فأقرَّه مرؤوساً بالشيخ أبى سعيد عثمن بن أبى العلاء برهة . ثم لَحِق بأميره المخلوع نَصْر ، المستقرِّ مُوادَعاً بوادى آش ، وأوقع بجيش المسلمين مُظاهر الطاغية ، الوقيعة الشَّنيعة بقَرْمونة ، وأقام لديه مُدَّة . ثم لحق بأرض النَّصرى ، وأجاز البحر إلى سَبْتة . مظاهراً لأميرها أبى عمرو يحيى بن أبى طالب العَزَفى ، وقد كشف القِناع فى مُنابذة طاعة السلطان ، ملك المغرب ، وكان أمْلَك لما بيده ، وأُتيح له ظَفَرٌ عظيم على الجيش المُضَيِّق على سبتة ، فبيَّته وهزمه . وتخلَّص له ولده ، الكاين بمضرب أمير الجيش فى بيت من الخَشَب رهينةً ، فصُرف عليه ، فما شِئت من ذِياع شهرة ، وبُعد صيت ، وكَرَم أُحْدُوثة . ثم بدا له فى التَّحول إلى تِلمسان ، فانتقل إليها ، وأقام فى إيالة ملكها عبد الرحمن بن موسى بن تاشُفِين إلى آخر عمره .

وفاته

توفى يوم دخول مدينة تلمسان عَنْوة . وهو يوم عبد الفطر من عام ثمانية وثلثين وسبعماية ، قُتل على باب منزله ، يُدافع عن نفسه ، وعلى ذلك فلم يُشْهر عنه يومئذ كبير غِناء ، وكُوِّر واسْتَلْحم ، وحُزَّ رأسه . وكان أُسوة أميرها فى المَحْيا والمَمات ، رحم الله جميعهم . فانتقل بانتقاله وقُتل بمَقْتله . وكان أيضاً عَلَماً من أعلام الحروب . ومثلا فى الأبطال . وليْثًا من ليُوث النِّزال[1] .

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال . ولم ترد فى الزبيرية .

عبد الملك بن على بن هُذيل الفَزارى وعبد الله أخوه

حالهما

قال ابن مَسْعدة : أبو محمد وأبو مروان تولّيا خُطّة الوزارة فى الدولة الحَبُّوسِية(١) ، ثم تولّيا القيادة بثغور الأندلس ، وقهرا ما جاورهما من العدُوِّ ، وغلباه . وسَقَياه كأس المنايا ، وجرّعاه . ولم يزالا قائمين على ذلك ، ظاهرين عَلَمَين ، إلى أن استَشْهدا رحمهما الله(٢) .

عبد القهار بن مفرج بن عبد القهار بن هذيل الفزارى

حاله

قال ابن مسعدة ، كان بارع الأدب ، شاعرا ، نحويا ، لُغَويا ، كاتبا متوقِّد الذهن ، عنده معرفة بالطِّب ، ثم اعْتَزل الناس ، وانْقَبَض ، وقصد سُكنى البِشارات(٣) ، لينفرد بها ، ويُخفى نفسه ، فرارا من الخدمة ، فتهيَّأ له المُراد .

شعره

وكان شاعرا جيِّد القريحة سريع الخاطر ، ومن شعره :

يا صاح لا تعرض لزَوْجِيَّة ... كلُّ البَلا من أجلها يَعْتَرى
الفقر والذُّل وطول الأسى ... لستُ بما أذكره مُفْتَرى

---

(١) نسبة إلى حبوس بن ماكسن ، أمير غرناطة ، وأول أمرائها من البربر أيام الطوائف وقد حكم من سنة ٤١١ إلى سنة ٤٢٨ هـ .

(٢) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

(٣) هى المنطقة الجبلية الواقعة بين جبال سييرا نفادا (جبل شلير) وبين البحر جنوبى غرناطة ، وقد سبق التعريف بها . (أنظر ص ١٦٨ من هذا المجلد من الإحاطة) .

ما فى فم المرأة شىءٌ سوى اشْتَرِلِى واشْتَرِلِى واشْتَرِ[١]

القضاة الفضلاء وأولا الأصليون

عبد الحق بن غالب [بن عطية][٢] بن عبد الرحمن بن غالب بن عبدالرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن عطية بن خالد بن خفاف بن أسلم بن مكتوم المحاربى

أوليّتــــه

من ولد زيد بن مُحارب بن عطيَّة ، نزل جدُّه عطية بن خِفاف بقرية قِسلة من زاوية غرناطة ، فأنسل كثيراً ممن له خطرٌ ، وفيه فضل .

حــــاله

كان عبد الحق فقيها ، عالما بالتفسير والأحكام والحديث والفقه ، والنحو والأدب واللغة ، مُقَيِّدا حسن التَّقييد ، له نظم ونثر ، وُلِّى القضاء بمدينة ألمريَّة فى المحرم سنة تسع وعشرين وخمسماية ، وكان غاية فى الدَّهاء والذكاء ، والتَّهمُّم بالعِلْم ، سَرِىَّ الهمَّة فى اقتناء الكتب . توخَّى الحق ، وعَدَل فى الحكم ، وأعزَّ الخُطَّة .

مشيخته

روى عن الحافظ أبيه ، وأبوى على الغسَّانى والصَّدفى ، وأبى عبد الله محمد بن فرج مولى الطلاع ، وأبى المُطَرِّف الشعبى ، وأبى الحسين بن البيّان ، وأبى القاسم بن الحصّار المُقْرى ، وغيرهم .

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال . ولم ترد فى الزيتونة .

(٢) الزيادة من الزيتونة .

تواليفه

أَلَّف كتابه المسمى « بالوجيز فى التفسير » فأَحسن فيه وأَبْدَع ، وطار بحسن نِيَّته كل مطار . وأَلف برنامجاً ضمنه مَرْوِيَّاته ، وأَسماءَ شيوخه ، وجَرَز وأَجاد .

شعره

قال الملاّحى ، ماحدَّثنى به غير واحد من أَشياخه عنه ، قوله :

وليلة جِيتُ[1] فيها الجذع مُرْتديا ... بالسَّيف أَسحب أَذيالا من الظُّلَم
والنَّجم حَيْران فى بحر الدُّجا غَرِق ... والبَدْر فى طَيْلَسان اللَّيل كالعَلَم
كأَنما اللَّيل زَنْجى بكاهلـه ... جُرْحٌ فيَثْغَب أَحيانا له بـدَمِ

وقال يَنْدب عهد شبابه :

سُقياً لعهد شباب ظِلْت أَمرح ... فى رَيْعانه وليالى العَيْش أَسحار
أَيام رَوْض الصِّبا لم تَذو أَغصُنهُ ... ورَوْنَق العمر غضٌّ والهوى حمار
والنَّفس تركُض فى تضْمين ثَرَّتها ... طَرْفاً له فى زمان اللهو إحضـار
عهداً كريماً لبِسْنا منـه أَردِيةً ... كانت عُيوناً ومُحيت فهى آثار
مضى وأَبْقَى بقلبى منه نار أَسىً ... كُونى سلاماً أَو بَرداً فيه يا نار
أَبَعْدَ أَن نَعِمَت نفسى وأَصبح فى ... ليل الشباب لصُبح الشَّيب أَسفار
ونازَعَتنى الليالى وانْثَنت كِسْراً ... عن ضَيْغَم ماله نابٌ وأَظفـار
أَلا سلاحُ خِلال أَخْلَصَت فلها ... فى مَنْهل المجد إيرادٌ وإصـدار
أَصْبُو إلى روض عَيْش رُوْضُه خَضِل ... أَو يَنْثَنِى بى عن اللُّقيا إقصـار
إذا تعطَّلت كفِّى من شَبا قـلم ... آثاره فى رِياض العِلْم أَزهـار

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بات) .

من روى عنه

روى عنه أبو بكر بن أبي جَمْرة ، وأبو محمد بن عبد الله ، وأبو القاسم بن حُبَيْش ، وأبو جعفر بن مَضاء ، وأبو محمد عبد المنعم ، وأبو جعفر ابن حَكم ، وغيرهم .

مولده : ولد سنة إحدى وثمانين وأربع ماية .

وفاته : توفى فى الخامس والعشرين لشهر رمضان سنة ست وأربعين وخمس ماية بمدينة لُورَقَة[1] . قَصَد مرسية يتولى قضاءها ، فصُدَّ عنها ، وصُرف منها إلى لُورَقَة ، اعتداءً عليه .

عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم بن فرج الخزرجى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا محمد ، ويعرف بابن الفرَس ، وقد تقدم ذكر طايفة من أهل بيته .

حاله

كان حافظاً جليلا ، فقيها ، عارفا بالنحو واللغة ، كاتبا بارعا ، شاعراً مَطْبوعا ، شهير الذكر ، عالى الصِّيت . وُلِّى القضاء بمدينة شُقْر ، ثم بمدينة وادى آش ، ثم بجيَّان ، ثم بغرناطة ، ثم عُزل عنها ، ثم وَلِيها الولاية التى كان من مُضْمَن ظَهيره بها ، قول المنصور له ، أقول لك ما قاله موسى عليه السلام لأخيه هٰرون ، إخْلِفْنى فى قَوْمى ، واصْلِحْ ولا تتَّبع سبيل المُفْسدين ، وجعل إليه النظر فى الحِسْبة ، والشُّرطة ، وغير ذلك ،

(١) سبق التعريف بها (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ٤١٢ حاشيته) .

فكان إليه النظر فى الدِّماء فما دُونها ، ولم يكن يُقطع أمرٌ دُونه ببلده وما يرجع إليه .

وقال ابن عبد الملك ، كان من بيت عِلْم وجلالة ، مُسْتَبْحراً فى فنون المعارف ، على تفاريقها ، متحقِّقاً بها ، نافذا فيها ، ذكىَّ القلب . حافظاً للفقه . اسْتَظْهر أوان طَلَبِه للكِتابين ، المُدَوَّنة ، وكتاب سيبويه وغيرهما ، وعُنِى به أبوه وجدُّه عناية تامة . وقال أبو الربيع بن سالم ، سمعت أبا بكر ابن الجدّ ، وحَسْبُك شاهدا ، يقول غيرما مرة ، ما أَعْلَمُ بالأندلس ، أَحْفَظَ لمذهب مالك من عبد المنعم بن الفَرَس ، بعد أبى عبد الله بن زَرْقون.

مشيخته

روى عن أبيه الحافظ أبى عبد الله ، وعن جده أبى القاسم ، سمع عليهما وقرأ ، وعن أبى بكر بن النَّفِيس ، وأبى الحسن بن هُذَيل ، وأبى عبد الله ابن سعادة ، وأبى محمد عبد الجبار بن موسى الجذامى ، وأبى عامر محمد ابن أحمد الشَّلْبى ، وأبى العباس أحمد وأخيه أبى الحسن ابنى زيادة الله . هذه جملة من لقى من الشيوخ وشافهه وسمع منه . وأجاز له من غير لقاء وبعضهم باللِّقاء من غير قراءة ، ابن ورد ، وابن بَقِى . وأبو عبد الله ابن سليمن التونسى . وأبو جعفر بن قبلال . وأبو الحسن بن الباذش ، ويونس بن مغيث ، وابن مُعَمَّر ، وشُريح ، وابن الوحيدى ، وأبو عبد الله ابن صاف . والرُّشاطى ، والحِمْيرى ، وابن وضَّاح ، وابن موهب ، وأبو مروان الباجى ، وأبو العباس بن خلف بن عيشون ، وأبو بكر بن

طاهر ، وجعفر بن مكّي ، وابن العربي ، ومساعد بن أحمد بن مساعد ، وعبد الحق بن عطية ، وأبو مروان بن قُزْمان ، وابن أبي الخِصال . وعياض ابن موسى ، والمَازَري ، وغيرهم .

تواليفه

ألف عدة تواليف ، منها كتاب الأحكام ، ألفه وهو ابن خمسة وعشرين عاماً ، فاستوفى ووفَّى ، واختصر الأحكام السلطانية ؛ وكتاب النَّسب لأبي عبيد بن سلام ، وناسخ القرآن ومنسوخه لابن شاهين ، وكتاب المُحْتَسب لابن جِنِّي . وألَّف كتابا في المسايل التي اختلف فيها النحويون من أهل البصرة والكوفة ، وكتابا في صناعة الجدَل . ورد على ابن غَرْسِيَّة في رسالته في تفضيل العجم على العرب . وكتب بخطه من كتب العربية واللغة والأدب والطب وغير ذلك .

من روى عنه

حدَّث عنه الحافظ أبو محمد القرطبي ، وأبو علي الرُّندي ، وإبنا حَوْطِ الله ، وأبو الربيع بن سالم ، والجمُّ الغفير .

شعره

[أبَى ما بقلبي اليوم أن يتكَتَّما ... وحَسْبُك بالدمع السَّفوح مُتَرْجما
وأعجِبْ به من أخرَس بات مُفْصِحا ... يُبَيِّنُ للواشين ما كان مُبْهما
فكم عَبْرة في نهر شُقْرٍ بعثتها ... سباقا فأمسى النهر مُخْتَضبا دما
يرجع ترجيع الأنين اضطراره ... كشكْوى الجَريح للجريح تألُّما
كَمَلْن بصحبي في قَوفة الدمع ناثرٌ ... شَقايق نُعمان على مَتْن أرقما
ولله ليلٌ قد لَبِست ظلامه ... راداً بأنوار النجومِ مُنَمْنِما

أناوح فيه الوِرق فوق غصونها ... فكم أوْرَقَ منهنَّ قد بات مُعْجما
ومالى إلا للفَرقَديــن مُصاحب ... ويا بُعْد حالى فى الصَّبابة منهما
أَبيتُ شَتِيت الشَّمل والشَّمل فيهما ... جَميعٌ كما أبصرتُ عِقدا مُنَظَّما
فياقاصداً تُدْمير عَـرِّج مُصافحاً ... نسأَلك رَسْما بالعَقيـق ومَعْلَمـا
وأعْلِم بأَبواب السلام صَبابتى ... كَما كان عَرف المِسْك بالمسك علَّما
وإن طُفْت فى تلك الأَجارع لاتُضِع ... بحقٍّ هواها إن لم تُلِمَّ مُسَلِّما
وما ضرَّها لو جاذَبت ظَبْية النُّقا ... فضول رداء قد تَغَشَّته مُعلمـا
فيُثْـنى قضيباً أثمَر البدر مايساً ... بحَقْف مَسيل لفَّه السَّيْل مُظلما
وما كنتَ إلاّ البـدر وافى غمامةً ... فما لاح حتى غاب فيها مُغَيِّما
وما ذاك من هَجـر ولـكن لشَقْوة ... أَبَتْ أن يكون الوَصْل منها مُتَمِّما
فياليتنى أصبحتُ فى الشعْر لَفْظة ... تردِّدُنى مهمـا أَردت تَفَهُّما
ولله ما أذكى نَسيمك نَفْحةً ... أأنت أَعَرْت للرَّوضِ طيباً تَنَسَّما
ولله ما أَشْفَى لِقاك للجَوى ... كأنَّك قد أصبحت عيسى بن مَرْيَما
وما الرَّاح بالماء القَـراح مشوبةٌ ... بـأَطْيَبَ من ذِكراك إن خامَرَتْ فَما
فمالى وللأيـام قد كان شَمْلنـا ... جَميعاً فـأضحى فى يَدَيْها مُقسَّما
وما جَنَيتُ الطِّيب من شَهْد وَصْلها ... جَنَيتُ من التَّبديد للوصل عَلْقما
وقد ذُقت طعم البَيْن حتى كأنَّنى ... لأُلفة من أَهواه ما ذقت مَطْعما
فمن لفؤاد شَطره حازه الهـوى ... وشَطرٌ لإِحراز الثَّواب مُسَلما
وياليت أنَّ الدّار حان مزارُها ... فلـو صحَّ قربُ الدار أدركت مَغْنما
ولو صح قرب الدار لى لجعلتُه إلى ... مُرتقى السُّلوان والصبر سُلَّمـا
فقد طال ما ناديت سِرّاً وجَهْرة ... عسى وطن يَدْنو بهم ولَعَلَّما ؟

ومن شعره :

سلامٌ على من شفَّنى بعدُ داره ... وأصبحتُ مشغوفاً بقرب مزاره
ومن هو فى عَينى ألذُّ من الكَرى ... وفى النفس أشهَى من أمان المكاره
سلام عليه كلما ذرَّ شارق ... يَنُم كعَرْف الزهر غبّ فطاره
لعَمْرك ما أخشى غداة وداعنا ... وقد سَعَرت فى القلب شعلة ناره
وسال على الخدَّين دمعٌ كأنه ... بقيةُ طَلٍّ للروض فى جلناره
وعانقتُ منه غُصْنَ بانٍ منعَّماً ... ولا حظت منه الصُّبح عند اشتهاره
وأصبحتُ فى أرض وقلبي بغيرها ... وما حال مَسْلوب الفؤاد مُكاره
نأى وجهُ من أهوى فأظلم أفقُه ... وقد غاب عن عينيه شمس نهاره
سَلِ البرق عن شَوْقى يُخْبِرك بالذى ... أُلاقيه من بَرْح الهوى وأواره
وهل هو إلاّ نار وَجْدى وكلما ... تنفَّست عمَّ الجوّ ضوءُ شراره][1]

ومن شعره أيضا رحمة الله عليه :

أقرأ على شِنْجِلٍ[2] سلاما ... أطْيَب من عَرْفه نَسيما
من مُغرم القلب ليس ينسى ... منْظَره الرايق الوَسيما
إذا رأى مَنْظَرا سواه ... عاف الجَنَى منه والشَّميما
وإن أتى مَشْربا حميدا ... كان وإن راقه ذَميما
وقَف بنَجْد وقوف صبٍّ ... يستذكر الخِدْن والحَميما
وأندب أراكاً بشُعب رَضْوى ... قد رَجَعت بعدنا مَشِيما
وأذكر شباباً مضى سريعا ... أصبحتُ من بعده سقيما

---

(١) هذا الشعر المحصور بين الحاصرتين وارد فى الاسكوريال وساقط فى الروتونة .

(٢) شنجل يقصد بها هنا نهر شنيل ، وهو فرع الوادى الكبير الذى تقع عليه غرناطة ، ويعرف عند الأندلسيين أيضا بنهر سنجيل أو شنجيل محرفا عن اسمه اللاتينى Singilis . وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ١٦٨)

هيهات ولّى وجاء شَيْبٌ وكيف للقلب أن يَهيما
ما يُصلح الشَّيب غير تقوى تَحْجُب عن وجهه الجَحيما
فى كل يوم له ارتِحال أَعْجِب به ظاعناً مقيما
ما العُمْر إلاّ لديه دَيْن قد آن أن يقضى الغريما
فعد إلى توبة نَصوح وارج إلَهاً بنا رَحيما
قد سبق الوعد منه حتى أَطْمعَ ذا الشَّقوة النَّعيما

مولده فى سنة أربع وعشرين وخمسماية

« وفاته » : عصر يوم الأَحد الرابع من جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين وخمسماية . وشهد دفنه بباب إلبيرة الجم الغفير ، وازدحم الناس على نعشه حتى حملوه على أَكفِّهم ومزَّقوه . وأَمر أن يكُتب على قبره :

عليك سلام الله يا من يُسلم ورحمته ما زُرْتني تترحَّم
أتحسَبُنى وحدى نُقلت إلى هنا سَتَلْحق بى عما قريب فتَعْلم
فيا لمن يُمسى لدنياه مؤْثرا ويُهمل أُخراه ستَشْقى وتَنْدم
فلا تَفْرحنَّ إلا بتقديم طاعة فذاك الذى يُنجى غدا ويُسَلِّم

ومن غير الأصليين

عبد الحكيم بن الحسين بن عبد الملك بن يحيى بن باسيو بن تادْرَرْت التِّمالى اليدرازتينى ثم الواغدينى

أَصله من تينملل(١) من نظر مَرّاكُش ، وانتقل جدُّه عبد الملك مع

(١) تينملل بلدة من بلاد السوس بالمغرب الأقصى ، تقع فوق سفح جبال الأطلس جنوب غربى مراكش . وقد اتخذها المهدى ابن تومرت فى أواخر حياته مركزا لدعوته ورياسته ، وأقام بها مسجده الذى ما زال باقيا إلى اليوم ، ثم دفن فيه عقب وفاته .

الخليفة عبد المؤمن بن على إلى إقليم بجاية . ونشأ عبد الملك ببجاية ، وانتقل إلى تونس فى حدود خمسة وثمانين . وورد أبو محمد الأندلس فى حدود سبعمائة .

حـــاله

من تعريف شيخنا أبى البركات : كان من أهل المعرفة ، بالفقه وأصوله ، على طريقة المتأخرين . وكان مع ذلك رجلا كريم النفس . صادق اللهجة ، سليم الصدر ، مُنصفا فى المذاكرة . قلتُ يجمع هذا الرجل إلى ما وصفه به ، الأصالة ببلده إفريقية . وثبتٌ اسمه فى « عايد الصلة » بما نصه : الشيخ الأستاذ القاضى ، يكنى أبا محمد . كان رحمه الله من أهل العلم بالفقه ، والقيام على الأصلين ، صحيح الباطن ، سليم الصدر ، من أهل الدين والعدالة والأصالة . بَثَّ فى الأندلس علم أصول الفقه ، وانتُفع [به](١) . وتصرَّف فى القضاء فى جِهات .

مشيخته

منقولا من خطِّ ولده الفقيه أبى عبد الله صاحبنا ، الكاتب بالدار السلطانية . قرأ ببلده على الفقيه الصَّدر أبى على بن غَنوان ، والشيخ أبى الطاهر بن سرور ، والإمام أبى على ناصر الدين المِشْدالى ، والشيخ أبى الشَّمل جماعة الحلبى ، والشيخ أبى الحجاج بن قَسُوم وغيرهم . [ومن خط المحدِّث أبى بكر بن الزيات ، يحمل عن أبى الطاهر بن سرور ، وعن أبى إسحق بن عبد الرفيع](٢) .

(١) أضفنا « الكلمة ليستقيم السياق .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى نهاية الفقرة الخاصة « بتواليفه » ولكننا رأينا أنها أولى بأن توضع مع « المشيخة » .

تواليفه

من تواليفه : «المعانى المُبْتكرة الفكرية فى ترتيب المعالم الفِقهية» ، «والإيجاز فى دَلالة المجاز» ، ونُصرة الحق، وردِّ الباغى فى مسألة الصَّدَقة ببعض الأُضحية ، والكُرّاس المرسوم «بالمباحث البديعة فى مقتضى الامر من الشريعة» .

مولده

ببجاية فى أحد لجمادى الأُولى من عام ثلاثة وستين وستمائة .

وتوفى قاضيا بشالش [١] يوم الجمعة ، و الرابع عشر لجمادى الأُولى من عام ثلاثة وعشرين وسبعماية . ودفن بجبانة باب إلبيرة بمقربة من قبر ولى الله أبى عبد الله التونسى . وكانت جنازته مشهورة [٢] .

ومن المقريين والعلماء

عبد الملك بن حبيب بن سليمن بن هرون بن جلهمة[٣] بن العباس بن مرداس السلمى

أصله من قرية قورت ، وقيل حصن واط من خارج غرناطة ، وبها نشأ وقرأ .

حـــاله

قال ابن عبد البَر . كان جَمّاعا للعلم ، كثير الكُتْب، طويل اللسان ،

(١) لم نجد فى القرى الغرناطية المعاصرة ، أية بلدة يتفق إسمها أو يقترب من اسم هذه البلدة والظاهر أنها من الأماكن التى دثرت .

(٢) هذه الترجمة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى الزيتونة .

(٣) كذا فى الإسكوريال والزيتونة ، وفى ترتيب المدارك (الرباط ج ٤ ص ١٢٢) .

فقيها ، نحويا ، عَروضيا ، شاعرا ، نّسابة ، إخبارياً . وكان أكثر من يختلف إليه ، الملوك وأبناؤهم . قال ابن مخلوف ، كان يأتى إلى معالى الأمور . وقال غيره ، رأيته يخرج من الجامع ، وخلفه نحو من ثلاثمائة ، بين طالبِ حديثٍ ، وفرايض ، وفقه ، وإعراب ، وقد رتّب الدُّول عليه ، كل يوم ثلاثين دولة ، لا يُقرأُ عليه فيها شيء الا تواليفه ، وموطَّأ مالك . وكان يلبس الخَزَّ والسَّعيد [1] . قال ابن نمير ، وإنما كان يفعله إجلالا للعلم ، وتَوْقيرا له . وكان يلبس إلى جسمه ثوب شَعْر ، وكان صوّاما قوّاما . وقال المغاسى ، لو رأيتَ ما كان على باب ابن حبيب ، لازْدَرَيتَ غيره . وزعم الزَّبيدى ، أنه نُعى إلى سُحنون [2] فاسترجع ، وقال مات عالم الأندلس . قال ابن الفَرَضى ، جمع إلى إمامته فى الفقه ، التبحبُح فى الأدب ، والتفنُّن فى ضروب العلوم ، وكان فقيها مُفْتيا . قال ابن خَلَف أبو القاسم الغافقى ، كان له أرضٌ وزيتون بقرية بِيرة من طوق غرناطة ، حَبَس جميع ذلك على مسجد قرطبة . وله ببيرة مسجد ينسب إليه . وكان يهبط من قرية قورت يوم الإثنين والخميس إلى مسجده ببيرة ، فيُقْرأ عليه ، وينصرف إلى قريته .

مشيخته

روى عن صَعْصَعة بن سلاّم ، والغازى بن قيس ، وزياد بن عبد الرحمن . ورحل إلى المشرق سنة ثمان ومائتين . وهو ابن ثلاث وثلاثين

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (السعيرى) .

(٢) سحنون بن سعيد من أعظم أقطاب الفقه المالكى ، وازدهرت مدرسته الفقهية بالقيروان فى أوائل القرن الثالث ، وتوفى بها سنة ٢٤٠ هـ .

سنة ، وكانت رحلته من قريته بفحص غرناطة[١] . وسمع فيها من عبد الملك بن الماجشون ، ومطرِّف بن عبد الله ، وأصْبَغ بن الفَرَج ، وابنه[؟] موسى ، وجماعة سواهم ، وأقام فى رحلته ثلاثة أعوام وشهورا . وعاد إلى إلبيرة ، إلى أن رحّله عبد الرحمن بن الحكم إلى قرطبة ، فى رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين .

« من روى عنه » : سمع منه إبناه محمد وعبد الله ، وسعيد بن نمر ، وأحمد بن راشد ، وإبراهيم بن خالد ، وإبراهيم بن شُعيب ، ومحمد بن قُطيس . وروى عنه من عظماء القرطبيين ، مطرِّف بن عيسى ، وبَقى بن مَخْلد ، ومحمد بن وضّاح ، والمقامى فى جماعة .

تواليفه

قال أبو الفضل عِياض بن موسى ، فى كتابه فى أصحاب مالك[٢] قال بعضهم ، قلت لعبد الملك بن حبيب . كم كُتُبك التى ألفت ، قال ألْفُ كتاب وخمسون كتابا . قال عبد الأعلى ، منها كتب المواعظ سبعة ، وكتب الفضايل سبعة ، وكتب أجْواد قريش وأخبارها وأنسابها خمسة عشر كتابا ، وكتب السلطان وسيرة الإمام ثمانية كتب ، وكتب الباه والنساء ثمانية ، وغير ذلك . ومن كتب سماعاته فى الحديث والفقه ، وتواليفه فى الطب ، وتفسير القرآن . ستّون كتابا . وكتاب المغازى ، والنّاسخ والمَنسْوخ ، ورغايب القرآن ، وكتاب الرُّهون والحِدثان[٣] . خمسة وتسعون كتابا . وكتاب مقام رسول الله صلى عليه وسلم ، اثنان وعشرون

---

(١) فحص غرناطة La Vega de Granada ، هو البسيط الأخضر الواقع جنوب شرق غرناطة . وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٩٩) .

(٢) هو كتاب « ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك » .

(٣) وردت فى الإسكوريال (المغازى) مرة أخرى ، والتصويب من الزيتونة .

كتابا ، وكتاب فى النَّسب ، وفى النجوم ، وكتاب الجامع ، وهى كتب فيها مناسِك النَّبى ، وكتاب الرَّغايب ، وكتاب الوَرَع فى المال ، وكتاب الرِّبا . وكتاب الحُكْم والعَدْل بالجوارح . ومن المشهورات الكتاب المسمى بالواضِحة . ومن تواليفه كتاب إعراب القرآن ، وكتاب الحِسْبة فى الأمراض ، وكتاب الفرايض ، وكتاب السَّخاء واصْطِناع المعروف ، وكتاب كراهية الغِناء .

شعره

أنشد ابن الفرضى مما كتب بها إلى أهله من المشرق سنة عشر ومايتين :

أحبُّ بلاد الغرب والغربُ موطنى ... ألا كلُّ غربىٍّ إلىَّ حبيب
فيا جَسَداً أضناه شوقٌ كأنَّه ... إذا انتُضِيت عنه الثِّياب قَضِيب
ويا كبِداً عادت زمانا[1] كأنما ... يلذَعُها بالكاويات طَبيب
بُليت وأبلانى اغترابى ونأيه ... وطولُ مُقامى بالحجاز أَجُوب
وأهلى بأقْصَى مغرب الشمس دارُهم ... ومن دونهم بحرٌ أجشُّ مَهيب
وهَول كَريه ليلُه كنهاره ... وسيرٌ حَثيث للرِّكاب دؤوب
فما الداء إلا أن تكون بغُربة ... وحَسْبُك داءٌ أن يُقال غريب
فيا ليت شِعرى هل أبيتنَّ ليلةً ... بأكْناف نهر الثَّلج حين يصوب
وحولى أصحابى[2] وبنتى وأمها ... ومعشرُ أهلى والرؤوف مُجيب

وكتب إلى الأمير عبد الرحمن فى ليلة عاشوراء :

---

(١) وردت فى الإسكوريال (أزمانا) والتصويب من المدارك (ج ٤ ص ١٣٩) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (وأصحابى) ، والتصويب من المدارك .

لا تَنْس لا يُنْسِك الرحمن عاشوراء واذكره لازلت فى الأَحياء مذكورا
قال الرسول صلاة الله تَشْمَله قولا وجدنا عليه الحقَّ والنورا
من بات فى ليل عاشوراء ذا سَعَة يكُنْ بعَيْشه فى الحَوْل محبورا
فارغب فدَيْتُك فيما فيه رغبتنا خير الورى كلِّهم حيّاً ومقبورا

وفـــاته

توفى فى ذى الحجة سنة ثمانى وثلاثين . وقيل تسع وثلاثين ومايتين . قال ابن خَلَف ، كان يقول فى دعائه ، إن كنت يارب راضيا عنى ، فاقبضنى إليك قبل انقضاء سنة ثمان وثلاثين ، فقبضه الله فى أحبِّ الشهور إليه ، رمضان من عام ثمانية وثلاثين ، وهو ابن أَربع وستين سنة ، وصلى عليه ولده محمد ، ودفن بمقبرة أُم سَلْمة بقِبلى محراب مسجد الضِّيافة من قرطبة . قالوا ، والخبر متصل ، إنه وُجد جسده وكفَنُه وافرين لم يتغيرا بعد وفاته ، بتسع وأربعين سنة ، وقُطعت من كفنه قطعة ، رُفعت إلى الأَمير عبد الله ، وذلك عندما دُفن محمد بن وضّاح إلى جنبه ، رحمهم الله . ورثاه أبو عبد الله الرشّاش وغيره ، فقال :

لئن أَخَذَتْ منا المنايا مُهَذَّبا وقد قل(١) فيها من يُقال المهذَّب
لقد طاب فيه الموت والموتُ غِبْطة لمن هو مغمُوم الفـؤاد مُعذب

ولأحمد بن ساهى فيه :

ماذا تضمَّن قبرٌ أنت ساكنه من التُّقى والنَّدى ياخير مفقود
عجبتُ للأَرض فى أن غيَّبتك وقد ملأْتَـها حِكَماً فى البيض والسُّود

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (قيل)

قلت[1] . فلو لم يكن من المفاخر الغرناطية إلا هذا الحبر لكفى

ومن الطارئين عليها

عبد الواحد بن محمد بن على بن أبى السَّداد الأموى المالقى ، الشهير بالباهلى

حـــاله

كان رحمه الله بعيدَ المدى ، منقطع القَرين فى الدِّين المتين والصلاح . وسكون النفس ، ولين الجانب . والتواضع . وحُسْن الخُلُق . إلى وسامة الصُّورة . وملاحة الشَّيْبة ، وطيب القراءة . مولى النِّعمة على الطَّلَبة من أهل بلده . أستاذا حافلا ، متفنِّنا ، مضطَّلعا ، إماما فى القراءات . حايزا خَصْل السباق إتقانا . وأداءً . ومعرفة . ورواية . وتحقيقا . ماهرا فى صناعة النحو ، فقيها ، أصُوليّاً ، حسن التعليم ، مستمر القراءة ، فسيح التَّخْليق . نافعا . متحبِّبا ، مقسُوم الأَزمنة على العِلم وأهله ، كثير الخضوع والخشوع ، قريب الدَّمعة . أقرأ عمره . وخطب بالمسجد الأعظم من مالقة أ وأخذ عنه الكثير من أهل الأَندلس

مشيخته

قرأ على الأستاذ الإمام أبى جعفر بن الزبير . وكان من مفاخره . وعلى القاضى أبى على بن أبى الأَحوص . وعلى المقرئ الضَّرير أبى عبد الله محمد بن على بن الحسن بن سالم بن خلف السُّهيلى . والرَّاوية أبى الحجاج ابن أبى ريحانة المربلىِّ . وكتب له بالإجازة العامة . الرَّاوية أبو الوليد العطار . والإمام أبو عبد الله بن سمعون الطائى . وسمع على الراوية أبى عمر عبد الرحمن بن حَوْط الله الأنصارى . وقرأ على القاضى أبى القاسم . قاسم

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (قال ابن الخطيب)

ابن أحمد بن حسن الحِجْرى الشهير بالسُّكُوت المالقى . وأخذ عن الشيخ الصالح أبى جعفر أحمد بن يوسف الهاشمى الطَّنجالى ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم . ويحمل عن خاله ولى الله أبى محمد عبد العظيم ابن ولى الله محمد بن أبى الحجاج ابن الشيخ رحمه الله .

«تواليفه» : شرح التَّيسير فى القراءات . وله تواليف غيره فى القرآن والفقه .

شعره

حدَّث الشيخ الفقيه القاضى أبو الحجاج المُنْتَشافرى . قال ، رأيت فى النَّوم أبا محمد الباهلى أيام قراءتى عليه بمالقة فى المسجد الجامع بها ، وهو قائم يذكِّر الناس ويعظهم . فعقلت من قوله ، أتحسبوننى غنيّاً فقيرا ، أنا فقير ، أنا . فاستيقظت وقصصتها عليه ، فاستغفر الله ، وقال ، يا بنىَّ حقا ما رأيتَ . ثم رفع إلى ثانى يوم تعريفه ، رُقعة فيها مكتوب :

لئن ظن قوم من أهل الدُّنـا   بأن لهم قـوَّة أو غِنـا
لقد غَلِطوا ويْحُهم بجمع مالهم   فتاهـوا عقولا وعُمُّوا أَعْيُنا
فلا تَحْسَبونى أرى رأيهم   فإنىِّ ضعيف فقـير أنـا
وليس افتِقارى وفقـرى معـا   إلى الخالقِ[1] فما عند خَلْقٍ غِنا
ولكن إلى خالـقى وحـده   وفى ذاك عـزٌ ونيـل المُنـا
فمن ذَلَّ للحق يَرْقَ العُـلا   ومن ذلَّ للخالـق يَلْـقَ العَنـا

وفاته

ببلده مالقة رضى الله عنه . ونَفَع به . فى خامس ذى القعدة من عام خمسة وسبعماية . وكان الحفل فى جنازته عظيما . وحف الناس بنعشه ، وحمله الطَّلبة وأهل العلم على رؤوسهم . سكن غرناطة وأقرأ بها .

(١) هكذا وردت فى الريحونه . وفى نسخه بدل (خلق) .

ومن الكتاب والشعراء فى هذا الحرف

عبد الحق بن محمد بن عطية بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربى

صاحبنا الكاتب للدولة الغادرة .

حـــاله

كان هذا الرجل فى حال الدَّعة التى اسْتَصْحبها ، وقبل أَنْ تَبعته أيدى الفضول ، بعفاف وطهارة ، إلى خَصْل خطٌ ، نشط البَنان ، جَلِد على العمل . ونظمه وسَط ، ونثره جَمهورى[1] عامى ، مُبين عن الأَغراض . ووُلِّى ببلده الخطابة والقضاء . . .[2] فى الحداثة . ثم انتقل إلى غرناطة ، فجَاجأت به الكتابة السلطانية باختيارى ، مُسْتَظهرة منه ببَطَل كفاية ، وباذِل حِمْل كُلْفَة ، فانتقل رئيسا فى غرض إعانتى ، وانتشالى من الكُلْفة ، على الضَّعف وإلمام المرض ، والتَّرفُّع عن الابتِذال ، والأَنَفة من الاستخدام ، فرفع الكَلّ ، ولطُف من الدولة محلُّه . ثم لما حال الأَمر ، وحَتُم التَّمحيص ، وتُسُوِّرت القلعة ، وانتثر النَّظم ، واستأثر به الاصْطِناع ، كشَفَت الخِبْرة منه عن سَوْءَةٍ لا تُوارى ، وعَوْرَةٍ لا يُرتاب فى أُشْنوعَتها ولا يُتَمارى ، فسبحان من عَلَّم النفس فجورَها وتقواها ، إذ لَصِق بالدّايل الفاسق . فكان آلة انتقامه ، وجارِحَة صيده ، وأُحْبُولة

---

(١) وردت فى الإسكوريال (جهوزى) ، والتصويب أرجح

(٢) بياض بالإسكوريال .

كَيْده ، فسَفَك الدِّما ، وهَتَك الأَسْتار ، ومزّق الأسباب ، وبدَّل الأرض غير الأرض ، وهو يزقُّه فى أُذنه . فيؤم النَّصيحة ، ويَنْحله لقب الهداية ، ويبلغ فى شدِّ أزره إلى الغاية : « عُنوان عقل الفتى اختياره . يجرى فى جميل دَعوته » . طُوالاً ، أَخْرَق ، بُسيءُ السمع ، ويَنْسى الإجابة ، بدويّاً ، قُحًّا ، جَهْوَريا ، ذاهلا عن عواقب الدنيا والآخرة : طِرْفاً فى سوء العهد ، وقلَّة الوفا ، مردُوداً فى الحافِزَة . مُنسَلخا من آية السَّعادة ، تشهد عليه بالحمل يدُه ، ويقيم عليه الحُجج شرهُه ، وتبُوه هفوات الندم جهالته . ثم أَسْلَم المحروم مُصْطَنعه ، أَحوجُ ما كان إليه ، وتبرَّأ منه ، ولَحِقته بعده مُطالبة ماليَّة . لقِى لأَجلها ضَغْطا . وهو الآن بحال خِزْيٍ ، واحِتقاب تَبِعات ، خلَّصنا الله من وَرْطات الدُّنيا والآخرة .

أَوليته وشيوخه

وبَسْطُ كثير من مُجْمل حاله حسبما نقلت من خطه.

قال يخاطبنى بما نصه :

يا سيِّداً فاق فى مجد وفى شرف ... وفات سَبْقاً بفضل الذات والسَّلف
وفاضلا عن سبيل الذَّم مُنْحرفاً ... وعن سبيل المعالى غير مُنْحَرف
وتحفةَ الزَمن الآتى فلقد ... أَرْبَى بما حازه منها على التُّحف
ومعدناً لنفيس الدُّر فهو لما ... حواه منه لدى التَّشْبيه كالصَّدَف
وبحرٌ بعِلْم جميع الناس مُغْتَرفٌ ... منه ونَيْل المعالى حظّ مُغْترف
وسابقاً بَذَّ أهل العصر قاطبةً ... فالكُلُّ فى ذاك منهم غير مختلف
من ذا يُخالف فى نارٍ على علم ... أَو يجحَد الشمس نوراً وهو غير خَفِ
ما أنت إلا وحِيدُ العصر فى شِيم ... وفى ذكاء وفى علم وفى ظَرْف
لله من مُنْتَمٍ للمجد مُنْتَسبٍ ... بالفضل مُتَّسم بالعِلم مُتَّصف

لله من حَسَبٍ غذّ ومن كـرم ... قد شاده السّلفُ الأَخْيار لِلخلَف
أيه أيامن به تَبَنّى الوزارة إذ ... كنتَ الأَحقَّ بها فى الذّات والشرف
يا صاحب القلم الأعلى الذى جُمعت ... فيه المعالى ببعضِ البعضِ لم أَصِف
يا من يَقْصُر وصْفى فى عُلاه ولو ... أنْسَى مديح حبيبٍ فى أبى دُلف
شرّفتنى عندما استَدْعيت من قِبَلى ... نظما تدوّنه فى أبدع الصّحف
وربما راق ثَغْرٌ فى مَباسمه حتى ... إذا نـالَـهُ إلمـام مُرْتِشف
أجلُّ قَدْرك أن ترضى انْتَجع ... بسَوء كَيْلته حظّـا مع الحَشَف
هذا ولو أننى فيما أتيتُ به ... نافحتُ فى الطّيب زَهْر الرّوضة الأُنِف
لكنت أُفْضى إلى التّقصير من خجل ... أَخْلَيْتُ بالبعض مما تستحق أف
فحَسْبى العَجْزُ عما قد أشرت به ... والعجز حَتْماً قُصارى كلّ مُعترف
لكن أجبتُ إلى المطلوب مُمْتثِلا ... وإن غدوتُ بمَرْ فى القَوْم كالهَدَف
فانظر إليها بعين الصّفح عن زَلل ... واجعل تصَفّحها من جُملة الكُلَف
بقِيتَ للدهر تَطْويـه وتَنْشره ... تسمو من العزّ باسم غير مُنْصَرف

جيتك ، أعزك الله ، ببضاعة مُزْجاة ، وأَعْلَقْت رَجاى من قبولك بأُمْنِية مُرْتجاة ، وما مثلك يُعامل بسَقْط المتاع ، ولا يُرضى له بالحَشَف مع بخْس المدّ والصّاع . لكن فضلك يُغْضى عن التّقصير ويسمح ، ويَتجَاوز عن الخطإ ويَصْفح ، وأنت فى كل حال إلى الأَدْنَى من الله أَجْنَح . ولولا أنّ إشارَتَك واجبة الامتثال ، والمُسَارعة إليها مُقَدّمة على ساير الأعمال ، لما أتيتُ بها تَمشْى على استِحياء . ولا عرّضتُ نفسى أن أقف مَوْقف حِشْمة وحياء . فما مَثَلى فيما أعْرضه عليك ، أو أقدّمه من هذا الهَذَر بين يديك ، إلا مَثَلُ من أهدى الخَرز لجالب الدُّر ، أو عارض لِلْوَشَل موج البحر ، أو كاثَر بالحَصى عدَدَ الأَنْجُم الزُّهر . على أنى لو نظمتُ الشِّعرى

شِعراً . وجيتُك بالسِّحر الحلال نظماً ونثراً ، ونافَحْتُك بمثل تلك الرَّوضة الأَدبية ، التى تَعْبَق أزاهرها نثرا . لما وصَفْتُك ببعض البعض من نَفايس خُلاك ، ولا وفَّيْتُ ما يجب من نشر مآثر عُلاك . فما عسى أن أقول فى تلك المآثر العِلْمية ، والذَّات الموسومة باسم التعريف والعَلَميَّة ، أَو أُعبِّر عنه فى وصف تلك المحاسن الأَدبية ، والمفاخر الحَسَبِيَّة . إن وصفت مالَك من شرف الذات ، مِلْتُ إلى الاختِصار ، وقلت آية من الآيات . وإن ذهبت إلى ذكر مفاخرك الباهرة الآيات ، بلغتُ فى مدى الفَخْر والحَسَب إلى أَبعد الغايات ، وإن حَلَّيْتُك ببعض الحُلا والصِّفات ، سَلَبتُ محاسن الرَّوض الأَريج النَّفَحات . فكم لك من التَّصانيف الرايقة ، والبدائع الفائقة ، والآداب البارعة ، والمحاسن الجامعة . فما شِيت من حدايقَ ذات بهجة ، كأنما جادَتْها سُحُب نيسان ، وجنّات ثمراتها صِنْوان وغيرُ صِنوان ، تُزْرى ببَدايع بديع الزَّمان ، وتُخْجل الروض كما يُخْجل الوردُ ابتسام الأُقْحوان . نظمٌ كما انَتشر الدُّر ، ونثر تَتَمنَّى الجَوزاء ، أن تتقلَّده والأُنجم الزُّهر ، ومعانٍ أرقُّ منْ نسيم الأَسحار ، تَهبُّ على صفحات الأَزهار . فأَهلاً بك يا رَوْضة الآداب ، وربَّ البلاغة ، التى شمس آياتها لا تتوارى بالحجاب ، فما أنت إلا حَسَنَةُ الزَّمان ، ومالِكُ أَزِمَّة البيان ، وسبّاق غايات الحسن والإحسان . وقد وجدتُ مكان القول ذا سَعة فى إوصافك ، وما فى تَحلِّيك بالفضائل واتِّصافك . لكنِّى رأيت أنى لو مددْتُ فى ذلك باع الإطْناب ، وأتيتُ فيه بالعَجب العجاب ، فليس لى إلا تقصير عن المُطاولة وإمساك ، والعجز عن دَرْك الإدراك إدراك . إيه أَيها السيِّد الأَعْلى ، والفاضل الذى له فى قِداح الفخر ، القِدْحُ المُعلىّ ، فإنك أَمَرْت أن أعرض عليك لتَّعريف بنفسى ومَوْلدى ، وذكر أَشياخى الذين بأَنوارهم أَقْتَدى ،

فعلمتُ أن هذا إنما هو تهمُّمٌ منك بشأنى . وجَرْىٌ على مُعتاد الفضل الذى يَقْصُر عنه لسانى . وفضل جميل لا أزال أجْرى فى الثناء عليه مِلْءَ عِنانى . وإلاَّ فمن أنا فى الناس حتى أُنْسَبَ .أو من يذهب إلاَّ أنت هذا المذهب .

اما التَّعريف بنفسى . فأَبدأ فيه باسم أبى . هو أبو القاسم محمد بن عطيه بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب ابن عطية المحاربى . وجدِّى عطية هو الدّاخل إلى الأَندلس عام الفتح ، نزل بإلبيرة ، وبها تفرَّع من تفرَّع من عَقِبه . إلى أن انتقلوا إلى غرناطة ، فتأَثَّل بها حالُهم . واستمر بها استيطانهم ، إلى حدود المائه السابعة ، فتَسَبَّب فى الانتقال من بقى منهم ، وهو جدِّى الأَقرب الأَنساب ، وقضى ارتحاله إلى مدينة وادى آش ، ولكل أجلٍ كتاب . وذلك أنه استُقْضى بنظر ما فى دولة أمير المسلمين الغالب بالله ، أول ملوك هذه الدولة النصرية ، نصر الله خَلَفها ، ورحم سَلَفها . فاتخذ فيها صِهراً ونَسبا ، وكان ذلك لاسْتِيطانه بها سببا ، واستمر مُقامه بها إلى أن ارتحل إلى المشرق لأَداء الفريضة ، فكان إلى أشْرف الحالات مُرْتَحله ، وقضى فى إيابه من الحج أمله . واستمرت به الاستيطان. وتعذَّرت بعوده إلى غرناطة بعدما نَبَتْ فيها الأَوطان . على أنه لم يَعْدَم من الله السِّتر الجميل . ولا حظٌ من عنايته بإيصال النِّعمة كَفيل . فإنه سبحانه حَفِظ مَنْ سَلَف فيمن خَلف . وجعلهم فى حال الاغتراب . فيمن اشتهر بنباهة الحال واتَّصف ، وقَيِّض لمصاهرتهم من خِيار المجد والشرف . وبذلك حَفِظ الله بيتهم ، وشَمَل باتصال النِّعمة حيَّهم ومَيْتَهم . فالحمد لله ، بجميع محامِده . على جميل عوايده . وتخلَّف بوادى آش أبى وأعمامى . تغمدهم الله وإياى برحمته ، وجمع شملنا فى جَنَّته .

واما التعريف بهم ، فأنت أبقاك الله ، بمن سَلَف قديما منهم أعْلم ، وسبيلك فى معرفتهم أجْدى وأقْوم . بما وهبكم الله من عَوارف المعارف ، وجعل لكم من الإحاطة بالتّالد منها والطّارف . وأما مَنْ لم يقع به تعريف ، ممن بَعْدهم . فمن اقْتَنى رَسْمهم فى الطريقة العلمية ، ولم يتجاوز جدهم وهو جدّى أبو بكر عبد الله بن طلحة ورابع أجدادى . كان رحمه الله ممن جرى على سُنن آبايه . وقام بالعلم أحسن قيام ، ونهض بأعْبايه . ألّف كتابا فى « الرقايق » ، ففات فى شَأْوه سَبْق السابق ، وتصدّر ببلده للفُتْيا ، وانتفع به الناس ، وكان شيخهم المُقدم . ولم أقِف على تاريخ مولده ولا وفاته ، غير أنه توفى فى حدود المائة الخامسة رحمه الله ، وأما مَنْ بينى وبينه من الآباء ، كجدّى الأقرب وأبيه ومن خَلَفه من بنيه . فما منهم من بلغ رُتْبة السّابق ، ولا قَصُر أيضا عن درجة اللاّحق ، وإنما أخذ فى الطلب بنَصِيب ، ورمى فيه بَسَهْم مُصيب .

وأما مولدى فبوادى آش فى أواخر عام تسعة وسبعماية . وفى عام ثلاثة وعشرين ، ابتدأت القراءة على الأستاذ أبى عبد الله الطُّرسونى وغيره ممن يأتى ذكره . ثم كتبت بعد ستة أعوام على من وَلِيها من القضاة أولى العدالة والسِّيَر المرتضاة ، ولم يطل العهد حتى تقدّمت فى جامعها الأعظم خطيبا وإماما ، وارتسمت فى هذه الخُطَّة التى مازالت على من أحسن تماما ، وذلك فى أواخر عام ثمانية وثلاثين . ثم وُلِّيت القضاء بها ، وبما يرجع إليها من النَّظر ، فى شهر ربيع الأول من عام ثلاثة وأربعين ، واستمرّت الولاية إلى حين انتقالى للحضرة ، آخر رجب من عام ستة وخمسين ، أسأل الله الإقالة والصّفح عما اقترفت من خطإ أو زَلَل ، أو ارتكبته من عَمْد وسَهْو ، فى قول أو عمل بمَنّه .

واما أشياخي ، فإني قرأت بالحضرة على الأستاذ الخطيب أبي الحسن القيجاطي ، والأستاذ الخطيب أبي القاسم بن جُزي . وبمالقة على الأستاذ القاضي أبي عمرو بن مَنْظور . وبألمريَّة على الأستاذ القاضي أبي الحسن بن أبي العَيْش ، وسيِّدي القاضي أبي البركات بن الحاج ، والأستاذ أبي عثمن بن ليون ، وبوادي آش على الأستاذ القاضي أبي عبد الله بن غالب ، والأستاذ أبي عامر بن عبد العظيم . كل هؤلاء قرأت قراءة تفقُّه ، وعَرضتُ على أكثرهم جملة كتب في النحو والفقه والأدب ، أكبرها كتاب المقامات للحريري . وأما من لقيته من المشايخ واستفدت ، منهم أبو الحسن بن الجيَّاب بالحضرة ، وبمالقة القاضي أبو عبد الله بن بكر ، والقاضي أبو عبد الله بن عيّاش ، والأستاذ أبو عبد الله بن حفيد الأمين . ومن لقيته لقاء تبرك ، سيدي أبو جعفر بن الزيات ببلِّش ، وبمالقة الخطيب أبو عبدالله السّاحلي ، والصُّوفي أبو الطاهر بن صفوان ، والمُقْري أبو القاسم بن درهم . وبألمرية الخطيب أبو القاسم بن شُعيب ، والخطيب ابن فرحون . ولقيت إيضا القاضي أبا جعفر بن فَرْكون القرشي ، والقاصي الخطيب أبا محمد بن الصايغ . وممن رأيته بوادي آش ، وأنا إذ ذاك في المكتب ، وأخذت بحظٍّ من التبرك به ، سيدي أبو عبد الله الطَّنجالي نفع الله به . والحمد لله رب العالمين .

شـــعره

من مطولاته قوله . ومن خطِّه نقلت :

ألا أيها اللَّيل البطئُ الكواكب متى يَنْجلي صبحٌ بنَيْل المآرب
وحتى متى أرعى النجـوم مُراقبا فمن طالع منها على إثر غارب
أحدِّث نفسي أن أرى الرَّكب سايرا وذنبي يُقْصِيني بأقْصَى المغارب

فلا فزْتُ من نَيْل الأَمانى بطايل ... ولا قُمْت من حق الحبيب بواجب
وكم حَّدثتنى النفس أن أَبلُغ المُنا ... وكم علَّلتنى بالأَمانى الكَواذب
وما قصُرت بى عن زيارة قبْره ... معاهد أُنْس من وِصال الكواعب
ولاحبٌ أوطان نبَتْ بى ربُوعها ... ولا ذِكر خِلٍّ فيها وصاحب
ولكن ذنوبٌ أثْقَلتنى فهأنا من الوَجْد قد ضاقت علىّ مذاهب
إليك رسول الله شوق مُجَدَّدٌ ... فياليتنى يمَّمت صَدْر الركايب
وأَعملت فى تلك الأَباطِح والرُّبى ... سُراى مُجدًّا بين تلك السَباسِب
وقضيتُ من لثْم البَقِيع لُبانتى ... وجُبت الفلى ما بين ماش وراكب
ورويتُ من ماءِ زمزمٍ غُلَّتى ... فللّه ما أشهاه يوماً لشارب
حبيبى شَفيعى مُنتهى غايتى التى ... أُرْجى ومن يرجوه ليس بخايب
محمد المختار والحاشِر الذى ... بأَحْمَد حاز الحَمْد من كل جانب
رؤوفٌ رحيمٌ خصَّه الله باسمه ... وأَعظم لاجٍ فى الثَّناء وعاقب
رسول كريم رفع الله قَدْره ... وأَعْلَى له قدرا رفيعَ الجوانب
وشرَّفه أَصلاً وفرعاً وَمَحْتِداً ... يزاحم آفاق السُّهى بالمناكب
سراجُ الهُدى ذو الجاه والمجد والعلا ... وخير الوَرى الهادى الكريم المناسب
هو المصطفى المختار من آل هاشم ... وذو الحَسَب العَدْل الرفيع المناصب
هو الأَمَدُ الأَقصى هو الملجأُ الذى ... ينال به مرغوبَه كلٌّ راغب
إمام النبيِّين الكرام وإنه لَكا لبَدْر فيهم بين تلك المواكب
بشير نذير (١) مفضل متطَوِّل ... سراجٌ منير بذَّ نور الكواكب
شريف مُنيف باهر الفضل كاملٌ نفيس المعالى والحُلا والمناقب
عظيم المزايا ماله من مماثل ... كريم السَّجايا ماله من مُناسب

(١) وردت فى الإسكوريال محرفة (نسير).

ملاذٌ منيع ملجأٌ عاصم لمن ... يلوذ به من بين آتٍ وذاهب
حليم[1] جميل الخَلْق والخُلْق ماله ... نظيرٌ ووصف الله حجّةُ غالب
وناهيك من فرع نمته أصوله ... إلى خير مجد من لؤى بن غالب
أولى الحسب العدّ الرفيع جنابه ... بدور الدّياجى أو بدور الركايب
له معجزات مالها من مُعارض ... وآيات صدقٍ مالها من مُغالب
تهدّى بهنّ الخلق شَرْقا ومغربا ... وماذاك عمّن حاد عنها بعايب
فدونَكَها كالأنجم الزُّهر عدّة ... ونور سَنى لا تختفى للمُراقب
فإحصارُها مهما تُتُبِّعت مُعوز ... وهل بعد نور الشمس نورٌ لِطالب
لقد شرّف الله الوجود بمُرْسل ... له فى مقام الرُّسْل أعلى المراتب
وشرّف شَهْراً فيه مولده الذى ... جلا نوره الأَسْنَى دَياجى الغَياهب
فشهر ربيع فى الشُّهور مقدَّم ... فلا غرو أن للفَخْر ضَرْبةُ لازب
فلله منه ليلةً قد تلألأت ... بنور شهابٍ نيِّر الأفق ثاقب
ليَهْنَ أمير المسلمين بها المُنا ... وإن نال من مولاه أسنى الرَّغايب
على حين أحياها بذكر حبيبه ... وذكر الكرام الطاهرين الأَطايب
وألَّف شَمْلاً للمحبِّين فيهم ... فسار على نَهَجٍ من الرشد لاحِب
فسوف يُجازى عن كريم صنيعه ... بتخليد سُلطان وحُسن عواقب
وسوف يُريه الله فى لَهم دينه ... غرايب صُنع فوق كلِّ الغرايب
فيحمى حِمى الإسلام عمن يَرُومه ... بسُمْر العوالى أو ببيض القواضب
ويعتزُّ دين الله شرقا ومغربا ... بما سوف يبقى ذكره فى العجايب
إلآهى مالى بعد رحماك مطلبٌ ... أراه بعين الرُّشد أسنى المطالب
سوى زَوْرة القَبر الشريف وإنها ... لموهبةٌ فاتت جميع المواهب

---

(٢) وردت فى الإسكوريال (حلميل).

عليه سلام الله مالاح كوكب　　وما فارق الإظعان حادى الرّكايب

وقال فى غرض المدح والتّهنئة بعَرْض الجيش ، وتضمّن ذلك وصف حاله فى انتقاله إلى الحضرة :

يا قاطع البيد يَطْوى السَّهل والجَبَلا　　ومُنْضيا فى الفَيافى الخَيْل والإبِلا
يبْكى فى آفاق أرض لا يُونسه　　إلاّ تذكّرٌ عهد للحبيب خَلا
أو ظَبْيةٌ أذْكَرت عهد التَّواصل تحكى　　اللّحاظ التى عاهَدت والمُقَلا
أستغفر الله فى تلك اللّحاظ فقد　　أرْبىَ بها الحُسْن عن ضَرْب المَها مثلا
أو هادِلٍ فوق غُصن البان تَحْسَبه　　صبًّا لَفقد حبيب بان قد ثَكلا
أو لامع البرق إذ تَحكى إنارته　　كفًّا خَضِيباً مُشيرا بالذى عَذَلا
ماذا عسى أن تقضى من زمانك فى　　قَطْع المَهامه تَرْجُو أن تنال عُلا
وكم مَعالمَ أرضٍ أو مجاهِلَها　　قطعتَها لا تملُّ الرَّيْث والعَجلا
إن كنتَ تأمُل عزّاً لا نظير له　　وتَبْتَغى السُّول فيما شِيتَ والأَمَلا
فالعزُّ مرسىً بعيدٌ لا يُنال سوى　　بعزم مَنْ شدَّ عَزْم البَيْن وارتحلا
والدُّر فى صَدَفٍ قلّت نفاسته　　ولم يَبِن فخره إلاّ إذا انتقلا
فاربأْ بنفسك عن أهل وعن وطن　　. . . . . ؟[1]
وانسَ الدّيار التى منها نأى وطنى　　وعهد أُنس به قَلْبُ المحب سَلا
وعَدِّ عن ذكر مَحْبوبٍ شُغِفْت به　　ولا تَلُمْ به مدحا ولا غَزَلا
واقصد إلى الحَضْرة العُليا وحُطَّ بها　　رَحْلاً ولا تَبْغ عن أرجائها حِوَلا
غرناطة لا عفَا رَسْمٌ بها أبداً　　ولا سَلا قلب من يَبْغى بها بَدَلا
[فهى التى شرّف الله الأنام بمن　　فى مَقْعد المُلْك من حَمْرائها نَزَلا
خليفة الله مولانا وموئِلُنا　　وخير من أمَّنَ الأرجاء والسُّبلا

(١) فى المخطوط بياض مكان هذه الشطرة .

محمد بن أبى الحجاج أفضل من ... قَدْ قام فينا بحقٍّ الله إذ عـدلا
من آل نَصْر أولى المـــلك الذى ... بَهَرت عُلاه كالشمس لما حلّت الحَمَلا
هو الذى شرَّف الله البلاد ومن ... فيها بدولتـه إذ فاقت الدُّوَلا
أقام عدلا ورفقـــا فى رعيَّته ... وكـــان أرحم من آوَى ومن كَفَلا
فهـو المُجار به من لا مُجير له ... لم يخش إحن الليالى فادحا جللا
إن المدائح طُرّا لا تفى أبدا ببعض ... ما قد تحلّاً من نفيس عُـــلا
بالحزم والفهم والإقدام شيمتُه ... والجود مما على أوصافه اشْتَملا
إن قال أجمل فى قولٍ وأبدعـه ... والفعـل أجملُ منه كلما فَعَلا
يُولى الجميل ويُعطى عزَّ نايـــله ... من قد رَجاه ولا اسْتَجدى ولا سألا
منْ سائلى عن بنى نصر فما أحد ... منهم بأَبْلَغ منهم كلمـا سُئلا
هم الذين إذا ما استُمنحوا منَحوا ... أسنى العطا وأبدوا بعده الخجلا
هم الأُلى مهَّدوا أرْجاء أنـــدلس ... إذ حكَّموا فى الأعادى البيض والأسلا
فإن تَسَلْ عنهم يـوم الرِّهان فلم ... يعدل بأَحْدَثهم فى سنِّه بَطَـلا
من ذا يجاريهم فى كل مَكْرَمة ... أيُشْبِه البحر فى تمثيله الوَشَلا
مولاى يا خير من للنَّصر قد رُفعت ... راياتُه ولـــواءُ الفخـر قد حملا
لله عينى لمَا أبْصَرتْكَ وقد أعدَدتَ بـين يديـك الخيـــل والخَوَلا
وأنت فى قُبَّة يسمو بها عُمـدٌ ... أقـام منّا دَامر الدِّيـن فاعتدلا
والجيش يَغْشى عيون الخلق منظره ... لما اكْتَسى منك نورَ الحق مكتملا
لا غرو أنَّ شُعاع الشمس يشمل ما ... أضحَى عليـه إذا ما لاح مُنْسَدلا
وراية النصر والتأْييد خافقـةٌ ... قد أَسْبَل الله منها النصر فانْسَدلا
والخيلُ قد كُسِيت أثواب زينتها ... فمن براقِعها قد أُلْبِست حُـللا
ترى الحُماة عليها يوم عرضهم ... يَمْشُون من فرط زَهو مِشْيَة الخُيَلا

فمن رُماةِ قِسِيُّ الغُرْب عُدَّتهم تحكي الأهلّة مهما نورها اكتملا
ومن كُماةٍ شِداد البأس شأنهم أن يعملوا البيض والخطّية الذُّبلا
بسعدك انتظمت تلك الجيوش لأن أسهمت فى نَظْمها أسلافك الأولا
وخلّد الله مُلْكا أنت ناصره ما عاقبت بُكَرٌ من دهرنا الأُصُلا
لازلت تزداد بها نُعْمى مضاعفة لتملأ الارض منها السَّهل والجَبَلا

ومن ذلك قوله :

يا عاذلى فى الهوى أقصر عن العَذَل وعن حديثى مع المحبوب لا تَسل
فكيف أُصْغى إلى عَذَل العذول وقد تملّص القلب منى صايد المُقل
تملّكته كما شاءت بنظرتها فتّانة الطّرف والألحاظ تنهدل
مُعبرّة عن نفيس الدُّر فاضحة بقدّها الغصْ الميّاس فى المِيَل
من نور غُرّتها شمسٌ تروق سَنىً تحتلُّ منها محلَّ الشمس فى الحَمَل
يا حبذا عهدُنا والشمل مُنتظم بجانب الغُور فى أيّامنا الأول
أيام أعْيُن هذا الدهر نائمة عنّا وأحداثُه منا على وَجَل
وحبذّا أرْبُعٌ قد طال ما نَظَمت عِقد التّواصل فى عَيْشٍ بها خَضِل
قضيتُ منها أمانى النَّفس فى دَعة من الزمان مُوَفّى الأُنْس والجَذل
سَطى الغمام رُباها كلّ مُنْهَمرٍ وكم سَطَتْها دموعى كلَّ مُنْهمِل
وجادها من سماء الجُود صوبُ حياً بالعارض الهَطِل ابن العارض الهَطِل
خليفة الله والماحى بسيرته رَسْم الضّلال ومُحيى واضح السُّبل
محمد بن أبى الحجاج أفضل من سارت أحاديث عَلْياه سُرى المَثَل
والباعث الجيش فى سَهْل وفى جَبَل حتى تُغَصَّ نواحى السَّهل والجَبَل
من آل نصر أولى الفخر الذين لهم مزيّة أُورثت من خَاتم الرسل
مهما أردت غَناءً فى الأمور به شاهدت منه جميع الخَلْق فى رَجُل

لن يستظل بعليـاه أخو أمل ... إلا غدا تحت ظلٍّ منه مُنْسدل
ولا استجار به مَنْ لا مُجـير له ... إلا كفاه انتياب الحادث الجَلَل
يَنْمىَ إلى معشر شاد الآله لهـم ... مُلْكاً على سالف الأعصار لم يزل
بمُلكهم قد تحلّى الدهر فهو به ... والله واليه لا يخشى من العَطَل
هم الأُلى نصروا أرجاء أندلس ... بالمشْرَفيّات والخطّيـة الذُّبُل
هم الأُلى مهّدوا دين الهدى فسَمَت ... فى الخلق مِلّته العَليا على المِلل
من أمّهم صادِىَ الآمال نال بهم ... جودا كفيلا له بالمَعْل والنَّهل
أو أمّهم ضَاحِياً أضحى يُجرِّر من ... فضل النَّوال ذيول الوَشْى والحُلل
إن الفضايل أضحت لاسْمِه تبَعاً ... كالنَّعت والتأُكيـد والبـدل
مولاى خذها تروق السّامعين لها ... بما أجادتـه من مـدح ومن غـزَل
لكننى باعتبار عِظَم ملـكك لم أُجِد ... لعَمْرى فى منحـى ولم أُطـل
فإن خُبِّرت كذاك الخَلْق أجْمَعِهم ... سِيّان مُحتَفـل أو غير مُحْتفل
لازلت فخر ملوك الأرض كلِّهم ... تسمو بك الدولة العَلْيا على الدول
ودُمْتَ للدهر تَطْويـه وتنشُرُه ... مُبَلَّغـا كلمّا تَبْغى من الأمـل

ومن ذلك ما نظمه ليُنقش فى بعض المبانى التى أنشأتُها :

أنا مَصْنعٌ قد فاق كل المصـانع ... فما منزلٌ زهى بمثل بـدائع
فرسمى إذا حَقَّقْتـه واعْتَرتـه ... لـكل المعانى جامعٌ أىَّ جامـع
فقـد جمـع الله المحاسن كلَّهـا ... لدىَّ فيا لِلّه إبـداع صانـع
ظلَّ كما جُمعت كل الفضائل فى الذى ... بسُكناى قد وافـاه أيْمَـنُ طالع
وزير أمـير المسلمين وحَسْبُـه ... مزيّـة فخـرٍ مالهـا من مُدافـع
وذو القلـم الأعـلى الذى فِعْـله ... لمـس يؤمله مثلُ السّيـوف القواطع
ومُطلـع آيـات البيـان لمُبصر ... كشمس الضُّحى حلّت بأسنى المطالع

وإنسان عَيْن الدهر قرَّت لنابه عيونٌ وطابت منه ذِكرى المسامع
هو ابن الخطيب السيِّد المُنتمى إلى كِرامٍ سَمَوا ما بين كَهْل ويافع
لقد كنت لولا عَطْفة من حَنانه أُعَدُّ زمانا فى الرُّسوم البلاقع
فصيرَّنى مَغْنىً كريما وَمَربعا لشمل بأُنْس من حَبيبى جامع
فها أنا روضُ يروق نسيمُه كما رقَّ طبعاً ماله من مُنازع
وقد جَمَعَتْنا نسبة الطَّبع عندما وقَعْتُ لمرآه بأسنى المواقع
فأشبه إزهارى بطيب ثنايه وفضلُ هواى باعتدال الطبايع
فلا زلتُ معموراً به فى مسرة معدّاً لأفراح وسعد مطالع
ولا زال من قد حلَّنى أو يَحلُّنى مُوَفَّى الأمانى من جميل الصَّنايع
ودام لمولانا المؤيد سعدُه فمن نوره لنا كل ساطع

وفى التهنئة بإبلال من مرض :

الآن قد قامت الدُّنيا على قدم لما استقلَّ رئيس السيف والقلم
والآن قد عادت الدنيا لبهجتها مذ أنِسَت بُرْءه من طارق الألم
والآن قد عمت البُشرى براحته فلم تزل للوَرى من أعظم النعم
لا سيما عند مثلى ممن اتَّضحت منه دلايل صدق غير متهم
فكيف لى وأيادى فضله مَلكَت رقِّى بما أجْزَلت من وافر القسم
وصيرَّتنى فى أهلى وفى وطنى وبين أهل النُّهى ناراً على علم
وأحْسَبت أملى الأقْصَى لغايته إذ صرتُ من جاهه المأمول فى حَرَم
وماذا عسى أن أُوفِّى من ثناى أو أُنهى إلى مجده من فاضل الشِّيم
ولو ملكتُ زمام الفضل طَوْع يدى قصَّرتُ فى ضمن منثور ومنتظم
يُهنيك بُشرى قد استَبشرت مذ وردت بها لعمرك وهو البرُّ فى الضِّيم
ومذ دَعَتْ هذ البشرى بتَهْنِية فنحن أوْلى ومحض العهد والكرم

لازلت للعزّة القعْساء مُمتطيــا   مُستصحبا لعلاءٍ غير مُنْصرم
ودمتَ بدْر سَنًى تَهدى إنارته   فى حيث يَغْضُل خَطْب أو يحار عَم
ولا عدمت بفضـل الله عافيـةً   تستصحب النِّعم المُنْهَلَّة الديم

وليس لهذا العهد للرجل انتحالٌ لغير الشِّعر والكتابة . وغير هذا للشعر فِراره . فقلَّ أن ينتهى الشُّعر فى الضَّعة والاسْتِرذال إلى ما دون هذا النَّمط . فهو بعيرٌ (١) ثان : شِعراً وشكلاً وبلداً ، لَطَف الله به . وهو لهذا العهد . على ما تقدم من النكبة ، واتْصال السُّخط من الدولة . تَغمَّدنا الله وإياه بلطفه . ولا نَكَص عنا ظلَّ عنايته وسَتره .

« مولده » : حسبما تقدم من بَسْط حاله مما قيَّده بخطِّه فى عام تسعة وسبعماية .

عبد الرزّاق بن يوسف بن عبد الرزّاق الأشعرى

من أهل قرية الأنجرون من إقليم غرناطة ، أبو محمد .

حـــاله

فقيه أديب كاتب سَرى . موصوف بكرم نَفْس . وحُسْن خُلُق . لقى أشياخا وأخذ عنهم

شعره

يا مُنَعَّما مــازال من أُمِّـــه   يَــرْفل فى السَّابغ من أمْنيته
ويــا حُسامًا جــرَّدَتـــهُ العُــلا   فــريع صرفُ الدهر من سَطوته
عَبْدك قـد ساءت هنـا حاله   شَوْقا لمن خَلَف مــن إخــوته

---

(١) ورد فى هامش المخطوط تعليقة على هذه الكلمة ... والله أعلم أنه كان يشبه للشيخ عبد العظيم الوادى آشى الملقب بالبعير » .

شوقهـا يبث الجمر فى قلبـه   ويخلـع السّهـد على مُقْلتـه
فسكِّن المـؤلم من شَـوْقه   وانْسَ المُقَـلْق من وَحْشَتـه
وامنُن عليـه ببلـوغ المُنـا   فى علمكم من مُقتضى بُغْيتـه
وهاكها نَفْثة ذى خَجْلة   تَفْهـم ما يلقيـه من نَفْثَتـه
إذا شـدا مدّاحكم ساجعـاً   يحسده الطيَّـار فى نَغَمتـه

« وفاته » : سنة إحدى وسبعين وخمسماية عن سن عالية (١) .

عبد الملك بن سعيد بن خلف العنسى

من أهل قلعة يحصب (٢) من عمل إلبيرة .

حاله ونَسَبه

هو عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد ابن الحسن بن عثمن بن محمد بن عبد الله بن سعد بن عمّار بن ياسر ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان عينا من أعيان الأندلس ، مُشاراً إليه فى البيت والرأى ، والجَزالة والفضل . عَلقِت به الآمال ، ورُفعت إليه المَمادح ، وحُطَّت لديه الرِّحال . وكان من أولى الجلالة والنَّباهة ، والطَّلَب والكِتابة الحسنة ، والخطِّ البارع . واشتمل على حُظوة الأمير يحيى بن غانية اللَّمتونى ، وكتب عنه . بلده قلعة بنى سعيد : فثقفها ، وجعل بها أكبر بنيه عبد الرحمن ضابطا لها وحارسا ، فحصَّنها أبو مروان ومهدها بالعمارة . فكانت فى الفتنة مَثابةً

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الربتونة .

(٢) قلعة يحصب أو قلعة بنى سعيد سبق التعريف بها (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ١١١ حاشية) .

وأمَّنا . وحرَّزها له ولبنيه . فانْجَلت النّاس إليها من كل مكان . ولما قَبض ابن غانية [1] على القُمط مَرين وأصحابه النصارى عندما وصلوا لاستنجاز الوعد فى الخروج عن جيّان . وتحصّلوا بيده بإشارة عبد الملك ابن سعيد ، حسبما ثبت فى اسم الأمير يحيى ، ثقّفهم بالقلعة بيد ثِقَته المذكور وأمينه أبى مروان ، فتحصلوا فى مَعْقل حَريز ، عند أمير وافر العقل ، سديد الرأى . ومات ابن غانية بغرناطة لأيام قلائل ، واختلف قومه ، فنظر أبو مروان لنفسه ، وعاهد القُمط مرين ومن معه من الزعماء على عُهود ، أخذها عليهم وعلى سلطانهم ، أن يكون تحت أمْنٍ وحفظ طول مدَّته ، فأُجْريت القلعة فى الأمن والحماية ، وكفٍّ أيدى التّعدى مجرى ما لمُلك النَّصرى [2] من البلاد ، فشَمِل أهلها الأمن ، واتسعت فيها العمارة ، وتنكبتها النّكَبات ، وتحاشَتْها الغارات . ولم يزل أبو مروان بها إلى أن دخل فى أمر الموحدين . ووصل هو وابنه إلى السيد أبى سعيد بغرناطة ، وحضر معه غَزْوة ألمريَّة ، ثم دخل بجملته ، فكمل له الأمن ، وأُقِر على القلعة ، وأُمِر بسُكنى غرناطة بولده . ثم وصل ثانية إلى مراكُش صحبة السيد أبى سعيد . ولقى من البرِّ ولُطْف المكانة عادته . واستَكْتب ابنه أحمد بن أبى مروان الخليفة فى هذه الوجهة . وانتظم فى جملة الكُتّاب والأصحاب .

محنته

وعاد أبو مروان وبنُوه إلى غرناطة صُحبة واليها السّيد أبى سعيد ،

(١) هو يحيى بن غانيه كبير قواد المرابطين فى الأندلس وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٩٧ حاشية) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . ومعناه هنا النصرانى وأن تعمم القلعة بالسلام أسوة بأملاك ملك النصارى

فبقى فى جملة العسكر عند دخول ابن مَرْدَنيش وصِهره غرناطة . وقد اضطربت الفتنة . وفَسَد ما بين السيد وبين أبى جعفر بن أبى مروان منهم ، بما تقدَّم فى اسمه من حديث حفصة[١] . ولما ظهرت دلايل التغير ، وخافوا على أنفسهم ، أداروا الرأى فى الانحياز إلى خدمة ابن مردنيش ، ونهاهم والدهم أبو مروان . وأشار عليهم بمصابرة الأَمر ، فلحق عبد الرحمن بالقلعة . وفرَّ أحمد لما انكشف الأَمر ، وعُثِر عليه بجهة مالقة ، فقُتل . وانجرَّت بسبب ذلك النكبة على عبدالملك وابنه محمد ، فبقيا بغرناطة ، ومن يُشار إليه من أهل بيتهما ، واسْتُصْفِيت أموالهما ، واستخلصت[٢] ضياعهما ، إلى أن ورد كتاب الخليفة أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن بن على بإطلاقهم ورد أموالهم،بما اقتضته السياسة من استمالة من نزع منهم عن الطاعة ، وأمر عبد الملك باستيلاف نافِرهم . ولما هالك ابن مرد نيش ، ورُدَّ من اتصل به صحبة المُستأمنين من أولاد الأَمير الهالك ، فقدموا على رحب وسَعة . وثاب جاه أبى مروان . واتصل عزُّه ، واتسعت حُظْوته ، إلى أن هلك بعد أن وُلى بمراكش النَّظر فى العُدَّة والأَسلحة ، والقيام على دار الصَّنَعة .

« وفاته » : بغرناطة سنة ستين وخمسماية[٣] .

عبد العزيز بن على بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز بن يسمت[٤]

من أهل غرناطة ، يكنى أبا سلطان .

---

(١) راجع المجلد الأول من الإحاطة (ص ٢١٧ – ٢١٩) .

(٢) إستخلصت ضياعهما ، أى وضعت فى المستخلص أو الأملاك السلطانية .

(٣) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (كشت)

حـــاله

فاضل . حَيِيّ ، حسن الصورة ، بادى الحشمة ، فاضل البيت ، سريّه . كتب فى ديوان الأعمال ، وترقّى إلى الكَتْب مع الجملة بالدار السلطانية ، وسَفَر فى بعض الأغراض الغَرْبية ، ولازم الشيخ أبا بكر بن عتيق بن مُقَدِّم ، من شيوخ الصُّوفية بالحَضْرة ، فظهرت عليه آثار ذلك فى نظمه ومقاصده الأَدبية .

شعره

وشعره لا بأْس به ، ومن أَمْثَله قوله ما أُنْشد له فى ليلة الميلاد الأَعظم :

القلب يعشق والمدامع تنطق ... بَرح الخفاء فكل عُضو منطق

[قلت ، قد ذكرها ابن الخطيب فى جملة ما أُنْشد فى الميلاد الأَعظم فى السفر الخامس ، فلا فائدة فى تكرارها هنا][1] .

ومما خاطبنى به :

أطلتُ عَتْبَ زمان فلَّ من أَمل ... وسِمَته الذَّم فى حِلٍّ ومُرْتحل

عاتبته ليُلين للعَتْب جانبه ... فما تراجع عن مَطْل ولا بُخْل

فعدت أمنحه العُتْبى ليشفق بى ... فقال لى إنَّ سمعى عنك فى شَغل

فالعَتْب عندى والعُتْبى فلست أرى ... أُصْغى لمدحك إذ لم أُصْغ للعَذَل

فقلت للنَّفس كُفِّى عن مُعاتبةٍ لا ... تنقضى وجواب صِيغ من وَجَل

من يَعْتَلق بالدُّنا بابن الخطيب فقد ... سَما عن الذُّل واستوى على الجَدَل

فقلت من لى بتَقْريبى لخدمته ... فقد أُجاب قريبا من جوابك لِ

قد اشتغلتُ عن الدُّنيا بآخرتى ... وكان ما كان فى أيّامى الأُول

(١) واضح أن ما بين الحاصرتين ، هو من إنشاء ناسخ المخطوط ، وقد وردت هذه القصيدة فى نفح الطيب ج ٣ ص ٤٦٦

وقد رَعيتُ وما أهملتَ من مِنَحٍ فكيف يختلط المرعيُّ بالهَمَل
ولست أرْجع للدُّنيا وزُخْرفها بعد شيْب غدا فى الرأس مُشْتعل
ألَسْتَ تبصر أطْمارى وبُعدى عن نَيْل الحظوظ وإعدادٍ إلى أجَل
فقال ذلك قولٌ صحّ مُجملُه لكنَّ من شأنه التَّفصيل للجُمَل
ما أنت طالب أمر تَسْتَعين به على المظالم فى حالٍ ومُقْتبَل
ولا تُحِلُّ حراماً أو تُحرِّم ما أحلَّ ربُّك فى قول ولا عمل
ولا تَبغ آجل الدُّنيا بعاجلها كما الوُلاة تبيع اليَمَّ بالوَشَل
وأين عنك الرِّشا إن كنت تطلبها هذا لعمرى أمرٌ غير مُنْفَعل
هل أنت تطلب إلاَّ أن تعود إلى كَتْب المقام الرَّفيع القَدْر فى الدول
فما لأوْحَدِ أهل الكَوْن قاطبة وأسْمَح الخَلْق من حافٍ ومُنْتَعل
لم يلتفت نحو ما تَبْغيه من وَطَرٍ ولم يَشِدَّ الذى قد بان من خلل
إن لم تَقَعْ نظرةٌ منه عليك فما يَصْبُو لديك للَّذى أملْت من أمل
فدونك السِّيد الأعلى فمطلبكم قد نِيط منه بفضلٍ غير مُنفضل
فقد خَبرْتُ بنى الدنيا بأجمعهم من عالم وحكيم عارفٍ دول
فما رأيتُ له فى الناس من شبهٍ قلّ النَّظير له عندى فلا تسل
قصدتك يا أسْمى الورى نَسباً وليس لى عن عَلْياك من حِوَل
سواك لما أمَلْتُ من أمل وليس لى عنك من زَيْغ ولا مَيْل
لحالى فقد رقّ الحسود لها واحْسِم زمانةً ما قد ساء من عِلل
، لنا ولدِين الله تَرْفَعُه ما أعْقَبت بُكَر الإصباح بالأُصُل
ت مُعْتليا عن كل حادثة كما عَلَتْ ملَّةُ الإسلام فى المِلَل

عبد البر بن فرسان بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحمن الغسانى
وادى آشى الأصل . يكنى أبا محمد .

حـــاله

كان من جلّة الأُدباء . وفحول الشعراء . وبرعة الكُتّاب . كتب عن الأَمير أبى زكريا يحيى بن إسحق بن محمد بن على المسُوفى الميُورق[1] . الثائر على منصور بنى عبد المؤمن[2] ، ثم على من بعده من ذريته إلى أيام الرّشيد منهم ، وانقطع إليه وصَحِبه فى حركاته . وكان آية فى بُعْد الهمّة ، والذهاب بنفسه ، والعنا ، ومواقف الحرب . فإنه دَهِم فى المثل . أَشبَه امرءاً يعضُ بَزّه ، فقد كان أَليقَ الناس بصُحْبة الميُورق ، وأنسَبهم إلى خدمته .

« مشيخته » : روى عن أبى زيد بن السُّهيلى .

بعض أخباره

فى البأْو والصّرامة . حدّثنا شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب عمن حدثه من أشياخه ، قال ، وجّهه الميورقى فى عشِيّة يوم من أيام حروبه إلى المأزق . وقد طال العِراك ، وكاد يكلُّ الناس عن الحرب . إلى أن يباكروها من الغد ،فنَفَذ لما أُمر به.ولما بلغ الصّدر ، اشتد على الناس . وذَعِر أرباب الحفيظة ، وأَنهى إليهم العزم من أميرهم فى الحمْله . فانهزم عدوهم شرَّ هزيمة ، ولم يَعُد أبو محمد إلا فى آخر الليل بالأسلاب والغنيمة .

---

(١) سبق التعريف بأبى زكريا يحيى بن إسحاق المسوفى ... فى المعروف بابن ... (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٣١١ – حاشية) .

(٢) الإشارة هنا إلى الخليفة الموحدى أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بيعقوب المنصور الذى حكم من سنة ٥٨٠ هـ إلى سنة ٥٩٥ هـ (١١٨٤ – ١١٩٩ م) .

وقال له ما حملك على ما صنعت ، فقال له . الذى عَمِلت هو شأنى ، وإذا أردتَ من يَصْرف الناس عن الحرب ويُذْهب ريحهَم ، فانظر غيرى .

وحدثنى كذلك أنَّ وَلَدا له صغيرا ، تشاجر مع تِرْب له من أولاد أميره أبى زكريا ، فنال منه ولد الأمير ، وقال وما قَدْر أبيك . ولما بلغ ذلك أباه ، خرج مُغْضَبا لحينه ، ولقى ولد الأمير المخاطِب لولده ، فقال حَفِظك الله ، لست أشك فى أنى خديم أبيك . ولكنى أحبُّ أن أعرِّفك بمقدارى ومقداره ، إعلم أن أباك وجَّهنى رسولا إلى الخليفة ببغداد بكتاب عن نفْسه ، فلما بَلَغتُ بغداد نَزلت فى دار اكتُريت لى بسبعة دراهم فى الشهر ، وأُجْرى على سبعة دراهم فى اليوم ، وطُولع بكتابى ، وقيل مَنْ الميورقى الذى وجَّهه ، فقال بعض الحاضرين ، هو رجل مَغْربى ثائر على أستاذه . وأقمت شهرا ، ثم استُدعيت إلى الانصراف ، ولما دخلت دار الخلافة ، وتكلمت مع من بها من الفضلاء ، أرباب المعارف والآداب ، اعتَذروا لى ، وقالوا للخليفة ، هذا رجل جُهِل مقداره ، فأُعِدْتُ إلى محل ، اكتُريت بسبعين درهما ، وأُجرى على مثلها فى اليوم ، ثم استُدْعيت ، فودعت الخليفة[1] ، واقتضيت ما تيسَّر من جوابه ، وصدر لى شيء له خَطَرٌ من صِلته . وانصرفت إلى أبيك . والمعاملة الأولى كانت على قدر أبيك عند مَنْ يعرف الأقدار ، والثانية كانت على قدْرى والمنَّة لله . وأخبار ابن فُرسان كثيرة .

شعره

وقد تعمم الأمير بعمامة بيضاء ، ولبس غِفارة حمراء على جبَّة خضراء ، فقال :

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الخلافة) . والتصويب أنسب للسياق .

فديتك بالنَفْس التى قد ملكتَها … بما أنت موليها من الكرم الغضّ
تـوَدَّدت للحُسْن الحقيقى بهجةً … فصار بها الكُلِّى فى ذاك البعض
ولما تلألأ نور غُرَّتك التى … تقسم فى طول البلاد وفى العَرْض
تلقَّفْتها خضراء أحسن ناظر … نَبَت عنك إجلالا وذاك من الفَرض
وأسدلتَ حُمْر الملابس فوقها … بمفْرِق تاج المجد والشَّرف المَحْض
وأصبحتَ بدرا طالعا فى غَمامةٍ … على شَفَق دان إلى خُضْرة الأَرض

ومن شعره ، ولا خفاءَ ببراعته :

ندًى مُخضلا ذاك الجناح المُنَمْنَما … وسُقْياً وإن لم تشْكُ يأْسا جعاضما
أعِدْهُنَّ ألحانا على سَمْع مُعرب … يُطارح مُرتاحا على القُضْب مُعْجما
وطِر غير مقصوص الجناح مرفَّها … مسوَّغ أشتات الحبُوب منعَّما

وقال أيضا رحمه الله :

كفى حَزَنا أنَّ الرماح صقيلةٌ … وأن الشَّبا رَهْنُ الصَّدا بدِمايه
وأنَّ بياذيق الجوانب فَرْزنت … ولم يَعِدْ رخُّ الدَّست بيت بنايه[١]

عبد العظيم بن عمر بن عبد الله بن حسّان الغسّانى

جليانى[٢] من أهل وادى آش . وتردد إلى غرناطة ، يكنى أبا محمد ، وأبا الفضل .

حـــاله

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

(٢) نسبة إلى جليانة وهى محلة قديمة من أعمال وادى آش كانت تسمى جليانة تفاح لاشتهار هذه المنطقة بإنتاج التفاح الجيد الفاخر (ياقوت) . ولكنها دثرت اليوم ، ولا نجد لها أثرا فى خرائط أعمال غرناطة أو وادى آش الحديثة .

تجول ببلاد المشرق سائحا . وحجَّ ونزل القاهرة . وكان أديبا ، بارعا حكيما . ناظما ناثرا .

تواليفه

وله مصنفات منها « جامع أنماط السايل فى العروض والخطب والرسايل » ، أكثر كلامه فيه نظما ونثرا .

« مشيخته ومن روى عنه » . روى عنه أبو الحسن على بن عبد الله ابن عبد الرحيم الخطيب بضريح الخليل ، وأبو عبد الله بن يحيى المُرْسى .

شعره

قال من شعره :

ألا إنما الدُّنيا بحارٌ تلاطمت   فما أكثر الغَرْقى على الجَنَبات
وأكثر من لاقيت يُغرِق إلفَه   وقلَّ فتىً ينجو من الغَمَرات

« وفاته » : سنة ثلاث وستماية[1] .

تم المجلد الثالث
من كتاب الإحاطة

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

فهارس المجلد الثالث

من كتاب « الإحاطة »

صفحة

استدراك

ذكرنا فى مقدمة هذا المجلد من « الإحاطة » أننا سوف نمضى فى تراجمه حتى ترجمة عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين العكى ، وأنه سوف يشمل من مخطوط الإسكوريال مائة وثمان وتسعين لوحة ، من اللوحة ٨٥ إلى اللوحة ٢٨٣ . بيد أننا رأينا بعد ذلك ، لأسباب فنية ، أن ينتهى هذا المجلد بترجمة عبد العظيم بن عمر بن عبد الله بن حسان الغسانى ، مشتملا على مائة واحد وتسعين لوحة ، من اللوحة ٨٥ إلى اللوحة ٢٧٦ إسكوريال .

فهرست التراجم

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهرست الرسائل والقطع النثرية

صفحة

صفحة

فهرست الشعر والشعراء[1]

(١) نورد هنا أسماء الشعراء مرتبة على حروف المعجم ، ونشير إلى شعرهم بإيراد الشطرة الأولى من البيت الأول من كل قصيدة أو مقطوعة من المنظوم .

فهرست الكتب والرسائل

التى ورد ذكرها خلال الكتاب

ب — ث

ج — ز

س — ط

ع — ك

ل — ى

فهرست القبائل والطوائف والدول

فهرست البلدان والأماكن

ب — ث

س — غ

ف ــ ك

ل ــ م

هـ — ى

فهرست الأعلام

ع — غ

ف — ك

م — ى

كمل طبع المجلد الثالث من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة »
بمطابع « الشركة المصرية للطباعة والنشر » بمدينة القاهرة المعزية
فى اليوم الخامس عشر من رمضان المعظم سنة ١٣٩٦ هـ المـوافق
لليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٩٧٦ م

الشركة المصرية للطباعة والنشر
رقم الايداع ١٩٧٦/٣٠٦٦

HISTORY AND BIOGRAPHICAL DICTIONARY OF GRNDADA

entitled

AL - IHATA FI AKHBAR GHARNATA

BY

VIZIER LISAN - ud - DIN IBN ul - KHATIB

Edited with an Introduction and Notes

BY

MOHAMED ABDULLA ENAN

Author of : Moorish Empire in Spain. Age of the Almoravides and Almohades
End of the Moorish Empire in Spain. Monumentos Moros en Espana y Portugal
Life and Work of Ibn Khaldun. Life and Work of Ibn - ul - Khatib ;etc

Vol. III

Publisher : Al-Khanghi Bookshop, Cairo

Al-Tibaa Almisriyah Co. Press
Cairo - 1976

الإحاطة

في أخبار غرناطة

لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب

حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه

محمد عبد الله عنان

المجلد الرابع

الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م

القاهرة

الشركة المصرية للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو المجلد الرابع والأخير من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة »، نختتم به بحمد الله، هذه الموسوعة الأندلسية الكبرى.

ويضم هذا المجلد بقية السفر العاشر من « الإحاطة » إبتداء من ترجمة (عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد الحضرمى)، الواردة فى اللوحة 276 إسكوريال. وينتهى هذا السفر فى اللوحة 337 إسكوريال بترجمة (على بن عبد الله بن محمد بن يوسف الأنصارى). محتوياً على أربع وخمسين ترجمة. ويتلوه السفر الحادى عشر فى اللوحة 338 إسكوريال مبتدئاً بترجمة (عمر بن على ابن غفرون الكلبى)، ومنتهياً فى اللوحة 415 إسكوريال بترجمة (يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى) المعروف بابن الصيرفى، ومحتوياً على خمس وستين ترجمة. ثم يتلوه السفر الثانى عشر والأخير فى اللوحة 420 إسكوريال، مبتدئاً بترجمة (يحيى بن محمد بن أحمد بن عبد السلام التطيلى الهذلى) ومنتهياً فى اللوحة 424 بترجمة (يحيى بن إبراهيم بن يحيى البرغواطى)، ومحتويا على ثمان تراجم فقط، وهو بذلك يعتبر أصغر أسفار « الإحاطة ». وبه يختتم كتابه الإحاطة بعبارة: « كمل كتاب الإحاطة » فى بداية اللوحة 425 إسكوريال، محتوياً فى مجلداته الأربعة على أربعمائة وثلاث وتسعين ترجمة، وعلى عشرات الوثائق التاريخية، والرسائل والظهائر السلطانية، الأندلسية والمغربية، ومئات القطع من مختار المنظوم والمنثور.

ثم تبدأ بعد ذلك ترجمة ابن الخطيب لنفسه، فى قسم مستقل، مبتدئاً باللوحة 425 إسكوريال، ويفتتحه ابن الخطيب بقوله « يقول مؤلف هذا الديوان، تغمد الله خطله فى ساعات أضاعها، وشهوة من شهوات اللسان أطاعها، وأوقات للاشتغال بما لايعنيه، استبدل بها اللهو لما باعها » ومنتهيا باللوحة 500، تتبعها لوحة أخرى 501، وبها قصيدة أوردناها تتمة لختام المخطوط.

وقد رجعنا في تحقيق هذا المجلد الأخير من « الإحاطة » إلى المخطوطات الآتية :

أولا ــ مخطوط « المكتبة الزيدانية » المحفوظ بمكتبة دير سان لورنزو بالإسكوريال برقم ١٦٨٨ الغزيري ، ورقم ١٦٧٣ ديرنبور .

ثانياً ــ مخطوط جامع الزيتونة بتونس ، المحفوظ الآن بدار الكتب الوطنية التونسية . الجزء الثالث ؛ ويحمل رقم 8136 .

ثالثاً ــ مخطوط السفر الثالث من كتاب « نفاضة الجراب في علالة الاغتراب » المحفوظة بخزانة الرباط العامة برقم 256 ك (المكتبة الكتانية) .

رابعاً ــ مخطوط كتاب « ريحانة الكتاب » المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم 1825 الغزيري ، وكذلك مخطوط « الريحانة » المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط برقم 2195 .

واعتمدنا في المراجعة والتحقيق ، إلى جانب هذه الأصول المخطوطة ، على عدة من المراجع الجامعة ، مثل « نفح الطيب » و« أزهار الرياض » للمقرى ، و« الذيل والتكملة » للقاضي ابن عبد الملك المراكشي ، و« جذوة الاقتباس » لابن القاضي ، و« التعريف بابن خلدون » ، و« صبح الأعشى » لأبي العباس القلقشندي وغيرها .

ويمتاز هذا المجلد الرابع والأخير من « الإحاطة » بأمرين ، الأول بالاستيعاب والتبسط في التراجم الواردة به ، حيث تشغل تراجمه المائة سبع وعشرون ، مائة وخمسين لوحة مزدوجة من المخطوط ، أعني ثلاثمائة صفحة حاشدة منه ، وهو ما لم يتوفر في المجلد الثالث حسبما سبق أن شرحناه في مقدمته . والثاني باحتوائه على عدد كبير من التراجم الهامة سواء ، من رجال التفكير والأدب ، أو من رجال التاريخ .

ويمكننا أن نذكر من رجال الصنف الأول ، عبد المهيمن الحضرمي ، وعبد الحق بن سبعين العكي ، وابن الباذش الأنصاري ، والإمام ابن حزم القرطبي (علي بن أحمد بن سعيد) ، وابن الجياب (علي بن محمد بن سليمان الأنصاري) ، والقاضي عياض بن موسى اليحصبي ، وأبوالربيع بن سـالم (سليمان بن موسى) ويحيى بن هذيل التجيبي .

ومن رجال الصنف الثانى . عمر بن حفصون ، وعلى بن حمود الحسنى ، وعلى بن يوسف بن تاشفين ،وسوار بن حمدون بن عبده ، وسليمان بن الحكم ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وسليمان بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، ويحيى بن على بن غانية الصحراوى ، ويوسف بن تاشفين ، ويوسف بن عبد المؤمن بن على ، ويوسف بن يعقوب بن عبد الحق ، وعدة من أمراء بنى نصر ملوك غرناطة ، منهم السلطان يوسف أبو الحجاج ، وولده محمد الغنى بالله . وقد خص ابن الخطيب هذه المجموعة من رجال التاريخ الأندلسى والمغربى بتراجم قوية، تغلب عليها الصبغة التاريخية النقدية . وضمنها كثيراً من الوقائع والوثائق ، التى يجد فيها المؤرخ مادة غزيرة نفيسة .

وأما عن الترجمة التى خص بها ابن الخطيب نفسه . والتى تلت السفر الثانى عشر من «الإحاطة» ، فهى فى الواقع ترجمة موجزة . ولكن بليغة قوية ، تتناول نسبه ، ونشأته ، وحياته العامة ، وتقلده الوزارة للسلطان يوسف أبى الحجاج ثم لولده الغنى بالله ، ونكبته حينما وقعت الثورة وفقد الغنى بالله عرشه ، وهجرته إلى المغرب ، وانضواءه تحت حماية سلاطينه . ثم عوده إلى تولى الوزارة بعودة الغنى بالله إلى ملكه فى سنة ٧٦٣ هـ، وسيرته فى الوزارة بمنتهى الإيجاز ، ثم مشيخته، ومؤلفاته ، وإيراده لمجموعة من عيون قصائده . ومنها عدة فى الأمداح النبوية ، وعدة كبيرة من المقطوعات الشعرية . فى مختلف الإغراض . وعدد من الرسائل والمراسيم (الظهائر) التى صدرت إليه، ورسائل عن بعض فتوح مليكه ، وبعض رسائل خاصة . ويختتم ابن الخطيب ذلك كله بإيراد المقامة التى وضعها فى «السياسة» وبها يختتم مخطوط الإسكوريال .

بيد أنه قد فات ابن الخطيب ، أن يحدثنا فى ترجمته عن جهوده السياسية ، وقد تولى تدبير شئون مملكة غرناطة ، وتوجيه سياستها زهاء ثمانية أعوام متواصلة. وقد كان بوسعه أن يقدم إلينا أضواء كثيرة عن علائق مملكة غرناطة ، بجارتها الكبيرة مملكة قشتالة النصرانية ، وقد كان السلام يسود بين المملكتين طوال اضطلاعه بأعباء الوزارة . وما من شك فى أن ذلك كان راجعاً إلى جهوده السياسية فى مهادنة مملكة النصرانية . وخطب ودها . أما عن سياسة مملكة غرناطة

إزاء المغرب وسلاطين بنى مرين ، فقد تناولها ابن الخطيب فى العديد من رسائله السلطانية ، وشرح لنا الكثير من جوانب اعتمادها على نصرة المغرب ، ونزعة سلاطينه فى احتضان قضية الأندلس ، واعتبارها نوعاً من الجهاد . وقد ألقت الرسائل التى تضمنها كتابه «نفاضة الجراب» ، وكتابه «كناسة الدكان» الكثير من الضوء على هذه العلائق الأندلسية المغربية .

هذا وقد جرينا فى هذا المجلد الختامى لكتاب «الإحاطة» على نفس الأسلوب الذى اتبعناه فى المجلدات السابقة ، من التعريف بالأعلام الجغرافية والتاريخية الواردة به ، أو الإحالة على ما تم التعريف به منها فى المجلدات السابقة ، وذلك نظراً لسبق التعريف بالكثير منها ، وتحاشى التكرار فى ذلك .

وإنا لنرفع إلى المولى القدير أكف الضراعة والحمد ، إذ وفقنا إلى إخراج هذه الموسوعة الأندلسية الكبرى ، بعد أن بذلنا فى إعدادها وتحقيقها جهوداً شاقة ، استمرت أعواماً طويلة فى مدريد والإسكوريال والرباط وفاس وتونس والقاهرة ، راجين أن تكون ذخيرة جليلة بين أيدى طلاب البحوث الأندلسية والمغربية .

القاهرة فى ١٦ شوال سنة ١٣٩٦
الموافق ١٠ أكتوبر سنة ١٩٧٦

محمد عبد الله عنان

رموز المخطوطات

نشير إلى المخطوطات التى رجعنا إليها فى تحقيق هذا المجلد الرابع من «الإحاطة» فى حواشى الكتاب على النحو الآتى :

١ ـ مخطوط مكتبة دير الإسكوريال المحفوظ برقم ١٦٨٨ الغــزيرى ، ورقم ١٦٧٣ ديرنبور ، ونرمز له بكلمة « الإسكوريال » .

٢ ـ مخطوط جامع الزيتونة بتونس المحفوظ الآن بدار الكتب الوطنية ، برقم 8136 (الجزء الثالث) ونرمز له بكلمة « الزيتونة » .

٣ ـ مخطوط كتاب « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » ، المحفوظ بمكتبة دير الإسكوريال برقم 1825 الغزيرى . وكذلك مخطوط نفس الكتاب، المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط برقم 2195 ، ونرمز له بكلمة « الريحانة » .

٤ ـ مخطوط السفر الثالث من كتاب « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » المحفوظ بخزانة الرباط العامة برقم 256 ك ، ونرمز له بكلمة « النفاضة » .

الإحاطة
فى أخبار غرناطة

المجلد الرابع

ومن الغرباء

عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن على بن محمد بن عبد الله بن محمد الحضرمى

يكنى أبا محمد ، شيخنا الرئيس صاحب القلم الأعلى بالمغرب .

حـــاله

من « عائد الصلة » : كان رحمه الله خاتمة الصدور، ذاتاً وسَلَفًا وتربية وجلالة . له القِدْح المعلَّى فى علم العربية، والمشاركة الحسنة فى الأصلين ، والإمامة فى الحديث ، والتبريز فى الأدب والتاريخ واللغة ، والعَروض والمُماسة فى غير ذلك . نشأ فارس الحَلْبة ، وعروس الوليمة ، وصدر المجلس ، وبيت القصيد ، إلى طيب الأبوَّة . وقِدَم الأصالة ، وفضل الطُّعمة ، ووفور[1] الجاه ، والإغراق فى النِّعمة . كثير الاجتهاد والملازمة ، والتفنُّن والمطالعة ، مقصور الأوقات على الإفادة والاستفادة ، إلى أن دعته الدولة المرينيَّة بالمغرب ، إلى كتابة الإنشاء ، فاشتملت عليه اشتمالا ، لم يفصُل عنه من أوقاته ، ما يلتمس فيه ما لديه . واستمرت حاله ، موصوفا بالنَّزاهة والصِّدق ، رفيع الرُّتبة ، مَشِيد الحُظوة ، مشاركا للضيف فاضلا . مُختَصر الطُّعمة والحِلْية ، يغلب عليه ضَجر يكاد يُخلُّ به ، متصل الاجتهاد والتَّقييد ، لا يَفْتَر له قلم . إلى أن مضى بسبيله .

وجرى ذكره فى « الإكليل الزاهر » من تأليفنا مما نصه : تاج المَفْرِق وفخر المغرب على المشرق . أطْلع منه نور أضاءت الآفاق . وأثْرَى منه

(١) وردت فى الإسكوريال (ووفوه) وهو تحريف اقتضى التصويب

بذخيرة حَمَلت أحاديثها الرِّفاق . ما شِيت من مجد سامى المصاعد والمَرَاقِب ، عزيز عن لحاق المجد الثَّاقب ، وسَلَف زُيِّنت سماؤه بنجوم المناقب . نشأ بسَبْتة بين علم يُفيده ، وفخر يُشيده . وطهارة يَلْتحف مَطارفَها ، ورياسة يتفيّأ وارِفَها ، وأبوه رحمه الله قُطْب مدارها ، ومُقام حجِّها واعْتِمارها ، فسلك الوُعوث من المعارف والسُّهول ، وبذَّ على حداثة سِنِّه الكهول ، فلما تحلَّى من الفوايد العلمية بما تحلَّى ، واشتهر اشتهار الصباح إذا تجلَّى ، تنافست فيه هِمَم الملوك الأَخاير ، واستَأْثرت به الدول على عادتها فى الاسْتِئثار بالذَّخاير ، فاستقلَّت بالسياسة ذراعه ، وأخدم الذوابل والسيوف يراعه ، وكان عَيْن المَلِك التى بها يُبصر ، ولسانه الذى به يُسهب أو يَختصر . وقد تقدَّمت له إلى هذه البلاد الوفادة ، وجلَّت به عليها الإفادة ، وكتب عن بعض ملوكها ، وانتظم فى عقودها الرَّفيعة وسلوكها ، وله فى الأَدب الرَّاية الخافقة ، والعقود المُتَناسقة .

مشيخته

قرأ ببلده [سبتة] على الأستاذ الإمام أبى إسحق الغافقى المَدْيونى ، وعلى الأُستاذ المُقرى أبى القاسم محمد بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الطيِّب ، والأستاذ النحوى أبى بكر بن عُبيدة الإشبيلى ، وعلى الأُستاذ العارف أبى عبد الله محمد بن عمر بن الدَّراج التِلمسانى ، وعلى ابن خال أبيه الأَمير الصالح أبى حاتم العَزَفى ، والعدل الرِّضا أبى فارس عبدالرحمن ابن إبراهيم الجزيرى .

وقرأ بغرناطة على الشيخ العلامة أبى جعفر بن الزبير . وروى عن الوزير الراوية أبى محمد عبد الله المرادى ابن المؤذن وعلى الأُستاذ أبى بكر القللوسى . وأخذ عن الشيخ الورير أبى الوليد الحضرمى القرطبى . وبمالقة

عن الإمام الولى أبى عبد الله الطنَّجالى ؛ وببلش عن الخطيب الصالح أبى جعفر بن الزيات ، وعن الخطيب أبى عبد الله بن شعيب المروى ، والعلامة أبى الحسين بن أبى الربيع ، وأبى الحكم بن منظور ، وابن الشّاط وابن رُشيد ، وابن خميس ، وابن بُرطال ، وابن ربيع ، وابن البنّا ، وسميه ابن البنّا المالقى ، وابن خميس النحوى ، وأبى أمية بن سعد السُّعود بن عُفير الأمدى . هؤلاء كلهم لقيهم وسمع منهم ، وأجازوا له ما عندهم . وممن أجاز له مشافهة أو مكاتبة من أهل المغرب ، الأستاذ أبو عبد الله محمد بن عمر الأنصارى التلمسانى ابن الدراج ، والكاتب أبو على الحسين بن عتيق ، وتناول تواليفه ، والأديب الشهير أبو الحكم مالك بن المُرَحَّل ، والشريف أبو عبد الله محمد بن يحيى بن أبى الشرف الحسينى ، وأبو بكر بن خليل السُّكونى ، وأبو العباس المطرى ، والجزّارى ، وشرف الدين بن معطى ، وابن الغمّاز ، وابن عبد الرفيع القاضى ، وأبو الشمل جماعة بن مهيب ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد التُّجانى وأبناء عمه عمر وعلى ، وابن عَجْلان ، ومحمد بن إبراهيم القيسى السلولى ومحمد بن حماد اللبيدى ، وابن سيد الناس ، وابنه أبو الفتح ، وابن عبد النور ، والمومنانى ، والخطيب ابن صالح الكتّانى ، وابن عياش المالقى ، والمشدالى ، وابن هرون ، والخلاسى ، والدبّاغ ، وابن سِماك ، وابن أبى السِّداد ، وابن رُزين ، وابن مَسْتقور ، وأبو الحسن بن فضيلة ، وأبو بكر بن مُحرز . وكتب له من أهل المشرق جماعة منهم : الأبرقيشى وابن أبى الفتح الشيبانى ، وابن حمادة ، وابن الطاهرى ، وابن الصابونى ، وابن تيْمية ، وابن عبد المنعم المفسر ، وابن شَيْبان ، وابن عساكر ، والرضى الطبرى ، وابن المخزومى ، وابن النحاس . قلت من أراد استيفاءهم

ينظر الأصل . فقد طال على استيفاء ما ذكره الشيخ رحمه الله وقد ذكر جماعة من النساء ، ثم قال بعد تمام ذلك ، ولو قصدنا الاستقصاء لضاق عن مجاله المتبع .

شـــعره

وشعره مُتخلٌ عن محلّه من العلم والشهرة ، وإن كان داخلا تحت طور الإجادة .

فمن ذلك قوله[(١)] :

تراءى سُحَيراً والنسيم عليـــل ... وللنجم طَرْفٌ بالصباح كليل
وللفجر بحر خاضه الليل فاعْتَلت ... شَوَى أدهم الظلماء منه خجول
بُرَيق بأَعْلَى الرقْمَتَين كأنـــه ... طلائع شهبٍ فى السواد تجول
فمزّق ساجى الليل منه شرارة ... وخرّق سِتر الغَيم منه نُصول
تبسم ثغرُ الروض عنـد ابتسامه ... وفاضت عيون للغمام هُمُول
ومالت غصون البان نَشْوى كأنها ... يُدَار عليها من صباه[(٢)] شَمول
وغنّت على تلك الغصون حمايمٌ ... لهن حفيف فوقها[(٣)] وهَديــل
إذا سَجعت فى لحنها ثم قرقرت ... يطيح خفيفٌ دونهـــا وثقيـل
سقى الله ربعـا لا تزال تشوقنى ... إليه رسوم دونـــه وطلـــول
وجـاد رياه كلما ذر شـــارق ... من الودق هتان أَجشٌ هطول
ومالى استسقى الغمـام ومدمعى ... سفُوحٌ على تلك البِراص هَمُول
وعاذِلَة ظَلت[(٤)] تلوم على السُّرى ... وتكثر من تَعْذالهـا وتطيـــل

---

(١) واضح من خلال القصيده أنه مديح من الشاعر للوزير لكاتب والشاعر الكبير ، ابن الحكيم الرندى .

(٢) وردت في الإسكو (حـ) ، مصوب من سفح

(٣) هكذا وردت في الإسكوريال والنفح وفي نص آخر (دونها)

(٤) هكذا وردت في الإسكوريال وفي النفح (باتت)

تقول إلى كم ذا فـراقٌ وغُـربة ونأْىٌ على ما خيَّلت ورحيـل
ذرينى أسعى لنتى تُكسب العـلا سَناءً وتُبقى الذِّكر وهو جميل
فإما تَرينى من مُمَارسة الهـوى نحيـلا فَحدُّ المَشْرفى نحيـل
وفوق أنَابيب اليراعة صفرة[١] تَزين وفى قدٍّ القناة ذبـول
ولولا السُّرى لم يُجْتَل البدرُ كاملا ولا بات منه للسُّعود نزيـل
ولولا اغتـراب المرء فى طلب العُلا لما كان نحو المجد منه وصول
ولولا نوال ابن الحكيم محمـد لأَصبح رَبْعُ المجد وهو مُحيـل
وزير سما فـوق السِّماك جـلالةً وليس له إلاَّ النجـوم قَبيـل
من القوم أمَّا فى النَّدى فإنهم هِضاب وأما فى الندى فسيول
حَوَوْا شرف العلياء إرثًا ومَكْسبًا وطابت فروع منهم وأصـول
وماجُونةٌ هطَّـالةٌ ذات هَيْـدَب مَرْتُها شمال مرجف وقبـول
لهـا زجَل من رعدهـا ولوامـع من البرق عنهـا للعيون كلول
كما هَدَرت وسط القِلاص وأرسلت شقاشِقَها عند الهيـاج فحـول
بأَجْود من كفِّ الوزير محمـد إذا ما توالت للسِّنين محـول
ولولا روضة بالحسن[٢] طيبة الشَّذا ينم عليها إذخِـرٌ وجليـل
وقد أُذكيت للزهـر فيها مَجامِر تعطَّر منهـا للنسيم ذيـول
وفى مُقل النُّوار للطِّل عَبْـرة تردِّدهـا أجفانهـا وتُحيـل
بأَطْيَبَ من أخـلاقه الغرِّ كلمـا تفاقم خطْبٌ للزمان يهـول
حَويت أبا عبد الآه مناقبـا تفوتُ يدًا من رامَهـا وتطـول
فغرناطة مصرٌ وأنت خَصيبُهـا ونائلُ يُمناك الكريمة نِيـل

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (صعوة).
(٢) وردت فى الإسكوريال (بالحزن) والتصويب من النفح وهو أنسب للسياق.

فداك رجالٌ حاولوا دَرْكَ العــلا ببُخلٍ وهل نال العَـلاء بخيل
تخيَّرك المولى وزيرا وناصحـا فكان لــه مما أراد حصــول
وألقى مقاليد الأُمور مُفوضًا إليك فلم يَعْدم يمينك سُول
وقام بحفظ المُلْك منك مؤيدٌ نَهوضٌ بما أعيا سواك كفيـل
وساس الرعايا منك أروع[1] باسل مُبيد العِدا للمعْتَفِين مُنيــل
وأبلجُ وقَّـاد الجبين كأنمـا على وجنتيه للنُّضار مَسيل
تَهيم به العَلياءُ حتى كأنهـــا بُثَينته فى الحبِّ وهو جميل
له عَزَمات لو أُعير مضاءَهـــا حُسامٌ لما نالت ظُبـاه فُلول
سَرَى ذكرهُ فى الخافقين فأصبحت إليه قلوب العالمين[2] تميـل
وأعدى قريضى جودُهُ وثنــاؤه فأصبح فى أقصى البلاد يجول
إليك أيافخر الوزارة أرْقَلَـت برَحْلى هوجاءُ النَّجــاءِ ذلـول
فَلَبتُ إلى لقيـاك ناصية الفلا بأيدى ركابٍ سيرهُنَّ ذَمِيــل
تسدِّدُنى سهماً لـكل ثنيَّـــة ضوامرُ أشـباهُ القِسىِّ نحــول
وقد لَفَظَتْنِى الأرض حتى رَمَت إلى ذراك برَجْلى هوجَلٌ وهَجُـول
فقيَّدت أفراسى به وركائـــبى ولذَّ مقـامٌ لى بــه وحُلــول
وقد كنت ذا نفس عزوف وهمَّة عليها لأحداث الزمان ذحول[3]
ويَهوَى[4] العُلاَ حظِّى ويُغْرى[4] بضدِّ لذاك اعتَرَتْه رقَّةٌ ونحــول
وتأْبى لى الأيــام إلاَّ إدالـــة فصونك[5] لى إن الزمان مُديل

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (أشوس) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (العلمين) . والتصويب من النفح .
(٣) وردت فى الإسكوريال (دخول) وفى النفح (دحول) . والتصويب أنسب للسياق . والذحول الحقد والعداوة .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى النفح (. تهوى . وتفرى) .
(٥) وردت فى الإسكوريال (بصونك) والتصويب من النفح .

فكل خضوع فى حبالك عزة[1]   وكل اعتزاز قد عداك خمول

وهى طويلة . ومن شعره [فى الحنين إلى وطنه سبتة][2] .

سقى ثرى سبْتة بين البلاد   وعهدَها المحبوب صوبُ العهاد
وجاد مَنهل الحَيا رَبْعها   بوَبْله تلك الرُّبى والوِهاد
وكم لنا فى طُور سينائها   من رائحٍ للأُنْس فى إثر غاد
وعينها البيضاءُ كم ليلةٍ   بيضاء فيها قد خلتْ لو تعاد
وبالمنارة التى نورها   لكلٍّ من ضلَّ دليلٌ وهاد
نرُوح منها مثلما نغْتَدى   للأُنسِ والأفراحُ ذات ازدياد
فى فِتيَةٍ مثل نجوم الدُّجى   ما منهم إلاَّ كريم جواد
ارتشفوا كأْس الصفا بينهم   وارتضعوا أخلاف محض الوداد
وبالأيام بِنْيُولِش[3] لقد   عَدَتْ عنها صروف العواد
أدركتُ من لُبْنَى بها كلما   لبانة وساعدتنى سُعاد
ونلت من لذَّات دهرى الذى   قد شِيته وللأمانى انقياد
منازلُ ما إن على مُبْدِلٍ   هاءٍ مكان اللام فيها انتقاد
سلوتها مذ ضمنى بعدها   نادِى الوزير ابن الحكيم الجواد

ومن المقطوعات قوله :

أبت همتى أن يرانى امرؤ   على الدهر يوما له ذا خضوع
وما ذاك إلا لأنى اتقيت   بعزِّ القناعة ذلَّ القنوع[4]

ومن ذلك فى المشط والمشفة من آلات الحمَّام :

---

(١) و [illegible] (عره) والتصويب من النفح

(٢) أضفنا هذه [illegible] من عندنا

(٣) [illegible] من ضواحى سبتة

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى نص آخر (الخشوع)

إنى حسدت المشط والنَّشف الذى ... لهما مزايا القرْب دونى مُخلصه
فأَناملُ من ذا تباشر صدغه ... ومراشفُ من ذا تقَبِّل أخمَصه

نثره

وقع هنا بياض مقدار وَجْهة فى أصل الشيخ .

مولده

ولد ببلَدِه سَبْتة فى عام ستة وسبعين وستماية .

وتوفى بتونس فى الثانى عشر لشوال من عام تسعة وأربعين وسبعماية فى وقيعة الطاعون العام ، بعد أن أصابته نبْوة من مخدومه السلطان أبى الحسن[1] . ثم استعْتبه وتلطف له . وكانت جنازته مشهورة ، ودفن بالزَّلاج من جبانات خارج تونس رحمه الله .

عبد المهيمن بن محمد الأشجعى البلذوذى

نزيل مراكش.

حــــاله

من كتاب « المؤتمن »[2] ، قال ، كان شاعراً مُكثرا ، سهل الشعر ، سريعه ، كثيرا ما يَسْتجدِى به ، وكان يتقلَّد مذهب أبى محمد على بن حزْم الفقيه الظاهرى ، ويصول بلسانه على من نافَرَه . دخل الأندلس ، وجال

---

(١) الإشارة هنا إلى السلطان الكبير أبى الحسن المرينى ، على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق . تولى عرش المغرب سنة ٧٣١ هـ وتوفى سنة ٧٥٢ هـ . وكان من أعظم ملوك بنى مرين همة وعزماً وصيتا وجهاداً فى الأندلس . وقد أشار المقرى فى نفح الطيب إلى ذلك الحادث الذى أساء فيه السلطان أبو الحسن مخاطبة كاتبه عبد المهيمن الحضرمى (ج ٣ ص ٢٤٣)

(٢) هو من تأليف أبى البركات بن الحاج . وقد سبق التعريف به (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ٣٧٢ حاشية) .

فى بلادها . بعد دخوله مراكش . وكان أصله من بُلُنوذ . ورد مالقة أيام قضاء أبى جعفر بن مَسْعدة ، وأطال بها لسانه ، فحمل عليه هنالك حَمْلا أذاه ، إلى أن كان مآل أمره ما أخبرنى به شيوخ مالقة ، وأنْسيْته الآن ، فتوصَّل إلى مآل أمره من جهة من بقى بها الآن من الشيوخ ، نقلت اسمه ونسبه من خطِّه .

شعره

أما على ذى شَرَك ··· فى صَيْدنا من دَرَك
تصِيدنـــا لواحظ ··· وما لها من حــرَك
والبدر إن غاب فمَنْ ··· يجلــو ظلام الحَلك
قد تاب القلب فما ··· يدرى إن لم تدرك
عدا السقام أو عـدا ··· وَعْد الذى لم يأْفك
أو لن يكن حِلٌّ دَمِى ··· فلتُبْطى أو أتــرك
حاربتُ من لا قدرة ··· لديه فى الْمُعْتــرك
يفلُّ غرْبَ سـيفه ··· سيفُ لِحاظِ فتــك
يا لفتىً يا قُبلــتى ··· يا حَجَّتى يا نَسك
إن عَظُم الحزن فما ··· أرجل حسن فــلك
أو أهديت الحـىُّ ··· فلابن عبد المـلك
خطيب ومُران للَّذى ··· سَلَك عــلى سلك
رُكن التُّقـــا محمد ··· ذو النُّبل والطبع الزَّكِ
منفردٌ فى جـــوده ··· بمــاله المشــترك
يـ سوقْ هـذا بـابُه ··· فهو أجــلُ مَبْـرك
وأنتِ يـ حـــادية ··· قَرُبتِ ما أسـعدك

فبــرّكى وكــبّرى   وابــركى وبــرك
فقد أتينــا بَشَرا   لــه صفات الملك
كفُّك يَهْمِى مَلَكت   كأنّهــا لم تملك
قصيدتى لو لم تنل   منك حُلَى لم تُسْبك
أبكيت ديمة النّدا   فزهرُهــا ذو ضَحك
لــكننى يا سيدى   من فاقتى فى شَرَك

وشعره على هذه الوتيرة . حدثنى أبى ، قال رأيته رجلا طُوالا ، شديد الأدْمة ، حليق الرأس ، دمينه، عاريه ، كثير الاسْتِجداء ، والتّهاتر مع المُحابين من أُدباء وقته ، يناضل عن مذهب الظاهرية بجهده .

وفـــاته

من خط الشيخ أبى بكر بن شِيْرين ، وفى عام سبعة وتسعين وسمّاية توفى بفاس الأديب عبد المهيمن المكناسى ، المكتنى بأبى الجيوش البُلّنوذى ، وكان ذا هَذَر وخَرْق ، طَوّافا على البلاد ، ينظم شعرا ضعيفا ، يَسْتَمنح به الناس ، وآلت حاله إلى أن سُعى به لأبى فارس عزّوز الملزوزى [١] الشاعر ، شاعر السلطان أبى يعقوب وخديمه ، وذكرله أنه هجاه ، فألقى إلى السلطان ما أوجب سجنه ، ثم ضربت عنقُهُ صبراً ، نفعه الله [٢]

عبد العزيز بن عبد الواحد بن محمد الملزوزى [٣]

من أهل العُدْوة الغربية ، يكنى أبا فارس . ويعرف بعزّور .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الملزوى) وهو تحريف اقتضى التصويب حسبما يتبين بعد فى ترجمته التالية

(٢) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة

(٣) وردت هذه النسبة فى مخطوط الإسكوريال كالآتى (عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد =

حـــاله

كان شاعراً مكثراً سيال القريحة ، مُنحطَّ الطبقة ، مُتَجنِّداً ، عظيم الكفاية والجرأة ، جسوراً على الأُمرا ، عَلِق بخدمة الملوك من آل عبد الحق وأبنايهم ، ووَقف أشعارَه عليهم ، وأكثر النظم فى وقايعهم وحروبهم ، وخلط المُعَرَّب باللِّسان الزناتى فى مخاطباتهم ، فعُرِف بهم ، ونال عريضاً من دُنياهم ، وجمًّا من تقريبهم . واحتلَّ بظاهر غرناطة فى جُملة السلطان ، أمير المسلمين أبى يعقوب، وأمير المسلمين أبيه ، واستحق الذكر بذلك .

شعـــره

من ذلك أرجوزة نظمها بالخضراء فى شوال سنة أربع وثمانين وستّماية، ورفعها إلى السلطان أمير المسلمين أبى يوسف بن عبد الحق ، سماها : « بنظم السلوك ، فى الأنبياء والخلفاء والملوك » لم يقصر فيها عن إجادة.

ومن شعره . قال مخبرا عن الأمير أبى مالك عبد الواحد ابن أمير المسلمين أبى يوسف :

دعانى يوماو السماقدارتدت بالسحايب ... والغيث يبكى بالدموع السَّواكب
كأنه عاشقٌ صُدَّ عنه حبيبه ... ففاضت دموعه عليه وكثر نحيبُه
ولم يُـرَق لـــه مدمع ... كأنه لم يبق له فيه مطمع
فـكان الوعـدُ حَسْرتَـــه ... والبرق لَوْعَتَه وزَفْـــرَتَه
فقال لى ما أحسن هذا اليوم ... لو كان فى غير شهر ا لصوم
فاقتَرح غاية الاقتراح علىّ ... وقال قلْ فيه شعرا بين يدىّ

= الملزومى) وهو تحريف والصواب ما أثبتناه نقلا عن أقدم مخطوط لأرجوزة الشاعر المسماة (نظم السلوك) وقد نشرت محققة بعناية العلامة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ، ووردت فى صد ه صفحة المخطوط التى تحمل الاسم الصحيح للشاعر (الرباط سنة ١٩٦٢) والملزوزى نسبة إلى قبيلة ملزوزة [illegible] من بطون زناتة الكبرى ،

فأنشدته هذه الأبيات :

اليوم يوم نزهة وعُقــار ... وتقرُّب الآمال والأوطــار
أوما ترى شمسَ النهار قد اختفت ... وتسترت عن أعين النُظّــار
والغيث سَح غمامه فكأنه ... دَنِفٌ بكى من شدّة التذكار
والبرق لاح من السماء كأنه ... سيف تألّق فى سماء غبــار
لا شىء أحسن فيه من نيل المُنا ... بمُدامته تبدو كشعلة نــار
لولا صيام عاقنى عن شربها ... لخلعتُ فى هذا النهار عِذار
لو كان يمكن أن يُعَار أعرته ... وأصوم شهراً فى مكان نهار
لكن تركت سروره ومُدامه حتى ... أكــون لـديه ذا أفــكار
ونديرها فى الكأس بين نواهد ... تجلو الهمُوم بنغمة الأوتــار
فجفونها تغْنيك عن أكواسها ... وخدودها تغنيك عن أزهار

فشكره لما سمعه غاية الشكر ، وقال أسْكَرْتنا بشعرك من غير سُكر .

قال ، وأتيته بهذه الأبيات :

أعلمتَ بعدك زَفَرتى وأنِينى ... وصَبابتى يوم النّوى وشجونِ
أودعتُ إذ ودّعتُ وَجْداً فى الحشا ... ما إن تزال سهامه تُصمينِ
ورَقيبُ شوقك حاضرٌ مترقِّبٌ ... إن رمتُ صبراً بالأسى يُغرينِ
من بَعد بُعْدك ما رَكَنت لراحة ... يوما ولا غاضَتْ عَليك شؤون
قد كنت أبكى الدمع أبيضَ ناصعا ... فاليوم تبكى بالدِّماء جفونِ
قل للذين قد ادّعوا فَرْط الهوى ... إن شِيتم عِلم الهوى فسَلونِ
إنى أخذتُ كثيرَه عن عُروة ... ورويتُ سايره عن المجنون
هذى روايتنا عن أشياخ الهوى ... فإن ادّعيتم غيرها فأرونِ
يا ساكنى أكناف رَمْلة عالج ... ظفِرَتْ بقَلْبِكم الغَرِير يَمينِ

كم بات فى جَنح الظلام مُعانقى ومَجَنتُ فى صُفرُوى إلى مجنون
فى روضة نمّ النسيم بعَرفها وكذاك عَرْفُ الرّوض غير مَصون
والوِرْق من فوق الغصون ترنمت فتريك بالألحان أىّ فنون
تصغى الغصون لما تقول فتنثنى طرباً لها فاعْجَب لميل غصون
والأرض قد لبِست غلايل سندس قد كلّلت باللؤلؤ المكنون
تاهت على زهر السماء بزهرها وعلى البُدور بوجهها الميمون

قال أبو فارس ، وكان أمير المسلمين أبو يوسف سار إلى مدينة سَلا ، فبويع بها ولده أبو يعقوب ، وذلك فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول عام أحد وسبعين وستماية ، يوم مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنشدته يوم بيعته هذه القصيدة ورفعتها إليه :

يا ظَبْية الوَعْساء قد بَرِح الخفا إنى صبرت على غرامك[1] ماكفى
كم قد عَصِيت على هواك عواذلى وأناب بالتّبعيد منك وبالجفا
حَمّلتِنى ما لا أطيق من الهوى وسَقيتِنى من غنج لحظك قرقفا
وكسَوتِنى ثوب النحول فمَنظرى للناظرين عن البيان قد اختفا
هذا قتيلكِ فارحميه فإنه قد صار من فرط النحول على شفا
لهفى على زمن تقضّى بالحِما وعلى محلٍ بالأُجَيْرع قد عفا
أترى يعود الشّمل كيف عَهِدته ويصير بعد فراقهُ مُتألّفا
لله دَرك يا سَلا من بلدة من لم يُعاين مثل حُسْنك ما اشتفا
قد حُزتِ براً ثم بحراً طاميا وبذاك زدت ملاحة وتزخرُفا
فإذا رأيت بها القطائع خلتها طيراً يحوم على الورود مرفرفا

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى نسخة الرباط من نظم السلوك (فراقك)

والجاذفين على الرّكيم كأنّهم ... قوم قد اتخذوا إماماً مُسْرفا
جعل الصّلاة لهم ركوعا كلها ... وأتى ليَشرع فى السجود مُخففا
والموج (١) يأتى كالجبال عُبابه ... فتظنه فوق المنازل مُشرفا
حتى إذا ما الموج أبصر حدّه ... غضّ العِنان عن السُّرى وتوقّفا
فكأنّه جيش تعاظم كثرةً ... قد جاء مزدحما يُبايع يُوسُفا
مَلِك به ترضى الخلافة والعُلا ... وبه تُجَدِّد فى الرِّياسة ما عَفا
من لم يزل يَسْبى الفوارس فى الوغى ... إن سلَّ فى يوم الكريهة مُرْهَفا
أَلِفتْ محبّته القلوبُ لأنه ... مَلِكٌ لنا بالجود أضحى مُتْحفا
ألقى إليه الأمر والدُه الذى ... عن كل خطْب فى الوَرى ما اسْتنكفا
يعقوبُ الملك الهُمَام المُجْتبا ... الماجد الأوفى الرحيم الأرْأفا
يَهْواهُ من دون البنين كأنما ... يعقوبُ يعقوبُ ويوسفُ يوسُفا
طوبى لِمن فى الناس قبَّل كفَّه ... والويل منه لمن غدا مُتوقِّفا
أعطاك ربُّك وارتضاك لخلْقه ... فاقتل بسيفك من أبا وتخلَّفا
وامدُد يمينك للوفود فكلهم ... لليوم عاد مُؤمِّلا متشوِّفا
فاليوم لا تخشى النِّعاج ذِيابها ... ويعود من يَسْطو بها متعطِّفا
صَلُح الزمان فلا عدوٌّ يتّقى ... لم يخش خلْقٌ فى عُلاك تخوُّفا
لم لا وعَدْلُك للبريّة شامل ... طبْعاً وغيرك لا يزال تكلُّفا
يا من سُررتُ بمُلْكه وعَلايه ... اليوم أعلمُ أن دهرى أنصفا
فإذا مَلكْتَ فكن وفيا حازما ... واعلم بأن المُلْك يُصْلح بالوفا
وأفِض بَذْلك للوجود وكنْ لهم ... كهْفًا وكُن ببَعِيدهم مُسْتعطفا
فالجود يُصلح ما تعلَّم فى العُلا ... وسواه يُفسد فى الخلافة ما صفا
إن البريّة فى يديك زمامُها ... فاحذر فديْتُك إن تكون مُعنِّفا

(٢) وردت فى الإسكوريال (والموت) والتصويب من « نظم السلوك »

يا من تسرْبل بالمكارم والعلا ... ما زال حاسدكم يَزيد تأسُّفا
خذها إليك قصيدة من شاعر ... فى نَظْم فخرك كيف شا تصرّفا
خضع الكلام له فصار كعَبْدِهِ ... ما شاء يصنع ناظماً ومُؤَلِّفا
لا زالت الأمجاد تخدم مَجْدكم ... ما زارت الحجاج مَرْوَة والصّفا

ومن شعره فى رثاء الأمير أبى مالك :

سَهْمُ المنيّة أين منه فِرار ... من فى البريّة مَن رجاه يُجار
حَكَم الزمان على الخلايق بالفنا ... فالدار لا يبقى بها ديّار
عِش ما تشاءُ فإن غايتك الرّدى ... يَبْلى الزمان وتذهب الأعمار
فاحذر مُسالمة الزمان وأَمْنَه ... إن الزمان بأهله غدّار
وانظر إلى الأمراء قد سكنوا الثرى ... وعليهم كأْسُ المُنون تُدار
تركوا القصور لغيرهم وترحّلوا ... ومن اللّحود عليهم أستار
قد وُسّدوا بعد الحرير جَنادلاً ... ومن اللحود عليهم أستار(١)
مُنعوا السُّرى للقباب وأسْكِنوا ... بَطْن الثّرى حَكَمَتْ بذاك عليهم الأقدار
لم تنفع الجُرْد الجياد ولا القنا ... يوم الرّدى والعسكر الجرّار
فى موت عبد الواحد الملك الرِّضا ... لجميع أَمْلاك الوَرى إنذار
أن ليس يبقى فى الملوك مُمَلَّك ... إلا أتته منيّة وبوار
ناديته والحزن خامَر مهجتى ... والقلب فيه لوعة وأُوار
يا مَنْ بِبَطْن الأرض أصبح آفلاً ... أتَغيبُ فى بطن الثّرى الأقمار
أين الذين عَهِدت صَفْو وِدادهم ... هل فيهم بعد الرّدى لك جار
تركوك فى بطن الثّرى وتشاغلوا ... بعُلا سِواك فَهَجْرُهم إنكار

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال وسابقتها فى البيت السابق . والظاهر أن هناك سهواً من الناسخ فى النقل

لما وقفتُ بقبـره مُتـرحِّما　　حان العزا وهاجنى استِعبار
فبكيتُ دمعا لو بَكَت بمثاله　　غرُّ السَّحاب لم تكن أمطار
يا زايريه استغفروا لمليككم　　ملكُ الملوك فإنه غفَّار

وفـاته

توفى خَنقًا بسجن فاس بِسعايةٍ سُعِيت به ، جَناها تهوُّره فى وسط عام سبعة وتسعين وستماية ، وقد كان جُعل له النَّظر فى أمور الحِسْبة ببلاد المغرب(١) .

(ومن العُمَّـال)

عبدالعزيز بن عبد الله بن عبد العزيز الأسدى العراقى

من أهل وادى آش ، نزل سَلفُه طُرُّش من أحوازها ، وجدُّه استوطنها ، وذكروا أنه كان له بها سبعون غلاما . وجدُّه للأُم أبو الحسن بن عمر شارح الموطَّأ ومُسلم ، ومُصَنِّف غير ذلك . كذا نقلته عن أبى عبد الله العراقى ، قريبه .

حـاله

كان طبيبا ، شاعرا مجيدا ، حسن الخط ، طَرِيف العمل ، مُشاركا فى معارف . تولَّى أعمالا نبيهة .

شعـره

نقلته من خطِّه ما نصه :

صرفتُ لخير صَدْرٍ فى الزمان　　عريق فى أصالته عِنان
كريم المُنْتَمى من خير بيت　　سليلُ مَجَادة ورفيع شان
رحيبٌ بنا فضل غير وان　　عن الأفضال فى هذا الأوان

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة

ومن هذا أذاك هو ابن عيسى محمد المُعان على المعان
أبو عَبْدلى إنه المُنْتَمى من مُساوى الفضل فى سُرى العِنان
ذرانى فى مَجادته محبًّا فهشّ لما به يحوى جَنان
فأُنسُ ثم بَشرُ بالأمانى ورفعُ بعد تأْنيسٍ مكان
سرٌّ لله ما أولى لسيُرَ وليس كمن رآنى فازدَران
ويوجب ذو الفضايل كل فضل بما فيها ترشّحت الأوان
وكم زهر رآه وسَط روض وكم هاذ يدى بين الدّنان
بمالقة وبالأقطار أضْحَت معاليكم مُشَيَّدة المبان
فأَيّدو الآلـه لسوف يأْتى لكم منّى سوابقُ فى الرّهان
قواف من الحكم قواف محامدُ للسّماع وللعِيان
يفوق نَظِيمها من كل معنى سلوك الدُّر من حَلْى الحِسان
متى خفَّ ازدحام من همومى ورُجيت الأَمان مَعْ أمان
شكرتُ الله ثم صَفا فؤادى وأمْلى ما تحبُّ على لسان
فهأنذا ببرّكم غِذائى ولى منكم على بُعدى تَدان
محبُّك حيث كنت بلا سُلُوٌّ وضيفُك فى البُعاد وفى التّوان
ثنائى ثابت يبقى بَقاى ومِن بَعْدى على طول الزمان
وما تَهبُ الأكفُّ قِراك فان وما تَهبُ الطُّروس فغير فان
هنيئا بالنّزاهة فى سرور ومع من لا لَهُ فى الفضل ثان
فلا زالت مسرّته تُوالى ولا زالت تُزفُّ لك التّهان

« وفاته » : ببلدة وادى آش عام خمسة عشر وسبعماية .

عبد القادر بن عبد الله بن عبد الملك بن سوار المحاربى

حـــاله

هذا الرجل دَمِث الأخلاق ، سكُون ، وقور . خدم أبوه بغرناطة كاتبا للغَزاة ، منوهاً به ، مشهورا بكرم وظَرف. وانتقل الى العُدوة ، ونشأ ابنه المذكور بها ، وارتسم بخدمة ولى العهد الأمير أبى زيّان ، وورد على الأندلس فى وسط عام سبعة وخمسين وسبعماية فى بعض خدمه ، وأقام بغرناطة أياما يحاضر محاضرة يُتَأنَّس به من أجلها الطالب ، وينتظم بها مع أولى الخصوصية من أهل طريقه ، وينقل حكايات مُسْتَطرفة . فمن ذلك أن الشيخ عبد الرحمن بن حسن القَرَوى الفاسى كان مع أبى القاسم الزيانى بجامع القرويين ليلة سبع وعشرين من رمضان ، فدخل[1] عليهم ابن عبدون المكناسى ، فتلقاه الزيانى وتأيده ، وتوجهوا إلى الثُّريَّا بالقرويين وقد أُوقِدت ، وهى تحتوى على نحو ألف كاس من الزجاج ، فأنشد الزيانى :

أنظر إلى ناريَّة نورها يَصْـــدعُ بالألاِ حَجَب الغَسَـق

فقال ابن عبدون :

كأنَّها فى شكلها زهرةٌ انتظم النور بها فاتّسق

وحُكِيت القصة للأديب الشهير أبى الحكم مالك بن المُرحَّل ، فقال لو حضرت أنا لقُلْتُ :

أعيذُها من شَرِّ ما يُتَّقى من فجأة العين بربِّ الفَلَق

واستُنْشِدَ من شعره فى الثامن والعشرين لربيع الآخر من العام بقصر

---

(١) وردت فى الإسكوريال (دخل) فاقتضى التصويب .

نَجْد ، فقال من حكايات ، إن السلطان أمير المسلمين وجَد يوما على رجل أمر بتنكيله ، ثم عَطَف عليه فى الحال وأحسن إليه ، وكان حاضراً مجلسه أبو الحسن المزدغى رحمه الله ، فأنشده بديهة :

لا تونِسَنَّكَ من عثمن سطوتُه وإن تَطَاير من أثوابه الشرر
فإن سطوته والله يكلأه كالبَرْق والرَّعد يأتى بعده المطَر

قال المترجم به ، فحدَّثنى بذلك والدى ، فتعقَّبتُها عليه عام تسعة وعشرين وسبعماية ، لموجِبِ جرَّ ذلك بقولى :

لا تَيْأَسَن من رجا كَهْف الملوك أبى سَعيد المرْتجى للَّنفع والضُّر
وإن بدا منه سخطٌ أو رأيت له من سطوة أقْبَلَت تَرميك بالشَّرر
فإنما شيءٌ مثل الرَّعد يتبعُه برقٌ ومن بعده يَنْهَل المَطَـر

وأنشدنى لبعض الأحداث من طلبة فاس ، يخاطب صاحبنا الفقيه الكاتب أبا عبد الله بن جُزَى ، وقد توعده على مَطْلٍ باستِنْسَاخ كتاب كان يتناول له وهو بديع :

إذا ما أتَتْ أبطالُ قيس وعامر وأقيال عبْس من بِغمام وقسور
تُصادمنى وسط الفَلا لا تهولنى فكيف أبالى بابن جزءٍ مُصَغَّر

« مولده » : بفاس فى العشر الأُول لذى حجة عام تسعة وسبعماية .

ومن الزهاد والصلحاء وأولا الأصليون

عبد الأعلى بن معلا

يكنى أبا المَعْلى الإلبيرى ، من قرى القلعة[1] ، ونشأ بالحاضرة ،

(١) القلعة يقصد بها قلعة يحصب أو قلعة بنى سعيد وقد سبق التعريف بها (راجع المجلد الثالث من الإحاطة ص ٢١٢ وكذلك المجلد الأول ص ١١١ حاشية)

وكان ينسب إلى خوْلان . ويذكر أنه أسلم على يدى رجل من خَوْلان ، فتولاه وانتسب إليه ، وخرج إلى إلبيرة ، ونشأ بها ، وشُغِف بكتب عبد الملك بن حبيب ، ولم يكن أحد فى عصره يشبهه فى فضله وزهده وورعه ، وتواضعه وانقباضه ، وتستُّره . أرسل إليه حسين بن عبد العزيز أخو هاشم بن عبد العزيز ، وهو بإلبيرة يرغب إليه فى أن يشهد جنازة إبنةٍ توفيت له ، كان يُشْغف بها ، فتعذَّر عليه إذ خشى الشُّهرة .

وقال لبعض جلسائه ، ما علمت أن حُسَيْنا يعرفنى ، وعمل على الخروج من إلبيرة ، وتهيأ للخروج للحج ، فحج ، فلما كان مُنْصَرفه ، ونزل فى بعض السَّواحل ، وجد هنالك مركبين يُشحنان ، فرغب كل من أصحاب المركبين ، أن يركب عنده ، وتنافسا فى ذلك ، حتى خُشى أن تقع الفتنة بينهم ، فاهتم لذلك ، ثم اصْطَلح أرباب المركبين ، على أن يُخرِج كل واحد منهما قارِبه إلى البرِّ ، فمن سبق قاربُه إليه دخل عنده . ونزل فى مُنصرفه ببجاية وسكنها إلى أن توفى سنة ثلاث وتسعين ومائتين .

عبد المنعم بن على بن عبد المنعم بن إبراهيم بن سِدراى بن طُفَيل

يكنى أبا العرب ، ويشهر بالحاج ، ويُدعى بكُنيته

حـــاله

كان عالما فاضلا صالحا ، منقطعا متبتِّلا ، بارع الخطِّ ، مجتهدا فى العبادة ، صاحب مُكاشفات ، وكرامات . نَبذ الدنيا وراءَ ظهره . ولم يتلبَّس منها بشىء . ولا اكتسب مالا ولا زوجة . ووَرث عن أبيه مالا خرج عن جميعه . وقطع زمن فَتايه فى السِّياحة وخدمة الصالحين ، وزمان

شيخوخته . فى العُزلة والمراقبة ، والتزام الخَلْوة . ورحل إلى الحج ، وقرأ بالمشرق ، وخدم مشايخ من الصالحين . منهم الفَخْر الفارسى ، وأبو عبد الله القرطبي وغيرهما ، وكان كثير الإقامة بالعُدْوة ، وفشا أمره عند ملوكها ، فكانوا يزورونه ، ويتبرّكون به ، فيَعرِض عنهم ، وهو أعظم الأسباب فى جواز أهل المغرب لنُصرة من بالأندلس فى أول الدولة النّصرية ، إذ كان الرّوم قد طمعوا فى استخلاصها ، فكان يحرّض على ذلك ، حتى عزم صاحب العُدوة على الجواز ، وأخذ فى الحركة ، بعد استدعاء سلطان الأندلس إياه . وعندما تعرّف يَغْمُور بن زيّان ملك تلمسان ذلك كله على بلاده بما منع من الحركة ، فخاطبه الحاج أبو العرب مخاطبته المشهورة ، التى كفّت عدوانه ، واقْتصَرته عما ذهب إليه .

وكان حيا فى صفر عام ثلاثة وستين وستماية ، وهو تاريخ مخاطبته أبا يحيى يغمور بن زيان .

ومن الطارئين وغيرهم

عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن فتح بن سبعين العكّى[1]

مُرسى ، رَقُوطى[2] الأصل ، سكن بآخرة مكّة ، يكتى أبا محمد ، ويعرف بابن سبعين .

حاله

قال ابن عبد الملك ، درس العربية والأدب بالأندلس ، عند جماعة

(١) هكذا و الإسكوريال وفى الزيتونة (الحكى)

(٢) رقوطى نسبه إلى رقوطة ، وهى بلدة أندلسيه صغيرة تقع شمال غربى مرسية على مقربة من نهر شقور . وبالإسبانية « Ricate » .

من شيوخها . ثم انتقل إلى سَبْتة . وانتحل التصوف . بإشارة بعض أصحابه ، وعكف برهة على مطالعة كتبه ، وتعرَّض بعد لإسماعها ، والتكلُّم على بعض معانيها ، فمالت إليه العامة ، وغَشِيت محلَّه . ثم فَصَل عن سبتة ، وتجول فى بلاد المغرب منقطعا إلى طريقة التصوف ، داعيا إليها ، محرضا عليها . ثم رحل إلى المشرق ، وحج حِججاً ، وشاع ذكره ، وعظُم صيته هنالك ، وكثر أتباعه على مذهبه ، الذى يدعو إليه من التصوف نحلة . ارتسموا بها من غير تحصيل لها ، وصنَّف فى ذلك أوضاعا كثيرة ، تلقوها منه ، وتقلدوها عنه ، وبثُّوها فى البلاد شرقا وغربا ، ولا يخلو أحد منها بطايل ، وهى إلى وساوس المَخْبُولين ، وهذيان المَمْروضين أقرب منها إلى منازع أهل العِلْم ، ولَفَظه غير ما بلد وصُقع ، لما كان يُرمى به من بلايا الله أعلم بحقيقتها ، وهو المطلع على سريرته فيها . وكان حسن الأخلاق ، صَبُورا على الأذى ، آية فى الإيثار ، أبدع الناس خطًّا .

وقال أبو العباس الغُبْرينى فى كتاب « عُنوان الدِّراية »[1] عند ذكره ، وله علم وحكمة ومعرفة ، ونباهة وبلاغة وفصاحة . ورحل إلى العُدْوة ، وسكن بجاية مدة ، ولقيه من أصحابنا ناس كثير ، وأخذوا عنه ، وانتفعوا به فى فنون خاصة له ، مُشاركة فى معقول العلوم ومنقولها ، ووجاهة لسان ، وطلاقة قلم ، وفهم جنان ، وهو آخر الفضلاء ، وله أتباع كثيرة من الفقراء ، ومن عامّة الناس ، وله موضوعات كثيرة ، موجودة بأيدى الناس ، وله فيها ألغاز وإشارات بحروف أبى جاد . وله تسميات مخصوصات فى كُتبه هى نوع من الرُّموز ، وله تسميات ظاهرة كالأسامى[2] المعهودة ،

---

(١) واسمه الكامل (عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية)

(٢) وردت فى الإسكوريال (كالأسارى) والتصويب من الزيتونة

وله شعر في التحقيق . وفي مراقي أهل الطريق . وكتابته مُسْتحسنة في طريقة[1] الأدباء . وله من الفضل والمزية . ملازمته لبيت الله الحرام ، والتزامه الاعْتِمار على الدوام . وحَجّته مع الحجاج في كل عام ، وهذه مزية لا يُعرف قدرها ولا يُرام . ولقد مشى به للمغاربة بحظٍّ في الحرم الشريف ، لم يكن لهم في غير مُدّته . وكان أصحاب مكة شرفها الله ، يهتدون بأفعاله ، ويعتمدون على مقاله .

قلت ، وأغراض الناس في هذا الرجل متباينة ، بعيدة عن الاعتدال ، فمنهم المُوهن[2] المُكَفِّر ، ومنهم المقلِّد المُعَظِّم ، وحصل لطَرَفي هذين الاعتقادين من الشهرة والذِّياع ما لم يقع لغيره . والذي يقرب من الحق ، أنه كان من أبناء الأصالة ببلده ، ووُلِّي أبوه خُطَّة المدينة ، وبيته نبيه ، ونشأ تَرِفًا مُبجَّلا ، في ظل جاه ، وعزٍّ نعمة ، لم تفارق معها نفسه البلد . ثم قرأ وشدا . ونظر في العلوم العقلية . وأخذ التحقيق عن أبي اسحق ابن دهاق . وبرع في طريقة الشُّوذية[3] . وتجرد واشتهر ، وعظُم أتباعه ، وكان وسيما جميلا ، ملوكي البزّة ، عزيز النفس ، قليل التصنع ، يتولى خدمته الكثير من الفقراء السَّفارة . أولى العبا والدقاقيس ، ويحفون[4] به في السِّكك ، فلا يَعْدم ناقدا ، ولا يفقد متحاملا . ولما توفرت دواعي[5] النقد عليه من الفقهاء زِيًّا وانْتِباذاً ونِحْلةً وصُحبةً واصطلاحا . كثر عليه التأويل ، ووُجهت لألفاظه المعاريض ، وفُلِّيت

---

(١) هكذا في الزيتونة . وفي الإسكوريال (طريق) . والأولى أنسب .

(٢) هكذا في الزيتونة . وفي الإسكوريال (المرهق) . والأولى أنسب .

(٣) الشوذية هم إحدى الطرق الصوفية .

(٤) هكذا في الإسكوريال . وفي الزيتونة (يحتفوا) .

(٥) وردت في الإسكوريال (داعي) . والتصويب من الزيتونة .

موضوعاته ، وتَعاورته الوَحْشة ، ولقيه فحول من مُنْتابِى تلك النّحلة ، قَصُر أكثرهم عن مداه فى الإدراك والاضطِّلاع ، والخوض فى بحار تلك الأغراض. وساءت منه لهم فى الملاطفة السيرة ، فانصرفوا عنه مكظومين يُنَدِّرون(١) فى الآفاق عليه من سوء القِيلة ، مالاشىء فوقه .ورحل إلى المشرق ، وجرت بينه وبين الكثير من أعلامه خطوب . ثم نَزَل مكة شرفها الله تعالى واختارها قرارا ، وتلمّذ له أميرها ، فبلغ من التعظيم الغاية . وعاقه الخوف من أمير المدينة المعظمة النبوية ، عن القدوم عليها ، إلى أن توفى ، فعظم عليه الحَمْل لأجل ذلك ، وقَبُحت الأُحْلوثة .

شهرته ومحله من الإدراك

أما اضطّلاعه ، فمن وقف على « البُدّ » من كُتُبه ، رأى سَعة ذَرْعه وانفِساح مدى نظره ، لما اضطلع به من الآراء والأوضاع والأسماء ، والوقوف على الأقوال ، والتعمق فى الفلسفة ، والقيام على مذاهب المتكلمين ، بما يقضى منه العجب . ولما وردت على سَبْتة المسائل الصِّقلية(٢) ، وكانت جملة من المسايل الحِكَمِية ، وجهها علماءُ الروم تبكيتاً(٣) للمسلمين ،انتُدب إلى الجواب عنها ، على فتىًّ من سنّه ، وبديهة من فكرته . وحدثنى شيخنا أبو البركات ، قال حدثنى أشياخنا من أهل المشرق ، أن الأمير أبا عبد الله بن هود ، سالم طاغية النصارى ، فنكث عهده ، ولم يَفِ بشرطه ، فاضطره ذلك إلى مخاطبته إلى القُومس الأعظم برومة ، فوكل أبا طالب بن سبعين ، أخا أبى محمد ، المُتكلم عنه ، والاستظهار بالعقود بين يديه . قال فلما بلغ باب ذلك الشخص المذكور برومة ، وهو بلد لاتصل إليه المسلمون ،

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يتندرون) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (العقلية)

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (تنكيتا) .

ونُظر إلى ما بيده ، وسُئل عن نفسه ، كلم ذلك القس من دنا منه محله من علمايهم بكلام ، تُرجم لأبى طالب بما معناه ، اعلموا أن أخا هذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه .

دعواه وإزراؤه

وقد شُهر عنه فى هذا الباب كثير والله أعلم باستحقاقه رتبة ما ادعاه أو غير ذلك . فقدذكروا أنه قال ،وقد مر ذكر الشيخ أبى مَدْين رحمه الله ، شُعيب عبد عمل ، ونحن عبيد حضرة . وقال لأبى الحسن الشُّشترى عندما لقيه ، وقد سأله عن وجهته ، وأخبره بقصده الشيخ أبا أحمد ، إن كنت تريد الجنة فشأنُك ومَنْ قَصَدت ، وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إلينا ، وفى كتاب « البُدّ » ما يُتَشوف إليه من هذا الغرض عند ذكره حكماء الملة . وأما ما يُنسب إليه من آثار السِّيمياء والتصريف فكثير .

تواليفه

وتواليفه كثيرة تشذ عن الإحصاء، منها كتابه المسمى بالبُدّ«بُدّ العارف » ، وكتاب الدَّرج ، وكتاب الصفر ، والأجوبة اليمنية ، والكلّ والإحاطة . وأما رسايله فى الأذكار ، كالنورية فى ترتيب السلوك ، وفى الوصايا والعقايد فكثير ، يشتمل على ما يشهد بتعظيم النبوة ، وإيثار الورع ، كقوله من رسالة : « سلام الله عليك ورحمته . سلام الله عليك ثم سلام مناجاتك . سلام الله ورحمته الممتدة على عوالمك كلها ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، وصلى الله عليك كصلاة إبراهيم من حيث شريعتِك ، وكصلاة أعز ملائكته من حيث حقيقتِك ، وكصلاته من حيث حقه ورحمانيته . السلام عليك يا حبيبه . السلام عليك ياقياس

الكمال ، ومقدّمة السعد ، ونتيجة الحمد ، وبرهان المحمود ، ومن إذا نظر الذهن إليه قد أنعم العيد ، السلام عليك يا من هو الشرط فى كمال الأولياء ، وأسرار مشروطات الأزكياءِ الانقياءِ . السلام عليك يا من جاوز فى السماء مقام الرّسل والأنبياء ، وزاد رفعة ، واستولى على ذوات الملأِ الأعلى ، ولم يسعه فى وُجهته تلك إلا ملاحظة الرّفيق الأعلى ، وذلك قوله ، سبّح اسم ربك الأعلى إلى الأُخرى والأُولى ، لا إلى الآخرة والأُولى ، وبلغ الغاية والمطلوب ، التى عجزت عنه قوة ماهيّة النُّهى ، وزاد بعد ذلك ، حتى نظر تحته من ينظر دونه سِدْرة المُنْتهى ، إلى استغراق كثير ، أفضى إلى حال من مقام » .

ومن وصاياه يخاطب تلاميذه وأتباعه : حفِظَكم الله ، حافظوا على الصلوات ، وجاهدوا النفس فى اجتناب الشهوات ، وكونوا أوّابين ، توّابين ، واستعينوا على الخيرات بمكارم الاخلاق ، واعملوا على نَيْل الدّرجات السنية ، ولا تَغْفلوا عن الاعمال السُّنيّة ، وحصّلوا مَخصص الأعمال الإلهيّة ومُهملها ، وذوقوا مُفَصّل الذات الرّوحانية ومَحْملها ، ولازموا المودة فى الله بينكم ، وعليكم بالاستقامة على الطريقة ، وقدموا فرض الشريعة على الحقيقة ، ولا تفرقوا بينهما ، لأنهما من الأسماءِ المترادفة ، واكفُروا بالحقيقة التى فى زمانكم هذا ، وقولوا عليها وعلى أهلها لعنة الله ، لأنها حقيقة كما سمى اللّديغ سليما ، وأهلها مُهمِلون حدّ الحلال والحرام ، مستخفّون بشهر الصوم والحج وعاشوراءِ والإحرام ، قاتلهم الله أنّى يُؤفكون .

ومنها : واعلموا أن القريب إلىّ منكم ، من لا يخالف سُنّة أهل السُّنّة ويوافق طاعة رب العزّة والمِنّة ، ويؤمن بالحَشر والنار والجنّة ، ويفضل

الرُّؤية على كل نِعمة ، ويعلم أن الرِّضوان بعدها ، أجلُّ كل رحمة ، ثم يطلب الذّات بعد الأَدب مع الصفات والأَفعال ، ويَغْبِط نفسه بالمشاهدة فى النوم والبرزخ والأَحوال ، وكل مخالف سخيف : مُتَّهم منه الفساد ، وإن كان من إخوانكم ، فاهجروه فى الله ، ولا تلتفتوا إليه ، ولا تُسْلموا له فى شىء ، ولا تُسَلِّموا عليه حتى يستغفر الله العظيم بمحضر الكل منهم ، ويرضى عن نفسه وحاله وعنكم ، ويخرج من صفاته المذمومة ، ويترك نظام دعوته المحرومة . وأنا مذ أشهدت الله العظيم ، أنى قد خرجت من كل مُخالف متخلِّف العقل واللسان ، ولا نسبة بيتى وبيته فى الدنيا والآخرة ، فمن زلَّ قدمه يستغفر الله ، ولا يخدعه قدمه ، وأمثال هذا كثير .

دخوله غرناطة

أخبرنى غير واحد من أصحابنا المعتنين بهذا ، أنه دخل غرناطة فى رحلته ، وأظنه يجتاز إلى سبتة ، وأنه حل وسَطَه ، على اصطلاح الفقراء ، برابطة العُقاب[1] من خارجها ، فى جملة من أتباعه .

شعـــره

وشعره كثير ، مما حضرنى منه الآن قوله :

كم ذا تُموِّه بالشّعبين والعلم والأَمر أوضح من نار على علم
وكم تعبِّر عن سلع وكاظمة وعن زرود وجيرانٍ بذى سَلَم
ظللتَ تُسئل عن نَجْدٍ وأنت بها وعن تِهامة هـذا فعل مُتَّهم
فى الحىِّ حتى ولا سوى ليلى وتسألها عنها سؤالك وهم جرَّ للعَدَم

(١) هى إحدى الربط التى كانت تخصص للعبادة . وكانت تقع على مقربة من شرقى غرناطة . وقد سبقت الإشارة إليها (الإحاطة المجلد الثانى ص ١٥٥ حاشية) .

« وفاته » ، توفى بمكة شرّفها الله تعالى يوم الخميس التاسع لشوال من عام تسعة وستين وستماية .

وفيما يسمى بإحدى عيون الإسلام من الأسماء العينية وهم عتيق وعمر وعثمن وعلى ، وأولا الأمراء والملوك وهم ماببن طارىء وأصلى وغريب

عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر الاسلامى بن كسمسم [(١)] بن دميان [(٢)] ابن فرغلوش بن أذفونش [(٣)]

كبير الثُّوار ، وعظيم المُنْتزين ، ومُنازع الخلفاء بالأندلس .

أَوَّليَّته وحاله

قال صاحب التاريخ ، أصله من رُندة ، من كورة تاكُرُنَّا ، وجدُّه جعفر إسلامى [(٤)] ، وانتقل إلى رندة ، لأَمر دار عليه بها فى أيام الحكم بن هشام ، فسكن قرية طَرجيلة من كورة ريُّه المجاورة لحصن أُوطة ، فاستوطن بها ، وأنْسَل بها عمر ، ثم أنسل بها عمر حَفْصًا ، وفُخِّم فقيل حَفْصُون . ثم أنسل عمر هذا الثاير مع أخوة له ، منهم أيوب وجعفر . ولما ترعرع عمر ، ظهر له من شَراسته وعتُوِّه ، ما لم يعدم معه أبواه هرباً عن مواضعهما فزالا عن وطنهما ، فذكر أنه لم يُمسك من حين كان عن أحد ممن ناظره ،

---

(١) هذا الاسم زائد فى مخطوط الإسكوريال . ولم يرد فى نسبة عمر بن حفصون المعروفة لنا .

(٢) وردت فى الإسكوريال (ذبيان) . وهو تحريف والصحيح ما أثبتناه .

(٣) وردت فى الإسكوريال (اريوس) وهو تحريف والصحيح ما أثبتناه .

(٤) المقصود هنا بأن جده جعفر هو أول من أسلم من أسلافه .

ولا سَكت عن أقبح ما يمكن من السّب لمن عاتبه ، وأنه قتل أحد جيرانه على سبب يسير دافعه عنه ، فتغرّب لذلك عن الموضع زمانا .

وذكر ابن القوطيّة ، أن عامل ريُّه ، عاقبه فى جناية ، وفرّ إلى العُدوة ، وصار يتهرّب عند خياط كان من أهل ريّه ، فبينا هو جالس فى حانوته يوما ، إذ أتاه شخص بثوب يقطعه ، فقام إليه الخياط ، فسأل ذلك الشخص الخياط عن عمر ، فقال له هو رجل من جيرانى ، فقال الشيخ متى عهدُك بريّه ، فقال له ، منذ أربعين يوما ، فقال له ، أتعرف جبلا يقال له بُبشتر[1] ، فقال أنا ساكن عند أهله ، فقال أله حركة ، قال لا ، قال الشيخ قد أذن ذلك . ثم قال ، تعرف فيما يجاوره رجلا يقال له عمر بن حفصون ، ففزع من قوله ، فأحدّ الشيخ النظر فيه وقال ، يا منحوس ، تُحارب الفقر بالإبرة ، إرجع إلى بلدك ، فأنت صاحبُ بنى أمية ، وستملك ملكاً عظيماً ، فقام من فَوْره ، وأخذ خُبزة فى كُمّه ، ورجع إلى الأندلس . فداخل الرجال ، حتى ضبط الجبل المذكور ، وانضوى إليه كل من يتوقّع التهمة على نفسه ، أو تشهره إلى الانتزاء بطبعه ، وضمّ إلى القلعة كل من كان حولها من العجم والمولّدين . ثم تملّك حصن أوطة وميجش ، ثم تملك قُمارش وأرجِدونه[2] . ثم اتسع نظره ، حتى تملك كورة ريّه ، والخضراء ، وإلبيرة ، إلى بَسْطَة وأُبّدة وبيّاسة وقَبْرة ، إلى حصن بُلى ، المطل على قرطبة . وأشرق الخلافة بريقها ، وقطع الزمان من استكانة إلى عهد ، وكشف الوجه فى خَتْر ، وتَشْمير الساعد عن حرب ، وحَسَر اللّثام عن أيد وبَسْطة . وشد الحزام على جَهْد وصبر ، ونازله

(١) جبل ومدينة ببشتر ، يقعان شمال عربى مالقة فى قلب كورة رية . و بالإسبانية « Bobastro »

(٢) تقع قارش على مقربة من شمال مالقة ، وتقع أرشدونه أو أرجدونه فى شمالها ، وفى شمال =

الخلايف والقُواد ، فلم يحُل بطايل ، وأصابته جراحات مُثْخِنة فى الوقايع وأصبحت فتنتُه سَمَر الرُّكاب ، وحديث الرِّفاق ، شدَّة أسر ، وثِقل وطأة ، وسَعة ذَرْع ، واتِّصال حبل ، وطول إملاء ، استغرق بها الستين ، وطوى الأعمار ، وأوْرَث ذلك ولده بعده ، وعند الله جزاء وحساب ، وإن امتدَّ المآب ، لا إله إلَّا هو .

دخوله عرناطة وإلبيرة

قال ابن الفيَّاض وغيره ، ودخل إلبيرة مرات ، عندما ثار بدعوته ، قاتل ، وانضوى إلى حصن منتشافر [(١)] ، من إقليم برجيلة قيس ، فى نحو ستة آلاف ، وتغلب على يحيي بن صِقالة ، ثم نازله سَوَّار بن حمدون أمير العرب بغرناطة ، حتى غلبه ، وأخذه أسيرا ، ثم أوقع بجَعْد ومن معه من أهل إلبيرة وقايع مُستأْصلة ، وتملك بعدها بيَّاسة وأُبَّدة ، فى أخبار تطول . قال أبو مروان ، قصد ابن حفصون حاضرة إلبيرة وحصونها ، وناصب الحرب سوَّاراً ، وقد استمد سوَّار رجالات العرب ، من كورتى جيَّان وريُه وإلبيرة . فوقعت الهزيمة على ابن حفصون . وجرح جراحات مُثخنة ، وأُصيب جماعة من فرسانه ، وانقلب منهزما . فغضب عند ذلك على أهل إلبيرة فأغْرَمَهم مَغْرما فَدَحهم ، واستعمل عليهم . حفص بن المرَّة ، فلم يزل يعمل الحيل على سوَّار ، حتى أوقع به . وأتى بجثته إلى إلبيرة . وحمل رأسه إلى بُبَشتر ، واسْتَشْرى داؤه . وأعيا أمره . فاتصل مُلكه بالقواعد والأقطار . وغلب أكثر المدن . ما بين الموسَّطة والغرب . وأحدق

= شرق ببشتر بنفس الولاية ، وهى بالإسبانية على التوالى «Archidona, Comares» .

(١) هذه تسمية ابن حيان لهذا الحصن . وفى تسمية أخرى حصن منت شفند .

ملكه بقرطبة ، وحجر عليها الخيل من حصن بُلى[١] ، من حصون قَبْرة ، فجلت الكَنْبانية[٢] ، وامتدَّ إلى بنيان المعاقل . ولما رأى الأمير محمد[٣] ما أحاط به منه ، تأهب إلى غزوه . ونزل حصن بُلى ، وناهضه . فأوقع به ، وهزمه وألجأه إلى أن سَلَّم فى حصنه . فلما خرج منه بمن معه ، تطيَّرهم ريح الفرار والسيوف تأخذهم . استولى الخليفة على الحصن . وفى ذلك يقول أحمد بن عبد ربه ، شاعر دولتهم :

وله يوم بُلى وقعة لم ... تدع للكُفر رأسا فى ثَبَج
لم يجد إبليس فى حَوْمتها ... نفعا من رهبة حيث بَلَج
دفعتهم حملة السَّيل إلى ... كافِح الأمواج مخضٍّ اللُّجج
فتح الله على الدِّين بـه ... وعلى الإسلام يا عامر تتج

وكان هذا الفتح سنة سبع وسبعين ومائتين[٤] . ثم استخلص مدينة إستِجَّة .

وفاته

قال ، ومن هذا المهد ، أَدْبر أمر ابن حفصون ، وتوقَّف ظهوره ،

---

(١) حصن بل أو بول أو بلاى وبالاسبانية « Poley » أو « Polei » ، يقع شمال غربى لوشة ، وشرقى قبرة على مقربة من نهر شنيل . وتسمى البلدة التى قامت مكانه اليوم ببلدة أجيلار «Aguilar» (راجع المجلد الأول ص ١١١ حاشية) .

(٢) الكنبانية هم الفلاحون أو الزراع الذين يزرعون الأرض المنبسطة وأصلها من الإسبانية « Campesino » .

(٣) هذا خطأ تاريخى من ابن الخطيب ، لأن الأمير محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس المتوفى فى ربيع الأول سنة ٢٧٢ هـ لم يكن هو الذى اضطلع بمعركة بلى ضد ابن حفصون ، وإنما الذى اضطلع بها هو ولده الأمير عبد الله الذى جلس على العرش فى شهر صفر سنة ٢٧٥ هـ

(٤) وهذا خطأ تاريخى آخر لابن الخطيب ، لأن معركة بلى التى نشبت بين جيش الأمير عبد الله وقوات ابن حفصون عند حصن بلى وأحرز فيها الأمير نصره الباهر على ابن حفصون ، وقعت فى ربيع الأول سنة ٢٧٨ هـ ، وليس فى سنة ٢٧٧ هـ (راجع كتابى دولة الإسلام فى الأندلس الطبعة الرابعة ص ٣٢٤ - ٣٢٦) .

بعد تخبّط شديد ، ولَجاج كبير ، وشرٌ مُبير ، وكانت وفاته ببُشْتر ، موضع انتزائه على عهد الخليفة عبد الرحمن فى سنة ست وثلاثمائة ، بعد مرض شمل النَّفخُ به جسده ، حتى تشقّق جلده ، وانتقل أمره إلى ولده جعفر ، ثم إلى ولده سليمان ، ثم إلى ولده حفص . وعلى حفص انقرض أمرهم .

عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة التجيبى

بَطَليوسى ، مِكناسى الأصل ، من مِكناسة الجوف ، الأمير بالثغر الغربى ، الملقب من ألقاب السلطنة بالمتوكل على الله ، المكنى بأبى محمد ، المُنبز بابن الأفطس .

أوليته

قال ابن حيان ، كان جدّهم عبد الله بن مسْلمة المعروف بابن الأفْطَس ، أصله من فحص البلّوط[1] ، من قوم لا يدّعون نباهة ، غير أنه كان من أهل المعرفة التامة ، والعقل ، والدهاء ، والسياسة . ثم كان هذا الصُّقع الغربى ، بطليوس وأعمالها ، وشَنْتَرين والأُشْبونة ، وجميع الثغر الجوفى فى أمر الجماعة ، رجل من عبيد الحكم المستنصر[2] ، يسمى سابور . فلما وقعت الفتنة ، وانشقّت العصا ، انتزى سابور على ما كان بيده . وكان عبد الله يدبر أمره إلى أن هلك سابور ، وترك ولدين لم يبلغا الحُلُم ، فاشتمل عبد الله على الأمر ، واستأثر به على ولديه ، فحصل على

---

(١) فحص البلوط وبالاسبانية « Las Pedroches » هو موضع يقع على مقربة من قرطبة فى واد منبسط تكثر به أشجار البلوط . وكانت تسكنه بعض طوائف البربر .

(٢) وردت فى الإسكوريال (المنتصر) . وهو تحريف ، وصوابه الحكم المستنصر .

مُلْك غرب الأندلس ، واستقام أمره ، إلى أن مضى بسبيله ، وأعقبه إبنه المظفّر محمد بن عبد الله ، وكان ملكا شهيرا عالما شجاعا أديبا ، وهو مؤلف الكتاب الكبير المسمى بالمظَفّرى ، فاستقامت أموره إلى أن ثوفى فقام بأمره ولده عمر هذا المترجم به .

حاله

قال ابن عبد الملك ، كان أديبا بارع الخطّ ، حافظا للغة ، جوادا ، راعيا حقوق بلده ، مُواخيا لهم ، مُحبّبا فيهم ، مرّت لهم معه أيام هُدنة وتفضُّل إلى حين القبض عليه .

وقال الفتح فى قلائده : ملك جنّد الكتائب والجنود ، وعقد الألوية والبنود ، وأمر الأيام فائتمرت ، وطافت بكَعْبته الآمال واعْتَمرت ، إلى لَسْن وفصاحة ، ورَحْب جناب للوافدين وساحة ، ونظم يُزْرى بالدّر النظيم ، ونثر تسرى رقته سُرى النسيم ، وأيام كأنها من حسنها جُمع ، وليال كان فيها على الأُنْس حضور ومجتمع ، راقت إشراقا وتبلُّجا ، وسالت مكارمه فيها أنهارا وخُلُجا ، إلى أن عادت الأيام عليه بعهود العُلوان ، ودبّت إليه دبيبها لصاحب الإيوان ، وانبرت إليه انبراءها لابن زهير وراء عمان .

شعره

بلغه أنه ذُكر فى مجلس المنصور يحيى أخيه بسوء ، فكتب إليه بمانصه

فما بالهم لا أنعم الله بالهم ... يَنيطون بى ذمّا وقد علموا فضلى

يسيئون لى فى القول جهلا وضَلّة ... وإنى لا أرجو أن يسيئهم فعلى

لئن كان حقا ما أذاعوه لامَشَتْ ... إلى غاية العلياء من بعدها رِجْلى

ولم ألق أضيافى بوجه طلاقة ... ولم أمنح العافين فى زمن المَحْل

وكيف وراحى درسٌ كلِّ غريبة ... وورد التُّقى شَمِّى وحرب العِدى نُقْلى
ولى خُلقٌ فى السخط كالشَّرى طعمه ... وعند الرِّضى أحلى جنًى من جنى النحل
فيا أيها السَّاق أخاه على النَّوى ... كؤوس القِلى مهلا رُوَيدك بالعلِّ
لنطفئ نارا أضرمت فى صدورنا[١] ... [فمثلى لَايقْلى ومثلك لا يُقْلى][٢]
وقد كنت تَشْكينى إذا جئت شاكيا ... فقل لى لمن أشكو صَنيعك بى قل لى
فبادر إلى الأُولى وإلا فإنـنى ... سأشكوك يوم الحَشْر للحكَم العدل

وكتب جوابا لأبى محمد بن عبدون مع مركوب عن أبيات ثبتت فى القلايد :

بعثت إليك جَناحا فَطِر ... على خِفْية من عيون البَشَر
على ذُلُل من نتاج البروق ... فى ظِل من نسيج الشَّجر
فحَسْبِىَ ممَّن نأى ومن دنا ... فمن غاب كان كمن قد حَضَر

قال الفتح ، أخبرنى الوزير أبو أيوب بن أمية ، أنه مرَّ فى بعض أيامه بروض مُفْتَر المباسم ، معطر الرياح[٣] النواسم ، فارتاح إلى الكَوْن به بقيَّة نهاره ، والتَّنعُّم ببَنفْسجه وبَهاره . فلما حصل من أُنْسه فى وسط المدى، عمد إلى ورقة كرنب قد بلَّلها النَّدى ، وكتب فيها بطرف غُصْن ، يستدعى الوزير أبا طالب [بن غانم] أحد ندمائه ، ونجوم سمائه :

أقبِل أبا طـالب إلينـــا ... [واسْقُط سقوط النَّدى علينا][٤]

(١) هكذا وردت فى قلائد العقبان . ووردت فى الإسكوريال (بنفوسنا) .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . وقد وردت فى القلائد على النحو الآتى (فثلك لا يقلى ومثلى لا يقلى) .

(٣) هذه الكلمة واردة فى القلائد وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا وردت هذه الشطرة فى الاسكوريال . ووردت فى القلائد كالآتى (وقع وقوع الندى علينا) .

فنحن عِقْد بغيــر وسْطى ما لم تكن حاضراً لَدَيْنــا

نثره

وهو أشَفُّ من شعره ، وإنَّه لطَبَقة تتقاصر عنها[1] أفذاذ الكتاب ، ونهاية من نهاية الآداب ، قال ، كان ليلة مع خواصه للأنس مُعاطيا ، ولمجلس كالشمس واطيا ، قد تفرَّغ للسُّرور ، وتفرغ عيشا كالأمل المَزْرور ، والمُنى قد أفصحت وِرْقُها ، وأومض بَرْقُها ، والسَّعد تَطْلع مَخايله ، والملك يبلو زهوْه وتخايُله ، إذ ورد عليه كتاب بدخول أُشْبُونة فى طاعته ، وانتظامها فى سِلْك جماعته ، فزاد فى مسرَّته ، وبَسَط من أسِرَّته وأقبل خُدَّامه ، وأسْبَل نداه على جُلسائه ونُدَّامه ، فقال له ابن خِيرة ، وكان يُدلُّ بالشباب ، وينزل منه مَنْزلة الأحباب ، لمن تُولِّيها ، ومن يكون واليها ، فقال له ، أنت ، فقال فاكتب الآن[2] بذلك ، فاستدعى الدواة والرَّق ، وكتب وما جفَّ له قلم ، ولا توقَّف له كَلِم : لم يُسَوِّغ أولياءُ النِّعم ، مثل الذى سُوِّغتموه من التزام الطاعة ، والدخول فى نَهْج الجماعة ، وذلك لا آلوكم [ونفسى فيكم][3] نُصحا فيمن أتخيَّره ، للنيابة عنى فى تدبيركم ، والقيام بالدَّقيق والجليل من أموركم ، وقد ولَّيت عليكم ، من لم أوثر [والله][4] فيه دواعى التَّقريب ، على بواعث التَّجريب ، ولا فَوات التَّخصص ، على لوازم التَّمحيص ، وهو [الوزير][5] القائد أبو عبد الله بن خيرة ، ابنى دُرْبة ، وبعضى صُحبة ، ونشأتى سكَّة

---

(١) وردت فى الإسكوريال (افراد) . ونعتقد أن التصويب أرجح بالنسبة للمعنى .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى القلائد (لى) .

(٣) هذه الزيادة من القلائد .

(٤) الزيادة من القلائد .

(٥) الزيادة من القلائد .

وقَرْبة ، وقد رسمت له من وجوه الذّب والحماية ، ومعالم الرِّفق والرِّعاية ، ما التزم الاستيفاء بعَهْده[١] ، والوقوف بجدِّه عند حده[٢] ، والمسؤول فى عَوْنه من لا عون إلا من عنده ، ولن أعرِّفكم من حميد خصاله ، وسديد فعاله ، إلا بما سيَبْدو للعيان ، ويزكو مع الامتحان . ويفشو[٣] من قبلكم إن شاء الله على كل لسان ، وقد حدَّدت له أن يكون لناشئكم أباً ولكهلكم أخاً . ولذى النفوس والكبرة إبناً ، ما أعَنْتُموه على هذا المُراد ، ولزوم الجواد ، ورُكوب الانقياد . وأما من شق العصا ، وبان عن الطاعة ، وظهر منه المراد والهوى ، فهو القَصىُّ منه ، وإن مَتَّ إليه بالرَّحم الدُّنيا ، فكونوا خير رعيَّة ، بالسمع والطاعة فى جميع الأحوال ، يَكُن لكم بالبرِّ والموالاة خيرَ وال [إن شاء الله عز وجل][٤] .

وصوله إلى غرناطة

وصَلها صُحبة حليفه ابن عباد ، لما قبض يوسف بن تاشفين على صاحبها ونزل بالمشيجة من خارجها فى رجب من عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة ورابهما الأمر ، كما تقدم فى ذكر المعتمد بن عباد ، فتعجَّلا الرجوع إلى وطنهما بحيلة دبَّراها.

نكبته ووفاته

ولما اشتدَّ خوفه من أمير لمتونة ، ورأى أنه أُسْوَة ابن عباد فى الخلع عن مُلْكه ، وضَيَّقت الخيل على أطرافه وانتزعتها ، داخل طاغية الرُّوم ، وملَّكه من مدينة الأُشْبُونة ، رغبة فى دفاعه عنه ، فاستَوْحشت لذلك رعيَّته ،

(١) هكذا فى القلائد . وفى الإسكوريال (بجده) .

(٢) هكذا فى القلائد . وفى الإسكوريال (جهده) .

(٣) هكذا فى القلائد . وفى الإسكوريال (ويفشى) .

(٤) هذه الزيادة من القلائد .

وراسلت اللّمتونيين، واقتحمت عليه مدينة بَطَلْيوس، واعتصم بالقَصَبة، وخانه المُحاربة ، فدُخلت عليه عَنْوةً ، وتُقُبِّض عليه وعلى بنيه وعبيده ، وتحصّلوا فى ثقاف قائد الجيش اللّمتونى . وبادر إعلام الأمير سير بن أبى بكر ، فلحق بها . واستخرج ما كان عند المتوكل من المال والذّخيرة ، وأزْعَجه إلى إشبيلية مع إبْنين له ، فلما تجاوز وبعد عن حضرته ، أنزله وقيل له تأهب للموت ، فسأل أن يقدم ابناه يَحْتَسبهما عند الله ، فكان ذلك ، وقُتلا صبراً بين يديه ، ثم ضُرب عنقه ، وذلك صدر سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، وانقرضت دولة بنى الأفطس .

وممن رثاهم ، فبلغ الأمد وفاءً وشهرة وإجادة ، أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون[1] بقصيدته الفريدة :

الدّهر يفجع بعد العَيْن بالأثــر | فما البُكاءُ على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلُوك موعظة [2] | عن نومةٍ بين ناب اللّيث والظّفر
فالدهر حربٌ وإن أبدى مُسالمة | والبيضُ والسُّمر مثل البيض والسمر
ولا هَوادة بين الرأس تأخـذه | يد الضرّاب وبين الصّارم الذّكر
فلا تَغُرَّنك من دُنيـاك نومتهـا | فما صناعةُ عينيها سوى السّهر
ما لليالى أقـال الله عثرتنـــا | من اللّيـالى وخانتها يد الغِير
فى كل حين لها فى كل جـارحة | منّا جِـراح وإن زاغَت عن البصر
تُسرُّ بالشيء لـكن تغرّبَــه | كالأيم ثار إلى الجانى من الزّهر

---

(١) هو الفقيه والكاتب والشاعر الكبير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون وزير بنى الأفطس وكاتب دولتهم. وأصله من يابرة من أعمال البرتغال . وقد ترك لنا رسالته الشهيرة من «القضاء والحسبة» وفيها يقدم إلينا صوراً هامة عن شئون القضاء والحسبة فى عصره - عصر الطوائف - وعن مجتمع الطوائف ، يبدو فيه روح النقد والتشاؤم وقد توفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والمعجب . وفى القلائد (معذرة)

كم دولة وُلِّيت بالنصر خدمتُها ... لم تُبْق منها وسَلْ ذكراك من خبر
هَوَتْ بِدارا وفلَّت غرب قاتله ... وكانت غَضْبا على الأملاك ذا أثر
واستَرْجعت من بنى ساسان ما وَهَبت ... ولم تَدَعْ لبنى يُونان من أثر
وأتْبَعت[1] أختها طسّما وعاد على ... عادٍ وجرهم منها ناقص المِرَر
وما أقالَتْ ذوى الهيئات من يمن ... ولا أجَارَتْ ذوى الغايات من مُضر
ومزّقت سبأً فى كل قاصية ... فما التقى رائحٌ منهم بمبتكر
وأنفذت فى كُلَيب حكمها ورَمَت ... مُهلهلا بين سَمْع الأرض والبَصَر
ولم تردّ على الضِّليل صحته ... ولا ثَنَتْ أسَدا عن ربِّها حُجر
ودوَّخت آل ذبيان وإخوتهم ... عَبْساً وعضّت بنى بدر على النهر
وألحقت بعَدِىّ بالعراق على ... يد ابْنه أحمر العينين والشَّعر
[وأهلكت أبْرويزا بابنه وَرَمَت ... بيزْدجِرد إلى مَرْوٍ فلم يحر][2]
وأشرفت بحبيب فوق قارعة ... والحقت[3] طلحة الفياض بالعَفَر
ومزّقت جعفرا بالبيض واختلست ... من غيلة حمزة الظّلام للجُزر
وبلّغت يزدجرد الصِّين واختزلت ... عنه سوى الفُرْس جَمْع الترك والخَزر
ولم ترد مواضى رُسْتم وقنا ... ذى حاجب عنه سَعْدا[4] فى ابنة الغير
وخضَّبت شَيْب عثمان دما وخَطَّت ... إلى الزبير ولم تستحى من عمر
وما رَعَتْ لأبى اليقظان صحبته ... ولم تزوده إلا الضَّيح فى الغمر
وأجْزَرَت سيف أشقاها أبا حسن ... وأمكنت من حسين راحتَى شمْر
وليتها إذ فَدَتْ عَمْرًا بخارجة ... فدت عليًّا بمن شاءت من البشر

---

(١) كذا فى الإسكوريال والقلائد . وفى المعجب (والحقت) .
(٢) هذا البيت وارد فى المعجب وساقط فى القلائد والإسكوريال .
(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى القلائد والمعجب (والصقت)
(٤) هكذا فى الإسكوريال والمعجب . وفى القلائد (سمعا) .

وفى ابن هند وفى ابن المصطفى حسن .أتت بمعضلة الألباب والفكر
فبعضنا قائل ما اغتاله أحد وبعضُنا ساكت لم يُؤْت من حَصَر
وعمّت بالرّدى(١) فَوْدَى أبى أَنَس ولم تردّ الرّدى عنه قَنا زُفَر
وأردت ابن زياد بالحسين فلم يَبُؤ بشسع له قد طاح أو ظَفَر
وأنزَلت مُصعبا من رأس شاهقة كانت بها مهْجة المختار فى وَزَر
ولم تراقب مكان ابن الزُّبير ولا [راعت عياذته بالبيت والحجَر](٢)
[ولم تَدَعْ لأبى الزّيان قاضبة ليس اللّطيم لها عمرو بمنتصر
وأظْفَرَت بالوليد بن اليزيد ولم تُبق الخلافة بين الكاس والوَتَر
حُبابة حبّ رمّان ألمّ بها وأحمر قطرته نَفْحة القَطْر](٣)
ولم تعد قُضُب السّفاح نابية عن رأس مروان أو أشياعه الفُجُر
وأسْبلَت دمعة الروح الأمين على دم يثج(٤) لآل المصطفى هدر
وأشْرَقت جعفراً والفضلُ ينظره والشيخ يحيى بريق الصّارم الذّكر
وأخْفَرت فى الأمين العَهْدوانتدبت لجعفر بابنه بالأعبد الغدر
وروّعت كل مأْمون ومؤْتَمَن وأسلمت كل منصور ومنْتصر
وأعثرت آل عبّاس لعالهم بذيل زبّاء من بيض ومن سُمر
ولا وَفَت بعهود المستعين ولا بما تأكّد للمعتز من مِرَر
وأوثقت فى عُراها كل مُعْتَمد وأشرقت بقذاها كل مُقْتَدر
بنى المظفر والأيام [ما برحت](٥) مراحل والوَرى منها على سَفَر

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والقلايد . وفى المعجب (بالظبى) .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى القلايد والمعجب . ووردت فى الإسكوريال (ولم تبق الخلافة بين الكاس والوتر) وهى شطرة بيت آخر يأتى بعد .

(٣) هذه الأبيات الثلاثة ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى القلايد والمعجب .

(٤) هكذا وردت فى القلايد . وفى الإسكوريال والمعجب (بفخ) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال والقلايد . وفى المعجب (لا نزلت) .

سحقًا ليومكم يوما وما حملت — بمثله ليلة [في سالف العُمُر] (١)
من للأسرَّة أو من للأعنَّـة أو — من للأسِنَّة يهديها إلى الثُّغر
من لليَراعة أو من للبَراعة أو — من للسَّماحة أو للنَّفع والضَّرر
من للظبيِّ (٢) وعوالي الخطِّ قد عُقدت — أطرافُ ألسُنها بالعِيِّ والحَصَـر
وطوَّقت بالمنايا السُّود بيضَهم — أعْجِب بذاك وما منها سوى ذِكَر
أو رَفْعُ كارثة أو دَفْعُ حـادثة — أو قمع آزفةٍ تُعيي على القدَر (٣)
ويْحُ السَّماح وويح الجود (٤) لو سَلِما — وحَسْرة الدِّين والدُّنيـا على عمر
سَقَتْ ثرى الفضل والعباس هامية — تُعزى إليهم سماحاً لا إلى المطَر
ثلاثة ما ارتقى النَّسران حيث رقوا — وكلُّ ما طار من نِسْرٍ ولم يَطِر
ثلاثة كذوات الدهر منذ نـأوا — عنى مضَى الدهر لم يُربع ولم يحر (٥)
ومرَّ من كُل شيء فيه أطيبُـه — حتى التمتع بالآصـال والبُكُر
من للجلال (٦) الذى عمَّت مهابته — قلوبنا (٧) وعيون الأنجم الزهر
أين الإباء الذى أرْسَوا قواعده — على دعائم من عزٍّ ومن ظَفَـر
أين الوفاء الذى أصْفَوا شرائعه — فلم يَرِد أحد منهم على كَدَر
كانوا رواسي أرض الله منذ نـأوا (٨) — عنها استَطارت بمن فيها ولم تقر

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال [illegible] وفى القلائد (فى مقتبل العمر) وفى المعجب (فى غابر العمر) .

(٢) هكذا وردت فى القلائد والمعجب . وفى الإسكوريال ([illegible]) .

(٣) هكذا ورد هذا البيت فى الإسكوريال . وورد فى المعجب والقلائد كالآتى (أو رفع كارثة أو ردع رادفة أو قمع حادثة تعين على القدر) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى القلائد والمعجب (الباس) .

(٥) ورد هذا البيت فى المعجب ، ولم يرد فى الإسكوريال ولا القلائد .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال والقلائد . وفى المعجب (أين الجلال) .

(٧) هكذا وردت فى القلائد والمعجب . وفى الإسكوريال (عيوننا) .

(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال والقلائد . وفى المعجب (مضوا) .

كانوا مصابيحها دهراً فمذ خَبُوا[1] هذى الخليقة تالله فى سَدَر[2]
كانوا شَجَى الدهر فاستهوتهم خدع منه بأحلام عادٍ فى خُطا الخَضْر
من لى ولا من بهم إن أظلمت نُوَب ولم يكن لَيْلُها يفضى إلى سَحَر
من لى ولا من بهم إن طبقت[3] محن ولم يكن ورودها يُفضى[4] إلى صَدَر
من لى ولا من بهم إن عُطِّلت سُنن وأُخفِيت ألْسُن الآثار[5] والسِّير
ويلُمْه من طَلُوب الثأر مُدْركه لو كان ديناً على الأيام ذى عَسَر
على الفضائل إلا الصَّبر بعدهم تسليم[6] مُرْتَقِب للأجر منتظر
يرجو عسى وله فى أختها طمع[7] والدهر ذو عُقَب شتى وذو غِيَر
قَرَّطْت آذان من فيهـا بفاضحة على الحِسان حَصَى الياقوت والدُّرر
[سيارة فى أقاصى الأرض قاطعة شَقَاشِقًا هَدَرت فى البَدْو والحَضَر
مُطاعة الأمر فى الباب قـاضيةً من المسامع مالم يُقْض من وَطَر][8]

ومن الغـرباء

عثمن بن عبد الرحمن بن يحيى بن يَغْمَراسن

الدّايل بتِلمسان ، يكنى أبا سعيد .

حاله

(١) هكذا وردت هذه الشطره فى الإسكوريال ، ووردت فى القلايد والمعجب كالآتى (كانوا مصابيحها فذ خبوا غبرت – عثرت) .

(٢) هكذا وردت فى المعجب . وفى الإسكوريال والقلايد (سرر) والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والمعجب . وفى القلايد (اطنبت) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والقلايد . وفى المعجب (يدعو)

(٥) هكذا وردت فى القلايد والمعجب ، وفى الإسكوريال (الأيام) .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى القلايد والمعجب (سلام) .

(٧) هكذا وردت فى الإسكوريال والقلايد . وفى المعجب (أمل) .

(٨) هذان البيتان الختاميان وردا فقط فى المعجب . ولم يردا فى الإسكوريال ولا فى القلايد .

كان شيخاً مَخِيلا بسِمة الخير ، متظاهرا بالنَّسَف ، بقية آل زيّان ، متقدِّما فى باب الدهاءِ والذِّكر ، بالغا أَقصى المبالغ فى ذلك . سكن غرناطة ووادى آش ، ووُلد بغرناطة . وكان أبوه ممن هلك فى وقيعة فُرْتونة ، فارتزق مع الجند الغربى بديوانها فى حِجر أبيه وبعده ، ثم ثَنى عِنانه إلى وطنه ، وتخطَّته المتالف عند تغلُّب السلطان صاحب المغرب على بلده تلمسان ، وغاص فى عِرْض من تَهنَّأَ الإبقاءَ من قبيله . وكان ممن شمله حصار الجزيرة ، ووصل قبله ممدًّا مع الجيش الغربى بجيش غرناطة عند مُنازلة القلعة . ولما جرت على واتِرهم السلطان أبى الحسن الهزيمة بظاهر القَيْرُوان ، وبَعُد الطمع فى انتِشاله وجَبْره ، ولحق كل بوطنه ، حوم الفلُّ من بنى زيَّان على ضعفهم ، ومذ رحل عنه السلطان القايم بمُلْك المغرب أبو عنان ، إلى محل الأمر ودار الملك ، وسدَّ تلمسان بشيخ من قبيلهم يعرف بابن حرار ، له شهرة وانتفاخ لتنسيق رياح الاختلاف ، فذ فى إدارة الحيلة ، وإحالة قِداح السياسة ، رأس الرَّكب الحجازى غير ما مرة ، وحلَّ من الملوك ألطف محلَّة . ولما نَهَد القوم إلى تلمسان ، ناهضهم ابن الحرار بمن استَرْكب من جنده ، وانضم إليه من قومه ، فدارت عليهم الهزيمة ، وأُحِيط به ، فتُمُلِّك البلد ، وتُحصِّل فى الثِّقاف ، إلى أن هلك به مُعْتالا ، واستولى عثمن بن يحيى على المدينة ، وانقاد إليه ما يرجع إليها من البلاد والقبايل ، فثاب لهم مُلْكٌ لم تكد شُعْلته تَقِد حتى خَبَتْ ، وعلى ذلك فبلغوا فى الزمان القريب ، من وفور العُدَّة ، واستجادة الآلة ، وحُسن السِّيرة ، ما يقضى منه العجب . وانفرد عثمن بالأمر ، وعيَّن أخاه أبا ثابت الزعيم إلى إمارة الجيش ، فاستقام الصفُّ ، وانضم النَّشر ، وترتَّبت الألقاب ، واستأنفوا الدولة ، وتلقَّفوا الكُرَة ،

وقلّ ما أدْبَر شيءٌ فأقبل . وبادر السلطان بالأندلس مُفاتحته مهنّيا ، وللحِلْف مجدّدا ، بكتاب من إنشائى من فصوله :

« بعد الصّدر والتحميد ، ولا زايد بفضل الله المرجو فى الشّدايد ، لجميل العوايد ، إلا ما شرح الصدور ، وأكّد السرور ، وبَسَط النفوس ، وأضحك الرّسَن العَبوس ، من اتّساق أمور ذلك المُلْك لديكم ، واجتماع كلمته عليكم ، وما تعرّفنا أن الدولة الزّيانيّة ، وصل الله لبُدورها استيناف الكمال ، وأعلى أعلامها فى هضاب اليُمن والإقبال ، تذكّرت الرسايل القديمة والأذمّة ، وألقت إلى قومها بالأزمّة ، وحَنّت إلى عهدهم على طول النّوى ، وأنشد لسان حالها ، « نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى » ، فأصبح شَتِيتُك بأهلها مجموعا ، وعَلَمُ عَلْيَائها بأيدى أوليائها مرفوعا ، وملابس اعْتِزازها بعد ابْتِزازها جديدة ، وظِلال سُعودها على أغوارها ونُجُودها مديدة ، وَقبيلها قد أنجح الله فى ائتلافه أمَلَ الآمل ، ومُبْتداها مرفوعا مع وجود العوامل ، والكثير من أوطانها قد سَلكت مسلكها فى الطاعة ، وتبادرت إلى اسْتِباق فضيلة الوفاق بحَسَب الاستطاعة ، فعظُم الاسْتِبشار بأن كان لكم مالها ، وفى إيالتكم انْتِيالها ، من غير أن يَعْلَق بأسبابها من ليس من أربابها ، ويطمع فى اكْتِسابها من لم يكن فى حِسابها . وقلنا مُوارث وَجَب ، وعاصِب حَجَب ، ورَكْبٌ عَلَج من بعد القُفول ، وشمس طَلَعَت من بعد الأُفول ، وجيد حُلِّ بعد ما اشتكى العَطَل ، وغريم قضى بعد ما مَطَل ، وطِرْفٌ تنبّه بعد ما سَجَع ، ودُرّىٌّ استقام سيره عقب ما رجع ، وقضية انصرف دليلُها عن حدود القواطع، وطُرحت عليه أشعة السُّعود السّواطع ، لا بل عَبْدٌ أبَق لقَدَرٍ سَبَق ، حتى إذا راجع نهاه ، وعَذله العقل ونهاه ، جَنح بعد هجره ، إلى كنف من نشأ فى حِجره . وعلمنا أن الدولة التى

عَرَفْنا مكارمها ، قد دالَتْ ، والغمامة التى شكرنا مَواقعها قد انثالت ، فجرينا فى المسرَّة ملء الأعِنَّة ، وشاركنا فى شكر هذه المنَّة ، وأصْدَرنا إليكم هذا الخطاب مُهَنِّياً ، وعن الود الكريم والولاء الصَّميم مُنْبيا ، وفى تعزيز ما بين الأسلاف ، جدَّد الله عليهم ملابس الرِّضوان مُعيدا مُبديا ، وإن تأخَّر منه الغرض ، وقضى بهذا العهد واجبه المُفْترض ، والأعْذار واضحة ، وأدِلَّتها راجحة ، وللضرار أحكام تُمْضى ، والفروض للفَوات تُقْضى ، فكيف والاعتقاد الجميل مُسَيَّر مُسَكَّن ، والوقت والحمد لله مُتمكن ، وما برحنا فى مناط اجتهاد ، وترجيح استشهاد ، والأخبار يَضْطرد مفهومُها ، والألفاظ لا يتخصَّص عمومها ، والأحاديث يجول فى مُتَعَارَضها النَّظر ، ولا يلزم العمل ما لم يصحَّ الخبر . فلما تحققنا الأمر من قَصِّه ، وتعاضد قياسه بنصِّه ، لم نُقَدِّم على المبادرة عملا ، وبيَّنا لكم من حسن اعتقادنا ما كان مُجْملا ، فَلْيَهْنُ تلك الإيالة ما استأنفته من شبابها ، وتَسَرْبلته من جديد أثوابها ، وليَسْتَقبل العيش خَضِراً ، والدهر مُعْتذرا ، والسَّعد مُسْفِرا » .

وتمادى مُلْكه من الثامن والعشرين لجمادى الآخرة من عام تسعة وأربعين وسبعماية إلى أن اسْتَوسق مُلْك المغرب للسلطان أبى عنان ، واستأثر إليه أبيُّه ، وتحرك إلى مُنازلة تلمسان فى جمادى الآخرة عام ثلاثة وخمسين وسبعماية ، وكَسَر جَمْعهم ، واستولى على ملكهم حسبما يأتى ،وبَرَز إليه سلطانها المذكور ، مؤثرا الإصْحار على الاجْتِحار ، واللقاء على الانْحِصار ، وكانت بين الفريقين حرب ضَروس ، ناشَب الزَّيَّانيون محلَّات المغرب القتال ، بموضع يُعرف بإنكاد ، على حين غفلة ، وبين يَدَىْ شروع فى تنقُّل وسكون ، وتفرُّقٍ من الحامية فى ابتـ د الخَلا ، وابتغاء الماء ، فلم يَرُع الا إطلال الرَّايات ، وطلوع نواصى الخيل ، فوقع الصراخ ، وعلا النِّداء ، وارتفع القَتام ،

وبادر السلطان بمن معه من الخالِصة ، وروَّم الركاب الصَّدمة ، ومضى قُدُماً ، وقد طاش الخبر بهزيمته ، فعاثَتْ العُربان فى محلَّته ، وكانوا على الأَموال أعدى من عدوِّه ، وفرَّ الكثير إلى جهة المغرب بسوءِ الأُحدوثة.

ولما تقاربت الوجوه ، وصدق المُصاع ، قذف الله فى قلوب الزيَّانيين الرُّعب ، واستولى عليهم الإدْبار ، فانهزموا أقبح هزيمة ، وتفرقوا شَذَر مَذَر ، واختفى سلطانُهم عثمن المترجم به ، وذهب متنكرا وقد ترجَّل ، فعُثر عليه من الغد ، وأُوتى به فشدَّ وثاقه ، وأسرع السلطان اللَّحاق بتلمسان ، وقد تلقاه أهلها مُعلنين بطاعته . ولا ئِذين بجناب عَفْوه ، وتنكَّبها الجيش المَفْلول ، لنظر الأَمير أبى ثابت ، فاستقرَّ بأَحواز جزاير بنى مَزْغَناى[1] . ودخل السلطان تلمسان فى يوم الأَحد ، الحادى عشر من ربيع الأَول عام ثلاثة وخمسين وسبعماية ، وتدامر بنومرين[2] ، واستَدْركوا دَحْض الوصمة فى اتِّباع أضدادهم المحروبين ، فكان اللقاء بينهم ، وبين الجيش المفلول وحَكَم الله باستِيصالهم ، فمضى عليهم السيف ، وأُوتى بزعيمهم الزعيم ، فاحتمل مع أخيه فى لُمَّة من أوليائهم ، ونفذ الأَمر لأَقْتالهم من بنى حرار بأَخذ حتمهم ، فقُتل عثمن والزَّعيم رحمهما الله بخارج تلمسان ذَبْحًا ، وأُلحق بهما عميد الدَّولة يحيى بن داود ، بعد أن استُحضر عثمن بين يدى السلطان ، وأُسمع تأْنيبا ، حَسُن عنه جوابه ، بما دلَّ على ثباتٍ وصبر . وانقضى أمر كرَّتهم الثانية ، وخَلَتْ منهم الأَوطان ، وخَلُصت لبنى مرين الجِهة ، وصَفَتْ العِمالة . والله يعطى مُلْكه من شاء سبحانه لا إلٰه إلاَّ هو ،

---

(١) جزائر بنى مزغناى هو الاسم القديم الذى كان يطلق على مدينة الجزائر الحالية ، وذلك باسم القبيلة التى كانت تنزل بها (بنو مزغناى) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (بنو مروان) . ومن الواضح أن هذا تحريف ، وأن المقصود هو (بنو مرين) حسبما يبدو ذلك جلياً من اضطراد النص .

وكان مقتل عثمن وأخيه فى أوايل شهر ربيع الآخر عام ثلاثة وخمسين وسبعماية .

على بن حمود بن ميمون بن حمود بن على بن عبيد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن على بن أبى طالب

أوّل ملوك بنى هاشم بالأندلس ، يكنى أبا الحسن ، ويلقّب من الألقاب السلطانية ، بالناصر لدين الله.

حاله

كان شهما لبيباً ، جَرىء اللقاء ، باطش السَّيف ، شديد السَّطوة ، أسمر ، أعْيَن ، نَحيف الجسم ، طويل القامة ، حادّ الذهن ، من أولى الحزم والعزم .

خلافته

ذكروا أن هشام بن الحكم ، لما ضُيِّق به الحَجْر ، كتب إليه فى السِّر بعَهْد ولايته ، وأهَّله للأخذ بثاره ، فكان كذلك ، وأجاز البحر من سَبْتة ، مظهرا القيام بنَصْر هشام عندما خُلع ، فانحاش إليه كثير من الناس ، وقصد قرطبة ، وبَرَز إليه الخليفة سليمن خالعُ هشام ومُغتاله ، فظهر عليه على بن حَمُّود وهزمه ، ودخل قرطبة ، فقَتل سليمن ، وبحث عن هشام ، وقد فات فيه الأمر ، وتسمَّى بأمير المؤمنين . وأنِس به أهل قرطبة ، لقَهْره من كان لنَظَرِه من البرابرة ، وإمضاء الأحكام عليهم . قال المؤرخ ، فبَرَقَتْ للعدل يومئذ بارقة ، لم تَكِد تَقِد حتى خَبَتْ . وكان الأغلب عليه السَّخاءُ والشجاعة .

ومدحه الكثير من الشعراء ، منهم أبو عمر[١] بن درّاج ، وفيه يقول :

لعلّك يا شمس عند الأصيل تَحِنّ بشَجْو الغريب الذّليل
فكونى شَفيعى إلى أين الشفيع وكونى رسولى إلى أين الرسول
فأما شهدّتِ فأزكى شهيد وأما دَلَلت فأهدى دليل
إلى الهاشمى إلى الطّالبى إلى الفاطمى العَطُوف الوَصُول

وصوله إلى إلبيرة

قال ، ولما استْوسق الأمر ، واضطرب عليه خيْران صاحب ألمرية ، أغراه وأذن لحربه ، فخرج من قرطبة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربع ماية ، وسار إلى أن بلغ وادى آش ، وترادَفت عليه الأمطار والسُّيول ، وانصرف إلى إلبيرة ثم إلى قرطبة .

وفاته

قال المؤرخ ، وفى سنة ثمان وأربعماية كان مَقتل على بن حمّود ، وذلك أن صَقالِبَته قتلُوه بموضع أمْنِه . فى حمام قصره ، وكانوا ثلاثة من أغمار[٢] صبيان قصْره ، منهم نُجح وصاحباه ، وسدّوا باب الحمام عليه ، وتسللوا ، ولم يَحس أحدٌ بهم ، واستطال نساؤه بقاءه ، فدخلوا عليه ، ودمُه يسيل فصح خبر مقتله ، وبعَثت زناتة إلى أخيه بإشبيلية ، فخاف أن يكون حيلة ، حتى كَشف عن الأمر ، ولحِق بقرطبة ، فأخرج جَسَده ، وصلى عليه ، وأنفذه إلى سَبْتة ، فدفن بها ، وبُنى عليه مسجد هو الآن بسوق الكتان ، وقبض من قاتليه على صَبِيين عُذّبا بأنواع العذاب ، ثم قُتلا وصُلبا .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (أبو عمرو) . والصواب ما أثبتناه .

(٢) وردت فى الإسكوريال (أعمار) . والتصويب أنسب للسياق .

على بن يوسف بن تاشفين بن توحرت(١)

وينظر اتصال نسبه فى اسم أبيه .

هو أمير المسلمين بالعُدْوة والأندلس بعد أبيه ، يكنى أبا الحسن ، تصير إليه الملك بالعهد من أبيه عام سبعة وتسعين وأربعمائة (٢) ، ثم ولى أمره يوم وفاته وهو يوم الإثنين مستهل محرم عام خمسماية .

حاله

وكان ملكا عظيما عالى الهمة رفيع القدر ، فسيح المعرفة شهير الحلم ، عظيم السياسة ، أنفذ الحق ، واستظهر بالأزكياء ، ووالى الغزو ، وسدّ الثغور ، إلى أن دهمه من أمر الدولة الموحدية ما دهمه ، وكل شيء إلى مدى ، فأمهل السّرح ، وحالف الإدبار ، وجاز إلى الأندلس ، وغزا فيها بنفسه ، ودخل غرناطة وباشرها .

قال ابن عذارى ، تقدم الأمير أبو الحسن لذلك فاستعان بالله واستنجده وسأله حسن الكفاية فيما قلّده ، فوجده ملكاً مؤسّساً ، وجُندا مُجنَّداً ، وسلطانا قاهرا ، ومالا وافرا ، فاقتفى إثر أبيه ، وسلك سبيله ، فى عضد الحق ، وإنصاف المظلوم ، وأمن الخائف ، وقمع المظالم ، وسدّ الثغور ، ونكاية العدو ، فلم يعدم التوفيق فى أعماله والتسديد فى حسن أفعاله .

دخوله غرناطة

وفى سنة خمس وخمسماية ، جاز البحر إلى الجهاد . قال المؤرخ ، قدم

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نسبة يوسف بن تاشفين المعروفة لنا ، أنه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة بن أمية الحميرى الصنهاجى اللمتونى .

(٢) فى هذا التاريخ الذى يورده ابن الخطيب عن إصدار يوسف بن تاشفين ولاية عهده لابنه على شىء من التحريف . والصواب هو أن وثيقة تولية عهد يوسف لعلى ، صدرت بحضرة قرطبة فى شهر ذى الحجة سنة ٤٩٦ هـ .

علی بن یوسف غرناطة مرات مع أبيه . وفى سنة خمس وخمسماية تلوّم بها ريثما تلاحقت حشوده ، وتأهبت مُطوّعته وجنوده، فافتتح مدينة طَلْبيرة عنوة ثم عبر البحر عام أحد عشر وخمسماية ، فغزى قولمرية[1] .

ظهور الموحدين فى أيامه

قال ابن عذارى ، فى سنة أربع عشرة وخمسماية ، كان ابتداء أمر الثاير على الدولة ، الجالب للفتن الجمة ، الجارّ لها منذ ثلاثين سنة ، حتى أقفر المعمور ، وأصار الضياء كالديجور ، محمد بن تُرمَرت السوسى الملقّب بالمهدى . قلت ، وأخباره عجيبة ، ومازال أمره فى ظهور ، وأمر هذه الدولة ، فى تبار وإدبار ، إلى أن محا رسومها ، وقطع دابرها ، والمُلك لله ، يُؤتى الملك من يشاء ، ويَنزع الملك ممن يشاء ، سبحانه .

وفاته

قال ، وفى سنة سبع وثلاثين وخمسماية ، توفى أمير المسلمين على ابن يوسف ، لسبع خلون من رجب ، ولم يُشهر موته إلا لخمس خلون من شوال ، فكانت مدته من حين قدمه أبوه ، تسعا وثلاثين سنة وأشهرا . وعمره إحدى وستون سنة ، قال ابن حماد ، ولما يَئس من نفسه ، عهد أن يُدفن بين قبور المسلمين ، ودُفن بها فى جملتهم ، رحمه الله .

---

(٢) رسم هذه المدينة بهذه الصورة تحريف . وصوابه قلمورية أو قلمرية . وهى مدينة كبيرة تقع شمالى البرتغال . وقد غزاها على بن يوسف بنفسه وافتتحها عنوة فى صفر سنة ٥١١ هـ (يونيه ١١١٧م) وقد تبادلها المسلمون والنصارى مراراً . وبالبرتغالية « Coimbra » .

الأعيان والوزرا والأماثل والكبرا

عتيق بن زكريا بن موْل التجيبي

قرطبي الأصل ، يمتُّ إلى الإمارة النّصرية بقُربى صِهر ، يكنى أبا بكر .

حاله

كان شهما جريًّا مِقداما ، جَهْوريا ، ذا أنَفه وشارة ، مليح التجنُّد ، ظاهر الرُّجُولية ، معروف الحق ، نبيه الولاية ، فصيح اللسان ، مطبُّوعا ، ذكيا ، مؤثرا للفكاهة . وُلِّيَ القيادة بمدينة وادى آش ، عَقِب الريس المُنتزى بها ، ثم عُزل عنها بسعاية رُفعت فيه إلى ذى الوزارتين أبى عبد الله ابن الحكيم ، فساء ما بينهما لذلك ، وأعمل عليه التدبير ، بمداخلة الامير نصر ، وإغرايه بالأمر . فتم له التّوثُّب على ملك أخيه ، وخَلعِه يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعماية ، وقُتل الوزير ابن الحكيم بين يديه ، وانتُهبت منازله ، واستقل بعد بالتدبير والوزارة ، وحَصَل من صنايع الحاين ، ومتوقِّعي الضغط ، على مال عريض ، وقام بوظيف الوزارة محذور الشبا ، مرهوب المُدْية ، مسنُوّ الفتكة ، فلم يَنشَب أن عُين للرسالة إلى باب السلطان ملك المغرب ، وسُد باب الإياب لوجهته ، وأقام بالعُدْوة ، تحت الحُظوة ، مشارا إليه فى وجوه الدولة ، وزير المداخلة والرُّتبة . وقد كان فى ريان حداثته ، لحق بطاغية الرُّوم ، ورَكِب فى جُملته ، وعَلِقته جارية من بنات زعماء الروم ، لفضل جماله ، وزَيْن شبيبته ، ففرَّبها تحت حماية سيفه ، ولحق ببلاد المسلمين ، وكانت من أهل الاصالة والجمال ، فاتصل بمحلة أمير المسلمين أبى يوسف بن عبد الحق ، وقد

جاز إلى الاندلس غازيا . فاستخلصت منه لمزية الحُسن ، واستقرت بقصر السلطان ، حظيّة لطيفة المحل ، وجدّ أثر رِفدها وانتفع ، هو وبنوه بعايد جاهها ، وقد هلك السلطان . وقامت لمن خلفه مقام الأُمومة ، فنالوا بها دنيا عريضة ، وباشر بالمغرب أهوالا ، وخاض فى فِتَن ، إلى أن أسن ، وقيدته الكَبْرة ، واستولت على بَصَره الزمانة ، ولما وُلِّى الوزارة ولدُه على عهد سادس الأُمراء من بنى نصر ، استَقامه فى ربيع الثانى من عام تسعة وعشرين وسبعماية ، فقدم شيخا ، قد استَثن أديمه واحقَوقب ، ومَسْحةُ الظَّرف واللوذعية ، تتعلق منه بطَلَلٍ بايد . ثم اقتضى تقلُّص ظل الولاية عن ولده ، انصراف جميعهم إلى العُدْوة ، فكان ذلك فى رجب أو أول شعبان من العام ، وبها هلك .

وفاته

توفى بمدينة فاس رابع محرم عام ثلاثين وسبعماية . وكان كثيرا يتمثل بقول الشاعر :

نصحتُ فلم أفلح وخانوا فأفلحوا فانزلنى نُصحى بدار هــوان
فإن عشتُ لم أنصح وإن متُّ فالعنوا دون النصح من بعدى بكل لسان

أخبرنى بذلك شيخنا أبو الحسن بن الجياب وغيره .

عمر بن يحيى بن مُحلَّى البطّوى

يكنى أبا على .

حاله

كان يمتّ إلى السلطان ملك المغرب رحمه الله ، بالخؤولة ، وله جرأة

وجزم واضطلاع بالمهمة ، إلى نكراء وخفوف إلى الفتنة ، واستسهال العظيمة ، ولما تصيرت مالقة إلى إيالة السلطان أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق من قبل رؤسائها من بني إشقيلولة ، استظهر عليها من عمر هذا بحجاج رجاله ، وقدمه بقصبتها ، وجعل لنظره جيشا أخشن ، يقوده رجل من كبار ضفانه . وداخل السلطان ثاني الملوك من آل نصر ، عمر بن محلي هذا بوساطة أخيه طلحة السابق إلى إيالته ، فأحكم بينهما صرف مالقة إليه ، وانتقال عمر إلى خدمته ، معوضا عن ذلك بمال له بال ، مسلما إليه حصن شلوبانية[1] ، ولأخيه طلحة مدينة المنكب[1] ، على أرزاق مقررة ، وأحوال مرتبة مقدرة . فتم ذلك ، وتحمل ثقات السلطان بقصبة مالقة ليلا مع عمر ، واستدعى للغداة قايد الجيش ومثله من الوجوه ، مورياً بمعارضتهم ، فسقط الغشاء بهم على سرحان ، وأخذهم اعتقاله ، رهينة استخلص بها من كان من عياله بالعدوة ، وجاء بها جلواة عارية ، أعربت عن لؤمه وخبث أمانته ، وانتقل له موفى له بعهده ، فحل بحصن شلوبانية منتصف عام سبعة وستين وسبعماية ، حسبما كتب لى بعض الشيوخ من مسني بقية أهله ، واحتل أخوه طلحة بمدينة المنكب ، ولم يلبث أن خرج عنها للسلطان معوضاً بالمال ، وأعمل الانصراف إلى الحج. وأقام عمر بشلوبانية وما يليها من العمالة ، مظهراً للطاعة تمام العام المذكور ، وفسد ما بينه وبين السلطان المذكور ، وظهر الخلاف وأخيفت الطرق ، وتحرك السلطان إلى منازلته لأشهر ثلاثة من خلافه ، وحاصره أياما شد فيها مخنقه ، فلما رأى عزمه ، خاطب سلطانه ، الذى نزع عنه

---

(١) سبق التعريف بشلوبانية «Salobreña» (المجلد الأول ص ١١٢ حاشية) وكذلك بالمنكب « Almuñecar » (المجلد الأول ص ٥١٠ حاشية).

أمير المسلمين أبا يوسف ، وعرض الحصن عليه، فبادر إليه بالأُسطول ، فلما احتل عمر حصنه ، واتصلت به يده ، ونُشرت عنده بُنوده ، أفرج عنه السلطان ، وانبت طمعُه فيه ، وصرف وجْهَه إلى حَضرته ، وبدا لعُمَر فى أمره ، فصرف الأُسطول متعلِّلا ببعض الأعذار ، وأقام على سبيله ، واتصل ذلك بالسلطان ، فرتب عليه الحصن ، وضيق السُّبل ، وتحرك فى صايفة العام إلى مُنازلته فى عُدَّة عظيمة ، وحاصره ورماه بالمجانيق ، وتتبع بها مجاثمه ، فأعياه الصبر ، وأعمل الحيلة بإظهار الإنابة ، وعرض على السلطان التخلِّى عن الحصن ، وطلب منه أن يُوجه لقبضه وزيره ، وأحْظَى الرؤساء لديه ، وصاحب بَنده ، فوجههم السلطان فى طايفة من حاشيتهم ، وقد أكمن لهم عمر بمعرجات الطريق، بين يدى باب القلعة . فلما توسطوا الكمنا ، وبرز عمر ليسلم عليهم ، ثار بهم رجاله الأَساوِدة وغيرهم ، وقبضوا عليهم بمرْأى من السلطان ، وأدخلوهم الحصن وعاد السلطان إلى قتاله ، فتوعد بقتلهم ، وجعلهم بأعلى السور ، ورمى عليه بحجر ، فطرح أحدهم الحين ، وعلا صراخُهم يسترحمون السلطان ، فكف عنه ، وانصرف مَكظُوما . ولأيام وقعت المهادنة على تخلِّيه عن شلوبانية فى جملة شروط صَعْبة ، منها العَقدُ له على بنت السلطان المسماة بشمس ، وانتقاله إلى مدينة المنكب ، فتم ذلك فى وسط ثمانية وستين بعده ، وتمادت المهادنة شهورا أربعة ، ثم ثاب خلافه ، وضُيقت عليه الحصص المرتَّبة ، وخرج للسلطان عن منكَّب على مال وعَهْد ، وصرف بعد وجهه إلى سلطانه ، وتطارح عليه ، وهو بجزيرة طَريف ، بعد أن أخذ أمانه ، زعموا ، وقد

كان أخوه طلحة سبق إليه ، فاعتقل يسيرا . ثم حُلَّ اعتقاله إيثاراً للعفَّة ، ورغْياً للمنَّات . ولما توفى السلطان أبو يوسف ، اضطره حاله ، وآل أمره إلى العود إلى الأندلس ، وبها الأشياخ من بنى عبد الله بن عبد الحق ، مطالبو أبيه بدم عمِّهم ، سبقوا مَقْدَمه على السلطان بإيعاز[1] منه ، وقد نزل بقرية أرملة[2] على وادى أقلم ، واعتصم منهم ببرج فقاتلوه واستنزلوه فقتلوه ، فانقضى أمره على هذه الوتيرة ، والبقاءُ لله سبحانه .

عامر بن عثمن بن إدريس بن عبد الحق

شيخ الغزاة بالأندلس ، وابن شيخها ، يكنى أبا ثابت ، أُجْرِى مجرى الأصليين لولادته بالأندلس

« أوليته » . تأتى فى اسم أبيه .

حاله

كان ريِساً جليلا ، فذًّا فى الكفاية والإدراك ، نسيج وَحْده فى الدَّهاء والنَّكْراء ، مشاراً إليه فى سَعة الصدر ، ووفور العقل ، وانْفِساح الذَّرع . وبعد الغُور ، باسلا مِقْداما ، صعب الشَّكيمة على الهمَّة ، لين الكلمة ، رَيِّش جَناح العزِّ ، وافر أسباب الرِّياسة ، مجرِّبا ، مُحْتَنكا ، عارفا بلسان قومه وأغراضهم . جاعلا جَفَوات أخلاقهم دُبُر أذنه ، مَهيبا على دماثة وإلحاح سِقام . تولى الأمر بعد أبيه فقام به أحمد قيام ، مُسَلِّما لبقية من مُسِنى القرابة وأكابر الإخوة ، اعترافا بالفضل ، وإيثاراً لمزيَّة العَتاقة

---

(١) وردت فى الإسكوريال (بايثار) . والتصويب أنسب للسياق .

(٢) هى قرية صغيرة تقع على الضفة اليسرى من شنيل على مقربة من غرناطة وبالإسبانية «Armilla»

على الهجْنة . فحلَّ أرفع المحال . وتبَنَّك على حال الضَّنا نعيما ، وغزا غزوات شهيرة ، إلى أن تناسى الأَمر . وكبا بهم الجد ، وحملهم قرب مُخيفهم بالثَّار المُنيم ملك المغرب . لما اقتحم فُرْضة المجاز إلى الجهاد على المبايتة ومراسلة الطاغية . فساءت القالة ، وفَسَد ما بينهم وبين سلطانهم ، وأعمل عليهم التدبير .

نكبته

ثبتٌ فى الكتاب المسمى « بطُرْفة العصر » : ولما اتَّصلت ليَدَىْ المسلمين ، وفصَل أميرهم من مُلْك المغرب ،تنمَّر أضدادهم المناوؤن له المعاندون قدرة الله فيه ، المتهيِّئون إلى القاصِمة بمشاحنته ، فأظهروا النُّفور والجذر ، وكانوا قد داخلوا ملك قشتالة وواعدوه اللحاق به ، إن راعهم رايع ، ووصلتهم مخاطبته بقبولهم . فلما تخلَّف المسلمون عن اللحاق به ، نسب لهم الفشل والتكاسل ، فانطلقت الأَلسن ، وملَّت القلوب ، وتُشُوِّف إلى الفتك بهم ، وهم عصابة بأْسها شديد ، أشهروا فروسية ونجدة وأتباعا، فعظم الخطْب ، وأُعملت الشُّورى فى أمرهم ، وصُرفت الحيل إلى كف عاديتهم ، ومُعالجة أمرهم ، فتمَّ ذلك . ولما كان يوم السبت التاسع والعشرون من ربيع الأَول ، قعد لهم السلطان على عادته ، ووجَّه عنهم فى غرض الاستشارة فى حال السَّفر إلى إمداد ملك المغرب ، وقد عبر ونازل جزيرة طريف ، وفاوضهم فيما عليه الناس من إنكار التَّلوُّم ، ثم قام السلطان من مجلسه ، وثارت بهم الرجال ، فأُحيط بهم ، ونُزعت سيوفهم عن عواتقهم ، وطارت الخيل فى ضمٍّ من شذَّ عنهم ، فتقبِّض على طايفة من أعلامهم ، كانوا بين غرٍّ يباشر قنصا ، أو مُفلت لم يجد مهربا ، وطارت الكتب إلى مالقة فى شأن من بها منهم ، فشملهم الاعتقال ، ثم

نقلوا إلى مدينة المنكب . فجعلوا فى مُطْبِق الأَسرى بها ، إبلاغا فى النكال ، وتناهيا فى المُثلة ، فلم تجر عليهم مصيبة أعظم منها ، لاضطرارهم إلى قضاء حاجة الإنسان برأى عين من أخيه ، خطة خَسْف سِيموها ، مع العلم بنفور نفوسهم عن مثلها ، وفيهم صدور البيت وأعلامه ، كأبى ثابت المترجم به ، وأخيه كبيره إبراهيم ، وابن عمهم زين المواكب ، وقريع السيوف ، وعروس الخيل ، حَمُّو بن عبد الله ، وسواهم ، وقانا الله شر الملكات ، وأشرأب مُخيفهم للسلطان صاحب المغرب ، وولى الثِّرة ، إلى صرفهم إليه ، وقد استوجب من مَلِك الأَندلس الملاطفة لالتفاته لسيء البُرْد ، واقتحامه باب القُطر . وأخفق السعى ، وضنَّ بهم موقع النِّقمة عن إسلامهم إليه ، سيرة أحسنها فى جنسهم من أولى الجهالف . فأَجلاهم عما قريب فى البحر إلى إفريقية ، فاستقروا ببجاية ، ثم استُقْدموا إلى تونس تحت إرصاد ورِقْبة ، وأخفر فيهم ملكُها الذِّمة ، وهم لديه ، فوجَّههم على بعد الدار ، ونزوح المزار ، إلى السلطان صاحب المغرب ، مُصْحبين بشفاعة فيهم ، كانت قُصارى ما لديه ، فاستقرُّوا فى الجملة تحت فلاح وكفاية ، لا تلفت إليهم عين ، ولا يتشبَّث بذَمل حُظوتهم أمل . ثم نُكبوا بظاهر سبتة نكبة ثقيلة البَرْك ، [مغارة البرك الحمل] ، وأُودعوا شرَّ السجون بمدينة مكناسة ، فأَصبحوا رهن قيود عديدة ، ومَسْلحة مرتَّبة ، جرَّ ذلك عليهم ذرَّة من القول فى باب طمُوحهم إلى الثورة ، وعملهم على الانتزاء بسبتة ، الله أعلم بحقِّه من مَيْنه . ولما صيَّر الله مُلْك المغرب إلى السلطان . أمير المؤمنين أبى عنان ، واضطره الحال إلى الاستظهار بمثلهم ، انتَشَلهم من النكبة ، وجَبَرَهم بعد الصَّدْعة ، وأَعْلَق يد كبيرهم المترجم به بعُرْوة العزّة ، واستعان بآرائه على افتراع الهضْبة . فأَلفى منه

نقّابا قد هذّبته التجربة ، وأرْهَفته المحنة ، وأخْلصته الصّنيعة ، فسلّ منه سيفا على أعدايه ، وزعموا أنه انقاد إلى هوى نفسه ، واستفزّته قوة الشرّة ، ولذّة التّشفى ، وذهب إلى أن يَكل للسلطان ناكبه . المجاراة صاعا بصاع ، فانتُدب إلى ضبط ما بالأندلس من عمالة راجعة إلى مَلِك المغرب ، فانقلب يجر وراءه الجيش ، ويجنّب القوة ، فقطع به عن أمله القاطع بالامال ، وأحانه الله ببعض مراحل طريقه مطعونا لُطْفاً من الله به ، وبمن استَهْدف إلى النّصب بمجادّته . وهو سبحانه ملىء بالمغفرة عن المُسْرفين ، سبحانه .

« وفاته » ، فى الأُخريات من عام تسعة وأربعين وسبعماية .

على بن بدر الدين بن موسى بن رحّو بن عبد الله بن عبد الحق

يكنى أبا الحسن .

حــــاله

هذا الرجل نسيج وَحْده فى الفضل والتخلّق ، والوفاء ، ونُصح الجيب ، وسلامة الصدر ، وحسن الخُلُق ، راجح العقل ، سَرِىّ الهمّة ، جميل اللقاء ، رفيع البِزّة ، كريم الخصال ، يكتب ويُشْعر ، ويحفظ ويطالع غرايب الفنون ، صادق الموقف ، معروف البسالة ، ملوكىّ الصّلات ، غَزِلٌ ، كثير الفكاهة ، على تيقُور وحشمة ، قدّمة السلطان شيخ الغَزاة بمدينة وادى آش ، فلما وقعت به المحنة ، ورَكِب الليل مُفلتاً إليها . اتّفق لقاؤه إياه صباحاً على أميال منها ، وجاء به ، وأدخله المدينة على حين غفلة من أهلها ، فاستقرّ بقصبتها وما كاد ، وأخذ له صَفْقة أهلها ، وشمّر فى الذب عنه تَشْميراً نَبا فيه سمعُه عن المُصانعة ،

ودَفْيه عن الجُملة ، وكفِّه عن قبول الأعواض ، فلم يَلْف فيه العدوُّ مَغْمزا ، ولا للكيدة مَعْجما ، ولا استأثر عنه بشيء مما لديه . إلى أن كان انتقال السلطان
ولا للكيدة مَعْجما ، ولا استأثر عنه بشيء مما لديه . إلى أن كان انتقال السلطان
عنها إلى المغرب ،فتبعه مُشَيِّعا إلى مَأْمنه . فتركها غريبة فى الوفاء ، شاع خبرها وتُعوطى حديثُها ، على حين نُكِر المعروف ، وجُحدت الحقوق ، وأخْوَت بروق الأمل. ثم قَلِق المتغلب على الدولة بمكانه ، فصرفه إلى العُدْوة الغربية ، فاستقرّت به الدار هنالك ، فى أوايل عام ثلاثة وستين أو أواخر العام قبله .

وخاطبته من مدينة سلا لمكان الوُدِّ الذى بينى وبينه بما نصه :

يا جُملة الفضل والوفا ... ما بمعاليك من خفاء
عندى بالود فيك عقد ... صحّحه الدهر باكتفاء
ما كنتُ أقضى علاك حقا ... لو جيتُ مدحا بكل فاء
فأوّل وجه القبول عُذرى ... وجَنِّبُ الشّك فى صفاء

سيدى ، الذى هو فَضْلُ جنسه ، ومزيّة يومه على أمسه ، فإن افتخر الدين من الله بَبْدره ، افتُخر منه بشمسه ، رحلتُ عن المَنْشأ والقرارة ، ومحلِّ الصّبوة والغَرارة ، فلم تتعلّق نفسى بذخيرة ، ولا عهد جِيرة خِيرة ، كتعلّقها بتلك الذات ، التى لطُفت لطافة الرّاح ، واشتَملت بالمجد الصّراح ، شفقةً أن تُصيبها معرّة ، والله يَقيها ويَحفظها ويُبقيها ، إذ الفضايل فى الأزمان الرّذلة غوامل ، والضّد عن ضده منحرف بالطبع ومايل . فلما تعرّفتُ خلاص سيدى من ذلك الوطن ، وإلقاه وراء الفُرْضة بالعَطِن ، لم تبق لى تَعلّة ، ولا أجْرَضَتنى علّة ، ولا أوْلى جمعى من قلّة . فكتبتُ أهنىءُ نفسى الثانية ، بعد هناء نفسى الأُولى ، وأعترف للزمن باليد الطولى . فالحمد لله الذى جمع الشّمل بعد شَتاته ، وأحيا الأُنْس بعد مماته ،

سبحانه لا مُبدِّل لكلماته . وإياه أسئل أن يجعل العِصمة حظَّ سيدى ونصيبه ، فلا يستطيع حادث أَن يصيبه . وأنا أَخْدُج عن بثٍّ كمين ، ونصح أنابه قَمين ، بعد أن أَسْبُر غَوْره ، وأَخْبِر طَوْره ، وأَرْصُد دوره ، فإن كان له فى التَّغريق أمل . وفى رَكْب الحجاز ناقة وجَمل . والرأى فيه ، قد نجحت منه نيَّة وعمل ، فقد غَنِى عن عَوْف والبقرات ، بأَزكى الثمرات ، وأطفأ هذه الجَمَرات برمى الجَمَرات ، وتأنَّس بوصل السُّرى ، ووصال السَّراه ، وأنا له إن رَضى أَرْضى مُرافق ، ولو أُغْرى به خافق . وإن كان على السُّكون بناؤه ، وانصرف إلى الإقامة اعتناؤه ، فأَمْرٌ لهما بعده ، والله يحفظ من الغير سعْدَه . والحق أن تُحذف الأُبهة وتُختصر ، وتخفَّظ اللسان وبغيض البَصر ، وينخرط فى الغِمار ، ويُخلى عن المِضْمار ، ويجعل من المحظور مُداخلة من لا خَلاق له ، ممن لا يَقْبَل الله قوله ولا عمله ، فلا يَكْتم سرًّا ، ولا يتطرَّق من الرُجولة زُمَرا ، ورفض الصُّحبة زِمام السلامة ، وترك النَّجاة علامة . وأما حالى فما علمتم مُلازم كِن ، ومبهوظُ تَجربة وسِن ، أَزْجى الأَيام ، وأَرُوم بعد التفرُّق الالتئام ، خالى اليد ، مالئُ القَلْب والخَلَد ، بفضل الواحد الصَّمد . عامل على الرِّحلة الحجازية التى أختارُها لكم ولنفسى ، وآمل فى إلتماس الإعانة عليها يومى بأَمْسِى ، أَوجبُ ما قررته لكم ما أنتم أعلم به من وُدٌّ قرَّرَته الأَيام والشهور ، والخلوصُ المشهور . وما أَطَلْتُ فى شيء عند قدومى على هذا الباب الكريم ، إطالتى فيما يختص بكم من موالاته . وبذل مجهود القول والعمل فى مُرضاته . وأما ذكركم فى هذه الأَوضاع ، فهو مما يقرُّ عين المَجادة ، والوظيفة التى تنافس فيها أولو السيادة . والله يَصل بقاءكم . وييسِّر لقاءكم والسلام .

وهذا الفاضل ممن جال فيه لاختيار الإمارة أيام مُقامه بالعُدْوة الغربية ، لذياع فضله ، وكرم خِلاله . وقَفَل إلى الأندلس ، عند رجوع الدولة ، فجنَى ثمرة ما أسلفه ، وقُدِّم شيخ الغَزاة بمالقة . ثم نُقل إلى التى لا فوقها ، من تقديمه شيخ الغَزاة بحضرته ، منَّة لا على ميادين حُظوته ، مُقْطعا جانب تَجِلَّته ، فبَلَى الناس على عهد ولايته الفتوح الهنِيَّة ، والنِّعم السَّنية . ولما قفل السلطان أيده الله ، من فتح قاعدة جيَّان ، أصابه مرض ، تُوفى منه فى ثالث صفر من عام تسعة وستين وسبعماية . فتأثر الناس لفَقْده ، لما بَلَوْه من يُمن طائره ، وحُسن موارده ، ومصادره . وكان قد صدر له المنشور الكريم ، من إملائى ، بما ينظر فى اسم المؤلف ، فى آخر هذا الديوان

على بن مسعود بن على بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مسعود المحاربى

الوزير ، يكنى أبا الحسن .

حـــاله

كان من أعيان أهل الحضرة ، وذوى الهيآت والنباهة من بيوتاتها ، أيِّدا ، حسن الشكل ، جهير الصوت ، فصيح اللسان ، ثرثاره ، جيد الخطِّ ، حُلو الدُّعابة ، طيب النفس ، لبِقًا ، ذكيا ، أديبا ، فاضلا ، لوْذعِيًّا ، مُدركا . وزرَ للسلطان أبى الوليد ، نَزع إليه لما دعا إلى نفسه بمالقة من إيالة مخلوعه بعد اصْطِناعه ، وصَرَف وُجهته إلى جِهته ، فتغلَّب على هواه ، وأشْركه فى الوزارة ، مع القايد الوزير أبى عبد الله بن أبى الفتح الفهرى ، وقد مرَّ ذكره ، فأبرَّ عليه بمزيد المعرفة بالأمور الاشْتِغالية ، وجِماح عِنان اللسان والجرأة ، فى أبواب المُداخلات الوزارية . فلم يزل يضمُّ أذيال

الخُطَّة ، ويقلِّصُها عن قَسيمه ، إلى أن لم يبق له منها إلا الاسم إلى حين وفاته .

وفاته

واستمرت حاله على رَسْمه من القيام بالوزارة إلى أن فَتَك بسلطانه قرابته بباب داره كما تقدم فى اسم السلطان أبى الوليد فى حرف الألف فكرَّ[1] أدراجه وهاج بالباطشين ، وسلَّ سيفه ، يدافع عنه ، فمالت إليه الأيدى ، وانصرفت إليه الوجوه ، وأُصيب بجراحات مُثْخنة ، أتى عليه منها جُرح دِماغى لأيام . وعلى ذلك فلم يبرح من سدَّة السلطان ، حتى تعجَّل ثَأْره ، وشمل السَّيف قَتَلته . وأخذ البيعة لولده . وكانت وفاته فى السابع والعشرين لشعبان من عام خمسة وعشرين وسبعماية . ودفن بباب إلبيرة . وكان الحفل فى جنازته عظيما ، والثناءُ عليه كثيرا ، والرحمة له مُسْتَفيضة .

ورثاه شيخنا أبو الحسن بن الجيَّاب رحمه الله بقوله :

أيا زَفْرتى زيدى ويا عَبْرتى جودى على فاضل الدُّنيا على ابن مسعود
على الشامخ الأبيات فى المجد والعلا على السَّابق الغايات فى البأْس والجود
على غُرَّة العصر التى جَمَعت إلى مهابة مَرْغوب طلاقة مَوْدود
على مَنْ له فى الملك غيرُ مُنازَع وَزارة مَيْمُون النَّقِيبة محمود
على من إذا عُدَّ الكرام فإنه بواجب حقِّ الفضل أوَّلَ معدود
ومن كعَلِيٍّ ذى الشجاعة والرِّضا لإصْراخ مَذعور وإيواءِ مَطْرود
ومن كَعليٍّ ذى السَّماحة والنَّدا لإسباغ إنعـام وإنجاز موعود
ومن كعلى للوزارة قايمًا عليها بتَصْويب عليهـــا وتَصْعيد
ومن كعلى للإدارة سالكاً لها نَهَج تَلْيِين مَشوبٍ بتَشْديد

---

(١) وردت فى الإسكوريال (كر) . والتصويب أرجح .

ومن كعلى للسياسة منفِّذا … أوامر تَنْفيذ وأحْكام تَوْطيد
ومن كعلى فى رضا الله حاكما … بإيجاد مَعْدوم وإعدام مَوْجود
ومن كعلى واصِل الرَّحم التى … تَمُتُّ بتقريب له أو بتبْعِيد
ومُسْدى الأَيادى البيض بَدْأً وعودة … مُرَدَّدة تمحو دُجا الثُّوب السُّود
أيا كافىَ السلطان كلَّ عظِيمة … بآراء تَسْديد وأعمال تمهيد
ويا حامى المُلك المَشِيد بناؤه … بصولة مَحْذور وغرَّة مقصود
ويا كافل الأَيتام يَجْرى عليهم … جِراية نُعْمى بابُها غير مَسْدود
ذكَرْتُك فى نادى الوزارة صادعا … بأَمرٍ مُطاع حُكْمه غير مردود
ذكرتُك فى صدر الكَتِيبة(١) قائما … بخِدْمة مَوْلًى بعد طاعة مَعْبُود
ذكرتُك فى المحراب والليل دامِس … تردِّد آىَ الذِّكر أطيَب ترديد
ودمعك مُرْفضٌّ وقلبك واجب … لخشْية يوم بين عينيك مشهود
عفًّا على الدنيا ولا درَّ درُّها … فما جَمْعُها إلاَّ رهينٌ بتبديد
فمهما حلَّت منها لديك مسرَّة … ففى إثْرها فارقُبْ مرارة تَنكيد
ألهفًا على الوجه الجميل مُعطَّرا … بدار البِلى رَهين الأَساوِد والدُّود
وعهدى به مُسْتَبْشرًا ومُبَشِّرًا … بتفريج مَكْرُوب وراحة مجهود
لأَظْلَمَتْ الدنيا علىَّ لفَقْدِه … فها أنا أرعاها بمُقلة مَرْصود
وقلَّص من ظل الرَّجا فراقه … فظلَّ رجائى بعده غير مَمْدود
وكم سَبَحت فُلْك المُنا فى بِحارها … مواخِر فاليوم استَوت بى على الجود
وهوَّن عندى كلَّ خطب مصابُه … فبَعْدَعلىٌّ لست أبكى لمفقَرد
ولا أدَّعى أنى وَفَيتُ بعهده … فلم أرْعَ عهدًا حين أوْدى ولم أود
فلا يَشمَتَنَّ الأعداءَ إن حان حينُه … فما بالرَّدى عار فكل امرىءٍ مود

(١) وردت فى الإسكوريال (اللتيبة) . وهو تحريف اقتضى التصويب

ولا سيما إذا مات ميتة عزّة ... بعيدا شهيدا ماضيا غير رعديد
وفيًّا لمولاه مطيعًا لربّه وقد ... بطَلُت ذُعرًا رِقاب الصّناديد
فبشرى له أن فاز حيًّا وميتاً ... بميْتَة ممقود وعِيشة محسود
عليه سلام اللهِ ما ذرَّ شارقٌ ... وما صَدَعت ورْقاءُ فى فرع أُمْلُود
وجادت ثَرَى اللّحدالزّكى سحايب ... مجدّدة الرّحْمى بأحسن تجديد

على بن لب بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى

غرناطى ، قلعى[1]

حاله

كان ظريفا ، مليح الخطّ ، حار التّندير ، عيناً من عيون القُطر ووزرائه

شعره

حدّث أبو الحسن بن سعيد ، قال ، تمشينا معا أيام استيلاء النهب والتهدم ، على معظم ديار مرّاكُش بالفتنة المتصلة . قال ، فانتهينا إلى قصر من قصور أحد كبرايهم . وقد سجدت حيطانه . وتداعت أركانه ، وبقايا النّهب والأَصْبِغة والمُقَرْبسات ، تثير الكمد . ولا تبقى جَلَدًا لأحد ، فوجدنا على بعضها مكتوباً بفَحْم :

ولقد مررت على رسوم ديارهم ... فبكيتُها والرَّبع قاعٌ صَفْصف
وذكرت مَجْرى الجَوْر فى عَرَصاتهم ... فعلمتُ أنَّ الدهر منهم مُنْصِف

فتناول أبو الحسن بياضا من بقيّة جيار ، وكتب تحتها ما نصه :

لهفى عليهم بعدهم فمثالُهم ... باللّٰه قل لى فى الورى هل يُخْلَف
من ذا يجيب منادياً لوسيلة ... أم من يُجير من الزمان ويَعْطِف

(١) قلعى أعى ينسب إلى القلعة ، قلعة بنى سعيد أو قلعه يحصب وقد سبق التعريف بها
(راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ١١١ حاشية)

إن جار فيهم واحدٌ من جُملة		كم كان فيهم من كريم يَنْصِف

توفى بمراكش سنة سبع وعشرين وستماية .

على بن يوسف بن محمد بن كماشة

القايد والوزير بين القَتادة والخَرْط ، يكنى أبا الحسن

أَوّليته

كان جدُّه من المُنْتَزين ببعض حصون الأندلس، طَلْياطِيه[1] ، وخدم طاغية الروم ببعضها ، وانخرط فى جُملته ، يشهد بذلك مكتوبات تلقاها بشماله ، ووراء ظهره ، صانها حافِدُه المترجم به ، فى خِرقة من السَّرَق لا يزال ، يعرضها فى سبيل الفخر ، على من يصل إلى باب السلطان من رسل الرُّوم . ولقد عرضها أيام سفارته إلى ملك قشتالة على وزيره شمويل اللبى اليهودى ، وطلب تجديدها ، فقال له هذا يتضمن خدمة جدِّك للسلطان مولاى جدِّ مولاى السلطان بجملة من بلاد المسلمين ، وفيها الشكرله والرِّعاية على ذلك ، فاذهب أنت هذا المذهب ، الذى ذهبه جدك ، يتجدَّد لك ذلك إن شاء الله ، فلما هلك وُورِى بين مدافن الروم ، بعد أن عُلِّق زمانا من سور الحصن فى وعاء ، توفيةً لشرط لا أُحقِّقُه الآن . ولحق ولده بباب السلطان، فتفيَّئوا ظل كفالته ، ونشئوا فى عداد صِبْيته ، ولما صلحوا للاستعمال ، استخدم منهم عليًّا كبيرهم فى العمل ، فاستظهر به على حفزه بحمى ألمرية ، وما إليها ، فأثرى ورآه استغنى ، وطالت مدَّة ولايته ، واستعمل أخاه يوسف والد المترجم به ، فى القيادة ، وكان

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . ويرجح أنه يقصد هنا أن هذا الحصن كان يقع فى منطقة طلياطة « Tliata » وهى بلدة أندلسية تقع فى ولاية الغرب غربى إشبيلية .

رجلا مضعوفا ، فاستمرت حاله إلى أن فقد بصره ، وجنَى عليه شؤم ولده ، الجلا شيخا زَمِنًا . ثم عاد إلى الأندلس فتوفى بها ، حسبما يذكر فى إسميهما . وكانوا يتبجّحون بنسبة إلى مَعْن بن زائدة . طَوّق جدّهم بتلك النسبة ، بعضُ أولى التّنفق والكُدْية ، فتعلّلوا منها بنسيج العناكب ، وأكْذَبوها بالخُلُق الممقوت ، والبُخل بفُتات القوت ، والتعبُّد لعَبَدة الطّاغوت ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم .

حاله

هذا الرجل حسن الشكل ، كثير الهشّة ، جيِّد الرِّياش ، كثير التعلُّق والتّوسل ، لَصِقَت بشجرات الدول صَمْغته ، وثَبَت بأسبابها قُراده ، شديد الملاطفة لحَجَبة الأبواب ، والمداخلة لأذيال الأُمراء ، مُتَصامم على أغراضهم ، مُكذِّب لمحسُوس جَفْوتهم ، مُتَنفِّق بالسِّعاية ، مُتَبذِّل فى أسواق الخدمة ، يسبق فى الطيالس ، ويلفظ الزّبير ، ويصرخ بالإطراء ، ويولول بالدعاء ، مدلٌّ فى الأخونة ، محكم فى نفسه للنّادرة التى تضحكهم ، بذى مهذار ، قليل التصَنُّع ، بعيد عن التّسمت ، أطمع خلق الله وأبخلهم بما لديه ، وأبعدُهم فى مهاوى الخسّة ، أما فَلسُه فمخزون ، وأما خوانه فمحجوب ، وأما زاده فممنوع محجور ،وأما رِفده فمعدوم العين والأثر . وأما ثوبه فحبيس التّحت إلى يوم القيامة ، قد جعل لكل فصل من فصول معاشه ، ونفاضة مخاليه ، وسور دوابه مؤنة ما . فالنُّخالة بينة المصرف ، وللسرجين معين الجهة ، وفتات المنديل موقفة على فطور الغد ، ودهن الاستصباح جارٍ فى التّجلة والادخار مجرى دهن البَلَسان .

أخباره

فى هذا الباب مُغْرِبةٌ ، ولزمت كَعْبة المَنْحسَة ، وعَلِق فى عنقه طاير الشُّؤم ، فلم تنجح له وُجهة ، ولا سَعِدت له حركة ، واستقرّ عند الكاينة

على الدولة ، بباب السلطان بالمغرب ، خاطباً فى حَبْل الغادر ، المُتوثِّب على المُلْك ، ومُعيناً للدهر على الأَحَبِّ الحق وولىِّ النِّعمة . ثم بدا له فى المقام بالمغرب أمنا واضطرابا . ولما رحل السلطان أبو عبد الله بن نصر المذكور ، إلى طلب حقِه ، وقد أعْتَبه ، سدَّد به رسم الوزارة فى طريقه ، كما اضطر صيادٌ إلى صُحبة كَلْبٍ مُخابت آماله ، ولحقت به المَشْأَمة ، وتَبِر الجدُّ ، واشتهر ذلك ، فعَلِقت به الشَّفقة ، إلى أن خاطب السلطان بعض من يهمُّه أمره بهذه الأبيات :

كُماشكم من أجله انكَمَش السَّعد ... إذا ما اطَّرحتم شُومه نَجِز الوعد
ومن لم تكن للسَّعد فى بدء أمره ... مَخِيلة نَجْح كيف تُرجى له بعد
وتصريفُه المشئُوم فلتتذكَّروا ... وما قلت إلا بالتى عَلِمت سَعْدُ

واقتضى أمره تبرُّماً به ، أن صُرف من رُندة ، وقد استقرَّ أمره بها رسولا إلى باب ملك المغرب ، لأُمور منها استخلاص ولده وإيصاله إليه . فتعذَّر القَصْد ، وسُدَّت الأبواب ، وأزفَت بدار المغرب عهدٌ بذِّ الآزفة . وتراخى مُخَنَّق مُرسله لخلو دَسْته منه ، فثاب الرَّجاءُ وقَرُب الفتح ، وساعد السَّعد بما طال منه التَّعجب . ولما بلغ جبرُ صُنع الله ، وإفاقة الأَيام ، وجَبَر الله السلطان بدخول مالقة فى طاعته ، لحق به ، وقد قَلِقت به الجوانب ، وتنكَّرت الوجوه ، وساءت لطَيْرته الظُّنون . فتوفَّر العزم على صرْفه عن الأندلس فى أوليات رمضان عام ثلاثة وستين وسبعماية ، فقُبض عليه ، وصُرف إلى البلاد الشرقية ، وقد شرع فى إغراء سلطان قشتالة بالمسلمين ، وكان آخر العهد به ، وذكروا أنه حجّ وقَفَل والعودة تتبعه ، والنفوس لمتوقَّع شُومِه مُكْرِهة . ورُجى أن يكون ماءُ زمزم ، وضدّ النقع ، أو أنَّ مشاهدته الآثارالكريمة ، تُصلح ما فَسد من حاله . فآب

شرٌّ إياب ، وربما نَبَض له شِريان من جدِّه ، الذى تقدم فى خدمة النصارى ذكره . فأجاز البحر إلى ملك برجلونة ، فجعل تقبيل كفّه ، لاستلام الحجر الأسود ، وسيلة ثانية ، وقُرْبة مُزْلِفة ، والقول بفضل وطنه حجَّة صادقة ، ثم قَلِق لخَيْبة قصده ، وخلُوِّ يده ، من الزَّقُّوم ، الذى كان قد احْتَجنة للمُهِم من أمره ، واستيلاء النَّحس على بيت سَعْده ، فصرف وجهه المشُوم إلى المغرب ، فاحتلَّ به ، وجعل يُطَوق كل من أسلف له بِدا الذَّام ، ويَشيع عنه سوء القِيلة ، ويَجْهر فى المجتمعات والدَّكاكين ، بكل شَنيع من القول ، بالغًا فى ألفاظ السُّخيلة ، أقصى مبالغ الفُحْش ، لطف الله بنا أجمعين .

عثمن بن إدريس بن عبد الله بن عبد الحق بن محيو

من قَبيل بنى مرين ، يكنى أبا سعيد ، شيخ الغَزاة بجزيرة الأندلس على عهده .

أوّليّتهم

جدُّ هؤلاء الأقْيال الكِرام ، الذى يشترك فيه الملوك الغرُّ من بنى مرين بالعُدْوة ، مع هؤُلاء القَرَابة ، المُنْتَبين عنهم أضرار التُّراث ، ودواعى المنافسات ، عبد الحق بن مَحْيُو ، وكان له من الولد إدريس وعثمن وعبد الله ومحمد وأبو يحيى ويعقوب ، فكان الملوك بالمغرب من ولد يعقوب ، وهؤلاء من ولد عبد الله ، وإدريس ويعقوب ورحُّو . ولما قتل جدُّهم يعقوب ، بيد ابن عمه عبد الحق بن يعقوب ، أجْفَل أخواه ومن معهم ، وانْتَبَذُوا ، واستقرُّوا بتلمسان ، بعد أمور يطول شرحها . ثم اجتاز الشيخ أبو سعيد فى جُملة من اجْتاز منهم إلى الأندلس ، فنال بها العِزَّة والشُّهرة .

حاله

كان رجل وقته جلالةً وأصالةً ، ودهاءً وشهرة وبَسالةً ، مَرْمى لاختيار عَتاقة وفَراهة ، واحِدُ الزَّمن أبَّهة ورُواءً . وخُلُقا ورجاحةً ، أيِّدا ، عظيم الكَراديس ، طَوالا ، عريض المَنْكِب ، أقْنى الأَنف ، تقع العين منه على أسَدٍ عيص ، وفحل هَجْمة ، بعيد الصيت ، ذائع الشهرة ، مُنْجب الولد ، يحمى السَّرح ، ويُزين الدَّست . لحق بتِلمسان مع زوج أمه وعمِّه ، موسى بن رحُّو ، عندما فروا من الجبل بأحواز ورْغَة ، شابا كما اجتمع ، وأجاز البحر منها ، وخدم مُرْتَزِقا بها . ثم عاد إلى العُدْوة برضاً من عمه السلطان بها . ثم فرَّ عنه ولحق بالأندلس ، واستقر بها ، ووُلِّى خُطَّة الشِّياخة العامة ، وهى ما هى ، من سمُو الهَضْبة ، ورُود الرِّزق ، وانفساح الإقطاع ، فشارك ، وتبنَّك النَّعيم ، وأقبل ما استظهر به على ما وراء مدينة سَبْتة ، عند انتظامها فى الإيالة النَّصرية . فشنَّ الغارة ، ودعا إلى نفسه ، وخلا فطلب النِّزال ، فغَلَبَت غارته أحواز وادى سبُو . ثم رجع أدراجه إلى الأندلس ، وذمَّر السلطان أبا الوليد ، مُنفق حُظوته على طلب الملك ، ففازت به قِداحه ، واستولى على الجمِّ من ريق دنياه ، وسلَّ الكثير من ماله وذخيرته فى أبواب من العبادة ، والاسْتِرضاءِ والاسْتِهداءِ . ولما توفى ، تضاعف لُطْف محلِّه من ولده ، إلى أن ساء ما بينه وبين مدبِّر أمره ابن المحروق ، ونَفَر عنه ، مُؤاخذًا بألْقيات ، كانت سُلَّما إلى تجنِّيه ، يَحْسَب أن الافتِقار إليه ، يُعَبِّد له كل وَعْث . فاغتنم المذكور نُفْرته ، واستبصر فى الانتِباذ عنه ، مطيعاً دواعى الخَوَر والرَّهبة ، من شؤوب حاله ، وأجلى الأمير عن رحيله وولده إلى ساحل ألمرِيَّة ، مُوادعاً ، مُزمِعاً الرحيل عن الأندلس ، وارتاد الجهات ، وراسل الملوك بالعدوة ، فكلٌّ صمَّم

عن ندايه ، وسُدّ السبيل إليه ، فداخل قوما من مَشْيخة حصن أَنْدَرَش حاضرة وطن الجباية ، فاسنولى عليه ، وانتقل إليه بجُملته ، وراسل الطّاغية ، فتحرك إلى منازلة حصن وَبْرة من الحصون التاكرونيّة .ففازت به قِداحه ، واستُدعى عم السلطان ، وهو الرئيس أبو عبد الله بن فرج ابن نصر من تلمسان ، فدعا إليه ، وشَمَلت الفِتنة ، وكانت بينه وبين جيش الحَضْرة وقايع ، تناصَف فيها القوم خِطّتى المُساجلة إلى أن نَفِد صبره وماله ، وسَمَت فتنته الدولة ، واقْتَضت مُسالمته المصلحة ، فعُوهد على التخلّى عن الحصن ، وصُرف أميره إلى مُتَبَوّئه الأقصى ، وانتقاله إلى مدينة وادى آش ، ليكون سكنه بها ، تحت جرايات مُقدّرة ، وذلك فى شهر رمضان ثمانية وعشرين وسبعماية ، وعلى تفية ذلك ، عدا على مناويه أميره ، ففَتَك به ، واستَقْدم الشيخ أبا سعيد فأعاده إلى محلّه، واستمرت على ذلك حياته إلى مدة حياته ، إلى أن توفى فى أُخريات أيامه .

وفاته

ولما نزل العدوُّ ثغر أطيبة ، ونهض جيش المسلمين إلى مضايقته ، أصابه المرض . ولما أشفى ونقل إلى مالقة ، فكانت بها وفاته يوم الأحد ثانى ذى حجة من عام ثلاثين وسبعماية عن سن عاليه تنيف على الثمانين سنة ، ونُقل إلى غرناطة ، فوورى بها ، وبُنيت عليه بُنْية ضخمة ، وصار أمره إلى ولده . ونقش على قبره فى الرخام :

« هذا قبر شيخ الحماة ، وصدر الأبطال الكماة ، واحِدُ الجلالة ، ليثُ الإقدام والبَسالة ، عَلَم الأعلام ، حامى ذِمار الإسلام ، صاحب الكتايب المَنْصورة ، والأفعال المشهورة ، والمغازى المَسْطُورة ، وإمام الصفوف ، القايم بباب الجنّة تحت ظِلال السيوف ، سيف الجهاد ،

وقاصم الأعاد ، وأسد الآساد ، العالى الهِمم ، الثابت القدَم ، الإمام المجاهد الأَرْضَى ، البطل الباسل الأَمْضَى ، المقدَّم ، المرحوم ، أبى سعيد عثمن ، ابن الشيخ الجليل ، الإمام الكبير ، الأَصيل الشهير ، المُقدَّس ، المرحوم أبى العلاء إدريس ، ابن عبد الله بن عبد الحق . كان عمره ثمانيا وسبعين سنة ، أنفَقه ما بين رَوْحة فى سبيل الله ، وغَدْوة ، حتى استوفى فى المشهور . سبع مابة واثنتين وثلاثين غَزْوة ، وقطع عُمره جاهدا مُجاهدا ، فى طاعة الرّب ، مُحْتَسباً فى إدارة الحرب ، ماضى العزايم فى جهاد الكفار ، مُصادما من تدفُّق التيار ، وصَنَع الله له فيهم ، من الصَّنايع الكبار ، ما صار ذكره فى الأَقطار ، أشهر من المثل السَّيَّار ، حتى توفى رحمه الله ، وغُبار الجهاد طىٌّ أثوابه ، وهو مراقبٌ لطاغية الكفار وأَحزابه ، فمات على ما عاش عليه ، وفى مَلْحمة الجهاد قَبَضه الله إليه ، واستَأْثر به ، سعيداً مُرْتضاً ، وسيفه على رأس ملك الروم مُنْتَضا ، مقدِّمة قَبُول وإسعاد ، ونتيجة جهاد وجلاد ، ودليلاً عن نيَّته الصالحة ، وتجارته الرابحة ، فارتجَّت الأَندلس لفَقْدِه ، أتْحَفه الله رحمةً من عنده ، توفى يوم الأَحد الثانى لذى الحجة من عام ثلاثين وسبعماية » .

القضاة الأصليون

عتيق بن أحمد بن محمد بن يحيى الغسانى

غرناطى ، يكنى أبا بكر ، ويعرف بابن الفرّا ، ويعرف عقبُه ببنى الوادى آشى ، وقد مرَّ ذكر ولده أبى الفرج ، ويُنْبَز بقرنيَّات .

حاله

حدثنى أبى رضى الله عنه ، وكان صديقا لأَبيه ، أنَّه كان من أهل

الجلالة والفضل ، حسن السّمت ، عظيم الوقار ، جميل الرُّواء ، فاضلا ، حسن العشرة . وقال القاضي ابن عبد الملك: كان جامعا لفنون من المعارف ، معروف الفضل فى كل ما يُناول من الأمور العلمية ، وقيَّد كثيرا ، وعُنى بالعلم العناية التامة ، واستُقْضى بالمنكّب ، وعُرف فى ذلك بالعدالة والنّزاهة .

تواليفه : صنف « نُزهة الأبصار فى نَسَب الأنصار » ، و« نَظْم الحُلِىّ فى أرجُوزة أبى علىّ » ، يعنى ابن سينا .

شعره

قال ومما نظمته ووجّهته به صُحبة رسالتين :

يا راكبًا يَبْغى الجناب الأشْرفا ... ومُناه أن يَلْقى الكريم المُسْعِفا
عرِّج بطيبة مرَّة لترى بها ... علمى قبول رحمةً وتعطُّفا
وإذا حَلَلْت بها فقبِّل تُرْبها ... وارغب جلالهم عسى أن يُسْعفا
وأسِل دموعَك رغبة وتضرُّعا ... وأطل بها عند التضرُّع مَوْقفا
واذكر ذنوبك واعترف بعظيمها ... فعسى الذى ترجو له أن يَعْطِفا
واجعل شَفِيعك إن قصدت عناية ... قبراً تقدَّس تُرْبةً وتشرَّفا
قبرٌ تضمن نور هدىً واضحا ... لم يَحْتَجب عن مُبصريه ولا اختَفا
قبر حوى النُّور المبين ونُوره ... يَهدى به سُبُل السَّلام من اقْتَفا
قبر به الهاشمىُّ محمد أبهى ... الأنام سَنًا وأوفى من وفا
خير الورى عَلَمُ التُّقى شمس الهدى المُنتَقى والمجتبا والمُصطفا
سلِّم عليه وخُصَّه بتحية ... واقرأ عليه من السلام مُضاعفا
واذكر هُديت أخا البطالة عمره كم نَقَض العهود وأخْلفا
ولكم تَيقَّن بالدليل فماله ... رَكِب العناد لجاجة وتعسُّفا
وعصى فأسْلَم للقطيعة والجوى ... حقٌّ على من خان أو لا يعرفا

هل للعفو تنفّح نحوه يوماً فيَضْحى بالرِّضا مُتعرِّفا
وأعد حديث مَشوق قلبٍ عنده من لم يَذُبْ شوقا له ما أَنْصَفا
إخبره عن حبّى وطول تَشوُّق تفديك عطفة نفسى مُخبرا ومُعرِّفا
وتشكُ من جاء إليه فإنّ لى نفسًا تُسوِّفنى المتاب تسوُّفا

مولده : بغرناطة فى ذى حجة خمس وثلاثين وسمّاية .
وفاته : ذُكر أنه كان حيًّا سنة خمس وثمانين وسمّاية .

على بن محمد بن توبة

يكنى أبا الحسن .

حاله

كان من العلماء الجلّة الفقهاء الفضلاء . وُلِّى قضاء غرناطة لباديس ابن حَبُّوس ، وعلى يديه كان عمل مِنْبر جامعها ، وكان عمله فى شهر ربيع الأوّل سنة سبع وأربعين وأربعمائة . وكان من قضاة العدل ، وإليه تنسب قنطرة القاضى بغرناطة ، والمسجد المتصل بها فى قِبلتها . وكان كاتِبُه الزاهد أبا إسحق الإلبيرى[١] ، وفيه يقول :

بعلى[٢] بن توبة فاز قِدْحى وسَمَتْ همّتى على الجوزاء[٣]
فهنيًا لنا وللدين قاض مثله عالمٌ بفضل القضاء
يَحْسِمِ الأمر بالسياسة والعدل كحَسْمِ[٤] الحُسام للأدواء
لو أنا سيرناه قال اعترافا غَلِط الواصفون لى بالذكاء
أو رأى أحْنَف وأكبر منه حِلْمه ما انتموا إلى الحُلَماء

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يا على) .
(٣) هذا هو البيت الوحيد الذى ورد من القصيدة فى الزيتونة .
(٤) وردت فى الإسكوريال (لحسم) فاقتضى التصويب .

أو رأى المُنْصفون بحْرَ نَداه　　جعلوا حاتماً من البحر لاء
هو أوْفى من الشُّمول عهدا　　ولما زال مُغْرماً بالوفاء
وحيّا المزن وحيّا أخاه　　أهْمَلت كفه بوَبْل العطاء
يشهد العالمون فى كل فن　　أنّه كان كالشّهاب فى العُلماء
وقُضاة الزمان أرْضٌ لديهم　　وهو من فوقهم كمِثْل السَّماء
لتعرَّضت مدحه فكأنّى　　رُمْت بحراً مُساجلا بالدِّلاء
فأنا مُعْجم على أنَّ خَيْلى　　لا تجارى فى حَلْبَة الشُّعراء
لكَسَانى مَخْبرا ثوب فَخْرٍ　　طال حتى جرَّرته من وراء
ولو أنْصَفْتُه وذاك قليل　　كان خدِّى لنَعْله كالحِذاء
فأنا عَبْدُه وذاك فَخارى　　وجَمالى بين الورى وبَهاء
وثناءٌ وقفٌ عليه وشكرى　　ودُعائى له بطول البقاء

على بن عمر بن محمد بن مشرِّف بن محمد بن أضحى بن عبد اللطيف بن الغريب بن يزيد بن الشمِّر بن عبد شمس بن الغريب الهمدانى

والغريب بن يزيد هو أول مولود ولد للعرب اليمانيين بالأندلس يكنى أبا الحسن .

وَلِى غرناطة[1] . وكان من أهل العلم والفهم ، والمشاركة فى الطِّب ، والكفاية الجيدة ، والشعر فى ذِرْوة هَمْدان ، وذوايبهما ، حسن الخطِّ ،

(١) اقتصر ابن الخطيب على هذه الإشارة بالنسبة لحركة القاضى ابن أضحى . ونضيف نحن إلى ذلك أن ابن أضحى كان من زعماء الثورة ضد المرابطين ، حينما تضعضع سلطانهم بالأندلس ، وظهر عليهم الموحدون بالمغرب . وقد كان ابن أضحى يومئذ قاضياً لغرناطة ، فاعلن الثورة ودعا لنفسه ، وآزره أهل المدينة وتعاونوا على إخراج المرابطين ، فاعتصموا بالقصبة . ولما أعياه أمرهم ، بعث فريق من أهل المدينة فى استدعاء سيف الدولة بن هود ليأتى لولايتها ، فجاء من جيان فى بعض قواته . ولكن المرابطين اشتد أمرهم وهزموا خصومهم . وفى تلك الأثناء توفى ابن أضحى بتناوله لقدح مسموم، كان قد أعد لاغتيال ابن هود وذلك فى سنة ٥٤٠ هـ . وكان مولده بألمرية سنة ٤٩٥ هـ .

كريم النفس ، جوادٌ بما يمارى ، عطاياه جَزْلة ، ومواهبه سَنِيّة ، وخلقه سهلة ، كثير البشاشة ، مليح الدُّعابة ، مُوطَّأُ الأَكْناف ، على خُلُق الأَشراف والسّادة .

مشيخته

روى بالْمرية عن القاضى أَبى محمد بن سمحون وبه ، تفقّه . وقرأ الأَدب على ابن بَقَنَّة ، وعلى الإِمام الأُستاذ أَبى الحسن على بن أَحمد بن الباذش ، وسمع الحديث على الحافظ أَبى بكر بن غالب بن عبد الرحمن ابن عطية وغيره .

شعره

من شعره يخاطب الوزير ابن أُبَىّ ويعتذر إِليه ، وكان الفقيه أَبوجعفر المذكور ، قد خاطبه شافعًا فى بعض الأَعيان ، فتلقى شفاعته بالقَبُول ، ثم اعتقد أَنه قد جاءَ مقصّراً ، فكتب إِليه :

ومُسْتَشفعٌ عندى بخيـر الوَرى عندى وأَولاهم بالشكر منى وبالحمد
وصلتُ فلما لم أَقم بجـزايه لففْتُ له رأْسى حياءً من المجد

وكتب يخاطب أَبا نصر بن عبد الله ، وقد كان أَبو نصر خاطبه قبل ذلك :

أَتَتْنى أَبا نصر نتيجةُ خـاطر سريع كرجْع الطرف فى الخَطَرات
فأَعربتُ عن وجْدٍ كَمين طويته بأَهْيَفَ طَاوٍ فاترِ اللحظات
غزالٌ أَحمُّ المقلتين عرفته نُحَيِّفُ مِنّى للحسن أَو عرفات
رماك فأَصْمَى والقلوب رَمِيةٌ لكل كحيل الطرف ذى فَتَكات
وظن بأَن القلب منك مُحَصَّبٌ فلبّاك من جنـابه بالجَمَرات
تقرب بالنُّساك فى كل مَنْسَك وضَحَّى غَداة النحر بالمُهْجات
وكانت له جيّان مثوى فأَصبحت ضُلُوعك مثواه بكلّ فَـلات

يعزُّ عَلينا أن تَهيم فَتَنْطَوى كبيبا على الأشجان والزفرات
فلو قُبِلت للناس فى الحبِّ فِدْية فَدَيْنَاك بالأموال والبُشْرات

وخاطب أحد أوليائه شافعًا فى رجل طلق امرأته ، ثم عَلِقت بها نفسه ، فلم تُسْعِفه ، وكتب إليه :

ألا أيهـا السيد المُجْتَبـا ويا أيهـا الأَلْمَعى العَـلَم
أتَتْنى أبياتك المُعْجِزات بما قد حَوَتْ من بديع الحِكم
ولـم أر من قَبْلهـا بابلاً وقد نَفَثَتْ سحرها فى الكَلِم
ولـكنه الدِّين لا يُشترى بنثـر ولا بنظـام نُظِم
وكيف أُبيحُ حِمًّا مانعـا وكيف أُحَلِّل ما قد حَرُم
ألستُ أخاف عقاب الإلـه ونارًا مؤججة تضطـرم
أأصرفها طالقةً بتّةً على أنْوَكَ قد طَغَى واجترم
ولو أن ذاك الغبيَّ الخَمُول تثبَّت فى أمرى ما نَـدِم
ولـكنه طـاش مستعجلا فكان أحقَّ الوَرى بالندَم

ومن شعره أيضا قوله رحمه الله :

يا عليما بمُضْمرات القلوب أنا عـبْدٌ مُثْقل بالذنـوب
فاعفُ عنى وتُبْ على وفرِّج ما أنا فيـه من أليم الكروب
حالما أشتكى سواك طبيب كيف أُشْجَى به وأنت طبيب
أنا ممن دعا قريبٌ مجيبٌ فأَرِح ما بمُهْجَتى عن قريب

تواليفه

قال أبو القاسم بن خلف الغافقى ، حدثنى عنه الفقيه أبو خالد ابن يزيد بن محمد وغيره بتواليف ، منها كتاب « قُوت النفوس » ،

«وأنس الجليس» وهو كتاب حسن، ضمن فيه كثيراً من شمايل النبي عليه الصلاة والسلام.

توفى بغرناطة فى سنة أربعين وخمساية، وهو يحاصر الملثمين[١] بقصبة غرناطة حسبا ثبت فى اسم ابن هود أحمد[٢].

ومن الطارين والغرباء

عثمن بن يحيي بن محمد بن منظور القيسى

من أهل مالقة، يكنى أبا عمرو، ويعرف بابن مَنْظُور، الأُستاذ القاضى من بيت بنى منظور الإشبيليين أحد بيوت الأندلس المعمور[٣] بالنباهة.

حاله

كان رحمه الله صَدْراً فى علماء بلده، أستاذا ممتعا من أهل النظر والاجتهاد والتحقيق، ثاقب الذهن، أصيل البحث، مضطلعا بالمشكلات، مشاركا فى فنون، من فقه وعربية، برز فيهما، إلى أصول وقراءات وطب ومنطق. قرأ كثيراً، ثم تلاحق بالشادين، ثم غَبّر[٤] فى وجوه السوابق. قرأ على الأُستاذ أبى عبد الله بن الفخار، ولازم الأُستاذ أبا محمد بن أبى السداد الباهلى، وتزوج إبنة الفقيه أبى على بن الحسن، فاستقرت

(١) أعنى المرابطين

(٢) وردت فى أعلى هامش المخطوط (لوحة ٣٠٢) هذه الفقرة من كلام المختصر: «وما ينبغى أن يتنبه له ما قد يشتبه فى فتاوى هذا المترجم، وفتاوى القاضى أبى عمرو بن منظور قاضى غرناطة، وهو متأخر عن هذا من أهل المائة الثامنة من معاصرى الفقيه أبى عبد الله المواق. وفتاوى هذين الرجلين مسطورة فى «المعيار». والمعيار هو كتاب «المعيار المعرب عن فتاوى افريقية والمغرب» للفقيه المغربى أحمد بن يحيى الونشريشى المتوفى سنة ٩١٤ هـ.

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى الزيتونة (المعروف) والأولى أرجح.

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى الزيتونة (عرى).

عنده كتب والدها ، فاستعان بها على العلم والتبحُّر فى المسايل ، وقيد بخطه الكثير ، واجتهد وصنف ، وأقرأ ببلده ، متحرِّفًا بصناعة التوثيق ، فعظُم به الانتفاع ، وقعد للتدريس [خلفًا للراوية][1] أبى عثمن بن عيسى فى شوال عام تسعة وسبعماية وولى القضاء ببلِّش وقُمارش ، وملناس[2] ، ثم ببلده مالقة ، وتوفى قاضياً بها . لقيته ، وانتفعت بلقايه ، وبلوتُ منه أحسن الناس خُلُقا ، وأعذَبُهم فكاهة .

شعره

وكان قليلا ما يَصْدُر عنه ، كتب على ظهر الكتاب الذى ألفه للوزير أبى بكر بن ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الحكيم ، مُقتديا بغيره من الأعلام فى زمانه :

قدجمع الحُكم وفَصْلَ الخطاب ... ما ضمَّه مجموعُ هذا الكتاب
من أدب غضٍّ ومن عِلْيَـــةٍ ... تسابقوا للخَيْر فى كل باب
فجـاء فذًّا فى العُلى والنُّهى ... ومُنْتقى صَفْو لُباب اللُّباب
ألفه الحـبر الجليل الـذى ... حاز العُلا إرثا وكَسْبًا فطـاب

تواليفه

ألف كتاب « اللُّمع الجَدَلية فى كيفية التحدث فى علم العربية » . وله تقييد فى الفرايض حسن ، سماه « بُغْية المباحث فى معرفة مقدمات الموارث » ، وآخر فى المسح على الأمْاق[3] الاندلسى .

وفاته : توفى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين لذى حجة من عـام خمسة وثلاثين وسبعماية ، ولم يَخْلِف بعده مثله .

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (خلفا من الرواية) . والتصويب أنسب للسياق .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (منماش) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة .

على بن أحمد بن الحسن المذحِجى

من أهل حصن ملتماس[1] ، وابن وزيره الفقيه الحافظ القاضى ، يكنى أبا الحسن ، ويعرف بجدّه .

حاله

من أولى الأصالة والصِّيانة والتعفُّف ، والعكوف على الخير ، والآوين إلى طُعْمة مُتَوارثة ، ونباهة قديمة ، صنّاع اليد ، مُتقِن لكل ما يحاوله من تَسْعير ونِجارة ، مبذول المودة ، مُطْعم للطعام بدار له معدَّة للضِّيفان من فضلاء من تَطْوِه الطريق ، ويَغْشاه [من] أبناء السبيل . وُلى قضاء بلده فى نحو عشرين سنة ، فحمُدَت سيرته ، ثم وُلى قضاء مالقة ، فظهرت دُرْبته ومعرفته بالأحكام . فأُعفى وعاد إلى ما كان بسبيله من القضاء بموضعه والخطابة .

مشيخته : قرأ على الشيخين الصالحين ، أبى جعفر بن الزيات ، وأبى عبد الله بن الكماد ببلده ، بلِّش ، وأخذ عنهما .

تواليفه : له أجوبة حسنة فى الفقه . وصنف على كتاب البَراذعى تصنيفا حسنا ، بلغ فيه إلى آخر رِزمة البيوع ثلاثة عشر سفرا ، واستمرت على ذلك حاله .

توفى ببلده بلِّش فى .... [2] من عام ستة وأربعين وسبعماية .

على بن عبد الله بن الحسن الجُذامى النُّباهى المالقى

صاحبُنا أبو الحسن .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وهى نفس البلدة التى وردت فى الترجمة السابقة .

(٢) بياض فى المخطوط .

أوليته

تنظر فيما تقدم من أهل بيته والمذكورين فيه من سَلَفه(١) .

حاله

هذا الرجل ، وُلِّى قضاء الحضرة ، وخطابة جامع السلطان ، وعَرَض له تقزُّز فيما يقف عليه من مُنتخب وصفه ، وعدم رضاً بما يُجتهد فيه من تَحْليته ، فوكلنا التعريف بخصايصه ، إلى ما اشتهر من حميدها ، تحرُّجا مما يجرُّ عتْبه ، أو يثير عدم رضاه(٢) .

مشيخته

ذَكر أنه أخذ عن الشيخ الخطيب أبى بكر الطَّنجالى ، قريب أبيه ،

---

(١) سبق أن أورد ابن الخطيب ترجمة لأحد أجداده ، وهو الحسن بن محمد بن الحسن النباهى الجذامى (المجلد الأول ص ٤٦٥ – ٤٧٦) .

(٢) نود أن نضيف إلى هذه الفقرة الموجزة التى أوردها المختصر ، ما ذكره ابن الخطيب من أوصاف النباهى فى ترجمته الأصلية له ، وهى التى نقلها إلينا المقرى فى نفح الطيب . وذلك فيما يأتى :

« على بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن الحسن الجذامى المالقى ، أبو الحسن ، ويعرف بالنباهى . هذا الفاضل قريع بيت مجادة وجلالة ، وبقية تعين وأصالة ، عف النشأة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، خاطب للشيخوخة ، مستعجل للشيبة ، ظاهر الحياء ، متحرك مع السكون ، بعيد الغور ، مرهف الجوانب مع الانكماش ، مقتصد فى الملبس والآلة ، متظاهر بالسذاجة ، برىء من النوك والغفلة ، يقظ للمعاريض ، مهتد إلى الملاحن ، طرف فى الجود ، حافظ ، مقيد ، طلعة ، إخبارى ، قائم على تاريخ بلده . شرع فى تكميل ما صنف فيه ، ولازم التقييد والتطريف ، متفرعن الإجادات والفوائد . استفدت منه فى هذا الغرض وغيره كثيراً . حسن الخط ، ناظم ، ناثر ، نثره يشف على نظمه ، ذاكر الكثير ، استظهر محفوظات منها النوادر القالى ، وناهيك به محفوظاً مهجوراً . ومسلكاً غفلا ، فما ظنك بسواه . نشأ ببلده حر الطعمة ، فاضل الأبوة ، وقرأ به ، ثم ولى القضاء بملتماس ثم ببلش وعملها ، فسيح الخطة ، مطلق الجراية ، بعيد المدى فى باب النزاهة ، ماضياً غير هيوب . حتى أربى فى الزمن القريب على المحتنكين وغبر فى وجوه أهل الدربة ، وجرت أحكامه مستندة إلى الفتيا ، جارية على المسائل المشهورة . ثم نقل منها إلى النظر فى أمور الحل والعقد بمالقة ، مضافا إليه الخطط النبيهة وصدر له منشور من إملائى » .

(نفح الطيب ج ٣ ص ٤٦٩) .

والناظر عليه بعده بوصاته . وكان من أهل الدِّراية والرواية ، وعن الشيخ الفقيه أبي القاسم محمد بن أحمد الغسانى ، شُهر بابن حفيد الأمين ، وقرأ عليه الفقه والقرآن ، وسمع عليه ، وتلا على الشيخ الأستاذ المقرى أبى محمد بن أيوب ، وسمع عليه الكثير . وهو آخر من حدث عن أبى بن أبى الأحوص . وعلى الشيخ المقرى أبى القاسم بن يحيى بن محمد ابن درهم ، وأخذ عن قريبه القاضى ، نسيج وحده أبى بكر عبد الله بن بكر الأشعرى . ومن أشياخه صهره القاضى الأُستاذ أبو عمرو بن منظور ، والأُستاذ الحافظ المتكلم أبو عبد الله القطان ، والصُّوفى أبى الطاهر محمد ابن صَفوان ، والقاضى الكاتب أبو القاسم محمد البناء . وصحب الشيخ أبا بكر بن الحكيم ، ولازمه وروى عنه . ولقى الخطيب المقرى أبا القاسم ابن جُزىّ ، وأخذ نسبته عن الشيخ أبى القاسم بن عُمْران . وبرُنْدة عن القاضى المحدِّث المقيد أبى الحجاج يوسف المنتشافرى . ورحل فلقى بتلمسان عمران أبا موسى المِشدالى ، وحضر مجلسه ، والأخوين الإمامين أبا زيد وأبا موسى ابنى الامام . وبباجَة[1] ، أبا العباس أحمد بن الرُّباعى ، وأبا عبد الله بن هرون . وبتونس أعلاما ، كقاضى الجماعة أبى عبد الله ابن عبد السلام . قال ومن خطه نقلت ، وأجازنى من أهل المشرق والمغرب ، عالم كثير .

شعره

قال ، نظمت مقطوعتين ، مُوَطِّئًا بهما على البيتين المشهورين .

الأولى منهما قولى :

بنفسى من غِزْلان غزوى وغَـزالة　　　جمالُ مُحياها عن النُّسك زاجر

---

(١) المقصود هنا باجة الواقعة بشمال إفريقية (تونس) ، وليس باجة الواقعة فى غربى الأندلس.

تصيد بلحظ الطرف من رام صيدها ... ولو أنه النسر الذى هو طاير
معطرة الأنفاس رائقة الحلى ... هواها بقلبى فى المهامه ساير
إذا رمتُ عنها سلوة قال شافع ... من الحبِّ ميعاد السُّلو المقابر

والأخرى قولى :

وقائلة لما رأت شيب لمتى ... لئن ملت عن سلمى فعذرك ظاهر
زمان التصابى قد مضى لسبيله ... وهل لك بعد الشيب فى الحب عاذر
فقلت لها كلا وإن تلف الفتى ... فما لهواها عند مثلى آخر
ستبقى لها فى مضمر القلب والحشا ... سريرة ودٍّ يوم تبلى السرائر

وكتب مع شكل يحذو على النعل الكريم ، من شأنه أن يكتب ذلك لكل مزمع سفر :

فديتك لا يهدى إليك أجلُّ من ... حديث نبىِّ الله خاتَم رسله
ومن ذلك الباب المثال الذى أتى ... به الأثر المأثور فى شأن نعله
ومن فضله مهما يكن عند حامل ... له نال ما يهواه ساعة حمله
ولا سيما إن كان ذا سفرٍ به ... فقد ظفرت يمناه بالأمن كله
فدونك منه أيها العلم الرضا ... مثالا كريما لا نظير لمثله

ومن ذلك قوله :

لا تلجأنْ لمخلوق من الناس ... من يافث كان أصلا أو من الياس
وثق بربك لا تيأس ترى[1] عجباً ... فلا أضرَّ على عبدٍ من اليأس

ومن قوله يمدح السلطان ويصف الإعذار :

أبدى لنا من ضروب الحسن أفنانا ... هذا الزمان لمولانا ابن مولانا

يقول فيها لطف الله بنا وبه :

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تجد) .

ولا تحــرِّكْ لســانا ياأخـا ثقةٍ　　بريْم رامةٍ إن وفَى وإن خــانا
يظلُّ ينشر مَيْت الوَجْد عن جَدث　　من الجفون أو الأحشاء عِــريانا

ثم قال فيها بعد كثير يُرْجى عفو الله فيه :

فما النّسيب أولى من حديث علا　　عن الإمام يُنيل المرء رضوانـا
يمِّمه تَحْظَ بما أمّلْت من أمـل　　يُجنيك للسؤل أفنانا فأفنــانا

ومنها فى المدح :

مَلِكٌ يخِفُّ لراجيـه بنــــايله　　على وقار يُرى كالعين ثَمْلانـا
ملك يُنصُّ لـه الآلاء عــزته　　على السعادة فى الدارين فرقانا
العاطر الذِّكر ترتاح النفوس له　　تـخال فيه لها رُوحاً وريحـــانا
السّاحر المنطق فى شتّى العلوم　　إذا سألتَ منه لوجه الرُّشد هانا
كسا الزمان ثياب الفضل حتّى　　قضاعن مَنْكبي صرفه ظلماوعدوانا
وعظَّم الشرعَ حتى أن داعيــه　　لا يستطيع له المدعوُّ عِصيــانا

ومنها فى ذكر الإعذار :

لله درُّك يا مولاى مـن مـلك　　شيَّدتَ بالحق للإسْلام بُنيانـــا
ولـم تُبال ببَذْل المال فى غرض　　يعمُّ بالفضل وِلدانا وبلدانـــا
وقمتَ فى الولد الميمون طائرُه　　بسنَّة الدين إكمالا وإتقـــانـــا
بدا لنا قمرًا تَرْنُو العيون لــه　　مُقلَّدًا من نِطـاق المجد شُهْبانا
وقام يسحب أذيال الجمال على　　على بساط مُلكك بالإعذار جَذْلانا
خجلان بالقصُور عن بلوغ مدًا　　من العُلى بل الحسن منه قد بـانا
فَدَتْهُ أنفُسُنا لو كان يَقْبلُهـــا　　منا وكانت على الإبلال قُرْبانا
فيادمًا سال عن تقوى فعاد له　　بين الدِّماء طَهُورًا طيِّباً زانـــا

ولا دليـل على الغَفْلة المعَبَّر عنها بالسلامة والذهول كقوله : وقُمْتَ فى

الولد الميمون طائرُه . ومن ذلك قوله يخاطب صاحب العلامة بالمغرب أبا القاسم بن رِضوان ؛:

لك الله قلبى فى هواك رَهين ورُوحى عنى إن رحَلْت ظَعين
ملكت بحكم الفضل كُلِّى خَالصاً ومُلْكك للحرّ الصَّريح يزين
فهَبْ لى من نُطقى بمقدار ما به يُتَرجم سرٌّ فى الفؤاد دَفين
فقد شَمَلَتْنا من رضاك ملابس وسَحَّ لنا[1] من نَداك مَعين
أَعَنْتَ على الدهر الغَشُوم ولم تزل بدنياك فى الأَمر المُهِم تعين
وقَصَّر من لم تَعْلم النفس أنه خذول إذا خان الزمان يخون
وإنى بحمد الله [عنه][2] لَغِنى وحَسْبى صبرٌ عن سواك يصون
أَبَى لى مجدٌ عن كرام وَرِثته وقوفًا بباب للكرام[3] يَهين
ونفسى سَمَت فوق السَّماكين همَّة وما كل نفس بالهوان تَدين
ولما رأت عينى مُحيّاك أقسَمَت بأنَّك للفعل الجميل ضَمين[4]
وعادَ لها الأُنس الذى كان قد مضى برِيَّة إذ شَرْخُ الشَّباب خَدِين
بحيث نشأْنا لابسين حُلى التُّقى وكلٌّ بكل عند ذاك ضَنين
أما وسَنى تلك الليالى وطيبُها ووجدُ غرامى والحديث شُجون
وفِتيان صِدْق كالشُّموس وكالْحَيا حديثهم ما شِئت عنه يكون
لئن نَزَحَتْ تلك الدِّيار فوَجْدُنا عليها له بين الضُّلوع أَنين
إذا مرَّ حينٌ زاده الشوق جِدَّة وليس يُعاب للرُّبُوع حَنين
لقد عَبَثَت أيدى الزمان بجَمْعنا وحان افتراقٌ لم نَخَلْه يَحين

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (لدينا) .
(٢) الزيادة من النفح .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الكريم) .
(٤) وردت فى الإسكوريال (ضنين) والتصويب من النفح .

وبعد التقَيْنا فى محَلٍّ تغرُّبٍ ... وكل الذى دون الفِراق يَهُون
فقابلتَ بالفضل الذى أنت أهْلُه ... ومالك فى حُسْن الصنيع قَرين
وغِبتَ وما غابت مكارِمُك التى ... على شُكْرها الربُّ العظيم يُعين
يمينًا لقد أولَيْتَنا منك نعمةً ... تلذُّ بها عند العِيان عيون
ويَقْصُر عنها الوصف إذ هى كلها ... لها وجه حُرٍّ بالحياء مَصُون
ولمَّا قَدِمت الآن زاد سرورنا ... ومَقْدمك الأَسْنَى بذاك قَمين
لأنك أنت الرُّوح منا وكلُّنا ... جسومٌ فعند البعد كيف تكون
ولو كان قَدْرُ الحب فيك لقاؤنا ... إليك لكنا باللُّزوم ندين
ولكن قَصَدْنا راحة المجد دوننا(١) ... فراحتُه شَمْل الجميع تصون
هنيئًا هنيئًا أيها العَلَم الرِّضا ... بما لَك فى طىِّ القلوب كَمين
لك الحسن والإحسان والعِلْم والتُّقى ... فحبُّك دُنيا للمُحبِّ ودِين
وكم لك فى دار(٢) الخلافة من يدٍ ... أقرَّت لها بالصِّدق منك مَرِين
وقامت عليها للملوك أدلَّة ... فأنت لديها ما حُيِّيت مَكين
فلا وجهٌ إلا وهو بالبشر مُقبل(٣) ... ولا نُطق إلاَّ عن عُلاك مُبين
بقيت لربْع الفضل تحمى ذِماره ... صحيحا كما قد صحَّ منك يقين
ودونك يا قطبَ المعالى بُنَيَّة ... من الفِكر عن حال المحبِّ تُبين
أتَتْك ابن رضوان تَمُتُّ بوُدِّها ... وما لسوى الإغضاء منك ركون
فخلِّ انتقاد البحث(٤) عن هفواتها ... ومهِّد لها بالسَّمح حيث تكون
وخذها على عِلَّاتها فحديثها ... حديث غريب قد عراه سُكون

ومن شعره قوله فى ليلة الميلاد الكريم من قصيدة :

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (جهدنا) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (باب) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مشرق) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (البحر) .

خليلى مُرّا على أرض مـأْرَبٍ ولا تَعْذلانى إننى غير آيب

وهى طويلة أثبتت فى الرِّحلة . فلينظرها هنالك من أراد استيفاء غرضها .

نثره

من أمْثَل ما صدر عنه فى غرض غريب ، وهو وصف نخلة بإزاء باب الحمراء . ونثره كثير ، ولكننا اخترنا له ما اختار لنفسه ، وأشاد بشُفُوفه على أبناء جنسه :

يا أيها الأخلاَّءُ الذين لهم الصَّنايع ، التى تحسدها الغَمايم ، والبدايع التى تودُّها بدلا من أزهارها الكمايم ، بقيتم وشَمْلكُم جَميع ، وروض أملكم مَريع ، والكل منكم للغريب الحَسَن من حديث المُحبِّ سميع ،

بأرض النخل قلبى مُسْتهام فكيف يَطيب لى عنها المُقام

لذاك إذا رأيتُ لها شـبيها أقول وما يُصاحبنى مـلام

ألا يا نخلة من ذات عِـرْق عليك ورحمة الله السَّـلام

فسلَّمتُ يوما تسليم المبرَّة ، على مدنها الحرَّة البرَّة ، جارة حايط الدار ، الواقفة للخدمة كالمنار ، على سِدَّة الجدار ، ببياضَ النهار ، وسوادَ الليل ، المتلفِّعة بشِعار الوقار ، المكفولة الذَّيل ، أنِيسة مَشْيخة الجماعة ، القاطنة من الحمراء العليَّة ، بباب ابن سَماعة ، فحين عَطَفتُ عليها ، وصَرَفتُ زمام راحِلتى إليها ، ووقفت بإزاء فناءها ، ولكنها وقوف المشفق من فناءِى وفنائها ، وقلت لها كيف حالك أيتها الجارة ، السَّاكنة بنَجْدة الحجارة ، الواعظة للقريب والبعيد ، بمقامها صامتة على الصَّعيد .

سقاكِ من الغُرِّ الغوادى مَطيرُهـا ولا زلتِ فى خَضْراء غضّ نظيرُها

فما أحقَّكِ مِنْ باسِقَة بالتَّرحيب ، وأقْربَكِ من رحَمات السَّميع المجيب ، خِلتُها اهتَزَّت عند النَّداء اهتزاز السُّرور ، وتمايَلت أكْمامها تمايُل الثَّمِل

المَسْرور ، ثم قالت لسايِلها بِلسان وسايلها ، عند مشاهدة مِثلى تقول العرب ، عينُها فرارها ، واينو جَدُّها للناظرين اصفرارُها ، وجملة بُخيَّتى ، بعد إتمام تحيَّتى ، أنَّ الدهر عَجَم قَناتى ، ومسَّ الكِبَر كدَّر سِناتى ، وما عسى أن أبث من تُكْناتى ، وجلُّ عُلاتى من تركيب ذاتى . ولكنَّى أجد مع ذلك ، أنَّ وقارى ، حسَّن لدى الحىِّ احتقارى ، وكثرةُ قناعتى ، أثمرت إضاعتى ، وكمالُ قدِّى ، أوْجَب قدِّى ، فما أنْسَ م الأشياء ، لا أنْسَ عُدوان جُعسوس من لعْبُوش اليهود أو المجوس ، يفْحَص بمُدْيَته عن وريدى ، ويحرص على مدِّ جريدى ، ويجْدَع كل عام بخَنجره أنْفِى ، وكلما رُمْتُ كفَّ إذايته عنى ، كشم كف ، فلو رأيتم صَعْصَعة أفنانى ، وسَمِعتم عند جَذْم بَنانى ، قَعْقَعة جَنانى ، والدمع لمَّا جَفانى ، يفيض من أجفانى ، والجُعسوس الخبيث المنحُوس ، قد شد ما حدَّ بأمْراسه ، ورفعه لبيعة كفْره على راسه . بعد الأمر بوضعه على أسْنِمة القبور ، حسبما ثبت فى الحديث المشهور ، لحَمَلَتكم يا بنى سام وحام على الغَيْرة وشايج الأرْحام ، فقد علمتم بنصِّ الأثر ، أنى عمَّتُكم القديمة ، وإن لم أكن لذلك بأهل ، فإنى لكم اليوم خَدِيمة ، أو من ذُرِّية الفريق الموجب، المضروب به المثل يوم السَّقِيفة ، لمن رام من أشراف الأندلس أن يكون إذ ذاك خليفة . وخالةُ أبى كانت النخلة البَرْشَا الكبيرة ، التى حادثها الأمير عبد الرحمن بالرُّصافة(١) القريبة من كورة إلبيرة . فكيف يسهل اليوم عليكم إهمالى ، ويَجْمُل لديكم إخمالى ، وترك احْتِمالى ، والأيام والحمد لله مُساعدة ، والمُلْك مُلْك بنى ساعدة . فلما سمعتُ عِتابها ، وعلمت

---

(١) يشير هنا إلى الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، أول أمراء بنى أمية بالأندلس ، وإلى قصيدته التى يخاطب بها نخلة وحيدة رآها بحى الرصافة ، ضاحية قرطبة ، ومطلعها :

تبدت لنـا وسط الرصافة نخـلة   تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

أنها قد شَدَّت للمناضلة أقتابها . قلت لها أهلاً بك وسهلاً . ومهلا عليك أو بَهْلاً ، لقد دسع[١] بعيرُك ، وعادت بالخيبة عيرُك . فليست الحقيقة كالمجاز ، ولا جليقية فى النيّات كالحجاز . هنا جنَّات من أعناب مُرسلة الذُّيول ،مُكملة الأطْناب ،قد طاب استْيارها ، وحَمُد اختْبارهاواختيارها ،وعَذُبَت عيون أنهارها ، وتفتّحت كمايم أزهارها ، عن وَرْدها ونَرْجسها وبَهارها ، وسَرَتْ بطَرْف محاسنها الرِّفاق ، حتى قَلِقَت منها الشّام واليمن والعراق . فحين كثر خيرُها ، سُحِر بالضّرورة غيرُها ، وأنت لا كنتِ يا خَشَبة ، قد صِرت من المنال عُشْبة ، وأصبحت نَذْلى خالفة ، ورَذْ لى بالهم تالفة ، لا يُجتنى بلَحك ولا طَلْعك ، ولا يُرتجى نَفْعك ، فالأولى قَطْعك أو قَلْعك ، وإلا فأين قنوك أو صنوك ، أو تمرك أو سَبْرك ، هلا أبقيت يا فَسِيلة على نفسك ، وراعيتِه صَلْحة جنسك . ولقد انتهت بك المحارجة إلى ارتكاب ما لا يجوز ، وفى علمك أنّ من أمثال الحكماء ، كُلّ هالك عجوز . حسبك السّمح لك بالمُقام ، ما دمتِ حيّة فى هذا المقام . فانقطع كلامُها ، وارتفع بحكم العجز ملامُها . وما كان إلا أن نُقل مقالى . فقال المتكلم بلسان القالى ، أنا أتطوّع بالجواب ، وعلى الله جزيلُ الثّواب ، ليعلم كلُّ سايل ، أنّ تفضيل النخل على العِنب ، من المسايل التى لايَسَع فيها جحد جاحد ، وإن كانا أخوين سُقِيا بماءٍ واحد . وقد جرى مِثلُ هذا الخطاب بين يدى عمر بن الخطاب ، فقيل يا بنى حتمة ، أيهما أطْيَب ، الرُّطب أم العنب ، فقال ليس كالصقر ، فى رؤوس الرّقل ، الراسخات فى العقل ، المُطْعمات فى المَحْل ، تحفة الصّايم ، ونُقلة الصّبى القادم ، ونزل مريم بنت عمران . والنخلة هى التى مُثِّل بها المؤمن من الإنسان ، ليس كالزّبيب ، الذى

(١) وردت فى الإسكوريال (دسع) ، ونعتقد أن التصويب أرجح ، وأكثر اتساقاً مع المعنى.

إن أكلته ضَرِست ، وإن تركته غربت ، وكفى بهذه الرواية حُجة ، لمن أراد سلوك المحَجّة . وعلى كل تقدير ، فقد لزم التفضيل للنخلة على الكَرْمة ، لزوم الصِّلة للموصول ، والنَّصب للمُنادى المطول ، والعجز لِكتابي المُحصَّل والمحصول . وكم على تَرْجيح ذلك من قِياس صحيح ، ونقل ثابت صريح . قال ، واعتذاركم بالمَهْرمة عن فعل المَكْرمة لأمة فى تلك الطِّباع كامنة ، وسامة للتَّلف لا للخَلَف ضامنة . وذكرتم الثَّمرة والبُسرة ، والوقت ليس بوقت عُسرة ، فأذكرتم قول القايل ، فى بعض المسايل . دَعْنا من تمرتان وبُسرتان أو تمرتين وبُسرتين ، على الوجهين ، المتوجِّهين فى المَسْلتين ، وفى ضمن ذكركم لذلك أدلَّة صدق على تطلُّع النفس الفقيرة ، لِلأعراض التافهة الحقيرة ، والإمامة العظمى ، أجلُّ عندنا وأسمى . من أن تَلْحظ بعينها تلك الملاحظ ، ولواصل لديها مراتِبُها وأفكارُها ببَيانه وتبْيانه ، عمرو بن بحر الجاحظ ، إذ هى كافأ الله فضلها، ولا قلَّص ظلَّها كالسَّحاب ، نجود بغَيْثها على الآكام والضِّراب ، ومنابت الشجر من التُّراب ، فضلا عن الخدمة والأتراب ، فليس يَضيع مع جميل نَظَرها ، ذو نسب ، ولا يُجهل فى أيامها السَّعيدة مقدارُ مُنْتَسب إلى حَسَب . وإن وقعت هفوة صغيرة ، أعقَبتها حَسَنة كبيرة ، ومِنَن أثيرة ، ونِعم كثيرة . ولم لا ، ورُوح أمرها ، ومذهب نُصرة جَمْرها ، عِلْم السادة للقادة الأكابر ، المغرم بجَبْر كل كَسِير ، وناهيك من به جابر الرازى[1] ، ذكر مآثره ، بعرف أطيب الطِّيب . الوزير أبو عبد الله بن الخطيب . والمطلوب منه لهذه الشجرة الثَّرما ، الغريبة الشَّما ، التى أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء ، إنما هو يسير بنا . وظهير اعِتنا ، وخنجر يُرما ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الزارى) .

لعل عَباسة أديم دوها أن تذهب . وأكمام كباسة قنوها ، أن تُفَضَّض بنعيم النُضارة ثم تُذَهَّب ، ويعود إليها شَرْخُ شبابها ، وتستحكم صُفْرة ثيابها ، وخُضْرة جِلبابها ، وذلك كله بمنٍّ اللاطيف الخبير ، من أسهل العمل على مجد الأمير ، وفضل الوزير ، إذ هما ، دام عزُّهما ، على بيِّنة من أن الإحسان ألقاح ، والشكر نتاجه . والثناء إكليل ، وهو فى الحقيقة تاجه . قال المسلم ، ومن يا إخونى لعلى ، بمعارضة الحافظ أبى على ، ولو أنى اشتملت شملة النَّضر بن شُميل ، وأصبحت أفصح من عامر بن الطُّفيل ، وأخطب من شُبَيب ، وأشعر من حبيب ، وجُزْت من طرق الجدال ، منازل نقدة صدور الابدال . وعلى أنه ما قال إلا حقًّا ، فبُعْدًا للمرء وسُحْقًا . ولكنى أقسم عليكم بمُقَدِّر الضِّيا والحَلَك ، ومُسَخِّر نجوم الفَلَك ، بإصابة الأَغْراب ، وأصحاب الإغراب ، وأرباب فنون الإعْراب ، ألا ما تأَمَّلتم فصول هذه المقالة ، وأفْتَيتم عما يترجَّح فيها لديكم من نَسْخ أو فَسْخ ، أو إجادة أو إقالة ، فأنتم علماء الكلام ، وزعماء كَتايب الأقلام ، والمراجعات بين شقاشق الرجال ، شَنْشَنة معروفة ، وطريقة إليها الوجوه فى كثير من المخاطبات مَصْرُوفة ، لازلتم مذكورين فى أهل البيان ، مشكورين على بَذْل الفضل مدى الأحيان . والله سبحانه يجعل التَّوفيق حاديكم ، ونور العِلم هاديكم ، ومنه نَسَل جلَّ اسمه ، التطهير من كل مَعابة ، والسَّمح فيما تخلَّل هذه المَقامة من دُعابة ، والتحية الكريمة مع السلام الطيب المُعاد ، يُعتمد من يقف عليها من الآن إلى يوم المَعاد ، والرَّحمات والمسرات والبركات والخيرات . من كاتبها على بن عبد الله

ابن الحسن ، أرشده الله[1] .

المقريون والعلماء

على بن أحمد بن خلف بن محمد بن الباذش الأنصارى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا الحسن ، الشيخ الأُستاذ ، إمام الفريضة بجامع غرناطة .

حاله

من الملاّحى ، أوحد زمانه إتقانا ، ومعرفة ، ومشاركة فى العلوم ، وانفرادا بعِلم العربية . وكان حسن الخطّ ، كثير الكتب ، ترك منها بخطه كثيرا جدا ، مشاركا فى الحديث ، عالما بأسماء رجاله ونَقَلَته ، مع الدِّين ، والفضل ، والزهد ، والانقباض عن أهل الدنيا ، وتَرْك المُلابسة لهم .

مشيخته

قرأ على المُقرى بغرناطة أبى القاسم نِعْم الخلف بن محمد بن يحيى الأنصارى ، وأبى على الصّدفى . وغيرهم ممن يطول ذكرهم . وحدث [عنه] القاضى

---

(١) يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن هذه الترجمة التى أوردها ابن الخطيب فى الإحاطة لأبى الحسن النباهى ، وأشاد فيها بجميل صفاته . قد كتبت حوالى سنة ٧٦٩ – ٧٧٠ هـ ، حينما كان ابن الخطيب فى أوج سلطانه فى الوزارة ، وكان النباهى وهو يشغل يومئذ منصب قاضى الجماعة ، من أصدقائه وأوليائه . فلما تغيرت الأحوال ، وشعر ابن الخطيب بتغير مليكه عليه ، ونشبت الخصومة بينه وبين النباهى ، واضطر فى النهاية إلى أن يغادر الأندلس لاجئاً إلى المغرب تحت كنف السلطان عبد العزيز المرينى ، وكتب بعد ذلك كتابه «الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» كتب ترجمة جديدة لأبى الحسن النباهى ، تفيض بالطعن المر ، والهجاء المقذع ، والأوصاف المخدشة وذلك حسبما أشرنا إليه فى مقدمة المجلد الأول من الإحاطة . (راجع الكتيبة الكامنة – طبع بيروت سنة ١٩٦٣ – ص ١٤٦ وما بعدها) .

أبو الفضل عياض بن موسى ، والقاضى أبو محمد بن عطية ، والقاضى أبو عبد الله بن عبد الرحيم ، والقاضى أبو بكر جابر بن يحيى التّغلبى ، والقاضى أبوخالدعبد الله بن أبى زَمَنين، والقاضى أبو الحسن بن أضحى.

تواليفه

ألّف فى النحو كتبا كثيرة ، منها على كتاب سيبويه ، وعلى كتاب المُقْتضب ، وعلى الأُصول لابن السّراج . وشرح كتاب الإيضاح ، وكلامه على كتاب الجُمل لأبى القاسم ، وكلامه على الكافى لابن النحاس. مع التنبيه على وَهْمه فى نحو مائة موضع ، إلى غير ذلك .

شعره

قال أبو القاسم ، وله نظم ليس بالكثير . فمن ذلك :

أصبحت تقعد بالهوى وتَقوم ... وبه تقرّظ معشرًا وتُـبـديم
تُعنيك نفسك فاشتغل بصلاحها ... إننى بغير السّقام سَقيم

وفاته

توفى بغرناطة سنة ثمان وعشرين وخمسماية ، وصَلى عليه إثر صلاة العصر ، ابنه الأُستاذ أبو جعفر ، ودفن بمقبرة باب إلبيرة ، وازدحم الناس على نعشه ، وكانت جنازته حافلة ، وتفجع الناس على قبره . وقبره مشهور ، يتَبرك به الناس .

على بن محمد بن درى

المُقرى الفقيه ، الخطيب أبو الحسن ، الإمام بجامع غرناطة ، أصله من طليطلة .

حاله

كان من خِيار الناس وفُضلائهم، وأهل المعرفة منهم ، عارفا بإقراء كتاب الله عز وجل ، والرواية للحديث . أخذ الناس عنه ، وكانت عنده مُشاركة ، ومسارعة لقضاء الحوايج ، والمشى للإصلاح بين الناس ، والإشفاق على المساكين ، كثير الصدقة ، والسَّعى فى فِداء الأَسرى ، والوسائط الجميلة فى مُهمات الأُمور ومشكلاتها . دخل رجل تاجر غريب الميضأة للوضوء ، فنسى بها وعاءً فيه جملة مال ، فتذكَّرَ له ، فرجع ولم يجده ، فسقط مغشيا عليه ، فاجتمع عليه الناس ، وهو يقول مالى ، ووافق خروج الأُستاذ أبى الحسن المذكور من الجامع ، فسأَل عنه ، فجالس أذُنه ، فقال مالَك عندى وديعة تركته أنت عندى ، وإذا كان بعد صلاة العصر تأخذه . فقام الرجل ، فكأنما نشط من عِقال ، ومشى الخطيب فى حينه ، إلى مُشرف غرناطة ابن مالك ، فقال له ، إنى اشتريت لك قصرًا فى الجنة ، بخمس مائة دنير ، وأنا الضَّامن لذلك ، فشكره ، وأخبره الخطيب بالقصة ، فدفع إليه المال ، فدفعه إلى الرجل . وكان الناس لا يتوقَّفون له فى أمر .

مشيخته

روى بطُليطلة عن أبى عبد الله المقامى ، وعن أبى مُسلم الضرير المقرى ، والقاضى أبى الوليد الوقَّشى ، وأخذ عن أبوى على الصَّدفى والغسانى ، وعن أبى مروان بن سِراج ، وابنه سِراج .

توفى بغرناطة فى رمضان ستة عشرين وخمسماية ، وصَلى عليه القاضى أبو القاسم بن ورد ، ودفن فى مقبرة باب إلبيرة ، وكانت جنازته حافلة ، وتفجع الناس عليه ، واخلصوا الدعاء له .

ومن رثاه ، أبو عبد الله بن أبي الخِصال بقوله :

عِتاب وما يُغنى العتاب على الزمن ... وشكوى كما تشكو الرِّياح إلى السفن
وما رضِيت بعد الغضارة أيْكة ... نَبَحت ولكن عالم الكون ممتحن
وماذا عليه والسَّلامة حظُّه ... بأن تتخطاه النَّوايب والمِحن
فليتَ كريماً يُنعش للناس خيره ... يَعْمُر فيها عُمرته الآن أو حضن
ولكنه يمضى كظلٍّ غمامة ... ويبقى لسم سرِّه غير مؤتمن
يود الفتى طول البقاء وطوله ... يورثه ثُكل الأحبَّة والبَدَن
وأى اغتباط فى حياة مرزّا ... يروح على بثٍّ ويغدو على شجن
زيادته تَنُقُّص وجِدَّته بِلى ... وراحته كَرْب وهُدنته دَخن
إذا فوَّق السهم المُصيب فقَلْبُه ... ومن صار فيه من أحبَّته فتن
فيا عجباً للمرء يلتذُّ عيشه ... لُزَّث مع الموت فى قَرَن
أرى كلَّ حيّ للمنيَّة حاملا ... فياويحه مما تحمَّل واحتَضَن
إذا زادت الأيام فينا إساءة ... نزيد على علم بما ساء حُسن ظَن
ولم أر مثل الموت حقًّا كباطل ... وكل قباليُّه بالموت مُرتهن
أإخواننا لم تبق إلاَّ تحية ... أرقد بها تلك المعاهد والدمن
أإخواننا هل تسمعون تحيتى ... وذو كلم ما تحجَّب السِّر والعلن
أبا الحسن خلد فى الجنان مُنعما ... جز اء بما أسلفت من سعيك الحسن
يطير فؤادى روعةً فإذا رأى ... مُحياك فى دار الغَنا والرِّضا سكن
وقد كنت ترتاد المواطن إذ نَبَتْ ... فبوَّأك الرحمن فِرْدَوسه وطَن
وبتَّ مُعنى بالجلاء فَنِلْته ... وقد كان حاديه يُغَرِّد بالظَّعَن
ولم ترض إلا الأرض هجرتك التى ... تخيَّرها الأولياءُ على القِنن
وفى مثلها أن الرسول لسعد ... وقد واراه أكرم مدفن

على أنك المدعُوُّ من كل بلــدة ... هلمَّ فإنَّا دونك الحجب والجُنن
سيرضيك من أرْضَيته فى عبــاده ... وجاهدت فيه بالفُروض وبالسُّنن
ويبقى كما بَقيت بعدك أنه لهم ... فلما استَهوتهم روعة ســكن
ويحفظهم حِفظ اليتيمين أيِّـدا ... بوقع جدار قد تداعى وقد وَهَن
أبا الحسن إن المدى بعد ما بدا ... طويلٌ ولا يُعتد فى جنب ما بطن
وأسـير وجْد فى فـراقك أنــه ... سيبقى عليك الوَجْد ما بقى الزمن
سقى الله والسُّقيا بكفَّيه تــربة ... مباركة ضمَّتْك أســرع ما هتن
ولا برِحْتَها ديِّمة مُستهلة إذا ... ركضتها الرِّيح قام بها جـرن
فلا زلت فى رَوض ورُوح ورحمة ... ومقبرة تَتْرى على ذلك الجنن

على بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الـكنانى القيجاطى

يكنى أبا الحسن ، أصله من بَسْطة ، واستوطن غرناطة ، حتى عُدَّ من أهلها قراءة وإقراء ولزوما

حاله

من « العايد »(١) ، أوحدُ زمانه علما وتخلُّقا وتواضعا وتفنُّنا . ورد على غرناطة مُسْتدعى عام اثنى عشر وسبعماية ، وقعد بمسجدها الأعظم يُقرى فنونا من العلم ، من قراءات وفِقه وعربية وأدب . ووُلِّى الخطابة ، وناب عن بعض القضاة بالحضرة ، مشكور المآخذ ، حسن السِّيرة ، عظيم النفع . وقصده الناس ، وأخذ عنه البعيد والقريب . وكان أديبا لوْذَعيا ، فكِها ، حُلوا . وهو أول أُستاد قرأتُ عليه القرآن والعربية والأدب ، إثر قراءة المكتب(٢)

---

(١) العايد ، أى كتاب عايد « الصلة » ، لابن الخطيب ، وقد سبق التعريف به فى المقدمة .

(٢) وردت فى الإسكوريال (المنكب) والتصويب من الزيتونة

مشيخته

قرأ على أبيه ببلده بسطة القرآن ، بالرّوايات السبع . وجمعها فى خَتْمة ، وعلى الأُستاذ أبى عبد الله بن مساعد الغسّانى . وقرأ بغرناطة القرآن على الأُستاذ أبى عبد الله بن مستقور[١] ، والأُستاذ أبى جعفر الطبّاع ، والأُستاذ الشهير أبى الحسن بن الضايع[٢] ، والأُستاذ النحوى أبى الحسن الأُبّدى . وعلى القاضى أبى عمرو بن الرُّندى ، والفقيه القاضى أبى على بن الأَحوَص ، وعلى الفقيه النسّابة أبى جعفر بن مسعدة ، والأُستاذ العلامة أبى جعفر بن الزبير . ولقى الشيخ الصالح ولى الله أبا إسحق بن عُبيدسْ[٣] وحضر مجالسه العامة . وذكر أنه كان يفتتح مجلسه الذى يتكلم فيه بقوله : لا حول ولا قوة إلا بالله ، كنز من كنوز الجنة ، رزَقنا الله الأَدب مع الله ، واستعمَلَنا فيما يُرضيه ، ويُرضى رسوله ، وجعل حظّنا فى الدار الاخرة . ولقى الإمام بجامع بسطة الخطيب الراوية أبا الحسن بن نافع وغيرهم ، وله تواليف فى فنون ، وشعر ، ونثر فمن شعره قوله :

روضُ المشيب تفتحت أزهاره ... حتى استبان ثغامه وبَهاره
ودُجى الشباب قد استبان صباحه ... وظلامُه قد لاح فيه نهارُه
فأتى حِمام لا يُعاف وقوعه ... ومضى غروبٌ لا نخاف مطاره
والعُمْر مثل البدر يُرمق[٤] حسنه ... حينا ويَعقب بعد ذاك سِراره
للإخاء تقلّصت أفياؤه ... ما للصّفاء تكدّرت آثاره
الحرُّ يصفح إن أخلّ خليلُه ... والبَرُّ يسمح أن تجرّأ جارُه

(١) وردت فى الإسكوريال (مسمور) وفى الزيتونة (مسمقور) وكلاهما تحريف
(٢) هكذا وردت فى المخطوطين ، وربما كانت (الصايغ)
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (ابن عبديس)
(٤) هكذا فى الإسكوريال وفى الكتيبة الكامنة (يونق).

فتراه يدفع إن تمكن جاهه ... وتراه يرفع[١] إن علا مقدارُهُ
ولأنت تعلم أننى زمن الصبا ... ما زلت زندا والحياءُ سِواره
والهجر ما بين الأحبّة لم يزل ... ترك الكلام أو السّلام مشارُه
ولكم تجافى عن خَفاءِ خليله ... فَطِنٌ وقد ظفِرت به أظفارُه
ولكم أصرٌ على التّدابر مُدبر ... أفضَى إلى نَدم به إصرارُه
فأقام كالكُسَعِى بان نهاره ... أو كالفرزدق فارقته نواره
أنكرتم من حقٍّ مُعترف لكم ... بالحقِّ ما لا ينبغى إنكاره
والشّرع قد منع التقاطع نصّه ... قطعا وقد وردت به أخباره
والسّن سن تورّع وتبرّع ... وتسرّع لتشرّح تختاره
مايومنا من أمْسِنا قطك[٢] اتّبت ... ذهب الشّباب فكيف يبقى عاره
هلّا حظرتم أو حذرتم منه ما ... حقٌ عليكم حَظْره وحِذارُه
عجبا لمن يجرى هواه لغاية ... محدودة أضماره مضماره
يأتى ضُحًى ما كان يأتيه دُجًى ... فكأنّه ما شاب منه عِذاره
فبعد ما تنْعى به حسناتُه ... ويعيد ما تَبْقى به أوزاره
فالنفس قد أجرته ملءَ عِنانه ... يشتد فى مضمارها[٣] إحضاره
والمرءُ من إخوانه فى جنّة ... بل جَنّة تجرى بها أنهاره
فاليُمن قد مدّت إليه يمينه ... واليُسْر قد شُدت عليه يساره
شِعر به أشعرت بالنصح الذى ... يَهْديه من أشعاره إشعاره
ولو اختبرتم نقده بمحكّه ... لامتاز بهرجه ولاح[٤] نضاره

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الكتيبة الكامنة (ينفع) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الكتيبة الكامنة (قدك) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الكتيبة الكامنة (إحضارها) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الكتيبة الكامنة (وبان) .

هذا هدى فيه اقتده تنل المنا[1] أو أنت فى هدا وما تختـاره
وعليكم منى سلامٌ مثل ما أرّجت بروض يانع أزهـارُه

ومن شعره فى الرِّثاء قوله من قصيدة .

حَمَام حِمام فوق أيك الأسى تَشْدو تهيج من الأشجان ما أَوْجَد الوَجْد
وذلك شجوٌ فى حناجرنا شجى وذلك لهوٌ فى ضمايرنا جِدٌّ
أرى أرجل الأرزاء تشتدُّ نحونا وأيديها تسعى إلينـا فتمتدُّ
ونحن أولو سهو عن الأمر ما لنا سوى أملٍ إيجابنا عنده جَحْدُ
فإن خطرت للمرء ذكرى بخاطر فتَسْبيحه السّاهى إذا سُمع الرعد
مصاب به قُدَّت قلوب وأنفس لدينا إذا فى غيره قُطعت بُرد
تلين له الصُّم الصلاب وتَنْهَمِى عيون ويَبكى عنده الحجر الصَّلد
فلا مُقْلة ترنو ولا أذنٌ تَعِى ولا راحةٌ تعطو ولا قدم تَعْدو
وقد كان يبدو الصبر منا تجلُّدا وهذا مصاب صبرنا فيه لا يَبْدو

مولده : عام خمسين وستماية .

وفاته : توفى بغرناطة ضحى يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ذى حجة من عام ثلاثين وسبعماية ، ودفن فى عصر اليوم بعد بجبانة باب إلبيرة . وكان الحفل فى جنازته عظيما ، حضرها السلطان. واحتمل الطلبة نعشه[2] .

ومن الطارئين
عمر بن عبد المجيد بن عمر الأزدى

المعروف بالرُّندى ، من أهل رندة يكنى أبا على .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الكتيبة الكامنة (الرضا) .

(٢) أورد ابن الخطيب للمترجم ترجمة أخرى فى كتابه (الكتيبة الكامنة فى من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة) ، الذى سبقت الإشارة إليه (ص ٣٧ – ٤٠) .

حاله

كان من جملة المُقْرِيين ، وجهابذة الأُستاذين ، مشاركاً فى فنون ، نقّادا ، فاضلا .

مشيخته

روى عن أبى زيد السُّهيلى ، وعنه أخذ العربية والأدب ، وبه تفقّه ، وإياه اعتمد . وعن أبى محمد القاسم بن دحمان ، وأبى عبد الله بن أبان ، وتلا على هؤلاء القراءات ، بقراءات السَّبعة . وعن أبى اسحق بن قرقول ، وأبى عبد الله بن الفخار ، وأبى الحسن صالح بن عبد الملك الأوسى ، وأبى محمد عبد الحق بن بُونه . وأبى عبد الله الحميرى الإستجّى ، وأبى العباس بن اليتيم ، وأبى عبد الله بن مُدرك ، وأبى القاسم بن حُبيش وأبى عبد الله بن حُميد . أخذ عن هؤلاء بمالقة ، من أهلها ، ومن الواردين عليها . ورحل إلى غرناطة ، فأخذ بها عن يزيد بن رفاعة ، وابن كوثر ، وابن عروس ، وأبى محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم بن الفَرَس ، وأبى جعفر ابن حكم . وإلى قرطبة ، فأخذ بها عن ابن بشكُوال ، وأبى القاسم الشَّراط . وإلى إشبيلية ، فأخذ بها عن أبى بكر بن الجد ، وأبى عبد الله بن رزق ، وابن خير ، وابن صاف . وأخذ بسبتة عن ابن عُبيد الله . وبالجزيرة الخضراء عن القاضى أبى جعفر بن عَزْرة . هؤلاء جملة من أخذ عنهم باللقاء والمشافهة . وأجازه جماعة من أهل المشرق كبيرة ، ذكرهم فى برنامجه ، كالخُشوعى ، والأرحى ، والحرشانى ، وحدَّث عن السِلفى الحافظ بإجازته العامة .

تواليفه

شرح جُمل أبى القاسم الزّجاجى ، وردٌّ على ابن خروف ، منتصراً

بشيخه أبي زيد السهيلي في مسئلة نحوية ، رد فيها ابن خروف على السُّهيلي وقيَّد فيما جرى بينه وبين الأُستاذ أبي محمد القرطبي ، جزءًا سماه «بالحقبي[1] في أغاليط القرطبي» ، لم يخل فيه عن حَمْل وتعسُّف. وألَّف برنامجاً جامعاً. روى عنه أبو عبد الله بن عسكر القاضي ، والشيخ أبو عبد الله بن عبيد الأُومى ، وأبو عبد الله الطَّنجالي ، والخطيب ابن أبي ريحانة .

مولده : سنة سبع وأربعين وخمسماية .

وفاته : توفي سحر يوم الجمعة الموفى عشرين لشهر ربيع الثاني سنة عشر وستماية .

عثمن بن سعيد بن عثمن بن سعيد الأموى

المُقرى ، الحافظ المعروف بابن الصَّيرفي ، قرطبي الأَصل ، يكنى أبا عمرو ، ويشتهر بالدّاني ، لاستيطانه دانية . ودخل إلبيرة ، وقرأ على أبي عبد الله بن أبي زَمَنين ، فوجب ذكره لذلك .

حاله

كان أحد الأَيمة الأَعلام في علم القرآن ، وآياته ، وتفسيره ، ومعانيه وإعرابه ، وجمع في ذلك كله التواليف العجيبة التي يكثر تعدادها ، ويطول[2] إيرادها ، وله معرفة بالحديث وطرقه ، وأسماء رجاله ونَقَلته . وكان حسن الخطِّ ، جيد الضبط ، آية في الحفظ والعلم ، والذكاء والفهم دينّا عارفا ، ورعا سنّيًّا . قال المغلى[3] ، وكان أبو عمرو مُجاب الدعوة . وذكره الحميدى فقال محدِّث مكثر ، مقرىء متقدم .

---

(١) هكذا وردت في الزيتونة . وفي الإسكوريال (الحبى) والأولى أرجح .

(٢) هكذا في الإسكوريال . وفي الزيتونة (يكثر) .

(٣) هكذا في المخطوطين .

مشيخته

روى عن أبي المطرف عبد الرحمن بن عثمن القُشيرى بقرطبة ، وعن أبي بكر حاتم بن عبد الله البزاز ، وأبي عبد الله محمد بن خليفة ، وأحمد ابن فتح بن الرّهان ، وأبي بكر بن خليل ، ويونس بن عبد الله القاضى . وخلف بن يحيى ، وغيرهم . وبإلبيرة عن محمد بن أبي زمنين كثيرا من رواياته وتواليفه . وسمع بإستِجّة ، وبجّانة وسَرَقُسطة من بلاد الثغر . ورحل إلى المشرق ، فلقى أبا الحسن بن أحمد بن مراس العنقى . وسمع بمصر من أبي محمد بن النحاس ، وأبي القاسم بن مُيَسِّر ، وخلف بن إبراهيم ابن خاقان ، وفارس بن أحمد ، وطاهر بن عبد المنعم ، وبالقيرُوان من أبي الحسن القانسى . وقدم الأندلس فاستوطن دانية .

شعره

قال أبو القاسم بن بشكُوال . ومما يذكر من شعره قوله :

قد قلت إذ ذكروا حال الزمان وما ... يجرُ على كل من يُعزى إلى الأدب
لا شيء أبْلَغ من ذل تجــرّعه ... أهل الخساسة أهل الدِّين والحسَب
القايمين بما جاء الرسول به ... والمُبْغضين لأهل الزّيغ والرّيب

مولده : قال أبو عمرو ، سمعت والدى يقول إنى ولدت سنة إحدى وسبعين وثلاثماية ، وابتدأت طلب العلم بعد خمس وثمانين .

وفاته : من خط أبي الحسن المُقرى ، يوم الاثنين منتصف شوال سنة أربع وأربعين [وأربعمائة][1] بدانية ، ودفن عصر اليوم المذكور ببقيعها . ومشى السلطان[2] راجلا أمام نعشه .

(١) أضفنا هذه الكلمة استكمالا للسياق .

(٢) السلطان المشار إليه هنا هو على إقبال الدولة ابن مجاهد العامرى . وقد حكم مملكة دانية والجزائر أيام الطوائف من سنة ٤٣٦ ﻫ إلى سنة ٤٦٨ ﻫ (١٠٤٤ – ١٠٧٦ م) .

علی بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب [بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد] (١)

الإمام أبو محمد بن حزم .

أوليته

أصله من الفُرس ، وجدُّه الأقصى فى الإسلام [اسمه] (٢) يزيد ، مولى ليزيد بن أبي سفيان . قال أبو مروان ابن حيان ، وقد كان من عجايبه ، انتماؤه فى فارس ، وأتباع أهل بيته له فى ذلك بعد حقبة من الدهر ، تولى فيها الوزير ، المفضَّل فى زمانه ، الراجح فى ميزانه ، أحمد بن سعيد ابن حزم ، لبنى أمية أولياءِ نعمته ، لا عن صحة ولاية لهم عليه ، فقد عَهِده الناس مُوَلَّد الأرومة من عجم لَبْلة ، جدُّه الأدنى ، حديث عهد بالإسلام ، لم يتقدَّم لسلفه نباهة فأبوه أحمد ، على الحقيقة ، هو الذى بنى بيت نفسه فى آخر الدهر ، برأس رايته ، وعَمَره بالخلال الفاضلة ، من الرَّجاجة والدَّهاءِ والمعرفة والرجولة والرأى ، فأسدى جرثومة شرف لمن نماهم ، أغنتهم (٣) عن الرسوخ فى أولى السابقة ، فما من شرف إلاَّ مسبوق عن خارجته ، ولم يكن إلا كلاًّ ولا ، حتى تخطى على هذا أوليته (٤) لَبْلة . فارتقى قلعة إصطخر من أرض فارس . فالله أعلم كيف ترقَّاها ، إذ لم يكن يُؤتى من خطل ولا جهالة ، بل وَصْلُه بها وُسع علم ،

---

(١) تكملة النسب بين الحاصرتين ، منقولة عن ترجمة ابن حزم الواردة بالوفيات لابن خلكان.

(٢) الزيادة عن الحميدى (جذوة المقتبس) . وهو الذى اقتبست منه هذه الجملة .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (غنت) .

(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت محرفة فى الإسكوريال (رابته) .

ووَشْجة رَحِم معقومة ، فلها يستأخر الصلة ،فتناهت حاله مع فقهاء عصره إلى ما وُصف ، وحسابه وحِسابهم على الله ، الذى لا يظلم الناس مِثقال ذرَّة . عزَّت قدرته .

حاله

قال الحُميدى ، كان حافظا ، عالما بعلوم الحديث وفقهه ، مستنبطا [للأحكام][1] من الكتاب والسنة ، متفنِّنا فى علوم جمَّة ، عاملا بعلمه ، زاهدا فى الدنيا ، بعد الرِّياسة التى كانت له ، ولأبيه من قبله ، فى الإدارة[2] وتدبير الممالك ، متواضعا ، ذا فضايل جمَّة ، قال ، وما رأينا مثله ، فيما اجتمع له . مع الذكاء وسرعة الحفظ ، وكرم النفس والتَّديُّن . قال أبو مروان ابن حيان ، كان أبو محمد حامل فنون ، من حديث وفقه ونسب ، مع المشاركة فى كثير من أنواع التعاليم القديمة . وله فى ذلك عدة تواليف .

وقد مال أولا به النَّظر فى الفِقه إلى رأى أبى عبد الله الشافعى ، وناضل عن مذاهبه ، وانحرف عن مذهب غيره ، حتى وُسم به ، واستهدف بذلك إلى كثير من الفقهاء ، وعيب بالشُّذوذ . ثم عدل فى الآخر إلى قول أصحاب الظَّاهر ، مذهب داود بن على ، ومن تَبِعه من فقهاء الأمصار ، فنقحه ونهجه ، وجادل عنه ، ووضع الكتب فى بَسْطه ، وثَبَت عليه إلى أن مضى بسبيله . وكان يحمل علمه ، ويجادل عنه لمن خالفه فيه ، على استرسال فى طباعه ، واستناد إلى العَهْد الذى أخذه الله على العلماء من عِباده ، ليبيِّنه للناس ، ولا يكتمونه ، فآل أمره إلى ما عُرف .

(١) الزيادة عن الحميدى ، وهو الذى اقتبست منه هذه الفقرة .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى جذوة المقتبس (الوزارة) .

مشيخته

قال ، سمع سماعا جما ، وأول سماعه من أبى عمر أحمد بن محمد بن الجسور قبل الأربع ماية .

تواليفه

قال ، بلغت تواليفه أربع مائة مجلد . وقال ، حِمل بعير . فمنها فى علم الحديث كتاب كبير سماه « الإيصال إلى فهم الخصال ، الجامعة لجمل(١) شرائع الإسلام ، فى الواجب والحلال والحرام ، وساير الأحكام ، على ما أوْجَبه القرآن والسُّنة والإجماع » . أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أيمة المسلمين ، وبيان ذلك كله ، وتحقيق القول فيه . وله كتاب « الإحكام لأصول الأحكام » فى غاية التقصِّى وإيراد الحجاج . وكتاب « الفِصَل فى الملل والأهواء والنِّحل » . وكتاب « الإجماع ومسائله » على أبواب الفقه . وكتاب « المُجلَّى والمُحلَّى » وكتاب « فى مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض » . وكتاب « إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقُض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل » . وهذا مما سُبق إليه ، وكتاب « التقريب(٢) لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية . والأمثلة الفقهية . فإنه سلك فى بيانه ، وإزالة سوء الظن عنه ، وتكذيب المنحرفين به ، طريقة لم يسلكها أحد قبله فيما علمنا .

شعره

قال ، وكان له فى الأدب والشعر نفَسٌ واسع ، وباع طويل . وما رأيت

---

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (إلى) . والتصويب من جذوة المقتبس والوفيات .

(٢) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (التعريف) . والتصويب من جذوة المقتبس والوفيات.

من يقول الشعر على البديهة أسرع منه . وشعره كثير ، وقد جُمع على حروف المعجم . ومنه قوله :

هل الدهر إلا ما عَرَفنا وأدركنا فجائِعه تبقى ولذّاته تَفنى
إذا أمْكنَت فيه مسرّة ساعة تولّت كمر الطَّرف واستخلفت حَزَنا
إلى تبعات فى الحساب [1] وموقف نودُّ لديه أننا لم نكُن كنّا
حَصَلنا على همٍّ وإثم وحَسْرة وفات الذى كنا نلذُّ به عنّا
حَنين لما ولّى وشُغْل لما أتى وغمٌّ لما يُرجى فعَيْشُك لا يَهنا
كان الذى كنّا نُسَر بكـونه إذا حقّقته النفس لفظٌ بلا معنى

ومن ذلك قوله من قصيدة فى الفخر :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ولكن عَيْبى أنَّ مَطْلَعى الغرب
ولو أنّنى من جانب الشّرق طالعٌ لجدَّ علىَّ ماضاع من ذكرى النَّهب
ولى نحو أكناف العراق صَبابة ولا غرو أن يَسْتَوحش الكَلِف الصّب
فإن يُنزل الرحمن رَحْلى بينهم فحينئذ يبدو التأسُّف والكَرْب
فكم قائل أغفلتُه وهو حاضر وأطلب ما عنه تجىء به الكُتْب
هنالك يدرى أن للبُعد قصة وأنه كَساد العلم آفَتُه القُرب

ومنها فى الاعتذار عن المدح لنفسه :

ولكن لى فى يوسف خير أُسْوة وليس على [من سار سيرته] [2] ذنب
يقول وقال الحق والصدق أننى حفيظ عليمٌ ما على صادق عَتْب

ومن شعره قوله فيما كان يعتقده من المذهب الظاهرى :

وذى عَذَل فيمن سَبانى حُسنه يُطيل ملامى فى الهوى ويقول

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى الجذوة (المعاد) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت مكانها فى الجذوة ما يأتى (من بالنبى ائتسى) .

أفى حسن وَجْه لاح لم تَر غيره ولم تدر كيف الجسم أنت قَتيل
فقلت له أ°رَفت فى اللوم ظالما وعندى ردٌّ لو أردتُ طويـل
ألم تر أنى ظاهرى وأنـــنى على ما بَدا حتى يقوم دليـل

ومن ذلك قوله :

أين وَجْه قول الحق فى نفس سامع ودَعْه فنُور الحق يسرى ويُشرق
سيؤنسه رفقا فينسى نفـاره كما نَسِى القيدَ المُوثَّق مُطْلَقُ

ومن ذلك قوله :

لئن أصبحتُ مرتحلا بشخصى فروُحى عندكم أبداً مقـــيم
ولكن للعِيان لطيف معْــنى له طَلَب[1] المعاينة الكَليم

وفى المعنى :

يقول أخى شَجاك رحيل جِسم ورُوحك مـاله عنّا رحيـــل
فقلت له المعاينُ مطمـــئن لذا طلب المُعاينـة الخليـل

دخوله غرناطة

وصل فى جملة الإمام المرتَضى . ولما جرَت عليه الهزيمة واستولى باديس الأمير بغرناطة على محلّته ، كان أبومحمد من عِداد أسراه مع مِثله ، إلى أن أطلقه بعد لأْى ، وخلَّصه الله منه .

محنته

قال ابن حيان، استَهَدف إلى فقهاء وقته ، فتألّبوا على بُغضه ، وردِّ قوله ، وأجمعوا على تَضْليله ، وشنَّعوا عليه ، وحذَّروا سلاطينهم من فِتْنته ، ونَهوا أعوامهم عن الدنوِّ إليه ، والأخذ عنه ، فطَفِق الملوك يُقْصونه عن قربهم ، ويُسَيِّرونه عن بلادهم ، إلى أن انتهوا به ، مُنقطع أثره بتربة

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ووردت مكانها فى الجذوة والوفيات (سأل) .

بلده من بادية لَبْلة ، وبها توفى غير راجع إلى ما أرادوا ، به يَبُث علمه فيمن يَنْتابه ببباديته من عامّة المُقْتبسين منه من أصاغر الطلبة ، الذين لا يحسُّون فيه الملامة بحداثتهم ، ويفقّههم ويدرسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف ، حتى كَمُل من مصنفاته فى فنون العلم وَقر بعير ، حتى لأُحرق بعضها بإشبيلية ، وفى ذلك يقول :

فإن تحرقوا القِرطاس لا تحرقوا الذى تضمّنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلّت ركايبى وينْزل إن أنزل ويُدفن فى قَبْرى

مولده : سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بقرطبة .
وفاته : توفى سنة ست وخمسين وأربعماية (١)

على بن إبراهيم بن على الأنصارى المالقى

يكنى أبا الحسن ، صاحبنا حفظه الله .

---

(١) ليس لابن الخطيب شيء تقريباً فى هذه الترجمة التى أوردها للعلامة ابن حزم ، فهى منقولة بجملتها من الترجمة التى أوردها له معاصره وصديقه أبو عبد الله الحميدى فى كتابه (جذوة المقتبس) (القاهرة ص ٢٩٠ – ٢٩٣) مع بعض فقرات منقولة عن ابن حيان ، وقد أورد له ابن خلكان كذلك ترجمة حسنة فى وفيات الأعيان (بولاق ج ١ ص ٤٢٨ – ٤٣١) .

والرواية الراجحة هى أن ابن حزم عاش أيامه الأخيرة وتوفى فى بلدة أسرته الأصلية « منت ليشم » وبالإسبانية « Casa Montijo » من أعمال مدينة لبلة بولاية الغرب الأندلسية ، وذلك فى أواخر شعبان سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) .

هذا ، وقد نظم فى شهر ما يو سنة ١٩٦٣ (من ١٢ – ١٨ منه) بمدينة قرطبة مهرجان رسمى فخم للاحتفال بذكرى مرور تسعمائة عام على وفاة ابن حزم « القرطبى » . وأقامت له بلدية قرطبة تمثالا (متخيلا) بالحجم الطبيعى أمام باب إشبيلية على مقربة من الجامع . وأقيمت له كذلك لوحة تذكارية باللغة الإسبانية أمام مدخل كنيسة سان لورنتسو التى أقيمت مكان المسجد الذى كان يتوسط حى بلاط مغيث ، وهو الحى الذى عاش فيه ابن حزم فى صباه . ونظمت بهذه المناسبة عدة ندوات دراسية ، وطائفة من الحفلات الاجتماعية والفنية الفخمة . وقد كان محقق هذا الكتاب من شهود هذا المهرجان التاريخى العظيم .

حاله

آية الله فى الحفظ ، وثُقوب الذهن ، والنَّجابة فى الفنون ، وفصاحة الإلقاء ، خريج طبعه ، وتلميذ نفسه ، ومُبْرز اجتهاده . إمام فى العربية ، لا يُشق فيها غُباره ، حِفظا وبحثا ، وتوجيهاً واطلاعاً ، وعثوراً على سقَطات الأعلام ، ذاكر للغات والآداب ، قايم على التفسير ، مقصود للفُتيا ، عاقد للوثيقة ، مشارك فى الفنون ، ينظِم وينْثرُ ، فلا يَعْدو الإجادة والسَّداد ، سليم الصدر ، أبىُّ النفس ، كثير المشاركة ، مُجدى الصُّحبة ، بعيد عن التَّسمُّت . رحل عن بلده مالقة ، بعد التبريز فى العَدالة والشهرة بالطلب ، واستقر بالمغرب ، فاقرأ بمدينة أنْفَا[1] ، مُنَوَّها به ، ثم بسَلا ، واستوطن بها ، رئيس المدرسة بها ، مُجَمْهرا بكرسيها ، فارعاً بمنْبَرها ، بالواردة السلطانية ، يفسر كتاب الله بين العشاءين ، شرحا كثير العيون ، محذوف الفضول ، بالغاً أقصى مبالغ الفصاحة ، مُسمعا على المحالة النَّابية ، ويدرس من الغَدَوات بالمدرسة ، دولا فى العربية والفقه ، أخذه بزمام النبل ، مترامية إلى أقصى حدود الاضطلاع . وحضر المناظرة ، بين يدى السلطان ، فاستَأْثر بشِقص من رَغْبه ، وأُعجب بقوة جَأْشه ، وأصالة حِفظة ، فأنْمى جراياته ، ونوهً به .

مشيخته

قرأ ببلده على الأستاذين ، عَلَمى القُطر ، القاضى العالم أبى عبد الله إبن تِبر ، والقاضى النظار أبى عمرو بن منظور . وتلا القرآن على المقرى أبى محمد بن أيوب . وذاكر بغرناطة إمام العربية أبا عبد الله بن الفخَّار ، ورئيس الكتاب ، شيخنا أبا الحسن بن الجيَّاب . وبالمغرب كثيراً من

---

(١) هى البلدة المغربية الصغيرة ، التى قامت مكانها فيما بعد مدينة الدار البيضاء العظيمة .

أعلامه ، كالرئيس أبى محمد الحَضْرمى ، والقاضى أبى عبد الله المقرى وغيرهم . وهو الآن بحاله الموصوفة قاضياً بشرق مالقة ، واستاذا بها متكلما ، مُعْجِزٌ من مفاخر قُطْره .

شعره

مما يؤثر من شعره منقولا من خطٍّ صاحبنا أبى الحسن بن الحسن :

رحماك رحماك فى قَلْب يُقَلِّبه   شوقٌ يكاد بِلَفْح الوَجْد يُذهبه
هام الفؤاد بمعنىً للجمال بدا   عليك فى السِّر للارواح أعْجبُه
ولاح منك لذى الإشراف جوهرة   ألاحَتْ الحُسن عما كان يحجبه
فلو همَّ الصَّحب أن الرّوح تيَّمها   ماضى الجفون برود الثَّغر أشنَبه
يظل مُعتقلا من خَوْط قامته   بأسمر غالى منه مؤرّبه
وذى فِرَند يدبُّ الموت فى شطب منه ويوحش فى جنح تلهُّبه
يخاله ذو الصَّدا ماء فيُبْصره   يود فى الحال أن لو كان يَشْرَبه
بالهند واتى والذى نـدَّ توشحه   وبالصَّبابة والأرواح ملعبُه
كساه سرُّ الجمال المحض حُلَّته   إذ جاده من تكوب الجود صَيِّبُه
وقام يَرْفُل فيها وهى ضافية   فأقبلت نحوه الأرواح تطلبه
هيهات من دونه باب بظاهره   يجرُّ الفنا وجُنْد الروح يَرْهَبه
فمرنا والموت فيه عَيْن عيشته   فأوْجُ مَرْقى حياة الروح مَرْقَبُه
نبَّدت لوايحه من بحر جوهره   بَرْقًا يغير على الغَيْران خُلَّبُه
وتَسْتَعير له روحا مظاهره   سرُّ الجمال بها يبدو تحجُّبه
بدرٌ وفى أُفق الأرواح مَطْلَعه   مهما أفاقت وإلاَّ فهى مَغْربه
بخاطره منه سر لا يفارقه   وإن غدا بغرام الشوق يُلْهبه
لى هواه والبعد ينهانى ويُصْدقنى   فى نُصحه وصريح الوَجْد يُكْذبه

سرٌّ الغرام غريب ليس يعلمه ... إلاَّ الذى قد غدا يُرضيه مُغْضبه
وللصَّبابة أقوام ومَوْردهم بها ... من الأُنس أحلاه وأعــــذبه
وليس يَعْرف هذا حقَّ معرفة ... إلاَّ الذى قد تجلَّى عنه غَيْهَبُه
وأبصر الحُسْن قد لاحت لوايحه ... وغرٌّ مُسْتَبْشر الأَضواءِ كوكبُه
بذات أهيف من سرِّ الحياة ... طِرْسٌ يغالبه طورا فَيَغْلبه
وفى لُجَين الجمال المحض قد فعلت ... فعلا يردُّ لها فى الحكم مذهبه
أرُوم إعْجامه هونًا وتُطْمِعُنى ... فيه النَّفاسة والأَنفاس تعرفه
فمن لمِثْلى بكتمانٍ ومن نفسى ... أخو بيان مع الساعات يُسهبه
لُبانة السِّر أن تحظى برقبة ... إلى سبيل من الزُّلفى تُقَرِّبه
تسمو على مِنْكَب الجوزاء ذروتها ... عن رقَّة بشهود الفرق تُسلبه
وفى مصافَّات سر القبض يَبْسُطه ... لدى الوجود الذى قد عزَّ مطلبه
فيرتقى فى مراقى الجمع مختطفا ... إلى المقام الذى عند بُغْيته
فذاك أعظم ما يرجوه أن سبقت ... عنا يَدٌ نحو باب العزِّ تجذبه

ومن منظومه فى النسيب قوله :

لمحمد البرقاء حسن باهر ... كلٌّ الورى حِلْف الصَّبابة فيه
السحر مفتون بغُنْج لحاظه ... والشُّهد ممزوج بريقه فيه
فسحره أَضْنَى المتيَّم فى الهوى ... حتى يكاد سِقامه يُخفيه
ولو أنه بالشُّهد جاد ورَشْفه ... لصدٍّ لكان من الصَّدا يشفيه
بصدوده قلبى يُقَطَّع فى الهوى ... ياليته بوصاله رافيه

وصدَّر كتابا بقوله يخاطبنى :

أنِسْيانا فديتك يا حياتى ... لمن لم يُنبيك حبك للممات
ورجماً بالظنون أخا حَنين ... إليك رَهين شوق وانْبتات

يميناً بالنهار إذا تجلّى وبالقمر المنير وبالآيات
لقد أحلَلْتُ حبك من فؤادى محلّ الروح من بثّ الجهات

وشعره بديع ، وإدراكه عجيب ، وعارضته قوية .

على بن محمد بن على بن يوسف الكتامى

يكنى أبا الحسن ، ويعرف بابن الضّايع : من أهل إشبيلية .

حاله

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير ، بلغ الغاية فى الفنّ النحوى ، وفاق أصحاب الأستاذ أبى على [الشلوبين][1] بأسرهم ، وله فى مشكلات الكتاب العجايب[2] . وقرأ ببلده أيضا علم الكلام ، وأصول الفقه ، وكان متقدما فى هذه العلوم الثلاثة ، متصرّفا فيها . وأما فنّ العربية وعلم الكلام ، فلم يكن فى وقته من يقاربه فى هذين العِلْمين . وأما فهمه وتصرفه فى كتاب سيبويه ، فما أراه يسبقه فى ذلك أحد . وله إملاءٌ على طايفة كبيرة من إيضاح الفارسى . وكان له اعتناءٌ كبير بكلام الفارسى على الجُملة ، وبحسب ذلك استَقْصَى اعتراضات أبى الحسين بن الطراوة على أبى على بالرد ، واستوفى ما وقع له فى ذلك ، حتى لم يبق بيده شئٌ على طريقة من الإنصاف ، ودليل الهدى . لم يُسبق إليها . وكذا فعل فى رد أبى محمد بن السيد، على أبى القاسم الزجّاجى . وكذا فعل فى اعتراضات أبى الحسين بن الطراوة على كتاب سيبويه . وكان بالجملة إماما فى هذا كله لا يُجارى . وأما اختيارات أبى الحسن بن عصفور فى مغربه وغير ذلك من

(١) الزيادة من الزيتونة .
(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (عجايب) .

تعاليقه ، وما قيّد فى ذلك ، فرُدّ عليه معظمَها أو أكثرها . ولم يُلْق بالأفذاس والعُتُوة ، ولا سمعنا بأنبه منه ، ممن وقفنا على كلامه أو شاهدناه ، ولا رأيت مختَلِفاً عليه من أهل بلده من أترابه ، ومَنْ فوقهم . وكان إذا أخذ فى فن أتى بعجايب . قال الأستاذ ، لازمته ، وأخذت عليه كتاب سيبويه فى عدة سنين ، وأكثر كتاب الإيضاح ، وجمل الزجّاجى . إلى غير ذلك ، وجميع التلقيحات للسُّهْرَ وَردى . وطايفة كبيرة من إرشاد أبى المعالى ، ومن كتاب الأربعين لابن الخطيب ، وغير ذلك .

مشيخته

أجاز له من أهل بلده الراوية المُسِن ، أبو الحسن بن السّراج ، والقاضى أبو الخطاب بن خليل . ومن غيرهم ، القاضى أبو بكر بن محرز ، والمُقرى المُعمَّر أبو بكر الشّماتى المعروف بالشريشى ، وأبو عبد الله الأزدى ، وأبو عبد الله بن جوبر وآخرين . وقرأ ببلده . ولازم الأستاذ أبا على الشُّلوبين ، حتى كمل عليه إيضاح الفارسى ، وكتاب سيبويه . وسمع جمل الزجّاجى وغير ذلك من كتب العربية ، ممن كان يقرأ فى المجلس ، وقرأ عليه طائفة كبيرة من تَذْكرة الفارسى ، مما يتعلق بمسائل الكتاب ، بعد أن جرَّدها من التذكرة . وبلغ الغاية فى الفن النحوى ، وفاق أصحاب أبى على بأسرهم .

وفاته

توفى رحمه الله ، فى شهر ربيع الآخر من سنة ثمانين وستماية ، وقد قارب التسعين . [قلت العجب من الشيخ الخطيب رحمه الله ، كيف لا يذكر للمترجم به رحمه الله ، شَرحَه لجمل الزجّاجى ، بل شرحه الصغير والكبير . ولم يكن اليوم على الزجّاجى أجدى منها ، ولا أنفع ،

ولا أقلَّ فضولا ، ولا أفصحَ عبارة ، ولا أوجز خطابة ، ولا أجمل إنصافا ، ولا أجْوَدَ نظرا] (١)

الكتاب والشعراء

وأولا الأصليون منهم

على بن محمد بن عبد الحق بن الصباغ العقيلى

يكنى أبا الحسن من أهل غرناطة .

حاله

صاحبُنا أبو الحسن ، من أهل الفضل والسَّراوة والرُّجولة والجزالة . فذٌّ فى الكفاية ، ظاهر السذاجة والسلامة ، مُصْنعب لأضداده ، شديد العصبة لأُولى وُدِّه ، فى أخلاقه حدَّة ، وفى لسانه نبلى أخلاَّيه ، مشتملٌ على خلال من خطٍّ بارع ، وكتابة حسنة ، وشِعر جيد ، ومُشاركة فى فقه وأدب ووثيقة ، ومحاضرة ممتعة . ناب عن بعض القضاة ، وكتب الشروط ، وارتَسَم فى ديوان الجند ، وكتب عن شيخ الغَزاة أبى زكريا بن عمر على عهده . ثم انصرف إلى العُدْوة سابع عشر جمادى الأُولى من عام ثلاث وخمسين وسبعماية ، فارتسم فى الكتابة السلطانية مُنوَّها به ، مستَعْملا فى خِدم مُجدية ، بان غناؤه فيها ، وظهرت كفايته .

وجرى ذكره فى كتاب التَّاج بما نصه : اللَّسِن العارف ، والنَّاقد لجواهر المعانى ، كما يفعل بالسِّكة الصَّيارف ، الأَديب المُجيد ، الذى تملَّى به العصر والنَّحر والجيد ، إن أجال جياد براعته ، فضح فرسان المَهارِق ، وأخجل بين بياض طرسه ، وسواد نفسه الطور تحت المفَارق . وإن جلى أبكار أفكاره وأثار طَيْر البيّازين أوكاره ، سلب الرَّحيق المُفدَّم

---

(١) من الواضح أن الفقرة المحصورة بين الحاصرتين ، هى من كلام الناسخ أو المختصر .

فضل أبكاره ، إلى نفس لا يفارقها ظَرف ، وهمّة لا يرتد إليها طَرْف ، وإباية لا يفَلّ لها غَرْب ولا حرف . وله أدب غضٌ ، زهره عن مجتنيه مُرْفض . كتبت إليه انتَجز وعده فى الالتحاف برايقه ، والامتاع بزهر هواتِفه ، وهو قولى :

عندى لموعدك افتقارٌ مُحوج | وعهودك افْتَقَرت إلى إنجازها
والله يعلم فيك صدق مودّتى | وحقيقةُ الأشياء غير مَجازها

فأجابنى بقوله :

يا مهدى الدُّر الثمين مُنْظمًا | كَلِما حلالُ السحر فى إيجازها
أدركت حَلْبات الأوايل وانياً | وردَدْت أولاها على أعجازها
أحْرَزت فى المضْمار خَصْل سِباقها | ولأنتَ أسبقُهم إلى إحرازها
حَلَّيت بالسِّمطين منى عاطلا | وبعثتَ من فكرى مَتات مفازها
فلأنجزنَّ مواعدى مستعطفا | فاسمح وبالإغضاء منك مجازها

ومن مقطوعاته قوله :

ليت شعرى والهوى أمل | وأمانى الصَّب لا تَقِف
هل لذاك الوصل مُرْتَجع | أو لهذا البحر مُنْصَرف

ومن ذلك :

وظبى سبا بالطَّرف والعطف والجيد | وما حاز من غَنَج ولين ومن غِيد
أتيتُ إليـــه بالدنـــو مُداعبـــا | فقال أيدنو الظَّبى من غابة الأُسد

وقال من مبدإ قصيدة مطولة فيما يظهر منها :

حديث المغانى بمدهن شُجون | وأوجه أيام التبـــاعد جون
لحا الله أيام الفراق فكم شَجت | وغادرت الجَذْلان وهو حزين
وحيًا ديارا فى رُبى إغرناطة | وإنِّى بذاك القرب فيه ضنين

ليالى أنفقتُ الشباب مُطاوعا — وعُمرى لدى البيض الحسان ثمين
فأرخصتُ فيها من شبابى ما غَلا — وعِرضى على مال العفاف أمين
خليلىّ لا أمرٌ بأربُعها قِفا — فعندى إلى تلك الربوع حَنين
ألم ترَيانى كلما ذرّ شارق — تضاعف عندى عَبرة وأنين
إذا لم يساعدنى أخٌ منكما فلا — حدت نحو قرن بعد ذاك أمون
أليس عجيبا فى البرية من لنا — إلى عهد إخوان للزمان رُكون
فلما تشغن من ذُرى وفاء بعهده — فقد أجنّ السّلسال وهو معين
أذلنى علر فى فراق ضلوعه — وللدمع فى ترك الشئون شئون
ومن ترك الحزم المعَين فإنه — لعانٍ بايدى الحادثات رهين
رعى الله أيامى الوثيق ذِمامُها — فإنّ مكانى فى الوفاء مَكين
ولم أر مثل الدهر أمّا عدوّه — فخِبٌ وأما خِلّه فخئون
ولولا أبو عمرو وجود يمينه — لما كان فى عهد الزمان مُعين

ومن شعره قوله :

زار الخيالُ ويالها من لذّة — لكن لذّات الخيال منام
ما زلت ألثم مَبْسما منظومه — درٌ ومورده الشّهى مُدام
وأضم غصن البان من أعطافه — فأَشمّ مِسكا فُضّ عنه ختام

مولده : عام ستة وسبعماية .

وتوفى بمدينة فاس ، وقد تخلّفه السلطان كاتب ولده ، عند وجهته إلى إفريقية ، فى شوال عام ثمانية وخمسين وسبعماية ، فتوفى فى العشرين لرمضان منه .

علي بن محمد [بن سليمان] [1] بن علي بن سليمان بن حسن الأنصاري

من أهل غرناطة ، يكنى أبا الحسن ، ويعرف بابن الجيّاب ، شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ .

حاله

من عايد الصّلة : كان رحمه الله ، على ما كان عليه من التفنُّن ، والإمامة فى البلاغة ، والأخذ بأطراف الطلب ، والاستيلاء على غاية الأدب ، صاحب مجاهدة ،وملازمة عبادة ، على طريقة مُثلى من الانقباض والنزاهة ، وإيثار التقشف ، محبا فى أهل الخير والصلاح ، مُنحاشا إليهم ، مُنافرا عن أضدادهم ، شيخ طلبة الأندلس ، رواية وتحقيقا ، ومشاركة فى كثير العلوم ، قايما على العربية واللغة ، إماما فى الفرايض والحساب ، عارفا بالقراءات والحديث ، متبحرا فى الأدب والتاريخ ، مشاركا فى علم التصوف ، فذا فى المسايل الأدبية البيانية ، حامل راية المنظوم والمنثور ، والإكثار من ذلك ، والاقتدار عليه ، جلدا على الخدمة ، مغتبطا بالولاية ، محافظا على الرُّتبة ، مراقبا لوظايف الأبواب السلطانية ، متوقد الذهن ، ذلِق الجوانب ، مشغوفا بالأُنس والمفاوضة فى الأدب ، محسنا للنادرة الظريفة ، مليح الدُّعابة ، غزير الحفظ ، غيوراً على الخُطّة ، كثير النشاط إلى المذاكرة ، مع استغراق الكلف ، وعلو السن . طال به المرض حتى أذهب جواهر بَدَنه ، وعلى ذلك فما اختل تميزه ، ولا تغير إدراكه . بعثت إليه باكور رمّان ، فقال لى من الغد ، نَعِم بالهُدْنة زمانُك ، يعنى نَعِمت الهدية رمّانك . فعجب الناس من اجتماع نفسه ، وحضور فكره . وهو شيخى الذى نشأت بين يديه وتأدبت به ، وورِثت خطّته عن رضى

(١) هذا الاسم وارد فى الزيتونة . وفى نفح الطيب . وساقط فى الإسكوريال .

منه . كتب عن الدول النصرية نحوا من خمسين سنة أو ما ينيف عليها ، متين الجاه ، رفيع المكانة ، بعيد الصيت ، وسَفَر إلى الملوك ، واشتهر بالخير ، والحمل على أهل الظلم ، وجرى ذكره فى التاج بما نصه :

صدر الصُّدور الجلَّة ، وعَلَم أعلام هذه الملة ، وشيخ الكتابة وبنيها[١] وهاصِر أفنان البدايع وجانيها ، اعتمدته الرياسة ، فنأى[٢] بها على حبل ذراعه ، واستعانت به السياسة فدارت أفلاكها على قطب من شَباة يراعه . فتفيّأ للعناية ظلا ظليلا ، وتعاقبت الدول ، فلم تر به بديلا ، من ندب على علوه متواضع ، وحبر[٣] لثدى المعارف راضع ، لا تمر مذاكرة فى فن إلاَّ وله فيه التَّبريز ، ولا تعرض جواهر الكلام على محاكاة الأفهام ، إلا وكلامه الإبريز ، حتى أصبح الدهر [راويا لإحسانه][٤] وناطقاً بلسانه ، وغرَّب ذكره وشرّق ، فأشام وأعرق وتجاوز البحر الأخضر والخليج الأزرق ، إلى نفس هذَّبت الآداب شمايلها ، وجادت الرياض خمايلها ، ومراقبة لربه ، واستباق لروح الله من مهبّه . ودين لا يُعجم عوده . ولا تخلف وعوده . [وكل ما ظهر علينا بنيه من شارة تجلى بها العين ، أو إشارة كما سُبك اللجين ، فهى إليه منسوبة ، وفى حسناته محسوبة ، فإنما هى أنفس راضها بآدابه ، وأعلقها بأهدابه ، وهذَّب طباعها ، كالشمس تلقى على النجوم شعاعها ، والصور الجميلة تترك فى الأجسام الصقيلة انطباعها][٥] وما عسى أن أقول فى إمام الأئمة ، ونور الدياجى المدلَهِمَّة ، والمثل الساير فى بعد الصيت ، وعلو الهمة .

مشيخته

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (وبانيها) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فناه) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . ووردت فى الزيتونة (وحدى) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (راوى إحسانه) . والتصويب من النفح وهو أنسب للسق .

(٥) هذه الفقرة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

نقلت من خطه ، فى بعض ما كتب به إلى من الأشياخ الذين لقيتهم وأجازونى عامة . الشيخ الفقيه الخطيب الصالح الصوفى المحقق صاحب الكرامات والمقامات ، نسيج وحده ، أبو الحسن فضل بن محمد بن على ابن فضيلة المعافرى . قرأت عليه كذا . ومنهم الشيخ الفقيه الأستاذ العالم العلم الكبير ، خاتمة المسندين بالمغرب ، أبو جعفر أحمد بن ابراهيم ابن الزبير الثقفى ، نشأت بين يديه ، وقرأت عليه كثيراً وسمعت ، وأجازنى . ومنهم الشيخ الفقيه الخطيب الأستاذ أبو الحسن على بن أحمد ابن محمد بن أحمد بن محمد الخُشنى البلَّوطى . قرأت عليه القرآن العزيز بالقرءات السبع وغير ذلك. ومنهم الشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن عياش الخزرجى القرطبى . لقيته بمالقة . ومنهم الشيخ أبو محمد عبد الله بن على الغسانى السعدى الخطيب الصالح ، قرأت عليه وسمعت . ومنهم الشيخ العدل أبو الحسن على بن محمد بن على بن أحمد بن مَسْتقور الطائى. ومنهم قاضى الجماعة الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد العَنْسى . ومنهم الشيخ الفقيه الخطيب المحدث الإمام أبو عبد الله محمد ابن عمر بن رُشيد . ومنهم الشيخ الخطيب أبو جعفر أحمد بن على الأنصارى الكحيلى. ومنهم الشيخ الخطيب الأستاذ الصالح أبو محمد عبد الواحد ابن محمد بن أبى السَّداد الأموى الباهلى . ومنهم الشيخ الوزير الحسيب أبو عبد الله محمد بن يحيى بن ربيع الأشعرى ، والشيخ الخطيب الأستاذ النظار أبو القاسم بن الشّاط ، والشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن مالك بن المرحَّل والشيخ المبارك أبو محمد عبد المولى بن عبد المولى الخولانى . هؤلاء كلهم لقيتهم ، وأجازونى إجازة عامة . وأما من أجازنى ولم ألقه ، فعالم كثير من أهل المغرب والمشرق ، منهم أبو العباس بن الغمّاز قاضى الجماعة بتونس . وأبو عبد الله بن صالح الكنانى خطيب بجاية ، والشريف

أبو علي الحسن بن طاهر بن أبي الشرف بن رفيع الحسني ، وأبو فارس عبد العزيز الهواري ، وأبو محمد بن هرون القرطبي ، وأبو علي ناصر الدين المِشْدالي ، وغيرهم .

شعره

وشعره كثير ملون ، جمعته ودونته ، يشتمل على الأغراض المتعددة من المُعَشَّرات النبويّات ، والقصائد السلطانيات ، والإخوانيات ، والمقطوعات الأدبيات ، والألغاز والأُحْجِيات .

فمن ذلك من المعشّرات في حرف الجيم على وجه التبرك :

جريئاً على الزلات غير مفكر ... جباناً على الطاعات غير مُعَرِّج
جمعتُ لما يفني اغترارا بجمعه ... وضيّعتُ ما يبقى سجيّةَ أهْوَج
جنوناً بدار لا يدوم سرورها ... فدعها سدًى ليست بعُشِّك فادرج
جيادُك في شأْو الضلال سوابقٌ ... تفوت مدًى بين الوجيه وأعوج
جهلتَ سبيل الرشد فاقصد دليله ... تجد دار سعد بابُها غير مُرْتج
جنابُ رسول ساد أولاد آدم ... وقرُب في السَّبْع الطِّباق بمعرج
جمالٌ أنار الأرض شرقا ومغربا ... فكلٌّ سنًى من نوره المتبلِّج
جلا صدأ المرتاب أن سبح الحصا ... لديه بِنطقٍ ليس بالمتلجلج
جعلتُ امتداحي والصلاة عليه لي ... وسايل تُحْظيني بما أنا أرتج

ومن الأغراض الصوفية السلطانية قوله :

هات اسقني صِرْفًا بغير مزاج ... واحْيِ التي هي راحتي وعلاجي
إن صُبَّ منها في الزجاجة قطرة ... شفَّ الزجاج عن السَّنى الوهاج
فإذا[1] الخليع أصاب منها شربةً ... حاجاه بالسر المصون مُحاج

---

(١) هكذا في الإسكوريال . وفي نفح الطيب (وإذا) .

وإذا المريد أصاب منها جُرعة ... ناجاه بالحق المبين مُناج
تاهت به فى مَهْمَه لا يُهتدى ... فيه لتأديب ولا إدلاج
يرتاح من طرب بها فكأنها[1] ... غنته بالأرمال والأهزاج
هبّت عليه نفحةٌ قدْسية ... فى فتح[2] باب دائم الأرتاج
فإذا انتشى يوما وفيه بقية ... سارت به قصدا على المنهاج
وإذا تمكن منه سُكْر معربد ... فليبصرن[3] لمصرع الحلّاج
قصرت عبارة فيه عن وجدانه ... فغدا يفيض بمنطقٍ لِجْلَاج
أعشاه نور للحقيقة باهر ... فتراه يهبط[4] فى الظلام الدّاج
رام الصعود بها لمركز أصله ... فرَمَتْ به فى بحرها[5] الموّاج
فلئن أُمد برحمة وسعادة ... فليخلصن من بعد طول هياج
وليرجعن بغنيمة موفورة ... ما شِيب عَذْبُ شرابها بأُجاج
ولئن تحظاه القبول لما جنى ... فليرجعن نكساً على الأدراج
ما أنت إلا دُرّة مكنونة ... قد أُودِعت فى نُطفة أمْشاج
فاجهد على تخليصها من طبعها ... تعرج بها فى أرفع المِعْراج
واشدُد يديك معا على حبل التّقى ... فإن اعتصمت به فأنت النّاج
ولدى العزيز ابْسُط بِساط تذلّل ... وإلى الغَنِى امْدُدْ يد المحتاج
هذا الطريق له مقدّمتان صا ... دقتان انتجا أصحّ نتاج
فاجمع إلى تَرْك الهوى حمل الأذى ... واقنع من الإسْهاب بالإدماج
حَرْفان قد جمعا الذى قد سطروا ... من بَسْط أقوال وطول حِجاج

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فكأنما) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (قِ) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فليصبرن) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يخبط) .
(٥) وردت فى الإسكوريال (نحرها) . والتصويب من النفح .

والمشربُ الأَصْفَى الذى من ذاقه ... فقد اهتدى منه بنور سِراج
ألاَّ ترى إلاَّ الحقيقة وحدها ... والكل مضطر إليها لاج
هذى بدائع حكمة أنشأتها ... بإشارة المولى أبى الحجاج
وَسِع الأنام بفضله وبعدله ... وبحلمه وبجوده الثَّجاج
من آل نصرٍ نُخْبة الملك الرِّضا ... أمْن المروَّع هَمْ وغيثُ اللّاج(١)
من آل قيلة ناصرى خير الورى ... والخلق بين تَخاذُل ولجاج
ماذا أقول وكل قول قاصر ... فى وصف بحر زاخر الأمواج
منه لباغى العُرْف درٌ فاخر ... ولمن يعادى الدين هول فاج
دامت سعودك فى مزيد والمُنَى ... يأتيك أفواجا على أفواج

ومن الأمداح المطولة :

لمن المطايا فى السَّراب سوابِحا ... تفلى الفلاة غوادياً وروايحاً
عوج كأمثال اللقيى ضوامر ... يرمين فى الآفاق مرمى نازحا
أو كالسحاب تسير مثقلة ... بما حملته من سُقيا البطاح دوالحا
ركبٌ يُيمم غاية بل آية ... أبدت محيَّا الحق أبْلَج واضحا
لما دعا داعى الرشاد مردِّدا ... لبَّوه شوقا والحمام هوادحا
فلهم عجيج بالبسيطة صاعد ... يُذْكى بنار الشوق منك جوانحا
وإذا حَدا الحادى بذكر المصطفى ... أذروا على الأكْوار دمعا سابحا
عيسٌ تهادى بالمحبِّين الألى ... ركبوا من العزم المصمم جامحا
طارت بهم أشواقهم سبَّاقةً ... فتركن أعلام المطى روازحا
رفقًا بهن فهنّ خَلْق مثلكم ... أنضاءُ أسفار قطعن منادحا
قد جِين للهادى وهاداً جمّة ... وسلكن نحو الأبطحى أباطحا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الراجى) .

ناشدتك الرحمن وافِد مكة ... ألاَّ صرفتَ إلىّ صرفا طامحا
وأخاً أتيتَ القبر قبــر محمد ... وحمدتَ سعيا من سِفارك ناجحا
وذَهِلت عن هذا الوجود مغيبا ... لما لمحتَ من الجَمال ملامحا
فاقرأ سلامى عند قبر المصطفى ... وامسح بيُمناك الجِدار مصافحا
قسمًا بوفد يزخرون رواحــلا ... قَطَعَت سباسبًا بلقعا وضحاضحا
حتى أناخوا بالمحصَّب من مِنى ... وتأملوا النور المبين اللايحا
وتعرضوا لعوارض عرفية هبّت ... بهـا تلك الريــاح لوافــحا
وآووا إلى الحرم الشريف فطافعا ... بالبيت أوبا لركن منه ماسحا
وسَقُوا به من ماء زمزم شـربةً ... نالوابها فى الخلد حظا رابحا
ثم انثنوا قصدا إلى دار الهدى ... يتسـابقون عـزايما وجـوارحا
فتبوَّؤا المغنى الذى بركاتـه ... فاضت على الآفاق بحرا طافحا
ختموا مناسِكهم بزورة أحمـد ... بختام مسك طاب عَرْفا نافحا
إن السماحة والشجاعة والنّدى ... والبأس والعقل الأصيل الراجحا
وقْفٌ على شمس المعالى يوسف ... أعلى الملوك خواتما وفواتحا
فهو الذى ملأ البلاد فضايلا ... صارت لمن بارى علاه فضايحا
إن أجملت سير الكرام فخلقه ... ما زال للإجمال منها شارحا
حامى الذِّمار مدافعا وموادعـا ... كافى العدو محاربا ومصافحا
للملك بالعزم المؤيد مانعـا ... للعُرْف بالجود المردد مانحا
إن تلقه فى يوم جود هـامر ... تلق السحاب على البلاد سوابحا
أو تلقه فى يوم بأس قـاهر ... تلق الأسود لدى العَرين كوافحا
أو تلقه فى يوم فخر ظـاهر ... تلق الكواكب فى السماء لوايحا
من أسرة النصر الألى هم ناصحوا ... بعزايم الصدق الأمين الناصحا

هم أسَّسوا الملك المشيد بنـاؤه		فكفُوا به الإسلام خَطْبًا فادحا
فاستَفهِم الأيام عن آثارهم		تُطلع عليك صحايفا وصفايحا
كان إذا ضن الغمام سحايبا		يهمى وإن جنَّ الظلام مصابحا
شادوا له مجدا صميما راسخا		يبقى على الأعقاب ذكرا صالحا
وسما فخر فوق أمّن جهادهم		سمكوا لـه سماكا رامحا
الأعظمون مَغـانيا ومَنـاقبا		والأكرمون مَحـامدا ومَمادحا
يا دولةً نَصريَّةً قد جـددت		نصراً لأبواب المعاقل فاتحـا
وأمـامة سعدية قد أطْلَعت		سعدا ولكن للأعـادى ذابحـا
فاضت جَدًا فكأنما أيـامهـا		جُعلت لأرزاق العباد مفـاتحا
كفَتْ عِدًا فـكأنمـا أوقاتهـا		جاءت لآيات الأمان شـوارحا
عدلا لأقطار الإيالة كالبــا		ولجامحات البَغْى منها كافحا
بشرى بيوسف ناصر الملك الذى		ما زال عنـه مجالدا ومكافحا
جمع المواهب للمواهب مانحا		فوق المنى وعن الجرايم صافحا
ابن الإمام أبى الوليد وحَسْبُنا		مدحا تضمن فى الفخار مدايحا
يُهْنيك عيد النَّحر أسعد قادم		وافاك من جدوى يمينك ماتحا
وفَّيته قربانه وصِلاته وأقمت		فيـه شـعايرا وذبايحــا
ورجعت فى الجيش الذى أخباره		تُروى غرايبها الحسان صحاتحا
أسْدٌ ضراغم فوق خيل ترتمى		نحو العدو سوانحا وبوارحـا
طيَّارةٌ بالدَّارعين تخـالها		تنقضُّ فى يوم القتال جوارحا
من كل من تَخِذ القنا خيما له		بلقى العدو مُماسيا ومُصابحا
والشمس أضرمت السبيكة عندما		لقى الحديد شعاعها المطارحا
فاهنأْ به وانعم بدولتك التى		ترضى الولى بها وتشجى الكاشحا

دامت ودام الحق فيها ثابتـا ... يعلو يدا والإفك فيها طالحا

وقال يمدح ويصف مصنعا سلطانيا :

زارت [تجرر نحوه][1] أذيالها ... هيفاء تخلط بالنفـار دلالها
والشمس من حسَد لها مصفرّةٌ ... إذ قَصَرت عن أن تكون مثالها
وافَتْك تمزج لينَها بقساوة ... قد أدرجت طيَّ العِتاب نوالها
كم رُمْتُ كتم مزارهـا لكنه ... صحَّت دلايل لم تطق إعلالها
تركَتْ على الأرجاء عند مسيرها ... أرجًا كأنَّ المسك فتَّ خلالها
ما واصلتك محبّةً وتفضـلا ... لو كان ذاك لواصَلت أفضالها
لكن توقعت السُّلو فجددت ... لك لوعةً لا تتَّقى ترحالها
فوحُبِّها قسمًا بحق بـروره ... لتجشُّمنْك فى الهوى أهوالها
حَسُنت نظم الشعر فى أوصافها ... إذ قَبُحت لك فى الهوى أفعالها
يا حسن ليلة وَصْلُها ما ضرها ... لو أتْبَعت من بعدها أمثـالها
لما سَكِرت بريقها وجفـونها ... أهملت كأْسك لم ترد إعمالها
هذا الربيع أتاك ينشر حسنه ... فافسح لنفسك فى مداه مجالها
واخلع عِذارك فى البطالة جامحا ... واقرِن بأَسحار المنى[2] آصالهـا
فى جَنَّة تجلو محـاسنها كما ... تجلو العروس لدى الزفاف جمالها
شكرت أيادى للحيا شكر الورى ... شرف الملوك همامها مفضالها
وصمها أصلا وفرعا خيرها ... ذاتاً وخُلُقاً سمحهـا بـذالها
الطاهر الأعلى الإمام[3] المرتضَى ... بحر المكارم غَيْثُها سِلْسالها
حاز المعالى كابراً عن كابـر ... وجرى لغايات الكرام فنالهـا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تجر لنحوه) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (المنا) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الأمين) .

إن تلقه فى يوم بَذْلِ هِباته   تلق الغمايم أرسلت هطّالها
أو تلقه فى يوم حرب عُداتِه   تلق الضراغم فارقت أشبالها
ملك إذا ما صال يوما صَوْلة   خِلْتَ البسيطة زلزلت زلزالها
فبِسَيْفه وبسيفه نال[1] المنا   واستعجلت أعداؤه آجالها
الواهب الآلاف قبل سؤالها   فكفى العُفاة سؤالها ومطالها
القاتل الآلاف قبل قراعها   فكفى العُداة قِراعها ونِزالها
إن قلت بَحْر كفه قَصَرت إذ   شبهت بالملح الأجاج نوالها
ملأ البسيطة عدله ونواله[2]   فالوحش لا تعدو على من غالها
وسَق البرية فيضُ كفَّيه فقد   عمَّ البلاد سهولها وجبالها
جمع العلوم عناية بفنونها[3]   آدابها وحسابها وجدالها
منقولها معقولها وأُصولها   وفروعها تَفْصيلها إجمالها
فإذا عُفاتك عاينوك تهللوا   لما رأوا من كفِّك استهلالها
وإذا عُداتك أبصروك تيقَّنوا   أن المنيَّة سلطت ريبالها
بددت شملهم ببيضٍ صوارم   رويت من عِلَق الكماة نِصالها
وأبحت أرضهم فأصبح أهلها   جُزُرا[4] تغادر نهبة أموالها
فَتَحت إمارتك السعيدة للورى   أبواب بُشرى واصلت إقبالها
وبَنَتْ مصانع رايقات ذكرت   دار النعيم جنانُها وظلالُها
وأجلُّها قدرا وأرفعُها مدًى   هذا الذى سامى النجوم فطالها
هو جنة فيها الأمير مخلد   بلغت إمارته بها آمالها

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نلت) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أمانه) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بعيونها) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (خورا) .

ولأرض أندلسٍ مفاخر أنتم أربابها أضفيتم سِرْبالها
فحميتُمُ أرجاءها وكفيتُم أعداءها وهديتُمُ ضلالها
فبآل نصر فاخرت لا غيرهم لم تعتمد من قبلهم أقيالها
بمحمد ومحمد ومحمد قَصَرت على الخصم الألد نضالها
فهم الألى ركبوا لكل عظيمة جُرْدا كَسَيْنَ من النجيع جلالها
وهم الألى فتحوا لكل مُلِمَّة بابا أراح بفتحه إشكالها
متقلدون من السيوف عضابها متأبطون من الرماح طوالها
الراكبون من الجيادِ عِرابها والضاربون من العدا أبطالها
أولىّ عهد المسلمين ونخبة الأملاك صفوة محضها وزلالها
إن العباد مع البلاد مُقِرَّة بفضايل لك مهدت أحوالها
فتفكُّ عانيها وتحمى سِرْبها وتفيد حلما دائما جهالها

ومن الرثاء قوله يرثى ولده أبا القاسم :

هو البَيْن حتما لا لعل ولا عسى فما بال نفسى لم تُفِض عنده أسى
وما لفؤادى لم يذب منه حسرة فتبا لهذا القلب سرعان ما قسا
ويا لجفونى لا تفيض موردا من الدمع يَهْمى تارة ومورَّسا
وما للسانى مُفْصِحا بخطابه وما كان لو أوفى بعهد ليَنْبسا
أمِن بعدما أودعت روحى فى الثَّرى ووسَّدت منى فلذة القلب مُرْمسا
وبعد فراق ابنى أبى القاسم الذى كسانى ثوب الثُّكل لا كان مُلبسا
أؤمل فى الدنيا حياة وارتضى مَقيلا لدى أبنائها ومُعرَّسا
فآها وللمفجوع فيها استراحة ولابد للمصدور أن يتَنفَّسا
على عُمْر أفْنَيت فيه بضاعتى فأسلمنى للقبر حَيْران[1] مُفلسا

(١) وردت فى الإسكوريال (ضريان) والتصويب من النفح .

ظللت به فى غفلة وجهالـة ... إلى أن رمى سهم الفراق فقرْطسا
إلى الله أشكو بَرْح حزنى فإنه ... تلبس منه القلب ما قد تلبسا
وصَدْمة [١] خَطْب نازلَتْنى عشية ... فما أغْنَت الشكوى ولا نفع الأسا
فقد صَدَعت شملى وأصْمَت مَقاتلى ... وقد هدَّمت ركنى الوثيق المؤسَّسا
ثبتُّ لها صبراً لشدة وقعها ... فما زلزلت صبرى الجميل وقد رسا
وأطمع فى أن يلقى برحمته الرضا ... وأجزع أن يشقى بذنب فَينكُسا
أبا القاسم اسمع شَجْو [٢] والدك الذى ... حَسا من كؤوس البين أفظع ما حسا
وقفتُ فؤادى مذ رحلت على الأسى ... وأشهد لا ينفك وقفًا مُحبَّسا
وقطعت آمالى من الناس كلِّهم ... فلست أبالى أحْسَن المرء أم أسا
تواريتَ يا شمسى وبَدْرى وناظرى فصار وجودى مذ تواريت حِنْدِسا
وخلَّفت لى عبئًا من الثُّكل [٣] فادحا ... فما أتعب الثُّكلان نفسا وأتعسا
أحقا ثوى ذاك الشباب فلا أرى ... له بعد هذا اليوم حولى [٤] مجلسا
فيا غصنا نَضِرًا ثوى عندما استوى ... فأوحشنى أضعاف ما كان آنَسا
ويا نعمةً لما تبلَّغتها انقضت ... فأنعم أحوالى بها صار أبؤسا
فودعته والدمع يَهمى سحابه ... كما أسلم السلك الفريد المجنسا [٥]
وقبلت فى ذاك الجبين مودعا ... لأكرم من نفسى علىَّ وأنْفَسا
وخفَّف من وجدى به قربُ رحلتى ... وماذا عسى أن ينظر الدهر ما عسا
فيارحمة للشيب يبكى شبيبةً ... قياس لعمرى عكسه كان أقيسا
فلو أن هذا الموت يقبل فِديةً ... حَبَوناهُ أموالا كِراما وأنفسا
ولكنه حكم من الله واجب ... يسلم فيه من بخير الورى ائتَسَى

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وهدة) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (شكو) .
(٣) وردت فى الإسكوريال (الثقل) . والتصويب من النفح .
(٤) وردت فى الإسكوريال (بعدى) والتصويب من النفح .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (المخمسا) .

تغمدك الرحمن بالعفو والرضا وكرم مثواك الجديد وقدسا
وألّف منا الشمل فى جنة العلا فنشرب تسنيما ونلبس سندسا

وكتب إليه قصيدة أولها :

أمستخرجا كنز العقيق بآماق أناشدك الرحمن فى الرّمق الباق
فقد ضَعُفت عن حَمْل صبرى طاقتى عليك وضاقت عن زفيرى أطواق

فأجابنى رحمة الله عليه عن ذلك :

سَقانى فأهلا [بالسِّقاية والعناق](١) سُلافاً بها قام السرور على ساق
ولا نُقْل إلا من بدايع حِكْمَة ولا كأس إلا من سطور وأوراق
فقد أنشأت لى نَشْوَة بعد نشوة تمدّ بروحانية ذات أذواق
فمن حظها الفانى متاعٌ لناظرى وسمعى وحظّ الروح من حظّها الباق
أعادت شبابى بعد سبعين حِجّة فأثوابه قد جُدِّدت بعد إخلاق
وما كنت يوما للمدامة صاحبا ولا قَبِلتها قط نشأةُ أخلاق
ولا خالَطَت لحمى ولا مازَجَت دمى كفى شرّها مولاى فالفضل للواق
وهذا على عهد الشباب فكيف لى بها بعد ما للشبيبة مِهْراق
تَبَصّر فحكما(٢) القهوتين تخالفا فكم بين إثْبات لعقل وإزْهاق
وشتان ما بين المُدامين فاعتبر فكم بين إنجاح لسعى وإخفاق
فتلك تُهادى بين ظلم وظلمة وهذى تهادى بين عَدْل وإشراق
أيا عَلَم الإحسان غير منازع شهادة إجماع عليها وإصْفاق
فضائلك الحُسْنى علىّ تواترت بمُنْهَمِر من سُحْب فكرك غَيْداق
خزاين آداب بعثت بَدْرِّها إلىّ ولم تمنن بخِشية إنفاق

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (بالمدامة والساق) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (فحكم) والتصويب من النفح .

ولا مثل بكر حُرَّة عـربية　　زكيَّة أخلاق كريمة أعـراق
فأقسم ما البيض الحِسان تبرَّمت　　تناجيك سرا بين وحى وإطراق
بلورٌ بدت من أفق أطواقها على　　رياض شدت فى قُضْبها[1] ذات أطواق
فناظَر منها الأقحوان ثغورهـا　　وقابل منها نَرْجس سحر أحداق
وناسب منها الورد خدًّا مورَّدا　　سقاه الشباب النَّضر بورِك من ساق
وأُلبسْن من صنعاء وشْيا مُنَمْنما　　وحُلِّين من درٍّ نفايس أعلاق
بِمَا حلىً لأفـواه وأبهـىً لأعين　　وأحلىً لألباب وأشهىً لعُشَّاق
رأيت بها شهب السماء تنزَّلت　　إلىَّ تحيينى تحيـة مشـتاق
ألا إنَّ هذا السحر لا سحر بابل　　فقد سحرت قلبى المعنَّى فمن راق
لقد أعْجَزت شكرى فضايل ماجد　　أبرّ بأحباب وأوْفَى بميثـاق
تقاضى ديُون الشعر منى منبهـا　　رويدك لا تعجل علىَّ بإرهـاق
فلو نشر الصادَّان من ملحديهما　　لإنْصاف هذا الدِّين لاذا بإملاق
فخذ زمام الرِّفق شيخا تقاصرت　　خُطاه وعاهِدْه بمعهود وإشـفاق
فلا زلت تحيى للمكارم رسمها　　وقدرُك فى أهل العلا والنُّهى راق

وكتبت إليه فى غرض العتاب والاستعتاب :

أدَرْنا وضوء الأُفق قد صدع الفضَا　　مُدامة عتب بيننا نُقلها الرضا
فللّه عينا من رأنا وللحيا حَيىً[2]　　بآفـاق البشـاشة أوْمَضـا
نفِرُّ إلى عدل الزمان الذى أتى　　ونبرأ من جَوْر الزمان الذى مضى
ونـأسو كلوم اللفظ باللفظ عاجلا　　كذا قَدَح الصهباء داوى وأمرضا

فراجعنى بقوله :

ألا حبذا ذاك العتاب الذى مضى　　وإن جره واش بزور تمضمضـا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (قطبها) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (جنى) .

أغارت له خيلٌ فما ذَعِرت حِمًى ... ولكنها كانت طلائع للرضا
تألّق منها بارق صاب مُزْنة ... على معهد الحب الصّميم فروّضا
تلألأ نور[1] للصداقة حافظا ... وإن ظن سيفا للقطيعة منتضا
فإن سوّد الشيطان منه صحيفة ... أتى ملك الرحمى عليها فبيّضا
وما كان حبٌّ أحكم الصدق عهده ... ليُرمى بوسواس الوشاة فيُرفضا
أعيذ ودادًا زاكى القصد وافيا ... تخلّص من أدرانه فتمحّضا
ونيّة صدق فى رضى الله أخلصت ... سناها بآفاق البسيطة قد أضا
من الآفك الساعى ليخفى نورها ... أيخفى شعاعُ الشمس قد ملأ الفضا
وكيف يُحلُّ المبطلون بإفكهم ... معاقِدَ حب أحكمتها يد القضا
تعرّض يبغى هدمها فكأنه ... لتَشْييد مبناها الوثيق تعرّضا
وحرّض فى تنفيره فكأنما ... على البرِّ والتسكين والحب حرّضا
وأوقد نارا فهو يُصْلى جحيمها ... يُقلِّب منها القَلْبَ فى موقد الغَضا
أيا واحدى المعدود بالألف وحده ... ويا ولدى البَرَّ الزكى إن ارتضا
بعثتَ من الدر النفيس قلايدا ... على ما ارتضى حكم المحبة واقتضا
نَتِيجة آداب وطبعٍ مهذب ... أطال مداه فى البيان وأعرضا
ولا مِثلُ بِكر باكرتنى آنفا ... كزورة خلٍّ بعد ما كان أعرضا
هى الروضة الغنّاءُ أينع زهرها ... تناظر حسناً مُذهَّبا ومُفضَّضا
أو الغادة الحسناءُ راقت فينقضى ... مدى العمر فى وصفى لها وهو ما انقضا
تَطابقَ منها شَعْرُها وجبينُها ... فذا اللَّيْلُ مُسْودًّا وذا الصُّبحُ أبيضا
أو الشهب منها زينة وهداية ... ورجْمٌ لشيطان إذا هو قيّضا
أتت ببديع الشِّعر طورا مُصَرِّحاً ... بأبياتك الحسنى وطورا مُعَرِّضا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نورا) .

ومهّدت الأعذار دون جناية ... ولو أنك الجانى لكنتَ المغمِضا
لك الله من برٍّ وفىٍّ وصاحبٍ ... محضت له صدق الضمير فأمحضا
لسانك فى شكرى مُفيض تفضلا ... فياحُسْن ما أهدى وأسدى وأقرضا
وقلبك فاضت فيه أنوار خِلّتى ... فأبقى يدى تسليمه لى مفوضا
وقصدُك مشكور وعهدُك ثابت ... وفضلك منشور وفعلك مُرْتضا
فهل مع هذا ريبةٌ فى مودة ... بحال وإن رأيت فما أنا معرضا
فَثِق بولائى إننى لك مخلص ... هوًى ثابتاً يبقى فليس له انقِضا
عليك سلام الله ما هبّت الصّبا ... وما بارقٌ جنح الدّجنة أومضا

وكتب إلى القاضى الشريف وهو بوادى آش :

أهزلا وقد جدّت بك اللّمة الشمطاءُ ... وأمْناً وقد [ساورتها حية رَقْطا] (١)
أغرك طول العمر فى غير طايل ... وسرّك أن الموت فى سيره أبطا
رويدا فإن الموت أسرع وافد ... على عمرك الفانى ركايبه حطّا
فإذ ذاك لا تستطيع إدراك ما مضى ... بحال ولا قَبْضًا تطيق ولا بَسْطا
تاهب فقد وافى مَشِيبك منذرا ... وها هو فى فَوْديك أحرفَه خطّا
فرافقت منه كاتب السر واشيا ... له القلم الأعلى يخط به وخطا
مُعَمى كتاب فكه احْذر فهذه ... سفينة هذا العمر قاربت الشّطا
وإن طال ما خاضت بك اللجج التى ... خبطت بها فى كل مهلكة خبطا
وما زلت فى أمواجها متقلبا ... فآونة رفْعًا وآونة حطّا
فقد أوشكَت تلقيك فى قعر حفرة ... تشد عليك الجانبين بها ضغطا
ولست على علم بما أنت بعدها ... مُلاقٍ أرِضواناً من الله أم سخطا
وأعْجَبُ شىء منك دعواك فى النُّها ... وهذا الهوى المُرْدِى على العقل قدغطّا

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (ساورت ياحية رقطا) .

قسطتَ عن الحق المبين جهالةً　وقد غالطتك[1] النفس فادّعت القَسطا
وطاوعت شيطانا تجيب إذا دعا　وتقبل أن أغوى وتأخذ إن أعطا
تناءى عن الأُخرى وقد قرُبت مدًى　تدانى عن الدنيا وقد أزمعت شَحَطا
وتمنحها حبًّا وفرط صَبابة　وما منحت إلا القتادة والخَرْطا
فها أنت تهوى وصلها وهى فاركٌ　وتأمل قُربا من حِماها وقد شطًّا
صراط هدًى نكبت عنه عِمايةً　ودار ردًى أوعيت[2] فى سجنها سَرْطا
فمالك إلا السيد الشافع الذى　له فضل جاه كل مايُرتجى[3] يُعطى
دليل إلى الرحمن فانهج سبيله　فمن حاد عن نهج الدليل فقد أخطا
محبته شرط القبول فمن خلت　صحيفته منها فقد فَقَد الشرطا
وما قبلت منه لدى الله قربة　ولا زكت الأعمال بل حَبَطَت حبطا
به الحق وضاح به الإفك زاهق　به الفوز مرجوٌّ به الذنب قد حطًّا
هو الملجأ الأحمى هو الموئل الذى　به فى غد يَستشفع المذنب الخطَا
إليك ابن خير الخلق بِنْت بديهة　تُقبل تبجيلا أناملك السَّبْطا
وحيدة هذا العصر وافت وحيدة　لتبسط من شتى بدايعها بَسْطا
وتتلو آيات التشيع إنها　لموثقة عهداً ومحكمة ربطا
لك الشرف المأثور يا ابن محمد　وحسبك أن تنمى إلى سَبْطه سبطا
إلىْ شَرفى دينٍ وعِلْمٍ تظاهرا　تبارك من أعطى وبُورك فى المعطا
ورهطك أهل البيت بيت محمد　فأعظم به بيتا وأكرم بهم رهطا
بعثت به عقدا من الدر فاخرا　وذكر رسول الله درّته الوُسْطا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (خالفتك) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أودعت) .

(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (يرتضى) والأولى أرجح

وأهديت منهـا للسيادة غـادة ... نَظَمْت من الدر الثمين بها سِمطا
وحاشيتها من كل ما شأنها فإن ... تجعّد حوشى تجد لفظها سَبْطا
وفى الطيبين الظاهرين نظمتُها ... فساعدها من أجل ذلك حرف الطا
عليك سلام الله ما درّ شارق ... وماردّدت ورقاء فى غصنها[1] لَغَطَا

ومن غريب ما خاطبنى به قوله :

أقسم بالقيسين والنابغتين ... وشاعرى طيىء المولدين
وبابن حجر وزهير وابنه ... والأعشيين بعد ثم الأعميين
ثم بعُشّاق الثريا والرقيّات ... وعزة ومى وبثين
وبأبى الشيص ودعبل ومن ... كشاعرى خزاعة[2] المخضرمين
وولد المعتز والرضى والسرى ... ثم حسن وابن الحسين
وأختم بقسّ وسَحْبان فإن ... أوجَب حق أن يكونا أولين
وحِليتى نثرُهم ونظمُهم ... فى مَشْرِقى أقطارهم والمغربين
أن الخطيب ابن الخطيب سابق ... بنثره ونظمه للحلبتين
وافتنى[3] الصحيفة الحسنى التى ... شاهدت فيها المكرمات رأى عين
تجمع من براعة المعنى إلى ... براعة الألفاظ كلتا الحسنيين
أشهد أنك الذى سبقت فى ... طريقَىْ الآداب أقصى الأمدين
شعر حوى جزالة ورقّة ... تصاغ منه حِلية للشعريين
رسايل أزهارها منشورة ... سرور قلب ومتاعُ ناظرين
يا أحوذيًّا يانسيج وحده ... شهادة تنزهت عن قول مَيْن
بقيت فى مواهب الله التى ... تقر عينيك وتملأُ اليدين

---

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (غصن) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (خزامة) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (راقتنى) .

ومن المقطوعات الموطّنات على المثال :

لله عصر الشباب عصرا ... فتح للخير كل باب
حفظتُ ما شئتُ فيه حفظا ... كنت أراه بلا ذهاب
حتى إذا ما المشيب وافى ... ندَّ ولكن بلا إياب
لا تعتنوا بعدها بحفظ ... وقيدوا العلم بالكتاب

ومن ذلك قوله :

يا أيها الممسك البخيل ... إلهك المنفق الكفيل
إنفق وثق بالإله تربح ... فإن إحسانه جزيل
وقدم الأقربين واذكر ... ما رُوى ابدأ بمن تَعُول

ومن ذلك قوله :

وقائلة لم عراك المشيب ... وما أن يعهد الصبا من قدم
فقلت لها لم أشب كَبْرة ... ولكنه الهمُّ نصف الهَرَم

ومن ذلك قوله :

هى النفس إن أنت سامحتَها ... رمت بك أقصى مهاوى الخديعة
وإن أنت جشَّمتها خُطَّة ... تنافى رضاها تجدها مطيعة
فإن شئت فوزا فناقض هواها ... وإن واصلتك اجزها بالقطيعة[1]
ولا تعبأن بميعادها ... فميعادها كسراب بقيعة

ومن المقطوعات أيضا :

من أنت يا مولى الورى مقصودُ ... طوبى له قد ساعدته سعوده
فليشهدنك له فؤاد صادق ... وشهوده قامت عليه شهوده
وليفنينَّ[2] عن نفسه ورسومه ... طُرًّا وفى ذاك الفناء وجوده

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (القطيعة) .

(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (وليتفين) والأولى أرجح .

وليخطفنه[1] بارق يَرق به ... في أشرف المعراج ثم يعيده
حتى يظل وليس يدرى دهشة ... تقريبه المقصود أو تبعيده
لكنه ألقى السلاح مسلما ... فمراده ما أنت منه تريده
فلقد تساوى عنده إكرامه ... وهوانه ومفيده ومبيده

ومن ذلك قوله فى المعنى :

يقينى أن الله جل جلاله ... يقينى فراجى الله ليس يخيب

ومن مقطوعاته فى الألغاز والأحاجى قوله فى حَجَلة :

حاجيت كل فطن لبيب ... ما اسم الأُنثى من بنى يعقوب
ذات كرامات فزرها قربة ... فزورها أحق بالتقريب
تشركها فى الإسم أنثى لم تزل ... حافظة لسرها المحجوب
وقد جرى فى خاتم الوحى الرضا ... لها حديث ليس بالمكذوب
وهو إذا ما الفاء منه صحفت ... صبغ الحيا لا الحيا المسكوب
فهاكها واضحةٌ أسرارُها ... فأَمْرُها أقرب من قريب

وفى آب الشهر :

حاجيتكم ما اسم عَلَم ... ذو نسبة إلى العجم
يخبر بالرجعة وهو ... راجع كما زعم
وصف الحميم[2] هو بالتصحيف ... أو بدءُ قسم
دونكه أوضح من ... نار على رأس علم

ومن ذلك قوله فى كانون :

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (وليحفظنه) والأولى أرجح .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الحبيب) .

وما اسم لسميّيــــن ولم يجمعهما جنس
فهذا كلمـا يأتـى فبـالآخـر لى أنس
[وهذا ما له شخص وهذا مالـه حِسٌّ](١)
وهذا ما له سـوم وذا قيمتـه فِلْـس
وهـذا أصـله الأرض وهـذا أصـله الشمس
وهذا واحد من سبعة تحيـا بهـا النفس
فمن محمولـه الجـنّ ومن موضوعـه الإنس
فقد بان الذى ألغزتُ ما فى أمـره لَبْـس

ومن ذلك قوله فى نمر :

ما حيوان ما له من حرمة إن اسمه صُحف فابن العمة
وقلبه من بعد تصحيف لـه يريك فى الذكر الحكيم أُمَّة(٢)

ومن ذلك قوله فى سُلم :

ما اسم مركب مفيد الوضع مستعمل فى الوَصْل لا فى القَطْع
ينصب لكن أكثر استعمال من يُعنى به فى الخفض أو فى الرفع
وهو إذا خففتـه مغيـرا تراه شملا لم يزل ذا صدع
فالاسم إن طلبته تجده فى خامسة من الطوال السَّبع
وهو إذا صحّفَته يعرب عن مكسر فى غير باب الجمع
له أخ أفضل منه لم تـزل آثاره محمودة فى الشّـرع
هما جميعا من بنى النجار والأفضل أصل فى حنين الجذع
فهاكه قـد سطعت أنـواره لا سيما لكل زاكى الطبع

---

(١) هذا البيت وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .

(٢) هكذا ورد هذا البيت فى الإسكوريال . وورد فى الزيتونة كالآتى :

وقلبه من بعـد تصحيفـه له يريك فى الذكر الحكم أمة

ومن ذلك قوله فى فنار :

ماسم إذا حذفت منه [فاءه][1] الممنوعة   فإنه بنت الزنا مضافة لأربعة

ومن ذلك قوله فى حوت :

ما حيوان فى اسمه   إن اعتبرته فنون
حروفه ثلاثة   والكل منها نون
تصحيفه قطع الفلا   أو ما جناه المذنبون
أو أبيض أو أسود   أو صفة النفس الخؤون
وقلبه مصحفاً عليه   دارت السنون
كانت به فى مضى   عبرة قوم يعقلون
أودع فيها عنده[2]   سر من السر المصون
فهاكه كالنار فى   الزند لها فيه كمون

ومن ذلك قوله فى مائدة :

حاجيتُ كل فَطِن نظَّار   ما اسم لأُنثى من بنى النجار
وفى كتاب الله جاء ذكرها   فقل ما يغفل عنها القارِ
فى خبر المهدى فاطلبها تجد   إن كنت من مطالعى الأخبار
ما هى إلا العيد عيد رحمة   ونعمة ساطعة الأنوار
بشركها فى الاسم وصف حسن   من وصف قُضُب الروضة المعطار
فهاكه كالشمس فى وقت الضحى   قد شف[3] عنها حجب الأستار

ومن ذلك قوله فى زبيب :

ما نقِى العِرض طاهر الجسد   عندما خالطه الما فَسَد

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة . وفى هامش الإسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (زمنا) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (شق) .

خالط الماء القَراح فغوى بعد ما كان من أهل الرُّشد
عجمى الأَصــل تم حسنه عندما صاد الغزالة الأُسد
واسمه اسم امرأة مصحفاً ولقد يكون وصفا لــولد
هاكه قــد بهرت أنــواره فارم بالفكر تُصِب قصد الرشد

جميع هذه الأَغراض المنسوبة إليه بحر لا ينفد مدده ، وقطر لا يبلغ عدده .

وأما نثره فسلطانيّات مطولات ، عرضت بما تخللها من الأَحوال متونها ، وقلّت لمكان الاستعجال والبديهة عيونها . وقد اقتضبت منها أجزاً سميته « تافها من جَمّ ونقطة من يَمّ »

مولده : ولد بغرناطة فى جمادى الآخرة عام ثلاثة وسبعين وستّماية.

وفاته : ليلة يوم الأَربعاء الثالث والعشرين من شوال عام تسعة وأربعين وسبعماية . ودفن بباب إلبيرة . وكانت جنازته آخذة نهاية الاحتفال ، حضرها السلطان فمن دونه .

ومما رثى به : رثيته بقصيدة أنشدتها على قبره خامس يوم دفنه ثبتت فى غير ما موضع وهى :

ما لليراع خواضع الأَعناق طَرقَ النّعى فهنّ فى إطراق
وكانما صبغ الشحوب وجوهها والسّقَم من جزع ومن إشفاق
ما للصحائف صوّحت روضاتها أسفا وكن نضيرة الأَوراق
ما للبيان كؤوسه مهجورة غفل المدير لها ونام السّاق (١)
مالى عدمت تجلدى وتصبرى والصبر فى الأَزمات من أخلاق
خطب أصاب بنى البلاغة والحجا شبّ الزفير به عن الأَطواق
أما وقد أودى أبو الحسن الرضا فالفصل قد أودى على الإطلاق
كنز المعارف لا تبيد نقوده يوما ولا تفنى على الإنفاق

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (الساق . أخلاق) .

من للبدائع أصبحت سمر السُّرى ما بين شامٍ للورى وعراق

من لليراع يجيل من خطبها سم العدا ومفاتح الأرزاق

قُضُب ذوابل مثمرات بالمنى وأراقم ينفثن بالتِّريـاق

من للرقاع الحمر يجمع حسنها خجل الخدود وصَبْغة الأحداق

تغتـال أحشاء العدو كأنها صفحات دامية الغرار رِقاق

وتهز أعطاف الولى كأنها راحٌ مشعشعة بـراحة ساق

من للفنون يجيل فى ميدانها خَيْل البيان كريمة الإعراق

من للحقائق أبهمت أبوابها للناس يفتحها على استِغْلاق

من للمساعى [الغر] (١) تقصدجاهه حُرُما فينصرها على الإخفاق

كم شد من عَقْدٍ وثيق حكمه فى الله أو أفتى بحل وثـاق

رحب الذراع بكل خطب فادح أعيت رياضته على الحذّاق

صعب القادة فى الموادة والهوى سهل على العافين والطُّراق

ركب الطريق إلى الجنان وحورها يلقينه بتصافح وعنـاق

فاعجب لأنس فى مظنة وَحشَة ومقام وصل فى مقـام فـراق

أمُطَيَّبا بمحامد العمل الرضى ومُكَفَّنا بمكارم الأخـلاق

ماكنت أحسب قبل نعشك أن أرى رضوى تسير على الأعناق

ماكنت أحسب قبل دفنك فى الثَّرى أن اللحود خزائن الأعلاق

ياكوكب الهدى الذى من بعده ركد الظلام بهذه الآفـاق

ياواحدا مهما جرى فى حَلْبَة جلى بغـرة سابق السبـاق

ياثاويا بطن الضريح وذكره أبدا رفيقَ ركائب ورفـاق

ياغوثَ من وصل الضريح فلم يجد فى الأرض من وزر ولا من واق

(١) واردة فى النفح . وساقطة فى الإسكوريال .

ما كنتَ إلا ديمةً منشورة   من غير إرعاد ولا إبـراق
ما كنت الا روضة ممطورة   ما شئت بن ثمر ومن أوراق
يا مزمعا عنـا العشى ركابه   هلا لبثت[1] ولـو بقدرفـواق
رفقا أبـانا جـلٌ ماحملتنا   لا تنس فينا عـادة الإشفاق
واسمح ولوبمزار لقيا[2] فى الكرى   تبقى بها منا على الأرمـاق
وإذا اللقاءُ تصرّمت أسبابه   كان الخيال تعلّة المشتاق
عجبا لنفس ودعتك وأيقنت   أن ليس بعد ثـواك يوم تلاق
ما علرها إن لم تقاسمك الردى   فى فضل كأس قدشربت دهاق
إن قصرت أجفاننا عن أن ترى   تبكى النجيع عليك باستحقاق
واستوقفت دهشا فإن قلوبنا   نهضت بكل وظيفة الآماق
ثق بالوفاء على المدى من فِتْيَة   بك تقتدى فى العهد والميثاق
سجعت بما طوقتها من منّـة   حتى زرَت بحمايم الأطـواق
تبكى فراقك خلوة عمرتها   بالذكر فى طَفَلٍ وفى إشراق
أما الثناءُ على علاك فذائع   قد صح بالإجماع والإصفاق
والله قد قرن الثنـاء بأرضه   بثنائه من فوق سبْع طبـاق
جادت ضريحك ديمةٌ هطّالة   تبكى عليـه بواكفٍ رقراق
وتغمدتك من الآله سـعادة   تسمو بروحك للمحل الراق
صبـرا بنى الجيـاب فقيدكم   سيُسرّ مقدمه بما هو لاق
وإذا الأسى لفح القلوب أواره   فالصبر والتسليم أى رواق

وأنشد فى هذا الغرض الفقيه أبو عبد الله بن جُزى رحمه الله :

ألم تر أن المجد أقوت معالمه   فأطنابه قد قوضت دعائمه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (ثويت) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (لو) .

هوى من سماء المعلوات شهابها ... وخانت جواد المكرمات قوائمه
وثلّث من الفخر المشيد عروشه ... وفلّت من العز المنيع صوارمه
وعُطّل من حلى البلاغة قسُّها ... وعُرّى من جود الأنامل حاتمه
أجل إنه الخطب الذى جل وقعه ... وثلم غرب الدين والعلم هاجمه
وإلاَّ فما للنوم طار مطاره ... وما للزيم الحزن قصت قوادمه
وما لصباح الأنس أظلم نوره ... وما لمحيًّا الدهر قُطّب باسمه
وما لدموع العين فُضَّت كأنها ... فواقع زهر والجفون كمائمه
قضى الله فى قطب الرياسة أن قضى ... فشتت ذاك الشمل من هو ناظمه
ومن قارع الأيام سبعين حجة ... ستنبو عراره وينْدَقُّ قائمه
وفى مثلها أعيى النطاسى طبُّه ... وضل طريق الحزم فى الرأى حازمه
تساوى جواد فى رداه وباخل ... فلا الجود واقيه ولا البخل عاصمه
وما نفعت ربَّ الجياد كِرامُه ... ولا منعت منه الغنى كرايمه
وكل تلاق فالفراق أمامه ... وكل طلوع فالغروب ملازمه
وكيف مجال العقل فى غير منفذ ... إذا كان بانى مَصْنع هو هادمه
لَبَيّْك عليًّا مستجير بعدله ... يُصاخ لشكواه ويمنع ظالمه
لبيك عليا ماتح[1] بحر علمه ... يروى بأنواع المعارف هائمه
لبيّْك عليا مظهر فضل نصحه ... يحلا عن ورد المآثم حايمه
لبيك عليا معتف جود كفه ... يواسيه فى أمواله ويقاسمه
لبيك عليا ليله وهو قائم ... يكابده أو يومه وهو صائمه
لبيك عليا فضل كل بلاغة ... يخلده فى صفحة الطِّرس راقمه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ماثح) .

وشخص ضئيل الجسم يرهب نفثه ليوث الشرى فى خيسها وضراغمه
تكفل بالرزق المقدر للورى إذا الله أعطى فهو للناس[1] قاسمه
يسدده سهما وينضوه صارما ويشرعه رمحا فكل يلائمه
إذا سال من شقيه سايل حبرة بما شاء منه سايل فهو عالمه
ليبك عليه الآن[2] من كان باكيا فتلك مغانيه خلت ومعالمه
تقلد منه الملك عضب بلاغة يقد السلوقى المضاعف صارمه
وقلده مثنى الوزارة فاكتفى بها ألمعى حازم الرأى عازمه
ففى يده وهو الزعيم بحقها يراعته والمشرفى وخاتمه
سخى على العافين سهل قياده أبى على العادين صعب شكائمه
إذا ضلت الآراء فى ليل حادث رآها برأى يصدع الحق[3] ناجمه
وقام بأمر الملك للدين حاميا فذل معاديه وضل مراغمه
وقد كان نيط العلم والحلم والتقى به وهو مانيطت عليه تمايمه
ودوخ أعناق الليالى بهمة يبيت ونجم الأفق فيها يزاحمه
وزاد على بعد المنال تواضعا أبى الله إلا أن تتم مكارمه
سقيت الغوادى أى علم وحكمة ودين متين ذلك القبر كاتمه
ومازلت[4] يستسقى بدعوتك الحيا وها هو يستسقى لقبرك ساجمه
بكت فقدك الكتاب إذ كان شملهم يؤلفه من روح فضلك ناعمه
وطوقتهم بالبر ثم سقيتهم نداك فكنت الروض ناحت حمايمه
ويبكيك منى ذاهب الصبر موجع فوقد فى جنبيه للحزن جاحمه
فتى نال منه الدهر إلا وفاءه فما وهنت فى حفظ عهد عزايمه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فى الناس) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (اليوم)

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الخطب) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (ومازال) .

عليل الذى زُرّت عليه جيوبه قريح الذى شُدّت عليه حزائمه
فقد كنت ألقى الخطب منه بجنة تعارض دونى بأسه وتصادمه
سأصبر مضطراً وإن عظم الأسى أحارب حزنى مرة وأسالمه
وأهديك إذ عز اللقاء تحية وطيب ثناء كالعَبِير نواسمه

وأنشد القاضى أبو بكر القرشى قوله من قصيدة فى ذلك :

هى الآجال غايتها نفاد وفى الغايات تمتاز الجياد

وأنشد الفقيه الكاتب أبو بكر القاسم بن الحكيم قوله من قصيدة :

لينْع الحِجا والحلم من كان ناعيا ويرع العلا والعلم من كان راعيا

وأنشد الفقيه القاضى أبو بكر بن جزى قصيدة أولها :

أبثكما والصبر للعهد ناكث حديثا أملته على الحوادث

قصائد مطولات يخرج استقصاؤها عن الغرض ، فكان هذا التأبين غريبا لم يتقدم به عهد بالحضرة لكونها دار ملك ، والتجلّة فى مثل هذا مقصورة على أولى الأمر . فمضى بسبيله رحمه الله .

على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر بن كنانة بن قيس بن الحصين بن لوذم ابن ثعلب بن عوف بن حارثة بن عامر الأكبر بن نام بن عبس[1] واسمه[2] زيد بن مالك بن أدد بن زيد العنسى المذحجى

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى الذيل والتكلة (عنس) .
(٢) هكذا وردت فى الذيل والتكلة . وفى الإسكوريال (والد) والأولى أرجح .

من أهل قلعة يحصب[1] ، غرناطى قلعى[2] ، سكن تونس ، يكنى أبا الحسن ، ويعرف بابن سعيد .

أوليته

قد تقرر من كرم أوليته ، وذكر بيته ما ينظر فى محله .

حاله

هذا الرجل وُسْطَى عقد بيته ، وعَلَم أهله ، ودرّة قومه ، المصنف الأديب ، الرحال ، الطُّرفة ، الإخبارى ، العجيب الشأن فى التجول فى الأوطان ، ومداخلة الأعيان ، والتمتع بالخزاين العلمية ، وتقييد الفوايد المشرقية والمغربية .

مشيخته

أخذ عن أعلام إشبيليه كأبى على الشُّلوبين ، وأبى الحسن الدباج ، وأبى الحسن بن عصفور وغيرهم .

تواليفه

وتواليفه كثيرة[3] ، منها المُرْقصات والمُطْربات ، عزيز الوجود ، والمقتطف أغرب وأعجب ، والطالع السعيد فى تاريخ بيته وبلده . والموضوعان الغريبان المتعددا الأسفار ، وهما « المغرب فى حلى المغرب » ، « والمشرق فى حلى المشرق » ، وغير ذلك مما لم يتصل إلينا ، فلقد حدثنى الوزير أبو بكر بن الحكيم ، أنه تخلف كتابا يسمى « المرزمة »[4] ، يشتمل على وقر بعير ، لا يعلم ما فيه من الفوايد الأدبية والإخبارية إلا الله

(١) سبق التعريف بها (أنظر المجلد الثالث من الإحاطة ص ٢١٥ و ٤٣٣) .
(٢) أى من سكان القلعة المذكورة .
(٣) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .
(٤) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (المزيدات) .

شعره

قال ، تعاطى نظم الشعر فى حدّ زمن الشبيبة ، يعجب فيه من مثله ، فيذكر أنه خرج مع والده ، وقد مر فى صحبته إلى إشبيلية ، وفى صحبته سهل بن مالك ، فجعل سهل يباحثه عن نظمه ، إلى أن أنشده فى صفة النهر والنسيم يردده ، والغصون تميل عليه :

كأنما النهر صفحة كتبت أسطرها والنسيم ينشيها
لما أبانت عن حسن منظرها مالت عليها الغصون تقرؤها

فطرب أبو الحسن وأثنى عليه ، ثم شدا ، وناب عن أبيه فى أعمال الجزيرة ، ومازج الأدباء ، ودون كثيراً من نظمه ، وحفظ له فى المدح :

يا أيها الملك الذى هباته وهباته شدّت عُرى الإسلام
لما أسال نداه سلّ حسامه فأراك برقا فى متون غمام
لله شيعتك التى ترك العدا أقداحهم بمواطىء الأقدام
طاروا بأجنحة السيوف إليهم مثل الحمام جلبن كل حِمام
فهم سهام والجياد قِسِيُّهم وعُداهم هدف وسَعْدك رام

وقال ، ومما نظمته بالحضرة فى فرس كان لهم لوبان أغرّ أكحل بحلية :

وأجرد تبرى أثرت به الثرى والفجر فى خصر الظلام وشاح
عجبت له وهو الأصيل بعرفه ظلام وبين الناظرين صباح

رحلته المشرقية ، وفيها الكثير من نظمه ، قال فى «الطالع» لما قدم الديار المصرية واشتهر ، كان مما نظمه سلما لمعرفة الأدباء والظرفاء قوله ، وقد رأى بساحلها وجوها لا يعرفها ، وألسُنًا غير ما عهد :

أصبحت أعترض الوجوه ولا أرى من بينها وجها لمن أدريه
ويحُ الغريب توحشت ألحاظه فى عالم ليس له بشَبيه

عودى على بدنى ضلالا بينهم حتى كأنى من بقـايا التيـه

ودخل القاهرة ، فصنع له أدباؤها صنيعا فى ظاهرها ، وانتهت بهم الفرجة آلى روض نرجس ، وكان فيهم أبو الحسن الجزّار ، فجعل يدوس النرجس برجله ، فقال أبو الحسن :

يا واطىء النرجس بالأرجل ما تستحى أن تطأ الأعين بالأرجل

فتهافتوا بهذا البيت وراموا إجازته .

فقال ابن أبى الأصبغ :

فقال دعنى لم أزل [محرجا] (١) على لحاظ الرشاد الأكحل

وكان أمثل ما حضرهم ، ثم أبوا أن يجيزه غيره ، فقال :

قابل جفـونا بجفون ولا تَبْتَـذل الأرْفع بالأسْفَل

ثم استدعاه سيف الدين بن سابق صاحب الأشغال السلطانية إلى مجلس بضفة النيل ، مبسوط بالورد ، وقد قامت حوله شمامات نرجس ، فقال فى ذلك :

من فضل النّرجس فهو الذى يرضى بحكم الورد إذ يرأس

أما ترى الورد غدا قـــاعدا وقام فى خدمته النّرجس

ووافق ذلك مماليك الترك ، وقوفا فى الخدمة على عادة المشارقة ، فطرب الحاضرون ، من حَسُود ومنصف. ولقى بمصر محيى الدين بن ندا واقد التركى ، الإمام زهير الحجارى بهاء الدين ، وبالقاهرة جمال الدين ابن مطروح ، وجمال الدين بن يغمور (٢) ، وتعرف بكمال الدين بن العديم رسول سلطان حلب ، فاستصحبه يُتحف به الملك الناصر صاحب حلب ،

---

(١) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) وردت فى الإسكوريال (ابن يعمور) وهو تحريف لاسم الشاعر المصرى أحمد بن موسى ابن يغمور ، المتوفى سنة ٦٧٣ هـ .

فلقى بحُمْص وبيت المقدس وحماه أعلا ما جِلّة ، وله معهم أخبار يطول ذكرها ، ودخل على السلطان بحلب ، وأنشده قصيدة أولها :

جُنْلى بما ألقى الخيال من الكَرى   لابد للطيف الملم من الكَرا(١)

فقال كمال الدين هذا رجل عارف مدروى لمقصده من أول كلمة .. ثم قال بعد أبيات :

الناصر الملك الذى عزماته   أبدا تكون مع العساكر عسكرا
ما كان أنبا الفتح يلزم لامه   والجمع من أعدائه متكسرا

فعظم استظراف السلطان لهذه المقاصد ، وأثنى عليه . ثم وصل فقال :

الدين أصلحه وعم صلاحهالدنيا   وأصبح ناصرا ومظفّرا
فكأن كُنْيته غدت موضوعه   من ربّه والوصف منه مقرّرا
وكأنما الأسماء قد عرضت على   عَلْياه قبل وجوده متخيّرا

فقال السلطان كيف ترون واستعاده . فقال عون الدين العجمى عميد المجلس ، وكاتب الإنشاء ، استنباطه ما سمع الملوك بمثله يا خُوند . ثم أنشد :

من آل أيوب الذين هم هم   ورثوا الندى والبأس أكبر أكبرا
أهل الرياسة والسياسة والعُلا   بسيوفهم حلوا الذُّرى منحوا الذُّرا
سم العداة على هيافيهم   لا تعجبوا فكذاك آساد الشرى
كادوا يقيلون العداة من الردى   لو لم يمدوا كالحجاب العثيرا
جعلوا خواتم سمرهم من قلب   كل معاند عد المثقف خنصرا
وببيضهم قد توجوا أعداءهم   حتى لقد حلُّوا لكيما تشكرا
لو لم يخافوا تيسار نحوهم   وهبوا الكواكب والصّباح المسْفرا

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (القرى) .

وهى طويلة . ثم استجلسه السلطان ، وسأله عن بلاده ، ومَقْصِده بالرحلة ، فأخبره أنه جمع كتابا فى الحُلَى البلادية والحُلَى العِبادية المختصة بالمشرق ، وأخبره أنه سماه « المُشرِق فى حُلَى المَشْرق » . وجمع مثله فسماه « المُغْرِب فى حُلَى المَغْرِب » . فقال نُعينك بما عندنا من الخزاين ، ونوصلك إلى ما لا عندنا . مثل خزاين الموصل وبغداد ، وتضيف لنا المغْرب . فخدم على عادتهم ، وقال أمر مولاى بذلك ، إنعام وتأنيس ، ثم قال له السلطان مُداعبا ، إن شعرءانا مُلَقَّبون بأسماء الطيور. وقد اخترت لك لقباً يليق بحسن صوتك وإيرادك للشعر ، فإن كنت ترضى به ، وإلاَّ لم يعلمه غيرنا ، وهو البُلبل ، فقال قد رضى المملوك بذلك يا خُوند . فتبسم السلطان ، وقال اختر واحدة من ثلاث ، أما الضيافة التى ذكرتها أول شعرك ، وأما جائزة القصيدة ، وإما حق الاسم . فقال يا خوند المملوك ممن لا يختنق بعَشْر لُقَم ، فكيف بثلاث . فطرب السلطان ، وقال هذا مَغرِبى ظريف ، ثم أتبعه[1] من الدنانير والخلع الملوكية والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف . ولقى بحضرته عَوْن الدين العجمى ، وهو بَحْر لا تنزفه الدِّلاء ، والشهاب التلَعْفَرى الشهير الذكر ، والتاج بن شُقير ، وابن نجيم الموصلى ، والشرف بن سليمان الإرْبِلِّى . وطائفة من بنى الصاحب . ثم تحول إلى دمشق ، ودخل الموصل وبغداد ، ودخل مجلس السلطان المعظم ابن الملك الصالح بدمشق ، وحضر بمجلس خَلْوته . وكان ارتحاله إلى بغداد فى عقب سنة ثمان وأربعين وستمائة فى رحلته الأُولى إليها . ثم رحل إلى البصرة ، ودخل أرجان ، وحجَّ . ثم عاد إلى المغرب . وقد صنف فى رحلته الأُولى إليها مجموعا سماه « بالنفحة

---

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (تبعته) . والأولى أنسب للسياق .

المِسْكِيّة فى الرحلة المكية». وكان نزوله بساحل مدينة إقلنية من إفريقية فى إنحلال جمادين من عام اثنين وخمسين وستمائة ، واتصل بخدمة الأمير أبى عبد الله المستنصر[1] فنال الدرجة الرفيعة من حُظوته ، وقال عند اتصاله به لحين قدومه :

وما زلت أضرب فى الخافقين أروم البلاد وأرعى الدول
إلى أن رجعت إلى تونس محل الإمام وأقصى الأمل
فقلت البلاد لهذى قِــرًى وقلت الأنام لهذا خَــوَل

نكبته

وحدثنى شيخنا الوزير أبو بكر بن الحكيم ، أن المستنصر جفاه فى آخر عمره ، وقد أسَنّ لجراء خدمة مالية أسندها إليه ، وقد كان بلاءً منه قبل جفوة ، أعقبها انتشال وعناية . فكتب إليه :

يا غزالا فى الحشا منْزِلـه وبعينى دائما مَنْهــلـه
لا تُرْعبنى بالجفا ثانيـة ما بقى فى الجسم ما يحمله

فرق له ، وعاد إلى حسن النظر فيه ، إلى أن توفى تحت برٍّ وعناية . رحمه الله

مولده : ولد بغرناطة ليلة الفطر فى سنة عشر وستماية .

وفاته : توفى بتونس حرسها الله فى أحواز عام خمسة وثمانين وستماية .

على بن عبد الرحمن بن موسى بن جودى القيسى

الأديب الكاتب يكنى أبا الحسن

---

(١) هو الخليفة (وليس الأمير) أبو عبد الله المستنصر بالله بن أبى زكريا بن أبى محمد عبدالواحد الحفصى ، عاهل مملكة إفريقية (تونس) ، وقد حكم من سنة ٦٤٧ هـ حتى وفاته فى سنة ٦٧٥ هـ .

حاله

من أهل المعرفة بالعلوم القديمة ، وأصله من عمل سَرَقُسْطة . وكان صديقا للوزير أبي الحسن بن هانى .

مشيخته

قرأ على الحكيم أبي بكر بن الصايغ، المعروف بابن باجّة[1]. وكان خليع الرّسن فيما ذكر عنه .

شعره

من شعره :

خليلى من نعمان بالله عــرّجا ... على الأَيْك من وادى العقيق فسلّما
وقولا له ما حال لُبْنَى لعلــه ... إذا سمع النجوى بلُبْنَى تكلّما
فعهدى به والظل ينفض دوحه ... وقد خضلت عيدانه فتنعّما
تُباكره لُبْنَى لإتيان موعـــد ... عزيز عليها أن يُخان ويُصرما
نبث حديثها فنبكى بعَبْــرة ... فترسلها ماءً ونُرسلها دمـا

ومن شعره قوله :

أدر كأس المدام فقد تغنى ... بفرع الأَيك أَوْرُقها الصدوح
وهبَّ على الرياض نسيم صبح ... يمر كما ونى ساد طليـح
وسال النهر يشكو من حصاه ... جراحات كما أنَّ الجـريح

وقال :

سقى الله دهرا ضم شمل مودة ... وجمع إخوان الصفاء بلا وعـد
بميناء تعلوها الرياح بليـــلةً ... وتنظر منها الشمس بالأَعين الرّمد

---

(١) سبق التعريف به (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ١٨٩ حاشية) .

وفاته : توفى بغرناطة فى حدود الثلاثين وخمسماية .

ومن الطاريين

عمر بن خلاف بن سليمان بن سلمة

من أهل شابش يكنى أبا على .

حاله

كان فقيها أديبا مكثرا ، شهير المكان بجهته ، مولعا بمكاتبة الأدباء ، وتقييد ما يصدر عنهم ، مؤرخا من أهل النباهة والعناية . ألف كتابا سماه « نُخْبة الأعْلاق ، ونزهة الأحداق فى الأدباء » ، وحلىْ من ذُكر فما قصر ن السداد . وله نظم ونثر وخُطب ، وبيعات ومراجعات ، تضمنها الكثير من كتبه .

فمن شعره ما قاله يخاطب بعض إخوانه :

خذها إليك أبا اسحق تَذْكِرة — من ذاكر لك فى قُرْب وفى شَحَط
يَرْعى ذمامك لا تنسى لوازمه — ولا يمازجه بالسهو والغلط
ولا يزال بحفظ العهد مُعْتنيا — ولا يعامل فى البحران بالشطط
فأنت عندى أولى من أذمَّة ربحى — ومن صفوتى فى أرفع النَّمط
قد طال شوقى للإعلام منك بما — لديك إذ فيه لى تأنيس مُغْتَبِط
وقد تبيت بنكرى فى التغافل عن — معهود ما كنت تُوليه لذى الشَّحط
وقد عفا رسم عِرفان الإخاء بما — أوليت من كثرة الإهمال والغلط
جُبْر أخى وهْيه وارجع لصالح ما — عودت فى الكُتْب من مُسْتحسن الخُطط
وجُد ببسط انبساط أنت تبذله — فإنَّ أقبح شىء قَبْض منبسط
خذ سلاما كعَرْف المسك نفحته — من ذى ولاء بذاك المجد مغتبط

وفى مفاتحة بعض الأُدباء :

أَبا جعفر وافتْك فى صفحة الطِّرس ... عقيلة وُد لم تُشِنْها يد اللمس
لها حُلل الإخلاص زِيًّا وحَــلْيُها ... عطر ثنا عَرْف روض الربى يَنْبس
وموجبها ما قد فشى من مَحــامد ... حباكَ بها الرحمن ذو العرش والكرسى
وغُرُّ علوم حزتها ومعارف غلوت بها ... فحيٍّ عــلى البــدر والشـمس
فإن رُزِقَتْ منك القبول تشرَّفـت ... وفازت بتحصيل المسرة والأُنس
خطابك يا قاضى العدالة بُغْيــتى ... ورُوحى ورِيحانى وقُصْوى مُنى نفسى

إقتضبتها أعلى الله قدرك ، كما أَسْنَى فى سماء المعارف والأَدب التالد والطارف بَدْرك، عن ودٍّ ملك زمامى ، وفضل فى سبيل المنافسة فى خطبة ودادك غاية اهتمامى ، وقد تقرَّر لدىَّ من محاسنك وإحسانك بالسماع ما أَوجب علىَّ مخاطبتك عند تعذر المشافهة بأَلسنة اليراع ، فانمدتُ بزمام ذلك الواجب ،وقصدتُ أَداءَه على أَصح المذاهب، راجياً من تجاوزك وإغضايك مايليق بباهر علايك ، وفى جوابك هو الشفاء ، ولدى خطابك يُلقى الاعتناء والاحتفاء، والله يطلع منك السَّار ، ويصل لك المبار. وقال يخاطب السلطان :

إلى الحضرة العليا يستبق العبد ... وفى القرب منها والدنوّ هو القصد
إلى حضرة الولى الإمارية التى ... تبلَّج فيها العدل وابتسم السعد
وفيها وجود للــدين والدُّنــا ... وقد خصَّها بالرحمة الصَّمد الفرد

وفاته : كان حياً فى سنة خمس وستماية

على بن أحمد بن محمد بن يوسف بن عمر الغسانى (١)

(١) ورد فى هامش المخطوط (لوحة ٣٢٧) تعليقاً على هذه الترجمة ما يأتى : « قلت وستأتى قريباً بعد سبعة تراجم ، ترجمة على بن أحمد الغسانى شارح مسلم ، واسمه كاسم هذا المترجم به هنا وكذا اسم أبيه وجده وأبى جد جده . ويوافقه أيضاً فى النسب والبلد والكنية والشيوخ والتواليف . ولا أظنهما إلا شخصاً واحداً ، بل ربما يكاد أن يقطع بذلك . فتأمل ذلك والعلم عند الله . وقد ذكرهما ابن فرحون فى « الديباج » شخصين ، وعرفهما كما فعل ابن الخطيب فتأمل ذلك والعلم عند الله . وكتب أحمد ابن أحمد بن حمد بن عمر المسنوى الأنصارى . وختم الله تعالى له ولوالده بالخير والحسنى »

من أهل قرية أرينتيرة من قرى سند مدينة وادى آش ، يكنى أبا الحسن

حــــاله

كان من جلّة الطلبة ونبهائهم وأذكيائهم وصلحائهم . عنده معرفة بالفقة ، ومشاركة فى الحديث، ومعرفة بالنحو والأدب . وحسن نظم ونثر ، من أحسن الناس نظما للوثائق، وأتقنهم لها . وأعرفهم بنقدها، وأقصدهم لمعانيها يستعين على ذلك بأدب وكتابة ، فيأتى بأشياء عجيبة .

مشيخته

روى عن الراوية أبى العباس الخروبى . والمقرى أبى الحسن طاهر بن يوسف بن فتح الأنصارى . والقاضى أبى محمد بن عبد الرحيم الخزرجى

تواليفه

ألف كتاباً فى شرح المُسْنَد الصحيح لمسْلم بن الحجاج فى أسفار كثيرة ، أجاد فيها كل الإجادة . وله كتاب سماه بالوسيلة فى الأسماء الحسنى . ونظم فى شمايل النبى عليه أفضل الصلاة والسلام .

شعره

له شعر فى الزهد وغيره فمنه قوله :

أيا كريما لم يُضَع — لـــديك عبد أمّلك
بالباب من أنت له — وودّ أن لو كان لـك
عبدٌ لـه أسولـــة — وليستحى أن يسلك
أفواههم تســــله — ولـم تحسن عملك
فإن أنت خنتــــه — أمانة قــــد حمّلك
ولـم تكن تشكرمـا — من فضله قد خوّلك

وكلما أهملته من حقِّه ما أهمـــلك
إنّا كما قالوا سوى أنك أعلى من ملك
تلك التى تؤنسنى وترتجى بفضــلك
بشراى إن نـــال الرضا بها توسُّلك

على بن محمد على بن هيضم الرعينى

من أهل إشبيلية، يكنى أبا الحسن .

حاله

الكاتب البليغ المحدث الراوية . قال الأستاذ ، كان من أهل العلم والمشاركة ، وغلبت عليه الكتابة السلطانية . واعتمدها صناعة . وكتب لجلّة من ملوك الأندلس والعُدْوة . وكان انفصاله من الأندلس قبل سنة أربعين وستماية .

قلت ، وكتب للسلطان المتوكل على الله أبى عبد الله بن هود ، ثم للسلطان المتوكل الغالب بالله أبى عبد الله بن نصر . وسكن بغرناطة مدة [(١)] مديدة . ثم رحل إلى مراكش . فكتب عن أمير سَبْتَة ، وعن ملوك الموحدين بمراكش . ونَمَت حاله ونبُهت رتْبتَه ، واستقل بالإنشاء ، بعد شيخة أبى زيد الفازازى ، وكان محدثا عارفا بالراوية ، متعدد المشيخة . فاضلا ، ديِّنا . مشاركا فى كثير من المعارف . حسن الخط . جيد الكتابة . متوسط الشعر . قلت هذا الرجل له مشيخة فى أصل ابن الخطيب طويلة اختصرتها [(٢)] .

---

(١) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٢) هذا مثل من إشارات المختصر إلى طريقة اختصاراته ، فهو فى معظم الأحيان يختصر « المشيخة » أو يغفلها بتاتاً .

شعره ونثره

من ذلك ما جمع فيه بين النظم والنثر :

وافى الكتاب وقد تقلد جيدُه ... ما أنت تحسن نظمه وتُجيده

من كل معنى ضمن لفظه فى حُلى ... خطٌّ يزيل طِلَى الطرُوس فريده

أبا المُطَرِّف دعوة من خالص ... لعُلاك غابت وده وشهيده

أنت الوحيد بلاغة وبراعة ... ولك البيان طريفُه وتليدُه

فانثر أنت بديعَه وعماده ... وانظم أنت حبيبه ووليده

إيه أيها السيد الذى جلّت سيادته ، وحلّت صميم الفؤاد سعادته ، ودامت بها ينفع الناس عادته . ألقى إلى كتاب كريم ، خطّته تلك اليمنى التى اليمن فيها تخطُّه. ونسّقت جواهر بيانه، التى راق بها سمطُه ، فلا تسلوا عن ابتهاجى بأعاجيبه ، وانتهاجى لأساليبه ، وشدّة كِلْفى بالتماح وسِيمه ، وجدّة شغفى باسترواح نسيمه . فإنه قدم ، وأُنْس النَّفْس راحل ، واستعاده روض الفكر ماحل، فجاده ، لاجَرم أنه بما حوى من حَدَق النّوى ، وروى من طرق الهوى ، وبكى الرّبيع المحيل ، وشكى من صابح الرّحيل ، هيج لواعج الأشواق وأثارها ، وحرّك للنفس حوارها ، فحنّت ، واستوهبت العين مدارها فما ضنت . فجاشت لوعة أسكنت ، وتلاشت سَلْوة عَنَت ، وكفّ دمع كف ، وثُقل عَذَلٌ خفّ ، واشتدّ الحنين ، وامتد الأنين ، وعلا النحيب ، وعرا الوجيب ، والتقى الصبُّ والحين ، وهدى المحب قَدْر ما جناه البَين ، وطالما أعمل فى احتمال المشاق عزيمه ، وشدّ لاجتياب الآفاق حَيازِمه .

وادع مثوى المُقام معتزما ... لا يرى الغرام ملتـــزم

وأزمع الباين عن أحـــبته — والبين عن داره التى ريما
وما درى أنــه بعـــزمتــه — أشعَل البين فى الحَشَى ضَرما
وهل جرى ذاك فى تصـوره — فربما أحدث الهـوى لممـا
إلهى ألا نَوى مشيئتــــه — شَمْلا من العَيْش كان منتظما
وعــاذلٌ قـال لى يعنتنــى — لا تبد فيما فعلته ندما
ما حيلة فى يدى فأعملهـــا — عدلٌ من الله كلٌّ ما حكما

أما أنَّ القلب لو فهم حقيقة البَيْن قبل وقوعه وعلم قدر ما يشب من الرَّوع فى روعه ، لبالغ فى اجتنابه ، واعتقد المَعْفى عنه من قبيل المُعْتنى به . ولحا الله الأطماع ، فإنها تستدرج المرء وتغرُّه ، وتُغْريه بما يسرُّه . ما زالت تقتل فى الغارب والذِّروة ، وتخيل بالترغيب والثَّروة ، حتى أنأَت عن الأحباب والحبايب ، ورَمَت بالغريب أقصى المغارب . فبالوَحْشة أَوَت بإيناسة ، وبالغُربة أحلَّت فى غير وطنه وناسه ، ويا عجبا للأيام وإساءتها ، وقرب مسرَّتها من مساتها ، كأنها لم تُتْحف بوصال ، ولم تُسْعف باتصال ، ولم تمتّع بشباب ، ولم تفتح لقضاءِ أوطار النفس كل باب .

عجبا للزمان عقَّ وعـــاقا — وعدِمنــا مسرَّة ووفـــاقا
أين أيامه وأين ليـــــال — كِلآلٍ تَلألُؤاً واتِّســــاقا
كم نعمنــا بظلهـا فكأنـا — مرقهـا للصَّبا علينـا رماقا
كم بغرناطة وحِمْص وصلنا — باصطباح من السرور اغتِباقا
وفى رُبى نَجد تلك أو نهر هدى — والأمانى تجرى إلينا استِباقا
فى رياض راقَتْ وراق ولكن — حين ندّ الحيا لها فأراقا
رقَّ فيها النسيم فهو نسيب — قد سَبا رقَّة نفوسا رفـــاقا

وثنا للغصون منها قـدودا تتلاقى تصافُحا واعتنـــاقا
كلما هبَّ من صَباه عليـــل وتداوى بها العليل أفـــاقا
حكم السَّعْد للأَحبــة فيـه بكؤوس الوصال أن تَنْسـاقا
ثم كرَّت للدهر عادة سـوء شق فيها خَطْبُ النوى حين شاقا
شَتَّت الشمل بعد طول اجتماع وسقى الفراق كأْسا دهـاقا
وأعاد الأَوطان قفرًا ولـكن قد أعـاد القِطان فيها الرفاقا
ليت شعرى والعيش تطوى بالفيـــافى أشامًا تبوؤا أم عِـــــراقا
يا حُداة القلوب رفقا بصبٍّ بلغت نفسه السيـاق اشتيـاقا
فآه من شَجْوة وآه لبين ألزم النفس لوعـــة واحتـــراقا

هذه يا سيدى استراحة من فؤاد ، وقَدَته الفُرقة والقَطيعة ، واستباحته لُجْمى الوقار بما لم تحظره الشريعة ، فقديما تُشوكِيت الأَحزان ، وتُبوكِيت الأَوطان ، وحنّ المشتاق ، وكنَّ له من الوجد ما لا يطاق ، فاستوقف الركب يشكو البلابل ، واستوكف السحب لسُقيا المنازل ، وفَدى الربَّع وإن زاده كربا ، ومن له إن يَلُم لاثماً له تُرْبا . حسبه دموع تفيض مجاريها ، ونجوم يسامرها ويسايرها .

أَلِف السهاد فشأْنُه إدمـانُه واستغرقت أَحْيانَه أَشجانُه
وشكا جفا الطَّيف إذ لم يـأْته هل ممكن من لم ينم إتيـــانه
واستعبدته صبابة وكذا الهوى فى حـكم أَحْراره عِبْدانـــه
كم رام كتمان المحبة جَهْده ودموعه يبـدو بها كتمـانُه
وإذا المحب طوى حديث غرامه كبى الضلوع وشَتّ به أجفانه

وهى طويلة .

وفاته : بمراكش سحر ليلة الأَربعاء الرابعة والعشرين من رمضان

سنة ستة وستين وسمِاية . ودفن عقب ظهره ، بجبانة الشيوخ مقاربا باب السادة أحد أبواب قصر- مراكش . وكان الحفل فى جنازته عظيما . لم يتخلف كبير أحد .

على بن محمد بن على بن البنا

من أهل وادى آش يكنى أبا الحسن .

حاله

من « الإكليل الزاهر » ، قال فيه ، فاضل يروقك وقاره ، وصَقْرٌ بعُد مطاره . قدم من بلده وادى آش يروم اللحاق بكُتَّاب الإنشاء ، وتوسل بنظم أنيق ، وأدب فى نسب الإجادة عريق ، تُعرب براعته عن لسان ذليق ، وطبع طليق ، وذكاء بالأَثرة خليق ، وبينا هو يُلحم فى ذلك الغرض ويُسدى ، ويعيد ويبدى ، وقد كادت وسايله أن تنجح ، وليلة رجايه أن تصبح ، اغتاله الحِمام ، وخانته الأيّام ، والبقاءُ لله والدّوام .

شعره

من شعره يخاطبنى لما تقلدت الكتابة العليا :

هو العُلا جرى باليُمن طايرُه — فكان منك على الآمال ناصره
ولو جرى بك ممتدا إلى أمل — لأعجز الشمس ما أمّت عساكره
لقد حباه منيع العِزّ خالقهُ — بفاضل منك لا تُحصى مآثره
فليَزْهُ فخرا فما خَلْقٌ يُعارضه — ولا عُلاً مدى الدنيا يُفاخره
لله أوصافك الحُسْنى لقد عجزت — من كل ذى لَسِن عنها خواطره
هيهات ليس عجيبا عجز ذى لسِن — عن وصف بحر رمى بالدُّر زاخره

هل أنت إلا الخطيب ابن الخطيب ... ومن زانت حُلَى الدين والدنيا مفاخره
فإن يقصُر عن الأوصاف ذو أدب ... فما بدا منك فى التقصير عاذره
يابن الكرام الأُلى ما شَبَّ طفلهم ... إلا وللمجد قد شدَّت مـآزره
مهلا عليك فما العلياء قافيـة ... ولا العلا بسَجْعٍ أنت نـاثره
ولا المكارم طِرْساً أنت راقمه ... ولا المناقب طِبًّا أنت مـاهره
ماذا على سابق يُسْرى على سنن ... إن كان من نفعه خلٌّ يسايره
سِرْ حيث شيتَ من العليا سيِّدا ... فما أمامك سـابقٌ تحـاذره
أنت الإمام لأهل الفخر إن فخروا ... أنت الجواد الذى عزَّت مفاخره
ما بعد ما حُزْته من عزّة وعُلاً ... شأْو يطارد فيه المجد كابره
نادت بك الدولة الشِّعرىّ محتدها ... نداء مُسْتَجد أزرا يـــوازره
حِلية لما برد البر مرتـديا ... وصحّ بمنك فجر السّعد ساجره
فالملك يَرْفُل فى أبْراده مرحا ... قد عمّت الأرض إشراقا بشايره
فأضاء بها نعمة ما أن يقوم فيها ... من اللسان ببعض الحق شاكره
وليُهنِنا أنه ألقت مقالدهـا ... إلى سرىّ زكت منه عناصره
فإنه بدر تِم فى مطـــالعها ... قد طبّق الأرض بالأنوار نايره

ومن أطبع ما هزّ به إلى إقامة سوقه ، ورعى حقوقه ، قوله :

يا معدن الفضل موروثا ومكتسبا ... فكل مجد إلى عليائها انتسبـا
بباب مجدكم الأسمى أخو أدب ... مستصرخ بكم يستنجد الأدبا
ذلَّ الزمـان لـه طورا فبلَّغه ... من بعض آماله بعض الذى طلبا
والآن أركبه من كل نابيـة ... صعب الأعنَّة لا يألُو به نصبا
فحمَّلته دواعى حبكم وكفـى ... بذاك شافع صِدْق يُبلِّغ الأَرَبا
فهل سرى نسمة من جـاهكم ... فيها خليفة الله فينا بِعطر الذَّهبـا

وأهدى إلىَّ قباقِب خشب برسمى ومعها من جنسها صغار للأولاد من مدينة وادى آش من خشب الجوز وكتب لى معها :

هاكها ضُمَّرًا مطايا حسانا ... نشأت فى الرياض قُضُبا لُدانا
وثوَت بين روضة وغدير ... مُرْضعات من النَّمير لُبانا
ثم لما أراد إكرامها الله ... وسَنَى لها المنى والأمانا
قَصدَتْ بابك العلىَّ ابتدارا ... ورجت فى قبولك الإحسانا
قد قبلنا جيادك الدُّهم لما ... لما أن بلونا منها العِتاق الحسانا
أقبلت خلف كل حجر ببيع ... خلعت وصفها عليه عيانا
فقبلنا برعيها وفسَّحنا فى ... ديار العلى لها ميدانا
وأردنا امْتِطاها فأفخذنا ... من شراك الأديم فيها عِنانا
قَدِمت قبلها كتيبةُ سحر ... من كتابٍ سَبَت به الأذهانا
مثلما تجنِّب الجيوش المذاكى ... عُدَّة للقاء مهما كانا
لم ترق مُقلتى ولا رقَّ قلبى ... كحلاها براعة وبيانا
من يكن مُهديا فمثلك يُهدى ... لم أجد للثَّنا عليك لسانا

وفاته : توفى فى الرابع لشعبان من عام خمسين وسبعماية مُعْتبطًا فى الطاعون لم يبلغ الثلاثين .

على بن محمد بن على العبدرى

سكن غرناطة ، يكنى أبا الحسن ويعرف بالورَّاد ، ويشهر أبوه باليربونى .

حاله

بقية مُسِنِّى أُدباءِ الأندلس فى فن الهزل والمُعرَّب ، والهزل متولى

شهرته ، وله القِدْح المعلّى فيه ، والطريقة المثلى ، ظريف المأخذ ، نبيل الأغراض ، حافظ للعيون ، مال بآخرة إلى النُسْك ، وصحبة الصالحين . ولم يزل بحاله الموصوفة إلى أن استولت عليه الكَبْرة ، وظرفه يتألق خلال النسك . وجرى ذكره فى « الإكليل الزاهر » بما نصه : أديب نار ذكايه كأنه يتوقّد ، وأريبٌ لا يُعترض كلامه ولا يُنقد . أما الهزل فطريقته المثلى،التى ركض فى ميدانها وجَلَى ، وطلع فى أفقها وتجلّى ، فأصبح عَلَمُ أعلامها ، وعابر أحلامها . إن أخذ بها فى وصف الكاس ، وذكر الورد والآس ، وألمّ بالربيع وفصله ، والحبيب ووَصْله ، والروض وطِيبه ، والغمام وتقطيبه . شقّ الجيوب طربا ، وعلّ النفوس إربا وضربا . وأن اشفق لاعتلال العشية ، فى فرش الربيع الموْشِية ، ثم تعداها إلى وصف الصّبوح ، وأجهز على الرق المجروح ، وأشار إلى نغمات الوِرْق يرفلن فى الحلل الزُرق ، وقد اشتعلت الليل نار البرق، وطلعت بنور الصباح فى شرفات الشرق، سلب الحليم وقاره ، وذكر الخليع كأسه وعقاره ، بلسان يتزاحم على مورده الخيال ، ويتدفق من حافاته الأدب السيال ، وبيان يقيم أود المعانى، ويشيده صانع اللفظ محكمة المبانى ، ويكسو حُلل الإحسان جسوم المثالث والمثانى ، إلى نادرة لمثلها يشار ، ومحاضرة يجنى بها الشهد ويُسار .

وقد أثبتُّ من شعره المعُرب . وإن كان لايتعاطاه الإ قليلا ، ولايجاوره الإ تعليلا ، أبياتا لاتخلومن مسْحة جمال على صفحاتها ، وهبّة طِيبٍ ينمّ فى نفحاتها .

فمن ذلك قوله :

يذكرنى حُسن الكواعب روضة ... لها خطر قيد النّواظر مُــــونق

خدود من الورد النضير وأعين ... من النّرجس السامى اليها تحدّق
وخامات زرع يانـــع كذوائب ... وما شقها من جدول الماء مفرّق

ومن شعره قوله :

أسافِرةَ النقاب سُحرتُ لمـا ... أمْطَت الخز عن بدر التمام
وتيمّت الفؤاد بغَنَج طَرْف ... كحيل ما يفيق من المنـــام
لعمر أبيك ما بالنـــوم بعدٌ ... عن الجفن المكحل بالظلام

ومن معانيه المخترعة وأغراضه المبتدعة . وكلها كذلك :

مالى إذا غبتم تهمى لفرقتكم ... عينى بمُنْهَمر كالغيث هتّان
أشبهتُ نيلوفراً والشمس بهجتكم ... إن غبتم غبت فى أمواه أجفان
السُّقَم يشهد لى والدمع برّح بى ... متى استوى عندكم سرٌّ واعلان

وقال من المستحسن الذى رمى فأصاب ، واستمطر طبعه فصاب :

يقولون لاح الشيب فالهَ عن الصِّبا ... وعن قهوة تصبو لها وتنيب
فقلت دعونى نَصْطحبها سُلافة ... على صُبح شَيْبى فالصبح عجيب

وقال كذلك :

لا تعجبن من اليَليد مخولا ... ومن اللبيب يُعد فى الفقراء
الماء أصل الخَصْب غير مُدافع ... وأخو البلادة طبعه كالماء
والنار مؤثرة الجُدوب وإنها ... لشبيهة بطبائع الفُطَنـــاء

ومن قصائده الغربية :

ومُعذّر لحظ المشَيب بعارضى ... فتصرّمت دونى حبالُ وصاله
هلاّ ثَنَته نسبة لمحبـــــه ... إن العِذار لشِيبَة لجمـــاله

وقال أيضا :

تحرَّ الصدق إن حدّثت يوما ... وإن حدثت لا تنقل حـديثاً

وكن للسرّ صوّانا كتـــوما ... وربما كان سرُّك أو حـديثاً

وقال مما يكتب فى غِمْد سيف :

لئن راق منى مَنظر بان حُسْنه ... لقد سامنى بالمهنَّــــــد باطن
كأن أديمى رُقعة من حديقة ... تلقفها صِلٌ لدى الروض كامن

وقال مما يكتب على قوس :

إن كان من وتر الألْحان مُنْبَعثا ... سرور قوم مدى الآصال والبُكَرُ
فإنّ حُزْن العدا ما نال منبعثا ... منّى وحينهم فى النَّقر فى وتر

وقال فى غير هذا الغرض :

الخير كل الخير فى ستّة لم ... تُلْفَ إلا فى كرام الرجـال
الحزم والحلم وحمل الأذى ... والصبر والصّمت وصدق المقال

ومما نختتم به محاسنه قوله :

ألا إنّ باب الله ليس بمُغْلق ... ولا دونه من مانع لمــــوفّق
ولكن بُلينا فى سلوك طريقه ... بكَلَب من الشيطان ليس بمُطْرِق
فمن يَرُمْ بالدنيا إليه كلُقمة ... فذاك الذى من شرّه ليس يُتّق
فخلّ عن الدنيا ودَعْ عنك حبها ... يَدَعْك إلى أوج السعادة ترتق

وقوله :

أيقنت أن جميع الخلق ليس له ... شيىء من الأمر فى شيىء فيصنعه
فلا أخاف ولا أرجو مدى عمرى ... إلا الذى فى يديه الخلق أجْمَعه

مولده : بمدينة مالقة فى اليوم الثالث والعشرين لذى حجة من عام أحد وثمانين وستماية

وفاته : فى أحواز أحد وستين وسبعماية

173

على بن عبد العزيز بن الإمام الأنصارى

يكنى أبا الحسن ، سَرَقُسطى الأَصل ، غَرناطى الاستيطان والاستعمال .

حاله

كان وزيرا جليلا ، معظَّم القدر . مبجلا أثيرا ، ذا معارف جمة ، أحد كتاب الزمن ، وأهل البلاغة والفصاحة والكرم . وزَر للأمير أبى الطاهر تميم بن يوسف بن تاشُفين ، صاحب غرناطة فحمدت وزارته ، وكتب للأمير على بن يوسف . وروى عن شيوخ غرناطة .

أخباره فى الجود والجلالة

قال أبو القاسم ، شكى إليه بعض إخوانه من حادث طَرقه ، وأن النِّفاق أخرجه من بلده ، وحال بينه وبين بلده ، فأنزله أكرم منزل وخرج إلى المسجد الجامع ، وأشهد على نفسه أنه وهبه الربع من أملاكه ، وكتب بذلك عقداً ودفعه إليه ، وقال يا أخى إن ذلك سيصلح من حالك ، وحالى لايتسع لأكثر من هذا ، فاعذر أخاك . وكان الذى وهبه يساوى فوق الألف دنير مرابطية ، فرحم الله الوزير أبا الحسن : فلقد كان نادرة الزمن .

شعره

من ذلك قوله :

يالبت شعرى والأمانى كلُّها ... زور يغُرك أو سراب يلمع
فى كل يـوم منزل لأَحِبَّـة ... كالظل يُلبس للقيل ويُخلع

ومن ذلك قوله

تسمَّوا بالمعارف والمعـــالى ... فليس المجد بالرحم البوال

وإن فاتنا فبالبيض المواضى وبالسُّمر المثقَّفة العُــوال
وإذا المرء تنهضه هــذِى فليس بِنا هضس أخرى الليال
ومن أسْمَتْه أسباب سواهـــا فرفْعَتُها تؤل إلى سِفـــال

ومن المحدثين والفقهاء والطلبة النجباء

على بن ابراهيم بن على بن ابراهيم الجذامى

القاضى المتفنن الحافظ ، من أهل غرناطة يكنى أبا الحسن .

حاله

من الصِّلة ، كان عَدْلا فاضلا جليلا ، ضابطا لما رواة ، فقيها حافظا ، حسن التقييد .

تواليفه : قال اختصر كتاب « الاستذكار » لأبى عمر بن عبد البر . وغير ذلك .

مشيخته

روى عن أبى محمد عبد الحق بن بُونه ، والقاضى أبى عبد الله بن زَرْقون ، وأبى القاسم بن حُبَيْش ، وأبى خالد ين رفاعة ، وأبى محمد بن عبيد الله ، وأبى زيد السُّهيلى ، وأبى عبد الله بن الفخار ، وأبى الوليد بن رشد .

مولده : ضحوة يوم الأضحى من عام خمسة وخمسين وخمسماية .

وتوفى قريب الظهر من يوم الأربعاء التاسع عشر لذى حجة من عام اثنين وثلاثين وستماية .

من روى عنه . روى عنه القاضى أبو على بس أبى الأحوص .

علي[1] بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن الضحاك الفزارى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا الحسن ، ويعرف بابن النُّفْـزى .

حاله

قال أبو القاسم الغافقى ، فقيه مُشاور بغرناطة ، محدث متكلم .

مشيخته

أخذ عن أبي الحسن شرُيح ، وعن الإمام أبي الحسن على بن أحمد بن الباذش ، وعن أبي القاسم بن ورد ، وعن القاضى أبي الفضل عياض بن موسى ، وعن الإمام أبي عبد الله المازَرِى ، وعن أبي الطاهر السِّلفى ، وعن أبي مروان بن مَسرَّة ، وأبي محمد بن سِماك القاضى ، وعلى بن عبد الرحمن ابن سمحون القاضى ، والقاضى أبي محمد بن عطية ، والمشاور أبي القاسم عبد الرحيم بن محمد ، والقاضى أبي القاسم بن أبي جمرة ، وجماعة يطول ذكرهم .

تواليفه

وله تواليف فى أنواع من العلم ، منها كتاب « نزهة الأصفياء وسلْوة الأولياء فى فضل الصلاة على خاتم الرسل وصفوة الأنبياء » إثنا عشر جزءاً ، وكتاب « زواهر الأنوار وبواهر ذوى البصاير والاستبصار فى شمايل النبى المختار » ، سِفران كبيران ، وكتاب « منهج السداد فى شرح الإرشاد » ثلاثون جزءاً ، وكتاب « مدارك الحقائق فى أصول الفقه » خمسة عشر جزءاً ، وكتاب « تحقيق القصد السَّنى فى معرفة الصمد العلى » سفر ، وكتاب « نتايج الأفكار فى إيضاح ما يتعلق بمسئلة الأقوال من

---

(١) وردت فى الإسكوريال (محمد) ، وهو فيما يبدو تحريف من الناسخ لأن القايمة سائرة باسم (على) من قبل ، ومن بعد ، ويؤيد ذلك كنيته وهي (أبو الحسن) .

الغوامض والأسرار » سفر ، وكتاب « تنبيه المتعلمين على المقدمات والفصول وشرح المهمات منها والأصول » سفر ، وكتاب السباعيات ، وكتاب « تبيين مسالك العلماء فى مدارك الأسماء » ، وكتاب « رسائل الأبرار . وذخائر أهل الحظوة والإيثار فى انتخاب الأدعية المستخرجة من الأخبار والآثار » سفران اثنان ، وكتاب « الإعلام فى استيعاب الرواية عن الأئمة الأعلام » سفران .

وفاته

توفى فى الكاينة بغرناطة سنة سبع وخمسين وخمسماية . خرج منها يريد وادى آش ، فلم يصل إليها ، وفقد فلم يوقع له على خبر .

على بن عبد الله بن يحيى بن زكريا الأنصارى

يكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن زكريا .

أوّليّته : قد مر فى ذكر أبيه وعمه .

حـاله

هذا الرجل فاضل ، سخون ، من أهل السذاجة والسلامة ، والعفاف والصيانة ، مُعم مُخوّل فى الخير . طاهر النشأة . جانح للعدالة . قعد للعلاج ، وبرز فى صناعة الطب ، على فتاً من سنه ، واستيم إليه بمهم من نبيه العمل وخُطته ، متصف بالإجادة والبيان .

مشيخته

قرأ العربية والفقه وغيرهما من المبادئ على مشيخة وقته ، والطب على الوزير أبى يزيد خالد بن خالد من أهل غرناطة . وقعد معه .

شعره

ينتحل من الشعر ما عينه فى الشُّرود أو غير ذلك فراره كقوله :

صعدت نـــار فؤادى أدمعى ... فلذا ما جفَّ قلبى فانفطر
لـــو أبــــاح الله لى وصلك ... الأنبل صدع القلب منى وانخبر
أصل دانى منك لحظٌ فـــاتر ... وأشد اللَّحظ ما ما فَتَـــــر
كيف أرجو منه بـرأ وغَدت ... قهوة الحُسْن تسقيـه دُرر

فانظر قوله ، الأنبل من شعره :

ولى هِّمة من دونها كل همـــة ... أموت بها عطشان أو يَخْلص الشُّرب
يعز على الكريم ورود مـــاء ... يُكدِّره شَوْب ويطرقـه نَهْب
وإنى وأن أضحى لوُدِّك موضع ... من القلب أضحى دون موضعه الخُلْب
فتمنعنى نفسى لايمان أرواحهم ... على شِرْبٍ يونقـه قَشَبُ

غفر الله له على قَشَب ، وتجاوز عنه ، فلقد دفع منه فضْحها .
وهو بحاله الموصوفة

ومن الطارئين والغرباء
على بن أحمد بن محمد بن أحمد بن على بن أحمد الخشنى

من أهل مالقة ، من قرية يَعشيش من عمل مُلتماس ، من شرقيها يكنى أبا الحسن . ودخل غرناطة ومدح أمراءها وتردَّد إليها .

حاله

من « عايد الصلة » : من صدور أهل الدين والفضل ، والخير والصلاح والنزاهة ، والاقتصاد والانقباض ، تحرَّف بصناعة التَّوثيق بمالقة ، جاريا على شاكلة مثله من الاقتصاد ، والتبلُّغ باليسيز ، ومصابرة الحاجة ، مكِبًّا على المطالعة والنظر ، مجانبا للناس ، بعيدا عن الرِّيب ، مؤثرا

للزهد فى الدنيا . وُلِّى الخطابة بالمسجد الأَعظم من قصبة مالقة فى عام وفاته .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ الصالح الخطيب أَبى جعفر بن الزيات ، والأُستاذ المقرى رُحلة الوقت أَبى عبد الله بن الكمّاد .

شعره

وشعره آخذٌ بطَرْف من الإجادة فى بعض المقاصد ، فمن ذلك قوله :

أرى لك فى الهوى نظرا مُريباً — كأَن عليك عاذلاً أو رقيباً
ولست بخائف فى الحب شيئا — على نفسى مخافتىَ المَشِيبا
يرينى كل ما تهواه نفسى — قبيحاً مالياً عينى عنيبا
أنا منه ابن قيس لا يراح — فَذُق مُرَّ التأَسف مستطيبا
إذا ما كنتَ تبكى فَقْد حِبٍّ — فما مثل الشباب به حبيبا

وقال فى مذهب المدح من المطولات :

الآن تطلب وُدَّها ووصالها — من بعد ما شَغَلَت بهجرك بالها
وقد استحالت فيك سِما الصِّبا — حالا يروع مثلُها أمثالها
وأتيتها متلبسا بروايع نكرٍ — بفَوْدك أصبحت عُذَّالها
بيضٌ تخيَّلَ للنفوس نصولها — سُمرًا تخوِّل للنحور نصالها
مثل الأَفاعى الرُّقْط تَنْفُث فى الحشا — وأرى بفَوْدك جنا أطالها
نار تُضرم فى الفؤاد حريقها — لكن تُنير بمفرِقَيك ذُبالها
جَزِعت لهذا الشَّيب نفسى — وهى مازالت تهوِّن كل صعب نالها
ولكم صدعتُ بنافذ من عزمتى — همًّا لا يهدى العليمُ ضَلالَها
صادمت من كَرْب الدُّنا أَشْتاتها — ما خفت غُرْبتها ولا إقلالها

ولئن تقلّص عسرتى فيء الغنا ... عنى فلى نَفْسٌ تمدّ ظلالها
ما مزقت ديباجتى غير امرىء ... عرضت عليه النفس قط سؤالها
ألقى الليالى غير هبّ صَرْفها ... والأُسْد غير مُجَنِّب أغيالها
أمشى الهوينا والعُداة تمر بى ... مرًّا يطير عن الجياد نِسالها
علّمت لى الخُلُقَ الجميل محقّقا ... وتسىء فىَّ على عملى أقوالها
تبغى انثنائى وهل سمعت بنَسْمة ... مرّت على نجْدٍ تهزّ جبالها
ولربما عرضت لعينى نظرة ... يَرْضى الحكيم غرامها وخَبالها
من غادةٍ سرق الصباح بهاءها ... والبدر فى ليل التمام كمالها
تهوى المجرّة أن تكون نجومها ... من حَلْيها وهلالُها خلخالها
عرضت كما مرّت بعينك مُطْفل ... ترعى بناظرك الكحيل غرامها
ما نهنهت نفسى وإن ضَمنت لها ... عَبَراتها يوم الوداع وصالها
من كان يأمل أن يقوم بمجلس ... حطّت به شهب السما أثقالها
محا أحاديث السُّراة أولى النُّها ... نصًّا ويضرى فى العُلى أمثالها
ألقى هواه جانبا وسَرَى به ... وجنا تدوى فى الدجى إعمالها

ومنها فى المدح :

ألبَسْتَ دين الله حلّة أمن ... أضْفَت على أسرايه ذلذالها
أنتم بنى نصر نصرتم ملّة الإسلام حين شكت لكم عُذّالها
كنتم لها أهلا ورحّبتم بها ... فى الغُرْبتين ومنتم إنزالها
نزلت على سعد ليسعد جدّها ... وأوت إلى نصر لينصر أليها
أحرزتم يوم السّقيفة عُودَها ... دون الأنام وقودها وسكالها
لكن حبَوْتم من أجرتم منّة ... بخلافة الله التى يُعنى لها
إذ تؤثرون سواكم قالت بذا ... آىُ الكتاب فمن يردّ مقالها

حتى إذا عثرت ولم ينهض بها ... إلا كم بادرتم إنشـــالها
أوَيْتُم خيـــر البـــرية كلها ... ومغيثَها ونجـاتَها وثِمالهـا
من ألْبَس الشَّرف الرفيع وضِيعَها ... وكسا مُعصفرة الحِجا جُهَّالَها
من أمَّ فى السَّبع العُلى أملاكها ... جبْريلُها فى الغَرْب أو مِيكالُها
من أنقذ الغرق وقد شمل الرَّدى ... هذا الأنام خيارها وحثـالها
من فاضَتْ الخيرات من تِلقايه ... كالصُّبح فاض على الدُّجى فأزالها
من فجَّر العَين الفُرات بـكفِّه ... يَرو الورى ورد القطا سِلسالها
من لا يقاس بالرياح إذا سَرت ... نشرا تقل من السحاب ثِقالها
معنى وجود الكون علَّة كـونه ... نفس الحياة مُنَفِّسا أهوالها
دامت صلاة الله دِيمة عارِض ... يَهْمى عليه نَدى الدُّنا هطَّالها
لما تحقَّقت النبوة أنها قد ... زلزلت منها الورى زلزالهـا
وتقاعَسَت عن منعها أعمامها ... أمّت أيمَّة نصـرها أخوالهـا
فوثبتم مثل الليوث لنصرها ... والحرب تُجنِّب خلفها أشبالها
وأدرتم منها زَبُونا أصبحت ... ترى رؤوس الملحدين ثِقالهـا
بدرٌ وما بدرٌ وردم قلِيبهـا ... بجنادل الطاغوت تملأُ جالهـا
ولكم بأَوْطاس وقد حَمِى الوطيس ... على العِدا يوم أطـاح بحالها

فنزعتم أزواجهـا وسَبَيْتم أولادها وسـلَبتم أموالهـا

وذهبتم بالمصطفى لدياركم ... وحيًّا سواكم ساقها وجمالها
فُزتم به فوز المُعَلَّى منحة ... أحرزتم دون الأنـام منالها
يا أيها الملك الذى من مُلْكه ... جَنَت الملوك جمالها وجلالها
ما زال حِزْبك منهم يعلو على ... مرِّ الدهور ويَجْتَلى أجْبالهـا
حتى حللت من المَجادة ذِروة ... ما حلَّ غيرك فى المجادة حالها

تحمى الهدى تهمى النَّدى تولى ... الجَدا وتقى الردى وتُرى العدا أَوْجالها
قَعَدت شريعتُه بيُمْنك ليس من ... كدر يُشين على العباد زُلالها
يا سيِّد السادات يا ملك الملوك ... وشمسها وصباحها وهلالها
يا بدرها يا بحرها أَو غيثها أَو ... ليثها أَو حُسْنها وجمالها
خذها كما دارت بكأْس سُلافها ... حَوْراء تمزج باللَّما جَرْيالها
تثنى على السِّحر المبين وشاحها ... وتدير من خمر الفُتور جلالها
لَمْياء تبرز للعيون كشاطر ... والعقل يوجب حُكْمه إجلالها
وقفت وذو إحسانها من هاشم ... من سِبْط خير العالمين حيالها
يرجو رضاك وطالما أَرضيتم ... آل النبى وكنتم أَرسالها
كم من يد بيضا لدينا منكم ... شكرنا له وأَولياه فعالها
آويتُم واسيتُم والَيْتُم ... اخْلَلْتمونا داركم وجَلالها
وهجرتم لوصالنا أَعداءَنا ... ووصلتم لِصلاتنا أَوصالها
فَصِلوا أَحياءَنا ما استطعتم وصْلَه ... تعطوا من أَجْزا الجزاء جزالها

وله تـأْليف غريب عكف عليه عمره فى فضل مكّة ، وكأَنه يَرُوم برهانا على وجوب كونها بالموضع الذى هى به ، وفضله على سواه ، وتكلم على حروف اسمها ، من جهة تناسب أَعداد الحروف ، مما الناظر فيه مُخَيّر فى نسبه إلى العِرفان أَو الهَذَيان .

توفى بمالقة فى أُخريات صفر من عام خمسين وسبعماية .

على بن أحمد بن محمد بن يوسف بن مروان بن عمر الغسانى

من أَهل وادى آش ، وروى وتردد إلى غرناطة ، يكنى أَبا الحسن .

حاله

كان فقيها حافظا ، يقظا ، حسن النظر ، أديبا ، شاعرا مجيدا ، كاتبا بليغا ، فاضلا .

مشيخته

روى عن أبي اسحق بن عبد الرحيم القيسى ، وأبي الحسن طاهر ابن يوسف ، وأبي العباس الخرّوبي . وأبي القاسم بن حُبَيش ، وأبي محمد عبد المنعم بن الفرَس الغرناطى ، ومحمد بن علي بن مَسَرّة .

وروى عنه ، أبو بكر بن عبد النور ، وأبو جعفر بن الدلال ، وأبو عبد الله بن أحمد المذحجى ، وأبو سعيد الطّراز ، وابن يوسف وابن طارق ، وأبو على الحسن بن سمعان ، وأبو القاسم بن الطّيْلسان .

تواليفه

صنّف فى شرح « الموطأ » مُصَنّفا سماه « نهج المسالك للتفقه فى مذهب مالك » فى عشرة مجلدات . وشرح صحيح مُسْلم وسماه « اقتباس السراج فى شرح مسلم بن الحجاج » . وشرح تفريع ابن الجلاب ، وسماه « الترصيع فى شرح مسائل التفريع » . وصنّف فى الآداب ، منظوماته ورسايله ، وهى شهيرة ، شاهدة بتَبْريزه وتقدّمه . وله نظم شمايل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رسالة بديعة ، تشتمل على نظم ونثر ، بعث بها إلى القبر الشريف . وله كتاب « الوسيلة إلى إصابة المعنى فى أسماء الله الحسنى » .

شعره

من شعره فى « الوسيلة » ، وقد ضمّن كل قطعة أو قصيدة إسماً من أسماء الله تعالى ، فمنها قوله فى اسم الله سبحانه :

قلْ الله نستفتح من أسمائه الحسنى — بأعظمها لفظا وأعظمها معنى
هو الله فادْعُ الله بالله تقترب — لأقرب قُربى من وريدك أو أدنى
وآمله مضطرا وقِف عند بابه — وقوف عزيز لا يُصَدُّ ولا يُثنى
بباب إلٓه أوسع الخلق رحمة — فلله ما أولى أبرَّ وما أحنى
وقدِّم من الإخلاص ثم وسيلة — تَنَلْ رتبة العليا والمقصد الأسنى
أمولاى هل للخلق غيرك مفضل — يصرح عن ذكراه فى اللفظ أو يُكنى
ببابك مضطر شكا منك فَقْره — لأَكْرَم من أغنى فقيرا ومن أقْنَى
وللفضل والمعروف منك عوايد — لها الحمد ما أدنى قطوفاً وما أهْنَى
فمنها لك الإنعام دأبا خوالدا — تفانى بها الأيام طُرًّا ولا يفنى

وفاته : توفى شهيدا فى ربيع الآخر سنة تسع وستماية [١] .

على بن صالح بن أبى الليث الأسعد بن الفرج بن يوسف

طُرْطُوشى ، سكن دانِية ، يكنى أبا الحسن ، ويعرف بابن عزِّ الناس .

حاله

كان عالما بالفقه ، حافظا لمسايله ، متقدِّما فى علم الأُصول ، ثاقب الذهن ، ذكى الفؤاد ، بارع الاستِنْبَاط ، مُسَدَّد النظر ، متوقِّد الخاطر ، فصيح العبارة ، ذا خطٍّ مروض .

---

(١) يبدو بمراجعة هذه الترجمة أن هناك ، حسبما لاحظ الناسخ فى ترجمة (على بن أحمد بن محمد بن يوسف بن عمر الغسانى) الواردة فى لوحة 327 ، أن هناك شبهاً كبيراً بينها وبين الترجمة المشار إليها ، سواء فى اسم المترجم له ، أو البلد أو المشيخة أو التأليف . بيد أن هناك فى نفس الوقت بعض فروق ، أولا فى الإسم ثم فى التأليف . ومن جهة أخرى فإنه لم يرد فى الترجمة الأولى ذكر لتاريخ المولد أو الوفاة ، حتى يمكن القطع بالتطابق بين الترجمتين .

من روى عنه : روى عنه أبو بكر أسامه بن سليمن ، وسليمن بن محمد ابن خلف ، ويحيى بن عمر بن الفصيح .

دخوله غرناطة

قالوا ، واستخلصه الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية[1] أيام إمارته ببلنسية لمشهور معرفته ونباهته ، ثم سار معه إلى قرطبة ، ولازمه ، إلى أن توفى أبو زكريا بن غانية ، بغرناطة سنة ثلاث وأربعين . فانتقل إلى شرق الأندلس ، واستقر بدانية .

تواليفه : وله مصنفات منها كتاب العُزلة ، ومنها شرح معانى التحية.

ولد بطرطوشة سنة ثمان وخمسماية ، وتوفى بدانية . قتل مظلوما بإذن ابن سعد الأمير فى رمضان سنة ست وستين وخمسماية .

على بن أبى جَلاً المكناسى

يكنى أبا الحسن .

حاله

كان شيخا ذكيا ، طيب النفس ، مليح الحديث ، حافظا للمسايل الفقهية ، عارفا لها ، قايما على كتاب المُدَوَّنة ، تفقّه بالشيخ أبى يوسف الجَزُولى ، وعليه اجتهد فى مسايل الكتاب . وكان مضطلعا بمشكلاته . حسن المذاكرة ، مليح المجلس أنيسه ، كثير الحكايات ، إلا أنه كان يحكى غرايب شاهدها تملُّحا وأُنسا ، فينمِّقها عليه الطلبة ، وربما تعدوا ذلك إلى الافتعال على وجه المزاح والمداعبة ، حتى لجَمَعوا من ذلك كثيرا

(١) سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٩٧ حاشية . والمجلد الثانى ص ٥٧١ حاشية) .

فى جزء سموه «بالسُّلك المحلّا فى أخبار ابن أبى جلّا». فمن ذلك ما زعموا أنه حدّث بأنه كانت له هرّة ، فدخل البيت يوما ، فوجدها قد بلت أحد كفيها ، وجعلته فى الدقيق حتى علق به ، ونصبته بإزاء كوة فأر فى الجدار ورفعت اليد الأخرى لصيده ، فناداها باسمها ، فردت رأسها ، وجعلت أصبعها فى فمها على هيئة المشير بالصمت . وأشباه ذلك كثير .

وفاته : فى حدود ستة وأربعين وسبعماية .

على بن أبى بكر بن عبد الرحمن بن على بن سمحون الهلالى

يكنى أبا الحسن .

حاله

كان شيخا جليلا ، فقيها ، عارفا ، نبيلا ، نبيها ، ذا مروءة كاملة ، وخُلُق حسن ، من بيت حَسب وعلم ودين . قال أبو القاسم الملاّحى ، حدثنى صاحبنا الفقيه الخطيب أبو جعفر بن حسان ، قال كنت أجاوره فى بعض أملاكى ، وكان له مِلْك يلا صقنى ، أتمنى أن أكتسبه ، فينتظم لى به ما هو مفترق ، فوافقته ذات يوم فى القرية ، فسألته المعاوضة به ، وخيّرته فى مواضع فى أرضى ، فضحك منى ، وقال لى أنظر فى ذلك إن شاء الله . ثم إنه وجّه لى بعد ذلك بأيام يسيرة ، بعقد يتضمن البيع وقبض الثمن منى ، فخجلت منه ، وراودته فى أخْذِ الثمن فأبى وقال لى هذا قليل فى حقّك ، وكان قد لقى شيوخا أخذ عنهم ، وكانت له كتب كثيرة .

وفاته : توفى بالمُنَكَّب صبح اليوم السادس من رمضان عام ستة

وتسعين وخمسماية . ولست أحقق أهو القريب أو سلفه ، وعلى كلا التقديرين ، فالفضل حاصل .

علي بن محمد بن عبد الحق الزويلي[1]

يكنى أبا الحسن ، ويعرف بالصُّغَيِّر ، بضم الصاد وفتح الغين والياء المشددة

حاله

من « المؤتمن »[2] . كان هذا الرجل قيما على التهذيب للبرادعي ، حفظا وتفقها ، يشارك في شيء من أصول الفقه ، يطرِّز بذلك مجالسه ، مُغْرِبًا به بين أقرانه من المدرسين في ذلك الوقت ، لخلُوِّهم من تلك الطريقة بالجملة . حضرت[3] مجلس إقرائه ، وكان ربْعةً آدم اللون ، خفيف العارضين ، يلبس أحسن زى صنعة ، وأحسن ما فيه ليس بحسن . وكان يدرس بجامع الأصدع من داخل مدينة فاس ، ويحضر عليه نحو مائة نفس ، ويقعد على كرسى عال ليسمع البعيد والقريب ، على انخفاض كائن في صوته ، حسن الإقراء ، وقورا فيه ، سَكُونا ، مثبتا ، صابرا على هجوم طلبة البربر ، وسوء طريقتهم في المناظرة والبحث ، وكان أحد الاقطاب الذين تدور عليهم الفتوى أيام حياته ، تَرِد عليه السؤالات

---

(١) هكذا وردت في الزيتونة . ووردت في الإسكوريال (المزروالى) . والأولى أرجح . وهى نسبة إلى قبيلة بنى زروال البربرية .

(٢) سبق التعريف بهذا الكتاب (راجع المجلد الثالث من الإحاطة ص ١٩٥ حاشية) .

(٣) هذا القول مما يلفت النظر لأن المترجم له توفى حسبما ورد في آخر ترجمته سنة ٧١٩ هـ ، وقد ولد ابن الخطيب سنة ٧١٣ هـ ، ومن جهة أخرى فإنه لم يزر فاس لأول مرة إلا في سنة ٧٥٥ هـ ، في عهد السلطان أبي عنان ، ويحق لنا أن نتساءل كيف اتفق مع ذلك أن يحضر مجلس قراءة هذا الفقيه ، في فاس ، في هذا التاريخ المبكر

من جميع بلاد المغرب ، فيحسن التوقيع على ذلك . على طريقة من الاختصار وترك فضول القول . وُلِّى القضاء بفاس . قدَّمه أبو الربيع سلطان المغرب وأقام أوده ، وعضده ، فانطلقت يده على أهل الجاه ، وأقام الحق على الكبير والصغير ، وجرى من العدل على صراط مستقيم . ونُقِم عليه اتخاذ شمَّام يستنشق على الناس الخمر ، ويحق أن يُنتقد ذلك .

مشيخته

أخذ عن الفقية راشد بن أبى راشد الوليدى وانتفع به ، وعليه كان اعتماده . وأخذ عن صهره أبى الحسن بن سليم ، وأبى عمران الجَوْرمانى ، وعن غيرهم . وقَيَّدت عنه بفاس على التهذيب وعلى رسالة أبى زيد ، قيَّدها عنه تلاميذه وأبرزوها تآليفا كأبى سالم بن أبى يحيى .

وفاته

وفاته يوم الثلاثاء السادس لرمضان عام تسعة عشر وسبعماية ، ودخل غرناطة لما وصل رسولا على عهد مستقضية رحمهما الله .

على بن محمد بن على بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن يحيى الغافقى

سَبْتى سارى الأصل ، انتقل منها أبوه سنة اثنتين وستين وخمسماية ، يكنى أبا الحسن ، ويُشْهَر أهل بيته فى سارة بنى يحيى .

حاله

من « التكملة » . كان محدثا راوية مُكْثرا ، عدلاً ثقة ، ناقدا ، ذاكرا للتواريخ وأيام الناس ، وأحوالهم وطبقاتهم ، قديما وحديثاً ، شديد العناية بالعلم ، والرغبة فيه ، جاعلا الخوض فيه ، مفيداً ومستفيداً ، وظيفة

عمره ، جمّاعة للكتب ، منافساً فيها ، مغاليا فى أثمانها،وربما أعمل الرحلة فى التماسها ، حتى اقتنى منها بالإبتياع والإنتساخ كل عِلْق نفيس . ثم انتقى منها جملة وافرة فحَبَسها فى مدرسته،التى أحدثها بقرب باب القشتيو، أحد أبواب بحر سبتة ، وعين لها من خِيار أملاكه ، وجيِّد رباعه ، وقفاً صالحا . سالكا فى ذلك طريقة أهل المشرق ، وقعد بها بعد إكمالها لترويه الحديث وإسماعه ، فى رجب خمس وثلاثين وستماية ، وأكثر الأخذ بها عنه ، واستمر على ذلك مدة . وكان سَرِىَّ الهمة ، نزيه النفس، كريم الطبع ، سَمْحا ، مؤثرا ، مُعانا على ما يصدر عنه من المآثر الجليلة ، ونبل الأغراض السنية ، بالجدة المتمكنة ، واليسار الواسع . وكان سُنياً ، مُنافرا لأهل البدع ، مُحبا فى العلم وطلابه ، سمحا لهم بأعلاق كتبه ، قوى الرجاء فى ذلك . ومما يؤثر عنه من النزاهة ، أنه لم يباشر قط دُنيرا ولادرهما ، إنما كان يباشر ذلك وكلاؤه اللايذون به .

مشيخته

روى عن أبوى الحسن أبيه والتجيبى ، وأبى الحسن بن عطية بن غازى ، وأبى عبد الله محمد بن عيسى ،وابن عبد الكريم ، وابن على الكتّانى ، وأبى إسحق الشُّقورى ، وأبوى بكر بن الفصيح ، ويحيى بن محمد بن خلف البوريى ، وأبى الحسن بن خروف النحوى ، وابن عُبَيْدس ، وابن جابر ، وابن جبُير ، وابن زَرْقون، وابن الصايغ ، وأبى بكر بن أبى رُكب ، وأبى سليمان بن حوط الله ، وأبى العباس القورانى ، وأبى القاسم عبد الرحيم ابن الملجوم ، وأبى محمد الحِجرْى وأكثر عنه ، وابن حوط الله ، وابن محمد بن عيسى التّادلى ، وعبد العزيز بن زيدان ، ويَشْكر بن موسى ابن الغزلى هؤلاء ، وأخذ عنهم بين سماع وقراءة ، وأكثرهم أجازه أو

كتب إليه مُجيزا . ولم يلقه أبو جعفر بن مضاء ، وأبو الحسن بن القطان ونجبه ، وأبو عبد الله بن حماد ، وابن عبد الحق التِّلمسانى ، وابن الفخار ، وأبو القاسم السهيلى ، وابن حبيش ، وأبو محمد عبد المنعم ابن الفرس . واستجاز بآخرة مكثرا من الاستفادة ، أبا العباس بن الرومية ، فأجاز له من إشبيلية .

من روى عنه : روى أبو بكر أحمد بن حميد القرطبي ، وأبو عبد الله الطَّنجالى ، وابن عياش ، وأبو العباس بن على الماردى ، وأبو القاسم عبد الكريم بن عمران ، وأبو محمد عبد الحق بن حكيم . وحدث بالإجازة عنه ، أبو عبد الله بن ابراهيم البكرى العباسى .

محنته ودخوله غرناطة

غرّبه أمير سبتة اليانشتى الملقب بالواثق بالله(1) . غاصًا به لجلالته وأهليته ، وكونه قد عُرضت عليه فأباها ، فدخل الأندلس فى شعبان عام أحد وأربعين وستماية ، فنزل ألمرية وأقام بها إلى المحرم من سنة ثمان وأربعين ، وأخذ عنه بها عالم كثير . ثم انتقل إلى مالقة فى صفر من هذه السنة ودخل غرناطة ، فأخذ عنه جميع طلبتها إلا النادر .

قال الأستاذ أبو جعفر الزبير ، وقرأت إذ ذاك عليه ، وكان يروم من مالقة ، الرجوع إلى بلده ، ويحوم عليه ، فلم يُقض له ذلك ، وأقام بها يؤخذ عنه العلم ، إلى أن أتته منيّته.

مولده : بسبتة يوم الخميس لخمس خلون من رمضان إحدى وسبعين وخمسماية .

---

(١) وردت فى الاسكوريال (اليناشى) وهو تحريف . وهو أبو العباس أحمد بن محمد اليانشتى أمير سبتة وقد ولاه أهلها عليها سنة ٦٣٠ هـ ، وتسمى بالموفق بالله (وليس الواثق بالله) ، واستمر فى حكمها حتى سنة ٦٣٥ هـ ، ثم خلعه أهلها ، وبايعوا الخليفة الموحدى الرشيد .

وفاته : توفى بمالقة ضحوة يوم الخميس لليلة بقيت من رمضان تسع وأربعين وستماية. نفعه الله بشهادة الموت غريقا .

على بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن أحمد الأنصارى

فاسى المولد ، أصله منها قديما ، ومن مَراكُش حديثا ، يكنى أبا الحسن ويعرف بابن قطْرال .

حاله

كان ريان من الأدب ، كاتبا بليغا دمث الأخلاق ، لين الجانب ، فقيها حافظا ، عاقدا للشروط ، مقدما فى النظر فيها ، كتب طويلا عن قاضى الجماعة بمراكش ، أبى جعفر بن مضاء ، ثم عن أبى القاسم بن بقى ، وأسنّ ممتعا بحواسه .

مشيخته

روى عن أبوى بكر بن الجد ، وابن أبى زمنين ، وأبى جعفر بن يحيى ولازمه كثيرا . وأبى الحجاج بن الشيخ ، وأبوى الحسن بن كوثر ونجبه ، وأبى الحسن يحيى بن الصائغ ، وأبى خالد بن رفاعة ، وأبى عبد الله بن حفص ، وابن حميد ، وابن زرقون ، وابن سادة الشاطبى ، وابن عروس ، وابن الفخار ، وأبى العباس ، وابن مضاء ، ويحيى المجريطى ، وأبى القاسم بن بقى ، وابن رشد الوراق ، وابن سمحون ، وابن غالب ، وابن جمهور ، وابن حوط الله ، وعبد الحق بن بونة ، وعبد الصمد . وروى عنه إبناه أبو عبد الله وأبو محمد ، وأبو عبد الله بن الأبار ، وأبو محمد بن بَرْطَلة ، وأبو محمد بن هارون الطائى ، وأبو يعقوب بن عقاب .

قال ابن عبد الملك ، وحدثنا عنه من شيوخنا أبو الحجاج بن حكم ، وأبو الحسن الرعينى ، وأبو الطيب صالح بن شريف ، وأبو القاسم العَزَفى .

محنته

وامتُحن بالأَسر ، وهو قاض بـأُبَّدة ، حين تغلب العدو الرومى عليها أثر وقيعة «العقاب» (1) وذهب لأَجل ذلك أصول سماعه ، وافتُكَّ بمشاركة الوزير أبى سعيد بن جامع ، ويسَّر الله عليه ، فثاب جاهه ، واستقام أمره ، وقدِّم للقضاء بمواضع نبيهة .

دخوله غرناطة

قال ، دخل غرناطة ، وأقام بها ، وقرأ على أبى محمد عبد المنعم بن الفرس ، وأبى بكر بن أبى زمنين ، وأبى عبد الله بن عروس .

ولد بفاس سنة ثنتين وستين وخمسماية . وتوفى عفا الله عنه يوم الإثنين لإحدى عشرة خلت من جمادى الأُولى عام أحد وخمسين وستماية بمراكش .

«إنتهى اختصار السفر العاشر بحمد الله تعالى يتلوه ، ومن السفر الحادى عشر ترجمة الطاريين فى ترجمة العمال والأثرا . والحمد لله رب العالمين»

---

(١) موقعة العقاب هى الموقعة العظيمة الحاسمة التى وقعت بينى جيوش اسبانيا النصراية التى يقودها ملوك قشتالة ونافار وأراجون، وبين الجيوش الموحديه والأندلسية بقيادة الخليفة محمد الناصر ولد الخليفة يعقوب المنصور ، فى هضاب جبال الشارات (سيرا مورينا) فى ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ (٦يوليه سنة ١٢١٢م) على مقربة من شمال غربى مدينة أبدة . وقد سميت بموقعة العقاب (جمع عقبة) لوقوعها بين التلال والربى المانعة . وسميت لذلك بالاسبانية موقعة Las Navas de Tolasa وقد انتهت بوقوع الهزيمة الفادحة بالجيوش الموحدية والأندلسية ، وفناء معظمها ، وكانت بداية لانحلال سلطان دولة الموحدين . راجع فى تفاصيل هذه الموقعه العظيمة كتابى : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس القسم الثانى ص ٢٨٢ – ٣١٧ .

ومن السِّفر الحادى عشر من ترجمة الطاريين في ترجمة العمال والأثرا

عمر بن على بن غفرون الكلبى

من أهل مُنْتِفريد .

حاله

كان شيخاً مُخْشَوْشِن الظاهر بَدَوِيه ، سريع الجواب ، جَلِداً على العمل، صليباً وقّاحاً . له ببلده نباهة ، وخصل من طلب وخطٍّ وحساب . أمَّ ببلده ، وانتقل إلى الحضرة عند انتزاء ثغره ، وداخل السلطان فى سبيل استرجاعه ، فنشأت له غمامة رزق ببابه ، وأقلّته هضبة حظوة ، ناطت به ديوان الجيش مدة أيام السلطان ، ووُلِّيَ بعده خُططا نبيهة . ثم التأثت حاله وأسنّ ، ومات تحت خمول .

وجرى ذكره فى «الإكليل» بما نصه : شيخ خَدَم ، قام له الدهر فيها على قَدَم ، وصاحب تعريض، ودهاء عريض ، وفايزٌ من الدولة بأيادٍ بيض ، خدم الدولة النصرية ببلده عند انتزاءِ أهله، وكان ممن استنزلهم من حَزْنِه إلى سهله ، وحكَّم الأمر الغالبى فى يافعه وكهله ، فاكتسب حظوة أرْضَته ، ووسيلة أرْهَقته وأمضّته ، حتى عظم ماله ، واتسقت آماله . ثم دالت الدول، ونكرت أيامه الأول ، وتقلب من يجانسه، وشقى بكل من كان ينافسه، فجفّ عوده ، والتأثَتْ سعوده ، وهلك والخمول يطلبه ، والدهر يقُوتُه، من صُبابة حرث كان يستغله.

شعره

وله شعر لم يثقفه النظر ، ولا وَضَحت منه الغُرر . كتب للسلطان أمير المسلمين مُنْفق سوق خدمته ومتغمده بنعمته ، يطلب منه تجديد بعض عنايته :

ياملكا ساد ملــوك الورى   فى الحال أو فى الأعصر الخالية
العبد لا يطلب شيئا سوى   تجديد خطٍّ يــدك العالية

ومن شعره يخبر عن وداده ، ويعلن فى جناب الملوك الغالبيين بحسن اعتقاده :

حُبُّ الملوك من آل نصر دِينى   ألْقى بـه ربىِّ بحسن يقينى
هو عُدَّتى فى شدَّتى وذخيرتى   وبـه يتحسَّبنى غدا ويَقين
حتى أبى الحشر لم أخـدم   سوى أبوابهم بوسيلة تكفين
أرجو نفاد العُمْر فى أيــامهم   من تحت ستر رعاية ترُضِين
إن كان دهرى فى نفادى بعدهم   فالله عـز وجــل لا يُبقْين

وسَلِم فى أيام خموله ، وانْغَلق على المتغلب على الدولة أبى عبد الله بن المحروق . وقد احتقره ببابه ، وأعرض عن جوابه . فكتب إليه ، ولم يرهب مالديه :

يــامن سُول وغــدا   فى كل يــوم مــرارا
أرْدُدْ على ســلامى   ولا تــدعه احتقــارا

وفــاته

قال شيخنا الكاتب ، أبو بكر بن شبرين رحمه الله ، وفى ذى حجة من عام أربعة وأربعين وسبعمائة توفى الفقيه أبو على بن عفرون من أهل مُنْتفريد من حصون براجلة غرناطة . قدم قديما بالباب السلطانية فى تنفيذ واجب

العسكر الأَندلسى وإشراف الحضرة وحفازتها . وكان ميمون النقيبة ، وجها فى الناس فاضلا، رحمه الله.

على بن يحيى الفزارى

من أهل مالقة ، بربرى النسب فَزارِيه . يكنى أبا الحسن ، ويعرف بابن البربرى .

حاله

كان من أماثل طريقته عدلا ، وعفافا ، وفضلا ، لين العريكة ، دَمث الأَخلاق ، حسن الخط ، جيد الشعر ، تَغْلب عليه السلامة والغفلة ، تصرف فى إشراف مالقة وسواها عمره ، محمود الطريقة ، حسن السيرة . ومدح الملوك والكبراء .

شعره

مما خاطبنى به قوله :

لِبابِك أَمَّ الآملون ويمموا — وفى ساحَتَى رحماك حطُّوا وخيَّم
ومن راحَتَى كفيَّك جدواً تهمى — فتروى عطاش من نداك وتنعم
وأَنت لما رامُوه كعبة حَجِّهم — إذا شاهدوا مرآك لبُّوا وأَحْرَم
يطوفون سَبْعاً حول بابك عندما — يلوح لهم ذاك المقامُ المعظَّم
فيُمْناك يُمن الرعايا ومنَّةٌ — ويُسْراك يُسراً للعُفاة وَمغْنم
ولُقياك بِشر للنفوس وجنَّة — تزقُّ بها وِرْق المنا وترنِّم
فيا واحدَ الأَزمان علْماً ومَنْصبا — ومن به الدنيا تروق وتبسم

ومَنْ وجهه كالبدر يُشْرق نوره　　من جوده كالغَيث بل هو أكرم
ومَنْ ذكرُه كالمسك فُضَّ ختامه　　وكالشمس نورا بشره المتوسِّم
لقد حُزْت خَصل السَّبق غيرمُعاند　　فأنت على أهل السباق مُقَدَّم
حويت من العلياء كل كريمة　　بها الروض يُندى والرُّبى تتَبسَّم
وباهيت أقلام المقام براعة　　فلا قلمٌ الاّ يرَاعك يخدم
وإذا فاخر الأَمجاد يوما فإنما　　لمجدك فى حال الفخار يُسلم
وإن سكتوا كنتَ البليغَ لديهم　　يعبِّر عن سر العُلى ويُترجم

ومنها :

فياصاحِبَىّْ نجْواى عُوجا برامَةٍ　　على رَبْعه حيث النَّدى والتَّكرم
وقولا له ببابك يرتجى　　قضاءُ لُبانات لديك تتمم
وليس له إلا عُلاك وسيلة　　ولا شيئ أَسْمى من علاك وأعظم
فجد بالذى يرجوه لمنِّك فماله　　كعقدٍ ثمين من ثنايك يُنظم
بقيتَ ونجم السَّعد عندك طالع　　يضئ له بدرٌ وتشرق أَنْجمُ

وقال مراجعا القاضى أبا عبد الله بن غالب رحمه الله :

وما كنتُ عن ذكر الأَحبَّة ساليا　　ولا عن هوى بيض الدِّما برغيب
فلما أتتنى رُقعة بُلْبُليَّة　　شَغْلت بها عن منزلٍ وحبيب
وقبَّلتها ألفاً وقلت لها　　أنعِمى صباحاً ومَمسًى بالقبول وطيب
فيا حسن خطٍّ جاء من عند بارع　　ويا سحر لفظٍ من كلام أديب
وإنَّ قريضاً لم يُحكه ابن غالب　　لخلْو من الآداب غيرُ عجيب

وفاته : بمالقة فى الطاعون عام خمسين وسبعمائة .

الزهاد والصلحاء والصوفية والفقراء

عتيق بن معاذ بن عتيق بن معاذ بن سعيد بن مقدم بن سعيد بن يوسف بن مقدم اللخمى

من أهل غرناطة يكنى أبا بكر ، الشيخ الصوفى ،

حاله

هذا الرجل فذ الطريقة فى الخصوصيّة والتخلّى ، وإيثار الانقطاع والعُزلة ، طُرفة فى الوقار والحشمة . نشأ بغرناطة وطلب بها ، وكتب بألمرية عن بعض ولاة قصبتها ، وعُنى بمطالعة أقوال الصوفية ، فآثر طريقهم ، وعوّل عليه ، وتجرد وترك التسبّب ، والتزم منزله ، بحيث لايريمه إلا لصلاة الجمعة فى أقرب محالّها وإليه ، نظيف البزّة ، حسن السّمت ، مليح الترتيب والظّرف ، طيب المجالسة ، طُلَعة مُتْعة ، إخبارى ، يصل ماضى الزمان بمستقبله ، جليس مصلًّى ، ومُجيل سبحة كثير الزوار ، ممن يلتمس الخير ، وينقر عن أهله ، محظوظ المجلس حفىٌّ بالوارد ، ذاكر ، مأثرة من مآثر بلده .

مشيخته

أخذ عن الخطيب الصالح ولى الله أبى عبد الله الطّنجالى ، والخطيب المحدث أبى عبد الله بن رشيد ، والأستاذ النظار أبى القاسم بن الشّاط ، والخطيب الصالح أبى جعفر بن الزيات ، والشيخ الأستاذ أبى عبد الله بن الفخار الأرْكشى نزيل مالقة ، والوزير الراوية أبى عبد الله ابن ربيع الأشعرى . والعدل الراوية أبى الحسن بن مستقور (١) ، والأستاذ المقرى أبى جعفر الجزيرى الضرير ، والخطيب أبى عبد الله بن الخشاب ،

(١) وردت فى الإسكوريال (مسمور) وهو تحريف والصواب ما أثبتناه .

والخطيب المقرى أبى إسحاق بن أبى العاصى ، والشيخ والمحدث أبى تمام غالب بن حسن بن غالب الجهارى ، والقاضى المُسِن أبى جعفر الشاطبى ، والقاضى المحدث أبى المجد يوسف بن الحسن بن أبى الأحوص ، والأستاذ المحدث أبى القاسم بن جابر ، وأخيه المحدث أبى جعفر ، والقاضى أبى جعفر بن أبى جبل ، والأستاذالصوفى أبى محمد بن سلْمون ، والشيخ الشريف أبى الحسن على بن جمرة بن القاسم الجهنى ، والأستاذ المقرى أبى عبد الله بن بيبش العبدرى ، والشيخ المكَتِّب أبى عمرو عبد الرحمن بن يُشت ، والشيخ الراوية المحدث الرحال أبى عبد الله بن جابر الوادآشى الملقب من الألقاب المشرقية بشمس الدين ، والخطيبين أبوى الحسن بن فرحون ، وابن شعيب ، والقاضى أبى الحسن البلوى ، والأستاذ المقرى [1] .

محنته

ناله امتحان من بعض القضاة ببلده حَمْلاً عليه ، وإنكارا لما امتاز به من مثلى الطريقة ، أداه إلى سجنه ، ومنع الناس عن لقايه . وهو الآن بحاله الموصوفة ، قد ناهز السبعين تمر [الناس] [2] تلتمس بركته ، وتغشى لطلب الدعاء خلْوته .

على [3] بن على بن عتيق بن أحمد بن محمد بن عبد العزيز الهاشمى

من أهل غرناطة ، ويعرف بالقُرَشى .

---

(١) هكذا وقفت « المشيخة » عند هذه الكلمة ولم يرد بعدها شئ .

(٢) اضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٣) وردت فى الإسكوريال (عمر) . ونرجح أن ذلك سهو من الناسخ لانها وردت ضمن قائمة (العليين) ومن جهة أخرى فقد وردت فى الزيتونة على وهو ما يؤيد هذا الفرض .

حاله

كان رحمه الله على طريقة مُثلى حياءً، ووقارا وصمتا، وانقباضا وتخلّقا وفضلا ، عاكفا على الخير، كثير الملازمة لكسْر البيت ، مكباً على المطالعة ، مؤثرا للخلوة ، كلفا بطريق الصوفية . كتب الشروط لأول أمره ، فكان صَدْراً فى الإثبات ، وعلما فى العدول ، إلى لين الجانب ، ودماثة الخلق ، وطهارة الثوب ، وحسن اللقاء ، ورجوح المذهب، وسلامة الصدر. قيد الكثير ، ولقى فى تَشرِيقه أعلاما أخذ عنهم . وتقدّم خطيبا وإماما بالمسجد الأعظم فى غرناطة، عام أحد عشر وسبعماية ، واستمرت حاله ، إلى حين وفاته ، على سنن أولياء الله الصالحين .

مشيخته

قرأ على الاستاذ أبى جعفر بن الزُّبير ، ولازمه وتأدّب به ، وتلا عليه بالقراءات السبع ، وسمع كثيرا من الحديث ، وعلى الخطيب الولى أبى الحسن بن فضيلة ، والشيخ الخطيب أبى عبد الله بن صالح الكنانى .
سمع عليه الكثير . قال أنشدنى الخطيب أبو محمد بن بَرْطلة :

أسْلَمنى للبلاء وحيـداً من هو فى مُلْكه وحيـد
قضا علىَّ الفناء حتمـا فلم يكن عنه لى مَحيـد
وكيف يبقى غريق نـزى فذاتـه أولا صعيـد
يعيد أحـواله إليـه من نعتَه المبْدى المعيـد

وأخذ عن الشيخ الراوية المحدث أبى محمد بن هرون الطابى ، والشيخ الراوية المعمر أبى محمد الخلاسى ، والشيخ الشريف تاج الدين أبى الحسن العراقى ، والشيخ المحدث الأمام شرف الدين أبى محمد عبد المؤمن الدمياطى ، والشيخ رضىّ الدين الطبرى ، والمحدث الحافظ

فخر الدين التودرى الميكالى . قال ، وأنشدنى من لفظه بالحرم الشريف لشيخه الإمام أبى الحسن الخزرجى :

عن أُهَيل المنحنى لا أصبر   فاعذِلونى فيهم أو فاعذروا
هم أَحباب وإن هم عذّبوا   ومُناى وصَلوا أم هجروا

والشيخ المحدِّث المُفْتى بالحرم الشريف رضى الدين محمد بن أبى بكر بن خليل . قال ، وأنشدنى لبعض شيوخه :

أَفى كل وادٍ شاعر ومطيب   وفى كل ناد مِنْبر وخطيب
نعم كثر الأَقوام قلّة ناقــد   لهم فتَساوى مُخطىء ومُصيب

والشيخ المحدث الإمام أنس الدين بن الإمام قطب الدين القَسْطلاَّنى ، والأَديب الواعظ نفيس الدين بن ابراهيم اللمطى . قال وأنشدنى إجازة عن الشيخ الإمام شرف الدين أبى الفضل السلمى المرسى من قصيدة :

إذا جيتُ أُلقى عندبابك حاجبا   مُحيّاه من فرط الجهامة حالك
ومن عجيب مَغْناك جنّه قاصد   وحاجبها من دون رِضوان مالك

والشيخ الإمام تقى الدين بن دقيق العيد ، وأبى العباس بن الظاهرى ، ومحيى الدين بن عبد المنعم ، ومحمد بن غالب بن سعيد الجيَّانى ، والخطيب الجليل أبى عبد الله بن رُشيد من أهل المغرب . وكتب له الشريف أبو على الحسن بن أبى الشرف ، والعدل أبو فارس الهوارى ، وأبو القاسم بن الطيب ، وأبو بكر بن عبيدة ، وأبو إسحق الغافقى ، وأبو عبد الله الدّراج ، وأبو الحكم مالك بن المرحّل ، وأبو إسحق التّلمسانى ، وغيرهم .

تواليفه

صنّف فى التصوف كتابا سماه «مطالع أنوار التحقيق والهداية» وكتابا

فى غرض «الشفا» العِياضى . ومن شعره ، ثبتٌ بظهر الكتاب المسمى «بالموارد المستعذبة» من تاليف شيخنا أبى بكر بن الحكيم ما نصه :

كتابك ذا من هَوته المفاخر سَنا وسنًا راق منه زواهر
لقد جاء كالعِقد المنْظم ناثرا فرايد قسٌ عنك فى ذا قاصر
بلاغته فى القوم تشهد عندما تشكك فيه أنه عنك صادر
فللّه من روض أنيق غصُونه بما تتمنا فَزاهِ وزاهر
فما شيته تجده فيه فإنه لناظره بحر بها هو زاخر
فنُهنيكم يابن الأُلى شاع مجدهم قيادكم مجد بذاتك آخر
أتيت بما فيه انبتٌ حياة من حَوَته على مرٌ الدهور المقابر
وأبليت فيه سحر لفظك رائقا تلذٌ به الأجفان وهى سواهر
ومتّعتُ طرفى فيه لازلت باقيا ونحا بك ربىٌ يوم تُبلى السراير
وخصّك منى بالسلام مردّداً عليك مدى الدنيا وماطار طاير

مولده : فى حدود سنة سبع وستين وستمايه :

وفاته : فى صفر من عام أربعة وأربعين وسبعماية . وكانت جنازته بالغة أقصى مبالغ الاحتفال، وتزاحم الناس على قبره بما بَعُد العهد به .

وممن رثاه شيخنا أبو الحسن بن الجياب فقال :

قضى الأمر يانفس اصبرى صبر تسليم لحكم القدر
وعزاءٌ يا فؤادى إنه حُكْم ملك قاهر مُقتدر
حكمة أُحكمت تدبيرها نحن منها فى سبيل السَّفر
أجل مقدر ليس بمستقدم ولا مستأخر
أحسن الله عزاء كل ذى خشية لربِّه فى عمر
فى إمامنا التقىّ الخاشع الطاهر الذات الزَّكى السِّبر
قُرشى سليمن مستقى من صميم الشَّرف المطَهَّر

يشهد الليل أنــــه دايم الذكــر طويـــل السّهر
فى صلاة بعثت وفودهــا زمر المصطفى مـــن مُضر
نايماً وراكعاً وساجــداً لطلوع فجــره المُنفجر
جمع الرحمن شَملنا غـداً بحبيب الله خيــر البشر
وتلقته وفــود رحمة الله تأتى بالرّضا والبِشــر

على بن أحمد بن محمد بن عثمن الأشعرى

من أهل غرناطة يكنى أبا الحسن. ويعرف بابن المحروق
أوّليته : قد مرّذلك عند ذكر عمه وجده .

حاله

هذا الرجل شيخ الفقراء السّفّارة والمتسببة بالرّباط المنسوب إلى جدّه ، وهو مقيم الرسم ، حاجٌ رحّال ، عارف بالبلاد ، طواف على كثير من مشاهير ما عُرف الإصطلاح. وزار تُرب الصالحين. وصحب السّفارة، حسن الشكل ، أصيل البيت ، حافظ للترتيب ، غيور على الطريقة ، محظوظ العقد ، مجانبٌ للاغمار ، منافر لأهل البدع ، مكبوحٌ عن غلو الصافنة ، أنُوف ، مترفّع ، كلف بالتجلّة ، يرى لنفسه الحق ولا يفارق الحظ ، خطيب متعاط لمواقف الإطالة ، وسرد الكثير من كلام الخطباء عن غير اختيار ، يطبق المِفصل ، ويكافى الغرض المقصود ، على شرود عن قانون الإعراب ، حسن الحديث ، طبقة للرّسم الدُنيوى ، من هذا الفن كثرة ، وحسن بزّة ، ونفاذ أمره ، ونباهة بيته ، وتعاطيا لنتايج الخلْوة.

محنته

قبض عليه المتغلب على الدولة وأزعجه بعد الثِّقاف فى المُطْبق ، إلى مَرْسى المريَّة ، إتهاما بممالأة السلطان ، فامتعض له من أهل مدينة وادى آش ، وتبعهم المشيخة على المجاهرة ، فاستنقذوه ، وكاشفوا المتغلب إذ كانوا على أرقاع الخلاف عليه ، وعاجل الأمر تصيير الملك لصاحبه ، فعاد الشيخ إلى حاله ، فهى معدودة عنه من أثر التصريف .

مشيخته

ومن خطه نقلت . قال ، ولدت فى اليوم الحادى والعشرين لرجب عام تسعة وسبعماية ، ولبستُ الخِرقة من يد الشيخ الفقيه الخطيب البليغ الولى الشهير ، أبى على عمر بن محمد بن على الهاشمى القرشى فى أوايل ذى قعدة من عام خمسة وثلاثين وسبعماية . وحدثنى بها رحمه الله عن الشيخ الزاهد أبى محمد الخلاسى عن شرف الأئمة أبى عبد الله بن مَسْدى عن الشيخ الكبير أبى العباس بن العَريف عن أبى بكر عبد الباق بن برال ، عن أبى عمرو الطلمنكى ، عن أبى عمرو بن عون الله وأبى على الحسن بن محمود الجرجانى عن أبى سعيد بن الأعرابى ، عن أبى محمد سالم محمد بن عبد الله الخراسانى ، عن الفضل بن عِياض ، عن هشام بن حسّان ويونس بن عبيد ، عن أبى الحسن بن الحسن البصرى ، عن الحسن البصرى ، عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه . ثم رحلتُ إلى المغرب ، طالبا فى لقاء أهل الطريقة راغبا ، فلقيت به من أعلام الرجال جملة يطول ذكرهم ، ولا يجُهل قدرهم . ولما توجهت إلى المشرق ، لقيت به أعلاما وأشياخا كراما ، لهم طرق سُنِّية ، وأحوال سَنية ، أودعت ذكرهم هذا طلبا للاختصار ، وخوفا من سآمة الإكثار ، وكان اعتمادى فيمن لقيت منهم فى أيام تجريدى

واجتهادى ، بعد إيابى من قضاءِ أربى ، من حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر النبى ، عليه الصلاة والسلام ، على من بهَدْيه أستنير ، واعتمد عليه فيمن لقيت وصحبت ، وإليه أشير سيدى الشيخ الكبير الجليل الشهير وحيد عصره وفريد دهره ، جمال الدين أبو الحجاج الكورانى جِنسا ، والتميمى قبيلة ، والكلورى مولدا ، والسهروردى خرقةً وطريقة ونسبة ، وهو الذى لقّننى ، وسلكت على يده ، وقطعت مفاوز العُزلة عنده ، مع جملة ولده . وحدثنى رضى الله عنه أنه لقّنه الشيخ الفقيه العارف أبو على الشمشرى هو والشيخ الإمام نجم الدين الإصبهانى ، والشيخ نجم الدين ، والشيخ بدر الدين الطوسى ، لقنا الفقيه محسنا المذكور ، والشيخ بدر الدين ، لقنه الشيخ نور الدين عبد الصمد النصيرى ، والشيخ عبد الصمد ، لقنه الشيخ نجيب الدين بن مرغوش الشّيرازى ، والشيخ نجيب الدين لقنه الشيخ شهاب الدين السُّهْرَوردى ، والشيخ شهاب الدين ، لقنه عمه ضياءُ الدين أبو الحسن السهروردى ، والشيخ ضياء الدين فرج الزّنجانى . والشيخ فرج الزنجانى ، لقنه أبو العباس النهاوندى ، والشيخ أبو العباس ، لقنه أبو عبد الله بن خفيف الشيرازى ، والشيخ أبو عبد الله لقنه أبو محمد رديم ، والشيخ أبو محمد لقنه أبو القاسم الجنيد ، والشيخ أبو القاسم لقنه سَرِى السّقطى ، والشيخ سرى لقنه معروف الكَرْخى ، والشيخ معروف لقنه داود الطائى ، والشيخ دواد لقنه حبيب العجمى ، والشيخ حبيب لقنه الإمام الحسن البصرى ، والشيخ الحسن لقنه الإمام على بن أبى طالب . ولبست الخرقة من يد الشيخ أبى الحجاج المذكور بسند التلقين المذكور إلى أبى القاسم الجنيد رضى الله عنه إلى جعفر الحذا ، إلى أبى عمر الإصطخرى ، إلى شفيق البلخلى ، إلى ابراهيم

ابن أدهم . إلى موسى بن زيد الراعى ، إلى أبى يس القرنى ، إلى أميرى المؤمنين عمر وعلى رضى الله عنهما ، ومنها إلى سيد الأولين والآخرين ، صلى الله عليه وسلم ، وذلك فى أوايل عام ثلاثة وأربعين وسبعماية . وقد ألّفت كتابا جمعت فيه بعض ما صدر من أورادى ، أيام تجريدى واجتهادى ، محتويا على نظم ونثر ، مُفْرغا عن كلام الغير ، الإ مقطوعة واحدة لبعض المتصوفة ، فإلى سقتها على جهة لكونها غاية فى الاحتفال وهى :

قل لمن طاف بكاسات الرضا وسَقَى العشّاق مما قد نهل

وسميت الكتاب «بنكت الناجى ، وإشارات الراجى» . ولعل ذلك يكون اسما وافق مسماه ، ولفظا طابق معناه . وإلى ماذكرت من النكت ، أشرت بما نظمت فقلت :

فى كل واحدة منهن أسرار لا تنقضى ولها فى اللفظ أسرار
إن رمت حصر معانيها بما سَمِعَت أذناك ليس لها بالسمع إحصار
فاصحب خبيرا إنما يرضى الحجاب ستارها وكــذلك الحرّ ستّار

ولعله يكون إن شاء الله كما ذكرته ، وأعرِّف بما أنشدته .

ولى جملة قصائد وأزجال منظومة على البديهة والارتجال ، نطق بها لسان المقال ، معربا عما وجدته فى الحال ، قصدت بها الدخول مع ذلك الفريق ، وأَوْدعتُها غوامض أسرار التحقيق . فمن بعض نكت الكتاب ، ما يعجب منه ذوو الألباب ، نكتة سر الفقير ، يشير إليه بجميع الكائنات ، فلا حديث مُعجم ، ولا موجود مُبهم ، فهو إذا يتكلم دون حده وبلسان وجده ، والفقيه يتكلم فوق قدره وبلسان غيره ، وهذا ما حضرنى فى الوقت ، مع مزاحمة الشواغل ، فتصفحوا ، واصفحوا ، وتلمحوا واسْمَحوا . ولكم الفضل فى قبول هذه العجالة واليسير من هذه المقالة . انتهى .

ومن الطاريين

على بن عبد الله النميرى الششترى

عروس الفقراء ، وأمير (١) المتجردين [وبركة الأندلس، لابس العباءة الخرفة] (٢) أبو الحسن . من أهل شِشْتَر، قرية من عمل وادى آش معروفة (٣) . وزقاق الششترى معروف بها . وكان مجودا للقرآن ، قايما عليه ، عارفا بمعانيه ، من أهل العلم والعمل .

حاله

قال شيخنا أبو عثمن بن ليُون فى صدور تهذيبه لرسالته العلمية ، الإمام الصوفى المُتَجرِّد . جال [البلاد] (٤) والآفاق . ولقى المشايخ ، وسكن الربُط ، وحج حجّات ، وآثر التجرّد والعبادة . وذكره القاضى أبو العباس الغُبرينى ، قاضى بجاية ، [فى كتابه المسمى عُنوان الدِّراية فيمن عُرف فى المائة السابعة بمدينة بجاية] (٥) وقال ، الفقيه الصوفى الصالح العابد ، أبو الحسن الششترى من الطلبة المحصِّلين (٦) ، والفقراء المنقَطِعين ، له علم [وعمل] (٧) بالحكمة ، ومعرفة بطريق الصوفية ، وله تقدم فى النظم والنثر، على طريقة التحقيق . وأشعاره

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وإمام) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (وبركة لابس الخرقة) .

(٣) نرجح أنها اليوم قرية Charches الإسبانية التى تقع على بعد خمسة عشر كيلو مترا من مدينة وادى آش .

(٤) هذه الكلمة زائدة فى الزيتونة .

(٥) هذه العبارة واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال .

(٦) هكذا وردت فى الاسكوريال . وفى الزيتونة (المخلصين) .

(٧) الزيادة من الزيتونة

فى ذلك ، وتواشيحه ومُقَفَّياته وأزجاله ، غاية فى الانطباع . وكان كثيراً ما يُجوِّد عليه القرآن . ونظمه فى التحقيق كثير .

مشيخته

أخذ عن القاضى محيى الدين أبى القاسم محمد بن إبراهيم بن الحسين ابن سراقة الأنصارى الشاطبى ، وعن غيره من أصحاب السُّهْرَوَردى صاحب العوارف والمعارف. واجتمع بالنَّجم بن إسرايل[1] الدِّمشقى الفقير سنة خمس وستماية . قال ألفيتُه على قدم التجرد ، وله أشعار وأذواق فى طريق القوم ، وكان من الأُمراء وأولاد الأُمراء، فصار من الفقراء وأولاد الفقراء، وخدم أبا محمد بن سَبْعين ، وتلمَّذ له . وكان الشيخ أبو محمد دونه فى السِّن ، لكن استمر[2] باتِّباعه ، وعول على ما لديه ، حتى صار يُعبر عن نفسه فى منظوماته وغيرها ، بعبد الحق بن سبعين ، وبه استدل أصحاب أبى محمد على فضله . ويقال إنه لما لقيه يُريد المشايخ ، إن كنت تريد الجنة ، فصِر إلى الشيخ أبى مدين ، وإن كنت تريد ربّ الجنة فهلم. ولما مات الشيخ أبو محمد، انفرد بعده بالرياسة والإمامة على الفقراء والمتجرِّدين والسَّفَّارة ، وكان يتبعه فى أسفاره ما ينيف على أربع مائة فقير ، فيقسِّمهم الترتيب فى وظايف خدمته .

كراماته

قالوا ، نادى يوما ، وهو مع أصحابه فى بريَّة ، يا أحمد ، فقال أحدهم ، ومن هذا ، فقال تُسرُّون به غدا . فلما وردوا من الغد قابِس ، وجدوا أحمد قد جاء من الأَسْر ، فقال صافحوا أخاكم المُنَادى بالأَمس .

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (إسراومل)

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (استقرا)

قالوا ، ودخل عليه ببجاية . أبو الحسن بن علّال من أمنائها ، وهو يُذكر في العلم ، فأعجبته طريقته ، فنوى[1] أن يؤثر الفقراء من ماله بعشرين دنيرا . ثم ساق شطرها ، وحبس الباقى ليزوّدهم به ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم فى النَّوم ، ومعه أبو بكر وعمر ، فقال ادعُ لى يا رسول الله ، فقال لأبى بكر اعطِه ، فأعطاه نصف رغيف كان بيده ، فقال له الشيخ فى الغد لو أتيت بالكل لأخذت الرغيف كله .

تواليفه

له كتاب « العروة الوثقى فى بيان السنن وإحصاء العلوم » . وما يجب على المسلم أن يعمله ويعتقده إلى وفاته . وله « المقاليد الوُجُوديه[2] فى أسرار إشارات الصوفية » . وله الرسالة القُدْسية فى توحيد العامة والخاصة . والمراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية . والرسالة العلمية ، وغير ذلك .

دخوله غرناطة

دخلها ونزل برابطة العقاب ، وتكرّر إليها ، إذ بلده من عِمالتها

شعره

من ذلك قوله :

لقد تُهْت عجباً بالتجرّد والفقر ... فلم أنْدَرِج تحت الزمان ولا الدهر
وجاءت لقلبى نفحةٌ قُدْسية ... فغِبْت بها عن عالم الخَلْق والأمر
طويتُ بِساط الكون والطَّى نشره ... وما القصد إلاّ الترك للطىِّ والنَّشْر

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فنودى) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (الموجودية) .

وغمضتُ عين القلب عن غير مُطْلَق ... فأَلْفَيْتَنى ذاك الملقب بالغَيْر
وصلتُ لمن لم تنفصل عنه لحظة ... ونزَّهت من أَعنى من الوصل والهجر
وما الوصف إلا دُونه غير أننى ... أُريد به التشبيه (١) عن بعض ما أَدْرِ
وذلك مثل الصوت أَيْقظ نايما ... فأَبصر أَمرا جلَّ عن ضابط الحصر
نقلت له الأَسماء تبغى بيسانه ... فكانت له الأَلفاظ سِترا على سِتر

ومن شعره أيضاً قوله فى الغرض المذكور :

من لامنى لو انه قد أَبصـرا ... ما ذقتُه أضحى به متحيِّـرا
وغدا يقول لصحبه إن أنتم ... أَنكرتم ما بى أَتيتم مُنكـرا
شذَّت (٢) أمور القوم عن عاداتهم ... فلأَجل ذاك يُقال سحر مُفترا

ومن شعره القصيدة الشهيرة ولها حكاية :

أَرى طالبا منَّا الزيادة لا الحسنى ... بفكر رمى سهما فعدّى به عُدْنا
وطالبنا مطلوبنـا من وجودنـا ... يغيب به لدى الصَّعق إن عنا
تركناحظوظاً من حضيض لحوطتنا ... إلى المقصِد الأَقصى إلى المقصد الأَسْنا
ولم نلْف كون الكون إلا توهُّماً ... وليس بشىءٍ ثابت هكذا أَلْفينا
فرفض السِّوا فرض علينا لأَننـا ... أُناس بمحو الشِّرك والشرك قد دنَّا
ولكن كيف السبيل لرفضـه ... ورافضه المرفوض نحن وما كنَّا
فيا قابلا بالوصل والوقفة التى ... حُجبت بها اسْمع وارعوى مثل ما أَبنا
تبدت لك الأَوهام لما تداخلت ... عليك ونور العقل أَورثك الشَّجَنا
وسَمَت بأَنوار فهمنا أُصولها ... ومَنْبَعُها من أَين كان فما سُمنا
وقد تحجب الأَنوار للعقل مثل ما ... تبعد من إظلام نفس حوَت ظعنا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى النفح (التشبيب) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، والنفح . وفى الزيتونة (شردت) .

وأتى دجال فى القَضِيَّة يدَّعى　　وأكمل من فى الناس لمن صدع الأمنا
فلو كان سرُّ الله يلحق هكذا　　لقال لنا الجمهور هانحن ما خِبْنا
وكم دونه من فتنةٍ وبليَّـةٍ　　وكم بُهْمَةٍ من قبل ذلك قد جُبْنا
وكل مُقام لا تُقِم فيه إنه حجاب　　فجدَّ السَّير واستَنْجد العَوْنـا
ولا تلتفت فى السَّير وكل ما　　سوى الله غيرٌ فاتخذ ذكره حصنا
ومهما ترى كل المراتب تُجْتلى　　عليك فحُل عنها فعن مثلها حُلنا
وقل ليس لى فى غير ذلك مطلب　　فلا صورة تجلى ولا طُرْفة تجنا
وسِرْ نحو أعلام اليمين فإنها　　سبيلٌ بها يُمْنٌ فلا تترك اليُمْنا
أمامك هَوْل فاستَمع لوصيَّتى　　عِقال من العقل الذى منه قد تُبْنا
أيام الورى بالمشكلات وقبلهم　　بأوهامه قد أهلك الخرُّ والبنَّا
محجَّتنا قطع الحِجا وهو حجُّنا　　وحُجَّتُنا شلوه ها بها همْنـا
يُثبتنا عند الصعود لأنـه　　يَوَدُّ لأنا للصَّعيد قد أخْلدنـا
تلوح لنا الأطواق منه ثلاثة　　كرآ هربن ورؤية ما قلنـا
ويظهر باسمه للسِّر والنفس مُدبرا　　وعقلا وخيرا مُقْبلا عندما يُدنا
ولوح إذا لاحت سطور كتـابنا　　له فيه وهو النُّون فالقلم الأدنا
وعرش وكرسى وبرج وكوكب　　وحشًى لجسم الكل فى وصفه جِزْنا
تمر خطوط الذهن عند التفاتنا　　حاطَتْه القصوى التى فيه أحضرنا
مُقَطَّعٌ بالأزمـان للدهـر مَثَل　　يكيِّف للأجسام من نِحلته أينا
أقام دوين الدهر مَدْرة ذاتـه　　ونحن ونفس الكل فى بحره عُمنا
وفتّق للأملاك جوهره الـذى　　يشكِّله سرُّ الحروف فحرَّفنـا
يفرق مجموع القَضيَّة ظاهـرا　　ويجمع فِرَقاً من تداخله فزنـا
وعدَّد شيئا لم يكن غير وَاحد　　بألفاظٍ أسمائها شتَّت المعنا

ويعرّج والمعراج منه ذواتـه — لتطويره العُلوى بالوهم أسرينا
فليُقِلّ سُفليا ويوهم أنـــه — لسُفْلِيِّه المجهول بالذات أسبطنا
يُقْلِر خصلا بعد وصل لـذاته — وفَرْضُ مسافات يجدُّ لها الذِّهنا
يحل لها طور المغبة شكله — وإن لمعت فيه فيلحقه الَمفْنا
ويلحقه بالشّرط من مُثْنَويّة — يلوح بها وهو الملوح والمبْنَا
فنحن كلُود القزّ يحصُرنا الذى — صَنعْنا بدفع الحصْر سجنا لنا منَّا
فكم واقفٍ أردى وكم سايرهدًا — وكم حكمة أبْدَى وكم مُمْلق أغنا
وتيم أرباب الَهرامِس كلهم — وحَسْبك من سُقراط أسْكنه الدُّنا
وجرّد أمثال العـوالم كلها — وأبْدَى لأفلاطون فى المثل الحَسَنا
وهام أرِسْطو حتى مشى من هيامه — وبثّ الذى ألقى إليه وما ضَنَّا
فكان لذى القَرْنين عونا على الذى — تبدَّا به وهو الذى طَلَّبنه العَيْنا
ويفحص عن أسباب ماقلسَمِعْتُم — وبالبحث غطّى العين إذ رده عَينا
وذوّق للحلاّج طُعم اتّحاده — فقال لنا من لا يُحبط به معنا
فقال له ارجع عن مقالك قال لا — شَربت مُداما كلٌّ من ذاقها غَنَّا
وانطق للشِّبلى بالوحدة التى — أشار بها لما مَحا عنده الكَوْنا
أقام لذات الصّغرى لنا حولها — يخاطب بالتوّحيد إذ رده خِدنا
وكان خطا بابين ذاتَيْن من يكن — فقيراً يرى البحر فيه قد عُمنا
فاضمت للحُسْنى تجرُّيد خلقه — مع الأمر إذا صحّت فصاحته لُكْنا
تثنّى قضيبُ البان من سُكْر خمره — وكان كمثل العُمْر لكنه ثنـا
وقد شذّ بالشّوذى عن ثوبه — فلم يُمل نحو أحواز ولاسكن الدُّنا
وأصبح فيه السُّهرَ وَرْدى حايراً — يُصيخ لما يلقى الوجود له أُذنا
بُعمر بن الفارض الناظم الذى — تجرّد للأسفار إذ سهل الحَزنـا

ولابن قَسِيٍّ خَلْعُ نَعلى [1] وجوبه ... وليس أخاً طلب من المجد قد تبنا
أقام على ساق المسرَّة نحلـــه ... لمن زمن الأسرار فاسْتمطر الُمزْنا
ولاح سَنَى برق من القُرب للسَّنى ... لنجل ابن سينا الذى ظنّ ما ظنا
وقد قلَّد الطُّوسى بما قد ذكرته ... ولكنه نحو التصوف قد حَنَّا
ولابن طُفَيْل وابن رشد تيقُّظٌ ... رسالة يقظان [2] اقتضت فتحه الجفنا
كسا لُشعيب توب جمع لذاته ... فجرّ على حسّاده الذَّيل والودْنا
وعنه طوَّق الطائى ببسط كنانه ... بلسكرة الخلاع إذا ذبَّ الوهنا
تسمَّى برفع الروح صبراً ولم ... يبل ما يهزندًّا فى المقام ولا قرنا
وباح به نجل الحر إلى عندما ... رأى كتمه ضعفا وتلويحُه غَبْنا
والأموى النظم والنثر فى الذى ... ذكرنا وإعرابٌ كما عنه أعْرَبنا
وأظهر منه الغافقى لما خفا ... وكشف عن أطواره الغيْم والدَّجنا
وبين أسرار العبودية التى ... عن إعرابها لم ترفع اللَّبْس واللحْنا
كشفنا غطاءً من تداخل سرَّها ... فاصبح ظهراً ما رأيتم له بَطنا
هوانا الدِّين الحق من قد تولَّهت ... لقربه ألْبابُنا ولـــه هُدنـا
فمن كان يبغى السِّير للجانب الذى ... تقدَّس لازباً خُذْه عنَّـــــا

وهذه القصيدة غريبة المنزع ، وإن لم تَخل عن شذوذ من جهة اللِّسان ، وضعف فى الصناعة ، أشار فيها إلى مراتب الأعلام من أهل هذه الطريقة . وكأنها مبنية على كلام شيخه الذى خاطبه به عند لقايه حسبما

---

(١) يشير هنا إلى كتاب « خلع النعلين » الذى وضعه الداعية المتصوف الاندلسى أحمد بن الحسين بن قسى الثائر فى أحواز شلب (بالغرب الأندلسى) ضد المرابطين سنة ٥٢٩ هـ ، ومؤسس طائفة المريدين الشهيرة .

(٢) يشير هنا إلى رسالة « حى بن يقظان » الشهيرة التى وضعها الفليسوف والطبيب الأندلسى ابن طفيل القيسى . وقد ترجم له ابن الخطيب فى المجلد الثانى من « الإحاطة » (ص ٤٧٨ – ٤٨٢) .

قدمنا ، إذ الحسنى الجّنة ، والزيادة مقام النظر ، فقوله أرى طالبا منا الزّيادة لا الحسنى ، إشارة إلى ذلك والله أعلم . والغافقى الذى ختم به هو شيخنا أبو محمد ، وهو مرسى الأصل غافِقية ، رحم الله جميعهم ، ونفعنا بأُولى الحَظْوة لديه .

نثره

وكلامه حسن ، ومقاصده غريبة ، رضى الله عنه ، ونفع به . كتب إليه الشيخ الصوفى أبو على بن تاذْرزْت للمسافر ولم يودّعه ، وكان قد قال له ، أغيب عنكم أياما قلائل ، وأعود إن شاء الله فابطّأ عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الله وحده فقط ليس إلا وصلواته على ملإه المقرب الأعلى ، وعلى سيدهم الخاتم محمد وآله الهُداة ، وسلامُه الحقّ يخص العليم بسرّه ، فى عالم الفرق ، ورحمته وبركاته ، من أخيه حقيقة فى العوالم الأول ، لا فى عالم العلم الحق ، من حيث هو موضوعه بحسب الإضاية ، بمنزله من مدينة بنى مدار عمرها الله وأرشدهم ، وليس إلا أنى نعتبكم عرفاً وعادةً ، لسفركم دون مُوادعة ، بخلاف سِيرتكم الأولى من المشرق الأقصى ، إلى المغرب الأقصى ، وأما بكون حقيقة الأمر الموحد فلا عتب ، بل نقرأ على الماهية سورة الإخلاص ، التى توحيدُها المحض أحاط وأحصى . ثم وعدتم أنكم ولا بّد لا تطول إقامتكم ببِجاية كلأها الله ، إلاّ ليال قليلة العَدد ، تأخذون فيها كتبكم وتنفصلون قافلين فى أسرع أمد . ثم ظهر غير ذلك من الإقامة إلى هذه المهلة ، التى نبا كما عندنا الزمان . وقد ورد من أناس بالتّواتر ، أنكم ولا بد تصومون هنالك رمضان المعظم على الأمان ، فقلنا لحظ البشريّة الحيوانية . وعلمنا أن الأمر ليس سراً لأجل القضايا الحَكْمية الطّلَبية ، والمقادير العلمية السرّية . ولا

تتحرك ذرّة الا بإذنه ، ولا يُسل عما يفعل ، وهم يُسئلون فى دهره وزمنه ، يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أمّ الكتاب . ولكنا أيضاً نقرأ ، والله لايخلف الميعاد . وقد يكون غير الوفاء بالعهد فى الخلف لمصالح فيها وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدّنيا ، والله يفعل ما يشاء . ولا تكن معترضا . فلا تلوم إلا بحسَب فَرْقنا الأول . وأما من حيث الكمالات الثّوانى والأول ، فلا لوم ولا عتب ، لرفع المثنوية ، وإحالة الكثرة والإضافة ، حتى ليس إلا الوحدة العلمية المعنوية العَليّة . وبالجملة الله معكم . ولن يَتِركم أعمالكم فإن ما يرفع العمد والعماد . قال الله ، ثم ذَرْهم فى خَوْضهم يلعبون ، وهو معكم أينما كنتم ، والله عليم بما تصْنعون. والرّغبة إلى ذاتكم الكاملة الوُجُودية ، ذات الكمالات العلمية القُدسية ، أن تعجلوا لى، إذ وأنتم مقيمون هنا لك .

وأين يجد فى عليّين غرفة وإن شُغلتم عن نسـخهـا

والحق لا يُشغله شأن عن شأن ، فوجّهوا إلىّ بها بعض الفقراء والإخوان ، وأنا أقسم عليك فى ذلك ياأخى وسيدى بالسّر فقط الذى يشغله أبدا سرْمدا الله فقط ، وأن تعجل لى بذلك ، وتُحيى مَوَاتى ، وتجمع أشْتاتى ، مع كلام تعتنوا لى به من كلامكم تخصّونى به فى كرّاس مبارك ، علّمنى الله العليم الحكيم منكم سرّ علمه العظيم ، وحكمته المحيطة ، وكفانا سرّ هذه العوالم الأرضية المركبة الحَطيطة ، ونقلنا من البَسِيطة لغة إلى العوالم الرّيسة النفيسة البسيطة . ويُرقينا به عنها إلى أن نتصل الحظّ المنفصل للتدبير بنقطته الأولى.وإن كان فى الحقيقة . ما انفصل، ويدخلها حضرة عِلمنا المحيط الوُجودى ، الذى ليس وراءها محيط

إليه يُرقى ويتصل . والسلام الحقُّ محض مظهره ومجْلاه ومرآته ،ورحمة الله وبركاته .

فراجعه الشيخ أبو الحسن الشّشترى المترجم به رضى الله عنه بما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على النبى محمد ، المرسل بالحق لإدحاض الشّك ، وإيضاح الغلط ، الموصل على أقرب السّبيل للحضرة الآلهية ، ومن شَطَط المختص بجوامع الكَلم ، المبْكت لكل من موّه وسَفْسَط ، المبعوث بكلمة الإخلاص ، التى حاصلها الله فقط ، ورضى الله عن مَظْهر الوراثة المحمدية فى كل زمان ، المتَرجم عن كَنز الوجود الذى طلّسمه الإنسان ، وسلام الله ورحمته على المستمع بأذن أنيته لذلك التّرجمان ، المُتَجوهر بمقام الإسلام والإيمان والإحسان، القارى على أخباره المنبعثة فى أرض فُرقة ، كلٌّ من عليها فان ، بالمعنى الفقير الباطن ، للسّيار الظاهر، المشير الحايم على سلب الإسمين ، الدّاير على دايرة قاب قَوسْين . المشهور فى العالم الأول ، بأبى على الحسين من خبر ماسية ، الوارث الطالب لذاته بها للوصل له . وهو به عنه باحث ، المنظور فى ذات كمالاته ، المنْعوت بالوافى لا بالناكث ، المعتصم بحَبْل التحقيق ، القايل بالحق ، عبده على الشّشترى ، ابن إفادتكم عبد الحق بن سَبعين ، أما قبل من حيث الأصل ، ومع من حيث الوَصْل ، وبعد من حيث الفصل ، فإنى أقسم بالبَدر إذا أدْبَر ، والصُّبح إذا أسفَر ، أن النصاب واقع من حيث الصور ، لامن حبّة حقيقة المظهر . فاين هذا أنت أو أنا ، أو قبل أو بعد أو هند أو دَعْد ، أو خِلْف أو وَعْد ، ولا بد من المراح فى ميدان الخطاب وبيان المُتَشابه عليكم ، المودَع عليكم ، فى هذا الكتاب . فأول عايق عنكم مرض أحد الأصحاب ، ولا انفكاك عند وجود هذه القضية ، عند كل طايفة سنيّة ، فماظنك بالسّبعينية ، هذا مع وجود وعد مُبين ،

وزمان مُعينٌ . ونحن لم نُعينٌ للموضوع وقتا ، ولو عيّنا لكبر عند الله مقْتاً . وإنما قلنا أيام قلايل ، ويدخل فى ذلك الجمعة والشهر والعام القابل . بل برزخ العالم وإنايه عند النحرير العاقل . ثم لوعيّنا يوما أو يومين أو جمعتين ، ولم يكن، فَقَلْبُ المؤمن بين إصبعين . أما علمت أنّ الوعد المزعوم المراد منه الذى تتضمنه، صَعقَه العمود بالبُعْد أو بالتّوانى أو بالحواس أو بالمعانى . والُمسْكر هو الجريال لا الأوانى . وأما قَضية الوداع ، فقد ارتفع بين الفقراء فيها النزاع ، ووقع من الصُّوفية فى ذلك الإجماع ، أن الاجتماع من غير ميعاد ، والافتراق عن غير مَشورة ، وقول أنه من حيث المذهب لازم بالضرورة ، فإن المودع لا يخلق أن يكون من تربة الفَرس والسبع، أو فى مقام الفَردانية والجمْع ، أو فى البَرْزخ الذىبين المقامين، المُعبَّر عنه عند الصُّوفية بالفناء . فإن كان فى الوَترِيّة ، فلا أنت ولا أنا ، ولا مُودِع ، ولا مودَّع ، وقلَّة العَتَب لهذا أَلْيقَ وأَطْبع . وإن كان فى برزخ الفنا ، فمن الُمودع هنا ، وإن كان فى الفرق هنا . وإن كان فى الفَرْق، فترك المُودع أقرب إلى الحق لأَلم التفرقة، الموجود المحسوس ، المُعترض عند ذلك للنُّفوس . واعلم أن الانفصال كان بالطريق عند من يرى بالانْفِصال والاتّصال ، ولا نُقْلة عند ذوى الاتّصال . وأما نَكرة عَرِفة فهى عند الشيخ أبى عبد الله التّوزرى لاعندى ، ولو كانت ما ضَننْت بها بحمد الله لابِحمَدى . والسلام على موضوعك ومَحْمُولك وسُلوكك ووصُولك ، وجمعك وفَرْقك ، وعبُودّيتك وحقّك ، بل على جَمْلته الصالحة ، ورحمة الله وبركاته .

وفاته

قالوا إنه لما وصل بالشام إلى ساحل دمياط ، وهو مريض مرضه الذى

توفى منه، نزل قرية هناك على ساحل البحر الرومى يُصاد فيها السمك ، وقال ما اسم هذه القرية ، فقيل الطِّينة ، فقال حَنَّت الطِّينة إلى الطينة ، ووصَّى أن يدفن بمقبرة دمياط، إذ الطينة بالمفَازة بالساحل ، ودمياط أقرب المدن إليها ، فحمله الفقراء على أعناقهم ، فتوفى بها يوم الثلاثاء سابع عشر صفر عام ثمانية وستماية ، ودفن بمقبرة دمياط .

وفى ساير الأسماء من حرف العين

الأعيان والوزراء والأماثل والكبراء

عامر بن محمد بن على الهنتاتى

رييس مُتَبَّوإ قبيله من جبل دَرَنْ ، ومِزْوار المصامدة ، والمُطْلقة يُده على جِباية الوطن المراكُشى ، يكنى أبا ثابت .

حاله

هذا الرجل حسن الشكل ، حصيف العقل ، ثابت الجأش ، معروف الأمانة والصدق ، عفيف الفَرْج ، مؤثر للجدِّ ، ماضى الحَذَر بأهل الحكم ، نزيه اليد ، مشهور بالرَّجاحة ، عين من عيون الحدود الغربية ، وبقيَّةٌ من بقايا الجلَّة العِلْمية ، مُسَدَّد اللسان للإبانة عن الأغراض ، مختصر البزَّة والحِلية ، متوسط الجود ، مؤثر للخصُوصية ، بعيد النظر ، سديد الرأى .

قدِمْتُ عليه بمحله من الجبل ، زايرا مُتَوَفَّى السلطان أبى الحسن ، مستجيراً حِماهم ، فَبلَوْت من برِّه، وبر الرييس النَّدِى عبد العزيز أخيه ، ما تَقْصُر عنه همم الملوك ، وتقف دونه آمال الأشراف، تلقِّياً واحتفالا وفرشا ، وآنية ، وطعاما ، وصلة ، وانتخابا ، واحتشاما .

وألطافا ، حسبما يتضمن بُسط ذلك كتاب «الرحلة»(١) من تأليفى .

وأنشدتهم عند رحيلى ، وقد رأيت إلى ما يُبْقى الذكر ويخلِّد الآثار شيم السادة ، ودَيْدن الرؤساء :

يا حسنَها من أربُع وديـار ... أضحت لباغى الأمن دار قرار
وجبال عزٍّ لا تَذِل(٢) أنوفهـا ... إلا لعزِّ الواحـد القهَّـار
ومقر توحيد وأسُّ خـلافـة ... آثارها تُنبى عن الأخبـار
ماكنت أحسب أن أنهار الندى ... تجرى بها فى جُملة الأنهار(٣)
ماكنت أحسب أن أنوار الحجا ... تَلْتاح فى قُنن وفى أحجـار
مَجّت جوانبها البرود وإن تكن ... شبَّت بها الأعداءُ جَذْوة نـار
هدَّت بناها فى سبيل وفائها ... فكأنَّها صَرْعى بغير عُقـار
لما توعَّدها على المجد العِـدا ... رَضِيت بعَيْث النار لا بالعار
عَمرَت بحِلّة عـامر وأعزَّها ... عبد العزيز بُمرْهف بتَّـار
فرسَا رهان أحرزا قَصَب النَّدى ... والبأْس فى طَلَق وفى مِضمار
ورثا عن الندب الكريم(٤) أبيهما ... محض الوفاء ورفعة المقدار
وكذا الفروع تطول وهى شبيهة ... بالأصل فى وَرَق وفى أثمـار
أزْرت وجوه الصيد من هِنْتاتة ... فى جوها بمطالع الأقمـار

(١) لايوجد بين كتب ابن الخطيب كتاب خاص عنوانه «الرحلة» ولكنه يقصد بالرحلة هنا ما ورد فى أوائل كتابه «نفاضة الجراب فى علالة الإغتراب» (السفر الثانى مخطوط الإسكوريال) .من وصف لرحلته فى عمالات المغرب الغربية . وقد فقدت من هذا المخطوط الصحف الأولى التى تضم بداية الرحلة . وهى تبدأ فى النفاضة بزيارته لجبل هنتاتة وزعمائه (وفى النص المطبوع بعناية الدكتور أحمد مختار العبادى القاهرة – ص ٤٣ وما بعدها) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (تمز) . والتصويب من نفاضة الجراب وأزهار الرياض .

(٣) هذا البيت وارد فى نفاضة الجراب وازهار الرياض و ساقط فى الإسكوريال .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفاضة . وفى أزهار الرياض (الكبير) . والأولى ارجح .

لله أى قبيلة تركت لهــا ... النُّظراء دعوى الفخر يوم فخار
نَصرت أمير المسلمين وملكه ... قد أسْلَمته عـزايم الأنصار
وآوت[1] عليًّا عند ما ذهب الرَّدى ... والروعُ بالأسماع والأبصــار
وتخاذل الجيْش اللهَّام وأصبح ... الأبطـال بين تقاعُـدٍ وفرار
كُفِرت صنائعُه فيمم دارها ... مُسْتظهرا منها بعــزٍّ جـوار
وأقــام بين ظهورها لايتّقى ... وقع الردى وقد ارتمى بشرار
فكأنها الأنصار لما آنست ... فيما تقدَّم غـرْبة المختــار
لما غدا لحظًا وهُم أجفانــه ... نابَتْ شِفارهم عن الأشْفــار
حتى دعـاه الله بين بيوتهم ... فأجاب مُمتثلا لأمر البــار
لو كان يُمنع من قضاء الله ما ... خَلَصت إليه نوافذ الأقــدار
قد كان يأمل أن يُكافىء بعض ما ... أولوه لولا قاطع الأعمار
ما كان يُقنعه لو امتدّ المـدا ... إلاَّ القيامُ بحقِّها من دار
فيعيد ذاك الماء ذايب فِضَّة ... ويعيد ذاك التُّرب ذَوْب نُضار
حتى تفوز على النَّوى أوطـانها ... من مُلكه بجلايل الأوطــار
حتى يلوح على وجوه وجوههم ... أثرُ الرعاية[2] ساطعُ الأنـوار
ويسوغ الأمل القصى كـرامها ... من غير ما ثُنيا ولا استعصار
ما كان يُرضى الشَّمسَ أو بَدر الدّجا ... عن دِرْهم فيه[3] ولا دينــار
أو أن يتوِّج أو يقلِّد هامهــا ... ونحورَهـا بأهـلَّة ودَرارى
حق على المولى ابنه إيثار ما ... بذلوه من نصرٍ ومن إيثــار
فلمثلها ذُخِر الجـزاءُ ومثـلُه ... من لا يضيع صنائع الأحــرار

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفاضة (آوت) . وفى الأزهار (وارت) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال والنفاضة . وفى الأزهار (العناية) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفاضة . وفى الأزهار (فيهم) .

وهو الذي يقضي الديون وبره (١) يُرضيه فى عَلَن وفى إســرار
حتى تحج محلَّة رفعـوا بهـا علمَ الوفاء لأعين النظـار
فيصير منها البيتُ بيتا ثانيا للطائفين إليه أيُّ بـِمـدار
تُغنى قلوب القوم عن هدى به ودموعُهم تكفى لرَمْى جمار
حُيِّيت من دارٍ تكفَّل سعيها المحمــود بالزُّلفى وعُقبَى الــدار
وضَفَت عليك من الإلـٰـه عناية باكر ليل فيك إثر نهـار (٢)

دخوله غرناطة

دخل الأندلس ، وحلَّ بغرناطة فى حدود خمسين وسبعمائة ، وأقام بها أياما ، وقد أسند إليه السلطان أبو الحسن لمارحل عن إفريقية حِفْظ حُرَمه وأسبابه ، فى مراكب كان استقرارها بسواحل الأندلس ، وحضر مجلس السلطان ، فراق الحاضرين مذقاه ، وضمَّ لسانه لأطراف الحديث ، وحسنُ تبويبه للأغراض . ولهذا الرجل فى وطن المغرب ذكر بعيد ، وقد أمسك الأمر مرات ، على من استقر لديه من ولد السلطان ، ورتَّب له الألقاب والترشيح يُغازله بذلك الوطن . وتنوعت الحال بهذا الرجل ، من بعد وفاة السلطان أبى سالم ملك المغرب ، وانحاز إليه ولده فقام بدعوته ، ورتَّب له الألقاب بوطن مراكُش ، ونظر لنفسه أثناء ذلك ، فحصَّن الجبل ، واتخذ به القلعة ، وأكثر الطعمة والعُدَّة ، فلما حاقت بأميره الدَّبْرة ، لجأ إلى ما أعدَّه ، وهو الآن يُزْجى الوقت مهادنةً تشف عن انتزاء ، والله يهيئ له الخلاص من الوَرْطة ، ويتيحُ له إلى حزب السلامة الفَيْئة .

(١) هكذا فى الإسكوريال والأزهار . وفى النفاضة (مثله) .

(٢) وردت هذه القصيدة فى كتاب (نفاضة الجراب) مخطوط الاسكوريال رقم ١٧٥٥ الغزيرى لوحة ١ – ب و ٢ ا . وفى نفح الطيب (ج ٤ ص ٣٥ ؛) . وفى أزهار الرياض ج ١ ص ٢٩٥ – ٢٩٧ .

ومن الطارئين فى القضاة والغرباء

عاشر بن محمد بن عاشر بن خلف بن رجا[1] بن حكم الأنصارى بيّاسى[2] الأصل

حاله

كان رحمه الله نبيها حافظا للمسايل ، مُفْتيا بالرأى ، معروفا بالفهم والإتقان ، بصيراً بالفتوى ، شُورِر ببلده وببلنسية ،واستقضاه أبو محمد ابن سَمْحون على باغَة[3] أيام قضاية بغرناطة. إذ كان يكتب عنه ويلازمه ، ثم استُقْضى بمُرسية أعادها الله . وكان حافظ وقته ، لم يعاصره مثله .

مشيخته

روى عن أبيه ، وتلا بالسبع على ابن ذِروة المُرادى ، ولقى أبا القاسم ابن النحاس ، وأخذ الحديث عن أبى بحر الأسدى ، وأبى بكر بن العربى ، وأبى جعفر بن جحدر ، وأبى الحسن بن واجب وغيرهم .

مولده : ببيّاسة سنة أربع وقيل ست وثمانين وأربعماية .

وفاته : توفى بشاطِبة ، تسع وستين وخمسماية .

تواليفه

شرح المُدوَّنة مسئلة مسئلة ، بكتاب كبير سماه « الجامع البسيط وبغية الطالب النشيط » حشد فيه أقوال الفقهاء ، ورجح بعضها ، واحتُج له . قالوا ، وتوفى قبل إكماله .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (مرجا) . ونعتقد أن التصويب أرجح .

(٢) بياسى أى من أهل مدينة بياسة و بالإسبانية Baeza . وقد سبق التعريف بها (راجع المجلد الثالث من الاحاطة ص ٢٣١ و ٤٠٤ حاشية) .

(٣) باغة و بالإسبانية Priego سبق التعريف بها (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٥٠٩ حاشية والمجلد الثالث ص ٥٢٧ حاشية) .

221

عِياض بن محمد بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي

من أهل سَبْتَة ، حفيد القاضى العالم أبى الفضل ، يكنى أبا الفضل .

حاله

من « الصِّلة » : كان من جلة الطلبة ، وذوى المشاركة فى فنون من العلوم العقلية وغيرها ، فصيحا ، شاعرا ، لسِنا ، مُفوَّها ، مِقداما ، موصوفا بجزالة وحدَّة ، امتُحن بسببها . وكان مع ذلك كثير التَّواضع ، فاضل الأخلاق، سريًّا ، مُشاركا ، معظَّما عند الملوك ، مُشارا إليه ، جليل القدر . حضر الأندلس أيام قضاء أبيه بغرناطة ، وغير ذلك الوقت ، وجال فيها ، وأخذ بقرطبة وإشبيلية وغيرهما ، واستقر أخيرا بمالَقة ، وتأثَّل بها وبجهاتها أُصول أملاك إلى ما كان له .

مشيخته

روى عن أبيه أبى عبد الله ، وعن أبى محمد بن عبد الله ، وأبى بكر ابن الحدَّاد القاضى بسبتة ، وأبى القاسم بن بَشْكُوال ، وابن حُبَيْش ، وابن حُمَيد ، وأبى بكر بن بِيبش الشَّلطِيشى وغيرهم.

من روى عنه : قال الأُستاذ ، روى عنه جماعة ممن أخذت عنهم ، منهم ابنه أبو عبد الله قاضى الجماعة ، وأبو العباس بن فُرتون ، أخذ عنه كثيرا بمدينة فاس .

مولده

قال صاحب « الذيل » . سأَلته عن مولده : فقال ولدت فى اليوم التاسع عشر من محرم عام واحد وستين وخمسماية بمدينة سبتة .

وفاته : توفى فى العشر الوسط من جمادى الآخرة عام ثلاثين وستماية بمالقة . وروضته بها فى جنَّة كانت له بربَضِها الشرقى . رحمه الله.

عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض ابن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبى

القاضى الإمام المجتهد ، يكنى أبا الفضل،سَبْتى الدّار والميلاد ، أندلسى الأصل ، بَسْطيه [1] .

أوليته

من كتاب ولده فى مآثره ، وهو كنّاش نبيه ، قال ، استقرّ أجدادنا فى القدم بالأندلس بجهة بسطة ، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس . وكان لهم استقرار فى القَيْروان ، لا أدرى قبل حلولهم بالأندلس أو بعد ذلك . وكان عمرون رجلا خَيارا من أهل القرآن ، وحجّ إحدى عشرة حجة ، وغزا مع ابن أبى عامر غزوات كثيرة . وانتقل إلى سَبْتة بعد سكنى فاس . وكان موسِرا ، فاشترى بها من جملة ما اشتراه الأرض المعروفة بالمنارة ، فبنى فى بعضها مسجدا ، وفى بعضها دِيارا حبسها عليه ، وهو الآن منسوب إليه ، ووُلد له ابنه عياض ،ثم ولد لعياض ابنه موسى ثم ولد لموسى القاضى أبو الفضل المترجم به .

حاله

قال ولده فى تأليفه النبيل : نشأ على عفّة وصيانة ، مرضى الخلال ، محمود الأقوال والأفعال ، موصوفا بالنُّبل والفهم والحذق ، طالبا للعلم ، حريصا عليه ، إلى أن برع فى زمانه ، وساد جملة أقرانه ، فكان من حُفاظ كتاب الله ، مع القراءة الحسنة ، والنَّغمة العَذْبة ، والصوت الجهير . والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه . وكان من أيمة الحديث فى وقته ، أصوليا متكلما ، فقيها حافظا للمسايل ، عاقدا للشروط ، بصيرا بالأحكام ، نحويا ، ريّان من الأدب ، شاعرا مجيدا ، كاتبا غالبا

(١) بسطيه نسبة إلى مدينة بسطة،وبالإسبانية Baza . وقد سبق التعريف بها (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ١٠٩ حاشية) .

بليغا ، خطيبا ، حافظا للغة والأخبار والتواريخ ، حسن المجلس ، نبيل النادرة ، حلو الدُّعابة ، صبورا ، حليما ، جميل العشرة جوادا ، سَمْحا ، كثير الصَّدقة دروبا[1] على العمل ، صَلبا فى الحق .

رحلته وولايته

ومنشأُ أمره . رحل إلى الأندلس سنة سبع وخمساية ، فأخذ بقرطبة ومرسية وغيرهما ، ثم عاد إلى سبتة ، فأجلسه أهلها للمناظرة عليه فى « المُدوَّنة » ، وهو ابن ثلاثين سنة أو ينيف عليها . ثم جلس للشُّورى . ثم ولِّى القضاء ، فسار فى ذلك حسن السِّيرة مشكور الطريقة . وبنى الزيادة الغربية فى الجامع الأعظم . وبنى بجبل الميناء الرابية الشهيرة ، وعظُم صيته . ثم نُقل إلى غرناطة فى أول صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسماية ، فتقلَّد خُطَّة القضاء بها . ثم وُلى قضاء سبتة ثانية . ولما ظهر أمر الموحِّدين بادر بالمسابقة إلى الدخول فى طاعتهم ، ورحل إلى لقاء أميرهم بمدينة سَلا ، فأجزل صلته ، وأوجب بِرَّه ، إلى أن اضطربت أمور الموحدين عام ثلاثة وأربعين وخمسماية ، وحدث على من كان بقصبتها منهم ما هو معلوم من التغلب عليهم واستئصالهم ، ثم من رجوع أمورهم ، فالتَّاثت حاله ، ولحق بمراكش مُشَرَّدا به عن وطنه ، فكانت بها وفاته .

مشيخته

ورتبهم ولده حسبما نقل من فهرسته على الحروف . فمنهم أحمد بن محمد بن بقى ، وأحمد بن سعيد بن مستقر ،وأحمد بن محمد بن مكحول ، وأحمد بن محمد السِّلفى ، الشيخ أبو الطاهر ، وأحمد بن محمد بن غَلْبون

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (كروبا) .

ابن الحصّار ، وأحمد بن محمد بن عبد العزيز المرحى ، إلى غيرهم من جملة سبعة عشر رجلا ، والحسن بن محمد الصِّدفى بن سُكَّرة ، والحسين بن محمد الغسانى ، والحسين بن عبد الأعلى السفاقسى ، والحسن ابن على بن طريف ، وخلف بن إبراهيم بن النحاس ، وخلف بن خلف الأنصارى ابن الأنقر ، وخلف بن يوسف بن فُرْتون ، ومحمد بن عيسى التجيبى القاضى ، ومحمد بن على بن حمدين القاضى ، ومحمد بن أحمد التجيبى القرطبى القاضى ابن الحاج . ومحمد بن أحمد بن رشد ، ومحمد بن سليمن النِّفْزِى ابن أخت غانم . وأجازه محمد بن الوليد الطُّرطوشى ، ومحمد بن على بن عمر المازَرِى ، ومحمد بن عبد الله المعافرى القاضى ابن العربى ، ومحمد بن عبد الرحمن بن شِبرين القاضى ، ومحمد ابن على الأزدى الخطيب الطُّليطلى ، ومحمد بن على الشاطبى ابن الصقيل ، إلى غيرهم من جملة أحد وثلاثين شيخا . وعبد الله بن محمد الخشنى ، وعبد الله بن محمد بن السِّيد البطليوسى ، وعبد الله بن محمد بن أيوب الفهرى ، وعبد الرحمن بن محمد السبتى ابن العجوز ، وعبد الرحمن ابن محمد بن بقى ، وعلى بن أحمد الأنصارى ابن الباذش ، وعلى بن عبد الرحمن التجيبى ابن الأخضر من جملة من سبعة وعشرين . وغالب ابن عطيه المحاربى ، وسِراج بن عبد الملك بن سراج أبو الحسن ، وسفيان ابن العاصى الأسَدى ، من جملة خمسة من الأشياخ فى هذا الحرف . وشُريح بن محمد الرعينى الإشبيلى ، وهشام بن أحمد القرطبى أبو الوليد ابن العواد ، وهشام بن أحمد الهلالى الغرناطى ، ويونس بن محمد بن مغيث ابن الصفار ، ويوسف بن موسى الكلبى ، سمع منه أرجوزته ، ويوسف ابن عبد العزيز بن عتريس الطليطلى .

شعره

قال ، مما كتبته من خطّه :

أعوذ بربّى من شرّ مـا ... يخاف من الإنس والجِنّة
وأسئله(١) رحمة تقتضى ... عوارف توصّل بالجَنّة
فما للخلان من نـاره ... سوى فضل رحماه من جنّة

ومن شعره ، قال أنشدنيه غير واحد من أصحابنا ، فوارحمة الله عليه :

أذاتِ الخلال كم ذا تنتضيها ... على سيوف عينيك انتضاه
بمطلك لى مواعدَ أقتضيها ... من التّوريدو اللّمس اقتضاه
فقضّى وعد مَطْلك وانجزيه ... خيارُ الناس أحسنهم قضاة

قال ، ومما كتبته من خطه :

يا من تحمّل عنى غير مكترث ... لكنه للضّنى والسّقم أوصاب
تركتنى مستهامَ القلب ذا خـوف أخا جوًى وتباريح وأوصاب
أراقب النّجم فى جَنح(٢) الدُّجا وَلِهاً ... كأنّى راصدٌ للنجم أوصـاب
وما وجدت لذيذ النوم بعدكم ... إلاّ جِنَى حنظل فى الطعم أو صاب

ومن ذلك قوله رحمه الله :

الله يعلم أنى منذ لم أركـم ... كطاير خانه ريشُ الجَناحين
فلو قَدرْتُ ركبت الرِيح نحوكم ... فإنّ بُعدكم عنى جَنا حـين

قال ، وكتبت من خطّه :

يا راحلين وبالفؤاد تحمّلـوا ... أترى لكم قبل الممات قُفُول
أمّا الفؤاد فعندكم أنبـاؤه ... ولواعج تَنْتـابه وغَليـل

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (واسلك) والأولى أرجح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ليل) .

فترى لكم عِلْمٌ بمنتزَح الكرى   عن جَفْنِ صبٍّ ليله موصول
أودى بعزّته صبرُه وإبـــائُه   طرفٌ أصمٌّ ومِبْسم مصقول
ما ضرّكم وأضَنّكم بتحية   يحيي بها عند الوداع قَتيـل
إن الخليل[1] بلحظه أو لفظه   أو عطفه أو وقفه لبخيـــل

ومما نسبه إليه الفتح وغيره ، ومن العجب إغفال ولده إياه ، قوله يصف الزّرع والشقائق فيه :

أنظـر إلى الزّرع وخاماتـــه   تحكي وقد ماسَتْ أمام الرياح
[كتيبةٌ خضراء][2] مهزومة   شقائقُ النّعمان فيها جِراح

نثره

وهو كثير . فمن خُطَبِه ، وكان لا يخطب إلا بإنشايه :

الحمد لله الذى سبق كل شيء قِدَما ، ووسع كل شيء رحمة وعلما ونِعَمًا ، وهدى أولياءه ، طريقا نَهْجاً أمما ، وأنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عِوَجًا قيِّما ، لينذر بأْساً شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيه أبدا . أحمده على مواهبه ، وهو أحقُّ من حُمد ، وأسأله أن يجعلنا أجْمَع ، ممن حَظِى برضاه وسَعُد ، وأستعينه على طاعته ، فهو أعزُّ من استُعين واستُنجد ، واستَهديه توفيقا ، فإنّ من يهد الله فهو المهتَدِ ، ومن يُضْلل فلن تجد له وليـاً مرشدا ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده ، لا شريك له ، شهادة فاتِحةً لأقْفال قلوبنا ، راجحة بأثْقال ذنوبنا . متنزّهة له عن التّشبّيه والتمثيل

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (التجيل) والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والزيتونة . ووردت فى قلائد العقيان كالآتى (كتائبا تجفل) .

بنا ، وأنه تعالى جدُّ ربنّا ما اتخذ صاحبةً ولا ولدا . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أنزْل عليه الفُرقان ، وبعثه بالهُدى والإيمان ، وأغزى بدعوته دعوة أولياء الشيطان ، وأبعدهم مقاعد عن السمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا .

أيها السامع ، قد أيقظك صرفُ القدر من سِنَة الهوى وتيّاراته ، ووعظك كتاب الله بزواجره وعِظاته ، فتأمّل حدوده . وتدبّر مُحْكم آياته ، واتلُ ما أوحى إليك من كتاب ربِّك لامبدِّل لكلماته، ولن تجد من دونه مُلْتَحدا . أين الذين عَتَوْا على الله ، وتعظَّموا واستطالوا على عباده وتحكَّموا ، وظنُّوا أنه لن يقدر عليهم حتى اصطلموا . وتلك القُرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا . غرّهم الأَمل وكواذب الظُّنون ، وذَهِلوا عن طوارق القَبْر [1] وريْب المَنون . وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . حتى إذا رأوا ما يوعدون ، فسيعلمون من أَضعَفُ ناصراً وأقل عدداً . فهذِّبوا رحمكم الله سِرار كم بتقوى الله واخلصوا ، واشكروا نعمته ، وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها ، واحذروا نقمته واتقوه . ولا تعصوا ، واعتبروا بوعيده . قل كلٌ متربص فتربّصوا فستعلمون مَنْ أصحاب الصراط السَّوى ومَنْ اهتدى وانهضوا لطاعته الهمم العاجزة ، واركُضُوا فى ميدان التَّقوى ، وحُوزوا دصب خَصله العابرة [2] ، وادخروا ما يخلصكم يوم المحاسبة والمناجزه ، وانتظروا قوله ، يوم نسير الجبال وتَرى الأَرض بارزة ، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ، ذلك يوم تَذهل فيه الأَلباب ، وتَرجُف القلوب رجفا ، وتُبَدَّل الأَرض وُتنْسَف الجبال نَسْفاً ، ولا يقبل الله فيء

---

(١) وردت فى الإسكوريال (القبر) ، وفى الزيتونة (العين) . ونعتقد ان التصويب انسب السياق .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الفايدة) .

من الظالمين عدْلا ولاصَرْفا . ونحشر المجرمين يومئذ زرْقاً،وعُرضوا على ربِّك صفًّا ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أنْ لن نجعل لكم موعدا ، اللهم انفعنابالكتاب والحكمة ، وارحمنا بالهداية والعصمة ، وأوْزِعنا شكر ما أوليت من النِّعمة . ربنا آتنا من لدُنْك رحمة ، وهيِّئ لنا من أمرنا رَشَدا .

تواليفه

مماأكمله وقُرِئَعليه كتاب « الشفابتعريف حقوق المصطفى » ستة أجزاء، وكتاب « إكمال المعلم فى شرح مُسلم » تسعة وعشرون جزءاً . وكتاب «المُسْتَنبطة على الكتب المدوَّنة والمختلطة» عشرة أجزاء. وكتاب «ترتيب المدارك وتَقْريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» خمسة أسفار ، ولم يسمعه . وكتاب « الإعلام بحدود قواعد الإسلام » . وكتاب «الإلماع فى فى ضَبط الرواية وتَقْيِيد السماع » سفر . وكتاب « الرَّايد لما تَضمنه حديث أمْ زَرْع من الفوايد» . وكتاب خُطَبه سفر . وكتاب المعجم فى شيوخ أبى سُكَّرة . وكتاب الغُنْية فى شيوخه ، جزء . ومما تركه فى المُبيضة كتاب «مشارق الأنوار على صحيح الآثار» ستة أجزاء ضخمة ، وهو كتاب جليل . وفيه يقول الشاعر :

مشارق أنوار تبدَّت بسَبْتـــة   ومن عجب كَوْن المشارق بالغرب

وكتاب « نظم البرهان على صِحَّة جَزْم الأذان » جزء . وكتاب «مسئلة الأهل المشترط بينهم التزاور» جزء . ومما لم يكمله « المقاصد الحِسان فيما يلزم الإنسان » . وكتاب «الفُنُون الستَّة فى أخبار سَبْتة » . وكتاب «غُنْية الكاتب وبُغية الطالب» فى الصدور والتَّرسيل. وكتاب «الأجوبة المحبَّرة على الأسئلة المتخيَّرة » وجدت منها يسيراً فضَممته إلى ما وجدته فى بطاقة،

وعند أصحابه . يقول هذا ولده من معان شاذة فى أنواع شتى سئل عنها رحمة الله عليه . فأجاب جمعت ذلك فى جزء . وكتاب أجوبة القرطبيين وجدتها بطابق ، فجمعتها مع أجوبة غيرهم . وأجوبته مما نزل فى أيام قضايه ، من نوازل الأحكام فى سفر، وكتاب «سر السُّراة فى أدب القضاة» .

نبذ من أخباره

وأولا فى ثناء الأعلام عليه . قال ولده ، أخبرنى ابن عمى الزاهد ، أن القاضى أبا عبد الله بن حَمْدين كان يقول له وقت رحلته إليه ، وحتى ياأبا الفضل إن كنت تركت (١) بالمغرب مثلك . وقال ، وأخبرنى أن أبا الحسين بن سراج قال له ، وقد أراد الرحلة إلى بعض الأشياخ ، فهو أحوج إليك منك إليه ، وقال إن الفقية أبا محمد بن أبى جعفر قال له ، ما وصل إلينا من المغرب مثل عياض . وأمثال ذلك كثير، ومن دُعابته ، قال بعض أصحابنا صنعت أبياتا تغزلت فيها ، والتفت إلى أبيك رضى الله عنه ثم اجتمع بى ، فاستنشدنى إياها ، فوجمْت ، فعزم على فأنشدت :

أيامكثرا صدًى ولم آت جَفوة — وما أنا عن فعل الجفاء براض
سأشكو الذى تُوليه من سوء عشرة — إلى حَكَم الدنيا وأعدل قاض
ولا حَكَم بينك أرتضى قضاياه — فى الدينا سوى ابن عيــــاض

قال فلما فرغت حسّن، وقال متى عرفتنى قوادا يافلان ، على طريق المداعبة . وأخباره حسنة وفضايله جمة .

مولده : بِسبتة حسبما نقل من خطّه فى النصف من شعبان عام سنة وسبعين وأربعماية .

(١) هذه الكلمة واردة بالزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

وفاته : توفى بمراكش ليلة الجمعة نصف الليلة التاسعة من جمادى الآخرة من عام أربعة وأربعين وخمسماية. ودفن بها فى باب إيلان من داخل السُور .

عقيل بن عطية بن أبى أحمد جعفر بن محمد بن عطية القضاعى

من أهل طُرْطُوشة ، يكنى أبا المجد

حاله

كان فقيها متطرِّفا فى فنون من العلم ، متقنا لما يتناوله من ذلك ، حسن التهدِّى ، من بيت طَلَب . وقد تقدم ذكر جده الأُستاذ . وُلِّى عقيل قضاء غرناطة وسجلماسة .

مشيخته

روى عن أبى القاسم بن بَشْكُوال . قرأ عليه وسمع ، وتناول من يده، وأجازله . وقفت على ذلك بخطه .

شعره

أنشد له فى «الذيل»[1] قوله ، مما نظمه لجماعة من السَّادة :

ملوك دون بابكم وقُــوف ... سَطَتْ بهم الحوادث والصُّروف
أذلَّهم الزمان وكان قِـدْماً ... لهم راع وحولهم يطوف
غدوا عِبَراً لمعْتَبر فَسُحْقاً ... لدنيا أمرها أمـر سخيف
وطال وحقِّ مجدك ما تبدوا ... وحولهم الغواضب والسيوف
أسود يُقْدِمون أسود حـرب ... وخلفهم العساكر والصَّفوف

---

(١) المقصود به كتاب « الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » للقاضى ابن عبد الملك المراكشى

أتى بهم الزمان إليك قصدا | حَيارى فيه يُعجزهم رغيف
فَعَطْفاً أيها المـــولى عليهم | وقاك السوء باريك اللطيف
فرحمةُ سيِّد قد ذُل فــرضٌ | يقول به النَّبى الهادىالشريف
وما يرعى الكرام سوى كريم | وأنت الماجد النَّدى العَطُوف

تواليفه

قال الأُستاذ ، وقفت على تأليف سماه «فصل المقال فى الموازنة بين الأعمال» تكلم فيه مع أبى عبد الله الحُمَيدى ، وشيخه أبى محمد بن حزم ، فأجاد فيه وأحسن ، وأتى بكل بديع . وشرح المقامات الحريرية .

وفاته : فى صفر سنة ثمان وستماية .

ومن الكتاب والشعراء

عاصم بن زيد بن يحيى بن حنظلة بن علقمة بن عدى ابن محمد التميمى ثم العبادى الجاهلى

يكنى أبا المخشبى من أهل إلبيرة .

حاله

كان شاعرا مُجيدا ، شهير المكان ، بعيد الصِّيت ، على عهده . قال أبو القاسم ، كان من أعلام الجند ومقدميهم . وقال الرَّازى، دخل والده زيد بن يحيى من المشرق إلى الأندلس ، واختط بكورة جُنْد دمشق ، وشُهر ابنه عاصم هذا بالشِّعر ، إذ كان غزير القول ، حسن المعانى ، كثير النادر ، سَبْط اللفظ ، فاغتدى شاعر الأندلس ، ومادح بنى أمية ، المخلِّف فيهم قوافى الشعر المديح الشاردة ، وقد كان فى لسانه بَذاءة زايدة ، يتسرع به إلى من لم يوافقه من الناس . فيقْذع هجوهم ، ويقْذف نساءهم ويَهْتِك حُرَمهم . وكان أفّاكا نهابا ، لا يعدم متظلِّما منه ، وداعيا عليه ،

وذاكراً له بالسوء ، وهو مستهزئ بذلك جارٍ على غلوَائه .

محنته

قال ، وكان مع ذلك منقطعا إلى سليمن بن الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، كثير المدح له . على أنه ما أخلى الأمير هشاما من مدحه ، وهو مع ذلك لا يَسْلُ سخيمته وحقده عليه ، لانحطاطه فى شُعَب سليمن أخيه ، وبينهما من التنافس والمشاحة ، مالاشيىء فوقه . ورُوى أن الذى هاج غضب هشام عليه ، أن قال له الساعى عليه ، قد عرَّض بك بقوله فى مديح أخيك سليمن فى شعر له فيه منه :

وليسوا مثل من بان سيل عرفا ... يقلب مقلة فيها أعونه

وكان هشام أحول ، فاغتاظ لذلك . وركب فيه من المثْلة وركبه ، وحقد عليه ، إلى أن استدعاه إلى مدينة ماردة ، وهشام يومئذ واليها فى حياة الأمير أبيه ، فخرج إليه أبو المخشبى من قرطبة ، طامعا فى نايله ، غير مرتاب بباطنه ، فلما دخل عليه قال له ياأبا المخشبى ، إن المرأة الصالحة التى هَجَوْت ابنها فقذفتها ، فافحشتَ سبَّها ، قد أخلصت دعاها لله فى أن ينتقم لها منك ، فاستجاب لها ، وسلَّطنى وتأذَّن بالاقتصاص لها على يدى منك ، ثم أمر به فقُطع لسانه ، وسُمِلت عيناه ، وعولج من جراحه ، فاستقل منها ، وعاش زمنا مُمَثَّلا به . فأما لسانه فانجبر بعيد وقت إلا قليلا ، واقتدر على الكلام إلا تَلَعثما كان يعترضه ، واستمر العَمَى ، فعظُم عليه مصابه ، فكثرت فى شكواه أشعاره ، قال ، ويذكر أن قصة أبى المخشبى فى نبات لسانه ، لما بلغت مالك بن أنس ، أشار

إليها فى فتواه فى التأنِّى بديَّة اللسان طمعا فى نبتها ، وقال يُتأَنَّى بالحكم عاما ، فإن نَبَتَ أو شيىء منه ، عُمل فى ديته بحسب ذلك ، فقد بلغنى أن رجلا بالأندلس نبت لسانه أو أكثره بعد ما قطع ، فأمكنه الكلام .

شعره

قالوا وبلغ الأمير [عبد الرحمن] (١) بن معاوية صنيع ابنه هشام بمادحهم أبى المخشبى ، فساءه وكتب إليه يعنفه ، وأوصل أبا المخشبى إليه عند استيلائه بعد حين ، فاعتذر إليه ورقَّ له ، وأنشده بعض ما أحدثه بعد ، فكان لا يبين الإنشاد ، فينشد له صبى كان قد علَّمه ودرَّبه ، فأنشده قصيدته التى وصف فيها عَمَاه وأولها :

خَضَعتْ أم بناتى للعدا ... إذ قضى الله بأمر فمضا
ورأت أعمى ضريرا إنما ... مَشْيُه فى الأرض لَمسٌ بالعصا
فبكت وجْداً وقالت قولةً ... وهى حدا حلَّقت منى المدا
ففؤادى فرِحٌ من قولها ... ما من الأدواء أس العما
وإذا نال العَمى ذا بصرٍ ... كان حيًّا مثل مَيْت قد نعا
وكان للناعم المسرور لم يك ... مسرورا إذا لاقى الردَّا
عانى بالقرب وهنا طرب ... بيِّن لجٌّ فى الحِما
. . . . (٢) ... كيف يعتاد الصِّبا من لا يرا
أبصرت مستبدلا من طرفه ... فأنذا يسعى به حيث سعا
بالعَصا إن لم يَقُدْه فإنه ... وسؤال الناس يمشى إن مشا

(١) هذا الاسم ساقط فى الإسكوريال ، وبإضافته يستقيم السياق .
(٢) بياض فى الإسكوريال .

وإذا ركب دَنــوا كأنَّ لهم ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ هو حملاً فى المهمة الخِراف الصُّوا
لم يزل فى كل مُخْشِى الرَّدى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ يصطلى الحرب ويَجْتاب الدُّجا
امتَطَيْناها سمانا بدنــــاً ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فتركناها نضـاءً بالفَنَـــا
وذُرَيّى قد تجاورت بهـــا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ مُهِمَّها فَقِراً إلى أهل النَّـدا
قاصداً خير مُنافٍ كلهـــا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ومنافٍ خيرُ من فوق الثَّـرا

وهى طويلة ، ومن شعره فى الوقيعة بأبى الأسود الفهرى (1) ، وكانت عظيمة من أعظم فتوحات الأمير عبد الرحمن :

ماذا تُسايل عن مواقع مَعْشـر ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ أودى بهم طلب الذى لم يقدر
رَشِد الخليفة إذ غَزُوا فرماهم ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ بالموبذى بالحزم والمتأزِّر
فغلبنا سليمن السَّماح عليـهم ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ كالليث لا يلوى على مُتَعذِّر
عـاداهم متقنعـا فى مأْزق ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فى الموت من نجس العوارض الممطر
أما سليمن السماح فإنه جَـلى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ الدُّجا وأقبام سيل الأَصْعَـر
وهو الذى وَرِثَ النَّدى أهل النَّدى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ومحا دُجْنَة يوم وادى الأحمر
بعد القتلى بالمخايض أصبحت ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ جِيفًا تلوح عظامها لم تُقْبـر
فالليل فيها للذباب عرايـسٌ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ونهارُها وقفٌ لنهش الأَنْسُـر
أفنـاهم سيفٌ مُبيرٌ صـارم ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فى قَسْطلونة وبل بوادى الأحمر
هات عنك ما هربت مخافةً منه ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فقَعْ يا ابن اللَّقيطة أو طِـرِ

---

(١) هو محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى آخر ولاة الأندلس . وكان عبد الرحمن الأموى (الداخل) قد حارب يوسف وانتهى الأمر بهزيمته ومقتله (١٤٢ هـ) ففر ولداه أبو القاسم ، ومحمد الملقب بأبى الأسود ، ولبث عبد الرحمن يطاردهما وهما يحشدان الجند والثوار لقتاله . وفر أبو الأسود إلى طليطلة وتحصن بها فطارده عبد الرحمن . ففر مع انصاره الى قورية فلحق به عبد الرحمن ونشبت بينهما معركة انتهت بتمزيق قوات أبى الأسود وفراره (سنة ١٦٩ هـ) وهى الواقعة التى يشير إليها الشاعر فى قصيدته . وتوفى أبو الأسود بعد ذلك بقليل فى إحدى قرى طليطلة .

وفاته

قال ابن حيان ، قرأت بخطّ عبادة الشاعر ، قال عمّر أبو المخشبى بعد محنته الشنعاء حتى لحق دولة الأمير عبد الرحمن ، فوالى بين مديح أربعة أمراء ، ما بينه وبين جدّه عبد الرحمن بن معاوية الأمير الداخل . وتوفى بعد ذلك قريبا من تاريخ الثمانين والماية[1] . وبعُد عليه لحاق دولة الأمير عبد الرحمن لهذا التاريخ .

ومن الأصليين من ترجمة المحدثين والفقهاء والطلبة النجباء

عيسى بن محمد بن أبى عبد الله بن أبى زمنين المرّى

يكنى أبا الأصبغ من أهل البيرة .

حاله

نبيه القدر . وروى عن شيوخ بلده .

وفاته : توفى بعد الأربعمائة . قلت فد اعتذرت ، وتقدم الاعتذار فى إثبات من أثبته من هذا البيت فى هذا الاختصار من هذا النمط . فلينظر هنا لك إن شاء الله.

عيسى بن محمد بن عيسى بن عمر بن سعادة الأموى

لَوْشى الأصل ، غرناطى الاستيطان والقراءة ، يكنى أبا موسى ، الشيخ الطبيب بالدار السلطانية .

---

(١) فى هذه العبارة الأخيرة بعض الغموض فيما يتعلق بالتواريخ . ذلك أنه إذا كان عاصم بن زيد المترجم له قد توفى فى حدود سنة ١٨٠ هـ وذلك حسبما يقول لنا ابن حيان ، فانه بذلك لم يلحق سوى دولتى عبد الرحمن بن معاوية الداخل المتوفى سنة ١٧٢ هـ . ودولة ولده هشام الذى حكم من سنة ١٧٢ الى سنة ١٨١ هـ ، أما دولة الحكم بن هشام . فقد كانت من سنة ١٨٠ الى سنة ٢٠٦ هـ ، ودولة ولده عبد الرحمن كانت من سنة ٢٠٦ إلى ٢٣٨ هـ .

حاله

من « عايد الصلة » ، بقية أهل العلم ، ونسيج وحده في لين الجانب ، وخفض الجناح ، وحسن الخلق . وبذل التواضع ، ممتع من معارف قديمة ، بين طلب وتعليم ، على حال تدين والتزام سُنّة ، أقرأ الطِّب ، وخدم به الدار السلطانية ، وولّى القضاء بلَوْشَة بلده .

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي عبد الله الرّقوطى المُرْسى ولازمه ، وأخذ عن أبي الحجاج بن خلصون ، وأدرك أئمّة من صدور العلماء .

تواليفه

له تأليف كبير متعدد الأسفار سماه كتاب « القفل والمفتاح في علاج الجسوم والأرواح » ، تضمن كثيراً من العلم الطبى ، وما يتعلق به ، رأيت أجزاءً من مسودته بيد ولده .

وفاته : توفى بغرناطة ليلة السبت الخامس عشر لجمادى الآخرة عام ثمانية وعشرين وسبعماية .

حرف الغين من الأعيان

غالب بن أبي بكر الحضرى

من أهل غرناطة يكنى أبا تمام ، ويعرف بابن الأشقر .

حاله

كان قايدا جَزْلا مهيبا ، مليح التجنّد ، معروف الدُّربة والثقافة ، مشهور الفروسية ، ظريف الشكل ، رايق الرّكبة ، حسن الشّيبة ، صَليب العود ، مرهوب السطوة ، وُلى قيادة العسكر زمانا طويلا ، فوقع الإجماع على

اهليته لذلك ، تمييزا للطبقات ، وانتهاضا بالخدمة ، وإنفاذا للعزمة ، ومعرفة بالعوايد ، واقتداراً على السهر فى تفقُّد المسالح ، واختبار المراصد ، واختيار الحرس ، وتنظيم المصاف ، وإمساك السِّيقة ممن يرجع إلى حصيف رأيه ، ويُركن إلى يُمن حَنَكته ، ويعترف بحقه . لقى الجند منه ضغطا لاضطِّلاعه باستخدامهم ، وجعل العقاب من وراء تقصيرهم . فقد كان بعض نُقَبائه يحمل معه مِقصًا لإيقاع المُثلة بذقون مضيِّعى المسلحة أو مُتَهيِّبى المَلْحمة . ولما أوقع بالسلطان أمير المسلمين أبى الوليد قرابته بباب داره بما هو مشهور ، نُمى عنه أنه اخترط سيفه . وكان ممن أثخن الوزير يومئذ جراحة [لا يعلم][1] ، أحيرةً وغلطاً أم تواطأً وقصداً ، فقد كان من مَرَج الناس يومئذ؛ وإعمال بعضهم السلاح فى بعض ما هو معلوم ، فعزل عن الخُطَّة ، وسِم خطة الخمول ، ففقد مكانه من العنا ، واضطر إليه .

وفاته

توفى بغرناطة عشية يوم الخميس الثانى والعشرين لشوال عام سبعة وعشرين وسبعماية ، ودفن قرب باب إلبيرة .

ومن المقربين

غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن خفاف بن أسلم بن مكتوم المحاربى أبو بكر

حاله

(١) الزيادة من الزيتونة . وبها يستقيم السياق .

كان من أهل العلم والعمل ، مُقريا فاضلا ، راوية ، حجّ وروى . وكفّ بصره فى آخر عمره .

مشيخته

قرأ القرآن بالسّبع على أبى الحسن بن عبد الله الحضرمى ، ودرس الفقه وناظر فيه ، على سعيد بن خلف بن جعفر الكنانى . وروى عن أبى على الغسانى ، وعن أبيه عبد الرحمن بن غالب ، وأبى عمر بن عبد البر الإمام الحافظ .

من روى عنه : حدّث عنه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبى الخصال ، وأبو عبد الله بن عبد الرحيم القاضى ، وعبد الله بن طلحة بن أحمد ابن عطية .

شعره

قال يحذر من أبناء الزمن :

كن بذى صايد مستأنسا ... وإذا أبصرت إنسانا ففر
إنما الإنسىّ بحرٌ ماله ... ساحل فاحذره إياك الغُرر
واجعل الناس كشخص واحد ... ثم كن من ذاك الشخص حَذِر

وله رحمه الله :

كيف السّلو ولى حبيب هاجر ... قاسِى الفؤاد يسُومنى تعذيبا
لما درى أن الخيال مواصلى ... جعل السّهاد على الجفون رقيبا

مولده : ولد سنة إحدى وأربعين وأربعمائة .

توفى ليلة الجمعة لستٍّ بقين من جمادى الآخرة سنة ثمانى عشر وخمسماية.

غالب بن حسن بن غالب بن حسن بن أحمد بن يحيى ابن سيدبونه الخزاعى

يكنى أبا تمام .

أوّليّته وحاله

أصل سلفه من بونه[1] من بلد إفريقية ، واستوطن جده بالأندلس قرية زنيتة من وادى لستة شرقى الأندلس من عمل قسنطانية[2] ، وملك فيها أموالا عريضة . ولما ظهر سِبْطه ولى الله أبو أحمد شيخ المريدين بذلك الصقع ، وظهرت عليه البركات . وشهدت بولايته الكرامات ، غمرتهم بركته ، ونوّهت[3] بهم شهرته ، إلى أن استولى العدو على تلك الجهات ، بعد وفاة الشيخ رضى الله عنه ، فهاجرت ذريته إلى غرناطة ، بعد استيطانهم مدينة ألش[4] ، وبنوا بالرّبَض المعروف بربض البيّازين[5] واقتطعوا وامتطوا ، واتخذوا دار إقامة ، وانتشرت به نحلتهم الإرادية ، وانضم إليهم مَنْ تَبِعهم من جالية أهل الشرق ، وتقدم هذا الشيخ بعد ، شيخا ويُحْسوباً وقاضيا وخطيبا به ، بعد خاله رحمه الله ، فقام بالأعباء ، سالكا سُنَن الصالحين من أهل الجَلَد والجدّة والقوة والرجولة ، من الإيثار والمثابرة على الرباط ، والحفُوف إلى الجهاد ، وكان مليح الشّيبة ؛

---

(١) بونه هى ثغر إفريقى يقع على شاطئ البحر المتوسط فى منتصف المسافة بين تونس وبجاية وكان أيام الدولة الحفصية من ثغور مملكة تونس . وهو الآن من ثغور جمهورية الجزائر الديمقراطية ويسمى الآن عنابة اشتقاقا من اسمه القديم (بلد العناب) .

(٢) قسنطانية وبالإسبانية Cocentaina بلدة صغيرة من أعمال شرق الأندلس تقع غربى ثغر دانية وجنوبى مدينة شاطبة .

(٣) وردت فى الإسكوريال (وتوهمت) والتصويب من الزيتونة .

(٤) ألش وبالاسبانيه Elche سبق التعريف بها(راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٥٤٩ حاشية) .

(٥) ربض البيازين وبالاسبانية Albaicin سبق التعريف به (راجع المجلد الأول ص ٣٨٧ حاشية) .

كثير التّخلق ، جم التواضع ، مألفا للغرباء ، مبذول البشر ، حسن المشاركة ، رافضا للتصَنُّع ، مختصر المطعم والملبس ، بقية من بقايا الجلّة ، معتمدا فى مجالس الملوك بالتّجلّة .

مشيخته

يحمل عن والده أبى على ، وعن خاله ، وعن الخطيب أبى الحسن ابن فضيلة وغيرهم .

تواليفه : له تأليف فى تحريم سماع اليراعة المسماة بالشّبابة ، وعلى ذلك درج جمهورهم .

مولده : فى ذى القعدة من عام ثلاثة وخمسين وستماية .

وفاته : توفى فى عاشر شوال من عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية . وكان الحفل فى جنازته يشِذُّ عن الوصف . ودفن بمقبرتهم [1] .

غالب بن على بن محمد اللخمى الشقورى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا تمام

حاله

كان من أهل الفضل والدّماثة ، حسن الخلق ، وسيم الخَلْق ، مليح الانطباع ، مستطرف الأغراض ، من بيت كَسْب وخيريّة . رحل فى شبيبته إلى المشرق ، فحجّ ، وقرأ الطب بالمارستان من القاهرة المُعِزّية ، وحذق العلاج على طريقة المشارقة ، وأطرف بكثير من أخبارهم ، وانتصب للمداواة ببجاية بعد مناظرة لها حكاية . وقدم على بلده ، فنَبُه به قدره ،

(١) أورد ابن الخطيب فى المجلد الأول من الإحاطة ترجمة لأحد أعلام هذه الأسرة وهو (جعفر ابن عبد الله بن محمد بن سيد بونه الخزاعى ، ص ٤٦١ — ٤٦٣) .

واستدعى إلى باب السلطان فخدم به ، ثم تحول إلى العُدْوة ، فاتصل بخدمة ملكها السلطان أمير المسلمين أبى سعيد ، مسوّغا ما شاء من قبول، ولَطُف محلُّه عنده ، لانطباعه ولين عريكته ، وتأنيه لما يوافق غرضه من سبيل الفكاهة ، ووُلِّى الحِسْبة بمدينة فاس ، وأثرى وحَسُنت حاله . وكان مثالا لأهل بلده ، موصوفا بالجود ، وبذل المشاركة لمتغرّبيهم .

وله تواليف طيِّبة ، كان لا يفترعن الاشتغال بها بحسب ما فتح له من الإدراك ، فمنها نبيل ووبيل . ولما انتقل الأمر إلى أمير المسلمين أبى الحسن ، وصل حَبْل رَعْيه ، طاويا بِساط الهزل فى شأنه ، واتصلت خدمته إياه إلى حين وفاته .

وفاته

توفى فى أوايل عام أحد وأربعين وسبعماية بسَبْتة ، عند حركة أميره المذكور إلى الجواز للأندلس برسم الجهاد، الذى مَحَصه الله فيه بالهزيمة الكبرى .

مولده ... (١)

حرف الفاء : الأعيان والكبراء

فرج بن اسمعيل بن يوسف بن نصر

الرئيس الجليل ، أبو سعيد ، وكان حقُّه أن يفرد له باب فى الأمراء، لكنه الأبواب المتعددة الأسماء ، نؤثر فيها الجمع والاختصار كما شرطنا .

أوّليته

(١) وردت بعد هذه الكلمة هذه العبارة فى الإسكوريال . (بياض فى الأصل المنتسخ منه) . وأغفلها الزيتونة .

معروفة . وكان والده [رحمه الله][1] صِنو أمير المسلمين الغالب بالله أبي عبد الله ، وآثره بمدينة مالَقة وما يرجع إليها ، عند تصيير الملك إليه أو بعده . وكان دونه فى السِّن ، فاستمرت أيامه بها إلى أن توفى رحمه الله ؛ وتصيَّر أمره إلى الرييس أبي محمد بن إشقَيْلولة ، وتخللت ذلك الفتن ، حسبما وقع الإلماع به [وتصيَّر أمرُها][2] إلى ملوك المغرب . ثم لما انجلت[3] الحال عن عودتها إلى الملك النَّصرى ، ولِّى عليها الرييس أبا سعيد ، ومكَّنه من ميراث سلفه بها ، وهو كما استجمع شبابه ، وعَقَد له على ابنته الحرة لُباب الملك ، فقام بأمرها خير قيام ، وثَبَت لزلزال الفتنة حسبما هو مذكور فى موضعه .

حـــاله

كان هذا الرييس نسيج وحده فى الحزم والجزالة وفخامة الأحوال ، مما يرجع إلى الفتية . ناغى السلطان ابن عمه فى اقتناء العقار ، وتخليد الآثار ، فيما يرجع إلى الفلاحة والاعتِمار والازدياد والاستكثار ، وأربى عليه بإنشاء المراكب الكبار ، فعظمت غلاَّته ، وضاقت المسارح عن سائمته ، وغُصت الأهراءُ بحبوبه ، وسالم الخرج دخل ماله ، فبَذَّ الملوك جِدَةً ويساراً ، تقتحم العين منه ظاهرا ساذجا ، غُفْلاً من الزينة والتصنُّع ، فى طيِّه ظَرْف وذكاءٌ وحَنَكة وحلاوة ، جهوريا ، مرسل عِنان النَّادرة ، باذلا النَّصفة ، مَهيب السَّطا ، خصيب المايدة ، شهير الجلالة ، بعيد الصيت . وُلِّى مالقة عام سبعة وسبعين وستمائة ، فعانى بها الشِّدة واللِّيان .

---

(١) الزيادة من الزيتونة .

(٢) هذه الزيادة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال . ووجودها ضرورى لاستقامة السياق .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (اجتلت) . والأولى أرجح .

حتى رسخت بها قدمه ، وطالت لأهلها صحبته ، وعظم بها قراره وعساكره ، وأينعت غرسانه ، ونمت متاجره ، ونبكّت النّعيم حاشيته ، وأضيفت إليه الجزيرة الخضراء ، فاتسعت العِمالة ، وانفسحت الخُطّة ، إلى أن كان من تغلبه على مدينة سَبْتة ، واستيلايه عليها ، مما وقع الإلماع به فى موضعه من هذا الكتاب، فى شهر شوال عام خمسة وسبعماية ، فساس رعيتها ، وتملك جبالها ، وشنّ الغارة على ما وراءها ، وتملّك القصر المضاف لها ، ولم يزل نظره عليها ، إلى أواخر ذى قعدة من عام ثمانية وسبعمائة ، فصُرف عنها ، وجُهل قدره ، وأوغر صدره ، وأوعز للولاة بالتضييق على حاشيته ، فدعا بمالقة إلى نفسه فى شهر شعبان من عام أحد عشر وسبعماية ، وقدّم لطلب الملك ولدَه إسماعيل ، وسمّاه السلطان . ورتّب له الألقاب ، ودوّن الدواوين ، فنزع إليه الجند ، وانضافت إلى عمالته الحصون . ثم وقعت المُهادنة ، وأعقبتها المُفاتنة ، وكان من أمره ما وقع التّنبيه على عيون منه فى ذكر ولده .

نكبته

ولما استأصلت القطيعة مُحْتجنه الراكد فى مغابن[1] الخزاين من لدن عام سبعة وسبعين وستماية ، واستَنْفدت عتاده المطاولة ، نظر لنفسه فوجّه كاتبه الوزير أبا عبد الله بن عيسى ، وعاقده على الخروج له عن مالَقة ، مُتَعَوِّضًا عنها بمدينة سَلا من عمل ملك المغرب ، وتم ذلك فى شهر رمضان من عام ثلاثة عشر وسبعماية ، وذاع خبره ، وضاقت بأولياء انْتِزايه السبل ، إذ تحققوا بإخفاق المسعى ، وسقوط العَشِيّ بهم على سرحان من سلطانهم الراغبين عنه ، فداخلوا ولده ، المقدّم الأمر ، أبا الوليد ،

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الاسكوريال وساقطة فى الزيتونة .

واتفق أمرهم على خَلْعه ، ومعاجلة[1] الأمر قبل تمامه، فى .... من شهر رمضان ، وركب الرييس رحمه الله فى نفر من مماليكه المروقة إلى بعض بساتينه ، فلما قضى وطَرَه ، وهمّ بالخروج عنه ، اعترضه القوم عند بابه ، فالتفوا[2] به ، وأشعروه غرضهم[3] فيه ، وجاءوا به إلى بعض القصور بظاهر البلد ، فجعلوه به تحت رَقْبة ، وقد بادر ولده القصبة ، فاستولى عليها من غير ممانعة ، لعدم استرابة ثقاته به ، إلاّ ما كان من خاين يتولى القيام ببعض أبوابها همّ بسدّه ، فطاح لحينه ، وتمّ لولده الاستبداد بالأمر ، واستولى على النّصب والذخيرة وباقى المال[4] ، ونُقل الرييس إلى مِعْقل قرطبة ، فلما خلص الأمر لولده ، انتقل إلى مِعقل شُلوبانْية ، فلم يزل به لا يبرح عن باب قصره ، مرفّهاً عليه إلى أن قضى نحبه .

وفاته

فى الرابع عشر لشهر ربيع الأول من عام عشرين وسبعماية ، توفى رحمه الله بشلوبانية ، وجىء بجنازته محمولا على رؤوس صدور الدولة ووجوه رجالها ، متناغين فى لباس شعار الحزن بما لم يتقدم به عهد ، ودفن بمقبرة السّبيكة ، وولده أمير المسلمين واقف بإزاء لَحْده ، مظهر الاكتراث لفقده ، وعلى قبره الآن مكتوب نَقْشًا فى الرخام البديع ما نصه :

« هذا قبر عَلَم الأعلام ، وعماد دين الإسلام ، جواد الأجواد ، أسد الآساد ، حامى الثغور وممهد البلاد ، المجاهد فى ذات الله حقّ الجهاد ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (معاجلة) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فاحتفوا) والأول أرجح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بعزمهم) .

(٤) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

شمس الملك وبدره ، وعين الزمان وصدره ، الكريم الأخلاق ، الطاهر الذات والأعراق ، الذى سار ذكره فى الآفاق ، وخلد من فضايله ما تتحلى به ظهور المنابر وبطون الأوراق ، كبير الإمامة النصرية ، وعظيم الدولة الغالبية ، فرع الملك وأصله ، ومن وَسِع الأنام عدله وفضله ، مخلّد الفخر الباقى على الأعصار ، والعمل الصالح الذى يُنال به الحُسْنىٰ وعُقبى الدار ، بسلالته الطاهرة الكريمة المآثر والآثار ، الإمام الرضى ناصر دين المختار ، المنتخب من آل نصر ونعم النسب الكريم فى الأنصار . الهمام ، الأكبر ، الأشهر ، المقدم ، المرحوم ، الأطهر ، أبو سعيد ابن الإمام الأعلى ، ناصر دين الإيمان ، وقاهر عَبَدة الصلبان ، صِنْو الإمام الغالب بالله ، ومجهز الجيوش فى سبيل الله ، سهام العِدا ، وغمام النّدى ، وضرغام الحروب ، ذى البأس المرهوب ، والجود المسكوب؛ بطل الأبطال ، ومناخ الآمال ، المجاهد ، الظاهر ، المقدس ، المرحوم أبى الوليد بن نصر ، قدّس الله مضجعه ، ورقاه إلى الرفيق الأعلى ورفعه . كان رضى الله عنه ، وحيد عصره ، وفريد دهره ، علت فى سماء المعالى رتبه ، وكرُم من أمير المسلمين صهره ونسبه ، فلا يُزاحم مكانه ، ولا يُدانى منصبه . نفذت أحكامه فى الشرق والغرب ، ومضت أوامره فى العجم والعرب ، إلى أن استأثر الله به ، فكانت وفاته ليلة الخميس الرابع عشر لشهر ربيع الأول من عام عشرين وسبعماية ، وكان مولده يوم الجمعة الثامن لشهر رمضان المعظم من عام ست وأربعين وستماية ، فسبحان الله الملك الحق ، الباقى بعد فناء الخلق .

سلام على قبر المكارم والمجد ... مُقام الرضى والفوز والبِشر والسعد
مثابة إحسانٍ ومعهد رحمةٍ ... ومُسْتَودع العَلْيا والسِّر والعهد

فيا أيها القبر الذى هو روضة ... تفوح شذى أذكى من المسك والنَّد
لك الفضل إذ حملت أرضى أمانة ... تودى بإكرام إلى جنة الخلد
فقيك من الأنصار من آل نصرهم ... همام كريم الذات والأب والجد
قَسَمُ أمير المسلمين ابن عمه ... ونخبة بيت الملك واسطة العِقْد
وحامى ذمار الدين ناصره أبو سعيد عماد الملك فى الحل والعقد
لَبِّيْك أمير المُلْوتين بواجب ... من الحق أبناء الوغى وبنو الرِّفْد
وتبكى بلاد كان مالك أمرها ... أفاض بها النعماء سابغة الوِرد
أقام بها العدل والفضل سنَّة ... بإنصاف مُسْتَعد وإسعاف مُسْتَجد
وتبكى أسى ملء العيون لفقده ... وبالحق لو فاضت نفوس من الوجْد
فيا أيها المولى الذى لمصابه ... بدا الحزن حتى فى المُطَهَّمة الجُرْد
لك الله ما أعلى مكارمك التى ... تسير بها الركبان فى الغُور والنَّجد
وحَسْبُك أن أورثت خير خليفة ... وأبديت منه للورى علم الرشد
إمام هُدًى أعماله لله رحمة ... تُنال بها الزُّلفى من الصَّمد الفرد
عليك من الرحمن أزكى تحية ... توفيك من إحسانه غاية القصد

فرج بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر

الأمير أبو سعيد ولد أمير المسلمين ثانى الملوك النصريين ابن الغالب بالله .

حاله

كان أميراً جليلا جميلا ، بلغ الغاية فى حسن الصورة ، وفضل الفروسية على صغر سنه ، وكان زناتى الشكل والركض والآلة ، عروس الميدان ، وحِلْس الخيل ، يؤثر من شجاعته ، وثبات موقفه ، على

الغَرارة ، وعدم الحَنَكة ، أنه أنشب فى اتباع خنزير ضخم الكراديس ، عظيم الناب ، عريض الغبطة ، طرح نفسه عليه فى ضحضاح ، لفضل شجاعته ، فكبا به الطرف ، واستقبله ذلك الخنزير الفحل صامدا ، فاستقلّ ، زعموا ، من السَّقطة ، وقد اخترط سيفا عضْبا كان يتقلده ، وسبقه بضربة تحت عينيه ، أبانت فكيه ، وأطارت محل سلاحه ، وخالطه مع ذلك أعزل ، فلم يُغْن ، وتلاحق به فرسانه ، وقد يئسوا من خلاصه ، فرأوا ما بهتوا له ، وبُشِّر بذلك أبوه ، فملأ عينه قُرَّة ، وكان يولع منه بفرع مُلْك ، وصَقْر بيت ، وسيف دولة . أسف بذلك ولىُّ العهد كبيرُه ، فاعتُبط لأيام من تصيُّر الأمر إليه .

وفاته : توفى مغتالا فى الأول من عام اثنين وسبعماية .

مولده : عام ستة وثمانين وستماية .

فرج بن محمد بن يوسف بن محمد بن نصر

الأمير أبو سعيد ولى عهد السلطان الغالب بالله

حاله

كان هذا الأمير فاضلا ذكيا ، من أهل الأدب والنُّبل ، قام الأدب فى ملته على ساق ، ولاّه أبوه الغالب بالله عنده ، وأمَّله لمكانه لو أنَّ الليالى أمهلته

شعره

وأدبه مما يُنسب إليه بالأندلس ، وهو عندى ما يبعد قوله :

أيا ربة الحسن التى سلبت منك ‍ ‍ ‍ ‍ على أى حال كنت لا بد لى منك

فإما بذل وهو أليق بالهوى وإما بَغَر وهو أليق بالملك

وكان ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الحكيم رحمه الله يقول؛ أخبرنى كاتب هذا الأمير، وهو الوزير أبو عبد الله بن القصيرة الإشبيلى بتونس قال، نظم الأمير بيتا وطلبنى بإجازته ، وأن يكون المنظوم مشوب النسيب بالفخر . والبيت :

أرقتَ لبرق بالسُّبيكة لا الخيف وإن كان فيه ما أحاذر من حَتْف

فقلت مجيزا

تجورُ على قلبي لواحظ غادة بأنْفَذ من عزمى وأقطع من سيف

ولى هزّةٌ نحو الوصال أو اللقا كهزة آبائى الكرام إلى الضيف

أفيضُ وفيضٌ فى الجفون وبالحشا فأشكو بحالى فى الشتاء وفى الصيف

لعمرى لقد وفّى العُلاحقَّ مفخرى لو الى فى الدنيا مُرادىَ استُوف

قال واستحسن ذلك ووقع عليه « كاتبه » يعنى بذلك نفسه

وفاته

عصر يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وخمسين وثمانية ، ابن خمس وعشرين سنة

ومن الكتاب والشعراء

الفتح بن على بن أحمد بن عبيد الله الكاتب [المشهور] (١)

من قرية تعرف بصخرة الواد من قرى قلعة يحصب ، يكنى أبا نصر ويعرف بابن خاقان .

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الاسكوريال .

حـــاله

كان آية من آيات البلاغة ، لا يُشَقّ غبُاره ، ولا يدرك شأوه ، عذب الألفاظ ناصِعُها ، أصيل المعانى وثِيقُها ، لعوباً بأطراف الكلام ، مُعْجزاً فى باب الحَلْى والصفات ، إلا أنه كان مجازفا ، مقدوراً عليه ، لا عِلّ من المعاقرة والقَصْف ، حتى هان قَدْرُه ، وابتُذِلت نفسه ، وساء ذكره ، ولم يدع بلدا من بلاد الأندلس الاّ دخله ، مُسْتَرْفِداً أميره ، وواغلا على عِلْيته . قال الأستاذ فى « الصلة » ،وكان معاصراً للكاتب أبى عبد الله بن أبى الخصال ، إلا أن بطالته أخْلَدت به عن مرتبته . وقال ابن عبد الملك ، دخل يوما إلى مجلس قضاء (١) أبى الفضل عياض (٢) مخمرا ، فتنَسّم بعض حاضرى المجلس رائحة الخمر ، فأعلم القاضى بذلك ، فاستثبت ، وحدّه حدّاً تاما ، وبعث إليه بعد أن أقام عليه الحد ، بثمانية دنانير وعمامة . فقال الفتح حينئذ لبعض أصحابه : عزمت على إسقاط اسم القاضى أبى الفضل من كتابى الموسوم « بقلايد العقيان » قال ، فقلت لا تفعل وهى نصيحة ، فقال : وكيف ذلك ، فقلت له : قِصّتك معه من الجايز أن تنسى ، وأنت تريد أن تتركها مؤرخة ، إذ كل من ينظر فى كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله ودونه فى العلم والصيت ، فيسل عن ذلك ، فيقال له [اتفق معك كيت وكيت] (٣) فيتوارث العلم عن الأكابر الأصاغر . قال ، فتبين له ذلك ، وعلم صحته وأقر اسمه

وحدثنى بعض الشيوخ ، أن سبب حقده على ابن باجّة أبى بكر ،

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (القاضى) والأولى أرجح .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هذه العبارة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال والنفح ، وهى لازمة لاستقامة السياق .

آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس ، ما كان من إزرايه به ، وتكذيبه إياه فى مجلس إقراية ، إذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ؛ [ويذكر الفخر بذلك] (١) ، ووصف حليًا ، وكانت تبدو من أنفه فضلة خضراء اللون . زعموا ، فقال له ، فمن تلك الجواهر إذاً الزمردة التى على شاربك ، فثلّبه فى كتابه ، مما هو معروف فى الكتاب . وعلى ذلك فأبو نصر نسيج وحده ، غفر الله له .

مشيخته

روى عن أبوى بكر بن سليمن بن القصيرة ، وابن عيسى بن اللبّانة ، وأبى جعفر بن سعدون الكاتب ، وأبى الحسن بن سراج ، وأبى خالد بن مَسْتَقور ، وأبى الطيّب بن زرقون ، وأبى عبد الله بن خلصة الكاتب ، وأبى عبد الرحمن بن طاهر ، وأبى عامر بن سرور ، وأبى محمد بن عبدون ، وأبى الوليد بن حجاج ، وابن دريد الكاتب .

تواليفه

ومصنفاته شهيرة منها « قلايد العقيان » ، « ومطمح الأنفس » . « والمطمح » أيضاً . وترسيله مدوّن ، وشعره وَسَط ، وكتابته فايقة .

شعره

من شعره قوله ، وثَبَت فى قلايده ، يخاطب أبا يحي بن الحجاج :

أكعبة عليـاء وهضبة سؤدد ... وروضة مجد بالمفاخر تمطر

هنيئاً لمن زار [نورك أفقه] (٢) ... وفى صفحتيه من مضايك أسطر

(١) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٢) وردت فى الاسكوريال (أفقك نوره) . والتصويب من قلايد العقيان . ووردت هذه الشطرة فى النفح كالآتى . (هنيا لملك زار أفقك نوره) .

وإنى لخفّاق الجناحـين كلمـا   سَرَى لك ذكـر أو نسيم مُعَطِّر
وقد كان واشٍ هاجنا لتهاجـر   فبتُّ وأحشائى جوى تتفطـر
فهل لك فى وُدٍّ زوى لك ظاهـرا   وباطنه يُنْدى صفـاء ويَقْطـر
ولستُ بعِلْق بيع بخساً وإننى   لأرفع أعْلاق الزمـان وأخطـر

فروجع عنه بما ثبت أيضا فى قلايده مما أوله :

ثنيت أبا نصر عِنانى وربمـا   ثنت عَزْمة السَّهم المُصَمِّم أسطر

نثره

ونثره شهير ، وثبتٌ له من غير المتعارف من السُّلطانيات ظهيرا [كتبه] (١) عن بعض الأمراء لصاحب الشرطة ، ولاخفاء بإدلاله وبراعته :

كتاب تـأكيد اعتناء، وتقليد ذى منّة وغناء ، أمر بإنفاذه فلان ، أيده الله ، لفلان بن فلان صانه الله ، ليتقدّم لولاية المدينة ، بفلانة وجهاتها ، ويصرخ(٢) ماتكاثَف من العدوان فى جنباتها ، تنويها أحظاه بعلائه ، وكساه رايق مَلائه ، لما علمه من سَنايه ، وتوسّمه من غِنايه ، ورجاه من حسن مَنابه ، وتحققّه من طهارة ساحته وجَنابه ، وتيقن أيده الله ،أنه مُسْتحق لما(٣) ولاه ، مُسْتَقِلٌ بما تولاّه ، لا يعتريه الكسل ، ولا يثنيه عن إمضاء الصوارم والأَسَل ، ولم يَكلِ الأمر منه إلى وَكِل ، ولا ناطه مناط عجز ولا فَشَل ، وأمره أن يُراقب الله تعالى فى أوامره ونواهيه ، وليعلم أنه زاجره عن الجَوْر وناهيه؛ وسايله عما حكم به وقضاه، وأنفذه وأمضاه ، يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله . فليتقدم لذلك بحزم لا يَخمدُ توقدُه ، وعزم لا ينفد تفقّده ، ونفس مع الخير

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتون وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يصوح) .
(٣) وردت فى الإسكوريال (بما) . والتصويب من النفح .

ذاهبة ، وعلى سنن (١) البرِّ والتقوى راكبة ، ويقدم للاحتراس من عُرف اجتهاده ، وعُلم أرَقُه فى البحث وسُهاده . وحُمدت أعماله ، وأُمن تفريطه وإهماله ، ويضم إليهم من يحذو حذوهم ، ويقفو شأوهم ، ممن لا يُسْتراب بمناحيه ، ولا يصاب خلل فى ناحية من نواحيه ، وأن يُذْكى العيون على (٢) الجُناة ، وينفى عنها لذيذ السنات ، ويفحص عن مكامنهم ، حتى يُغَصَّ بالروع (٣) نَفَس آمنهم ، فلا يستقرُّ بهم موضع ، ولا يقرُّ منهم مَخبٌ ولا موضع ، فإذا ظفر منهم بمن ظفر ، بحث عن باطنه ، وبثَّ السؤال فى مواضع تصرفه ومواطنه ، فإن لاحتْ شُبهة أبداها الكشف والاستِبراء وتعدَّاها للبغى والافتراء ، نكّله بالعقوبة أشدَّ نكال ، وأوضح له منها ما كان ذا إشكال ، بعد أن يبلغ أناه ، ويقف على [طَرْف](٤) مداه ، وحدَّ له ألاَّ يكشف بشرة إلاَّ فى حدٍّ يتعين ، وإن جاءه فاسق أن يتبيَّن ، وأن لا يطمع فى صاحب مال موفور ، وأن لا يسمع من مكشوف فى مستور ، وأن يسلك السُّنن المحمود ، وينزِّه عقوبته من الإفراط ، وعفوه من تعطيل الحُدُود . وإذا انتهت إليه قصَّة مُشكلة أخَّرها إلى غَدِه ، فهو على العقاب أقدر منه على ردِّه ، فقد يتبين فى وقت مالا يُتَبين فى وقت ، والمعاجلة بالعقوبة من المَقْت ، وأن يتغمد هفوات ذوى الهيآت ، وأن يستشعر الإشفاق ، ويخلع التَّكبُّر ، فإنه من ملابس أهل النفاق ، وليحسن لعباد الله اعتقاده ، ولا يرفض زمام العدل ولا مَقَاده ، وأن يعاقب المجرم قَدْرَ زلته ، ولا يعتز عند ذلّته ، وليعلم أن الشيطان أغواه ، وزيَّن له مثواه ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (متن) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (عن) والتصويب من النفح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (بالريق) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فى طرفه) .

فيشفق من عَثاره ، وسوء آثاره ، وليشكر الله على ما وهبه من العافية ، وأكسبه من ملابسها الضّافية ، ويذكره جلّ وتعالى فى جميع أحواله ، ويفكر فى الحَشْر وأهواله ، ويتذكر وعداً يُنجز فيه ، ووعيداً يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحْضَرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيداً . والأمير أيده الله ، ولىٌّ له ما عَدَل وأقسط ، وبرىء منه إن جار وقَسَط . فمن قرأه فليقف عند حدّه ورَسْمه ، وليعرف له حقّ قطع الشرّ وحَسْمه ، ومن وافقه من شريف أو مَشْروف ، وخالفه فى شىء مُنكر أو أمرٍ بمعروف ، فقد تعرّض من العقاب لما يذيقه وبال خَبَله ، ولا يحيق المكر السيىء إلاّ بأهله . وكتب فى كذا .

وفاته

بمرّاكُش ليلة الأحد لثمان بقين من محرم من عام تسع وعشرين وخمسماية ، ألفى قتيلا ببيت من بيوت فُنْدق لبيب أحد فنادقها ، وقد ذُبح وعُبث به ، وما شُعر به إلا بعد ثلاثة ليال من مَقْتله .

ومن المقريين والعلماء

فرج بن قاسم بن أحمد بن لب التغلبى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا سعيد .

حاله

هذا الرجل من أهل الخير والطهارة ، والزّكا والديانة ، وحسن الخُلق . رأس بنفسه ، وحَلّى بفضل ذاته ، وبرّز بمزية إدراكه وحفظه ، فأصبح حامل لواء التحصيل عليه بدار الشورى ، وإليه مرجع الفتوى ببلده ، لغزارة حفظه ، وقيامه على الفقه ، واضطّلاعه بالمسائل ، إلى المعرفة

بالعربية واللغة ، والمران فى التوثيق ، والقيام على القِراءات ، والتّبريز فى التفسير ، والمشاركة فى الأصلين والفرايض والأدب . جيد الخط ، ينظم وينثر . قعد ببلده للتدريس على وفور المسجد . ثم استقلّ بعد ، وولّى الخطابة بالمسجد الأعظم ، وأقرأ بالمدرسة النّصرية ، فى ثامن وعشرين من رجب عام أربعة وخمسين وسبعماية ؛ معظما ، عند الخاصة والعامة ، مقرونا اسمه بالتسويد . وهو الآن بالحالة الموصوفة .

مشيخته

قرأ على الخطيب المقرى ، شيخنا أبى الحسن القِيجاطى ، والخطيب الصالح الفاضل أبى إسحق بن أبى العاصى ، والقاضى العدل المحدث العالم أبى عبد الله بن بكر ، ولازم الشيخ الفقيه أبا عبد الله البيّانى ، وأخذ العربية عن شيخ العصر أبى عبد الله بن الفخار ، وروى عن الشيخ الرحال الراوية أبى عبد الله محمد بن جابر بن محمد القيسى الوادى آشى وغيرهم .

شعره

من شعره فى غرض النسيب قوله :

خذوا لِلْهَوى من قلبى اليوم ما أبقا ... فمازال قلبى للهوى كنّه رقًّا
دعوا القلب يُصْلى فى لَظَى الوجد ناره ... فنار الهوى الكبرى وقلبى هو الأشْقا
سَلوُا اليوم أهل الوَجْد ماذا به لَقُوا ... فكلُّ الذى يلقون بعض الذى ألْقا
فإن كان عَبْدٌ يسَل العِتقَ مالكا فلا ... ابتغى من مالكى فى الهوى عِتْقا
بدعوى الهوى يدعو أناس وكلهم ... إذا سئلوا طُرق الهوى جهلوا الطرُقا
فطُرُق الهوى شتى ولكنّ أهلـه ... يجوزون فى يوم الرّهان بها سَبْقا
فكمْ جَمعت طرق الهوى بين أهله ... وكم أظهرت عند السُّرى بينهم فرْقا

بِسِيما الهوى تسدو معارف أهله ... فحيث ترى سِيما الهوى فاعَرِف الصدقا
فمن زَفْرةٍ تُزْجى سحايب زفرة ... إذا زفرة ترقى فلا عَبْرة ترقا
إذا سكتوا عن وجدهم أغرت بهم ... بواطن أحوالٍ وما عرفت نطقا

ومن منظومه في وَداع شهر رمضان المعظم قوله :

أأزمعت يا شهر الصيام رحيلا ... وقاربت يابدر التمام أفولا
أَجِدك قد جدَّت بك الآن رحلة ... رُوَيْدك امسك للوداع قليلا
نزلت فأزْمَعْت الرحيل كلما ... نويت رحيلا إذ نويت نزولا
وما ذاك إلاَّ أن أهلك قد مضوا ... نَفانوا فأَبْصَرت الديار طلولا
وقفتَ بها من بعدهم فعل نادى ... لربع خلا يبكى عليه خليلا
لقد كنت فى الأوقات ناشئة التّعنى ... أشدَّ به وطْساً وأقوم قيلا
ولما انجلى وجهُ الهدى فيك مُسْفراً ... سدلت على وجه الضَّلال سُدولا
متى ارتاد مرتادٌ مَقيلا لعثْرة ... أتاك فألفى للعثار مَقيلا
وناديتَ فينا صُحْبة الخير أقبلوا ... بإقبالكم حُزْتم لدىَّ قبولا
لقد كنت لما واصلوك ببرِّهم ... حفيًّا بهم برّاً لهم ووَصُولا
أقاموا لدين الله فيك شعايرا ... هدتهم إلى دار السلام سبيلا
فكم أطلقوا فيها أعنَّة جَدِّهم ... وكم أرسلوا فيها الدموع همولا
دموعا أثارت سَحَّها ريح زفرة ... فسالت وخدَّت فى الخدود مسيلا
لديك أيا شهر الهُدى قصَّروا المدى ... فكم لك فى شأو الفضايل طولا
دلايل تشريف لديك كثيرة ... كفى بكتاب الله فيك دليلا [1]

---

(١) لم يذكر لنا ابن الخطيب تاريخ وفاة ابن لب ، لأنه توفى قبله ، ولكن الناسخ أورد فى هامش المخطوط ، نقلا عن ابن فرحون صاحب « الديباج المذهب » وعن الحافظ ابن حجر ان ابن لب قد توفى فى سنة ٧٨٣ هـ .

ومن الصوفية والصلحاء

فضل بن محمد بن على بن فضيلة المعافرى

يكنى أبا الحسن من أهل الشرق الأندلسى، أبو الحسن الولى الصالح الصوفى .

حـــاله

كان ولياً فاضلا زاهدا ، على سنن الفضلاء ، وأخلاق الأولياء ، غزير العلم ، كثير العمل ، دايم الاعتبار ، مشهور الكرامة ، مُسْتجاب الدعوة ، صوفيا محققا ، انتهت إليه الرياسة فى ذلك على عهده . يدل على ذلك كلامه على أغراض القوم ، وكَشْفُه عن رموزهم وإشاراتهم ، أديبا بليغا ، كاتبا مرسلا ، لا يُشَقُّ غباره فى ذلك . قايما على تجويد كتاب الله ، عالى الرواية ، أَسَنَّ وتناهى وازْدَلف إلى التِّسْعين ، مُمَتَّعا بجوارحه ، ووُلِّى الخطابة والإمامة بالمسجد الأعظم ، أقرأ به مدة كبيرة .

قال ابن الزبير فى « صلته » : كان جليلا فى ذاته وخُلُقه ودينه ، معدوم النظير فى ذلك ، مشاركا فى فنون من العلم ، أديبا بارعا ، كاتبا بليغا ، فصيح القلم ، متقدما فى ذلك ، متصوفا ، سَنِياً ، ورعا ، معدوم القرين فى ذلك ، متواضعا ، مقتصدا فى شئونه كلها ، جاريا فى خُلُقه وأفعاله وأحواله ، على سُنَن السلف ، أحفظ الناس للسانه وجوارحه وأصدقايه ، وأسلمهم عنيا ومشهدا ، وأشدهم تمسكا بهْدى السلف الصالح ، مؤثرا للخمول ، سريع العَبْرة ، شديد الخوف لله سبحانه ، تاليا لكتاب الله ، كثير الصوم ، خفيف القَدَم فى حوايج أصحابه ، مشاركا لهم بأقصى ما يمكنه . له تقاييد جوابية عما كان يُسئل عنه فى الفن الذى كان يؤثره ،

محررا ما يلزم التقييد به من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، غير منافر لمذهب الأشْعَرية ، مالكى المذهب ، له اختيارات يسيرة لا يُفتى بها ، ولا تتعدَّى علمه .

مشيخته

روى عن أبى تمام غالب بن حسن بن أحمد بن سيدبونه ، وعن أبى العباس أحمد بن محمد بن شُهيد ، وأخذ أيضا عن أبى بكر بن محرم ، وأجاز له أبو بكر بن المرابط ، وقرأ على القاضى أبى القاسم بن يحيى بن ربيع ، والقاضى أبى عيسى بن أبى السَّداد المُرْسى ، وغيرهم :

من أخباره

وكراماته شهيرة ، فمنها أن رجلا استفتاه ، فأفتاه بجواب لم يحصل له به الإقناع ، فرأى فى عالم النوم ، وإثر سؤاله إياه ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول له ، الحق ما قال لك فلان فى المسألة . قال الحاكى ، فبكَّر إليه الرجل من الغد ، فلما أقبل عليه بموضع إقرايه ، قال له ، ألم ترد أن تَسْتَفتى يا أبا فلان إلاَّ من رأس العين ، فَبُهت الرجل . وأحواله شهيرة :

مولده : ولد عام سبعة وستّماية .

وفاته : فى الثامن عشر من محرم عام تسعة وتسعين وستّماية . ودفن بمقبرة [ربض][1] البيّازين مع قومه من صلحاء الشَّرق ، وكانت جنازته مشهودة .

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال .

ومن العمال الأثرا

فلوج الملج

مولى يحيي بن غانية .

حاله

كان فلُّوج شهما شجاعا ، مَهيبا حازما ، نال من مولاه حظوة ، واستعان به على أموره المهمة . وجرى على يده إغرام أهل قرطبة ، وانطلقت على أموالهم يده ، وأثرى وجمع مالا دَبْرا من الصامت والذخيرة عظيما .

نكبته

وكان يحيي بن غانيه قد ولاه حصن بنى بشير ، فثقَّفه وحصَّنه ، ونقل إليه أمواله ومتاعه ، وذخيرته . ولما توفى مولاه ، لحق به وملك أمره ، واستعان بجماعة من النصارى ، ثم بدا له لضعف رأيه ، وسوء تدبيره ، أن ألقى بيده إلى ابن أخى مولاه إسحق بن محمد بن غانيه ، فأناب ولحق به ، معتذرا عن توقفه ، فقبض عليه وصفَّده . وعرض عليه العذاب ، وأسكنه فى تابوت ، باطنه مسامير ، لا يمكنه معها التصرف، وأجاعه بمرأى من الطعام بمطبخه ، إلى أن مات جوعا وألما . وهو مع ذلك لا يطمعه فى شىءٍ من المال . وتخلَّف بالحصن رجلا من جهة سَرَقُسطة ، يعرف بابن مالك ، ويكنى أبا مروان . فلما ذاع خبر القبض عليه ، بادر الموحدون الذين بلَوْشة ، فتغلبوا عليه ، واستولوا على ما كان به من مال وذخيرة ، ووجدوا فيه من أنواع الثياب والحُلى والذَّخيرة ، كل خطير عظيم ، وشدُّوا على ابن مالك فى طلب المال ، فلم يجدوا عنده شيئا ، إلى أن فدى نفسه منهم ، بمال كبير . فمضى فلُّوج على هذا السبيل .

ومن المقريين والعلماء

قاسم بن عبد الله بن محمد الشَّاط الأنصارى

نزيل سبتة ، وأصله من بلنسية ، يكنى أبا القاسم . قال ، والشَّاط إسم لجدى ، وكان طُوالا فجرى عليه الاسم .

حاله

نسيج وحده فى إدراك النظر ، ونفوذ الفكر ، وجودة القريحة ، وتسديد الفهم ، إلى حسن الشمايل ، وعلو الهمة ، وفضل الخلق ، والعكوف على العلم ، والاقتصار على الآداب السُّنية ، والتحلى بالوقار والسكينة . أقرأ عُمْرَه بمدرسة سبتة ، الأُصول والفرايض ، متقدما ، موصوفا بالأَمانة . وكان موفور الحظ من الفقه ، حسن المشاركة فى العربية ، كاتبا ، مُرسِّلا ، ريّان من الأَدب ، ذا مماسَّة فى الفنون ، ونظر فى العَقْليات ، ضرورة لم يتزوج ، ممن يتحلى بطهارة وعفاف .

وقال فى « المؤتمن » كان مع معارفه ، عالى الهمة ، نزيه النفس ، ذا وقار وتُؤدة فى مشيه ومجلسه ، يُشاب وقاره بفكاهة نظيفة ، لا تنهض إلى التأْثير فى وقاره ، ظريف الملبس ، يخضب رأْسه بالحنا على كبره .

مشيخته

قرأ بسبتة على الأستاذ الكبير أَبى الحسن بن أَبى الربيع وبه تأَدب ، وعلى أَبى بكر بن مشليون ، وعلى الحافظ أَبى يعقوب المحاسبى ، وعلى الطبيب أَبى عبد الله محمد بن على بن أَبى خالد العبدرى الأُبَّدى ، وعلى أَبى الحسن البصرى ، وعلى خاليه أَبى عبد الله محمد وأَبى الحسن إبنى الطرطانى ، وأَجازه أَبو القاسم بن البرَّا ، وأَبو محمد بن أَبى الدنيا ،

وأبو العباس بن على الغماز ، وأبو جعفر الطباع ، وأبو بكر بن فارس ، وأبو محمد الأنبارى ، وغيرهم . وأخذ عنه الجملة من أهل الأندلس من شيوخنا كالحكيم الأستاذ أبى زكريا بن هُذَيل ، وشيخنا أبى الحسن بن الجياب ، وشيخنا أبى البركات ، والقاضى أبى بكر بن شِبرْين ، وقاضى الجماعة أبى القاسم الحسنى الشريف ، والوزير أبى بكر بن ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الحكيم ، والقاضى أبى القاسم بن سَلْمون ، وغيرهم .

شعره

وكان يقرض أبياتا حسنة من الشعر ، فمن ذلك قوله يُذيِّل أبياتا لأبى المطرِّف بن عميرة وهى :

فَضَلَ الجمال على الكمال بخدِّه ... والحق لا يخفى على من وسَّطه
عجبا لـه برهانـه بشروطـه ... معه فمـا مطلوبُه بالسَّفْسطـه
عَلِم التَّبـاين فى النفـوس وإنها ... منها [مفرطة وغير مفرطة] (١)
فيه رأتِ وجه الدَّليـل وفرْقه ... أصْغَت إلى الشُّبهات فهى مورطة
فأراد جمعها معا فى حكمـة ... هـذى بمُنْتجة وذى بمغلَّطة

ومن شعره قوله :

وإنى سلكتُ من انقباضى مسلكا ... وجريتُ من صَمْتى على مِنهاج
وتركت أقوال البرية جانبـا ... كى لا أميِّز مَادحـا من هـاج

دخوله غرناطة

ورد على غرناطة عند تصَيرُّ سبتة إلى الإيالة النَّصرية مع الوفد من أهلها ببيعة بلدهم ، فأخذ عنه بها الجُملة ،ثم انصرف إلى بلده . قال شيخنا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مفروقة وغير مفروقة) .

أبو البركات ، وأنشدنا لنفسه :

قلْت يوما لمن تخـذت هـواه ملَّـةً قـد تبعتهـا وشريعـة
لم تـأْبَ الوصـال وهو مُبـاح وتسُوم المحبَّ سـوءَ القَطيعة
قال إنى خشيت منـك مـلالاً فتركت الوصـال مـدَّ ذريعة

وأنشـدنا :

وغزال أُنْس سَلَّ من ألحـاظه سيفا أراق دم الفؤاد بسَـلِّه
وبِخَدِّه من ذلك أعدل شاهد يقضى بـأَن الفتـك به من فِعْله
مالى أطالبه فيدحض حجَّـتى ودمى يُطَـلُّ وشاهدى من أهله

وأنشدنا الفقيه أبو القاسم الزقَّاق ، قال أنشدنا الأستاذ أبو القاسم الشاط ، وقد خرجنا معه مشيعين إياه فى انصرافه عن غرناطة آيبا إلى بلده :

يا أهل غرناطة إنى أودعـكم ودمع عيـنى من جَراكم جار
تركتُ قلـبى غريبـاً فى دياركم عساه يلْقَى لديـكم حُرْمة الجار

تواليفه

منها « أنوار البروق فى تعقب مسايل القواعد والفروق». « وغنية الرابض فى علم الفرايض ».وتحرير الجواب فى توفير الثَّواب . وفهرسة حافلة . وكان مجلسه مألفا للصُّدور من الطلبة ، والنبلاء من العامة ، حدثنى شيخنا القاضى الشريف أبو القاسم ، قال ، كان يجلس عند رجل خياط من أهل سبتة ، يعرف بالأجعد من العامة ، فأخذ يوما يتكلم عن مسألة ، فقال متمثلا كما تقول الأجعد الخياط فعل كذا ، ثم التفت معتذرا يتبسم وقال ، أتمثل بك ، فقال الأجعد بديهة ، إذاً يا سيدى أعتق عليكم ، إشارة إلى قول الفقهاء ، [العبد يُعتق على سيِّده ، إذا مُثل به] (١) فاستظرف قوله .

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال كالآتى (أن العبد إذا مثل به عتق) والعبارة الأولى أوضح وأنسب للسياق .

مولده : فى ذى قعدة من عام ثلاثة وأربعين وستماية بمدينة سبتة

وفاته : توفى بها فى آخر عام ثلاثة وعشرين وسبعماية ، وقد استكمل الثمانين .

قاسم بن عبد الكريم بن جابر الأنصارى

من أهل غرناطة ، يكنى أبامحمد ، ويعرف بابن جابر .

حاله

كان رحمه الله من جلة أهل العلم والفضل ، حسن الأخلاق ، مليح الحديث ، عذب الفكاهة ، لطيف الحاشية ، على دين والتزام سُنّة . رحل إلى المشرق ، فلقى العلماء ، وأخذ عنهم ، وكَلِف بعلم الجَدَل ، فقرأه كثيرا ، وبهر فيه . وورد على غرناطة من رحلته ، فأقرأ بها الأصول وغيرها من جدل ومنطق وفقه .

مشيخته

قرأ بغرناطة على الخطيب ولى الله أبى الحسن بن فضيلة ، والأستاذ خاتمة المُقْرِيين أبى جعفر بن الزُّبير ، وولِّى القضاء ببَسْطة . ثم كَلِف بالإقراء وعكف عليه ، فلم ينتقل عنه .

من أخذ عنه : أخذ عنه كراسة الفخر المسماة « بالآيات البينات » . وكان قايما عليها ، جملة من شيوخنا ، كالأستاذ التعاليمى أبى زكريا بن هذيل ، والأستاذ المقرى أبى عبد الله بن البيّانى

شعره

وله شعر أنشدنا الشيخ أبو القاسم بن سلمون ، قال أنشدنا فى شيخنا ابن جميل قوله :

إن أطْلَع الشَّرقُ شمسُ دنيا   قد أطْلع الغربُ شَمْسَ دِين
وبين شمس وبين شمس   ما بين دُنيا وبين دِين

مولده : ولد بغرناطة عام تسعة وستين وستّماية .

وفاته : توفى بها فى جمادى الآخرة أو رجب من عام أربعة عشر وسبعماية.

قاسم بن يحيى بن محمد الزّروالى

يكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن دِرْهم ، مالَقِى أصله من جبال تاغسى ، ودخل غرناطة وقرأ بها .

حاله

من تذييل صاحبنا القاضى أبى الحسن ، قال فيه : كان رحمه الله واحد زمانه ، ينبوع الحكمة ، يتفجر من لسانه ، وعنوان الولاية على طَيْلسانه . ومن « عايد الصلة » : كان رحمه الله علما من أعلام الزهد والورع والديانة ، والتقلّل من الدنيا ، والعكوف على تجويد كتاب الله وإقرايه ، منقطع القرين فيه ، كثير المناقشة والتحقيق ، يرى أن ليس فى الأرض من يحكم ذلك حق إحكامه ، مالم يأخذه .

مشيخته

قرأ على جملة من حملة كتاب الله بالمشرق والمغرب والأندلس ، وعُنى بذلك. ثم لم يعتمد منهم إلاَّعلى الأستاذ أبى إسحق الغافقى بسَبْتة ، والخطيب

أبى جعفر بن الزيات ببلّش من الأندلس ، واستمرت حاله على سبيلها من الزهد والانقباض والتنطّع ، والإغراق فى الصلاح ، والشّذوذ فى بعض السجايا إلى أن توفى .

بعضٌ من نوادره مع اخشيشانه : حدثنى القاضى أبو الحسن بن الحسن ، أن بعض الطلبة المتنسّكين قال له ، أتيتُك أقرأ عليك ، فأستخير الله ، ثم أتاه فقال قد استخرت ، وهمّ بالقراءة ، فقال له الشيخ . إمسك حتى أستخير أنا الله ، فى قراءتك علىّ ، فقال الطالب ، وهذا عمل برٌ ، فقال له الحجة عليك . فانفصل عنه . ثم عاد إليه يَسَلُ منه القراءة ، فقال، يابنى ظهر لى أن لا تقرأ على ، فانصرف .

ومن أخباره فى الكرامة ، قال لى المذكور ، وقد أزمعت السفر إلى ظاهر طَرِيف مع جَمْع المسلمين ، أنك إن سافرت[1] ياولدى ، تُقاسى مشقّة عظمى إن سبق القدر بحياتك ، والله يُرشدك ، وقد كنت شرعت فى ذلك مع رفقائى . وفى سحر ليلة اليوم ، الذى انهزم فيه المسلمون ، رأيته فى النوم يقول لى منكرا علىّ ، قلت لك لا تسافر يكررها ، فاستيقظت وأوقع الله بقلبى الرجوع إلى الجزيرة ، لآراب أقضيها ، فما بلغ زوال الشمس من اليوم ، إلاّ ومُقَدّمة الفَلّ على أطواق البلد فى أسوإ حال .

وفاته

توفى ببلدة مالقة خامس صفر ، من عام خمسين وسبعماية فى وقيعة الطّاعون[2] ، توفى وآخر كلامه ، رزقنا الله عملا صالحا يقربنا إليه زُلفى ، وجعلنا ممن يمر على عُقْبَى الدنيا والآخرة مرور أهل التقوى .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (تسافر) .

(٢) سبق التعريف بوقيعة الطاعون أو الوباء الكبير (راجع المجلد الأول من الإحاطة ج ١ ص١٧٣ حاشية) .

ومن الكتاب والشعراء

قرشي بن حارث بن أسد بن بشر بن هندى بن المهلب بن القاسم ابن معاوية بن عبد الرحمن الهمدانى

حـــاله

هو أعرق الناس فى الشعر ، لأن جده المُهَلَّب كان شاعرا ، وولده هندى كذلك ، وأسد وحارث وقرشي فهم شعراءُ سنة على نسق ، ويدل شعرهم ، على شَرَف نفوسهم ، وبُعد هممهم .

شعــره

قال أبو القاسم الغافقى ، من شعره قوله فى هاشم بن كعب التميمى من أنْجد الفرسان ، قتل فى يوم ، خمسة من أنجاد المُوَلَّدين :

هجرتُ القوافى والظِّبا الأوانسا ووَدعتُ لذّاتى نعم واللواعسا
ورعت فؤادى بالمَشِيب عن الصِّبا وأصبحت عن عهد الغواية يائسا
أبا خالد مازلتُ مذ كنت يافعا لكل سِنات المكارم لابسـا
فما حملت أنثى كمثلك سيِّدًا ولا حملت خيلٌ كمثلك فارسا

قاسم بن محمد بن الجد العمرى

يكنى أبا القاسم ، ويعرف بالورسيدى ، من أهل ألمريَّة ، وتكرر وروده على غرناطة .

حـــاله

قال شيخنا أبو البركات ، كان حسن الأخلاق ، سليم الصدر ، بعيدا

عن إذاية الناس بيده أو لسانه بالجملة ، له خطٌّ لا بأس به ، ومعرفة بالعَدد ، وسلك الطريقة الزِّمامية ، وله حظ من قَرْض الشعر . وجرى ذكره فى الإكليل بما نصه : من أئمة أهل الزمام ، خليق برعى الذِّمام ، ذو حظ كما تفتَّح زهر الكمام ، وأخلاق أعذب من ماء الغمام . كان ببلده محاسبا ، فى لجة الأعمال راسبا ، صحيح العمل ، يُلبس الطرُوس من براعته أسْنَى الحُلل .

شعره

قال يمدح المقام السلطانى :

أرى أوجه الأيام قد أشْرَقت بشرا فقل لى رعاك الله ما هذه البُشْرا
وما بال أنفاس الخُزامى تعطَّرت فأرَّجَت الأرجاء من نَفْحها عطرا
ونقَّبت الشمس المنيـرة وجهها قُصُورا عن الوجه الذى أخْجَل البَدْرا
ومازالت بأغصان الرجـال أريحية كما عطفت أعطافها تَنْثَنى شكرا
فماذاك إلاَّ أن بدا وجه يوسف فأرْبَتْ على الآيات آياتُه الكبرا
خليفة ربِّ العالمـين الذى بـه تمهدت الأرجاءُ وامتلأت بشْرا
وجرت على أعلى المجرَّة ساحبا ذيولَ العُلى فاستكمل النهى والأمرا
وقام بأمر الله يقضى ويقتـضى الفتوح التى تُبقِى له فى العلى ذكرا
وأربى على كل الملـوك وفاتَهم بسيرته الحُسْنى التى قد عَلَتْ قَدْرا

وهى طويلة ، ومن شعره أيضا قوله :

من أين أقْبَلْتَ يـانسيم جـادت بساحاتـك الغُيوم
ولا عَدِمناه منك سُرَى حـلَّ به عنـدنا النعـيم
بلِّغ سلامى أهَيل وُدِّى بلغك الله ما تـــروم
قـلِ لهـم صَبُّـكُمُ مشوقٌ أنحلـــه وجـــدُه القـديم

لطالما يسهر الليالى وطىٌ أضلاعه جحيم
هبوا رضاكم لذى غرام مازال قُدُماً بكم يهيم
إن غبتم عن سواد عينى فحبُّكم فى الحَشى مُقيم
لو تَرَّ ساعد السَّعد أن أراكم لما اشتكى قلبى السَّقيم
يا حادى العِيس نحو أرض بنيقة قدرها عظيم
إذا أتيت الُّلوى وسلفا وبان للناظر الحَطِيم
ولاح بالأبْرَقين بدرٌ بسيْره تهتدى النجوم
فقل غريبٌ ثوى بقرب فى بحر أوزاره يَعُوم
قد أثقلت ظهره الخطايا وشجَبت ذكره الرسوم
إن أعمل الحزم لارتحال أقعده ذنْبُه العظيم
لمنى هذا الشباب ولّى والقلب فى غَيِّه مُقيم
يارب عفوا لذى اجترام لا تَهْتِك السِّتر يا حليم
مالى شفيع سوى رجائى وحسن ظنى أيا كريم
فلا تكلنى إلى ذنوبى وارحمنى يا ألله يا رحيم

وفاته : توفى فى وقيعة الطاعون عام خمسين وسبعماية .

ومن المحدثين والفقهاءِ والطلبة النجباء

قاسم بن أحمد بن محمد بن عمران الحضرمى

من أهل سبتة :

حاله

من خط صاحبنا القاضى أبى الحسن بن الحسن . قال ، كان شيخا

يتقد ذكاء . رحل عن سبتة إلى الحجاز ، فقضى الفريضة ، وتطور فى البلاد المشرقية نحوا من أربعة عشر عاما ، وأخذ بها عن جلّة من العلماء . وورد على غرناطة فى حدود عام ثمانية عشر وسبعماية ، فأخذ عن بعض أشياخها ، وعاد إلى بلده ، وكان على خزانة الكتب به ، وكان يُقرئ القرآن به ، قال ، وأنشدنى لما لقيته بيتا واحدا ، يحتوى على حروف المعجم ، وهو :

قد ضم نصر وشكا بَثّه ... مذ سخطتُ عضّ على الإبط

مشيخته

أخذ بالمشرق عن جماعة ، منهم شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبى طالب الدمشقى الحجار ، والشيخ المحدث أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الشيرازى ابن جميل ، قرأ عليه كتاب ابن الحاجب ، وحدثه به عن مؤلفه ، وقرأ على الشيخين المقريين الجليلين ؛ أبى عبد الله محمد بن عبد الخالق المعروف بابن الضايع وأبى عبد الله بن يعقوب الجراش المقدسى ، جملة من الكتب الحديثية وغيرها ، وسمع عليهما كتاب « الشاطبية » وحدّثاه بها معا عن المُقْرى أبى الحسن على كمال الدين بن شجاع العباسى الضرير ، عن صهره مؤلفها .

تواليفه : قال : له فى القراءات تقييد حسن سماه « الشافى فى اختصار التيسير الكافى »

وفاته : توفى أيام الطاعون العام (١) ببلده .

قاسم بن خضر بن محمد العامرى

---

(١) الطاعون العام حسبما سبق التعريف به اجتاح الأندلس فى سنتى ٧٤٩ و ٧٥٠ هـ .

يكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن خضّر هكذا ، دون تعريف. يعرف سلفه ببنى عمرون من أهل ألمرية .

حـــاله

من خط شيخنا أبى البركات ، كان هذا الشيخ من وجوه ألمرية ، وممن تصرف سلفه فى خُطَّة القضاء بها . وهو أقدم خطيب أدركتهُ بسِنِّى بجامعها الأعظم . وكان شيخا عفيفا من رجال الجد ، ضيق العَطَن ، سريع الغضب ، غيورا على تلك الخطة ، لا يُحلى بعينه أحد . لما مات رفيقه فى الصلاة والخُطْبة ، الشيخ الشهير عند العامة ، ثالث اثنين ، الخراى والنطية ، أبو عبد الله بن الضايع ، فكلٌّ من عرض عليه أن يكون معه أباه ، فقال أهل البلد ، فما العمل ، فقال يُكتب إلى أبى القاسم ابن الحاج إلى سبتة ، ليأتى إلى أرض سلفه ، ويكون رفيقى فى الصلاة والخطبة، يعنى عمِّى ، فكتب إليه بذلك، فكانت المسألة عند الآخر ، أهون من أن يجيب على الكتاب ، ولو بالإباية ، فبقى الأمر إلى أن قُدِّم معه الشيخ الصالح الخطيب المِصْقَع أبو الحسن بن فرحون البِلْفِيقى ، فلم يجد فيه قادحاً إلا كونه ليس من أهل البلد ، فبقى مرافقا له إلى حين وفاته

غريبة : قال الشيخ أخبرتنى جدتى عائشه بنت يحيى بن خليل ، قالت ، كان الرجل الصالح ، أبو جعفر بن مكنون خال قاسم بن خضر هذا ، فرآه يلعب مع الصبيان فى أزقة ألمرية ، فقال له من يكون خطيب ألمرية يلعب ، فبقيت فى حفظه إلى أن وُلِّى الخطابة .

وفاته : توفى فى صفر من عام ثلاثة وسبعماية ، وكانت جنازته مشهودة

حرف السين

سوّار بن حمدون بن عبده بن زهير بن ديسم بن قديدة بن هنيدة

وكان علماً من أعلام العرب ، وصاحب لواء قيس بالأندلس ، ونزل جدُّه [1] بقرية قربسانة [2] من إقليم البلاط من قرى غرناطة ، وبها أنسَل ولدُه ، ولم يزالوا أعلاما ، إلى أن ظهر سوّار هذا منهم فى الفتنه .

حاله وبعض آثاره وحروبه

قال أبو القاسم ، كان سوّار هذا بعيد الصيت ، رفيع الذكر ، شجاعا ، منَحيا فى الظهور ، حامى العرب وناصرهم . وكان له أربعة من الإخوة ، مثله فى الشجاعة ، حضروا معه فى الحروب فى الفتنه ، وهو الذى بنى المدينة الحمراء بالليل ،والشّمعُ تُزْهرَ لعرب الفحص ، وبنى مدينة وادى آش لبنى سامى ، وبنى مدينة مُنْتِيشة لبنى عطاف ، وبنى مدينة بَسْطة لبنى قحطبة ،وبنى مَسِيرة، وبنى كورة جيّان للعرب . ولولا أن اللهَ منّ على العرب بسوّار ونصره ، لما أبقى العجم والمولدون منهم أحدا . وأنسل سوّار ، عبد العزيز المقتول بمُنْتِشافر ، وعبد الرؤوف وعبد الملك .

مبدأ أمره وحروبه وشعره

قال أحمد بن عيسى بعد اختصار ، فى صدر هذه السنة ، يعنى سنة خمس وسبعين ومائتين ، ثار سوّار بن حمدون بناحية البراجِلة من كورة إلبيرة ، وانضوت إليه العرب ، قام على تفئة مهلك يحيى بن صَقالة أميرهم ، قتيل المُسالِمة والمولَّدين ، فطلب بثأْره ، وكثرت أتباعه ،

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) قربسانة وبالإسبانية Caparacena من قرى غرناطة وتقع غربيها على فرع نهر شنيل .

واعترت العرب به . وقصد بجمعه إلى سنت شافر ، وبه من عدوء المذكورين نحو من ستة آلاف رجل نازلهم حتى قهرهم . وطاف على حصونهم فافتتحها ، وقتل وغنم ، وتنادوا لقتاله فى جموع عظيمة ،عليها جَعْدُ بن عبد الغافر عامل الأمير عبد الله ، وبرز إليهم فيمن برز ، وناشبهم الحرب ، فانهزموا فقتل منهم خلق حُزِروا بسبعة آلاف ، وأسر جعد ، ومنّ عليه وأطلقه ، وكانت وقيعته الأولى هذه تعرف بوقيعة جَعْد . وغَلظ ، واستند إلى حصن غرناطة ، بالعرب من مدينة إلبيرة . وكانت العرب يتألبون على المولّدين، إلى أن عزل الأمير جعداً عن الكورة إرضاء لسوّار ، فأظهر عند ذلك الطاعة، وغزا الحصون الراجعة إلى ابن حَفصون فأوقع بهم ، فهاجمهم ، واجتمعت عليه كلمتُهم ، فقصدوه وحصروه بغرناطة فى نحو عشرين ألفا ، وبرز إليهم فى عدده القليل من عبيده، ورجال بيوتات العرب من أهل إلبيرة ، ورجعوا من جبل الفخّار على تعبئة ، يريدون الباب الشرقى من غرناطة ، وكادهم لما التحمت الحرب وشبّ ضِرامُها ، بما دبره من انسِلاله فى لَخْمة(1) من فرسانه ، حتى استَدبرهم، فحمل بشعاره ، فانذعروا وانفضّوا ، فتوهّم حُماتهم أن مدداً جاءهم من ورائهم ، فولوا منهزمين ، وأعمل سوّار وأصحابه السيوف فيهم إلى باب إلبيرة ، فيقال إن قتلاهم فى هذه الوقيعة الثانية كانوا إثنى عشر ألفا ، وهى الوقيعة المعروفة بوقعة المدينة ، ولاذ المولّدون بعد هذا بعمر بن حَفْصون واستدعوه ، فوافاهم فى جيش عظيم ، ودخل إلبيرة ، وناهض سوّارا . وعنده رجالات عرب الكُوَر الثلاث ، إلبيرة وجيّان وريُّه ، واشتد القتال ، وجال جيش ابن حفصون جولة ، جُرح فيها جراحات صعبة ، وكاد سوّار يأتى عليه . لولا رجال صدقوه الكر

---

(1) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (خمسة) والأولى أرجح .

واستنقلوه ، وتمت عليه الهزيمة ، فانقلب على عَقِبه ، ونالت الحضرة معرّته ، فأغْرَم أهلها الذين استجلبوه ما تشعّث من عسكره ، واستعمل عليهم قائده حفص بن المُرَّة ، وانصرف. ونجح سوّار بما تهيأ له على أعدائه ، فاعتَلَت همته ، وأجَلّته العرب ، وعلا فى الناس ذكره ،وقال الأشعار الجزْلة ، فيما تهيأ له على المولدين ، وأكثر الافتخار بنفسه ، فشُهر من قوله فى ذلك :

صَرَمَ الغـوانى ياهُنيد مودتى   إذ شاب مِفْرَق لِمَّتى وقَـذالى
وصَدَدْن عنى يا هُنيـد وطالمـا   علقت حِبال [وصالها بحبالى][1]

وهى طويلة ، أكثر فيها الفخر ، وألمّ بالمعنى .

وفاته

ولما انصرف عمر بن حفصون وترك قائده بإلبيرة ، جهز معه طائفة من خيله ، وأقره لمُغاوَرَةِ سوّار ، ودَرْك النيل لديه ، وأعمل حفص جهده ، وطلب غرّته ، فأمكنه الله منه ، وأنه دنا إليه يوما ، وقد أكْمنَ أكثر خيله ، وظهر له مُسْتَغيراً بجانب من حِصْنه ، فخرج سوّار مبادرا من غرناطة لأول الصَّيحة فى نفر قليل ، لم يحترس من الحيلة ، التى يحذرها أهل الحزم ، فأصحر لعدوه ، وخرجت الكماين من حوله ، فقُتل وجئ بجُثّته إلى إلبيرة ، فذكر أن الثّكالى من نسايهم قَطّعن لحمه مزقاً ، وأكلنه حَنَقا [2] لما نالهن من الثّكل . وكان قتل سوّار فى سنة سبع وسبعين ومايتين ، وقُتلت العرب بقتل سوّار ، وكلّ حدُّها بما نزل بها .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى نص آخر (وصالهن حبالى) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (حقدا) .

سليمن بن الحكم بن سليمن بن عبد الرحمن الناصر لدين الله
الخليفة بقرطبة

المكنى بأبى أيوب الملقب من الألقاب الملوكية بالمستعين بالله .
أوليته : معروفة .

حاله

كان أديبا شاعرا ، مجموع خلال فاضلة ، أصيل الرأى ، راجح العقل ، ثبتا . ولى الخلافة غلابا ، وقعصا ، ومنازعة ، وأوقع بأهل قرطبة وقائع أبادتهم . وخلع ثم عادت دولته ، وجرت له وعليه الهزايم ، على قصر أمد خلافته ، لقيام البربر بدعوته ، وتدويخ البلاد باسمه ، فى أخبار فيها عبرة ، دخل فى بعض حركاتها وهولاتها المبيرة[1] ، إلى أن طحنته رحى الفتنة ، وشيكا عن دنيا غير هنية ، وصبابة ليست بسنية

شعره

من شعره يعارض المقطوعة الشهيرة المنسوبة للرشيد[2] .

عجبا يهاب الليث حد سنانى ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان
فأقارع الأهوال لا متهيبا ... منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظرى ... من فوق أغصان على كثبان
هذى الهلال وتلك أخت[3] المشترى ... حسنا وهذى أخت غصن البان
حاكمت فيهن السلو إلى الهوى ... فقضى بسلطان على سلطان

(١) وردت فى الإسكوريال المبيرة ، والتصويب أنسب للسياق .
(٢) مقطوعة الرشيد المشار إليها مطلعها : « ملك الثلاث الآنسات عنانى » .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى نص آخر (بنت)

فأبَحْنَ من قلبي الحِمى وتركْنَنِى في عزٍّ مُلْكى كالأسير العان
لا تعذلوا ملكا تذلّل للهوى ذلُّ الهوى عزٌّ وملكٌ ثـــان

مقتله

قتله على بن حَمُّود المتقدم الذكر ، متولى الأمر بعده ، صبراً بيده ، بدم هشام المؤيد ، وقال لما زحف إليه ، لا يقتُل الزُّلطان إلا الزُّلطان ، يعني السُّلطان ، إذ كان بربرى اللسان ، وذلك فى أخريات المحرم من سنة سبع وأربع ماية .

سليمن بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان

يكنى أبا أيوب .

حـــاله

كان شهما جريئا ، أَنُوفاً شجاعا ، ديِّنا فاضلا . ولما توفى أبوه بقصر قرطبة ، وهشام وأبو أيوب هذا غائبان ، وكَّل ابنه عبد الله ، المعروف بالبَلَنْسى ، وقال من سبَق إليك من أخويك ، فارْمِ إليه بالخاتم ، فإن سَبَق إليك هشام ، فله فضل دينِه وعفافه واجتماع الكلمة عليه . فإن سبق إليك سليمن ، فله فضل دينهِ ونجْدته ، وحبُّ الشاميين له . فقدم هشام من ماردِة ، وتولى الخلافة قبل سليمن . واتصل ذلك بسليمن ، فأخذ لنفسه البيعة بطُليطلة ، وما اتصل بها ، ودعا إلى نفسه ....[1] وواضَع أخاه الحرب غير ما مرة ، تجرى عليه فى كلها الهزايم ، إلى أن تبرَّم بنفسه ، وأجاز البحر عن عهد إلى ستين ألفاً بُذلت له ، واستقرَّ بأهله وولده ببلاد البربر . ولما صار الأمر للحَكم بن هشام ، عاد إلى

(١) بياض فى المخطوط .

الأندلس سنة اثنتين وثمانين ومائة ، وكان اللقاء فى شوال منها ، فانهزم سليمان ، ثم عاد للقاء فانهزم . وفى سنة أربع وثمانين حشد ، واحتل بجيّان ثم بإلبيرة ، والتقى بها معه الحكَم ، ودام القتال أياما ، حتى هم الحكم بالهزيمة ، ثم انهزم سليمن ، وقتل فى المعركة بَشرٌ كثير ، وأفلت سليمن إلى جهة مارِدة . وبالتقاء الحكم وعمّه سليمن بإلبيرة وأحوازها ، إستحقا الذكر هنا على الشرط المعروف .

وفاته : وبعث الحكم أصْبغ بن عبد الله فى طلب سليمن ، فأسره وأتاه به ، فأمر بقتله ، وبعث برأسه إلى قرطبة . قتل فى سنة خمس وثمانين بعدها .

سعيد بن سليمان بن جودى[1] السعدى

حـــاله

كان سعيد بن سليمن صديق سوّار ، فعصبت العرب الإمارة به بعده ، وعلِقت به ، فقام بأمرها وضمّ نَشْرها ، وكان شجاعا بطلا ، فارسا مجرّبا ، قد تصرف مع فروسيته فى فنون من العلم ، وتحقق بضروب من الآداب ، فاغتدى أديبا نحريرا ، وشاعرا مُحْسنا ، واتصل قيامه بأمر العرب إلى أن قُتل .

شعره

ومن شعره فى وقيعة سوّار بالمولدين قوله من قصيدة طويلة :

قد طلبنـا بثأرنا فقَتَلْنَـا   منكم كل مارق وعنيـــد

(١) وردت فى الإسكوريال (جود) والصواب ما أثبتناه .

قد قتلناكم بيحيى ومـــا … أن كان حُكْم الله بالمردود
هِجْتم يا بنى العَبِيد ليـوثا … لم يكونوا لجارهم بقَعـود
فاصطلوا حَرَّها وحدَّ سيوف … تلظَّى عليـكم بالوقـــود
حاكمٌ ماجدٌ يقود إليـكم … فِئةً سادةً كمثل الأُســـود
مهذَّبٌ من نزار وعميـدٌ … ما مثـــله من عميــــد
يطلب الثأْر بابن قوم كرام … أخذوا بالعهود قبل المُهود
فاستباح الحما لم يُبْق منها … غير عانٍ فَقْدُه مَصْفـــود
قد قتلنا منكم أُلوفاً فمـا … يعدل قَتْل الكريم قتل العبِيد
مثَّلوه لمّا أَضـاف إليهم … لم يكن قتله برأى ســديد
قتَلته عبيدُ سوءٍ لئـــامٌ … وفِعال العبيد غير حميـد
لم يصيبوا الرشاد فيما أتوه … لا ولا كان جَدُّهم لسعود
قد غَدَرْتم به بنى اللؤم من … بعد يمينٍ قد أُكِّدت وعهود
فلئن كان قـتله غَدْرةً … ما كان بالنِّكس لا ولا الرِّعديد
كان ليثاً يحمى الحروب وحِصْناً … وملاذا وعصمة المقصود
كان فيه التُّقى مع الحلم … والبأْس وجُودٌ ما مثله جود
عـالٍ مجّد الأَمجاد بعدك … قديماً وفتٌّ كل مجيـــد
فجزاك الإلَـه جنـة عـدن … حيث يَجْزى الثوابُ كلَّ شهيد

مقتله

قال الملاَّحى ، كان من الأَعلام ، وعُدَّ فى الشعراء والفرسان والخطَباء والبلغاء ، خطب بين يدى الخليفة(1) المنذر ، وهو حَدَثٌ ، أول ما أَفْضت الخلافة إليه ، وعليه قباءُ خزٍّ ، وقد تنكب قَوْساً عربية ، والكنانة بين يديه . خطب خطبة بليغة ، وصلها بشِعر حسن ، ولم يزل اللِّوا يتردد

عليه فى العزّ والمُقام ، ويخطب فى أعلى المنبر فى المسجد الجامع بإلبيرة . وسجل له الخليفة[1] عبد الله على الكورة ، إلى أن همّ بالقيام على بنى أمية عندما اشتدت شكيمته ، وظهر على عمر بن حفصون إلى أن قتل بسبب امرأ ، تمت عليه الحيلة لأجلها بدار يهودية ، إذ كان منحطا فى هوى نفسه ، فطاح فى ذى قعدة سنة أربع وثمانين ومايتين ، وصار أمر العرب بعده إلى محمد بن أضحى حسبما يتقرّر فى مكانه .

ومن ترجمة الأعيان والوزراء والأماثل والكبراء

سهل بن محمد بن سهل بن مالك بن أحمد بن ابراهيم بن مالك الأزدى

صدر هذا البيت ، وياقوتة هذا العِقد ، يكنى أبا الحسن . قال أبو جعفر بن مسعدة ، كان رأس الفقهاء وخطيب الخطباء البلغاء ، وخاتمة رجال الأندلس . تفَنّن فى ضروب من العلم ، وبالجملة فحاله ووصفه فى أقطار الدنيا ، لا يُجْمله أحد ، فحدِّث عن البحر ولا حرج ، ضنٍّ الزمان أن يسمح برجل حاز الكمال مثله

حاله

قال ابن عبد الملك ، كان من أعيان مِصْرِه ، وأفضل أهل عصره ، تفنُّنا فى العلوم ، وبراعة فى المنثور والمنظوم ، محدِّثا ضابطا ، عَدْلا ثقة ثبتا ، حافظا للقرآن العظيم ، مجوِّدا له ، متقنا فى العربية ، وافر النصيب من الفقه وأصوله ، كاتباً مجيدا للنظم فى مُعْرب الكلام وهزله ، ظريف

(١) إن تعبير ابن الخطيب هنا بالخليفة إشارة إلى أمير الأندلس المنذر بن محمد بن عبدالرحمن الذى حكم من (٢٧٣ ٢٧٥ هـ) وأخيه الأمير عبد الله الذى حكم من (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) إنما هو تجاوز فى التعبير ، ولا يطابق الوضع التاريخى الصحيح . لأن الخلافة الأندلسية لم تقم إلا على يد عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) . وهو أول خلفاء بنى أمية بالأندلس .

الدعابة ، مليح التّنذير . له فى ذلك أخبار مُسْتَظرفة مُتَناقلة ، ذا جِدَة ويسار ، متين الدين ، تام الفضل ، واسع المعروف ، عميم الإحسان ، تصدق عند القرب من وفاته بجملة كبيرة من ماله ورباعه ، وله وفادةٌ على مراكُش .

مشيخته

روى ببلده عن خاله أبى عبد الله بن عروس ، وخال أمه أبى بكر يحيى بن محمد بن عروس ، وأبى جعفر بن حَكَم ، وأبى الحسن بن كوثر ، وأبى خالد بن رفاعة ، وأبى محمد عبد المنعم بن الفَرَس . وبمالقة عن أبى زيد السُّهيلى ، وأبى عبد الله بن الفخار . وبمرسية عن أبى عبد الله ابن حُميد ، وأبى القاسم بن حُبيش . وبإشبيلية عن أبى بكر بن الجَدّ ، وأبى عبد الله بن زرقون ، وأبوى عبد الله العباس بن مضاء ، والجراوى الشاعر ، وأبى الوليد بن رشد . قرأ عليهم وسمع ، وأجازوا له . وأجاز له من أهل الأندلس أبو محمد عبد الله نزيل سبتة ، وعبد الحق بن الخراط نزيل بجاية . ومن أهل المشرق جماعة ، منهم إسمعيل بن على بن إبراهيم الجراوى ، وبركات بن إبراهيم الخُشُوعى أبو الطاهر ، وعبد الرحمن ابن سلامة بن على القضاعى ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم .

من روى عنه : روى عنه أبو جعفر بن خَلَف ، والطُّوسى ، وابن سعيد القزاز ، وأبو الحسن العَنْسى ، وأبو عبد الله بن أبى بكر البرى ، وابن الجنّان ، وأبو محمد عبد الرحمن بن طلحة ، وأبو محمد بن هرون ، وأبو القاسم ابن نبيل ، وأبو يعقوب بن إبراهيم بن عِقاب ، وأبو جعفر الطّباع ، وأبو الحجاج بن حَكَم ، وأبو الحسن الرُّعَينى ، وأبو على بن النّاظر ، وغيرهم .

ثناء الأعلام عليه : والمجال فى هذا فسيح . ويكفى منه قول أبى زيد الفزارى :

عجبا للناس تاهُوا بثَنيَّات المسالك
وَصَفوا بالفضل قوما وهم ليسوا هُنالك
كثر النَّقل ولكن صحَّ عن سهل بن مالك

شعره

وشعره كثير مما ينخرط فى سِلْك الجيد [فمن ذلك] قوله :

نهارُك فى بحر السَّفاهة يسبح وليلُك عن نوم الرَّفاهة يُصبح
وفى لفظك الدَّعوى وليس إزاءها من العمل الزَّاكى دليل مُصَحَّح
إذا لم توافق قوْلةً منك فِعلةً ففى كل جزء من حديثك تَفْضَح
تَنَحَّ عن الغايات لستَ من أهلها طريقُ الهُوَينا فى سلوكك أوْضح
إذا كنت فى سن البنى غير صالح ففى أىِّ سِنٍّ بعد ذلك تَصْلُح
إلى كم أماشِيها على الرَّغم غاية يُصيب المزكَّى عندها والمُجَرَّح
وعليها ألاَّ تَنْوِ ولا تَنِى فتُحْسَن فى عين الشيبان وتُقْبَح
عسى وطرٌ مونقٌ فالتمس الرِّضا واقرع أبواب الرَّشاد فتَفْتح
فقد ساء ظنِّى بالذى أنا أهْلُه وفضلك يا مولاى يعفو ويصفح

وقال فى تشييع بعض الفقهاء من غرض الأمداح :

يلقاك من كل من يلقاك ترحيب ومن خَلِيفتها عزٌّ وتقْريب
وتصطفيك إلى أحوازها رتب لها على مَفْرِق الجَوْزاء ترتيب
تأتى إليك بلا سعى بلا سبب كأنَّ تَرْكَك للأسباب تَسْبيب
من كلِّ مشغوفة بالحسن دام لها إلى غِنائك تَصْعيد وتَصْويب
يلقاك بالبشر والإقبال خاطِبُها وحظُّها منك إعراض وتَقْطيب

ما زلت ترغب عنها وهى راغبة ... كأنَّ زهدك فيها عنك تَرْغيب
فانهض إليها فلو تستطيع كان لها ... إلى لقايك إرجاءٌ وتقريب
يحيى وتحيى فلِلْباغى مواهبُها ... عذب الزُّلال وللباغين تَعْذِيب
سارت على العدل والإحسان سيرتها ... حتى تلاقى عليها الشّاة والذِّيب
لم تُصِبْها لذةُ الدنيا وزخرفُها ... ولا سَبَتْها المطايا والجلابِيب
إذا أهمَّ بنى الدنيا نعيمهم ... فهَمُّها البيضُ والجُرْد السَّلاهِيب
فوق الكواكب مضروبٌ سُرادقها ... على أُفق الأفلاك تَطْنِيب
كَرَعْتَ فى ظلها الصافى بِسَلْسِلها ... كأنها لك فى المشروب شرِيب
فى فِتْيَة من بنى الآمال قد قرعت ... سُهَمٌ إلى طلب العليا طبابيب
إذا حضرنا طعاما فهى مأدُبَة ... وإن سمعنا كلاماً فهو تأْديب
ومن يَلُذْ بأبى إسحاق كان له ... أعلاقُ مالٍ وأغلاقُ وتهذيب
يا معلدُ السرَّ من قلبى ويا ملكاً ... إن ناب خطب فمن جدواه تأْنيب
هبتّ القرار لآمالٍ مُسافرة ... وقد أضرَّ بها بُعْدٌ وتغريبُ
ففى يمينك وهابا ومنتظما ... بَسْطٌ وقَبْضٌ وترغيبٌ وترهيبُ
وما يُبصِر كِتابا راق مَنْظَره إن ناله ... من تُراب الأرض تَتْريب
لك السِّيادة لا يُلقى لسؤددها ... مثلٌ وإن طال تَنْقِيرٌ وتَنْقيب
عزمٌ كحدِّ سِنان الرُّمح يصحبه ... عدل كما اعتدلت فيه الأنابيب
كمال نفسك للأرواح تَكْمِلة ... وذكر فضلك للأرواح تَشْبيب
وعَرْفُ ذاتك كافٍ فى تعرُّفنا ... بنفحة الطِّيب يُدرى أنَّه طِيب
إذا ذكِرت فالأشعار مضطَّرب ... رحب المجال وللألحان تَطْرِيب
سِرْ حيث شِيت موفَّى من مكارمها ... يَهابك الدهر والشُّبان والشِّيب
فى غُرَّة تخلق الأيام جدَّتها ... لها على أفق الأملاك تَطْنيب

ومن نمط النَّسيب والأَوصاف قوله وهو بسبتة بعد وصوله من مراكش ، وهو مما طار من شعره :

لما حططتُ بسبتة قَتَب النوى[(١)] والقلبُ يرجو أن تحول حاله
والجو مصقول[(٢)] الأَديم كأَنما يُبْدى الخفىَّ من الأُمور صِقاله
عانيت من بلد الجزيرة مسكنا[(٣)] والبحر يمنع أن يُصاد غزاله
كالشَّكل فى المرآة تُبْصره وقد قَرُبت مسافته وعزَّ مَناله

ومن شعره قوله رحمه الله :

تبسَّم واستأْثرتُ منه بقُبلة فشِمتَ أُقاحا وارتشفتُ عُقارا
ومرَّ فأَيدى الريح ترسل شَعْره كما ستر الليل البَهيم نهارا
فيالك ليلاً بالكثيب قطعته كما رُعت بالزَّجز الغُراب فطارا
تُغَصُّ بنا زُهرُ الكواكب غَيْرةً فتقدح فى فَحْم الظلام شرارا

ومن ذلك قوله :

ولما رأَيت الصبح هبَّ نسيمه دعانى داعِيه إلى البَيْن والشَّت
وقلت أَخاف الشمس تفضح سرَّنا فقالت معاذ الله تفضحنى أُخْت

ومن الحكم وأَبيات الأَمثال قوله رحمة الله عليه :

مُنَغَّص العيش[(٤)] لا يأْوى إلى دَعة من كان ذا بلدٍ أَو كان ذا ولد
والساكن النفس من لم تَرْضَ هِمَّته سُكنى مكانٍ ولم تَسْكُن إلى أَحد

ومن شعره :

ولا مِثْلُ يوم قد نَعِمْنا بحُسْنه مُذهَّب أَثناء المروج صقيل

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الهوى) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مقصود) .
(٣) وردت فى الإسكوريال (مكنسا) . والتصويب من الزيتونة .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (القلب) .

إلى أن بدت شمس النهار تَرُوعنا — بسير صحيح واصفرارِ عليل
ولما توارت شمسه بحجابها — وأذّن باقى نورها برحيل
وغابت فكان الأفق عند مغيبها — كقلبى مُسْوَدٌّ لفقْد خَليل
أتانا بها صِفْراً يسطع نورها — فمزّق سِرْبال الدُّجا بفَتيل
فردّت علينا شمسنا وأصيلَنا — بمُشَبَّه شمسٍ فى شَبيه أصيل

ومن نثره قوله يخاطب بنى أبى الوليد بن رشد، تعزيةً فى أبيهم، واستفتحه بهذه الأبيات :

ألا ليت شِعرى هل لطالب غاية — وصولٌ وأحداثُ الزمان تعوقُه
مضى عَلَم العِلم الذى بِبَيانه — تَبَيَّن خافيه وبان طريقُه
أجِلاّئى إنى من دموعى بزاخرٍ — بعيدٌ عن الشَّطّين منه غَرِيقه
وما كان ظنّى قبل فقد أبيكم — بأنّ مصابا مثل هذا أطيقُه
ولم أدر مَن أشقَى الثلاثة بعده — أبناؤه أم دهرُه أم صديقُه
ومن شاهد الأحوال بعد مماته — تيقّن أنّ الموت نحن نَذُوقه
رجوعا إلى الصّبر الجميل فحقُّه — علينا قضى أن لا توفّى حُقوقه
أعزيكم فى البعد عنه فإننى — أهنّيه قرباً من جوارٍ يروقه
فما كان فينا منه إلاّ مكانه — وفى العالم العُلْوى كان رفيقُه

إيه عن المدامع هلاّ تَلا انحدار الدّمعة انحدارُها، والمطامع هل ثَبَتَ على قُطْب مدارها، والفجائع أغيْرُ دارِ بَنى رُشد دارها، فإنه حديث أتعاطاه مُسْكِرًا، وأستريح الله مفكِّراً، وأبثه باعثا على الأشجان مذكِّراً، ولا أقول كفَا وقد ذهب الواخِذ الذى كنت تَتَلافى، ولا أستشعر صبرا، وقد حلَّ نور العِلْم قَبْرا، بل أغْرِق الأجْفان بمائها، وأستَدعى الأحزان بالشّهير من أسمائها، واستوْهب الأشجان غَمرة غماتها. ثم أتهالك تَهالُك

المجنون ، وأستجير من الحياة بريْب المَنون ، وأنافِر السّلوة منافرة وسْواس الظُّنون ، ولا عَتَب ، فإذا خامر الوالِهُ جَزَعه ، فإلى نُصْرة المدامع مَفْزَعُه ، وإذا ضَعُف احتماله ، فإلى غَمْرة الإغماء مآلهُ ، ومن قال إنّ الصبر أولى ، وليتُه من ذلك ما تولّى . أما أنا فأسْتَعيذ من هذا المُقام وأسْتَعْفيه ، وأنَزّه نفس الوَفا عن الحُلول فيه ، فإنه متى بقى للصّبر مكان ، ففى محل الحُزْن لقَبُول ما يقاومه إمْكان ، وقد خان الإخاء وجُهل الوفاء ، من رام قلبه السُّلُو ، وألفت عينه الإغْفاءَ . هو الخَطْبُ الذى يَقى الهُجود وألزم أعْيُن الثّقلين ، وبه أعْظَم الدهر المصاب ، وفيه أخطأ سهم المَنِيّة حين أصاب . فحقُّنا أن نتجاوز الجُيوب إلى القلوب ، ونتغلّب إذا غالبنا الحزن بصفة المغلوب ، وإذا كان الدهر السّالب ، فلا غضاضة على المَسْلوب ، أستغفر الله ، قِفا نَتَذكّر من مَفْقُودنا رضى الله عنه حِكَمه ، ونشاهد بعين البصيرة سِيمَه ، فأجدهما يكُفّان من واكف الدمع دِيَمه ، ويقولون عندى آسّة المصاب ، ومزاحمة الأوصاب ، أمران وقَع ، فقد ضَرٌّ فوق ما نفع ، فإنه لا ألمُ الحزن شَفاه ، ولا حقٌّ المصيبة وفّاه ، ولا الذّاهب الفايت اسْتَرْجعه وتلافاه ، فربما جَنَحت إلى الصّبر لا رغبة فيه ، بل إيثارا لِمَقصِده وتشيُّعا لتصافيه ، فأسْتَرْوح رايحة السُّلو ، وأنْحَطُّ قاب قوسين أو أدنى عن سِدْرة ذلك العُلو ، وأقف بمقام الدّهش بين معنى الحزن المستحكم ، ولفظ القرا المتلوّ . فأبكى بُكا النساء ، وأصبر صبر الرؤساء ، وأحْرُز رَزايا الفضلاء ، بفضل رزايا الأخسّاء ، موازنة بين هذا الوجود ، ونِحَل تتعاقب على نحل الجُود . فالدهر يسترجع ما وهَب ، كان الصّفراءُ أوالذّهب . وإذا تحقّق عدم ثباته ، وعدم استرجاعه لجميع هِباته ، كان المتعرِّض لكثيره ، محلا لتأثيره . فلا غرو أن دَهَمكم

الرزء مورد الفلك الدابر منه الجزأ ، فطالما بتم ترضعكم الحكمة أخلاقها ، وتهيكم الخلافة آلافها ، وتؤملكم الأيام خلافها . وإذا صحيت العقول ، وضنّ بما لديه المعقول ، وصارت الأذهان إلى حيث لا تتصوّر الألسنة ، بحيث لا تقول،وردتم مَعينا ، ووجدتم مُعينا،وافتضضتموها كمثل اللؤلؤ المكنون صُورا عينا . أظننتم أن عين الله تنام ، أم رُمْتم أن يكون صرحا إلى إله موسى ذلك السنام ، لشد ما شيّدتم البناء ، وألزمتم اتّباع الأب الأبناء ، حتى غَرِق الأول فى الآخر ، وصار السّلف على ضخامته أقلّ المفاخر . ومن عَلَت فى علاها قدم ترقّيه ، ولم يُصب بكما له عينًا يحفظ من عين الظن ويقيه ، فكثيراً ما يأتيه محذورُه من جهة توقّيه . هذا أبوكم رضى الله عنه حين استكمل ، فعرف الضّار والشّافى ، وتعذّرت صفاتُ كماله على الحرف النّافى ، فيالله لفظة أواليها ، وأتبِعها زفرة تَليها، لقد بَحَثَت الأيام عن حَتْفها بظِلفها ، وسَعت على قدمها إلى رغم أنفِها ، فمن لبث الوصل ، ولرعى الوسايل ، وإلى من يُلجأُ فى مُشكلات المسايل ، ومَن المجيب إذا لم يكن المسئول بأعلم من السّائل . اللّهم صبّرنا على فقد الأُنْس بالعِلم ، وأدلنا من خُفوف الوَلَه بوقار الحلم ، وأخْلِفه فى بنيه وعامة أهليه ، بشبيه ما أوليته فى جوارك المقدس وتولّيه . وإليكم أيها الإخوة الأولياء ، والعِلْية الذين عليهم قُصِرت العلياء . أعتذر من اتخاذ الشيء من الكلام بنقصه الأشياء . فقد خان فى هذا الزمان ، حتى اللسان ، وفقد منه حتى الحسان ، وليس لتأبين محمد صلى الله عليه وسلم إلاّ حسّان ، فالعذر مُنْفسح المجال . وإلى التقصير فى حقّ رُزْئكم الكبير نصير فى الرّوية والارتجال . ولذلك عدلت إلى الإيجاز ، واعتقدت فى إرسال القول فى هذا الموضع ضربا من المجاز . ومبلغ النفس عُذْرها مع

لعجز كالصّابر للإعجاز . وأما حسن العزاء على تعاقُب هذه الأَرزاء ، فأَمرٌ لا أهبه ، بل أَستَجديه ، ولا أذكركم به ، ونَفْسُ صبركم متوغلة فيه ، فسواكم يُلهم للإرشاد . ويَذكَّر بطرق الرشاد ، جعل الله منكم لآبايكم خَلَفا ، وأبقى منكم لأبنائكم سَلَفا ، ولا لد لكم الوجود بعده تَلَفا . والسلام .

محنته

امتُحن رحمه الله بالتّغريب عن وطنه ، لبغْى بعض حَسَدته عليه ، فأُسكن بمرسية مدَّة طويلة ،إلى أن هلك بـألمرية الأَمير أبو عبد الله محمد ابن يوسف بن هود ، آخر جمادى الأُولى سنة خمس وثلاثين وستماية . فسُرِّح أبو الحسن بن سهل إلى بلده فى رمضان من هذه السنة .

ومن شعره فى ذلك الحال مما يدل على بعد شأْوه ورفعة همته ، قوله :

الدمع هَمَى عن جوانب هِمَّتى وتـأْبى هموم العارفين عن الدَّفع
وألتمس العُتْبى وحيداً وغايتى وصَرْفُ الليالى والحوادث فى جَمْع
وإنى من حزمى وعزمى وهمتى وما رُزِقته النفس من كرم الطَّبع
لفِى مَنْصِب تعلو السماء سِماتُه فيَثْبُتُ نورا فى كواكبها السَّبع
علا صرف دهرى إذ علا فإذا به ترابٌ لنَعْلى أو غبار على سَبْع
تدرَّعت بالصبر الجميل وأَجْلَبت صروف الليالى كى تمزِّق لى درع
فما ملَلْتُ قلبى ولا قبضتُ يدى ولا لحمتُ أصلى ولا حضرت فرع
فإن عَرَضت لى لا يفوه بها فمى وإن زَحَفت لى لا يَضيق بها ذَرْع

وفى هذه الأَبيات تـأْنيث السَّبعة الكواكب ، وحكمها التَّذكير ، وذلك إما لتـأْويل بعد أَو غفلة ، فلينظره . قال أبو الحسن الرعينى ، ودخلت عليه بمرسية ، وبين يديه شمَّامة زهر ، فأَنشدنى لنفسه :

وحامل طيبٍ لم يُطَيَّب بطيبه ... ولكنه عند الحقيقة طَيِّب
تألف من أغصان زهره ... فمن صِفَتيه زاهرٌ ورَطيب
تعانقت الأغصان فيه كما التقى ... حبيبٌ على طول النوىٌ وحبيبُ
وإن الذى أدناه دون فراقه ... إلى كبيرٍ فى الوجود عجيب
مناسبةٌ للبَيْن كان انتسابها ... وكل غريب للغريب نَسيب
فبالأمس فى إسحاره وبداره ... وباليوم فى دار الغريب غريب

تواليفه

صنَّف فى العربية كتابا مفيدا ، رتب الكلام فيه على أبواب كتاب سيبويه . وله تعاليق جليلة على كتاب المُسْتَصفى فى أصول الفقه ، وديوان شعر كبير . وكلامه الهزلى ظريف شهير.

مولده : عام تسعة وخمسين وخمسماية .

وفاته : توفى بغرناطة منتصف ذى قعدة سنة تسع وثلاثين وستماية . وزعم ابن الأبَّار أن وفاته كانت سنة أربعين وستماية ، وليس بصحيح . ودفن بمقبرة شقستر. قال ابن عبد الملك، وكان كريم النفس، فاضل الطبع ، نزيه الهمَّة ، حصيف الرأى ، شريف الطباع ، وجيها ، مبرورا ، معظما عند الخاصة والعامة .

من رثاه

ممن كتب إلى بَنيه يُعزِّيهم فى مصابهم بفقده ، ويحضهم على الصبر من بعده ، تلميذه الكاتب الرييس أبو عبد الله بن الجنَّان :

دعونى وتِسْكاب الدموع السَّوابك ... فدعونى جميلُ الصبر دعوة آفك
أصبرٌ جميل فى قبيح حوادث ... خَلَعْن على الأنوار ثوب الحَوالك
تنكَّرت الدنيا على الدِّين ضِلَّة ... ومن شِيمة الدنيا تنكُّر فارك

فصبحنا حُكم الردى بردائـه … فتِلْك وهَذِى هالك فى المهالك
عفا طللٌ منها ومنه فأصبحنـا … شَريكَىْ غِماز فى تِلاً مُتـدارك
فلا بهجةٌ تُبدى مسرّةَ ناظـر … ولا حجّةٌ تُهدى بحجة سـالك
وما انتظم الأمران إلا ليؤذنا … بأمرٍ دها سَير النجوم السّوابك
وإنّ لمنشور الوجود انتظـاره … يـكفى فنًا للفنـا بواشـك
أما قد علمنا والعقول شـواهد … بأنّ انقراض العلم أصل المهالك
إذا أهلك الله العلوم وأهْلهـا … فما الله للدهـر الجهول ببـارك
هل العلم إلاّ الرّوح والخلق جثة … وما الجسم بعد الروح بالمتماسك
وما راعنى فى عالم الكون حادثٌ … سوى حادث فى عالم ذى مدارك
لذلك ما أبـكى كأنى مُتيّم … أتـم ما أبْقى لإسمى بَعْد مالك
وسهلٌ عندى أن أرى الحزن مالكى … مصابى بالفيّاض سهلُ بن مالك
إمامُ هدًى كُنّا نقـلّد رأيـــه … كتقليد رأى الشّافعى ومـالك
غمام سُدًى كنا عهدنا سماحه … بساحل دارات العمـاد الحوائك
أحقًّا قضى الجلال وقُوِّضت … مبانى معـالٍ فى السماءِ سَوامِك
وأقفر فى نَجْدٍ من المجد رَبْعُه … وعَمْر قبرٌ مفرد بالدَّكـادك
وغبّ طودٌ فى صعيـد بمَلْحَـد … وغِيضٍ فجرٌ فى يدى مُتَلاحِك
ووارى شمسَ المعارف غيهبٌ … من الخَطْب يردى بالشّموس الدّوالك
إلا أيها النّاعى لك الثّكل لا … تَفُه بِهلْك الدّواهى الدّواهك[1]
لعلك فى نَعْى العُلا متكذّب … فكم ماحِلٌ من قَبْل فيه وماحك
يُكَذِّبهم ياليت أنك مثلهم … تواتُر أخبـارٍ وصِدْق مـالك
فيا حُسْن ذاك القول إذْ بان كَذِبه … ويا قُبحه والصِّدق بادى المسالك

---

(١) الدواهك أى الطاحنة الساحقة .

فللدار جفّوا فيه وقلبي راجفٌ ... مخافة تصديق الظُّنون الأوافِك
كأنَّ كمال الفضل كان يسُومُهم ... فأبْدوا على نغص هو مُتمالك
كأنَّهم يَستَبطون أُيسومةً ... كما اسْتَبْطأً الـ ....[1] فاتك
كأنَّهم مُستمطرون لعارض ... كعارض عاد للتجلُّد عـارك
بل إنهم قد أرْهَصوا لرزيَّة ... تُضَعْضع رُكن الصَّابر المتمالك
فقد كان ما قد أنذروا بوقوعه ... فهل بعده للصبر صوْلةُ فاتك
مصاب مصيب للقلوب بسيِّد ... رمى عن قِسىٍّ لليالى عـواتك
بكت حسنها الغَبْراءُ فيه فأَسْعَدت ... بأدمعها الخضراء ذات الحَمايك
على عَلَم الإسلام قامت نـوادب ... بَهِتْن مباك أو بَهِتِّم مضـاحك
فمن سِيَةٍ سَنَت على الرأس تُربها ... ومَكْرَمة ناحت لأكـرم هـالك
ومن آية تبكى بنور صبحها ... إذا قام فى جُنْح من الليل حالك
ومن حكمة تبكى لفقد مُفَجِّر لينْبُوعها ... السِّلسال فى الأَرْض سـالك
فيا أسفى مَن للهوى ورسومه ... ومن لمُنيخٍ عند تلك المَبارك
ومن للواء الشَّرع يرفع خفْضه ... ويمنع من تمزيقه كفَّ هـاتك
ومن لِكتاب الله يدرس وَحْيه ... ويَقْبس منه النور غير مُتارك
ومن لحديث المصطفى وماجد ... يبين بها فى فهمه ومُتـارك
ومن ذا يُزيل اللَّبس فى مُتَشابه ... ومن ذا يُزيح الشَّك عن مُتَشابك
ومن لليراع المُصْفَرِّ طابت بكفِّه ... فصارت طَوال الشمس مثل النيازك
ومن للرُّقاع البيض طابت بطيبه ... فجابت إلى الأملاك سُبْل المسالك
ومن لمقام الحفل يصدع بالتى ... تَغَصُّ لقسٍّ من جناح المدارك
ومن لمقال كالنُّضار يخلص ... لإبْريزه التِّبريز لا للسَّبايك

(١) بياض بالمخطوط .

ومن لفِعال إن ذكرت بنــاه ... فعال وإن تُنْشَر فمِسْكَة فـارك
ومن لخلالٍ كرُمَت وضَـرايِر ... ضروبن بقدحٍ في عتاب الضَّرايك
ومن لشعار الزهد أخفى بالفنـا ... ففي طيِّه فضل الفضيل ومالك
ومن لِشعاب المجد أو لشعوبه ... إذا اختلطت ساداته بالصَّعالك
ألا ليس من فاكْفُف عُويلك أوفرِدِ ... فما بعد سهلٍ في العُلى من مُشارك
أُصِبْنا فيالله فيه وإنما أُصبنـا ... لعَمْرى فى الذُّرى والحَـوارك
فنادِ بأَفْلاك المحامد اقصُـرى ... فلا دَوَران بل قُطْب المـدارك
وصِح يالبناء اليوم أقْوَيت منزلا ... بوَطْىء المنايا لا بوطىء السَّنابك
على هذه حام الحِمام محنِّـقًا ... ثمانين حَوْلاً كالعدوِّ المُضاحك
فسالَمهُ فى مَعْرك الموت خادعا ... وحاربَه إذ جاز ضَنْك المعارك
طواك الرَّدى مهما يُساكن فـإنَّه ... مُحَرِّك جيش ناهبِ العيش ناهك
نبا سَبا قُدُما وهى السَّـكاسك ... ونم يأْلُ عن خَونٍ لحايزٍ ومالك
وأفْنَى من أبناء البرايا جموعها ... وألْق البرَايا بالرغم فوق البَرامك
سواءٌ لديه أن يصول بقلبك من ... للناس ناس للتقى أو بنـاسك
ولو أنه أرْعَى على ذى كـرامة ... لأَعْيى على المختار نجل العواتك
ولو راعه عُمرٌ تكامل ألفُه لما ... راع نوحًا فى السِّنين الدَّكادك
وما من سبيل للدوام وإنمـا ... خُلقنا لأَرْحاء المَنُون الرَّامك
فيا آل سهل أو بنيه مخصصا ... ندا عموم فى غموم مـوالك
أعندكم أنى لما قد عـراكم ... أمانع صَبْرى لن يلين عزايك
فكيف أُعزِّى والتعزى مُحـرَّم ... علىَّ ولكن عادة الرِّمـالك
فإن فرحٌ يبدو فذلك تَـكرُّه ... لتجريعِ صاب من مصاب مُواعك
وإن كان صبراً إنها لحلومكم ... توابة فى مرِّ الرياح السواهك

ورثتم سنا ذاك المقدّس فارتقوا ... بأعلى سَنام من ذُرى العزّ نـامك
فلم يمض من أبنى من المجد إرثه ... ولم يلق ملكا تارك مثل مـالك
أتدرون لـم جَدّت ركاب أبيـكم ... كما جَدّ سير بالقِلاص الرواتِك
تذكّر فى أفق السماء قديمـه ... فَحنَّ إلى غَيْضٍ هنالك شـابك
وكلٌّ سما فى حضرة القدس حظه ... فلم يلب عنه بالحظوظ الركايك
فيا عجبامنا نبـكى مُهنّـا ... تبوأ دارا فى جـوار الملايـك
يلاقيه فى تلك المعانى رفيقُـه ... بوجه منير بالتّباشير ضـاحك
فلا تحسبوا أن النّوى غال روحَه ... لجسم ثَوى تحت الدّكادك سادك
فلو أنكم توشفتم بمـكانه ... رأيتم مقيما فى أعالى الأرايك
ينعَّم فى روض الرِّضـا ونجوده ... سحايب فى كُثبان مِسْكٍ عـواتك
كذلك وعد الله فى ذى مناسب ... من البرِّ صحّت بالتغنّى ومناسك
فيا رحمة الرحمن وافِى جنابه ... ويا روحه سلِّم عليه وبـارك
ويا لَوْعتى سيرى إليه برُقعتى ... وقصّى شجوناً من حديثى هنالك

حديث الأشجان شجون ، ووجوه القراطيس به كوجوه الأيام جُون ، فارْعِنى سمعك ،أبثُّك بثّى واكتئابى ، وأعِرْنى نظرة فى كتابى ، لتعلم ما بى ، فعندى ضربُ الأسى جِناية ، وعلى وِردى أطال باغى الأسى حمايه ، وعَبْرتى أبكت من القَطْر سِجامه ، وزَفْرتى أذكت من الجَمْر ضِرامه ، ومنى تعلّمت ذات الهَديل كيف تنوح ، وعنّى أخذت ذات الحسن كيف تغدو والهة وتروح ، فما مذعورة راعها القِناص ، وعِلق بواحدها حَبْل الجهالة فأَعْوَزه الخلاص ، فهى تتلفّت إليه والمخافة خلفها وأمامها ، وتتلهف عليه فتكاد تواقع فيه حِمامها ، بأخْفَق ضلوعا ، وأشْفَق رُوعا ، وأضيق مجالا ، وأوسع وَجالا ، وأشْغَل بالا ، وأشْعل بلبالا ، بل ما طلاها ، وقد

رآها ، ترى طِلاها ، فوقف حتى كاد يشركها فى الحين ، ويحصل من الشَّرك تحت جناحين . ثم أفلت وهو يشكُّ فى الإفلات ، ويشكو وِحْدته فى الفَلَوات ، بأَرهب نفسًا ، وأَجْنب أُنْسا ، وأَلهب حشًا ، وأَغلب توحُّشا ، وأَضيع بالمومات ، وأَضْرَع لغير الأَمَآت ، مُنِّى وقد وافى النبأُ العظيم ، ونثر الهُدى بكفِّ الرَّدى شمله النظيم ، وأصبح يعقوب الأَحزان وهو كَظيم . وقيل أُصيبت الدنيا بحبشتها وحسنها ، والدِّيانة بمُحَسِّنها وأَبى حُسْنها ، فحقٌّ على القلوب انْفِطارها ، وعلى العيون أن تَهْمى قطارها ، وعلى الصَّبر أن يمزِّق جلبابه ، وعلى الصَّدر أن يغلق فى وجه السُّلُو بابه . أَنعى الجليل السَّعى ، ورزيَّة الْجميل السَّجية ، ووفاة الكريم الصفات ، وفقد الصَّميم المجد ، وذهاب السَّمْح الوهَّاب ، وقبض روحانى الأَرض ، وانعدام معنى الناس ، وانهدام مَغْنى الإيناس ، وانكشاف شمس العِلم ، وانتِساف قُدْس الحِلم . يا له حادثاً جمع قديما من الكروب وحادثاً ، ومصابا جرَّع أَوصابا وأَضحى كلٌّ به مُصابا . لا جَرَم أَنى شربت من كأْسه مُسْتَمْفِضها ، وشرقت بها وبماءِ دمعى الذى ارفضَّ معها ، فغالت خَلَدى ، وغَالَبَتْ جَلَدى ، حتى غبتُ عنِّى ، ولم إدر بآلامى التى تعنِّى . ثم أفقت من سُكرى ، ونفقت مبدِّد فكرى ، فراجعنى التَّذكار والتمام ، وطاوعنى شجوناً يتعاطاه الحِمام ، فبكيت حتى خشيت أَن يعشينى ، وغشيت إذ غشِيَنى من ذلك أَليم ما غشِيَنى ، وظِلْت أَلقى انبجاسا للتَّرح يلقينى ، فتارة يُعنينى ، وتارة يبقينى ، فلو أن احْتدامى والتَّدامى وجفنى الدَّامى ، اطَّلعت على بعضه الخنساءُ ، لقالت هذه عَزْمة حزن ، لا يستطيعها النِّساءُ .

ذلك بأَن قِسْمة المراثى كقسمة الميراث ، وللذُّكران المزيَّة ، كان للسُّرور أَو للرَّزيَّة ، على الأُناث ، هذا لو وازن مُبكى مُبكيا ، ووارى ترابى فلكيا ،

إنا لنبكى نور علم ، وهى تبكى ظُلْمة جهل ، ونَدْبنى بجبل يُدعى سَهْل ، كان يتفجّر منه الأنهار ، وينهال جانبه من خشية الله أو ينهار ، فى مثله ولا أريد بالمثل سواه ، فما كان فى أبناء الجنس مَنْ ساواه . يحسن الجزع من كل مؤمن تقى ، ويقال للمتجلد ، لا تُنْزع الرّحمة إلاّ من شقى ، فكل جَفْن بعده جاف ، فصاحبه جِلف أوصاف ، وكل فؤاد لم تصدع له صفاته ، ولم تتغير لفقده صفاته ، فمتحَقّق عند العلماء معلوم ، أنه معدود فى الحجارة أو معدوم . فيا ليت شِعْرى يوم وُدِّع للتّرحال ، ودعا حاديه بشدّ الرّحال ، كيف كان حاضرُوه فى تلك الحال ، هل استطاعوا معه صبرا ، وأطاعوا لعَلْبيته أمرا ، أو ضعف احتمالهم ، وقوى فى مفارقة النفوس اغتمالهم . ويا ليت شِعرى ، إذ أفادوا الماء طهارة زائدة بغسل جلاله ، هل حنّطوه فى غير ثنايه ، أو كفّنوه فى غير خِلاله . ويا ليت شعرى إذا استقل به نعشه لأشْرَف ، ترفرف عليه المَليكة ويظلّله الرَّفرف ، هل رأوا قبله حَمْلة الأطوار على الأعواد ، وسير الكواكب فى مثل تلك المواكب ، فيأنُسُوا بالإلف ، ويرفعوا منكر الطرّف ، ويدعو لفيض من أثر ذلك الظَّرف . ويا ليت شعرى ، إذ ودّعوا درّة الوجود ، صدفة اللّحد المَجُود ، لم أثروا الثّرى على نفوسهم ، ورضوا الأرض مَغْربًا لأنوار شُموسهم . فهلا حَفروا له بين أحْناء الضلوع ، وجعلوا الصفيح صريح الحبّ والولوع . فيكونوا قد فازوا بقربه ، وجازوا فخْرا خُيّر لتُرْبه . ويا ليت شعرى إذا لم يفعلوا ذلك ولم يهتدوا هذه المسالك ، هل قضوا حقّ الحزن ، وسَقَوا جوانب الضّريح من عَبراتهم بأمثال المُزْن ، وهل اتصفوا بصفة الأسف أو قنعوا منها بأن وصفوها ، وهل تلافوا بقايا الأنفس ، بعد المفقود الأنْفَس ، وأتلفوه . فكل أسى لا تذهب النَّفْس

عنده ، فما هو إلا من قبيل التَّصنُّع . يا قدس الله مثوى ذلك المتوفى ، وما أظن الجَزَع تمَّم حقه ووفَّى . ولو درى الزمن وبنوه ، قَدْر من فقدوه ، لوجدوا المفاجى الفاجع ، أضعاف ما وجدوه . فقد فقدوا واحدا جامعا للعوالم ، وماجداً رافعا لأعلام المعالى والمعالم ، ومفَدًّى ثَقُل له فى الفدا ، ونفوس الأوِدَّاء والأعداء ، ومُبكىً ما قامت على مثله النَّوايح ، ولا حَسُنت إلاَّ فيه المراثى ، كما حسنت من قبل فيه المدايح . رحمة الله عليه ورضوانه ، وريحان الجِنان يحييه به رضوانه . من لى بلسان يقضى حق ندْبته ، وجَنان يقضى بما فيه إلى جُثَّته وتُربته ، وقد نبهنى حزنى عليه وبلَّدنى ، وتملَّكنى حصر الحسرة عليه وتعبَّدنى ، وأين يقع مُهَلْهل البديه ، مما يخفيه مُهَلهل الثُّكل ويُبديه . يمينا لو لبثت فى كهف الرويَّة ثلاثمائة سنين ، واستمددت سواد ألسنة الفصحاءِ اللسنين ، ما كنت فى تأبين ذلك الفصل المُبين من المُحْسنين ، إلا أنى أتيتُ بالطريف من بيانه والتَّليد ، ورثيت رُشْد كماله برثايه كمال ابن رشد أبى الوليد ، فأنشدت بنيه قوله فيه :

أخلاَّى إنى من دموعى بزاخر ... بعيدٌ عن الشَّطين منه غريقه
وما كان ظنِّى قبل فقد أبيكم ... بأن مصابا مثل هـذا أطِيقه
ولم أدر من أشْقى الثلاثة بعده ... أأبنـاؤه أم دهـرُه أم صديقه

ثم استوفيت تلك الأبيات والرسالة ، وأجريت بتَرْجيعها من دم الكَبِد ونجيعها عَبراتى المُسالة ، فحينئذ كنت أوفِّى المصاب واجبه ، وأشفِى صدورا صديَّة شجيَّة ، وقلوباً واجفَة واجبة . ولو أن ما رثى به نفسه الكريمة من نثر إساءته ، حين رأى الحين مغتصبا حشاشَة مكرماته . أثار كامن وجدى بألفاظه المُبكية ، ومعانيه التى تحلُّ من مزاد العيون الأوكية ، لاهبٌ لى رندا ، وأعقبنى صفاة تَنْدى ، وأطمعنى لى أن يعود

بكاي زبَدا . فقد بلغنى أنه لما وقف على ثنيَّة المنيَّة ، وعرف قرب انتقال السَّاكن من البَنِيَّة ، جمع بنات فكره ، كما جمع شيبة الحَمْد بنات خِدره ، وقال يا بنياتى ، قد آن ليومى أن يأتى فهل لكنّ أن ترينني ، فوضعن أكبادهن على الوشج ، ورفعن أصواتهن بالنَّشِيج ، وأقبلن يُرجِّعن الأناشيد ، ويفجعن القريب والبعيد ، حتى أومأ اليهنّ ، بأن قضين ما عليهن ، فيا إخوناه ، ومثلى بهذا النداء نخى وتاه ، إسهموا أخاكم فى ميراث تلكم الكَلِم ، واحموا فؤادا بالمُلِمِّ المؤلم قد كَلِم ، ولا تقولوا يكفيه ميراث الأحزان ، فتبخسوا وحاشاكم فى الميزان ، فإنى وإن تناولتها باليدين ، وغلبت عليها، فإنى صاحب الفريضة والدَّين ، فإنى لحظّى من ميراث الحكمة سائل ، ومع أنَّ لى حقًّا فلى ذمم ووسايل ، فابعثوا إلىَّ ما يُطارحنى فى أشجانى ، وأقف على رسمه فأقول شَجانى ، ولا أطلب من كلام ذلكم الإمام ، العزيز فَقْدُه على الإسلام ، قوله فى التصبير ، على الرزء الكبير . ووصاته ، لئلا يُلزمنى ، ولست بالمستطيع إصغاءً للمطيع لأمره وإنصاته ، فإن امتثلت أصبت قتلى بما نثلت ، وإن عصيت أبعدت نفسى من رضاه وأقصيت ، ولى فى استصحاب حالى أمل ، وما لم يرد خطاب لم يلزم عمل . على أنى وإن صاب وابل دمعى وصب ، وأصبحت يذكر المصاب الكلف الصَّب ، فلا أقول إلاَّ ما يرضى الرب ، فإنى أبكى عالماً كبيرا ، وعَلَما شهيرا ، تسعدنى فى بكايه المِلَّة ، وتنجدنى بوَجْده ، فأنا الكاتب وهى المُمِلَّة . وأما أنتم أيها الإخوة الفضلاءُ ، والصفوة الكرماءُ ، فقد تلقيتم وصْلته المباركة شفاها ، ورواى صدوركم بكلامه النافع وشفاها ، فلا يسعكم إلاَّ الامتثال ، والصبر الذى تُضْرب به الأمثال ، فعزاءً عزاءً ، وانتماءً إلى التأسِّى واعتزاءً ، وإن فضل رزة أرزاء ،

وكان جزءٌ منه يعدل أجزاءً ، فعلى قَدْرها تصاب العلياءُ، وأشد الناس بلاءً الأنبياءُ ثم الأولياءُ . ذلك لتبيّن فضيلة الرِّضاء والتسليم ، وتتعيّن صفات من يأتى الله بالقلب السّليم ، ويعلم كيف الكريم للكريم ، وكيف يحل الأجر العظيم ، وهب الله لكم فى مصابكم صبرا على قدره ، وسَكَبَ دِيم مغفرته على مثوى فقيدكم وقَبْره ، وطيّب بعَرْف روضات الجنّات جَنَبات قصره ، ونفعه بما كان أَوْدَعه من أسرار العلوم فى صدره ، وخلّفه منكم بكل سرى بحلّة المجد من كل بصدره .

قلت : ذكر الشيخ ابن الخطيب فى الأصل فى هذه الترجمة « الأعيان والوزراء » ، ستة من أهل هذا البيت ، كلهم يسمون بهذا الإسم ، عدا واحدا ، فإنه سمى بسعيد ، وذاك مما يدل على كثرة النباهة والأصالة والوجاهة ، رحمهم الله .

سليمن بن موسى بن سالم بن حسان بن أحمد بن عبد السلام الحميرى الكلاعى

بلنسى الأصل ، يكنى أبا الربيع ، ويعرف بابن سالم .

حاله

كان بقيّة الأكابر من أهل العلم بصُقع الأندلس الشّرق ، حافظا للحديث ، مبرِّزا فى نقده ، تام المعرفة بطرقه ، ضابطا لأحكام أسانيده ، ذاكرا لرجاله ، ريّان من الأدب ، كاتبا بليغا . خطب بجامع بلنسية واستُقضِى ، وعُرف بالعدل والجلالة ، وكان مع ذلك من أُولى الحزم والبسالة ، والإقدام والجزالة والشهامة ، يحضر الغزوات ، ويباشر بنفسه القتال ، ويُبلِى البلاء الحسن ، آخرها الغزاة التى استشهد فيها .

مشيخته

روى عن أبي القاسم بن حُبيش وأكثر عنه ، وأبي محمد بن عبيد الله ، وأبي عبد الله بن زَرْقون ، وأبي عبد الله بن حُميد ، وأبي بكر بن الجدِّ ، وأبي محمد بن سِيدبُونه ، وأبي بكر بن مُغاور ، وأبي محمد عبد المنعم ابن عبد الرحيم بن الفَرَس ، وأبي بكر بن أبي جمرة ، وأبي الحسن بن كوثر وأبي خالد بن رَفاعة ، وأبي جعفر بن حكَم ، وأبي عبد الله بن الفخار ، وأبي الحجاج بن الشيخ ، وأبي عبد الله بن نوح ، وأبي الحجاج بن أبي محمد ابن أيوب ، وأبي بكر عتيق بن على العبدرى ، وأبي محمد عبد الوهاب ابن عبد الصمد بن عتّاب الصّدفى ، وأبي العباس بن مضاء ، وأبي القاسم ابن سَمْحون ، وأبي الحسن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع الأشعرى ، وأبي زكريا الإصْبِهانى ، وأبي بكر أسامه بن سليم ، وأبي محمد عبد الحق الأزدى ، وأبي محمد الشاذلى ، وأبي الطاهر بن عوف ، وأبي عبد الله الحضرمى ، وجماعة غير هؤلاء من أهل المشرق والمغرب .

من روى عنه : روى عنه أبو بكر بن أبي جعفر بن عمر ، وعبد الله ابن حزب الله ، وأبو جعفر بن على ، وابن غالب ، وأبو زكريا بن العباس ، وأبو الحسن طاهر بن على ، وأبو الحسين عبد الملك بن مُفوز ، وابن الأبّار ، وابن الجنّان ، وابن المّواق ، وأبو العباس بن هرقد ، وابن الغمّاز ، وأبو عمرو بن سالم ، وأبو محمد بن بَرْطَلة ، وأبو الحسن الرعينى ، وأبو جعفر الطّنجالى ، وأبو الحجاج بن حَكم ، وأبو على بن الناظر .

تصانيفه

منها مصباح الظلم ، فى الحديث ، والأربعون عن أربعين شيخا لأربعين من الصحابة ، والأربعون السّباعية ، والسّباعيات من حديث الصّدفى ،

وحِلْية الأمالى فى المراقبات العوالى ، وتحفة الوداد ونجعة الرُّواد ، والمُسلسلات والإنشادات ، وكتاب الاكْتِفاء فى مغازى رسول الله ، ومغازى الثلاثة الخلفاء ، وميدان السابقين وحِلْية الصّادقين المصدَّقين فى غرض كتاب الاسْتِيعاب ، ولم يكمله ، والمُعْجم ممن وافَقَت كُنيته زوجه من الصحابة ، والإعلام بأخبار البخارى الإمام ، والمعجم فى مشيخة أبى القاسم بن حُبَيْش ، وبرنامج رواياته ، وجَنْى الرطب فى سَنِى الخطب ، ونكتة الأمثال ونَفْثة السِّحر الحلال ، وجهد النصيح فى معارضة المعرِّى فى خطبة الفصيح ، والامتثال لمثال المنبهج فى ابتداع الحكم واختراع الأمثال ، ومفاوضة القلب العليل ومنابذة الأمل الطويل بطريقة أبى العلا(١) المعرى فى ملقى السبيل ، ومجاز فُتْيا اللَّحن للاحن الممتحن يشتمل على مائة مسألة ملغَّزة ، ونتيجة الحب الصميم وزكاة المنثور والمنظوم ، والصحف المنشرة فى القطع المعشَّرة ، وديوان رسايله ، سفر متوسط ، وديوان شعره ، سفر .

شعره

من شعره ما كتب به إلى أبى بحر صفوان ابن إدريس ، عقب انفصاله من بَلَنْسية عام سبعة وثمانين وخمسماية :

أحنُّ إلى نجْد ومن حلَّ فى نجد ... وماذا الذى يُغنى حنينى أو يجدى
وقد أوطنوها وادعين وخلَّفوا ... مُحبَّهم رهن الصَّبابة والوَجْد
تَبين بالبَيْن اشتياقى إليهم ... ووجدى فساوى ما أجنَّ الذى يبدى
وضاقت على الأرض حتى كأنها ... وشاحٌ بخصر أو سوارٌ على زَنْد
إلى الله أشكو ما ألاقى من الجوى ... وبعض الذى لاقيته من جوى يُرْدِ

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (أبى على) . والتصويب من « الذيل والتكملة » .

فـراق أخـلاَّءٍ وصدُّ أحبَّـة ... كأن صروف الدهر كانت على وَعْد

فيا سَرحتى نجد نداءُ مُتَيَّم ... له أبدا شوق إلى سَرْحتى نجد

ظميت فهل طلٌّ يبرِّد لوعتى ... ضحِّيتُ فهل ظلٌّ يُسَكِّن من وَجْدِ

ويا زمنا قد مرَّ[1] غير مُذَمَّم ... لعل الأُنس قد تصرَّم من رد

ليالى نَجنى الأُنس من شجر المنا ... ونَقْطُف زهر الوصل من شجر الصَّد

وسُقياً لإخوان بأكْناف حايل[2] ... كرامُ السَّجايا لا يحولون عن عهد

وكم لى بنجد من سَرِىٍّ ممجَّد ... ولا كابن إدريس أخى البِشر والجدِّ[3]

أخو همة كالزَّهر فى بُعْد نَيْلها ... وذو خلق كالزَّهر غبَّ الحيا العد

تجمعت الأَضـداد فيه حميدة ... فمن خُلق سَبطٍ ومن حسبٍ جَعْد

أيا راحلا أودى بصَبْرى رحيلـه ... وفلَّل من عزمى[4] وثلم من حدِّ

أتعلم ما يلقى الفؤاد لبعدكم ... ألا مُذْ نأيتم لا يُعيد ولا يُبـد

فيا ليت شعرى هل تعود لنا المُنا ... وعيشٌ كما نَمْنَمَت حاشيتى برد

عسى الله أن يُدنى السرور بقربكم ... فيبدو بنا الشَّمل منتظم العِقد

ومن شعره فى النسيب وفقد الشباب :

توالت ليـال للغواية جونُ ... ووافى صباح للرَّشـاد مُبين

ركاب شباب أزْمَعت عنك رحلةً ... وجيش شَيْب جهَّزته مَنـون

ولا أكذب الرحمن فيا أُجنُّه ... وكيف وما يخفى عليه جَنين

ومن لم يخل أن الرِّياءَ[5] يشينه ... فمن مذهبى أن الرِّياءَ يشين

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بان) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حاجر) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (المجد) .

(٤) وردت فى الإسكوريال . (غزلى) والتصويب من النفح .

(٥) وردت فى الإسكوريال (الوفاء) والتصويب من النفح .

لقد ريع قلبى للشباب وفقْده ... كما ريع بالعِقْد[1] الفقيد ضنين

وآلمنى وخْطَ المشيب بلمّتى ... فخُطَّت بقلبى للشجون فنون

دليل شبابى كان أنْضَر منظرا ... وآنقَ مهما لا حظته عُيــون

شآها على عيشٍ تكدَّر صفوه ... وأُنْس خلا منه صَفًا وحَجون

ويا ويح فوْدى أو فؤادى كلما ... تزيّد شيبى كيف بعد يكون

حرام على قلبى سكونٌ بغرَّة ... وكيف مع الشَّيب المِضِّ سكون

وقالوا شباب المرءِ شعبة جنَّة ... فمالى عرانى للمشيب جُنــون

وقالوا شجاك حِدثان ما أتى ... ولـم يعلموا أن الحديث شجون

وقال فى الاستعانة والتوكل عليه :

أمولى الموالى ليس غيرك لى مولى ... وما أحـدٌ يا رب منك بـدا أوْلى

تبارك وجْهٌ وجَّهت نحـوه المنى ... فأوْزعها شكرا وأوسعها طَــوْلا

وما هو إلا وجهـك الدايم الـذى ... أقلُّ حُلى عليائه يُخْرس القَوْلا

تبرَّأت من حَوْلى إليـــك وقُـوَّتى ... فكن قوتى فى مطلبى وكن الحَوْلا

وهب لى الرضا مالى [سوى ذاك مُبْتغى][2] ... ولا لقيت نفسى على نَيْلها الهولا

وقـال :

مضت لى سبعٌ بعد عشرين حجة ... ولى حركات بعدها وسـكون

فياليت شعرى كيف أو أين أو متى ... يكون الذى لابُدَّ أن سـيكون

واستجاز المترجم به من يذكر بما نصه : المسئول من السادة العلماءِ أيمة الدين ، وهُداة المسلمين ، أن يجيزوا لمن ثبت اسمه فى هذا الاستدعاء ، وهم المولى الوزير العالم الفاضل الأشرف بهاءُ الدين أبو العباس أحمد

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (العلق) .

(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (سواك لمبتغى) والأولى أرجح .

ابن القاضى الأجل أبى عبد الرحمن بن على البَيْسانى ولولديه أبى عبد الله، محمد ، وأبى عبد الله الحسين وولده عبد الرحيم ، ولأولاد ولده أبى الفتح حسن ، وأبوى محمد عبد الرحمن ويوسف ، ولمماليكه سنقر وأخيه الصغير وسِنْجر التركيون ، وأئيد وأقسر الروميان ، ولكمال بن يوسف بن نصر ابن سابق الطباخ ، وللوجيه أبى الفخر بن بركات بن ظافر بن عساكر . ولأبى الحسن بن عبد الوهاب بن وَرْدان ، ولأبى البقاء خالد بن يوسف الشاذلى ولولده محمد ، ولمحمد بن يوسف بن محمد البزالى الإشبيلى ولولده ، ولعبد العظيم بن عبد الله المنذرى ولولده أبى بكر ، ولأبى الحسن ابن عبد الله العطّار ، جميع ما يجوز لهم روايته من العلوم على اختلافها ، وما لهم من نظم ونثر ، وإن رأوا تعيين موالدهم ومشايخهم ، وإثبات أبيات يخف موقعها ثراه من الزلل ، ومما يخالف الحق ، فعلوا مأجورين. وكتب فى العشر الأُخر من شهر ربيع الآخر سنة ثلاثين وستماية .

فكتب مجيزا بما نصه : قال سليمن بن موسى بن سالم الكَلاعى ، وكتب بيده ، تجاوز الله عنه ، وأقام بالعفو من أوده : إنى لما وقفت على هذا الاستدعاء ، أجاب الله فى مستدعيه المسمين فيه صالح الدعاء ، اقتضى حق المسئول له ، الوزير الأجل ، العالم الأشرف الأفضل بهاء الدين أبو العباس ابن القاضى الأجل، الفاضل العلم الأوحد ، ندرة الزمان ، ولسان الدهر ، وقسّ البيان ، أبى على عبد الرحيم بن على ، أعلى الله قدره ورفعه ، ووسم سلفه الكريم ونفعه ، تأكيد الإسعاف ، بحكم الإنصاف له ، ولكل من سمى معه . فأطلقت الإذن لجميعهم ، على تباعد أفكارهم وتدانيها ، وتباين أقدارهم وتساويها ، من أب سَنى ، وذرِّية عريقة فى النَّسب العلى ، ومماليك له تميزوا بالنسب المولوى ، وسُمين بعدهم ،

اعتلقوا من الرغبة فى نقل العلم ، بالحَبْل المتين ، والسبب القوى .
والله يالغ بجميعهم ، من تدارك الآمال أبْعد الشأْو القَصِى ، ويجريهم من مساعدة الإمكان ، ومسالمة الزمان ، على المنهج المرضى ، والسنن السَّوى ، أن يحدِّثوا بكل ما اشتملت عليه روايتى ، ونظمته عنايتى ، من مشهور الدواوين ، ومنثور الأجزاء المنقولة عن ثقات الرَّاوين ، وغير ذلك من المجموعات فى أى علم كان من علوم الدين ، وكل ما يتعلق بها من قرب أو بعد ، مما يقع عليه التَّعيين ، وبما يصح عندهم نسبته إلىّ من مجموع جمعته ، ومنظوم نظمته ، أو نثر صنعته . الإباحة العامة على ذلك آتية ، ومقاصد الإسعاف لرغباتهم فيه مطاوعة وموافية ، فليرووا عنى من ذلك مُوفَّقين ، ما شاءوا أن يرووه ، وليَلْتَزموا فى تحصيله أولا ، وأدايه ثانيا ، أوفى ما التزمه العلماء واشترطوه . ومن جلّه شيوخى وصدورهم ، الذين سمعت منهم ، وأخذت بكل وجوه الأخذ عنهم ، القاضى الإمام الخطيب العلامة ، أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن حُبَيْش ، آخر أيمة المحدثين بالمغرب رضى الله عنهم . والإمام الحافظ الصدر الكبير أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرج بن الجدّ الفهرى . والفقيه المشاور القاضى المسند أبو عبد الله محمد ابن أبى الطيب . والفقيه الحافظ أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجى . والقاضى الخطيب النحوى أبو عبد الله محمد بن جعفر بن حُميد . والأُستاذ الحافظ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن جُمهور القيسى . والشيخ الراوية الثقة أبو محمد عبدالحق بن عبد الملك بن بونه بن سعيد بن عصام العبدرى . والشيخ الصالح أبو جعفر أحمد ابن حكم القيسى الحصّار الخطيب بجامع غرناطة . والفقيه القاضى

الأجزل أبو العباس يحيى بن عبد الرحمن بن الحاج . والقاضى الفقيه الحسيب أبو بكر بن أبى جمرة . والقاضى أبو بكر بن مغمور . والقاضى المسند أبو الحسين عبد الرحمن بن ربيع الأشعرى . وسوى هولاء ممن سمعنا منه كثيراً ، وكلهم أجازنى روايته وما سمعه . وقرأت على الخطيب أبى القاسم بن حبيش غير هذا وسمعت كثيراً ، وتوفى رحمه الله بمرسية فى الرابع عشر لصفر لسنة أربع وثمانين وخمسماية . ومولده سنة أربع وخمسماية على ما أخبرنى به رحمه الله ورضى عنه .ومما أخذته عن الحافظ أبى بكر بن الجد بإشبيلية بلده ، مُوَطَّأ مالك ، رواية يحيى بن يحيى القرطبى ، أخبرنى به عن أبى بحر سُفيان بن العاصى الأسدى الحافظ ، سماعا بأسانيده المعلومة . وتوفى الحافظ أبو بكر سنة ست وثمانين . وقرأت على الفقيه أبى عبد الله بن زرقون أيضا موطأ مالك ، وحدثنى به عن أبى عبد الله الخولانى إجازة ، قال سمعته على أبى عمرو عثمان بن أحمد بن يوسف اللخمى؛عن أبى عيسى يحيى بن عبد الله بن أبى عيسى، عن عمر أبيه عبيد الله بن يحيى الليثى عن أبيه عن مالك بن أنس ، رضى الله عن جميعهم . ولا يوجد اليوم بأندلسنا ومَغْربنا بأعلى من هذه الأسانيد . وممن كتب لى بالإجازة من ثغر الإسكندرية الإمام الحافظ مُفْتى الديار المصرية ورئيسها أبو الطاهر بن عوف ، والفقيه الحاكم أبو عبد الله بن الحضرمى ، والفقيه المدرس أبو القاسم بن فِيرُه ، وغيرهم. نفعنا الله بهم ، ووفقنا للإقتداء بصالح مذهبهم . وأما المولد الذى وقع السؤال عنه ، فإنى ولدت على ما أخبرنى أبواى رحمهما الله ، بقاعدة مرسية ، مستهل رمضان المعظم سنة خمس وستين وخمسماية . ومما يليق أن يكتب فى هذا الموضع ما أنشدنى شيخا الفقيه أبو بكر عبد الرحمن بن

محمد بن مغاور رحمه الله فى منزله بشاطبة سنة ست وثمانين وخمسماية ، وهو بقيّة مشيخة الكتّاب بالأندلس لنفسه ، مما أعده ليكتب على قبره:

أيها الواقف اعتباراً بقبرى   استمع فيه قول عظمى الرميم
أوْدَعونى بطن الضريح وخافوا   من ذنوب كلْومها بــأديم
قلت لا تجزعوا علىَّ فــإنى   حسن الظّن بالرؤوف الرحيم
ودعونى بما اكتسبت رهينــاً   غَلِق الرّهن عند مولى كريم

انتهى . وكتب هذا بخطه فى مدينة بلنسية حماها الله ، سليمن بن موسى بن سالم الكلاعى ، فى الموفى عشرين لجمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثين وستماية . والحمد لله رب العالمين .

وفــاته

كان أبدا يقول إن منتهى عمره سبعون سنة لرؤيا رآها فى صغره ، فكان كذلك ، واستشهد فى الكاينة على المسلمين بظاهر أنيشة[1] على نحو سبعة أميال منها ؛ لم يزل متقدما أمام الصفوف زحفا الى الكفار ، مقبلا على العدو ، ينادى بالمنهزمين من الجند يفرون ، حتى قُتل صابرا مُحْتسبا ، غداة يوم الخميس لعشر بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وستّماية.

ورثاه أبو عبد الله بن الأبّار رحمه الله بقوله :

---

(١) موقعة أنيشة أو إنيجة سميت باسم الحصن والتل الذى وقعت فى ظاهره ، وهو يقع على نحو سبعة أميال من شمالى بلنسيه . وكان من أمنع حصون بلنسية الأمامية . وقد هدمه الأمير أبو جميل زيان ، أمير بلنسية حتى لا يستعمله الأرجونيون قاعدة لمهاجمة المدينة . ولكن الأرجونيين احتلوا مع ذلك الربوة التى كان يقع عليها الحصن . وصمم الأمير زيان على إسترداد هذا الموقع ، وحشد جيشاً جراراً ، وسار فى قواته شمالا ، ونشبت بين المسلمين والأرجونيين بقيادة ملكهم خايمى الأول فى ظاهر تل أنيشة معركة عنيفة هزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، وقتل منهم جماعة كبيرة ، وكان من بين القتلى عدد كبير من علماء بلنسية ووجوهها يربى على السبعين . وكان ذلك فى عشرين من ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ الموافق ١٤ أغسطس سنة ١٢٣٧ م .

أَلِمَّا بأَشلاء العُلى والمكـــارم ... تُقَد بأَطْراف القنا والصّوارم
وعُوجا عليها مأربا وحفـــاوةً ... مصارعُ غُصَّت بالطُّلا والجماجم
تحيي وجوها في الجنــان وجيهة ... بما لقيت حُمرا وجوهُ الملاحم
وأجساد إيمـان كساها نجيعُها ... بحاسِدِ من نسيج(١) الظُّبا واللَّهاذم
مُكرَّمة حتى عن الدَّفن في الثرى ... وما يُكرِّم الرحمن غير الأَكارم
هم القوم راحوا للشهادة فاغتَدوا ... وما لهم في فوزهم من مُقَــاوم
تساقوا كؤوس الموت في حَوْمة الوغى ... فما لت بهم ميل الغصون النَّواعم
مضوا في سبيل الله قُدُما كأنما ... يطيرون من أقدامهم بقــــوادم
يرون جوار الله أكبـــر مَغْنم ... كذاك جوار الله أسْنى المغانم
عظائمُ نالوها فخاضوا لنيلهـــا ... ولا رَوْع يثنيهم صدور العظائم
وهان عليهم أن تكون لحُودهم ... مُتُون الرَّوابي أو بطون التَّهـايم
ألا بأبي تلك الوجوه سواهمًا ... وإن كنَّ عند الله غيرُ سَوَاهِم
عفا حُسْنها إلاّ بقـايا مبـاسم ... يعزُّ علينا وطْؤهـا بالمناسِم
وسُوِّر أسـاريــر تُنِير طـلاقة ... فتكْسِف أنـوار النجوم العَواتم
لئن وَكفَت فيها الدموع(٢) سحايبا ... فمن بارقات لُحْنَ فيها لشـائم
ويا بأبي تلك الجسوم نواحِـلا ... بإجرائها نحو الأُجور الجسـائم
تغلغل فيهـا كلُّ أسمر ذابل ... فجدَّل منها كلَّ أبيض نـاعم
فلا يُبعد الله الذين تقـرَّبوا ... إليه بإهـداء النفـوس الكرائم
مواقف أبْرار قضوا من جهـادهم ... حقوقا عليهم(٣) كالفُرُوض اللَّوازم
أُصيبوا وكانوا في العِبــادة أسوة ... شبابا وشِيبا بالغواشي الغواشم

---

(١) هكذا في الإسكوريال . وفي الذيل والتكلة (حوك) .

(٢) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي الذيل والتكلة (العيون) .

(٣) وردت في الإسكوريال (عليها) . والتصويب من الذيل والتكلة .

فعامل رمح دُقَّ فى صدر عـامل ... وقائِمُ سيف قُدَّ فى رأس قـائم
ويا رُبَّ صوَّام الهواجر واصـل ... هنالك مَضْرُوم الحيـاة بصارم
ومنقذ عانٍ فى الأداهم راسفٌ ... ينوءُ برِجْلى راسفٍ فى الأداهم
أضاعهم يوم الخميس حِفاظهم ... [وكرُّهم](١) فى المأزِق المُتلاحم
سقى الله أشلاءً بسَفْح أَنيشـة ... سوافحُ تُزجيها ثِقـال الغمايم
وصلَّى عليها أَنفُسًا طاب ذكرُها ... فطيِّب أَنفاس الرِّياح النَّواسم
لقد صبروا فيها كراما وصابروا ... فلا غرو أن فازوا بصَفْو المكارم
وما بذلوا إلاَّ نفوسا كريمـة(٢) ... تحنُّ إلى الأُخرى حنين الرَّوائم
ولا فارقوا والموت يُتْلع جيدَه ... فحيث التقى الجمعان صِدْقُ العزائم
بعيشك طارحنى الحديث عن التى ... أُراجع فيها بالدموع السَّواجم
وما هى إلاَّ غاديات فجـائع ... تُعَبِّر عنها رايحات مـآتم
جلائل دقَّ الصبر فيها فلم نُطِق ... سوى غضِّ أجفانٍ وعضِّ أباهِم
أَبِيتُ لها تحت الظلام كأنَّنى ... رمِىُّ نصال أو لَدِيغ أراقـم
أُغازل من بَرْح الأسى غير بارح ... وأَزْجُر من سأْم البكا غير سائم
وأعقد بالنجم المُشَرِّق ناظرى ... فيغْرُب عنى ساهراً غير نـائم
وأشكو إلى الأيام سوءَ صنيعهـا ... ولكنها شكوى إلى غير راحم
وهيهات هيهات العزاءُ ودونـه ... قَواصِم شتَّى أُرْدِفت بقَـواصم
ولو بردَّ السُّلوان حَرَّ جـوانحى ... لآثرت عن طوعٍ سُلُوَّ البهائم
ومن لى بسُلْوان يحل منفَّـراً ... بجاثٍ من الأرْزاءِ حولى جاثِم
وبين الثَّنـايا والمَخارم رِمَّةٌ ... سَرَى فى الثَّنـايا طيبُها والمخارم

(١) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى الذيل والتكلة .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل والتكلة (نفيسة) .

بَكَتْها المعالى والمعالم جهدها ... فمن لِلْمعالى بعدها والمعالم
سعيدٌ صعيدٌ لم تَرُمْه قرارة ... وأَعْظِم بها وسط العِظام الرّمايم
كأنَّ دمًا أذكى أديم تُرابها ... وقد مازجته الرِّيح مِسْك اللّطايم
يشقُّ على الإسلام إسلام مثلها ... إلى خامعاتٍ بالفَلا وقَشاعم
كأن لم تَبِتْ تغشى للسُّراة قبابها ... ويرعى حماها الصَّيد رَعْى السَّوايم
سفَحْتُ عليها الدمع أحمر وارساً ... كما تَنْثُر الياقوت أيدى النّواظم
وسامرتُ فيها الباكيات نوادياً ... يُورِقْن تحت الليل وُرْق الحمايم
وقاسمت فى حَمْل الرّزية أهلها ... وليس قسيم البرِّ غير المُقاسم
فوا أسفا للّدين أعْضَل داؤه ... وآيَسَ من أُسٍّ لمسراه حاسم
ويا أسفا للعِلْم أقْوت ربُوعه ... وأصبح مهدود الذُّرى والدَّعائم
قضى حامل الآثار[1] من آل يعرب ... وحاى هُدى المختار من آل هاشم
خبا الكوكب الوقَّاد إذ متّع الضحى ... ليخبطه فى ليلٍ من الجهل فاحم
وخابَتْ مساعى السّامعين حديثَه ... كما شاء يوم الحادث المتفاقم
فأَىُّ بهاءٍ غارَ ليس بطالع ... وأى سَناءٍ غاب ليس بقادِم
سلامٌ على الدُّنيا إذا لم يَلُح بها ... مُحيًّا سليمن بن موسى بن سالم
وهل فى حياتى مِتْعةٌ بعد موته ... وقد أسلمتنى للدَّواهى الدَّواهم
فهأناذا فى حَرْب[2] دهر مُحارب ... وكنت به فى أمْن دهر مُسالم
أخو العزّة القعساء كهلا ويافعا ... وأكفاؤه ما بين راضٍ وراغم
تفرَّد بالعلياء عِلماً وسؤدداً ... وحَسْبُك من عال على الشُّهب عالم
مُعرَّسه فوق السُّهى[3] ومقيله ... ومورِده قبل النُّسور الجَوائم

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل (الآداب) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل (خوف) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الذيل (السما) .

بعيدٌ مـداه لا يُشقّ غبـاره ... إذا فاه فاض السِّحر ضَرْبة لازم
يُفوض منه كلٌّ نـاد ومنبـر ... إلى ناجح مَسْعاه فى كل نـاجم
متى صادم الخطب الملمّ بخطبة ... كفى صادِماً منه بأكبر صادم
له منطق سهل النّواحى قريبها ... فإن رُمْته ألفيتَ صعْب الشّكايم
وسحر بيان فـات كـلّ مُفوِّه ... فبات عليه قارعًا سنّ نـادم
وما الرّوض حَلاّه بجوهره النّدى ... ولا البَرْد وشّقه أكفُّ الرّواقـم
بأبدع حُسْناً فى[1] صحائفه التى ... تُسَيِّرها أقـلامه فى الأقـالـم
يمانٍ كَلاعى نَمّاه إلى العـلا ... تمامٌ حَـواه قبل عَقْد التّمايم
يروق رُواق الملك فى كل مَشْهد ... ويُحسن وسْماً فى وجـوه المواسم
ويكثر أعلام البَسيطة وحـده ... كمال مِثال[2] أو جمال مقـاوم
لعا لزمان عاثرٍ من خـلالـه ... براقِ من الجلّى أصيب يـواقم
مُناد إلى دار السلام مُنـادم ... بها الحور واهاً للمنادى المنادم
أتاه رَداه مقبلاً غير مُدْبـر ... ليحظى بإقْبالٍ من الله دايـم
إماما لدين أو قِواماً لـدولـة ... تولّى ولم تلحقه لَوْمَـة لايم
فإن عابه حُسّاده شرَقـاً بـه ... فلن تَعْدم الحسناءُ ذاما بذايم
فيا أيها المخدوم سَامى[3] محلّه ... فِدىً لك من ساداتنا كلّ خـادم
ويا أيها المختوم بالفوز سعيُه ... ألا إنما الأعمال حُسن الخواتم
هنيئًا لك الحُسْنى من الله إنها ... لكل تِقىٍّ خِيمُه غير خـايم
تَبوّأت جّناتِ النعيم ولم تزل ... نَزيل الثريّا قبلها والنعـائم
ولم تـألُ عيشا راضيًا أو شهادة ... تَرى ما عداها فى عِداد المآتم

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل (من) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل (دعاك) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الذيل (عالى) .

لعمرى ما يَبْلى بلاؤك فى العِـدا ... وقد جَرَّب الأَبطال ذَبْل الهزايم
وتالله لا يَنسى مقامك فى الوغى ... سوى جاحدٍ نور الغزالة كـاتم
لقيتَ الرَّدى فى الرَّوع جَذْلان باسمًا ... فبوركْتَ من جذلان فى الرَّوع باسم
وحُمْت على الفردوس حتى وَرَدْتَه ... ففُزْتَ بأَشْتات المنا فَوْزَ غـانم
أَجِلُّك لا تُثنى عِنـاناً لأَوْبة ... أداوى بها بَرْح الغليل المُداوم
ولا أنت بعد اليوم واعد[1] هبَّة ... من النوم تحدُونى إلى حال حـالم
لسُرْعان ما قَوَّضت رحْلك ظاعناً ... وسِرت على غير النواحى[2] الرَّواسم
وخلَّفت من يرجو دفاعك يائساً ... من النَّصر أثناء الخطوب الصَّرايم[3]
كأنى للأشجان فـوق هواجـر ... بما عادنى من عاديات هَـواجـم
عَدِمْتُك مفقوداً[4] يعزُّ نظيره ... فياعزَّ مَعْدوم ويا هَوْن عـادم
ورُمتك مطلوباً فأَعْيىَ منالـه ... وكيف بما أعْيىَ منالا لرايم
وإنى لمحزون الفُؤاد صديعُه ... خلافا لسالٍ قلبه منك سـالم
وعندى إلى لقياك شوق مبرِّح ... طوانى من حامى الجوى فوق جاحم
وفى خَلَدى والله ثَكْلُك خالـدٌ ... أَليَّة بَـرٍّ لا أَليَّة آثـم
ولو أنَّ فى قلبى مكانا لسَلْوة ... سلوتُ ولكن لا سُلُوَّ لهائـم
ظلمتُك أن لم أقض نعماك حقَّها ... ومثلى فى أمثالها غيرُ ظـالم
يطالبنى فيك الوفاء بغـاية ... سموت لها حِفظاً لتلك المراسم
فأبكى لشلْوٍ بالعراء كما بكى ... زياد لقبرٍ[5] بين بُصرى وجاسم
وأعبد أن يمتاز دونى عَبْدَةٌ ... بعلْياء فى تأبين قيسَ بن عاصم

---

(١) هكذا فى الذيل ، وفى الإسكوريال (راعد) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل (النواجى) . والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل (الضرائم) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل (موجودا) .

(٥) هكذا وردت فى الذيل . وفى الإسكوريال (لقفر) . والأولى أرجح .

وهذى المراثى قد وفيت برَسْمها مُسهَمة جَهْد الوفىِّ المُساهِم
فمدَّ اليها رافعا يد قابلٍ أكبَّ عليها خافضاً فَمَ لاثِم

ومن القضاة فى هذا الحرف

سلمون بن على بن عبد الله بن سلمون الكنانى

من أهل غرناطة يُكنى أبا القاسم ، ويُدعى باسم جده سلمون ، وقد مرّ ذكر أبيه وأخيه .

حاله

من أهل العلم والهُدى الحسن ، والوقار ، قديم العدالة ، متعدِّد الوَلاية ، مضطلع بالأحكام ، عارف بالشروط ، صَدْرٌ وقته فى ذلك ، وسابق حَلْبته إلى الرواية ، والمشاركة ، والتّبجُّح ، فى بيت الخير والحشمة ، وفضل الأُبوة والأُخوة . قلّ فى الأندلس مكانٌ شذَّ عن ولايته ، وناب عن القضاة بالحضرة ، فحُمد نفاذه ، وحسنت سيرته . ثم وُلِّى مستبدًّا فى الدولة الباغية ، وخاض فى بعض أهوائها ، بما جرّ عليه عَتَبًا ، فعقبه الإعتاب عن كَثَب .

تواليفه

ألّف فى الوثائق المرتبطة بالأحكام كتابا مفيدا ، نسبه بعض معاصريه إلى أنّه قيده عن شيخه أبى جعفر بن فَرْكون ، ودوّن مشيخته .

مشيخته

أجازه الراوية المعمر أبو محمد بن هرون الطائى ، والشيخ المسن أبو جعفر أحمد بن عيسى بن عياش المالقى ، والشيخ الأديب أبو الحكم بن المرحّل ،

والعدل أبو بكر بن إسحاق التجيبي ، والقاضي أبو العباس بن الغمّاز ، والفرضي أبو إسحق التّلمساني ، وأبو الحسن بن عبد الباقي بن الصواف ، والمحدث أبو محمد الخلاسي ، والراوية أبو سلطان جابر بن محمد بن قاسم ابن حيّان القيسي ، والوزير أبو محمد بن سِماك ، والشيخ المدرس بالديار المصرية أبو محمد الدّمياطي ، والمقرى الرّاوية أبو عبد الله بن عيّاش ، وأبو الحسن بن مضاء ، والمحدث أبو عبد الله بن النجار ، وأبو زكريا بن عبد الله بن محرز ، والمقرى أبو بكر بن عبد الكريم ابن صدقة السّفاقُسى ، والشيخ زين الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن القرشي العونى ، وأبو القاسم الأيسر الجذامى ، وشهاب الدين الأبرقوسى ، والعدل أبو فارس الهوارى ، وأبو الكرم الحميرى ، وأبو الفدا بن المعلم ، والشريف أبو الحسن القرافى ، وأبو عبد الله بن رحيمة ، والشيخ أبو عبد الله بن اللبيدى ، وأبو الحسن بن عطية البودرى ، وأبو محمد ابن سعيد المسرّاتى ، وأبو عبد الله بن عبد الحميد ، والخطيب أبو الحسن ابن السفّاج الرُّندى ، وأبو محمد بن عطية ، والوزير أبو عبد الله بن أبي عامر ابن ربيع ، والعدل أبو الحسن بن مَسْتقور ، والخطيب أبو عبد الله ابن شعيب ، والشريف أبو على بن طاهر بن أبي الشرف ، والأستاذ أبو بكر ابن عبيدة . وقرأ على الأُستاذ أبي جعفر بن الزبير ، وبرنامج رواياته نبيه .

مولده : عام خمسة وثمانين وستماية .

ومن المحدثين والفقهاء وسائر الطلبة النجباء بين أصلي وغيره

سعيد بن محمد بن ابراهيم بن عاصم بن سعيد الغسانى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عثمن .

حاله

هذا الرجل من أهل الذكاء والمعرفة والإدراك ، يقوم على الكتاب العزيز حِفْظاً وتدريسا ، ويشارك فى فنون ، من أُصول وفقه وحساب وتعديل ، ومعرفة بالإلمامات الشُّعاعية . يكتب خطًّا حسنا ، وينظم الشعر ، ويحفظ الكثير من النِّتف والأخبار ، مقتصد ، منقبض عن الناس ، مشتغل بشأنه ؛ قيد الكثير ، يسير إلى لزمانة ، أصابت أُختها ، بما يدل على نشاطه وهمته .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ الخطيب أبى القاسم بن جُزى ، ورحل إلى العُدْوة ، فلقى بفاس وتلمسان جُمْلة ؛ كالأُستاذ أبى إسحق السَّلاوى التلمسانى ، وأبى العباس أحمد بن عبد الرحمن المكناسى من أهل فاس ، والحاج ابن سبيع وغيرهم . واستدعيته لتأْديب ولدى أسعدهم الله ، فبلوت منه على السنين ، نَصْحاً وسلامة ودينا وعفّة .

شعره

جرى ذكر فى « الإكليل الزاهر » بما نصه : ممن يتشوّق إلى المعارف والمقالات ، ويتشوّف إلى الحقائق والمجالات ، ويشتمل على نفْس رقيقة ، ويسير من تعليم القرآن على خير طريقة ، ويعانى من الشِّعر ما يشهد بنُبْله ، ويُستطرف من مثله . فمن شعره قوله :

لمَّا نأوا فى الظَّاعنين وساروا ... أضحت قلوب العاشقين تَحار
تركوهم فى ظُلمة وتوحُّش ... ما انجابت الأَضواءُ والأَنوار
ذهبوا فأَبقوا كل عقل ذاهلا ... ولكل قلب بالنُّزوح مطار
ظَعَنوا وقد فَتَنوا الورى بجمالهم ... عَبَثوا بأَفئدة الأنام وحارُ

ما ضرَّهم قبيلَ النَّوى لو ودَّعوا ... ما ضرَّهم لو أعلموا إذ ساروا
فقلوبنا من بعدهم فى فجْعة ... ودموعنا من بعدهم أمطار
يا دار أين أحبَّتى ووصالنا ... أين الذى كُنَّا به يا دارُ
كنا نذيع به عَبير حديثنا ... وكلامُنا الألطاف والأشعار
والطَّير تتْلُو فَوقنا نَغَماتها ... والدهر يسمح والمُدام تدار
ولطالما بِتْنَا وبات رقيبُنا ... فى غفلة قُضِّيت بها الأوطار
هل زمن تقادم عهده ... نلنا بها النُّعْمى ونحن صغار
فلا تَنْز على الوصال وابكينَّ ... ما دامت الآصال والأسحار

ومن المقطوعات :

وكم عذَلونى فى هواه وما رأوا ... محيَّاه حتى عاينوه وسلَّموا(١)
وقالوا نعم هذا الكمال حقيقةً ... فحطُّوا وجاءُوا صاغرين وسلَّموا

وكتب إلىَّ صحبة كتاب أعرته إياه ، عقب الفراغ من مطالعته :

هذا كتاب كلٌّ مُعْجَم ... أفحمنى معناه إفحاما
أعْجَمَه مُنشئُه أوّلا ... وزاده النَّاسخ إعجاما
أسقط من إجماله جملة ... وزاد فى التفصيل أقساما
وغيَّر الألفاظ عن وَضْعها ... وصيَّر الإيجاد إعداما
فليس فى إصلاحه حيلةٌ ... تُرجى ولو قوبل أعواما

نثره

كتب إلىَّ شافعا فى الولد ، وأنا واجد عليه : من حلَّ محلَّ السيد نادرة الزمان ، وسابق حلْبة البيان ، فى رسوخ العلم ، والسُّمو فى درجة الحلم ، وأرْضعته الحِكَم دَرَّها ، وقلَّدته المعارف دُرَرها ، وجلَت عليه

(١) وردت فى الإسكوريال على النحو الآتى : (وسلموا)

بَدرها ، وجلبت إليه بذْرها ، كان بالحنوّ والرأفة خليقا ، وأن يهبَّ نسيمه لدنًا رفيقا ، وأن يتعاهد بالعطف غرسا فى زاكى تربتة ظلى ، وإلى مَحْتده المنجب وفضله المنجب انتمى ، فيلحفه من الرحمة جناحا ، ويطلع عليه فى ليل الوحْشة المؤلمة من نور صفحه عن هفوته مصباحا ، والذنب إذا لم يكن عقوقا ولا سوء أدب ، وكان فى المماليك والقيم المالية مُغْتفر ، عند الأكابر مثله من ذوى الرتب ، وقد بلغ فى الاعتراف غاية المدى ، وانْدَمل الجُرح الذى أصابته المُدى ، والبون واضح فى المقاييس ، بين المرؤوس والرئيس ، وشتّان بين الزيف والجوهر النفيس . ومع أن الولد كمد ، فهو للنفس ريحانة ، وفى فصٍّ خاتم الإنسان جُمانة ، وقد نال منه هذا الإمضاء ، والصارم يتخذ فيزيد منه المضاء ، وهو يرتجى كل ساعة ، أن يفد عليه البَشير برضاك ، فيستأْنف جهورا ، وينقلب إلى أهله مسرورا ، والله يبقيك ، والوزارة ترفل منك فى مظهر حُلَل ، ويريك فى نفسك وبَنيك غاية الأمل .

مولده : التاسع لذى الحجة عام تسعة وتسعين وستماية ، وهو الان على حاله الموصوفة .

ومن الكتاب والشعراء

سهل بن طلحة

من أهل غرناطة ، يكنى أبا الحسن .

حاله

كان ظريفا ، عنده مشاركة فى الطّلب . مدح ولى العهد أبا عبد الله

ابن الغالب بالله بشعرٍ وسط ، فمن ذلك قوله من قصيدة أولها :

أنا للغرام وللهوى مدفوع ... فمتى السّلوُّ ووصْلُها ممنوع

يقول أيضا منها بعد كثير :

يا حبذا دارٌ لزينب باللِّوى ... حيث الفؤاد على الهوى مطبوع
ياحادىَ العيس التفت نحو اللِّوى ... إنى بسكان اللِّوى مَفْجوع
وعِجِ المطىَّ بلَعْلع وبرامة ... فهناك قلب للشَّجى مروع
أطلال آرام وبيضٌ خُرَّدٌ ... هنَّ الأهلَّة بالجيوب طُلوع
فى ظَبْيةٍ من بينهن تصدُّنى ... حُسْنا ولى أبداً إليه نُزوع
حوراءُ جايرةٌ علىَّ بحكمها ... ظُلمًا وإنى مُذْعن وسميع
تَفْنَى الليالى والزمان وأنقَضِى ... كمدا ولا نبأٌ لها مسموع
فياليت هل دهر يعود بوصلها ... فيكون للعيش الخصيب رجوع
وتعود أيام السُّرور كمثل ما ... قد عاد روح حياتها والروع
فقدوم مولانا الأمير محمد ... خير الملوك ومن له التَّرفيع

وفاته : كان حيًّا سنة اثنتين وخمسين وستماية .

سالم بن صالح بن على بن صالح بن محمد الهمدانى

من أهل مالقة ، يكنى أبا عمرو ويعرف بابن سالم .

حاله

قال الأُستاذ أبو جعفر بن الزُّبير : كان أَديبا مُقَيِّدا . كتب بخطِّه كثيرا ، وانتسخ أجزاءً عدَّة ، واجتهد وأكثر ، وكان مُتَبذِّلا فى لباسه ، متواضعا ، مقتصدا ، مليح المُجالسة ، حسن العشرة ، جليل الأَخلاق ، فاضل الطبع .

مشيخته

روى عن الحافظ أبى عبد الله بن الفخّار ، وأبى زيد السهيلى ، وأبى الحجاج بن الشيخ ، وأبى جعفر بن حكَم ، وأبى بكر بن الجَد ، وأبى عبد الله بن زَرْقون ، وأبى محمد بن عبيد الله . وشارك فى كثير من شيوخه أبا محمد القرطبى ، وكان يناهضه .

دخوله غرناطة

دخلها ، وأقام بها ، وأخذ عن شيوخها ، وتردد إليها .

شعره : قال فى رُمْح :

أنا الرُّمح المُعَدُّ إلى النوايب ... فصاحِبنى تجدنى خير صاحب
لئن فَخَر اليراع بكتْب خطٍّ ... فلخطِّى فخــرٌ بالكتــايب

ومما كتب له ابن خميس قوله :

إلهى قد عصينـا منك ربّـاً ... تعلَّى أن يُقـابل بالمعــاصى
فكيف خلوصُنا من هَوْل يوم ... تَشِيب لهوله سُود النَّواصى

وجلب شعرا كثيرا دون شُهْرته ، وما ذكر به . وتوفى بمالقة ليلة الإثنين لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان المعظم سنة عشرين وستماية .

حرف الهاء من الملوك والأمراء

هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد بن عبد الله

أخو المُرتَضى المتقدم الذِّكر (١) ، يكنى أبا بكر ، ويلقب بالمُعْتَد بالله الخليفة بقرطبة .

---

(١) وردت ترجمة الخليفة المرتضى فى المجلد الثالث من الإحاطة (صفحة ٤٦٦ — ٤٦٧) .

صفته : أبيض أصهب ، إلى الأدمة ، سَبْط الشعر ، أَخْنَس ، خفيف العارض واللحية ، حسن الجسم ، إلى قصر ، أمه أم ولد تسمى عاتبا .

حـــاله

بويع له بالثغر ، فقرطبة أيام استقراره بحصن ألبُنْت[1] ، عند صاحبه عبد الله بن قاسم الفهرى . قال ابن حيان ، ثالبًا إياه على عادته ، قُلد الأمر فى سن الشيخوخة ، وكان معروفا بالشطارة فى شبابه ، وأقلع فُرجى فلاحه . وقال ، دخل قرطبة فى زِىٍّ تقتحمه العين ، وهنًا وقلّة ، عديم رُواءٍ وبهجة ، وعَددٍ وعُدَّة ، فوق فرسٍ دون مراكب الملوك ، بحِلية مختصرة ، سادلا سَمْل غفارة على ما تحتها من كسوة رثّة ، قُدّامه سبع خبايب من خيل العامريين دون عَلَم ولا مضطرد ، يسير هَوْنًا والناس ينظرون إليه ، ويصيحون بالدعاء فى وجهه . فدخل القصر ، وقلّد حَكَما المعروف بالقزاز الأعمال والأمر ، وأطلق يده فى المال ، وهو الذى يقول فيه الشاعر :

هبْك كما تدّعى وزيـرا   وزيرُ من أنت يا وزيـــر
والله ما للأميـــر مَعْــنى   فكيف من وزير الأميـــر

وضعُف أمره ، وآثر الناس الوثوب على وزيره ، فأوقع به طايفة من الجند ، وثارت العامة بهشام فخُلع فى خبر طويل ، ودخل غرناطة مع أخيه المرتضى ، ولحق يوم هزيمته بظاهرها ، بحصن ألبُنْت إلى أن بويع له بقرطبة يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثمان عشرة وأربعماية .

محنته

---

(١) البنت أو ألبونت وبالإسبانية « Alpuente » مدينة حصينة فى شرق الأندلس ، تقع شمال غربى بلنسية على مقربة من نهر طوريه . وقد كانت أيام عصر الطوائف عاصمة لإمارة صغيرة مستقلة تحت حكم بنى قاسم الفهرى .

ثارت العامة به بقرطبة كما تقدم ، ملتفَّةً على أُمية بن عبد الرحمن ابن هشام بن سليمن بن عبد الرحمن الناصر، يوم الثلاثاء الثانى عشر لذى حجة من سنة اثنتين وأربعمائة ، بسوء تدبير وزيره ، وبادر الاعتصام بعِلْية القصر ، وأُنزل منها إلى ساباط الجامع بالأَمان ، فيمن تألَّف إليه من ولده وحريمه ، فحدَّث بعض سَدَنة الجامع ، أنَّ أوَّل ما سأل الشيوخ ، إحضار كسيرة من خبز يسدُّ جوع طُفَيلة له ، كان قد احتضنها ، ساترًا لها بكمه من قَرٍّ ليلته تلك ، كانت تشكو الجوع ذاهلة عما أحاط به ، فأبكى من كلَّمه اعتبارا بعادية الدهر . وأُخرج إلى حصن ابن الشرف إلى أن هلك .

وفاته : فى صفر ثمان وعشرين وأربعمائة . وسنه نحو أربعة وستين سنة . وكان آخر ملوك بنى أُمية بالأندلس .

ومن ترجمة الأعيان والكبرا والأماثل والوزرا

هاشم بن أبى رجاء الإلبيرى

الوزير ، يكنى أبا خالد .

حاله

كان من عظماء أهل إلبيرة وحِلْيتهم ، وهو الذى عاد الفقيه الزاهد أبا إسحق بن مسعود الإلبيرى فى مرضه ، وعَذَله على رداءة مسْكنه ، وقال له لو سكنْتَ دارا خيرا من هذه لكانت أولى لك ، فأجابه رحمه الله بقوله :

قالوا ألا تستجيدَ بيتاً تعجب من حُسْنه البيوت
فقلت ما ذاكم صوابٌ حقيرٌ كثيرٌ لمن يموت
لولا شِتاءٌ ولفحُ قيْظ وخوف لصٍّ وحفظ قوت
ونسوةٌ يبتغين كِنًّا بُنِيت بُنيان عنكبوت

وأى معنىً لحسن مَغْنىً ليس لسكّانه ثُبوت
ما لوعظ القبر لوعَقَلنا موعظة للناطق الصموت
يُومِى إلى مُمتطى الحنايا مالَكَ عن مضجعى عَميت
نسيت يومى وطول نومى وسوف تَنْسى كما نسيت
وشُدْتَ ياهادى قصورًا نَعِمْت فيهنَّ كيف شِيت
معتنقاً للحسان فيها مُسْتَنْشقاً مِسْكها الفَتِيت
تسحب ذيل الصِّبا وتلهو بآنسات يَقُلْن هِيت
فاذكر سُهادى قبل التّنادى واشهد له قبل أن يفوت
فعن قريب يكون ظعنى سَخِطْتَ يا صاح أم رضيت

حرف الياء : الملوك والأمراء

يوسف بن إسمعيل بن فرج بن إسمعيل بن يوسف بن نصر الأنصارى الخزرجى

أمير المسلمين بالأندلس ، أبو الحجّاج .

حاله وصفته

كان أبيض أزهر ، أيْداً ، برّاق الثنايا ، أنْجل ، رَجل الشَّعر أسوده ، كثّ اللحية ، تقع العين منه على بدر تمام ، يفضل الناس بحُسْن المرأى، وجمال الهيئة ، كما يفضلهم مقاماً ورتبة ، عذب اللسان ، وافر العقل ، عظيم الهيبة ، إلى ثقوب الذهن ، وبُعد الغُور ، والتفطُّن للمعاريض ، والتّبريز فى كثير من الصنائع العملية ، مائلا إلى الهدنة ، مُزْجيا للأمور ، كَلِفًا بالمبانى والأثواب ، جمّاعة للحُلِى والذّخيرة ، مستميلا لمعاصريه من الملوك . تولى الملك بعد أخيه بوادى السّقايين من ظاهر الخضراء ، ضحوة يوم الأربعاء الثالث عشر من ذى الحجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية ،

وسنّه إذ ذاك خمسة عشر عاما وثمانية أشهر، واستقلّ بالملك ، واضطّلع بالأعباء ، وتملأ المدنة ما شاء . وعظُم مرانه لمباشرة الألقاب ، ومطالعة الرسم ، فجاء نسيج وحده ، ثم عانى شدايد العدو ، فكرُم يوم [الوقيعة العظمى بظاهر](١) طريف موقعه ، وحُمد بعد فى منازلة الطّاغية عند الجثوم على الجزيرة صبرُه ، وأجاز البحر فى شأنها ، فأفلت من مكيدة العدو التى تخطّاها أجله ، وأوهن حبْلها سعده . ولما نفذ فيها القدر ، وأشْفَت الأندلس ، سدّد الله أمور المسلمين بها على يده ، وراخى مُخَنَّق الشّدة بسعيه ، فعرفت الملوك رجاحته ، وأثنت على قصده ، إلى حين وفاته .

أمه : أم ولد تسمى بهارا ، طِرْفٌ فى الخير والصون والرجاحة .

ولده : كان له ثلاثة من الولد ، كبيرهم محمد أمير المسلمين من بعده ، وتِلوه أخوه إسمعيل المستقر فى كنَفِه ، محجورا عليه التصرف إلى أعمال التدبير ، وثالثهم إسمه قيس ، شقيق إسمعيل .

وزراء دولته

تولّى وزارته لأول أمره ، كبير الأكره ونبيه الدهّاقين (٢) ، من مُنْتَجعى المَدَر بحضرته ، أبو إسحق بن عبد البر ، لمخيّلة طمع نشأت لمقيمى الدولة فيما بيده ، سدّا لحال بها على عوز طريقه إلى حضرته ، إلى ثالث شهر المحرم من العام . وأَنِف الخاصة والنبهاء ، رياسته ، فطلبوا من السلطان إعاضته ، فعدل عنه إلى خاصة دولتهم الحاجب أبى النعيم [رضوان](٣) ، مظنّة التّسديد ، ومحطّ الإنفات ، فاتصل نظره مستبدا عليه ، فى تنفيذ الأمور ، وتقديم الولاة والعمال ، وجواب المخاطبات ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال فقط (وقيعة طريف) . والزيادة من اللمحة البدرية .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى اللمحة البدرية (المشيخه) .

(٣) وضعنا اسم الحاجب زيادة فى التعريف .

وتدبير الرعايا ، وقَوْد الجيوش . ثم نَكَبه ، وأحاط به مكروها ، مجهول السبب ، ليلة الأحد الثانى والعشرين لرجب عام أربعين وسبعماية .

وتولى الوزارة بعده ، ابن عمة أبيه القايد أبو الحسن على بن موْل ابن يحيى بن موْل الأمى ، ابن عم وزير أخيه ، رجل جَهْورى حازم ، مُؤْثِر للمغلظة على الشَّفقة ، ولم يَنْشب أن كفّ كفّ استبداده ، فانكدر نجم سعادتهم ، والتأَثَثْ حاله . ولزمته شكاية سدِكت فاستنقذته . وأقام لرسم الوزارة كاتبه شيخنا نسيجَ وحده أبا الحسن بن الجياب إلى أخريات شوال عام تسعة وأربعين وسبعماية ، وهلك رحمه الله فأُجرى لِى الرّسم ، وعَصَّب لى تلك المثابة ، مُضاعف الجراية ، معزّزة بولاية القيادة

كتابه

تولى كتابته كاتب أخيه وأبيه ، شيخنا المذكور إلى حين وفاته . وقلّدنى كتابة سرّه مثنّاة بمزيد قربه ، مظفّرة برسم وزارته .

قضاته

تولى أحكام القضاء ، قاضى أخيه الصّدر البقِيّة ، شيخنا أبوعبد الله محمد بن محيى بن بكر إلى يوم الوقيعة الكبرى بطريف ، وفُقد فى مصافّه ، وتحت لوائه . وتولى القضاءَ الفقيه المُفْتى البقيّة أبو عبد الله محمد بن عيَّاش ، من أهل مالقه أياما ، ثم طلب الإعفاء . فأُسعف عن أيام تقارب أسبوعا ، وولىّ مكانه الفقيه أبو جعفر أحمد بن محمد بن بُرطال من أهل مالقة . فسدّد الخُطّة ، وأجرى الأَحكام ، إلى الرابع من شهر ربيع الآخر عام ثلاثة وأربعين وسبعماية ، وقُدِّم عوضا عنه ، الفقيه الشريف الصّدر الفاضل أبو القاسم محمد بن أحمد الحسينى السّبتى المولد والمنشأ ، الطالع على أفق حضرته فى أيام أخيه ، النازع إلى إيالتهم النصرية

معدودا فى مفاخر ايادها ، مشارا إليه بالبنان عند اعتبار أعلامها : ثم عزله لغير جُرمة تذكر ، إلاَّ مالا ينكر وقوعه ، مما تجره تَبِعات الأحكام . وولِّى الخطة شيخنا نسيج وحده الرُّحلة البقية أبا البركات بن الحاج ، شيخ الصُّقع ، وصدرُ الجلَّة . واستمر قاضيا إلى .... [1] وأربعين وسبعماية . ثم أعاد إليها القاضى المفوض هونه ، الشريف الفاضل ، أبا القاسم ، إلى يوم وفاته .

رئيس الغزاة ويعسوب الجند الغربى

تولى ذلك [الأول] [2] الأَمر الشيخ أَبو ثابت عامر بن عثمن بن إدريس ابن عبد الحق ، قريع دهره فى النكراء والدهاء ، المسلم له فى الرتبة ، عِتاقة ورأْيا وثباتا ، إلى أن نكبه ، وقبض عليه وعلى إخوته ، يوم السبت التاسع والعشرين من ربيع الأَول ، عام أَحد وأَربعين وسبعماية . وأقام شيخنا ورئيسا ، دايلهم وابن عمهم ، المتلقِّف لكرة عزِّهم . يحيى بن عمر بن رحُّو ، ولى ذلك بنفسه وندءه [3] ومبرز خصاله إلى تمام مدته .

من كان على عهده من الملوك

وأولا بفاس دار الملك بالمغرب ، السلطان المتناهى الجلالة ، أبو الحسن على بن عثمن بن يعقوب بن عبد الحق . وجاز على عهده إلى الأَندلس ، إثر صلاة يوم الجمعة تاسع عشر صفر ، من عام أَحد وأربعين وسبعماية . بعد أن أوقع بأُسطول الروم . المُسْتَدعى من أَقطارهم . وقيعة كثيرة شهيرة . إستولى فيها من المتاع والسلاح والأَجفان ، على ما قدم [4]

(١) بياض بالأصول

(٢) هذه الكلمة واردة فى اللمحة وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال (وقدمه) . والصواب من اللمحة البدرية .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى اللمحة (بعد) .

به العهد ، واستقربالخضراء فى جيوش وافرة ، وكان جوازه ، فى مائة وأربعين جفنا غَزَويا . وبادر إلى لقائه ، واجتمع به فى وجوه الأندلسيين وأعيان طبقاتهم بظاهر الجزيرة الخضراء ، فى اليوم الموفى عشرين من الشهر المذكور . ونازل إثر انقضاء المولد النّبوى ، مدينة طريف ، ونصب عليها المجانيق ، وأخذ بمخنّقها ، واستحثّ من بها من المحصورين ، طاغية الروم ، فبادر يقتاد[1] جيشا ، يجر[2] الشّجر والمَدرَ . وكانت المناجزة ؛ يوم الإثنين السابع لجمادى الأولى من العام . ومُحّص المسلمون بوقيعة هايلة ، أتت على النفوس والأموال والكِراع ، وهلك فيها بمَضْرب المُلْك جملة من العَقايل الكرام ، فعظمت الأُحْدوثة ، وجلّت المصيبة ، وأسرع اللِّحاق بالمغرب مفلولا فى سبيل الله ، مُحْتسباً يروم[3] الكرّة : وكان ما هو معلوم ، من إمعانه فى حدود الشّرق ، عند إحكام المهادنة بالأندلس ، وتوغّله فى بلاد إفريقية ، وجَرَيان حكم الله عليه بالهزيمة ، [ظاهر القيروان][4] التى لم ينتشله الدهر بعدها ، وعَلِقت آمال الخلق بولده ، مستحق الملك ، من بين ساير إخوته[5] ، وهلك على تَفِية ، لحاقه بأحواز مراكش ، ليلة الاربعاء السادس والعشرين لربيع الأول عام اثنين وخمسين وسبعماية ، فاختار الله له ما عنده ، بعد أن بلغ من بُعْد الصيت ، وتعظيم الملوك له ، وشهرة الذكر ، ما لم يبلغه سواه .

ونحن نجلب دليلا على فضله ، والإشادة بفخره ، نسخة العقد الذى

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى اللمحة (يقود) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى اللمحة (يسوق) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (يوم) . والتصويب من اللمحة .

(٤) هذه الزيادة من اللمحة .

(٥) وردت فى الإسكوريال (ولده) . والتصويب من اللمحة .

تضمن هديته إلى صاحب الديار المصرية ، صحبة الرَّبعة الكريمة بخطه ، وذلك قبّة من مائة بنيقة ، وفيها أربعة أبواب؛ وقبّة أخرى من ستة وثلاثين بنيقة؛ داخلها حلة محلوقة ووجهها حرير أبيض ، وركيزها أبنوس وعاج مرصع ، والاهار فضة مذهبة ، ، والشرايط حرير . وضربت القبّتان بالصفصيف ، وحل فيها جميع الهدية . وصُفِّفت جميع الدواب بجهازاتها أمام القبة . من الخيل ثلاثمائة ، وخمسة وثلاثون من البغل بين ذكور وأناث ، ومن الجمال سبع ماية ، الا إنها لم تصفف ، بل أعدت لحمل الهدية ، ومن البُزاة الأحرار أربعة وثلاثون ، ومن أحجار الياقوت مائتان وخمسة وعشرون ، ومن قطب الزمرد ماية وثمانية وعشرون ، ومن حبوب الجوهر الفاخر أكثره، ثلاثة آلاف وأربعة وستون. ومن أحجار الزبرجد ثمانية وعشرون ، ومن المهنّدات بحلية الذهب عشرة ، ومن أزواج بهاميز الذهب عشرة ، ومن أزواج الأركب عشرة ؛ واحد كله ذهب ، وثلاثة كلها فضة ، وستة من حبحبة مذهبة على الحديد. واثنان من اللضمات من ذهب . وشاشية مذهبة . وحلل ثلاث عشرة . وعشر كلل ومخاد حلة . وتوق ذهب مائتان ، واشتراق ذهب عشرون . وقدود ستة وأربعون . وفرشة جلّة . وعشر علامات مُعَشَّشة . وعشر وقايات مذهّبة . وثلاثون من وجوه اللّحف حرير وذهب . ومائتان من المحررات الملونة الرفيعة المختمة . وحيطيان أحدهما حلة والآخر طرق . وثلاثة وعشرون شُقة من الرهاز ، واثنان من هنابل الحلة . وعشرة براقع للخيل منها ثمانية من الحلة . ومن أسلة الخيل ثلاثون ، وثلاثة طنافس من الحرير . وهنابل حرير اثنان . وعشرة هنابل من الحرير والصوف . وهنابل وابشريشية وزمورية ماية وسبعة . وأربعة آلاف من الجلد التركي والأغماتي . ومن دَرَق اللَّمط المثمنة

مائتان . ومن الأكسية المحررة أربعة وعشرون . ومن البرانس المحررة ثمانية . ومن الأحارم ما بين محررة وصوف عشرون . ومن أزواج المحفف خمسون . وعشر لزمات من الفضة . وستة عشر شقة من الملف . وأما أزودة الحجاج فأعطى للحرة المكرمة أخته ، أعزها الله ، ثلاثة آلاف دنير من الذهب ، ومائتى كسوة برسم العرب . ولمن سافر معها ستماية وسبعين . ولأبي إسحق بن أبي يحيى ثلاثمائة من الذهب وكسوة رفيعة . ولعريفه يحيى السويدى ألف دنير من الذهب . إلى العدد الكثير من الذهب العين برسم الوصفان والخدام ، ولرسوم التحبيس على قراء الرابعة الكريمة ، ستة عشر ألفا وخمسماية دنير . انتهى .

وكان هذا السلطان رحمه الله ، ممن دوخ الأقطار ، وجاهد الكفار ، ووطىء بالأساطيل خدود البحار ، والتمس ما عند الله من الثواب ، وأعلق يده من نسخ كتابه بأوثق الأسباب . إلى أن استودع الأمر لولده ، أمير المؤمنين بالمغرب وما إليه ، فارس المكنى بأبي عنان ، الملقب بالمتوكل على الله. فقام بالأمر أحمد قيام . وجرت بين هذا السلطان وبينه المخاطبات والمراسلات ، وسفرنى إليه لأول الأمر ، مُعَزِّيا بأبيه ، ومُهنّيا بما صار إليه من ملكه ، واستصحبت إليه كتابا من إنشائى ، نجابيه بحول الله ، تجميا لمن يقف على هذه الأخبار ، وإن اقتحمتها ثبج الإكثار وهو :

المقام الذى رسخت منه فى مقامىْ الصبر والشكر قدم ، فلا يغيره وجود ولا يروعه عدم ، وصدقت منه فى كتاب المجد عزمة لم يختلجها وَهَن ولا ندم ، حتى تصرفت بحكم معاليه أيام دهره ولياليه ، هو ولدان وهذه

تخدم . مقام محل أخينا . الذى إن جاشت النوايب وسعها صدره . أوعظمت المواهب ، ترفع عنها قدره ، أو أظلمت الكروب جلاها بَدْرُه . أو تألبت الخطوب ، هزمها صبره . أو أظلّت سحايب النعم ، أسْدَرها حمد الله وشكره ، أو عرضت عقود الحمد فى أسواق المجد أغلاها فجره . أو راقت حلل الصنايع طرزّها ذكره . أو طبّقت سيوف الناس أغمدها صفحه ، وسلّها قهره . السلطان الكذا أبقاه الله ضاحك السعد ، كلما بكت عين ، مجموع الشّمل كلما أزِف بَيْن . وارِىَ الزّند إذا اقتضى دين ، محمى الذّمار بانفساح الأعمار ، كلما أغار على الأحياء حين . ولازال يقيد منه شكر الله نعما ما فى وعدها لىّ ، ولا فى قولها مين . ويلبس منها حللا تقواه فى عواتقها زين . مساهمة فى كل خَطْب غَمّ ، أو فضل من الله عم . ومقاسمةً فى كل ما ألمّ. وتهنئة بالملك الذى خَلص وتَمّ ، فلان .

أما بعد حمد الله الذى جعل الصّبر فى الحوادث حصنا منيعا ، والشكر يستدعى المزيد من النعم سريعا ، فمتى أُعملت للصبر دعوة ، كان بها الأجر سميعا . ومتى رُفعت من الشكر رُقعة ، كان المزيد عليها توقيعا . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ، الذى بوّأنا من السعادة جنابا مَريعا . وبين له حدود أوامره ونواهيه فطُوبى لمن كان مُطيعا . وكان لنا فى الدنيا هاديا . ونجده فى الآخرة شَفِيعا . والرضا عن آله وصحبه ، الذين كانوا على العُداة قَيْظا ، وللعُفاة ربيعا . فحلُّوا من الاقتداء به فيما ساء وسرّ ، وأحْلَى وأمرّ مقاما رفيعا . وخفض عليهم مضاضة فقده ، مثابرتهم على ضمّ شمل المسلمين من بعده . اقتداءً بقوله سبحانه : واعتصموا بحبل الله جميعا . والدُّعاء لمقامكم الأسمى بالنصر ، الذى يشكر منه الجياد والبيض الحداد صنيعاً . وتشرح منه ألسنُ الأقلام تهذيبا وتَقْريعاً . والصبر الذى زُرافات

الأجر قَطيعاً . فقطيعاً . فإنا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم من حظوظ الخير اوفرها عددا . وأقطعكم من خُطَط السّعد أبعدها مداً . وأتبَعكم من كتايِب العز أطولها يدا ، وخوّلكم من بَسْطة المُلْك مالا يبيد أبدا ؛ وألهمكم من الصبر لما تقدّمُونه فتجدونه غدا . من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وعندنا من من الاعتداد فى الله أسبابٌ وثيقة ، وأنسابُ صدق فى بحبوحة الخُلوص عريقة . ومن الثناء عليكم حدايقُ روضٍ لا تحاكيها حديقة . ومن المساهمة لكم فى شتّى الأحوال ، مقاصدُ لا تلتبس منها طريقة . ومن السُّرور بما سناه الله لكم ، نعمٌ بِشُكر الله عزّ وجلّ خليقة .

وإلى هذا ، أيّدكم الله بنصره ، وحَكم لمقامكم بشدّ أزْرِه ، وإعلاء أمره ، فإنّنا وَرَد علينا الخبر الذى قَبَض وبسط ، وجار وأقسَط ، وبخَس ووفّى وأمْرض وشفى ، وأضحى وظلّل ، وتجهّم وتَهلّل ، وأمَرّ وأحْلَى ، وأساء ثم أحْسَن ، وبشّر بعد ما أحْزَن ، خبرُ وفاة والدكم ، محلّ أبينا ، السلطان العظيم القدر ، الكبير الخَطَر . قدّس الله طاهِرَ تُربته ، وكرّم لَحْده ، كما أحيا بكم معالم مجده . فياله من سَهْم رمى أغراض القلوب فأثْبتها . وطرق مجتمعات الآمال فشتّتها . ونعى إلى المجد إنسان عيْنه وعَيْن إنسانه . وإلى المُلْك هُيولى أركانه . وإلى الدين تَرْجَمة ديوانه . وإلى الفضل عميد إيوانه . حادثٌ نبّه العيون من سِنَة غرُورها . وذكرٌ النفوس بَهْم أمورها . وأشْرَق المحاجر بماء دموعها ، وأضرم الجوانح بنار ولُوعها . وبيّن أن سَراب الامال سراب ، وأنّ الذى فوق التُّراب تراب . فمن تأمل الدنيا وطباعها ، والأيام وإسراعها ، والحوادث وقِراعها ، بدا له الحقُّ من المَيْن . واستغنى عن الأثَر بالعين . فشأنُها أن لا تفترّ عن سهم تُسَدِّده إلى غرض . وصحّةٍ تعْقُبها بمرض ، وجوهر ترميه

بعرَض . وداء للموت قديم، وقُرْبُه لا يُبْقِى عليه أديم . وكأْسُه يشربها مُوسِرٌ وعَديم . دبَّت إلى كسرى الفُرْس عقاربه ، فلم تمنعه أساوِرُته ولا مرازِبُه . وقصر قيصَر على حكمه فكدِّرت مشاربه . وأتبر سيف بن ذى يَزن عمدانه ، فلم ترعه مضاربه . وأردى تُبّعاً ، فلم يكن فى أتباعه من يحاربه. لم تدافع عنهم الجنود المجنَّدة. ولا الصِّفاح المهنَّدة . ولا الدُّروع المحكمة ، ولا الثِّياب المعْلمة . ولاالجياد الجُرد المسَوَّمة . ولا الرِّماح المثقَّفة المُقَومة. كلٌّ قدِّم على ما قدَّم. وجِّد إلى ما أعدَّ. جعلنا الله ممن يَسَّر لسفره زاداً. وقدَّم بين يديه رِباطا شافعا لديه وجهادا . ووفَّر لنفسه بمناصحة الله والمؤمنين فى أعلى عليين ، مهادا . وطوَّق المسلمين عدلا وفضلا وإمدا دا . غير أن هذا الفاجىء الذى فجع ، ومنع القلوب أن تقرَّ والعين أن تهْجع . غمرته البُشْرى ، وغلَبته المسرَّةُ الكبرى ، وعارضته من بقايكم الآية المحْكمة الأخرى . فاضمحل من بعد الرُّسوخ . وصار ليله فى حُكْم المَنْسُوخ . ما كان من استخلاصكم الملك الذى أنتمْ أهله ، واحْتيازكم المجد الذى أشْرقَ بكم محلهُ . وكيف بِسَهْم أخطأ ذاتكم الشريفة ، أن يقال فيه أصْمى وأجْهَز . والأمل بعد بقايكم أنْ يقال فيه تعذَّر أو أعْوز . إنما الامال ببقايكم للملإ مَنُوطة . وسعادة الإسلام بحياتكم المتَّصلة مشروطة.

ومنها : فأى تَرَح يبقى بعد هذا الفَرح ، وأى كسل يَنْشأ بعد هذا المَرح . إنْ أفَل البدرُ ، فقد تبلَّج الفجرُ، أو غاض النِّيل فقد فاض البحر . وإن مال فَلَكُ الملك ، فقد عاد إلى مَداره. وإنْ أذنَب الدَّهر ، فقد أحسن ماشاء فى اعتذاره . إنَّما هذا الخطب ومنْ أعْقَبه ضوءُ النهار ، وسطعت بفقده أشعةُ الأنوار. وصِمْصامةٌ أغمدت ؛ وسُلَّ من بعدها ذو الفقار .

ومنها : وإنّنا لما .... [1] عن حقّه ورصدنا طالعه فى أُفقه، قابلنا الواقع بالتّسيلم ، والمنْحة الرّادفة بالشكر العظيم . وأنِسْنا فى غمام الهُدنة ربّ هذا الإقليم . وقلنا استقر الحق ووضحت الطرق ، وهوى الرّايد وصدق البرق، وتقرّرت القاعدة وارتفع الفرق، واستبشر بإبْلال المغرب أخوه الشّرق . وثابت آمال أولى الجهاد إلى اقحتام فُرضة المجاز ، وأُولى الحج إلى مرافقه ركب الحجاز ، وآن للدنيا أن تلبس الحُلَى العجيبة بعد الابتزاز . والحمد لله الذى زيّن بكم أفق الملك ، وكيّف بسَعْدكم نظم ذلك السّلك . وهنّأ الله إيالتكم ، العباد والبلاد ، والحجّ والجهاد . وصدّق الظنون الذى فى مقامكم ، الذى جاز فى المكارم الآماد . بادرنا أيّدكم الله من برّكم إلى غرضين . وقمنا من حقّ عزايكم وهنايكم بواجبين مُفْتَرضين . وشرعنا ومن لدَينا ، أن نباشر بالنفوس ، هذين القَصْدين . إلاّ أننا عاقنا عن ذلك ، ما اتصل بنا ، من العدوّ الذى بلينا بجواره ، ورُمينا بعصابرة تيّاره . وإلاّ فهذا الغرض قد كنّا لا نرى فيه بإجراء الاستنابة ، ولا نُحظى غيرنا بزيارة تلك المثابة . فليَصِل الفضل جلالُكم . ويقبل العُذْر كما لُكم . وإذا كان الاستخلاف مما تحتمله العبادة ، ولا ينكره عند الضرورة العُرْف والعادة ، فأحْرى الأُخوة والودادة ، والفضل والمجادة . فتخيرنا جهدنا ، واصطفينا لباب اللُّباب فيمن عندنا . فعينّا فلانا .

واتصلت أيامه إلى آخر مدته .

وبمدينة تِلمْسان : عبد الرحمن بن موسى بن عثمن بن يَغْمَراسِن بن زيّان ، يكنى أبا تاشفين . وقد تقدم ذكره ، وهو الذى انقضى ملك بنى زيّان على يده . تولى الملك عام ثمانية عشر كما تقدم . وتَهنّأه إلى أن تأكّدت

---

(١) بياض بالمخطوط .

الوُحْشة بينه وبين السلطان ملك المغرب. فتحرّك لمنازلته ، وأخذ بكَظْمه ،[١] وحصره سِنين ثلاثا ، واقتحم عليه مَلْعب البلدة ، ليلة سبع وعشرين من رمضان عام سبعة وثلاثين وسبعماية . وفى غرّة شوال منها ، دخل البلد من أقطاره عَنْوة ، ووقف هو وكبير ولده [٢] برحبة قصره ، قد نَزَعا لام الحرب المانِعة من عمل السلاح ، استعجالا للمنِيّة ورغبة فى الإجهاز وقاما مقام الثّبات والصبر والاستجماع ، إلى أن كُوثِرا وأُثخنا ، وعاجلتهما منِيّةُ العزِّ قبل شدِّ الوِثاق ، وإمكان الشّمات ، واستولى على الملك مَلك المغرب. وفى ذلك قلت من الرّجز المسمى بقطع السلوك فى الدول الإسلامية [٣] ، مما يخص ملوك تلمسان ، ثم أميرها عبد الرحمن هذا :

وحل فيها عابــدُ الرحمــن ... فاغترّ بالدنيــا وبالزمـان
وسار فيها مطلـق العِنــان ... من مظهر سام إلى جِنــان
كم زخرف علياه من بُنيــان ... آثاره تُنْبِى عن العِيــان
وصرف العـزم إلى بجايـة ... فعظمت فى قومهـا النّكايـة
حتى ما إذا مدة الملك انقضت ... وأَوْجُه الأيـام عنهم أعرضت
وحقّ حقّ الدهر فيها ووَجب ... وكتب الله عليها مـا كتب
حثّ إليها السير مَلكُ المغرب ... يالك من ممارس مجـرِّب
فغلب القـوم بغـير عهـد ... بعد حصـار دائم وجَهْــد
فأقفرت من ملكهم أوطـانه ... سبحان من لا ينقضى سلطانه

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى اللمحة (بمخنقه) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (بلده) . والتصويب من اللمحة .
(٣) يقصد ابن الخطيب هنا كتابه المسمى (رقم الحلل فى نظم الدول) . وهو الذى سبق أن وصفناه فى مقدمة المجلد الأول .

ثم نشأت لهم بارقة ، لم تكد تَقِد حتى خَبَتْ ، عندما جَرتْ على السلطان أبي الحسن الهزيمة بالقيروان ؛ وانبتّ عن أرضه ، وصُرفت البيعة في الأقطار إلى ولده ، وارتحل إلى طلب منصور ابن أخيه ، المنتزى[1] بمدينة فاس . فدخلوا تلمسان ، وقبضوا على القايم بأمرها ، وقدموا على أنفسهم عثمن بن يحيى بن عبدالرحمن بن يَغمراسِن المتقدم الذكر في رسم عثمن وذلك في الثامن والعشرين لجمادى الآخرة من عام تسعة وأربعين وسبعماية ؛ واستمرت أيامه أثناء الفتنة وارتاش ، وأقام رسم الإمرة ، وجدّد مُلْك قومه . واستمرت حاله إلى أن أوقع بهم ملك المغرب ، أمير المسلمين أبو عنان الوقيعة المصطلمة[2] التي خضدت[3] الشوكة ، واستأصلت الشأفة . وتحصل عثمن في قبضته . ثم ألحقت النكبة به أخاه ، فكانت سبيلهما في القتل صبرا عِبرة ، وذلك في وسط ربيع الأول من عام التاريخ .

وبتونس : الأمير أبو يحيى أبو بكر بن الأمير أبي زكريا ابن الأمير أبي إسحق ابن الأمير أبي زكريا إلى أن هلك . وولى الأمر ولده عمر [ثم ولده أحمد][4] ثم عاد [الأمر] إلى عمر . ثم استولى ملك المغرب السلطان أبو الحسن على ملكهم . ثم ضَمّ نَشْرَهم بعد نكبته وخروجه عن وطنهم على أبي إسحق بن أبي بكر .

ومن ملوك النصارى بقَشْتالة : ألفنش بن هِرَنْدُه بن دون جانْجُه بن ألفنش المستولى على قرطبة[5] ابن هِرَنْدُه المستولى على إشبيلية . إلى

---

(١) هكذا في الإسكوريال وفي اللمحة (الداعي لنفسه) .

(٢) هكذا في الإسكوريال . وفي اللمحة (المستأصلة) .

(٣) وردت في الإسكوريال (حصدت) . والتصويب من اللمحة .

(٤) هذه الزيادة واردة في اللمحة وساقطة في الإسكوريال .

(٥) هذا خطأ تاريخي من ابن الخطيب ، فإن الذي استولى على قرطبة هو فرناندو الثالث ملك قشتالة (هرانده) . وقد استولى عليها في شوال سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) . وهو الذي استولى كذلك على إشبيلية في رمضان سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٨ م) . وينعت في التواريخ النصرانية بسان فرناندو (أي القديس) .

عدد جم . وكان طاغية مرهوبا ، وملكا مجدودا . هبّت له الريح ، وعظمت به إلى المسلمين النكاية . وتملّك الخضراء بعد أن أوقع بالمسلمين الوقيعة الكبرى العظمى بطَرِيف . ثم نازل جبل الفتح ، وكاد يستولى على هذه الجزيرة ، لولا أن الله تداركها بجميل صنعه وخفىٍّ لطفه ، لا آله إلا هو. فهلك بظاهره فى محلّته حَتْف أنفه ليله عاشوراء من عام أحد وخمسين وسبعماية . فتنفس المُخنَّق ، وانجلت الغُمّة ، وانسدل السّتر. كنت منفردا بالسلطان رحمه الله ، وقد غلب اليأس ، وتُوقِّعت الفضيحة ، أونِسُه بعجايب الفرج بعد الشدة ، وأقوى بصيرته فى التماس لطف الله، وهو يرى الفرج بعيدا ، ويتوقع من الأمر عظيما . ووَرَد الخير بمهلكه ، فاستحالت الحال إلى ضدها ، من السّرور والاستبشار. والحمد لله على نعمه . وفى ذلك قلت :

الا حدّثانى [1] فهى أم الغرايب | وما حاضرٌ فى وصفها مثل غايب
ولا تُخْلِيا منها على قَطْر السُّرى | سروج المذاكى أو ظهور النّجايب
أيوسُف إنّ الدهر أصبح واقفا | على بابك المأمول موقف تايب
دعاؤك أمضى من مُهَنّدة الظُّبا | وسعدك أقضَى من سُعود الكواكب
سيوفك فى أغمـادها مطمئنة | ولكن سيف الله داى [2] المضارب
فثِق بالذى أعطاك آمر عاده | وسَلْ فضله فالله أكرم واهب
لقد طرّق الأذفنش سعدُك خزيةً | تجدُّ على مرّ العصور الذواهب
وفّيت وخان العهد فى غير طايل | وصدّق أطماع الظنون الكواذب

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الصحة (حدثاها) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصحة (ماضى) .

هوى فى مجال العجب غير مُقَصِّر وهل نهض العُجْب المخل براكب
وغالَب أمر الله جلَّ جلاله ولم يَدْرِ أنَّ الله أغلبُ غالب
ولله فى طىِّ الوجود كتايبُ تدقُّ وتَخْفى عن عيون الكتايب
تغير على الأنفاس فى كل ساعة وتكمن حتى فى مياه المشارب
فمن قبارع فى قومه سنَّ نادم ومن لاطم فى رَبعْه خدَّ نادِب
مصايب أشجى وقعُها مُهج العِدا وكم نِعمٌ فى طىِّ تلك المصايب
شواظٌ أراد الله إطفاء ناره وقد نَفَج الإسلام من كل جانب
وإن لم يصب منه السلاح فإنّما أُصيب بسهم من دُعايك صايب
ولله من ألطافه فى عباده خزاينُ ما ضاقت لمطلب طالب
فمهما غَرَسْتَ الصبرَ فى تُربة الرضا بأحكامه فَلْتَجن حسن العواقب
ولا تعدَّ الأمر البعيد وقوعه فإن الليالى أُمَّهات العجايب

وهى طويلة سهلة ، على ضعف كان ارتكابه مقصودا فى أمداحه .

وببرجلونة [١] : السلطان بِطْرُه المتقدم ذكره فى اسم أخيه

ومن الأحداث فى أيامه الوقيعة الكبرى بظاهر طريف ، يوم الإثنين السابع من جمادى الأولى ، من عام أحد وأربعين وسبعماية ، وما اتصل بذلك من منازلة الطاغية ألْهَنْشُه ، قلعة يحصب [٢] الماسة الجوار من حضرته ، واستيلائه عليها ، وعلى باغة . ثم منازلة الجزيرة الخضراء عشرين شهرا ، أوجف خلالها بجيوش المسلمين من أهل العدوتين إلى أرضه . ثم استقر منازلا إياها إلى أن فاز بها قِداحه ، والأمر لله العلى الكبير ،

---

(١) أى برشلونة .

(٢) قلعة يحصب أو قلعة بنى سعيد ، محلة حصينة تقع شمالى غرناطة وجنوبى جيان . وقد سبق التعريف بها (راجع المجلد الأول من الإحاطة صفحة ١١١ حاشية) . وباغة وبالإسبانية « Priego » أيضاً سبق التعريف بها (راجع المجلد الثالث صفحة ٥٢٧ حاشية) .

فى قصص يطول ذكره ، تضمن ذلك « طُرْفة العصر » من تأليفنا .
ثم تهنأ السلم ، والتحف جناح العافية والإمنة برهة . رحمه الله.

وفاته

وما استكمل أيام حياته ، وبلغ مداه ، أتمَّ ما كان شباباً واعتدالا وحسنا ، وفخامة وعزاً [حتى][1] أتاه أمر الله من حيث لا يحْتَسب ، وهجم عليه يوم عيد الفطر ، من عام خمسة وخمسين وسبعماية ، فى الركعة الأخيرة ، رجل من عِداد الممرورين ، رمى بنفسه عليه ، وطعنه بخنجر كان قد أعدَّه ، وأغرى بعلاجه ، وصاح ، وقُطعت الصلاة ، وقُبض عليه ، واستُفهم ، فتكلم بكلام مُخَلَّط ، واحتُملَ إلى منزله ، على فَوْت لم يستقر به ، إلا وقد قضى رحمه الله ورضى عنه ، وأخرِج ذلك الخبيث للناس ، وقتل وأحرق بالنار ، مبالغة فى التشفى . ودفن السلطان عشية اليوم فى مقبرة قصره لصق[2] والده ، وولى أمره ابنه أبوعبد الله محمد ، وبولغ فى احتفال قبره ، بما أشف على من تقدمه ، وكتب عليه ما نصه :

« هذا قبر السلطان الشهيد ، الذى كَرُمت أحسابُه وأعراقُه ، وحاز الكمال خَلْقُه وأخلاقُه ، وتحدَّث بفضله [وحلمه][3] شامَ المعمور وعراقُه ، صاحب الآثار السَّنيَّة ، والأيام الهَنيَّة ، والأخلاق الرضِيَّة ، والسير المَرْضيَّة . الإمام الأعلى ، والشِّهاب الأجلى ، حُسام الملة ، علم الملوك الجلَّة ، الذى ظهرت عليه عناية ربِّه ، وصُنع الله له فى سَلْمه وحَرْبه . قطب الرَّجاحة والوقار ، وسلالة سيِّد الأنصار ، حامى حمى الإسلام برأيه ورايته ، المستولى فى ميدان الفخر على غايته ، الذى صحبته [عناية الله][4] فى بداية أمره وغايته ، أمير المسلمين أبى الحجاج يوسف ابن السلطان الكبير ،

---

(١) أضيفت ليستقيم السياق .
(٢) هكذا وردت فى اللمحة ووردت مكانها فى الإسكوريال (صحيح) .
(٣) هذه الكلمة واردة فى اللمحة وساقطة فى الإسكوريال .
(٤) هكذا وردت فى اللمحة . وفى الإسكوريال (العناية) .

الإمام الشهير ، أسد دين الله ، الذى أذعنت الأعداءُ لقهره ، ، ووقفت الليالى والأيام عند نهيه وأمره . رافع ظلال العدل فى الآفاق [حامى حِمى السُّنة بالسُّمْر الطوال والبيض الرِّقاق][1]، مخلد صحف الذِّكر الخالد والعزِّ الباق ، الشهيد السعيد المقدس أبى الوليد ، ابن الهمام الأعلى الطاهر النسب والذات ، ذى العز البعيد الغايات ، والفخر الواضح الآيات ، كبير الخلافة النصرية ، وعماد الدولة الغالبيّة ، المقدس المرحوم أبى سعيد فرج بن اسماعيل بن نصر ، تغمده الله برحمة من عنده ، وجعله فى الجنّة جاراً لسَعْد بن عُبادة جدّه ، وجازى عن الإسلام والمسلمين ، حميد سعيه ، وكريم قصده . قام بأمر المسلمين أحْمَدَ القيام ، ومهّد لهم الأمن من ظهور الأيام ، وجلّى لهم وجه العناية مشرق القسام ، وبذل فيهم من تواضعه وفضله ، كل واضح الأحكام . إلى أن قضى الله بحضور أجله ، على خير عمله ، وختم له بالسعادة ، وساق إليه على حين إكمال شهر الصوم هديّة الشهادة . وقَبَضه ساجدا خاشعا ، مُنيبا إلى الله ضارعا ، مستغفراً لذنبه ، مطمئنا فى الحالة ، التى أقرب ما يكون العبد فيها من ربِّه . على يد شقىٍّ قيَضه الله لسعادته ، وجعله سببا لنفوذ سابق مشيئته وإرادته ، خفى مكانه لخمول قدره . وتمَّ بسببه أمر الله لحقارة أمره . وتمكن له عند الاشتغال بعبادة الله ، ما أضمره من غدره ، وذلك فى السجدة الأخيرة من صلاة العيد . غرة شوال ، من عام خمسة وخمسين وسبعماية . نفعه الله بالشهادة التى كرم منها الزمان والمكان ، ووضح منها على قبول رضوان الله البيان . وحَشَره مع سلفه الأنصار ، الذين عزَّ بهم الإيمان ، وحصل لهم من النار الأمان . وكانت ولايته الملك فى غرة اليوم الرابع عشر لذى الحجة من

---

(١) هذه الزيادة من اللمحة .

عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية . ومولده[1] فى الثامن والعشرين لربيع الآخر عام ثمانية عشر وسبعماية . فسبحان من انفرد بالبقاء المحض ، وحتّم الفناء على أهل[2] الأرض ثم يجمعهم إلى يوم الجزاء والعرض، لا إله إلا هو.

وفى الجهة الأخرى من النظم ، وكلاهما من إملائى ، ما نصه :

يحييك بالريحان والرُوح من قبر ... رضى الله عمّن حلّ فيك مدى الدهر
إلى أن يقوم الناس تَعْنُوَ وجوههم ... إلى باعث الأموات فى موقف الحشر
ولستَ بقَبْرٍ إنما أنت روضة ... مُنَعَّمة الريحان عـــــاطرة النَّشر
ولو أننى أنصفتك الحق لم أقُلْ ... سوى يا كِمام الزّهر أو صدف الدّر
ويامُلْحَد التقوى ويامَدْفَن الهُدى ... ويا مسْقط العليا ويا مَغْرب البدر
لقد حطَّ فيك الرحل أىُّ خليفة ... أصل المعالى غُرّةٌ فى بنى نصر
لقد حلّ فيك العزُّ والمجد والعلى ... وبدر الدُّجا والمُسْتجار لدى[3] الدهر
ومن كأبى الحجاج حامى حمى الهُدى ... ومن كأبى الحجاج ماحى دُجا الكفر
إمام الهُدى غيث النَّدى دافع العدا ... بعيد المدى فى حَوْمة المجد والفخر
سلالة سَعْد الخَـــزْرج بن عُبادة ... وحسبك من بيت رفيع ومن قدْر
إذا ذُكر الإغضاء والحلم والتُّقى ... وحدِّثْت عن علياه حدِّث عن البحر
تخوّنه طرفُ الزمـــان وهل تـــرى ... بقاءً لحىٍّ أو دواماً على أمـــــر
هو الدهر ذو وجهين يومٌ وليلةٌ ... ومن كان ذا وجهين يُعتب فى غدر
تولى شهيداً ساجــــداً فى صلاته ... أصيل التقى رَطْب اللسان من الذكر
وقد عرف الشّهر المبارك حق مــا ... أفاض من النُّعمى ووفّى من البر

---

(١) هكذا وردت فى اللمحة . وفى الإسكوريال (ولادته) .

(٢) هكذا وردت فى اللمحة . وفى الإسكوريال (الأهل) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى اللمحة (من) .

وباكَرَ عيد الفطر والحكم مبرم وليس [سوى] (١) كأس الشهادة من فِطر
أبيح لـه وهو العظيم مهـابة وقدرا حقير الذات والخُلُق والقدر
شقىٌّ أتت (٢) من لـدنه سعادة ومُنْكَر قوم جاء بالحادث النُكر
وكم من عظيم قد أُصيب بخامل وأسباب حكم الله جَلَّت عن الحصر
فهذا عليٌّ قـد قضى بابن ملْجم وأوقع وحْشِى بحمزة ذى الفخر
نَعُدُّ الرِّماح المشرفية والقنـا ويطرق أمر الله من حيث لا تدرى
ومن كان بالدُّنيا الدَّنية واثقا على حالة يوما فقد باء بالخُسْر
فيامالك الملك الذى ليس ينقضى ويامن إليه [الحكم] (٣) فى النهى والأمر
تغمَّد بستر العفو منك ذنوبنـا فلسنا نُرَجِّى غير سِترك من سِتر
فما عندك اللهم خيرٌ ثـوابـه وأبقى ودنيا المرء خـدعة مغترٍّ

ومما رثى به قولى فى غرض ناءٍ عن الجزالة ، متحرِّيا اختيار ولده :

العُمْر يـوم والمُنى أحلام ماذا عسى أن يستمر منـام
وإذا تحققنا الشيىء بَـدْأة فـلـه بما تقضى العقول تمام
والنفس تجمع فى مبـدى آمالها ركْضاً وتأْبى ذلك الأيـام
من لم يُصَبْ فى نفسه فمصابه بحبيبه نَفَذَت بـذا الأحكام
بعد الشبيبة كَبْرةٌ ووراءهـا هَـرَمٌ ومن بعد الحياة حِمام
ولحكمة ما أشرقت شهب الدُّجا وتعاقب الإصباح والإظـلام
دنياك ياهذا محـلَّة نُقـلة ومناخ رَكْبٍ مالـديـه مقام
هـذا أمير المسلمين ومن بـه وُجِـد السَّماح وأُعـدم الإعدام
سر الإمـامة والخلافة يـوسف غيثُ الملوك وليثها الضرغـام

(١) واردة بالمحة . وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى اللمحة (أتته) .
(٣) واردة باللمحة . وساقطة فى الإسكوريال .

قَصَدته عادية الزمان فأقْصدت — والعزُّ سام والخميس لهـــام
فُجعت به الدنيا وكُدِّر شر بها — وشكى العراق مصابه والشام
أسفاً على الخُلق الجميل كأنه — بـدر الـدُّجنة قـد جـلاه تمام
أسفا على العمر الجديـد كأنـه — غضُّ الحديقة زهـــره بسَّام
أسفا على الخلق الرِّضى كأنَّها — زهر الرِّياض هَمى عليه غمـام
أسفا على الوجه الذى يهمى ندًى — طاشت لنور جماله الأفهـــام
يا ناصر الثَّغر الغريب وأهـله — والأَرض ترجف والسماء قَتام
ياصاحب الصَّدمات فى جَنح الدجا — والناس فى فرش النعيم نيـــام
يا حافظ الحرَم الذى بظلالـه — سُتر الأَرامل واكتسى الأَيتام
مولاى هل لك للقصور زيارة — بعد انتزاح الــدار أو إلمام
مولاى هل لك للعبيد تـذكُّر — حاشاك أن تنسى لديك ذِمـام
ياواحد الآحاد والعلم الـــذى — خفقت بعزِّه نصُرة الأعــلام
وافـاك أمر الله حين تكاملت — فيك النُّهى والجود والإقـــدام
ورحلتَ عنا الرَّكب خير خليفة — أثنى عليـك الله والإسلام
نعم الطريق سَلَكْت كـان رفيقه — والـزَّاد فيه تهجُّـدٌ وصيام
وكسفتَ يا شمس المحاسن ضحوةً — فاليوم كيـلٌ والضياءُ ظـلام
سقاك عيد الفِطر كأْس شهادة — فيها من الأَجـل الحـرى مدام
وختمتَ عُمْرك بالصلاة فحبذا — عملٌ كـريم سعيه وختام
مولاى كم هذا الرقـــاد إلى متى — بين الصَّفايح والتُّراب تنـام
إعـد التحية واحتسبها قُـربة — إن كان يمكنك الغداة كـلام
تبكى عليك مصانع شهدتها — بيض كما تبكى الهَديلَ حَمام
تبكى عليك مساجــدُ عَمَرتها — فـالناس فيها سُجَّـدٌ وقيام

تبكى عليك خــلايق أمِّنتها بالسِّلم وهى كــأنها أنعــام
عــاملت وجــه الله فيما رُمته منها فلم يبعد عليك مــرام
لو كنت تُفدَى أو تُجاز من الرَّدى بُذلت نفوس من لــدنك كرام
لو كنت تمنَع بالصَّوارم والقَنا ما كان ركنك بالغلاب يُــرام
لكنه أمــر الإلــه ومــالنا إلاَّ رضىً بالحــكم واستسلام
والله قــد كتب الفنا على الورى وقضــاؤه جَفَّت به الأقــلام
نَم فى جــوار الله مسرورا بما قــدَّمت يــوم تزلزل الأقــدام
واعلم بــأنَّ سليل ملك قــد غدا فى مستقرٍّ عُــلاك وهو إمــام
يعلو تكنَّف منه مَنْ خلَّفتــه ظــل ظليل فهــو ليس يُضام
كنت الحسامُ وصرتَ فى غمد الثَّرى ولنصر ملكك سُلَّ منه حُسام
خلَّفت أمــة أحمــد لمحمــد فقضت بسعد الأمَّــة الأحكام
فهو الخليفة للــورى فى عهده تُرعى العهود وتــوصل الأرحام
أبقى رسومَك كلها محفوظــة لم يَنتَثر منها عليك نظــام
العدل والشِّيم الكــريمة والتُّقى والــدَّار والألقاب والخُــدَّام
حسبى بأنَّ أخشى ضريحك لاثماً وأقــول والــدمع السَّفوح سِجام
يا مدفن التَّقوى ويا مثوى الهدى منِّى عليك تحيــة وسلام
أخفيتُ عن حزنى عليك وفى الحشا نارٌ لها بين الضلوع ضــرام
ولو اننى أدَّيت حقَّك لم يكن لى بعد فقــدك فى الوجــود مُقام
وإذا الفتى أدَّى الــذى فى وُسْعه وأتى بَجَهدِ مــا عليه مــلام

وكتبت فى بعض المعاهد التى كان يأنس بها رحمة الله عليه :

غِبتَ فلا عَين ولا مَخْبر ولا انتظارٌ منك مرقوب
يا يوسف أنت لنا يوسف وكلُّنا فى الحزن يعقوب

يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عُقبة بن نافع الفهرى

أوليّته

كان عبد الرحمن أحد زعماء العرب بالأندلس . وكان ممن ثار منها من أصحاب بلج عصبيةً لقتله، فخرج عن الأندلس إلى إفريقية . وجدّه عقبة بن نافع ، هو الذى اختط قَيْرُوانها أيام مُعَوية بن أبى سفيان . قال عيسى بن أحمد ، وهرب ابنه يوسف هذا من إفريقية إلى الأندلس مغاضباً له ، أيام بشر بن صَفْوان الكلبى ، فهوى الأندلس واستوطنها، فساد بها ثم تأمّر فيها .

حـــاله

كان شريفاً جليلا ، حازما عاقلا . اجتمع عليه أهل الأندلس من أجل أنه قُرشى ، بعد موت أميرهم ثَوابة بن سلامة، ورضى به الخِيار من مُضر واليمن ، فدانت له الأندلس ، تسع سنين وتسعة أشهر ، وكان آخر الأمراء بالأندلس ، وعنه انتقل سلطانها إلى بنى أمية . وأشرك الصُّميل بن حاتم فى أمره ، فتركت لذلك نسبة الأمر له ، وكانت الحرب التى لم يُعرف بالمشرق والمغرب ، أشدَّ جلاداً ، ولا أصبر رجالا منها ، واعتزلها يوسف تحرُّفا ، وقام بأمرها الصُّميل ، وانهزم اليمانيون واستلحموا ملحمة عظيمة ، واستوسق الأمر ليوسف . وغزا جِلِّيقية ، فعظم فى عُدوِّها أثره . ولما تمَّ له الأمر طرقه ما تقدم به الإلماع ، من عبور صقر بنى أمية عبد الرحمن الداخل فى خبر طويل . والتقى بظاهر قرطبة سنة ثمان وثلاثين ومائة فى ذى الحجة . وانهزم يوسف بن عبد الرحمن والصُّميل،ولحقا

بإلبيرة . وأتبعهما عبد الرحمن بن معاوية فنازله ، وقد تحصن بمعقل إلبيرة حصن غرناطة ، وترددت بينهما الرُّسل فى طلب المهادنة والبقاء على الصلح . وتخلّى يوسف عن الدعوة ، واستقر سكناه بقرطبة . وذلك فى صفر سنة تسع وثلاثين ومائة ، وأقبل معه فى عسكره إلى قرطبة . وذُكر أنه تمثل عند دخوله عسكر عبد الرحمن ببيت جرور بن إبنة النعمان :

فبتنا نسوس الأَمرَ والأمرُ أمْرنا ... إذا نحن فيهم سوقةٌ نتنصّف
فتبًّا لدنيا لا يدوم نعيمها ... تُقلّب ساعات بنا وتصرّف

واستقر بقرطبة دهراً ، ثم بدا له فى الخلاف. ولحق بأحواز طليطلة ، وأعاد عهد الفتنة ، فاغتاله مملوكان له ، وقتلاه رحمه الله ، فى سنة اثنتين وأربعين ومائة . وأخبار يوسف بن عبد الرحمن معروفة ، وهو محسوب من الأُمراء الأُصلاء بغرناطة ، إذ كانت له قبل الإمارة بها ضياع يتردد إليها .

ومن غير الأصليين

يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ابن أحمد بن أبى عزَفة اللخمى

الرييس أبو زكريا وأبو عمرو بن الرييس أبى طالب بن الرييس أبى القاسم . كناه أبوه أبا عمرو ، وغلبت عليه الكنية المعروفة .

حـــاله

كان قيِّما على طريقة أصحاب الحديث، رواية وضبطا وتقييدا وتخريجاً ، مع براعة خط، وطرْف ضبط، شاعرا مُجيدا مطبوعا. ذا فكاهة

وحُسْن مجالسة . رأس بسَبْتة ، بعد إجازته البحر من الأندلس والإحتلال بفاس ، نايبًا عن ملك المغرب السلطان أبي سعيد بن عبد الحق ، لأمر مَتَّ به إليه قبل استقلاله ، ليس هذا موضع ذكره . ثم استبدَّ بها مخالفا عليه ، لأمر يطول شرحه ، أجرى فيه مُوَفَّى الجانب من الهلع ، باسلاً مقداما . سَكون الطاير ، مثقَّفا بخلال رياسته ، ضاماً لأطرافها . ونازله جيش المغرب ، وبيد أميره ولده أبو القاسم مُرْتَهنا ، فأُتيح له ظفرٌ أجلى ليلة غربيات المحلة والأثر فيها ، واستخلاص ولده .

مشيخته

أخذ عن جماعة من أهل بلده وغيرهم ، قراءة وسماعاً وإجازة . فممن أخذ عنه من أهل بلده سَبتة ، أبو إسحق الغافقى ، وأبو عبد الله بن رُشيد ، وأبو الظفر المنورقى ، وأبو القاسم البلفيقى ، وأبو على الحسن بن طاهر الحسينى ، وأبو إسحق التّلمسانى ، وأبو محمد عبد الله بن أبى القاسم الأنصارى ، وأبو القاسم بن الشّاط . وبغرناطة لما قدم عليها ، مُغَرَّباً عن وطنه ، عند تصيره إلى الإيالة النَّصرية من أيديهم ، وسكناه بها ، عن أبي محمد عبد المنعم بن سماك ، وأبى جعفر بن الزبير ، وأبى محمد بن المؤذن ، وأبى الحسن بن مَسْتقور وغيرهم . ومن أهل المرية أبو عبد الله محمد ابن الصايغ ، وأبو عبد الله بن شعيب. ومن أهل مالقة الولى أبو عبد الله بن الطّنجالى ، وأبو محمد الباهلى ، وأبو الحسن بن منظور ، وأبو الحسن بن مصامد . ومن أهل الخضراء ، أبو جعفر بن خميس . ومن أهل بلّش أبو عبد الله بن الكماد . ومن أهل أرُجبة أبو زكريا البُرشانى . ومن أهل

(١) أرجبة وبالإسبانية « Orgiva » من قرى غرناطه وقد سبق التعريف بها (المجلد الأول صفحة ١٦٨ حاشية) .

بجاية أبو على ناصر الدين المِشْدالى ، وأبو عبد الله بن غربوز . ومن أهل فاس أبو عبد الله المومِنانى . ومن أهل تِيزى أبو عبد الله محمد القيسى . وكتب له بالإجازة طايفة كبيرة من أهل المشرق ، منهم قطب الدين القسطلانى .

شعره

قال لى شيخنا أبو البركات ، سألته ، وأنا معه واقفٌ بسور قصبة سبْتة ، أن يجيزنى ويكتب لى من شعره ، فكتب لى قطيعات منها فى تهنئة السلطان أبى الجيوش يوم ولايته :

الآن عاد إلى الإمامة نورها ... وارتاح منبرها وهشّ سريرُها
وبدا لنا من بعد طول قطوبها ... منها التهلّل واستبان سرورها
وضعت أزمّتها بكف خليفة ... هو أصلها الأَوْلى بها ونصيرها
من معشر عَرَفت بطون أكفِّهم ... بذل النّدى واللاّثمين ظهورها
خُرصانهم ووجوههم فى ظلمة ... النّقع المُثار نجو مها وبدورها
وسع الرعايا منه عدله ... لم يزل إليه قلوبهم ويصورها
حتى اغتدت بالحب فيه صدورها ... ملأى وأخلص فى الولاء ضميرها
رام العُداة لمجده كَيْدا فلم ... تنجح مساعتُها وساء مصيرُها
وكذاك فعل الله فيمن كاده ... جهلا وغرّته المُنا وغرورها
مولاى إنا عصبةٌ معروفة ... بالحبٍّ فيك صغيرها وكبيرها
جينا نُقضِّى من حقوقك واجبا ... نُسدى بالمدايح تارة وتبيرها
ولقد خدمتُ مقامكم من قبلها ... بفرايد حَسْنا يعزُّ نظيرها
فاجذب بضَبعى من حضيض مزارتى ... عرّست وعلى يديك مسيرها
وافتكّنى من أسر فَرط خصاصة ... عنفت فلم يقصد سواك أسيرُها

لازلت للإسلام تحمى أمّـة   دانته مما يتّقى ويجيرهـا
وبقيت فى عز وسعد شامـل   حتى يحين من الرفاة نُشُورها

وفى الإلغاز بالأقلام والمحبرة :

وسربٌ ضمهّم دَسْت ستيـر   شباب ليس يفزعهم قَتيـر
قد اختصروا فلم يُفرش ساد   لمجلسهم ولم يُنصب سرير
لهم كأس إذا دارت عليهم   فقد أزف الترحُّل والمسير
وأفشوا سرَّ سياقهم بلـفظ   مُبين ليس يفهمه البَصير
وهزّت من روسهم نشاطـا   وعند الصّحو يَعْروهم فتـور
فصاح إن تحـللهم وإلاّ   فشأنهم التّلعْثُم والقصـور
صلاب حين تعجمهم ولـكن   إذا طعنوا فـدمعهم غـزير
لهم عقل يلوح على القواق   لـذاك نومهم أبـدا كثير
طويلهم يطول العُمْر منـه   أخا نَعبٍ ويخترم القصير
وهم لم يُشْف يـومـا   بغير القطع عضوهم الـكبير
فقل لى من هُمْ لازلت فـرداً   دياجى المشكلات بـه تسير

نكبته : تنظر فى العبادلة فى اسم أبيه [1] .

مولده : سنة سبع وسبعين وستماية .

وفاته : عام تسعة عشر وسبعماية ، فى شعبان رحمه الله.

يحيى بن على بن غانية الصحراوى ، الأمير أبو زكريا

حـاله

(١) سبق لابن الخطيب أن ترجم لأبيه ، عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد العزفى أمير سبتة الذى عزل عن رياسته عنوة ، وأبعد هو وولده وأهله إلى الأندلس ، فاستقر بغرناطة ، وتوفى بها فى سنة ٧١٣ ه (راجع المجلد الثالث من الإحاطة ص ٣٨٣ - ٣٨٥) .

كان بطلا شهما حازما ، كثير الدهاء والإقدام ، والمعرفة بالحروب ، مُجْمَعًا على تقدمه . نشأ فى صحبة الأمير بقرطبة محمد بن الحاج اللّمتونى وولاّه مدينة إسْتجة ، فهى أول ولايته . وليها يحيى ، وتزوج محمد بن الحاج أمه غانية بعد أبيه وكفله ، وأقام معه بقرطبة ، إلى أن كان من محمد بن الحاج ما كان من مداخلة أشياخ مَسُّوفَة على خلع محمد بن يوسف ابن تاشفين [عن الأمر][1] ، وصرف البَيْعة إلى يحيى الحفيد، الوالى فى ذلك العهد بمدينة فاس ، ولم يتم له الأمر ، فأجْلَى عن نكبته . وانفصل يحيى بن غانية عن جماعته ، وأقام متصرِّفاً فى الحروب ، معروف الحق والغِناء ، إلى أن اشتهرت بسالته وديانته ، ورغب يدُّير بن وَرَقا صاحب بلنسية من السطان فى توجيهه إليه ، ليستعين به على مدافعة العَدوِّ ، فأُجيب إلى ذلك. فوصل يحيى بلنسية ، وأقام بها ذاباً عن المسلمين ، إلى أن توفى يَدُّير بن ورقا ، فولاه على بن يوسف إياها وشرق الأندلس ، ظهر غناؤه وجهاده ، وهزم الله بها ابن رُذْمير[2] الطّاغية منازلا إفراغة على يده ، فطار ذكره ، وعظُم صيته ، واشتهر سَعْدُه ، وأسُل عن البيضة دفاعه .

أخبار عزمه

حكى عنه أنه تزوج فى فُتوّته امرأة من قومه شريفة جميلة ، وقرّ بها عينا ، ثم تركها وطلّقها ، فسئل عن ذلك ، فقال والله ما فارقتها عن

(١) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٢) ابن رذمير هو الإسم الذى تطلقه الرواية العربية على ألفونسو المحارب ملك أراجون . وهو الذى استولى على عدة مدن من الثغر الأعلى . وحاول بعد ذلك الإستيلاء على مدينة إفراغة ، وهى من أمنع معاقل الثغر . ولكنه منى تحت أسوارها بهزيمة فادحة (رمضان سنة ٥٢٨ – يوليه سنة ١١٣٤م) ومزق جيشه شر ممزق ، وتوفى لأيام قلائل من بعد هزيمته غماً وألماً .

خِلَّة تُذَم ، ولكن خِفت أن أشتغل بها عن الجهاد. ولم يزل يدافع النصارى عن المسلمين بالأندلس ، فهزم ابن رذمير ، وأقلع محلاتهم عن مدينة[١] الأشبونة ، واستمسك به حال الأندلس . ووُلّى قرطبة وما إليها من قبل تاشُفِين بن على بن يوسف ، عام ثمانية وثلاثين وخمسمائة ، فاستقامت الأمور بحسن سيرته ، وظهور سعده ، إلى صفر من عام تسعة وثلاثين . وكانت ثورة ابن قَسِى[٢] ، باكورة الفتنة . ولما خرج إلى لَبْلة ، ثار ابن حَمْدين بقرطبة دار مُلْكه فى رمضان من العام ، واستباح قَصْره ، وانطلقت الأيدى على قومه ، وتم له الأمر . وبلغ يحيى الخبر ، فرجع أدراجه إلى إشبيلية ، فثار به أهلها ، وناصبوه[٣] الحرب وأصابوه بجراحة ، فلجأ إلى حصن مرجانة ، فأقام به يصابر الهول ، ويرقّع القُتَن. ثم تحرك إليه جيش ابن حمدين ، وكانت بينهما وقيعة انهزم فيها ابن حمدين ، واستولى ابن غانية على قرطبة ، فى شعبان من عام أربعين ، وتحصن ابن حمدين بأنْدُوجر[٤] ممتنعا بها . ونهض يحيى إلى منازلته . فاستعان ابن حمدين بملك قشتالة ، وأطمعه فى قرطبة ، فتحرك إلى نُصرته . ولما وصل أندوجر ، أعْذَر يحيى فى الدفاع والمصابرة ، ثم انصرف بالجيش إلى قرطبة ، وأخذ العدوُّ فى آثارهم ، صحبة مستغيثه ابن حمدين . فنازل قرطبة ، وامتنع ابن غانية بالقصر وما يليه من المدينة . وأدخل ابن حمدين النصارى قرطبة فى عاشر ذى الحجة من عام أربعين ، فاستباحوا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بلاد) .

(٢) وردت فى الزيتونة (ابن قيس) وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ناشبوه) .

(٤) أندوجر وبالإسبانية « Andujar » بلدة أندلسية حصينة تقع على ضفة نهر الوادى الكبير شرقى مدينة قرطبة ، وشمال غربى جيان .

المسجد ، وأخذوا ما كان به من النواقيس[١] ، ومزقوا مصاحفه ، ومنها زعموا مصحف عثمان ، وأنزلوا المنار من الصّومعة ، وكان كله فِضّة ، وحُرِقت الأسواق ، وأفسدت المدينة ، وظهر من صبر ابن غانية ، وشدّة بأسه ، وصدق دفاعه ، ما أيْأس منه . وكان من قَدَر الله ، أن بَلَغ طاغية الروم يوم دخولهم قرطبة ، اجتياز الموحِّدين إلى الأندلس ، فأجال طاغيتهم قِداح الرأى ، فاقتضى أن يهادن ابن غانية : ويتركه بقرطبة فى نحر عدوّه من الموحدين ، سدّا بينهم وبين بلاده . فعُقدت الشروط ، ونزل إليه ابن غانية فعاقده ، واستحضر له أهل قرطبة ، وقال لهم ، أنا قد فعلت معكم من الخير ، مالم يفعله مَنْ قبلى ، غلبتكم فى بلدكم وتركتكم رعيّة لى ، وقد ولّيت عليكم يحيى بن غانية ، فاسمعوا له وأطيعوا . قال المؤرخ ، وفَخَر الطاغية فى ذلك اليوم بقومه[٢] ، وقال ، ولا يُريبنكم أن تكونوا تحت يدى ونظرى ، فعندى كتابُ نبيكم إلى جَدّى . حدَّث ابن أم العماد أبو الحسن ، قال ، حضرتُ ، وأُحضر حقٌّ من ذهَب ، فُتح وأخرج منه كتابٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى قيصر ملك الروم ، وهو جدّه بزَعمه . والكتاب بخط على بن أبى طالب . قال أبو الحسن ، قرأته من أوله إلى آخره ، كما جاء فى حديث البخارى . وانصرف إلى بلاده ، وانصرف ابن حَمْدين ، فكان هلاكه بمالقة ، بعد اضطراب كثير . واستقر ابن غانية بقرطبة الغادر به أهلها ، فشرع فى بنيان القَصَبة وسدّ عوْرتها ، وسام أهلها الخسف وسوء العذاب ، ووالى إغْرامهم . واستعجل أمرهم ، واتصل سَلْمه مع العدو إلى تمام أحد وأربعين وخمسماية ، وقد تملك الموحدون إشبيلية وما إليها . وضيّق عليه النصارى فى طلب

---

(١) يقصد بها هنا مصابيح المسجد المغطاة بأغطية نحاسية تشبه النواقيس .

(٢) وردت فى الإسكوريال (بقديمه) . والتصويب من الزيتونة .

الإتاوة[1]، واشتطُّوا عليه فى طلب ما بيده ، ونزل طاغينهم أندوجر وبه رجل يعرف بالعربى ، واستدعى ابن غانية . فلما تحصَّل بمحاته . طلبه بالتخَلِّى عن بيَّاسة وأُبَّذة ، فكان ذلك . وتشاغل الموحدون بأمر ثائر نازعهم بالمغرب . فكُلب العدو على[2] الأندلس ، فنازل الأُشْبُونة وشَنْترين ، وألمرية وطُرْطُوشة ولاردة وإفراغة ، وطمع فى استيصال بلاد الإسلام ، فداخل ابن غانية سرا منْ بإشبيلية من الموحِّدين ، ووصله كتاب خليفتهم بما أحبَّ ، وتحرك الطاغية فى جيوش لا تُرام . وطالب ابن غانية بالخروج عن جيَّان وتسليمها إليه ، وكاده ، حسبما تقدم فى اسم عبد الملك بن سعيد . ونهض بعد هذه الكاينة[3] إلى غرناطة ؛ وهى آخر ما تبقّى للمرابطين من القواعد ليجمع بها أعيان لَمْتُونة ومسُّوفة ، فى شأن صرف الأمر إلى الموحدين .

وفاته

ولما وصل الأمير يحيى بن غانية إلى غرناطة أقام بها شهرين ، وتوفى عصر يوم الجمعة الرابع عشر من شعبان عام ثلاثة وأربعين وخمسماية ، ودفن بداخل القصبة فى المسجد الصغير ، المتصل بقصر باديس بن حَبُّوس مجاورا له فى مدفنه ، وعليه فى لوح من الرخام تاريخ وفاته . والناس يقصدوه للتبرك به .

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن توقورت بن ورياطن بن منصور ابن مصالة بن أمية بن واياى الصنهاجى ثم اللمتونى

(١) وردت فى الإسكوريال (الإثارة) والتصويب أرجح .

(٢) وردت فى الإسكوريال عن ، فاقتضى التصويب .

(٣) وردت فى الإسكوريال (الكاهنة) والتصويب من الزيتونة .

يكنى أبا يعقوب ويلقب بأمير المسلمين .

أوليته

ذكروا أن يحيي بن إبراهيم بن توقورت حجّ، وهو كبير قبيل الصحراويين فى عشر الأربعين وأربعماية ، واجتاز على القيروان ، وهى موفورة بالعلماء، وتعرّف بالفقيه أبى عُمران الفاسى ، ورغب إليه أن ينظر له فى طلب من يستصحبه ، ليعلّم قومه ويفقههم[1] ، فخاطب له فقيهاً من فقهاء المغرب الأقصى اسمه واجاج ، واختار له واجاج عبد الله بن ياسين القايم بدولتهم، البادى نَظْم نَشْرهم ، وتأليف كلمتهم ، فاجتمع عليه سبعون شيخاً من نبهائهم ليعلمهم ، فانقادوا له انقياداً كبيراً ، وتناسل الناس ، فضخم العدد ، وغزا معهم قبايل الصحراء . ثم التأثَتْ حاله معهم ، فصرفوه ، وانتهبوا كتبه ، فلجأ إلى أمير لمتونة يحيي بن عمر بن تلايكان اللمتونى ، فقبله ، وأعاد حاله ، وثابت طاعته ، فأمضى القتل على من اختلف عليه. وكان يحيي بن عمر يمتثل أمر عبد الله امتثالاً عظيماً . ثم خرج بهم إلى سجلماسة ، فتملكوها، وتملكوا الجبل . ثم ظهروا على المغرب ، ثم قُتل الأمير يحيي بن عمر ، فقدّم عبد الله أخاه أبا بكر بن عمر بدَرْعة ، ونهد به ، فتملك جبال المصامدة ، واحتل بأغمات وَريكة واستوطنها . ولعبد الله أخبار غريبة ، وشذوذ فى الأحكام الله أعلم بصحتها . وقَتَل عبد الله ابن ياسين برغواطة . ولم يزل الأمير أبو بكر بن عمر حتى أخذ ثاره ، وأثخن القتل فيهم ، وقدّم ابن عمه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم، على عسكر كبير ، فيهم أشياخ لمتونة ، وقبايل البرابرة والمصامدة ، واجتاز على بلاد المغرب ، فدانت له . وطرق الأمير أبا بكر خبرٌ من قومه من

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (ويفهمهم)

الصحراء انزعج له ، فولّى يوسف بن تاشفين على مملكة المغرب ، وترك معه الثلث من لمتونة ، إخوانه ، وأوصاه ، وطلّق زوجته زينب ، وأمره بتزوّجها ، لما بلاه من يُمنها . فبَنى يوسف مدينة مراكش وحصّنها[1] ، وتحبّب إلى الناس ، واستكثر من الجنود والقوة ، وجَبى الأموال ، واستبدّ بالأمر . ورجع الأمير أبو بكر من الصحراء سنة خمس وستين وأربعمائة ، فألفى يوسف مستبدًّا بأمره ، فسالمه ، وانخلعَ له عن المُلْك ، ورجع إلى صحرايه ، فكان بها تَصِله هدايا يوسف إلى أن قتله السُّودان . واستولى يوسف على المغرب كله ، ثم أجاز البحر إلى الأندلس ، فهزَم الطاغية الهزيمة الكبرى بالزلّاقة ، وخلع أمراء الطّوائف ، وتملك البلاد إلى حين وفاته .

حـاله

قال أبو بكر بن محمد بن يحيي الصيرفى ، كان رحمه الله خائفاً لربّه كتوماً لسرّه ، كثير الدعاء والاستخارة ، مقبلاً على الصلاة ، مديماً للاستغفار ، أكثرُ عِقابه لمن تجرأ أو تعرض لانتقامه ، الاعتقال الطويل ، والقَيْدُ الثّقيل ، والضرب المُبرِّح ، إلاّ من انتزى أو شقّ العصا ، فالسيف أحْسَم لانتثار الداء . يُواصل الفقهاء ، ويعظّم العلماء ، ويصرف الأمور إليهم ، ويأخذ فيها بآرائهم ، ويقضى على نفسه وغيره بفُتْياهم ، ويحضّ على العدل ، ويصْدع بالحق ، ويعضّد الشّرع ، ويحْزِم فى المال ، ويُولَع بالاقتصاد فى الملبس والمطعم والمسكن ، إلى أن لقى الله ، مجدًّا فى الأمور ، مُلقناً للصواب ، مستحبًا[2] حال الجد ، مؤدّيًا إلى الرعايا

(١) وردت فى الإسكوريال (تخصها) وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (مستصحب) . والأولى أرجح .

حقَّها ، من الذَّب عنها ، والغِلْظة على عدوها ، وإفاضة الأمن والعدل فيها . يرى صور الأشياء على حقيقتها . تسمى بأمير المسلمين لما احتل الأندلس وأوقع بالروم ، وكان قبل يدعى الأمير يوسف ، وقامت الخطبة فيها جميعا باسمه ، وبالعُدْوة ، بعد الخليفة العباسى . وكان درهمه فضّة ، ودُنيْره تِبْرٌ محض ، فى إحدى صفحتى الدُنير « لا إلّه إلا الله ، محمد رسول الله » وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وفى الداير ، ومن يتّبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين . وفى الصفحة الأُخرى، الإمام عبد الله أمير المسلمين ، وفى الداير تاريخ ضربه وموضع سِكّته ، وفى جهتى الدرهم ما حمله من ذلك .

بعض أخباره

فى سنة سبعين وأربعمائة وردت عليه كتب الأندلس ، يبثُّون حالهم ، ويحرّكونه إلى نصرهم . وفى سنة اثنتين بعدها ، ورد عليه عبد الرحمن ابن أسباط ، من ألمرية ، يشرح حال الأندلس . وفى سنة خمس وسبعين بعدها ، وجّه إلى شراءِ العُدَد فيها ، واستكثر منها . وفى سنة ستٍّ بعدها فتح مدينة سَبْتة ، ودخلها عنوة على الثَّاير بها سَقُوت البَرْغُواطى . وفى سنة ثمان اتصل به تملُّك طاغية قشتالة مدينة طُليطُلة ، وجاز إليه المعتمد بن عباد بنفسه ، وفاوضه واستدعاه لنُصرة المسلمين ، وخرج إليه عن الجزيرة الخضراء . وعلم بذلك الأدفنش ، فاخترق [بلاد المسلمين][1] معرضاً عن رؤساءِ[2] الطوائف ، لا يرضى أخذ الجِزْية منهم، حتى انتهى إلى الخضراءِ ، ومثل على شاطىءِ البحر ، وأمر أن يُكتب إلى الأمير

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الأندلس) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ملوك) .

يوسف بن تاشفين ، والموج يضرب أرساغ فرسه ، بما نسخته :

« من أمير الملتين أذفونش بن فردلند إلى الأمير يوسف بن تاشفين. أما بعد فلا خفاء على ذى عينين أنك أمير المِلّة المسلمة ، كما أنا أمير المِلّة النصرانية . ولم يخف عليكم ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التّخاذل ، والتواكل ، وإهمال الرعية ، والإخلاد إلى الراحة ، وأنا أسومهم سوء الخسْف ، وأضرب الدّيار ، وأهْتِك الأستار ، وأقتل الشبان ، وأسبى الولدان ، ولا عذر لك فى التّخلّف عن نُصرتهم ، إن أمكنتك قُدرة . هذا وأنتم تعتقدون ، أن الله تبارك وتعالى ، فرض على كل منكم ، قتال عشرة منا ، ثم خفّف عنكم فجعل على كل واحد منكم ، قتال اثنين منا ، فإن قتلاكم فى الجنة ، وقتلانا فى النار ، ونحن نعتقد أن الله أظْهَرنا بكم ، وأعاننا عليكم ، إذ لا تقدرون دفاعا ، ولا تستطيعون امتناعا . وبلغنا عنك أنك فى الاحتفال على نيّة الإقبال ، فلا أدرى أن كان الحين يبطىءُ بك أمام التكذيب لما أُنزل عليك . فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إلىَّ ما عندك من المراكب لأجوز إليك ، وأُناجزك فى أحب البقاع ، فإن غلبتنى ، فتلك غنيمة جاءت إليك ، ونعمة مَثَلَت بين يديك . وإن غلبتك ، كانت لى اليدُ العليا ، واستكملتُ الإمارة . والله يتمُّ الإرادة » .

فأمر يوسف بن تاشفين أن يُكتب فى ظهر كتابه « جوابك يا أذفونش ما تراه ، لا ما تسمعه إن شاء الله » وأردف الكتاب ببيت أبى الطيب :

ولا كتبٌ إلاَّ المَشْرفيَّة والقَنا ولا رسلٌ إلاَّ الخميس العرمرم

وعبر البحر ، وقد استجاش أهل الأندلس . وكان اللقاءُ يوم الجمعة منتصف رجب من عام تسعة وسبعين وأربعمائة . ووقعت حرب مُرَّة ، اختلط فيها الفريقان ، بحيث افتحم الطاغية محلة المسلمين ، وصدم

يسارة جيوش الأندلس ، واقتحم المرابطون محلّته للحين . ثم برز الجميع إلى مأزق ، تعارفت فيه الوجوه ، فأبلُوا بلاء عظيما ، وأجْلَت عن هزيمة العدو ، واستيصال شأفته . وأفلت أذفونش فى فَلٍّ قليل ، قد أصابته جراحة ، وأعزّ الله المسلمين ونصرهم نصرا لاكفاء له ، وأكثر شعراء المعتمد القول فى ذلك ، فمن ذلك قول عبد المجيد[1] بن عبدون من قصيدة :

فأين العجب يا أذفونش هلّا ... تجنبت المشيخة يا غـــلام
شَمْلك[2] النساء ولا رجـال ... فحدّث ما وراءك يا عصـام
أقمت لدى الوغى سوقًا فخذها ... مناجزة وهَوْنٌ لا تنـــام
فإن شيت اللُّجين فثمّ سام ... وإن شِيت النُّضار فثمّ حـام
رأيت الضرب تطيُّبا فصلّب ... فأنت على صَليبك لا تُلام
أقام رجالك الأشقون كلّا ... وهل جسدٌ بلا رأس ينـــام
رفعنـا هامهم فى كلّ جذع ... كما ارتفعت على الأيْك الحَمام
سيعبُد بعدها الظلماء لمّا ... أتيح له بجانبهـا اكتِتـام
ولا ينفكّ كالخفّاش يُغْضى ... إذا ما لم يباشره الظلام
نَضا إذ راعه واجتاب ليـلا ... يودّ لو انّ طول الليل عـام
سيبقى حسرةً ويبيد إن لم ... أبادتنا القَنـاة أو الحُسـام

وعاد إلى العُدْوة . ثم أجاز البحر ثانية إلى منازلة حصن لييط[3] ،

---

(١) وردت فى المخطوطين (عبد الجليل) . والصواب ما أثبتناه .

(٢) وردت فى الإسكوريال (سيلك) . والتصويب من الزيتونة .

(٣) وردت فى المخطوطين (أليط) وهو تحريف . وحصن أليدو « Aledo » ، أو حصن لييط كما تسميه الرواية العربية هو حصن منيع بناه ألفونسو السادس ملك قشتالة على أثر إستيلائه على طليطلة (سنة ١٠٨٥ م) فى بقعة تقع بين مرسية ولورقة ، وشحنه بالسلاح والمقاتلة ، واتخذه قاعدة للإغارة على الأراضى الإسلامية فى تلك الأنحاء .

وفسد ما بينه وبين أمراءِ الأندلس ، وعاد إلى العدوة ، ثم أجاز البحر عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة ، عاملا على خَلْعهم ، فتملّك مدينة غرناطة فى منتصف رجب من العام المذكور ، ودخل القصر بالقصبة العليا منها ، واستحسنه ، وأمر بحفظه ، ومواصلة مرمّته . وطاف بكل مكان منه ثم تملّك المرية وقرطبة وإشبيلية وغيرها ، فى أخبار يطول اقتضاؤها ، والبقاءُ لله .

وفاته

توفى رحمه الله بمدينة مراكُش يوم الإثنين مستهل محرم سنة خمسمائة .
وممن رثاه أبو بكر بن سوّار من قصيدة أنشدها على قبره :

ملك الملوك وما تركتَ لعامل عملا من التقوى يُشارِكُك فيه
يا يوسف ما أنت إلا يوسف والكلُّ يعقوب بما يطويه
إسمع أمير المؤمنين وناصر الـدين الذى بنفوسنا نُفديه
جوزيت خيرا عن رعيتك التى لم ترض فيها غير ما يُرضيه
أما مساعيك الكرام فإنها خرجت عن التّكييف والتّشبيه
فى كل عام غزوةٌ مبرورة تُرْدى عديد الروم أو تُفنيه
تصل الجهاد إلى الجهاد موفّقا حَتَم القضاءُ بكل ما تقضيه
ويجيءُ ما دبّرته كمجيشه فكأنَّ كلَّ مُغَيَّب تدريه
متواضعا لله مظهرُ دينه فى كل ما تبديه أو تخفيه
ولقد ملكت بحقِّك الدنيا وكم ملَك الملوكُ الأمرَ بالتّمويه
لو رامت الأيام أن تحصى الذى فَعَلت سيوفُك لم تكد تحصيه
إنا لمفجوعون منك بواحد جُمعت خصال الخير أجمع فيه
وإذا سمعت حمامة فى أيكة تبكى الهديل فإنها ترثيه

وميضٌ قد استرعى رعيّة أُمة ... فأقام فيهم حقّ مُسترعيه

وإذا هِزَبْر الغاب صرَى شبله ... فى الغاب كان الشّبل شِبْه أبيه

وإذا علىٌّ كان وارث ملكه ... فالسهم يُلقى فى يَدَى باريه

يوسف بن محمد بن يوسف بن محمد بن نصر

ولى عهد أبيه أمير المسلمين الغالب بالله(١) .

حاله

كان أميراً جليلا حصيفا فاضلا ، ظاهر النبل ، محبا فى العلم .... من فنونه . [مال] إلى التعاليم والنجوم ، أفرط فى الاستغراق فى ذلك ، ونمى إلى أبيه ، فأنكره ، وقصد يوما منزله لأجل ذلك ، ودخل المجلس ، وبه مجلّدات كثيرة ، وقال ما هذه يا يوسف ، فقال سَتْرًا لغرضه المتوقّع فيه نكير أبيه ، يا مولاى هى كتب أدب . فقال السلطان ، وقد قنع منه بذلك ، يا ولدى ما أخذناها يعنى السلطنة ، إلا بقلّة الأدب ، تورية حسنة ، إشارة إلى الثورة على ملوك كانوا تحت إيالتهم ، فغرب فى حسن النادرة ، وكان قد ولأه عهده بعد أخيه ، لو أمهلته المنية .

وفاته : توفى يوم الجمعة ثالث عشر صفر عام ستين وستماية .

يوسف بن عبد المؤمن بن على

الخليفة أبو يعقوب الوالى بعد أبيه .

(١) يقصد به هنا الأمير محمد بن يوسف بن نصر ، وهو محمد بن الأحمر الكبير مؤسس ملكه غرناطة ، الملقب بالغالب بالله .

حـــاله

كان فاضلا كاملا عدلا ورعا جزلا ، حافظا للقرآن بشرحه ، عالما بحديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، خطئه وصحيحه ، آية الموحدين فى الإعطاء والمواساة ، راغباً فى العمارة ، مثابرا على الجهاد ، مشيعا للعدل. أصلح العُدْوة وأمّنها ، وأنّس شاردها ، وحصّن جزيرة الأندلس ببعوثه لها ، فقمعوا عاصيها ، وافتَرعوا بالفتح أقاصيها ، وأحسن لأجنادها ، وأمدّهم من الخيل بالمُبين من أعدادها ، رحمه الله .

ولده : ثمانية عشر أكبرهم يعقوب ولى عهده ، نَجْمُ بنى عبد المؤمن وجوْهرتُهم .

حاجبه : أبو حفص شقيقه .

وزراؤه: إدريس بن جامع ، ثم أبو بكر بن يوسف الكومى .

قضاته : حجاج بن يوسف بن عُمران ، وابن مَضاء .

كتّابه : أبو الحسن بن عيّاش القرطبى ، وأبو العباس بن طاهر بن مَحْشَرة .

بعض أخباره

فى أيامه ، استُوصلت دولة ابن مَرْدَنيش ، بعد حروب مُبيرة ، ودوّخ إفريقية ، وردّ أهل باجَة إلى وطنهم ، بعد تملُّك العدو إياه ، وجبرهم جَدًا واستنقاذا ، وفتح حصن بلَج .

وفاته

فى الثامن والعشرين لربيع الآخر سنة ثمانين وخمسماية ، بظاهر شنترين من سهم أصابه فى خِبائه ، وهو محاصر لها ، فقضى عليه ، وكُتِم موته ، حتى اشتهر بعد رحيله . ذكر ذلك أبو الحسن بن أبى محمد الشَّريشى ،

فكانت خلافته اثنين وعشرين عاما ، وعشرة أشهر ، وعشرة أيام ، وعمره سبع وأربعون سنة .

مولده : فى مستهل سنة ثلاث وثلاثين وخمسماية ، ودخل غرناطة لأول مرة ، ووجب ذكره فيمن حلّ بها .

يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بن محيو

أمير المسلمين بالمغرب ، يكنى أبا يعقوب .

أوْليته : معروفة مذ وقع الإلماع بذلك فى اسم أمير المسلمين أبيه .

حاله

كان ملكا عالى الهمة ، بعيد الصيت ، مرهوب الشّبا ، رابط الجأش ، صعب الشّكيمة ، على عهده اعتُلى الملك ، وناشب القبيل ، واستوسق الأمر . جاز إلى الأندلس مع والده ، ودوّخ بين يديه بلاد الروم ، ووقف بظاهر قرطبة وإشبيلية ، وحضر الوقيعة بذنونه[1] ، وجَرَت بينه وبين سلطان الأندلس ، على عهده ، مُنافرات ، أجْلَت أخيرا عن لحاق السلطان به مُسْتَعتبا . واستقرّ آخرا محاصرا لتلمسان ، غازيا لبنى زيّان الأُمراءِ بها ، وابتنى مدينة سماها تلمسان الجديدة ، وأقام محاصراً لها ، مضيقا على أهلها

(١) كان السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور ملك المغرب (ووالد المترجم له) قد عبر إلى الأندلس ملبياً صريخ سلطانها محمد بن محمد بن الأحمر إلى الغوث والإنجاد ، وذلك فى سنة ٦٧٣ هـ . وسار أبو يوسف فى قواته شمالا حتى وصل إلى أحواز قرطبة . وهناك تقدم القشاليون إلى لقائه فى جيش ضخم على رأسه الدون نونيودى لارا الذى تسميه الرواية الإسلامية (دنونه أو ذنونه) فنشبت بين الفريقين على مقربة من إستجة معركة هائلة هزم فيها النصارى هزيمة فادحة ، وقتل قائدهم دون نونيودى لارا وعدة كبيرة من عظمائهم فى شهر ربيع الأول سنة ٦٧٤ هـ (سبتمبر سنة ١٢٧٥ م) . وكانت من أعظم الوقائع الحاسمة بين المسلمين والنصارى فى الأندلس منذ موقعة العقاب الشهيرة فى سنة ١٢١٢ م .

نحواً من ثمانية أعوام ، وعظّمته الملوك شرقا وغربا ، ووردت عليه الرُّسل والهدايا من كل جهة ، وهابه الأقارب والأباعد.

وفاته

ولما أراد الله إنفاذ حكمه فيه ، قيّض له عبْدًا خِصِيًّا حَبَشيًّا ، أَسِفَه بقتل أخٍ له أو نسيب، فى باب خيانة عثر له عليها ، فاقْتَحم عليه دار الملك على حين غفلة ، فدجّاه بسكين أعدّه لذلك ، وضجّ القصر ، وخرج وبالسلطان رمق ، ثم توفى من الغد ، أو قريبا منه ، فى أوايل ذى قعدة من عام ستة وسبعماية ، فكانت دولته إحدى وعشرين سنة وأشهرا ، وانتقل إلى مدفن سلفه بسلا ، وقبره بها . وركب قاتِلُه فرساً أزْعجها ركضا ، يروم النجاة واللّحاق بالبلد المحصور ، وسبقه الصّياح ، فسُد بعض الأبواب التى أمل النجاة منها ، وقُتل وألحق به كثير من جنسه.

وجرى ذكره فى الرّجز المتضمن دول الملوك[1] من تأليفنا بما نصه :

حتى إذا الله إليـــه قيّضـه	قام ابنه يوسف فيها عوضه
وهو الهـمام الملك الكبير	فابتهج المِنْبَــر والسّـرير
وضخُم الملك وذاع الصِّيت	بملكه وانتظم الشّـتيت
وساعد السّعد وأغضى الدهر	وخلُص الســرُّ له والجهـر
وأمل الجود وخيف البأس	واستَشْعَر الخِشْية منه النـاس
ثم تقضّى معـظم الزمـــان	مواصلا حَصْـر بنى زيّـــان
حتى أهلّ تلمسان الفــرج	ونشقوا من جانب اللطف الفرج
لما توفى درج السعد درج	فانفرج ضيق الحصر عنها وانفرج

(١) يقصد ابن الخطيب بذلك كتابه (رقم الحلل فى نظم الدول) .

ونزل بظاهر غرناطة وببعض مروجها بقرية أشقطمر ، فى بعض غزوات أبيه إلى قرطبة ، وتقدم السلطان إليهم من البرّ والقرى ، ما كثر الإخبار به والتعجب منه ، ووجّه إليهم ولده وولى عهده .

يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن بكر بن حمامة بن محمد بن رزين بن فقوس بن كرناطة بن مَرين

من قبيلة زَناتة ، أمير المسلمين المُكْنى بأبى يوسف الملقّب بالمنصور رحمه الله .

أوّليّته

ظهر بالمغرب أبوه الأمير عبد الحق ، وقد اضطربت دولة الموحّدين ، والتَـأَثَ أمرهم ، ومَرَجت عرب رياح ، لعجز الدولة عن كفّ عدوانهم ، فخرج الأمير عبد الحق فى بحبوحة قومه من الصحراء ، ودعا إلى نفسه ، واستخلص الملك بسيفه ، عام عشرة وستماية ، وكان على ما يكون عليه مثله ، ممن جعله الله جُرْثومة مُلْك وخَدَم دولة ، من الصِّدق والدّهاء والشجاعة . ورأى فى نومه كأنّ شُعَلاً أربع من نار ، خرَجْن منه ، فَعَلَوْنَ فى جوّ المغرب ، ثم احْتَوين على [جميع] أقطاره ، فكان تـأْويلها تملُّك بنيه الأربعة بعده ، والله يُؤتى مُلْكه من يشاءُ . وكان له من الولد إدريس ، وعثمن ، وعبد الله ، ومحمد ، وأبو يحيى ، وأبو يوسف ، ويعقوب . هذا ولما هلك هو وابنه إدريس فى وقِيعة رِياح ، وَلِى أمره عثمن ولده ، ثم ولى بعده أخوه محمد ، ثم ولى بعده أبو يحيى أخوهما . وفى أيامه اتّسق الملك ، وضَخُم الأمر ، وافتتحت البلاد . ولما هلك حتف أنفه

بفاس فى رجب من عام ستة وخمسين وستماية ، قام بالملك أخوه يعقوب المترجم به ، وأَرَّث المُلْك بنيه .

حاله

كان دَيِّنًا فاضلاً حييًّا ، جواداً سَمْحًا ، شجاعا ، محبا فى الصالحين ، منقادا آلى الخير ، حريصا على الجهاد . أجاز ولده فى أوائل عام اثنين وسبعين وستماية إلى الأندلس ، ثم عبر بنفسه فى سِرار صفر من العام بعده ، فاحتل بظاهر إشبيلية ، وكَسَر جيش الرُّوم ، المنعقد على زعيمهم المسمى ذُنُونه ، بظاهر إستجة فى ربيع الآخر من العام . ثم عبر ثانيا ، مغتنماً ما نشأ بين الروم من الفُرقة ، فغزا مدينة قرطبة ، وصار أمر العدو فى أطواق الفَرُنْتِيرة ، بحيث لا يوجد فى بطن القتيل منها إلا العشب أزلاً ومسْغَبة ، لا نتشار الغارات ، وانتساف الأقوات ، وحديث الفتنة . وسببها ما كان من تصيُّر مالقة إليه ، من أيدى المنتزين عليها من بنى إشقيلولة ، ثم عودتها إلى سلطان الأَندلس ، من أيدى رجاله ، شيوخ بنى مُحلٍّ ، ثم تدارك الله المسلمين بصلاح ذات البين ، واحتلَّ بظاهر غرناطة ، فى بعض هذه الغزوات ، فنزل بقرية إسقطمر من مرْجها ، واحتفل السلطان رحمه الله فى برِّه ، وأَجْزَل نَزله ، وتوجيه ولده إليه .

وذكر سيرته شاعرُهم أبو فارس عزُّوز فى أُرجوزته ، فقال :

سيرةُ يعقوب بن عبد الحق ... قد حاز فيها قَصَبات السَّبق

بُغْيَتان ، يقرأُ الكتاب ... وتَذَكُّر العلوم والآداب

يقوم للكتاب ثُلْثَ الليل ... وماله عن ورْدِه من سبيل

حتى إذا الصباح لاح وارتفع ... قام وصلَّى للالآه وركع

وضجَّ بالتَّسْبيح والتَّقْديس ... حتى يتم الحِزْبُ فى التَّغْليس

يقـرأُ أولا كتـاب السِّير　　والقَصَص الآتى بكل خبر
ثم فُتُوح الشّام باجتهـاد　　وبعده المشهور بالإنجـاد
سؤاله تعجــز عنه الطَّلبة　　ومن لديه من أجلِّ الكَتَبة
يعقدالكُتْبَإلىوقت الضُّحى　　ثـم يصلِّيها كفعل الصُّلحا
ويأْمر الكتّاب بالأوامـر　　فى باطنٍ من سـرِّه وظـاهر
ويدخل الأشياخُ من مَرِين　　للرأى والتدبير والتَّزْيين
مجلسُه ليس بـه فُجـور　　ولا فتًى فى قوله يَجْــــور
كأنّهم مثلُ النجوم الزُّهر　　وبينهم يعقوب مثل البَدْر
قد أشبو الوقار والسكينـة　　وحلَّ فى مكـــانة مَكيـــنة
حتى إذا ما جاز وقت الظهر　　قام إلى بيت للنّدى والفَخَر
يبقى إلى وقت صلاة العَصْر　　يأْتى إلى بيتْ العُلى والأمـر
ويَنْصِف المظلوم ممن ظلمه　　ولم يَزل إلى صلاة العَتْمة
ثـم يؤمُّ بَيْتــة الكريما　　ويترك الوزير والخَديمـا
ثم ينام تارةً ، وتـــارةً　　يدبِّر الأُمـــور بالإدارة
ما إن ينام الليل إلا ساهرا　　ينوى الجهاد باطناً وظاهراً
فهل سمعتم مثل هذه السِّيرة　　وهذه المـآثر الأثيـــرة
لملكٍ كان من الملـوك　　أو مالكٍ فى الدهر أو مْملوك
كذاك كان فِعْـلُه قديما　　بذاك نال المُلْك والتَّعظيما

ومن الرَّجز المسمى بقَطْع السُّلوك[1] من تـأْليفنا ،فى ذكره ، قولى :

تبوّأَ هذا الأمر عبد الحق　　أكرم من نال العلى بحق

(١) يشير ابن الخطيب إيضاً إلى كتابه (رقم الحلل فى نظم الدول) .

واستخلص الملك بحدّ المرهف ... لسنّ مجدٍ عظيم الشرف
وكان سلطانا عظيم الجود ... وصَدَقت رؤياه فى الوجود
فأعلى الأيام نورُ سَعده ... ونالها أبناؤه من بعده
عثمن ثم بعده محمد ... ثم أبو يحيي الهمام الأسْعَد
تمهّد الملك له لما هَلَك ... وسلك السَّعد به حيث سَلَك
وفُتِحت فاسُ على يديه ... والملك العلىُّ حلّه لديه
وكان ذا فضل وهدًى وورع ... قد رسمَ الملك فيهم واخترع
ثم أتَتْ وفاته المشهورة ... فولّى المنصور تلك الصُّورة
وهو أبو يوسف غلّاب العِدا ... وواحدُ الأملاك بأْساً ونَدا
مُمَهِّد الملك ومُورى الزَّند ... وباسط العدل ومُولى الرِّفد
مُدَّت إلى نُصرته الأكُفُّ ... والروم فى العُدوان لا تَكُفُّ
فاقتحم البحر سريعا وعَبَر ... ودافع الأعداء فيها وصَبَر
ووقعت فى عهده أمــور ... وفتنةٌ ضاقت لهـا الصُّدور
وآلَتْ الحال إلى التِيام ... فما أُضِيعت حُرمة الإسلام
حتى إذا الله إليه قَبضَه ... قام ابنُه يوسف فيها عِوَضَه

وفاته

توفى فى شهر المحرم عام خمسة وثمانين وستماية ، بالجزيرة الخضراء ودُفن بها . ثم احتُمل بَعْدُ إلى سَلا ، فدفن بالجبانة المعروفة هنالك لملوك من بنى مرين . ومحلُّ هذا السلطان فى الملوك المجاهدين المرابطين معروف ، تغمده الله برحمته .

الأعيان والوزراء والأماثل والكبراء

يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطى بن شريفين

أقرب القبائل المرينية إلى قَبيل سلطانهم من بنى حَمامة . خدم جدُّه بتونس ، ثم بالأندلس ، يكنى أبا زكريا ، شيخ القَبيل الزّناتى ، ومحراب رأيهم ، وقُطْب رَحَى حِماتهم .

حاله

كان هذا الشيخ وحيدَ دهره ، وفريدَ وقته ، وشامةَ أهل جِلْدته ، فى النُّبل والفَطانة ، والإدراك والرَّجاحة ، شديد الهزل مع البأْو ، والممالقة مع التَّيقُّور ، والمهاترة مع الحشمة . عارفا بأخلاق الملوك وشروط جُلَسائها ، حسن التوصُّل إليها ، والتأتِّى لأغراضها ، بعيد الغُور ، كثير النُّكراء ، لطيف الحيلة ، عارفا بسياسة الوطن ، قَيُوما على أخلاق أهله ، عديم الرِّضا بسير الملوك ، وإن أعلقوا بالعروة الوثقى يده ، ويسَّروا على عبور عقبة الصِّراط عونه ، وأَقْطَعوه الجنَّة وحده ، طَنازًا[1] بهم ، مُغْريا ، خائنةَ الأعين بتصرُّفاتهم ، مقتحما حِمى اغتيابهم ، قد اتخذ ذلك سجيَّة ، أَقْطعته جانب القَطِيعة برهة ، فارتكب لها الأداهم مدَّة ، جمَّاعة للمال ، ذايدا عنه بعصى التَّقتير ، وربما غَمَس فيه إبرةً للصدقة ، وساما بينه وبين الوزير ، مُكَفِى السماء على الأرض ، برأيه المستعين على الفتكة وما وراءها ، بمنيع موالاتهم ، وبانيه يوم مكاشفة الملإ إياه بالنُّفرة ، وكان قُطْب الرَّحى للقوم فى الوجهة إلى الأمير عبد الحليم ، ومقيمَ رسمه ، وانصرف إلى جهة مرّاكُش عند الهزيمة عليه ، فاتَّصل بعميدها

(١) أى استهزاء بهم .

عامر بن محمد بن على الهِنْتاتى ، وجَرت عليه خطوب ، وعاشت فى الكثير من نعمته أكفُّ التّمزيق ، ديْدَن الدهر ، فى الأَموال المُحتجنة ، والنقود المُكْتنزَة ، واستقر أخيراً بسجلماسة ، فى مظاهرة الأَمير عبد الحليم المذكور ، وبها هلك . وكان على إزرايه ولَسْب لِسانه ، واخز تلال حيّةِ حدّته ، ناصح الرأى لمن استنصحه ، قوّاما فيه بالقسط ، ولو على نفسه والوالدين والأَقربين ، فضيلةٌ عُرف فيها شأْوه ، مقيما لكثير من الرُّسوم الحَسْبِية .

دخوله غرناطة

قدم غرناطة فى جمادى من عام تسعة وخمسين [وسبعماية][1] فى غرض الرِّسالة ، ووصل صحبته قاضى الجماعة بالمغرب أبو عبد الله المقّرى ، وكان من امتِساكه بالأَندلس ، ما أَوجب عودة المترجم به فى شأْنه ، فتعدد الاستمتاع بنُبْله .

وفاته : توفى قتيلا فى الهزيمة على الأَمير عبد الحليم بظاهر سجلماسة فى ربيع الأَول من عام أَربعة وستين وسبعماية .

يحيى بن طلحة بن علىّ البطوى ، الوزير أبو زكريا

حاله

كان مجموعا رائعا ، حُسْنَ شكل وجمال رواء ، ونصاعة ظَرْف ، واستجادة مَرْكب وبزّة ، قديم الجاه ، مرعى الوسيلة ، درِبًا على الخدمة ، جلِدا على الوقوف والملازمة ، مُجدى الجاه ، تلمُّ به نوبة تواضع ، يتشبّث به الفقراءُ وأولى الكُدْية ، فَكِه المجلس ، محبًّا فى الأَدب ، أَلِفًا للظرفاء ، عاملا على حسن الذِّكر وطيب الأُحدوثة . تولّى الوزارة

(١) ساقطة فى الإسكوريال وأضفناها ليتضح السياق .

للسلطان أبي الحسن ، ونشأ في حِجر أبيه ، ماتًا إليهم بالخؤولة القديمة ، فتملأ ما شاء من قرب ومزيّة ، وباشر حصار الجبل لمّا نازله الطاغية ، لقرب عهدٍ بفتحه ، فأبلى وحَسُن أثره . نشأ بالأندلس ، وسكن وادى آش وغرناطة ، واستحق الذكر لذلك :

شعره

وكان ينظم الشعر ، فمن ذلك قوله فى مُزْدوجة فى غرض الفخر :

أنا ابن طلحة ولا أبــال ... لبثٌ السُّرى فى الحرب والنزال
يحيي حياة البِيض والعُوال ... مبيدٌ كلَّ بطلٍ مغتـــال
إن سمعوا باسمى فى مجال ... يلقوا بأيديهم إلى النّكال
أستَنْزِل القرن لدى الصِّيال ... وأكسر النَّصل على النِّصال
ن أمَلى التفريق للأموال ... والجمع بين الأقوال والفِعال
والشِّعر إن تسمعه من مقال ... تعلم بأن السِّحر فى أقوال
أوشِج الغريب فالأمثـال ... وأقرن الأشباه بالأمثــال
وأفضِّل المرجان باللآل(١) ... وأذكر الأيــام والليـــال
فَمَنْ أبو أميـــة الهـــلال ... ومَنْ وحيدُ عصره الميكال
هذا ولى فى غـير ذا معال ... بها أعالى الدّهر من أعـــال
كما لحَسَب الصَّميم والمعال ... والمحْتِد الضَّخم الحفيل الحال
وكَرَم الأعمـــام والأخوال ... والصَّون والعفاف والأفضال
فمن يُساجلنى فَذَا سِجــال ... ومن يُناضلنى فَذا نِضــال

وفاته : توفى فى أواخر عام خمسة وثلاثين وسبعماية . أصابه سهمُ نفْطٍ رُمى به من سور تلمسان أيام الحصار ، فقضى عليه . نفعه الله .

(١) وردت فى الإسكوريال (باللثال) .

يحيى بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن الحكيم اللخمى

أخو الوزير أبي عبد الله بن الحكيم وكبيرهُ ، يكنى أبا بكر ، رُنْدى الأصل . قد مرَّ شيءٌ من ذكر أوَّليته . دخل غرناطة مرات ، وافدًا وزايرًا ، وساكنا ومغرِّبًا .

حاله

كان وزيرا جليلا ، وقورا عفيفا ، سريًّا فاضلا ، رحْب الجانب ، كثير الأمل ، جمّ المعروف ، شَهير المحل ، عريض الجاه ، صريح الطُّعمة ، من أقطاب أرباب النعم ، ومُنْتَجعى الفِلاحة بالأندلس . استبدَّ ببلده برهة ، بإسناد ذلك إليه وإلى أخيه ، من السلطان أمير المسلمين أبي يحقوب ملك المغرب ، الصَّاير إليه أمره عند نبذها مغاضبا ، ثم أصاره إلى إيالة السلطان ، ثانى الملوك من بنى نصر ، على يدى أخيه كاتبهِ ، ووزير ولده .

محنته ووفاته

ولما تقلَّد أخوه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الحكيم الأمر ، سما جاهُه ، وعظم قدره ، وتعدَّد أمله ، إلى أن تعدَّى إليه أمر المحنة يوم الفتك بأخيه ، فطاح فى سبيله نَشَبُه ، وذهب فى حادثه الشنيع مكْسبُه . واستقرَّ مُغرَّبًا بمدينة فاس ، تحت سِتر وجراية ، وبها أدْرَكته وفاته فى أوايل شوال من عام عشرة وسبعماية .

يحيى بن عمر بن رحُّو بن عبد الله بن عبد الحق

جَدُّ الملوك من بنى مَرِين ، يكنى أبا زكريا ، شيخ الغزاة ، ورئيس جميع القبايل بالأندلس .

أوّليته

قد تقدمت الإشارة إلى أوّلية هذا البيت ، ونحن نُلمع بسبب انْتِباذهم عن قومهم ، وهو ما كان من قتل أخى جَدِّهم ، يعقوب بن عبد الله ابن عبد الحق ، ابن أخى السلطان أبى يوسف ، إذ كان ثايرا مُصْعبا ، مظنّة للملك ، ومحلاً للآمال ، فنافسه ولىّ العهد وأوقع به ، فوقع بينهم الشّتات ، وفرّ شيوخ هذا البيت وأتباعهم إلى تِلمسان ، ثم اجتازوا إلى الأندلس ، منهم من آثر الجهاد ، أو نبا به ذلك الوطن ، أو شرّده الخوف ، أو أحطب به الاستدعاء . فمنهم موسى وعمران والعباس ، أبناء رحّو بن عبد الله ، وعثمان بن إدريس وغيرهم . فبدت فيهم الشياخة ، وصحبهم التّقديم ، وأقامت فيهم الخُطّة ، وتردّدت بينهم الولاية .

حاله

هذا الشيخ مُستحق الرُّتبة ، أهلٌ لهذه الرياسة ، بأسا ونجدة ، وعِتقا وأصالة ، ودهاء ومعرفة ، طِرْفٌ فى الإدراك ، عامل على الحُظوة ، مستديمٌ للنعم ، طيّب بالخدمة ، كثير المزاولة والحَنَكة ، شديد التّيقظ ، عظيم الملاحظة ، مُسْتَغْرِق الفكرة فى ترتيب الأُمور الدنيوية ، بحّاث عن الأخبار ، ملتمس للعُيون ، حسن الجوار ، مبذول النّصفة ، بقيةُ بيته بالعُدْوتين ، وشيخ رجاله . له الإمامة والتّبريز فى معرفة لسانهم ، وما يتعلق به من شِعْرٍ ومُثُل وحكمة وخَبر ، لو عرضت عليه رِمَم من عَبَر منهم لأثبتَها ، فضلا عن غير ذلك ، نسّابة بطونهم وشِعابهم ، وعلاّمة سِيَرهم ، وعوايدهم ، ألمعىٌّ ، ذكى ، حافظ للكثير من الحكم والتراريخ ، محفوظ الشّيبة من العِصمة ، طاهر الصون والعفّة ، مشهور الشّهامة

والنَّجدة ، معتدل السَّخاء ، يصع الهناء مواضع النُّصب فلا يُخدع عن جِدته ، ولا يُطمع في غفلته . ولا ينازع فيما استحقه من مزيَّته ، خدم الملوك ، وخبر السِّير ، فترك الأخبار لعلمه ، وعَضَل عقله بتجربته .

تولى رياسة القَبيل وسَط صَفَر من عام سبعة وعشرين وسبعماية ، معوَّضًا به عن شيخ الغُزاة عثمن بن أبي العلاء[1] ، فتنعَّم البيت ، وخدُن الشُّهرة ، عندما أظلم ما بينه وبين ابن المحروق مدبِّر الدولة ، ودافعه بالجيش ، في ملْقى حَرانه ، من أحواز حِصْن أندرش[2] مرات ، تناصف الحرب فيها ، وربما ندر الفَلْج في بعضها ، واستمرت حاله إلى سابع محرم من عام تسعة وعشرين وسبعماية . وأُعيد عثمان بن أبي العلاء إلى رتبته على تَفِئة مهلك ابن المحروق . وانتقل هو إلى مكانه بوادى آش في قومه ، تحت حفظ ومبرَّة . ثم دالت له الدولة ، وعادت إلى ولده الكُرة ، يوم القبض على نظرائه وقرابته ، مُتْرَفى حظوته ، ولد الشيخ أبي سعيد عثمن بن أبي العلاء ، عند إيقاع الفتكة بهم يوم السبت التاسع والعشرين لربيع الأول عام أحد وأربعين وسبعماية . واستمرت له الولاية ، وألقت عصاها كَلِفَة منه بالكفوّ الذى سلَّم له المنازع ، إلى أن قبض سلطانه رحمه الله ، فجرى ولده على وتيرة أبيه ، ووفَّى له صاع وفائه ، فجدَّد ولايته ، وشدا حسَّه ، ونوَّه رتبته ، وصدر له يوم بيعته منشور كريم من إنشائي نصه :

(١) في الإسكوريال (أبي العلى)

(٢) حصن أندرش أو بلدة أندرش Andrax . بلدة أندلسية حصينة ، تقع على مقربة من نهر أدرة بولاية ألمرية وقد اشتهرت في التاريخ ، إذ كانت مدى حين مقر أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس ، بعد تسليمه لمدينة غرناطة إلى الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيسابيلا ، ومنها عبر فيما بعد إلى المغرب ، بالاتفاق الخاص بينه وبين الملكين المذكورين .

«هذا ظهير كريم منزلتُه فى الظهاير الكريمة منزلة المعتمد فى الظُّهر الكرام، أطلَع وجه التعظيم سافر القِسام، وعقد راية العزِّ السامى الأعلام، وجدَّد كريم المتات وقديم الذِّمام، وانتضى للدفاع عن حَوْزة الدين حُساما يقر بمضايه صدر الحُسام، فأعلن تجديده بشدِّ أزر المُلك ومُناصحة الإسلام، وأعرب عن الاعتناء الذى لا تخلق جديده أيدى الليالى والأيام. أمر به الأمير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين أبى الحجَّاج، ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر، أيد الله أمره وأعز نصره، لوليِّه الذى هو عِماد سلطانه، وواحد خُلصائه، وسَيْف جهاده، ورأس أُولى الدفاع عن بلاده، وعِقد ملكه، ووُسْطى سِلكه، الشيخ الجليل الكبير الشهير، الأعزِّ الأسْنَى، الصدر الأسْمَى، الأحفل، الأسعد، الأطهر، الأظهر، الكذا، أبى زكريا ابن الشيخ الكذا، أبى على ابن الشيخ الكذا، أبى زيد رحُّو بن عبد الله ابن عبد الحق، زاد الله قدره علُوًّا، ومجده سموًّا، وجهاده ثناءً متلوًّا.

لما كان محله من مقامه، المحل الذى تتقاصر عنه أبصار الأطماع فترتَدُّ حاسرة، وكان للدولة يدًا باطشة، ومُقلة باصرة، فهو ملاك أمورها واردةً أو صادرةً، وسيف جِهادها الذى أصبحت بمضائه ظافرة، وعلى أعدائها ظاهرة، وكان له الصِّيت البعيد، والذكر الحميد، والرأى السديد، والحَسَب الذى يليق به التمجيد، والقدر الذى سما منه الجِيد، وعَرَفه القريب والبعيد، والجهاد الذى صدق به فى قواعده الاجتهاد والتَّقْليد، فإن أقام[1] جيشا أبْعد غارته، وإن دبَّر أمرا أحكم إدارته، مستظهرا بالجلال الذى لبس شارته. فهو واحدُ الزمان، والعُمْدَة الرفيعة من عُدد الإيمان، ومن له بذاته وسلفه علو الشَّأن، وسمو المكان،

---

(١) وردت فى الاسكوريال (قام).

والحسب الوثيق البُنْيان . وابيته الكريم . بيت بنى رحّو السّابقة فى ولاية هذه الأوطان . والمدافعة عن حوزة المُلك وحِمى السلطان . إن فوخروا صدعوا بالمكارم المعْلُومة ، ومتّوا إلى ملك المغرب ببنوة العُمومة ، وتزيّنوا من حُلى الغرب بالتيجان المنظومة . فهم سيوف الدين ، وأبطال الميادين ، وأُسود العَرين ، ونجوم سماء بنى مَرِين . وكان سلفه الكريم رضى الله عنه يستضئ من رأيه بالشّهاب الثاقب ، ويحلّه من بِساط تقريبه أعلى المراتب ، ويستوضح ببركته جميع المذاهب . ويستظهر بصدق دفاعه على جهاد العَدوّ الكاذب ، ويرى أنه عزّ دولته ، وسيف صوْلته ، وذخيرة فخره ، وسِياج أمره . جدّد له هذا الرّتْب تجديدا ، صيّر الغاية منها ابتداءً ، واستأْنف به إعلاءً ، ولم يدّخر عنه حُظْوة ولا اعتناءً . وحين صيّر الله إليه مُلْك المولى أبيه بمظاهرته ، وقلّده قلادة الملك بأصيل اجتهاده ، وحميد سعيه ، بعد أن سبق الأُلوف إلى الأخذ بثاره ، وعاجلت البَطْشة الكبرى يد ابْتِداره ، وأردى بنفسه الشّقى الذى سعى فى تبديد شمل الإسلام ، وإطفاء أنواره ، على تعدّد الملك يومئذ وتوفر أنصاره . فاستقر الملك فى قراره ، وانسحب السِّتر على محلّه ، وامتد ظل الحفظ على داره . عرَف وسيلة من المقام الذى قامه ، والوفاء الذى رفع أعلامه ، وألقى اليه فى أهم الأُمور بالمقاليد ، وألزمه ملازمة الحضور بمجلسه السّعيد ، وشدِيد الاغتباط على قربه ، مُسْتَنْجحًا منه بالرأى السّديد ، ومُسْتَندا من وُدّه إلى الركن الشّديد ، وأقامه بهذه الجزيرة الأندلسية عِماد قومه ، فهو فيهم يعْسوب الكَتِيبة ، ووُسْطى العقد الفريد ، وفَذْلكة الحِساب وبيت القصيد . فدوّاره منهم للشريد . مأْوى الطّارف والتليد ، الكفيل بالحسى والمريد . يقف ببابه أُمراؤهم ، وتنعقد فى مجلسه

آراؤهم ، ويركض خلفه كبراؤهم . مجددا من ذلك ما عقده سلفه من تقديمه ، وأوجبه مزيّة حديثه وقديمه . فهو شيخ الغُزاة على اختلاف قبايلهم ، وتشعُّب وسايلهم ، تتفاضل درجات القبول عليهم بتعريفه ، وتَشْرُف أقدارهم لديه بتشريفه ، وتثبت واجباتهم بتقديره ، وينالهم المزيد بتحقيقه لِلغناء منهم وتقريره ، فهو بعده ، أيده الله ، قبْلَة آمالهم. وميزان أعمالهم ، والأُفق الذى يصوب من سحاب قَطْره غمام نَوالهم ، واليد التى تستمنح عادة أطمعتهم وأموالهم . فليتولَّ ذلك عظيمَ القدر ، منشرحَ الصدر ، حالاًّ من دائرة جمعهم ، محلَّ القلب من الصدر ، متألقا فى هالتها تألُّق البدر ، صادعا بينهم باللُّغات الزَّناتية ، التى تدل على الأَصالة العريقة ، والنِّجار الحُرِّ . وهو إن شاء الله الحُسام الذى لا ينبه على الضريبة ، ولا يزيده حُسنا جلب الحُلِيِّ العجيبة ، حتى يشكر الله والمسلمون اغتباط مقامه بمثله ، ويزرى برُّه به على من أسرَّ برَّه من قبله ، ويجنى الملكُ ثمرة تقريبه من محلّه . ومن وقف على الظهير الكريم من الغزاة ، آساد الكفاح ، ومتقلدى السيوف ومعتلقى الرماح ، كُماة الهيجاء وحُماة البِطاح ، حيث كانوا من مُوسَّطة أو ثغر ، و ن أُقيم فى رسم من الجهاد أو أمر ، أن يعلموا قدر هذه الغاية المُشْرقة ، واليد المطلقة ، والحُظوة المتألِّقة ، فتكون أيديهم فيما قُلدوه ردًّا ليده ، وعزايمهم متوجهة إلى مقصده . فقصده ، فقدُره فوق الأَقدار ، وأمره الذى ناب أمره مقابل الابتدار ، على توالى الأيام وتعاقب الأَعصار . وكتب فى كذا ...

مولده

ولد بظاهر تلمسان ، عند لحاق أبيه رحمه الله بسلطانها عام أحد وتسعين (وستماية) تلقَّيته من لفظه .

ومن « المُسْتدرك » . وتمادت ولايته إلى الأوايل من شهر رمضان عام اثنين وستين وسبعماية . فلما تصيرت إلى قِدار ناقتها . محمد بن إسمعيل ابن نصر ، عَزَله ، وهمَّ به ، فغرَّبه إلى بلد الروم ، فرارا أرَّق به البسالة والصبر ، وتبعه الجيش ، فأُصيب بجراحة ، ورد من صامتِه ، وجَلَى عن نفسه ، فتخلصه عزمه ومضاؤه ، واستقرَّ عند طاغية الروم ، فأَولاه من الجميل ما يفوت الوصف ، واجتاز العُدْوة ، فعُرِف بها حقُّه ، وعادت رتبة هذا الرجل ، بعد أن ردَّ الله على سلطانها ملكه ، إلى أحسن أحوالها من الجاه والحظوة ، وانطلاق اليد . والسلطان مع ذلك مُنْطوٍ له على الضِّغن لأُمور ، منها غَمْسُ اليد فى أمر عمه ، وقعوده عنه ، وهو أحوج ما كان لنصره ، وانزحاله عنه فى الشِّدة ، عندما جمعه المنزل الخَشِن ، فسحب عليه أذيال النكبة لابنه عثمن ، مُتْرِقى مرقب الظهور فى عودته ، والمستأثر بجواره ، والمحكَّم فى أمره ، فتُقُبِّض عليهما ، وعلى من لهما محالفاً للوقت فيهما ، إذ كان متوفرا على الحلم لِحدْثان العودة ، وجِدة الإيالة ، صبيحة يوم الإثنين لثالث عشر لرمضان عام أربعة وستين وسبعماية . فأحاط بهم الرجال لهذا السلطان ، والتُقِطوا من بين قَبيلهم ، ودهمهم الرجال ، آخذين بحجزهم وأيديهم إلى دور الثقاف . ثم أركبوا الأداهم ، وانتقلوا إلى بعض الأطباق المتفرِّقة بقصبة المُنكَّب ، واقتضى نظر السلطان جلاء المترجم به وأولاده من مرْسى المنكَّب ، ونُقل ولده الأكبر إلى ألمريَّة حسبما مرَّ فى اسمه ، فلينظر هنالك ، واستقر إلى هذا العهد ، بعد قفوله من الحجِّ بمدينة فاس ، فلقى بها برًّا وعناية ، ولحق ولداه بالأندلس ، وهما بها ، تحت جراية وولاية

يوسف بن هلال

صِهر الأمير أبي عبد الله بن سعد[1] .

حـــاله

كان شجاعا حازما ، أحظاه الأمير المذكور وصاهره ، وجعل لنظره حصن مطرنيش[2] ومواضع كثيرة . وفسدت طاعته إياه ، فقبض عليه ونَكَبه وعذّبه ، واستخلص ما كان لنظره وتركه . فأعمل الحيلة ، ولحق بمُورتلة فثار بها ، وعاقد صاحب برجلونة على تصيير ما يملكه إليه . فأعانه بجيش من النصارى ، ولم يزل يضرب ويوالى الضّرب على بلنسية ويشجى أهلها ، وتملك الصّخرة والصُّخيرة وغيرهما . واتفق أنّ خيلا جهزها ابن سعد للضرب عليه ، عثرت بجملته متوجها إلى شنت بيطر ، فقُبض عليه ، وقيد أسيراً ، فنهض به للحين إلى مُورتلة وطلبه بإخلائها ، فأبى [فأمر] ابن مردنيش بإخراج عينه اليمنى ، فأُخرجت بعود . ثم قُرِّب من الحصن وطلبه بإخلائها ، فدعا بزوجه وطلبها بإخلاء الحصن ، وإلا فتخرج عينه الأُخرى ، فحُمل على التكذيب ، ولم يجبه أحد ، فأُخرجت للحين عينه الأُخرى ، وسيق إلى شاطبة ، فبقى إلى أن مات سنة ثلاث وأربعين وستماية . ودخل غرناطة ، وباشر منازلتها مع الأمير صهره ، فاستحق الذكر لذلك .

---

(١) هو الأمير محمد بن سعد بن مردنيش عاهل بلنسية ومملكة الشرق الثائر ضد الموحدين المتوفى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) وقد سبق التعريف به . وترجم له ابن الخطيب فيما تقدم (المجلد الثانى من الإحاطة ص ١٢١ - ١٢٧) .

(٢) وردت في الإسكوريال (مطريشة) والصواب ما أثبتناه . وهو من حصون بلنسية الأمامية.

ومن القضاة الأصليين وغيرهم

يحيى بن عبد الله بن يحيى بن كثير بن وسلاسن بن سمال بن مهايا المصمودى

أوليته وحاله

دخل أبو عيسى يحيي بن كثير الأندلس مع طارق بن زياد ، وقيل له اللّيثى ، لأنه أسلم على يد رجل اسمه يزيد بن عامر الليثى ، فنسب إليه ، وقيل إنهم نزلوا بنزل اللّيث ، فنسبوا إليه . يُكنى يحيي هذا ، أبا عيسى . وكان جليل القدر ، عالى الدرجة فى القضاء . وُلّى قضاء إلبيرة وبجّانة مدة ، وولى قضاء جيّان وطليطلة ، ثم عزل عن طليطلة ، وأُضيفت إليه كورة إلبيرة مع جيّان . ثم استعفى عن جيّان وبقى يلى قضاء إلبيرة ، وكان لا يرى القُنوت فى الصلاة ، ولا يقْنُت فى مسجده البتّة .

مشيخته : روى عن أبى الحسن النحاس ، وسمع الموطأ من حديث اللّيث وغيره من عم أبيه عبيد الله بن يحيي .

مولده . فى ذى القعدة سنة سبع وثمانين ومايتين .

وفاته : توفى ليلة الثلاثاء بعد صلاة العشاء ، ودفن يوم الثلاثاء بعد العصر . لثمان خلت من رجب عام سبعة وستين وثلاثمائة

يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع الأشعرى

يكنى أبا عامر .

حـــاله

العالم الجليل ، المحدِّث الحافظ ، واحد عصره ، وفريد دهره . كان رحمه الله عَلَمًا من أعلام الأندلس ، ناصرا لأهل السنة ، رادعا لأهل الأهواء ، متكلما دقيق النظر ، سديد البحث ، سهل المناظرة ، شديد التَّواضع ، كثير الإنصاف ، مع هيبة ووقار وسكينة ، ولِّى قضاء الجماعة بقرطبة ثم بغرناطة ، وأقرأ بغرناطة لأكابر علمائها ونبهائها ، الحديث والأصلين وغير ذلك ، بالمسجد الجامع منها وبغيره .

مشيخته

حدث عن والده العالم المحدث أبى الحسين عبد الرحمن بن أحمد ابن ربيع ، وعن الشيخ الأستاذ الخطيب أبى جعفر أحمد بن يحيى الحميرى ، وعن الراوية المحدث أبى القاسم خلف بن عبد الملك بن بَشْكوال ، وعن الحافظ المسن أبى بكر بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن الجَدّ الفهرى ، والقاضى أبى عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون ، والزاهد الورع ، أبى الحجاج يوسف بن محمد البلوى المالقى ، عرف بابن الشيخ ، وأبى زكريا يحيى بن عبد الرحمن بن عبد المنعم الإصبهانى الواعظ ، والفقيه القاضى أبى محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحم الخزرجى .

وفاته : بمالقة سنة سبع وثلاثين وستماية .

يحيى بن عبد الله بن يحيى بن زكريا الأنصارى

أوليته

تقدمت فى اسم عمه أبى إسحق ، فلينظر هنالك .

حـاله

من أهل العدالة والزّكا والسّلف فى الخطط الشرعية ، سَكُون ، متفنّن فى العلوم الشرعية من فقه وأحكام ، وله التقدم فى الوقت فى علم الفرايض والحساب . حَبَس على الزاوية التى اتّخذتها بالحضرة ، موضوعات فى ذلك الغرض نبيهة ، لم يَقْصُر فيها عن الإجادة ، وتولّى قضاءَ مواضع من الأندلس ، ثم استُعمل فى النّيابة عن قاضى الحضرة العلية ، وهو الآن قاض بمدينة وادى آش ، وخطيب بمسجدها الأعظم ، تنتابه الطّلبة للأخذ عنه ، والقراءة عليه .

مشيخته

روى مع الجملة ممن هو فى نمطه ، وأخذ بالإجازة عن الشيخ الأستاذ الصالح أبى إسحق بن أبى العاصى ، والخطيب أبى على القرشى ، وعن الفقيه الخطيب أبى عبد الله البيّانى ، وعن الأستاذ شيخ الجماعة أبى عبدالله ابن الفخّار ، وأخذ عن والده وعمه أبى إسحق . وأجازه الشيخ القاضى الخطيب أبو البركات بن الحاج ، والخطيب الصالح أبو محمد بن سَلْمون ، والكاتب الجليل أبو بكر بن شِبرين ، ورييس الكتاب أبو الحسن ابن الجيّاب ، وقاضى الجماعة أبو القاسم الشريف ، والخطيب أبو عبدالله القرشى ، وهو الآن بالحال المذكورة .

يوسف بن الحسن بن عبدالعزيز بن محمد بن أبى الأحوص القرشى الفهرى

يكنى أبا المجد ، ويعرف بابن الأحوص .

حـاله

كان من أهل العلم والعدالة والنزاهة . وُلّى كثيرا من القواعد ، فظهر من قصده الحق ، وتحريه سبيل الصواب ، ما يُؤثر عن الجلّة .

مشيخته

قرأ على والده وروى عنه ، واستدعي له بالإجازة من أعلام زمانه ، فأجازه الراوية أبو يحيي بن الفَرَس ، وأبو عمر بن حوط الله ، وأبو القاسم ابن ربيع ، وأبو جعفر أحمد بن عروس العقيلى ، وأبو الوليد العطار ، والخطيب أبو إسحق الأوسى القرطبي ، والقاضى أبو الخطاب بن خليل ، وأبو جعفر الطبّاع وغيرهم .

قال القاضى أبو المجد شيخنا رحمه الله ، أنشدنى أبو على الحسن ، قال أنشدنى الخطيب أبو الربيع بن سالم ، قال أنشدنا أبو عمرو السِّفاقى ، قال أنشدنا أبو نعيم الحافظ ، قال أنشدنا عبد الله بن جعفر الجابرى ، قال أنشدنا ابن المعتز :

ألم تر أن الدهـر يوم وليلةٌ　　　يكُرّان من سَبْت عليك إلى سَبْت
فقل لجديد العَيْش لابدّ من بِلًى　　　وقل لاجتماع الشَّمل لابد من شَتٍّ

وبالسند المذكور إلى أبي الربيع بن سالم ، قال أنشدنا أبو محمد عبد الحق ابن عبد الملك بن بونه ، قال أنشدنا أبو بكر غالب بن عطية الحافظ لنفسه :

جفوتُ أناسا كنت إلْفَ وصلهم　　　وما بالجَفا عند الضرورة من ناس
بلوتُ فلم أحْمَد فأصبحت يائسا　　　ولا شيئٌ أشنى للنفوس من اليأس
فلا تَعْذِلونى فى انقِباضى فإنــنى　　　وجدتُ جميع الشرّ فى خِلْطة الناس

وفاته : فى اليوم التاسع عشر من شهر رجب الفرد عام خمسة وسبعماية.

يوسف بن موسى بن سليمن بن فتح بن أحمد بن أحمد الجذامى المنشافرى

من أهل رندة ، يكنى أبا الحجاج

حـالـه

هذا الرجل حسن اللقاء ، طِرْفٌ فى التخلق والدماثة ، وحسن العشرة ، أديب ذاكر للأخبار ، طُلَعَةٌ ، يكتب ويشعر ، سيال الطبع مَعِينه . ولّى القضاء ببلده رُندة ، ثم بمَرْبلّة . وورد غرناطة فى جملة وفود من بلده وعلى انفراد منهم .

وجرى ذكره فى « التاج المحلّى » بما نصه : حسنة الدهر الكثير العيوب ، وتَوْبةُ الزمان الجم الذنوب ، ما شيت من بِشْرٍ يتألّق ، وأدب تتعطّر به النّسمات وتتخلّق ، ونفس كريمة الشمايل والضرايب ، وقريحة يقذف [بحرها] (1) بدور الغرايب ، إلى خشية لله تحول بين القلوب وقرارها ، وتُثْنى النفوس عن اغْترارها ، ولسان يبوح بأشواقه ، وجفْن يسخو بدُرَر آماقه ، وحرص على لقاء كل ذى علم وأدب ، وممن يمت إلى أهل الدِّيانة والعبادة بسبب . سبق بقُطره الحَلْبة ، وفَرَع من الأَدب الهَضْبة ، ورفع الراية ، وبلغ فى الإحسان الغاية ، فطارت قصايده كل المطار ، وتغنّى بها راكب الفُلْك وحادى القِطار . وتقلد خُطّة القضاء ببلده ، وانتهت إليه رياسة الأحكام بين أهله وولده ، فوضحت المذاهب بفضل مذهبه ، وحُسْن مَقْصِده . وله شيمةٌ فى الوفا تعلّم منها الآس ، ومؤانسة عذبة لا تستطيعها الأكواس . وقد أثبت من كلامه ما تتحلّى به ترايب

---

(1) الزيادة من النفح .

المهارق ، ويجعل طِيبَه فوق المفارق . وكنت أتشوّقُ إلى لقايه ، فلقيته بالمحلّة من ظاهر جبل الفتح ، لُقْيا لم تَبْل صدًا ، ولا شفت كمدا ، وتعذّر بعد ذلك لقاؤه لمخاطبته بقولى :

حمدتُ على فرط المشقة رحلـة أتاحت لعينى اجتلاءَ محيّاكا
وقد كنتُ فى التّذكار بالبعد[1] قانعا وبالريح إن هبّت بعاطر ريّاكا
فَجلَت لى النُّعمى بما أنعمت به علىَّ فحياها إلالّه وحيّـــاكا

أيها الصّدْر الذى بمخاطبته يُبْأى[2] ويُتَشرَّف ، والعلَم الذى بالإضافة إليه يُتعرّف ، والروض الذى لم يزل على البعد بأزهاره الغضّة يُتْحف . دُمْت تتزاحم على موارد ثنائك الألسن [وتروى للرواة ما يصح من أنبايك ويَحْسُن] [3] طالما مالت إليك النفوس منّا وجَنحت ، وزَجَرت الطائر الميمون من رُقاعك كلما سَنحت . فالآن اتضح البيان ، وصدَق الأثر العيان . ولقد كنا للمُقام بهذه الرِّحّال نَرْتَمض ، ويجنُّ الظّلام فلا نَغْتَمض ، هذا يُقْلقله إصْفار كِيسه ، وذا يتوجّع لبعد أنِيسه ، وهذا تروّعه الأهوال ، وتضجره بتقلُّباتها الأحوال . فمن أنّة لا تنفع ، وشكوى إلى الله [تعالى][4] ترفع . فلما ورد بقدومك البَشير ، وأشار إلى ثِنيّة طلوعك المشير ، تشوّفت النفوس الصَّديّة إلى جلايها وصِقالها . والعقُول إلى حلّ عِقالها ، [والألسن المعجمة][5] إلى فَصْل مقالها . ثم إنَّ الدهر راجع التفاته ، واسْتَدرك ما فاته ، فلم يسمح من لقايك إلا بلَمْحة ،

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (فى البعد) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (يباهى) والمعنى واحد .
(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (وتروى الرواة من انبائك ما يصح ويحسن)
(٤) الزيادة من النفح .
(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، وفى النفح (والأنفس المفحمة) .

ولا بعث من نَسيم روضك بغير نَفْحة . فما زاد أن هيَّج الأشواق فالتهبت ، وشنَّ غاراتها على الجوانح فانتهبت ، وأعلَّ القلوب وأمْرَضها ، ورمى ثَغْرة الصَّبر فأصاب غَرَضَها . فإن رأيت أن تنفِّس عن نَفَسٍ شدَّ الشوق مُخَنَّقَها ، وكدَّر مشارب أُنسِها [وأذهب][1] رونقها ، وتُتحف من من آدابك بدُرَر تُقتنى ، وروضة طيِّبة الجنَى ، فلَيْسَت ببدع فى شِيمك، ولا شاذَّة فى باب كرمك . ولولا شاغل لا يَبْرح ، وعوائق أكثرها لا يُشرح ، لنافست هذه السَّحاءة فى القدوم عليك ، والمثُول بين يديك ، فتشوُّقى إلى اجتلاء أنوارك شديد ، وتشيُّعى فيك على إبلاء الزمان جَديد.
فراجعنى بقوله :

حَباك فؤادى نيلُ بشرى وأَحْيا كا ... وحيَّد بآداب نفايسَ حيَّاكا
بدايعُ أبداها بديعُ زمـانه ... فطاب بها ياعاطر الرّوض ريَّاكا
أمهديها أودعتَ قلبي علاقةً ... وإن لم يزل مُذْ ى قدِماً بعَلْياكا
إذا ما أشار العصر نحو فرِنْدِه[2] ... فإيَّاك أعنى بالإشارة إيَّاكـا
لا تحفنى لُقيـاك أسمى مؤمَّلى ... وهل تُحفةٌ فى الدهر إلاَّ بُلْقياكا
وأعْقَبَت إتحافى فرايدُك التى ... وجُوب ثناها بالِسانِ أعيـاكا

خصصتنى أيها الحبر المخصوص بمآثر أعيا عدها وحصرها ، ومكارم طيَّب أرواح الأزاهر عطرُها ، وسارت الركبان بثنائها ، وشملت الخواطر محبة علائها . بفرايدك الأنيقة ، وفوايدك المزرية جَمالاً على أزهار الحديقة ، ومعارفك التى زكت حقًّا وحقيقة . وهدت الضال عن سبيل الأدب مَهْيعه وطريقَه ، وسَبْقُ تحفتك عندى أعلى التحف[3] ، وهو

(١) الزيادة من النفح .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (فريده)
(٣) وردت فى الإسكوريال (تحفتك) والتصويب من النفح .

مأمول لقائك ، والتمتع بالتماح سناك الباهر وسنائك ، على حين امتدت لذلك[1] اللقاء أشواقي ، وعظم من فوت استنارتي بنور محيّاك إشفاقي ، وتردد لهجي بما يبلغني من معاليك ومعانيك ، وما شاده فكرك الوقاد من مبانيك ، وما أهَلَّت به بلاغتك من دارسه ، وما أضفتْ على الزمان من رايق مَلابسه ، وما جمعت من أشْتَاته ، وأحيت من أمواته ، وأيقظت من سِناته ، وما جاد به الزمان من حسناته . فلتَرداد هذه المحاسن من أنبايك ، وتصرف الألسنة بثنايك ، علقت النفس من هواها بأشد علاقة ، وجَنحت إلى لقايك جُنوح والهة مُشْتاقة ، والحوادث الجارية تصرفها ، والعوايق الحادثة كلما عَطَفت بأملها إليه ، لا تتحفها به ولا تَعْطفها ، إلى أن ساعد الوقت ، واستَعَد البخت ، بلقياكم[2] هذه السفرة الجِهادية ، وجاد إسعاف الإسعاد من أمنيتي بأسنى هدية ، فلقيتكم لقيا خجل ، ولمحت أنواركم لمحةً على وجل ، ومهجتي[3] ، في محاسنكم الرائقة ، ومعاليكم الفائقة ، على ما يعلمه ربنا عزّ وجلّ . وتذكرت عند لقايكم المأمول ، إنشاء قائل يقول :

كانت محادثة[4] الركبان تخبر عن ... محمد بن خطيب بأطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني ... بأحسن مما قد رأى بصـــــرى

قسما لعمري أقوله وأعتقده ، وأعتدُه ، وأعتمده ، فلقد بهَرت منك المحاسن ، وفُقْتَ من يُحاسن ، وقَصُر عن شأوك كل بليغ لَسِن ، وسبقت فِطْنتُك النّارية النُورية بلاغة كل فَطِن ، وشهد لك الزمن أنك وحيده ، ووثيق عصبته[5] الأدبية وفريده . فبورك لك فيما أنلت من الفضايل ،

---

(١) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي النفح (ذلكم) .

(٢) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي النفح (بلقياكم) .

(٣) هكذا وردت في الإسكوريال ، وفي النفح (وعجبي) .

(٤) هكذا وردت في الإسكوريال ، وفي النفح (مسائلة) .

(٥) وردت في الإسكوريال (عصابته) والتصويب من النفح

وأوتيت من آيات المعارف التى بها نور العزالة هايل ، ولازلت مُرقًّ (١) فى مراتب المعالى ، موقًّ صروف الأيام والليالى .

ومن شعره بمدح الجهة النّبوية ، مُصَدِّرا بالنسيب لبسط الخواطر النّفسانية :

لما تناهى الصب فى تشويقه درر الدموع اعتاضها بعَقِيقه
متلهِّفٌ وفؤاده متلهِّب كيف البقاءُ مع احتدام حَريقه
متموِّج بحر الدموع بنجْده (٢) أنّىَ خلاصٌ يُرتجى لغريقه
متجرِّع صاب النَّوى من هاجرٍ ما إن يحنُّ للاعِجات مَشُوقه
يُسْبِى الخواطر حُسْنه ببديعه يُضْبِى النُّفوس جمالُه بأَنِيقه
قيْدُ النواظر إذ يلوح لرامقٍ لا تَنْثَنِى الأَحداق عن تَحْديقه
للبدر لمحته كبِشر ضيائه للمسك نَفْحته كنَشْر فَتِيقه
سَكِرت خواطر لامِحيه كأنَّهم شربوا من الصِّبا كأْس رحِيقه
عطشوا لثَغر لا سبيل لريقه إلا كلَمْحِهم للَمْع بَريقه
ماضرَّ مولىً عاشقُوه عبيدُه لو رقَّ إشفاقا لحال رقِيقه
عنه اصطبارى ما أنا بمُطِيعه مثل السُّلوِّ ولا أنا بمُطِيقه
سجع (٣) الحمام يشُوق تَرْجيع الهوى فأثار شَجْو مشوقه بمَشوقه
وبكت هديلاً راعها تفريقه ويحقُّ أن يبكى أخُو تفريقه
وبكاء أمثالى [حقٌّ] لأننى لم أقضِ للمولى أكِيد حقُوقه
وغَفَلت فى زمن الشباب المنقضى أقبِح بنسخ بروره بعقُوقه .
وبدا المشيب وفيه زجْرُ ذوى النهى لو كنت مزدجرا لشيم بروقه

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (ترق) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (بخده) .
(٣) هكذا فى النفح ووردت فى الإسكوريال (شدت) . والاولى أرجح .

حَسْبِي ندامة آسف مما جَنى ... يصل النّشيج لورره بشهيقه
ويَرُم (1) ماخَرم الهوى زمن الصبا ... ويرُوم من مولاه رَتْق فُتوقه
ويردد الشكوى لديه تذلُّلا ... علَّ الرِّضا يُحبيه دركَ لحوقه
فَيصْحُ من سُكر التَّصابي صَحْوه (2) ... نَسْخاً لحكم صُبوحه بغُبُوقه
لو كنتَ يممْتَ التقَى وصحبته ... وسلكت إيثاراً سواءَ طريقه
لأفَدْت منه فوائداً وفرائداً ... عُرضت تُسام لرابِح (3) فى سوقه
لله أرباب القلوب فإنهم ... من حِزْب من نال الرِّضا وفريقه
قاموا وقد نام الأنام فنورهم ... هَتَك الدُّجا بضيائه وشُروقه
وتأنَّسوا بحبيبهم فلهم به ... بشْرٌ لصدق الفضل فى تحقيقه
قَصَرت عنهم عندما سبقوا المدى ... ولسابق فَضْل على مَسْبوقه
لولا رجاءُ تَلمُّحي (4) من نورهم ... يحيى الفؤاد بسيره وطُروقه
وتأرّجٌ يُسْتاف من أرواحهم ... سببُ انتعاش الرُّوح طيب خلوقه
لَفُتنت (5) من جراء جرائرى التى ... من خوفها قلبي حليف خفوقه
ومعى رجاءُ توسُّل أعْدَدته ... ذخراً لصدمات الزمان وضِيقه
حبٌّ ومَدْحي أحمد الهادى الذى ... فوزُ الأنام يصِحُّ فى تصديقه
أسْمَى الورى فى منْصِب وبمَنْسب ... من هاشم زاكى النِّجار عريقه
الحقُّ أظهره عقيب خفائه ... والدِّين نظّمه لدى تفريقه
ونفى هُداه ضلالةً من جائرٍ ... مستوثق بنعوته ولعوقه (6)

---

(١) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال (ويروم) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح مكررة (سكره) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (لرائح) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (تلمح) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (لعنيت) .
(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الاسكوريال ووردت فى النفح (ينعوته ويموقه) .

سبحان مرسِله إلينــا رحمة ... يهدى ويَهدى الفضل من توفيقه
والمعجزات بدت بصدق رسوله ... وحقيقُه بالمأثــرات خليقُــه
كالظبي فى تكْليمه والجذْع فى ... تَحْنينه والبدر فى تَشْقيقــه
والنّار إذ خمدت بنــور ولاده ... وأجاجُ ماءٍ قد حَلا من ريقــه
والـــزّاد قلّ فـزاد من بركاته ... فكفى الجيوش بتَمْره وسُوَيقــه
ونُبوع مـاء الكفّ من آياتــه ... وسلامُ أحجار غَــدت بطريقه
والنخل لمّـا أن دعاه مشى له ... ذا سرعة [بعروقه وعلوقه][1]
والأرض عاينها وقد زُويت له ... فقَريب ما فيها رأى كسَحِيقه
وكذا ذراع الشّاة قد نطقت له ... نُطْق اللسان فصيُحه وذليقُــه
ورمى عِداه بكف حصباء فانثنت ... هرباً كمذعور الجنــان فروقــه
وعليه آيات الكتاب تنزّلت ... تُتلى بعُلْو جلاله [2] وبسوقـه
فأذيقُ من كأْس المحبة صَرْفها ... سبحان ساقيه بها ومُذِيقـــه
حـاز السّناء ونـاله بعرُوجـه ... جـاز السماء طِباقهــا بخروقـه
ولكَم له من آية من ربِّـــه ... ورعايـــةٍ وعنايـــة بحقوقـه
يا خيرة الأرْسال عنـد إلهـه ... يـا مُحْرز العَلْيــا على مخلوقـه
عَلقَت آمـــالى بجاهـك عدّة ... والقصد ليس يخيب فى تَعْليقه
ووثقت[3] من حبل اعتمادى عُمْدة ... لتمسُّكى بقَــويِّه ووثيقـه
ولئن غدوتُ أحِيذ ذنبى إننى ... أرجو بقصدك [أن أُرى][4] كطليقه
وكساد سُوقى مذ لجأت إلى بابكم ... يقضى حصول نفــوذه ونفوقـه

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (بعلوقه وعروقه) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (جنابه) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (علقت) .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح ، وهى ساقطة فى الإسكوريال .

ويحِنُّ قلبي وهو فى تغْريبه ... [لمزاره لريَّاك] (١) فى تشريقه
وتزيد لوعته متى حثَّ السُّرى ... حاد جِداً بجِماله وبنُوقه
وأرى قَشِيب العمر أمسَى بالياً ... ومرور دهرى جدَّ فى تمزيقه
وأخاف أن أقضى ولم أقض المُنى ... بنفوذ سهم مَنِيَّتى ومُرُوقه
فمتى أحطُّ على اللِّوى رَحْلى وقد ... بَلَغت ركابى لِلْحمى وعقيقه
وأمرِّغ الخدَّين فى تُرْب غدا ... كالمِسْك فى أرَج شذا مَنْشُوقه
وأعيد [إنشادى وإنشائى] (٢) الثَّنا ... ببديع نظم قريحتى ورقيقه
حتى أُميل العاشقيين تطرُّباً ... كالغُصْن مرَّ صباً على مَمْشوقه
وتحيَّةُ التسليم أبلغ شافعى (٣) ... وثنا المديح حديثُه وعتيقُه
وللذى الفخار وذى العلى ووزيره ... صدِّيقه وأخى الهدى فارُوقه
منى السلام عليهم (٤) كالزهر فى ... تأْليفها والزَّهر فى تأْليفه

قال ، وكتب بذلك إلى فى جملة من شعره :

هواكم بقلبى لأحكامه (٥) نسخ ... ومن أجله جَفْنى بمدمعه يَسْخُ
ومن نشأتى ما إن صَحَت منه نَشوتى ... سواءٌ به عصر المشيب أو الشرْخ
عليه حياتى مذ تمادت ومَيْتَتى ... وبَعْثى إذا بالصُّور يتفق النَّفخ
ولى خَلَدٌ أضحى قنيص غرامه ... ولا شركٌ يُدنى إليه ولا فخٌّ
قتلتُ سُلُوِّى حين أحييت لوعتى ... وما اجتيح بالإقرار فى حالتى لَطْخ
وناصح كتمى إذ زكت بَيْنَاته ... يجول عليه من دموع الأسى نَضْخ

(١) هذه الزيادة من النفح ، ومكانها بياض بالإسكوريال .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (إنشائى وانشادى) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (شافع) .
(٤) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال
(٥) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (محكمه)

وأرجو بتحقيق هواكم بأن أنى فعهدٌ ولا نقضٌ وعقدٌ ولا فَسْخ
وما الحب إلاَّ ما استقل ثبوته لمبناه رصٌّ فى الجوانح أو رَسْخ
إذا مسلكٌ لم يستقم بطريقه سلكتُ اعتدالا مثل ما يَسْلك الرُّخ
بدا لضميرى من سناكم تلمُّح فبخٌ لعقل لم يطر عندها بخٌ
على عود ذاك اللَّمح مازلت نادبًا كما تندب الوِرق فارقها الفَرْخ
يَدى بأَياديكم وقلبى شاغل فمن فِكرتى نسجٌ ومن أُنملى نَسْخ

ومن شعره أيضاً قوله فى غرض يظهر منه :

إليك تحن النُّجب والنُّجباءُ فهم وهى فى أشواقهم شُركاءُ
تَخُبُّ بركاب تحبُّ وصولها لأَرض(١) بها بادٍ سنى وسناءُ
فأَنفاسها ما أن تنى صعداؤها وأنفاسهم من فوقها سعداءُ
همُّوا عالجوا إذ عجَّل السَّير داءهم وأشباه مثلى مُذْنَفون بُطاءُ
فعدت ودونى للحبيب ترحَّلوا وما قاعد والراحلون سواءُ
له وعليه حبُّ قلبى وأدمعى وقد صحَّ لى حبٌّ وسحَّ بكاءُ
بطيبة هل أرضى وتبدو سماؤها(٢) وإن [تلك أرضا فالحبيب](٣) سماءُ
شَذا نفحها واللَّمح منها كأَنه ذكاءُ عبير والضِّياءُ ذكاءُ
فيا حاديا غَنِّى وللرَّكب(٤) حاديا عِنانى بعد البعد عنك عناءُ
بسِلْع فسلْ عما أُقاسى من الهوى وسَلْ بقِباءٍ إذ يلوح قباءُ
وفى عالج منِّى بقلبى لاعج فهل لى علاج عنده وشفاءُ
وفى الرقمتين(٥) أرْقم الشوق لاذع ودرياقه أن لو يُباح لِقاءُ

(١) هذه الكلمة واردة فى النفح ، وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال وكأنها
(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . وفى الإسكوريال (وإن تك أرضى بالحبيب)
(٤) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال (والذكر) والأولى أرجح .
(٥) هكذا فى النفح ، وفى الإسكوريال (وبالرقمين)

أما كن تمكين وأرضٌ بها الرضى وأرجاءُ فيها للمشوقِ رجـاءُ

ومن المقطوعات قوله :

أدب الفتى فى أن يُرى متيقِّظًا لأوامـرٍ من ربِّـه ونـواهِ
فإذا تـمسَّك بالهوى يهوى بـه [والحبْل منه](١) لمن تيقَّن واهِ

ومن ذلك :

يامن بدُنياه ظلَّ فى لُججج حقِّق بـأن النَّجـاة فى الشاط
تطمع فى إرثك الفلاح وقد أضعت ما قبله من أشْراط
كن حذرًا فى الذى طمعت به من حَجْب نقص وحجب إسْقاط

وقال :

ترى شعُروا أنى غَبطت نسيمةً ذكتْ بتلاقى الرَّوض غبَّ الغمايم
كما قابلت زُهر الرياض وقبَّلت ثُغـور أقاحيـه بلا لـوم لايم

وقال :

ورَدَ المشيب مبيِّضا بوُروده ما كان من شعْر الشَّبيبة حالكا
يا ليته لو كان بيَّض بالتُّقى ما سوَّرته مآثم من حـالكا
إنَّ المشيب غدا رداءً للرَّدى فإذا علاك أجدَّ فى تَرْحـالكا

وأنشدنى صاحبُنا القاضى أبو الحسن ، قـال ، مما أنشدنى الشيخ أبو الحجاج لنفسه :

لوعة الحبِّ فى فؤادى تَعاصت أن تُداوى ولو أتى [ألفُراق](٢)
كيف يبرأُ من عـلَّة وعليها زائدُ عـلَّة النَّوى والفِـراق
فانسِكاب الدموع جارٍ فجارٍ والتُهاب الضُّلوع راقٍ فـراق

(١) مكانها دياض بالإسكوريال والإضافة من النفح .
(٢) وردت فى الإسكوريال (الفراق) والتصويب من النفح .

نبذة من أخباره

نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضى المؤرخ أبى الحسن بن الحسن ، قال حاكيا عنه ، ومن غريب ما حدثنى به ، قال كنت جالسا بين أيدى الخطيب أبى القاسم التاكرُونىّ صبيحة يوم بمسجد مالقة الأعظم ، فقال لنا فى أثناء حديثه ، رأيت البارحة فى عالم النَّوم ، كأن أبا عبد الله الجليانى يأتينى ببيتى شعر فى يده وهما :

كل علْم يكون للمرء شُغلا ... بسِوى الحقّ قادحٌ فى رشاده

فإذا كان لله فيه حظٌّ ... فهو مما يُعِدُّه لمعاده

قال ، فلم ينفصل المجلس ، حتى دخل علينا الفقيه الأديب أبو عبد الله الجِليانى والبيتان عنده ، فعرضهما على الشيخ . وأخبره أنه صنَعهما البارحة . [فقال له كل من فى المجلس ، أخبرنا بهذا الشيخ قبل مجيئك ، فكان هذا من العجائب](١) . وقد وقعت الإشارة لذلك فى اسم الشيخ .

مشيخته

منقول من خطِّه فى ثَبتٍ أجاز فيه أولادى ، أسعدهم الله ، بعد خطابة بليغة . قال فمن شيوخى الذين رويتُ عنهم . واسترْفَدتُ البركة منهم ، الشيخ الخطيب الصالح المتفنن ، أبو محمد عبد الواحد بن أبى السداد الباهلى . والشيخ الإمام أبو جعفر بن الزُّبير ، والشيخ الوزير المشاور أبو عبد الله بن أبى عامر بن ربيع ، والقاضى العدل أبو عبد الله محمد ابن على بن محمد بن برطال . والشيخ الخطيب الصالح أبو عبد الله الطَّنجالى . والراوية المسن أبو عمرو محمد بن عبد الرحمن الرندى الطنجى ،

(١) ما بين الحاصرتين نقلا عن النفح

والمدرس الصالح أبو الحسن على بن أحمد الإشبيلى بن شَالة ، والخطيبان الأُستاذان الحاجان أبو عبد الله محمد بن رُشيد الفهرى ، وأبو عثمن سعيد ابن إبراهيم بن عيسى الحِميْرى ، والشيخ الصالح أبو الحسين عبد الله بن محمد بن محمد بن يوسف بن منظور ، والخطيب الصالح العلاَّمة المصنف أبو جعفر بن الزيات ، والفقيه القاضى أبو جعفر ابن عبد الوهاب ، والشيخ الراوية المحدث أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الكماد ، والخطيب أبو العباس أحمد بن محمد اللورق ، والعدل أبو الحسن على بن محمد الطائى ، ابن مستقور ، والخطيب الصالح أبو العباس أحمد بن محمد بن خميس الجزيرى ، والقاضى العدل الحاج أبو محمد عبد الله بن أبى أحمد بن زيد الغرناطى ، والشيخ الراوية الحاج الرّحال الصوفى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الفارسى العجمى الأقشرى ، والقاضى الحسيب أبو عبد الله محمد بن عِياض بن محمد ابن عياض ، والقاضى أبوعبد الله بن عبد المهيمن الحضرمى ، والأُستاذ أبو إسحق الغافقى ، والإمام أبو القاسمى بن الشّاط ، والخطيب القاضى أبو عبد الله القرطبى ، والراوية أبو القاسم البِلفيقى ، والمحدث أبو القاسم التجيبى ، والخطيب أبو عبد الله الغمارى ، والإمام الكبير ناصر الدين المِشْدالى ، والفقيه الصوفى أبو عبد الله محمد بن محمد الباهلى عرف بالمسفر من أهل بجاية ، وقاضى القضاة بتونس أبو إسحق بن عبد الرفيع ، والعلامة أبو عبد الله بن راشد ، والخطيب أبو عبد الله بن عزْمون ، والعلامة الخطيب أبو محمد عبد الواحد بن مظور بن محمد بن المنير الجذامى .

قال ، وكلهم أجازنى عامة ما يرويه . وكان ممن لقيته . وقرأت عليه ، إلاَّ المدرس أبا الحسن بن شالة ، فوقع لى شك فى إجارته .

تواليفه

قال ، ومما[1] يسَّر الله تعالى فيه من التآليف ، كتاب « ملاذ المستعيذ ، وعياذ المستعين ، فى بعض خصائص سيد المرسلين ، فى الأحاديث الأربعين المروية على آياتٍ من الذكر الحكيم والنور المبين». وكتاب تخصيص[2] القرب وتحصيل الأرب ، وقبول الرأى الرشيد، فى تخميس الوتَريات النبويات لابن رُشيد . وانتشاق النّسمات النّجدية ، واتّساق النزعات الجدّية . وغُرَر الأمانى المُسْفرات فى نظم المُكَفِّرات . والنَّفحات الرُّندية واللَّمحات الزّنَدية ، وهو مجموع شعرى . وحقائق بركات المنام ، فى مرأى المصطفى خير الأنام . والاسْتِشفاءُ بالعدة ، والاسْتِشعاع بالعمدة، فى تخميس القصيدة النبوية المسماة بالبُرْدة . وتوجُّع الراثى فى تنوع المراثى. واعتلاق المسايل بأفضل الوسايل . ولمح البهيج ، ونفح الأريج ، فى ترجيز ما لولى الله أبى مدين شعيب بن الحسين الأنصارى رضى الله عنه ، من عبارات حكمة وإشارات صوفية .وتجريد رؤوس مسائل البيان والتحصيل ، لتيسير البلوغ لمطالعتها والتوصيل . وفهرسة روايتى . ورجز فى ذكر مشيخة شيخنا الراوية أبى عمر الطّنجى ، رحمه الله وإسناده . قال، ومما كنت شَرعت فيه ولم يتفق تمامه ، كتاب سميته « عواطف الأعتاب ، فى لطايف أسباب المتاب » . ومما بيدى الآن جمعه وهو إن شاء الله على التمام ، أربعون حديثاً متصلة الإسناد ، أول حديث منها فى الخوف ، والثانى فى الرجاء ، بلواحق تتبعها ، وسميته « أرج الأرْجاء ، فى مزج الخوف والرجاء » . والله يصفح عنا ، ويغفر زلأتِنا ، وأن لا يجعل ما نتولاه من

---

(١) وردت فى الإسكوريال (ومن) فاقتضى التصويب .

(٢) وردت فى الإسكوريال (تحصين) ، والتصويب من النفح

ذلك حجة علينا ، وأن نكون ممن مُنَح مقولا ، ومنع معقولا ، ويختم لنا بخواتم السُّعداءِ من عباده ، وممن وفّق وهَدى إلى سبيل رشاده .

وفاته : كان حيًّا عام أحد وستين وسبعماية .

ومن المقريين

يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبى

يكنى أبا زكريا ، شيخنا أبو زكريا بن هُذيل رحمه الله أرجِدونى[1] الأَصل ، ينسب إلى سَلَفِه أملاك ومعاهد كولابج هذيل ، مما يدل على أصالة .

حـــاله

كان آخر حَمَلة الفنون العَقْلية بالأندلس ، وخاتمة العلماء بها ، من طبٍّ وهندسة وهيئة وحساب وأُصول وأَدب ، إلى إمتاع المحاضرة ، وحسن المجالسة ، وعموم الفائدة ، وحسن العهد ، وسلامة الصَّدر ، وحفظ الغيب ، والبراءة من التصنُّع والسَّمت ، مؤثرا للخمول ، غير مبال بالناس ، مشغولا بخاصَّة نفسه . خدم أخيراً باب السلطان بصناعة الطِّب ، وقعد بالمدرسة بغرناطة ، يقرىءُ الأُصول والفرايض والطب .

عمن أخذ : قرأ على جملة من شيوخ وقته ، كالأُستاذ أبى بكر بن الفخار ، أخذ عنه العربية والأَدب . وقرأ الطب على أبى عبد الله الأرْكشى ، وأبى زكريا القصرى . وجملة من الإِسلاميين بالعُدْوة . وقرأ كراسة الإمام فخر الدين الرازى المداة بالآيات البيِّنات . على الأُستاذ أبى القاسم بن جابر .

---

(١) نسبة إلى أرجدونه أو أرشدونة Archidona وقد سبق التعريف بها (المجلد الثالث من الإحاطة ص ٤٥٩ حاشية) .

ونظر الأُصول على الأُستاذ النظّار أبى القاسم بن الشّاط وأخذ الحساب عن أبى الحسن بن راشد . والحساب والهندسة والأُصول وكثيراً من عمليات الحساب وجَبْره ومقابلته والنجوم ، على الأُستاذ أبى عبد الله بن الرّقام ، ولازمه كثيراً .

ثواليفه

وله تصانيف وأوضاع منها ، ديوان شعره المسمى بالسليمانيات والعربيات[1] وتنشيط الكسل . ومنها شرحه لكرّاسة الفَخْر ، وهو غريب المأْخذ ، جمع فيه بين طريقتى القدماء والمتأَخرين من المنطقيين . وكتابه المسمى «بالاختيار والاعتبار فى الطّب» . وكتابه المسمى «بالتذكرة فى الطبّ» .

شعره

وجرى ذكره فى التاج المحلّى بما نصه : درّة بين الناس مُغْفَلة ، وخِزانة على كل فائدة مُقفلة ، وهدية من الدهر الضّنين لبنيه مُحْتَفلة . أبدع من رتّب التعاليم وعلّمها ، وركّض فى الأَلواح قلمها ، وأتقن من صور الهيئة ومثّلها ، وأسس قواعد البراهين وأثّلها ، وأعرف من زاول شِكاية ، ودفع عن جسم نِكاية ، إلى غير ذلك من المشاركة فى العلوم ، والوصول من المجهول إلى المعلوم ، والمحاضرة المستفزّة للحلوم ، والدّعابة التى ما خلع العِذار فيها بالملوم فما شِيت من نفس عذْبة الشّيَم ، وأخلاق كالزهر من بعد الدّيم ، ومحاضرة تُتْحف المجالس والمحاضر ، ومذاكرة يروق النواظر زهرها الناضر وله أدب ذهب فى الإجادة كل

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (والعرفيات)

مذهب ، وارتدى من البلاغة بكل رداءٍ مُذْهب ، والأدب نقطة من حَوْضه ، وزهرة من زهرات روْضه ، وسيمر له فى هذا الديوان ، ما يُبهر العقول ، ويحاسن برُوائه ورائق بهائه ، الفِرَند المصقول .

فمن ذلك ما خرَّجته من ديوان شعره المسمى « بالسُّليمانيات والعربيات » من النَّسيب :

ألا أستودع الرحمن بدراً مكملا بفاس من الدرب الطويل مطالعه
وفى فَلَكِ الأزرار يطلع سعدُه وفى أُفق الأكباد تُلفى مواقعه
يصير(١) مرآه منجم مُقلتى فتصدُّقُ فى قطع الرجاء قواطعه
تجسَّم من نور(٢) الملاحة خدُّه وماءُ الحيا فيه تَرَجْرَج مائعه
تلوَّن كالحرباء فى خجلاته فيحمرُّ قانيه ويبيضُّ ناصعه
إذا اهتزَّ غنَّى حليُه فوق نحره كغُصن النَّقا غنَّت عليه سواجعه
يذكر حتْف الصبِّ عامل قدره وتقْطف من واو العِذار توابعه
أعدَّ للورى سيفا كسيف لِحاظه فهذا هو الماضى وذاك يُضارعه

ومن أُخرى فى النَّسيب ، وتضمَّنت التَّورية الحسنة :

وصالك هذا أم تحيةُ بارق وهجرُك أم ليل السُّلم لتائق
أناديك(٣) والأشواق تركض حجرها بصفحة خدِّى من دموع سوابق
أبارق ثغر من عُذيب رُضابه قضت مهجتى بين العُذيب وبارق

ومنها :

فلا تُتعبنَّ ريح الصَّبا فى رسالة ولا تُخجل الطَّيف الذى [هو طارق](٤)

---

(١) وردت فى الإسكوريال يسير . والتصويب من النفح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ماء)

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (أباديك)

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (كان طارق) .

متى طعمت عيني الكرى بعد بعدكم　　فإنى فى دعوى الهوى غير صادق

[قوله « أبارق ثغر من عذيب رضابه » ينظر إلى قول ابن النبيه فى ذلك :

يلوى على زرد العذار دلالـه　　كم فتنة بين اللّوى وزرُود]

ومن قصيدة ثبتت فى السليمانيات :

بدا بدر تمٍّ فوقه الليل عَسْعسا　　وجنّة أُنس فى صباحٍ تنفّسا
حوى النجم قِرْطًا والدّرارى مُقلدا　　وأسْبل من مسك اللوايب(١) حِنلِسا
كأنّ سنا الإصباح رام يزورنا　　وخاف العيون الرامقات فغلّسا
أتى يحمل التوراة(٢) ظَبيًا مُزَنّرا　　لطيف التثنى أشنب الثّغر ألْعسا
وقابل أحـــبار اليهود بوجهه　　فبارك ربّى(٣) عليـــه وقدّسا

ومنها وتماجن ما شاء غفر الله له :

رويت ولوعى من ضلوعى مُسَلْسلا　　فأصبحت فى علْم الغرام مُدرّسا
نفى النوم عنى كى [أكون مسهدا](٤)　　فأصبحت فى صيد الخيال مهندسا
غزال من الفردوس تسقيه أدمعى　　ويأوى إلى قلبى مثيلا ومكنساً
طغى ورْد خدّيه بجنّات(٥) صدغه　　فأضعفه بالآس نبْتا وما أسـا

[قوله طغى ورد خديه ، البيت محال على معنى فلاحى ، إذ من أقوالهم أن الآس ، إذا اغتُرس بين شجر الورد ، أضعفته بالخاصية] .

وقال أيضاً من قصيدة مهيارية :

---

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (الذوابة) والأولى أرجح
(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (التورية) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مولانا) .
(٤) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال (منجما) .
(٥) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال (بجنان) .

نام طفل النّبت فى حجر النّعامى   لاهتزاز الطّل فى مهد الخزامى
وسقَى الوسْمِىُّ أغصــان النّقا   فهوت تلثم أفــواه النّـدامى
كحّل الفجرُ لهم جَفْن الدُّجى   وغدا فى وجْنة الصُّبح لِثـاما
تحسب البدر مُحـيًّا ثمــل   قد سقَتْه راحة الصبح مُداما
حوله الزهر كؤوس قد غدت   مِسْكة(١) الليل عليهنَّ ختــاما
يا عليل الريح رِفقاً عــلّنى   أشْفَ بالسّقم الذى حُزت سِقاما
وأبلِّغنَّ شوقى عريبًا(٢) باللّوى   هَمَت فى أرض بها حلُّوا غِـراما
فرشوا فيها من الدُّر حصىً   ضربوا فيها من المِسْك خِياما
كنت أشفى غلة من صدّكم   لو أذِنتم لجُفُونى أن تنـاما
واستفَدْتُ الرُّوح من ريح الصَّبا   لو أتَتْ تحمل من سلْمَى سلاما
نشأت للصّب منــها زفــرة   تَسْكُب الدّمع على الرَّبع سِجاما
طَرِب البرق مع القلب بهــا   وبها الأنَّـات طارَحْنَ الحِماما
طللٌ لا تستشفى الأُذن بـــه   وهو للعينين قد ألْقى كلاما
ترك السّاكن لى من وصْــلِه   ضمّة الجُدران(٣) لثْمًا والتزاما
نزعات من ســليمان بهــا   فَهِم القلب معــانيهـا فَهـاما
شادنٌ يرْعى حشاشات الحشَى   حَسْبُ حظّى منه أن أرْعى الذِّماما

وقال من قصيدة أولها فى عرض النسيب :

أأرجو أمانا منك واللحظ غــادر   ويثبتُ عقلى فيك والطَّرف ساحر
أعدّ سليمان أليم عـــــداره   لهدهُد(٤) قلبى فهو للسير صائر

---

(١) وردت فى الإسكوريال (مسكيه) ، والتصويب من النفح
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (عريب)
(٣) وردت فى الإسكوريال (الجدبان) ، والتصويب من النفح .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (الطائر) والأولى أرجح .

أُشاهد منــه الحُسْن فى كل نظـرة　　وناظـر أفـكارى بمغْنــاه ناظر
دعَتْ للهوى أنصار سحر جُفــونه　　فقلبى له عن طيب نفس مُهاجر
إذا شقّ عن بدر الدجى أُفق ذرِّه　　فإنى بتمـويه العــواذل كافر
وفى حُرم السُّلوان طافَتْ(١) خواطرى　　وقلبى لما فى وجْنتيــه مُجــاور
وقد ينْزع القلب المُبْلى لسَلْوة　　كما اهتزَّ من قطْر الغمامة طاير
يقــابل أغراضى بضِدٍّ مرادهــا　　ولم يدر أن الضِّد للضِّد قــاهر
ونارُ اشتياقى [صعَّدت](٢)مُزْنَ أدمعى　　فمُضمَر سرِّى فــوق خدِّى ظاهر
وقد كنت باكى العين والبين غايب　　فقل لى كيف حال(٣) الدمع والبين حاضر
وليس النَّوى بالطبع مــرًّا وإنمــا　　لكثرة ما شُقَّت عليــه المرائر

ومنها فى وصف ليلة :

وزنجيَّة فات الكؤوس بنحْرها　　قلايدُ ياقوت عليها الجواهر
ولا عيب فيها غير أن ذُبالهـا　　يُقَطِّب فتبدو الكؤوس سراير
تجنبت فيها نَيْل كل صغيرة　　وقد غفرتُ فيها لدىَّ الكبائر

ومن السُّليمانيات من قصيدة :

يا بارقا قاد الخيال فأَوْمضا　　أقصِد بطيفك مُدْنَفًا قد غمَّضا
ذاك الذى قد كنت تعهد نايما　　بالسُّهد من بعد الأَحبَّة عوَّضا
لا تحسبُنى مُعْرضا عن طيفه　　لكنَّ منامى عن جُفونى أعْرضا
عجِب الوشاة لمهجتى أن لم تذُبْ　　يوم النَّوى وتشكَّكت فيما مضى

ومنها :

خفيت لهم من سرِّ صبرى آية　　ما فهمت إلاَّ سليمان الرِّضا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (طابت) .
(٢) هذه الكلمة واردة فى النفح ، وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى النفح .

لله دَرُّك ناهجًا سبُل الهــوى   فلمثله أمر الهوى قد فوِّضا
أَمنت نمْلاً فوق خدِّك سارحا   وسللْت سيفاً من جُفونك مُنتضى

ومن الأَمداح قوله من قصيدة :

حريص على جرِّ الذوايب والقنا   إذا كعَّت الأَبطال والجوُّ عابس
وتعتنق الأَبطال لولا سقوطهــا   لقلت لتوديعٍ أَتتْه الفوارس
إذا اختطفتهم كفُّه فسروجهم   مجالٌ وهم فى راحتيه فرائس(١)

وقال يمدح السلطان أمير المسلمين أبا الوليد نصر عند قدومه من فتح أشكر(٢) من قصيدة أولها :

بحيث البنود الحمر والأُسْد الورد   كتائبُ سكَّان السماء لها جنــد
وتحت لواء النصر ملك هو(٣) الورى   تضيق به الدنيا إذا راح أو يغدو
تـأَمَّنت الأَرواح فى ظل بنْــده   كأَنَّ جناح الروح من فوقه بَنْـد
فلو رام إدراك النجــوم لنالها   ولو همَّ لانْقَادت إليه السِّند والهنـد
بعينى بحر النَّقع تحت أَسِـنَّة   تُنمْنمه [وهنًا](٤) كما نمْنم البرد
سماءُ عجـــاج والأَســنَّة شهبهـا   ووقْع القنا رعدٌ إذا برق الهنـد

وفى وصف آلة النَّفْط :

وظنُّوا بأَنَّ الرعد والصعق فى السما   [فحاق بهم من دونها](٥) الصعق والرعد
عجائب أَشكال سما هِرْمس بهــا   مهندمة(٦) تأْتى الجبــال فتَنْهدُّ

---

(١) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال (عرايس) . والأولى أرجح بالنسبة للمعنى
(٢) هى بلدة أندلسية تقع شمالى مدينة بسطة وشرق مدينة قبجاطة وبالإسبانية Huescar
(٣) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال (هدى) والأولى أكثر تمشيا مع المعنى
(٤) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، ووردت محرفة فى النفح كالآتى (فحاق به من أيده)
(٦) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (مهندسة) .

إلاَّ إنَّها الدنيـــا تريك عجـــايبا وما فى القوى منها فلابُدَّ أن يبدو

وكتب وهو معتقل بسبب عمل تولاه جحدرية أولها :

تباعد عنى منزلٌ وحبيب وهاج اشتياقى والمزار قريب
وإنى على قرب الحبيب مع النوى يكاد إذا اشتدَّ الأنين يجيب
لقد بعُدت عنى ديارٌ قريبـة عجبت لجار الجنب وهو غريب

ومنها :

أعاشر قومًا ما تقر نفوسهم فللْهمِّ فيها عند ذاك ضروب
إذا شعروا من جارهم بتأوُّه أجابته(١) منهم زفرةٌ ونَحِيب
فلا ذاك يشكوهم هذا تأسُّفا لكل امرىء مما دهـاه نصيب
كأنى فى غاب الليوث مُسلَّمًا(٢) يروِّعنى منها الغـداة وثوب
تحكَّم فينا الدهر والعقل حاضر بكلِّ قياسٍ والأديب أريب(٣)
ولو مال بالجهَّال مَيْلته بنـا لجـاءَ بعذرٍ إنَّ ذا لعجيب
رفيقٌ بمن لا ينثنى عن جريمة بطوش بمن ما أوْبَقته ذنوب
وتطمعنـا منه بوارقُ خُلَّب نقول عساه يرْعَوى ويتـوب
إذا ما تشبثنا بأذيال بُــرده دهَتْنا إذا جرَّ الذيول(٤) خطوب
أدار علينا صولجانا ولم يكن سوى أنه بالحادثات لعُوب

ومنها :

أيا دهر إنى قد سئمت تهدُّفى أجرْنى فإن السهم منك مصيب
إذا خفق البرق الطروق(٥) أجابه فؤادى ودمع المقلتين سَكوب

---

(١) وردت فى الإسكوريال (أجابهم) والتصويب من النفح.
(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (مسالم).
(٣) هكذا فى الإسكوريال، وفى النفح (أديب) وهو تحريف.
(٤) هكذا فى الإسكوريال، وفى النفح (الحلوب).
(٥) هكذا وردت فى النفح، ووردت فى الإسكوريال (الطروب) والأولى أرجح.

وإن طلع الكفُّ الخضيب بسحره(١) فدمعي بحنَّاء الدماء خضيب
تُذَكِّرنى الأسحار داراً ألفتها فيشتد حُزنى والحمام طروب
إذا عَلِقت نفسى بَليت وربما تكاد تفيض أو تكاد تذوب
دعوتك ربِّ والدعاء ضراعة وأنت تُناجَى بالدعا فتجيب
لئن كان عُقْبى الصبر فوزاً وغبطة فإنى على الصبر الجميل دَرُوب

وبعثتُ إليه هدية من البادية ، فقال يصف منها ديكا ، وكتب بذلك رحمة الله عليه :

أيا صديقاً جعلتهُ سَندا فراح فيما أَحبُّــه وغدا
طلبت منكم صُرَيْدكا خَنشا وجْهتمونى مكانــه لــبدا
صيَّر منى مؤرخًا ولــكم ظللتُ فى علمه من البُلدا
قلتُ له آدم أتعـــرفه قال حَفِيدى بعصرنا(٢) وُلدا
نوحٌ وطوفانــه رأيتهما قال عَلَوْنا لفيضه أُحُــدا
فقلت هل لى بجرهم خَبر فقال قومى وجيرتى السعدا
فقلت قحطان هل مررت به قال نفشنا ببُرْده العُقَــدا
فقلت صف لى سَبا وساكنها فعند هذا تنفَّس الصَّعـدا
وقال كم لى بِدُجْنهم سحرا من صرخة لى وللنوم هـدا
فقلت هاروت هل سمعت به فقال ريشى لِسحره نَفِـدا
فقلت(٣) كسرى وآل شرعته فقال كنا بجيشه وَفْــدا
ولّوا وصاروا وها أنا لبد فهل رأيتم من فوقهم أحدا
ديكٌ إذا ما انثنى لفكرته رأى الوجود(٤) طرايقا قدُدا

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (سحيرة).
(٢) هكذا فى النفح ، وفى الإسكوريال (بعصره) والأولى أرجح
(٣) وردت فى الإسكوريال (فقال) والتصويب من النفح .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (وجودا).

يرفل فى طيلسانه ولِهِيــاً ‏ قد صيَّر الدهر لونَه كمِدا
إذا دَجا الليل غاب هيكله ‏ كأن حِبرا عليه قد جَمـدا
كأنمـا جلنـــار لحيتـه ‏ بُرْجان حازا عن الهواء مَدَا
كأن حصنا علا بهامَتِـــه ‏ أعدَّه للقتـــال فيه عُـدا
يرنو بياقُوتَتى لواحـــظه ‏ كأنما اللحظ منه قد رَمِدا
كأنَّ منجالتى ذؤابتــه[1] ‏ قوسٌ سما من أجله بُعْدا
وعَوْسَج مدٌّ من مخـــالبه ‏ طغَى بها فى نقســاره وعَدا
فذاك ديكٌ حلَّت محاسنه ‏ له صراخ بين الدُّيوك غدا
يطلبنى بالذى فعلتُ به ‏ فكم فَلَلْنــا بلبَّتيه مدا
وجَّهتــه محــنةٌ لآكلــه ‏ والله ما كان ذاك منِّى سدى

ولم نزل بعد نستعدى عليه بإقراره ، بقتله ، ونطلبه بالقود عند تصرفه فى العمل ، فيوجه الدِّيَة ، لنا فى ذلك رسائل .

ومن شعره فى غرض الحسن بن هانئ :

طرقنا ديور القوم وهنا وتغليسا ‏ وقدشرَّفوا الناسوت إذ عَبدوا عيسى
وقد رفعوا الإنجيل فوق رؤوسهم ‏ وقد قدَّسوا الروح المقدَّس تقديسا
فما استيقظوا إلاَّ لصكَّة بابهم ‏ فأدهش رُهبانا وروَّع قِسِّيسـا
وقام بها البطريق يسعى مُلبِّـيا ‏ وقد ليَّن الناقوس رفْقا وتأنيسا
فقلنـا له آمنًّا فإنَّا عصـــابة ‏ أتينا لتَثْليث وإن شِيت تَسْديسا
وما قصدنا إلاَّ الكؤوس وإنمـا ‏ لُحْنا له فى القول خُبْثا وتدْليسا
ففتحت الأبواب بالرحب مسهم ‏ وعرَّس طلاب المُدامة تَدْريسا
فلما رأى زقَّى أمـاى ومزهـرى ‏ دعانى أتأنيسا لحنْت وتَلْبيسا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ذوائبه) .

وقـام إلى دَنٍّ يفـضُّ ختـــامه فكبّس(١) أجرام الغياهب تكبيسا
وطاف بهـا رطب البنـان مُزَنَّر فـأبصرت عبدًا صيَّر الحرَّ مرؤوسا
سُلافا حواها القـار لبسا فخلتها مثالا من الياقوت فى الحبْر مغموسا
إلى أن سَطا بالقوم سُلطان نومهم ورأس قبيل الشمع نُكِّس تنكيسا
وثبْتُ إليـه بالعنـاق فقال لى بحقٍّ الهوى هَبْ لى من الضمِّ تَنفيسا
كتبتُ بدمع العين صفحة خَدِّه فطلّس حبر الشعر كتبى تطليسا
فبيس الذى احتلنا وكدنا عليهم وبيس الذى قد أضمروا قبل ذا بيسا
فبتنـا يرانـا الله شرَّ عصـــابة نطيـع بعصيـان الشريعة إبليسا

وقال بديهة فى غزالة من النحاس على بِرْكة فى محل طلب منه ذلك فيه :

عنَّت لنا من وحش وجرةَ ظَبْية جاءت لورد الماء مِلىءَ عِنـانها
وأظنها إذا حدَّدت آذانهـــا ريعت بِنا(٢) فتوقفت بمكانها
حيَّت بقرنى رأسها إذ لم نجد يوم اللقـاء تحية ببنـانها
حنَّت على النُّدمان من إفلاسهم فرمت قَضِيب لُجَيْنها لحَنانها
لله دَرُّ غزالة أبدت لنا دُرَّ الحِباب تصوغُه بلسانها

وفاته

فلِج فالتزم المنزل عندى لمكان فضله ، ووجوب حقِّه ، وقد كانت زوجُه توفيت ، وصَحِبه عليها وجدٌ شديد ، وحُزْنٌ مُلازم ، فلما ثقُل ، وقرُبت وفاته ، استدعانى ، وقد كان لسانُه لا يُبين القول ، وأملى على فيما وصانى به من مُهم أمره :

إذا متُّ فادفنّى حِذاءَ حليلتى يُخالطعظمى فى التُّراب عظامها
ولا تدفنِّى فى البقِيع فإنَّـــنى أُريد إلى يوم الحساب التزامها
ورتب ضريحى كيفما شاء الهوى تكون أمامى أو أكون أمامها

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (فكبس تكبيسا) .
(٢) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (لنا) والأولى أرجح .

لعل إلٓه العرش يجبر صدعتى ‏ ‏ فيعلى مُقامى عنده ومْقامها

ومات فى ليلة الخامس والعشرين من عام ثلاثة وخمسين وسبعماية ، ودَفَنْتُه عصره بباب إلبيرة حِذاءَ حَلِيلته كما عَهِد ، رحمة الله عليه

يحيى بن عبد الكريم الشنتوفى [1]

من أهل الجزيرة الخضراء .

حاله

كان كاتباً ثِرثاراً ، أديباً لَوْذعيا ، كثير النظم والنثر . كتب عن أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب ، وابنه أبى يعقوب ، واحتل معهم بظاهر غرناطة .

كتابته

كتب عن المذكور عندنزوله مُحازيا ومجاهدا بظاهر شَرِيش ما نصه :

أخونا الذى يسير بما يخلِّده بطون أوراق الدفاتر ، من مأْثور حميد المآثر ، ويتلقى ما يرِد عليه من قِبَلِنا من منشور حِزْب البشاير ، بمعاشر القبايل والعشاير ، ويفوِّق ما قَبسته المنن لأَقلام وأفواه المحابر ، فى مراقب مراقى المنابر ، ويجمع لنا وشتّه سحايب الخواطر ، من روْضات السَّجلاَّت فى النوادى والمحاضر ، الأَمير الكذا ، أدام الله اهتزازه للأَنباء السارة وارتياحه ، ونَعَّم بها أَرواحه ، ووصل بكل أَرِجٍ من نسيم الجذْل ، ومُبْهِج من وسيم الأَمل ، غدوَه ورواحَه ، وأحبَّ به أَرواحَه . سلام كريم عليكم ، ورحمة الله وبركاته . من أخيكم ، الذى لا يَتِمُّ بِشْره إلاَّ بأَخْذِكم منه بأَوْفى حظٍّ ، وأوفر نصيب ، ومُصافيكم الذى لا يَكْمُل سروره ، ويجمُل حبُوره ، حتى

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (الشسوف) .

يكون لكم فيه سهم مُصِيب ، ومَرْعى خصيب ، الأمير يوسف ابن أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن عبد الحق .

أمّا بعد حمد الله مُحِق الحق بتَصعيده فوق النُّجوم ومُعليه ، ومُبطل الباطل بتصريبه تحت النجوم ومُذْليه ، ومطهِّر الأَرض من نجس دنَس الكفر وأَوْلِيه ، ضَرْبا بالمُرْهفات صبراً وطعنا بالمُشْفَعات دِرا كا ، وجاعل بلاد الشِّرك الأَسار عُبَّاد الإفك ، بما نظمهم من سِلك المُلْك ، وبدَّدهم من هَتْك السِّتر ، بالفَتْك والسَّفك، حبائل لا يخرجون منها وأَشْرا كا ، وخاذلِ من زلَّت عن السُّور قدمُه ، وخرجت من الدُّور ذِمَمَه ، بأَن يُراق دمه ، ويُعدم وجوده وقِدَمه ، بلوغا لأَمان أمانى الإِيمان وإدرا كا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، ناظم فرايد الفرايد ، ومُنَضِّد عوايد المواعد ، بالظَّفر المنتظر بكل جاحد مُعاند ، قلايد لا تنْتثر وأسلا كا - وسالك.مسالك الغزوات ، وناسِك مناسِك الخَلَوات ، ومُدرك مدارك قبول الدَّعوات ، إفْناءً لأَعداء الله وإهْلا كا : والرضا عن آله وصحبه ، المُرتَدِين بمننه ، المُهتدين بسُنَنِه ، فى إباحة حَرَم الحرُم ، وإزاحة ظُلم الظُّلم ، حنادس وأَحْلا كا ، القارعين بأَسيافهم أَصْلاب كِلاب الصُّلبان تبا كا ، والقارعين أبواب ثَواب الرحمن نُسَّا كا ، وموالاة الدعاء لسيدنا ومولانا الوالد ، بتَخْليد السّعد المُساعد، وإدارة الإرادة بعَضد من النَّصر وساعد ، مقادير كما يشاءُ وأفلا كا ، وممالآت آياته آيات ، هذه الرَّايات ، بإدراك نهايات الغايات ، فى اشتِباه أشياء ذوى الشَّايات ، فلا تذر فى الأَرض كُفرا ، ولا تدع فيها إشرا كا . فكتبناه ، كتب الله لإخايكم الكريم أرْفَع الدرجات عُلاً ، وأتمَّها تعظيما ، وفضلكم مع القعود عن الشهود بالنِّية التى لها أكرم ورود، وأصدق وفود ، أجرا عظيما . من منزلنا بمخنَّق شَريش ، حيث الكَتايب

المايلة هالّة بدُرها البادية الخسوف ، والحُماة الكماة . أكمام زهرها الدّانى القُطوف ، وسِوار مِعْصمها النائِى عن العصمة مجرَّدات صفوف صنُوف السيوف. فالشِّفار بالأَحداق ، كالأَشفار بالأَحداق إدارتها ، الطّاقة بحيزومها نِطاقا ، والفتح قد لاحت مخايِلُه ، وباحت مقاوِلُه ، والكُفر فلَّت مَناصِله وعُرِفت مَقاتِله ، والمُتْرف يتمنى أن يلقاه قاتلُه ، فلا يقاتله فَرَقًا ، لا يجدون له فِراقا فواقاً ، فحماتُها العُتاة لا يرون إلا سماءَ نقْع الكِفاح ، لَمِعًا متلاقيا وائتلافا ، وكُماتها لا يشربون إلاَّ من تحت دمِهم المُطهِّر بنَجسه وجه الأَرض ، المعدى به هريقُه من فيح حتْفهم يوم العَرْض ، المودى بإراقته واجب الفرْض ، إعداداً لامتثال الأَمر الإلَهى واعتناقا .

ومن هذا الكتاب وهو طويل : ووَصَلْنا والخيل تَمْرح فى أَعَنَّتها تصلُّفا ، وتختال فى مَشْيها تغطْرُفا ، وتعضُّ على لُجُمها تحدُّقا وتحرُّفا ، كأَنها لم تَرْم قُصارى قُصور النصارى ، دون تصور عنها ، أغراضا وأهدافا ، ودون معاهدة العُيون وَصْف الواصف ، ولأَقلٌ مما احتوى عليه هذا الفتح، تهتزُّ المعاطف ، إذ الإيمان اهتزَّ إعطافا ، وتوشح به عطافا . وهل الكَتْبُ وإن طال ، نبذة من نُبَذ الفُتوح ، وفَلْذة من كبِد النَّصر المَمْنُوح ، وزهرةٌ من غُصن النَّدا المَروح ، أَدنينا لإخايكم الكريم منه اقتطافاً، والسلام.

شعره

مالى وللصبر عنى دونكم حَجَبا   وطالما هزَّنى أُنْسِى لكم طَربا
فحين شبَّ النوى فى أَضلعى لهبًا   هزَزْتُ سيف اصْطِبارى بعدكم فَنبا
وقلت للقلب يَسْلو بعدكم فأَبا
غِبْتُم فغاب لذيذ الأُنس والوسَن   وخانَنِى جَلَدى فيكم فأَرَّقنى

ذكرى لياليـنـا فى غفلـة الزمن فارقتـُونى وطيبُ العيش فارقنى

وصرتْ من بعدكم حيران مكتَئِبا

من لى بقُـرْبكم فى حِفْظ عهـدكم فكم ظَفِرتُ بـه أيـام وُدّكم

وكم جرى دمع أجفـانى لفقْدكم فلو بكيتُ دمًا من بُعـــدكم

لم أقضِ من حقٍّ ذاك القُرب ما وَجَبا

لله أيامُنـــا ما كان أجْمَلهـــا أوْزَعَت بـآخِرها شكرا[1] وأولهـا

من حُسْنـــها لم أزل أصْبُو بها ولها يا صاح صبرًا على الأيـام إن لها

على تصاريفها من أمـرها عجبـــا

صبراً على زمن يبديك شيمتــه إقبَلْ مساءته واحْـمِد مســرّته

فما عسى يبلغ الإنسان مُنْيَتـــه ومن كَرِهْت ومن أحْببت صحبته

لابد أن يَفْقِد الإنسان من صحِبـا

[قلت عجبا من الشيخ ابن الخطيب رحمه الله، فى ذكره هذا المترجم به فى ترجمة المُقْريين، مع تَحْليته له، ووصفه إياه بما وصفه من الكتابة والشِّعر، بل وإثباته له كتابته، وشعره، فكان حقَّه أن يكون فى ترجمة الكتّاب والشعراء بعد هذه الترجمة][2].

يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن محمد بن قاسم بن على الفهرى

من أهل غرناطة، يكنى أبا الحجاج، ويعرف بالسّاحلى.

حـالـه

من «العايد»[3]: صدْرٌ فى حَمَلة القرآن، على وتِيرة الفضلاءِ وسُنن

---

(١) وردت فى الإسكوريال (سكرا) والتصويب من الزيتونة.

(٢) من الواضح أن هذه الفقرة التى وردت بين الحاصرتين، هى من عند مختصر المخطوط وناسخه

(٣) أى عائد الصلة. وهو من كتب ابن الخطيب.

الصالحين ، من لِين الجانب ، والعُكوف على الخير ، وبذل المعروف ، وحسن المشاركة ، والخُفُوف إلى الشّفاعة . أ ب الأُمراء ، وحَظِي بتَسْويدهم ، وناب فى الخطابة بالمسجد الأعظم من حمرايهم (1) ، وكان إماما به ، ذا هُدًى وسكينة ووقار . وحجّ ، ولقى المشايخ ، واعتنق الرواية والتّقييد ، فانتُفع بلقايه .

مشيخته

قرأ على الاستاذ العلامة أبى جعفر بن الزبير ببلده ، وعلى الشيخ الخطيب الصوفى أبى الحسن بن فضيلة ، وعلى الخطيب الصالح ، أبى جعفر بن الزيات ، والمحدّث الرّحال أبى عبد الله بن رُشيد . وأخذ فى رحلته عن جُملة ، كالخطيب الراوية ، أبى عبد الله محمد بن محمد ابن فُرتون ، وناصر الدين منصور بن أحمد المشدالى ، والأُستاذ أبى عبد الله ابن جعفر اليحصبى ، وقاضى الجماعة ببجاية الإمام أبى عبد الله بن يحيى الزواوى ، والفقيه المحدث أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن الحسن الشافعي . وأجازه سوى من تقدّم ذكره ، من أهل المشرق ، عبد الغفار ابن محمد الكلابى ، وحسن بن عمر بن على الكردى ، وعَتِيق بن عبد الرحمن ابن أبى الفتح العمرى ، ومحمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنانى ، وعمر بن أبى بكر الوادى آشى ، وصالح بن عباس بن صالح بن أبى الفوارس الأَسْعد الصدفى ، وأحمد بن محمد بن على الكنانى ، ومحمد بن أحمد ، وأحمد بن إسمعيل بن على بن محمد بن الحباب ، وأم الخير إبنة شرف الدين ابن الطباخ الصّوفى . وقرأ ببلده غرناطة على الأُستاذ

---

(1) يريد قصور الحمراء دار ملك بنى نصر . وتقوم اليوم فوق موقع مسجد الحمراء الأعظم كنيسة سانتا ماريا .

أبى جعفر الطبَّاع ، والشيخ أبى الحسن معن بن مؤمن ، وأبى محمد النبغدى ، وأبى الحسن البلوطى .

أنشدنا ، قال كتب إلىَّ شيخنا محمد بن عتيق بن رشيق فى الاستدعاء الذى أجازنى ، ولمن سمَّى فيه :

أجزتُ لهم أبقـاهم الله كلمـا ... رويتُ عن الأشياخ فى سالف الدهر
وما سمعت أُذُناى عن كل عـالِم ... وما جاد من نظمى وما راق من نثر
على شرط أصحاب الحديث وضَبْطهم ... برىءٌ من التَّصحيف عارٍ من النُّكر
وجدِّى رشيق شاع فى الغرْب ذكره ... وفى الشَّرق أيضا فادْر إن كنت لا تدر
ولى مولدٌ من بعد عشرين حجة ... ثمان على السِّت المبين ابتدا عمرِ
وبالله توفيقى عليـه توكلى ... له الحمد فى الحالتين فى العُسْر واليُسْر

حدثنى شيخنا أبو بكر بن الحكم ، قال ، أصابتنى حُمَّى ، فلما انصرفت عنى ، تركت فى شفتى بُثوراً على ، فزارنى الفقيه أبو الحجاج السَّاحلى ، فأنشدنى :

حاشاك أن تمـرض حاشاكا ... قد اشتكى قلبى لشَكْواكا
إن كنت محموما ضعيف القوى ... فإنَّنى أحْسِـد حُمَّـاكا
ما رَضِيت حُمَّاك إذ باشرت جسمك ... حتى قَبَّلت فاكـا

مولده : عام سبعة وستين وستماية .

وفاته : توفى رحمه الله بالحمراء العليَّة ، فى السابع والعشرين لشهر رمضان من عام اثنين وخمسين وسبعماية .

ومن الكتاب والشعراء بين أصلى وغيره

يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى

يكنى أبا بكر ، ويُعرف بابن الصَّيرفى ، من أهل غرناطة .

حـاله

كان نسيج وحده فى البلاغة والجَزالة ، والتَّبريز فى أُسلوب التاريخ ، والتملؤ من الأَدب ، والمعرفة باللغة والخَبَر . قال أبو القاسم ، من أهل المعرفة بالأَدب والعربية والفقه والتاريخ ، ومن الكتاب المجيدين والشعراء المطبوعين المكثرين . كتب بغرناطة عن الأَمير أَبى محمد تاشفين ، وله فيه نظم حسن .

مشيخته

قرأ على شيوخ بلده ، وأخذ عن العالم الحافظ أَبى بكر بن العربى وغطه .

تواليفه

أَلّف فى تاريخ الأَندلس كتابا سماه « الأَنوار الجَلِية فى أخبار الدولة المرابطيَّة » ضمنه العُجاب إلى سنة ثلاثين وخمسماية . ثم وصله إلى قرب وفاته ، وكتابا آخر سماه « تقصى الأَنباء وسياسة الرؤساء » .

شعره

قال أنشدت الأَمير تاشفين فى هلاك ابن رُذُمير[1] :

أَشكو الغَليل بحيث المَشْرب الخضر ... حسبى وإلاَّ فورِدٌ ماله صدَرُ
تجهَّمت لى وجوه الصبر مُنْكرة ... ولاحظتنى عيونٌ حشوها حَذَر

---

(١) هذا الاسم يطلق فى الرواية العربية على ألفونسو المحارب ملك أراجون . وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الثانى من الإحاطة ص ١٢١ حاشية) .

إنى لأجْزَع من ذاك الوعيد وفى   ملقى الأسنّة منّا مَعْشَرٌ صبر
فلّت سلاحى الليالى أىُّ ظالمة   ولو أعادَتْ شبابى كنتُ أنتصر
مُشَيِّعا كنت ما استصحبتُ من أمل   كما يُشَيِّع سهمُ النّازع الوَتِر
فها أنا وعزيز لى نامِسَة   تسود فى عينه الأَوْضاح والغُرَر
يا حىّ علوه فُتياكم بنازلة   لم تنفصل يَمَنٌ عنها ولا مُضر
ما الحكم عندكم إذ نحن فى حُرم   على جِناية رامٍ سَهْمُه النَّظر
أرعانى الشُّهب فى أحشاء لَيْلتها   حمل من الصُّبح أرجوه وانتظر
يفترُّ عن بُرد من حوله لَهَبٌ   أو عن نبات أقاح أرضُه سَقَر
وبين أجفانه نهيف الأمير أبى   محمد تاشُفين أو هو القَدَر
سيفٌ به ثُلّ عرش الروم واطّادَتْ   قواعد المُلْك واستولى به الظّفر
وأدرك الدين بالثّار المُنِيم على   رغمٍ وجاءت صُروف الدهر تَعْتذر
مُنًى تُنال وأيامٌ مُفَضَّضة   مُذْهَبات العشايا لَيْلُها سَحَر
وفى الذُّؤابة من صنهاجة مَلِكٌ   أغرُّ أبلجُ يُسْتَسقى به المَطر
مؤيدٌ من أمير المسلمين له هوىً   ورأىٌ ومن سيرٍ له سِير
أنحى على الجَور بمحو رَسْم أحْرُفه   حتى استجار بأحداق المَهَىَ الحَوَرُ
يا تاشُفين أما تنفكُّ بادرة   من راحَتَيْك المنايا الحُمْر تَبْتَدر
وكم ترنّح فى رَوْضٍ جداوله   بيضُ السيوف وملتفٌّ للقَنَى شجر
هى التّرايك فوق الهام لا حَبَبٌ   والسّابغات على الأعطاف لا القَدَر
لك الكتايب ملءُ البيد غازيةٌ   إذا أتت زمرٌ منها مضت زُمَر
على ساكبها للنَّقْع أرْدِية من   تحتها جِلَق من تحتها زُبر
تدبُّ منها إلى الأعداء سابلة   عقاربُ مالها إلاّ القَنا إبَر
بعثتها أُسُدًا شتّى إذا مَرِجت   جِنّ الوغا انقضّ منها أنجمٌ زهر

يا أيها الملك الأعلى الذى سَجدت … لسيْفه الهام فى الهَيْجاء والقُصُر
أعِزْ جِرار ضُلوعى بَرْدَ ما نهلت … خيلُ الزُّبير ونار الحرب تَسْتعر
حيث الغُبار دخانٌ والظُّبا لهبٌ … والأسِنَّة فى هام العِدا شُرر
والنَّقْع يطفو وبيضُ الهند راسية … إن الصواعق يوم الغَيْم تَنْكدر
أعْطى الزبيرُ فتى العلياء صارمَه … لكن بسَعْدك ما لم يُعطَه عُمر
ولَّته أظْهُرَها الأبطال خاضعة … تَكْبُو وتصفعها الهندِيَّة البُتُر
بحر من الخلق المَسْرود مُلتَطمٌ … يسيل من كل سيف نحوه نَصْر
أمَّ ابنُ الزبير ابنَ رُذمير بداهية … عضَّت ومسَّك من أظفاره ظَفَر
لقد نفحت من النُّيجان فى محم … وأين من فَتَكات الضَّيغم النُمر
لقد نجوتَ طليق الركض فى وَهَن … من الأسنَّة حتى جاءك القدر
خلعت دِرعا واعتَضْت الظَّلام بها … وخاض بحرُ الوَغا مركوبَك الخطر

ومنها :

ما بال إنجيلك المتروك ما ذمرت … نفوس قومك منه الآى والسُّور
أهديتها غير مشكور مُضمَّرة … ملءَ الأعنَّة منها الزَّهو والأسر
وظل طفلٌ من البولاد دانية … سمرا تُرْضِعه اللبَّات والثُّغر
وعابسُ المنايا وهى ضاحكة … من خَدِّه بثغورٍ زانها أشر
وكل حارسة فى الرَّوع لا يَسهها … منسوجةٌ من عيون ما لها نَظَر
أعدت للحرب إنذارا سخوت بها … على الرِّجال التى منها لها وِزر
قَضَتك من حِمير صيدٌ غطارفة … فضُّ الرجاجة عوصَ الدهر ينحبر
ملثَّمون حياءً كلما سَفَرت لهم … وجوه المنايا فى الوَغا سَفروا
جادوا بطعنٍ كأسماع المحاص … إلى ضرب كمافَغَرت أفواهها الحُمُر
وحذت عنها محسبًا مُرَوَّعة … فضت بما مَجَّ فى أحشائك الذُّعر

فرّت إلى حتفها من حتفها فمضت | والموت يطْرُدُها والموت ينتظر
قالوا نجا بذما النّفْس منك فما | نجا وقد بَقرته الحية الذّكر
نوزّعت نفسا على جِشيّتها طَنَبًا | للوساوس يَحْدُو جيشُها السّهر
نصرٌ عزيز وفتحٌ ليس يَعْدله | فتحٌ ولله فيه الحمد والشكر
فاهنأْ به ابن أمير المسلمين وَدُم | للمُلْك ما قامت الآصال والبُكر
واهنأْ بعيدك وافخر شانئيك بـه | فإنّها نُسْك الأسياف لا الجزر
جاورتُ بحرك تغشانى مواهبُه | فمن بذاك ونَظْمى هذه الدُّرر (١)

وأنشد أيضا من شعره قوله رحمة الله عليه :

ركِبت خَيْلها جيوشُ الضّلال | وسُرّت من رِماحها بذُبال
ملقيات دُروعها لا لوقت | فيه تَنْضُو الجلود رقش الصِّلال
حثّ فى إثرها الأمير بعُقْبان | جيادٌ هَوَتْ بأُسُد رجال
فى صُقَيل البُريك تُحْدِث للشمس | بعكس الشُّعاع حُمَّى اشتعال
لاث بالريح عِمّةً من غُبار | ومشى للحديد فى أذيال
كلما جرّها على الصّلد أبقت | كخطوط الصِّلال فوق الرمال
لَبِست أمرها على الرُّوم حتى | فَجئَتها كعادة الآجال
أبْدَلت هامها قِصار قُدود | بطَوال من الرِّماح الطوال
والذى فرّ عن سيوفك أوْدَى | بقَنا الرُّعب فى ثنايا الجبال
كنتَ فيها وأنت فى كل حرب | مُغْمِد النَّصل فى طِلَى الأبطال
يطلع البدر منك حاجبَ شمس | ويُرى الليث فى إهاب هِلال

---

(١) وردت فى المخطوط تحت هذه القصيدة الفقرة الآتية : « انتهى السفر الحادى عشر والحمد لله رب العالمين، يتلوه اختصار السفر الأخير وهو الثانى عشر ، المفتتح بقولى : ومن ترجمة الشعراء من السفر الأخير ، وهو الثانى عشر المفتتح بالترجمة بعد ، من ترجمة الكتاب والشعراء ، وأنشد أيضاً من شعره قوله رحمة الله عليه » . (لوحة ٤١٧)

يا لصَنْهاجة وحولك منهم — خيرُ جيش عليهم خيُر وال
ملكٌ ليس يركب الدهر إلاّ — كلّ عالى الركاب عالى القَذال
ما عرا الجَذْبُ أو علا الخَطْبُ — سال غَيْثًا ولاح بَدْرُ كمال
وخفيفٌ على أُمور خِفاف — وثقيلٌ على أُمور ثِقال
لاعَب المِعْطفين بالحمد زَهْوًا — شيمةَ الرُّمح هزّةٌ فى اعتدال
مُسْتَرِقٌّ النفوس خوفا وحسنا — إنما السيف هَيْبَةٌ فى جمال
شيمٌ كالغمام يَنْشُر فى الروض — بأنْدابه صِغار اللّآل
وسجايا تفتَّحت زهرات — وخلالٌ تسدٌّ كل اختلال
أنت ياتاشُفين والله واقٍ — لك شخص العُلا ونفسُ الكمال
ليس آمال من على الأرض إلاّ — أن تُرى وأنت غاية الآمال
وهنيًّا بأن نَهضْتَ وأقبلتَ — عزيزَ النُّهوض والإقبال
وعلى الكفر منك حرٌّ مُجير — وعلى الدِّين منك بَرْدٌ ظِلال
يا فتى والزمان نُعْمَى وبؤس — شرُّ حال أَفْضَت إلى خَيْر حال
وبما تجزع النفوس من الأمر — له فُرْجةٌ كحلِّ العِقال
رُبَّ أشياءِ ليس يبلغ منها — كُنْه ما فى النُّفوس بالأقوال
غير أن الكلام إن جلّ قدرا — وعلا كنتَ فوقه فى الفِعال

ومن شعره ، وقد بيّت العدو محلة الأمير تاشفين ، ويذكر حسن ثباته ، وقد أسلمه قومه ، وهى من القصائد المفيدة ، المبدية فى الإحسان المعيدة :

ياأيها الملك الذى يتقنّع — من منكم البطل الهمام الأرْوع
ومن الذى غدر العدوّ به دجىً — فانفضّ كلٌّ وهو لا يتزعزع
تمضى الفوارس والطعان يصدُّها — عنه ويزجرها[1] الوفاءُ فترجع

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (يذخرها) والأول أرجح .

والليل من وضح التّرايك والظُّبا … صبح على هـام الكماة ممنّـع
عن أربعين ثَنتْ أعنّتهـا دُجًى … ألفان ألفُ حـاسر ومقَنَّـع
لولا رجال كالجبـال تعرّضت … ما كان ذاك السيل مما يُرْدع
يتقحّمون على الرماح كأنهم … إبلٌ عطاش والأسنة تكرع
ومن الدُّجى لهم على قمم الربى … وذؤابة بين الظُّبـا تتقطع
نَصَرتْ ظلام الكُفْر ظُلمة ليـلة … لم يدر فيها الفجـر أين المطلع
لولا ثبوتك تاشُفِين لغادرت … أخـرى الليـالى وهَيْبَةٌ لا تـرقَع
فثبتّ والأقدام تزْلق والـردّى … حول السُّرادق والأسِنَّة تقـرع
لا تعظُمَنَّ على الأميـر فإنها … خِدَع الحروب وكل حرب تَخْدع
ولكل يوم حَنْكة وتمـرُّس … وتجارب فى مثل نفسك تَنْجع
يا أشجع الشجعان ليـلة أمْسِه … اليوم أنت على التجارب أشجع
أهديك من أدب الوَغا حِكَما بها … كانت ملوك الحرب مثلك تُولع
لا أننى أدرى بهـا لـكنها … ذكرى تخُصُّ المؤمنين وتَنْفع
اختر من الخلق المضاعفة التى … وصّى بها صُنْع السّوابغ تبّـع
والهند وانـى الرفيـق فإنه … أمضى على حلَق الدلاص وأقطع
ومن الرواجل[1] ما إذا زعزعته … أعطـاك هزّة مِعطفيه الأشـجع
ومن الجياد الجُـرْد كل مُضَمّر … تُشْجى بأرْبعه الريـاح الأربع
والصّمّة[2] البطل الذى لا يلتوى … منه الصّليب ولا يلين الأخْدَع
وكذاك قـدرٌ فى العدو حزامة … فالنّبع بالنّبع المُثَقّف يَقْـرع
خندقٌ عليك إذا اضطربت محلّة … سيّان تَتْبع ظافرا أو تتبَـع
واجعل ببابك[3] فى الثّقات ومن له … قلبٌ على هول الحروب مُشَيَّع

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (النعابل) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الصامت) .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (بناتك) وهو تحريف .

وتوقَّ من كاذِب الطلايع إنَّه ... لا رأى للمكذوب فيها يصْنع
فإذا احْتَرست[١] بذاك لم يَكُ للعــدا في فرصةٍ أو في انتهـــازٍ مطمع
حارب بمن يخشى عقابك بالذى ... يخشى ومن فى جُود كفِّك يَطْمع
قبل التَّناوش عبِّ جيشك مُفْحصا ... حيث التمكُّن والمجــال الأوسع
إياك تَعْبية الجيوش مضيَّـــقا ... والخيل تَفْحص بالرجــال وتَمْرع
حصِّن حواشيها وكن فى قلبهــا ... واجعل أَمامك منهم من يُشْجع
والبس لُبوسا لا يكون مشهَّرا ... فيكون نحـــوك للعدوِّ تطلعُ
واحتلَّ لتوقع فى مُضايقة الوَغى ... خِدَعًا ترويهــا وأنت مُوَسّــع
واحذر[٢] كمين الرُّوم عند لقائها ... واقضِ كمينك خَلْفها إذ تدفع
لا تُبْقِين[٣] النهر خلفك عندما ... تلقى العــدوَّ فأَمْرُه[٤] متوقَّــع
واجعل مناجَزة العــدو عشــيَّة ... ووراءَ الصدف الذى هو أَمْنَع
واصْدِمْه أَول وهلـــة لا تَرْتدع ... بعد التقدم فالنُّكول يُضَعْضــع
وإذا تكاثفت الرجـــال بمعركٍ ... ضَنْكٍ فأَطراف الرِّماح توسع
حتى إذا استَعْصت عليك ولم ... يكن الاَّ شِماس دايم وتمنُّــع
ورأيت نار الحرب تُضرم بالظُّبا ... ودخانها فوق الأَسِنَّة يَسْـــطع
ومضت تؤذِّن بالصَّميل جيادها ... والهام تَسْجُد والصَّـــوارم تركع
والرمح يُثْنى معْطفيـــــه كأَنه ... فى الرّاح لا عِلْق الفوارس يكرع
والريح تنشأُ سَجْسَجًا هفَّافة[٥] ... وهى السَّكينة عن يمينك توضع

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (واقدر) والاولى أرجح

(٣) هكذا وردت فى الحلل الموشية . وفى الإسكوريال والزيتونة . (يلقين) . والإولى أنسب المعنى ولسياق .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى الحلل الموشية (فنشره) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (حبابة) .

أقصر الكمين على العدوّ فإنه ... يعطيك من أكتافه ما يمنع
وإذا هزمتَ عِداك فاحذر كرَّها ... واضرب وجوه كُماتها إذ ترجع
وهى الحروب قُوى النفوس وحزبها ... من قوّة الأبدان فيها أنفع
ثم انتهض بجميع من أخمدته ... حتى يكون لك المحلُّ الأرفع
وبذاك تَعْتِب إن تولت عصبة ... كانت تُرفِّه الوغَى وترفِّع
من مَعْشَرٍ إعراض وجهك عنهم ... فعلُ الجميل وسُخطك المتوقَّع
يكبو الجواد وكل حَبْر عالم ... يهفو وتَنْبُو المُرْهفات القُطَّع
أنّى فَرِعْتم يابنى صَنْهاجة ... وإليكم فى الرَّوع كان المَفْزِع
ما أنتم إلا أُسودٌ حفيَّة ... كلٌّ بكل عظيمة تُسْتَطلع
ما بال سيدكم تورَّط لم يكن ... لكم التفات نحوه وتجمُّع
إنسان عين لم يصبه منكم ... جفنٌ وقلبٌ أسْلَمته الأضلع
تلك التى جرَّت عليكم خُطَّةً ... شنعاء وهى على رجال أشنع
أو ما ليوسف جَدِّه مِننٌ على ... كلٌّ وفضل سابق لا يُرفع
أو ما لوالده علىٌّ نعمة ... وبكل جيد رِبْقَةٌ لا تُخلع
ولكم بمجلس تاشُفين كرامةٌ ... وشفيعُكم فيما يشاءُ مُشَفَّع
ألا رعيتم ذاك وأحسابكم ... وأنِفتُم من قالة تُستشنع
أبطأتم عن تاشفين ولم يزل ... إحسانه لجميعكم يتسرَّع
رُدَّت مكارمه لكم وتوطَّأت ... أكنافُه إن الكريم سَمَيْدع
خاف العِدى لكن عليكم مُشفِقا ... فهجعتم وجفونه لا تَهْجع
ومن العجايب أنه مع سنِّه ... أذرَى وأشهر فى الخطوب وأضلع
ولقد عفا والعفو منه سجيّةٌ ... ولسطوة لو شاء فيكم مَوْضع
يا تاشفين أقم لجيشك عُذره ... فالليل والقَدَر الذى لا يُدفع

هجم العدو دُجًى فروَّع مُقبِـلا ومضى يَهيم وهو منك مروَّع
لا يزدهى إلاَّ سواك بهـا ولا إلاَّ لغـيرك بالسِّنان يُقَنَّع
لما سَدَدْت لـه الثَّنيَّة لم يكن إلا على ظهـر المَنيَّة مَهْيَع
وكذاك للعِير[1] إقـدام على أُسْد العَـرين الوُرْد مما يجـزع
ولقد تقفـاها الزبير وقد نجت إلاَّ فلولا وإنَّ منـه المَصْرع
وغدا يعاقب والنفوس حميَّـة والسُّمر هيمٌ والصَّـوارم جُـوَّع
أعْطِش سلاحك ثم أوْرِدها الوَغا كيما يلذُّ لها ويصفو المَشْرع
كم وقعةٍ لك فى ديارهم انثنت عنها أَعزَّتُهـا تُذَل وتَخْضـع
النِّعمة العظمى سلامتك الـتى فيها من الظَّفَر الرِّضى والمَقْنَع
لا ضيَّع الرحمن سَعْيك إنـه سعىٌ به الإسلام ليس يُضَـيَّع
نستحفظ الرحمن منـك وديعةً فهو الحفيظ لـكل ما يُسْتَودع[2]

وفاته : بغرناطة فى حدود السبعين وخمسماية

ومن ترجمة الشعراء من السفر الأخير
وهو الثانى عشر المفتتح بالترجمة بعد[3]
يحيى بن محمد بن أحمد بن عبد السلام التطيلى الهذلى

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونه (للعين) .

(٢) نظم ابن الصير فى هذه القصيدة الرنانة فى مدح الأمير تاشفين بن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين المرابطى والإشادة بأعماله الحربية ووقائعه المظفره فى الأندلس ، وقد أخباره والده ولايتها منذ سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦م) . وكانت غرناطة يومئذ هى مركز الحكم المرابطى . وكان ابن الصير فى الكاتب والمؤرخ ، وهو من أهل غرناطة، من كتاب الأمير تاشفين . وقد قام الأمير تاشفين خلال حكمه بغزوات عديدة فى أراضى قشتالة ، وخاض مع القشتاليين عدة وقائع مظفرة .

(٣) ورد هذا العنوان فى رأس اللوحة(418) إسكوريال فى منتصف ترجمة ابن الصير فى ، فرأينا إثباته هنا بعد إختتامها .

أصله من تُطيلة ، وهو غرناطى ، يكنى أبا بكر .

حاله

قال أبو القاسم المَلاَّحى ، أديبُ زمانه ، وواحد أقرانه ، سيال القريحة ، بارع الأدب ، رائق الشعر ، عَلَم فى النحو واللغة والتاريخ والعَروض ، وأخبار الأُمم ، لحق بالفحول المتقدِّمين ، وأعجزت براعته ، براعة المتأخرين ، وشعره مُدَوّن ، جرى فى ذلك كله طلِق الجُموح . ثم انقبض ، وعكف على قراءة القرآن ، وقيام الليل ، وسرد الصوم ، وصُنع المُعَشَّرات فى شرف النبى عليه الصلاة والسلام . وأشعاره كثيرة ، من الزهد والتذكير للآخرة ، والتَّجريد من الدنيا ، حتى جُمع له من ذلك ديوان كبير .

شعره

من ذلك قوله من قصيدة :

أَذوب حياءً إنْ تذكَّرت زلَّتى ... وحِلْمُك حتى ما أَقلَّ نواظرى
وأسكت مغلوبا وأطرق خَجْلة ... على مثل أطراف القنا والتَّواتر
تعود بصفح إثر صفح تكرُّما ... على الذنب بعد الذنب يا خيْر غافر
وتلحظُنى بالعفو أثناءَ زلَّتى ... وتنظر منى فى خلال جَـرايِر
وحقٍّ هواك المُسْتَكِنِّ بأَضْلُعى ... ومالك عندى من خَفِىٍّ ضمائر
لما قُمْتُ بالمِعْشار من عُشر عشرة ... ولو جيتُ فيه بالنجوم الزَّواهر
فيا أيها المولى الصَّفوح ومن به ... تَنُوءُ احتمالاتى بأَعباءِ شاكر
أَنِلْنى من برْد اليقين صبابةً ... أَلفُّ بها حدَّ الهوى والهواجر
وخِلت الدُّجى عذراً هابت سُرى ... العِدا إلىَّ تُغطِّينى بسود الغدائر
وخافت على عينى من السهد والبكا ... فذرَّت بقايا الكُحل من جَفْن ساهر

وقال رادًا على ابن رشد حين ردّ على أبي حامد فى كتابه المسمى « تهافت التهافت »

كلام ابن رشد لا يَبين رشـاده ... هو اللَّيل يَغْشى الناظرين سواده
ولا سيما نقض التهافت إنـه ... تضمَّن برساما يعـزُّ اعتقـاده
كما لطرد المحموم فى هذيانـه ... يَفوه بما يُملى عليـه اختِداده
أتى فيه بالبَهْت الصَّـريح مغالطا ... فما غير البحـر الخضمّ ثماده
وحاول إخفاء الغـزالة بالسُّها ... فأَخْفَق مسعـاه ورُدَّ اعتقـاده
دلايل تعطيلِ النَّقيضين بالسُّوى ... وأكثر ما لا يستحيل عنـاده
إذا أوضح المطلوب منهـا وضدَّه ... يبين على قربٍ وبان انفـراده
وأنت بعيـد الفـكر عن تُرَّهاته ... فمعظمها رأىٌ يقـلُّ سدادُه

ومن شعره :

إليك بسطت الكفّ فى فحمة الدجى ... نداءُ غريق فى الذنوب عريـق
رجاك ضميرى كى تخلِّص جُمْلتى ... فكم من فريقٍ شافعٍ لفريـق

مشيخته

أخذ عن أبيه أبى عبد الله ، وحدَّث عن الأُستاذ أبى الحسن جابر بن محمد التميمى ، وعن الأُستاذ المُقرى ببلنسية أبى محمد عبد الله بن سعدون التميمى الضرير ، عن أبى داود المقرى . وقرأ أيضاً على الخطيب أبى عبد الله محمد بن عروس ، وعلى القاضى العالم أبى الوليد بن رشد .

مولده : فجر يوم الثلاثاء الخامس والعشرين لمحرم تسعة وخمسين وخمسماية .

وفاته : بغرناطة عام تسعة وعشرين وستمايه .

يحيى بن بقى

من أهل وادى آش:

حاله

بارع الأدب، سيَّال القريحة، كثير الشعر جيِّده فى جميع أنواعه. وكان مع ذلك موصوفا بغفلة.

شعره

بأبى غزال غازَلَتْه مُقْلتى — بين العذَيب وبين شَطَّى بارق
وسألت منه قُبْلة تُشْفى الجوى — فأجاب عنها بوعد صادق
وأتيت منزله وقد هَجع العِدا — أسْرى إليه كالخيال الطَّارق
بِتْنا ونحن من الدُّجى فى لُجَّة — ومن النجوم الزُّهر تحت سُرادق
عاطيته والليل يسحب ذيله — صبًّا كالمسك العتيق لناشق
حتى إذا ما مالت بهِ سِنَةُ الكرى — باعدته شيئا وكان معانِقِ
أبعدته من أضلع تشتاقه — كى لا ينام على وسادٍ خافق
وضممتُه ضمَّ الكمىِّ لسيفه — وذؤابتاه حمايل فى عاتِق
لما رأيت الليل ولَّى عمره قد — شاب فى لِمَم لـه ومَفارِق
ودَّعت من أهوى وقلت تأسُّفا — أعْزِز علىَّ بأن أراك مُفارق

وفاته: توفى بمدينة وادى آش سنة أربعين وخمسماية.

يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الفهرى

فرنشى، وقال صفوان إنه بَلِيى، يكنى أبا بكر.

حاله

قال ابن عمه الملك، كان فى وقته شاعر المغرب، لم يكن يجرى

أحد مجراه ، من فحول الشعراء . يعترف له بذلك أكابر الأُدباء ، وتشهد له بقوة عارضته وسلامة طبعه ، قصائده التى صارت مثالا ، وبعُدت على قربها منالا . وشعره كثير مدوَّن ، ويشتمل على أكثر من سبعة آلاف بيت وأربعمائة بيت . امتدح الأُمراء والرؤساء ، وكتب عن بعضهم ، وحظِى عندهم حُظوة تامة ، واتصل بالأَمير أبى عبد الله بن سعد[1] ، وله فيه أمداح كثيرة . وبعد موته انتقل إلى إشبيلية ، وبملازمته للأَمير المذكور ، وكونه فى جملته ، استحق الذكر فيمن حل بغرناطة . ومن أثَرته لدى ملوك[2] مراكش ، أنه أنشد يوسف بن عبد المؤمن يهنِّيه بفتح من قصيدة :

إنَّ خير الفتوح ما جاءَت عفْوا   مثل ما يخطب البليغ ارتجالا

قالوا ، وكان أبو العباس الجراوى الأَعمى الشاعر حاضراً ، فقطع عليه ، لحسادة وجدها ، فقال يا سيدنا اهتدم فيه بيت ابن وضَّاح :

خيرُ شراب ما جاءَ عفوا   كأَنَّــه خُطــبة ارتجال

فبدر المنصور ، وهو حينئذ وزير أبيه ، وسنه فى حدود العشرين من عمره ، فقال إن كان قد اهتدمه ، فقد استحقَّه لنقله إياه من معنىً خسيس إلى معنى شريف ، فسُرَّ أبوه لجوابه ، وعجب منه الحاضرون .

ومرَّ المنصور أيام إمرته بلوقية[3] من أرض شِلب ، ووقف على قبر أبى محمد بن حزم ، وقال عجبا لهذا الموضع ، يخرج منه مثل هذا العالم .

---

(١) هو الأمير محمد بن سعد بن مردنيش . أمير بلنسية وأمير الشرق المتوفى سنة ٥٦٧هـ (١١٧٢م) . وقد سبق التعريف به وترجم له ابن الخطيب فى المجلد الثانى (ص ١٢١ - ١٢٧) .

(٢) هذا التعبير فيه تجاوز . لأنه لم يكن بالمغرب يومئذ ملوك ، وإنما كان ثمة خلفاء الموحدين .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وهو إما تحريف ، وإما أن ابن الخطيب قد وهم فى ذكر اسم الموضع الذى دفن به العلامة ابن حزم . فهذا الموضع هو قرية أسرته المسماة منت ليشم وبالإسبانية Casa Montejo من أعمال مدينة لبلة بولاية الغرب ، وليس من أعمال شلب التى تبعد عنها غربا بمسافة كبيرة .

ثم قال ، كلُّ العلماء عيال على ابن حزم . ثم رفع رأسه ، وقال ، كما أن الشعراء عيال عليك يا أبا بكر ، يخاطب ابن مجير .

شعره

من شعره يصف الخيل [العتاق][1] من قصيدة فى مدح المنصور :

له خُطّت الخيلُ العِتاق كأنها ... نشاوى تهادت تطلب العَزْفَ والقصفة[2]

عرايسُ أغنَتها الحجول عن الحُلا ... فلم تَبْغِ خُلخالا ولا التمست وقفا

فمن يَقَقٍ كالطِّرس تحسب أنه ... وإن جرَّدوه فى ملاءته التفَّا

وأبلَق أعطى الليل نصف إهابه ... وغار عليه الصبح فاحتَبس النِّصفا

وَوَرْدٌ تغشّى جلده شفقُ الدُّجى ... فإذا حازه حلَّى له الذَّيل والعُرْفا

وأشقرُ مجَّ الراح صِرفاً أديمه ... وأصفرُ لم يسمح بها جلده صِرفا

وأشهبُ فِضِّى الأديم مُدنَّر ... عليه خُطوط غيرُ مُفْهمةٍ حَرْفا

كما خطر الزاهى بمُهْرَق كاتبٍ ... يجر عليه ذيله وهو ما جرفا

تهبُّ على الأعداء منها عواصف ... تَنْسِف أرض المشركين بها نَسْفا

ترى كل طِرف كالغزال فتمترى ... أطِيباً ترى تحت العَجاجة أم طَرْفا

وقد كان فى البَيْداء يألف سِربه ... فربَّته مُهرًا وهى تَحْسَبه خَشفا

تناوله لفظُ الجواد لأنه متى ... ما أردت الجَرْى أعطاكه ضعفا

ولما اتخذ المنصور ستارة المقصورة بجامعه ، وكانت مَنُبَّرة على انتصابها ، إذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاه ، واختفائها إذا انفصلوا عنها ، أنشد فى ذلك الشعراء ، فقال من قصيدة أولها :

أعْلَمتنى أُلقى عصا التِّسيار ... فى بلدة ليست بدار قرار

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى : تطارحت تطلب القصف والقفا.

ومنها فى وصف المقصورة :

طورا تكون بمن حَوَتْه محيطةً فكأنَّها سورٌ من الأسوار
وتكون حيناً عنهم مخبُوَّة فكأنَّها سرٌّ من الأَســــرار
وكأنَّما عَلِمت مقادير الوَرَى فتصرَّفت لهم على مقدار
فإذا أحسَّت بالإمام يزورها فى قَوْمه قامت إلى الزوَّار

ويكفى من شعر ابن مُجير هذا القدر العجيب رحمه الله .

من روى عنه

حدَّث عنه أبو بكر محمد بن محمد بن جُمهور ، وأبو الحسن بن الفضل ، وأبو عبد الله بن عيَّاش ، وأبو على الشَّلوبين ، وأبو القاسم بن أحمد ابن حسان ، وأبو المتوكل الهيثم ، وجماعة .

وفاته : توفى بمراكش سنة ثمان وثمانين وخمسماية ، وسنه ثلاث وخمسون سنة .

يوسف بن محمد بن محمد اليحصبي اللوشي ، أبو عمر

حـالـه

من كتاب ابن مسعدة[1] ، خطيب الإمامة السَّعيدة النَّصرية الغالبية ، وصاحب قلمها الأعلى . كان شيخا جليلا ، فقيهاً ، بارع الكتابة ، ماهر الخُطَّة ، خطيباً مِصْقعا ، منقطع القرين فى عصره ، منفردا عن النَّظير فى مِصْره ، عزيزاً ، أنوفا ، فاضلا ، صالحا ، خيِّرا ، شريف النفس ، منقبضا ، وقورا ، صموتا ، حسن المعاشرة ، طيب المحادثة .

---

(١) هو أحمد بن محمد بن سعد بن مسعدة المتوفى سنة ٦٩٩ هـ . وكتابه المشار إليه هو « تاريخ قومه وقرابته » . وقد ترجم له ابن الخطيب فى المجلد الأول من « الإحاطة » (ص ١٩٢ – ١٦٦) .

مشيخته

حدّث عن والده الشيخ الراوية أبي عبد الله ، وعن الأُستاذ ابن يربوع. ولقى بإشبيلية الأُستاذ أبا الحسن الدبّاج ، ورئيس النحاة أبا على الشلوبين وغيرهم .

شعره

ومن شعره ، وإن كان غير كثير ، قوله :

شرِّد النوم عن جفونك وانظر كلمةً توقظ النفوس النّياما
فحرام على امرىءٍ يشاهد حكمة الله أن يلذَّ المناما

وقوله :

ليس للمرءِ اختيار فى الذى يتمنَّى من حِراك وسكون
إنما الأمر لربٍّ واحد إن يشاء قال له كن فيكون

وفاته : توفى فى المحرم من عام ستين وستماية ، ودفن بمقبرة باب إلبيرة . وحضر جنازته الخاصة والعامة ، السلطان فمن دونه ، وكلٌّ ترحّم عليه ، وتفجع له . حدثنى حافده شيخنا ، قال ، أخرج الغالب بالله ، يوم وفاته ، جبّة له ، لِبسَته مرفوعة ، من ملف أبيض اللون ، مخشوشنة ، زعم أنها من قديم مكسبه من ثمن مغنم ناله ، قبل تصيُّر الملك إليه ، أمر بِبَيْعها ، وتجهيزِه من ثمنها ، ففعل ، وفى هذا ما لا ما مزيد عليه من الصّحة والسلامة ، وجميل العهد ، رحم الله جميعهم .

يوسف بن على الطرطوشى ، يكنى أبا الحجاج

حاله

من « العايد » : كان رحمه الله من أهل الفضل والتواضع ، وحسن

العشرة ، مليح الدُّعابة ، عذب الفكاهة ، مُدِلاً على الأدب جدِّه وهزله ، حسن الخط ، سلس الكتابة ، جيِّد الشعر ، له مشاركة فى الفقه ، وقيام على الفرايض . كتب بالدار السلطانية ، وامتدح الملوك بها ، ثم توجه إلى العُدْوة ، فصحب خُطة القضاء ، عمره : مشكور السيرة ، محفوفا بالمبَرَّة .

وجرى ذكره فى « الإكليل » بما نصه : روض أدب لا تعرف الذَّواة أزهاره ، ومجموع فضل لا تَخْفى آثاره ، كان فى فنون الأدب ، مطلق الأعِنَّة ، وفى معاركه ماضى الظُّبا والأسنة . فإن هَزل ، وإلى تلك الطريقة اعتزل ، أبرم فى الغزال ما غزل ، وبذل من دنان راحته ما بذل . وإن صرف إلى المُعْرب غرْب لسانه ، وأعاره لمحة من إحسانه ، أطاعه عاصيه ، واستجمعت لديه أقاصيه : وَرَدَ على الحضرة الأندلسية ، والدنيا شابَّة ، وريح القبول هابَّة ، فاجتلى محاسن أوطانها ، وكتب عن سلطانها . ثم كرَّ إلى وطنه وعطف ، وأسرع اللحاق كالبارق إذا خطف ، وتوفى عن سن عالية ، وبرود من العمر بالية .

ومن شعره أيام حلوله بهذه البلاد ، قوله ، يمدح الوزير ابن الحكيم ، ويلم بذكر السِّلم فى أيامه :

رضاكم إن مننْتم خيرُ مرهوب ... وما سوى هجركم عندى بموهوب
لكم كما شيتم العُتْبى وعَتْبكُم ... مقابل الرضا من غير تثريب
مُنُّــوا بلحظ رضىً لى ســاعة ... فعسى أنال منه لدهرى طبَّ مطبوب
فكم أثارت لى الأيام وابتسمت ... ثغور سعْدى بتقريب فتقريب
قد كنَّ بيضاً رعابيبا بقربكم ... والآن يوصفْن بالسُّود الغرابيب
آها لدهر تقضَّى لى ببــاكم ... مرتَّبٌ للأمــانى أىَّ ترتيب

ما كان إلاّ كأحلام سررت بها | فواصلت حال تفويض بتطنيب
يا ليت شعرى هل تقضى بعودته | فأقدر الحُسْن منه بعد تَجْريب

ومنها :

يا أيها السيد الأعلى الذى يده حازَتْ | ندى السُّحب مسكوبا بمسكوب
فلو سألنا بلاد الله عن كرم | فيها لكفّيه والأنواءُ منسوب
لقُلْن إن كان جودٌ لا يضاف لذى | الوزارتين فجودٌ غير محسوب
فالعُود جنسٌ ولكن فى إضافته | للهند يختصُّ عود الهند بالطِّيب
من سيِّد لا يُوفِّى الحمدُ واجبه | ولو تواصل مكتوبا بمكتوب
له المحامد لا تُحصى ولا عجب | فرمل عالج شيٌ غير محسوب
تناول الشَّرف الأقصى بعزمة ذى | ظن نبيل الأمانى غير مكذوب
وواصل المجد من آياته شرفا | بمجده وصلُ أنبوب بأنبوب
وجاء مكتسباً أغلَى ذخائره | والمجد ما بين موروث ومكْسُوب
رِدْءُ الخليفة لا يرتاح من نصب | فى بذل نُصح لحفظ مَنْصوب
موفَّقُ الرأى مأمون النَّقيبة فى | تدبير ذى حُنْكة صحَّت وتدريب
تهابه النفس إذ ترجوه من شرف | فشأنه بين مَرْهوب ومرْغوب

ومنها :

ياأوْحَد العصر فى فضل وفى كرم | خصالُ قاطع دهره فى التَّجاريب
أَعِدْ فُديت لأمرى مُنْعما نظراً | يَنَلْ به همٌ حالى بعض تشبيب
اولا ارتكاب حسُودى لأمر فى ضررى | ما كان ظهر النَّوى عندى بمركوب
هذا زمانى ومنك الأمن حاربنى | حتى أرانى فى حالات مَحْرُوب
فامنُنْ بتفريج كَرْبى بالرضا | فإذا رَضِيت لم أك من شىء بمكْروب
إن لم أذُق من رضاكم ما ألذُّ به | فلا حياة بمأكول ومشروب

ومن شعره :

بذكرك تُشرح آى العــلا   وتسند اخباره فى الصحيح
بأُفقك يشرق بَدْرُ السَّنا   وباسمك يحسُن نظمُ المديح
وما يحسن العِقْد إلا إذا   تحلَّت به ذاتُ وجه مليح

وفاته : كان حيًّا عام أحد وأربعين وسبعماية .

ومن ترجمة المحدِّثين والفقهاء وسائر الطلبة النجباء

يحيى بن محمد بن عبد العزيز بن على الأنصارى

يكنى أبا بكر ، ويعرف بالعشَّاب ، ويعرف بالبُرشانى(١) .

حـــاله

كان هذا الشيخ من أهل الخير ، كثير التؤدة والصمت ، معرضا عمَّا لا يعنيه . رحل إلى الحج ، وأقام هنالك سنين ، وقفل منها فخطب بأُرْجبة(٢) . وأخذ ببلاد المشرق عن قطب الدين القَسْطلَّانى ، وأبى الفضل ابن خطيب المرى ، وزين الدين أبى بكر محمد بن اسماعيل الأنماطى . ولقى أبا على بن الأحْوص بالأندلس ولم يأخذ عنه . أنشدنى شيخنا أبو البركات ، قال أنشدنى الشيخ أبو بكر البُرشانى ، وقد لقيته بأُرجبة . قال أنشدنا الإمام أبو عبد الله بن النعمان عن قطب الدين :

إذا كان أُنسى فى لزومى وحدتى   وقلبى من كل البريَّة خــال
فما ضرَّنى من كان لى الدهر قالياً   وما سرَّنى من كان فىَّ مُــوال

---

(١) البرشانى نسبة إلى برشانة وبالإسبانية Purchena بلدة من أعمال إقليم المرية تقع على مقربة من جنوبى نهر المنصورة شمال المرية وغرب بلدة المنصورة .

(٢) أرجبة وبالإسبانية Orjiva بلدة صغيرة من أعمال غرناطة تقع شمال ثغر متريل وجنوب شرق غرناطة .

ومن العمال

يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان بن محمد بن خير بن أسامة الأنصارى النّجارى

قال القاضى المؤرخ أبو الحسن بن الحسن مملية ، والذى رفع إلىّ هذا النسب للركانة ، هو صاحبنا الفقيه أبو القاسم ولده ، ورَفْعُ هذا النسب بحاله من التكرار دليل على أصالته .

حاله

من أهل الخير والخُصوصية ، وحُسن الرُّواء والوقار ، والحياء ، والمودة . نبيه القدر ، معروف الأمانة ، صدرٌ فى أهل العقد والحل ببلده ، بيته بيت صون وخير واستعمال ،ولو لم يكن من بركات هذا الرجل ، وآثار فضله ، إلا ابنه صدر الفضلاء ، وبقية الخواص أبو القاسم ، لكفاه . تولى قيادة الديون بمالقة بلده ، أرفع الخطط الشرعية العملية ، فحمدت سيرته .

وفاته بمالقة فى .... وعلى قبره مكتوب من نظم ولده :

إلاهى خدِّى فى التراب تذللاً ... بسطتُ عسى رحماك يحيي بها الروح
وجاوزت أجداث الممالك خاضعاً ... وقلبىَ مصدُوع ودمعىَ مسفوح
ووجَّهت وجهى نحو جُودك ضارعاً ... لعلّ الرضا من جنب حلمك ممنوح
أتيت فقيرا والذنوب تؤدُنى ... وفى القلب من خوف الجرايم تبريح
ولم أعتمد إلا الرَّجا وسيلة ... وإخلاص إيمان به الصدر مَشْرُوح
وأنت غنىٌّ عن عذابى وعالم ... بفقرى وباب العفو عندك مفتوح
فهب لى عفواً من لدنك ورحمةً ... يكون بها من ربْقة الذنب تسْريح

وصلِّ على المختـار ما هَمع الحيا   وما طلعت شمس وما هَبَّتْ الريح

ومن ترجمة الزهاد والصلحاء

يحيى بن إبراهيم بن يحيى البرغواطى

من أهل أنْفا من بيت عمال يعرفون ببنى التُّرجمان أولى [شهرة][1] وشدَّة على الناس وضغط . وكان من الحظوة وضدها بباب سلطانهم ، ديدن الجُباة . غُرِّب عنهم وانقطع إلى لقاء الصالحين ، وصحبة الفقراء المتجرِّدين ، وقدم على الأندلس عابدا ، كثير العمل ، على حداثة سنه ، ونزل برباط السُّودان ، من خارج مالقة ، واشتهر ، وانثال عليه الناس . ثم راض طول ذلك الاجتهاد ، وأنس بمداخلة الناس .

حاله

هذا الرجل نسيج وحده فى الكفاية ، وطلاقة اللسان ، مدل على أغراض الصوفية ، حافظ لكل غريبة من غرايب طريقتهم ، متكلِّم فى مشكلات أقوالهم ، قايم على كثير من أخبارهم ، يستظهر حفظ جزأى إسماعيل الهروى المسمى «بمنازل السايرين إلى الحق» ، والقصيدة الكبيرة لابن الفارض . عديم النظير فى ذلك كله ، مليح الملبس ، مترفِّع عن الكُدية ، عزيز النفس ، قليل الإطراء ، حسن الحديث ، عذب التَّجاوز فيه ، على سَنن من السَّذاجة والسَّلامة والرجولة والحمل ، صاحب شهرة قرعت به أبواب الملوك بالعُدوتين . وعلى ذلك فمغضوض منه ، محمول عليه ، لما جبل عليه من رفض الاصطِّلاع ، وترك السَّمت ، واضطراح التغافل ، وولوعه

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

بالنقد والمخالفة فى كل ما يطرق سمعه ، مرشّحًا ذلك بالجد المبرم ، ذاهبا أقصى مذاهب القِحة ، كثير الفَلَتات . نالته بسبب هذه البليّة محن كثيرة ، أفلت منها بجريعة الذقن ، ووسم بالوَهَن فى دينه . مع صحة العقل[1] . وكان الآن عامرا للرِّباط المنسوب إلى اللّجام ، على رسم الشياخة ، وعدم التابع ، مهجور الفِناء .

مشيخته

زعم أنه حجّ ، ولقى جِلّة ، منهم الشيخ أبو الطاهر بن صفوان المالقى ، ولقاؤه إياه ، وصحبته ، معروف بالأندلس ، وغير ذلك مما يدّعيه متعدد الأسماء .

تواليفه

قيّد الكثير من الأجزاء ، منها فى نِسْبة الذنب إلى الذاكر ، جزءٌ تبيل غريب المأخذ ، وفيما أُشكل من كتاب أبى محمد بن الشيخ . وصنف كتاباً كبير الحجم فى الاعتقاد ، جلَب فيه كثيراً من الأقوال والحكايات ، رأيت عليه بخط شيخنا عبد الله بن المقّرى ما يدل على استحسانه ، وطلب منى الكَتْب عليه بمثل ذلك ، فكتبت له ببعض ورقاته ، إثارة لضجره ، واستدعاءً لفكاهة انزعاجه ، ما نصه : وقفت من الكتاب المنسوب لأبى زكريا البرغواطى ، على برسام محموم ، واختلاط مَذْموم[2] ، وانتساب زنْج فى رُوم ، وكان حقه أن يتهيّب طريقا لم يسلكها ، ويتجنب غفلة لم يملكها ، إذ المذكور ، لم يتلق شيئاً من علم الأُصول ، ولا نظر فى الإعراب فى فصل من الفصول . إنما هى قِحة وخلاف ، وتهاوُن بالمعارف

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (العقد) والأولى أرجح .

(٢) وردت فى الإسكوريال (موم) . والتصويب من الزيتونة .

واستخفاف . غير أنه يحفظ فى طريق القوم كل نادرة ، وفيه رجولة ظاهرة ، وعنده طلاقة لسان ، وكفاية قلَّما تتأتَّى لإنسان . فإلى الله نَسَل أن يعرِّفنا بمقادير الأشياء ، ويجعلنا بمَعْزِل عن الأغبياء . وقد قلت مرتجلا عند أول نظرة ، واجتزأت بقليل من كثرة :

كل جار لغاية مرجوة فهو عندى لم يعد حدَّ الفتوَّة
وأراك اقتحمت ليْلاً بهيما[1] مُولجا منك ناقةً فى كوَّبة
لا اتِّباعا ولا اختراعا أرتنا إذ نظرنا عروسك المجلوَّة
كل ما قلتُه فقد قاله الناس مقالا آيـــاته متلوَّة
لم تزد غير أن أبَحْتَ حمى الإعراب فى كل لفظــة مقــروَّة
نسل الله فكرة تلزم العقل إلى حِشْمة تحوطها[2] المُرُوَّة
وعزيز علىَّ أن كب يحيى ثم لم نأْخذ الكتاب بقوَّة

ومن البرسام الذى يجرى على لسانه بين الجدِّ والقِحة ، والجهالة والمجانة ، قوله لبعض خدام باب السلطان ، وقد ضُويق فى شيء أضْجَره منقولا من خطِّه ، بعد ردِّ كثير منه إلى الإعراب :

الله نور السموٰات من غير نار ، ولا غيرها ، والسلطان ظلالُه وسراجُه فى الأرض ، ولكل منهما فراشٌ مما يليق به ، ويُتهافت عليه . فهو تعالى مُحْرِقٌ فراشه بذاته ، مغرقُهم بصفاته ، وسراجِه وظلِّه . وهو السلطان محرق فراشه بناره ، مُغْرِقُهم بزَيْنته ونواله . ففِراشُ الله ، ينقسم إلى حامِدين[3] ، ومُسبِّحين ، ومُسْتغفرين ، وأُمناء وشاخِصين . وفراشُ السلطان

---

(١) وردت فى الإسكوريال (بهجا) . والتصويب من الزيتونة .

(٢) وردت فى الإسكوريال (تحوط) والتصويب من الزيتونة .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وردت محرفة فى الإسكوريال (حافين) .

ينقسمون إلى أقسام ، لا ينفكُّ أحدهم عنها . وهم وزَغة ابن وزغة ، وكلب ابن كلب ، وكلب مطلقا ، وعارٌ ابن عار ، وملعون ابن ملعون ، وقط [ابن قط] [١] ، ومُحق . فأما الوزغة ، فهو المحرق فى زَيْت نواله ، المشغول بذلك عما يليق بصاحب النِّعمة من النصح ، وبذل الجهد . والكلب ابن الكلب ، هو الكيِّسُ المتحرِّز فى تَهَافته ، من إحراق وإغراق ، يعطى بعض الحق ، ويأْخذ بعضه . وأما الكلب مطلقا ، فو الواجد والمشرِّد [٢] للسفهاءِ عن الباب المعظَّم لقليل النِّعمة . وأما العارُ ابن عار فهو المتعاطى فى تَهافُته ما فوق الطَّوق ، ولهذا امتاز هذا الإِسم بالرياسة عند العامة ، إذا مرَّ بهم جِلْفٌ أو مُتَعاط ، يقولون ، هذا العار بن عار ، يحسب نفسه رئيسا ، وذلك بقرب المناسبة ، فهو موضوع لبعض الرياسة ، كما أن الكلب ابن الكلب لبعض الكياسة . وأما الملعون ابن الملعون ، فهو الغالط المُعاند ، المشارك لربِّه ، المنعم عليه فى كبريائه وسلطانه . وأما القُطُّ فهو الفقير مثلى ، المُسْتَغنى عنه ، بكونه لا تُخصُّ به رتبة ، فتارة فى حِجْر الملك ، وتارة فى السِّناس ، وتارة فى أعلى المراتب ، وتارة مُحسنٌ ، وتارة مُسيءٌ ، تُغْفر سيئاته الكثيرة بأدنى حسنة ، إذ هو من الطوافين ، مُتطير بقَتْله وإهانته ، تيَّاه فى بعض الأَحيان لعزَّة يجدها فى نفسه ، من حُرْمة أبقاها الشارع له ، وكل ذلك لا يخفى . وأما الفِراش المُحق ، فهو عند الدُّول نوعان ، تارة يكون ظاهرا وحظُّه مسح المصباح ، وإصلاح فَتيله ، وتصفية زيته ، وستْر دخانه ، ومُسايَسة ما أعْوَز من المطلوب منه . ووجود هذا شديد الملازمة ظاهراً . وأما المُحِقُّ الباطن ،

---

(١) واردة فى الزيتونه وساقطه فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (المجدد) .

فهو المشار إليه فى دولته بالصلاح والزهد والورع ، فتستقبله الخَلْقُ لتعظيمه ، وتركه لما هو بسبيله ، فيكون وسيلةً بينهم وبين ربِّهم ، وخَلِيفته الذى هو مصباحهم . فإذا أراد الله بهلاك الدولة ، وإطفاء مصباحها تولَّى ذلك أهل البطالة والجهالة ، فكان الأمر كما رأيتم ، والكلٌّ يعمل على شاكِلَته .

وأفضى به الهوى ، وتسور حمى السياسة ، والإغياءُ فى ميدان القِحة إلى مصرع السوءِ ، فجُلِد جَلْدًا عنيفا بين يدى السلطان ، كان سبب وفاته فى المُطْبِق ، وذلك فى شهر المحرم من عام ثمانية وستين وسبع ماية. وقانا الله المَعَرَّات ، وجَنَّبنا سُبل المضرَّات ، وفى كثرة تبجُّحه باصطلاح المنطق قيل :

لقد كان يحيى منطقيًّا مُجادلا ‏ ‏ ‏ تجارى فى سبل الهوى وتَهوّرا

غدا مطلق التقوى وراح مكمَّما ‏ ‏ ‏ وأصبح من فوق الجدار مُسوَّرا

فما نال من معنى اصطلاح أداره ‏ ‏ ‏ سوى أن بَدا فى نفسه وتصوَّرا

تجاوز الله عنا وعنه ...

كمل كتاب الإحاطة

بيان تكميلي عن مخطوط الإسكوريال

وعن القائم باختصار كتاب «الإحاطة»

لقد اعتمدنا فى تحقيق كتاب «الإحاطة» منذ السفر السابع على مخطوط الإسكوريال رقم 1668 الغزيرى، ورقم1673 ديرنبور، وذلك حسبما بينا فى مقدمة المجلد الأول من الإحاطة (ص ١٣ و ١٤)، وحسبما سجلنا ذلك فى المجلد الثانى من الإحاطة (ص ٣١٥)، وجعلناه عمدة لتحقيق حتى نهاية الموسوعة الأندلسية الكبرى.

وقد بينا فى مقدمتنا كذلك أن مخطوط الإسكوريال، قد وسم فى صفحة عنوانه بأنه «السفر الثانى» من «مختصر الإحاطة»، وأنه قد ذكر فى مواضع كثيرة منه، ما يدل على إجراء هذا الاختصار بصورة منتظمة (المقدمة ص ٨)، كما سطر على صفحة العنوان، بأنه كان «ملكا للسلطان مولاى زيدان، أمير المؤمنين بن أحمد بن المنصور، أمير المؤمنين» أو بعبارة أخرى، كان ضمن المكتبة الزيدانية الشهيرة، التى استولى عليها الإسبان قسرا فى عرض البحر، سنة ١٦١٢ م، وضمت إلى مجموعة الاسكوريال الملكية، ونقلنا خلال كثير من التراجم، ما كان يرد بها من إضافات أو تعليقات، سواءٌ فى صلبها أو على هوامشها، مما كنا ننسبه نحن إلى ناسخ المخطوط.

بيد أنه قد وضح لنا فى نفس الوقت : ولا سيما فى الأقسام الأخيرة من الكتاب، أن هذه الإضافات والتعليقات. التى يتسم الكثير منها بالطابع العلمى وبالمعرفة المستنيرة، أنها من وضع مختصر كتاب «الإحاطة» حسبما نوهنا بذلك فى غير موضع فى تراجم الأسفار الأخيرة، ورأينا أن ذلك ما يتفق مع ما وسم به المخطوط فى صفحة عنوانه، من أنه السفر الثانى

من مختصر « الإحاطة » وهو ما نستنتج منه أن المخطوط هو الجزء الثاني من نسخة كانت تتألف من جزئين كبيرين ، هما «مختصر كتاب الإحاطة» .
وقد أشرنا في المقدمة إلى بعض ما وقع من صنوف هذا الاختصار ، حسبما وقفنا عليها من تتبع إشارات « المختصر » خلال المخطوط ، ومعظمها ينحصر في اختصار مشيخة المترجم له أو حذفها ، أو إغفال بعض القصائد أو جزء منها ، وإغفال بعض المختارات النثرية أو اختصارها ، كما أشرنا إلى أنه لم يثبت أن هذا الاختصار قد أصاب النصوص التاريخية المحضة ، حسبما تبين ذلك من مقارنات كثيرة ، لما نقله المقرى في « نفح الطيب » من تراجم « الإحاطة » .

وقد كانت نيتنا أن نقف عند هذا الحد في الحديث عن أوضاع كتاب « الإحاطة » ، لولا ما حدث خلال طبع المجلد الرابع والأخير منه ، من وقوفنا على حقائق جديدة ، حملتنا على وجوب استكمال هذا البحث ، ومحاولة الوقوف على اسم مختصر كتاب « الإحاطة » . وذلك أننا خلال عملنا في تحقيق كتاب « ريحانة الكتاب » ، لابن الخطيب ، قد لفت نظرنا عدة حقائق جديدة هامة نلخصها فيما يلي :

أولا — أن مخطوط كتاب الريحانة المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم 1820 الغزيرى و برقم 1825 ديرنبور ، قد كتب بنفس الخط الأندلسي المطعم بالسمة المغربية الذى كتب به مخطوط « السفر الثانى » من « مختصر الإحاطة » رقم 1763 ديرنبور .

ثانياً — أنه كتب ، حسبما ورد في خاتمته في شوال سنة ثمانية وثمانين وثمان ماية (٨٨٨ هـ) في تاريخ مقارب لكتابة نسخة « الإحاطة » ، حيث كتبت في ربيع الآخر سنة ٨٩٥ هـ .

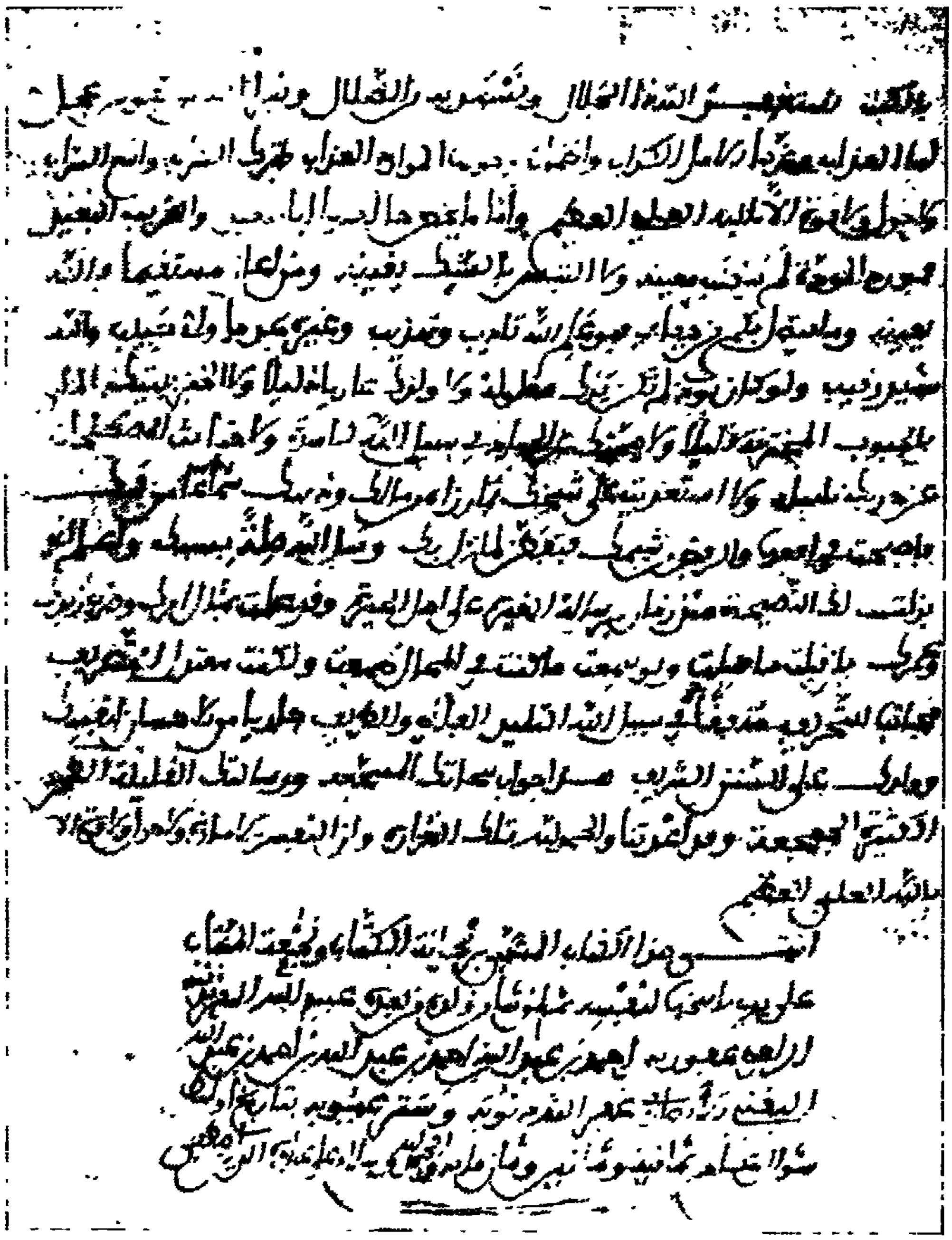
ثالثاً – أنه يوجد تماثل كبير بين العبارات التي اختتم بها كل من المخطوطين .

فقد اختتم مخطوط كتاب « الريحانة » بما يأتي : « إنتهى هذا الكتاب المسمى « بريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » على يد ناسخها لنفسه ، ثم لمن شاء من ولده من بعده ، عبد الله المقر بذنوبه ، الراجي عفو ربه ، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن أحمد البقنّي الأنصاري ، غفر الله ذنوبه ، وستر عيوبه ، بتاريخ أواسط شوال عام ثمانية وثمانين وثمان مائة . والحمد لله رب العالمين ، وسلام على عباده الذين اصطفى » .

وورد في ختام مخطوط « مختصر الإحاطة » ما يأتي : « إنتهى السفر الأخير منه حيث عرف بنفسه ، وشيوخه ، رحمة الله على الجميع . قلت . وهنا انتهى ما قصدناه ، وتم بحول الله ما أردناه واستوفيناه ، واستلحقناه ، وذلك بغرناطة أقالها الله وصانها ، وعم بالعلماء الأعلام وصالحي الإسلام عمرانها ، وبتاريخ أوائل شهر ربيع الآخر من عام خمسة وتسعين وثمانماية . والحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى » .

ومن جهة أخرى ، فإنه من الواضح مما ورد في صيغة عنوان مخطوط كتاب « الريحانة » وذكر مؤلفه من أنه « وحيد قطرنا ، وعالم مصرنا ، وفخر أندلسنا ... ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الخطيب » أن كاتب هذا المخطوط هو أندلسي ، ومن المرجح أيضا ، على ضوء المقارنة والتماثل ، أنه غرناطي كذلك .

ويترتب على ما تقدم من مطابقة خط المخطوطين ، وتقارب تاريخي نسخهما ، ثم التماثل الواضح بين الخاتمتين ، أن مختصر كتاب « الإحاطة » وناسخه أيضاً ، هو العلامة أحمد بن عبد الله البقنّي الأنصاري ، الذي ورد اسمه كاملا في مخطوط الريحانة .



الصفحة الختامية من مخطوط كتاب «ريحانة الكتاب» المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم 1825 ديرنبور . وتراجع فى صفحة (١١) من المجلد الثانى من الإحاطة صورة لوحة مخطوط الإسكوريال المحفوظ برقم 1673 ديرنبور للمقارنة بخط هذه الصفحة الأخيرة من مخطوط « الريحانة » لمعاينة التماثل الواضح بين الخطين

هذا ، وقد أشار بعض كتاب التراجم اللاحقين ، أمثال العلامة أحمد بابا التنبكتى الصّنهاجى المالكى المتوفى سنة ١٠٣٦ هـ (١٦٢٧ م) ، وصاحب كتابى « نيل الإبتهاج » و « كفاية المحتاج » وهما ذيلان على كتاب « الديباج المُذْهب » لابن فرحون ، وغيره ، إلى هذا « المختصر » من كتاب « الإحاطة » ، وذكروه منسوباً بالفعل ، إلى أبى جعفر البقنّى ، وهو ما يؤيد صحة ما انتهينا إليه بالمقارنات المخطوطة .

الإحاطة
فى أخبار غرناطة

بقية السفر الثانى عشر

من كتاب الإحاطة[1]

مشتملة على ترجمة ابن الخطيب

مكتوبة بقلمه

---

(١) يبدأ السفر الثانى عشر باللوحة 418 إسكوريال مبتدئا بترجمة « يحيى بن محمد بن عبد السلام التطيل المذلى » وتنتهى تراجمه فى اللوحة 424 بترجمة يحيى بن إبراهيم بن يحيى البرغواطى محتويا على ثمان تراجم فقط. وبه يختتم « كتاب الإحاطة » فى بداية اللوحة 425 إسكوريال ، ثم تبدأ ترجمة ابن الخطيب لنفسه فى نفس اللوحة ، وتنتهى فى اللوحة 499 إسكوريال

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

« يقول مؤلف هذا الديوان تغمد الله خَطَله ، فى ساعات اضاعها ، وشهوة من شهوات اللسان أطاعها ، وأوقات للاشتغال بما لا يعنيه ، استبدل بها اللهو لما باعها :

أما بعد حمد الله الذى يغفر الخطيَّة ، ويحث من النفس اللَّجوج المطيَّة ، فيُحرك ركابها البطيَّة ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد ، مُيَسِّر سبل الخير القاصدة[1] الوطيَّة ، والرضا عن آله وصحبه ، منتهى القصد[2] ومناخ الطِّيَّة . فإنى لما فرغت من تأليف هذا الكتاب ، الذى حمل عليه فضل النشاط ، مع الالتزام لمراعات السياسة السلطانية والارتباط ، والتفتُّ إليه ، فراقنى منه صِوان دُرَر ، ومَطْلَع غُرر ، قد تخلَّدت مآثرهم بعد ذهاب أعيانهم ، وانتشرت مفاخرهم ، بعد انطواء زَمانهم ، نافستهم فى اقتحام تلك الأبواب ، ولباس تلك الأثواب ، وقنعتُ باجتماع الشَّمل بهم ، ولو فى الكِتاب . وحرصت على أن أنال منهم قُرْباً ، وأخذت من[3] أعقابهم أدبا وحبًّا ، وكمال قال ، ساقِ القوم ، آخرهُم شربا . فأجريت نفسى مجراهم فى التَّعريف ، وحذوتُ بها حذوهم ، فى باب النَّسب والتَّضريف ، بقصد التشريف . والله لا يعدمنى وإيَّاهم واقفًا يترحَّم ، وركاب الاستِغْفار بمَنْكِبيه يَزْحم ، عندما ارتفعت وظايف الأعمال ،

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (النادرة) . وهى ساقطة فى النفح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (الفضل) .

(٣) واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال والنفح .

وانقطعت من التَّكَسُّبات حبال الامال ، ولم يبق إلا رحمة الله ، التى تَنْتاش النفوس وتخلِّصُها ، وتعينها بِمِيْسَمِ السَّعادة وتخصصها . جعلنا الله ممن حَسُن ذكره ، ووقف على التماس ما لديه فكره ، بمنّه .

المؤلف : محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن على ابن أحمد السّلمانى . قُرْطِبِى الأَصل ، ثم طُلَيْطُليه ، ثم لَوْشِيه . ثم غَرْناطيه ، يكنى أبا عبد الله ، ويلقّب من الأَلقاب المشرقية بلسان الدين .

أَوّليَّتى : يُعْرف بيتنا فى القديم ببنى وزير ، ثم حديثنا بلوشة ، ببنى الخطيب . انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية ، كيحيى بن يحيى الليثى وأمثاله ، عند وَقْعة الرَّبْض الشهيرة(1) إلى طُلَيْطُلة ، ثم تسرّبوا محوّمين على وطنهم ، قبل استيلاء الطاغية عليها ، فاستقرّ منهم بالموسّطة الأَندلسية ، جملة من النبهاء ، تضمن منهم ذكر خلف(2) ، كعبدالرحمن قاضى كورة باغة ، وسعيد المستوطن بلوشة ، الخطيب بها ، المقرون أسمه بالتّسويد عند أهلها ، جاريا مجرى التسميه بالمركّب . تضمن ذلك تاريخ الغافقى وغيره . وتناسل عقبُهم بها ، وسكن بعضهم بمنتفريو(3) ، مملكين إياها ، مختطين قبل التحصين والمنَعة ، فنسبوا إليها . وكان سعيد هذا ، من أَهل العلم ، والخير والصلاح ، والدِّين والفضل ،

(١) وقعة الربض تطلق على الثورة التى قام بها أهل قرطبة بتحريض الفقهاء ضد الحكم ابن هشام أمير الأندلس ، بقصد خلعه ، وذلك فى رمضان سنة ٢٠٢ ﻫ (مارس ٨١٨ م) . وقد بدأت فى الربض الجنوبى لقرطبة ، فى الناحية المسماة « شقندة » . ولكن الحكم استطاع سحق الثورة ومطاردة الثوار وتمزيقهم ، وصلب الكثير منهم على شاطىء النهر وهدم دورهم ، وفر الكثير من أعيان قرطبة . وتفرقوا فى مختلف القواعد ، وسارت طائفة كبيرة منهم إلى المشرق .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حلق) والأولى أرجح

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة ، وفى النفح (منقرير) . ونرجح أن ذلك حريف ، وان الصواب هوما أثبتناه ، وهو يدخل فى عداد الأسماء الإسبانية Montefrio ، ومعناه الجبل البارد .

[وزكاء الطعمة][1] . وقفنى الشيخ المسنّ الوزير أبو الحكم بن محمد المنتفريدى رحمه الله ،وهو بقية هذا البيت وإخباريه ، على جدار برج ببعض رُبى أملاكنا بلَوْشة ، تطأه الطريق المارة من إغْرناطة إلى إشبيلية ، وقال ، كان جدُّك يُربع[2] بهذا المكان فصولا من العام[3] ، ويَجْهر بقراءة القرآن . فيستوقف الرِّفق[4] المدلجة ، الحنينُ إلى نَغَمَته ، والخشوع لِصدقه ، فتُعرِّس رِحَالها لصق جداره ، وتُريح ظهرها موهنا ، إلى أن يأتى على وِرْدِه . وتوفى ، وقد أُصيب بأهله وحرمته ، عندما تغلب العدو على بلده عنْوة فى خبر طويل . وقفت على مكتُوبات من المتوكل على الله ، محمد بن يوسف ابن هود ، أمير المسلمين بالأندلس ، القايم بها بدعوة الأئمة من ولد العباس ، رضى الله عنهم ، ومن ولده أبى بكر الواثق بالله ولى عهده ، فى غرض إعانته ، والشّفاعة إلى الملِكة زوج سلطان قشتالة ، بما يدل على [نباهة قديم][5] ويُفيد إثارة عِبْرة ، واستقالة عثرة .

وتخلّف ولده عبد الله ، جاريا مجراه فى التجلّة ، والتّمعش من حُرِّ النّشب ، والتزنىّ بالانقباض ،والتحلّى بالنزاهة إلى أن توفى ، وتخلف ولده سعيد جدُّنا الأقرب ، وكان صدرا خيِّرا ، مستوليا على خلال حميدة ؛ من خطٍّ وتلاوة وفِقه ، وحساب ، وأدب ، نافس جيرته من بنى الطّنجالى الهاشميين ، وتحوّل إلى غرناطة ، عندما شعر بعملهم على الثورة ، واستِطلاعهم إلى النّزْوة ، التى خضدت الشوكة ،واستأصلت منهم الشّأفة ، وصاهر بها

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (زكاء النمة) . وفى النفح (ذكاء الفطنه) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (يذيع) . وهو تحريف .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (العلم) وهو تحريف .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (الرفاق) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الزيتونة (على نباهة قديمة)

الأعيان من بنى أَضْحى بن عبد اللطيف الهَمْدانى ، أشراف جُنْد حُمْص ، الداخلين إلى الجزيرة ، فى طليعة بُلج بن بشر القشيرى ، ولحقه من جرَّاء منافسيه ، لما جاهروا السلطان بالخُلْعان ، اعتقال أعْتَبه السلطان بعده وأحظاه على تِفئته ، وولّاه الأعمال النَّبيهة ، والخُطط الرَّفيعة . حدثنى من أثقه ، قال ، عزم السلطان ، أن يُقعد جدك أستاذًا لولده ، فأنِفت من ذلك أمُّ الولد ، إشفاقا عليه من فظاظة كانت فيه . ثم صاهر القُوَّاد من بنى الجَعْدالة على أم أبى ، وتمُتُّ إلى زوج السلطان ببُنُوَّة الخؤولة ، فنبُه القدر ، وانفسحت الحُظْوة ، [وانتاب البيت][1] الرؤساءُ والقرابة . وكان على قوَّة شكيمته ، وصلابة مَكْسِره ، مؤثرا للخمول ، محبا فى الخير . حدَّثنى أبى عن أُمِّه ، قالت ، قلما تهنَّأْنا نحن وأبوك طعاما [حافلا][2] لإيثاره به من كان يَكْمِن[3] بمسجد جِواره ، من أهل الحاجة ، وأحلاف الضرورة ، يهجم علينا منهم بكل وارش[4] ، يجعل يده ثُنى يده ، ويُشركه فى أُكيلته ، ملتذًّا بموقعها من فؤاده . توفى فى ربيع الآخر من عام ثلاث وثمانين وسبعماية ، ضَهَرته الشمس مُستَسْقيا فى بعض المُحول ، وقد اسْتَغْرق فى ضَراعته ، فدلَّت الحَتْف على نفسه . وتخلف والدى ، نابتاً فى التَّرف نَبْت العليق ، يكنفه رعى أَيِّم[5] ، تجرُّ ذيل النعمة ،

---

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (وانثال على البيت) .

(٢) الزيادة من النفح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الزيتون (يكون) .

(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (مارش) ، وفى النفح (وارد) وهو تحريف . والوارش هو من يدخل لتناول الطعام دون دعوة .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ثم) وفى النفح (أم) . والأيم هى المرأة التى فقدت زوجها .

وتحنو منه على واحد تحذر عليه [الحولى من ولد الذر][1] ، فَفاتَه لترفه حظٌّ كبيرمن الاجتهاد. وعلى ذلك فقرأ على الخطيب أبى الحسن البلُّوطى، والمقرىء أبى عبد الله بن مستقور[2] ، وأبى إسحق بن زورال ، وخاتمة الجلَّة أبى جعفر بن الزُّبير ، وكان يفضّله . وشارك أهل عصره فى الرِّواية المستدعاه عن أعلام المشرق، كجار الله أبى اليُمن وغيره. وانتقل إلى لوْشة بلد سلفه ، مقيما للرسم ، مخصوصا بلقب الوزارة ، مرتَّبا بعادة التَّرف ، إلى أن قصدها السلطان أبو الوليد ، متخطِّيا إلى الحضرة ، هاويا إلى مُلْك البَيْضة ، وأجزل نَزْله ، وعضَّد أمره ، وأدخله بلده ، لدواعى يطول استقصاؤها . ولما تمَّ له الأمر ، صَحِبه إلى دار ملكه ، مستأثرا بشِقْص عريض من دُنياه . وكان من رجال الكمال ، طَلْق الوجه ، أنيق المجلس، حُلو النادرة ، مستوليا على كثيرمن الخَصْل ، متجنِّدا مع الظرف ، تضمن كتاب التَّاج المحلِّى والإحاطة جزءًا[3] رائعا من شعره ، وفُقد فى الكائنة العظمى بطريف، يوم الإثنين السابع من جمادى الأُولى عام أحد وأربعين وسبعماية ، ثابت الجأش ، غير جزوع ولا هيَّابة . حدَّث الخطيب بالمسجد الجامع من غرناطة ، الفقيه أبو عبد الله بن اللوشى ، قال ، كنا بأخيك الطِّرف يومئذ ، وقد غَشى العدو ، وجنحت إلى إردافه ، فانحدر إليه والدك وصرفنى ، وقال ، أنا أَوْلَى به ، فكان آخر العهد بهما . وخَلفنى عالى الدرجة ، شهير الخُطَّة ، مشمولا بالقبول ، مكنوفاً

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (النسيم إذا سرى) .

(٢) وردت فى المخطوطين (مسمفور) . وفى النفح (سمون) . ونعتقد أن التصويب أرجح .

(٣) أضفناها ليستقيم السياق . ووردت فى الإسكوريال (هذه) وفى الزيتونة (هذا) .

بالعناية « وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها » . فقلّدنى السلطان كتابة سرّه ، ولمّا يجتمع الشباب ، ويُستكمل السّن ، معزّزة بالقيادة ، ورسوم الوزارة ، واستعملنى فى السِّفارة إلى الملوك ، واسْتَنابنى بدار ملكه ، ورمى إلى يدى بخاتمه وسيْفه ، وائتمننى على صِوان ذخيرته[1] وبيت ماله ، وسجوف حُرَمه ، ومَعْقِل امتناعه ، ومن فصول مَنْشُورِه : « وأطْلَقنا يده على كل ما جعل الله لنا النّظر فيه » . ولما هلك ، قدّس الله روحه ، ضاعف ولدُه ، مولاى رضى الله عنه ، حُظْوتى ، وأعْلى مجلسى ، وقصَر المشُورة على نُصحى ، إلى أن كانت عليه الكائنة [فاقتدى فىّ ، أخوه المتغلب على الأمر ، فسجل الاختصاص ، وعقد القلادة ، ثم قطع الإبقاء ، وعكس الاختصاص ، وحلّ القلادة ، لمّا حمله أولو الشحناء ، من أعوان ثورته على القَبْض علىّ فكان ذلك][2] ، وقُبض علىّ ، ونُكث ما أُبرم من أمانى ، واعتُقلت بحال ترفيه . وبعد أن كُبسَت المنازل والدُّور ، واستُكْثر من الحرس ، وخُتم على الأعلاق ، وأُبْرِد إلى ما نأى ، فاسْتُوْصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر [ولا ربات][3] الأمثال ، فى تبحُّر الغلّة ، وفَراهة الحيوان ، وغِبْطة العقار ، ونظافة الآلات ، ورِفعة الثياب ، واستِجادة العُدّة ، ووفور الكُتب ، إلى الآنية والخرْثى ، والفرش ، والماعون ، والزجاج ، والمُحْكم ، والطِّيب ، والذّخيرة ، والمضارب ، والأقْبية . واكتُسحت السّائمة ، وثِيران الحرث ، وظهر الحُمولة ، وقوام الفلاحة ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (خزانته) . وفى النفح (حضرته) .

(٢) جمعنا بين الحاصرتين بين ما ورد فى المخطوطين ، وفى النفح . وذلك بعد تصويب العبارة الأولى (فاقتدى فى) وهى التى وردت محرفة فى المخطوطين (فاعتدى على) .

(٣) الزيادة من النفح .

وأذْواد الخيل ، فأخذ الجميع البيع ، وتناهَبَتْها الأسواق ، وصاحبها المَبْخس، ورزأتها الخونة ، وشمِل الخاصة والأقارب الطَّلب ، واستخلصت[1] القُرى والجنّات ، وأعملت الحيل ، ودُسّت الإخافة ، وطُوِّقت الذنوب ، وأمدّ الله بالصبر ، وأنزل السكينة ، وانصرف اللسان إلى ذكر الله [تعالى][2] ، وتعلّقت الآمال به ، وطبقت [نكبة][3] مُصْحفيّة ، مطلوبها الذّات ، وسببُ إفاتَتِها المال ، حسبما قلت عند إقالة العثرة ، والخلاص من الهفوة :

تخلّصت منها نكبة مُصْحَفِيّة لفقداني المنصور من آل عامر

ووصلت الشّفاعة فيّ مُكْتتبة بخطّ ملك المغرب ، وجعل خلاصي شرطاً في العُقْدة ، ومسالمة الدولة ، فانتقلت صُحبة سلطاني المَكْفور الحقّ إلى المغرب . وبالغ ملكُه في برِّي ، واغيًا في حُلّة رغْيي ، منزلاً رحْبًا ، وعيشا خفْضا ، وإقطاعا جما ، وجراية ماوراءها مرمى ، وجعلني بمجلسه صدْراً . ثم أسعف قَصْدي في تهنيء[4] الخَلْوة بمدينة سلا ، مُنَوه الصّكوك ، مُهنّأ القَرار ، مُتفقّدًا باللُّهى والخِلع ، مُخَوّل العَقار ، موفور الحاشية ، مُخلّى بيني وبين إصلاح مَعادي ، إلى أن ردّ الله [تعالى] على السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله بن أمير المسلمين أبي الحجاج مُلْكه ، وصيّر إليه حقّه ، وصرف إليه كرسيه ، فطالبَني بوعد ضربتُه ، وعهد في القدوم عليه بولده أحكمْتُه ، ولم يُوسعني عُذْراً ، ولا فسح في التّرك

(١) أي أضيفت إلى مستخلص السلطان أو الأملاك الملكية الخاصة .

(٢) الزيادة من النفح .

(٣) الزيادة من النفح .

(٤) هكذا وردت في المخطوطين . وفي النفح (تهيؤ) .

مجالا . فقدمتُ عليه بولده ، فى اليوم الأغَرّ المحجَّل ، وقد ساءه بإمساكه رهينة ظنّه ، ونغّص مسرّة الفَتْح بعده ، على حال من التقشُّف ، والرغبة عما بيده ، وعزْف عن الطمع فى الكسب(١) وزهد فى الرِّفد ، حسبا قلت فى بعض المقطوعات فى مخاطبته ، شكر الله عنى فضله :

قالوا لخدمته دعـــاك محمد　　فكرِهْتها(٢) وزهدتُ فى التّنويه
فأجبتهم أنا والمُهيمن كـارهٌ　　فى خدمة المولى محبٌّ فيـــه

عاهدت الله على ذلك ، وشرحت صدرى إلى الوفاء به ، وجَنحت إلى الانفصال لبيت الله الحرام نَشِيدة أملى ، ومَرْمَى نيّتى ، فعَلِق بى عُلوق الكَرْمة ، وصارَفنى بدار العِبرة ، وخرج لى عن الضرورة ، وأرانى أنَّ مُوازرته أبرُّ القُرْبة ، وراكننى إلى عهدٍ بخطه ، فسح لعامين أمد الثَّوا ، واقْتَدى بشُعَيْب صلوات الله عليه ، فى خَطْب الزيادة ، وعلى تلك النسبة ، وأشهد من حَضر من العِلْية . ثم رَمَى إلىَّ بعد ذلك مقاليد رأيه ، وحكم عذْلى(٣) فى اختبارات عقله ، وغطّى على جَفائى بحِلْمه ، وحثا فى [وجوه](٤) شهواته بتُراب زَجْرى ، ووَقَف القبول على وَعْظى ، واستَنْزل هواى فى التحوُّل ، نابيا عن قصدى ، واعترف بقبول نُصحى . فاستعنتُ الله عليه ، وعاملت وجهه فيه ، من غير تلبُّسٍ بخديعة ، ولا تشبُّثٍ ، بولاية مقتصرا على الكفاية ، حذراً من النَّقد ، خامل المرْكب ، معتمدا على المَنْسأة ، مُسْتمتعا بِخَلق النَّعْل ، راضيا بغير النَّبيه من الثَّوب ، مُشْفقا من موافقة الغُرور ، هاجرًا للزخرف ، صادعا بالحقِّ فى أسواق الباطل ،

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ملكه) .
(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (فأنفتها) .
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (عقل) .
(٤) واردة فى النفح وساقطة فى المخطوطين .

كافًّا عن السِّخال ، براثِن السباع ، مفوِّتا للأُصول فى سبيل الصَّدقة . ثم صرفتُ الفِكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة ، بكرُ الحَسَنات بهذه الخِطَّة ، بل بالجزيرة فيما سلف من المدَّة ، فتأتَّى بمنة الله من صلاح السلطان ، وعفاف الحاشية ، ونشر الأَمن ، ورَوْم الثغور ، وتَثْمير الجِباية ، وإنصاف الحُماة والمقاتلة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، فى إيثار المصلحة الدِّينية ، والصَّدْع فوق المنابر ، ضمانا عن السلطان بتِرْياق سُمٍّ الثورة ، وإصلاح بواطن الخاصَّة والعامَّة ، ما الله المُجازى عليه ، والمُعوِّض من سَهَرٍ خلَعتُه على أعطافه ، وكدٍّ أعملته من جرَّايه ، وخَطر اقْتحمته من أجله ، لا للثَّريد الأَعْفر ، ولا للجُرْد تمْرَح فى الأَرْسان ، ولا للبُدُر تثقل الأَكْتاد ، فهو الذى لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى ، سبحانه إليه الرُّجعى ، والآخرة والأُولى . ومع ذلك فقد عادت هَيْفُ إلى أديانها ، من الاستِهْداف للشُّرور ، والاستِعْراض للمحذور ، والنَّظر الشَّزر ، المُنْبَعث من خَزَر العيون ، شِيمةُ من ابتلاه الله بسياسة الدَّهماء ، ورعاية[1] سَخَطَةِ أرزاق السماء ، وقَتَلة الأَنبياء ، وعَبَدة الأَهواء ، ممَّن لا يجعل لله إرادةً نافذة ، ولا مشيئة سابغة ، ولا يَقْبل مَعْذِرة ، ولا يُجمِل فى الطلب ، ولا يتلبَّس مع الله بأدب . ربَّنا لا تُسلِّط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا . والحال إلى هذا العهد [وهو أول عام أحد وسبعين وسبعمائة][2] على ما ذكرته ، أداله الله بحال السَّلامة ، وبفَيْأَةِ العافية ، والتمتُّع بالعبادة . وربُّك يخلق ما يشاءُ ويختار . وقال الشاعر :

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ورياسة) .

(٢) هكذا ورد هذا التاريخ فى الإسكوريال وورد فى النفح كالآتى (وهو منتصف عام خمسة وسبعين وسبعماية) . والظاهر أن المقرى نقل من مخطوط للإحاطة كتب بعد أصل مخطوط الإسكوريال ببضعة أعوام .

وعليّ أن أسعى وليس على إدراك النجاح

ولله فينا سرُّ غَيْب نحن صائرون إليه[1] ، أَلْحَفَنا الله بِلِبَاس التّقوى ، وختم لنا بالسّعادة ، وجعلنا فى الآخرة من الفايزين . نَفَثْتُ عن بثٍّ ، وتَأَوَّهْتُ عن حُمَّى ، ليُعْلم بَعْد المُنْقَلَب قصدى ، ويدُلُّ مُكتَتبِي على عِقْدى .

ذكر بعض ما صدر لى من التشريعات الملوكية
أيام تأبُّثى بهذه الغرُور

من ذلك ظهيرٌ من مولاى السلطان أَبى عبد الله ، عندما صار له أمرُ والده المقدّس أَبى الحجاج ، رحمة الله عليه ، وقد ثبتُّ فى المحمدين ، فى اسم السلطان أيّده الله ، فلينظره هنالك من تشوّف لاحتفاله واحْتِفايه ، وظاهر برِّه واعتنايه .

وكتب إلىَّ مُخْبرًا بما فتح الله عليه ، قبل الوصول إليه :

« من أمير المسلمين عبد الله محمد بن مولانا أمير المسلمين أَبى الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أَبى الوليد بن نصر ، أَيَّد الله أوامرهم ، ونصر أجنادهم المظَفَّرة وعساكرهم ، وخلَّد مفاخرهم الكريمة ومآثرهم .

« إلى وليِّنا فى الله تعالى ، الذى نعلم ماله فى الإخلاص لجانبنا من حُسْن المذاهب ، ونعتدُّ به اعتدادا يتكفَّل بنجاح المقاصد والمآرب ، وخلاصَتِنا الذى نُثْنى على مجده البعيد الغايات ، فى الشّاهد والغايب ، الفقيه ، الوزير الجليل ، الصّدر الأوحد المثِيل ، العالِم العلم الأوحد ، الرّفيع الشهير ، الحسيب الأصيل ، الماجد الأثيل الخطير ، الخطيب البليغ الكبير ، الأوحد ، الحافِل الفاضل الكامل . إمام البُلَغاء ، وصدْرُ الخطباء ، وعلمُ العلماء ، وكبير الرؤساء . الحبِيب المُخْلص ، الأوَدُّ

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال والزيتونة (سايرون) والأولى أرجح .

الأصفى ، أبي عبد الله بن الوزير الفقيه الجليل ، الأعزَ الأرفع : الماجد الأسمى ، الصَّدر الحافل . الفاضل الكامل ، الأعلى الكبير ، الخطير الأثير ، الأرْضى ، المعظم الموقَّر ، المبرور المقدس ، المرحوم الشهيد ، أبي محمد بن الخطيب ، وصلَ الله سعده ، وحرس مجده ، سلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله ، ولىِّ الحَمْد وأهله ، وناصر الحقِّ ، ومُطلع أنواره ، من آفاق رحمته وفضله ، وقاهر كل باغ ، وخاذِلِه ومُذِله . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد ، صفوة أنبيائه ، وخاتم رسله ، المبتعث بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدِّين كله ، نبي الرحمة ، الذى ببركة محبَّتِه نِلْنا الأُمْنية ، فى جمع الدِّين ونظم شَمْله ، وبفضيلة جاهه ، عُدنا إلى أرفع رُتْبة مُلْكِنا ، وأعلى محلِّه . والرضا عن آله وصحبه ، المقتدين بهَدْيه فى أمرهم كله . فكتَبْناه إليكم ، كتب الله لكم ، عزًّا لا يَبْلى جديدُه ، وسعدًا لا ينقطع مَزيده . من حَمْرائنا بغرناطة ، حرسها الله ومهَّدها ، ولا مُتَعرَّف بفضل الله سبحانه ، إلا ما عوَّد من ألطافه الخَفِيَّة ، وأسدى من صنائعه السَّنِية ، وعنايته التى كَفَلت ببلوغ الأُمْنِية . والحمد لله كثيراً ، كما ينبغى لجلاله ، ويليق بصفات كماله . وعندنا من إجلالكم ما يليق بكمالكم ، ومن المعرفة بمقداركم ما يُعْرب عن حُسْن اعتقادنا ، فى كريم نِجَارِكم ، ومن قَدْر أحْسابكم ، ما يَلْزَم بسببه تعظيم جَنَابكم . وإلى هذا وصل الله سَعْدَكم ، وحَفِظ مجدكم ، فإننا بحسب الوُدِّ الذى[1] نصل لمعاليكم ، والحب الذى نضاعفه فيكم ، خاطبناكم بهذا المكتوب ، بشرح ما منَّ الله علينا ، من الفَتْح العظم ، الذى أشرقت به أقطار هذه

---

(١) واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

البلاد ، وما منّ به من العودة ، إلى مُلْكنا المتوارث عن كرام الآباء والأجداد ، وما أنْعَم به من قَهْر ذوى الشّقاق والعناد . وذلك أنَّا أعزكم الله طال علينا المقام برُندة ، ولم نزل نوجه إلى أهل الحصون، التى بغرْبى مالقة وغيرهم ، نقصُّ عليهم ، ما ألزمهم الله من الوَفاءِ ببَيْعَتِنا ، ونحذرهم عار(١) النَّكْث لطاعتنا ، إلى أن آن أوان الفَرَج ، ونفذ قضاءُ الله وقدرُه ، بالعودة إلى ما كنا تغلّبنا(٢) عليه . فاقتضى نظرنا أن خرجنا إلى مالقة فى مائتى فارس ، فما وصَلْنا وادها ، وعلم بنا أهلها ، إلا وخرج لنا جميعهم ، ملبِّين بالبيعة ، فرحين(٣) بقدومنا . وفى الحين بادروا لقتال القَصَبة ، حتّى استُخْلِصت ، وأُنْزِل من فيها بنواحيها . وليوم آخر ، وصَلَتْنَا بيْعات أهل الجهات التى تُواليها ، من أنْتَقِيرة ، ولوشة ، وبَلِّش وصالحة وقُمارش والحمَّة ، وسائر الحصون الغرْبيه . فلما وصل الخبر إلى الغادِر الخاسر ، خاف وذَعِر ، ورأى أن لا مَلْجأَ له ، إلا أن يفرّ ، فجمع شِرْذِمته ، وألَّف حاشيته ، وخرج عن الحمراءِ ليلا ، فى ليلة الخميس الماضى ، قريبا من التاريخ ، هاربًا إلى أرض الكُفَّار . وفى صبيحة الليلة ، وجَّه إلينا أهلُ حضرتنا ، وتوجَّهت الأجناد إلى بَيْعَتِنا ، وانصرفنا إلى دار مُلكنا ، وحَلَلْناها يوم السبت الماضى ، من غير حرب ولا قتال ، بل بفضل الله تعالى ، ذى العظمة والجلال . وعرَّفناكم بذلك ، لتأْخذوا بحظِّكم من هذه المسرَّة الكبْرى(٤) ، إذ أنتم الحبيب الذى لا يُشَكُّ فيه ، والخُلاصة(٥) الذى نعلم صِدْق خلُوصه وتَصافيه ، والله يصل سعودكم ،

---

(١) هكذا فى الزيتونة. وفى نفاضة الجراب(مخطوط الرباط) (عاقبة) . وفى الإسكوريال (عادة) وهو تحريف .

(٢) هكذا فى الزيتونة ونفاضة الجراب(مخطوط الرباط) . وفى الإسكوريال (تغلب لنا) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فارحين) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى نفاضة الجراب (العظمى) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى نفاضة الجراب .

ويحفظ وجودكم ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتب في يوم الأربعاء الرابع والعشرين لجمادى الثانية ، من عام ثلاثة وستين وسبعماية »[1] .

وعند استقراري لديه ، وقدومي عليه ، أصدر لي هذا الظهير الكريم ، بما يظهر من فصوله :

« هذا ظهير كريم ، أقام مراسم الوفاء ، وأحيا معالم الحقّ الفسيحة الأرجاء ، وقلّص ظلال الجُود المتكاثفة الأفياء ، وجلّى بأنوار الحق ، ظلم الظُّلم والاعتداء ، وأدّى الأمانة إلى أهلها ، إذ كانت متعيّنة الأداء . أمر بتسويغ إنعامه ، وإبرام أحكامه ، أمير المسلمين ، عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد ابن نصر ، أعلى الله مقامه ، وشكر إنعامه . لوليّ مقامه ، ومحل إجلاله وإعظامه ، كبير دولته ، وفخر مملكته ، ومُشيّد سلطانه ، وعَيْن زمانه ، ظهيرُه الذي ببركاته أنجحَتْ مقاصدُه ، وحامل لواء وزارته ، الذي بيُمن رأيه ، عَذُبت مصادرُه ومَوارِدُه ، الفقيه الأجل ، الوزير المثيل ، الماجد الأثيل ، الحسيب الأصيل ، العالم العَلم ، الطّاهر الظّاهر ، العظيم المفاخر ، الكريم المآثر ، إمام البلاغة ، وفارس البَراعة واليَراعة ، فخر الرياسة ، ومُدبّر فَلَك السّياسة ، الخطيب[2] الحافل ، الصّدر الفاضل الشّمايل ، الحبيب[3] الخالص[4] ، الأوَدّ الأصْفى ، أبي عبد الله محمد

---

(١) أورد ابن الخطيب هذه الرسالة مرة أخرى في كتابة (نفاضة الجراب السفر الثالث . مخطوط مكتبة الرباط العامة) وبها زيادات . ومعها ملحق طويل كتبه السلطان إلى ابن الخطيب لتعريفه بمصير خصمه المتغلب على ملكه بعد فراره إلى مملكة قشتالة . ومصير أصحابه الذين كانوا معه مخطوط نفاضة الجراب المذكور (لوحات ٩٩ – ١٠٣) . وقد نشرناها نحن في كتابنا لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكرى (ص ٣٢٥ – ٣٢٧) .

(٢) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي الزيتونة (الحسيب) .

(٣) هكذا وردت في الزيتونة . وفي الإسكوريال (الحسيب) . والأولى أرجح .

(٤) هكذا وردت في الزيتونة . وفي الاسكوريال (الخلاصة) .

ابن الوزير الجليل الأوحد الأعلى ، الصدر الكبير الخطير الشهير الأسنى ، الحافل الفاضل ، الظاهر الطاهر ، السامى الأرقى ، المعظم الموقر ، الشهيد المقدس السعيد ، أبى محمد بن الخطيب ، وصلَ الله سعادته ، وحرس مجادته وحفِظ رُتبته الرفيعه ، ومكانته ، وبلّغه أمله الأرضى وإرادته . لما كان أبقاه الله مُدبّر ملك المولى أبيه ، وظهيره الذى لم يزل يُدنيه ويَصْطَفيه ، وعِماده الذى ألقى إليه مقاليد الملك ، حين علم أنه صَدْر الأوْلياء ، وواسِطَة السِّلك ، ووزيره الذى اعتمده بإدارة أمره ، وركن إلى مناصحته فى سِرِّه وجَهره ، وقلَّده نجَاد الوَزارتين ، وحلَّاه بحُلِى الرِّياستين ، فاكتفى منه عن الأثر بالعين ، ونشر له لواء الوِلايَتين ، فتلقَّاه بيمينه ، وقام مضطّلعا بأمره ، قيام الأسد دون عرينِه . وحين انعقد هذا الأمر العلى ، قام بسياسة مُلْكه أحسن قيام وأوفاه ، وأداره فأصاب فى إدارته ، مرْمَى السَّداد الذى لم يوافقه إلا إياه . واستولى فى هذه الميادين على غاية الكمال ، واضطّلع بالرِّياسة والسِّياسة ، اضطلاع أفذاذ[1] الرجال . ولم يزل يدفع عن حِماه ، ويذُبُّ عن حوْزته بما يحبُّه الله ويرضاه ، حتى انتظمت بالسُّعود أفلاكه المُنِيفة وأملاكه ، ودارت بالتَّأْييد أفلاكُه .

ولما كان الشَّقى الغادر ، الذى اغتصب الحقَّ ، وطهر منه الطُّرق ، قد جار على جانب المُعْتَمد به فى ماله ، وتعدَّى بالبغْى على حاله ، ظُلْمًا وعدوانًا ، وجورًا وطغيانًا ، لم يُقَدِّم أيَّده الله عملا ، عند العودة إلى ملكه المؤيد ، وسلطانه الأسعد ، وفخره المجدَّد المؤيد ، وأخذ الله تعالى له من الظَّالم أعظم الثَّأْر ، وأمدَّه بإعلامه ، وإظهاره بأعظم الأنصار ، على أن صَرَف عليه جميع أملاكه ، التى خلصت له بالشَّرع مُوجباتها ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (أفراد) وهو تحريف اقتضى التصويب .

ووضَحت في سبيل الاستحقاق بيِّناتها ، مما كان الغادر قد غصَبه له وانتهبه ، وقطع بالباطل عنه سَبَبه ، ومكّنه أيده الله منها باحتيازها ، وتولى لنفسه إحرازها ، وعاد بهذا التّسويغ الملكي ، يوم عودتها إليه خيرا من أمسه ، هنّأه الله الانتفاع بها في العمر الطويل ، وحَفِظها عليه وعلى عقِبه ، يتملّكُها الجيلُ منهم بعد الجيل . وهي كذا وكذا ، بداخل الحضرة وخارجها ، وكذا وكذا من البلاد . سوّغ إليه أيده الله ذلك ، تسْويغًا شرعيًّا ، ورفع به عنه نيه الأغراض ، رفعًا كُلِّيًّا أبَديًّا ، وتَبرؤًا من حق يتعلق به ، أو شُبْهة تتَطَرّق بسببه . فليتصرف أعزّه الله في ذلك بما شاء من أنواع التصرفات ، على ما توجبُه السُّنّة الواضحة الآيات ، من غير حجرٍ عليه ، ولا تعقُّب لما لديه . وشمل حكمُ هذا التّسويغ الجسيم ، والإنعام العميم ، جميع ما يُستغل على الأرض والجنّات والكروم ، والثّمرات من العوايد المُسْتقبلة عليها ، والغلاّت ، شمولا تاما ، مُطْلقًا عاما ، وأن يكون هذا ثابتا صحيحا ، ومن الشّك مُزيحا ، وحكمه على الأيام ، واتصال الشهور و الأعوام ، متصل الدوام . كتبنا خطًّ يدنا شاهدًا بإمضايه ، وسجّلنا الحكم باستقلاله واقتِضايه [1] . فليعلم ذلك من يقف عليه ، ويعتبرما لديه . وذلك في اليوم الثاني لرمضان المعظم من عام ثلاثة وستين وسبع ماية .. صح هذا » .

ولما قضى الله بالانصراف [2] إلى العدوة الغَرْبية [3] ، صدرت عن سلطانها أمير المسلمين أبي سالم منشورات رفيعة منها ، وقد تَشوّفتُ إلى

---

(١) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي الزيتونة (واكتفايه) .

(٢) هكذا في الإسكوريال . وفي الزيتونة (بالعود) .

(٣) هكذا وردت في المخطوطين . والمقصود بها العدوة المغربية .

مطالعة بلاده الغرْبية ، وجهاتها المَرّاكُشيَّة ، بقصد(1) لقاء أهل الصلاح والعبادة ، وزيارة مَلاحِد السّادة ، ما نصه :

هذا ظهير كريم أشاد بالتّنْويه الفَسِيح المجال ، والإكرام السّابغ الأذْيال(2) ، وأعاد النعم بعد إبدائها عميمة النّوال ، ووارِفَة الظّلال ، وألقى فى يد المُعْتَمد به ، صحيفة الاعتِناء حميدة المقال ، مُقْتَضِبة ديوان الآمال ، ورفع له لواء الفخر العزيز المنَال ، على النّظراء والأمثال. حكم بإعماله ، وإمضاء أمْرِه الكريم وامتِثاله ، عبد الله المستعين بالله إبراهيم ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل الله رب العالمين ، أبى الحسن ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى يوسف بن عبد الحق . أيّد الله أمره ، وأعزّ نصره ، للشيخ الفقيه الأجلّ ، الأعزّ الأسْنَى ، الوزير الأمْجد الأنوه المحترم ، الملحوظ ، الأثير الأكمل ، السّرِى الحظىّ الذكى الأخْلَص ، أبى عبد الله ابن الشيخ ، الوزير ، الفقيه الأجل ، الأعز الأسْنى الأمجد ، الحسيب الأصيل ، الأنْوه الأنزه ، الأثير الأكمل ، المبرور المرحوم أبى محمد بن الخطيب . وصل الله حُظْوته ، ووالى عزّته . جدّد له الحُظوة التى يُضْفى لباسُها ، وصحح بنظر البرّ والإكرام قيامها ، وشيّد بمبانى الحِفاية التى مهّد أساسها ولما وفد على بابه الكريم ، عايذا بجواره ، ومُلْقيًا فى ساحة العزّ المشيد عصَا تَسْيار ، ومُجْرياً فى ميدان الثّنا جِياد أفكاره ، ومعتمدا على نظرنا الجميل فى بلوغ آماله ، وحصول أوْطاره ، فسَحْنا له فى ميدان البرّ

---

(١) هكذا فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (تقتصد) وهو تحريف .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الإتبان) .

والتَّرحيب فبلغ مداه ، وأنَس فى حضرتنا الكريمة ، أنوار العناية ، التى كانت هُداه ، وأحْللْناه من بساطنا المحلَّ الذى اشتمل به العزّ وارْتَداه ، وكَمل له الأمل ووفّاه . وأذنّا له ، تَفنُّنًا فى إسداء النِّعم الثرة ، وتلقّى وفادته بوجوه القَبُول والمبرّة ، فى زيارة التُّربة المقدَّسة بشالّة(١) المعظمة ، حيث ضريح مولانا المقدس ، ومن معه من أسلافنا الكرام ، نوّر الله مثواهم ، وجعل فى الجنة مأواهم : وهذا الغرض الجميل ، وإن عُدّ من أنواع التكريم ، والإحسان العميم ، فهو السّعى الذى تصرف إليه وجوه [القبول](٢) والرضا والاهتمام ، والرغبة التى(٣) يُصْفى لها موارد الإسعاف عذوبة الحمام ، والتقرّب الذى تؤثره [مهاد البرّ المُسْتدام](٤) ولفاعله مزيّة الاعتناء والتّقديم ، وجزاءُ(٥) القيام بخدمة سَلفِنا الكريم ، وقد أذنّا له فى مشاهدة تلك الجهات من حَضْرتنا العليّة ، إلى مرّاكُش المحروسة ، للقاء الأعلام ، واجتلاء المعاهد الكرام ، والآثار الباقية على الأيام ، كيف أحبّ ، وعلى ما شاء من إراحةٍ أو إلمام ، مُصْحباً بمن يُنوّه به فى طريقه من الخُدّام ، تنويها للكرامة وتعديداً ، وتجديدا للعناية وتأكيدا . فليعلم بذلك ، ماله فى بابنا الكريم من الاعتناء ، وما اعتدنا لمحبى أسلافنا الكرام من الجزاء ، ويجرى فى جميع مآربه وأحواله على النّهج السواء ، مراعىً حال إيابه إلى مقرّه من حضرتنا العليّة ، ومحلّه من بساطنا الأشرف ،

(١) شالة هى محلة أثرية رومانية تقع الآن فى نهاية مدينة الرباط . وبها إلى جانب الآثار الرومانية بعد المنحدر ، فى سفحها المستوى ، عدة من قبور أمراء بنى مرين ، وفى وسطها قبر السلطان الكبير أبى الحسن المرينى والد السلطان أبى سالم .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال (الذى) والتصويب من الزيتونة .

(٤) نقلنا هذه العبارة من الزيتونة ومكانها بياض مخروم فى الإسكوريال .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (حق) .

وعَرْضه أعمال القايمين ببرّه ، وأكرمنا بين أيدينا، فيجنى المبادرة إلى توْفِية آماله ، وثمرة أعماله ، ويقابل القايم بمبرّته. والله المستعان ، وكتب بالمدينة البيضاء ، مهّدها الله ، فى الحادى والعشرين لربيع الثانى عام أحد وستين وسبع ماية ، وليُعْتمد لوزيرنا الشيخ الأجل الحظى الأكمل أبو الحسن على بن العباس ، أكرمه الله ، على أن يُدخله إلى المساكن العلية بقَصبة مراكُش حرسها الله ، ليشاهد الآثار السلطانية ، التى انتظمت فى سِلْكنا ، وعفّى عليها جديد ملكنا . فليُعلم ذلك . وليُعمل به ، والله المستعان وكتب فى التاريخ المؤرخ به ».

وجرّ هذا الإنعام دُنيا عريضة ، تفتّقتْ فيها المواهب ، ووضَحت من اشْتِهارها المذاهب ، شكر الله نِعْمته ، ووالى على ترْبته رحمته .

وصدر لى عن المُتصيّر إليه أمره ما نصه ، وهو بعضٌ من جُمْلة ، ونوعٌ من أجْناس مُبِرّة :

هذا ظهير كريم نَظَم العناية ووَصَلها ، وأجْمل الرعاية وفَصَّلها ، وأحْرَز مواهب السعادة وحصّلها ، أمر بإبْرامِه ، والوقوف عند أحكامه ، عبد الله المتوكل على الله محمد ، أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل ربّ العالمين ، ابن مولانا الأمير عبدالرحمن ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى الحسن ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين ، أبى يوسف بن عبد الحق ، أيّده الله ونصره ، وسنّى له الفتح المبين ويسّره ، للشيخ الفقيه الأجل ، الأسْنى الأعزّ ، الأحظى الأرفع ، الأمجد الأسنى، الأنْوه الأرْقى، العالم العلَمَ ، الرئيس الأغْرف ، المُتَفَنّن الأبْرع ، المُصَنِّف المفيد ، الصّدر الأحْفَل ، الأفضل

الاكمل ، أبى عبد الله ، ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل ، الأسنى الأغر ، الأرفع الأمجد ، الوجيه الأنوه ، الأحفل ، الأفضل ، الحَسِيب الأصيل الأكمل ، المبرور المرحوم أبى محمد بن الخطيب ، أيده الله بوجه القبول والإقبال ، وأضفى عليه ملابس الإنعام والإفضال ، ورَعى له خِدْمة السّلف الرفيع الجلال ، وما تقرّر من مقاصده الحسنة فى خدمة أمْرنا العال . وأمر فى جملة ما سوّغ من الآلاء الوارِفة الظّلال ، الفَسِيحة المجال ، بأن يُجدَّدَ له حكم ما بيده من الأوامر المتقدم تاريخها ، المتضمنة تمشية [خمسمائة من الفِضّة العَشْرية](١)فى كل شهر ، عن مرتّب له ولولده الذى لنظره ، من مَجبَى مدينة سلا حرسها الله ، فى كل شهر ، من حيث جَرتْ العادة أن يتمشى له ، ورَفْع الاعتراض ببابها فيما يُجْلَب من الأُدْم والأقْوات على اختلافها ، من حيوان وسواه ، وفيما يستفيده خُدّامه بخارجها وأحْوازِها من عِنَبٍ وقُطْن وكتّان ، وفاكهة وخُضَر وغير ذلك ، فلا يُطْلب فى شىء من ذلك بمغْرَم ولا وظِيف ، ولا يُتوجّه فيه إليه بتكليف . يتّصل له حكم ما ذُكر فى كل عام ، تجديداً تاما ، واحتراما عاما ، أعلن بتجديد الحُظْوة واتصالها ، وإتمام النِّعمة وإكمالها ، من تواريخ الأوامر المذكورة إلى الآن ، ومن الآن إلى ما يأتى على الدوام ، واتصال الأيام ، وأن يُحْمل جانبه فيمن يُشْركه أو يخدمه مَحمَل الرّعى ، والمحاشاة من السُّخرة ، متى عَرَضته ،والوظايف إذا افترِضت ، حتى يتّصل له تالد العناية بالطّارف ، وتتضاعف أسباب المِنَن والعَوارف ، بفضل الله ، وتُحَرَّر له الأزواج التى يحرثها ، تَبالَغَت من كل وجيبة ، ويُحاش من

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . ووردت فى النفح كالآتى (تمشية خمساية دينار من الفضة العشرية) (نفح الطيب ج ٣ ص ٢٧٧) . وهناك لبس أو تحريف فى هذه العبارة لأن الدينار لايكون إعادة إلا من الذهب .

كل مَغْرم أو ضَريبة ، بالتحرير التّام ، بحول الله وعونه . ومن وقَفَ على هذا الظهير الكريم ، فليعمل بمُقْتضاه ، وليمض ما أمضاه ، إن شاء الله . وكتب فى العاشر لشهر ربيع الآخر من عام ثلاثة وستين وسبعماية . وكتب فى التاريخ .

وهذا ومثله ، لولا أنه أحْظُوظ [ربما انتفع العقب بوَضَمِها] [١] ورمى غرض الإغفال بسهمها ، لم يُعْن بها ، من يرى أن لا جدْوى إلاّ فى التقوى ، وأن يد الله من هذه الأسباب الضّعيفة أقوى .

وأما ما رُفع إلىّ من الموضوعات العلمية والوسائل [٢] الأدبية ، والرسائل الإخوانية ، لمّا أقامنى الملك صَنَمًا يُعبد ، وجَبلاً [٣] إليه يُسْتند ، صادرةً عن الأعلام ، وحملة الأقلام ، ورؤساء النّثار والنّظام ، فجمٌّ يضيق عنه الإحصاء ، ويعجز عن ضم نَشْره الاسْتِقْصاء . فربما تضمن هذا الكتاب ــ كتاب الإحاطة ــ هذا منه كثيراً ، منظومًا ونَثِيراً ، جرى فى أثناء الأسماء ، وانتمى إلى الإجادة أكبر الانْتِماء . غفر الله لى ولقائله ، فما كان أوْلانى وإيّاه ، بستْرِ وِزْره ، وإغراء الإضراب بغُروره ، فأهوِن بما لا ينفع ، وإن ارتفع الكلم الطّيب لا يُدفع [٤] ، اللهم تجاوز عنا بكرمك وفضلك .

المشيخة

قرأت كتاب الله عزّ وجل على المكتّب ، نسيج وحده ، فى تَحَمُّل المنزّل حقّ حمْله ، تقوىً وصلاحًا ، وخصوصِيةً وإتقانا ، ونغمة ، وعناية وحفظا ، وتبحُّراً فى هذا الفن ، واضطّلاعا بضرايبه ، واستيعابًا لسقَطات الأعلام ، الأُستاذ الصالح ، أبى عبد الله بن عبد الولى العَوّاد ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بنا انتفى رسمها) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الرسائل) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (خبالا) . والتصويب من الزيتونة .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يرجع) .

كَتْبًا ثم حِفْظاً ، ثم تجويدًا إلى مَقْرى أبي عمرو ، رحمة الله عليهما . ثم نَقَلَنى إلى أستاذ الجماعة ، ومطيَّة الفنون ، ومُفيد الطلبة ، الشيخ الخطيب أبي الحسن القِيجاطى ، فقرأت عليه القرآن والعربيَّة ، وهو أول من انتَفَعْتُ به . وقرأت على الحسيب الصدر أبي القاسم بن جُزَى . ولازمت قراءة العربية والفقه ، والتفسير ، على الشيخ الأُستاذ الخطيب أبي عبدالله بن الفخَّار البِيرى ، الإمام المُجْمَع على إمامته فى فن العربية ، المفتوح عليه من الله فيه ، حفظاً ، واضطِّلاعاً ، ونقلاً وتوجيهاً ، بما لا مَطْمَع فيه لسواد . وقرأت على قاضى الجماعة الصدر المتفنن أبي عبد الله ابن بكر ، رحمه الله . وتأدبت بالشيخ الرئيس صاحب القلم الأعلى ، الصالح الفاضل ، أبي الحسن بن الجيَّاب . ورويت عن كثير ممن جمعهم الزمان بهذا القطر من أهل الرِّواية ، كالمحدِّث أبي عبد الله بن جابر ، وأخيه أبي جعفر ، والقاضى الشهير بقيَّة السلف ، شيخنا أبي البركات ابن الحاج ، والشيخ المحدث الصالح أبي محمد بن سَلْمُون ، وأخيه القاضى أبي القاسم بن سلمون ، وأبي عمرو بن الأُستاذ أبي جعفر بن الزُّبير ، وله رواية عالية . والأُستاذ اللغوى أبي عبد الله بن بيبش ، والمحدث الكاتب أبي الحسين التِّلمسانى ، والشيخ الحاج أبي القاسم بن البناء ، والعدل أبي محمد الزرقون ، يحمل عن الإمام ابن دَقيق العِيد ، والقايد الكاتب ابن ذى الوَزارتين أبي عبد الله بن الحكيم ، والقاضى المحدث الأديب ، جُمْلة الظَّرف ، أبي بكر بن شِبْرين ، والشيخ أبي عبد الله بن عبد الملك ، والخطيب أبي جعفر الطَّنجالى ، والقاضى أبي بكر بن مَنْظُور ، والرَّاوية أبي عبد الله بن حزْب الله ، كلهم من مالَقة . والقاضى أبي عبدالله المقَّرى التِّلمسانى ، والشَّريف أبي على حسن بن يوسف ، والخطيب الرئيس

أبي عبد الله بن مرزوق كلهم من تِلِمْسَان . والمحدث الفاضل الحسيب أبو العباس بن يَرْبُوع السَّبتى ، والرئيس أبي محمد الحضرمى السَّبتى ، والشيخ المقرى أبي محمد بن أيوب المالَقى آخر الرواة عن ابن أبي الأَحْوَص ، وأبي عثمٰن بن ليون من ألمريَّة ، والقاضى أبي الحجاج المُنْتشافرى من أهل رُنْدة ، وطايفة كبيرة من المعاصرين ، ومن أهل العُدْوة الغربية والمشرق ، الكثير بالإجازة . وأخذتُ الطبّ والتَّعاليم ، وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا بن هُذَيل ، ولازمته . هذا على سبيل الإلمام . ولو تفرَّغت لذكرهم ، لخرج هذا التَّقْييد عما وُضع له .

التواليف

من ذلك ، اللمحة البَدْرية فى الدولة النَّصرية . والحُلَل المَرْقومة . ومُثْلى الطَّريقة . والسِّحر والشِّعر . وريحانة[1] الكُتَّاب فى أسفار ثمانية . وكتاب المحبَّة فى سِفرين . والصَّيِّب والجِهام مجموع شعرى . ومِعْيَار الاخْتِيار . ومُفاضلة [بين] [2] مالقة وسَلا . ورِسالة الطَّاعون . والمسايل الطبِّية سفر . والرَّجز فى عمل التِّرياق . واليُوسِفى فى الطِّب فى سفرين . والتَّاج المحَلَّى فى سفر . ونُفَاضة الجِراب فى أربعة أسفار . والبَيْزَرَة فى سفر . والبَيْطَرة فى سفر ، جامعٌ لما يُرجع إليها من محاسن الخَيْل وغير ذلك . ورسالة تَكْوين الجَنين . والوُصُول لِحِفظ الصحة فى الفُصول . ورَجَز الطِّب . ورَجَزُ الأَغْذِية . ورجزُ السِّياسة . وكتاب الوَزارة ومَقامة السِّياسة . وكتاب الإحاطة هذا فى خمسة عشر سفراً . إلى ما صدر منى فى هذا العهد القريب ، وهى الغَيْرة على أهل الحَيْرة . وحَمْل الجمهور على

---

(١) وردت فى الإسكوريال (وريحان) فاقتضى التصويب .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . وأضيفت للتصويب .

السُّنن المشهور . والزُّبدة المَمْخُوضة والرَّميمة . والرَّدعلى [أهل الإباحة][١] وسدُّ الذَّريعة فى تفضيل الشَّريعة . وتقرير الشُّبه ، وتحرير المُشَبَّه . واستنزال اللطف الموجود فى سر[٢] الوجود .

ومن التواليف الصادرة قديما ، بُستان الدول ، وهو موضوع غريب ما سُمِع بمثله ، قلّ أن شذعنه فنٌّ من الفنون، يشتمل على شَجراتٍ عشر ، أولها شجرة السلطان ، ثم شجرة الوَزارة [ثم شجرة الكِتابة ، ثم شجرة القضاء والصلاة ، ثم شجرة السُّلطة والحِسبة][٣] ، ثم شجرة العمل ، ثم شجرة الجهاد ، وهو فرعان ، أُسْطُولٌ وخُيُولٌ . ثم شجرة ما يضطر باب الملك إليه من الأَطِبَّاء والمنجمين [والبيازرة والبياطرة والفلاحين][٤] والندماء والشُّطرنجيين ، والشعراء والمُغَنِّين . ثم شجرة الرَّعايا . وتقسيم هذا كله غريب ، يرجع إلى شُعب وأُصول ، وجراثيم وعُمُد ، وقِشْر ولِحاء، وغصون وأوراق ، وزهرات مثمرات وغير مثمرات ، مكتوب على كل جزء من هذه الأَجزاء ، اسم الفن المراد به . وبرنامجة صورة بستان . كمل منه نحو ثلاثين جزءا تُقارب الأَسفار ، ثم قَطع عنه الحادث على الدولة . وأَبيات الأَبيات . وفتات الخِوان ولَقْط الصِّوان فى سفر ، يتضمن المقطوعات . وعايد الصلة فى سفرين ، وصلت به « صلة » الأُستاذ أبى جعفر بن الزبير . وتخليص الذهب فى اختيار عيون الكتب الأَدبيات . وجيش التَّوشيح . وطُرْفة العصر فى دولة بنى نصر ، ثلاثة أسفار . إلى غير ذلك . حتى فى الموسيقا وسواها . هذرٌ كُتُِّف به الحجاب ، ولَعِبَ بالنفس

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (الإباحية) .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (أمر) وترد الكلمة فى عنوان هذه الرسالة أحياناً (أسرار) وأحياناً (سير) .

(٣) الزيادة من نفح الطيب .

الاعجاب [وضاع الزمان] ولا تسل بين الرّد والقبول ، والنفى والإيجاب .
ولله درّ القائل :

والكون أشراكُ نفوس الوَرى　　طوبى لنفسٍ حـرة فازتْ
إن لم تحُز معـرفة الله قد　　أورطها الشيءُ الذى حازتْ

وكلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلق له ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

[هذا ، وقد ذُكرت مؤلفات ابن الخطيب ، التى أوردها فى ختام ترجمته لنفسه ، بصور مختلفة ، وفقاً لتواريخ كتابتها ، وقد أورد لنا المقرى منها صورة رُتِّبت على نمط آخر ، وبها زيادات لم ترد فى نسخة الإسكوريال مما يدل على أن نسخة الاحاطة التى وردت بها ، قد كتبت فى وقت لاحق .
وقد رأينا أن ننقلها فيما يلى :

(التواليف) : التّاج المحلى فى مساجلة القِدح المعلّى . والكتِيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة . والإكليل الزاهر ، فيما فضل عند نظم التّاج من الجواهر . ثم النّفاية بعد الكفاية ، هذا فى نحو القلايد والمطْمحين لأبى نصر الفتح بن محمد . وطرفة العصر فى دولة بنى نصر فى أسفار ثلاثة . وبستان الدول موضوع غريب ما سمع بمثله ... (إلخ الأوصاف التى وردت فى البيان السابق) . وديوان شِعرى فى سفرين ، سميته الصيِّب والجهام والماضى والكهام . والنثر فى غرض السُّلطانيات كثير . والكتاب المسمى باليُوسفى فى صناعة الطِّب فى سفرين كبيرين ، كتاب ممتع . وعايد الصِّلة ، وصلتُ به صلة الأُستاذ أبى جعفر بن الزبير فى سفرين . وكتاب الإحاطة بما تيسَّر من تاريخ غرناطة ، كتاب كبير فى أسفار تِسعة ، هذا متصل بآخرها . وتخليص الذهب فى اختيار عيون الكتب الأَدبيات الثلاثة . وجيش التّوشيح فى سفرين . ومن بعد الانتقال إلى الأَندلس ،

وما وقع من كياد الدولة : نُفاضة الجراب فى عِلالة الاغتراب ، موضوع جليل فى أربعة أسفار . وكتاب عَملُ من طبَّ لمن حبَّ . ومنزلته فى الصناعة الطبية ، بمنز لة كتاب أبى عمرو بن الحاجب المختصر فى الطريقة الفقهية ، لا نظير له . ومن الأراجيز ، المسماة برَقْم الحُلل فى نظم الدول . والأُرجوزة المسماة بالحُلل المرقومة فى اللامع المنظومة ، ألفيّة من ألْفِ بيت فى أصول الفقه . والأُرجوزة المسماة بالمعْلُومة ، معارضة للمقدمة المسماة بالمجهولة ، فى العِلاج من الرأس إلى القدم ، إذا أُضيفت إلى رجز الرئيس أبى على ، كمُلَتْ بها الصّناعة كمالا لا يُشِينُه نقص . والأُرجوزة المسماة بالمُعْتَمدة فى الأغذية المفردة . والأرجوزة فى السياسة المدنية . إلى ما يشذ عن الوصف ، كالرجز فى عمل الترياق الفاروق . والكلام على الطاعون المعاصر . والاشارة . وقطع السلوك . ومُثْلى الطريقة فى ذمّ الوثيقة . حتّى فى الموسيقى والبَيْطرة والبيْزرة . هذرّبه كُتُّف الحجاب ، ولعِب بالنفس الإعجاب ، ولله درُّ القائل : الشعر السابق ذكره][1] .

الشـــــعر

من ذلك قولى فى الجناب الكريم النّبوى ، شرفه الله ، وهو من أوليات نظمى فى ذلك الغرض :

هل كنت تعلم فى هبوب الريح ... نَفَسا يؤجج لاعج التّبْـــريح
أهدَتْك من مشج الحجـــاز تحيةً ... غاضت[2] لها عُرُض الفِجاج الفِيح
بالله قُلْ لى كيف تيران الهـــوى ... ما بين ريحٍ بالفـــلاة وشِـــيح
وخضِيبَةُ المِنْقـار تحْسَب أنهـــا ... نهلت بموْرِد دمعى المَسْـفوح
باحت بما تُخْفى وناحت فى الدّجا ... فرأيت فى الآفـاق دَعْوة نـــوح

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٤١ و ٢٤٢

(٢) هكذا وردت فى الاسكوريال والزيتونة . وفى النفح (فاحت) .

نطقت بما يخفيه قلبي أدمعي ... ولطالما صَمَتت عن التصريح

عجبًا لأجفاني حَملْن شهادة ... عن خافت بين الضلوع جَريح

ولقلَّما[1] كتبت رُواة مدامعي ... في طُرَّتيها[2] حِلْية التَّجريح

اجاد الحِمى بعدى وأجْراع الحمى ... جودٌ تكلُّ به متُون الريح

هُن المنازل ما فؤادى بعدها ... سال ولا وَجْدى بها بمَرِيح

حسْبي ولوعا أن أزور بفكرتي ... زُوَّارَها والجسم رهْن نُزوح

فأبُثُّ فيها من حديث صبابتي ... وأحثُّ فيها من جناح جُنوحى

ودجنة كادت تضلُّ بنى[3] الشرى ... لولا وميضاً بارقٍ وصَفيح

وعشتُ كواكب جوِّها فكأنَّها ... ورقٌ تُقَلِّبها بنانُ شحيح

صابرتُ منها لُجَّة مهما ارتمت ... وطَمَت رميتُ عُبابها بسبوح

حتى إذا الكفُّ الخَضيب بأُفقها ... مَسحت بوجه للصباح صَبيح

شمتُ المنى وحمدتُ إدلاج السُّرى ... وزجرتُ للآمال كلَّ سَنيح

فكأنما لَيْلى نَسِيب قصيدتى ... والصُّبح فيه تخلُّص لمديح

لما حططت لخير من وَطِيء الثَّرى ... بعِنان كل مَوْلد وصريح

رَحْمى إلٓه العرش بين عباده[4] ... وأمينهُ الأرضَى على ما يُوحِى

والآية الكبرى التي أنوارها ... ضاءت أشعَّتُها بصفحة يُوح

ربُّ المقام الصِّدق والآى التى ... راقَتْ بها أوراق كل صحيح

كيف الأنام إذا تفاقم مُعْضل ... مثَلوا بساحة بابه المفتوح

---

(١) وردت في الإسكوريال والزيتونه (ولقبل ما) . والتصويب من النفح .

(٢) هكذا وردت في الإسكوريال والزيتونه . وفى النفح (صفحتيها) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بها) . وفى الزيتونة (تكل بها) .

(٤) هكذا وردت هذه الشطرة فى الزيتونة وفى النفح . ووردت فى الإسكوريال كالآتى (رحما إلاه العرش بين حياره) .

يَردون منه على مشـابة راحِمٍ ... جمٍّ الهبات عن الذنوب صفوح
لهفى على عُمْر مضى أنْضَيتــه ... فى ملعب للترُّهــات فسـيح
يا زاجر الوَجْناء يَعْتسف الفــلا ... والليـل يَعْثُر فى فضول مُسوح
يصل السُّرى سبقًا إلى خير الورى ... والرَّكْبُ بين مُوَسَّد وطــريح
لى فى حِمى ذاك الضَّريح لُبـانة ... إن أصْبَحتِ لُبْنى أنا ابن ذريح
ومَهبِط الرُّوح الأمين أمـانةٌ ... اليُمْن فيها والأمـان لرُوحى
يا صفوة الله المكين مكانـه ... يا خير مؤتَمن وخـير نصيح
أقْرَضْتُ فيك الله صِدْق محبتى ... أيكون تَجْرى فيك غير ربيح (١)
حاشا وكلاّ أنت تخيب وسـائِلى ... أو أن أرى مَسْعاى غير نَجيح (٢)
إن عاق عنك قبيحُ ما كَسَبَت يدى ... يوما فوجه العَفْو غير قبيـح
واخجَلتا(٣) من جَلْبة الفـكر التى ... أغريتُهـا بغــراى المشروح
قَصَرت خُطـاها بعد ما ضمرتهـا ... من كل موفور الجِمـام جَمُوح
مَدَحَتْك آيات الكتاب فما عسى ... يُثْنى على عَلْياك نظم مديـح
وإذا كتاب الله أثنى مُفْصِحـا ... كان القُصور قُصـارَ كل فصيح
صلَّى الله عليك ما هبَّت صَبـا ... فَهَفَتْ بغصن فى الرِّياض مَرُوح
واستأثر الرحمن جلَّ جلالـه ... عن خلقِه بخفىِّ سِرِّ الروح(٤)

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة والنفح . وفى الإسكوريال (نجيح) .

(٢) هذا البيت ساقط فى الإسكوريال والزيتونة ووارد فى النفح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة والنفح (واخجلتى) .

(٤) وردت هذه القصيدة فى نفح الطيب (ج ٤ ص ١٥٨ و ١٥٩) .

هذا وتنتهى هذه القصيدة فى الربع الأول من لوحة الإسكوريال رقم ٤٣٥ . ومن بعد ذلك باقيها بياض . وكذلك لوحتا ٤٣٦ و ٤٣٧ كلتاهما بيضاء، ثم تاتى بعد ذلك لوحة ٤٣٨ وبها قصيدة (تألق نجديا). وهى التى اعتمدنا على نفح الطيب فى نقل قسمها الأول الفاقد فى لوحات الإسكوريال . وهذه القصيدة لم ترد فى الزيتونة .

وأنشدت السلطان ملك المغرب ، ليلة الميلاد الأعظم من عام ثلاثة وستين وسبعمائة هذه القصيدة :

تألّق نجديًّا فأذكرنى نجدا ... وهاج بى الشّوق المبرّح والوجْدا
وميضٌ رأى بُرْدَ الغمامة مُغْفِلا ... فمدّ يدا بالتّبر أعلمت البرْدا
تبسّم فى مَجْريّة قد تجهّمت ... فما بذلت وصلا ولا ضربت وَعْدا
وراود منها فاركاً قد تَنعّمت ... فأهوى لها نَصْلاً وهدّدها رعْدا
فخِلْتُها الحمراءَ من شَفَق الضّحى ... نضاها وحلّ المُزْن من جيدها عِقْدا
لك الله من برقٍ كأن وميضَه ... يد الساهر المَقْرور قد قَدحت زَنْدا
تعلّم من سكّانه شِيَم النّدى ... فغادر أجراع الحِمى روضة تَنْدى
وتوّج من نُوّارها قِنن الرُّبا ... وختّم من أزهارها القَضْب المُلْدا
لسُرْعان ما كانت مناسِف للصّبا ... فقد ضحكت زهرا وقد خجلت ورْدا
بلاد عهدنا فى قرارتها الصِّبا ... يقل لذاك العهد أن يألَف العهدا
إذا ما النّسيم اعتلّ فى عَرَصاتها ... تناول فيها البان والشيح والرّندا
فكم فى مِجانى وِرْدها من عُلالة ... إذا ما استُثيرت أرضها أنبتت وجْدا
إذا استشعرتها النّفس عاهدت الجَوى ... إذا ما الْتمحَتْها العَينُ عاقدت السُّهدا
ومن عاشقٍ حُرٍّ إذا ما استماله ... حديث الهوى النّذْرىّ صيّره عَبْدا
ومن ذابلٍ يحكى المحبّين رقّة ... فيثنى إذا ما هبّ عَرْف الصّبا قدّا
سقى الله نَجْدا ما نضَحْتُ بذِكرها ... على كَبِدى إلاّ وجدتُ لها بَرْدا
وآنس قلبى فهو لِلْعَهد حافظ ... وقلّ على الأيام من يحفظ العَهْدا
صبورٌ وإن لم يبق إلاّ ذُبالة ... إذا استَقْبلت مسْرى الصّبا اشتعلت وَقْدا
صبورٌ إذا الشّوق استجاد كتيبةً ... تجوس خِلال الصّبر كان لها بنْدا
وقد كنت جلدا قبل أن يذهب النّوى ... ذِماءى وإن يستأصِل العظم والجلدا

أأجْحد حقّ الحبّ والدمع شـاهدٌ — وقد وقع التّسجيل من بعد ما أدّى
تنـاثر فى إثر الحمـول فريده — فلله عينًا من رأى الجوهر الفَرْدا
جرى يققًا فى ملعب الخدّ أشهَبا — وأجْهَده ركض الأسى فجرى وِرْدا
ومُرْتَحل أجريْت دمعى خَلْفـه — ليرجعه فاستَنّ فى إثره قصـدا
وقلت لقلبى طِر إليه برُقْعتى — فكان حَمامًا فى المسير بها هدًّا
سرقتُ صُواع العزم يوم فـراقه — فلجّ ولم يرقب صُواعا ولا وُدّا
وكحّلتُ عينى من غُبار طريقه — فأعْقَبها دمعا وأورثهـا سَهْدا
إلى الله كم أهْدى بِنَجْدٍ وحـاجرٍ — وأكْنى بدَعْد فى غرامى أو سَعْدى
وما هو إلا الشّوق ثار كمينُـه — فأذْهل نفسا لم تُبن عنده قَصْدا
وما بى إلا أن سَرى الركب مُوهنا — وأعمل فى رَمْل الحِمى النّص والوَخْدا
وجاشَتْ جنود الصّبر والبَيْن والأسى — لدىّ فكان الصّبر أضعفها جُندا
ورُمْتُ نهوضا واعتزَمْتُ مودّعاً — فصدّنى المقدور عن وجهتى صدّا
رقيقٌ بدت للمشترين عيـوبهُ — ولم تلتفت دعواه فاسْتَوجب الردّا
تخلّف عنّى ركْبُ طِيـة عـانيًا — أما آن للعانى المُعنّى بأن يُفْدى
مُخْلف سِربى قد أصيب جنـاحُه — وطِرْن فلم يَسْطع مراحا ولا مغْدى
نشدتُك يا ركبَ الحجاز تضاءلت — لك الأرض مهما اسْتَعرض السّهب وامتدّا
وجَمّ لك المَرْعى وأذعنت الصّوَى — ولم تفتقد ظلاً ظَليلاً ولا وِرْدا
إذا أنت شافهتَ الدّيار بطيبَـةَ — وجئتَ بها القَبْر المُقَدّس واللّحدا
وآنستَ نورًا من جَناب محمـد — يُجلى القلوب الغُلْقَ والأعْيُن الرّمْدا
فَنِب عن بعيد الدار فى ذلك الحِمى — واذْرِ به دمعاً وعفّر به خَـدّا
وقل يا رسول الله عبدٌ تقاصرت — خُطاه وأضحى من أحِبّته فَـرْدا

ولم يستطع من بعْد ما بَعُد المدى … سوى لوعةٍ تعتاد أو مِدْحةٍ تُهدى
تداركه يا غوثَ العِباد برحمة … فجودُك ما أَجْدَى وكفُّك ما أَنْدَى
أجار بك الله العِبـاد من الرَّدى … وبوَّأهم ظلاً من الأَمْن مُمْتــدًا
حمَى دينك الدُّنيا وأقْطَعَك الرِّضا … وتوَّجَك العليا وأَلْبسَك الحَمْدا
وطهَّر منك القلب لما استخَصَّه … فجلَّله نورا وأَوْسَعه رُشْــــدا
دعاه فما ولَّى هَداهُ فما غَـوى … سقاه فما يظما جلاه فما يصدا[1]
تقدَّمت مُختـارا تـأَخَّرت مُبْعَثًا … فقد شَملت علياؤك القَبْل والبَعْدا
وعلَّة هذا الكون أنت وكل مـا … أعاد وأنت القَصْدُ فيه وما أَبْدا
وهل هو إلاَّ مظهـــر أنت سِرُّه … ليمتاز فى الخَلْق المُكبُّ من الأَهْدا
ففى عالم الأَسرار ذاتك تُجْتَــلَى … ملامح نور لاح للطُّور فانهـدَّا
وفى عالمِ الحسن اغْتَدَيت مُبوَّأً … لتُشْفِى من اسْتَشْفِى وتُهدى من اسْتَهدا
فما كنتَ لولا أن بُثَّت هدايـةً … من الله مثل الخلق رسما ولا حدًّا
فما عسى يُثنى عليك مُقصِّر ولـم … يـأْلُ فيك الله[2] شكرا ولا حمدا
بماذا عسى يجزيك هاوٍ على شفًا … من النار قد أسكَنْته[3] بعدها الخُلدا
عليك صلاة الله يا خير مُرْسَلٍ … وأكرم هادٍ أوضح الحق والرُّشدا[4]
عليك صلاة الله يا كاشف العَمى … ومُذْهبَ ليل الشِّرك[5] وهو قد اربدَّا
إلى كم أرانى فى البطـالة كانعاً … وعمرىَ قد ولَّى ووزرىَ قد عدَّا
تقضَّى زمانى فى لعلَّ وفى عسى … فلا عزمةٌ تُمضى ولا لوعةٌ تَهدا

---

(١) من هنا تبدأ بقية القصيدة الواردة بالإسكوريال (لوحة 438) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الذكر) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أوردته) .
(٤) هذا البيت وارد فى الإسكويال وساقط فى النفح .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الروع) والأول أرجح .

حُسام جبان كلما شِيم نصْــلُه تراجع بعد العزْم والتزم الغِمْدا
ألا ليت شِعرى هل أرانى ناهدا أقود القلاص البُدنَ والضّامر النّهدا
رضيع لبان الصّدق فوق شَمْله مُضمَّرة وسُدت من كورها مَهْدا
فتُهدى بأشواق السُّراة إذا سَرَت وتُحْدى بأشْعار الرِّكاب إذا تحدّا
إلى أن أحطَّ الرَّحل فى تُربك الذى تضَوَّع نِدًّا ما رأينـــا له ندًّا
وأُطفىءُ فى تلك الموارد غُـلَّتى وأحسب قُرْبًا مُهْجة شَكَت البُعْدا
بمَوْلِدك[1] اهتزّ الوجودُ فأشرقت قصورٌ ببصرى ضاءت الهَضْب والوَهْدا
ومن رُعْبه الأوثان خرَّت مهـــابةً ومن هوْله إيوان كِسْرى قد انْهَدَّا
وغاض له الوادى وصبَّح عـــزه بيوتًا لنار الفرس أعْدمها الوَقدا
رَعى الله منها ليلةً أطْلع الهُدى على الأرض من آفاقها القمر السّعدا
وأقرض مُلْكًا قـــام فينـــا بحقِّهـــا لقد أحْرَزَ الفخر المؤثّل والمجدا
وحيًّا على شطِّ الخليج محــلّةً يحالف من ينتابها العِيشَةَ الرَّغدا
وجاد الغمام العدَّ فيها خلائِفًا مآثرهم لا تعرف الحصر والعدًّا
عليًّا وعثمان ويعقوب لا عــدا رضى الله ذاك النّجلُ والأب والجدًّا
حَمُوا وهموا فى حَوْمة البأْس والنّدى فكانوا الغُيوث المُسْتَهلة والأُسْدا
ولله ما قد خلّفوا من خليفـــة حَوَى الإرث عنهم والوصيّة والعَهْدا
إذا ما أراد الصّعب أغرى بنَيْله صدور العوالى والمطهّمة الجُرْدا
فكم معتدٍ أردى وكم تائه هَــدا وكم حِكْمة أخفى وكم نِعْمة أبْدا
أبا سالم دين الإلـه بك اعتَـلَى أبا سالم ظِلُّ الإلـه بك امْتَـدَّا
فَدُم من دِفاع الله تحت وقـــاية كفاك بها أن تَسْحب الحلق السَّرْدا
ودونَكهــا منّى نتيجة فكـــرة إذا اسْتَرْشَحت للنظم كانت صفًا صَلدا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (لمولدك).

ولو تركت منّى الليـالى صَبابةً لأَجْهَدْتُها ركضًا وأرهقتُها شدا
ولكنه جُهْد المُقِلّ [على الثّوى] (١) وقدأَوْضَح الأَعْذار من بَلغ الجَهْدا (٢)

ومن ذلك قصيدة أنشدتها مولاى السلطان الغنى بالله بمحضرى بالمشور الحافل ، المُتَّخذ بعد الرجوع إلى الأندلس ، فى بعض ليالى المولد الكريم ، المنوّه بوليمتها ، وهى خاتمة النّظم فى هذا الغرض المقتضى الإلمام ، بمدح السلطان ، صرف الله وجوهنا إليه :

ما على القلب من بعدكم من جُناح أن يُرى طائرا بغير جَناح
وعلى الشّوق أن يشبّ إذا هبّ بأنفاسكم نسيم الصباح
جيرةُ الحىّ والحديث شجون والليالى تلين بعد الجِماح
أترون السُّلُوّ خامر قلبى بعَذْلِكم لا وفالقُ الإصباح
ولو أنّى أُعْطى اقتراحى على الأيّام ما كان بعدكم باقتراح
ضايَقَتْنى فيكم صروف الليالى واستدارت علىّ دَوْر الوِشاح
وسَقَتْنى كأس الفراق دِهاقًا فى اغْتِباقٍ مُواصَل باصْطِباح
واستباحت من جِدّتى وقبائى حَرَمًا لم أُحِله بالمُسْتَباح
قصفت صَعْدةَ انتصارى وفلّت غَرْبَ عَزْمى المُعَدّ يوم كفاح
لم تدع لى من السلاح سوى مغفر شَيْب أهوى به من سلاح
عاجلتنى به وفى الوقت فضلٌ لاهتزازى إلى الهوى وارتياح
فكأنّ الشباب طيفُ خيال أو وَميض قمًا (٣) عُقيب التماح
ليل أُنسٍ دَجى (٤) وأقصره ليلٌ جاذبت بُرْدَه يمين صباح

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى النفح (بلغته) .
(٢) اورد المقرى هذه القصيدة فى نفح الطيب ج ٤ ص ١٥٩ — ١٦١ .
(٣) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الزيتونة .
(٤) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (مضى) .

صاح والوجد مَشْربٌ والورى ... صفّان من مُنتشرٍ وآخر صاحِ
يا ترى والنفوس أَسْرَى الأمانى ... ما لها عن وثاقِها من سَراح
هل يباحُ الورُود بعد ذياد(١) ... أو يُتاح اللقاءُ بعد انْتِزاح
وإذا أعوز الجسوم التّلاقى ... ناب عنه تعارفُ الأرواح
جاءَ عهد الهوى من السُّحب هامٍ ... مستهلُّ الوميض ضافى المَناح
كلما أخْضَل الرُّبُوع بكاءً ... ضحكت فوقها ثُغور الأقاح
عادنى من تذكُّر العيد عيدٌ ... كان منّى للعين عيد الأضاح
سُفِحت فيه الدموع دمًا ... فهى فوق الخدود ذات انْسياح
ورِكابٌ سَرُوا وقد شَمَل الليل ... بمَسْح الدُّجَى جميع النّواح
وكأنَّ الظّلام عَسْكر زنْجٍ ... ونجوم الدُّجى نُصول الرِّماح
حَمَلت منهم ظهور المطايا ... أىَّ جدٍّ بَحْت وعَزْم صراح
ستروا الوَجْد وهو نارٌ وكان السِّتر يُجدى لولا هُبوب الرِّياح
خلّفونى من بعدهم يائسَ الطَّرف ... ثقيلَ الخطا مهيضَ الجِناح
وجدوها مثل القِسِىِّ ضُمورا ... قد بَرَتْ منهم سِهام قِداح
وطوَوا طوع باعث الوجد والشّوق إلى الأبْطَحى غير البِطاح
مصطفى الكون من ظهور النّبيِّين هُداة الأنام سُبُل الفَلاح
حُجّة الله حكمَةُ الله سرٌّ ... الله فى كل غاية وافْتِتاح
حاشِرُ الخلق عاقِبُ الرُّسْل ... والمُثْبِت بالله بعدهم والْمَاح
صاحبُ المعجزات لا يتَمارى ... العقل فى أيها الحِسان إلى الصِّحاح
من جَماد يَقْرأ وقَمر يُشَقّ ... والماءُ من بَنان الرّاح
دعوة الأنبياء منتظر الكمان ... دعوى البشير باستفتاح

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والزيتونة (دبار) .

مظهر الوَحْى مُطْلع الحقِّ مَعْنَى الخلق فتحُ المُهيْمن الفتَّاح

أىُّ غَيْثٍ من رحمة الله هـامٍ وسراج يَهْـدِيه وَضَّـــــاح

ما الذى يشرح امرؤٌ فى رسول عاجل الله صدره بانْشِـراح

شَقَّه الروح ثم طَهَّــر منـه القلب من بعد بالبُرود القَراح

مَدَحتْك الرُّسُلُ يا خاتم الرُّسل فمن لى بعدها بامْتِــــداح

ولعَجْز النفوس عن دَرْك الحقِّ وإيقافها وقوف افتِضـــاح

صلوات الإلَـه يا نُكْتَة الكَوْن على مَجْدِك اللُّبــاب القَـراح

عددُ القُطْر والرِّمال ومـا عـاقبُ دهـرٍ غَدْوُه برَواح

وجزاك الإلَـه أفضل ما يجزى كــرام الأَيمَّــة النُّصَّـــاح

أَسَفِى كم أرى طريد ذنوب أَوْبقَتْنى فليس لى من براح

قد غزَتْنى الخطوب غزْو الأعادى وبرَتْنى الهموم برْى القِــداح

سبق الحكم واستقَلَّ وهل يمحى قضاً قد خُطَّ فى الألْــواح

لا لدنيا جنَحت ألغُّ فيهــا لا لدين خَلَصت لا لِصَـلاح

قاطعًا فى الغُرور بُرْهة عُمْرى خَسِرت صَفْقَتى وخاب قِداح

طمع الشَّيب باللِّجـام المُحَلَّى حين أبديت أن يُرَدَّ جِمـاح

فأَبتْ نفسى اللَّجُوج وجدَّت فى سموٌ إلى الهوى وطِمـــاح

ياطبيبَ الذنوب تدبيـــرك الناجع فى عِلَّتى ضَمِين النَّجاح

يا مُجْلِى العَمى وكافى الدَّواهى ومداوى المرضى وآسِى الجراح

سُدَّ بابُ القبول دُونى وما لى يا غِياثى سِواك من مِفتـــاح

خصَّك الله بالكمال وزَنْــد الكون لم تقترن بكفٍّ اقتداح

قبل أن يُوجد الوجود وأن يَتْحف بالنُّور ظُلمة الأَشْباح

وأضاءت من بعد ميلادك الأرض وهُزَّت له اهتزاز ارتيـــــاح

فسرَى الخَصْب فى الجُسوم الهزَالى | وجرى الرِّسْل فى الضُّروع الشحاح
ولقد روعيت لديه حقوق | أقْطَعَتْها العِدى جناب اطِّراح
معالى محمد بن أبى الحجاج | ليثُ العِدا وغيث السَّماح
ناصرُ الحقِّ مُرسل النَّفع سُحُبا | بين سُمْر القَنَا وبيض الصِّفاح
ومُريد الجياد أرض الأعادى | وهى مُختالةٌ لفَرْط المراح
يَتلاعَبْن بالظِّلال عِرابًا | غُذِّيت فى الفَلا لِبان اللِّقاح
يا سراجَ النَّادى وحَتْفَ الأعادى | وعمادَ الملك الكريم المنَّاح
جمع الله من حُلَى آل عبَّاس | لعليـاك فى سبيل امْتِداح
بين رأيٍ مُوفَّق واعتزام | مُسْتَعين وصارمٍ سفَّاح
وخَفَضْتَ الجَناح فى الأرض حتى | لم تَدَعْ فوق ظَهْرَها من جُناح
أنت مصباحُها ونور دُجاها | دافَع الله عنك من مِصباح
محّص الله منك يا قُوتَة المُلْك | ويُنْبُوع العدل والإصلاح
بخطوب أرتْ حديث سليمن | وجاءت بالحادث المُجْتاح
بيدى فاقِدِ الحجا هلهل النَّسج | أخِى جرأة وربِّ اجْتِراح
نال منها عُقْبى مُسيْلَمة الكذَّاب | إذ عاند الهوى وسِجاح
ثم ردَّ الأُمور ردًّا جميلا | لكن من بعد فرقة وانْتِزاح
فأجرُه فى الوَرى الجميل وعامل | منه كَنْز الغِنى ومَثْوى الرِّياح
واشْتَرِ الحمد بالمواهب واعْقِد | عِقْدها فى مِطنَّة الأرباح
بركات السَّماء تَبْتَدر الأرض | إذا استُودِعت بذُور السَّماح
وتهنَّأْ بدُنيا سعيدًا | جاء للمعْلُوات وِفق اقتراح
وتمتَّع منه بهسالةِ ملك | أطْلَعت منك أىَّ بدر لِياح
منْشُور الرَّأى مجمع الحفْل مثْوى | كل ذى ذمْر وسيِّد جحْجاح

ومُقام السَّلام فى مدة السِّلم ... وغابُ الأُسُود يوم الكفاح
مُلتَقى حكمة وملعب إلهام ... ومَغْنى السُّرور والأفراح
أين كسرى وأين إيوان كسرى ... لا يُغَلِّس الخَصَمُ بالضَّحضاح
أين نور الألدن عُنصر النار ... إذا ما اعتبرته ياصاح
بِنْيةٌ كان فضلها لك مَذْخورا ... كزهر الرِّياض فى الأدواح
حين طاب الزَّمان واعتدل الفَصْل ... استجدَّت وبادرت بافتتاح
هاكَها قد تتوَّجت بالمعانى ... واكْتَسَت حُلَّة اللُّغات الفِصاح
حين غاض الشَّباب وارْتَجع الفكر ... وضاق الخَطْوُ العريض السَّاح
جَهْدُ قلبٍ لفَقْته بعد جهاد ... نقطة من قُلَيْبه المُمْتاح
ومعانى البيان من عَذارى ... لا يُبِحن للشُّيوخ عقد نِكاح
والشيخ سوى الرجوع إلى الله ... ونَجْوى أهل التُّقى والصَّلاح
ولزومُ الباب الذى يَجْبُرُ الكَسْر ... وَوصْلُ السؤال والإلحاح
وعلى ذلك فهى ساحرةُ الأحداق ... ترى بكل خُود رِداح
تنفثُ السِّحر فى الجفون وتهدى ... طُرر الحُسْن فى الوجوه المِلاح
دُمْت فى عزَّة ورفعةِ قدرٍ ... بين مغْدًى موفَّقٍ ومَراح
ما تولَّت دُهَم الدُّجْنة غدْوًا ... وَجرتْ خلفهن شُهُب الصَّباح

ومن غرض الأمداح قولى فى امتِداح سلطان المغرب أبى عنان ، لما توجَّهتُ إليه رسولا ، مُحمَّلا مصالح البلاد والعِباد ، واستَدْعى الشعر منى فقلت :

أنْدى لداعى الفوز وجه مُنيب ... وأفاق من عذْل ومن تأنِيب
كَلِفُ الجنان إذا جرى ذكر الحِمى ... والبانُ حنَّ له حنين النِّيب

والنفس لا تنفك تَكْلِف بالهوى	والشَّيب يلحظها بعين رقيب
وَحل الصِّبا فَطَرَحْتُ فى أعقابه	ما كان من غَزَلٍ ومن تَشْبِيب
أترى التَّغزُّل بعد أن ظَعَن الصِّبا	شأنى الغَداة أو النَّسيب نسيب (١)
أنَّى لمثلى بالهوى من بعد ما	لِلْوخْط فى الفَوْدين أىُّ دَبِيب
لبس البياض وحلَّ ذِرْوَة مِنْبر	منِّى ووالى الوَعْظ فِعل خَطِيب
قد كان يَسْترنى ظلامُ شَبِيبتى	والآن يفضحنى صباحُ مَشيب (٢)
وإذا الجديدان استجدَّا أبْلَيـا	من لبْسَته الأعمـار كلَّ قَشِيب
سَلْنى عن الدهر الخؤون وأهله	تَسَلْ المهلَّبَ عن حروب شَبِيب
مُتَقَلِّب الحالات فاخْبر تَقلُّـه	مهما أعدت يدًا إلى تقـليب
فكل الأُمور إذا اعْتَرتك لربِّها	ما ضاق لطف الرَّبِّ عن مَرْبُوب
قد يُخبأُ المحبوب فى مكروهها	مَنْ يخبأُ المكروه فى المحبوب
واصبر على مَضَض الليـالى إنها	لحَواملٌ سَيَلِدْن كلَّ عجيب
واقنع بِحَظٍّ لم تنـله بحيلة	ما كلُّ رام سَهْمُه بمُصِيب
يقع الحريص على الرَّدى ولكم غدا	تَرْكُ التَّسبُّب أنفعُ التَّسبيب
من رام نيل الشىء قبل أوانـه	رام انتقـال يلَمْلم وعسِيب
فإذا جعلتَ الصبر مفْزِع معضل	عاجلتَ علَّته بطبِّ طبيب
وإذا استعنتَ على الزمان بفارس	لبَّى نداءك منه خيرُ مُجيب
بخليفة الله الذى فى كفِّـه	غيثٌ يروِّض ساح كلِّ جَديب
المُنْتَقى من طِينَة المَجْد الذى	ما كان يومًا صرفُه بمشُوب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نسيبى) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مشيبى) .

يرمى الصِّعاب (١) بِسَعْده (٢) فيقودها ... ذُلُلاً على حَسَب الهوى المرغوب

ويرى الحقائق من وراءِ حجابها ... لا فرق بين شهادة ومغِيب

من آل عبد الحقِّ حيث توشَّحت ... شُعُب العُلى ورَبَتْ بأَىِّ كَثِيب

أُسُدُ الشَّرى سُرُج الورى فمقامهم ... لله بين محـــارب وحُـــروب

أما دعا الداعى وثَوَّب صارخا ... ثابُوا وأَمُّوا حَوْمة التَّثويب

شهبٌ ثواقبُ والسماءُ (٣) عَجاجة ... مأْثورها (٤) قد صحَّ بالتَّجريب

ما شئت فى آفاقهـا من رامح ... يبدو وكفٌّ بالنَّجِيع خَضِيب

عجبت سيوفُهم لشدة بأْسهم ... فتبسَّمت والجوُّ فى تَقْطِيب

نُظموا بلَبَّات العُلا واسْتَوْسقوا ... كالرُّمح أَنْبُوبًا على أَنْبُــوب

تَرْوِى العوالى [فى المعالى] (٥) عنهم ... أثرَ النَّدى المولود والمكسوب

عن (٦) كل موثوق به إِسْناده ... بالقَطْع أَو بالوَضْع غير مَعيب

فأَبو عنـان عن عِلِىٍّ نصُّه (٧) ... للنَّقل عن عثمان عن يعقوب

جاءُوا كما اتَّسق الحساب أَصالة ... وغدوا فذلك ذلك المكتوب

مُتجسِّدًا من جوهر النور الذى ... لم تَرُم يوما شمسُه بغـروب

مُتأَلِّقا من مطلع الحقِّ الـذى ... هو نور أَبصـار وسرُّ قلـوب

قل للزمان وقد تبسَّم ضاحكا ... من بعد طول (٨) تجهُّم وقُطوب

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الصفات) . والتصويب من النفح .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (بصعبه) والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (فى سماء) .

(٤) وردت فى الإسكوريال ((تأثيرها) . والتصويب من النفح .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (والمعالى) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (من) .

(٧) هكذا وردت فى النفخ . وفى الإسكوريال (غضة) والأولى أرجح .

(٨) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

هى دعوة الحقِّ التى أوضاعها جمَعت من الآثار كلَّ غـريب
هى دعوة العدل الذى شمل الورى فالشّاة لا تخشى اعتداءَ الذِّيب
لو أنَّ كِسْرى الفرس أدرك فارساً ألقى إليه بتـاجه المَغْصوب
لمّا حللتُ بأرضه مُتَملِّيـــا ما شِيت من برٍّ ومن ترحيب
شمَل الرِّضا فكأنَّ كل أقاحة تُومى بثغـرٍ للسـلام شَنِيب
وأتيتُ فى بحر القرى أمَّ القرى حتى حَطَطْتُ بمرفإِ التقريب
فرأيت أمر الله من ظلِّ التُّقى[1] والعدل تحت سُرادقٍ مَضروب
ورأيت سيف الله مطرور الشَّبا يمضى القضاءُ بحدِّه المرهوب
وشهدتُ نور الحق ليس بآفلٍ والدِّين والدُّنيـا على تَرْتِيب
ووردت بحر العلم يقذف مَوْجُه للناس من دُرَرِ الهدى بضُروب
لله من شِيم كأزهـار الرُّبى غبَّ انْثِيال العارض المسْكوب
وجمال مَرْأىً فى رداء مهـابة كالسيف مصقول الفِرْند مَهيب
يا جَنَّةً فارقتُ من غُرفاتهـا دارَ القرار بما اقْتَضَته ذنوبِ[2]
أسفى على ما ضاع من حظّى بها لا تنقضى تَرِحـاته ونَحيب
إن أشْرَقت شمسٌ شَرِقت بعبْرتى وتفيض فى وقت الغروب غروب
حتى لقد علِمت ساجعةُ الضُّحى شَجْوى وجانحةُ الأُصيل شُحوب[3]
وشهادة الإخلاص توجب رَجْعتى لنعيمها من غير مسِّ لُغـوب
يا ناصر الدين الحنيف وأهله إنضاءَ مَسْغَبة وفَلَّ خطـوب
حَقِّق ظُنون بنيه فيك فإنهم يتعلّلون بوَعْـدك المرقوب

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (فرأيت أمن الله فى ظل التقى) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ذنوبى) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (شحوبى) .

ضاقت مذاهبُ نَصْرهم فتعلَّقوا　　بجناب عزٍّ من عُلاك رحيب
ودُجا ظلام الكُفْر فى آفاقهم　　أوليس صُبحُك منهم بقريب
فانظر بعين العزِّ من ثغرٍ غدا　　حَذِر العِدا يَرْنو بطرفٍ مُريب
نادَتْك أندلُسٌ ومجْدُك ضامنٌ　　أن لا تَخِيب[1] لديك فى[2] مطْلوب
غَصَب العدوُّ بلادها وحُسا ملكالماضى الشَّبا مُسْتَرجِع المَغْصُوب
أرها[3] السَّوابح فى المجاز حقيقة　　من كلِّ قعدة سِحْرب وجَنيب
يتأوَّد الأَسَلُ[4] المثقَّف فوقها　　وتُجيب صاهلةً رغاء نجيب
والنَّصر يُضحك كل مَبْسِم غرَّة　　والفتح[5] معقود بكل سَبِيب
والرُّوم فارْم بكلِّ نَجْم ثاقبٍ　　يُذكى بأَرْبُعها شَواظ لَهيب
بذمايل السِّلْب التى تركت بنى　　زيَّان بين مُجَدَّل وسليب
وأَضِف إلى لام الوغى أَلِفَ القنا　　تَظْهر لديك علامة التَّغليب
إن كنت تَعْجم بالعزايم عُودها　　عودُ الصَّليب اليوم غير صَليب
ولك الكتايبُ كالخمايل أطلعت　　زهر الأَسنَّة فوق كل قضيب
فمُرنَّح العِطْفين لا من نشوةٍ　　ومورَّدُ الخدَّين غيرُ مُريب
يبدو سَداد الرأى فى راياتها　　وأمورها تجرى على تَجْريب
وترى الطُّيور عصاباً من فوقها　　لحلُول يوم فى الضَّلال عَصِيب
هذَّبتَها بالعرْض يذكر يومه　　عَرْض الورى للموعد المَكْتُوب
وهى الكتايب إن تُنوسى عرضُها　　كانت مدوَّنة بلا تهذيب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يخيب) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (ذو) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أرض) والأولى أرجح .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الأثل) والأولى أرجح .
(٥) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (اليمن) .

حتى إذا فَرَض الجلاد جلاده[١] ... ورأيتَ ريح النَّصر ذات هبوب
قدمت سالبة العدوِّ[٢] وبعدها ... أخرى بعزٍّ النَّصر ذات وجُوب
وإذا توسَّط نَصْل سيفك عندها ... جُزْأى قِياسك فُزْت بالمطلوب
وتبرَّأ الشَّيطان لما أن علا ... حِزْبُ الهدى من حـزبه المغلوب
الأرض إرثٌ والمطامع جمَّةٌ ... كلٌّ يهشُّ إلى التماس نَصِيب
وخلايفُ التَّقوى هم ورَّاثها ... وإليكها بالحظِّ والتَّعْصيب
لكأنَّنى بك قد تركت ربُوعَها ... قفرا بكرِّ الغَزْو والتَّعقيب
وأقمتَ فيها مأْتَماً لكنَّه ... عِرْسٌ لنسرٍ بالفَلاة وذِيب
وتركتَ مُقْلتها بقلب واجبٍ ... رهَبًا وخدٌّ بالأسى مَنْدوب
تَبْكى نواد بُها وينْقِلن الخُطا ... من شِلْو طاغيةٍ لِشلْو صَليب[٣]
جعل الإلّه البيْت منك مثابةً ... للعاكِفين وأنت خير مُثيب
فإذا ذكرت كأنَّ هبَّات الصَّبا ... قَضَتْ بمدْرجها لَطِيمة طِيب
لولا ارتباطُ الكوْن بالمعنى الذى ... قَصُر الحِجا عن سرِّه المحجوب
قلنا لعالمِك الذى شرَّفته ... حسَدُ البَسِيط مزيَّة التركيب
ولأجل قُطْرك شمسُها ونُجومُها ... عدلت[٤] عن التَّشريق للتَّغريب
تبدو بمطلع أفقها فِضِيَّةً ... وتغيبُ عنك وهى فى تَذْهيب
مولاى أشواقى إليك تهزُّنى ... والنَّار تفضح عرْف عُود الطِّيب
بحُلَى عُلاك أطلتُها وأطبتُها ... ولكم مُطيل وهو غير[٥] مُطيب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (جداله) .
(٢) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (سليب) .
(٤) وردت فى الإسكوريال (عذلت) والتصويب من النفح .
(٥) وردت فى الإسكوريال (غير) والتصويب من النفح

طالبتُ أفكارى بفرْض بديهها فوفت بشرط الفَوْر والتَّرتيب
مُتَبَنِّىءٌ أنَا فى حُلا تلك العُلا لكنَّ شِعرى فيك شعر حبِيب
الطبع فحلٌ والقريحة حرَّةٌ فاقْبَله بين نَجِيبِـه ونَجِيب
لـكنَّنى سـهَّلتُهـا وأَذَلْتُهـا من كلِّ وحْشِى بكلِّ رَبـيب
هابَت مقامك فاطَّبيتُ صعابهـا حتّى غَدَتْ ذُلُلاً على التَّدريب
إن كنت قدقاربتُ فى تعديلها[1] لابدَّ فى التَّعديل من تقريب
عُذْرى لتقصيرى وعجزى ناسخٌ ويجلُّ منك العفْو عن تَثْريب
من لم يُدِن لله فيك بقُـرْبة هو من جناب الله غيرُ قريب
والله ما أخفيتُ حبَّك خيفةً إلا وأنْفاسى علىَّ تَشِى بى[2]

وقولى فى امتداح سُلطانى لما احتفل لإعْذار ولَدِه ، واستَرْكب القُرسان لمُزَاملة الهدف الخَشبى المُتَّخذ فى الجو المسمى بالطَّبلة ، وأرسل جوارح الأكْلُب الضخام ، المُجْتلبة من أرض ألان ، خلف فحول البقر الطَّاغية الشَّرس ، تمسُكها من آذانها وأجْنابها ، حتّى تتمكن منها الرِّجال ، وغير ذلك من أوضاع الإعْذار وجُزْئيَّاته . وهى آخر الشِّعر فى هذا الغرض ، لخجَل السلطان من تنزُّلى إلى ذلك ، وترْفِيهى عنه تَجلَّة ، أجلَّه الله ، وكرَّمه لديه :

شحطت وفودُ الليل بان به الوَخْط وعسْكرُه الزِّنجىّ همَّ به القبط
أتاه وليدُ الصُّبح من بعد كَـبْرة أيُولدُ أجْنَى نـاحِلُ الجسم مُشْمَطٌّ
كأنَّ النجوم الزُّهر أعشار سَوْرة ومن خطرات الرَّجم أثنـاءها مطٌّ
وقد وَرَدَت نهر المجـرَّة سَحرةً غوائصُ فيه مثلما تفْعل البَطٌّ
وقد جعلت تُفْلى بأنْمِلها الدُّجا[3] وتُرسلُ منهـا فى غدائِرِه مِشْط

(١) وردت فى الإسكوريال (تعديلها) والتصويب من النفح .

(٢) هذا البيت الأخير وارد فى الإسكوريال . وساقط فى النفح .

(٣) هكذا الإسكوريال . وفى النفح (النلا)

يحفُّ[1] عُباب الليل عنها جواهر فيكثر فيها النَّهب لِلْحين والَّلقط
فعادت[2] خيالاً مثلها غير أنَّـه من البثّ والشكوى يَبين له لَغْط
سَرَتْ سَلْخ شهرٍ فى تلفُّت مقلة على كتب[3] الأَحلام تَسْمُو وتنحَطُّ[4]
لى الله من نَفْسٍ شُعاع ومُهْجة إذا قَدَحت لم يَخْبُ من زَنْدها سَقْط
ونُقطة قلب أصبحت مَنْشَأَ الهوى وعن نُقطة مَفْروضة ينشأُ الخطُّ
فأُقسم لولا زاجر الشَّيب والنُّهى ونفسٌ لغير الله ما خضعت قطُّ
لِريع لها الأحْراس منِّى بطارقٍ مفَارقه شَمْطٌ وأَسيافه شُمْط
تناقله كوماءُ سامية الذُّرى ويَقْذِفُه شهمٌ من النِّيق مُنحط
ولولا النُّهى لم تَسْتَبِن[5] سُبُلُ الهدى وكاد وِزان الحقِّ يُدْرِكه الغَمْطُ
ولولا عَوادى الشَّيب لم يَبْرح الهوى يُهيِّجه نوءٌ على الرَّمل مُخْتَطُّ
ولولا أمير المسلمين محمد لهالَتْ بحار الرَّوع واحْتَجب الشَّطُّ
ينوب عن الإصْباح إن مَطَل الدُّجا ويَضْمَنُ سُقْيا السَّرح إن عَظُم القَحْط
تُقِرُّ له الأَملاك بالشِيم العُلا إذا بذل المعروف أو نُصب القِسْط
أرادُوه فارتدُّوا وجارُوه فانْثَنَوا وسامُوه فى مَرْقى الجلالة فانحطُّ[6]
تشُرُّ[7] على المدَّاح غرُّ خِلاله وما رسموا فوق الطُّروس وماخطُّ[8]
تعلَّم منه الدهر حَالَيْه فى الوَرى فآونةً يَسْخُو وآونةً يَسْطُ[9]

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يشف) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فسارت) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (قتب) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وتنحطو) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تستهن) . والأول أرجح .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فانحطو) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تسير)
(٨) فى النفح (خطوا) .
(٩) فى النفح (يسطو) .

وتجمع بين القبْض والبَسْط كفُّه ... بحكمة مَنْ فى كفِّه القبض والبسط
خلايق قد طابَتْ مذاقاً ونفحَةً ... كما مُزجت بالبارد العذب اسْفَط
أسبِط الأمام الغالبى محمد ... ويا فخر ملك كنت انث له سبط
وقَتْك أواق الله من كل غـائلٍ ... فأىُّ سِلاح ما المُجنُّ وما اللّمطَ
لقد زلزلت منك العزايمُ دولةً ... أناختْ على الإسلام تَجْنِى وتَشْتَطُّ
إيالَة غَدْرٍ ضعضع[1] الله رُكْنَها ... ونادى بأَهْلِها التّبار فلم يَبْـطْ
على قَدَرٍ جلّى بك الله يؤسها ... ولايكمل البحران أوينضج الخلط
وكانوا نعيم الجنّتَين تفيّئـوا ... ولـمَّا يَقَعْ منها النزول أو الهبْطُ
فقد عُوِّضوا بالأثل والخمط بعدها ... وهيهات اين الأثل سنهم[2] أوالخمط
فمن طايح فوق العراء مُجـدَّل ... ومن راسفٍ فى القيْد أرْهقه الضغط
أنَمْتَ على مهد الأمـــان عيونها ... فيُسْمع من بعد السُّهاد لها غَطُّ
وصمٌّ صدى الدنيا فلما رَحمْتَها ... تزاحم مـرتادٌ عليها و مُخْتَطُّ
وألحف[3] منك الله أُمّة أحمـــد ... أماناً كما يضفُو على الغادة المرْط
وأحكمتَ عقد السِّلم لم تأل بعده ... وجاء فصحّ العَقدُ واسْتوثق الرّبط
وأيقن مرتابٌ وأصحب نافــرٌ ... وأذعن مُعْتاصٌ وأقْصَر مُشتطٌّ
ولله مَبْناك الـذى معجـزاتــه ... أبَتْ[4] أن توافيها الشِّفاة أوالخطُّ
وأنِسْتَ غريب الدار مسْقط رأسه ... ومن دون فرْخيه القتادة والخرْط
تناسبت الأوضاع فيه[5] وأحْكمت ... على قَدَرٍ حتى الأرائــك والبُسْط
فجاء على وفق العُلا رائق الحلى ... كما سُمِط المنظوم أو نُظم السِّمط
ولله إعذارٌ دعــوتَ لـه الـورى ... فهبوُّا لداعيه المَهيب وإن شطُّوا
تقودهم الزُّلفى ويدعوهم الرِّضا ... ويحدوهم الخصْبُ المضاعف والغبْط

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ضيع). (٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (منها) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وأتحف) و الأولى أرجح .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (سمت) . (٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فيك) .

وأغْرَيتَ بالبهْم العلاج تحفِّياً ... فلم يُدَّخر الشيءُ الغريب ولاالسُّمط
أتت صورا معْلُولة عن مِزاجها ... وأصل اختلافالصُّورةالمزْ ج والخَلْط
قضيتَ بها دَيْن الزمان ولم يزل ... ألدَّ كذوبَ الوعـد يلوى ويشْتطُّ
وأرسلت يوم السَّبق كل طِمِرَّة ... كما تُرْسل(١) الَملْمُومة النَّاروالنَّفط
رَنَتْ عن كحيلٍ كالغزال إذا رنا ... وأوْفَت بهادٍ كالظَّليم إذا يُعط
وقامت على منحوتة من زبرجـد ... تخطُّ على الصُّم الصِلاب إذا تخطو
وكلُّ عتيق من تماثيل رُومـة ... تانَّق فى استخطاطه القسُّ والقَمْط
وطاعته نحر السُّكاك أعـانها ... على الكَون عِرْقٌ واشجٌ ولحاً سِبْط
تلقَّف حيَّاتِ العَصى إذا هَوتْ ... فثعْبانها لا يُسْتَتَم(٢) له سَرْطُ
أزَرْت بها بحر الهواءِ سفينة ... على الجود لا الجودىّ كان لها حطُّ
وطاردتَ مِقدام الصُّوار بجـارج ... يُصاب به منه الصِّماح أو الإبط
وجىء بشبْل الملك يُنجـد عـزمه ... عليه الحفَّاظ الجَعْد والخلق السِّبط
سمحتَ به لم ترع فرط ضَنانة ... وفى مثلها من سُنَّة يُترك الفرْطُ
فأقْدم مختاراً وحَكَّم عـاذِراً ... ولم يشتمل مسكٌ عليه ولاضَبْطُ
ولو غير ذات الله رامته تضنَّضَتْ ... قَتلى كالأفاعى الرُّقط أودونها الرَّقْطُ
وأسَدُ نزال من ذؤابة خَـزْرجَ ... بها ليل لارُوم القديم ولا قِبْط
جلاَّدهم مثْنى إذا اشْتجر الوغىَ ... كأنَّ رعـاه بالعضاة لها خَبْطُ
كتايبُ أمثال الكتـاب تتالياً ... فمن بيضها شكلٌ ومن سُمْرها نَقْط
دليلهُم القرآن ياحبَّذا الهُـدى ... ورهْطُهم الأنصار ياحبذا الرَّهْطُ
وبيضٌ كأمثال البروق غمامُها ... إذا وشحت سُحب القِتام دمٌ عَبْط

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (قذف) . والأول أرجح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يستقيم) .

ولكنه حُكمٌ يُطــــاع وسنَّةٌ … وأعمال برٍّ لا يليق بها الحبْط
وربَّة نقص للكمال مـــآلــه … ولا غرو فالأقلام يُصلحها القطُّ
فهنِّيتَه صُنْعاً ودمت مُمَلَّكــــا … عزيزاً تُشيد المعْلُوات وتختطُّ
ودون الذى يُهدى ثناؤك فى الورى … من الطِّيب ما تُهدى الأُلُوَّة والقسط
رضيت ومن لم يَرض بالله حاكماً … ضلالاً فللّه الرِّضا وله السُّخط
حياتك للإسلام شَرْطُ حياتــه … ولا يوجد المشْروط إن عَدِم الشَّرط

ومن أغراض النسيب قولى فى الأَوليات والله ولى المغفرة :

تعلَّقته من دَوْحة الجوُد والبأْس … قضيباً لعوبا بالرَّجاء وباليأس
[درُوباً بتصريف] (١) اليراعة والقنا … طروباً بحمل المَشْرَفِيَّة والكاس
يذكر فيه الصُّبح عند انْصِداعه … جمالَ رُواءٍ فى تأرج أنْفــاس
ويبدو لعينى شعرُه وجبينـــه … إذا ماسفحتُ الحبرفى صَفْحقرطاس
أجالَ من الشوق المبرِّح غــارةً … على أربُع من حنين صبرى أدراسى
فظاهرت من سَرْد السِّقام مــلامةً … وأوجفتُ منشفرالدموع بأمْراس (٢)
لكِ الله من رُبًى طواكِ على الظَّما … ومن أملٍ لم أجْنِ منه سوى يأْسِ
ومن قمرٍ سَعْدٍ عَشوْتُ لنـــوره … فسعَّر أحشائى وصعَّد أنْفــاس
إذا ما شْرعتَ اللَّحظ نحوى عابسا … أقول القلب (٣) ضاع ما بينجُلاَّسِ
أيا عَبدَ شمس الحُسن هل لك قدرةٌ … على سطوة السَّفاح من آل عباس
سجَمْتُ على هول الغرام بمهجة … تعامتْ فلم تدر النَّعيم من البْأس
تُوهِّج نارُ الخدِّ نارَ جــوانحى … ويَعيث وِسْواس الحلى بوسواس
يا قلبُ صبراً فى الغرام وحِسْبَةً … لمن تشكَّى بالدَّاء والممرض الآس

(١) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (ضروبا بضرب) .
(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (أ فراس) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (لقلبى) .

ومطْلُولة الأَعْطاف جرّت ذيولَها   على مِسْكَةٍ من مسكة العاسق القاسى
يحدِّق من أجفانه نرجسُ الرُّبى   وهــدَّد من آذانه ورقُ الآس
لعمرك ما أرى[1] وقد ثقِّف النهُى   إذا التبس الحق المبينُ باليأس
أتلك شمالٌ أم شمول مــدارةٍ   على كل غُصْن فى الحديقه ميَّاس
لقد ضَعضَعت حلمى ولم أر نَسْمةً   تَضعضع من هبّاتها جبلٌ راس
رعى الله أجْراع الحمى دار صَبْوتى   ومَـرْبَـعُ آلامى ومعهـدَ إيناس
فما كان فيه الوصل إلاّ عُــلالة   كنقْبة مُرْتاح ونَهْبة خــلاَّس
وقالوا أبِعْت العيش بعد فراقنا[2]   فلفَفْتُ أذْرانى حياءً على الرأس
ثقوا بوفائى ما استقلّت جوارحى   ورعْيٍ ذمامى ما تماسك إحْساس
ولا تعذُرونى إن نَسيت عهودكم   وإن رَفَع الله الجُناح عن الناس
فؤادى غنيٌّ بالوفاء وربما تُسجِّل   فى صبرى وثيقـة إفــلاس
لى الله من قَلْبٍ خَفوق معــذَّبٍ   يرى أنَّ ما بالموت فى الحبِّ من باس
تجول بناتُ الفكر حول خيالــه   كما حُفَّ جَوّال الفراش بنبرْاس
أُفوِّض للرحمن أمرى فى الهوى   وأعلِّق كفى من حِماه بأمراس
وآمــل لُطفَ الله فيه فــإنــه   أبرٌّ بميثاق وأوْفى بقِسْطــاس

وقلت فى النَّسيب كذلك :

أما وخيالٌ فى المنــام يــزور   وإن كان عندى أنَّ ذلك زور
لقد ضِقْت ذَرْعاً بالشّوق بعد بُعدكم   على أننى للنائبات صبُــور
أُدافعُ فى شوق ووجــدى كتايباً   تَزلزل رَضوى عنـدهـا وثبير
سرايا إذا ما الليل مــدَّ رواقَه   على ساحـة الصَّبر الجميل تغير

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريتوبة (ترى) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (افتراقنا) .

بَرَى جسدى فيكم غرامٌ ولـوعـةٌ إذا سكن الليل البهيم تَثُـور
ولا أنيني ما اهتدى نحو مضجعى خيالكم بالليل حـين يـزور
ولو شيتُ فى طيِّ الكتاب لزرتكم ولم تَدْرِ عنى أحرفٌ وسطـور
تذكرت عهداً طال بعد انصرامه عليه الأسى وانْجاب وهو قَصير
وقد طَلَعتْ للرَّاح فى ظلمـاته نجومٌ تـوالى حثَّهن بـدور
وتبَنَّيْتُم الوصل فى رَوْضة الرِّضا بليلاً وأكواس السرور تَـدُور
وعهداً بعَيْن الدمع[1] للدمع بعده موارد فى آماقنـا وبُحـور
عهود مُنًى غُصَّ الزمان بحُسْـنها فغـار عليها والزمـان غَيُـور
فها أنا أسْتَقْرى الرياح إذا سَرَت ليخبرنى بالظّاعنيـن خبيـر
وإن خطَّ وجدى من دموعى رسالة على صفح خَدِّى فالنسيم سفير
يا رِحْلَة الصيف الـتى بجوانحى لها لهب لا ينقضى وسـعير
أَحُول منك الشَّهر حولا على الورى وأَصْبحَت الأَيـام وهى شهور
ويا قلب لا تطرح سِلاحَك رهبـةً فهل هى إلاَّ أَنَّةٌ وزفـير
جَنَيتُ النَّوى لا عن مَلال ولا قِلىً فمثلى بموصول المـلام جَدير
وجرَّدتُ عنِّى لِبْسَة الوصل طايعا وكم شَرِقٌ بالمـاء وهو نَمير
أأحمد إن جلَّ الذى بى من الجوى وأصبحت مالى فى هـواك نَصير
فلست من اللُّطف الخفىِّ بيائس فكم من بُكاءٍ كان عنـه سُرور
أتانى كتابٌ منك لا بل حديقةٌ تفيَّأتُهـا والهجـر منك هجير
وأرسلتُ دمع العـين حين قرأته فمنـها أمـامى روضـة وغدِير
تكلَّفت فيك الصبر والصبر مُعْوِزٌ وهوَّنْتُ فيـك الخَطْب وهو عسير

(١) عين الدمع اسم لضاحية بغرناطة الإسلامية ، كانت أيام المسلمين تغص بالحدائق والمتنزهات ،وكان موقعها قريبا من جبل الفخار ،ومكانها اليوم يقع فى دائرة الضاحية الغرناطية المسماة لاكارتوخا La cartuJa .

وَلُذْتُ إلى الآمـال وهى سَفاهة ... وملتُ إلى الأطمـاع وهى غرور
سألقى إلى أيدى الزمان مقـادتى ... فيعدل فى أحـكامه ويَجُـور
وإن الذى بالبُعد أجـرى قضاه ... على جَمْع شملى كيف شاء قَدير
فتُدْرَك آمـالٌ وتُقضى مآرب ... لدينـا وتُشفى باللقـاء صُدور

وقلت ، وهى من القصائد التى تشتمل على أغراض غريبة :

عسى خَطْرة بالرَّكب ياحادى العِيس ... على الهضْبة الشَّماء من قصر بادِيس
لنظفر من ذاك الزلال بعَـلَّة ... ونَنْعَم فى تلك الظِّلال بتَعْـريس
حبستُ بهـا ركْبى فُواقـا وإنما ... عقدتُ على قلبى بها عَقْد تَحْبيس
وقد[1] رَسَخت آىُ الجوى فى جوانحى ... كما رسخ الإنجيل فى قَلْب قِسِّيس
بميدان جَفْنى للسُّهاد كَتِيبَـةٌ ... تُغير على سَرْح الكَرَى فى كرادِيس
وما بى إلاَّ نَفْحَـة حاجِـريَّة ... سَرَتْ والدُّجى ما بين وَهَن وتَغْليس
ألا نَفَّس يا ريح من جانب اللِّوى[2] ... يُنفِّس من نار الجوى بعض تَنْفيس
ويا قلب لا تُلق السِّلاح فربمـا ... تعذَّر فى الدهر اضطِّرادُ المقاييس
وقد تُعْتِب الأيـام بعد عِتـابها ... وقد يعقبُ الله النَّعيم من البُؤس
ولا تخْشَ لُجَّ الدمع يا خطرة الكرى ... على[3] الجَفْن بل قِيسى على صرح بلقِيس
تقول سُلَيْمى ما لجسمك شـاحبًا ... مقالةَ تأنِيب يُشـاب بتأنِيس
وقد كنت تعطو كلما هَبَّت الصَّبا ... بريَّان فى مـاء الشـبيبة مغْمُـوس
ومن رابح الأيام يا ابنة[4] عـامر ... يجوب الفلا فُلَّت[5] يداه بتفليس

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح والأزهار (لقد) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح والأزهار (الحمى) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والأزهار (الى) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الأزهار (يابنت) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والأزهار (راحت) .

فلا تحسبى والصِّدق خير سجيَّة ظُهور النَّوى إلا بطون النواميس

ومنها :

وقفراءُ(١) أما رَكْبُها فمضلَّل ومَرْبَعُها من آنسٍ غير مَأْنوسِ
خبطنا(٢) بها من هَضْبة لقرارةٍ ضلالا وملنا من كِناس إلى خِيس
وقد غمر الآل الرِّحالَ كأنَّما تخبَّط منه فى ضباب الدَّماميس(٣)
إذا ما نهضنا من مَقِيلٍ غزالة نزلنا فعرَّسْنا بساحة عِرِّيس
أدرنا بها كأْسًا دِهاقًا من السُّرى أملنا بها عند الصَّباح من الرُّوس
وحانة خمَّارٍ هدانا لقصدها شَميم الحُمَيَّا واصطكاك النَّواقيس
تطلَّع ربَّانيها من جداره يُهَيْنم فى جَنح الظلام بتَقْديس
بكَّرنا(٤) وقلنا إذ نزلنا بحانه(٥) عن الصَّافنات الجُرْد والضُمَّر العِيس
أيا عابد النَّاسُوت إنا عصابة(٦) أتَيْنا لتثْليثٍ بلى ولتَسْديس
وما قصدنا إلا المُقام بحانة وكم أُلبس الحق المُبين بتلْبيس
فأنزلنا قَوْراءَ فى جَنَباتها محاريبُ شتَّى لاختلاف النَّواميس
بَدَرْنا بها طين الخِتام بسَجْدةٍ أردنا بها تجديد حَسْرة إبليس
وطاف(٧) العَذارى بالمُدام كأنَّها قَطًا تتهادى فى رِياش الطَّواويس
وصارفنا فيها نُضارًا بمثله كأنَّا مَلأْنا الكأْس ليلا(٨) من الكيس

(١) هكذا فى الإسكوريال والأزهار . وفى الإسكوريال (وخرقاء) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (سحبنا) . وفى الأزهار (سبحنا) .
(٣) هذا البيت وارد فى الإسكوريال والزيتونة . وساقط فى النفح والأزهار .
(٤) هكذا وردت فى النفح والأزهار . ووردت فى الإسكوريال والزيتونة (فكدنا) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح والأزهار (بساحه) والأولى أرجح .
(٦) هكذا فى الإسكوريال والأزهار . وفى النفح (صبابة) وهو تحريف .
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى الأزهار والنفح (ودار) .
(٨) هكذا وردت فى الأزهار والنفح . وفى الإسكوريال (يوما) .

وقُمنا نُشادى عندما متع الضُحى | كما نهضت غُلْب الأُسود من الخيس
فقال لبئس المسلمون ضيوفنا | أما وابيك الحَبْر ما نحن بالبِيس
وهل فى بنى مثواك إلا مُبـرِّز | بحلْبة شُورى أو بحلْقَة تَدْريس
يحدق[(١)] تحت النقع مقلة ضاحك | إذا التقت الأبطال عن مُقل شوس
إذا هزَّ عسال اليراعة فاتكاً | أسال نجيع الحِبْر فوق القراطيس
سَبَيْنا عقار الرُّوم فى عقر حانها[(٢)] | بحيلة[(٣)] تمويه وخِدْعة تَدْلِيس
لئن أنكرتَ شكلى فَفَضْلى واضح | وهل جائزٌ فى العقل إنكار محسُوس
وسبت بأقصى الغرْب ثغر مظنة[(٤)] | وكم دُرَّة علياء فى قاع قامُوس
وأغريت سوسى بالعُذيب وهاجر[(٥)] | على وطنٍ دانى الجوار من السُوس

وقلت فى إسلوب مهيار رحمه الله :

جُزْ على جَرْع الحِمى لا مَحاله | وتعرَّض لرايد الرِّحـــاله
وافضِ فى تِلاح نجْد وقدجمَّها | الحِمْض واذكر زابقـــا له
وأدِرْ فى قرارة الماء قد دارت | على بَدْرها من الرَّبيع هـاله
ربما يعجز القوىُّ عن الأمر | فيُرضى الضَّعيف فيها احتياله
فإذا ما استجَدت من خبر الحِمى | يقينًا أو التَمَحْت جـلاله
فاعقِل الحرْف فى ظلال من البان | على الوحْش فى الهجير ممااله
وادخل الحىَّ عندما رَوَّح الرَّاعى | وضَّم المِسا فيـه رِعـاله
لا تجاوز أطْناب خِيمة ظميًا | فهاتيك القلـوب حبـاله

(١) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح والأزهار (يقلب) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (خانها) . وفى النفح (دارها) . وفى الأزهار (خانتا) .
(٣) هكذا فى المخطوطين والأولى بحلية .
(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (مضلة) . وفى الازهار (مضنة) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والأزهار (وبارق) .

ولتقُلْ إنْ أتتك تسل عن حالى   تعوَّضتها بحالك حاله
ليس إلا امْتِعاضة لغريب   أثْخَنتْه جفُونُك القتَّاله
سال الماءُ والمزادة ملأى   ثم ما نال غير نفسٍ مُساله
كيف لو جاءَ سائلا منك رِسْلاً   أو أتى يحتذى جواب رساله
قسمًا أنه أخى ضَنين وهبٌّ   البأْس شأْنُه والبَسماله
بكَتْ الورْق شجْوه حين ناجاها   وأبدى له الأَصِيل اعْتِلاله
نازحٌ زار من تباله نجْدا   أين ما بينه وبين تباله
أيها السَّابق العَنيف ترى   المُهْر يسقى يمينه وشماله
يرِد الحَوْض حوله كل أشْقى   كلٌّ حوله يُلقى عليه مُساله
فِكراه إذا استحمَّ غِرار   وقِراه إذا ألمَّ عِجاله
فالسُّكَّان راحة والأَمانى   لليالى شرَّابةٌ أكَّاله
لا تُحِلُّوا دم الغريب المُعنَّى   وعلى الله فى الجزاء الحِواله
وكسا من نَمارق السُّنْدس المُخْضَرِّ ذِهنًا بالحيا ورساله
يا لِقومى من ذِكر تلك المغانى   ما لِقلبِى يهوى أنين ماله
علِق البثُّ والصبابة فيها   وبلِى البحْر عندها والملاله
كان لا يَرْتضى الحِياض لِوِرْد   فهُو اليوم قانعٌ بِبِلاله
هِمَّة تُزحم السِّماك وقلبٌ   آثر اللَّبث فى حضيض الإِقاله
كان أولى لـه الإِباية والعزّ   فيا بُؤْس ما ارتضى لولى آله
والهوى مُركَّبُ الهوان إذا   هَملَج فى ملعب الصِّبا والجهاله
ما الذى يجلب العذول لسمعى   من حديثٍ خَبا إلىَّ خَباله
لا أبالى بما يقول فهلاً   أقْصَر العذل جاهداً لا أبا له
أنا ما بِى سوى لحاظُ فتاة   خَتَلَتْنى وأدبرَت مُختاله

بَسمتْ أُقحوانةً وتثنّت بانةً ثم لاحــظَتْنى غـــزاله
ورَمتْنى فقبـل لعرّاف نجـد إن تخلّصت فدونك مــاله
إخبر الخابط المدوم نشكو إظهر العِيس جُمْلةً وفصاله
إننى قد نزعت عن نتَن الغَىّ ويا طـالما انتحلتُ مُحـاله

ومن الفخر والتأبين ، قلت مُتَشبِّعًا ، علم الله بألاَّ أملك ، وإنما هى أغراض الشعراء يُتَفَنَّن فيها ، والله ولىُّ التجاوز عن التجاوز :

لنا فى الفخر سيمةٌ مُطلَّة تقوم على دعاويها الأَدِلَّـة
وشمسُ الحق منظور سَناها على الشُّبه المخيلة المُخِلة
بنى سَلْمان سل عنهم ستَدْرى على الأَجيـال منهم كلَّ جِلَّة
يمانيةُ المناسِب والمواضِى مفاخرها رسُـومٌ مُسْـتَقِلَّة
فمن نار الوغى فى كلِّ وادِ ومن نار القِرى فى كل حِلَّة
ومن وصْل الخطاب بكل ناد ومن فضل الثَّناء بكل مِلَّة
تَهِشُّ لنا البدور بكل خِدرٍ وتهوانا الشُّموس بكل كلة
ويُمرضنا العفاف فكم عليل وما غير الهوى والكَتْم علَّة
تحج بيوتنا القُصَّـاد دأبا فلا تنفكُّ طـايفةً مُهلَّـة
بحيث البِيضُ ضامنة المساعى وحيثُ السُّمر مشِرةٌ مُغِلَّة
فعند السِّلم محرَّمةٌ عكُوف وعند الحرب فاتِكة مُحِلَّه
وحيث الجُرْدُ للغارات تَرْدى فتركها جواسِر مُشمعلَّة
ولم أر مِثْلَنا فى الدهر قوماً رياحُ الجو تلْحف بالأَجِلَّة
وتضطَبِن الصواعق فى غُمُود وتَقْتَنص البوارق بالأَهلَّة
فتُطْعِمنا المجانى والرَّواسى وتُسْقِينا الغُيوث المُسْتهلَّة
وتفترش البطاحُ لنا الحشايا وللرَّايات أروقة مُظِلَّة

وتعرفُ من أغِرّتنا الدّياجي لعزِّ الله خاضعةً أذلّة
أبا عبد الله فَدَتْكَ نَفْسٌ على ما حُزْتَ من فضل مُدلّه
دعوتُك مستجدًا عهد أُنْسٍ أبْلَته الليــالى المُسْتمِلّة
وقد ظعن الصِّبا إلاّ ادِّكارٍ وقد ذهب الهوى إلاّ تعِـلّة
فساعِدْنى عليه من اغتِراب له فى مُهْجتى وخْزُ الأخِـلّة
وما حلّنى بفخرك فى صريح فكم تاجٍ هنـاك وكم تَجلّة
ودمت مُجْمِعًا شمل المعالى ومقتادَ أمنِ الدُّنا شـــملّه

وقلت أرثى ثلاثة من الإخوان تقاربت وفياتهم ، جمع الله الشّمل بهم فى دار الرِّضوان والمغفرة بمَنّه :

أسايلكم هل من خبيـر سُلوان فنى ليل هَمِّى ضاع أو سيل أجْفانى
وهل عندكم عِلْم بصبرى إنّنى فقدت جميل الصّبر أوْجع فُقْدان
يقولون خَفِّض بعض مابك من جوى هان على المرتاح ما لَقِى العـان
تضيق علىّ الأرض وهى فسيحةٌ كما خُلق فوق الخَصْر معقّدٌ هِيان
وما يفتأُ الشّوق المُقيم بأضلعى إذا مرّت عن طوق الصّبابةَ أفنان
وليس مَشِيباً ما ترون بمَفْرق ولكن خطوبٌ جمّة ذاتِ ألوان
وأرّق عينى الأسى يبعثُ الأسى مطوّقةً نامت على غُصْن البان
لمن دِمَنٌ يشكو العَفاءُ رسومَها كحظٌ زَبُور فى مصاحِف رُهْبان
وقفتُ بها أذرِى النّجيع كأنّما تُقْرى وشكُّ البَين منّى بقُرْبان
ديارُ الأُلى كانوا إذا أُفقٌ دَجا كواكبَ يجلو نورُها لَيْل أشجان
هَوَتْ من سمائى بعد ما كنّ زينةً ولهفى عليها من ثلاثة شُهْبان
رمانى بيعقوب الزمان وبَعْــده رمانى بلِدِزْهم يا لك سَهْمــان
وإن كان مابين الخطوب تفاضُلٌ فلا تَنَلْ فَقْدى بأحمد بن سليمان

كفانى أن أدرجتُ محض مسرّتى ... وجُملة أُنسى بين لَحْدٍ وأكفان

ووالله ما أنسانى الدهر أوّلاً ... بشارٍ ولا أُنسيت بالثّالث الشّان

تخوّنهم صرفُ الرّدى فتحرّموا ... كما انتثرت يوما قلادةُ عِقيان

فمن سابقٍ ولىّ على إثر سابق ... كما استَبَقتْ غرٌّ الجياد بميدان

بنفسى من حيّيته فاستخفّ بى ... ولو أنه ردّ التحية أحيانِ

وعهدى به مهما دعوتُ وبينه ... وبينى العُلى والنِّيل والخيل لُبّان

دنا منزلا منّى وشطّ مزارُه ... فيامن لِقلبى منه بالسّاخط الدّان

ألا ليْت عُمْرى لم يُفدنى زمانه ... مودة خلٍّ سار عنّى وخِلّان

فلو شعُرت نفسى فإنّنى لشاعرٌ به ... يوم أرْدانى لشَمّرت أرْدانِ

هو الموت يختار الخِيار ويَنْتَقى ... جنّى لبنى الدّنيا كما يفعل الجان

فلاتُقْنِ مايفنى تَعِش وادعُ الحشا ... أبى الدهر أن يُلقى على الدهر ألفان

صديق الفتى إن خَفّق الحق روحه ... فكم نِسبة ما بين رُوحٍ وجُثمان

وما حال زَنْد لم يؤيد بساعد ... وما حال طَرْف قد أُصيب بإنسان

وهبنى أمِنْتُ الحادثات ولم يَرُع ... جنانى وخَلاّنى الزمان وخِلّان

أليس إلى التّحليل كلُّ مُرَكّب ... مُقَدّمةٌ لم يختلف عندها إثنان

يُدَبّرُ لى الدهر المكيدة فى المُنا ... فإن قلتُ قضّانى الخفوق تقاضان

وليل بقَبابى محلّة قلعة ... أهدرتُه فى ترضّ على مـــان

أيعقوب ما حُزْنى عليك بمنقض ... ولا أُنْسُ إنسان مصابَك أنسانِ

ولا حالى الحالى على البُعد غرّنى ... ولا عَيْشى الهانى على النّأى ألهانِ

فمن لى بدمع فى المحاجر مُهتند ... عليك وقلبٍ فى الحناجر حَيْران

نسبتُ إلى ماء السماء مدامعى ... فأورت لى فيها شَقايق نُعمان

إذا ما حدَتْ ريح الزّفير سحابها ... ثقالا سَقى منها المعاهد عَهْدان

وقد دان قبل اليومِ دمعى خالصا ... ولكن أمهلنى على الدمع إدمانِ
لقد كنتَ لى رُكْناً شديداوساعدًا ... مديدا ومذخوراً لسرٍّ وإعلان
كسالَخدك الرَّيحان والرُّوحِ والرَّحا ... فقد كنتَ رُوحى فى الحياةوريحان
وجادت على مَثْواك مُزْنة رحمةٍ ... يحيِّيك منها كلُّ أَوْطَف هتّان
وما كان إبراهيم إلاّ حديقةً من ... الفَضْل تُؤْتى أُكْلَها كلَّ إنسان
أمينٌ على السرِّ المصون محافظٌ ... على كَتْمه إن ضاق صدرٌ بكتمان
لئن بَليت تلك المحاسن فى الثَّرى ... فحزنى جديدٌ ما استمر الجَدِيدان
قِراه عليها من نعيمٍ ونُضْـرة ... وخفى عليه من شَباب ورَيْعـان
ذكَرْتك والأَيام سَلْمٌ وشملُنـا ... جميعٌ وطَرْفُ الدهر ليس بيَقْظان
وللنَّرجس المَطْلول تحديق أَعْين ... وللآسةِ النحـانى ريـد آذان
وللشمس ميلٌ للغروب مرنَّح ... تَرى رُجَّح الدُّنير فى كفِّ ميزان
بِساط طواه الدهر إلاَّ تذكراً ... كما تَنْقَعُ الرَّمضاءُ غُلَّة ظَمْآن
وإن ذُكر الإخوان مَنْ مثلُ أحمد ... ألا كلُّ مرعى تعدد غيرُ سَعْدان
ذخيرةُ أيامى ووُسْطى قِلادتى ... ونُكْتَة إخلاصى وحكمة ديوانِ
وثران ضَللتُ الفضل يوم استفادة ... هَدانى إلى نَهج السَّبيل وهَادانِ
شهيدٌ ذَرَّت عينى عليه نَجيعَها ... كأنَّهم واروه ما بين أجْفـان
أخِلاَّءُ كانوا فى الشَّدائد عُـدة ... إذا أثمرت هوجُ الخطوب بخُطْبان
شلَّهم شوْى الرَّدى فتجمَّلُـوا ... وحلُّوا جِوار الله أكْرَم ضِيفانِ
يحقُّ لهم أن يُغْبطوا إد تنقلوا ... إلى العالَم الباقى والعالم الفَان
وما أكتب اللقا وإن بَعد المدا ... ويا قُرْب ما بين المُعَجَّل والْوان
سكنتم فحرّكتم جحيم جَوانحى ... وغِبْتُم فأَحضرتم لواعج أحزانِ
ويمَّمْتُم دار النَّعيم وإنَّنى لأشْقَى فيا بُؤْسى بسكَّان نعمـان

ولو أنني أعطيتُ نفسى حقَّها … فما أنا للعَهْد الكريم بخَـوَّان
ولا عـارٌ فى وِرْد الحِمـام فإنه … سبيلُ الوَرى ما بين شِيبٍ وشبَّان
لعَمْرُك ما يصفو الزمان لوارِدٍ … وإن طال ما أحْمى لظَى الحرب صفَّان
وقِسْ آتيًا من أمره بالذى مضى … فربَّ قياس كان إجلاء لبرهان
أما تَرَكَتْ كِسرى كسيرا صرُوفه … ولان على صولاته ملكُ اللان
ومدَّ إلى سَيفٍ أكفٌ اعتدايه … فأخرجه بالرَّغم من غُمْد غُمدان
وهل دافَعَتْ خَطْبًا توابعُ تُبَّع … وهل درأت كرْبًا سياسةُ ساسان
وكان قياد الصَّعب صعباً ممَّنَّعاً … فألقى إلى الدُّنيا مقادة إذعان
جلت لبنى العباس وجهَ عُبوسها … وقبلُ أمدَّت سِرْب أبناءِ مَرْوان
وكم أخلَفَتْ شتَّى المُنا من خليفةٍ … وأذوت رياح الدهر إذواء تيجان
وغادرت القصر المشيد بناؤه بسِندا د قفْـرًا بَلْقعاً بعـد عُمْـران
ولم تُبق يوما للخُوَرْنقِ رونقاً … ولا شَعَّبت بالقتل من شُعْب بوَّان
وكم من أبيٍّ سامَهُ العُسْر دهره … فأبْدَى له بعد الرِّضا وجهَ غضبان
ومحتقرٌ ماضى الذُّبابين فى الوغى … سطا منه بالأنف الحِمى ذبابان
وأىُّ سرورٍ لم يعد بمساءَةٍ … وأىُّ كمالٍ لم يُعاقب بنُقْصان
ومن باع ما يَبْقى بفانٍ فإنما … تعجَّل فى دُنياه صَفْقة خُسران
تحذوها على بُعْد النَّوى من مُسْهدٍ … حليف أسىً ما فى الجوانح لهفان
ووالله ما وفَّيتُ حقَّ مـودة … ولكنه وُسعى ومبلغُ إمْكانِ
ومهما تساوى طَنيبٌ ومُقْصِـرٌ … بحال فحكم النُّطق والصَّمت سيان
ولا لَوْم لى فى العجز عن نيل فايت … فإنَّ الذى أعْيا البريَّة أعْيانِ

ومن الاسترجاع والاعتبار والتحزن لورطة الغفلة ، وما توفيقى إلا بالله ،
قلت من الشعر المتقدم عن هذا الوقت :

جهادُ هوًى لكن بغير ثواب ... وشكوى جوًى لكن بغير جواب
وعمرٌ تولّى فى لعلٍّ وفى عسَى ... ودهر تقضَّى فى نوًى وعتاب
أما آن للمُنْبَتِّ فى سُبل الهوى ... بأن يهتدى يوما سَبيل صواب
تأمّلتُها خلفى مراحل جُبْتُها ... يناهز فيها الأربعين حساب
جرى بى طرفُ اللّهوحتى شكا الوَجا ... وأقفَر من زاد النشاط جِراب
وما حَصلَت نفسى عليها بكامل ... ولا ظَفِرت كَفِّى ببعض طِلاب
نصيبى منها حَسْرَةٌ كَوْنُها مضت ... بغير زكاةٍ وهى مثلُ نِصاب
وما راعنى والدهر رَبُّ وقائع ... سجالٍ على أبنائه وغِلاب
سوى شعراتٍ لَحْن من فوق مَفْرِقى ... قُذِفن لشيطان الصِّبا بشهاب
أبَحْن ذِمارى وانتهبن شبيبتى ... أهُنَّ نصولٌ أم نصولُ خِطاب
وقد كنت يهدى المروض طيبُ ... شمايلى ويمرح غُصْن البان بين ثِياب
فمذ كتب الوَخْطُ الملمُّ بعارضى ... حروفًا أتى منها بمحض عِتاب
نسختُ بما قد خطَّه مُسْند الهوى ... وكم سُنَّة منسوخة بكتاب
سلامى على تلك المعاهد(١) إنها ... مرابع ألأَفى(٢) وعهدِ صِحاب
ويا آلَةَ(٣) العهد انعِمى فلطالما ... سَكَبْتُ(٤) على مثواك ماءَ شبابِ
كأنّى بذات الضّال(٥) من فتى ... تذكّر فيها اللهو بعد ذهاب
تقول اذكُرى بعد ما بان حيرتى ... وصوّح روضى واقشعر جناب
وأصبحتُ من بعد الأوانس كالدُّمى ... يهول حُداة العيس جَوْب يباب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (المرابع) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (إلنى) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ويابانة) .
(٤) وردت فى الإسكوريال (بكت) . والتصويب من الزيتونة .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الدال) .

تغار الرياح السَّاجيات(١) بطارق | فما أن تُديم الرَّكض حول هِضاب
فإن سَجَع الركبان فىَّ بِمِدْحَة | حثٌّ فى وجوه المادِحين تُراب
ألم تعلموا أن الوفاء سجيَّتي | إذا شَحَطت(٢) دارى وشطَّ ركاب
سقاك كدمعى أو لجودى وابلٌ | يقلد نحر الحوض دُرَّ حباب
ولا بَرِحَت تهفو لعهدك الصَّبا | ويسحبُ فيه المُزْن فضل سحاب
سواى يردع الدهر أو يستفزُّه | بيوم فراقٍ أو بيوم إيـاب
وغيرى يُثنى الحوض ثَنْي عِنانه | إلى نيل رِفدٍ والتماس ثواب
تملَّأت بالدُّنيا الدنيَّة خبرةً(٣) | فأعظم ما بالنَّاس أيْسَر مابِ
وأيقنتُ أن الله يمنع جاهدا | ويرزق أقواما بغير حِساب
فياذل أذنٍ ضمَّها أذنُ حاجبٍ | وياهَوْن وجهٍ خَلْفَ سِدَّة باب
وقد كان همِّى أن تعانى مطيَّتى | ببعض نبات الليل خوْض عُباب
وأضحى ومحراب الدُّجا مُتهجَّدى | وأمسِى وماءُ الرَّافِدَيْن شَراب
وتضحكُ من بغداد بيضُ قِبابها | إذا ما تراءت بالسَّواد قِباب
ولكنَّ قضاءً يغلبُ العزم حكمُهُ | ويضربُ من دون الحِجا بحِجاب
يقولون لى حتى م(٤) تَنْدب فاسًا | فقلت وحُسْن العهد ليس يُعاب
إذا أنا لم آسف على زمن مضى | وعهدٍ تقضَّى فى صَبًا وتَصاب
فلا نَظَمَتْ دُرَّ القريض قريحتى | ولا كانَتْ الآداب أكبر دأبِ

وقلت أبياتا تَبْرُزُ بها يدٌ من طاقٍ خَشَبِى، لتمام ساعةٍ من الليل، فى نهاية الإحكام وحسن الشكل، يُنْصب مكانها بين يدى السلطان ليلة اتخاذ المولد

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (السافرات) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (اشتعلت) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (حيرة) والأولى أرجح
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (علم) .

الكريم ، فكان منها عند تمام الساعة الرابعة قولى :

سَبَق القضاءُ وأُبْرِم[1] المحتوم والغيبُ عنَّا سِرُّه مكتوم
حال الزمان إذا اعتبرت غريبةٌ والحال فى التحقيق ليس تدوم
والليل سِلْك دُرَّة ساعاتِه إن حلَّ مَعْقِده هوَى المنظوم
أَكْرِم برابعةٍ تولَّت بعدما ثَبَتَت لها فى الصَّالحات رسوم
ولقد سهرتُ مفكرا والبدرُ فى بحر السماءِ مع النجوم يعُوم
فحسِبْتُ شكل البدر أبيض هائما فوق يُحلِّق طيره ويحُوم

ومنها :

حجرٌ رماه المنجنيق فشأْنُه متطأْطِىءٌ متدافعٌ ملموم
ومن النجوم أسنَّة لجيوشها من كل مُطَّلع علىَّ هَجوم
رجعت إلى حربى وعمرى مَعْقِل ومُخلِّصى من نابها معدوم
بدرت لها شرفات أسنانى تَهِى وقُواى تفقد رَجْعة وتقوم
فصرختُ يا وَيْلى أُصِيبت غُرَتى ماذا عسى هذا البناءُ يدوم
وإذا رمى فَلَكُ البروج مدينةً بالمنجنيق فسورُها المهْدُوم
ما دون وجه الحق إن حقَّقْته يفْنَى ويبقى الواحد القيُّوم

المقطوعات المشتملة على الأغراض العديدة

منها فى غرض التَّورية :

ناديت دمعى إذ جَدَّ الرَّحيل بهم والقلب من فَرَق التَّوديع قد وجبا
سَقَطتَ يا دمع من عينى غداة نأَى عنِّى الحبيب ولم تقضِ الذى وَجَبا

وقلت فى التورية أيضاً :

كتبتُ بدمع عينى صَفْحَ خدِّى وقد منع الكَرى هَجْر الخَليل
ورأيتُ الحاضرين فقلت هذا كتابُ العين يُنْسَب للْخليل

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريتونة (أبرز) .

وقلت فى التورية أيضاً :

ولمّا رأت عزمى حثيثاً على السُّرى	وقد رابَها صبرى على موقف البَيْن
أتت بِصِحاحِ[1] الجَوهرى دموعها	فعارضتُ من دمعى بمُخْتصر العَيْن

وقلت فى التورية أيضاً :

مضجعى فيك عن قَتَادة يروى	وروى عن أبى الزِّناد فُـؤادى
وكذا النوم شاعرٌ فيك أمْسى	من دمعى يَهيم فى كلِّ واد

وقلت فى التورية أيضاً :

حين ساروا عنى وقد خَنَقَتنى	عَبَراتٌ قد أعربت عن وُلوع
صحت من فيض العُذيب فلمّا	لم أجد ناصرا قَلِعت[2] دموع

وقلت فى التورية أيضاً :

قال لى والدموع تَنْهل سُحُبا	فى عِراضِ من الخُدود مُحـول
بك ما بى فقلتُ مولاى عافا	ك المعافى من عَبْرتى ونُحولِ
أنا جَفْنى القَريح يروى عن الأَعمَش والجَفْن منك عن مَكْحُول

وقلت فى التورية أيضاً :

مِكناسة جُمِعت بها زُمر العِدا	فمدا بريدٌ فيه ألْفُ بريـد
من واصل الجوع لا لرياضة	أو لابس الصُّوف غيرُ مُريد
فإذا سَلَكْت طريقها مُتَصوِّفًا	فابْنِ السُّلوك بها على التَّجريد

وقلت فى التورية أيضا ولها حكاية :

قلت لما استقلَّ مولاى زَرْعى	ورأى غلَّة الطعـام قليلـة
دِمْنَتى لانتجاعى الحرث كلَّت	فهى اليوم دِمْنةٌ وكلِيـلة

---

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (بكتاب) . والتصويب من النفح .
(٢) قلع أى شق .

وقلت فى التورية أيضاً ، وقد أهدى الوزير عمر بن عبد الله فرسًا [به جراد فى عرقوبه][1] :

أشكو إلى الله الصَّبر من أبناء يعقوب ... والوعد ما بين مَرْموق ومرْقُـوب

زرعت عُرقوب أرضى من شعيركم ... جاء الجراد فأفْنَى زَرْع عَرْقوبِ

وقلت أيضا ، وقد جلس السلطان للسلام فى يوم شديد البرد :

جلس المولى لتسليم الورى ... ولفَضْل البرد فى الجوِّ احْتكام

فإذا ما سألوا عن يومنـــا ... قلت هذا اليوم بردٌ وسلام

وقلت فى التورية أيضا فى سَنَةِ قَحْط :

سألنا ربيعَ العام للعام رحمةً ... فَضَنَّ ولم يسمح بذرَّة إنعام

وقلنا وقد ردَّ الحياءُ وجوهَنا[2] ... قليل الحياء والله أصبحت من عام

وقلت فى التورية أيضاً وضمَّنْتُه مثلا :

لما رأوا كَلَفى به وَرَدُوا ... قَدْر الذى فى فيه من حُبِّ

قالوا الفتى حُـلْوٌ فقلت ... نعم طَلعت حلاوته على القلب

وقلت فى ذلك والله ولىُّ التَّجاوز :

أنا كافر وسواى فيه بعـاذل ... لا يَستَبين الصِّدق فى آيـاتِه

ومُصدِّق بصحيفة الخدِّ الذى ... قد أعْجَب الكُفَّار حسنُ نباته

وقلت فى التورية أيضاً :

بأبى ظَبْى غزَانى مستبيحا شَرْح صَدْرى

فأنا اليوم شهيدُ الحبِّ من غزْوة بدر

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الريتونة (به حلو فى أحد عرقوبة) . والأولى على ضوء الشعر أرجح .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة الشطرة فى الزيتونة وفى الإسكوريال (فقلت وقد رد الوجوه ولم يبل) . والأولى أرجح .

وقلت فى التورية أيضاً على طريقة المشارقة :

أشكو لمبْسِمه الحزين وقد حمى عنى لِماه المشتَهى ورحيقَه
يا ريقه حيَّرتَنى ومَطَلْتَنى ما أنت إلاَّ باردٌ ياريقَه

وقلت فى التورية فيمن ركب البحر وماد :

ركب السفينة واستقلَّ بأُفقها فكأنَّما رَكب الهلال الفرقد
وشكوا إليه بمَيْده فأَجبتُهم لا غَرْو أن ماد القضيب الأَمْلَدُ

وقلت فى التورية أيضاً :

يا مالكى بخلالٍ نُهدى إلى الفـكر خَيْره(١)
أضرمتَ قلبى نـاراً يا مالك بن نُوَيْـره

وقلت فى التورية على عرف العامة :

قلت وقد ألبس جسمى الضَّنـا صِبْغة سَقَم أبدا لا تحـول
يا من رآنى أُشفِق لما حـلَّ بى ويُلبس مخيوط(٢) على ذى(٣) النحول

وقلت فى التورية ، وقد دلَّك السلطان يَدَيه بالحِنَّاء :

إن شمس الدِّين مخبر الملوك دُرَّة العِقد ووُسْطى السُّلوك
دلَّك الكفَّ بحنَّـاءٍ فقلنـا أنت شمس الدِّين عند الدُّلوك

وقلت من التورية فى رثاء رجل اسمه الحسن :

أشكو إلى الله من بثِّى ومن شَجَنى لم أجْنِ من شَجَنى سـوى مِحن
أصابت الحُسْنَ العينُ التى رَشقت وعادة العين لا تُصْمى سوى الحَسَن

---

(١) وردت هذه الشطرة فى النفح كالآتى (إلى القلب حيره) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مخبط) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ذل) .

وقلت من التورية الغريبة ، عندما خرج السلطان من المدينة البيضاء [بفاس][1] طالبا حقه يريد الحمراء بغرناطة :

ولما حشتُ السَّيْر والله حــاكم لـملكك فى الدنيا بعزٍ وفى[2] الأُخرى
حكى فرسُ الشطرنج طَرْفَك لا يُرى يَنقِل من بيضاءٍ إلاَّ إلى حَمْرا[3]

وقلت فى قرية شِخْت من بادية المنكّب ، وتمكنت فيها التورية من وجهين :

بات رفيقى لهم شخت بشيبته عافها العيــان
وقلت ما هذه البوادى فقال لى شِخْت يا فلان

وقلت فى قريب منه :

تعجَّلت وخْط الشَّيب فى زمن الصِّبا لـخوضى غمار الهمِّ فى طلب المجد
فمهما رأيتم شيبةً فوق مَفْــرِق فلا تنكروها إنهــا شيبةُ الحَمْد

وقلت من التورية بالفقه ، وقد صدَّرت بها كتابا ، مجيباً به آخر تقدَّمه :

يا من تقلد للعلاءِ سلوكا والفضل أضحى نهجه مَسْلوكا
كاتَبْتَنى متفضلا فملَكْتَنى لازلت منك مُكاتبا مَمْلوكا

وقلت من أبيات فى التورية :

وما كان إلا أن جنى الطَّرف نظرة غدا القلب رهْنًا فى عقوبة ذَنْبه
وما الحق أن يأْتى امرؤ بجريرة فيُؤْخذ فى أَوْزارهــا جار جنبه

وقلت فى التورية :

ما للسُّهى بادى النُّحول كأنَّه متستِّر تبدو مخايل خـــوفه
قالوا عليك قلتُ هذا ممكن والله أعلم داؤه من جـــوفه

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بعزوه) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الحمراء) .

وقلت فى التورية أيضاً :

أجاد يَراعُ الحسن خطَّ عِـذاره　　وأودعه السِّر المصون الذى تَـدْرِ
ولم يفتقر فيه لختْم وطـابع　　فمَبْسِمه أغنـاه عن طابع السِّرِّ

وقلت فى عين قرية البَذُول[1] ، وفيه التورية :

قلت اعشقوا عين البذول التى　　فى مثلها يُرفض قول العَذُول
فقلّ ما أبصـرتم مَنْظـرا　　أملح من مَنْظر عَيْن البَـذُول

وقلت أيضا فى التورية :

وظبى لأوضاع الجمال مدرس　　عليم بأقْسام المحاسن ماهر
أرى جيدَه نصَّ المحلَّى وقررت　　ثناياه ما ضَمَّت صِحاح الجواهر

وقلت فى التورية أيضاً ، وفى إشارة إلى رجل يقصد الولائم من أجل بطنه ، وشدّة نَهَمه :

أذمّ ذوى التّطفيل مهما أتى　　وإن تكن أجملتهم فاعْنـه
يمشى على رجليه مع كـونه　　من جِنس من يمشى على بَطْنه

وقلت فى التورية أيضاً ، والتورية طبِّية ، وقد سهرتُ فى طريق المنكّب برأس المزاد ، وقد صدعتنى وعُورتُه :

عند رأس المزاد عادنى السُّهد　　ولم تُغْن حيلتى واجتهـادى
حسبى الله كيف يبرأ سريعا　　سَهَرٌ عن صِداع رأس الزاد

وقلت فى التورية بكتاب مُسْلم ، من كتب الحديث :

ذهب الأُلى كانوا نجـوما　　للـورى فالـكون مُظْلـم
وتذاكر الناس الحديث　　الحقّ وافتُقد المُعَلِّـم
أنا كاتب السـلطان　　ما طالعت كِتاب مُسْـلم

(١) قرية البذول، هى قرية أندلسية تقع على مسافة قريبة من جنوبى غرناطة، وبالإسبانية Padul

إلا سخاما قادحاً فى الدِّيـن والله المُسَلِّم

وقلت فى التورية النجومية فى المدح :

إن أبْهَم الخطب جلَّى فى دُجُنَّته　　رأيًا يفرِّق بين الغَىِّ والرُّشد
وإن غَنا الدّهر أبْدَى من أسرَّته　　وكفِّه هَدْى حيران وِرىً صد
وإن نظرت إلى لألاء غُـرَّته　　يوم الهياج رأيت الشمس فى الأسد

وقلت من التورية فى المدح :

تخوَّنه صرفُ الزمان وهل ترى　　دواما لحال أو بقـاءً على أمر
هو الدهر ذو وَجْهين يومٌ وليلةٌ　　ومن كان ذا وجهين مُعتَب فى غَدْر

وقلت و قد جَمَدت رِجْلاى لشدة البرد بتاجرة ، مورياً بعرف العامة ، إذ تقول لمن بولغ فى نكاله ، عملت إطرافه :

لقد جَمَدت رجلاى تاجرة الرَّدى　　فخفَّضت من بأْى لديها وإشراف
وما أرتجى من بُقعة قد هَجَوْتها　　لقد ظَفِرَت بى فهى تعمل أطرافِ

وقلت فى التورية لمن يدعى شمس الدين :

قل لشمس الدين وُقيت الردى　　لم يدع سَقَمُك عندى جَلَدا
رَمَدت عينك هـذا عجيبٌ　　أوعينُ الشّمس تشكو الرَّمدا

وقلت فى التورية فى رجل أقسم أنه ذو مالية وأمانة ، وطلب من السلطان خدمته :

حَلَفت لهم بأنَّك ذو يسار　　وذو ثِقة وبرٌّ باليمين
ليَسْتَندوا إليك بحفظ مال　　فتأكل باليَسار وباليمين

ومن المقطوعات أيضاً :

فى غرض المدح

طوى البُعْد عن شوقٍ وحثَّ ركابه　　وأوشك فى مغْناك(١) حطُّ رِحاله
ومِمّا شجاه البعد عنك وشَفَّه　　تَبَدِّى نحول السُّقم فوق هِلاله

وكتبتُ فى جواب للسلطان ، وقد رحلتُ لتفقد الثُّغور ، وكان من فصوله إلىَّ تقرير التشوُّق إلى اللقاء :

تخالف جِنْس الشَّوق والحُكم واحد　　وكلٌّ محبٌّ فى الكمال مُشْتاق
فمعنى اشْتِياق الأَرض للغَيْث حاجةٌ　　ومَعنى اشتياق الغَيْث للأَرض إشفاق

وخاطبتُ سلطان المغرب ابن السلطان أبى الحسن ، ولها حكاية . وأبو الحسن الصغير ، رجل كبير من فقهايها :

قل للذى ذكر الهدى وعهودَه　　فبكى وأصبح مُشْفقا من فَقْدها
غَصَبْتَ حقوق الله جلَّ جلاله　　فقضى أبالحسن الصغير بردِّها

وقلت فى غرض المدح ، أُشير إلى الكفَّتين ، والعدد المستخرج منهما للمجهول :

لا عدل فى الملك إلا وهو قد نصبه　　وصيَّر الخلق فى مِيراثه عُصبه
والكفتان ترى من كفِّه دُرَّةً　　تستخرج العدد المجهول للطَّلبة

وقلت وقد مررتُ بين يدى السلطان ، فى يوم شديد الهاجرة ، وهو ينظر من طاق بقبَّة قصره ، وأنا أروم تفقد أملاكى بالفحص ، وأنكر ذلك فى شدة الحر :

إذا كان فوقى من نَداك غمامةٌ　　وحولى روحٌ من رضاك وريحان
فإنَّ سموم القَيْظ عندى نسمة　　وإنَّ مشيم القَفْر عندىَ بُستان

وقلت مشيرا إلى الحديث فى البحر :

رأيت بكفِّك اعتباراً　　بأْساً وندًا ما أن يبارى(٢)

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مغناه) .

(٢) هكذا ورد هذا البيت فى الإسكوريال . وورد فى النفح والزيتونة كالآتى (رأيت بكفك اعتبار بأس وندا ما أن يبارى)

فقمتُ وقد عجبت منـــه يا بحرُ متى تعود نارا[١]

وقلت وقد جعل السلطان فى رأسه بيضة السلاح مصقولة :

ياإماما أطال رُبىَ عـلاه وهُماما بالفخر ما أوْلاه

أنت كالرُّمح فى اعتدال وطو ل وانتخاب الحديد فى أعلاه

وقلت فى غرض الافتخار :

ما ضرَّنى أن لم أجىء[٢] متقدما بالسَّبق يُعرف آخر المضمـار

ولئن غدا رَبْعُ البلاغة بَلْقَعـا فلربَّ كنزٍ فى أساس جِـدار

وقلت وفيه الإشارة إلى الكاتب ابن الكواب[٣] :

بـأوْتُ على زمنى همَّـة فأعتبنى الزمان العاتِب

وشرَّفنى الله فى موْطنى وفى بيتِه يشرُف الكاتب

وقلت وهو من التخلُّص المخترع ، وقد جرى بعض ما مدح به الملوك من بنى العباس :

أقول والليل أعيانى تطـاوله وأوسع الذمَّ والتَّعنيت أسْودُه

ما كان يجرأُ ليلى أن يُطـاولنى شعارُكم يا بنى العباس أيَّـده

وقلت وهو من بديع التخلص :

أقول والصبح لا تبدو مخايلهُ وقد تعجبت من سُهْدى ومن أرقِ

كأنما الليل زنجى ملابسه قد زيَّنت بلآلىء أنجم الأُفق

ونام سُكْرًا فلا شيءٌ يُنَبِّهه لما يخشى حرا كاً حُمْرة الشَّفق

وقلت من أبيات أمدح السلطان أبا الحجاج رحمه الله :

فى مِصْر قلبى من خزاين يوسف حبٌّ وعيـرُ مدامعى تَمتارُه

حلَّيت شِعرى باسمه فكأنَّـه فى كل قطر جـلَّه دينـاره

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (يا بحر متى تدعو نوارا)

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى الزيتونة (أجز) .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (ابن الكواكب) . وهو تحريف .

وخاطبت ولده رضى الله عنه ، معترفا بحبّى فيه ، وكَرْه الخدمة :

قالوا لخدمته دعــاك محمد فكرهتُها وزهدتُ فى التّنويـه
فأجبتهم أنا والمهيمن كـارهٌ فى خدمة المولى مُحبٌّ فيــه

وراجعته عن كتاب كتب لى بخطه ، من فصوله الإنحاءُ على رداءة الحبر :

إذا ما تجلى النُّور فى جَنح ظلمة جلاها كما تجلو الدُّجا غرّةُ الفجر
فلا تنكِرَنْ الحِبر أنْ حال لونُه فوجهك يَجْلُو ظُلمَتا اللَّيل والحبْر

ومن مدح البلاد وفيه بيان سبب حبِّها قولى فى غرناطة :

أُحبُّك يامغْنى الجلال[١] بواجب وأَقطعُ فى أوصافك الغُرِّ أَوقات
تقسَّم منك التُّرب قومى وجيرتى ففى الظهر أحياء وبالبطْن أموات

وفى سَبْتَة المحروسة :

حُيِّيت يامُخْتَطَّ سَبت بن نوح بكل مُزن يَغْتدى أو يـــروح
وحمل الريحان ريحَ الصَّبا أمــانة فيك إلى كـلِّ رُوح

ولينظر تمام هذه المقطوعة فى اسم الخطيب أبى عبدالله بن مرزوق فى حرف الميم[٢] .

وقلت فى بنيونش[٣] من أحواز خارج سبتة المذكورة :

لله بنيونش تحـكى منازلها كواكب أشْرقت فى جَنح ظلماء
صحَّ النسيم فما يعتلُّ من أحد إلا النسِّيم وما يرتــاع من داء
ومن كرامتها أن الشمال إذا رامت زيـارتها تمشى عـلى الماء

وفى مصر وقد بينت مزيَّة مُحبيِّها على من دونهم :

سلمت لمصرفى الهوى من بلد يُهديه هواؤه لـدى استنشاقه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الجمال) والنفح (الكمال) .

(٢) وردت هذه القصيدة فى ترجمة الخطيب ابن مرزوق فى المجلد الثالث من الإحاطة (ص ١٢٨ – ١٣٠) . وأوردها المقرى فى النفح (ج ٣ ص ٢١١) .

(٣) بنيونش وترسم أحيانا بليونش ، هى ضاحية ثغر سبتة المعروفة حتى اليوم ، وهى بالإسبانية « penones » أعنى (الصخور) .

من يُنكر دعواى فقل عنىٍّ له تكفى امرأةُ العزيز من عُشّاقه

وفى غَرناطة :

بلدٌ تحف به الرِّياض كأنّه وجه جميل والرِّياض عِذاره

وكأنما واديه مِعْصَم فضّة[1] ومن الجسور المحكمات سِواره

وفى رياض الكُدية ، التى لولدى أسعده الله ، ولا نظيرلها فى جلالة القدر:

حدِّث عن الكُدية مَنْ شِيته يظن إخبارك تصحْيفــــا

فالعقــل بالمعتاد مُسْتأْنس إن ذَكَر الواصف مـوصوفا

والحــق فى أوصافها أنها خَرْقـاءُ حُسْن وجــدت صوفا

وفى جنة أخيه المعروفة بجنان الورد :

إذا أهْدِى الإنسان وردة جنَّة تهلّل من بعد العُبوس مُحيّاه

وأمّل أن يحيا لفصل يعيدها فكيف بمن فى جنة الوْرد مَثْواه

وفى جنة أخيهما بالزّاوية :

إن كانت الجنة موجودة فى الأرض قلنا جنّة الزّاوية

يابُقْعةً فاز بها المشترى فأمّ من خَلْفها هَاوية

ومن أغراض النّسيب قلت من قصيلة :

تذكرتُ عهدا كان أحْلى من الكَرى وأقْصر من إلمام طَيْف خياله

فياليت شعرى من أتاح لى الجوى وعـذّب بالى هـل أمـرٌ ببنـالـه

وقلت وهو من التّشْبيه العقيم :

أمُعَلِّلى بمطامعَ من دونها جَوْبُ النفوس مفاوزَ الأعمار

تزداد أشواقى إذا يوم خلا كتَضاعُف الأعداد بالأسعار

---

(١) هكذا وردت هذه الكلمة فى الإسكوريال والزيتونة . ووردت فى مخطوطى دار الكتب وجايانجوس (غادة) . (راجع المجلد الأول من الإحاطة — الطبعة الثانية ص ١١٥) .

وقلت من أغراض المشارقة :

رموا بالسُّلو حليف الغـرام ... وأدمعــه كالحياء الهاطـــل
أعــوذ بعــزِّك ياسيـــدى ... لـــذُلى من دعـــوة الباطـــل

وقلت من أبيات :

عــذَّبتَ قلبى بالهوى فقيامــه ... فى نار هجرك دايما وقعـــوده
ولقد عِهدت القلب منك مُوجِداً ... فعلام يقضى فى العذاب(١) خلودُه

وقلت فى ذى ذؤابة سوداء :

ياغــزالا تَــرك القلب المُبلى ... حين ولىّ فى ذُفُوف (٢) وكآبة
كيف يخشى القلب منى خفقانا ... ودواء المِسْك فى تلك الذُّؤابة

وقلت فى النسيب :

من لى بذكرى كلما أوجبتُها ... تمحو سُلُوّى واشتياقى تُثَّبت
وسحاب دمعٍ كلما استَمطرته ... غيرَ القَتاد بمضجعى لا تُنْبت

وقلت فى النَّسيب أيضا :

أضاف إلى الجفون (٣) السود شعرا ... كجنح اللَّيل أو صَبْغ المداد
فقلت أمير هذا الحسن تَزْكُو ... الأجور له · بتكْثير السَّواد

وقلت فى المعنى أيضا :

من لى به أسمر حُلْو اللُّما ... أهْيَف ماضى السِّحـر مـرهـوبه
كالنحل فى رقَّة خصْر وفى ... لسْعٍ متى شاء ومقلوبه

وقلت فى النسيب أيضا :

أنكرته لما أطلَّ عارضُه ... فقال لى حين رابه نظرى
ألم تقـل لى بأننى قمـــرٌ ... فانظر إلىَّ (٤) وبر أرنب القمر

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (النار) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (دفوق) . ونعتقد أن التصويب أرجح . والذفوف أى السرعة

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (العيون) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فى)

ومن أغراض التَّضمين قلت :

لا تُهج بالذِّكر من خَلَدى نار شوق شقَّ محتمله
ويقول الناس فى مَثَــل لا تحرك مَنْ دنـا أجله

وقلت من التضمين :

يا من بأكْناف فؤادى رُتَّع قد ضاق بى فى حبِّك المتَّسع
ما فيك لى جدوى ولا أرعوى شحٌّ مطـاعٌ وهوىً متَّبـع

وقلت من التضمين :

قال جوادى عندما هَمَزْتُ همزًا أعْجَزِد
إلى متى تهْمِـزنى ويلٌ لــكل هُمَــزة

وقلت :

أصبح الخدُّ منك جنَّة عدن مُجْتَـلى أعين وشَمٌّ أنــوف
ظَلَّلتنا[1] من الجفون سيوف جنَّة الخُلد تحت ظلِّ السيوف

وقلت :

محاسنك اغْتَدت جنات عدن لمن يَرْتاد إحسانًا وحُسْـنا
فمهما حلَّها[2] إنسان عــين فللإنســان فيهــا ما تَمَنَّى

وقلت فى طول الليل :

ساورتُ أسْود من ظلام دُجًا من باته فإلى الجحيم دُفِـع
أنا لا أقول سَطا الصباح به لكن طغى[3] ثُعبانه فَـرَبع

وقلت :

رفعتُ قصة اشتياق ليحيى فورَّى الوجه رافضا للفتْوة

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (أصافتنا) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (حلاها) .

(٣) هكذا الإسكوريال . وفى الزيتونة (سطا) .

ورمى بالكتاب ضعف ابتسال[١] قلت يحيى خُذْ الكتاب بقوّة

وقلت :

سار بى للأمير يشكو اعتراضا يوسف والشهود أبناءَ جنسه
قال ما تقول قلت بَديهاً لم أخَفْ من عِقابه أو حبْسه
حصحص الحقُّ ياخوند فدعنى أنا راوَدْتُ يوسفًا عن نَفْسِه

وقلت :

يا كوكب الحُسْن يا مَعْنَاه يا قمره يا روضه المُتناهى الرَّيع يا ثمره
أمَرْتنى بسلوٍّ عنك مُمْتنعٌ مأْمور حُسْنك لمَّا يَقْض ما أَمره

وقلت فى ذلك أيضاً :

أفْقَد عينى لذيذ الوَسَن من لم أزل فيه خَليع الرَّسن
عِذارُه المِسْكى فى خدِّه أنْبتَه الله النَّبات الحسن

وقلت فى العيْن الذى بحصن نارجة ، وهو ينفع من مرض الحَصا :

أنظر إليه شَبيه معجزة العَصا ماؤه بتنقية المثانة خُصِّصا
فإذا الطبيب سقاه أسرع نُجْحُه وتحدث بالماء الزُّلال مع الحصا

وقلت فى التَّضمين أيضاً :

يعاهدنى دمعى على كَتم سره ويَجرْى إذا ذُكرجوًى وعمين
وذاك لأنِّى من نَجيعى خَضَّبتُه وليس لمخْضُوب البنان يمين

ومن الأوصاف وما يرجع إليها

قلت فى الليل :

تلوَّى ظلام الليل بالصبح ظالما إلى أن تبدَّى الضوءُ وانْقشَع الحَلَك

---

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (انفعال) .

كما سَرق العَبْدُ العَبُوسُ عمامةً	فأخرجها من تحته حاكمُ الفَلَك

وقلت فى المعنى :

أقول ووعد الصُّبح يُمطِله الدُّجا	إلى أن تبدَّى للعيون مُحيَّاه
كأنَّ الصباح الطَّلق طفلٌ مجرد	تلقَّفه الثُّعبان ثم تبَنَّاه

وقلت فيه :

عَبَس الليل فلا صُبحٌ يرى	وهَوى النجم وغاب الفَرْقد
وضحكنا وحلَّينا طرفا	أفلا يضحك هذا الأسود

وقلت فيه :

أيا ليل أفرطتَ فى جَفْوتى	وعوَّدتنى منك شرَّ الخِلال
ومالىَ ذنبٌ ولكن سَخفت	بقُرْط الثُّريا وتاج الهلال

وقلت فيه :

أرقتُ وجَنح الليل قَيْد خطوة	فلهفى على الجَفْن القَريح المسْهد
وما بليت نفس أمرت تنظر فيه	بأوحش من عبد عَبُوس مُقَيَّد

وقلت فيه :

ياليل طُلْت ولم تَجُد بتبسم	وأريتنى خُلُق العَبُوس النادم
هلاَّ رحمت تغرُّبى وتفرُّقى	لله ما أقساك يا ابن الخادم

وقلت فيه :

حار الظلام علىَّ دورة كافر	فقصدت قصد عبادة وتلاوة
ولو أنَّنى كابَرْتُه لم أستطع	ما حال أبيض فى بلاد قهاوة

وقلت فيه :

بليل كانون عرفتُ الجوى	لولا ضياء كفٍّ من ظُلمه
طال به نفحُ نسيم الصَّبا	فاشتعل الإصباح فى فَحْمه

وقلت فيه :

وكأنَّ جنح الليل أسود سارقٌ سَرَقَ الصباح الطَّلق ثوباً أبيضا
مازال يضرب بالبوارق ظهره حتى أقرَّ به فها هو قد أضا

وقلت فيه :

يا ليلة ساهرتُ طالعَ أُفقها حتى تمايل غارباً أو غاطسا
والصبح من ريح الشمال بزَكْمة تركَتْه من بعد استكانٍ عاصفا

وقلت فى ليلة انتُخب لها الكثير من الفواكه :

أيا ليلة بالخَصْب لم تألُ شهرة كما اشتهرت فى فَضْلها ليلة القدر
فأمَّن فيها اللَّوزُ من غمة النَّوى وأصبح فيها التِّين مُنشَرح الصدر

وقلت فى وصف السماء :

تتَعاور القطبان فها رُقعة وكلاهما فيها لعوبٌ حاذق
الزَّهرة الزَّهراءُ قُربانٌ بها والبدرُ شاةٌ والنجوم بَياذِق

وقلت أصف فَرَساً أهديته :

إذا ما سرى ليلا فبالنَّجم يَهْتدى ومهما انتَمى يوما فللبرق يَنْتَمِ
يُصيخ إذا أصغى بمَسْمع كاهن ويَرْنُو إذا أوْمى بطرف مُنجِّم
فبوَّأته من مهجتى مُتَبَوَّأً خفيًّا على سرِّ الفؤاد المكتَم
فيا عجباً منى وفرط تشيُّعى أهيمُ بوَجْدى فيه وهو ابن مُلْجَم

وقلت أصف سكِّين بَشر للسلطان أبى سالم ملك المغرب :

أرى سيف إبراهيم بينى وبينه مناسبةٌ عند اعتبار المناسب
أزيل حروف الخطِّ عند التِباسها وتُبشِّر حدَّاه حروف الكتايب

وقلت فى سكِّين الأضاحى للسلطان أبى الحجاج :

لى الفضل أن شاهَدْتنى واختَبَرتنى على كل مصقول الغرارين مُرْهف

كفانى فخراً أن تـــرانى قايمـــا   بسُنّة إبراهيم فى كـف يـوسف

وقلت كذلك :

إن شهرت نَصْلى يدا يوسف   ريعت لكفِّى مهجة اللَّيث
ولحتُ مثل البرق فى كفّه   لا يُنكر البرق عـلى الغيث

وقلت فى برّادة كان يشرب فيها السلطان :

عَلَم الملوك أعنى يوسف المولى الْهُماماَ
الغمام لأَرض سقى وأنا أسقى الغماما

وقلت فى طَيْفُور طعام أهديته :

تعلَّم طيفورى خلال سَمِيِّه   وإن كان منسوبا إلى غيربسْطام
فجاء فقيرُ الوقت لابسُ خِرْقة   وليس براضٍ غير صُحْبة صَوَّام
فديتُك لاترْدُدْه عنك مخيَّبا   ودرسه يامولاى قصّة بِلعـام

وقلت فى روض

كأنما الروض ملكٌ   يبْاى بـه جُلسـاه
يرضى النَّديم فمهما   سقى الرِّياض كسـاه

وقلت فى مروحة سلطانية :

كأنىّ قرص الشمس عند طلوعها   وقد قَدمَت من قبلها نَسْمة الفجر
وإلاّ كما هبّت بمحْتَدم الـوَغى   صبا النَّصر لكن من بنود نصر

وقلت فى بحرىٍّ يلعب على الشريط ، مُنَوَّع الحركات :

ويجـرى تلاعب فى شريط   وحِيٌّ الفعل متَّصل الصُّموت
تدلَّى وارتقى وسما وأهـوى   فأعجب فى التَّماسك والثُّبوت
فقلنا إن يكن بشراً سـويا   ففيه غـريـزةٌ من عنكبوت

وقلت فى بَيْضة سلاح مصقولة ، اتخذت للسلطان :

خصِصْت بالحسْن وانفردتُ به   فجـلَّ قـدرى وقـل أشباه
كأنّنى كوكب الصباح بدا   عـلى جبين الغَنىّ بـالله

وقلت فى الدّواة والقلم :

مارأت عينى عجيباً كيراعى فى الـدّواة
غايصاً يَستخرج الدُّر ببحـــر الظُّلمات

وقلت كذلك :

أقلامنا الواسِطِّية ذَوابــل خَطِّيــة
مصروفة لجهاد وحكمةٍ وعطيّــة

وقلت فى مَلْزم الكُتُب :

يا حسنه من مَلْزم آثــاره لذوى الوِراقة أحسن الآثــار
وكأنما الكراس طَرْف أشهب شدُّوا على شَفَتَيه عود زيــار
وكأنما قلم الكتاب بصَفحه مَكْوى وذاا النَّفط نفط النار

وقلت فى بَيْضة السلاح أيضاً :

إذا أنت لاحظت السلاح وجدتنى أطاوله عــزًّا وأَفْضُــله قـدراً
ويُلبسنى المولى الإمـــام محمـد فتُبصر منه الشمس توَّجَتْ البدْرا

وقلت فى ذلك :

لحسن بنى نصر صنعت محمدا فيُهديكَمَعْنى العزِّ فالِى(1) والنَّصر
علوتُ على بحر السماءِ حَبابةً ولاغرو أن يعلوالحَبابُعلىالبحر

وقلت فى مرآة اتُّخذت للسلطان أيضاً :

لمجـــدِّد الملك الرَّفيع محمد أُنشيت فاعجب من غَرابة شان
تبدو مَظاهــرِى لأمـــور كأنَّنى من باطن المولى الـــذى أنْشَانِ

وقلت فى وصف قينَة :

ومُرضِعةٌ طفلا من العُود ثَدْيَها ولا دُرَّ إلا الدُّر من أدب مَحْض
إذا لمسته بالبنان تخالها طبيباًمن الحُذَّاق جسَّ على نبض

---

(١) هكذا فى المخطوطين .

وقلت أيضاً فى البدر [1] :

أقول والبدر يسمو فى السماء صَعَدا　　لصاحبى والدُّجا مُستقبل الفجر
أنظره فى كفَّة الميزان صاعدةً　　كأنَّها ضجة بيضاء من حَجر

وقلت متغزِّلا والله ولىُّ التَّجاوز :

قلم المحاسن خطَّ نور عِذاره　　أو مثل حلَّته يُحاك بلا عِلم
لا تتقوا عينا تُصيب جماله　　فالله عوَّذه بنونٍ والقلم

وقلت فى معنى غريب :

ولربَّ رزق [2] غداً لقيت مواجها　　كفَّت أكفَّهم وقايةُ واق
جاورت والتفتوا إلىَّ فخلتُهم　　جعلوا ذوابلهم [3] على الأعناق

وقلت فى رُمَّانة :

رمَّانة راق منها منظرٌ عجيب　　ترُيك صورتُها إبداعَ باريها
كأنما حَبُّها دُرٌّ وظاهرها　　خدٌّ ومن شَحْمها قطن يُواريها

وقلت مرتجلا لمن طلب ذلك على ضفَّة الوادى الكبير :

ومُنْتَقَش المتن كالْمَبرد　　إذا هبَّ عَرْف النَّسيم النَّدِى
تدافع مُسْتَرسلا مايجاً　　كما اندفَع الدِّرْع من مِزْوَد

وقلت وقد استزاد الطلبة الحاضرون من ذلك :

وطَمُوح العُباب ضاقى المَقِيل　　حَسِر الرُّوح عن حُسام صقيل
كسُبَيْك اللُّجين ذهَّبه　　الصَّانع سبحانه بشمس الأَصيل

وا سْتَزادوا من ذلك فقلت :

ومدُرَّع ينساب فى مَنْبت الخَوْط　　تَعيا مَثْوى ظلِّه كل مَغْبُوط
أقام شعُاع الشمس يشغل فوقه　　فسال له ذَوْبُ اللُّجين فى البُوط

(١) وردت فى الإسكوريال (البدو) . والتصويب من الزيتونة .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ورق) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (دوابهم) .

ثم قلت فى ذلك :

ثعبان نهر راعَنا مــدُّه   لما أتى يَنْساب من جِجْره
فاهتزّت الأغصان من فوقه   وصاحت الاطْيار فى إثْـرِه

ثم قلت فى ذلك :

أنظر إليه والأصيل مورّس   والشمس تُرسل من عنان مَسِيرها
وكأنما هو زئبق مترجرج   ألْقت عليه الشمس من إكثيرها

ومن وصف المواضع قلت فى تاجرة :

بتاجِرة ريحٌ أَزَاحك بردُهــا   إلاه متى استرحمته فهو يرحم
رأت عَصَبى غزلا وجسمى مرمّة   فها هى تُسدى كل يوم وتُلحم

ومن ذلك أيضاً :

يا بقعةً بالحمد معــروفةً   تحذَّرها[1] الشمس فلا تشرق
ترى عيون المـاء عَمَشاً بهـا   وأعْينُ النيران لا تنطــق

ومن ذلك أيضاً :

جَفاكِ الحيا من بقعة ظِلْتُ عندها   بلا جَلَدٍ مما لقيت ولا جلد
فلو سامَتْها الشمس أرْعَد قرصها   ولثَّت فلم تسطع حراكا من البَرَد

وقلت أصف جبل شُلَّير[2] :

شلير لعمرى أسا الجِوار   وسدٌّ على رحيب الفضـا
هو الشيخ أبْرَدُ شىء يُرى   إذا لَبِس البُرْنَس الأبْيَضـا

وقلت أخاطب بعض أصحابنا ممن يُخْضِب بياض شَيبه من بعد الإنقاء :

وكريمة شهد الخِضاب شهادة   بفتُــوِّها عند الأداءِ مُــزوَّرة

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريتون (تزورها) .

(٢) جبل شلير أو باللاتينية Solaris ، هو الجبل العظيم الذى يشرف على غرناطة من الشرق والجنوب ويسمى أيضاً فى الجغرافية العربية بجبل الثلج ، وهو تعريب لاسمه الإسبانى Sierra Nevada وقد سمى كذلك لأن الثلوج تكلل آكامه صيفا وشتاء .

مرض الفؤاد وحمٌّ لأجلها		فجعلت منها للعلاج مُزَوِّره

وقلت وقد استزاد الحاضرون من هذا المعنى :

عهدى بهاتيك الكريمة مُهْرقٌ		يقن تُسرُّ(١) به العيون وتُغبط
أغريت أجزاء المداد بظلّها		وكذا المداد على الطروس مُسَلَّط

وقلت فى ذلك :

خُضتُها بعد ما لاح المشيبُ وقد		جوَّزت فى العقل كَتْمَ الصبح بالغَبْش
فاض البياض على رغم السَّواد بها		ويرشح الدمع تحت الكُحْل فى العَمْش

وقلت عند الرجوع من الرِّحلة :

رجعنا بفضل الله بعد استِدارة		وفَّينا بها الأُنْس كَيْل اختيــاره
كما راجع البركان مفروض نقطة		من السطح منها كان بَدْءُ مداره

وقلت فى الغرض المذكور :

البصر تنأى الشُّهب والشمس فِتْنَة		تلألأ منا البرُّ والبحرُ ذو الموج(٢)
رَحَلنا عن الأَوْج الرفيــع نَحُلُّها		من أجل شتَّى ثم عُدنا إلى الأَوْج

وقلت أُخاطب شيخنا أبا الحسن بن الجيَّاب :

بين السِّهام وبين كَتبك نسبةٌ		مهما يُصاب من العدوِّ المقتل
وإذا أردت لها زيادة نِسبة		هذى وهذى فى الكِنانة تجعل

وقلت فى البراغيث وفيها التَّجْنيس :

بتنا نكابدهمٌ القَحْط ليلتنا		وأنجد السُّهد والكربُ البراغيثا
وكنَّا نحمل ما كنَّا نكابده		من المشقَّة لوانَّ البر أَغْيثا

وقلت فى ذلك :

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تسعد) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (المدح) . والتصويب من الزيتونة .

وقالوا بدت منكم على الجلد حُمْرة　　فقلنا براغيثُ لكم رقطونا
عدَت نحونا ليلا ومن بعدذا امتدت　　كما رقَصَت فى القلوب زرقُطونا

وقلت فى معنى غريب :

إن اللّحاظ هى السُّيوف حقيقة　　ومن استراب فحجّتى تَكْفيه
لم يدع غمد السيف جَفْنا　　باطلا الاَّ تشبُّه الْلحظ يغمد فيه

وقلت فيما يظهر منها :

هممتُ لأَن أقبِّلَها بشَبْتى　　فأبدت عند ذا سِمَة القُنوط
وقالت لى رأَيْتُك فى حياتى　　جعلتَ بجسمى قُطن الحُنُوط

ومن الدُّعابة والفكاهة، قولى أُخاطب رجلا منتفخاً بالجاه، يعطى أُموره فوق حقّها :

رفقاً بنفسك سيدى رفقاً　　فالفضل أن تبرأ وأن تبْقى
أَمَّا مَزاجُك فهو معتــــدل　　لكن أظن خَيالك اسْتَسْقا

وقلت فى الغرض المذكور :

رأيت بمخدومى انتفاخاً فرابنى　　وباكرتُ دكَّان الطبيب كما وَجَب
فقــال وقاك الله فيـــه فــلا　　تَخَفْ عليه فهذا النَّفْخ ليس له سَبَب

وقلت على طريقة المشارقة :

همَّ أن ينتف ذقــنى　　قلتُ[1] والانى بفضله
لم أكن أدخل إلاَّ أمْــردَ جَــنَّة وَضْــله

وقلت على طريقتهم أيضاً :

قلتُ لما سأَلونى　　بامتحانى واختبارى
أنا من عارى كاس　　أنا من كاسى عارِ

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

وقلت على طريقتهم أيضاً :

وقالت حلقتُ الكُسّ منى بنورة فقلت لها استنصرت من ليس يَنْصر
ألا فاخبرى[1] عنى فديتُك واصدقى بحلق ذاك الكُسّ إنّى مُقَصِّر

وقلت فى بعض الأصحاب ، وقد أكثر من سرقة كتب البرق الشامى للعماد الأصفهانى ، رحمه الله :

خليلىَّ إن يُقْض اجتماع بخالد فقولا له عنّى ولن تَعْدُوا الحقّا
سرقتُ العِماد الأصفهانى بَرْقَه وكيف ترى فى شاعرٍ يسرق البَرْقا

وقلت ، وقد أرْجَف قوم من المرورين بظهور الخاتم :

وقالوا قد ظفرنا فى الزمان بخاتم قد اجتمعت أوصافه الغُرُّ فى شخصِ
فقلت لهم إن صحّ ما قد ذكرتم فلا بدَّ أن يُحتاج فيه إلى فَصِّ

وقلت ، ونستغفر الله من السَّفاهة :

قالت بعقلك فاحتفظ كى لا تُرى تبكى بضرٍّ ليس يعرف كاشفا
واعمل فديت حساب سِحرى وارعوى فأنا الذى أخرجتُ على سرِّنا كاشفا

وقلت مطاوعا إخوان الدُّعابة :

قالت إذا استَخبرتها عن زوجها هو يُقْرن الأزواج فى الفدان
قلت ابلغى عنى السلام تحيَّةً عند المجئ لزوجك القران

وقلت وهى نزعة بيطارية :

وذى زوجة تشكو فقلت له اسْقِها دواءً من الحب الملَيِّن للبَطْن
فقال أبت شرب الدواءَ بطبعها فقلت اسقها إن عافت الشرب بالقرن

وقلت أخاطب بعض الطلبة ، وكُنْية أبيه أبو الربيع ، واتهمته بأكل الحشيش :

إنى ابن سليمن وفى الفكر فترة تُخْبر أنَّ العقل جدُّ مُغَيَّب

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فابلغى) .

فقلت أظن السيِّد اعتم عمَّـةً   ولكنها فى الأَصل من كَنْية الأَب

وقلت على طريقة المشارقة والله ولىُّ المغفرة :

قال لى عندما أتى بجدال   وشُكَوكٍ على أُصـول الدين
ولسانى يُبَدِّل الدَّال تا   عاجزا فى الأُمور عن تَبْيين
التمس مخرجا يوافق قولى   قلت أَحسنت يا حلاَّل التِّين

وقلت معارضاً أبياتا مثلها لبعض المعاصرين :

بعثتُ له إذ اتبعنا عَصِـيرا   هَجَرْنا فى تفقُّده البيُـوتا
لعلك يا حبيبَ القلب تأتى   فتأكل عندنا عِنَبًا وتُـوتَا

وقلت أخاطب من أدل عليه ، وما أولانى بذلك :

إذا قُمت قلت بعقيب الكرَى   إلَهى أنت إلـه الورَى
تباركت أنْشَأْتهم من تُراب   وأنْشَأْتنى بينهم من خرا

وقلت وهى نزعة مشرقية :

يا قايدى نحو الغـرام بمُقْلة   نفَقَت حلاوتها بكل فـؤاد
ماذا جنيتَ علىّ من مَضَض الهوى   الله يُنْصِف منك يا قـوَّاد

وقلت فيمن رعى محبوبه عارضه فى حال السُّكر ، ولحية التيس دواءٌ نافع للبطن :

رعى عارضى ظَبْى شكى سقَم بطنه   وقال ولم تُرْشِد لحذق ولا كيس
ألـم تر أنى عـلَّة البطن اشتكى   وينفع من يشكو بها لحية التَّيس

وقلت :

حين لم أرْجُ للخلاص سبيلا   دأبه بالصُّدود فى عشـاقه
قيَّض الله لحْـية لخلاصى   قَبَضْتُ بالبنان فوق خنـاقه

وقلت فى ذلك :

لم أجد فيه لين بثٍ لقلبى وقبولا لحُجتى واعتذارى
ثقَّل الله ظهره بعِيال سوَّد الله وجهه بعِذار

وقلت فى ذلك :

ناديت مبتهلا وقد جنَّ الدُّجى لمَّا بَرِمت بردِّه وبِنَجْهه
يارب واجعل لوعتى فى قلبه يارب واجعل لَمْحتى فى وجهه

وفى قريب من ذلك ، والله العفوُّ الغفور :

لى حبيب لستُ أعْصى أمره لم أُطِق بعد وصال هجره
يدَّعى أنى ثقيل مُبرم أثقل الله بعَذْلى ظهره

وقلت فى مجتمع فضلاء :

أقول وقد جاء الغلام بثَرْدة بأمثالها يحيي السَّعيد ويَنْعمُ
بنيت على زرد ولقمنى الفتى كذلك ماعون البناء يُلقَّم

وقلت والله ولى التجاوز أُداعب بعضهم :

شيخ رِباط إن أتى شادِنٌ خلْوَته عند انسِدال الظلام
أدلى وقد أبصره دِلوه وقال يا بُشْراى هذا غلام

وقلت مشيراً إلى بعض طبقات الغِناء :

ضرَط الفقيه فقلت ذاك غريبة ما كان ذلك منه بالمعلوم
فرَنا إلىّ وقال قد أطْرَفتكم من ضَرْطَتى بغريبة المَزْموم

وقلت أصف رجلا خبيثاً غفر الله لى وله :

وذى حِيَل يُعيي التَّقيَّة أمرُها مكايدة فى لُجَّة الليل تَسْبح
يدبُّ شُبول الليث والليث ساهرٌ ويَسْرق نابَ الكلب والكلب يَنْبَح

وقلت فى نزعات المشارقة :

أقول لعاذلى لمَّا نهانى وقد وجد الملامة إذ جَفانى
علمت بأنه مُرُّ التَّجنِّى وفاتك أنه حُلو اللسان

ومن أغراض الإشارات الصوفية وغيرها من الوعظ والجدّ والحكم .

ولعل ذلك ماحيًا لما تقدّمه بفضل الله

قلت . وربما ثَبَتت فى كتاب « المحبة » من تأليفى :

تعدّدت الألفاظ واتحد المعنى وأصبح فَرْدًا ما مررت به مَثْنا
وعادَتْ لعين الجمع وهى كثيرة محاكلُّ فرقٍ مُجْتَلى وجهك الأسنى
تعبّدت الأفكار آثارك العلّا وقيّدت الأبصار روضتك الغنّا
وقصّرت الألفاظ عن نيل غاية ببعض الذى أَبْدَته ذاتُك من معْنى

وقلت :

لا يُنْكر لى إن كنت قد أحببتكم أو أننى استولى علىَّ هواكُم
طوعا وكرها ما ترون فإننى طُفْتُ الوجود فما وجدت سواكم

وقلت :

والكون أشراكُ نفوس الوَرى طوبى لنفس حرَّة فازت
إن لم تَحُزْ معرفة الله قد أوْرَطها الشيءُ الذى حازت

وقلت أيضاً فى المشيب وما فى معناه :

أنّى لمثلى بالهوى من بعد ما للوَخْط بالفودين أىُّ دبِيب
لبسَ البياض وحلَّ ذِروة مِنْبر منّى ووالى الوَعْظَ فعلُ خطيب

وقلت فى تعلّل يناقض ذلك :

قلتُ للشّيب لا يُربْكَ جفائى فى اختصارى لك البرور ومقتك
أنت بالعَتْب يامَشِيبى أولى جيتنى فجأة وفى غير وقتك

وقلت :

طال حزنى لنشاط ذاهب كنت أسقى دائما من خانَه
وشباب كانَ يَنْدى نُضْرة نزل الثلج على ريحانه

ونظرت يوما إلى ولدى فأعجبتنى شيبته فقلت :

سرق الدهر شبابى من يدى ففؤادى مُشعِر بالكمد
وحملتُ الأمر إذ أبصرتُه باع ما أفقدنى من ولدى

وقلت وهو الحقُّ :

أنظر خِضاب الشيب قد نَصلا ورائد العيش بعده انفَصلا
ومطلبى[1] والذى كَلِفت بـه قد رُمْت تحصيله فما حَصَلا
لا أمل مُسْعِفٌ ولا عمـل نحن فى ذا والموت قد وَصَلا

وقلت :

قَحَطْنا ثم صاب الغيث رحمى فشكرا يا حِمام إذا الغطتَّا
ويا غيث الرّضا عنا انسِكابا فأنت على الخَبير به سقَطتا

وقلت لما أخذت فى طريقة أبى الفرج[2] :

قعدت لتَذْكيـر ولو كنت مُنصفا لذكرت نفسى فهى أحْوَج للذكرى
إذا لم يكن منى لنفسى زاجـراً فياليت شِعرى كيف نفعل[3] فى أخرى[4]

وقلت وأنا بسلا ، وقد أحْسَسْت غفلة ، والحال كله كذلك :

أيا أهل هذا القطر ساعده القَطْر دهيتُ[5] فدلونى لمن يُرفع الأمر
تشاغلت بالدنيا ونِمْت مُفـرّطـا وفى شغلى أو نومتى سُرِق العُمْر

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وبقلبى) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (وقلت على طريقة أبى الفرج الجوزى) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (أفعل) .

(٤) هنا وبهذه المقطوعة تم الجزء الثالث منه مخطوط الزيتونة . وبه كمل كتاب الإحاطة وفقا لهذا المخطوط . وقد اختتمه الناسخ بالعبارة الآتية «انتهى كتاب الإحاطة بحمد الله وعونه . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الكريم ورسوله الرحيم ، وأخصه بأفضل التسليم . ورضى الله عن العلية خير أصحابه ، وعن الصفوة الصافية أهل بيعته ، وبه نتوسل أن يمن علينا بشفاعته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » (لوحة ٣٠١ ، ٣٠٢) « ووافق الفراغ منه يوم الثلاثاء الثامن والعشرون من جمادى الثانية عام 1273 » .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بليت)

وقلت فى مِنْكانة الرَّمل وهو بديع :

مِنْكانة الرَّمل فيها عِبْرة ونُهى ... وشاهدٌ أن كلاًّ منقضٍ كَمَدا
لُبَابُ عُمْرِ الفتى يجرى بجَرْيتها ... كأنما العُمْر لما أُطْلِقت قُصِدا

ولما ارتجلت ذلك ، استزاد الحاضرون فقلت :

تأمل الرَّمل فى المِنكان مُنطلقا ... يجرى وقَدْرُه عمراً منك مُنْتَهِبا
والله لو كان وادى الرَّمل يُنجده ... ما طال طايلُه إلاَّ وقد ذهبا

وقلت فى قريب منه :

حَمَى الفَلَكُ الدوَّار جَفْنى عن الكرَى ... لشتَّى هموم منه فِكرى يَجْنِيها
أراه رحى قين وعمرى صفيحة ... يكرُّ عليها بالمدار فيُفْنِيها

وقلت فى الوصايا :

إذا ما النفس مالت نحو حُسْن ... فقد خَطرت على خَطَر الولُوع
فإن أحسَّت بالمَيْل أدركها ... فما بعد المَمِيل سوى الوقوع

وقلت فى المعنى :

إذا صرفتَ نحو وجهٍ حَسَنٍ طَرْفَك ... واستهداك للحين الطَّمع
فلا تُمِل قلبك ما استطعت له ... فالقلب كالحائط إن مال وَقَع

وقلت :

أخى لا تقل كذبا إن نَطَقْت ... فللناس فى الصِّدق فضلٌ وَضَح
وخِفْ إن كذبت طُروَّ افتضاح ... فما كَذِب الفجرُ إلاَّ افتضح

وقلت مُنْحيا على عالم الكَوْن والفساد :

والله لو كانت حياتى فى يدى ... مع جهل وعدِ الله أو لقياه
فى خفض عيش لا تكلف منَّة ... الإنسان مطعمه ولا سُقياه
ما كان هذا العالَم الجمُّ الأذي ... مما يؤمل عاقل بُقياه

وكتبت فى بعض الحيطان لما اجتزت على مدينة سَبْتة :

أقمنا برهة ثم ارتحلنــا كذلك الدهر حالٌ بعد حال

وكل بدايةٍ فإلى انتهــاءٍ وكل إقامةٍ فإلى ارْتِحال

ومن سام الزمان بعام أمرٍ فقد وقف الرجاءَ على المحال

ولنختم غرض هذه المقطوعات بقولى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله :

عَدِّ عن كيت وكيت ما عليها غير مَيْت

كيف ترجو حالة البقــاءِ لِمِصْــباح وزَيْت

ومن المُوَشَّحات

التى انفرد باختراعها الأندلسيون ، وقد طُمِس اليوم رسْمُها ، قولى :

ربَّ ليل ظفرتُ بالبَدْر ونجوم السما لم تَدْر

حفظ الله ليْلنا ورعا أىّ شمل من الهوى جمعا غفل الدهر والرقيب معا

ليتَ نهر السِّر لم يَجْر حَكَم الله لى على الفَجْر

علِّل النفس ياأخا الطَّرب بحديثٍ أحْلَى من الضَّرب فى هوى من وِصَاله أَرَبُ

كلما مــرَّ ذكــر من أَدْرِ قلتُ يابَــرْدُه على صــدْرِ

صاحِ لا تهتم بأَمر غدِ وأَجِزْ صرفها يداً بيد بين نهر وبُلْبل غِرد

وغصون تميل من سُكر أعلنت الغمام بالشُّكر

يا مرادى ومنتهى أَملِ هاتها عسجديَّة الحُلَل حلَّت الشمس مَنْزِل الحَمَل

ورَدْ الربيع فى نشــر والصَّبا عَنْبرية النَّشر

غُرَّة الصبح هذه وَضَحت وقيان الغصون قد صَدَحت وكأَنَّ الصَّبا إذا نفحت

وسَما طيبها عن الحَصْر مِدْحَةٌ فى عُلا بنى نصر

هم ملوك الورى بلا ثُنَيَا مهَّدوا الدين زَيَّنُوا الدُّنيا وحمى الله منهم العَلْيا

فالإمام المرفَّع الخَطَــر والغمام المبارك القطر

إنما يوسف إمام هَدا جاز فى المَعْلُوات كلَّ مدا قلْ لدهر بملكه سَعدا

إفتخر واجباً على الدهر   كافتخار الربيع بالزهر

يا عماد العُلا والمجد   أطْلَع العيد طالع السَّعد   ووفَّى الفتح فيه بالوعد
وتجلَّت فيه على العَصْر   غُرر من طلايع النَّصر

فتهنَّأ من حُسْنه البهج   بحياة النفوس والمهج   واستَمِعْها ودع مقال شَجٍ
قسماً بالهوى لذى حجر   ما لِلَيْل المشُوق من فَجْر

ومن ذلك قولى أيضاً :

زمن الأُنس كلما ولَّى   ردُّه مُعْوِز   فاغتَنِم منك ريقَ العُمْر   وهو مُسْتَوفِز
أطرد الهمَّ بابنة العِنب. وأحل غَيم الثَّرا. عن شُموس عَكَفْن فى حُجُب. عن عيون الورى
هى كنزٌ من خالص الذَّهب   حلَّ عند العرا

كم فقير أتى على وعْدِ   فيه يُسْتَنْجز   والوعيد الشَّديد معروفٌ   للَّذى يَكْنز
أضحك الفجر مَبْسِم الشَّرق. فاستراب الظلام وانتضى الأُفق صارم البرق. من قِراب الغمام
وتحلَّت ترايبُ الورق   دُرُّ زَهْر الكمام

ولجيش الصباح فى الأُفق   رايةٌ تُرْكز   وخيول السحاب بالبَرْق   أبدا تَنْهَمِز
وقدُود الغصون ترتاح   لِلقاء النسيم   وشَميم الرِّياض نفَّاح   كثَنَا الكريم
ومُحَيَّا الصباح يلتاح   فى الجمال الوَسِيم

وخطيبُ الحَمام فى الغُصن   مُسْهِبٌ مُوجِز   ينكر النَّوم فهو بالعَتْب   مُفْصِحٌ مُلْغز
للهوى قُدْوة من الناس. ذات نهج قويم لا ترى فى المدام من باس   وارتشاف النَّديم
بحديثِ الغرام والكاسِ   فى الزَّمان القديم

طوِّر واصفح كل ديوان   وبه طرِّز ما   لا تُجزْ فى شريعة الظَّرف   غير ما جوَّزا
قِفْ ركاب المدايح الغُرِّ. باهل برِّ الهدا   يوسف الملك نخبة الأمر غيثُ أُفق النَّدا
من لأسلافه بنى نصر   فى جهاد العِدا

وكتبت عن السلطان أبى الحجاج ابن السلطان أبى الوليد بن نصر ،

رحمه الله ، إلى التُّربة المقدسة ، تُربة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي من أوليات ما صدر عني في هذه الأغراض :

إذا فاتني ظل الحِمى ونعيمــه فحَسْبُ فؤادي أن يهبَّ نسيمُهُ
ويقنعني أني بــه مُتكيف[1] فزمْزمه دمعي وجسمي حَطِيمه
يعود فؤادي ذكر من سَكن الغضا فيُقعده فوق الغضا ويُقيمه
ولم أر يوماً[2] كالنسيم إذا سَرى شفا سَقم القلب المشوق سَقيمه
نعلل بالتذكار نفسا مشوقة يديرُ عليهــا كأسَه ويُديمــه
وما شفَّني بالغُور قدٌّ مُرَنَّم[3] ولاشاقني من [حشٍّ وجدة][4] ريمُهُ
ولا سَهِرت عيني لبرق ثَنية من الثَّغر يبدو موهِناً فأُشيمه
براني شوقٌ للنبي محمــــد يَسُوم فؤادي بَرْحه[5] ما يسومُه
ألا يا رسول الله ناداك ضارعٌ على البعد[6] محفوظ الودِاد سليمُه
مشوق إذا ما الليل مدَّ رواقَــه تحثُّ[7] به تحت الظلام همومُه
إذا ما حديث عنك جاءت به الصَّبا شَجاه من الشوق الحديث قَدِيمُه
أيجهر بالنَّجوى وأنت سَمِيعُها ويشرح ما يخفي وأنت عَلِيمُه
وتعوزه السُّقيا وأنت غـياثُه وتَتْلِفه البلوى[8] وأنت رحيمه
بنورك نور الله قد أشرق الهدى فأقماره وضَّــــاحة ونجــومُه

---

(١) هكذا في الإسكوريال . وفي النح (متكنف) .
(٢) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (شيئا) .
(٣) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (مربح) .
(٤) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (وحش وجرة) .
(٥) وردت في الإسكوريال بجره . والتصويب من النفح .
(٦) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (النأى) .
(٧) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (تهم) .
(٨) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (الشكوى) .

لك أنهل فضل الله بالأرض ساكبًا ... فأنواؤه ملتفَّة وغيومه (١)
ومن فوق أطباق السماء بك اقتدى ... خليل الذى أوطاكها (١) وكليمه
لك الخُلُق الأرْضَى الذى جلّ ذكره ... ومجدك فى الذِّكر الحكيم (٢) عظيمه
يجلُّ مدى عَلْياك عن مدح مادحٍ ... فموسر دُرِّ القول فيك عديمُه
ولى يارسول الله فيك وراثةٌ ... ومجدك لا يُنسى الزِّمام كريمُه
وعندى إلى أنصار دِينك نِسْبَةٌ ... هى الفخر لا يخشى انتقالاً مُقِيمه
وكان بودى أن أزور مبوأً ... بك أفتَخَرت أطلالُه ورسومُه
وقد يجهدالإنسان طَرْف اعتزامه ... ويعوزُه من بعد ذاك مَرُومُه
وعُذرى فى تَسْويف عزمى ظاهر ... إذا ضاق عُذْر العَزْم عمّن يلومه
عَدَتْنى بأقصى الغَرْب عن تُرْبك العدا ... جلالِقةُ الثَّغر الغريب ورُومُه
أجاهد منهم فى سبيلك أمّةً ... هى البحر يَعْيى أمرُها من يَرُومه
فلولا اعتناءٌ منك يا ملجأ الوَرَى ... لِريع حِماه واسْتَبِيح حَرِيمه
فلا تَقْطع الحَبْل الذى قد وصَلتَه ... فمجدك موفور النَّوال عِمِيمُه
وأنت لنا الغيث الذى نَسْتَدِرُّه ... وأنت لنا الظلُّ الذى نَسْتَدِيمه
ولمّا نأتْ دارى وأعْوز مَطْمَعى ... وأقْلَقنى شوقٌ يشبُّ جَحيمه
بعثتُ بها جُهْدَ المُقِلِّ معوِّلاً ... على مجدك الأعلى الذى جلَّ خِيمه
وكلتُ بها هَمِّى وصدقُ قريحتى ... فساعدها (٤) هاءُ الرَّوى وميمُه
فلا تَنْسَنى يا خير من وطِىء الثَّرى ... فمثلك لا يُنْسَى لديه خديمُه
عليك صلاة الله ما ذرَّ شارق ... وما راق من وجه الصَّباح وسِيمُه

---

(١) هذا البيت وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .
(٢) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (أوطاكه) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (العظيم) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فساعدنى) .

إلى رسول الحقّ ، إلى كافّة الخَلْق ، وغمام الرحمة الصادق البَرْق ، والحايز فى ميدان اصْطفاء الرحمن قَصَب السَّبق ، خاتم الأَنبياء ، وإمام ملائكة السماء ، ومن وُجِّبت له النبوة ، وآدم بين الطين والماء ، شَفِيع أَرباب الذنوب ، وطَبِيب أَدواء القلوب ، ووسيلة الخلق إلى عَلاَّم الغيوب ، نبى الهدى الذى طُهِّر قلبُه . وغفر ذنبه ، وخَتم به الرسالة ربُّه ، وجرى فى النفوس مجرى الأَنفاس حبُّه ، المُشَفِّع يوم العرض ، المحمود فى ملإ السموات والأَرض ، صاحب اللِّواء المَنْشور ، والمؤتمن على سِرِّ الكتاب المسطور ، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور ، المؤيد بكفاية الله وعصمته ، [الموفور حظُّه من عنايته ونعمته][(١)] . الظلُّ الخفَّاق على أُمَّته من لو حازَتْ الشمس بعض كماله ، ما عدمت إشراقا ، أو كانت للآباء رحمة قلبه ، ذابت [نفوسهم][(٢)]إشفاقا ، فائدة الكَوْن ومَعْناه ، وسرُّ الوجود الذى بهرَ الوجودَ سَناه ، وصفىُّ حضرة القدس الذى لا ينام قلبه إذا نامت عيناه ، البَشِير الذى سبقت له البُشْرى ، ورأى من آيات ربِّه الكبرى ، ونزل عليه[(٣)] سبحان الذى أَسْرَى . الأَنوار من عنصر نوره مستمدة . [والآثار من آثاره مستجدة][(٤)] من طُوى بِساط الوحى لفقده ، وسُدَّ باب النبوة والرسالة من بعده ، وأُوتى جوامع الكلم ، فوقف البلغاءُ حَسْرى دون حدِّه ، الذى انتقل فى الغرر الكريمة نوره ، وأضاءت لميلاده[(٥)]

(١) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (فيه) .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (والآثار تخلق وآثاره مستجدة) .

(٥) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (لنوره) والأولى أرجح

مصانع الشأم وقصوره ، وطفِقت الملائكة تحييه [١] وفودها وتزوره . وأخبرت الكتب المنزلة على الأنبياء بأسمائه وصفاته . [فجاء بتصديق الخبر ظهوره][٢] وأخذ عهد الإيمان على من اتصلت بمبعثه منهم أيام حياته][٣] المُفْزِع الأَمْنَع يوم الفَزَع الأكبر ، والسَّند [٤] المعتمد عليه فى أهوال المَحْشر ، ذو المعجزات [٥] التى أثبتتها المشاهدة والحِسُّ ، وأقرَّ بها الجنُّ والإنس ، من جماد يتكلم ، وجِذْع لفراقه يتألَّم ، وقمر له يَنْشقّ ، وشجر [٦] يشهد أنَّ ما جاءَ به هو الحق ، وشمس بدعائه عن مسيرها تُحْبس ، وماءٍ من أصابعه الكريمة يَنْبَجس ، وغمام باسْتِسقائه يَصوب ، وركيّة [٧] بصق فى أجاجها ، فأَصبح ماؤها وهو العَذْب المشروب ، المخصوص بمناقب الكمال ، وكمال المناقب ، المسمى بالحاشر والعاقب ، ذو المجد البعيد المراق [٨] والمراقب ، أكرم من [رُفعت إليه][٩] وسيلة المُعْتَرف والمُتغرب ، سيِّدُ الرسل ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، الذى فاز بطاعته المحسنون ، واستَنْقَذ بشفاعته المذْنبون ، وسَعُد باتباعه الذى لا خوف عليهم ولا هم يَحْزَنون ، صلى الله عليه وسلم ، ما لمعَ برقٌ ، وهَمَع وَدْق ، وطلعت شمس ، ونسخ اليومُ أمس . من عَتِيق شفاعته ، وعَبْد طاعته ، المعتصم بسببه ، المؤمن بالله ثم به ، المُسْتَشْفى بذكره كلما

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تجيئه) والأولى أرجح

(٢) هذه العبارة ساقطة فى النفح ، وواردة فى الإسكوريال .

(٣) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) وردت فى الإسكوريال (السيد) والتصويب من النفح .

(٥) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (المشاهد) والأولى أرجح .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (وحجر) .

(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وطوى) .

(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (المرامى) .

(٩) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح ، ووردت كلمة فى الإسكوريال (بعثت) .

تألم . المفتتح بالصلاة عليه كلما تكلمّ . الذى. [إن ذكر][1] تمثل طلوعه بين أصحابه وآله . وإن هبَّ النسيم العاطر ، وجد فيه طيِّب خِلاله ، وإن سمع الأذان تُذكِّر صوتُ بِلالِه ، وإن ذُكر القرآن ، استُشعر [2] ترددُّ جبريل بين معاهده وخِلاله . لاثِم تُرْبه ، ومؤمل قُربه ، ورهينُ طاعته وحُبِّه . المتوسل [3] به إلى رضى الله ربِّه ، يوسف بن إسمعيل بن نصر . كتَبَه إليك يارسول الله . والدمع ماحٍ ، وخَيْلُ الوَجْد ذات جماحٍ ، عن شوق يزداد كلما نقص الصبر . وانكسار لايُتاح له إلَّابدنوٍّ مزارك الجَبْر [وكيف لا يَعيي مشوقك الأمر . وتوطأً على كبده الجَمْر] [4] ، وقد مطلت الأيام بالقدوم على تُرْبتك المقدَّسة اللَّحد . ووُعِدت الآمال . ودانت بإخلاف الوَعْد . وانصرفت الرِّفاق والعين بإثمد [5] صريحك ما اكتحلت . والركائب إليك ما ارْتحلت ، والعزائم قالت وما فَعَلت . والنواظر فى تلك المشاهد الكريمة لم تُسْرح ، وظهور [6] الآمال عن ركوب [7] العجز لم تُبْرح . فيالها معاهد فاز من حيَّاها ، ومشاهد ما أعْطَر ريَّاها . بلادٌ نيطت بها عليك التَّمائم ، وأشرقت بنورك منها النَّجود والتَّهائم . ونزل فى حجراتها عليك المُلك ، وانجلى بضياء فُرْقانك فيها الحَلَك ، مدارس الآيات والسُّور . ومطالع المعجزات السَّافرة والغرَر ، حيث قضُيت الفروض وحُتمت ، وافتُتحت [سُور الوحى][8]

---

(١) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال

(٣) هكذا وردت فى النفح . ز فى الإسكوريال (المتوصل) والأول أرجح

(٤) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بنور) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وطيور) .

(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وكور) .

(٨) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ومكانها فى النفح (سورة الرحمن)

وخُتِمت ، وابْتدِيت المِلّة الحنيفة وتُمِّمَت ، ونُسخت الآيات وأُحْكِمت . أما والذى بعثك بالحقّ هادياً [وأطلَعَك للخلق نوراً بادياً][١] ، لايُطْفِى غُلّتى إلا شِرْ بُك ، ولا يُسْكن لَوْعتى إلا قُرْبك ، فما أسعد من أفاض من حَرَم الله إلى حَرَمك ، وأصبح بعد أداءِ ما فَرَضْت عن الله ضَيْف كَرَمك ، وعفّر الخدّ فى معاهدك ومعاهد أُسْرَتك ، وتردّدما بين دَارَىْ بِعْثَتِك وهِجْرتك . وإنى لما عاقَتْنى عن زيارتك العَوائق ، وإن كان شُغْلى عنك بك ، وصدّتنى[٢] الأعداءُ فيك عن وصل سبى بسببك ، وأصبحت بين بحر تتلاطم أمواجه ، وعُدوّ تتكاثَف أفواجُه ، ويحجب الشمس عند الظّهيرة عَجاجه ، فى طائفة من المؤمنين بك ، وطّنوا على الصبر نفوسهم ، وجعلوا التوكل على الله وعليك لُبوسهم ، ورفعوا إلى مصارحتك رؤوسهم ، واستَعْذبوا فى مَرْضاة الله ومَرْضاتك[٣] بُوسهم[٤] ، يطيرون من هَيْعة إلى أخرى ، ويلتفتون[٥] والمخاوف عن يُمنى ويسْرى ، ويقارِعُون وهم الفئة القليلة ، جموعاً كجموع قَيْصرَ وكسْرى ، لا يبلغون من عدو[٦] وهم الذّرّ من انتشاره عُشْر مِعْشاره ، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدّنيا ، لأن تكون كلمة الله هى العُلْيا ، فياله من سِرْبٍ مَرُوع ، [وصريخ إلاّ منك ممنوع][٧] ودعاء إلى الله وإليك مرفوع . وصبْية حُمر الحواصل ، تخفق فوق أكارها أجْنحة المناصل ، والصليب قد تمطّى بمدّ ذراعيه ، ورفعت الأطماع بضَبْعيه ،

---

(١) هذه العبارة ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى النفح .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (وعدتنى) والأولى أرجح .

(٣) ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى النفح .

(٤) وردت فى الإسكوريال (نفوسهم). والتصويب من النفح .

(٥) هكذا وردت فى النفح وفى الإسكوريال (ينفلتون) .

(٦) هكذا فى النفح وفى الإسكوريال (عدد) .

(٧) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

وقد حُجبت بالقتام السماءُ ، وتلاطمت أمواج الحديد والبأس الشديد ، فالتقى الماء . ولم يبق إلا الدماء . وعلى ذلك فما ضَعُفت البصائر ، ولا ساءت الظنون . وما وُعِد به الشهداءُ تعتقده القلوب ، حتى تكاد تشاهده العيون ، إلى أن نَلْقاك غداً إن شاء الله . وقد أبلينا العُذْر ، وأرغمْنا الكفر ، وأعملنا فى سبيل الله وسبيلك البيضَ والسُّمر . استَنَبْتُ رُقعتى هذه لتطير إليك [من شوق] (١) بجناحٍ خافق ، وتشعر نيّتى التى تصحبها برفيق مُوافق ، فتؤدى عن عبدك وتُبَلّغ ، وتُعفِّر الخدّ فى تُربك وتمرّغ ، وتطيب بريّاها معاهدك الطاهرة وبيوتك ، وتقف وقوف الخشوع والخضوع تجاه تابوتك ، وتقول بلسان التملّق عند التّشبّث بأسبابك والتّعلّق ، منكسرة الطّرف ، حَذِراً بُهْرجها من عدم الصّرف . ياغياث الأمة ، وغمام الرحمة ، إرحم غربَتى وانقطاعى ، وتغمّد بطَولك قِصَر باعى ، وقوّ على هيبتك خَور طباعى . فكم جُزْتَ من لُجٍّ مهول ، وجبتَ من حَزون وسُهول ، وقابِلْ بالقبول نيابَتى ، وعجِّل بالرّضا إجابتى ، ومعلوم من كمال تلك الشِّيم ، وسخاءُ تلك الدِّيم ، أن لا يخيب قَصْدُ من حطّ بفنايها ، ولا يظمأُ واردٌ أكبّ على إنايها . اللهم يامن جعلته أوّلَ الأنبياء بالمعْنى وآخرَهم بالصُّورة ، وأعطيتَه لواءَ الحمْد ، يسير آدم فمن دونه ، تحت ظلاله المنْشُورة ، وملّكتَ أمتَّه ما زَوى له من زوايا البَسِيطة المَعْمورة ، وجعلتَنى من أمته المَجْبُولة على حُبِّه المَفْطورة (٢) [وشوّقتنى إلى معاهده المبْرورة ومشاهده المَزوُرة] (٣) ووكلت لسانى بالصلاة عليه ، وقلبى بالحنين

---

(١) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذ فى النفح ، ومكانها فى الإسكوريال (الموصلة لقربه) . والأولى أرجح لارتباطها بالعبارات المسجعة التالية .

(٣) هذه الجملة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

إليه . ورغّبتني فى التماس ما لديه ، فلا تقطع عنه أسبابى ، ولا تحرمنى فى حبه أجر ثوابى ، وتداركنى بشفاعته يوم أخذ كتابى . هذه يارسول الله وسيلة من بَعُدت داره ، وشطّ مزاره ، ولم يجعل بيده اختياره . فإن لم تكن هذه للقبول أهلا ، فأنت للإغضاء والسمح [1] أهل . وإن كانت ألفاظها وعرة ، فجنابك للقاصدين سهل . وإذا كان الحبُّ يُتوارث كما أخبرت ، والعروق تدسّ حسبما إليه أشرت ، فلى بانتسابى إلى سَعد عميد أنصارك مزيّة ، ووسيلة أثيرةٌ حفيّة . فإن لم يكن لى عمل ترتضيه ، فلى نيّة . فلا تنسنى ومن بهذه الجزيرة [التى افتتحت][2] بسيف كلمتك ، على أيدى خيار أمّتك ، فإنما نحن بها وديعة تحت بعض أفضالك ، نعُوذ بوجه ربِّك من إغفالك ، ونَستَنشق من ريح عنايتك نَفْحة ، وترْتقب من مُحيّا قبولك لَمْحة ، ندافع بها عدوا طغى وبغى ، وبلغ من مضايقتنا ما ابْتغى . فمواقف التّمحيص قد أعْيَتَ من كَتب وأرّخ ، والبحر قد أصْمَتَت [بواعث لُحَجِه][3] من استَصْرخ ، والطّاغية فى العدوان مُستَبصر ، والعدو محلّق ، والولىُّ مقصّر [4] . ويجاهك نَستَدفع [5] ما لا نطيق ، وبعنايتك نعالج سقيم الدين فيُفيقَ ، [فلا تفردَنا ولا تهملنا ، وناد ربّك فينا ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (السماح) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (المفتتحة) .

(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى النفح .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (تدفع) .

(٥) ووردت فى الإسكوريال (منصر) والتصويب من النفح .

ربنا ولا تحملنا ، وطوائف أُمتك حيث كانوا عناية منك بكفهم][٢]

وربك يقول لك . وقوله الحق ، وما كان الله ليعذّبهم ، وأنت فيهم .

والصلاة والسلام عليك . يا خير من طاف وسَعى ، وأجاب داعيًا إذا دعا ، وصلى الله على جميع أحزابك وآلك، صلاة[٢] تليق بجلالك ، وتحقُ لكمالك ، وعلى ضَجيعيك وصديقيك وحبيبيك ورفيقيك ، خليفتك فى أمّتك[٣] ، وفاروقك المُستخلف بعده على ملّتك[٤] ، وصهرك ذى النورين، المخصوص ببرّك ونِحْلتك ، وابن عمك ، سيفك المسلول على حلتك[٥] ، بدر سمائك ووالد أهَلّتك . [والسلام الكريم عليك وعليهم ، كثيراً أثيرا][٦] ورحمة الله تعالى وبركاته . وكتب بحضرة جزيرة الأندلس غرناطة ، صانها الله تعالى ووقاها ، ودفع عنها ببركتك كَيْدَ عُداها .

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى النفح . ومكانها فى الإسكوريال (بما).

(٣) هكذا وردت فى النفح وفى الإسكوريال (ملتك) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، فى النفح (جلتك) .

(٥) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٦) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

وكتبت عن ولده أمير المسلمين أبى عبد الله
إلى ضريح رسول الله صلى الله عليه وسلم

وضمنت ذلك ما فتح الله عليه من الفتوحات
السِّنيَّات، إليه وفى أوائل عام أحد وسبعين وسبعماية

دعاك بأَقْصَى المَغْرِبين غريب ... وأنت على بُعد المزار قريب
مدلٌ بأسباب الرجاء وطَــرْفه ... غَضيضٌ على حُكْم الحياء مَهيب (١)
يُكَلِّف قرص البدر حَمْل تحيـة ... إذا ما هوى والشمس حين تَغِيب
ليَرْجِع من تلك المعالم غدْوة ... وقد ذاع من وَرد (٢) التحية طِيبُ
ويستودع الريح الشمال شمائلا ... من الحُبِّ لم يعلم بهنَّ رقيب
ويطلب فى جَيْب الجيُوب جوابها ... إذا ما أطلَّت والصباح مُنيب (٣)
[ويستفهم الكفَّ الخَضِيب ودمعه ... غرامًا بحنَّاء النَّجيع خَضِيب
ويتبع آثار المطىِّ تشيُّعاً وقــد ... زمزم الحادى وحنَّ نَجِيب] (٤)
إذا أثَرُ الأَخفاف (٥) لاحت محاربا ... يخــرُّ عليــها راكعاً ويُنيب
ويلقى ركاب الحجِّ وهى قوافل ... طلاحٌ وقد لبَّى النداءَ لبيب
فلا قول إلا أنَّــة وتوجُّــع ... ولا حول إلاَّ زَفْرة ونحِــيب
غَليلٌ ولكن من قَبُولك مَنْهَلٌ ... عليلٌ ولكن من رضـــاك طَبِيب
ألا ليت شعرى والأمانى ضلَّة (٦) ... وقد تُخْطِئُ الآمـال ثم تُصيب

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (مريب) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (رد) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (جنيب) .
(٤) هذان البيتان واردان فى الإسكوريال . وساقطان فى النفح .
(٥) هكذا وردت فى النفح وفى الإسكوريال (الأحباب) والأولى أرجح .
(٦) وردت فى الإسكوريال (ظلمة) . والتصويب من النفح .

أَيُنْجِد نجْد بعد شطٍّ(١) مزاره ... ويكتب بعد البُعْد منه كَئِيب
وهل ينقضى دَيْنى فيسمح طايعاً(٢) ... وأدعو بحظى مُسْمِعا فيجيب
ويا ليت شعرى هل لحوْمى مورد ... لديك وهل لى فى رضاك نصيب
ولكنَّك المولى الجواد وجارهُ ... على أىِّ حال كان ليس يَخِيب
وكيف يضيق الذَّرع يومابقاصد(٣) ... وذاك الجناب المُسْتجارُ حَبِيب
وما هاجنى إلا تألُّق بارق ... يلوح بفَوْد الليل منه مَشِيب
ذكرت به رَكب الحجاز وجيرةً ... أهابَ بها نحو الحبيب مُهيب
فبتُّ وجَفْنى من لآلىء دمعه ... غنىٌّ وصبرى(٤) للشُّجون سليب
تريحنى الذكرى ويَهْفو بى الهوى ... كما مال غصنٌ فى الرياض رطيب
وأحضر تعليلا لشوقى بالمُنَى ... ويطرق وجدٌ غالِبٌ فأغيب
مُناى(٥) لو أُعْطِيت الأمانى زَوْرة ... يُبثُّ غرام عندها ووَجِيب
ذة ولُ حبيبٍ إذ يقول تشوُّقا ... عسى وطنٌ يدنو إلىَّ حبيب
تعجبت من سيفى [وقدسابق القضا](٦) ... وقلبى فلم يَسْكُبه منه مَذِيب
وأعجبُ أن لا يُورق الرمح فى يدى ... ومن فوقه غيثُ المشوب سَكِيب
فيا سَرْحَ ذاك الحىِّ لو أخلف الحيا ... لأغْناك من صوب الدموع صَبِيب
وياهاجر الجوِّ الجديب تلبُّثاً ... فعهدى رَطب الجانبين خَصِيب
ويا قادح الزَّند الشجاع ترفُّقاً ... عليك فشوق الخارجى شَبِيب

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (شحط) .
(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (وتقضى ديونى بعد ما مطل المدى) .
(٣) وردت فى الإسكوريال (بماضد) . والتصويب من النفح .
(٤) وردت فى الإسكوريال (وسيرى) . والتصويب من النفح .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مرامى) .
(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى النفح (وقد جاوز القضى) .

أَيا خاتم الرسل المكين مكانهُ حديث الغريب الدَّار فيك غريب
فؤادى على جَمْر البِعَاد مُقلَّب يمـاح عليه المدوع قُلِيب
فو الله ما يزداد إلاَّ تلَهُّبا أأبصرتَ ماءً ثار عنه لهيب
فليلته ليل السليم ويومه إذا شدَّ للشوق العصاب عصيب
هواى هُدًى فيك اهتديتُ بنوره ومُنْتَسَبى للصَّحب منك نَسِيب
وحسبى على أَنِّ لصَحْبك مُنْتم وللخُزُر جبين الكرام نَسيب[(١)]
عَدَتْ عن مغانيك المشُوقة للعدا عقاربُ لا يخفى لهنَّ دَبيب
حِراصٌ على إطفاء نورٍ قَدَحْتَه فمُسْتَلِبٍ من دونه[(٢)] وسَلِيب
تمر الرياح الغُفْل فوق كلومهم فتعبق من أنفاسها وتَطِيب
بنصرك[(٣)] عنك الشُّغل من غير منَّة وهل يتساوى مشْهدٌ ومَغِيب
فإن صحَّ منك الحظُّ طاوعت[(٤)] المنى ويبعد مَرْمى السَّهم وهو مُصيب
ولولاك لم تُعْجَم من الرُّوم عودها فعود الصَّليب الأَعجمى صَليب
وقد كانت الأَحوال لولا مراغِبُ ضُمِنَت ووعدٌ بالظُّنون[(٥)] تَريب
منابرُ عزٍّ أذَّن الفَتْحُ فوقها وأفصح للعَضْب الطَّرير خطيب
نقود إلى هيجائها كلَّ صائل كما ريع[(٦)] مَكْحُول اللِّحاظ رَبيب
ونجتاب من سَرْد اليقين مدارعا يَكُفتُها من يَجْتَنى ويُثيب[(٧)]
إذا اضطُرِت[(٨)] الخُطى حول غديرها يروقك منها لُجَّة وقَضيب

---

(١) هذا البيت وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .
(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (دونها) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (لنصرك) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (طاوعنى) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بالظهور) .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ربع) .
(٧) هذا البيت وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .
(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (اضطرب) .

فعذرًا وإغضاءً ولا تنس صارخا — بعزِّك يرجو أن يجيبَ مُجيب
وجاهك بعد الله نرجو وإنَّه — لحظٍّ مليٍّ بالوفاء رَغيب
عليك صلاة الله ما طيَّب الفَضا — عليك مُطيل بالثَّناء مُطيب
وما اهتزَّ قدٌّ للغصون مُرنَّح — وما افترَّ ثغر للبُروق شنيب

إلى حجة الله تعالى[1] ، المؤيد ببراهين أنواره ، وفائدة الكَوْن ونُكْتة أدْواره ، وصفوة نوع البشر ومنتهى أطْواره . إلى المُجْتَبى وموجود الوجود ، لم يُغْن بمطلق الوجود[2] عدِيمه ، والمُصْطفى من ذرِّية آدم ، قبل أن يَكْسُو العظام أدِيمه ، المحتُوم فى القِدم ، وظلمات العَدَم ، عند صِدْق القِدَم تقديمه وتفضيله ، إلى وديعة النُّور المُنْتقل فى الجِباه الكريمة والغُرَر ، وغمام الرحمة الهامِية الدُّرر . إلى مختارِ الله المخصوص باجْتِبائه ، وحبيبه الذى له المزيَّة على أحبَّائه ، من ذرِّية أنبياء الله تعالى آبائه . إلى الذى شَرَح صدره وغسله ، ثم بعثه واسطة بينه وبين العِباد وأرْسله ، وأتمَّ عليه إنعامه الذى أجْزَله ، وأنْزَل عليه من النُّور والهدى ما أنْزَله . إلى بُشْرى المَسيح والذَّبيح ، ومن لهم التَّجْر الرَّبيح ، المنصور بالرُّعب والرِّيح ، المخصوص بالنَّسب الصَّريح . إلى الذى جعله فى المُحول غماما ، وللأنبياء إماما ، وشقَّ صدره لتلقِّى روح أمره غلاما ، وأعْلم به فى التَّوراة والإنجيل إعْلامًا ، وعلَّم المؤمنين صلاةً عليه وسلاما . إلى الشَّفيع الذى لا تُردُّ فى العُصاة شفاعتُه ، والوجيه الذى قُرِنت بطاعة الله طاعته ، والرؤوف الرَّحم الذى خَلَصت إلى الله فى أهل الجرايم ضَراعته . صاحب الآيات التى لا يَسعُ ردها . والمعجزات التى أرْبَى على الألف عدُّها ،

---

(١) زائدة فى النفح .

(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (الجود) والأولى أرجح .

من قمر شُقَّ ، وجِذْع حنّ له وحقّ . وبنانٍ يتفجر بالماء ، [فيقوم برىٌّ][١] الظمأ [وطعام يُشبع الجَمْع الكثير يسيرُه ، وغمام يظلِّل به مقامه ومَسِيره] ، خطيب المقام المحمود إذا كان العَرْض ، وأول من تَنْشَقٌّ عنه الأرض [ووسيلة الله تعالى التى لولاها ما أُقْرض القَرْض][٢] ولا عُرف النَّفْل والفَرْض ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف ، المحمود الخلال ، من ذى الجلال ، الشاهدة بصدقه صحفُ الأنبياء وكتب الإرسال ، وآياته التى أثلجت[٣] القلوب ، بِبَرَد اليقين السَّلسال . صلى الله عليه وسلم ، ما ذرَّ شارق ، وأومض بارق ، وفرَّق بين اليوم الشامس والليل الدامس فارقٌ ، صلاةً تتأرَّج عن شذا الدَّهر ، وتَنْبَلج عن سَنَاء[٤] الكواكب الزُّهر ، وتتردد بين السِّر والجَهْر ، وتستغرق ساعات النهار[٥] ، وأيام الشهر ، وتدوم بدوام الدهر ، من عبدِ هداه ، ومُسْتقرِئ مواقع نَداه ، ومزاحم أبناءِ[٦] أنصاره فى مُنْتداه ، وبعض سهامه المُفَوَّقة إلى نحور عُداه . مؤمِّل الْعِتق من النَّار بشفاعته ، ومُحرز طاعة الجبَّار بطاعته ، الآمن باتصال رَعْيه من إهمال الله وإضاعته ، متخذ الصلاة عليه وسايل نجاه ، وذخائر فى الشدائد مُرْتجاه ، ومُتاجر بضائعها غير مُزْجاه ، الذى ملأ بحبِّه جوانح صدره ، وجعل فكره هالةً لبَدْره ، وأوجب حقه[٧] على قدر العَبْد لا على قَدْره ، محمد بن يوسف

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط فى الإسكوريال ووارد فى النفح .
(٢) هذه العبارات الواردة بين الحاصرتين كلها واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (انبلجت) والأولى أرجح .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (سنى) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (اليوم) .
(٦) زائدة فى النفح .
(٧) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (قدره) . والأولى أرجح .

ابن نصر الأنصارى الخزرجى ، تسيب سَعْد بن عُبادة من أصحابه ، وبوارق سحابه ، وسيوف نصرته ، وأقطاب دار هجرته ، ظلله الله يوم الفَزَع الأكبر، من رضاك عنه بظلال الأمان ، كما أنار قلبه من هدايتك بأنوار الهدى والإيمان، وجعله من أهل السِّياحة فى فضاء حُبِّك والهَيَمان .

كتبه إليك يا رسول الله ، واليراعُ يقتضى مقام الهيبة صُفْرةً لونه ، والمداد يكاد أن يحول سواد جَوْنه ، ورقّة الكتاب[1] يخفق فؤادها حرصا على حفظ اسمك الكريم وصَوْنه ، والدمع يقطر فتَنْقَط به الحروف ، وتفصل الأسطر ، وتوهُّم المثول بمثواك المقدّس ، لا يمر بالخاطر سواه ولا يخطر ، عن قلب بالبعد عنك قَريح ، وجَفْن بالبكاء جريح ، [وتأوُّه عن تَبْريح][2] ، كلما هبَّت من أرضك نسيم ريح . وانكسارٌ ليس له إلا جَبْرك ، واغتراب لا يُؤنِس فيه إلا قُرْبك ، وإن لم يقض فقبرك . وكيف لا يُسْلم فى مثلها الأسى ، ويُوحِش الصباح والمسا ، ويُرْجِف جبَل الصبر بعد ما رَسى ، لولا لعلّ وعَسى . فقد سارت الرُّكبان إليك ولم يُقْضَ مسير ، وحوّمت الأسْراب عليك ، والجناح كَسِير ، ووُعدت الآمال فأُخْلِفت ، وحلفت العزايم فلم تف بما حَلِفت ، ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشَّرف الأثيل ، إلاَّ على التَّمثيل ، ولا من المعالم المتناهية[3] التَّنوير ، الأعلى التَّصوير ، ومَهْبط وحى الله ، ومُتنزَّل أسمايه ، ومتردَّد ملايكة سمائه ، ومرافق[4] أوليائه ، وملاحد أصحاب[5] خيرة

---

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (الفؤاد) . والأولى أرجح .

(٢) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الملتمسة) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مدافن) والأولى أرجح .

(٥) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

أنبيائه ، رزقنى الله الرضا بقضائه ، والصبر على جاحِم البُعْد ورَمْضاته .

من حمراء غرناطة [حرسها الله تعالى] دار ملك الإسلام بالأندلس . قاصية سُبُلك ، ومُسَلَّحة[١] رَجْلك، يا رسول الله وخَيْلك ، وأنأى[٢] مطارح دعوتك ومساحِب ذَيْلك ، حيث مصافّ الجهاد فى سبيل الله وسبيلك ، قد ظلَّلها[٣] القتام ، وشُهبان الأسنَّة أطْلَعها منه الإعتام ، وأسواق بيع النفوس من الله ، قد تعدَّد بها الأيامَى والأيتام . حيث الجِراح قد تحلَّت بعسجد نَجيعها النحور ، والشُّهداءُ تحفُّ بها الحُور . والأُمم الغريبة قد قَطَعَتْها عن المَدد البحُور ، حيث المباسِم المُفْترَّة ، تجلوها المصارع البرَّة ، فتحييها بالعراء ثغور الأزاهر ، وتَنْدِبها صَوادح الأدواح برنَّات تلك المزاهر ، حيث الإسلام من عدوه المكايد بمنزلة قَطْرة[٤] من عارض غَمام ، وحَصاة من ثَبِير[٥] أو شِمام ، وقد سُدَّت الطريق ، وأسْلم [الفراق الفريق][٦] ، وأُغِصّ الريق ، ويئس من الساحل الغريق . إلاَّ أن الإسلام بهذه الجهة المتمسكة بحَبْل الله وحَبْلك ، المهتدية بأدلة سُبُلك ، سالمٌ والحمد لله من الإنْصِداع ، محروس بفضل الله من الابْتِداع . مقدود من جَديد الملَّة ، معدومٌ فيه وجود الطوائف المُضِلَّة ، إلاَّ ما يخصُّ الكفر من هذه العِلَّة ، والاستظهار على جمع الكثرة من جموعه ، بجمع القِلَّة . ولهذه الأيام يا رسول الله ، أقام الله أوَدَه برًّا بوجهك الوجيه ورَعْيًا ، وإنجازاً لوعدك

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مسحبة) . والأولى أرجح .

(٢) واردة فى النفح . ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال (ظلله) والتصويب من النفح

(٤) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٥) هكذا فى النفح وفى الإسكوريال (ثثير) .

(٦) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (للفريق الغريق) .

وسعيًا[١] وهو الذى لايخلف وعْدًا ، ولا يخيب سَعْيا ، وفتح لنا فتوحا أشعرتنا برضاه عن وطننا الغريب ، وبشّرتنا منه تعالى بتغمُّد[٢] التقصير ورفع التّثْريب ، ونصرنا ، وله المِنَّة ، على عَبَدةِ الصليب ، وجعل لأَلِفنا الرَّديفى ولأُمّنا السَّردى ، حكم التغليب . وإذا كانت الموالى التى طوقت الأَعناق مِنَنُها ، وقررت العوايد الحسنة[٣] سيرَها وسُنَنها ، تبادر إليها نُوَّابها الصُّرحاءُ ، وخدّامها النُّصحاءُ بالبشائر ، والمسرّات التى تُشاع فى العشاير ، وتجلُو لديها نتائج أيديها ، وغايات مباديها ، وتُتاحفها وتُهاديها ، بمجانى جنَّاتها وأزاهر غَواديها ، وتُطْرف مَحاضرها بطَرْف بَواديها ، فبابُك يارسول الله أَولى بذلك وأَحقُّ ، ولك الحقُّ الحق ، والحرُّ منا عبدُك المُسْتَرق ، حسبما سجَّله الرِّق . وفى رضاك من كل من يَلْتمس رضاه المُطْمع ، ومثواك المُجْمع ، وملوك الإسلام فى الحقيقة عبيدُ سدَّتِك[٤] المُؤمَّلة ، وخَوْل مَثابَتك المُحْسنة بالحسنات المُجَمَّلة ، وشُهبٌ تَعْشو إلى بدورك المُكَمَّلة ، ومحضِ سيوفك المقلَّدة فى سبيل الله المُحَمَّلة ، وحُرْمة مِهادك ، وسِلاح جهادك ، وبُروق عِهادك . وإن مكفول احترامك الذى لا يُخْفر ، وربى إنعامك الذى لا يَكْفُر ، ومُلْتحِف جاهك[٥] ، الذى يُمْحى ذنبَه بشفاعتك إن شاءَ الله ويُغْفِر ، يُطالع روضة الجنَّة المفتَّحة أبوابُها بمثواك ، ويفاتح صِوان القدْس الذى أَجنَّك وحَواك ، وينشر بضائع الصلاة عليك ، بين يدى الضَّريح الذى يَهْواك[٦] ، ويعرض جَنَى[٧] ما غرستَ وبذرتَ ،

(١) واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى النفح .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (بنفر) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الحسان) .

(٤) فى الإسكوريال (سيرتك) والتصويب من النفح .

(٥) وردت فى الإسكوريال جهادك . والتصويب من النفح .

(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (طواك) .

(٧) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (شى) . والأول أرجح .

ومِصداق ما بشّرت به [لما بشرت][1] وانْذرت ، وما انتهى إليه طَلِق جهادك ، ومصبَ عِهادك ، لتقِرّ عينُ نُصحك، الذى أنام العُيون السَّاهرة هُجوعَها ، وأشبَع البُطون وروّاها ظَمأها من الله وجُوعَها . وإن كانت الأُمور بمرأى من عَيْن عنايتك ، وغَيْبُها متعرَّفٌ بين إفصاحك وكِتابتك . ومُجْملُه يا رسول الله ، صلى الله عليك [وبَلّغ وسِيلَتى إليك][2] هو أن الله سبحانه ، لمَّا عرّفنى لطفه الخَفِىّ فى التَّمحيص ، المُقْتَضِى عدم المحِيص ، ثم فى التَّخصيص ،المُغْنى بعِيانه عن التَّنصيص ، ووفَّق ببركتك السَّارية رحْماها فى القلوب ، ووسايل محبَّتك العايدة بنيل المطلوب ، إلى استفادة عظة واعتبار ، واغتنام إقبال بعد إدْبار ، ومَزيد استِبصار ، واستِعانة بالله تعالى وانْتِصار . فسكَّن هبُوب الكفر بعد إعْصار ، وحلَّ مُخنَّق الإسلام بعد حِصار ، وجَرَت على سُنن السُّنة ، بحسب الاستطاعة والمنَّة اليَسيرة ، وجَبَرت بجاهك القلوب الكَسِيرة ، وسهلَّت[3] المآرب العسيرة ، ورُفِع بيد العزَّة الضَّيم ، وكَشف بنور البصيرة الغَيْم ، وظهر القليلُ على الكثير ، وباء الكفر بخُطَّة التَّعثير ، واستوى[4] الدين الحنيف على المهاد الوَثِير ، فاهْتبلْنا[5] ، يا رسول الله غُرَّة العدوِّ[6] وانتهزناها ، وشَمَمْنا صوارم [عزّ الله][7] وهَزَزْناها ، وأزَحْنا عِلَل الجيوش وجَهَّزناها ، فكان

---

(١) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال (وسهوت) . والتصويب من النفح .

(٤) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (واستولى) . والأولى أرجح .

(٥) هكذا وردت فى النفح . ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٦) هكذا وردت فى النفح . ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى النفح (عرة العدو) . والأولى أرجح

مما ساعد عليه القدر ، والحظُّ(١) المُبْتَدر . والوِرْد الذى [حسن منه](٢) الصَّدر ، أننا عاجَلْنا مدينة بُرغة(٣) ، وقد جرَعت الأُخْتينْ مالقة ورُندة ، من مداين دينك ، وخزاين(٤) ميادينك ، أكواس الفراق ، وأذكرت(٥) مُثُل من بالعراق ، وسدَّت طرق التَّزاور على الطُّراق ، وأسالت المسيل بالنَّجيع المُراق ، فى مراصد(٦) المُراد والمُراق ، ومنعت المراسلة مع هدْى الحمام ، لا بل مع طَيْف المنام عند الإلمام ، فيسَّر الله اقتحامها ، وألْحَمت بيضُ الشِّفار فى رؤوس(٧) الكفار إلحامها ، وأزال بشر السيوف من بين تلك الحروف أقْحامها ، فانطلق المَسْرى ، واستَبْشرت القواعد الحسْرى ، وعَدِمت بطريقها المُخيف مصارع [الصَّرعى ، ومناقِف](٨) الأَسرى ، والحمد لله على فتحة الأَسْنَى ، ومَنْحه الأَسْرَى ، ولا إلَه إلا هو مُنْفلُ قَيْصر وكِسْرى ، وفاتح مُغْلقاتهما المَنيعة قَسْرا ، واستولى الإسلام منها على قرار جنَّات ، وأمِّ بنات ، وقاعدة حصون ، وشجرة غُصون ، وطهرت مساجدها المغتصبة المكرهة ، وفُجع فيها(٩) الفيل الأفيل وأبرهة ، وانطلقت بذكر الله الألْسنة المُدْرهة ، وفاز بسبق ميدانها الجِياد(١٠) الفَرِهة. هذا وطاغية الرُّوم على توفُّر (١١) جموعه ، وهَوْل مَرْئِيه ومسْموعه ، قريبٌ

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الخطب) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حصل بعده) .

(٣) مدينة برغة هى بلدة أندلسية تقع شرقى مدينة رندة ، ومكانها اليوم بلدة Burgo الإسبانية .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مزاين) .

(٥) هكذا وردت فى النفح ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٦) هكذا وردت فى النفح . ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (زرق) .

(٨) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٩) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بحفظها) .

(١٠) وردت فى الإسكوريال محرفة (الجيد) . وفى النفح (جيادك) .

(١١) وردت فى الإسكوريال (أوفر) والتصويب من النفح .

جِواره ، بحيث يتّصل خُواره . ثم نازل(١) المسلمون بعدها شَجا الإسلام ، الذى أعيا النّطاسى(٢) علاجة ، وكرك(٣) هذا القطر الذى لا تُطاول أعلامه ولا يُصاول أعْلاجه ، ورِكاب الغارات التى تطوى المراحل إلى مُكايدة المسلمين طىّ البرود ، وجُحر الحيّات التى لا تَخلع على اختلاف الفصول جلود الزُّرود ، ومنغّص الوُرود فى العَذْب المَوْرود(٤) ، ومُقِضّ المضاجع وحِلم الهاجع ، ومُجَهز الخَطْب الفاجىء الفاجِع ، ومُسْتَدرك فاتكه(٥) الراجع ، قبل هُبوب الطائر السّاجع ، حصن أَشِر(٦) حماه الله دُعاءً لا خبرا ، كما جعله للمتفكرين فى قُدْرته مُعْتبراً ، فأَحاطوا به إحاطة القِلادة بالجِيد ، وأذلُّوا عزّته بعزّة ذى العرش المجِيد ، وحفّت به الرايات [يسمها وسْمُك ، ويلوح فى صفحاتها اسم الله تعالى واسمك](٧) فلا ترى إلاّ نفوسا تتزاحم على مَوارِد الشهادة أسرابها ، وليوثًا يُصْدِق [طِعانها فى الله وضرابُها](٨) ، وأرسل الله عليها رجزًا إسرائيليا من جِراد السِّهام ، تَشِذّ آيته عن الأَفهام ، وسدّد إلى الجبل النفوس القابلة للإلهام ، من بعد الاستِغْلاق والاستِبهام ، وقد عبثت جَوارِح(٩) صخوره فى قَنايص الهام ،

(١) وردت فى الإسكوريال (مازال) والتصويب من النفح .

(٢) مكانها بياض فى الإسكوريال .

(٣) هكذا وردت فى النفح وفى الإسكوريال (وكر) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (البرود) والتصويب من النفح .

(٥) مكانها بياض فى الإسكوريال .

(٦) حصن أشركان من حصون إشبيلية الأمامية فى هذا العصر . وقد هاجمه وافتتحه السلطان الغنى بالله سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧ م) .

(٧) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٨) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى النفح (فى الله تعالى ضرابها) .

(٩) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (جوائح) ، والأولى أرجح .

وأعيا صَعْبُه على الجيش اللُّهام ، فأخذ مسائغه النَّقض والنَّقب ، ورغا فوق أهِلَّة الصَّقب ، ونُصبت المعارج والمَراق ، وفُرعت المناكب والتَّراق ، واغتنم الصَّادقون من[١] الله الحظَّ الباقى ، وقال الشهيد[٢] المسابق يا فَوْزَ استِباق ، ودُخل البلد فالتحم السَّيف ، واستلب البحث والزَّيْف ، ثم استُخْلصت القصبة ، فعلت أعلامُك فى أبراجها المُشَيَّدة ، وظَفِر ناشدُ دينك منها بالنَّشيدة ، وشكر الله فى قصدها ، مساعى النصائح الرَّشيدة ، وعمل ما يرضيك يا رسول الله فى سَدِّ ثَلْمِها ، وصَوْن مُسْتَلمها ، ومداواة ألمها ، حرصاً على الاقتداء فى مِثلها بأعمالك ، والاهتداء بمشْكاة كمالك ، ورُتِّب فيها الحُماة تشْجى العدو ، وتواصل فى [مَرْضاة الله تعالى][٣] ومَرْضاتك الرَّواح والغَدْو . ثم كان الغزو إلى مدينة أُطْرِيرة[٤] بنت حاضرة الكفر إشبيلية ، التى أظلَّتها بالجناح السَّاتر ، وأقامتها[٥] فى ضمان الأمان للحسام الباتر ، وقد وتَر الإسلام فى هذه المُومِسة البائسة بوَتر الواتر ، وأحفظ منها بأذى الوَقَاح المُهاتر ، لما جَرَّته على أسْراه من عمل الخاتِل الخاتر [حسب المنْقُول لا بل المُتَواتَر][٦] ، فطوى إليها المسلمون المدى النازح ، ولم تَشْكُ المطىُّ الروازح ، وصدق فى الجدِّ جدُّها المازِح ، وخفقت فوق أوكارها أجحنة الأعلام ، وغَشيها أفواج [الملائكة الموسومة][٧] وظِلال الغمام ، وصابَت من السهام ودَقٍّ الهام[٨]

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مع) .

(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (الشاهد) والأولى أرجح .

(٣) هذه العبارة زائدة فى النفح .

(٤) أطريرة وبالإسبانية Utrera بلدة أندلسية متوسطة تقع جنوب شرق إشبيلية. وقد غزاها السلطان الغنى بالله سنة ٧٦٨ ﻫ (١٣٦٧ م) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وأنامتها) .

(٦) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٧) هكذا وردت هاتان الكلمتان فى النفح . وفى الإسكوريال (الملكة المسومة) .

(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وكتبت فى هامش المخطوط (الرهام) . ووردت كذلك فى النفح

وكاد يَكْفى السماء(١) على الأرض ، ارتجاج أطوادها بكلمة الإسلام ، وقد ضُمَّ خاطِبُ عروس الشهادة عن الملام ، وسمح بالعزيز المَصُون مُبايع الملك العلاَّم ، وتكلَّم لسان الحديد الصَّامت ، وصَمَت إلاَّ بذكر الله ، لسانُ الكلام(٢) ، ووفَّت الأوتار بالأوتار ، ووصل بالخُطى درعُ الأبيض البتَّار ، وسُلِّطَت النار على أربابها ، وأذن الله فى تَبار تلك الأمة وتَبابها ، فنزلوا على [حكم السيف](٣) آلافا ، بعد أن أتلفوا بالسلاح إتلافا ، واستَوْعَبَت المُقاتلة أكنافا ، وقُرنوا فى الجدل(٤) أكتافًا أكتافا ، وحُملت العقائل والخَرايد ، والوِلدان والولائد، إركاباً من فوق الظهور وإرْدافا ، وأقَلَّت منها أفلاك الحمول بدوراً تُضىءُ من ليالى المحاق أسْدافًا ، وامتلأت الأيدى من المواهب والغنايم ، بما لا يُصوِّره حلم النَّايم ، وتُركت العَوافى تتداعى إلى تلك الولايم ، وتَفْتن من مطاعمها فى الملايم ، وشُنَّت الغارات على حِمْص(٥) ، فجلَّلت خارجها مغاراً ، وكَسَتْ كبار الرُّوم بها صِغاراً ، وأحجرت أبطالها إحجارًا ، واستاقت من النِّعم ما لا يقبل الحَصْر استِبْحارا ، ولم يكن إلاَّ أن عَدَل القَسَم ، واستقلَّ [بالقفول العزيز](٦) الرَّسم ، ووضَح من التوفيق الوَسْم . فكانت الحركة إلى جيَّان ، قيعه الظل الأبرد ، ونسيجة المنوال المفرد ، [وكناس الغيد الخرد](٧) وكُرسى الإمارة ، وبَحْر العمارة ، ومهوى هوى الغيث

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (السهام) . والأولى أرجح .

(٢) وردت فى الإسكوريال (الكال) والتصويب من النفح .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . ومكانها فى الإسكوريال (الحكم) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الجلال) وهو تحريف

(٥) حمص يقصد بها هنا إشبيلية . وقدأطلق عليها هذا الاسم فى الأدب والشعر الأندلسى حيث شبهت فى مكانها وخططها بحمص الشام .

(٦و٧) ما بين الحاصرتين وارد فى النفح . وساقط فى الإسكوريال .

المتون ، وحزبُ(١) التِّين والزيتون ، حيث خندق الجنَّة المعروف ، تدنو لأهل النار مَجانِيه ، وتُشرق بشواطىء الأنهار إشراق الأزهار زُهْرُ مبانيه ، والقلعة التى تختَّمت بنان شُرُفاتها بخواتم النُّجوم ، وهمَّت من دون سحابها البيض ، سحايب الغيث السَّجُوم [والعقيلة التى أبْدَى الإسلام يوم طلاقها ، وهُجوم فراقها ، سِمَة الوُجوم ، لذلك المَجُوم](٢) فرمَتْها البلاد المسلمة بأفْلاذ أكْبادها الوادِعة ، وأجابت مُنادى دعوتك الصَّادقة الصَّادعة ، وحَبَتْها بالفادِحة الفادِعة ، فغُصَّت الرُّبى والوهاد ، بالتَّكبير والتَّهليل ، وتجاوبت الخيلُ بالصَّهيل ، وانهالت الجموع المجاهدة [فى الله تعالى](٣) انْهيال الكَثِيب المُهيل . وفهمت نفوس العباد المجاهدة فى الله حق الجهاد ، معانى التَّيسير من ربها والتَّسهيل ، وسفَرت الرايات عن المرْأى الجميل ، وأرْبَت المحلات المسلمة على التأْميل . ولما صَبحَتها النواحى المقبلة الغُرَر ، والأعلام المُكْتَتَبة الطُّرر ، برز حاميتُها مُصْحِرين ، وللجَوْزة المُسْتَباحة مُسْتنصرين(٤) ، فكاثرهم من سُرعان الأبطال ، رجل الدَّبا ، ونبت الوهاد والرُّبى ، فأقْحموهم من وراءِ السُّور ، وأسرعت أقلامُ الرِّماح فى بَسْط عددهم المكسور ، وتُركت صرعاهم ولايم للنُّسور . ثم اقتحموا ربض المدينة الأعظم فافْتَرعوه(٥)، وجدَّلوا من دافع عن أسواره وصرعوه ، وأكواس الحتوف جرَّعوه ، ولم يتصل(٦) أُولى الناس بأُخراهم

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حرب) .
(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .
(٣) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٤) وردت فى الإسكوريال (متنصرين) والتصويب من النفح .
(٥) وردت فى الإسكوريال (ففرعوه) . والتصويب من النفح .
(٦) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال .

ويحمدوا[١] بمخيم النصر العزيز سُراهم، حتى خذل الكفار الصبر، وأسلم الجلد، وأنزل على المسلمين النصر، فدُخل البلد، وطاح فى السيل الجارف الوالد منه والولد، وأُتْهم[٢] المطرّف منه والمتّلد، فكان هولاً يعيد الشناعة، وبغتًا[٣] كقيام الساعة، أَعْجَل المجانيق عن الركوع والسجود، والسلالم عن مُطاولة[٤] النُّجود، والأيدى عن ردم الخنادق والأغوار، والأكبُش عن مناطحة الأسوار، والنُّفوط عن إصْعاق الفُجّار، وعُمد الحديد، ومعاول[٥] البأس الشديد، عن نَقْب الأبراج ونقض الأحجار، فهيلت الكُثبان، [وأُبيد الشَّيبُ والشُّبان][٦] وكسِرت الصلبان، وفجِع بهدم[٧] الكنائس الرُّهبان، وأُهْبِطت النَّواقيس من مَراقيها العالية، وصُروحها المُتعالية، وخُلعت ألسِنَتُها الكاذبة، ونُقل ما استطاعته الأيدى المُجاذبة، وعجزت عن الأسلاب ذوات الظُّهور، وجلَّل الإسلام شعار العزّ والظُّهور، بما خَلَتْ عن مثله سَوالف الدهور[٨] والأعوام والشهور، وأعْرسَت الشهداءُ بالحور، ومنُّوا[٩] النفوس المبيعة من الله بحلِّ الصدقات الصَّادقة[١٠] والمُهور. ومن بعد ذلك هدم السور، ومحيت من مختطّه المحكم السطور، وكاد يسير ذلك الجبل الذى اقتعدته تلك المدينة،

---

(١) وردت فى الإسكوريال (بحمد) والتصويب من النفح .
(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (وألم) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وبعثا) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مطلونة) .
(٥) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (معاون) .
(٦) هذه العبارة واردة فى النفح . وساقطة فى الإسكوريال .
(٧) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (بهد) .
(٨) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٩) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (ومن) .
(١٠) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى النفح .

ويدكّ ذلك الطُّور . ومن بعد ما خُرِّب الوجار ، وعُقِرت الأشجار ، عُفِّر المنار ، وسلِّطت على بنات التراب الماءُ النَّار ، وارتحل عنها المسلمون وقد عمَّتها المصايب ، وأصْمَى لُبَّتَها السَّهم الصَّايب ، وظللهتا(١) القشاعم العَصايب . فالذِّئاب فى الليل البَهيم تَعسل ، والضِّباع من الحَدْب البعيد تَنْسل ، وقد ضاقت الجدل عن المخانق ، وبيع العَرَض الثمين بالدَّانق ، وسُبكت إسورة الأسوار ، وسوِّيت الهضاب بالأغوار ، واكتُسِحت الأحواز القاصية سرايا الغوَّار(٢) ، وحجبت بالدخان مطامع الأنوار ، وتَخلَّفت قاعتها عِبْرةً للمُعْتبرين ، وعظةً للناظرين ، وآية للمستبصرين ، ونادى لسان الحميَّة يا لثارات الإسكندرية ، فأسمع آذان المقيمين والمسافرين ، وأحقَّ الله الحقَّ بكلماته ، وقطع دابر الكافرين .

ثم كانت الحركة إلى أختها الكبرى ، ولُدَّتها الحزينة عليها العَبْرى ، مدينة أُبَّدة ، ذات العمران المُسْتَبجر ، والرَّبض الحَزق المُصْحر ، والمبانى الشُّمِّ الأُنوف ، [وعقائل المصانع الجمَّة الحُلِي والشُّنوف وألعاب الأُنوف](٣) وبلد التَّجر ، والعسكر المَجرِّ ، وأفق الضلال الفاجر الكاذب على الله الكذب الفَجِر . فخذل الله حاميته(٤) التى يُعيى الحسبان عدُّها ، وسَجَر بحورها التى لا يُرام مدُّها ، وحقَّت عليها كلمة الله التى لا يُستطاع ردُّها . فدُخلت لأول وهلة ، واستُوعب جَمعُها والمنَّة لله ، فى نَهْلة ، [ولم يكُ للسيف من عطف عليها ولا مهلة](٥). ولما تناولها العفاءُ والتَّخريب ، واستَباحها

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (وجللتها) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (المغوار) .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حاميتها) .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (ولم يكف السيف من عليها ولا مهلة) وظاهر أن بها تحريفا .

الفتح القريب ، وأسند عن عواليها حديث النصر الحَسن الغريب ، وأقعدت أبراجُها من بعد القِيام والانْتِصاب ، وأُضرعت مسايفها لهول المصاب ، انصرف عنها المسلمون بالفتح الذى عظُم صيتُه ، والعزّ الذى سما طَرْفُه ، واشرأبّ ليته ، والعزم الذى حمَد مسْراه ومَبِيته ، والحمد الله ناظم الأمر ، وقد رأب شَتِيته ، وجابُر الكَسْر وقد أفات الجَبْر مَفِيته .

ثم كان الغزو إلى أمّ البلاد ، ومثوى الطارف والتِّلاد ، قرطبة ، وما قرطبة ، المدينة التى على عمل أهلها فى القديم ، بهذا الإقليم ، كان العمل ، والكرسى الذى بعصاه رُعى الهَمَل ، والمِصْرُ الذى له فى خِطَّة المعمور النّاقة والجمل ، والأُفق الذى هو لشمس الخلافة العَبشمية الحَمَل ، فخيّم الإسلام بعُقْرتها المُسْتباحة ، وأجاز نهرها المُعْيِى على السِّباحة ، وعمّ دَوْحَها الأَشب بوارا ، وأدار الكُماة [(١)] بُسورها سِوارا ، وأخذوا [(٢)] بمخنّقها حِصارا ، وأعمل النّصْل [(٣)] بسَجر نَصْلها [(٤)] اجتناءً ماشاءَ واهْتِصارا ، وجدّل من أبطالها من لم يرض انْجِحارا ، فأعمل إلى المسلمين إصحارا ، حتى فُرِع بعض جهاتها غِلاباً جِهاراً ، ورُفعت الأعلام إعلاماً بعزّ الإسلام [(٥)] وإظهارا ، فلولا استهلال الغَوادى ، وإن أتى الوادى ، لأفْضَت إلى فتح الفتوح تلك المبادى ، ولقَضى نَفْثة العاكف والبادى ، فاقتضى الرأى ولذَنْب الزّمان فى اغتصاب الكُفْر إيّاها متاب ، تُعمل ببشراه بفضل الله أقْتاد وأقْتَاب ، ولكلّ أجلٍ كِتاب ، أن يُراض صعبها حتى يعود ذَلُولا ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الحلات) . والتصويب من النفح .

(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (وأخذ) . والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (النصر) والأولى أرجح .

(٤) كذا فى النفح . وفى الإسكوريال (نصله) .

(٥) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (الله) .

وتُعَفَّى معاهدها الآهلة فتُترك طُلُولا . فإذا فجع الله بمارج النار طوايفها المارجة ، وأباد نجارجها الطايرة والدَّارجة ، خطب السيفُ منها أمَّ خارجة فعند ذلك أطلقنا بها ألسِنة النار ، ومفارق الهضاب الشُّم (١) قد شابَتْ ، والغلّات المُسْتَغَلَّة(٢) قد دعاها الفصل فما ارتابت ، وكان صحيفة نهرها لما أضرمت النارحَفافى(٣) ظهرها ذابت ، وحيَّتُه فرَّت أمام الحريق فانسابت ، وتخلَّفت لغمايم الدُّخان عمايم تلويها برؤوس الجبال أيدى الرياح ، وتنشرها بعد الرُّكود أيدى الاجتياح. وأُغريت بأقطارها الشاسعة ،وجهاتها الواسعة [جنود الجوع](٤) وتوُعِّدت بالرجوع ، فسُلب أهلها لتوقع الهجوم(٥) ، مَنْزور الهجُوع . فأعلامُها خاشعة خاضعة ، وولِدانها لثَدْى البؤس راضِعة ،والله ،سبحانه ، يُوفِد بخبر فتحها القريب رِكاب البُشْرى، وينشر رحمته قِبَلنا نشرا ، [ولهذا العهد يا رسول الله صلى الله عليك ، وبلَّغ وسيلتى إليك ، بلغ عن هذا القطر المُرْتَدى بجاهك ، الذى لايُذَلُّ من ادَّرعه. ولايضِلُّ بالسبيل الذى يشرعه ، إلى أن لاطفنا ملك الروم بأربعة من البلاد كان الكفر قد اغتصبها ،ورفع التَّماثيل ببيوت الله ونَصَّبها ، فانجاب عنها بنورك الحلَك ودار بادالتها إلى دعوتك الفَلَك ،وعاد إلى مكاتبها القرآن الذى نزل به على قَلْبِك الملك](٦) ثم تنوعت يا رسول الله لهذا العهد أحوال العدو

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بالهشيم) وهو تحريف .

(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (المستغلات) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حافى) .

(٤) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٥) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (الجوع) .

(٦) هذه الفقرة كلها واردة فى الإسكوريال . وساقطة هنا فى النفح . ثم ترد فيه بعد ذلك فى أواخر الرسالة حسب المبين بعد .

تنوُّعًا يوهم إفاقته من الغمْرة ، وكادت فتنته تؤذن بخمود الجمْرة ، وتوقع الواقع ، وحُذِّر ذلك السم الناقع ، وخِيف الخَرْقُ الذى يَحار فيه الرَّاقع ، فتعرَّفنا عوايد الله سبحانه ببركة هِدايتك ، ومَوْصُول عنايتك ، فأنزل النصر والسَّكينة ، ومكَّن العقايد المَكِينة ، فثابت العزايم وهبَّت ، واضطَّردت عوايد الإقدام واستَتَبَّت ، وما راع العدو إلاَّ خيلُ الله تجوس خلاله ، وشمس الحق تقلَّص[1] ظلاله ، وهُداك الذى أهديت يُدحض ضَلاله .

ونازلنا حِصْنَى قنبيل والحواير[2] ، وهما مَعْقلان متجاوران ، يُتناجى منهما السَّاكن سِرارا ، وقد اتَّخذا بين النَّجوم قرارا ، وفَصل بينهما حُسام النهر يروق غِرارا ، والتفَّ معصمه فى حلة الخَصْب[3] وقد جعل الجِسْر سِواراً ، فخَذل الصَّليب بذلك الثغر من تولاَّه ، وارتفعت أعلام الإسلام بأعلاه ، وتبرَّجت عروس الفتح المبين[4] بمَجْلاه ، والحمد لله على ما أوْلاه . ثم تحركنا على تَفِية[5] تعدى ثغْر الموسَّطة على عدوِّه المُساور فى المضاجع ، ومُصْبحه بالفاجىء الفاجع ، فنازلنا حصن رُوطة ، الآخذ بالكَظْم ، المعترض بالشَّجا اعتراض العَظْم ، وقد شحنه العدوُّ مددا بئيساً ، ولم يألُ اختياره رأياً ولا رئيساً[6] ، فأعيا داؤه ، واستقلَّت بالمدافعة أعداؤه . ولما أتْلع إليه جيدُ المَنْجنيق ، وقد بَرك عليه بَرْك[7] الفَنيق ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (توجب) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الجائر) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (العصب) .

(٤) هذه الكلمة زائدة فى النفح .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نفثة) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تلبيسا) .

(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بروك) .

وشدّ عصاب[1] العزم الوثيق ، لجأ أهله إلى التماس العهود والمواثيق ، وقد غُصُّوا بالريق ، وكاد يذهب بأبصارهم لمعان البَريق ، فسكّنّاه من حامية المجاهدين بمن يحمى ذماره ، ويقرر اعْتِماره ، واستولى أهل الثغور إلى هذا الحدّ ، على معاقل كانت مُسْتَغلقة ففتحوها ، وشرعوا أرشِيَة الرماح إلى قلب قلوبها ففتحوها . ولم تكد الجيوش المجاهدة تنفض عن الأعراف مُتراكم الغُبار ، وترخى عن[آباط خَيْلها][2] شدّ حَزْم المَغار ، حتى عاودت النفوس شوقُها ، واسْتَتْبَعت ذوقها ، وخطبت التى لا فوقها ، وذهبت بها الآمال إلى الغاية القاصية ، والمدارك المُتَصاعِية على الأفكار المتعاصية .

فقصدنا الجزيرة الخضراء ، باب هذا الوطن ، الذى منه طرُق وادعه ، ومطلع الحقّ الذى صَدَع الباطل صادعه ، وثنيّة الفتح الذى برَق منها لامعُه ، ومَسْرِبُ[3] الهجوم الذى لم تكن لتعثر على غيره مطامعه ، وفُرْضَة المجاز التى لا تُنكر ، ومجمع البَحْرين فى بعض ما يذكر ، حيث يتقارب الشطّان [وتتقاطر ذوات الأَشْطان][4] ، ويتوازى الخطّان ، ويكاد أن يلتقى حلقتا البطان . وقد كان الكفر قدَر قدْر هذه الفُرضة التى طرق منها حِماه ، ورماه الفتح الأول بما رماه ، وعلم أن لا تتّصل أيدى المسلمين بإخوانهم إلاّ من تِلقائها ، وأنه لا يعدم المكروه مع بقائها ، فأجْلَب عليها برَجْله وخَيْله ، وسدّ أفق البحر من أساطيله ، ومراكب أباطيله ، بقَطْع لَيْله . وتداعى المسلمون بالعُدْوَتين إلى استِنْقاذها من لَهواته ، أو إمساكها من دون مَهْواته . فعجز الحَوْل ، ووقع بملكه إياها

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (عصام) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . ومكانها فى الإسكوريال (أباطلها) وهو تحريف .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ومشرف) .

(٤) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى النفح .

القول ، واجْتَازها قهرا ، وقد صابرت الضِّيق ما يناهز ثلاثين شهرا ، وأطرق الإسلام بعدها إطراق الواجم ، واسودّت الوجوه لخَبرها الهاجم ، وبكتْها حتى دموع الغَيْث السَّاجم ، وانقطع المدد إلاَّ من رحمة من يُنفِّس الكروب ، ويُغْرى بالإدالة الشُّروق والغروب . ولما شككنا بشَبا الله نَحْرها ، وأغْصَصْنا بجيوش الماء وجيوش الأرض ، تكاثر نجوم السماء برها وبحرها ، ونازلناها نذيقها شديد النِّزال ، ونجحنا بصدق الوَعيد فى غير[1] سبيل الاعتزال ، رأينا بأْواً لا يُظاهر إلاَّ بالله ولا يُطال ، ومَنَعةً[2] تتحاماها الأَبطال ، وجنابا روَّضه الغيثُ الهطَّال . أما أسوارها[3] ، فهى التى أخذت النَّجد والغوْر . واستعدَّت بجدال[4] الجِلاد عن البلاد ، فارتكبت الدُّور تحوز بحراً من الاعتمار[5] ثانيا ، وتشكك أن يكون الإنس لها بانياً . وأما أبراجُها فصفوف وصنوف ، تزين صفحات المَسايف منها أنوف ، وآذان لها من دوافع الصخر شُنُوف . وأما خندقها فصخرٌ مَجْلوب ، وسور مقلوب . وصَدَقها المسلمون القتال بحسب محلِّها من نفوسهم ، واقتران اغتصابها ببُؤسهم ، وأُفول شُموسِهم . فرشقوها من النبال بظلالٍ تحجب الشمس فلا يُشرق سَناها ، وعرَّجوا فى المراقى البعيدة يُفْرِعون مَبْناها ، ونَقبُوها أنقابا ، وحَصَبُوها عقاباً . ودخلوا مدينة البِنْيَة[6] بنتَها غِلابًا ،

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى النفح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ممنعة) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أسواقها) م والأولى أرجح .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نجلاء) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (العمارة) .

(٦) مدينة البنية وبالإسبانية La Pena (أى الصخرة) هى ثغر أندلسى صغير ، يقع على شاطىء المحيط الأطلنطى على مقربة من شمال غربى ثغر طريف مقابل الجزيرة الخضراء ، فى الناحية الأخرى من المثلث الإسبانى .

وأحْسَبوا السيوف استلالا ، والأيدى اكتسابا ، واستَوْعب القتل مقاتلتها السابغة الجنَن ، البالغة المِنن ، فأخذهم الهول المتفاقم ، وجُدِّلوا كأنهم الأراقم ، لم يفلت منهم عين تطرف ، ولا لسان يُلبِّى من يستطيع الخبر أو يَسْتَشْرف . ثم سَمَت الهمم الأيمانية إلى المدينة الكبرى ، فداروا سوارها على سُورها ، وتجاسروا على اقتحام أَوْدِية الفناء من فوق جُسورها ، ودفُّوا إليها بالضروب من حيل الحروب بروجا مُشَيَّدَة ، ومجانيق توثّق حبالها منها نَشِيدة ، وخَفَقَتْ بنصر الله عَذَبات الأعلام ، وأهدت الملائكة مَدَد الاسلام(١) ، فخذل الله كفّارها ، وأكهَم شِفارها ، وقلّم بيد قدرته أظفارها ، فالتمسوا الأمان للخروج ، ونزلوا عن(٢) مراقى العُروج ، إلى الأباطح والمروج ، من سمائها ذات البروج ، فكان بروزهم إلى العراء من الأرض ، تذكرةً بيوم العَرْض ، وقد جلّل المقاتلة الصّفار [وتعلق بالأُمّهات النَّشْأُ الصِّغار](٣) . وبودرت المدينة بالتّطهير ، ونطقت المآذن العالية بالأذان الشهير ، والذِّكر الجهير ، وطُرحت كبار(٤) التماثيل عن المسجد الكبير ، وأزرى بألْسِنة النواقيس لسانُ التّهليل والتّكبير ، وأُنزلت عن الصروح أجرامُها ، يعيي الهِندام مرامُها ، وأُلْفى منبر الاسلام بها مَجْفوًّا ، فأُنِست غُربته ، وأُعِيد إليه قُرْبه وقُربته ، وتلا واعظ الجمع المشهود ، قول مُنجز الوعود ، ومُورق العُود « وما ظلمْناهم ، ولكن ظلموا أنفسهم » ، فما أغنت عنهم آلهتُهم ، التى يدعون من دون الله من شىء ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (السلام) والأولى أرجح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (على) .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (وتعلق بالأمان النساء والصغار) . وهو تحريف ظاهر .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (كفارها) وهو تحريف .

لما جاء أمرُ ربِّك ، وما زادوهم غير تتْبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القُرى وهى ظالمة ، إنَّ أخْذه أليم شديد . إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة . ذلك يومٌ مجموع له الناس ، وذلك يوم مَشهود ، إلى آخرها ، فكاد(١) الدَّمع يُغرق الآماق ، والوجْدُ يستأصل الأرْماق [وارتفعت الزَّعقات.. وعَلَتْ الشَّهقات](٢) ، وجِيءَ بأسْرَى المسلمين يرسُفون فى القُيُود الثِّقال ، ويَنْسِلون من أجْداث الاعْتِقال ، ففُكَّت عن سُوقهم أساورُ الحديد ، وعن أعناقهم فلَكَات(٣) اليأس الشَّديد ، وظُلِّلوا بجناح اللُّطْف العريض المديد ، وترتبت فى المقاعد الحامية ، وأزهَرت بذكر الله المآذن السَّامية ، فعادت المدينة لأحْسَن أحوالها ، وسَكَنَت من بعد أهوالها ، وعادت الجالية إلى أموالها ، ورجع إلى القطر شبابُه ، وورد على دار هجرة(٤) الإسلام بابُه ، واتَّصلت بأهل لا إله إلا الله أسْبابه ، فهى اليوم فى بلاد الإسلام ، قلادة النَّحر ، وحاضِرة البرِّ والبحر ، أبقى الله عليها ، وعلى ما وراءها من بيوت أمَّتك ، ودائع الله فى ذِمَّتِك [ظلال عنايتك الواقية ، وأمْتعها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها](٥) ، بكلمة دينك الصَّالحة الباقِية ، وسَدَل عليها أستار عِصْمَته الواقية . وعُدنا والصلاة عليك شِعار البُروز والقُفول ، وهجيرا الشُّروق والأفول . والجهاد يارسول الله الشأْن المعتمد ، ما امتَّد بالأجل الأمد ، والمستعان الواحد الفرد الصمد(٦) .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فكان) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (وارتفعت الرغبات وعلت السبات) وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (ملكات) . والأولى أرجح .

(٤) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى النفح .

(٥) هذه العبارات واردة فى الإسكوريال وساقطة فى النفح .

(٦) هنا ترد فى النفح العبارة التى سبق أن أغفلها إزاء مقابلها من مخطوط الإسكوريال . وأولها (ولهذا العهد يارسول الله ... الخ) (راجع ص ٥٥٣) .

فوجبت مطالعة مقرك النبوى بأحوال هذه الأمة المكفولة فى حِجْرك ، المُفَضَّلة بإرادة تَجْرك ، المهتدية بأنوار فَجْرك . وهل هو إلاّ ثمرة سَعْيك، ونتائج رَعْيك ، وبركة حُبِّك ورضاك ، الكفيل برضا ربِّك ، وغمام رَعْدك ، وإنجاز وَعْدك ، وشُعاعٌ من نور سعدك ، وبذرٌ يُجْنَى رَيْعه من بعدك ، ونَصْر رايَتك ، وبرهان آيَتك ، وأثر حِمايتك ورعايتك .

واستَنْبت هذه الرسالة ماتحةً بحر النَّدى(١) الممنوح ، ومفاتِحةً باب الهدى بفتح الفتوح ، وفارعةً المظاهر والصُّروح ، ومُلْقِية الرَّحْل بمتَنَزَّل الملائكة والرُّوح ، لتمدَّ إلى قبولك يد استِمناح ، وتطير إليك من الشَّوق الحَثِيث بجِناح ، ثم تقف بموقف الانْكِسار ، وإن كان تجْرُها آمنا من الخَسار ، وتقدم بأُنْس القُربة ، وتحْجم بوَحْشة الغُرْبة ، وتتأَخَّر بالهَيْبَة ، وتجهش لطول الغيبة ، وتقول ارْحَم بُعد دارى ، وضعف اقْتدارى ، وانتزاح أوطانى ، وخُلوَّ أَعْطانى ، وقلَّة زادى ، وفراغ مَزَادى، وتقبَّل وسيلة(٢) اعترافى، وتغمَّد هفوة اقترافى ، وعجل بالرضا انصراف متحملى لانصرافى ، فكم جُنْب من بحر زاخر ، وقفر بالرِّكاب ساخر ، وحاشَى لله أن يخيب قاصِدُك ، أو تتخطَّانى مقاصِدُك . أو تَطْرُدنى موائِدك ، أو تَضِيق عنّى عوائِدُك ، ثم تمدُّ مُقْتضية مزيد رَحْمتك ، مُسْتدعية دُعاء من حضَر من أُمتك . وأَصْحَبْتُها يا رسول الله ، عَرَضاً من النَّواقيس التى كانت بهذه البلاد المُفْتَتحة ، تُعَيِّن(٣) الإقامة والأذان ، وتُسْمع الأسماع الضَّالة والآذان ، مما قَبْل الحركة وسالم المعركة ، ومَكَّنَ من نقله الأيدى المُشْتركة ، واستَحَقّ بالقدُوم عليك ، والإسلام بين يديك ، السابقة فى الأزل البَركة ،

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (الند) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (وسيرة) والتصويب من النفح .

(٣) وردت فى الإسكوريال (تغير) . والتصويب من النفح .

وما سواها فكانت جبالا عَجَز عن حمْلها(١) الهِنْدام ، فَنَسخ وجودها الإعدام . وهى يا رسول الله جَنَى من جنانك ، ورَطْبٌ من أَفْنانك ، وأثرٌ ظهر عليها(٢) من مَسْحَة حنانك . هذه هى الحال والانتحال(٣) ، والعائق أن تشَدَّ إليك الرِّحال ، ويُعْمل التَّرحال ، إلى أن نلقاك في عَرَصات(٤) القيامة شَفِيعاً ، ونَحِلُّ بجاهك إن شاء الله محلاً رفيعاً ، ونُقَدَّم فى زُمْرة الشُّهداء الدامية كُلُومهم من أَجْلِك ، الناهلة غُللُهم فى سِجِلِّك ، ونبتهل إلى الله الذى أَطْلَعَك فى سماء الهداية سِراجاً ، وأعلى لك فى السَّبع الطِّباق مِعْراجاً ، وأَمَّ الأنبياء منك بالنَّبى الخاتم ، وقفَّى على آثار نجومها المشْرقة بقَمَرك العَاتم ، أن لا يَقْطع عن هذه الأُمة الغريبة أسبابَك ، ولايسدَّ فى وجوهها أَبْوابك ، ويوفقها لاتِّباع هُداك ، ويُثبِّت أقدامها على جهاد عِداك . وكيف تَعدم تَرْفيها ، أو تخشى بَخْسًا وأنت مُوفيها ، أو يعذِّبها الله وأنت فيها . وصلاة الله وسلامه تحطُّ بفنايك رِحال طِيبها ، وتَهْدُر فى ناديك شَقاشِق خطيبها ، ما أذْكر الصباح الطَّلق هُداك ، والغمام السَّكِب نَدَاك ، وما حنَّ مشتاقٌ يلثم ضريحك ، وفليت(٥) نَسَمَات الأَسحار عمَّا استَرَقَت من ريحك .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نقلها) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (علينا) .
(٣) هذه الكلمة زائدة فى النفح
(٤) هذه الكلمة زائدة فى النفح .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بليت) .

وصدر عنى قبل هذه الرسالة عن السلطان رضى الله عنه رسالة بهذه الفتوح إلى صاحب تونس نصها:

الخلافة التى ارتفع فى(١) عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف ، واستقلّت مبانى فخرها الشائع ، وعزّها الذائع على ما أسّسه الأسْلاف ، ووَجَب لحقّها الجازم ، وفرضها اللاّزم الاعتراف . ووَسِعت الآملين لها الجوانب الرَّحيبة والأكناف ، فامتزاجُنا بعلائها المُنيف. وولائها الشريف، كما امتزج الماءُ والسُّلاف ، وثناؤنا على مجدها الكريم ، وفضلها العميم ، كما تأرّجت الرياض الأفواف ،لما زارها الغمام الوكّاف ،ودعاؤنا بطُول بقائها ، واتصال علايها ، يسمو به إلى قرع أبواب السّموات العُلا(٢) الاسْتِشْراف ، وحِرْصُنا على تَوْفِية حقوقها العظيمة ، وفواضلها العَمِيمة ، لا تحصره الحدود ، ولا تُدْركه الأوصاف ، وإن عَذر فى التّقصير ، عن نيل ذلك المرام الكبير ، الحقُّ والإنصاف . خلافةُ وِجْهة تعظيمنا إذا توجّهت الوجوه ، ومن نؤثره إذا همّنا ما نرجوه ، ونفدّيه ونبدّيه ، إذا استُمْنِح المحبوب ، واستُدْفِع المكروه ، السلطان(٢) الخليفة ، [الجليل الكبير الشهير ، الإمام الهمام ، الأعلى الأوحد ، الأصعد ، الأسعد ، الأسمى ، الأعدل ، الأفضل ، الأسنى ، الأطهر ، الأظهر ، الأرضى ، الأحفل ، الأكمل ، أمير المؤمنين أبى إسحق ابن الخليفة الإمام البطل الهمام ، عين الأعيان ، وواحد الزمان ، الكبير الشهير ، الطّاهر ، الظّاهر ، الأوحد الأعلى ، الحسيب ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال (ى) . وفى التعريف بابن خلدون . وفى صبح الأعشى (عن) . وقد نشرت هذه الرسالة كلها فى التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا (ص ١٥٥ - ٢٠٩) وفى صبح الأعشى للقلقشندى (ج ٦ ص ٥٣٦ - ٥٥٨) . وقمنا بمراجعة النص المخطوط عليها .

(٢) هذه الكلمة زائدة فى الصبح .

الأصيل ، الأسمى ، العادل ، الحافل ، الفاضل ، المعظم ، الموقر ، الماجد ، الكامل ، الأرضى ، المقدس ، أمير المؤمنين أبى يحيى أبى بكر ، ابن السلطان الكبير ، الجليل ، الرفيع ، الماجد ، الظاهر ، الطاهر ، المعظم ، المُوَقَّر ، الأسمى ، المقدس ، المرحوم أبى زكريا ، ابن الخليفة الإمام ، المجاهد الهمام ، الكبير ، الشهير ، الخطير ، بطل الميدان ، مفخر الزمان ، الطاهر الظاهر ، الأمضى ، المقدس ، الأرضى ، أمير المؤمنين أبى إسحق ، ابن الخليفة الهمام الإمام ، ذى الشهرة الجامحة ، والمفاخر الواضحة ، عَلَمُ الأعلام ، فخر السيوف والأقلام ، المعظم الممجد ، المقدس ، الأرضى ، أمير المؤمنين ، المسْتَنْصر بالله ، أبى عبد الله ، ابن أبى زكريا ، بن عبدالواحد ابن أبى حَفْص][1] أبقاه الله ، ومقامه مقام إبراهيم ، رزقا وأمانا ، لا يخصُّ جَلْبُ الثمرات إليه وقتاً ، ولا يعيِّن زماناً ، وكان على من يَتَخَطَّف الناس من حوله ، مؤيداً بالله مُعاناً ، مُعَظَّمٌ قدره العالى على الأقدار ، ومقابل داعى حقِّه بالابتدار ، المُثْنَى على معاليه المُخَلَّدة الآثار ، فى أصْونة النظام والنِّثار ، ثناء الرَّوضة المِعْطار على الأمطار ، الداعى إلى الله بدوام[2] بقائه فى عزَّة[3] مُنْسَدلة الأسْتار ، وعِصمة[4] ثابتة المركز ، مستقيمة المدار ، وأن يختم له بعد بلوغ غايات الآجال ، ونهايات الأعمار ، بالزُّلفى وعُقْبى الدَّار .

---

(١) نقلنا هذه الفقرة الطويلة عن صبح الأعشى . وقد اختصرها مختصر مخطوط الإسكوريال فيما يأتى (الخليفة الكذا أبى يحيى أبى بكر ابن السلطان أبى زكريا ابن الخليفة الكذا أبى إسحق ابن الخليفة المستنصر بالله عبد الله ابن أبى زكريا بن عبد الواحد ابن أبى حفص) . وإيراد نص الرسالة كاملة ، يقدم إلينا فكرة أوضح عن أساليب الكتابة السلطانية فى ذلك العصر .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى التعريف والصبح (بطول) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى التعريف الصبح (عصمة) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح والتعريف (وعزة) .

سلام كريم ، كما حملت نسماتُ الأسحار ، أحاديث الأزهار ، ورَوتْ ثغور الأقاحى والبَهار ، عن مسلسلات الأنهار ، وتجلّى على مِنَصَّة الاشتهار ، وجهُ عروس النهار ، يخصُّ خلافتكم الكريمة النِّجار ، العزيزة الجار ، ورحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله الذى أخفى حكمته البالغة عن أذهان البشر ، فعجزت عن قياسها ، وجعل الأرواح كما وَرَد فى الخبر تَحن إلى أجناسها ، مُنْجدُ هذه الملّة من أوليائه الجِلّة ، بمن يروض الآمال بعد شِماسها ، ويُيَسِّر الأغراض قبل التماسها ، ويُعْنى بتجديد المودّات فى ذاته ، وابتغاء مَرضاته ، على حين إخلاق لباسها ، الملك الحقّ ، واصل الأسباب بحوله ، بعد انتِكاث أمْراسها ، ومُغْنى النفوس بطَوْله ، بعد إفلاسها . حمداً يُدِرّ أخْلاف النعم بعد إبْسَاسها ، وينشر رِمَم الآمال من أرْماسها ، ويقدِّس النفوس بصفات ملائكة السموات بعد إبلاسها .

والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ، سراج الهداية ونِبراسها ، عند اقتناء الأنوار واقتباسِها ، مُطَهِّر الأرض من أوْضارها وأدْناسها ، ومصطفى الله من بين ناسِها ، وسيد الرسل الكرام ، ما بين شِيثِها وإلْياسها ، الآتى مهيْمنا على آثارها فى حين فَتْرتها ، ومن بعد نُصْرتها واستِيناسها ، مُرغم الضراغم فى أخْياسها ، بعد افترارها وافتِراسها ، ومُعَفِّر أجرام الأصنام ومُضْمِتْ أجْراسها . والرِّضا عن آله وأصحابه ، وعِتْرته وأحزابه ، حماة شِرْعَته البيضاء وحُرّاسها ، ومُلَقِّحى غِراسها ، ليوث الوَغَى عند احتدام مِراسها ، ورهبان الدُّجا تتكفَّل مناجاة السَّميع العليم فى وَحْشة الليل البَهيم بإيناسها ، وتُفاوح نواسم الأسْحار عند الاستغفار بطيب أنفاسها . والدُّعاء لخلافتكم العليّة المُسْتَنْصرِيَّة بالصَّنايع(١) التى تُشَعْشِع أيدى العزّة القعساء

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الصبح (السعادة) .

من أكواسها ، ولا زالت العِصْمة الإلَهية كفيلة باحترامها واحتراسها . وأنباءُ الفتوح المؤيدة بالملائكة والرُّوح . ريحان جُلَّاسها . وآيات المفاخر التى ترك الأول للآخر ، مُكْتَتبة الأسطار بأَطْراسها ، وميادين الوجود مجالا لجياد جُودها وبأْسها ، والعزُّ والعدل منسوبين لفُسْطاطها وقِسْطاسها . وصَفِيحة النصر العزيز تُفيض كفُّها المؤيدة بالله على رياسها ، عند اهتياج أضدادها وشِرَّة(١) انتكاسها ، لانتهاب البلاد وانتهاسِها ، وهبوب رياح رياحها وتمرُّد مِرداسها .

فإنا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم من كتايب نصره أَمْداداً ، تذعن أعناق الأَنام ، لطاعة مُلْكِكم المنصور الأَعلام ، عند إحساسها ، وآتاكم من آيات العِنايات آيةً تضرب الصَّخرة الصَّماءَ ممن عصاها بعصاها ، فتبادر بانبجاسها — من حمراءِ غرناطة ، حرسها الله ، وأيام الإسلام ، بعناية الملك العلاَّم ، تحتفل وفودُ الملائكة الكرام لولائمها وأعراسها ، وطواعين الطِّعان ، فى عَدُوِّ الدِّين المُعان ، تجدِّد عهدها بعام عَمْواسها [والحمد لله حمدا معادا يُقيِّد شَوارد النعم](٢) ويستدرُّ مواهب الجود والكرم ، ويؤمِّن من انْتِكاب(٣) الجدود وانْتِكاسها ، ولىُّ الآمال ومِكاسها . وخلافتكم هى المثابة التى يُزهَى الوجود بمحاسن مجدها ، زَهْو الرياض بوَرْدها وآسِها ، وتَسْتمد أَضواء الفضايل من مِقْباسها ، وتَرْوى رواة الإفادة والإبادة [غريب الوِجادة](٤) ، عن ضُحَّاكها وعُبَّاسها ، وإلى هذا أعلى الله معارج قَدْركم وقد فعل ، وأَنطق بحُجَج فخركم من احتفى وانْتَعَل ، فإنه وصلنا كتابكم

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (وشرة) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والتعريف . ووردت فى الصبح كالآتى (والحمد لله حمدا يعيد شوارد النعم) . والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والصبح . وفى التعريف والريحانة (انتكاث) .

(٤) هذه العبارة زائدة فى الصبح والتعريف .

الذى حسبناه على صنائع الله لنا(١) تميمة . لا تَلْقَع بعدها عين ، وجعلناه على حُلَل مواهبه ، قِلادةً لا يُحتاج معها زيْن ، ودعوناه من جَيْب الكنانة(٢) آية بيضاء الكتابة ، لم يبق معها شكٌّ ولا مَيْن ، وقرأنا منه وثيقة وُدٍّ ، هُضم فيها عن غريم الزمان دَيْن ، ورأينا منه إنشاءً ، خدم اليراع بين يديه وشّاء ، واختزم(٣) بهيمان عُقْدته مشّاء ؛ وسئل عن معانيه الاختراع ، فقال إنا أنشأْناهُنَّ إنشاءً ، فأَهلاً به من عربى أَبى(٤) يصف السانح والبانَة ، ويبين فيُحْسِن الإبانة . أدّى الأَمانة ؛ وسئل عن حَيِّه فانتمى إلى كِنانة ، وأفصح وهو لا يَنْبس ، وتَهلّلت قَسَماته . وليل(٥) حِبْره يَعْبس ، وكأَنَّ خاتمة المُقْفل على صوانه ، المُتْحف بباكر الوَرْد فى غير أوانه ، رَعُف من مِسْك عُنوانه . ولله من قلم دبَّج تلك الحُلل ، ونَقَع بمجاج الدَّواة المسْتَمدة من عين الحياة الغُلل . فلقد تخارق فى الجود ، مقتديا بالخلافة التى خُلِّد فخرها فى الوجود ، فجاد بسرِّ البيان ولُبابه ، وسَمَح فى سبيل الكرم حتى بماءِ شبابه ، وجَمَح لفَرْط بشاشته وفهامَتِه . بعد شهادة السَّيف بشهامَتِه ، فمشى من الترحيب فى الطِّرس الرَّحيب على أُمِّ هامَتِه .

وأكرِم به من حكيم أفْصَح بمُلْغوز الإكْسير . فى اللَّفظ اليَسير ، وشَرح بلسان الخَبير ، سرَّ صناعة التدبير ، كأنما خَدَم الملكة السَّاحرة بتلك البلاد ، قبل اشْتِجار الجلاد ؛ فآثرته بالطَّارف ، من سِحْرها والتِّلاد ، أو عثر بالمُعَلَّقة ؛ وتِيك القديمة المطلَّقة ، بدَفِينة دار ؛ أو كَنْز تحت

(١) هذه الكلمة زائدة فى الصبح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والتعريف وفى الصبح (الكناية) والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (واخترع) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (أتى)

(٥) وردت فى الإسكوريال (لعل) والتصويب من الصبح والتعريف .

جدار ، أو ظَفر لباقى الحنايا ، قبل أن تقطع به عن أمانيه المنايا ، ببديعة ، أو خَلَف جَرْجير الروم ، قبل منازَلة القُرُوم على وديعة ، أو أسْهَمة(١) ابن أبى سَرْح فى نَشْبٍ للفتح وسرْح ، أو ختم له رُوح بن حاتم ببلوغ المَطْلَب ، أو غلّب الحظوظ بخدمة آل الأَغْلَب ، أو خَصّه زيادةُ الله بمزيد ، أو شارك الشِّيعة فى أمر أبى زيد ، أو سار على منهاج فى مناصحة بنى صَنهاج ، وفضح بتخليد أمداحهم ، كلَّ هاج .

واعجب له ، وقد عُزِّز منه مَثْنى البيان بثالث . فجلب سِحْر الأسماع ، واسترقاق الطِّباع بين مثانٍ للإبداع ومثالث . كيف اقْتَدر على هذا المحيد ، وناصح مع التَّثْليث مقام التَّوحيد . نستغفر الله ولىَّ العون . على الصَّمت والصَّون ، فالقلم هو المُوحِّد قبل الكون ، والمُتَّصف من صفات السَّادة ، أولى العبادة ، بضُمُور التجسم وصُفْرة اللون . إنما هى كرامة فاروقية ، وإشارة من حديث سارية وبقيَّة ، سَفَر وجهها فى الأعقاب ، بعد طول الانتقاب ، وتداوُل الأحقاب ، ولسانٌ مُناب عن كريم جَناب . وإصابة السهم لِسواه محْسُوبة ، وإلى الرَّامى الذى يُسَدِّده(٢) منسوبة ، ولا تُنكر على الغمام بارقة ، ولا على المُتَحَقِّقين بمقام التَّوحيد كرامة خارقة . فما شاءه الفضل من غرائب برٍّ وجَدَ ، ومحاريب خُلُق كريم رَكَع الشكر فيها وسَجَد ، حديقة بيان استثارت نواسم الإبداع من مَهَبِّها . واستزارت غمايم الطِّباع ، من مَصَبِّها ، فآتت أُكُلَها مرَّتين بإذن ربِّها . لا بل كتيبة عزٍّ طاعنت بِقنا الأَلِفات سطورُها ، فلا يرومها النَّقد ولا يُطوِّرها ، ونزعت عن قسىِّ النُّونات خطوطها ، واصطفَّت من بياض الطِّرس ، وسواد النِّفس بُلْقٌ تحوطها . فما كأْس المُدير على الغَدير ، بين الخَوَرنق والسَّدير ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والصبح . وفى التعريف (أسلمه)

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح والتعريف (سدده) .

تقامر بنَرْد الحُباب . عقول ذوى الألباب ، وتُغرق كِسْرى فى العُباب ، وتُهدى وهى الشَّمطاءُ . نشاط الشباب . وقد أسْرَج ابن سُرَيح وألجَم ، وأفْصح التعريضُ بعد ما جمْجَم . وأعرب الغناء لأعْجَم ، وقع مُعيداً بالقضيب ، وشَرَعت فى حساب العِقد بنانُ الكفِّ الخَضِيب ، وكأنَّ الأنامل فوق مثالث العُود ومثانيه ، وعند إغراء الثَّقيل بثانيه ، وإجابة صدى الغِناءِ بين مَغانيه . المراوِدُ تشرع فى الوَشْى ، أو العناكب تُسرع فى المشى ، فما المُخْبر(١) بنيل الرَّغائب . أو قدوم الحبيب الغائب ، لا بل إشارة البَشير ، بكمٍّ المُشير على العَشير ، بأجْلَب للسُّرور من زايره المُتَلقِّي بالبرور ، وأدْعى للحُبور من سَفيره المُبْهج السُّفور . فلم نر مِثْلَه من كتيبة كِتاب تُجنب الجُرد . تمرح فى الأرسان ، وتتشوف مجالى ظهورها إلى عرايس الفُرسان ، وتهزُّ معاطف الارتياح ، من صَهيلها الصُّراح بالنَّغمات الحِسان . إذا أوجست(٢) الصَّريخ نازَعَتْ إثناء(٣) الأعنَّة ، وكاثرت بأسنَّة آذانها مُشرعة الأسنَّة ، فإن أدعى الظَّليم إشكالها فهو ظالم ، أو نازعها الظَّبى هواديها وأكفالها ، فهو هاذ أو حالم . وإن سئل الأصمعى(٤) عن عُيوب الغُرر والأوضاح ، قال مشيرا إلى وجوهها الصِّباح ، « جلدة بين العين والأنف سالِم » من كل عَبْل الشَّوى . سابقٌ للنَّجم إذا ما هَوَى . سامى التَّليل . عريضٌ ما تحت الشَّليل . ممسوحةٌ أعطافه بمنديل النَّسيم البَليل . من أحمرَ كالمُدام ، تُجلى على النِّدام عقب الفِدام ، أتحَف لونه بالوَرْد ،

(١) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (الخبر) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (وجدت) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال والصبح . وفى التعريف (اثناء) .
(٤) واردة فى الإسكوريال والتعريف . وساقطة فى صبح الأعشى .

فى زمن البَرْد ، وحُيِّى أفق مُحيَّاه بكوكب السَّعد . وتشوَّف الواصفون إلى عدِّ محاسنه ، فأَعْيَت على العدّ . بحْرٌ يساجل البَحْر . عند المدِّ ، وريحٌ تبارى الريح عند الشَّدِّ ، بالذِّراع الأَشدِّ ، حكم له مُدَبِّرُ فَلَك الكَفَل باعتدال فَصْل القدِّ ، وميَّزه قدْره المُمَيِّز يوم الاسْتِباق ، بقصب السَّباق ، عند اعتبار الجدِّ ، وولَّد مختطُّ غرَّته أشكال الجمال ، على الكمال ، بين البياض والحُمْرة ، ونقاءِ الخدِّ ، وحفظ رواية الخُلُق الوجيه عن جدِّه الوَجيه ، ولا تُنكر الرواية على الحافظ ابن الجدِّ . وأَشقرُ أبِىُّ الخَلْق والوجه الطَّلْق أن يُحقَّر كأَنما صيغ من العَسْجد ، وطُرِّف بالدُّر ، وأُنعل بالزبَرْجد . ووُسم فى الحديث ، بسمة اليُمن والبَركة ، واختصَّ بفَلْج الخصام عند اشْتِجار المعركة ، وانفرد بمضاعف السِّهام ، المنْكَسِرة على الهام ، فى الفرائض المُشْتركة ، واتَّصفت فَلَك كَفَله بحركتى الإرادة والطبع من أصناف الحركة . أصغى إلى السماء بأُذُن الملهم ، وأغرى لسان الصَّهيل عند التباس معانى المُهْمز ، والتَّسهيل ببيان المُبْهم ، وفُتنت العيون ، من ذهب جسمه ، ولُجين نَجْمه بحبِّ الدنيِّر(١) والدِّرهم ، فإن انقَضَّ فرجم ، أو ريحٌ لمَّا هجم ، وإن اعترض فشفق لاح به للنَّجم نجم . وأَصْفَر قيَّد الأوابد الحُرَّة ، وأمْسك المحاسن ، وأطلق الغُرَّة ، وسئل من أنت فى قُوَّاد الكتايب ، وأولى الأَخبار العجايب ، فقال أنا المُهَلَّب بن أبى صُفرة ، نَرْجِس هذه الألوان ، فى رياض الاكوان ، تحيا به مُحيَّا(٢) الحرب العوان . أغار بنخوة الصَّائل على مُعْصْفرات الأَصايل ، فارتداها ، وعمد إلى خيوط شعاع الشمس عند جانحة الأَمس . فأَلحم

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح والتعريف (الدينار) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح (وجوه) .

منها حُلَّته وأسْداها . واستَعدت عليه مُلك المحاسن فما أعداها . فهو أصيلٌ تمسك بذيل الليل عُرْفه وذيله ، وكوكب يطلعه من القتام ليله ، فيحسده فَرْقد الأُفق وسُهَيله · وأشهب تغشى من لونه مَفاضة(١) ، وتسربل منه لامةً فِضفاضة ، قد احتفل زينُه ، لمَّا رُقم بالنِّبال لُجَينه ، فهو الأَشْمَط الذى حقُّه لا يُغمط ، والدَّارع(٢) المُسارع ، والأَغْزَل الدَّارِع ، وراقِى الهِضاب الفارِع ، ومَكتوب الكتيبةُ البارع ، وأَكرِم به من مُرتاضٍ سالك ، ومُجتهد على غايات السَّابقين الأَوَّلين(٣) متهالك . وأشهبُ يَرْوى من الخليفة ، ذى الشِّيم المُنيفة ، عن مالك · وحبارِى كلما سابق وبارى ، استعار جناح الحُبارى ، فإذا أَعملت هذه(٤) التِحِسْبة ، قِيل من هنا جاءت النِّسبة طرد النِّمر لما عَظُم أَمرُه وأُمر ، فنُسخ وجوده بعدمه ، وابتزّه الفَرْوة ، مُلطَّخة(٥) بدمه . وكان مُضاعف الوَرْد ، نُثِر عليه من طبقِه ، أو الفَلَك ، لما ذهب الحَلك، مُزِج فيه بياض صُبحه بحُمْرة شَفقِه ، وقرطاسيٌ حقه لا يُجهل ، متى ما ترق(٦) العين فيه تسهَّل ، إن نزع عنه جلُّه ، فهو نجمٌ كلُّه . انفرد بمادة الأَلوان . قبل أَن تشوبها يدُ الأَكوان ، وتمزجها أقلام المَلَوان ، يتقدم منه الكتيبة لواءٌ ناصع ، أَو أَبيض مما صبع · لَبِس وقار المَشِيب ، فى ريعان العُمْر القَشِيب ، وأَنصتت الآذان من صَهيله المطيل المُطيب ، لما ارتدى بالبياض إلى نَغْمة الخطيب ، وإن تَعَتَّب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (مضاضة) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (الذراع) .

(٣) واردة فى التعريف والصبح . وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) زائدة الصبح .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الصبح (ثم لطخه)

(٦) وردت فى الإسكوريال (ترق) . والتصويب من النفح والتعريف

منه للتأخير المُتَعَتِّب ، قلنا الواو لا تُرتِّب ، ما بين فحل وحُرَّة ، وبهرمانة وبُرَّة ، ويا لله من ابتسام غرَّة ، ووضوح يُمن فى طُرَّة ، وبهجة للعين وقُرَّة . ودُن ولع الناس بامتداح القديم ، وخصُّوا الحديث بفَرْى الأديم ، وأوجب المتعصِّب ، وإن أبى المنصِب مزيَّة(١) التَّقديم ، وطمح إلى رُتبة المخدوم طَرْفُ الخديم ، وقورن المُثرى بالعَديم ، وبُخس فى سوق الكَسَد(٢) الكيل ، ودَجا الليل ، وظهر فى فَلَكَ الإنصاف الميل ، لمّا تُذوكرت الخَيْل ، فجىء بالوجيه والخطَّار ، والزائد وذى الخمار ، وداحس والسَّكب ، والأَبجر وزاد الراكب ، والجَمُوح واليَحْموم ، والكُمَيت ومَكْتُوم ، والأَعوج والحُلوان(٣) ولاحق والغضبان ، وعفزر والزعفران ، والمحَبَّر واللَّعاب ، والأغرّ والغُراب ، وشُعْلة والعُقاب ، والفيَّاض واليعبوب ، والمُذهب واليَعْسُوب ، والصَّموت والقُطيب ، وهَيْدب والصَّبيب ، وأهلوب وهدَّاج ، والحَرُون وخرَّاج ، وعَلْوى والجناح ، والأَحْوى ومجاج ، والعصا والنَّعامة ، والبَلقاءُ والحمامة ، وسكاب والجرادة ، وخوصاءُ والعرادة . فكم بين الشَّاهد والغائب ، والمفْرُوض والرغائب ، وفرقٌ ما بين الأثر والعِيان ، غنىٌّ عن البيان ، وشتَّان ما بين الصَّريح والمُشْتَبه ، ولله درُّ القائل فى مثلها « خذ ما تراه ودع شيئا سَمِعت به » . والنَّاسخ يختلف به الحكم ، وشرُّ الدواب عند التفضيل بين هذه الدواب ، الصُّم البكم ، إلا ما ركبه نبىٌّ . وكان له يوم الافتخار برهان خبىٌّ(٤) ، ومفضِّل ما سمع على ما رأى غبى ، فلو أنصفت محاسنها التى وصَفْت ، لأقضمت حبَّ القلوب علفا ، وأوردت ماءَ الشبيبة(٥) نُطَفا ، واتخذت لها من عُذْر الخدود الملاح عذر موشيَّة ،

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح والتعريف (مرتبة) .
(٢) وردت فى الإسكوريال والصبح (الحسد) . والتصويب من التعريف .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح والتعريف (وحلوان) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال والصبح . وفى التعريف (خفى) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (الشنينة) والأولى أرجح .

وعلّلت بصفير ألحان القِيان كلَّ عشية . وأُنعلت بالأهلة ، وغُطِّيت بالرياض بدل الأجِلّة

إلى الرَّقيق ، الخليق بالحسن الحَقِيق . تسوقه إلى مَثوى الرعاية روقة الفتيان رعاته ، ويهدى عقيقها من سبجه أشكالا تشهد للمخترع سبحانه ، بإحكام مُخترعاته ، وقفت ناظر الاستحسان لا يريم ، لمَّا بهره منظرها الكريم ، وتخامل الظَّليم ، وتضاءل الرِّيم . وأخرس مُفوه(١) اللسان ، وهو [بملكة التِّبيان](٢) الحفيظ العليم . وناب لسان الحال عن لسان المقال . عند الاعتقال ، فقال يخاطب المقام ، الذى أطلعت أزهارها غمائم جُوده ، واقتضت اختيارُها برَكة وجوده ، لو علمنا أبها الملك الأصيل . الذى كَرُم منه الإجمال والتَّفصيل ، أن الثناء يوازيها لكِلْنا لك بكَيْلك . أو الشكر يعادلها ويجازيها . لتعرضنا بالوشل إلى نيل نَيلك ، أوقُلنا هى التى أشار إليها مُسْتَصْرخ سلفك المستنصر بقوله : «أدرك بخيلك»(٣)

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (مقوله) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ومكانها فى الصبح والتعريف (بملكات البيان) .

(٣) يشير هنا ابن الخطيب إلى واقعة استصراخ الأمير أبى جميل زيان بن مردنيش أمير بلنسية عاصمة الشرق الأندلسى لما دهمه النصارى بحصارها فى رمضان سنة ٦٣٥ ﻫ (إبريل ١٢٣٨ م ، للأمير أبى زكريا) ابن عبد الواحد الحفصى (وقد وهم ابن الخطيب فى ذكره أن الصريخ كان موجها إلى ولده الخليفة المستنصر) . أمير مملكة تونس ، وارساله لهذا الغرض كاتبه وسفيره الفقيه الشاعر ابن الأبار القضاعى . وقد عبر عن صريخ الأندلس ومحنتها بقصيدته الشهيرة التى أنشدها بين يدى الأمير أبى زكريا ومطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

وقد سارع الأمير أبو زكريا إلى إغاثة ملتمسى بلنسية ، وأرسل إلى ذلك الغرض أسطولا مشحونا بالسلاح والأطعمة والأموال ، وسار هذا الأسطول بالفعل إلى مياه بلنسية ولكنه لم يستطع الاتصال بالمحصورين . وسقطت بلنسية بعد ذلك فى يد النصارى (الأرجونيين) فى صفر سنة ٦٣٦ ﻫ (أكتوبر سنة ١٢٣٨ م) .

حين شرق بدمعه[1] الشرق ، وانهزم الجمع ، واستولى الفَرَق ، واتسع فيه ، والحكم لله ، الخرق ، ورأى أن مقام التوحيد بالمظاهرة على التّثْليث وحزبه الخَبيث ، هو الأولى والأحق . والآن قد أغنى الله بتلك النِّية ، عن إنجاد الطِّوال الرّدينيّة ، وبالدّعاء من تلك المثابة الدينيّة ، إلى رب البنيّة ، عن الأمداد السّنية ، والأجواد تخوض بحر الماء إلى بحر المنيّة ، وعن الجُرْد العربية فى مقاود الليوث الأبيّة .

فجدّد برسم هذه الهديّة ، مراسم العهود الوُدِّية ، والذِّمم الموَحِّدية لتكون علامة على الأصل ، ومُكذِّبة لدعوى الوقف والفصل ، وإشعارًا بالأُلفة التى لا تزال أَلفها [بحول الله][2] أَلِف الوصل ، ولامها حراما على النّصل .

وحضر بين يدينا رسولكم فلان ، فقرّر من فضلكم ، ما لا ينكره من عَرَف علوّ مقداركم ، وأصالة داركم ، وفَلَك إبداركم ، وقُطْب مداركم ، وأجَبْناه عنه بجُهد ما كنا لنقنع من جناه المُهْتَصر ، بالمُقْتَضب المختصر ، ولا لنقابل طول طَوْله بالقِصر ، لولا طروء الحَصَر . وقد كان بين الأسلاف رحمة الله عليهم ورضوانه ، وُدٌّ أُبرمت من أجل الله معاقدُه ، ووثِّرت للخلوص الجليِّ النصوص ، مضاجعُه القارة ومراقدُه ، وتعاهدٌ بالجميل ، توجّع لفَقْده [فيما سلف][3] فاقده ، أَبى الله ألا أن يكون لكم الفضل فى تجديده ، والعَطْف بتوكيده . ونحن الآن لا ندرى أىّ مكارمكم نَذكر ، أو أى فواضلكم نشرح أو نشكر ، أمفاتحتكم التى هى فى الحقيقة عندنا فتح ، أَم هَدِيتكم وفى وصفها للأقلام سَبْح ، ولعدوِّ الإسلام بحكمتها كبح. إنما نكل الشكر لمن يوفى جزاء الأعمال البرّة ، ولا يُبخس مِثقال الذّرة ،

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (بدفعه) وهو تحريف .

(٢) واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى الصبح والتعريف .

(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى الصبح والتعريف .

ولا أدنى من مثقال الذّرة . ذى الرّحمة الثّرّة . والألطاف المتصلة المستمرة ، لا إلّه إلاّ هو .

وإن تشوفتم إلى الأحوال الراهنة ، وأسباب الكفر الواهية [بقدرةالله](١) الواهنة،فنحن نُطرفكم بطرفها ،ونطلعكم على سبيل الإجمال بطرفها . وهو أننا لما أعادنا(٢) الله من التمحيص ، إلى مثابة التخصيص ، من بعد المرام العويص ، كَحَلنا بتوفيق الله بصر البصيرة ، ووقفنا على سبيله مساعى الحياة القصيرة ، ورأينا كما نُقل إلينا ، وكُرِّر على من قَبْلنا وعلينا ، أن الدُّنيا ، وإن غرَّ الغرور ، وأنام على سُرُر الغَفلة السُّرور ، فلم ينفع الخطور على أجداث الأحباب والمرور ، جسْرٌ يُعبر ، ومتاع لا يُغبط من حُبى به ، ولا يُجبر . إنما هوخبر به يُخبر ، [وأن الحسرة بمقدار ما على تركه تُجبر](٣) وأن الأعمار أحلام ، وأن الناس نيام ، وربما رحل الراحل عن الخان ، وقد جلّله بالأذى والدُّخان ، أو ترك به طِيباً ، وثناءً يقوم بعده للآتى خطيبا ، فجعلنا العدل فى الأمور مِلاكا ، والتفقّد للثغور مِسواكا ، وضجيج المهاد ، حديث الجهاد ، وأحكامه مناط الاجتهاد ، وقوله : « يا أيها الذين آمنوا أهل أدلُّكم على تجارة تنجيكم» دليل(٤) الاستشهاد ، وبادرنا رَمَق(٥)الحصون المُضاعة ، وجُنح التَّقية دامس ، [وعَوْراتها لا تردُّ يَدَ لامِس](٦) ، وساكنها بائس ، والأَغْصَم فى

---

(١) ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى الصبح والتعريف .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (اعاد) .

(٣) هذه العبارة واردة فى الصبح والتعريف وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . ومكانها فى الصبح والتعريف (من حجج) .

(٥) وردت فى الإسكوريال والصبح (من) والتصويب من التعريف .

(٦) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والتعريف وساقطة فى الصبح .

شعفاتها من العِصْمة آيس ، فزيّنا ببيض الشُّرفات ثناياها ، وأفْعَمنا بالعَذْب الفُرات رَكاياها ، وغشينا بالصَّفيح المضاعف أبوابها ، واحْتَسَبنا عند مُوفىٍّ الأُجور ثوابها ، وبيَّضنا بناصع الكَلس أثوابها ، فهى اليوم توهم حِسَّ العِيان ، أنها قطع من بيض العَنان(١) ، تكاد تَناول قرص البدر بالبنان ، متكفلة للمؤمن ، من فزع الدنيا والآخرة بالأمان . وأقرضنا الله قرضا ، وأوسعنا مدوَّنة الجيش عرضا ، وفرضنا أنصافه مع الأَهلَّة فَرْضا ، واستندنا من التوكُّل على الله الغنى الحميد إلى ظلٍّ لواء ، ونبذنا إلى الطاغية عهدة على سواء ، وقلنا ربٌّ أنت العزيز ، وكلُّ جبَّار لعزك ذليل ، وحزبك هو الكثير ، وما سواه فقليل ، أنت الكافى ، ووعدك الوعد الوافى ، فأَفض علينا مدارع الصابرين ، واكتُبْنا من الفائزين ، بحظوظ رضاك الظافرين ، وثبِّت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين .

فتحركنا أُولى الحركات ، وفاتحة مُصحف البركات . فى خِفٍّ من الحشود ، واقتصار على من بحضرتنا من العساكر المظفرة والجنود ، إلى حصن أشر(٢) البازى المطل [وركاب العدو](٣) الضَّال المُضِل ، ومَهْدى نفثات الصِّل ، على امتناعه وارتفاعه ، وسمو يَفاعه ، وما بذل العدو فيه من استعداده ، وتوفير أَسلحته وأزْواده ، وانتخاب أنْجاده . فصَلَيْنا بنفسنا ناره ، وزاحمنا عليه الشُّهداء نُصابر أُواره . ونَلْقى بالجَوارح العزيزة سهامه المسْمُومة ، وجلامدَه المَلْمومة وأَحجاره ، حتى فرَغْنا بحول من لا حول ولا قوة إلا به ، أبراجه المَنِيعة وأسواره ، وكَفَفنا عن البلاد والعباد

(١) وردت فى الإسكوريال (القيان) . والتصويب من التعريف والصبح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال وهو الرسم الصحيح لاسم هذا الحصن . وقد سبق التعريف به . وفى الصبح (آش) وهو تحريف .

(٣) هذه العبارة واردة فى الصبح والتعريف وساقطة فى الإسكوريال .

أضراره ، بعد أن استَضَفنا إليه حصن(١) السُّهلة جاره ، ورحلنا عنه بعد أن شحناه رابطةً وحاميةً ، وأزواداً نامية ، وعمِلنا بيدنا فى رَمّ ما ثَلم القتال ، وبَقر من بطون مُسابقه الرجال ، واقتَدينا بنبينا صلوات الله وسلامه عليه فى الخَندق ، لمّا حمى ذلك المجال ، ووقع الارتجاز المنقول خبره والارتِجال ، وما كان ليقرَّ الإسلام مع تركه القَرار ، وقد كُتب الجوار ، وتداعى الدُّعرة ، وتعاوى الشِّرار .

وقد كنا أغرَينا الجهة الغربية من المسلمين بمدينة بُرغة(٢) التى سَدَّت بين القاعدتين رُندة ومالَقة الطريق ، وألبَسَتْ ذُلَّ الفراق ذلك الفَريق ، ومَنَعَتْهما أن تُسيغا الرِّيق ، فلا سبيل إلى الإلمام لطيف المنام إلا فى الأَحلام ، ولارسالة إلاّ فى أجنحة هَدىً(٣) الحمام ، فيسَّر الله فتحها ، وعجَّلَ مَنحها ، بعد حرب انبتَّت فيها النحور ، وتزيَّنَت الحوز ، وتبع هذه الأم بناتٌ شهيرة ، وبُقَع للزرع والضَّرع خِيرة ، فشفى الثغر من بُوسه ، وتهلَّل وجه الإسلام بتلك الناحية بعد عُبُوسه

ثم أعمَلنا الحركة إلى مدينة الجزيرة ، على بُعد المدا ، [وتُغَلغُلها فى](٤) بلاد العدا ، واقتحام هول الفَلا وغَول الرَّدى ، مدينة تبنَّتها (٥) حُمص ، فأوسَعت الدَّار ، وأغلَت الشِّوار ، وراعت الاستكثار ، وبَسَطَتْ الاعتِمار ، رَجَّح إلينا قصدها على البُعد ، والطريق الجَعْد ، ما أشقَت به المسلمين ، من استئصال طائفة من أسراهم ، مرُّوا بها آمنين ، وبطائرها المَشئُوم

(١) هذه الكلمة واردة فى الصبح والتعريف ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) سبق التعريف بهذه المدينة .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . والصبح . وفى التعريف (هدل) .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (وتعلقها على) . والأولى أرجح .

(٥) وردت فى الإسكوريال والصبح (بنتها) . والتصويب من التعريف .

متيمنين ، قد أنهكهم الاعتقال ، والقيود الثِّقال ، وأضرعهم الإسار ، وجلّلهم الانكسار . فجدّلوهم فى مَصرع واحد ، وتركوهم عبْرةً للرائى والمُشاهد ، وأهدوا بوقيعتهم إلى الإسلام ، ثكل الواجد ، وتِرَة الماجد ، فكبسناها كبسا ، وفجأناها(١) بإلمام من لايُغفِل ولايَنسى ، فصبحتها الخيل ، ثم تلاحق الرّجل لما جنّ الليل ، وحاق بها الوَيْل ، فأُبيح منها الدّمار وأخذها الدمار ، ومُحقت من مصانعها البيض الأهلة ، وخُسِفت الأقمار ، وشُفِيت من دماء أهْلِيها الضُّلوع الحِرار ، وسُلِّطت على هياكلها النار ، واستولى على الآلاف العديدة من سَبْيها الإسار ، وانتهى إلى إشبيلية الثكلى المغار ، فجلّل وجوه من بها من كبار النصرانية الصَّغار ، واستولت الأيدي على مالا يسعه الوصف ولا تقِلّه الأوقار . وعُدنا والأرض تموج سَبْيًا ، لم تترك بعِفرّين شِبْلا ، ولا بوْجرة ظبيا ، والعقائل حَسْرى ، والعيون يبْهَرها الصُّنع الأسْرَى ، وصُبح السُّرى قد حُمد ، من بَعْد بُعد(٢) المَسْرى ، فسبحان الذى أسْرَى ، ولسان الحميّة ينادى فى تلك الكنائس المُخْزِية والنّوادى ، يا لثارات الأسْرَى .

ولم يكن إلاّ أن نُفِّلت الأنفال ، ووُسمت بالأوضاخ(٣) الأغفال ، وتميّزت الهوادى والأكفال ، وكان إلى غزو مدينة جَيَّان الاحتفال ، قدنا إليها الجُرْد تلاعب الظِّلال نشاطا ، والأبطال تقتحم الأخطار رضًى بما عند الله واغتباطاً والمهنّدة الدّلق(٤) تسبق إلى الرِّقاب استلالا واختِراطا ، والرّدينيّة السُّمر تسترط حيَّاتُها(٥) النفوس استراطا . [واستكثرنا من عُدد القتال احتياطا](٦)

---

(١) وردت فى الإسكوريال (وفجناها) . والتصحيح من الصبح .

(٢) واردة فى الصبح وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال والصبح (بالإرضاخ) والتصويب من التعريف .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى التعريف . وفى الصبح (الزرق) . والأولى أرجح .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح (حياة) . وهو تحريف .

(٦) هذه الجملة واردة فى الإسكوريال والتعريف . وساقطة فى الصبح .

وأزحْنا العلل عمَّن أراد جهادا . منجيًا غُباره من دخان جهنم ورِباطًا. وناديناالجهاد الجهاد . يا أُمة [الجهاد راية] (١) النبيّ الهاد . الجنَّة الجنَّة تحت ظِلال السيوف الحِداد . فهزَّ النداءُ إلى الله تعالى كل عامر وغامر : وائْتَمر الجمُّ من دعوة الحقِّ إلى أمر آمر ؛ وأتى الناس من الفُجوج العَميقة رجالاً ؛ وعلى كلِّ ضامر ، وكاثَرت الرايات أزهار البِطاح لونًا وعدًّا ، وسدّت الحشود مسالك الطرق العريضة سدًّا ، ومُدَّ بحرها الزاخر مدًّا ، فلا يجد لها الناظر ولا المناظر حدًّا . وهذه المدينة هى الأُم الولود ، والجنَّة التى فى النار لسكَّانها من الكفار الخلود ، وكرسى الملك ، ومُجَنَّبته الوُسْطى ، من ذلك السِّلك(٢) ، باءت بالمزايا العديدة ، ونجحت ؛ وعند الوِزان بغيرها من أمَّات البلاد رَجحت ، غاب الأُسود . وجُحر الحيّات السُّود ، ومَنْصِب التماثيل الماثلة ؛ ومَعْلَق النواقيس الصَّايلة .

وأَدْنَينا إليها المراحل [وعيَّنا لبحار](٣) المحلات المستقلَّات منها الساحل . ولمَّا أكْثبنا جوارها ، وكدنا نلمح نارها ؛ تحركنا ووشاح الأُفق المرقوم بزُهْر النجوم ، قد دار دايرَه ، والليل من خوف الصَّباح ، على سَرْحه(٤) المستباح ؛ قد شابت غدايرُه . والنِّسر يرَفْرِف باليُمن طائرُه ، والسِّماك الرامح يثأَّر بعزِّ(٥) الإسلام ثائره ؛ والنَّعائم راعِدةٌ فرائص الجَسَد من خوف الأَسَد ، والقوس يرسل سَهْم السعادة . بوتر العادة إلى أهداف

(١) هذه العبارة ساقطة فى الإسكوريال . وواردة فى الصبح والتعريف .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (المسالك) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى التعريف وفى الصبح (وعينا لتجار) وهو تحريف .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والصبح . وفى التعريف (سطحه) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح (ثغر) والأولى أرجح .

النِّعم المُعادة ، والجَوْزاءُ عابرةٌ نهر المجرّة ، والزُّهرة تغار من الشعرى العبور بالضرّة ، وعطارد يُسْدِى فى حبل(١) الحروب على البلد المحروب ويُلْحِم ، ويناظر على أشكالها الهندسية فيُفْحم ، والأحمر يَبهَر ، والعَلَم الأبيض يَفْرى وينهر ، والمُشْتَرى يُبدى فى فضل الجهاد ويُعيد ، ويزاحم فى الحلقات على ما للسعادة من الصفات ويَزيد ، وزُحل عن الطالع مُنْزحل ، وعن العاشر مرتحل ، وفى زلق السقوط وحِل ، والبدر يطارح حَجَر المنجنيق ، كيف يهوى إلى النِّيق ، ومطلع الشمس يرقُب ، وجدار الأُفق يكاد بالعيون عنها يُنقب.

ولما فشا سرُّ الصباح واهتزَّت أعطاف الرَّايات لتحيَّات مُبَشِّرات الرِّياح ، أطْلَلْنا عليها إطْلال الأُسود على الفرايس ، والفُحُول على العرايس ، فنظرنا منظراً يروع بأْساً ومَنَعة ، ويروق وضْعاً وصَنْعة ، تلفَّعت معاقله الشُّمُّ للسحاب ببرود ، ووَرَدَت من غَدِير المُزْن فى بُرود ، وأسرعت لاقتطاف(٢) أزهار النجوم ، والذِّراع بين النطاق(٣) معاصم رُود ، وبلداً يُعيِى الماسح والذارع ، وينتظم المحانى والأجارِع . فقلنا اللهم نفِّله أيدى عبادك ، وأرِنا فيه آيةً من آيات جهادك ، فنزلنا بساحتها العريضة المتُون ، نزول الغيث الهَتُون ، وتيمَّنَّا من فحصها الأَفْيَح بسورة التين والزيتون ، متبرِّئة من أمان الرحمن للبلد المَفْتُون ، وأَعْجَلنا الناس بحميَّة نفوسهم النَّفيسة ، وسَجِيَّة شجاعتهم البئيسة ، عن أن نُبَوِّىءَ(٤) للقتال المقاعد ، ونُدْنى بإسماع شهير النَّفير منهم الأَباعد. وقبل أن يلتقى الخديم بالمخدوم ، ويركع المنجنيق ركعتى القُدوم ، فدافعوا من أصْحَر إليهم من الفرسان ،

(١) وردت فى الإسكوريال والصبح (جبل) . والتصويب من التعريف .
(٢) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (لاختطاف) والأولى أنسب .
(٣) هكذا فى الصبح وفى التعريف . وفى الإسكوريال (النطاف) .
(٤) وردت فى الإسكوريال (نبوه) . والتصويب من التعريف والصبح .

وسبق إلى حومة الميدان . حتى أحْجروه فى البلد . وسلبوهم لباس الجلد . فى موقف يُذْهل الوالد عن الولد . صابت[1] السهام فيه غماما . وطارت كأسراب الحمام تهدى حِماما . وأَضْحَت القنا قِصَداً ، بعد أن كانت شِهاباً رصَدًا . وماج بحر القتام بأمواج النُّصول . وأخذ الأرض الرَّجفان لزلزال الصباح الموصول . فلا ترى إلاَّ شهيدا تُظَلِّل مصرعه الحور ، وصريعا تقذف به إلى السَّاحل أمواج[2] تلك البحور . ونواشِبَ تَبْأَى بها الوجوه الوجيهة عند الله والنُّحور . فالمِقْضب فودُه يُخصب . والأَسْمر غصْنُه سيُثْمر . والمِغفر حماه يخفر . وظهور القسىِّ تُقْصم ، وعصم الجند[3] الكوافر تَفْصم . وورق اليَلَب فى المُنْقَلب يسقط . والبُتَّر[4] تكتب . والسُّمر تنقط . فاقتُحم الرَّبضُ الأَعظم لحينه . وأظهر الله لعيون المبصرين والمستبصرين عِزَّة دينه . وتبرَّأ الشيطان من خَدِينه . وبهَت[5] الكفار وخُذِلوا ، وبكل مرصد جُدِّلوا ، ثم دُخل البلد بعدد غِلابا ، وجُلِّل قَتْلاً واستلابا ، فلا تَسَل إلاَّ الظُّبا والأَسَل . عن قيام ساعته . وهول يومها وشناعته ، وتخريب المبايت والمبانى . وغِنَى الأَيدى من خزاين تلك المغانى ، ونقل الوجود الأَول إلى الوجود الثانى . وتَخارق السيف فجاءَ بغير المعتاد ، ونهلت القنا الرُّدينية من الدماءِ . حتى كادت تُورق كالأَغصان المُغْتَرسة والأَوتاد . وهَمَت أفلاك القسىِّ وسَحَّت ، وأرنَّت حتى بُحَّت . ونفدت مواردها فشحَّت بما أَلحَّت . وسَدَّت المسالك جثثُ القتلى فمنعت العابر ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (صارت) .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الصبح وساقطة فى الإسكوريال والتعريف .

(٣) وردت فى الإسكوريال (الجنن) والتصويب من الصبح والتعريف .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والصبح . وفى التعريف (البيض) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى الصبح (ونهب) وهو تحريف .

واستأصل الله من عدوه الشأفة وقَطع الدَّابر ، وأُزلف الشهيد وأُحْسِب الصابر ، وسبقت رسل الفتح الذى لم يُسمع بمثله فى الزمن الغابر ، تنقل البُشْرى من أفواه المحابر ، إلى آذان المنابر .

أقمنا بها أياما نَعْقُر الأَشجار ، ونستأْصل بالتَّخريب الوِجار ، ولسان الانتقام من عبدة الأَصنام ، ينادى بالثارات الإسكندرية تشفِّيا من الفُجَّار ، ورعيا لحقِّ الجار . وقفلنا وأجنحة الرايات برياح العنانات(١) خافقة ، وأوفاق التوفيق ، الناشئة من خطوط الطريق موافقة ، وأسواق العزِّ بالله نافقة ، وحملاءُ الرفق مصاحبة ، والحمد لله ، مرافقة ، وقد ضاقت ذروع الجبال عن أعناق الصُّهب السِّبال ، ورفعت على الأَكفال رُدَفاءُ كرائم الأَنفال ، وقُلقلت من النواقيس أجرام الجِبال بالهندام والاحتيال ، وهلك بمهلك هذه الأم ؛ بناتٌ كُنَّ يَرْتَضعن ثُدِيَّها الحوافل ، ويستوثرن حجرها الكافل ، شمل التخريب أسوارها ، وعجّلت النار بَوارَها .

ثم تحركنا بعدها حركة الفتح ، وأرسلنا دلاء الأَدلاَّء قبل المَتْح ، فبشَّرت بالمنح . وقصدنا لمدينة أُبدَّة ، وهى ثانية الجناحين ، وكُبرى الأُختين ، ومُساهِمة جيَّان فى حين الحين ، مدينة أخذت عرض الفضاء الأَخرق ، وتمشَّت فى أرباضها تمشِّى الكتابة الجامحة فى المُهْرَق ، المشتملة على المتاجر والمكاسب ، والوَضْع المتناسب ، والفلح(٢) المُعْيى ريْعُه عمل الحاسب ، وكوارة(٣) الدير اللاسب ، [المتعددة اليَعاسِب](٤) فأَناخ العَفاءُ بربوعها العامرة ، ودارت كؤوس عُقار الحُتوف ، ببنان السيوف ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى التعريف والصبح (العنايات) والأولى أرجح

(٢) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (الفلج) .

(٣) هكذا فى التعريف والصبح . وفى الإسكوريال (كورة) . والأولى أرجح والكوارة شيء يتخذ للنحل من القضبان .

(٤) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والتعريف . وساقطة فى الصبح .

على متدبِّريها المعاقرة ، وصبَّحتها طلائع الفاقِرة ، وأُغْرِيَت ببطون أسوارها عُوج المعاول[١] الباقِرة ، ودَخَلت مدينتها عَنْوة السيف : في أسرع من خَطْرة الطَّيف ، ولا تسل عن الكَيْف . فلم يبلغ العفاءُ من مدينة حافِلة ، وعَقِيلة في حُلَل المحاسن رافِلة ، ما بلغ من هذه البائسة ؛ التي سَجَدت لآلهة النيران أبراجُها ، وتضاءل بالرَّغام مِعْراجُها ، وضَفَتْ على أعطافها ملابسُ الخِذلان ، وأقفر من كنائسها كِناس الغُزلان .

ثم تأهَّبنا لغزو أم القرى الكافرة ، وخزاين المزاين الوافرة ، وربَّة الشُّهرة السافرة ، [والأنباءِ المسافرة][٢] قرطبة ، وما أدراك ما هِيه ، ذات الأرجاءِ الحالية الكاسِية ، والأطْواد الرَّاسخة الرَّاسية ، والمباني المباهِية والزَّهراءِ الزاهية ، والمحاسن غير المُتَنَاهية ، حيث هالةُ بدر السماءِ ، قد استَدارت من السُّور المَشِيد البناءِ دارًا[٣] ؛ ونهر المجرَّة من نهرها الفيَّاض ، المسلول حُسامه من غمود الغياض قد لَصِق بها جارا ، وفَلَك الدُّولاب المعتدل الانقلاب ، قد استقام مَدَارا ، ورجَّع الحنِين اشتياقاً إلى الحبيب الأوَّل ، وادِّكارا ، حيث الطود كالتَّاج ، يزدان بلُجين العَذْب المُجاج ، فيُزْرى بتاج كِسْرى ودَارا ، حيث قِسِيُّ الجسور المديرة ، كأنها عوج المَطِيِّ الغريرة ، تعبر النهر قطارا ، حيث آثار العَامِرىِّ المجاهد، تَعْبَق بين تلك المعاهد شَذًا مِعْطاراً ، حيث كرائم السحاب تزور عرائس الرِّياض الحبايب فتحمل لها من الدُّر نِثاراً ؛ حيث شمُول الشَّمال تُدار على الأَدْواح ، بالغُدُوِّ والرَّواح ، فترى الغصون سُكارى . وما هي بسُكارى ؛ حيث أيدي الافتتاح ؛

(١) هكذا وردت في الصبح والتعريف . وفي الإسكوريال (المعاون) .

(٢) هذه العبارة واردة في التعريف وفي « ريحانة الكتاب » . وساقطة في الإسكوريال .

(٣) هذه الكلمة ساقطة في الصبح .

تَفْتَضُّ من شَقائق البِطاح أبْكاراً . حيث ثُغور الأَقاح الباسم ، تُقبِّلها بالسَّحر زُوَّار النَّواسم ، فتخفق قلوب النجوم[1] الغيارى . حيث المُصلَّى العتيق قد رحُبَ مجالاً ، وطال مناراً . وأزرى ببلاط الوليد احتقارا . حيث الظُّهور المثارة بسلاح الفلاح ، تجُبُّ عن مثل أسْنِمة المهارى ، والبطون كأنها لتَدْميث الغمائم بُطون العَذارى . والأَدواح العالية تخترق أعلامها المادية بالجداول الخَيارى . فما شيت من جوٍّ صقيل[2] ومُعرَّس للحسن ومَقيل ، ومالكٍ للعقل وعَقيل . وخمائل كم فيها للبلابل من قال وقيلٍ ، وخَفيف يُجاوب بثقيل . وسنابلَ تَحكى من فوق سُوقها . وقُضُب بسوقها الهمزات فوق الأَلِفات ، والعصافير البديعة الصِّفات ، فوق القُضْب المُؤتَلِفات . تميل لهبوب[3] الصَّبا والجَنوب . مالئة[4] الجيوب بدُرَر الحُبوب ، وبطاحٌ لا تعرف عين المَحْل ، فتطلبه بالذَّحل ، ولا تصرف فى خدمة بيض قباب الأَزهار ، عند افتتاح السَّوسَن والبَهار ، غير العُبدان من سُودان النَّحل ، وبحر الفلاحة الذى لا يُدرك ساحلُه ، ولا يبلغ الطيَّةَ البعيدة راحِلُه ، إلى الوادى ، وسَمَر النوادى ، وقرار دموع الغوادى المتجاسر على تخطِّيه ، عند تمطِّيه ، الجسر العادى . والوطن الذى ليس من عمرو ولا زيد . والفَرا الذى فى جَوْفه كلُّ صَيْد . أقلَّ كرسيه خلافة الإسلام ، وأغار[5] بالرُّصافة والجِسْر دار السلام . وماعسى أن تُطْنب فى وصفه ألسنة الأقلام . أو تعبر به عن ذلك الكمال . فُنون الكلام .

---

(١) هكذا وردت فى الصبح . وفى الإسكوريال (النجم) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والصبح . وفى التعريف (بقيل) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (بهبوب) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (مائلة)

(٥) هكذا فى الإسكوريال والتعريف وفى الصبح (أعار) وهو تحريف

فأعملنا إليها السُّرى والسَّير ، وقُدْنا إليها الخيل وقد عقدالله فى نواصيها الخير .

ولما وقفنا بظاهرها المُبْهت المُعْجب ، واصطَفَفْنا بخارجها المُنْبِت المُنجب ، والقلوب تلتمس الإعانة من مُنعم مُجْزل ، وتستنزل مدد(١) الملائكة من مُنْجد مُنْزل ، والركائب واقفة من خلفنا بمعزل ، تتناشد فى معاهد الإسلام ، «قفا نَبْكِ من ذِكرى حبيب ومنزل» برز من حاميتها المُحامية ، ووقود النار الحامية ، وبقية السيف الوافرة على الحصاد النامية ، قِطع الغمايم الهامية ، وأمواج البحور الطامية ، واستجنَّت بظلال أبطال المجال ، أعداد الرجال النَّاشِبة والرَّامية . وتصدَّى للنِّزال ، من صنَادِيدها الصُّهب السَّيال ، أمثال الهضاب الراسية ، يجنُّها جُننُ السَّوابغ الكاسية ، وقوامِيسها المُغادِية للصُّلبان يوم بؤسها بنفوسها المُواسية ، وخنازيرها التى عدتها عن قبول حُجَج الله ورسوله ، ستُور الظُّلم الغاشية ، وصخور القلوب القاسية . فكان بين الفريقين أمام جسرها الذى فرق البحر ، وحُلِّى بلُجَينه ولآلى زَيْنه منها النَّحر ، حربٌ لم تَنْسِج الأزمان على منوالها ، ولا أتَتْ الأيام الحُبالى بمثل أجنَّة أهوالها ، من قاسها بالفِجار أفَكَ وفجر ، أو مثَّلها بجفر الهباءة خرِف وهَجر ، ومن شبَّهها بحرب داحِس والغَبْراءِ ، فما عرف الخبر . فليسل من عرَّف وخبر . ومن نظرها بيوم شِعْب جَبَلة ، فهو ذو بَلَه . أو عادلها ببطن عاقل ، فهو غير عاقل . أو احتج بيوم ذى قار ، فهو إلى المعرفة ذو افْتِقار . أو ناضل بيوم الكَدِيد ، فسهمه غير السديد . إنما كان مقاما غير معتاد ، ومَرْعى نفوس لم يَف بوصفه

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الصبح والتعريف . وساقطة فى الإسكوريال .

لسان مرتاد ، وزلزال جبال أوْتاد : ومُتْلِف مَذْخور لسلطان الشيطان وعَتاد ، أعلم فيه البطل الباسل ، وتورّد الأبيض الباتر ، وتأود الأسمر العاسل . ودوّم الجَلْمَدُ المُتكاسل ، وانبعث من حَدَب الحنيّة إلى هدف الرّميّة الناشر الناسل ، ورُويت لمُرْسَلات السهام المَراسل ، ثم أفضى أمر الرماح إلى التّشاجر والارتباك ، ونشبَت الأسنّة فى الدّروع نَشْب السّمك فى الشّباك ، ثم اختلط المَرْعى بالهمَل ، وعُزل الرُّدينى عن العَمَل ، وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا ، بعد أن شقّت غُدُر السّوابغ خلجانا ، واتحدت جداول الدروع فصارت بحرا ، وكان التّعانق . فلا ترى إلاّ نحراً يلازم نحراً ، عناق وَداع ، وموقف شَمْل ذى انصداع ؛ وإجابة مناد إلى فراق الأبَد ودَاع . واستكشفت مآل الصبر الأنفس الشفّافة ، وهبّت بريح النصر الطلائع المُبشِّرة الهفّافة . ثم أمد السيل ذلك العُباب ، وصَقل الاستبصار الألْباب ، واستخْلَص العزم صَفْوة اللُّباب ، وقال لسانُ النّصر ادْخُلوا عليهم الباب ، فأصبحت طوائف الكفار ، حصايدَ مناجِل الشفار ، فمغافرهم[٢] قد رَضِيت حُرُماتها بالإخفار[٣] ، ورؤوسهم محطوطةٌ فى غير مَقام[٤] الاستغفار ، وعَلَت الرايات من فوق تلك الأبراج المُسْتَطْرَفة والأسوار ، ورفرف على المدينة جَناح البَوار ، لولا الانتهاءُ إلى الحد والمقدار ، والوقوف عند اختفاء سر الأقدار[٥].

ثم عبرنا نهرها ، وشدّدنا بيدى الله قَهْرها ، وضيّقنا حَصْرها ، [وأدرنا بلآلىء القباب البيض خصرها][٦] ، وأقمنا بها أياما تحوم

(١) هكذا وردت فى التعريف والصبح . وفى الإسكوريال (الصبر) والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (فمفارقهم) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (بالإعقار) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (معالم) والأولى أرجح .

(٥) هكذا وردت فى التعريف وفى الإسكوريال والصبح (المقدار) والأولى أرجح .

(٦) هذه الجملة واردة فى الإسكوريال والتعريف . وساقطة فى الصبح .

عُقبان البُنُود على فريستها حِياماً . وندمى الأدواح[١] ببوارها . ونسلّط النيران على أقطارها . فلولا عائق المَطَر . لَحَصلنا من فتح ذلك الوطن على الوَطَر . فرأينا أن نَرُوضَها بالاجتِثاث والانتِساف . ونوالى على زروعها وربوعها ، كرَّات رياح الاعْتِساف . حتى يتهيأَ للإسلام لَوْك طُعْمَتها ، ويتهنَّأَ بفضل الله . إرث نِعْمَتِها . ثم كانت عن موقفها الإفاضة بعد نحر النحور . وقذف جِمار الدَّمار . على العدو المَدْحُور . وتدافعت خَلْفَنا [السَّيقات المُتَّسِقات][٢] تدافع أمواج البُحور . وبعد أن ألحَحْنا على جنَّاتها المُصْحِرة . وكرومها المُسْتَبْحرة[٣] . إلحاح الغريم . وعوَّضناها المنظر الكريه [من المنظر الكريم][٤] . وطاف عليها طائفٌ من ربِّك[٥] فأصبحت كالصَّريم ، وأغرينا حِلاق النار بحَمَم الجحيم[٦] ، وراكمنا فى أجواف أجوائها غَمايم الدُّخان ، تذكر طيِّبة البان بيوم الغَمِيم ، وأرسلنا رياح الغارات . لا تَذر من شئ أَتَتْ عليه . إلاَّ جعلته كالرميم ، واستقبلنا الوادى يهول مدًّا . ويرُوع سيفه الصقيل حدًّا . فيسَّره الله من بعد الإعواز . وانطلقت على الفُرْضَة . بتلك الفرصة . أيدى الانتهاز ، وسألنا من ساءله أسد بن الفرات[٧] . فأفتى برجحان الجواز ، فعمَّ

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (الأرواح) . والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والتعريف . ووردت فى الصبح (السابقات المستقلات) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والتعريف وفى الصبح (المشتجرة) .

(٤) هذه العبارة واردة فى الصبح والتعريف وساقطة فى الإسكوريال .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح (ربنا) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (الحجم) والأولى أرجح .

(٧) هو القاضى أسد بن الفرات بن سنان فاتح صقلية ، وأحد أكابر فقهاء المالكية ، ومؤلف كتاب الأسدية فى الفقه المالكى (١٤٢ - ٢١٣ هـ) . وقد ترجم له ابن الخطيب فى المجلد الأول من الإحاطة فليراجع هنالك .

الاكتساح والاسْتِباح جميع الأَحْواز ، فأُدِيل المصون ، وانْتُهبت القرى وهُدِّمت الحصون ، واجْتُثَّت الأُصول وحُطِّمت الغُصُون، ولم نرفع عنها إلى يوم غارة تُصافحها بالبُؤس ، وتُطْلع عليها غُررها الضَّاحكة باليوم العَبُوس . فهى الآن مَجْرى السَّوابق ومجر العوالى ، على التَّوالى ، والحَسَرات تتجدَّد فى أطلالها البَوالى ، وكأن بها قد صُرعت ، وإلى الدعوة المُحَمَّدية قد أَسْرعت ، بقُدْرة من أنزل القرآن على الجِبال ، فَخَشَعت من خِشْية الله وتصدَّعت ، وعِزَّة من أذعنت الجبابرة لعزِّه وخَنَعت . وعُدنا والبُنود لا يعرف اللفُّ نَشْرَها ، والوجوه المجاهدة لا يخالط التَّقطُّب(١) بِشْرَها ، والأَيدى بالعروة الوثقى مُعْتَلقة ، والأَلْسُن بشكر نعم الله مُنْطَلِقة ، والسيوف فى مضاجع الغُمُود قَلِقة ، وسَرابِيل الدُّروع خَلِقة ، والجياد من ردِّها إلى المرابط(٢) والأَوارى ردَّ العَوارى حَنِقة ، وبعَبَرات الغيظ المَكْظُوم مُخْتَنِقة ، تنظر إلينا نَظَر العاتب ، وتعود من ميادين المَراح والاختِيال تحت حُلَل السِّلاح عَوْد الصِّبيان إلى المكاتب ، والطَّبل بلسان العزِّ هادِر ، والعزم إلى مُنادى العَوْد الحَميد مُبادر ، ووجود نوع الرِّماح من بعد ذلك الكِفاح ، نادر ، والقاسم ترتب بين يديه من السَّبى النوادر ، ووارِد مَناهِل(٣) الأُجور غير المُحَلاَّ ولا المهْجور(٤) غير صادر ، ومُناظر الفضل الآتى عقب أخيه المتأَتِّى على المطلوب المُواتِى مُصادر ، والله على تَيْسير الصعاب وتَخْويل المِنَن الرِّغاب قادر ، لا إِلَه إلا هو ، فما أَجْمَل لنا صُنْعه الخَفىِّ ، وأكرم بنا لُطْفَه الحَفِىِّ ، اللهم لا نحصى ثناءً عليك ، ولا نَلْجأُ منك إلاَّ إليك ،

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح (التقطيب) .

(٢) واردة فى الصبح والتعريف . وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (منهل) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (المهمور) والتصويب من الصبح والتعريف .

ولا نلتمس خير الدنيا والآخرة ، إلاّ لَدَيْك . فأَعد علينا عوائد نصْرك، يا مُبْدِى يا مُعِيد . وأعِنَّا من وسائل شكرك على ما يَنْثال[١] به المزيد . ياحيُّ يا قيُّوم ، يا فعَّال لما يريد .

وقارنت رسالتكم الميمونة لَدَيْنا حذق[٢] فتح ، بعُد صيتُه ، مُشْرَئِبٌّ لَيْتُه . وفخر من فوق النجوم العَواتم مبيته . عَجبْنا من تأتِّى أمَلِه الشَّارد، وقُلنا البركة فى قُدوم الوارد . وهو أنَّ ملك النصارى لاطَفنا بجُمْلة من الحصُون ، كانت من مملكة[٣] الإسلام قد غُصبت . والتَّماثيل فيها ببيوت الله قد نُصِبت . أدالها الله بمحاولتنا الطَّيِّب من الخَبِيث . والتَّوحيد من التَّثْليث . وعاد إليها الإسلام عوْدة الأَب الغائب . إلى البَنات الحَبائب ؛ يَمسَحُ عن شئونها . ويمسح دموع الرِّقة عن جُفونها . وهى للرُّوم خُطَّة خَسْف ؛ قلَّ ما ارتكبوها فيما نعلم من العهود . ونادرة من نوادر الوجود ؛ والىَ الله علينا وعليكم عوارف الجود . وجعلنا فى محاريب الشكر من الرُّكَّع السجود.

عرَّفْناكم بمجملات أُمور تحتها تفسير ؛ ويُمْن من الله وتَيْسير . إذ اسْتِيفاءُ الجُزْئيات عسير . لنسرُّكم بما منح الله دينكم ، ونُتوِّجَ بعزٍّ الملَّة الحنيفية جبينكم . ونخطب بعده دعاءَكم وتأْمِينكم ؛ فإن دُعاءَ المؤمن لأَخيه بظَهْر الغيب سلاحُ ماضٍ ؛ وكفيل بالمواهب[٤] المسئولة من المُنْعم الوهَّاب مُتَقاضٍ[٥] ، وأنتم أولى من ساهم فى برٍّ ، وعامل الله بخلوص سرٍّ ، وأين يذهب الفضل عن بيتكم وهو صفة حيِّكم . وتراث مَيْتكم ، ولكم مزيَّة القِدَم ، ورسوخ القَدَم . والخلافة مقرُّها إيوانكم . وأصحاب الإمام مالك،

(١) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (تنث) والأولى أرجح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والتعريف وفى الصبح (حذق)

(٣) هكذا فى الصبح والتعريف . وفى الإسكوريال (ملكة) .

(٤) هكذا فى التعريف . وفى الإسكوريال (للمواهب) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح (ميقاض)

رضي الله عنه ، مستقرُّها قيرَوَانكم(١) وهَجير المنابر ذكرُ إمامكم ، والتوحيد أعلام إعلامكم ، والوقائع الشهيرة فى الكفر ، منسوبة إلى أيَّامكم ، والصحابة الكرام فتَحَةُ أوْطانكم ، وسُلالة الفاروق عليه السلام ، وشابِج سُلطانكم ، ونحن نستكثر من بَرَكة خطابكم ، ووُصْلة جنابكم ، ولولا الأعذار لوالَيْنا بالمُتَزَيِّدات تعريف أبوابكم . والله عزَّ وجلَّ ، يتولى عنا ، من شُكركم المحتوم ، ما قَصَّر فيه المكتوب منه عن المكتوم ، ويُبقيكم لإقامة الرُّسوم ، ويحلُّ محبتكم من القلوب محلَّ الأرواح من الجُسوم ، وهو سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، ويوالى نِعَمه عندكم . والسلام الكريم ، الطيِّب [الزاكى المبارك](٢) البِّر ، العميم ، يخصكم كثيرا أثيراً ، ما أطْلع الصبح وجهاً منيراً ، بعد أن أرسل النَّسيم سفيراً ، [وكان الوميض الباسم](٣) لأكواس الغمايم ، على أزهار الكمائم مديراً ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وصدر عنى فى مخاطبة الشيخ الخطيب أبى عبد الله

ابن مرزوق جواباً عن كتابه :

ولما أن نأَتْ عنكم دِيارى ... وحال البُعْد بينكم وبين

بعثت لكم سواداً فى بياضٍ ... لأنظُرَكم بشىء مثل عينِ

بِمَ أُفاتحك يا سيدى ، وأجلُّ عُدَدى [كيف أهْدى](٤) سلاماً فلا أحْذرُ ملاماً ، أو أنتخب لك كلاما ، فلا أجد لتَبِعَة التَّقصير فى حقِّك

(١) أعنى مدينة القيروان ، وقد اشتهرت بنبوغ عدد من ألمع أئمة الفقه المالكى وعلى رأسهم سحنون بن سعيد وتلميذه أبو زيد القيروانى .

(٢) هذه العبارة واردة فى التعريف وساقطة فى الإسكوريال والصبح .

(٣) هذه العبارة واردة فى الصبح والتعريف وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هذه العبارة واردة فى النفح ، وساقطة فى الإسكوريال .

الكبير إيلامًا . إن قلتُ تحيَّة كِسْرى فى الثَّناء وتُبَّع ، فكلمةٌ فى مرْبع العُجْمة تَرْبَع ، ولها المصيفُ فيه والمَرْبع ، والجَميم والمنْبَع ، فترْوي متى شاءت وتشبع . وإن قلت إذا العارض خطرَ ، ومهما[1] هَمَى أو قَطَر ، سلام الله يا مَطَر ، فهو فى الشريعة بَطَر ، ومرْكَبه[2] خَطِر ، ولا يرعى به وطن ، ولا يقضى وَطَر . وإنما العِرْق الأَوْشَج ، ولا يستوى البان والبنفسج ، والعوْسج والعَرْفج .

سلامٌ وتسليم وروح ورحمة عليك وممْدود من الظِّل سَجْسَج

وما كان فضلكم[3] ليمنعنى الكفران أن أشكره ، ولا ليُنْسِينى الشيطان أن أذكره ، فأتَّخذ فى البحر سبباً ، أو أسلك غير الوفاء مَذْهبا ، تأْبى ذلك ، والمنَّة لله تعالى طباعٌ ، لها فى مجال الرَّعى باع ، وتحقيق وإشْباع ، وسَوَايم من الإنصاف لها مرعًى فى رياض الاعتراف ، فلا يَطْرُقها ارتياع ، ولا تخيفها سِباع . وكيف تجحد تلك الحقوق ، وهى شمسٌ ظَهِيرة ، وأذانٌ عَقيرة جَهيرة ، فوق مِئْذنة شهيرة . أدت الأكْتادُ لها ديونٌ تستغرق الذِّمم ، وتسترقُّ حتى الرِّمم ، فإن قضيت فى الحياة ، فهى الخُطَّة التى نَرْتضيها ، ولا نقنع من عامل الدهر المساعد ، إلا بأن يُنَفِّذ مراسمها ويُمضيها ، وإن قُطع الأجل ، فالغنىُّ الحميد من خزَاينه التى لا تبيد ، يَقْضيها ويُرضى من يَقْتضيها . وحيَّا الله أيها العَلَم السَّامى الجلال ، زمنًا بمعرفتك المُبرَّة على الآمال أبرّ وأتْحَف ، وإن أساء بفراقك وأجْحَف ، وأغرى بعد ما ألْحَف ، وأظْفر باليتيمة المذْخُورة للشدايد والمزاين ، ثم أوْحش منها أصْونة هذه الخزاين ، فآب حُنين الأمل بخفيه ، وأصبح

(١) هذه الكلمة واردة فى النفح ، وساقطة فى الاسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال. وفى النفح (ركبه)

(٣) هكذا الإسكوريال. وفى النفح) فضلك)

المُغْرِب غريباً يقلِّب كفَّيه . ونستغفر الله من هذه الغفلات . ونستهديه دليلا فى مثل هذه الفَلَوات . وأى ذنب فى الفِراق للزمن أو لِغراب الدِّمن . أو للرَّواحل المُدْلِجة ما بين الشَّام إلى اليمن . وما منها إلا عبدٌ مقهور . وفى رِمَّة القدر مَبْهور ، عِقْدٌ والحمد لله مشهور . وحجَّة لها على النفس اللوَّامة ظُهور . جعلنا الله ممَّن ذكر المُسَبِّب فى الأسباب . وتذكر وما يذَّكر إلاَّ أولو الألباب ، قبل غلق الرَّهن وسدِّ الباب . وبالجملة فالفراق ذاتىٌّ ووعده مأْتى . فإن لم يَحُن فكأَن قد ، ما أقرب اليوم من الغد . والمرءُ فى الوجود غريب ، وكل آت قريب ، وما من مقام إلا لِزيال من غير احتيال ، والأعمار مراحل والأيام[1] أميال .

نصيبُك فى حياتك من حبيب نصيبُك فى مَنامك من خَيال

جعل الله الأدب مع الحقِّ شأْنَنا ، وأبعد عنا الفَرَق[2] الذى شَاننا ، وإنى لأُسرُّ لسيدى ، بأن رَعى الله صَالح سَلَفه ، وتداركه بالتَّلافى فى تَلَفِه ، وخلَّص سعادته من كَلَفِه ، وأحلَّه من الأمن فى كَنَفِه ، وعلى قدرها تُصاب العَلْياءُ ، وأشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ ثم الأولياءُ . هذا والخير والشَّر فى هذه الدار المؤسَّسة على الأكدار . ظِلاَّن مُضْمَحلاَّن . فإذا[3] ارتفع ما ضرٌّ أو ما نَفَع ، وفارق المكان ، فكأَنَّه ما كان . ومن كلمات الملوك البعيدة عن الشكوك ، إلى أن يشاءُ ملك الملوك :

خُذ من زمانك ما تيسَّر واترك بجَهْدك ما تَعَسَّر
ولرُبَّ مُجمَل حالة تُرْضى به ما لم يُفَسَّر
والدهر ليس بدائم لابد أن سَيَسُوءُ إن سرَّ

(١) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الفراق) . والأولى ارجح .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فقد) .

واكتم حديثك جاهداً ... شَمتَ المُحدِّث أو تحسّر

والناس آنية الزُّجا ... ج إذا عَثَرت به تكسّر

لا تُعْدم التقوى فمن ... عَدِم التُّقى فى الناس أَعْسَر

وإذا امرؤٌ خَسِر الإله ... فليس خلقٌ منه أَخْسَر

وإنَّ لله فى رَغْيِك لسرًّا ، ولُطْفاً مستمرا مستقرا (١) ، إذ أَلقاك،[بسر الرَّوع](٢) إلى الساحل ، وأخذ بيدك من وَرْطة الواحل ، وحرَّك منك عزيمة الرَّاحل ، إلى المَلِك الحَلاحل ، فإذا لك من إبراهيميك سَمِيًّا ، وعَرَّفُك بعد الوَلى وسْميا ، ونَقَلك من عناية إلى عناية ، وهو الذى يقول وقوله الحقُّ ، ما ننسخ من آية ، الآية . وقد وصل كتاب سيدى يَحْمد والحمد لله العواقب ، ويَصِف المراق التى حلَّها والمراقب ، وينشر المفاخر الحَفْصِيَّة والمناقب ، ويذكر ما هيَّأه الله لديها من إقبال ، ورخاء بال ، وخصِيصَى اشتمال ونُشور(٣) آمال ، وأنه اغتبط وارْتَبط ، وألقى العصا بعد ما خَبَط . ومثل تلك الخلافة العَلِيَّة من تزن الذوات ، المخصوصة من الله بشريف(٤) الأدوات ، بميزان تَمْييزها ، وتفرِّق بين شِبْه المعادن وإبريزها ، وشِبْه الشيء مثلٌ معروف . ولقد أَخطأ من قال الناس ظروف ، إنما هم شَجَرات مَرْبع(٥) فى بُقْعة ما حِلة ، وإبل مائة لا تجد فيها راحلة ، وما هو إلاَّ اتفاق ، ونجح لِلْمُلك وإخفاق(٦) ، وقلما كذب إجماع وإصفاق ، والجليس الصالح لربِّ السِّياسة أمل مطلوب ، وحظٌّ إليه

(١) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى النفح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (ونشوة) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بتشريف) .

(٥) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (ربع) .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (إحتاق) .

مجلوب . وإن سُئل أطْرَف ، وعَمَر الوقت ببضاعة أشْرَف . وسرق الطِّباع ومدَّ فى الحَسَنات الباع ، وسلِّى فى الخطوب ، وأضحك فى اليوم القطوب، وهَدَى إلى أقوم الطُّرق ، وأعان على نوائب الحق ، وزرع له المودّة فى قلوب الخَلْق ، زاد الله سيدى لديها قُرْبا أثيراً ، وجعل فيه للجميع خيرا كثيرا ، بفضله وكرمه . ولعِلْمى بأنَّه أبقاه الله يقبل نُصحى ، ولا يرتاب فى صدق صُبحى ، أغبطه بمثواه ، وأنشده ما حضر من البديهة فى مسارّة هُداه ونجواه :

بمقام إبراهيم عُذْ واصْرف له ... فكرا تورَّق عن بواعث تَعْتَرى(١)
فجواره حُرَمٌ وأنت حمــامةٌ ... ورقاء والأغصان عودُ المنبر
فلقد أمِنْت من الزمان ورَيْبــه ... وهو المُرَوِّع للمُسيء وللبَرى

وأن تشوَّف سيدى للحال(٢) ، فَلعَمْر وليِّه ، لو كان المطلوب دُنيا ، لوجب وقوع الاجْتِزاء ، ولاغْتَبط بما تحصَّل فى هذه الجُزور،المبيعة فى حانوت الزُّور ، من السِّهام الوافرة الأجزاء ، فالسلطان رعاه الله ، يوجب ما فوق مزيَّة التعليم ، والولدُ هداهُم الله ، قد أخذوا بخط قلٍّ(٣) أن ينالوه بغير هذا الإقليم ، والخاصَّة والعامة ، تُعامل بحسب ما بلَتْه من نُصح سليم ، وترك لما بالأيدى وتَسْليم ، وتدبيرٍ عاد على عدُوِّهم(٤) بالعذاب الأليم ، إلاَّ من أبدى السلامة ، وهو من أبطان الحَسَد بحال السَّليم ، ولا يُنكر ذلك فى الحديث ولا فى القديم . لكن النفس منصرفة عن هذا الغرض ، ونافضةٌ يدها من العَرَض ، قد فَوَّتت الحاصل ، وَوَصَلت

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تنبرى) .
(٢) واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى النفح .
(٣) وردت فى الإسكوريال (قبل) والتصويب من النفح .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (عددها) .

فى الله القاطع ، وقَطَعت الواصل ، [وصَدّقت لما نَصَح الفودُ النّاصل](١) وتأهّبت للقاء الحِمام الواصل ، وقلت :

أنظر خِضاب الشّباب قد نَصَلا … وزائر الأُنْس بعده انفَصَلا

وطلبى والذى كَلِفتُ به … حاولتُ تحصيلَه فما حَصَلا

لا أمل مُسْعِفٌ ولا عمل … نحن فى ذا الموت قد وَصَلا

والوقت إلى الإمداد منكم بالدُّعاء فى الأصايل والأسحار ، إلى مَقِيل شديد الافتقار ، والله عز وجل يَصِل لسيدى رعى جوانبه ، ويتولى تَيْسير آماله ، من فضله العَمِيم ، ومآربه ، واقرا عليه من التّحيّات ، المُحَمَّلة من فوق رحال(٢) الأريحيّات أزكاها ، ما أوجع البرقُ الغمايمَ فأبكاها ، وحَسَد الروض حمال النّجوم الزّواهر ، فقاسها بمَيْسم(٣) لأزاهر وحَكاها ، واضطّبن(٤) هِرَم اللّيل ، عند المَيْل ، عصا الجَوْزاء وتوكّاها ، ورحمة الله تعالى وبركاته ...

وخاطبت الفقيه الرئيس أبا زيد بن خلدون لما ارتحل من بحر ألمرية ، واستقر ببسكرة عند الرييس بها أبى العباس ابن مُزْنى صحبة رسالة خطبها أخوه أبو زكريا ، وقد تقلد كتابة الإنشاء لصاحب تِلمْسان ، ووصل الكُتْب عنه من إنشائه

بنفسى وما نفسى علىّ بهَيْنة … فيُنْزِلنى عنها المكاس بأثمان

حبيبٌ نأى عنى وصمٌ لأنّتِى … وراش سهام البَيْن عمداً فأصْمانى

(١) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بمباسم) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (واضطبر) والأولى أرجح .

وقد كان همُّ الشيب لا كان كافياً ❊ فقد أدّى لما ترحّل همّــان
شرعتُ له من دمع عيني موردا ❊ فكدّر شربي بالفِراق وأظمـاني
وأرْعَيتُه من حسن عهدي حميمه ❊ فأجْدَبَ آمالي وأَوْحَش أزمـاني
حَلَفت على ما عنده لي من رضًى ❊ قياسًا بما عندي فأَحْنَث إيمـاني
وإنِّي على ما نالني منه من قِلًى ❊ لأشتاق من لُقياه نُغْبَة ظمـآن
سألت جنوني فيه تقريب عرشه ❊ فقِسْت بجن الشوق جنَّ سليمان
إذا ما دعا داعٍ من القوم باسمه ❊ وثَبْتُ وما استثبتُّ شيمة هَيمان
وتالله(١) ما أصغيتُ فيـه لعاذلٍ ❊ تحاميتُه حتى ارعوى وتحاماني
ولا استَشْعرتُ نفسي برحمة عابد ❊ تظلَّل يوما مثله عَبْد رَحْمَان
ولا شعرت من قبله بتشوّقٍ ❊ تخلّل منها بين روح وجُثْمان

أما الشّوق فحدِّث عنه ولا حَرَج ، وأما الصبر فاسأل به أيَّةَ دَرَج ، بعد أن تجاوز المدى والمُنعرج ، لكنَّ الشّدة تعشق الفَرَج ، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج ، وإلى بالصّبر على أبرّ الدّبْر ، لا بل الضرب الهبْر ، ومطاولة اليوم والشّهر ، تحت حكم القَهْر ، وهل لِلْعَين أن تسلو سُلُوَّ المُقْصِر عن إنسانها المُبْصر ، أو تَذْهل ذهول الزّاهد عن سرّها الرّائي والمشاهد ، وفي الجسد بضْعَةٌ يصلح إذا صلُحت ، فكيف حاله إذا رَحَلت عنه ونَزَحت ، وإذا كان الفراق هو الحِمام الأول ، فعلام المُعَوَّل . أعْيَت مُراوضَة الفراق على الرّاق ، وكادت لوعة الاشتِياق أن تُفْضي إلى السِّباق .

تركتموني بعد تَشْيِيعكم ❊ أوسِع أمر الصّبر عصيانا
أقرع سنّي ندما تــارةً ❊ واستَميح الدمع أحيانا

وربما تعلّلت بغِشيان المعاهد الخالية ، وجدّدت رسوم الأسَى بمباكرة الرسوم البالِية ، أَسَلُ نون النّوى ، عن أهْلِيه ، وميمَ الموقد المهجور عن

(١) هكذا وردت في التعريف والنفح . وفي الإسكوريال (ووالله) .

مُضطَليه ، وثاء الأثافى المثلّثة عن منازل الموحّدين ، وأحار بين تلك الأطلال حيرة المُلْحدين ، لقد ضللتُ إذاً وما أنا من المُهْتدين . كَلِفتُ لعَمْرُ الله، بسالٍ عن جفونى المورَقة ، ونايم عن هُمومى التجمّعة(١) المتفرّقة ، ظَعَن عن ملال ، لا مُتبرِّما منى بشرِّ خِلال ، وكدَّر الوصل بعد صفائه ، وضرَّج النَّصل بعد عهد وفائه .

أقلّ اشتياقا أيها القلب ربما(٢) رأيتك تصفى الودّ من ليس جازيا

فها أنا أبكى عليه بدم أساله ، [وأنْهَل فيه آسى له ، وأعلّل بذكراه قلباً صَدَعه](٣) وأودعهُ من الوجد ما أوْدَعَه ، لما خَدَعه ، ثم قلاه ودّعه ، وأنشِق ريّاه أنفَ ارتياح قد جَدَعه ، واستَعْديه(٤) على ظلم ابتدعه .

خليليَّ هل أبْصَرتُما أو سَمِعْتما(٥) قتيلاً بكى من حبِّ قاتِله قَبْلى

فلولاعسى الرجاء ولعلّه ،لا بل شفاعة المحل الذى حلّه [لمزجتُ الحَنِين بالعَتْب](٦) ، وبثَثْت كتائبه كمُناء فى شعاب الكُتب ، تهزّ من الألِفات رماحا خُزْر(٧) الأسنة ، وتوتر من النّونات أمثال القِسىِّ المُرِنَّة ، وتقود [من مجموع الطِّرس والنفس] (٨) بلْقا تردى فى الأعِنّة . ولكنه آوى

---

(١) هكذا وردت فى التعريف والنفح . وفى الإسكوريال (المجتمعة) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (إنما) .

(٣) هكذا ورد ما بين الحاصرتين فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف كالآتى (واندب فى ربع الفراق آسى له ، وأشكو إليه حال قلب صدعه) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى النفح (واستعدى به) .

(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف كالآتى (خليلى فيها عشتما هل أبصرتما) .

(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والنفح . ووردت فى التعريف كالآتى (لنشرت ألوية العتب) .

(٧) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى النفح (حذر) .

(٨) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والتعريف . وفى النفح (من بياض الطرس وسواد النفس) .

إلى الحرم الأمين ، وتفيأ ظِلال الجوار، المُؤمّن من معرّة الغِوار، عن الشمال واليمين ، حَرَم الخلال(١) المُزْنِيّة ، والظِّلال اليَزَنيّة ، والهمم السّنيّة ، والشّيم التى لا ترضى بالدّون ولا بالدّنيّة ، حيث الرِّفد الممنوح ، والطَّير الميامِنُ يُزْجر لها السّنوح ، والمثوى الذى إليه ، مهما تقارع الكرام على الضِّيفان ، حول جوابي الجِفان المَيْل(٢) والجُنوح .

نسبٌ كأنّ عليه من شمس الضحى نوراً ومن فَلَق الصباح عمودا

ومن حلّ بتلك المثابة ، فقد اطمأنّ جَنْبه ، وتُغُمِّد بالعَفْو ذنبه. ولله درّ القائل

فوحقِّه لقد انتدبت لوصفِه بالبُخْل لولا أنّ حُمصًا دارُه

بلد متى أذكُره تهتجْ لوعتى وإذا قدحتُ الزّند طار شَراره

اللهم غَفْرا [لا كُفْرا](٣) وأين قرارة النخيل من مثوى الأقْلَف البَخيل ، ومَكْذَبة المَخِيل ، وأين ثانيةُ هَجَر من مُتَبَوّإ مَنْ ألْحَد وفَجَر

من أنكر غيثاً منشؤه في الأرض فليس بمخْلِفها(٤)

فبنانُ بنى مُزْنى مزَنٌ تنهلُ بِلُطف مُصرِّفها

مزنٌ مذ حَلّ ببِسْكِرة يوما نَطَقتْ بمصحّفها

شَكَرت حتى بعبارتها وبمَعْناها وبأحْرُفها

ضَحِكت بأبى العباس من الأيام ثنايا زُخْرفها

وتنكّرت الدنيا حتى عُرفت منه بمُعرِّفها

بل نقول يا محلّ الولد ، لا أقْسِم بهذا البلد ، وأنت حِلٌ بهذا البلد ، لقد حلّ بَيْنُك عُرى الجَلَد ، وخلّد الشوق بعدك يابن خلدون فى الصّميم

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (الحلال) .

(٢) واردة فى التعريف والنفح . وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال والتعريف .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (بنوه بمخلفها) .

من الخَلَد . فحيّا الله زمنًا هُنيئت بِرُقَى قُرْبك زمانتهُ ، واجتُليت فى صَدَف مجدك جُمانَته ، [ويا مَنْ لمشوقٍ لم تُقْض من طول](١) خُلّتك لُبانته ، وأهلا بروض أظلّت أشتات معارفك بانَته ، فحمائمه بعدك تَنْدُب ، فيساعدها الجُنْدبُ ، ونواسمه تَرِقُّ فتَتَغاشى ، وعشيّاته تَتَخافت وتتلاشى ، [ومُزْنه باك](٢) وأدْواحه [فى ارتباك ، وحمائمه](٣) فى مأتم ذى اشتباك ، كأن لم تكن قمر هالات قِبابه ، ولم يكن أنسك شارع بابه ، إلى صَفْوة الظّرف ولُبابه ، ولم يسبح إنسان عينك فى ماء شَبابه . فلهفى عليك من دُرَّة اختَلَسَتْها يدُ النّوى ، ومَطَل بردّها الدهر ولَوى ، ونَعَق الغراب ببينها فى رُبوع الجَوى(٤)، ونطق بالزّجر(٥) فما نطق عن الهوى. وبأى شىء يُعتاض منك أيتها الرياض، بعد أن طما نهرُك الفيّاض ، وفهقت الحياض . ولا كان الشّانىء المَشْنُوء ، والجَرِب المَهْنُوء ، من قطع ليل أغار على الصّبح فاحْتَمل ، وشارك فى الذّم الناقة والجمل ، واستأثر جَنحه ببدر النادى لما كَمَل . نشر الشّراع فراع ، وأعمل(٦) الإسراع ، كأنما هو تمساح النّيل، ضايق الأحباب فى البُرْهة ، واختطف لهم من الشطّ نُزْهة العين وعين النُّزْهة . ولجّج بها والعيون تنظر ، والغَمْر عن الاتباع يحظر ، فلم يقدر إلاّ على الأسف . والْتِماح(٧) الأثر المُنْتَسف ، والرجوع على

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والنفح . ومكانها فى التعريف (وقضيت فى مرعى) .

(٢) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح وساقطة فى التعريف .

(٣) هذه الكلمات واردة فى التعريف وساقطة فى الإسكوريال والنفح .

(٤) هكذا فى النفح . وفى التعريف والإسكوريال (الهدى) . والأولى أرجح ، حسبما يبدو من الجملة التالية .

(٥) هكذا فى التعريف والإسكوريال . وفى النفح (وبالزخرف) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (ووصل) .

(٧) هذه الكلمة واردة فى التعريف وساقطة فى الإسكوريال والنفح .

العَيْبة من الخَيْبة ، ووفر الجَسْرة من الحَسْرة . إنما نشكو إلى الله البثَّ والحَزَن ، ونستمطر من عَبَراتنا المُزْن ، وبسَيف الرجاء نَصُول ، إذا أُشرِعتْ لليأْس أسِنَّةٌ(١) ونصول :

ما أقْدَرَ اللهَ أن يُدنِى على شَحَط ... من دارُه الحُزْنُ ممن دارُه صُول

فإن كان كلْمُ الفراق رَغِيباً ، لمَّا نويتُ مَغيبا ، وجلَّلت الوقت المِنَى تَشْغِيبا ، فلعل الملتقى يكون قريبا ، وحديثه يروى صحيحاً غريبا . إيه [شُقَّة النَّفس] (٢) كيف حال تلك الشَّمايل المُزْهرة الخمايل ، والشِّيم الهامية الدِّيم ، هل يمرُّ ببالها من راعَتْ بالبعد بالَه ؟ وأُخمدت بعاصف البَيْن ذُباله ، أو تَرْثى لشئون شأْنها سَكْبٌ لا يَفتر ، وشوقٌ يبتُّ حبال(٣) الصَّبر ويَبْتُر ، وضِنًى تقصر عن حُلله الفاقعة صَنْعاءُ وتستُر ، والأمر أعظم والله يَسْتُر . وما الذى يُضيرُك ، صينَ من لَفْح السموم نَضِيرُك ، بعد أن أضرمت وأشْعَلت وأوْقَدت وجَعَلت ، وفَعَلت فَعْلتك التى فَعَلت ، أن تَترفَّق بذَماء ، أو تَرُدَّ بنُغْبة ماءٍ أرماق ظِماء ، وتَتَعاهد المعاهد بتَحيَّة يُشمُّ عليها شَذا أنفاسك ، أو تنظر إلينا على البعد بمقلة حَوْراء من بياض قِرطاسك ، وسواد أنفاسك ، فربما قَنِعت الأَنفس المحبة بخيال زُور ، وتَعلَّلت بنوال مَنْزُور ، ورَضِيت لمَّا لم تَصِد العنقاء بزَرْزور .

يا من ترحَّلَ والرياح(٤) لأجله ... يُشْتاق إن هبَّت شذا ريَّاهـــا
تَحْيى النفوس إذا بَعَثْت تحيةً ... فإذا عَزَمْت اقرأْ « ومن أحْياها »

ولئن أحْيَيْت بها فيما سلف نفوسا تفديك ، والله إلى الخير يُهديك ،

---

(١) هذه الكلمة واردة فى التعريف . وساقطة فى الإسكوريال
(٢) هكذا وردت فى الإسكورْيال والنفح . وفى التعريف مكانها (أيه سيدى) .
(٣) هذه فى الإسكوريال والتعريف . وفى النفح (جلال) والأولى أرجح .
(٤) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى النفح (والنسيم) .

فنحن نقول معشر مُودِّيك(١) ، لنَّ ولا نجعلها بيضة الدِّيك ، وعذراً فإنِّي لم أجترئ على خطابك بالفِقَر الفقيرة ، وأدللتُ لدى حُجُراتك برفع العَقيرة ، عن نشاط بعثت مَرسومه ، ولا اغتباط بالأدب تُغْرى بسياسته(٢) سُوسُه ، وانبساط أوحى إلىَّ على الفترة ناموسَه ، وإنما هو اتفاق جرَّته نَفْثة المصدور ، وهِناءُ الجَرِب المَجْدور [وخارقٌ لا](٣) مُخارق ، فثمَّ قياسٌ فارِق ، أو لحن غَنَّى به بعد البعد(٤) مخارق . والذى [هيأ هذا القَدَر](٥) وسبَّبه ، وسوَّغ(٦) منه المكروه وحبَّبه ، ما اقتضاه الصِّنو يحيى مد الله حياته ، وحَرَس من الحوادث ذاته — من خطاب ارتَشَف به هذه القريحة بلالَتها ، بعد أن رضى عُلالَتها ، ورَشَح إلى الصِّهر الحضرمى سُلالتها ، فلم يسع إلاَّ إسعافه ، بما أعافُه ، فأمليت مُجيباً ، مالا يُعد فى يوم الرِّهان نجيبا ، وأسمعت وجيباً ، لمَّا ساجلت بهذه التُّرهات سحراً عجيبا ، حتى إذا أَلِفَ القلم العريان سَبْحه ، وجمح بِرْذَون الغزارة فلم أُطِق كَبْحه ، لم أُفق من غَمْرة غلُوِّه ، وموقف مَتْلُوِّه ، إلاَّ وقد تحيز لِفئتك ، مغترًّا بل مُعترًّا ، واستقبلها ضاحكاً مُفْتَرًّا ، وهشَّ لها برًّا ، وإن كان لونه(٧) من الوَجَل(٨) مُصْفَرًّا . وليس بأول من هجر ، فى التماس الوصل مِمَّن هَجَر ، أو بعث التَّمر إلى هجَر ، وأى نَسَب بينى اليوم وبين زُخْرُف الكلام ، وإجالة

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والتعريف وفى النفح (مريديك) .

(٢) هكذا فى التعريف والنفح . وفى الإسكوريال (بياسته) .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (وأن تعلل به) .

(٤) هكذا فى التعريف . وفى الإسكوريال والنفح (المهات) والأولى أرجح .

(٥) هذه العبارة زائدة فى التعريف .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (سهل) .

(٧) هكذا فى التعريف والنفح . وفى الإسكوريال (كونه) .

(٨) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (الخجل) .

جياد الأقلام ، في محاورة الأعلام ، بعد أن حال الجريض دون القريض ، وشُغل المريض عن التَّعريض ، واستولى(١) الكسل ، ونسلت(٢) الشعرات البيض ، كأنّها الأسَل ، تروع برُقط(٣) الحيّات ، سرب الحياة ، وتطرق بلدوات الغُرَر والشّيات عند البيات . والشّيب الموت العاجل ، وإذا ابيضّ زرع صبّحته المناجل ، والمُعتبر الآجل . وإذا اشتغل الشيخ بغير معاده ، حُكم في الظاهر بإبعاده ، وأسره في مَلَكة عادِه ، فأغْض أبقاك الله واسمح ، لمن قصّر عن المَطْمح ، وبالعين الكليلة فالْمَح ، واغتنم لباس ثوب الثواب ، واشْفِ بعضَ الجَوى بالجواب ، تولاّك الله فيما استَضَفْت ومَلَكْت ، ولا بُعِدت ولا هَلَكت ، وكان لك آيةً سَلَكْت ، وَوسَمك من السعادة بأوضح السِّمات ، وأتاح لقاءك من قبل الممات . والسلام الكريم يَعْتمد جلال(٤) ولدى ، وساكن خَلَدى ، بل أخى ، وإن اتّقيت عَتْبه وسيدى ، ورحمة الله وبركاته . [من محبه المشتاق إليه محمد بن عبد الله بن الخطيب ، فى الرابع عشر من شهر ربيع الثانى ، من عام سبعين وسبعمائه](٥) .

وخاطبتُ الفقيه أبا زكريا بن خلدون ، لما وُلّى الكتابة عن السلطان أبى حمّو موسى بن زيّان ، واقترن بذلك نصرٌ وصُنْعٌ غَبَطتُه به ، وقصدتُ بذلك تَنْفيقه وإنهاضَه لديه :

تخصُّ الحبيب ، الذى هو فى الاستظهار به أخٌ ، وفى الشّفقة عليه ولد ، والولىُّ الذى ما بعد قُرْب مثله أَمَل ، ولا على بُعْده جَلَد ، والفاضل

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (وغلب حتى) .

(٢) هكذا فى التعريف والنفح . وفى الإسكوريال (ونصلت) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى النفح (بمرط) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفح ، وفى التعريف (حلا ل) .

(٥) الفقرة التى بين الحاصرتين واردة فى التعريف ، وساقطة فى الإسكوريال والنفح .

الذى لا يخالف فى فضله ساكنٌ ولا بَلَد، أبقاه الله ، وفاز فوزه ، وعصمتُه لها من توفيق الله سبحانه(١) عَمَد ، ومورد سعادته ، المسوغ لعادته ، [لا غَوْر ولا ثَمَد](٢) ومدى إمداده من خزائن إلهام الله وسَداده ، ليس له أمَد ، وحُمِى فرحُ قلبه ، بمواهب من ربِّه [أن يطرقه كمد](٣) تحية مَحلّة من صميم قلبه بمحلِّه ، المنشئِ رواق الشَّفقة ، مرفوعاً بعمد المحبَّة والمِقَة ، فوق ظَعْنه وحِلِّه ، مؤثرُه ومجلُّه ، المعتنى بدِقِّ أمره وجِلِّه ، ابن الخطيب .
من الحضرة الجهادية غرناطة ، صان الله حُلالها ، ووفى هجير هجر الغيوم ظِلالها ، وعَمَر بأُسود الله أغيالها ، كما أغْرَى بمن كفر بالله صِيالها . ولا زائد إلاَّ منَنٌ من الله تصوب ، وقوة يُستَردُّ بها المغصوب ، ويُخْفَض الصَّليب المَنْصوب . والحمد لله الذى بحمده يُنال المطلوب ، وبذكره تطمئن القلوب . ومودَّتُكم المودة التى غذّتها ثدى الخُلوص بلِبانها ، وأحلَّتها حلائل المحافظة بين أعْيُنها وأجْفانها ، ومهدَّت مَوات إخواتها الكبرى أساس بُنيانها ، واستحقَّت ميراثَها مع استصحاب حال الحياة إن شاء الله ، واتصال أزمانها ، واقتضاءِ عهود الأيام بيُمنها وأمانها. ولله دَرُّ القائل :

فإن لم يَكُنْها أو تَكُنْه فإنّــه أخُوها غذَّته أمه(٤) بلبانهـا

وصَل الله ذلك من أجله وفى ذاته ، وجعله وسيلة إلى مَرْضاته ، وقُرْبة تنفع عند اعتبار ما رُوعى من سُنَن الجبَّار ومُفْتَرضاته . وقد وصل كتابكم

---

(١) هذه الكلمة زائدة فى النفح .
(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . وفى الإسكوريال (عمر لا ثمد) .
(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . وفى الإسكوريال (لا يطوره كد) .
(٤) وردت فى الإسكوريال (أمها) . والتصويب من النفح .

الذى فاتح بالرّيحان والرّوح ، وحلّ من مرسوم الحياة(١) محل البسملة من اللّوح ، وأذن لنوافح الثناء بالبَوْح ، يشهد عدله بأن البيان يا آل خلدون ، سَكَن من مَثْواكم دار خُلود ، وقدح زَنْدًا غير صَلُود ، واستأثر من محابركم السيّالة ، وقُضُب أقلامكم الميّادة الميّالة ، بأب مُنجب وأمّ ولُود ، يقفو شانيه غير المشنُوّ ، وفصِيله غير الجَرِب ولا المَهْنُو ، من الخطاب السلطانى ، سفينة مَنُوح ، إن لم نقل سفينة نوح . ما شيت من آمال أزواج ، وزُمَر من الفضل وأفواج ، وأمواج كرم تَطْفُو فوق أمواج ، وفنون بشائر ، وأهْطاع قبائل وعَشائر. وضربٌ للمسرّات أعيا السّامر . فلله هو(٢) من قلم راعى نَسَب القَنا ، فوصل الرّحم ، وأنجد الوشِيج المُلتَحم ، وساق بعصاه من البيان الذّود المُزْدحم . وأخاف من شَذّ عن الطاعة مع الاستِطاعة ، فقال لا عاصم اليوم من أمْر الله إلا من رحِم ، ولو لم يُوجب الحقّ برقَه ورعْدَه ، ووعيدَه ووعدَه ، لأوْجَبه بمنّه وسَعْده . فلقد ظهرت مخايل نُجْحه ، علاوة على نُصحه ، وَوَضحت محاسن صُبحه ، فى وحْشة الموقف الصّعب وقُبْحه ، وصل الله له عوايد مِنَحه ، وجعله إقليدا كلما استقبل باب أمل وكّله الله بفتحه . أما ما قرّره ولاؤكم من حبٍّ زكا عن(٣) حبّة القلب حبّه ، وأنْبَته النبات الحسن ربّه ، وساعده من الغَمام سَكْبُه ، ومن النّسيم اللّدن مَهبه ، فرسْمٌ ثبت عند المولى نظيرُه ، من غير معارض يُضيره ، وربما أرْبى بتذييل مَزِيد ، وشهادة ثَابتٍ ويَزيد . ولم لا يكون ذلك ، وللقلب على القلب شاهد ، وكَوْنها أجنادًا مجنّدة ، لا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الولاء)

(٢) زائدة فى النفح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (على)

يحتاج تقريره إلى ماهِد ، أو جُهْد جاهد . ومودّة الأُخوة سبيلها لا حِب ، ودليلها للدّعوى(١) الصادقة مُصاحب ، إلى ما سبق من فضل ولقاء ،ومُصاقبة(٢) سِقاء ، واعتقاد لا يُراع سربُه بذيب انتقاد ، واجتلاء شِهاب وقّاد ، لا يُحوج إلى إيقاد . إنما عاق عن مواصلة ذلك نوىً شطّ منها الشّطن ، وتَشْذيب لم يَتَعَيّن معه الوطن . فلمّا تَعَيّن ، وكاد صبح الحق أن يَتبَيّن ، عاد الوَمِيض دَيْجُورا ، والثماد(٣) بَحْرًا مَسْجُورا ، إلى أن أعلق الله منكم اليد بالسّبب الوثيق ، وأحلّكم بمَنْجى نيق ، لا يخاف من مَنْجنيق ، وجعل يراعكم لسعادة مُوسى ، معجزة تأتى على الخَبر بالعِيان ، فتخرّ لثُعْبانها سَحَرةُ البيان .

أيحيى سقى حيث لَحْت الحيا فنعم الشّعاب ونعم الرُّكون
وحيّا يراعك من آيــــة فقد حرّك القومَ بعد السُّكون
دعوتَ لخدمة موسى عَصاه فجاءت تَلْقَف ما يأفِكون
فأذْعن من يدّعى السِّحْر رغماً وأسلم من أجْلِها المُشركون
وساعدك السّعد فيما أردت فكان كما ينبغى أن يكون

فأنتم أوْلى الأصدقاء بصلة السَّبب ، ورعْى الوسائل والقُرْب . أبقاكم الله وأيْدى الغِبْطة بكم عالية ، وأحوال تلك(٤) الجهات [بَدْركم المهمات](٥) حالية ، ودِيم المسرّات من [أنعامكم المُدِرّات](٦) على معهود المبرّات ، المُتَوالية . وأما ما تَشوّفتم إليه من حال وليكم ، فأملٌ مُتقلِّص الظِّل

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (للدعوة) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نظافة)
(٣) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (والمراد) والأولى أنسب المعنى
(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (تلكم) .
(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . ووردت محرفة فى الإسكوريال كالآتى (بدىدكم الىا ات)
(٦) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال (أنفاسكم المبرات) وهو تحريف

وارتقابٌ لهجوم جَيْش الأَجل المُطل ، ومَقام على مُساورة الصِّل ، وعمل يُكذِّب الدعوى ، وطُمأْنينة تنتظر الغارة الشَّعْواء . ويدٌ بالمَنْخُور تفْتح ، وأُخرى تَجْهد وتمْنح ، ومرضٌ يزور فيَثْقُل ، وضعفٌ عن الواجب يَعْقِل . إلاَّ أَن اللطايف تَسْتَروح ، والقلب من باب الرجاء لا يَبْرح . وربما ظَفِر اليائس[١] ، ولم تَضْطرد المقايس ، تداركنا الله بعفوه ، وأَوْرَدَنا من مَنْهل الرِّضا والقَبُول على صَفْوه ، وأَذن لهذا الخَرْق فى رَفْوه . وأَما ما طلبتم من انْتِساخ ديوان ، وإِعمال بنان فى الإِتْحاف بِبَيان ، فتلك عهودٌ لدىَّ مَهْجورة ، ومعاهدُ لا مُتَعهّدة ولا مَزُورة ، شَغَل عن ذلك خَوْضٌ يعلو لجَبُه ، وحِرْصٌ يقضى من لَغَط المانح عَجَبُه ، وهولُ جهاد تساوى جماديَّاه ورَجَبُه ، ولولا التماس أَجْر ، وتعلُّلٌ بربح تَجْر ، لقلت أَهلاً بذات النَّحْيَيْن . فلهن شَكَتْ ، وبذلت المصون بسبب ما أَمْسَكت ، فقلد ضحكَت فى الباطن ضِعْف ما بَكَتْ . ونستغفر اللهَ من سوءِ انْتِحال ، وإِيثار المِزاح بكلِّ حال . وما الذى ينتظر مِثْلى ممن عَرَف المآخذ والمتارك ، وجرَّب لما بَلِى المبارك ، وخَبَر مساءة الدُّنيا الفارِك . هذا أَيها الحبيب ما وَسِعه الوقت الضيق ، وقد ذَهَب الشَّباب الرَّيِّق . فلْيَسْمَح[٢] فيه معهودُ كمالك ، جعل الله مُطاوعة آمالك ، مطاوعةَ يمينك لشِمالك ، ووطَّأَ لك موطَّأَ العزِّ ، بباب كلِّ مالك ، وقَرَن النُّجح بأَعمالك [وحَفِظك فى نفسك وأَهْلِك ومالِك][٣] والسَّلام . من فلان .

* *

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (البائس) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى النفح (فليسمع) والأولى أرجح .

(٣) هذه الجملة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

وكتبت إلى الأولاد وهم بالمنكّب
صُحبة السلطان ، رضى الله عنه :

يا ساكنى مرقى الشّوانى ... شوقى من بعدكم شَوانى
ولا هجِ الشّوق قد هَوانى ... من بعدكم فاقتَضى هَوانى
كأنّه مالكاً عِنانى ... أنموذج من أبى عِنان
لقد كَفَانى لقد كفانى ... باقٍ ذَمًا ذاهب كَفانى
منُّوا على الخَوْف بالأمانى ... فأنتم جُملة الأمانى

إلى أىِّ كاهن أتَنافر ، وفى أىِّ ملعب أتجاول وأتَظافر ، وبين يَدَىْ أىِّ حاكم أتَظالم فلا أتَغافر ، مع هذا الجَبَل ، الذى هو فى الشكل جَمَل ، حفَّ به من الشّعب هَمَل ، سَنامه التامك أَجْرد ، وذَنَبُه الشّابل كأنه جملٌ يُطرد ، وعُنقه إلى مورد البحر يتعرّج ويتعرّد ، وكأنما البِنْية بأعلاه ، خِلرٌ فاتِنة ، أو برق غمامة هاتِنة ، استأثر غير ما مرّة بأُنْسى ، وصارت عينُه الحميّة مَغْرِب شَمْسِى ، حتى كأن هذا الشّكل من خِدْرٍ وبَعير ، وإن كان مَجاز مُستعير ، يتضمن شكوى البَيْن ، ويُفَرّق بين المُحبين .

ما فرّق الأحباب ... بعد الله إلاَّ الإبل
والناس يلمون غُراب ... البَيْن لمّا جَهل
وما على ظَهْر غرابِ ... البَيْن تُنْضى الرَّحل
ولا إذا صاح غرابٌ ... فى الدِّيار ارْتَحل
وما غراب البين ... إلاَّ ناقةٌ أو جمل

فأُقسم لولا أنَّ الله ذَكر الإبل فى الكتاب الذى أُنزل ، وأَعْظَم الغاية بها وأَجْزَل ، لسَلَلْتُ عليه سلاح الدُّعاء ، وأغريت بهجره نفوس الرّعاء .
وقلت أرانى الله إكسارك من بَعير فوق سَعير ، ولا سمحت لك عقبة إلا ندر والسعير ببُر ولا شَعير :

دعوت عليك لمَّا عِيل صَبْرى وقلبى قائل يا ربِّ لا .. لا

نستغفر الله ، وأى ذنْب لذى ذَنَب شائل ، وليْثٍ مايل بازاء لجٍّ هايل ، يَتَعاوَره الوَعْدُ والوعيد ، فلا يُبدى ولا يُعيد، وتمر الجهة والعِيد ، فلا يَسْتَدْبر ولا يَتَعَبَّد . إنما الذَّنب لدهرٍ يرى المجتمع فَيَغار ، ويُشنُّ منه على الشَّمل المَغار ، ونفوسٍ على هذا الغرض تُسانده وتُعينه ليبطُش ساعِده ، وتقاربه فيما يُريد فلا تُباعده :

ولقد علمتَ فلا تكن مُتَجَنِّيا إنَّ الفراق هو الحِمَام الأَول

حَسْبُ الأَحِبَّة أن يُفَرِّق بينهم صَرفُ الزمان فما لنا نَسْتَعْجل

لكنَّ المحبَّ جَنِيب ، ولغرض المحبوب سَلِيب .

ويحسُن قُبْح الفعل إن جاء منكم كما طاب عَرْفُ العُود وهو دخان

وقد قَنَعْت برسالة تُبلِّغ الأَنَّة ، وتُدخل بعد ذلك الصِّراط الجنَّة ، وتُغيِّر لسانها عن شوقى من دون عقله ، وتنظر عنى ، من بياض طِرسها ، وسَّواد نَفْسها بمُقْلَة . وإن كان الجواب ، فهو الأَجر والثَّواب ، ولم أَر مثل شوقى من نارٍ تُخْمد بِطِرسٍ يُلقى على أُوارها ، فيأْمَنَ عادية جوارها . لكنها نار الخليل ، ربما تمسَّكت من المعجزة بأَثر ، وعثرت على آثاره مع من عَثَر . جمع الله من الشمل بكم ما انتثر ، وأنسى بالعَيْن الأَثر ، وحرَس على الكل من مسُوقٍ وسَايق ، ومُوحشٍ ورايق ، سرُّ القلوب ، ومناخ الجَوَى المجْلُوب ، ومثارُ الأَمل المطلوب . ولازالت العِصمة تَنْسَدل فوق مثواه قِبابها ، والسعود تحمل فى أمره العلىِّ مِنانها . فالمحبوب إليه حَبيب وان أَساء ، وأَوْحَش الصباح والمساء

إن كان ماساءنى مما يسرُّكم فعذِّبوا فقد اسْتَعْذَبْتَ تَعْذيبى

والسلام عليكم ما حَنَّ مَشُوق ، وتـأَوَّدَ لليراع فى رياض الرُّقاع قَضيبٌ

مَمْشُوق ، ورحمة الله وبركاته.

وأجاب عن ذلك الفقيه أبو عبد الله بن زَمْرك ، كاتب الدولة ، والوَلَدان عبد الله وعلى ، بما يستحسن فى غرض الرسالة وأبياتها .

فراجعت الثلاثة بما نصه :

أكرم بها من بنـاء بانِ   أرْسَخ فى الفخـر من أبان
أجَبْنا لديهـا الرِّضا جنان   من المعـانى جَنَى جِنـانى
أو جِـنىٍّ للأكُفِّ دانٍ   مـا للُمبارٍ به يـدان
أُقسم بالذِّكـر والمثـان   مالك فيما سمعتُ ثانِ
مُـدامـة بـرَّة الأوان   تشطُّ للقـول كلٌّ وان
تقول أوضاعُها للَّغو أن   بالعِلم عن زينة الغَـوان
يارَبِّ بارِكْ لمن بان   فى الفِكر والقَلْب والبَنان

هكذا هكذا ، وبعَيْن الحسود القَذا ، تُسْتَشار الدُّرر الكامِنة ، وتُهاج القَرايح النَّائمة ، فى حِجر الغَفْلة الآمنة ، وتُقْتضى الدّيون من الطباع الضامِنة .

أُعِيذها بالخَمْس من ولايد   قد قُلِّدت بنُخَب القَلايد
أعيذها بالخمس من حَبايِب   يُغَذِّين بالمراضِع الأطـايب
أعيذها بالخمس من وجُوهِ   يَصُونها الله من المـكروه

ويا ماتِح قَلْب القلوب أرْوَيْتَ ، وصدق ما نويْتَ ، البيرُ بيرُك ، ذو حَفَرْت وذو طَوَيْت ، وما رَمَيْتَ إذ رميت ، ولو علمنا السَّراير ، لأعْدَدنا لهذا المَكِيل الغَراير ، ولو تحقَّقْنا إجابة السؤال ، والنَّسيج على هذا المنْوال ، لفَسَحْنا الظروف لهذا النَّوال . ساجلنا الغُيُوث فسَحَحْنا ، وبارَزْنا اللُّيوث فافْتَضَحنا ، وصلينا والحمد لله على السلامة بما قَدَحْنا ، لا بل التَمَسْنا

نغبه ، فأقطعْنا تَنوُّراً ، واقتبَسْنا جَذْوَة فأقْبَسنا نوراً ،وما كان عطاءُ ربِّك محظورا.

مَلَكَ الثلاث الآنسات عِنــانى   وحَلَلْنَ من قلبى بكل مكـان
هذى الهلالُ وتلك بنتُ المشترى   حُسْنًا وهذى أختُ غصنِ البان(١)

متى كان أفق المنكِّب ، مَطْلعاً لهذا الكوكب ، وأَجَمَةُ ذلك الساحل الماحل ، مُرْتَبعاً لهذا الذَّمَر الحلاحل ، ومورد الجَمَل البادى العَرّ ، مغاصا لمثل هذا الدر ، إلاَّ أن يكون كنز هذا المَرام ، المُسْتَدعى لِلْكَلَفِ والغَرام ، من مُستودعات تلك الأَهواء والأَهرام ، دفنه الملك الغصّاب ، بعد أن قُدِّست الأَنصاب ، وأَخْفَى الأَثر فلا يُصاب ، أَو تكون الأَنوار هنالك تتجسّم ، والحظوظ تُعَيَّن وتقسَّم ، والحقائق تحدُّ وتُرسم ، أَو تتوالد بتلك المغارات ، يُوسانيا ورُوسم . أنا ما ظننت بأَن تثُور من أَجم الأَقلام أُسود ، وتعبث بالسُّويداوات من نتائج اليَراع والدواة لحاظٌ سُود . من قال فى الإنسان عالَمًا صغيرا ، فقد ظلمه ، كيف والله بالقلم علَّمه ، ورفع فى العوالم عَلَمه ، لقد درَّت حَلَماتُ تلك الاقلام من رَسْل غزير ، وما كان فحلُ تلك الاقلام زِير ، ولا سلطان تلك الطِّباع المَدِيدة الباع ليسْتَظْهر بوزير . إنما هى مَشاكى كمال أَوْقَدها الله وأَسْرَجها ، وملكات فى القوة رجَّحها مرجِّح القوة فأَبْرَزَها ، إلى العقل وأَخْرَجها . وأَحْرِ بها أن تَحُطَّ بذرى المدارك الإلهيّة رحالها ، وتترك إلى الواجب الحق مُحالها : فتتجاوز أَوْحَالها ، مستنيرة بما أُوحِى لها . إيه بَنِيَّة ، أُقسم بربِّ المنيَّة ، وقاسم

(١) هذان البيتان مطلع قصيدة تنسب إلى الخليفة هرون الرشيد، قالها فى ثلاث من جواريه . وقد علق عليها فيما بعد الخليفة الأندلسى الأموى سليمان المستعين، الذى تولى خلافة قرطبة من سنة ٤٠٣ ﻫ إلى سنة ٤٠٧ ﻫ ، بقصيدة مطلعها :

عجبا يهاب الليث حدسنانى   وأهاب لحظ فواتر الأجفان

الحُظْوة السنيَّة ، لقد فزتُ من نَجابتكم ، عند اْتِماح إجابتكم بالأُمْنِية ، فما أُبالى بعدها بالمَنِيَّة . وقاهُ الله عين الكمال من كمال ، وصان سُروجَه من إهمال ، واكْتَنَفه بالمزيد من غير يمينٍ وشَمال ، كما سوَّغ الفقير مثلى إلى فَقْرها زكاة جَمال لا زكاة جِمال . ولعمرى ، وما عُمْرى علىَّ بهين ، ولا الحِلف فى مقْطع الحقِّ بمتعين ، لقد أَحْقَب منها إلىَّ ثلاث كتايب ، قادها النَّصر جَنايب ، أَلِفاتُها العُصِى ، ونُوناتُها القِسىُّ ، وغاياتها المرام القَصِىُّ ، ورقُومها الحَلْق ، وجيادُها قد فشا فيها البَلَق ، بحيث لا استظهار للشيخ إلا بشعب سِدر ، ولا إفتراس إلا لمَرَقة قِدْر ، ودُرَيْد هذا الفن يُحمل فى خِدر .

سَلَّت علىَّ سيوفها أجفــانُه فلقيتهن من المَشِيب بمَغْفَر

فلولا تقدم العَهْد بالسِّلم ، لخيف من كَلِمها وقوع الكَلْم . أما إحداهن ذات القَتام ، والدَّأج بالإعتام ، المستمدُّ سوادُها الأَعظم من مِسْك الختام ، فعلَّلت فريضَة نظامها بالزيادة ، وعلَت يدها بمَنْشُور السِّيادة ، ورَسْمِ شَنْشَنتها المعروفة لأَخْزَم ، وجَادَها من الطَّبع السِّماك والمَرْزم ، وضفر أشجاعها المضفَّرة لزومُ ما لا يَلْزم .

خدم اليراع بها فدَبَّجَهــا وسأَلتُ مجتهدا عن الغرض
فعلمتُ أن الصلح مَقْصِدُه لتزول بعضُ عداوة الرَّبَض

وأما أُختُها التَّالية ، ولدَتُها الحافلة الحالية ، فنؤومٌ مكسالٌ ، ريقُها برُودُ سِلسال ، ومن دونها مواردُ ونُسال ، وذيب عسَّال ، وإن عُلِّلت بنقص فى النَّظم ، وقد أخذت من البدايع بالكَظْم ، وامْتكته المعانى امْتِكاك العَظْم . وأَمَّا الثالثة فكاعبٌ حسنها بالعقول مُتَلاعب ، بِنْت لَبُون ، لا لُهْمة حرب زَبون ، حيَّاها الله وبيَّاها ، فما أعطر ريَّاها .

تَشِمُّ أرواح نجْد من ثِيابهم   عند القُدوم لقُرْب العَهْد بالدّار

ولو قصّرتْ لتُغمّد تقصيرُها ، وكثُر بالحق نصيرُها ، فكيف وقد أجادتْ ، وصَابَتْ غمامتها وجادَتْ . وقد شكَرَتْ على الجملة والتّفصيل، وعَرَفت منّة الباذل وجُهْد الفَصيل ، وطالَعتْ مسايل البيان والتّحصيل ، وقابلت مُفضّض الضُّحا بمُذَهّبِ الأصيل . وأثْرَت يدى وكانت إلى تلك الفَقْر فقيرة ، ونبُهَت فى عينى الدُّنيا وكانت حَقِيرة ، ورجحت أن لا تَعْدَم هذه الأسواق مُدِيرا ، ولا تَفْقِد هذه الآفاق روضةً وغديراً . وسألت لجملتكم المحُوطة للشّمل ، الملحوظة بعين السِّتر والحَمْل . عزّا أثيرا ، وخيرا كثيرا ، وأمْنًا تحمدون منه فراشاً وثيرا[١] . وعُذْراً أيها الأحباب ، والصّفو اللُّباب ، عن كَدْح سِنٍّ وكَبْرة وفَلٍّ استرجاع وعِبرة ، استرقته ولجَّ الشّغبُ ذو النظام ، والخلق فراش يُكبُّون منى على حطام ، ورُسُل الفرنج قد غشى المنازل مُنْثالُها ، ونَبَحتها بالعشىّ أمثالُها ، والمراجعات تشكو اللَّبث ، والجُباة تستشعر المكيدة والخَبْث .

ولو كان همًّا واحدًا لبكيتُه   ولكنه هم وثانٍ وثالث

والله عزّ وجل يمتّع بأُنْسكم مَنْ عَدِم الاستمتاع بسِواه ، وقَصَر عليه مُتشَعّب هواه ، ويُبقى بَرَكة المولى الذى هو قطب مدار هذه الأقمار ، والأهلّة لا بل مركز فَلَك الملّة ، وسِجِلُّ حقوقها المستقلّة ، والسلام عليكم ما حَنّت النِّيب إلى الفِصال ، وتعلّلت أنفسُ المُحبِّين بذكران سِنة الوِصال ، وكرّت البُكُر على الآصال ، ورحمة الله وبركاته .

* * *

وكتبت إلى بعض الفضلاء ، وقد بلغنى مرضه أيام كنا اللحاق بالمغرب :

---

(١) وردت فى الإسكوريال (أثيرا) والتصويب أرجح .

وردَت علىَّ من فِئتى التى إليها فى مَعْرك الدهر أتحيَّز ، وبفضل فضلها فى الأَقدار المشتركة أتميَّز سحاءَة سرَّت وساءَت ، وبلغت من القَصْدين ما شاءَت ، أَطلع بها صنيعة وُدِّه من شكواه على كل عابث فى السُّويداء ، موجبٍ اقتحام البَيْداء ، مُضْرِم نار الشَّفقة فى فُؤاد ، لم يبق من صبره إلاَّ القليل ، ولا من إفصاح لسانه إلاَّ الأَنين والأَليل ، ونوًى مُدَّت لغير ضرورة يرضاها الخليل ، فلا تَسَلْ عن ضَنين تطرَّقت اليدُ إلى رأْس ماله ، أَو عابدٍ موزعٌ مُتَقَبَّل أعماله ، وأَملٍ ضُويق فى فَذْلكة آماله . لكنى رجَّحت دليل المَفْهوم على دليل المَنْطوق ، وعارضت القواعد المُوحِشة بالفروق ، ورأَيت الخطَّ يُبْهَر والحمد لله ويَرُوقْ ، واللفظ الحسن وَمَض فى حِبْره للمعنى الأَصيل بُروق . فقلْت ارتفع الوَصَب ، ورُدَّ من الصِّحة المُغْتَصب ، وكلَّة الحِسِّ والحركة هو العَصَب . وإذا أَشرق سراجُ الإدراك ، حَمَل على سلامة سَليطه ، والرُّوح خليط البدن ، والمرءُ بخَليطه ، وعلى ذلك فبَليدُ احتياطى لا يُقْنعه إلا الشَّرح ، فيه يسكن الظَّماُ البَرْح . وعذراً عن التكليف ، فهو محل الاسْتِقصاء والاسْتِفْسار ، والإطناب والإكثار . وزَنْد القلق فى مِثلها أَوْرَى ، والشَّفيق بسوء الظن مُغْرى . والسلام .

* * *

وخاطبت بعضَهم : كتبت إلى سيدى ، والخجل قد صبغ وجْهَ يَراعى ، وعقَّم ميلاد إنشائى واختراعى ، لمَكَارمه التى أَعْيَتْ منَّة ذِراعى ، وعجز فى خَوْض بحرها سَفينى وشِراعى ، فلو كان فضلُه فنًّا محصورا ، لكنت على الشكر معانًا منْصورا ، أَو على غرضٍ مقصورا ، لزارَت أَسَدًا هصُورا ،

ولم يكن فكرى عن عقايل البيان حَصُوراً ، لكنه نَجْدٌ تألّق بكل ثَنِيَّة ، ومكارمُ رمَت عن كلِّ حَنِيَّة ، ومجد سبق إلى كل أُمْنِيَة ، وأيادٍ ببلوغ غايات الكمال مَعْنِيَّة . فحسْبِي الإلقاءُ باليد لغلبة تلك الأيادى ، وإسْلام قيادى إلى ذلك المجد السِّيادى ، وإعفاءُ يراعى ومِدادى ، فإذا كانت الغاية لا تُدْرك ، فالأَوْلى أن يُلقى الكَدُّ ويُترك ، ولا يُعرَّج على الادّعاء ، ويُصرف القول من باب الخَبَر إلى باب الدُّعاء . وقد وصل كتاب سيِّدى مُخْتصر الحجم ، جامعاً بين النَّجم والنَّجم ، قريبُ عهد من يَمينه بمجاورة المَطَر السَّجْم ، فقلت اللهم كلِّف سيدى وأَجْزِه ، ومدَّ يده بالضُّر فاخْزه. ولله درُّ المثل ، أشبه امرؤ بعض بره كمالٌ واختصار ، وريحان أنوفٍ وإثمد أبصار · أعلق بالرّعىّ الذى لا يُقر بُعْد الدار من شيمته ، ولا يَقْدح اختلاف العُروض والأقطار فى دِيمَته . إنما نفسه الكريمة والله يقيها ، وإلى معارج السعادة يُرَقِّيها ، قانون يلحق أدْنى الفضائل بأقصاها ، وكتابٌ لا يغادر صغيرة ولا كبيرةً إلا أحصاها . وإنى وإن عجزت عما خصَّنى من عُمومها ، وأحسَّنى من جُموحها ، لمخلِّدُ ذكرٍ يبقى وتذهبُ اللُّها ، ويُعلى مبانى المجد ، تُجاوز ذُوابها السُّها ، ويذيع بمخايل المُلْك فما دُونها ، ممادحُ يَهْوى المِسْك أن يكونها ، ويَقْطفُ له الروض المجُود غصونها ، وتُكْحِل به الحُور العَيْنُ عُيونها ، وتؤدى منه الأيام المتهرِّبة ديُونَها · وإن تشوَّف سيدى ، بعد حمده وشكره ، واستنفاد الوُسْع فى إطالة حَمْده ، وإطابة ذِكره ، إلى الحال ، ففلانٌ حفظه الله يشرح منها المُجْمل ، ويبيِّن من عواملها المَلْغِى والمُعْمَل . وإما اعتناءُ سيدى بالوَلَد المُكَفَّن بحرمته ، فليس ببدْع فى فى بُعْد صيته ، وعُلوِّ همَّته ، على من تمسَّك بأَذِمَّته ، وفضله أكبر من أن

يُقَيَّد بقصَّة ، وبَدْرُ كماله أجلُّ من أن يُعَدَّل بوسط أو حِصَّة . والله تعالى يحفظ منه فى الولاء ولىّ القِبلة ، وولىَّ المكارم بالكَسْب والجِبلَّة ، ويجعل جيش ثنائه لا يُؤتى من القِلَّة ، بفضله وكرمه ، والسلام الكريم عليه ، ورحمة الله وبركاته . وكتب فى كذا .

ومن تشوف إلى الإكثار من هذا الفن ، فعليه بكتابنا المسمى « بريحانة الكتَّاب ونُجْعة المُنْتاب »(١).

---

(١) هذا هو أهم كتب ابن الخطيب بعد الإحاطة ، من حيث القيم الأدبية والتاريخية . وهو يحتوى على عدد كبير من الرسائل المنوعة ، ما بين تاريخية تبودلت بين ملوك غرناطة والمغرب ، وتناولت وصف الوقائع والمعارك الحربية ، وأدبية ذات طابع شخصى . وتعتبر « الريحانة » معرضاً للأساليب الكتابية والبيانية ، والملوكية والدبلوماسية ، والظهائر الرسمية الدستورية والإدارية ، والأمل منوط بعون الله ، أن يشرع فى نشرها قريباً .

رسالة السياسة

[قال ابن الخطيب][1] ، ولنختم هذا الغرض ببعض ما صدر عنى فى السياسة [وكان إملاؤها فى ليلة واحدة][2] .

حدّث[3] من امتاز باعتبار الأخبار ، وحاز درجة الاشتهار ، بنقل حوادث الليل والنهار ، وولج بين الكمايم والأزهار ، وتلطّف لخجل الورد من تبسّم البهار[4] .

قال ، سهر الرشيد ليلة ، وقد مال فى هجر النبيذ ميلةً ، وجهد ندماؤه فى جلب راحته ، وإلمام النوم بساحته ، فشحّت عهادهم[5] ، ولم يُغْن اجتهادهم . فقال ، اذهبوا إلى طرق سمّاها ورسمها ، وأمهات قسمها ، فمن عثّرتم عليه من طارق ليل ، أو غشاء سيل ، أو ساحب ذيل ، فبلّغوه ، والأمنة سوّغوه ، واستدعوه ، ولا تدعوه . فطاروا عجالا ، وتفرقوا رُكبانا ورجالا ، فلم يكن إلا ارتداد طرف ، أو فواق حرف ، وأتوا بالغنيمة التى اكتسحوها ، والبضاعة التى ربحوها ، يتوسّطهم الأشعث الأغبر ، واللّج[6] الذى لا يُعبر ، شيخٌ طويل القامة ، ظاهر الاستقامة ، سَبْلته مُشْمطة ، وعلى أنفه من القُبح مَطَّة ، وعليه ثوبٌ مرقوع ، لطير الخَرْق عليه وقوع ، يُهَينم بذكرٍ مسموع ، ويُنْبى عن وقت مجموع .

---

(١) هذه العبارة من عندنا .

(٢) هذه العبارة واردة فى « ريحانة الكتاب » ، وقد وردت به رسالة السياسة فى لوحات ٢٤٢ – ٢٤٧ من مخطوط الإسكوريال رقم ١٨٢٠ الغزيرى . ورقم ١٨٢٥ ديرنبور .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (حديث) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (النهار) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (عهودهم) .

(٦) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (الحج) .

فلما مَثَل سلَّم ، وما نَبَس[١] بعدها ولا تكلَّم . فأشار إليه فقعد ، بعد أن انْشمر وابتعد ، وجلس ، فما استرقَّ النظر ولا اختَلس ، إنما حركة فكره ، معقودة بزمام ذِكره ، ولحظات اعتباره ، فى تفاصيل أخباره . فابتدَره الرشيد سائلا ، وانحرف إليه مائلا ، وقال ممنّ الرجل ، فقال فارسى الأصل ، أعجمىٌّ الجِنْس،عربىٌّ الفَصْل . قال بلدك ، وأهلك وَوَلدك . قال ، أما الوَلَدُ ، فولد الدِّيوان ، وأما البلد ، فمدينة الإيوان. قال النِّحلة وما أعملت إليه الرِّحله ، قال [أما الرِّحلة فالاعتبار ، وأما النِّحلة فالأمور الكِبار][٢]قال ، فنُّك ، الذى اشتمل علية دَنُّك ، فقال ، الحكمة فنىٌّ الذى جعلته أثيراً ، وأضجعت منه فراشا وثيرا ،وسبحان الذى يقول :ومن يؤتَ الحكمة ،فقد أوتى خيراً كثيراً ، وماسوى ذلك فتَبيعٌ [٣] ، ولى فيه مُصْطاف وتَرْبيع [٣] . قال فتعاضد جَذْل الرشيد وتوفّر ، وكأنما غَشِى وجهه قطعة من الصبح إذا أسْفر ، وقال ، مارأيت كاللَّيلة أجْمع لأمل شارد ، وأنْعم بمؤانسة وارد . ياهذا أنى سائلك ، ولن تخيب بعدُ وسايلُك ، فاخبرنى بما عندك فى هذا الأمر الذى بُلينا بحمل أعبائه ، ومُنينا بمراوضة آبائه . فقال هذا الأمر قلادةٌ ثقيله ، ومن خُطَّة العجز مُسْتقيلة ، ومُفتقرة[٤] لسعة الذرَّع ، وربط السياسه المدنية بالشرع ، يُفسدها الحلم فى غير محلِّه ، [ويكون ذريعةً إلى حله][٥] ويصلحها مقابلة الشكل بشكله :

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (تنفس) .

(٢) هكذا وردت هذه الجملة فى الإسكوريال والنفح . ووردت فى الريحانة كالآتى (أما النحلة فالأمر الكبار وأما الرحلة فالاعتبار) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (فتبع – ومرتبع) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (مفترقة) .

(٥) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح ، وساقطة فى الريحانة .

ومن لم يكن سَبْعاً آكلا تداعَتْ سباعٌ إلى أكله

فقال الملك ، أجْمَلتَ ففصِّل ، وبَريت فَنصِّل ، [وكِلْت فأوْصِل](١) وانثُر الحبَّ لمن يُحَوْصِل ، واقيم السياسة فنوناً ، واجعل لكل لقب قانوناً ، وابدأ بالرَّعيَّة ، وشروطها المَرْعيَّة . فقال : رعِيَّتُك ودائع الله قِبَلك ، ومرآة العدل الذى عليه جِبِلَّك ، ولا تصل إلى ضَبْطهم [إلا بإعانته](٢) التى وهب لك . وأفضل ما استَدْعيت به عَوْنُك فيهم ، وكفايته التى تكفيهم ، تقويمُ نفسك عند قَصْد تَقْويمِهم ، ورضاك بالسَّهر لتَنْويمهم ، [وحراسةِ كَهْلهم ورَضِيعهم ، والترفُّع عن تضْييعهم](٣) ، وأخذِ كل طبقة بما عليها ، ومالها ، أخْذًا يَحُوط مالها ، ويَحْفظ عليها كمالها ، ويُقْصر عن غير الواجب آمالها ، حتى تَسْتَشْعر عليُّها رأفتك وحَنانك ، وتعرف أوساطُها فى [النُّصب امتنانك](٤) وتحذر سِفْلتُها سِنانك ، وحظِّر على كلٍّ طبقة منها ، أن تتعدَّى طَوْرها ، أو تخالف دَوْرها ، أو تجاوز بأمر طاعتك فَوْرها . وسُدَّ فيها سُبُل الذريعة ، واقصر جميعها على خِدْمة الملك بموجب الشَّريعة ، وامنع أغْنِياءها(٥) من البَطَر(٦) والبِطالة ، والنظر فى شُبُهات الدين بالتَّمشدق والإطالة ، وليقلَّ فيما شَجر بين السلف(٧) كلامها ، وترفض ما ينبز به أعلامُها ، فإن ذلك يُسقط الحقوق ، ويرتِّب العُقوق . وامْنَعهم من فُحْش الحِرص والشَّره ، وتعاهَدْهم بالمواعظ التى

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط فى الإسكوريال ، ووارد فى الريحانة والنفح .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال والنفح . وساقط فى الريحانة .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال والنفح . وساقط فى الريحانة .

(٤) وردت فى الإسكوريال (النصف امتهانك) . والتصويب من الريحانة والنفح .

(٥) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (أعيانها) .

(٦) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .

(٧) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح والريحانة (الناس) والأولى ارجح .

تَجلُو البصائر من الموه ، واحملهم من الاجتهاد فى العِمارة على أحْسَن المذاهب ، وانههُم عن التحاسد على المواهب ، ورُضْهم على الإنفاق بقَدْر الحال ، والتعزِّى عن الفائت ، فردُّه من المحال . وحذِّر[1] البُخْل على أهل اليسار ، والسَّخاء على أولى الإعْسار . وخُذْهم من الشَّريعة بالواضح الظاهر ، وامنعهم من تأْويلها مَنْع القاهر . ولا تُطْلق لهم التَّجمُّع على من أنكروا أمْرَه فى نواديهم ، وكُفَّ عنهم أكُفَّ تعدِّيهم . ولا تُبح لهم تغيير ما كرِهوه بأيديهم . ولتكن غايتهم فيما توجَّهت إليه إبايَتُهم ، ونكَصَت عن الموافقة عليه رايَتُهم ، إنْهاؤه إلى من وكَلْتَه بمصالحهم من ثِقاتك ، المحافظين على أوقاتك . وقدِّم منهم من أَمِنْت عليهم مَكْرَه ، وحَمِدْتَ على الإنصاف شكره ، ومن كثُر حياؤه مع التأْنيب ، وقابل الهفوة باستقالة[2] المُنِيب ، ومن لا يتخطى عندك محلَّه الذى حلَّه ، فربما عَمَد إلى المُبْرم فحلَّه . وحسِّن النِّية لهم بجَهْد الاستطاعة ، واغْتَفِر المكاره فى جنب حُسْن الطاعة . وإن ثار جرادُهم[3] واختَلف فى طاعتك مرادُهم ، فتحصَّن لثورتهم ، واثْبَت لفَوْرتهم [فإذا سألوا وسَلُوا ، وتفرقوا وانْسَلُّوا ، فاحتقر كثرتهم ، ولا تُقِل عَثْرَتهم][4] واجعلهم لما بين أيديهم وما خلفهم نَكالاً ، ولا تترك لهم على حِلْمك اتِّكالاً .

ثم قال : والوزير الصالح أفضل عُدَدِك ، وأوْصَل مَدَدِك [فهو الذى][5] يصونُك عن الابْتِذال ، ومباشرة الأَنْذال ، ويَثِب لك على الفرصة ، وينوب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (حظر) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والريحانة (باستنابة) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (جوادهم) وهو تحريف .

(٤) ـ بين الحاصرتين وارد فى الريحانة والنفح . وساقط فى الإسكوريال .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (فعند الرى) وهو تحريف.

فى تجرُّع الغُصَّة ، واستجلاء القِصَّة ، ويستحضر ما نَسِيتَه من أُمورك ، ويُغلِّب فيه الرأى بموافقة مأمُورك ، ولا يَسَعُه ما تُمْكنك المسامحةُ فيه ، حتى يَسْتَوْفيه . واحذر مُصادمة تيَّاره ، والتجوُّز فى اختِياره ، وقدِّم استخارة الله فى إيثاره ، وارْسِل عيون الملاحظة فى آثاره ، وليكن معروف الإخلاص لدولتك ، مَعْقُود الرِّضاء والغضب برِضاك وصَوْلتك ، زاهداً عما فى يديك ، مؤثرا كلَّ ما يُزْلِف لديك ، بعيد الهمَّة ، راعياً للأَذِمَّة ، كامل الآلة ، محيطاً بالإيالة ، رحْب الصَّدر ، رفيع القَدْر ، معروف البَيْت ، نبيهَ الحىِّ والمَيْت ، مؤثراً للعدل والإصلاح ، دَرِبًا بحمل السِّلاح ، ذا خبرة بدَخْل المملكة وخَرْجها ، وظَهْرها وسَرْجها ، صحيح العَقْد ، متحرِّزاً من النَّقْد ، جادًّا عند لَهوك ، متيقِّظاً فى حال سَهْوك ، يَلين عند غضبك ، ويَصِل الإسْهاب [1] بمقْتَضِبك ، قلقًا من شكره دونك وحَمْده ، ناسبًا لك الأَصالة [2] بعَمْده . وإن أعيا عليك وجود أكثر هذه الخِلال ، وسبق إلى نَقِيضها شيءٌ من الاختِلال ، فاطلب منه سُكون النَّفْس وهدوَّها ، وأن لا يرى منك رُتْبةً إلا رأى قَدْرَه دونها . وتقوى الله تَفْضُل شرف الانْتِساب ، وهى للفضائل فَذْلكةُ الحِساب . وساوِ فى حِفْظ غَيْبه بين قُرْبه ونَأْيه ، واجعل حظَّه من نِعْمتك موازيا لحظِّك من حُسْن رأيه ، واجتَنِب منهم من يرى فى نفسه إلى المُلْك سبيلا ، أو يقُود من عِيصه للاستظهار عليك قَبِيلاً ، أو من كاثر مالك مالَه ، أو من تقدم لعدوِّك [3] استِعْماله ، أو من سَمَتْ لسواك آماله ، أو من يَعْظُم [4] عليه إعراض وجهك ، وبهمِّه نادرة [5]

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (الأسباب) .

(٢) هكذاوردت فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (الإصابة) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (لعدوانك) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (يعرض) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (نادر) .

نَهْجِك[١] ، أو من يُداخل غير أَحْبابك ، أو من ينافس أحداً ببابك .

(وأما الجند) فاصْرِف التَّقويم[٢] منهم للمقاتلة والمكايدة المُخاتلة ، واسْتَوفِ عليهم شرائط الخِدمه ، وخُذْهم بالثَّبات للصَّدْمة ، ووفِّ ما أَوْجَبْت لهم من الجِراية والنِّعْمة ، وتعاهدهم عند الغِناء بالعَلَفِ والطُّعمة ، ولا تُكرِّم منهم إلاّ من أكرمه غناؤه ، وطاب فى الذَّبِّ عن ملَّتك ثناؤه ، ودلَّ عليهم النُّبهاءَ من خِيارهم ، واجتهد فى صَرْفهم عن الافتِنان بأَهْلِهم ودِيارهم ، ولاتوطِّئهم الدَّعة مهاداً ، وقدِّمهم على حِفْظك[٣] ويُعوثك متى[٤] أَردتَ جهادًا ، ولا تُلِن لهم فى الإغماض عن حُسْن طاعتك قيادًا ، وعوِّدهم حُسْن المواساة بأَنفسهم اعتيادا ، ولا تسمح لأَحد منهم فى إغفال شيءٍ من سلاح اسْتِظْهاره ، أو عُدَّة اشْتِهاره ، وليكن ما فَضَل عن شَبعهم وريِّهم مصروفاً إلى سِلاحهم ، وزِيِّهم ، والتَّزيُّد فى مراكبهم وغِلمانهم ، من غير اعْتِبار لأَثمانهم . وامْنَعهم من المُسْتَغَلّات[٥] والمتاجر ، وما يُتَكسَّب منه غير المشاجر ، وليكن من الغَزْو[٦] اكتسابُهم ، وعلى المغانم حسابُهم ، كالجوارح التى تُفْسد باعتيادها ، أن تُطْعَم من غير اصْطِيادها · واعلم أَنها لا تَبذل نفوسها من عالم الإنسان ، إلاّ لمن يملك قلوبها بالإحسان ، وفضل اللِّسان ، ويملك حركاتَها بالتَّقويم ، ورتبَها بالميزان القَوِيم[٧] ، ومن تثق بإشفاقها[٨] على أولادها ، وتشترى رضا الله بصبرها على طاعته وجلادها.

---

(١) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (نجهك) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (التقديم) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (حصصك) . والأولى أرجح .

(٤) هكذا فى الريحانة وفى الإسكوريال والنفح (مهمى) والأولى أرجح .

(٥) وردت فى الإسكوريال والنفح (المشغلات) . والتصويب من الريحانة .

(٦) وردت فى الإسكوريال والريحانة (الغراز) والتصويب من النفح .

(٧) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .

(٨) هكذا وردت فى الريحانة . وفى الإسكوريال والنفح (إشفاقه) والأولى أنسب .

فإذا استَشْعَرْت لها هذه الخلال ، قدمتك إلى مواقف التلف ، مطيعةً دواعي الكَلَف ، واثقةً منك بحسن الخُلَف. واستَبق إلى تمييزهم استِباقا، وطبِّقهم طِباقا ، أعلاها من تأمَّلت منه في المحاربة عنك إحظارا ، وأبعدهم في مَرْضاتك مطارا ، واضْبُطهم لما تحت يدك من رجالك حَزْماً ووقاراً ، واستهانةً بالعظايم واحتقاراً ، وأحْسِنهم لمن تُقَلِّده أمْرَك من الرعيَّة جوارا، إذا أجَدْت اختيارا ، وأشِدْهم على مُماطلة من مارسه من الخوارج عليك اضْطِبارا . ومن بَلِي في الذبِّ عنك إخلاءً وإمْراراً ، ولحقه الضُّر في معارك(١) الدفاع عنك مِراراً . وبَعْده من كانت محبَّته لك أكثرَ(٢) من نَجْدته ، ومَوْقع رأيه أصْدَق(٣) من موقع صَعْدته . وبعده من حَسُنَ انْقِيادُه لأُمرائك وإحْمادُه(٤) لآرائك ، ومن جعل نفسه من الأمر حيث جعلته ، وكان صبرَه على ما عراه أكثر من اعْتِداده(٥) بما فعله . [واحذر منهم من كان عند نفسه أكبرَ من مَوْقِعه في الانتفاع ، ولم يستح من التزيُّد بأضعاف مابذله من الدِّفاع ، وشكى البخْس](٦) فيما تعذَّر عليه من فوائدك ، وقاس بين عوايد(٧) عدوِّك وعوايدك ، وتوعَّد بانتقاله عنك وارْتِحاله ، وأظهر الكراهية لحاله .

(وأما العُمَّال) فإنهم يبينُون(٨) عن مَذْهَبك ، وحالهم في الغالب

---

(١) هكذا وردت في الإسكوريال والريحانة . وفي النفح (معارض) .
(٢) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي الريحانة والنفح (أزيد) .
(٣) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي الريحانة والنفح (أنفع) .
(٤) هكذا في الإسكوريال والنفح . وفي الريحانة (واعتماده) .
(٥) هكذا في الإسكوريال والنفح . وفي الريحانة (صبره) .
(٦) ما بين الحاصرتين كله ممحو في الإسكوريال . وقد اعتمدنا في نقله على الريحانة والنفح .
(٧) هذه الكلمة ساقطة في الإسكوريال .
(٨) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي الريحانة والنفح (يبينون) .

شديدة الشَّبَه بِك ، فعرِّفهم فى أمانتك السَّعادة . وألزمهم فى رعيَّتك العادة، وأنزِلهم من كرامَتِك بحسب منازلهم فى الاتِّصاف بالعدل والإنصاف ، وأحِلهم من الحِفاية ، بنسبة مراتبهم من الأمانة والكِفاية ، وقِفْهم عند تَقْليد الأرجاء مواقف الخوف والرَّجاء ، وقرِّر فى نفوسهم أن أعْظَم ما به إليك تقرَّبوا ، وفيه تدرَّبُوا ، وفى سبيله أعْجَمُوا وأعْرَبُوا ، إقامة حقٍّ ، ودَحْض باطل ، حتى لا يشكو غَريم مَطْلٍ ماطل ، وهو آثرُ لديك من كل رِباب هاطِل. وكُفَّهم من الرِّزق الموافق عن[1] التصدى لدنِّى المرافق . واصْطَنع منهم من تيسَّرت كُلْفتُه ، وقويت للرعايا ألْفَته ، ومن زاد على تَأْمِيله صبره ، وأرْبَى على خَبَره خُبْره ، وكانت رغبته فى حُسْن الذِّكر ، تَشِفُّ على غيرها من بنات الفِكر : واجتنب منهم من غلب عليه التَّخرُّق[2] فى الإنفاق ، وعدم الإشْفاق ، والتنافس فى الاكْتِساب ، وسهُل عليه سوءُ الحِساب ، وكانت ذريعته المُصانعة بالنِّفاية ، دون التَّقَهِّى[3] والكِفاية ، ومن كان منشؤه خاملاً ، ولأعْباء الدَّناءة حامِلاً ، وابْغ[4] من يكون الاعتذار فى أعماله ، أوْضَح من الاعتذار فى أقواله ، ولا يَفْتننَّك من قلَّدته اجتلاب الحظِّ المُطمِع[5] ، [والتَّنفُّق بالسَّعى المُسْمع][6] ومخالفة السُّنن المرعيَّة [وإتْباعِه رضاك بسُخْط الرعيَّة][7] ، فإنه قد غَشَّك من حيث بلَّك ورشَّك ، وجعل مَنْ

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (عند) .

(٢) واردة فى الإسكوريال والنفح . ومكانها بياض فى الريحانة .

(٣) واردة فى الريحانة والنفح . ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٤) هكذا وردت فى النفح . وفى الريحانة (وانع) . ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٥) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (المقنع) .

(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الريحانة والنفح . ووردت محرفة وناقصة بالإسكوريال كالآتى (التذ باقه عن المسمع) .

(٧) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .

يمينك فى شمالك، حاضر مالك. ولا تَضْمن عاملاً مال عملُه ، وحل بينه فيه وبين أمَلِه ، فإنّك تُميت رُسومك بمحْياه ، وتُخرِجُه من خدمتك فيه إلاّ أن تملّكَه إيّاه . ولا تجْمَع له فى الأعمال ، فيُسْقِط استِظْهارك ببلَدٍ على بلد ، والاحتجاج(١) على والد بولَد ، واحْرِص على أن تكون فى الولاية غريباً ، ومُتَنقَّله(٢) منك قريبا ، ورَهِينةً لا يزال معها مُريباً ، ولا تتبل(٣) مصالحتَه على شيء اختَانَه(٤) ، ولو برغيبة فَتانه ، فتقبل المصانعة فى أمانتك ، وتكون مشاركاً فى خِيانتِك ، ولا [تُطِل مدَّة](٥) العمل ، وتعاهَدْ كشف الأمور ممّن يرعى الهمل ، ويبلغ الأمل .

(وأما الولد) فاحسن آدابهم ، واجعل الخير دَأْبهم ، وخِفْ عليهم من إشفاقك وحنانك، أكثر من غِلْظَة جَنانك ، واكتم عنهم مَيْلك ، وأفِضْ عليهم جُودك ونَيْلك ، ولا تستغرق بالكَلَف بهم يومك ولا ليلك ، وأثِبْهم على حُسْن الجواب [وسبِّق إليهم](٦) خوف(٧) الجزاء على رجاء الثواب ، وعلِّمهم الصبر على الضَّرائر ، والمُهْلة عند استخفاف الجرائر ، [وخذ لهم](٨) بحسن السَّرائر ، وحبِّب إليهم مَراس الأمور الصعبة المراس ، وحصِّن الاصطناع والاغتراس(٩) ، والاستكثار من

---

(١) هكذا وردت فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (احتجاج) .
(٢) هكذا وردت فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (وبشغله) .
(٣) كذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (تعمل) والأولى أنسب .
(٤) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (اختاله) والأولى أرجح
(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الريحانة والنفح . فى الإسكوريال (تصل سدة) .
(٦) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (وسولهم) .
(٧) واردة فى الريحانة والنفح . ومكانها بياض فى الإسكوريال .
(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (وخذهم) .
(٩) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (والاحتراس) .

أُولى المراتب والعلوم ، والسِّياسات(١) والحُلوم ، والمقام المعلوم ، وكرِّه إليهم مجالسة المُلْهين ومصاحبة السَّاهين(٢) ، وجاهد أهواءهم عن عقولهم ، واحْذَر الكذب على مَقُولهم ، ورشِّحهم إذا أنِسْت منهم رشَدًا أو هديًا ، وأرضعهم من المُؤازرة(٣) والمَشاورة ثَدْياً ، لتمرِّنهم على الاعتياد ، وتحملهم على الازْدِياد ، ورُضْهم رياضة الجياد ، واحذر عليهم الشهوات فهي داؤهم ، وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم . وتدارك الخُلُق الذَّميمة كلما نجمت ، [واقْدَعها إذا هجمت](٤) ، قبل أن يظهر تَضْعِيفُها ، ويقوى ضعيفها ، فإن أعجزتك في صِغرهم الحيل ، عظُم الميل .

إن الغصون إذا قوَّمتها اعتدلت ولن تَلين إذا قوَّمتها الخُشُب

وإذا قدروا على التدبير ، وتَشَوَّفوا للمحل الكبير ، فلا(٥) تُوطِنهم في مكانك [جهْد إمكانك](٦) ، وفرقهم [في بُلدانك](٧) ، تفريق عُبْدانك . واستعملهم في بعوث جهادك ، والنيابة عنك في سبيل اجْتِهادك ، فإنَّ حَضْرتَك تُشْغلهم بالتَّحاسد ، والتَّباري والتَّفاسد . وانظر إليهم بأعين الثِّقات ، فإن عين الثقة ، تُبْصر ما لا تبصر عين المحبَّة والمَقة(٨) .

(وأما الخدم) فإنهم(٩) بمنزلة الجوارح التي تُفَرِّق بها وتجمع ، وتُبصر وتسمع ، فرُضْهم بالصدق والأمانة ، وصُنْهم صَوْن الجَفانة ،

---

(١) هكذا في الإسكوريال والنفح . وفي الريحانة (والسياسة) .
(٢) واردة في الريحانة والنفح . ومكانها بياض في الإسكوريال .
(٣) واردة في الريحانة والنفح . وساقطة في الإسكوريال .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة في الإسكوريال والنفح . وفي الريحانة (واقرعها كلما هجمت) .
(٥) هكذا في المخطوطين . وفي النفح (إياك أن) .
(٦) هذه العبارة واردة في الإسكوريال والنفح . وساقطة في الريحانة .
(٧) هكذا في الريحانة والنفح . وفي الإسكوريال (بجلد انك) وهو تحريف .
(٨) هكذا في الإسكوريال والنفح . وفي الريحانة (المبقة) .
(٩) هكذا في النفح . ووردت في المخطوطين (فهم) والأولى أفصح .

وخذهم بحسن الانقياد ، إلى ما آثرته ، والتقليل مما استكثرته . واحذر منهم من قويت شهواته ، وضاقت عن هواه لَهْواته ، فإن الشهوات تنازعك فى اسْتِرقاقه ، وتشاركك فى اسْتِحقاقه . وخَيْرهُم من سَتَر ذلك عليك(١) بلطف(٢) الحيلة(٣) ، وآداب للفساد مخيلة . وأَشْرب قلوبهم أَن الحقّ فى كلٍّ ما حاولته واستنزلته ، وأَن الباطل فى كلٍّ ما جانَبْتَه واعتزلتَه ، وأَنّ من تَصفَّح منهم أمورك فقد أَذْنَب ، وبايَن الأَدب وتجنَّب . وأَعطْ من أَكْدَدْته ، وأَضَقْتَ منهم مُلْكه وشدَّدته ، رَوْحة يشتغل فيها بما يُغنيه ، على حَسَب(٤) صعوبة(٥) ما يُعانيه ، تُغْبطهم فيها بمسارحهم ، وتُجمّ كليلة جوارحهم . ولتكن عطاياك فيهم بالمقْدار الذى لا يُبْطر أعلامَهم ، ولا يُؤْسِف(٦) [الأَصاغر فيُفْسِد](٧) أَحلامهم ، ولا تَرُم محسنهم بالغاية من إحسانك ، واترك لمزيدهم فَضْلةً من رِفْدك ولِسانك . وحذِّر عليهم مخالفتك ولو فى صلاحك بحدِّ سلاحك . وامنعهم من التَّواثُب والتَّشاجر ، ولا تحمد لهم شِيَم التَّقاطع والتَّهاجر ، واستخلص منهم لسرِّك(٨) من قلَّت فى الإفشاءِ ذنوبه ، وكان أَصبرهم على ما يَنُوبه ، ولودائعك من كانت رغبتُه فى وظيفة لسانك ، أَكثر من رغبته فى إِحْسانك ، وضَبْطُه لما تقلَّده من وديعتك ، أَحبُّ إليه من حُسْن صَنيعتك . وللسِّفارة عنك من حَلا الصدق فى فمه ، وآثره ولو بإخطار دَمِه ، واسْتَوفى لك وعليك

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة (عنك) . وفى النفح (عنه) .
(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (بحسن) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (حيلة) .
(٤) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى الريحانة والنفح .
(٥) ساقطة فى الريحانة . وواردة فى الإسكوريال والنفح .
(٦) هكذا وردت فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (يؤنب) .
(٧) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٨) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (لحديثك) .

فَهْم ما تحمله ، وعُنى بلفظه حتى لا يهمله ، [ولمن تُودعه أعداء](١) دولتك، من كان مقصور الأَمل ، قليل القول صادق العمل ، ومن كانت قسْوته زائدة على رَحْمته ، وعَظْمُه فى مَرضاتك آثر من شَحْمته ، ورأيه فى الحذر سَدِيد ، وتحرُّزه من الحِيل شديد . ولخدمتك فى ليلك ونهارك من لانَتْ طباعه ، وامتدَّ فى حسن السَّجية باعه ، وآمَن كيدُه وغدرُه ، وسَلم من الحِقْد صَدْره ، ورأى المَطامع فما طمع ، واستَثقَل إعادة ماسمع ، وكان بَريًّا من المَلال ، والبِشْرُ عليه أغلبُ الخِلال . ولا تؤنسهم منك بقَبيح فعل ولاقول ، ولاتُؤْسِهم من طَوْل . ومكِّن فى نفوسهم أنَّ أقوى شُفَعائهم ، وأقرب إلى الإجابة من دُعائهم ، إصابة الغرض فيما به وُكِلوا ، وعليه شُكِّلوا ، فإنَّك لاتعدم بهم انْتِفاعا ، ولايَعْدمون لديك ارتفاعا .

(وأما الحُرَم) فهم مَغارس الولد ، ورياحين(٢) الخَلَد ، وراحة القَلب الذى أجْهَدته الأَفكار ، والنَّفس التى تقسَّمها الإحماد إلى المساعى والإنكار ، فاطلب منهن من غَلَب عليهنَّ من حسن الشِّيم ، المترفِّعة عن القيم ، ما لا يسوءك فى خَلَدك ، أن يكون فى وَلَدِك ، واحذر أن تجعل لفكر بشرٍ دون بصر(٣) إليهنَّ سبيلا ، وانصب دون ذلك عذابًا وبيلا ، وارعهن من النِّساءِ العُجُز من فاقت(٤) فى الدِّيانة والأَمانة سبيله ، وقويت غَيْرتُه ونُبْله ، وخُذهنَّ بسلامة النِّيات ، والشيم السَّنيَّات ، وحسن الاسْتِرسال ، والخُلُق

---

(١) هذه العبارة واردة فى الريحانة والنفح ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (وريا من) وهو تحريف .

(٣) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (نظره) .

(٤) هكذا فى الريحانة ، وفى الإسكوريال (كانت) والنفح (بانت) والأول أرجح .

السّلسال . وحظّر(١) عليهن التّغامز والتّغاير ، والتّنافس والتّخاير ، وآيِس بينهن فى الأغراض ، والتّصامم عن الأغراض ، والمُحاباة بالإعراض . وأقلل من مخالطتهن(٢) ، فهو أبْقَى لهمّتك ، وأسْبلُ لحُرْمتك ، ولتكن عشْرتك لهن عند الكلال والمَلال ، وضيق الاحتمال ، بكثرة الأعمال ، وعند الغضب والنّوم ، والفراغ من نَصَب اليوم . واجعل مَبيتك بينهن تَنمّ بركاتك ، وتَستتر حركاتك ، وأفضل من ولدت منهن إلى مسكن(٣) يُختبر فيه استقلالُها ، ويُعْتَبر بالتفرّد خلالُها . ولا تطلق لحرمةٍ شفاعة ولا تدبيراً ، ولا تَنُطْ بها(٤) من الأمر صغيرا ولا كبيرا ، واحذر أن يظهر على خَدَمهنّ فى خروجهن عن القصور وبروزهن من أجمة الأسد الهصور زِىٌّ مُفارع(٥) ، ولا طيبٌ للأنوف مُسارع ، وأخصص بذلك من طعن(٦) فى السّن ، ويئِس(٧) من الإنس والجنّ ، ومن توفّر النزوع إلى الخيرات قبله ، وقَصَر عن جمال الصورة ووُسِم بالبَلَه .

ثم لما بَلَغ إلى هذا الحَدّ ، حَمِى وَطِيس اسْتِجفاره(٨) ، وختم حِزْبه باستغفاره ، [ثم صمت مليًّا](٩) واستعاد كلاما أوّليا . ثم قال : واعلم يا أمير المؤمنين ، سدّد الله سَهْمَك لأغراض خلافته ، وعَصَمك من الزمان وآفته ، أنك فى مجلس الفصل ، ومُباشرة الفَرْع من مُلْكِك والأصل ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (وحذر) .

(٢) وردت فى المخطوطين (مخالاتهن) . والتصويب من النفح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (منزل) والمؤدى واحد .

(٤) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (بهم) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة (فارع) والنفح (بارع) .

(٦) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (صغر) والأول أرجح .

(٧) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (وليس) .

(٨) وردت فى المخطوطين (استغفاره) والتصويب من النفح .

(٩) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .

فى طائفةٍ من عزِّ الله ، تَذُبُّ عنك حُماتها ، وتدافع عن حَوْزتك كماتها ، فاحذر أن يَعْدل بك غضبك ، عن عدل تُزْرى منه ببضاعة ، أو يهجم بك رِضاك على إضاعة . ولتكن قدرتك وقْفًا على الاتصاف بالعدل والإنصاف ، واحكم بالسَّويَّة ، واجنح بتدبيرك إلى حسن الرَّويَّة . وخِف أن تقعد بك أناتُك عن حزم تعيَّن ، أو تستفزُّك العجلة فى أمر لم يتَبيَّن . وأطِع الحجَّة ما توجَّهت عليك[1] ، ولا تَحْفَل بها إذا كانت إليك ، فانقيادك إليها أحسن من ظَفَرك ، والحق أجْدى من نَفْرك . ولا تردَّنَّ النصيحة فى وجه ، ولا تقابل عليها بنَجْه ، فتُمْنَعها إذا استدعيتها ، وتُحْجَب عنك إذا استَوْعيتها ، ولاتستدعها من غير أهلها، فيُشْغِلك أولو الأغراض بجهلها . واحرص[2] على أن لا ينْقضى مجلسٌ جَلَسْته ، أو زمنٌ اختَلَسْته ، إلاَّ وقد أحْرَزْت فضيلة زائدة ، أو وثقت منه فى معادك بفائدة ، ولا يزْهدنَّك فى المال كثرته ، فتقلَّ فى نفسك أثرَته . وقِس الشَّاهد بالغائب ، واذكر وقوع ما لا يُحْتَسب من النوائب ، فالمال المصون أمْنَع[3] الحصون . ومن قلَّ مالُه قَصُرت آماله ، وتهاونَ بيمينه شمالُه ، والمَلِك إذا فقد خَزِينَه ، أنْحَى[4] على أهل الجِدَة التى تَزِينه ، وعاد[5] على رعيَّته بالإجحاف ، وعلى جبايته بالإلحاف ، وساءَ مُعتادُ عيْشه ، وصَغُر فى عيون جَيْشه ، ومنُّوا عليه بنَصره ، وأنِفُوا من الاقتِصار على قَصْره . وفى المال قُوَّة سماوية ، تَصْرف الناس لصاحبه ، وتربُط آمال أهل السِّلاح به . والمال نعمةُ الله تعالى ، فلا تجعله ذريعةً إلى خِلافه ، فتجمع بالشَّهوات بين إتْلافك وإتلافه.

---

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (إليك) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (واعمل) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (أعظم) .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (أخنى) .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى الريحانة .

واسْتأْنِس بحسن جوارها ، واصْرِف فى حقوق الله بعض أطوارها ، فإن فضَل المال عن الأَجَل فأَجِّل ، ولم يضرُّ ما تلف(١) منه بين يدى الله عزَّ وجل . وما يُنْفق فى سبيل الشَّريعة ، وسَدِّ الذريعة ، مأْمول خَلِفه ، وما سواه فمُسْتَيْقَنٌ(٢) تلفُه . واستخلص لحضور(٣) نواديك الغاصَّة ، ومجالسك العامَّة والخاصَّة ، من يليق بولُوج عَتَبها ، والعُرُوج لرُتَبها . أَما العاميَّة(٤) فمن عَظُم عند الناس قَدْرُه ، وانشرح بالعِلم صَدْرُه ، أَو ظهر يَسارُه ، وكان لله إخْباتُه وإنْكِساره ، ومن كان للفُتْيَا مُنْتَصِبًا ، وبتاج المشُورة مُعْتَصِبًا . وأَما الخاصِّيَّة(٥) فمن رَقَّت طباعُه ، وامتدَّ فيما يليق بتلك المجالس باعُه ، ومن تَبَحَّر فى سِيَر الحكماء ، وأَخلاق الكُرماء ، ومن له فضلٌ سافرٌ ، وطبع(٦) للدَّنيَّة مُنافِر ، ولديه من كل ما تَسْتَتِر به الملوك عن العوام حظٌّ وافر . وصِفْ أَلْبَابهم بمحصول خيرك ، وسكِّن قُلوبهمْ بيُمْنِ طَيْرك ، وأَغْنِهم ما قَدِرتَ عن غَيْرك .

واعلم بأَن مَواقع العلماء من مُلْكِك ، مواقعُ المشاعل المتأَلِّفة ، والمصابيح المُتعلِّقة ، وعلى قَدْر تَعاهُدِها(٧) تَبْذِل من الضِّياء ، وتجلو بنورها صُور الأَشياء ، وفرِّعها(٨) لتَحْبير ما يزيِّن مدتك ، ويُحْسن من

(١) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (غاب) .
(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (فتعين) .
(٣) واردة فى المخطوطين . وساقطة فى النفح .
(٤) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (العامة) .
(٥) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (الخاصة) .
(٦) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (رفيع) وهو تحريف .
(٧) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (تعهدك) .
(٨) مكانها بياض فى الإسكوريال .

بَعدالبِـلَى جدَّتك . وبعناية الأَواخر ،ذُكرت[١] الأَوائل[٢] ، وإذا مُحيَت[٣] المفاخر خَرِبت الدُّول . واعلم أن بقاء الذِّكر مشروط بعمارة البُلدان ، وتَخْليد الآثار الباقية[٤] فى القاصِى منها والدَّان - فاحرص على ما يُوضِّح فى الدهر سبُلَك ، ويحُوز[٥] المزيَّة لك على من قَبْلك ، وإنَّ خير الملوك من ينطق بالحجَّة ، وهو قادرٌ على القَهْر ، ويَبْذل الإنصاف فى السِّر والجَهْر ، مع التمكُّن من المال والظُّهر . ويسار الرعية جمالٌ للمُلْك وشَرَف ، وفاقَتُهم من ذلك طَرَف ، فغلِّب أَيْنَق[٦] الحالين بمحلِّك ، وأَولاهما بظَعْنك وحِلِّك - واعلم أن كرامة الجَوْر[٧] دائرة ، وكرامة العدل مُكاثرة ، والغلَبة بالخير سِيادَة ، وبالشرِّ هَوادَة[٨] .

واعلم أن حُسْن القيام بالشَّريعة ، يَحْسِم عنك نِكاية الخَوارج ، ويسمو بك إلى المَعَارج ، فإنها تَقْصِد أنواع الخِدع ، وتُورِى بتغيير البِدَع . واطلق على عدوِّك أيدى الأَقوياء من الأَكْفاء ، وأَلْسِنة اللَّفيف من الضُّعفاء ، واستَشْعِر عند نكْثه شِعار الوَفاء ، ولتكن ثقتك بالله أكثر من [ثقتك بقوة][٩] تَجِدُها ، وكَتِيبةٍ تُنجدها . فإنَّ الإخلاص يمنحك قوىً لا تُكتَسب ، ويُهديك[١٠] مع الأَوقات نصراً لا يُحْتَسب . والتمس

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (عنيت) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (الأول) . والأولى أرجح .
(٣) مكانها بياض فى الإسكوريال .
(٤) ساقطة فى الإسكوريال .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (يحرز) .
(٦) هكذا فى الإسكوريال وفى الريحانة (ألين) والنفح (أليق) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال والنفح وفى الريحانة (الخوف)
(٨) هكذا وردت فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (زيادة)
(٩) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح ومكانها فى المخطوطين (ثقة) .
(١٠) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح والريحانة (و عهلك) .

سَلْم(١) من سالمك ، بنَفيس ما فى يدك . وفضْل حاصل(٢) يومك على مُنْتَظر غَدِك ، فإن أبى وَضَحت محجّتُك ، وقامت عليه للناس حُجّتُك ، فللنفوس على الباغين(٣) مَيْل ، ولها من جانبه نَيْل ، واستمد(٤) كل يوم سِيرَة من يُناويك ، واجتهد أن لا يُباريك(٥) فى خير ولا يُساويك ، وأكْذِب بالخير ما يُشَنِّعه من مَساويك ، ولا تقبل من الإطراء إلاّ ما كان فيك ، ففضلٌ عن إطالته ، وجَدٌّ يُزْرى ببطالته(٦) . ولا تَلْق المذنب بحميّتك وسبِّك ، واذكر عند حَمِيّة(٧) الغضب ذنوبك إلى ربِّك . ولا تنس أنّ ذَنْب(٨) المُذنب أجْلَسك مجلس الفَصْل ، وجعل من(٩) قَبْضَتِك رياش النّصل . وتشاغل فى هُدْنة الأيام بالاستعداد ، واعلم أن التّراخى مُنْذِرٌ بالاشْتِداد . ولا تُهْمل عَرْض ديوانك ، واختبار أعْوانك ، وتحصين مَعاقلك وقلاعك . وعُمّ إيالتك بحسن اضطِّلاعك . ولا تُشْغل زمن المدنة بلذّاتك ، فتجنى فى الشّدة على ذاتك . ولا تُطْلق فى دولتك ألْسِنَة الكَهانة والإرجاف ، ومُطاردة الآمال العِجاف ، فإنه يبعث سوء القَوْل ، ويفتح باب الغَوْل . وحذِّر على المدرِّسين والمعلّمين(١٠) ، والعُلماءِ والمُتَكلّمين ، حمل الأحداث(١١) على الشّكوك الخالِجة ، والزّلّات(١٢) الوَالِجة ، فإنه يُفْسد

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (مسالمة) .

(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (فاضل) والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (الباغى) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (استّهد) . وساقطة فى الريحانة .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (يوازيك) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (على بطالة) .

(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (حركة) .

(٨) ممحوة فى الإسكوريال .

(٩) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والريحانة (فى) .

(١٠) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (المتعلمين) .

(١١) وردت فى الإسكوريال (الأمداد) . والتصويب من الريحانة والنفح .

(١٢) هكذا فى الريحانة وفى النفح . وفى الإسكوريال (المزيات) .

طباعهم ، ويُغْرى سِباعَهم ، ويمدّ فى مخالفة الملّة باعهم . وسُدّ سُبُل الشّفاعات ، فإنها تُفْسد عليك حُسْن الاختيار ، ونفوس الخِيار . وابذِل فى الأَسرى(١) من حسن مَلْكَتك ، ما يُرضى(٢) من ملّكك رِقابها ، وقلّدك ثَوابها وعِقابها . وتلَّق بدءَ نهارك بذكر الله فى ترفُّعك وابْتِذالك ، واختم اليوم بمثْل ذلك . واعلم أنك مع كثرة حُجّابك ، وكثافة حِجابك ، بمنزلة الظّاهر للعيون ، المُطالب بالدُّيون ، لشدَّة البحث عن أُمورك ، وتَعَرُّف السِّر الخفىّ بين آمِرك ومأْمُورك . فاعمل فى سرِّك ما لا تَسْتَقبح أن يكون ظاهراً ، ولا تـأْنَفْ أن تكون به مُجاهراً ، واحكم بريك فى الله ونَحْتك ، وخِف من فَوْقَك يَخفْك من تَحْتك .

واعلم أنّ عدوّك من أتباعك من تَناسَيْت حُسْن قَرْضه ، أو زادَت مؤونتُه على نصِيبه منك وفَرْضه . فاصْمُت للحُجج ، وتوقّ اللُّجج ، واسْتَرب بالأَمل ، ولا يَحْمِلَنْك انتظام الأُمور على الاسْتِهانة .بالعمل . ولا تُحقِّرنَّ صغير الفساد ، فيأْخذ فى الاسْتِئْساد . واحْبِس الأَلسنة عن التّحالى باغتيابك ، والتّشبُّث بأَذيال ثيابك ، فإن سوءَ الطّاعة ، ينتقل من الأَعْيُن الباصرة ، [إلى الأَلْسُن القاصرة](٣)، ثم إلى الأَيدى المتناصرة. ولا تثق بنفسك فى قتال عدوٍّ ناوَأَك ، حتّى تظفر بعدوٍّ غضبك وهواك . وليكن خوفك من سوءِ تدبيرك ، أَكثر من عدوِّك السّاعى فى تَتْبيرك . وإذا اسْتَنْزَلت ناجماً ، أَو أَمِنْت ثائراً هاجما ، فلا تقلِّده البَلَد الذى فيه

---

(١) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (الأسى) وهو تحريف .

(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (يونس) والأولى أرجح .

(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح وساقطة فى الريحانة .

نَجَم ، وهَمَا عارضه فيه وانسجم ، يعظُم عليك القَدْح[١] فى اختيارك ، والغضّ من إيثارك ، واحْتَرز من كيده فى حَوْزك[٢] ومأمَلك ، فإنّك أكبرُ هَمِّه ، وليس بأكبر هَمِّك . وجَمِّل المملكة بتأمين الفَلَوات ، وتسهيل الأقْوات ، وتجويد[٣] ما يُتَعامل به من الصَّرف فى البياعات[٤] وإجراءِ العوائد مع الأيام والسَّاعات ، ولا تُبْخِس عِيار قِيَم البضاعات ، ولتكن يدُك عن أموال الناس محْجُورَة ، وفى احترامها إلاّ عن الثّلاثة مأجورة : مالٌ من عدا طورُه وطورُ أهله ، وتجاوُزٌ[٥] فى الملابس والزِّينة ، وفُضُول المدينة ، يروم معارضتك بحَمْله ، ومن باطَن أعداك ، وأمِن اعْتِداك ، ومن أساءَ جِوار رعيَّتك بإخْساره ، وبذل الإذاية فيهم بيمينه ويساره . وأضرُّ ما مُنِيت به التَّعادى بين عُبْدانك ، أوفى بلد من بُلدانك ، فسدَّ فيه الباب ، واسأل عن الأسْباب ، وانْقِلهم بوساطة أُولى الألباب ، إلى حالة الأحْباب . ولا تطوِّق الأعلام أطواق المَنُون ، بهواجِسْ الظُّنون ، فهو أمر لا يقف عند حَد ، ولا ينتهى إلى عَد . واجعل ولَدَك فى احْتِراسك ، [وصِدْق مَراسك][٦] ، حتّى لا يطمع فى افْتِراسك .

ثم لما رأى الليل قد كاد ينْتَصِف ، وعمُوده يريد أن يَنْقَصِف ، ومَجال الوصايا أكثر مما يَصف ، قال : يا أمير المؤمنين ، بَحْرُ السِّياسة زاخِر ، وعمر التَّمتع[٧] بناديك العزيز مُسْتَأْخر ، فإن أذِنت فى فنٍّ من

---

(١) هكذا وردت فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (القوم) .

(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (فوزك) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (وتحديد) .

(٤) فى لوحة الإسكوريال (٤٩٨) من هنا لعدة أسطر قد محيت من أواخر الأسطر كلمات عديدة. واعتمدنا فى ضبط هذا الجزء على الريحانة والنفح .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (وتخارق) .

(٦) هذه العبارة واردة فى المخطوطين . وساقطة فى النفح .

(٧) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (المتمتع) .

فنون الأُنْس يَجْذِب بالمقاد ، إلى راحة الرُّقاد ، ويَعْتق النفس بقدرة ذي الجلال ، من مَلَكة الكَلال . فقال ، أما والله(١) قد استَحسَنَّا ما سرَدْت ، فشأْنك وما أردت . فاستدعى عودًا فأصلحه حتى أحْمَده ، وأبعد فى اختياره أمده . ثم حرك فمه(٢) ، وأطال الحُسن ثَمَّه ، ثم تغنى بصوت يستدعى الإنْصات ، ويَصْدع الحَصاة ، ويستفزُّ الحليم عن وقاره ، ويسْتَوْقف الطَّيْر ، ورزْقُ بَنِيه فى مِنْقاره ، وقال :

صاح ما أعطر القبول بنمّه | أتراها أطالت البث ثمّه
هى دارُ الهوى مُنى النفس فيها | أبدَ الدهر والأمانى جمَّه
إن يكن ما تأرَّج الجوُّ منها | واستفاد الشَّذا وإلاَّ فَمِمَّه
مَنْ بِطَرْف بنظرة ولأنْفِى | فى رُباها وفى ثَراها بشمَّه
ذُكرَ العهد فانتفضتُ كأنِّى | طَرَقَتْنِى من الملائك لمَّه
وطنٌ قد نَضيتُ فيه شبابا(٣) | لم تُدَنِّس منه البُرود مَذَمَّه
بِنْتُ عنه والنفس من أجل مَن | خلَّفتُه فى جلاله مُغتمَّه
كان حُلماً فويحُ من أمّل الدَّهر | وأعماه جهلُه وأصمَّه
تأمَّل العيش بعد أن أخْلَق الجسم | وبنيانُه عَسير المرمَّه
وغَدَتْ وفرة الشَّبيبة بالشَّيب | على رغم أنفها مُعْتَمَّه
فلقد فاز مالكٌ جعل الله | إلى الله قَصْده ومأمَّه
من يبت من غرور دنيا بهمٍّ | يَلْدغ القلب أكثر الله همَّه

ثم أحال اللَّحن إلى لون التَّنويم ، فأخذ كل فى النُّعاس والتَّهويم ، وأطال الجسَّ(٤) فى الثَّقيل ، عاكفاً عكوف الضَّاحى فى المَقيل ،

---

(١) زائدة فى النفح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة (يمه) . وفى النفح (بمه) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (شبابى) .

(٤) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال محرفة (الجمس) .

[فخاطعيون القَوْم(١) بخيوط النَّوم . وعَمَرَبهم المراقد، كأنَّما أدار عليهم الفراقد(٢)] (٣) ثم انصرف ، فما علم به أحد ولا عَرَف . ولما أفاق الرشيد جدَّ فى طلبه ، فلم يُعلم بمُنْقَلبه ، فأسف للفراق ، وأمر بتخليد حِكَمه فى بُطون الأوراق . فهى إلى اليوم تُروى(٤) وتُنقل ، وتُجلى القلوب بها وتُصقل . والحمد لله رب العالمين .

* * *

هذا ما حضرنى من المنثور والمنظوم ، وحظُّه عندى [فى الإفادة](٥) حظٌّ ضعيف ، وغرضه كما شاء الله سَخِيف ، لكن الله بعباده لطيف ، سبحانه لا إله إلا هو .

مولدى : فى الخامس والعشرين لرجب عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، وكم(٦) بالحىِّ مِمَّن ذكرته ، أُلحق بالميت ، وبالقَبْر قد استَبْدل من البَيْت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

* * *

قلت : هنا انتهى هذا التأليف المسمى « بالإحاطة فى تاريخ غرناطة » بالاختصار ، وتحصل منه ما أردناه من هذا المقدار ، ووهَبْناه للناظر فيه هبَةً ليست بهبة اعْتصار ، بل هى لتحصيله ذات انتصار . ولمَّا لم يمكنه أن يُعرِّف بمحْنَته ووفاته ، رأيْتُ أنا بَعْدَه أن أُعرِّف بذلك فى مُخْتَصرى هذا على مَهْيَعه ، وعادته ، فأقول(٧) :

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا فى النفح وفى الإسكوريال (المراقد) مرة أخرى .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى الريحانة ومكانه فقط (فخاط العيون) .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (تتلى) .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى النفح (من الإجادة) .

(٦) وردت بالإسكوريال (وكان) و التصويب أرجح .

(٧) من الواضح أن ذلك من كلام مختصر « الإحاطة » و ناسخها أبى جعفر البقنى .

محنته ووفاته

رأيت تعليقا بخط بعض العدول المعاصرين ، الأذكياء المحاضرين ، الأدباء المجيدين ، الظرفاء المقيدين ، وهو صاحبنا أبو عبد الله ....[١] الوادآشي حفظه الله ، طُرْفة زمان ، وحَفَظة أوان ، وهو ما نصه من تاريخ ابن خلدون .. قال :

(الخبر عن مقتل ابن الخطيب)[٢]

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد ، دار ملكه ، فاتح ست وسبعين ، واستقل بسلطانه ، والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه ، وسليمان بن داود [من أعراب كبير بني عسكر][٣] رديف له . وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر ، عندما بويع بطنجة ، على نكبة ابن الخطيب وإسلامه إليه ، لما نُمي عنه أنه كان يُغري السلطان عبد العزيز لمُلْك الأندلس . فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ، ولقي الوزير أبا بكر بن غازي بساحة البلد الجديد ، فهزمه السلطان ، ولاذ منه بالحِصار ، آوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفاً على نفسه ، فلما استولى السلطان على البلد ، أقام أياما ، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه ، فقبضوا عليه ، وأودعوه بالسجن ، وطيّروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر . وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب ، لما كان سليمان قد تابع السلطان ابن الأحمر على

---

(١) بياض بالإسكوريال . وهو أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي من أواخر أدباء غرناطة وكان ممن نزح الى تلمسان مع رهط من العلماء الذين أيقنوا باقتراب وقوع النكبة وسقوط غرناطة في أيدي النصارى (راجع كتابي « نهاية الأندلس » ص ٤٩١)

(٢) نقلنا هذا العنوان من كتاب العبر .

(٣) هذه الزيادة واردة في الإسكوريال . وساقطة في العبر .

مشيخة الغزاة بالأندلس ، حتى أعاده الله إلى ملكه . فلما استقر له سلطانه ، أجاز إليه سليمان سفيرا ، عن عمر بن عبد الله ، ومقتضياً عهده من السلطان . فصدّه ابن الخطيب عن ذلك ، بأن تلك الرياسة إنما هى لأعياص الملك من آل عبد الحق ، لأنهم يعسوب زناتة ، فرجع آيسا ، وحقد ذلك لابن الخطيب . ثم جاور الأندلس بمحل إمارته من جبل الفتح ، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفس كل منهما لصاحبه ، بما يحفظه لما كمن فى صدورهما . وحين بلغ الخبر بالقبض على ابن الخطيب إلى السلطان ، بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب ، وهو أبو عبد الله بن زمرك ، فقدم على السلطان أبى العباس ، وأحضر ابن الخطيب بالمشور فى مجلس الخاصة وأهل الشورى ، وعُرض عليه بعض كلمات وقعت له فى كتابه ، فعظم عليه النّكر فيها ، فوُبّخ ونُكّل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملإ . ثم تل إلى محبسه ، واشتوروا فى قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه ، وأفتى بعض الفقهاء فيه . ودس سليمان بن داود إليه لبعض الأوْغاد من حاشيته بقتله ، فطرقوا السجن ليلا ، ومعهم زعانفة جاءوا فى لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر ، وقتلوه خنقا فى محبسه ، وأخرجوا شلوه من الغد ، فدفن فى مقبرة باب المحروق . ثم أصبح من الغد على شأفة قبره طريحاً ، وقد جمعت له أعواد ، وأضرمت عليه ناراً ، فاحترق شعره ، واسود بشره ، وأعيد إلى حفرته . وكان فى ذلك انتهاءُ محنته . وعجب الناس من هذه السفاهة التى جاء بها سليمان واعتدوها من هناته ، وعظم النكير فيها عليه ، وعلى قومه ، وأهل دولته . والله فعال لما يريد . وكان عفى الله عنه ، أيام امتحانه بالسجن ، يتوقع مصيبة الموت ، فيتجيش هواتفه بالشعر يبكي نفسه . ومما قال فى ذلك :

بَعُدنا وإن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صُموت
وأنفـاسُنا سكَنَتْ دفعة ... كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنّا عِظاما فصـرنا عِظاما ... وكنا نَقُوت فها نحن قُوت
وكنا شُموس سماء العـلا ... غَرُبْن فناحت عليها البيوت
فكم جَدَّلت ذا الحُسام الظُّبا ... وذو البخت كم جدَّلته البخوت
وكم سِيق للقبر فى خرقة ... فتًى مُلئت من كُساه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ... وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفـرح منكم له ... فقل يفرح اليوم من لا يموت(١)

* * *

انتهى من السفر الأخير منه ، حيث عرَّف بنفسه وبشيوخه ، رحمة الله على الجميع .

قلت ، وهنا انتهى ما قصدناه ، وتم بحول الله ما أردناه واستَوْفيناه واستَلحمناه ، وذلك بغرناطة أقالها الله وصانها ، وعَمَر بالعلماء الأعلام ، وصالحى الإسلام ، عُمْرانها وبتاريخ أوايل شهرربيع الاخر من عام خمسة وتسعين وثمان مائة . والحمد لله . وسلام على عباده الذين اصطفى .

* * *

الحمدلله .. من كتاب « نفاضة الجراب » لابن الخطيب المذكور رحمه الله ، الذى ألفه بالعُدْوة بعد صَرْفه عن الأندلس ، واستقراره بالعُدْوة بآخرة من عمره ، وقُرْب وفاته(٢). ولذلك سمَّاه « نفاضة الجراب » قال فى أثنايه ما نصه :

---

(١) ورد هذا الفصل فى كتاب البرج ٧ ص ٣٤١ و ٣٤٢ .

(٢) هذا القول فيها يتعلق بتأليف كتاب « نفاضة الجراب » غير صحيح . فإن الكتاب الذى ألفه ابن الخطيب فى أواخر حياته بالعدوة (المغرب) هو كتاب « إعمال الأعلام » الذى ألفه للوزير أبى بكر بن غازى القائم بالدولة عقب وفاة السلطان عبد العزيز المرينى (سنة ٧٧٤ هـ) . وإنما وضع ابن الخطيب كتاب نفاضة الجراب أثناء إقامته اولى بالمغرب ، وقت استقراره بمدينة سلا حيث أنجز قسمه الأول بين سنتى ٧٦١ و ٧٦٣ هـ ، ثم كتب قسمه الثانى بعدعودته إلى الأندلس ما بين سنتى ٧٦٣ ، و ٧٦٤ هـ . وقد تحدثنا فيها تقدم فى مقدمة المجلد الأول من كتاب الإحاطة عن هذا الكتاب وعما يوجد من مخطوطاته . فليراجع هنالك .

وإلى هذا العهد صدر عنى من النظم والنثر بحال القلْعة ، ومكان الغَمْرة، رسايل إخوانية ، ومقطوعات أدبية ، نُثبتها إحماضا وإراحة ، لتعيد مطالع هذا جماما ، أو تهدى إليه أنْسا . والحمد لله على البأْساء والنَّعماء

جَزتْنى غـرناطةُ بعد ما جَلوتُ محاسنها بالجَلا
ولم تُبق جاهاً ولا حـرمةً ولم تبق مالاً ولا منـزلا
كأنّى انفردت بقتل الحسين وجرّدت سيفى فى كَرْبـلا
ولم أجن ذنباً سوى أننى صدعتُ بأَمداحها فى المَلا
وأنى صنعت فيهـا الغَريب فصرت الغريبَ أَجوبُ الفَلا
يميناً لقد أنكرتْ ما جرى نفوس الورى وأَبَتْـه العُـلا
وما خصّنى زمنى بالعُقوق فـكم من فـاضل مُبْتـلا
أإن ظهرت نعمة الإلـه علىَّ فأُلْبِست منهـا حُـلا
أإن قَرَّبتنى الملوك الكرام يُقـلّدُ آخـرُها الأَوّلا
وأن مكّنتنى من أمرهـا فشِمتُ السيوف وصُنْت الطَّلا
وقابلتُ بالشكر منها الصنيـع وحاشَى لمثلى أن يغفـلا
فأُقسم بالله لولا أُنوفـا لجرّدت من مِقولى مِنْصَلا
يقدُّ الدروع ويُخلى الدموع ويُلقى على من عدا الله ركَلا
فيترك فى الناس أمثـاله تجدُّ على رغم أَنْفِ البِـلا
ولا خَلْق أَجهلُ ممن يظن بمقدار مثـلى أن يُجـهَّلا
ما ركبت الدُّجـا إذ سما يقلِّد للنَّجم نصرا كلا
وكان لسانى سيفاً صقيـلاً وكانت يَراعى قَنًا ذُبَّـلا
ولكن [ليته بصبر] جميل قضاءُ الـذى لم يزل مُجمـلا
وحاسبتُ نفسى فيما أمـرُ فالفيته البعض فيمـا خَلا

وأسكنت نـارى لما دَعا   وأسكنت يأسِى لما غَلا
سلام عليها وإن أخْفَرت   ذِمامى وَوَجـزت بالقَـلا
وألبستها الأمن سِتْراً خصيفاً   وإن هَتكت ستْرى المُسْبَلا
ومثلى يبقى على عهـده   إذا أعرض الخِلُّ أو أقْبَلا

[هذا وقد وردت القصيدة الآتية بعد القصيدة الأولى فى النصف الأعلى من اللوحة الختامية لمخطوط الإسكوريال (لوحة ٥٠١) دون تقديم ولا تعريف. وهى آخر ما ورد فى المخطوط] (١)

مِنْ حاكم بى على الفـراق   حُكْم زيادٍ على العـراق
بيـدى وقد خُتمت يـداه   بالجور فى أنفس رقـاق
وعاجل النَّظم بانْتِثـار   وصيَّر الشَّمل لافتِـراق
فمن أكفٍّ علـى خُـدود   ومن دمـوع علـى تَـراق
وأى حـالٍ إلى دوام   وما سوى الله غيـرُ بـاق
يا سايق الرَّكب إن نفسى   من لوعة البَيْن فى سِـياق
رفقاً عـلى مُهْجـتى فإنى   قد بلَغَتْ رُوحى التَّـراق

(١) راجعنا السفر الثالث والأخير من كتاب « نفاضة الجراب » وهو المحفوظ بمكتبة الرباط العامة برقم 256 ك ، فلم نجد أثراً لهاتين القصيدتين اللتين هما بلا ريب من نظم ابن الخطيب ، حسبما ورد فى الفقرة التى يقول الناسخ أنه نقلهما من « نفاضة الجراب » . والواقع أن ابن الخطيب قد ذكر فى خاتمة هذا السفر الثالث من كتاب « النفاضة » . أنه يقف عند هذا الحد إلى أن تتم الرحلة الحجازية التى كان ينوى القيام بها منذ أعوام طويلة ، وعندئذ يضيف إلى « نفاضة الجراب » قسماً جديداً يتحدث فيه عن مشاهداته . ولكن القدر لم يسعفه بتحقيق هذه الأمنية . ونعتقد أن هذا الشعر قد نظم على الأغلب فى وقت متأخر ، حينما لجأ ابن الخطيب إلى المغرب للمرة الثانية ، فاراً عن وطنه ، ومغاضباً لسلطانه ، ومحتمياً إلى كنف السلطان عبد العزيز المرينى . وحين تفاقمت الحوادث بعد وفاة هذا السلطان، وشعر ابن الخطيب بدنو آخرته . وهذا ما تدل به إشارات ودلائل كثيرة ، مما ورد فى هذا النظم ، من عتب على ما لقيه ابن الخطيب من نكران الصنيعة والعقوق بالرغم مما أداه لوطنه من جلائل الخدمات ، وما يقاسيه من آلام البين والابعاد ، وتفرق الشمل ، وهو يلتجىء فى النهاية إلى رحمة الله ، التى لا يجد معولا سواها .

ويارسول النّسيم بلّغ بَحيرة الحىِّ ما أُلاق
وسِقْ إلى سَمْعى حديثا من أرضهم طيِّب المساق
جرَّعنى البَيْن كأسَ حُزنٍ يَبْعدهم مُرّة المذاق
فلا أُنْس سوى ادّكارى ولا جليسَ اشْتِياق
ففي غَدْوى بها اصطباحى وفى رَواحى بها اغْتِباق
يا شِقّة القلب ليت شعرى هل يصح شملٌ فى اتِّساق
أو يقلع الدهر من عِتاب أو يُطلق الشوق من وِثاق
طال علىَّ الظلام لما ضَنَّ مُحيَّاك بالتَّلاق
فيكذب الليل فى ارتحال ويَمْطُل الفجر بانْشِقاق
ضايَقَنى الدهر فيك حتى فى مَوْقف البَيْن والفراق
فلم يَكُنْ فيه من سلام ولا كلام ولا اعتناق
قد عَجَز النطق عن شُجونى قد بَلغ الماءُ للنِّطاق
أقسمتُ حقًّا بخير هاد سَرى إلى الله بالبُراق
لو خُيِّرت فى الوجود نفسى ما اخترتُ بها سوى التَّلاق
إن بَطَش الدهر بى وأبدى سجيّة الغدر والنِّفاق
فكم هلالٍ رأيت بدراً أفلت من ظلمة المحاق
يا مَنْ على فَضْله اعتمادى يا مَنْ بأَسْبابه اعتِلاق
إن لم تَجُد منك لى برَحْمَى ما لِىَ فى الخَلْق من خِلاق

تم بحمد الله

فهارس المجلد الرابع

من كتاب الإحاطة

صفحة

فهرست التراجم

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهرست الرسائل والقطع النثرية

صفحة

صفحة

فهرست الشعر والشعراء (١)

(١) نورد هنا أسماء الشعراء مرتبة على حروف المعجم ، ونشير إلى شعرهم بإيراد الشطرة الأولى من البيت الأول من كل قصيدة أو مقطوعة من المنظوم .

فهرست الكتب والرسائل

التى ورد ذكرها خلال الكتاب

ب — ت

ج — ز

س — غ

ن — ى

فهرست القبائل والطوائف والدول

فهرست البلدان والأماكن

ج — خ

ع — غ

ف — ك

فهرست الأعلام

فهرست التصحيحات

رأينا ، وقد تم بحمد الله طبع كتاب « الإحاطة » بمجلداته الأربعة ، أن نقدم ثبتاً بالأخطاء التى أمكن الوقوف عليها فى سياق نصوصها ، ولكن ليس بطريق الحصر ، لأنه توجدبالشكل من الفتح والضم والكسر وغيرها ، أخطاء أخرى ،لم نر إثباتها لأنها ميسورة الاستدراك والضبط . وفيما يلى بيان هذه الأخطاء وتصحيحاتها :

المجلد الاول

ص	سطر	الخطأ	الصواب	ص	سطر	الخطأ	الصواب
٨٠	٣	هضبة	قلعة	٣٣٦	٤	وطرفة	وطرقة
	٤	بكر	فكر	٣٤٠	٥	الزمية	الرمية
	٤	ومصباح	وما صباح	٣٣٩	٢س	النسب	النسيب
	٥	فارق سهدا	وأورق شذا	٣٤٤	١ س	وأبرنه	وأبرته
	٥	موارد	شوارد	٣٦٤	٩	وتقبيدا	وتقييدا
	١٠	قائدة	بادية	٣٦٦	٨	فمادب	فمادت
	١٦	علمهماية	أعلمه الرماية	٣٦٧	٨	النفرى	النفزى
٨٤	١٠	سجومه	وسجومه	٣٧٣	٦ س	ابن رشد	ابن رشيد
٩٨	٤	قسصلية	قسطيليه	٣٧٥	٦	القاصى	القاضى
١٠٢	٩	فنحود	فنحوه	٣٨٣	٦،٧،٨	هراندة ـ المنشة	هرانده ـ المنشه
١٤٣	٤	شحذه	شحذه	٣٨٤	١	المنشة	المنشه
١٤٧	١١	ويتملط	ويتملظ	٣٩٩	١ س	منتقع	ممتقع
١٥٣	١	وفصاجة	وفصاحة	٤٠٣	٢	ثميان	ثعبان
١٦١	١	قليل	قليلا	٤٣٢	٧	همه	همة
١٨٤	١٠	ابن حمزة	ابن جمرة	٤٤٣	٨	الأشفر	الأشقر
١٩٣	٩	عبد الوالى	عبد الولى	٤٧٥	٤	ما ملك	مالك
١٩٥	١٠	الحلاسى	الخلاسى	٥١٤	٦ س	والحرم	والحزم
٢٠١	١١	ابن العمار	ابن الغماز				
٢٠٧	٣س (١)	أولينه	أوليته	٥٢١	٦ س	وجنوب	جنون
٣٠٤	٢	المتحبر	المتبحر	٥٣١	٥	المنشة ـ هراندة	المنشه ـ هرانده
٣٢٣	٢ س	طرقها	طوقها	٥٦٢	٦	عجه	عجم

(١) س : يقصد بها العد من أسفل

المجلد الثاني

ص	سطر	الخطأ	الصواب	ص	سطر	الخطأ	الصواب
٢١	٧	الفدووى	الفدودى	٢٧٧	١٠	أبت	أبث
٢٢	٨ س	المنشة	المنشه	٢٨٥	٨ س	مجبر	مخبر
		هراندة	هرانده	٢٨٦	٩ س	وعميت	
٥٦	٢ س	حدها	جدها	٤٠٣	٣	المعشون	المعشوق
٦٠	٨	افتحها	افتتحها	٤٢٣	٧	وفهقه	وقهقه
٦٢	٢ س	واوجى	وأوحى	٤٢٥	٨	يكون	بكون
٧٥	٨	وانبث	وانبثت	٤٣٤	٨ س	المكثب	المكتب
٧٧	٨	فصل	فصل	٤٣٨	٧ س	وقواصل	وفواصل
١٢٥	٧ س	فقلب	فقلت	٤٦٢	٣ س	العبة	العيبة
١٤٣	٣ س	ربيس	رييس	٤٧٦	٥ س	مكممدا	مكمدا
١٥٤	٨ س	شبنى	شيبنى	٤٩٢	٣	المبلغ	لبلغ
١٦٣	٧	هذان البيتان	هذين البيتين	٥٠٧	١١	اليد	البيد
١٧٧	١٠	مثة	منه	٥٣٤	٨	وباليت	وياليت
٢٠٩	٨ س	نجليه	تجليه				
٢٧٤	٥ س	الزياتى	الزيات				
٣٠٧	٧ س	نصار	نضار	٥٣٥	٤ س	والنفث	والنفث
٣٣٥	٢ س	عرف	عرف	٥٦٥	٩	تدنية	تدنيه
٣٥٩	٤	رسمث	رسمت	٥٦٧	٨	وأيت	رأيت

المجلد الثالث

ص	سطر	الخطأ	الصواب	ص	سطر	الخطأ	الصواب
١٢	٤ س	يارمح	ياريح	١٠١	٩	معروقة	معروقة
٩٧	٧	العافق	الخافق	١٢٣	٣	أهل	أهله
٩٧	١٠	من	عن	١٣١	٢ س	فأززى	فأزرى
٩٩	٣	العرام	الغرام	١٤٧	٣	تظمه	نظمه

تابع المجلد الثالث

ص	سطر	الخطأ	الصواب	ص	سطر	الخطأ	الصواب
١٥٥	٨	لفتون	لفنون	٤٥٧	٥ س	أصرب	أضرب
٢٢٩	٤ س	المجبب	المحبب	٤٦٠	٣ س	اختيار	اختبار
٢٥٥	٤	ملءع انه	سلطانه	٥٠٠	٤	زيازته	زيارته
٢٥٥	٦	سلطانه	سلوانه	٥٠٢	٧	بساق	يساق
٣٥٢	٧	الخطايا	الحطايا	٥٢٦	٣	يعشرتك	بعشرتك
٣٥٥	٥ س	صضرا	صفرا	٥٢٧	٤ س	بسمار	بشمار
٣٥٨	٦	المستشرقون	المستشرفون	٥٣١	٩	وجهوهم	وجوههم
٣٦٨	٢	الأقدار	الأقدار	٥٥٦	٤	يسى ء	يسىء
٤٢٤	٩	أوودى	أودى				

المجلد الرابع

ص	سطر	الخطأ	الصواب	ص	سطر	الخطأ	الصواب
٣٢	٥	خجحجا	حجحجا	٢١٤	٩ س	المنعوث	المنعوت
٣٣	٩	المحق	الحق	٢١٥	١٠	تريه	تربة
٣٦	٦	اسم	بإسم	٢٢٧	٣ س	نسير	تسير
٥٩	٧	ترمرت	تومرت	٢٥٤	٢	الحظ	الخط
٦٨	٢	سطر مكرر		٢٥٤	١ س	جمت	جمعت
٧٩	٢	اسنولى	استولى	٢٥٥	٨	نفانوا	تفانوا
٨٤	٥ س	أحم	أجم	٢٧٠	٩	الفتنة	الفتنة
١١١	٥ س	الرجاجة	الزجاجة	٢٧٧	٤	امرأ	امرأة
١١٥	٥	وحه	وجه	٣٠١	١٠	موفققين	موفقين
١٣٧	٣	وكتب	وكتبت	٣٠٧	١٠ س	يواقم	بواقم
١٤٢	٤	در	ذر	٣٣٦	٣	شق	شقى
١٤٩	٢	بن	من	٣٣٨	٦ س	عن	من
١٦٠	٥ س	وقد تبت	وقد ثبت	٣٤٤	١٠	الطان	السلطان
١٦١	٥ س	سنها والدتو	منها والدنو	٣٦١	٧ س	لمملوك	للملوك
١٦٢	٣	وينهائهم	ونبهائهم	٣٦٧	٢	استحفه	استحقه
١٧٤	٨	رواة	رواه	٣٨٧	٢	حظ	خط
١٧٦	١	والففضول	والفضول	٣٨٨	١	بشالة	شالة
١٧٧	٤	والمخبر	والجبر	٣٩٧	٤ س	عليثا	علينا
١٨٦	٣	الزويل	الزرويل	٤٠١	١ س	ويجمل	ويحمل
١٩٢	٦ س	استنزلهم	استنزلهم	٤٠٩	٩	النيجان	التيجان
٢٠٥	٤	الحرفة	الحرقة	٤٢٥	١	ومن شعر	ومن شعره

تابع المجلد الرابع

ص	سطر	الخطأ	الصواب	ص	سطر	الخطأ	الصواب
٤٣٠	٦	فو	فهو	٥٦٩	٧ س	وكان	وكأن
٤٣٨	٤ س	وكال	وكا	٥٧٢	٨	ومكذية	ومكذبة
٤٦٢	٣ س	تيران	تيران	٥٧٧	٢ س	فرائض	فرائص
٤٦٣	٨ س	الحصيب	الخصيب	٥٨٠	١	وأسب	وأحسب
٤٨١	٧	يوسها	بؤسها	٥٩٣	١٠	لأزاهر	الأزاهر
٤٨٨	٣	محلقة	محلقة	٦٠٠	٣ س	إنهاصه	إنهاضه
٥٠١	٩	المظهر	الظهر	٦٠١	١٠	والجمد	والحمد
٥٠٦	٩ س	يا مختظ	يا مختط	٦٠١	٥	يعمد	يعمد
٥١٦	٦	أكثيرها	أكسيرها	٦٠٢	٨	السائر	السامر
٥١٨	٨	بشبى	بشيبى	٦٠٤	٨	وخرص	وحوض
٥١٩		ظفزنا	ظفرنا	٦٠٤	١٠	فلئن	فلهن
٥٣٠	٣	أنصلت	اتصلت	٦١٠	٢ س	كا	كان
٥٣٥	١	نكفهم	تكفيهم	٦١٥	١	فما	فلما
٥٤٠	٢	ومسير	ومسيرة	٦٢٢	٤	تكون	يكون
٥٤٧	٢	وعيشها	وغشيها	٦٢٦	٦	وأفضل	وأفضل
٥٤٨	٣ س	قيمه	قيمة	٦٣٥	١ س	تابع	بايع
٥٥١	٧ س	المستجبر	المستبحر	٦٣٦	١	حى	مى
				٦٣٨	٢ س	قضاء	قضاء

كمل طبع المجلد الرابع والأخير من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » وبذلك تم طبع الكتاب كله ، وذلك بمطابع « الشركة المصرية للطباعة والنشر » بمدينة القاهرة المعزية ، وذلك فى اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال المعظم سنة ١٣٩٨ هـ ، الموافق لليوم الثامن والعشرين

من شهر سبتمبر سنة ١٩٧٨ م .

الشركة المصرية للطباعة والنشر

رقم الايداع ٣٣٠١ / ١٩٧٨

HISTORY AND BIOGRAPHICAL DICTIONARY OF GRNDADA

entitled

AL - IHATA FI AKHBAR GHARNATA

BY

VIZIER LISAN - ud - DIN IBN ul - KHATIB

Edited with an Introduction and Notes

BY

MOHAMED ABDULLA ENAN

Author of : Moorish Empire in Spain. Age of the Almoravides and Almohades
End of the Moorish Empire in Spain. Monumentos Moros en Espana y Portugal
Life and Work of Ibn Khaldun. Life and Work of Ibn - ul - Khatib ;ete

Vol. IV

Publisher : Al-Khanghi Bookshop, Cairo

Al-Tibaa Almisriyah Co. Press
Cairo - 1978